الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 125 - june 2009

مجلة شهرية. العدد المائة وخمسة وعشرون - السنة الحادية عشرة - يونيه ٢٠٠٩ . الثمن عشرة جنيهات

الدولة.. والجدار.. والفن.. والهوية

أيمن الصياد - دافيد هير - عزمي بشارة - وليد الخالدي - عايدة العادلي هنية

وكان الزمن فلسطينيا



الاستبداد.. مرض الأمة المزمن

سلام الكواكبي

الشيوعيون والسلطة سيرة ذاتية

وليد عبد الناصر

النيل ... المعركة المقبلة

فكري أندراوس

جوزيف مسعد: الاشتهاء عربيا

سامية محرز

السنة الحادية عشرة
العدد ١٢٥
يونية ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى





رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أيمن الصياد.. صحفى.
- حسونة المصباحى.. كاتب تونسى.
- دافيد هير.. كاتب مسرحى ومخرج بريطانى.
- رنا حايك.. صحفية لبنانية.
- سامية محرز.. أستاذة الأدب المقارن بالجامعة الأمريكية.
- سلام الكواكبى.. باحث سورى مقيم بباريس.
- عادلة العايدى.. أكاديمية فلسطينية تقوم بتدريس الفن والتاريخ الفكرى بجامعة بيرزيت.
- عزمى بشارة.. كاتب عربى.
- على جمجوم.. باحث فى فلسفة الرياضيات.
- فكرى أندراوس.. كاتب مصرى مقيم بالولايات المتحدة.
- محمد عبداللطيف هريدى.. أستاذ الدراسات التركية بجامعة عين شمس.
- وليد الخالدى.. أكاديمى فلسطينى.
- وليد محمود عبدالناصر.. كاتب مصرى.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

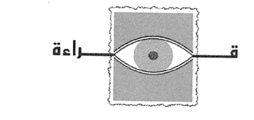
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٢٣ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة



الــــدولـــــة ...

أيـمــن الـصـيـاد

■■ عندما كان باراك أوباما (طيب المحيا/ حسن النية) يتحدث، وإلى جواره محمود عباس عن دولة فلسطينية «قابلة للحياة»، لم يمكننى أن أقاوم إغراء النظر مليا فى الخارطة «الكاشفة» التى كان الأصدقاء فى «لوموند ديبلوماتيك» قد تفضلوا بإهدائها لى قبل أيام.

«دولة قابلة للحياة» .. كم هى الألفاظ خادعة، وكم هى مفعمة - فى الوقت ذاته - بالمعانى والدلالات. بالضبط كما هى الصورة التى التقطها مصور رويترز واخترناها للنشر مع المقال التالى (ص ٧): طفلة تحمل بالونات الحلم والأمل... و«الهواء»، رسمها رسام مجهول على الجدار الخرسانى شاهق الارتفاع، الذى مزق به الإسرائيليون أوصال الضفة الغربية، متجاهلين القانون الدولى، ومستهزئين بقرار صدر من محكمة العدل الدولية. أو بالأحرى مطمئنين إلى أنه لن يكون من بين العرب «أصحاب القضية» وأصحاب النفس القصير من يتابعها، ويستخرج القرار من أضابير المحاكم مطالبا «وملحا» المجتمع الدولى بآلية التنفيذ.

«دولة قابلة للحياة».. كم هم بارعون أولئك الدبلوماسيون فى نحت ألفاظ جديدة. وكم هو متخم قاموس القضية الفلسطينية بالألفاظ والمصطلحات.

دولة «قابلة للحياة» ..!

تتعلق طفلة الحلم المرسومة على الجدار بالهواء، فى حين يبقى «الواقع» على الأرض: طفلةٌ اضطرتها مهانة الإذلال أن تمشى بها أمها - لا أعرف كم من الكيلومترات - حتى تجد منفذا تعبر منه إلى مدرستها أو بيتها أو جيرانها أو أقربائها على الجانب الآخر من الجدار. ليس ذلك فقط، بل ربما وعند وصولها إلى المنفذ / المعبر، لا يسمح لها مزاج الجندى الإسرائيلى «المراهق» بالعبور(!)

لا أعرف المرأة فى الصورة أسفل الجدار، ولكنى أعلم من تقارير منظمات حقوق الإنسان الإسرائيلية «لا غيرها» أن تلك رحلة يومية للكثيرات. واللواتى - بالمناسبة - لم يشغلن أنفسهن يوما بالمؤتمرات والشعارات الغربية المطالبة «بتمكين المرأة» فى شرقنا العربى.

دولة «قابلة للحياة» ..!

أصدق هذا القادم «الجديد» هادئ الصوت الجالس فى واشنطن. والذى يبدو حتى هذه اللحظة وفيا لشعاره: Yes, We Can ولكنى أعلم أيضا أن الإسرائيليين استقبلوه «واقعيا» بالحرب على غزة، ثم باختيارهم اليمين - بل أقصى اليمين هذه المرة - لحكومتهم. ثم ألقوا فى وجهه القبعة فى نهاية المطاف حين تمسكوا بموقفهم «المراوغ» بشأن المستوطنات: «لن نسمح ببناء مستوطنات جديدة بدون ترخيص.. ولكننا سنسمح طبعا بالنمو الطبيعى لما هو موجود»(!) التصريح للمتحدث الرسمى للحكومة الإسرائيلية تعليقا على مفاوضات أوباما/ عباس. تقول الأرقام إن الكم الأكبر من المستوطنات تم بناؤه بعد أوسلو التى اتفق فيها على تجميد المستوطنات إلى أن يحين موعد مفاوضات الحل النهائى(!)

وتكشف خارطة Le Monde Diplomatique (أرجوكم تأملوها جيدا) مافعلته المستوطنات والجدار بالضفة الغربية لنهر الأردن (أرض الدولة الفلسطينية المفترضة و«القابلة للحياة»)

يبدو أننا أمام أكثر المشاهد عبثية فى تلك الدراما الشرق أوسطية التى لا تنتهى.

لأن لا أحد حقا يريد حلا لهذه القضية، فقد توافق الجميع على أن يتفقوا على الحل «المقبول إعلاميا»، رغم أنهم يعرفون جميعا أنه بات مستحيلا: «حل الدولتين».



على هامش المسألة، هناك من فكر.. وهناك من عبر.. وهناك من«أضمر».. وهناك من كتب. وبدت فى الأفق أو فى «الضمائر» تلميحات «الخيارات البديلة»:

قبل أن ينقشع دخان الحرب الإسرائيلية الأخيرة على غزة، والتى يبدو أنها كانت تستهدف ضمن أهداف أخرى وضع أوراق جديدة على طاولة تسوية محتملة، كتب جون بولتون، السفير الأمريكى السابق لدى الأمم المتحدة فى الـ «واشنطن بوست» يدعو إلى إغلاق ملفَ الدولة الفلسطينية المستقلَة، عبر «ضمَ غزة إلى مصر وإلحاق الضفَة الغربية بالأردن». وكان روبرت كاجان الكاتب الأمريكى «الجمهورى» البارز أكثر وضوحا حين كتب عن «الخيار الأردنى» معتبرا الأردن الوطن الطبيعى لملايين الفلسطينيين من سكانه، ولأنه يمثل الحلَ العملى لقضية اللاجئين الذين سيكون عليهم الاختيار بين التوطين الدائم، وبين الاستيطان فى الأراضى الفلسطينية شرق نهر الأردن. على الناحية الأخرى، وتحت مظلة التأكيد على وحدة «الخطر المشترك» لتنامى السلام الراديكالى متمثلا فى إيران وحماس وحزب الله، (راجع التصريحات الإسرائيلية الأخيرة التى تشير إلى وقوف تل أبيب مع العرب المعتدلين فى خندق واحد ضد خطر مشترك) يجرى ترويج أفكار مثل أن تجربة الحكم الذاتى فى غزة فشلت، وأن على المصريين تقديم يد العون، ربما عبر منح غزة «التى يربط أهلها بالسيناويين أواصر عدة» أراضى مصرية إضافية أوحتى ضم القطاع برمته إلى مصر، بصفته محافظة من محافظاتها.

بغض النظر عن التفاصيل سيجد المتابع عن كثب ظلالا من هذه الأفكار فى تصريحات ومقالات لساسة اسرائيليين نافذين، كما سيجد نفسه مضطرا لقراءة برنامج نتنياهو فى ضوئها.

نتنياهو الذى يبدو أنه تنكر لشعار «الأرض مقابل السلام» الذى خدرنا ثلاثين عاما كاملة، دعا فى برنامجه الانتخابى إلى استبدال شعار «السلام للنهوض بالاقتصاد» فى الشرق الأوسط ليحل محله شعار «الاقتصاد للنهوض بالسلام»، وهو يعنى بذلك ضرورة التوقف عن البحث عن اتفاقات سياسية لإقامة «دولة فلسطينية»، والعمل بدلا من ذلك على تحويل فلسطينيى الضفَة إلى مستهلكين اقتصاديين. كيف؟ عبر إقامة مناطق صناعية فى بعض مناطق الضفَة المحاذية لإسرائيل، تستوعب اليد العاملة الفلسطينية، بإشراف مالى وتكنولوجى إسرائيلى.

ثم إن هناك ما هو أخطر: مشروع نتنياهو لضمَ أجزاء من الضفة إلى الأردن، والذى يذكرنا بالوثيقة التى جرى تسريبها قبل حوالى العام وعرفت باسم «وثيقة عوض الله - عريقات» والتى تتحدث مرة أخرى عن اتحاد كونفيدرالى يفترض أن يتكون من شرق الأردن وأجزاء من الضفة الغربية ويقوم بتوطين، ليس فقط لاجئى الضفة، بل أيضاً اللاجئين الفلسطينيين فى الشتات.

ربما يظل لافتا إلى أنه فى الوقت نفسه الذى يتجنب فيه رئيس الوزراء الإسرائيلى الحديث عن «خيار الدولتين»، يكتب رئيس الدولة شيمون بيريز مقالا فى الواشنطون بوست الأسبوع الماضى يؤكد فيه على «خيار الدولتين» معربا عن أسفه حيال الحديث المتصاعد فى دوائر فكرية أمريكية عدة عن «حل الدولة الديموقراطية ثنائية القومية» معتبرا أن هذا من شأنه أن «يقوض شرعية إسرائيل وحقها المعترف به عالميا فى الوجود كدولة يهودية مهيمنة فى أرض أجدادى».

ربما من الحكمة هنا (وهى ضالة كل مؤمن) أن نتذكر أن بيريز - الذى شارك فى صياغة سياسات بلاده معظم فترة وجودها - كرس حياته كلها تقريبا لتقويض فرص قيام دولة فلسطينية والتغاضى عن بناء أكثر من ٤٣٠ مستعمرة بينما يقدم الدعم الشفوى لـ «عمليةالسلام». وأن خطة آلون لطرد السكان العرب من فلسطين كانت هى البرنامج الانتخابى لبيريز أثناء حملاته فى أعوام ١٩٧٤ و١٩٧٧ و١٩٨١ و١٩٨٤ و١٩٨٧، وهى التى صاغت سياسات إسرائيل الاستيطانية فى الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٧. كما أنه عمل على جعل خطة الون جزءا من اتفاقية كامب دافيد عام ١٩٧٨ وتفاهمات أوسلو عام ١٩٩٣.

وتبقى حقيقة أن حل الدولتين الذى يحاول بيريز تسويقه للجمهور والإدارة الأمريكية هو عبارة عن «دولة» فلسطينية على مساحة ٧٦.٦٪ من الضفة الغربية مقسمة إلى مناطق مغلقة، مع بقاء الغالبية العظمى من المستوطنات والمستعمرات البالغ عددها ٤٣٠ أو يزيد فى مكانها تحت الهيمنة الإسرائيلية. وسوف تحصل إسرائيل على ١٣.٣٪ أخرى بصورة مباشرة وتواصل احتلال الـ ١٠.١٪ الباقية لمدة تصل إلى ثلاثين عاما. وخلال تلك الفترة سوف تستمر إسرائيل فى بناء مستوطنات ومستعمرات جديدة وتوسيع الحالية. ولا تتضمن النسب المذكورة القدس الشرقية المقتطعة والمياه الإقليمية للبحر الميت. وفى الحقيقة أن عرض الـ ٧٦٪ لا يقوم على ١٠٠٪ من المناطق المحتلة بل فقط على تلك المناطق التى كانت إسرائيل على استعداد لمناقشتها. وبالتالى فإن «الحل العادل والأخلاقى» الذى يفضله الرئيس بيريز سوف يصل إلى منح أقل قليلا من ١٦٪ من أرض فلسطين التاريخية إلى أولئك الذين طردوا من منازلهم وأراضيهم..



وبعد

١ - سيظل أوباما وفيا لما قال به من التزام بتسوية يراها تقوم على حل الدولتين.

٢ - وسيظل الإسرائيليون المغترَون بقوتهم والخائفون على ضياع دولتهم أعجز

توافق الجميع على أن يتفقوا على الحل الذى يعرفون جميعا أنه قد بات مستحيلا



عن اتخاذ القرار، وأقدر - كعادتهم دائما - على المراوغة. (أرجو ملاحظة أن استحقاقات أوسلو ١٩٩٣ مازالت تراوح مكانها، وأن الدولة الفلسطينية التى وعدنا بها بوش قبل نهاية ولايته التى امتدت لفترتين لم تر النور أبدا).

٣ - سيظل الرئيس عباس (المنتهية ولايته) يجوب البلدان الصديقة ليتحدث عن المبادرة العربية (التى لم تعد مطروحة على الطاولة كما هدد العرب أنفسهم) وعن إيقاف المستوطنات التى لم يتوقف (التوسع) فيها أبدا.

٤ - وستظل إسرائيل (على الأرض) فضلا عن التهويد الرسمى والمعلن للقدس، تعمل على اقتطاع الأرض شبرا شبرا، حتى لا تبقى هناك فى النهاية أرض صالحة لإقامة دولة «قابلة للحياة».

٥ - و.. ستظل السيدة الفلسطينية فى رحلتها اليومية الطويلة المضنية «بمحاذاة الجدار» تبحث عن منفذ.

تقول الوقائع على الأرض (راجع الخارطة) أنه بعد أربعين عاما من الاستيطان السرطانى فى الضفة الغربية، أصبح التداخل السكانى فى الضفة الغربية أكثر استعصاء على فصل الشعبين. وأنه لا الواقع على الأرض، ولا حقائق السياسة، تجعل حل «الهدنة طوية الأمد» الذى يتحدث عنه خالد مشعل، ولا حل جماعة أوسلو «النظرى» قابلين للتطبيق، وأنه أمام الخيارات «البديلة» التى أصبح الإسرائيليون يفكرون فيها، يبقى الخيار الحقيقى أمام العرب. إن كانت لديهم القدرة على النظر لأبعد من تحت أقدامهم. هو الانتقال الاستراتيجى إلى حل «الدولة الديموقراطية الواحدة»، من البحر إلى النهر. واستثمار الإرهاصات الفكرية التى بدأت تظهر فى دوائر أمريكية مختلفة. يشار فى ذلك ربما إلى تقرير ذى صلة للاستخبارات الأمريكية أشارت إليه كتابات أمريكية عديدة يحذر من أن بقاء اسرائيل فى صورتها الحالية، أى مابعد العشرين عاما القادمة، أمر مشكوك فيه. ويرى أهمية وضع حل الدولة «الواحدة» الديموقراطية النابذة للعنصرية قيد الاعتبار، على أساس أنه ربما يكون هذا هو السبيل لنزع فتيل التطرف من تلك المنطقة الملتهبة.



قبل ثلاثين سنة، اعتبر السادات «رحمه الله»، أن ليس بين العرب وإسرائيل غير «حاجز نفسى»، يمكن اجتيازه بجهد صادق من الطرفين.

وبعد ثلاثين سنة أصبح الحاجز «جدارا خرسانيا»، يتمترس خلفه الإسرائيليون متمسكين «بيهودية» دولتهم» شرطا للحوار مع جيرانهم «الأغيار»، ويرسم عليه الفنانون طفلة تحلم بأن تطير لتعبر الجدار. ■

أرخبيل فلسطين الشرقية

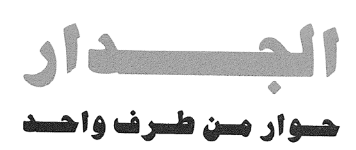
حكم ذاتي فلسطيني جزئي
حكم ذاتي فلسطيني كامل
محميّات طبيعية
مدن
مستوطنات إسرائيلية
خطوط بحريّة
مطار
موقع تاريخي
شاطئ محمي
منتجع بحري
شاطئ
قاعدة للمراكب البحرية
مرفأ سياحي
منطقة تحت المراقبة
مخيمات سياحية

10 km

المصدر: خارطة تخيلها ورسمها جوليان بوساك انطلاقاً من وثائق قدمها مكتب التنسيق للشؤون الانسانية في الأراضي الفلسطينية المحتلة ومنظمة "بتسيلم".
تم تحويل جميع المناطق التي تسيطر عليها إسرائيل في الضفة الغربية إلى بحار.

«الأرخبيل» مصطلح جغرافي يدل على مجموعة الجزر المتناثرة التي تفصلها بحار وخلجان ومضائق بحرية. والخارطة هنا «توضيحية» لتبيان مابقي من «أرض» الضفة بعد الجدار وحركة الاستيطان الواسعة في السنوات الأخيرة

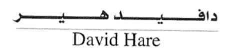






أشد المتحمسين للسياج يعترفون أنه مثل حصار غزة، مصدر كبير للشقاء بالنسبة للفلسطينيين





■■ حسنا. لنكن جادين. فلنفكر في ذلك.

رجاء، رجاء: انظروا إلى سير الأحوال، انظروا إلى حالة اليأس العميق. لقد وصلت دولة إلى النقطة التي أجمع ٨٤٪ من شعبها على بناء جدار على طول حدودها.

هل سمعتم أبدا عن شيء أجمع عليه ٨٤٪ من الناس؟ ومع ذلك فها هو. أكثر من أربعة أخماس أمة يقولون شيئا في منتهى الغرابة - هل يمكن أن تتخيلوا الرقم؟ لقد بنى حائط برلين لإبقاء الناس بالداخل. وهم يقولون أن الجدار الذي نحن بصدده يبنى لإبقاء الناس بالخارج.

يمكننا أن نسمي ذلك حالة غير طبيعية للأحوال. إنها بالكاد لا تعد حالة طبيعية. وتلك هي الكلمة التي نسمعها طوال الوقت في الشرق الأوسط. «طبيعية». يسأل الفلسطينيون «متى سنعيش حياة طبيعية؟». وكذلك يسأل الإسرائيليون. في الحقيقة أن الدولة الإسرائيلية نشأت عام ١٩٤٨ بطموح أساسي أن تكون طبيعية، أن تكون مكانا طبيعيا كأي مكان آخر. إن الفلسطينيين يطلقون على إقامة الدولة الإسرائيلية «النكبة». والآن بعد مرور ستين عاما فإن إسرائيل تؤمن بأنها - حسب الرأي المعبر عنه دائما من قبل الأغلبية - في حاجة إلى جدار.

إلا أنهم بالطبع لا يسمونه جدارا، بل سياجا.

إنها أحد تلك الأشياء، يبدو أن هناك الكثير منها، أليس كذلك؟ أنا أفكر في الإجهاض، أو التمرد المسلح - حيث الكلمات التي نستخدمها (مناصر للحياة/مناصر للاختيار) (إرهابي/مناضل في سبيل الحرية) - تخبر العالم عن طريقة تفكيرك. إن الكلمات تتحول إلى رايات تعلن عن الجانب الذي تنتمي إليه. وفي حالتنا هذه، فإن ذلك يجري بصورة حرفية. إن الإسرائيليين يطلقون عليه «السياج العازل». ولكن الفلسطينيين لا يطلقون عليه ذلك. على الإطلاق. إنهم يسمونه «جدار الفصل العنصري».

حسنا، فلنناقش الأمر بترو. لو أني استخدمت كلمة أو غيرها فسامحوني، إن ذلك لا يوحي بأني متحيز. إن لدي معارف على جانبي السياج وعلى جانبي الجدار. يقول أصدقائي الإسرائيليون «إننا نكره الجدار. إننا آسفون لذلك. إننا نشعر بالعار بسببه. إننا نقود لأميال كي نتجنب رؤيته. ولكن الجدار نجح. لقد توقفت ٨٠٪ من الهجمات ضد إسرائيل. تم إيقافها. ألا يفترض أن نكون سعداء بذلك؟».



حسنا. سأحاول توضيح تاريخ الجدار.

في الأول من يونيو عام ٢٠٠١، بعد تسعة أشهر من الانتفاضة الثانية، قام مفجر انتحاري فلسطيني يدعى سعيد الحوتري بالعبور إلى إسرائيل من الضفة الغربية وفجر نفسه في مدخل ملهى الدلافين المائية الليلي على شاطئ تل أبيب، مما أدى إلى مقتل ٢١ مدنيا معظمهم من طلاب المرحلة الثانوية. وقد أصيب ١٣٢ شخصا آخرين. وكرد فعل على المذبحة، نشأت حركة محلية في جميع أنحاء إسرائيل تطلق على نفسها «سياج الحياة». وهم يجادلون - كما جادل رئيس الوزراء إسحاق رابين قبل ذلك بعشر سنوات - بأن السبيل الوحيد لحماية البلاد من تسلل الإرهابيين هو بأن تعزل نفسها بإحكام عن المناطق الفلسطينية من خلال إزالة نقاط التصادم بين المجتمعين. ولكن الفصل لا يمكن أن يكون تكتيكا عسكريا محضا. كلا، فقبل اغتياله من قبل مواطن إسرائيلي، كان رابين ينادي بشيء أكثر تطرفا بكثير «يجب أن تتبنى الفصل كفلسفة».

ها هو. ليس مجرد جدار. إن الجدار مجرد أمر واقع. ولكن هذا الجدار هو فلسفة، أو كما أطلق عليه أحد المراقبين «شفرة سياسية لإغلاق الحانوت».

بدأ البناء عام ٢٠٠٢. وكانت الخطة الأصلية تقضي بأن يمتد السياج لمسافة ٤٨٦ ميلا كاملة، وهي كامل طول حدود إسرائيل الشرقية. والتقدير الحالي للانتهاء من البناء يدور حول نهاية عام ٢٠١٠. وتتكلف تلك المجموعة من الخنادق والأسيجة الإلكترونية والأخاديد وأبراج المراقبة والحوائط الخرسانية ونقاط التفتيش وطرق الدورية واللفائف الشفرية الحادة - والتي تبلغ تكلفتها ملياري دولار ويتراوح عرضها ما بين ٣٠ إلى ١٥٠ مترا - تتكلف مليوني دولار تقريبا لكل كيلو متر. وقد جرى بالفعل على الجانب الفلسطيني تدمير ٧٥ فدانا من الصوبات الزراعية و٢٥ ميلا من أنابيب الري. كما تمت مصادرة أكثر من ٣٧٠٠ فدان من الأراضي الفلسطينية، البعض منها كي يمر الجدار على بعد أمتار من الضياع والقرى الفلسطينية. كما تم بالفعل قطع ١٠٢ ألف شجرة لفتح الطريق أمام الجدار.

يقول صديق إسرائيلي أن هذا الجدار يعد اعترافا بالفشل «إن التاريخ لم يتبع المسار الذي كنا نتمناه». وبأسلوب آخر، لاحقا في نفس الليلة، بعد بضع كؤوس في أحد الفنادق الشاطئية الكبرى التي بدأت في تحويل مربع «باوهاوس» في تل أبيب ليشبه فلوريدا، ذكر نفس الصديق: «عليك أن تسأل نفسك: أنا لست واثقا من أن بن جوريون كان سيشعر بالإثارة لذلك».

كان المسار المحدد للجدار مثيرا للجدل منذ البداية. والمسار الأكثر وضوحا الذي كان يمكن للجدار أن يتبعه هو الحدود الدولية المرسمة عام ١٩٤٩ بين إسرائيل والأردن، والمعروفة لجميع الأطراف باسم الخط الأخضر. ولكن في الواقع فإن ٨٥٪ من المسار المخطط للجدار يمر داخل الضفة الغربية. إن السياج يتلوى ويلتف منحرفا للشرق من الخط الأخضر بمسافة مائتي متر فقط في بعض المناطق ولكن بحوالي ٢٢ كيلو مترا في مناطق أخرى، حيث ينحرف إلى الداخل في سبيل ضم وحماية المستوطنات الإسرائيلية المقامة بعيدا داخل المناطق المحتلة. وفي بعض الأحيان يستولي الجدار على الأراضي الزراعية الفلسطينية الخصبة وآبار المياه، تاركا المزارعين الفلسطينيين بدون إمكانية الوصول إلى حقولهم. وسوف يعيش حوالي ١٤٠.٢٠٠

بترتيب مع
THE NEW YORK REVIEW OF BOOKS

ترجمة: عادل فتحي

مستوطن إسرائيلى فى المسافة بين السياج والخط الأخضر.وسوف يعلق ٩٣ ألف فلسطينى على الجانب الخطأ من الجدار.

ولهذا السبب فإن معارضى السياج لا يرونه فى صورته المزعومة ـ إجراء أمنيا . بل كنهب للأرض والتخطيط للمطالبة بأمر واقع ومحاولة ـ مثل التوسع المنتظم فى الأجزاء الواقعة تحت السيطرة الإسرائيلية فى القدس . لتحقيق ما يعرف بـ «تغيير الحقائق على الأرض». فى مستهل حملتهم، أصر مؤيدو حركة «سياج الحياة» أن الجدار سيكون حاجزا وليس حدودا، ولن يستخدم كتكتيك للمساومة فى أى مفاوضات مستقبلية لاتفاق الوضع النهائى. ولكن حتى الإسرائيليين يجدون تلك النية واهية المصداقية. وقبل مغادرته منصبه، اعترف رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود أولمرت بأنه لو كان قد بقى فى منصبه فإنه كان سيسعى لترسيم الحدود الدائمة لإسرائيل بحلول عام ٢٠١٠ وأن الحدود «كانت ستمر على الحاجز أو بالقرب منه».

بل إن أشد المتحمسين للسياج يعترفون أنه . مثل حصار غزة . مصدر كبير للشقاء بالنسبة للفلسطينيين. ولكنهم يجادلون من خلال كلمات أحد المدافعين عنه بأن «مقتل الإسرائيليين بسبب الإرهاب أصبح واقعا دائما لا يمكن التراجع عنه، بينما المعاناة التى يواجهها الفلسطينيون مؤقتة ويمكن التراجع عنها». أما محكمة العدل الدولية فى لاهاى فكان لها رأى آخر، حيث أصدرت فى التاسع من يوليو عام ٢٠٠٤ حكمها رقم ١-١٤ والذى ينص على أن «عملية إنشاء الجدار التى تقوم بها إسرائيل ـ كسلطة احتلال ـ فى المناطق الفلسطينية المحتلة هى مخالفة للقانون الدولى. وعلى إسرائيل أن تلتزم بإيقاف أعمال البناء فورا وإزالة الإنشاءات المقامة فورا والقيام بإصلاح كافة التلفيات التى نتجت عن بناء الجدار».

ويوضح البروفيسور سارى نسيبة من جامعة القدس الأمر فى كلمات بليغة:

«كأنك توخز شخصا محبوسا فى قفص، وعندما يبدأ فى الصراخ كما سيفعل أى شخص طبيعى فى مثل هذا الموقف، فإنك تستغل مزاجه العنيف كمبرر

© Reuters, Ammar Awad

لوضعه فى القفص فى المقام الأول. إن الجدار هو الجريمة الكاملة لأنه يولد العنف الذى أقيم ظاهريا لمنعه».



لإعطائكم فكرة عن ماهية الأمر، شرعت فى صبيحة أحد الأيام فى القيام برحلة من رام الله. ورام الله هى مقر السلطة الفلسطينية التى تسيطر على الضفة الغربية فى مقابل حماس التى انتخبت لحكم غزة عام ٢٠٠٦. إن رام الله هى مدينة الحكومة، وهى هادئة بعض الشىء ومملة قليلا، كجميع المدن الحكومية مثل واشنطون وكانبيرا. بدأت رحلتى فى ذلك اليوم مع اثنين من الأصدقاء: أحدهما من لندن والآخر فلسطينى صاحب السيارة بلوحتها الحرجة. كنت فى الليلة السابقة أتناول الشاى فى إحدى ضواحى القدس مع مفكر إسرائيلى كان يوجز ما يعتبره التناقض الذى تتسم به إسرائيل: إنها أمام العالم قوية وعدوانية، ولكنها تبدو من الداخل ضعيفة وهشة.

كما ذكر أن إسرائيل ليست لديها ثقة فعلية فى بقائها، حيث قال «إن الإسرائيليين لديهم إحساس واه جدا بالمستقبل».

إنه أمر لا يصدق، ولكن إسرائيل نفسها تشعر أنها مؤقتة. أى دولة أخرى يمكن أن يقال عنها ذلك؟ عندما أكون فى بريطانيا فإنى ألاحظ أنكم تخططون للعام ٢٠٣٨، وتقولون سوف يكون هناك هذا الخط للسكك الحديدية أو ذلك المطار. ولكن ليس هناك إسرائيلى يخطط لهذا المدى سلفا دون أن يحس بشعور فى قلبه يسأل هل سنكون موجودين فى ذلك الوقت على الإطلاق. إننا نبدو أقوياء جدا من الخارج ولدينا مثل هذا الجيش الضخم وكل تلك الأسلحة النووية، ونحن نتوسع بثقة تامة، ومع ذلك فالإحساس مختلف من الداخل. إننا نشعر أن بقاءنا ليس مضمونا. من الممكن القول بأننا استوردنا المرض اليهودى من الشتات. الإحساس بأننا بلا جذور، قادرون على التكيف وعلى تدبر أمرنا، ولكن عاجزون عن الاستقرار. بعد ستين عاما لم تصبح إسرائيل وطنا بعد.

فى اليوم التالى كنت أفكر فى كلماته. آمنون ولكن قلقون، أقوياء ولكن غير واثقين. بينما وصل ثلاثتنا إلى حاجز على طريق يخترق الجزء الفلسطينى من الضفة الغربية ليس ببعيد عن القدس. إنه بقعة مغبرة بلا ملامح فى وسط اللا مكان - أو كانت ستكون بلا ملامح لولا سلسلة الحوائط الخرسانية العالية على يسارنا، الجدار. وقد أرغمنا على التوقف، رغم أن الطريق لا يخترق الجدار. وانضممنا إلى صف طويل من السيارات علمنا أنه موجود منذ ربع الساعة. كان السائقون قد أطفأوا محركاتهم وجلسوا فوق أسطح أو مقدمة السيارات يدخنون ويتحدثون. نعم، هذا ما يحدث كل يوم. إنه حدث يومى. وبالنسبة لأولئك الذين يروحون جيئة وذهابا بين مدن الضفة الغربية أكثر من مرة يوميا فإنه حدث أكثر من يومى. كان الجنود يسمحون لجانب واحد فقط من السيارات بالمرور فى وقت واحد. ولذلك فقد بقينا لعشرين دقيقة أخرى، تمر بنا السيارات من الاتجاه العكسى. ثم تحرك الإسرائيليون بغطرسة وبطء شديدين - حاملين الأسلحة الآلية - إلى جانبنا من الطريق، وبدون أى سبب بدأوا فى السماح لنا بالمرور.

أقول «بدون أى سبب»، ولكن ربما كان هناك سبب. ولا يتصور أحد أن يكون لهذا السبب أى علاقة بالأمن. حيث إن الطريق لا يذهب إلى إسرائيل نفسها، كما أنه لا أحد يعير السيارات نفسها أى اهتمام. فرغم أى شىء، يمتد الطريق خاليا فى الاتجاهين، كما أن نقطة التفتيش لا ينقصها الجنود. لماذا إذن يهدر الجنود الإسرائيليون الوقت بتعطيل أحد جانبى الطريق بينما يمكنهم تماما السماح بمروره، ويسمحون فى الوقت نفسه بمرور الجانب الآخر؟ لماذا يفعلون ذلك؟ تبدو الإجابة واضحة. إنهم يفعلون ذلك لأنهم يستطيعون. وبالنسبة لأولئك المنتظرين فى الصف فإن الرسالة المفهومة ضمنا هى: «لو اخترنا أن نعطلكم فسوف نفعل ذلك. لدينا الحق فى تعطيلكم. لدينا الحق فى أن نجعل حياتكم بلا معنى».

وبعد أن استأنفنا السير متأخرين، كان لابد أن أعود للتفكير فى الكاتب الشهير فى ضاحية القدس وفى أضواء المساء البهية وفى الشاى وفى الكعك اللذيذ المخبوز بالمنزل وفى الهدوء العميق الوارف لمنزله. «نبدو أقوياء ولكننا نشعر بالضعف». هل هذا إذن هو السبب فى التحرش، التحرش الذى لا ضرورة له، للإصرار الذى لا معنى له على أن تكون الحياة اليومية محبطة بقدر الإمكان؟ فيما يطلق عليه الفلسطينيون عقابهم الجماعى؟ إنك تتساءل، كيف يمكن للفلسطينيين أن يعرفوا أن الإسرائيليين يشعرون بالضعف، بينما كل ما يستطيعون رؤيته هو تصرف الإسرائيليين بقوة؟ عندما تم تعيين تونى بلير مبعوثا للشرق الأوسط فى يونيو ٢٠٠٧، كانت هناك ٥٢١ نقطة تفتيش إسرائيلية فى الضفة الغربية. الآن هناك ٦٩٩ نقطة تفتيش.

كما قال صديقى الإسرائيلى أيضا: «إن الاحتلال يهين الفلسطينيين، ولكنه يحط من قدرنا أيضا».

يقول طرف: «نحتاج الجدار لأننا نريد حياة طبيعية». ويقول الطرف الآخر: «لن تكون حياتنا طبيعية أبدا طالما كان هناك جدار». هذا هو الحال، أو هذا هو ما يبدو لى. رؤساء الوزارة الإسرائيليين يأتون كصقور ويعدون بإجراءات أمنية صارمة وحشد عسكرى. ولكنهم يتركون مناصبهم وهم مقتنعون بأنه لا يمكن بقاء الاحتلال، وأن تكلفة احتلال شعب آخر إلى الأبد لا يمكن تحملها. أسمع كل يوم أن «هناك جيل جديد من الإسرائيليين قد شب، وهم أكثر عالمية. ويجوبون العالم. نعم، إنهم مخلصون لإسرائيل، إنهم ملتزمون عاطفيا ببقائها، ولكنهم من جهة أخرى يريدون سببا وجيها للعيش هنا وليس فى كاليفورنيا. إذا لم نستطع منحهم سببا وجيها فإنهم سيذهبون إلى مكان آخر». لقد مضت منذ زمن بعيد المثالية الاشتراكية التى قامت عليها إسرائيل. وقد حل مكانها مذهب نفعى عنيد. ولكن إذا أردتم النفعية العنيدة، لو كان الأمر شواطئ وأسلحة آلية، فيمكنكم أن تجدوا ذلك فى أى مكان بالعالم. ما الذى سيجعل الشباب يختارون العيش فى إسرائيل؟



يعرف المتدينون - الذين يزعجهم طرح السؤال - بالتأكيد الإجابة عليه، ولكن ماذا عن العلمانيين؟ إن الأمر يتكرر على الجانب الآخر، الخوف من صعود الأصولية يجبر الفلسطينيين المعتدلين على التكيف مع ما كانوا أقل استعدادا لقبوله. وفى سياق الحديث لا توجد لدى فلسطينيى الضفة الغربية الشهامة المتوفرة لدى الإسرائيليين. على أية حال فإن من احتلت أرضهم لا يكونون شهامى، أليس كذلك؟ إنها نبرة مختلفة. ولكن مع ذلك، فإن صعود نجم حماس قد ألقى بتأثيره على الجميع. وبقدر ما كانت سطوتها فى غزة رد فعل لفساد منظمة التحرير الفلسطينية كان التأييد الإيجابى لأساليب حماس. ولذلك، فمثل الاشتراكيين البريطانيين الصالحين الذين لم يتحدثوا أبدا بسوء عن الاتحاد السوفيتى فى حضور غرباء، فإن العديد من الفلسطينيين لا يتحدثون كثيرا عن حماس. إن ذلك يعد خيانة. ولكن قليل من الناس فى الضفة الغربية يدافعون عنها بشدة.

فى إحدى الأمسيات القريبة كنا فى حفلة فى رام الله. وأخبرنى أحد الضيوف عن أسلوب تعذيب تستخدمه حماس ضد مواطنين فى غزة يشتبه بأنهم واشون:

يرى الضحية حائطا مرسوما عليه سلم، وفى أعلى السلم رسم لدراجة. يطلب من الضحية إحضار الدراجة. فيقول أنه لا يستطيع إحضار الدراجة لأنها مجرد رسم. عندئذ يبلغ الضحية أنه ما لم يحضر الدراجة من أعلى السلم فسوف يضرب. «لا أستطيع إحضارها. إنها مجرد رسم».

حسنا، ماذا يثبت ذلك. إنى أسأل نفسى أثناء سيرنا بالسيارة. إن حماس ليست لطيفة تماما. إنك لن تكون



«لدينا الحق فى تعطيلكم. لدينا الحق فى أن نجعل حياتكم بلا معنى»



لقد استغرقت رحلة الخمس وأربعين دقيقة ثلاث ساعات. ولكنها ما زالت نابلس



لطيفا إذا عشت تحت حصار دائم. ولكن الفكرة تصيبنى بالقشعريرة. لقد تم تدبيرها جيدا، بل إنها شديدة البراعة، أن تطلب من شخص أن يحضر رسما. هل هذا هو ما نتعامل معه؟ كثير من الفكر يوضع فى وسيلة بسيطة للتعذيب؟

أحتاج لأن أعرف الإجابة لأننا الآن متجهون إلى نابلس. ولكننا لا نستطيع الذهاب عبر الطريق الأسفلتى لأن الإسرائيليين يتحكمون بالمنافذ. لقد أعادنا الجنود بالفعل مرتين، ولذلك ففى كل مرة نذهب فى اتجاه جديد ونرتد على أعقابنا ونتسلق ونبحث دائما عن الطريق الوحيد غير المشروع وغير المراقب والذى سيأخذنا إلى خلف المدينة.

وطوال الوقت، فى أعلى كل تلة، يبدو أن هناك مستوطنة إسرائيلية أخرى.

من البارحة، مرة ثانية، أستعيد سخط الكاتب الإسرائيلى الذى قال: «هناك فقط ربع مليون مستوطن. إنهم لا شىء. إنهم بحجم مدينة إسرائيلية متوسطة. وثلاثة أرباعهم موجودون هناك ليس بسبب أى معتقد دينى. إنهم هناك بسبب المال. فالمنازل هناك رخيصة والمدارس جيدة. ادفعوا لهم أكثر وسوف يرحلون. ومع ذلك، يقول بمرارة - فطوال أربعين عاما تركز الجدل القومى حول مصير هؤلاء القلة. لقد حان الوقت للتحرك».

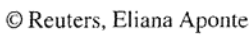
قيلت تلك الكلمات بتلويحة من اليد كما لو كانت تعنى «لا تقلق بشأن المستوطنين، فسوف يتم التعامل معهم». ولكن فى الحقيقة، فحتى ترتحل فى الضفة الغربية وتنظر وترى أين المستوطنين - حولك فى كل مكان بمعنى الكلمة - فسوف تفكر «لست واثقا أن الأمر بالبساطة التى يتحدثون عنها». لأنك تنظر أحيانا إلى قمة ذلك التل ثم التل الذى يليه ثم الذى وراءه، ولا توجد هناك حتى منازل بل مجرد مقطورات، تصل المقطورات لغرس مجتمع جديد، وفور إتمام ذلك ينتقلون عندئذ لغرس مجتمع آخر. إنها تسمى مستوطنات، ولكنها فى الحقيقة مستعمرات.

وهذا هو ما أشعر به أيضا فى القدس. كانت القدس دائما العاصمة الروحانية - فرغم كل شىء كان الجدل يدور حول ذلك. يمكنك أن تشعر بذلك فى كل ناصية شارع، يمكنك أن تحس بالتاريخ. ولكن الآن مع وجود الجدار القبيح والإفراط فى البناء وتدنيس المنظر العام، أعنى، ما الذى يحدث؟ أليسوا بذلك يدمرون نفس الطبيعة التى كان مفروضا من خلالها أن تكون المدينة نفيسة؟ أليسوا بذلك يقتلون ما يحبونه؟ أم أن تلك هى مشكلتى أنا؟ هل أنا مجرد غربى منحل لا يستطيع التوقف عن التفكير فى أن الروحانية مرتبطة بالجمال؟ كانت القدس جميلة دوما. والآن فإنها ليست كذلك. فيما يتعلق بى، فقد تم تخريب القدس. كيف يمكن ألا تخرب؟ هناك جدار خرسانى هائل بجوارها. ولكن القدس لم تكن لى أبدا. إنها كانت للمؤمنين.

انظروا ثانية، انظروا للتلال وسوف تعلمون لماذا لا يعتبر الفلسطينيون المستوطنات ظاهرة دينية بل شبكة للسيطرة. لأنها تبدو كذلك. إنها تراقبنا. وهناك شىء آخر بالمناسبة. لقد ضللنا الطريق. هناك قدر متوفر من الشهامة الفلسطينية. إلى يمينى، يتباهى صديقى «أعرف الطريق». فى الواقع أنه لا يعرف. ولذلك فقد خرج من سيارته الفولكسفاجن رجل طويل شديد النحافة بشارب وسيجارة يشبه «جورج أورويل» شرقى، قائلا «هل تريدون الذهاب إلى نابلس؟» مقهقها تجاه حيرتنا وعجزنا، كما لو أنه شاهد هذا الموقف خمس مرات يوميا. قال «سآخذكم إلى نابلس. اتبعونى». وانطلق مسرورا نافثا دخان بنزينه. لقد تحول التآلف مع الطريق والتعود على الاحتلال واستحالة الحياة اليومية إلى مزحة للناجين. وعبر قليل من الدروب غير المطروقة، ثم الالتفاف حول ناصية، اللعنة! إنها نابلس. لقد استغرقت رحلة الخمس وأربعين دقيقة ثلاث ساعات، ولكنها ما زالت نابلس.

نابلس، مدينة قبر يوسف وبئر يعقوب: مدينة يقطنها ١٨٠ ألف نسمة وتحيط بها ست نقاط تفتيش إسرائيلية وأربع عشرة مستوطنة يهودية وست وعشرين نقطة استعمارية أمامية، وكلها غير شرعية حتى فى ظل القانون الإسرائيلى.

نابلس، المدينة التى يقول



© Reuters, Eliana Aponte

الجميع أنها ستكون محل الاختبار الحاسم لمستقبل السلطة الفلسطينية فى الضفة الغربية: كانت يوما ما مقر لواء شهداء الأقصى التابع لفتح، ولكنها الآن لها عمدة، «عدلى يعيش» خريج جامعة ليفربول، والذى ترشح على قائمة حماس رغم أنه ليس عضوا بها وحصل على ٧٣٪ من الأصوات عام ٢٠٠٥. منذ ذلك الوقت قضى فى السجون الإسرائيلية خمسة عشر شهرا من مدة ولايته كعمدة دون أن يوجه إليه أى اتهام. وقد حكم قضاة إسرائيليون تسع مرات بالإفراج عنه.

نابلس، المركز التجارى الذى لم يعد يسمح له بالتجارة لأنه لا يسمح لأحد بالذهاب إلى هناك، وتلك مشكلة حقيقية لأى مركز تجارى. الآن نحن هنا، نمر تحت الأقواس الحجرية الرمادية إلى الأزقة العديدة للسوق المغطى القديم. تلك يمكن أن تكون مراكش: صف وراء صف من اللحوم النيئة والفاكهة الطازجة والذباب والمظلات والملابس والعطور والتوابل، بينما تتجول الكلاب والأطفال، وهناك صوانى الكنافة التى يشتهر ويفخر بها السكان المحليون: طبقات من الجبن النابلسى تغلى مع السكر فى لون برتقالى فوسفورى مخضب وينثر عليها الفستق المجروش. إن ذلك دسم جدا بالنسبة لدمى. حتى الرائحة تلصق لسانى بسقف فمى. يصل عدد العاطلين فى تلك المدينة إلى ٨٠٪ من المواطنين. ولذلك فهناك القليل من الزبائن، والأسعار نصف ما هى عليه فى القدس. وهناك عبر الناصية حمام إنجيلى عبر زقاق قصير، ليس هناك أكثر من البخار والحجارة.

نعم، أنا سعيد هنا، هذا هو نوع المكان الذى يجعلنى سعيدا. يمكنك أن تنسى العالم هنا. وصلنا الآن إلى ما يبدو أنه أكثر المقاهى شهرة، فى وسط السوق، يبدو كإحدى الصوبات الزجاجية فى حدائق «كيو» (منطقة حدائق شهيرة بالقرب من لندن، المترجم)، قبل تجديدها بالطبع، حوائط مسطحة من الزجاج المشروخ والأخشاب المتعفنة، ومطل على ساحة مشمسة. كان مقهى الشيخ قاسم مكانا شهيرا دائما، القبلة التى يذهب إليها الجميع. والآن مع امتلاء خمسة فقط من مقاعده الخشبية الأربعمائة فإنه يبدو كمشهد فى فيلم أو مسرحية، ربما فى مسرح «جلاسجو سيتيزينز» (مسرح شهير فى بريطانيا، المترجم)، الطلاء المتقشر والرومانسية الموحشة للنبذ والتعفن. ما لم يحدث شىء سريعا، ما لم يخفف الإسرائيليون من قبضتهم، ما لم يتحقق السلام فى الشرق الأوسط، فإن التراب سيغمر هذا المكان. طلبنا القهوة التركى. ثم التفت.

على الجدار فى تلك البقعة المتعفنة، الشىء الجديد الوحيد: ملصق براق لامع لصدام حسين.

إنها إحدى تلك اللحظات التى علمت بمجرد النظر أنى لن أنساها ما حييت. كيف تتفاعل مع ذلك؟ لو كنت ستختار بطلا، فهل كان يمكن أن تختار من هو أسوأ من ذلك؟ لو كنت ستختار مستقبلا، هل يمكن ألا يكون لديك إدراك بكنهه على الإطلاق؟ إذا كنت ستختار قائدا ليأخذك بالضبط إلى لا مكان، فهل كان أمامك من هو أفضل من صدام حسين؟ تعود بى الذاكرة إلى «شيرى بلير» (زوجة تونى بلير رئيس الوزراء البريطانى السابق ومحامية حقوق الإنسان، المترجم) التى زلت ذات مرة فى واحدة من تلك المشادات الإعلامية الحمقاء، عندما قالت أنه عندما يحرم الشباب من الأمل فلا عجب أنهم يفجرون أنفسهم. كما قالت أنه يمكنك إدراك ذلك عندما تأتى إلى فلسطين. ربما، ولكن هل استطاعت هى «إدراك» ذلك؟ أنت تختار للملصق المفضل شخصا لم يقدم للعالم، وللعالم العربى تحديدا، سوى الأذى. سيد المقابر الجماعية والمذابح التى لا توصف.

ألتفت إلى رفيقى وأسأل «ما هذا؟ عدو عدوى هو صديقى؟ هل الأمر كذلك؟ هل الأمر بمثل هذا الغباء؟» هز رفيقى كتفيه محرجا، «حسنا، لقد تحدى صدام الأمريكيين، أليس كذلك؟». وهل هذا هو السبب الوحيد؟ هز كتفيه ثانية، «لقد كرهنا صدام حسين مثل الجميع. لقد مقتناه. لم نكن نحتمله. إلى أن تحدى الأمريكيين».

«لكنه لم يؤمن بأى شىء تؤمنون به».

جاءت القهوة. من الأحمق هنا؟ هو أم أنا؟ أعتقد أنى أقل سذاجة من شيرى بلير. ولكن هل أنا كذلك؟ حقا؟ أنا أعلم الآن على الأقل لماذا ارتفع الجدار. إن الإسرائيليين يريدون عزل أنفسهم عن من يعرضون ملصقات صدام حسين. من الذى يستطيع لومهم؟ أو ـ انتظر. الأحجية القديمة ـ هل يعرضون ملصقات صدام حسين لأن شخصا ما بنى جدارا لتوه؟

نقود الآن عائدين. وصلنا إلى نقطة التفتيش. الجندى الإسرائيلى حانق كما هو متوقع. «كيف عبرتم؟ ليس مسموحا لكم بالمرور. تعلمون أنه ليس مسموحا لكم». نحن نزهو كما لو كان كل ذلك فى المسلسل البوليسى التليفزيونى البريطانى «ديكسون أوف دوك جرين Dixon of Dock Green» (مسلسل شهير عرض بين عامى ١٩٥٥ - ١٩٧٦، المترجم)، نحن آسفون أيها الضابط. ابتسامة عريضة. «لقد وجدنا طريقا للمرور». ولكن بالفعل تلك هى الحقيقة، أليس كذلك؟ وجدنا طريقا للمرور. تلك هى الحقيقة التى لا يرغب الإسرائيليون فى إدراكها. حتى البروفيسور «نيل لوشرى» من جامعة لندن، وهو صديق لإسرائيل ومؤلف ـ بحق السماء ـ كتاب «لماذا تلوموا إسرائيل؟ Why Blame Israel» وصف السياج الأمنى بفيل أبيض. حيث يقول «إن الجدار يعود بالفعل إلى حقبة غابرة». لأنه حتى قبل الانتهاء من بنائه وحتى قبل إنفاق المليارى دولار، قام أعداء إسرائيل بتغيير تكتيكاتهم. لقد تحولوا من التفجير الانتحارى إلى القذائف، إلى إطلاق صواريخ القسام التى يمكنها ـ إذا ما تم نشرها فى الضفة الغربية مثلما حدث فى غزة ـ أن تحلق عاليا فوق الجدار متجاهلة وجوده، بوقود ليس أكثر من السكر ونترات البوتاسيوم. يقول «لوشرى» أن معارك المستقبل ستدور فى السماء. وبصيغة أخرى، أقم حاجزا وسيدور الناس من حوله، أو من فوقه فى حالتنا هذه. فى جوهر الفكرة تكمن شواهد زوال تلك الفكرة.



لا يمكن لحركة منفردة أن توقع بالشاه.

إنه طريق لطيف. إننا عائدون إلى رام الله على ما يسمى بطريق الشخصيات عظيمة الأهمية، لأنه عندما انطلقنا بوجوهنا البيضاء وجوازى السفر البريطانيين ظنوا خطأ أننا مستوطنون. لذلك كانت لنا الأولوية. أتيح لنا طريق خال رائع خاص بنا. بإمكاننا رؤية الطريق الموازى، الطريق الخاص بالفلسطينيين، مارا بجانبنا على بعد خمسين ياردة فقط. إنه متوقف تماما. على ذلك الطريق كان على الأوغاد المساكين أن يتوقفوا ثانية لما يبدو أنه فترة معظم ما بعد الظهر. أما نحن فقد مررنا فورا. يشعل صديقى الفلسطينى سيجارة قائلا «إذا أردت أن تسافر، فأينما ذهبت سيكون هناك جنود فى السابعة عشرة من عمرهم، روس أو أثيوبيون، يملون عليك كيف تعيش فى بلدك. أنا عجوز، ولذلك أبتلع الاهانة وأتحملها». يسحب نفسا من سيجارته ويخبو وجهه الآن «لكن الشباب لا يستطيعون تحمل ذلك ولن يفعلوا».

نصل الآن إلى رام الله. يقول المحامى رجاء شهادة الذى يعيش هنا أنه من حسن الحظ الرائع لرام الله أنها لم تذكر فى الكتاب المقدس. لهذا السبب تركت رام الله وشأنها دونما اهتمام من قبل المتعصبين، نظرا لأنها لا تمثل أى أهمية دينية على الإطلاق. لم يحدث شىء مقدس فى رام الله. إنها ضربة حظ لأى مدينة تريد النجاة! ألا يرد اسمها فى أى كتاب مقدس! وعبر الحائط الأسمنتى، بينما ندخل المدينة، تزدهر الرسوم الجدارية. نعم، يوجد ذلك هنا أيضا، وهى ترسم بعلب طلاء الإسبراى ودهانات الإعلانات، حتى يتم إجبار كل زائر على التفكير «آه! برلين!». ربما يبدو

نظـــر الإســــرائيليون إلينـــا بغطـرســـة.. ثــم لــم يســـمحوا لنـــا بالـعــبــور



أينما ذهبت سيكون هناك جنود فى السابعة عشرة من عمرهم، روس أو أثيوبيون. يملون عليك كيف تعيش فى بلدك



الجدار مهجورا بالنسبة للبروفيسور لوشرى، ولكنه حقيقى تماما بالنسبة لسكان الضفة الغربية، يحجب الشمس ويحجب الرؤية ويمنع المرور. هناك أناس هنا فى الضفة الغربية لم يروا كتلة مائية ـ بحيرة أو بحر ـ منذ خمسة عشر عاما. أما الرسم الجدارى الأكثر طرافة على الإطلاق فعبارة عن تعليمات أقرب إلى الشخبطة بحروف كبيرة ضخمة على ستة كتل أسمنتية، فقط الحروف CTL ALT DEL، كما لو أنه عند الضغط على ثلاثة مفاتيح كمبيوتر قد يختفى الجدار. إنه ليس جدارا، بل مجرد رسم لجدار.

يقول أحد معارفى من الفلسطينيين «ليست هناك متعة فى قتال الغرباء. إذا كنت ستقاتل فقاتل داخل العائلة. ذلك أمتع كثيرا». وذلك حقيقى، فاليهود والعرب عائلة، وهم يذكرونك ببعضهم البعض، أبناء إبراهيم، إنهم يذكرون بعضهم البعض ببعضهم البعض. نفس الحيوية ونفس المزاج ونفس الأرض.

قال بنيامين دزرائيلى رئيس الوزراء البريطانى اليهودى الوحيد «يمكنك أن تعرف الحكومة الضعيفة من حرصها على اللجوء إلى الإجراءات العنيفة». أما ألبرت أينشتاين فقال «إذا لم نجد السبيل إلى التعاون المخلص والمفاوضات المخلصة مع العرب، لن نكون عندئذ قد تعلمنا شيئا مما يزيد على ألفى عام من المعاناة، ونستحق عندها المصير الذى سيحل بنا».

والآن أجلس لتناول الشاى فى دار سينما القصبة فى رام الله. إنها دار السينما الوحيدة العاملة فى الضفة الغربية. وهى غالبا تعرض أفلاما كوميدية مصرية. ويديرها جورج إبراهيم الذى يضحك كعادته «إننا نستمتع الآن جميعا بالنكات حول تداعى الاقتصاد الغربى لأننا نستطيع أن نضحك ونقول «لن يؤثر ذلك علينا لأن فلسطين ليس لديها اقتصاد». وينضم صديقه الكاتب المسرحى سلمان تامر «إن ما يشعر بالصدمة تجاه إسرائيل أنه فى الوقت الراهن لا يوجد بها حتى حركة احتجاج. فى الأيام الخوالى كان هناك أنصار سلام فى الشوارع وطلبة ذوو شعور طويلة. الآن ليس لديهم تقريبا أى حركة سلام على الإطلاق. ماذا يمكنك أن تقول؟ إن البلد الذى يفقد متحرريه هو فى ورطة عميقة».

يرتشف جورج الشاى ويبتسم «إن الجدار ليس حولنا، إنه حولهم».



فى اليوم التالى كنت فى القدس أتجاذب الحديث مع دافيد جروسمان الروائى الإسرائيلى الذى قتل ابنه يورى فى اليوم الأخير من الحرب اللبنانية. ما زال منزله مشحونا بالحزن.

من المؤكد أنه عند تأسيس الدولة كان هناك إحساس هائل بالغاية، ببناء شىء معا. ولكننا بددنا عام ١٩٦٧ الفرصة فى جعل الدولة دائمة. فبدلا من استغلال المناطق المحتلة كركيزة للتفاوض، أصبحنا عوضا عن ذلك متعاطين للاحتلال. عندما يعانى شعب مثلما عانينا فإنه ليس شعورا سيئا أن نصبح أسيادا ذات مرة. وقد أصبحنا مدمنين لذلك الشعور وكأنه مخدر. والآن نحن لدينا مشكلة رهيبة فى تصور أى واقع آخر يختلف عما نعيش فيه. إنك تتعود على الأمر ولا يمكنك تصديق أن هناك طريقة أخرى ممكنة للحياة. إنك تتحول بكل سهولة إلى ضحية للموقف. وهنا ـ مرة أخرى ـ يكمن التناقض الجوهرى، كانت الفكرة وراء قيام إسرائيل أنه يجب ألا نستمر كضحايا. وبدلا من ذلك فقد سلمنا مقاديرنا إلى رجال الأمن. إننا نسمح للجيش بإدارة البلاد لأنه تنقصنا طبقة سياسية ذات رؤية تتجاوز القوة العسكرية. إن البقاء يصبح هو هدفنا الوحيد. إننا نعيش لننجو لا لنحيا.

أريد أن أبدأ الحياة. أريد بعض البوابات فى الجدار. ■

إشكالية الدولة والهوية... والآخر



عرب إسرائيل

هم سكان البلاد الأصليون وهم جزء من الأمة العربية التى تعيش حالة صراع مع إسرائيل ومن الشعب الفلسطيني الذى تعرض لعملية سطو مسلح على أرضه



عزمى بشارة

ربما لم يكن لموضوع «عرب إسرائيل/ عرب ٤٨» الأهمية ذاتها كما هى له الآن. أخذا فى الاعتبار مشاريع تسوية تتسرب مسوداتها، أو تصريحات وتلميحات نسمعها أو نقرؤها هنا وهناك. تتساوى فى ذلك - من حيث التحليل النهائى - دعك من التفاصيل، آراء تسيبى ليفنى «الذاهبة» مع أفيجدور ليبرمان «القادم» من خلف الجدار الحديدى المتصلب لليمين الصهيونى القديم.

هذا كتاب فى الموضوع، لكاتب ربما هو أول من طرح على الساحة الفكرية العربية قضية «عرب الداخل» وهو كتاب قديم جديد صدر بداية فى الداخل الفلسطينى، كان ذلك فى العام ١٩٩٨ تحت عنوان «الخطاب السياسى المبتور»، ثم صدرت عن مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت فى العام ٢٠٠٠ طبعة ثانية. ثم ثالثة «مزيدة» فى العام ٢٠٠٨، بعد أن أضيف اليها فصلان أحدهما عن «يهودية الدولة». وهى المسألة التى كان كاتبنا «عزمى بشارة» قد طرحها غير مرة على هذه الصفحات من «وجهات نظر».

وهنا بعض مما يقدم به الكاتب لكتابه المهم.

المحرر

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٩٨. ماذا تغير بعد عشر سنوات؟

تضمن كتابنا الأول تحليلات نظرية بنيت عليها مواقف وشكلت مرشدا للتجربة العملية. فإضافة لقيمتها الأكاديمية، إذ اعتبرت تجديدا فى مقاربة مسألة العرب فى إسرائيل نظريا، فإن لها كما هى قيمة وثائقية أيضا بالنسبة لمن يرغب بدراسة نوع التحليل الذى قاد جهدنا السياسى فى عملية بناء الحركة الوطنية. وفى الواقع لم يتغير تحليلنا النظرى فى محاوره الرئيسية كثيرا. ونحن ندعى أن الأيام أثبتت صحة هذا التحليل، وأكثر من ذلك فقد تحقق الكثير من التوقعات التى يتضمنها. فالنموذج الذى طرحه سمح بتشخيص نزعات التطور المستقبلى، خاصة حول فعل صيرورتين متزامنتين فى المجتمع العربى فى الداخل:

١ - عملية أسرلة تتجلى فى نشوء ثقافة سياسية تابعة، ومشوهة، متولدة دون وساطة الوعى الوطنى، أى متولدة مباشرة عن التهميش الاقتصادى الاجتماعى الحقوقى للعرب فى إطار كيان قام على أنقاض الشعب الفلسطينى، و٢ - صيرورة تشكل وطنى. وتتولد هذه الصيرورة عن عملية إقصاء المجتمع والدولة الإسرائيليين للمواطنين العرب بفعل سياسة التمييز والعنصرية الإسرائيلية من جهة، وعن تشكل العرب والهوية العربية فى عملية تواصل لم ينقطع مع تاريخ البلاد وماضيها القريب ومع بقية أجزاء الشعب الفلسطينى والمنطقة العربية عموما من جهة أخرى.

منذ تلك الفترة كانت مقاربتنا لموضوع الهوية فى هذا الكتاب أن الهوية ليست معطى أبديا بل نتاج اجتماعى ثقافى متشكل ومتغير. ولكنها ليست متشكلة ومتغيرة من لا شىء بل من عناصر قائمة.

لقد انطلق تحليلنا للعرب فى الداخل من:

١ - أنه لا يمكن أن نفهم مسألة عرب الداخل بنيويا فقط بتجرد عن تاريخ نشوء هذه المسألة، أى بتحليل بنية دولة إسرائيل كأنها دولة وطنية عادية، هى الدولة اليهودية، تعيش فيها أقلية عربية تتعرض للتمييز أو الإهمال (أو تعيش فيها أقليات دينية بموجب الخطاب الاستشراقى الصهيونى). فالعرب فى إسرائيل هم سكان البلاد الأصليون وهم جزء من الأمة العربية التى تعيش حالة صراع مع إسرائيل ومن الشعب الفلسطينى الذى تعرض لعملية سطو مسلح على أرضه شملت هدم مشروعه الوطنى. وقد نشأت قضيتهم تاريخيا كجزء من القضية الفلسطينية، فلولا نشوء قضية اللاجئين لما نشأت مسألة «أقلية» عربية فى الداخل. أما الممارسات الإسرائيلية التى تتضمن مصادرة أراضى العرب فى الداخل ومحاصرتهم وتجميعهم ديموغرافيا، والعمل على إعادة تشكيل هويتهم الثقافية بما يتناسب مع احتوائهم كأقليات متنافرة متنازلة عن المساواة الكاملة وعن الشخصية العربية الكاملة فى دولة يهودية... هذه كلها ليست مجرد مركبات فى سياسة تمييز، بل هى جزء من سياسة تشكل استمرارا تاريخيا لمسألة استعمارية هى قضية فلسطين، وهى تضع لنفسها أيضا أهدافا تاريخية. فهى ما زالت تجرى وتنفذ بعقلية كولونيالية استيطانية إحلالية، وتتخذ أشكالا كولونيالية أيضا.

٢ - أنه لا يمكن أن نفهم قضية عرب الداخل بالمنهج التاريخى وحده. إذ لا يكفى فهم تاريخ تشكل القضية الفلسطينية وكيفية تحول الفلسطينيين إلى أقلية فى بلدهم فى فهم واقعهم الحالى. يكفى هذا لفهم نشوء هذا الواقع، ولكن ليس لفهم الواقع ذاته. فهنالك ما يميز حاضرهم عن تاريخه، وإلا لما تميزوا عن بقية التجمعات الفلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة والشتات الفلسطينى. وهم يتميزون بأنهم خلافا لبقية الفلسطينيين تحولوا إلى جزء (غير مرحب به)

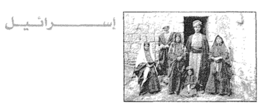
☛

للاستزادة:

العرب فى اسرائيل، رؤية من الداخل
عزمى بشارة
مركز دراسات الوحدة العربية
بيروت ٢٠٠٨

عائلة من رام الله ١٩١٠ (من محفوظات مكتبة الكونجرس)

مؤتمر تقسيم فلسطين - لندن - سبتمبر ١٩٤٨ ©Life/Tony Linck



من الكيان الذى قام على أرضهم، ولو على هامش اقتصاده، كما تحولوا رسميا إلى مواطنين، بصرف النظر الآن عن نوع هذه المواطنة ومن أية درجة هى... وقد أدى هذان الأمران سوية إلى تغيرات فى نمط السلوك السياسى والثقافة السياسية السائدة، خاصة أن ٩٠٪ من المواطنين العرب فى الداخل ولدوا فى هذا الواقع الإسرائيلى، بما فيه من تغيرات ثقافية تمس حتى اللغة، أقصد لغة المخاطبة اليومية ولغة الصحافة واللغة السياسية، وتحول القرية إلى هامش اقتصادى للمدينة اليهودية... المفارقة الكبرى التى عاشها العرب فى الداخل أن عملية التحديث كانت فى الوقت ذاته عملية مصادرة وقطع أواصر العلاقة الاقتصادية مع الأرض وعملية تهميش، كما أن عملية التحديث ذاتها هى عملية إسرائيلية، وعملية أسرلة فى الوقت ذاته.

٣ـ كما انطلق من أن من قارب موضوع العرب فى الداخل بنيويا لم يخطئ منهجيا فى فهم تميزهم (نقصد تميزهم عن أقليات مهاجرة فى دول أوروبية مثلا) فحسب، ولم يتجاهل الطابع الكولونيالى لإسرائيل فحسب، بل قاده ذلك إلى طرح مسألة المساواة كما تطرح فى حالة المهاجرين فى الدول الديمقراطية، أى كمطلب اندماجى. ولا يوجد خيار اندماجى حقيقى أمام العرب فى دولة، لا هى دولة مواطنين، ولا هى دولة تعترف ببنية ثنائية القومية. ومن ناحية أخرى، فمن قارب موضوع عرب الداخل من زاوية النظر التاريخية وحدها انتهى إلى عجز أمام فهم السلوك السياسى والثقافة السياسية السائدة عند عرب الداخل من التصويت إلى أحزاب صهيونية وحتى نشوء أحزاب وقوى «عربية إسرائيلية»، وإلى انعدام القدرة على طرح برنامج وطنى فى الظروف الخاصة لهذا المجتمع، لأنه ببساطة لم ير الخصوصية. وخصوصية العرب فى إسرائيل مقابل أقليات قومية وإثنية أخرى هى خصوصية تاريخية، وخصوصية عرب الداخل مقارنة مع بقية الفلسطينيين هى بنيوية الطابع وليست تاريخية فحسب.

وطبعا يمكننا من هنا أن نتشعب أكثر لنجد أن التاريخى بنيوى وإلا لما تحول إلى واقع قائم، كما أن البنيوى تاريخى، فتاريخه فاعل فى بنيته.

أ ـ بنية دولة إسرائيل تاريخية ليس فقط من حيث تطورها الاستيطانى بل أيضا فى تعريفها لنفسها كدولة يهودية فى الفكر والممارسة. وإذا طرح مطلب المساواة للعرب فى الداخل بشكل كامل دون مساومات على الحقوق، ودون التخلى عن الهوية الوطنية، هوية السكان الأصليين، فإنه لا بد أن يتناقض مع البنية القائمة للدولة وتعريفها لذاتها كدولة يهودية ومع الوظائف الناجمة عن هذا التعريف. من خلال هذا التناقض يتصل مطلب المساواة الكاملة فى دولة مواطنين مع القضية الوطنية الناشئة تاريخيا فى صراع مع الصهيونية.

ب ـ تأطرت تاريخية الحالة العربية فى الداخل فى البنية القائمة، ولذلك نشأ وضع يصاغ فيه خطاب وطنى ضمن الإطار القائم، ويتخذ شكل المطالبة بحقوق جماعية والاعتراف بالعرب كجماعة قومية هى جزء من الشعب الفلسطينى والأمة العربية، والمطالبة بحق وضع برامج التدريس العربية، وبتطوير الثقافة العربية.

٤ ـ ينتج هذا الواقع الذى تجرى فيه صياغة المطالب المدنية الإسرائيلية بلغة وطنية فلسطينية وصياغة المطالب الوطنية الفلسطينية بلغة مدنية إسرائيلية كما هائلا من التناقضات والتشويهات... من الانضواء تحت لواء الأحزاب الصهيونية، وتشكل شخصية «العربى الإسرائيلى»، وحتى إقامة أحزاب عربية قولا وإسرائيلية فى الممارسة. لقد نشأت قوى سياسية ذات خطابين واحد بالعربية وآخر بالعبرية، كما نشأ فى ظل التنافس الانتخابى تحت السقف الإسرائيلى نواب الخدمات الذين يتوسطون بين مطالب المواطن الفرد والسلطة الإسرائيلية الحاكمة بلغتها، أما الموقف الوطنى عند هؤلاء فمسألة تُمارس خطابةً فى الإعلام العربى. فالقوى السياسية «العربية الإسرائيلية» لا تتخلى عن الرغبة بكسب كافة العوالم، بما فيها خطاب الولاء لإسرائيل والخطاب النضالى الوطنى فى وسائل الإعلام العربية. ويبدو هذا السلوك ممكنا، خاصة أنه فى ظروف نشوء تيار فى الدول العربية المحيطة يجاهر بالتطبيع، و«يناضل» من أجل فرض تسوية غير عادلة على الفلسطينيين، فقد انتقل قسم من الرأى العام العربى من موقف خاطئ هو تخوين عرب الداخل إلى موقف خاطئ آخر هو اعتبار كل ما يقوله عربى بصوت عالٍ داخل إسرائيل بطولة... مع أن ذلك يجرى فى دولة يتوفر فيها هامش واسع لحرية التعبير، ولا يكلِّف فيها الكلام كثيرا.

وكما ينتج هذا الواقع الملتبس وغير العادى تشويهات سياسية وثقافية تطيح بالتجربة العربية فى الداخل، كذلك قد ينتج حالة سياسية مركبة وغنية التجربة فى الوقت ذاته، إذا نجحت بالمحافظة على الهوية العربية الفلسطينية من جهة، وإذا عرفت كيف تعمل فى إطار المواطنة بتحويل خطاب الحقوق إلى خطاب معادٍ للصهيونية... وطبعا إذا كانت مستعدة لدفع الثمن. فهذا الموقف يشكل حالة نضالية، وهو لا يواجه مقاومة من المؤسسة الصهيونية الحاكمة فحسب، بل أيضا من قبل القوى السياسية العربية المحلية المحتواة فى فضاء سياسى ثقافى اجتماعى على هامش الدولة اليهودية والمرتبطة بالوضع القائم.



لقد كُتب هذا الكتاب مدفوعا بأكثر من التحليل الاكاديمى الذى اعتبر فى حينه تجديدا حتى فى الجامعات الإسرائيلية، بل أيضا بإرساء القاعدة الفكرية لهذا الخيار الأخير الذى لا يتجنب التناقضات بل يشخِّصها ويحولها من قوة هدم لمجتمع لا يعى فعلها، ولا يحاول أن يوجه هذا الفعل، إلى قوة دفع عند مجتمع يعيها ويخضعها لمشروعه. ولذلك يجد القارئ فى الجزء الثانى من الكتاب محاولة لطرح مشروع وطنى ديمقراطى فى ظروف الداخل يبنى على جدلية العلاقة بين الوطنى والمدنى، وبين الخطاب العروبى الفلسطينى والمواطنة.

يصعب تخيل مشروع آخر يطرح كمشروع فى هذا الواقع المركب، أى فيما يتجاوز ردود الفعل الآنية ومجاراة الأحداث. ولذلك فعندما حاول بعضُ المثقفين العرب من اتجاهات مختلفة مؤخرا، أى فى الأعوام ٢٠٠٦-٢٠٠٨، التصدى لمهمة طرح مشروع متكامل لمستقبل العلاقة بين المواطنين العرب والدولة والمحيط العربى على شكل أوراق وجدوا أنفسهم يطرحون أجوبة تدور حول هذين المحورين: الهوية القومية والمواطنة، ويطرحون بتنوعات مختلفة مسألة دولة المواطنين ووجود جماعتين قوميتين وحقوق قومية. كما وجدوا أنفسهم مدفوعين بضرورة طرح مشاريع تخطيط بديلة للعرب لكى يتصرفوا كشعب فى دولة تخطط لاستيعاب الهجرة اليهودية، ولبناء جيش قوى، واقتصاد يهودى قوى، وتتعامل مع وجود العرب كمشكلة وكعبء.

فى هذه الأثناء حصلت تغيرات هامة تؤكد برأينا عمليتين متوازيتين جرى الكلام عنهما فى الكتاب: لقد تحدثنا عن عملية «أسرلة» موضوعية ناجمة عن البنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحقوقية، وأن هذه العملية تولِّد «أسرلة» ثقافية تؤدى إلى تشويه الثقافة العربية، دون أن تتحول إلى ثقافة عبرية. كما تتجلى فى تحويل الاندماج إلى مطلب، وذلك على هامش دولة تعرف نفسها كدولة يهودية ولا تقبل بدولة مواطنة اندماجية. وقد شهدنا منذ كتابة هذا الكتاب ليس فقط تطور مشروع وطنى ديمقراطى يطرح نفسه على الساحة بل ردة فعل صهيونية و«عربية إسرائيلية» عليه من قبل قوى سياسية عربية تقليدية رأت به خطرا. كما شهدنا من ناحية أخرى تفاعلا غير مسبوق مع القضية الوطنية للشعب الفلسطينى تحت الاحتلال عبر عنه المجتمع العربى الفلسطينى فى الداخل فى بداية الانتفاضة الثانية، ثم شهدنا ردة فعل إسرائيلية عليها ليس فقط فى تشديد ملاحقة من تنعتهم بـ«المتطرفين» والتضييق عليهم، بل أيضا فى عملية دعم و«تشجيع» ما تسميه «المعتدلين العرب» حتى لو تأطروا فى أحزاب عربية.

لقد سن البرلمان الإسرائيلى خلال السنوات الأخيرة عدة قوانين تراجع الحريات السياسية وتحدد الشروط المفروضة على الأحزاب لتتمكن من المشاركة فى الانتخابات البرلمانية، وتمنع التواصل الحر مع الأمة العربية، وبشكل خاص الدول العربية فى ما تسميه دول العدو، كما زادت فى تحديد مسألة الولاء للدولة والاعتراف بها كدولة يهودية. وقد شكلت هذه تعبيرات حادة عن رد إسرائيل على تطورين هما:

١ ـ نشوء قوى سياسية عربية تجاهر بموقفها الوطنى المتمسك بالهوية العربية والمعترض على طبيعة إسرائيل الصهيونية وبدعمها لحق الشعوب فى مقاومة الاحتلال رافضة التحديد الإسرائيلى الرسمى لمعنى الولاء للدولة.

لقد ثارت ثائرة المؤسسة الصهيونية عندما نشأ تيار يرغب بالتواصل مع الدول العربية، كعربى وليس كـ«عربى إسرائيلى»



إسرائيل تتجه من التمييز العنصرى البسيط إلى التمييز المركب القادر على احتواء مطالب رمزية للعرب «المعتدلين» تنفس الاحتقان



٢- تطوير التيار العروبى، وهو إلى حد بعيد نفس التيار المجاهر فى دعم حق الشعوب فى مقاومة الاحتلال، لعملية تواصل بين العرب فى الداخل والأمة العربية. لقد تجلى ذلك فى زيارة الدول العربية، حتى تلك التى تسمى دول العدو، حين سمحت هذه الأخيرة، وذلك دون تنسيق مع إسرائيل أو طلب إذنها. لم يكن لدى إسرائيل فى الماضى أى مانع من أن يقوم مواطنوها العرب بزيارات حتى لدول عربية تعرفها كدول عدو. وقد مكّنت إسرائيل فى الماضى وفودا ونوابا عربا فى الماضى من زيارة دول مثل سوريا واليمن. فهى تعتبر مثل هذه الزيارات إذا تمت بإذن منها وبتنسيق معها نوعا من التطبيع. لقد ثارت ثائرة المؤسسة الصهيونية عندما نشأ تيار يرغب بالتواصل مع الدول العربية، كعربى وليس كـ«عربى إسرائيلى»، ويرفض أن يطلب إذنا لذلك من إسرائيل، لكى لا تتحكم هى بنوع العلاقة. هنا بدأت إسرائيل عملية ملاحقة قانونية لهذا التيار وسن قوانين تسمح بمحاكمة ممثليه. بذلك أوضح التيار العروبى فى الداخل الفرق بين التطبيع وبين التواصل على أساس قومى. وهذا أحد أسباب ملاحقته حاليا.

وفى الوقت الذى يودر فيه إلى سن العديد من القوانين التى تهدف إلى تضييق مجال العمل السياسى على القوى التى تعتبرها إسرائيل راديكالية. وحين تعرضت هذه القوى لملاحقة سياسية وأمنية، حدث ما توقعنا فى هذا الكتاب منذ العام ١٩٩٨ وهو اتجاه المؤسسة الإسرائيلية لتعيين وزير عربى، ذلك لأنه يسهل على المؤسسة الإسرائيلية احتواء مطلب وحلم عرب الأحزاب الصهيونية هذا. فهى تتجه من التمييز العنصرى البسيط الى التمييز المركب القادر على احتواء مطالب رمزية للعرب «المعتدلين» تنفس الاحتقان وتورط جزء من العرب مباشرة فى المسؤولية عن سياسات الدولة العنصرية. لقد تم تعيين وزير عربى مرتين فى حكومات إسرائيل منذ الفترة التى صدر فيها الكتاب، وقد عين واحد منهم فى حكومة شارون. ولم نشهد عملية مقاطعة عربية لهذا النوع من التورط فى السياسة والمؤسسة الصهيونية فى محاولة لنزع الشرعية عنه.

وفى مقابل توسيع هذا النمط من فهم «الحقوق» كاحتواء فى سياسة التمييز القائمة، وهذا النموذج من «المساواة»، تطرح الحكومة الإسرائيلية مسألة الخدمة الوطنية الإسرائيلية على العرب كبديل عن الخدمة العسكرية وكشكل من أشكال تعبير الشباب العرب عن «الولاء للدولة»، وخلق فضاء سياسى «عربى إسرائيلى».

وعلينا أن نذكر أن الخطر ماثل فى غياب مؤسسات دولة وطنية عربية، وغياب حتى مؤسسات اجتماعية اقتصادية عربية مستقلة. وبرامج التدريس فى المدارس العربية لا تمنح الطالب أى نوع من التربية الوطنية، وأى نوع من المعرفة المنهجية لتاريخ شعبه. يفترض إذا أن يتم الحفاظ على الهوية العربية والفلسطينية وتطويرها على مستوى التنظيم الذاتى السياسى والاجتماعى وبناء المؤسسات التى تقدم أطرا ومضامين وطنية بديلة للطالب.

ولكن محاولات التحكم فى أجندات المجتمع العربى وإعاقة تنظيمه على أساس قومى تأتى من مصادر أخرى أيضا. فمن الظواهر التى نشأت مؤخرا أيضا فى العقد الأخير ولوج مؤسسات التمويل الأجنبية، الأوروبية والأميركية ساحة العرب فى الداخل، كما فعلت قبل ذلك طيلة عقود فى الضفة الغربية وقطاع غزة حاملة أجندة شبيهة جدا بأجندة حزب العمل الإسرائيلى فى دعم المعتدلين ومحاربة المتطرفين، واحتواء مثقفين فى صناعة الجمعيات والمنظمات غير الحكومية، وإبعادهم عن الفعل السياسى المباشر، ونشر ثقافة التعايش عند الشعب الواقع تحت الاحتلال وحده، والتحكم بأجندة التنمية السياسية بوضع أجندات غربية فى مقابل الأجندة الوطنية وحاجات المجتمع العربى. لقد جرى بذلك إبعاد كم كبير نسبيا من المثقفين خاصة العلمانيين واليساريين عن دائرة العمل السياسى والوطنى، أو إخضاع عملهم لأجندة صناديق الدعم. ويجرى بشكل واضح حرمان المؤسسات ذات الأجندة الوطنية المستقلة من التمويل بما فيها المؤسسات الثقافية والبحثية التى تضع نصب أعينها إجراء أبحاث بأجندة وطنية مستقلة. ويفترض أن يشكل المثقفون فى مجتمعات العالم الثالث مركبا أساسيا فى الحركات الوطنية. وكان اللافت هو دخول حتى صناديق دعم مالى أميركية صهيونية ساحة العمل فى أوساط العرب فى الداخل بعد الانتفاضة الثانية، وذلك بعد أن كان دعمها يقتصر فى الماضى على الدولة والمجتمع اليهودى. وطبعا ما زال دعمها موجها بالاساس للمجتمع الصهيونى. ولكن يمكن النظر إلى هذا الإجراء كخطوة استثنائية لأسباب سياسية متعلقة بدعم «الاعتدال» و«تشجيع» نزعات التعايش مع الصهيونية عند العرب، دون تغيير سياسة الدولة ذاتها.

يزداد الواقع الذى تناوله هذا الكتاب تركيبا إذا، ويفرز فى تطوره نفس الصراعات. فنفس القوى التى كانت تعارض تطوير رؤية بديلة لرؤية المؤسسة الحاكمة لمستقبل عرب الداخل كشعب، استسلمت لرغبة العرب أن تكون لهم مؤسسات مستقلة عن الدولة، ولكنها تحاول الآن التحكم بها عبر التمويل وغيره، وتحولها إلى أدوات رقابة وسيطرة وتكريس نهج «اعتدال»... ينطبق صراع الأضداد هذا على كافة التطورات. فقد استسلمت الدولة لمطلب العرب فى تحصيل وظائف وفرص عمل فى المؤسسات الحكومية، ولكنها تحاول الآن أن تتحكم بالعدد والنوع ومواقف الناس الذين يتم تعيينهم، كما تطالب بالولاء وفرض الخدمة الوطنية الإسرائيلية على الشباب العرب مقابل ذلك. لا يتوقف التطور بعد تحقيق أمر ما، بل يعاد إنتاج نفس أطراف التناقض ونفس الصيرورات المتناقضة على حلبة أخرى على مستوى أعلى.

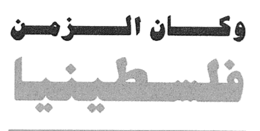
من الطبيعى أننا لن نلمّ هنا بكافة التطورات التى وقعت فى العقد الأخير. وإنما رغبنا فقط بتقديم لمحة عن نوع التطورات، وكيفية فهمها فى إطار النموذج النظرى الذى قدمه الكتاب، وفى فهم الحالة التى تشكل موضوع بحثه. ■



لاجئون فلسطينيون على رصيف ميناء حيفا ينتظرون ترحيلهم إلى بلاد الشتات ١٩٤٨ ©Life/ John Phillips

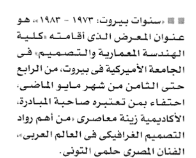
امرأة تصدرت بعينين
واسعتين لبدوية ترفض
إغلاقهما والاستسلام





وكان الزمن فلسطينيا

بيروتيات حلمى التونى



■ «سنوات بيروت: ١٩٧٣ - ١٩٨٣»، هو عنوان المعرض الذى أقامته «كلية الهندسة المعمارية والتصميم» فى الجامعة الأميركية فى بيروت، من الرابع حتى الثامن من شهر مايو الماضى، احتفاء بمن تعتبره صاحبة المبادرة، الأكاديمية زينة معاصرى «من أهم رواد التصميم الغرافيكى فى العالم العربى»، الفنان المصرى حلمى التونى.

«سنوات بيروت: ١٩٧٣ ـ ١٩٨٣» هى الحقيبة السوداء التى سقطت من متاع الفنان وهو يهرب ذات يوم من عام ١٩٨٣ من «عاصمة النار والدخان»، بيروت التى أقام فيها لعقد من الزمن بعد أن صرف من عمله فى دار الهلال فى القاهرة لمطالبته بإنهاء حالة اللا حرب واللا سلم مع إسرائيل.

أمنية سرعان ما لبّتها الأقدار، إذ وقعت الحرب: لكن وفق معطيات وظروف أخرى، وفى مكان آخر...

أمام زحف الدبابات الإسرائيلية على لبنان، وتحت وابل من قصف الطائرات، عاد التونى إلى «المحروسة» عام ١٩٨٣، تاركاً وراءه حطام منزل ضمّ كل نتاجه البيروتى الذى أكلته نيران الاجتياح: أمهات الملصقات وأغلفة الكتب السياسية والثقافية والفنية التى ضاعت وكأنها الحقيبة السوداء لمرحلة مضيئة من تاريخ الرجل الفنى.

لكن الكنوز تدفن ولا تضيع. فخلال إعداد كتابها الذى صدر منذ حوالى عام «ملامح النزاع: الملصق السياسى فى الحرب الأهليّة اللبنانية (١٩٧٥ ـ ١٩٩٠)»، وقعت معاصرى على بعض الملصقات السياسية التى أنجزها التونى خلال إقامته فى لبنان، لا سيما منها ذلك الملصق الذى خصّ به منظمة العمل الشيوعى اللبنانى، بمناسبة الاجتياح الإسرائيلى عام ١٩٧٨، وتظهر فيه عائلة تحتضن منزلها الذى تمطره الطائرات بالقصف، بينما تظللها جملة «السلام الأميركى الإسرائيلى فى لبنان».

كان ذلك كافياً لدفع معاصرى إلى البحث مجدداً فى أدراجها وفى أدراج غيرها من أفراد ومن مؤسسات ثقافية وفنية وسياحية عن نتاج التونى غير السياسى حصراً. كانت تجمع، كما غيرها، على مراحل، كل ما يقع تحت يديها من أعمال نجت من لهيب الاجتياحات المتكررة على لبنان.

وجدت لدى عبودى أبو جودة، صاحب مكتبة الفرات، مجموعة من أغلفة الكتب ومن الملصقات التى جمعها بوصفه يهوى جمع المجلات والملصقات القديمة، فتعاونا معاً ليفتتحا بمعرض التونى سلسلة معارض «سنوات بيروت»، التى تعنى باستعادة نتاج فنانين لبنانيين أو غير لبنانيين خلال مرحلتهم «البيروتية».

فمرحلة بيروت، التى شكلت ملاذاً فنياً وسياسياً للتونى، كانت من أهم وأغنى المراحل الفنية فى حياته: هنا، صمّم أوائل الأغلفة لصالح دار الآداب عام ١٩٧٤. وهنا، عمل مخرجاً فنياً فى «المؤسسة العربية للدراسات والنشر»، ليترك بصمة تاريخية فى الواقع الصحافى اللبنانى، بعد أن صمم «لوغو» جريدة السفير المحلية، باللون البرتقالى، رمز المقاومة الفلسطينية.

وليزيّن بريشته أغلفة كتب نقدية (الرحلة الثامنة لجبرا ابراهيم جبرا)، وروايات (حين تركنا الجسر لعبد الرحمن منيف)، ودواوين (للشاعر اللبنانى بول شاوول)، وسلسلة «تاريخ العرب والإسلام للفتيان والفتيات» (عرض منها فى المعرض الكتاب رقم ١٥ فى السلسلة، وهو عن أبو عبيدة بن الجراح).

هنا أيضاً، حاز «جائزة اليونيسيف للعام الدولى للطفل» سنة ١٩٧٩ بينما تعاون مع «دار الفتى العربى» لمخاطبة أذهان أطفال وناشئة بلون ومضمون هو أكثر الفنانين المرشحين لمخاطبتها: فهنا، بريشة تقطر براءة لأربعينى لا تزال ألوانه الزاهية وريشته الرشيقة تشى بروح طفل مشاكس حزين، رسمها «هى».

هى فلسطين جرّعها للأطفال نقطة نقطة من الحسرة والحب على مدى صفحات كتاب من القطع الصغير. «هى» امرأة تصدّرت غلاف القصة بعينين واسعتين لبدوية ترفض إغلاقهما والاستسلام، ينسدل شعرها البرتقالى الدافئ كأنثى مكتملة الأنوثة والإغواء، وتحتضن طفلاً يبدو بالغ الصغر أمام عظمتها، كأم لا تتبرأ من أولادها.

وهى فتاة، فى ملصق كبير استوحاه من أغنية فيروز «القدس فى القلب»، تتهادى بفستان مزركش بألف لون ولون للفرح، تعاند ابتسامة ثغرها قفلاً يحاول إغلاقه، بينما طبع مسجد قبة الصخرة على صدرها وفى قلبها، هى التى تنوء تحت ثقل أربع برتقالات تحملها فى صينية على رأسها، ولا تقبل التخفف منها.

فى بيروت، أطلق التونى العنان لألوانه التى تلفّها مسحة من الحزن رغم زهاوتها، من سلسلة الملصقات التى أنجزها لـ «جمعية المقاصد الخيرية» بمناسبة ذكرى المولد الشريف حيث غرف من كنوز تراثه المصرى الفولكلورى، إلى الملصقات التى أنجزها لـ«النادى الثقافى العربى»، كدعاوى الأمسيات الشعرية والفعاليات التى كان النادى ينظمها، حتى لوغو «المعرض العربى الدولى للكتاب» الذى لا يزال النادى يعتنقه حتى اليوم فى دورات معارضه السنوية فى بيروت. لوغو عمل التونى على تنويعاته كطفل يضيع بين الألوان المبهرة، فكرّر نسخاً متتالية منه، بألوان مختلفة فى كل مرة، إلى أن أعلن عنه بحداد عبر ملصق لكتاب يقفل على فصول من الدم خلال الاجتياح عام ١٩٨٢: كتاب يغلق بينما تنبت منه وردة تقطر دماً...

فى المقابل، خصه المعرض بالجائزة الأولى لأفضل غلاف وتصميم كتاب لثلاث سنوات على التوالى، من ١٩٧٧ حتى ١٩٧٩.

لم تكن السياسة شغله الشاغل، لكن الهاجس السياسى كان دائم الحضور، حتى فى أعماله ذات المنحى غير السياسى والتى لا تتناول القضايا العربية المحورية كقضية فلسطين بشكل مباشر، تتسلّل إلى أعماله بخفر عبر شخصيات فولكلورية وتقاسيم عربية وتراث تجرّع منه الفنان حتى الثمالة. لا روافد مستوردة فى أعمال التونى، وفى ذلك ترجمة لالتزام سياسى غير مباشر وغير مقصود ربما، فيه تجسيد للتراث الزخرفى العربى بألوانه وتقاطيع أشكاله. فى أسلوبه بساطة «السهل الممتنع»، وفى أعماله رسالة ومنهج لا يمكن إغفالهما. ■

رنا حايك
بيروت

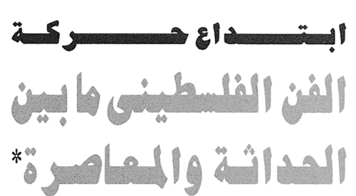




معرض: «سنوات بيروت: ١٩٧٣ ـ ١٩٨٣» حلمى التونى
الجامعة الأميركية ـ بيروت مايو ٢٠٠٩



سليمان منصور



ابتداع حركة الفن الفلسطينى ما بين الحداثة والمعاصرة*

■■ تعد الكتابة عن الفن الفلسطينى بمثابة مهمة معقدة، نظرا لكون التأريخ له يعكس ملامح التشتت والتقطع التى وصمت المجتمع الفلسطينى منذ وقوع النكبة عام ١٩٤٨.

وعليه، فإن عدد المطبوعات التى تناولت ذلك الموضوع ظل محدودا[1] وخاضعا لتباين التصورات التى تمليها المواقف السياسية الخاصة بمؤلفى تلك المطبوعات. فابتداء بتخلق جوهر الممارسة الفنية الفلسطينى- تلك الخصوصية التى طال إنكارها شأن سائر أبعاد تلك الهوية السياسية التى انزوت لصالح هوية عربية مجردة- وارتباط ذلك الجوهر بتصوير المعاناة وآثار الاستلاب؛ وانتهاءً باكتمال ذلك المنحى، تلخصت تلك الممارسة فى الالتزام السياسى بل الثورى. وفى المقابل، قد تصور تلك الممارسة الفنية ذلك الطابع الهجين المميز لتيار ما بعد الكولونيالية، أو يمكن مقارنتها بمثيلتها لدى الأقليات الاجتماعية والعرقية داخل إسرائيل: كيهود السفرديم، والمهاجرين الجدد، والنساء، الخ.

غير أن الغالب على هذا التوثيق التاريخى هو الاعتماد على الأبحاث الرائدة للفنان كمال بلاطة[2]، الذى يعود إليه فضل الكشف عن الأثر الأساسى الذى تركه فنانو الأيقونات المقدسيون على رواد فن التصوير قبل عام ١٩٤٨، بالإضافة إلى فضله فى القول بأن التجربة البصرية إنما تتحدد بمقدار القرب من فلسطين، بمعنى تميز الفنانين القاطنين فيها وفى البلدان المتاخمة لها بنزعة تصويرية، بينما يتميز فنانو الشتات بميل إلى التجريد أو الى انتهاج ممارسة تصورية، تهدف إلى «حث الخطى» لاجتياز المسافة إلى فلسطين.

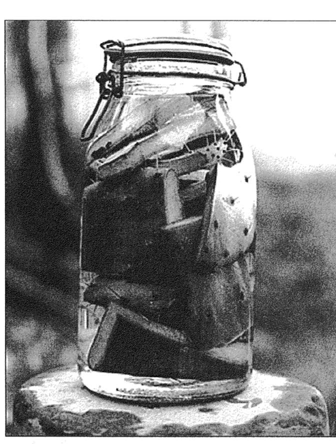
فى ميدان التصوير الفوتوغرافى، كشفت الدراسات الأخيرة للمؤرخ عصام نصّار[3] عما قام به المصورون من عمل ضخم فى مطلع القرن العشرين من أجل خلق لغة بصرية وطنية تخاطب الجمهور المحلى، بعيدا عن تلك الصور التى كان يلتقطها المصورون الأوروبيون الرحّل، الذين كانوا يسعون من خلالها الى إبراز مشاهد توراتية أو سياحية بقصد اجتذاب الجمهور الغربى.

كان جبرا إبراهيم جبرا، وهو واحد من أهم وجوه الحياة الأدبية العربية، قد بدأ حياته المهنية كرسام فى القدس، لكنه ارتحل الى العراق بعد النكبة. وهناك نشر رواياته عن القدس، وترجم أعمال شكسبير، وأسهم فى تشكيل الساحة الفنية العراقية المعاصرة، التى كانت واحدة من أكثر الساحات تأثيرا فى العالم العربى. كما نشر جبرا العديد من الدراسات حول الفن العربى فضلا عن كتاباته النقدية عن أعمال الفنانين الفلسطينيين فى الشتات[4]، وهو ما شكّل قاعدة تنظيرية ونقدية لا غنى عنها للبحاثة، بما تصوغه من رؤية للفن العربى بصفته فن عصرى وإنسانى وكونى.

هذا وقد صدرت عدة مؤلفات فى مناسبات متفرقة لمواكبة عدد غير مسبوق من المعارض الدولية المخصصة للفن الفلسطينى[5]، التى راحت تقام بانتظام منذ إبرام اتفاقات السلام عام ١٩٩٣، والتى أضفت على الفلسطينيين صورة جديدة أكثر إيجابية. فضلا عن ذلك، تمت دعوة العديد من الفنانين الفلسطينيين بصفة شخصية للمشاركة فى التظاهرات الثقافية الكبرى على الصعيد الدولى. ويُستنبط من تلك المؤلفات اتجاهان متباينان: أولهما يسعى لإبراز المظالم الواقعة على الفلسطينيين، والثانى يركز على السمات الإنسانية المشتركة مع جمهور تلك المعارض، من خلال اختيار أعمال تصور الحياة اليومية الفلسطينية.

إن هذه الدراسة - على اقتضابها- تقرأ الممارسة البصرية الفلسطينية بصفتها عملية تَحقُق باعث للتحرر وعالمى الطابع، وهى ممارسة مدرجة فى واقع سياقات فكرية محلية وما بعد كولونيالية. الأمر الذى يعيد التبصر فى ملاحظات إدوارد سعيد[6] بشأن ضرورة قراءة الممارسات السردية الوطنية بصورة معاكسة للأنساق المحلية، وعلى ضوء نزعة إنسانية.

وهو ما يعنى تتبع مسار من الممارسات التى وُلدت على أثر التلاقى مع الغرب ومواجهته فى آن، بصفته قوة استعمارية وثقافة مغايرة. وينفتح المسار على خلفية من الممارسات البصرية المكونة من إرث من الفنون الحضرية والفولكلورية، وهو ما أعقبه عودة الفنانين المحليين لاعتماد الأسلوب التصويرى الغربى، وتطويع مختلف التيارات الفنية الحديثة، وإبداء ردود الأفعال الناتجة عن تطوير التيارات الفنية البدائية، أو عن تحديث الممارسات الفنية ماقبل الكولونيالية، ليفضى المسار على الحقبة المعاصرة التى تهجر الصياغات الجمالية التى ابتدعها الأسلاف الحداثيون، لصالح تبَنٍ حماسى للعتاد الفنى الذى يفرضه تيار ما بعد الحداثة.

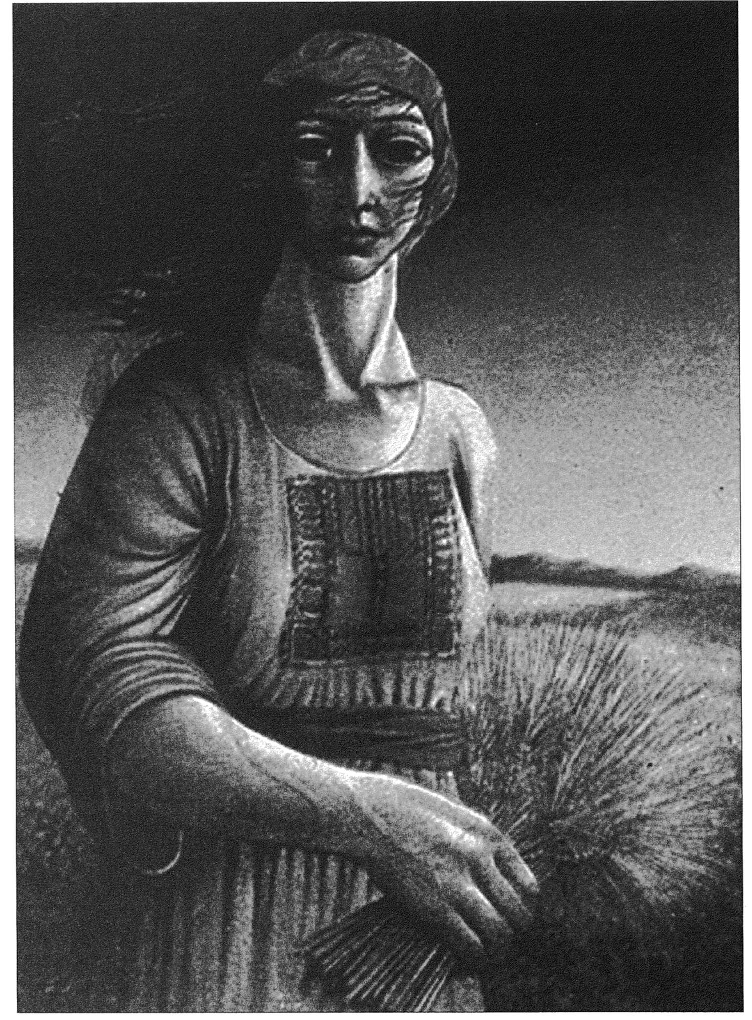


رولا حلوانى

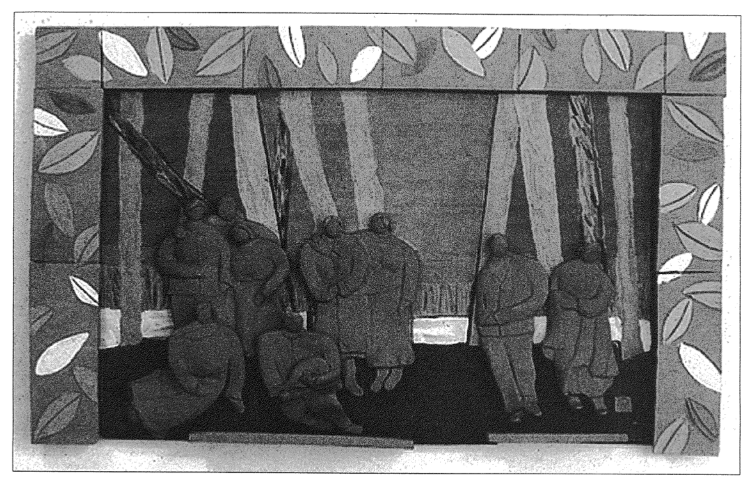
عادلة العايدى هنية

* عبارة مأخوذة عن:
Satoshi Ukai: L'image de la Palestine et la genèse d'une Mémoire-monde. In: Palestine. Rien ne nous manque ici. A. Laïdi-Hanieh, Ed. Bruxelles, Revue Ah. 2008

ترجمة: داليا توفيق سعودى



فيـرا تمـارى - نزهــة فى الخليــل



بكل ممارساته التصورية، المكتفية بالحد الأدنى من التفاصيل، والمتعددة فى وسائطها التعبيرية.

وتبقى الخصوصية الفلسطينية كركيزة تنبنى عليها جميع تلك الممارسات، عن طريق تجذَر الإبداعِ الفنى فيما سماه ميشيل فوكو ممارسةَ حريةٍ تحكمها استثنائيةُ حالةٍ استعماريةٍ منطوية على مغالطة تاريخية.

تطور عبر التاريخ:

يتكون الإرث الفنى الفلسطينى من ممارسات حضرية كلاسيكية، قوامها فن الزخرفة المدنية الرفيعة: فى العمارة، والفسيفساء، والنسيج، والزجاجيات، والصدف، والمعادن، والسيراميك، والرسوم الدينية الإسلامية، والأيقونات؛ كما يضم ذلك الإرث فنونا يدوية ريفية تتضمن أشغال التطريز المحلى، وصناعة السلال، وأعمال الفخار، والرسوم الزخرفية لتزيين حوائط المنازل.

ولقد أسفرت الإصلاحات العثمانية التى تمت فى نهاية القرن التاسع عشر عن حقبة زمنية تتسم بالأمن النسبى والرفاهية فى المناطق الحضرية، الأمر الذى حدا بسكان المدن الرئيسة (القدس، ويافا، وعكا، وحيفا) إلى الخروج عن نطاق المدن القديمة لبناء مساكن شخصية مستقلة. كما أدى فرض السيطرة البريطانية على البلاد منذ العام ١٩١٧ إلى إضفاء صبغة غربية على نُسُق الاستهلاك الثقافى بين أوساط النخب من أهل المدن.

ويُذكر أنَ فنانَى الأيقونات المقدسيَيْن نيقولا صايغ وخليل الحلبى قد لعبا دورا مفصلياً فى تلك التغيرات، بما قدماه إلى الطبقة المتوسطة الوليدة آنذاك من لوحات ابتعدت عن الخط الدينى السائد، كانت تتم غالبا نقلاً عن الصور الفوتوغرافية التى تمثل المناظر الطبيعية المحلية، وأيضا بإسهامهما فى تعليم المراهقين من البنات والبنين المسلمين والمسيحيين أسس فن رسم الأيقونات وأوليات فن التصوير. وكانت تلك أشبه بحالة استثنائية لافتة بالنسبة لبلد عربى، وحتى فى مضمار مابعد الكولونيالية، حيث اكتشاف وتِعلم أصول الفن والرسم كانا غالبا ما يُعهد بهما إلى معاهد للفنون الجميلة التى كانت تنشئها الإدارات المستعمِرة أو النخب المتغربنة، بهدف تقديم نقل حرفى للأساليب والممارسات الدارجة فى الحاضرات الغربية الكبرى.

وبفعلِ من تلك التحولات الاجتماعية، قام تلاميذ هذيْن الفنانيْن بشق طريقهم فى ميدان فن التصوير (ومن بينهم زلفى السعدى ومبارك سعد)، ومنهم من أكمل دراساته بالخارج (مثل داود زلاطيمو الذى درس بانجلترا). وقام البعض الآخر برسم مشوارهم الفنى من دون المرور بتجربة فنانى الأيقونات، بأن تلقوا دراستهم للفنون الجميلة فى الخارج (مثل حنا مسمار فى ألمانيا، وصوفى الحلبى فى باريس، وفاطمة محب وخليل بدوية فى القاهرة، إلخ). أما الاستثناء اللافت فقد كان الفنان جمال بدران الذى درس الفنون الإسلامية بمصر ثم فى لندن، ليعود من ثَمّ إلى القدس ويفتتح مشغلا ومتجرا، حيث عكف على صناعة قطع مجموعاته المحدودة أو تلك التى كان ينفذها رهن الطلب، والتى كان يطوع فيها جماليات الفن الإسلامى بصورة تصلح للاستخدام اليومى أو للدمج مع عناصر الديكور العصرى، وهو ما يشابه ما صنعه فى الجزائر فنان المنمنمات الحداثى محمد رسيم.

وباستثناء انتماء جبرا إبراهيم جبرا إلى مدرسة «الفوفية» أو الوحشية، وانتهاج ناهل بشارة لتيار الفطرية الفنى، تميزت أعمال بقية فنانى تلك الفترة - عند مقارنتها بأعمال مجايليهم العرب من أمثال داود كورم فى لبنان ومحمود سعيد فى مصر - تميزت بجمالية تصويرية كلاسيكية وبالارتكان إلى موضوعين أساسيين: أولهما كلاسيكية الأعمال التى تصور الأشخاص و المناظر الطبيعية المحلية، ومحاولات خلق هوية بصرية محلية عن طريق رسم لوحات للشخصيات الوطنية والثقافات العربية، وثانيهما إعادة إحياء الشخوص والمشاهد التاريخية فى لوحات تحكى العصور العربية القديمة أو العصر الذهبى للحضارة العربية الإسلامية.

عن طريق تجذّر الإبداع فيما سماه ميشيل فوكو ممارسةَ حريةٍ تحكمها استثنائيةُ حالةٍ استعمارية منطوية على مغالطة تاريخية ، تبقى الخصوصية الفلسطينية



سـهـا شـومان - بيـتـرا ٢

وفى العام ١٩٤٨، ضربت النكبةُ المجتمعَ الفلسطينى فى الصميم. لكن غالبية الطبقة البرجوازية لم تلتجئ إلى المناطق التى عُهد بها إلى السيطرة المصرية أو الأردنية، وإنما ارتحلت إلى مدن المشرق والخليج حيث كان لها إسهامها الواضح فى تطوير تلك المدن. أما معظم الفنانين الذين احتضنهم المنفى، شأنهم شأن أولئك الذين بقوا فى وطنهم السليب، فقد تحولوا إلى امتهان وظائف غرضها الإعاشة كالتعليم، أو الرسم التخطيطى، ليهجروا بذلك ممارساتهم الفنية.

وما تزال هذه الصورة غيرَ مكتملة بعد، نظرا للافتقار إلى دراسات بشأن الحياة الفنية فى الحاضرتين الفلسطينيتين اللتين كانتا بمثابة قطبين اقتصاديين فيما قبل العام ١٩٤٨، ألا وهما يافا وحيفا. إذ من المرجح أن ما كان بهما من ديناميكية وانفتاح كان سببا لجعلهما أكثر ترحيبا بالفنانين مما كانت عليه القدس ببيئتها المحافظة. ومما يعرقل سير الدراسات ما كان من اندثار الأعمال الفنية: فلقد اختفت بالطبع اللوحات والمنحوتات التى أنتجت هناك إثر عمليات النهب التى تعرضت لها المدينتان، من دون أن يتم تسجيلها فى كتالوجات شأن ما وقع للعديد من المكتبات الفلسطينية الخاصة والعامة على يد إسرائيل.

وبحلول عقد الستينيات، بدأت مرحلة ثانية. تزامن ما اتسمت به من ديناميكية مع حالة من الاستقرار السياسى والاقتصادى، لكنها انقطعت على أثر الغزو الإسرائيلى عام ١٩٦٧. وفى هذه المرة، قام الفنانون الذين كانوا قد ظهروا فى القدس آنفا باستكمال نشاطاتهم الفنية فى مدن أخرى، أو فى الخارج (سامية زارو فى رام الله ففى الأردن، وعفاف عرفات فى رام الله ففى نابلس، وكمال بلاطة فى الولايات المتحدة، وفلاديمير تمارى فى اليابان، إلخ).

ولقد أدى الانبعاث السياسى الذى أحدثه تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤و بداية مرحلة الكفاح المسلح إلى إحداث حالة من الغزارة الثقافية فى حيفا، وبيروت، وعمّان، ودمشق، وهو ما عُرف بالمرحلة الثورية للفن الفلسطينى .

أما أكثر الفنانين تأثيرا فى تلك المرحلة بما استحدثه من تعبير بصرى جديد، وبما أسداه لهذا التعبير فيما بعد من بنية

ما بين الحداثة والمعاصرة

تحتية مؤسساتية. فلقد كان واحدا من تلامذة داود زلاطيمو القدامى، ألا وهو إسماعيل شموط. كان ما يزال شابا لاجئا من اللدّ إلى غزة، حين أقام هناك معرضه الأول عام ١٩٥٣، لعرض لوحاته عن النزوح الفلسطيني. تلا ذلك معرضه الثانى بالقاهرة عام ١٩٥٧، الذى افتتحه جمال عبد الناصر. وأكثر ما ميّز هذين المعرضين – شأن بقية مشواره الفنى – هو ما كان لهما من أهمية سياسية، وهو ما كان بمثابة إعلان عن ميلاد تعبير ثقافى فلسطينى مستقل. وإثر تقلد إسماعيل شموط مناصب هامة داخل منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت، تحولت لوحاته إلى صور خليقة بمتحف شعبى، توسعت فى نشرها المطبوعات الصادرة عن مختلف هيئات منظمة التحرير الفلسطينية. ولقد تعمد شموط أن يسير عكس التيارات الفنية السائدة لكى يصور المأساة الفلسطينية بصورة أكاديمية صرفة. وسرعان ما انتقل هذا النهج إلى أعمال الفنانين الذين تأثروا به بفعل مناصبه، ليُسهم، بالتوازى مع المناخ المتفائل المناضل الذى ساد تلك الفترة، فى إنتاج منجز هائل من أعمال فن التصوير المناضل، الزاخر بجمالية واقعية اشتراكية بطولية، والحافل بالإشارات والخطوط الفولكلورية.

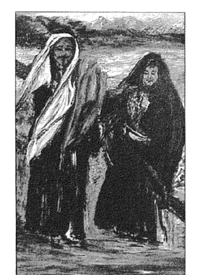
ومن ضمن أهم فنانى تلك الفترة يُذكر الرسام والنحات برهان الدين كركوتلى، والرسامين عبد الرحمن المزيّن وتمام الأكحل – زوجة اسماعيل شموط – والتشكيلى مصطفى الحلاج الذى تميزت أعماله الحجرية وجدارياته بجمالية ملحمية استلهمت العتاد الرمزى البصرى الذى تحفل به الأساطير المصرية والكنعانية، وهناك أيضا رسام الكاريكاتير ناجى العلى، الذى ابتدع شخصية الصبى حنظلة[٧]، ذلك الولد الذى يتراءى وكأنه «جافروش» فلسطينى حزين. (المترجمة: جافروش شخصية ابتدعها الأديب الفرنسى فيكتور هوجو فى رائعته «البؤساء»، وهى لصبى صغير يجسد روح الثورة ولا يتورع عن الابتسام فى وجه الموت).

وتتوافق هاتان المرحلتان المتعاقبتان مع المسار التقليدى الذى كانت تمر به «الثقافات الوطنية» للبلدان الساعية إلى التحرر من الاستعمار آنذاك، وهو المسار الذى وصفه فرانز فانون فى كتابه «المعذبون فى الأرض» عام ١٩٦١. إذ ثمة تطور من الأسلوب المأساوى الشاعرى، الرامى لاستعراض الظروف الأليمة، لتتبعه ثقافة نضال ذات طابع ثورى وقومى. فبالنسبة للفلسطينيين، كانت الحقبة التى أعقبت عام ١٩٤٨ وانفتحت على التشتت والدمار الناجمين عن النكبة، كانت قد انعكست من خلال المراثى البصرية للفردوس المفقود (من أعمال شموط والرسام نايف إبراهيم غنام)، وهو المنحى الذى تغير بعد عام ١٩٦٤ ليتخذ صورة انطلاقة ثورية تعكس إيمانا صادقا فى إمكانية العودة. غير أن تلك الفترة قد انقضت بوقوع مجازر مخيمات اللاجئين فى لبنان، والخروج من بيروت عام ١٩٨٢، كما انقضت رمزيا بتدمير مقتنيات متحف «التضامن مع فلسطين» فى بداياته (و ما به من أعمال للفنانين الإسبان أنطونى تابييس، وخوان ميرو، وإدواردو شيليدا، وغيرهم).

وبعيدا عن ذلك الفن الثورى الطابع الذى مورس بتوسع فى دمشق وبيروت، قامت،فى نفس الفترة وحتى بداية التسعينيات، ممارسات فنية فلسطينية تنامت فى المهاجر العربية والغربية، حيث عكست التيارات الفنية السائدة هناك، أو اتبعت مسارات تعبيرية فردية.

ومن بين القامات السامقة فى ساحة الفن اللبنانى الحديث–فى فترة ما قبل تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية– كان هناك اللاجئان الفلسطينيان بول جيراجوسيان وجوليانا سيرافيم، اللذان عكست أعمالهما التجريدية الرمزية والسريالية البحوث الجمالية التى أهمت من جايلوهما من الفنانين، وهو ما أدى إلى خلق حداثة تشكيلية عربية.

ثمة تياران أساسيان فى مجال تجديد الفن العربى الحديث (فيما بين بداية الستينيات ونهاية الثمانينيات)قد عاودا الظهور فى إطار الفن الفلسطينى لاسيما الناشئ منه فى الشتات، أولهما



هو تيار التجريد الذى كان قد انتهجه كل من السورى زياد دلّول، والعراقى شاكر حسن السعيد، واللبنانيين شفيق عبود وصليبا ضويحى، والثانى هو تيار إدماج الخط العربى كعنصر تشكيلى، وينتمى إليه من العراق عصام السعيد، وحسين زندرودى وضياء العزّاوى. ومن بين الفنانين الفلسطينيين المنتمين إلى كلا التيارين على التوالى: جومانا الحسينى وحسنى رضوان، ثم عزيز عمورة، ومحمود طه، وياسر الدويك، وسمير سلامة. أما محلياً، فهناك تيسير شرف وعصام بدر.



وخلافا لهذين التيارين، ثمة فنانان فلسطينيان اتخذا من الأردن مستقرا، برز كل منهما بفضل ممارسة فردانية فريدة: أما الأول فهو أحمد نواش الذى تتميز لوحاته ذات القطع الصغير بامتلائها ببواعث الضيق وبتصويرها الدائم لشخوص قلقة، ومفككة الأوصال، وشبه كاريكاتورية، يصعب تقدير أعمارها، بهيئتها الهائمة، وأعضائها المبتورة أحيانا. هى وجوه عالمية، لكنها تعبر باقتدار بليغ عن حيرة اللاجئ. وعلى النقيض، هناك لوحات سهى شومان، التى تتراوح بين القطع المتوسط والثلاثيات من القطع الكبير، التى تستلهم عظمة البتراء، تلك المدينة النبطية العريقة، لتنقل إليها المتلقى، وخصوصا بعد انتهاجها فكرة التركيب الفنى التى تمزج بين اللوحات والحجارة. وتتفرد شومان أيضا بنشاطها فى اقتناء المجموعات وفى رعاية الفنون، لكونها القوة المحركة لـ «دارة الفنون ومؤسسة خالد شومان» التى أنشئت عام ١٩٩٣، والتى تعنى بنشر الكتب وباستضافة المعارض، والحفلات الموسيقية، والندوات، فضلا عن عرضها وضمها بين جنباتها لأهم مجموعة خاصة من أعمال الفن العربى الحديث.

وبصورة مماثلة، قام الفنانون الفلسطينيون المقيمون فى منافيهم بالبلاد الغربية باعتماد التيارات السائدة هناك، لاسيما تيارى الـ «أوب آرت» (Op Art) والفن الحركى لدى سامية حلبى، والمجردات الهندسية عند كمال بلاطة وسارى خورى بالولايات المتحدة وفلاديمير تمارى باليابان.

أما بالنسبة للفنانين الذين بقوا فى الداخل، وأضحوا فى عداد مواطنين إسرائيليين من الدرجة الثانية، وعاشوا من١٩٤٨ حتى ١٩٦٦ فى ظل نظام عسكرى استثنائى قوامه الاحتجازات التعسفية والإقامة الجبرية فى المنازل، بالنسبة لهؤلاء كان الحزب الشيوعى الإسرائيلى المؤسسة الوحيدة التى فتحت أبوابها لمطبوعاتهم ومعارضهم، ومنحت بعضهم بعثات دراسية إلى بلدان الكتلة الشرقية. ولدى عودتهم، قام البعض، على غرار عابد العابدى، بتكوين مجموعة «ابدأ»، وشاركوا فى إقامة نُصب تذكارية مع فنانين يهود إسرائيليين يساريين، وواصلوا عيشهم كعمال أو معلمين للفن.

وكان عمل فنانى الضفة وغزة – شأن بقية أوجه حياتهم اليومية – يتم تحت قبضة الاحتلال العسكرى، نظرا لما لاقوه من رفض لطلبات التصريح بافتتاح المعارض، وحظر تشكيل الجمعيات الفنية، وسجن الرسامين الذين يظهرون فى لوحاتهم ألوان العلم الفلسطينى المحظور، وإرسال عملاء لضرب الفنانين، فضلا عن إغلاق الجامعات.

ونظرا لعيشهم بصورة مباشرة تحت مجهر الرقابة العسكرية، عمد هؤلاء الفنانين إلى تطوير عملهم باتجاه رسم المناظر الطبيعية المحلية التى لم تقتحمها المستوطنات الإسرائيلية. إضافة إلى ذلك، كان هناك تصوير يجنح إلى المثالية الجمالية للعادات والتقاليد والعمارة والمطرزات التقليدية. يُذكِّر هذا الفن، الذى عرف بفن «الصمود»، بردود الأفعال الأهلية ذات الثقافات ما بعد الكولونيالية، وخصوصا ثقافة السكان الأصليين أو «الانديجنيسيمو» فى المكسيك، بمثل ما يُذكّر بما لاحظه فانون من شدة التعلق بالفولكلور لدى بعض المجتمعات الساعية للتحرر من الاستعمار.

ولقد كان اندلاع الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧بمثابة عامل محفز للفنانين الأكثر ميلاً إلى التجديد فى تلك الفترة، مثل سليمان منصور، وفيرا تمارى، ونبيل عنانى، تيسير بركات. فنظرا لتحررهم من مسؤولية المحاكاة الجماعية التى كانوا يضطلعون بها، لظهور التغطية الإعلامية الدولية الإيجابية نسبيا للانتفاضة، وكذلك نظرا للفجوة بين ما كانوا يقدمون من استعارات بصرية وطنية تعتمد على القرية والفلاحين وبين واقع الانتفاضة التى كان أبطالها هم شباب وأطفال الحجارة، وأخيرا، نظراً لفلسفة الاكتفاء الذاتى للانتفاضة، ابتدع الفنانون مذهبا جماليا جديداً يقوم على استخدام خامات محلية، ورسوم فولكلورية مستحدثة. وتتشابه تلك الممارسة مع تيار كبير آخر من تيارات الفن العربى الحديث، بدأه من المغرب

إن كان تاريخ الحداثة الفنية الغربية يتلخص فى سعى إلى تجريد المفاهيم. فلقد كان الرهان الفلسطينى هو السعى إلى التحقق من خلال ممارسة الحرية



عبد الرحمن المزين

فريد بلقاهية، ومن الجزائر جماعة AOUCHEM والفنان رشيد القريشى، ومن تونس الفنان قويدر تريكى، حيث يتحول الفن الى أداة للتحرر.

هكذا سلك نبيل عنانى مسلك بلقاهية باستخدام الجلود الملونة بالحناء والأصباغ النباتية، وهجر بركات ألوانه المائية ولوحاته ذات الأشكال الغائمة والمستقاة من عالم الأحلام ليتجه إلى أعمال مركبة من كتل خشبية طبعت عليها الرسوم والرموز بواسطة تقنية الحرق. أما تمارى فقد كرس نقوشه على السيراميك لتصوير مشاهد واقعية للقرية الفلسطينية، وخصوصا للمنازل المدمرة من قبل الجيش الإسرائيلى. كما أعرض سليمان منصور عن رسم قراه وفلاحاته ذوات الأجساد العامرة والمتماهية مع منحنيات التلال، ليصنع لوحات مكونة من تركيبة خاصة من الصلصال النيئ المحلى. وتتميز لوحاته بتنوع فى استخدام الأشياء المستعملة، أو المعاد طلاؤها بصبغات نباتية محلية.

ولقد أفضت الانتفاضة إلى مفاوضات السلام عام ١٩٩١ (عملية مدريد-واشنطن)، فإلى اتفاقات أوسلو ١٩٩٣ التى أرست سلطة وطنية للحكم الذاتى على قطع محدودة من أرض فلسطين، وشهدت انسحاب إسرائيل من بعض المناطق الحضرية. لتبدأ منذئذ مرحلة جديدة.

هكذا لا يقتصر إدراك الفن الفلسطينى الحديث - كما قد يكون الحال فى منظومة ما بعد الكولونيالية- حصريا على فهم عمليات إعادة تقييم أو مقاومة التيارات الفنية الدولية داخل مجال إقليمى محدد، أملا فى اختلاق مفردات حداثة غير غربية، ولكن ذلك الإدراك- لكى يتم- عليه أن يتتبع نتاجا فنيا متناثرا، وأفرادا وجماعات متفرقة فى غالبيتها. وإن كان فنانو الشتات قد قدموا أعمالا متمشية مع محيطهم، فلقد كانت أعمال نظرائهم الذين بقوا فى فلسطين أشبه ما تكون جهودا ذاتية الاكتفاء، تتم فى ظروف من الافتقار إلى الحرية، والهشاشة الاقتصادية، تتخللها صروف التقلبات السياسية. وهكذا كانت التطورات تتم وفقا لتواتر الانقطاع وإعادة الابتداع، لا تبعا للمراكمة والمحاكاة، تحدوها شواغل ثابتة من طلب للبقاء وتأكيد للحرية وعزم على المقاومة.

ومن الناحية الفكرية، إن كان تاريخ الحداثة الفنية الغربية يتلخص فى سعى إلى التجديد، والتخصص، وتجريد المفاهيم، والنزعة العالمية. فلقد كان الرهان فى مختلف تجارب الفن الفلسطينى الحديث - فى المنفى كما تحت الاحتلال - هو السعى إلى التحقق من خلال ممارسة الحرية أو تطوير فكر جمالى وثقافى على خلفية من الحداثة الذاتية.

الفترة المعاصرة:

لم يجد تفاؤل المرحلة الثورية منتهاه فى الاستقلال، بل واجه اتفاقات السلام المؤقت فى ١٩٩٣. وسرعان ما تحول الأمل إلى خيبة- ليبرر شكوك أولئك الذين ما آمنوا قط بعملية السلام- تحت وطأة فساد السلطة وسوء إدارتها، وبسبب توسع الاستيطان، واستمرار الاعتقالات التعسفية، ليصل الوضع إلى ذروة من التفاقم أدت لاندلاع الانتفاضة الثانية (٢٠٠٠- ٢٠٠٥)، وما أعقبها من عودة الاحتلال، وقصف المدن والقرى ومخيمات اللاجئين، و سقوط الآلاف من القتلى، وتدمير الآلاف من المنازل، واعتقال الآلاف، وأخيرا، بناء الجدار العازل الذى يبتلع ٥٠٪ من الضفة الغربية التى يعانى أهلها بالفعل من شلل فى الحياة اليومية بسبب تعرضهم لمئات من نقاط التفتيش. ووسط هذه الإبادة المجتمعية أو كإحدى نتائجها، وقعت مواجهات داخلية متقطعة الوتيرة، أدت إلى إرساء حكم حماس فى غزة فى يونيو ٢٠٠٧.

ولقد توافقت هذه

المرحلة أيضا مع ظهور طبقة متوسطة[٨] وقطاع خاص متعولمين، واصطباغ المجتمع بطابع ديني، واختلال احتشاده السياسي بفعل تأسيس سلطة لدولة بدائية محلية، وما استلفت ذلك كله من اهتمام خارجي غير مسبوق. وارتهنت فلسطين منذئذ إلى مفارقة فريدة تحت نير احتلال غاشم، في فترة تسيد عولمة ما بعد الحداثة. فهناك، يستفيد القطاع الخاص المنهك من رؤوس أموال عربية وأخرى واردة من المهجر. وهناك، يموت ضحايا النيران الإسرائيلية في مشاهد البث الحي المذاعة عبر تلفزيونات العالم. ويحظى الفلاحون الذين فقدوا أراضيهم بمساندة متطوعين دوليين مناوئين للعولمة، كما تستفيد الهيئات غير الحكومية من المساعدات الدولية المتنوعة، وهناك، أخيرا، ينال المبدعون دعما من قبل رعاة الثقافة الدوليين.

وبالطبع، كان لتطورات الاحتلال أثرها على ظروف إنجاز الأعمال الفنية، وبالتالي كان لها أثرها على التعبير الثقافي: فبعد حالة «التنافر المتشتت»، التي قال بها ادوارد سعيد لوصف الحالة الفلسطينية عام ١٩٨٦[٩]، حدثت عودة لمركزية فلسطين إثر تأسيس جهاز يعمل كنواة بدائية لدولة -حتى وإن كان جهازا ضعيفا وتابعا- وخروج الرموز الفلسطينية من دائرة العمل السري، ومولد المئات من المنظمات غير الحكومية والتابعة للقطاع الخاص. ومن بين المائتين وخمسين شخصا من النازحين والمبعدين الفلسطينيين الذين سُمح لهم بالعودة، كان هناك العديد من الفنانين القادمين أو العائدين للمرة الأولى إلى الوطن، والذين جعلوا من فلسطين الموضوع المباشر بل والحصري لأعمالهم الفنية؛ وللمرة الأولى، ولد عدد من المؤسسات المكرسة للفنون البصرية الفلسطينية (في الخليل: جاليري أم الفحم. في القدس: مؤسسة «المعمل»، جاليري «قناديل» و«الحوش». وفي رام الله: مركز خليل سكاكيني الثقافي، ومؤسسة عبد المحسن قطان، وجاليري «محطة»، والموقع الالكتروني للمعرض الافتراضي الخاص بجامعة بير زيت، وأكاديمية «PACA». وفي الأردن: دارة الفنون. وفي انجلترا: رابطة مدرسة الفن الفلسطيني Art School Palestine وموقعها الالكتروني).

وفي ميدان الدعم الفردي، راح بعض المشترين المواطنين يقتنون الأعمال الفنية من المعارض المحلية المقامة منذ العام ١٩٨٠، ولعل من أبرزهم المحامي مازن قبطي، صاحب المجموعات القيمة وراعي الفنون المعروف. ويعيش كثير من المشترين في المهجر بالدول العربية، حيث يحرص الكثير من الفنانين المستقرين في أوروبا والولايات المتحدة على أن تمثلهم منافذ عرض كبرى هناك. وفي عام ٢٠٠٧، قامت دار «سوذبيز» لأول مرة ببيع أعمال فنية فلسطينية، في مزاد علني للفن العربي والإسلامي الحديث والمعاصر، أقيم بالعاصمة البريطانية.

كما تشهد هذه الفترة أيضا ظهوراً أوضح للمرأة وللشباب بين صفوف التشكيليين الفلسطينيين: فمعظم المجددين من النساء (ومنهن منى حاطوم، وإيملي جاسر، ورنا بشارة، وأحلام الشبلي، ورائدة سعادة)، مثلما هو الحال في السينما الروائية والتسجيلية التي تشهد بدورها طفرة مماثلة.

أما زيادة عدد الشباب فهي بالأحرى ظاهرة تلقائية، استتبعت تكوّن جماعات من الفنانين (في يافا: مجموعة Parrhesia في الخليل: مجموعة «شرنقة». في رام الله: Idioms Films و Zan Studio وجاليري «محطة». في غزة: مجموعتي «شبابيك»، و«التقاء») وإن كان قد مهد لها ذلك الهيكل المؤسساتي الجديد الذي ينظم الورش المكثفة، ويمنح المساعدات للفنانين في معارضهم الأولى، ويقدم الجوائز والبعثات إلى الخارج للشباب دون الخامسة والثلاثين. وتتعزز ملاحظة هذا التغيير نظرا لعدم كفاية المتوفر من هياكل التعليم الأكاديمي الفني. فمعظم الفنانين في هذا الجيل الجديد قد تلقوا مهاراتهم إما في الخارج (فنانو الشتات) أو في إسرائيل (الفنانون الفلسطينيون من ذوي الجنسية الإسرائيلية)، أو تلقوا دراسات غير نظامية مكثفة، أو درسوا العمارة، أو الهندسة، أو تلقوا تدريبا على المهن السمعبصرية. أما الفنانون القلائل الذين حصلوا على شهاداتهم من أقدم كلية محلية للفنون الجميلة- الكائنة بجامعة النجاح بنابلس- فهم متأثرون بما تقدمه من تعليم كلاسيكي، مؤداه ممارسة غير تصويرية تتمحور حول الزخرفة والرسم التصويري أو التجريدي. وفي عام ٢٠٠٨، تم تأسيس هيكلين تعليميين متخصصين، أحدهما في بيت لحم ويبدو وكأنه يعيد نفس الخط السائد في جامعة النجاح، أما الآخر في رام الله فهو مفتوح أمام الممارسات الأكثر حداثة، بيد أن مسألة التمويل والاعتماد تثير التساؤل حول استمراريته.

ولقد أدت وسائل الإعلام، فضلا عن الخيارات الجمالية والموضوعية للموجة الشابة، إلى إحداث تحول لدى بعض الفنانين الكبار المنتمين للجيل السابق. ولقد تم تطورهم إما بالمحافظة على خاماتهم الخاصة بعد تطويعها لمواءمة الأعمال التركيبية، والوسائط المتعددة، والأعمال المصممة للتجانس مع موقع محدد (مثلما صنع منصور وفيرا وتماري)، أو بتضخيم الاهتمامات الجمالية والفكرية عن طريق إعادة التصور من خلال أفلام الفيديو، أو عروض الأداء الحي، أو الأعمال التركيبية (مثلما صنع شومان).

وبمثل تلك الديناميكية، والتمويل، وجلاء الرؤية، راحت الفنون البصرية- كما هو الحال بلبنان ومصر- راحت تحل محل فنون المسرح وتنافس الآداب بما كان لها من تأثير تقليدي. وكأن شباب المبدعين في تلك المنطقة التي عانت من العزلة ومن التنميط، راحوا يحققون ذواتهم بابتداع صورهم الخاصة بأنفسهم. إضافة الى ذلك، يبدو هذا الجيل الجديد مشابها لمعاصريه في بلدان العالم الأخرى، حيث يبدي حماساً كبيرا للتقنيات الرقمية والبصرية على حساب الكلمة المكتوبة. كما أن الرؤية المتاحة لأعمال المبدعين القادمين من الشتات أو من داخل إسرائيل تعطي الأفضلية للمادة البصرية على الكلمة المكتوبة. وهكذا، كان لسهولة تلقي المادة البصرية في الخارج أثرُها في جعل أعمال التشكيليين أكثر رواجا من أعمال زملائهم الكتّاب. كما تسهلت تلك الرؤية الجديدة التي حظي بها الفن الفلسطيني بفعل توافقه مع الفن المعاصر القائم على المعنى والمناوئ للهيمنة، بينما في السابق، كانت الممارسة الفلسطينية الحديثة الساعية إلى إنتاج المعنى، من خلال المخاطبة السياسية أو الدراسات الجمالية الثقافية، كانت لا تتفق مع الفن الحداثي العالمي المجرد من المضمون.

ومن هنا، راح التشكيليون المعاصرون يتطورون داخل دائرة متخصصة من المعارض، والمهرجانات، وعروض البينالي، ومحال الإقامة، فما عادوا يتعاملون مع جمهور محلي غير مطلع، خلاف دأب أسلافهم، الذين انخرطوا في العمل الجماعي وشاركوا في فروع فنون مختلفة. ومن طبائع الفن التصوري أنه يعزز تلك الجفوة مع عامة الجمهور، لاحتياجه غالبا إلى تفسير من قبل ناقد متخصص، نظرا لجمالياته المعتمدة على الحد الأدنى من التفاصيل، وذلك على نقيض من توقعات جمهورٍ شكّلته مرجعياتٌ سياسيةٌ أو جماليةٌ حديثة، فضلاً عن ثقافةٍ فنيةٍ مدرسيةٍ غير ملائمة.

إن المعرفة الجديدة التي تحكم هذا التعبير الثقافي الجديد قد تشكلت- كما حدث في فترة العصر الحديث- بفعل السياق العربي والمحلي: إذ إن ولوج العالم العربي لمرحلة ما بعد الحداثة قد بدأ إثر هزيمة ١٩٦٧ التي أعلنت عن فشل الأيديولوجيات المتطلعة صوب المستقبل، سواء القومية منها أو التقدمية، وقد استُتِم هذا الولوج بالإقرار بشرعية أدلجة الدين منذ عقد الثمانينيات. وفي فلسطين المعاصرة، يعيش المجتمع الفلسطيني فضلا عن ذلك فشلا ثلاثي الأبعاد لانكسار آمال التحرر بواسطة الكفاح المسلح، والمقاومة السلمية الجماعية، والمفاوضات الدبلوماسية.

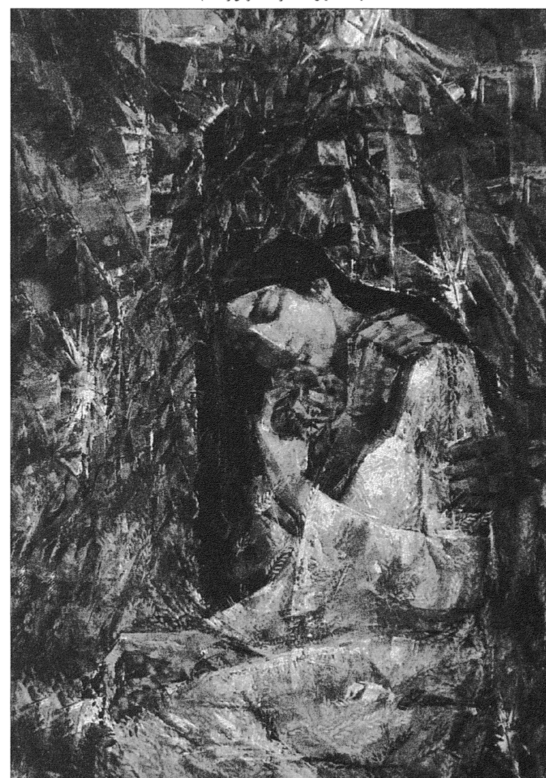
من الناحية الفكرية، أحدثت تلك الظروف التطور الأهم، الذي يمثل الرحم الذي أنتج الممارسة الفنية الفلسطينية في صورتها المعاصرة:ألا وهو انفصام المعنى عما وراء الخطاب. ويجد هذا النسق الجديد ترجمته- شأنه بالنسبة للأدب المعاصر- في ممارسة فنية تنأى عن الأيديولوجية، وتتسم بالتحرر من الرمزية المتعلقة بالهوية، وبالميل إلى الفردانية.

ومن الناحية الشكلية، فلم يعد إرث هؤلاء الفنانين نابعا من مجتمعات غير غربية ما قبل حداثية، وإنما صار بالأحرى إرثا متعلقا بنوع من الحداثة الهجين؛ مستتبعا راحة في التعامل مع سلع ونظم منبثقة من مجتمع استهلاكي وثقافة شعبية أنتجتهما العولمة. كما يتبدى هذا التيار في مجال الموسيقى أيضا: فموسيقى الراب والهيب هوب متواجدتان بحماس كبير في بلاد المغرب، كما في مخيمات اللاجئين في لبنان، وفي فلسطين نفسها، وفي الجيتوات الفلسطينية في إسرائيل. ونتيجةً لذلك- شأن الحال في بلدان أخرى منتمية لمنظومة ما بعد الكولونيالية، أو عربية، أو خارجة من نزاعات مسلحة- لم تعد الممارسة الفنية تؤدي دور محطة أنثروبولوجية للهوية الثقافية، بل راحت تعتمد جماليةً خالصةً مجردة.

أما على مستوى الموضوعات، يأتي اختيار تيمات العبث، والملاحظة شبه الإكلينيكية، والضيق، وتبدد الأوهام الجماعية وغياب الإلهام الأيديولوجي، كبديل لموضوعات سالفة كالبطولة

تم كسر الاحتكار الذكورى لتصوير المرأة ، التى كانت تُستخدم فى السابق كاستعارة للوطـــن وللشـــرف القـــومى

إســماعيل شـمـوط ـ الأرض والحب



الثورية، والنوستالجيا الرعوية، والمبالغات الرامية لاستدرار التعاطف، والتوجيه السياسى، والأطماح التحديثية الساعية لخلق تعبير بصرى جديد، والإحساس بالمسؤولية الجماعية عن محاكاة الواقع. حتى عملية السرد الجمعى، التى يستدعى استمرارَها استشراءُ فظائع الاحتلال، باتت تمر اليوم عبر وجهة النظر الفردية. ولعل أهم التوجهات الجديدة هى:

ـ الفكاهة الساخرة: فهناك التركيبات والعروض المقدمة فى متحف، أو شركة طيران، أو بيع بالمزادات العلنية المختلقة، للفنان خليل رباح؛ وكذا فيلم الفيديو الذى يصور عرضا لأزياء الرجال عند نقاط التفتيش الإسرائيلية، للفنان شريف واكد؛ ولوحات الهلوسة التى تصور معارك الحيوانات الرابضة فوق دراجاتها، بريشة الفنان محمد فاضل؛ والتكوين الفنى المؤلف من سيارات مهشمة على طريق مقطوع، للفنانة فيرا تمارى[10]، ولوحات المسيح الغامض لشريف واكد، وفيديو «بانديليرو» للمخرجة لاريسا منصور، الذى يظهر يدا تشهر السلاح على خلفية من الجدار العازل.

ـ تأكيد الهويات الفرعية: وبالأخص الهوية النسوية، حيث تم كسر الاحتكار الذكورى لتصوير المرأة، التى كانت تُستخدم فى السابق كاستعارة للوطن وللشرف القومى[11]، لتتأكد الهوية الأنثوية فى أعمال غير مسبوقة تدور حول الجسد والجنس: فها هى الرسوم ولوحات السيراميك ذات الطابع شبه التناسلى، للفنانتين جومانا عبود ومنال مرقص. وكذلك الأعمال التركيبية وأفلام الفيديو القصيرة، التى تتناول الرياء الذكورى، للفنانة حنان أبو حسين. وهناك أيضا عروض الأداء الحى والصور الذاتية لرائدة سعادة، التى تدور حول القوالب الأنثوية النمطية، الاجتماعية منها والبصرية. وكذلك الصور الفوتوغرافية التى تبين المسار الشخصى لتحرر إيناس ياسين، وعروض الفيديو والأداء الحى لمنار زعيبى، والتى تدور حول التدنس المزدوج الذى توصم به المرأة الفلسطينية داخل المجتمع الإسرائيلى. وهناك أيضا الأثواب الطيفية أو الممزقة التى تقدمها مارى توما، والصور الفوتوغرافية التى تصور عملية الولادة، للمخرجة والمصورة سهير فراج، والصور والأعمال التركيبية وعروض الأداء الحى لشروق حرب والتى تناولت فيها جرائم الشرف، وكذلك موضوعى الموضة والتسوق.

ـ كسر العزلة: ويظهر هذا التوجه عبر تركيبات ألكسندرا حنظل، والتى تتناول الحياة فى جمهورية الدومنيكان، وكذا فى فوتوغرافيا أحلام الشبلى ورنده شعث حول المناظر الطبيعية فى الحاضرات الأوروبية والآسيوية والعربية. وهناك أيضا فكرة رفض الاستشراق فى عروض الأداء الحى التى تقدمها أنيسة الأشقر.

ـ التعبير عن الهوية المهمشة: هناك أعمال رائد بواية الفوتوغرافية بالأبيض والأسود، التى تصور عمالا غير شرعيين، وفلاحين منعزلين، ونزلاء مستشفيات الأمراض

ما بين الحداثة والمعاصرة

العقلية. وجميعهم من المهمشين داخل المجتمع الفلسطيني. وهناك رسوم أطفال مخيمات اللاجئين الذين فقدوا براءتهم، المقدمة من قبل محمد جحا، وهناك صور الفوتوغرافيا وعروض الأداء الحى، التى يقوم بها طارق الغصين، ذلك الفلسطيني المرتحل المنتبذ.

- تبدد الأوهام، والعبثية، والعدمية: فهناك التركيب الفنى الذى يمثل ثلاجةً فى مشرحة، وأعمال إثارة المخاوف البدائية، للفنان شادى حبيب الله، وهناك أفلام الفيديو التى صورت فيها وفاء ياسين جنازات مقامة فى ساحة تزلج، أو حشرة تزحف على وتيرة مرعبة، وهناك لوحات وتركيبات شادى زقزوق التى تتجلى فيها فوضوية غزة، وأفلام الفيديو التى صور فيها أيمن الأزرق نوبات من الفزع.

- السرد الذاتى المعاصر: وتُذكر هنا أعمال الفنانيْن مهند يعقوبى ويَزن خليلى من البورتريهات الذاتية والصور الشخصية للأقارب والأصدقاء. وكذلك سرديات «التشات» بالعربية والانجليزية لجومانا مناع.

فضلا عن هذه التيمات الجديدة، هناك ثوابت الفن الفلسطيني: كالذاكرة، والمنفى، والأرض، والشهداء. ولكن اليوم، هجر الفنانون ما سماه كونديرا «الأنموذج المبتذل للأشباح المهيبة»[١٢]، وصاروا يفسرون الثوابت الفنية عبر منظار الفردانية، أو على العكس صاروا يمحونها تحت وطأة الواقع بما فيه من عبث وبؤس.

صار التعامل مع ذكرى الأشخاص والأماكن يتم بلا حنين للماضى: فهناك التوثيق بالصورة الفوتوغرافية، وبالتركيبات الفراغية مع استخدام الخامات المحلية كالصبار، والخبز، والتوابل، فى أعمال رنا بشارة. وهناك التوثيق حول القرى الفلسطينية المدمرة، من خلال الصور الفوتوغرافية، وعروض الأداء الحى، وأعمال السيراميك، وأفلام الفيديو، التى قدمها حنا فرح[١٣]، ورائدة أدون، ومرفت عيسى. وهناك أيضا صور وتكوينات الفنانة إيمان أبو حميد التى تناولت فيها ذكريات طفولتها. وفوتوغرافيا ستيف سابيلا وتركيباته حول مدينة القدس كما خَبرها فى طفولته.

ولقد شهد موضوع المنفى تحولا: فلقد تمكن بعض الفنانين من العودة بعد ١٩٩٣، ولكن بالنسبة لآخرين، أضحى المنفى نسبيا وعَرَضياً. إذ صار من الممكن باستخدام جواز سفر غربى زيارة فلسطين كما السائح، فضلا عن الإقامة بها لعدة أسابيع، ولكن ظل من غير الممكن الاستقرار بها نظرا لرفض إسرائيل منح تصاريح إقامة دائمة أو بطاقات هوية[١٤]. هكذا، تمكن بعض الفنانين من زيارة فلسطين للمرة الأولى فى الفترة المعاصرة، وراحوا يعرضون أعمالهم بها، مثل إسماعيل شموط، وتمام الأكحل، وسوزان حجاب، ومنى حاطوم، وسامية حلبى، وروزالند النشاشيبى، وزياد دجانى، وألكسندرا حنظل، ونداء سنقرط، وجون حلق، وكلاوديا آرافينا أبو غوش. ومن الفنانين من كرسوا كامل أعمالهم لفلسطين وحدها: مثل تيسير البطنيجى[١٥]، وإيميلى جاسر، وأيرين أنستاز، وسامى زعبى، و لاريسا منصور. لكن المنفى ظل مطلقا مطبقا فى أعين فنانى المنافى العربية.

هذا وتتم أوجه تصوير المنفى نفسه عبر آثاره الشخصية على الفنان الذى حُرم العيش على أرض وطنه وحُكم عليه باقتلاع أبدى من الجذور (وذاك الموضوع الرئيسى لمنى حاطوم)، أو قد تتم عبر آليات التكيف عند الفنان من خلال مجازاته المرسلة عن فلسطين (كما فى كتب إميلى جاسر، ولوحات الصبار المزروع فى أصيص بريشة كل من عاصم أبو شقرة، وألكسندرا حنظل، وكلاوديا آرافينا أبو غوش).

أما المنظر الطبيعى الريفى، ذلك المجاز المصطبغ بالمثالية والأنثوية فى تعبيره عن الارتباط بالأرض، فلقد عاد تصويره بعد اتفاقيات أوسلو بكل ما فيه من تجزؤ فج. كما ظهرت لأول مرة أعمال شبه وثائقية لتصوير المشهد الحضرى- من مخيمات لاجئين، ومراكز تجمع للبدو، وجدار العزل، ويافا الغارقة فى إملاقها، والمستوطنات الإسرائيلية- و هو ما تجلى فى ماكيتات وفاء حورانى، وفوتوغرافيا سامى بخارى، وزياد دجانى، ومحمد مسلّم، وخالد جرّار، وأفلام فيديو شريف سرحان. أما سليمان منصور، الذى تطور من مرحلة رسم المناظر الطبيعية المغرقة فى المثالية فى عقدى السبعينيات والثمانينيات، إلى مرحلة لوحات الصلصال النيئ فيما بعد ١٩٨٧، فهو يقدم حاليا منحوتات باستخدام الطين اليابس، والناضب، والمتشقق، والمنقبض، وأيضا باستخدام الصفيح الصدئ. أما الفنانات التشكيليات، فهن يجسدن هذه الحقيقة بصورة أشد قوة وأكثر جلاءً. فمن خلال ملاحظة أعمالهن فى مجالات الفيديو، والكولاج، والتركيبات، والتصوير الفوتوغرافى، يتضح مبلغ خلوها من أى ملمح رومانسى: شأن أعمال كل من أحلام الشبلى، ورولا حلوانى، ودانا عريقات، وأيرين أنستاز، وروزالند النشاشيبى، وسميرة بدران، وليلى الشوا، وساندى هلال.



وبالمثل، صار تناول موضوع الشهداء يتم بهدف التركيز على إنسانيتهم العادية هم وذويهم، مثل ما قام به نويل جبور فى أعماله الفوتوغرافية؛ أو قد يكون التناول لتقدير ثقل غيابهم، كما فى أعمال أشرف فواخرى التركيبية. وقد يأتى التناول بإحياء ذكراهم بصورة رصينة مثلما تم من خلال معرض «مائة شهيد- مائة حياة»[١٦]، أو يأتى بغية إبراز عبثية فقدهم كما تبدى عبر ملصقات بشار الحروب وإسهامه الحضرى. وبصورة مماثلة، تم التعبير عن موضوع السجن والتعرض لأعمال العنف عبر تصوير القلق النفسى الشخصى كما فى لوحات الرسام هانى زوروب التعبيرية.

وبالطبع، يحمل كل تصنيف دلالاته، كما أن العديد من الفنانين قد جمعوا فى ممارساتهم ما بين أكثر من موضوع، وأكثر من مقاربة، وأكثر من استراتيجية.



خاض الفن الفلسطيني
عمليات الاستكشاف الفكرية
ما بعد الكولونيالية العربية، ليسفر عن حداثة
تتجاوز الأشكال الغربية بالتآلف
مع الجماليات المحلية



كما هو الحال على سبيل المثال، بالنسبة لاثنتين من أهم فنانى هذه المرحلة المعاصرة، وهما منى حاطوم وإيميلى جاسر. ولما كانتا تنتميان إلى جيلين مختلفين، فمساراهما يلخصان جيداً تطور الفن الفلسطيني المعاصر: من اتخاذه وجها أكثر شبوبية ونسوية، وامتثاله لحركة الذهاب والإياب المتكررة ما بين المنفى وفلسطين بصفتها تيمة شبه ثابتة، والممارسة التجريدية عبر الوسائط المتعددة من تركيبات فراغية، وأداء حى، ونصوص وأفلام فيديو، والإعراض عن الرومانسية، والنزعة النضالية، والإرشاد السياسى أو التوجيه الثقافى الحداثى، من أجل التحول إلى ممارسة فنية ذاتية. وأخيراً، تشير ما حصلت عليه كلتا الفنانتين من جوائز وامتيازات إلى تلك النظرة الجديدة التى صارت توجه للفن الفلسطيني (فبالنسبة لحاطوم يُذكر ترشحها لجائزة ترنر، وفوزها بجائزة سوننج، إلى جانب عرض أعمالها فى صالات «تيت»، ومركز «بومبيدو» وبينالى فينيسيا، ومعرض «دوكيومنتا» السنوى، فضلا عن تواجدها ضمن فنانى جاليرى «وايت كيوب» الشهير، الخ. أما إيميلى جاسر، فيُذكر عرض أعمالها وحصدها جوائز فى فينيسيا، وترشحها لجائزة «هوجو بوس- جوجنهايم»... الخ). الأمر الذى يعلن عن اجتياز الفنانين الفلسطينيين لصحراء العزلة.

هذا وقد تطورت حاطوم من مرحلة عروض الأداء الحى، التى كان يقدم فيها جسدُها العارى والمجرد من جنسانيته، مجازا مرسلا عن فلسطين المقسمة، والمجرفة، والمحاصرة، لتتجه نحو اشتغال مباشر بفلسطين، قامت به فى القدس، حيث استخدمت الصابون النابلسى التقليدى كنايةً عن الأرض المجزأة على أثر اتفاقيات أوسلو. أعقب ذلك تطور الفنانة نحو كسر المألوف فيما يتعلق بالأشياء اليومية والأدوات المنزلية، بجعلها استعارات عن البيت المفقود والوطن المحتل؛ يصحب ذلك اشتغال الفنانة المستمر على خرائط العالم، بتشكيلها بواسطة الورق، أو بواسطة كرات الزجاج ومصابيح الفلوريسنت المتوهجة، للدلالة على هشاشة كوكبنا، وضعف الحدود، واستمرار النزاعات. وعلى الرغم من كون ادوارد سعيد قد رأى أن حاطوم تجسد بقوة التجربة الفلسطينية[١٧]، فإن أعمالها لا تنبثق جميعها مباشرة من ذلك المصدر، بل ترجع بالأحرى إلى حالة الإنسان المنفى، المقتلع من جذوره، المفتقر إلى الراحة فى بيئته الجديدة.

وإن كانت أعمال حاطوم توصل

للمتلقي إحساسا قويا بالضيق وعدم الراحة، فإن أعمال ايملى جاسر تغريه بالمشاركة المباشرة عن طريق الشعور بالتماهى معها. فإن كانت أعمالها الأولى قد تناولت تيمات المنفى ومراحل الغياب، فلقد صارت فلسطين موضوعها الأثير منذ عودتها الأولى إلى الوطن. لكن خيط الوصل هاهنا قد تمثل دوما فى اعتماد إستراتيجية التجربة الذاتية والحميمية، إما تلك الخاصة بجاسر نفسها، أو بوجوه فلسطينية معينة يمكن الشعور بالتماهى معها بهدف خلق مواجهة محركة للتنافر مع التجارب المماثلة التى تخص مشاهدين يعيشون فى مجتمعات حرة ومرفهة.

خـــــــاتمــــــــة:

بدءاً من التحقق عبر إنتاج المعنى، إلى الانفصام عما وراء المعنى، خاض الفن الفلسطينى عمليات الاستكشاف الفكرية ما بعد الكولونيالية العربية، ليسفر عن حداثة تتجاوز الأشكال الغربية بالتآلف مع الجماليات المحلية، ومقاومة الاستلاب والاحتلال، وإلهام الجماهير وحشدها. الأمر الذى أعاد التمركز حول الذات من أجل مخاطبة العالم.

ولقد أفضى النسق التحديثى الأول عن أعمال تجريبية جمالية متوقدة: فكان الإعراض عن الدينى لصالح الدنيوى فى لوحات خليل حلبى، وتجلى الفن الإسلامى الجديد عند جمال بدران، ولوحات الألوان المائية ذات الطابع التأثيرى الحالم الجديد عند صوفى حلبى، وأعمال التجريد وفنون الخط الهندسية لكمال بلاطة، وجداريات الحلاج الأسطورية، وتجريديات شومان، وتعبيرية نواش، وابتكارات منصور وتمارى وبركات وعنانى.

ولقد كان نتاج المعرفة ما بعد الحداثية الجديدة أن تم هجر تلك المطامح الجمالية الجماعية، لتتجه محاولات التجديد صوب آليات تحقيق التفرد ومحاورة المتلقى، فى إطار عملية ديناميكية متصاعدة الوتيرة ومنقطعة النظير. ■

هـــــــوامـــــــش:

1- Reem Fadda, Ed.: Arte en Palestina: Artistas palestinas. Jérusalem, Al Hoash. 2007.
- Gannit Ankori: Palestinian Art. Londres: Reaktion Books, 2006.
- Tal Ben Zvi. Ed.: Hagar?Contemporary Palestinian Art. Tel Aviv, Hagar Association. 2006
- Samia A. Halaby: Liberation Art of Palestine. New York: H.T.T.B Publications, 2001.
- T. Ben Zvi & Y. Lehrer, Eds: Self Portrait: Palestinian Women?s Art. Tel Aviv, Andalus. 2001.
- إسماعيل شموط: الفن التشكيلى فى فلسطين، الكويت، القبس، ١٩٨٩.
٢- الفن الفلسطينى: ١٨٥٠-٢٠٠٥. لندن دار الساقى، ٢٠٠٩. -
استحضار المكان. تونس، ألكسو، ٢٠٠٠.
Artistes palestiniens Contemporains. - -١٩٩٧ .Paris, Institut du Monde Arabe
٣- لقطات مغايرة. رام الله، مؤسسة قطان، ٢٠٠٥.
٤- الفن والفنان. عمان، دارة الفنون /المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠.
9— Gonzalo Fernández & José Antonio Sanchez: Palestina: Tierra, exilio, creaccion.
- Fundacion Antonio Perez & Diputacion de Cuenca, 2006.
- Station Museum: Made in Palestine. Houston, Ineri Pub. 2003.
- Ulf Thomas Moberg: Palestinian Art. Uppsala, Almqvist & Wiksell. 1998.
٥- الجناح الفلسطينى: بينالى فينيسيا، ٢٠٠٩. «مسارات»: بلجيكا، ٢٠٠٨. «منطقة غير آهلة ببشر؟»: أكاديمية دو فريج، لاهاى، ٢٠٠٨. «فلسطين، الحياة بمنتهى البساطة»: بون ديزار، باريس، ٢٠٠٨. «عصير صبار»: ميزون دى ميتالو، باريس، ٢٠٠٨. «هذا اليوم»: تيت بريطانيا، لندن، ٢٠٠٧. «فلسطين: الأرض، المنفى، الإبداع»: كوينكا، اسبانيا. «صنع فى فلسطين»: الولايات المتحدة، ٢٠٠٣-٢٠٠٥. جاليرى Konstakademien، Vastra Galleriet Fredsgatan، ستوكهولم، ١٩٩٨. «ربيع فلسطينى»: فرنسا، ٧-١٩٩٦.
Culture and Imperialism. New York, A. 6- Knopf. 1993
٧- شخصية صبى شجاع يدير ظهره للمتلقى: http://www.najialali.com
8- Sari Hanafi & Linda Tabar: The Emergence of a Palestinian Globalized Elite. Ramallah, Muwatin. 2005.
9-Edward W. Said: After the Last Sky. New York, Columbia University Press, 1986.
10- V. Tamari: Going for a Ride? In: Palestine. Rien ne nous manque ici. Op. cit.
11- Tina Sherwell: Imaging Palestine as the Motherland. In: Self Portrait: Palestinian Women?s Art. T. Ben Zvi & Y. Lehrer, Eds. Andalus. 2001.
12- Milan Kundera: Die Welt Literatur. The New Yorker. 8 Janvier 2007.
13- Jean Pierre Perrin: Israël. Iqrit, le clocher sans village. Libération. 13.06.2008
14- http://www.righttoenter.ps
15- The Sky over Gaza. In: Palestine. Rien ne nous manque ici. Op. cit.
16- A. Laïdi-Hanieh/Isabel de la Cruz: 100 Shahids-100 Vies. In: Palestine. Rien ne nous manque ici. Op. cit.
١٧- منى حاطوم: معرض «العالم بأسره أرض غريبة»، لندن، تيت جاليرى، ٢٠٠٠.



من يتحدث باسم الإسلام؟
قالوا عن هذا الكتاب

«بينما يتزايد الانفلات من الانضباط في عالمنا، مع المزيد من العنف وسوء التفاهم بين الغرب والعالم الإسلامي، فإن كتاب: من يتحدث عن الإسلام؟ يتجاوز الجدال المتعارض لدى السياسيين والنقاد، ويقدم صوت المسلمين في كل مكان، وهو غالبًا ما يتعرض للإسكات».

«ديباك شوبرا» (Deepak Chopra)

مؤلف كتاب: السلام هو السبيل

«إن البيانات المقدمة في هذا الكتاب لا تستدعي الانبهار فحسب، ولكنها لا غنى عنها. وينبغي أن تكون قراءة كتاب: «من يتحدث باسم الإسلام؟ واجبة على صنّاع السياسة والصحفيين ورجال الإذاعة والمدرسين والطلاب والدارسين».

«كارين أرمسترونج» (Karen Armstrong)

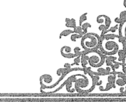
مؤلفة كتاب: تاريخ الله

«هذا الكتاب النافذ المثير عند أول وهلة حافل بنظرات عميقة قيمة في أفكار المسلمين حول الدين والديمقراطية وحقوق النساء والتطرف وعلاقات المسلمين بالغرب. وهو كتاب واجب القراءة على النقاد وصناع السياسة والمتخصصين وغير المتخصصين من الأمريكيين أو المسلمين».

والي نصر

مؤلف كتاب: صحوة الشيعة: كيف تؤدي الصراعات في داخل الإسلام إلى تشكيل المستقبل؟

الكتاب هو «من يتحدث باسم الاسلام» وتصدر ترجمته قريبا عن «دار الشروق» ويحمل غلافه اسمين مهمين: أحدهما جون اسبوزيتو الأكاديمى الأمريكى المتخصص فى العقائد الدينية، والثاني داليا مجاهد التى انضمت إلى قائمة مستشارى الرئيس أوباما وهى أمريكية من أصل مصرى.







إعادة قراءة
فلسطين ١٩٣٦

وليد الخالدى

■ ضمن برنامجها النشرى الخاص بمناسبة الذكرى الستينية لنكبة ١٩٤٨، تعيد مؤسسة الدراسات الفلسطينية نشر كتاب «جهاد فلسطين العربية»، الصادر فى بيروت سنة ١٩٣٦. هذا الكتاب يعالج التطورات فى الساحة الفلسطينية فى الفترة التى امتدت من نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ لغاية أواسط المرحلة الأولى من الثورة الفلسطينية الكبرى ضد بريطانيا، التى اندلعت فى أبريل ١٩٣٦ ولم تخمد حتى أواخر سنة ١٩٣٩.

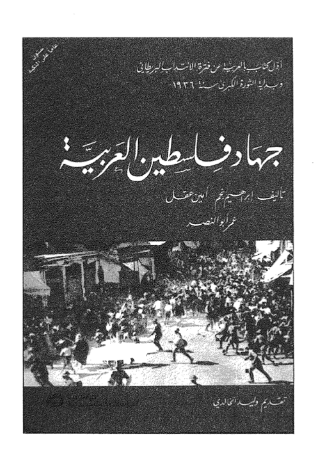
وسبب اختيار المؤسسة هذا الكتاب بالذات كونه أول محاولة جدية بالعربية لشرح القضية الفلسطينية بعد صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧، وبعد اضطلاع بريطانيا بمهمة تنفيذه من خلال صك الانتداب الصادر سنة ١٩٢٢ عن عصبة الأمم (League of Nations) فى جنيف، والذى كان بمثابة ورقة التين المتقمصة لـ «الشرعية الدولية» لتحقيق حلم الصهيونية فى إنشاء الدولة اليهودية على التراب العربى فى فلسطين.

وكان سبق صدور «جهاد فلسطين العربية» عدة مؤلفات بالعربية أهمها: «الصهيونية» لنجيب نصار (حيفا ١٩١١)، «فلسطين وتجديد حياتها»، تحرير حنا صلاح (نيويورك ١٩١٩)، «الأرض المقدسة والصهيونية» لبولص عبود (يافا ١٩٢٠)، «فلسطين بعد الحرب الكبرى» لخليل السكاكينى (القدس ١٩٢٥)، «تحليل وعد بلفور» لمحمد يونس الحسينى (القدس ١٩٢٩)، «المال والسمسار» لمحمد عزة دروزة (نابلس ١٩٣٤)، وتناول هذا الكتاب الأخير مختلف أساليب الصهيونية للاستيلاء على الأراضى العربية. ويلاحظ أن ليس بين هذه المؤلفات جميعاً كتاب يغطى الفترة التى يعالجها كتابنا «جهاد فلسطين العربية»، بل بعضها يقتصر فى مضمونه على نواح معينة من القضية فحسب.

وصدر بعيد «جهاد فلسطين العربية» خلال سنة ١٩٣٦ كتابان بالإنجليزية لمؤلفين فلسطينيين هما وديع البستانى: The Palestine Mandate: Invalid and Impracticable (Beirut, 1936)، وتوفيق كنعان: Conflict in the Land of Peace (Jerusalem, 1936)، ودراسة قانونية لحسن صدقى الدجانى «تفسير ظلمات فلسطين» (القدس ١٩٣٦). كما صدر فى السنة التالية (١٩٣٧) ثلاثة كتب لمؤلفين فلسطينيين دفعة واحدة هى: «فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية» لعيسى السفرى فى جزءين (يافا ١٩٣٧)، «القضية الفلسطينية: تحليل ونقد» ليوسف هيكل (يافا ١٩٣٧)، «ثورة فلسطين عام ١٩٣٦» للجامعة الإسلامية (يافا ١٩٣٧). وكذلك صدر فى هذه السنة أيضاً وبالإنجليزية للسيدة متيل مغنم: The Arab Woman and the Palestine Problem (London Herbert Joseph, 1937).

وهكذا يبقى قصب السبق فى الكتابة بالعربية عن الانتداب البريطانى والمقاومة الفلسطينية لكتاب «جهاد فلسطين العربية» الذى اخترناه. بيد أن اختيارنا هذا لم يستند إلى اعتبار السبق الزمنى فحسب، فالكتاب فى صلبه، باستثناء صفحاته العاطفية الأولى، مؤلف رصين موثق، يجمع بين السرد والتحليل، ويعتمد على وثائق أولية دبلوماسية، وبيانات سياسية رسمية، وتقارير لجان بريطانية ملكية فنية، اعتماده على إحصائيات حكومية، ومصادر أجنبية صهيونية وغير صهيونية، بحيث عكس الخلفية القانونية للمؤلفين إبراهيم نجم وأمين عقل، وإلمامهما الميدانى المباشر بممارسات الحكومة البريطانية.

وتشير ظروف تأليف الكتاب إشارة لافتة إلى موقع لبنان فى عالم النشر العربى فى أواسط الثلاثينيات من القرن العشرين، وإلى العلاقة الحميمة بين العاملين فى الحقل الوطنى فى البلدين، وإلى حرص أبناء فلسطين الشديد على تعريف سائر الوطن العربى بمعاناة بلدهم خلال الثورة عبر وسائل النشر والإعلام اللبنانية، ذلك بأنه فى أوائل صيف سنة ١٩٣٦، وبعد مرور ثلاثة أشهر ونيف على قيام الثورة الفلسطينية الكبرى، التقت عصبة من الشباب الوطنى الفلسطينى الصحفى والأديب اللبنانى عمر عبدالكريم أبوالنصر فى بلدة بحمدون فى لبنان (وكان هذا قد ذاع صيته واشتهر بكتاباته التاريخية عن الرسول العربى والخلفاء الراشدين وخالد بن الوليد ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم). وكان بين أعضاء هذه العصبة السادة رشاد بيبى وأحمد الشيخ على من يافا وحلمى حنون من طولكرم، فتطرق الحديث إلى «ضرورة إنشاء كتاب يعرض للقضية منذ نشأتها حتى الثورة الحاضرة»، وطلب الشباب إلى أبوالنصر أن يقوم هو بتأليف الكتاب فاعتذر بأن «الموضوع غريب عنه». واتفق الجميع على دعوة المحاميين الفلسطينيين الأستاذين أمين موسى عقل وإبراهيم رامز محمود نجم من يافا للقيام بالعمل، على أن يعاونهما أبو النصر فى ذلك. وقدم الأستاذان عقل ونجم إلى بيروت «حيث صار تأليف الكتاب وطبعه فى أقل من شهر»، وكان تاريخ الانتهاء من تأليفه يوم الأربعاء الواقع ١٢ أغسطس ١٩٣٦ «فى اليوم السادس عشر بعد المائة من نضال فلسطين العربية»، أى من اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى فى أبريل ١٩٣٦. وتولى عمر أبوالنصر الإشراف على طباعة الكتاب، وتكفل أحمد الشيخ على بكامل تكلفتها، وبلغ



ستون عاماً من النكبة
جهاد فلسطين العربية
أول كتاب بالعربية عن فترة الانتداب البريطانى وبداية الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦
إبراهيم نجم وأمين عقل وعمر أبوالنصر
بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٩، ٢٩٤ صفحة

عدد النسخ المطبوعة ٤٠٠٠ نسخة (وهو رقم لافت حتى بمقاييس أيامنا). وتقرر أن يرصد ريع الكتاب لـ «منكوبى الثورة» بإشراف لجنة من المحامين العرب فى يافا، وخُتمت كل نسخة بختم اللجنة، واعتمد السيد أحمد الشيخ على للإشراف على جمع التبرعات، وأرسلت نسخ من الكتاب إلى الصحف الرئيسية فى العواصم العربية لتقريظه «مساعدة لجهاد فلسطين».

ويلاحظ من مراجعة قائمة محتويات الكتاب أنه يتألف عمليًا من ثلاثة أبواب: أولها تمهيد تاريخى عن الفترة السابقة لإقرار نظام الانتداب البريطانى على فلسطين (الأقسام ٢ - ٨)، وثانيها عرض لنظام الانتداب ذاته ولممارساته الإدارية والمالية والقانونية (الأقسام ٩ - ١٨)، وثالثها سرد لوقائع المقاومة للحكم البريطانى منذ نشأته، مع التركيز على الثورة الكبرى منذ انطلاقها فى أبريل ١٩٣٦ ولغاية تاريخ الانتهاء من تأليف الكتاب فى أغسطس ١٩٣٦ (الأقسام ١٩ - ٢٤)، أى قبل نهاية المرحلة الأولى من الثورة بثلاثة أشهر.

وتوضيحًا للإشارة إلى المرحلة الأولى من الثورة نقول إن الثورة انقسمت إلى مرحلتين اثنتين: أولاهما المرحلة التى امتدت من تاريخ اندلاعها السالف الذكر لغاية ١١ أكتوبر ١٩٣٦ عندما استجابت اللجنة العربية العليا (أعلى هيئة سياسية فى البلاد)، برئاسة الحاج أمين الحسينى، لنداء ملوك وأمراء العرب (اليمن والعراق والسعودية وشرق الأردن) بوقف الإضراب العام وأعمال المقاومة تمهيدًا لوصول لجنة بريطانية ملكية (Royal Palestine Commission)، برئاسة اللورد بيل (Peel)، إلى البلاد لتقصى أسباب اندلاع الثورة. وقد وصلت اللجنة فعلاً فى ١١ نوفمبر ١٩٣٦ وبقيت فى البلاد لغاية يناير ١٩٣٧، واستمعت خلال إقامتها إلى شهادات ممثلين للإدارة البريطانية المحلية وللقيادات السياسية الفلسطينية واليهودية، وأصدرت فى ٧ يوليو ١٩٣٧ تقريرها الأسود الذى أوصى بتقسيم البلاد إلى دولة يهودية وكيان فلسطينى عربى يضم إلى شرق الأردن، على أن يتم الإجلاء القسرى (Compulsory Transfer) لمئات الآلاف من الفلسطينيين عن الدولة اليهودية المقترحة. وما إن صدر هذا التقرير حتى انفجرت الثورة ثانية حنقًا وغضبًا، وتأججت واتسع نطاقها المسلح ولم تخمد إلا فى أواخر سنة ١٩٣٩ تحت وطأة الضربات العسكرية البريطانية الوحشية المتراكمة التى أنزلها الجيش البريطانى بالشعب الفلسطينى ومناضليه. وهكذا يكون قد تم تأليف كتاب «جهاد فلسطين العربية» وطباعته وسط هذه الأحداث الجسام وقبل إذعان اللجنة العربية لنداء الملوك بنحو ثلاثة أشهر.

أما بالنسبة إلى مؤلفى الكتاب الرئيسيين، فإن الأستاذ أمين موسى عقل ولد فى القدس سنة ١٩٠٢، ونال شهادة المحاماة من كلية الحقوق فيها، وعمل رئيسًا لمحكمة يافا البلدية، وكان يمارس المحاماة فى يافا سنة ١٩٣٦ عند اشتراكه فى تأليف الكتاب. وكان عقل وثيق الصلة بالحاج أمين الحسينى، واعتقلته سلطات الانتداب البريطانى خلال المرحلة الثانية من الثورة (١٩٣٧ - ١٩٣٩). وانتخب لاحقًا رئيسًا للجنة يافا القومية (١٩٤٧ - ١٩٤٨)، ثم عضوًا فى المجلس الوطنى الأول الذى عقد فى غزة سنة ١٩٤٩، وأختير وزيرًا فى حكومة عموم فلسطين التى أُعلن قيامها فى السنة ذاتها، وتولى منصب مدير الدائرة السياسية فى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية فى القاهرة، وتوفى فى لندن سنة ١٩٧٠ ودفن فى القاهرة.

أما إبراهيم نجم فقد ولد فى القدس سنة ١٨٩٥، وتلقى العلوم الابتدائية والثانوية فيها، ثم التحق بالمدرسة الحربية فى استانبول وتخرج منها برتبة ملازم، وخدم فى الجيش العثمانى طوال مدة الحرب العالمية الأولى. وبعد الاحتلال البريطانى لفلسطين نال شهادة المحاماة من كلية الحقوق فى القدس، وأنشأ مكتبًا خاصًا له فى يافا، ونشط فى الحقل الوطنى، وكان من مؤسسى الجمعية الإسلامية المسيحية وعضوًا فى لجنة صندوق الأمة، ومن مؤسسى النادى الرياضى الإسلامى. ويؤسفنا أننا لم نتمكن من التحقق من سيرته بعد النكبة.

أخيرًا وليس آخرًا، فإن عمر عبدالكريم أبوالنصر ولد فى ميناء حصن بيروت سنة ١٨٨٨، وتلقى علومه الابتدائية فى كُتاب اليافى الكائن أمام المسجد العمرى الكبير، وعمل منذ شبابه فى الصحافة، والتحق بجريدة «المقطم» ومجلة «السياسة» فى القاهرة محررًا، وساهم فى تأسيس جريدة «الجامعة السورية» فى دمشق، وانضم إلى جريدة «العهد الجديد» فى بيروت. وترك بعد مساهمته الخيرة فى الإعداد لطباعة كتاب «جهاد فلسطين العربية»، كمًا ضخمًا من المؤلفات التاريخية والسياسية والأدبية، وتوفى فى بيروت سنة ١٩٦٠.

كتاب «جهاد فلسطين العربية» الذى بين أيدينا يتضمن ملحق صور بدلاً من الصور التى كان الكتاب الأصلى يتضمنها، والتى شوهها عامل الزمن. ■



من يتحدث باسم الإسلام؟ من هم المسلمون؟

بينما يتحدث الناس عادة عن الإسلام والمسلمين في تعبيرات شاملة فضفاضة، فإن هناك تفسيرات عديدة للإسلام، ومسلمين كثيرين مختلفين. ينحدر المسلمون من قوميات مختلفة، وجماعات عرقية وقَبَلية وثقافية، كما يتحدثون لغات عديدة، ويمارسون عادات متميزة. ويعيش أغلب المسلمين في العالم في آسيا وأفريقيا: لا في العالم العربي. وتبلغ نسبة العرب المسلمين نحو واحد من خمسة في العالم. كما توجد أغلب المجتمعات الإسلامية في إندونيسيا وبنجلاديش وباكستان والهند ونيجيريا، أكثر مما توجد في العربية السعودية أو مصر أو إيران.

يعيش ملايين من المسلمين في أوربا وكندا: حيث يمثلون الديانة الثانية والثالثة العُظمَيين (ويمثل الإسلام الديانة الثانية العظمى في أوروبا، وكندا والديانة الثالثة العظمى في الولايات المتحدة). ونظرا للعولمة والهجرة، فإن المدن الرئيسة اليوم لا تقتصر على ما توحي أسماؤها بالأماكن الخارجية مثل القاهرة ودمشق وبغداد ومكة وإسلام أباد وكوالالامبور، وإنما تشمل لندن وباريس ومرسيليا وبروكسل ونيويورك وديترويت ولوس أنجيليس.

هناك صور وحقائق متعددة عن الإسلام والمسلمين من النواحي الدينية والثقافية والاقتصادية والسياسية.

يعيش ١،٣ مليار مسلم في سبع وخمسين دولة، مع نسبة كبيرة أو أغلبية من السكان المسلمين في أوربا وأمريكا الشمالية وسائر أنحاء العالم. ولا توجد المجتمعات الإسلامية الكبري اليوم في داكار والخرطوم والقاهرة ودمشق والرياض وطهران وإسلام أباد وكوالالامبور فحسب، ولكنها توجد أيضا في لندن وباريس وروما وبرلين ونيويورك وواشنطن العاصمة. لا يتحدث المسلمون اللغة العربية فقط، ولكنهم يتحدثون كذلك اللغات الفارسية والتركية والأردية والسواحلية والبهاسية والإندونيسية والصينية، كما يتحدثون الإنجليزية والفرنسية والألمانية والدانمركية والإسبانية.

كذلك يختلف لباس النساء المسلمات والفرص التعليمية والمهنية لهن وإسهاماتهن في المجتمع إلى حد بالغ جدًا أيضًا: إذ لا تستطيع النساء قيادة السيارات في بعض المجتمعات الإسلامية، وهن معزولات من الناحية الجنسية، لكنّ النساء في كثير من المناطق الأخرى في العالم الإسلامي يَقُدن السيارات، ويركبن الدّراجات النارية، بل يَقُدن الطائرات.



جوزيف مسعد بعد إدوارد سعيد

الاشتهاء.. عربيا

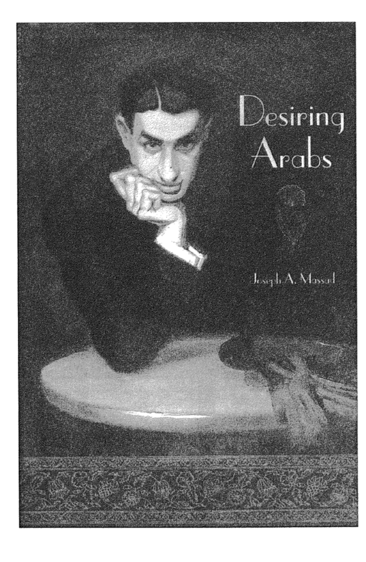
سـامية محرز

▪▪ «اشتهاء العرب» للكاتب جوزيف مسعد، ذلك المشروع المتميز الذى يغامر فى منطقة مجهولة هو بمثابة تتمة لكتاب «الاستشراق» لادوارد سعيد ولأعمال ميشيل فوكو حول الجنسانية.

فبينما يركز مشروع سعيد على إنتاج المعرفة فى أوروبا عن العرب والمسلمين أثناء القرن التاسع عشر، والروابط المعقدة لهذا المشروع الاستعمارى والمسئولية المباشرة لتركيب ذات «الشرقى»، يسعى «اشتهاء العرب» بشكل آخر إلى سد الفجوة فى الدراسات الأكاديمية التى حللت التصوير الاستشراقى موضحاً تأثير الاستشراق و«النعرة العرقية «حسنة النية» فى خطاب الدفاع عن حقوق الإنسان» (صفحة ٤١٨)، على «تشكيل إدراك العرب أنفسهم لذواتهم ولبعضهم البعض منذ نهضتهم فى القرن التاسع عشر (صفحة ٤٨). وعلى نفس القدر من الأهمية، فإن اشتهاء العرب يجيب على إغفال الدور الذى أداه المشروع الاستعمارى فى التصورات حول الجنسانية والشهوة فى كتاب فوكو المهم والرئيسى تاريخ الجنسانية.

يعتبر كتاب مسعد «اشتهاء العرب» رحلة فكرية جريئة تؤرخ لكيفية «تطور الكتابة التاريخية العربية الحديثة والمعاصرة بمقدار كبيرعبر التبرؤ ليس فقط من عشق الرجال للغلمان فحسب ولكن أيضا من كل الرغبات الجنسية التى يتم تعريفها على أنها جزء من ماضى العرب والتى تشجبها أوروبا الآن وأحيانا أخرى تناصرها» (صفحة ١).

وكما يبين عنوان الكتاب، فإن مشروع مسعد الطموح يفتح طريقين متوازيين. فهو يصف كيف أن الخطاب الثقافى الاستعمارى المهيمن على العرب شكل تصوراتهم حول أنفسهم فى الإنتاج الفكرى المحلى الحديث، وفى نفس الوقت يلفت الانتباه للممارسات



والهويات الجنسية فى النصوص العربية المدونة فى القرون الوسطى ويوضح كيف أنها تفكك وتكشف عن مدى كون التصورات العربية الحديثة عن الذات العربى هى نتاج الكولونيالية والامبريالية الثقافية.

لا يقدم مسعد فى مجمل الكتاب حجة لتأييد المحلية القومية غير الغربية، ولا لتأييد وجهة النظر القائلة بوجود ماض سعيد خال من البؤس والاضطهاد يسبق العنف المعرفى والأخلاقى والسياسى الذى تمت ممارسته على غير الغربيين. بل بالأحرى تتجه نيته إلى الاعتراض على المحلية القوموية الغربية المدعمة بالحماسة الروسوية التى تصر على إرغام الناس على الحرية، أو محلية قوموية غربية تعتبر دمج العالم فى سويتها على أنه التحرر والتقدم بذاته، وخطوة نحو تعميم ما تعتقد أنه مفهومها «الأسمى» للإنسان (صفحة ٤٢).

وكمثال على هذه الممارسات المهيمنة، يظهر مسعد الانشغال الحديث بشخصية الماجن فى الأدب العربى الكلاسيكى. فبحلول الخمسينيات قام مؤرخو الثقافة العربية كردة فعل على التصويرات الاستشراقية للهويات والممارسات الجنسية العربية بتحويل الماجن إلى شخصية مرضية منحرفة، ومن ثم تم تحويله مؤخرا إلى «المثلى».

وأصبح المثلى فيما بعد الثمانينيات يشكل «قلقاً رئيسياً شعبياً وسياسياً عند الإسلاميين وعند الفئات والجماعات الغربية التى تنادى بتعميم هوية المثلية الجنسية على المستوى العالمى على حد سواء. وكنتيجة لذلك وعلى نحو متزايد أصبح المثلى يشكل قلقاً بالنسبة للدولة وأدواتها القمعية والإنتاجية» (صفحة ٤١٦)

وكى يكشف كيفية حدوث هذه التحولات والتى أدت إلى الوصم الاستشراقى لهويات العرب الجنسية ولشهواتهم المثلية أدرج مسعد لنفسه ثلاث مهمات:

١) تنظيم أرشيف حديث من الكتابات العربية الحديثة عن الجنس والشهوة مؤلف من الأعمال المكتوبة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

Desiring Arabs, by Joseph A. Massad, University of Chicago Press, Chicago, 2007, 453 pp., £18.00 (hardback), ISBN 978 0 226 50958 7

لم تكن مفاجأة أن حاز «اشتهاء العرب» جائزة ليونيل تريللينج للكتاب عام ٢٠٠٨. وهي جائزة مرموقة تقدمها جامعة كولومبيا



التى تقوم بحفريات فى التاريخ والثقافة العربية والإسلامية منذ بزوغ الإسلام.

٢) عرض مدى تكيف وتشكل الكم المعرفى الفكرى والأدبى العربى مع الافتراضات والتصورات والخطابات الغربية الموجودة أصلاً عن الجنسانية والشهوة فى ماضى وحاضر العرب.

٣) وشرح كيف أن هذا الأرشيف الغربى الذى يتراوح ما بين الافتراضات الاستشراقية والداروينية الاجتماعية وبين الخطاب التنموى وخطابات حقوق الإنسان هو عامل مؤثر رئيسى فى بناء الذاتية العربية الحديثة بالإضافة إلى تصويرات السلوكيات الجنسية العربية فى التاريخ الفكرى والثقافى العربى الحديث.

من خلال رسمه لهذه الخارطة، يؤسس مسعد ببراعة العلاقة الحاسمة بين دور الغرب والاستعمار فى بناء خطاب جديد عن الشهوات والسلوكيات الجنسية عند العرب وكيف تم استدخال هذه الافتراضات تالياً من قبَل العرب أنفسهم. فهو يحلل كيف أن خطاب الداروينية الاجتماعية والفانتازيا والدراسات الاستشراقية الغربية أصبحت مفتاح تقييم الحضارة العربية والإسلامية على أنها «متخلفة» وتعيش فى «عصر انحطاط»، بالإضافة إلى اعتبارها فضاء ثقافيا للجنس المتهتك فى القرون الوسطى وفى باكورة العصر الحديث. كما يحلل مسعد كيف أن هذه التركيبات الاستعمارية فى القرن التاسع عشر تجاهلت التصويرات الإسلامية والعربية فى القرون الوسطى حول الجنسانية والشهوة وتقريبا مكّنت الخطاب الإمبراطورى الحديث من العالم العربى كما لو أنه موقع «للكبت» الجنسى. ومنذ القرن التاسع عشر شرع المفكرون العرب فى عمليات حفر تاريخى لإيجاد دلائل تتحدى هذه التصويرات الغربية. ولكن بدلا من مساءلة هذه الافتراضات الأساسية والتصويرات العرقية، فإن الكُتاب العرب استدخلوا وتبنوا وأعادوا إنتاج وعجزوا عن الاعتراض على هذه الأفكار المخترعة حديثا فى الداروينية الاجتماعية فيما يتعلق بمفهومى الحضارة والثقافة بالإضافة إلى تبنيهم نظرة العهد الفيكتورى عن «الجنس الفاضح».

وقد تخلل هذا المشروع الدمجى نماذج عدة من الكتابة العربية عن الأدب كما بينت كتابات معلمين ليبراليين ومؤرخين ملتزمين بالتحرر الجنسى منذ القرن التاسع عشر بالإضافة إلى أدبيات الوطنيين والقوميين العرب ومفكرين علمانيين راديكاليين ومتدينين وإسلاميين كما هو الحال أيضاً فى أدبيات المحللين النفسيين العرب ونقاد الأدب والماركسيين والنسويين والنسويات إلى جانب الروائيين والشعراء فى جل أعمالهم. كما يحاجج مسعد إن المفكرين العرب يحاولون فى هذه الأدبيات «إثبات لكل العرب... من ناحية، ولكل الأوروبيين من ناحية أخرى، أن العرب شأنهم شأن الأوروبيين فى مستواهم الثقافى والحضارى، على الرغم من أن الأوروبيين مصممون على معاملة العرب على أنهم أقل منهم» (صفحة ٤١٧).

فى الستة فصول التى يتكون منها الكتاب، يقدم مسعد تحرياً جديداً عن تاريخ تصويرات الشهوة الجنسية فى مجموعة متنوعة من الإنتاجات الأدبية العربية فى التاريخ والأدب والثقافة والإنتاج العلمى، وهو أول مفكر يجمع هذه الأدبيات معاً كى ينظم أرشيفاً عربياً حديثاً. وتتضمن مادته كتباً تاريخية وكتب رحلات ومذكرات وكتبا طبية واجتماعية ونفسية إلى جانب كتب عن الدين وروايات وأفلام ومقالات فى مجلات وجرائد وصحف تمثل قرنين من الإنتاج الثقافى العربى من قبَل رموز فكرية عربية بارزة مثل رفاعة الطهطاوى، جرجى زيدان، قاسم أمين، طه حسين، أحمد أمين، سلامة موسى، سيد قطب، نوال السعداوى، فاطمة مرنيسى، حسين مروّة، صلاح الدين المنجد، والروائيين وكتّاب المسرح الرواد مثل نجيب محفوظ، رئيف خورى، سعد الله ونوس، يوسف إدريس، صنع الله إبراهيم، غادة السمان، محمد شكرى، حنان الشيخ، جمال الغيطانى، علاء الأسوانى وغيرهم الكثير.



فيعتبر الهدف من هذا الأرشيف الحديث واجتهاد مسعد وتحليله المتميز لهذه المادة التى كونت بحثه مبتكراً وفاتناً ومؤثراً فى آن واحد، والأبعد من ذلك هو أن أهمية عمل مسعد الأرشيفى تكمن ليس فقط فى تسجيل وإعادة إنتاج السجالات حول الشهوة الجنسية التى تم كبتها (أى السجالات نفسها) ولكن ما هو أهم فى كتابه، وكما يقول هو، يكمن «فى الإشارة نحو مستقبل لم يأت بعد، لا سيما لمقاومة المحاولات من جانب عدد من القوى لتحديد وكتابة هذا المستقبل مسبقا» (صفحة ٤١٨).

ويعد «اشتهاء العرب» بحثاً شديد الجدية ومدروساً ومصقولاً بشكل ملحوظ وهو دراسة مدعمة بوثائق لا تعد ولا تحصى. وفى الواقع، يشكل بحث مسعد الجدير فى مجموعه الكلى أسلوب بحث متماسكا وفعالا بدرجة عالية تسمح بتطور متزامن لبحثه بعيد المدى.

وفى قلب هذا المشروع الشامل الذى تمكن أساليبه التحليلية من القيام بحفريات فى مجالات وتخصصات متعددة تكمن مسألة الثقافة: اختراعها وإنتاجها وقمعها فى عهود الاستعمار وبعد الاستعمار فى الشرق الأوسط. وشأنه شأن أعمال مسعد الأخرى، يتحرى «اشتهاء العرب» الفضاء الخطابى والمؤسساتى التى من خلاله تُخترَع الثقافة تحت كل من الحكم الاستعمارى، من خلال الممارسات الاستعمارية التى حاولت تشييء الاختلافات العرقية والدينية، وكذلك من خلال السياسة الثقافية لدول الاستقلال ما بعد الاستعمارية فى جهودها لتوحيد الأمة والهوية والانتماء القومى. وفى حدود هذا الإطار، يوجه بحث مسعد الجدير نفسه ويتحاور مع عدة تخصصات مثل الدراسات الشرق أوسطية، التاريخ الفكرى، الدراسات الثقافية، دراسات ما بعد الاستعمار ودراسات النوع الجنسى. إن المشروع الأرشيفى الضخم فى «اشتهاء العرب» يؤكد قدرة مسعد اللافتة فى تقوية أسلوب البحث عبر تحويله إلى بناءات عابرة للتخصص وأصلية لمقاربة مجالات وتخصصات مختلفة من الدراسات الأكاديمية.

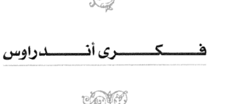
فهذا الكتاب إذن هو مساهمة رئيسية فى الكتابات الأكاديمية فى تخصصات عدة منها دراسات الشرق الأوسط، الدراسات عن الجنسانية والمثلية، وتاريخ العرب الفكرى والدراسات الإستشراقية، كما سيكون له تأثير ملموس على دراسات الأدب العربى الحديث أيضا. ولذلك لم تكن مفاجأة أن حاز «اشتهاء العرب» جائزة ليونيل تريللينج للكتاب عام ٢٠٠٨، وهى جائزة مرموقة تقدمها جامعة كولومبيا. ويشير منح الكتاب هذه الجائزة التى تكرم ذكرى الأكاديمى والمثقف ليونيل تريللينج إلى الإقرار بدور مسعد الموازى كمثقف يخاطب قاعدة واسعة خارج الأكاديمية من جهة وعلى أن إنتاجه الأكاديمى يظهر نفس المستويات المتميزة التى عرفت عن أعمال تريللينج. ■



يؤسس مسعد ببراعة العلاقة الحاسمة بين دور الغرب والاستعمار في بناء خطاب جديد عن الشهوات والسلوكيات الجنسية عند العرب





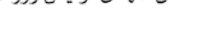


فكرى أندراوس



خوفى عليكَ وخوفى منكَ يملؤنى
رُعبًا من اليومِ مصحوبًا برُعب غدِ

«الصادق المهدى، رئيس وزراء السودان السابق»





■■ إن الأمن القومى الحقيقى للشعب المصرى يكمن فى ضمان استمرار سريان مياه النيل وفى حسن استخدام ما يصلنا منها. كان النيل - وإلى عهد قريب- شأناً مصرياً لا يهم الآخرين. وكان الخطر الوحيد يأتى من التذبذب البسيط فى إيرادات النهر تبعاً لمعدل الأمطار فى دول المنبع وخصوصاً إثيوبيا والتى تمدنا بحوالى ٨٥ ٪ من مياه النيل. أما الآن فالوضع مختلف، فدول المنبع لها متطلبات وتعداد سكانها يزداد بينما معدل الأمطار يقل ، وقد بدأ الجفاف ينتاب بعض مصادر المياه فى إفريقيا.

يؤكد الكثير من العلماء إن الاحتباس الحرارى سيقع خطره الأكبر على دول العالم الجنوبية ومن المتوقع أن تعانى إفريقيا من جراء ذلك. إننا نرى بوادر ذلك بجفاف بعض المناطق مثل دارفور وجفاف بحيرة تشاد بعد أن كانت مليئة بالمياه سنة ١٩٦٣ وكذلك ذوبان الثلوج على جبال كالمانجارى فى تنزانيا. إن إثيوبيا من المتوقع أن تعانى من الجفاف، وسينعكس ذلك على مصر والسودان.

إن نصيب الإنسان المصرى من المياه ٧٩٠ متراً مكعباً (م م) فى العام ، ويمثل هذا ٤٧٪ مما كان عليه سنة ١٩٦٩. إن المستوى الحالى لما يخص الفرد المصرى يعتبر تحت مستوى خط الفقر العالمى المحدد للمياه والذى يُقدر بحوالى ١٠٠٠ م م. إن الغد آتٍ لا محالة ويجب علينا جميعا أن نقلق ونفكر فى مستقبل الأجيال القادمة. ما تأثير هذه التغيرات على مصر؟ هل هناك خيارات مصرية ؟

هل نحسن استغلال ما يصلنا من مياه النهر (وهى قليلة رغم ما يعتقده الكثيرون) ؟ ما هى سياسة مصر تجاه دول المصدر؟ وما الوضع القانونى لمياه النهر والذى تشترك فيه عشر دول ؟

هذا المقال يتعرض لبعض هذه التساؤلات مع مقدمة مختصرة عن تاريخ السياسة والنهر. سأهتم أساساً بمصر والسودان وإثيوبيا وهى دول حوض النيل الشرقى. إن مصر تكاد تكون الدولة الوحيدة فى العالم التى تأتى كل مياهها تقريباً من خارج حدودها ؛ الأمر الذى يضعها فى موقف حرج للغاية. إثيوبيا وحتى الآن تمول مصر بحوالى ٨٥٪ من مياه النيل وإن كان ذلك سيقل مستقبلاً . السودان هى ثانى دولة تنتفع ببعض مياه النيل وإن كان لها مصادر أخرى للمياه إلا أن كل المياه التى تصل مصر تأتيها عن طريق السودان. بالرغم من وجود نقص وتنافس على المياه إلا أنه من الممكن إيجاد تعاون بل تكامل اقتصادى مفيد للجميع .

[١]

لقد وهبت الطبيعة مصر وشعبها هذا النهر الذى لولاه لما كانت مصر، لقد عبد القدماء نهر النيل وتغزل فيه الشعراء. لم يكن النهر مهماً للزراعة فقط بل كان أيضاً المصدر الرئيسى للمواصلات. أنشأ القدماء مقاييس دقيقة على طول النهر ليقيسوا مدى ارتفاع المياه وليحددوا موعد كسر الجسور ليغطى الفيضان الأرض لمدة قرابة الشهرين ابتداءً من النصف الثانى من أغسطس وكان ذلك مصحوباً باحتفالات عديدة .

لم يتغير حال النيل كثيراً منذ القدم إلى أن جاء محمد على ثم الخديو إسماعيل بمشروعهم الكبير للتقدم بمصر. اهتموا بالنيل داخل مصر وخارجها. وُسِّعت الترع القديمة على طول مصر وعرضها، شُقَّت الكثير من الترع والتى كان أهمها ترعتى الابراهيمية والاسماعيلية، قُويت الجسور وأُنشئت قناطر على عديد من الترع لضبط مياهها للانتفاع بالرى من خلالها وكان أهمها القناطر الخيرية وقناطر التقسيم بديروط. أما خارج مصر فكان الاهتمام بالسودان لتأمين منابع النيل والبحث عن الذهب. ويقول «عبد الرحمن الرافعى» فى كتابه عن تاريخ محمد على إن الانجليز بعد فشل حملة فريزر لاحتلال مصر سنة ١٨٠٧ فكروا فى احتلال منابع النيل، وكان رأيهم ورأى الأوروبيين أن من يسيطر على منابع النيل يسيطر على مصر. كان ذلك أحد أسباب اهتمام محمد على بالسودان. سنة ١٨٢٠ بدأ محمد على حملاته لاحتلال السودان وكانت أهم أهداف تلك الحملات

اكتشاف منابع النيل والاطمئنان عليها. عهد محمد على إلى البكباشى سليم بك قبطان وهو أحد ضباط البحرية المصرية باكتشاف منابع النيل، فقامت ثلاث حملات اكتشفت بعض روافد النيل الأبيض فى جنوب السودان وبلغت جزيرة جونكر -١٧٠٠ كيلومتر جنوب الخرطوم. ونشرت اكتشافات تلك الحملات فى مجلة الجمعية الجغرافية المصرية سنة ١٨٤٢.

امتد نفوذ مصر إلى «سواكن» على البحر الأحمر و«مصوع» بالقرب من حدود الحبشة. فى عهد إسماعيل احتلت مصر مديرية فاشودة والتى تعد مفتاح النيل بالقرب من ملتقى روافد النيل التى تصب فى النيل الأبيض ومنها نهر سوباط وبحر الغزال بالإضافة الى خمسة فروع أخرى.

بدأ الأوروبيون يكتشفون منابع النيل؛ فاكتشف الإنجليزيان سبيك

يؤكد الكثير من العلماء أن الاحتباس الحرارى سيقع خطره الأكبر على دول العالم الجنوبية ومن المتوقع أن تعانى إفريقيا من جراء ذلك





المياه مقبلة

«Speke .H.J» وجرانت «Grant A.J» بحيرة أكروى والتى سموها بحيرة فكتوريا سنة ١٨٦٠ ومولت الجمعية الجغرافية الإنجليزية ذلك الاكتشاف. عام ١٨٦٤ اكتشف صمويل بيكر الانجليزى ومن تلقاء نفسه بحيرة ألبرت. مولت حكومة إسماعيل سنة ١٨٧٤ الكولونيل الأمريكى شالى لونج «Chaille Long»، الذى اكتشف بحيرة كيوجا غرب بحيرة فكتوريا وسماها بحيرة إبراهيم، إلا أن من كتبوا الأطالس بعد ذلك عادوا إلى الاسم الأصلى كيوجا.

امتد نفوذ مصر ليشمل إقليم خط الاستواء، وبسطت مصر نفوذها على أوغندا. أما الحبشة فقد فشلت حملات مصر لاحتلالها سنة ١٨٧٥- ١٨٧٦ لصعوبة طُبُغرافيتها، فقد حصَّنتها الطبيعة ضد الغرباء والمستعمرين وقد خسرت مصر الكثير من المال والرجال فى تلك المغامرة، إلا أن مصر تمكنت من ضم سواكن ومصوع والمناطق بين الحبشة والبحر الأحمر.

هكذا كان اهتمام محمد على وإسماعيل باكتشاف منابع النيل ووضعها تحت الحماية المصرية وقد أرسل شريف باشا وزير الخارجية المصرية مذكرة بمضمون ما تسيطر عليه مصر فى إفريقيا إلى سفراء الدول بالقاهرة. ولكن كانت هناك قوى أخرى لديها مطامع كبيرة. سنة ١٨٨٢ دخل الانجليز مصر بحجج استعمارية وهدفهم تأمين الطريق إلى الهند. أدى ذلك إلى تقلص نفوذ مصر فى إفريقيا عملياً وأصبح يخدم الانجليز. ماذا حدث لمصر بعد هذا التوسع الهائل؟ كانت أحلام مصر فى تلك الحقبة أكبر من قدراتها وحين توجد الفجوة بين الحلم والحقيقة ويعشق الحاكم السلطة وامتلاك الحضارة بأكثر مما تسمح به ظروف الدولة تتحطم الأحلام وتنهار مظاهر العظمة.

كانت المنافسة بين إنجلترا وفرنسا لاتزال قوية، اعتقد الأوروبيون أن من يسيطر على منابع النيل يسيطر على مصر. سنة ١٨٩٨ دخلت فرقة فرنسية منطقة فاشودة -وهى مفتاح النيل- لتهدد نفوذ إنجلترا فى مصر. ولكن القوات المصرية والانجليزية تمكنت من طردهم، ثم حدث الوفاق بين إنجلترا وفرنسا لتوزيع الغنائم فقد كانت كثيرة ولم يكن هناك داع للخلاف.. أطلقَت يد إنجلترا فى مصر وحوض النيل ويد فرنسا فى المغرب العربى.

بعد احتلال مصر اهتم الانجليز بمياه النيل لتأمين مصالحهم فى مصر. رغم أن واجهة الاحتلال الانجليزى للسودان كانت الثورة المهدية، إلا أن السبب الذى قد يكون رئيسياً هو تأمين مياه النيل.

فى إفريقيا الاستوائية كانت هناك الكونجو (الفرنسى)، وحامية فرنسية فى جابوتى، إضافة إلى المحاولة الفرنسية للسيطرة على مفتاح النيل فى فاشودة والتى سبق الإشارة إليها، وكان هناك وجود أو نفوذ إيطالى فى إثيوبيا والصومال، وآخر بلجيكى فى الكونجو (البلجيكى) وفى رواندا وبوروندى، ولم تكن ألمانيا بعيدة عن كل ذلك بل كانت تراقب ما يحدث وأصبح لها وجود فى تنزانيا. فى ظل كل ذلك الوجود الأوروبى احتلت انجلترا بعض منابع النيل وعقدت المعاهدات لضمان عدم تدخل أى من الدول الأوروبية فى مياه النيل التى تصل لمصر. أهم المعاهدات التى عقدتها انجلترا كانت مع الحبشة فى عام ١٩٠٢ حيث تعهدت إثيوبيا ألا تسمح بأى عمل على النيل الأزرق، نهر السوباط أو بحيرة تانا إلا بعد موافقة انجلترا والسودان (والمقصود حقيقةً هو مصالح مصر فى مياه النيل).

بعد أن استقرت انجلترا فى السودان حاولت تطوير الزراعة فيه فاقترحت مشروع الجزيرة والذى يقع جنوب الخرطوم بين النيل الأزرق والنيل الابيض. وكانت المساحة المقترحة ٣٠٠ ألف فدان لزراعة القطن طويل التيلة لتلبية احتياجات مانشستر المتزايدة. عارضت مصر ذلك المشروع بشدة لعدة سنوات، إلا أن مصر تداركت أنها والسودان بلدٌ واحد. اقترحت انجلترا لترضية مصر أن ينشأ سد فى سنار لصالح مشروع الجزيرة وسد آخر فى جبل الأولياء لتوفير مياه إضافية لمصر، مقابل ذلك يحق لمصر استخدام الفيتو ضد أى مشروع يقام على النيل؛ ولكن على مصر فى مقابل ذلك أن تساهم فى تنفيذ مشروع الجزيرة. دُوِّن كل ذلك فى معاهدة سنة ١٩٢٩ والتى خصصت للسودان ٤.٥ مليار متر مكعب (م م م) ولمصر ٤٨.٥ م م م تبعاً للاحتياجات الفعلية. تسببت تلك المعاهدة فى غضب واستياء بعض السودانيين وقد رفضتها أوغندا، وكينيا، وتنجانيقا بعد حصولهم على الاستقلال فى أوائل الستينيات.

كان مشروع الجزيرة أول مشروع كبير للرى فى حوض النيل خارج الأراضى المصرية. لم يكن اهتمام انجلترا بتأمين مياه النيل فقط بل اهتمت بوزارة الاشغال ونشر بعض العاملين بها بعض الكتب المهمة. منها كتاب «الدليل فى موارد أعالى النيل» الذى كتبه سير وليم جارستن سنة ١٩٠٣ ويقع فى ٦٣٦ صفحة، وقد أعادت مكتبة مدبولى نشر الكتاب سنة ٢٠٠٠. ولعل الموسوعة التى كتبها هرست وبلاك ويوسف سميكة ونقله للعربية حسن أحمد الشربينى سنة ١٩٤٦ من أهم ما كتب حتى ذلك التاريخ وهى موسوعة علمية عظيمة عن «النيل وخطط المستقبل» وقد صدرت بهذا الاسم. أما فى العصر الحديث فإن كتاب رشدى سعيد «نهر النيل. نشأته واستخدام مياهه فى الماضى والمستقبل» يعد مرجعاً مهماً لكل مهتم بشئون النيل.

كان هدف مصر وحتى منتصف القرن الماضى هو التخزين الموسمى للاستفادة من جزء من مياه الفيضان والتى يذهب حوالى ٦٠٪ منها للبحر الأبيض المتوسط. من هنا تم إنشاء خزان أسوان سنة ١٩٠٢ ثم تبعه خزان نجع حمادى، فخزان أسيوط ثم خزان زفتى. كانت تعلية خزان أسوان الأولى فى عام ١٩٢٢ والثانية فى عام ١٩٣٣. مع الاحتياجات المتزايدة للمياه فكرت مصر فى إنشاء خزانات فى دول المنبع للتخزين المستمر وأيضاً لتجنب الفيضانات المنخفضة. فكرت مصر فى إنشاء خزانات على بحيرة فكتوريا، بحيرة ألبرت، وبحيرة تانا. لم يكن هناك فى ذلك الوقت أى اهتمام بمياه النيل خارج الاهتمامات المصرية وبعض الاهتمامات السودانية، حيث إن الأمطار فى تلك المناطق كانت كافية لاحتياجات تلك الدول. الخزان الوحيد الذى بُنِىَ على البحيرات كان خزان أوين على بحيرة فكتوريا والذى بُنى سنة ١٩٤٨ بناءً على طلب أوغندا لتوليد الكهرباء وقد ساهمت مصر فى ذلك المشروع. رغم أن التخزين المستمر فى دول المنبع هو أفضل الحلول حيث إن المياه المخزنة هناك تفقد بالبخر حوالى ثلث ما تفقده سدود الشمال حيث درجة الحرارة العالية. لم يكن المناخ السياسى ملائماً فى ذلك الوقت، ففكرت مصر فى إنشاء السد العالى داخل أراضيها رغم ما لهذا المشروع من بعض الآثار السلبية التى ذكرها رشدى سعيد فى كتابه بموضوعية العالم.

أصبح مشروع السد العالى مشروعاً قومياً أثار خيال البعض داخل مصر وغضب البعض خارج مصر خصوصاً عندما تعرقل



التمويل من الغرب ولجأت مصر للاتحاد السوفيتي.

كانت إحدى مشاكل مشروع السد هي موافقة السودان والذى ستتعرض بعض أراضيه فى النوبة السودانية للغرق. حصلت السودان على استقلالها سنة ١٩٥٦، عارضت الحكومة المنتخبة مشروع السد العالى وأيضاً معاهدة سنة ١٩٢٩ وطالبت بتعديلها، وكانت هناك مشاحنات أخرى بين مصر والسودان. استولى الجيش السودانى سنه ١٩٥٨ على الحكم ووافقت حكومة السودان العسكرية على مشروع السد ووقعت المعاهدة بين مصر والسودان بشأن السد سنة ١٩٥٩، قبل توقيع المعاهدة مع روسيا بثلاثة أسابيع . كان نصيب السودان من المياه المخزنة ١٤.٥ مليار متر مكعب (م م م) بعد أن كان نصيبها ٤ م م م فقط، وأصبح نصيب مصر ٧.٥ م م م، بذلك يصبح نصيب مصر من حقوقها التاريخية بالإضافة إلى ما يخزنه السد حوالى ٥٥ م م م ونصيب السودان ١٨.٥م م م .

كانت معاهدة السد هى أول معاهدة تعقد بين دولتين على حوض النيل بعد استقلال دول النهر. لم تشمل المعاهدة أياً من دول أعالى النيل وخصوصاً الحبشة والتى تمول مصر بحوالى ٨٥٪ من مياه النهر. كانت مصر والسودان على دراية بذلك، ولذلك أضيف بند فى الاتفاقية (بند رقم ٢ فى الأحكام العامة للمعاهدة) يذكر أن البلاد الأخرى لها مطالب فى مياه النيل وعلى مصر والسودان أن يتفقا على رأى موحد تجاهها، وفى حالة حدوث تغيير، تقسَّم الكمية المخصصة للدول الأخرى مناصفة بين مصر والسودان محسوبة عند أسوان . ولم تحدث أية معاهدة بهذا الخصوص حتى الآن رغم مطالبة الدول الأخرى بحصة من مياه النهر. كانت مصر وحتى عهد قريب تقف بالمرصاد لأى مشروع على النهر من الممكن أن يؤثر فى نصيبها من المياه أو حتى مجرد فتح باب المشاركة فى مياه النهر. كانت وجهة النظر المصرية أن أى استهلاك من دول المنبع سيقابله نقص فيما يصل لمصر وهو ما يسمى «بالمعادلة الصفرية».

[٢]

إن مستقبل حوض النيل يعتمد على إبرام اتفاق شامل بين كافة دول النهر - وعددها عشر دول قابلة للزيادة بفعل التقسيم.

إن أغلب مياه النهر تأتى لمصر من الحبشة عن طريق السودان وهناك بعض الخلافات بين مصر والسودان ومصاعب بين مصر والحبشة. ورغماً عن ذلك فهناك احتمالات كبيرة للتعاون المثمر بين هذه الدول الثلاث. سأحاول هنا أن أتناول بعض العلاقات المصرية - السودانية -الإثيوبية باختصار.

إن السودان هى أقرب دولة عربية لمصر من حيث العلاقات والمصالح وتعد عمق مصر الجنوبى، كما أن مصر هى عمق السودان الشمالى.

إذا نظرنا إلى العلاقات المصرية السودانية فى القرنين الماضيين سنجد أن مغامرة محمد على وإسماعيل لم تترك أثراً طيباً لدى الكثير من السودانيين رغم أن المصريين كانوا أيضاً مغلوبين على أمرهم، واستمر نفس الشيء خلال الحكم الثنائى للسودان.

بعد استقلال السودان سنة ١٩٥٦ كان هناك قلق مصرى على السودان. عارضت حكومة السودان الجديدة مشروع السد العالى وكذلك معاهدة ١٩٢٩ وطالبت بتعديلها. استولى الجيش السودانى على السلطة وأصبحت العلاقات مع مصر أفضل بكثير حيث أن الحكومة المصرية فضلت التعامل مع النظم العسكرية الصديقة عن النظم الديمقراطية فلم يكن لها صبر على ذلك. نظرت مصر للسودان ولباقى الدول العربية باعتبار أن هناك أصدقاء وأعداء وحاولت إضعاف من اعتبرتهم أعداء بدلاً من التفاهم معهم. بيت الشعر الذى ورد فى أول هذا المقال قاله الصادق المهدى فى وصف علاقة مصر بالسودان. أما بخصوص مياه النيل فهناك تفاهم لا بأس به وإن كانت مشاكل الجنوب وكردفان تشل حكومة السودان الحالية. السودان به ٢٣٥ مليون فدان تصلح للزراعة المطرية والرعى المتنقل، أما المساحة المروية فحوالى ٣.٧ مليون فدان. وإن كانت أغلب الأراضى الصالحة للزراعة تعتمد على معدل الأمطار. بعض هذه الأراضى بها مياه جوفية متجددة من الممكن استخدامها فى الزراعة فى حالة قلة الأمطار. والحقيقة أن مشكلة دارفور فى أساسها مشكلة قلة الأمطار.

السودان تستخدم ١٤.٥ م م م من حصتها فى مياه السد رغم أن حصتها ١٨.٥ م م م، وتستخدم مصر الفائض من احتياجات السودان وقدره ٤ م م م وهذا طبعاً لن يدوم. السودان لديها مشاريع لرى ٦ ملايين فدان إضافية تحتاج إلى ١٥ م م م وإن كان ذلك مرهوناً بزيادة تخزين ٨ م م م عن طريق تعلية بعض الخزانات وإقامة خزانات أخرى. إن العديد من تلك المشروعات توجد فى جنوب السودان الملىء بالقلاقل.

اشتملت المعاهدة المصرية السودانية سنة ١٩٥٩ على أن تتولى الدولتان إنشاء مشروعات زيادة إيرادات النهر لمنع الضائع منها. مشرع جونجلى مثلاً لشق قناة لتفادى ضياع المياه خلال منطقة السدود وهى منطقة مليئة بالأحراش، من الممكن أن يوفر ذلك المشروع لكل من مصر والسودان ١.٩ م م م. اقترح ذلك المشروع أولاً عندما كان الانجليز بالسودان ولكنهم لم يوافقوا عليه لإضراره بقبائل الدنكا من ضمن إضراره بالبيئة.

وُقِّعَت معاهدة مشروع جونجلى وبدأ العمل فيه سنة ١٩٧٨ إلا أنه توقف بعد الاضطرابات الجنوبية وحتى الآن.

فى إمكان السودان لو استقرت به الأمور أن يموِّل مصر وبعض الدول الإفريقية والعربية بوفرة من المحاصيل الزراعية وخصوصاً الغلال. وهذا ما دعا الصادق المهدى رئيس وزراء السودان السابق أن يقول فى كتاب (مياه النيل) : «الخريطة السكانية الجديدة للسودان سوف تظهر الحاجة لحقن سكانية لمناطق مختلفة فى السودان. إن التفكير فى هجرة مصرية للسودان أكثر جدوى فى محاولة تعمير أراضٍ شبه صحراوية (أو حقيقةً صحراوية) تكلف الكثير من الماء والمال». (ص ١٢٦)

بل اقترح أن تركز مصر على الصناعة وأن تركز السودان على الزراعة.

إن السودان لديها طاقة كبيرة فى إنتاج اللحوم والحبوب. هذا ما قاله رئيس وزراء السودان السابق ، وإن كان رجال السياسة يقولون وهم خارج الحكم ما لا يفعلون عندما تؤول إليهم السلطة . مشاريع من هذا القبيل قد تكون صعبة التنفيذ إلا أنها غير مستحيلة ، خصوصاً إذا ما رُفِقت بالتمويل الاقتصادى والفنى وعلى الأقل هناك جزء من هذا متاح لمصر بدلاً من المصاريف الهائلة التى ننفقها على مشاريع صعبة النجاح وليس لها مستقبل كبير مثل مشاريع زراعة الصحراء. يقول الصادق المهدى أيضاً وهو على حق : إن السودان يعلم كثيراً عن مصر ولكن معلومات المصرى عن السودان ناقصة. إن التكامل الاقتصادى مع السودان هو أمل المستقبل لكلا البلدين ولكن يجب على المشتركين فى هذا التكامل أن يكونوا على علم بالتاريخ وبالحساسية الموجودة بين الطرفين ولن يتحقق ذلك إلا بالتعليم المستنير.

[٣]

علاقة مصر بإثيوبيا علاقة قديمة فكلتاهما من أقدم الدول الإفريقية وكلتاهما لها تاريخ قديم. كانت تلك العلاقات تتأرجح بين الود والمهادنة إلى عدم الثقة والعداء. كانت الكنيسة الإثيوبية تتبع الكنيسة المصرية وكان رئيس الكنيسة الإثيوبية مطراناً مصرياً يُرسِّمُه بطريرك الاسكندرية. وكان ذلك المطران يقال له فى الحبشة «أبونا»، وكان يتوِّج ملِك أو إمبراطور أثيوبيا !

مع حركة الاستقلال التى اجتاحت إفريقيا، استقلت الكنيسة الإثيوبية عام ١٩٥٩. كانت إثيوبيا أحياناً تستخدم خبراء وموظفين مصريين وكانت مصر أحياناً تتدخل فى شئون الحبشة عن طريق الكنيسة.

كانت مصر وإثيوبيا ومنذ القدم على

أغلب مياه النهر تأتى لمصر من الحبشة عن طريق السودان وهناك بعض الخلافات بين مصر والسودان ومصاعب بين مصر والحبشة

دراية تامة بأهمية مياه النيل الأزرق لمصر وكانت إثيوبيا أحياناً تهدد بقطع المياه عن مصر ولم يكن ذلك ممكناً فى الماضى إلا أنه كان مصدراً للقلق وعدم الثقة.

يقول Kinfe Abraham وهو أستاذ جامعى إثيوبى «إن امبراطور إثيوبيا لاليبيلا Lalibela (١١٣٣ - ١١٦٣) وكان من أقوى حكام الحبشة، اقترح تحويل مجرى النيل الأزرق.. ولكنه امتنع عن ذلك بعد أن قررت الحكومة المصرية أن تدفع (إتاوة) سنوية للحبشة».

مساحة إثيوبيا أكبر من ضعف مساحة مصر الكلية وتعدادها يقارب التعداد المصرى. ويشق أراضى إثيوبيا ١٢ نهراً لذلك سميت نافورة إفريقيا، ولكنها لا تستغل هذه الأنهار فى الزراعة. أغلب أراضيها ذات طبوغرافية جبلية إلا أنها خضراء بفعل الأمطار والكثير منها يستخدم فى المراعى والزراعة المطرية بكفاءة متواضعة. بعض هذه الأراضى به مياه جوفية متجددة قدرت بحوالى ٢٠ م م م، من الممكن استخدام بعضها فى الزراعة خصوصاً لو أتيحت مصادر الطاقة الكهربائية من مساقط المياه.

استعانت إثيوبيا ببيوت الخبرة الأمريكية لتطوير سياسات ونظم المياه بها مرتين، كانت الأولى سنة ١٩٢٧ لإقامة سد على بحيرة تانا بتكلفة قدرها ٢٠ مليون دولار إلا أن انجلترا أوقفت المشروع.

أما المرة الثانية فكانت خلال أزمة قناة السويس وبناء السد العالى، وكان لذلك مغزى سياسى واضح. استغرقت هذه الدراسة خمس سنوات ونشرت نتائجها فى ١٧ مجلداً سنة ١٩٦٣. واقترحت إقامة أربعة سدود على النيل الأزرق لتخزين ٥١ م م م لتزيد مساحة إثيوبيا المزروعة حوالى ٣.٥ مليون هكتار فى منطقة النيل الأزرق ونهر سوباط. ستنتج هذه السدود ٣٠ مليار كيلوواط بالساعة وهو ثلاثة أضعاف ما ينتجه السد العالى. وكان هذا أكثر بكثير من طاقة إثيوبيا الاستهلاكية واحتياجاتها الفعلية ولو تم ذلك لأمكن لإثيوبيا أن تصدر الكهرباء لمصر والسودان ودول أخرى. لم ينفذ هذا المشروع لأسباب عديدة قد يكون منها أن إقامة السدود الكبيرة قد تؤدى إلى (الإطماء) السريع «ترسيب الطمى» ولا يبدو أن هناك حلاً لهذه المشكلة إلى الآن. ولهذا يبدو أن اثيوبيا اتجه تفكيرها الى إنشاء العديد من الخزانات الصغيرة فى مشاريعها المستقبلية. فى مؤتمر الأمم المتحدة لبحث قضايا التنمية عام ١٩٨٣ قدمت إثيوبيا خطةً لإنشاء ٤٠ مشروعاً للزراعة المروية. مشاريع إثيوبيا المستقبلية تحتاج حوالى ٧٥ مليار دولار خلال الخمسين عاماً القادمة وهناك مجالٌ كبير لتقديم المعونات ومجال للاستثمار الدولى والعربى والمصرى. إن استثماراتنا فى الصحراء المصرية يجب إعادة النظر إليها خصوصاً على ضوء ما سوف يحدث من تغيير فى المناخ والذى سيكون مصحوباً بالجفاف.

إن الاستثمارات المصرية (رغم قلتها) والاستثمارات العربية تعد استثمارات طويلة المدى وتؤدى لبعض التكامل الاستراتيجى العربى والإفريقى.

هناك احتمالات عديدة للتطور فى إثيوبيا، وما يقف فى طريقها هو الفقر، والحروب، وانعدام التمويل، ومصر. إن الصراع بين إثيوبيا ومصر هو صراع بين الحق التاريخى لمصر فى مياه النيل وبين احتياجات الحبشة للمياه لأغراض التنمية. سياسة مصر كانت استغلال حروب الحبشة ضد كل من اريتريا والصومال بمساندة الاخيرين لإنهاك الحبشة. وفى نفس الوقت ترفض مصر مشروعات التنمية الإثيوبية. إن سياسة مساندة إريتريا والصومال أدت إلى طلب مساندة أمريكية إبان أزمة السويس. أصبحت أيضاً لإسرائيل علاقة قوية بإثيوبيا ولا يخفى على أحد مضمون ذلك. ومن ناحية أخرى قال وزير خارجية إثيوبيا فى عهد منقستو عام ١٩٨٦» إن لم يكن قرنق (زعيم المعارضة فى جنوب السودان) موجوداً لكان علينا أن نخترعه!! عن طريق دعمنا لقرنق نفرض عليكم أن تعاونونا فى مشكلتنا مع إريتريا». لقد أوقفت حروب الجنوب السودانى مشروع جونجلى وإلى الآن (الصادق المهدى. مياه النيل ص ١٤٧).

أعتقد أن سياسة مصر كانت قصيرة المدى ولا أعتقد أنها كانت لصالح مصر.

من الممكن لمصر الموافقة على بعض مشاريع إثيوبيا حتى لو استهلكت جزءاً من مياه النيل الأزرق (المطلوب ٦ م م م تقسم مناصفة بين مصر والسودان). من الممكن أن نساهم فى بعض مشاريع إثيوبية منها مثلاً مشاريع للثروة الحيوانية من الممكن أن توفر مياها لمصر بالإقلال من زراعة أو استيراد مواد العلف. تعد إثيوبيا الدولة الرائدة إفريقياً فى الإنتاج الحيوانى، لديها ١٦ مليون رأس ماشية و٢٣ مليون رأس غنم خلاف الماعز، بينما مصر فقيرة فى الإنتاج الحيوانى الرخيص والمعتمد على المراعى، ومن الممكن أن يكون هناك تعاون اقتصادى فى هذا المجال. بالإضافة إلى إمكان استيراد كهرباء لتصنيع جنوب مصر. هذا ما اقترحه Kinfe Abraham وهو يمثل وجهة نظر إثيوبية. إن إنتاج رطل واحد من اللحم يستلزم حوالى ١٢٠٠٠ جالون ماء لتغذية وشرب الحيوان المنتج. من الممكن أن ننظر إلى استيراد اللحوم والحبوب من إثيوبيا أو السودان كطريقة لتوفير المياه على أن نركز على مشروعات أخرى وسأعود إلى ذلك.

إن إبرام معاهدة طويلة المدى مع إثيوبيا الآن أفضل من إبرامها فى المستقبل. يعتقد البعض أن حالة إثيوبيا من الضعف بحيث يمكننا ردع اثيوبيا عسكريا كما هدد الرئيس السادات فى الماضى وأكد ذلك بعض الدبلوماسيين وكبار ضباطنا. فى نفس الوقت فكر الرئيس السادات أن يوصل جزءاً من مياه النيل لإسرائيل فهى مياه تأتى من الحبشة ونريد أن نحرمها منها (لاحظ أن قطاع غزة أفقر مكان فى العالم فى معدل المياه المتاحة ولم نفكر فى توصيل مياه إليه). من حسن الحظ أنه كان هناك من العقلاء من أوقف ذلك حيث أن توصيل مياه النهر لدولة أخرى يشترط موافقة دول النهرالأخرى. مثل هذه السياسة سيكون له ضرر بالغ فى المستقبل ولن تتقبله الدول الإفريقية أو العالم. والحقيقة أن الإثيوبيين يشعرون بالمرارة نتيجة تجاهلهم أو تهديدهم أو مساندة أعدائهم.

إن هناك تغيراً فى السياسة المصرية تجاه إثيوبيا: فهى الآن سياسة تعتمد على الحفاظ على الكيان الإثيوبى، بل وتسعى مصر إلى صياغة عربية إيجابية تجاه إثيوبيا. ولا بد لنا من لم شمل السودان وإثيوبيا كبداية لسياسة موحدة لكل دول النهر وهذا ما تسعى إليه مصر فى مؤتمرات دول حوض النيل الشرقى. لعل هذه السياسة تستمر وتؤدى إلى اتفاقيات مُرْضية.

كان ولايزال هناك شبه عداوة بين مصر ودول المصدر الأخرى لانفراد مصر باستخدام مياه النيل رغم مشاركة تسع دول اخرى، هذا من ناحية ومن ناحية ولأنها دولة كبرى وغنية بالنسبة للدول الإفريقية، ولأنها أيضاً خبيرة بشئون النهر أكثر بكثير من أغلب دول النهر ما عدا إثيوبيا والسودان. وللأسف فإن الدين أيضاً يدخل فى الصراع الموجود الآن، ويقول السفير محمد سمير أحمد «إنه لا يمكن إغفال أهمية العنصر الدينى وراء بعض الصراعات، إن أثيوبيا وأوغندا وتنزانيا يغلب فيها تواجد الحكام المسيحيين وبالتالى تمثل جبهة لا شعورية فى مقابل جبهة العروبة والإسلام فى شمال السودان ومصر والصومال». وقد يكون بعض العداء لمصر والسودان راجعا إلى الشعور بأنهما - وخاصة مصر- فى إمكانها مساعدة الدول الإفريقية الفقيرة ولكنها لا تفعل إلا أقل القليل. لقد قال ممثل أوغندا فى أحد اجتماعات تكنونيل «يجب علينا أن نطالب مصر والسودان بتعويضات مالية مقابل قيامنا بوظيفة المخزن الطبيعى لمياه النيل». وفى هذا المجال قال رئيس وزراء تركيا عند افتتاح مشروع جنوب شرق الأناضول: «لا تستطيع سوريا والعراق أن تطالبا بنصيب فى أنهار تركيا تماماً كما لا تستطيع تركيا أن تطالب بنصيب فى نفط العراق». هذا وقد باعت تركيا مياها لإسرائيل خلال أنابيب وإن كانت كميات غير كافية إلا أنها سابقة لا يستهان بها ونحن على أبواب صراعات على المياه. وإن كانت تركيا غير دول إفريقيا الاستوائية إلا أننا نعيش فى زمن يتغير بسرعة والمياه أصبح يُنظر لها كسلعة تُباع وتُشترى.

إن السودان هى أقرب دولة عربية لمصر من حيث العلاقات والمصالح وتعد عمق مصر الجنوبى، كما أن مصر هى عمق السودان الشمالى





[٤]

تقدر الاحتياجات المستقبلية من المياه لدول حوض النهر وهى (كينيا، أوغندا، تنزانيا، رواندا، بوروندى، وزائير) بحوالى ٩ مليارات متر مكعب وإن كانت احتياجاتها الحالية أقل من المليار. وكل هذه الدول لا تعترف بمعاهدة ١٩٢٩ والتى تعطى لمصر حق «الفيتو» لأى من مشاريعها. لقد قال أوديدى أوكيدى عميد معهد دراسات البيئة فى جامعة موى فى كينيا سنة ١٩٩٠ «إن ثلثى أراضى كينيا قاحلة بينما لديها بعض الأنهار التى تصب فى بحيرة فكتوريا. إن كينيا ستحاول أن تنقل بعض هذه المياه لتستغلها فى الزراعة. لابد من إعادة النظر فى توزيع مياه النيل وروافده . وهناك مشاريع قديمة للزراعة فى تنزانيا وإن كان ما نُفذ منها أقل القليل. كل دول الحوض تتطلع لزيادة استهلاك المياه فى مشروعات التنمية الزراعية وإن كانت وحتى الآن موبوءة بالصراعات والأمراض.

إن التغيرات المناخية فى إفريقيا ستكون قاسية، فارتفاع حرارة القارة سيكون ضعف المتوسط العالمى ، فمناطق زراعة الشاى فى كينيا مثلا ازدادت درجة حرارتها ثلاث درجات ونصف درجة مئوية فى العشرين عاماً الماضية. وتشير أحدث أبحاث سخونة الأرض إلى أن بعض مناطق إفريقيا بدأ يصيبها الجفاف كما هو واضح فى بعض المناطق مثل النيجر ودارفور. إن التغير المناخى فى إفريقيا الاستوائية وشبه الاستوائية سيكون شديد التقلب، إثيوبيا من المتوقع أن تقل أمطارها بينما قد تزداد أمطار منطقة خط الاستواء فى دول البحيرات. فى كلتا الحالتين سيكون ذلك مصحوباً بتذبذب شديد بين الزيادة والنقصان. كل هذه التغيرات ستفرض على الجميع أن يغيروا من سياستهم فيما يتعلق بالمياه وكيفية استخدامها. إن ما يصل إلى السودان ومصر من مياه النيل سيقل بدون شك ،وغالباً سيقع التأثير الأكبر على مصر.

لقد ساندت مصر وشجعت تجمعاً أخوياً إفريقياً لدول حوض النيل سُمِّى «الأوندوجو» والتى تعنى «الأخوة» باللغة السواحلية. وتعقد هذه الاجتماعات سنوياً على مستوى وزراء الخارجية وأحياناً وزراء الرى والكهرباء. وقد ساهمت الأمم المتحدة فى نشاطات الأوندوجو واقترحت: خفض عدد السكان (والحقيقة ان اخطر مشكلة تواجهنا هى الانفجار السكانى، إن تعداد مصر يجب ان يقل)، استغلال إمكانيات الطاقة الكهربائية وتوصيل جميع دول النيل بشبكة واحدة، التغلب على تصحر بعض الأراضى، وتحسين مصايد الأسماك. وقدَّرت بعثة الأمم المتحدة نفقات تلك المشاريع بحوالى ٥٠ مليون دولار ثلثاها سيكونان عن طريق مساعدات أجنبية. وهناك مشاريع أخرى كثيرة من الممكن إنجاز بعضها لمنفعة الجميع .

لقد أصبح من الضرورى تنظيم مياه الأنهار وحسن استغلالها لصالح كل دول النهر. إنشاء السدود والقنوات أصبح ضرورياً لزيادة إيرادات المياه وللإقلال من الفاقد. ولكن مشكلة إطماء الخزانات مشكلة مهمة إن لم تكن خطيرة. فمثلاً يفقد خزان «خشم القربة» فى السودان ٤٠ مليون متر مكعب من سعته التخزينية كل عام نتيجة ترسيب الطمى وكذلك خزان الرصيرص فى السودان أصبح عديم الفائدة الآن نتيجة ترسيب الطمى. أما فى السد العالى فهناك مشكلة قد تكون أخطر. لقد حذر حمدى الطاهر رئيس الهيئة العامة للسد العالى سنة ١٩٩٢ من أن الطمى الوارد من الحبشة من الممكن ان يكوِّن دلتا فى جنوب بحيرة ناصر قد تغير مجرى النيل ليتجه غرباً. إن حدث ذلك ستكون كارثة لمصر. إقامة خزانات فى إثيوبيا قد تقلل من الطمى الوارد للبحيرة ، ولكن الطمى سيسبب نفس المشاكل لتلك الخزانات فى إثيوبيا. وقد تكون مشكلة الإطماء سبباً رئيسياً فى إبطاء مشاريع أثيوبيا لبناء السدود. هذه المشاكل يجب التفكير فى حلها فى إطار دول النهر والأمم المتحدة وبعض الدول المموِّلة وبعيداً عن السياسات المتضاربة والتى تضر بالجميع، وأعتقد أنه ليس أمامنا متسع من الوقت لذلك.

[٥]

«هناك حوالى ٢٧٠ نهراً تشترك فيها أكثر من دولة» الأمر الذى أدى إلى عقد مؤتمرات عديدة حاولت تقنين الاستخدام التشاركى بين الدول وشروط وقواعد الاستخدام. رابطة القانون الدولى، معهد القانون الدولى، مؤتمر هلسنكى لرابطة القانون الدولى سنة ١٩٦٦، مؤتمر فيينا عام ١٩٧٨، مؤتمرات النيل -التى عقدت فى جامعة لندن وجامعة القاهرة، ومؤتمرات كثيرة أخرى بعضها علمى وبعضها سياسى واقتصادى. وأخيراً كانت هناك اتفاقية دولية بشأن قانون استخدامات المجارى المائية فى الأغراض غير الملاحية سنة ١٩٩٧، فى كل تلك المؤتمرات والاجتماعات، هناك شبه إجماع على بعض النقاط العامة والتى منها :عدالة التوزيع، سوابق استغلال وتوزيع حصص المياه منذ الماضى البعيد وإلى الآن، مدى احتياج كل دولة، تفادى الإسراف والاضرار بالدول الأخرى، أن تمتنع الدول المستفيدة عن تغيير مجرى النهر أو إقامة السدود التى من شأنها المساس بحصص الدول إلا بالاتفاق بين الدول المختصة ، الالتزام بسياسة زراعية مسئولة تأخذ فى اعتبارها قلة المياه مع الترشيد فى كافة الاستهلاكات الأخرى، الالتزام بعدم التسبب فى ضرر للآخرين، تعاون دول المجرى المائى على أساس المساواة فى السيادة والفائدة المتبادلة، وجوب التشاور بشأن إنشاء آلية مشتركة لإدارة المجرى المائى، تسوية المنازعات بين دول المجرى المائى تتم عن طريق التحكيم فإن استحال ذلك تكون تسوية المنازعات بواسطة محكمة العدل الدولية، وأخيراً وجوب سداد التعويضات المناسبة فى حالة الإضرار بحقوق دول أخرى.

أيدت الاتفاقية الدولية لسنة ١٩٩٧، ١٢٠ دولة. السودان وكينيا أيدتاها، أما مصر، وإثيوبيا، ورواندا، وتنزانيا فامتنعوا عن التصويت، وبوروندى عارضت الاتفاقية. أما أوغندا وإريتريا والكونجو فقد غابوا عن الجلسة. هذا التصويت أو الغياب عنه يدل على اختلافات شاسعة بين دول حوض النيل.

إذا تفاقمت بعض المشاكل فقد يؤدى ذلك إلى حروب ستكون ضارة للجميع ، كما أن اللجوء للمحاكم الدولية ليس له قوة الإلزام.

[٦]

السؤال الذى يجب على كل مصرى أن يسأله هو: هل نحسن استخدام مياه النيل ونحافظ على نقائها ؟

لعلى أبدأ بنقاء مياه النهر.

إن مصر وهى أكثر دول الحوض تقدماً هى أيضاً أكبر مُلَوث لمياه النهر. وإن كان ضمان استمرار سريان مياه النيل يثير القلق فإن مدى تلوث النيل يجب أن يثير الذعر فى النفوس. إننا نلقى فى النيل من أسوان وحتى المصب ٥٠٠ مليون متر مكعب (يعتقد رشدى سعيد أنها ٢ مليار متر مكعب) سنوياً من المخلفات الصناعية ، حصيلة حوالى ٥٠٠٠ منشأة صناعية منها ٢٧٠٠ منشأة فى شبرا الخيمة تلقى مخلفاتها بجوار مآخذ مياه القاهرة الكبرى بالإضافة إلى الصرف الصحى فى أغلب قرى مصر الذى يذهب للنيل (نادر نور الدين محمد الأهرام ٢٥-٢-٢٠٠٠). إذا كان هذا حال مصر فكيف سيكون حال الدول الإفريقية حين تبدأ الصناعة؟ وهل يحق لنا أن نسألها المحافظة على سلامة مياه النيل من التلوث وهذا هو حالنا؟ . وان كانت مياه الاستهلاك المنزلى خالية من الجراثيم نتيجة المعاملات الكيميائية، إلا أنها تحتوى على بعض المبيدات الحشرية والمعادن الثقيلة من نفايات المصانع والتى تسبب العديد من الأمراض المستعصية التى استفحل أمرها. إن نفايات المصانع التى تجد طريقها للنهر ستجد طريقها للمزارع والأسماك ومن الطبيعى أن تصل للإنسان.

هل نحسن استخدام مياه النيل؟

كانت مصر طوال تاريخها دولة زراعية ولا يزال أغلب المصريين يتصورون

قبل أن تستقل بكنيستها عن المصرية، كانت إثيوبيا أحيانا تستخدم خبراء وموظفين مصريين وكانت مصر أحياناً تتدخل في شئون الحبشة عن طريق الكنيسة

إمكان تطوير مصر بمشروع زراعى لغزو الصحراء. هناك أمثلة كثيرة على ذلك قد يكون أهمها مديرية التحرير، مشاريع شرق وغرب الدلتا، مشاريع الوادى الجديد، الواحات وترعة السلام وغيرها. كان السد العالى أكبر مشروع فى تاريخ مصر لتمويل الزراعة. وأخيراً جاء مشروع توشكى بطموحات هائلة تصل فى بعض التقارير لزراعة مليون أو حتى مليونى فدان ، وإن كان ما سيحدث فى الواقع أقل من ذلك بكثير.

بعض هذه المشاريع كان ضرورياً ونجح وله ظروفه. البعض الآخر يستحق إعادة التقييم ، وخصوصاً فى ضوء نقصان المياه المحتمل كما سبق الإشارة له. وإن كنا نجد أن بعض هذه المشاريع لم يكن موفقاً فهذا لا يعنى أنه لا يوجد بديل لاستمرار التنمية الزراعية.

إن زراعة الصحراء عموماً أصبحت فى نظر كثيرين فى مصر وفى دول أخرى مشاريع لها سلبيات كثيرة منها احتياجاتها لمياه كثيرة غالباً ما تكون غير متوفرة. فى الوادى الجديد مثلاً هناك مشكلة فى صرف الأراضى المنخفضة ، الأمر الذى أدى إلى تمليح بعض الأراضى ، وهى واضحة للعين المجردة لمن يزور هذه المناطق. بعض هذه الأراضى فى طريقه للتصحر.

مشروع توشكى يثير الكثير من التساؤلات أهمها الاحتياجات المائية والتى تقدر بحوالى ٥-٦ م م ويمثل هذا حوالى ١٠٪ من إيرادات النيل ، ولا أعتقد أن المستقبل سيسمح بذلك.

«تكلفة استصلاح الفدان فى توشكى ٢٠-٢٥ ألف جنيه (استصلاح الفدان فى غرب الدلتا يكلف ٣-٤ آلاف جنيه) هذا خلاف تكلفة رفع المياه والتى تُقدَّر بحوالى ٢٥٠٠ جنيه للفدان» . (توشكى ص ١١٩).

أعتقد أن الدولة لديها التزام بتوصيل المياه لمستثمرى توشكى ، ولكن ماذا سيحدث لو قلت إيراداتنا من المياه؟ هناك مشاكل فنية أخرى لهذا المشروع لن أتوقف عندها فقد تعرض لها كثيرون. ويبدو أن هذا المشروع بُدئ فيه على عجل لإرضاء خيالات وأهواء سياسية.

إن ما نفكر فيه غالباً هو الزراعة التقليدية لسد الاحتياجات المحلية، هناك كثير من الدول لا تنتج احتياجاتها الغذائية بل تستورد أغلبها. إن أرض مصر وظروفها أثمن من أن تستخدم فى الزراعة التقليدية. مناخ مصر وتربتها وعمالتها الزائدة تؤهلها لأن تكون مركزاً للزراعة غير التقليدية للتصدير المرتبط ببعض الصناعات الخفيفة، مثل زهور الزينة، الخضروات، الفواكه، والنباتات العطرية والطبية. نحن نزرع بعضاً من ذلك ولكن أغلبه للاستهلاك المحلى.

إن بعض المستثمرين يقومون بمثل هذه المشروعات للتصدير وإن كانت على نطاق ضيق ويجب أن نتوسع فى ذلك المجال ليشمل الشريحة العليا من الملاك الصغار. إن الالتزام بمواصفات التصدير بجدية وخصوصاً للدول المتقدمة أمرٌ يحدد مدى نجاح التصدير من عدمه وكل دولة لها مواصفاتها فى الاستيراد. يؤسفنى أن أذكِّر المهتمين بشئون التنمية الزراعية أن إسرائيل - والتى ابتدأت الزراعة أول أمس فى نظر التاريخ - أمكنها أن تضاعف دخلها الزراعى بزراعة المحاصيل التى سبق الإشارة إليها للتصدير. مثل هذه المشاريع تحتاج للتمويل المادى والفنى وأعتقد أن الأخير يجب أن تساهم فيه بعض مؤسسات الدولة .

وأخيراً هناك مجالات لتوفير المياه منها مثلاً الرى بالرش أو التنقيط وهناك قلة تستخدم ذلك، أما الفلاح الصغير فليس ذلك فى إمكانياته بدون تمويل خارجى، تغيير التركيب المحصولى للزراعة بالإقلال من زراعة الأرز والقصب ذى الاستهلاك العالى للمياه واستبدال بعض من ذلك بمحاصيل احتياجاتها المائية أقل. والدولة تجاهد فى حدود إمكانياتها للإقلال من هدر المياه وإن كنا نحتاج لتوعية جدية للإقلال من هدر المياه فى جميع الاستعمالات ، ولنبدأ بالمدارس. ■

المراجع

Water a Shared Responsibility" UN" World Water Development Report 2" 2006

When The Rivers Run Dry" Fred Pearce" Beacon Press" 2006

Nile Opportunities" Prof. Kinfe Abraham" EIIPD" 2004

Nile Dilemmas" Prof. Kinef Abraham" EIIPD" 2004

Nilopolitics" A Hydrological Regime" 1870-1900-" Mohamed -Hatem El-Atawy" AUC Press" 1996

مياه النيل، الصادق المهدى، مركز الاهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٠

توشكى، عمرو على الخربوطلى وأشرف صبحى عبد العاطى، دار مكتبة الإسراء، ١٩٩٨

نهر النيل، د. رشدى سعيد، دار الهلال، ١٩٩٣

معارك المياه المقبلة، د. محمود سمير أحمد، المستقبل العربى، ١٩٩١

حوض النيل
فرص وإشكاليات التعاون

تحرير: أيمن السيد عبدالوهاب

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٩



■ ذاكرة المياه، هى أبرز مصادر تشكيل الذاكرة التاريخية للحضارات الإنسانية الكبرى، وأحد محاور تشكيل الاجتماع الإنسانى، والزراعة والصناعة والحياة. ونهر النيل شكل أحد محاور الفعل الإبداعى المصرى للحضارة، ولم تكن مصر هبة النيل كما ذهب هيرودوت، وإنما كانت هبة المصريين، وفق شفيق غربال وبحق. من هنا شكل النهر دوائر حركة زراعية وصناعية وتنموية وثقافية إبداعية مصرية تشكلت على مدى تاريخى أوجدت علاقة عضوية واستثنائية، بين المصرى والنيل أدت إلى تشكيل رأسمال خبراتى - تاريخى فى فنون وعلوم الزراعة، والنقل، والأهم فى هندسة الرى والسدود والكهرباء بعدئذ... إلخ. مدارس وطنية تشكلت حول حركة الكشوف المصرية الرائدة لمنابع النيل، وحيثما حلت مدرسة الرى العسكرية الوطنية، كانت الإنشاءات والمعرفة بدقائق وأسرار النهر العظيم.

تأثرت أوضاع المياه والحصص المخصصة لدول المنبع أو الشاطئة أو المصب، بشروط سياسية واقتصادية واجتماعية وإرث تاريخى حول مستويات التطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى هذه البلدان. ومن ثم تأثرت الحصص بمشكلات التنمية، فضلاً عن حجم السكان، ومشكلات الاستقرار السياسى، التى انعكست على بعض الأزمات والتوترات بين الدول النيلية، ومن ثم كان التلويح بورقة المياه من الإشارات السياسية التى كانت تبرز بين الحين والآخر بين دول المنبع والدول الشاطئة ومصر. الوضع الراهن يشير إلى بروز متغيرات عديدة تدور حول ارتفاع الطلب السياسى والاقتصادى والاجتماعى على المياه من غالب دول النهر، وخاصة فى ظل ارتفاع معدلات النمو، بل وتزايد مؤشرات الانفجار الديموجرافى، وظواهر الجفاف والتصحر، والفيضانات، وظواهر المجاعات وهدر المياه وسوء استخدامها، والتخلف التقنى... إلخ فى غالب دول نهر النيل، وذلك فى إطار بروز ظواهر ندرة وشح المياه فى مناطق عديدة من عالمنا. من هنا برز بين الحين والآخر خطاب سياسى/ مائى يدور حول ضرورة مراجعة الحصص، وذلك بما قد يمس حقوقاً تاريخية اكتسبت وتأكدت باتفاقيات دولية. برزت فى العقود الأخرى من القرن الماضى، وبدايات الألفية الجديدة، اهتمام بعض المؤسسات الدولية بموضوع أزمات المياه، وتطوراتها وانعكاساتها الخطرة على الاستقرار السياسى والأمنى، ولاسيما فى منطقة الشرق الأوسط فى إطار طموحات بعض دول الجوار الجغرافى العربى كتركيا، وإسرائيل التى تعانى من مشاكل مائية، ولديها تصورات ومشروعات مائية نقترحها على بعض دول الجوار، وفى إطار مياه النيل.

اهتمام بعض المؤسسات الدولية، ذهب إلى وضع « أجندات» عمل تدور حول بيع وتسعير المياه من ناحية، وضرورة ترشيد أنماط الاستهلاك المائى السائدة، سواء فى الاستهلاك البشرى، أو فى الزراعة والصناعة.. والسعى إلى تطوير تقنيات تنقية مياه الصرف وغيرها، بالإضافة إلى إدخال أنظمة تقنية متقدمة فى رى الأراضى الزراعية، تضبط وترشد الاستهلاك المائى فى الزراعة... إلخ.

من ناحية أخرى، حدثت تغيرات فى موازين القوى بين دول النهر، أثرت على أنماط التعاون والتفاعلات السياسية والأمنية والاقتصادية فيما بينها.

ثمة متغيرات دولية جديدة، أدت إلى أن تصبح المياه أحد أبرز دوافع وإمكانيات وحوافز التعاون الإقليمى فى المجال المائى والتنموى، ومن ثم بروز تجمعات إقليمية فى هذا الصدد.

ثمة اتفاقيات دولية تؤثر على الأوضاع القانونية الناظمة للعلاقات وتوزيع الحصص المائية، ومنها الاتفاقية الدولية الخاصة بالاستخدامات غير الملاحية للمجارى المائية الدولية - (أقرت فى ٢١ مايو ١٩٩٧)، والتى رمت إلى تحديد بعض القواعد العامة التى يتم من خلالها عملية تقسيم موارد الأنهار، وفى ضوئها يتم وضع اتفاقيات خاصة بكل نهر من الأنهار. وهو أمر تحفظت مصر ضمن ٢٧ دولة من بينها فرنسا وإثيوبيا، مع موافقة ١٠٤ .

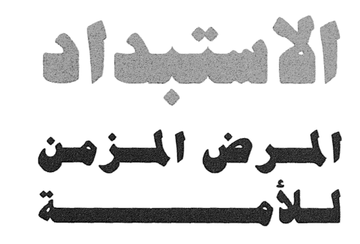
إن التغيرات الإقليمية والدولية تشير إلى ضرورة مواكبتها عبر دبلوماسية مصرية وقائية، وفق مصطلح الراحل المقيم الأستاذ أنس مصطفى كامل الخبير السياسى البارز فى المنازعات السياسية لنهر النيل. حول نهر النيل، ومعها تجديد مدرسة الرى المصرى، من خلال رؤى وتصورات تنموية مشتركة تكرس تبادل المصالح فى دول المنبع والدول الشاطئة للنهر، ومواجهة بعض التطلعات الإسرائيلية فى هذا الصدد، والتى تشكل أحد المخاطر الأمنية للأمن المصرى القومى. ■



سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى الت
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
www.maccarpet.com



بعد مرور مائة عام ونيف على وفاة الشيخ عبد الرحمن الكواكبى، ما زالت صرخته المدوية تتردد حاملة معها الكثير من الخيبة والأسف على مرور الزمن واستمرار الأوضاع. وكان تمنى الكواكبى قبل مغادرة الحياة، أن ينساه الناس بعد سنوات عدة لأن صيرورة التطور البشرى ستغير أساليبها السياسية والفكرية نحو الأفضل ويتم بالتالى تجاوز الاستبداد بمختلف أشكاله إلى نوع متطور من الحياة العامة القائمة على ما أسماه بالديمقراطية الدستورية التى تحكم مختلف أوجه الحياة وتدفع بالمجتمعات إلى تطوير علمها ومعارفها ومكتسباتها وتشكل الأساس للخروج من دائرة الانحطاط. ولم يرد فى خلده أن بعد كل هذه السنوات، سيكون الاستبداد قد تطور وأعيد إنتاجه على نحو أكثر صلابة، وحيث يتم استلهام آخر ابتكارات الحداثة لزيادة الرقابة على المجتمعات والفتك بها إن هى عبرت عن الرغبة السلمية بالتحرر.

تهدف هذه المقالة إلى التوقف عند الحديث بداية عن الاستقطابات السياسية المختلفة والمتناقضة أحيانا كثيرة، والتى تقع على الفكر النهضوى فتجعله هزيلاً أحياناً أو تحوله إلى لغة شعاراتية ممجوجة تخدم فيما تخدم استمرارية الانغلاق الفكرى والتقوقع الأيديولوجى والبحث الدائم عن جمل سهلة من التاريخ تساعد على تجاوز حراجة ما فى موقع وظرف تاريخى ما. ونتوقف عند موقع العلوم الإنسانية لدى الكواكبى، من حيث إنها علوم متشعبة تدرس الدين والفكر الدينى كما تدرس أية ظاهرة اجتماعية أو ثقافية أو حضارية أو غيرها، من دون مقدسات مرهبة وباعثة على التنصل من تحكيم العقل والمنطق. ومن خلال استعراض أفكار الكواكبى، سأتطرق إلى إسقاطات المفاهيم الحداثية واستخداماتها وعلاقته بالفكر الغربى ومثاقفته. ولكن، وكتمهيد، أستعيد تاريخه الشخصى تثبيتاً لوقائع اختلف عليها المؤرخون حتى يومنا هذا.



لم يرد فى خلده أن بعد كل هذه السنوات، سيكون الاستبداد قد تطور وأعيد إنتاجه على نحو أكثر صلابة



عبد الرحمن الكواكبى، حيـــاة قصـــيرة:

ولد عبد الرحمن الكواكبى فى حلب عام ١٨٥٤ ودرس فى أنطاكية قبل أن ينتقل إلى المدرسة الكواكبية فى حلب والتى كان يديرها والده حيث تعلم العربية والتركية والفارسية وتعمق فى مبادئ الدين واللغة. وأبدى يافعاً اهتمامات سياسية حيث كان قارئاً نهما للكتب والصحف. مما ساعد فى تكوين شخصيته الفكرية وتعزيز إرادته بالانتقال من الذاتى إلى العام. فبدأ الكتابة فى الصحافة منذ عامه الثانى بعد العشرين، وبدأ محرراً فى جريدة الفرات الرسمية ثم أنشأ جريدة الشهباء وهى أول جريدة عربية خاصة صدرت فى حلب لتتوقف بعد خمسة عشر عدداً بأمر من الوالى العثمانى. وفى عام ١٨٦٩ أنشأ جريدة اعتدال ليتم تعطيلها أيضاً من قبل الوالى لما احتوته من فكر تحريضى ضد الاستبداد العثمانى. واستمر بالكتابة فى الصحف وتنقل بين مناصب عدة حاولت من خلالها السلطة احتواءه واستمالته، وبعد تزايد الضغوط عليه استقال ليتفرغ لتسجيل شكاوى المواطنين ورفعها إلى الباب العالى من خلال مكتب للمحاماة افتتحه فى حلب، مما جعله قريباً من أحوال الناس ولامس معاناتهم. وبعد أن ضاقت به سبل الحياة والتعبير فى بلده، وبعد أن ألقى القبض عليه مراراً وسجن وحكم عليه بالإعدام قبل أن تتم تبرئته، غادر حلب سنة ١٨٩٩ إلى مصر سراً. وفى القاهرة اجتمع إلى أصدقاء من السوريين لجأوا قبله، فكان اللقاء مع رشيد رضا ومحمد كرد على وإبراهيم سليم النجار وطاهر الجزائرى وعبد القادر المغربى ورفيق العظم وعبد الحميد الزهراوى وغيرهم. ولقد استفاد من تمتع مصر حينه بقسط من حرية التعبير وانفتاحها على الثقافة الأوربية. ولقد عالج مسألة الاستبداد والحكم المطلق من خلال كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» وحاول أن يتخيل مجتمعاً إسلامياً من خلال مؤتمر يبحث حال المسلمين ودينهم، فكان كتابه الثانى «أم القرى». وأثناء مكوثه فى مصر كتب العديد من المقالات السياسية وقام فى عام ١٩٠١ برحلة وصل فيها إلى بلاد الهند وطاف الجزيرة العربية، وزار الحبشة والسودان وزنجبار وسواحل إفريقيا الشرقية وسواحل المحيط الهندى. ودرس من خلالها أحوال الناس والثقافات والأرض وثرواتها، فصحت تسميته: الرحالة ك. وبعد نهاية هذه الرحلة التى دامت أشهراً ستة خط كتاباً لم تمهله المنية لطباعته واختفى مع ما اختفى من كتب بعد وفاته مسموماً عام ١٩٠٢ على أيدى عملاء السلطان عبد الحميد، والذين سرقوا ما احتواه منزله فى القاهرة من كتب ومخطوطات ويعرف منها كتابا «صحائف قريش» و«العظمة لله». ويذكر أحد أصحابه، والذى كان يوقع مقالاته باسم «نديم الكواكبى» واسمه عبد المسيح الأنطاكى، فى عام ١٩٠٥ وفى مقدمة طبعة جديدة من «طبائع الاستبداد» بأنه سينشر لاحقاً كتابين للكواكبى الأول: «أمراض المسلمين والأدوية الشافية لها؟» والثانى: «أحسن ما كان فى أسباب العمران». ويتحدث رشيد رضا عن كتاب للكواكبى اسمه «ماذا أصابنا؟ وكيف السلامة؟».

نشأ الكواكبى فى حلب عندما كانت



ولاية فى السلطنة العثمانية المريضة التى دخلت فى طور الانحلال، بعد أن تراكمت ديونها واستفحل الفساد فيها. وقد عانت حلب ما عانته أجزاء السلطنة الأخرى من الظلم والفساد، فى ظل سلطان تمسك بمركزية الإدارة، وحول الجيش عن وظيفته الأساسية، من الدفاع عن السلطنة إلى الدفاع عن أمنه الشخصى، مستعيناً على ذلك بشبكة من الجاسوسية الأخطبوطية، وبفرض رقابة مشددة على المطبوعات. بعد مجىء رواد النهضة الأوائل، ظهر الكواكبى ليدفع قدماً مشاريع من سبقوه فى محاولة التأثير فى السلطة السياسية، وتطوير المجتمع - ثقافياً - ليعى دوره فى النهضة والتقدم، فكان الكواكبى محصلة اطلاع المفكرين العرب على الفكر الغربى وتمكنهم من التراث العربى- الإسلامى. وفضلاً عما سبق، نجد عوامل شخصية تكون بعضها من خلال معاناة الكواكبى فى أثناء صدامه مع الولاة المستبدين وأعوانهم من المنافقين.

الاستقطابات السياسية وتداعياتها:

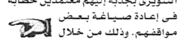
من خلال افتقاد الممارسة السياسية العربية المعاصرة فى أغلب الأحيان لأدوات ناجعة فى تحفيز التفكير والمراجعة، حاولت جميع الأحزاب الفاعلة على المسرح السياسى العربى أن تبحث لها عن مرجعية تدعم من خلالها أطرها الأيديولوجية أو تعتقد بأنها من خلالها تستطيع الوصول إلى فئات كانت لها محايدة. وإن إيراد حالة الرجوع إلى فكر عبد الرحمن الكواكبى تنفع كمثال صريح وطريف أحياناً لهذه الظاهرة التى ما فتئت تميز أسلوبية فى البحث عن مشروعية سياسية لدى هذا المفكر أو ذاك، حاملة معها تناقضاتها اللامنطقية.

فجزء من الشيوعيين السوريين. قام بإضافة صورة كبيرة للكواكبى فى صدر قاعة مؤتمراته إلى جانب كارل ماركس ولينين والقائد الوطنى السورى يوسف العظمة الذى قتل فى يوم دخول الفرنسيين إلى دمشق دفاعاً عنها سنة ١٩٢٠. فنرى هنا الربط بين الشخصيات المذكورة على مبدأ التكامل بين الفكرى والروحى والوطنى. ولا تخلو بعض الأدبيات الحديثة للشيوعيين السوريين من إضاءات تتعلق فيما يخص الكواكبى بموضوعى فصل الدين عن الدولة والمعيشة الاشتراكية التى اعتبر أن المجتمع لم يصل بعد إلى مرحلة النضوج للتأسيس الصحيح لها.

أما فيما يتعلق بفصل الدين عن الدولة، فلقد أثار هذا الجانب أيضاً من فكر الكواكبى انتباه الأحزاب السورية التى حملت لواء العلمانية من السوريين القوميين إلى البعث العربى. ويعتز السوريون القوميون بالوصف الذى أطلقه زعيمهم أنطون سعادة حين ذكر بأنه يعتبر «أن الثورة الفكرية السورية ابتدأت بابتداء حملة عبد الرحمن الكواكبى، وأن كل من اطلع على كتابه قرأ ولا شك عبارة بهذا المعنى: دعونا ندبر شؤوننا الدنيوية ونترك الأديان تحكم فى الآخرة فقط».

ومن ناحيتهم، اعتبر القوميون العرب بمختلف أشكالهم ما قبل الإسلاموية، أن الكواكبى صاحب ريادة فى ترسيخ الفكرة القومية من خلال دعوته إلى عودة الخلافة إلى العرب ونبذه عملية التتريك التى تأثرت بها المجتمعات العربية خصوصاً فى المراحل الأخيرة من عمر الإمبراطورية العثمانية.

وقام بدورهم أصحاب الاتجاهات الدينية المعتدلة وذوو الخطاب الدينى التنويرى بجذبه إليهم معتمدين خطابه فى إعادة صياغة بعض مواقفهم. وذلك من خلال



التركيز على مراجعته المعمقة لأمراض المسلمين وسبل الخروج من الأزمات التى تعصف بالنظرة المعاصرة للتفكير الإسلامى. مستندين فى ذلك على أن الإصلاح الدينى لا يعنى إصلاح الدين وإنما هو إصلاح فى النظرة إلى الدين والتعامل معه وبه. ويشدد أصحاب هذا التيار على أن الفكر النهضوى أكد على السلف الصالح والأسس العقائدية للدين منزهاً إياها مما اعتراها من طفيليات سياسية واستبدادية فكراً وممارسة. ويرفض هذا التيار فكرة أن الكواكبى كان صاحب «العلمنة المؤمنة» وينزعون عنه ريادة فكرة فصل الدين عن الدولة.

وتستمر الخلافات بين من يقول بعلمانيته ومن يقول بسلفيته، ففى إحدى الندوات، احتج أحد الباحثين على تسمية الكواكبى بالإمام منوهاً بأنه من رموز العلمانية النهضوية، ودينياً، ليس بذى درجة فقهية تمنحه هذا اللقب. فكان جواب أحد رجال الدين رافضاً أن تكون صفة الإمامة وقفاً على رجال الدين والفقهاء، أى صفة دينية، بل هى صفة مدنية تطلق على كل من يكون رائداً فى مجاله، كما استخدمها العرب من قبل فى صيغ عديدة مثل إمام النحاة وإمام البلاغة.

هناك أيضا رغبة لدى الباحثين المعاصرين فى إيجاد مرجعية فكرية عربية وإسلامية لمفاهيم كونية كحقوق الإنسان مثلاً. فأغلب الأعمال الغربية تمنح وبشكل قاطع، دوراً أساساً لفكر عصر الأنوار الأوربى فى تكوين مفهوم حقوق الإنسان لدى مفكرى العرب والمسلمين، وباستثناء قلة، فإن الباحثين فى الغرب يفسرون ظاهرة تكون الوعى بحقوق الإنسان عبر دخول الأفكار التقدمية الأوربية المترجمة. فكانت الحاجة للعودة إلى مفكرين كالكواكبى للإجابة على السؤال الآتى: هل حقوق الإنسان نبتة غريبة جرت زراعتها فى الشرق، أم أنها ظاهرة ذات صدى كونى متواجدة فى الإطار الحضارى للمنطقة أيضاً؟

إذاً، تعددت الاستقطابات ويمكن اعتبارها ظاهرة إيجابية من ناحية أنها تُشير إلى رغبة شاملة للتبصر فى فكر نهضوى تنويرى ديمقراطى، ولكنها من جهة أخرى، تدل وبقلق، على ضعف عملية إعادة الإنتاج الفكرى العربى وتشبثه بأطياف الماضى مهما كانت إيجابية الوقع. إنها بالمجمل، محاولات نجحت فى أحيان، وفى أحيان أخرى انجرفت نحو مجرد الرغبة فى الاستئثار الفكرى والبحث عن شرعية مفقودة.

ولمعرفة الأفكار الأساسية التى قامت عليها الاستقطابات السياسية الحديثة، يتوجب التوقف عند بعضها بقراءة معاصرة وانتقائية فيما يخص المشاكل الأهم التى تعترض طريق التطور والنهضة حتى أيامنا هذه.

الحريات الأساسية والاستبداد:

«و لما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس من أهم الأمور، أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط، ورأت أن تحمل مضرة الفوضى فى ذلك خير من التحديد، لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوتهم الطبيعية أى الحرية (...)». فالحرية إذاً، ليست كما تسرده النفوس المتسلطة، واجبة الارتباط بالمسؤولية، كون هذه الكلمة الأخيرة تحمل بالقاموس المستبد، كل قيود الحرية ومعوقاتها، بل وكل ما يُنشىء ضررها. فحتى الفوضى الناجمة عن الحرية محمودة وليست بحاجة إلى قيود.

وكان المرض المشخص والذى أصاب كل أوجه الحياة بالنسبة للكواكبى هو الاستبداد. «(...) ويكفى هنا الإشارة إلى أن صفة الاستبداد، كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذى تولّى الحكم بالغلبة أو الوراثة، تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيّد المنتخب متى كان غير مسؤول، وتشمل حكومة الجمع ولو منتخباً؛ لأنّ الاشتراك فى الرأى لا يدفع الاستبداد، وإنّما قد يعدّله الاختلاف نوعاً، وقد يكون عند الاتّفاق أضرّ من استبداد الفرد. ويشمل أيضاً الحكومة الدّستورية المُفرّقة فيها بالكلّيّة قوة التشريع عن قوة التنفيذ وعن قوة المراقبة؛ لأن الاستبداد لا يرتفع ما لم يكن هناك ارتباط فى المسؤولية، فيكون المنفذون مسؤولين لدى المُشرّعين، وهؤلاء مسؤولين لدى الأمة، تلك الأمة التى تعرف أنّها صاحبة الشأن كله، وتعرف أن تراقب وأن تتقاضى الحساب». وقد اعتبر أن «أشد مراتب الاستبداد التى يُتعوّذ بها من الشّيطان هى حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية. ولنا أن نقول كلّما قلّ وَصْفٌ منْ هذه الأوصاف؛ خفّ الاستبداد إلى أنْ ينتهى بالحاكم المنتخب المؤقت المسؤول فعلاً. وكذلك يخف الاستبداد كلّما قل عدد نفوس الرعية، وقل الارتباط بالأملاك الثابتة، وقل التّفاوت فى الثّروة وكلّما ترقّى الشّعب فى المعارف. (...) والحكومة من أى نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد؛ ما لم تكن تحت المراقبة الشّديدة والاحتساب الّذى لا تسامح فيه، كما جرى فى صدر الإسلام فى ما نُقم على عثمان، ثم على علىّ رضى الله عنهما، وكما جرى فى عهد هذه الجمهورية الحاضرة فى فرنسا فى مسائل النّياشين وبناما ودريفوس. ومن الأمور المقرّرة طبيعةً وتاريخاً أنه؛ ما من حكومة عادلة تأمن المسؤولية والمؤاخذة بسبب غفلة الأمة أو التمكن من إغفالها إلا وتسارع إلى التلبس بصفة الاستبداد، وبعد أن تتمكن فيه لا تتركه وفى خدمتها إحدى الوسيلتين العظيمتين: جهالة الأمة، والجنود المنظمة». وما يميز هذا الخطاب، التنبه المبكر لمسألة سيطرة الأجهزة العسكرية على الحياة المدنية بمفهومها الحديث.

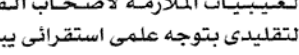
فبالرغم من أن هذه الآفة، على حد قول الكواكبى، لازمت العرب والمسلمين بشكل شبه دائم، ولكنها طورت نفسها من خلال إدماج الحداثة فى الذهنية العسكريتارية. فالجندية «تُفسد أخلاق الأمة؛ حيثُ تعلمها الشراسة والطاعة العمياء والاتكال، وتُميت النّشاط وفكرة الاستقلال، وتُكلف الأمة الإنفاق الذى لا يطاق؛ وكل ذلك منصرف لتأييد الاستبداد المشؤوم: استبداد الحكومات القائدة لتلك القوة من جهة، واستبداد الأمم بعضها على بعض من جهة أخرى». فما هى أهم المفاهيم الحداثية المرتبطة بروح العصر وبالتغيرات الهامة التى عرفها العالم فى نهاية القرن التاسع عشر؟

المفاهيم الحداثية واستعمالاتها:

لقد اعتبر عبد الرحمن الكواكبى أن «ليس لنا مدرسة أعظم من التاريخ الطبيعى، ولا برهان أقوى من الاستقراء فى كل شؤون الأمة». واستعاض عن الغيبيات الملازمة لأصحاب الفكر التقليدى بتوجه علمى استقرائى يبحث فيما يبحث عن أسباب التخلف والانهزام فى التاريخ مستلهماً دروسه من دون أن يجتر قانعاً فى تاريخ أمجاد وانتصارات ما فتئ يرسخ فى ذهنية فاسدة. ولقد واجه كما غيره من نهضويى القرن التاسع عشر مثل جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، حالة تاريخية عنوانها الرئيسى تقدم أوربا وتقهقر حال العرب والمسلمين فى العالم، فكان الأساس فى الإصلاح بالنسبة لهم هو الاعتراف بحقيقة أن الانحطاط الداخلى واقع وهناك حاجة ماسة للبحث عن مخرج من هذا المأزق التاريخى لاستعادة السيطرة على المصير الذاتى. وتميز عن معاصريه وعن الكثيرين مما أتوا بعده، برفضه المطلق لفكرة المستبد المستنير أو العادل. وانطلق فى كتاباته للتعمق فى مشروع أساسى يقوم عليه فكره وهو فصل الدين عن الدولة. ولقد اختلف محللو خطابه الدينى والسياسى على هذه النقطة. فمن القول بأنه رائد هذه الفكرة عربياً وإسلامياً إلى القول بأنه لم يتطرق إلى هذا الموضوع لا من قريب ولا من بعيد.

ولكن قراءة متمعنة للكواكبى تدعم أصحاب فكرة الريادة فى فصل الدين عن الدولة لأنه نادى بإلغاء الدولة الدينية كدولة سياسية. وعند دعوته لعودة الخلافة إلى العرب، فهو يعتبر أنها تمثيل للرابط الدينى حيث تنحصر مهام الخليفة فى حل المسائل الدينية ويقول فى ذلك: «يجب على الخاصة منا أن يعلموا العامة التمييز بين الدين والدولة، لأن هذا التمييز أصبح من أعظم مقتضيات الزمان والمكان اللذين نحن فيهما. فإذا لم يدرك عامتنا كان الخطر محيطاً أبداً بخاصتنا». وأضاف: «لو سألت عامتنا اليوم عنه لوجدتهم يعتقدون أن الدين لا يقوم إلا بالدولة، والدولة لا تقوم إلا بالدين، وأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، وهذا خطأ مبين». وأوضح الكواكبى معالم الخطأ بالقول: «الغرض المقصود من الدولة والغاية التى تسعى الدولة إليها فى زماننا هذا هى غاية دنيوية محضة، وأعنى بها تأمين الناس على أرواحهم وأغراضهم وأموالهم، وسن الشرائع العادلة لهم وإنفاذها فيهم. وأما الدين، فالغاية المقصودة منه واحدة على اختلاف الزمان والمكان وهى صلاح فى هذه الدنيا حتى يدخلوا جنات النعيم فى الآخرة».

توقف الكواكبى عند مبدأ حداثى آخر حول ضرورة فصل السلطات داخل جهاز الدولة لتجنب أن تتحول السلطات إذا اجتمعت إلى مصدر استبداد وظلم، فيتساءل: «هل تجمع سلطتين أو أكثر فى شخص واحد؟ أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها بإتقان؟ ولا إتقان إلا بالاختصاص ولذلك لا يجوز الجمع منعا لاستفحال



قراءة متمعنة للكواكبى تدعم أصحاب فكرة الريادة فى فصل الدين عن الدولة لأنه نادى بإلغاء الدولة الدينية كدولة سياسية



السلطة». لقد طرح أيضاً موقفاً من تطوير أساليب العمل السياسي يعبر عن وعي عميق لمفهوم الديمقراطية وحتمية التحول إلى النظام البرلماني الحر، انطلاقاً من التنبيه إلى عدم جواز العودة بالتفكير إلى الماضي المجيد والحلم بإعادة إنتاجه والاستعاضة عنه بحاضر أكثر واقعية وتعبيراً عن متطلبات العصر السياسية. وتعتبر جمعية أم القرى التي تخيلها هي تعبير صريح عن رغبته بوجود مؤسسات يتبادل ضمنها أهل العلم الآراء ويعملون على الاجتهاد والتفسير بأسلوب جماعي منتج. وهو يعتبر بأن مجرد قيام مثل هذه الجمعية هو من أعظم تلك المبشرات، خصوصاً إن وفقت بتأسيس جمعية قانونية منتظمة، لأن الجمعيات المنتظمة يتسنى لها الثبات على مشروعها عمراً طويلاً يفي بما لا يفي به عمر الواحد الفرد وتأتي بأعمالها كلها بعزائم صادقة لا يفسدها التردد. إنه بهذا يخطو خطوة كبيرة باتجاه توضيح أهمية المؤسسة في نهوض الأمة.

دور العلوم الإنسانية فى دعم فكرة الحرية وترسيخ حقوق الإنسان:

المستبد يعرف بأنه ليس بمقدوره السيطرة والتعسف إلا في حالة كانت فيها «الرعية حمقاء تتخبط في ظلامة جهل». وبالتالي، فألد أعداء المستبد كما يرى الكواكبي هم العاملون في العلوم وليس كلها، فالمستبد «لا يخشى علوم اللغة، تلك العلوم التي بعضها يقوّم اللسان وأكثرها هذل وهذيان يضيع به الزمان، نعم: لا يخاف علم اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية، أو سحر بيان يحل عقد الجيوش؛ لأنه يعرف أن الزمان ضنين بأن تلد الأمهات كثيراً من أمثال: الكميت وحسان أو مونتيسكيو وشيللر. وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد، المختصة ما بين الإنسان وربه، لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، إنما يتلهى بها المتهوسون للعلم، حتى إذا ضاع فيها عمرهم، وامتلأت بها أدمغتهم، وأخذ منهم الغرور، فصاروا لا يرون علماً غير علمهم، فحينئذ يأمن المستبد منهم كما يؤمن شر السكران إذا خمر. على أنه إذا نبغ منهم البعض ونالوا حرمة بين العوام، لا يعدم المستبد وسيلة لاستخدامها في تأييد أمره ومجاراة هواه في مقابلة أنه يضحك عليهم بشيء من التعظيم، ويسد أفواههم بلقيمات من مائدة الاستبداد؛ وكذلك لا يخاف من العلوم الصناعية محضاً؛ لأن أهلها يكونون مسالمين صغار النفوس، صغار الهمم، يشتريهم المستبد بقليل من المال والإعزاز، ولا يخاف من الماديين، لأن أكثرهم مبتلون بإيثار النفس، ولا من الرياضيين؛ لأن غالبهم قصار النظر».

المستبد يخشى من العلوم الإنسانية التي تستمر مهمشة حتى يومنا هذا في كل الفضاءات العربية والإسلامية «مثل الحكمة النظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية، والتاريخ المفصل، والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تكبر النفوس، وتوسع العقول، وتعرف الإنسان ما هي حقوقه وكم هو مغبون فيها، وكيف الطلب، وكيف النوال، وكيف الحفظ». ونحن نلاحظ في الجملة الأخيرة المبادئ الأساسية لمفهوم حقوق الإنسان كما ترسخت من خلال الإعلان العالمي لحقوق الإنسان سنة ١٩٤٨. ويمارس المستبد قمعه وتهميشه للناشطين في هذه الحقول وخصوصاً المندفعين منهم لتعليم الناس بالخطابة أو الكتابة. والخلاصة: «أن المستبد يخاف من هؤلاء العلماء العاملين الراشدين المرشدين، لا من العلماء المنافقين».

كما يبغض المستبد العلم لنتائجه: يبغضه أيضاً لذاته، لأن «للعلم سلطاناً أقوى من كل سلطان، فلا بد للمستبد من أن يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو أرقى منه علماً. ولذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم عاقل يفوق عليه فكراً، فإذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار الغبي المتصاغر المتملق. وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله (فاز المتملقون) وهذه طبيعة كل المتكبرين، بل في غالب الناس، وعليها مبنى ثنائهم على كل من يكون مسكيناً خاملاً لا يرجى لخير ولا لشر». وينتج مما تقدم أن بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمراً: يسعى العلماء في تنوير العقول، ويجتهد المستبد في إطفاء نورها، والطرفان يتجاذبان العوام. ومن هم العوام؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا، كما أنهم هم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا. والخلاصة أن الاستبداد والعلم ضدان متغالبان: فكل إدارة مستبدة تسعى جهدها في إطفاء نور العلم، وحصر الرعية في حالك الجهل. والعلماء الحكماء الذين ينبتون أحياناً في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير أفكار الناس. والغالب أن رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم، فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره، وهذا سبب أن كل الأنبياء العظام - عليهم الصلاة والسلام وأكثر العلماء الأعلام والأدباء والنبلاء- تقلبوا في البلاد وماتوا غرباء».

كيف النظر إلى الغرب:

وعى الكواكبي مسألة التأخر والتقدم من خلال المقارنة التي أجراها بين أوضاع الشرق وأوضاع الغرب. وكان في ذلك يسير على خطى من سبقه من رواد النهضة العربية الذين تأثروا بما سمي بـ «صدمة الاحتكاك بالغرب»، وأدرك بأن سير المجتمعات الإسلامية على طريق «الترقي» يتطلب الانفتاح الحضاري على «الآخر» المتقدم والاقتباس المشروط منه على قاعدة التفاعل الإيجابي والنقد البناء. ويقر الكواكبي بأن الغرب، بالرغم من ماديته و«تدابيره القاسية ونزعته إلى الاستباحة»، قد نال «المراد أو بعضه من تحرير الأفكار وتهذيب الأخلاق وجعل الإنسان إنساناً».

لم يتمكن الكواكبي من السفر إلى أوربا ولم يتمكن أيضاً من اللغات الفرنسية أو الإنكليزية، ولكنه أبدى معرفة عميقة بالنتاج الفكري الذي عرفه الغرب إبان انبعاث النهضة الأوربية، ويتأتى ذلك من خلال الترجمات التركية لأمهات الكتب من قبل بعض المتنورين الأتراك مثل نامق كمال. ولكن أيضاً تعرف الكواكبي من خلال صداقته لعائلات إيطالية كانت مقيمة في حلب إلى نتاجات فيلسوفهم الكبير، فيتوري ألفييري.

ولقد تبنى في نظرته إلى الغرب تفكيراً عقلانياً ميز عصر النهضة العربية، حيث أيد ليبرالية الطبقة الوسطى في أوروبا، مطالباً بحكومة دستورية، وبتحديد سلطة الحكومة، وتأمين حرية الفرد؛ لكن ذلك تم استناداً إلى أسس عقلية من منطلق إسلامي. لقد حاكم الكواكبي الاستبداد استناداً إلى تراث العرب في الحرية، وإلى ما يطالب به الإسلام، وإلى ما لاحظه في الفكر الغربي. فهو، بعد أن اقتنع عقلياً بالأفكار القادمة من الغرب، راح يبحث عن جذور دينية لقناعاته. ورأيه القائل أن صلاح الحاكم والحكم من صلاح الرعية، إنما يؤكد منطلقه الإسلامي الذي يصدر عن حديث: (كما تكونوا يولى عليكم). ومع ذلك فإنه كثيراً مايورد دلائله من العقل والنقل معاً. وهو لايمانع من الأخذ عن الغرب، مع الإبقاء على الخصوصية العربية الإسلامية، وعدم التقليد الأعمى. لا للغرب ولا للتراث. فهي ليست مسألة استعارة بل استيعاب لما يطرحه الآخر، والتصرف وفق الواقع الذي نعايشه. والذي علينا أن ننطلق منه لإصلاح الممارسة الدينية وتحسين التربية وإشاعة العلم لمقاومة الاستبداد. ولقد توقف عند علم السياسة كونه علماً غربياً بامتياز، واعتبر أن الغربيين «قد توسعوا في هذا العلم وألفوا فيه كثيراً وأشبعوه تفصيلاً، حتى إنهم أفردوا بعض مباحثه في التأليف بمجلدات ضخمة، وقد ميزوا مباحثه إلى سياسة عمومية، وسياسة خارجية، وسياسة إدارية، وسياسة اقتصادية، وسياسة حقوقية، إلخ. وقسموا كلاً منها إلى أبواب شتى وأصول وفروع». وبمقابل ذلك، تأخر الشرقيون عن فهم هذا العلم والتعامل معه بعقلية عصرية عدا بعض الاستثناءات التي حددها بالأسماء. فمن



كان الأساس في الإصلاح بالنسبة لهم هو الاعتراف بحقيقة أن الانحطاط الداخلي واقع







الأتراك، أشار إلى أحمد جودة باشا، وكمال بك، وسليمان باشا، وحسن فهمى باشا، ومن العرب القليلون والمقلون مثل : رفاعة الطهطاوى، وخير الدين التونسى، وأحمد فارس شدياق، وسليم البستانى، والمبعوث المدنى. وعلى خطى الطهطاوى، الذى كان أول من تنبه إلى ضرورة الاهتمام بنشر التربية السياسية على نطاق واسع فى المجتمع كى يعرف الناس حقوقهم وواجباتهم، أعار الكواكبى اهتماماً خاصاً لمسألة التعريف بعلم السياسة بوصفه علم «إدارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة». وعرَّفه بأنه علم «واسع جداً ينقسم إلى فنون كثيرة ومباحث دقيقة.. قلما يوجد إنسان لا يحتك فيه».

و من جهة أخرى، فقد تطرق الكواكبى إلى المقارنة الوصفية والتى اعتبرها البعض جلداً للذات ولكننا نستطيع أن نتبين من خلالها رغبة تحريضية لمراجعة الذات الشرقية. فهو يقول إن «الغربيين يستحلفون أميرهم على الصداقة فى خدمته لهم والتزام القانون. والسلطان الشرقى يستحلف الرعية على الانقياد والطاعة! الغربيون يمنون على ملوكهم بما يرتزقون من فضلاتهم، والأمراء الشرقيون يتكرمون على من شاءوا بإجراء أموالهم عليهم صدقات ! الغربى يعتبر نفسه مالكاً لجزءٍ مشاع من وطنه، والشرقى يعتبر نفسه وأولاده وما فى يديه ملكاً لأميره! الغربى له على أميره حقوق، وليس عليه حقوق: والشرقى عليه لأميره حقوق وليس له حقوق! الغربيون يضعون قانوناً لأميرهم يسرى عليه، والشرقيون يسيرون على قانون مشيئة أمرائهم! الغربيون قضاؤهم وقدرهم من الله: والشرقيون قضاؤهم وقدرهم ما يصدر من بين شفتى المستعبدين! الشرقى سريع التصديق، والغربى ينفى ولا يثبت حتى يرى ويلمس. الشرقى أكثر ما يغار على الفروج كأنّ شرفه كلّه مستودعٌ فيها، والغربى أكثر ما يغار على حريته واستقلاله! الشرقى حريصٌ على الدين والرياء فيه، والغربى حريصٌ على القوة والعزّ والمزيد فيهما! والخلاصة: أنّ الشرقى ابن الماضى والخيال، والغربى ابن المستقبل والجد!

يعتقد الكواكبى بأن «العوام هم قوة المستبد. بهم عليهم يصول ويطول: يأسرهم، فيتهللون لشوكته؛ ويغصب أموالهم، فيحمدونه على إبقائه حياتهم؛ ويهينهم، فيثنون على رفعته؛ ويغرى بعضهم على بعض، فيفتخرون بسياسته؛ وإذا أسرف فى أموالهم، يقولون كريماً، وإذا قتل منهم ولم يمثّل، يعتبرونه رحيماً؛ ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيعونه حذر التوبيخ؛ وإن نقم عليه منهم بعض الأباة قاتلهم كأنهم بغاة. والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة، فإذا ارتفع الجهل وتنوّر العقل زال الخوف، وأصبح الناس لا ينقادون طبعاً لغير منافعهم، كما قيل: العاقل لا يخدم غير نفسه، وعند ذلك لا بد للمستبد من الاعتزال أو الاعتدال». فهو إذاً فى توصيفه هذا، يبحث عن دور لنخبة مثقفة منظمة تحاول أن تُحدث تغييراً من خلال التأثير على الرأى العام.

يعتبر عبد الرحمن الكواكبى، من فئة المثقفين الحداثيين التى راحت تظهر بين صفوف رجال الدين والفكر مع انطلاق المشاريع الإصلاحية التحديثية فى مركز السلطنة العثمانية وعدد من ولاياتها العربية وحصول مباينة بين العلم والدين، وهى فئة أُتيحت لها فرصة تملك العلوم العقلية، عن طريق قنوات عديدة، لكنها بقيت مهمشة من قبل السلطة وبالتالى حُرمت من النفوذ الفعلى داخل السلطنة العثمانية.

وقد طرح الكواكبى أمام هذه الفئة الحديثة من رجال الدين مهمة تنويرية تمثّلت فى نشر الوعى بين الناس بضرورة التغيير من خلال الإصلاح وتصفية الفساد، وذلك بغية بلوغ الترقى. فالواقع، أن مسألة الوعى ونشره بين صفوف العامة وتنوير العقول ورفع الضغط عنها احتلت مكانة رئيسة فى العمارة الفكرية التى أقامها الكواكبى، إذ يشدد كثيراً على أن دور «العلماء العاملين» يتمثّل فى القضاء «على جهالة الأمة» ، بوصفها واحدة من قوتين هائلتين مهولتين، إلى جانب «الجنود المنظمة»، فى خدمة الحكومة الاستبدادية، وذلك من خلال نشر العلوم التى «توسع العقول وتعرِّف الإنسان ما هو الإنسان وما هى حقوقه »، والتى تشمل علوم الحياة مثل «الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية »، معتبراً بأن هذه العلوم بالذات، التى «أخذت تنمو فى الغرب وترقت وظهر لها ثمرات عظيمة فى كافة الشئون المادية والأدبية »، هى التى «ترتعد» فرائص المستبد منها. ورأى الكواكبى بأن المعركة الرئيسة بين الاستبداد وبين العلماء الطامحين إلى التغيير تدور حول كسب عامة الناس، فالعوام، وكما ذكر، «صبية أيتام نيَام لا يعلمون شيئاً، والعلماء هم إخوتهم الراشدون إن أيقظوهم هبَوا وإن دعوهم لبَوا»، والعوام هم «أولئك الذين إذا جهلوا خافوا وإذا خافوا استسلموا، وهم الذين متى علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا». ولهذا السبب، يسعى العلماء إلى «نشر العلم» بين الناس، بينما يجتهد المستبد «فى إطفاء نوره»، والطرفان يتجاذبان العوام. فالمستبد ليس من غرضه «أن تتنَور الرعية بالعلم»، وهو لذلك يطارد رجال العلم وينكّل بهم، بحيث أن «السعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره». وفى هذا الصدد ، انتقد الكواكبى بشدة بعض رجال الدين الذين يصوِّرون للأمة بأن حياتها البائسة «قضاء جاء من السماء فلا مرد له بغير الصبر والرضاء»، كما انتقد من أسماهم ب «الأعاظم» الذين يضللون الأمة من خلال تصوير أنفسهم بأنهم «أطباء للمرض ويهتمون بإزالته ومتحمسون لإنقاذ الأمة من تلك الملمة».

وفى سياق دعوته الإصلاحية، اعتبر الكواكبى بأن ممارسة الانتقاد فى مجال الاعتقاد الدينى هو من مهمة صعبة مطروحة أمام العلماء، وذلك لأن هذا النوع من العمل الفكرى هو «شديد الوقع والصدع على التائهين فى الوهلة الأولى لأن الآراء الاعتقادية مؤسسة غالباً على الوراثة والتقليد دون الاستدلال والتحقيق وجارية على التعاند دون التقانع». ومما يزيد من صعوبة هذه المهمة، فى رأيه، أن المصلح، أو الراغب فى الإصلاح، يتهيب التصريح بما يفكر به «لغلبة الجهل على الناس واستفحال أمر المدلسين». وأدرك الكواكبى بأن فئة العلماء المنورين كانت فى حاجة إلى أداة كى تضطلع بمهامها التنويرية فى المجتمع، وتصور بأن تتخذ هذه الأداة شكل جمعية تعليمية تربوية مستقلة لا «تكون تابعة أو مرتبطة بحكومة مخصوصة»، ولا تنسب إلى مذهب محدد من مذاهب الإسلام مطلقاً، بل تنبثق ، كما تخيَل فى كتابه «أم القرى»، عن مؤتمر عام يشارك فيه ممثلون عن هذه الفئة.

ولدى تطرقه إلى أسباب تأخر المجتمعات الإسلامية، أجمل الكواكبى هذه الأسباب حينما خاطب قومه بقوله: «يا قوم هوَن الله مصابكم، تشكون من الجهل ولا تنفقون على التعليم نصف ما تصرفون على التدخين، تشكون من الحكام وهم اليوم منكم فلا تسعون فى إصلاحهم، تشكون فقد الرابطة ولكم روابط من وجوه لا تفكرون فى إحكامها، تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل، هل ترجون الصلاح وأنتم يخادع بعضكم بعضاً ولا تخدعون إلا أنفسكم، ترضون بأدنى المعيشة عجزاً تسمونه قناعة، وتهملون شؤونكم تهاوناً تسمونه توكلاً، تموهون عن جهلكم الأسباب بقضاء الله وتدفعون عار المسببات بعطفها على القدر، ألا والله ما هذا شأن البشر». والواقع أن الكواكبى، الذى رفض إرجاع واقع المسلمين البائس إلى القضاء والقدر، بقى مصراً على ربط التأخر بأسباب نابعة من داخل المجتمعات الإسلامية وليس من خارجها وعلى تحميل المسلمين أنفسهم مسؤولية الأوضاع التى يعيشونها، حيث تمنى أن «يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار».

لقد أرجع الكواكبى أسباب التأخر أيضاً إلى الفساد الذى عمّ أوجه الحياة الاجتماعية الثلاثة المترابطة فيما بينها، فى تصوَره، ترابطاً عضوياً، وهى السياسة والدين والأخلاق. ففى حقل السياسة، ركَز الكواكبى على فقدان الحرية، التى عرَفها «بأن يكون الإنسان مختاراً فى قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم»، واعتبرها «اعز شىء على الإنسان بعد حياته، وأن بفقدانها تفقد الآمال وتبطل الأعمال وتموت النفوس وتتعطل الشرائع وتختل القوانين»، وربط فقدان الحرية بالاستبداد، الذى عرَفه بأنه «تصرف فرد أو جمع فى حقوق قوم بلا خوف تبعة»، وهو «صفة للحكومة المطلقة العنان التى تتصرف فى شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين»، ورأى فى هذا الاستبداد أصلاً لكل فساد، إذ هو «يضغط على العقل فيفسده، ويلعب بالدين فيفسده، ويحارب العلم فيفسده (و) يغالب المجد فيفسده ويقيم مقامه التمجد». وتكمن الخطورة فى الاستبداد فى أنه يتحوَل فى ظل الحكومة التى تمارسه إلى ممارسة عامة، حيث تكون الحكومة المستبدة «مستبدة فى كل فروعها، من المستبد الأعظم إلى الشرطى إلى الفراش إلى كناس الشوارع». وقد أقام الكواكبى علاقة وثيقة بين سيادة الاستبداد وبين سيطرة الجهل على الأمة، معتبراً أن العوام «هم قوت المستبد وقوته بهم، عليهم يصول وبهم على غيرهم يطول». وخلص إلى أن الاستبداد قد أفسد الدين «فى أهم قسميه أى الأخلاق»، بينما لم يمس العبادات لأنها «تلائمه فى الأكثر»، الأمر الذى جعل الأديان تبقى «فى الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات فلا تفيد فى تطهير



الغربيون يستحلفون أميرهم على الصداقة فى خدمته لهم والتزام القانون



النفوس شيئا»، وجعل المسلمين الخاضعين للاستبداد يشغلون أنفسهم «بالسعادة الآخروية»، ويبعدون عن فكرهم «أن الدنيا عنوان الآخرة».

هل العودة إلى فكر الكواكبى مُجدية فى هذا العصر؟

الإجابة على هذا السؤال تكون حتماً بالإيجاب رغم ما يمكن أن يعترضها من نقد، فمراجعة ختامية للأفكار التى وردت فى هذه الدراسة تبين مدى معاصرة هذا الفكر وحداثته. فبالرغم من أنه يمكن القول بأن الكواكبى كان سلفياً، مثله مثل غيره من رواد الإصلاح الدينى، إلا أن سلفيته كانت وظيفية بمعنى من المعانى، لكونها هدفت إلى إضفاء نوع من المشروعية على توجهه الإصلاحى عبر الرجوع إلى نموذج «مثالى» أقامه السلف فى بدايات الإسلام، أى فى عهد النبى محمد والخلفاء الراشدين الأربعة. وقد أطلق الكواكبى على هذا النموذج الإسلامى «المثالى» للحكم والحياة اسم «الإسلامية»، تمييزاً له عن الإسلام كدين وعقيدة.

غير أن شعور الكواكبى بالحاجة إلى الاستناد إلى نموذج من الماضى لا يعنى بأنه كان ماضوياً، خصوصاً أنه عبر فى كل ما كتبه تقريباً عن توجه نحو المستقبل، فحذر قومه من خطر التقليد والتبعية للأسلاف وخاطبهم بقوله: «أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة، مبتلون بداء التقليد والتبعية فى كل فكر وعمل وبداء الحرص على كل عتيق: فلماذا تقلدون أجدادكم فى الخرافات والأمور السافلات ولا تقلدونهم فى محامدهم؟»، وأكد أكثر من مرة بأن رهانه هو على «الناشئة» من الشباب، الذين يمثلون «شباب اليوم رجال الغد شباب الفكر رجال الجد»، وقد توجه إلى هؤلاء الشباب ودعاهم إلى الكد وبذل الجهد من أجل أن يحيوا «حياة رضية يتسنى فيها لكل منكم أن يكون سلطاناً مستقلاً فى شؤونه لا يحكمه غير الحق وشريكاً أميناً لقومه يقاسمهم ويقاسمونه الشقاء والهناء وولداً باراً لوطنه لا يبخل عليه بجزء من فكره ووقته ومحباً للإنسانية يعمل على أن خير الناس أنفعهم للناس».

وفى ميدان الإصلاح السياسى، وباستناده إلى تجارب الحكم الديمقراطى فى الغرب، ركز الكواكبى على ضرورة قيام أنظمة دستورية برلمانية فى المجتمعات الإسلامية على قاعدة الانتخاب الحر والفصل بين السلطات. فانطلق من أن الإنسان الغربى قد نجح فى الزمن الأخير فى التوصل إلى «قواعد أساسية» فى باب تقرير شكل الحكومة، «تضافر عليها العقل والتجريب وحصحص فيها الحق اليقين، فصارت بعد من المقررات الإجماعية عند الأمم المترقية». ووضع الكواكبى على رأس هذه القواعد قاعدة تقييد الحكومة بقانون «موافق لرغائب الأمة»، يضعه «جمع منتخب من الأمة»، ويتيح لها فرصة «التصرف فى مراتب العظمة ورواتب المال»، ويجعلها مسؤولة «عن تقرير النفقات العامة» والإشراف على «إعداد المنعة»، ويعطيها حق «السيطرة على الحكومة ومساءلتها». وبالإضافة إلى هذه القاعدة، أشار الكواكبى إلى ضرورة انحصار السلطة فى القانون «إلا فى ظروف مخصوصة مؤقتة»، ومساواة الجميع أمام القانون الذى هو أحكام «تتساوى لديها كل طبقات الناس وله سلطان نافذ قاهر»، وإناطة مسؤولية إقامة العدل بالقضاة «المصون وجدانهم من كل مؤثر، والذين يتمتعون باستقلالية تامة»، وعدم تدخل الحكومة فى أمر الدين «ما لم تنتهك حرمته»، وعدم جواز الجمع بين وظائف السياسة والدين والتعليم «منعاً لاستفحال السلطة»، وتوزيع الأعمال والوظائف بحسب الكفاءة، وضبط إنفاق الحكومة ومنعها من التفاخر «بالتزيينات غير المفيدة مادياً» و«إلزامها بالاعتدال المتناسب مع الثروة».

والواقع، أن الكواكبى قد ذهب، فى دعوته المسلمين إلى تبنى نموذج الحكومات الدستورية العادلة القائمة على الفصل بين السلطات وعلى ضمان الاستقلال الشخصى لمواطنيها، إلى حد اعتبار أن تلك الحكومات تجعل الإنسان يعيش فى وطنه «المعيشة التى تشبه فى بعض الوجود ما وعدته الأديان لأهل السعادة فى الجنان». مؤكداً بأن أنفع ما بلغه الترقى فى البشر هو «إحكامهم أصول الحكومات المنتظمة وبناؤهم سداً متيناً فى وجه الاستبداد، وذلك بجعلهم لا قوة فوق الشرع ولا نفوذ لغير الشرع، وبجعلهم قوة التشريع «فى يد الأمة»، وبجعلهم المحاكم «تحاكم السلطان والصعلوك على السواء وتكاد تحاكى فى عدالتها المحكمة الكبرى الإلهية»، وبجعلهم مأمورى الحكومة «القائمين بالأعمال العمومية لا سبيل لهم على تعدى حدود وظائفهم، كأنهم ملائكة لا يعصون أمراً» وبجعلهم الأمة «يقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها لا تغفل ولا تتسامح». ففى نظره ليست الأمة «ركام مخلوقات نامية، أو جمعية عبيد لمالك متغلب»، بل هى «جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركة»، أما الحكومة، فهى ليست أكثر من «وكالة سياسية تقام من قبل الأمة لأجل إدارة شؤونها المشتركة العامة» بحيث تضمن الأملاك العامة وتكفل الحقوق العمومية للجميع «على التساوى والشيوع».

ولقد وجدنا بأن الكواكبى قد حذر من الخلط بين حقلى السياسة والدين، ورأى بأن السلطة الدينية والسلطة السياسية لم تتحدا فى الإسلام إلا فى عهود الخلفاء الراشدين، مؤكداً بأنه لا يوجد فى «الإسلامية» نفوذ دينى مطلقاً «فى غير مسائل إقامة الدين». كما حذر من مخاطر «الاتجار» بالدين واستغلاله فى إذكاء النزعات الطائفية والتفرقة الدينية، واستشهد، فى هذا الصدد، بالأمم الغربية وبخاصة فى «اوستريا وأميركا»، التى «هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطنى دون الدينى، والوفاق الجنسى (القومى) دون المذهبى، والارتباط السياسى دون الإدارى»، داعياً قومه العرب من المسلمين والمسيحيين إلى الاقتداء بهذه الأمم: «دعونا ندبِّر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم فى الأخرى فقط. دعونا نجتمع على كلماتٍ سواء، ألا وهى: فلتحى الأمة، فليحى الوطن، فلنحى طلقاء أعزاء».

إن التوقف عند فكر عبد الرحمن الكواكبى فى هذه المرحلة بالذات يدخل فى محاولة تسخير السوسيولوجيا التاريخية لفائدة التأصيل العلمى والواعى لمفاهيم التنوير والإصلاح فى مناخ صعب يصل حد العداء إما رسمياً أو اجتماعياً لأسباب مركبة يتداخل فيها الدينى بالثقافى بالجاهلى. وإن تهميش الحوار الفكرى هو مسبب أساسى لانحدار الأمة.

ما زلنا اليوم نعيش فى ظروف ليست ببعيدة جداً عما أشار إليه. فالاستبداد وإن تطورت أدواته فهو مازال يرتع فى ربوع العديد من الدول ومجتمعاته. والظلامية فى بعض من الفكر والممارسة الدينية ما زالت تمارس ضغطا، على الإبداع والفكر والتعبير.

هناك سؤال ملح يواجه قارئى رواد النهضة فى ظل السلطنة العثمانية: ما هو السر فى أن يكون متاحاً للمثقف آنذاك تلك الحرية فى إعادة النظر فى محرمات غير قابلة للنقاش الآن ومنحهم حق الشك بكل شىء وإعمال العقل؟

وبغض النظر عن التجاذبات الفكرية التى تشكل مشهداً إيجابياً فى مسرح الحياة السياسية والحياة الثقافية، فإن فكر عبد الرحمن الكواكبى غنى ودسم يدعو إلى مائدته كل صاحب فكر حر ومستنير. إن ميراثه ما زال يحظى بالاهتمام من خلال حساسيته لموضوع الديمقراطية وهجومه الفكرى على مفهوم السلطة المطلقة بحثاً عن مشروع مجتمع مدنى كما يذكر جمال باروت. وهو يشير دائما إلى دور المثقفين (الخاصة) فى نشر الوعى وقيادة المجتمع عبر تأسيسى نخبة واعية تؤثر وتتأثر فى ومن المجتمع (العامة). إن الكواكبى وفى بحثه عن طليعة تقود الأمة بالفكر وبالحكمة والعلم والمعرفة بعيداً عن كل أشكال التشويش والمداهنة يتوجه إلينا قائلاً: «ما بال الزمان يضن علينا برجال ينبهون الناس ويرفعون الالتباس ويفكرون بحزم ويعملون بعزم ولا ينفكون حتى ينالوا ما يقصدون». ■



والسلطان الشرقى يستحلف الرعية على الانقياد والطاعة!





سيرة ذاتيّة

وليد محمود عبد الناصر

كثير هو ما كتب عن تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى السابق وانتهاء الحرب الباردة، ووجود قدر من المهنية العلمية والمنهج الموضوعى فى معالجة مسألة التيارات الشيوعية عموماً، فكراً وتنظيماً، وفى منطقتنا العربية على وجه الخصوص. وبعض ما كتب جاء على يد خبراء متخصصين وباحثين جادين بحثاً عن الحقيقة وانطلاقاً من أرضية المفترض أنها محايدة، أو من معادين للشيوعية، أو من مؤيدين لها أو حتى منتسبين لها فى شكل مذكرات أو شهادات أو روايات. ولا يتسع المجال هنا لذكر هذه المصادر أو حتى بعضها. ولكن بالرغم من هذا الكم الهائل من الدراسات والمذكرات والشهادات، فما زال المجال مفتوحاً على مصراعيه للمزيد من الإسهامات.

والكتاب الذى نعرض له هنا له أكثر من خصوصية، سواء لموضوع الكتاب، أو للكاتب ذاته. فالكتاب عنوانه: «حدتو: سيرة ذاتية لمنظمة شيوعية»، ومؤلفه هو الكاتب والأديب الأستاذ محمود الوردانى، ويقع فى ٥١٥ صفحة، ومن إصدارات دار الهلال المصرية.

فموضوع الكتاب يتعلق بأحد التنظيمات الشيوعية المصرية الهامة، بل واحد من أبرز هذه التنظيمات، إن لم يكن أبرزها على الإطلاق، فى إطار ما يسمى بالحلقة الثانية للحركة الشيوعية المصرية، أى تلك الممتدة زمنياً ما بين منتصف عقد الثلاثينيات من القرن العشرين حتى قيام أكبر تنظيمين شيوعيين مصريين بحل أنفسهما أو بلغة أكثر دقة «إنهاء وجودهما المستقل» فى مارس وأبريل ١٩٦٥ على التوالى ودعوة أعضائهما للانخراط، كأفراد، فى عضوية التنظيم السياسى والشعبى الوحيد حينذاك «الاتحاد الاشتراكى العربى». وهذا التنظيم الذى نتحدث عنه هو «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» التى عرفت واشتهرت اختصاراً باسم «حدتو»، والتى وصل الأمر ببعض مؤرخى الحركة الوطنية المصرية، إلى أن يطلق عليها تعبير «وفد الشيوعيين»، أى ما يماثل حزب الوفد بالنسبة للشيوعيين المصريين، والمقصود هنا أن «حدتو» كانت تنظيم الأغلبية داخل صفوف الحركة الشيوعية المصرية فى سياق المقارنة مع وضعية حزب الوفد المصرى كحزب الأغلبية فى الحياة السياسية المصرية ما بين عام ١٩٢٣ وحتى ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

حدتو: سيرة ذاتية لمنظمة شيوعية
محمود الوردانى
دار الهلال - القاهرة

ويتتبع المؤلف نشأة وتطور «حدتو» فى تلك الفترة الزمنية الثرية بالأحداث، وإن كان تركيزه أكثر على الفترة الممتدة من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى قرار الحل أو إنهاء الوجود المستقل فى مارس ١٩٦٥، ويستعرض دورها الفكرى والسياسى والاجتماعى وعلاقاتها ببقية التنظيمات الشيوعية المصرية، وخارج مصر، وبالسلطات السياسية المصرية وبالمجتمع المصرى وقواه المختلفة، وأيضاً بالتطورات الإقليمية والدولية خلال تلك الفترة.

أما الخاصية الثانية، فهى أن المؤلف الأستاذ محمود الوردانى يقر فى مقدمة كتابه أنه، وإن انتمى للحركة الشيوعية المصرية خلال مرحلة ما من الحلقة الثالثة لهذه الحركة، أى التالية لقرار الحل أو إنهاء الوجود المستقل عام ١٩٦٥، بل وتعرض للاعتقال بسبب انتمائه للحركة الشيوعية، فإنه لم ينتم قط إلى تنظيم «حدتو»، ولكنه يشير إلى أن ما شجعه على المضى فى إعداد هذا الكتاب هو حث اصدقاء كثيرين له ممن انتموا لـ «حدتو» على القيام بهذه المهمة.

وتتعلق الخاصية الثالثة بأن من قدم للكتاب هو الأستاذ محمد يوسف الجندى، أحد الأقطاب البارزين للحركة الشيوعية المصرية، ونجل يوسف الجندى رئيس جمهورية زفتى خلال ثورة ١٩١٩، والكاتب والناشر الشهير، والذى يقر فى تقديمه بموضوعية وحيادية تناول المؤلف محمود الوردانى لـ «حدتو».

وتتصل الخاصية الرابعة باستعانة المؤلف عبر الكتاب بعدد ضخم من المذكرات والروايات والشهادات والمذكرات والكتب، بل والوثائق الرسمية والحكومية، وإن كانت الغالبية العظمى من المراجع التى لجأ إليها اقتصرت على ما صدر عن قيادات وكوادر الحركة الشيوعية المصرية بتنظيماتها المختلفة، خاصة من حدتو. إلا أننا لا نجد عبر الكتاب إلا قليلاً من الاستعانة بمصادر إما معادية لهذه الحركة، أو كتابات علمية عن الحركة وتاريخها ودورها، أو عن حدتو تحديداً. كما أنه من اللافت أنه بينما استعان المؤلف مثلاً بكتاب مصطفى طيبة عن مذكرات السيد/كمال الدين رفعت، فإنه لم يستعن بالمؤلف الهام لمصطفى طيبة نفسه عن الحركة الشيوعية المصرية ما بين ١٩٤٥ و١٩٦٥.



والآن ننتقل إلى جوهر الكتاب ذاته، فعندما ينتهى القارىء من قراءة آخر صفحة من صفحات الكتاب، يدرك يقيناً أنه من الصعب الحديث عن «حركة» شيوعية مصرية واحدة. فتلك الحركة خلال الفترة التى يتعرض لها الكتاب كانت أبعد ما تكون عن الوحدة، حتى من الناحية النظرية، سوى لفترات وجيزة للغاية، وحتى خلال تلك الفترات المحدودة، فإن الانقسامات كانت متجذرة بداخلها، وكانت المحاور مرتكزة على الانتماءات التنظيمية لكل شخص أو مجموعة. ويحرص المؤلف طوال الكتاب على إبراز هذه السمة التى يعتبرها مميزة للحركة الشيوعية المصرية فى حلقتها الثانية، ويعرض المؤلف أمثلة كثيرة على تبادل الاتهامات فيما بين التنظيمات الشيوعية بالتخوين ومقاطعة كل طرف للباقين واتهام كل طرف للآخر بـ «السعى لتخريب مسيرة الطبقة العاملة» أو «التحريفية»، بالإضافة إلى اتهامات العمالة للأجهزة الأمنية، وكذلك الاتهامات بالانعزالية والانتهازية وضيق الأفق. وتلفت صفحات الكتاب الاهتمام إلى أمر يبدو غريباً ولكن الأمثلة عليه كثيرة، ألا وهو أن كل فصيل شيوعى مصرى فى الفترة محل الدراسة كان أقدر على العمل والتعاون بل والتنسيق مع تيارات سياسية غير شيوعية بشكل أكثر سهولة من العمل أو التعاون مع فصائل شيوعية! ويكرر الكاتب اعتبار طابع الانقسام والتشرذم مرضاً «جينياً» امتد لاحقاً إلى الحلقة الثالثة من الحركة الشيوعية المصرية.

ويعرض الكتاب لمحاولات توحيد الفصائل الشيوعية المختلفة منذ مطلع الحلقة الثانية للحركة الشيوعية المصرية، ووساطة أطراف شيوعية خارجية، عربية وأجنبية، للتوصل إلى هذا الهدف. ويرجع الكتاب فشل محاولات توحيد الفصائل الشيوعية المصرية أيضاً إلى عدم إفساح المجال، حتى داخل المعتقلات، لمناقشات فكرية وسياسية مستفيضة للخلافات تؤدى للتوصل إلى قناعات ومواقف مشتركة. فبدلاً من إنجاز الوحدة داخل المعتقلات تضاعفت الانشقاقات.

وبالرغم من أن الكاتب يشير فى مرات قليلة خلال الكتاب إلى دور عوامل خارجية فى ظاهرة التشرذم التى أصابت الحركة الشيوعية المصرية فى حلقتها الثانية، فإنه - من وجهة نظرنا - لا يوفى هذا الأمر حق قدره. فلا نعرف إلا قليلاً عن دور أحزاب شيوعية خارج مصر - خاصة الحزب الشيوعى السوفيتى - فى إحداث هذه الانقسامات أو التسبب فيها أو اتخاذ مواقف إزاءها، كما لا يعرض المؤلف بشكل كاف لدور السلطة السياسية فى مصر، فى الحقبتين الملكية والناصرية على حد سواء، فى الدفع نحو هذه الانقسامات، وكذلك دور قوى سياسية أخرى فى مصر فى تسهيل أو الإسراع بحدوث هذه الانقسامات، خاصة فى الفترة شبه الليبرالية السابقة على ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

كما يعرض لنا الكتاب نماذج من لغة الخطاب السياسى فيما بين هذه التنظيمات الشيوعية المصرية أو من أحدها عن باقيها، لنجد أنفسنا هنا أمام لغة اتهامات بالعمالة والخيانة تكاد تفوق الاتهامات التى تكيلها تلك التنظيمات الشيوعية للخصوم الأيديولوجيين والسياسيين للماركسية وللحركة الشيوعية. كما تضمنت الاتهامات المتبادلة الاتهام بالعداء للوحدة الوطنية(!) و«المركزية المطلقة» و«الانعزال عن الشعب والطبقة العاملة» و«اليسارية الجوفاء(!)»، بالإضافة لاتهام كل تنظيم للآخر بأنه مكون من «أبناء الباشوات» و«راكبى السيارات الفاخرة». ويركز المؤلف طوال الكتاب على إبراز ظاهرة التفتت التى عانت منها الحركة الشيوعية

موضوع الكتاب يتعلق بأحد التنظيمات الشيوعية المصرية الهامة، بل واحداً من أبرز هذه التنظيمات. إن لم يكن أبرزها على الإطلاق

المصرية، حتى داخل السجون والمعتقلات باستثناءات قليلة يشير إليها فى الكتاب، ويعتبرها آفة صاحبت الحركة وفشل الشيوعيون المصريون فى التخلص منها. كما يكرر اتهام هذه التنظيمات بما يسميه «العجز التنظيمى والفقر النظرى». ويعتبر المؤلف أن هذه الانقسامات داخل صفوف الحركة الشيوعية المصرية شكلت عامل طرد لعناصر متميزة من الحركة الشيوعية المصرية.

ويتناول الكتاب موضوعاً آخر مهماً طالما تم تناوله، خاصة من جانب خصوم الحركة الشيوعية المصرية، ألا وهو دور اليهود، ليس فقط داخل «حدتو»، بل وفى مجمل الحلقة الثانية من الحركة الشيوعية المصرية. ويحاول الكاتب تقديم تفسيرات موضوعية لهذا الدور تتجاوز نظرية المؤامرة، ويتلمس أسباباً تاريخية لهذا الدور، خاصة قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ولكن الكاتب، وإن حرص على الابتعاد عن أى بعد عنصرى فى تناول هذا الموضوع، فهو لم يجامل اليهود ودورهم فى الحركة الشيوعية المصرية، بل سعى لإنصافهم وإعطائهم قدرهم وما يستحقونه من تقدير من وجهة نظره، ونذكر بشكل خاص إبرازه لما قام به شيوعيون أجانب فارين من مصر من دور فى تعبئة الرأى العام الفرنسى ضد العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦، بالرغم من كونهم يهوداً. ولكن المؤلف انتقد أشخاصاً منهم بعينهم. أحياناً بحدة. من جهة أخرى لدورهم فيما اعتبره المزيد من التفتت للحركة الشيوعية المصرية، وكذا لما أسماه لدى بعضهم «أنانيته» وانعزاله ليس فقط عن الشعب المصرى المفترض أن تعبر الحركة الشيوعية المصرية عن قواه الكادحة والعاملة وعن همومه وتطلعاته، بل حتى الانعزال عن بقية أعضاء نفس التنظيم الشيوعى الذى ينتمى إليه.

ولكن المؤلف حرص، مثله فى ذلك مثل الدكتور رفعت السعيد، فى عمله الموسوعى الضخم المكون من خمسة أجزاء عن الحركة الشيوعية المصرية، على إنصاف «هنرى كورييل»، أحد أكثر الشخصيات إثارة للجدل فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، حتى بعد انتقاله إلى خارج مصر وتأسيسه «مجموعة روما» التابعة لـ «حدتو» والتى ضمت أعضاء «حدتو» المقيمين فى باريس، بل أنصفه حتى فى مواجهة قرار التنظيم بحل مجموعة روما فى ١٤ مارس ١٩٥٨ وفصم العرى معها، حيث استمرت «مجموعة روما» رغم ذلك فى مساندة شيوعيى «حدتو» داخل مصر، خاصة خلال محنة الاعتقال الكبرى ما بين ١٩٥٩ و١٩٦٤، وكذلك لدوره فى تمصير الحركة الشيوعية المصرية فى حلقتها الثانية، وأيضاً دوره فى الالتفات لأهمية تجنيد «حدتو» لضباط الجيش والأزهريين والفلاحين والنوبيين والسودانيين، وفى إدخال الفتيات والسيدات بأعداد كبيرة لعضوية التنظيم، وكذا ربطه النضال السياسى للشيوعيين بالنضال ضد المحتل البريطانى، وزهده فى أى منصب قيادى بالتنظيم، ونجاحه فى تعبئة دعم الأحزاب الشيوعية خارج مصر لدعم «حدتو». ويذكر الأستاذ محمود الوردانى لكورييل فضلاً أيديولوجياً هذه المرة، وهو إدخاله مفاهيم هامة فى فكر «حدتو» مثلت ابتعاداً عن الإطار النظرى الجامد أو التعامل مع الماركسية وكأنها نصوص مقدسة، ويضرب مثالاً على ذلك بطرح كورييل بأن القول بالدور القيادى للطبقة العاملة لا يجب أن يعنى استبعاد قوى اجتماعية أخرى تتصف بالثورية ويجب أن تشارك مع الطبقة العاملة فى قيادة النضال ضد الاستعمار. كما يذكر المؤلف لكورييل تحذيره للشيوعيين المصريين عقب تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ من المبالغة فى «تمجيد» الرئيس الراحل جمال عبد الناصر نظراً لأن «نظامه استبدادى وغير ديمقراطى». ولكن المؤلف انتقد كورييل بشأن قبوله قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين عام ١٩٤٧، وإيمانه بحق اسرائيل فى الوجود الآمن فى نفس الوقت الذى كان يعلن فيه معارضته للصهيونية وللنزعة التوسعية لدولة إسرائيل. ويشير المؤلف إلى ما يسميه تحول هنرى كورييل للصهيونية عقب حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ كما انتقد دوره فى محاولة الوساطة فى السبعينيات من القرن العشرين بين دولة إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، ولاحقاً دعمه لزيارة الرئيس المصرى الراحل أنور السادات للقدس فى ١٩ و٢٠ نوفمبر١٩٧٧ .

هنرى كورييل

ولكن المؤلف يستدرك مقراً بأن الحكومات العربية والقيادة الفلسطينية تبنت بشكل متزايد موقفاً متخاذلاً فى مواجهة حقوق الشعب الفلسطينى فى نفس هذه الفترة، ويتهم الحكومات العربية بأنها استخدمت قضية فلسطين لتبرير ما أسماه بـ «القمع الداخلى» لشعوبها. ولا يفوت المؤلف هنا إشادته بما أسماه «الموقف الصلب» للشيوعيين المصريين والعرب تجاه إسرائيل والقضية الفلسطينية، خاصة بعد حرب ١٩٦٧. بل إن المؤلف يسهب فى الإشادة بمواقف شيوعيين مصريين، خاصة من «حدتو»، الذين رفضوا أصلاً أى حق لإنشاء دولة يهودية فى فلسطين وتحدثوا عن «عروبة» فلسطين، بينما فرق بعضهم بين «الطبقة العاملة اليهودية» فى فلسطين ومن أسموهم بـ «الرأسماليين الصهاينة» الذين غرروا بالطبقة العاملة اليهودية فى ضوء مصالحهم لإنشاء دولة يهودية. ووصف هؤلاء الشيوعيون المصريون فى تلك المرحلة المبكرة الصهيونية بالفاشية وبالتحالف مع الاستعمار واعتبروا إسرائيل رأس حربة الاستعمار ضد الشعوب العربية، ولكن هؤلاء أيضاً هاجموا من أسموهم بـ «الحكومات العربية الرجعية» بنفس القدر. ولكن بعض هؤلاء الشيوعيين غلب عليهم الخطاب



الأيديولوجى منقطع الصلة بالواقع مثل الدعوة لـ «وحدة العرب واليهود فى فلسطين ضد الاستعمار ومن أجل الاستقلال والديمقراطية». ولكن المؤلف يقر بموافقة تنظيمات شيوعية مصرية على قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين عام ١٩٤٧. وينتقد هذا الموقف، بنفس القوة التى هاجم بها من أسماهم بـ «الشوفينيين القوميين العرب» داخل مصر وفى بقية أنحاء الوطن العربى الذين دعوا إلى إلقاء اليهود فى البحر.

وفى الإطار نفسه، لم يفت الكاتب أن يسترسل فى شرح ما يعتقد أنه خلفيات تاريخية وأيديولوجية للموقف السوفيتى إزاء إسرائيل وقضية فلسطين، دون أن يتطوع للبحث عن التبريرات أو الأعذار لهذا الموقف. ولكن الكاتب يرفض تماماً افتراض «المؤامرة» مرة أخرى فيما يتعلق بهذا الموقف السوفيتى الداعم لإقامة دولة إسرائيل ضمن دعمه لحل الدولتين الذى تبناه قرار الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين عام ١٩٤٧. ويعيد للذاكرة أن الموقف السوفيتى الأول كان الدعوة لإنشاء دولة موحدة ثنائية القومية عربية ويهودية فى فلسطين، وهو اقتراح رفضه فى حينه الزعماء العرب والقادة الصهاينة على حد سواء، الأمر الذى دفع الاتحاد السوفيتى، بحسب المؤلف، لقبول قرار التقسيم باعتباره حلاً، وإن لم يكن عادلاً. فهو أفضل «الحلول السيئة». وينتقل المؤلف لانتقاد الاتحاد السوفيتى ويصف موقفه بالواهم. فالمؤلف، وإن كان يتفق مع طرح أن قرار التقسيم كان «الحل العملى الوحيد»، فهو يهاجم موقف الشيوعيين الذين تحدثوا عن «تحالف العمال والفلاحين العرب واليهود ضد المشروع الصهيونى فى فلسطين»، ويتهم كلاً من الاتحاد السوفيتى والشيوعيين المصريين بتجاهل أو العجز عن إدراك «العامل القومى اليهودى»، ربما بسبب الخلفية الأيديولوجية الماركسية الأرثوذكسية التى قللت من أهمية الاعتبارات القومية، كما يتهم موقفهم بالجمود العقائدى الذى أملى عليهم افتراض تحالف البروليتاريا على الجانبين الفلسطينى واليهودى، كما يتهمهم بالمراهنة الخطأ لاحقاً على أن الدولة اليهودية ستكون ديمقراطية وتقدمية. ولكن المؤلف حرص فى مواقع عدة من كتابه على تأكيد أن مواقف الشيوعيين المصريين إزاء إسرائيل والقضية الفلسطينية منذ قرار التقسيم لم تكن يوماً قائمة على الانصياع للمواقف السوفيتية.

وفى هذا السياق، ركز المؤلف على الدور القيادى الذى لعبه شباب الأجانب، خاصة اليهود، فى تأسيس الحلقة الثانية من الحركة الشيوعية المصرية، بجانب بقايا شيوعيى الحرس القديم من الحلقة الأولى من تاريخ الحركة الشيوعية المصرية (حزب عام ١٩٢٣ والذى كان مصرياً بالكامل)، ووصف دور المصريين فى نشأة تلك الحلقة الثانية بأنه كان كدور الجزر المنعزلة من الانتلجنتسيا ذات المسحة اليسارية، بينما بقى الدور الأساسى منوطاً بالأجانب، وأغلبهم كانوا من اليهود، بسبب تشكل بعض الجاليات الأجنبية فى معظمها من العمال والحرفيين، كحالة الإيطاليين، وتأثرهم بالمد اليسارى فى أوروبا، وعمل العمال المصريين والأجانب جنباً إلى جنب فى الورش والمصانع. ويفرق المؤلف بين اليهود المصريين واليهود المتمصرين، كما يشير إلى أن بعض اليهود المصريين كانوا معادين للصهيونية، ورفضوا بعد قيام دولة إسرائيل أى صلة معها وأعلنوا الكفاح ضد سياساتها العدوانية. وحظى هؤلاء بغض الطرف من جانب سلطات الاحتلال البريطانى بسبب حربها ضد الفاشية فى أوروبا. ويتصف الكاتب بالموضوعية عندما يشير إلى قطاعات أخرى من اليهود المصريين غير الشيوعيين الذين عارضوا النشاط الصهيونى داخل مصر فى تلك الفترة لما أدى إليه من إساءة إلى وضع اليهود فى مصر واستفزاز الرأى العام المصرى ضدهم. كما يذكر الكاتب لهؤلاء الشيوعيين الأجانب فى مصر وجود اهتمامات لهم خارج الحدود، أبرزها اتصالهم بالأحزاب الشيوعية فى دول عربية أخرى، ودعمهم للجمهوريين فى أسبانيا إبان الحرب الأهلية هناك فى ثلاثينيات القرن العشرين، كما كان لهم انتماءات للأحزاب الشيوعية فى بلدانهم الأصلية. ويشير ضمنياً إلى علاقات بعض هؤلاء الشيوعيين الأجانب بحزب الوفد المصرى فى ذلك الوقت. ولكن على الجانب الآخر، يذكر للمؤلف إقراره بأن أحد أسباب الانقسام الذى لحق بالحركة الشيوعية المصرية فى حلقتيها الثانية والثالثة يعود إلى ما أسماه بـ «الولادة المتعسرة للحلقة الثانية»، أى تصدى الأجانب واليهود لقيادة التنظيمات الشيوعية المصرية، وعرضه لتفاصيل محاولات تمصير الحركة الشيوعية المصرية.



كذلك أسهب الكاتب كثيراً فى تبيان ما أسماه حقيقة موقف فصائل الحركة الشيوعية المصرية - خاصة «حدتو» - تجاه الوحدة المصرية/السورية فى فبراير ١٩٥٨ ومجمل مسألة الوحدة العربية خلال تلك الفترة، وما أسماه الكاتب «الموقف القومى» لهذه الفصائل بخلاف ما تم الترويج له من جانب خصومهم عن عدائهم للقومية والوحدة العربية، بل أظهر حماسهم لهذه الوحدة، ولكن على أساس فيدرالى وليس اندماجياً، وبدون أن يكون ثمن الوحدة إنهاء الوجود المستقل للأحزاب الشيوعية العربية، خاصة الحزب الشيوعى العراقى عندما كان الحديث فى أعقاب ثورة العراق فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ عن الوحدة بين الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) وبين العراق، أو إنهاء الديمقراطية والتعددية السياسية والتنظيمية، ومفنداً القول بأن الشيوعيين المصريين تحالفوا مع الزعيم عبد الكريم قاسم فى العراق ونظامه ضد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر. ويشير المؤلف إلى أنه إزاء الوحدة المصرية السورية فى المقام الأول، وبالرغم من حل الحزب الشيوعى السورى، رحب الشيوعيون المصريون بالوحدة وأصدروا كراسات تضمنت تأكيدات على أن الحركة القومية العربية هى حركة شعبية معادية للاستعمار وتقدمية من الناحية الاجتماعية فى نضالها ضد الإقطاعيين والاحتكاريين، بل ورفضوا الاعتراض على حل الأحزاب فى سوريا معتبرين أن السياسة المعادية للاستعمار لدولة الوحدة ستوفر ظروفاً ملائمة للديمقراطية (!)، ودعوا للتركيز على ما أسموه «النقاط الإيجابية» فى الحكم. ويرجع المؤلف التغيير فى المواقف عقب ثورة العراق إلى ظهور جبهة بين الشيوعيين والبعث وقوى سياسية أخرى فى العراق مما دفع الشيوعيين فى مصر لرفع شعار الجبهة أيضاً وإعلان دعمهم للجبهة الوطنية فى العراق، وهو الأمر الذى دفع بدوره الرئيس الراحل عبد الناصر إلى شن حملة سياسية وإعلامية ضد نظام الحكم فى العراق ومن ثم احتدم الصراع بين الرئيس عبد الناصر والشيوعيين المصريين. وقد ذهب الشيوعيون المصريون خطوة أبعد بالقول بأن غياب الديمقراطية عن مصر يقلق الدول العربية الأخرى ويبعدها عن الدخول فى وحدة مع مصر، مستذكرين ازدهار الديمقراطية فى سوريا قبل الوحدة مع مصر، ومكررين تمسكهم بالصيغة الفيدرالية فى مواجهة الوحدة الاندماجية.

وبالرغم من كل الانتقادات التى تضمنها الكتاب للحلقة الثانية للحركة الشيوعية المصرية، بما فى ذلك «حدتو»، فإنه سعى لإنصافها، فاعتبر «حدتو»، منذ تأسيسها عام ١٩٤٧ بالاتحاد بين «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» و«إيسكرا» و«القلعة» - أقرب إلى البوتقة التى انصهرت فيها اتجاهات شيوعية عديدة، كما اعتبر «حدتو» التنظيم الأكثر تمثيلاً للمجتمع المصرى من حيث احتوائها على قيادات وكوادر للحركة العمالية المصرية، بالإضافة لأبناء وبنات الأرستقراطية المصرية، إذا جاز لنا القول بوجود أرستقراطية مصرية وليس أرستقراطية تركية فى مصر خلال تلك الفترة، وصفوة الانتلجنتسيا، وروائيين وفنانين تشكيليين وسينمائيين وفلاحين، بل وأزهريين، وأقباط ويهود، ونوبيين، بل وسودانيين حيث كانت مصر والسودان معاً حينذاك تحت التاج المصرى، وأيضاً ضباط، بمن فيهم عدد من الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فيما بعد، ورجالاً ونساءً.

ويعرض المؤلف لدور «حدتو» على وجه الخصوص، ومجمل الحركة الشيوعية المصرية، على ساحة العمل الوطنى فى مصر، بدءاً بانتفاضة الطلاب والعمال عام ١٩٤٦، والتى لا شك أنها أعطت دفعة للحركة، أو الحركات، الشيوعية المصرية، على صعيد الخبرات المكتسبة والشعبية المتزايدة والتلاحم

لم يفت الكاتب أن يسترسل فى شرح ما يعتقد أنه خلفيات تاريخية وأيديولوجية للموقف السوفيتى إزاء إسرائيل وقضية فلسطين



بدرجة أكبر مع بقية فصائل الحركة الوطنية المصرية. ويشير المؤلف إلى رفع «حدتو» شعارات تبنتها الحركة الوطنية المصرية ككل، مثل رفض التفاوض مع المستعمر والدعوة للكفاح المسلح ضده والدعوة لمواجهة سيطرة الاستعمار الاقتصادية وإرهاصات الدعوة لمواجهة المتحالفين مع الاستعمار من كبار الماليين والإقطاعيين، ورفض عقد معاهدات تعاون أو تحالف أو دفاع مشترك مع الغرب، والدعوة لإطلاق الحريات، خاصة حرية الصحافة. بل إن الشيوعيين المصريين طالبوا فى ذلك الوقت بصدور قوانين للإصلاح الزراعى وبتأميم قناة السويس وبمجانية التعليم والرعاية الصحية وتوفير الضمان الاجتماعى، وبدأت «حدتو» جهود توحيد الحركة النقابية العمالية المصرية، وكذا كافحت لبناء اتحاد ديمقراطى لطلاب الجامعات فى مصر. ويشيد المؤلف بدعوة «حدتو» فى تلك الفترة لحماية الرأسمالية الوطنية باعتبارها حليفاً للطبقة العاملة المصرية فى نضالها ضد الاستعمار، وذلك فى إشارة ضمنية لحزب الوفد المصرى حينذاك، ودعت «حدتو» إلى «جبهة وطنية ديمقراطية»، وهو الأمر الذى فتح الباب أمام إدانة تنظيمات شيوعية مصرية أخرى لها. ولم يفت الكاتب أن يشيد بدور «حدتو» فى الكفاح المسلح فى منطقة القناة عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦ على يد حكومة الوفد فى أكتوبر ١٩٥١. كما يشير إلى سعى «حدتو» خلال تلك الفترة لبناء منظمات علنية كواجهة لنشاطها مثل «حركة أنصار السلام»، ويعتبر أن هذا «التكتيك» ساعد على انتشار التنظيم وانفتاحه على الجماهير، ومن ثم اتساع قاعدته الشعبية، وهى خاصية يرى المؤلف أنها لازمت «حدتو» كلما حدثت انفراجات ديمقراطية فى النظام السياسى المصرى قبل ١٩٥٢، حيث كان التنظيم ينفتح حينذاك على القوى السياسية الأخرى ويسرع بالتصدى لمهام النشاط الجماهيرى. ولكن المؤلف يشير إلى المثالب على الجانب الآخر، ومنها عجز الشيوعيين المصريين عن استغلال فرصة أحداث ١٩٤٦ لتوحيد صفوفهم، وكذا فشلهم فى إخراج قيادات قوية أو عجز قياداتهم على التعامل مع الموقف. وهنا يعقد الكاتب مقارنة لافتة بين أوجه الفشل تلك لدى الشيوعيين المصريين تجاه أحداث ١٩٤٦ وتجاه أحداث يناير ١٩٧٧ بعد ذلك بأكثر من ثلاثة عقود. كما يعرض لدور التنظيم فى مكافحة وباء الكوليرا فى مصر عام ١٩٤٧.

ولكن المؤلف فى كتابه هذا لا يجيب عن سؤال هام يتصل بإشادته بتعاون «حدتو» مع قوى سياسية أخرى فى مصر ما بين ١٩٤٦ و١٩٥٢، ألا وهو: هل تخلت «حدتو»، وغيرها من التنظيمات الشيوعية، عن القوى السياسية الأخرى عقب يوليو ١٩٥٢؟ وتحديداً بعد أزمة مارس ١٩٥٤؟ فى ضوء عدم تعليقهم على ما تعرضت له القوى السياسية الأخرى على يد حكومة يوليو، بل وعدم تعرضهم لموضوع الحريات السياسية والتنظيمية للقوى السياسية الأخرى فى مصر أو تقديم اشتراطات واضحة بشأن ضمانات خاصة بديمقراطية الحكم وتوفير واحترام الحريات عقب الإفراج عن الشيوعيين المصريين عام ١٩٦٤ وإدماجهم كأفراد فى النظام السياسى القائم بعد قبولهم بحل أحزابهم أو إنهاء وجودها المستقل؟



ومن الموضوعات التى يتناولها الكتاب، سواء فى الحقبة الملكية أو الناصرية، هو ما تعرض له الشيوعيون المصريون، خاصة قيادات وكوادر وأعضاء «حدتو»، من تعذيب يعرض لتفاصيله، ولكن لا تخطئ العين أن التركيز الأساسى للمؤلف هو على الفترة الناصرية. وكما هو متوقع يبرز المؤلف حالة «شهدى عطية الشافعى» الذى قضى تحت التعذيب، ويسعى أيضاً لإبراز أن السبب فى كشف ما حدث لشهدى فى حينه هو النجاح فى تسريب الأخبار إلى خارج مصر، وتحديداً إلى الحزب الشيوعى السوفيتى ورابطة الشيوعيين اليوغوسلاف، وهو ما يعتبر المؤلف أنه سبب حرجاً للرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر الذى كان فى يوغوسلافيا فى ذلك الوقت، مما دفع به إلى فتح تحقيق فى القضية. ولكن يحسب للكاتب أنه لم يقصر السرد على هذه الحالة المعروفة، بل يتناول حالات أخرى كثيرة بعضها يكاد يكون مغموراً. ويحرص المؤلف على إعرابه عن «الإعجاب» بـ «الصمود الأسطورى» للشيوعيين المصريين فى مواجهة التعذيب، إلا أنه يعترف بأن البعض ضعف واستسلم وفرط وتحول لعيون للأجهزة الأمنية، ولكنه يعتبر هؤلاء قلة محدودة، ويصنف ذلك على أنه «ضعف إنسانى مشروع»، كما يشير إلى حالات نادرة انهارت تماماً بين من أصيب بالجنون ومن أصيب بالانهيار العصبى. وفى الإطار نفسه، يشن المؤلف هجوماً متواصلاً على من يتهمهم بممارسة التعذيب بحق الشيوعيين المصريين، ويخص بالهجوم السيد/ ممدوح سالم، وزير الداخلية ثم رئيس الوزراء فيما بعد فى سبعينيات القرن العشرين فى ظل حكم الرئيس الراحل أنور السادات، عندما كان ضابطاً بالمباحث فى فترة «المحنة الكبرى» للشيوعيين المصريين ما بين ١٩٥٩ و١٩٦٤ بشكل خاص. وبالرغم من كل ما تقدم، فإن المؤلف يقر فى بعض صفحات الكتاب بأن الضربات الأمنية للشيوعيين المصريين كان لها تأثير سلبى على الحركة الشيوعية المصرية فى حلقتها الثانية. ويتميز الكاتب بأنه يشير إلى أن التعذيب لم يقتصر على الشيوعيين، بل إنه يذهب إلى القول أنه بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ مورس تعذيب وصفه بـ «البشاعة والانحطاط» ضد كل خصوم يوليو، ويخلص إلى أن هذا التعذيب لم يكن هدفه العقاب، بل «التحطيم والاستباحة وتحطيم الإرادة والإحساس بالذات وإهانة الكرامة الإنسانية وإذلالها» على حد قوله، واعتبر ما جرى «إبادة حقيقية». وفيما يخص الشيوعيين، كان هناك هدف إضافى للتعذيب وهو تفكيك الرابطة الحزبية، وهدر كرامة القيادة علناً أمام الكادر، مما دفع القيادة للحديث عن أن الهدف هو مجرد الحفاظ على حياة الكادر، وهو هدف يرفضه المؤلف لأن الكادر لن يكون حزبياً بعد الإذلال والإهانة التى تحقق هزيمة داخلية للبشر. ويقر المؤلف بأن بعض أشكال التعذيب توقفت بعد وفاة شهدى عطية الشافعى، مثل الضرب والسخرة، ولكن لم يتوقف التعذيب كلية.

ومن المسائل التى نرى أن المؤلف لم يوفها حقها موقف الحركة الشيوعية المصرية فى حلقتها الثانية، و«حدتو» خاصة، تجاه الدين. بل نكاد لا نرى سوى إشارة واحدة فقط إلى هذا الموضوع، وهذا يبدو مستغرباً، خاصة إذا ما قارناه بتصدى المؤلف بإسهاب، كما ذكرنا آنفاً، للدفاع عن موقف الشيوعيين المصريين إزاء المسألة القومية العربية وقضية الوحدة العربية، وأخذاً فى الاعتبار أهمية الاتهام للشيوعيين فى المجتمع المصرى منذ ظهور الحركة الشيوعية المصرية بالعداء للدين!

ولكن يذكر للكاتب التطرق لمسألة أخرى لا تقل أهمية، وهى التوقف والتأمل أمام إشكالية جادة للغاية، وهى: هل كان المجتمع المصرى مؤهلاً خلال الفترة من منتصف الثلاثينيات وحتى منتصف الستينيات من القرن العشرين لوجود تنظيمات شيوعية من جهة درجة التطور للبنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية؟ وترتبط هذه الإشكالية بأخرى وهى: هل كانت الطبقة العاملة المصرية، التى يفترض أن الحركة الشيوعية كانت تسعى لإنصافها، ممثلة بشكل كاف أم غائبة عن المواقع القيادية بالتنظيمات الشيوعية المصرية؟ ولا يقدم الكاتب إجابة محددة، ربما تاركاً الحكم والتقدير للقارئ، وإن أشار فى أحد المواضع أن مصر كانت قبيل حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ مؤهلة لثورة شعبية، دون أن يذكر إن كانت هذه الثورة كانت ستكون بقيادة الشيوعيين أو غيرهم.

ويحكى لنا الكتاب تفصيلاً علاقة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بتنظيم «حدتو» قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وذلك بقدر عال من الموضوعية مبيناً حجم العلاقة ومداها، ولكن أيضاً حدودها. فيشير إلى قيام «حدتو» بطباعة منشورات تنظيم «الضباط الأحرار»، ولكنه يذكر أيضاً رفض الرئيس عبد الناصر قبول الضباط المنضمين لـ «حدتو» فى تنظيم «الضباط الأحرار» كمجموعة مع قبولهم فرادى، وكذا الإشارة إلى رفض عبد الناصر الحديث عن «الاستعمار الأمريكى»، وسخريته من تولى ميكانيكى من سلاح الطيران المصرى، هو سيد سليمان رفاعى المعروف باسمه الحركى «الرفيق بدر»، منصباً قيادياً بـ «حدتو». وبينما يقر المؤلف بانفراد «حدتو» ضمن



من المسائل التى نرى أن المؤلف لم يوفها حقها موقف الحركة الشيوعية المصرية فى حلقتها الثانية، و«حدتو» خاصة، تجاه الدين



التنظيمات الشيوعية المصرية بتأييد ودعم حركة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، بينما عادتها معظم التنظيمات الشيوعية المصرية بالإضافة إلى الحركة الشيوعية العالمية، فإنه فند الادعاءات القائلة بأن حركة الجيش جاءت بتخطيط أمريكى.

وكما هو متوقع من كتاب حول فصيل شيوعى مصرى فى الفترة ما بين ١٩٣٥ و١٩٦٥، يتعرض المؤلف لأحداث كفر الدوار فى سبتمبر ١٩٥٢ وما يسميه سحق الجيش لحركة العمال وإعدام العاملين مصطفى خميس ومحمد البقرى، معتبراً أن هدف تحرك العمال اقتصر على تحسين شروط العمل، ويتهم «حدتو» بالفشل فى احتواء الموقف، وعدم إدانتها الحادة لإعدام خميس والبقرى، ويرجع ذلك إلى ما انتهى إليه أمر «حدتو» من تأييد مطلق للثورة، وهو أمر يستغربه الكاتب باعتبار أنه من المؤكد أن أحداً لم يعتبر أن الثورة كان لها توجهات «يسارية». ويعتبر المؤلف أن أحداث كفر الدوار كانت مؤشراً على ظهور ما يطلق عليه «الطابع القمعى» للثورة، وبينما كانت «حدتو» ترجع هذا «القمع» إلى ما كانت تسميه «ضغوط الاستعمار الأنجلو/ الأمريكى»، فإن المؤلف رأى أن القمع مكون طبيعى لأى نظام يقوده العسكريون، ويعتبر ذلك مقدمة لفترة عداء بين الثورة و«حدتو» برز فى يناير ١٩٥٣ بعد اعتقال أعداد من أعضاء «حدتو» ووقوف «حدتو» ضد التقارب بين الثورة والولايات المتحدة. وفى مقابل دعوة «حدتو» قيادة الثورة إلى إنشاء جبهة وطنية، جاء الرد ممثلاً فى استثناء المعتقلين الشيوعيين من قرار الإفراج عن كافة المعتقلين السياسيين، بحجة أن الشيوعية جريمة اجتماعية وليست سياسية! وبالتالى، بدأت الانتقادات تظهر داخل «حدتو» لتأييدها المطلق للثورة، وأبدى بعض الأعضاء التحفظ على الطبيعة الطبقية لقيادة حركة الجيش باعتبارها ممثلة للبرجوازية الصغيرة، وانتقد بعضهم «انعزال» «حدتو» عن الطبقة العاملة المصرية ودعوا إلى إقامة جبهة وطنية ديمقراطية مع عناصر من حركة «مصر الفتاة» وبعض الضباط وبعض عناصر حزب الوفد، بل وعناصر من جماعة الإخوان المسلمين، وبدأ أولئك الحديث عن «مطالب ديمقراطية». وثار الجدل مبكراً فيما بين الشيوعيين حول ما إذا كان يمكن اعتبار «هيئة التحرير»، التنظيم السياسى والشعبى الوحيد الذى أسسته الثورة عقب إلغاء الأحزاب، ممثلة للجبهة الوطنية التى كان يدعو إليها شيوعيو «حدتو».

ومنذ ذلك التاريخ استمر رهان «حدتو» على وجود جناحين داخل قيادة الثورة: جناح ديكتاتورى وآخر تقدمى بزعامة «جمال عبد الناصر»، وهو تحليل يرى المؤلف أنه أدى بتنظيم «حدتو» إلى ارتكاب أخطاء يصفها بـ «الكارثية». وكانت الأغلبية داخل «حدتو» ترى أنها فى جبهة مع الحكومة. ويشير الكتاب إلى أن موقف الأغلبية داخل «حدتو» لم تع أن الرئيس عبد الناصر، رغم وطنيته، ورغم أنه حقق على أرض الواقع أكثر مما تمناه الشيوعيون، كان مصراً على تصفية جميع القوى السياسية و«تأميم» الحياة السياسية والصراع الاجتماعى فى مصر، فى «نزوع عسكرى» للانفراد بالحكم وتشكيل طبقة برجوازية جديدة، ويعبر المؤلف عن عدم فهمه لتفرقة «حدتو» بين ممارسات حكومة الرئيس عبد الناصر ضدهم وبين ما كان ينتهجه الرئيس الراحل من سياسات وطنية داخلياً وخارجياً. فبحسب المؤلف، فإن الرئيس الراحل عبد الناصر كان مزهواً بانتصاراته العربية والدولية، وانطلق من هناك داخلياً للتصفية الكاملة والنهائية لكل القوى: الوفد ومصر الفتاة والإخوان المسلمين ثم اتجه لاحقاً لتصفية الشيوعيين، ويحمل المؤلف على الرئيس عبد الناصر رفضه التعاون مع الشيوعيين خلال تلك الفترة رغم أنهم دعوا إلى التحالف معه وتحت قيادته. ويشير المؤلف إلى «إصرار» «حدتو» معظم فترات الفترة الممتدة من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٥ على عدم التراجع عن تأييد حكومة الثورة تحت شعار «عدم تغليب التناقض الثانوى على التناقض الرئيسى». فبالرغم من إقرار «حدتو» بأن الحكومة القائمة هى حكومة برجوازية وطنية، فإنها اعتبرت البرجوازية الوطنية حليفاً للطبقة العاملة لاشتراك كليهما فى الكفاح ضد الاستعمار ومن أجل السلام وصيانة الاستقلال الوطنى وتوحيد الأمة العربية، مع عدم إنكار وجود اختلاف فى الغايات والوسائل، فيبقى هدف الشيوعيين هو بناء الاشتراكية ومن ثم الشيوعية، إلا أن «حدتو» أكدت أن الأولوية هى للنضال ضد الاستعمار. ويدهش المؤلف لأن «حدتو» توهمت أن خطها السياسى لدعم الرئيس عبد الناصر هو الصحيح وهو الذى سينتصر. بل يذهب المؤلف أبعد من ذلك ويرى أن «حدتو»، والتنظيمات الشيوعية المصرية فى حلقتها الثانية بشكل عام فيما بعد، لم تنهر بسبب الاعتقال أو التعذيب، بل بسبب ما يسميه بـ «العجز الفكرى والسياسى» عن الاستقلال عن الحكم، وعدم التمييز بين الرئيس عبد الناصر كوطنى معاد للاستعمار وبين إصراره على تصفية الحياة السياسية بالكامل: أحزاباً ونقابات وصحفاً، فبينما كان الرئيس الراحل يواصل إحداث تغييرات اجتماعية جذرية فى مصر لصالح الفقراء ويعمق تحالفاته مع حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث ومع المعسكر الاشتراكى، كان يواصل «قمعه» - بحسب المؤلف - لأى حركة شعبية أو سياسية مستقلة داخلياً.

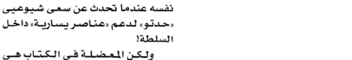


ويستغرب الكاتب موقف شيوعيى «حدتو» المعتقلين الذين وجهوا للرئيس عبد الناصر رسالة يطالبونه فيها بتوفير حماية للمعتقلين من جماعة «الإخوان المسلمين» الذين خرجوا عن الجماعة وهم معتقلون وقرروا تأييد الحكم، بدلاً من أن يطالب هؤلاء الشيوعيون الرئيس عبد الناصر بالإفراج عن الشيوعيين أنفسهم! ويبرز المؤلف التناقض بين امتلاء المعتقلات بالشيوعيين فى عهد الرئيس عبد الناصر بينما قطاع هام من الشيوعيين المصريين، خاصة شيوعيى «حدتو»، يبعث برسائل التهنئة للرئيس الراحل، بل و«من أجل عيون عبد الناصر» - على حد قول المؤلف - هاجمت «حدتو» تنظيمات شيوعية أخرى ولم تفطن إلى أن الاعتقالات شملت آلاف الشيوعيين، سواء من دعا للتحالف تحت قيادة عبد الناصر، مثل «حدتو»، أو من تحفظ على ذلك. كما يأخذ المؤلف على شيوعيى «حدتو» خصوصاً، ومجمل الشيوعيين المصريين عموماً، قبولهم التفاوض مع السلطة الناصرية وهم رهن الاعتقال، ولكن المؤلف لا يقول لنا ماذا كان البديل أمام الشيوعيين المصريين؟

ويرى المؤلف أنه كان على «حدتو» الحفاظ على مسافة كافية من السلطة، والاستقلال عنها وتأييدها بشكل مشروط على أرضية المواقف المشتركة وفى إطار جبهة وطنية، كما أنه يأخذ عليها عدم الالتفات إلى ما يسميه بـ «الطابع المعادى للديمقراطية» للناصرية، وتأجيل «حدتو» أى مطالبة بالديمقراطية، التى أسماها بالفريضة الغائبة حينذاك. ولكن المؤلف يعود إلى إنصاف «حدتو»، فيعتبر تأييدها للرئيس الراحل عبد الناصر ليس تملقاً أو خوفاً بل بناء على موقف سياسى قائم على حسابات خاطئة، وينفى عنها تهم العمالة للسلطة أو خيانة مصالح الطبقة العاملة المصرية. ويقر المؤلف بأن تنظيمات شيوعية مصرية أخرى غير «حدتو» نجحت فى الاستقلال عن حركة الجيش فى المرحلة الأولى، ونجحت بعض هذه التنظيمات فى التفرقة بين السياسات الخارجية الإيجابية لقيادة الثورة وبين سياساتها الداخلية المتصفة بشكل متزايد بطابع «ديكتاتورى». بل يشير إلى أن بعض التنظيمات الشيوعية المصرية صنفت الحكم الناصرى بأنه ممثل البرجوازية الكبيرة خلال الخمسينيات بالرغم من توثيق العلاقات مع المعسكر الاشتراكى فى الخارج وإعلان قوانين الإصلاح الزراعى فى الداخل.

وبالرغم من رفض المؤلف طرح «حدتو» خلال تلك الحقبة بوجود جناحين داخل السلطة، فإنه ناقض نفسه فى أكثر من موضع بالكتاب، حيث تحدث عن وجود أجهزة قمع وتعذيب حاولت عرقلة الإفراج عن الشيوعيين المصريين منذ عام ١٩٦٣ عبر الوقيعة بينهم وبين قيادة الرئيس عبد الناصر. كما ناقض نفسه عندما تحدث عن سعى شيوعيى «حدتو» لدعم «عناصر يسارية» داخل السلطة!

ولكن المعضلة فى الكتاب هى التناقض فيما يتعلق بتواجد «حدتو» بين صفوف الجماهير بعد يوليو ١٩٥٢، ففى بعض المواضع يدفع بأن الشيوعيين المصريين عجزوا عن التأثير أو بناء جسور مع الجماهير بينما كانت وسيلتهم الوحيدة لفرض التحالف معهم على أسس متكافئة على عبد الناصر هى تواجدهم وتأثيرهم وسط الجماهير، وفى



هل كان المجتمع المصرى مؤهلاً خلال الفترة من منتصف الثلاثينيات وحتى منتصف الستينيات من القرن العشرين لوجود تنظيمات شيوعية؟



مواضع أخرى يرى أن الشيوعيين كان لهم وجود وتأثير فى الشارع المصرى! ويتصل هذا بمقارنة المؤلف بين تواجد كل من الشيوعيين والإخوان المسلمين فى صفوف الجماهير، فهو يعتبر أن جذور الإخوان غير عميقة اجتماعياً، بينما الشيوعيون لهم جذور شعبية وتاريخ عميق فى الحركة الوطنية المصرية(٤) وتأتى هذه الإشارة ضمن إشارات عديدة ضمنية وغير مباشرة لجماعة الإخوان المسلمين، جميعها سلبية، بشأن دور الإخوان، بل ودور معتقلى الجماعة داخل نفس المعتقلات التى كان يوجد بها الشيوعيون خلال تلك الفترة. وفيما يتعلق بالتواجد والتأثير الجماهيرى للشيوعيين، يقر المؤلف بأن وجود الشيوعيين انحسر فى الشارع بعد حملة اعتقالات يناير ١٩٥٩، فكل الجسور مع النقابات والمصانع والأحياء والريف اقتلعتها «آلة الدعاية الجبارة» لعبد الناصر، خاصة فى ظل خوض الرئيس الراحل معارك حقيقية وفى ضوء «كريزما» عبد الناصر والتحولات الاجتماعية الداخلية التى أجراها وما يسميه المؤلف «الأوضاع المتردية للحركة الشيوعية».

ولا يمنع ما تقدم من القول بأن شيوعيى «حدتو» أيدوا قانون الإصلاح الزراعى الأول وسعوا لمواجهة تحايل كبار الملاك على القانون، ولكن الشيوعيين بدأوا الحديث عن العلاقة بين النضال ضد الاستعمار وتأمين المكاسب الاجتماعية وبناء حياة ديمقراطية.

وفى هذه المرحلة، سعت «حدتو» للحصول على دعم الأحزاب الشيوعية والنقابية العمالية فى الخارج. وفى إطار هذا المسعى، وجهت «حدتو» تحية للحزب الشيوعى الإسرائيلى، وهو ما يراه المؤلف «خطأ» ليس له ما يبرره، وفتح الباب لهجوم الثورة على «حدتو» وكيل الاتهامات لها. كما دفعت «حدتو» نحو وحدة التنظيمات الشيوعية المصرية، خاصة أن الانقسام فيما بينها حال دون اعتراف الحركة الشيوعية الأممية بالحركة الشيوعية المصرية. إلا أن ما حدث على أرض الواقع كان العكس: انقسامات داخل «حدتو»، وهو ما يعزز أحد أبرز الفرضيات التى قام عليها الكتاب، ألا وهى أن الانقسام والتشرذم كان خاصية ملازمة للحركة الشيوعية المصرية فى حلقتها الثانية.

وإذا كانت أحداث كفر الدوار قد حظيت باهتمام المؤلف فى إطار تحليل علاقة الشيوعيين بقيادة الثورة المصرية، فإن المحطة الثانية البارزة فى هذه العلاقة هى بالطبع أزمة مارس ١٩٥٤، ويركز الكتاب على أبعادها الاجتماعية ممثلة فى نية مجلس قيادة الثورة إصدار قانون بحرمان العمال من حق الإضراب ومنح أصحاب العمل حق الفصل التعسفى مما دفع خالد محيى الدين ويوسف صديق للاستقالة من المجلس، ويتهم الإخوان المسلمين بتدبير مظاهرات فبراير ١٩٥٤ المؤيدة للرئيس محمد نجيب.

ولكن تطورات دولية مثل مؤتمر التضامن الأفرو/آسيوى فى باندونج وصفقة الأسلحة التشيكية لمصر ورفض الرئيس عبد الناصر لسياسة الأحلاف الغربية فى المنطقة، دفعت ليس فقط «حدتو» بل وتنظيمات شيوعية أخرى إلى تأييد الثورة واعتبار عبد الناصر بطلاً.

ويشير الكاتب محمود الوردانى إلى أن حكومة ٢٣ يوليو استمرت فى ممارسة الاعتقال والتعذيب بحق الشيوعيين المصريين عبر مختلف مراحل الثورة، بالرغم من تأييد «حدتو» وغيرها من التنظيمات الشيوعية المصرية فى مراحل مختلفة خلال تلك الفترة لثورة يوليو وقيادتها، وأن الحالة الوحيدة للجوء الرئيس الراحل عبد الناصر للتحالف مع الشيوعيين كانت فقط فى مواجهة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦.



ويكرس المؤلف جزءاً هاماً من الكتاب للعدوان الثلاثى وموقف الشيوعيين المصريين تجاهه، فيذكر أن هنرى كورييل أبلغ الرئيس الراحل عبد الناصر بالعدوان قبل وقوعه بـ ٢٠ يوماً، بل إن الشيوعيين المصريين توقعوا مبكراً وقوع العدوان كرد على قرار تأميم القناة. وفور وقوع العدوان بدأ الشيوعيون فى حشد الجهود من أجل الكفاح المسلح وشكلوا لجان المقاومة الشعبية فى منطقة القناة والتى أصدرت نشرة «الانتصار». كما استغل الشيوعيون الفرصة لتعبئة الطبقة العاملة المصرية وأبرزت «حدتو» الربط بين دور الطبقة العاملة المصرية فى مقاومة العدوان الثلاثى ودورها فى ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢، إلا أنه بعد دحر العدوان ساعد الشيوعيون فى جمع السلاح من الأهالى وتسليمه للحكومة. ووافقت الحكومة على تدريب الشيوعيين على حمل السلاح ووفرته لهم، ولكن الحكومة حرصت على السيطرة على حركة المقاومة من جانب الشيوعيين، وبالرغم من ذلك نجح الشيوعيون فى الاختلاط بالفلاحين فى منطقة القناة والمناطق المحيطة بها وتدريبهم بدورهم على حمل واستخدام السلاح. ويشير الكتاب إلى دور الراحل «كمال الدين رفعت» فى تدريب الشيوعيين وفى التنسيق بين الدولة وبينهم.

ولكن عقب إلحاق الهزيمة بالعدوان الثلاثى، لم يوافق ثوار يوليو على مواصلة العمل المشترك مع الشيوعيين المصريين، فجاء قرار منع المرشحين الشيوعيين من التقدم لانتخابات مجلس الأمة (البرلمان) عام ١٩٥٧، وبدأ إحياء قضايا قديمة بحق الشيوعيين. ومرة أخرى يستعجب الكاتب من رد فعل «حدتو» على هذه الإجراءات، حيث استمرت فى افتراض وجود انقسامات داخل السلطة ما بين جناح رجعى وآخر تقدمى بزعامة الرئيس عبد الناصر، ورأت أن واجب الشيوعيين هو الدفاع عن الأخير، بل وجهت انتقاداتها للشيوعيين أنفسهم وانقساماتهم وعدم انضمامهم للاتحاد القومى (التنظيم السياسى الوحيد الذى خلف هيئة التحرير) و«تخويفهم» للبرجوازية الوطنية!

ومن المسائل التى يسرد لها المؤلف جزءاً فى كتابه موقف «حدتو» من الاتحاد القومى. فقد وافق شيوعيو «حدتو» على دخول الاتحاد القومى كتنظيم وليس كأفراد باعتبار ذلك تجسيداً لفكرة الجبهة المشتركة التى تبنتها «حدتو». ومن جهة أخرى، يبرز المؤلف دور الرئيس الراحل أنور السادات فى الهجوم على الشيوعيين عندما كان أميناً عاماً للاتحاد القومى، حيث رفض فكرة الجبهة الوطنية أو السماح بوجود أحزاب. ورد الشيوعيون - من خارج «حدتو» - بالقول بفشل الاتحاد القومى وانفضاض الشعب من حوله ووصفوه بأنه «مفروض على الشعب» وطالبوا بحق الشعب فى تكوين أحزاب وبدأوا يثيرون قضية الديمقراطية ويطالبون بإلغاء الأحكام العرفية التى سبق أن أيدوها إبان العدوان الثلاثى، وطوروا نظرياً مقولة أنه فى ظل وجود طبقات يجب السماح بقيام أحزاب تعبر عن هذه الطبقات.

ويعود المؤلف إلى تناول الدور السوفيتى، حيث يوضح مسئولية «التنظير الأيديولوجى والسياسى» داخل الحزب الشيوعى السوفيتى خلال تلك المرحلة عن سوء تقدير «حدتو» وشيوعيين آخرين خارجها تجاه الحقبة الناصرية، حيث بدأ منظرو الحزب الشيوعى السوفيتى الترويج لمقولة أن الثورات الوطنية فى العالم الثالث هى حليف للقوى الاشتراكية، الأمر الذى يتطلب انضمام الشيوعيين لقيادات هذه الثورات. فقد راجع الحزب الشيوعى السوفيتى الموقف للاستفادة من صعود حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث، وبدأ تطوير نظرية «التطور اللا رأسمالى»، أى تحول المستعمرات مباشرة للاشتراكية، مثل كوبا كاسترو وأندونيسيا سوكارنو والكونغو لومومبا ومصر عبد الناصر. وسمح هذا التنظير بأن تقود البرجوازية الصغيرة المعادية للاستعمار أوطانها نحو الاشتراكية، وبالتالى كان على التنظيمات الشيوعية العمل معها لإنجاز الاشتراكية. وانطبق ذلك على مصر بعد حديث الميثاق الوطنى عام ١٩٦٢ عن الاشتراكية العلمية. ومثل هذا التنظير السوفيتى لاحقاً غطاء لإعلان التنظيمات الشيوعية حل نفسها، أو بتعبير المؤلف أنه «مادام عبد الناصر يبنى الاشتراكية، فليخلع الشيوعيون المصريون ملابسهم ويركضون نحو القفص». ويوضح المؤلف أن نفس هذا الميثاق الوطنى تحدث عن الديمقراطية باعتبارها «خديعة غربية»، واكتفى بالحديث عن «الديمقراطية الاجتماعية»، كما استمر الشيوعيون المصريون بعد إعلان الميثاق يتعرضون لتصفية مستمرة ومنظمة جسدياً وعقلياً، على حد قول المؤلف.

ويخصص المؤلف جزءاً هاماً من الكتاب لما يسميه «تجريدة» يناير ١٩٥٩ ضد الشيوعيين المصريين، أو ما جرى على تسميته فى الأدبيات السياسية المعاصرة



هل كانت الطبقة العاملة المصرية، التى يفترض أن الحركة الشيوعية كانت تسعى لإنصافها، ممثلة بشكل كاف أم غائبة عن المواقع القيادية بالتنظيمات الشيوعية المصرية؟



للشيوعيين المصريين بـ «المحنة الكبرى للشيوعيين». ويصدر حكماً بأن ما جرى للشيوعيين المصريين ما بين ١٩٥٩ و١٩٦٤ يشكل وصمة عار على جبين الناصرية، خاصة أن الشيوعيين المصريين لم يحملوا السلاح ضد الحكم. ويعرض المؤلف لمقدمات «الحملة»: شنت الصحافة المصرية حملة على الشيوعيين باعتبارهم عملاءاً للاتحاد السوفيتى، وهاجم خطباء المساجد «الشيوعيين الكفار المنحلين»، وبدأت الدعاية فى المدارس والجامعات للتحذير من الشيوعيين. ومرة أخرى يستعجب المؤلف رد فعل «حدتو» على هذه المقدمات، فقد اكتفت بالقول بأن هذه مجرد «أزمة ثقة» مع الحكم وسوف تمر، بل أصدرت قيادة الحركة تعليمات لأعضائها بعدم الهروب أو مقاومة أوامر الاعتقال. وبرغم حملة الاعتقالات لاحقاً وبرغم تعرض معتقليها للتعذيب على حد قول الكاتب، استمرت «حدتو» فى تأييد الرئيس الراحل عبد الناصر وحكومته، بل أرسلت إليه خطاباً مفتوحاً فى سبتمبر ١٩٥٩ تجدد تأييدها للثورة برغم الاعتقالات وتبرر ذلك بأن «المصلحة الطبقية» للطبقة العاملة تحتم التحالف مع الحكومة القائمة، بل استمر هذا الموقف من «حدتو»، حتى بعد وفاة شهدى عطية الشافعى وغيره من الشيوعيين تحت وطأة التعذيب. وكان رد الحكومة ليس فقط رفض التحالف مع الشيوعيين بل السعى لتصفيتهم، ضمن كافة المخالفين لها.

ويستغرب المؤلف أن شيوعيى «حدتو» دافعوا خلال التحقيقات والمحاكمات عن الشيوعية ولكنهم أنكروا انتماءهم الحزبى، منعاً لاستفزاز الحكم «الحليف»، على حد تعبيرهم، وأصروا على الحديث عن «مجموعة اشتراكية» داخل السلطة يجب العمل معها لتحقيق وحدة العمل من أجل الأهداف الوطنية و«الديمقراطية(!)».

ويشيد المؤلف بما يسميه مقاومة المعتقلين الشيوعيين داخل المعتقلات والسجون، فقد واصلوا النقاش السياسى والتثقيف النظرى للشباب، وجعلوا ما يرد لهم من الخارج من أطعمة أو غير ذلك ملكية عامة تطبيقاً لمبادئهم، ونظموا ندوات ثقافية تناولت أعمال روائية وكتب فكرية. بل وفى معتقل الواحات طرح المعتقلون الشيوعيون فكرة استصلاح أراض محيطة بمعتقل الواحات وزراعتها، وهو ما قبلت به إدارة المعتقل وتحولت إلى واقع فعلى فيما يشبهه المؤلف بالمعجزة! ولكنه يعود فيأخذ على التنظيمات الشيوعية المصرية أنها حتى فى مشروع كهذا قسمت الأراضى بين التنظيمات بدلاً من العمل معاً. ومع ذلك، حرص الكاتب على إبراز أن «حدتو» حاولت فى البداية الامتناع عن الانضمام لأى مقاومة فى المعتقلات بحجة أن من شأن ذلك «استفزاز» الدولة التى كانت «حدتو» تعتبرها حليفاً، وبحجة أن الدولة تتجه نحو «الاشتراكية»، وهو تبرير كان مثار سخرية المؤلف. ويورد المؤلف مفارقة تتمثل فى تكليف الدولة لبعض الشيوعيين بإعداد تقارير للعرض على الرئيس الراحل عبد الناصر وهم بداخل المعتقلات! ولا ينسى الكاتب أن يشير إلى أن حملة الاعتقالات شملت أيضاً شيوعيين من أبناء قطاع غزة، وكذلك من سوريا ولبنان، خاصة عندما كانت سوريا جزءاً من الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨ ـ ١٩٦١). وفى المعتقلات نظم شيوعيو «حدتو» فصولاً لتعليم اللغتين الإنجليزية والفرنسية والرياضيات للمسجونين العاديين مما جعل العلاقات معهم جيدة ورفض المسجونون الجنائيون مراراً أن تستخدمهم إدارة المعتقلات ضد الشيوعيين بحجة أنهم «كفرة». كما سعى الشيوعيون لمحو أمية السجانة من الجنود وضباط الصف. كما نظمت محاضرات عامة، وإن كانت منفصلة لكل تنظيم على حدة(!)، وتم تقديم إنتاج فنى وبناء مسرح فى معتقل الواحات، والأهم أن الشيوعيين بنوا مسجداً فى المعتقل، بالرغم من أن الإخوان المسلمين كانوا معتقلين هناك من قبل ولم يبنوا مسجداً، على حد قول المؤلف.

ويكرس الكاتب فصلاً للحديث عن المعتقلات الشيوعيات فيما يسميه أول حالة جماعية لاعتقال النساء لأسباب سياسية فى تاريخ مصر. وبخلاف الرجال، تمكنت الشيوعيات من العمل الجماعى داخل المعتقلات، رغم تباين الانتماءات التنظيمية، لمقاومة الإدارة عبر إضرابات الطعام وغيرها وبلورة مطالب مشتركة نجحن فى تحقيق معظمها عبر لجنة قيادية لهن وحسن إدارة معاركهن، بالرغم من ضغوط مارستها عليهن السلطات عبر أسرهن وأطفالهن لإجبارهن على الإدلاء باعترافات أو التعاون مع الأجهزة الأمنية. كما أقمن علاقات إنسانية جيدة بالمسجونات العاديات من خلال محو أميتهن، وشكلن فريق تمثيل وأعددن مجلة مسموعة. ويشيد المؤلف بدفاع المعتقلات الشيوعيات خلال التحقيقات والمحاكمات، حيث ركزن على غياب الديمقراطية، واعتبرن الأخيرة السبيل الوحيد للحفاظ على استقلال الوطن. وخارج المعتقلات تكونت جبهة من عائلات المعتقلات لمساندتهن فى مقاومتهن بالداخل.



ومن داخل المعتقلات، واصلت «حدتو» التمسك بمواقفها المؤيدة لسياسات الرئيس عبد الناصر متهمة عناصر فى قمة السلطة مثل السيد/زكريا محى الدين والسيد/عبد اللطيف البغدادى بوضع الخطوط العامة لتعذيب الشيوعيين بالتعاون مع رجال المخابرات المركزية الأمريكية مثل «مايلز كوبلاند». ولكن على الجانب الآخر كان هناك من قيادات يوليو السيد/كمال الدين رفعت والسيد/لطفى واكد وغيرهما ممن شهدوا لصالح الشيوعيين، خاصة دورهم فى التصدى للعدوان الثلاثى عام ١٩٥٦. وبخلاف مواقف سابقة لـ «حدتو»، حرصت الحركة على إصدار تقرير يعلن أن إسرائيل دولة عنصرية ويعلن رفض الحركة لقرار تقسيم فلسطين. كما أعادت تأكيد التحالف مع السلطة، ولكنها أشارت لاختلافات معها بشأن الديمقراطية وطالبتها بضرب «القوى الرجعية» وبالمزيد من التحولات الاجتماعية. وكإثبات لحسن النوايا، أخطر قياديون شيوعيون مسئولين رفيعى المستوى فى السلطة بمعلومات عن مؤامرة انقلابية متوقعة. وبينما امتنع شيوعيو التنظيمات الأخرى داخل المعتقلات عن الهتاف بحياة عبد الناصر، فإن شيوعيى «حدتو» هتفوا بحياته، وهو أمر يستنكره المؤلف: فكيف يهتفون لرئيس يعتقلهم؟

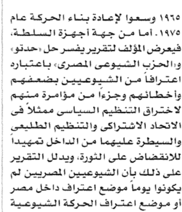
ويكرر المؤلف مراراً الموقف الذى يراه عبثياً: شيوعيون يؤيدون نظاماً وطنياً يقوده زعيم وطنى، بينما الحكم يعتقلهم ويعذبهم! فهدف الحكم ـ بحسب رأيه ـ هو القضاء على أى تنظيم مستقل بحيث يكون البديل الوحيد المتاح أمام الشيوعيين هو الدخول فرادى للتنظيم السياسى الوحيد، وليس الدخول كتنظيم فى إطار جبهوى. ويعرض الكتاب لرسالة وجهها الراحل شهدى عطية الشافعى للرئيس الراحل عبد الناصر عام ١٩٥٩ من السجن أكد فيها تأييد الشيوعيين لزعامته وسياساته الخارجية والاقتصادية والاجتماعية ولفكرة الجبهة الوطنية، واستحضر دورهم فى مواجهة العدوان الثلاثى، ثم تساءل، بصيغة النفى، عما إذا كان اعتقال الشيوعيين أدى إلى إزالة الفجوة بين الجمهورية العربية المتحدة والعراق.

وهنا يبرز الكاتب أن الشيوعيين خارج «حدتو» رفضوا اعتبار التأميمات التى أعلنها الرئيس الراحل عبد الناصر فى تلك الفترة «تقدمية» ما لم تصاحبها إجراءات ديمقراطية باعتبار التأميم رأسمالى حيث تقوم الدولة بدور الرأسمالى مباشرة، فأصبحت رأسمالية دولة واستمرت علاقات الانتاج رأسمالية، خاصة أنه عقب تأميمات يوليو ١٩٦١ أعلنت أحكام قاسية بحق الشيوعيين. وبالمقابل، بقيت «حدتو» على طول الطريق تؤمن بوجود «مجموعة اشتراكية» مختلطة بأفكار قومية فى السلطة بزعامة الرئيس عبد الناصر، ويعيد المؤلف تكرار أن هذا الموقف كان كارثياً للحركة الشيوعية المصرية فى حلقتها الثانية. ولكن تفسير «حدتو» أصر على أن وجود أجنحة داخل السلطة هو سبب ما تعرض له الشيوعيون نتيجة محاولة جهات فى السلطة إفساد العلاقات بين الشيوعيين وعبد الناصر، ورأت الحركة أن أفكار عبد الناصر اقتربت من الاشتراكية العلمية وقابلة للتطور بما يسمح بوحدة الشيوعيين مع مجموعة عبد الناصر الاشتراكية، قياساً على ما حدث فى كوبا وبعض دول شرق أوروبا. بل إن بعض قيادات «حدتو» رأوا أن الخلاف مع عبد الناصر بعد ١٩٦١ لم يعد حول الاشتراكية أو التوجهات الاقتصادية والاجتماعية بل حول استقلالية التنظيم والدخول للتنظيم السياسى الواحد للسلطة كتنظيم ومدى قبول السلطة بذلك.

ووصل الأمر بـ «حدتو» إلى اعتبار شرط قبول العضوية بالحركة هو القبول بحماية النظام الوطنى القائم، ورأوا فى المرحلة انتقالاً من الرأسمالية إلى



الكتاب بتركيزه على ظاهرة التفتت والانقسام داخل الحركة الشيوعية خلال تلك الفترة نجح فى إثبات أننا كنا بصدد «حركات» متضاربة ومتناقضة فيما بينها



الاشتراكية، ودفعوا بأن اعتقالهم وتعذيبهم يجب ألا يحولا دون التفكير بموضوعية. فمنذ عام ١٩٦٢، تحدث بعض قادة «حدتو» عن فرصة قيام حزب واحد للاشتراكية العلمية، وآخرون تحدثوا عن حل الحزب والانضمام لقيادة عبد الناصر، خاصة فى ضوء الحديث عن بناء تنظيم طليعى داخل الاتحاد الاشتراكى العربى - التنظيم السياسى الذى خلف الاتحاد القومى. وتوسيط شيوعيين مفرج عنهم بعد أن التحقوا بدوائر الحكم، ولكن بقيت قواعد وكوادر «حدتو» ضد الحل. ويتهم المؤلف الشيوعيين الذين التحقوا بالسلطة ب «دفن» الحلقة الثانية للحركة الشيوعية المصرية، ويؤكد أن الحكم لم يقدم تنازلات حقيقية للشيوعيين بل مجرد ساحات تنفيس، مشيراً إلى أن دور الشيوعيين كان محدوداً ومقيداً ومفيداً للسلطة. ومع هذا كانت تعارضه أجهزة استبعدت أسماء الشيوعيين من الترشح فى انتخابات وحدات ولجان الاتحاد الاشتراكى. بل فرضت العزلة على معظم الشيوعيين المفرج عنهم عام ١٩٦٤ ووضعت العراقيل أمام عودتهم لأعمالهم فى وقت كانت عائلاتهم فيه بلا مورد لمدة خمس سنوات، وذلك بدلاً من الترحيب بهم كطلائع للفكر الاشتراكى السائد.

وينفى المؤلف عن الشيوعيين سعيهم لمكاسب مادية من جراء الالتحاق بالسلطة، ويرجع ذلك إلى قناعة فكرية وسياسية بالبحث عن موطىء قدم لليسار. واتخذت «حدتو» قراراً بأن من ينضم للتنظيم الطليعى تتوقف عضويته فى «حدتو» إثباتاً لحسن النية ولتدعيم الحكم، بينما استمر الكادر الوسيط والقواعد فى الحركة ترفض الحل وفوجئت به. وتم تخويل مسئول سياسى واحد سلطة اتخاذ القرار ب «حدتو» بما ضرب بعرض الحائط كل مبادىء الديمقراطية، بل وحتى الديمقراطية المركزية. وفى اليوم التالى لحل الحركة، تم تأسيس تنظيم جديد بواسطة أربعة من قيادات «حدتو»، مما أظهر التخبط وغياب النقاش أو الإجماع على قرار الحل. ولكن المؤلف ينتقد أن منتهى أمانى «حدتو» هو أن يسمح لهم الرئيس عبد الناصر بدخول التنظيم الطليعى، خاصة أنهم كانوا معزولين عن العمال والطلاب والنقابات، وينتقد تجاهلهم أن الدفاع عن حق التنظيم المستقل هو السبيل للدفاع عن وجودهم ليكون التحالف مع الرئيس عبد الناصر وفق برنامج محدد. ودليل المؤلف على صحة هذا النقد أن عدداً من قادة «حدتو» اعترفوا لاحقاً بخطأ قرار الحل عام ١٩٦٥ وسعوا لإعادة بناء الحركة عام ١٩٧٥. أما من جهة أجهزة السلطة، فيعرض المؤلف لتقرير يفسر حل «حدتو» و«الحزب الشيوعى المصرى» باعتباره اعترافاً من الشيوعيين بضعفهم وأخطائهم وجزءاً من مؤامرة منهم لاختراق التنظيم السياسى ممثلاً فى الاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى والسيطرة عليهما من الداخل تمهيداً للانقضاض على الثورة، ويدلل التقرير على ذلك بأن الشيوعيين المصريين لم يكونوا يوماً موضع اعتراف داخل مصر أو موضع اعتراف الحركة الشيوعية الأممية.

ويشير المؤلف فى الختام إلى هزيمة يونيو ١٩٦٧ بعد عامين من حل الشيوعيين المصريين لتنظيميهم الرئيسيين كدليل على ما أسماه «هشاشة» الحكم الناصرى برغم جبروته الظاهر.

وفى الختام، وبالرغم من كافة الملاحظات والتعليقات التى عرضنا لها آنفاً، تبقى حقيقتان هامتان بشأن الكتاب الذى اتخذنا منه هنا مدخلاً لدراسة تاريخ الحركة الشيوعية المصرية فى حلقتها الثانية ما بين ١٩٣٥ و١٩٦٥، خاصة «حدتو»، وهما حقيقتان تهزان العديد مما استقر فى العقل الجمعى السياسى المصرى، بل والعربى. أما الحقيقة الأولى فهى أن الكتاب بتركيزه على ظاهرة التفتت والانقسام داخل تلك الحركة خلال تلك الفترة نجح فى إثبات أننا كنا بصدد «حركات» متضاربة ومتناقضة فيما بينها وليس «حركة» شيوعية مصرية واحدة أو موحدة أو حتى متناغمة أو منسجمة فيما بين فصائلها. أما الحقيقة الثانية فهى أنه ليس صحيحاً ما استقر فى الذهن المصرى والعربى لعقود بأن الشيوعيين مؤيدون بشكل آلى للرئيس الراحل جمال عبد الناصر وسياساته، بل إن هذا يصدق فقط على قطاع من الشيوعيين، كما أن حتى هؤلاء الذين أيدوا كانوا لاحقاً مثار انتقاد موضوعى وأيديولوجى وسياسى حاد من قطاعات هامة من الحلقة الثالثة من الحركة الشيوعية المصرية كما يظهر جلياً من هذا الكتاب.

وأخيراً، يشجع الكتاب الذى عرضنا له على المزيد من البحث والدراسة العلمية والمنهجية لموضوعات الحركات الشيوعية المصرية، فى حلقاتها الثلاثة، باعتبارها جزءاً هاماً من التطور الفكرى والسياسى والاجتماعى للشعب المصرى، ومكوناً لا غنى عنه لتطوير صحى ومتوازن للذاكرة التاريخية والوطنية المصرية. ■



من يتحدث باسم الإسلام؟ ديمقراطية أم ثيوقراطية؟ (*)

إن جماعة متنوعة من موظفي الحكومة وأعضاء الكونجرس والنقاد تردد آراء الخبراء الأكاديميين من آمثال «صمويل هانتنجتون» (Samual Huntington) و«برنارد لويس» (Bernard Lewis): التي تحذر من أخطار «صدام الحضارات» ولهذا الاعتقاد جذور عميقة بين صناع القرار والخبراء، وهو استجابة - بصفة جزئية لبعض الحقائق السياسية في العالم الإسلامي:

■ من كل أربع دول أغلب سكانها مسلمون، توجد دولة واحدة تنتخب حكوماتها بطريقة ديمقراطية.

■ الحكام في عدد من الدول الإسلامية التي تدّعي إجراء انتخابات ديمقراطية يفوزون في انتخابات الرئاسة بصورة روتينية بنسب تقريبية تتراوح بين ٩٠٪ و٩٩,٩٪. وقد فاز رئيس تونس «بن علي» بنسبة ٩٩,٤٪ من الأصوات في انتخابات الرئاسة في عام ١٩٩٩، وبنسبة ٩٤,٥٪ في عام ٢٠٠٤. وفي مصر فاز الرئيس حسني مبارك بنسبة ٩٤٪ في عام ١٩٩٩، وبنسبة ٨٨,٦٪ في عام ٢٠٠٥ من أصوات الناخبين.

■ إن أغلب الحكومات الإسلامية تسيطر على الأحزاب السياسية المعارضة، والمنظمات غير الحكومية، وتحدّد نشاطها بصورة قاسية. ولها سلطة الترخيص لها أو منعها وحلّها، وكذلك تتحكم في قدرتها على عقد الاجتماعات العامة والاتصال بوسائل الإعلام.

(*) الثيوقراطية هي الحكومة الدينية التي يتولاها رجال الدين. المترجم.






محمد عبد اللطيف هريدى


الأتراك فى قصصهم القصيرة

لن نكون مبالغين إذا قلنا أن القصة - بصفة عامة - هى أكثر الفنون الأدبية التصاقاً بالإنسان، وأفصح تعبيراً عن حياته؛ فى ماضيه وحاضره ومستقبله. ورغم ما تقدمه لنا وسائل الاتصال الحديثة من إبداعات فنية تجسد حياة الإنسان وتقدمها عبر الأثير بكل الألوان والأبعاد، فلا ننسى أن القصة هى جوهر هذه الأعمال الإبداعية على اختلاف ألوانها وأشكالها. والنصوص القصصية مازالت تتربع على عرش الفنون السردية الحديثة: فهى التى تصاحب المتلقى أينما كان وحيثما حل، وهى تصل مباشرة إلى خياله فيشاركها التجربة الشعورية للمبدع، وأخيراً هى التى تستطيع أن تقدم للمتلقى عالمًا افتراضيًا غير محدود.

والقصة القصيرة - بصفة خاصة - هى أقدر الفنون الأدبية على مراقبة الحياة وتفسيرها من خلال الزاوية الخاصة التى ينتقيها كاتبها، وفى إطار الأبعاد الزمانية والمكانية التى يرسمها. فإذا كنا نسعى لتقديم صورة متكاملة لأى مجتمع من المجتمعات البشرية علينا أن نقلب فى قصصه القصيرة لنستخرج منها عناصر هذه الصورة: فالقصة القصيرة تتميز بعدة خصائص لعل منها:

- أنها تنتقى موقفًا من الحياة أو جانبًا من جوانبها.
- أنها تمثل الواقعية الجديدة فى الكشف عن الحقائق دون السعى للكشف عن أسبابها.
- أنها تمثل لحظة تنويرية ودفقة شعورية من جانب كاتبها.
- أنها تلائم سرعة الإيقاع التى تميز العصر الحديث مع الاهتمام بعنصرى الزمان والمكان.

لذلك كله لجأنا إلى القصة القصيرة لنرصد حركة المجتمع التركى الحديث والمعاصر، ولنشعر بنبض الحياة فى عروقه، ولنلتقط له صورة من مختلف الزوايا (بانورامية). ولكى نستطيع أن نقدم نماذج بشرية متنوعة للإنسان التركى المعاصر فى أفراحه وأتراحه، ومن واقع همومه وقضاياه، ومن خلال ماضيه وحاضره ومستقبله.

وتحقيقاً لهذا الهدف وقع اختيارنا على باقة من القصص القصيرة التى تنتمى إلى الفترة الزمنية من النصف الثانى من القرن العشرين إلى أوائل القرن الحالى. أما كتابها فغالبيتهم - باستثناء عدد محدود من المخضرمين - من مواليد الأربعينيات فأحدث. أى أنهم من الجيل المعاصر.

لم تكن مسألة اختيار هذه النصوص الإبداعية أمراً سهلاً ميسوراً؛ بل هى مهمة جد عسيرة؛ فقد حرصنا على أن نقدم رؤى إبداعية مختلفة، بحيث يمثل مبدعوها مختلف الاتجاهات والتيارات الفكرية والفنية السائدة فى الأدب التركى المعاصر. ووضعنا فى عين الاعتبار أن تصور هذه القصص مختلف بيئات المجتمع التركى وطبقاته وفئاته، وأن تقدم لنا نماذج بشرية مختلفة تمثل غالبية الشعب التركى. ورغم ذلك لا نزعم أن هذه المختارات تمثل كل القصص التركية المعاصرة، أو أنها تمثل كتابها أو أنها تمثل أفضل ما كتبوا، بالطبع لا نستطيع زعم ذلك. بيد أننا نزعم أننا حاولنا تقديم تنويعات من القصة التركية القصيرة التى تقدم لنا صورة متكاملة للمجتمع التركى المعاصر.



إن القصة - بمعناها العام - تعبير أدبى وثيق الصلة بحياة الإنسان؛ فهو يسمعها وليدا فى المهد، وهو ينصت إليها حين تقدم إليه دروسا وعبرا دينية، وهو يطالعها حين يتابع تاريخه فى شكل أحداث ووقائع. ومن ثم فالقصة ملازمة للإنسان طوال حياته. وإذا صدق ذلك على الأفراد فهو يصدق على الشعوب والأمم.

أما القصة القصيرة فنعنى بها ذلك النوع الأدبى الحديث الوافد من الغرب والذى انبثق عن فن الرواية وأطلق عليه - مجازا - «القصة القصيرة». فقد ظهر هذا النوع فى أوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر، واكتمل نضجه على يد جى دى موباسان (١٨٥٠-١٨٩٣م) الذى وصفها بأنها «تصور حدثا معينا لا يهتم الكاتب بما قبله أو بعده»... «وهى الوسيلة الطبيعية للتعبير عن الواقعية الجديدة التى لا تهتم بشىء أكثر من اهتمامها باستكشاف الحقائق من الأمور الصغيرة المألوفة... وكاتبها يهتم بتصوير موقف معين فى حياة فرد أو أكثر لا بتصوير الحياة بأكملها... ولذلك فإن النهاية فى القصة القصيرة تكتسب أهمية خاصة إذ هى النقطة التى تتجمع فيها وتنتهى إليها خيوط الحدث كلها لذلك سميت (لحظة التنوير)»[1]

والقصة مرآة صادقة لحياة الشعوب؛ فوقائعها مأخوذة مما عاشته من الأحداث والخطوب، وشخصياتها مستوحاة من البشر الذين يعيشون هذه الحياة، ومسرح أحداثها هو الأرض التى يدب عليها أفراد المجتمع، وزمانها هو اللحظة التاريخية المنتقاة التى يبعثها القصاص من جديد. وإذا كان العرب قالوا قديما «الشعر ديوان العرب»، فلن نكون مبالغين لو قلنا أن «القصة ديوان الحياة المعاصرة».

والقصة التركية - سواء كانت رواية أم قصة قصيرة - لاتعدو كونها ديوانا لحياة المجتمع التركى، ونحن إذ نقدم هذه المختارات، نحاول أن نقدم صورة (بانورامية) للحياة الاجتماعية المعاصرة



للاستزادة:
من الأدب التركى المعاصر - مختارات من القصة القصيرة
نقلها عن التركية: د. محمد عبد اللطيف هريدى
دار العين للنشر - الإسكندرية ٢٠٠٩

لتركيا. فالقصة التركية القصيرة - التى لا تختلف كثيرا فى نشأتها وتطورها عن مثيلتها فى الأدب العربى - كانت مواكبة لحياة هذا المجتمع عبر تاريخه الحديث والمعاصر.

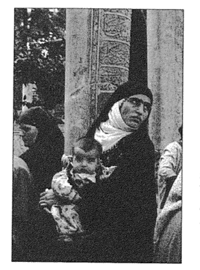
بيد أننا آثرنا أن يكون اختيارنا محدودا فى نطاق زمنى محدد وهو المجتمع الحديث والمعاصر، ومن ثم انحصر ما نقدمه من نماذج فى الإنتاج القصصى للفترة من منتصف القرن العشرين إلى أواخره[٢].

ولا مندوحة من تقديم لمحة سريعة عن نشأة القصة التركية القصيرة وتطورها توطئة للمرحلة التاريخية والأدبية التى أفرزت القصص المختارة، وتمهيدا للوقوف على مستوى النضج الفنى الذى وصلت إليه القصة التركية المعاصرة من ناحية، ومدى تعبيرها عن المجتمع التركى المعاصر من ناحية أخرى.

فجر القصة التركية القصيرة:

دخل الأدب التركى - كغيره من الآداب الشرقية - تحت تأثير الآداب الغربية مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادى[٣]، ونتيجة لهذا التأثير تسربت الأنواع الأدبية الجديدة إلى الأدب التركى، وكان فن القصة القصيرة فى مقدمة هذه الأنواع الأدبية الوافدة[٤]. وقد تزامن فجر هذا الفن الجديد مع بداية مرحلة تاريخية جديدة فى حياة المجتمع التركى؛ تلك المرحلة التى تعرف فيها على الحضارة الأوروبية، متأثرا بحالة من الانبهار بتفوقها التكنولوجى، وبمبادئ ثورتها الفرنسية. وقد عرفت هذه المرحلة ب(عهد التنظيمات)[٥]. وفى هذه المرحلة تبنى الروائيون الأوائل مبدأ «الفن فى خدمة المجتمع» وكانت القصة القصيرة فى مقدمة الأنواع التى سخرها الروائيون الأوائل لخدمة أهداف أخلاقية وتنويرية تنصب، فى الغالب، على التعريف بالحضارة الغربية، أو التوفيق بينها والحضارة الإسلامية، أو التحذير من التقليد الأعمى للحضارة الغربية[٦].

برز فى هذه المرحلة الكاتب التركى المعروف أحمد مدحت أفندى (١٨٤٤-١٩١٢م) وتسنم مقام ريادة القصة بلا منازع، لوفرة إنتاجه، وسهولة لغته، وتقمصه روح التراث الشعبى[٧]. وإذا كان إنتاج أحمد مدحت قد تميز بالطابع الشعبى فهناك روائيون آخرون غلب على أعمالهم طابع الصنعة والتكلف فى اللغة والأسلوب، فراجت أعمالهم بين زمرة المثقفين، ولكنهم لم يكتبوا كثيرا فى مجال القصة القصيرة، بل كان جل إنتاجهم فى مجال الرواية مثل نامق كمال(١٨٤٠-١٨٨٨م) وسامى باشا زاده سزائى(١٨٦٠- ١٩٣٦م)، ومع ظهور الجيل الثانى من كتاب هذه المرحلة ظهرت بشائر المدرسة الواقعية على يد محمود رجائى زاده أكرم (١٨٤٧- ١٩١٤م) فى روايته «غرام العربة» (١٨٨٩م). ثم جاء نابى زاده ناظم (١٨٦٢-١٨٩٣م) ليقدم



نماذج جديدة اتسمت بمزيج من الواقعية والطبيعية وقد بدا ذلك واضحا فى قصصه القصيرة، خاصة قصة «قرابيبك» (١٨٩٠م).

تميز الإنتاج القصصى لهذه المرحلة، بخصائص المدرسة الرومانسية الفرنسية بكل ما تحمل الكلمة من معنى؛ من حيث المبالغة فى التصوير، والجنوح إلى الخيال، وتسطيح الشخصيات وعدم تطورها مع تطور الأحداث؛ فهى أحادية الجانب: إما جانب الخير أو جانب الشر. فضلا عن ذلك فقد تميز إنتاج هذه المرحلة بكل خصائص البدائية: من حيث عدم اكتمال عناصر النضج الفنى. بيد أنه يحسب لهذا الجيل من القصاصين أنهم استطاعوا تسخير هذا الفن الجديد الوافد فى خدمة أهدافهم التثقيفية، والتنويرية، ومعالجة القضايا الاجتماعية فى ضوء معطيات المنعطف الحضارى الذى كان يعيشه المجتمع التركى، ولا سيما فى عاصمة الدولة العثمانية آنذاك؛ استانبول.

مع قرب أفول القرن التاسع عشر الميلادى دخل الأدب التركى عموما، وفن القص خصوصا، منعطفا جديدا حين بدأ الأدباء - تحت ضغط السلطات الرقابية آنذاك - يبتعدون عن تناول القضايا الاجتماعية، مؤثرين التعبير عن مشاعرهم الذاتية. وقد التف هؤلاء الأدباء حول مجلة أدبية تعرف باسم «ثروت فنون» (بدأ صدورها فى ١٨٩١م) وإليها نسب جيلهم، فعرف باسم «جيل ثروت فنون» أو جيل «الأدب الجديد» كما كانوا يسمون أنفسهم. ومن الجدير بالذكر أنهم، بصفة عامة - تخلوا عن مبدأ «الفن للمجتمع» وأصبح شعارهم «الفن للفن»، ونشطت حركة ترجمة الأعمال الروائية الفرنسية والإنجليزية؛ فوردوا موارد المدرسة الطبيعية والواقعية فى الأدب الفرنسى فقرأوا وترجموا عن بلزاك (١٧٩٩-١٨٥٠م) وستاندال (١٧٨٣-١٨٤٢م) وجوستاف فلوبير (١٨٢١-١٨٨٠م) وأميل زولا (١٨٤٠-١٩٠٢م) والفونس دوديه (١٨٤٠- ١٨٩٧م) وغيرهم. وأطلقوا العنان لمشاعرهم وعواطفهم. وكان اتجاههم الروائى فى البداية يحمل بصمات الرومانسية التى ورثوها عن كتاب التنظيمات، ثم تطور ذلك الانتاج ليبلغ النضج الفنى فى أواخر هذه المرحلة. وقد برز من بين هؤلاء القصاصين خالد ضيا أوشاقليغل (١٨٦٧-١٩٤٥م) وقد كان جل انتاجه فى مجال القصة القصيرة التى بلغت مائتى قصة، تميز فيها بالحرص على تقديم بناء فنى متكامل، على طراز القصص الغربية. كما جسد شخصيات طبيعية استمدها من واقع الحياة ولاسيما بيئة الأحياء الفقيرة فى استانبول. كذلك جاء الروائى محمد رؤوف (١٨٧٥- ١٩٣١م) ليقدم أولى نماذج التحليل النفسى فى الرواية التركية[٨]. وعلى الرغم من أن الروائى حسين رحمى كوربينار (١٨٦٤-١٩٤٤م) كان معاصرا لهؤلاء القصاصين، لم ينتم إلى جماعتهم. بيد أنه تميز بغزارة انتاجه، وغلبة الطابع الاجتماعى على هذا الانتاج



دخل الأدب التركى - كغيره من الآداب الشرقية - تحت تأثير الآداب الغربية مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادى



مما يعد تلميذا مخلصا لأحمد مدحت أفندى. ولكنه كان متأثرا بمدرسة الطبيعية الفرنسية بمزيج من الواقعية النقدية[٩]. وهكذا تجاوزت القصة التركية مرحلة النشأة، فتطور بناؤها الفنى، ونسيجها القصصى، وبدت شخصياتها أكثر طبيعية وأحداثها أكثر واقعية. لكن يعيب النقاد على غالبية أعمال هذه المرحلة صعوبة اللغة وتكلف الأسلوب[١٠].

القصة فى خدمة المبادئ القومية:

مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين أفلست غالبية التيارات الإصلاحية التى كانت تهدف إلى بعث الحياة فى جسد الرجل المريض: أى الدولة العثمانية. ولاسيما تلك التيارات التى كانت تعتمد على مبادئ عثمانية أو إسلامية، وساد على ساحة الفكر والسياسة تياران: أحدهما يدعو إلى القومية التركية، والآخر يدعو إلى العصرنة. وقد تجلت سيادة هذين التيارين فى الإطاحة بعرش السلطان عبد الحميد الثانى(١٨٧٦- ١٩٠٩م) عام ١٩٠٨م وتولى حزب الاتحاد والترقى السلطة.

التفت جماعة من الأدباء حول مجلة تدعى «كنج قلملر» أى الأقلام الشابة (١٩١١م) وتبنت هذه الجماعة الفكر القومى بكل تجلياته اللغوية والأدبية[١١]؛ ومن هذه التجليات أن تكون أعمالهم الروائية فى خدمة مبدأ القومية التركية الذى اشتد أواره وكثر أتباعه فى أعقاب الحروب التى خاضتها الدول العثمانية فى أخريات أيامها[١٢]. فعاد الأدباء إلى مبدأ «الفن من أجل المجتمع» وارتاد الروائيون الأتراك تيار القومية وبرز من بينهم الكاتب ممدوح شوكت اسندال (١٨٨٣-١٩٥٢م) وعمر سيف الدين(١٨٨٤-١٩٢٠م)، وخالدة أديب (١٨٨٤- ١٩٦٤م) ورفيق خالد قراى (١٨٨٨- ١٩٦٥م) ويعقوب قدرى قرا عثمان اوغلو (١٨٨٩- ١٩٧٤م) ورشاد نورى كونتكين (١٨٨٩- ١٩٥٦م). هؤلاء توفروا على تناول موضوعات قومية فى أعمالهم القصصية، ويأتى فى مقدمة هذه الموضوعات: بث الروح الوطنية، وتزكية روح الحماس لقتال الأعداء وتحرير الوطن التركى، وتمجيد تاريخ الأتراك قبل الإسلام، والفخر بالعنصر التركى، والبحث عن أسباب النهوض بالمجتمع التركى، وإحياء التراث التركى القديم، والدعوة للقومية التركية، وأخيرا تصوير حياة الريف، وعرض قضاياه، مع اعتبار الأناضول مهدا للوطنية التركية. لكن هذه الموضوعات كانت فى الغالب تقدم ممزوجة بإحدى قصص الحب. لاسيما فى الروايات - وربما كان ذلك رغبة فى إرضاء المتلقى الذى ألف قراءة قصص العلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة. كما تميزت الأعمال القصصية فى تلك المرحلة بالبناء الفنى المحكم، وسهولة اللغة والأسلوب.

ولكن رغم هذا التحول

القومى فى المضمون. ظل البناء الفنى مرتبطا بالمدارس الغربية من حيث المفهوم والبناء الفنى. فظل القصاصون يضربون على خطى رواد القصة القصيرة فى الآداب الغربية آنذاك ويأتى فى مقدمة هؤلاء:

من الأدب الفرنسى: الفونس دوديه (١٨٤٠-١٨٩٧م)، وجى دى موباسان. ومن الأدب الأمريكى مارك توين (١٨٣٥-١٩١٠م)، وجون شتاينبك (١٩٠٢-١٩٦٨م). ومن الأدب الروسى انطون تشيكوف (١٨٦٠-١٩٠٤م) وغيرهم. ولكن من بين هؤلاء كان موباسان وتشيكوف هما الأعمق تأثيرا. حتى لقد دأب نقاد الأدب التركى على تقسيم القصاصين إلى فريقين:

أحدهما ترسم خطى موباسان حيث أعطى الأولوية لبناء الحدث بناء تقليديا، واهتم بدور الشخصيات فى تحريك الحدث. وقد مثل هذا الفريق: عمر سيف الدين، ويعقوب قدرى قرا عثمان اوغلو، ورفيق خالد قراى، وخالدة أديب، ورشاد نورى كونتكين.

أما الثانى فقد اقتفى أثر تشيكوف الذى لم يكن يهتم بمنطقية بناء الحدث، ولم يكن يولى للشخصيات هذه الأهمية، بل كان يعتبر أن القصة تبدأ بعد نهاية الحدث ويأتى فى مقدمة هذا الفريق: ممدوح شوكت اسندال[١٣].

القصة ومبادئ الثورة الكمالية:

بعد نجاح الأتراك فى حربهم التحريرية عام ١٩٢٢م، وقيام الثورة الكمالية ومن ثم إلغاء السلطنة العثمانية وإعلان الجمهورية ١٩٢٣م. أعلنت الثورة مبادئها الستة التى كان فى مقدمتها: القومية والعلمانية. ومن ثم لم يجد حملة الشعلة القومية من الأدباء تناقضا بين أعمالهم السابقة للثورة وهذه المبادئ، ولذلك لم يكن غريبا أن نرى الروائيين، السابق ذكرهم، قد واصلوا - فى أوائل العهد الجمهورى - مسيرتهم القومية فى تناول نفس الموضوعات التى لم يجدوا فيها تناقضا مع ما جاء فى مبادئ الثورة الكمالية. بل أضيف إليها الهجوم العنيف على الدين الإسلامى ورموزه، وإرجاع غالبية الأمراض والمشكلات الاجتماعية إلى التمسك بالدين. وليس أدل على ذلك من الشكوى التى يشكوها الناقد التركى أحمد قباقلى من تصاعد حدة هذا الهجوم بقوله «لقد اتفق فى ذلك دعاة التغريب مع دعاة اليسارية ولم يكن لهم من هدف سوى التظاهر بالثورية والتنويرية»[١٤] فضلا عن ذلك فقد بدأت مبادئ الشيوعية تتسرب إلى فئة المثقفين فالتفوا حول مجلة تمثلهم اسمها (كادرو) وكان من بين هؤلاء المثقفين الكاتب، سالف الذكر، يعقوب قدرى، والشاعر ناظم حكمت (١٩٠٢-١٩٦٣م) والروائى صباح الدين على (١٩٠٧-١٩٤٨م) ولكن زج بالأول فى السجن، وهرب الثانى إلى خارج البلاد، وقتل الثالث أثناء محاولته الهروب على الحدود البولغارية.

لم يكن الحزب الجمهورى، الحاكم فى أوائل العهد الجمهورى، ليسمح بتعدد الاتجاهات الفكرية فى ظل حكم الحزب الواحد، كما أنه لم يكن ليسمح بتناول التاريخ الإسلامى أو العثمانى فى الأعمال القصصية إلا نقدا وتجريحا. ولكن هذا لاينفى وجود المعارضة الدينية التى تزعمها الشيخ سعيد النورسى (١٨٧٦-١٩٦٠م). أما المعارضون الأدباء فقد كانوا يلجأون أحيانا إلى اختيار حياة المنفى مثل: الشاعر الإسلامى محمد عاكف أرصوى(١٨٧٣-١٩٣٦م) وشيخ الإسلام مصطفى صبرى (١٨٧٦-١٩٦٠م) وخالدة أديب أدى وار(١٨٤٤-١٩٦٤م) وسامحة أيويردى(١٩٠٦-١٩٩٣م). وقد حاول يعقوب قدرى التملص إزاء فرض الرقابة وسيطرة الحزب الواحد وكان السجن من نصيبه، وكان بعض الكتاب يلجأون إلى الموضوعات الروحية، ومعالجة الأزمات النفسية مثل بيامى صفا (١٨٠٠-١٩٦١م) أو معالجة الموضوعات الحسية، الغريزية الخاصة بالطبيعة البشرية مثل صلاح الدين أنيس.

ومن ثم انكب الروائيون على تناول الموضوعات التى تسمح بها الرقابة وتدعمها السلطة السياسية آنذاك مثل: تصوير حياة القرية، وما تعانيه من المشكلات الاجتماعية ورواسب العهود البائدة، ويأتى فى مقدمة هؤلاء رفيق خالد قراى، الذى قدم أروع تصوير للقرية التركية، وأصدق نموذج للفلاح التركى من خلال مجموعته «حكايات بلادى» (١٩١٩م)، وواصل رشاد نورى أعماله القصصية التى جسدت الروح الشاعرية لقرى الأناضول، كما تابع يعقوب قدرى فى رواياته وقصصه القصيرة نقده لموقف المثقفين حيال الريف وتعاليهم على أهله، فضلا عن قصص البطولة التى أثرت عن حرب الاستقلال[١٥].

التعددية الحزبية وصراع الأيديولوجيات:

يعتبر مؤرخو الأدب التركى الحرب العالمية الثانية وما أعقبها من نتائج بداية مرحلة جديدة فى تطور الأنواع الأدبية بصفة عامة، والفن الروائى بصفة خاصة. وهو محقون فى ذلك. لأن الأحداث التى أعقبت هذه الحرب تمخضت عن تغييرات عميقة الأثر فى الحياة السياسية والاجتماعية: فما هى هذه التغييرات؟ وما هى انعكاساتها على القصة القصيرة؟.

توفى مصطفى كمال أتاتورك عام ١٩٣٨م عن دولة يسودها حكم الحزب الواحد، ولا صوت فيها يعلو على صوت الثورة الكمالية ومبادئها، ولم تتحقق لها التنمية الاقتصادية المنشودة ولا العدالة الاجتماعية الموعودة، وعلى الرغم من عدم دخول تركيا الحرب العالمية الثانية، فقد اكتوت بنارها؛ حيث كشفت هذه الحرب حقيقة تدهور الأوضاع فى الدولة مما أدى إلى زيادة حدة المعارضة المكتومة. ولم يستطع خليفته عصمت اينونو(١٨٤٨-١٩٧٣م) أن يؤجل تطبيق الديمقراطية، ولاسيما أن الظروف العالمية: مثل توقيع اتفاقية حقوق الإنسان عام ١٩٤٤م، وانضمام تركيا إلى حلف شمال الأطلنطى عام ١٩٤٧م، كانت تدفع تركيا إلى اتخاذ هذه الخطوة. فتقرر تشكيل عدة أحزاب لخوض الانتخابات البرلمانية عام ١٩٤٨م. التفت المعارضة حول الحزب الديمقراطى الجديد حين أعلن عن تشكيله عام ١٩٥٠م ونجح فى اكتساح حزب الشعب الجمهورى فى الانتخابات وتولى السلطة.

من الطبيعى أن يضم هذا الحزب الجديد جميع أطياف المعارضة من المحافظين، وأصحاب النزعة الدينية من التجار وكبار مزارعى الأناضول الذين أضيروا فى العهد الجمهورى من جراء احتكار الدولة لكثير من المنتجات الزراعية المهمة، واحتكار صناعة التبغ والخمور[١٦]. ويحسب لهذه المرحلة انطلاق المعارضة الإسلامية من عقالها. ومنذ هذا التاريخ بدأ الأتراك المتمسكون بدينهم يلتفون حول الأحزاب السياسية حتى أصبح لهم أحزاب تمثلهم بل وتصل إلى سدة الحكم أكثر من مرة[١٧].

بدأت الجمهورية التركية تدخل مرحلة سياسية وفكرية جديدة مع اعتلاء الحزب الديمقراطى سدة الحكم، فلم يكن لدى قادته من الخبرة السياسية والاقتصادية الكافية لحل القضايا التى خلفها الحكم الفردى طوال سبع وعشرين سنة، مما أدى إلى ظهور قضايا جديدة أوجزها الناقد أحمد قاباقلى فيما يلى:

«الفهم الخاطئ للديمقراطية، والتفرقة بين المدنيين والعسكريين، وانتشار البطالة فى الريف نتيجة لرواج

انكب الروائيون على تناول الموضوعات التى تسمح بها الرقابة وتدعمها السلطة السياسية آنذاك مثل: تصوير حياة القرية، وما تعانيه من المشكلات الاجتماعية

الميكنة الزراعية، وسيطرة أصحاب رؤوس الأموال على الحياة الحزبية، وزيادة الهجرة من الريف إلى المدن، انتشار المساكن العشوائية على أطراف المدن(١٨).

زاد من تفاقم هذه الأزمات الصراع بين الساسة الجدد ذوى النزعة المحافظة ويمثلهم الحزب الديمقراطى، والحرس القديم المدافع عن (الرئاسة الأبدية) والثورة الكمالية بمبادئها العلمانية والتغريبية، ويمثلهم العسكريون واستمر هذا الصراع من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٠ وتمخض عن الانقلاب العسكرى فى ١٩٦٠/٥/٢٧م، ثم إعدام رئيس الوزراء عدنان مندريس وعدد من الوزراء. ودخلت الحياة الساسية فى تركيا مرحلة جديدة اتسمت بالعنف وتكونت الخلايا والمنظمات الإرهابية التى كانت ترى لنفسها الحق فى استخدام القوة لفرض مبادئها.

كان من الطبيعى أن تترك هذه الأحداث السياسية أثرها فى الحياة الفكرية فتسربت إلى البلاد الأيديولوجيات اليسارية بكل طوائفها، ونتج عن ذلك تعدد التيارات والاتجاهات السياسية، فإلى جانب التيارات القديمة المتمثلة فى: القومية التركية، والإسلامية، والعصرنة أخذت الشيوعية تنتشر بين فئات الطلاب والمثقفين، فزادت أحداث العنف وعمت الفوضى، واختل الأمن فى كل أنحاء البلاد، ناهيك عن ظهور الحركات الانفصالية فى جنوب شرقى تركيا، حيث وجد اليساريون فى تلك المناطق تربة صالحة لبث الفرقة بين العنصر الكردى فى الولايات الشرقية، وعلى هذا النحو عاشت تركيا حالة من عدم الاستقرار فى الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية حتى أواخر السبعينيات؛ حيث تدخل الجيش مرة أخرى عام ١٩٨٠م وأعلن الأحكام العرفية وحكم البلاد حتى عام ١٩٨٤م. وعلى الرغم من أن التدخل العسكرى من حين لآخر لم يكن يقدم حلا جذريا للصراعات الحزبية والأيديولوجية إلا أن تدخله كان بمثابة المسكن الذى يزيل الأعراض وليس الأمراض. وقد تمخضت هذه الأحداث عن انقسام المفكرين والأدباء إلى معسكرين رئيسيين:

١ ـ الواقعية الاشتراكية:

انعكست حالة الانقسام هذه على الحياة الأدبية بصفة عامة، وكتاب الرواية بصفة خاصة فأصبح كل منهم ينتمى إلى تيار أو اتجاه فكرى، وأصبح لكل منهم معسكره ومنبره الخاص، يدافع عنه مبررا اعتقاده أو مبادئه، وجعل الكتاب من أنفسهم أبواق دعاية لكل حزب أو جماعة، وضاقت المسافة بين الشعارات السياسية والفن، وضحى القصاصون بالجوانب الفنية فى سبيل التعبير عن القضايا الاجتماعية والسياسية. وسادت التيارات الوافدة وخاصة الواقعية الاشتراكية وساعد على ذلك حركة ترجمة واسعة النطاق عن الروسية والألمانية عدا الإنجليزية والفرنسية؛ ومن ثم سخر هؤلاء القصاصون قصصهم للترويج للفكر الشيوعى أو الاشتراكى، وسادت أعمالهم فكرة الصراع بين الطبقات، ووضعوا الشخصيات فى قوالب نمطية. فوضعوا شخصية المظلوم فى قالب واحد تقريبا: فهو إما عامل أوفلاح أجير أو إحدى الشخصيات التى تعيش على هامش الحياة الاجتماعية، فى مقابل شخصية الظالم وهو إما مالك الأراضى (الآغا) أو العمدة فى القرية، وصاحب رأس المال أو التاجر الانتهازى فى المدينة. وكان ممثلو هذا التيار إما رواد الواقعية الاشتراكية منذ الأربعينيات والخمسينيات مثل: كمال طاهر (١٩١٠-١٩٧٣) وأورخان كمال (١٩١٤-١٩٧٠) وياشار كمال (١٩٢٢-؟) وصميم قوجه كوز(١٩١٦-؟) وعزيز نسين (١٩١٥-١٩٩٣م) أو الكتاب الجدد الذين برزوا فى السبعينيات ولكنهم تتلمذوا على مؤلفات الكبار الذى ذكرناهم آنفا ونذكر من هؤلاء الجدد: وايلخان طاروس (١٩٠٧-١٩٦٧م) عدالت آغا اوغلو (١٩٢٩-؟) وطومريس اويار (١٩٤١-؟)، وسليم ايلرى (١٩٤٩-؟) وغيرهم.

فى مقابل هذا المعسكر الاشتراكى برز رهط من الأدباء ممن كانوا يرون أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ولذلك شرعوا ينافحون عن القيم المعنوية للإنسان

٢ ـ القومية التركية والإسلامية:

وفى مقابل هذا المعسكر الاشتراكى برز رهط من الأدباء ممن كانوا يرون أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ولذلك شرعوا ينافحون عن القيم المعنوية للإنسان وقد تمثلت هذه القيم عند بعضهم فى الفخر بأمجاد الأتراك وتراثهم، واتخذوا من تاريخ الأتراك مسرحا لأبطالهم مثل الكاتبة سوينتش تشوقوم (١٩٤٣-؟)، وكمال طاهر(١٩١٠-١٩٧٣م)، ومصطفى قوطلو (١٩٤٧-؟)، وطارق بوغرا (١٩١٨-؟). والبعض الآخر اتخذ من التاريخ السلجوقى والعثمانى مدخلا لإحياء الأمجاد التركية فى العصر الإسلامى ويمثل هؤلاء: سزائى قراقوتش (١٩٣٣-؟) وراسم أوزنديرن (١٩٤٠-؟). أما مصطفى سبتشى اوغلو (١٩٣٢-؟) وآفت ايلغاز (١٩٣٧-؟) ومن لف لفهم فقد كانوا يرون فى القيم الإسلامية حلا للمشكلات الاجتماعية ومخرجا للأزمة التى كان يعيشها المجتمع التركى.

لكن هذا التصنيف لا يعنى الحصر، فالكاتب قد يعبر فى إحدى قصصه عن المبادئ الاشتراكية وفى الأخرى عن القومية. نقول ذلك لأن غالبية القصاصين الجدد الذين برزوا متأثرين بالواقعية الاشتراكية قد تحولوا عنها بعد ذلك ولاسيما بعد انهيار المعسكر الشيوعى فى التسعينيات من القرن العشرين. كما أننا نجد بعض الكتاب وقد اتخذوا لأنفسهم مسارا خاصا فمنهم من خص إنتاجه القصصى بحياة البحر، دون أن يتخذ من القضايا الاجتماعية مادة لقصصه، بل كان يتغنى بالمبادئ الإنسانية العامة ونذكر من هؤلاء خاليقارناس بالقيجيسى (١٨٨٦-١٩٧٣م) وسعيد فائق آباسى يانيق (١٩٠٦-١٩٥٤م) الذى ترك بصمات واضحة جعلته رائدا لمدرسة الإنسانية فى القصة التركية القصيرة.

أما من ناحية البناء الفنى فقد ساد فى هذه الفترة فن الإسقاط التاريخى على الأحداث المعاصرة: حيث بات كل كاتب يختار المرحلة التاريخية التى يمكن من خلالها الترويج لأفكاره سواء إذا كانت قومية أو شيوعية أو محافظة أو تغريبية. وعن هذا النوع من البناء يقول الناقد أحمد قاباقلى: «اختار غالبية الروائيين من التاريخ التركى عهد الاتحاد والترقى، أو حرب الاستقلال، كما قدموا رؤية جديدة لحرب الاستقلال. ومن بين هؤلاء آتيلا ايلخان، وكمال طاهر وطارق بوغرا، وصميم قوجه كوز، وايلخان طاروس، وسفنتش تشوقوم، وبكير ييلديز (١٩٣٣-؟) . ولجأ بعض الروائيين إلى مرحلة التاريخ السلجوقى والعثمانى وتاريخ القرم، ومن هؤلاء مصطفى نجاتى سبتتشى أوغلو وكمال طاهر، وطارق بوغرا وسفنتش تشوقوم، وأورخان باموق (١٩٥٢)»(١٩).

العولمة وآثارها فى نهاية القرن:

مع اقتراب القرن العشرين من نهايته، وبالتحديد فى السنوات العشرين الأخيرة منه، مر المجتمع التركى بتحولات جوهرية فى الحياة السياسية والاجتماعية، بدأت بنجاح حزب (ألوطن الأم) فى أول انتخابات بعد انقضاء فترة الحكم العسكرى عام ١٩٨٤ برئاسة تورجوت اوزال (١٩٢٧-١٩٩٣م). فكان انتصارا لليبرالية والرأسمالية الغربية، حتى الحكومات التركية المتعاقبة انتهجت سياسة السوق الحرة، وبدأت الدولة ترخى قبضتها على المؤسسات الاقتصادية، وزاد الانفتاح على الخارج، فسعت الدولة إلى جذب الاستثمارات الخارجية، ونشط الاقتصاديون ورواد الصناعة فى مجال التصدير، واقتحم المقاولون الأتراك آفاقا جديدة فى الشرق الأوسط وروسيا وأستراليا، والتف أصحاب رؤوس الأموال حول حزب (الوطن الأم) الذى



نجح فى تحرير الاقتصاد التركى من سيطرة الدولة، مما أدى إلى ظهور المضاربات فى سوق المال والبورصات، والصفقات المالية المريبة، وانتشار الفساد الإدارى والاجتماعى، وظهرت طبقات جديدة أثرت ثراء سريعا، فاتسعت الهوة بين الأغنياء والفقراء، وزادت النزعة الاستهلاكية والإقبال على مظاهر الترف والرفاهية، وانخفض سعر العملة المحلية مع زيادة التضخم وارتفاع الأسعار، واصبح التعامل بالدولار واليورو فى السوق المحلية أكثر منه بالعملة المحلية.

تبع ذلك انفتاح اجتماعى على الحياة الغربية بكل أطيافها فانتشرت أماكن اللهو والنوادى الليلية، وأقيمت محطات التليفزيون الخاصة الإباحية، فضلا عن انتشار القنوات الأجنبية، وزادت هجرة العمال الأتراك إلى الدول الغربية، مع تفضيل الكثرة منهم الحياة فى الغرب، أما العائدون فباتوا يعانون من الاغتراب داخل الوطن. والخلاصة أن هذا الانفتاح وإن بدأ اقتصاديا فقد انتهى اجتماعيا بحيث انعكس على حياة المواطن التركى: فهو إما أن يتخلى عن هويته التركية الإسلامية أو يتشدد فى المحافظة عليهما. وقد وقع غالبية المحافظين تحت تأثير التيارات الإسلامية المتشددة، فظهرت الجماعات الإسلامية التى عرفت بأسماء عديدة مثل: «حزب الله التركى» و«أتباع فتح الله» وجماعة «النورسية» وغيرهم.

أما على صعيد الأحداث العالمية الكبرى فقد شهدت التسعينيات انهيار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١م؛ ونهاية الحرب الباردة. وكان لذلك آثاره الكبرى على مجريات الحياة التركية بكل مناحيها، ويأتى فى مقدمة هذه الآثار:

• غياب العدو التقليدى من ناحية وفقدان تركيا أهميتها الاستراتيجية بين أعضاء حلف شمال الأطلنطى من ناحية أخرى.

• تداعى الاتجاه اليسارى ومن ثم الأحزاب التى كانت تتبنى المبادئ الماركسية.

• فتح آفاق جديدة للقومية التركية ودعوة تركيا للتكامل الاقتصادى والسياسى والثقافى مع عالم الجمهوريات التركية المستقلة عن الاتحاد السوفيتى، حتى أنه أعلن فى مؤتمر انطاليا ١٩٩٣م القرن الواحد والعشرين (قرن العالم التركى).

• الميراث العثمانى وأثره فى حرب البوسنة والهرسك وتداعياتها على سياسة تركيا تجاه البلقان.

• حرب الشيشان مع روسيا الاتحادية، والنزاع بين الأرمن والأذريين على إقليم ناكورنو قراباغ فى القوقاز.

• الحرب على العراق عام ١٩٩١، ثم انهيار العراق وإعلان الاستقلال الذاتى لإقليم الكردستان شمال العراق وأثره على تطور الحركة الانفصالية بين أكراد تركيا[٢٠].

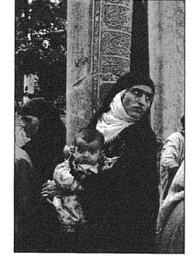
وفى ظل هذه الأحداث السريعة والمتلاحقة، وتحت وطأة المتغيرات العنيفة فقد الأدباء والمفكرون وجهتهم، ولم يعد فى مكنتهم الالتفاف حول مفهوم فكرى أو فنى واحد، أو الاعتقاد فى مبدأ إصلاحى واحد، بل ضربوا فى كل اتجاه، وعبروا عن مختلف الرؤى. ورغم استمرار بعض الكتاب فى الضرب على وتر الموضوعات القديمة: مثل تصوير حالات الفقر والظلم الاجتماعى، والكشف عن الفساد الإدارى والمالى، فقد لجأ رهط من الكتاب إلى التعبير عن بعض المتغيرات الطارئة على المجتمع التركى؛ مثل تناول قضايا المغتربين وضرورة المحافظة على الهوية التركية والإسلامية، أو التوفيق بين مبادئ الدين الإسلامى والعصرنة. كما تناول فريق منهم القضايا الإنسانية العامة، من خلال التعبير عن هموم الإنسان المعاصر وقلقه الوجودى أحيانا، ونزعته إلى الصوفية أحيانا أخرى.



ولئن واصل رهط من كتاب القصة التركية القصيرة ما وجدوا عليه أسلافهم من الموضوعات التقليدية التى كانت سائدة فى الأربعينيات وأوائل الخمسينيات[٢١] فقد تميزت معالجتهم بشىء من الجدة سواء من حيث التصوير أو الأداء، كما تميز تصويرهم بعناصر وشخصيات لم تكن موجودة من قبل. فضلا عن ذلك فقد جاءوا ببعض الموضوعات الجديدة التى فرضتها المتغيرات الاجتماعية والسياسية التى ذكرناها آنفا. ينطبق ذلك على البناء الفنى؛ إذ لم يكن المخضرمون وحدهم هم الذين يضربون على النهج التقليدى فى بناء القصة، بل شايعهم فى ذلك بعض المعاصرين. وفى نفس الوقت ظهرت أنواع جديدة من التكنيك لم تكن مطروقة من قبل.

الموضوعات:

• تناول فريق من القصاصين القضايا الإنسانية العامة: مثل قضية الحياة والموت، وعبثية الحياة، وتداول الأدوار بين الأجيال، ومكابدة الإنسان خلال هذه الحياة. وكلها من القضايا المصاحبة للإنسان أينما كان، وفى أى زمان كان[٢٢]. وعالجت بعض القصص جانبا من المشاعر الإنسانية البسيطة المعتادة؛ مثل مشاعر الغيرة والتنافس بين الفتيات المراهقات[٢٣]، كما عالجت بعض القصص الأخرى العلاقة بين الإنسان والحيوان الأليف المسخر لخدمته مثل الحمار[٢٤].





واصل بعض رواد الواقعية الاشتراكية توجيه سهامهم إلى الجهاز الإدارى والأمنى للدولة، كما واصل البعض الآخر الكشف عن جشع أصحاب رأس المال واستغلالهم للطبقة العاملة



• تناولت بعض القصص حياة الموظفين داخل المدن الكبرى، وطموحاتهم الاجتماعية، ثم إحباطهم من جراء قلة المرتبات وزيادة أعباء الخدمات المدنية[٢٥] مما يدفع بعضهم إلى الانتحار والبعض الآخر إلى النفاق الاجتماعى.

• واصل بعض رواد الواقعية الاشتراكية والنقد الاجتماعى توجيه سهامهم إلى الجهاز الإدارى والأمنى للدولة، وجمود لوائحه وقوانينه[٢٦] كما واصل البعض الآخر الكشف عن جشع أصحاب رأس المال واستغلالهم للطبقة العاملة فى المدن الصناعية الناشئة فى الأناضول، ولكن هذه الطبقة قد تجد فى العلاقات العاطفية تعويضا عن مادية الحياة[٢٧].

• انتقلت القصة القصيرة بأحداثها إلى شرقى الأناضول حيث يعيش الأكراد فى بيئة جغرافية قاسية، وفى ظروف اقتصادية واجتماعية أشد قسوة، ورغم هذه القسوة لم يكن المواطن التركى هناك ليتخلى عن عاداته وتقاليده والتزاماته العائلية[٢٨] وتشتد قسوة الطبيعة على القرى الجبلية حيث تمطرها بصواعق لا تبقى ولا تذر، وتكون سببا فى كوارث يرجعونها إلى قوى غيبية أحيانا، وبعد أن عرفت وسائل النقل الحديثة طريقها إلى جبالهم كانت سببا فى المزيد من الكوارث والمزيد من الخرافات[٢٩].

• يواصل بعض الكتاب تصويرهم للبيئة الساحلية وحياة البحر التى أصبحت تقليدا راسخا فى القصة التركية بفضل الرواد الأوائل[٣٠] ولكنهم تناولوا الجانب السلبى منها، حيث تدعو حياة الصيد إلى الرتابة والملل والبطالة مما يدفع سكان هذه السواحل إلى لعب القمار وارتكاب الجرائم، كما تميزت هذه القصص بالجدة فى المعالجة[٣١].

• لم يتخل الكتاب المحافظون عن دورهم فى الدعوة إلى إحياء التراث سواء كان ماديا فى شكل عمارة المساجد، وجمالها الفنى، أومحاولة التوفيق بين رغبات الجيل الجديد والتزام الجيل القديم بممارسة العبادات فى هذه المساجد؛ وذلك من خلال المزج بين جماليات التراث الإسلامى والعبادات[٣٢]، أو فى الدعوة إلى التمسك بالحرف والصناعات التقليدية، حتى لو كانت

طرق النحاس[٣٣]، أو فى الدعوة إلى إحياء القيم الإسلامية والتركية القديمة حتى لو كان من خلال الإقامة فى أحد البيوت القديمة التى تحمل عبق التاريخ وتبعث قيم الأجداد[٣٤].

● تناولت بعض القصص دور المرأة المحورى فى المجتمع التركى، فهى مرتكز الأسرة وعمودها الفقرى؛ تتميز بقوة الشخصية، وتعتمد على نفسها دائما. ومع ذلك فهى تحترم زوجها ولا تعصى له أمرا حتى لو كان متقاعدا، وهى المهمومة بالأبناء صغارا، وبأبنائهم كبارا، حتى لو تكبدت فى سبيل ذلك مشقة السفر[٣٥] وهى التى تكافح فى سبيل المحافظة على المستوى المادى والطبقى للأسرة عندما تدفعها الحاجة والعوز، وتحاول الصمود أمام طغيان الحياة المادية الحديثة، كما أن المرأة التركية تلعب دورا مهما فى الحفاظ على التراث والعادات والتقاليد الجميلة[٣٦].

● لم ينس الكتاب قضايا الأتراك المغتربين فى أوروبا، ومعاناتهم فى المهجر أو المنفى الاختيارى (أحيانا)[٣٧]، كما دارت بعض القصص حول مشاعر الغربة والحنين إلى الوطن، ولكن هذه القصص لم تغفل الشعور بالإحباط عند العودة حين لا يجد المواطن وطنه الذى غادره من سنوات، أو يجده قد أصابه التغيير فأصبح لا يعرفه[٣٨].

تلك هى أهم الموضوعات التى عالجتها القصص المختارة وهى كما نرى، تمثل العديد من جوانب الحياة الاجتماعية، وتعكس الكثير من زواياها، كما أننا نلاحظ أنها تغطى مساحة واسعة من الأماكن والبيئات المختلفة. ولكن ما هى المناهج والسبل التى سلكها القصاصون للتعبير عن رؤاهم حيال هذه الموضوعات؟ هذا ما سنتعرف عليه من خلال استعراض طرق المعالجة الفنية فى إيجاز شديد.

المعالجة الفنية:

لعل ما أصاب المعالجة الفنية من التطور والتغيير، يبدو أكثر وضوحا مما أصاب الموضوع، ولذلك اختلفت طرق هذه المعالجة وتباينت أساليب السرد ولكن يمكن إجمالها فيما يلى:

● تميزت بعض القصص بالطول حتى وصلت عدة صفحات ولا يرجع ذلك إلى كثرة الأحداث أو الشخصيات بقدر ما هو بسبب الإغراق فى التفاصيل[٣٩].

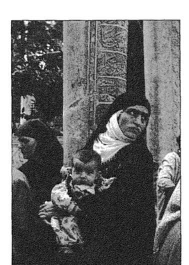
● جاءت بعض القصص فى بناء تقليدى؛ فهى تتكون من حدث يبدأ بالمقدمة ثم الحبكة ثم النهاية، قد يختلف هذا الترتيب من قصة لأخرى لكنها تتفق جميعا فى تشكيل الحدث، وغالبا ما تكون النهاية مفتوحة، أو صادمة أو غير متوقعة[٤٠].

● يعمد الكتاب إلى أسلوب تداعى الذكريات، والانتقال من الزمن الحاضر إلى الماضى فى سرد الحدث[٤١].

● يلجأ بعض الكتاب إلى الرمزية، مع الإغراق فى التفاصيل[٤٢]، كما يلجأ البعض الآخر إلى التصوير الخيالى (الفنتازيا)[٤٣]، أو المزج بين الواقعية والفانتازيا[٤٤].

● يلجأ بعض الكتاب إلى استغلال الرحلة فى مراقبة المشاهد التى تكون الحدث وتدفع بالأحداث إلى النهاية، مع التنقل بين وعى السارد والواقع المشاهد[٤٥].

وهكذا نرى أن القصة التركية القصيرة واكبت مسيرة المجتمع التركى خلال النصف الأخير من القرن العشرين، فتنوعت موضوعاتها، كما تباينت أدوات القصاصين فى التعبير عن هذه الموضوعات. ■





تناولت بعض القصص دور المرأة المحورى فى المجتمع التركى، فهى مرتكز الأسرة وعمودها الفقرى؛ تتميز بقوة الشخصية، ومع ذلك فهى تحترم زوجها ولا تعصى له أمرا



(١) مجدى وهبة، معجم مصطلحات الأدب، بيروت، ١٩٧٤، ص ٥١٨

(٢) فى الحقيقة سبقت هذه المختارات مجموعة انتقاها الدكتور أكمل الدين إحسان فى كتابه: من الأدب التركى، مختارات من القصة القصيرة، القاهرة، ١٩٧٠

(٣) يؤرخ لذلك بترجمة رواية (تلماك) فينلون عام ١٨٦٢

(٤) من المعروف أن تراث آدابنا الشرقية يزخر بما يشبه القصة القصيرة، لكن ربما كانت خصائصه الفنية تختلف عن هذه الأنواع الوافدة من الأدب الأوروبى من التراث العربى فى هذا المجال: القصص القرآنى، المقامات وقصص ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة وغيرها... وقد انتقل هذا التراث كله أو بعضه إلى الأدب التركى، أضف إلى ذلك التراث الفارسى مثل المثنويات والتراث التركى الأصيل مثل :الملاحم الشعبية، والحكايات الأسطورية وقصص البطولة وغيرها...

(٥) نسبة إلى مرسوم التنظيمات الذى اعلن عام ١٨٣٩ لتنظيم الحياة الإدارية والسياسية آنذاك.

(٦) لم يكن دور القصة التركى يختلف كثيرا عن القصة العربية فى نفس الحقبة الزمنية تقريبا، حيث نذكر من النماذج العربية من هذا النوع حديث عيسى بن هشام للمويلحى، وليالى سطيح لحافظ إبراهيم، وعلم الدين لعلى مبارك... إلخ.

(٧) قدم أحمد مدحت افندى (١٨٤٤- ١٩١٢) أول النماذج القصصية مجموعة من القصص القصيرة الطويلة تحت عنوان (قصة دن حصة) أى عبرة من القصة عام ١٨٧٠

(٨) كنعان آقيوز، ترجمة محمد هريدى، عزة الصاوى، معالم الأدب التركى الحديث، القاهرة، بدون، ١٢٧ وما بعدها.

(٩) المرجع السابق، ص ١٧١ وما بعدها.

(١٠) من أهم هذه المآخذ المبالغة فى استخدام التراكيب العربية والفارسية، وعدم طبيعية اللغة والأسلوب.

(١١) لمزيد من التفاصيل : للمؤلف، الرواية فى الأدب التركى الحديث والمعاصر، مجلة القصة، القاهرة، سبتمبر، ١٩٧٨

(١٢) مثل حرب البلقان عام ١٩١٣م، وقيام الثورة العربية إبان الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٦م، وحرب الاستقلال عام ١٩١٩م

(13) Kabakl?, Ahmed Türk Edebiyat.....ve Kudret, Cevdet, Türk edebiat?nda Hikaye ve Roman

(١٤) Kabakl، المرجع السابق ص ٦٣

(١٥) كانت غالبية هذه القصص تقوم على الصراع بين الحب والواجب الوطنى، أو بين قوى التقدم والرجعية الممثلة فى الشخصيات التى تستغل مشاعر الدين لصالحها من أمثلة ذلك قصص.....

(١٦) لمزيد من التفاصيل أنظر:

(١٧) تجلى ذلك فى حزب السلامة القومية بزعامة نجم الدين اربكان الذى خاض الانتخابات عام ١٩٧٤ ونجح فى الحصول على عدد كبير من المقاعد وشكل حكومة ائتلافية مع حزب الشعب الجمهورى، ثم توالت الأحزاب ذات الاتجاه الإسلامى، مثل (الرفاه) و(الفضيلة)... إلخ

(١٨) Kabakl?, Ahmed, Age, s.

(١٩) نفسه، ٥٣-٥٨

(٢٠) باختصار عن المرجع الاسبق ص ٥٨-٦٢

(٢١) : مثل الصراع بين العمال وأصحاب رأس المال، أو الصراع بين دعاة التغريب والمحافظين،أو تمجيد التاريخ والتراث التركى، أو التغنى برومانسية الريف.

(٢٢) نرى ذلك فى : حيث ينتهى الجمال، وشارع القمرى

(٢٣) الحساسية

(٢٤) الشارع المسدود

(٢٥) كما نرى فى قصة «شهر يونيو» والمتهم

(٢٦) مثل البيت الواقع على الحدود

(٢٧) مثال ذلك فى قصة «فتاة المطر»

(٢٨) انظر قصة الطائر الأخير

(٢٩) أنظر «ممت نجس القرية»

(٣٠) مثل خاليقارناس باليقجيسى ( ) وسعيد فائق أباسى يانيق ( )

(٣١) قص ولصق، عن المعالجة الجديدة : أنظر ص

(٣٢) المحجبات

(٣٣) كما فى قصة «الأضحية»

(٣٤) منزل للإيجار

(٣٥) أنوار المنازل

(٣٦) مثل المحجبات، والعروس، وشارع القمرى، وحيث ينتهى الجمال

(٣٧) كله تمام على بوابة الحدود، والعودة

(٣٨) العودة

(٣٩) مثل قصة المحجبات، وشارع القمرى، وشهر يونيو

(٤٠) مثل فتاة المطر والمتهم، والعروس، وشهر يونيو، وممت نجس القرية، والمحجبات، ومنزل للإيجار...

(٤١) العروس، العودة

(٤٢) شارع القمرى

(٤٣) قص ولصق

(٤٤) كما فى كله تمام على بوابة الحدود

(٤٥) أنوار المنازل

"رســـالة الدنيـــا وقصـــائد الإرادة"

حســـــونة المصبــــاحى



أبو القاسم الشّابى

■■ يقول الكاتب الفرنسى جان جيرودو بأن الاحتفال بمئوية رجل عظيم يمكن اعتباره احتفالا بواحدة من ولاداتنا. والاحتفال بمرور مائة عام على ميلاد شاعرنا الأكبر أبى القاسم الشابى هو فى حقيقة الأمر احتفال بولادات متعددة. أولها ولادة الشعر فى تونس. فقبل الشابى، لم يكن هناك شعر فى تونس بالمعنى الحقيقى والعميق للكلمة. وكان الذين يسمون أنفسهم «شعراء» أو تطلق عليهم هذه الصفة، يبرزون غالب الأحيان فى المناسبات العامة، دينية كانت أم غير دينية. أما فى ما عدا ذلك فهم غائبون. ونحن لا نستشف فى جل ما كانوا يكتبونه أو ينشدونه، ما يمكن أن يعكس أوضاعهم النفسية ولا أوضاع ومشاغل مجتمعهم. كما لا نجد فيه وصفا للطبيعة، أو للحالات الإنسانية والاجتماعية، ولا تحضر فيه تلك الأغراض التى انشغل بها الشابى بشكل خارق لم يسبق له مثيل فى بلادنا. ففى جل قصائد صاحب «أغانى الحياة» تحضر نفس الشاعر فى جميع تجلياتها، وتحضر تونس بواحاتها، وجبالها، ووديانها وغاباتها وآلامها، ونكباتها. ونحن لا نجد بين الذين سبقوا الشابى، أو عاصروه أو حتى عند الذين جاءوا من بعده، شاعرا تغنى بتونس مثلما تغنى بها هو. فقد كانت تسكنه مثل الجمرة الملتهبة. ومتمثلا بين مختلف مناطقها منذ سنوات الطفولة الأولى، كان يختزن مشاهدها فى ذاكرته ليعيد تشكيلها فيما بعد فى أشعاره بشكل آسر، ففى سن السادسة عشرة، كتب قصيدته البديعة «تونس الجميلة» والتى فيها يقول:

أنا يا تونس الجميلة فى لجّ
الهوى قد سبحت أى سباحه
شرعتى حبك العميق وإنى
قد تذوقت مره وقراحه
لست أنصاع للواحى ولو مت
قامت على شبابى المناحه
لا أبالى.. وإن أريقت دمائى
فدماء العشاق دوما مباحه

ومع الشابى ولد الشاعر، «المنفرد بنفسه» بحسب تعبير جان جاك روسو. ذلك الشاعر الذى انطلق من ذاته، يكتب قصائده فى مختلف الأغراض من دون أن يكون خاضعا لأى سلطة، مهما كان نوعها، ومهما كانت سطوتها. هدفه الوحيد هو إرضاء نفسه. لذا هو لا يستجيب إلا لمطامحه الأدبية تلك التى تسمو بالكلمة عاليا. وتبيح للخيال أن يحلق بعيدا، غير عابئ بقوى الظلام التى تريد حبسه، وتكبيله، وتدمير قدراته الإبداعية الفذة. وفى جميع رسائله إلى صديقه محمد الحليوى نجد الشابى حانقا على أولئك الذين لا يحترمون «ذات الشاعر» ولا «روح الشعر» ويتحولون إلى مداحين يتذللون لأصحاب السلطة والنفوذ. وهو يصف هؤلاء بـ«الأصنام الخشبية» الذين «يعقلون فى الشعب روح الحياة» ولا يعرفون كيف يعلمونه «محبة الحق والقوة والجمال».

ومثل كل الشعراء الكبار، كان أبو القاسم الشابى «يحتفى بذاته» لأنها رفيقته الوحيدة فى الملمات. وعندما تشتد عليه الخطوب، ويشعر أن صوته لا يصل إلى أولئك الذين يرغب فى أن يفتح أعينهم على «الجمال» وعلى «نور الحياة» هو يوجه شكواه إلى ذاته الملتاعة المعذبة، قائلا:

شردت عن وطنى السماوى الذى
ما كان يوما واجما، مغموما
شردت عن وطنى الجميل... أنا
الشقى، فعشت مشطور الفؤاد، يتيما
فى غربة روحية ملعونة
أشواقها تقضى عطاشا، هيما
يا غربة الروح المفكر! إنه
فى الناس يحيا سائحا مسؤوما

وفى قصيدة أخرى، يقول الشابى متمنيا أن يرى فى الأفق بصيص أمل:

يا ليت شعرى! هل لليل النفس من
صبح قريب؟

فتقر عاصفة الظلام ويهجع الرعد
الغضوب
ويرتل الانسان أغنية مع الدنيا، طروب.

الذهاب إلى الغاب

وعندما يشتد تشاؤمه، وتكبر آلامه، وأوجاعه، يزداد الشابى تعلقا بذاته التى لن يكون للشعر من دونها روح ولا معنى فينأى بها عن الجموع المستكينة الخامدة، ويمضى إلى الجبال والغابات آملا فى أن يجد فى الطبيعة ما يمكن أن يساعده على المحافظة على نار الثورة التى تعتمل فى داخله:

إننى ذاهب إلى الغاب يا شعبى
لأقضى الحياة، وحدى، بيأس
إننى ذاهب إلى الغاب، علّى
فى صميم الغابات أدفن بؤسى
ثم أنساك ما استطعت، فما
أنت بأهل لخمرتى ولكأسى
سوف أتلو على الطيور أناشيدى
وأفضى لها بأشواق نفسى
فهى تدرى معنى الحياة، وتدرى
أن مجد النفوس يقظة حس

ولأنه كان يعلم أن احتفاء الشاعر بذاته لن يتحقق فى مجتمع تسيطر عليه العقلية القبلية، وأن طموحاته الأدبية لن يكتب لها النجاح فى ظل ثقافة راكدة، موسومة بالانغلاق والتزمت، فإنه أطلق أفكاره فى الإصلاح والتجديد فى المحاضرة الشهيرة التى ألقاها فى «الخلدونية» عام ١٩٢٩، تحت عنوان «الخيال الشعرى عند العرب» والتى كتب فيها يقول مستنهضا الهمم والعزائم «لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب. ومن يطلب الحياة فليعبد غده الذى فى قلب الحياة. أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وانضاء القبور الساخرة. لقد أصبحنا نتطلب الحياة ولكن لنعلم قبل ذلك أننا جياع عراة، وأن تلك الثروة الطائلة الضخمة التى أبقاها لنا العرب لا تشبع جوعنا ولا تسدّ خلتنا. لعلنا إن شعرنا بفقرنا وعرانا، تحركت فينا عوامل العزة الإنسانية فطفقنا نعمل بعزم وقوة ما نستر به سواعدنا العارية ونطعم به أرواحنا الجائعة مما نحوكه بأنفسنا ونستخرجه بأيدينا من مصانع الحياة».



وأعلن فى الكون: أن الطموح
لهيب الحياة، وروح الظفر
إذا طمحت للحياة النفوس
فلابد أن يستجيب القدر

ولادة شعرية مغايرة

وكان محمد الحليوى على حق حين كتب متحدثا عن رؤية أبى القاسم الشابى للتجديد فى الشعر وفى الحياة.

«رسالة الشاعر كما يرى الشابى هى تلك التى توسع أفق الحياة فى نفسك، وتجعلها تحس بتيارات الوجود أكثر مما كانت تحس، وتدرك معانيه وأصواته أكثر مما ألفت أن تدرك، وتنسيك وجودك الإنسانى لحظة لتستغرق فى عالم الجمال المطلق الذى يخلقه الشاعر حواليك ويسبغ منه على نفسك».

ومع الشابى ولدت لغة شعرية لم تكن مألوفة حتى ذلك الحين. كما برزت موسيقى راقصة أزاحت الغبار عن الكلمات، مانحة إياها قوة عجيبة جعلتها قادرة على نقل المشاعر والعواطف، وعلى اختراق الواقع الذى ظل حتى ذلك الحين مخفيا وراء لغة كاذبة، تغلب عليها المحسنات اللفظية وبفضل هذه اللغة الجديدة، وهذه الموسيقى الراقصة التى ابتكرها الشابى، تحرر الشعر التونسى من القوالب الجامدة، وخرج من الأماكن المغلقة التى كان محبوسا فى داخلها، ليعانق الآفاق الرحبة:

وشفَ الدّجى عن جمال عميق
يشبّ الخيال ويذكى الفكر
ومدّ على الكون سحر غريب
يصرّفه ساحر مقتدر



وضاءت شموع النجوم الوضاء
وضاع البخور، بخور الزهر
ورفرف روح غريب الجمال
بأجنحة من ضياء القمر
ورنّ نشيد الحياة المقدس
فى هيكل حالم قد سحر
وأعلن فى الكون: أن الطموح
لهيب الحياة، وروح الظفر
إذا طمحت للحياة النفوس
فلابد أن يستجيب القدر



لست أنصاع للواحى ولو مت
قامت على شبابى المناحه
لا أبالى.. وإن أريقت دمائى
فدماء العشاق دوما مباحه



ولادة الشابى.. ولادة جيل

وعندما نحتفل بمرور مائة عام على ميلاد أبى القاسم الشابى، فإن هذا لا يعنى شيئا آخر غير الاحتفال بميلاد جيل ما أصبحنا نسميه بـ«جيل إرادة الحياة». ذلك الجيل الذى ولد أبناؤه فى بدايات القرن العشرين. وابتداء من العشرينيات من القرن المذكور، سوف يخوضون معارك سياسية وفكرية وثقافية كانوا يطمحون من ورائها للنهوض بالمجتمع، ولإيقاظ الوعى الوطنى، ولتحسيس الشعب بمصيره المظلم. وعندما كان أبناء «جيل إرادة الحياة» أطفالا، كانت النخبة التونسية قد أعادت الحياة للأفكار الإصلاحية والتحديثية التى جاء بها خير الدين باشا التونسى. وبفضل الرموز الكبيرة لهذه النخبة من أمثال على باش حامبه وعبد العزيز الثعالبى والبشير صفر، والشاذلى خير الله استعادت الحياة السياسية والثقافية حيويتها، وكثرت النوادى حيث كانت تلقى المحاضرات، وتعقد الندوات، وعرفت الصحافة اليومية والأسبوعية تطورا هاما أتاح لعامة الناس التعرف على أحوال مجتمعهم، وعلى أحوال العالم بصفة عامة. وخلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين شهدت تونس أحداثا سياسية وثقافية واجتماعية أتاحت للنخبة التونسية التمرس بالواقع، والاطلاع على أحوال البلاد، ومشاغل مختلف الفئات. ففى خريف عام ١٩٠٣ جاء الشيخ محمد عبده إلى تونس.

وفى زيارته الثانية هذه (الأولى كانت عام ١٨٨٨) التقى بالشيوخ المعاضدين لحركة الاصلاح من أمثال سالم بوحاجب ومحمد النخلى. وفى «الجمعية الخلدونية» التى كان قد أنشأها البشير صفر عام ١٨٩٦، ألقى الشيخ محمد عبده محاضرات كان لها الصدى الكبير لدى النخبة التونسية المتطلعة للإصلاح والتحديث. وفى عام ١٩٠٥ بعثت «جمعية قدماء الصادقية» التى اهتمت بتقديم محاضرات باللغة العربية بهدف تثقيف عامة الناس فى مجالات مختلفة ومتنوعة. وفى عام ١٩١١، اندلعت «انتفاضة الجلاز» التى أعطت دفعا جديدا للحركة الوطنية المناهضة للاستعمار، والتى كانت آنذاك فى طور التشكل. وفى عام ١٩١٩، تأسس الحزب الدستورى بزعامة الشيخ عبد العزيز الثعالبى صاحب كتاب «تونس الشهيدة».

وفى عام ١٩٢٤ أنشأ محمد على الحامى «جامعة عموم العملة التونسيين». وفى مطلع الثلاثينيات، أصدر الطاهر الحداد كتابه الشهير «امرأتنا فى الشريعة والمجتمع»، والذى أثار ضجة هائلة فى الأوساط الثقافية والسياسية والدينية.

وسواء عاش هذه الأحداث، أم لم يعشها، فإن المؤكد هو أن الشابى تأثر بها، وتفاعل معها تفاعلا كبيرا، ومبكرا انحاز إلى الأفكار الإصلاحية والتحديثية، وقاوم بشدة الركود والتزمت والقنوط. ورغم مرض القلب الذى كان يعذّبه، ويعيق حركته ونشاطه، فإنه كان دائم التفكير والعمل. وكان يتابع بانتباه واهتمام كل الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية التى كانت تجد فى بلاده. وهذا ما تعكسه قصائده، ورسائله الموجهة إلى محمد الحليوى، ويومياته، وكتابه النقدى: «الخيال الشعرى عند العرب». وفى هذا الكتاب تبرز الرؤية الجديدة والجمالية التى اكتسبها الشابى فى وقت مبكر وتتأكد الثقافة الواسعة التى كانت تميزه عن بقية أبناء جيله، ويتجلى الحس النقدى الرفيع الذى كان يتحلى به. فمنتقدا ما سماه «الروح العربية» يقول الشابى أن هذه الروح خطابية مشتعلة، لا تعرف الأناة فى الفكر فضلا عن الاستغراق فيه، وهى مادية محضة لا تستطيع الإلمام بغير الظواهر مما يدعو إلى الاسترسال فى الخيال إلى أبعد شوط وأقصى مدى. لهذا السبب كان لها ذلك الطبع الشبيه بـ«النحلة المرحة لا تطمئن إلى زهرة حتى تغادرها إلى أخرى من زهور الربيع». ولذلك هى أبدا متنقلة، وهى أبدا حاسمة». ولأنها على هذه الصورة فإن الروح العربية بحسب أبى القاسم الشابى أضعفت ملكة الخيال الشعرى فى النفس العربية، وجعلت من الشاعر محامى القبيلة، وخطيبها، وفارسها، وليس ذلك الذى يحاول أن يساعد أبناءها الضائعين على اكتشاف نور الحياة. كما أن الروح العربية منحت العرب إلى حد كبير من الاطلاع على مدى العصور الماضية على آداب الأمم الأخرى. وصحيح أنهم ترجموا بعض الآثار وأنهم ترجموا مختلف العلوم العقلية، غير أنهم لم ينقلوا إلى لغتهم من آداب الأمم الأخرى ما يمكن أن يحدث انقلابا فى الروح العربية. لهذا السبب ظلت الآداب عند العرب فقيرة وجافة على مرّ الأجيال والعصور..

الشابى وحقوق المرأة

وفى «الخيال الشعرى عند العرب» يثور الشابى ضد النظرة العربية للمرأة، والتى تتوقف عند الجسد، ولا تعطى اهتماما يذكر لروحها، ولنبلها، ولسحرها، وجمالها الباعث على الإلهام والوحى. وإذا ما تحدث الشاعر العربى عن جمال المرأة، فإنه يتحدث كما لو أن الأمر يتعلق بشىء «يوزن بالرطل والقنطار من الشحم واللحم» ويرجع الشابى هذا الأمر إلى أن المرأة العربية لم تنل فى جميع العصور العربية قسطا من الحرية الحقيقية، تتمكن معها من إظهار مالها من مواهب وملكات تجبر الرجل على أن يحترمها، ويبدّل رأيه فيها، فيطلع على ما خلف الجسد من «بحر عميق تختلف فيه الأمساء والأصباح والأضواء والظلمات».

ومن المؤكد أن أبا القاسم الشابى تحمّس كثيرا للحركة النقابية التى أنشأها محمد على الحامى، معتبرا إياها شرارة جديدة بإمكانها أن تلهب النضال الوطنى، وتوقظ الضمائر الميتة، وتنفض عن الشعب رماد القنوط واليأس. فلما قامت السلطات الاستعمارية بضرب الحركة الوطنية الفتية، مجبرة زعيمها الشاب المتشبع بالأفكار الاشتراكية، أعنى محمد على الحامى على مغادرة البلاد، أطلق الشابى صرخة متوجعة:

لست أبكى لعسف ليل طويل
أو لربع غدا العفاء مراحه
إنما عبرتى لخطب ثقيل
قد عرانا، ولم نجد من أزاحه
كلما قام فى البلاد خطيب
موقظ شعبه يريد صلاحه
ألبسوا روحه قميص اضطهاد
فاتك شائك يردّ جماحه
أخمدوا صوته الإلهى
بالعسف أماتوا صدحه ونواحه

وفى الرسائل التى يبعث بها إلى صديقه الحميم محمد الحليوى، كان الشابى يظهر تعاطفا واضحا مع كل المثقفين والمناضلين من أجل الحرية والعدالة والتجديد، وينتصر لأفكارهم ولمواقفهم التى عادة ما تعرّضهم للقمع والسجن ولمظالم أخرى من هذا القبيل. وعندما أصدر الطاهر الحداد كتابه «امرأتنا فى الشريعة والمجتمع» والذى دافع فيه عن حرية المرأة، وعن حقها فى العمل والتعليم، هاجمه شيوخ جامع الزيتونة بعنف وقسوة. أما الشابى فقد انتصب مدافعا عنه. وفى الرسالة التى بعث بها إلى محمد الحليوى فى شهر أكتوبر ١٩٣٠، وهو ينتقد بشدة موقف شيوخ جامع الزيتونة «المتزمتين»، ويعبر عن ابتهاجه بالحفل الذى أقامه المثقفون التقدميون لمساندة الطاهر الحداد. وثمة حدث آخر، كان له وقع حاسم على مسيرة الشابى الشعرية. فبحسب الأستاذ أبو القاسم محمد كرو، التقى صاحب «أغانى الحياة» فى خريف عام ١٩٣٣، بالمناضل الوطنى، والمثقف الألمعى الطاهر صفر فى مدينة طبرقة. وكان اللقاء بينهما مناسبة لكى يتعرف كل واحد منهما على الآخر، ولكى يطيلا

الحديث فى مسائل وقضايا سياسية وثقافية. ومن المؤكد أن الطاهر صفر كان معجبا بموهبة الشابى الشعرية، وبآرائه فى الأدب والثقافة، وإلا لما حرص على الاجتماع به. ومن المؤكد أيضا أن الأفكار التى طرحها الطاهر صفر أثناء ذلك اللقاء فى المدينة البحرية الجميلة، أثارت إعجاب الشابى، وفتحت أمامه آفاقا جديدة لم يألفها من قبل. فقد كان الطاهر صفر المولود عام ١٩٠٣ بالمهدية، قد درس القانون والآداب والفلسفة والاقتصاد فى باريس فى العشرينيات من القرن الماضى. وكان عارفا بآداب العرب، القديمة منها بالخصوص. وكان يتميز بثقافة موسوعية تجعله قادرا على الخوض بكل يسر فى كل القضايا والمسائل التى تطرح للنقاش. ولعله تحدث أثناء اللقاء المذكور عن كبار الكتاب والشعراء الفرنسيين والغربيين الذين كان مغرما بهم. ومن المؤكد أن الشابى المعروف بفضوله الشديد لمعرفة ما خفى عنه من آداب أوروبا، استمع إليه بانتباه، وإعجاب. ومن المؤكد أنه طرح عليه أسئلة حول مسائل كانت لا تزال غامضة فى ذهنه. فلما انتهى اللقاء، شعر الشابى أنه «يولد من جديد» وأن مفهومه للشعر وللحياة بصفة عامة، بدأ يتغيّر ويتجذر. وهذا ما ستؤكده القصائد الرائعة التى سوف يكتبها خلال السنة التى سبقت وفاته. ففى هذه القصائد تخلى الشابى عن النغمة الحزينة اليائسة التى طبعت البعض من قصائده السابقة حيث كان يفرّ إلى «الغاب» باحثا فى الطبيعة عما يمكن أن ينسيه عتمة الواقع، ومظالم الحياة، لينحاز إلى فلسفة القوة، والطموح، والأمل، أى لـ«إرادة الحياة» التى قد يكون حدثه عنها الطاهر صفر.. وها هو يرفع صوته متحديا:

سأعيش رغم الداء والأعداء
كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئا
بالسحب والأمطار والأنواء
لا أرمق الظل الكئيب ولا أرى
ما فى قرار الهوة السوداء
وأسير فى دنيا المشاعر حالما
غردا، وتلك سعادة الشعراء
أصغى لموسيقى الحياة ووحيها
يحيى بقلبى ميّت الأصداء

ولا يمكن أن نشكك فى أن قصيدة «فلسفة الثعبان المقدس» كانت من وحى ذلك اللقاء أيضا. ففلسفة الثعبان المقدس كما يقول الشابى فى مقدمة القصيدة هى «فلسفة القوة المثقفة فى كل مكان». والغرض من هذه القصيدة التى تدلّ على نضج شعرى وفكرى لم يسبق له مثيل عند الشابى هو فضح السياسة التى ينتهجها الغرب تجاه الشعوب الضعيفة والتى يستعمل فيها «لغة الشعر والأحلام» لكى يتمكن فى النهاية من ابتلاعها بكامل السهولة. وفى قصيدة «الغاب» لا يذهب الشابى هذه المرة إلى الطبيعة ليشتكى إليها عذاباته، وآلامه ويحدثها عن خيباته، بل لكى ينثر كل هذا للريح.

وذروت أفكارى الحزينة للدجى
ونثرتها لعواطف الأيام
ومضيت أشدو للأشعة ساخرا
من صوت أحزانى، وبطش سقامى
وهتفت: «يا روح الجمال تدفقى
كالنهر فى فكرى، وفى أحلامى
وتغلغلى كالنور، فى روحى التى
ذبلت من الأحزان والآلام
أنت الشعور الحى يزخر دافقا
كالنار فى روح الوجود النامى

ورغم إيمانه بإرادة الحياة، وأمله فى نهضة قوية توقظ المجتمع من الخمول والركود فإن الشابى كان عالما بأن حياته سوف تكون قصيرة بحيث لن تمكنه من إنجاز ما كان يطمح لإنجازه. وفى رسالة بعث بها إلى صديقه محمد الحليوى، كتب يقول: «لقد ضقت ذرعا يا صاحبى، ولا أخالنى إن ظلت الحياة على ما هى عليه اليوم إلا ذاهبا إلى القبر. أو فى سبيل الجنون إننى أحاول أن أخط إليك ما تحسه نفسى من مرارة الأوجاع، وهموم الزمن الجائر. فلا أستطيع إلا مثل هذه الكلمات المتقطعة التى لا تكاد تبين عما أكابد من غصص العيش وبأسائه ولا تعبر عما يساورنى من الأفكار المدلهمة كقطع الليل». وفى رسالة أخرى، كتب يقول: «إنه لا يحزننى شىء فى هذه الدنيا أكثر مما يحزننى التفكير فى أننى أموت قبل أن أؤدى رسالة الدنيا التى أحس أننى لم أخلق لغيرها فى هذا العالم». وعندما اشتد عليه المرض فى صيف عام ١٩٣٤ ترك الشابى الجريد وهو «سقيم، متعب، موهون القوى»، وسافر إلى العاصمة فى أواخر شهر أوت ١٩٣٤. وعند وصوله إلى هناك نصحه الطبيب بالإقامة فى المستشفى. وفى مطلع شهر أكتوبر من العام المذكور لفظ أنفاسه، وهو فى الخامسة والعشرين من عمره. وقد يكون رحل إلى العالم الآخر وهو لا يدرى أنه سيكون شاعر تونس الأوحد خلال القرن العشرين! ■

المصادر

(1) Dean Giraudoux - litterature - NRF 1941 -Idees

(٢) الشعر العربى الحديث من أحمد شوقى إلى محمود درويش د.ميشال جحا - دار العودة - دار الثقافة. بيروت

(٣) حصاد العمر - أبو القاسم محمد كرو - دار المغرب العربى

(٤) أضواء من البيئة التونسية على الطاهر الحداد - أحمد خالد - الدار التونسية للنشر

(٥) الأعمال الكاملة - أبو القاسم الشابى - الدار التونسية للنشر



من يتحدث باسم الإسلام؟ ماذا تريد النساء؟

إن التصور الشائع على نطاق واسع بأن النساء يتعرضن للقمع كان من المبررات المستخدمة لدعم غزوات العراق وأفغانستان جميعًا. كان الأمان والحرية من الأمور الواجبة. في سبيل تخليص العالم من خلايا الإرهاب، وأولئك الذين يساعدونها، ونشر الحرية والديمقراطية، وكانت الحقوق النسائية في مركز هذا الهدف للتحرير. وقد وصفتها «لورا بوش» ـ باعتبارها السيدة الأولى ـ في حديث إذاعي ألقته في نوفمبر من عام ٢٠٠١: «إن الحرب ضد الإرهاب هي حرب من أجل حقوق النساء وكرامتهن أيضا».

إن الذي يندر ـ فيما يبدو ـ أن يجد سبيله في هذه المناقشة هو أصوات النساء المسلمات أنفسهن. كيف تتصور أغلب النساء في العالم الإسلامي الإسلام ومكانتهن في المجتمع الإسلامي؟ هل يشعرن بالحاجة إلى التحرر؟ ولو كان الأمر كذلك، فالتحرر من ماذا وإلى ماذا؟

هل تتعلق الآراء المعادية للنساء بالتدين؟ هل يكون فارق الجنس عندهن مسألة بارزة كما هي عند الغرب؟ ما هو الدور الذي تريد النساء من الإسلام أن يلعبه ـ إن كان له دور ـ في حياتهن اليومية وتلك الحياة في مجتمعاتهن؟ ولعل الأهم، ما هي أفضل طريقة يستطيع بها أولئك المهتمون بالحقوق النسائية للمسلمات تقديم المساعدة؟



هل الوردة البيضاء حقا بيضاء؟

بحث فى رياضيات المنطق



علي جمجوم

■■ سنحاول فى هذه الدراسة أن نبين أن قوانين المنطق (أو مبادئ المنطق أو قوانين العقل) التى هى قانون عدم التناقض وقانون الثالث المرفوع وقانون الهوية. هى قوانين تفرضها طبيعة التفاعل بين الإنسان بعقله وحواسه مع الحياة بأحداثها وطبيعتها.

من المعروف أن فكرة السلب فكرة أساسية فى المنطق، لأننا يمكننا أن نقول عن طريقها إن قضية ما صادقة، وقضية أخرى كاذبة. نقول إذن إما أن تكون القضية صادقة أو كاذبة. وهذا هو التعبير عن قانون الثالث المرفوع. كذلك نقول إن القضية الواحدة لا يمكن أن تكون صادقة وكاذبة معاً، وهذا هو التعبير عن قانون عدم التناقض. ويمكن القول إن كل قواعد المنطق تعتمد على هذين القانونين[1].

والآن سنبحث فى المبادئ المنطقية (القوانين المنطقية) على وجه العموم ومن الصعب أن نتناول هذه القوانين دون البدء بفكرتين أساسيتين فى الاستنباط هما التضمن IMPLICATION والصحة المنطقية VALIDITY. لكن هاتين الفكرتين تفترضان منذ البدء فكرة ثالثة هى فكرة الضرورة المنطقية. وتعتمد هذه الفكرة الأساسية بدورها على مبدأى عدم التناقض والثالث المرفوع، ذلك لأننا نقول إن استدلالاً ما صحيح إذا كان لدينا عدة قضايا تتضمن نتيجة أو تلزم عنها نتيجة. وهذا التضمن واللزوم والضرورة آت من أننا نقول إنه من التناقض أن نثبت المقدم وننفى التالى.

وهكذا نعود من حيث بدأنا وهو أن كل قواعد المنطق تعتمد على قانونى (مبدأى) عدم التناقض والثالث المرفوع[2].

يقول د. محمود زيدان فى كتابه (فى فلسفة اللغة) بعد الفقرة السابقة التى اقتبسناها منه: «ليس هذان المبدآن قضيتين تحليليتين، ومع ذلك فهما قضيتان ضروريتان. ليست هذه المبادئ تجريبية أو مشتقة من تجربة وإنما هى مبادئ قبلية ضرورية. قد نكون اكتشفناها فى البدء بتجربة، لكنا حين نصوغها فى قضايا تصبح حقائق ضرورية أو حقائق منطقية خالية من أى مضمون تجريبى ولا تتعارض معها أى واقعة تجريبية».

والآن نبدأ بحثنا مع الاحتفاظ بكل ما قيل فى الفقرة السابقة بدقة: لأن ما سنقوله هو نقد لمعظم ما قيل فيها وإلقاء الضوء على كل ما تتضمنه من أحكام، وذلك عن طريق خطوات فى التحليل نبدؤها بالآتى:

١ - أداة النفى لا (ليس) هى أساس قانون عدم التناقض وهى ثمرة تفاعل الإنسان مع الحياة:

لنتأمل المثال التالى:

عندما بدأ الإنسان يكون اللغة ويسمى الأشياء المادية رأى وردة بيضاء فأطلق عليها اسم وردة بيضاء (وذلك يتضمن خطوة أسبق وهى أنه أطلق اسم وردة على أى وردة مهما كان لونها)، ثم تصادف بعد ذلك أن رأى وردة حمراء ولم يكن قد سماها وقتئذ حمراء فإنه سيقول عنها إنها وردة ولكنها وردة ليست بيضاء. أى أن علاقة الإنسان بالموجودات المادية - بالحياة - أجبرته إجباراً على خلق لفظ النفى لا (ليس) فى اللغة العربية، وفى اللغة الإنجليزية NOT، وهكذا فى جميع اللغات بالرموز المختلفة والمفهوم الواحد للنفى حتى يمكن أن نقول: إن ليس = NOT. كذلك دفعه التعبير عن تعدد الأشياء أن يقول هنالك وردة بيضاء ووردة حمراء ونحلة تطير حولهما، أو يقول هنالك أحمد وعلى وحسين. هكذا خلق واو العطف والتى هى AND باللغة الإنجليزية، وتساوى رموزاً أخرى فى جميع اللغات الأخرى بنفس المفهوم والمعنى.

٢ - قانون عدم التناقض وصورته:

إنه ليس من الصحيح اجتماع («س» و«لا س») فى وقت واحد:

لو تأملنا هذا القانون الذى هو من إبداع أرسطو المولود سنة ٣٨٤ ق. م فى مدينة أسطاغيرا STGIRUS وهى مستعمرة يونانية ومرفأ من بلاد مقدونيا - نجد أن البشر قد مارسوا هذا القانون فى حياتهم دون أن يدروا قبل مولد أرسطو بألوف السنين. ولتبيين ذلك نضرب المثال الآتى الذى يعبر بالتأكيد عن حادث من أحداث الحياة لابد أن يحدث فى كل زمان وكل مكان:

تصور أن جريمة قتل قد حدثت فى مصر الفرعونية منذ أربعة آلاف عام وهى أنهم قد وجدوا قتيلاً اسمه تحتمس فى بيته وأن الجريمة قد تمت فى الساعة الرابعة بعد الظهر فى يوم محدد من الأيام، وأنهم اتهموا رجلاً اسمه رمسيس بارتكاب تلك الجريمة لأنه قد حدثت مشادة بينه وبين القتيل قبل الجريمة بيومين، وكان رمسيس قد هدده بأنه سوف يؤدبه أى أنه توعده بالأذى نتيجة خلاف فى صفقة تجارية. وبعد أن تم حبس رمسيس أفرجت السلطات عنه بعد شهر لأن التحريات التى قام بها المسئولون عن الأمن قد أسفرت عن أن رمسيس كان بصحبة أحمس وحور محب جالسين على قهوة فى حى بعيد جداً عن منزل وقوع الجريمة من الساعة ٢ بعد الظهر حتى السادسة بعد الظهر فاستبعدوا أن يكون رمسيس هو القاتل.. لماذا؟

لأنه من المستحيل أن يكون رمسيس داخل البيت وقت وقوع جريمة وخارج البيت وقت وقوع الجريمة - أى (من المستحيل أن يكون رمسيس داخل البيت وقت وقوع الجريمة وليس رمسيس داخل البيت وقت وقوع الجريمة)، (والبيت هنا هو البيت الذى تمت فيه الجريمة أى بيت تحتمس القتيل).

والآن استبدل س بـ (رمسيس داخل البيت وقت وقوع الجريمة) داخل القوسين (   ) تحصل على:

أنه من المستحيل أن يكون (س وليس س).

أليس هذا هو قانون عدم التناقض الذى ينص على استحالة اجتماع النقيضين.

أبعد كل ذلك يصر المناطقة على أن قوانين المنطق ومن أمثلتها قانون عدم التناقض المشروح آنفاً أنها ليست قوانين تجريبية أو مشتقة من تجربة، وإنما هى قوانين قبلية (أى ليس لها علاقة بالتجربة وصيغت قبل أى تجربة) وضرورية!

أعتقد أننا الآن قد أثبتنا أن قوانين المنطق ليست بأى حال من الأحوال قوانين قبلية - يبقى أن نثبت الجزء الأصعب ألا وهو أنها ليست ضرورية أيضاً.

من الواضح أننا بنينا النسق الاستنباطى على أساس اعتماده وإقراره بقانون عدم التناقض، وذلك لأن أمور الحياة وأحداثها تستقيم وهذا القانون. لكن ماذا لو أن الحياة كانت حياة مختلفة تماماً، بحيث لا يستقيم معها التفكير بقانون عدم التناقض أو قانون الثالث المرفوع ولتكن الحياة داخل عالم الذرة أو فى كوكب آخر من مجرة أخرى من ملايين المجرات التى تملأ الكون؟

أليس من المحتمل أن تكون هناك قوانين منطق أخرى وربما تكون عكس قوانين المنطق هذه؟

أليس من الممكن أن يكون فى مثل تلك الحالات من المعقول أن نقبل اجتماع النقيضين طالما أننا أثبتنا أن العبرة

بطبيعة المحيط (الحياة) بما فيه من سكون وحركة ومكان وزمان وبنية عقلية لا نستطيع أن ندعى أنها أفصحت عن كل مكنونها وقدراتها لأنها لم تستثر إلا من عالم واحد هو عالمنا هذا فكانت حصيلة استجابتها هذا التفكير الذى يعتمد على مثل تلك القوانين الآنفة الذكر. أى أن التفكير بهذه القوانين هو استجابة لمثير هو طبيعة العالم بأحداثه وطبيعة الحواس أيضاً.

ولكى تتضح الصورة أكثر دعنا نشبه العقل والحواس بجهاز كمبيوتر محمل كى يعمل بقواعد عدة لغات ولتكن بيسك وكوبول وباسكال.

دعنا ندخل برنامجا مكتوبا بلغة الباسكال إلى الكمبيوتر (ولغة الباسكال بقواعدها هى العالم فى هذا المثال).

فإنه سيحدث أن الكمبيوتر سيبدأ فى العمل وفقاً لقواعد لغة الباسكال ولن نتبين ما إذا كان الكمبيوتر يمتلك القدرة على العمل بقواعد لغة البيسك أو الكوبول، إلا إذا أدخلنا إليه برنامجا مكتوبا بأى من هاتين اللغتين. هكذا أنا أتصور العقل. أتصور أنه من التعسف أن نعتقل قدراته فى العمل بقوانين لغة واحدة فقط (أى العالم) ونستبعد أن يعمل بقدرات مختلفة قد تكون عكسية للأولى حسب المثير، وفى هذه الحالة سيكون بالتأكيد عالما مختلفا. عالما آخر . لغة كمبيوتر أخرى.

والآن دعنا نستطرد قليلاً ونرجع إلى كتاب فى فلسفة اللغة للدكتور محمود زيدان ونقتبس تلك الفقرة[٣]:

«إن قضايا الرياضيات البحتة تحليلية ويقينية وصادقة دائماً. ويقوم يقينها فى أنها خالية من أى مضمون تجريبى وأنها ليست مشتقة من أية خبرة حسية وأنها تقوم أيضاً على تحليل معانى الرموز الواردة فى تلك القضايا. تبقى نقطة بالغة الأهمية قال بها الرياضيون والمناطقة المعاصرون فى هذه القضايا، الهدف منها هو التمييز بين القضية التحليلية والقضية القبلية، ولم يكن هذا التمييز معروفاً من قبل، فكل قضية تحليلية هى قبلية مثل قضايا الرياضيات البحتة، لكن هناك قضايا قبلية وليست تحليلية وهى مبادئ المنطق وقواعده، بل إن القول إن قضايا الرياضيات البحتة قضايا تحليلية لا يفسر يقينها، ونفسر هذا اليقين إذا أدركنا أن هذه القضايا تعتمد على مبادئ المنطق. إذا قلنا إن القضية الرياضية البحتة قضية تحليلية على أساس أنها تتضمن تحليلاً لمعانى الكلمات أو الرموز المستخدمة، فهذا لا يكفى لتفسير يقينها. لأننا فى قولنا إن القضية الرياضية البحتة تحليلية لأنها تحلل معانى الكلمات الواردة فى القضية، فهذا يعنى كما يقول وايزمان أى «أنها قضية هوية IDENTITY PROPOSITION»، أى يمكن إبدال تصورى الموضوع والمحمول أحدهما مكان الآخر. وإذن يعتمد يقين القضية الرياضية على مبادئ المنطق، بل تصبح القضية التحليلية مبدأ منطقياً. ويقول فريجة أيضاً إننا إذا برهنا على صدق القضية التحليلية نجد أننا أمام تعاريف وقواعد منطقية. وهذا ينقلنا إلى البحث فى سر اليقين فى مبادئ المنطق».

الحجة التى يسوقها محمود زيدان لبيان السر فى اليقين الذى تتمتع به مبادئ المنطق مثل قانون عدم التناقض هو ما ينسب إلى بعض الحروف والكلمات التى تسمى فى المنطق الثوابت المنطقية مثل «لا»، واو العطف «و» (وهما أساسيان فى تكوين قانون عدم التناقض). «أو» (وهى أساسية مع «لا» فى تكوين قانون الثالث المرفوع)، «إذا»، وما تسمى الأسوار المنطقية مثل «كل»، «بعض»، من قوة منطقية معينة أو استخدام معين[٤]. بعبارة أخرى يريد د. محمود زيدان أن يقول إن مبدأى التناقض والثالث المرفوع، ومعهما أهم قواعد الاستنباط ومبادئ القياس المنطقى ترجع جميعاً فى جانب منها إلى القوة التى تتمتع بها تلك الحروف والكلمات التى هى الثوابت المنطقية والأسوار المنطقية التى نستخدمها، وذلك يؤكد الصلة الوثيقة بين النحو والمنطق أو بعبارة أوسع بين اللغة والمنطق أو بعبارة أكثر اتساعاً، من وجهة نظرى بين الوجود أو الحياة بأحداثها وتفاعل الإنسان معها الذى هو المسئول عن اختراع الإنسان للكلمة الدالة على النفى «لا (ليس)»، والعطف «و»، «أو» كما شرحنا آنفاً، وأحداث الحياة التى تجبره مع معرفته بهذه الكلمات أن يمارس قانون عدم التناقض وقانون الثالث المرفوع حتى تستقيم الأمور كما يتضح من مثال جريمة قتل تحتمس المشروحة آنفاً.

أى أن سر اليقين وجودى وليس صوريا وأن القوة المنطقية المزعومة للثوابت المنطقية ترتد فى نهاية التحليل إلى تطبيقها - بعد أن دخلت فى صورة قانون عدم التناقض الذى مارسه الإنسان دون وعى قبل ميلاد مبدع علم المنطق الأول وهو - أرسطو - راجع إلى أن أحداث الوجود لا تستقيم إلا وفقاً لتطبيق هذه القوانين بما تحتويه من تلك الثوابت المنطقية - أى أن العبرة وجودية والأساس وجودى مادى وليس صوريا فيما يتعلق بسر يقين مبادئ المنطق مثل مبدأى عدم التناقض والثالث المرفوع. ■

الهوامش:

(١) د. محمود زيدان: فى فلسفة اللغة ص ٧٥. دار النهضة العربية - بيروت - لبنان.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٧٥.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٧٤.

(٤) نفس المرجع السابق ص ٧٥، ٧٦.

■■ أنا غريب على ميدان الفلسفة، حيث إن تخصصى هو الرياضيات والإحصاء، هكذا تلزمنى الأمانة أن أقول ذلك، لكن إذا عجبتم أن يقتحم هذا الغريب ميدان الفلسفة الذى أفنى فيه المتخصصون أعمارهم فاذكروا أولاً أن الغريب قد يرى ما لا يراه صاحب الدار، لأن الجدة والغربة تفتح باصرته على ما قد تُسدل الألفة عليه حجابًا، فلا يثير دهشة ولا تساؤلاً، هكذا على حد تعبير الدكتور ماهر شفيق فريد الأستاذ المخضرم للأدب الإنجليزى، فى كتابه الممتع «تساعية نقدية» الصادر عن مكتبة الآداب، إنه رغم الحدود الفاصلة بين تخصصه وهو الأدب بصفة عامة والفلسفة، فإن هناك أرضا مشتركة بينهما، كذلك أنا أقول إنه رغم الحدود الفاصلة بين الرياضيات والإحصاء الرياضى وبين المنطق والفلسفة، فإن هناك أيضًا أرضًا مشتركة بين التخصصين.

كتب هذا البحث سنة ٢٠٠٢، ووجه الجدة فيه أنه يبين الحركة الجدلية أو العملية الجدلية بين الإنسان وأى عالم ما، سواء كان العالم الكبير أو بتعبير الفيزياء الحديثة: «العالم الماكروسكوبى» أو كان العالم المتناهى فى الصغر «العالم الميكروسكوبى» مثل عالم الذرة مثلاً.

هذا البحث يتصدى لتيار من الفكر الفلسفى والمنطقى (مثل فلسفة الوضعية المنطقية مثلاً) الذين يعالجون مسائل المنطق سواء كانت مبادئ المنطق (المنطق الصورى طبعًا) أو قضاياه بمعنى أنه ليس هناك علاقة تربطها بالعالم، بمعنى أن الأصل فى تأسيسها هو تفاعل الإنسان مع العالم - هذا جلى لكل من قرأ للدكتور زكى نجيب محمود الذى يعتبر أكبر مروج لهذا المذهب (الوضعية المنطقية) فى العالم العربى كتبه: «المنطق الوضعى» الجزء الأول. و«خرافة الميتافيزيقا» أو «موقف من الميتافيزيقا» وهو الكتاب نفسه مع تعديل الاسم، أو قرأ للدكتور محمود زيدان كتابه فى فلسفة اللغة الذى اعتمد عليه كاتب هذه السطور فى عمل هذا البحث.

وأخيرًا أود أن أنبه القارئ إلى أنى عندما قمت بتشبيه عقل الإنسان وحواسه بجهاز كمبيوتر محمل كى يعمل بثلاث لغات مثل الكوبول والبيسك والباسكال، وشبهت العالم بأنه عبارة عن برنامج مكتوب بلغة الباسكال، وقلت إننا إذا أدخلنا هذا البرنامج المكتوب بهذه اللغة (لغة الباسكال) فإن الكمبيوتر سيبدأ فى العمل وفقًا لقواعد لغة الباسكال، وأننا لن نعرف أنه يمكنه العمل بلغة الكوبول أو البيسك، إلا إذا أدخلنا له برنامجا مكتوبا بأى من هاتين اللغتين، أرجو أن أنبه القارئ إلى أن هذا التشبيه خيالى لتوضيح الفكرة ليس إلا، لأننى أعرف كما يعرف القارئ أن أى كمبيوتر له برنامج تشغيل مثل ويندوز Windows يمكن عن طريقه معرفة قدرات الكمبيوتر، إلا أن ذلك كما قلت مجرد تشبيه خيالى ليس إلا. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

معالم المنهج الإسلامى

تأليف: محمد عمارة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ . ٢٦٠ صفحة



فى فكرنا الإسلامى المعاصر: فَقْرٌ فى «الإبداع».. وإفراط فى «التقليد»!.. تقليد «التخلف الموروث».. و«التغريب الوافد» من وراء الحدود!..

وفى العالم من حولنا: «متغيرات» تزلزل «الواقع».. وتراجع «مُسلّمات الفكر» التى حكمته لعشرات السنين!..

وحتى لا نظل أسرى «لتخلفنا الموروث».. وضحايا «لأزمات الآخرين» تقذفنا «ليبرالية» الغرب إلى «شموليته» تارة.. ثم يدفعنا انهيار «الشمولية» إلى «الليبرالية» تارة أخرى.. وتتخطف عقولنا مناهج فلسفات الغرب ونظرياته.. فلا بد من إعمال العقل المسلم فى ميدان الإحياء والتجديد..

ولما كان «المنهج» - وهو طريق النظر، وقسطاسه المستقيم - هو سبيل الوعى بما فى «كتاب الوحى» - المقروء - و«كتاب الكون» - المنظور - من علوم وفنون وسُنَن وآيات..

وهو السبيل، كذلك، إلى صياغة «دليل العمل» الذى ينير لليقظة الإسلامية المعاصرة طريق النهوض المنشود - وذلك حتى لا تُصاب، هى الأخرى، بإحباط جديد؟!..

... لذلك.. كان الاهتمام بهذه القضية المحورية - قضية: «معالم المنهج الإسلامى» - .. التى يصدر لها هذا الكتاب!

الاستراتيجية الروسية بعد الحرب الباردة وانعكاساتها على المنطقة العربية

لمى مضر الأمارة

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ . ٤٦٢ صفحة



ترى الباحثة لمى مضر الأمارة أن الاستراتيجية الروسية بعد الحرب الباردة تمر بمرحلة تحوّل انتقالية، فهى ما تزال فى مرحلة الصيرورة، وبالتالى تعانى تحديات جدية، داخلياً وخارجياً. تمخضت مرحلة التحول هذه فولدت تحولات متوالية فى الموقف السياسى، بدءاً من العام الأول الذى نشأت فيه روسيا الاتحادية بعد التفكك (١٩٩٢)، وصولاً إلى بداية القرن الحادى والعشرين، مع وجود آفاق استمرارية، لا تبدو نهايتها قريبة حتى الآن.

وقد رصدت الباحثة أبرز سمات الاستراتيجية الروسية تجاه المنطقة العربية، وهى الاستراتيجية التى اتسمت بالحيوية والمبادرات الإيجابية فى الفترة التى تولى فيها بوتين الحكم، وذلك من خلال محاولات روسيا فى عهده استمالة البلدان العربية فى قضايا ذات اهتمام مشترك، وإبداء الرغبة فى التوسط لحل الأزمات فى المنطقة.

وتتساءل الباحثة عن مدى التزام الرئيس الجديد ديميترى مدفيديف بالنهج الذى اتبعه سلفه حيال الوطن العربى، خصوصاً بعد أن أصبح الغرب على مشارف حدود روسيا الاتحادية فى إثر احتلاله أفغانستان والعراق.

حال الأمة العربية ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ أمة فى خطر

مجموعة من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٢٥٥ صفحة



«أمة فى خطر».. هى الخلاصة التى توصل إليها تقرير حال الأمة العربية للعام ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩، الذى توقف فى متابعته مستجدات حال الأمة عند نهاية الربع الأول من العام ٢٠٠٩ ما سمح له بمتابعة أحداث مهمة وقعت فى تلك الشهور الثلاثة: تغيّر الإدارة الأمريكية، العدوان الإسرائيلى على غزة وتداعياته، انتخابات المحافظات فى العراق، انتخابات الكنيست فى إسرائيل، القمم العربية المتلاحقة من الكويت إلى الرياض فالدوحة على اختلاف مستوياتها. ومن هنا، يمكن القول إن العمل فى التقرير انتهى قبل أيام معدودة من نشره.

لقد حافظ التقرير هذا العام أيضاً على اتساق المنهج الذى اتبعه منذ سنوات عدة، وهو المنهج الانتقائى الذى يعتمد فى اختيار موضوعاته على إلحاحها.

ولحظ تقرير هذا العام أن بؤر التأزم قد حافظت على ثباتها، ومن هنا تم تناول حالات العراق ولبنان والصومال والسودان، إضافة بالطبع إلى القضية الفلسطينية. لكن ما يلفت فى تلك البؤر هو احتدام التأزم بوضوح واتخاذه أبعاداً جديدة لم تلازمه فى السابق. ما يعنى أن التراخى فى تصفية بؤر التأزم ينذر بتفاقمها ولا يسمح بـ «رفاهة» بقاء الوضع على ما هو عليه.

تضمن هذا الكتاب - التقرير تحليلاً لتسعة مواضيع رئيسة، توزع عليها الإطاران الدولى والإقليمى والنظام العربى والدراسات القطرية، فضلاً عن تطور الاقتصادات العربية، لاسيما فى ظل الأزمة الاقتصادية العالمية الراهنة.

استراتيجية البرنامج النووى فى العراق فى إطار سياسات العلم والتكنولوجيا

همام عبدالخالق عبدالغفور وعبدالحليم إبراهيم الحجاج

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٢٤٠ صفحة



قبل قصف إسرائيل لمفاعل تموز سنة ١٩٨١ وبعده، نُشر الكثير عن برنامج العراق النووى، دفاعاً عنه أو هجوماً عليه بالتهم والبهتان. وقد أخذ ذلك النشر شكل موجات تتصاعد تارة وتخفت تارة أخرى. ولم يجر فى كل ما كتب آنذاك التطرق كثيراً إلى الجوانب التكنولوجية والفنية للبرنامج.

يستعرض هذا الكتاب الإطار الاستراتيجى لبرنامج استمر أكثر من خمسين عاماً، وتوالت على رسمه وإدارته نظم سياسية عديدة، حكمت العراق منذ عشرينيات القرن الماضى وإلى حين تدمير القوات الأمريكية البرنامج، ثم إلغاء منظمة الطاقة الذرية بعد احتلال العراق سنة ٢٠٠٣ .

وربما تكون هذه أول وثيقة تصدر عن البرنامج النووى ولا تعبر عن رأى شخصى فى البرنامج.. وهى ليست مذكرات شخصية، ولا تتناول أن تنتقد أشخاصاً وعناوين أو تتحدث عن خصوصيات معيّنة. ونحن أردنا أن ندوّن ونوثق ما كانت قيادة العراق قد فكرت فيه، وحقيقة تطور الأحداث، وما أدت إليه من جهة وآلت إليه من جهة أخرى، لكى لا يتصور أو يذهب بعيداً من يتراءى له أن الأمر لا يعدو نزوات ورغبات. ولم يتم تناول أسماء أو حيثيات معينة محددة، لأن ذلك يذهب بالحقيقة بعيداً كما نرى، وكما رأيناها وعشناها.

إن هدفنا هو عرض الصورة بوصفها وثيقة للتاريخ، كما رسمت، لا كما تخيلها البعض، أو كتب رواية بشأنها لأغراض التشويق.

البنية الاقتصادية فى الأقطار العربية وأخلاقيات المجتمع

مجموعة من الباحثين

بيروت: المنظمة العربية لمكافحة الفساد، ٢٠٠٩ ، ٢٠٦ صفحات

يضم هذا الكتاب بين دفتيه الوقائع الكاملة للحلقة النقاشية حول: «البنية الاقتصادية فى الأقطار العربية وأخلاقيات المجتمع» التى أقامتها المنظمة العربية لمكافحة الفساد فى بيروت يوم ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٨. وقد شارك فى هذه الحلقة عدد من المفكرين والناشطين السياسيين والمهتمين بالشأن العام، واقتصاديون من عدة أقطار عربية، إضافة إلى بعض الفعاليات البحثية والأكاديمية ممن يمثلون مختلف الاتجاهات السياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية المهتمة بالبنية الاقتصادية والنهج الاقتصادى فى الأقطار العربية.

وقد أرادت المنظمة العربية لمكافحة الفساد من خلال هذه الحلقة النقاشية تسليط الضوء على نمط التنظيم الاقتصادى للمجتمع، والاتجاهات التى تتحكم فى مسار تطوره من جهة، وبين قدرة المجتمع للمحافظة على قيمه المجتمعية من جهة أخرى، فالتحولات فى الهيكليات الاقتصادية فى الأقطار العربية الناتجة من عدم قدرتها على مواجهة تحديات العولمة، تؤدى ليس فقط إلى إضعاف قدرتها على مواجهة تحديات التنمية المستدامة، إنما إلى إضعاف قدرتها أيضاً على مواجهة الفساد.

وتأمل المنظمة من نشر هذا الكتاب،

إثارة النقاش العلمى والموضوعى حول التحولات الاقتصادية التى تجرى فى أقطارنا، وتأثير محصلة ذلك فى البنية الاجتماعية، بما فى ذلك التغيير الناتج فى القيم وثقافة العمل والإنتاج. كما تأمل أن تأتى هذه المساهمة فى سياق تعزيز القدرات المتاحة من أجل خلق مناخ يؤدى إلى تعزيز مناهضة للفساد فى مجتمعاتنا، بما يتيح لها ممارسة واعية لدورها فى إقامة الحكم الصالح، والسير فى مشروعها النهضوى لمواكبة التطورات الحاصلة فى العالم.

■

لغة الطفل وتنميتها فى البحث العلمى

«دراسة مَسْحيَّة تحليلية»
تقديم: الأستاذ الدكتور يسرى الجمل
القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٨ ، ٤١٤ صفحة



بين يدى القارئ دراسة علمية تحليلية يقدمها المركز القومى للبحوث التربوية والتنمية الذى يأخذ على عاتقه تزويد المسئولين والمشتغلين بالعملية التعليمية ببعض الدراسات والبحوث التخصصية فى جميع المجالات ومنها هذه الدراسة التى ترصد واقع لغة الطفل وتنميتها فى البحث العلمى فى مصر، وقد نبعت هذه الدراسة من أهمية لغة الطفل وتنميتها ومن ندرة الدراسات التحليلية التى تناولت هذا الجانب. وتقدم الدراسة عددًا ضخمًا من ملخصات رسائل الماجستير والدكتوراه التى تناولت لغة الطفل فى الفترة من ١٩٩٥ حتى ٢٠٠٧ قد بلغ عددها ١٣٦ دراسة.

جاءت الدراسة فى خمسة فصول: تناول الأول منها الإطار العام - مشكلة الدراسة وأهدافها - منهجها وخطواتها، والفصل الثانى تناول مفاهيم مرتبطة بالدراسة - مفهوم اللغة وخصائصها - تكامل الفنون اللغوية - المهارات اللغوية - الثقافة اللغوية - البحث العلمى وخصائصه. ويقدم الفصل الثالث عرضًا لرسائل الماجستير والدكتوراه التى تناولت لغة الطفل فى الفترة من ١٩٩٥ وحتى ٢٠٠٧. أما الفصل الرابع فيقدم دراسة تحليلية للرسائل المعروضة بالفصل الثالث فى ضوء محاور التحليل. ويقدم الفصل الخامس رؤية مستقبلية للبحث العلمى فى مجال لغة الطفل وتنميتها.

■

الطريق الطويل .. مذكرات صبى مجند

تأليف: إشمائيل بيه
ترجمة: سحر توفيق
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ٣٠٢ صفحة



رواية مذهلة، مروية باقتدار وصدق يمزق القلب!

يروى لنا إشمائيل بيه، وهو الآن فى السادسة والعشرين من عمره، قصة قوية أسرة: فعندما كان فى الثانية عشرة فى سيراليون، استطاع الهروب من هجوم المتمردين، وراح يضرب هائمًا على وجهه فى بلد لم يعد من الممكن التعرف على ملامحه بسبب العنف، وفى الثالثة عشرة التقطه جيش الحكومة، ووجد الصبى الرقيق القلب أنه قادر على ارتكاب أفعال مروعة حتى أنقذته اليونيسيف من ساحات الحرب وهو فى السادسة عشرة.

وقدتُرجم هذا الكتاب لأكثر من ٢٢ لغة ولاقى نجاحًا كبيرًا فى جميع أنحاء العالم.

إشمائيل بيه: ولد فى سيراليون فى ١٩٨٠، وانتقل إلى الولايات المتحدة عام ١٩٩٨، حيث أكمل السنتين الأخيرتين من دراسته الثانوية فى مدرسة الأمم المتحدة الدولية فى نيويورك. وتخرج من كلية أوبرلين فى ٢٠٠٤. وهو عضو فى اللجنة الاستشارية لحقوق الإنسان قسم مراقبة حقوق الأطفال، وقد تحدث أمام مجلس العلاقات الأجنبية، ومركز التهديدات الناشئة والفرص فى معمل مارين كورز لمناهضة الحرب. كما تحدث أمام الأمم المتحدة فى مناسبات عدة. ويعيش حاليًا فى نيويورك.

■

عزف منفرد على البيانو

فواز حداد
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٩ ، ٣٢٠ صفحة



تدور أحداث الرواية حول الأستاذ فاتح المفكر العلمانى الناشط الذى يتعرض للاعتداء الجسدى. وتبدأ إجراءات الحماية والحذر والحيطة. ويشتد الخطر والحذر بعد محاضرة يلقيها العلمانى ضد التعليم الدينى فى المدارس! وتشتد الإجراءات. ويلتقى المفكر فاتح بصديق الطفولة المتدين. وتكثر اللقاءات بينهما فيما يحاذر المفكر من مكر رفاقه الحزبيين ويشتبه فى الدينيين. وذات يوم فيما الصديقان جالسان معًا يتعرض صديق الطفولة المتدين لرصاصة قناص ترديه. ويظن صديقه العلمانى أنه هو المقصود وليس الإسلامى.

أحداث الرواية تدور فصولاً متتابعة.. يمسك بها فواز حداد بخيط متين من التشويق والرغبة الملحة فى متابعة القراءة.. لعبة طالما أتقنها حداد فى رواياته.

يبقى أن العمل يهدف إلى إدانة وسائل القمع والإرهاب المتبادل بين العلمانيين والمتدينين. ويتخلل العمل حوار فكرى بين العلمانى وذاته وبينه وبين الإسلامى حول الإيمان والإلحاد والالتزام الدينى فى البيت والشارع والمدرسة من عدمه.

■

قُصْقُصُ وَرَق

عبير أسبر
بيروت: دار الكوكب، ٢٠٠٩ ، ١٧٠ صفحة



تتميز الرواية بواقعيتها وشفافيتها، حيث تروى الأديبة تجربتها الغنية ومعاناتها الشخصية فى العمل الفنى والأدبى، حيث الانعكاس القوى للفشل السياسى والحزبى والمؤسساتى على الواقع الذى تعيشه شعوب المنطقة.

رشاقة العبارة وشفافية الأسلوب لا تخففان من المرارة حد اليأس، حيث النقد يعبر عن نفسه نقمة عارمة لا توفر والدى الكاتبة والكاتبة ونفسها على طريقة الفنان زياد الرحبانى.

وتأتى النهاية صادمة ومفاجئة بقسوتها ومرارتها:

«لن أكمل الحكاية، لأنى أبرئ نفسى من التاريخ، من الذكرى، وما يفعله إحياء الذكرى، بريئة أنا من الحقيقة، وبشاعة الحقيقة، من التاريخ، وغباء التاريخ، وقسوة صانعيه.

من هنا أعلن براءتى منى، من الهويات ولعناتها! أعلن براءتى من لبنانية زياد وايليا، وسورية عبير ومازن، وعراقية نجم! أعلن براءتى من مسيحية المسيحيين، وشيعية الشيعة، وإسلام المسلمين، أعلن براءتى من البشاعة، والخوف، والانتماء لبلدان لا تريدنا، وهويات تجلدنا، تلعننا، ترمى بنا على أرصفة مدنها كالشحاذين، أعلن براءتى، خلاصى من مخيلتى، من تلفيقى من صدقى/ من كذبى. ثم خوفًا منكم وبحثًا عن العفو، أبرئ نفسى من كل ما كتبت!».

■

تراتيل العدم

مها حسن
بيروت: دار الكوكب، ٢٠٠٩ ، ٣٠٠ صفحة



فى هذه الرواية تعالج مها حسن موضوع الخلق والعدم بطريقة مبتكرة، أسماء من الطبيعة ولها دلالاتها: «أرض - حرش - أسماء - إحياء - نداء - سماء - طهر - إتيان - زلزال - اسم الذكر للأنثى واسم الأنثى للذكر، ونصف آلهة نصف بشر.

عمل خيالى - أسطورى، لكنه ممهور بطبائع الإنسان: حب، حقد، غضب، غيرة... إلخ، وفيه تحذير متكرر (حذرتك ألا ترتل هذا النشيد.. ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتى فى ربيع يتلو رمادك).

ومن الرواية نقتطف:

«وكان يحس أنه خليط: واقع وحلم، منام وصحو، أحداث وقعت وأحداث يظن أنها وقعت، وهى إما لم تقع، وإما وقعت ونسيها، كأن يكون قد زرع أبناء فى أرحام ما، أو أنه يتصور ذلك. خليط من أبوين مختلفى التكوين، من امرأة نصف حاضرة، وأكثر من نصف غائبة، وأب مسافر ومبتعد وفى شبه غياب تام، امرأة يشك بأصلها ومنشئها، وجدة سحرية وشبه أسطورية».

■

حرّاس الهواء

روزا ياسين حسن
بيروت: دار الكوكب، ٢٠٠٩ ، ٣٠٠ صفحة



بطلة الرواية مترجمة فورية فى إحدى السفارات، ومن طبيعة عملها أن تتلقى العديد من طلبات اللجوء إلى تلك الدولة، ومعظم طالبى اللجوء مضطهدون فى بلادهم، حيث الأنظمة القمعية تمارس التهديد والوعيد، وتوقع أفظع أنواع التعذيب وتكبت الحريات

والأنفاس. ويمارس فيها أصحاب النفوذ مهمات «حراس الهواء»!

تتفاعل «عنات» المترجمة مع هذه الأحداث فيما ترويها للقارئ مضيفة إليها وقائع حياتها الشخصية والعاطفية بما يضفى على الأحداث نوعًا من الإثارة والتشويق.

وهنا مقطع يصف تفاعل عنات مع هذه الأحداث:

«إنها التفاصيل اللعينة.. التفاصيل.. التفاصيل. على الرغم من اعتقادها بأنها اعتادت على هذى القصص. وتشكلت لديها مناعة من آلام اللاجئين عبر سنوات من عملها فى السفارة.

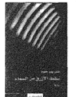
ليست مناعة بهذا المعنى! إنه تداخل معهم، تمازج، جعلها تتحول يومًا بعد يوم إلى جزء من تلك الحكايات، لا مجرد مستمعة خارجية. كأنها، بترجمة ما يقولون، تعيد تدوين ما عاشوه، أو تعيد عيشه من جديد بجسدها، بإحساسها، بثقافتها الخاصة والحميمة. تتحول من مترجمة. هى فى النهاية تعبث باللغة أو تعيد كببغاء قول ما يبدعه الآخرون. إلى مشاركة فى كل تلك الوقائع التى حصلت أو لم تحصل».

■

سقط الأزرق من السماء

منذر بدر حلّوم

بيروت: دار الكوكب، ٢٠٠٩ ، ٣٠٠ صفحة



أبطال الرواية كانوا أطفالاً فى مدرسة القرية. كبروا وصاروا رجالاً ونساء، فتشابكت مصائرهم وتقاطعت مصالحهم وأوقع بعضهم بعضًا فى حبائل الدسائس والابتزاز والاستغلال الجسدى والفكرى وآفة الآفات: استغلال النفوذ والسلطة والعبث بمصائر الناس.

هل هذا هو الواقع بضآلته وضحالته؟ وهل نستطيع تغييرًا؟ فى كل الأحوال الرواية يمكن إدراجها فى الأدب المقاوم للاستبداد.

فى أحد المشاهد نقرأ:

«ما إن خرجت نجوى حتى راحا يقهقهان. وقف بسام عند حافة السرير معيدًا تمثيل المشهد، دافعًا بوسطه فى الهواء، حيث كانت نجوى مقيدة منذ قليل، وبينما تصاعدت قهقهات بسام وارتسمت على وجهه علامات الرضا والتباهى برجولته، راحت ضحكة عزيز تخفت شيئًا فشيئًا، وراح شىء من الكدر يخالط نفسه».

■

فى هجاء البشر ومديح البهائم والحشرات

تأليف: أحمد إبراهيم الفقيه

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ١٧٢ صفحة




«رأيت والسيارة تتحرك بنا عبر الطريق الذى تحفه الأشجار وجه نسناس صغير يطل من بين الأغصان وينظر نحوى بعينين تمتلئان فضولا، فأدرت رأسى نحو هذا النسناس، أنظر إليه بأسف واعتذار ولسان حالى يطلب الصفح منه، لأننى ظلمته وظلمت القرود من بنى قومه، عندما اعتبرتهم مصدر خطر وتهديد لحياتى وعفتى وحياتى وعفاف كل النساء، بينما الخطر كان يكمن فى نوع من البشر، تستحى وحوش الغابة من أفعالهم وترفض الهبوط إلى الدرك الأسفل من الخسة والنذالة والوحشية الذى هبطوا إليه». أحمد إبراهيم الفقيه، أديب ودبلوماسى ليبى مواليد جنوب طرابلس ١٩٤٢، نال درجة الدكتوراه فى الأدب العربى الحديث من جامعة إدنبره، وعمل بالمجال الصحفى منذ ١٩٥٩، فرأس تحرير ١٢ مجلة. وهو صاحب أطول رواية عربية هى «خرائط الروح» التى تتكون من ١٢ جزءًا وتتناول تاريخ الاستعمار فى ليبيا. وقد صدر له عن دار الشروق: «خمس خنافس تحكم شجرة» مجموعة قصصية ١٩٩٧، «غناء النجوم» مسرحية ١٩٩٧، «مرايا فينيسيا» مجموعة قصصية ١٩٩٧، «حقول الرماد» رواية ١٩٩٩.

■

بريد تائه

قمر الزمان علوش

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٩ ، ١٨٠ صفحة



الكتاب عبارة عن رواية مسرحها بلدة يضربها الجراد. من أبطالها: أدهم أفندى رئيس مكتب البريد المتقاعد، رتيبة زوجة جاره الفنان المستهتر فتى الديك الرومى، هيلانة وحفيدتها بائعتا اللذة، العسكرى المتقاعد صديق أدهم أفندى والعجوز مزنة.

أناس يقطع الزمن أحلامهم ويحول بين تواصلهم، حيث تبقى آلاف الرسائل الضائعة فى خزائن أدهم أفندى ويأكل الجراد منها الكثير.

الأحداث الدرامية كثيرة: الوحدة، العجز والشيخوخة، الجراد، فقدان الأحبة، بيع اللذة... إلخ. لكن الكاتب استطاع بأسلوبه المتمرس وتعابيره وخياله الخصب التخفيف من وطأة الدراما إلى حد كبير.

ومن الرواية فى مشاهدها الأخيرة:

«أخذت ختمًا من أختامه ووضعته فى جيب فستانها وقالت له: هذا يجعل لنا شيئًا خاصًا للذكرى. سأظل أحتفظ بذكرياتى عنك كيفية إمساكك بالأختام، وكلما رنت أجراس السرير تذكر أن روحى تحلق فوق كل المكان.

وقف فى الشرفة لوداعها. ظهرت برفقة زوجها عازف الكمان وهو يحمل حقيبتى سفر ضخمتين. لقد رفعت بصرها نحوه كما وعدت. فى السابق حاول مرارًا أن يحدد لون عينيها ففشل؟ كانتا بلون غابة زجاجية متقلبة تتدفق فيه الحياة بكل مراتبها مسرعة مترعة وتمر فيها الفصول الأربعة فى لحظة واحدة نادرة.

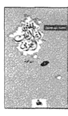
سوف تظل صورتها تبيح له أنه يحلم بها فقط، يحاول القبض عليها فيتعذر عليه الإمساك بها. تمامًا كالوهم، كالزمن، كالحياة فى جريانها الهاذى».

■

بلغنى أيها الملك الحزين

محمد أبو معتوق

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٩



إلى أسس متينة من الثقافة التاريخية العميقة والأدبين العالمى والعربى تستند رواية «بلغنى أيها الملك الحزين»، وقد توسل فيها الكاتب بمزيج شيق من الخيال والواقع ليسرد لنا أحداثًا اجتماعية فى جو مستوحى من «ألف ليلة وليلة» الشهيرة، بالإضافة لأمور كثيرة، ببطليها «شهريار وشهرزاد». وهنا مقطع حوارى أجاد الراوى استخدامه، وقد صاغه بعبارات لطيفة:

«بعد مدة أنزلت المرأة الكتاب الذى يحجب سماوات نهديها وقالت:

- كتاب مثير.

قال المختار: لا يمكن لشىء يحجب نهدين باهرين، ألا يكون مثيرًا.

- هل تعرف الأسباب؟

سأل المختار: أية أسباب؟

- أسباب اندثار الإمبراطورية الرومانية.

- لا أعرف، فهل تعرفين؟

- فما هو سبب الاندثار؟

- عندما صارت بائعات الهوى فى روما أكثر حكمة من الرجال فى مجلس الشيوخ تفتتت الإمبراطورية، ونهضت الفلسفة من جديد.

- وما علاقة الغانيات بالإمبراطوريات؟

- الإمبراطورية القوية مثل غانية جميلة تحتاج إلى ساقين لتنهض عليهما. ساق فى الشرق وساق فى الغرب، وعندما لا يكون ذلك، تحصل القطيعة بين الساق الأولى والثانية وينهار كل شىء.

■

خمسون عالمًا اجتماعيًا أساسيًا المنظرون المعاصرون

تحرير: جون سكوت

ترجمة: محمود محمد حلمى

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٤٢٤ صفحة



يتناول الكتاب حياة وعمل وأفكار أهم خمسين مفكرًا برزت أفكارهم ولمعت نظرياتهم فى النصف الثانى من القرن العشرين.

كما يشتمل الكتاب على مداخل مرتبة أبجديًا بحسب اللقب، ومعدة من قبل مجموعة من الخبراء المتميزين بأسلوبهم ونهجهم. وفى كل مدخل، هناك نبذة مفصلة عن شخصية أساسية، معروضة فى سياق تاريخى وفكرى وتتناول حياة العالم وعمله ودراساته وتطورها.

وبغية تعزيز فهم القارئ اختتم كل مدخل بقائمتين مرتبتين زمنيًا: الأولى تتناول أهم أعمال الكاتب، موضوع المدخل، والثانية تتناول مقترحات لقراءات إضافية ذات صلة بالموضوع.

■

تجديد فهم الوحى

إبراهيم خليفة

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٥١١ صفحة



هل يستوعب الوحى مجمل تطورات المستقبل؟! هذا السؤال البسيط فى ظاهره هو من أهم الأسئلة وأعمقها الذى

يمكن الإجابة أن تفتح بوابة واسعة باتجاه تغيير الوعى.

ولولا أن الوحى يستوعب مجمل تطورات المستقبل لفقد طابعه العالمى وصلاحيته لكل زمان ومكان. ولولا أن الفقه مرتبط ببيئته الزمانية والمكانية لفقد طابعه البشرى واكتسب أهم سمات الوحى. ومشكلة المسلمين الكبرى منذ غلبة منطق التقليد وعقليته تكاد تنبع من انقلاب هذه الخصائص على المستوى العملى، حيث لم يعد استيعاب الوحى للتطورات المستقبلية أمراً مستقراً وحاضراً فى الوعى، ودافعاً لحركة الاجتهاد، الأمر الذى أدى إلى مد الفقه إلى غير زمانه وغير مكانه.

والسؤال الإشكالى، إذا كان الوحى يستوعب مجمل تطورات المستقبل، فما هى طبيعة هذا الاستيعاب وتبعاته؟ وما الفرق بين الوحى والفقه من حيث الامتداد والصلاحية لكل زمان ومكان؟ هذا ما سيحاول الإجابة عنه الكتاب من خلال النظر إلى المعرفة البشرية أولاً، والتجربة التاريخية للمسلمين ثانياً.

■

رؤية لعالم الغد
ثلاثة أحاديث مع رموز الفكر والسياسة فى موسكو وباريس وبرلين

تأليف: بطرس بطرس غالى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ٩٢ صفحة



يندر أن تتنوع موضوعات الأحاديث التى أقوم بعملها من وقت لآخر مع كبار المفكرين ورجال الإعلام وأن تتباعد الأوقات الزمنية التى تتم فيها ويبقى مع ذلك شىء يربطها.

ففى عام ١٩٨٨ دار حديث بينى وبين المستشرق الكبير «أنطونى جروميكو» فى موسكو. وبعدها بسبعة أعوام فى باريس دار حديث بينى وبين الكاتب والصديق «جان لكوتير» الذى ألف عشرات الكتب ومن بينها كتاب مهم عن مصر عن ثورة يوليو. وجاء الحديث الثالث فى برلين مع العالم «فان بارلوفن». وكان واضحاً أن هناك بين هذه الموضوعات الثلاثة المختلفة عناصر مشتركة كثيرة تجمع بينها. وأهم هذه العناصر:

أولاً: أن هذه الأفكار تحوم حول موضوعات تهم السياسة الدولية... والسياسة الدولية بطبيعتها لا تتغير بين يوم وليلة.

ثانياً: الاهتمام بإعطاء خلفية تاريخية للأحداث العالمية، والخلفية التاريخية كانت دائماً بالنسبة لى عنصراً ومكوناً رئيسياً لفهم تطورات العلاقات الدولية. والتاريخ كان ومازال عنصر ربط لما يحصل فى عالم الغد.

ثالثاً: الذى حكم منطقية الربط بين الموضوعات الثلاثة المرشحة للنشر والتى مارستها خلال جزء مهم من حياتى هو التدريس... فضلاً عن تأثير التعليم المصرى الفرنسى الأمريكى والماركسى فى تكوينى على مستوى القانون الدولى والعلوم السياسية.. وكلاهما يتطلب ممن يكتب أو يتكلم أن يبحث عن العناصر المشتركة بين الأفكار والأعمال.. لا سيما لمن يؤمنون مثلى «بعالمية» الفكر والحركة والفعل ورد الفعل.

واهتمامى اليوم بنشر هذا الموضوع كان وراءه رغبتى الدائمة فى أن تعلم وتتعلم الأجيال الشابة والأجيال القادمة خلفيات حركة الأحداث العالمية على لسان من كانوا من بين صانعى القرار على مستوى العالم وعلى مستويات مختلفة حسب مواقع المسئوليات التى توليتها.

■

اقتصاد القرن الحادى والعشرين
آفاق اقتصادية ـ اجتماعية لعالم متغير

وليام هلال ـ كينث ب. تايلر

ترجمة: د. حسن عبدالله بدر ود. عبدالوهاب حميد رشيد

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٦٢٤ صفحة



يبحث الكتاب فى آفاق اقتصاد القرن الحادى والعشرين، ويحاول إيضاح كثير من حالات عدم التيقن التى تصاحب ثورة المعرفة التكنولوجية، اقتصادياً واجتماعياً وتقنياً، فى ظروف التحول مع بداية الألفية الثالثة. ويدعو إلى نبذ الاقتصاد الكلاسيكى، وافتراضاته القائمة على التصرف الأمثل وعلى التوازن، وإلى بناء علم اقتصاد جديد يُعالج التحول الاقتصادى فى ظل العولمة والقائم على أساس عدم التوازن أو التوازن عند الحافة.

ولقد ساهم فى إعداده ١٨ عالماً بارزاً يعملون فى مختلف الجامعات والمؤسسات العلمية الغربية. وتتجسد أهمية الكتاب فى شمولية موضوعاته المطروحة فى سياق ثورة المعرفة التكنولوجية التى تعيش البشرية بداياتها حالياً، إضافة إلى أن تنوع هذه الموضوعات وتكاملها بالعلاقة مع الثورة التكنولوجية، يجعل منه مرجعاً لا غنى عنه للمثقفين وأهل العلم والفكر، ومصدراً مهماً يسد شيئاً من الفراغ فى المكتبات العربية.

■

رحلة فوق النيل

إملى نصر الله

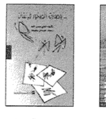
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ٨٠ صفحة

.. وصارت الصخور فراشات

إملى نصر الله

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩ ، ٦٤ صفحة





يعرف القراء العرب الكاتبة «إملى نصر الله» كواحدة من أبرز الكاتبات العربيات فى مجال السرد عموماً، يتميز عملها الأدبى دائماً بالمصارحة والجرأة، ونكء الجراح حتى يدخلها الهواء النقى، لا تداهن أو تنافق فى مواجهة المشكلات التى تواجهها المرأة العربية، فتدخل واقعها وكتابتها متسلحة بالوعى والمعرفة، ومن هنا يكتسب إبداعها أفقاً إنسانياً عالمياً، فهى تخاطب القارئ فى أى لغة وفى كل لغة، لأن النفس الإنسانية دائماً واحدة.

وقد أصدرت لها الدار المصرية اللبنانية أخيراً مجموعتين قصصيتين تستهدفان شريحة من القراء غابت عن فكر الأدباء وصانعى السياسات الثقافية وهى فئة الناشئة من سن الثانية عشرة حتى العشرين، تحت عنوان: «رحلة فوق النيل»، و«.. وصارت الصخور فراشات».

الكتاب الأول تتخذ الرحلة فيه بعدين أساسيين: داخلى وخارجى، الرحلة بمعناها البسيط والدارج، والرحلة بمعناها الضيق، حيث الغوص فى النفس الإنسانية لتعريتها وكشف المخبوء فيها بغية فحصه ومعرفة مساربه، إنها أوراق رحلة غير منسية إطلاقاً، لأنها مستيقظة باقية دائماً فى أعماق الذاكرة، تتحرك فيها الكاتبة فى حركة متموجة هادئة سلسة، تتغلغل إلى الأعماق فى رهافة حس وفيض نفسى صاف دافق، فتبدو كمرتحل إلى جزيرة ساحرة المنظر، بهية الملامح لا تسمع فيها إلا كل نغم عذب. إنها رحلة تقع فى سبع قصص وثمانين صفحة، ورسم غلافها الفنان المبدع محمد حجى.

أما الكتاب الثانى: «.. وصارت الصخور فراشات» فيتكون من ثلاث قصص طويلة نسبياً هى: غابة الزيتون، وصارت الصخور فراشات، خطوط الوهم الرائعة. وتتناول مفهوم الجمال، وتحاول التماسه فى كل ما يحيط بنا، حيث يضع بصماته على الأشياء الموجودة حول الإنسان. والمجموعة مزودة برسوم رقيقة جذابة تعبر عن المضمون الكلى للكتاب وترسخ مفهوم الجمال فى ذائقة القارئ، رسمتها: هنادى سليط وبغلاف وإخراج داخلى للفنان التشكيلى صلاح بيصار.

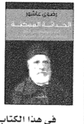
تتراوح القصص بين الحديث الذاتى الهامس، وقبول الآخر فى علاقة تناغمية، وفى أحد أبعادها الخفية تحترم وتحث بل وتقدس العمران والإنجاز البشرى كرسالة أولى للبشرية، تتوارثها جيلاً بعد جيل. وفى هذين الكتابين توسع إملى نصر الله من دائرة كتابتها، فتفتحها على عوالم أكثر غنى وتعدداً، وشرائح قرائية مختلفة.

■

الشدياق والحداثة الممكنة

تأليف: رضوى عاشور

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ١٤٨ صفحة

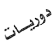


فى هذا الكتاب تتناول رضوى عاشور بالبحث والدراسة الرواية الأولى فى الأدب العربى الحديث «الساق على الساق فيما هو الفارياق» (١٨٥٥) للرائد الأديب واللغوى والصحفى والمترجم أحمد فارس الشدياق (١٨٠٥ - ١٨٨٧) يطرح الكتاب السؤال: لماذا أُسقط إنجاز الشدياق وقد أنتج النص الأدبى الأغنى والأقوى فى الأدب العربى فى القرن التاسع عشر؟ ثم يجتهد فى الإجابة عبر قراءة نقدية مستفيضة تستكشف النص وعلاقته بزمانه.

رضوى عاشور أستاذة الأدب الإنجليزى بجامعة عين شمس وأديبة. ولدت فى القاهرة عام ١٩٤٦، وحصلت على الدكتوراه من جامعة ماساتشوستس ١٩٧٥. صدر لها عدد من الدراسات النقدية، مثل: «الطريق إلى الخيمة الأخرى: دراسة فى أعمال غسان كنفانى»، و«جبران وبليك» (باللغة الإنجليزية)، «التابع ينهض: الرواية فى غرب إفريقيا»، و«فى النقد التطبيقى: صيادو الذاكرة»، وبالاشتراك مع آخرين «ذاكرة للمستقبل، موسوعة الكاتبة العربية: ١٨٧٣-١٩٩٩».

كما صدر لها عن دار الشروق ست روايات هى «ثلاثية غرناطة» (٢٠٠١)، «تقارير السيدة راء» (٢٠٠١)، و«قطعة من أوربا» (٢٠٠٣)، و«سراج» (٢٠٠٨)، و«أطياف» (٢٠٠٨)، و«فرج» (٢٠٠٨).

■



بحوث اقتصادية عربية

مجلة علمية فصلية محكمة. ربيع ٢٠٠٩



صدر العدد ٤٦ من مجلة «بحوث اقتصادية عربية» متضمنًا افتتاحية للدكتور محمد سمير مصطفى، وثمانى دراسات، وهى:

. «الأزمة الاقتصادية الأمريكية وتداعياتها العالمية» لـ «عبدالمجيد قدى».

. «نظرة أساسية إلى الفقر وتوزيع الدخل فى المجتمع العربى (إطار منهجى للسياسات ومقاربة كمية)» لـ «محمد عبدالشفيع عيسى».

. «صعوبات حماية العلاقات التجارية الشهيرة فى ظل الاقتصاد الرقمى» لـ «ليلى شيخة».

. «نحو استراتيجية عربية مشتركة فى الشأن البيئى: البيئة والكهرباء فى الوطن العربى» لـ «محمد مصطفى الخياط».

. «الحوكمة وثنائية التحول نحو اقتصاد السوق وتفشى الفساد (دراسة اقتصادية تقييمية حول الجزائر)» لـ «عبدالقادر خليل».

. «التنمية المستدامة وتحدياتها فى الجزائر» لـ «ناصر مراد».

. «العلاقات الاقتصادية المصرية - الأوروبية: من التكامل السطحى إلى التكامل العميق (بالتطبيق على المعونة الحكومية)» لـ «منى طعيمة الجرف».

. «أثر الاستثمار الأجنبى المباشر فى الاقتصاد الأردنى» لـ «عدنان داود محمد العذارى».

وفى العدد أيضًا ثلاثة مراجعات للكتب التالية: «السياسات الاقتصادية الكلية والفقر مع إشارة خاصة إلى الوطن العربى» (سالم توفيق النجفى وأحمد فتحى عبدالمجيد) أعدها سرمد كوكب الجميل، و«الأزمة المالية العالمية ٢٠٠٨: الانعكاسات على الاقتصاد العالمى والاقتصاد العربى» (نبيل حشاد) أعدتها نورا محمد جادو، و«طلعت حرب وتحدى الاستعمار.. دور بنك مصر فى التصنيع، ١٩٢٠ - ١٩٤١» (إيريك دافيز. ترجمة هشام سليمان عبدالغفار) أعدتها إيناس محمد الجعفراوى. هذا بالإضافة إلى «يوميات اقتصادية مختارة»، و«ببليوغرافيا اقتصادية مختارة»، و«الملحق الإحصائى لجمهورية السودان» أعدته إيناس محمد الجعفراوى.

كما تضمن العدد مقالة باللغة الإنجليزية بعنوان: «Women and Trade Liberalization in Africa: Challenges and Opportunities», Composed by: Amal Nagah Elbeshbishi.

■

المجلة العربية للعلوم السياسية

مجلة دورية محكمة. ربيع ٢٠٠٩

صدر العدد ٢٢ من المجلة العربية للعلوم السياسية، وفيه: افتتاحية العدد للدكتور عدنان السيد حسين: «العدالة الدولية الملتبسة».

وملف بعنوان: «الأمن والديمقراطية فى السودان»، يتضمن ثلاثة بحوث:

- «أكبر من دارفور: الأمن الإقليمى للسودان على حدوده الغربية»: لحسان الحاج على أحمد.

. «قضية دارفور: الأسباب والتداعيات وسبل المعالجة» لآدم محمد أحمد عبدالله.

- «دور الإعلام فى عملية التحول الديمقراطى فى السودان لمرحلة ما بعد السلام» لمصعب عبدالقادر وداعة الله.

أما الدراسات فهى:

. الحصار الإسرائيلى لقطاع غزة فى ضوء القانون الدولى الإنسانى لمحمود صدقى.

. الترتيبات الأمنية فى غزة فى ضوء الأدوار العسكرية للمنظمات الدولية لأحمد على سالم.

. تجربة الوحدة اليمنية (دراسة تاريخية - سياسية) لسمير عبدالرسول العبيدى.

- الديمقراطية النيابية والتمثيل النسائى فى الدول العربية لهنا صوفى عبدالحى.

وفى باب آراء:

. علاقة الحركات الإسلامية مع الأنظمة السياسية، الحالة التونسية، ١٩٨١ - ١٩٩١: عبدالحكيم أبواللوز.

. المدرسة وإعادة إنتاج النخبة السياسية فى المغرب: المدارس الكبرى والتكنوقراط: كولفرنى محمد

وفى باب كتب، مراجعات للكتب الآتية:

. «الأصولية الإسلامية العربية المعاصرة بين النص الثابت والواقع المتغير» لحسن سعد، أعدها وليد خالد أحمد حسن.

- «الرواية الفلسطينية الكاملة للمفاوضات: من أوسلو إلى خريطة الطريق، ج١: مفاوضات أوسلو ١٩٩٣» (أحمد قريع «أبو علاء») أعدها رضوان زيادة.

وفى باب نشاطات:

. «تقرير عن: ندوة «المواطنة والوحدة الوطنية فى الوطن العربى» مراكش، ١٣ - ١٤ مارس ٢٠٠٩. بالإضافة إلى «يوميات عربية ودولية مختارة»، و«ببليوغرافيا مختارة».

■

الدوحــة

مجلة ثقافية شهرية



صدر العدد الجديد من مجلة «الدوحة» يتضمن مقالات وبحوثا للدكتور حسن حنفى بعنوان «الغابة والضوء»، ومقال للدكتور طيب تيزينى بعنوان «خداع المرايا»، ومقال لزهير غزال بعنوان القدس فى مسيرة الزمان، ومقال لإبراهيم غرايبة بعنوان «العاطلون من العمل». ويتضمن العدد حوارا أجراه د. محمد برادة مع ريجيس دوبريه.

كما يتضمن العدد نصوصا لسيدى محمد ولد بمبا بعنوان «حداء المجابات»، ولخديجة موادى بعنوان «بئر العطش»، وللدكتور أحمد إبراهيم الفقيه بعنوان «الصوت والصمت»، ولنواف أبو الهيجاء بعنوان «حكايات فلسطينية».

■

المستقبل العربى

مركز دراسات الوحدة العربية، مايو ٢٠٠٩



يتضمن العدد افتتاحية بعنوان «قمة الدوحة ومعضلة النظام العربى» للدكتور أحمد يوسف أحمد، وستة بحوث وهى:

١ - حال الأمة العربية (٢٠٠٨ - ٢٠٠٩): أمة فى خطر، تحرير نيفين مسعد وأحمد يوسف أحمد.

٢ - مشروع نقد العقل العربى: من نقد الخطاب إلى التعريف بالقرآن ليوسف بن عدى.

٣ - الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية للطفرة النفطية على دول مجلس التعاون لعبدالرزاق فارس الفارس.

٤ - الاختصاص التكميلى للمحكمة الجنائية الدولية وعلاقته باختصاص المحاكم الوطنية لعبدالحق بن ميمونة.

٥ - استراتيجية البرنامج النووى فى العراق فى إطار سياسات العلم والتكنولوجيا لهمام عبدالخالق عبدالغفور وعبدالحليم إبراهيم الحجاج.

٦ - القبيلة فى العراق: دينامياتها ودورها السياسى (مقدمة لمشروع دراسة القبيلة فى العراق) لياسين سعد محمد البكرى.

كما تضمن العدد وثيقة عن منظمة العفو الدولية تحت عنوان: «الأمل والخوف: حقوق الإنسان فى إقليم كردستان العراق».

أما فى باب آراء ومناقشات فقد كتب طلاب عتريس عن «المشروع الإيرانى بين استراتيجيتى الهجوم والدفاع».

وفى باب كتب وقراءات، مراجعة للكتب الآتية:

. «تطور المجتمع المدنى فى العراق ٢٠٠٣ - ٢٠٠٨ (مؤسسى - حقوقى - تشريعى)» (رابطة التدريسيين الجامعيين بالعراق)، أعد المراجعة صباح ياسين.

- «انتصار المواطن» (بيار روزانفالان)، أعد المراجعة عفيف عثمان.

. «ما حدث داخل البيت الأبيض فى عهد بوش وثقافة الخداع لدى واشنطن» (سكوت ماكليلان)، أعد المراجعة زياد حافظ.

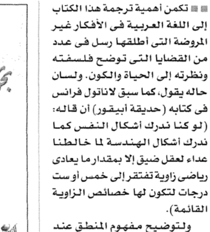
إضافة إلى كتب عربية وأجنبية وتقارير بحثية مختارة، إعداد كابى الخورى.

كما تضمن العدد بيانا إلى الأمة: البيان الختامى الصادر عن الدورة العشرين للمؤتمر القومى العربى، وتقرير عن ندوة: «من أجل الوحدة العربية، رؤية للمستقبل» بيروت ٢٣ - ٢٥ فبراير ٢٠٠٩ أعده أمحمد مالكى.

واختتم العدد بالملف الإحصائى (١١٣) بعنوان: مؤشرات إحصائية مختارة عن الفقر فى البلدان العربية، أعده كابى الخورى، وموجز يوميات الوحدة العربية، وببليوغرافيا الوحدة العربية.

الطيب.. والقبيح

أفكار رسل غير المألوفة



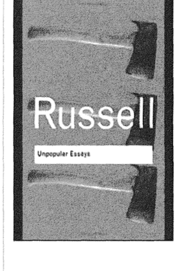
تكمن أهمية ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية فى الأفكار غير المروضة التى أطلقها رسل فى عدد من القضايا التى توضح فلسفته ونظرته إلى الحياة والكون. ولسان حاله يقول، كما سبق لاناتول فرانس فى كتابه (حديقة أبيقور) أن قاله: (لو كنا ندرك أشكال النفس كما ندرك أشكال الهندسة لما خالطنا عداء لعقل ضيق إلا بمقدار ما يعادى رياضى زاوية تفتقر إلى خمس أو ست درجات لتكون لها خصائص الزاوية القائمة).

ولتوضيح مفهوم المنطق عند رسل نرى أن له جانبين يقوم كلاهما على التحليل: أحدهما جانب فلسفى والآخر رياضى. ونستطيع أن نصل إلى الجانب الأول إما عن طريق تحليل التجربة، وإما عن طريق تحليل اللغة. أما الجانب الرياضى فنصل إليه عن طريق تحليل المفاهيم والتصورات الرياضية وتحويلها إلى مفاهيم منطقية. والنظريات التى استحدثها رسل فى المنطق والفلسفة نظريات حصل عليها من تحليله لعناصر التجربة الشائعة ومن تحليله للغة، سواء فى ذلك اللغة العادية أم لغة العلوم.

لقد اعتقد رسل، كما اعتقد هيوم من قبل، أن من أهم وظائف الفلسفة التى تتحدى افتراضات العلم، لا بهدف الشك فيه وزلزال أركانه على نحو ما فعل هيوم، بل من أجل إبراز وجوده. والعلم فى صميمه جهاز من المعرفة والقوانين، لكن المعرفة العلمية لا تقدم لنا مضمون الإدراك الحسى، وهو عبارة عما تنطبع به حاسة الشخص المدرك، بل تقدم لنا هياكل أو إطارات تصور العلاقات بين الظواهر. فليس موضوع علم الحرارة مثلاً كيفية إحساس هذا الفرد أو ذاك بلسعة الأجسام الحارة، بل موضوعه هو الموجات المعينة التى يمكن قياسها وبناء معادلات رياضية خاصة بها. وهذه الهياكل أو الإطارات التى تقدمها لنا القوانين العلمية ليست فى حقيقتها إلا مختصرات



بحوث غير مألوفة
برتراند رسل
ترجمة: سمير عبده
دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ٢٠٠٩



Unpopular Essays,
Bertrand Russell
Simon & Schuster,
New York, 1964

لأوصاف مجموعة من الظواهر الجزئية، أو هى عبارة عن تعميمات لخصائص معينة وجدت حول بعض الظواهر.

كان رسل فيلسوفًا حتى وهو يدعو إلى تعطيل الفلسفة حينًا من أجل التفرغ للكفاح العملى.. وعلينا جميعًا أن نتلقى منه الدرس ونعيه. فليست الفلسفة، وليس الفكر، وليست الثقافة، كلامًا أجوف يقال، أو جدالاً فارغًا يشغل السطح الخارجى من عقول الناس، وإنما هى قبل كل شىء رؤية واضحة لحقائق العالم الذى نعيش فيه، وسعى مستمر، يمتزج فيه النظر بالعمل، من أجل جعله عالمًا أفضل. كل هذا يبين لنا أن فيلسوفنا كان نصيرًا للعقل على الخرافة، يرى فى العلم وفى الصناعة ركنًا ركينًا للحضارة، وهو يحاول أن يقتلع من الإنسان كل ما قد تخلف فى فطرته من الحياة الحيوانية الأولى، والتى تملأه بالرغبة الجامحة وبالشر والعدوان. أو كما قال ليوناردو دافنشى (يبدو لى الناس ذوو الأخلاق الدنيئة والشهوات الحقيرة غير جديرين بهياكل جسمانية جميلة ومعقدة كالناس ذوى الذكاء الحاد والتأمل البعيد، إذ يكفى لديهم كيس وبفوهتين: أحدهما لتلقى الطعام، والآخر لقذفه بعيدًا لأنهم ليسوا سوى ممر للطعام وأحواض لامتلاء الماء، فهم يقتصرون فى الشبه بأولئك الناس على الوجه والصوت، بينما هم فى كل الأشياء أسوأ من الحيوانات المفترسة).

وفى موضع آخر حول هذا الموضوع يكتب دافنشى بعد دعوة طعام فى الفاتيكان قائلاً: يحدثنا سينكا الفيلسوف الرومانى بصدق وهو يقول: (ينطوى فى دخيلة كل إنسان إله ووحش مرتبطان بسلسلة واحدة).

إن رسل أراد من كل هذا أن يخرج إنسانًا مهذبًا متحضرًا يسالم أخاه فى سبيل إنسانية عليا. إنسانًا يطفو فوق سطح حطام صغير تتقاذفه الأمواج من كل صوب، وتغمره الظلمات من كل جانب، ولا تكاد تنعكس فوقه إلا بعض أضواء خافتة تنبعث بين الحين والآخر من جانب إخوة له فى الإنسانية. والحق أنه لابد لكل فرد منا. فى وسط ذلك المحيط المظلم الذى تتقاذف أمواجه العاتية أمدًا قصيرًا من الزمن، أن يشق طريقه لنفسه وبنفسه، مصارعًا ومجاهدًا ضد تلك القوى العاتية الغاشمة التى تتهدده باستمرار. ومن هنا أنه لابد للنفس الفردية من أن تحشد كل طاقاتها الشخصية لمواجهة ذلك العالم الخارجى الذى لا يأبه. فى كثير أو قليل. بكل ما لديها من آمال أو مخاوف. وحين يتسنى للنفس الفردية أن تظفر بالنصر فى صراعها الدامى ضد قوى الظلم، فهناك يصبح فى وسعها أن تنعم بصحة الأبطال المجيدة، ويكون فى استطاعتها أن تتمتع بنشوة الوجود البشرى الذى لا يخلو من جمال.

ولا شك أن هذا التلاقى الرهيب الذى يتم بين النفس من جهة، والعالم الخارجى من جهة أخرى، إنما هو المصدر الذى تتولد منه فضائل كالحكمة، والمحبة، ونكران الذات، وبالتالى فإنه الأصل فى ظهور حياة إنسانية جديدة. وحين يتمكن الإنسان من استدراج تلك القوى الخارجية المعادية التى يبدو البشر مجرد ألاعيب فى يدها، إلى أعماق ذاته، أو حين ينجح فى تسليط أضواء الوعى عن الموت والتغير والماضى الذى لا سبيل إلى استرجاعه، والعجز البشرى، أمام قوى الطبيعة الغاشمة، فهناك، وهنالك فقط، يكون قد استطاع السيطرة على الكون اللاواعى، والتحكم فى القوى الخارجية الغلابة. وعلى ذلك ارتكزت فصول كتاب رسل الذى وضعته بين أيدى القارئ.

إن ترجمة عنوان الكتاب للغة العربية تحتمل مسميات عديدة، منها على سبيل المثال (مقالات لا تشوق)، ولكنى آثرت أن يكون العنوان (بحوث غير مألوفة) لأن موضوعات الكتاب هى فعلاً غير مألوفة وتشوق قراءتها.

سمير عبده

why your world is about to get a whole lot smaller
Oil and the end of Globalization
لماذا يتجه العالم نحو الانكماش، النفط ونهاية العولمة
Jeff Rubin
Random House
2009,304pp$17.16



الرهون العقارية، ولائم السلامون الأطلسي الفاخر، سيارات الدفع الرباعي رموز قد تعطي الانطباع بانعدام العلاقة بينها لكنها في واقع الأمر تشير إلى محتوى عميق فهي تشكل عناصر معادلة معقدة في الحل يحتل فيها النفط دورا بارزا. فالعناصر السابقة جميعها تعد إفرازات لعصر البترول الرخيص، هكذا يقول جيف روبن مؤلف كتاب «لماذا يتجه العالم نحو الانكماش، النفط ونهاية العولمة» وهو من أحدث الإصدارات الأمريكية لهذا العام وهو يتنبأ بانتهاء عصر العولمة مع انحسار البترول وشيوع الكساد والركود. يتوقع المؤلف حدوث العديد من التغيرات على مستوى العالم في ظل عصر تتضاءل فيه إمدادات النفط ويزداد الطلب عليه بشكل مطرد ويحذر أنه مهما تصاعدت حالة الكساد وتسببت في انخفاض الأسعار فإن البترول لن تسري عليه تلك القاعدة ولن يتحول إلى سلعة رخيصة ويرى جيف روبن أن نهاية حقبة البترول الرخيص تشكل الصدمة العظمى للاقتصاد العالمي. وفي معرض حديثه عن تلك الصدمة يقول جيف روبن عن حقول البترول التي أصابتها الشيخوخة والهرم في المملكة العربية السعودية، ورمال القطران الكندية، والمراكز التجارية في دبي، ومصانع السيارات التي أغلقت أبوابها في أمريكا الشمالية وأوروبا، والمنتجات الصينية المتراكمة على الرفوف في متاجر وول مارت، وانهيار بورصة وول ستريت العملاقة كل ما سبق هو حلقات في سلسلة ضخمة يحكم غلقها قفل واحد ضخم هو أسعار النفط. ويذكر المؤلف أن الحقائق الجديدة التي نتجت من عجز إمدادات البترول عن الوفاء بمستويات الطلب عليه أصبحت تحرك عناصر عديدة مثل أسعار ومعدلات الفوائد وتجارة الكربون والتضخم وأسواق المزارعين وظهرت في الأفق موجات من صفقات الإنقاذ جاءت في خضم هائل من الحوافز الاقتصادية التي اجتاحت العالم أجمع في محاولة لإنقاذ الموقف. وطبقا لرأي الاقتصادي المستقل جيف روبن فلن يكون هناك إنقاذ للطاقة هذه المرة فقد تعرض الاقتصاد الأمريكي لأزمات عديدة في النفط ولكن هذه المرة تغيرت قواعد اللعبة وهذا يعني أن المستقبل لن يكون امتدادا للماضي بالنسبة لنا كأجيال شيدت ثرواتها على حرق المزيد من النفط، فكل مظاهر هذه الثروة من سيارات ومنازل وشتى تفاصيل الحياة في هذا العالم الذي يستمد حياته من النفط قد نمت وكبرت في حقبة البترول الرخيص والآن وبعد نضوب النفط فلا مفر من انكماش العالم. وعن تنبؤات جيف حول النظام العالمي الجديد يقول أن نهاية أجل العولمة سوف تفرض واقعا يضم بعض الخاسرين وبعض الفائزين ولن تتعافى أبدا صناعة السيارات في ظل الكساد الناتج عن نقص النفط لكن شركات جديدة قد تفتح أبوابها لصناعات جديدة، سوف يتم تقليص المزيد من الوظائف ولن نرى النمو الاقتصادي بنفس المعدلات التي جلبتها العولمة وسوف تظهر بدائل منها إحياء وتنشيط الأسواق المحلية والأحياء والمدن. يؤكد جيف روبن إننا شئنا أم لم نشأ فسوف يتجه عالمنا إلى الانكماش. جيف روبن هو كبير الاقتصاديين في CIBC ما يقرب من عشرين عاما وهو من أوائل الاقتصاديين الذين برعوا في التنبؤ بأسعار النفط منذ عام ٢٠٠٠ ويقطن في تورنتو.

■

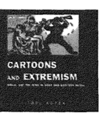
Latin American Jewish cultural production
الإنتاج الثقافي اليهودي في أمريكا اللاتينية
David William Foster
Vanderbilt University
Press,2009 , 320pp $34.95



إذا كان الإنتاج الثقافي والإعلامي بكافة أشكاله - الصحافة المطبوعة والإلكترونية والإذاعة والتليفزيون - يحظى بنصيب الأسد في عملية تشكيل الصور الذهنية لدى المتلقين وإذا كان هذا الإنتاج هو الآلة التي تصنع أو تسهم في صناعة الآراء والأفكار ووجهات النظر حول الموضوعات المختلفة فلابد أن يكون لنا وقفة مع هذا الكتاب «الإنتاج الثقافي اليهودي في أمريكا اللاتينية»، تعد أمريكا اللاتينية موطناً لما يقرب من نصف مليون يهودي يتألف معظمهم من اليهود الأشكيناز ويتركز غالبيتهم في الارجنتين كما تعد البرازيل والمكسيك من الأماكن التي تضم أكبر الجاليات اليهودية. ومن الملاحظ أن لليهود في أمريكا اللاتينية تواجدا مشهودا في الإنتاج الثقافي والفني وذلك فضلا عن دورهم الواضح في مجالات المال والأعمال والتجارة. وعلى غرار هوليوود نلاحظ أن صناعة السينما في الأرجنتين والمكسيك تعتمد بشكل مكثف على اليهود الذين يمولون عمليات الإنتاج، كما يلاحظ أن وسائل الإعلام الأخرى كالصحافة المطبوعة والإذاعة والتليفزيون تحتل اهتمامات اليهود منذ أمد بعيد وإذا أمعنا النظر في تلك الاهتمامات نجد أن الإنتاج الثقافي ليس هو المجال الوحيد الذي يرتبط بالتواجد اليهودي ولكن لليهود نشاطات أكاديمية وفكرية واضحة في الأرجنتين والبرازيل والمكسيك وتساهم سياسات التسجيل المنفتحة لهذه الدول في نمو هذه الأنشطة. المؤلف هو ديفيد ويليام فوستر أستاذ الإسبانية والعلوم الإنسانية والدراسات النسائية.

■

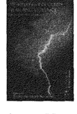
Cartoons and Extremism Israel and the Jews in Arab and Western Media
الرسوم والتطرف، إسرائيل واليهود في وسائل الإعلام العربية والغربية
Joel Kotek,Alan Dershowitz
Mitchell
Vallentine2008,201pp$23.85



تعد الرسوم من أكثر طرق التعبير شعبية وقدرة على توصيل الرسائل الإعلامية سواء كانت في شكل كاريكاتير أو رسوم متحركة، كانت هذه المعلومة هي الدافع وراء قيام جويل كوتيك بإصدار هذا الكتاب المكون من خمسة فصول ويحتوي مضمونا أساسيا مؤداه هو الرسوم التي تبثها وسائل الإعلام العربية والمسلمة والتي لاتعادي السامية والصهيونية فقط بل أيضا اليهود كشعب. يحتوي الكتاب على ما يزيد على ٤٠٠ من هذه الرسوم التي قام المؤلف بتجميعها لتخدم فكرته، وكان ما أثار حماس المؤلف لصياغة هذه الفكرة في كتاب هو ما حدث في مؤتمر ديربان (١) لمكافحة العنصرية والذي عقد في سبتمبر ٢٠٠١ وكان يستهدف إدانة العنصرية وشجبها بكافة صورها، قام البعض بمحاولة لفت أنظار الحضور إلى فكرة مؤداها أن وسائل الإعلام العربية والمسلمة تميل إلى نشر وبث الرسوم المعادية للسامية وأن هذه المواد تمولها المنظمات العربية ولكن لم تقابل هذه المحاولة بأي رد فعل من جانب الوفود الغربية الحاضرة للمؤتمر. دفع هذا التجاهل جويل كوتاك إلى القول بأن هذه الرسوم المعادية للصهيونية واليهود تقدمهم دائما بمظهر سادي كأنهم مخلوقات بشعة متعطشة للدماء وشغوفون بالمال والسلطة وهذا يعد نذيرا بعودة النظرة الكارهة لليهود والتي يبدو أن كلا من العرب المسلمين والغرب المسيحي يتفقون عليها، د.جويل هو أستاذ التاريخ في جامعة بروكسل الحرة وحاصل على الدكتوراة في العلوم السياسية ومتخصص في موضوع التكامل الأوروبي ومدير مركز التدريب في مركز التوثيق اليهودي المعاصر في باريس قدم للكتاب موشي كانتور.

■

Rethinking Insecurity and Violence: Beyond Savage Globalization
ما وراء العولمة الضارية: إعادة النظر في العنف واختلال الأمن
Damian Grenfell,Paul James
Routledge,2008,244 pp$ 42.50



إذا كان مفهوم العولمة قد ارتبط بوصف العمليات التي تكتسب بها العلاقات الاجتماعية نوعا من عدم

الفصل وسقوط الحدود وتلاشى المسافات حيث تمارس الحياة فى العالم كمكان واحد «القرية الصغيرة» فإن ذلك ارتبط أيضا بزيادة تفاعل البشر وتأثرهم ببعضهم البعض على مستوى العالم وعبرت العولمة عن تطورين هامين هما التحديث Modernity والاعتماد المتبادل Inter dependence وارتكز مفهوم العولمة على التقدم الهائل فى التكنولوجيا والمعلوماتية بالإضافة إلى الروابط المتزايدة على كافة الأصعدة على الساحة الدولية. توافقا مع الطبيعة الكونية التى تؤكد عدم توافر صفات الكمال فى شىء حيث اختص الله نفسه بهذه الصفات فإن للعولمة سلبيات وإيجابيات ولها مؤيدون ومعارضون. المؤلف داميان جرينفيلد وهو أستاذ بمعهد ملبورن الملكى بجامعة ملبورن فى استراليا قدم هذا الكتاب الذى سلط من خلاله الضوء على بعض الآثار الجانبية الضارة للعولمة والمتمثلة فى استشراء حالة من العنف والخلل الأمنى على مستوى العالم. الكتاب يعد تجميعا لمجموعة من المقالات التى تمت صياغتها فى سياق حرب على العنف والإرهاب وقد طرح محررو هذه المقالات تحليلا منهجيا واسع النطاق وطويل المدى ومستمد من حالة انعدام الأمن السياسى والعسكرى والثقافى وذلك على المستويين المحلى والعالمى. يقدم المؤلفون تحليلا أساسيا لفهم أسباب الصراع والعنف فى العالم اليوم وذلك يضيف بعدا جديدا ومختلفا يتجاوز مجرد تحديد هذه التهديدات إلى محاولة تقديم الحلول لإعادة الاتساق إلى الوضع الأمنى. فى هذا الكتاب قام المؤلفون باستكشاف الروابط بين العولمة ومختلف الصراعات والتهديدات التى تحيق بأمن البشر بما فى ذلك التهديدات البيئية والتهديدات المرتبطة بانعدام حالة الأمن والسلام بين الأجناس والأعراق المختلفة وقاموا بدراسة عميقة لمسببات ومصادر هذه التهديدات بهدف وضع أسس للحد من العنف وكافة أشكال الخلل الأمنى فى عالم اليوم، وذلك يتيح توجيه وصناعة القرارات السياسية التى تساهم فى استتباب الأمن على المستوى المحلى والإقليمى والعالمى. قسم المؤلف كتابه إلى أربعة أجزاء رئيسية هى ١- إعادة صياغة مفاهيم الخلل الأمنى ٢- الأمن والعولمة ٣-العلاقة بين المحلى والعالمى ٤- مرحلة ما بعد انتهاء الصراع وأشكال المصالحة وانعاش العلاقات. تستهدف فصول الكتاب مواجهة وتحدى كل مفاهيم انعدام وخلل الأمن التى تسود فى الخطاب التقليدى للحروب والصراعات وإعادة صياغة مجموعة من الافتراضات التى تعكس تحولات واضحة فى منهجية المناقشات الدائرة حول انعدام أو خلل الأمن. يشكل كتاب «ما وراء العولمة الضارية ، إعادة النظر فى العنف واختلال الأمن» مرجعا هاما للطلاب والدارسين فى مجال العلاقات الدولية والدراسات الأمنية ودراسات الأجناس ودراسات العولمة.

■

The Ancient Egyptian Family : Kinship and social Structure ,African Studies

الأسرة المصرية القديمة: صلات القرابة والبناء الاجتماعى. دراسات أفريقية

By Troy Allen

Routledge,2008,114pp $95.00



الحضارة المصرية كان لها تأثير فى تاريخ البشر وهناك أسس اجتماعية وثقافية ذات جذور واضحة فى نمو الحضارة المصرية وكذلك هناك العديد من القيم الحضارية التى ورثت من المصريين القدماء ومن أهمها الوضع الاجتماعى للمرأة فى حياة المصريين القدماء نستطيع أن نستنتج من المصادر التاريخية المتاحة أن المرأة المصرية فى العصر القديم كان لها وضع أفضل من مثيلتها فى اليونان القديمة أو روما كما أن روابط القرابة التى تمسك زمام الأسرة المصرية منذ القدم والتى بالتالى تؤثر على البناء المجتمعى المصرى كانت ظاهرة لافتة لنظر مؤلفة هذا الكتاب د. تروى ألين وغيرها من علماء المصريات الذين وضعوا استفهاما رئيسيا وحاولوا الوصول لإجابته وهوما تأثير نظام القرابة سواء من ناحية الأب أو الأم على بناء المجتمع المصرى القديم الكبيروالذى يتكون من مجموعة من الأسر الصغيرة وهل صلات الرحم القريبة لها تأثير فى الحياة الاجتماعية. قدمت د.ألين إجابة لهذا الاستفهام وذلك برصد تفاصيل وعناصر المجتمع المصرى القديم وترى المؤلفة أن صلات القرابة لها تأثير قوى على الأسرة المصرية التى هى اللبنة الأولى لبناء المجتمع وهذا يوفر لنا مفتاحا لفهم الوضعية العالية للمرأة فى الأسرة المصرية القديمة حيث توفرت لها القدرة على الوصول للسلطة ودراسة الطب والتمتع بالحريات الأساسية التى لم تتمتع بها المرأة فى الحضارة الغربية حتى القرن العشرين وتساوت المرأة فى مصر القديمة مع الرجال وتقلدت الأمور السياسية والحكم والأمثلة على ذلك هى الملكة حتشبسوت ونفرتيتى وكليوباترا. الكتاب يتكون من ستة فصول تناولت فيها المؤلفة المؤسسة المصرية، السياق التاريخى، الأسرة المصرية القديمة فى المجتمع، وصف علاقات القرابة المصرية القديمة وأخيرا مصر وغيرها من الثقافات الأفريقية.

■

Winning Turkey ; How America,Europe and Turkey can Rvive and Fading partnership

تركيا الفائزة: كيف يمكن إحياء ودعم الشراكة بين أمريكا وأوروبا وتركيا

By Philip Gordon,Omer Taspinar

Brookings Institution Press

2008,115pp,$12.89



تركيا من وجهة النظر الغربية والأمريكية على وجه الخصوص هى النموذج الإسلامى المعتدل، ولها ميزات أخرى منها عضويتها فى حلف الأطلسى وكونها حليفا قديما للولايات المتحدة الأمريكية. هذه هى بعض الأسباب التى وضعتها ضمن مجموعة دول إسلامية منحتها إدارة أوباما أولوية فى علاقاتها بالعالم الإسلامى. أكد أوباما أهمية دور تركيا كجسر يربط بين العالم الإسلامى والغرب وكان ذلك عند حضوره الاجتماع الثانى لتحالف الحضارات» والذى عقد فى اسطنبول فى الشهور القلائل الأولى لتوليه حكم الولايات المتحدة. تؤكد تركيا تواجدها الأساسى ودورها فى محاولات إيجاد الحلول للنزاعات التى تشتعل فى المنطقة العربية كالصراع العربى الإسرائيلى ويرى بعض القادة فى العالم أنها قد تكون بوابة الحوار بين الغرب والعالم الإسلامى. تميز تركيا طبيعة جغرافية خاصة فهى تعتبر مفترق طرق أو نقطة التقاء بين الشرق والغرب وهى نقطة تلاقى أوربا بآسيا وفيها يلتقى الإسلام بالمسيحية. وقد ظلت تركيا لوقت طويل حليفا مقربا وهاما لأمريكا ولكن تلاقى سلسلة من العوامل السياسية والإستراتيجية فى عهد الإدارة الأمريكية السابقة كان يشكل خطرا على العلاقة التركية الأمريكية وكذلك التوجهات القديمة لتركيا نحو الديمقراطية الغربية. فيليب جوردون وعمر تاسبينار اثنان من كبار المحللين قدما شرحا لهذا الوضع المثير للقلق وكذلك قدما خطة لتحسينه يرى المؤلفان أن المخاطر واضحة فتركيا هى الدولة الديمقراطية الأكثر تقدما فى العالم الإسلامى، تشترك فى الحدود مع عدد من النقاط الساخنة فى العالم مثل إيران والعراق والقوقاز. كما تتجه تركيا ذات التوجهات الغربية إلى عضوية الاتحاد الأوروبى ويساهم احتلالها للممر بين الاسواق الغربية وبحر قزوين فى تنامى سوق الصادرات وتمثل أيضا مصدرا جيدا للعمالة كما أن لها تأثيرا إيجابيا فى منطقة الشرق الأوسط وهى حليف جيد فى إطار الحرب على الإرهاب. ويذكر المؤلفان أنه مما أضفى على الصورة نوعا من القتامة تصاعد المعاداة للولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة السابقة وتقلص الآمال فى الانضمام للاتحاد الأوروبى والتوترات بين المدنيين والعسكريين والتهديدات الإرهابية التى تزعزع النظام السياسى التركى المضطرب فى أساسه. يقدم « تركيا الفائزة» خطة لتخفيف حدة التوتر فى تلك البقعة الحرجة من العالم. فضلا عن تقديمه اقتراح «الصفقة الكبرى» بين تركيا والأكراد ويدعو لمزيد من الدعم لليبرالية والديموقراطية وتجديد الالتزام من كلا الجانبين الأوروبى والتركى فى عضوية الاتحاد الأوروبى والتسوية التاريخية مع أرمينيا والمزيد من التفاعل الإيجابى بين الغرب و الأتراك القبارصة. فيليب جوردون هو زميل بارز فى معهد بروكنجز والمدير السابق للشئون الأوروبية فى مجلس الأمن القومى ومن مؤلفاته : الفوز فى الحرب الحقة/ الطريق إلى الأمن لأمريكا والعالم/ الحلفاء فى الحرب: أمريكا، أوروبا، والأزمة فى العراق وهو أستاذ دراسات الأمن القومى فى كلية الحرب الوطنية.

■

القاموس التاريخى للكنيسة القبطية

جودت جبرا

القاهرة: الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٨، ٣٣٢ صفحة



وفقا للتاريخ فإن القديس مارك أدخل المسيحية إلى مصر فى القرن الميلادى الأول وبذلك تم وضع الأساس للكنيسة القبطية الأرثوذكسية. اليوم يشكل الأقباط اكبر مجتمع مسيحى فى الشرق الأوسط يمثلون تقريبا عشر سكان مصر والكثير من مئات الآلاف منهم يعيشون فى أمريكا الشمالية واستراليا. هذا عمل مرجعى جديد وشامل قام به باحث قبطى رائد ويقوم فيه بوصف تفاصيل تاريخ واحدة من أقدم الكنائس المسيحية عبرالزمن. فيقدر عمرها بأكثر من ١٩ قرنا وقد أنتجت آلاف النصوص والدراسات اللاهوتية والدراسات التى تتعلق بالإنجيل. المقالة الافتتاحية والتعريف بالكتاب وأكثر من ٤٠٠ فصل فى القاموس تشكل مدخلا لشخصيات ومنظمات وأبنية مهمة، ولاهوت وممارسات الكنيسة، آدابها وطقوسها الدينية، وأديرتها وكنائسها وتوضح تاريخ هذه المؤسسة الساحرة وتاريخ تابعيها.

جودت جابرا هو مؤلف ومحرر العديد من الكتب عن المسيحية المصرية من بينهم «كنوز الفن القبطى- مطبوعات الجامعة الأمريكية ٢٠٠٦». ويعد حاليا أستاذا زائرا للدراسات القبطية بجامعة كليرمونت جراديوات بكاليفورنيا. (CGU)

■

الاقتصاد السياسى المصرى- علاقات القوة فى التنمية

نادية رمسيس فرج

القاهرة: الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٩، ١٩٨ صفحة.



هذا تقييم جديد لتأثير علاقات القوة على التنمية الاقتصادية. تتعامل هذه الدراسة الجديدة مع اكتشاف التحولات السياسية والاقتصادية العظيمة فى تاريخ مصر الحديث منذ تعيين محمد على واليا على مصر فى عام ١٨٠٥ إلى عهد الرئيس مبارك، مع تركيز خاص على الفترة فيما بين ١٩٩٠ و٢٠٠٥ والشاهدة على الأداء الدقيق لسياسات التعديل البنيوى وتسريع الخصخصة والتحرر الاقتصادى ونشوء جماعة المحافظين الجدد خلال حكم الحزب الوطنى الديمقراطى وتعزيز المصالح التجارية وتقديم بيان عنها للحكومة والبرلمان. وتؤكد المؤلفة أن عملية التجديد فى مصر خلال القرنين الماضيين تحددت بعلاقات وارتباطات القوة ولذلك هى تحقق بعمق فى تأثيرها على تنمية الاستراتيجيات والتحرر السياسى وعلى تسييس الإسلام كايديولوجية مهيمنة تبنتها الدولة منذ بداية السبعينيات وعلى العلاقات بين الجنسين فى التنمية.

نادية رمسيس فرج هى أستاذة الاقتصاد السياسى فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة. تخرجت فى جامعة القاهرة، أكملت دراستها فى جامعة دووك فى شمال كارولينا وجامعة مارى لاند بولاية مارى لاند وعملت كاستشارى دولى فى مجالات نوع الجنس والتنمية والسكان والصحة الإنجابية.

■

نقرات الظباء

ميرال الطحاوى

القاهرة: الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٩، ٩٧ صفحة



إنها قصيرة ولكنها رواية مصنوعة بحرفية ومهارة عالية تحكى قصة مهرة تلك الفتاة سليلة القبائل البدوية التى استقرت فى دلتا النيل بشمال مصر فى القرن التاسع عشر. الماضى يختلط بالحاضر بينما تمتزج الأسطورة والفلكلور بالواقع فى حين أن مهرة تحاول اكتشاف الحقيقة حول أمها عن طريق الصور الفوتوغرافية التى تزين حوائط منزل جديها والأوراق الأخرى المخبأة فى الدولايب والأدراج. حكاية مهرة عن اكتشاف الذات تقف ضد تضاؤل الفرص أمام أهلها من البدو الذين يجاهدون ليحافظوا على هويتهم وثقافتهم بين المجتمع المصرى الكبير الذى ينتهك حرمتهم. بإرادة عنيدة لا تستسلم بالرغم من حسها الداخلى بالقدر المشئوم تتحرك مهرة بقوة لتكتشف الحقيقة المرة عن حياة أمها المؤثرة.

وصفت الواشنطن بوست ميرال الطحاوى بأنها «أول روائية مصرية تكشف النقاب عن حياة البدو المصريين فيما وراء الآراء الشائعة وتوضح أزمات نساء البدو وكفاحهن ليصبحن حرات». هى مؤلفة الخباء «مطبوعات الجامعة الأمريكية ٢٠٠٠» والباذنجانة الزرقاء «مطبوعات الجامعة الأمريكية ٢٠٠٢». قام المترجم انتونى كالدربانك بترجمة العديد من الروايات العربية الحديثة كان آخرها «فخاخ الرائحة» للروائى السعودى يوسف المحيميد «الجامعة الأمريكية ٢٠٠٧».

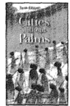
■

مدن بدون نخل

طارق الطيب

ترجمة كريم جايمس بالمر زيد

القاهرة: الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٩، ٩٠ صفحة



فى محاولة يائسة لإنقاذ أمه وأخته من المجاعة والمرض يغادر الشاب الصغير قريته البدائية فى السودان بمفرده ساعيا إلى العمل فى المدينة. هذه هى بداية رحلة حمزة الطويلة. الجوع والفقر المدقع يقودانه بعيدا عن وطنه. فى البداية من السودان إلى مصر حيث قلة فرص العمل تجبره على الانضمام إلى جماعة من مهربى البضائع وأخيرا إلى أوروبا: ايطاليا وفرنسا وهولندا حيث لاقى بشكل مباشر قسوة عالم العمال المهاجرين ومرارة واقع العيش كمهاجر غير شرعى. يقدم طارق الطيب فى روايته الأولى تصوير جامدا عن الفقر فى كل من العالم المتقدم والنامى. مع أسلوب بسيط بالرغم من أناقته. مدن بدون نخل تحكى عن حياة إنسان فاجعة يتخللها بعض اللحظات من المرح الحقيقى. قال عنها الشاعر والمترجم الإنجليزى جايمس كيركب فى جريدة بنيبال «بمجرد البدء فى قراءتها يصبح من الصعب تركها. مثيرة ومبتكرة. إنها تماما أدب رفيع يقدم لأول مرة».

ولد طارق الطيب فى القاهرة عام ١٩٥٩ من أبوين سودانيين يعيش فى النمسا منذ عام ١٩٨٤ حيث يعمل أستاذا فى مركز الإدارة العالى بجامعة العلوم التطبيقية فى كرمس. وهو مؤلف لروايتين كما انه يكتب القصة القصيرة والشعر. أما المترجم كريم جايمس بالمر زيد فقد نشر العديد من ترجمات الشعر العربى فى صحف متنوعة.

■

القنفذ

زكريا تامر

ترجمة براين او رورك ودينيس جونسون دايفس

القاهرة: الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٩، ١٦٨ صفحة



«ذهبت أمى لزيارة جارتنا أم بهاء ولكنها رفضت أن تصطحبنى معها ذريعة أن السيدات تزور السيدات والرجال يزورون الرجال لذلك تركتنى بمفردى مع وعدها إنها لن تتأخر أكثر من دقائق قليلة. أخبرت قطتى إنى سأقوم بخنقها ولكنها لم تلتفت لى واستمرت فى لعق شعرها بلسانها».

هكذا نتعرف على الراوى ذى الخمسة أعوام لرواية القنفذ الذى يقدمنا لعالمه: بيته (مع الفتاة الجنية التى تسكن سريره)، حديقته (حيث يتمنى أن يصبح شجرة)، وصديقه المفضل الحائط الصخرى الأسود. هذه الحكاية القصيرة المحكية بدقة تؤكد أن زكريا تامر مازال فى أوج قوته. القصص القصيرة التالية نشرت لأول مرة فى المجموعة القصصية «النمور فى اليوم العاشر». وهم مقتصدون ومحكمون يتعاملون مع وحشية الرجل مع الرجل ومع المرأة أيضا ويوضحون أسلوب الكاتب النموذجى الهجائى الواضح. ولد زكريا تامر فى دمشق عام ١٩٣١ ونشر أول قصصه عام ١٩٥٧ وعرف لفترة طويلة على أنه واحد من أبرز كتاب القصة القصيرة فى العالم العربى. بجانب كتابته لقصص الأطفال فى المقام الأول. يعيش حاليا فى لندن وقد حصل على جائزة بلو ميتروبوليس الماجدى بن ظاهر للأدب العربى ٢٠٠٩. أما المترجم براين أو رورك ويمتهن المحاماة والخدمات الدبلوماسية ويعيش فى اسطنبول. ودينيس جونسون دافيس ترجم أكثر من ٣٠ مجلدا من الأدب العربى الحديث.

■

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 126 - july 2009

مجلة شهرية. العدد المائة وستة وعشرون - السنة الحادية عشرة - يوليو ٢٠٠٩. الثمن عشرة جنيهات

جون سبوزيتو - داليا مجاهد

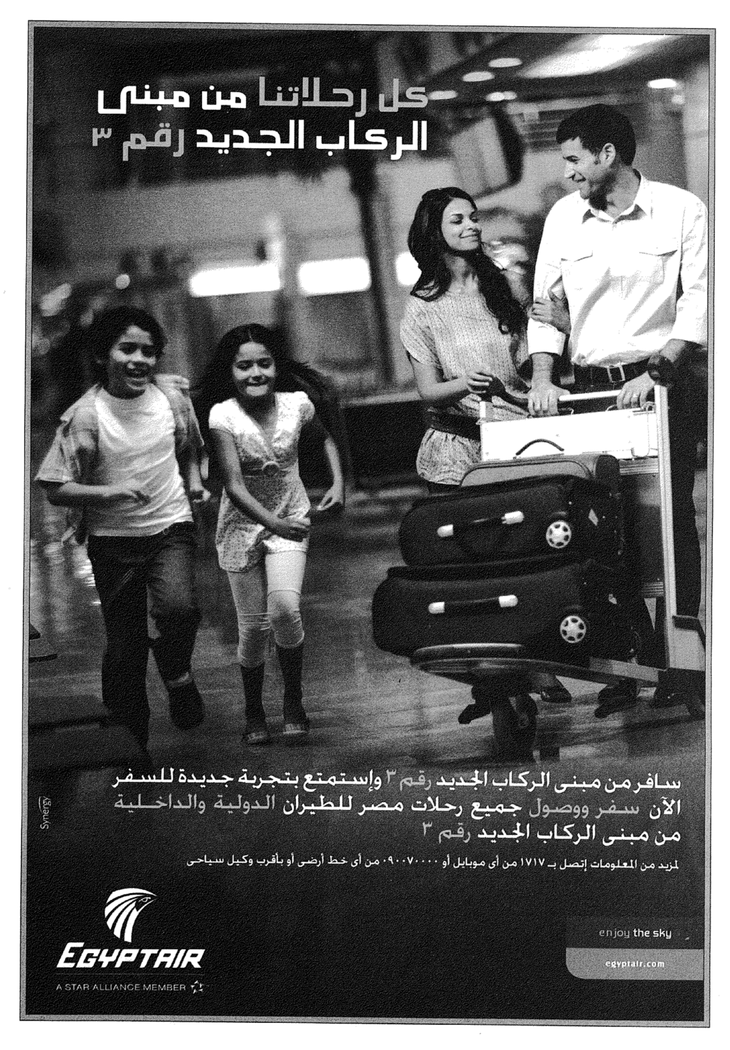
لماذا تغيب الديمقراطية فى البلدان الإسلامية

عبد الرشيد صادق المحمودى - ماهر شفيق فريد - محمد المهدى

دراما العشق والانتحار.. حياة الأدباء السرية

أيمن الصياد - أمة العليم السوسوة

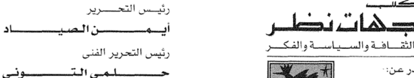
«حَكَمْتَ.. فَعَدَلْتَ.... فَأَمِنْتَ»



كل رحلاتنا من مبنى
الركاب الجديد رقم ٣
سافر من مبنى الركاب الجديد رقم ٣ وإستمتع بتجربة جديدة للسفر
الآن سفر ووصول جميع رحلات مصر للطيران الدولية والداخلية
من مبنى الركاب الجديد رقم ٣
لمزيد من المعلومات إتصل بـ ١٧١٧ من أى موبايل أو ٠٩٠٠٧٠٠٠٠ من أى خط أرضى أو بأقرب وكيل سياحى
Synergy
EGYPTAIR
A STAR ALLIANCE MEMBER
enjoy the sky
egyptair.com

السنة الحادية عشرة
العدد ١٢٦
يوليه ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى



الكتب وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- أحمد محمد أبوزيد.. باحث فى العلاقات الدولية - الشارقة.
- أمة العليم السوسوة.. الأمين العام المساعد للأمم المتحدة والمدير الإقليمى للدول العربية ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائى.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- باربارا جولد سميث.. كاتبة ومؤرخة أمريكية.
- جوزيف مسعد.. أستاذ السياسة والفكر العربى الحديث بجامعة كولومبيا.
- جون سبوزيتو.. أستاذ الأديان والعلاقات الدولية بجامعة جون تاون.
- حسين أغا.. كبير المشاركين بكلية سانت أنطونى بجامعة أوكسفرد.
- داليا مجاهد.. المديرة التنفيذية لمركز جالوب للدراسات الإسلامية.
- روبرت مالى .. مدير برنامج الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فى المجموعة الدولية للأزمات.
- عبدالرشيد الصادق محمودى.. أستاذ الأدب العربى فى جامعات فرنسا.
- ليلى أبوالمجد.. أستاذ الدراسات العبرية بكلية الآداب جامعة عين شمس.
- ماهر شفيق فريد.. أستاذ الأدب بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة.
- محمد المهدى.. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- هاريس كولنجوود.. صحفى أمريكى متخصص فى الاقتصاد.
- هندريك هيرتزبيرج.. صحفى أمريكى.
- وليم ماكنيل.. أستاذ التاريخ بجامعة شيكاغو.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى - سعد الدين شحاته
على الغلاف لوحة الفنان حلمى التونى
«الليل والنهار» تفصيل - زيت على قماش ٢٠٠٨





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

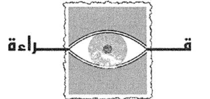
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٢ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



«حَكَمْتَ.. فَعَدَلْتَ..

■ في ظهيرة اليوم السابع من شهر ديسمبر عام ٢٠٠٥ كان «عمرو نبيل» مصور وكالة أسوشيتدبرس AP يؤدي مهمته - لا في ميدان قتال كما فعل مرارا وإنما في تغطية الانتخابات البرلمانية المصرية. التي اعتقد المتفائلون يومها أنها ستصبح نموذجا للديموقراطية «يحتذى في منطقتنا العربية كلها». وكانت تلك العبارة - لو تذكرون - في صلب التصريح الرسمي الذي أعلن عن إطلاق العملية الانتخابية «وفق قانون جديد يوفر فرصة غير مسبوقة للممارسة الديموقراطية..» يومها فقد «المصور» عينه - أو كاد - بعد أن اعتدى عليه من أراد منعه من تصوير تجاوزات أمنية فاقت يومها كل حد. وكانت تهدف - ببساطة - إلى منع الناخبين من الوصول إلى صناديق الاقتراع. لضمان أن يظل «للدولة» أو بالأحرى لجماعتها الحاكمة الأغلبية المطلقة.

يومها أيضا دفع أصحاب القرار بالبلطجية ذاتهم ليقتحموا جامعة عين شمس بالهراوات والسيوف والجنازير لتأديب طلبة جامعيين فكروا في ممارسة حق ديمقراطي حجبته عنهم قوة السلطة.

يومها، ولحسابات انتخابية ضيقة لم يدرك أصحابُ القرار/ السلطة خطورة اللجوء إلى «الهراوة والسكين» لضمان الأغلبية، والذي كان من شأنه أن يشيع في المجتمع مفهوم: أن القوة/ العنف هي السبيل «الوحيد» لكي تصل إلى هدفك؛ حقًا كان أو باطلاً (وقد كان). يومها أيضا أُهدرت أحكام القضاء، وأُهدرت، في غير موضع «كرامة القضاة». وأيضا لم يدرك صاحب القرار/السلطة خطورة أن يتعمق لدى المواطن العادي شعورٌ باليأس من اللجوء إلى التقاضي «سبيلاً سلميًا لحل المنازعات». كما أنه لم يكترث - ربما - بحقيقة أنه عندما تُغل يد القضاء في رد المظالم لأصحابها يصبحُ الأمنُ الاجتماعي مهددًا. كما يصبح «مفهوم الدولة» ذاته في خطر.

المشهد.. وإن اختلفت التواريخ والتفاصيل والألوان، تكرر في غير قطر عربي. وأصبحت العبارة صحيحة من جهة أن ماجرى كان على الدوام «نموذجا يحتذى».

فقد سمير قصير حياته، وفقد آخرون حريتهم.. وسقط «الميكروفون» من يد «أطوار بهجت» مراسلة «العربية» في العراق، ضحية للتعصب والطائفية. وراح طارق أيوب مراسل «الجزيرة» في بغداد شهيدا بصاروخ أمريكي زعموا أنه ضل الطريق. قائمة الضحايا، كما تعلمون طويلة، وإن لم تكن بطولها قائمة المتهمين: الاحتلال، والإرهاب، والتعصب، والطائفية، ومن بعد كل ذلك. أو ربما قبله - «الدولة» حين تقصر في واجباتها أو تمعن في طغيانها، فتصبح الأكثر تهديدا لأمن المواطن.



تذكرت كل ذلك، حينما اقتربت من المناقشات المتعلقة بتقرير التنمية الإنسانية العربي الجديد ٢٠٠٩، والمقرر أن يصدر بعد أيام، والذي يبحث في قضايا «أمن الإنسان في البلدان العربية».

وهذا التقرير هو المجلد الخامس من سلسلة التقارير التي يرعاها برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. وهو كما التقارير التي سبقته، ليس تقريرا تقليديا - كما توضح مقدمته - يجرى إصداره والمصادقة عليه عبر المسالك البيروقراطية المعهودة في الأمم المتحدة، وإنما هو دراسة بحثية يضعها من وجهة نظر مستقلة، عدد من المفكرين والباحثين وراسمي السياسات في البلاد العربية. يطرحون من خلاله تحليلا شاملا لبيئاتهم المعاصرة.

يدعو التقرير إلى مناقشة عدد من القضايا التي تمس أمن الإنسان في عالمنا العربي، مثل المخاطر الاقتصادية والفقر والبطالة. والضغوط على الموارد الديموجرافية والبيئية، ومشكلات الأمن الغذائي، والتعصب الاثني والطائفي. وربما قبل كل ذلك وفي صدارته «الاحتلال والتدخل العسكري الأجنبيان». ولكنه - وذلك مما يحسب قطعا لكاتبي التقرير - لا يغفل عن حقيقة أن «فقدان أمن الإنسان لا تخلو منه حتى البلدان التي تتمتع باستقرار نسبي، حيث تقوم الدولة المتسلطة، مستندة إلى الدساتير المنقوصة والقوانين المجحفة، بحرمان المواطنين حقوقهم في أغلب الأحيان». فيطرح السؤال - الذي أراه الأهم. حول «أداء الدولة في ضمان أمن الإنسان أو تقويضه».

يُذكرنا كاتبو التقرير بذلك التقرير الأول الذي صدر عام ١٩٩٤. مشيرين إلى أن جوانب القصور التي حدد معالمها التقرير الأول، ربما تكون بعد مرور سبع سنوات، قد ازدادت عمقا. الأمر الذي يدفع بالسؤال المحرج لأن يطرق أبوابنا بقوة: لماذا كانت العقبات التي تعترض سبيل التنمية في المنطقة عصيةً على الحل إلى هذه الدرجة؟

ربما لا يقول التقرير بوضوح إن «الإنسان الحر في مجتمع عادل هو شرط أصيل للتنمية» وإن كنت لا أراه يبتعد عن ذلك المعنى كثيرا عندما يشير إلى أن جواب السؤال يكمن في هشاشة البنى السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والبيئية في المنطقة، وفي افتقارها إلى سياسات تنموية تتمحور حول الناس، وفي ضعفها حيالَ التدخل الخارجي، ثم في تضافر هذه العناصر لتقويض أمن الإنسان، ولأن إحساس الإنسان بأمنه هو من مستلزمات التنمية الإنسانية، فقد كان أن أدى غياب أمن الإنسان على نطاق واسع في البلدان العربية إلى إعاقة مسيرة التقدم فيها.



وبعد أن يحاول التقرير أن يضع مفهوما نظريا «متكاملا» للمقصود بأمن الإنسان، ينتقل في فصوله السبعة لمناقشة أبعاد المخاطر المختلفة التي رأى كاتبوه أنها تهدد ذلك الأمن في منطقتنا. فحين يتحدث عن الضغوط الديموجرافية مثلا، يذكرنا بما يغيب عن معظم سجالاتنا ونقاشاتنا التي تنحصر عادة فيما هو سياسي - بالمعنى الضيق لمفهوم السياسة - والتي تستدرج عادة إلى معارك رخيصة، تحكمها في الأغلب مواقف مسبقة، ومصالح ضيقة، وعصبية قبلية جاهلية، فننسى مثلا مايذكرنا به التقرير من تقديرات تشير إلى أن الدول العربية ستضم نحو ٣٩٥ مليون نسمة بحلول العام ٢٠١٥ (مقارنة بـ ٣١٧ مليوناً في العام ٢٠٠٧، و١٥٠ مليوناً في العام ١٩٨٠). وفي منطقة تعاني نقصاً متزايداً في المياه والأراضي الصالحة للزراعة، فإن معدلات النمو السكاني، على الرغم من تناقصها، تظل لها أهميتها.

كما تشير التقديرات أيضا إلى مايمكن أن تمثله ندرة المياه إذ يقدر الحجم الإجمالي السنوي لموارد المياه السطحية المتوافرة في البلدان العربية بنحو ٢٧٧ بليون متر مكعب سنوياً، لا ينبع منها في العالم العربي سوى ٤٣ في المائة فضلا عن أن مخزون مكامن المياه الجوفية المتجددة والذي يمثل في أغلب الأحيان السبيل الوحيد للحصول على المياه العذبة يُستهلك بأسرع مما تستعيد مخزونها.

وبعد أن ينبه التقرير إلى ماتواجهه المنطقة من تحديات متعاظمة تهدد أمن السكان نتيجة للضغوط الديموجرافية والبيئية. يخلص إلى أن الصراعات المترتبة على المنافسة على الموارد الطبيعية المتناقصة قد تفضي إلى رفع نسبة التوتر في العلاقات بين الجماعات والسكان والدول، العربية وغير العربية. وستنجم هذه التحديات عن الضغوط السكانية والديمغرافية، والإفراط في استغلال الأرض، ونقص المياه والتصحر والتلوث والتغيرات المناخية.

من ناحية أخرى، يتوقف كاتبو التقرير عند مايبدو من ثراء لدى الدول النفطية. ويخشون أن تعطي الثروة النفطية الخيالية لدى البلدان العربية صورة مضلِّلة عن الأوضاع الاقتصادية لهذه البلدان، لأنها قد تخفي مواطن الضعف البنيوي في العديد من الاقتصادات العربية وما ينجم عنها من زعزعة في الأمن الاقتصادي للدول والمواطنين على حد سواء.



قد لا يتسع المجال هنا، بحكم المساحة. وبحكم التخصص - لمناقشة مختلف القضايا التي يعالجها التقرير: مثل البطالة، والعنف ضد النساء، والأشكال الحديثة للاتجار بالبشر، ومحنة اللاجئين والمهجرين، فضلا عن الضغوط الديموجرافية، وأوضاع الخدمات الصحية، وحروب المياه التي باتت على الأبواب، وغير ذلك من مسائل أظنها تحتاج إلى مناقشات موسعة من الخبراء والمتخصصين، ولكنني سأتوقف عند الصفحات التي أفردها كاتبو التقرير لمناقشة علاقة «الدولة .. والهوية .. والتنوع .. والمواطنة» بأمن الإنسان.

تتمحور العلاقة الملتبسة تلك في السؤال الابتدائي الذي يطرحه التقرير: «هل الدولة العربية جزء من الحل، أم جزء من المشكلة؟».

وللإجابة عن هذا السؤال، يناقش التقرير أداء البلدان العربية وفقاً لمقاييس ملازمة للدول التي تمتلك مقومات الشرعية. ويحلل ما إذا كانت تلك الدول تحوز القبول من جانب مواطنيها، وتساند حقهم في الحياة والحرية وتضمن لهم هذا الحق، وتحميهم من العدوان. أم لا؟ ويعتمد التحليل على أربعة معايير:

١. مدى قبول المواطنين لدولتهم.
٢. التزام الدولة بالاتفاقيات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان.
٣- كيفية إدارة الدولة حقها

تقرير التنمية الإنسانية العربي ٢٠٠٩
«تحديات أمن الإنسان في البلدان العربية»
برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ٢٠٠٩

..... فَأمِنْتَ»

أيمن الصياد

© Reuters

الحصرىَ فى استخدام القوة والإكراه.

٤ـ مدى قدرة الضوابط والموازين المؤسسية على الحيلولة دون إساءة استخدام القوة.

ويخلص التقرير (إلى مانعرفه جميعا دون أن نعترف به ربما) من أن حالاتٍ من التقصير فى تطبيق هذه المعايير كثيرا ما تجتمع لتجعل الدولة خطراً يهدد أمن الإنسان، بدلا من أن تكون سندا له.

أكثر مااستوقفنى حين تسنى لى الاطلاع على أوراق من التقرير، هو إدراك كاتبيه لحقيقة أننا مازلنا بعد أكثر من نصف قرن من الزمان ندفع ثمن الإرث الاستعمارى القديم، فدولنا «كيانات مصطنعة» هكذا يقول التقرير بوضوح. إذ إنها غالباً ما تضم خليطاً من الجماعات الإثنية والدينية واللغوية التى دُمجت، كأقليات، فى مرحلة ما بعد الاستعمار. وفى حين استطاعت قلةٌ من البلدان العربية أن تحقق انتقالا سهلا وسليماً نحو الاندماج، فإن تياراً قوياً تنامى فى دول أخرى بهدف حجب التنوع فى أوساط السكان، وصهر التغاير الثقافى واللغوى والدينى تحت إمرة سلطة واحدة. وفشلت أغلبية البلدان العربية فى تطوير الحكم الديمقراطى الرشيد ومؤسسات التمثيل القادرة على ضمان الاندماج وتحقيق العدالة فى توزيع الثروة بين مختلف الجماعات، فضلا عن احترام التنوع الثقافى.

كان من نتائج ذلك أن الجماعات ذات الهُويات المختلفة فى عدد من الدول العربية سعت إلى تحرير نفسها من نطاق الدولة/ الأمة التى تستظلَها. هذا الرفض لشرعية الدولة التى ورثتها وأدامتها الدولة العربية المعاصرة رافقته صراعات كان من شأنها بالضرورة أن تهدد أمن الإنسان.

يرصد التقرير كيف أن الولاءات الإثنية والدينية والقَبلية كانت هى المحاور التى التفَت وحُشدت حولها الجماعات المختلفة للمناداة بالاندماج أو الانفصال. وأفضى هذا الحشد والتجييش إلى آثار مدمرة ومزعزعة للاستقرار انتقصت من أمن الإنسان وسلامة الدولة على حد سواء.

ورغم أن التقرير يقول بأن هذه الصراعات كانت هى المسؤولة عن الجانب الأعظم من الإصابات البشرية فى البلدان العربية، إلا أنه يبقى من الأهم مايذكره من أن «الهوية»، بحد ذاتها، لم تكن بالضرورة سبب النزاع، أو حتى المصدر الرئيسى للتوتر بين مختلف الجماعات فى المنطقة. بل إنه من الضرورى ملاحظة أن الصدامات التى تنطلق، فى ظاهرها، من اعتبارات تتعلق بالهوية، كثيراً ما تنشأ من تعثر سبل الوصول إلى السلطة السياسية أو الثروة، ومن غياب قنوات التمثيل والمشاركة السياسية، ومن قمع التنوع الثقافى واللغوى.

ويبقى بغض النظر عن التفاصيل، ما يشير إليه التقرير من أن مفهوم «المواطَنة» الذى هو المفهوم المعيارى الذى كان له الإسهام الأكبر فى إدارة التنوع الإثنى والثقافى واللغوى فى التاريخ السياسى الغربى، لم يتبلور بعد بصورة كاملة فى البلدان العربية.

كما تبقى النقطة المحورية هنا أن الدول العربية لم تصل بعد إلى الحكم الديمقراطى الرشيد، الكفيل وحده، بحكم طبيعته بمعالجة هذه المسألة، ناهيك عن اعتماد الديمقراطية الحقيقية المتمثَلة فى احترام حقوق المواطنين «أقلية كانت أو حتى أغلبية».



يناقش التقرير أيضا كيف أثرت إجراءات قيل إنها للحفاظ على أمن الوطن على «أمن المواطن» ذاته، فيشير إلى ماشهدته بلدان عربية عديدة من فترات طويلة جداً من الأحكام العرفية، التى تحولت فيها الإجراءات التى يفترض أن تكون مؤقتة إلى أسلوب دائم لتوجيه الحياة السياسية

ويرصد كاتبو التقرير، كيف أنه فى أعقاب أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، سَنَّت معظم البلدان العربية قوانين لمكافحة الإرهاب، تقوم على تعريف غير محدد لمفهوم «الإرهاب».

ومنحت هذه الإجراءات



لماذا كانت العقبات التى تعترض سبيل التنمية فى المنطقة عصيّةً على الحل إلى هذه الدرجة؟



الأجهزة الأمنية فى الدولة صلاحيات واسعة فى بعض المجالات ولكنها قد تشكل تهديداً للحريات الأساسية فى مواضع أخرى. كما تهدد هذه القوانين حرية التعبير، وتزيد من الصلاحيات الممنوحة لتفتيش الممتلكات والتنصت والاعتقال. كما تسمح بالإحالة إلى المحاكم العسكرية. وعلى العموم، فقد أخفقت هذه القوانين فى تحقيق التوازن المطلوب بين أمن المجتمع من جهة والحريات الفردية من جهة أخرى. ويخلص كاتبو التقرير إلى أن التهديد الأكثر جديّةً لأمن المواطن فى بعض البلدان العربية يتمثّل فى أنّ السياق الذى تجرى فيه مكافحة الإرهاب يعطى الدولة الذرائع لانتهاك الحقوق والحريات الفردية دون الاحتكام إلى القانون.

ويتناول التقرير أيضا كيفية تعامل الدول العربية مع الحركات الإسلامية السياسية. فكثيراً ما تتذرّع الدول بالمخاطر التى تمثّلها هذه الحركات لتبرير الانقضاض على الحقوق السياسية والمدنية. فى حين أن السبيل الأمثل للحفاظ على الاستقرار وأمن المواطنين إنما يكمن فى إدخال الحركات المسالمة فى إطار النشاط السياسى المشروع.

يتحدث التقرير كذلك عن القوانين التى تتناول حرية الرأى والتعبير بطريقة غامضة، مع الجنوح إلى التقييد لا إلى التسامح (يشير التقرير فى هذا السياق إلى ميثاق القنوات الفضائية العربية) كما يلاحظ كيف أن «ما تضمنه الدساتير العربية للمواطنين تتولى تشذيبه فى كثير من الحالات القوانين العادية، وما تبيحه تلك القوانين تحوله الممارسة إلى مخالفة فى أغلب الأحيان».

ويرصد التقرير مفارقة أن المخاطر التى تتهدد استقلال القضاء لا تأتى من الدساتير التى تُعلى، على العموم، من شأن هذا المبدأ، بل من السلطة التنفيذية. ويقول إن كل السلطات القضائية العربية تعانى من انتهاك استقلالها بصورة أو بأخرى جراء هيمنة السلطة التنفيذية على السلطتين التشريعية والقضائية. يضاف إلى ذلك أن محاكم أمن الدولة والمحاكم العسكرية قد تقوض استقلال القضاء، لأنها تمثل إنكاراً لمفهوم العدل الطبيعى وانتقاصاً من ضمانات المحاكمة العادلة. ومن نتائج ذلك نشوء فجوة ملموسة - فى حماية الأمن الشخصى للمواطنين - بين النصوص الدستورية من جهة والممارسات القانونية الفعلية من جهة أخرى. وقد جاهد العديد من القضاة فى بعض البلدان العربية لتأكيد معنى الاستقلال القضائى، غير أنهم يبذلون جهودهم تلك فى بيئة حافلة بالتحديات. (هل تذكرون المحاولات المستمرة لنادى القضاة المصرى والتى باءت فى النهاية بالفشل).





أهم مايتعرض له التقرير - فى رأيى - هو حديثه عن الضوابط المؤسسية للحيلولة دون إساءة استخدام السلطة فيقرر «إن قوى الأمن والقوات المسلحة التى لا تخضع للرقابة العامة تمثّل تهديداً جديا لأمن الإنسان»، وذلك ما تشهد به تجربة بلدان عربية عديدة. فمعظم رؤساء هذه الدول يستأثرون بسلطات مطلقة لا حسيب عليها ولا رقيب.

وتعمل دوائر الأمن العربية فى أجواء تتمتع فيها بالحصانة من المساءلة لأنها من الأدوات التى تعمل بشكل مباشر لصالح رئيس الدولة، وتعتبر مسؤولة أمامه وحده. وتتعزز سلطاتها الهائلة بتدخل السلطة التنفيذية فى استقلال القضاء بطرق مختلفة (راجع ماكتبه المستشار طارق البشرى فى هذه المجلة: مارس ٢٠٠٣ ويونيو ٢٠٠٥) وبالسيطرة التى يمارسها الحزب الحاكم فى أغلب الدول على السلطة التشريعية، وبتكميم وسائل الإعلام. وفى ظل هذه الظروف تنتفى الرقابة التشريعية والشعبية الحقيقية.

تأتى فى هذا السياق مسألة تركيز السلطة، وعدم وجود آليات «حقيقية» لتداولها. ويذكرنا التقرير هنا بالتعديلات التى أدخلت على دساتير عربية عدة بهدف التمديد لرئيس الدولة. ولعل المفارقة أنها المسألة «الوحيدة» التى يتفق فيها الحكام العرب رغم ما يبدو من اختلافهم حول كل قضية أخرى.

إن قياس أداء البلدان العربية وفق المعايير المتعارف عليها دوليا، يؤكد أن العلاقة بين الدولة وأمن الإنسان ملتبسة. ففيما يتوقع من الدولة أن تضمن حقوق الإنسان، نراها فى عدة دول عربية تمثل مصدراً لتهديده. ومن ثم يبقى سؤال التقرير: «هل الدولة العربية جزء من الحل، أم جزء من المشكلة؟» مطروحا.. بل ومطلوبا.

ويبقى من أهم ما فى التقرير (لاحظوا أنه «دولى»)، ماذكره فى الفصل الخاص بالاحتلال والتدخل العسكرى. وكيف أنهما كانا على مدى تاريخ المنطقة، عاملين أساسيين من أهم العوامل التى تهدد أمن الإنسان.

ويعرض التقرير تقييماً تفصيلياً للأضرار الناجمة عن الانتهاكات التى ترتكب ضد حقوق الإنسان، مع التركيز على آثار التدخل الأميركى فى العراق، واستمرار السيطرة الإسرائيلية على الأرض الفلسطينية المحتلة، بما فى ذلك الحملة الأخيرة على غزة، والأوضاع الصعبة التى يعانيها الشعب المحاصر فى الصومال.

ويلاحظ التقرير أن دوام الاحتلال والتدخل طوال هذه الفترة يدل على انكشاف المنطقة لسياسات الأطراف الخارجية. وتعتمد احتمالات تسوية النزاعات الرئيسية فى المنطقة، إلى حد كبير، على إرادة الأطراف غير العربية، مما يعكس مدى المسؤولية الملقاة على عاتق الأمم المتحدة بوصفها الضامن الحيادى الوحيد لأمن الإنسان والأمن الوطنى فى المناطق المحتلة، وهو الدور الذى همشته دول كبرى وحرمت الأمم المتحدة من أدائه.

أيا ماكان الأمر، ورغم أن كاتبى التقرير آثروا - إدراكا لحساسية الموضوع الذى يتعرضون له - ألا يخلعوا «قفاز الدبلوماسية الحريرى» فاختاروا ألفاظهم ، كما بدا لى - بعناية ودقة و«حذر»، إلا أن ما وجد طريقه فى نهاية المطاف لصفحات التقرير من حقائق لم يكن ممكنا إغفالها، يظل مهما ومطلوبا، كما يظل السؤال الذى يطرحه علينا ونحن نكاد نختتم عقدا كاملا من القرن الحادى والعشرين، سؤالا محوريا: لماذا كانت العقبات التى تعترض سبيل التنمية فى المنطقة عصيّةً على الحلّ إلى هذه الدرجة؟

ربما غضب الجميع - أو هكذا أظن - من فقرة هنا أو من رقم هناك، فالحقائق دائما موجعة. ولكن لابد لنا جميعا أن نحسب للقائمين على هذا التقرير أنهم وضعوا قضايانا على الطاولة.. ثم تركوا لنا مهمة مناقشتها.

ونحن فى «وجهات نظر» حين نفتح الباب للمناقشة، أتذكر للأسف أن التقرير الأول الصادر قبل ست سنوات كاملة حذر من «التزاوج بين الفساد والسلطة» ومن ثم أتذكر مقولة أحمد كمال أبو المجد: «أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة»... ولعل منكم من يتفق معى فى أن المفتاح كله ربما يكمن فى هذه العبارة.

كما لعل مفتاح «الأمن» الذي نتحدث عنه يكمن هو الآخر في تلك العبارة العبقرية البسيطة التى قالها أعرابى - قبل أربعة عشر قرنًا كاملة - لخليفة المؤمنين: «حكمت، فعدلت، فأمنت.. فنمت يا عمر» ■

أمن الإنسان فى البلدان العربية:

تقرير جديد وآلية مغايرة

أمة العليم السوسوة*

■■ بعد أيام قليلة يعلن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى الإصدار الخامس فى سلسلة تقارير التنمية الإنسانية العربية تحت عنوان «تحديات أمن الإنسان فى البلدان العربية»، والذى يُعمِل التوصيف الأشمل لمفهوم أمن الإنسان الذى قدمه تقرير التنمية البشرية الدولى لعام ١٩٩٤ كعدسة كاشفة يتفحص من خلالها عن كثب أوضاع التنمية الإنسانية فى المنطقة. فى هذه المقاربة يتخطى التحليل النطاق التقليدى للأمن الذى يركز بالأساس على المفهوم الضيق لأمن الدولة إلى مفهوم موسع يتخذ الإنسان محوره الأساسى. ويشدد التقرير على علاقة الارتباط الوثيق بين أمن الدولة وأمن الإنسان إلا أنه يؤكد على أن نمط العلاقة السائد تقليديا والذى يتم فيه تغليب الأول على الأخير، يؤدى إلى عدم تحقق أى منهما. فى حين أن ضمان أمن الإنسان بأبعاده المتعددة - والذى هو بالأساس مسؤولية الدولة - يؤدى إلى تعاظم فرص التنمية وتعزيز أمن الدولة ذاتها.

التقرير يتناول بالرصد والتحليل المعمق أبعادا متعددة من التهديدات التى تواجه أمن الإنسان فى البلدان العربية وتشمل الأضرار التى تصيب قاعدة الموارد الطبيعية (البعد البيئى)، وتلك المرتبطة بدور الدولة فى تحقيق أمن الإنسان (البعد السياسى)، وتلك التى تؤثر بشكل غير متناسب فى الفئات المستضعفة (البعدان الشخصى والاجتماعى). كما تشمل المخاطر الاقتصادية والفقر والبطالة (البعد الاقتصادى)، والافتقار إلى الغذاء (البعد الغذائى)، وقصور الرعاية الصحية الأساسية (البعد الصحى)، فضلا عن المصدر الرئيسى الذى يتهدد أمن الإنسان بشكل شامل ومنهجى والمتمثل فى الاحتلال الأجنبى للأراضى العربية.

عدسة الأمن الإنسانى كما يُعملها التقرير تظهر لنا مدى هشاشة أوضاع هذه الأبعاد الرئيسية لمفهوم الأمن فى بلداننا العربية على اختلافها، مما يؤدى إلى معايشة مواطنيها تهديدات جوهرية مشتركة تحد بشكل حقيقى ومؤثر من قدراتهم ومن الخيارات المتاحة لهم ليعيشوا حياة كريمة وليتمتعوا بحرياتهم وحقوقهم الأساسية، بل وفى بعض الأحيان ليضمنوا الحد الأدنى المتمثل فى البقاء. وبهذا فهى تحد من قدرة البلدان العربية على إحراز تقدم حقيقى أو معالجة مواطن القصور التى تعوق مسيرة التنمية الإنسانية بها فى مجالات تأتى على رأسها المعرفة والحريات وتمكين المرأة، وهى أولويات تنموية طرحتها الأجزاء الأربعة السابقة التى كونت السلسلة الأولى من تقارير التنمية الإنسانية العربية.



وتقرير هذا العام يستكمل مسيرة السلسلة الأولى فى النقد الذاتى المتبصر والرصين لأحوال التنمية فى البلدان العربية والذى يمثل خلاصة جهد مجموعة متميزة من الخبراء والباحثين ذوى الجذور العميقة فى المنطقة والخبرة الواسعة بواقعها التنموى وديناميات التغيير بها، وهو نقد يمارسونه فى استقلالية فكرية تامة يحرص عليها ويدعمها برنامج الأمم المتحدة الإنمائى. شهدت عملية إعداد تقرير هذا العام مجموعة من التغيرات شملت توسيع نطاق المشاركة فى لجنته الاستشارية لتشمل تمثيلاً واسعاً لمختلف التيارات الفكرية فى المنطقة وزيادة التمثيل النسائى ولكن لعل أهم التغيرات تمثل فى إتاحة الفرصة لما يربو على المائة من الشابات والشبان من مختلف أرجاء المنطقة للمشاركة بآرائهم فى صياغة التقرير بشكل فاعل من خلال ثلاث جلسات تشاورية.

وقد آثرنا هذه المرة ألا تمثل مناسبة إعلان التقرير محطته النهائية بل أن تؤذن ببداية حوار واسع حول مقاربته بين مؤيد ومعارض لتحليلاته وأطروحاته، وهو حوار سيسعى برنامج الأمم المتحدة الإنمائى هذا العام إلى ترسيخ جديته وتنوعه وتعدديته الفكرية مع توسيع نطاقه الجغرافى والزمنى بشكل منظم من خلال اعتماد آلية جديدة لحوار ممتد على مدى ما يقرب من عام. وذلك بإطلاق التقرير من خلال سلسلة من الحوارات العامة الموسعة فى مدن عربية متعددة.

تبدأ السلسلة بحوار بيروت والذى يتلو مباشرة إعلان التقرير، قبل أن تنتشر الحوارات شرقاً وغرباً فى ضيافة هيئات عربية متميزة فى الإسكندرية، ودبى، والرباط، والدوحة، وتونس، وعمان، لتتيح الفرصة لعدد وافر من صانعى القرار، وقادة الرأى وهيئات المجتمع المدنى، لتفحص القضايا التى يطرحها التقرير وتدارس ما قد تثيره من أفكار وخيارات للتعامل مع مشكلات وقضايا أمن الإنسان فى البلدان العربية.

هذا وقد عهد البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة إلى مجلة «وجهات نظر» الفكرية الرصينة التى تصدر من القاهرة لتتولى تنظيم وإدارة سلسلة الحوارات لما تتسم به من استقلالية، ولما لها من وزن ومصداقية فى الأوساط الفكرية العربية، على أن يتم نشر خلاصة تلك الحوارات بالطريقة الملائمة.

يستمر الحوار كذلك من خلال سلسلة من موائد البحث المستديرة يشارك فيها الخبراء ذوو الصلة، وتستضيفها مجموعة متميزة من مراكز الأبحاث والفكر فى البلدان العربية، إلى جانب موقع إليكترونى تفاعلى يجرى العمل على تطويره ليوسع قاعدة التعاطى مع التقرير إلى جمهور الفضاء الإلكترونى العريض وبالأخص من الشباب والذين سنعمل هذه المرة على أن نصدر لهم نسخة خاصة «شبابية» من التقرير.

ويحدونا الأمل أن تفرز هذه الإستراتيجية المتكاملة حواراً جاداً وعملى التوجه يغطى كافة أرجاء البلدان العربية ويصل إلى مواطنيها على تعدد انتماءاتهم بما يتناسب مع الجهد الكبير والمتفانى الذى بذله القائمون على إعداد هذا التقرير، وبما يرقى إلى أهمية موضوعه الرئيس.

إن أمن الإنسان فى البلدان العربية لهو موضوع خطير وآنى يستحق أن يشغل البال العربى العام ويتبوأ مكان الصدارة فى حواراته، لا أن يبقى حبيساً بين دفتى كتاب يرجع إليه المتخصصون بين حين وآخر. ■

● تشغل السيدة «أمة العليم السوسوة» منصب الأمين العام المساعد للأمم المتحدة، والمدير المساعد والمدير الإقليمى للدول العربيّة ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائى.

يبدو أن مستقبل الحكومة الإسرائيلية الجديدة «الثالثة عشرة» والأكبر حجمًا فى تاريخ إسرائيل بقيادة بنيامين نتنياهو سيكون واعدًا، فالرهان على عدم قدرته على حيازة الأغلبية والتوافق مع باقى الأحزاب من أجل تدعيم موقف حزبه الذى جاء ثانيًا فى الانتخابات العامة - والذى كلف بتشكيل الحكومة رغم ذلك - قد ثبت وهنه. وعليه، فعلى الفلسطينيين وباقى وحدات النظام السياسى الإقليمى العربى الاستعداد الكامل -

Durable Peace: Israel and Its A Place Among the Nations
Benjamin Netanyahu
Grand Central Publishing, 2000

بنيامين نتنياهو: «مكان تحت الشمس» (عمان: دار الجليل، الطبعة الخامسة ١٩٩٩).

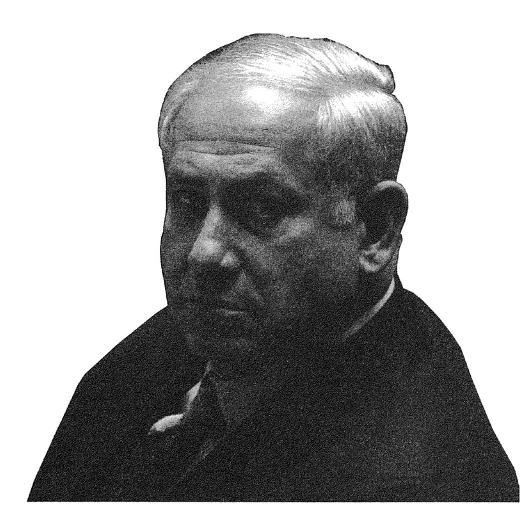
طواعية أو كراهية - لمدة أربع سنوات قادمة مع رئيس وزراء إسرائيلى يمثل انعكاسًا لأقصى جناح يمينى صهيونى متطرف Ultra-Wright wing فى تاريخ الدولة الإسرائيلية؛ ومع حكومة أقل ما يمكن أن توصف به أنها حكومة «عنصرية» إن لم تكن «إرهابية».

فى أدبيات العلوم السياسية والعلاقات الدولية هناك العشرات - إن لم يكن المئات - من النظريات والمناهج والأدوات التى تستخدم لتحليل وتفسير سلوك الدول والجماعات والأفراد - باعتبارهم وحدات سياسية. ولعل من أهم هذه النظريات والأدوات هى أداة تحليل المضمون والخطاب Content Analysis والمقصود بأداة تحليل النصوص والخطاب: «هى تلك الأداة التى تهتم بجميع أنواع القول أو الخطاب - النصوص - سواء أكانت مكتوبة أو منطوقة؛ لغوية أو غير لغوية. أى أنها تعتبر كل أداة فى العالم نصًا وخطابًا قابلاً للتحليل والتقسيم والقراءة. حيث تقوم هذه الأداة - وفقًا لمنهجية علمية فى القراءة والتفسير فى ظل سياق النص أو الخطاب المراد تحليله لتأسيس الفهم العلمى للنصوص واستنتاج وفهم دلالاته ومكنوناته الظاهرة والباطنة». حيث سيتجنب الباحث - نظريًا - على قدر الإمكان أسلوب الانتقاء وانتزاع الجمل من سياقها ووضعها فى غير موضعها؛ بما يؤدى لتأويل وتغيير معانيها ودلالاتها اللغوية والفكرية. بما سيؤدى لتشويه النتائج والاستنتاجات وانحراف سياق التحليل والوصول لنتائج خاطئة لا تغنى ولا تسمن من جوع.

نحن نتفق مع الرأى القائل بأن سلوك الوحدات السياسية (دول - جماعات - أفراد) يمكن فهمه وتفسيره والقدرة على التنبؤ به من خلال ثلاثة مستويات. فطبقًا لعالم السياسة الأشهر فى النصف الثانى من القرن العشرين Kenneth Waltz فإن هناك ثلاثة مستويات Three Images لتحليل وفهم العلاقات الدولية وسلوك الدول فى النظام الدولى. الأول يذهب للقول بأن السياسة الدولية مدفوعة أساسًا من أفعال الأفراد أو النتائج النفسية لسلوك القادة والسياسيين. المستوى الثانى فى شرح السياسة الدولية يرى أنها نتيجة للدوافع وطبيعة التركيب الداخلى والمحلى للدول، فى حين أن المستوى الثالث يركز على دور العناصر الهيكلية أو النظامية، أو تأثير الفوضى الدولية التى تمارس على سلوك الدولة. والتى لا تعنى فى هذا السياق الاضطراب، ولكن عدم وجود قوى أكبر تمارس السيادة على الدول القومية. بالنسبة للأفراد (الشخصيات العامة والسياسية Public Figures) فإنهم يقعون فى المستوى الأول. فمن خلال تبوئهم للمناصب العامة أو امتلاكهم للنفوذ







إن الكتاب في رأينا يمثل خلاصة التفكير اليميني الصهيوني. وجاء معبراً بصدق عن الأجندة الحقيقية للكيان الصهيوني



أحمد محمد أبوزيد

وقدراتهم على سن القوانين والتشريعات الملزمة واتخاذ القرارات التي من شأنها التأثير على سلوك الدول وتحديد مستويات واتجاهات وطبيعة علاقاتها الخارجية مع باقي وحدات النظام الدولي.

لفهم السياسة الدولية للدول العبرية من خلال تحليل كتاب بنيامين نتنياهو الذي بين أيدينا فإننا سوف نستخدم أداة تحليل الخطاب والنصوص؛ ومن خلالها سنحاول الوصول لعموميات Generalizations نستطيع معها تكوين نسق عقيدي Belief System أو شبكة معرفية Cognitive Network تساعدنا على معرفة نمط وأسلوب تفكير نتنياهو في المستقبل؛ وذلك عن طريق ترتيب أولوياته وأهدافه من خلال كتاباته والنصوص المنشورة له. وهنا سوف نقوم بتحليل Analysis وتفكيك وتبعيد Dimensionalization كتاب نتنياهو «مكان بين الأمم».

١ - الكتاب والكاتب: نموذج الواقعية الهجومية

الكتاب الذي سنتطرق إليه الآن هو «مكان تحت الشمس A Place Among the Nations» نشر للمرة الأولى عام ١٩٩٣ باللغة العبرية، وترجم للإنجليزية عام ١٩٩٤/١٩٩٥، وللعربية عام ١٩٩٦ عن طريق دار الجليل بالأردن. والكتاب عبارة عن خليط من السيرة الذاتية للمؤلف؛ والكتابات الصحفية، والأفكار النظرية الخاصة بعلم العلاقات الدولية (خاصة علم الاستراتيجية وحل وإدارة الصراعات والأزمات الدولية والسلام الديمقراطي Democratic Peace Theory وتوازن القوى). إلى جانب الكثير من المغالطات والافتراءات العنصرية؛ التي لا تثبت أمام أي تحليل علمي (تاريخي أو أنثروبولوجي)؛ وبالطبع الكثير من الذم والقدح والتطاول والافتراء على العرب عامة والفلسطينيين خاصة. ولكن إجمالاً، فإن الكتاب في رأينا يمثل خلاصة التفكير اليميني الصهيوني. وجاء معبراً بصدق عن الأجندة الحقيقية للكيان الصهيوني - بدون مجاملة أو تجميل. وهو كتاب لا يجب أن يغيب أو أن يحرم من قراءاته كافة الناطقين بلغة الضاد. فهو يحمل رسالة مباشرة عن «كيف يفكر العدو؟» ويقول بصراحة «ماذا يريد منا؟» ويحدد وبوقاحة «كيف يحقق ما يريد؟» فمن عرف لغة قوم.. أمن مكرهم كما ذكر صلى الله عليه وسلم.

أما الكاتب فهو بنيامين بن تشيون نتنياهو - أستاذ التاريخ اليهودي - تخرج من جامعة MIT للتكنولوجيا - أرقى جامعة متخصصة في التكنولوجيا في العالم. كان مندوب للولايات المتحدة في الأمم المتحدة خلال الثمانينيات من القرن العشرين. ثم انتخب عضواً في الكنيست (البرلمان) الإسرائيلي أوائل التسعينيات. ثم تولى رئاسة الوزراء في إسرائيل من عام ١٩٩٦: ١٩٩٩. هذا الرجل يعتبر مثالاً نموذجياً Typical Model للنظرية الواقعية الهجومية Offensive Realism في العلاقات الدولية؛ والتي توجد أصولها النظرية في كتابات علماء وباحثين واقعيين مثل البروفيسور John mearsheimer, Randell Schweller, Freed Zakria وغيرهم. وبيبي Bibi (كما كان الرئيس الأمريكي السابق كلينتون ينادي نتنياهو) يتخذ من مقولات وأطروحات هذه المدرسة أسلوباً ونظاماً للتخطيط والعمل السياسي له. هذه المدرسة سنتطرق لها بإيجاز في الجزء الثاني من هذه الدراسة؛ وفي الجزء الثالث سوف نقوم بتطبيق أداة تحليل الخطاب والنصوص من منظور الواقعية الهجومية على كتاب نتنياهو الذي بين أيدينا.



٢ - الواقعية الهجومية: خلفية نظرية

طبقاً للمنهج الواقعي فإن العلاقات بين الدول تحكمها وتحددها معادلات وصور توزيع القوى والقدرات المختلفة بين الوحدات الدولية (الدول القومية). في ظل توجدها في عالم تنافسي Competitive، ذات طبيعة فوضوية Anarchic، حيث لا توجد سلطة مركزية أعلى High Authority من الحكومات الوطنية تقو بمهمة توجيه وتحديد نوع العلاقات بين الدول ولا اتجاهاتها أو نوعيتها (سواء تعاونية أو تصارعية). في ظل هذا النظام الأناني Egoism المتسم بالطابع الفردي، حيث لا تتحقق مصالح الدول الوطنية (التي تعرف لدى الواقعيين في مفهوم القوة) إلا عن طريق استثمار وتحديد أفضل السبل المتاحة لدى الدولة لتوجيه واستخدام مصادر قوتها وقدراتها القومية (سواء أكانت سياسية، عسكرية، اقتصادية، دبلوماسية، ديمجرافية، أو جيوبوليتيكية).

الهدف الأسمى للدول في المفهوم الواقعي هو الأمن Security والبقاء Survival، عن طريق توسيع نطاق قوتها القومية Maximize its National Power. فالنظام الدولي (العام والفرعي) هو نظام يقوم على ميكانيزم «احم نفسك» و«حافظ على نفسك» Self - Help System. فالدول إن لم تستطع حماية نفسها، فعليها تقبل الصور التي تبرز نتيجة اختلاف معادلات وصور توزيع القدرات والإمكانيات في بنية النظام الدولي. فالقوي يفعل - وفقاً لما يملك - ما يريد، والضعيف يتحمل ما يجب عليه أن يتحمله.

إن طبيعة العلاقات ونوعيتها بين الدول تتوقف من المنظور الواقعي على مدى الاختلاف أو التوافق والتباين في القدرات والإمكانيات ومصادر القوى كما أسلفنا. فإذا كانت الهوة بين معادلات وصور توزيع القدرات والإمكانيات واسعة بين الدول، فإن الطرف القوي هو الذي يسيطر على مقدرات النظام، ويقوم بفرض توازن يعمل لصالحه ويحقق مصالحه الوطنية، حتى يتحول أو تتغير معدلات وصور توزيع القدرات والإمكانيات في النظام، بصورة قد تعيد تشكيل التوازن بناء على الاختلاف الذي أحدثته في بناء النظام. وهي نظرية توازن القوى Balance of Power، خاصة وإن كان هذا الطرف الطموح Revisionist (القوي) يمتلك السلاح النووي - كإسرائيل في حالة النظام الإقليمي في الشرق الأوسط؛ أو يسعى لامتلاك السلاح النووي - كإيران في حالة النظام الإقليمي الخليجي. من جانب آخر، فإن نوعية العلاقات بين الوحدات الدولية في أن نظام تتوقف على صور التهديد الذي قد تمثله إحدى هذه الوحدات لباقي وحدات النظام، فطبقاً لنظرية توازن التهديد Balance of threat فإن الدول تميل للتحالف والتكتل Coalition ضد الدول التي تمثل تهديداً كبيراً لها، وتميل للتعاون والتقارب Rapprochement والتكامل مع الوحدات الدولية المسالمة والوديعة التي لا تمثل لها أي صورة من صور التهديد.

وطبقاً لرائد المدرسة الواقعية - البروفيسور Kenneth Waltz - أن الدول لا يحركها سوى سعيها نحو البقاء Survival وتعظيم حدود ونطاق أمنها Maximize its Security ولا يؤثر عليها سوى الإحساس بالخطر والتهديد Threat من جانب القوى الأخرى. فالدول في المنظور الواقعي يحدد سلوكها خمسة افتراضات Assumptions أساسية هي كالآتي:

١ ـ أن الدول لا تسعى من أجل القوة فقط كما يذهب Margenthau وإنما تسعى الدول للحفاظ على بقاءها Survival وهو ما يقودها لمحاولات تعظيم وتوسيع نطاق أمنها. سواء يتبنى استراتيجيات وسلوكيات دفاعية Defensive أو هجومية offensive في ظل نظام دولي وبيئة دولية تتميز بالطبيعة التنافسية والفوضوية وعدم وجود سلطات أعلى من سلطة الدول القومية التي تتحرك منفردة في محاولاتها وسعيها للبقاء والحفاظ على أمنها وتعظيم نطاقه.

٢ ـ إنه في ظل هذه البيئة التنافسية فإن الدول تحوز بعض القوى العسكرية الهجومية. التي قد تقودها للدخول في صراعات مسلحة مع بعض القوى الأخرى وإيذاءها وتحطيمها دفاعاً عن نفسها، حتى مع عدم وجود أسلحة يظل الصراع هو السمة المميزة للعلاقات بين الدول.

٣ ـ إن الدول لا تثق في بعضها البعض، ولا يمكن التأكد ومعرفة نواياها تجاه بعضها البعض. فبعض الدول لديها نوايا شريرة والبعض الآخر لديها نوايا كريمة. ولكن لا يمكن التأكد من هذه النوايا بصورة يقينية؛ وذلك لتغيرها الشديد حسب دوافع الدول وتفاعلات وتغيرات البيئة الدولية. فمن الممكن أن تكون نوايا إحدى الدول كريمة في أحد الأيام وشريرة في اليوم التالي.. والعكس بالعكس.

٤ ـ إن الهدف الأسمى للدول في النظام هو السعي نحو البقاء Survival.

٥ ـ إن الدول في سعيها نحو البقاء تفكر جديًا في كيفية تحقيق ذلك. وبالتالي فهي عامل ـ أداة عقلانية instrumentally Rational، ولكنها تتعامل في ظل نظام دولي غير دقيق Uncertainty وغير كامل المعلومات Imperfect، حيث تكون هنالك فرص لأعدائها لإخفاء نواياهم الحقيقية عنها.

هذه المحددات الخمسة هي التي تحدد طبيعة الاستراتيجيات التي قد تتبعها الدول القومية في تعاملها وتفاعلاتها مع باقي الوحدات الدولية الأخرى، في سعيها للنجاة والبقاء. وهو ما يعتبره Mearsheimer هدفًا دفاعيًا Defensive Goal. على هذا الأساس يضع Mearsheimer ثلاثة نوازع Motivates (نماذج سلوكية) تحدد طبيعة السلوك التي تنتهجه الدول في النظام الدولي. هذه النماذج هي:

١ ـ الخوف Fear: فالدول في النظام الدولي تنظر لبعضها بعين الارتياب والشك Suspicion. فالدول تتوقع نشوب الحرب بسهولة، حيث لا مجال للثقة بين الدول وبعضها البعض، التي تحركها مصالحها الذاتية Self - Interests وسعيها نحو تحقيقها لممارسة العداء تجاه الآخرين.

٢ ـ السعي نحو النجاة ـ البقاء Survival: فكل دولة في النظام الدولي تسعى جاهدة نحو البقاء. فكل الدول تمثل تهديداً محتملاً Potential Threat للأخرى في ظل غياب سلطة عليا تحمي الدول من بعضها البعض عندما ينشب ويظهر الخطر. فالدول لا تستطيع الاعتماد على الآخرين في توفير الأمن والاستقرار لها. فلا يوجد «خفر Watchmen» في العلاقات الدولية القائمة بالأساس، وكما يذهب Waltz على مبدأ اخدم نفسك Self-Help.

٣ ـ السعي نحو تعظيم مكانتها وقوتها Maximize its Relative Power Positions: فالدول في النظام الدولي تسعى إلى توسيع وتعظيم مكانتها وقوتها بين الدول الأخرى. وذلك ببساطة لأن الدول تعي تماماً أنه: «كلما كبر حجم قوتها.. زادت معدلات أمنها واستقرارها»، فكل الدول تسعى لتعظيم مكانتها وإمكانياتها العسكرية والسياسية لأنها الأداة الوحيدة القادرة على ضمان بقائها.

على ذلك الأساس فإن الدافع الرئيسي للدول نحو التعاون وتحقيق السلام فيما بينهما هو توازن القوى وتعظيم المكاسب. فكل دولة تسعى من وراء توقيع أي اتفاق مع أية دولة أخرى إلى ضمان تعظيم مكاسبها. ولو جزئيًا. وإن لم يمكن مضمونًا فعلى الأقل لا يضرها.

٣ ـ بنيامين نتنياهو: الصهيوني الواقعي الهجومي

نهجنا في تحليل نص كتاب نتنياهو لن يكون تقليداً ـ بعرض الأفكار الرئيسية التي يحتويها الكتاب وفصوله، ولكن عن طريق انتقاء الأفكار الرئيسية التي تكوّن محور وركائز الفكر السياسي نتنياهو، من خلال توافقها وتناغمها مع أطروحات المدرسة الواقعية الهجومية. وقد أمكننا تحديد ـ من خلال قراءة وتفكيك نص الكتاب ـ أهم المحاور والموضوعات التي تحتل أولويات رئيس الوزراء الإسرائيلي الثالث عشر؛ والمتوقع أن تتصدر أجندة عمله خلال السنوات القادمة.

الأمن القومي الإسرائيلي

وجود وبقاء الدولة هو جوهر وأساس الأمن القومي لأي دولة وفقًا لرؤية المدرسة الواقعية. والأمن الإسرائيلي عند نتنياهو مرادفًا للوجود اليهودي، بمعنى أن وجود أجواء من عدم الاستقرار وغياب الأمن يهدد وجود إسرائيل واليهود. وعليه؛ فعلى إسرائيل في ظل تواجدها في بيئة إقليمية ومنطقة متوترة وغير مستقرة وغير ديمقراطية ومشبعة بالتوترات والعداوات المتأصلة (ص ٤٣٣) ليس فقط التأكد من عدم تعرض قيمها وأهدافها ومصالحها المركزية للتهديد. كما يعرف الواقعيون الأمن. ولكن امتلاكها للقدرة على ردع الآخرين عن مهاجمتها، فأمن إسرائيل يقوم على الردع وليس على المعاهدات والتسويات.



يحدد نتنياهو خمس مصالح قومية عليا لإسرائيل: لا يجوز التراجع أو التنازل عن تحقيقها. هذه المصالح ـ الأولويات ـ الوطنية يحددها على النحو التالي (ص ٤١٦ ـ ٤١٧).

١ ـ المحافظة على أمن إسرائيل الاستراتيجي، والذي يتمثل في قدرتها على ردع أي طرف إقليمي عدواني وقدرتها على الدفاع عن نفسها ضد أي هجوم خارجي.

٢ ـ ضمان سيطرة إسرائيل على مصادر المياه الجوفية في الضفة والجولان.

٣ ـ عدم عودة اللاجئين الفلسطينيين المهجرين، عن طريق مراقبة إسرائيل لديمجرافية الضفة الغربية.

٤ ـ ضمان وحدة القدس تحت السيادة الإسرائيلية وعدم تقسيمها.

٥ ـ ضمان استمرار التفوق العسكري والتكنولوجي الإسرائيلي على جيرانها العرب.

هذه المصالح الوطنية العليا من وجهة نظر نتنياهو تحتم على إسرائيل رفض أية مشروعات أو اقتراحات لإعلان دولة فلسطينية في الضفة الغربية. فالضفة الغربية لنهر الأردن عند نتنياهو تمثل حاجزا طبيعيا أكثر من ممتاز للدفاع عن إسرائيل. حيث تمثل مرتفعات نابلس حائط صد عظيما ضد أي هجوم على إسرائيل. بل إن نتنياهو يرفض حتى إعطاء الفلسطينيين «حق الحكم الذاتي» (ص ٤٢١)، فهو يرى أن إسرائيل هي دولة واحدة لشعبين (وليس دولتين لشعبين) والسيادة فيها للحكومة الإسرائيلية فقط.

من ناحية أخرى يرفض نتنياهو ـ أيضاً ـ التنازل عن السيادة الإسرائيلية عن الجولان وتسليمها لسوريا. ويعلل نتنياهو رفضه للانسحاب من الجولان بالقول بأن «مرتفعات الجولان تعطي لإسرائيل ميزة الإنذار المبكر ضد أي تحرك عسكري سوري أو عربي تجاه إسرائيل. وكذلك تحرك جوي بفضل



محطات الإنذار المبكر المزروعة فى مرتفعات نابلس والجولان». (ص ٣٢٤).

ويدعم نتنياهو وجهة نظره الرافضة بأى شكل من أشكال التنازل أو الانسحاب من الضفة الغربية أو هضبة الجولان بحجة «الدواعى الأمنية» بالتقييم العسكرى الذى قدمه خبراء فى وزارة الدفاع الأمريكية لوزير الدفاع الأمريكى روبرت ماكنمارا عام ١٩٦٧. عقب حرب يونيو ١٩٦٧ بأيام ـ حيث لم يصدق الوزير ماكنمارا الأسباب والشائعات التى روجتها إسرائيل لتبرير عدوانها على مصر وسوريا. حيث استخلصت «ورقة الموقف» هذه وأكدت المزاعم الإسرائيلية وقالت المذكرة بأنه «إذا أرادت إسرائيل الحفاظ على نفسها فعليها الاحتفاظ بأربعة أخماس الضفة الغربية وقطاع غزة وبهضبة الجولان، باعتبارها المناطق الوحيدة التى تستطيع بها إسرائيل الدفاع لما توفره هذه المناطق من حواجز طبيعية قادرة على صد أى هجوم ضد إسرائيل». (ص ٣٢٩).

أما أخطر مصادر تعرض الأمن الإسرائيلى للخطر من وجهة نظر نتنياهو فينحصر فى التهديد الذى تمثله الجماعات الإرهابية (الفدائية) الفلسطينية والعربية والإسلامية، حيث يرى نتنياهو أن إسرائيل منذ بدايتها محاصرة بالإرهابيين من كل حدب وصوب، ويدعى أن حروب إسرائيل كلها كانت حروبًا دفاعية، فحرب ١٩٥٦ كانت حربًا لإيقاف التهديد الذى يمثله الفدائيون على إسرائيل من سيناء (ص ١٨٨)، وكذلك حروب ١٩٨٢ و٢٠٠٦ و٢٠٠٨ وغيرها. المصدر الثانى للخطر على الأمن القومى الإسرائيلى هو سعى بعض النظم المجاورة لإسرائيل للحصول على أسلحة الدمار الشامل لاستخدامه فى إبادة إسرائيل. أما المصدر الثالث فهو الاختلال الديمجرافى الذى يمثله الفلسطينيون على إسرائيل. أما المصدر الرابع ـ ويا للعجب ـ من وجهة نظر نتنياهو فهو الحكومات اليسارية وحركات أنصار السلام الإسرائيلية، الذين يريدون تهديد أمن وسلامة وبقاء دولة إسرائيل بقبولهم التنازل والانسحاب من الضفة الغربية والجولان، ويؤيدون إقامة دولة فلسطينية، ويوافقون على تقسيم القدس.. فهؤلاء هم التهديد الحقيقى لإسرائيل(٤).

الطريقة الرئيسية لحماية أمن إسرائيل من وجهة نظر نتنياهو هى «ردع Deterrence» العرب والفلسطينيين. والعمل على تقوية نظام الدفاع الإسرائيلى وضمان التفوق العسكرى لصالح إسرائيل على جميع الدول العربية؛ بصورة تمنعهم وتردعهم عن التفكير فى الهجوم على إسرائيل. فهذا التفوق هو الحامى الرئيسى لإسرائيل، وليس المجتمع الدولى أو المعاهدات الدولية كما يدعى اليساريون.

الفلسطينيون

الفلسطينيون عند نتنياهو دخلاء وأجانب Foreigners ولا ينتمون لأراضى إسرائيل، بل يكاد يكون الفلسطينى عبر صفحات الكتاب محتلاً لأراض ليست أرضه ولوطن ليس وطنه. وهم عبارة عن جماعات بشرية مهاجرة من البلدان العربية المجاورة ليهودا والسامرة «أراضى إسرائيل» زرعوا زرعًا داخل وطن اليهود واليهودية. ويرى نتنياهو أن الفلسطينيين فى سبيلهم لتبرير وجودهم فى «يهودا» قد ساقوا للعالم مبررات تاريخية مزيفة، حيث بدأ العالم مقتنعًا بأن اليهود هم الذين اغتصبوا وطن الفلسطينيين (ص ٢٣٣).

نتنياهو يلوى الحقائق التاريخية والطبوغرافية ليضفى مصداقية على أطروحاته الصهيونية بعدم أحقية الفلسطينيين فى التواجد فى أرض إسرائيل، حيث يدعى أن كل القرى والمدن الفلسطينية هى فى أساسها قرى ومدن عبرانية. فمدن مثل نابلس وطولكرم وجنين ورام الله والجليل وغيرها من القرى والمدن هى فى الأساس مدن يهودية مثل أرائيل، معاليه، أدوميم، عمانويل، الكناح جعفات زئيف، افرات وبيتار وغيرها (ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩). ويرى نتنياهو أن اليهود هم الذين ظلموا بصدور وعد بلفور عام ١٩١٧، الذى اعترف «نظريًا» بحق اليهود فى بناء وطنهم القومى؛ وأعطى «فعليًا» أغلبية الأراضى «للمحتلين» العرب والفلسطينيين، حيث لم يحصل اليهود (السكان الأصليون) إلا على ١٠٪ من الأراضى (ص ١٢٠ ، ١٤٠).



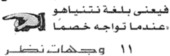
والفلسطينيون عند نتنياهو قوم كسالى لا فائدة ولا نفع منهم. فعلى الرغم من استيطانهم هذه الأراضى الخصبة والغنية، إلا أنهم لم يقوموا بإجراء أى تغيير أو تحويل فى شكل الطبيعة أو توسعوا فى المساحات الزراعية أو قاموا بنهضة أو ثورة حضارية أو صناعية بها، بل على العكس، فقد ظلت هذه الأراضى طوال النصف الأول من القرن العشرين كما وصفها مارك توين عندما زارها لأول مرة فى منتصف القرن التاسع عشر «أراضا بكرا وبرية كما صورها الكتاب المقدس» (ص ٢٢٨) فى دلالة لا تخلو من التلميح بأن هؤلاء الفلسطينيين حتى لو استوطنوا هذه الأرض فهم مجرد قوم «رحل» أو «بدو ورعاة» وليسوا بناة حضارة وتعمير. على العكس من اليهود الذين أقاموا دولة حضارية وطوروا الزراعة والصناعة فى أقل من خمسين عامًا. هو ما يعطيهم الحق فى الاحتفاظ بهذه الأرض. فهم الطرف الأجدر بها: فهم الذين أحسنوا استغلال مواردها والاستفادة منها، بغض النظر عن القصور المنهجى فى هذه المقارنة. فالأراضى والأوطان ليست مشروعًا أو مناقصة يفوز بها أكثر الأطراف اجتهادًا أو أكبرهم إسرافًا.

يرفض نتنياهو البتة الاعتراف بأى حقوق سيادية للفلسطينيين، ويرفض تمامًا إقامة دولة فلسطينية أو حتى إعطاء الفلسطينيين الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة. ويرى أنه من المستحيل على حكومة يترأسها هو ـ وعليه شخصيًا ـ الانسحاب من الضفة الغربية وتركها أراضى خصبة ومرتعًا لإقامة دولة فلسطينية تتبنى حكوماتها أيديولوجية قتالية تدعو لإفناء إسرائيل والقضاء على اليهود تمامًا ـ سواء حركة علمانية كفتح أو إسلامية راديكالية كحماس ـ فالفلسطينى عند نتنياهو شخص أحادى الشخصية، يريد القضاء على اليهود. وهو ما يبرر انتهاجه هذا الخط المتشدد للغاية فى تعامله مع الفلسطينيين وحقوقهم ومطالبهم.

ويرى أن الحل الوحيد المتاح للفلسطينيين دون إيذاء إسرائيل هو إخضاعهم للسيادة الإسرائيلية وإعطاؤهم حقوقهم المدنية «كاملة» مقابل التنازل عن «كافة» حقوقهم السياسية والسيادية تمامًا. أى أن المطلوب ـ بصراحة ـ أن يصبح الفلسطينيون.. إسرائيليين.

السلام

سلام الردع هذا هو الشكل الوحيد للسلام المتاح أمام العرب والفلسطينيين من نتنياهو. هذا المفهوم الهجين والمزيج من مكونين لا يجتمعان أبدًا (كالزيت والماء)، فمفهوم الردع مفهوم واقعى يعنى «القدرة على إيقاف الآخرين وإجبارهم على التراجع عن مواجهة أطراف أخرى». بينما مفهوم السلام يعنى «حالة من الانسجام والتقارب بين الشعوب والجماعات». أما مفهوم سلام الردع فيعنى بلغة نتنياهو «عندما تواجه خصمًا



سلام الردع هذا هو الشكل الوحيد للسلام المتاح أمام العرب والفلسطينيين من نتنياهو

ديكتاتوريا احتفظ لنفسك بقوة كافية لردعه عن الخروج للحرب، وطالما بقيت تملك هذه القوة ستحصل على الأقل على سلام ردع، ولكن إذا ضعفت وسائل الدفاع لديك، أو حتى نشأ انطباع بأنك ضعفت، فإنك ستجر على نفسك حرباً وليس سلاماً» (ص ٣٠١ - ٣٠٢).

السلام عند نتنياهو نوعان. سلام ديمقراطى وسلام مع ديكتاتور. النوع الأول يسود بين الدول الغربية واليابان وأستراليا، حيث تسود الأنماط الديمقراطية والليبرالية والرأسمالية فى هذه الدول. والتى بفضل المقيدات والقيود التى تفرضها بنية النظام السياسى والاجتماعى المحلى وطبيعة العملية السياسية تضطر هذه الدول لمواجهة صراعاتها ومنافساتها ونزاعاتها - الداخلية والخارجية - بصورة غير عنيفة. أى أن السلام هو محصلة عوامل بنيوية داخلية بالأساس. والنوع الآخر من السلام هو سلام ديكتاتورى (مع ديكتاتور) الذى يسود فى مناطق مثل الشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية. حيث تؤكد الدراسات أن النظم التسلطية والديكتاتورية لديها ميول أكبر من الدول الليبرالية لاستخدام العنف والإكراه لإدارة صراعاتها وأزماتها - الداخلية والخارجية - لانعدام وجود فاعلية سياسية وحراك اجتماعى وسيطرة العسكريين على الحكم. وفى ظل تواجدها فى محيط إقليمى تسلطى وديكتاتورى على الرغم من أنها دولة ديمقراطية فإن إسرائيل - من وجهة نظر نتنياهو - مرغمة على انتهاج سلام من النوع الثانى لمواجهة العرب.. سلام ردع. فالأمن مقدم أبداً على السلام، فالعرب عند نتنياهو لا يفهمون سوى لغة القوة، أما إذا تهاونت معهم فإنهم سيغدرون بك ويلقونك فى البحر - فهكذا فعل النازى هتلر عندما انتهجت معه أوروبا سياسة المهادنة Appeasement، فالديكتاتورية يجب أن تواجه لا أن تهادن، فكلما شعر الديكتاتور بضعف الأطراف التى يواجهها زادت ميوله وسلوكياته العدوانية والهجومية.

يدعم نتنياهو نظريته عن «سلام الردع» بمثال عن التجربة التى أجراها العالم الألمانى كارل أوغست ميبوس لمعرفة العلاقة بين الفريسة والمفترس (ص ٣١٦ - ٣١٧)، حيث وضع العالم فى صندوق زجاجى ملىء بالماء سمكة مفترسة من نوع «الكراكى» - التى تمثل العرب عند نتنياهو - ثم وضع فاصل زجاج شفاف فى منتصف الصندوق، وبعده وضع سمكة أليفة من نوع «الشبوط» - إسرائيل كما يرى نتنياهو، ومتى رأت سمكة الكراكى فريستها الشبوط حتى بدأت فى الهجوم عليها؛ إلا أنها ظلت تصطدم مراراً وتكراراً بالحائط الزجاجى الشفاف. حتى تكسر أنفها ومقدمة رأسها. فأقلعت عن مهاجمة الشبوط بعد ذلك. حتى بعد أن تم إزالة الحائط الزجاجى. ظل السلوك الوديع للكراكى تجاه الشبوط كما لو كان الحاجز موجودا. هذا الجدار عند نتنياهو هو «قوة الردع» الإسرائيلى - التقليدى والنووى. الذى يمثل جداراً واقياً لإسرائيل ضد العدوانية العربية. وعليه، فإن أمن إسرائيل واستقرارها سيظل مضموناً مادامت قوة ردعها (الجدار الواقى) فعالة وقوية. هذا الجدار الواقى عماده الحاجز الطبيعى الذى يفصل بين إسرائيل والجيوش العربية، والمتمثل فى جبال الضفة الغربية وهضبة الجولان.. وهو ما يرى نتنياهو استحالة التنازل عنهما مادام هو رئيساً لوزراء إسرائيل.



ولتحقيق السلام فى الشرق الأوسط بين العرب وإسرائيل يرى نتنياهو عدة شروط ومتطلبات مسبقة Preconditions يجب تحقيقها ليكون السلام «ثابتاً» وعلى أراض صلبة، وليس مجرد «حبر على ورق» أو مناسبة لالتقاط الصور التذكارية. هذه الشروط يحددها نتنياهو على النحو التالى (ص ٤٢٣):

١ - تسوية الخلاف حول الأراضى المختلف عليها.

٢ - توقيع معاهدات سلام رسمية بين الدول العربية وإسرائيل.

٣ - إيجاد ترتيبات أمنية مع الدول العربية تحمى إسرائيل من أى هجوم، ويمكن للأطراف التأكد من أن الاتفاقيات تنفذ نصاً وروحاً.

٤ - تطبيع العلاقات بين الدول العربية وإسرائيل.

٥ - وقف الدعاية اللاسامية واللاصهيونية فى المدارس ووسائل الإعلام العربية.

٦ - تدشين هيئة دولية تمنع بيع الأسلحة ووسائل قتالية غير تقليدية لأنظمة الحكم المتطرفة فى المنطقة.

٧ - تشجيع مشروع دولى لتوطين اللاجئين.

٨ - إيجاد صيغة من التعاون الإقليمى لتطوير مصادر المياه وحماية الطبيعة والبيئة.

يتغاضى نتنياهو خلال هذه الشروط عمداً عن إيراد أية التزامات أو شروط أو حتى تنازلات تقدمها إسرائيل من أجل تدعيم هذا السلام.

إن إسرائيل - الدولة الصغيرة - إذا أرادت لها مكانا بين الأمم (تحت الشمس) من وجهة نظر نتنياهو - فإن عليها تأكيد جذورها فى المنطقة وإظهار صعوبة اقتلاعها من مكانها الحقيقى فى المنطقة. هذا التأكيد لن يأتى إلا عن طريق سلام الردع. فالأمن الإسرائيلى (الذى يعرفه نتنياهو على أنه قوة الردع المعتمدة على قوة الحسم ص ٣١٣) هى العنصر الحيوى للسلام. إذ إن السلام الذى لا يمكن الدفاع عنه لن يصمد طويلاً. فلا سلام مع العرب قبل ضمان أمن إسرائيل. فالعرب الذين يتقلب سلوكهم الدولى الخارجى كالحرباء لا أمان لهم، ولا يجب أن ينخدع الإسرائيليون بالوعود والأمانى والآمال بتحقيق السلام والتطبيع مع العرب؛ ولكن يجب إجبارهم على قبول وتنفيذ السلام وفقاً للمفهوم الإسرائيلى. فاليهود لن يكونوا كأهل طروادة الذين خدعهم اليونانيون بهداياهم، والتى كانت السبب فى هزيمتهم، فإسرائيل تفضل أن تكون جودزيلا على أن تكون بومباى.

كى يتحقق السلام بين العرب وإسرائيل يرى نتنياهو أن تقوم إسرائيل بانتهاج الخطوات التالية - هذه الخطوات أعدها نخبة من الخبراء الأكاديميين المتخصصين فى العلاقات الدولية لنتنياهو عندما كان رئيساً للوزراء عام ١٩٩٦ تحت عنوان Clean A Break وترجمها للعربية وناقشها الدكتور عزمى بشارة. هذه الخطوات كالآتى:

١ - إسرائيل يجب أن تحافظ على تفوقها (الكمى والكيفى) فى مجال التسلح التقليدى وغير التقليدى.

٢ - عدم الانسحاب من أراضى الضفة الغربية والجولان.

٣ - رفض حق العودة لجميع اللاجئين الفلسطينيين.

٤ - الحيلولة دون حصول إيران - أو أية دولة إقليمية - على السلاح النووى.

٥ - الحيلولة دون صعود أية قوى عربية أو إقليمية معادية لإسرائيل.

وفى سبيلها لتحقيق أمنها وتدعيم مكانتها وترسيخ هذا السلام «السلام الإسرائيلى Pax Isrealica» فإن عليها الاستعداد تماماً للتحرك ضد أى خطر أو تهديد يوجه إليها. وأن تثبت القدرة على ردع الأطراف الإقليمية المعادية لها - إما بصورة استباقية أو وقائية - لأن هزيمة إسرائيل مرة واحدة - فى حرب نظامية - تعنى نهايتها للأبد (ص ٣٢٧). وهو ما يتطلب - داخلياً - تسخير جميع موارد الدولة لصالح «الردع»، ودواعى «الأمن القومى». أى أن تكون الدولة هى الجيش، والجيش هو الدولة (نظام بريتونى Praetorian Regime). فقوة اليهود فى دولتهم وقوة دولة إسرائيل فى سكانها (دولة المجندين)، فإسرائيل دولة قامت بالأساس على الخوف



والشعور بالتهديد، ولو تلاشى هذا الشعور أو غاب فإن المجتمع اليهودى سيساق مرة أخرى إلى المسلخ كالخراف ليواجه محرقته الأخيرة.

أما أكثر الأجزاء وقاحة وكذبًا فى الكتاب فهو الجزء الذى يدعى فيه نتنياهو إقدام الحركة الصهيونية والدولة الإسرائيلية على تقديم تنازلات مؤلمة من أجل تحقيق السلام مع العرب، فنتنياهو يقول بأن الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل قامتا خلال القرن العشرين بتقديم «تنازلات كبيرة» (ص ٤٠٩) هذه التنازلات هى:

١ - التنازل عن المطالبة بمياه نهر الليطانى فى جنوب لبنان عام ١٩١٩.

٢ - اقتطاع حوالى ٨٠٪ من أراضى الوطن اليهودى جراء وعد بلفور.

٣ - تنازل الصهيونية من أجل السلام عن سيناء جراء معاهدة كامب ديفيد ١٩٧٩.

٤ - تسليم طابا لمصر عام ١٩٨٩.

هذه النبرة توضح شيئا واحدا وواضحا للجميع وهو: أن حدود دولة إسرائيل من وجهة نظر نتنياهو هى «من النيل إلى الفرات» كما تذهب الدعاوى الصهيونية المتطرفة.

القدس

يرفض نتنياهو البتة التنازل قيد أنملة عن القدس للعرب أو للفلسطينيين. ويرى أن عاصمة ومدينة داود هى أراض يهودية بالأساس؛ وأن العرب و«الأردنيون بالأساس» هم الذين احتلوها قبل عام ١٩٤٨، وقاموا بمذابح ضد السكان اليهود الأصليين للمدينة؛ ولم يسمحوا لهم بإقامة شعائرهم والحج إلى المدينة المقدسة (ص ٤٠٦ - ٤٠٧).

يدعى نتنياهو أن مدينة القدس لم تكن مستقرة أو آمنة إلا عندما كانت فى أيدى اليهود وسيادتهم. وأن الدولة الإسرائيلية لم تقم بأى أفعال هجومية أو عدوانية أو طبقت أية ممارسات عنصرية ضد السكان العرب فى المدينة المقدسة. وعليه فهو يرفض أى شكل من أشكال التنازل أو التفاوض عن السيادة الإسرائيلية واليهودية عن جزء أو كل من مساحة المدينة؛ ويتذرع بأن مثل ذلك التنازل للعرب أو الفلسطينيين قد يحول المدينة لساحة تقاتل دينى وعرقى بين العرب والمسلمين واليهود والمسيحيين.

يرفض نتنياهو ادعاءات اليسار الإسرائيلى (الذين يمقتهم أشد المقت) الداعية للانسحاب من الضفة والجولان والتنازل عن السيادة الإسرائيلية عن القدس (القدس الشرقية على الأصح) ويرى أن هذا التنازل لا يمكن قبوله من جانب حزب الليكود واليمين الصهيونى؛ ويؤيد الخطوات السابقة التى قام بها زعماء من الليكود مثل شامير، وبيجين الذى رفض حتى ذكر مدينة القدس فى مفاوضات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩ (ص ٤٠٧).

الحل الذى يقدمه نتنياهو لحل معضلة مدينة القدس هو إعطاء الفلسطينيين المولودين فى القدس ومنحهم حقوقًا مدنية؛ أى مساواتهم فى الحقوق المدنية مع المواطنين الإسرائيليين دون أن يعنى ذلك أن يكون لهم أى صورة من صور الحكم أو الحقوق «السيادية» على القدس (ص ٤٠٦).

المياه

المياه بالنسبة لنتنياهو مسألة «أمن قومى» National Security (ص ٣٤٤)، حيث يرى أنه لا توجد أى دولة فى العالم يمكن أن تعيش بدون مياه - كالإنسان تمامًا. وبما أن إسرائيل تحصل على ٨٠٪ من احتياجاتها المائية من مناطق لا تقع تحت سيادتها وسيطرتها الفعلية (الضفة الغربية والجولان) فإن هذا الموضوع لا يمكن تجاهله - كما هو الحال الآن - ويتوجب عليها - أى إسرائيل - القيام بجميع السبل المتاحة أمامها (الشرعية وغير الشرعية) بالسيطرة على مناطق استخراج هذه المياه؛ ولا يتوجب عليها التنازل عنها أو الانسحاب منها. فالدول واقعيًا يمكن أن تتنازل عن أية مصالح أو أهداف استراتيجية؛ ولكنها لا يمكن أن تتنازل - طواعية - عن أمنها وبقائها.

نتنياهو - هذا الشكاك - لا يثق أبدًا فى نوايا العرب والفلسطينيين، ويرى أن العرب والفلسطينيين يمكن لهما أن يهددا أمن وبقاء إسرائيل عن طريق «تسميم» منابع المياه. فكما هدد صدام حسين بتلويث مياه الخليج أثناء حرب الخليج الثانية ١٩٩٠ - ١٩٩١ فإن الفلسطينيين قد لا يترددون فى تسميم هذه المياه (ص ٣٤٥)، وهو ما يتوجب على دولة إسرائيل أن تعمل وأن تضمن عدم وقوع هذه المناطق تحت سيطرة وسيادة دولة معادية لها. وهو الأمر الذى لو حدث فإن إسرائيل عليها التحرك بكل جدية لمواجهة مثل هذه الاحتمالات لتسميم المياه (الإرهاب المائى) أو وقوع مناطق هذه المصادر المائية تحت سيادة دولة معادية (سوريا).

ولأن التوقعات المستقبلية للصراع الدولى فى الشرق الأوسط والصحراء الكبرى - الصادرة عن البنك الدولى والأمم المتحدة - ترى أن المياه قد تكون أحد أهم العوامل المؤججة للصراعات والنزاعات فى هذه المناطق، فإن دعاوى وأطروحات نتنياهو تأخذ منحى خطيرًا وجادا للغاية. فكما كان النفط هو العامل المؤجج للصراعات فى عالمنا المعاصر، فمن المحتمل أن تلعب المياه هذا الدور فى المستقبل، خاصة فى ظل تزايد المعلومات والبيانات المتاحة التى تتوقع زيادة نسبة التصحر وارتفاع درجة حرارة الأرض وزيادة نسب الجفاف فى الشرق الأوسط وجنوب الصحراء الكبرى. وهو ما جعل نتنياهو يعتبر مسألة الأمن المائى مسألة أمن قومى.

العرب

إن عنصرية وفوقية النهج الذى انتهجه نتنياهو فى رؤيته للعرب والمسلمين جعلنا نفكر فى التغاضى عن تنازل هذا الموضوع رغم أهميته. هذا «البولندى» ينظر لنا نحن العرب نظرة استشرافية ودونية، فنحن عنده قوم لا ينفع معهم سوى انتهاج أسلوب القوة والإكراه، ولا يصلح معنا أبدًا انتهاج سياسات سلمية مثل المهادنة أو السلام؛ ولكن لا يصلح معنا إلا «الردع» و«المواجهة» و«الضغط» (ص ١٩٠، ١٩١، ٢٥١). ويرى نتنياهو أن العرب قوم «خونة» ويغيرون سلوكهم السياسى مثل الحرباء (ص ١٧٧، ٢٤٣، ٢٤٤، ٣٩٥). فهم يعرضون على إسرائيل السلام باليمنى ويستعدون للكمها باليسرى. والعرب يعتبرون «منظمة التحرير الفلسطينية» حصان طروادة الذين إذا ما اعترفت وأعطت إسرائيل لهم دولة فإنها ستكون «بذرة» الفناء لإسرائيل التى زرعت وسط حديقتهم.

يرى نتنياهو أن العرب قوم منافقون وكذابون (ص ٢٨٤، ٣٩٠) يتخذون من قضية فلسطين ذريعة أو «فزاعة» أو كوسيلة لتحقيق أهدافهم وطموحاتهم للسيطرة والتوسع الإقليمى بالمزايدة على الفلسطينيين أنفسهم. مثلما فعل ناصر وصدام والقذافى (ص ١٦٦ - ١٦٨). والهدف الآخر هو إلهاء الغرب عن الأزمات والمشاكل وصور انتهاك حقوق الإنسان داخل الدول العربية. ثالثًا: تخفيف أعباء التدخل الخارجى والنفوذ الدولى التى تمارسها القوى الدولية على الأنظمة العربية لإجراء التحول الاقتصادى والاجتماعى نحو الغرب؛ متذرعين بأن سبب هذه الصراعات والنزاعات هو «الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين» (انظر الفصل الثالث والرابع)، ورابعًا: تبرير استمرار الأنظمة التسلطية فى الشرق الأوسط والتهديد بأن البديل الحالى لهذه الأنظمة هى

يرى نتنياهو أن العرب قوم منافقون وكذابون (ص ٢٨٤، ٣٩٠) يتخذون من قضية فلسطين ذريعة أو «فزاعة»

الجماعات والأنظمة الراديكالية المعادية للولايات المتحدة والغرب ولإسرائيل مثل إيران وجماعات مثل حماس وحزب الله.

السبيل الوحيد للتعامل مع العرب من وجهة نظر نتنياهو هو فرض سياسة «الأمر الواقع» وذلك عن طريق تعظيم القدرات الدفاعية والهجومية لإسرائيل، وقدرتها على ردع ومواجهة كافة أعدائها فى المنطقة، واشترط الالتزام والاعتراف المسبق بالحدود الآمنة وباستقرار وأمن إسرائيل والاعتراف بها كطرف أصيل وفاعل فى النظام الإقليمى.. العربى(!).

إيـــــــران

الخطر الداهم الذى يهدد وجود وبقاء Survival إسرائيل من وجهة نظر نتنياهو هو وجود أيديولوجية قتالية مثل الإسلام الراديكالى تتحول إلى دولة تمتلك سلاحًا نوويًا مثل إيران. حيث يرى نتنياهو أن سعى الجمهورية الإسلامية الإيرانية للحصول على السلاح النووى خطر وتهديد لا يمكن لإسرائيل التغاضى عنه أو التعايش معه سلميًا.

يعيب نتنياهو على الغرب عامة وعلى الولايات المتحدة الأمريكية خاصة هامشية اهتمامها بالتهديدات التى يمثلها سعى إيران للحصول على السلاح النووى فى ظل استمرار نظام حكم الملالى الراديكالى الذى يشجع أبناءه ويرسلهم للانتحار فى سبيل ما يؤمنون به.ألا وهو تدمير دولة إسرائيل (محوها من على الخريطة). متعجبًا من لا مبالاة القوى الغربية بهذه التحديات والتهديدات، بل ورضاها عنها بقبولها تحول إيران إلى قوى نووية.

يرى نتنياهو أن اليهود لن يكونوا شعبًا من الخراف يساق للمسلخ طوعًا مثلما حدث خلال الحرب العالمية الثانية وكما كانوا عبر التاريخ (ص ٤٢٨)، وعليه فإنه يشجع بشدة تحركًا دوليًا «عسكريًا» لمواجهة السعى الإيرانى للحصول على السلاح النووى: مثلما فعلت هى فى العراق عام ١٩٨١ عندما دمرت مفاعل تموز العراقى بضربة جوية استباقية، ودون أن تحصل على كلمة شكر واحدة من العرب لتخليصهم من الخطر العراقى (ص ١٨٣).

يروج نتنياهو ـ وهو فى ذلك محق ـ بأن السعى الإيرانى للحصول على السلاح النووى بالتأكيد سيقلب توازن القوى الإقليمى فى الشرق الأوسط؛ وسيغذى سباق التسلح التقليدى فى المنطقة؛ والذى قد يتطور لاندلاع حرب إقليمية بين العرب وإسرائيل ـ فى ظل تواجد المظلة النووية الإيرانية الحليفة(!) للعرب. وهو الأمر الكفيل بتدمير إسرائيل للأبد. فإسرائيل وعلى العكس من جميع الوحدات الدولية فى النظام الدولى فإن هزيمتها مرة واحدة فى الحرب يعنى «نهاية دولة إسرائيل للأبد» (ص ٣٢٧).



من أجل الحيلولة دون وقوع ذلك؛ يرى نتنياهو أن على القوى العظمى الوحيدة فى النظام الدولى Unipolar انتهاج سياسة تغيير النظام Regime Change فى إيران، وممارسة سياسة الحصار Sanction والمقاطعة Boycott والاحتواء Containment الدبلوماسى والاقتصادى على إيران بغرض إحداث تغيير هيكلى فى بنية النظام السياسى الإيرانى. الذى يراه نتنياهو نظامًا «مجنونًا» ويعانى من وجود تشوهات نفسية وثقافية عميقة، تكره الغرب وتحتقره وتريد تدميره تمامًا. وهو ما يعنى أن إيران والسلام الراديكالى خطر وتهديد ليس فقط على إسرائيل، ولكن على البشرية كلها (ص ٤٢٥) وهو ما يحتم مواجهة مثل هذا «الورم السرطانى» بجميع السبل.

العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية

فى تطرقه لموضوع العلاقات الإسرائيلية ـ الأمريكية يظهر نتنياهو كثيرًا من الوقاحة وعدم الاعتراف بالجميل. فالقوى العظمى ـ التى لولاها ما قامت دولة إسرائيل، وبفضل التبرعات والإسهامات المالية الرسمية والشعبية الأمريكية ما ضمنت إسرائيل مستوى رفاهية مثل الذى تنعم به هذه الدولة الطفيلية ـ لقيت جزاء سنمار من إسرائيل ومن بنيامين نتنياهو الذى حصل هو بنفسه على «منحة» تعليمية لاستكمال تعليمه من جامعة MIT فى بوسطن.

نتنياهو فى كتابه هذا لا ينكر الجميل الأمريكى الذى قدمته لإسرائيل، وإنما يلومها على بعض المواقف «المتخاذلة» ـ من وجهة نظره ـ التى اتخذتها بعض الإدارات الأمريكية مثل إدارة أيزنهاور فى موقفها من عدوان ١٩٥٦ وموقف جورج بوش الأب عقب حرب الخليج الثانية من المستوطنات. لكنه لا يلبث أن يعود لرشده ويعترف بالدور الحيوى لإدارات أمريكية مثل إدارات جونسون وريجان وكلينتون فى إنشاء وتدعيم وحماية ودعم أمن وبقاء دولة إسرائيل. ولكن نكرانه للجميل (كصفة شخصية ملازمة له) يتسيد رؤيته تجاه الولايات المتحدة التى يرى «حتمية» فك الارتباط معها، وانتهاج سياسة إسرائيلية مستقلة (داخليًا وخارجيًا) (ص ٤٥٤ ـ ٤٥٦).

فنتنياهو يروج بأن الولايات المتحدة هى التى تحتاج إسرائيل وليس العكس كما يروج البعض. (ص ٤٥٦ ـ ٤٥٩)، حيث يرى نتنياهو أن الأهمية الاستراتيجية Strategic Asset لإسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة منذ نهاية الحرب الباردة قد ازدادت أهمية وليس العكس. فهو يرى ـ عكس الرؤية الواقعية التى طرحها عالما السياسة الأمريكية Mearsheimer and Walt فى دراستهما الحدث عن دور اللوبى الإسرائيلى فى السياسة الخارجية الأمريكية عام ٢٠٠٦ أن زوال الخطر والتهديد السوفيتى وتحول بنية النظام الدولى من نظام ثنائى القطبية Bipolarity إلى نظام أحادى القطبية Unipolarity قد تبعه الاتحاد السوفيتى السابق على المصالح والقيم الأمريكية. فنتنياهو يروج الآن لاعتبار سعى إيران لامتلاك أسلحة الدمار الشامل، وسعى بعض النظم المتطرفة فى الشرق الأوسط (ليبيا وسوريا) إلى الحصول على أسلحة دمار شامل من الجمهوريات السوفيتية السابقة، والسباق المحموم للتسلح التقليدى فى الشرق الأوسط. والأهم من هذا كله صعود التهديد الذى يمثله الإسلام الراديكالى على المصالح والقيم ـ ليس فقط الأمريكية ـ الإنسانية والغربية. كل هذه المخاطر تجعل إسرائيل أكثر أهمية للولايات المتحدة عما كانت عليه أثناء الحرب الباردة.. فالحرب الأمريكية على الإرهاب ومكافحة انتشار الأسلحة النووية بالتأكيد مازالت ساخنة.. لم يبرد لهيبها بعد.

يحدد نتنياهو مستقبل العلاقات مع الولايات المتحدة على أساس «الندية»، بمعنى أن على إسرائيل أن تزيح من على كاهلها العبء والقيد الأمريكى الذى يقيد حركتها الدولية والخارجية. ويعيق تقدمها الاقتصادى والتنموى، بصورة يمنعها من تكرار نموذج هونج كونج أو سنغافورة فى الشرق الأوسط (ص ٤٥٦). ويطالب نتنياهو بتحويل المعونة الأمريكية لإسرائيل (حوالى ٣ بلايين دولار سنويًا) إلى استثمار مباشر، بصورة تفيد إسرائيل وتدفع عجلة التحول الاقتصادى والتنموى فيها قدمًا بصورة أفضل. ويشترط نتنياهو أن تحافظ إسرائيل على حالة «احتلال Imbalance» توازن القوى لصالحها

والسائدة الآن بينها وبين جيرانها العرب؛ لأنها متأكدة - كما يقول نتنياهو - بأنه «إذا لم تكن إسرائيل قوية» فإن الولايات المتحدة الأمريكية لن تدافع عنها، ففى ظل عالم تحكمه ميكانيزم احم نفسك Self- Help فإنك «إذا لم تقدر أن تدافع عن نفسك، فلن يدافع عنك أحد» (ص ٤٥٨). وإسرائيل لو أصبحت ضعيفة، وقام العرب - مجازيًا - بهجوم مفاجئ على إسرائيل «الضعيفة» فإن الولايات المتحدة - وبالطبع الغرب - عندما يهبون لنجدتها والدفاع عنها «لن يجدوا ما ينقذونه» كما ذكرت جولدا مائير قبيل حرب ١٩٧٣ (ص ٤٠٠). وهو ما يوجب - عند نتنياهو - أن تكون قوة إسرائيل - حتى فى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية - مسألة لا مناص منها.

خـــاتمـــة

لا مكان للعرب تحت شمس نتنياهو

إذا كان الأستاذ محمد حسنين هيكل يفضل من دون جميع قادة إسرائيل «أرائيل شارون» لأنه يعكس لدى الأستاذ الأجندة الحقيقية لليمين الصهيونى، فإننى من ناحيتى أفضل «بنيامين نتنياهو» وأرى فيه المنظر الرئيسى للفكر اليمينى الصهيونى على حقيقته. ويتشابه شارون ونتنياهو فى أن كليهما يتحدث بصراحة - بل وبوقاحة - على الأجندة التى يريدون تحقيقها وفى رؤيتهم للعرب والفلسطينيين.

على الشاطئ الآخر من النهر هناك الجناح اليمينى الذى يمثله شمعون بيريز (الذى يدعوه نتنياهو باليسارى). والذى ينتهج أسلوب المهادنة والتحذلق وادعاء الصداقة والمنفعة المتبادلة بين العرب وإسرائيل لترويج أجندة إسرائيل فى المنطقة. كما يتضح بفجاجة فى كتابه الصادر عام ١٩٩٣ «الشرق الأوسط الجديد». إن المرء قد يخدع فى رجال من نوعية بيريز ويصدق ادعاءاتهم الكاذبة، وبالتالى تكون لدغته أكثر إيلامًا «جسديًا ونفسيًا»، أما رجال من نوعية شارون ونتنياهو، فإن المرء لا يجب أن يكرههم أو ينفر منهم (فكراهية عدوك تؤثر على حكمك)، والعربى كما يجب ألا يحب عدوه(!) يجب عليه أكثر ألا يكرهه، لأن هذه الكراهية تعيقه عن اتخاذ قرارات صائبة وعقلانية فى تعامله معه، وبالتالى يعطى الفرصة لعدوه للتفوق عليه. ولكن يجب على المرا العربى أن يفهم شخصية وسلوك عدوه ويحدد بعد ذلك أفضل الأماكن المؤثرة عليه والكفيلة بقتله.

إن العرب والفلسطينيين فى ظل الظروف الدولية والإقليمية والمحلية التى تحيط بهم كان آخر شىء يريدون التعامل معه هو حكومة إسرائيلية بقيادة نتنياهو، ولكن «هذا ما حدث» ولا مفر. فإذا لم يتكتل العرب ويحاولوا إيجاد استراتيجية موحدة - أو منفردة - لمواجهة أجندة نتنياهو التى عرضناها كما جاءت فى كتابه، فإن المرء بكل واقعية يستطيع أن يقول: «بأن العرب والفلسطينيين سيواجهون عواقب وخيمة وتداعيات خطيرة إذا لم يقوموا بردع حكومة نتنياهو عما تزمع القيام به وإحداثه فى المنطقة خلال السنوات الأربع القادمة».

إننى أرى.. أن نتنياهو سينتهج سياسات عدائية ضد الفلسطينيين، ولن يكون هناك دولة فلسطينية فى المستقبل القريب، وقد يكون هناك عدوان جديد على الضفة الغربية والقطاع. وبالتأكيد سوف تعمل حكومة نتنياهو اليمينية المتطرفة على زيادة وتيرة تهويد القدس الشريف وطرد المقدسيين العرب منها. وبالنسبة لسوريا، لن ينسحب نتنياهو من هضبة الجولان. مهما راقت ونعمت تصريحاته ووعوده بقرب عقد سلام مع سوريا. سوف يقوم نتنياهو بعمل عسكرى ضد إيران (منفردًا أو بالتنسيق مع الولايات المتحدة الأمريكية). وستتدهور العلاقات الأمريكية - الإسرائيلية خلال إدارة نتنياهو - ولكنها لن تصل أبدًا لحد العداء أو القطيعة. فلنتنياهو نفوذه الخطير داخل أروقة المنظمات الإسرائيلية - الأمريكية وداخل الكونجرس، بل وداخل البيت الأبيض ذاته. وعلى العكس مما هو متوقع تمامًا سوف تشهد العلاقات المصرية - الإسرائيلية تحسنًا شديدًا للغاية فى العلاقات بين البلدين، والتى كانت توصف دائمًا بأنها «باردة».. والمستقبل خير اختبار. ■



الحكماء يتكلمون

يقول المثل: «إذا نبح كلب عجوز، فإنه يقدم نصيحة».

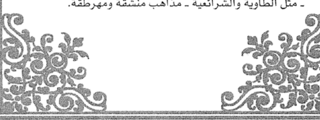
المسنون الذين يسيرون على طرقات أكثر، ويأكلون أطعمة أكثر، ويقرأون كتبًا أكثر، لديهم خبرة أكثر، ويتمتعون بسعادة أكثر، ويعانون من مشقات أكثر، ويكونون ذوى خبرة ومعرفة مع تجربة حياة أكثر ثراء. إن هؤلاء العمالقة المثقفين الذين بزغوا فى التاريخ الصينى تركوا وراءهم مقالاتهم المشهورة الخالدة، وهى التراث الحضارى المشترك للبشرية كلها.

سلسلة «الحكماء يتكلمون» الصادرة فى بيروت عن «الدار العربية للعلوم» جمعت أقوال هؤلاء العمالقة.

كانت فترة الربيع والخريف (٧٢٢ - ٤٨١ ق. م) وفترة الممالك المتحاربة (٤٧٥ - ٢٢١ ق. م) من تاريخ الصين، فترتين ذهبيتين للفكر الصينى القديم. بزغت خلالهما مدارس فكرية عديدة وتبارت. شملت تلك المدارس: المدرسة الطاوية، والمدرسة الكونفوشيوسية، والمدرسة الموهية، والمدرسة المنطقية، والمدرسة الشرائعية، والمدرسة العسكرية، ومدرسة ين ويانغ، وغيرها من المدارس التى لا يحصى عددها.

احتشد ممثلو تلك المدارس الفكرية فيما بعد فى أكاديمية جيشيا لمملكة تشى. كان العلماء يتجادلون فى ندوات، ويكتبون الكتب لشرح وتفسير مبادئهم ومذاهبهم: دعا بعضهم إلى الخير، فيما دعا بعضهم الآخر إلى الاستقامة، ودعا آخرون إلى اللافعل، وغيرهم إلى الحرية المطلقة.. وقال البعض إن طبيعة الإنسان هى الخير، فيما قال آخرون إن طبيعة الإنسان هى الشر، كما قال البعض إن الأقارب ليسوا أقارب، وقال آخرون إن الخيل ليست خيلاً، وحث البعض على أهمية معرفة الذات وعدو الذات، وجميعهم تركوا خلفهم أعمالاً ثقافية كلاسيكية رائعة وكثيرة.

لسوء الحظ، لم يستمر ذلك الوضع طويلاً، إذ عندما وحّد تشين شى هوانغ (على العرش ٢٢١ - ٢٠٦ ق. م) الممالك المتحاربة، وحكم كأول إمبراطور للصين، أصدر رئيس وزرائه، لى سى، أمرًا بحرق جميع الكتب باستثناء كتب الطب، والتنجيم، وزراعة الأشجار. بذلك دُمرت كل كلاسيكيات المدارس الفكرية المتعددة. اتخذ الإمبراطور وو (١٤٠ - ٨٨ ق. م) لأسرة هان الغربية، الكونفوشيوسية مذهبًا رسميًا للدولة، واعتُبرت المدارس الأخرى - مثل الطاوية والشرائعية - مذاهب منشقة ومهرطقة.



هل يفعلها أوباما حقا؟!

حسين أغا . روبرت مالاى
Hussein Agha, Robert Malley

التحدى المتمثل فى إنهاء الصراع الإسرائيلى الفلسطينى
كلية حول ترقيع
تفاصيل «حل الدولتين»



[١]

■■ وفقا لكل القياسات الواقعية - الاسم والعرق والأصول والتنشئة - يعد باراك حسين أوباما حقا مرشحا رئاسيا ثوريا، فبالنسبة لسياسة الشرق الأوسط فعلى الأقل يتوافر لدينا مبرر ولو كان ضئيلا يجعلنا نتخيل أنه سوف يكون رئيسا ثوريا. كان الانتهاك المتطرف للسياسة الأمريكية التقليدية التى اتبعتها إدارة بوش والتى من خلالها قامت الولايات المتحدة الأمريكية بغزو واحتلال العراق واستبعاد ونبذ سوريا وتورطها فى الحرب بشغف شديد وغير مسئول لإعادة تشكيل المنطقة. سببا فى اعتبار الفترة الرئاسية لبوش بمثابة بركان ثائر حيث كانت الولايات المتحدة منقادة انقيادا أعمى لنظرة ايديولوجية جامدة فضلا عن ميلها الشاذ والبغيض لاختيار وتفضيل الوسائل العسكرية على الدبلوماسية. سوف تكون الخطوة الأولى لأوباما هى وضع نهاية لتلك الفترة العاصفة وهذا فى حد ذاته يعد انجازا لا يستهان به.

تحتل أجندة أوباما الخاصة بالشرق الأوسط مركز التكهنات الأعظم ويعد قلب هذه التكهنات هو السؤال حول قضية الصراع الإسرائيلى الفلسطينى. تتوفر بعض المؤشرات الدالة على أن الرئيس وفريقه ملتزمون تماما بالإطار العملى الواقعى والمتأنى فالحقيقة البادية عليهم انهم يأخذون وقتهم بالكامل فى مراجعة السياسات والتشاور على نطاق واسع. ومن النقاط التى كانت موضعا لدراسة فريق أوباما تلك المحاولة المتهورة لفرض نظام جديد فى الشرق الأوسط والتى قامت بها إدارة بوش وأيضا جهود بل كلينتون المتعجلة للوصول إلى تسوية شاملة. تعد بؤرة اهتمام إدارة أوباما هى على الأقل الشروع فى تحسين الأوضاع على الأرض ويشمل ذلك الوضع الاقتصادى فى الضفة الغربية. كذلك فإن لم يتم الوقف الكامل لعملية بناء المستوطنات الإسرائيلية فعلى الأقل كبح هذه العملية ومتابعة إعادة هيكلة وتشكيل قوات الأمن الفلسطينية وتحسين العلاقات بين إسرائيل والدول العربية.

ولكن يلاحظ أن ثمة طموحا كبيرا يفرض تواجده. لم يراهن أوباما بولايته الرئاسية على حل النزاع ولكنه لم يخجل من التحدى. الحكم على ما تم التوصل إليه من اقتراحات من قبل أوباما ورفاقه بشأن النزاع الإسرائيلى الفلسطينى يعتبر قضية ترتبط بالمصالح القومية الأمريكية. يبدو أن ادارة أوباما تستعد لتكريس عاصمة يعتد بها دبلوماسيا واقتصاديا وربما سياسيا لتحقيق هدفها وعندما تتم تسوية قضية الأرض فسوف يكون الهدف هو الوصول إلى حل الدولتين الشامل.

من الوهلة الأولى يتوافر أكثر من مبرر لجعل الحيرة والشك يتفوقان على الثبات واليقين فإذا كان هذا هو هدف الرئيس أوباما فإن هذا الهدف سوف يكون محاطا بظروف مشئومة غير مواتية. فى اسرائيل فقد تم استبدال رئيس الوزراء ايهود أولمرت - الذى لم يمل من تكرار تأكيده التزامه بالدولة الفلسطينية - بآخر وهو بينيامين نيتنياهو الذى يسمح لنفسه بشكل ظاهر للعيان أن يروج للكلام الزائف. يتسبب شركاؤه فى الائتلاف - وهم خليط من اليمينيين والاحزاب الدينية والذين يكنون كراهية شديدة للأجانب - فى جعل الأمور أكثر سوءا، حتى المشاركة من جانب إيهود باراك وحزبه العمل فى الائتلاف لا تعطى الا إحساسا ضئيلا بالراحة. كان باراك رئيسا للوزراء عندما تم تقويض المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية فى كامب ديفيد عام ٢٠٠٠ حيث كان الدرس الأساسى الذى لاح لديه هو الشك فى كل ما هو فلسطينى فى حين كان وزير الدفاع الذى ينتمى لأولمرت يضمر بشكل ظاهر ازدرائه لكافة المحادثات التى أقامها الفلسطينيون مع حكومته وقام بطردهم واصفا تلك المحادثات بالحلقة الدراسية.

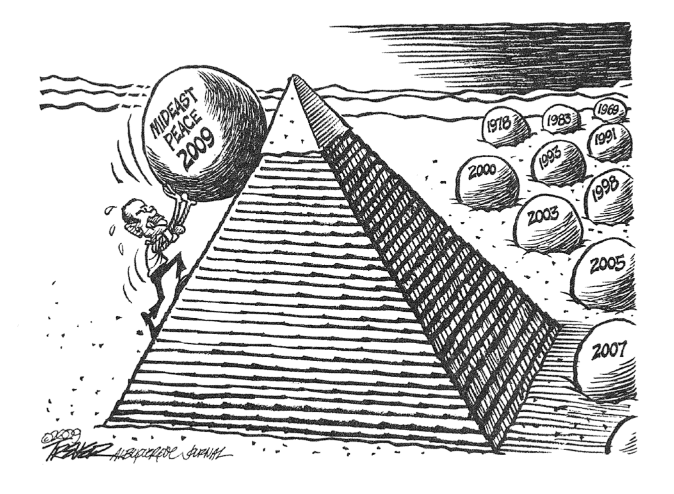
فيما يبدو أنه من الصعب أن يذهب هذا التحالف الجديد لأبعد مما فعل سلفه وهذا من وجهة النظر الفلسطينية يعد غير كاف.

على الجانب الفلسطينى فقد باءت محادثات المصالحة التى تبنتها الوساطة المصرية المكثفة بالفشل فى التقريب بين الحركتين الوطنيتين فتح وحماس وتحت أى ظروف فإن الثمن الباهظ الذى دفعوه مقابلا للفرقة بينهم كان هو تفجير الأوضاع فى غزة واشتعال الحرب فى شهرى ديسمبر ويناير بين اسرائيل وفلسطين. وإذا كانت لا تزال هناك حاجة إلى إثبات فإن هذا الصراع قد أثبت أن الرئيس محمود عباس لن يستطيع الحديث حول السلام ما دامت إسرائيل مستمرة فى الحرب ضد الفلسطينيين وأن الفلسطينيين لن يستطيعوا أن يقيموا سلاما مع إسرائيل طالما أنهم فى حرب مع أنفسهم. تمتلك حماس القوة لإفساد أى تطور وسوف تستخدمها، تستطيع أن تتصرف كخصم عنيد ضد أى محاولة فلسطينية قيمة للتسوية. المفاوضات الثنائية التى فشلت عندما كان أولمرت رئيسا للوزراء وكانت حماس مجرد زمرة فلسطينية من المستبعد أن تنجح بعد انتقال الدفة إلى نيتانياهو وتحول حماس إلى حقيقة إقليمية.

وبرغم هذه الصورة الكئيبة فإن إدارة أوباما مصممة على الضغط من أجل

بترتيب مع:
New York Review of books

ترجمة: إيمان عبدالهادى الكيلانى



التوصل إلى اتفاق نهائى قد يكون السبب فى ذلك توافر اعتبارات أخرى لدى أوباما. من ناحية ما هو ينوى الالتفاف حول المفاوضات بين الأطراف معتمدا على تضافر الدعم العالمى واسع النطاق والذى يشمل الدول العربية وروسيا والاتحاد الأوروبى عارضا حل الدولتين بكل تفاصيله، وبذلك يكون قد وضعهم تحت ضغط شديد يمنعهم من الرفض. ينبع هذا المفهوم من نظرية مؤداها أن كلا من القيادتين الإسرائيلية والفلسطينية- طبقا لخلفية من التحايلات والمكائد -غير قادرتين على التوصل إلى اتفاق وذلك يحتم حشدا عالميا من أجل الضغط والإقناع للتوصل إلى آخر الخطوات الحاسمة.

إنه خيار واحد ولكن قبل القفز تجاهه فهناك قضايا جوهرية لابد من استكشافها. دفع الزعماء لتأييد اتفاق السلام لن يكون عاديا ولكن ذلك ربما لا يكون التحدى الأكبر. السؤال الآخر هو كيف سيرحب كل من الشعبين الاسرائيلى والفلسطينى فى ظل المناخ الحالى بحل الدولتين؟ وهل ستكون النظرة إليه كحل شرعى أم غير شرعى؟ هل سينظرون إليه كنهاية للصراع أم مجرد بداية لجولة جديدة؟ هل سيكون ذا فعالية أكبر فى حشد المؤيدين أم تحفيز المعارضين؟ خلاصة القول ما الحل الذى سيقدمه بالفعل «حل الدولتين»؟

[٢]

فى الآونة الأخيرة يدور التحدى المتمثل فى إنهاء الصراع الاسرائيلى الفلسطينى كلية حول ترقيع تفاصيل «حل الدولتين»، كما أن الجهود المبذولة للتسوية سواء كانت رسمية أم غير رسمية تركز على عملية تعديل نسب ضم الأراضى وتبادل الأراضى والتعريف بالحدود وبأشكال السيادة على القدس أخذا فى الاعتبار ما يخص الدولة الفلسطينية ووصف سماتها ويتوجه الاهتمام الأعظم إلى إيجاد التقنية لإعادة توطين وتعويض اللاجئين. إن الفشل والعجز المتكررين فى تلبية تطلعات الجانبين الاسرائيلى والفلسطينى بالقطع يثير الحيرة ولكن هذه الصعوبات لا تشكك فى الافتراض بأن توازن المصالح أمر حتمى ولابد من توافره فى «الحل القائم على الدولتين» بشكل جاد.

لم يتمكن الرئيس عباس ورئيس الوزراء أولمرت من التوصل إلى تسوية عام ٢٠٠٨ انطلاقا من الأهداف التى كانت محددة لمؤتمر أنابوليس ولكن ذلك لا يدعو للشك فى الفرضية القائلة بأن المزيد من المحاولات قد يعطى نتائج مختلفة . يعرف عباس بأنه أكثر الزعماء الفلسطينيين واقعية ،أولمرت سلك طريقا غير مباشرا لمعسكر السلام وهو يبدى إيمانا بحتمية التغيير ولو كان ذلك آجلا. بعد شهور من المحادثات رفض عباس اقتراحا اسرائيليا بالتنازل متعلقا بحجم الأرض المحتلة التى تخص الفلسطينيين والذى كان موضع رفض ياسر عرفات قبل ثمانى سنوات وتعرض للشجب بصفته خصما عنيدا للسلام ، ليس هناك سبب يدعو إلى الاعتقاد بأن المزيد من التغيير والتبديل فى الاتفاق قد يحدث اختلافا.

اتفاقية الدولتين لكى يتم تفعيلها فلابد أن تخاطب إلى حد كبير تطلعات الجانبين فتحفظ لاسرائيل هويتها اليهودية وتمنحها الحدود النهائية المعترف بها وتظل بذلك محتفظة بالأماكن المقدسة اليهودية، ويعيش الفلسطينيون فى الضفة الغربية وغزة متحررين من الاحتلال الاسرائيلى ويحكمون الاماكن المقدسة الإسلامية فى القدس ويحصل اللاجئون على فرصتهم فى اختيار حياة طبيعية من خلال إعادة توطينهم وتعويضهم. إذا كان بالإمكان تحقيق هذه الاهداف فلماذا تثبت الاطراف عدم القدرة على تسوية النزاع؟

إن التطلعات تعكس التجربة التاريخية وبالنسبة إلى يهود اسرائيل فإن هذه التجربة تشتمل على التشريد والاضطهاد وحياة الجيتو وفظائع المحرقة والبحث الطويل المحبط عن وطن طبيعى مقبول ومعترف به. ثمة توق شديد لمستقبل لا يسمع فيه صدى الماضى ويتوفر فيه الامن لليهود. والقبول بالتواجد اليهودى فى المنطقة بدون إبداء أية تساؤلات حول هذا التواجد ولكن هذا غير مضمون حتى بالتفوق العسكرى الخارق.

بالنسبة للفلسطينيين فإن مطالبهم الاولية تتعلق بتجربتهم التاريخية المتمثلة فى انتزاع الملكيات والطرد والتشتيت والتشريد والمذابح والاحتلال والتعصب وامتهان الكرامة والاصرار على قتل زعمائهم وتمزيق السياسة الوطنية لهم بلا هوادة. انهم يريدون الانصاف والتعويض.

إن توق الجانبين الاسرائيلى والفلسطينى لتحقيق تطلعاتهم من خلال اتفاقية الدولتين سوف يرتبط بصعوبة وفاء هذه الاتفاقية بكافة الوعود. لقد تطور الهدف على مر السنين من الرغبة فى الوصول إلى سلام إلى الحل القائم على الدولتين. قد تعطى هذه الاهداف الانطباع باشتراكها فى المغزى ولكن ليست هذه هى الحقيقة فالسلام قد يكون ممكنا من دون اتفاق من هذا القبيل كما أن مثل هذا الاتفاق لا يلزم بالضرورة أن يؤدى إلى سلام، يمكن ان يكون تقسيم الارض وسيلة هامة لتحقيق دولة قابلة للحياة ودائمة وتعايش سلمى بين الاسرائيليين والفلسطينيين ولكن ذلك ليس نهاية المطاف.

[٣]

إن فكرة إنشاء دولة فلسطينية إلى جانب اسرائيل طالما كانت مثيرة للاضطراب والقلق منذ خطة بريطانيا لعام ١٩٣٠ وحتى خطة التقسيم من قبل الامم المتحدة لعام ١٩٤٧ ، ان التقسيم يعنى القبول بمساحة اقل من المساحة الكلية التى كانت متاحة وقت الانتداب البريطانى، يتم تقليص حقوق اللاجئين الفلسطينيين الذين اعتقلوا أو طردوا أو فروا فى عام ١٩٤٨. وطبقا لتاريخها فان حركة التحرير الفلسطينية لن تجد ما تفعله. ولن يلين الاسرائيليين الذين لا يبدون حماسا لفكرة إقامة الدولة الفلسطينية ويرونه حلا مصطنعا وبعيد التطبيق لما ينطوى عليه من مخاطرة خاصة أن الكثير من العرب والفلسطينيين ينكرون على الاسرائيليين تبادل الحق فى دولة يهودية.

فى أواخر الثمانينيات قبل الفلسطينيون بحل الدولتين ولكنه كان قبولا على مضض إلى حد ما، فقد كان الحل يقود إلى القضية الوطنية ولكنه لم يكن يتطابق كلية مع التطلعات الوطنية الفلسطينية، إنه حل يخاطب العقل ولكن لا يرتقى إلى الوصول للقلب. خلافا للصهاينة الذين تتضح أهدافهم امام أعينهم فى إقامة الدولة اليهودية فإن الفلسطينيين لديهم مبدئيا أهداف إضافية على إقامة الدولة الفلسطينية واذا كان غياب الدولة الفلسطينية ليس هو المصدر الوحيد لسوء الحظ فإن إقامتها لن تكون الحل الشامل الذى يحقق أهداف الفلسطينيين.

تبنى فكرة إقامة الدولة كان بشكل أساسى من صنع يدى رجل متفرد، بتقدير عال لقيمة الوقت وبدهاء وبراعة سياسية وبجسارة مشهودة وتحد، غير ياسر عرفات من موقف حركته ولم تكن جهوده خالية من الغموض ، لقد تداخل فى اللعبة السياسية بين الفلسطينيين والاسرائيليين على نحو أقلق الاسرائيليين من خلال تقديم حل الدولة كحل ومحطة على طريق المفاوضات . فقد توصل إلى حل وسط بين القبول بالدولة الاسرائيلية بحدود ١٩٦٧ ويعد ذلك مكسبا كما ربط بين الاثباتات التاريخية النابعة من الدفاع عن الكرامة والشرف وبين مسألة التقسيم، واستطاع أن يقنع الغرب واسرائيل بصدقه فى الاعتقاد بحل الدولتين مستندا إلى سجل حافل من النضال وتحمل المسئولية وكان هذا السجل هو الكنز الثمين الذى ساعده فى الترويج لفكرة الدولتين لدى شعبه.

لا يمتد مفهوم الدولة بين الفلسطينيين إلى زمن بعيد حيث عانى هذا المفهوم من محاولات دحضه خاصة على أيدى البعض من اللذين يحاولون تجريده من مغزاه الحقيقى. ولكن جوهر ومضمون هذا المفهوم كان مستهدفا للكثير من المفاوضات الاسرائيلية - الفلسطينية الرسمية وغير الرسمية وهو يعكس بوضوح ما يريده الفلسطينيون ويوضح المؤيدون له أسبابهم وطريقة تنفيذه وسياقه المحلى والاقليمى، لايحكم الفلسطينيون على

من الصعب أن تثير اهتمام الفلسطينيين بمشروع يستهدف بوضوح حماية مصالح العدو التاريخى «إسرائيل»

فكرة الدولة من حيث الجدارة فقط ولكن من حيث الشراكة أيضا.

[٤]

بدأت الألفية الجديدة بقبول شبه عالمى لفكرة إقامة الدولة الفلسطينية فى وقت كان فيه تأييد هذه الفكرة بين الفلسطينيين آخذا فى الانخفاض. الرئيس بوش يعد أول رئيس أمريكى يؤيد هذه الفكرة ويضعها فى إطار الرد على الصراع الإسرائيلى الفلسطينى محاولا التسارع فى تضييق التحدى للحد الادنى لمهمة بناء مؤسسات الدولة، لقد تاهت فكرة النضال والهالة الثورية التى ظللت فكر عرفات ، لم يعد محور النضال هو الحرية وإنهاء الاحتلال بل أصبحت إقامة الهياكل الحكومية هى المحور الأهم.

واحدة فقط من أكثر موروثات بوش خبثا وعمقا وغموضا قد تتسبب فى تحويل فكرة الدولة الفلسطينية من بين الأفكار الأكثر ثورية وحيوية إلى حيز الأفكار الرتيبة التقليدية، جزء صغير من الفلسطينيين معظمهم من النخبة التابعة للسلطة الفلسطينية رأوا أن بناء مؤسسات الدولة يحقق مصالحهم وهم بالفعل بدأوا العمل، بالنسبة للأغلبية فإن هذا المشروع قد لا يلبى مصالحهم السياسية الأصلية.

اليوم فكرة الدولة الفلسطينية ما تزال على قيد الحياة ولكنها خارج فلسطين. أصبح إرساء دولة أمر ذو أولوية قصوى بالنسبة للأوروبيين اللذين يرون أنه جوهرى لتحقيق الإستقرار فى المنطقة والحد من التطرف. وبالنسبة للأمريكيين فهم يرحبون بهذا الأمر باعتباره محور الجهود المبذولة لإحتواء إيران والإسلاميين المتشددين وتشكيل ائتلاف بين ما يطلق عليها الدول العربية المعتدلة واسرائيل. حتى بالنسبة لعدد كبير من الاسرائيليين الذين صاروا يعتقدون أنه الحل الوحيد الفعال للرد على تهديد وجود اسرائيل الذى تمثله الديوجرافية العربية .قد تكون كل هذه الاسباب وجيهة على الرغم من عدم تميز أيا منها بأهمية خاصة لدى الفلسطينيين، حيث يستبعد كل منها فى رؤيته للدولة الفلسطينية الهدف الأساسى الذى يكمن وراء النضال الفلسطينى.

إن التأييد العالمى لفكرة الدولتين له سلبياته فكلما زاد توجه أمريكا والغرب لهذه الفكرة ناهيك عن اسرائيل وما تحصل عليه من فوائد كلما قل التخاطب مع الفلسطينيين. ومن الصعب أن تثير اهتمام الفلسطينيين بمشروع يستهدف بوضوح حماية مصالح العدو التاريخى«اسرائيل» ويهزم واحدة من منظماتهم السياسية«حماس» ويسعى لإنقاذ الأنظمة العربية الموالية للغرب لما تبديه من التعاطف والولاء. يشعر العديد من الفلسطينيين أن مفهوم الدولة قد تعرض للقرصنة التاريخية من قبل الذين قللوا من قيمته وعارضوه عندما كان فكرة فلسطينية ليؤيدوه بعد أن حولوه لفكرة خاصة بهم. إن عملية إضفاء الشرعية على الدولة أمام العيون على المستوى الدولى قد ساعد فى تشويه تلك الشرعية أمام أعين المستفيدين المستهدفين منها.

لقد تعرض مفهوم الدولة للتشويه بما صدر عن مروجيه الفلسطينيين فاليوم لم يعد العديد من الفلسطينيين يرون زعماءهم بأنهم ينفذون مشروعا وطنيا ولكنهم يرونهم كأدوات تم تصميمها خارجيا تستهدف خدمة ودعم فصيلة فلسطينية ضد أخرى. عندما تسعى السلطة الفلسطينية إلى التوجيه فلابد ان ننظر إلى الخارج: إلى الولايات المتحدة للحكم على ما إذا كان من المفترض لبرنامج حكومة وحدة وطنية سوف يكون وافيا للغرض أم للمساعدة فى وضع خطة أمنية لإسرائيل تساعدها على مواجهة التحدى الاسلامى لمصر وباقى العالم لكيفية التعامل مع قطاع غزة.

وفى كل ذلك فإن خيارات السياسة العامة للسلطة الفلسطينية لا تعطى تفضيلا للمشكلة الفلسطينية نفسها ولا تركز على المصلحة الوطنية للفلسطينيين بل تعطى الأولوية لما يجب أن تكون عليه الأمور طبقا للمفهوم الأجنبى. وعلى جانب القادة الفلسطينيين فإنهم قد يختارون مواجهة حماس من أجل الوحدة أو ربما لسبب آخر. والقرار الذى سيتم العمل به قد يأتى بنتائج عكسية على الأقل سوف يكون قرارهم، انهم يتصرفون ويتحدثون فى الوقت الحاضر وكأنهم على رأس الفلسطينيين -الاكثر احتراما- بينما هم فى واقع الامر يتركون مهمة اصلاح الاوضاع المضطربة لآخرين. كل هذه العوامل تقلل من مكانة السلطة الفلسطينية حتى فى نظر الكثيرين ممن يدعمون برنامجها وتضخم من معارضتها حتى من جانب الكثيرين ممن لا يشتركون أصلا فى شئ مع الاسلاميين.

لم يكن أيا من ذلك متعمدا فعندما وصل عباس إلى السلطةعام٢٠٠٥ كانت له مصداقية ورؤية حول حل الدولتين طالما شكلت له جوهر معتقداته. لم تكن للسلطة وكلا من فتح وحماس قدرة على التحدى، كان يمكن استخدام هذا الوضع بشكل جيد لتحقيق خطة عباس الاصلية والتى كانت تعدل من سياسات حماس عن طريق اكتساب تعاون من جانب الحركة الاسلامية وتحول الرئيس الفلسطينى ليأخذ دور الوساطة بين الفلسطينيين جميعا والمجتمع الدولى من أجل التوصل إلى اتفاق سلام مع اسرائيل وان لم يتحقق.

لقد تسبب اعتناق عباس للفكر الغربى الخانق -عناق الدب - فى تآكل شرعيته وتنبع سوءات هذا الفكر من كونه أمريكيا وتتعاظم سوءا من كون مصدرها الرئيس بوش. لقد فرضت حالة من التبلد ظلالها على سلطته بعد تعرضه للتدخلات الامريكية مما دفع الفلسطينيين للتساؤل حول ما إذا كانت القرارات يصفها رئيسهم أم الآخرين. وأصبحت رؤيته مشوشة بعد مسخ «حل الدولتين» وتحويله من الفكرة الوطنية إلى واحدة أخرى اجنبية.

ينبع مأزق عباس من رفضه لبعض المساعدات وأيضا الدعم الذى يقدمه له الذين يدعون أنهم يتمنون له الأفضل خاصة أمريكا وأوروبا. فقد دفعوه مرارا وتكرارا فى اتجاهات كانت ترفضها فطرته ولتجرده من فريق للدعم ولأدوات القوة اللازمة للصمود وخضوعه متباعدا عن الوحدة الوطنية متوجها إلى الاعتماد على المنتفعين الاجانب. وكانت الولايات المتحدة وأمريكا سببا فى جعله يبدو فى صورة من يتنازل ويبرر تنازله بالعجز، يبدو أن عباس هو الفرصة التى يجب ألا تفوت.

[٥]

لقد كانت إقامة الدولة فى مرحلة ما انجازا فلسطينيا ولكنها الآن أصبحت مكافأة لشخص آخر. يمتلك أوباما ما لم يمتلكه أى رئيس أمريكى قبله، فلديه مشروع يستطيع من خلاله مخاطبة الجمهور الاجنبى بدون التقليل من الكرامة الامريكية أو المساس بشكلها. فى مسعاه لتوسيع نطاق المحادثات الاسرائيلية الفلسطينية بشكل أو بآخرلتشمل عشرات الدول العربية والاسلامية فسيؤدى ذلك إلى منح الدبلوماسية الامريكية فعالية ملحوظة. بالمثابرة ومرور الوقت فإن الاستراتيجية - القائمة على بناء تحالف دولى للضغط على الطرفين لتقديم التنازلات اللازمة وعرضها نهائيا لحل الدولتين - يمكن أن تنجح. حل الدولة عندما يعرضه بوش يكون شيئا ولكنه يصير شيئا آخرا تماما عندما يقدمه أوباما.

ان التكرار مرة اخرى قد يعنى المقامرة. فوجود الكثيرين من الاسرائيليين والفلسطينيين الذين يفسرون هذا الحل كحل يروجه أناس خطأ لأسباب خاطئة وفى وقت خاطئ سوف يجعلهم لا ينظرون اليه كحل على الاطلاق وسوف يعارضونه ويحاولون حشد الدعم من اجل الوصول إلى اتفاق لا يقوم على اسباب واهية على الاقل لبعض الوقت حيث تقل فوائد الصفقة بالمقارنة بالتنازلات التى تتطلبها. بالنسبة للمعارضين فان هذا الوقت القليل سوف يكون ثمينا فاتفاقية بهذا الشكل غير القابل للتنفيذ وكذلك غير القابل للانهاء سوف تؤدى إلى نتائج متطرفة مفادها الوصول إلى اتفاق يفتقد لصلاحية التطبيق ولايمكن تحقيقه.



قد تكون هناك وسيلة اخرى، نقطة البداية فيها هى بذل قليل من المجهود السريع لتحقيق الحل القائم على الدولتين او عرض اقتراح الولايات المتحدة بهذا الشأن وسوف يكون ذلك محاولة لتغيير المناخ السياسى وإعادة صياغة العملية الدبلوماسية يستتبع ذلك اولا تحديد والاعتراف بالاهتمامات والتطلعات الاسرائيلية والفلسطينية الاساسية ثم وضعهم فى صلب هذه العملية. هذا بدوره ينطوى على تغيير الطريقة التى تقدم بها الولايات المتحدة حلها الذى تؤمن بملاءمته للطرفين،بحيث يرى الفلسطينيين هذا الحل كثمرة لنضالهم الوطنى كما يراه الاسرائيليون تتويجا لمساعيهم التاريخية بدلا من أن يكون منتجا جانبيا تابعا لاستراتيجيات الآخرين. قد تكون النتيجة النهائية واحدة بالنسبة لدولتين تعيشان جنبا إلى جنب ولكن رحلة الوصول إلى هذه النتيجة لابد ان تكون اكثر صدقا وقبولا.

بعبارة أخرى لن تكون المهمة هى صقل وتلميع الأجوبة حول مسائل الحدود والأمن والقدس أو كيفية تعويض اللاجئين فذلك النهج قد أصبح جانبيا بشكل متزايد واحتلت مصالح المفاوضين الرسمية مكان الصدارة. وكذلك الحديث عن انشاء مركز المؤسسات الفلسطينية أو تمجيد حل الدولتين واعلاء قيمته فى مجال مكافحة التطرف واعادة تشكيل المنطقة. عندما دعا أفيجدور ليبرمان وزير الخارجية الاسرائيلى إلى اسقاط الشعارات القديمة التى تنادى بالارض مقابل السلام وحل الدولتين كان لديه غرضا سياسيا ووجهة نظر. ان التكرار اللانهائى لم يؤد إلى تحقيق الاهداف او حتى الاقتراب منها ولكنه أثر على مصداقيتها. إن إعادة الخطاب الامريكى مع كلا الجانبين قد يعيد التواصل أخذا فى الاعتبار آمال واحتياجات الطرفين وعودة إلى الاساسيات وهى تحديد الاعتراف ومعالجة المظالم التى عانى منها الفلسطينيون والاسرائيليون والاعتراف بحقهم فى حياة طبيعية.

استخدام لغة جديدة من شأنه أن يساعد على الوصول إلى جمهور أوسع. معسكرات السلام على كلا الجانبين لمدة طويلة عملت على بيع فكرة الدولتين ولكنهم الأن لايستطيعون بيعها فكلما زاد التوجه نحو تحديد الاقتراح كلما قلت جاذبيته. يتعين على الولايات المتحدة الوصول إلى دوائر المتشككين التى قد تحدث اختلافا فيما يتعلق بالحديث عن الدولتين ومن الامثلة على ذلك المستوطنين وهم يمثلون مجموعة ناشطة اسرائيلية يعاملهم العالم الخارجى كمجموعة من مرضى الجذام. اكثر من عملية سياسية شاملة يمكن ان تعترف بوجهات نظرهم وآرائهم وتعبر عن اهتماماتهم وتدعوهم للمشاركة فى المناقشات.

حالة اخرى بالتأكيد هى حالة الفلسطينيين فى الشتات والذين تمثل آراؤهم التطلعات الوطنية منذ البداية وستشكل الاستجابة الجماعية للمستقبل. فى مقال نشر مؤخرا للكاتب والتر راسل ميد بعنوان«أى اتفاق» كتب عن ضرورة معالجة القضايا التى تهم اللاجئين المحرومين بشكل أساسى وضرورة تجسيد القومية الفلسطينية وهذا الاتفاق لابد فى نهاية الامر ان يكون مصدرا للشرعية السياسية فى الحياة السياسية الفلسطينية.

سوف يتعين التصدى لمسألة الصراع الاسرائيلى الفلسطينى طبقا لحدود ١٩٦٧ ولكن لا يمكن حل هذا الصراع إلا اذا تم التعامل مع الوضع منذ نشأته عام ١٩٤٨، فى الواقع فإن مع المزيد من الاعتراف العلنى للولايات المتحدة بمحنة اللاجئين سيكون من الايسر انهاء المعاناة الحالية وطويلة المدى لهؤلاء اللاجئين، مع الاخذ فى الاعتبار ألا تكون الرغبة فى إنهاء معاناتهم حجة مريبة للقضاء على قضيتهم وطمس حقوقهم.

سوف يكون من الاهمية بمكان بالنسبة للولايات المتحدة تعديل تعاملها السياسى مع السياسة الداخلية الفلسطينية وخصوصا الرئيس الفلسطينى. عباس هو رجل فى حاجة ماسة لأن يترك وحده.إذا كانت تصرفاته يمكن النظر اليها على انها شرعية وتأييده للاتفاقية يعطى لها وزنا فإنه لايمكن أن يبدو كرئيس لبعض الفلسطينيين فقط ولكنه يجب ان يكون رئيسا للجميع. انه لا يمكن ان يسلم مهمة اتخاذ قرارات حاسمة - تحت الضغط - لأطراف خارجية بل يجب ان يضطلع بهذه المهمة بنفسه. يجب أن يسمح له بعمل ما يرى أنه حق. لا تحتاج واشنطن فقط للاعلان عن تعزيزها للوحدة الوطنية الفلسطينية ولكنها تستطيع البدء فى التحرك من خلال إشارتها إلى قبولها لأى اتفاق تسوية بين فتح وحماس يقدمه عباس باسمه. يتعين على الولايات المتحدة مواصلة دعم عباس ولابد ان تتوقف عن وضعه فى هذا الموقف السياسى المهمش والمدمر حيث يتوقف مصير شعبه على قرار الآخرين. إذا كان الهدف هو تعزيز عباس فليس هناك ما هو أفضل.

الكيفية التى سيتم بها قبول مبادرة السلام سوف توظف لخدمة المناخ الاقليمى. كلما زادت حالة الاستقطاب بين من يسمون بالمعتدلين والمتطرفين وكلما زاد التوجه نحو تعزيز المجموعة الاولى والإضرار بالثانية سوف تتولد المعارضة، وسيجد المتشددون آذانا صاغية. فى صفوف الفلسطينيين سوف ينمو شعور بأن الولايات المتحدة تخوض معركة باسمهم ولكن ليس من أجلهم.

[٦]

منذ اليوم الاول لرئاسته - التى تزامنت مع حرب غزة وما سببته من صدمة فى



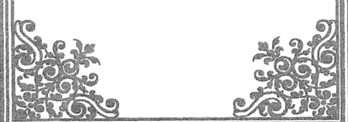
الحكماء يتكلمون

أقوال كونفوشيوس

إن اسم عائلة كونفوشيوس هو كونغ، أما اسمه الأصلى فهو تشيو، ولقبه تشونغ نى. إنه من أبناء مملكة لو فى أواخر فترة الربيع والخريف. كان جده الأول نبيلاً فى سونغ وكان من الجيل السادس كونغفو جيا (لقبه كونغ فو، واسمه جيا) وتولى منصب وزير الدفاع.

ولد كونفوشيوس فى كهف بجبل نيتشيو فى مدينة تشيويفو عام ٥٥١ ق. م (فى العام ٢٢ من عهد الملك لو شيانغ). وسُمى تشيو (معناه تلة) لأن شكل رأسه كان مثل تلة. قام كونفوشيوس بالتعليم وتنوير الجماهير فى مملكة لو، وشجع بناء الكتاتيب للتعليم. قيل إن عدد تلاميذه كان ثلاثة آلاف تلميذ. وإن اثنين وسبعين منهم يمتلكون كفاءة عالية. وقد أسس تلامذته المدرسة الكونفوشيوسية. كان كونفوشيوس قد تولى منصب رئيس إدارة شئون السجون وأعمال النيابة العامة فى مملكة لو، ثم استقال من المنصب وجال مع طلابه فى مختلف الممالك، وعاد إلى مملكة لو فى السنوات الأخيرة من حياته، حيث زاول التعليم والتأليف لشرح نظريته.

يدعو كونفوشيوس إلى الرحمة والفضيلة، ومن أقواله المشهورة: «الذى يقيد تصرفاته بالآداب العامة، يعترف الآخرون بأنه شخص ذو أخلاق سامية»، «والعاقل لا يخدع أبدًا والفاضل لا يقلق أبدًا والشجاع لا يخاف أبدًا»، «ولا تفرض على الآخرين ما لا ترغب فيه لنفسك».



المنطقة وتزايد التطرف وصولا للنهاية -- كان الشرق الأوسط تحديا واضحا لأوباما. لابد له من الفوز بولاء مجموعة ضخمة من العرب والمسلمين الساخطين الذين أصبحوا لا يعتقدون فى الولايات المتحدة بل يكفرون بها.

الصعود سوف يكون حادا. كان انتخابه بداية لإثارة تساؤلات تحيث لم يمض وقت طويل للحكم عليه شخصيا ولكن ثمة إدانة ومشاعر سلبية تلحق بالولايات المتحدة. ولكن الرئيس الجديد يستطيع أن يعتمد على مزيد من إلقاء الخطب الرنانة وهو يتمتع بقبول جماهيرى واسع وسوف ينظر إليه فى ضوء جديد. هذا ما سوف يقوده الآن، سوف يحظى بميزة محاطة بالشك ولكن الشك سوف يبقى هائلا.



بالنسبة للرئيس الجديد سوف تكون نقطة الانطلاق هى الاعتراف ببعض الوقائع الوحشية المزعجة وهى تشمل عمق الموروث المناهض للروح الامريكية، السخرية من الخطط القديمة والصيغ المجهدة والنفور الشعبى من جانب زعماء المنطقة الذين تعتمد عليهم واشنطن، والجذب الشعبى للناشطين المسلحين ذوى السلوك المتشدد والتطرف على مستوى العالم.

والنتيجة هى أن بعض الوصفات الجاهزة لايمكن ان تنجح كما ان شحذ الاهتمام لإنهاء الصراع العربى الاسرائيلى اوالتوصل إلى حل قائم على الدولتين قد أصبح قديما بفضل التكرار العقيم. لقد فعل الرئيس بوش ذلك بحماس ربما اكثر من اى رئيس امريكى سابق ومع ذلك فقد أصغى له القليل لأن قليل فقط هم اللذين كانوا يعتقدون فيما يقول على الاقل حدث ذلك بالنسبة للفلسطينيين الذين كانوا من المفترض الجمهور المستهدف لبوش. الاعتماد على منح المساعدات إلى الدول العربية الحليفة التقليدية او السعى لتحسين العلاقات مع اسرائيل لن تنفع كثيرا أيضا، سوف يكون ذلك عديم الفائدة وفيه إثقالا لكاهل إدارة أوباما بوزن من الشخصيات غير المرغوبة لا طائل منه كما يعد ترسيخا لفكرة مؤداها على الاقل ان امريكا تعد من حيث المحتوى امتدادا للماضى.

سوف يأتى الوقت للولايات المتحدة للدعوة لمبادرة ديبلوماسية كبرى - ليس الأن - المهمة الكثر الحاحا الآن هى تمهيد الطريق لذلك بمواجهة الشكوك التى تقابل بها كل الافكار الامريكية سواء كانت هذه الافكار جيدة ام رديئة، بدءا من خطة وزير الدولة وليم روجر لعام ١٩٦٩ ووصولا إلى خطة خارطة الطريق. لقد حان الوقت لوضع حد فاصل فى الكلمات والاسلوب والنهج.

بالنسبة للكثيرين فى الولايات المتحدة لقد تقلصت فكرة التغيير الجذرى إلى سؤال حول ما اذا كان سيتم الحديث مع حماس أم لا. ولكن ثمة تحول، فالتحدى الآن هو ما إذا كان أوباما سوف يتحدث إلى هؤلاء الذين تتحدث عنهم حماس إنهم الشعب الذى فقد الثقة فى أمريكا ودوافعها وكل اقتراح تقدمه.

النقطة الاوسع هى: النافذة موجودة ولكن ما سيتم هو إغلاق للموضوع بشكل مفاجئ وقصير المدى وفى أثناء ذلك يقوم أوباما جذريا بقلب فلسطين والعرب والمسلمين والتصورات المسبقة وجعلها مناسبة لخطته المستقبلية أيا وحيثما كانت هذه الخطة للحصول على محاكمة عادلة لأمريكا تؤخذ بمأخذ الجدية. لن يتم ذلك بإعادة تغليف عملية سلام منتجة من سنوات ولت. ولن يتم ذلك من خلال السعى لتدعيم قادة تراهم شعوبهم فى أحسن الاحوال ضعفاء وغير أكفاء وغير مسئولين وغيرفعالين يتسمون بالإهمال والتهور. لن يتم ذلك من خلال استدامة التمييز الوهمى وغير المفيد بين المتطرفين والمعتدلين من خلال عزل السابق والوصول إلى اللاحق وانهاء حالة الانفصام عن معظم الجهات الفاعلة فى المنطقة.

لن يتم ذلك بمحاولة اداء أفضل على نفس النهج الذى كان من قبل، فإن ميراث بوش فى هذا السياق كان مضاعف الاضرار لقد أخطأ فى فعل أشياء سيئة تسببت فى مخاطر التوقعات الكاذبة. ما الذى يمكن القيام به حيال ذلك. ▪

هـل أثـرت كلمـاتـه فعـلا..؟

لم تكد تمر سوى أيام ثلاثة على خطاب الرئيس أوباما إلى العالم العربى والإسلامى حتى كان الناخبون فى لبنان يتوجهون إلى صناديق الاقتراع لانتخاب برلمان جديد. ووفقا لمجلة «تايمز Times» فإن «معظم المحللين» توقعوا بشدة فوز الائتلاف الانتخابى بقيادة «حزب الله» الموالى لسوريا وإيران، والذى كان مسئولا عن معظم العنف على الحدود الشمالية لإسرائيل. وقد تبين أن معظم المحللين كانوا على خطأ. فقد حصد الائتلاف المعتدل - المشهور دائما بموالاته لأميركا والغرب - واحدا وسبعين مقعدا مقابل سبعة وخمسين فقط لحزب الله وحلفائه.

إن السياسة فى لبنان، والتى تتكون من حساء ملتهب من الجماعات العرقية التى تسلح البعض منها وأصبح يشكل خطورة، تجعل السياسة فى شيكاغو تبدو وكأنها «مونتبيليه» (عاصمة ولاية فيرمونت الأمريكية وتشتهر بالهدوء). إن كلمات رئيس أمريكى - حتى لو كان من شيكاغو - لم تحتل بالضرورة المقام الأول فى عقول الشيعة والسنة والدروز والمسيحيين من طوائف لاهوتية ومذاهب سياسية عديدة مختلفة، والذين اصطفوا للإدلاء بأصواتهم وغمس أصابعهم فى الحبر. ولكن معظم المحللين (الذين لا يكلون) اتفقوا على أن خطاب أوباما والزخم الهائل المرتب بعناية للدبلوماسية العامة التى كانت حجر الزاوية للخطاب، كانا ضمن العناصر التى أثرت على نتيجة الانتخابات.

فى الوقت نفسه، وأثناء كتابة هذا المقال، كان هناك جمهور ناخبين ممتلئ بالبهجة فى انتظار نتائج منافسة حامية لانتخاب رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية. وبغض النظر عمن يفوز - سواء كان محمود أحمدى نجاد المحافظ شديد الوطنية والجالس فى مقعد الرئاسة بالفعل، أو مير حسين موسوى منافسه الرئيسى المعتدل نسبيا - فإن السلطة النهائية سوف تبقى فى يد «القائد الأعلى» آية الله على خامنئى ومجلسه من الحكام الدينين الذين أقصوا المنافسين الليبراليين عن الترشيح. ولكن إيران ليست مجتمعا مغلقا تماما. فالتغيير موجود فى هواء طهران، وشفافية الرئيس الأمريكى جزء من ذلك.

لقد تحدث أوباما فى القاهرة لأكثر قليلا من خمسين دقيقة، وهو ما يعادل زمن محاضرة جامعية أو جلسة تحليل نفسى. لقد تضمن خطابه عناصر من كليهما، كما قدم أوباما لجمهوره ليس فقط معلومات وحجة وسياق فى تنظيم دقيق، بل تخلص أيضا من عقدة قديمة، فعلا صوته بأشياء لم تذكر لوقت طويل. لقد ذكر أنه كان يأمل فى أن يتحدث بوضوح وصدق، وهذا هو ما فعله. عندما أعرب عن الأسف لأن الخوف والغضب الناشئين عن «الصدمة الرهيبة» للحادى عشر من سبتمبر قد «أديا بنا لأن نتصرف بعكس تقاليدنا ومثلنا»، فقد سمى أبشع أعمالنا المشينة باسمه وهو «التعذيب». وعندما استعرض التاريخ التعس لعلاقاتنا مع إيران، قال «أثناء الحرب الباردة، لعبت الولايات المتحدة دورا فى الإطاحة بحكومة إيرانية منتخبة ديمقراطيا»، وهو إقرار رئاسى واضح غير مسبوق. لقد أطلق على الوجود الإسرائيلى فى الضفة الغربية وغزة احتلالا، ووصف الوضع هناك بأنه لا يطاق. وقد سمى فلسطين باسمها. تلك أشياء لم يعتد الجمهور المسلم أن يسمعها من رئيس أمريكى. وللسبب نفسه، فقد وصف معاداة السامية بالخسة، وأطلق على إنكار المحرقة جهلا مقيتا. ومن قلب العالم العربى، نادى بالديمقراطية وحقوق المرأة، ومن مقرأة مصرية نادى بالتسامح مع المسيحيين الأقباط. تلك أشياء لم يعتد الجمهور المصرى سماعها على الإطلاق.

لقد احتوى خطاب القاهرة على خصائص أصبحنا نتوقعها من خطابات أوباما: التعاطف والصراحة واحترام ذكاء مستمعيه. وكان لديه هذه المرة ميزة موروثة. إن الكثير من الكلمات والعبارات التى استخدمها كان يمكن أن تبدو مصطنعة ومستترة لو أنها جاءت من أى زعيم غربى آخر على الإطلاق. ولكن التاريخ الشخصى لـ «باراك حسين أوباما» مكنه من أن يستشهد - بتواضع - بإسهامات الإسلام فى الحضارة الإنسانية وإسهامات المسلمين فى الحياة الأمريكية. لقد بث إشارات تنم عن الاحترام: الإسلام كان «وحيا»؛ الإشارة إلى موسى وعيسى ومحمد كان يتبعها «عليهم السلام» كما فى العرف الإسلامى: القرآن كان «القرآن الكريم» بنفس تقديس الكتاب المقدس.

كانت هناك لحظات من المبالغة وأخطاء غير مقصودة. فالمباهاة بأن «حكومة الولايات المتحدة قد لجأت للقضاء لحماية حق النساء والفتيات فى ارتداء الحجاب ومعاقبة من يمنع ذلك»، كانت فقرة مبالغة جدا: فالجمهورية الفرنسية العلمانية لها تقاليدها المقدسة أيضا، وأحد تلك التقاليد يحرم عرض الرموز الدينية فى المدارس الحكومية. ربما كان ذكر الثمانمائة ألف لاجئ يهودى من الأراضى العربية فى سياقه. وارتباط اليهود بأرض - إن لم يكن بدولة - إسرائيل يعود إلى ما قبل المحرقة.

لكن أوباما كان يسعى لخلق مناخ نفسى جديد وهو شرط مسبق للتقدم. وهو لم يتحدث عن «الإرهاب» أو «عملية السلام». وبدلا من ذلك، قال لأحد الأطراف:

«يجب أن يتخلى الفلسطينيون عن العنف. إن المقاومة من خلال العنف والقتل خطأ ولن تفلح. لقد عانى السود فى أمريكا لعدة قرون من ضرب السياط كعبيد وإذلال الفصل العنصرى. ولكن لم يكن العنف هو الذى حقق الحصول على الحقوق الكاملة المتساوية. إن إطلاق الصواريخ على أطفال نائمين أو تفجير حافلة مليئة بالنساء العجائز ليس من مؤشرات الشجاعة أو القوة».

وقال للطرف الآخر:

«إن الولايات المتحدة لا تقبل شرعية استمرار المستوطنات الإسرائيلية. إن إقامة تلك المستوطنات ينتهك الاتفاقيات السابقة ويقوض جهود تحقيق السلام. لقد حان وقت إيقاف تلك المستوطنات».

إن تذكير أوباما للفلسطينيين بمحنة الأمريكيين الأفارقة لم يلق استحسانا من المحافظين الجدد فى أمريكا، والذين روجوا استعارة مفضلة لديهم «المكافئ الأخلاقى» للهجوم على المقارنة. ولكن إذا كان من المبالغة مساواة المعاناة الفلسطينية بمعاناة السود الأمريكيين فى ظل قرنين ونصف من عبودية الرق (والذى لم يبلغ بدون عنف)، ومقارنتها بقرن لاحق من الفصل العنصرى والحرمان من الحقوق السياسية، فإن ذلك كان مفيدا وعادلا.

كانت وجهة النظر الأمريكية الرسمية منذ وقت طويل أن المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة الغربية يجب - على الأقل - أن تتوقف عن التوسع. وإبان حكم «جورج دبليو بوش» كان «النشاط الاستيطانى» محل انتقاد باعتباره - حرفيا - «غير مفيد»، وهى معادلة تتفق تماما مع «غير ضار». ولكن أوباما يبدو جادا. إن النمو الاستيطانى - والذى كان أمرا واقعا مستمرا فى ظل الحكومات الإسرائيلية من كافة الاتجاهات، والذى يبدو التحالف اليمينى الحاكم الحالى متمسكا به - هو ضار بالفعل. إنه ضار بأى فرصة للسلام، وضار باقتصاد الجانبين، وضار بالسمة اليهودية والديمقراطية لإسرائيل، ونافع فقط للمتعصبين على الجانبين والذين يحتفظون بالأغلبية كرهائن.

قال أوباما فى القاهرة: «لقد حان الأوان لأن نتحرك بناء على ما يعرف الجميع أنه الحقيقة». وما يعرف الجميع أنه الحقيقة - سواء اعترفنا بذلك أم لا - هو أن الحل الوحيد الذى يقدم نزرا يسيرا من السلام والعدل لشعبى إسرائيل وفلسطين هو دولة لكل منهما؛ وأن كلا الجانبين عاجز عن تلمس طريقه بمفرده إلى هذا الحل؛ وأن الحزم والمثابرة الأمريكيين هما وحدهما القادران على إنقاذ الطرفين معا. إن الطريق أمامنا محفوف بالمخاطر، ليس أقلها قتال الأشقاء داخل القيادة الفلسطينية، المنقسمة بين الضعف والعناد، وحكومة إسرائيلية متمرسة بأساليب واشنطون ويهيمن عليها ساسة معادون لأى تفكير فى وجود دولة فلسطينية.

لقد كانت كلمات الرئيس فى القاهرة ملهمة وضرورية. وسواء تذكرناها بعد سنوات من الآن بالفخر أم بالحسرة، بالإعجاب أم بالسخرية، فذلك شىء لا يستطيع أى شخص - ولا حتى أكثر المحللين مهارة - أن يتنبأ به.

هندريك هيرتزبيرج

بترتيب مع The New Yorker

ترجمة: عادل فتحى

فى البلدان الإسلامية لماذا تغيب الديموقراطية؟

جون سبوزيتو
و
داليا مجاهد

إن الحدود الاعتباطية، والحكام الذين لا يمثلون شعوبهم، أنتجوا دولاً من الأمم الضعيفة، مع حكومات غير ديمقراطية؛ شجعت على ثقافة الاستبداد



■ عندما كنت أنهى إجراءات الجوازات للسفر من لندن إلى إدنبرة، سألنى أحد موظفى الجوازات: يا جون «ما الذى ستعمله فى إدنبرة؟» ولما سمع إجابتى: «سألقى محاضرة رئيسة فى مؤتمر عن الإسلام والديمقراطية».. ابتسم وقال: «ستكون تلك محاضرة وجيزة!».

صادفت تعليقاته قناعة لدى الكثيرين فى الحكومة، ومراكز الفكر، ووسائل الإعلام؛ بأن الإسلام أو المسلمين لا يتوافقون بحكم طبيعتهم مع الديمقراطية. وقد دعم هذه النظرة النقاد الأكاديميون وموظفو الحكومة فى أنحاء أوروبا والولايات المتحدة.

كتب «فرانسيس فوكوياما» بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر؛ وهو من المنظِّرين المحافظين الجدد السابقين: «للحداثة أساس ثقافى. ولا تنجح الديمقراطية الليبرالية والأسواق الحرة فى كل مكان. فهى أنجح ما تكون فى المجتمعات التى تملك قيماً معينة، ربما لا تكون أصولها منطقية تماماً. وليس من المصادفة أن الديمقراطية الليبرالية الحديثة قد نشأت أولاً فى الغرب المسيحى: حيث إن العالمية فى الحقوق الديمقراطية يمكن اعتبارها صورة علمانية من المسيحية العالمية. ولكن يبدو حقا أن هناك شيئاً عن الإسلام، أو على الأقل فيما يخص الصور الأصولية للإسلام، التى ظلت سائدة فى السنوات الحديثة، مما يجعل المجتمعات الإسلامية مقاومة للحداثة بصفة خاصة».

لقد استخدم «تونى بلير» (Tony Blair) الحجة التالية لتبرير غزو العراق: «يواجه هذا العالم الجديد تهديداً جديداً من الفوضى والاضطراب نتيجة للدول القاسية مثل العراق، المسلحة بأسلحة الدمار الشامل، أو الجماعات الإرهابية المتطرفة. وهم جميعاً يكرهون طريقتنا فى الحياة وحريتنا وديمقراطيتنا».

إن جماعة متنوعة من موظفى الحكومة وأعضاء الكونجرس والنقاد تردد آراء الخبراء الأكاديميين من أمثال «صموئيل هانتنجتون» (Samual Huntington) وبرنارد لويس» (Bernard Lewis)؛ التى تحذر من أخطار «صدام الحضارات» ولهذا الاعتقاد جذور عميقة بين صناع القرار والخبراء، وهو استجابة - بصفة جزئية - لبعض الحقائق السياسية فى العالم الإسلامى:

■ من كل أربع دول أغلب سكانها مسلمون، توجد دولة واحدة تنتخب حكوماتها بطريقة ديمقراطية.

■ الحكام فى عدد من الدول الإسلامية التى تدعى إجراء انتخابات ديمقراطية يفوزون فى انتخابات الرئاسة بصورة روتينية بنسب تقريبية تتراوح بين ٩٠٪ و٩٩,٩٪. وقد فاز رئيس تونس «بن على» بنسبة ٩٩,٤٪ من الأصوات فى انتخابات الرئاسة فى عام ١٩٩٩، وبنسبة ٩٤,٥٪ فى عام ٢٠٠٤. وفى مصر فاز الرئيس حسنى مبارك بنسبة ٩٤٪ فى عام ١٩٩٩، وبنسبة ٨٨,٦٪ فى عام ٢٠٠٥ من أصوات الناخبين.

■ إن أغلب الحكومات الإسلامية تسيطر على الأحزاب السياسية المعارضة، والمنظمات غير الحكومية، وتحدد نشاطها بصورة قاسية. ولها سلطة الترخيص لها أو منعها وحلها، وكذلك تتحكم فى قدرتها على عقد الاجتماعات العامة والاتصال بوسائل الإعلام.

فى عام ٢٠٠١ على سبيل المثال، وبعد عامين من اعتلاء الملك عبد الله عرش الأردن، قام بحلّ البرلمان عند نهاية مدته؛ واستخدم «الأمن» تبريراً لتأخير الانتخابات طوال عامين آخرين. وقد ألغى الرئيس المصرى حسنى مبارك الانتخابات البلدية المقررة فى ربيع ٢٠٠٦ فجأة؛ خوفاً من تنامى شعبية الإخوان المسلمين، بعد أن فازوا بخمس المقاعد فى الانتخابات التشريعية فى عام ٢٠٠٥. ولما كانت جماعة الإخوان المسلمين لا تزال محظورة بصفة قانونية فى مصر، فلا بد أن يتقدم مرشحوها باعتبارهم مستقلين. وإذا كانت الانتخابات قد أجريت فى المملكة العربية السعودية فى عام ٢٠٠٥ لانتخاب أعضاء المجالس البلدية، فإن المجالس قليلة السلطة، أو لا سلطة لها. ولم تتحقق إصلاحات كثيرة وعد بها كبار الأمراء.

فى مقابل هذه الخلفية، أشار الرئيس جورج بوش إلى الاهتمام بنقص الديمقراطية فى العالم الإسلامى، واعتبر التحول الديمقراطى هدفاً رئيساً للسياسة الخارجية الأمريكية، بناء على أسباب جيدة. فالديمقراطيات أكثر استقراراً من الدكتاتوريات. والديمقراطيات المستقرة تُقلّل الظروف التى تُفرِّخ الصراع السياسى والراديكالية والعنف والإرهاب.

إن سياسة الولايات المتحدة نحو الديمقراطية فى الشرق الأوسط تتفق فعلاً مع عواطف الأغلبية الهائلة من أولئك المشاركين فى الاستفتاء؛ الذين يقولون إنهم معجبون بالحريات السياسية فى الغرب، ويقدرون حق تقرير المصير، ويرغبون فى المزيد منه. ولكن إذا كانت الرغبة فى الديمقراطية لا جدال فيها؛ فلماذا لم يكن الطريق إليها إذاً أيسر وأسرع؟ إن استفتاء «جالوب» العالمى عن آراء المشاركين فى الديمقراطية والسياسة الخارجية الأمريكية يقدم اتجاهات مهمة عن الآراء المشتركة والفوارق المميزة فى التوقعات والأهداف والطرق الواصلة إلى هناك.

إذا كان نشر الديمقراطية هو الهدف المقرر للحكومة الأمريكية، فإن الأغلبية فى الأردن ومصر وإيران وباكستان وتركيا والمغرب لا توافق على جدية الولايات المتحدة فى نشر الديمقراطية فى مناطقها من العالم.

إن التغير الحديث فى كلام إدارة بوش عن نشر الديمقراطية فى العالم العربى يبدو أنه يدعم هذه الاتجاهات؛ وخاصة عند اعتبار زيارة وزيرة الخارجية الأمريكية «كوندوليزا رايس» (Condoleeza Rice) للشرق الأوسط فى يناير ٢٠٠٧. وقد ألغت رايس قبل سنتين زيارة مقررة إلى مصر، احتجاجاً على اعتقال أيمن نور؛ وهو من الزعماء

للاستزادة
من يتحدث باسم الإسلام
جون سبوزيتو، داليا مجاهد
ترجمة: عزت شعلان
تقديم فهمى هويدى
دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٩

السياسيين الديمقراطيين الليبراليين.

وبعثت رايس برسالة: «إن إدارة بوش جادة في دفع الإصلاح الديمقراطي في العالم العربي». وعندما زارت مصر فعلاً في أوائل عام ٢٠٠٦، فإنها أنفقت أغلب الوقت في مناقشة حاجة مصر إلى دفع الديمقراطية والإصلاح. ولما عادت رايس إلى تلك الدولة بعد عام، فإنها - على كل حال - لم تذكر عَلَنًا تراجع مصر عن الديمقراطية والإصلاح. كان نور أقرب المتحدِّين للرئيس في انتخابات الرئاسة في عام ٢٠٠٥، ولكنه سُجن مرة أخرى، وتراجعت البلاد عن التقدم الذي أحرزته في حرية المعارضة والتعبير. وقد وصفت رايس نظام التسلط في مصر - بدلا من ذلك - بأنه جزء من «علاقة إستراتيجية مهمة، نقدرها تقديراً عظيماً».

إن اتجاه إدارة بوش في إستراتيجيتها الجديدة في الشرق الأوسط هو تدعيم التحالفات التاريخية للولايات المتحدة مع الأنظمة العربية السُنية الاستبدادية؛ التي كانت سياستها القمعية مدعاة للوم في التشجيع على التطرف، وأمثال القاعدة. والآن تصف رايس حكام مصر والأردن والإمارات الست الخليجية - وهم من أصحاب الحكم المطلق - بأنهم «زعماء مسئولون»؛ لأنهم ينشئون القوة الدافعة في التحالف ضد إيران في المنطقة.

ينعكس الغضب من سياسة الولايات المتحدة في المنطقة في الصحافة العربية.

يقول الصحفي اللبناني «ميشيل يونج» (Michael Young):

«إن جدول الأعمال الأمريكي قد تغيّر تماماً، فالذي كان مفروضاً للعراق أن تتحول إليه قد حلّ محلّه جدول أعمال جديد كلياً، يحتوي على إيران وحلفاء إيران... لقد انتهت المناقشة حول الديمقراطية اليوم... وإني آسف لذلك».

في أعقاب الصراع بين إسرائيل وحزب الله في لبنان في عام ٢٠٠٦، وبعد قرار الولايات المتحدة قطع المساعدة لحكومة فلسطين بعد انتخاب حماس زاد اعتراض الصحافة العربية في الإشارة إلى «المقاييس المزدوجة» للولايات المتحدة في دعمها للديمقراطية. وقالت افتتاحية في صحيفة سورية باللغة الإنجليزية هي «سيريان تايمز» (Syrian Times): «إن بوش ومساعديه المحافظين الجدد مازالوا مصمّمين على حرب العالم كله باستخدام الشعارات الكاذبة والنفاق. وهم في الممارسة العملية، يقفون بعيدا عن مبادئ الحرية والاستقلال والديمقراطية».

وكتب عز الدين درويش في «تشرين» السورية:

«تريد الإدارة الأمريكية في لبنان أن تستأصل المقاومة من خلال التدخل في النسيج اللبناني وإحياء الصراع بين الطوائف والمتعصبين. إنها تريد دفع تجار السياسة والحروب إلى المقدمة، واستخدام الضغط على المستوى العربي والدولي لفرضهم حكاماً على لبنان».

اتهم تعليق درويش كذلك الولايات المتحدة بالتدخل في السياسة الفلسطينية حتى تضمن انتصار فتح على الرغم من دعم الناخبين لحماس:

«في المناطق الفلسطينية تريد هذه الإدارة أن توقف التفاعل بين الزعماء والجذور الشعبية، وتحاصر المقاومة، وتدق إسفينًا بين الحكومة المنتخبة والناس، على توافق مع خطط الاحتلال الإسرائيلي. كانت النتيجة هذه الحرب بين الإخوة».

ومع ذلك، فعلى الرغم من أن الكثيرين لا يؤمنون بأن الولايات المتحدة جادة في الديمقراطية في هذه المناطق، فإن كثيرين في العالم الإسلامي يقولون إن الحرية السياسية والتحرر، وحرية التعبير هي أكبر ما يدعو إلى إعجابهم بالغرب. وتربط نسبة كبيرة بين «النظام القضائي العادل» و«المواطنين الذين يتمتعون بحريات عديدة» وبين المجتمعات الغربية.

إن نقص الوحدة والفساد السياسي والاقتصادي والتطرف هو أقل ما يدعو إلى إعجاب الكثيرين بالعالم العربي والإسلامي، في الوقت نفسه.

الديمقراطية والإسلام

يختلف الكثيرون في العالم الإسلامي والغرب حول الطرق للوصول إلى الحكم الديمقراطي. ومازالت هناك أسئلة مهمة: كيف يمكن أن تزدهر الديمقراطية في بلاد تكون ثقافتها استبدادية؟ هل يمكن أن توجد الديمقراطية حيث يتشابك الدين والسياسة؟ إن الانتصارات الانتخابية للشيعة في العراق، وحماس في فلسطين تبدو مخالفة للديمقراطية الغربية في الفصل بين الدين والدولة. هل يمكن أن نحصل على الديمقراطية والشريعة؟

وعلى الرغم من أن كثيرًا من المسلمين والحكومات الغربية يتحدثون عن الديمقراطية، فإن حق تقرير المصير لا يستدعي الفصل بين الدين والدولة، كما يفهمه أغلب أولئك المشاركين في الاستفتاء. وتبين بيانات الاستفتاء أن أغلبية كبيرة من المشاركين في بلاد الاستفتاء تذكر الأهمية المتساوية للإسلام

والديمقراطية باعتبارهما من الأمور الأساسية من أجل رفعة حياتها ومستقبل التقدم فى العالم الإسلامى. كان الإسلام والسياسة مختلطين فى مصر والمغرب وتركيا والأردن إلى باكستان والملايو وإندونيسيا، حيث نجح المرشحون الإسلاميون والأحزاب الإسلامية فى الانتخابات القومية والمحلية.

أظهرت الاستجابات فى الاستفتاء كذلك دعمًا شائعًا للشريعة، بالإضافة إلى الدعم القوى للإسلام والديمقراطية. وتمثل الشريعة شيئًا مختلفًا جدًا عند كثير من المسلمين، وتعتبر - عادة فى الغرب - قانونًا قاسيًا بدائيًا. تعنى الشريعة حرفيًا «الطريق إلى الماء»، ولكنها تعنى «السبيل إلى الله» عند استخدامها فى نطاق دينى، وهى تمثل سبيلاً إلى الهداية الروحية والاجتماعية معًا. إن الشريعة تمثل البوصلة الأخلاقية للحياة الشخصية والحياة العامة للمسلم. ما الذى يطلبه المسلمون على ذلك حين يقولون إنهم يريدون الشريعة مصدرا للتشريع؟ إن الإجابة على هذا السؤال تبلغ من التنوع مثل ما يبلغه المجتمع الإسلامى.

إن مبادئ الشريعة يمكن استخدامها تاريخيًا لتحديد قوة السلطان. كتبت الشيخة ساجدة - وهى من الكاتبات المسلمات - فى صحيفة الجزيرة ما يلى فى أكتوبر من عام ٢٠٠٦:

«من المنطقى تطبيق قانون الشريعة فى الدول العربية والإسلامية؛ حيث تكون أغلبية السكان من المسلمين. إنها الطريقة الوحيدة للمسلمين حتى يهربوا من الدكتاتورية والقمع عند بعض الحكام العرب؛ الذين يفضلون المصالح الشخصية على ما هو أفضل لشعوبهم».

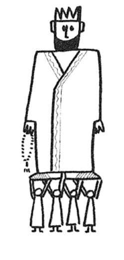
تستمر ساجدة فى الإجابة على سؤال مرسل إلى قسم «دعونا نتحدث»:

«يدعو الإسلام إلى العدالة، ولا أرى تعارضا بين الشريعة الإسلامية والحقوق الإنسانية. إن تطبيق الشريعة الإسلامية فى الدول الإسلامية يؤدى - على النقيض - إلى ضمان الحقوق الإنسانية ضد قمع بعض الحكام العرب، الذين يركزون اهتمامهم على كيفية استغلال نفوذهم إلى أقصى حد، قبل فقدان العرش».

عندما أعلنت ولاية «كانو» فى نيجيريا لأول مرة أنها ستطبق الشريعة فى عام ٢٠٠٠ مثلا، فقد تجمع الكثيرون من النيجيريين للاحتفال بالقرار فى الأماكن الرئيسة للصلاة فى العاصمة. وقال حسن دامبابا، وهو مدرس كان حاضرًا فى حفلة الإعلان: «إنه تحقيق أحلامنا. نستطيع الآن أن نمارس ديانتنا كما يجب علينا».

اتجه انتباه العالم إلى نيجيريا فى عام ٢٠٠٢ عندما حكم على سيدة نيجيرية فى الثلاثين من عمرها تسمى «أمينة لاوال» بالموت رجمًا بالأحجار. وحكمت عليها المحكمة الإسلامية بالزنى نتيجة حملها خارج الزواج، وعقوبته الرجم، بينما أطلق سراح الرجل المتهم بالاتصال الجنسى معها، نظرا لغياب أربعة شهود. وإذا كانت مثل هذه الحالات تمثل فى الغرب الشريعة، فإن كثيرين من المسلمين يعتقدون أن هذه الحالات تعكس ابتعادًا عن روح الشريعة الحقيقية. وكتبت افتتاحية فى الصحيفة الغانية (Ghanaian chronicle):

«حاول بعض من يسمون بعلماء المسلمين أن يبرروا الرجم على أساس انطباقه على المتزوجين من الخائنين والزناة. كيف حدث - على كل حال - فى حالة «أمينة لاوال» أن المحكمة الشرعية فى «كاتسينا» لم تصدر حكمًا على الرجل الذى كان سببًا فى حمل «أمينة لاوال»؟ لماذا تخلق انطباعًا بألا عدالة للنساء فى الإسلام؟ لقد كان هناك بصورة واضحة عوامل مجتمعة من ممارسات ما قبل الإسلام، والتحيز الرجالى، والجهل المجرد والتعصب».





هزمت الأحزاب الإسلامية - فى خلال السنوات الماضية - خصومها العلمانيين هزيمة قاطعة



حكمت محكمة الاستئناف الشرعية بنقض إدانتها فى عام ٢٠٠٣. وتبعا لأربعة قضاة من خمسة، فإن الحكم الأصلى قد خرق بعض مبادئ الشريعة الإسلامية؛ لأنه لم يحقق شرطًا فى وجود ثلاثة قضاة محليين للاستماع إلى قضيتها؛ حيث حضر واحد فقط عند إدانتها، ولم يتيسر للمتهمة الحق فى الدفاع القانونى السليم، كما أن دليل القرائن، وهو فى هذه الحالة حملها، لا يعتبر دليلاً كافيًا حسب الشريعة الإسلامية.

إن اتهامات العلماء بأن المحكمة الإسلامية فى نيجيريا قد أخذت فى تطبيق الشريعة الإسلامية فى حالة «لاوال» إنما تعكس التفسيرات المتعددة فى نطاق تقاليد الشريعة الإسلامية.

من المحتمل أن يستمر المسلمون فى نيجيريا فى استكشاف المرونة الكامنة فى الشريعة، بينما يطورون نظامهم القضائى. وتبعا لبيانات «جالوب» فإن الشريعة بوصفها مصدرا للتشريع تكسب اليوم دعمًا قويًا من أكثر من سبعة فى كل عشرة مسلمين نيجيريين، الذين يقولون إنهم يريدون أن تكون الشريعة أحد مصادر التشريع على الأقل، ويريد واحد فى كل خمسة أن تكون المصدر الوحيد. وفى الوقت نفسه، لا يريد واحد فى كل خمسة أن تكون مصدرا للتشريع على الإطلاق.

لو كان الغرب وكثيرون من المسلمين يريدون الديمقراطية للعالم الإسلامى، إذ يعتبرونها قوة للاستقرار ومفتاحا للتقدم فى المستقبل، فإن أسئلة حرجة لا بد من تناولها:

- لماذا تغيب الديمقراطية فى كثير جدًا من بلاد العالم الإسلامى؟ هل يكون الإسلام هو المشكلة؟
- كيف ينظر ١,٣ مليار مسلم إلى الديمقراطية؟
- هل يكون دعم أغلبية المسلمين للشريعة سببًا فى هلع الغرب؟
- عندما يعبر الرجال والنساء من المسلمين عن رغبتهم فى الشريعة: ما الذى يقصدونه؟
- ما هو التفكير الديمقراطى عند المسلمين؟
- إذا كانت الديمقراطية هدفا منشودا عند الكثيرين من المسلمين وفى السياسة الخارجية للولايات المتحدة: هل يعتقد المسلمون أن للغرب أى دور يلعبه؟

لماذا تغيب الديمقراطية عن كثير جدًا من بلاد العالم الإسلامى؟

تكمن الإجابة عن هذا السؤال فى التاريخ والسياسة أكثر من الدين. كان أمامنا - نحن فى الغرب - قرون حتى نتقدم من الملكيات إلى الدول الديمقراطية الحديثة؛ من ملكيات الحق الإلهى إلى دول الأمم الحديثة العلمانية، وقد عانينا أثناء العملية من حروب الثورات والحروب الأهلية. أما الحكومات فى العالم الإسلامى التى تم خلقها - فى المقابل - بعد الحرب العالمية الثانية، فيبلغ عمرها عقودا من السنين فقط.



من المهم على قدم المساواة أن كثيرين من المسلمين عاشوا قرونًا عديدة تحت حكم الاستعمار الأوربى. وفى منتصف القرن العشرين، عندما أصبحت دول كثيرة تتكون من الأمم، فقد أصبحت القوى الاستعمارية هى التى تحدد فى الغالب حدودها وتوافق على حكامها. قسم البريطانيون شبه القارة الهندية فى جنوب آسيا إلى الهند، وإلى باكستان الغربية والشرقية قبيل منحهما الاستقلال، وأصبحت ولاية كشمير - التى يغلب المسلمون على سكانها - جزءًا من الهند. وشهد العالم بعد الفصل حربا شاملة بين الهندوس والمسلمين، وهجرة الملايين، ثم الحرب الأهلية فيما بعد بين باكستان الشرقية والغربية؛ أدت إلى خلق بنجلاديش، والصراعات على حكم الهند التى ظلت حتى اليوم.

لقد خلق الفرنسيون فى الشرق الأوسط حدود ما يعرف الآن بلبنان الحديث، كما وضع البريطانيون الحدود للكويت والعراق، وقسموا فلسطين وشرق الأردن (الأردن فيما بعد). وأصبح أخوان هاشميان من شبه الجزيرة العربية: هما عبد الله وفيصل ملكين على الأردن وسوريا. ثم فيصل ملكا على العراق فيما بعد. وقد ضم الأردن فى عام ١٩٥٠ الضفة الغربية بصفة رسمية، وضاعف عدد سكانه ثلاث مرات، وخلق وضعا تحكم فيه حكومة الأقلية الأردنية أغلبية من السكان الفلسطينيين، يتفوقون على الأردنيين بنسبة ٢ إلى ١.

ثم خلع بعض الملوك فى الخمسينيات والستينيات، وحل محلهم حكام عسكريون أو مجالس عسكرية فى مصر وسوريا وليبيا والعراق. وعلى ذلك، تميز الشرق الأوسط بانعدام الاستقرار السياسى طوال القرن الماضى على الأقل. ومازالت دول إسلامية عديدة تحكمها

ملكيات ودكتاتوريات أو كانت عسكرية فيما سبق.

إن الحدود الاعتباطية والحكام الذين لا يمثلون شعوبهم أنتجوا دولاً من الشعوب الضعيفة، مع حكومات غير ديمقراطية شجعت على ثقافة الاستبداد. وخضعت للدولة - أو غابت - المنظمات غير الحكومية؛ وهي مفتاح الدعم للديمقراطية (مثل الأحزاب السياسية، والاتحادات التجارية، والخدمات التعليمية والاجتماعية، والنقابات المهنية، ومنظمات حقوق الإنسان ووسائل الإعلام). كما عانت دول كثيرة من الفشل الاقتصادي والفساد السياسي. ويجادل كثير من النقاد بأن أوربا وأمريكا أغمضت عيونها عن مثل هذه الأحوال، تدعيماً للحكام المستبدين في العالم الإسلامي والأماكن الأخرى لكسب ولائهم أثناء الحرب الباردة، وفي الشرق الأوسط لضمان الحصول على النفط.

إن إيران مَثَل على التأثيرات المعقدة للاستعمار الأوربي. وإذا كانت إيران لم تتعرض أبدا للاستعمار بصورة رسمية، فقد تنافست روسيا وبريطانيا كلتاهما على التأثير في تلك الدولة. وضع البريطانيون والسوفييت شاباً صغيراً جداً هو محمد رضا بهلوي على العرش، كي يحل محل والده، ويصبح الشاه. وفي عام ١٩٥١ قام البرلمان الإيراني ورئيس الوزراء المحبوب والمنتخب ديمقراطيا محمد مصدق بتأميم صناعة النفط الإيراني. ونجحت وكالات الاستخبارات البريطانية والأمريكية في خلع مصدق من السلطة في انقلاب عسكري عام ١٩٥٣، وتحولت البلاد إلى الاستبداد تحت حكم الشاه. إن انعكاسات الانقلاب وإسهامه في الاتجاه المعادي لأمريكا أمكن الإحساس به أثناء الثورة الإسلامية الإيرانية في عام ١٩٧٩، واحتلال السفارة الأمريكية.

نظرت إيران - مثل أغلب الحكومات المسلمة - إلى الغرب لخبرته ونماذجه في التطور. وعلى ذلك تبنى الخبراء الغربيون والنخبة المسلمة الساعية إلى التحديث النموذج الغربي السائد: «ينبغي أن تصبح الأمور أقرب إلى الغرب أو العلمانية في كل يوم وبكل طريقة». وأدت هذه المعادلة إلى تبني أساليب الحياة الغربية، والمؤسسات الغربية العلمانية السياسية والاقتصادية والتعليمية. وليست الحداثة هي نقل التكنية ببساطة. وإنما هي أن تتغرب: أن تلبس الملابس الحديثة (أي الغربية)، وأن تتحدث لغة حديثة (غربية)، وأن تذهب إلى مدرسة أو جامعة علمانية، فيها منهج دراسي حديث (قائم على المنهج الغربي)، وأن تبني مدنا وضواحي حديثة؛ يخططها في الغالب مهندسون معماريون غربيون. إن افتراضات نظرية التحديث يطويها عنوان كتاب «دانيل ليرنر» (Daniel Lerner): ذهاب المجتمع التقليدي (The Passing of Traditional Society) واعتقد الكثيرون أن على المسلمين أن يختاروا «مكة أو الميكنة» (mechanization).

في استفتاء أجرته الجامعة الأمريكية في عام ٢٠٠٦ قال طالب مسلم من كينيا عمره واحد وعشرون عاماً: «مازال أعظم تغيير في مجتمعي هو التغريب على نطاق واسع...؛ أمركة المجتمع. وهو أشد تأثيراً على الشباب، بدءاً من طريقة تفكيرهم حتى طريقة زيهم وتصرفهم». واستمر يصف التغيرات بين جيله وجيل آبائه:

«أصبح من الأندر الآن أن تجد شخصاً يجيد لغته الخاصة كما يجيد اللغة الإنجليزية. وتتعرض القيم الاجتماعية للضياع، إذ يسارع الناس إلى ما يرونه أفضل، حيث تتزايد اللا أخلاقية وإدمان الخمر وأمثال هذه الرذائل. وأصبح من أصعب الأمور أن تجد إنساناً يُحسن دينه في مجتمع أخرج ذات مرة علماء عظماء... تغريب تدريجي، ولكنه أكيد لأناس: بعيداً عما ينتمي حقاً إليهم».

لقد أدهشت الثورة الإيرانية الخبراء وصدمت العالم الغربي في عام١٩٧٩. من يستطيع تفسير سقوط الشاه: القوى الذي يرتدي الملابس الغربية، ويتحدث اللغة الإنجليزية، وهو أبو الثورة البيضاء لتحديث إيران؟ كانت في إيران حملة طموحة للتحديث، موفورة التمويل، ونخبة تعلمت تعليماً حديثاً، وجيش قوي، وعلاقات متينة مع أمريكا وأوربا، وقوة رئيسة في إنتاج النفط. أما خصوم الشاه، الذين خلوا من الأسلحة المهمة، فقد اعتمدوا على الخطاب الديني وشبكة من المساجد للتنظيم والتحريك، وكان يتزعمهم رجل عجوز ملتح هو آية الله الذي يعيش في المنفى في إحدى ضواحي باريس. وقد حققوا مع ذلك نصراً في ثورة إسلامية بغير دماء نسبياً.

من الأمور التي تكاد تخفى، أن وجود الإسلام في السياسة قد أعيد تأكيده بصورة حادة في ليبيا والسودان، وامتداداً إلى باكستان والملايو. إن فشل الحكومات المتعدد في النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية قد أدى إلى نفور شائع من اعتمادها المفرط على الغرب. وقد كان هذا التسمم بالغرب متهماً مسئولاً عن سلب المسلمين من مصدر هويتهم وقيمهم، ومن وحدتهم وقوتهم بناء على ذلك. ونادت الحركات الإسلامية كما نادى الزعماء المسلمون - وكثيرون منهم تعلموا تعليماً حديثاً - نادوا بالعودة إلى صراط الإسلام المستقيم؛ وهو البديل من الرأسمالية الغربية، والماركسية والاشتراكية السوفيتية.

قررت «ليس ماركوس» (Lies Marcoes) التي عملت مع المنظمات الإسلامية للمؤسسة الآسيوية في جاكارتا حسب ما كتبته في مقالة في صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور» (Christian Science Monitor)، حيث ذكرت تحولاً واضحاً بين الإندونيسيين نحو الإسلام كاستجابة لفشل حكومتهم. «يرى كثيرون من الناس فشل الحكومة في تطهير نفسها والقضاء على الرذيلة ومساعدة الفقراء ولذلك سوف يتحول البعض إلى الشريعة باعتبارها الحل»، كما قالت.

«علي أحمد» الذي يبلغ عمره ٢٦ عاما وهو يعمل مدرسا في مدرسة الكمال في جاكارتا، أخبر «كريستيان ساينس مونيتور» أنه صوت للعلمانية المتعصبة ميجاواتي سوكارنو بوتري في انتخابات عام ١٩٩٩؛ لأنه تصور أنها سوف تنهي الفساد الحكومي الشائن والحكومة المحتقرة. لكن أحمد قال على كل حال إنه أصبح خائب الأمل للغاية في حكومة إندونيسيا العلمانية:





إذا كانت الشريعة تُصور بصورة عامة على أنها نظام قانوني جامد قمعي فإن النساء المسلمات لهن نظرة أدق للشريعة؛ إذ يرونها متفقة مع تطلعاتهن إلى اكتساب القوة



«إن هذه الحكومة فاشلة تماما، فهم لم يتبنوا الإصلاح، أو يحموا حقوقنا. القمار والبغاء في كل مكان. إني خائب الأمل جدا». قال أحمد إنه ينوي أن يصوت إلى جانب حزب العدالة المزدهر، الذي يفضل الشريعة الإسلامية الصارمة لإندونيسيا على التنظيمات العلمانية في البلاد في الانتخاب عام ٢٠٠٤. وقال: «إن الشريعة الإسلامية سوف تمحو الفساد. ويبدو أنها الحل الوحيد لمشكلاتنا».

قال طالب من كينيا عمره ٢١ عاما في تركيا:

«لقد نجح الإسلام، وهزم مصاعب عظيمة، وأثبت مرة بعد مرة أننا سمعنا الحق عندما قالوا إن الدين هو الإسلام. لقد هيأ الأساس في كل إنجاز بشري عظيم، والحل لكل مشكلة إنسانية لا حل لها. لكننا فقدنا هذا كله في وقت معين. إن الشيء الثمين مثل الذهب إذا أنت لم تضعه أبدا في النار، وسخّنته، فلن يكتسب أبداً ذلك اللمعان الذي يجعله ذهباً. وكذلك الإسلام: شيء طيب ولذلك ينبغي أن يدخل النار، إذا كان له أن يكتشف روحه».

جادل الكثيرون بأن الإخلاص لرسالة الله وبعثته قد أنشأ امبراطوريات وحضارات هائلة؛ بدءاً بالمجتمع الإسلامي في القرن السابع الذي امتد على مدى أكثر بلاد العالم حتى فجر الاستعمار الأوروبي في القرن الثامن عشر. وقد استخدمت الدول النفطية الغنية الإسلام وثروتها النفطية لنشر نفوذها العالمي. إن المخاوف من «الأصولية الإسلامية الراديكالية»؛ كما تبدو في تصدير إيران للإسلام الثوري، والجماعات المتطرفة مثل جماعة الجهاد الإسلامي في مصر، والذين اغتالوا رئيس مصر أنور السادات، ونهوض الجهاد الإسلامي الفلسطيني: كل أولئك سيطر على الثمانينيات. لكن الذي فات المراقبين هو «الثورة الهادئة»: أي وجود تيار رئيس من الحركات الإسلامية الاجتماعية والسياسية غير العنيفة، التي سعت إلى القوة والإصلاح من خلال صناديق الاقتراع لا طلقات الرصاص.

في أواخر الثمانينيات والتسعينيات وسط ضغط هائل من الاحتجاجات العامة على الاقتصاديات الفاشلة، عقدت الحكومات

المسلمة انتخابات محدودة تحت سيطرة الدولة. وذهب الناخبون إلى الاقتراع، ولأول مرة فى بعض البلاد، وأدهشوا كل إنسان عندما خرج المرشحون الإسلاميون والأحزاب الإسلامية فى مقدمة المعارضين. أثبت الإسلاميون أنهم لاعبون سياسيون ناجحون، وانتخبوا رؤساء ورؤساء وزراء ومحامين وبرلمانيين ووزراء، ورؤساء للمجالس القومية فى بلاد متنوعة: مثل مصر ومراكش وتركيا وباكستان والكويت والبحرين والعربية السعودية والعراق وأفغانستان والملايو وإندونيسيا.

لقد هزمت الأحزاب الدينية فى العالم العربى معارضيها العلمانيين هزيمة قاطعة فى غضون السنوات العديدة الأخيرة، حيث أثبت المرشحون الإسلاميون نجاحهم فى الاقتراع. وفى الانتخابات العامة فى العراق عند أواخر عام ٢٠٠٥، كسب التحالف الشيعى ١٢٨ مقعداً من ٢٧٥ مقعداً. وفى أول انتخابات فى الأراضى الفلسطينية على مدى عشر سنين هزمت حماس بصورة بالغة الحزب العلمانى الحاكم، وهو «فتح». وكسبت جماعة الإخوان المسلمين المحظورة فى مصر نسبة غير مسبوقة: هى خمس مقاعد البرلمان. كما كسب حزب التنمية والعدالة فى تركيا نصراً كاسحاً فى الانتخابات البرلمانية فى نوفمبر عام ٢٠٠٢، وهو أمر نادر فى الجمهورية العلمانية. وكسب حزب التنمية والعدالة أغلبية من ٢٦٣ مقعدا، كانت أقل بنسبة أربعة مقاعد من الأغلبية المطلوبة لإعادة كتابة الدستور الذى أصدره الزعماء العلمانيون من قواد الجيش بعد الانقلاب العسكرى فى عام ١٩٨٠. كما تقدم الإسلاميون بصورة قوية فى العربية السعودية فى انتخابات ٢٠٠٥، حيث كسب الإسلاميون المعتدلون جميع المقاعد فى المجالس البلدية فى مدينتى مكة والمدينة.

تغير الموقف فى الفترة الأخيرة على كل حال. إن الحكام بعد الحادى عشر من سبتمبر فى بلاد تمتد من مصر إلى أوزبكستان يستخدمون التهديد من القاعدة والإرهاب الدولى، ويصفون كل معارضة بالتطرف من أجل التحكم فى الانتخابات وتبرير حكوماتهم الاستبدادية. وعلى سبيل المثال: فقد وعد الرئيس المصرى حسنى مبارك بإلغاء قوانين الطوارئ سيئة السمعة، عندما رشح نفسه لإعادة انتخابه فى أول انتخابات تتعرض فيه الرئاسة للتحدى أول مرة فى انتخابات الرئاسة فى عام ٢٠٠٥؛ ولكنه رجع عن وعده: نظرا للمسائل «الأمنية». قال الرئيس مبارك إن على المصريين أن يتذكروا أنهم يعيشون فى منطقة ملتهبة. «علينا أن نقدر تعرض مصر بين حين وآخر للاستهداف». وتسمح قوانين الطوارئ التى ظلت قائمة منذ جاء الرئيس مبارك إلى السلطة فى عام ١٩٨١ بالاعتقالات والاحتجازات.

هل الإسلام هو المشكلة؟

الصور المتنافسة

فى الغرب والعالم الإسلامى؟

إن فشل الحكومات واختطاف الحكام والإرهابيين للإسلام، وكذلك الاغتيالات، والهجمات الانتحارية، وايذاء النساء والأقليات قد استوفى ضريبته على المجتمعات الإسلامية، وصورة الإسلام فى الغرب.

أظهر استفتاء أجرته صحيفة «واشنطن پوست» بالاشتراك مع قناة التليفزيون «إيه بى سى» (A.B.C) فى عام ٢٠٠٦ أن نصف الأمريكيين تقريباً - ٤٦٪ - لديهم فكرة سلبية عن الإسلام، بنسبة تزيد ٧٪ عن النسبة الملحوظة بعد بضعة أشهر من الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١. وتبعاً للاستفتاء، فإن نسبة الأمريكيين الذين يعتقدون أن الإسلام يشحذ العنف ضد غير المسلمين قد زادت على ضعف النسبة منذ هجمات الحادى عشر من سبتمبر؛ فارتفعت من ١٤٪ فى يناير عام ٢٠٠٢ إلى ٣٣٪. وأظهر استفتاء مركز «پيو» (PEW) للاستفتاءات بالمثل أن ثلث الأمريكيين تقريباً (٣٦٪) يقولون إن الإسلام أدعى إلى تشجيع العنف بين أتباعه من الأديان الأخرى.





الحكام بعد الحادى عشر من سبتمبر يصفون كل معارضة بالتطرف من أجل التحكم فى الانتخابات وتبرير حكوماتهم الاستبدادية



ترى أغلبية المسلمين الإسلام بأعين مختلفة على النقيض؛ باعتباره ديناً معتدلاً مسالماً، مركزياً فى فهم أنفسهم ونجاحهم. وما زالت أعداد غالبة من المسلمين - كما رأينا فى الفصل الأخير - تميز الدين بوصفه مؤشراً أولياً على هويتها، ومصدراً لهدايتها وقوتها وعاملاً حاسماً فى تقدمها.

إن أغلب أولئك المشاركين فى استفتاءات «جالوپ» من البلاد التى تكون غالبية سكانها مسلمين (٩٨٪ فى مصر، و٩٦٪ فى إندونيسيا و٨٦٪ فى تركيا) يقولون إن الدين عنصر مهم فى حياتهم اليومية، فيما عدا كازاخستان. هذا يقابل نسبة ٦٨٪ من المشاركين فى الولايات المتحدة، ونسبة ٢٨٪ فقط من المشاركين فى المملكة المتحدة، حيث يكون الدين لديهم عنصراً مهماً فى حياتهم اليومية.

لكن الديمقراطية مع ذلك من أكثر الاستجابات المقدمة بوصفها مفتاحاً لمجتمع أكثر عدالة، وللتقدم. ولما سئل المشاركون - نتيجة لذلك - أن يعلقوا على جوانب الحياة المهمة عندهم، فقد ذكرت أعداد كثيرة منهم حياة دينية روحية ثرية، وحكومة منتخبة بطريقة ديمقراطية؛ على أنها مهمة جداً على الأقل.

كيف ينظر ١,٣ مليار مسلم إلى الديمقراطية؟

إن الإجابات على أسئلتنا تكشف واقعاً معقداً مدهشاً؛ إذ هى تعكس قطاعاً متنوعاً من البلاد الإسلامية والطبقات الاجتماعية والفوارق بين الجنسين. والأغلبية الكبرى تقريباً فى جميع الأمم التى جرى فيها مسح الاستفتاء (٩٥٪ فى بوركينا فاسو، ٩٤٪ فى مصر، ٩٣٪ فى إيران، ٩٠٪ فى إندونيسيا) تقول إنها لو كانت تصدر دستوراً لدولة جديدة فإنها تضمن حرية التعبير؛ وتعريفها «السماح لجميع المواطنين بالتعبير عن آرائهم فى الشئون السياسية والاجتماعية والاقتصادية الراهنة».

على الرغم من أن أولئك المشاركين فى الاستفتاء يعترفون ويعجبون بجوانب عديدة فى الديمقراطية الغربية، إلا أنهم لا يحبذون تبنى النماذج الديمقراطية الغربية بالجملة. يبدو أن كثيرين يريدون نموذجهم الديمقراطى الخاص؛ الذى يشمل الشريعة، لا واحدا يعتمد على القيم الغربية ببساطة. والواقع أن قليلين من المشاركين يربطون بين «تبنى القيم الغربية» وبين التقدم السياسى والاقتصادى للمسلمين. إن التجاوزات السيئة باسم الشريعة لم تنته إلى رفضها بالجملة.

تؤكد بياناتنا على أولئك المشاركين فى بلاد أغلبها من المسلمين إذ يقدمون نموذجا جديداً للحكومة؛ يكون ديمقراطياً، ويحتضن القيم الدينية، وهو يساعد فى تفسير السبب فى رغبة الأغلبية فى أكثر البلاد فى الشريعة بوصفها مصدراً للتشريع؛ فيما عدا حفنة من الأمم (٤٠).

■ قالت الأغلبية فعلا فى بضعة بلاد فقط إن الشريعة لا يجب أن يكون لها دور فى المجتمع؛ ومع ذلك فالأقلية فقط فى أغلب البلاد تريد الشريعة باعتبارها «المصدر الوحيد» للقانون. وتريد الأغلبية فى الأردن ومصر وباكستان وأفغانستان وبنجلاديش أن تكون الشريعة «المصدر الوحيد» للتشريع.

■ أدعى الأمور إلى الدهشة غياب الفوارق المنظمة فى دول عديدة بين الذكور والإناث فى دعمهم الشريعة بوصفها المصدر الوحيد للتشريع. ففى الأردن مثلا يريد ٥٤٪ من الرجال، و٥٥٪ من النساء أن تكون الشريعة مصدرا وحيدا للتشريع؛ وفى مصر تبلغ النسبة ٧٠٪ من الرجال و ٦٢٪ من النساء؛ وفى إيران ١٢٪ من الرجال و١٤٪ من النساء؛ وفى إندونيسيا ١٤٪ من الرجال و١٤٪ من النساء.

من دواعى العجب أننا لا نحتاج إلى التطلع بعيداً عن بلادنا حتى نجد عدداً كبيراً من الناس الذين يريدون الدين مصدراً للقانون. فإن استفتاء «جالوپ» فى عام ٢٠٠٦ فى الولايات المتحدة يدل على أن أغلبية الأمريكيين تريد الإنجيل مصدراً للتشريع.

■ ٤٦٪ من الأمريكيين يقولون إن الإنجيل يجب أن يكون «أحد» المصادر، و٩٪ يعتقدون أنه يجب أن يكون المصدر «الوحيد» للتشريع.

■ ربما كان الأدعى إلى مزيد من الدهشة أن ٤٢٪ من الأمريكيين يريدون

من الزعماء الدينيين أن يكون لهم دور مباشر فى صياغة الدستور، بينما يريد ٥٥٪ ألاّ يلعبوا أى دور على الإطلاق. هذه الأرقام توشك أن تكون متماثلة مع تلك الأرقام فى إيران.

هل يجب أن يؤدى دعم الأغلبية للشريعة إلى هلع الغرب؟

مازالت الشريعة قرينة الرجم للزُناة، وقطع الأيدى للسرقة، والسجن أو الموت لحالات الردة والزندقة، والقيود على حقوق النساء والأقليات. وقد ظهر مدى التصورات المختلفة عن الشريعة فى العراق، عندما دعا زعماء الشيعة مثل الزعيم الشيعى الكبير آية الله على السيستانى إلى ديمقراطية إسلامية تشمل الشريعة باعتبارها أساس القانون فى الدستور الجديد للعراق.

قال «يونا دام كانا»، العضو العراقى المسيحى فى لجنة صياغة الدستور العراقى فى صيف عام ٢٠٠٥: إن عواقب جعل الشريعة من المصادر الرئيسة للقانون ستكون خطيرة. «وستكون كارثة بالنسبة للنساء». ومع ذلك، تظاهرت أكثر من ألف سيدة عراقية دعمًا للشريعة فى مدينة البصرة الجنوبية فى أغسطس عام ٢٠٠٥، وذلك استجابة لمظاهرة أخرى معارضة للشريعة فى بغداد منذ أسبوع سابق.

قال «ل.پول بريمر» (Paul .L Bremer) وكان عندئذ حاكما للعراق، وهو يتخذ موقفا من الخلاف الذى يتعلق بدور الشريعة فى الدستور الجديد للعراق، فيما يتصل بالدستور المؤقت فى عام ٢٠٠٤: «موقفنا واضح. لا يمكن أن يصبح قانونا حتى أوقِّع عليه». أما «دونالد رامسفيلد» (Donald Rumsfeld) الذى كان عندئذ وزيرًا للدفاع، فقد حذَّر فى عام ٢٠٠٣ أن الولايات المتحدة لن تسمح للعراق أن يصبح دولة ثيوقراطية مثل إيران، وخلط بين فكرة إدخال الشريعة فى الدستور الجديد للعراق وبين خلق دولة ثيوقراطية، أو حكم رجال الدين.

على الرغم من أن الشريعة فى أماكن عديدة أصبحت توحى إلى الخاطر بالحكم الدينى، فإن الاستجابات لاستفتاء «جالوب» تدل على أن الرغبة فى الشريعة لا تُترجم تلقائيًا إلى الرغبة فى الثيوقراطية. إن أغلبية كبيرة فى بلاد عديدة تقول إن الزعماء الدينيين لا ينبغى أن يلعبوا دورًا مباشرًا فى صياغة دستور البلاد، أوصياغة تشريع قومى، أو كتابة قوانين جديدة، أو تحديد السياسة الخارجية والعلاقات الدولية، أو تحديد زى النساء فى الأماكن العامة، أو ما يذاع على قنوات التليفزيون أو يُنشر فى الصحف. بينما يختار آخرون دورًا مباشرًا يميل إلى خدمة الزعماء الدينيين فى نطاق المشورة لموظفى الحكومة.

توحى الشريعة فى الغرب بصورة التقييد الاجتماعى: حيث تتعرض النساء للقمع والحرمان من الحقوق الإنسانية. والواقع أن النساء عانين من تعاليم الشريعة التى تفرضها الحكومة فى بلاد مثل باكستان والسودان وأفغانستان، والطالبان، والعربية السعودية وإيران. وعلى كل حال، فإن أولئك الراغبين فى الشريعة غالبًا ما يتهمون هذه التعاليم بأنها تفسيرات غير إسلامية. وتدلنا بيانات استفتاء «جالوب» على أن أغلب المشاركين يريدون الاستقلال والحقوق المتساوية للنساء. ويعتقد أغلب المشاركين فى أغلب البلاد التى جرى فيها الاستفتاء أن النساء يجب أن يكون لهن:

■ الحقوق القانونية نفسها مثل الرجال (٨٥٪ فى إيران؛ ٩٠٪ فى إندونيسيا، وبنجلاديش وتركيا ولبنان؛ ٧٧٪ فى باكستان؛ ٦١٪ فى العربية السعودية). ومن المدهش أن تكون النسبة ٥٧٪ فى مصر؛ ٥٧٪ فى الأردن، وهما يُعتبران بصفة عامة أكثر تحررًا، فهما يأتيان بعد إيران وإندونيسيا والبلاد الأخرى.

■ حق التصويت: ٨٠٪ فى إندونيسيا؛ ٨٩٪ فى إيران؛ ٦٧٪ فى باكستان؛ ٩٠٪ فى بنجلاديش؛ ٩٣٪ فى تركيا؛ ٥٦٪ فى العربية السعودية؛ ٧٦٪ فى الأردن يقولون يجب أن تستطيع النساء التصويت من دون أى تأثير أو تدخل من أعضاء العائلة.

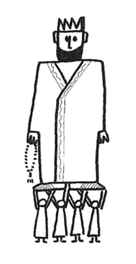
■ حق تولى أية وظيفة يتأهلن لها خارج البيت. كانت أعلى نسبة (٩٠٪) فى الملايو وموريتانيا ولبنان. كانت النسبة فى مصر (٨٥٪)؛ وتركيا (٨٦٪) والمغرب (٨٢٪)؛ أى أن النسبة كانت فى مدى الثمانينيات. جاءت بعدها إيران (٧٩٪)؛ وبنجلاديش (٧٥٪)؛ العربية السعودية (٦٩٪)؛ باكستان (٦٢٪)؛ الأردن (٦١٪).

■ حق تولى الوظائف القيادية على مستويات الوزارة والمجالس القومية. بينما تؤيد الأغلبية فى البلاد التى تم فيها الاستفتاء هذا المبدأ، فإن بلاد الاستثناء هى العربية السعودية (٤٠٪) ومصر (٥٠٪).

بينما تُصوِّر الشريعة بصفة خاصة على أنها نظام قانونى جامد قمعى، فإن النساء المسلمات يتجهن إلى نظرة أدق للشريعة، ويعتبرن أنها متفقة مع تطلعاتهن إلى اكتساب القوة. إن «جنان العُبيدى»؛ وهى واحدة من تسعين سيدة فى المؤتمر القومى العراقى فى أوائل عام ٢٠٠٥، أخبرت صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور» أنها تدعم تطبيق الشريعة. لكنها قالت على كل حال إنها بوصفها عضوة فى المؤتمر سوف تكافح فى سبيل حقوق النساء من أجل الرواتب المتساوية، وإجازة الأمومة مدفوعة الأجر، وتخفيض ساعات العمل للحوامل. وقالت إنها خطَّطت لتشجيع النساء على ارتداء الحجاب والتركيز على دعم عائلاتهن. وعند «جنان العبيدى» أن اكتساب النساء للقوة يتفق مع القيم الإسلامية.

عندما يُعبِّر الرجال والنساء عن رغبة فى الشريعة: فماذا يقصدون؟

إن فكرة خاطئة شائعة عن الشريعة ومعناها تفسِّر جمود المجاهدين





يجـــادل المسلمون الإصلاحيون اليــوم بأن الفقــه الإسلامــى يجب أن يُراجَع علــى ضوء الأحــوال الاجتماعيــة المتـغيــــرة



المتدينين، بالإضافة إلى مخاوف الكثيرين من غير المسلمين. وقد خلط المسلمون وغير المسلمين عبر التاريخ بين تعبيرات الشريعة والقانون الإسلامى على سبيل التبادل. ولما كان القرآن ليس كتاب قانون، فقد استخدم القضاة الوحى والعقل كذلك لإنشاء عدد من القوانين تحكم مجتمعاتهم. وأصبحت هذه القوانين الإنسانية مع مرور الزمن أمورًا مقدسة لا يمكن تغييرها.

إن المسلمين الذين يريدون الشريعة مصدرًا للقانون فى الدساتير لهم من أجل ذلك رؤى مختلفة جدًا عن كيفية مظهر ذلك. وإذا كان تعريف الشريعة يشير إلى المبادئ فى القرآن الكريم والسنة النبوية، فإن البعض يتوقعون التطبيق الكامل للقانون الإسلامى الكلاسيكى أو القانون فى العصور الوسطى، بينما يريد آخرون موقفا أشد تقييدًا، مثل منع الخمر، واشتراط الإسلام فى رئيس الدولة، أو إنشاء محاكم للشريعة للقضاء فى الحالات المتعلقة بقانون العائلة المسلمة (الزواج والطلاق والميراث).

يريد آخرون مع ذلك أن يضمنوا ألاّ يتعارض أى قانون دستورى مع المبادئ والقيم الإسلامية كما توجد فى القرآن.

من أجل توضيح الفارق بين الشريعة «والقانون الإسلامى»: تصوَّر الشريعة كأنها بوصلة (وحى الله، المبادئ الخالدة التى لا يمكن أن تتغير)، وتصور القانون الإسلامى (الفقه) كأنه خارطة. ويجب أن تتوافق هذه الخارطة مع البوصلة، ولكنها تعكس أوقاتا وأماكن وجغرافيا مختلفة. والبوصلة ثابتة، أما الخارطة فهى تتعرض للتغيير.

يزعم كثيرون من المصلحين أن التحدى اليوم هو التمييز بين ما يأتى مباشرة من القرآن (شعائر الصلاة والصيام والحج)، وهو ملزم بصورة عالمية، وبين التفسيرات الدراسية للوحى (التعليمات المعينة المتعلقة بالزواج أو الطلاق وهلمَّ جرًا)، وهى تتغير فى نطاق مفاهيم اجتماعية معينة.

يجادل المسلمون الإصلاحيون اليوم بأن الفقه الإسلامى يجب أن يُراجَع على ضوء الأحوال الاجتماعية المتغيرة. إن جمعية الأخوات المسلمات مثلا ـ وهى تدافع عن حقوق النساء فى الملايو ـ تفاوضت مع الحكومة الملاوية لفرض قيود على تعدد الزوجات. واستشهدت بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية للنص على شروط تعدد الزوجات فى عقود الزواج. فإذا قرر الزوج الزواج بامرأة ثانية، فسيكون ملزما بحكم القانون

بتطليق زوجته الأولى، وإعطائها مؤخر الزواج والنفقة.

عندما اتهم بعض المُفتين الجمعية بالخروج على الفقه الإسلامي، ردت الجمعية بآيات من القرآن والأحاديث النبوية التي تجعل الزواج بزوجة واحدة هو الأمر الطبيعي. وذكرت أن حفيدة النبي (عليه السلام) السيدة سكينة بنت الحسين نفسها قد وضعت شروطا مختلفة في عقد زواجها، ومنها ألاّ يستطيع زوجها الزواج بامرأة أخرى إذا أراد أن يظل زوجها. نشرت الجمعية في تصريح صحفي:

«من الواضح إذًا أن منح الزوجة خيار الحصول على الطلاق من خلال عقد الزواج لا يعارض تعاليم الإسلام. وليس تفسيراً جديداً نشأ في هذه الأزمنة الحديثة فقط. وإنما هو على النقيض مدعوم بالممارسات التقليدية منذ الأيام الباكرة للإسلام».

يقدم هذا المثل لمحة عن المدى الواسع المتنوع للتفسيرات التي تميز الفقه الإسلامي. وعلى ذلك، عندما يقول المسلمون إنهم يدعمون تطبيق الشريعة فإن معنى هذا يمكن أن يتغير تغيّرا هائلاً من إنسان إلى آخر.

إن موضوع الدين والتغير ليس خاصا بالإسلام؛ فالناس يواجهونه في كل الأديان. ولا تحتوي النصوص المقدسة أو الصياغات الكلاسيكية للفقه حلولا معينة لكثير من المشكلات الحديثة. هل يكون الاستنساخ والتلقيح في الأنابيب من الأمور المقبولة إسلاميا؟ هل يمكن للمرأة أن تكون رئيسة جمهورية في دولة حديثة؟ كيف يمكن أن تتناول البنوك وبيوت التمويل الفائدة والقروض؟ ما هي الرخص المتاحة للمسلمين الذين يعيشون باعتبارهم أقليات؟ هل تكون الهجمات الاستباقية مبرّرة على الإطلاق؟

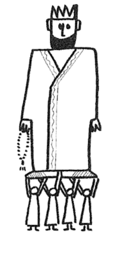
إذ لا يكون في القرآن نص واضح، ولا توجد سلطة دينية مركزية فإن فتاوى المفتين يمكن أن تختلف اختلافا بيّنا، وذلك اعتمادا على مدى تفكيرهم المحافظ أو المُجدد، ومدى تأثرهم بالسياسة أو تخليهم عنها أفرادا. وتعتمد الفتاوى في النهاية على من يكون مُفتيك، كما تعتمد النصيحة التي تتلقاها من قسيسك أو الرباني الذي تلجأ إليه على هويته أو هويتها. والفتوى - على كل حال - رأي فقهي غير ملزم، ويختار المسلمون أية فتوى يطبقونها أو لا يطبقونها في حياتهم. ويشارك المسلمون في هذا المجال في سوق حرة من الفكر الديني؛ وهي مرونة لعلها تفسر الصمود والتنوع للإسلام عبر الجغرافيا والزمان.

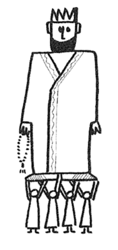
ما هو الفكر الإسلامي الديمقراطي؟

هناك مدارس فكرية مختلفة بين المسلمين، فيما يتعلق بالديمقراطية والإسلام. هناك فكرة للأقلية في المراجع الإسلامية؛ وهي أن الديمقراطية مفهوم أجنبي. والذين يؤمنون بهذه النظرة - ويشملون المتطرفين والمسلمين في التيار الرئيس - يريدون استعادة الإمبراطورية الإسلامية؛ لأنهم يقولون إن السيادة الشعبية وثنية؛ تنكر السيادة العليا لله.

إن نتائج استفتاء «جالوب» بين المشاركين تبين على كل حال سعة الانتشار لدعم الحريات الديمقراطية وحقوق النساء في العالم الإسلامي. وهناك عدد من المبادئ في التقاليد الإسلامية تدعم هذه الحريات.

يجادل المفكر السوداني والدبلوماسي السابق عبد الوهاب الأفندي بأن تأكيد الإسلام للوحدانية







إن موضوع الدين والتغير ليس خاصا بالإسلام؛ فالناس يواجهونه في كل الأديان

وحكم الله المطلق يتطلب نظامًا ديمقراطيًا: «إن سيادة رجل واحد تتعارض مع سيادة الله، لأن الناس جميعا متساوون أمام الله... والطاعة العمياء لحكم إنسان واحد تناقض الإسلام» وتشمل الوحدانية في الإسلام الإيمان بأن الحياة لايمكن أن تتجزأ؛ فلا يمكن أن ينفصل الدين عن جوانب الحياة جميعا، كما يحدث في استبعاد الدين من دائرة الحياة العامة.

إن رئيس إيران السابق محمد خاتمي، وهو من دعاة الديمقراطية الإسلامية، ذكر في مقابلة تليفزيونية في يونيو عام ٢٠٠١: «إن الديمقراطيات العالمية تعاني اليوم من فراغ رئيس، وهو فراغ الروحانية»؛ وأن الإسلام يمكن أن يُقدم الإطار الذي يجمع الديمقراطية والروحانية والحكومة الدينية.

يعيد المسلمون - مثل اليهود والمسيحيين - تفسير تقاليدهم من أجل دعم الصور الحديثة للديمقراطية، ويمكن أن تختلف إلى حد كبير. إن صور الديقراطية الغربية تشمل التمثيل الرئاسي والبرلماني والنسبي، والانتخابات المباشرة وغير المباشرة للرؤساء، وصور الحكومة التوافقية أو المتعارضة. وعلى الرغم من إصرار الولايات المتحدة على الفصل بين الدولة والكنيسة؛ فإن ديمقراطيات أوروبية عديدة لها دين للدولة، أو تقدم تمويلاً أو دعماً من الدولة للمؤسسات الدينية المعترف بها رسميا؛ مثل بريطانيا العظمى وألمانيا والنرويج.

وعلى الرغم من الفصل الصارم في فرنسا بين الدولة والكنيسة، وهو قائم على أساس قانون عام ١٩٠٥ في الفصل، فإن الحكومة تقدم تمويلاً للكنائس والمعابد والكنيس، التي بُنيت قبل عام ١٩٠٥، باسم المحافظة على الثقافة.

وعلى الرغم من أن هذه المباني تُعتبر ملكا للدولة، وتتم صيانتها بواسطة الحكومات القومية والمحلية، فإن في استطاعة رجال الدين استخدامها دون مقابل.

وقد قدمت الحكومة الفرنسية - فضلا عن ذلك - منذ عام ١٩٥٩ إعانات مباشرة إلى المدارس الخاصة. وكثير منها كاثوليكية - وغالبا ما تدفع رواتب المدرسين في تلك المدارس.

إن مفهوم الاجتهاد في الإسلام أساسي في عملية التكيف للظروف الجديدة، وهو ممارسة الحكم الفقهي العالم المستقل. وكما قال خورشيد أحمد وهو زعيم إسلامي بارز في بريطانيا ومن رجال البرلمان الباكستانيين:

«إن الله أوحى بالمبادئ العامة فقط... ويحاول الناس من خلال الاجتهاد في كل عصر أن يحاولوا تنفيذ وتطبيق التوجيه الإلهي على مشكلات أزمانهم».

من المفاهيم الإسلامية الأخرى في الصور الإسلامية المشروعة فكرة الشورى بين الشعب والحكومة في اختيار أوانتخاب الحكام. هذه الفكرة بالإضافة إلى الإجماع من المجتمع؛ وهو من مصادر الفقه الإسلامي تستخدمان الآن لدعم البرلمانات والمجالس القومية النيابية باعتبارهما سبيلا يعكس الرأي الجماعي في المجتمع.

بينما تستمر المجادلات العنيفة حول الديمقراطية، فإن التغيير يحدث في الواقع. وتستجيب الحكومات - مهما كانت الاستجابة متعثرة بطيئة - للضغوط من أجل المزيد من المشاركة السياسية، والانتخابات مع درجات متفاوتة من الانفتاح والحرية والشفافية.



إذا كانت الديمقراطية هدفًا مرغوبًا لدى الكثيرين من المسلمين وللسياسة الخارجية للولايات المتحدة؛ فهل يعتقد المسلمون أن للغرب أي دور يلعبه؟

نحتاج للإجابة عن هذا السؤال أن نبحث بعض الحقائق الواقعية. هناك عدد من التحديات في الخطة المطلوبة لكسب عقول المسلمين وقلوبهم: فإن «الإرجاع» (Feedback) للإجابات عن الأسئلة المتعددة في استفتاء «جالوب» يعكس انتقادات وشكوكا في السياسة الخارجية والتصرفات للولايات المتحدة.

وعلى الرغم من الانتشار الواسع للرغبة في الديمقراطية، التي يعتبرها كثيرون من المسلمين ضرورة لتقدمهم، فيما عدا عشرة بلاد في الاستفتاء، فإن الأغلبية لا توافق على مبدأ «أن الولايات المتحدة جادة في التشجيع على النظم الديمقراطية للحكومة في هذه المنطقة».

إن مواقف المسلمين تجاه الولايات المتحدة مازالت متأثرة بما هو متصور عن أمريكا - وأوربا إلى حد كبير - من المقياس المزدوج في تشجيع الديمقراطية، وسجلها الطويل في دعم النظم الاستبدادية وفشلها في نشر الديمقراطية في العالم الإسلامي؛ كما فعلت في المناطق والبلاد الأخرى بعد سقوط الاتحاد السوفيتي.

في محاضرة رئيسة عن السياسة في عام ٢٠٠٢، لاحظ السفير «ريتشارد هاس» (Richard Haas) وهو من كبار الموظفين السابقين في وزارة الخارجية في إدارة جورج بوش، أن الإدارتين الديمقراطية

والجمهورية كلتيهما قد مارستا «الاستثناء الديمقراطى» فى العالم الإسلامى، ووضعتا الديمقراطية فى مكانة أدنى من المصالح القومية الأخرى: مثل الحصول على النفط واحتواء الاتحاد السوفيتى، ومعالجة الصراع العربى الإسرائيلى.

فى الأزمنة الأقرب، زاد ارتياب المسلمين فى تشجيع الولايات المتحدة للديمقراطية بناء على عدد من الأسباب: استخدام «خلق الديمقراطية» بمنطق رجعى لغزو العراق، بعد أن فشلت مسألة أسلحة الدمار الشامل فى تلك البلاد، والانطباع بأن الولايات المتحدة كانت تنسّق نمطًا أمريكيًا «مقبولاً» من الديمقراطية فى العراق، مع اختيارها الخاص لجورج وشنطن فى العراق؛ وهو أحمد شلبى، وكذلك طابور الإساءات إلى الحقوق الإنسانية بدءاً من جوانتانامو إلى «أبى غريب». يزيد فى دعم مثل هذه الانطباعات رفض الولايات المتحدة وأوروبا الاعتراف بحكومة حماس المنتخبة بصورة ديمقراطية.

قال «كينيث روث» (Kennciel Roth) رئيس منظمة مراقبة حقوق الإنسان فى حديث لصحيفة «فاينانشيال تايمز» (Financial Times): «إن المسئولين الأمريكيين كلهم يؤيدون الديمقراطية ماداموا يحبون النتائج». ويعتقد روث أن رسالة أمريكا فى نشر الديمقراطية أصبحت تساوى «تغيير النظام»، وقد فقدت مصداقيتها فى العالم الإسلامى. وقال: «إن دفعها للديمقراطية قد انتهى الآن».

لقد ردّد «سلامة نعمات»، صدى تشاؤم «روث»؛ وذلك فى جريدة واشنطن بوست، وكان محللاً أردنيا ورئيس مكتب الصحيفة العربية «الحياة» فى واشنطن: «إنها قصة نجاح للقاعدة، وقصة نجاح للأنظمة العربية الاستبدادية، التى جعلت الديمقراطية تبدو قبيحة فى أعين شعوبهم، ويمكن أن يقولوا لشعوبهم: انظروا إلى الديمقراطية التى يريد الأمريكيون جلبها إليكم. الديمقراطية هى المتاعب. لعلكم تنسون تمامًا ما وعدكم به الأمريكيون - إنهم يعدونكم الموت».

تأثرت أفكار المسلمين فى أنحاء العالم بالانفجار فى وسائل الاتصال الجماهيرية التى اكتسحت أغلب العالم الإسلامى، وتغلبت على سيطرة الحكومات. إن صحفًا مثل «الشرق الأوسط» و«الحياة» اتصلت بشبكات تليفزيونية مثل الجزيرة والعربية و«إم. ب. سى» (MBC) وقنوات أخرى، حتى تكون بدائل لقنوات «سى. إن. إن» (CNN) و«ب.ب.سى» (BBC). ويمكن رؤية أثر ثورة المعلومات فى العربية السعودية، حيث تعتبر أعداد كبيرة أن التليفزيون العالمى (٨٢٪)، والصحف (٦٥٪)، والراديو العالمى (٤٢٪) والإنترنت (٣٢٪) هى مصادر مهمة جداً حتى يكون الإنسان على علم جيد بالشئون العالمية. وعند سؤال السعوديين عما إذا كانوا قد شاهدوا قناة الجزيرة فى غضون الأيام السبعة الماضية، أجاب ثلاثة أرباعهم أنهم شاهدوا قناة الأخبار بالقمر الصناعى، وجذبهم أسلوبها فى نقل الأخبار «من مواقعها» بطريقة «موضوعية»، «جريئة».

ما الذى يعتقده المسلمون عن فرص تحسين العلاقات مع الغرب؟

إن اهتمام الغرب بعلاقات أفضل مع العالمين العربى والإسلامى أدعى أن يكون أشد إيجابية فى الدول الأفريقية المشاركة فى الاستفتاء. كان سكان سيراليون (بنسبة ٦٤٪) أدعى الشعوب المدروسة جميعاً فى الاعتراف بأن الغرب يبدى اهتماماً. وتختلف الصورة اختلافاً حاداً فى أغلب البلاد الأسيوية وبلاد الشرق الأوسط: التى يكون أكثر سكانها من المسلمين؛ حيث يزداد الاحتمال جداً فى تصور الشعوب أن الغرب أدعى ألاّ يبدى الاهتمام من إبداء الاهتمام. تبلغ العاطفة السلبية أقصاها فى تركيا؛ حيث يقول ٦٤٪ إن الغرب لا يبدى اهتماماً بعلاقات أفضل، ويقول ٥٧٪ من المصريين، و٥٣٪ من الكويتيين إن الغرب لا يبدى الاهتمام.

هل يريد المسلمون علاقات أفضل مع الغرب، على الرغم من إجاباتهم القاسية الراجعة؟ إن نسبة الذين يقولون بأهمية التفاهم الأفضل بين الثقافتين الغربية والإسلامية بالنسبة لهم إلى حد كبير تفوق نسبة الذين يقولون بانعدام الأهمية لهم. إن أولئك المهتمين يتفوقون على غير المهتمين بنسبة ٢:١ فى بعض الحالات: مثل العربية السعودية ومراكش ولبنان.

لكن ما الذى يعتقده المشاركون فى الاستفتاء أن فى استطاعة الغرب أن يفعله لتحسين العلاقات مع العالم الإسلامى؟ إن أغلب الاستجابات لهذا السؤال المفتوح من مراكش إلى إندونيسيا هى:

- إبداء المزيد من الاحترام والاهتمام.
- لا تُنقصوا من مكانة البلاد العربية والإسلامية.
- أظهروا مزيدا من فهم الإسلام كدين، ولا تحطوا من قدر مايدعو إليه الإسلام.

من الأمور الكاشفة بالمثل، أنّ على قمة الإجابات للسؤال: ما هو أقل ما يستدعى إعجابك بالغرب؟ كانت الكراهية أو الحطّ من شأن الإسلام والمسلمين. ولكن كيف تتعلق هذه الإجابات بمسائل الحرية والديمقراطية؟

سُئل المشاركون: «افرض أن واحداً من حكومة الولايات المتحدة سألك فيما بينك وبينه ما هو أهم شىء يمكن أن تفعله الولايات المتحدة لتحسين مستوى الحياة للناس من أمثالك فى هذه البلاد. ما هى توصيتك؟» كانت أغلب الإجابات بعد: «اخفضوا نسبة البطالة، وأصلحوا البنية الاقتصادية التحتية» هى: «أوقفوا التدخل فى الشئون الداخلية للدول العربية والإسلامية»؛ «أوقفوا فرض عقائدكم وسياساتكم»؛ «احترموا حقوقنا السياسية، وأوقفوا السيطرة علينا»؛ «أعطونا حريتنا الخاصة».





يرى المسلمون تعارضًا بصفة عامة بين القيم الديمقراطية والمبادئ الإسلامية

إذا نظرنا نظرة أقرب إلى من سوف نسميهم «بالديمقراطيين المسلمين»: أولئك الذين يعتقدون أن الديمقراطية مهمة لمستقبلهم وتقدمهم، فذلك يزيد فى فهمنا للموضوع. لعل أهم صفة تميز هذه الجماعة هى تأكيدها القوى على الدين وحقوق النساء.

- يقول أغلب الديمقراطيين المسلمين إن الحياة الروحية للإنسان أساسية: فهى شىء لايستطيع الحياة من دونه، ويقول أكثر من ٦٠٪ إنهم حضروا مناسبة دينية فى الأيام السبعة الماضية.
- تدعم الأغلبية النساء فى الحصول على: الحقوق القانونية نفسها مثل الرجال (٧٨٪)؛ حق التصويت من دون تدخل عائلى (٨٨٪)؛ وظيفة تناسب مؤهلاتهن (٨٢٪)؛ مناصب القيادة فى الوزارات والمجالس النيابية (٧٢٪)؛ قيادة السيارة (٦٧٪).

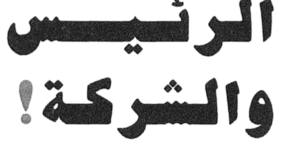
من الطريف أن الديمقراطيين المسلمين أكثر اهتمامًا بتحسين العلاقات مع الغرب، ولكنهم أدعى ألاّ ينظروا نظرة تفضيل إلى الولايات المتحدة، وأحرى أن يقولوا إنّ المجتمعات الغربية لا تبدى اهتماماً بالتعايش مع العالم العربى والإسلامى. تنعكس هذه المفاهيم فى النسب الصغيرة (٥٪ إلى ١٠٪) التى تؤمن بأن الولايات المتحدة محل ثقة، أو هى صديقة، أو تُعامل البلاد الأخرى باحترام.

إذا اعتبرنا هذه المفاهيم، وكذلك ما يعتقده الكثيرون، وهو أن الغرب معادٍ للإسلام والمسلمين، فلعل أحد الدروس أن الأمر حين يتعلق بالديمقراطية وحكم القانون وحقوق الإنسان، فإن المعايير التى يطبقها الغرب على نفسه يجب أن تُعتبر متسقة مع تلك التى يطلبها ويتوقعها الآخرون.

عناصر رئيسة

- كثيرون من المسلمين يقدّرون عدداً من المبادئ الديمقراطية على الرغم من ندرة الديمقراطيات فى البلاد الإسلامية.
- لا يرى المسلمون تعارضًا بصفة عامة بين القيم الديمقراطية والمبادئ الإسلامية.
- لا يريد المسلمون على وجه العموم الثيوقراطية ولا الديمقراطية العلمانية، ويفضلون نموذجًا ثالثًا: تتعايش فيه المبادئ الدينية والقيم الديمقراطية.
- يدعم الرجال والنساء دوراً للشريعة باعتبارها مصدرا للتشريع، ولا يريد أغلبهم - فى الوقت نفسه - أن يتولى الزعماء الدينيون مسئولية مباشرة فى صياغة التشريع. ■





الرئيس والشركة!

**إلى أى مدى يؤثر غياب رئيس الشركة مريضًا (ستيف جوبز / أبل)، أو وراء القضبان (هشام طلعت مصطفى) فى مصير الشركة ذاته؟
هذا مقال كتبه كاتب اقتصادى متخصص فى الموضوع**

هاريس كولنجوود
Harris Collingwood

■■ من المتوقع عودة «ستيف جوبز Steve Jobs» الرئيس التنفيذى لشركة «أبل Apple» إلى عمله هذا الشهر بعد غياب دام ستة أشهر بسبب وعكة صحية. ومع ذلك، فإن المستثمرين بالشركة لا يشعرون بالارتياح. فكلما عطس «جوبز» أصيبت أسهم «أبل» بالبرد. هل يمكن حقا لمدير تنفيذى - حتى لو كان قديرا وذا رؤية ثاقبة مثل «جوبز» - أن يبنى شركة أو يهدمها؟ لقد طرح كثير من خبراء الأعمال شكوكا متزايدة حول الاعتقاد بأن الرئيس التنفيذى هو بطل خارق. وتكشف الأبحاث الحديثة عن أنه بينما هناك بعض الرؤساء التنفيذيين ممن يشكلون فارقا جوهريا، فإن الكثير منهم هم مجرد التروس الأكثر بروزا فى آلات معقدة.

علينا أن نمعن الفكر فى تجربة حملة الأسهم فى شركة «أبل». فمثل والدين مكروبين بجوار سرير طفلهما المريض، كان المستثمرون بالشركة فى أعلى درجات القلق على صحة « ستيف جوبز» لمدة عام تقريبا أو يزيد. لقد خضع الرئيس التنفيذى لمؤسسة «أبل» عام ٢٠٠٤ للجراحة بسبب نوع نادر قابل للشفاء من سرطان البنكرياس. ومنذ ذلك الوقت، كانت الحالة الصحية لـ «جوبز» مصدر قلق عميق لحملة الأسهم والمحللين والمريدين. وبالنسبة لبعض المراقبين، فإن مصير «أبل» و«جوبز» مرتبطان بصورة لا يمكن الفكاك منها. فقد توقع أحد المحللين فى العام الماضى أن تخسر «أبل» ربع قيمتها السوقية فى حالة رحيل «جوبز»، سواء على قدميه أو محمولا فى نعشه. وربما يرفق أطباء «جوبز» أيضا بملفه الطبى مخططا بيانيا بأسعار أسهم الشركة، حيث إن تقلب أسعارها صعودا وهبوطا يحاكى عن كثب الجدل حول حالته الصحية.

وقد زادت حدة القلق المستمر للمستثمرين حول الرئيس التنفيذى لـ«أبل» فى يونيو الماضى عندما خاطب «جوبز» - وهو يبدو ناحلا - جمعا من مطورى برمجيات «أبل». لقد جدد ظهوره بتلك الصورة المخاوف من عودة السرطان إليه. ولعدم اقتناعهم بتأكيدات الشركة أن «جوبز» لم يكن يعانى سوى من «عدوى شائعة»، سارع المستثمرون إلى بيع أسهمهم، مما هوى بسعر سهم «أبل» لأكثر من أربعة دولارات فى خلال يوم واحد.

وبعد ستة أسابيع، نشرت جريدة «نيويورك تايمز New York Times» تقريرا عن مصادر مجهولة مقربة من «جوبز» تفيد بأنه أبلغ مجلس إدارة «أبل» أنه خال تماما من السرطان وأنه أجرى جراحة - لم يسمها - لمعالجة مشكلة فقدان الوزن. وإزاء تلك الأنباء، ارتفعت أسهم «أبل» بنسبة ٢,٦٪. ولكن الارتياح انقلب مرة ثانية إلى ذعر فى شهر أغسطس عندما بث شخص سيئ الطالع بطريق الخطأ على موقع Bloomberg.com نعيا معدا مسبقا لـ «جوبز»، مما أصاب المتعاملين بالأسهم بهياج شديد، إلى أن نشر الموقع تراجعا خفيا عن القصة «غير المكتملة».

كانت ردة الفعل سريعة لدى الأوغاد والانتهازيين على شبكة الإنترنت لاستغلال التفاعل بين أسعار أسهم «أبل» والحالة الصحية لمديرها التنفيذى. ففى أكتوبر بث أحد المراسلين المتطوعين لموقع CNN.com - حيث تستحدث الشبكة تجربة ما يسمى بصحافة المواطنين - تقريرا زائفا تماما بأن «جوبز» قد هرع به إلى أحد المستشفيات إثر إصابته بنوبة قلبية خطيرة. وقد شك المتعاملون بالأسهم فى أن تكون تلك حيلة للمراسل للإفادة من انهيار أسعار أسهم «أبل»، رغم أن تحقيقا لاحقا لـ «لجنة السندات والبورصة Securities and Exchange Commission» توصل إلى أن الأمر لا يعدو كونه مزحة لأحد المراهقين. وعلى أية حال، فقد هبطت أسهم «أبل» بنسبة ٥,٤٪ قبل أن تصحح CNN التقرير.

ومع ذلك، فمن العسير التفوق على مجرد الإزعاج غير الأخلاقى لقراصنة الإنترنت الذين اقتحموا فى يناير بث الموقع الرسمى للمؤتمر السنوى لمطورى «ماكوورلد Macworld». وقد قاطعوا البث الحى لوقائع المؤتمر برسالة كبيرة الحروف «ستيف جوبز مات لتوه». وسرعان ما تخلص القائمون على الموقع من الرسالة، ولكن لم تمض سوى دقائق ثلاث حتى عاد القراصنة: «انتظروا، للأسف. لقد مات «ستيف» فعلا. تعازينا». وسرعان ما أوقف منظمو المؤتمر البث الحى.

لقد أتاحت سياسة العلاقات العامة المتحفظة لـ «أبل» مجالا واسعا لانتشار الشائعات. وقد سرت عدوى ميل «جوبز» للاحتجاب فى أنحاء الشركة. وقوبلت تساؤلات المراسلين حول كافة أمور الشركة تقريبا بالصد بصورة روتينية. وحتى عندما تصدر «أبل» تعليقا رسميا بشأن الحالة الصحية لـ «جوبز» فإنها تفلح فى تقويض مصداقيتها. فعلى ضوء ما تكشف لاحقا، فإن الملاحظة الحمقاء

بترتيب مع
The Atlantic.

ترجمة: عادل فتحى

ظل السؤال حول استحالة الاستغناء عن الرئيس التنفيذي يشغل بال خبراء الأعمال طوال سبعين عاما



للشركة في مؤتمر يونيو ٢٠٠٨ بأن «جوبز» إنما كان يعاني «عدوى شائعة» تبدو مراوغة في أحسن الأحوال.

مع ذلك، لم يقوض هذا التصريح مصداقية «أبل»، مثلما فعل إعلان يناير بأن «جوبز» كان يعاني «خللا هرمونيا» أثر على قدرته على امتصاص البروتين. وقد ذكر «جوبز» بلهجة باعثة على الاطمئنان في خطاب نشرته الشركة أن العلاج كان «بسيطا وحاسما نسبيا». وقد أدى الإعلان الصحفي إلى ارتياح آخر لأسهم «أبل»، ولكن المشاعر الطيبة انتهت فجأة بعد تسعة أيام عندما أذاعت «أبل» تصريحا آخر من «جوبز» اعترف فيه بأن مشاكله الصحية كانت «أكثر تعقيدا» مما كان يعتقد في البداية وأنه سوف يغادر الشركة في أجازة لمدة ستة أشهر لمواجهة ذلك.

تعلمون ما حدث بعد ذلك. انخفضت أسعار أسهم «أبل» حوالي خمسة دولارات بمجرد بدء التداول في اليوم التالي، مما أدى إلى الإطاحة بحوالي أربعة مليارات دولار من القيمة السوقية للشركة، رغم أن الأسهم استعادت جزءا من عافيتها قبل نهاية اليوم. وبعد تلك التجربة المؤلمة، يمكننا أن نغفر لمستثمري «أبل» حيرتهم بشأن ما يصدقون، الشائعات أم تصريحات «أبل».

أثناء كتابة هذا المقال، تؤكد «أبل» أن «جوبز» سيعود للعمل في يونيو، رغم تشكك العديد من المراقبين في ذلك. وفي الوقت نفسه، تعافت أسعار أسهم «أبل» سريعا مرة ثانية من انخفاض يناير، بما يوحي - ربما - بأن المستثمرين يتقبلون فكرة فنائية رئيسهم التنفيذي المفضل.

مهما كانت كيفية تسوية مسألة عودة «جوبز»، فإنها تطرح أسئلة أخرى أكثر إلحاحا: دعك من تقلبات أسعار الأسهم على المدى القصير، هل تمثل عودة «جوبز» إلى «أبل» أهمية حقيقية؟ ما الفرق الذي يمكن أن يحدثه رئيس تنفيذي في جميع الأحوال؟

لا تبدو الإجابة واضحة اليوم مثلما كانت منذ بضع سنين، قبل أن تقوض فضائح الشركات والكوارث المالية العالمية قواعد عقيدة الرئيس التنفيذي البطل. لقد نمت تلك العقيدة بثبات لأكثر من ربع قرن، بداية من عام ١٩٧٩ عندما تقلد «لي ياكوكا Lee Iacocca» قيادة «كرايسلر Chrysler»، إبان انتشالها الفيدرالي الأول من مأزقها المالي، إلى صحوة قصيرة المدى. لاحقا، تحولت حفنة من رؤساء الشركات التنفيذيين، بما فيهم «جاك ويلش Jack Welch» من «جنرال إلكتريك General Electric» و«بيل جيتس Bill Gates» من «ميكروسوفت Microsoft» و«وارين بافيت Warren Buffet» من «بيركشاير هاثاواي Berkshire Hathaway» إلى مشاهير ذائعي الصيت يحتفى بهم لنهوضهم بشركاتهم دون مساعدة إلى نجومية سوق الأسهم. إن أسعار أسهم الشركات تشير للوهلة الأولى إلى أن الرؤساء التنفيذيين كانوا يستحقون كل ما كان يستطيع مجلس إدارة ممتن أن يكافئهم به. ووفقا لتلك المدرسة الفكرية، فعندما صرح «شارل دي جول Chares de Gaulle» بأن «المقابر مليئة برجال لا يمكن الاستغناء عنهم»، فإنه لم يكن سوى رجل فرنسي شديد العناد.

بالنسبة للمؤمنين بالأهمية العظمى للرؤساء التنفيذيين، فحتى وجود المحتالين والأوغاد في صفوف الرؤساء التنفيذيين قد قلل من التأثير الهائل للرئيس التنفيذي. باستطاعة الرؤساء التنفيذيين إقامة شركات عظيمة، وباستطاعتهم أيضا أن يهدموها. إن سقوط «دينيس كوزلوسكي Dennis Kozlowski» من القمة ليهوي في السجن بسبب الاختلاس من «تيكو إنترناشيونال Tyco International» كان مرتبطا تماما بانهيار الشركة. وكان سقوط «إنرون Enron» عاقبة حتمية لإجرام «جيفري سكيلنج Jeffrey Skilling». وقبل أن يترك «موريس هانك جرينبيرج Maurice Hank Greenberg» شركة «أميركان إنترناشيونال جروب AIG» بعد شبهات قانونية عام ٢٠٠٥، كان قد قادها إلى دوامة من المبادلات الائتمانية «credit-default-swaps»، مما أدى إلى سقوط الشركة في النهاية في دوامة من المضاربات الحمقاء والخروج من تصنيف الاقتصاد العالمي. حقا، لقد انطبق المثل «أنا وبعدي الطوفان».

تلك هي «نظرية الرجل العظيم التاريخية Great Man theory of history»، لـ «كارلايل Carlyle» مرسومة على نسيج شركة، وحتى في وسط الخراب الاقتصادي الذي نعيشه الآن، فما زال لتلك النظرية غلاة من المؤيدين، ليس فقط من بين الرؤساء التنفيذيين أنفسهم. لقد أشيع عن «جون ثين John Thain»، الرئيس التنفيذي الأسبق لـ «ميريل لينش Merrill Lynch» اعتقاده بأن إسهاماته استحقت مكافأة قدرها أربعون مليون دولار، حتى بعد أن ألقت الخسائر المتلاحقة بمؤسسة السمسرة العتيدة إلى براثن «بنك أميركا Bank of America» (كان لبنك أميركا رأي آخر، فلم يأخذ «ثين» مكافأة عن عام ٢٠٠٨، وتم صرفه من الخدمة في يناير).



إن النظرة المبجلة لرب العمل تدعمها صناعة صغيرة لـ «عرابي» الإدارة ومستشاري مكافأة الرؤساء التنفيذيين. إن لديهم أسبابا وجيهة لبيع مجالس الإدارات والمستثمرين والصحفيين وحتى الرؤساء التنفيذيين أنفسهم مفهوم أن للرئيس التنفيذي قيمة عظيمة. لقد ربح عرابو الإدارة مهاما جديدة من خلال إحالات من عملاء ممتنين، وهم لن يتوقعوا تلقي الشكر إذا ما أخبروا الرئيس التنفيذي أنه مجرد ترس آخر في الماكينة. إن مستشاري المكافآت يعلمون أنهم لو فازوا بحزم أجور عالية لعملائهم من الرؤساء التنفيذيين، فإنهم سيكافأون بعقود مجزية لإدارة خطط مزايا العاملين وما شابه ذلك.

مع ذلك فإن من عملوا لدى رؤساء تنفيذيين مرموقين لا يتفقون بالضرورة مع الربط الوثيق لدى الرأي العام بين الرئيس التنفيذي وشركته. في مقال نشر في شهر مايو عام ٢٠٠٦ بمجلة «ستانفورد بيزنس Stanford Business Magazine» أورد أستاذا الإدارة «روبرت ساتون Robert Sutton» و«جيفري فيفر Jeffrey Pfeffer» محادثة مع «سبنسر كلارك Spencer Clark»، المدير التنفيذي المرموق بشركة «جنرال إلكتريك» أثناء سنوات «ويلش». يقول «كلارك»: «لقد أبلى «ويلش» بلاء حسنا، ولكن يبدو أن الجميع قد نسي أن الشركة كانت موجودة منذ أكثر من مائة عام حتى قبل أن يحصل «ويلش» على الوظيفة، وكان لديه سبعون ألف شخص آخر لمعاونته».

يشارك الكثير من الأكاديميين «كلارك» في تشككه. لقد ظل السؤال حول استحالة الاستغناء عن الرئيس التنفيذي يشغل بال خبراء الأعمال طوال سبعين عاما. وبينما الجدل الدائر أبعد ما يكون عن الحل، يعتقد الكثير من أبرز وأشهر أساتذة مدارس الأعمال والخبراء الآخرين أن الهاجس الأمريكي بشأن من يجلس على قمة المؤسسة قد تجاوز كل الحدود.

إن النقاش بشأن محورية الرئيس التنفيذي بدأ بصورة جدية في ثلاثينيات القرن العشرين، في أعمال «شيستر بارنارد Chester Barnard» أحد رؤساء شركة «نيوجيرسي بل New Jersey Bell». كان «بارنارد» أحد أوائل الخبراء الذين حددوا المؤسسة باعتبارها - أولا وقبل كل شيء - منظمة اجتماعية، وأن الظواهر الاجتماعية مثل التفكير الجماعي وتأجيج صراعات المنافسة قد أثرت على أعمال المؤسسة، على الأقل حسبما تشير التحليلات والدراسات العقلانية الجامدة. ووفقا لـ «بارنارد»، لم يكن هناك نظير للرئيس التنفيذي كقوة اجتماعية داخل المنظمة. فهو وحده القادر على شحن روح العمل بالقيم والطموحات التي تدفع الناس إلى ما هو أكثر من مجرد كسب العيش.

كان انشغال «بارنارد» بالرئيس التنفيذي - باعتباره مرادفا/صانعا للنفوذ - نابعا من نفس الاهتمامات الواردة في أعمال المؤرخ «هنري آدامز Henry Adams» والمفكر الاجتماعي الرائد «ماكس ويبر Max Weber». عندما أفسح القرن التاسع عشر المجال للقرن العشرين وتضاءل نفوذ الكنيسة والمؤسسات الراسخة الأخرى، أعرب «ويبر» في كتب مثل «المبادئ الأخلاقية البروتستانتية وروح الرأسمالية The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism» عن قلقه تجاه عجز المؤسسات الأكثر حداثة - وخاصة شركات الأعمال الكبرى - عن شحن الناس بالإحساس بالغاية. وفي كتابه «تعليم هنري آدامز

إن من عملوا لدى رؤساء تنفيذيين مرموقين لا يتفقون بالضرورة مع الربط الوثيق لدى الرأي العام بين الرئيس التنفيذي وشركته



The Teaching of Henry Adams»، تساءل «آدامز» متشائما عما إذا كان لمعارفه التقليدية أية قيمة فى قرن جديد يسوده العلم والتجارة. تساءل كلا من «بارنارد» و«آدامز» عن كيفية استحضار عمال العصر الحديث - المسخرين لخدمة الجشع - لنفس الحماس الذى نادت به الأجيال السابقة لبناء القصور والكاتدرائيات العظيمة فى أرجاء أوروبا. وقد خشيا أن تنزوى النفس البشرية فى مواجهة المطالب العقلانية الجامدة للرأسمالية، والتى لا تهتم بالفرد، وتنبأ بمستقبل يتزايد فيه الاضطراب والتفتت الاجتماعى.

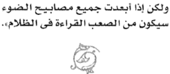
رغم ذلك كان «بارنارد» متفائلا نسبيا بأن تحل الشركة مكان الدين كمستودع للغاية والمغزى. اعتقد «بارنارد» فى الواقع أن بقاء الشركة يعتمد على قدرة الرئيس التنفيذى على جعل العمل ذا مغزى. وقد كتب فى عمله الكلاسيكى «وظائف التنفيذى The Functions of the Executive» إن الحوافز المادية - حتى فى المنظمات التجارية الصرفة - هى ضعيفة لدرجة أنه يمكن إهمالها تقريبا، إلا عندما تدعمها حوافز أخرى». فبدون الرؤساء التنفيذيين الملهمين سوف تفقد الشركات فى النهاية رؤية الحافز الأعلى وتهوى إلى الفشل.

منذ أيام «بارنارد»، أصبح من المألوف الاعتقاد بأن الشركة - سواء كان ذلك أمرا حسنا أو سيئا - تسير على مبادئ رئيسها التنفيذى. لقد حول «جاك ويلش» «جنرال إلكتريك» إلى قبيلة من الكلاب العدوانية الصارمة المتنمرة التى لا تعترف بالمشاعر الإنسانية، كما أمد «جيف سكيلنج» «إنرون» بزمرة من المخربين المتمرسين فى المجازفة بالأنظمة. من أهم ورثة فكر «بارنارد» مفكر الإدارة «جيم كولينز Jim Collins». وفى كتابه الذى حقق أفضل المبيعات عام ٢٠٠١ «من التميز إلى العظمة: لماذا تصل بعض الشركات - دون غيرها - إلى القمة Good to Great: Why Some Companies Make the Leap ... and Others Don't»، اختار «كولينز» أحد عشر رئيسا تنفيذيا لعبوا - كما يقول - دورا حيويا فى النجاح المستمر لمنظماتهم. كان القاسم المشترك بينهم هو «التواضع الشديد». وبدلا من الخيلاء فى أروقة الشركة مطلقين الأوامر وساحقين كل من فى طريقهم، فإنهم - كما يقول «كولينز» - أخضعوا شخصياتهم للمنظمة فى هدوء، ملهمين بقية الشركة بقدوتهم.

ولكن ما هى قوة هذا النفوذ؟ أو ما هى قوة نفوذ أى تنفيذى؟ لقد جادل «ستانلى ليبرسون Stanley Lieberson» و«جيمس أوكونور James O'Connor» فى كتابهما الرائع «القيادة والأداء فى المنظمة: دراسة للشركات العظمى Leadership and Organizational Performance: A Study of Large Corporations»، والذى نشر للمرة الأولى فى «المجلة الأمريكية للدراسات الاجتماعية American Sociological Review»، بأن هذا النفوذ ضعيف بالفعل. وقد أكد المؤلفان - ربما تعبيرا عن نزعة مقاومة التسلط السائدة فى ذلك الوقت - أن تأثير الرئيس التنفيذى نادرا ما كان عنصرا حاسما فى أداء الشركة. وكانت لديهما الأرقام التى تدعم هذا الرأى. فقد استخلصا من قاعدة البيانات التى كانا يعملان عليها - والتى ضمت بيانات ١٦٧ شركة - تأثيرات العوامل المختلفة على ربحية الشركة، بداية من الوضع التنافسى للصناعة، ومرورا بحجم وهيكل شركة منفردة، وحتى القرارات الإدارية للرئيس التنفيذى. كانت «تأثيرات الصناعة» - مثل حجم رأس المال المتاح واستقرار السوق - مسئولة عن ٣٠٪ تقريبا من التفاوت فى أرباح الشركة. وكانت «مؤثرات الشركة» - مثل الموقع التاريخى للمؤسسة فى التسلسل الهرمى - مسئولة عن حوالى ٢٣٪. أما «مؤثرات الرئيس التنفيذى»، فلم تكن مسئولة عن أكثر من ١٤.٥٪. وحتى ذلك التأثير يجب أن ينظر إليه بتشكك: فلا يمكن تجاهل أنه يجمع ما بين تصرفات الرئيس التنفيذى التى تتسم بالذكاء والمهارة الحقيقية، وتلك التى ترجع إلى مجرد الحظ.

حاول علماء آخرون محاكاة وتمديد النتائج التى توصل إليها «ليبرسون» و«أوكونور»، كما استنتج كثيرون أيضا أن القوى الخارجية تؤثر على أداء الشركة أكثر كثيرا مما يفعل الرئيس التنفيذى. بالفعل فإن الدراسات الأكثر حداثة تميل إلى وجود تأثير للرئيس التنفيذى أقل مما توصل إليه «ليبرسون» و«أوكونور»، يتراوح ما بين ٤.٥٪ إلى ١٢.٨٪ من تفاوت الأرباح. الخبيرة فى هذا المجال «أليسون ماكاى Allison Mackay» من جامعة ولاية أوهايو هى أحد أبرز الرافضين لما توصل إليه «ليبرسون» و«أوكونور». وقد انتقدت فى دراسة حديثة لها طرق حساب الأرقام التى اتبعاها، وتوصلت باستخدام أسلوب مختلف إلى أن للرؤساء التنفيذيين تأثير هائل على الأداء ربما يبرر بشدة أجورهم المرتفعة).

وقد ذهب «جيمس مارش James March» أستاذ الإدارة بجامعة «ستانفورد Stanford» إلى مدى أبعد، حيث ذكر أنه فى أى شركة ذات إدارة جيدة وتهتم بإعداد مديريها، فإن المرشحين للوظائف العليا يتشابهون كثيرا فى تعليمهم ومهاراتهم ونفسيتهم بحيث يمكن بالفعل التبديل بينهم. وكل ما يهم هو أن هناك شخص ما سيتولى المسئولية. كتب «مارش»: «ربما كانت الإدارة أمرا شديد الصعوبة والأهمية، على الرغم من أن المديرين يتعذر تمييزهم. من الصعب أيضا معرفة الفرق بين مصباحى ضوء مختلفين، ولكن إذا أبعدت جميع مصابيح الضوء سيكون من الصعب القراءة فى الظلام».



لقى هذا الرأى قبولا لدى بعض الناس الذين يتوقع منهم أن ينظروا إلى النفوذ التنفيذى بمفاهيم أكثر اتساعا. ففى بداية هذا العام، أخبر «جيفرى إيميلت Jeffrey Immelt» الوريث سيئ الطالع لـ «جاك ويلش» كرئيس تنفيذى لـ «جنرال إلكتريك»، أخبر - بصورة شبه دفاعية - اجتماعا ترعاه جريدة «فاينانشال تايمز Financial Times»، أنه فى خلال التسعينيات من القرن الماضى «كان بمقدور أى شخص أن يدير «جنرال إلكتريك» ويبلى بلاء حسنا». وأضاف بحماسة زائدة: «ليس فقط أن أى شخص كان بمقدوره أن يدير «جنرال إلكتريك» فى التسعينيات، بل أن كلبا كان باستطاعته أن يديرها. كان بإمكان كلب رعاة ألمانى أن يدير الشركة». ويحسب لـ«ويلش» أنه وافق - بصورة أو بأخرى - على هذا التقييم. فقد ذكر لـ«فاينانشال تايمز»: «كان الوقت مواتيا فى التسعينيات لأن يكون المرء رئيسا تنفيذيا. كانت الرياح تدفعنا إلى الأمام». وكما يقولون فى «وول ستريت Wall Street»، لا تخلط أبدا بين الذكاء وانتعاش السوق.

يشير بعض الخبراء إلى أنه توجد مشكلة واحدة أمام فكرة الرئيس التنفيذى المجدد، القادر على إعادة تشكيل ثقافة المؤسسة أو إلهام العاملين إلى آفاق جديدة، وهى أن الناس ببساطة لا تشعر بالولاء تجاه الكيانات الكبرى مثل الشركات، بغض النظر عمن يمسك بالدفة. إن ولاءاتهم أكثر محلية بكثير. إن إحساسهم بالانتماء يقتصر - مثل المشاة فى الحرب - على فصيلتهم الخاصة وليس أبعد من ذلك. وفى هذا العصر الحديث جدا، غالبا ما يسخر العاملون من أى بلاغة متكلفة بشأن الأهداف العليا وسمو غايتهم. ومن هذا المنظور فإن نفوذ الرئيس التنفيذى للتأثير على الأداء، وإن كان قويا ضمن الفريق المباشر من كبار التنفيذيين، فإنه يتلاشى سريعا عندما يمتد وراء هذا الفريق.

أعد «ج. ريتشارد هاكمان J. Richard Hackman» عالم النفس بجامعة «هارفارد Harvard» دراسة مكثفة حول القيادة ضمن فرق العمل الصغيرة، وقد توصل إلى أن القادة يمارسون تأثيرا ملموسا على نجاح أو فشل فرقهم. وهو يؤكد فى كتابه لعام ٢٠٠٢ «قيادة فرق العمل: إعداد المسرح للعروض العظيمة Leading Teams: Setting the stage for Great Performances» أن المجموعات الصغيرة تؤدى كأفضل ما يكون الأداء عندما يتعاونون فى العمل، وليس فقط كمجرد ذكور نحل خاضعين لقائد. إن مهمة قائد الفريق هى توفير الظروف التى تمكن أعضاء الفريق من التعاون بكفاءة. يجب على القائد أن يوضح بجلاء أين بالضبط يجب أن تصل الفرق، ولكن ليس عليه أن يملى كيفية الوصول إلى هناك خطوة بعد خطوة. يستطيع القادة الذين يعملون بجرأة وذكاء أن يصنعوا فروقا جوهرية فى كفاءة الفرق، ولكن بغض النظر عن أداء القادة فإن فرق العمل تصبح أقل كفاءة كلما زاد حجمها. يقول «هاكمان» أن الحجم المثالى للفريق هو حوالى ستة أفراد، حيث تزداد مشاكل الأداء بصورة كبيرة إذا زاد حجم الفريق أكثر من ذلك ويتبدد سريعا تأثير القيادة.

يجادل بعض الخبراء بأن الطبيعة شديدة المحلية للولاء تعنى أن النفوذ

أصبح من المألوف الاعتقاد بأن الشركة - سواء كان ذلك أمرا حسنا أو سيئا - تسير على مبادئ رئيسها التنفيذى



الحقيقى للتأثير على أداء الشركة لا يكمن فى الرئيس التنفيذى وإنما فى الإدارة الوسطى. يؤكد «بول أوسترمان Paul Osterman» الأستاذ بـ «كلية سلون للإدارة Sloan School of Management» التابعة لـ «معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا Massachusetts Institute of Technology» فى كتابه المنشور مؤخرا «حقيقة مدراء الوسط The Truth About Middle Managers» أن مدراء الوسط ليسو «ضحايا» انتزعت منهم صلاحيات العمل باستقلالية بواسطة بيروقراطية مجهولة، ولا هم «أوغاد» مثل الرئيس مفلطح شعر الرأس فى مسلسل «ديلبرت Dilbert» الكرتونى الكوميدى الشهير، بل أنهم منغلقون لدرجة أنهم لا يفعلون شيئا سوى إعاقة العمل. ويرى «أوسترمان» أن مدير الوسط هو البطل الخفى وراء وصول الشركة الكبرى إلى الهيمنة الاجتماعية والاقتصادية. يقول «أوسترمان» أن وصول الشركة إلى تلك المرحلة «يعتمد على مديرى الوسط لأنك لا تستطيع تحقيق المنزلة التى وصلنا إليها دون وجود من يؤدى نوع أعمال التخطيط التى يقومون بها». ومثل «عمال الحرف اليدوية»، فإن مدراء الوسط يقدرون مهمتهم ويستشعرون أهميتها بالنسبة للهدف الأكبر ويشعرون بولاء عظيم للناس الذين يعملون معهم. ولكن ولائهم للشركة يتلاشى، لأنهم - فى الأساس - يرون أن الإدارة العليا تستحوذ على كافة المكافآت وكل المجد. ويستطرد «أوسترمان» بأن هناك الآن فى صفوف الإدارة الوسطى «مزيد من الاستخفاف، فهناك استعداد أقل لبذل مزيد من الجهد».

ربما كان السؤال عن الأهمية الحقيقية للرئيس التنفيذى هو السؤال الخطأ. فى دراسة حديثة، يقول ثلاثة من أساتذة «هارفارد»، هم «نوم فاسرمان Noam Wasserman» و«بارات أناند Bharat Anand» و«نتن نوريا Nitin Nohria» أن السؤال الصحيح هو «متى» تكون القيادة هامة؟ وباستخدام أساليب إحصائية متقدمة تحت عنوان مثير (تحليل تفكيك التفاوت variance decomposition analysis) يشبه نمط «تحقيقات مسرح الجريمة»، قام المؤلفون بفحص ٥٣١ شركة فى ٤٢ صناعة مختلفة، وعزلوا تأثيرات القيادة عن العوامل المؤثرة الأخرى لأداء الشركة. وتوصلوا إلى أن القيادة تكون هامة «أحيانا». لا تمثل القيادة أهمية جوهرية فى شركات خدمات الكهرباء التى تقيدها كثيرا اللوائح الحكومية وتكلفة الوقود بحيث لا يكون هناك متسع للرئيس التنفيذى لممارسة أى قدر من حرية التصرف. وقد استخدم الأساتذة مصطلح «الرؤساء الصوريين الشكليين» لمثل هؤلاء الرؤساء التنفيذيين. وبالإضافة إلى شركات المرافق، فإنك تجدهم فى الصناعات التقليدية المستقرة - مثل مصانع الورق وتجارة اللحوم بالجملة - حيث يكون التغيير بطيئا.

على الطرف الآخر، هناك رؤساء تنفيذيون فى بعض الصناعات لديهم قدر كبير من حرية اتخاذ القرار، وهم يعرفون باسم «المديرون مطلقى اليد». وفى شركة مثل «ريسيرش إن موشان Research in Motion» أو «موتورولا Motorola» أو - فيما يخصنا هنا - «أبل»، فإن الرئيس التنفيذى هو الذى يقرر طراز الهاتف الخلوى الجديد الذى سيطرح لجمهور متعطش، وأى من شركات تصنيع الشرائح ستوفر الدوائر المدمجة التى تقوم بتشغيله، وأى من مزودى خدمات الهاتف ستقام معه شراكة. قد تمثل تلك القرارات أهمية عظمى، كما قد تشير النجاحات الهائلة لـ «ريسيرش إن موشان» التى يتخطف المستهلكون من فوق الأرفف أحدث أجهزة «بلاك بيرى BlackBerry» التى تصنعها، و«موتورولا» الذى كان آخر هاتف لها قد حقق نجاحا مدويا هو «رازر Razr» الذى طرح منذ عام ٢٠٠٤ وبقى على خط التصنيع دهرا طويلا حيث كانت دورات الإنتاج تقاس بالشهور.

يمكن للمدير مطلق اليد أن يكون له تأثير كبير فى الصناعات التنافسية الشرسة، عندما يكون تطوير منتج جديد أمرا شديد الأهمية وتكون الخيارات صعبة بشأن أى الأسواق يتم التركيز عليها، صناعات مثل معدات الاتصالات أو أجهزة الكمبيوتر أو الطائرات. إن المستثمرين قلقون بشأن صحة «ستيف جوبز» لأنهم يعتقدون أن «أبل» بحاجة إلى موهبته لاتخاذ خيارات ملهمة. عندما عاد «جوبز» إلى «أبل» عام ١٩٩٧ بعد أن أطيح به فى تمرد لمجلس الإدارة عام ١٩٨٥، اتخذ قرارا باستثمار موارد الشركة فى طراز الـ «أيماك iMac» الذى كان يقبع منزويا فى معمل تطوير المنتجات، وقد حول إخفاقات «أبل» إلى نجاحات مبهرة. كما سجل «جوبز» ضربة أخرى أكثر توفيقا عندما قرر أن يكون المنتج التالى من توقيع «أبل» عبارة عن مشغل ملفات «إم بى ثرى MP3». ورغم أن الـ «أيبود iPod» دخل متأخرا إلى سوق مزدحم إلا أن الجهاز الصغير الأنيق أخذ العالم على حين غرة.



بالطبع ليس كل مدير مطلق اليد هو «ستيف جوبز». وقد كتب «فاسرمان» و«آناند» و«نوريا»: «من الجدير بالذكر هنا أن التأثير الكبير للرئيس التنفيذى لا ينطوى بالضرورة على نتيجة إيجابية». فى الواقع أن تأثير الرئيس التنفيذى يكون سلبيا بدرجة كبيرة فى بعض الأحيان - على الأقل - بقدر ما يكون إيجابيا فى أحيان أخرى. بل يرى «دونالد هامبريك Donald Hambrick» و«سيدنى فنكلشتاين Sydney Finkelstein» اللذان ابتكرا المصطلح المتناقض «الرئيس الصورى الشكلى / المدير مطلق اليد» فى مقال نشر عام ١٩٨٧ فى مجلة «أبحاث سلوك المنظمات Research in Organizational Behavior» أن العالم قد يكون أفضل إذا كانت تأثيرات القيادة دائما غير ذات أهمية. وقد ذكرا فى كتاباتهما: «إذا كان علينا كمجتمع أن نختار بين التخلص من الرؤساء الصوريين أو المدراء مطلقى اليد، فمن الواضح أننا سنحتفظ بالرؤساء الصوريين».

ربما كانا يفكران فيما حدث لشركات «بياتريس Beatrice» عندما تولى زمامها فى أواخر السبعينيات اثنين من المدراء مطلقى اليد كرئيسين تنفيذيين، أولا «والاس راسموسين Wallace Rasmussen» ثم «جيمس دات James Dutt»، بعد سلسلة من الرؤساء الصوريين. فكما ورد فى دراسة مستفيضة نشرها «جورج بيكر George Baker» الأستاذ بجامعة «هارفارد» فى «جريدة المال The Journal of Finance»، فقد اتبع من كان قبلهما تعليمات راسخة لبناء «بياتريس» من مصنع ألبان صغير فى ولاية «نبراسكا Nebraska» إلى تكتل لضخ الأموال كان يبيع كل شىء من منتجات ألبان «ميدو جولد Meadow Gold» إلى حقائب سفر «سامسونايت Samsonite». كانت معظم الإستحواذات عبارة عن شركات مربحة مملوكة لعائلات وبحاجة إلى رأسمال إضافى. كانت تلك الشركات تدار بكفاءة ولكن مديروها كان ينقصهم البريق والمهارات التكنولوجية الحديثة. وقد وفرت «بياتريس» رأس المال والتدريب الإدارى المكثف، ولكنها فيما عدا ذلك تركت الشركات كما هى.

قام «راسموسين» و«دات» بتغيير كل ذلك. فبدلا من ملاحقة المؤسسات المملوكة لعائلات، فقد انزلقا إلى معارك مزايدات مكلفة حول شركات عامة كبرى. وقد ركز «دات» على وجه الخصوص سلطة اتخاذ القرار فى مقر «بياتريس» فى «شيكاغو Chicago». وارغم الوحدات التى كانت تعمل باستقلالية على الاندماج فى ستة قطاعات كبرى. تقلصت الأرباح وتخلص المساهمون من أسهمهم وبدأت تتردد الشائعات بأن «بياتريس» على وشك السقوط فى براثن أحد قناصى الشركات. وقد رحل «دات» بعد أن هدد خمسة من كبار مديرى الشركة بتقديم استقالة جماعية إذا ما بقى فى منصبه كرئيس تنفيذى. ثم بيعت الشركة إلى مجموعة «كولبرج وكرافيس وروبرتس وشركاه Kohlberg, Kravis & Roberts & Co» العملاقة المتخصصة فى شراء الشركات بقروض بضمان أصول الشركات، والتى قامت بتفتيت الشركة إلى أجزاء. لقد تمكن رئيسان تنفيذيان فى خلال تسع سنوات من تقويض ما تم بنائه طوال خمسة وثمانين عاما من التوسع الصبور.

ربما كان ذلك هو الدرس الجوهرى هنا: من الممكن أن تكون هناك أهمية للرؤساء التنفيذيين، ولكن ربما كان حالنا جميعا أفضل بغير ذلك. صرح «جيفرى فيفر» الأستاذ بجامعة «هارفارد» لمجلة «فورتشن Fortune» عام ٢٠٠٦ بأن «القادة الناجحين يمكن أن يصنعوا تأثيرا إيجابيا طفيفا، أما القادة الفاشلون فبإمكانهم تحقيق تأثير سلبى هائل. ربما يجد كثير من الأمريكيين إغراء فى قبول هذا الرأى بعد استعراض عواقب ثمانى سنوات من حكم مدير مطلق اليد كرئيس تنفيذى لهم».

من الجدير بالذكر هنا أن التأثير الكبير للرئيس التنفيذى لا ينطوى بالضرورة على نتيجة إيجابية







تجديد الخطاب الدينى!

ليلى إبراهيم أبو المجد

■■ ترددت فى الآونة الأخيرة، فى كافة وسائل الإعلام العربى، سواء المرئى أو المسموع أو المقروء، الدعوة إلى تجديد الخطاب الدينى، ولقد رأى البعض أنها ضرورة نظراً لربط الغرب بين الإرهاب وجمود الخطاب الدينى الإسلامى. لكن مع تزايد الهجوم المحموم على شخص النبى محمد (ص) وعلى صحابته (رض)، ومع تزايد حملات التشكيك فى السنة النبوية، يتبين أن الهدف من وراء الدعوة إلى تجديد الخطاب الدينى أبعد مما يذهب معظمنا.

ويبدو لى، بحكم التخصص فى الشريعة اليهودية والفقه اليهودى، أن الهدف من وراء هذه الدعوة هو: أن نفعل بالكتاب والسنة ما فعله بنو إسرائيل بموسى عليه السلام وبشريعته، وهنا يتبادر السؤال: ماذا فعل بنو إسرائيل بشريعة موسى عليه السلام وبصاحبها؟

لقد دفن بنو إسرائيل موسى عليه السلام ودفنوا شريعته معه. فقد نظروا للتوراة وما فيها على أنها شريعة تناسب مجتمعا قبليا رعويا، ولا تصلح ولا تتناسب مع الحياة المدنية والمستجدات التى طرأت على حياتهم بعد استقرارهم فى أرض كنعان، (وهذا ما يروج الآن بالنسبة للشريعة الإسلامية والسنة النبوية). لكنهم لم يشعروا بالحاجة الماسة إلى تجديد الخطاب الدينى إلا عندما قام الملك نبوخذ نصر ملك بابل فى القرن الخامس (ق.م) بتهجير بنى إسرائيل إلى بابل، وهو ما يعرف فى التاريخ اليهودى بالسبى البابلى، فقد حدثت لهم هناك صدمة حضارية، إذ وجدوا أنفسهم فجأة فى مجتمع بلغ قمة التحضر سياسياً واقتصاديا واجتماعيا ودينياً، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، شعروا أن هذا التهجير عقاب من الرب لهم، لذلك راح علماء الدين يجددون شريعة موسى (ع) واتخذوا من تشريعات بلاد الرافدين نموذجاً وقدوة. وبدأت أولى لبنات الدين الجديد الذى أطلقوا عليه اسم الدين اليهودى (دت يهوديت) على أرض بابل، ووضعت تشريعات هذا الدين فى كتاب يسمى «المشنا»، ومن معانى هذا الاسم: الإعادة أو التكرار أو التثنية!

ويبدو أن فى اختيار هذا الاسم دلالة على أن دينهم الجديد الذى وضعوه هو تثنية لشريعة موسى (ع)، أى أنه بديل لها، وهناك بعض الأدلة على ذلك.

فقد ميز علماء الدين اليهودى فى كتابهم هذا بين شريعتين أو دينين: (دت موشيه) أى دين موسى (ع)، و (دت يهوديت) الديانة اليهودية، وفى حين حصروا «دين موسى» فى أحكام الطهارة والنجاسة وإخراج العشور والوفاء بالنذور، جعلوا الديانة اليهودية تشمل جميع أوجه الحياة والمعاملات وآداب السلوك.[1]

لم يكتف علماء الدين اليهودى، الذين وضعوا المشنا بهذا، بل لقد قسموا أنساب اليهود، وجعلوا نسب الكهنة يأتى على رأس تلك الأنساب العشرة التى وضعوها، ثم يليه نسب لاوى، أى أنهم جعلوا أنفسهم وهم من ينتسبون لهارون (ع) أعلى ممن ينتسب لموسى (ع).[2] أى جعلوا أنفسهم وكتابهم فى الصدارة، ثم يليهم موسى وشريعته.

وعندما تأثر علماء اليهود بفكرة الخلاص عند البابليين والفرس، تصوروه خلاصاً مادياً وليس روحياً، كما فى الزرادشتية، وجعلوا المخلص مسيحاً أى ممسوحاً بالزيت المقدس، (إذ كانت عادة مسح الملوك والكهنة بالزيت المقدس شائعة بين شعوب الشرق الأدنى القديم)، ولم يتخيلوه من سبط لاوى، أى لم ينسبوه لموسى عليه السلام، ولكن تصوروه ملكاً من نسل داود وسليمان أى من سبط يهوذا، وتم تأويل بعض فقرات العهد القديم وتفسيرها على أنها تشير إلى المسيح المخلص منها (التكوين: ٤٩/ ١٠)، (إشعياء: ١١/١-٩).

فعل علماء اليهودية الشىء نفسه عند تحديد مكان العبادة، فلم يتأسوا بموسى (ع) إذ كان الوحى يتنزل عليه فى «خيمة الاجتماع»، بل أرادوا أن تكون لهم دور عبادة مثل معابد بلاد الرافدين ومصر.[3] لذلك تأسوا بسليمان وبالمعبد الذى بناه للرب، على الرغم من أن بيت الرب الذى بناه سليمان كان نصف مساحة القصر الذى بناه لنفسه (الملوك الأول: ٦/ ١، ٧/ ١). ورغم أن سليمان قد بنى بزعمهم دوراً لعبادة الآلهة الوثنية التى كانت تعبدها زوجاته أيضاً، فبنى بيتاً لـ«كموش» وثن المؤابيين، ولـ«مولك» وثن بنى عمون، وكانت نساؤه الغريبات توقد وتذبح لآلهتهن (الملوك الأول: ١١/ ٧- ٨).

ما هو النموذج الذى اقتدوا به عند وضع الشريعة اليهودية؟

لقد ذكرت فيما سبق، أن علماء اليهود اضطروا إلى التجديد أثناء فترة التهجير فى بابل فى القرن الخامس (ق.م)، للرد على أسئلة اليهود واستفساراتهم عن المستجدات التى طرأت على حياتهم واستفساراتهم عن المعتقدات الغريبة التى يؤمن بها سكان بلاد الرافدين، وأسوق ـ مثلاً ـ الملائكة.[4] فلم تتحدث كتب التوراة عن طبيعة الملائكة أو هيئتهم أو وظيفتهم، بينما صوّر سكان بلاد الرافدين على جدران معابدهم وقصورهم كائنات خرافية تحرس الشجرة المقدسة التى هى مزيج من نخلة ونبات مخروطى، وجعلوها تحف بالشجرة من اليمين ومن الشمال، وجعلوا لها رأس إنسان أو نسر، وجعلوها ذوات أجنحة ضخمة، فبدأ اليهود فى بابل يستفسرون عن الملائكة الوارد ذكرها بالعهد القديم، هل كانت على هذه الهيئة التى عليها الكائنات التى تحرس معابد بابل؟ وما طبيعتهم هل خلقت من نور أم من نار أم من طين؟ ومتى خلقت؟ أى فى أى يوم من أيام الخلق الستة خلقت الملائكة؟ وما وظيفتهم؟ وما علاقتهم ببعضهم البعض؟ وما علاقتهم بالبشر؟ وما علاقتهم بالرب أو بعرش الرب؟ ومن هم الملائكة المقربون؟ وهل للملائكة أسماء ولماذا؟ ومن هو الملك الذى زار إبراهيم (ع) وبشره بإسحق، ومن هو الملك الذى قبض روح موسى عليه السلام؟



مع تزايد حملات التشكيك فى السنة النبوية، يتبين أن الهدف من وراء الدعوة إلى تجديد الخطاب الدينى أبعد مما يذهب معظمنا



يبدو أنه لولا ظهور موسى بن ميمون، والدور الذى اضطلع به، لما قامت لليهودية الربانية (الحاخامية) قائمة بعد ذلك. فقد ترتب على الصراع والانقسامات فى صفوف اليهودية أن انهارت المدارس الدينية فى بابل



وغيرها من الأسئلة التى كان على علماء الدين أن يجيبوا عنها، واضطروا فى إجاباتهم للاستعانة بما هو موجود ومصور فى بلاد الرافدين، لكى يستكملوا المعلومات الكثيرة التى سكت النص عنها أو لم يجدوا إجابة مقنعة لها فى نص التوراة.



وذكر التلمود وكتب التفاسير اليهودية (المدراشيم) أن علماء اليهود أخذوا أسماء الملائكة من البابليين، أما المعبد من حيث تصميمه وبنائه وطقوس الخدمة والطهارة والحج فلقد استكملوها من الكهنوت المصرى القديم وشغلت حيزاً كبيراً من كتابهم الدينى الذى وضعوه، أى كتاب «المشنا» الذى بدأت إرهاصاته فى القرن الخامس (ق.م) فى بابل، وتبلور فى ستة أجزاء بالقرن الثالث الميلادى فى فلسطين. فالمشنا عمل جماعى لم يقم به فرد، ولكنه جهد علماء كثر على مدى عدة قرون، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل وجد علماء اليهود الذين جاءوا بعد ذلك، بين القرنين الرابع والسابع الميلاديين، أن هذا الكتاب صعب وغير مفهوم، فلقد ماتت لغته العبرية إضافة لكونه يعتمد الإيجاز لدرجة الغموض، فراحوا يشرحون هذا الكتاب بلغتهم التى يتحدثونها وهى الآرامية، وجاء الشرح بمثابة تسجيل حى لحلقات الدرس والنقاش التى قامت على أساس الكتاب بمدارس بابل الدينية ومدارس فلسطين. لذلك ظهر تلمودان: أحدهما بابلى نسبة لمدارس بابل وهو الأكبر حجماً والذى استمر العمل فيه فترة أطول، والثانى أورشليمى نسبة لمدارس فلسطين وهو أقل حجماً، وانتهى العمل فيه بعد فترة قصيرة من البداية. لذلك عندما يذكر اسم «تلمود» فقط، يقصد به التلمود البابلى.

لم تتوقف مسيرة تجديد الخطاب الدينى عند وضع كتاب «المشنا» ثم شرحه بعد ذلك، ففى نهاية القرن الثامن الميلادى، تعرضت اليهودية لاختبار صعب، فقد تلقت ضربة فى مقتل، وجاءت الضربة من الداخل، وكانت بمثابة الدافع الحقيقى لتجديد الخطاب الدينى مرة ثانية.

فى القرن الثامن الميلادى، كان الإسلام انتشر من المحيط الهندى إلى المحيط الأطلسى، وبدأ تدوين التراث الإسلامى، وخشى علماء المسلمين على القرآن الكريم من اللحن بعد دخول الكثير من أهل الأمصار المفتوحة فى الإسلام، وبدأ الاهتمام بضبط القرآن وعجمه، كما تميز القرن الثامن الميلادى بنشاط علم الكلام عند المسلمين الذى ظهر دفاعاً عن الإسلام ضد هجوم الفلاسفة. وسط هذه الظروف، انشق عنان بن داود وهو من علماء اليهودية، نتيجة خلافات بينه وبين العلماء على الزعامة الدينية فى بابل، أى على منصب «رأس الجالوت» وكان أحق المرشحين له، ورغم ذلك تخطوه وعينوا أخاه الأصغر. فانشق عليهم واتخذ لنفسه مذهباً عرف باسم المذهب «القرائى» وأعلن أنه يؤمن بأسفار موسى الخمسة وأسفار الأنبياء الذين جاءوا بعده فقط، ويرفض كتابى المشنا والتلمود، ويبدو من موقف عنان هذا تأثره بالمعتزلة وموقفهم من الحديث النبوى الشريف، فأهم ما كان يميز المعتزلة فيما يتصل بأصول الدين، عدم الأخذ بالروايات، والتحرج من اعتبارها مصدراً أساسياً للتشريع الإسلامى، وكانت حجتهم فى ذلك أن كتاب الله، القرآن، يستغنى بنفسه عن التكملة بشىء آخر فقد جاء فيه «ما فرطنا فى الكتاب من شىء».[٥] ووقفوا من المرويات الشفوية الإسلامية موقف الحذر الشديد. ويبدو أن عنان بن داود قد أخذ وجهة نظر المعتزلة، وكان الأمر سهلاً أمام عنان فمرويات التلمود لا ترتفع أبداً بسند متصل إلى موسى أو الأنبياء (ع) من بعده، وتتناقض تناقضا صارخاً فيما بينها، وفيما بينها وبين التوراة.

ما زاد خطورة الحركة القرائية بالنسبة لليهودية هو تبحر عنان بن داود زعيم القرائية فى التلمود وكثرة رجوعه لنصوصه بقصد تفنيده وهدمه، وأنه اتخذ من الشريعة الإسلامية نموذجاً فى كل الأمور التى سكت عنها نص التوراة، الأمر الذى جعل اليهودية القرائية تبدو، وكأنها فرقة إسلامية أكثر منها فرقة يهودية. فقد اهتم القراءون (القرائيم) بأسفار موسى عليه السلام ووضعوها فى منزلة القرآن، وراحوا يحاكون علماء المسلمين فى رؤيتهم للقرآن (وحياً)، وبدأت محاولات ضبط ونقط العهد القديم ووضع علامات النبر والتنغيم التى تبلورت فى طبرية بفلسطين فى القرن العاشر الميلادى على يد عائلة بن آشر، وهم من القرائين.

ظهور الحاجة إلى تجديد الخطاب الدينى مرة أخرى

وسط هذه الظروف العصيبة، واحتدام الصراع بين القرائين وعلماء اليهودية الذين أصبحوا يعرفون بـ«الربانيين»، ومع تكفير رئيس كل طائفة للأخرى وتحريم التعامل معها، ومع تقرب القرائين من الحكام المسلمين، ومع نظرة المسلمين للربانيين، بتأثير الطائفة القرائية، على أنهم قد حرفوا شريعة موسى (ع)، بل لقد نظروا إليهم على أنهم خارجون على شريعة موسى، كان لزاما على الربانيين الدفاع عن أنفسهم والإتيان بدليل على أن شريعتهم، أى المشنا والتلمود، ترتقى إلى موسى فبدأوا الدفاع عن شريعتهم بوضع سلسلة لرواة الشريعة، ووصلوها بموسى واستهلوها: «تلقى موسى التوراة من سيناء وسلمها ليشوع، ويشوع للشيوخ، والشيوخ للأنبياء، والأنبياء سلموها لرجال المجمع الدينى الكبير»، ونسبوا إلى كل راو منهم من الصفات والأقوال المأثورة والأمثال بحيث يبدو وكأنه راو ثقة، وأطلقوا على هذه السلسلة اسم «الآباء» (آفوت) وأدرجوها ضمن أبواب التلمود، رغم أنها لا تنتمى للتلمود من حيث مادتها أو تأريخها، فلقد وضعت تلك المادة بعد ظهور عنان بن داود أى فى القرن التاسع الميلادى، على الأرجح.



وتختلف فى مضمونها عن نسيج التلمود. فمتن التلمود وهو المشنا عبارة عن تشريعات وأحكام أما فصول الآباء تلك فهى عبارة عن حكم وأقوال مأثورة بعضها فلسفى، كما تتضمن ثناء على الشريعة، والإعلاء من قدر دارسيها.

لم تنجح هذه السلسلة فى تحقيق الهدف المرجو منها، فقد جاءت ضعيفة ومقطوعة، فهناك فترات زمنية شاسعة تفصل بين الرواة تصل إلى عدة قرون، وهناك متهودون من بين الرواة الذين يشكلون حلقات السلسلة، بل قام هؤلاء المتهودون بدور بارز فى صياغة أحكام المشنا وبلورتها وتبويبها. فالربى ميئير الذى ينسب إليه هو والربى عقيفا، أول محاولة لتبويب وترتيب المشنا كان متهوداً، وكان عقيفا من أب متهود. ونقل «هليل وشماى»، أشهر فقيهين فى المشنا على الإطلاق، أحكامهما عن «شمعيا وأبطليون»، وهما متهودان يشكلان حلقة من سلسلة الرواية.

يبدو أنه لولا ظهور موسى بن ميمون، والدور الذى اضطلع به، لما قامت لليهودية الربانية (الحاخامية) قائمة بعد ذلك. فقد ترتب على الصراع والانقسامات فى صفوف اليهودية أن انهارت المدارس الدينية فى بابل، وبدأ العلماء والدارسون يهجرونها وينزحون إلى بلدان العالم الإسلامى المختلفة، وخاصة الأندلس، حيث ولد موسى بن ميمون (١١٣٥- ١٢٠٤م) فى قرطبة، وقدم لليهودية الربانية فى القرن الثالث عشر الميلادى أقصى ما يستطيع بشر أن يقدمه لدين من الأديان.

جدد موسى بن ميمون الخطاب الدينى للمرة الثانية، وقام بمفرده بما قامت به أجيال عديدة من المشرعين على مدى سبعة عشر قرناً، بين القرنين الخامس (ق.م) إلى الثانى عشر، واستحق بذلك عن جدارة مقولة: «من موسى (ع) إلى موسى (بن ميمون) لم يأت مثل موسى».

فرغم شهرة موسى بن ميمون بوصفه فيلسوفاً، فإن ما قام به على المستوى الدينى أهم وأخطر مما قدمه فى مجال الفلسفة. فقد أدرك الخطر المحدق باليهودية الربانية، وأن عليه أن يجدد الخطاب اليهودى، مستخدماً الأساس العقلى نفسه الذى اعتمد عليه القراءون فى مذهبهم، ومقتفياً أثر الفقه الإسلامى، كما فعل عنان بن داود، ومجدداً التشريعات والأحكام التى جاءت فى التراث اليهودى الذى يؤمن به الربانيون، أى المشنا والتلمود وكتب الأحكام والفتاوى التى وضعها علماؤهم حتى عصر بن ميمون.

من الأدلة المؤيدة لوجهة النظر هذه أن موسى بن ميمون وضع كتابه التشريعى فى أربعة عشر مجلداً من القطع الكبير، وأطلق عليه «مشنة توراه» أى تثنية الشريعة، وعلل موسى بن ميمون فى المقدمة تسمية الكتاب بقوله: «لكى يقرأ

الفرد توراة موسى أولاً ثم يقرأ بعد ذلك هذا الكتاب فيعرف منه الشريعة الشفوية كلها ولا يحتاج إلى كتاب آخر بعد ذلك». وتضيف مؤلفة هذه الدراسة لقول موسى ابن ميمون، أن الاسم يعنى تكرار الشريعة أو إعادة الشريعة، أى التجديد الثانى للشريعة، ولا يعنى ما ذكره ابن ميمون فى مقدمته.

كان موسى بن ميمون يضع المذهب القرائى نصب عينيه وهو يصنف كتابه، فقد ألف عنان بن داود مصنفات عديدة منها كتاب الفرائض «سيفر همتصفوت»، وهو كتاب فقه وتشريع، وضمنه جميع الأحكام المفروضة على اليهود القرائين فى المأكل والملبس والطقوس الدينية، وكيفية تحديد أوائل الشهور، والطهارة من النجاسة.

ذكر موسى بن ميمون فى مقدمة كتابه سبب تأليف الكتاب فقال: «تتابعت المصائب وضغطت بشدة فى هذا العصر على الجميع، وضاع علم علمائنا، واختفت نباهة نابغينا، لذلك فإن تلك التشريعات والتفاسير التى ألفها العلماء السابقون، أصبحت صعبة فى أيامنا ولا يفهم أحد مضمونها كما ينبغى إلا قلة قليلة، وغنى عن الذكر أن هذا هو حال التلمود نفسه البابلى والأورشليمى وسفرا وسفرى والتوسفتا[٦].. ومن أجل ذلك شمرت عن ساعدى أنا موسى بن ميمون الأندلسى، واستعنت بالرب تبارك، وفهمت كل تلك الأسفار، ورأيت أن أضع كل ما تجمع لى من تلك المؤلفات فى موضوع الحلال والحرام والنجس والطاهر وسائر أحكام الشريعة...»

حاول ابن ميمون فى مقدمة كتابه أن يرفع شأن التراث الدينى الشفهى الذى يؤمن به الربانيون ويرفضه القراءون، وأن ينسبه لموسى (ع) مستنداً فى ذلك إلى تأويل ما جاء بسفر الخروج (١٢/٢٤) على لسان الرب موجهاً حديثه إلى موسى «... فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم» ثم أورد موسى بن ميمون فى مقدمته بعد ذلك سلسلة رواة الشريعة الشفهية، وضمنها أسماء شيوخ بنى إسرائيل وقضاتهم ثم الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى (ع) ورتبهم تنازلياً وصولاً إلى علماء المشنا ثم شراح التلمود وأنهاها بالربانى آشى الذى نسب إليه ابن ميمون تأليف التلمود البابلى.[٧] ثم عاد وكرر سلسلة الرواة فى أربعين جيلاً ورتبها ترتيباً تصاعدياً من الربانى آشى إلى موسى عليه السلام.

تعمد موسى بن ميمون فى مؤلفه أن يذكر الأحكام ولا يذكر اسم المشرع الذى وضع التشريع ولا مكان التشريع فى كتب التراث اليهودى، وعندما سئل عن سبب ذلك قال فى رده على أحد الخطابات: «حتى لا نمكن الكفار منا، وحتى لا يقولوا إنكم تعتمدون فى رواية تشريعاتكم على أفراد».

بيد أنى أرى أنه إضافة للسبب الذى ذكره ابن ميمون تلميحاً، أى رغبته فى أن يجنب كتابه الطعون التى وجهت إلى سلسلة الرواية اليهودية، ووسمتها بالضعف وأنها مقطوعة، وغير مرفوعة بسند إلى موسى (ع)، وأن رواتها غير ثقات، لذلك اكتفى ابن ميمون بذكر السلسلة فى مقدمة كتابه فقط، لكى يسمح لنفسه أن ينهل من كتب الفقه الإسلامى وأن يجدد كل تشريع أو يكمل ما به من نقص أو يطوره لكى يلائم ذلك العصر، دون إشارة لأصل هذا التشريع وما أضافه من الفقه الإسلامى.



اتبع موسى بن ميمون فى تبويب كتابه وتسلسل عرض الأحكام كتب الفقه الإسلامى عموماً، وكتاب «المحلى» لابن حزم[٨] على وجه الخصوص، وخالف تبويب المشنا والتلمود. وعلى حين بدأ ابن حزم كتابه بمقدمة حدد فيها الهدف من تأليف الكتاب وجاء منهجه متفقاً مع هدفه ومع مذهبه الفقهى وهو المذهب الظاهرى، بدأ موسى بن ميمون كتابه بمقدمة أيضاً ضمنها هدفه من تأليف الكتاب، ولكن لم يتفق منهجه مع هدفه، ولا مع المذهب الذى يؤمن به وهو المذهب الربانى.

ففى حين استدل ابن حزم على فقهه والأحكام التى يأتى بها بآية أو حديث ويسوقه بسنده إلى النبى (ص)، لم يأت ابن ميمون برواة الشريعة الشفوية فى كتابه على الإطلاق، واكتفى بأن أورد بالمقدمة سلسلة الرواة، وحاول أن يجعلها متصلة بموسى (ع)، وتجنب ذكر هؤلاء الرواة فى متن الكتاب، ولم ينسب كل تشريع لقائله، بل سمح ابن ميمون لنفسه أن ينقل من كتب الفقه الإسلامى وأن يضيف لتشريعات المشنا والتلمود أو يقوم بتعديلها، أو يأتى بتشريعات تتناقض معها، ولكى يسوغ ذلك، لجأ لتأويل نص التوراة، وتحميله معانى لا يحتملها.

وفى حين يبدأ ابن حزم الجزء الأول من «المحلى» بموضوع التوحيد، ثم يثنيه بأصول مذهبه الفقهى، يبدأ ابن ميمون الجزء الأول من كتابه بموضوع التوحيد أيضاً ويثنيه بالدفاع عن المرويات الشفهية التى يعتمد عليها المذهب الربانى، وهو يتابع فى ذلك ابن حزم ويخالف المشنا والتلمود اللذين لم يناقشا موضوع التوحيد، وبالتالى لم يفردا له باباً أو فصلاً.

وبينما تناول ابن حزم فى الجزء الأول من كتابه بعد التوحيد وبعد الأصول، كتاب الطهارة، على اعتبار أن الطهارة تسبق الصلاة، وأن الوضوء للصلاة فرض لا تجزئ الصلاة إلا به لمن وجد الماء، يتناول ابن ميمون فى الجزء الثانى من كتابه الصلاة والطقوس التى يقوم بها اليهودى قبل الدخول إلى الصلاة، وهو يتابع ابن حزم فى هذا الترتيب أيضاً، ويخالف ترتيب المشنا والتلمود برغم أن الصلاة ليست فريضة توراتية، ولم يأمر بها موسى بزعمهم، وقد وضعها علماء اليهودية أثناء التهجير البابلى، وكان موسى (ع) يتقرب إلى الرب بالقرابين، لذلك ربط علماء اليهودية، عند تجديد الخطاب الدينى فى بابل، بين ميقات القرابين وميقات الصلاة وجعلوا الصلاة بمثابة بديل عن القرابين التى كان يقدمها موسى. لذلك لم يجد موسى بن ميمون، عند تجديد الخطاب الدينى للمرة الثانية، لم يجد حرجاً فى أن ينقل الكثير من أحكام الصلاة عن كتب الفقه الإسلامى، وعن المحلى لابن حزم على وجه الخصوص، فقد سبقه عنان ابن داود ونقل أحكام الصلاة فى كتابه عن الإسلام أيضاً.

وفيما يلى بعض أمثلة نسوقها من تشريعات الصلاة عند ابن ميمون دليلاً على تجديد الخطاب الدينى اليهودى للمرة الثانية على يد موسى بن ميمون، ودليلاً على اعتماده الفقه الإسلامى بصفة عامة وكتاب «المحلى» لابن حزم بوجه خاص. وسنسوق كل مثال وموقعيه فى كتابى ابن ميمون وابن حزم.

١ - قسم ابن ميمون الصلاة قسمين فرض ونفل، على الرغم من أن الصلاة من وضع العلماء (الفصل الأول، التشريع: ٥، ٦)، وهو نفس تقسيم ابن حزم، فالصلاة: فرض وتطوع (المسألة ٢٧٤).

٢ - أجاز ابن ميمون للمصلى أن يقصر صلاته فى السفر والخوف (الفصل الثانى، التشريع: ٢) نقلاً عن المسألة (٢٦٤) عند ابن حزم.

٣ - قال ابن ميمون بضرورة غسل اليدين قبل الصلاة، وهو تشريع من وضع العلماء أيضاً ولم يأت فى التوراة، وأجاز لمن لم يجد ماء أن يتيمم، ويمسح يديه بحجر أو تراب، أو بجذع شجرة ثم يصلى (الفصل الرابع، تشريع: ٢)، متأثراً بالتيمم عند ابن حزم (مسألة ٢٢٤).

٤ - نقل ابن ميمون (المسألة ٢٩٩) عند ابن حزم: لا يحل لأحد أن يصلى إلا واقفا إلا لعذر، كما نقل (المسألة ٣٠٠): لا يحل لأحد أن يصلى الفرض راكباً ولا ماشياً إلا فى حال الخوف، وجاءت المسألتان بكتاب ابن ميمون (الفصل الخامس، تشريع: ١ ، ٢).



فى حين يبدأ
ابن حزم الجزء الأول
من «المحلى» بموضوع التوحيد، يبدأ ابن ميمون
الجزء الأول من كتابه
بموضوع التوحيد أيضاً



٥- كما نقل ابن ميمون المسألة (٣٠٤) عند ابن حزم: من كان راكباً على محمل أو فيل أو كان فى عرفة أو فى أعلى شجرة أو غير ذلك، فقدر على الصلاة قائماً فله أن يصلى الفرض حيث هو قائماً، وقد جاءت فى كتاب ابن ميمون (الفصل الخامس، تشريع: ٨).

سأكتفى بهذه الاستشهادات من أحكام الصلاة «هلخوت تفلا» عند ابن ميمون لأعرض أمثلة على تجديد الخطاب الدينى فى باب آخر من أبواب التشريع: باب أحكام النكاح. فعند تجديد الخطاب الدينى لأول مرة وكان ذلك بأرض بابل، وضع علماء اليهودية أحكاماً للنكاح، وجاءت موزعة بثلاثة أبواب من كتاب المشنا: باب «كتوبوت» أى باب عقود الزواج، وباب «قيدوشين» أى باب عقد عقدة النكاح، وباب «يفاموت» أى باب الخلافة على الأرامل، فى حين أن كل ما جاء فى التوراة عن النكاح وطرقه ومحارمه لا تزيد على ١٥ تشريعاً.

ناقش العلماء فى باب عقود الزواج مضمون العقد الذى يكتبه الزوج لزوجته عند العقد عليها أو عند الدخول بها، والأساس فى العقد هو مبلغ «الكتوبا» المناظر لمؤخر الصداق فى الإسلام، ويتعهد الزوج أن يدفعه لزوجته عند الطلاق أو يدفعه ورثته عند وفاته، كما ناقشوا الشروط التى يشترطها كل طرف منهما على الآخر، ويختلف عن العقد الذى تنعقد به عقدة النكاح. وحرم علماء المشنا على المرأة أن تقيم فى بيت زوجها دون «عقد كتوبا» ومن تفعل ذلك تعد زانية(٩).

ناقش علماء المشنا فى باب «قيدوشين» أى عقد عقدة النكاح: طرق النكاح، والوكالة فى النكاح، ومقدار الصداق أو المال الذى تنكح به المرأة، والغرر فى النسب أو قيمة الصداق أو صفته، وتقسيم أنساب اليهود إلى عشرة أنساب وتقسيم هذه الأنساب لثلاث مجموعات ويحل لأفراد كل مجموعة الزواج من بعضهم، ولا يحل لهم الزواج من المجموعات الأخرى.

باب الخلافة على الأرامل «يفاموت» يناقش الفصل الأول منه محارم الزواج وقسمها لمحارم من الدرجة الأولى، وهى ما نصت عليها التوراة، ومحارم من الدرجة الثانية وضعها العلماء. من الفروق الواضحة بين الربانيين والقرائين فى النكاح أن الربانيين يحلون نكاح البنت من عمها وخالها، وسندهم فى ذلك أن التوراة لم تحرم على الرجل الزواج من ابنة أخيه أو ابنة أخته، أما القراءون فقد حرموا ذلك تأثراً بالإسلام.

عندما قام موسى بن ميمون بتجديد الخطاب الدينى مرة أخرى، ضم هذه الأبواب بباب واحد، أطلق عليه اسم «هلخوت إيشوت» أى أحكام النكاح. وسار فى تقسيم الموضوعات وطريقة عرض كل مسألة على خطى كتب الفقه الإسلامى، وسوف نورد بعض الأمثلة من هذا الباب للتدليل على التجديد من ناحية، وعلى مخالفة موسى بن ميمون للمشنا، وتأثره بالفقه الإسلامى من ناحية أخرى.

فقد جاء فى كتاب المشنا فى باب قيدوشين، التشريع الأول: «تملك المرأة بثلاث طرق، وتملك أمر نفسها بطريقتين... تُملك بالمال وبالعقد وبالوطء»، فرغم أن النكاح بالوطء هو الطريقة الوحيدة التى نصت عليها التوراة فى (التثنية: ٢٤/ ١)(١٠)، فقد قدم علماء المشنا الطريقتين الأخريين عليها. أما ابن ميمون فقد حرمها واعتبرها زنى، وقال: «كل من يطأ امرأة بدون عقد عقدة النكاح يجلد»(١١).



المثال الثانى عن تعدد الزوجات. فقد أحلت التوراة تعدد الزوجات ولم تضع حداً أقصى لعدد الزوجات، وقد أباح علماء المشنا تعدد الزوجات دون حد أقصى كذلك، فجاء فى (باب قيدوشين: ٢/ز): «الرجل الذى عقد عقدة النكاح على خمس نساء فى آن واحد...» وجاء فى (باب كتوبوت: ١٠/هـ): «من كان متزوجاً من أربع نساء ثم مات...». أما موسى بن ميمون فقد أباح تعدد الزوجات وقال فى أحكام النكاح (١٤/ د): «يجب ألا يجمع الرجل بين أكثر من أربع نساء حتى وإن كان لديه مال كثير، حتى يستطيع أن يعاشر كل واحدة منهن مرة فى الشهر». ورغم تأثر موسى بن ميمون الواضح فى هذه المسألة بالفقه الإسلامى، فإنه يعزو رأيه إلى حادثة وقعت زمن التلمود لرجل توفى أربعة من إخوته، وكان يجب عليه أن يخلفهم فى أراملهم، فنصحه علماء التلمود ألا يجمع بين أكثر من أربع نساء(١٢). وسواء تأثر موسى بن ميمون فى هذه المسألة بالإسلام أم اقتدى بفتوى علماء التلمود، فما يهمنا فى هذا المثال هو أن نرصد الأدلة على تجديد الخطاب الدينى، وأن نسلط الضوء على الدور الذى قام به موسى بن ميمون فى تجديد اليهودية الربانية بالقرن الثالث عشر، ومازال أثره مستمراً ليومنا هذا. ورغم مرور ثمانية قرون على تأليفه، لا يزال كتاب «مشنه تورا» هو المرجعية الدينية لليهود الربانيين بجميع أنحاء العالم، لذلك فهو موجود كاملاً على شبكة المعلومات الدولية «إنترنت»، شأنه شأن التلمود، ليسهل على اليهود الرجوع إليه.

بعد عرض التجربة اليهودية فى تجديد الخطاب الدينى بإيجاز، اتضح أن الفقه الإسلامى كان القدوة والنموذج لدى عنان بن داود وموسى بن ميمون، ويبدو أن أحوج ما نحتاج إليه هو أن نُعمل منهج البحث العلمى لدى النظر فى أى دين، وألا ننظر فى أى حكم من أحكام أى دين بمعزل عن نظامه الكلى ومقاصده، ولا نحاكم أى دين بسلوك الخارجين عنه. ■

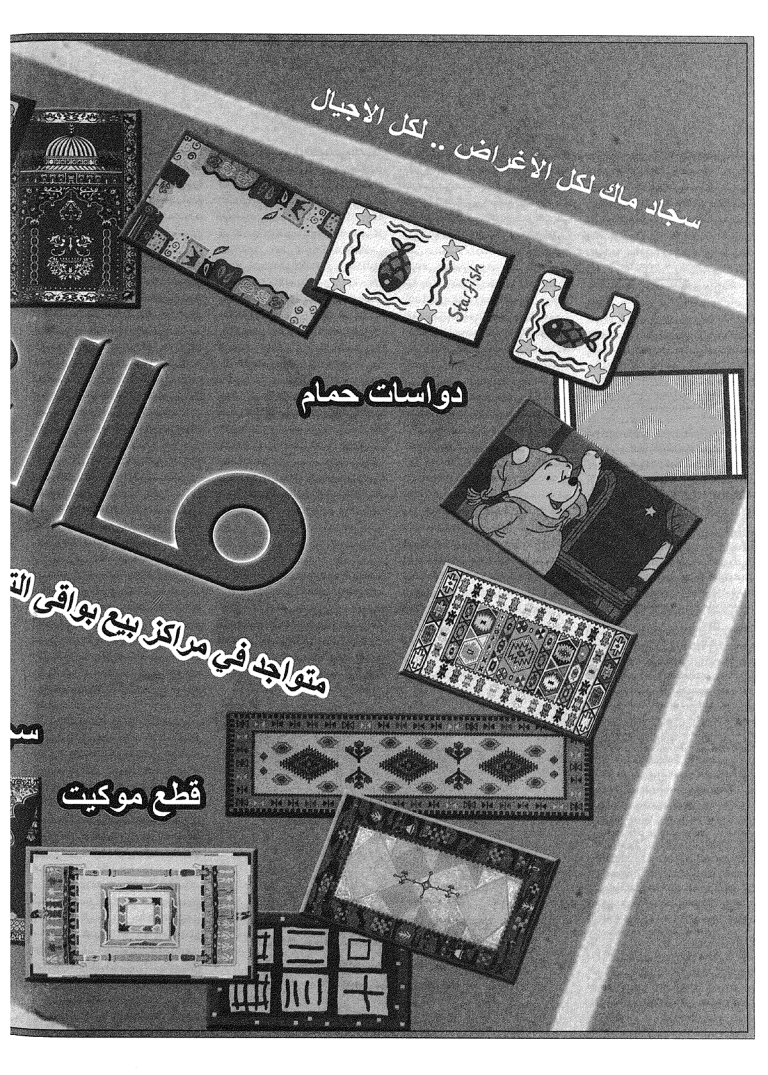


أحلت التوراة تعدد الزوجات ولم تضع حداً أقصى لعدد الزوجات، وقد أباح علماء المشنا تعدد الزوجات دون حد أقصى كذلك



الهوامش

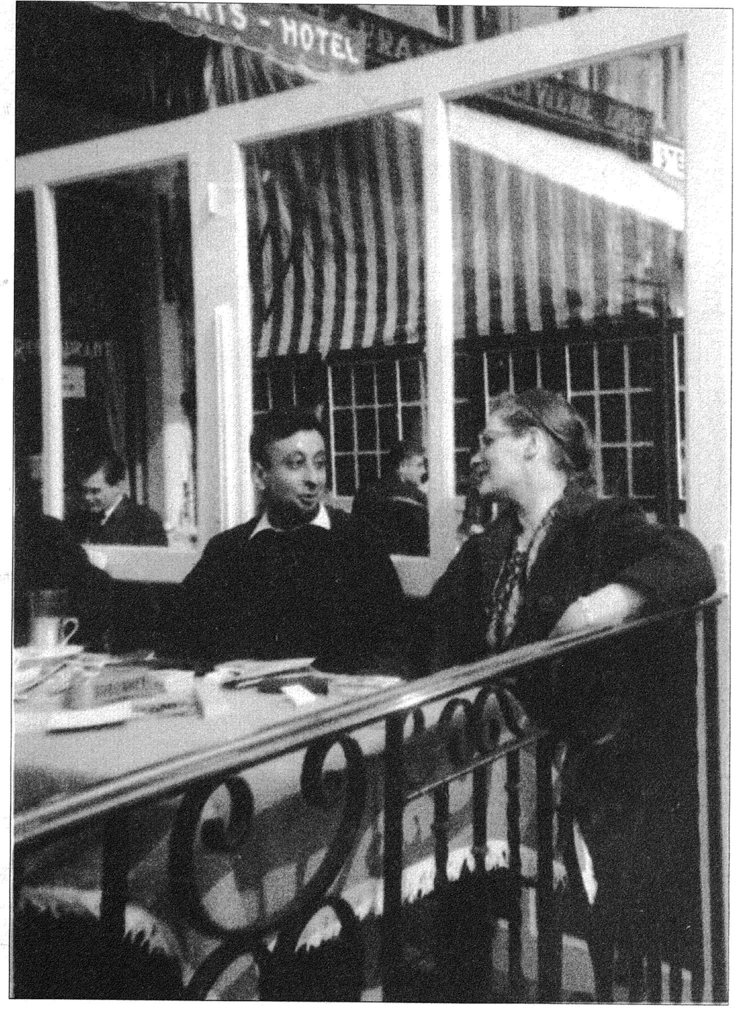
(١) باب عقود الزواج: ٧/و.
(٢) باب عقد عقدة النكاح: ٧/ أ.
(٣) عند تهجير بنى إسرائيل إلى بابل بالقرن الخامس (ق.م)، ذهب فريق منهم إلى مصر ومنهم النبى أرميا.
(٤) أنظر للباحثة: كيف أصبح جبريل عليه السلام عدواً لليهود؟ رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، المجلد ١٣. ٢٠٠٤.
(٥) سورة الأنعام: ٣٨.
(٦) سفرا وسفرى والتوسفتا: مؤلفات تشريعية يعتمد عليها الربانيون.
(٧) لم ينسب أى مصدر من المصادر العبرية عملية تأليف التلمود لفرد أو شخصية بعينها فهو تجميع لمرويات ظلت تتردد مشافهة على مدى قرون، وأقدم مخطوط للتلمود (المشنا وشروح الجمارا) يعود تاريخه للقرن الثانى عشر، أما التلمود فى صورته الحالية فهو تصوير عن الطبعة التى أصدرها دانيال برومبرج فى ١٥٢٠، ومازال باب الاجتهاد فى التلمود مفتوحاً للآن، فتضاف شروح وتعديلات وتفاسير إلى الطبعات الحديثة منه.
(٨) من الأمور اللافتة للنظر أن ابن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) وابن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤) من مواليد قرطبة بالأندلس، وإن كان ابن حزم يسبق ابن ميمون بواحد وسبعين عاما، وقد تلقى كل منهما تربية علمية وفلسفية ودينية، أى تشابهت نوعية التنشئة، لذلك تشابهت اهتماماتهما، فألف كلاهما فى الفقه والمنطق والفلسفة وعلم الكلام والطب. ورغم غزارة إنتاج ابن حزم، وتنوع مؤلفاته فى الفقه والحديث والأصول والملل والنحل والتاريخ والأنساب والأدب والرد على المعارض، وعلى الرغم من السبق العلمى الذى أحرزه فهو أول من اهتم بدراسة الأديان دراسة تاريخية نقدية. ورغم أنه يفوق ابن ميمون وابن رشد فى حجم إنتاجه وتنوعه، فإن اسم ابن حزم لم يبرز فى التاريخ العام للفلسفة وعلم الكلام، ولم يحظ بشهرة ابن رشد وابن ميمون رغم إعجابهما وتأثرهما به، و«المحلى» أحد أربعة كتب لابن حزم دون فيها فقهه ومذهبه، ويقع فى أحد عشر مجلداً يشتمل على ٤٣٨٨ صفحة وهو آخر مؤلفات ابن حزم، ولم يتمه بعد.
(٩) انظر للباحثة: أحكام النساء فى التلمود، الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٥.
(١٠) فقد جاء فيها: «إذا اتخذ رجل امرأة ووطأها...».
(١١) «مشنه تورا»، هلخوت إيشوت، الفصل الأول، تشريع: د.
(١٢) التلمود البابلى، باب يفاموت، وجه ص ٤٤.



سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي ال
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com


HOTEL

هنا قصة «صيفية» مثيرة، شغلت تفاصيلها غير الدقيقة الأوساط الأدبية فى مصر، خاصة بعد أن صدرت فى القاهرة ترجمة للرواية الوحيدة التى كتبها بطل هذه القصة، وبعد أن بدا أن الكتاب الذى كتبته عنه صديقته الكاتبة الإنجليزية المرموقة ديانا آتهيل فى طريقه أيضا للقارئ العربى بعد ترجمته.

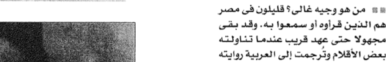
شاع عن الكاتب «ذى الرواية الواحدة» أنه كتبها ... «وانتحر». هكذا قالت صحف أدبية وكتابات كثيرة. قال بعضها بالانتحار.. وقال آخرون أنه اختفى متلمسين البحث عنه. ثم سرعان ما اختلطت الروايات «التى كانت دوما جذابة وشيقة» بكلام عن التطبيع، وزيارة لإسرائيل.. وبطولات وتضحيات، واستشراف لآفاق ربما لم تكن قد خطرت أبدا على بال كاتبنا المصرى (أوروبى الإقامة) ذى الرواية الواحدة. والتى هى - رغم كل هذا اللغط والخلط - جيدة بكل المقاييس.

هنا مقالان / مناقشتان لكتاب «الصديقة الإنجليزية» وللرواية ذاتها. وهنا أيضا تفاصيل حياتية، وصور فوتوغرافية تنشر - ربما لأول مرة - للأبطال الحقيقيين: الروائى المصرى الذى انتحر، وصديقته الإنجليزية كاتبة السيرة الذاتية المرموقة صاحبة الكتاب الأخير.

وكما كل رواية تبدو هنا السيرة الذاتية - أو بالأحرى السير الذاتية - لكاتبنا ذى الرواية الواحدة «وجيه غالى».

المحرر

البحث عن وجيه غالى..!



عبد الرشيد الصادق محمودى



وجيه غالى

من هو وجيه غالى؟ قليلون فى مصر هم الذين قرأوه أو سمعوا به. وقد بقى مجهولا حتى عهد قريب عندما تناولته بعض الأقلام وتُرجمت إلى العربية روايته الوحيدة التى ألفها بالانجليزية، وهى «بيرة فى نادى البلياردو». وكان هناك صمت كامل يحيط بالرجل رغم أنه كان مصريا، وأن روايته لقيت ترحيبا وتقريظا فى الغرب. ويجدر بالذكر أن الكاتبة الإنجليزية المرموقة ديانا آتهيل ألفت عنه كتابا عنوانه «بعد الجنازة» (١٩٨٦).

ومن الأسباب التى أغرتنى بالكتابة عن وجيه غالى أننى عاصرته فى فترة الستينيات من القرن الماضى، وجاورته لأننا كلينا كنا نعيش فى منطقة هامبستد. وكانت الكتابة عنه تعنى وفقا لما تخيلت أن أعود إلى مسرح الأحداث، وأن أزور ديانا آتهيل لأجرى معها مقابلة صحفية.

وقد قرأت رواية وجيه فى أوائل السبعينيات. واسترعت انتباهى لأن مؤلفها مصرى يكتب بالإنجليزية، واستمتعت بقراءتها لمهارة المؤلف وخفة ظله وتمكنه من الإنجليزية، وإن بدا لى أنها تتسم بالنزق والسطحية. ثم مرت بعد ذلك سنوات عديدة قبل أن أقرأ الرواية للمرة الثانية وأطلع على كتاب ديانا آتهيل وأعود إلى الاهتمام بوجيه غالى.

After a Funeral
Diana Athill
Granta Books
2000

الفتى المدلل

أريد أولا أن أبحث عن وجيه كما يبدو فى روايته: فهى تتخذ صراحة طابع السيرة الذاتية. وقد كتبها بضمير المتكلم، وإن اتخذ لنفسه اسما مستعارا هو رام. ولا يعنى ذلك بطبيعة الحال أن علينا أن ننظر إلى الرواية بوصفها سجلا دقيقا بكل ما حدث لمؤلفها. فالمؤلف شأنه شأن سائر كتاب السيرة الذاتية يتصرف فى وقائع حياته بقدر أو آخر، ويقدم نفسه للقارئ بالطريقة التى يرتضيها. فلنقل إذن إن الرواية تصور فى مجملها أطرافا من حياة صاحبها من وجهة نظره الخاصة.

ولد وجيه لعائلة من كبار الملاك الذين يحيون فى القاهرة حياة مترفة رخية ولا يعرفون عن الريف إلا أنهم يتلقون منه ريع أطيانهم، وكانوا أصحاب ثقافة أوروبية. فهم يرسلون أبناءهم إلى مدارس إنجليزية بينما يرسلون بناتهم إلى مدارس فرنسية، ويستخدمون فى حياتهم اليومية الفرنسية بصفة خاصة. وبما أنهم كانوا يعيشون فى تلك الفترة التى تتناولها الرواية - فترة الخمسينيات - فإن الطبقة التى ينتمون إليها كانت فى طريقها إلى الزوال. ونحن نرى فى المشهد الافتتاحى خالة وجيه وهى توقع على عدد ضخم من العقود الصورية التى تتنازل بمقتضاها عن معظم أملاكها.

ويقول المؤلف: «الواقع أن وجود أب للمرء فى مصر ترف غير شائع. فأمهاتنا متزوجات وفقا للقانون وما إلى ذلك، ولكن أزواجهن يموتون فى شبابهم بحيث لا يتجاوز متوسط العمر بينهم خمسة وثلاثين أو ما يقارب ذلك. وقد انتقلت بى أمى وأنا فى الرابعة لنعيش فى بيت جدى. وعند بلوغى السابعة كانت هناك ثلاث خالات مترملات وثمانية أيتام يعيشون مع جدى وجدتى...» لغة الكاتب هنا تقريرية صريحة: ومن الممكن أن نستخلص منها على وجه الإجمال أن البطل قضى فترة من طفولته فى بيت جديه وأنه عاش فى بيئة تسيطر عليها النساء.

وقد حظى وجيه بكثير من المزايا التى تسبغها العائلة على أبنائها حرصا على السمعة والمظهر. فقد ذهب إلى مدرسة إنجليزية. وكان باستطاعته وهو شاب أن يجد من المال ما يكفى لحسن مظهره وللإنفاق على أناقته وملذاته بما فى ذلك الخمر والقمار. ولكنه كان رغم ذلك يحتل مرتبة دنيا فى نطاق العائلة بحكم فقره واعتماده على الخالة. وقد زاد الأمر سوءا لأن وجيه كان مشاكسا متمردا غريب الأطوار.

ويبدو أن وجيه كان طالبا متفوقا حتى إتمام الدراسة الثانوية عند بلوغ الخامسة عشرة من عمره. كما يبدو مما جاء فى الرواية أن كرم العائلة ضاق عنه عندما بلغ تلك النقطة من حياته التعليمية: فهو لم يبعث إلى الخارج للدراسة الجامعية مثل سائر أبناء العائلة، والتحق بكلية الطب فى جامعة القاهرة (وإن كنا نعرف من مصادر أخرى أنه قضى فترة فى باريس يدرس فى السوربون، كما قضى فترة دراسية فى لندن). ولعله بدأ حياة العبث والبوهيمية فى المرحلة الجامعية.

كان يتصرف كأنه من «أبناء الذوات» المرفهين المدللين رغم أنه لم يكن يمتلك الموارد اللازمة لذلك. وكان يحيا إذن حياة طفيلية محمولا على موجة العائلة كما يقول: فإذا انحسرت هذه الموجة دون تحقيق مطالبه حملته موجة أخرى من كرم أصدقائه. فقد كان يجد دائما من يدفع عنه حساب الويسكى أو من يمده بالمال للعب البوكر، أو



أقامت عشيقته «إدنا» معه فى لندن، ولكنها رفضت الزواج منه لأن لها زوجاً فى إسرائيل

من يتحمل نفقات سفره هو وصديقه فونط إلى لندن والإقامة فيها.

وتدور أحداث القصة بين القاهرة ولندن دون التزام صارم بالترتيب الزمنى. فهناك جزء افتتاحى تدور أحداثه فى القاهرة، يتلوه جزء ثان عما وقع لرام وصديقه قبل ذلك فى لندن، وبعد الرجوع على هذا النحو إلى الماضى يوجد جزء ثالث تستأنف فيه رواية الأحداث كما تقع فى القاهرة. وفى هذا الجزء الأخير يضع المؤلف نهاية «سعيدة» للقصة. فالبطل يجد هنا حلا رائعا لكل مشكلاته. وذلك أن فتاة ثرية - هى ديدى نخلة - كان قد أغواها فى لندن وتيمت به حبا تقبل الزواج منه رغم إفلاسه وتقبل بالتالى أن تتكفل به وبوالدته.

وباستطاعتنا أن نقول على الفور إن هذا الجزء من القصة من نسج الخيال، لأننا نعلم من مصادر مستقلة أن وجيه غالى لم يكن متزوجا من مليونيرة عندما كتب روايته (فى ألمانيا فى أوائل الستينيات)، بل لم يكن متزوجا على الإطلاق.

معشوق النساء

أراد مؤلف رواية «بيرة فى نادى البلياردو» أن يقدم عن حياته العاطفية صورة توحى بأن كل شىء يسير على هواه. فديدى نخلة تستسلم له بسهولة وتتحمل عنه مسؤولياته. وهناك إلى جانب ديدى حبيبة أخرى، هى فى الواقع أهم الحبيبات فى حياة رام وأعلاهن منزلة. وأعنى بذلك إدنا اليهودية التى اجتمعت فيها مزايا يندر أن تجتمع فى امرأة أخرى وتجعل منها امرأة رائعة خارجة عن المألوف. فهى فضلا عن جمالها وجاذبيتها وأناقتها شديدة الثراء (أبوها من أصحاب المتاجر الكبرى فى مصر وأوروبا)، وذات ثقافة رفيعة ووعى سياسى مرهف.

ومن الغريب فى هذا الباب أن وجيه غالى - وهو الذى كان يجهل الشعر العربى القديم بحكم ثقافته الإنجليزية الصرف - يذكرنا ببعض شعراء الغزل العرب الذين يرون فى المرأة المحبوبة تجسيدا للمثل الأعلى للأنوثة وينزهونها عن كل الشوائب التى قد تعلق بجسد المرأة. فوجيه غالى يشيد على غرار أولئك الشعراء بطيب رائحة إدنا وهو يرقبها ويتنسم عرفها الطيب وهى نائمة عند ارتفاع أذان الفجر. ومن مزايا إدنا الفائقة أنها رغم ترفعها وما يبدو من بعد منالها تغدق على رام عاطفيا وماليا. وهى تغض الطرف عن مغامرات صديقها مع الأخريات، بمن فيهن ديدى نخلة. وكل شىء يوحى إذن بأن الحياة تسير على هوى رام وبوهيميته. صحيح أن إدنا ترفض الزواج منه لأن لها - كما تبين فى نهاية المطاف - زوجا فى إسرائيل، ولكن فقدان الحبيبة الأثيرة لا يغير من حياة رام ولا يترك فى نفسه أثرا ظاهرا. فهو يتحول عنها بسهولة إلى ديدى نخلة.

النفس المنقسمة

غير أننا نكتشف عند القراءة الفاحصة أن الرواية تمس بعض الأبعاد العميقة أو الوجودية فى شخصية البطل، وأن حياته العاطفية ليست صافية خالية من أسباب القلق والتمزق. فهناك - إلى جانب شخصية الفتى البوهيمى المنغمس فى متع اللحظة الراهنة - ما يشبه الذات المراقبة الناقدة التى لا تنطلى عليها حالة الهناء الظاهر، وتتشكك فى حقيقتها. يظهر ذلك بطريقة عابرة وملتوية فى أحد مشاهد الحب التى تجمع بين رام وإدنا. فمن الملاحظ أن هذه المشاهد المتعددة تخضع لنمط واحد تقريبا، وهو أن المحبوبة التى تكبر رام سنا وتبدو بعيدة المنال ترخى شعرها فى لحظة الرضا والمنح وتطلب إليه أن يصففه لها. ولكن أحد تنويعات هذا النمط يستوقف النظر: «ثم كانت لكل منا كأس أخرى من الكونياك فقبلتها على ركبتها برقة وحنان. وببطء هبطت يدها وأخذت تعبث بشعرى وتمسح برأسى على جنبها. مشهد تلقائى ربما وغير مدبر ولكن لعله رغم ذلك قد شوهد فى فيلم أو مسرحية أو أوبرا أو كتاب واستحضره الكونياك عن غير وعى.» هنا - فى هذا المشهد الذى يصور ذروة القرب - نستمع إلى صوت الرقيب: فثمة شعور لدى رام بأن ما يجرى إن كان تلقائيا أو يكاد فإنه ينطوى على شىء من المحاكاة أو التمثيل، أو أنه غير أصيل أو غير حقيقى.

وهذه الفكرة الغريبة - وهى أن ما يجرى ليس حقيقيا حقا - لا تلبث أن تتكرر وتتأكد فى الرواية. ومن ذلك أن المؤلف يرى فى بعض أقواله أن الناس - الشخصيات الحقيقية - ما هم إلا تجسيد لرؤى الفنانين. فهو يصدر روايته بعبارة مقتبسة من دوستويفسكى: «والأحرى أننا نرمى إلى أن نكون شخصيات من نمط خيالى... عام». بل ويقرر ذلك صراحة عندما يقول إن الفنانين يحاولون أن يصفوا الناس بينما يصور الناس (أو لنقل: يجسم الناس) مفهوم الفنانين عنهم».

ويزداد الأمر جلاء عندما نقرأ أن طريقة الكاتب فى رؤية الناس والأحداث ناتجة عن أزمة يعيشها وتتعلق فى المقام الأول برؤيته لنفسه؛ فهو لا يرى أنه شخصية حقيقية. يقول ذلك فى بادئ الأمر فى معرض التعليق على حياة التطفل التى يحياها لأنه يعيش عالة على أسرته ثم يعيش عالة على أصدقائه. يقول فى هذا الصدد: «وأى حياة هذه برب السماء؟ وهل تسمى هذه حياة؟ وهل تسمى هذا (يعنى نفسه) رجلا؟».

وهو يذكر أن الأزمة بدأت فى لندن. فهو فى القاهرة لم يكن يشعر أو لم يكن يكاد يشعر بأن حياته كعالة أو أن حياته بصفة عامة أمر غير طبيعى. ولكنه يذكر مناسبة معينة فى لندن عندما شعر لأول مرة أنه منقسم إلى كائنين: «أحدهما مشارك فى الحدث والآخر يرقب ويصدر الأحكام». وهو يقول إن الانشقاق لم يكن كاملا عندئذ. ففى تلك الفترة كانت القوتان قد بدأتا فى الشد كل من ناحية.

ومؤدى كل ذلك أن رواية «بيرة فى نادى البلياردو»، وهى القصة الكوميدية تشير أحيانا إلى وجود مأساة فى حياة بطلها. بل إن المؤلف يستخدم صراحة كلمة «المأساة» فى وصف حالته: «منذ المجىء إلى لندن وأنا أتحرك نحو الأمور المأساوية وكأننى لا أتمتع بإرادة حرة».

الوعى السياسى

نكتشف عند القراءة الفاحصة أن البطل رام ليس منغمسا تماما فى حياته الطفيلية اللاهية، وأن بوهيميته وسعيه لتحقيق المتعة والمصلحة الشخصية لا يستغرق كل شخصيته، بل إن هناك جزءا من نفسه لنسمه الضمير يراقب ما يجرى ويتساءل: هل هذه الحياة التى أحياها وجود حقيقى أم أنه وجود زائف؟ هل الرجل الذى هو أنا إنسان حقا أم أن الأمر لا يعدو أن يكون تحايلا وخداعا وتمثيلية أنا مؤلفها والممثل فيها والمتفرج عليها فى مسرحى الخاص؟ وتتضمن الرواية - بالإضافة إلى هذه الأبعاد التى يمكن أن توصف بالوجودية - أبعادا أخرى تتعلق بوعيه السياسى. فقد كان لرام فى البداية مواقف واستجابات سياسية تلقائية إلى أن عرف إدنا فتلقى عنها أو بفضل توجيهاتها ثقافة سياسية ومعارف تاريخية صقلت وعيه السياسى وزودته بالأسلحة النظرية اللازمة. ورام فى هذه المرحلة الواعية يبدو يساريا أو ماركسيا. بل إنه ينضم إلى الحزب الشيوعى البريطانى أثناء إقامته فى لندن. وهو يبدى من هذه المنطلقات آراء تتعلق بنظام عبد الناصر وبالمشكلة الإسرائيلية. فهو ناقد لنظام عبد الناصر وصاحب آراء فى المشكلة الإسرائيلية. ونحن إذ نتناول هنا تلك الأبعاد - الوجودية والسياسية - فى شخصية البطل مضطرون إلى نقدها - من وجهة النظر الفنية ذاتها وبوصفها جزءا من عمل فنى.

الوجود الحقيقى والوجود الزائف

فى البداية يثير بطل الرواية هذه المشكلة فى سياق حديثه عن حياته الطفيلية؛ فهو يعيش عالة على غيره: أهله أو أصدقائه. ثم يتكشف تساؤله عن انقسام فى نفسه بين ذات مراقبة وذات أخرى منغمسة فى التطفل واللهو والبوهيمية، أو بين ذات متفرجة وذات منخرطة فى الحدث المسرحى منساقة كأنها تخضع لقوة سالبة للإرادة. ولكن إثارة المشكلة تأتى فى عبارات وتعليقات عابرة مجردة لا يكاد القارئ يلحظها. فإذا لاحظها وتمعن فيها تبين أنها لا دور لها فى مجرى الأحداث ولا تأثير لها عليه. فإذا افترضنا أن النفس المراقبة أو المتفرجة هى الضمير، وجدنا أن هذا الضمير لا يصحو - إذا صحا - كقوة أخلاقية فاعلة؛ ووجدنا أيضا بالتالى أن الانقسام لا ينطوى على أى صراع بين قوتين، ولا يثير أى قلق (وجودى) كتجربة نفسية، ولا يغير من صورة العالم كما يدركها البطل. بل يقتصر الأمر على طرف متفرج وطرف فاعل أو ممثل فى حقيقة الأمر. ثم تنتهى المشكلة إلى الغموض والضبابية عندما تتحول إلى تمثيل فى تمثيل لا فارق فيه بين طرف وطرف. وهى عندئذ تنتهى وتزول فى خضم اللهو والعبث؛ ويغلب على الرواية الطابع الكوميدى. ولئن كان البطل يشير إلى أن

كان هناك صمت كامل يحيط بالرجل فى مصر، رغم أن روايته لقيت ترحيبًا وتقريظًا فى الغرب



فى حياته بعدا مأساويا، فإن الأمر يقتصر على مجرد الإشارة والإيماء؛ وليس فى الأحداث ما يدل على المعاناة والشقاء، بل إنها تجرى بخفة ونزق نحو نهايتها «السعيدة» التى يجد فيها البطل كل ما يرضيه ويشبع شهواته ويؤكد طفيليته. وخلاصة القول إن الرواية لا تفى بحق المشكلة التى تثيرها - مشكلة انقسام النفس - ولا تبرزها كمشكلة حية لها دور فى مجرى الأحداث وتأثير عليه.

رام ومسألة إسرائيل

وفى الرواية عيب آخر يتعلق بالجانب السياسى فيها. فهى تشير إلى تطور الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى مصر فى فترة الخمسينيات، وتعبر عن مواقف رام وآرائه السياسية، وخاصة فيما يتعلق بثورة عبد الناصر ونظامه. ورام كما يصوره المؤلف يتمتع بوعى سياسى واجتماعى غير مألوف. فهو يدرك أن طبقة كبار الملاك التى ينتمى إليها تستغل الفلاحين. وهو يؤيد الثورة ويهلل لعبد الناصر، وخاصة عند تأميم قناة السويس. ولكنه يتحول إلى موقف الناقد للنظام الناصرى عندما يصقل وعيه السياسى بالثقافة والمعرفة ويعتنق - وفقا لما جاء فى الرواية - آراء واتجاهات يسارية أو ماركسية أو شيوعية.

وفى هذا الإطار يبدى بطل الرواية أو مؤلفها بعض النظرات الثاقبة. من ذلك مثلا أنه يلاحظ بدايات الانحراف أو التآكل فى النظام الناصرى؛ فالطبقة المعادية للثورة تحاول بنجاح استيعابها أو التداخل معها، وتحاول التغلغل فى الجيش عن طريق إلحاق أبنائها به. والضباط من ناحيتهم أصبحوا يقبلون على الانضمام إلى صفوف الطبقة المحظية، ومن ثم كان ظهورهم على نحو بارز فى نادى الجزيرة. ومن مظاهر الانحراف وفقا للرواية فتح معسكرات الاعتقال للمعارضين وتعذيبهم.

وهنا يخص المؤلف بالذكر الشيوعيين وأنصار السلام؛ فحظهم من التنكيل والاضطهاد - فيما يقول -كان هو الحظ الأوفر، إذا ما قورن بالمعاملة الهينة اللينة التى لقيها أتباع العهد البائد. وهو يقول فى هذا الصدد: «أما الآخرون (يعنى المعارضين من غير رجال العهد البائد) أى الشيوعيين وأنصار السلام والذين يرون أن ليس ثمة مستقبل اقتصادى (لمصر) دون ترتيب سلام مع إسرائيل، فهم يعذبون ويلقون معاملة سيئة للغاية». من هنا يبدو أن المؤلف لا يضع الشيوعيين فى زمرة واحدة تماما مع أنصار السلام والداعين إلى عقد صفقة مع إسرائيل لأسباب اقتصادية. كلهم معارضون لعبد الناصر، وكلهم يسامون العذاب؛ أما فيما عدا ذلك فإنهم ينتمون إلى ثلاث فئات مختلفة. ولكن خلط الأوراق يبدأ عندما يتعلق الأمر برام نفسه. فهو مقدم فى الرواية بوصفه ماركسيا، بل وشيوعيا. وهو أيضا من دعاة السلام مع إسرائيل؛ وهو ينتقد عبد الناصر لأنه يسخر ثلث ميزانيته لبناء الجيش ومحاربة «مليونين من اليهود البؤساء الذين ذبحوا فى الحرب الأخيرة». فليس من المعروف أن الشيوعيين كانوا يعارضون بناء جيش وطنى للدفاع عن مصر؛ أو أنهم كانوا ينادون بالسلام بناء على الأسباب المذكورة، أو أنهم كانوا يتوهمون أن النزاع قائم بين مصر أو العرب من ناحية ومليونين من بؤساء اليهود من ناحية أخرى. ومناصرة السلام بناء على مثل هذه الأسباب لا تختلف عما كانت تردده الدعاية الصهيونية، وتنطوى على تزييف وتضليل، وتدعو إلى التشكيك فى صدق ماركسية رام (أو وجيه) أو شيوعيته، وتقلل فى نهاية المطاف من قيمة العمل الفنية. فليس من صالح الرواية بوصفها عملا فنيا أن تقدم إلى القارئ داعية للسلام مزيفا دون أن تقيم دونه مسافة أو تتخذ منه موقفا نقديا تمليه طبيعة الفن ذاته، وخاصة فن الكوميديا.

الرواية الفريدة

ومع كل ذلك، فإن الإنصاف يقتضى التنويه بالجوانب الإيجابية فى الرواية. لم يكن وجيه غالى فى مطلع شبابه عندما كتب «بيرة فى نادى البلياردو»؛ ولكن الرواية تتميز بدرجة عالية من النضج، وخاصة إذا تذكرنا أنها كانت أول عمل روائى له. وواضح أن المؤلف كان متمكنا من لغته الإنجليزية ومتقنا للصنعة الروائية. يضاف إلى ذلك أن الرواية كانت بمثابة الحدث الخارق أو المعجزة فى حياة صاحبها، لأنها - كما سنرى فيما بعد - ألفت فى ظل ظروف حالكة، وكانت عملا من أعمال التوازن الرائعة.

ديانا آتهيل

ركزت حتى الآن على الرواية فى حد ذاتها: تصويرها لمؤلفها، ومزاياها وعيوبها كعمل فنى. وأود الآن أن أخرج عن هذا الإطار فأعرض للظروف التى أحاطت بتأليفها ونشرها. وهى قصة ما كنت لأهتم بها لولا أنها انتهت إلى نقطة تحول حاسمة فى حياة المؤلف، وهى تعرف وجيه غالى على الكاتبة الإنجليزية ديانا آتهيل. نشرت الرواية لأول مرة فى لندن سنة ١٩٦٤؛ ولكنها ألفت فى ألمانيا حيث كان يقيم فى مدينة صناعية صغيرة بالقرب من دسولدورف. وجاء فى أقوال ديانا آتهيل ويوميات وجيه أنه كان يشتغل بأعمال صغيرة غير ثابتة فى المصانع والميناء كما عمل كاتبا فى معسكر للجيش البريطانى، وأنه عاش فترات من الفقر والجوع ومعاناة البرد القارس. فكان يطرد من مسكنه، ويطرد من البارات. وكان يتعرض أحيانا للموت جوعا أو بردا حتى يجد من يؤويه.

وقد ألفت الرواية إذن فى ظل ظروف قاسية، واجتذبت ناشرا ألمانيا كاد ينشرها لولا خلاف دب بينه وبين المؤلف. فكان أن أرسل الناشر الألمانى المخطوطة إلى دار النشر اللندنية أندريه دويتش. وهناك قرأتها وفتنت بها وعملت على نشرها ديانا آتهيل التى كانت أحد مؤسسى الدار، وإن كانت تعمل بصفة رئيسية قارئة ومحررة للمخطوطات المعروضة للنشر. ومن ثم كان التعارف بين وجيه وديانا عن طريق التراسل أولا ثم عن طريق اللقاء المباشر، وكانت صفحة جديدة فى حياة المؤلف.

ولدت ديانا فى سنة ١٩١٧. وقد قضت الجزء الأعظم من حياتها المهنية فى دار النشر المذكورة. ولكنها كانت تمارس الكتابة إلى جانب هذا العمل. فقد أصدرت بالإضافة إلى الكتاب الذى ألفته عن وجيه غالى («بعد الجنازة») عدة مؤلفات من بينها رواية وكتب تقص فيها ذكرياتها عن جوانب مختلفة من حياتها: كتاب عن طفولتها فى الريف وكتاب عن قصة حبها الكبرى، وكتاب عن حياتها فى مجال النشر.

وقد جاءتها الشهرة فى شيخوختها بسبب كتب الذكريات هذه، وأصبحت فى السنوات الأخيرة تحتل مكانة مرموقة بين الكتاب الإنجليز. ويبدو لى أن مجىء الشهرة فى سن متقدمة لم يكن من قبيل المصادفة. وذلك أن ديانا آتهيل بلغت أعلى درجة من نضجها الأدبى فى كتابة ذكرياتها.

وعندما اتصلت بها تليفونيا كى أجرى معها «مقابلة صحفية كان أول من رد على رجلا بدا من صوته أنه مسن. قلت لنفسى: أيكون هو لوقا؟ (ولوقا هو الاسم المستعار لصديقها الدائم الذى تذكره فى كتابها عن وجيه). ثم تراجعت عن الفكرة فورا. فقد مر على تلك الأحداث حوالى أربعين سنة. ربما كان صاحب الصوت العجوز زوجها أو صديقا آخر أو أحد الأقارب. وناداها الرجل، فجاءت. ودعتنى إلى تناول القهوة فى منزلها..

كنت عندئذ قد قرأت الجزء الأعظم من كتابها عن وجيه، كما قرأت مقالة لأهداف سويف عن هذا الكتاب. ولما وجدتنى أخوض فى غمار قصة متشابكة وشائكة ومضطربة ومثيرة للفزع والأسى، رأيت أن خير ما أفعله هو أن أجرى مع مؤلفة الكتاب مقابلة بالمعنى الدقيق للكلمة لأستوضح بعض النقاط الغامضة فى حياة وجيه غالى. وكنت معنيا بصفة خاصة بتتبع مساره بين القاهرة وفرنسا (فقد قضى فترة فيها يدرس فى السوربون) وألمانيا ولندن. فكان أن أعددت قائمة بالأسئلة التى ينبغى طرحها، وحملت كراسة صغيرة لتدوين الإجابات، وكاميرا صغيرة لأصور السيدة. ولكنى أدركت منذ الدقائق الأولى مع ديانا آتهيل أن إجراء المقابلة على هذا النحو لن يكون مجديا. سألتها مثلا عن تاريخ ميلاد وجيه فلم تستطع أن تقدم لى إجابة دقيقة. قالت إنه كان يغالط فى تاريخ ميلاده فيتظاهر بأنه أصغر من سنه الحقيقية، وأنه عبث بالبيانات المسجلة فى أوراقه الرسمية، وأنه كان كثير الكذب. وانتهينا أنا وهى بعد شىء من الحساب إلى أنه ولد على الأرجح فى النصف الثانى من عقد العشرينيات من القرن الماضى. وسألتها عن حقيقة علاقة وجيه بالشيوعية، فقالت إنه كان أبعد الناس عن الشيوعية. ولكنها تقول فى كتابها إنه أصبح شيوعيا بعد الثورة وبعد ما أصابه من سخط عليها، وإنه قيل لها إن جواز سفره قد سحب منه لأنه شيوعى. (وهى تقول فى موضع آخر من الكتاب إن السبب المباشر لنفيه من مصر كان معارضته لإنفاق موارد البلد على بناء الجيش والتسلح استعدادا للحرب مع إسرائيل). أدركت

إذن أن معلوماتها فيما يتعلق بتلك البيانات البسيطة مشوشة؛ كما تذكرت أن كثيرا مما تورده من معلومات عن وجيه مستقى من روايته دون تمحيص. وهكذا أعدت أوراقى إلى جيبى، وقررت أن أكتفى بالحديث إليها. إلا ما كان من سؤال يأتى عفو الخاطر. ولم أخرج الكاميرا مرة واحدة؛ فقد أغنتنى ديانا عن ذلك عندما قدمت لى كل ما أريد من صور ووثائق.

وجـــه الجــــدى

لقد فتنت ديانا برواية وجيه غالى كما ذكرت وقررت نشرها وتبادلا الرسائل فازدادت به إعجابا وانعقدت بينهما علاقة من الصداقة حتى قبل أن يلتقيا. وعندما زارها لأول مرة فى لندن فى صيف سنة ١٩٦٣ كانت متلهفة على لقائه. فلما التقت به لم تصمد طويلا أمام جاذبيته.

وينبغى أن نتوقف قليلا عند الصورة التى بدا بها لأول مرة عندما ظهر فى حياتها. كانت قد علمت على نحو غير مباشر أنه «كائن متواضع رقيق يشبه الغزال». فلما التقت به وجدته يشبه الجدى بالأحرى؛ فقد رأت أمامها رجلا صغير القامة مقوس الحاجبين طويل الأنف طويل الشفة العليا له لحية صغيرة مشذبة بلا شارب. غير أن هذا الرجل الصغير الذى يشبه وجهه وجه الجدى كان حريصا على مظهره شديد الأناقة. ولما عرفته قليلا وجدت لديه كما تقول شعورا قويا بالأرستقراطية، أى بكل الأمور اللازمة لحسن التربية سواء أكانت مكتسبة أم طبيعية. وهى تذكر فى هذا الصدد أنه لم يكن لديه من الملابس سوى بدلتين (إحداهما زرقاء غامقة والأخرى رمادية مقلمة بخطوط دقيقة) وبنطلون واحد فضفاض؛ ولكنه كان باستطاعته دائما أن يبدو أنيقا. كان قد جعل من الأناقة فنا كما تقول. والفن فى هذه الحالة يعنى إخفاء الفقر وسوء الحال؛ كما يعنى إخفاء الجهد المبذول فى التأنق.

ولقد كان وجيه فى المقام الأول صاحب أسلوب سواء فى حياته أو فى كتابته. فهو يتمتع فى هذا المجال - كما لاحظت ديانا - بحس فكاهى يظهر فى حديثه كما يظهر فى كتابته؛ وكان دافعه إلى الفكاهة راجعا إلى استمتاعه الحقيقى بها. فقد كان يصف الأشياء لأنها تثير فى نفسه الرغبة فى الضحك أو الشعور بالسخط، ولم يكن لمستمعيه إلا أهمية ثانوية. حدثها وجيه فقال: «لا أطيق أن يكون المرء كاتبا، أن يأخذ فنه مأخذ الجد». فلما ردت عليه بقولها: «ولكنك كاتب وكاتب ممتاز»، كان جوابه: «لو أننى شعرت أننى أحاول أن ‹أصنع أدبا›، أو أن ‹أكتب على نحو جميل› لما كتبت كلمة أخرى».

وكان وجيه صاحب جاذبية شديدة على المستوى الاجتماعى. إذا جلس فى مجموعة من الناس، اتخذ مكانه على الحافة مكتفيا بالمراقبة والإصغاء إلى أن تسنح الفرصة المناسبة لكى يتخذ موقع الصدارة فيبهر الناس بخفة ظله ودقة ملاحظته ولغته الجميلة بطبيعة الحال.

وإذا كنت أفصل القول فى تأنق وجيه وحرصه على الأسلوب، فما ذلك إلا لأننى أريد أن أربط بين هذا الجانب وغيره من جوانب شخصيته. فقد مر بنا كيف كان يرى أنه متكلف فى كل ما يأتى من أفعال، أو أنه كان يرى نفسه ممثلا فى مسرح من صنعه ولجمهور ليس سواه. كان متأنقا وكان يعلم هذا عن نفسه وكان يضاعف الجهد فى إخفاء الصنعة، وكان ناجحا فى كل ذلك بحيث أصبح الأسلوب بمثابة الطبيعة الثانية. ولكن هذا «التمثيل» إن انطلى على الناس لم يكن ينطلى عليه هو نفسه.

يضاف إلى ذلك أن الأسلوب المتقن فى حياة وجيه كان يعنى أنه كان لديه ما يخفيه. وقد كان يخفى أشياء كثيرة يمكن إجمالها فى شىء واحد، هو أنه كان صاحب نفس هشة. ولم تظهر هذه النفس الهشة فى صيف سنة ١٩٦٣ عندما زار ديانا أتهيل لأول مرة وقضى فترة قصيرة فى لندن عاد بعدها إلى ألمانيا. فقد كانا أثناء تلك الإقامة القصيرة مثل «السمن على العسل» حتى لقد حاولت ليلة رحيله أن تغويه دون أن تنجح فى ذلك. كما سافرت للقائه فى مدينة بروج البلجيكية. ولم تظهر نفسه الهشة إلا عندما جاء من ألمانيا مرة أخرى فى يونيو سنة ١٩٦٦ لينزل عليها ضيفا دائما. ورغم أن نزوله ضيفا دائما على ديانا قد أمنه شر الفقر والبرد والجوع والتشرد، فقد كان فى الواقع تمهيدا للفصول الأخيرة من حياته. وذلك أن العلاقة التى نشأت بين وجيه وديانا - كما وصفتها ديانا فى كتابها عن وجيه («بعد الجنازة») - هى التى كشفت النقاب عن النفس الهشة، ومهدت الطريق للفصل الأخير من حياته.

كانت العلاقة بين وجيه وديانا ملتبسة أشد الالتباس. كانت هى تشتهيه شهوة ممتزجة بعاطفة من الأمومة. وهى تعلل ذلك بأنها كانت بلغت أواسط العمر دون أن تنجب فضلا عن أنها كانت تكبر وجيه بعشرة أعوام. وهى تعترف صراحة بأنها ما كانت لتؤوى فتاة فى مثل حالته، بل وما كانت لتؤوى رجلا لم يرق لها؛ وهى تشبه نفسها بجوكاستا أم أوديب. وكان لها صديق دائم يقيم معها أحيانا وتسميه لوقا (وهو اسم مستعار)، ولكن هذه العلاقة المستقرة لم تكن تحول بينها وبين إقامة علاقات أخرى جانبية أو عابرة. أما وجيه فكان يحبها على طريقته (لم يكن يخاطبها إلا بقوله «يا حبيبتى») ويشعر نحوها بدين ثقيل لأن اعتماده عليها كان كاملا. غير أنه كان ينفر منها جسديا. ونشأ من ثم اشتباك أو صراع لم تدخر ديانا أتهيل جهدا فى وصفه بكل ما فيه من تفاصيل مؤلمة؛ وجاءت القصة مظلمة مشحونة بالتوتر مثيرة للجزع.

ويبدو من القصة كما روتها ديانا أنها أقلعت عن محاولة إغوائه وقنعت بصداقته بعد أن فهمت منه أن من غير الممكن أن تقوم بينهما علاقة تتجاوز هذه الحدود. إلا أن وجيه ظل يشعر أنها تطارده وتنصب شباكها حوله. وكان نفوره منها يشتد مع طول إقامته معها وزيادة اقترابها منه، وخاصة فى غياب لوقا. وكان يعرب عن نفوره صراحة وعلى نحو جارح. كان ينزعج إذا ما أبدت نحوه أى بادرة من بوادر المودة، ويرى فى كل ما تأتيه محاولة لفرض نفسها عليه وإظهاره أمام الناس وكأنه عشيقها. وكان ذلك فى نظره أمرا لا يطاق؛ لا تكاد تلمس ذراعه حتى «ينكمش كيانه» نفورا - على حد تعبيره فى يومياته. وكان نفوره يتخذ أشكالا مختلفة من الإهانة والتحقير لها. ومن ثم نشأ بينهما ما تسميه ديانا «لعبة ديانا»، وهى تلك الحرب الممتدة التى يحاول فيها وجيه أن يهينها ويحقرها بينما تحاول هى أن تصد الهجوم دون أن تلجأ إلى الضربة القاضية؛ فقد كانت كل أوراق اللعب فى يديها.

ولكن لماذا كان ينفر منها؟ لأنها كانت فيما تقول أبعد ما تكون عن المثل الأعلى للأنوثة كما يتصوره وجيه. فالمرأة التى يهيم بها حبا لا بد أن تكون سمراء أنيقة ترتدى السواد وتبدو بعيدة المنال. وهى صفات لا تتوافر فى ديانا؛ فقد كانت بيضاء البشرة تميل إلى البدانة ولا تتمتع بالحسن وتبدو متاحة. غير أن نفور وجيه من ديانا لم يكن إلا عرضا لمشكلة أعم وأعمق. وذلك أن وجيه كما اعترف فى إحدى رسائله لم يكن يطيق العيش فى قرب مع امرأة. ما إن يتصل بها حتى يكتشف أو يتوهم ما فيها من عيوب جسدية خطيرة فيبدى نحوها النفور ويسىء معاملتها حتى تبتعد عنه أو تهدد بذلك فيتعذب ويتوله فيها حبا. وكان ذلك النمط يتكرر مع كل من عرف من النساء. لم يكن يستطيع مواجهة المرأة كما هى فى الواقع؛ ولم يكن يستطيع أن يأتى امرأة إلا وهو سكران.

وإذا كانت العلاقة الملتبسة بديانا قد أدت إلى الكشف عن أزمة وجيه مع المرأة بصفة عامة، فقد كشفت أيضا عن جانب آخر من قصوره، وأعنى عجزه عن أداء أى عمل ثابت يكفل له الاستقلال. كان وهو فى ألمانيا يمارس بين الحين والآخر بعض الأعمال الصغيرة التى لا تكفل له الشروط الأساسية للأمن وتقيه من التشرد، وتغنيه عن عطف الغير. وهكذا كانت حياته فى لندن: يكتب أحيانا أو يترجم أو يؤدى بعض الأعمال التافهة. وقد حدث ذات مرة أن كلفته ديانا هى وبنت خالتها (التى كانت تسكن الطابق الأرضى من البيت) بطلاء جدار السلم لقاء أجر، فتحمس لذلك فى بادئ الأمر ثم سرعان ما أصابه الفتور والملل، وتخلى عن المهمة قبل أن تكتمل. واستطاعت ديانا ذات يوم أن تجد له عملا ثابتا فى مكتبة لقاء مرتب متواضع لكنه منتظم، فرفض العرض على الفور. وكان إذا حصل على مال لا يستطيع أن يقاوم فى إنفاقه شياطين الخمر والقمار. وكان يضطر إلى الاستدانة من أصدقائه والتحايل فى تحرير الشيكات والسرقات الصغيرة فى بعض الأحيان.

تــفــجــر الأزمــة

بلغ تأزم العلاقة بين وجيه وديانا أوجه عندما أتيح لها أن تقرأ بعض يومياته أثناء غيابه عن غرفته. هنالك وجدته يكتب قائلا على سبيل المثال: «لا جدوى من الكذب أو النفاق. لقد بدأت أمقتها (يعنى ديانا). أجدها لا تحتمل. صحيح أننى مريض. وجزء من هذا المرض، أو واحد من أمراضى... أن ردود أفعالى العقلية تتوقف على استجاباتى الجسمية للأشياء. ومثال ذلك أننى أتحدث عن الحب، ولكن الحب بالنسبة لى هو الرغبة الجسمية لا أكثر ولا أقل. وهو ما يفضى بى إلى أن تكون ردود أفعالى ناجمة عن نفورى الجسمى من ديانا. أنا أجد من المستحيل أن أكون فى نفس الشقة مع شخص يجعل جسمى ينكمش. وقد أدى ذلك بى إلى مقتى لكل ما تفعله أو تقوله أو تكتبه. وأنا أفعل كل ما فى وسعى لأتفهم بشاعة موقفى ولا أستطيع تفسير ذلك إلا بأننى مريض...»

فتنت ديانا برواية وجيه غالى وقررت نشرها.. ثم تطور الأمر إلى إعجاب فصداقة.. فعلاقة ملتبسة



وقد أدى الشجار الذى نشب بين ديانا ووجيه بسبب ما قرأته فى يومياته إلى وضع ينذر بالقطيعة. فقد طلبت إليه - لأول مرة - أن يغادر مسكنها، فانهار بين ذراعيها. وكان هذا الصلح يعنى أن وجيه هزم هزيمة ساحقة. كان يعيش فى بيت ديانا بفضل رعايتها الكاملة وتحت رحمتها، ولكن هذا الوضع المزرى من الناحية الموضوعية ظل محتملا بالنسبة لوجيه طالما بقى محجوبا بغلاف من الصداقة والحب. أما الآن وقد اتضح للسيدة أنه ينكمش نفورا منها ويزدرى كل ما يتصل بها، فقد هتك ذلك الحجاب وانكشفت موازين القوى بجلاء، وأصبح وضع وجيه لا يطاق بالفعل، وإن استمر فى تحمله: فلم يكن أمامه خيار آخر. ولم يكن انهياره بين ذراعى ديانا إلا اعترافا بالعجز الكامل ونكوصا إلى حالة الطفل الذى لم يعد له ملاذ من العقاب سوى حنان الأم.

كان منذ البداية يبوح لديانا ببعض أسراره الدقيقة ويخفى عنها البعض الآخر. ولكنه أصبح الآن بعد اكتشافها لما يقيده فى يومياته مضطرا لأن يبوح لها بكل شىء: فلم يعد بينهما حواجز. كانت ديانا تدرك منذ بداية إقامته معها أنه عرضة لنوبات من الاكتئاب الحاد، وأنه مصاب باضطراب عقلى. بل انه يكتب فى إحدى رسائله من ألمانيا عن طبيعة المرض ويشخصه تشخيصا دقيقا بوصفه انقساما نفسيا حاسما. فهو يصف نفسه بأنه «مجنون»، ولكن جنونه ليس عقليا، بل عاطفى. إنه من الصحة العقلية بحيث يعى حالاته العاطفية المجنونة، ولكنه لا يستطيع حيالها شيئا. وهو فى إحدى يومياته يعترف بأنه لا يختلف من الناحية العاطفية عن تلميذة من تلاميذ المدارس. ولقد نضج جسميا وعقليا، ولكن عواطفه لا تختلف عن عواطف طفلة فى السابعة أو الثامنة. وهو كثيرا ما يجد نفسه تحت رحمة هذه القوى الفتية الناضرة القاهرة. ومن ثم كان يشعر باليأس والاشمئزاز من نفسه، ولا يجد ما يرحب به أكثر مما يرحب بالموت. ولقد كان يدرك إذن أن وضعه فى الحياة وضع مزر، ويعلم أن العمل والاستقلال والاعتماد على النفس يمكن أن ينقذه من ذلك الوضع، ولكن هذا الخيار كان فى حالته أمرا نظريا فقط، لأن الطفل - أو الطفلة - فى داخله يغلبه (أو تغلبه) عمليا وتشل إرادته. ويترتب على ذلك أن الوضع المذكور لم يكن عنه بديل سوى الموت.

الأزمة بين الواقع والخيال

يفرض علينا تكشف الأزمة على هذا النحو أن نعيد النظر فى سيرة وجيه الذاتية كما عرضها فى روايته من حيث علاقتها بواقع حياته كما عرفناه على نحو مستقل. ما هى العلاقة بين خيال المؤلف وشقائه كإنسان، بين كوميديا الرواية ومأساة الانقسام والنكوص كما عاشها بالفعل. من الواضح أن مؤلف الرواية قد تصرف فى المأساة. وعلينا الآن أن نحدد كيف تم هذا التصرف.

لننظر مثلا فى نفور وجيه من جسد المرأة عند اتصاله بها. إننا لا نجد فى الرواية ما يصوره أو يعبر عنه. بل إننا نجد بالأحرى صورة مثالية للمرأة تنفى عنها كل نقص وتصورها بوصفها موضوعا للحب ومصدرا للطمأنينة. فمشاهد الحب والجنس فى الرواية تخلو بصفة عامة من التوتر ناهيك عن الشهوة العارمة، ويشيع فيها بالأحرى جو من الصفاء والمودة. لقد رأينا كيف كانت إدنا - حبه الحقيقى الوحيد - تجسيما أو تكاد للمثل الأعلى. كانت أنيقة ترتدى السواد وتتمتع بجمال نقى لا تشوبه شائبة. وكانت إذا استيقظت فجرا نعم خليلها بطيب رائحتها. وكانت تبدو بعيدة المنال؛ فلا تتيح له نفسها حتى يمرا بمجموعة من الطقوس تدنى حبيبها منها، كأن ترخى له شعرها كى يصففه. أما ديدى نخلة التى كانت تحتل مرتبة أدنى فى تصور وجيه للأنوثة، فكانت توفر لعشيقها سبل الراحة الكاملة: فهى متيمة به سهلة المنال ولا تبدى أى مقاومة، وهى تستقبله فى جناحها من البيت فيجد لديها كل ما يبتغى. ومن اللافت للنظر أنه كان يجد لديها ما يسميه «السكينة» (serenity) (أو لنقل: الصفاء والهدوء والطمأنينة). وللسكينة فى معجم وجيه غالى أهمية بالغة كما سنرى فيما بعد. ولكنها عندما تستخدم فى سياق الحب والجنس ذات دلالة خاصة لأنها تعنى السكون إلى المرأة والاستمتاع بحنانها وبرعايتها الكاملة.

وواضح إذن أن المؤلف قدم صورة منقحة للمرأة بحيث استبعد منها كل أسباب النفور والقلق، وأدرج فيها كل ما يرضى احتياجاته العميقة.

وقد رأيناه يتساءل فى مواضع متفرقة من الرواية عما إذا كان إنسانا حقيقيا، ويكتب عن انقسامه إلى شخصين: طرف متفرج على ما يجرى على المسرح من أحداث، وطرف آخر ممثل منخرط فيها. فأين هذه الصياغة المسرحية من أزمة الانقسام النفسى بين عقل ناضج واع ولكنه عاجز مشلول الإرادة فى مقابل طفل العواطف الطاغية الجبار؟ واضح أن الانقسام فى الرواية مختلف عن الانقسام فى الواقع. صحيح أن ثمة شبها بين المتفرج فى الحالة الأولى والعقل الواعى فى الحالة الثانية، من حيث إن كليهما سلبى: ولكنه شبه بعيد باهت ولا يمكن على أى حال أن يخطر على الذهن بمعزل عن معرفة الواقع. ونستخلص من ذلك أن وجيه غالى المؤلف عندما عبر عن المشكلة بوصفها قضية وجودية مجردة (عن الوجود الصادق والوجود الكاذب)، وصاغها بلغة المسرح قد محا معالم الانقسام كما يعانيه وجيه غالى الإنسان كأزمة نفسية حادة ومأساة يعانيها وتدفعه إلى الجنون والانتحار.

وشبيه بذلك ما يبديه بطل الرواية من تأفف بشأن طفيليته. وذلك أن هذا التأفف لا يعرب إلا من بعيد وعلى نحو قاصر عن حالة الاعتماد على الغير كما كان وجيه يعيشها فى الواقع وما تنطوى عليه من نكوص وطغيان للطفل القابع فى أعماق نفسه وما يترتب عليها من شعور بالمهانة وثقل الدين. ولكن الإعراب عن الأزمة على هذا النحو القاصر هو ما أراده المؤلف. وذلك أنه قرر عند تأليف الرواية أن يشير إلى مأساته من بعيد بحيث تكون الإشارة على هذا النحو طريقة لإخفاء المأساة وطمس معالمها. فالنفور من المرأة من يتحول على مستوى الخيال إلى هيام بجمالها الذى لا تشوبه شائبة وحنانها المطلق: والانقسام النفسى بين العقل والعاطفة يصبح انقساما بين متفرج وممثل: ومعاناة شر الاعتماد على الغير يتحول إلى شعور بالتأفف وتشكك المتأفف فى حقيقة وجوده. وأيا ما كان رأينا فى المنتج (بفتح التاء) النهائى من الناحية الفنية - وهو رأى قد أبديناه فيما تقدم - فإننا لا بد أن نعترف ببراعة المؤلف فى الإشارة إلى مشكلاته الحياتية من أجل إخفائها. فكأنه حاو يتناول أفعى بخفة يد لكى يقتلع أنيابها السامة فى لمح البصر.



كان وجيه صاحب جاذبية شديدة.. يبهر الناس بخفة ظله ودقة ملاحظته ولغته الجميلة



فن التوازن الدقيق

لقد عاد الهدوء إلى البيت بعد تفجر الصراع والبكاء بين ذراعى ديانا. لم يكن وجيه يستطيع الرحيل؛ ولم تكن هى تقوى فى حقيقة الأمر على طرده. واقترحت عليه أن يجد لنفسه سكنا تدفع عنه إيجاره. ولكنه لم يرحل وظل يتسلل إلى غرفته أثناء نومها أو غيابها عن البيت. وقد وطنت نفسها فى نهاية الأمر على وجوده بصفة دائمة. فهى تشبه حالتهما بحالة الزوجين اللذين لا يكفان عن الشجار، ولكنهما فى حاجة كل إلى الآخر.

ولكن الهدوء كان يخفى أمرا لم تذكره ديانا ولعلها لم تقدره حق قدره، وهو أن اطلاعها على ما كان مخفيا فى يوميات وجيه أحدث مزيدا من التصدع فى شخصيته الهشة. وقد أشار وجيه إلى ذلك عندما قال لها معنفا إنها باطلاعها على محتويات يومياته تدفع به إلى الجنون الذى كان قريبا منه على أى حال. وشرح لها كتابة أن يومياته شىء وأن قراءة شخص آخر لها شىء آخر مختلف تماما، وأنه وجد فى كتابة اليوميات علاجا لحالته: فهو يستطيع أن ينفس فيها عن مشاعره بدلا من أن يعبر عنها فى الواقع فيؤذى الغير. وقد أصاب عندما قال: «فهذه اليوميات هى إذن دوائى، هى ذلك الرحم المظلم السرى الكامن فى أعمق أعماقى، هى شىء أنشأته لإنقاذ نفسى. وقد أنقذنى بالفعل. أما أن يكشفه أحد فجأة على هذا النحو، فهو كاف لأن يصيبنى بالجنون».

ومن هذا يتضح أن وجيه لم يكن يعترض على اطلاع ديانا على بعض أسراره الدقيقة، بقدر ما كان يعترض على انكشاف أغوار النفسية المظلمة. يستطيع هو أن يبوح للغير - وأن يبوح لديانا بصفة خاصة - بما شاء من معلومات، وأن يعترف لها - كما اعترف لها بالفعل - بأنه «مجنون». ولكنه كان فى حاجة إلى الاحتفاظ بركن مظلم فى نفسه يقيد بعض أسراره فى يومياته، ولا يسمح لأحد باقتحامه؛ وكان فى حاجة إلى بقاء هذا الركن مظلما حتى يستطيع على



نحو أو آخر أن يحور فى أسراره وينقحها ويعرضها على نحو ما يريد أمام الناس؛ فتلك كانت طريقته فى الحياة الاجتماعية وفى الكتابة.

وأنا أصدق وجيه تماما عندما يرى أن الاحتفاظ بذلك الركن مطويا عن الغير كان ضروريا ضرورة الدواء لكى يحتفظ بتوازنه. يشهد على ذلك سلوكه بما فى ذلك من إدمان للكذب حتى فيما يتعلق بحقائق بسيطة لا ضرر منها مثل سنه. وتشهد على ذلك روايته. فهى نموذج ممتاز لفن الاعتراف الرامى إلى إخفاء الحقائق، مثلها مثل أناقته التى كانت ترمى إلى إخفاء فقره ورقة حاله. وهى - أى الرواية - محاولة شديدة البراعة سمح لنفسه فيها بترف التلميح إلى ما يؤلمه مع الحرص على طمس معالم المشكلة عن طريق التجريد والفكاهة والنزق. أو يمكن أن نقول بعبارة أخرى إن هذه الرواية التى هى سيرة ذاتية تعد عملا من أعمال التوازن بين الرغبة فى البوح والحرص على الإخفاء، أو بين وجيه الطفل المعربد ووجيه صاحب العقل الذكى الواعى. فقد استطاع أن يسخر هذا الطفل فنيا بأن سمح له بالعبث فى حدود محسوبة، وضمن بذلك متعة القارئ بل وتواطؤه.

ولقد وصفت رواية وجيه من قبل بأنها بمثابة العمل الخارق أو المعجزة فى حياته. وباستطاعتنا الآن وقد عرفنا الجوانب المأساوية فى حياته والظروف التى ألف الرواية فى ظلها أن نقدر بأى معنى كانت كذلك. فلقد حقق فيها رغم كل ذلك توازنا رائعا على صعيد الخيال، وبدا فيها مسيطرا على قواه المتصارعة متحكما فيها متحايلا عليها ضاحكا منها، بصرف النظر عن العيوب الفنية التى أشرنا إليها. وقد نجح فى ذلك مرة واحدة لأن روايته كانت الأولى والأخيرة. فلما فتحت يومياته أمام أعين الغير وانكشفت كل الحقائق المؤلمة على نحو صارخ فاضح، سقط القناع عن وجه الممثل الحاوى، واختل التوازن الدقيق واقتربت لحظة التصدع الكامل والانهيار. ولكننى أود قبل بلوغ هذه النقطة الأخيرة أن أتوقف عند زيارة وجيه لإسرائيل.

فكرة الزيارة

ما هى الأسباب التى دفعت وجيه غالى إلى زيارة إسرائيل بعد حرب الأيام الستة؟ لا بد أنه كان يعلم أن زيارة إسرائيل فى تلك الفترة تعد عملا من أعمال الخيانة فى نظر القانون المصرى، وأنها تعنى قطع علاقته بمصر على نحو نهائى. طرحت السؤال علىَّ ديانا آتهيل، وقلت: هل يمكن أن يكون ذلك امتدادا لتأثير حبيبته اليهودية إدنا؟ وردت ديانا بالقول: كان الأمر كذلك، ولكن الزيارة كانت مفيدة له على أى حال. ولم تكن تلك بالإجابة الشافية.

وما زالت أسباب الزيارة أمرا يكتنفه الغموض. ولم تستطع ديانا آتهيل أن تلقى الضوء على هذا الموضوع فى كتابها. ويخيل إلى أن فكرة الزيارة خطرت لوجيه أو أوحى له بها فجأة، فبوغت لبرهة قبل أن يدرك أن القيام بتلك الزيارة أمر طبيعى فى حالته وفرصة لا تعوض وحيلة بارعة لتحقيق فائدة أو فوائد عظمى.

وقد نتذكر أن وجيه عندما كتب روايته كان يناصر السلام مع إسرائيل - على طريقته. ولكننى لا أعتقد أن موقفه ذلك كان له دور حاسم أو رئيسى فيما نحن فيه. فقد كانت لديه أسباب ودوافع أقوى وأشد إلحاحا، وهى التغلب على حالته اليائسة. كانت تلك الزيارة فرصة سانحة للكتابة فى صحيفة أو أخرى من الصحف اللندنية، فبذلك تفتح له - كما تخيل - أبواب الكتابة والنشر فى بريطانيا. وقد تعاقدت معه التايمز بالفعل على أن يكتب لها عن الزيارة، وأرسل لها من القدس مقالتين. ولعله أراد إذن أن يتحايل على الظروف السيئة والأبواب الموصدة، ولعله أراد أن يخدع كل الأطراف المعنية: الصحافة البريطانية (التى ما كان لها أن تسد باب الكتابة فى وجه مصرى يريد أن يكتب من إسرائيل)، والإسرائيليين والمصريين على حد سواء. فالمهم هو أن ينجح فى «اللعبة» وأن يخرج من مأزقه التاريخى ويخرج لسانه للجميع. ولعله تخيل أن كل هذه الأطراف ستراه بين يوم وليلة وقد قفز إلى صفحات التايمز ومنها إلى دور النشر على أوسع نطاق. ويخيل إلى أن وجيه لم يكن معنيا فى ذلك الوقت بأى أحد أو بأى قضية بقدر ما كان معنيا بالنجاة من الجنون أو الموت أو كليهما معا؛ فقد كان خطرهما ماثلا أمام عينيه بوضوح بالغ. وكانت تلك ورقته الأخيرة، وكان عليه أن يلعبها.

غير أن هناك أمرا آخر ينبغى الالتفات إليه فى هذا الصدد. وهو أن وجيه تعرف فى تلك الفترة على سيدة متزوجة تصفها ديانا بأنها كانت «حبه الطاهر». وتفسير ذلك أنه لم يرد من تلك السيدة التى فتن بها إلا أن تسمح له بأن يراها دون أى غرض آخر، فسمحت له، وانعقدت بينهما علاقة يمكن أن توصف بالصداقة، ولكنها تنم عن حاجة وجيه اليائسة إلى الرعاية الأنثوية. وتذكر ديانا آتهيل أن تلك السيدة «ساعدت وجيه وقدمت له المشورة وعرفته بمن يساعده عندما قرر زيارة إسرائيل». فهل كان لتلك السيدة تأثير على وجيه عندما اتخذ قراره، أم أنها ساعدته فقط على تنفيذه؟ لا سبيل إلى معرفة ذلك. ولكن من المؤكد أن تلك السيدة كانت على علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالمسؤولين الإسرائيليين فى لندن الذين منحوا وجيه التأشيرة اللازمة لزيارة إسرائيل، ولعلها كانت أيضا على علاقة مباشرة أو غير مباشرة بصحيفة التايمز التى كلفته بأداء المهمة الصحفية ودفعت له مبلغا من المال.

مواجهة اليأس

من المؤسف أن وجيه ارتكب حماقة فادحة بزيارته لإسرائيل. ولكنه لم يجن شيئا يذكر من المقالتين اللتين كتبهما من الأراض المحتلة. ولم تفتح له كتابته فى التايمز أبواب النشر فى لندن. ولم يفض مشروع زيارة إسرائيل إلى ما كان يحلم به من نجاح. ووجد نفسه بعد الزيارة فى نفس الوضع الذى كان فيه من قبل، إن لم يكن أسوأ. فقد عاد إلى السكنى فى شقة ديانا آتهيل والاعتماد عليها بعد أن حصل منها قبل سفره على وعد بأن تسمح له بالعودة؛ واستمر محافظا على عاداته المعهودة من «استدانة»، وسكر وقمار طيلة سنة وبضعة شهور بعد الزيارة.

فكم بقى له من معتقداته السلامية القديمة الفجة بعد أن عاد من رحلته إلى إسرائيل وكتب عنها ما كتب؟ سؤال تصعب الإجابة عنه، ولكن ديانا آتهيل تروى أنه واصل الالتقاء بأصدقائه من الإسرائيليين؛ ومن المرجح أنهم كانوا من اليساريين وأنصار السلام (على الطريقة الإسرائيلية). ولعله كان ما يزال يعتقد أن السلام ممكن وواجب مع الإسرائيليين. لأنه رغم ما قاله فيما يتعلق بسياسة الاحتلال وضم الأراضى وتوطينها، كان يؤمن كغيره من المطبعين والمهرولين والبراجماتيين فى زمن لاحق أن الواقعية تقتضى التكيف مع الأوضاع المفروضة مهما كانت كريهة. وهو يبدو فى مقالتيه اللتين نشرهما فى التايمز كما لو كان يفترض - كما يفترضون - أن ثمة تفرقة ينبغى أن تقام بين شعب إسرائيلى متعطش للسلام، وقادة إسرائيليين تحركهم الأطماع التوسعية والدعاية الصهيونية. ولم يكن يعلم - كما أثبتت الأيام فيما بعد - أن هذه التفرقة الجذابة من الناحية النظرية لا قيمة لها من الناحية العملية. وذلك لأن المستوطن الإسرائيلى لن يتنازل عن السكن الذى يقيم فيه حتى لو سلم بأن صاحب البيت فلسطينى، وسيحمل السلاح ضد هذا الأخير المشرد وينكل به إذا ألح فى المطالبة بحقه أو طالب بأن يعيش مع المغتصب فى إطار دولة ديمقراطية واحدة.

فى تلك الفترة التى تلت عودته من القدس المحتلة كانت ديانا آتهيل قد أصبحت تتقبل فكرة وجوده فى شقتها واعتماده عليها بصفة دائمة. وهى تذكر فى هذا الصدد قصة للكاتب الروسى تورجينييف عن أهل بيت يسكن لديهم رجل عجوز لا يبدو أن له صلة بهم أو أن له دورا ذا شأن فى حياتهم سوى أنه يعيش معهم إلى الأبد ويسلمون بحضوره الدائم فى خفيه المصنوعين من اللباد. وتقول ديانا إنها أصبحت تفكر بمزيج من الشعور باليأس والرغبة فى الضحك أن وجيه سيكون هو رجلها العجوز فى خفى اللباد، وسيبقى إذن فى ركنه من البيت ويمارس حياته المألوفة، وستتحمل عبئه دون أن تقلق عليه أو تشغل نفسها به؛ فقد تخلت بنفسها عنه ولم يعد يعنيها أمره. وقد حدث بينهما إذن ما يمكن وصفه بفك الارتباط أو التعايش السلمى. ومع ذلك فقد كان توافر الهدوء والأمن والاستقرار على ذلك النحو هو المسرح المعد للفصل الأخير من مأساته.

وكان فى تلك الفترة عاجزا بالفعل عن الكتابة، وعن الاستقلال بأى معنى من المعانى. كان قد بلغ الأربعين من عمره؛ وكان يدرك بوضوح أنه لا يستطيع عمل شىء وأن ديونه لا يمكن أن تسدد؛ وكان يأسى لحال ديانا لأنها لا بد أن تستمر فى إعالته رغم قلة مواردها؛ ولم يكن يرضى بدور العجوز المنسى فى خفى اللباد. وهكذا تبلورت مأساته فى ظل الأمن والاستقرار.

الفصل الأخير

فى اليوم السادس والعشرين من ديسمبر - أى غداة يوم الكريسماس - كانت ديانا غائبة عن البيت فى زيارة إلى أسرتها فى الريف. وفى تلك الليلة بدا أن الأمور تسير فى مجراها الطبيعى. فقد خرج وجيه ليشرب حتى الثمالة وليقامر حتى آخر فلس من نقوده «المقترضة». ثم عاد إلى البيت مع صديق له ومعهما زجاجة

كانت العلاقة بين وجيه وديانا ملتبسة.. كانت هى تشتهيه شهوة ممزوجة بعاطفة من الأمومة.. وكانت تشبه نفسها بجوكاستا أم أوديب



ويسكى. وكان باستطاعة الجيران فى الطابق الأرضى من البيت - وهم بنت خالة ديانا وأسرتها - سماع قهقهات الصديقين. ولكن وجيه تسلل بعد انصراف صديقه إلى مطبخ بنت الخالة وسرق عددا كبيرا من الأقراص المنومة. وهكذا كانت بداية الفقرة الأخيرة فى يومياته: «سأقتل نفسى هذه الليلة. آن الأوان. أنا بطبيعة الحال سكران. ولكن لو أننى كنت مفيقا لكان ذلك أمرا صعبا جدا جدا جدا... ولكن ماذا عساى أفعل غير ذلك يا حبيبتى... لا شىء، لا شىء فى الحقيقة... كان لا بد أن يحدث ذلك يا حبيتى.»

والحبيبتان المعنيتان هما ديانا وفتاة تدعى ديبدرى كانت هى آخر صديقاته وأشدهن تعلقا به وصبرا عليه، كما كانت - وهو التطور المستغرب فى حياته - تحظى بحسن معاملته؛ فقد كان يستلطفها ولا يحبها بطريقته الجنونية. ولم يفت وجيه أن يعتذر لديانا فى رسالته الأخيرة: «ديانا يا حبيبتى لا أستطيع أن أعتذر؛ فلو أننى اعتذرت لكان ذلك من قبيل النفاق الشديد. واضح أننى ما كان ينبغى أن أخلف هذا المشهد ورائى. ولكننى كسول مدلل. وأنا أترك لك يومياتى يا حبى. قد تكون إذا أحسن تحريرها عملا أدبيا جيدا. فإذا كانت كذلك، إليك ديونى كما يلى». وقد حرص عندئذ على أن يورد قائمة مفصلة مرقمة بديونه الكبرى فى السنوات الخمس الماضية.

وهو يكتب لديبدرى فيقول: «حبيبتى ديبدرى. هناك مأس حقيقية فعلية فى الحياة، والمأساة الواضحة هى مأساة اليأس... إن أشد اللحظات دارمية فى حياتى - اللحظة الحقيقية الوحيدة - أمر مخيب للآمال حقا. لقد ابتلعت موتى. باستطاعتى أن أتقيأه إذا أردت. ولكنى بصدق وبإخلاص لا أريد ذلك. إنه لمتعة. إننى أقدم على هذا لا على نحو حزين تعيس. بل العكس، بسعادة بل وفى حالة (حالة من الوجود أحببتها دائما) من السكينة... السكينة».

وهناك عدة أمور لافتة للنظر فى هذه الفقرة الأخيرة من يوميات وجيه غالى. من ذلك أنها تتضمن وصيته. وهى وصية قيد فيها ديونه بالتفصيل كما رأينا، وتنازل بمقتضاها لديانا عن كل ما يؤول له بعد وفاته من حقوق المؤلف على أن تسدد منها ديونه. أما ديبدرى فقد أوصى لها بعدة أشياء منها كتبه ومنها الطاولة -فهى «لحبيبتى ديبدرى» - دون أن ينسى أن ثمة قطعتين توجدان فى المقعد الخلفى من السيارة.

وها نحن نجد أمامنا من جديد فكرة الوجود الحقيقى (فى مقابل الوجود الزائف)، وهى الفكرة التى تتردد كما رأينا فى روايته. وغنى عن الذكر أن ظهور الفكرة فى هذا السياق يعنى أن وجيه كان يشعر بأن حياته كلها كانت زيفا فى زيف، وأن لحظة الوجود الحق الوحيدة مخيبة للآمال كما قال. فلماذا كانت لحظة الخلاص من اليأس المطبق - لحظة الشعور بالسكينة كما يقول - مخيبة للآمال؟ هل كان يؤمن فى أعماق نفسه ورغم كل شىء أن الحياة أفضل من الموت؟ يبدو أن الأمر كان كذلك. روت ديانا أنه عندما انهار بين ذراعيها بعد أضخم شجار لهما قال منهنها: «لا أريد أن أموت. لا أريد أن أموت. الحياة يمكن أن تكون جميلة...».

كما نجد فكرة أخرى كانت محببة إليه، هى فكرة «السكينة». وقد وردت الفكرة فى الرواية عندما زار البطل حبيبته ديدى نخلة فى جناحها من بيت أبيها. فقد وجد لديها السكينة. وكانت السكينة تعنى السكن إلى امرأة تشمله بالرعاية المطلقة حتى دون أن يحبها أو يتكفل باحتياجاتها. ولما كانت السكينة بهذا المعنى صعبة المنال أو محال أن تتحقق فى واقع الحياة، فهل يمكن أن يقال إن وجيه كان ينعم بالسكينة حقا عندما ابتلع موته؟

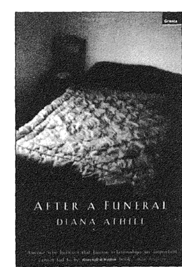
الكتابة كوسيلة للنجاة

لقد حيرنى التفكير فى ذلك السؤال. ولما طرحته على ديانا قائلا: كيف كان يشعر بالسكينة وهو الذى توقف عن كتابة وصيته الأخيرة ليستدعى أحد أصدقائه بالتليفون؟، ردت بقولها: «لعله كان يشعر بالوحدة». وهى إجابة لا أجدها مقنعة، وإن لم يكن لدى إجابة أخرى.

وكانت هناك مسألة أخرى حيرتنى، وهى الدافع أو المبرر الذى حدا بديانا إلى تأليف كتابها عن وجيه. وهو سؤال طرحته أهداف سويف فى سياق نقدها للكتاب وبيان عيوبه من الناحية الفنية؛ فقد عابت على المؤلفة عدة أشياء، من بينها سوء أسلوبها وانحصارها فى أفكار الطبقة المتوسطة التى جاءت منها. ومن الممكن أن تضاف إلى القائمة مآخذ أخرى. ومن ذلك أن المؤلفة أخذت فى كثير من الحالات الأخبار التى وردت فى رواية وجيه أو أحاديثه على علاتها، رغم علمها بأنه عرضة للكذب، وأنها وهى الكاتبة المحترفة تتصدى للكتابة عن كاتب مصرى مهتم بالسياسة دون أن تتقصى حقيقة الأوضاع فى مصر والشرق الأوسط. فلما سألتها أن تخبرنى بعد مرور كل تلك السنين على الأحداث التى تناولها الكتاب لماذا ألفته، قالت ما معناه إنها فعلت ذلك كمحاولة لإعادة ترتيب حياتها (أو إنقاذ نفسها). ومعنى ذلك فيما فهمت أنها حاولت أن تضع كل شىء على الورق كوسيلة للنجاة بنفسها من المأساة.

ولكن لا بد من الاعتراف بأنها بذلت جهدا بطوليا فى رعاية وجيه حيا ومصارعة شبحه ميتا. وما قولك فى ضيف ينتحر فى غرفة من شقتك وإن كان يفعل كل شىء بإتقان، ولا يترك شيئا للمصادفة؟ فهو لا يقدم على تنفيذ خطته إلا بعد أن يمارس شهواته (القمار والشرب حتى الثمالة والضحك)، ويجد من الوقت ما يكفى لكتابة وصيته بدقة لا تغفل عن شىء مهما كان صغره؛ وهو يعتذر بلباقة لا تخلو من التدلل عن اتخاذ البيت مسرحا للمشهد الأخير؛ وهو يتوقف عن الكتابة لينادى صديقا ثم يستأنفها رغم ارتجاف يده (الظاهر من الخط)؛ وهو يترك على باب غرفته ورقة مشبوكة بدبوس يقول فيها: «ديانا، لا تدخلى. اتصلى بالرقم تسعة تسعة تسعة» (وهو رقم بوليس النجدة). مثل هذا الإتقان فى إخراج المشهد الأخير وحسن الأسلوب والأناقة فى الأداء من علامات الكوابيس الرهيبة التى تصعب الإفاقة منها.

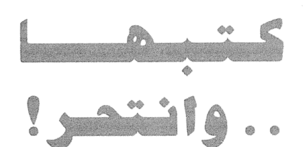
وأنا أستخدم هنا لغة المسرح متعمدا لأننى أتذكر قرب الختام قولة دوستويفسكى التى صدر بها وجيه روايته: «والأحرى أننا نرمى إلى أن نكون شخصيات من نمط خيالى... عام»، وإنى لأتساءل: ألم يحقق وجيه فى المشهد الأخير من حياته فكرة دوستويفسكى؟ لقد أتقن الصنعة بحيث يكاد يكون بطلا فى رواية بدلا من أن يكون شخصية حقيقية. كأنه كان شخصية تبحث عن مؤلف. إذا صح ذلك، فقد تحقق له ما أراد فى كتاب ديانا.



ما هى الأسباب التى دفعت وجيه غالى إلى زيارة إسرائيل بعد حرب الأيام الستة؟

ولكن ديانا تجاوزت كل ذلك ككاتبة وإنسانة. صحيح أنها ما زالت تراجع نفسها بشأن طريقتها فى التعامل مع وجيه. فقد قالت لى أثناء حديثى معها: «لعله كان ينبغى على أن أكون أشد حزما معه». ولكنها كانت تقول ذلك بلهجة الحنان. وأنت لا تجلس الآن إلى ديانا وتحادثها إلا ويشيع حولكما جو من الهدوء والسكينة.

وجاءت فى نهاية المقابلة بالقهوة والفطائر وهى تعتذر أشد الاعتذار لأنها لم تستطع أن تجد بنها المفضل؛ بينما كنت أؤكد لها أن قهوتها طيبة المذاق والنكهة. ولما هممت بالذهاب عرضت على أن تصحبنى فى سيارتها إلى محطة قطار الأنفاق، فرفضت وإن سرنى أن تلك الفتاة التى تناهز التسعين ما زالت تجد من النشاط والهمة ما يكفى لقيادة السيارة وتوصيل زائرها إلى المحطة. وكنا نهبط الدرج نحو الباب الخارجى عندما مست الجدار بكفها اليسرى وقالت: «هذا هو الجدار الذى طلاه وجيه». وأصابنى ما يشبه الرجفة. فلم أكن قبل تلك اللحظة أعلم أن وجيه كان يسكن فى نفس المكان. (كنت أعلم أنه سكن فى بيتها فى هامبستد، ولكنى لم أكن أعلم أنه كان يقيم فى ذلك المسكن على وجه التحديد). وتحسست الجدار بدورى، وكان سيئ الطلاء لأن وجيه - كما ذكرت فى كتابها - لم يكمل المهمة. قلت مندهشا: ألم تعيدوا طلاء الجدار منذ ذلك الحين (أى منذ حوالى سبع وأربعين سنة)؟ فأجابت بالنفى: «بل تركناه على حاله». والأدهى من ذلك أن ديانا أخذت تعتذر لأنها لا تستطيع أن ترينى غرفة وجيه، فصديقها فيما قالت يقيم فيها وهو معتل الصحة فى الوقت الحاضر. (وقد كنت عند جلوسى معها أسمع بالفعل سعاله فى غرفة مجاورة). وتأكد لدى عندئذ أن كل شىء ما زال على حاله منذ رحل وجيه: فها هو لوقا صديقها العريق ما زال حيا وما زال يعيش معها. وتأكد لدى أنه هو صاحب الصوت العجوز الذى رد على فى التليفون عندما اتصلت بديانا لأول مرة. إذن لم يتغير شىء سوى أن وجيه قد رحل. ماذا كان يحدث لو امتد به العمر حتى اليوم؟ هل كان سيبقى فى نفس البيت - عجوزا نحيلا ضئيلا مهملا ينتعل خفين من اللباد - تحت رعاية ديانا؟ ليس ذلك - فيما قلت لنفسى - بالمصير السيئ طالما استمر فى الكتابة. ■



ماهر شفيق فريد

■■ «ممتازة..»

«بيرة في نادي البلياردو» واحدة من أحسن الروايات المكتوبة عن مصر. وقد أبدع وجيه غالي في رسم رام، شخصيته الرئيسية، وطنياً ولكنه محب لإنجلترا رغم ذلك، بطلاً مأساوياً، فكهاً، وجذاباً. ومن خلاله يقدم لنا المؤلف وصفاً صادقاً دقيق الملاحظة للمجتمع المصري في فترة جيشان عظيم..

هذا الكتاب مدهش، هادئ، خفيض النبرة، يبدو في الظاهر دون أي ادعاءات فنية أو شكلية، ولكنه على ذلك، مدمر تماماً باستبصاراته الإنسانية والسياسية. وإذا ما أردت أن تنقل لأي امرئ ما كانت مصر عليه في أربعينيات وخمسينيات (القرن الماضي)، ولماذا كان محالاً على الأوروبيين أو الأمريكيين أن يفهموها، فأعطه هذا الكتاب. إنه يجعل رباعية الإسكندرية لـ (لورنس دريل) تلوح أشبه بكتيب سياحي، وهي كذلك في الحقيقة..

هذه نماذج مما قاله النقاد والأدباء عن رواية «بيرة في نادي البلياردو» للكاتب المصري الذي كان يكتب بالإنجليزية وجيه غالي. المقتطف الأول مأخوذ من «لندن ريفيو أوف بوكس»، والثاني من قلم الدكتورة أهداف سويف الأستاذة الجامعية والروائية المصرية التي تعيش في بريطانيا وتكتب - هي الأخرى - باللغة الإنجليزية. أما المقتطف الثالث فهو من مقالة للناقد جابريل جوسيبوفتشي.

ويمكن أن نضيف إلى هذه المقتطفات الثلاثة أقوالاً أخرى كقول أنتوني ساتين، محرر «رسائل فلورنس نايتنجيل من مصر» (١٩٨٧) في مقالته المسماة «بيرة بعد الجنازة»: «إنها في تصويرها نضال فرد من أجل التكيف مع أحداث عصره السياسية حادة ذات صلة اليوم كما كانت لدى نشرها لأول مرة» (مجلة «لترارى رفيو» أغسطس ١٩٨٧).

بيرة في نادي البلياردو
وجيه غالي
مراجعة وتقديم: د. ماهر شفيق فريد
ترجمة: هناء نصير
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٦،
٢٤٤ صفحة

«بيرة في نادي البلياردو» - الرواية الوحيدة لمؤلفها إذ لم يتم غيرها - من كلاسيكيات أدب الهجرة، تدور أحداثها في مصر عبدالناصر وتسجل أحداثاً من قبيل العدوان الثلاثي على مصر. نشرت في إنجلترا لأول مرة عام ١٩٦٤ عن دار أندرو دويتش للنشر، ثم صدرت منها طبعة ورقية الغلاف عن دار «ذيل الثعبان للنشر» في لندن في ١٩٨٧ .

وقد ولد المؤلف ونشأ في القاهرة ولكنه قضى قسماً كبيراً من حياته الراشدة في أوروبا. وانتحر في سن الأربعين في لندن في ١٩٦٩، وهو حادث سجلته ديانا أنتهيل في كتابها المسمى «بعد جنازة»، حيث تسجل تدهور أحوال غالي ونهايته.



تراود بطل الرواية (أم هل نقول البطل الضد؟) أحلام عريضة، ويتأرجح بين الواقع والخيال، معانقاً النقائض: «أردت أن أحيا. قرأت وقرأت، وتحدثت إدنا وأردت أن أحيا. أردت أن أقيم علاقات غرامية مع كونتيسات، وأن أقع في غرام عاملة بار، وأن أبيع الهوى، وأن أصبح زعيماً سياسياً، وأن أربح في مونت كارلو، وأن أكون متشرداً في لندن، وأن أصبح فناناً، وأن أكون أنيقاً، وأن أرتدي رث الثياب».

والمكان المركزي في الرواية، كما يومئ عنوانها، هو النادي الذي يختلف إليه رام وأصدقاؤه: «النادي عبارة عن مكان فسيح يحتوي، بالإضافة إلى طاولات البلياردو التي يتوسطها سجاد سميك، على بار أنيق وعدد من المقاعد الجلدية الوثيرة. والمكان أنيق بغير تكلف، وله هيبة تجعلك تأبى الإتيان بتصرف غير لائق أثناء تواجدك به».

في هذا الإطار المكاني وما يحيط به تدور درامات الشخوص: رام وفونت ومنير وديدي وإدنا والخالات وغيرهن. كما تتخايل في المؤخرة أشباح الصحراء والنيل والأهرامات وأبي الهول. ويلقي الموقف السياسي، في فترة مفصلية من تاريخ مصر الحديث، بظلاله على حركة الشخوص وأفكارها ومشاعرها. وتتردد أسماء ساسة وزعماء وخطباء وملوك ورؤساء: كتشنر قنصل بريطانيا العظمى العام في مصر (١٩١١)، كير هاردي مؤسس حزب العمال المستقل البريطاني في ١٨٩٣ ورئيس الحزب ١٩٠٦ - ١٩٠٨، هيو جتسكيل زعيم المعارضة في البرلمان الإنجليزي وقد عارض قرار حكومة إيدن غزو مصر في ١٩٥٦، أنيورين بيفن السياسي العمالي البريطاني اشتراكي النزعة. ومن خارج بريطانيا: لنين، وسالازار دكتاتور البرتغال، وروزا لكسمبرج الثورية بولندية المولد، وساكو زفانزتي أصحاب القضية الشهيرة في أمريكا في عشرينيات القرن الماضي، وفيلافورد من جنوب أفريقيا العنصرية. ومن مصر نلتقي بأسماء عبدالناصر، والنقراشي باشا، وحسن البنا مرشد جماعة الإخوان المسلمين، والملك فاروق. ومن إسرائيل: بن جوريون.

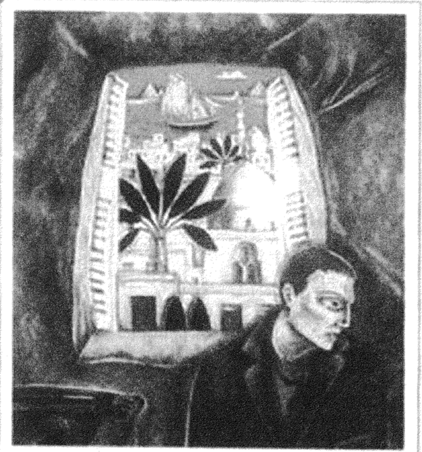
والرواية على درجة عالية من الإماعية إذ تكثر فيها الإشارات إلى أدباء من قبيل: فيرجينيا ولف وجوركي وآرثر كستلر وآلن باتون ودوريس لسنج وأورويل وويلز شو واشروود وو. جاكوبس وساسون (من شعراء الحرب العالمية الأولى) وهمنجواي في إسبانيا. وعلى نحو أكثر تخصيصاً يذكر وجيه غالي رواية الكاتب الفنلندي ميكا فالتاري «سنوحي المصري» وسيرة روبرت جريفز الذاتية «وداعاً لذلك كله»، وجيمي بورتر بطل مسرحية أوزبورن «انظر وراءك في غضب» (١٩٥٦)، وسير روجر دي كوفرلي الشخصية التي أبدعها قلم كاتب المقالات الإنجليزي جوزيف أديسون في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الذي تلاه، ووصف سمرست موم (على نحو لا يخلو من سخرية) الحب بأنه مقدرة شخصين على استخدام فرشاة أسنان واحدة. ومن الفلاسفة يذكر المؤلف: رسل. ومن علماء النفس: فرويد. من أهل الفن والغناء والموسيقى والرقص: بول روبسون، جوزفين بيكر، وموريس شيفالييه.

بدأت هذا التصدير بإبراز ثلاثة مقتطفات، وأود أن أختمه بما قالته باحثة رابعة هي الدكتورة نادية جندي، أستاذ الأدب الإنجليزي بكلية الآداب، جامعة القاهرة، في بحث لها بالإنجليزية عنوانه: «هبة مولدنا: صورة مصر في عمل وجيه غالي» تقول الباحثة إن رواية «بيرة في نادي البلياردو» تستكشف عدداً من القضايا وتطرح بعض أسئلة أساسية. إنها معنية بالتغير والثورة ولكنها توحي - فيما يبدو - بأنه لا شيء يتغير حقيقة. وهي تنتقد اتجاه عديمي الحساسية الذين يتجاهلون كلية كيف وأين يعيش الفقراء. وهي تعالج مقدرة المصري على أن يتقبل - بروح فكهة رضية - أي موقف مهما يكن حظه من المشقة أو الصعوبة. وهي تمس القرابة بين المصري وسواه من المصريين، قرابة - من خلال الفكاهة - تتجاوز الطبقة. وأهم من ذلك كله أنها تكشف عن الحيرة والصراع في داخل المصريين الذين تلقوا تعليماً وثقافة أجنبيين غرست فيهم. ومن المهم أن نلاحظ أن رواية غالي قد ظهرت قبل رواية «زمردة أيوب» لبدر الديب.

يحاول وجيه غالي - ببساطة وحذق

هذه الرواية تهيمن عليها نساء قويات الشكيمة.. أما الرجال فضعفاء يعتمدون على نسائهم



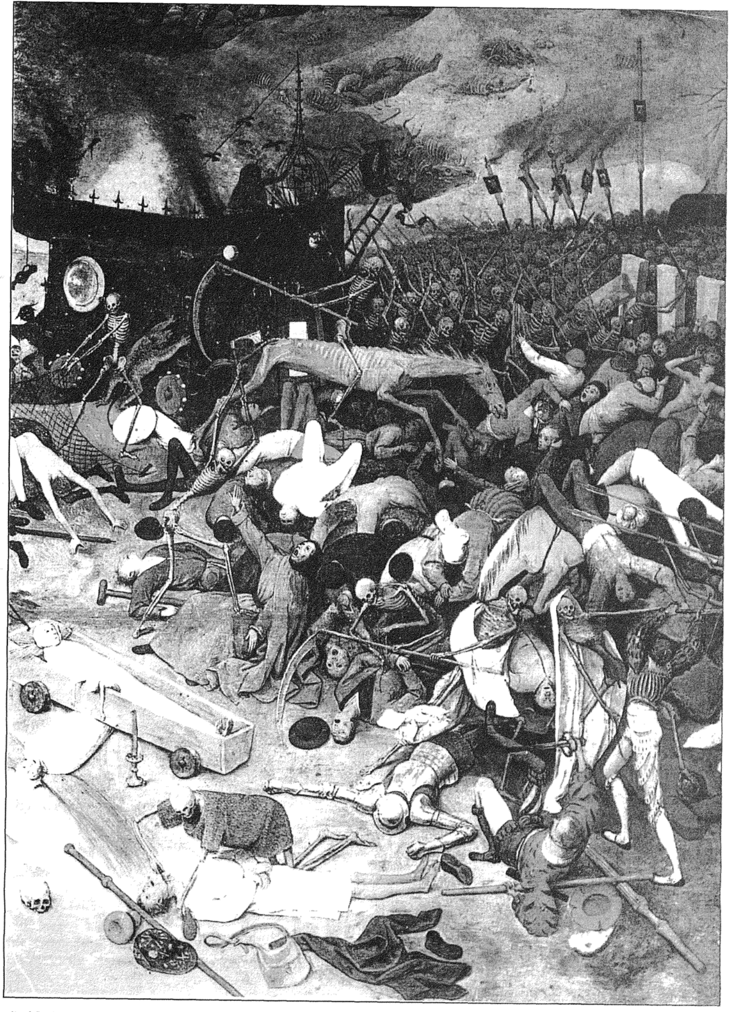


- أن يواجه القضايا من خلال مجموعة متنوعة من الشخصيات والمواقف. وتاريخياً كان لمصر علاقة حب - كراهية طويلة الأمد مع الثقافات الأوروبية. وقد انعكس هذا - عبر العصور - فى كتابات المصريين والأجانب عن مصر (نجيب محفوظ، دريل، ايزايت، نيوبى... إلخ).

ومن الأوجه الشائعة - لأنها غير مألوفة - للرواية الجو الأمومى الحاضر فيها. فأغلب الكتاب عن مصر يجنحون إلى أن يصوروا المرأة المصرية إما على أنها رمز لمصر أو بوصفها أماً أو زوجة أو موضوعاً جنسياً مسحوقاً. أما هذه الرواية فتهيمن عليها نساء قويات الشكيمة، هن فى أغلب الأحيان من الأرامل، كلهن خالات أو صديقات لخالات رام، كلهن، باستثناء أمه، غنيات - وبالتالى - قويات. أما رجال الأسرة فضعفاء ويعتمدون - على أكثر من نحو - على نسائهم. وإنه لمن خلال تفاعل رام وعلاقاته المتشابكة مع الشخصيات النسائية الرئيسية فى الرواية يتم استبصاره معنى أن تكون مصرياً ويرد - مصدوماً تقريباً - أنها هبة لدى الميلاد، وأنها - ككل الهبات - تُخلع ولا تكتسب.

احتساء البيرة فى نادى البلياردو، والويسكى فى جروبى، ولعبة البريدج، والكروكيت، والسباحة فى نادى الجزيرة الرياضى، وتناول العشاء على سطح فندق سميراميس المطل على النيل: هذه هى الأجواء الكوزموبوليتانية التى تتحرك فيها شخصيات الرواية، شخصيات غنية مصقولة تضرب بسهم فى مصر وأوروبا على السواء.

صدر وجيه غالى روايته بقول دوستوفسكى: «نحن، بالأحرى، نرمى إلى أن نكون شخصيات من نمط قصصى خيالى عام». وأحسب أن القارئ الكريم سيوافقنى - فور انتهائه من قراءة الرواية - على أن المؤلف قد حقق هدفه هذا، وتمكن من تحويل هؤلاء الأفراد (دون أن يفقدوا طابعهم المميز) إلى رموز عامة تمثل لحظة تاريخية بعينها، فى إطار مكانى بعينه. ولا شك فى أن القارئ سيجد من المتعة ما وجدته فى قراءة هذه الترجمة العربية الدقيقة الجميلة من قلم هناء نصير، مراوحة - فى لفتة موفقة - بين استخدام الفصحى والعامية فى بعض مواضع الحوار. ■



انتصار الموت
لوحة بيتر بروغل الأكبر
١٥٢٥/١٥٦٩

من تاريخ الانتحار

هنرى دى مونترلان الحياة خارج الزمن

محمد المهدى

قال هوميروس (الانتحار حدث طبيعى وبشكل عام عمل بطولى). وقال كافكا (المقدم على الانتحار هو ذلك السجين الذى يراهم يعدون له منصة الإعدام فى الساحة ويعتقد أن هذا قدر يقرره بنفسه.. يهرب فى الليل من زنزانته، ينزل إلى الساحة ويشنق نفسه). وقال ألبير كامى (الانتحار يتم فى سكون القلب مثل عمل فنى عظيم). وقال بلزاك (كل انتحار هو نظام راق للحزن). وقال دستويفسكى: (هناك سببان يجعلاننا لا نقدم على الانتحار: الألم والخوف من عالم آخر. ومن الواضح أنه حينما تلغى الأبدية تصبح فكرة الانتحار ضرورة مطلقة لكل إنسان يستطيع أن يرتفع إلى درجة أعلى من الحيوان. إنى أقتل نفسى لأؤكد حريتى الجديدة المخيفة).

وقال نيتشه: «الموت انتظر هذا ما علمه زرادشت. أنا الذى آمركم بموتى.. الموت الإرادى الصادر منى لأننى أرغبه». وقال روسو: «بأى حق نلوم من يقدم على الانتحار. الموت هو التفكير فى الحرية. الانتحار هو انتصار الإرادة البشرية على الأشياء» وقال موريس باريه: «الانتحار هو الاعتقاد بأن هناك شيئاً جاداً فى العالم».

هكذا تحدث بعض رجال الفكر الغربى عن الانتحار مؤيدين أو متحمسين، وتحدث بعض رجال الدين أو الدولة أو المفكر معارضين للانتحار فقال أرسطو: «الانتحار عمل ضد الدولة»، وقال نابليون: «الانصراف إلى الحزن دون مقاومة. الانتحار للهرب. انسحاب من أرض المعركة دون قتال»، وقال باسترناك: «الموت ليس عملنا»، وقال القديس أوغسطين: «ليس من حق إنسان أن يعطى الموت لا بسبب البؤس أو بسبب الخطيئة ولا بسبب ذاتى.. إننا فى النهاية نقتل. نقتل إنساناً»، وقال القديس برينو «المنتحرون قتلة يعملون لحساب الشيطان»، وقال البابا نقولا الأول: «من ينتحر يشبه يهوذا أنه يتبع الهامات الشيطان»، وقال اسبينوزا: «من يسعى إلى الموت يفتقر أوجه للإرادة»، وقال شكسبير: «أليست خطيئة أن نسارع إلى منزل الموت السرى قبل أن يأتينا؟».

وجاءت بعض الأقوال حول الانتحار فى منطقة الوسط، فقال سارتر: «فى بعض المواقف لا يوجد محل للاختيار بين عدة أمور منها الموت، ولابد من أن يوجد هناك ما يتيح للإنسان اختيار الحياة». وقال دوركايم: «الانتحار ليس أكثر من حدث اجتماعى وليس أخلاقيا. وأى شكل للانتحار لا يتعدى المبالغة فى تصور الفضيلة». وقال فرويد: «الانتحار جريمة استبدال، حدث عدائى محول يرتد على المنتحر».

الأصـــول

فى الغرب غالبية رجال الدين والدولة يعارضون الانتحار، وغالبية رجال الفكر والأدب والفن يقبلونه، من سقراط الذى يجرع السم طوعاً إلى مونترلان الذى أطلق النار على نفسه منذ ٣٦ عاماً قصة طويلة، جذور فكرية، فروع نمت وتأصلت.

يحكى تاريخ الرومان قصة القائد (كاتون) ٩٥ - ٤٦ ق. م دخل فى صراع مع قيصر وهزم فى الحرب أمامه. انسحب إلى معسكره وتجمع حوله الأبناء والأصدقاء. بحث عن سيفه وقال: «سعيد من يترك الحياة خاصة من يستطيع ذلك عمداً». حاولوا تحويله عن فكرة الانتحار، ولكنه كان هادئاً فى قراره. قرأ كتابه ونام ثم قام وتناول سيفه. شق أسفل بطنه. خرجت أمعاؤه ولكنه ظل حياً. هرع إليه الأحباء والأطباء، حاولوا مداواة الجرح، أزاحهم بعيداً وأمسك بشق بطنه فزاده بيده اتساعاً.. وخرجت أنفاسه الأخيرة.

كاتون كان من أتباع الفيلسوف اليونانى الرواقى - زينون - القرن ٤ ق. م، الذى سقط ذات يوم فانكسر إصبعه. ضرب الأرض فى غضب قائلاً: أتطلبيننى إننى جاهز.. وانتحر.



«منذ هذا الصباح لن أكتب (افتحوا أبواب الأبدية) ولكنى سأكتب (اقفلوا أبواب الأبدية) من سيقرأ أعمالى بعد عشر سنوات؟»

مونترلان



زينون أو الرواقية كانت ترى أن الكون عقل عظيم أو هو الإله الأكمل والإنسان جرمه الصغير. شعلته أو ممثله على ساحة الطين، جرم ينسجم مع الكون الكبير.. فيه نفثة نارية تتجمل بالذكاء. وغاية هذا الإنسان النارى أن يسعى إلى الكمال باحتقار المغريات والآلام والمشاعر، الخضوع للعقل الكامل الذى يرسم لوحة الفضيلة المتسعة الألوان. يجتاز كل برازخ الألم وينهل من ينابيع الحكمة. وكان طبيعياً لهذه الفلسفة المثالية الخيالية أن ترى فى الانتحار حلاً مثالياً عندما تهتز لوحة الفضيلة العقلية على جدار الواقع الردىء.

وسبق زينون وتحلق الأعوام من حوله فى الرواق، جماعة أخرى اختارت الطبيعة مسكناً. اختار لها صاحبها - ابيقور - ٣٤١ - ٢٧٠ ق. م حديقة عرفت باسمه، وعرف بين أعوانه كبطل فى تحمل آلام المرض. جعل من هذه الآلام فلسفة. يجب أن يتحرر الإنسان من الخوف. الخوف من الآلهة أو الآخرة. الحياة تقوم على المصادفة. الأجسام مجرد كتل ذرات. ذرات تحركها حركة من أعلى إلى أسفل. تتكون الكتل. تتحلل الكتل. تذهب إلى اللا شىء.. ليس هناك حياة أخرى. فلا داعى إذن للخوف. لا يبقى للإنسان سوى الحياة. متع الحياة. ولكن ليست المتع الحسية الزائلة. ففى داخلها بذرة العذاب. إنما المتع المستقرة الاكتفاء بكسرة خبز ورشفة ماء وطاقة داخلية تصهر الحديد. تصهر الموت نفسه. يقول ابيقور: «عليك اعتياد الموت لأن الموت لا شىء. كل ما هو خير أو شر فى هذه المحسوسات. وليست الحكمة فى العيش طويلاً ولكن فى العيش هنيئاً. ليس ما يدعو لخوف الإنسان. فالهدف النهائى يجب أن يكون إبعاد الأحزان والعذاب.. وحينما يصلان إلى حد لا يحتمل أو دائم فالانتحار سبيل رفيع».

مذهب يدعو للمثالية العقلية وينتهى إلى الانتحار، ومذهب يدعو إلى التحلل من العقائد ويدعو للزهد وينتهى أيضاً إلى الانتحار. إذن لا خلاف فى النتيجة بين زينون وابيقور. استهانا بالحدث الأكبر. أن تموت بالزمان أو المكان ما الفرق؟ الوجود أو العدم ما الفرق؟ المهم ما بينهما. ولكنهما لم يحددا زمن - الما بين. فهذا التحديد جدير بإفناء الجنس البشرى.

الفـــروع

هذا الزمن وبعد أكثر من ألف عام قتل - مونترلان - نفسه فى سن السادسة والسبعين. بعد حياة حافلة بالإنتاج الأدبى والمكانة والشهرة، تناول مسدسه ولا ندرى بأى انفعال.. تردد أم إقدام أم خوف أو هدوء أم يأس أم جنون أم غضب.. أم ربما حب كما قال البعض. وقتل نفسه فى ٢١ سبتمبر عام ١٩٧٢م.

لحظة درامية ستظل خفية كلحظة الميلاد. فكما لم يحدثنا أحد كيف أحاط به الموت أو أحاطت به انفعالات اللحظة الأخيرة. لم يحدثنا أحد كيف أحاطت به الحياة أو أحاطت به انفعالات لحظة الميلاد.

تحدث مونترلان عن الانتحار ولكنه فى النهاية حديث.. إحكام فكرى أو شعورى وليس لحظة تنفيذ.. قال:

- أتعرف أن الأمر لا يعدو انتظار - الحافلة. حتى تسحقنى.. ستحررنى من ضرورة قتل نفسى.
- أتقتل أنه أمر يكشف للجميع وبشكل قاطع عدم إيمانك بالله؟
- إننا ننتحر احتراماً لموقف. عندما يحول المرض أو السن حياتك إلى مأساة. هل هناك أكثر تشريفاً واحتراماً من الالتزام بموقف؟ إننا ننتحر من أجل الحياة أو عندما تتوقف الحياة عن أن تكون جديرة بنا.
- هزيمة أو انتحار.. هذا هو المهم. الانتحار يثبت



الصداقة مع مونترلان تقتضى الإخلاص وتقتضى أيضاً الكتمان



أمرين للإنسان، شجاعته وسلطانه، حينذاك «يغمر» الانتحار حياته كما يغمر اللهب الشعلة.

لم يبق لنا التأمل لحظة «مونترلان» الأخيرة سوى التصور ومحاولة التحليل وشاهد أخير.. إلى حد ما قريب.. فقد كتب الكاتب - فيليب دى سان روبير - مؤخراً عن أيام مونترلان الأخيرة وكيف شهدها منذ عدة عقود.

فى عام ١٩٥٧ ذهب صحفيان هما جابريل ماتزنوف Gabrial Matzneff وفيليب دى سان روبير Philippe De Saint Robert إلى الكاتب هنرى دى مونترلان لإعداد عدد خاص عن حياته وأدبه لمجلة «بروتكست» Pretexte لم يصدر هذا العدد ولكن مقابلة مونترلان ظهرت فى كتاب صدر عام ١٩٥٩ بعنوان: «مونترلان من وجهة نظر الشباب بين السابعة عشرة والسابعة والعشرين».

كتب ماتزنوف عن مونترلان والجيل القديم، وكتب سان روبير عن بعض مؤلفات مونترلان وصلتها بالمسيحية والفلسفة الرواقية التى كونها زينون اليونانى فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد. ومنذ لقاء مونترلان وسان روبير صارا صديقين إلى آخر يوم من مونترلان. صار روبير شهده الأخير والوحيد قبل رحيله الاختيارى.

الصداقة مع مونترلان تقتضى الإخلاص وتقتضى أيضاً الكتمان. كان يعلق بصورة تبدو ساخرة خارج نافذة بيته - مانيكان - من النوع الذى يستخدمه الأطفال كهدف لقذف الحجارة أو إطلاق السهام. مانيكان كان يبدو رمزاً للاتصال والانفصال عن العالم الخارجى. كان خجولاً وكغيره من أصحاب الحساسيات الشديدة كان يخشى من اطلاع الآخرين على حقيقته.

يحكى سان روبير أن أول لقاء بينهما كان فى منزله فى شارع فولتير - ظل يسكنه طوال حياته - وأعد مونترلان العديد من الأوراق والوثائق وأعد الحديث. ثم كان لقاء آخر فى حديث إذاعى دون إعداد. جاء حديث الإذاعة العفوى أكثر حيوية وإثارة وصدقاً من الحديث المعد.. وكانت هذه مشكلته.. العراك الدائم بين الداخل والخارج.

من سيقرأ أعمالى بعد عشر سنوات؟

اكتشف سان روبير شخصية أخرى لمونترلان تعيش خلف الأسوار تخلع القناع الذى تقابل به الآخرين فى رتابة الحياة اليومية. يقول روبير: كنا نتناول طعام الغداء، فى مطعم - فولتير - أو - فريجات Fregate - فى المناسبات العادية. وحينما كان يريد أن يحييني على مقال كتبته كان يدعونى إلى - اللوزيرى دى ليلا Closerie Des Lilas - أو الريجنسى - أو - مونتالمبير Mentalembert - أو بيل جومان Belles Gourmandes - فى مطعم فولتير حافظ دائماً على طاولته فى العمق إلى اليمين.

أمام مطعم - الكلوزيرى دى ليلا - كان هناك - كشك - لبيع الصحف، له ذكريات خاصة عند مونترلان، فقد استمع منه إلى أول نداء للتعبئة العامة عام ١٩١٤. كتب مونترلان إلى أندريه مالرو عندما كان وزيراً للثقافة يرجوه أن يمنع هدمه كما كان مقرراً.

مونترلان كان لديه شعور بأن عالماً حميماً يختفى.. هل يستطيع أن يسحبه معه إلى ركن معزول؟ مؤلفاته الأخيرة كانت تحوى هذه النكهة المتسربة كان يخشى عليها من الضياع، كتب كرد فعل أو كمحاولة للاحتفاظ بزخرفة الخاص (كل شىء جميل).

ولكن كان كل شىء جميلاً فى خياله، أما واقعه فيقول عنه روبير: كان آخر غداء تناولناه سوياً فى يوليو عام ١٩٧٢، قبل وفاته بشهرين تقريباً. كنا نراجع المقدمة التى كتبتها لإعادة طبع مسرحياته الصادرة عن دار «بليار»، شملت هذه الطبعة المؤلفات المسرحية الأخيرة التى كتبها قبل «الباب الملكى» طلب منى مونترلان أن أقابله فى نهاية اليوم، فقد كان منزعجاً لتناوله الغداء مع شخص رتيب.

وصلت قبل الموعد، فى لحظة خروجى من السيارة رأيته قبل أن يرانى عائداً إلى بيته فى خطوات وئيدة يبعد بيديه مارة بتخيلهم، فقد كان الشارع خالياً تقريباً. يتدثر فى معطف مطر قديم يمسك بعصاه. بدا لى فى حالة حزن لا توصف، وعندما رآنى أخيراً أضاءت وجهه ابتسامة ود لم أرها من قبل على هذه الصورة. أدهشتنى وجعلت قلبى ينقبض فى حزن سابق لأوانه.

جلسنا نقرأ المقدمة التى كتبتها لساعات طويلة. لم أكتشف حالته النفسية التى كان يعيشها إلا حينما ألح فى أن أحذف عبارة وردت فى المقدمة. عبارة تخلو من المبالغة ولا تتعدى نوعاً من المداعبة لأساتذة الجامعات الذين يدرسون ويكتبون عن أعمال مونترلان.. قال:

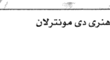
- لم أتدخل من قبل فى حريتك فى الكتابة.. ولكنى أطلب منك باسم الصداقة أن تلغى هذه العبارة.

- بكل ترحاب ولكن أطلب فقط أن تشرح لى لماذا؟

- لماذا؟ «لأنه بعد عشر سنوات لن يكون هناك من يقرأ أعمالى سوى الأكاديميين. أنت تسخر منهم لأنهم يعدون الرسائل الجامعية وبما أنهم مغرورون فإنهم سينفرون ولن يذهبوا أبعد من ذلك».



هنرى دى مونترلان



«انتحر لأنه يحب الحياة ويكره أن يرى نفسه يتقلص ثم ينتهى»

الكاتب سان بيير



انتحر لأنه يحب الحياة..

خلال شهر أغسطس أى بعد هذه المقابلة مع سان روبير بشهر واحد، وقبل رحيله أيضاً بشهر واحد كتب مونترلان آخر مؤلفاته فى حمية وحماس. كتب كتابه - ولكن هل نحب حقاً من نحب؟ - يحكى مونترلان حلماً شاهده فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٧١ فيقول: «شاهدت فى هذا الحلم شخصاً كنت أحبه منذ فترة بعيدة. استيقظت فجأة على ضربات قلبى السريعة، كان مصدرها ظهور هذا الوجه القدسى، درت بوجهى إلى الناحية اليسرى فى اتجاه الحائط، حتى أخنق هذه الضربات فى الحاشية، هيئ لى إننى أرسلت الضربات عبر الحاشية إلى مركز الأرض».

أظهر هذا الحلم لمونترلان أن حبه الوحيد كان طوال حياته هو هذه الشخصية وأن أحباءه الآخرين لم يكونوا سوى كاريكاتير أو نسخ مكررة لها.. «هذه الزيارة الهادئة قلبت داخلى.. لقد قلبت الفكرة التى اعتنقتها طوال حياتى. نحن لا نحب سوى مرة واحدة. هذه الفكرة فتحت أمامى أبواباً من الحزن. كل ما قرأت وربما فكرت وربما كتبت للآخرين لم يكن إلا إجلالاً لها».. أضاف أيضاً يقول: «هذا الحلم إنه عالم ينتهى. ليس فقط بالنسبة لى فإننى سأنتهى بالتأكيد ولكنه عالم ينتهى فى ذاته. فى المجتمع الجديد من سيفهم هذا النوع من الحساسية التى أشبعت كل مؤلفاتى من الكتاب الأول ودخلت فى مسامها؟ لن يكون لعالم الغد دراية بذلك. واليوم من سيفهم مهما حاولت إجادة التعبير. ماذا سيمثل هذا الحلم بالنسبة لى؟ هذه المشكلة لن تتوقف عن الإلحاح. منذ هذا الصباح لن أكتب (افتحوا أبواب الأبدية) ولكنى سأكتب (اقفلوا أبواب الأبدية)».

وكتب سان بيير يقول: «إن مونترلان لم ينتحر كما كتب لأنه يكره الحياة، على العكس لقد انتحر لأنه يحب الحياة ويكره أن يرى نفسه يتقلص ثم ينتهى».

يتقلص وينتهى وهو ما يزال على قيد الحياة. إنه لا يطيق الموت قبل الموت، الموت الأدبى، الأخلاقى، الفردى هو الموت الحقيقى، وما فائدة عيون تبرق فى عالم غائب. كان يرى عالمه وعالم زملاء قلمه، ينشطر بين داخلى وخارجى. لم يكن استقلالاً، فالاستقلال عنده كان نوعاً من العشق يتكامل حينما يخصص. كما قال - غرفة فى مسكنه لأى مريض عابر. مونترلان لم يكن وحيداً تماماً، كانت له صديقة عجوز اسمها مارجريت أوز تحدث عنها سان روبير تسكن على بعد خطوات من مسكنه وحينما كف بصرها كان يحدثها تليفونياً صباح مساء.

فى ١٤ سبتمبر عام ١٩٧٢ كان سان روبير مدعواً على مائدة رئيس الجمهورية جورج بومبيدو وكان يقلقه ما يلاحظه من تطورات حزينة على خطوات مونترلان من إيقاع ثقيل يغزو فراشه ويسهره لليال طويلة. قلق مصدره شعور مونترلان بالعزلة داخل وطنه. أصابه

جرح عميق فى داخله. تحدث مالرو عن جانب آخر من حياة مونترلان فقال: «إنه ليس فقط أعظم كاتب فى زماننا ولكنه أيضاً من أشرف وأعظم المقاتلين.



على المائدة تحدث سان روبير مع بومبيدو عن حالة مونترلان النفسية السيئة. وعد بومبيدو بتدارك نسيان الدولة لمكانته. سأل:

● هل يسعده ذلك؟

● أعتقد أنه لن يكترث كثيراً، ربما يصير فخوراً. عندما يعلم بمحاولتى ولكن الأمر سيكون أكثر تأثيراً إذا صدر عن مبادرة طبيعية، سيتكامل شرفنا حينذاك.

● سأصدر تعليماتى لتدارك هذه العزلة البليدة.

وفى يوم ٢١ سبتمبر انتحر مونترلان وبعدها بستة أيام كتب بومبيدو لسان روبير يقول: لقد تحدثنا فى أمر مونترلان. ولكن الأمر انتهى الآن. إننى آسف لعدم استطاعتى استباق ما أقدم عليه.. إننى حزين لذهاب أستاذ عظيم من أساتذة لغتنا.

ويحكى روبير عن اليوم السابق لانتحار مونترلان، فيقول إنه اتصل به تليفونياً يوم ٢٠ سبتمبر ليتفق معه على تسليم ما كتب.. سأل مونترلان:

● فى أى ساعة أحضر؟

● لا أدرى إذا حضرت فى الصباح أصعد ودق الجرس، وإذا حضرت فى بعد الظهر لن أستطيع استقبالك.. اترك خطاب تحت الباب أو عند البواب.

فى الساعة الرابعة إلا خمس دقائق تركت خطابى عند البواب وفى الساعة الرابعة بالضبط علمت فيها بعد أن مونترلان أطلق النار على نفسه.. ماذا لو صعدت؟ لو إننى دققت الجرس فى هذه الساعة بالضبط؟

يا لها من أسئلة، لكن لماذا اختار مونترلان يوم ٢١ سبتمبر موعداً لرحيله. لقد زور فى السابق تاريخ ميلاده تهرباً من المطاردة الرسمية.. فلماذا لم يغير تاريخ رحيله.. اختار موعد الميلاد وحدد موعد الرحيل.. يوم ٢١ سبتمبر موعد الخريف.. تعادل الليل والنهار. لكن الليل انتصر. تعادل «النعم» مع «اللا» تعادل الموت مع الحياة.. لكن «اللا» والموت سيكون لهما النصر على النعم والحياة.. فى الصيف هناك شىء يفيض ولم تكن فكرة انتحاره وتوقيتها مجرد صدفة..

لقد اختار لخريف عمره اليوم الأخير من الصيف لينتهى به.

يقول البعض إن مونترلان خلق من الضعف قوة وأن شخصيات أعماله الأدبية كانت من صنع ذاتها، وقد أعطاها ذلك الحق فى التكامل فمهما داخلها الباطل إلا أنها كانت تنتهى بالتصالح مع نفسها.. لكن مونترلان لم تتوفر له هذه المصالحة إذا ما حاسبته بمنطق اليأس من حياته.. ولكنه كان بالتأكيد مخلصاً لفكره وعقيدته وزمنه.. حاسب زمانه الخاص حساباً عسيراً واعتبر نفسه من سلالة منقرضة مع بقايا الرومانسية أو الذاتية.

كتب فى أيامه الأخيرة تعليقاً على عام ١٩٧٢ يقول: عالم يموت فى سن الثانية والسبعين.. قومية ودين.. لمحة حزينة من فنان عشق قيماً خاصة للحياة والإيمان.. لكنها قيم تتناقض أو تتغير فى لحظة لا يمكن أن نتغير معها وقد قيل لابد من تغيير كل شىء حتى يستمر كل شىء.

أين الوجود الإلهى فى حياة مونترلان كان كشخصيات رواياته مشدوداً بين الإقبال برفض أو الإحجام بقبول.. كتب ديجول رسالة قال فيها عن مونترلان: «لقد حاز مونترلان بشكل نهائى حافة المحيط الدينى ولم تترك عبقريته عيونه أو روحه تتوهان عن ارتياده» ولكن مونترلان قال: أنا لا أؤمن إلا بالمؤمنين.. حينذاك يصعب علينا فهم أى مؤمنين؟!

اختيار الزمن أيضاً كان موضع قلقه وموضع شجاعته هل انتحاره فى هذه السن المتأخرة له دلالة؟ لم تكن لتأخرها ولكن لنوعيتها. وتبين النوعية يحتاج إلى خبرة الزمن، فقد قال محدثا الشباب الذين يفكرون فى الانتحار: «موتكم موت ضائع.. إننى أقول ذلك ليس من قبيل الواجب، فعدد كبير من المنتحرين لو فكروا لمدة ساعة واحدة لأحجموا، على الأقل امنحوا أنفسكم هذه الساعة».

لكل إنسان زمنه وعقيدته وقد يكون زمن الإنسان العابر نموذجاً لعقيدته الدائمة، وقد يكون زمنه هو عقيدته الزائلة، وعندما يشعر الإنسان بذهاب زمنه قد يشعر معه بذهاب عقيدته.. يهتز داخله ويسقط بلا تردد. مونترلان ابن تراث الفيلسوف زينون والقائد كاتون وابن شهداء المسيحية والحاد القرن العشرين طلب فى وصيته أن ينشر رماده على مدينة روما ونفذت الوصية فى ٢١ مارس عام ١٩٧٣. ■



الحكماء يتكلمون

أقوال كونفوشيوس

● لا تذل من تحب.

● لا هم لديه إلا بطنه.

● العاقل لا ينحرف عن الصراط المستقيم

● إنى لا أنور تلاميذى إلا بعد أن يعصروا فكرهم.

● لا تهتم إن لم تكن قدرتك معروفة عند الآخرين.

● لا تقلق من عدم وجود الوظيفة، بل من عدم القدرة.

● الثروة غير المرعية هى مثل السحب الهائمة بالنسبة إلىَّ.

● لا تدخل فى الشئون التى ليست فى مجال إدارتك.

● قال تسى شيا: «لا تدقق فى الشئون الصغيرة التى لا تتجاوز حدود الشئون الكبرى».

● لا تتراجع عن الحق حتى ولو كنت تواجه أستاذك.

● لا تتشاور مع من يحملون وجهات نظر سياسية مختلفة.

● قيد الشعب بالأوامر الصارمة وعاقبهم معاقبة قاسية..

● من يمتلك الأخلاق الفاضلة والرفاق الذين يشاركونه أهدافه ليس شخصًا معزولاً.

● على الشاب أن يبرّ والديه فى البيت ويحترم أشقاءه.

● سأل الدوق يه تسى لو عن كونفوشيوس.

● يجب على المرء ألا يسافر بعيدًا إذا كان والداه لا يزالان على قيد الحياة.

● على المرء ألا ينسى ذكرى مولد والديه..

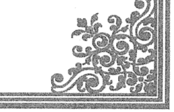
● إننى أجنى الثروة طالما أننى أعمل بصورة شرعية.

● يطمح كل واحد إلى الثروة والمكانة.

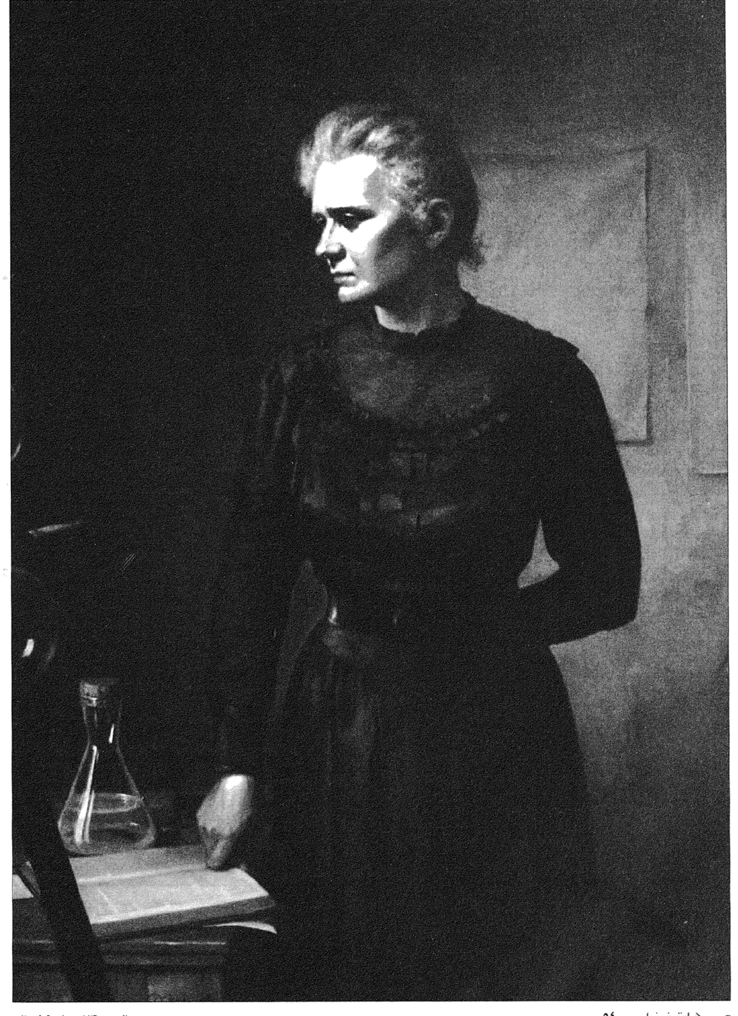
● الحرفى يحضر أدواته قبل أن يبدأ عمله.

● كن صارمًا مع نفسك ومتسامحًا مع غيرك، فتبعد عنك الحقد والبغضاء.

● لم يكن القدماء يعطون الناس وعدًا بسهولة.







هَوَس العبقرية!

الحياة السرية لماري كوري

باربارا جولد سميث

في العشرين من إبريل سنة ١٩٩٥، وفي باريس في شارع سوفلو Soufflot امتداد بساط أبيض بطول الشارع لينتهي أمام البانثيون Pantheon (مقبرة العظماء) الذي كان مكسوًا بالألوان الثلاثة (ألوان العلم الفرنسي) من القبة وحتى الرصيف. وعلى أنغام المرسليزيه (النشيد القومي الفرنسي) كان الحرس الجمهوري يسير على هذا البساط الأبيض. وكانت الآلاف الموجودة على جانبي الشارع ساكنة على غير العادة، وكان البعض ينثر الزهور عند مرور الموكب الذي كان يتكون من: أعضاء هيئة التدريس بمعهد كوري في المقدمة يتبعهم طلاب المرحلة الثانوية من باريس، وكان الطلاب يرفعون لوحة طولها أربعة أقدام عليها الأحرف الإغريقية ألفا وبيتا وجاما بالألوان الزرقاء والبيضاء والحمراء.

وعند اقتراب الموكب من البانثيون انتشر الطلاب وتطلعوا إلى المنطقة المقامة تحت القبة الكبرى والتي جلس إليها بعض الوجهاء وعلى رأسهم الرئيس فرانسوا ميتران. وعلى الرغم من أنه كان يعاني من مرض السرطان الذي اشتد عليه في الأسابيع الأخيرة من فترة رئاسته التي امتدت أربعة عشر عامًا، إلا أنه قرر أن يكرس خطابه الأخير على رمز المرأة الفرنسية في إشارة دراماتيكية حيث قرر أن يواري رماد مدام كوري وزوجها بيير في البانثيون، وبذلك جعل من ماري(ماريا سالومي سكلادوفسكا) كوري أول امرأة تدفن في البانثيون لما قدمته من إنجازات. وهكذا تم إخراج رماد آل كوري من مقابرهم بضاحية سيو Sceax ليدفنوا بجوار بعض الخالدين أمثال أونوري جبرائيل ريكونيه وجان جاك روسو وإميل زولا وفيكتور هوجو وفولتير (فرانسوا ماري آرو) وجين بابتيس بيرين وبل لانجفين.

وكان لينج ڤاليسا - رئيس جمهورية بولندا الموطن الأصلي لمدام كوري - يجلس بجوار ميتران. وكانت أسرتا العالمين ماري وبيير موجودين كذلك وهم ابنتها إيف وأولاد ابنتها المتوفاة أيرين وزوجها فريدريك جوليو -كوري- هيلين لا نجفن - جوليو، وبيير جوليو وكلاهما من العلماء البارزين.

كان أول المتحدثين في الحفل بيير - جيلس دي جين مدير المدرسة الصناعية للفيزياء والكيمياء بمنطقة باريس (EPCI). وهو المكان الذي اكتشفت فيه ماري وبيير ظاهرة النشاط الإشعاعي وعنصري البولونيوم والراديوم، حيث قال، «إن آل كوري يمثلون الذاكرة الجماعية للأمة الفرنسية وروعة التضحية بالنفس». ثم تحدث لينج ڤاليسا عن الأصل البولندي لمدام كوري ووصفها بالبطلة الوطنية لكل من بولندا وفرنسا. عندئذ نهض الرئيس ميتران وقال:

«إن نقل رماد بيير وماري كوري لأكثر الأماكن قدسية بالنسبة لنا ليس مجرد عمل للذكرى، بل هو تأكيد على إيمان فرنسا بالعلم وبالبحث العلمي وعلى احترامنا للعلماء الذين نخلدهم هنا، وعلى تقديرنا لعزيمتهم ولحياتهم. واحتفالنا اليوم هو عمل متعمد من جانبنا للسيدة الأولى في تاريخنا المشرف. وهي رمز آخر يحوز انتباه أمتنا ومثال على نضال سيدة قررت أن تفرض قدراتها في مجتمع يحتفظ بقدراته واكتشافاته الذهبية والمسئولية العامة للرجال فقط»

كان من الممكن قراءة ما هو مكتوب على واجهة البانثيون فوق رأس الرئيس ميتران أثناء إلقاء خطابه، وكانت كالآتي: «إلى الرجال العظماء من بلد ممكن» وهي كلمات بادية السخرية.

وبعد هذه الكلمات دوت عاصفة هائلة من التصفيق من الجموع التي ملأت الشوارع. كانت رغبة بيير كوري المتواضع أن يدفن في سيو لأنه كان يكره تمامًا الشهرة والاحتفالات، ومن المؤكد أنه كان سيكره ما حدث في ذلك اليوم. وسواء رغب آل كوري في ذلك أم لا. وبالأخص مدام كوري، فقد تم تخليدهما. وقد أصبحت مدام كوري اليوم مثلاً أعلى لكل الأعمار وإلهامًا للنساء اللاتي يرون فيها تحقيق أحلامهن وطموحاتهن.

وقد كنت هناك

وعندما كنت في سن المراهقة، كنت أضع صورة لمدام كوري وهي جالسة تحت شجرة دردار تحتضن ابنتها إيف ذات العامين وأيرين ذات الأعوام التسعة، وذلك بجوار صور لأحد أعمال فان جوخ (ليلة ملأى بالنجوم) وبطاقة لعبة البولينج مساء يوم الجمعة. ولا أدري لماذا كنت مشدودة إلى هذه الصورة، والأمر لم يكن بالقطع يتعلق بالعلم. وكانت مدام كوري ملهمتي. ومثل أي ملهمة أخرى فإنك لا تدري بالضبط سبب كل هذا التقديس. ربما أكون قد أنست لهذه الصورة حيث وجدت ماري بحضنها الدافيء لابنتيها، وكانت أمي في ذلك الوقت بعيدة ترقد في أحد المستشفيات مصابة إصابة خطيرة في حادث سيارة. من يدري؟

لم يكن بتلك الصورة أي من الوجوه المبتسمة عادة. كان يبدو على ثلاثتهن الحزن. لم أكن أعرف وقتها السبب، لكني أعرف الآن. وكنت قد وضعت تحت هذه الصورة مقطعين لمدام كوري: « لا شيء يرهب في الحياة، وهي فقط لنفهمها» و «من المهم أن نصنع حلمًا من الحياة وأن نصنع واقعًا من الحلم». ولم أكتشف أن بيركوري هو الذي كتب المقطع الأخير وليست ماري إلا أثناء بحثي لكتابة هذا الكتاب.

وفي كل الأحوال لا شك أن حياة مدام كوري كانت ملهمة في الواقع، فقد كانت نادرة كوحيد القرن في مجال العلم. جاءت من أسرة بولندية فقيرة وعملت لثماني سنوات لتقتصد النقود لتدرس في السوربون. وتغلبت على صعاب تفوق الخيال. وفي سنة ١٨٩٣ كانت ماري كوري أول سيدة تحصل على درجة علمية ثانية في الرياضيات. وكانت أول سيدة تحصل على منصب أستاذ في السوربون وأول سيدة لا تحصل فقط على جائزة نوبل واحدة بل اثنتين، الأولى في الفيزياء بمشاركة زوجها وهنري بيكيريل لاكتشافهم ظاهرة النشاط الإشعاعي، أما الثانية فجاءت بعد ثماني سنوات في الكيمياء (لفصلها لعنصري البولنيوم والراديوم). وهي أول سيدة يتم انتخابها في الأكاديمية الفرنسية للطب التي كان عمرها ٢٢٤ سنة وقتها. وبالإضافة للنجاح المذهل في عملها فقد تمكنت من تربية ابنتيها وحدها معظم الوقت حتى حصلتا على تعليم جيد وفي الوقت نفسه أصبحتا قويتين جسمانيًا ومستقلين.

هذه هي الحقائق التي تحولت إلى أسطورة رومانسية نسجت لتلائم ما يعتقده وما يتخيله كثير من الناس - الصحفيون والعلماء والأطباء ودعاة حقوق المرأة ورجال الأعمال ورجال الصناعة وحتى مدام كوري نفسها. ويتذكرها الناس مثل جان دارك في العلم. وتحمل شوارع باريس اسمها واسم زوجها بيير. كما أن ورقة العمل فئة ٥٠٠ فرنك

للاستزادة:

Barbara Goldsmith, Obsessive Genius: The Inner World of Marie Curie, W. W. Norton, 2005

هوس العبقرية، الحياة السرية لماري كوري
باربارا جولد سميث
دار العين للنشر
القاهرة ٢٠٠٩

(أصبحت الآن من اهتمامات هواة جمع النقود وكتذكار) كانت تحمل صورتها ومعملها الكوخ البائس) وبعض المناظر من حياتها.

وصورتها على طوابع البريد والعملة المعدنية. وكان يطلق على السيارات التى عدلت لتحمل معدات الأشعة السينية باسم «كورى الصغيرة» أو «Les ptites Curie» كما شارك فى صنع هذه الأسطورة الأفلام شبه الوثائقية والأفلام العادية. ولقد كنت مذهولة عندما شاهدت جرير جارسون فى دور مارى وولتر بيدجون فى دور زوجها بيير فى فيلم مدام كورى سنة ١٩٤٣. ومازلت أتذكر وجها من مثلث دور مارى وهو يتصبب عرقًا عندما كانت تقوم بتحريك وعاء يغلى بالخام. ولن أنسى ما حييت منظر بيير ومارى فى ظلمات الليل وهما يدخلان إلى المعمل ليشاهدا بقعة الضوء الخافت تتوهج فى قاع أحد الأطباق. صاحت مارى حينئذ بينما كانت دموعها تنهال على خديها، «اوه بيير، هل هذا ممكن؟ هل هذا هو الشىء؟» نعم لقد كان هو هذا الشىء - الراديوم.

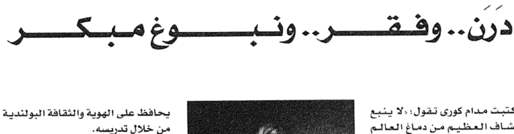
مرت بعد ذلك سنوات عديدة منذ كنت الفتاة الساذجة الملهمة ببطلة هوليوود، والتى تمثل النساء وتاريخ الوقت الذى عشن فيه الآن فوق كل ذلك الموضوع الأساسى فى كتاباتى. لماذا تستسلم بعض النساء لأقدارهن بينما تهرب أخريات أو يتلقفن حول العقبات؟ كيف أثر المجتمع والأسرة فى طموحاتهن؟ ولماذا تبحث بعض النساء عن الاستقلالية بينما تفضل الأخريات الامتثال لما هو مقدر لهن؟ وعلى أى الأوتار عزفت مدام كورى، وعلى الأخص بالنسبة للنساء؟ كانت كل هذه الأسئلة جزءا من أمور كثيرة حيرتنى.

وما يشغلنى الآن بولع يقع فى المسافة ما بين الخيال والواقع. وربما مازالت مدام كورى الأسطورة أشهر امرأة عالمة فى العالم. ويعتبر الراديوم اكتشاف مدام كورى المذهل. وقد حظى باهتمام مهول فى معالجة السرطان من خلال أشعته. لكن فى الواقع، هل هذا صحيح، وهل كان ذلك هو مساهمتها الكبرى فى العلم؟ لاشك أنه على مدار القرن الماضى تحولت سيرة حياة مدام كورى إلى قمة الكمال، لكن وراء هذه الصورة كانت هناك امرأة حقيقية. إنها الشخصية التى أرغب فى تتبعها.

باربارا

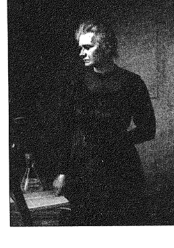
البدايات

درن.. وفقر.. ونبوغ مبكر



كتبت مدام كورى تقول: «لا ينبع الاكتشاف العظيم من دماغ العالم جاهزًا مثل منيرفا التى تتبع كاملة التجهيز من رأس المشترى، لكنها نتاج تراكم أعمال سابقة. «وكما قال لويس باستير جملته الشهيرة: «يفضل التوفيق الذهنى المعد لذلك». إلا أن الإنجازات العظمى تحتاج لأكثر من مجرد الاستعداد العلمى، فهى تحتاج لشخص مهيأ خصيصاً لهذه المهمة. كانت شخصية مارى كورى التى تشكلت تحت وطأة التفرقة والحرمان وضغوط الوالدين والطموح والتضحية الوطنية هى هذه الشخصية.

وعندما كانت مارى طفلة من عمرها، وقفت مشدوهة أمام خزانة زجاجية بداخلها «عدة أرفف تحمل أجهزة غريبة مثل الأنابيب الزجاجية والموازين الصغيرة وعينات من المعادن وكشاف كهربى من رقائق الذهب». قال البروفيسور فلاديسلاف سكلادوفسكى لابنته مارى أن هذه الخزانة تحتوى على «أجهزة الفيزياء الخاصة بى». لم تكن مارى سكلادوفسكا التى كانوا يدللونها باسم مانيا، والتى كان مقدرًا لها أن تصبح مدام كورى ذات الشهرة العالمية، لم يكن لديها أى فكرة عما تعنيه هذه الكلمات، لكنها «لن تنساها». وتدل هذه العبارة التى أوردتها «إيف كورى» عن ارتباط مبكر ليس بالعلم فقط بل فى الواقع تدل على ارتباطها بوالدها. وقد ظلت هذه الخزانة الزجاجية موصدة حيث ألغيت حصص العلوم للبروفيسور سكلادوفسكى بعد ثورة بولندا الدموية سنة ١٨٩٣ عندما منعت السلطات الروسية الأساتذة البولنديين من أنه قد سُرق منه ما كان يمكن أن يكون مستقبلاً باهرًا فى العلوم بواسطة القهر الروسى. وبالغرم من مداومة فلاديسلاف على قراءة المجلات والتقارير العلمية، إلا أنه: «لم يكن لدى والدى معمل ولم يستطع القيام بإجراء التجارب». وبكل تأكيد لم تكن مارى هى أول طفل ينساق لتحقيق أحلام أبيه التى لم يستطع إنجازها بنفسه».





لماذا تبحث بعض النساء عن الاستقلالية بينما تفضل الأخريات الامتثال لما هو مقدر لهن؟



عاش البروفيسور سكلادوفسكى حياة غريبة، فقد كان يعمل مساعد موجه ومدرسًا فى مدرسة ثانوية للأولاد جوار سو تديرها الحكومة الروسية. وكانت مثل هذه المدارس الروحية هى الوحيدة المؤهلة لمنح الدبلوم. وكان ينظر لمعظم المدرسين البولنديين فى هذه المدارس بواسطة مواطنيهم البولنديين على أنهم قد «لوثتهم» السلطة الروسية. إلا أن فلاديسلاف كان يشعر فى السر أنه يحافظ على الهوية والثقافة البولندية من خلال تدريسه.

كانت بولندا يومًا ما أرضًا يفخر بها أهلها، لكن وبعد هزيمة نابليون النهائية فى «ووترلو» سنة ١٩٨٥ وفى مؤتمر فيينا، أصبح القيصر الروسى ألكسندر الثانى يلقب «بملك بولندا» وأصبح هذا البلد تحت الحكم المشترك لروسيا وبروسيا والنمسا. وحتى اسم بولندا قد حذف من الخرائط وأصبح يشار لها باسم «فيستولا» على اسم أحد الأنهار. وكان الروس غلاظًا بصفة خاصة، فمنعوا اللغة البولندية من المدارس وكذلك تدريس التاريخ والأدب البولندى. وكانت اللغة الروسية هى اللغة الرسمية. وكانت لافتات الشوارع والحوانيت مكتوبا عليها بالأبجدية الكريلية (الأحرف الروسية).

قامت ثورتان ضد الاحتلال الروسى لكنها أُخمدتا فى حينهما، ومست الثورتان عن قرب عائلة سكلادوفسكى. ففى الثورة الأولى فى نوفمبر سنة ١٨٣٠ حارب والد فلاديسلاف واسمه جوزيف فى سلاح المدفعية، والذى كان أستاذًا محترمًا للفيزياء والكيمياء. وقد قبض الروس عليه وأرغم على السير حافى القدمين مسافة ١٤٠ ميلا (٢٢٤ كيلو مترا) على معسكر الاعتقال مما أفقده ٤٠ رطلا (١٨ كيلو جرامًا) من وزنه. تقيحت قدماه وتورمت وظلت تعل عليه طول حياته. وقد تمكن من الهرب بأعجوبة.

أما الثورة الثانية التى وقعت فى يناير سنة ١٨٦٣ فكانت كارثة أدهى من الأولى. كان المحاربون البولنديون يواجهون جيش القيصر وبعضهم مسلح بالهراوات والفئوس والسهام لمدة عام ونصف.

وفى النهاية مات آلاف من رجال المقاومة البولندية، وتم نفى الآخرين إلى سيبريا. وكان أحد أعمام مانيا قد جرح أثناء هذه الحرب بينما أمضى عم آخر أربع سنوات فى سيبريا. وقام ما يقرب من مائة ألف من رجال المقاومة البولندية

بجمع ما يستطيعون حمله وهربوا إلى بلاد أخرى وبالأخص إلى فرنسا. وفى أغسطس سنة ١٨٦٤ قبض على زعماء الانتفاضة وتم شنقهم وتركت أجسامهم معلقة فى المشانق من قلعة ألكسندر التى تبعد بضع بنايات من منزل سكلادوفسكى، وقد تركت الجثث طوال فصل الصيف لتنفق فى حرارة الجو.

حارب البروفيسور سكلادوفسكى المعركة من الداخل. وكان مثله مثل كثير من المثقفين يعتقد أن المواجهة لمباشرة عديمة الجدوى. وفى سنة ١٨٦٠ وبينما كانت الانتفاضة ضد القيصر فى مهدها تزوج وهو فى الثامنة والعشرين من عمره من سيدة جميلة ويافعة اسمها برونيسلافا بوجوسكى. وكان كلاهما من الطبقة الدنيا من الأرستقراطية التى تدعى «شلاختا». وقد تمكنت الطبقة من الحفاظ على بعض المظاهر الأرستقراطية مثل الأوسمة الملكية والقرى التى تحمل أسماء عائلاتهم، ولكن بمرور السنوات فقد معظمهم أملاكه وثرواته. لكنهم احتفظوا بحبهم للتعليم، وأصبح منهم القساوسة والأطباء والمعلمون والموسيقيون. كان ما يقرب من ٤٠٪ من طبقة الفلاحين أكثر ثراء منهم، لكن «الشلاختا» كانت غارقة فى ذكرى الأبهة الغازية والمنجزات الثقافية، وتشعر بالتفوق الكبير على هؤلاء الذين يقيسون حياتهم بمقدار ما يملكون.

التحق جوزيف سكلافسكى جد مانيا بجامعة وارسو لكنه اختار أن يقوم بالتدريس فى مناطق أقل تحضراً وأراد والدها كذلك أن يلتحق بجامعة وارسو، لكنها كانت مغلقة مؤقتاً بعد ثورة سنة ١٨٣٠. اضطر فلاديسلاف للجوء إلى الدروس الخاصة فى علم البيولوجيا ثم التحق بجامعة العلوم فى سانت بطرسبرج حيث حصل على درجة جامعية فى الرياضيات والفيزياء. عاد بعد ذلك إلى وارسو وعين فى وظيفة مساعد مدرس. كان راتبه ضئيلا لدرجة أنه لم يستطع الزواج، إلا أن برونيسلافا بوجوسكى أنقذت الموقف.

وقد تحطمت على صخرة الواقع الفكرة التى كانت سائدة فى ذلك الوقت عن أن النساء لهن مؤهلات فيزيائياً أو ذهنياً للدخول إلى قوة العمل: كانت النساء الفلاحات يعملن فى المصانع وفى محلات الحلوى نظير جزء ضئيل من المرتب الذى يتقاضاه الرجال، وكن يحرثن الأرض فى الحقول ويجمعن المحاصيل. وفى أثناء ثورة سنة ١٨٦٣ كان النساء هن اللاتى حللن محل الرجال فى العمل بكفاءة عالية. وبعد فشل الثورة عادت النساء على غير رغبتهن إلى الواجبات الزوجية ورعاية الأطفال والقيام بالأعمال المنزلية. وكانت المهن المسموح لهن بها محدودة، وهى التعليم والتمريض فى معظمها.

لم يكن والدا برونيسلافا من الأغنياء لكنهم تمكنوا من إلحاقها بمدرسة شارع فريتا، المدرسة الخاصة الوحيدة للبنات فى وارسو. وكانت السلطات الروسية تراقب مثل هذه المدارس، لكن قبضتهم على تلك المدرسة لم تكن بالشدة إذا قورنت بالمدارس المشابهة للأولاد، فقد كان المسئولون الروس يعتقدون أن النساء لن يشاركن أبداً فى الحياة العامة أو السياسة، أو بالتأكيد فى أى موقع مؤثر فى عالم الرجال.



وفى الوقت الذى تزوجت فيه برونيسلافا من فلاديسلاف سنة ١٨٦٠ شقت برونيسلافا طريقها من مدرسة على ناظرة للمدرسة بقليل من الذكاء والمقدرة العلمية. كان لها دخل ثابت ومسموح لها بالسكن فى مسكن فسيح بالطابق الأرضى فى المبنى الملاصق لأحد أجنحة المدرسة. وبزواجها من فلاديسلاف بدأت برونيسلافا تعيش الحياة التقليدية لامرأة من عصرها، لكنها تحملت عبئاً إضافياً فوق ذلك متمثلا فى دعم الأسرة مادياً. وفى السنوات الست التالية أنجبت برونيسلافا خمسة أطفال: زوفيا (اسم التدليل زوسيا) سنة ١٨٦٢ وجوزيف سنة ١٨٦٣ وبرونيسلافا (برونيا) سنة ١٨٦٥ وهيلينا (هيلا) سنة ١٨٦٦، وفى نوفمبر ١٨٦٧، نفس السنة التى نشر فيها كارل ماركس الجزء الاول من «رأس المال» وسجل فيها الفريد نوبل اختراع الديناميت، وضعت آخر أطفالها ماريا سالومى (مانيا). وقد قالت برونيسلافا لأحد الاصدقاء فيما بعد «يجب أن أعترف بأننى لا أمانع أن أعود الآنسة بوجوسكى الآن بعد أن رأيت صعوبة حياة النساء».

وفى عام ١٨٦٧ تم تعيين زوج برونيسلافا مساعداً لمدير مدرسة جيمنازيوم روسية فى شارع نوفوليبكى. جاءه المنصب ومعه شقة للسكن. ولم يكن هناك شك فى أن يكون للترقى الوظيفى. انتقلت العائلة بأكملها، البنات الأربع والابن فى الحال من وسط وارسو إلى ضواحيها الغريبة. وأخذت برونيسلافا تقوم برحلة يومية إلى مدرسة شارع تريتا. ولابتعادها عن الأطفال وضغط مسئولياتها الأخرى بدأت صحتها فى التدهور واستقالت وأصبحت ربة بيت طول الوقت وقامت بالتدريس لكل من روسيا وجوزيف فى المنزل. وقد تعلمت بنفسها حرفة صناعة الأحذية ووضعت طاولة مخصصة لذلك من أجل توفير بضعة روبلات (العملة الروسية) التى كانت متداولة فى بولندا فى ذلك الوقت). وكانت تصنع أحذية أطفالها بنفسها ولا تتكلف إلا ثمن الجلود فقط. وكان صوت خبطات القادوم هو المصاحب لدروس أولادها.

ولما أصبحت مانيا فى الرابعة من عمرها سنة ١٨٧١ بدأت والدتها تفقد من وزنها وكانت تسعل بصورة مستمرة، فى إشارة تقليدية إلى إصابتها بمرض السل. ولا تذكر مانيا أبداً أن والدتها قد قبلتها أو داعبتها. ولاشك أن ذلك كان احتراساً من والدتها التى بدأت تستخدم أطباقاً خاصة بها للطعام وأدوات طعام مستقلة. غير أن الطفلة الصغيرة كانت تتوق بشدة لبعض العواطف وإظهار المشاعر، وكانت تشعر بألم للتباعد بينها وبين والدتها. كانت الأعراف والتقاليد فى ذلك الزمان تفرض وجود هوة أو فجوة بين الوالدين والأطفال. فكان والداها يحظيان بكل الاحترام وتتم مخاطبتهما بصورة رسمية. وكانت مانيا تفعل ما يطلب منها ولم يكن مسموحاً لها أن تسأل ما هى علة والدتها.

ورغم ضيق الحال إلا أن فلاديسلاف استمع لنصيحة طبيبه وقرر إرسال زوجته بعيداً للاستشفاء فى سلسلة من الرحلات. أذعنت برونيسلافا للأمر بكل طاعة. وكان الشائع وقتها أن السل يمكن علاجه بالحياة فترة طويلة فى طقس معتدل أو فى الجبال مع الراحة وتناول المياه الشافية. كان ذلك قبل اكتشاف وعزل الـ «تيوبير كل باسيلوس» بتسع سنوات حيث بدأ الناس عندها يدركون أن السل مرض معد. وقد اصطحبت الأم ابنتها ذات العشر سنوات فقط زوسيا لعجزها عن دفع راتب ممرضة. وقد حاولت الطفلة بطريقة مضنية بذل العناية اللازمة تجاه والدتها كأى ممرضة كبيرة.

ومع طول فترة ابتعادها عن أسرتها أصاب اليأس برونيسلافا. وقد تبع الاستشفاء فى جبال الألب النمساوية بالقرب من إينسبورج رحلة أخرى إلى نيس. أخذت برونيسلافا تقلق من كثرة مصاريف علاجها. وعندما امتدت فترة الاستشفاء للعام التالى شعرت هى وزوسيا بحنين جارف للوطن. وفى نفس ليلة عيد الميلاد أعدت زوسيا المائدة تماماً كما تعودت فى بيتهم، وقد قطعتا الرقاقة المقدسة التى أرسلت إليهما من وارسو بالدموع فى أعينهما. صلت برونيسلافا فى ذلك المساء قائلة «ليجعل الرب هذا آخر عيد ميلاد بعيد عن عائلتى».

تحمل الأستاذ سكلادوفسكى مسئولية رعاية أطفاله الآخرين فى غياب زوجته، وقد فرضت الظروف أن يظل الوضع كذلك حتى نهاية تنشئتهم. وأصبح هذا الرجل فى معطفه الأسود الرث القائد الأعلى لقواته الصغيرة. كانت الأيام والأمسيات مخططة بعناية بين فترات للاستذكار وفترات للتمارين الرياضية. وقد استعادت مانيا ذكريات تلك الفترة قائلة أن أبسط الحوارات اليومية كانت تنطوى على دروس فى الأخلاق أو فى المواد الدراسية، وأن مجرد التنزه سيراً على الأقدام فى المناطق الريفية كان لغرض شرح ظاهرة علمية أو سر من أسرار الطبيعة، وكان غروب الشمس مدخلا لحديث حول التحركات الفلكية. ولما كانت الأم كاثوليكية غيورة فقد حفظ الأطفال كتاب العقيدة وكانت إحدى خالاتهم تصحبهم إلى الكنيسة كل أحد حيث



إن مجرد التنزه سيراً على الأقدام فى المناطق الريفية كان لغرض شرح ظاهرة علمية أو سر من أسرار الطبيعة



كانوا يصلون من أجل عودة امهم. وقد تلقوا تعليمات بأن يضيفوا إلى صلواتهم المسائية «أن تسترجع الأم صحتها».

غرس فلاديسلاف فى أطفاله الاعتزاز بالقومية البولندية والكراهية العميقة لروسيا العنصرية. وكانت مانيا تتوقف بصحبة أحد أصدقائها وهم فى طريقهم إلى المدرسة أمام نصب تذكارى أقامه القيصر ألكسندر الثانى بالقرب من ميدان سكونيا، حيث كان النصب يحمل لوحة مكتوبا عليها «إلى البولنديين المتمسكين بعاهلهم»، وعامدة متعمدة كانت تبصق على هذه الكلمات الكريهة. وعندما اغتيل القيصر بواسطة قنبلة فى سانت بطرسبرج رقصت مانيا وزميلاتها فى الفصل غبطة وابتهاجا.

كانت ليلة السبت تمثل فاصلا محببا للأطفال فى حياتهم المنضبطة الصارمة. فقد كان والدهم -الذى كان يجيد اللغات الروسية والفرنسية والألمانية والإنجليزية بطلاقة إلى جوار البولندية- يمضى الفترة ٧ إلى ٩ مساء فى القراءة بصوت مسموع لبعض الكتب مثل «دافيد كوبر فيلد» ويترجم ما يقرأه مباشرة إلى البولندية. وقد أثرت رواية قصة مدينتين بالتحديد فى مانيا حيث وجدت أن البطل قد وصل مستواه إلى صناعة الأحذية مثل والدتها.

كان كل الأطفال فى أسرة سكلادفسكى أذكياء متفوقين فى المدرسة إلا أن مانيا كانت أكثرهم ذكاء. وعندما كانت فى الرابعة من عمرها شاهدت كيف تجاهد أختها الكبرى برونيا لتقرأ فى كتابها، فما كان منها إلا أن التقطت الكتاب وقرأت بصوت مسموع الجملة الأولى دون أدنى تلعثم. ولما رأت الدهشة تعلو وجوه من حولها أخذت فى البكاء وقد أيقنت أنها قد اقترفت خطيئة لا تغتفر «لم أكن أقصد ذلك» قالتها مانيا بأنين وحزن «لكنها كانت سهلة جداً».

وبعد عدة سنوات قرأ أحد معارفهم قصيدة شعر على مسامعها فطلبت منه نسخة منها. قام هذا الشخص باختبارها فقال لها إنه سيقرأها لها مرة أخرى، وحيث إنه من المفترض أنها تتمتع بذاكرة جيدة فإنها بلا شك ستحفظها عن ظهر قلب. قرأ الشخص القصيدة، وانتحت مانيا جانبا فى إحدى الغرف وبعد نصف ساعة وقد كتبت القصيدة بالتمام والكمال.

كانت مانيا وأخواتها يذهبن إلى المدرسة فى شارع فريتا فى بادئ الأمر. وعندما بلغت مانيا السادسة والنصف انتقلت هى وهيلينا إلى مدرسة أقرب لمنزلهن. التحقت مانيا بالصف الثالث مع أن الكثيرات من زميلاتها فى الفصل كن أكبر منها بسنة أو سنتين. وكانت هذه المدرسة السابقة خاضعة للتفتيش والمراقبة الروسية بصورة أكبر من المدرسة السابقة، إلا أن مديرتها كانت من البولنديين الوطنيين المخلصين، واسمها مدام جافيجا سيكورسكا. وحتى تخضع المسئولين كانت المدرسة تحتفظ سرا بجدول مزدوج. وكان التلاميذ يعرفون جيداً أن كلمة «نبات» فى الجدول تعنى «تاريخ بولندا» وكلمات «دراسات ألمانية» تعنى فى الواقع «الأدب البولندى». وقد طورت المدرسة نظاما ذكيا بحيث إذا اقترب أحد المسئولين الروس يدق جرسا معينا يتم جمع الكتب البولندية لتختفى من الفصل بينما تأخذ الكتب الروسية مكانها. وقد اختيرت مانيا ذات يوم كأذكى تلميذة فى الفصل للإجابة عن أسئلة المفتش الروسى بلغتها الروسية السليمة. وكان آخر الأسئلة «من هو قيصرنا المحبوب» تمهلت مانيا ثم أجابت بصوت يكاد يختنق «إنه القيصر ألكسندر الثانى». وعندما أغلق الباب خلف المفتش انفجرت باكية «لخيانتها». لكنها قد بدأت تتعلم أن إظهار مشاعرها الحقيقية قد يتسبب فى حدوث كارثة.



كان والدها، الذى تكاد تعبده، يعيش حياة مزدوجة هو الآخر، فكان يحاضر طلابه من العلماء البولنديين ليغرس فيهم الفخر والاعتزاز بتراثهم. كان المفتش العام للمدرسة فى شارع نوئوليبكى روسيا، وقد اكتشف النشاط «الهدام» للأستاذ سكلادوفسكى. فُصل الأستاذ سكلادوفسكى فى التو فأصبح بلا راتب وبلا مسكن، فى الوقت الذى قررت فيه برونيسلافا أنه دون النظر لحالتها الصحية فإن عليها العودة لبيتها. وعندما رأت مانيا والدتها وأختها الكبرى مرة أخرى اندفعت فى أحضان زوسيا لكن أمها مدت ذراعها وراحة يدها مفتوحة حتى لا تقترب مانيا منها. توقفت الطفلة ذات السنوات الست لوهلة حيث تعرفت بالكاد على طيف المرأة التى كانت تسعل سعالا متقطعا. وفى هذا الأحد ركعت مانيا على ركبتيها وصلّت داعية لربها أن يأخذ حياتها فقط لتشفى والدتها.

استأجرت الأسرة بيتا، وافتتح فيه الأستاذ سكلادوفسكى مدرسة داخلية للبنين من الضواحى، ليتدبر تكاليف المعيشة. كان عدد التلاميذ فى البداية خمسة ثم أصبحوا عشرة ثم عشرين. ولم يكن فى هذه الأحياء سوى القليل من التعليم الخاص وكانت مانيا تنام على أريكة فى غرفة الطعام وتستيقظ كل صباح فى السادسة لتعد المائدة للإفطار.

أخذت برونيا وزوسيا عدوى التيفوس من أحد الطلاب المقيمين فى يناير سنة ١٨٧٤. كان التيفوس ينتشر فى الأماكن المزدحمة لأن عدواه كانت تنتقل بواسطة القمل والبراغيث من الفئران، وكانت هذه البراغيث والقمل تجد مأواها فى الملابس القذرة والأسرة والفراء. وقد قضت موجتان سابقتان من وباء التيفوس فى وارسو وحدها على الآلاف من الناس. كانت شقيقتا مانيا ترتعشان من الحمى بينما كان سعال أمها فى الغرفة المجاورة يسمع ليل نهار. وبعد مرور اثنى عشر يوما استعادت برونيا صحتها. وبعد أسبوعين توفيت زوسيا ذات الاثنى عشر ربيعا فقط والرفيقة العزيزة لأمها. أقعد المرض برونيسلافا عن وداع ابنتها حتى مثواها الأخير فى المقابر، لكنها وقفت فى نافذة البيت أثناء عبور موكب الجنازة بجوارها. ارتدت مانيا المعطف الأسود الطويل الذى كان يخص أختها المتوفاة وسارت خلف التابوت فى حالة ذهول.

وفى مايو سنة ١٨٧٨ استسلمت برونيسلافا للسل. وقد كتبت مانيا أن أمها وهى فى الثانية والأربعين من عمرها قد قضت نحبها بفعل الموت المفاجئ وفقد ابنتها والمرض القاتل «ذهبت مانيا إلى الكنيسة فى الأحد التالى كعادتها. وعندما ركعت فكرت مليا وقررت أنها لن تؤمن أبدا بعد ذلك بالنزوع إلى الخير.

ظهر الألم الذى تسبب فيه فقد هاتين الاثنتين فى ما أطلقت عليه مانيا «الاكتئاب المدوى» وبداية نسق من الاكتئاب ظل يلازمها طوال حياتها. وفيما بعد عندما أصبحت مدام كورى وسلطت عليها الأضواء والشهرة العالمية، أصبحت أقل صراحة وأطلقت على هذا الأمر «التعب» أو «الإرهاق» أو «متاعب أعصابى». وقد يقيم الأخصائيون اليوم حالتها على أنها اضطراب أساسى متكرر مسبب للاكتئاب، والذى يحدث عادة نتيجة الحزن أو الفقد. مضت شهور بعد ذلك قبل أن تتوقف عن اللجوء بهدوء إلى مكان منعزل للبكاء، الأمر الذى كانت تخفيه عن عائلتها وزميلاتها فى المدرسة.

استمرت فى دراستها وأداء واجباتها المدرسية دون أى علامة للحزن وظلت على القمة فى فصلها. وبعد وفاة والدتها بفترة قصيرة بدا أن مانيا أخذت تستغرق فى القراءة بالساعات وأحيانا بالأيام. كانت قليلا ما تتحدث. وكانت الطريقة الوحيدة لبقائها هى أن تستبعد تماما هذا العالم وتركز بوسواس مُلح على موضوع واحد، وبذلك تتمكن من إيقاف شعورها بالأسى والحزن. وبعد سنوات من ذلك تذكرت إيف أنها رجعت فى أحد الأيام فى الثالثة صباحا فشاهدت الضوء ينبعث من غرفة والدتها وعندما دخلت إيف الغرفة وجدت أمها مستغرقة تحدق فى بعض الأبحاث العلمية حتى أنها لم تنتبه لوجود ابنتها. كان الاكتئاب والعزلة مطبوعين عليها منذ الطفولة وحتى أصبحت مدام كورى.

وفى نهاية العام الدراسى سنة ١٨٧٩ قامت مدام سيكورسكا مديرة مدرسة مانيا بزيارة للأستاذ سكلادوفسكى لتخبره بأن مانيا، على الرغم من تفوقها على نفسها إلا أنها كانت حساسة بشكل غير عادى ويخشى على عقلها. واقترحت عليه أن يتريث عاما آخر قبل أن تلتحق بالصف التالى من المدرسة. لكن والدها فعل عكس ذلك بالضبط وبما أن المدارس التى يديرها الروس فقط هى المؤهلة

كان كل الأطفال فى أسرة سكلادفسكى أذكياء متفوقين فى المدرسة إلا أن مانيا كانت أكثرهم ذكاء



للدراسة الجامعية، فقد قام بنقل ابنته من مدرسة سيكورسكا ومن الجو الذي أحاط بتنشئتها، وسجلها في مدرسة عليا روسية (جيمنازيم) رقم ٣. كان مستوى التعليم في هذه المدارس، والتي كانت في الأصل ألمانية رفيعًا، غير أن الروس بذلوا كل جهدهم لمحو الثقافة البولندية، الأمر الذي تسبب في القلق والاضطرابات. وطوال سنوات الدراسة شعرت مانيا بشدة كيف يعامل المدرسون الطلاب البولنديين كأعداء. وقد كتبت مانيا أنها كطفلة كانت عندما تشعر أحيانًا بالغضب أو العزلة أو تجبر على الكذب «ترغب في الخربشة بأظافرها مثل القطة». لكنها الآن أصبحت تتمرد بطرق أكثر هدوءًا». وعندما قام أحد المعلمين بتوبيخها لاستعلائها قائلا: «إنني أشعر وكأنك تنظرين إلى من أعلى»، أجابت مانيا، والتي كانت أطول من المعلم مغلفة غضبها ببعض من الفكاهة «في الحقيقة ليس في الإمكان أن أفعل أي شيء آخر».



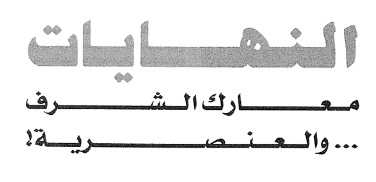
حقق الأطفال في أسرة سكلادوفسكي واحداً إثر الآخر توقعات والدهم في التخرج من الأوائل مع كل درجات الشرف فيما عدا هيلينا التي جاء ترتيبها الثانية في فصلها. شعرت بقنوط واكتئاب لأنها لم تحقق آمال والدها. أما مانيا سالومي سكلادوفسكا فقد تخرجت من المدرسة العليا الحكومية وكانت الأولى في فصلها، وحصلت على الميدالية الذهبية كأفضل طالبة سنة ١٨٨٣، وكانت في الخامسة عشرة من عمرها.

وبعد سنوات من التوتر والاجتهاد لتكون الأفضل، وبعد سنوات من الخداع وكبت مشاعر الغضب، وبعد القنوط واليأس سقطت مانيا مصابة بانهيار عصبي شامل. أخذوها إلى سريرها في غرفتها المظلمة. لم تكن تتحدث وكانت تأكل القليل فقط وأخيرًا تنبه والدها لما حدث فقرر إرسالها إلى أقربائهم في الريف لتستعيد صحتها واتزانها. وهكذا بدأت تلك السنة التي ستصبح أكثر السنوات سعادة وروعة في حياتها.

كان كل من آل بوجوسكي وآل سكلادوفسكي ينتميان لعائلة ممتدة، وكان البعض من أقاربهم قد تمكن من الاحتفاظ بقصورهم وببعض ثرواتهم. أمضت مانيا الجزء الأول من الصيف في الجنوب في بيت أحد أخوالها من آل بوجوسكي. وقد كانت واهنة ومكتئبة في البداية لكونها ستمضي الوقت في الراحة فقط، إلا أنها سرعان ما بدأت تستعيد روحها الطيبة. هجرت مانيا كتب العلوم وأصبحت تقرأ الروايات وتصطاد الأسماك وتجمع الفراولة البرية برفقة أبناء خالها. بالأطواق وبكرة الريشة وبلعبة المسَّاكة، وقد أخذت تستمتع بالكثير من الأشياء المماثلة الخاصة بالطفولة». أعطاها أقاربها ألبوماً للرسم فرسمت فيه أمورًا عظيمة وأخرى مضحكة. وفي أحد الاسكتشات رسمت كلب العائلة وهو يأكل من طبقها. كتبت مانيا «كنت أضحك أحيانًا على نفسي وأنا أتأمل حالة الغباء الشامل التي أنا فيها براحة حقيقية». لقد عاشت الطفولة التي لم تعشها أبدًا من قبل.

قامت مانيا في شهر نوفمبر بزيارة خال آخر كان يعيش في منطقة جنوبية ابعد تقع على أعتاب تلال كارباتيان. وكان خالها وأحد أبنائه عازفي كمان موهوبين. وكان هذا المكان هو الآخر حافلا بالسعادة والموسيقى والكتب والفن. وعندما بدا أن كل المرح قد قارب على الانتهاء قامت إحدى تلميذات والدتها السابقات التي تزوجت زوجاً غنياً، قامت بدعوة كل من مانيا وهيلينا إلى ضيعتها الريفية الواقعة إلى الشمال الشرقي من وارسو. كانت الحفلات في هذه الضيعة أكثر ثراء وأكبر من تلك التي كانت تقام في بيوت أخوالها، وقد تذكرت ذلك هيلينا قائلة «لقد مضى الوقت بسرعة مثل الحلم لكن ذكراه ظلت ماثلة للأبد».

وبعد سنوات أخبرت ماري ابنتها إيف عن هذه السنة السحرية حيث أغرقها أخوالها وخالاتها بهداياهم السخية، وحيث كانت الزلاجات الممتلئة بالشباب الضاحك تنتقل من قصر ريفي إلى قصر ريفي آخر ليلاً، لتقام الولائم والألعاب ورقص أحدث رقصات «المازوركا» عند الفجر. وقد أخبرت إيف كيف أنها استمرت ترقص في إحدى الليالي للدرجة التي جعلتها تتخلص من حذائها في القمامة لأنه ماعاد يصلح لشيء بعد ذلك. لم تستطع إيف تخيل ذلك إلا بصعوبة شديدة، فقد ولدت وأمها في السابعة والثلاثين ومات عنها والدها وهي ابنة أربعة عشر شهرًا فقط، لصرامة أمها وصمتها وانعزاليتها، وما تبدو عليه من فقدان المشاعر، تلك الصورة التي أصبحت عليها مدام كوري -الفتاة السعيدة المتفتحة على العالم والتي رقصت طوال الليل. ■





أحبت ماري مساعدها المتزوج وكشفت خطاباتها له كل شيء



■ في ليلة دافئة من شهر إبريل سنة ١٩١٠ حلت ماري على آل بوريل حيث كانوا في حفل عشاء غير رسمي مع آل بيرين. وبدلاً من الرداء الأسود الداكن الذي داومت على ارتدائه منذ موت بيير كانت ترتدي ثوباً أبيض على أحدث موضة وعلى وردة قرنفلية اللون مثبتة على خصرها. بدت وكأنها شخص آخر، المظهر العابس الجامد حل محله الرقة والسكينة. لدرجة أنه في صباح اليوم التالي سأل جين بيرين مارجريت بوريل «ماذا حدث لها؟».

وبالرغم من أنها أقرت بأنه لم يكن لديها «حياة اجتماعية»، حيث كتبت عن ذلك ابنتها إيف فيما بعد بأنه على الأغلب لم يعرفها أحد عن قرب. كان لماري مجموعة صغيرة من الأصدقاء المخلصين تتكون غالباً من هؤلاء الذين يتفهمون عملها؛ كان هناك مساعدها المتفاني في خدمتها أندريه ديبرين وجين بيرين الخبير في أشعة الكاثود وتحلل الراديوم وطبيعة الحرارة والضوء، وهنرييت زوجة جين التي كانت تشبه أختها برونيا، شخص هادئ وكانت تنادى ماري بضمير المفرد Tu الدال على الخصوصية، ثم عائلة بوريل، إميل الذي عين عميداً لمدرسة الإيكول نورمال سوبريير، ومارجريت إبنة بول آبل عميد العلوم بالسوربون. وكان من بين أصدقائها المقربين هيرثا آيرتون Hertha Ayrton العالمة المعروفة ومن المناضلات الأوائل في حركة حقوق المرأة بانجلترا. وبالرغم من أن هيرثا كانت تعيش بلندن إلا أن ذلك لم يؤثر على صداقتهما. كان كلاهما يعتبرن من خارج مجتمعهما: ماري بولندية، وهيرثا يهودية. وقد ساعدت المؤلفة جورج إليون (اسمها ماري آن إيفانز Mary Ann Evans لكنها اختارت أن تكتب تحت اسم مذكر مستعار) ماديا في تعليم هيرثا، وعندما كتبت رواية دانييل ديرونا استخدمت شخصيتها باسم ميرا اليهودية الموهوبة والمنبوذة. وسيصبح كل هؤلاء الأصدقاء متورطين فيما سيعرف لاحقاً بالفضيحة الكبرى».

كان بول لانجفين السبب فيما حدث. تلميذ سابق لبيير وصديق عزيز لعائلة كوري وتم اختياره ليحل محل بيير في EPCI. كان بول يصغر ماري بخمس سنوات، طويل القامة ذو مظهر عسكري وعيون نفاذة، حليق الشعر له شارب على الموضة. كان لانجفين فيزيائي وعالم رياضيات عبقري. توصل لانجفين في سنة ١٩٠٦ إلى النتيجة $E = mc^2$ (أي أن الطاقة تساوى الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء) إلا أن الطاقة تساوى الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء) إلا أن عالما آخر يدعى أينشتاين سبقه ونشر هذا الاكتشاف.

كتبت ماري لهنرييت بيرين إنها «تقدر تماماً الذكاء الفائق (للانجفين)».. لقد ساعدها في تحضير محاضراتها في السوربون وقام بتنقيح ما يعرضه. ووجدته صديقاً حنوناً، وسرعان ما بدأ يسألها فيما يمكن أن يفعله حيال ما أطلق عليه «غلطته الكارثية في الزواج» إلى جين ديسفوسيس ابنة واحد من الطبقة العاملة الذي يعمل في مجال السيراميك. أحس لانجفين بأنها تشده إلى الوراء وتعطله عن اكتشافاته العظيمة بسبب طبيعتها العنيفة وطلبها الدائم للنقود. كتب لانجفين أنه

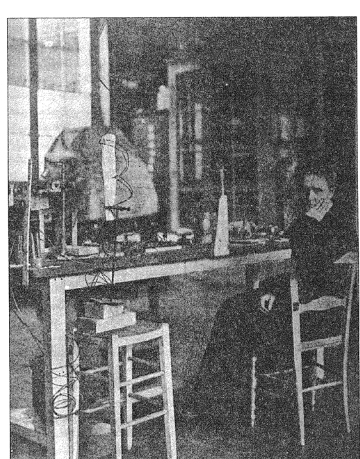
انجذب لماري، كما تنجذب إلى الضوء... بدأت أبحث للحصول على شيء من الرقة، من تلك التي حرم منها في بيته». رحبت جين ديسفوسيس لانجفين بماري بمنزلهم وتعرفت ماري على أطفالهم الأربعة. وفي ربيع سنة ١٩١٠ اشتكت جين لماري من قسوة بول تجاهها وعنفته ماري لذلك. وفي المقابل كشف لها بول عن جرح عميق لم يلتئم بعد بسبب تحطيم جين زجاجة على رأسه.

يأتي كل ما نعرفه عن العلاقة بين كوري ولانجفين مما ذكره أصدقاؤهما وأيضاً، وبالأخص من الخطابات التي كتبتها ماري لبول والتي سرقها مخبر خاص وظفته زوجته لانجفين، من مكتب في شقة صغيرة كان يستأجرها زوجها بالقرب من السوربون. وبحلول يوليو سنة ١٩١٠ أظهرت هذه الرسائل أن ماري وبول كانا عاشقين. ونرى في هذه الرسائل أن بول صديق وتوأم روح وشريك هام في مجال العلوم الذي ربما يحل محل بيير ربما تكون فرصة ثانية قد سنحت لماري لتعيد الأيام الجميلة التي كانت تعرفها.

وبهذه الرغبة المتقدة كتبت ماري لبول:

إنه سيكون شيئاً عظيماً إذا اكتسبنا الحرية ليرى كل منا الآخر كلما سمحت لنا ظروف عملنا لنعمل معا ولنتنزه أو نسافر سوياً عندما تسمح الظروف. هناك ترابط عميق جداً بيننا يحتاج فقط إلى ظروف حياتية موائمة لينمو.. المشاعر التي قادت كلا منا تجاه الآخر قوية جداً... ما الذي يمكن ألا يأتي به هذا الإحساس؟.. إني أعتقد أننا نستطيع الوصول لكل شيء من خلاله: العمل الجيد سمتنا نحن الاثنين، وصداقة متينة جيدة، وشجاعة في مواجهة الحياة وحتى أطفال الحب بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان جميلة.

وبالرغم من أن جين لانجفين قد تعايشت مع خيانة زوجها في الماضي إلا أنها منذ اللحظة الأولى لهذه العلاقة مع ماري الشهيرة فقدت صوابها وهددت بقتل ماري. وفي التو حاول بيرين تهدئة جين إلا أنها وأختها انتظرتا في شارع مظلم بالقرب من شقة ماري. وعندما اقتربت ماري منهما أمرتها جين أن تترك فرنسا فورا وإلا ستموت. ارتعبت ماري وبدلا من أن تذهب إلى منزلها هربت إلى منزل آل بيرين. كتب جين بيرين عن تلك اللحظة «هذه المرأة الشامخة تقلصت إلى شيء تائه مثل وحش تم الإيقاع به». أخبر بول لانجفين ماري أن زوجته قادرة تماماً على القتل ونصحها أن تترك فرنسا لكنها رفضت. وفي النهاية تقرر ألا يرى كل منهما الآخر مؤقتاً. ولكن عندما غادر لانجفين وماري باريس لحضور المؤتمر العالمي للإشعاع والكهرباء أخبرت جين لانجفين أختها أن الرحلة ما هي إلا ستار لإخفاء علاقتهما، وجددت تهديداتها متوعدة بأنها ستكشف علاقتهما. عندما وصلت ماري إلى المؤتمر كان رذرفورد أول من لاحظ حالتها. كتب يقول «بدت مدام كوري منهكة جداً ومتعبة وأكبر من سنها كثيراً. إنها تعمل كثيراً مما يؤثر على صحتها. وعلى كل فهي كيان يثير الكثير من الشفقة» لكن ستيفان ماير Stefan Mayer الذي طور معياراً للراديوم خاصاً به كان أكثر تهكماً وأخبر رذرفورد أن هذه الصدمات العصبية الظاهرة والإرهاق الذي اضطرها أن تترك قاعة الاجتماع قد حدث فقط عندما أصبحت المناقشة على غير هواها.





بعد انتهاء المؤتمر عادت ماري وبول إلى باريس ثم لحقت هي بأطفالها في مدينة لاركوي على الساحل الشمالي البريتاني. وهو المكان الصيفي المفضل للعلماء والأساتذة (مما يطلق عليه على سبيل المزاح «حصن العلماء»). وكانت عائلتا بوريل وبيرين تقيمان هناك. أصبحت مارجريت بوريل صديقة ماري المفضلة ومحل ثقتها. وفي إحدى الأمسيات جذبت ماري مارجريت من يدها وأفضت إليها بتخوفها. فبالرغم من أنها مستعدة أن تلقى بنفسها في النار من أجل بول لانجفين إلا أنها تخشى من أنه قد يرضخ لضغوط جين ويهجر العلم لمهنة مربحة أكثر أو يصل إلى حالة من الإحباط.

«أنا وأنت أقوياء... أما هو فضعيف». وبالرغم من ذلك وتماماً كما فعلت مع كازيمير زورافسكي فدعت نفسها بأنها ستجد وسيلة ما ليكونا معا.

اعترفت ماري بحبها لبول وبالغت في حقيقة أنها تخاطر بمكانتها من أجله وربما يصل الأمر بها إلى الانتحار إذا لم تسر الأمور كما يجب: فكر في ذلك عزيزي بول، عندما تشعر بأنك أصبحت منزعجاً بسبب اعتقادك أنك أسأت إلى أطفالك، فإنهم لن يجابهوا أبداً ما سيجابهه بناتي المسكينات اللاتي قد يصبحن يتامى بين يوم وليلة إذا لم نصل إلى حل مناسب». وبشيء يفهم منه أنه لحظة من الغيرة حذرته من استئناف علاقته الزوجية مع زوجته لأنه إذا ما حدث وأنجبت طفلاً آخر فإن كليهما، سيحاسب حساباً عسيراً من كل هؤلاء الذين يعرفون بعلاقتنا وللأسف فإنهم كثيرون. فإذا حدث ذلك فإنه سيعني القطيعة المؤكدة بيننا... إنني قادرة أن أخاطر بحياتي ومكانتي من أجلك لكنني لا أستطيع تحمل هذه المهانة... فإذا أدركت زوجتك هذا فإنها ستقدم على هذه الخطوة».

تبع ذلك عدة رسائل إلى بول مشيرة إليه - بمزيج من القسوة والولع الذي يبين عدم حساسيتها - عن كيفية التخلص من زوجته» لا تكن ليناً معها عندما تبكي أو تذرف الدموع. تذكر المثل الذي يقول يبكي التمساح لأنه لم يستطع اقتناص فريسته. إن دموع زوجتك من هذا النوع» ثم تناشد لانجفين» عندما أعرف أنك معها تصبح ليال موحشة فظيعة. ولا أستطيع النوم. أنام بصعوبة لمدة ساعتين أو ثلاث، وأستيقظ بإحساس بالحمى ولا أستطيع العمل. افعل ما في استطاعتك لتنتهي من هذا الموضوع... إننا لن نستطيع العيش

على هذه الحالة» مارى التى تحايلوا وتوددوا إليها لتتزوج بيير الهادئ صارت ملتهبة ثم أنهت رسالتها قائلة:«عزيزى بول إنى أضحك إليك بكل ما أوتيت من رقة... سأحاول العودة إلى العمل بالرغم من صعوبة ذلك عندما يكون الجهاز العصبى متهيج بهذه الدرجة.

يبدو أن لانجفين متذبذب، ففى مرة سابقة انفصل عن زوجته المزعجة إلا أنه سرعان ما أخذ يتوسل إليها أن تعود إليه. لم يترك لانجفين زوجته ولم يتوقف عن رؤية مارى. ودار نقاش حاد بين أندريه وبيرين الهادئ بطبيعته وبين بول لانجفين عاتباً عليه بسبب صحة مارى التى أصبحت أكثر اعتلالاً. وبسبب تقلباتها العاطفية وشرودها فى العمل وقد أصبحت لا تمنح بناتها الكثير من العناية.

أصبح المؤلف أسوأ من ذى قبل حيث تلقت مارى مجموعة من الصدمات الواحدة تلو الأخرى. فبالحاح من أصدقائها، وربما لتجعل لانجفين فخوراً بها أعلنت تقدمها لشغل كرسى الفيزياء فى أكاديمية العلوم: أكثر الأماكن نفوذاً المجال العلمى فى فرنسا، حيث يلقى الأعضاء أبحاثهم، ويعقدون اجتماعاتهم وينالون منحاً ضخمة للبحث العلمى. كان المرشحون الآخرون لهذا الكرسى ضعفاء ما عدا إدوارد برانلى Edward Branly المخترع الذى كان له اليد الطولى فى مساعدة ماركونى فى التوصل إلى البرقيات اللاسلكية. وقع تصرف مارى كورى كالصاعقة على أعضاء هذه المنظمة عالية المستوى والتى يتسيدها الرجال وأفرزت تعليقات سلبية ليس من الرجال فحسب بل من النساء أيضاً اللاتى وجدن أنها تهدد أنوثتهن. كتبت الكاتبة ذات النفوذ جوليا دوديه» العلم عادة ليس للنساء» كما كتبت الممثلة الشهيرة مدام ماريا ريجنبير فى صحيفة الفيجارو» يجب ألا يحاول المرء أن يجعل المرأة مساوية للرجل» وأطلقت الصحيفة ذات الميول اليمينية وابلاً من النقد اللاذع ذاكرة أصلها البولندى ومواقفها المعادية للحرب. لم يكن ذلك إلا نذيراً لما هو قادم.

اجتمع أعضاء الأكاديمية يوم الاثنين الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩١١ ليدلوا بأصواتهم، وأعلن الرئيس أرماند جوتيه Armand Gautier أنه يرحب بالجميع ليدخلوا القاعة ما عدا النساء. وعند التصويت فى الجولة الثانية حصل إدوارد برانلى على ثلاثين صوتاً مقابل ثمانية وعشرين حصلت عليها مدام كورى. أرسل العديد من العلماء رسائل مواساة لها بسبب هذه الخسارة لكن المهم فى الأمر أن أشهر علماء فرنسا والحائزة على جائزة نوبل لم تستطع أن تلقى بأبحاثها فى الأكاديمية ولم تحاول أن تفعل ذلك أبداً بعد ذلك، ولكنها كانت ترسل بأبحاثها إلى المجلات العلمية مثل Comptes rendus.

وبحلول ربيع سنة ١٩١١ عاد بول ومارى للقاء مرة أخرى سراً حيث لم يستطيعا البقاء منفصلين، وكان اللقاء يتم فى شقة لانجفين بباريس، لكن مارى كانت قلقة لاعتقادها أن جين ترسل من يتتبع زوجها، ومن المحتمل أنها قد أرسلت ابنها الأكبر للتجسس عليهما. وكانت الرسائل شديدة الخصوصية قد اختفت فى فترة عيد القيامة من درج المكتب. وبعد أسبوع من سرقة الرسائل زار صهر جين لانجفين مدام كورى وأخبرها أن هذه الرسائل موجودة الآن فى حيازة مدام لانجفين وأنها تعد العدة لإعلانها. وفى ثورة غضب بسبب الرسائل المسروقة ترك بول المنزل ولكنه عاد مرة أخرى بعد أسبوعين. وفى يوم ٢٦ يوليو وبعد معركة مع زوجته غادر بول المنزل وبدأت جين فى إجراءات رفع قضية مدعية الهجر.

أرسلت مارى المنهكة والتى ترتعد من الخوف ابنتيها أيرين وايف إلى بولندا لزيارة آل دلوسكى ولحقت بهما فى نهاية الصيف ثم توجهت إلى بروكسل لحضور مؤتمر سولفاى Solvay لسنة ١٩١١. وكانت هذه المؤتمرات تجذب أعظم العقول العلمية وكان يمولها إرنست سولفاى Ernest Solvay وهو كيميائى من بروكسل محب للخير كان قد طور طريقة جديدة لصناعة كربونات الصوديوم.



ومرة أخرى كان بول لانجفين حاضراً وكذلك كل من جين بيرين وألبرت أينشتاين و هـ. أ. لورنتز وماكس بلانك وارنست رذرفورد وآخرين.

وفى لحظة مثيرة وأثناء المؤتمر تلقت مدام كورى برقية من لجنة نوبل تعلن أنها الفائزة الوحيدة بثانى جوائز نوبل لكن فى الكيمياء هذه المرة. وفى الحفل الذى تلا ذلك أثنوا عليها «لإنتاج عينات نقية كافية من البولونيوم والراديوم ولتقدير أوزانهم الذرية، تلك الحقائق التى أكدها علماء آخرون، ولعملها الجليل لإنتاج الراديوم كعنصر نقى.» وفى نفس اللحظة تقريباً وصلت برقية ثانية تفيد أن جين لانجفين قد بعثت برسائل مارى لبول إلى الصحف. تركت مارى المؤتمر على عجل لكنها كتبت على وجه السرعة قبل المغادرة رسالة قصيرة إلى رذرفورد تشكره على اختياره لها لعمل معيار الراديوم وأنها مقدرة لكل الاهتمام الذى أولاه إياها أثناء المؤتمر. وشرحت له أنها كانت تود مصافحته قبل المغادرة لكن مرضها لم يمكنها من البقاء.

عادت مارى إلى باريس وإلى السموم التى نشرتها الصحف عنها. وقال بولتوود الحقود «إنها تماماً كما تصورت البلهاء المقيتة!». أحاط الناس بمنزل مارى كورى وقذفوا بالحجارة نوافذه، فهربت بأطفالها إلى عائلة بوريل. نشرت وسائل الإعلام الكيفية التى شرحت فيها لبول بالتفصيل المطول كيف يمكن أن يتخلص من زوجته، واتهمتها بخرابة البيوت، وأنها امرأة فاسقة، وشيطانة بولندية ويهودية.

وقد ساعدت الصحف اليومية اليمينية البذيئة فى تلطيخ سمعة مارى كورى والإشارة فى طبعاتها لجائزة نوبل التى لم تلق إلا بالقليل من الاهتمام فى مجال العلوم. وبالرغم من احتجاج مارى وبول بأن الرسائل قد سرقت لكن رسائل الإعلام كانت مصرة على تحطيم هذا الرمز. وقد قدم الإعلام ذلك إلى المجتمع الفرنسى المنقسم على نفسه. فبعد نصف قرن، وبعد الهزيمة المهينة لفرنسا فى الحرب بين فرنسا وبروسيا والإبادة الهمجية للجنة باريس الثورية أصبح هناك خلاف سياسى فى فرنسا. والموضوع الوحيد الذى اتفقت عليه الغالبية هو رغبة الانتقام من الاحتلال الأجنبى وتلطيخ الشرف الذى حل بفرنسا. أصبح التعصب ضد السامية والشوفينية والخوف من الأجانب وكرههم هو السلاح الفعال فى يد اليمين القوى، حتى أنهم أطلقوا على جابرييل ليبمان الذى رفض أن يدين مدام كورى «اليهودى الذى اخترع التصوير الملون» وعلى جين بيرين الذى دافع عنها «وريفوسارد المتعصب» (فى موجة من العنصرية والعداء للسامية فى سنة ١٨٩٤ شرعت نفس وسائل الإعلام اليمينية فى تجريم القبطان اليهودى ألفريد دريفوس متهمة إياه خطأ بأنه جاسوس).

كانت أيرين بالمدرسة عندما أشارت زميلة لها إلى عنوان جريدة لوفر L'oeuvre الذى تناول الفضيحة. قرأت أيرين القصة وانفجرت فى البكاء. وصل دوبرين الوفى للمدرسة وأخذها إلى منزل آل بوريل. وفى حجرة ضيافة آل بوريل كانت مارى المرتعبة تجلس فى انتظار أطفالها. وعندما وصلت إيف قالت لمارجريت بوريل «ما» حزينة وتبدو مريضة بعض الشىء» ويبدو أن «ما» فى حاجة للملاطفة». أما أيرين الرزينة فجلست بالقرب من أمها التى تعشقها والتى كانت تجلس منكمشة فى أحد الأركان، وفى لحظة نادرة من إظهار العاطفة أخذت مارى تداعب شعر أيرين. وصل أيرين وتطوعوا لأخذ أيرين معهم إلى منزلهم لكنها رفضت بإصرار «لا أستطيع أن أترك ما». وأخيراً عنفوها أن تذهب معهم. وبالرغم من أن كل الاهتمام كان مركزاً على مارى كما هو متوقع إلا أن ابنتيها كانتا أيضاً تتألمان.

تحول بول آبل الذى شارك ديبرن فى تسليم جثمان بيير لمارى ضدها مثل الكثيرين من أصدقائها القدامى. ورتب مع مجموعة من الأساتذة من السوربون أن يطلبوا من مدام كورى مغادرة فرنسا. وعندما سمع آبل أن ابنته قد أخذت مارى لتعيش معها طلبها للحضور إلى شقته. وعندما وصلت مارجريت بوريل وجدت أباها فى ثورة عارمة. وقال لها «لماذا تتدخل فى أمور ليست من شأنها؟» ثم أعلن أنه سيقابل مدام كورى بعد ظهر غد ويطلب منها مغادرة فرنسا، وقد رتب لها كرسى فى بولندا. «وجودها فى باريس أصبح مستحيلا... لا أستطيع إيقاف البحر الذى سيغرقها».

وكما ذكرت مارجريت بنفسها أنها وقفت وهى ترتعش أمام أبيها الذى لم تجرؤ طيلة حياتها أن تعارضه أبدا. ثم استقامت فى وقفتها وأجابت «إذا استسلمت لتلك الحركة القومية البلهاء. وإذا أصررت على أن تغادر مدام كورى فرنسا... فإننى أقسم أنك لن ترانى أبدا إلى آخر يوم فى حياتى». آبل الذى كان يهم بلبس حذائه قذف بأحدها عبر الحجرة. ووراء كل هذا الغضب كان آبل يخشى أن«تنزلق» ابنته فى هذه الفضيحة ولكنه استسلم ووافق على تأجيل قراره.

لاحظت مارجريت أن شيئاً من كل هذا ما كان ليحدث لو أن مدام كورى كانت رجلاً. ومن المؤكد أنه لم يسأل أحد بول لانجفين أن يترك فرنسا أو حتى أدانوه. الكل يعلم أنه قد عرضها للتبنى. وعلى أى حال لم يرها أحد أبداً. وفى عام ١٩١١ وفى كل يوم ما عدا أيام عطلة نهاية الأسبوع تسجل محاكم باريس تسعة وثلاثين حالة خيانة زوجية. ومن بين كل مائة حالة ولادة يتم رصد أربعة وعشرين منها لأطفال غير شرعيين. وجريمة مارى فوق كل ذلك لم تكن مجرد عشيقة بل هى امرأة متحررة عندما كان أمثالها من النساء يشكلن تهديداً لكلا الجنسين. وبسبب الارتفاع المتزايد الذى وصل إلى معدلات غير مسبوقة لحالات الإجهاض شكلت الصحف اتحاداً يمنع نشر إعلانات القابلات اللاتى يقدمن«الخدمات المستترة». والأدهى من ذلك من الرسائل التى تظهر امرأة متحمسة: المرأة المحترمة تتقبل العملية الجنسية ولكنها لا تستمتع بها. وبالنسبة للرجال فإنهم يجدون متعتهم الجنسية خارج سرير الزوجية. واصلت الصحافة هجوماً يشبه انقضاض النسور على الجيف. وسارع كل من برونيا وكازيمير ولوسكى للوقوف بجانب مارس وكذلك جاك كورى للدفاع عنها. وبدا الأمر كله يأخذ شكل أوبرا هزلية، لدرجة أن كتب الصحفى اليمينى جوستاف تيرى أن لانجفين «شخص فظ وجبان». فتحداه لانجفين للمبارزة. كانت المبارزة أمراً غير قانونى فى ذلك الوقت ولكنها كثيراً ما تحدث. وبعد ترتيبات مستفيضة رفض تيرى أن يطلق مسدسه قائلاً إنه لا يريد أن يحرم فرنسا من واحد من العقول العظيمة. ولم يرفع لانجفين مسدسه بالمرة قائلاً «أنا لست سفاحاً». وانتهى الأمر عند هذا الحد.

وأخيراً وقعت مدام لانجفين على وثيقة الانفصال بعد أن نجحت فى إيلام مارى كورى أكثر مما كانت تتوقع وذلك دون الإشارة لمارى فى الوثيقة. وبعد ثلاث سنوات عادا وتفاهما واتخذا بول عشيقة غير معروفة. وبعد عدة سنوات وبعد أن أنجب طفلاً غير شرعى من معاشرة إحدى تلميذاته السابقات إيلين مونتيل Elane Montel طلب من مارى أن تجد لإيلين مكاناً فى معملها، وفعلاً تم ذلك. أصبحت إيلين بعد ذلك أستاذة فى الإيكول فورمال فى سرفنى. ■

الأنفلونزا الكبرى:

ويليام ماكنيل

ترفع منظمة الصحة العالمية درجة التحذير من انتشار أنفلونزا الخنازير إلى الدرجة السادسة. وتنتشر مقالات على الإنترنت تقول بأنه «لا وباء هناك». وأن المسألة كلها صنعتها شركات الأدوية. وتعلن وزارة الصحة في مصر عن وصول عدد الإصابات بأنفلونزا الخنازير إلى ٧١ (حتى كتابة هذه السطور). الأمر الذي يمثل خطرًا، أخذا فى الاعتبار أن وباء أنفلونزا الطيور كان قد استوطن مصر والتى سجلت أعلى معدل للوفيات بسبب هذا المرض فى العالم.

فى أرشيف «وجهات نظر» مقال نشر في عدد أغسطس ٢٠٠٤ يلخص القصة الملحمية التى كتبها جون باري عن هذا الوباء، عندما تفشى ما بين عامى ١٩١٨ و١٩١٩ واستحق أن يوصف بأنه الوباء الأكثر فتكًا فى التاريخ.

(المحرر)

[١]

رواية «جون بارى» عن وباء الأنفلونزا الذى تفشى ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩، وقتل من البشر أكثر مما قتلتهم بنادق وحراب الحرب العالمية الأولى، رواية رائعة مفعمة بالحياة زاخرة بالمعلومات ويتعين أن تثير اهتماماً غير عادى فى عام ظهور نوع فتاك من «أنفلونزا الطيور» ينتقل إلى البشر ويتفشى فى شرق آسيا وقد يكون على وشك اجتياح العالم على نطاق واسع كما فعل سلفه «وباء ١٩١٨». فى ذلك العام، لم يكن أحد يعرف سبب الوباء، الأمر الذى أدى إلى فشل جهود إيجاد الدواء. أما اليوم فإن المشتغلين بالطب، وكذلك هيئات الصحة العامة، فى وضع استعداد أفضل كثيراً عما كان عليه الحال عام ١٩١٨. إنهم يعرفون الآن طرق تحصين الإنسان ضد فيروس الأنفلونزا. رغم ذلك، ومع كل الخبرات والمهارات المتراكمة، يظل الشك قائماً فى قدرة المؤسسة العلاجية المعاصرة على تقديم المصل الضرورى، فى التوقيت الصحيح، وبالقدر الكافى، لإحباط زحف أمراض وموت مشابه لما حدث قبل ٨٦ عاماً.

The Great Influenza: The Epic Story of the Deadliest Plague in History

الأنفلونزا الكبرى: القصة الملحمية للوباء الأكثر فتكًا فى التاريخ

John M. Barry

Viking Books, 2004, 560pp

بترتيب مع:

The New York Review of Books

ترجمة: جمال إسماعيل

يروى «بارى» قصة الوباء فى فصول تبحر عبر أزمنة بعيدة وقريبة، وتفاصيل مثيرة لذكريات بداية تفشى الأنفلونزا فى ولايات أمريكية. يتعرض للمحاولات المعملية والجهود الحثيثة، وإن فشلت، لمجموعة من الأطباء الأمريكيين سعت إلى العثور على الجرثومة المسببة للمرض، بهدف إيجاد المصل المضاد للوباء الذى خمد فى نهاية المطاف وانحسر نتيجة عوامل خاصة بالدورة الطبيعية للجرثومة وتطورها، والعلاقة الأزلية ما بين الكائنات الحية والبيئة وارتفاع مستويات المقاومة داخل خلايا الدم عند الإنسان، والتغير المهم المفاجئ للمورثات، والذى يجرد الفيروس من خاصيته المميتة.

خمد الوباء لأسباب لم تكن مفهومة زمن تفشيه، ودون أى تدخل طبى يعترض عملية التفاعل الطبيعى بين الفيروس الطفيلى وجسم الإنسان. لكن رواية «بارى» تستفيد من الاكتشافات العلمية اللاحقة، وتستند إلى فهمه المتجدد المثير للإعجاب والذى يضفى تفرداً و«هيبة» على الصور التى يرسمها لـ «ديناميكية» العدوى والوباء، ووظيفة الفيروس ومحاولة الأطباء ومسئولى الصحة العامة مواجهة الخراب والتعامل مع الموقف. يرصد «بارى» الأخطاء ويبدى تقديره لـ«الجهد» ويعيد بناء دورة العدوى وطبيعة الوباء فى ضوء مستويات الفهم العلمى الحالية، ويقول إنه احتاج لكى ينجز كتاب «الأنفلونزا الكبرى» إلى ٧ سنوات، وهى ضعف الفترة التى توقعها لإنجازه، وإن بعض أسباب «التأخير» تعود إلى توسعه فى فصول الكتاب عندما قرر دراسة الأوضاع المؤسفة لصناعة الدواء الأمريكية قبل العام ١٩١٨ كى يتوصل إلى فهم أفضل للموقف الذى كان على العلماء والأطباء مواجهته عندما تفشى وباء الأنفلونزا فى ذلك العام. ويشير بارى إلى سبب آخر يكمن فى صعوبة الحصول على مادة مفيدة عن الوباء ويقول: «كان من السهل تتبع حكايات الموت. لكن اهتمامى الأكبر انصب على حكايات أولئك الذين حاولوا ممارسة بعض سيطرة على الأحداث. وكل من فعل ذلك كان فى عجلة من أمره، وفى حالة ارتباك شديدة إلى درجة أن أحداً لم ينتبه إلى ضرورة تدوين الأحداث وحفظها فى سجلات».

السجلات هى، بلا شك، أول ما ينهار تحت وطأة تفشى الوباء. وظنى إن عاملاً آخر له تأثيره فى هذا السياق ويتمثل فى وجود أسباب خاصة تدفع الذين نجوا من الوباء إلى قمع ذكريات معاناتهم. وهذا العامل يفسر، فى اعتقادى، ندرة الأرقام فى الذاكرتين العامة والخاصة عن وباء أنفلونزا عام ١٩١٨، رغم ضخامة الإحصاء الذى سجل حوالى ٦٧٥ ألف حالة وفاة فى الولايات المتحدة، وما بين ٢٠ إلى ٥٠ مليون حالة حول العالم، معظمها فى الأسابيع الاثنى عشر الأخيرة لعام ١٩١٨. إن كل من عاش تلك الأسابيع الأخيرة، وإلى أن دار الوباء دورته، خاض تجربة الخوف من الموت أو من السقوط مريضاً، أو عانى معاناة حادة مع المرض. لقد كنت من هؤلاء الناجين لكننى لا أتذكر شيئاً إذ كان عمرى وقتها ١٣ شهراً عندما سقطت أمى صريعة المرض فى شيكاغو. كانت حاملاً فى شقيقتى التى وضعتها فى الرابع عشر من ديسمبر ١٩١٨، قبل موعد ولادتها بأسابيع. أصيبت، ووالدى، بالأنفلونزا، وكان والدى خريجًا جامعيًا مفلسًا وجد نفسه، وأمى، وحيدين فى مدينة مشلولة وبلا أقرباء أو عون خارجى. لم يسجل والدى معاناتهما فى كتاب. ولم أسمعهما يتحدثان. فيما بعد. عما تبقى لديهما من ذكريات. بدت التجربة الأكثر رعباً فى حياتهما وكأنها تعرضت لمحو ذاتى منظم لكى يبقى ما جرى بالفعل، وصراعهما من أجل البقاء، مجهولاً بالنسبة لى. لكننى علمت من كتاب «بارى» أن وباء الأنفلونزا كان أقل فتكًا فى شيكاغو مع حلول شهر ديسمبر عام ١٩١٨، عما كان عليه بداية تفشيه داخل معسكرات الجيش بالساحل الشرقى والمدن القريبة. «أصيب الشرق والجنوب بالوباء مبكراً وبقوة أعنف من تلك التى أصابت الساحل الغربى.. وفى وسط البلاد كانت المعاناة قليلة». وهذا يفسر لى نجاة والدتى، وكذلك شقيقتى، رغم أن الأشهر الستة الأولى من عمرها كانت محفوفة بالمخاطر. وعندما لجأت أسرتى خلال الصيف إلى مسقط رأس أبى فى مزرعته بكندا، أنقذت الشمس المشرقة، ورعاية جدتى، أمى وشقيقتى من أهوال شهر ديسمبر. انزوت الأهوال بعيداً فى زوايا النسيان وبقيت النهايات السعيدة تعاد وتروى دون ذكر لتفاصيل آلام الوحدة والخوف واليأس والمعاناة.

لدى كل من عانى وشفى من وباء الأنفلونزا ذكريات مشابهة مقموعة. ويرى «بارى» أن كتاب الصحافة والدراما فى العشرينيات لم يذكروا إلا القليل عن معاناة البشر أيام الوباء. وأذكر أن الشخص

الرسالة الواضحة هى أن عودة انتشار الموت بفعل الأنفلونزا لاتزال قائمة رغم كل المعرفة العلمية المعاصرة، ورغم كثرة المنظمات العالمية المنوط بها مقاومة الأوبئة

قصة الجائحة

القصة الملحمية للوباء الأكثر فتكا فى التاريخ

الوحيد الذى تحدث معى عنه، فى المحيط الذى تربيت فيه، كان صبيًا مات والده فى معسكر للجيش. وما نقلته إليه أمه لم يكن فيه الكثير عن وباء الأنفلونزا بقدر ما فيه عن الحرب التى اعتبرتها سبب وفاة زوجها. الجديد عند «بارى» هو عثوره على ما يشبه رواية يوميات تسجل حالة الإصابة بالوباء فى كتاب بعنوان «فرس شاحب.. فارس شاحب» نشرته «كاترين آن بورتر» عام ١٩٣٩، وكانت نفسها ضحية المرض. وينقل «بارى» عن «بورتر» قولها: «... راحت تغرق وتغرق فى ظلمات عميقة. رقدت كحجرة فى قاع الحياة مدركة أنها لم تعد ترى أو تسمع أو تتكلم. لم تعد تشعر بأعضاء جسدها. انسحبت إلى نقطة بعيدة عن اهتمامات البشر ولم تتبين سوى لحظة احتراق وحشية فى بؤرة من كينونتها لعلها شكلت الدافع الوحيد وراء إرادة عنيدة لكى تقاوم الانهيار دون حراك أو مساعدة أو خطة...». هذه المشاعر تبدو زائفة بالنسبة لى فقد أصبت، فى الخمسينيات، بالتهاب رئوى (وهو القاتل الفعلى لمعظم ضحايا وباء الأنفلونزا). وربما شعرت وقتها بـ «قاع ظلمات وانسحابات» بورتر. لكننى لم أشعر بتلك «الإرادة المشتعلة» للحياة. فى المقابل، وبفضل «البنسلين» أصابنى الشحوب ورقدت فى حالة إغماء وصحوت فى اليوم التالى خائر القوى بدرجة لم أعرفها من قبل.

آلام الحمى تعقبها حالة إغماء، وبعدها إما أن نشفى أو نموت. وأظن أن هذا هو ما خبره معظم ضحايا وباء الأنفلونزا ما بين عامى ١٩١٨ - ١٩١٩. لا يوجد الكثير لكى يقال ويذكر. ولا يقول كتاب «بارى» الكثير عن كيف كان الحال عند الإصابة بالأنفلونزا الوبائية فى تلك الفترة. لكنه، وبصياغات أدبية غير عادية، وبراعة مثيرة للإعجاب فى عرضه لكل جديد فى علم الأوبئة، يقوم بعملية تنشيط قوية للذاكرة المعاصرة فى وقت قويت فيه التهديدات من أشكال جديدة لفيروس أنفلونزا مميت ظهر ويثير قلق المختصين والعامة على نطاق واسع.

[٢]

يعد وباء الأنفلونزا من أخطر الأوبئة التى تهدد البشرية. وتكمن خطورته فى أن الفيروس المسبب له يكون فى حالة تغير مستمرة خلال انتقاله ما بين الطيور والخنازير والكائنات الحية. وكل موسم جديد من مواسم «الأنفلونزا» يحمل تحديات جديدة للمختصين الذين عليهم أن يحددوا، وعلى وجه الدقة، نوع سلالة الفيروس التى يمكن استخدامها لإعداد المصل المضاد الملائم، وكذلك تحديد نوع الجرعات التى يمكن للملايين الأطفال والمسنين تعاطيها لمنع العدوى. ومواجهة هذه التحديات لا تزيل التهديد الذى يظل قائمًا ويتمثل فى أن كل نوع يظهر فجأة من فيروسات الأنفلونزا يكون على درجة من الاختلاف عن ما قبله، تجعله قادرًا على مقاومة المصل وكل المضادات الحيوية المتراكمة داخل أنظمة التحصين عند الطيور والخنازير والبشر.

وتتميز الفيروسات، كشأن كل الكائنات الحية، بقدرة على التحول والتغير واستمرار افتراسها . بلا رحمة . لخلايا أجسادنا . ونحن . كبشر . لدينا قدرات فريدة تمكننا من مقاومة أشكال هائلة لأنواع أخرى من فيروسات الأنفلونزا، إضافة إلى قدرة على استفزاز مصادر الطاقة الكامنة داخلنا . ونجد . فى المقابل . أن فيروس الأنفلونزا مقيد، بشكل محدود، ويعتمد . كما أشرنا . على إمكانية التحول المفاجئ والناجح إلى طفيل يصيب الطيور (المصدر الأساسى لتغذية الفيروس) كما يصيب مختلف الثدييات مثل الخنازير والبشر بالدرجة الأولى. هكذا يقدم «بارى» فى كتابه، أكثر التفسيرات وضوحًا لكيفية تمكن نوع بعينة من فيروس الأنفلونزا من اختراق الخلايا البشرية والتكاثر داخلها، وخلال ما يقرب من عشر ساعات، إلى آلاف الفيروسات المنبعثة من الخلية الميتة والمستعدة القادرة على تكرار الدورة المميتة.

أوضح بارى كيفية تغير الفيروس عبر ما يسمى بـ «تحول الجسم المضاد» وبصياغات دقيقة ومحكمة وأسلوب بسيط يسهل فهمه. فالسرعة التى تتكاثر بها فيروسات الأنفلونزا وتنتشر بنجاح داخل أجسادنا هى التى تزيد من وطأة المرض وشدته. ورغم قدرة الأجسام المضادة، داخل الجسد البشرى، على كبح هذا التكاثر، إلا أن نوعًا ثانويًا من البكتيريا يغزو الحنجرة والرئة ويتكاثر ويكون القاتل الفعلى لمعظم ضحايا الأنفلونزا.





يسوق «بارى» فى كتابه ملاحظات كثيرة وجيهة حول انعكاسات سلبية لحالة التعبئة الأمريكية النشطة فى الحرب العالمية الأولى، على وباء عام ١٩١٨. فى مقدمة هذه الملاحظات أن الآلاف من الجنود الصغار كانوا أكثر عرضة للعدوى عندما فرضت التعبئة للحرب تكدسهم بالآلاف داخل معسكرات ضيقة وعشوائية. هذه الحقيقة كانت معروفة لمجموعة صغيرة من الأطباء الذين تتبع «بارى» تاريخهم المهنى مثل ويليام هنرى ويلش، سيمون فيلكستر، ويليام كراوفورد جورجاس، ويليام بارك، أوزوالد أفيرى، وبول لويس. بعض هؤلاء، وخاصة جورجاس، ويلش، وفيلكستر، كانوا فى وضع سمح لأصواتهم المحذرة بأن تصل إلى القيادات لكن ضرورات الحرب، الحقيقية أو المبالغ فيها، أدت إلى تجاهل جهودهم الرامية إلى عزل ومحاصرة المرض الوبائى فى بداية تفشيه. وتفيد إعادة ترتيب الإحصاءات بأن عدد الجنود الذين لاقوا حتفهم بسبب العدوى أكثر من عدد هؤلاء الذين قتلتهم إصابات الجروح. كما أن الأمصال المضادة لأمراض مثل التفوئيد والكوليرا، والتى جاءت ثمرة تطورات علم الجراثيم عام ١٩١٧، هى التى ساعدت على نجاة ملايين البشر داخل الخنادق على الجبهة الفرنسية، فى وقت كان فيه الجنود الروس يموتون بالتيفوس وأوبئة مماثلة، على الجبهة الشرقية لتلك الحرب البعيدة كان الطبيب جراح كراوفورد جورجاس يعرف ذلك جيدًا عندما عين برتبة جنرال بالجيش الأمريكى بعد أن ذاع صيته لنجاحه فى

السيطرة على وباء الحمى الصفراء فى هافانا ومنطقة القنال (فى كوبا). لقد عمل جورجاس على إنتاج وتخزين كميات كبيرة من الأمصال والمضادات الحيوية والمحاليل. رغم ذلك، وعندما تفشى وباء الحصبة فى ولايتى جورجيا وتكساس ما بين سبتمبر ١٩١٧ ومارس ١٩١٨، تبين أن استعداداته لم تكن كافية وتسجل الإحصاءات ٥ آلاف و٧٤١ حالة وفاة بالحصبة فى معسكرات الجيش الموبوءة. لكن هذا الرقم سرعان ما تضاءل أمام أرقام ضحايا هجوم الأنفلونزا الذى بدأ فى الشهر الذى خمد فيه وباء الحصبة. ففى مارس ١٩١٨ بدأ وباء الأنفلونزا يتفشى فى معسكر «فنستون» بولاية كنساس. كانت الوفيات قليلة فى البداية، ولم يبدأ الاهتمام الواسع المشوب بالخوف إلا فى شهر يوليو عندما حصدت موجة ثانية من الوباء المزيد من الأرواح مع ظهور أعراض حادة تشير إلى أنها أنفلونزا غير عادية، وتزامن تفشيها فى كل من برست بفرنسا، فرى بورت بسيراليون، وبوسطن ماستشوستس. وسرعان ما راح ينتشر فى أنحاء العالم تحمله السفن والطرق الحديدية ليصل ذروته فى سبتمبر وأكتوبر ثم يبدأ فى الانحسار تدريجيًا بعد توهجات متواترة.

يُرجع جديد الأبحاث نشأة وباء أنفلونزا عام ١٩١٨، داخل الولايات المتحدة على الأقل، إلى سلالة خبيثة لفيروس أصاب بعض أهالى ريف كنساس فى فبراير من ذلك العام، وأن العدوى انتقلت إلى معسكر «هاكسل» بواسطة ثلاثة رجال طُلبوا لأداء الخدمة العسكرية فى ذلك الشهر وقبل بداية موسم الحصاد فى كنساس. ونحن نعرف أن نشأة وباء أنفلونزا الطيور الجديد وتفشيه (بداية العام الجارى) كانت فى ريف شرق آسيا. ففى الريف يعيش الإنسان عادة على قرب شديد من الطيور والخنازير.

المصدر الأكيد للوباء القديم (١٩١٨) لم يتحدد بعد. لكن «بارى» ركز انتباهه على سلسلة أحداث مترابطة ومنتقاة عن مسار الوباء وانتشاره فى الولايات المتحدة وبعض أجزاء من العالم. وقد لوحظت أهم إصابات الوباء مع نهاية أغسطس وخلال الأيام الأولى من سبتمبر فى معسكر ديفنس بولاية ماستشوسيتس حيث تكدس ما يقرب من ٤٥ ألفَ رجل فى المعسكرات العشوائية وسجلت أيام الذروة ما يقرب من ألف و٥٤٣ إصابة، وحوالى ٢٠٠ حالة وفاة كل يوم. كان الأطباء والممرضات الأكثر عرضة للعدوى، وسقط العديد منهم بين مرضى وموتى. وسرعان ما انهار مستشفى المعسكر وأعلن المتحدث الرسمى له، يوم ٢١ سبتمبر، أنه لن يُسمح بدخول المزيد من المرضى مهما كانت حالاتهم. كادت الرعاية الصحية تنعدم تمامًا إلى أن ظهر الدكتور ويليام هنرى ويلش على مسرح الأحداث باعتباره «البطل الأمريكى» الرئيسى الذى أنشأ مختبرًا علميًا للدواء، على الطريقة الألمانية، ووصفه بارى فى كتابه بأنه «زعيم الحركة التى أوجدت أكبر مؤسسة علمية للدواء، وربما أعظم مؤسسة علمية فى العالم كله». وقت ظهور الدكتور ويلش كان أكثر من ستة آلاف جندى قد حشروا داخل المستشفى صمم لاستيعاب ما لا يزيد على ٢٥٠٠ مريض. و«اختفت الممرضات وتزايدت المخاطر مع تزايد الأمراض. أنوف وآذان نازفة، وجوه زرقاء، ورئات محطمة بصور غير معهودة، جنبًا إلى جنب مع جثث الموتى المتراكمة كالحبال والأخشاب». هذه الصور الدامية اقنعت ويلش ورفاقه بأن «هذا لابد أن يكون نوعا جديدا من العدوى أو الطاعون». لكن ويلش، وبعض العلماء، سرعان ما تخلوا عن هذا الاعتقاد وتوصلوا إلى أن سبب الوباء يكمن فى نوع خبيث جديد من الأنفلونزا مركب من «تشكيلة» من الأوبئة الأخرى. وبقى السؤال يبحث عن إجابة محددة: ما هو سبب وباء الأنفلونزا؟

أوضحت أبحاث حديثة، فى مجالات وباء السل وأوبئة بكتيرية أخرى، أن معرفة الوباء تتطلب أخذ مسحات من الأغشية المخاطية للمرضى والموتى، ثم محاولة إنماء البكتيريا العالقة بتلك المسحات فى المختبرات على أمل تحديد هوية الكائن الحى المسئول، أو المسبب للمرض. وتستند هذه النظرية إلى فرضية أن كائنًا شديد الدقة، متناهى الصغر، لا يرى إلا تحت المجهر ويدعى «الفيروس المترشح»، ربما يكون مسبب المرض. وكان الدكتور لويس، أهم أبطال رواية «بارى» ميالاً إلى هذه النظرية خاصة وقد أثبت من قبل أن فيروسًا مشابهًا يكمن وراء «شلل الأطفال». لكن تسمية المسبب غير المرئى باسم جديد دون تحديده، تعد أمراً شديد الشبه بأن نرجع سبب مرض ما إلى «بخار عفن منبعث من مستنقعات»! وهذا هو ما فعله أكثر أطباء أوروبا إطلاعًا، فيما قبل الثمانينيات، عندما أثبت الطبيب الألمانى روبرت كوتش، نظرية «الجرثوم المنافس» وأعلن أن أنواعًا محددة من البكتيريا الدقيقة التى يمكن رؤيتها تحت المجهر، هى التى تتسبب فى وبائى السل والكوليرا. تمكن كوتش من تطوير طرق إنماء هذه البكتيريا فى معمله ثم قتلها وإعداد أمصال مضادة. ولا يمكن لهذه الخطوات أن تتم طالما بقيت الفيروسات غير مرئية. لهذا لم يكن أمام أطباء وعلماء عام ١٩١٨ إلا تركيز جهودهم الساعية إلى إيجاد علاج لوباء الأنفلونزا، على ضرورة اكتشاف البكتيريا العضوية المسئولة عن الوباء. وفى ألمانيا، عندما تفشى نوع بسيط من وباء الأنفلونزا، أعلن طبيب محترم يدعى ريتشارد بفيفر أنه اكتشف نوعا جديدا من هذه البكتيريا قال إنها تنمو داخل حناجر المرضى وتسبب ما أسماه بـ «الأنفلونزا البكتيرية». ويبدو أن الدكتور بفيفر ظن أن موقعه كمدير لمعهد برلين للأمراض الوبائية سيجعل «اكتشافه» جديرًا بالتصديق. إذ إن العثور على تلك البكتيريا الجديدة فى حناجر المصابين بالأنفلونزا كان أمرًا شديد الصعوبة. إضافة إلى فشل د. بفيفر فى إيجاد الوسائل المعملية الكفيلة بإنماء هذه البكتيريا ومحاولة إعداد أمصال مضادة للمرض.

ومن المؤكد - علميًا - أن ما حدث عام ١٩١٨ هو أن مجموعة متنوعة من البكتيريا غزت حناجر ورئات الأشخاص الذين تحللت أو دمرت أغشيتهم المخاطية نتيجة إصابتهم بفيروس الأنفلونزا الخبيث. هذا الفيروس الذى أحكم سيطرته وأحدث تلفيات وردود أفعال لأنظمة المناعة داخل جسم الإنسان، وغمر الرئة بخلايا ونفايات فيروسية. هذه هى الأسباب - المرجحة - وراء معظم الوفيات. أما بكتيريا الدكتور بفيفر فقد ظلت غير واضحة إلى أن تحسنت وسائل الفحص المعملى وتم اكتشافها فى مسحات أغشية مخاطية، الأمر الذى دفع د. بول لويس إلى التخلى عن فكرة وجود فيروس واحد وراء العدوى واللحاق بالفريق الذى يعتقد أن بكتيريا د. بفيفر هى المسبب للمرض. لكن هذا الاعتقاد انتهى بإعداد مصل يستفيد من جثث الموتى لكنه عديم الجدوى فى مكافحة الأنفلونزا. عدم فاعلية هذا اللقاح، وكل جهد بذل فى إطار نظرية بفيفر، أنعش من جديد نظرية الفيروس الواحد إلى أن جاءت الأربعينيات بالمجهر الإلكترونى القادر على أن يجعل الفيروس مرئيًا وأصبح من الممكن تمييز مختلف الفيروسات ودراسة سلوكها. لقد كان على الفهم المعاصر لفيروس الأنفلونزا، وقدراتنا الحالية على إعداد المصل المضاد، أن ينتظر اختراع المجهر الإلكترونى. ويقودنا الحديث إلى جهد مواز بذل ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩ وكان أكثر نجاحًا فى إيجاد المصل المضاد للالتهاب الرئوى رغم أن فاعلية هذا المصل كانت مقصورة على التعامل مع بعض سلالات الجراثيم التى تصيب الرئة، وأدت صعوبة تصنيعه إلى إنتاج كميات ضئيلة منه لم تكن متوفرة إلا قبل النهاية «الطبيعية» للوباء. رغم ذلك، وكما يقول «بارى» فى كتابه، تبين أن تلك الأبحاث والتجارب التى أجراها د. أوزوالد حول جراثيم الرئة هى التى قادت عام ١٩٤٣ إلى الاكتشافات الأولية



للحمض النووى DNA فى التركيب الوراثى.



حكايات «بارى» عن بكتيريا الدكتور بفيفر وجهوده المعملية لإيجاد علاج للإنفلونزا، حكايات زاخرة بالمعلومات وتنويرية يرويها بإعجاب ويضفى أبعاداً درامية فى تناول كل جهد لكل عالم أو طبيب من أبطال روايته. رغم ذلك يعانى كتابه من أوجه نقص تجعل روايته عن وباء الأنفلونزا غير شاملة، ركز بارى على ما حدث داخل الولايات المتحدة لكنه لم يخبرنا، عملياً، إلا بما حدث فى مكانين فقط بـ الموقف الكارثى فى معسكر ديفنس بولاية ماستشوستس والذى اقترن برواية أطول عما حدث فى فلاديلفيا. قفز بارى فوق مدن أخرى مثل نيويورك وبوسطن حيث كان للوباء القدر نفسه من الشلل والفتك.

أما إشاراته إلى تفشى الوباء فى أجزاء أخرى من البلاد فقد جاءت متناثرة وشحيحة. ولم يقل «بارى» شيئاً عن أوروبا. وما قاله. بالفعل. حفل بمغالطات ناجمة عن رغبته فى التعظيم من خطر الأنفلونزا. يقول. على سبيل المثال. إن الهجوم الألمانى فى ربيع عام ١٩١٨ ربما يكون توقف بسبب تفشى الأنفلونزا وأن «القائد الألمانى» لودندورف نفسه «لام الوباء الذى أفقده المبادءة». ثم يتراجع قائلاً إن لودندورف ربما يكون اتخذ من سقوط جنود الحلفاء مرضى بالأنفلونزا ذريعة أو حجة لوقف الهجوم.

وفى السياق نفسه يأتى قول «بارى» أن هجمة أنفلونزا فى عام ١٩٢٠ «أضعفت عقل وجسد الرئيس ويلسون إلى درجة دفعته إلى إنهاء صراعه مع كليمنصو ولويد جورج حول شروط معاهدة فرساى للسلام».

هكذا يحمل بارى الأنفلونزا مسئولية قرارات سياسية وحربية من المؤكد أنها تأثرت باعتبارات أخرى أكثر إلحاحاً. كذلك عانى كتاب بارى من قصور ملحوظ فى تصويره لمدى وحجم تفشى الوباء فى بقية أنحاء العالم. جملتان فقط هما كل ما كرسه للصين، البلد الأكثر تعداداً فى السكان، تلتهما صفحة من الوصف المبالغ فيه عن الوباء فى الهند: «لم يكن هناك إلا الموت فى شبه القارة الهندية، القطارات تغادر حاملة الأحياء وتعود كل يوم محملة بالموتى والموت». وفى تصوير آخر مفعم بالدراما يقول «اندفع الفيروس بعنف مخترقاً السنغال، سيراليون، إسبانيا، وسويسرا، مخلفاً الدمار الحاد وفارضاً ضريبة موت زادت فى بعض المناطق عن ١٥٪ من إجمالى عدد السكان». معلومات مبهمة عشوائية وتكاد تكون بلا معنى.

يضاف إلى ذلك أن بارى يتمسك بمجموعة من المشتغلين بالطب كأبطال لروايته رغم أن تجاربهم المعملية لم تخرج بشىء يذكر لمقاومة الأنفلونزا. ويبدو أن النجاحات اللاحقة فى اكتشاف الفيروس جعلت بارى لا ينظر إلى جهود أخرى، غير فعالة أيضاً، وإن كانت مريحة ومساعدة، بذلها آخرون فى مواجهة المرض وللحد من الوباء. لقد قلل من شأن أطباء فعلوا ما يفعله أمثالهم من مهنيين عبر قرون مضت: تقديم علاجات غير مفيدة. لكنهم. ومع ذلك. أكدوا للناس أن شيئاً ما يحدث وأن أطباء «بارى» ليسوا أفضل منهم.



يعرب «بارى» عن أسفه للسياسة الحكومية والإعلامية التى حاولت التقليل من حقيقة الوباء، أو إنكارها. وينقل. بسخرية. عن مفوض الصحة العامة قوله: «إن من واجبنا إبعاد الخوف عن الناس، فالقلق يفتك بأعداد أكثر من تلك التى يفتك بها الوباء». وهذه مجرد أكاذيب أو أنصاف حقائق صممت لطمأنة الناس، وقد تكون سمحت للمجتمع الأمريكى بالاستمرار فى أداء وظائفه قبل وبعد تفشى الوباء، وحافظت على «السلوك العادى» فى العديد من القرى والمدن. ومن المهم ملاحظة أن اقتصاد المجتمع الأمريكى فى عام ١٩١٨ كان يقوم ويعتمد على تدفق السلع والخدمات عبر البلاد. وكل إعاقة لحركة التدفق هذه تعد تهديداً للحياة. فلا توجد مدينة تستطيع أن تحيا دون إمدادات متواصلة من الغذاء والسلع الضرورية الأخرى. وقد زاد المجهود الحربى من قابلية هذه الأوضاع للانكسار بأن حشد ملايين الجنود فى معسكرات جيش عشوائية. وكان من الضرورى الحفاظ على «روتين» عمل يومى. وربما يكون الإنكار الرسمى لاقتراب الوباء القاتل من هذه المدينة أو تلك قد ساعد فى تحقيق الأهداف المرجوة. لكن «بارى» يظن أن مثل هذه السياسات الرسمية أوجدت عدم الثقة. وفى المقابل لا تذكر فصول الكتاب شيئاً عن دور رجال الدين والجهد المنوط عادة بالقساوسة ورؤساء الكنائس لطمأنة رعاياهم وقت الأزمات. ومن المؤكد أن هؤلاء جابوا البلاد ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩ لتقديم العون التقليدى عبر إقامة الصلوات والاحتشاد وأداء شعائر وطقوس وخدمات دفن الموتى. هذه الجهود لم تقدم الدواء لكنها طمأنت الخائفين وساهمت فى الحفاظ على تماسك المجتمع الأمريكى، ولو لبعض الوقت.

لقد شيد بارى نصاً شديد البراعة يبدأ وينتهى بلقطات فوتوغرافية للدكتور بول لويس وهو يتحدى المرض الجديد داخل مستشفى فلاديلفيا عام ١٩١٨, ثم وهو يعانى سكرات الموت بالحمى الصفراء عام ١٩٢٩ فى البرازيل.

جعل «بارى» من الدكتور لويس النموذج والرمز للجهود «غير المجدية» التى حاولت إيجاد علاج للوباء فى المختبرات العلمية. وصفه بأنه «أذكى من عرفهم» لكنه، وفى كل مرة يتحدث فيها عنه كان يكرر وصفه بالعبارة نفسها التى بدت وكأنها شعار أو «موتيفة» لشركة لإنتاج الأفلام. وفى السياق نفسه صاغ العناوين الرئيسية لفصول كتابه وكأنها ترديدات «كورس» فى فرقة إنشاد: «هذه أنفلونزا.. مجرد أنفلونزا»، «الحرب هناك والوباء هنا» و«لم يكن هناك وقت». لكن هذه الصور البلاغية أضفت ظلالاً شبه ملحمية على النص. ولعل هذا هو سبب اختيار «بارى» للعنوان الفرعى لكتابه: «القصة الملحمية للوباء الأكثر فتكاً فى التاريخ». ولأن هذه العبارات توحى بالملحمية وتكرسها نرى «بارى» قد أكثر من اللجوء إليها فساوى بذلك. فى كتابه. ما بين الأبطال والمخادعين. وهنا قد تكمن حقيقة الأنفلونزا ذاتها: فوباء عام ١٩١٨ قتل من البشر أكثر من الذين قتلهم أى وباء سابق. لكن «حجم الفتك» وفداحته كان بسبب كثافة بشرية مكنت الفيروس من العثور على من يتغذى بهم. وفى النتائج النهائية فإن هذا الوباء يكاد يكون من الأوبئة العادية إذا ما قورن بـ «الموت الأسود» الذى تفشى فى أوروبا وآسيا فى القرن الرابع عشر، أو الطاعون الذى تلاه. فكلاهما كان له التأثير الأبقى والأقوى على المجتمعات البشرية، وحصد من الناس حصة أكبر مما حصدها وباء أنفلونزا عام ١٩١٨ . ١٩١٩.



وطوال فصول كتابه يريدنا «بارى» أن نرتجف من الموت والمعاناة وأن نُعجب بأبطاله فى المختبرات العلمية ونستهين بشأن هؤلاء الذين حاولوا تهدئة الأمور وطمأنة الناس بالكلمات والعلاجات غير الكافية وقد يؤخذ عليه أنه بدا فى بعض الفصول كمحرر إعلانات يريد أن يملأ شاشات التلفاز بالمبالغات والإثارة. لكن فهمه الموسوعى لعلم الأوبئة المعاصر، وتفسيره البارع لكيفية عمل الفيروس داخل جسم الإنسان، يطغيان على بعض صياغاته التى جنحت إلى المغالاة.

ويبقى النص رسالة واضحة تجعل كتابه الكتاب الأكثر جدارة بالقراءة.. ذلك أن عودة انتشار الموت بفعل الأنفلونزا لاتزال قائمة رغم كل المعرفة العلمية المعاصرة، ورغم كثرة المنظمات العالمية المنوط بها مقاومة الأوبئة. ■



تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

دراسة في فقه التنمية التكنولوجية والتعليمية

تأليف: إبراهيم بدران
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩، ١٥٨ صفحة



لقد أيقنت منذ مقتبل العمر أن المعرفة والبحث هما السبيل القويم لإحراز التنمية التي تأكد بعدها أنها شريعة للتقدم والبقاء في زمن أصبحت فيه قدرة العقل وكفاءة الابتكار هما المؤهل للتنافس والرفعة للدول والشعوب.

لذلك دعتني الظروف في أخريات رحلة الحياة أن أعتصر الذاكرة عما اجتبيناه في مسار الرحلة الشاقة التي كتبت علينا ومشيناها، بداية من أوائل أربعينيات القرن العشرين عندما التحقنا بكلية الطب، جامعة القاهرة وحتى اليوم.

والآن رأيت أن أختصر محصلة هذه الرحلة الشاقة في وريقات. رؤية لا أدعي أنها شخصية، ولكنها خلاصة خبرة وجهد جيل كامل قدمنا فيها ما أمكننا وقُدّر لنا من جهد وعطاء مخلص في مرحلة من تاريخ مصر.

مسألة الحرب العادلة فى الإسلام

جون كلسى
ترجمة: د. رلى ذبيان
مراجعة: د. رضوان السيد
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩، ٢٨٧ صفحة



إن هذا الكتاب يتطلع إلى وصف كيفية ممارسة الشريعة الإسلامية بين المسلمين المعاصرين، وذلك من خلال تفسير مصطلح الجهاد الذى أصبح يرتبط فى أيامنا هذه بأكثر المعانى إرهابًا وتضليلاً.

يقدم جون كلسى، فى كتابه، تفسيرات واضحة لظروف الجهاد الذى يتبعه المسلمون بحسب التقليد الإسلامى، مرتكزًا فى تفسيراته هذه إلى الأحداث التاريخية السابقة من جهة، وإلى الآيات القرانية من جهة ثانية. فهذا الكتاب هو عمل راق يقوم الحجج الإسلامية المرتبطة بمنطق الشريعة الإسلامية، ويزيل أى التباس عند المسلمين وعند غير المسلمين حول مسألة الحرب العادلة.

الرواية الإسلامية المعاصرة

دراسة تطبيقية
حلمى محمد القاعود
كفر الشيخ: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩



هذه الدراسة تهدف إلى الاهتمام بفن الرواية الإسلامية أو كتابة الرواية من خلال منظور إسلامى، بوصفها جنسًا أدبيًا مهمًا، يمكن أن يدعم الأدب الإسلامى ويمده بالكثير من الثروة والقيمة الفنية، إن صح التعبير.

لقد ركز الأدباء الإسلاميون فى معظم أعمالهم الأدبية فى مجال الشعر، وقليلون هم الذين اتجهوا إلى ميدان الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والملحمة، ولعل ذلك يرجع إلى سهولة التعامل مع الشعر فى مجال الإبداع، وعلى العكس من الأعمال القصصية أو الدرامية التى تقتضى جهدًا وتفكيرًا وزمنًا طويلاً. إن التصوير من خلال الشخصيات والأحداث والتركيب القصصى يبدو أكثر صعوبة من التصوير الشعرى، ويحتاج إلى نفس طويل وعميق، لا يصبر عليه إلا أولو العزم من الأدباء.. وفضلاً عن ذلك، فإن البعض ينظر إلى فن القصة عمومًا نظرة فيها الكثير من الشك والارتياب، انطلاقًا من بعض المفاهيم القاصرة.. لذا كان نصيب الرواية فى مجال الأدب الإسلامى محدودًا وقليلاً.

وقد عملت هذه الدراسة على تتبع أبرز الأعمال الروائية الإسلامية بالدرس والتحليل أملاً فى تجلياتها وإبراز إيجابياتها، مع بيان قيمة المعالجة الروائية لقضايا الأمة ومشكلاتها وآمالها.. وتأثير تلك المعالجة على القارئ الذى يرى الفكرة مشخصة ومجسمة فى خياله ووجدانه من خلال أحداث ومواقف، وشخصيات ونماذج، فيكون صداها فى نفسه عميقًا وفعالاً.. على العكس من الفكرة الذهنية المجردة، التى تغرق فى الخطايا والكلام المرسل، فيكون تأثيرها وقتيًا وسطحيًا.

إن هذه الدراسة تُعنى بالقراءة التطبيقية للأعمال الروائية المختارة، بوصف القراءة التطبيقية ضرورة مهمة فى الدعوة إلى الأدب الإسلامى الذى كثر الحديث عنه حديثًا نظريًا مجردًا، وتصور بعض الناس أن الأدب الإسلامى مجرد كلام وعظى لا يتقيد بالتقاليد الأدبية ولا بالقيم الفنية، ومن ثم، فإن القراءة التطبيقية تفرز النصوص الجيدة والنصوص الرديئة، أو تبرز العناصر الإيجابية ونظيرتها السلبية من النص الأدبى. فتثبت أولاً أن الأدب الإسلامى لا يتسامح فى هبوط المستوى الفنى ولو كانت الغاية سامية وشريفة، وتؤكد ثانيًا على عناصر القوة والضعف لدى الأديب فى عمله الأدبى، فيستزيد من الأولى ويتخلص من الثانية.

بدأت هذه الدراسة بتمهيد طويل حول الرواية الإسلامية المعاصرة يرصد واقعها ويعبر عن الآمال المعقودة عليها. ثم يعقب هذا التمهيد مجموعة الفصول التى ضمت القراءة التطبيقية للروايات المختارة. هذه الروايات تمثل إلى حد ما واقع الرواية الإسلامية فى العالم العربى، ثم اختيارها عشوائيًا، فضمت روايات لأدباء من العراق والأردن وفلسطين والسعودية ومصر والمغرب، يأمل الباحث أن يواصل مستقبلاً - إن شاء الله - مسيرة الرواية بالقراءة والتحليل فى شتى الأقطار العربية.

وقد أضيفت إلى قراءة الروايات المختارة، قراءة رواية أفغانية مترجمة، لتثبت ما تحدث عنه الحديث فى التمهيد من ضرورة اطلاع أدبائنا العرب على الأدب الإسلامى فى اللغات الأخرى مثل التركية والفارسية والأردية وغيرها، لإثراء أدبنا الإسلامى فنًا وموضوعًا.

تبقى الإشارة إلى أن القراءة التطبيقية فى هذا البحث انتهجت طريقة تحاول الاقتراب من القراء كلما أمكن، بأيسر الألفاظ وأوضح العبارات، بعدما شاع الغموض والتعقيد فى الدراسات المعاصرة دون مسوغ منهجى أو نقدى. فالغاية فى حقيقة الأمر، هى قراءة النص الروائى وفهمه واستبطان أعماقه والوقوف على أبعاده المختلفة. وعندما تصبح القراءة النقدية عبئًا على القراء والنص، فإنها تعنى أن خللاً ما يكمن فى هذه القراءة، وهو ما يعيب دراسات عديدة تدعى مسايرة التطور والنظريات النقدية الجديدة دون أن تستوعب هذه النظريات أو ذلك التطور استيعابًا حقيقيًا يسفر عن إغناء دراستنا النقدية بالعناصر المفيدة والمثمرة.

لقد طمحت هذه الدراسة إلى التركيز على جماليات النصوص الروائية موضوع القراءة التطبيقية، مع تقديم نبذة أو خلفية عن النص ومؤلفه، وعلاقة ذلك بالنصوص الأخرى للمؤلف إن وجدت، وفى الوقت ذاته، فقد اهتمت الدراسة بـ «اللغويات» انطلاقًا من واقع نقدى أهمل هذا الجانب إهمالاً ملحوظًا، وتحاول الدراسة «رد الاعتبار» للغة وخاصة فى مجال النحو والصرف، ومعالجة الأخطاء الشائعة التى ينساق إليها بعض الكتاب بحسن نية، ومسايرة لآخرين، دون تأمل أو تدقيق.

وبعد، فإن الدراسة محاولة متواضعة، نأمل أن تحرك باحثين آخرين للاهتمام بفن الرواية إبداعًا ووصفًا من أجل مستقبل أفضل للأدب الإسلامى فى اللغة العربية. وصلى الله وسلم على نبينا الكريم، وعلى آله وأصحابه أجمعين.. والله من وراء القصد - وهو الهادى إلى سواء السبيل.

الإسلام والغرب (الأنا والآخر)

إشراف الدكتور محمد عابد الجابرى
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩، ٣٠٤ صفحات



«عرفت العقود الأخيرة، ومنذ الثورة الإيرانية، اهتمامًا متزايدًا بموضوع «الغرب والإسلام». ويلاحظ أن الاهتمام بهذا الموضوع قد تطور، إلى أن توسع الكلام فيه ليندرج تحت ما أسماه هنتنجتون بـ «صراع الحضارات» أى الصراع بين الحضارة الغربية من جهة والحضارة الإسلامية من جهة ثانية.

إن هذا الكتاب يهدف إلى تفكيك عبارة «الغرب والإسلام» فى محاولة لتحريرها من الأفكار الموروثة والمشحونة بدلالات غامضة تجمع بين قلق الحاضر والخوف من المستقبل».

ومن أجل تحقيق هذا الغرض، أشرف الدكتور محمد عابد الجابرى على اختيار مجموعة من المقالات المنشورة فى مجلة فكر ونقد، والتى كتبها نخبة من المفكرين وجمعها فى كتاب يمثل الكتاب الأول من سلسلة فكر ونقد التى ستصدر كتبها تباعًا.

بيت العائلة

سامية سراج الدين
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٣٨٢ صفحة



رواية مدهشة ومحيرة تتناول كفاح عائلة مصرية عريقة لمواجهة اضطرابات ما بعد الحرب العالمية الثانية في القاهرة. نشأت جيجي في أحد القصور الفخمة بجاردن سيتي، يضم عائلتها الكبيرة. الرجال منهمكون في العمل بالسياسة، والتجارة، وزراعة القطن. والنساء منهمكات في تبادل الزيارات والنميمة والتسوق وترتيب الزيجات وغيرها من الشئون العائلية. كان البيت مفتوحاً على الدوام أمام الزوار ورجال السياسة، والعائلة: هناك حيث اختلط الكرم المصري الأصيل بالسلوك الكوزموبوليتاني. كان عالماً مبهراً ويبدو خالداً، بينما أوشك عصر الباشوات على الأفول. أجبر الكثيرون على الرحيل عن مصر. أما من بقي منهم فقد واجه واقعاً مراً.

أكثر من مائة فكرة لتدريس مهارات التفكير

ستيفن بوكيت
ترجمة: زكريا القاضي
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ٣٠٠ صفحة



لأن اختيار المرء وافر عقله، كما يقول ابن حزم، يوضح زكريا القاضي في مقدمته للترجمة أهمية هذا الكتاب، وما يمكن أن يحدثه من أثر فاعل في طرائق التفكير وأساليبه بدءاً من القارئ العادي، وطلبة كليات التربية، ومعلمي المراحل التعليمية المختلفة في التعليم ما قبل الجامعي، وأعضاء هيئات التدريس بالجامعات، وما يمكن أن يرسمه من خلاصات للحوار والتواصل مع غيرنا من بني الإنسان في زمن، غدت فيه الخلاصات أساساً للبقاء وشرطاً جوهرياً للسير ضمن قافلة المبدعين والقادرين على تحقيق أحلامهم.

الكتاب الذي يحتوي على أكثر من مائة فكرة، قدم له العالم التربوي الكبير د. حامد عمار، الذي أثنى على الترجمة لغة وفهماً، كونها جاءت من زكريا القاضي عاشق الترجمة.

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء كبرى، تحتوي على مائة وعشرين فكرة، فالجزء الأول وهو: «بناء بيئة التفكير» يتوقف طويلاً أمام العقل المنطقي والعقل المبدع، والتفكير الاستراتيجي، وكل العمليات المرتبطة بالذهن البشري والبيئة، التي يجب توافرها لتكون عملية التفكير ناجحة.

أما الجزء الثاني، والذي يحمل عنوان «أدوات اللعبة»، فيدرس أدوات التفكير الإبداعي، والبنية العميقة والبنية السطحية ومنحنى التعلم، والتركيز على الأفكار والأسئلة، وعلى هذا المنهج العلمي البسيط والواضح يأخذ الجزء الثالث «إحضار كل الأدوات معاً» بأيدينا ليدلنا على درجات التفكير الأعلى، ودرجات التفكير الأقل والتفكير من أجل المتعة، وعادات جيدة للتعلم، ويتبع المؤلف كل فصل من هذه الفصول بتعليمات للنشاط يجريها المعلم مع تلاميذه لاكتشاف ملكات الفهم لديهم، لأن التعليم والتعلم الناجح يعرض خصائص الإخلاص والأصالة.. فالإخلاص يعني امتلاك التوجه الذي ترغب في أن يحصل لدى طلابك، وإظهار الفضولية وحب الاستطلاع نحو العالم، استمرار عملية تكوين المعلومات، بينما الأصالة تعني إعداد المهام التي يتلقاها الطلاب بما يلائم العالم الواقعي.

بهذا المفهوم يتسع الكتاب بفصوله كلها ليخرج من كونه كتاباً موجهاً إلى المعلم، ليشمل كل من يريد أن يكون عمله ناجحاً، سواء كان معلماً أو مديراً أو حتى كاتبا مبدعا يتلمس طريقه نحو استقلاله الذاتي في الكتابة والإبداع، وهو نوع من الكتب مفتقد في ثقافتنا العربية، لأننا ننظر إلى الموهبة باعتبارها مناط كل تميز، ونهمل جانب التعلم والدأب.

■

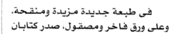
كيمياء الحب والمرح والمناعة

عبدالهادي مصباح
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩

المحمول والوجبات السريعة.. سلوكيات تهدد حياتنا

عبدالهادي مصباح
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩





في طبعة جديدة مزيدة ومنقحة، وعلى ورق فاخر ومصقول، صدر كتابان للدكتور عبدالهادي مصباح، هما: «كيمياء الحب والمرح والمناعة»، و«المحمول والوجبات السريعة.. سلوكيات تهدد حياتنا». في الكتاب الأول، يتناول عدة موضوعات تهم القارئ وتثير فضوله مثل الحب والعدوى والنوم والساعة البيولوجية في جسم الإنسان، والضحك والانفعالات والتوتر، والنوم والأرق، والسعادة والرضا والإيمان، وتأثير كل منهما على الصحة بشكل عام، والمناعة بشكل خاص، كما يتناول موضوع الغذاء ومضادات الأكسدة، وتأثيرها على صحة الإنسان ومناعته، وعلى تأخير الشيخوخة وأعراضها وأمراضها.

ويتساءل د. عبدالهادي مصباح، ويحاول تفسير كيف يحدث الحب، وهل الحب كيمياء أم فيزياء أم بيولوجي؟ فالتفسير الفيزيائي للحب والتجاذب بين البشر يشير إلى أن الحب يحدث نتيجة التغير في الموجات الكهرومغناطيسية المنبعثة من أجسامنا، أما التفسير الكيميائي للحب فيعتمد على أن كل عواطف الإنسان وانفعالاته إنما تحدث نتيجة لعمليات كيميائية يسببها منبه معين: نظرة عين أو لمسة حانية من نوع خاص تشعر بها اليد أو من خلال كل ذلك مجتمعاً، ويبقى التفسير البيولوجي للحب الذي يتمثل في علاقة الغدد والهرمونات بأحد التفسيرات البيولوجية لغريزة الأمومة.

ثم تنتقل فصول الكتاب إلى الحديث عن جيش الدفاع الإلهي المسمى بجهاز المناعة، وأهم مكوناته، وكيف يتصدى للعدوى بالأمراض والميكروبات المختلفة، مثل فيروس الأنفلونزا، وكيفية الوقاية منه، ثم يتناول الضحك، الذي عز وغلا في هذه الأيام، وكيف له تأثير إيجابي عظيم على جهاز المناعة، وكيف أن العلاج بالضحك أصبح فرعاً من فروع الطب البديل لعلاج الكثير من الأمراض. وإذا أضفنا الضحك إلى عاطفة الحب، فإن جهازنا المناعي يكون في أقوى حالاته وأكثرها قدرة على مواجهة الأمراض.

أما الكتاب الثاني: «المحمول والوجبات السريعة.. وسلوكيات تهدد حياتنا» فإنه يتناول الجانب السلبي للتطور العلمي، والأضرار والتأثيرات التي تنتج عن عدة عادات تضر بالصحة مثل التليفون المحمول، والوجبات السريعة وإدمان التليفزيون، والمضادات الحيوية، والعادات الغذائية السيئة. فالمحمول أخطر اكتشافات العصر، يؤثر تأثيراً مباشراً على خلايا المخ، ويشوش على الموجات الكهربائية للقلب. ويقدم الكتاب الوصفات المثالية للتخلص من إدمان التليفزيون والإنترنت، الذي لا يقل خطورة عن مضاعفات تناول المضادات الحيوية.

ويأتي الفصل الخامس ليقف أمام مشكلة يعانيها معظم الرجال، ويخجلون من الحديث عنها وفيها. وهي مشكلة العجز الجنسي وانخفاض خصوبة الرجال. ويعرض تقييماً للأدوية التي ظهرت لهذه المشكلات مثل الفياجرا والسياليس ومدى نجاحها في معالجة مشكلة العجز الجنسي، مختتماً بالكلام عن فن الاستماع المفقود، وكيف نتعلم أن ننصت لغيرنا.

إنهما كتابان في غاية الأهمية لأية أسرة مصرية خصوصاً في ظل انتشار أنواع غريبة من الأنفلونزا مثل أنفلونزا الطيور والخنازير وغيرهما مما لا نعلمه ومنهما نتعلم كيفية مواجهة هذه الأمراض الغريبة بتقوية جهاز مناعتنا.

■

عندما تبكي الخيول

عبدالرشيد الصادق محمودي
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٩



ليس في جاردن سيتي خضرة ولا طيور ولا فراش ولا أخبار عن عروش بعيدة يحرسها الجان. ليس فيها إلا مبان وحديد. فيها حشرات دنيئة كالذباب والصراصير. ولكنها تخلو من ألوان الطبيعة وغنائها. ليس فيها نضرة البرسيم ولا ذهب سنابل القمح وهي تتمايل وتموج مع الريح ولم يمر بها الهدهد في أي يوم من الأيام ليتفقد رعيته. وهي لا تعرف ذلك الجزء من أجزاء النهار الذي يسمى «الضحى». الضحى عندما يرتفع بطن النحل ويهدل الحمام وربما سمعنا أنين السواقي ونعيق الغربان. الضحى هو الساعة التي تشهد انتشاء الكائنات بالنور قبل اشتعال الأرض بنيران الظهيرة.

■ ■

ها هو رجل مصري صميم تحصن مثله مثل كل المصريين في ركن يفر إليه من المدينة المنهارة. رجل يمارس الفن الذي يجيده كل المصريين وهو فن الصبر على المكروه. لم يعودوا يأبهون لمن يحكمهم ولا لطريقته في حكمهم. ليس لهم إلا الصبر حتى يمر. فإذا جاءهم مثلاً الإخشيد أو عبده المخصي كافور أو «الرئيس المؤمن» سايروه على قد عقله.. إلى أن يمر. وربما تفوقوا عليه في النفاق، فأطلقوا اللحى وحفوا الشوارب وحملوا المسابح وحجبوا نساءهم ونقبوهن.

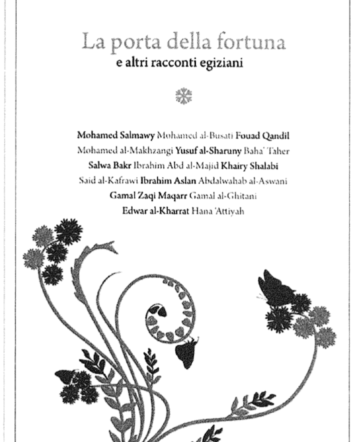
■

«باب التوفيق».. في معرض تورينو

■ بمناسبة معرض تورينو الدولى للكتاب الذى عقد أخيرا واستضاف مصر كضيف شرف. قام اتحاد كتاب مصر بإعداد هذا الكتاب الذى يضم ترجمات إلى الإيطالية لأعمال ١٦ من كبار الكتاب المصريين من أمثال جمال الغيطانى وبهاء طاهر وخيرى شلبى وسلوى بكر ومحمد المخزنجى وغيرهم.

الاحتفاء بالكتاب كان واضحا فى تغطيات الصحف الايطالية. قالت «كوريرى ديلا سيرا»: «كنا نتمنى أن يكون هناك فى المعرض عشرات الكتب مثل «باب التوفيق» فمناسبة استضافة مصر كضيف شرف لا تحدث كل سنة وينبغى أن تكون فرصة لتبادل المعرفة بين المصريين والإيطاليين من خلال اصدارات جديدة تنشر بهذه المناسبة» أما جريدة «التمبو» فقال مراسلها لويجى كرافيلى «لقد وقفت تماثيل الفراعنة على مدخل معرض تورينو هذا العام تحرس الكنوز الفكرية المعروضة فى الجناح المصرى والتى كان من دراتها كتاب «باب التوفيق» الذى قدم لنا الأدب القصصى المعاصر فى مصر فى ترجمة إيطالية رشيقة نشكر عليها اتحاد كتاب مصر. باولو فالسيا صاحب دار النشر التى تحمل اسمه».

ولا شك أن المشاركة المصرية فى المحافل الثقافية الدولية التى كان آخرها معرض تورينو يمكن أن تعود على مصر بفائدة جمة حيث تمثل فرصة لتقديم الوجه الفكرى والثقافى لمصر المعاصرة، ذلك البلد الذى طالما جذب إليه اهتمام العالم على مر العصور، فما من شك أن لاسم مصر عبر التاريخ حضوراً لافتاً، بوصفها كيانا مرموقا فى المنطقة، بل وبين مختلف دول العالم، برغم معاناتها فى فترات تاريخية طويلة من طبقات المستعمرين المتراكبة والمتعاقبة، ورغم الفقر والقهر والقحط والتهميش والكوارث الطبيعية والسياسية. وقد كانت تلك المكانة منبثقة فى الأساس من العطاء الثقافى الخصب، خاصة إبان ازدهار الحضارة المصرية القديمة، وقد تمثل هذا العطاء فى إبداعات فنية وأدبية حملتها إلينا عبر العصور وآلاف السنين الرسوم والنقوش والتماثيل، وكذلك النصوص الأدبية فى القصة والشعر، ولم يعد خافيا أو مجهولا أن أول قصة فى التاريخ الأدبى العالمى قصة مصرية وضعها الكاتب المصرى القديم تحت عنوان «الأخوان»



Porta della fortuna

«باب التوفيق»
مجموعة من الكتاب
دار «فالسيا» Falsea
إيطاليا

وتنضم إليها قصص كثيرة حفظتها أوراق البردى، أما أشعار المصريين القدماء فتحتاج إلى مجلدات، والاطلاع على نماذج قليلة منها كفيل بأن يدرك المصرى المعاصر والأجنبى أن الطاقة الإبداعية المصرية كانت عالية وملهمة، وتكشف تمتعه بالموهبة الأصيلة والخيال والحس المرهف وعشقه الدائم للجمال وكما برع المصرى فى الآداب برع فى فن العمارة، ولعل المعابد والمقابر لا تزال بكل زهو شاهدة على ذلك.

وقد تجدد هذا الحضور فى حقب كثيرة وتواصل فى العصر الحديث خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث استعادت مصر بعضا من مكانتها الثقافية فى المنطقة على يد كوكبة كبيرة من الأعلام لا يتسع المجال فى هذه السطور لاستعراض قوائم الأسماء العامرة.

على أن تشكيل الوجود الثقافى طوال القرنين الأخيرين على الأقل (١٩ و٢٠) لم يعد منطلقا من المعطيات ذاتها التى تمثلت طوال عشرات القرون فى العمارة والشعر والمسرح والرقص والفن التشكيلى، فقد أطلت فى الآفاق تجليات أخرى للحضور الثقافى، أعلنت عنها باقتدار أنواع أدبية وفنية تقدمت إلى الصدارة مثل الرواية والقصة القصيرة والموسيقى والسينما وغيرها، وليس من تحصيل الحاصل أن نقول إن العقود الأخيرة تشهد فى العالم التفاتا ملموسا نحو الرواية والسينما وتتزايد مع السنوات كمية الجوائز الكبيرة التى تخصصها جهات عديدة رسمية وأهلية لتشجيع المبدعين فى هذين المجالين على مزيد من الابتكار و تأكيد قيم العدل والجمال والحرية وحقوق الانسان.

وفى ضوء هذه المستجدات وتعاظم عوامل التنافسية فى مختلف التوجهات العالمية فإن باستطاعة بعض الشعوب أن تحقق مجدا ثقافيا قد لا يتيسر تحقيقه فى غير هذا النشاط الإنسانى، كما نلحظ ذلك إذا ذكرت قارة أمريكا اللاتينية مثلا، فسوف يتبادر إلى الأذهان فى الأغلب دورها الثقافى المتألق قبل أن يحتسب لها أى ملمح آخر، ومثل ذلك يسير أن يقال عن الهند حيث تتألق سمعتها فى مجالات الأدب والسينما وتكنولوجيا المعلومات، ويقتحم الكتاب اليابانيون العالم بإبداعاتهم المتميزة ويحرزون كل يوم مزيدا من الاهتمام والتواصل، وغدا الأدب ينافس الصناعة فى ذلك البلد الناشط.

وأحسب أن البعض ربما لا يعرف إلا القليل عن إفريقيا، التى أصبحت اليوم صاحبة مجد فى الأدب والموسيقى والسينما يعتد به فى الأوساط العالمية، رغم تغلغل الفقر وتردى الأحوال الاجتماعية والسياسية والصحية، وتتحتم الإشارة إلى أن شيئا من ذلك لم يتحقق إلا بترجمة المنتج المحلى إلى اللغات العالمية، إذ تحرص هذه الشعوب كلما بزغت نبتة واعدة ومبشرة على رعايتها وسرعة تقديمها إلى العالم.

أما مصر فلا شك إنها حققت بعض الإنجازات المهمة على صعيد الأدب والسينما وغيرهما، وحظيت بالصدارة فى المنطقة طوال قرن على الأقل وحققت بعض المجد الذى لا ينكره إلا جاحد، على أن هذا المجد الإقليمى لم يشكله علو كعبها فى الصناعة، ولا ضخامة عوائدها الزراعية أو النفطية، ولا قدراتها التصديرية أو إمكاناتها العسكرية ولا ابتكاراتها العلمية، وليس لها فى الدورات الرياضية الدولية إلا الحضور الشرفى، لكن المجد الحقيقى تشكل من العطاء الثقافى الذى هو فى الأغلب حصاد النبوغ الفردى فى مجال الفنون والآداب، حيث تفجرت المواهب بالإبداع وفاضت العقول بالفكر ودبجت القرائح أروع النصوص، شعرا ونثرا، فاستمتعت الجماهير ولا تزال بجمال الفن الذى يغذى الروح ويرتقى بالوجدان.

ولا يمنع هذا من الاعتراف بأن مكانة مصر المعاصرة فى الثقافة العالمية لا تزال محدودة، وسوف تظل كذلك إذا لم تتحرك المؤسسات المعنية المختلفة لترجمة الإبداع المصرى إلى كافة دول العالم وخاصة الدول القارئة صاحبة الرأى والتقييم والتى تقود الحراك الثقافى فى شتى الأقطار.

فى هذا الإطار وعبر هذه الرؤية تأتى مبادرة اتحاد كتاب مصر الذى سعى بشكل مستقل لاستثمار مناسبة انعقاد معرض تورينو بإيطاليا فى مايو الماضى، حيث كانت مصر ضيف الشرف، وقبل الموعد بعام كامل وضعت خطة التحرك من أجل تقديم الأعمال الأدبية المصرية للقارئ الإيطالى ومن ثم إلى غيره من قراء الأرض، على أمل تطوير التجربة فى العديد من الأصعدة فى مقبل الأيام..

ولأن الاتحاد بدأ من فراغ، إذ لم يسبق له أن أقدم على هذه التجربة تأسيسا على أن القدرات المالية له لا تعينه على ترجمة كتاب واحد إلى أى لغة، فقد تمت إزاحة الترجمة من قائمة أنشطة الاتحاد على مدى يقرب من أربعين عاما،وكأنها لا تعنيه من قريب أو من بعيد، لكن مجلسه الحالى برئاسة الكاتب الكبير محمد سلماوى عزم على أن يخوض كل التجارب التى يمكن أن تخدم مصر وأدبها وكتابها، فلم يجد ثمة غضاضة فى الاعتماد على التبرعات من الأفراد أو المؤسسات الأهلية، وبالفعل اتفق الاستاذ سلماوى مع إحدى السيدات الفضليات وهى المهندسة شهيرة فهمى، التى أبدت استعدادها لدفع تكاليف ترجمة ونشر مجموعة قصصية لكوكبة من كبار كتاب مصر، وجرى الحوار مع الملحقية الثقافية المصرية بروما لاقتراح دار نشر إيطالية موثوق بها، فرشحت مؤسسة فاليسا للنشر واشترط الاتحاد ضرورة تكليف مترجمين إيطاليين حتى يحسنوا الترجمة بما يتناسب مع ذائقة القارئ الإيطالى. وأوكل الاتحاد إلى الروائى فؤاد قنديل والدكتور ربيع سلامة أستاذ اللغة الإيطالية و الملحق الثقافى السابق بسفارتنا بروما متابعة الترجمة ومساعدة المترجمين لتفسير ما قد يتعذر فهمه من المفردات العربية أو الدلالات الحياتية فى البيئة المصرية، كما تم الاتفاق على أن يتم الانتهاء من الترجمة والنشر فى موعد أقصاه نهاية إبريل ٢٠٠٩حتى يمكن المشاركة بالكتاب فى معرض تورينو.

وفى المعرض الدولى الذى كانت فيه مصرالسيدة الأولى وضيفة الشرف، أمكن للقراء الإيطاليين أن تصافح عيونهم المجموعة القصصية التى تحمل عنوان «باب التوفيق» وتضم قصصا لستة عشر كاتبا، هم إدوار الخراط ويوسف الشارونى وبهاء طاهر.. محمد سلماوى وخيرى شلبى ومحمد البساطى وجمال الغيطانى وفؤاد قنديل.. سعيد الكفراوى وابراهيم عبد المجيد وابراهيم أصلان وسلوى بكر..عبد الوهاب الأسوانى ومحمد المخزنجى وهناء عطية وجمال مقار، وقد قامت المترجمة الايطالية ماريا لويز ألبانو بترجمة المقدمة المصرية التى تناولت بشكل مكثف مسيرة القصة القصيرة فى مصر، وتجلياتها المرموقة فى العقود الأخيرة، وتعدد قضاياها واتجاهاتها وأبرز أعلامها، كما قامت بكتابة تعليقات على كل قصة توقفت خلالها فى عجالة عند موضوعها وتقنيتها وجمالياتها.

تضم مجموعة « باب التوفيق» عددا من القصص المصرية التى تمثل الاتجاهات الفنية المختلفة، وفى الوقت ذاته فإنها تشكل وهى مجتمعة صورة بانورامية لملامح الحياة المصرية فى شتى تجلياتها وخصوصيتها الاجتماعية والنفسية.

ففى قصة «سرادق الألم» لخيرى شلبى وهى من مجموعته «أسباب للكى بالنار» وقد ترجمتها إلى الإيطالية إلينا دى كريستافرو. تدور الأحداث فى المقابر التى يسكنها الكثير من البشر، وقد أقيم سرادق للعزاء فى عزيز رحل، وتتكدس فى أجواء المكان كل ألوان الألم والحزن والصراخ، وفوجئ المعزون وهم مغمورون فى عالم الموت بأصوات الزغاريد والغناء والموسيقى المدوية والرقص تمر بهم فى احتفالية تكاد تعلو على صوت المقرئ فرحا بزواج شاب من سكان المنطقة، فيسقط فى أيديهم، ويتحمس البعض عازما على إيقاف الفرح أو إرغام أصحابه على المرور فى صمت، لكن آخرين يرفضون ومطالبين الجميع بأن يدعوا الخلق للخالق، بينما كان عن بعد قريب فريق ثالث يسهر فى غرزة ويدخنون أشكالا من المزاج العالى ويتندرون ويعجبون.. وتبدو الفرصة متاحة للكاتب كى يفيض فى وصف المشاعر الإنسانية المتناقضة، وفى الوقوف عند التفاصيل التى يتكون منها النص بما فيه من مفردات شعبية حميمة ودالة، تفضى إلى ذلك الفرح الذى يولد فى حضن الحزن، والحياة التى لا تعبأ بالموت.



وفى قصة «الجوال العائم» لمحمد البساطى التى ترجمها أنطونيو بريور، نلتقى بملمح من ملامح القرية المصرية، حيث ذلك المشهد الغامض المتمثل فى جوال يحمله النهر وبداخله قتيل أو قتيلة، ولكل جوال رفيق يتبعه سرا من قرية إلى أخرى حتى يرفعه من يرفعه فى مكان بعيد، يتولى عمدته إبلاغ المركز، لتضيع تقريبا بصمات الأثمين.أغلب الجثث لبنات حملن سفاحا فيسرع أهل البنت بالتخلص منها ووضعها فى جوال يلقونه بليل فى النهر، وسرعان ما يغوص فى الماء وبعد يومين على الأكثر يطفو منتفخا ويواصل رحلته، وكلما مر الجوال بقرية، حاول من يتولى حراسته دفعه حتى لا يحط على ضفاف قريبة إلى أن ينأى ويتجاوز الزمام، وعلى النهر بعد عدة قرى بوابات تتوقف عندها الجثث وكل ما يسبح ولا يمكن عبوره من هذه البوابات. ويستطيع الفلاحون تمييز جثمان المرأة فى يسر وهو يعبر قريتهم محشورا فى الجوال المبتل والمسافر فوق الماء. تناول هذا المشهد من قبل توفيق الحكيم ويوسف إدريس، ولكن نص البساطى له طعم آخر.

أما قصة بهاء طاهر «فى حديقة غير عادية»، وهى من مجموعته «أنا الملك جئت» فقد ترجمها ربيع سلامة، وفيها يذهب البطل كعادته فى الترويح عن نفسه إلى حديقة فى جنيف حيث يقيم، ويجلس على أريكة حجرية وسرعان ما تجاوره سيدة عجوز تصحب كلبها ويدور حوار أغلبه عن الحياة ثم عن مصر التى تشعر العجوز بالندم لأن العمر أوشك على الانقضاء ولم تزرها..ويتنقل الحوار بين الشرق والغرب وعن الكلاب أيضا لتعترف السيدة بأنها مغرمة جدا بها، وفى المقابل يعلن البطل عن كراهيته لها.. صمتت السيدة وشحب وجهها وفوجئ المصرى بسقوطها،فأسرع يطلب الإسعاف، وجاء رجاله على عجل حيث أخذوا السيدة وأوكلوا إليه أمر الكلب، وهكذا اضطر البطل أن يرعى الكائن الجميل الذى أصبح فجأة بلا أهل وقد حاول أن يتخلص منه لكن الكلب تمسح فيه وتمنى عليه دون كلمة أن يكون فى معيته، وهذه القصة ككل أعمال بهاء تسيل عذوبة ورقة وتحاول استبطان وجع الإنسان وهمومه دون خطابية وفى عبارات ناعمة تحمل أصداء ما تتناوله ببساطة آسرة.

فى قصة «جرح مفتوح» لإدوار الخراط وهى من مجموعته «ساعات الكبرياء» وقد ترجمتها كل من سيلفيا مارشيونى و إلينا دى كريستافرو وهى عن ولد وحيد لأم وحيدة، تبدأ القصة بسقوط الأم فى الطريق وتعرضها لحادث مؤسف تتفاقم آثاره بسبب سنها المتقدمة ويحزن الابن، وتنسال ذاكرته لتكشف أبعاد الجرح الكبير المفتوح بعرض السنين. يستدعى الابن ما مر بأمه وقد عانت وتحملت وصبرت وما زالت تحضنه برغم الظروف القاسية وتوليه كل حنانها واهتمامها.. تضيف لغة الكاتب الكبير الكثير إلى هذه الحالة من الأسى والشجن.

فى قصة «باب التوفيق» لمحمد سلماوى من مجموعته التى تحمل الاسم ذاته، نعيش حالة من المصرية الحميمة فى حى الجمالية، ومع قطعة من تاريخنا الأثرى ضفرها الكاتب مع مشاعر الشخصيات فى نسيج حالم وشاعرى وانسانى. باب التوفيق باب أثرى من معالم شارع المعز لدين الله حيث القاهرة الفاطمية ذات الزخم العربى والإسلامى، يعثر على الباب الضخم المنقوش بالزخارف تاجر من أبناء الحى يجور الزمن عليه فيهدى الباب للبطل الذى كان مدينا له بمبلغ بسيط من المال. يقاوم محسن هذه الهدية بالغة القيمة، لكن عم عبده يصر، فيحضر محسن من يحملون الباب إلى بيته وهو منبهر به إذ إنه رغم قدمه لا يزال يفيض بهاء وسحرا.. يدهش محسن لأن الايام تحمل له بعض الأخبار الطيبة فيحصل على مال وتعود إليه صديقته التى يحبها وتبتسم له الأيام لعدة أشهر، ثم تتغير الأحوال كما هو منتظر من الحياة فليس الباب هو مصدر الخير، وإنما العمل والإخلاص هما السبيل، ثم يفاجأ محسن برجال هيئة الآثار وقد حضروا لاستلام الباب بعد أن بلغهم وجوده عنده. وقد وفق الكاتب فى تشكيل بنية قصته فى ثلاث حركات تتناسب مع تطور الحدث والحراك النفسى الذى طرأ على حياة الشخصيات.

وفى قصة «غرفة للسيدات» لهناء عطية من مجموعتها «شرفات قريبة» وقد ترجمتها أيضا إلينا دى كريستافرو. تحكى الكاتبة موقفا بسيطا للغاية لكنه مؤثر للغاية. سيدة تساعد سيدة فى ارتداء ملابسها، ولها ثدى واحد فقد أجرت عملية وتم التخلص من الأخر. وتحاول صديقتها حشو الموضع الفارغ بكرة من القطن وتداريه بغطاء من البلاستيك حتى تبدو كأن الثديين حاضران.. صفحتان فقط كافيتان لاختزال عذابات الوجود الإنسانى. ورغم ذلك فصاحبة الثدى الواحد غير منزعجة فقد تطبعت مع ظروفها وتقول إن زوجها راض تماما بما بقى.



وفى قصة إبراهيم عبد المجيد «ليلة أنجيلا» من مجموعة له بهذا الاسم وقد ترجمتها دوناتيلا فينشينتى نعيش مع البطل ليلته مع أنجيلا صديقته الفرنسية حيث تجولا خلالها فى مناطق عديدة فى باريس، يدعوها لحجرته فى الفندق فتفر وتدعوه لمطعم فيضيع المطعم، ويجوسان فى الأزقة ويجلسان على المقاهى ويتحدثان طويلا ثم يدعوها إلى غرفته فتتعلل وتقاوم.. كان يهيمن عليه هاجس مضاجعتها لكنها لا تمكنه، ثم يذهبان إلى حديقة الحيوان بصحبة صديقتها لمشاهدة الحيوانات والعبث معها إلى أن يفاجئوا بأن الوقت قد مضى بسرعة غريبة و بأن الحديقة أغلقت أبوابها. يبذلون جهودا مضنية للخروج فتذهب هباء كل المساعى وتبدأ السماء فى صب أمطارها بغزارة ولا يجدون من سبيل إلا اللجوء إلى شجرة ضخمة. يتعانق الجميع بحثا عن الدفء والحماية وطلبا للراحة والأمن، تبلغهم أصوات الحيوانات التى تعلو، لكن ذلك يزيدهم إصرارا على الالتحام والتماسك حتى أصبحوا كائنا غريبا وأسطوريا من الأجساد والمشاعر والحميمية.. لهذه القصة أيضا إشارات بعيدة ومتوارية لمعنى الحياة والأمل الذى يساور الأحياء فيها، لكنه أبدا يراوغ، وتتجدد الأحلام وتبذل الجهود وتعمل الإرادة عملها، لكن الذى يبقى هو الحب والتماسك والحرص على الإنسان.

قصص كثيرة جميلة أبدعها بقية الكتاب فى أنساق جمالية متباينة، وكشفت عن قدرات عفية وحاضرة بنصاعة وقادرة على التقاط مواقف ولحظات إنسانية متوهجة من حياتنا المحتشدة بكميات هائلة مما يتعين تناوله فى أعمال لا يتوقف فيضانها طالما هناك مواهب بهذا القدر من الخصوبة. ■

فــؤاد قنــديــل

Islamism in the shadow of al-qaeda

الإسلام فى ظل القاعدة

Francois Burgat
Translated by Patrick Hutchinson
The American University in Cairo press 2009- 182 p.



فرانسوا بارجت كاتب وباحث متمكن وصفته جريدة لاموند ديبلوماتيك بأنه: «بخلاف معاصريه، لم يعط بارجت أى معلومات دعائية لوسائل الإعلام من حولنا، وقدم لنا بخلفيته المعرفية التاريخية والاجتماعية الهائلة رؤية كاملة استعراضية عن العربى/الآخر. قلة هم من يعرفون العالم العربى الإسلامى أكثر من بارجت.». والجدير بالذكر أن فرانسوا بارجت عاش لمدة ١٨ عاما فى شبه الجزيرة العربية كمدير للمركز الفرنسى للآثار والعلوم الاجتماعية باليمن. كما انه خصص عدة أشهر للعمل الميدانى بشمال أفريقيا.

من المؤكد أن أنظمة الحكم فى العالم الإسلامى سلطة مقيدة للتحركات الإسلامية ويقدم كتاب بارجت «الإسلام فى ظل القاعدة» مفاتيح مكتوبة عن عزام والظواهرى وابن لادن وعن تحركاتهم باسم الإسلام، ويكشف النقاب عن منظور تاريخى مطلوب بشدة.

من وجهة نظر بارجت إن معظم السياسيين ووسائل الإعلام الغربية يقومون فقط بتدعيم وضع القاعدة. ويحاول أن يوضح الفجوة العميقة فى فهم ما يتعلق بعنف وتسلط الأنظمة الحاكمة الذى يقسم الشرق الأوسط ويخلق تربة خصبة للإرهاب.

يتكلم هذا الكتاب بشكل تمهيدى عن ثلاث حقب من الإسلام السياسى، منذ عام ١٩٢٨ منذ ظهور الإخوان المسلمين إلى صعود الحكم الديكتاتورى فى فترة ما بعد الاستعمار حتى التطرف الحالى لجيل القاعدة. فيقدم خريطة جديدة، فى النهاية يمد بارجت جسرا للأيديولوجيات السياسية والدينية والثقافية الإسلامية والتى لابد من اجتيازها.

■

The butterfly's burden- Poetry

أثر الفراشة

Mahmoud Darwish
Translated by Fady Joudah
The American University in Cairo press 2009- 182 p.



قالت عنه الشاعرة والروائية الفلسطينية نعومى شهاب ناى: «يعتبر الشاعر محمود درويش المتنفس الرئيسى للشعب الفلسطينى. الشاهد الفصيح على النفى والانتماء، المغنى الرائع الذى يغنى الصور ويجعلها متناغمة والذى يستحضر ويربط ويضئ نورا ساطعا فى قلب العالم. اعتنق قراءه حول العالم كل ما قاله فى شعره واعتبروه الصوت الأهم على الإطلاق، بمجرد التعرف عليه لن تستطيع أبدا أن تنساه».

محمود درويش من أبرز الشعراء فى العالم العربى، فنان وناشط استطاع أن يجذب الافا من القراء إليه. وهو مؤلف ٣٠ كتابا من الشعر والنثر والمقالات مثل وثيقة إعلان الاستقلال الفلسطينى. عمل لفترة من حياته كصحفى كما انه كان مديرا للمركز الفلسطينى للأبحاث وعاش فى المنفى حتى عودته إلى فلسطين عام ١٩٩٦، حاز العديد من الجوائز الشعرية.

ديوان «اثر الفراشة» يضم مجموعة من أحدث أشعاره وملحق به الديوان المذهل الذى يعتبر بمثابة المذكرات «حالة حصار». أشعار تعبر عن حالات الحب، سوناتات، مذكرات تحكى القليل، وكلمات متداخلة توازن بين الأدب العربى القديم والحديث، انعكاسات الحب المشرق بجانب مرارة الحنين.

قام بترجمة هذا الديوان المترجم فادى جودة، هو طبيب فلسطينى عضو فى منظمة أطباء بلا حدود مقيم فى هيوستن، ولاية تكساس، وقد حصل على منحة دراسة الآداب من جامعة وارن ويلسون. ومؤخرا حصل على جائزة «سيف غباش - بانيبال» للترجمة من العربية إلى الإنجليزية للعام ٢٠٠٨ عن ترجمته لديوان «أثر الفراشة».

● من سوناتا ●

أمسك مس الكمان الوحيد ضواحى المكان البعيد

على مهل يطلب النهر حصته من رذاذ المطر

ويدنو، رويدا رويدا، غد عابر فى القصيد

فأحمل أرض البعيد وتحملنى فى طريق السفر

■

The zafarani files- Novel

وقائع حارة الزعفرانى

Gamal Al-Ghitani
Translated by Farouk Abdel Wahab
The American University in Cairo press 2009- 335 p.



شخص مجهول يراقب سكان حى صغير قديم ومترابط بالقاهرة. يسجل كل تحركاتهم ومشاجراتهم وأفراحهم واصفا ثيابهم وصفاتهم وتاريخهم بتفاصيل دقيقة. منهم الجامعيون والباعة المتجولون فى الشارع والمعتقلون السياسيون وصاحب المقهى وسائق التاكسى وبائع الخضروات والرجل المتهكم الساخر والخباز والزوجة الصغيرة الجميلة ذات العيون الخضراء التى دائما بصحبة زوجها. هؤلاء هم الشخصيات الذين يقوم هذا الشخص بمراقبتهم وتسجيل حياتهم بسلاسة ليحكى عن حارة الزعفرانى.

فهى حى صغير مطوى فى ركن من أركان القاهرة ويعتبر نموذجا مصغرا للحياة بداخلها حيث الفضول هو التسلية الوحيدة، فكل شخص تقريبا لديه سر خاص به يثير التساؤلات. الشيخ عطية الغامض الذى يلقى سحره على حارة الزعفرانى وجميع رجال الحارة الذين يعانون من العجز الجنسى والنساء اللاتى يحكين أسرارهن من الشرفات ويتوجعن من شدة الرغبة.

الريبة والإيمان بالخرافات والحس الفكاهى هى السائدة فى رواية الكوميديا السوداء «وقائع حارة الزعفرانى» للكاتب والصحفى جمال الغيطانى صاحب رواية «الزينى بركات»، راسما تجربة طفولته التى كانت فى حى الحسين. فقد خلق عالما سكانيا غنيا بالشخصيات المتنوعة والمواقف التى تتمتع بمصداقية من خلف ستائرهم الهجائية.

ولد جمال الغيطانى عام ١٩٤٥ وتلقى تعليمه فى القاهرة. كتب ١٣ رواية و٦ كتب تحتوى على قصص قصيرة. هو حاليا رئيس تحرير مجلة أخبار الأدب.

■

Like a summer- Never to be repeated

كصيف لا يتكرر أبدا

Mahamed Berrada
Translated by Christina Phillips
The American University in Cairo press 2009- 181 p.

قصة ساحرة مستندة على تجارب الكاتب كطالب مغربى يدرس فى مصر ويستكشفها فكريا. يأخذنا الراوى حماد فى جولة استكشافية شخصية عميقة بالقاهرة تنطلق منذ فترة الخمسينيات والستينيات الصاخبة بكل تفاؤلها وأحداثها المثيرة حول استقلال المغرب وحول مدينة السويس والرئيس عبد الناصر حتى التسعينيات وقت كتابة الرواية كاشفا القلق الشخصى العاطفى فيما يتعلق بحياة العرب وثقافتهم.

زيارته المتكررة المنتظمة للقاهرة سمحت لنا بمعرفة التحولات الثقافية خلال أربعة عقود. كاشفا جذور التغيير ودور الثقافة فى المجتمع والذاكرة والكتابة فى نص يجمع السرد القصصى مع النقد الأدبى والتأملات الفلسفية والاقتباس.

كصيف لا يتكرر أبدا من أكثر الأعمال الأدبية تجديدا وابتكارا فى الأدب العربى الحديث وتعتبر شهادة على مكانة محمد برادة كرائد فى هذا المجال.

ولد محمد برادة فى الرباط عام ١٩٣٨ وهو من رواد الكتابة فى المغرب وهو كاتب قصص قصيرة وروايات ونقد أدبى. أما المترجمة كريستينا فيليبس الحاصلة على شهادة الدكتوراه فى الأدب العربى الحديث فتعمل الآن فى معهد الدراسات الإسماعيلية بقسم الدراسات القرآنية بلندن.

■

وليس الذكر كالأنثى..

■ قبل أن تقرأ هذا الكتاب...

شهدت تسعينيات القرن العشرين ثورة فى الأبحاث العلمية الخاصة بدراسة بنية ووظيفة المخ البشرى، وهى ثورة تقف وراءها قفزتان علميتان هائلتان، تتمثل الأولى فى التوصل إلى تقنيات رائدة مكنت الباحثين للمرة الأولى فى تاريخ البشرية من تصوير المخ أثناء أدائه لوظائفه، فصارت هذه التقنيات بمثابة عينين تطلان داخل الدماغ المغلق.

وتتمثل القفزة الثانية فى التقدم الهائل فى مجال أبحاث علوم البيولوجيا الجزيئية، وهى العلوم التى تقوم بدراسة بنية وكيفية أداء الخلايا المختلفة لوظائفها على مستوى الجزيئات والذرات.

لقد أمدتنا هذه الثورة البحثية بثروة من المعلومات الخاصة ببنية المخ ووظيفته يعجز المتخصصون عن متابعة ما يستجد منها يوماً بعد يوم.

حتى وقت قريب كان يتم إرجاع الاختلاف فى أسلوب تفكير وسلوك كل من الذكور والإناث إلى «العوامل التربوية»، حيث يقوم الوالدان بتنشئة أولادهما بناء على مفاهيم اجتماعية وموروثات حضارية تحدد ما ينبغى أن يكون عليه كل من أبنائنا وبناتنا. ثم اتجهت أنظار العلماء لتفسير هذا الاختلاف الفكرى والنفسى والسلوكى بين الذكور والإناث إلى الفروق الكيميائية بين الجنسين والمتمثلة فى «الهورمونات الجنسية الذكورية والهورمونات الجنسية الأنثوية»، لكن هذه الهورمونات لم تستطع وحدها تقديم الإجابة الكاملة، فهل لبنية المخ ووظيفته دور فى هذه الفوارق بين الجنسين؟

إن الكثيرين منا يحيون بين طرفى نقيض، بين نظرة يتبناها الفكر المادى الغربى ويسيطر عليها مفهوم التماثل العقلى المطلق بين الرجال والنساء (وليس فقط مفهوم المساواة فى الحقوق والواجبات)، وبين إرث من الأعراف البيئية التى يجور كل منها على المرأة بطريقته الخاصة. ولا مخرج من هذا الواقع المجحف المتناقض إلا بالبحث عن الحقيقة وإظهارها وتأكيدها والترويج لها، ولا سبيل لذلك إلا بالعلم. إن الرغبة فى الوصول إلى الحقيقة الكامنة بين هذين النقيضين هى الدافع وراء إخراج هذا الكتاب.

لذلك يقوم هذا الكتاب على عرض التباين والتمايز المخى والعقلى والنفسى والسلوكى بين الذكور والإناث وعرض آليات حدوث هذه الفوارق والعوامل التى تقف وراءها.

بُنيت هذه الدراسة على نتائج الأبحاث التى أجريت (حتى بدايات القرن الحادى والعشرين) فى كبريات جامعات العالم ومراكزه البحثية المحترمة، وذلك بعد مناقشة واعتماد تلك النتائج مع الجمعيات العلمية والمجلات العلمية المتخصصة. وتجدر الإشارة إلى أن معظم مراجع الكتاب وما ورد به من الدراسات والأبحاث صادر فى الولايات المتحدة والدول الأوروبية، وهى دول تتبنى مفهوم المماثلة والتبادلية بين الرجال والنساء (أى كلاً من الجنسين يماثل تماماً الجنس الآخر من الناحية العقلية، ومن ثم يمكن أن يكون بديلاً عنه فى المجالات العملية والاجتماعية والأسرية). كما ستلاحظ أن الكثير من هذه الدراسات قامت بها باحثات فى أعلى المستويات العلمية ومتخصصات فى علوم المخ والأعصاب، مما يعكس حرصهن على الوصول إلى الحقيقة العلمية (دون أى تحيز) فى مجال الفوارق الجنوسية بين الذكور والإناث.

هذا وقد أصبحت المفاهيم التى يعرضها هذا الكتاب حول الفوارق بين المخ/ العقل الذكورى والمخ/ العقل الأنثوى بمثابة أساسيات وحقائق علمية فى مجال علوم المخ والأعصاب، حتى إن الكثير من المراجع الأساسية المعتمدة لهذه العلوم (Text Books of Neuroscience) أصبحت تفرد من بين فصولها فصلاً عن الفوارق بين مخ الذكور ومخ الإناث.

يشتمل الكتاب على بابين وحصاد وثلاثة ملاحق:

الباب الأول «الذكورة والأنوثة»، طرح فيه الفوارق المخية/ العقلية والنفسية والسلوكية بين الذكور والإناث، مع دراسة أثر العوامل البيولوجية وعوامل التنشئة على وجود هذه الفوارق. ويحتوى هذا الكتاب على ثمانية فصول:

فى الفصل الأول (تأملات وتساؤلات) ندعو القارئ لتأمل الفوارق العقلية والنفسية والسلوكية بين الذكور والإناث فى المراحل العمرية المختلفة كما نعرض بعض الإحصائيات ذات الدلالة حتى يستشعر القارئ بنفسه وجود هذه الفوارق. ثم نطرح فى آخر الفصل تساؤلات مهمة حول مصدر هذه الفوارق وآليات حدوثها.

ويعرض الفصل الثانى للمفاهيم الأساسية والحقائق التى توصل إليها العلماء بخصوص تساؤلات الفصل الأول، وذلك قبل أن يتابع فى الفصول التالية الدراسات التى أوصلت الباحثين إلى هذه الحقائق.

ويقدم هذا الفصل خمسة مفاهيم أساسية يعرضها من خلال خمسة مباحث، وهى: مبحث خاص بكيف صرنا ذكوراً أو إناثاً، ثم مبحث يوضح أن الذكاء البشرى أنواع متعددة وليس نوعاً واحداً، ومبحث ثالث حول ما توصل إليه العلماء من وجود عقلين وذاكرتين فى دماغنا!، ومبحث رابع يعرض الفوارق التشريحية والوظيفية بين مخ الذكور ومخ الإناث. ومبحث أخير يستخرج فيه الباحثان (من المباحث السابقة) النمط العقلى السائد لدى كل من الرجال والنساء.

ويعرض الفصل الثالث الفوارق بين أسلوب تفكير وسلوك كل من الذكور والإناث فى خمسة وعشرين مجالاً من مجالات الحياة، ومن ثم السمات المميزة لعقل كل من الرجل والمرأة.

أما الفصل الرابع (التنشئة أم الفطرة) فيتحدث عن الآليات والعوامل التى تقف وراء الفوارق بين مخ/ عقل كل من الذكور والإناث.

ويركز الباحثان فى الفصلين الخامس والسادس، (إكسير الذكورة)، و(إكسير الأنوثة) على دور الهورمونات الجنسية الذكورية والهورمونات الجنسية الأنثوية فى تشكيل مخ كل من الجنسين. قبل أن يعرضا فى الفصل السابع لحالات مرضية ساعدت العلماء على معرفة كيف تحدث عملية التجنيس وأثر ذلك على العقل والسلوك.

ويعرض الفصل الثامن والأخير من هذا الباب (الجينات والمخ... ثم ماذا بعد؟) لدور الجينات فى عملية تشكيل المخ. قبل أن يطرح السؤال المهم حول حقيقة العقل الإنسانى (ثم ماذا بعد؟).

ويحتوى الباب الثانى «تطبيقات على الجنوسة»، على خمسة فصول نعرض فيها تأثير الفوارق الجنوسية فى بنية المخ وأسلوب أدائه لوظائفه على بعض جوانب حياة كل من الجنسين.

(الجنس بين شهريار وشهرزاد) يختاره الباحثان عنوانا للفصل التاسع ويخصصانه لأوجه التشابه وأوجه الاختلاف بين كل من الذكور والإناث فى طبيعة غريزة الجنس عند كل منهما. ثم ينتقلان فى الفصل العاشر ليناقشا ارتفاع معدلات الطلاق خلال السنوات الأخيرة الأمر الذى يرجعانه إلى الاختلاف فيما يتوقعه كل من الرجال والنساء من الحياة الزوجية. قبل أن يخصصا الفصل الحادى عشر للآليات البيولوجية التى قد تؤدى إلى التباين فى مشاعر كل من الوالدين تجاه أطفالهما واختلاف طريقة تعاملهما مع الصغار. محذرين من عواقب التقصير فى التنشئة العاطفية للصغار.

يقدم الكتاب فى نهايته تلخيصاً لما ورد فيه من حقائق علمية فى مجال التمايز الجنوسى بين الذكور والإناث، ويعرض لبعض ما ينشأ من مشكلات نتيجة إنكار البعض وجود هذا التمايز.

يضم الكتاب ثلاثة ملاحق تبدو مقدمة للقارئ المتخصص وتضم توثيقاً لما ورد فى الكتاب من حقائق، وذلك بالمعلومات التشريحية المتخصصة ومن خلال عرض تفاصيل بعض الدراسات التى أجريت من أجل التوصل إلى الفوارق الجنوسية بين الذكور والإناث.

يدور الملحق الأول (مفاهيم بيولوجية) حول بنية المخ ونشأته وتشكله وتجنيسه وأدائه لوظائفه. أما الملحق الثانى (من الكناريا إلى الشمبانزى) فيتناول الفوارق التشريحية والوظيفية بين مخ الذكور ومخ الإناث فى الطيور والثدييات. ويشتمل الملحق الثالث (المخ البشرى بين الذكر والأنثى) على الخلفية التشريحية والوظيفية للفوارق الجنوسية فى الإنسان. ■

المخ.. ذكر أم أنثى؟!
د. عمرو شريف ود. نبيل كامل
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩، ٣٩٢ صفحة

كـــــتـب يـابـانـيــــة

هى التى لا تعرفها هى

رواية

٢٠٠٨/١١



قال لى الرجل الذى أتى من عالم موازٍ، «أنت عظيمة». يقول إن بداخلى قدرات لا أنتبه لها، قدرات تكفى كى أحصل على ميدالية ذهبية. ولذلك، يطلب منى أن أجرى، كبديل لـ «أنا» فى العالم الآخر. لم لا أصدق كلام هذا الرجل. صحيح أنى مبتدئة، لكنى سأجرى الجرى. ١٩٥. ٤٢ كم، نحو أوليمبيات عام ٢٠١٦ فى طوكيو. سأكف عن التظاهر بأنى أعيش دون أن أبذل كل ما أستطيع من قوة. من أجل «نفسى» فى العالم الآخر، من أجلى أنا.

عمل حاصل على جائزة التفوق فى مسابقة اليابان لرواية الفانتازيا.

ساتومى ران ولدت عام ١٩٦٩ بطوكيو. روائية.

تندو أراتا هو الذى يرثى

٢٠٠٩/١١/٢٧

رواية



البطل يهيم فى أنحاء البلد، ويستمر فى ترحاله ليرثى الموتى. حوله، تتكشف الدراما لامرأة قتلت زوجها، لصحفى فاقد للثقة فى البشر، لأم مصابة بسرطان الكبد. هل هو قديس، أم مراء؟ من هو «الذى يرثى»؟ قمة وصل إليها الكاتب بعد أن أنفق للوصول إليها سبع سنوات! قصة الحب التى يختلط فيها الخير بالشر والموت بالحياة.

عمل حاصل على جائزة ناووكى الأدبية

تندو أراتا. ولد سنة ١٩٥٠. روائى يابانى. اسمه الحقيقى كوريتا نورييوكى.

الطريق إلى التوحش النفسى - كلام عن الناس الذين يرتكبون أشياء غريبة رغماً عنهم -

كاسودا تاكيهيكو

طبيب نفسى

يوشينو ساكومى

رسام مانجا

٢٠٠٨/٧



«لم ارتكبت هذا الفعل؟»، نندهش نحن البشر أحياناً حين نتذكر تصرفات غريبة صدرت منا. اهتمامات حمقاء، رغبات غير مفهومة. رغم أننا ندرك تماماً دناءة تلك الأفعال، إلا أننا نفيق على أنفسنا وقد فعلناها.

كتاب تحليل نفسى، يتأمل تحركات النفس التى تأبى أن تسير على درب واحد، ويستمتع بالدخول فى أعماقها.

الموكب الأخير

قصص واقعية تدفئ القلب حدثت فى ديزنى لاند

ناكامورا كاتسو



قصص ما إن تسمعها حتى تنهمر دموعك فلا تتوقف، لا يعرفها إلا العاملون فى طوكيو ديزنى لاند.

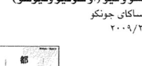
الكاتب، وهو مشرف عمل فى ديزنى لاند لخمسة عشر عاماً، سجل فى هذا الكتاب ٣٣ «موقف يدفئ القلب» حدث فى ديزنى لاند، والتى كان حريصاً على نقلها بدقة إلى كل العاملين فى المدينة.

القصص الموجودة فى هذا الكتاب ليست دراماتيكية مثل الروايات. ولا هو كتاب يكشف الوجع الكامن خلف كواليس هذه المدينة بشكل قد يكون فيه منفعة لرجال الأعمال. لكنه يدفئ قلبك ببطء من خلال قصص تجعلك تعيد اكتشاف عظمة كلمات مثل «الحلم» و«الأمل».

طوكيو (أو طوكيو وكيوطو)

ساكاى جونكو

٢٠٠٩/٢





«كيوطو»، المدينة اليابانية، التى تعيش مع التقاليد العريقة المتوارثة منذ أكثر من ألف سنة فى أرض ضيقة. و«طوكيو»، العاصمة، التى تدخل إليها الأشياء الجديدة يوماً بعد يوم. ماهو سر اختلاف شخصيات البشر فى كل من هاتين المدينتين الرئيسيتين فى اليابان؟ الكاتبة، التى أتت من طوكيو، تسجل بدقة الاكتشافات، التساؤلات، الاندهاشات التى جالت بخاطرها منذ أتت إلى «كيوطو»، فى شكل مقالات تقارن ما بين الثقافتين من ١٩ وجها مختلفا مثل «الكلام»، «التقاليد الدينية» «الشباب» «النساء»....

ساكاى جونكو كاتبة مقالات. ولدت سنة ١٩٦٦.

أيام ما بين بين

كاواكامى هيرومى

٢٠٠٩/٢

فى ليالى الربيع، أستمع لصوت البكاء الصغير للثلاجة فى المطبخ الخالى، وفى أيام الشتاء الدافئة، ألاحظ «طراوة» اليوسفى الذى اشتريته الأسبوع الماضى لأخزنه. القراءة، الدردشة، السفر أحياناً. كلمات تشعرك بالسعادة لقراءتها، تبحث عن الغنى غير المتوقع فى حواف الأحداث اليومية التى تمر دون أن نلاحظ. مجموعة مقالات ترصد المشاعر الغنية والأحداث الغريبة التى تمر على مدار الفصول الأربعة.

كاواكامى هيرومى

من أبرز الكاتبات اليابانيات. حاصلة على العديد من الجوائز الأدبية اليابانية. ولدت سنة ١٩٥٨.

الاعتراف

ميناتو كاناى

٢٠٠٨/٨/٥

المدرسة التى فقدت ابنتها داخل المدرسة، تشير بأصبع الاتهام فى حفلة التخرج، نحو الصبى المتهم بقتلها. تعرض الكاتبة القضية بشكل مونولوج يرويه كل من «الزميل» «المتهم» و«عائلة المتهم» لكشف الحقيقة تدريجياً. العمل حائز على جائزة أفضل رواية استدلال لكاتب جديد.

ميناتو كاناى. كاتبة يابانية. ولدت سنة ١٩٧٣.

لا أطلب

كاجيما شوزو

٢٠٠٧/٦



مائة قصيدة تبدأ بـ «لا أطلب». لا يعنى «ألا تطلب» دائماً أن تكون بلا هدف أو رغبة. لكن أن تعلم قيمة ما تعودت عليه ولم تعد تراه.

كاجيما شوزو. شاعر ورسام يابانى. ولد سنة ١٩٢٣.

قصص رعب قديمة

كيوجوكو ناتسوهيكو.

روائى يابانى.

٢٠٠٧/٧



قصص الرعب اليابانية أو الكايدان،

هى جانب مميز وعريق لا يمكن تخطيه عند التحدث عن الثقافة اليابانية. فى هذا الكتاب، يعيد الكاتب صياغة قصص الرعب القديمة من عصر الإيدو بشكل معاصر يسهل فهمه.

قبل ذلك اليوم

شيجيماتسو كيوشى

٢٠٠٨/٩/٣



عشنا حياتنا متجهين نحو «ذلك اليوم». موت العائلة، الذى يقطع ظلماً تسلسل الأيام التى كان من المفترض أن تستمر لغد، وحتى بعد ذلك.

ماذا ينبغى لنا أن نفعل أمام الحياة وهى تختفى؟ قصص قصيرة تتأمل الحياة والموت، والسعادة المختبئة داخل الحياة اليومية من خلال حياة أب وأبناء ينتظرون فى صمت موت الزوجة.

شيجيماتسو كيوشى كاتب يابانى. ولد عام ١٩٦٣. حاصل على جائزة ناووكى اليابانية عام ٢٠٠١ عن عمله «فيتامين F».

اليابانيون الفاقدون للمبدأ

شيراسو جيرو

٢٠٠٦/٥



«تخلى عن الاعتماد على قوة الغير مثل الشحاذين»، «اخجل من قول نعم لكل شىء»، «كف عن تملق الجميع». يعنف الكاتب المواطن اليابانى ويصيب بدقة حقيقته وعيوبه من خلال هذا الكتاب. هذا الكتاب هو أقوال لرجل أعمال يابانى بارز سجلت منذ ما يزيد على الخمسين عاماً. ولا تزال العيوب كما هى. ألن يتغير الإنسان اليابانى؟؟

شيراسو جيرو. رجل أعمال يابانى. ولد سنة ١٩٠٢.

البحـــر

كوجاوا يوكو

٢٠٠٩/٢



فى القصة التى تحمل عنوان الكتاب تروى عن شاب جاء إلى بيت حبيبته، وقضى ليلة كاملة يتحدث مع أخيها الصغير ويخبره عن الجرس الذى رن لأول مرة حين مرت عليه الرياح الآتية من البحر/ قصة «عربة الطائر الصغير» التى تحكى عن الفتاة التى فقدت النطق والبواب الوحيد وكيف تعمقت علاقتهما، قصة «المرشد» التى تروى عن رجل عجوز يضع عناوين لذكرياته وشاب يعمل كمرشد سياحى. سبع قصص يضمها الكتاب تتسم بالغرابة والهدوء فى آن. للكاتبة التى تقول أنها تبحث دوماً عن «الشىء الذى لم يعد موجوداً».

كوجاوا يوكو كاتبة يابانية. ولدت سنة ١٩٦٢.

الشجرة التى تسافر

هوشينو ميتشيو

١٩٩٩/٣



ألاسكا، محاطة بأرض وبحر شاسعين. تمر عليها الفصول فى مواقيتها. منذ نزل فيها الكاتب لأول مرة فى عام ١٩٧٨، وهو يسجل فى صوره طبيعتها الجميلة والقاسية فى آن، وحياة الحيوانات فيها. يحوى الكتاب ٣٣ فصلاً يسرد بكلمات هادئة حياة سكان الآلاسكا والأجانب الذين دخلوها فى عصر الانفتاح، والتى تمشى فيها الحياة جنباً إلى جنب مع الموت. كتاب يعيد تعريف النجاح، يغير إحساسك بالزمن، ويربت على كتفيك بحنان.

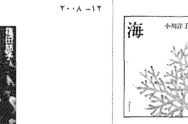
هوشينو ميتشيو مصور يابانى. ولد سنة ١٩٥٢.

كاسو جيرى

رواية من جزءين

شينودا سيتسوكو

١٢ -٢٠٠٨



• عمل يرسم الحاضر المجنون من خلال دين جديد

هذا الكتاب لم يحصل فقط على إجماع النقاد بكونه أفضل أعمال الكاتبة، لكنه صعد إلى قمة الأعمال التى تتناول الأديان الجديدة.

تبدأ القصة فى عام ٢٠٠١. فى الليلة التى يتقابل فيها ياجوتشى ماكوتو، المحرر السابق، والذى طرد من عمله بسبب علاقة غير شرعية فى مكان عمله، مع سوزوكى ماساهيكو، الذى فقد فى أثناء سعيه - تأثراً بياجوتشى - نحو تحقيق حلمه أن يكون كاتباً، عمله وعائلته، وأصبح مشرداً. فى تلك الليلة يرى الاثنان الضائعان على شاشة التلفزيون مبنى المركز التجارى العالمى ينهار بقوة الدين. فى وسط الأزمات الاقتصادية المستمرة، يحاصر الكبار بقلق غامض ورغبة فى الفرار، ويعانى الشباب من الملل.

ليس هناك من عمل يناسب احتياجات العصر مثل الدين. لو أصبح عدد المؤمنين ثلاثين، يمكن تأمين الغذاء. لو أصبحوا ٥٠٠، يمكن شراء سيارة مرسيدس بنز. وهكذا يؤجر الاثنان غرفة فى عمارة قديمة. ويبدآن فى تأسيس جماعة دينية جديدة، بتعاليم دينية مستعارة وسطحية لا تتعامل إلا مع الظواهر، وتمثال لإله صنعوه بأنفسهم. ويؤسسون موقعاً إلكترونياً للدين الجديد.

يبدأ الشباب فى التجمع على الموقع، ويبحث المؤسسان عن مكان للاجتماعات. كيف تكون مراسم الدخول فى الدين؟ كيف يتصرفون مع الناس الذين يحملون حملاً نفسياً ثقيلاً؟؟ يأخذ ماساهيكو دور القائد الدينى، ويأخذ يا جوتشى دور الدعاية.

تكبر الجماعة بالتدريج، متخطية حوادث كثيرة. وتحقق نمواً مفاجئاً حين ينضم إليها صاحب شركة لتعليب الأغذية. ويشعر القارئ بأن الأحداث مثالية إلى حد كبير، إلى تعطل عجلة الأحداث فجأة، ويدخل الاثنان فى دوامة «لعبة القوة» داخل الجماعة الدينية، ويصبحان لقمة طرية لإعلام الفضائح وتنحل الجماعة. ورغم ذلك يفاجأ ماساهيكو، القائد الدينى المزيف، بالمؤمنين يتمسكون به ويرفضون تركه، ولا يعلم ماذا يفعل.

العمل ملىء بأسئلة من العيار الثقيل، ويستحق أن يكون بهذه الضخامة ومقسماً على جزءين. البطل هو سوزوكى ماساهيكو الذى صار القائد الروحانى النصاب. هو شخص لا يتمتع إلا بمستوى عادى من الحساسية، وأسس الدين فقط من أجل المال، وهو أكثر شخص يعرف بأن تعاليمهم مزيفة.

لكن، مشاكل البشر الذين يتشبثون بتلك التعاليم، حقيقية وجادة. امرأة تعانى من العلاقة الثقيلة التى تربطها بأسرتها. فتاة تقضى حياة العشيقة فى فندق. ولد يعانى من اضطهاد أصدقائه له فى المدرسة. الدين المفبرك يفقد توازنه ويتم ابتلاعه فى النهاية من المؤمنين الذين يحملون مشاكل حقيقية. تكتب الكاتبة تلك الأحداث ببراعة أدبية لا تحاكى.

«كاسو جيرى» باللغة اليابانية - اسم الرواية - هى عبارة تم تحويرها من عبارة «تسوكا جيرى»، «تسوكا» معناها «يمر» و«جيرى» معناها «مراسم»، أى أن الترجمة الحرفية هى «مراسم المرور»، بمعنى أن حياة الإنسان مقسمة إلى مراحل، مثل الميلاد، دخول المدرسة، النضوج، العمل، الزواج، الموت.

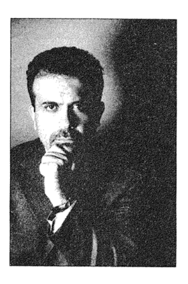
وكل مرحلة تعنى مسئوليات ودورا مختلفا فى داخل الجماعة التى ينتمى إليها الفرد. وفى أى مجتمع، هناك عدة «مراسم» أو خبرات يجب تأديتها لتحقيق الشروط التى تسمح للإنسان بالمرور، للمرحلة الجديدة التى ستتضمن ظروفا نفسية واجتماعية مختلفة. أما كلمة «كاسو» والتى بدلت بها الكاتبة كلمة «تسوكا» أو المرور فى العبارة الأصلية، فمعناها «الافتراضى» أو «المتخيل».

ما يمكن أن يحققه دين مزيف وفارغ لا يعدو أن يكون «مراسم متخيلة»، للنضوج وتحقيق التغير فى حياة الإنسان. لكن المثير للسخرية هو أن سوزوكى ماساهيكو، المسئول عن تلك المراسم المتخيلة، سيمر بـ«مراسم مرور» أو «تسوكا جيرى» حقيقية. كيف ستغير المصائب العنيفة التى تسببت فيها الجماعة الجديدة؟ لا تستطيع إلا أن تسأل نفسك هذا السؤال بعد الانتهاء من القراءة.

شينودا سيتسوكو كاتبة. حاصلة على جائزة ناووكى الأدبية عن «جهاد النساء».

التسامح وحدود الديموقراطية:
الليبراليّــون الجُــدد نموذجــاً

جــوزيــف مســعــد



■ من أهمّ ما يطرحه علينا الخطاب الليبرالي الذي تسوقه أميركا داخلياً وخارجياً هو فكرة التسامح مع الآخر، وأن هذا التسامح هو إحدى أهم ركائز الأنظمة الديموقراطية الغربية. يسوّق هذا الخطاب عربياً، ويلعقه الليبراليون العرب الجدد ويعيدون إنتاجه في مقالاتهم في الصحف العربية، ويقدّمونه على أنه أهمّ مقوّمات ومتطلّبات الحداثة والتقدّم التي يجب اتباعها عربياً.

ترتكز فكرة التسامح بالطبع على تقبّل الآخر على كلّ اختلافاته في العادات والدين والممارسات الثقافية والسياسية، وهذا ما ترفض أميركا وأتباعها التسامح معه. فأميركا متسامحة فعلاً مع كل ما يشبهها ثقافياً، ومع كل من يتبعها سياسياً، وترفض التسامح مع من تعرّفه مبدئياً بأنه غريب عنها، وتصوّره على أنه بربري وهمجي أو على الأقل غير متحضر. ويحاجج البعض في اليسار الأكاديمي الأميركي من المناوئين لهذا الخطاب المنافق مزاعم تسامحه. ويدحض هؤلاء النقاد أهم مقوّمات هذا التسامح المزعوم، وهو أنه متسامح مع كل ما تقبل به الثقافة الأميركية أصلاً وغير متسامح مع كل ما ترفضه. خذ مثالاً على ذلك رفض القانون الأميركي لممارسات بعض الأديان التي يتّبعها مهاجرون من جزر الكاريبي مثل ديانة «سانتريا» التي تمزج ما بين الدين المسيحي وأديان روحانية أخرى. يمارس أتباع «السانتريا» شعائر دينية تقتضي التضحية ببعض الحيوانات الداجنة في مناسبات معينة (وهي في ذلك تشبه بعض الشيء شعائر عيد الأضحى عند المسلمين). ويعتبر القانون الأميركي، المتسامح جداً مع كل ما يعتبره أميركياً، هذه الممارسات غير مقبولة ولا تستحق التسامح، فيمنعها ويجرّمها، وبذلك يخرجها من فضاء التسامح طراً. وهذا واحد من الاف الأمثلة التي تحدّد معنى التسامح الليبرالي في الولايات المتحدة.

عدا عن خضوع فكرة التسامح لهيمنة الثقافة الأميركية السائدة، هنالك مشكلة تعريفية ومبدئية يجب التشديد عليها، وهي أن هذا «التسامح» المزعوم يرفض أن يتسامح مع من يعتبرهم غير متسامحين أصلاً، ما يجعله هو أيضاً خطاباً غير متسامح. إذاً نواة قلب مفهوم «التسامح» على رأسه موجودة أصلاً في منظومته التكوينية نفسها التي تحتوي على «عدم التسامح» كأهم مكوّن لـ«التسامح».

يصرّ ليبراليّو أميركا وأتباعهم العرب على أنّ عدم التسامح مع ما يعتبره «التسامح» غريباً عنه أو مع «عدم التسامح» ضروري للحفاظ على «التسامح» كنظام قائم، وإلا هدده «عدم التسامح» هذا وقضى عليه. ويعمم هذا المنطق على الديموقراطية نفسها. فتزعم الأنظمة العربية غير المتسامحة، ومعها النظام الأميركي المدّعي التسامح والليبراليون العرب الجدد العاشقون بإفراط لتسامح أميركا المزعوم، أنّ حدود ممارسة الديموقراطية العربية تكمن في قبول دخول الإسلاميين في الانتخابات، لكن برفض فوزهم إن فازوا، إذ إنهم سينقلبون على الديموقراطية التي استغلّوها أصلاً للوصول إلى السلطة. الديموقراطية تُعرّف هنا إذاً بأنّها نظام للتنافس على السلطة يقتصر على كل من تقبله السلطة ويستثني كل من ترفضه، لكن التاريخ العربي الحديث يدحض هذه المزاعم، فالديكتاتورية الجزائرية، على سبيل المثال، هي التي انقلبت على الديموقراطية تحسّباً لفوز إسلاميّي الجزائر، وليس العكس. وهذا هو النهج الذي سارت عليه أخيراً قيادات منظمة «فتح» في انقلابها على الديموقراطية الفلسطينية وتنصيبها عملاء إسرائيل وأميركا على الحكم غير الديموقراطي في الأراضي المحتلة.

وتنطبق هذه النزعة على كثير من ديموقراطيّي وليبراليّي مصر العلمانيين الذين يفضّلون الديكتاتورية على فوز الإخوان المسلمين في أي انتخابات، في الوقت نفسه الذي يطالبون فيه بالديموقراطية لأنفسهم.

إذاً، الديموقراطية المزعومة هذه، مثلها مثل التسامح المزعوم الذي تنادي به أميركا والليبراليون العرب الجدد التابعون لها، هي ديموقراطية لا تشوبها معارضة، وتتسامح مع كل ما هو مثيل وغير مختلف. وهذا ما يقدّم لنا على أنه نموذج «الحداثة الليبرالية» وعنوان دخولنا العالم «المتحضر».

إنّ التناقض الداخلي لهذه المنظومات الفكرية لا يحتاج إلى سيّد قطب ولا إلى مهدي عاكف كي يدحضاه ويعرّيا الأسس الأيديولوجية المبني عليها. السؤال الذي يطرح نفسه إذاً هو لماذا تخلّى الكثير من يساريّي الماضي ويمينيّي الحاضر (أي الليبراليّين الجدد) عن مقدراتهم التحليلية وجعلوها مرتهنة للتناقضات الليبرالية المعادية للتسامح والديموقراطية في الوقت نفسه الذي يزعمون فيه اعتناقهم لها؟ هل كان هدف هؤلاء الفعلي عندما كانوا يساريين تحريرنا من النموذج الكولونيالي والعنصري المسمّى «الديموقراطية الأوروبية»، أم أرادوا في حينها تحويلنا إلى مجتمعات أوروبية كما أراد لنا سلامة موسى وطه حسين، كل على طريقته؟

هنا تنطبق على مثقّفينا من يساريّي الماضي ويمينيّي الحاضر المقولة الأميركية عن الفارق بين المحافظين والليبراليين الأميركيين، وهي أنّ «المحافظ هو ليبرالي تعرّض للسرقة»، أي أن الليبراليين يدافعون عن حقوق الفقراء حتى لحظة تعرّضهم للأذى من فقير، فيتحوّلون في لمح البصر إلى محافظين معادين للفقراء، أي ينقلبون على الفقراء قبل أن ينقلب الفقراء عليهم. إذا طبّقنا هذه الاستعارة على مثقّفينا، نستنتج أنّ اليميني العربي الحاضر (أي الليبرالي الجديد) هو يساري تعرض لمنافسة الإسلاميين. ■



Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 127 - August 2009

مجلة شهرية . العدد المائة وسبعة وعشرون - السنة الحادية عشرة - أغسطس ٢٠٠٩ . الثمن عشرة جنيهات

هل قتل الإعلام «مروة الشربينى»؟

أوروبا لا ترتدى «العمامة»

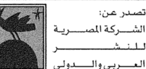
«الوصية»: من يملك مصر؟

جوارى هارون الرشيد

حلمى التونى 2009

السنة الحادية عشرة
العدد ١٢٧
أغسطس ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى



الكتب وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

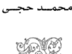
تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- السيد أمين شلبي.. الرئيس التنفيذي للمجلس المصري للشئون الخارجية.
- امحمد جبرون.. باحث مغربي في تاريخ الفكر السياسي.
- جين ماير.. صحفية أمريكية.
- سميح حمودة.. محاضر في العلوم السياسية بجامعة بيرزيت.
- سيد محمد البخاري.. مدير متحف الفنون الإسلامية الماليزي.
- صلاح العمروسي.. باحث اقتصادي.
- طارق رمضان.. أستاذ زائر بكلية سانت أنطوني جامعة أكسفورد - إنجلترا.
- كاي حافظ: محاضر بمعهد العلوم السياسية بجامعة هامبورج
- مصطفى البرغوثي.. سكرتير المبادرة الوطنية الفلسطينية ورئيس الإغاثة الطبية الفلسطينية
- مليحة لوزي.. صحفية ودبلوماسية باكستانية.
- ميساء شجاع الدين.. صحفية يمنية.

رسوم العدد للفنان
محمد حجي



المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠ / ٢٣٩٣٠٤٩٢ / ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

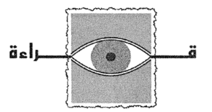
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة



مسلمتان فى أوروبا

أيمن الصياد

■■ فى الوقت ذاته الذى غادرت فيه رشيدة داتى (الفرنسية من أصل مغربى) مقعدها كوزيرة للعدل فى فرنسا إلى موقعها الجديد كنائبة فى البرلمان الأوربى، وفى الأسبوع ذاته الذى احتلت فيه صورها بلباس البحر الأسود ذى القطعتين (تحمل رضيعها الذى أنجبته خارج الزواج) أغلفة المجلات الفرنسية الشعبية، سقطت مروة الشربينى (الأم المصرية الشابة الحامل فى شهرها الثالث) صريعة بسكين متعصب ألمانى، كره «حجابها» إلى حد القتل، وصدرت النيوزويك الجادة بموضوع غلاف أوحد حول «فزاعة أسلمة أوروبا».

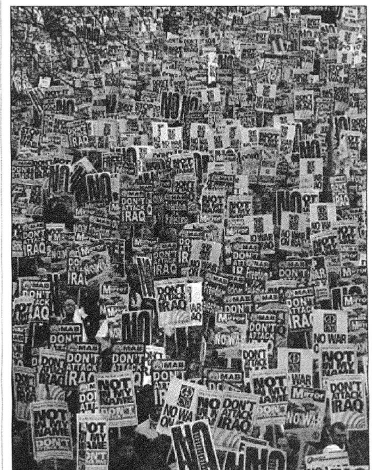
بين صورتى السيدتين، كما بين المشهدين (الألمانى والفرنسى)، تتسع صورة المسلمين فى أوروبا لتشمل آلافًا من قطع الفسيفساء الصغيرة، الملونة بالتناقضات، والمثقلة بالهواجس «والتاريخ» والأحكام المسبقة. ربما - وهى محض مصادفة - مثلما هى المسافة «فى التاريخ» بين ألمانيا وفرنسا ذاتهما.

رغم كل الأوهام هنا عن «عودة مجد الإسلام من أوروبا»، وكل الهواجس هناك عن «الغزو الإسلامى للغرب»، تبقى حقيقة أن المسلمين كغيرهم، مختلفون. وأن موروثاتهم تتلاقح بحكم طبائع الأمور مع ثقافة المجتمع السائدة. (انظر كتاب «من يتحدث باسم الاسلام» الذى نشرته دار الشروق قبل أسابيع. وفيه أن استطلاعا للرأى أجراه معهد «جالوب» يشير الى أن أكثر من ٣٠ بالمائة من المسلمين الفرنسيين مستعدون لتقبل المثلية الجنسية، مقارنة بصفر بالمائة فى بريطانيا. وما يقارب نصف المسلمين الفرنسيين يعتقدون أن الجنس بين غير المتزوجين مقبول أخلاقيا، مقارنة بـ٢٧ بالمائة من المسلمين الألمان...)

من هم المسلمون فى أوروبا إذن؟

هل هم رشيدة (الوزيرة/ النائبة)..؟ أم ذلك الداعية الذى يتعايش من أموال دافع الضرائب البريطانى ليقف فى مسجده كل جمعة داعيا الى محاربة «هؤلاء الكفار»..؟ أم هم محمد عطا، المصرى الذى خطط لغزوته النيويوركية المباركة فى المدينة الألمانية التى كان يدرس الهندسة فى جامعتها المتقدمة..؟

أم هم (ولعلهم الأغلبية، وإن كانوا دائما بعيدين عن مقدمة المشهد) قوم بسطاء، يبحثون عن علم أو لقمة عيش أو نسمة حرية عزت عليهم ربما فى أوطانهم. ولايطلبون من الآخرين الذين يتباهون دوما بالتنوع. غير احترام لمعتقداتهم، نحرا كان للأضاحى، أو زيا يختارونه لبناتهم.



مظاهرات أوروبية ضد الحرب على العراق - لندن ١٥ فبراير ٢٠٠٣ (Reuters)

قد لانتفق قطعا مع أطروحة الراحل «هنجتون» حول صدام حتمى لحضارات نراها نحن حضارة إنسانية واحدة «صب فيها الجميع ما زاد عندهم أوقات الفيض، وسحب منها الجميع ما لزمهم أوقات الجفاف»، كما ذهب الأستاذ هيكل فى محاضرته الشهيرة فى أكسفورد (راجع «وجهات نظر» عدد نوفمبر ٢٠٠٧). كما أننا نتفهم تماما رؤية محمد عابد الجابرى؛ صاحب «نقد العقل العربى» فى مناقشته لإشكالية «الأنا والآخر»، وكيف أنها موروث غربى لاتعرفه ثقافتنا، فضلا عن صحيح لغتنا أصلا (راجع «فكر ونقد» أكتوبر ١٩٧٧)

ولكن .. ماذا بعد؟

الصورة البسيطة، تبدو مزدحمة بالتفاصيل والتعقيد. فإلى جانب فلسفات هنجتون والجابرى، ورؤية هيكل وخاتمى، ، هناك أكثر من خمسة آلاف كتاب تناول موضوع «الاسلام وأوروبا» (Amazon.com)، وهناك مئات الندوات والمحاضرات والمؤتمرات، وهناك مظاهرات - هى الأكبر - جابت شوارع المدن الأوربية تعارض الحرب الأمريكية/ البريطانية على العراق، وهناك - فى الوقت ذاته - دعوات فى العالم الإسلامى لمقاطعة البضائع الأوربية. ثم، بعد كل ذلك - أو ربما فى سياقه - امرأة حامل سقطت فى دمائها، داخل محكمة، فى قلب مدينة أوروبية... لا لسبب، الا لأنها مارست حريتها «الأوروبية» فى ارتداء الزى الذى تريده.

ربما الحادثة فردية.. نعم. ولكن الدلالة للأسف ليست كذلك.

ففى الواقع، هناك جهلٌ وتعصبٌ (هنا وهناك)... وهناك خلطٌ ومصالحُ وسياسات.. وهناك ظلمٌ هنا، وبطالة هناك.. وذكريات ماض قريب مؤلم هنا، وتوجسات مستقبل قريب قلق هناك. وهناك من يذكى كل الثارات القديمة، فلايحلو له الحديث الا عن الصليبيين هنا، وعن «بواتييه» هناك. وهناك بعد كل ذلك حالة من الارتباك الثقافى، أتت بها ثورة الاتصالات ورياح العولمة العاتية.

■ ■ ■

فى أوراقى قصيدة كان قد كتبها الشاعر العراقى المتمرد «أحمد مطر» وقت أن اندلعت أزمة الحجاب فى فرنسا، ورغم حقيقة وجود زوايا متعددة للنظر إلى تلك المسألة، إلا أن قصيدة الشاعر التى كتبها فى منفاه الاختيارى/ القسرى، فى أوروبا باحثا عن حرية افتقدها فى وطنه، تبقى بعفويتها وشاعريتها، وقلقها على قيم «الحرية الفرنسية»، تبقى ذات دلالة.

أرجو أن تسمحوا لى بأن أترك هذه المساحة لأحمد مطر.. ■

الحُسْنُ أسفر بالحجاب...

قمر توشحَ بالسَحابْ
غَبَش توغل, حالما, بفجاج غابْ
فجر تحمم بالندى
و أطل من خلف الهضابْ
الورد فى أكمامه
ألق اللآلئ فى الصدف
سُرُجٌ تُرفرفُ فى السَدف
ضحكات أشرعة يؤرجحها العبابْ
و مرافئ بيضاء
تنبض بالنقاء العذبِ من خلل الضباب
من أى سِحرٍ جئت أيتها الجميله؟
من أى بارقة نبيله
هطلت رؤاك على الخميله
فانتشى عطرُ الخميله؟
من أى أفقٍ
ذلك البَرَدُ المتوجُ باللهيب
و هذه الشمسُ الظليله؟
من أى نَبْع غافلِ الشفتين
تندلعُ الورود؟
- من الفضيلهْ
هى ممكنات مستحيلهْ!
قمر على وجه المياه
يَلمُه العشب الضئيلُ
وليس تدركه القبابْ
قمر على وجه المياه
سكونه فى الاضطراب
وبعده فى الاقتراب
غَيب يمد حضوره وسْطَ الغيابْ
وطن يلم شتاته فى الاغتراب
روح مجنحة بأعماق الترابْ !
وهى الحضارة كلها
تنسل من رَحِم الخرابْ
و تقوم سافرة
لتختزل الدنا فى كلمتين:
(أنا الحجابُ)!

الحُسْنُ أسفرَ بالحجابِ
فمالها حُجُبُ النفورْ
نزلت على وجهِ السفورْ؟
واهاً ...
أرائحة الزهور
تضيرُ عاصمة العطورْ؟
أتعف عن رشْفِ الندى شَفَةُ البكورْ؟
أيضيق دوح بالطيورْ؟!
يا للغرابة!
ــــ لا غرابهْ
أنا بسمة ضاقت بفرحتها الكآبهْ
أنا نغمة جرحت خدود الصمت
وازدردت الرتابهْ
أنا وقدة محت الجليد
وعبأت بالرعب أفئدة الذئابْ
أنا عفة و طهارة
بينَ الكلابْ

الشمس حائرة
يدور شراعُها وَسْطَ الظلام
بغير مرسى
الليلُ جن بأفقها
والصبحُ أمسى
والوردة الفيحاء تصفعها الرياح
و يحتويها السيل دَوْسا
والحانة السكرى تصارع يقظتى
و تصب لى ألما و يأسا
سأغادرُ المبغى الكبيرَ و لست آسى
أنا لستُ غانية و كأسا!



نَعلاك أوسعُ من فرنسا
نعلاك أطهرُ من فرنسا كلها
جَسَدَاً ونفسا
نعلاك أجملُ من مبادئ ثورة
ذُكِرَتْ لتُنسى.
مُدى جذورك فى جذورك
واتركى أن تتركيها
قرى بمملكة الوقارِ
وسَفهى الملكَ السفيها
هى حرة ما دامَ صوتُك مِلءَ فيها
وجميلة ما دُمت فيها
هى مالَها من مالِها شىء
سوى (سيدا) بَنيها!
هى كلها ميراثُك المسروقُ:
أسفلت الدروب
حجارةُ الشرفات
أوعيةُ المعاصرِ
النفطُ
زيتُ العطرِ
مسحوقُ الغسيل
صفائحُ العَربات
أصباغُ الأظافرُ
خَشَبُ الأسِرة
زئبقُ المرآة
أقمشةُ الستائرْ



غازُ المدافئ
مَعدنُ الشفرات
أضواءُ المتاجر
وسواه من خيرٍ يسيلُ بغيرِ آخرْ
هى كلها أملاكُ جَدك
فى مراكشَ
أو دمشق
أو الجزائرْ !
هى كلها ميراثك المغصوبُ
فاغتصبى كنوزَ الاغتصاب
زاد الحسابُ على الحساب
وآنَ تسديدُ الحسابْ
فإذا ارتضتْ..أهلاً
و إنْ لم ترضَ
فلترحَلْ فرنسا عن فرنسا نفسها
إن كانَ يُزعجُها الحجابُ !

أحمد مطر

صورة

كاى حافظ
Kai Hafez

على هامش مقتل «مروة الشربينى» الأم المصرية الشابة داخل قاعة المحكمة الألمانية فى درسدن، تبقى ملاحظتان:

١ - القاتل الألمانى (ذو الأصول الروسية)، وصف مروة - التى كانت تلاعب طفلتها فى حديقة عامة - بأنها «إرهابية»، لا لشىء إلا لأنها كانت ترتدى الحجاب.

٢ - الجريمة البشعة بكل المقاييس (١٨ طعنة للأم الحامل فى شهرها الثالث داخل قاعة المحكمة، وأمام قضاتها)، جرى تجاهلها - فى بداية الأمر - من قبل الإعلام الألمانى، الذى لم يهتم بالموضوع إلا بعد أن كان قد سبب ردود فعل غاضبة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى.

هل يتحمل الإعلام الألمانى مثله مثل غيره من وسائل إعلام غربية أخرى، مسؤولية تعاظم مشاعر العداء للإسلام فى الغرب، أو بالأحرى عند البعض هناك؟

هنا دراسة أجراها أكاديميون من جامعة أكسفورد، عن كيف يتم تقديم صورة الإسلام فى الإعلام الألمانى، وجدنا فى «وجهات نظر» أنها ربما تساعد فى الإجابة على السؤال.

المحـرر

فى عام ١٩٨١، أى بعد ثلاث سنوات من نشر كتاب الاستشراق، ألف «إدوارد سعيد» عملا آخر بعنوان «تغطية الإسلام: كيف تتحكم أجهزة الإعلام والخبراء فى رؤيتنا لسائر بلدان العالم». يستكشف فيه «إدوارد سعيد» المفاهيم الغربية للشرق الأوسط والعالم الإسلامى، ويثبت مرة أخرى قدرته الرائعة على إزالة سوء الفهم المنهجى عن الشرق، والمفاهيم النمطية عن المسلم.

«الآخر»، والانفصال طويل الأمد بين الشرق والغرب فى الثقافة الغربية. هذه المرة أيضا كان الكتاب تنبؤيا إلى حد ما، فمن الإنصاف أن نذكر أنه بعد تفكك الكتلة الشيوعية، بدأت وجهات نظر المثقفين عن الإسلام تملأ الفراغ الأيديولوجى الذى انتشر فى المجتمعات الغربية.

من العلامات الفارقة فى هذا المجال الأطروحة النموذجية «لصامويل هنتينجتون» عن «صدام الحضارات» التى نشرت عام ١٩٩٣. وقد كشف انتشار الكتاب عن القلق من النظرة الازدواجية السائدة والمصطنعة القائمة على أساس الدين أو العرق، والتى يمكن تأويلها حاليا بأنها تشبه إلى حد كبير التفكير السائد فى العصور الوسطى أو فى عهد الاستعمار.

فهذا التحدى الذى يعرض على العلماء، هو إذن محاولة لفهم طبيعة التواصل لهذا الفكر الأبوى المهيمن فى وسائل الإعلام الرئيسية والمجالات العامة فى كل من الغرب والشرق.

وللأسف، باستثناء «إدوارد سعيد»، قام عدد قليل من الباحثين بدراسة آلية البناء وراء انتشار صور الانقسام بين الإسلام والغرب، ولمناقشة هذه المسألة هنا؛ أخذت أطروحة «إدوارد سعيد» كنقطة انطلاق. ويجب أولا ملاحظة أن هناك بعض

للاستزادة

Mutual Understandings?
Muslims and Islam in European Media
Europe in the media of Muslim majority countries

تفاهم متبادل؟
المسلمين والإسلام فى الاعلام الأوروبى
أوروبا فى اعلام الدول ذات الأكثرية المسلمة

Kerem Oktem and Reem Abou-el-Fadl (ed)
European Studies Center. St. Anthony's College
University of Oxford: 2009

الإسلام فى الإعلام الألمانى

التماثل البنيوى بين «سعيد» و«هنتينجتون»، فكلاهما يتناول «الآخر» «الإسلام» من منظور هنتينجتون و«الغرب» من منظور إدوارد – وكأنه صخرة ثقافية صماء. فمن وجهة نظر إدوارد، كانت وسائل الإعلام والغرب هما اللذان قاما بتبسيط الشرق الأوسط الأكثر تعقيدا ووصفه ببؤرة التعصب والجهل. ويبدو أن إدوارد سعيد نفسه قد فشل فى فهم المنطق الحقيقى وراء بنية الخطاب الإعلامى. فمن ناحية، انتقاد إدوارد سعيد للصورة المنحطة عن الشرق الأوسط والإسلام فى وسائل الإعلام الغربية هو انتقاد دقيق وسليم، فبعد عشر سنوات من البحث الإعلامى فى مجال تغطية وسائل الإعلام الألمانية والأمريكية والبريطانية للإسلام والشرق الأوسط، اقتنعت بأن الصورة الإعلامية المعممة تتضمن افتراء منهجيا. ولكن من ناحية أخرى، لم تكن تغطية وسائل الإعلام فى أوروبا مكونة من قوالب نمطية فقط.

انتقادى لسعيد، يقوم على افتراض أن النصوص الإعلامية التى تقدم للجمهور فى دول أوروبا وأمريكا الشمالية تتضمن بلا شك العديد من القوالب النمطية عن الشرق الأوسط، ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك بكثير، فيما يخص تلك النصوص الإعلامية. فأنا أرى أن تحليل المحتوى الإعلامى لا ينبغى أن يقوم فقط على أساس المفهوم الاجتماعى والنفسى للقوالب النمطية أو «الانحياز»، لأن هذه الطريقة تنطوى على خطر أن تصبح مرجعية ذاتية. إن كان المرء يبحث عن قوالب نمطية فإنه بالتأكيد سيجدها، ولكنه قد لا يجد الباقى. الحقائق التى ذكرت والقصص التى قيلت – بسبب المدخل التحليلى الأساسى المحدود جدا فى نطاقه: مثل هذا التوجه يتيح لنا فهم جزء من تغطية وسائل الإعلام ولكنه لا يتيح فهم نسيج الأخبار، وكيفية إدراج بعض الأحداث فى الأنباء دون البعض الآخر، ومن ثم فإنه ليس من الممكن بعد ذلك أن نفهم التعايش الغريب للصحافة عالية الجودة، مع ما أسميه «تشويش» صورة الشرق فى وسائل الإعلام بأوروبا وأمريكا الشمالية.

علاوة على ذلك، ولأن عملية صنع الأنباء غير ملحوظة فى حد ذاتها، فإن نص وسائل الإعلام الذى يرتكز على التحليل، يستند إلى مفاهيم تشبه القوالب النمطية، وتصبح مجرد مفاهيم تأملية عندما يتعلق الأمر بالعلة والنتائج المترتبة على التغطية الإعلامية. ويبدو أن المجتمعات والثقافات ككل مسئولة عن التغطيات الإعلامية، فى حين أن الدور الذى يلعبه الأفراد مثل: الصحفيين، والمؤسسات الإخبارية، والسياسيين، والحكومات، والمستهلكين، وكذلك القاعدة العريضة من التيارات السياسية، لا يزال دورا مبهما وغامضا. فتحليل النصوص الإعلامية دون الإشارة النظرية لعملية صنع الأخبار، يؤدى إلى تفكير تآمرى فيما يتعلق بالنفوذ المزعوم للحكومات الغربية وجماعات الضغط اليهودية وما شابه ذلك، على وسائل الإعلام الغربية، النفوذ الذى يمكن أن يوجد بشكل عرضى ولكن ليس هو كل القصة بالتأكيد.

نظرية نظم وسائل الإعلام «السيادة القومية»

لكى أتجنب مثل هذا الفخ التحليلى، قمت باستخدام الأطر النظرية المستوحاة من مختلف اتجاهات نظرية النظم. لأن إنتاج وسائل الإعلام هنا يتحدد عن طريق العديد من العمليات المستقلة والقابلة للتفاعل مع غيرها من النظم الفرعية والأوساط الاجتماعية، والأمثلة على ذلك تتضمن النظام الاقتصادى السياسى أو النظام النفسى للصحافى الذى يلعب دورا مهنيا لوسائل الإعلام، بالإضافة إلى الدور الذى يلعبه الوسط المحيط به. كما تعد وسائل الإعلام القومية والدولية مرجعا مهما للصحافة، لكن فى النهاية الجمهور هو العامل الذى ينبغى أن يحسب له حساب، على الرغم من أنه يفرض التأثيرات الأكثر تباينا واختلافا، حيث إن الجماعات المنظمة تشكل مجموعات صغيرة – مثل جماعات الضغط – بينما معظم الجمهور العادى متفرق ولا يمكن اعتباره ممثلا فرديا.

فى اعتقادى أن العجز الهيكلى فى التغطية الإعلامية الغربية للشرق الأوسط والعالم الإسلامى، ينشأ فى الغالب على أساس حقيقة: أنه حتى فى عالم العولمة الظاهرى الحالى، يتم تحديد التقارير الأجنبية – إلى حد كبير – بناء على التفاعل القومى (وأحيانا الإقليمى) بين النظام الإعلامى مع غيره من النظم الفرعية والأوساط الاجتماعية. هذا التغليب للتفاعل القومى على التفاعل الدولى يعبر عن نفسه بطرق مختلفة. أولا: هناك هيمنة مجتمعات اللغة القومية التى نسجت حكاياتها عن العالم على المدى الطويل بطريقتها الخاصة، وتلك الخطابات أو الحكايات هى: التى تؤسس لثقافاتهم ولمشاكل التواصل والتفاهم بين الثقافات. ثانيا: المشاكل والقضايا السياسية الداخلية غالبا ما تتداخل مع القضايا الدولية، أو الأسوأ من ذلك، هو أن تتدخل فى طريقة تفسير العالم وتشوه القصة الأصلية. ثالثا: فى كثير من الأحيان يمكن ملاحظة أولوية النفوذ السياسى القومى على النفوذ السياسى الدولى فى وقت الحرب، حيث تستبدل التعددية والتغطية الإعلامية الحرة لكل صراعات الشرق الأوسط والعالم الإسلامى، بتغطية إعلامية محدودة للغاية لديها القدرة على تعزيز الأزمات الدولية. رابعا: وفى معظم الحالات، لأن التقارير الأجنبية تستهدف فى الغالب الجمهور المحلى، نجد أن للأسواق القومية الغلبة على الأسواق الدولية، لذا تقوم التقارير الأجنبية عادة باستنساخ المواضيع المتعلقة بتلك الشئون المحلية، حيث تقوم باختيار الأنباء التى يرغب الجمهور المحلى فى سماعها وفهمها. خامسا: ربما نتيجة لانعزال الأسواق، غالبا ما تكون الموارد المالية نادرة جدا فى التقارير الأجنبية: وكالات الأنباء عادة ما تكون غير مجهزة ماليا، وعدد الموظفين فى قسم الأخبار قليل، والعديد من وسائل الإعلام الغربية عليها أن تغطى ما يقارب من أربعين بلدا خصوصا فى الشرق الأوسط، وانخفاض الميزانيات فى التقارير الأجنبية جعل وسائل الإعلام عرضة للعلاقات العامة للحكومات وعرضة للدعاية. سادسا: العديد من الصحفيين تلقوا تعليما سيئا للغاية، وعددهم قليل جدا فى معظم بلدان الشرق الأوسط. ومنهم فئة تعمل كمتخصصين فى أقسام الأخبار الرئيسية سواء بالصحافة أم الإذاعة أم التليفزيون.

يمكن لنظم وسائل الإعلام القومية أن تكون متصلة، بمعنى أن يقوم المراسلون الأجانب، وتقوم وكالات الأنباء على وجه التحديد، بتزويد كل نظام إعلامى قومى على حدة بالمواد الخام للمعلومات. غير أن نظم وسائل الإعلام القومية ليست مترابطة، لأن الجمهور المحلى هو الذى يقيم ويحكم على طريقتها التى تغطى بها الأحداث وليس هؤلاء الذين تتحدث عنهم النظم الإعلامية –والمقصود بهؤلاء هم الناس فى الشرق الأوسط والعالم الإسلامى– وبسبب بعدهم عن المواضيع التى تتناولهم وتتحدث عنهم، فمن الصعب أن يكون لهؤلاء الناس أى وسيلة للحكم على نوعية الأخبار الأجنبية التى يظهرون فيها. ولهذا غالبا ما تسود القوالب النمطية، والسرد المحلى، وقلة الموارد، وسوء التعليم، والمصالح السياسية على المعلومات المتوازنة.

إن ما يبدو للوهلة الأولى مشكلة ثقافية، هو فى الواقع تفاعل بين مختلف النظم الفرعية القومية للدولة القومية. وهذه التفاعلات تكاد تكون تفاعلات عالمية، بمعنى: أن مجتمعات اللغة والدول القومية فى كل أنحاء العالم، هى كيانات متواصلة يتولد عن قواها الداخلية أخبار مميزة عالية الإنتاج. هذه الأخبار لديها القدرة على تعزيز مفاهيم الصراع التى يمكنها بسهولة أن تؤدى إلى المزيد من التوتر فى العلاقات الدولية. لكن فى أوساط معينة، على غرار الاتحاد الأوروبى المعاصر، فإنه يمكن لهيمنة النظام القومى البدء فى إفساح المجال لهياكل وتصورات إقليمية متكاملة، كما كانت الحال أثناء تغطية وسائل الإعلام البريطانية للحرب فى العراق عام ٢٠٠٣.

وإن كنت أتردد فى تسمية آليات صنع الأخبار (بالقوالب النمطية الثقافية) أو (التحيز)، فذلك لأننى أعتبر هذه المسميات أجزاء من عملية صنع الأخبار، لكنها لا تحدد المحتوى الإخبارى بالكامل. إن الاختلاف بين المداخل النظرية الأخرى والمدخل النظرى المقدم هنا ليس مجرد اختلاف

هل يتحمل الإعلام الألمانى مثله مثل غيره من وسائل إعلام غربية أخرى، مسؤولية تعاظم مشاعر العداء للإسلام فى الغرب





باستثناء «إدوارد سعيد»، قام عدد قليل
من الباحثين بدراسة موضوع تغطية الإسلام وكيف تتحكم أجهزة الإعلام فى الأمر



اصطلاحى. بل هو أكثر أهمية من ذلك، لأن التغطية الإعلامية من منظور نظرية النظم تتيح لنا فهم التأثير القوى للقومية على التغطية الإخبارية بينما الترابط العالمى لا يزال ضعيفا، على الرغم من أن عمليات المعرفة العرضية متاحة فى وسائل الإعلام. إن عدم الترابط فى صنع الأخبار تنتج عنه أخطار هائلة. ومع ذلك فإن الاستقلال الذاتى النسبى لنظم وسائل الإعلام القومية فى الديمقراطيات الغربية يسمح بعمل تغيرات من حين لآخر، وبمرونة فى الثوابت الداخلية. إن المعلومات «الصادقة» و«المحايدة» متاحة أيضا، بينما إشكاليات التفاعل بين النظم الإعلامية والقوى الاجتماعية يمكن أن تؤدى إلى تشويه صور وسائل الإعلام. أولا: نظم وسائل الإعلام الغربية تحتمل العديد من التأويلات لدرجة لا تسمح بوصول أية حقائق صادقة عن التطورات فى الشرق الأوسط إلى الأخبار. ثانيا: فى وقت معين، تتيح ديناميكية الجدل العام للدراسات الشرق أوسطية وغيرها من أنواع الخبرات أن تجد طريقها إلى وسائل الإعلام الرئيسية، من أجل توضيح المفاهيم الخاطئة العامة. ثالثا: البعد النسبى لأى بلد عن المشاركة فى الأزمات الدولية الساخنة أو حتى فى الحرب يمكن أن يجعل المناقشات والحوارات العامة أكثر تحررا. رابعا: انشغال الرأى العام ببعض القضايا الداخلية التى تتداخل مع التغطيات الإعلامية الخارجية قد تغير أيضا من المفاهيم، حتى لو لم يكن لهذه القضايا دخل بما يحدث فى الشرق الأوسط. خامسا: يمكن تفعيل القوالب النمطية، لكنها أيضا يمكن أن تتغير، استنادا إلى نوع القوالب النمطية وفترة استمرارها، فبعض الانحيازات تستمر لعقود والبعض الآخر يستمر لقرون أو لآلاف السنين.

باختصار، كما يقول إدوارد سعيد، الصور التى ترسمها وسائل الإعلام الغربية عن الشرق الأوسط والعالم الإسلامى: غالبا ما تكون صورا غير مؤكدة. ومع ذلك فإن «صورة الصورة» أيضا غالبا ما تكون مبسطة لأنها تقلل من قيمة الديناميكيات الثقافية ومن قيمة النظام الإعلامى. فقط إذا نظرنا إلى الطابع الحقيقى للمحتوى الإعلامى وعمليات الإنتاج، يمكن أن نتصور انفتاح النظم الغربية تجاه الشرق الأوسط والإسلام فى المستقبل.

صورة الشرق الأوسط والإسلام فى الصحافة الألمانية

بعد أن عرضنا الحجج والطريقة المثلى لهذا البحث، نقدم فى هذا القسم النتائج التجريبية استنادا إلى دراسة كبيرة أجريت على صورة الشرق الأوسط والعالم الإسلامى فى الصحافة الألمانية. فلقد تم تحليل ودراسة وتفسير ما يقرب من ١٤٠٠ مقال باستخدام الطريقتين الكمية والنوعية. وفى حين أنه لا يمكن استقراء الكثير من تلك النتائج الألمانية، فإنها تشكل حالة صالحة لدراسة النظم الإعلامية الغربية التى تغطى الإسلام.

النتائج الكمية

قبل أن ننظر نظرة متفحصة للسرد الإعلامى يجب أولا أن ندرس بعض البيانات الكمية عن نوعية المواضيع والحقائق التى قدمت فى الصحافة الألمانية على مدار العقود القليلة الماضية، والنتائج المترتبة على ذلك سوف تعطينا لمحة سريعة عن مواطن القوة والضعف فى التقارير الإخبارية.

- حجم التغطية: فى ازدياد ولكن لا تزال بدائية.

من إحدى النتائج الإيجابية الإعلامية لمنطقة الشرق الأوسط، مقارنة بمناطق أخرى: تتزايد باستمرار فى وسائل الإعلام الألمانية، بل إن هذه المنطقة تحصل على المزيد من الاهتمام أكثر من غيرها من مناطق العالم، مثل إفريقيا وأمريكا اللاتينية. ولقد بدأت هذه الزيادة فى التغطية منذ عام ١٩٧٠، واليوم وصلت الأنباء والتقارير عن الشرق الأوسط تقريبا إلى نفس مستوى الأنباء والتقارير عن أمريكا الشمالية. لكن ما يجعل هذه النتائج أقل تأثيرا هو: أن معدل نشر المقالات على مدار العقود الأخيرة لا يتجاوز نشر ثلاث مقالات يوميا عن الشرق الأوسط فى الجرائد القومية. وهو عدد تجب مقارنته بالكمية الكبيرة للمقالات التى تنشر عن الشرق الأوسط فى الصحف التى تصدر بمنطقة الشرق الأوسط. حيث، كما قلت، لا تزال «كثافة الإبداع» فى ألمانيا بدائية.

فضلا عن ذلك، فإن الزيادة فى تغطية الأحداث الكبرى فى العالم مثل حرب الأيام الستة، وأزمة النفط عام ١٩٧٣، والثورة الإيرانية، وحرب الخليج: كانت هى السبب الذى أدى إلى تحفيز هذا النمو فى الإنتاج الإخبارى. فتغطية هذه الأحداث كانت تتم على نطاق واسع فى بعض الأحيان، لكن تغطية منطقة الشرق الأوسط فى حد ذاتها دائما ما كانت تنحسر بعيدا مع نهاية الأحداث، مما يشير إلى انخفاض درجة الاستمرارية فى إنتاج الأخبار. فغالبا ما يكون تقديم تقرير عن جوانب حرب معينة أو غيرها من أنواع العنف السياسى أسهل بكثير من تقديم تقرير عن النتائج المترتبة على مفاوضات السلام أو غيرها من علامات التطبيع، حيث تشكل أقل الأنباء إثارة بالنسبة للصحافة الألمانية الجادة.

فضلا عن أنه خلال عام ١٩٧٠، نشأت فجوة بين ازدياد عدد التغطيات الصحفية للشرق الأوسط، وعدد التقارير الشبه ثابتة فى الدوريات السياسية. وهذا يعتبر دليلا على أن وسائل الإعلام الألمانية سمحت بحدوث نمو مطرد فى التغطيات الصحفية لمحور الحدث دون توفير نفس الكم من المعلومات المتضمنة اللازمة لفهم هذه التغطيات وتحليلها.

فى التحليل النهائى، نجد أن المعلومات التى يتلقاها المستهلك الغربى عن منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، أقل بكثير من المعلومات التى يتلقاها عن بلده أو منطقته. ويزداد كم النصوص الإعلامية التى تتم صياغتها على نحو ردىء، وغالبا ما تكون مجتزأة من معلومات مبتورة. ويبدو أن الجمهور لا يمكنه أن يستوعب أو يهضم المزيد من الأخبار عن الشرق الأوسط، نتيجة لقيود الحياة اليومية، لذا لا يطالب بالمزيد من الأنباء. فى الحقيقة، وكما سيتضح فيما بعد، بعض جوانب الحياة السياسية فى الشرق الأوسط هى التى يكتب عنها بشكل دائم تقريبا. لكن المطلوب بدلا من ذلك هو المزيد من المعلومات والأخبار ذات السياق الجيد.

- المناطق الخاضعة: روتين الأخبار والآراء ذات التوجه السياسى عن الشرق الأوسط.

حوالى أربعة أخماس التقارير فى الصحف والمجلات الألمانية على مدار الثلاثين سنة الأخيرة تناولت القضايا السياسية. فالمعلومات الاقتصادية يعول عليها بنسبة تقل عن عشرة فى المائة، أما غيرها من المجالات مثل الثقافة ووسائل الترفيه والسياحة والدين «بالمعنى المحدود لتعاليم الدين وطقوسه» فإنها لا تشكل ما يزيد على نسبة اثنين فى المائة من التغطيات. ونظرا للدور المهم الذى تلعبه وسائل الإعلام فى تشكيل المفاهيم الدولية، قامت ألمانيا بتمهيد الطريق للمشهد المحورى السياسى لشمال إفريقيا والشرق الأوسط والعالم الإسلامى. لكن الوضع الاعتيادى للحياة اليومية يتجاوز هذا المنظور الإعلامى.

من المثير للاهتمام ملاحظة أن الدين نادرا ما يلعب دورا فى مثل هذه التغطيات، فيما عدا مظاهر «الإسلام السياسى». وهو ما ينطبق أيضا على اليهودية التى لا نعرف شيئا عنها تقريبا باستثناء دلالاتها الصهيونية. وهذا ما يترك آثارا مهمة على التغطيات الإخبارية الأخرى. فعلى سبيل المثال، التراث المسيحى -اليهودى لأوروبا والغرب هو مصطلح يستخدم كثيرا فى النقاش حول انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبى. لكن يمكننا القول إن هذا المصطلح أقل بكثير من أن يكون شعارا بالاستناد إلى إرث العهد القديم فى أحسن الأحوال، حيث إن اليهودية المعاصرة لا تعد من القصص البارزة فى وسائل الإعلام الألمانية، وبالمثل فإن الثقافة الشرق أوسطية المعاصرة محجوبة تقريبا.

كان من ضمن الملاحظات الأخرى أن الموضوعات الترفيهية، مثل قصة الشاه الإيرانى محمد رضا بهلوى، وقصة الملك فاروق أو الأغاخان، كانت تتصدر الصفحات الأولى للأخبار فى وسائل الإعلام الألمانية والغربية فى الخمسينيات وبداية الستينيات، وقد اختفت تماما فى نهاية الستينيات. هذا التطور قد تزامن بالتحديد مع حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، بغض النظر عن حقيقة أن شاه إيران قد استمر فى الحكم، وأن الملوك ظلوا يعيشون حياة البذخ فى المنفى. لذا أود أن أقول إن



تحليل المحتوى الإعلامى لا ينبغى
أن يقوم فقط على أساس المفهوم الاجتماعى والنفسى للقوالب النمطية أو «الانحياز»

الحرب كانت فى الواقع؛ هى السلسلة الأولى من موجات الصدمة السياسية التى انتقلت عبر الإعلام الغربى، والتى قامت بتسييس الأخبار وتغيير نظام صناعة الأخبار بالكامل. وكانت الصدمة الثانية هى الثورة الإيرانية وظهور الأصولية الإسلامية.

أيضا ينبغى ألا ننسى الملاحظات عن فترة ما بعد الحرب: فبعد الحرب العالمية الثانية كانت الجوانب الثقافية والترفيهية للشرق الأوسط تتصدر الصفحات الأولى للأخبار فى الغرب. وبينما يبدو أن غياب التقارير الإخبارية الدينية والثقافية للشرق الأوسط يدعم موقف إدوارد سعيد، فيما يخص تنميط القوالب الثقافية للشرق الأوسط من قبل نظام إعلامى غربى مثل ألمانيا، إلا أن هذه الدراسة تثير اعتراضا منهجيا مهما: فغياب جدول أعمال ليس دليلا على الملامح الجوهرية للآخر. إن المشكلة الحقيقية لا تتعلق بتقدير الصحفيين أو الجمهور للشرق الأوسط بقدر ما تتعلق بتصورهم عنه، فأجزاء كبيرة من واقع المسلمين والشرق أوسطيين لا يذكر عنها شىء فى وسائل الإعلام الألمانية، حيث يتم رفض الأخبار دون حتى أن تتاح لها الفرصة لأن تكون قوالب نمطية، علاوة على ذلك، فإن التغيرات التى تحدث على المدى القصير نسبيا فى ثقافة وسائل الإعلام الإخبارية فيما يتعلق بالمواضيع الترفيهية، توضح أنه قد لا يوجد على المدى الطويل، استشراق، أو تحيز يتم استيعابه ثقافيا أثناء العمل على اختيار المواضيع. ربما سنكون قادرين فى المستقبل على إيجاد طرق لإحياء الثقافات الإعلامية المتعددة الأقدم عهدا أو تطوير أشكال جديدة للمداخل الثقافية والترفيهية للشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

إذا كان مصطلح «الثقافة» هو تفسير غير واف لمثل هذه التغيرات التى تحدث فى الثقافات الإعلامية، فقد يكون هناك رد أكثر معقولية بأن الأحداث الكبرى من شأنها أن تخلق معاييرها الخاصة. فمنذ زمن بعيد اكتشف العلماء أن التقديرات الإخبارية هى التى توجه عملية اختيار الأخبار. فعلى سبيل المثال، نجد أن الأخبار المتعلقة بأحداث «العنف» والأحداث «ذات الصلة على الصعيد الوطنى» عادة ما تقدر تقديرا عاليا. فالحكم على ما يؤهل بعض الأحداث ذات الصلة يمكن أن يصبح روتينيا لاسيما فى قسم الأخبار أو غيره من الميادين الاستطرادية مثل النظام الإعلامى الألمانى.

فى حالة تغطية الصحف القومية الألمانية للشرق الأوسط وشمال إفريقيا، كان هناك تدهور فى المعايير، وخلق حالة روتين إخبارى التزم به كل اللاعبين - وكالات الأنباء والصحفيين والجماهير - يبدو هذا بالطبع غير منطقى، لأنه على الرغم من كل المشاكل فى الشرق الأوسط فإنه توجد أحداث إيجابية بما فيه الكفاية للتحدث عنها (مثل تحسن مستوى التعليم الجامعى فى كل بلدان الشرق الأوسط خلال العقود الأخيرة)، كما أن هناك أسبابا كافية للتعامل مع الشرق الأوسط ليس فقط على أساس أنه يشكل خطرا سياسيا. وبينما من المعروف أنه يصعب التنبؤ بالتصورات الإعلامية المستقبلية، فإن التغير المدعم بالوثائق فى التغطية الإعلامية الألمانية للشرق الأوسط وشمال إفريقيا الذى حدث فى الستينيات، يوضح أن هذه التغيرات هى تغيرات محتملة وممكنة. وهكذا فإن الأحداث الإيجابية المستقبلية، التى تتحدى روتينية وملل الأخبار الموجودة، وتعيد النظر فى القيمة الإخبارية، يمكنها أن تشكل مفاهيم وسائل الإعلام الألمانية على نحو جيد. ليست وسائل الإعلام الألمانية التى لا تتعامل مع الحقائق على أرض الواقع، ولكنها تفرط فى تبسيط الحقائق إلى حد يؤدى إلى التشويه وسوء الفهم. ويبدو أن عمليات التعلم فى وسائل الإعلام الحديثة أبطأ كثيرا مما يتوقع أحد.

السلبية كقيمة إخبارية

التركيز الإعلامى على القضايا السياسية يجعل تنوع جدول الأعمال الإخبارى ضروريا لسبب آخر: فهو يؤدى بشكل حتمى إلى مشكلة أخرى، فالمشهد المحورى للنزاع فى الشرق الأوسط والعالم الإسلامى لديه القدرة على زيادة التوتر فى العلاقات الدولية. وبعد تحليل هذه العينة الكبيرة من التغطيات الصحفية الألمانية خلال الفترة من ١٩٥٠ وحتى ١٩٩٠، وجدت أنه ما بين ثلث إلى نصف الأحداث الأساسية الواردة فى المقالات (يتوقف ذلك على نوع الصحيفة أو المجلة) كانت تتناول أحداث العنف مثل الإرهاب والحروب والاغتيالات. ولأن هذه الفترة طويلة الأمد، فقد يحدث فى أوقات معينة، تستمر فى الغالب على مدار أسابيع أو شهور، أن تكون الغالبية المطلقة للأخبار عن العنف السياسى فى الشرق الأوسط. وهذا يخلق صورة الفوضى فى الشرق الأوسط. وعلى الرغم من صعوبة قياس مدى تأثير وسائل الإعلام على آراء الناس باستخدام الوسائل العلمية، فإنه يبدو من المعقول أن التركيز على الأخبار السلبية يخلق فى المجتمع الألمانى شعورا شائعا بأن الشرق الأوسط مكان خطير - منطقة من العالم من الأفضل ألا تذهب إليها.

لقد أظهر ارتباط البيانات؛ أنه ليس من الغريب أن تحتوى الأخبار السياسية على عنف أكثر من الأخبار الثقافية مثلا. لذا فإن التركيز الشديد على الأخبار السياسية فى التغطيات الإعلامية للشرق الأوسط يخلق تصورا عن جزء ناء من العالم: يبدو فى حالة تناقض حاد مع تصور المستهلك عن عالمه على الصعيد المحلى أو الوطنى، مع أن هذا العالم الآخر يحتوى على نزاعات وأحيانا عنفا، ولكنه أيضا يحتوى على جوانب أخرى عديدة كالثقافة والترفيه. ونحن لسنا فى حاجة لعمل دراسات مقارنة لنوضح أنه يوجد حاليا فى الشرق الأوسط عنف سياسى أكثر من العنف الموجود فى الديمقراطيات الغربية. لكن على الرغم من هذا، الحقيقة الاجتماعية على أرض الواقع ليست على هذا النحو من الوحشية والشراسة كما تبدو من خلال عدسات وسائل الإعلام الألمانية. وقد تكون القوالب النمطية الثقافية المتأصلة هى السبب فى تحيز الكثير من الغربيين ضد الشرق الأوسط، لكنهم أيضا كثيرا ما يتعرضون لصور الحياة المجردة من الإنسانية فى الشرق الأوسط التى لا تتضمن شيئا بخلاف السياسة والعنف.

مستوى السلبية العالى فى التقارير الإخبارية السياسية ليس فقط نتيجة لطبيعة الحياة السياسية فى الشرق الأوسط، حيث يعد الحكم الفردى الليبرالى فى العالم العربى سمة عادية إلى حد ما فى السلوك السياسى والنقاش السياسى وأيضا فى الانتخابات. ولكن عندما تنقل وسائل الإعلام هذه الأحداث فإنها تميل إلى تفضيل الأشكال المؤسسية للسياسات العادية، وتحديدا فى الانتخابات أو الاستفتاءات أو تغيير القيادة (مثل توريث الحكم بعد وفاة الملك فهد فى المملكة العربية السعودية). لكننا لا نسمع عن المناقشات السياسية الجارية إلا بالمصادفة، ولا عن مؤسسات المجتمع المدنى كتلك الموجودة حاليا فى مصر أو الجزائر التى غالبا ما تنتقد الحكومات وتنشر مناقشاتها فى الصحف القومية.

من جهة أخرى تمر الأخبار الألمانية عبر عنق الزجاجة للموارد المحدودة عند تناولها للشرق الأوسط (فهى عادة تقوم بنشر مقالتين أو ثلاث مقالات يوميا) لأنها تفضل اختيار أخبار عن العنف. وهذه الحالات ليست أفضل بكثير مما يحدث عندما تغطى الصحف الألمانية أجزاء أخرى من العالم. فالثورات فى أمريكا الجنوبية والحروب الأفريقية كلها أنباء مهمة. والأسباب فى مثل هذه المعايير الإخبارية يمكن فقط الاستدلال عليها لكن لا يمكن إثباتها تجريبيا فى الواقع، لأن الدراسات المتكلسة لقسم الأخبار نادرة ويصعب إجراؤها. يقول بعض علماء الاتصالات إن الوظيفة الأساسية لوسائل الإعلام الإخبارية، فى نظر العديد من المستهلكين والصحفيين، هى بمثابة نظام إنذار للمخاطر المحتملة التى تظهر فى العالم الخارجى. وقد أثبت البحث المقارن فى نظم وسائل الإعلام لدول العالم أن هذه المعايير الإخبارية تعد ظاهرة عالمية. فالعنف السياسى فى أيرلندا وإسبانيا، أو الإرهاب الإسلامى على سبيل المثال، يصنع الأخبار المفضلة. أيضا هناك فجوة ما بين الشمال والجنوب من حيث إن التطورات السياسية فى الولايات المتحدة وأوروبا تحظى باهتمام أكبر فى وسائل الإعلام غير الغربية بسبب موقع الولايات المتحدة وأوروبا فى قلب النظام العالمى.



تحليل النصوص الإعلامية دون الإشارة لعملية صنع الأخبار، يؤدى إلى تفكير تآمرى فيما يتعلق بالنفوذ المزعوم لجماعات الضغط اليهودية وما شابه ذلك





«صورة الصورة» غالبا ما تكون
مبسطة لأنها تقلل من قيمة الديناميكيات الثقافية ومن قيمة النظام الإعلامى

المواضيع السلبية: الإسلام السياسى والصراع الفلسطينى / الإسرائيلى

النتائج التى توصلنا إليها عن السلبية، نتيجة الاستمرار فى التحليلات، يمكن أن تكون مرتبطة بمواضيع فردية ضمن نطاق موضوع الأخبار السياسية. ولقد وجدنا أن هناك اختلافات هائلة تجعل من الضرورى تغيير الافتراض بأن وسائل الإعلام الألمانية تحمل تصورا سلبيا بشكل دائم عن الشرق الأوسط، وسوف أثبت هذا من خلال مقارنة موضوعين من الموضوعات الإخبارية الأساسية على جدول أعمال الصحافة الألمانية: الإسلام السياسى والصراع الفلسطينى/الإسرائيلى.

من بين ٢٠ ٪ إلى ٤٠٪ من إجمالى عناوين الأخبار، كانت أحداث العنف هى السبب فى تناول الصحافة الألمانية للصراع الفلسطينى الإسرائيلى، بينما كان الإسلام هو الموضوع الرئيسى الذى يحتل من ٤٠٪ إلى ٧٠٪ من إجمالى التقارير الإخبارية. ومن الواضح أن هناك معايير مختلفة تمام الاختلاف للتقارير الإخبارية فى مجالات المواضيع المختلفة. ويعد الإسلام من أكثر المواضيع المعنية بالسلبية فى الشرق الأوسط فى التقارير الإخبارية الألمانية. ويمكن استنتاج السبب فى ذلك من خلال النظر إلى التسلسل الزمنى للأنباء المتعلقة بالإسلام على مدار العقود الأربعة الأخيرة، التى تبين أن الإسلام قبل الثورة الإيرانية ١٩٧٨-١٩٧٩، نادرا ما كان يشكل جزءا من الأنباء الألمانية. لكن مع بداية الثورة وبسبب عدد من الصراعات والفضائح الدولية مثل قضية الكاتب سلمان رشدى، وهجمات الحادى عشر من سبتمبر، أصبح الموضوع الذى يشغل الجمهور هو «الإسلام السياسى»، وليس «الإسلام» كدين أو ظاهرة ثقافية.

ويؤكد على ذلك بوجهتى نظر مختلفتين تمام الاختلاف عن الصراع فى وسائل الإعلام الألمانية. وصار ينظر للإسلام السياسى على نحو متزايد باعتباره معادلا موضوعيا للإرهاب وليس باعتباره حركة ثقافية سياسية لا تزال قائمة منذ أكثر من نصف قرن وتشتمل على جوانب مختلفة من المعارضة الفعلية للأنظمة الاستبدادية القائمة، ومن النشاط الاجتماعى، إلى مختلف أنواع العنف السياسى. وعلى الجانب الآخر، ينظر إلى الصراع الفلسطينى الإسرائيلى على أنه صراع حضارى يمكن حله. وبعبارة أخرى، بينما ينظر للإسلام السياسى على أنه ظاهرة إجرامية بشكل أساسى، ينظر للصراع الفلسطينى الإسرائيلى على أنه مشكلة كبيرة لها عدة جوانب مختلفة، من العنف إلى الدبلوماسية إلى السلوك السياسى المعتاد. ويبدو أن هذه النزعة الاختزالية تتعارض مع حجة «خالد دوران» فى أن الظاهرة المهمة حقا فى العديد من الدول الإسلامية هى ظاهرة التدفق الثقافى الاجتماعى الواسعة للمحافظين الجدد بدلا من الأصولية الإسلامية. وهى ظاهرة أصغر بكثير ولكنها تحظى بأكبر قدر من الاهتمام فى أوروبا والولايات المتحدة.

علاوة على ذلك تواجه معظم وسائل الإعلام الألمانية صعوبات فى فهم الفرق بين المسارات المعتدلة والمتطرفة داخل الحركات السياسية الأصولية.



فى الواقع، قامت بعض الحكومات الغربية بالتعاون مع بعض الأصوليين كشركاء دبلوماسيين وذلك لاعتبارات تتعلق بالعلاقات بين الإيرانيين والاتحاد الأوروبى، أو العلاقات بين الولايات المتحدة والإسلاميين فى مصر أو تركيا أو الجزائر. إلا أن هذا الحوار لم تتدخل فيه وسائل الإعلام بدرجة كبيرة، فوسائل الإعلام لم تعلم بأن هناك ثمة خلل بين الثقافة السياسية والثقافة الإعلامية فى الغرب، بمعنى أن وسائل الإعلام دائما ما كانت تصف الإسلام السياسى بأنه من الحركات المعارضة، فى حين أن الحكومات الغربية تتعاون مع تلك القوى على نحو برجماتى.

فى الأعوام الأخيرة بعد أن تم انتقاد وسائل الإعلام الألمانية بسبب (الإسلاموفوبيا) أو الخوف من الإسلام، بدأ العديد من الصحفيين فى التظاهر بالولاء والاحترام لحقيقة أن الإسلام لا يتطابق مع الأصولية، إلا أنهم استمروا فى كتابة الأنباء عن الأصولية والجهادية مع عدد قليل جدا من القصص عن جوانب الإسلام المعتدل. وفيما يتعلق بهذه النظرة الضيقة للإسلام - وليس للشرق الأوسط ككل - يبدو أن هناك ما يبرر الكلام الذى قاله إدوارد سعيد وآخرون، عن أنه يوجد فى الحقيقة تحيزا ثقافيا راسخا على نحو عميق فى الغرب الذى يقاوم عمليات المعرفة. ويفرق (Droge) عالم النفس الاجتماعى بين القوالب النمطية الثقافية طويلة المدى، والقوالب النمطية العصرية متوسطة المدى، والقوالب النمطية المعاصرة قصيرة المدى. ويبدو لى أن الإسلام من القوالب النمطية طويلة المدى. وفى حين أن الصراع الفلسطينى - الإسرائيلى ما زال مستمرا منذ ستين عاما ، تحسنت خلالها صورة الفلسطينيين أو تدهورت لعدة مرات، إلا أن الصورة السلبية للإسلام فى الثقافة الغربية والأدب دامت لأكثر من ١٠٠٠ عام. فمنذ زمن الحروب الصليبية وزمن الإصلاح المسيحى، وطوال فترة الاستعمار سادت التصورات السلبية على التصورات الإيجابية المهمشة.

الإسلام ليس موضوعا فرديا معزولا ولكنه موضوع فرعى يمكن أن يظهر فى جميع المجالات والمواضيع، فى السياسة بقدر ما فى الثقافة والاقتصاد.

الدول السلبية: جغرافيا الأخبار

الانتقال من مواضيع الصور السلبية إلى البؤرة الجغرافية لمثل هذه التغطيات، يمكننا من تأكيد أن تصورات الإعلام الألمانى عن الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بعيدة كل البعد عن التجانس. تحليل البلدان التى تحظى بالاهتمام يسمح لنا أن نستشف الجغرافيا المحددة للأخبار أو الخريطة الإخبارية. أولا، هناك عدد قليل جدا من «مناطق مجهولة» فى الأخبار الألمانية، التى نادرا ما تغطى دولا مثل «اليمن» و«عمان». لكن الأهم أن هناك تركيزا واضحا على أخبار دول المشرق (فلسطين، الأردن، سوريا، العراق، لبنان) ومصر، بينما هناك ندرة فى الأخبار عن المغرب والسودان وشبه الجزيرة العربية أو بلدان مثل أفغانستان وباكستان. وحيث إن هذا هو المعدل الناتج عن التحليلات طويلة المدى منذ ١٩٥٠ إلى ١٩٩٠، فقد يقول البعض إن بعض الأمور قد تغيرت بعد هجمات الحادى عشر من سبتمبر التى يعتبرها الكثيرون نقطة تحول فى العلاقات بين الغرب والشرق الأوسط. لكن بعد الاهتمام المبدئى الذى حظيت به أفغانستان وباكستان فى ٢٠٠١ و٢٠٠٢، كان يبدو ظهور هذه البلدان فى وسائل الإعلام الألمانية مقتصرا إلى حد كبير على حرب الغرب على الإرهاب فى المنطقة، وبالتأكيد سينتهى هذا الظهور بعد ذلك بالتأكيد.

جغرافيا أخبار الشرق الأوسط فى وسائل الإعلام الأوروبية بالتأكيد تختلف من بلد لبلد. ففى فرنسا على سبيل المثال، هناك دراية كبيرة بالمغرب. ولكن تبقى حقيقة أن صورة الشرق ليست ظاهرة موحدة، فهى تضم مناطق اهتمام وتصورات مختلفة.

ونحن ببساطة لدينا الكثير من المعلومات المتاحة فى نظمنا الإعلامية عن تلك الأجزاء فى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا والتى من شأنها أن توفر لنا الأخبار الجيدة. حيث تعرف قيمة الأخبار، على سبيل المثال، من الصراعات الدولية فى الشرق الأوسط أو الصراعات التاريخية الثقافية المرتبطة ببعض البلدان، مثل مصر بالنسبة لألمانيا وإنجلترا، أو مثل الجزائر ولبنان بالنسبة لفرنسا.

من المثير للاهتمام أنه لا يوجد علاقة بين حجم التبادل التجارى وحجم التغطية الإخبارية، ففى الوقت الذى تدير فيه ألمانيا ما يقارب من نصف تجارتها الخارجية فى الشرق الأوسط وألمانيا مع دول مثل تركيا وإيران وباكستان، نجد أن هذه البلدان لا تحتل سوى ما يقارب ٢٠٪ من مواضيع التقارير الإعلامية. فهذا المزيج من المصالح السياسية، والصراعات الدولية ذات الصلة، والتجاور الثقافى، هو الذى يحدد التقارير الأجنبية، وليس المصلحة الاقتصادية أو العوامل الاجتماعية الديموغرافية مثل تعداد السكان فى بلد ما. حتى التغطية الحالية لدبى مدفوعة إلى حد كبير بالجاذبية الثقافية للحداثة المزدهرة والفرص الجديدة للسياحة (الفنادق العملاقة وما إلى ذلك)، وليس لاعتبارات اقتصادية، فالتقارير العميقة عن حقيقة أن ميناء دبى أكبر عشر مرات من ميناء هامبورج الذى يعد من أكبر موانئ ألمانيا، وأن الناس فى دبى قد تمكنوا من تنشيط ثقافتهم التجارية التقليدية بنجاح عند مفترق



فقط إذا نظرنا إلى الطابع الحقيقى للمحتوى الإعلامى وعمليات الإنتاج ، يمكن أن نتصور انفتاح النظم الغربية تجاه الشرق الأوسط والإسلام فى المستقبل



الطرق فى الشرق الأوسط، هذه الأشياء ليست إلا مشهدا جانبيا فى الإعلام الألمانى.

وبغض النظر عن القيمة الإخبارية، أظهر ارتباط منزلة الدولة بالتحليلات الموضوعية أنه كلما يزداد تقديم دولة ما فى الأنباء الألمانية، يزداد توازن المواضيع المؤلفة عن المنطق، وتزداد فرص فى الهروب من التركيز الشديد على القضايا السياسية. فلو ربطنا تلك النتائج بالتحليلات عن السلبية، سنجد أن هناك ثلاثة أنواع من البلدان بشكل أساسى فى جغرافيا الأخبار الألمانية. لكن هناك مناطق مجهولة كاليمن الذى نادرا ما يظهر عنه شىء فى الصحف ووسائل الإعلام. ثم هناك الدول التى يتم تغطيتها فى الغالب بسبب العنف السياسى، وأيضا بسبب الأحداث السياسية غير الاستثنائية مثل الانتخابات وقضايا الخلافة فى الحكم. وأخيرا هناك الدول التى تقتصر صورتها إلى حد كبير على الصراعات العنيفة، مثل لبنان والعراق وإيران وسوريا وأفغانستان والسودان.

وهكذا فإن ما يبدو أحيانا وكأنه مصفوفة من القوالب النمطية -التقارير الألمانية عن الشرق الأوسط وشمال إفريقيا - هو فى الحقيقة جغرافيا إخبارية مركبة (معقدة)، تتألف من مجالات متعددة التقارير والمعرفة المكثفة، كما تتألف بشكل أو بآخر من أنماط متباينة ومعتدلة ومتوازنة عن مفهوم التطور السياسى.

النتائج النوعية: الصياغة والخطاب وطرق السرد

إن ما يتعين علينا أن نستكشفه الآن هو الجانب النوعى، أى الكيفية التى تنقل بها الأخبار، ونوع الصياغة وطرق السرد المستخدمة. وحيث إن هذا المجال هو من المجالات الضخمة، وحيث إنه يتجاوز تحليل المحتوى الكمى، لذا من الصعب تقديم إجابات نموذجية وافية فى هذا المجال. لكن بدلا عن ذلك أود أن أعمل على توضيح عدد قليل من الدراسات التى تظهر كيفية تفسير عمليات التفاعل بين طرق السرد الإعلامى، والنظام الإعلامى، والأوساط القومية لوسائل الإعلام. وبعبارة أخرى كيف يمكن للعقدة السياسية والاقتصادية، وللقطاعات المختلفة من الجماهير وعامة الشعب أن تتعارض مع التصور الإعلامى للإسلام والشرق الأوسط وشمال إفريقيا؟ سوف أركز على حالات الصراع الدولى فى الشرق الأوسط، ومختلف أنواع الأزمات مثل أزمة النفط عام ١٩٧٣ (أزمة اقتصادية غير عنيفة)، والصراع الفلسطينى الإسرائيلى (صراع طويل الأمد متعدد المراحل والجوانب من ناحية النشاط الدبلوماسى والعنف)، والحروب الأخيرة فى أفغانستان (٢٠٠١) والعراق (٢٠٠٣). الأزمة بحكم التعريف هى نقطة تحول فى إطار الصراع الذى يمكن أن يؤدى إلى زيادة حدة التوتر والعنف أو إلى الركود أو الحل أو التسوية.

وقبل أن نحاول شرح هذه الحالات ينبغى أن نقول بضع كلمات عن صياغة تلك الأحداث بالترتيب. الحالة الأولى هى التغطية الصحفية لأزمة النفط عام ١٩٧٣، فى الصحف الألمانية، التى مرت بثلاث مراحل تقريبا. المرحلة الأولى، عندما بدأ الصراع، وكانت تتميز بالمداخل المختلفة فى الصحافة الألمانية، التى كانت تتراوح ما بين التعاطف اليسارى الليبرالى مع الدول العربية التى تسعى إلى تضييق الفجوة بين الشمال والجنوب فى مجال العلاقات الدولية، والتأويلات المحافظة للأحداث بوصفها خطرا على الرخاء والأمن القومى الألمانى. وفى ذروة الأحداث، بعد حرب أكتوبر لعام ١٩٧٣، تغيرت التغطيات وتبنى القطاع اليسارى الليبرالى من الصحف الألمانية إطار الصحف المحافظة فيما يتعلق بالرخاء والأمن القومى. وعلى مدار أسبوعين تقريبا، فى حين قاطعت منظمة الأوبك كلا من أمريكا وهولندا، كان يبدو كما لو أن هناك توافقا كاملا تقريبا فى كل الآراء فى الصحف الألمانية أن العرب لم يكن لهم الحق فى أن يفعلوا ما فعلوه. وعلى أية حال، بعد انتهاء الأزمة تغيرت التغطيات مرة أخرى، فعلى سبيل الذكر، قامت مجلة (Der Spiegel) الليبرالية بإطلاق سلسلة كاملة من المقالات عن استغلال كبرى شركات النفط الأمريكية والبريطانية للدول العربية.

الحالة التالية هى التغطيات الألمانية للصراع الفلسطينى الإسرائيلى. ولقد أجريت تحليلات على النص الكامل للصحف الكبرى أثناء الأحداث الكبرى مثل حرب الأيام الستة، وحرب أكتوبر، ومفاوضات اتفاقية كامب ديفيد، واجتياح لبنان علم ١٩٨٢. وعلى العموم حدثت تغييرات هائلة وشاملة فى الصياغة ككل. فبينما تحيزت ألمانيا لإسرائيل تحيزا شبه كامل تقريبا عام ١٩٦٧، تغيرت منذ ذلك الحين وسائل الإعلام بالتدريج وبدأت فى تطبيق نهج أكثر توازنا يقبل حق الإسرائيليين فى الدفاع عن أنفسهم، والتطلعات الوطنية للفلسطينيين، ولو مع بعض الفوارق بين الصحف التى يعتمد معظمها على نطاق الساحة السياسية التى ينتمون إليها.

المثال الثالث هو حرب أفغانستان عام ٢٠٠١، وحرب العراق عام ٢٠٠٣. ففى ألمانيا لم تتم حتى مناقشة مسألة مبررات الحرب على أفغانستان، ولم يتم وضعها أبدا على رأس جدول الأعمال الإخبارية. لكن هذا الوضع تغير تغيرا جذريا قبل وأثناء وبعد حرب العراق عام ٢٠٠٣. فبينما كانت كل وسائل الإعلام الرئيسية فى الولايات المتحدة تساند الرئيس بوش أثناء الحرب، أو على الأقل لم تكن تسمح بانتقادات كبيرة، كانت وسائل الإعلام الألمانية تستخدم نهجا أكثر تعددية، سمحت للأصوات المناهضة للحرب وكذلك الأصوات المؤيدة بالتعبير عن نفسها فى مقالات صحفية وبرامج حوارية.. إلخ. وفى حين كان ٨٠٪ من الشعب الألمانى وكذلك الحكومة الألمانية ضد الحرب، إلا أن الآراء كانت متنوعة فى وسائل الإعلام. ويبدو الوضع فى ألمانيا مماثلا لذاك الموجود فى بلدان أخرى مثل إسبانيا مع فارق أن حكومة أزنار كانت مؤيدة للحرب بينما كان الشعب الإسبانى ضدها، وكانت نظم الإعلام الإسبانية تشكل عناصر مختلفة، من التليفزيون الموالى للحكومة إلى الصحف النقدية.

وبناء على الأمثلة الثلاثة، فإن تفسيرى للصياغة ونقل الأحداث يشير إلى اتجاهات مختلفة. ففى الدول التى مرت بأزمات وجودية أو التى دخلت فى حروب على نطاق واسع، كانت وسائل الإعلام العامة تبدو على استعداد «للالتفاف حول راية القتال»، لدعم حكوماتهم ومصالحهم، وهو سلوك تم الاعتراف به فى الدراسات الإعلامية الحديثة. ولفترات قصيرة، يمكن أن تتقلص قدرة وسائل الإعلام على التصرف بطريقة تعددية وإضفاء الثقل على الرؤى الشرق أوسطية. وهو ما لاحظته الفيلسوفة (هانا ارندت) أثناء حرب فيتنام ووصفته «بالعقلية التبريرية» - التى تشكل تهديدا خطيرا على تعددية الديمقراطيات الغربية (ارندت ١٩٦٧-١٩٧١).

وحالة إسبانيا - البلد الذى كان ضالعا فى حرب العراق ولكن مع الحفاظ على التنوع فى وسائل الإعلام - لا تدحض هذه القاعدة، لأن الاشتباكات العسكرية للقوات الإسبانية كانت تتم على نطاق محدود، وبالتالى لم يتم تفعيل «أعراض الالتفاف حول راية القتال». ويبدو المثال البريطانى أكثر إثارة للاهتمام: فلقد أجريت تحليلاً صغير المحتوى للعديد من التغطيات الصحفية البريطانية عن الحرب وتأثرت بالتنوع النسبى الذى تم الحفاظ عليه حتى فى وقت الحرب (حافظ ٢٠٠٤). فعلى الرغم من وجود اتجاهات وطنية، كانت هذه التغطية على وجه التحديد أكثر تحفظا وتباينا من تغطية حرب فوكلاند.

هناك عدد من الأسباب يجعل وسائل الإعلام (تلتف حول راية القتال) عندما تخوض الدولة حربا أو عندما تشعر بالتهديد. أولا: فقد تعلمت الحكومات الغربية المشى على حبل مشدود بين المعلومات والتضليل. والأمثلة المعروفة تتضمن حملة الحكومة الأمريكية على العراق بسبب «أسلحة الدمار الشامل». ثانيا: النظام الإعلامى فى حد ذاته عرضة لدعاية الحكومة، لأن المعلومات المتحيزة للحكومة يتم ترشيحها من خلال وكالات الأنباء إلى أقسام الأخبار. وصار التحقق من المعلومات أمر شبه مستحيل تقريبا بسبب السرعة المتزايدة للإنتاج الإخبارى. ثالثا: الجماهير العامة دائما على استعداد للالتفات حول راية القتال، وهناك دائما بعض القطاعات المنظمة والقوية فى المجالات العامة، وبالتحديد جماعات الضغط «اللوبى» التى تدعم هذا الاتجاه.

كيف يمكن للعقدة السياسية والاقتصادية وللقطاعات من الجماهير والشعب أن تتعارض مع التصور الإعلامى للإسلام والشرق الأوسط





الحلاج

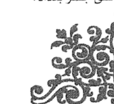
٨٥٨ـ ٩٢٢م / ٢٤٤ ـ ٣٠٩هـ

هو الحسين بن منصور بن محمى الملقب بالحلاج. وهو أحد مشاهير الصوفية الكبار، اتهم بالزندقة. من أتباع المذهب السنى الذى انتصر فى بغداد بعد أن سحق المعتزلة. ، ويعتبر من أكثر الرجال الذين اختلف فى أمرهم، فجماهير علماء السنة اجمعوا على تكفيره وتبديعه ورميه بالسحر والشعوذة ونسبه إلى مذهب القرامطة، وهناك من وافقوه وفسروا مفاهيمه.

كان محمّى جد الحلاج مجوسيًا من أهل فارس ثم دخل الإسلام، وقد نشأ الحسين بواسط ثم دخل بغداد وتردد إلى مكة واعتكف بالحرم فترة طويلة وأظهر للناس تجلدًا وتصبرًا على مكاره النفوس من الجوع والتعرض للشمس والبرد على عادة متصوفة الهند، وكان قد دخلها وتعلم بها فنون السحر، ويرى البعض أن الحلاج تحت تأثير ثقافة الهند خلط الإسلام بالتصوف ومفاهيم الحلول والاتحاد الذى وصل إلى مراحل متقدمة فى الفلسفة الهندية.

ويعتقد أن الحلاج كان قد طور النظرة إلى التصرف، فجعله جهاداً ضد الظلم والطغيان فى النفس والمجتمع ونظراً لما لتلك الدعوة من تأثير على السلطة السياسية الحاكمة فى حينه، فقد كان أن أزعجها مما أدى فى النهاية إلى التخلص منه.

وتقول الروايات إنه عندما ذاعت شهرته وأخباره، وصلت لوزير المقتدر بالله الخليفة العباسى أخبار ادعائه النبوة فقبض عليه ووضعوه فى السجن فترة ثم صلبوه حيًا صلب تشهير، ثم أعيد للسجن. وعندما تم القبض على عدد من أتباعه اعترفوا عليه بأنه يدعى الربوبية ، فلما واجهوه بالشهود أنكر وجعل لا يزيد على الشهادتين والتوحيد، ، فعقدوا له مجلسًا مع الفقهاء فأفتوا بكفره وضلاله ووجوب قتله، فأصدر الخليفة المقتدر بالله أمرًا بضربه ألف سوط ثم قطع يديه ورجليه ثم صلبه على جسر بغداد.





قد أثبتت وسائل الإعلام الألمانية قدرتها الفائقة على دعم التصورات المختلفة للصراعات الشرق أوسطية

وبينما تحظى وسائل الإعلام بالحكم الذاتى، والقدرة على المناورة والتنوع على فترات منتظمة من جانب الجمهور والسياسيين ولعبهما ضد بعضهما البعض، ولكن هذا النظام ينهار فى وقت الحرب لأن كلا الفريقين يعملان على دفع وسائل الإعلام العامة فى نفس الاتجاه الذى يجعل منهم مقاتلين شركاء لحكوماتهم.

موقف بريطانيا عام ٢٠٠٣، كان محيرا إلى حد ما، ولكن يمكن للمرء أن يقول إن التغطيات الإعلامية البريطانية أظهرت علامات بطيئة وتدريجية تدل على الأوربة. وبعبارة أخرى، نتيجة عملية الاندماج فى الاتحاد الأوربى، قد يفقد النظام القومى لوسائل الإعلام سيطرته وينفتح على التأثيرات العابرة للحدود من الدول الأوروبية الأخرى بالرغم من التشكيك فى ضرورة الاتحاد الأوروبى داخل حدود الدولة البريطانية. ولكن على أية حال كل هذا مجرد تكهنات وليس لدينا أية أدلة تجريبية لتعزيزها.

وبغض النظر عن حالات الحرب استطاعت وسائل الإعلام الألمانية أن تبقى على مسافة محسوبة. ففى الحين الذى تعد فيه التقارير الإعلامية أثناء الأزمات مشكلة حقيقية، نجد أن تقارير الصراع الغربى على وجه العموم أفضل بكثير. ويتضح هذا فى تغطية الصراع الفلسطينى الإسرائيلى. وتبين هذه التغطيات أنه إذا كان بلد مثل ألمانيا ليس عليه أن يلتف حول رايته، أو إذا كان الصراع ذو طبيعة طويلة الأمد على هذا النحو، كما هو الحال فى الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، فقد أثبتت وسائل الإعلام الألمانية قدرتها الفائقة على دعم التصورات المختلفة للصراعات الشرق أوسطية.

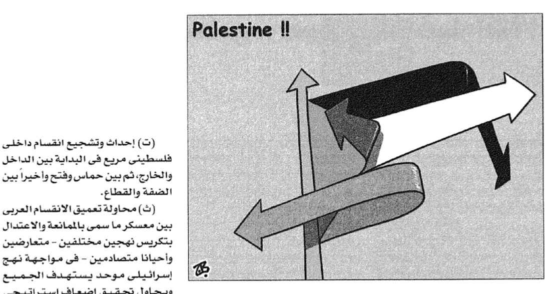
أولا: يمكن لجماعات الضغط، والجماعات ذات الاهتمام المشترك، أن يكون لها تأثير لفترة وجيزة، ولكنها ليست سوى أحد العوامل التى تؤثر فى النظام الإعلامى ولا تسيطر على وسائل الإعلام.

ثانيا: فى أوقات تصعيد الصراع، نجد أن الانشقاقات السياسة بين حزب اليسار وحزب اليمين تفسح المجال للمزيد من المناهج المتنوعة داخل وسائل الإعلام. (فمثلا مسألة انضمام تركيا للاتحاد الأوروبى راسخة بشكل ثابت فى مثل هذه التوجهات الحزبية التى يتردد صداها فى وسائل الإعلام الألمانية). ثالثا: بغض النظر عن أوقات الحرب المكثفة، حيث تخضع وسائل الإعلام لرقابة مشددة من الجيش، يمكن تفعيل القيمة الإنسانية الأساسية للمجتمع من خلال تسليط الضوء على المآسى الإنسانية (لاحظ الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧، التى أدت إلى تحسن المواقف الدولية تجاه الشعب الفلسطينى).

رابعا: فى الصراعات طويلة الأمد، مثل الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، تمر الثقافات السياسية المحلية ببعض التغيرات التى من شأنها أن تؤدى إلى تغيرات فى التقارير الإعلامية الأجنبية - فتغطية الصراعات الطويلة، على سبيل المثال، طغت على ذكرى الهولوكست وانفصلت تلك القضايا عن بعضها البعض، ولكن ببطء شديد.

الخاتمة

على العموم، وفى ظل ظروف معينة، يمكن للتقارير الأجنبية الألمانية عن الشرق الأوسط أن تعزز الحجج والمناقشات القومية التى تسخر من الحديث عن العولمة والتبادل العالمى فى النظم الإعلامية. إلا أن التغطيات فى، أوقات أخرى، كانت شديدة التنوع - تنوع التغطيات الإعلامية للشرق الأوسط التى ربما لم يحظ إدوارد سعيد وغيره من النقاد على قسط واف منها. وفى حين أن العديد من البيانات الكمية - مثل تركيز الصحف القومية الألمانية على قضايا العنف المرتبطة بالإسلام - تبدو وكأنها تدعم حجة إدوارد سعيد عن الرؤية السلبية للمستشرق النمطى إزاء الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، إلا أنه ينبغى علينا أن نعترف بأن الانتقائية فى الأخبار ليست نمطية بشكل كامل. فالتركيز الدائم لوسائل الإعلام على قضايا مثل الإرهاب، يدل على أن القولبة تحدث من جانب الجمهور وليس المقصود منها تشويه سمعة (الآخر) على اعتبار أنه أقل شأنا أو شرير. فضلا عن ذلك، إن إمعان النظر فى تعقيدات وتغييرات الخطاب وطرق السرد ذات الصلة، يدل على أنه يجب علينا أن نحرص على عدم المبالغة فى التغطيات الإعلامية المتجانسة فى أوروبا الغربية. إن ما نحتاج إليه هو تحليلات فنية مبسطة للنصوص الإعلامية، وطرق السرد، والتأمل فى الأسباب والنتائج المتعددة الآراء الغربية عن الشرق الأوسط وبقية العالم الإسلامى. ■





مصطفى البرغوثى

■■ ما هى الخيارات والبدائل المطروحة، أو المتبقية أمام الشعب الفلسطينى وقواه ومؤسساته؟ هذا هو سؤال اللحظة الذى على ما يبدو يشغل الكثيرين. البعض بدوافع تشويق البحث الأكاديمى، وبعض الأطراف الخارجية من منطلق محاولة كسر ما يبدو لهم عنادا غير مبرر لفلسطينيين مصممين على مقارعة لاعقلانية لتوازن قوى مختل بصورة لا ينفع معها العناد، وللبعض الآخر من منطلق البحث الصادق عن مخرج لأزمة ومعاناة تبدو بلا نهاية.

أما بالنسبة للشعب الفلسطينى نفسه المكتوى على جلده وفى أعماق نفسه بنار القمع والاضطهاد والتمييز العنصرى وعناصر الإحباط والألم، فإنه السؤال البسيط «أن نكون أو لا نكون» ولا شىء آخر.

وقبل أن نخوض فى الخيارات، لا بد من إيضاح بعض الأساسيات فى مجالين:-

أولا : إن المعضلة الأساسية فى معالجة القضية الفلسطينية بالنسبة للقيادات الرسمية منذ وُقع اتفاق أوسلو حتى اليوم تمثلت فى صعوبة إدراك الحقيقة البسيطة بأن «محاولة الهروب من الصراع لا تلغى وجود الصراع».

وما بدا منطقيا فى بداية ما سمى «بعملية السلام» أى فى مؤتمر مدريد ومفاوضات واشنطن التى تبعته، باعتبار المفاوضات عملاً أساسياً وجزءاً من إدارة الصراع، تحول للأسف منذ وُقع اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣ إلى مفهوم غير منطقى، غير علمى، وغير مجد، ومتعارض مع المصلحة الوطنية، بأن «المفاوضات هى بديل للصراع وإدارته».

ثانيا : «إن المفاوضات والعملية السياسية أديرت من الجانبين العربى - الفلسطينى والإسرائيلى من منطلقين مختلفين.

فمن الجانب الفلسطينى والعربى، كانت المفاوضات سعياً وراء حل الصراع فى ظل اختلال فادح فى ميزان القوى، تحول مع تراكم الفشل، وتسرب الزمن إلى هروب للأمام ثم استسلام للقدر والاستعاضة عن إدارة الصراع بالتوكل على الآخرين، وآخر المتوكل عليهم أوباما دون التقليل من مغزى التحول الإيجابى الذى حمله خطابه الأخير.

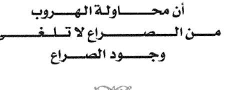
أما من الجانب الإسرائيلى، فالمفاوضات كانت دوماً جزءاً من، وعنصراً فى، نهج شامل لإدارة الصراع بالسلاح وبالكلام، بالحصار وبالإعلام وهل من دليل أبلغ على ذلك من أن إسرائيل شنت ثلاث حروب كبرى وانزلقت إلى ارتكاب جرائم حرب واحدة تلو الأخرى، خلال مسيرة مفاوضات السلام.

ومن منطلقها فإن إسرائيل لم تخض المفاوضات لإيجاد حل وسط للصراع بل للانتصار فيه. وارتبطت كل مرحلة منها - بتحقيق إنجازات معينة، منها :-

(أ) تفكيك الصف العربى وإحداث اختراق استراتيجى فى وحدته خلال اتفاق كامب ديفيد (الأول)، وكان الهدف المركزى إبعاد مصر عن المحيط العربى وإبعاده عنها باعتبارها - تاريخيا - الركيزة الكبرى لأى صراع ضد المستعمرين والمعتدين فى المنطقة.

(ب) محاولة احتواء حركة التحرر الوطنى الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية بما تمثله من خلال تحويلها إلى مجرد سلطة (اتفاق أوسلو).







(ت) إحداث وتشجيع انقسام داخلى فلسطينى مريع فى البداية بين الداخل والخارج، ثم بين حماس وفتح وأخيراً بين الضفة والقطاع.

(ث) محاولة تعميق الانقسام العربى بين معسكر ما سمى بالممانعة والاعتدال بتكريس نهجين مختلفين - متعارضين وأحيانا متصادمين - فى مواجهة نهج إسرائيلى موحد يستهدف الجميع ويحاول تحقيق إضعاف استراتيجى للمعسكرين. ولولا ذلك لما تجرأت إسرائيل على شن حربها الهمجية على قطاع غزة، ولما تجرأت على الاستمرار فى حصارها - الذى عادل عملاً من أعمال الحرب على مليون ونصف مليون فلسطينى، محرومين من أبسط مقومات الحياة الإنسانية.

وعند اختيار البدائل والخيارات، فى إدارة أى صراع علينا أن نحدد ما يريده الطرف الآخر أى إسرائيل، وأن نطرح الأسئلة الأساسية :-

- ما هى نواياها وأهدافها الحقيقية؟
- هل لديها استعداد لحل وسط؟
- ما مدى قوتها، وما هى نقاط ضعفها؟

إن أى تحليل موضوعى لمواقف الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة لا يمكن ان يشير إلا إلى أن إسرائيل لا تريد حلاً وسطاً، ولا تريد حلاً شاملاً، بل تريد فرض الاستسلام الاستراتيجى على الجانب الآخر.

ولا فرق فى ذلك، بين الحكومات المختلفة، أو بين باراك - ليفنى، أولمرت أو نتنياهو.

فهناك مؤسسة صهيونية واحدة لها أهداف متدرجة، وتوزيع أدوار دقيق، وهى تتصرف بذكاء استراتيجى وطول نفس غير معهود وضمن خطة استراتيجية لم تتغير أسسها منذ عام ١٩٤٨، ولا عناصرها المعدلة منذ عام ١٩٦٧.

لقد كان خيارها الأساسى التخلص من كل أو معظم الشعب الفلسطينى بالتطهير العرقى والحروب ومن ثم الضغط الاقتصادى/ الاجتماعى، ثم لما فشل ذلك عام ١٩٦٧ بصمود الشعب الفلسطينى رغم فداحة الهزيمة ونشأ واقع ديمغرافى خطير، جرى تعديل الخطة وابتكار فكرة «حكم ذاتى للفلسطينيين تحت الاحتلال» يتيح لإسرائيل السيطرة على الأرض والموارد، ويبقى السكان فى إطار معازل وبانتوستانات كوجود بشرى مؤقت محروم من السيادة. وكان ذلك مضمون خطة آلون

فلسطين .. خيار .. أم خيارات؟!!!

التى استمر تنفيذها بمنهجية منذ عام ١٩٦٧، وركيزتها كان التوسع الاستيطانى أولاً حول القدس ومنطقة الأغوار، ثم فى أعماق الضفة الغربية فى الشمال والجنوب.

وتظهر الخرائط المرفقة - كيف كان التوسع الاستيطانى ومن ثم بناء الحواجز، وخرائط اتفاق أوسلو (مناطق أ، ب، ج) وبعد ذلك مسار جدار الفصل العنصرى بمثابة تنفيذ تدريجى لخطة آلون، التى لم تتغير أبداً.

هناك حكومات إسرائيلية أصرت على تسمية الكيان الفلسطينى حكماً ذاتياً، وأخرى كانت مستعدة لتسمية الحكم الذاتى دولة أو دولة مؤقتة، لكن هذا الاختلاف لم يتعد كونه اختلافاً على التسمية فقط، فالمضمون بقى واحداً، دولة أو سلطة أو حكم ذاتى بدون سيادة وبدون سيطرة على القدس أو الحدود - الأغوار - أو الأجواء أو الموارد الطبيعية وتبقى فيه سلطة الأمن العليا بيد إسرائيل.

التطور الجديد، إن المؤسسة الصهيونية الجامعة تعتقد اليوم بحكم تحكمها الاستراتيجى غير المسبوق «أنها دخلت فى مرحلة تصفية عناصر القضية الفلسطينية».

ولم يكن انتخاب حكومة نتنياهو - ليبرمان صدفة، بل كان ناجماً عن قناعة بأن إسرائيل وصلت تلك المرحلة، وكنتيجة انعطاف المجتمع الإسرائيلى بصورة غير مسبوقة نحو التطرف والعنصرية، فاختفت تماما حركة السلام - باستثناء حركات تضامن هامشية بقيت صغيرة رغم نبل دورها، وأصبحت الاستطلاعات تشير إلى أن ٨١٪ من الإسرائيليين يرفضون مبدأ التفاوض على القدس، و٨١٪ يرفضون تفكيك المستوطنات، و٦٩٪ يرفضون حتى تجميد توسيع المستوطنات القائمة، ووصل الأمر مداه بدعم ٩١٪ من اليهود الإسرائيليين للحرب على غزة مع معارضة لم تتجاوز ٣٪ فقط.

وتبلور إجماع آخر على رفض الانسحاب من الجولان. ولم يقتصر إعلان «ولا لاجئ واحد» سيسمح له بالعودة على نتنياهو، بل أصبحت هذه علامة تسيبى ليفنى (المعتدلة!!!!) المميزة.

ولذلك لمَ تظهر فى إسرائيل - حتى الآن حكومة واحدة توقف الاستيطان الذى لم يتوقف للحظة منذ عام ١٩٦٧، بل تصاعد بشكل جنونى بعد اتفاقات السلام مع العرب والفلسطينيين، حيث تشير معطيات حركة السلام الآن الإسرائيلية إلى أن ٥٩٪ من المستوطنين فى الضفة الغربية، قد استوطنوا فيها بعد توقيع اتفاق أوسلو ١٩٩٣.

والآن عاد ائتلاف نتنياهو إلى الفكرة القديمة - العقيمة بتقزيم الدولة الفلسطينية إلى حكم ذاتى هزيل مسيطر عليه، يقوم بدور وكيل أمنى للاحتلال، واستبدل الاستقلال السياسى بخديعة التطور الاقتصادى فى عودة غير محمودة لمخطط شارون - مناحيم ميلسون عام ١٩٨١ - ١٩٨٢ بتحسين أحوال المعيشة تحت الاحتلال، والذى ترافق مع إنشاء روابط القرى ومن ثم ولد الإدارة المدنية.

لقد مثل خطاب نتنياهو رداً على خطاب أوباما، وشكل التأكيد القاطع والحاسم على مواقف المؤسسة الحاكمة فى إسرائيل، خصوصاً أنه استقبل بالترحاب - رغم عنصريته المطلقة - من قبل كافة الأحزاب الإسرائيلية من يسارها إلى يمينها.

وأظهر ذلك الخطاب أولاً عدم وجود شريك للسلام فى إسرائيل، وأن قيادتها عاجزة عن صنع السلام.

وثانيا دخل نتنياهو التاريخ باعتباره رئيس وزراء إسرائيل الذى أعلن تكريس إسرائيل كدولة تمييز عنصرى رسمياً، وليؤكد أن منظومة «الابارتهايد» لا تشمل فقط فلسطينيَ الضفة والقطاع بل والفلسطينيين الحاملين للجنسية الإسرائيلية (٢٠٪ من السكان) ممن يقيمون داخل أراضى ١٩٤٨.

وثالثاً كان خطاب نتنياهو برنامجاً للحرب على السلام الحقيقى والعادل، لقد تلاعب بالألفاظ فى محاولة لتجنب الضغوط الأمريكية والاستياء الدولى غير أن الحقيقة ظهرت على أوضح ما تكون.

وفى خطابه الذى يجب اعتباره برنامجاً رسمياً للمؤسسة الإسرائيلية الحاكمة، حدد نتنياهو ستة مفاهيم رئيسية :-

(أ) أن الأولويات بالنسبة لإسرائيل، إيران أولاً والاقتصاد ثانياً وبعد ذلك تأتى مسألة السلام ثالثاً.

(ب) الهدف هو السلام الإقليمى أى التطبيع مع الدول العربية دون إنهاء الاحتلال، أو حل القضية الفلسطينية، ولذلك لم يذكر نتنياهو مرة واحدة المبادرة العربية.

(ت) السلام الاقتصادى كبديل للسلام السياسى، أى تحسين ظروف المعيشة تحت الاحتلال بدل إنهاء الاحتلال.

(ث) الأمن قبل السلام - لوضع السلطة الفلسطينية أمام مهمة لن تنجز أبداً لأنها موضوعياً مستحيلة الإنجاز.

(ج) تكرار أكذوبة الانسحاب من غزة، لتبرير عدم الانسحاب من الضفة، مع أن غزة ما زالت تحت الاحتلال براً وبحراً وجواً.

(ح) أما المفهوم الأخطر - فقد كان إلغاء الحقوق التاريخية للشعب الفلسطينى، بتزوير التاريخ والجغرافيا والوقائع.

نتنياهو قال بكل الوضوح - كل فلسطين أرض يهودية بما فى ذلك الضفة الغربية والقدس، وأرض لليهود فقط من الناحية التاريخية، وإسرائيل تتصدق على الفلسطينيين بمنحهم «جيتو» أو «جيتوات» تحت السيطرة الإسرائيلية.

وفى هذه النقطة تحديداً اصطدم نتنياهو علناً ومباشرة بكل قواعد القانون الدولى والقرارات الدولية من قرار التقسيم عام ١٩٤٧ ومروراً بقرارات ٢٤٢، ٣٣٨ وحتى قرار محكمة العدل العليا فى لاهاى.

ومع ذلك فمن المؤسف أننا لم نسمع إدانة لذلك من المجتمع الدولى ولا تصدياً حازماً على مستوى المنطقة لهذا المفهوم القاتل لكل إمكانية للتفاهم أو السلام.

وبعد ذلك قلب نتنياهو الأمر ليهرب من الاعتراف بدولة فلسطينية من خلال مطالبة الفلسطينيين والعرب الاعتراف بإسرائيل كدولة يهودية والتخلى الكامل عن حق العودة وبذلك وضع ثلاثة شروط تعجيزية أمام الفلسطينيين: -

(١) الاعتراف بنظام التمييز العنصرى الإسرائيلى والقبول به وبمصادرة حقوق ٢٠٪ من سكان أراضى ١٩٤٨ من الفلسطينيين.

(٢) القبول بتصفية الحقوق التاريخية والشرعية لأكثر من خمسة ملايين لاجئ فلسطينى.

(٣) الاعتراف بأن الضفة الغربية أيضا أرض يهودية وما سيمتلكه الفلسطينيون فيها لن يتعدى حقاً بالإقامة والمعيشة دون أن يصل أبداً إلى مستوى حق بالسيادة.

لقد استغرب الكثيرون وصف خطاب نتنياهو بالإيجابى من قبل بعض الحكومات لأنه ذكر مجرد كلمة دولة. وهنا تكمن مفارقتان، الأولى أن الذين رأوا إيجابية، كانوا يقارنون نتنياهو بنتنياهو ولم يقارنوا مواقفه بمواقف الحكومات السابقة كما يحلوا لهم أن يفعلوا مع الفلسطينيين - وفى ذلك تتجلى «ازدواجية المعايير» المعهودة عند التعامل مع الفلسطينيين من قبل دوائر عديدة فى العالم.

غير أن الأمر الأهم يبقى ما هو مفهوم الدولة الذى طرحه نتنياهو.

لقد قال « دولة منزوعة السلاح بدون سيطرة على الحدود والمعابر والمصادر الطبيعية وبدون سيطرة على الأجواء، وبدون سيطرة على المستوطنات التى ستواصل التوسع، وبدون وجود فى القدس التى ستبقى عاصمة يهودية موحدة لإسرائيل، على أن تبقى السيطرة على الأمن بيد إسرائيل، وأن تكون السلطة وكيلاً أمنياً لها».

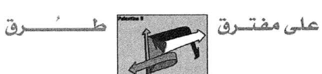
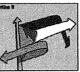
إذن فنتنياهو يتحدث عن جيتو أو معزل وليس دولة هو أسوأ حتى من مفهوم البانتوستان، وبالتالى هو يكرس نظام الابارتهايد - التمييز العنصرى.

فما هو الإيجابى فى ذلك؟

تبقى قضية المفاوضات التى يقول إن حكومة إسرائيل تريد استئنافها بدون شروط مسبقة، غير أن نتنياهو يحدد نتائجها النهاية قبل أن تبدأ.

فالقدس - تبقى يهودية موحدة، مع

ما بدا منطقيا فى «عملية السلام» تحول للأسف إلى مفهوم متعارض مع المصلحة الوطنية

حق أداء الشعائر الدينية الذى يستثنى طبعاً معظم الفلسطينيين.

اللاجئون يجب أن تحل قضيتهم خارج فلسطين - أى تصفية حق العودة.

أما الدولة فجيتو بلا سيادة.

والاستيطان سيستمر فى النمو.

فماذا تبقى بعد ذلك للتفاوض سوى تنسيق العمل بين الأجهزة الأمنية وتحديد آليات العمل الاقتصادى فى ظل نظام الابارتهايد العنصرى.

وإذا كان نتنياهو قد اضطر لنطق كلمة «دولة» فالفضل فى ذلك يعود لصمود الفلسطينيين وتضحياتهم، ولكنه عندما عمل ذلك لم يغير شيئاً سوى أنه أصبح فى نفس مدرسة ليفنى وباراك «انطقوا كلمة دولة ولكن ابقوها مجرد حكم ذاتى هزيل».

وفى الخلاصة فإن كل ذلك يظهر خطورة اللعب فى ملعب الإسرائيليين وأن التفاوض معهم حسب قواعدهم لن يجلب إلا الدمار.

فى الماضى لم يمثل اتفاق أوسلو بالنسبة للمخطط الإسرائيلى سوى وسيلة لتفريغ واحتواء الضغط الإيجابى الذى خلقته الانتفاضة الشعبية الأولى بكل تضحياتها، ولكسب الوقت من أجل توسيع الاستيطان وتوجيه ضربات لحركة التحرر الوطنى الفلسطينية باعتماد نهج التجزئة والتأجيل.

والمفاوضات فى هذه الحالة، وكما كان الحال طوال ستة عشر عاما منذ وقع اتفاق أوسلو لن تكون سوى غطاء لسياسة الأمر الواقع الإسرائيلية ولعملية التوسع الاستيطانى.

وإلى جانب تصفية وتشويه فكرة الاستقلال الفلسطينى والدولة الفلسطينية، وإغلاق الباب أمام مجرد التفاوض على قضايا الحل النهائى، تسعى إسرائيل إلى تحقيق هدفين مركزيين :-

● معالجة المعضلة الديمغرافية الفلسطينية - والمتمثلة فى أن عدد الفلسطينيين يساوى اليوم عدد اليهود على أرض فلسطين التاريخية - من خلال أولا: التخلص من قطاع غزة، بالفصل التام عن الضفة الغربية، والاستفادة طبعا من الانقسام الداخلى الفلسطينى، وبذلك فإن إسرائيل إذ تترك ١,٣٪ فقط من مساحة فلسطين التاريخية، فإنها تتخلص من ١/٣ المعضلة الديمغرافية (حوالى ٣٠٪ من السكان الفلسطينيين).

وثانيا: بتحويل التجمعات السكانية الفلسطينية فى الضفة إلى معازل وبانتوستانات (أو جيتوات) صغيرة على أمل خلق ظروف اقتصادية لهجرة قسم كبير منهم، أو إلحاقهم وإلقاء عبئهم كسكان دون الأرض على الأردن لاحقاً.

❖ أما الهدف المركزى الثانى: فهو تحقيق الهيمنة الاقليمية على المنطقة التى يدور فيها صراع بين ٣ قوى إقليمية - تركيا - إسرائيل - إيران. ويحاول الكثيرون منع العرب حتى من مجرد أن يكونوا قوة اقليمية رابعة فى هذا الصراع، وهدف إسرائيل الهيمنة عسكرياً واقتصادياً على المحيط العربى، ولذلك يريدون تشويه المبادرة العربية بطرح التطبيع قبل الحل، على طريق الوصول إلى تطبيع بدون حل.

وتستهدف إسرائيل الدول العربية دون استثناء، فالأردن يقع فى دائرة الأطماع المباشرة - أطماع التوسع الجغرافى الإسرائيلى وأطماع تحويله إلى وطن بديل للفلسطينيين، ومصر معرضة لمحاولات التهميش ومنعها من لعب الدور الاستراتيجى المقدر لها، ودول الخليج معرضة للوقوع بين فكى كماشة صراع إقليمى شرس.

على مدار عقود، كان نضال وصمود الشعب الفلسطينى وعناده فى الدفاع عن حقوقه العقبة الكأداء التى لا تنثنى تحت الضغط الإسرائيلى، وعلى مدار عقود بدأت تتعاظم تحولات على الصعيد الدولى انكشف خلالها تدريجيا الطابع العدوانى العنصرى لإسرائيل التى أصبحت نظام الابارتهايد الأسوأ فى التاريخ البشرى.

ولولا هذا الصمود الفلسطينى لما شهدنا ما نراه اليوم من معاكسة القدر لإسرائيل بعد انتخاب أوباما واضطرار الإدارة الأمريكية لإحداث تعديلات فى سياستها تجاه القضية الفلسطينية تجلت بوضوح فى خطاب أوباما الأخير، والذى وإن لم يغادر موقع الانحياز الاستراتيجى لإسرائيل، وتجاهل وصف العنف الإسرائيلى، إلا أنه أخذ موقفاً حازماً وحاسماً وغير مسبوق ضد التوسع الاستيطانى وضد الاستيطان، وقدم لأول مرة فى تاريخ الرؤساء الأمريكيين خطاباً يلاحظ الوجه الإنسانى للشعب الفلسطينى. وأقدم على مقارنة جريئة وغير مسبوقة بين معاناة الفلسطينيين وتلك التى عانى منها أسلافه من الأمريكيين الأفارقة فى ظل نظام التمييز العنصرى أو معاناة أهل جنوب إفريقيا والهند فى سعيهم للحرية والاستقلال والمساواة مشدداً على ما يسببه الاحتلال من مهانة وظلم.

وإذ أعاد التأكيد على هدف الدولة المستقلة، فإنه عاد إلى جذور القضية الفلسطينية، أى إلى عام ١٩٤٨ وقضية اللاجئين ولم يحصر الأمر باحتلال عام ١٩٦٧، وأشار إلى القدس كمكان مشترك لا يستطيع الإسرائيليون احتكاره.

وإذا كان الموقف الأمريكى من الاستيطان وضرورة وقفه فوراً - مثل الموقف الرسمى الفلسطينى- قد تأخر ستة عشر عاماً، فلا بد من استذكار أن إسرائيل تستجمع الآن كل طاقتها، وكل ألاعيبها، وكل محترفى التضليل السياسى لديها وفى مقدمتهم بالطبع شمعون بيريس، لكى تنفس مرة أخرى الضغط والعوامل الإيجابية - كما فعلت خلال عملية أنابوليس التى تمخضت بعد عام ونصف عن صفر سياسى كبير للفلسطينيين واستيطان كبير وغير مسبوق للإسرائيليين.

ومن هنا فإن الوقوع مجدداً فى فخ خريطة الطريق التى يرفضها نتنياهو بالمناسبة، ومفاوضات جديدة دون أسس واضحة، بدون إنهاء شامل لكل نشاط استيطانى وتعهد إسرائيلى قاطع بالالتزام بالقانون الدولى وإنهاء الاحتلال لجميع الأراضى المحتلة والاعتراف بحقوق اللاجئين الفلسطينيين، سيخدم هدف إسرائيل فى كسب الوقت واستنزاف الضغوط وإرباك أوباما وإشغاله ولتحييد أية عناصر تتعارض مع المخطط الإسرائيلى الاستراتيجى الذى وصفناه.

وقد بدأت ملامح الألاعيب الإسرائيلية فى مواجهة التغير النسبى الذى حملته إدارة أوباما تتضح، من خلال أفخاخ أربعة تحاول المؤسسة الصهيونية نصبها له وللمجتمع الدولى وللفلسطينيين.

أولاً : الخلط بين المستوطنات وعددها ١٢٦ وكلها غير قانونية وغير شرعية فى العرف الدولى وتضم حوالى نصف مليون مستوطن (٤٧٦,٠٠٠)، وبين ما يسمونه النقاط الاستيطانية وعددها ١٠٦ (ومعظمها ملتصقة بمستوطنات قائمة أو تشكل امتداداً لها) ومجموع من يقيمون فيها لا يتجاوز ٤٠٠٠ مستوطن. وما ستحاول حكومة إسرائيل عمله إشغال العالم بالنقاط الاستيطانية لجذب الانتباه عن المائة وستة وعشرين مستوطنة، وسيبدأون لعبة إخلاء بعض النقاط الاستيطانية (٧ بالنسبة لنتنياهو و٢٢ حسب باراك) ولا يتجاوز عدد الذين سيتم إخلاؤهم بضع عشرات، وسيعود بعضهم مجدداً بعد إخلائه، بهدف إعطاء شرعية للنصف مليون مستوطن الآخرين.

ثانياً : الحديث عن النمو الطبيعى للمستوطنات للتملص من مطلب تجميد الاستيطان، وكأن النمو الطبيعى لجسم غير شرعى يجعله شرعياً، فى حين تتنكر إسرائيل لحق المقدسيين والقاطنين فى معظم مناطق الضفة الغربية (المسماة مناطق C) فى الحصول على رخص للبناء، وتهدد ٦٠,٠٠٠ مواطن فى القدس بهدم منازلهم بهذه الحجة.

ثالثاً : العودة إلى فخ - الدولة ذات الحدود المؤقتة - وهذا ما يروج له اليوم أكثر قادة إسرائيل خبثاً شمعون بيريس، والهدف الحصول على أوسلو جديد ومهلة زمنية جديدة لتوسيع الاستيطان وفرض الأمر الواقع.

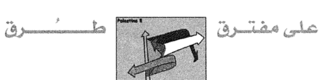
رابعاً : الضغط على الدول العربية للقيام بإجراءات وخطوات تطبيع مع إسرائيل، دون وقبل أن تنهى إسرائيل استيطانها واحتلالها ونظامها للفصل العنصرى.

إسـرائيل لم تخـض
المفاوضات لإيجاد حل وسـط للصـراع
بل للانتصـــار فيــه



الخيار قبل البدائل

بعد كل ذلك فإننا كفلسطينيين نواجه واحداً من خيارين لا ثالث لهما.



إما مواصلة الهروب من الصراع كما حاول البعض، أو قراراً وطنياً جماعياً بخوض الصراع.

وليس قرار خوض الصراع بالضرورة دعوة لشن حرب عسكرية، ولا يخفى على أحد تفوق إسرائيل فى هذا المجال بالهيمنة العسكرية التقليدية وغير التقليدية - النووية -، كما لا يخفى على أحد عدم وجود استعداد وقدرات لدى الدول المجاورة بأخذ هذا الخيار.

غير أن عدم القدرة على شن حرب لا يعنى الاستسلام للطرف الآخر والهروب من الصراع.

ورغم التفوق العسكرى الإسرائيلى العسكرى فإن إسرائيل تعانى من نقطتى ضعف - أو بطن رخو - فى مجالين :-

(١) محدودية قدرة القوة العسكرية الإسرائيلية على فرض حلول سياسية على شعب مصر على المقاومة والنضال. تجلى ذلك مرتين فى حربين على لبنان، وتجلى مرة أخرى فى العدوان على قطاع غزة.

(٢) نتيجة نجاح الفلسطينيين فى الصمود ونتيجة العامل الديمغرافى فى الصراع، تكرست إسرائيل كنظام تمييز وفصل عنصرى - ابارتهايد معاد للسلام، إلى جانب ملامح أخرى كالتطهير العرقى الذى مورس عام ١٩٤٨، أو الاستعمار الإحلالى. وتؤدى القوانين الأخيرة المطروحة على الكنيست - مثل قوانين الولاء ليهودية الدولة، ومنع الفلسطينيين من إحياء ذكرى النكبة إلى مزيد من انكشاف الطابع العنصرى لإسرائيل.

والمفارقة هنا، أن وصول إسرائيل لحظة الذروة فى تجزئة الشعب الفلسطينى جغرافياً، بين خارج وداخل، وبين القدس والضفة، والضفة والقطاع، ثم بين كل محافظة وأخرى بالحواجز والطرق، قد ترافق مع إعادة توحيد معاناته وتوحيد التحديات التى يواجهها فكل الفلسطينيين - سواء كانوا فى الخارج أو الداخل وسواء حملوا هوية إسرائيلية أو كانوا من مواطنى القدس أو الضفة أو القطاع، يعانون جميعاً من نفس منظومة التمييز والفصل العنصرى الإسرائيلية.

إن البديل الوحيد للهروب من الصراع هو خوضه من أجل حله، وهذا يعنى الإقرار بأننا ما زلنا فى حالة حركة تحرر وطنى وأن العمل السياسى والدبلوماسى هو جزء من عملية إدارة الصراع وليس بديلاً له، بل يجب أن يكون وسيلة لعزل ومحاصرة السياسة الإسرائيلية وفضحها والمطالبة بفرض عقوبات عليها.

ومن هنا فإن نظرية بناء مؤسسات دولة تحت الاحتلال، يطغى عليها الطابع الأمنى وتستهلك أجهزتها الأمنية ٣٥٪ من الموازنة العامة، فى ظل حديث نتنياهو عن التطور الاقتصادى كبديل للحل السياسى يحمل أيضا مخاطر «التأقلم مع الظروف» بدل العمل على تغييرها.

فبناء المؤسسات الفلسطينية والتطوير الاقتصادى يجب أن يتم فى إطار فلسفة «التنمية المقاومة» ودعم الصمود الوطنى فى وجه إجراءات الاحتلال، وتخفيف الاعتمادية على التمويل الخارجى التى جعلت الضفة والقطاع تحتل الموقع الأول المقلق فى تبعيته واعتماده على المساعدات الأجنبية فى العالم.

إن الهدف الاستراتيجى للنضال الفلسطينى يجب أن يكون:

«جعل تكلفة الاحتلال والابارتهايد الإسرائيلى متصاعدة إلى درجة لا يمكن احتمالها».

وإذا توافقنا على خيار إدارة الصراع، إن استراتيجيته يجب أن تقوم برأينا فى المبادرة الوطنية الفلسطينية على أربعة أعمدة :-

(١) المقاومة، وهى حق للشعب الفلسطينى بكل أشكالها التى يقرها القانون الدولى، ويمثل النضال والمقاومة الشعبية الجماهيرية والتى تأخذ طابعاً سلمياً ولكنها تعيد ثقافة المقاومة المشاركة لدى مختلف فئات الشعب الفلسطينى ولا تجعل النضال محصوراً أو محتكراً من مجموعات صغيرة، نموذجاً صاعداً يتواصل اتساعه.

ولدينا نماذج واضحة لهذه المقاومة، منها المقاومة الباسلة والمتواصلة - ببطولة وعزم مشهود بهما - لجدار الفصل العنصرى والاستيطان وتمثل مقاومة نعلين - التى قدمت خمسة شهداء حتى اليوم - وبلعين والمعصرة وجورة الشمعة وقفين وعزون العتمة وسوسيه - يطا وبيت امر والبلدة القديمة فى الخليل وارطاس والخضر وجيوس وقلقيلية وصفا نماذج رائدة لنضال لا بد أن يتسع ويتعاظم.

وتمثل مقاومة سكان القدس وسلوان لإجراءات التهويد وهدم المنازل نموذجا آخر.

وتنهض اليوم بجهد مثابر حركة مقاطعة البضائع الإسرائيلية وتشجيع المنتجات المحلية كنموذج واعد آخر، لمنع الاحتلال من مواصلة حلب أرباح تسويق منتجاته، ومشاركة شعبية فى المقاومة لكل طفل وشيخ ورجل وامرأة، فيما يمكن أن يعيد خلق ثقافة وروح.

العمل الوطنى الجماعى

وتمثل حملات كسر الحصار على قطاع غزة، وتسيير السفن والقوافل إليه والضغوط لإجبار إسرائيل على رفع حصارها نموذجاً آخر لهذه المقاومة.

(٢) دعم الصمود الوطنى :

ويركز هذا الجانب على تعزيز القوة الديموغرافية للشعب الفلسطينى وتحويل ملايين الفلسطينيين إلى قوة فاعلة، وتلبية احتياجاتهم وصمودهم على أرضهم وتنمية القوة البشرية الفلسطينية باعتبارها أساس اقتصاد فلسطينى قوى، مستقل ومقاوم.

وهذا الهدف لا يمكن تحقيقه بدون تغيير موازنة وخطة السلطة الفلسطينية الاقتصادية لتنقل مركز ثقلها إلى حقول التعليم والصحة والزراعة والثقافة بدل هدر ثلث الموازنة على الأمن.

هناك مؤسسة صهيونية واحدة لها أهداف متدرجة، لم تتغير أسسها منذ عام ١٩٤٨



وعلى سبيل المثال فإن إصدار قانون الصندوق الوطنى للتعليم العالى وتطبيقه فوراً يمثل نموذجا لتلبية احتياجات مئات الآلاف، وإطلاق آلية لرفع مستوى التعليم الجامعى وتطويره، وكذلك وسيلة لديمومة تأثير المساعدات المستثمرة وتقليل الاعتماد على الدعم الخارجى.

إن هذا الصندوق مثلا من شأنه رفع عبء الأقساط الدراسية عن ما يزيد عن مائة وخمسين ألف عائلة، وإنهاء كل شكل للمحسوبية والواسطة فى التعامل مع البعثات الدراسية والقروض، وإتاحة فرص متكافئة للتطور العلمى والتعليم لكل الشباب والشابات بغض النظر عن فقرهم وغناهم.

هذا مجرد مثل من أمثلة عديدة فى حقول التعليم والصحة والزراعة والثقافة لبرامج ومشاريع يمكن أن تعزز الصمود الديموغرافى الفلسطينى وتحوله إلى قوة نوعية قادرة، متعلمة وعصرية.

(٣) الوحدة الوطنية وبناء قيادة وطنية موحدة للشعب الفلسطينى بما يشمله ذلك من إعادة بناء منظمة التحرير الفلسطينية على أسس ديموقراطية وتنفيذ ما اتفق عليه سابقا ولاحقا فى حوارات القاهرة.

لقد كان محور الهجوم الإسرائيلى خلال السنوات الماضية التركيز على الانقسام السياسى الداخلى والتشديد على ضعف القيادة الفلسطينية غير الموحدة.

إن تحقيق هذه الوحدة يتطلب أربعة أمور :-

(أ) التخلى عن عقلية وممارسة التنافس على سلطة وهمية ما زالت تحت الاحتلال سواء فى الضفة الغربية أو قطاع غزة.

(ب) التخلى عن الوهم بأن أى قوة فلسطينية مهما عظم شأنها، قادرة على قيادة الساحة والنضال الفلسطينى منفردة.

(ت) اعتماد الديمقراطية الداخلية كنهج حياة وقيادة وممارسة والحوار السلمى والاحتكام السلمى للممارسة الديمقراطية كخيار وحيد لحسم الخلافات والاختلافات. والرفض الحازم لنهج نفى الآخر، والقبول بمبدأ التعددية السياسية.

(ث) صد الضغوط والتدخلات الخارجية فى الشأن الداخلى الفلسطينى وفى القرار الفلسطينى وأولها التدخلات الإسرائيلية، وترسيخ

قناعة ثابتة لحق الفلسطينيين فى اتخاذ قرارهم الوطنى المستقل.

إن المهمة الأصعب التى تقف أمامنا اليوم هى كيف نبنى استراتيجية وقيادة موحدة تخضع لها كافة القرارات السياسية والكفاحية ولا ينفرد بعدها أى طرف بالقرار.

والنتيجة لذلك ستكون مواجهة الحصار بالوحدة، بدل الابتعاد عن الوحدة خوفاً من الحصار. وستكون انتزاع زمام المبادرة من الآخرين بدل المراوحة فى دائرة ردود الأفعال وستكون فرض القرار الفلسطينى الموحد، بدل استقواء أطراف الصراع الداخلى بأطراف خارجية لتقوية نفسها.

وسيثمر ذلك فى قلب المعادلة التى أدت إلى تقزيم حركة التحرر الوطنى داخل السلطة (سواء فى الضفة أو القطاع) وجعل السلطة أداة فى خدمة حركة التحرر الوطنى.

(٤) بناء وتعزيز حركة التضامن الدولية، وحركة فرض العقوبات على إسرائيل:

إن هذه الحركة المتصاعدة تبشر بالخير، ولكنها تقتضى جهداً هائلاً لتنظيمها وضمان تناسقها، وتأثيرها على صانعى القرار خصوصاً فى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية.

وهى بحاجة إلى إعادة تنظيم الجاليات الفلسطينية والعربية والمسلمة فى إطار جهد متناسق موجه نحو هدف واحد.

وإذا كانت هذه الحركة قد حققت نجاحات مثل فرض العقوبات على منتجات إسرائيلية، وقرار اتحاد الجامعات البريطانية بفرض مقاطعة أكاديمية على إسرائيل، أو سحب الاستثمار الذى قامت به كلية هامبشاير وبعض الكنائس فى الولايات المتحدة، فإنها ما زالت بحاجة إلى تنظيم كبير وتوسيع وتركيز.

إن وضع القضية الفلسطينية - التى سماها نيلسون مانديلا - قضية الضمير الإنسانى الأولى فى عصرنا، يشبه إلى حد ما حالة جنوب إفريقيا فى بداية الثمانينات من القرن الماضى. وقد اقتضى الأمر سنوات من الجهود الموحدة والمنضبطة كى تصل حركة العقوبات إلى الحكومات، بعد أن أصبحت التكلفة الاقتصادية للتعامل مع نظام الفصل العنصرى أكبر من أن تحتمل، من قبل الشركات الكبرى.

وفى الحالة الفلسطينية يبدو لى أن هناك ثلاثة شروط لنجاح الحملة الدولية. الأول: تنظيمها بإحكام ودقة وانضباطية عالية وتناسق محكم، وثانيا: عقلانية ومنطقية وحضارية خطابها لتفويت الفرصة على الاستفزازات الإسرائيلية وثالثا: أن تستهدف الشرائح والحركات التقدمية فى المجتمعات المختلفة بما فى ذلك اليهود المعادون للصهيونية ولسياسات إسرائيل وتجنيدهم إلى جانبها.

وليس فى كل ما قيل ابتكار جديد، غير أن ما قيل لم يطبق حتى الآن.

ونقطة الانطلاق فى تطبيقه يجب أن تكون فى التركيز على أن قضية فلسطين، وإن كانت قضية فلسطينية بالطبع وعربية وإسلامية كذلك، ولكنها قبل وبعد ذلك قضية إنسانية شاملة لكل من تعز عليه قيم الإنسانية والعدالة فى العالم. هذا ما نجح فى صنعه مناضلو جنوب إفريقيا والمناهضون للحرب على فيتنام، والداعون لاستقلال الهند، وهذا ما يجب أن نفعله نحن بحيث يكرس عنوان التضامن مع الشعب الفلسطينى باعتباره «نضالاً وموقفاً ضد الابارتهايد الجديد والفصل العنصرى»، ونضالاً إلى جانب العدل والحق فى الحرية.

ويشكل قرار محكمة لاهاى الدولية ضد جدار الفصل العنصرى والاستيطان وتغيير معالم القدس، سابقة قانونية ثمينة جرى إهمالها على مدار ٤ سنوات من قبل المؤسسات الرسمية الفلسطينية، وهى يجب أن تشكل منطلقاً للمطالبة بفرض ضغوط وعقوبات على إسرائيل كما كان القرار ضد احتلال ناميبيا ركيزة لاستنهاض حملة ضد نظام الفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا.

إن الاستراتيجية التى نطرحها، بعناصرها الأربعة والتى تتبناها حركة المبادرة الوطنية الفلسطينية، تحتاج مع الرؤية الواضحة إلى صبر ومثابرة وإصرار ومنهجية.

وإذ لا أتوقع أن يوافق عليها الجميع، فمصالح البعض الممزوجة بمشاعر الإحباط واليأس تجعلهم أبعد عن أن يريدوا خوض أو مواصلة المواجهة مع إسرائيل، وعلينا الاعتراف بوجود فئات اجتماعية أصبحت اعتماديتها على المشاريع والترتيبات الانتقالية وتمويلها تشل إرادتها وتعيق إمكانية مشاركتها فى النضال من أجل التغيير الحقيقى.

غير أن هذا الطرح - الاستراتيجية الشاملة - يستجيب بالتأكيد ويمثل مصالح الغالبية الساحقة من الشعب الفلسطينى بكل مكوناته، ويضمن مستقبله.

وإذا كان النضال الوطنى الفلسطينى، ولا بد أن نسميه اليوم النضال الوطنى - الاجتماعى الفلسطينى بحكم تداخل المهمات الوطنية والاجتماعية (التحرر مع الديموقراطية والعدالة الاجتماعية)، قد مر بمرحلتين غلب فى الأولى منها إدارة الصراع من الخارج مع إهمال لدور الداخل، وتغلب فى الثانية انتقال مركز الثقل للداخل مع إهمال للخارج، فإن الطور الثالث الذى ندخله اليوم يقتضى الجمع الناجح بين الداخل والخارج بما يشمله ذلك من استنهاض لطاقات الجاليات الفلسطينية والمؤيدين لها فى الشتات والخارج.

وفى الختام، لا يمكن إنهاء هذه المعالجة للاستراتيجية الفلسطينية دون التطرق إلى موضوع دولة أو دولتان.

ومن الصحيح نظرياً وعملياً دون شك طرح هذا الموضوع، لسببين :-

أولا : محاولات إسرائيل تشويه فكرة الدولة بتحويلها لحكم ذاتى - أو دولة مؤقتة - هزيلة دون سيادة.

وثانيا : ما يراه الناس على أرض الواقع من تغييرات استيطانية تحول فكرة الدولة إلى حلم مستحيل المنال.

وبالنسبة للبعض خصوصاً الذين يعيشون فى الشتات يبدو استبدال شعار «حل على أساس دولتين» بشعار حل «الدولة الواحدة» علاجاً يقدم الخلاص. وهو علاج أفضل بدون شك، لكنه لا يقدم الخلاص بعد. لأن تبنى الشعار لا يعنى إنهاء الصراع. والشعار بدون استراتيجية لتحقيقه سيبقى أمنية طيبة، أو وسيلة مشرفة للبعض «لعدم بذل الجهود التى تتطلبها مسؤوليات إدارة الصراع».

وليكن واضحا هنا، أن تدمير إسرائيل لخيار دولة فلسطينية مستقلة ولحل الدولتين - وهو ما تقوم به فعليا الآن وبالملموس على مدار الساعة - لا يترك الشعب الفلسطينى بدون خيارات بديلة كما يظن بعض قادة الحركة الصهيونية.

فالدولة الديمقراطية الواحدة - وليس ثنائية القومية - التى يتساوى فيها الناس بغض النظر عن دياناتهم وأصولهم فى الحقوق والواجبات هى خيار بديل قائم، لمحاولة جعل الفلسطينيين يقبلون العبودية للاحتلال ونظام الابارتهايد فى ظل حكم ذاتى هزيل - أو حكم ذاتى هزيل يسمى دولة أو دولة مؤقتة.

غير أنه سواء كان الهدف دولة مستقلة حقيقية أو دولة واحدة، فإنه لا يمكن تحقيق أى من الهدفين أو الشعارين المرفوضين كليهما وبنفس القوة من قبل إسرائيل، إلا عبر إسقاط وإفشال وهزيمة منظومة الابارتهايد، ولذلك تلزم استراتيجية. وبدل انقسام جديد سابق لأوانه فى صفوف الفلسطينيين بين الشعارين، علينا أن نتوحد خلف الهدف المشترك لكليهما - استراتيجية النضال ضد الاحتلال والابارتهايد والتمييز العنصرى.

ومثلما آن أوان الانتقال من عالم الشعارات إلى عالم الواقع النضالى الملموس، والمهمات المحددة والخطط الاستراتيجية التى توضع موضع التنفيذ، وهذا يشمل المتظاهرين ضد الجدار مثلما يشمل المثقفين والقادة السياسيين، فإنه قد آن الأوان كذلك لإنهاء الظن بأن العمل الدبلوماسى وأروقة المفاوضات تغنى عن مهمات النضال الفعلى.

أمامنا طريق واحد، نهايته واحدة، حرية الشعب الفلسطينى. وليس هناك ما هو أنبل من السير عليه حتى نهايته.

وذلك ليس مشروعاً لسنوات بعيدة، إنه مشروع اليوم الملّح والذى لا ينتظر.

ولذلك يحسن بنا ربما أن نعيد تبنى شعار مناضلى ومناضلات جنوب إفريقيا.

الحرية... و«الحرية فى حياتنا»!! ■



تعتقد المؤسسة الصهيونية اليوم أنها دخلت فى مرحلة تصفية عناصر القضية الفلسطينية



نقاش حول مستقبل السياسة الخارجية

السيد أمين شلبى

ثمة اتفاق واسع أن ثمة شيئا فى السياسة الخارجية الأمريكية قد انكسر، وأن السياسات وعادات الفكر التى سادت خلال الحرب الباردة لم تعد صالحة حيث ظهرت تحديات جديدة: الإرهاب والفاعلون غير الحكوميين، وصعود الصين كقوة عالمية وتحول فى طبيعة القوة، وعدم ثقة منتشرة حول العالم فى نوايا أمريكا وحيث تبدو استجابات أمريكا لها غير فعالة، وإذا كانت أمريكا، وفق المعايير التقليدية هى أكثر الأمم قوة منذ الإمبراطورية الرومانية، ورغم هذا فإن الحدود على ما تستطيع قوتها أن تحققها أعظم مما كانت منذ خمسة عشر عاما. إزاء هذا الواقع يعتمد هذا الكتاب على أهمية التكيف مع بيئة دولية جديدة ودائمة التغير، ويدعو اثنين من أبرز المفكرين الإستراتيجيين الأمريكيين وهما زبجنيو برجنسكى، وبرنت سكوكروفت واللذان شغلا فى نفس الوقت منصب مستشار الأمن القومى فى إدارات ديمقراطية وجمهورية، لكى يناقشوا علاقة أمريكا مع العالم، وكيف تستجيب وتتعامل مع قضايا وتحديات مثل العراق، وإيران، وإسرائيل وفلسطين، وتوسيع حلف الناتو إلى الحدود الروسية، وكيف جمهورى بارز وديمقراطى بارز يستطيعان أن يجدا أرضا مشتركة لبداية جديدة فى السياسة الخارجية. ولكل من برجنسكى وسكوكروفت وضع خاص فى هذه التجربة باعتبار أن كليهما كانا متشككين مبكرا حول الحرب فى العراق، فقد أدركا قبل الكثير من محللى السياسة الخارجية أخطار وصعوبات التى سوف تواجهها الولايات المتحدة إذا ما أطيح بصدام وأنهما قررا بشجاعة أن يتكلما علانية عن قلقهما، ولهذا السبب فإنه من المفيد أن نستمع بعناية لما سوف يقولانه ورغم أنهما يختلفان حول بعض الخصوصيات وخاصة حول السرعة التى تنسحب بها أمريكا بأمان من العراق إلا أنهما فى كل جلسة نقاش كانا يتحولان نحو إطار مشترك. ويعتبر إجناتيوس أنه أقدم على إدارة هذا الحوار كصحفى يكتب لمدة ثلاثين عاما وأنه فى عموده فى الواشنطون بوست يحاول أن يكتب من وسط النقاش وأنه يستمع لما سوف يقوله الناس وأنه يثيرهم إذا كان الأمر يتطلب ذلك وأن يفرض الأسئلة التى سوف يسألها قراءه إذا كانوا حاضرين فى هذا النقاش.

ويبدأ النقاش بالحديث عن وصف المشكلة والوضع الذى تجد فيه أمريكا نفسها فى وقت يتقلد فيه رئيس جديد والصعوبات التى تواجهها فى عالم يتغير. ويجيب برجنسكى أنه صدم عندما استمع الرئيس - جورج بوش- يتحدث فى رسالة الاتحاد أن الحرب على الإرهاب هى التحدى الأيديلوجى الرئيسى فى هذا القرن وأنه سأل نفسه أليس هذا نوع من الغطرسة ونحن فى بداية عام ٢٠٠٨، إن الحرب على الإرهاب لن تكون هى التى ستحدد التحدى الأيديلوجى الرئيسى لقرننا إنه شىء أكثر مراوغة وأنه يتضمن ثلاث تحديات كبرى، أحدهما هو ما أسميه الصحوة السياسية العالمية فللمرة الأولى فإن كل البشرية فى حالة نشاط سياسى، إن هذا تغير درامى جدا، وثانيا هناك تحول فى مركز القوة العالمية من العالم الأطلنطى إلى الشرق الأدنى، ليس انهيار عالم الأطلنطى ولكن فقدان السيطرة التى امتلكها لخمسمائة عام. والثالث هو ظهور مشكلات عالمية مشتركة التى علينا ان نواجهها وإلا فسوف تعانى بشكل خطير وأعنى المناخ والبيئة والفقر وعدم العدالة، وهذه تحدد نوع التحديات إلى على أمريكا أن تستجيب لها، وأن بقاءها ومكانها فى العالم سوف يعتمد على الدرجة التى تستجيب بها. أما عن القدرة

أمريكا..

يمكن لأمريكا أن تحتفظ بدورها فى الشرق الأدنى وعديد من الأسئلة الأخرى. أما الشخصية التى أدارت النقاش ووجهت الأسئلة فهو دافيد إجناتيوس الذى يكتب فى قضايا السياسة الخارجية الأمريكية على مدى ثلاثين عاما. وقد دار هذا النقاش على مدى عدة شهور خلال عام ٢٠٠٨ وقبل انتخابات الرئاسة الأمريكية.

ويقول دافيد إجناتيوس فى تقديمه للكتاب إن نقطة البداية فى النقاش هى الاعتقاد أن العالم يتغير بطرق أساسية وأن نماذجنا التقليدية فى فهم دور أمريكا لاتعمل جيدا جدا، وكلا الرجلين يعتقد أن الولايات المتحدة فى موقف صعب فى الخارج لأنها لم تتكيف لهذا الواقع الجديد وكلاهما يتساءل حول الحكمة والأفكار التقليدية ويحاولان النظر إلى العالم بعيون جديدة، وكلاهما متفائل بشكل أساسى حول مستقبل أمريكا ولكن فقط إذا ما استطاعت أن ترتفع إلى مستوى التحديات فى التعامل مع العالم كما هو الآن وليس كما نود أن يكون. ولهذا جاء الكتاب كتجربة لكى نرى إذا ما كان



الأمريكية التى انكسرت فى التعامل مع هذا العالم فإن برجنسكى يتعبرها فى فقدان الثقة، فقد واجهت أمريكا صراع الحرب الباردة بالثقة، ولكن ما يجده مثيرا للشفقة هذه الايام هى ثقافة الخوف التى يواجهها المرء فى كل مكان. وعندما يسال إجناتيوس عن اليوم الذى تغير فيه العالم وهل هو اليوم الذى سقط فيه حائط برلين، يجيب سكوكروفت أنه اليوم الذى وقف فيه جيمس بيكر وإدوارد شيفرنادزا معا لكى يدنيون غزو العراق للكويت، هذا هو اليوم الذى انتهت فيه الحرب الباردة بحق، فهل جرح السوفيت بشكل سيئ عند سقوط حائط برلين، وهل كانت الإمبراطورية تتصدع؟ نعم. أما النقطة القصوى بالنسبة لبرجنسكى فكانت عندما نزل العلم السوفيتى من فوق الكرملين فى ٢٥ ديسمبر عام ١٩٩١. أما عن الفرص الضائعة عندما انهارت الإمبراطورية فهى فى رأى برجنسكى أن الولايات المتحدة لم تفعل الكثير لخلق مؤسسات مشتركة يشعر فيها الروس أنهم جزء من مغامرة أوروبية والتى هى هامة جدا اليوم ولكن كل هذا يبهت مقارنة بسوء الحكم المميت الذى استجبنا به لـ ١١ سبتمبر وينتقل النقاش إلى تعامل أمريكا مع غزو صدام للكويت وهل كان من الخطأ إسقاطه.

ويجيب سكوكروفت أنها لم تكن مهمة غير مكتملة، فالهدف الرئيسى من

Zbigniew Brzezinski, Brent Scowcroft, " America and the World" : conversations on the future of American foreign Policy, New York : Basic Books, 2008.

يعتمد هذا الكتاب على أهمية التكيف مع بيئة دولية جديدة ودائمة التغير، ويدعو اثنين من أبرز المفكرين الاستراتيجيين الأمريكيين، لكي يناقشوا علاقة أمريكا مع العالم



البداية لم يكن إقصائه من السلطة، وما فعلناه هو أننا تركنا صدام يحكم وبنفس الطموح ولكن بدون القدرة على تحقيقها فقد انهار جيشه ولم تمكن العقوبات من إعادة بنائه وعند هذا الوقت لم يكن تهديدا بحرب الخليج الثانية ولم يكن تهديدا بالمعنى الاستراتيجي، ويفسر سكوكروفت فى لماذا لم تسقط أمريكا صدام بثلاثة أسباب أن التحالف الذى كان أساسا من العرب كان سينقسم، وثانيا أن التفويض الذى كان لدينا من الأمم المتحدة هو تحرير الكويت، وثالثا أن غزو العراق كان سيغير طبيعة الصراع بحيث نبدو محتلين فى أرض معادية وأن قواتنا سوف تتعرض لنشاط العصابات وليس لدينا استراتيجية للخروج.

وعندما يسأل إجناتيوس عن تجربتهما مع أحداث ١١ سبتمبر يقول سكوكروفت إنها كانت صدمة للشعب الأمريكى، وإن ما يشك فيه الآن أن الصدمة جاءت مع هذا الإحساس الكبير بالتفوق الذى طورناه باعتبارنا قوة أعظم، وأن لدينا كل هذه القوة ومادمنا نمتلكها فعلينا استعمالها لإعادة صنع العالم بداية من الشرق الأوسط هذه المنطقة المضطربة جدا، وعلى هذا فإن نستطيع أن نفعلها بمفردنا ولهذا فقد نحينا الأوروبيين بل وحتى قلنا لهم: إن لم تكونوا معنا فإنكم ضدنا، وهى كانت لهجة لينينية للرئيس أن يستخدمها، ونتيجة لهذا فأنا أشعر بقوة جدا أن ١١ سبتمبر لم يكن فقط نجاحا تكتيكيا لأسامة بن لادن وإنما جرح استراتيجى للولايات المتحدة أنزلناه على أنفسنا. أما سكوكروفت فإن لديه نفس وجهة النظر التى كانت لديه عام ١٩٩١ إن الذهاب إلى العراق هى مغامرة سهلة ولكن فى الوقت نذهب إلى هناك فإن هذه أرض مضطربة جدا وليست مستعدة أن تتحول إلى ديمقراطية وأننا سوف يكون أمامنا

نسميه شركاء stakeholders فى هذا النظام، غير أنه مما يعوق هذا المفهوم واحتضانه هو ان الأمريكيين مجتمع يعيش داخل نفسه وأنه ليس مهتما بتاريخ البلدان الأخرى، فهم يريدون أن يتركوا لشأنهم وأن لاينغمسوا فى مشاكل العالم، وأن يستمتعوا بالحياة.

ومع مرور خمس سنوات على حرب العراق، ومع مقدم رئيس جديد يسأل إجناتيوس كلا من سكوكروفت وبرجنسكى عن النصيحة التى يقدماها للرئيس الجديد، ويجيب سكوكروفت أن الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط تواجه مشكلة كبيرة فى منطقة غاية فى

هذا يمكن أن يكون بدرجات مختلفة من السرعة. ولكن مادمنا نرى أساسا باعتبارنا استمرارا للاحتلال البريطانى يقوم أساسا على القوة العسكرية، فإن هذا ببساطة يجعل من الاستحالة أن نطور استقرارا ذاتيا وحقيقيا فى العراق، فوجودنا هو مساهمة فى تفكك العراق. ويضيف برجنسكى أنه لا يحب التركيز فقط على العراق فهو جزء من منظومة المشكلات التى نواجهها وكلا منها يدعم الآخر ويخلق توترات وصراعات وأخطار التى يجب أن نكون قلقين بشكل جاد حولها، ذلك يتضمن الصراع الفلسطينى الإسرائيلى المتقيح والذى يخلق الكثير من المشاعر المعادية لأمريكا ثم عدم اليقين حول العلاقة مع إيران ولهذا أعتقد أن أى اقتراب للمسألة العراقية يجب أن نأخذ فى اعتبارها العلاقات المتبادلة مع القضايا الأخرى.

ويؤكد سكوكروفت أن أحد المصالح الأساسية للولايات المتحدة فى كل هذا الأمر هو عراق لايتجزأ إلى أجزاء محلية، فهذه صيغة للكارثة فى المنطقة وأعتقد أنها الأكثر احتمالا للتحقق، فالأكراد لن ينضموا إلى الشيعة فهم بالفعل يتمتعون بالحكم الذاتى إلى

..والعالم

١١ سبتمبر كانت مفاجأة كبيرة، وكان العالم يتطور إلى الاسوء بشكل سريع وان علينا ان نفعل شيئا، وان لدينا القوة كذلك بأنفسنا وليس لدينا الوقت لاستشارة أصدقائنا ويجب ان نفعلها بمفردنا ويعقب برجنسكى أنه بعد ١١ سبتمبر انعقد حلف الاطلنطى وأثار بالإجماع المادة (٥) نيابة عنا وللمرة الاولى فى تاريخه وكان ردنا فى الواقع: لا شكرا، وقد سألت نفسى دائما: ماذا كان يحدث لو فعلناها بشكل مختلف وإذا ما كنا قد قبلنا هذا التضامن من جانب حلفائنا واستخدمناه كنقطة انطلاق لكى نفعل ما كان يجب فعله فى افغانستان.

ويلاحظ اجناتيوس ان كلا الرجلين كان لديهما بعد النظر للتحدث قبل الحرب على العراق والتحذير بأنها خطأ، ويسألهما لماذا تحدثا وماذا كانت معتقداتهما. ويجيب برجنسكى أن ما كان يقلقه جدا فكرة أننا نتقدم نحو مغامرة على أساس معلومات وإحكام خاطئة، وهو بعد خمس سنوات من الحرب مازالت تعرض علينا تكلفة مانعه موضوعيا وماليا واقتصاديا وأخلاقيا. وما أخشاه هو أن تتورط فى شىء يتضمن باكستان ربما لأسباب جيدة جدا، ولكن ما اخشاه اننا سنكون بمفردنا فى هذه المغامرة لان استجابتنا الاولى كانت مدفوعة بهذا الإحساس بالغطرسة اننا مشكلة ضخمة إذا ما ذهبنا إليها، فضلا عن أن الذهاب إلى العراق سوف يكون تحولا أساسيا عن جهودنا للتعامل مع الإرهاب، ولهذا فإننا لم نكن لننخرط فيها بدون تحليل حريص للنتائج.

ويوجه إجناتيوس النقاش نحو صعود أقطاب جديدة للقوة وخاصة الصين والهند وربما روسيا، ولهذا فهو يسألهم عن هذا الواقع لهذا العالم الجديد. ويعقب سكوكروفت بأن العالم يتغير وأن ما نحتاج أن ننظر فيه هو كيف نستطيع أن نتعاون لوضع مشكلاته تحت السيطرة لأننا لانستطيع أن نحلها بمفردنا، فى هذا العالم من العولمة، فإن صعود الصين أو الهند لن يكون كما كان منذ مائة عام فالعالم مختلف جدا.

ويوافق برجنسكى على هذا التصور وأن علينا أن نواجه حقيقة أن النظام العالمى كما يقوم الآن قد صيغ بين أعوام ١٩٤٥-١٩٥٠ حين كانت هناك وقائع مختلفة، ولهذا فإن المطلب الأساسى هو أن تتكيف المؤسسات للواقع الجديد والذى يضمن صعود قوى مثل الصين والهند واليابان وإندونيسيا فى الأفق. فى هذا السياق فإن مؤسسات مثل الأمم المتحدة، والناتو ومجموعة الثمانية، وهى جميعا مؤسسات أنشيءت فى عالم الحرب الباردة، فى هذا العالم فإن ما تحتاجه الولايات المتحدة هو أن تكون قوة مساعدة atalyst فى نظام عالمى نستطيع أن

عدم الاستقرار: فى لبنان، فى الأردن، فى مصر وأينما توجهت فإن هناك إمكانية عدم الاستقرار الدائم بسبب صراعات السنة والشيعة والصراعات العربية وشعورى أننا لانستطيع أن نخرج من العراق وأن على أى رئيس جديد أن يدرك هذا، وهو لايعنى هذا إلى الابد، ولكن فكرة سحب القوات خلال ستين يوما هى إطار عقلى خاطئ، فما الذى يعنيه الفوز فى العراق؟ وما الذى نحتاج أن نفعله هناك؟ فما نحتاج ان نفعله هو خلق عراق مستقر أكثر من عراق يولد الفوضى، ولا أعرف كم يستغرق هذا فقد يستغرق وقتا طويلا وربما أقل، فالعراقيون ليسوا مدينون لنا بالفضل فهم لم يدعونا إلى هناك، وعلى هذا فسوف يستمرون فى صراعاتهم الداخلية، ولا أعرف كيف ينتهى هذا، ولكن ما نحتاجه فى العراق هو أن نجعله قوة استقرار فى المنطقة.

أما برجنسكى فهو يتبنى وجهة نظر مختلفة تعتمد أن الوجود الأمريكى فى العراق هو جزء من المشكلة، فالعراق لن تجتمع معا إذا ما استمر هذا الوجود آملين أن شكل ما فإن احتلالنا سوف يقود فيما بعد إلى الاستقرار والى عراق ذات حكم ذاتى وقابل للحياة، وعلى هذا فالرئيس الجديد يجب أن يكون هدفه هو إنهاء الوجود الامريكى فى العراق، واعتمادا على من سيكون الرئيس، فإن

درجة كبيرة وسوف يستمرون فى طريقهم، وبالتأكيد فإن الجزء الشيعى اقوى من الجزء السنى، ولكن الجزء السنى يمتلك خلفه مالا عربيا كبيرا فالحرب الأهلية قد تستمر لمدة طويلة، غير أن برجنسكى يعتبر هذا أسوء السيناريوهات فهناك أيضا إمكانية أن تجادل أنه إذا غادرنا العراق فسوف يكون هناك ضغوطا عليهم لكى يتعايشوا.

ويطرح إجناتيوس المشكلة العراقية من وجهة نظر تأثيرها على إيران، وعلى ادعائها أنها قوة صاعدة وأن هذه هى لحظتنا لان يعترف بنا كأمة عظيمة. ويعقب سكوكروفت بأهمية الاتجاهات الإيرانية، والشىء الذى يجب أن نتذكره أنه فى طريق تعاملنا مع الإرهاب ثم العراق وأفغانستان فقد أزحنا أعداء إيران على الجانبين، ومن هنا فإن شعور إيران «أن لحظتنا قد حلت» ليس أمرا غير طبيعى. غير أن الحقيقة أن إيران تعيش فى منطقة خطيرة فهى دولة شيعية فى منطقة سنية، ونحن فى حاجة أن نخرط إيران فى مناقشة استراتيجية والتى يمكن أن تقود إلى إطار فى المنطقة الذى يسمح لإيران أن تشعر بالأمان دون حاجة لأن تحصل على أسلحة نووية. ويعقب برجنسكى على هذا بأن نكون مستعدين أن نسقط بعض العقوبات المؤلمة ضدهم وهنا سوف يكون المجال لشىء مقابل شىء،

والطريقة الأخرى للتعامل مع المشكلة هو أن نقول أننا سنتفاوض بدون شروط، فالذى يخلق هذا الركود المضاد هو إصرارنا على الشروط المسبقة، فيجب أن يكون هناك إما شروط مسبقة لأى أحد أو اتفاق متبادل يساير فيه وقف التخصيب مع وقف العقوبات. ويعقب برجنسكى على النقطة التى أثيرت حول تصور إيران لمكانتها ويعتبر أن هذا التصور وهما ذاتيا، فإيران ليست على الإطلاق تمثل هذه القوة فهى بلد لديها عدد كبير من المشكلات الداخلية والتى تأخرت فى التنمية الاقتصادية وحيث جزء كبير من الشباب غير راضين عن القيادة الدينية المتعصبة، والذين ينظر جزء كبير منهم وخاصة النساء إلى تركيا أو أوروبا كنموذج لمستقبلهم وليس للتفسير الأصولى للقرآن.

وتساءل إجناتيوس عما إذا كانت إيران سوف تستمر قوة ثورية إلى الدرجة التى تضطر معها أمريكا إلى استخدام القوة المسلحة لاحتوائها، ويعقب برجنسكى بعدم تشبيه إيران بفرنسا الثورية خلال عصر نابليون، ويرجع الوضع مع حماس فى غزة، حزب الله فى لبنان، إلى تطورات داخلية وليس إلى غزو إيرانى، وقد اكتسبت إيران نفوذا قويا بسبب الحرب على العراق، ولكنها بلد معرض للأخطار وضعيفة جدا من الداخل وسكان غير راضين بشكل متزايد إلا إذا واجهناهم بالتهديدات الأمريكية الزائدة والبيانات غير الرشيدة من وقت لآخر. ويضيف سكوكروفت عامل الصراع الفلسطينى الإسرائيلى ويعتبر أن تسويته سوف تغير السيكلوجية فى المنطقة وتضع إيران فى موقف المدافع.

ويتساءل إجناتيوس عما إذا كان ممكنا أن تتعايش أمريكا مع إيران النووية أو أن تذهب إلى الحرب لمنعها؟ ويجيب سكوكروفت بأن قنبلة نووية لن يخضع لها الأتراك أو السعوديون أو المصريون وربما أيضا الإمارات المتحدة، ومقارنة ذلك مع كوريا الشمالية هو خطأ لأن كوريا فى وضع قريب، وهى فريدة فى البلدان التى تحيط بها وإيران حالة مختلفة جدا ولكن لمنعها بالقوة عليك أن تنظر إلى النتائج، فهناك شك عميق جدا فى المنطقة أن أمريكا معادية للإسلام، وهجوم حتى على المنشآت النووية لإيران سيكون له نتائج جيوبولتيكية هائلة فى المنطقة وسوف تعقد المشاكل هناك بشكل كبير، ويضيف برجنسكى أن الهجوم على إيران سوف يخلق موقفا تصبح فيه الولايات المتحدة منخرطة فى حرب تشمل العراق، إيران، أفغانستان وباكستان بشكل متزايد وسوف ينسحب على الخليج الفارسى، وعلى هذا فإن معانى هذا لوضعنا فى العالم وقدرتنا على استخدام القوة على الاقتصاد العالمى، بالنسبة للمشاعر الشعبية، وللعالم الاسلامى وربما لمعظم العالم نحونا سوف يكون كارثيا بشكل يجعل المرء يفكر فقط تحت أكثر الظروف تطرفا. ويعقب سكوكروفت أن الموقف يتطلب دبلوماسية معقدة وحكيمة وحريصة تنظر فى كل العوامل لكل موقف معقد واعتبر أن لدينا وصفة للنجاح فى هذا.



ويحول إجناتيوس النقاش إلى ما يعتبره أكثر القضايا تعقيدا للشرق الأوسط فى حياتنا وهى النزاع العربى الإسرائيلى والمركز الآن على القضية الفلسطينية، وباعتبار أن برجنسكى قد ساعد الرئيس كارتر فى تحقيق الاختراق الأول الأكبر وهى إقامته كامب دافيد والتى وفرت معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، وأن سكوكروفت كان لاعبا مركزيا فى عملية السلام التى وصلت قمتها فى معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن، ولذلك فهو يطالبهم بأن ينظروا إلى القضية منذ أن غادروا البيت الأبيض ويشاهدوا كونداليزا رايس وهى تتعامل مع مهمة انابوليس للسلام. ويعقب برجنسكى بأنه يتأكد من شعوره أن المشكلة بين الإسرائيليين والفلسطينيين عميقة جدا وكبيرة جدا وعاطفية جدا وأنها من العمق أن تترك لكى يحلوها بأنفسهم، ولذلك فأنا أشكك جدا حول مستقبل سلام يتحقق بمفاوضات فلسطينية إسرائيلية ذاتية ويديرونها بأنفسهم، فخبرتى من كامب ديفيد وأيضا من خبرة سكوكروفت ومافعلته إدارته يقودنى إلى الاستخلاص الحازم بأن الولايات المتحدة وحدها يمكن أن تصبح وسيطا فعالا وهذا يعنى بالنسبة لى أمرين: الأول أن لا تصبح الولايات المتحدة طرفا فى الصراع لجانب ضد الآخر، والثانى ألا تحتفظ الولايات المتحدة بموقف سلبى ولكن تقدم وجهات نظرها فيما يتعلق بما يجب أن يحدث وأن تحاول أن تكون طرفا عادلا بقدر ما نستطيع وأن تحترم المصالح الحيوية للأطراف ولكن لا تخجل من أن تجعل موقفها واضحا وأن تصر أن يحترم. وعندما يلاحظ إجناتيوس أن هذا يعنى أن نفرض اتفاقية من الخارج، يعقب برجنسكى أن العبارة التى يفضل أن يستخدمها هى «أن تساعد»، ويضيف أنه فى كامب دافيد كانت كل المفاوضات تستند على أوراق تفصيلية أعدها الجانب الأمريكى والتى حددت ترتيبات بديلة وأن ذلك كان بارشاد رئيس يعرف معاونيه وكان مصرا جدا، فإذا كنا نود أن نتقدم اليوم يجب أن نكون مستعدين أن نقرر علنيا على الأقل المؤشرات العامة للتسوية ونقول «إن الباقى متروك لكم للتفاوض حوله»، وهذه المؤشرات الأربعة هى: لا لحق العودة للفلسطينيين، وهى جرعة مريرة للفلسطينيين جدا، وعلى المرء أن يفهم أنها جرعة مريرة جدا للفلسطينيين لأن هيكل الهوية الفلسطينية مبنى على فكرة أنهم قد طردوا بدون عدل من إسرائيل، والثانية هى التقاسم الحقيقى للقدس وهى جرعة مرة للإسرائيليين، ولن يكون هناك سلام قابل للحياة إذا ظل المسجد، وإذا ظل جزء من المدينة القديمة وشرق القدس ليست عاصمة فلسطين، فلن ينظر إلى السلام كشرعى ولن يكون هناك نقطة انطلاق للتصالح، والمؤشر الثالث هى حدود ١٩٦٧ بتغيرات متبادلة، والمؤشر الرابع هى دولة فلسطينية منزوعة السلاح، وقد اقترحت حديثا أنه يمكن حتى أن يكون هناك قوات أمريكية عبر نهر الأردن لكى نعطى لإسرائيل الإحساس الإسرائيلى ضد أى تهديد وإذا كان الرئيس الحالى - بوش- غير مستعد لتقديم هذه الدفعة، فإن الرئيس القادم يجب أن يقدمها.



يقول إجناتيوس فى تقديمه للكتاب إن نقطة البداية فى النقاش هى الاعتقاد أن العالم يتغير وأن نماذجنا التقليدية لا تعمل جيدا



وعندما يسأل إجناتيوس إذا ما كان على الولايات المتحدة أن تتصل بحماس الحركة التى لاتعترف بإسرائيل، يعقب سكوكروفت أنه عندما اندرج فى القضية الفلسطينية فى أوائل السبعينيات لم يكن يسمح لنا أن نتحدث مع فتح لأنها كانت منظمة إرهابية، وهذه هى نفس العملية التى نمر بها الآن، واعتقد أننا يجب أن نكون مستعدين للتحدث مع حماس، فقد اقترحت حماس وقف لإطلاق النار ولكن لا أعلم ماذا يعنى هذا. وإحساسى أنه إذا أمكنا تحقيق تقدم فى عملية السلام فإن حماس سوف تقرر أنها لن تستطيع أن تبقى خارج العملية وان تنتهى - على أحسن حال، بالسيطرة على غزه والتى لاتستطيع البقاء بذاتها.

وينبه برجنسكى إلى البعد الأخلاقى فى استبعاد حماس، فعدم التحدث إليها يعنى مقاطعتها وقطعها وهو مايعنى معاقبة مليون ونصف مليون فلسطينى وحيث يوجد بالفعل مشكلات إنسانية خطيرة: المرض، والمجاعة وعدم التواصل مع المجتمع وأظن أن هذا ليس طريقا جيدا للتفاوض، ولكن المليون ونصف فى غزه ليسوا أعداءنا ويجب ألا ننسى ذلك. وأن فكرة أننا يجب أن نثبت صداقتنا لإسرائيل بإجاعة شعب غزه هى فكرة غير أخلاقية فى المحتوى وغير عملية سياسيا. ويستخلص برجنسكى أن ما يقوله هو فى صالح إسرائيل، فإذا استطعنا أن نحقق السلام فإن إسرائيل يمكن أن تكون جزءا دائما من الشرق الأوسط وأن تزدهر هناك، وإذا ما طردنا من الشرق الأوسط فكيف نستطيع أن نراهن على بقاء إسرائيل؟



وينقل إجناتيوس النقاش إلى الصين ويشير إلى أن العديد من الناس يشعرون أنها ستهدد الولايات المتحدة، فكيف نحول نمو الصين إلى شىء فى صالحنا؟ ويجيب برجنسكى أنه متفائل فبداءة، فإن القلق الامريكى حول بعض مظاهر المنافسة الصينية فى التجارة والأعمال واحتمال الحقل العسكرى، هو شىء مشروع، وهناك رغبة قومية فى استيعاب الصين فى النظام العالمى، وهذا يعنى بالطبع رغبة أمريكية فى التكيف مع الواقع. واستيعاب أمريكا فى النظام العالمى ليس مثل استيعاب بلد صغيرة أنه يتطلب التغير التدريجى للنظام العالمى وإعادة تحديد معنى التفوق الأمريكى، فى هذا الشأن أعتقد أن الاتجاه الأمريكى هو أبعد نظرا مما كانت عليه تجاه القوى الإمبريالية عام ١٩١٤ حين كانت ألمانيا تستخدم عضلاتها وتريد قوة عالمية كبيرة لها أمانى إمبريالية واستعمارية فنحن نتصرف بشكل أكثر ذكاء، وثانيا فإن جزء من أسباب تفاؤلى هو شعورى بأن القيادة

الصينية لايوجهها أيديولوجية مهووسة التى يعتمد فيه مستقبلها على فرض نظام قيمها على العالم مثل روسيا الستالينية أو ألمانيا الهتلرية، إنهم يسترشدون بشكل أكثر بالتفكير أنه يجب عليهم أن يكونوا جزءا من العالم ويحاولون، بالعقل، أن يتبنوا كيف يفعلون ذلك. وأعتقد أنه إذا بقى الجانبان معقولان ولم يحدث شيئا مدمرا فإن هذه العملية سوف تستمر.

أما سكوكروفت فقد اعتقد أنه متفائل كذلك، فعلى الجانب الأمريكى فقد بدأت العملية فى بداية السبعينيات وتواصلنا مع الصين فى قلب الحرب الباردة وتوصلنا إلى اتفاق مع الصين أن نشترك معا لمعارضة الهيمنة السوفيتية، وقد وضع هذا لونا مختلفا فى عيون الشعب الأمريكى حول الصين وما تمثله.

أما على الجانب الصينى فقد بدأوا بعد عام ١٩٤٩ كأمة ناسكه ولم ينشدوا أى علاقات إلا مع الاتحاد السوفيتى بل وأصبحوا أكثر حدة ومشاكسة ولكن تدريجيا فقط بدأوا يخرجون من قوقعتهم الانعزالية، وفى تطورهم الاقتصادى اعتمدوا الآن على استيراد المواد الخام، وثانيا فإنهم يعتمدون جدا على الأسواق الخارجية لمنتجاتهم وهذا يعنى أنهم يحتاجون بيئة عالمية مستقرة لضمان منافذ يعتمد عليها لكل من المواد الأولية والأسواق. وعلى عكس ألمانيا فى الحرب الأولى فإنهم لا يريدون الإطاحة بالنظام أنهم يريدون الانضمام إليه وقد تصادف هذا بأنه نظام مفتوح تماما، ورغم ظهور بعض البيانات العصبية والسلبية أعتقد أن لدينا فرصة أكبر مما رآه العالم فى فترة طويلة تضم الصين إلى النظام.



وفى فصل يخصص لروسيا والعلاقات معها ويطلق عليه The State with unnatural Boundaries يطلب إجناتيوس من المتحاورين باعتبار أنهما شخصيات رئيسية فى فترة الحرب الباردة التى أدت إلى هذا التحول المثير، أن يجيبوا عن سؤال كيف ولدت روسيا الجديدة التى تتحدد بالظروف التى نشأت فيها روسيا الاتحادية وعهد يلتسين وما حدث فيه من تصدع، اقتصادى ودولى، يصل سكوكروفت إلى مجىء بوتين الذى أذهلته هذه الأوضاع، ورغم دوافع بوتين فإنه يميل إلى المركزية وحاول أن يجمع شتات الدولة الروسية وأن يحافظ على ما تبقى من الدولة السوفيتية وربما كان دافعه هو إعادة خلق الاتحاد السوفيتى وإن كنت أشك فى هذا ولكن بالتأكيد يريد أن يعيد مركزية القوة فى روسيا.

أما برجنسكى فإن يقول إننا نعرف ماذا حدث فى ظل بوتين ولكننا لا نعلم تأكيدا ماذا كانت دوافعه وإن كنا نملك بعض المفاتيح غير المباشرة، فأولا ما هى وجهة نظره عن العالم؟ لقد قدم لنا بعض المؤشرات عن ذلك، لقد قال إن نهاية الاتحاد السوفيتى هى أكبر مصيبة جيوبولتيكية فى القرن العشرين وهو قرن حدثت فيه حربين عالميتين وقتل مئات الملايين من البشر... ولكن بالنسبة له فإن التفكك السلمى النسبى للاتحاد السوفيتى هو أعظم كارثة جيوبولتيكية فى القرن، وثانيا وفى مقابلة فى بداية رئاسته والتى تحدث فيها عن عائلته وأصولها فإن الشخص الذى أعجب به بشكل أكثر كان هو جده، فمن هو جده؟ جده كان حارس أمن للينين وستالين، فهذا هو الرجل الذى يعجب به بوتين بشكل أكثر. ومع هذا فإن إحساس بوتين أن يرد على ما حدث، ولا أعتقد أنه قد استوعب حقيقة أن النظام الإمبريالى القديم لايمكن إعادة خلقه أنه مدفوع بدرجة كبيرة بالحنين إلى الماضى. وهو أيضا واقعى.

ويجيب برجنسكى أنه إذا كان ينصح الرئيس فسوف أقول إن علينا أن نحدد ذات المصالح المشتركة وأن نحاول رؤية ما إذا كان من الممكن دفعها ومثلا فإن ضبط التسلح هى منطقة مصالح مشتركة أنه فى مصلحتهم ومصلحتنا ولكى لا نخرج سباق التسلح عن السيطرة كما حدث فى الحرب الباردة، وعلى هذا سوف أبدأ بذلك. كذلك أظن أن الروس لا يريدون لتلك المنطقة البلقان أن تكون منطقة عدم استقرار لأن ذلك يمكن أن يمتد إلى روسيا، فحين نتحدث عن روسيا كدولة قومية فإن الحقيقة أن ٢٠ أو ٢٥٪ من المواطنين الروس ليسوا روسا بما فيها حوالى ٣٠ مليون مسلم وعلى هذا فإن ثمة امتدادا يعطى للروس مصلحة فى استقرار البلقان، كذلك فإن الروس قلقين حول الصين وأمريكا أن يصبحوا حلفاء لأن ذلك سوف يعطى للصين ميزة أعظم ضد روسيا، وهذا يعطينا فرصا دبلوماسية التى يمكن استخدامها بشكل بناء، فهو لا يذهب إلى محاولة خلق اتحاد سوفيتى جديد ولكنه يتجه إلى فعل أمرين: الأول أنه يحاول عزل آسيا الوسطى من أجل أن يبقى الغرب خارجه بقدر الإمكان وهو يفعل ذلك بشكل فعال باستغلال البترول والغاز فى آسيا الوسطى أن يمر عبر روسيا، وثانيا فإنه يحاول أن يخضع دولا مثل أوكرانيا وجورجيا لأنهم حساستين جيوبولوتيكيا.



كلا الرجلين يعتقد أن الولايات المتحدة فى موقف صعب فى الخارج لأنها لم تتكيف لهذا الواقع الجديد



ويتساءل إجناتيوس عن كيف تتعامل الولايات المتحدة مع روسيا الجديدة وقوميتها الشائكة وإحساسها بالظلم من تفكك إمبراطوريتها القديمة، وإزاء رغبة الإدارات الأمريكية لدفع الناتو لكى يتضمن جمهوريات سوفيتية سابقة وهو ما يبدو أنه أزعج الروس. وهوما كانت الولايات المتحدة ستفعله إذا ما واجهت خصما محتملا يوسع تحالفه لكى يضم كندا والمكسيك.

أما سكوكروفت فإنه يعتبر أن هناك مناطق أكثر فى العالم لنا فيها مصالح مشتركة مع الروس أكثر مما لنا من صراعات أساسية. «فالجوار القريب» هى منطقة توترات بالنسبة للروس وكذلك قضية الديمقراطية كما نحددها، فالروس لن يتحولوا إلى الديمقراطية لأننا نتوعدهم حولها، وهم يصلون إلى استنتاجاتهم الخاصة، وعلينا أن نوضح أين نقف، ولكن أن نعاقبهم وأن نتوعدهم إنما يضيف فقط إلى إحساسهم بالاستشهاد. أما عن قضية جذب أوكرانيا إلى الناتو، فإن سكوكروفت، عكس برجنسكى سوف يرى من جانب الروس كخطوة ابعد لإهانتهم.

ويخلص إجنتايوس أن الموضوع المشترك بين برجنسكى وسكوكروفت أنه الهدف الأمريكى يجب أن يكون جذب روسيا نحو الغرب وأن يدع روسيا أن تكون لها هوية أوربية ومستقبل، وأن أوكرانيا الأوروبية هى مقدمة لذلك، فتحرك أوكرانيا نحو الاتحاد الأوروبى فإن من المحتمل أن تتحرك روسيا معهم، وعلى هذا فنحن نريد أن نجذب أوكرانيا إلى أوروبا ولكن بالطريقة التى لا تخلق أزمة أو مواجهة. غير أن سكوكروفت لا يوافق على هذا الطرح، فكلا من روسيا وأوكرانيا يجب أن ينظر إليهم بشكل منفصل، ولا أعتقد أنه إذا ما جذبنا أوكرانيا إلى أوروبا فإن روسيا بالضرورة سوف تلحق بها، على العكس فإن الكبرياء الروسى حول مكانتهم وشعورهم أن أوكرانيا هى شقيق صغير يلعب فى الاتجاه المعاكس سوف يبقيهم على مسارين مختلفين.

غير أن هذا لايعنى بالنسبة لسكوكروفت أن مستقبل روسيا كعضو فى الاتحاد الاوروبى غير واقعية، فهو لا يستبعد عضوية روسية مقبلة فى الناتو إذا ما تطور الناتو إلى شىء آخر، كما أنه لا يستبعد عضوية روسيا فى الاتحاد الأوروبى ولكنها قضية معقدة بشكل لا يمكن الحديث عنها الآن.

ويثير إجناتيوس التساؤل حول مستقبل روسيا؟ ورئيسها الجديد والذى حين تحدث عنه مع رسميين فى الكرملين قالوا إنه من الخطأ رؤية ميدفيدف ببساطة كألعوبة فى يد بوتين ذلك أنه أول رئيس روسى يمثل الجيل الجديد بينما كان بوتين شخصية انتقالية صاغها خبرته مع KGB وهو بهذا فهو ابن الحرب الباردة. ويجيب سكوكروفت أنه لم يلتقى معه ولكنه شخصية مثيرة للاهتمام وهو لم يصل إلى ما وصل إليه باعتباره متساهلا فمن الواضح أنه شخصية صعبة ويبدو أن لدى أسلوبا أكثر عالميا من بوتين، وأعتقد أننا إزاء أوقاتا مثيرة للاهتمام فى روسيا. فقد يكون بوتين قد اختاره لأنه شخصية يمكن التعامل معها ولكنه فى يوم ما سيقول «أنا الرئيس». أما برجنسكى فيقول إنه مادمنا لا نعرف ماذا وراء الستار فيجب التعامل مع ميدفيدف وكأنه الرئيس وصحيح أن تاريخ حياته وتدريبه مختلف عن بوتين، ولكن لست متفائلا أن التعامل معه كرئيس سوف يثمر بشكل سريع لأنه اختيار بوتين، وأعتقد أن بوتين سوف يتدبر الأمور لبعض الوقت.

وعندما يسأل إجناتيوس عن ما هى المصالح والأهداف الأمريكية حين نفكر فى روسيا. يجيب برجنسكى بأننا نود أن نرى روسيا بطريقة أو بأخرى أقرب إلى الغرب وأعتقد أن الثقافة السياسية الروسية هى أكثر أوربية منها آسيوية وفى بعض الجوانب يمكن أن نصفها بأنها أوراسية، ولكن الأسلوب المسيطر الذى يتطلع إليه الروس والميراث الحضارى الرئيسى الذين يرتبطون به هى أوروبا فى الأساس، الأساس الأوروبى المسيحى ولهذا فإنه هدف

معقول حتى لوكان بعيدا أن يعتقد أن روسيا تتطور بشكل متزايد نحو الديمقراطية، وأعتقد أن الجيل التالى بعد ميدفيدف سيكون أكثر ديمقراطية وعالمية وأوروبا من الجيل الحالى وبالتأكيد من الجيل السابق، وأتوقع أنه فى يوم ما أن الرئيس الروسى وربما الذى سيأتى بعد ميدفيدف ربما يكون متخرجا من مدرسة هارفارد للإدارة أو من مدرسة لندن للاقتصاد، وليس هذا تخمينا خياليا فبشكل متزايد فإن النخبة الروسية تحاول أن ترسل أبناءها إلى جامعات أمريكية أو بريطانية وليس إلى طوكيو أو بكين، وعند نقطة ما، ومن وجهة النظر الروسية فإن «أوروبا» التى تمتد من لشبونة إلى فلاديفوستك ستكون رؤية يرحب بها لأنها ستمكنهم أن يبقوا السيطرة على ما يقدرونه وهى أرض الشرق الأقصى. أما سكوكروفت فيعتقد أن هدف أمريكا هو أن تكون روسيا مستريحة مع جيرانها الأوروبيين، فمنذ بطرس العظيم والروس يتجادلون حول أين تقع روحهم هل هم أوربيين أم آسيويين، أم آسيويين بطلاء أوروبى، وأتفق مع برجنسكى أننا يجب أن نشجعهم لأن يجدوا بيئتهم المناسبة لا أن يكونوا ميئوساً منهم أو عدوانيين أو مستائين، وأن يجعلهم يشعرون أنهم متساوون وإن كانت هذه عملية طويلة. فإذا طور الروس مجتمعا يشعر الناس فيه بالراحة والأمن وليسوا مهددين لا داخليا و لا خارجيا فإن الجانب الأفضل من روحهم سوف يزدهر.



ويطرح إجناتيوس قضية العلاقة بين أمريكا وشركائها الأوروبيين التى يسميها شراكة لا غنى عنها، ويشير إلى أنه حين نتحدث عن أوروبا فإننا نميل إلى التحدث عنها كشىء ثابت غير متغير يعرف عنها كل شىء وننسى أنه عبر العشرين عاما الماضية فإن أوروبا قد تغيرت أكثر من أى منطقة أخرى، فما هى أوروبا الجديدة. وما الذى يجعلها مختلفة. وما هى القضايا الأمنية التى تمثلها للولايات المتحدة؟ ويجيب برجنسكى أن أوروبا الجديدة هى هذا الجهد المؤسسى بدرجة عالية الذى يعلو على السيادة القومية وهذا إنجاز بالغ... وإذا نظرنا إليها من وجهة النظر الأمريكية فإنه من مصلحتنا أن أوروبا هذه الواسعة والأكثر تحديدا سياسيا ولديها قدرة عسكرية متزايدة خاصة بها ومتحالفة مع الولايات المتحدة، وفى ضوء هذا يستخلص برجنسكى أنه فى الوقت الذى مازالت أمريكا البلد المتفوق رغم الثمن الذى دفعته فى العراق فإنها حقا تحتاج لأوروبا كحليف لأن هذا سوف يعلى من نفوذنا المشترك. ويلاحظ سكوكروفت أن الولايات المتحدة كانت متناقضة تجاه أوروبا الاتحاد الاوروبى لفترة ما، فمن ناحية فلأننا نجادل، كما فعل هنرى كيسنجر: إذا أردت أن تتصل بأوروبا فما هو رقم التليفون؟ ومن ناحية أخرى فقد كنا ننظر شذرا تجاه أوروبا الموحدة، ومن نواحى عديدة فإنه من الأفضل التعامل بشكل منفصل مع بريطانيا وفرنسا وألمانيا والآن وقد أصبح لدينا أوروبا أكثر اتساعا التى تدعوها اتحادا وهى اقتصاديا واجتماعيا ناجحة جدا، ولكن مازال عليها أن تجد نفسها سياسيا ومن وجهة النظر الأمريكية سوف يكون هذا جيدا إذا فعلت، وأعتقد أنها ستفعل هذا لأنها تتحرك ببطء فى هذا الاتجاه.

ويثير إجناتيوس مخاوف الأوروبيين من أن انتباه أمريكا يتحول عن علاقتنا التقليدية إلى أماكن أخرى فى آسيا والشرق، ويعقب سكوكروفت إن هذا حقيقى فانتباهنا حقا يتركز فى أماكن أخرى، إنه جزئيا نتيجة نهاية الحرب الباردة ومن ثم نهاية الصمغ الذى أجبرنا على أن نعلق خلافاتنا بسبب التهديد المشترك الأعظم، وحالما اختفى التهديد السوفيتى ظهرت هذه العلاقات إلى المقدمة ومن هنا كانت فكرة فرنسا عن نفسها كقائد لأوربا وأخيرا كان توغلنا فى العراق الذى أدى إلى تقسيم الأوروبيين.



يلاحـظ إجناتيوس أن كلا الرجلين كان لديهما بُعد النظر للتحدث قبل الحرب على العراق والتحذير بأنها خطأ



ويعقب برجنسكى أنه من المؤكد حقيقية أن مركز الجاذبية العالمى يتحول إلى الشرق الأدنى، وأن الستمائة عام من السيطرة لبلدان الأطلنطى تتراجع ولكن إذا ما نظرت إلى مجموع الموارد العسكرية لأمريكا الشمالية وأوربا، فإنه من الواضح أنه إذا كان يمكن تعبئتهم بذكاء وجرى التركيز على سياسة بناءة، فإن الجماعة الأطلنطية مازال لها دور هام بل ومتفوق لكى تلعبه، ولكن هذا يعتمد إلى حد كبير على ما قاله سكوكروفت وقلته: هل نستطيع أن نحرك اتجاها استراتيجيا مشتركا؟ هل نستطيع أن نجد توازنا متساويا بين المشاركة فى القرارات والمشاركة فى الأعباء؟ هل نستطيع أن نحدد الأهداف التى ليست مجرد خدمة للذات ولكن التى تتعامل مع الأبعاد الأوسع للاقتصاد العالمى؟ فإذا ما فعلنا ذلك فإن الغرب سيظل هو المنطقة الأبرز فى العالم لعدة عقود، وحتى لو كنا أكثر انتباها للشرق الأدنى فإن اليابان تحتاجنا على الأقل بمقدار ما نحتاج إليها وربما أكثر، والصين بكل مالديها من إمكانيات للقيادة العالمية سوف تظل لعدة عقود قادمة بلد لديها مشكلات ضخمة فى البنية التحتية والفقر، والهند مازال عليها أن تثبت أنها تستطيع أن تحافظ على وحدتها الوطنية، وهى ذات سكان يبلغون المليون والذين مازالوا غير نشطين سياسيا وليسوا بعد معبأين، ولا نعلم ماذا يحدث حين يستيقظ هؤلاء المختلفين اثنيا ولغويا ودينيا وأن يستيقظوا بحق سياسيا. ويستخلص برجنسكى أن الغرب لديه دور يلعبه ولكنه حقا يتطلب نوعاً من القيادة القادرة على تحديد الاتجاه والتعاون عبر الأطلنطى.



ويحول إجناتيوس الحديث إلى الجديد الذى يحدث فى العالم، وعن التحديات المختلفة عن تلك التى نشأ عليها المتحاوران. ويجيب سكوكروفت إننا إزاء تغير حاسم فى البيئة الدولية أكثر من أى وقت فى التاريخ الحديث، تغير أساسى الذى يجرى تحت العنوان العريض للعولمة، إنه تغير فى الطريقة التى تتعامل بها الشعوب وتتفاعل، وهذا ما يثور العالم، فشعوب العالم أكثر نشاطا سياسيا، فقد كانت هناك دائما تدفقات للهجرة، ولكنها ضخمة الآن بسبب الراديو والتلفزيون يسمحان للشعوب أن يقارنوا وضعهم الراهن بغيرهم حول العالم، وبعض الآثار سيئة والبعض الآخر جيد، والنقطة الهامة أنها حقا تغير من وضع الدولة القومية، وكيف تعنى بشعبها وكيف تستطيع أن تدير مسئولياتها تجاه مواطنيها، والحقيقة أن دور الدولة القومية رغم أنه مايزال مسيطراً، إلا أنه يتناقص بثبات، ويستخلص سكوكروفت أنه يعتقد أنه فى قلب ما نواجهه فإن التحدى الرئيسى أن العالم كله يتغير مرة واحدة. وهذا ما يسمى عصر المعلومات إنما يغير حرفيا العالم الذى نعرفه والمؤسسات التى تعودنا عليها.

أما برجنسكى فهو يقول إنه بداءة يجب أن ندرك أن المشكلات التقليدية للقوة والجيوبولتيكى مازالت معنا، ولكن ما يفرض على هذه المشكلات التقليدية ويحول طبيعتهم واقعين جديدين وأساسيين، الأول هو التحول فى الظرف الذاتى للبشرية وهو ما أسميه باليقظة السياسية العالمية ففى المرة الأولى فى التاريخ فإن كل العالم ينشط سياسيا الأمر الذى بدأ مع الثورة الفرنسية وانتشر عبر أوروبا وآسيا فى نهاية القرن التاسع عشر وعبر القرن العشرين والآن عالميا، والآن نحن إزاء مشكلات بقاء ذات طابع عالمى، فعلى المستوى الذاتى فإن هذه النقطة السياسية العالمية تخلق عدم تسامح جماهيرى، وعدم صبر وعدم مساواة مع مستويات مختلفة للمعيشة، وهذا يخلق حسدا واستياء وهجرة أكثر سرعة، وعلى المستوى الموضوعى فإن المشكلات العالمية الجديدة تتضمن أشياء مثل أزمة البيئة والتهديد المصاحب للوضع الإنسانى بالتغير المناخى، والموت الجماعى الذى ينزله بشير عمدا على بشر آخرين، فنحن الآن قادرون على أن نقتل الكثير من الناس فى الحال وبسرعة جدا.



وهكذا يعتقد كل من برجنسكى وسكوكروفت أن الولايات المتحدة يجب أن تنخرط فى عالم متغير من أن ترد بشكل دفاعى، وهدفهما أن تتحالف أمريكا مع قوى التغيير هذه، ومرة بعد أخرى فإنهما يتحدثان عن الحاجة للمرونة والانفتاح وعن الاستعداد للتحدث مع الأصدقاء والأعداء أيضا. وفكرتهم أن أمريكا كقوة أعظم فى القرن الواحد والعشرين هى أمة تتواصل مع العالم وليس لكى تبشر ولكن لتستمع وتتعاون وأن تفرض إذا اقتضت الضرورة، وكلاهما يصفان الثورة السياسية التى تجتاح العالم، فبرجنسكى يتحدث عن «الصحوة العالمية»، بينما يتحدث سكوكروفت عن «التطلع نحو الكرامة»، وهما يريدان أمريكا أن تكــون فى جانب عملية التغيير.■

الاختبار الحقيقى.. إلى أين يذهب أوباما؟!

مليحة لوزى

مثلت الدكتورة مليحة لوزى باكستان دبلوماسيا لدى كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، وهى حاصلة على جائزة «الهلال والامتياز» للخدمة العامة فى باكستان، حصلت لوزى أيضا على الزمالة الفخرية من كلية لندن للاقتصاد عام ٢٠٠٤ وكذلك على درجة الدكتوراة الفخرية فى الآداب من جامعة ميتروبوليتان فى لندن عام ٢٠٠٥. عملت كعضوة فى لجنة المجلس الاستشارى لأمين عام الأمم المتحدة لشئون نزع السلاح فى الفترة من ٢٠٠١-٢٠٠٥. فى عام ١٩٩٤ اختارتها مجلة التايم كواحدة من بين مائة شخص على مستوى العالم سوف يساعدون فى إعادة صياغة العالم فى القرن الواحد والعشرين - وهى واحدة فقط من باكستان - عملت كمحررة فى الصحف الباكستانية الرائدة الإنجليزية اليومية، وهى من أكبر المعلقين السياسيين على مستوى البلاد فى باكستان.

وهنا ترجمة لمقال نشرته قبل أيام الدورية العلمية التى عن جامعة هارفارد، تعددت فيه الأسس التى ترى أن «الالتزام الكامل بها على أرض الواقع» هو وحده الذى سيحدد المستقبل الحقيقى للعلاقات الأمريكية مع العالم الإسلامى.

المحرر

■■ فيما أطلق عليه الانتخابات العالمية الأولى اعتبر الرئيس المنتخب باراك أوباما المرشح المفضل والأوفر حظا، ومع ذلك فثمة شكوك واضحة فى البلدان الإسلامية حول ما إذا كانت السياسة الخارجية الأمريكية سوف تتطور للأفضل مع رئيس جديد. قبل الانتخابات الأمريكية أظهر استطلاع للرأى فى باكستان أن الغالبية العظمى من الناس تعتقد أنه حتى فى حالة فوز أوباما فإن تغييرا طفيفا سوف يرافق إدارته. وفى استطلاع جالوب الذى أجرى فى سبعين دولة على مستوى العالم وجد أن من بين كل عشرة باكستانيين يوجد تسعة ليس لديهم أفضلية معينة بين مرشحى الرئاسة ولكن هذا المزاج تغير بشكل بيِّن بعد فوز أوباما. لاقى اختيار أمريكا لأوباما ترحيبا واسعا فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وتحولت خيبة الأمل إلى بارقة أمل وتوقع لمسار جديد فى السياسة الخارجية الأمريكية تطبقه إدارة أوباما. ومما كان مثيرا للاهتمام تلك الاستجابة الملفتة للمسلمين الأمريكيين الذين استجابوا بشكل إيجابى جدا لرسالة التغيير الشامل لأوباما ولم يكن الأمر قاصرا على تزايد إقبال المسلمين الأمريكان على الانتخابات بل إن الغالبية العظمى قد صوتت لصالح أوباما.

السؤال الرئيسى يدور حول الكيفية التى تستطيع بها الإدارة الأمريكية الاستفادة من هذا الوضع الودى النادر بين جموع المسلمين لإعادة إنشاء وترميم مصداقية وسمعة الولايات المتحدة. والطريقة التى سوف يعالج بها أوباما القضايا فى العالم الإسلامى سوف تكون الفيصل فى تحديد نجاح أو فشل سياسته الخارجية، يكمن التحدى الأعظم فى هذا الشأن فى معالجة الأمور داخل جبهتى الحرب فى أفغانستان والعراق.

العلاقات مع العالم الإسلامى

أجريت سلسلة من استطلاعات الرأى على مدى سنوات عديدة من قبل منظمة «بيو» وكشفت تلك الاستطلاعات عن تدهور فى العلاقات بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى يمتد لفترة طويلة، ففى أثناء إدارة بوش تراجعت شعبية الولايات المتحدة فى العالم الإسلامى. فعلى سبيل المثال كشف استطلاع «بيو» الذى أجرى فى وقت سابق هذا العام عن أن اتجاهات الرأى العام فى تركيا - إحدى حلفاء الناتو - نحو الولايات المتحدة كانت أكثر سلبية بالمقارنة بالنظرة فى باكستان، وكان ذوو النظرة المؤيدة للولايات المتحدة بنسبة ١٢٪ بينما ذوو النظرة المتحفظة ٢٧٪.

فى العالم الإسلامى يعد هذا التدهور نتيجة طبيعية لسياسة الولايات المتحدة على مر السنين. عقود من السياسات الأمريكية المتفاوتة ومزدوجة المعايير قد شكلت تلك التصورات فى العالم الإسلامى، وضعت هذه السياسات الأمن الإسرائيلى والحاجة إلى النفط الرخيص فوق اعتبارات القانون الدولى والعدالة للفلسطينيين. تعد هذه السياسة الأمريكية فى جوهرها هى المسئولة عن فجوة الثقة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى. فى الغرب كان هناك مزيج من الآراء المهتمة بقضية فجوة الثقة فى العالم الإسلامى، كثير من هذه الآراء أرجعت هذا الصدع فى العلاقات ليس فقط للسياسات الأمريكية ولكن أيضا لعوامل داخلية فى العالم الإسلامى، تتمثل هذه العوامل فى الضعف والتناقضات التى تتواجد فى هذه المجتمعات وعلى وجه الخصوص حالة الفشل الديمقراطى التى تسمح للمتطرفين بحشد الدعم لقضاياهم. فى حقيقة الأمر فإن هذا الوضع يحمل إلهاماً للولايات المتحدة بفكرة جوهرها إنها لابد أن تقود الجهود التى تعيد بناء وتشكيل العالم الإسلامى وبغض النظر عن الواقع فإن كل وجهات النظر تحث على ضرورة مراجعة السياسة الخارجية الأمريكية للولايات المتحدة وإعادة صياغتها.

الإدارة الجديدة والتحديات المقبلة

يجب أن تبدأ الإدارة الجديدة بتغيير النبرة التى تتعامل بها مع العالم الإسلامى لإقامة علاقات أساسها الاحترام. ينبغى أن تشير الولايات المتحدة إلى اهتمامها بما يقوله الآخرون وبما يعتقدونه ويعد هذا نموذجا يقدم التحولات فى المنهج حتى لو استغرق تغيير السياسات وقتا لكى يأتى بآثاره.

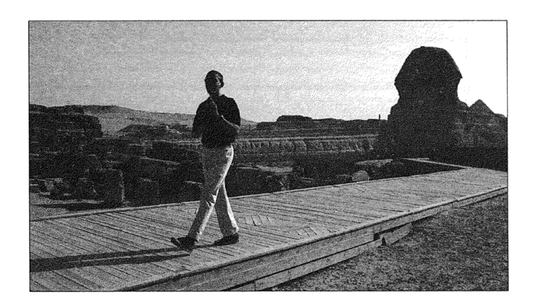
لابد أن تأخذ الولايات المتحدة بعين الاعتبار مسألة تغيير مغزى عبارة «القضاء على الإرهاب» التى كان لها العديد من العواقب غير المقصودة خاصة فى العالم الإسلامى حيث أدى هذا المغزى إلى تكوين انطباع عام بأن هذه الحرب هى حرب على الإسلام. إعلاننا عالميا «بالحرب على الإرهاب» قد أخطأ تحديد المستهدف من التحدى وتلا ذلك رد فعل خاطئ، ما ينبغى أن تدركه أمريكا جيدا هو أن الإرهاب شىء والإسلام شىء آخر. إن استخدام لفظ «الحرب» فى الشعار الأمريكى كأسلوب مجازى لمقاومة الإرهاب قد خلق استراتيجية عسكرية الطابع قامت بمزج تهديدات منفصلة متنوعة كانت تعكس فقط جذورا محلية - كان من

السؤال الحقيقى هو ما إذا كانت إدارة أوباما ستكون مستعدة فعلا للضغط على إسرائيل لتحقيق تسوية تمنح العدالة للشعب الفلسطينى



للعودة إلى النص الأصلى:
Harvard International Review
Volume 30, Winter 2009, Issue 4

ترجمة: إيمان عبدالهادى الكيلانى



الممكن معالجة كل منها على حدة - وكونت من هذه التهديدات تهديدا واحدا ضخما وغير متمايز. وللسيطرة على ردود الفعل كانت الوسيلة العسكرية لها الأولوية بالرغم من أن مكافحة الإرهاب تتطلب الجمع بين القوة الصارمة والقوة الناعمة فضلا عن مجال واسع من الأدوات السياسية تكون فيها الأهمية الأعظم لسيادة القانون والاستخبارات.

إن لغة الحرب ترفع الإرهابيين - عن غير عمد - إلى مكانة المحاربين وتفرض رؤية ملحمية لصراع مفتوح وحرب لا نهاية لها. يحمل هذا النوع من الخطاب عواقب وخيمة على السياسة الأمريكية بإخضاع كل المصالح الاستراتيجية والأهداف الأخرى لهم واحد شامل. ينبغى للولايات المتحدة إلغاء كل من هذه اللغة والاستراتيجية واستبدالهما بنهج آخر تتعامل من خلاله أمريكا مع قضية مكافحة الإرهاب باعتبارها - أى أمريكا- مؤسسة متعددة الأبعاد تتحدى بقوة القانون.

أنتقل الآن إلى السياسة: إن الخطوة الأولى والأكثر أهمية والتى ستسهم فى تحويل المناخ النفسى فى الشرق الأوسط هى الإشارة إلى حل مبكر للقضية الفلسطينية، حيث يثير هذا الموضوع بالغ الأهمية المسلمين فى كل مكان لأنه أصبح رمزا للاضطهاد والمظالم التاريخية. إن عناصر التسوية معروفة جيدا ومعترف بها حتى من جانب الإسرائيليين، السؤال الحقيقى هو ما إذا كانت إدارة أوباما ستكون مستعدة فعلا للضغط على إسرائيل لتحقيق تسوية تمنح العدالة للشعب الفلسطينى.

على صعيد كل قضايا الشرق الأوسط - الأحداث فى فلسطين، العراق، لبنان - وفى أفغانستان فإن المشاركة بمحادثات مباشرة مع إيران سوف تكون ضرورة حتمية للإدارة الأمريكية، فبدون التعامل مع إيران لن تكون هناك إمكانية لتغيير فى السياسة فيما يتعلق بهذه المسائل، مشمولا فى ذلك التوصل إلى حل للقضية النووية.

لقد وعد أوباما بإعادة ترتيب الأولويات الاستراتيجية، التحول من العراق والتركيز على أفغانستان. يهدف هذا إلى تصويب خطأ كبير وقعت فيه إدارة بوش بتحويل اهتمامها من أفغانستان لإعطاء أولوية استراتيجية لحرب لا طائل منها فى العراق. كان هذا التحويل فى الاستراتيجية الأمريكية سببا فى تعزيز الشعور لدى المسلمين على مستوى العالم بأن الدول الإسلامية كانت مستهدفة لعدوانية واشنطن.

يتطلب التعامل مع هاتين الحربين الصعبتين اتخاذ قرارات صعبة، إن تنفيذ التعهد بالانسحاب من العراق سوف يكون مبنيا على إيجاد توافق فى الآراء سواء على المستوى الداخلى بما يشمل توازن القوى بين زعماء الشيعة والسنة أو على المستوى الخارجى فى إيران التى سوف يكون دورها حاسما.

الجبهات

وفاء بوعدها إعطاء أولوية لأفغانستان وباكستان سيكون التحدى الأكبر لسياسة إدارة أوباما هو تأسيس استراتيجية شاملة لأفغانستان حيث تلاحظ أجهزة الاستخبارات الأمريكية وجود «دوامة» تسيطر على الوضع هناك مما دعا واشنطن أن تبدأ بالفعل فى استعراض السياسات المختلفة وهى تؤكد خطورة الوضع وتعترف بأن السياسة الحالية لا تعمل مما يشير إلى احتياج الوضع إلى استراتيجية وليس مجرد رد فعل.

لقد أدت سلسلة من الأخطاء الاستراتيجية وسوء تحديد الأولويات إلى تدهور خطير للوضع الأمنى فى أفغانستان ودفعت جبهة الحرب إلى المنطقة الحدودية مع باكستان. تنبثق كثير من هذه التفاصيل من حقيقة أساسية هى أن الحرب فى أفغانستان قد نتجت من الظروف المؤلمة التى خلّفتها هجمات ٩/١١ وبالتالى فإن هذه الحرب تفتقر إلى استراتيجية واضحة المعالم والأهداف.

يلتزم الرئيس أوباما بزيادة أعداد القوات فى أفغانستان ولكن بدون إحداث تغيير جذرى فى الاستراتيجية وهذا لن يتبعه انهيار الأمن فى البلاد. لقد نشرت موسكو فى ذروة احتلالها لأفغانستان ١٥٠ ألف جندى وهى لا تزال عاجزة عن تجنب الهزيمة فى أرض تعد مقبرة للإمبراطوريات.

لا يمكن تجاهل الدروس التاريخية فى مثل هذه الظروف الخطيرة حيث يتطلب الوضع استراتيجية أكثر واقعية تكون موجهة إقليميا ويتميز نهجها بالشمول. إن إعادة النظر فى الاستراتيجية يجب أن يبدأ بإعادة تحديد أهداف الولايات المتحدة مع ضرورة التمييز بين اختيار أداء ما هو حيوى «تعطيل الشبكات الإرهابية» وبين ترك ما هو أفضل للأفغان وهو «بناء الديمقراطية وتحويل المجتمع»، لقد حاولت واشنطن وحلفاؤها فى حلف شمال الأطلسى فعل العديد من الأشياء ولكن ذلك تم بشكل بدائى يفتقد إلى الإعداد الجيد وجودة تحديد الأهداف والأولويات. لقد أدى هذا الوضع إلى اندماج بين قومية البشتون وراديكالية المسلمين وهذا الاندماج يغذى روح التمرد وتزداد مخاطر تحويل هذا الوضع إلى «حرب تحرير البشتون». إن الاعتماد المفرط على القوة العسكرية قد أدى إلى ارتفاع الخسائر بين المدنيين وأصبح ذلك عاملا قويا وراء تأييد طالبان.

لابد أن تسعى الاستراتيجية الجديدة إلى الفصل بين القاعدة وطالبان من خلال إدماج طالبان كمشاركة فى عملية المصالحة ومواصلة الجهد فى تحقيق انسحاب نهائى للقوات الأجنبية فى مقابل وقف الهجمات وتقديم الدعم لإنشاء جيش أفغانى قادر على البقاء. ليس من المتوقع حدوث تسوية سريعة ولكن إنشاء روابط الثقة تدريجيا من شأنه أن يكون أساسا للتفاهم النهائى. من ناحية أخرى ينبغى أن يتحول التركيز من حملات القصف إلى التسوية السياسية والتنمية الاقتصادية وإعادة الإعمار. إن الجهود المبذولة لبناء السلام يجب أن يتم الاضطلاع بها فى كل منطقة وفى كل قرية على حدة من خلال ترتيبات تقاسم السلطة وتوزيع موارد التنمية فى المجتمعات المحلية، وهذه الخطة تحتاج إلى دعم من جميع أصحاب المصالح الاقليمية، ولابد أن تساعد واشنطن فى التنسيق بين هذه الآراء الإقليمية والتى لابد أن تشمل إيران وروسيا.

المزيد من الدعم للاستراتيجية الإقليمية تجاه أفغانستان وباكستان يعنى خلق نهج يعزز الأمن والاستقرار

فى كلا البلدين من خلال دعم متبادل. الاستراتيجية التى تستهدف «هزيمة» أفغانستان سوف يصيبها الشحوب والهزال فى حال وضعها فى مواجهة هدف آخر هو «هزيمة» باكستان.

بالنسبة لباكستان فإن الخطوة الأولى ذات الأهمية الأعظم هى معالجة نقص الثقة الذى يميز علاقتها مع الولايات المتحدة، فتلك العلاقة تتسم بالتماسك والاستقرار على مستوى القيادة فقط أما النطاق الأوسع والمتمثل فى المؤسسات ووسائل الإعلام والشعب فى البلدين فإنهم ينظرون للولايات المتحدة بعين الريبة والعداء. تغيير تلك النظرة إلى النقيض يتضمن بناء الثقة وهذا ما يجب أن يكون ضمن الأولويات الملحة لأوباما لأنه بناء على ذلك سوف تتحدد نوعية التعاون بين واشنطن وإسلام أباد والذى على أساسه ستتوافر القدرة على التعبئة وعلى إحلال الاستقرار فى المنطقة.

يجب أن توقف واشنطن الضربات التى تقوم بها من جانب واحد فى المناطق القبلية الباكستانية، فقد أدى النهج العدوانى الذى تنتهجه إلى اشتعال الرأى العام وعرض جهود إسلام أباد لمكافحة التمرد إلى خطر زعزعة الاستقرار فى بلد هش من الأصل. بدلا من ذلك يجب على واشنطن أن تساعد على تعزيز قدرة باكستان على احتواء المتشددين. يقول الجيش الباكستانى إنه يخوض حربا غير متكافئة حيث يقاتل بأسلحة تقليدية بسبب أن الولايات المتحدة ما زالت تنكر عليه الأدوات التى يحتاجها فى مكافحة التمرد ولابد أن يكون لهذه المشكلة حل.

ينبغى على إدارة أوباما التوقف قطعيا عن التعامل مع باكستان كمجرد قوة مساعدة مأجورة بدلا من حليف له قيمته، حيث كان ذلك من تركة بوش. لقد دفعت باكستان ثمنا باهظا - سواء على المستوى الإنسانى أو على مستوى الآثار المترتبة على الاستقرار الاقتصادى والاجتماعى - لكونها حليفا للولايات المتحدة، فقد لقى الآلاف من الناس - من بينهم ثلاثة آلاف من موظفى إنفاذ القانون - حتفهم فى أعمال العنف الإرهابية منذ عام ٢٠٠١. وطبقا لقول وزير الخارجية الباكستانى تقدر التكلفة الاقتصادية بنحو ٣٤ بليون دولار أمريكى فى الفترة نفسها، وأن التكلفة بلغت فى العام الحالى وحده ثمانية ونصف بليون دولار أمريكى.

لابد للنهج الأمريكى الجديد مع باكستان من الاعتراف بأن استقرار البلد لا يتوقف فقط على احتواء التشدد ولكن بتدعيم الاقتصاد ومعالجة الخصومة الطويلة مع الهند. إن الاقتصاد غير المستقر لباكستان يحتاج إلى الدعم الدولى، وينبغى أن تترجم المساعدات الاقتصادية فى شكل المزيد من التجارة وليس المعونات الاقتصادية.

يجب أن تعرض الولايات المتحدة اتفاقية بشأن التجارة الأفضل لدى باكستان وهى تجارة المنسوجات الباكستانية - شريان الحياة الاقتصادية - ولابد أن يكون ذلك هو محور المساعدة الاقتصادية وينبغى النظر فى إلغاء الرسوم الجمركية تماما لفترة محدودة. التجارة تخلق فرص العمل والدخل الدائم وهى أدوات أكثر فعالية فى مكافحة الإرهاب من القنابل والرصاص.

فى حديث معه تم قبل الانتخابات الأمريكية اعترف الرئيس المنتخب أوباما بضرورة حل النزاع طويل المدى حول كشمير لتمكين الجيش الباكستانى من التحول من التركيز على التهديد التقليدى المتمثل فى الهند إلى مكافحة التمرد. للمساعدة على تحقيق ذلك يتعين على واشنطن التغلب على ترددها المعتاد فى المشاركة فى النزاعات حول شبه القارة الهندية وبدلا من ذلك تبادر إلى إطلاق مبادرة دبلوماسية تهدف إلى التوصل إلى تسوية للخلافات بين باكستان والهند. يعد هذا الأمر أكثر إلحاحاً فى أعقاب الهجمات الإرهابية التى وقعت فى مومباى.

ختاماً

أهم التغييرات السياسية التى تحتاج الولايات المتحدة إلى الإشارة إليها لبداية جديدة مع العالم الإسلامى هى: إيجاد حل عادل للصراع الإسرائيلى الفلسطينى، تسوية واسعة النطاق للخلافات مع إيران لمنح طهران الاستقرار الإقليمى الذى تراهن عليه، إنهاء الاحتلال الأمريكى للعراق بالانسحاب المنظم، استراتيجية جديدة أكثر واقعية فى أفغانستان تفصل بين القاعدة وطالبان وتركز على بناء جيش أفغانى فعال وأجهزة أمنية لتمكين القوات الأجنبية من الانسحاب النهائى من أفغانستان مع المساعدة على تعزيز الاستقرار فى باكستان.

هذه التغييرات سوف تمكن العالم الإسلامى من إصلاح نفسه ومعالجة أوجه العجز فى التنمية والحرية التى ما تزال تتسبب فى إعاقة التقدم لربع سكان العالم. ■



من شعر الحلاج

التلبيـــة

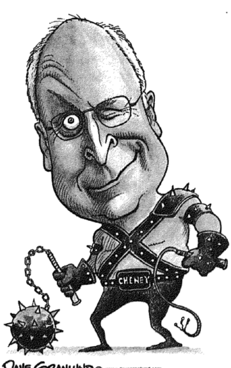
لبّيكَ لبّيكَ يا سرّى ونجوائى
لبّيك لبّيك يا قصدى ومعنائى
أدعوك بلْ أنت تدعونى إليك فهلْ
ناديتُ إيّاك أم ناجيتَ إيّائى
يا عين عين وجودى يا مدى هممى
يا منطقى وعباراتى وإيمائى
يا كلّ كلّى يا سمعى ويا بصرى
يا جملتى وتباعيضى وأجزائى
يا كلّ كلّى و كلّ الكلّ ملتبس
وكل كلّك ملبوس بمعنائى
يا من به عُلّقَتْ روحى فقد تلفت
وجدا فصرتَ رهينا تحت أهوائى
أبكى على شجنى من فرقتى وطنى
طوعاً ويسعدنى بالنوح أعدائى
أدنو فيبعدنى خوف فيقلقنى
شوق تمكّن فى مكنون أحشائى
فكيف أصنع فى حبّ كَلِفْتُ به
مولاى قد ملّ من سقمى أطبّائى
قالوا تداوَ به منه فقلت لهم
يا قوم هل يتداوى الداء بالدائى
حبّى لمولاى أضنانى وأسقمنى
فكيف أشكو إلى مولاى مولائى



جـيـن مـايـر
Jane Mayer



الماضى يطاردنا





من المعتاد أن تحارب وكالة الاستخبارات المركزية «CIA» أعداء بعيدين، ولكن فى الأسابيع الماضية كان قادتها منشغلين بخصم محلى. فعلى بعد أميال قليلة من مقر الوكالة فى «لانجلى» بولاية «فيرجينيا»، شن نائب الرئيس السابق «ديك تشينى» هجوما شديدا على السياسات الجديدة لإدارة أوباما فيما يتعلق بالأمن القومى. لقد اتهم «تشينى» - أثناء حديثه أمام «المعهد التجارى الأمريكى American Enterprise Institute» - الإدارة الجديدة بـ«جعل الشعب الأمريكى أقل أمانا»، من خلال منع أساليب الاستجواب القاسية لـ«CIA» مع مشتبهى الإرهاب، والتى كانت إدارة «بوش» قد أقرتها. اتهم «تشينى» بأن إيقاف تلك الاستجوابات «أمر غير حكيم بالمرة. إنه الاستهتار بعينه فى ثوب من الصلاح».

وقد علم ليون بانيتا Leon Panetta المدير الجديد لـ«CIA» - والرجل الذى يحمل على كاهله معظم مسئولية إبقاء الوطن آمنا - بتفاصيل خطاب «تشينى» عند وصوله إلى مكتبه بالطابق السابع من مقر الوكالة. كان «بانيتا» قبل ذلك بساعة يقف بجوار الرئيس «باراك أوباما» أثناء إلقائه خطابا فى دار المحفوظات الوطنية، أكد فيه أن أمريكا تستطيع «محاربة الإرهاب مع الالتزام بسيادة القانون». فى يناير، منعت إدارة «أوباما» استخدام الأساليب «المحسنة» التى أقرتها إدارة «بوش» للوكالة، بما فى ذلك الغمر بالماء «waterboarding» (تقييد المعتقل على لوح خشبى مع تغطية الوجه بقناع من القماش وسكب الماء على وجهه حتى يقترب من الاختناق. المترجم) وحرمان السجناء من النوم لمدة تصل إلى أحد عشر يوما. وقد رد «بانيتا» - وهو يسكب فنجانا من القهوة - على خطاب «تشينى» بصراحة مذهلة، حيث ذكر لى: «أعتقد أنه شعر بنقطة ضعف فيما يتعلق بقضية الأمن القومى. إنها تقريبا سياسة الموت. عندما تقرأ ما بين السطور، فإنك تكتشف كما لو أنه يتمنى لو هوجمت البلاد مرة ثانية حتى يثبت وجهة نظره. أعتقد أن تلك سياسة خطيرة».

كان «بانيتا» أيضا يمتص النقد من اليسار. ففى اليوم السابق، كانت مجموعة من النشطاء من حماة حقوق الإنسان قد تم إطلاعهم من قبل «أوباما» بصورة غير رسمية، حيث ناقشوا خططه للتعامل مع مشتبهى الإرهاب؛ وقد أعرب بعض حماة حقوق الإنسان عن استيائهم مما اعتبروه استمرارا ضمنيا لنهج «بوش». ووفقا لما ذكره أحد المشاركين، فقد حذر «أوباما» المجموعة من أن مثل تلك المقارنات كانت «غير مفيدة». ومع ذلك، فقد واصل «كينيث روث» المدير التنفيذى لمنظمة «مراقبة حقوق الإنسان Human Rights Watch»، والذى كان حاضرا اللقاء، واصل إدانة الإدارة بسبب لجوئها إلى «الاحتجاز الوقائى» - أى اعتقال مشتبهى إرهاب محددين دون محاكمة لفترة غير محددة. وذكر «روث» أن موقف «أوباما» «يحاكى النهج التعسفى لإدارة «بوش»».

منذ يناير، كانت الـ«CIA» بؤرة صراع يومى تقريبا، حيث يحاول «أوباما» استعادة سيادة القانون فى الحرب الأمريكية ضد الإرهاب، دون التضحية بالأمان أو بفقدان دعم الديمقراطيين المحافظين أو الناخبين المستقلين. حتى الآن، أصر «أوباما» على محاولة إعادة معايرة سياسات الوكالة دون التحقيق فى أخطاء الماضى أو إلقاء مسئوليتها على أى شخص. وقد علق فى المنتصف «بانيتا» الذى وصل إلى سن السبعين وليست لديه فعليا أية خبرة بمجال الاستخبارات. بالفعل فإن مؤهلاته لتولى إدارة وكالة التجسس الأولى فى العالم كانت غير مرجحة، لدرجة أنه عندما عرض «جون بوديستا» رئيس الفريق الانتقالى لـ«أوباما» المنصب عليه، رد «بانيتا»: «هل أنت متأكد؟». وقد أكد «بوديستا» لـ«بانيتا» أن وضعه كدخيل على الإدارة هو ميزة فى الواقع: «فقد ذكر «أنت لا تحمل ندوب السنوات الثمانى الماضية. كما أن الرئيس يريد شخصا قادرا على التحدث معه بصراحة حول تلك القضايا»».

ورغم أن «بانيتا» قد خدم لفترة قصيرة فى الجيش منذ نصف قرن، فإن سمعته تقوم بالكامل تقريبا على هيمنته على السياسة الداخلية. فطوال ستة عشر عاما، كان عضوا ديمقراطيا بالكونجرس عن موطنه «مونتيرى» بولاية «كاليفورنيا». وفى عام ١٩٨٩، أصبح رئيس لجنة الميزانية بالكونجرس، مما جعله اختيارا طبيعيا كأول مدير ميزانية للرئيس «بيل كلينتون». وفى عام ١٩٩٤، أصبح رئيس هيئة موظفى «كلينتون».

لقد شب «بانيتا» - وهو ابن لمهاجرين إيطاليين - على غسل الصحون فى مطعم والديه. وهو يتسم بالصراحة الملطفة وله ضحكة خفيفة؛ وهو أيضا انضباطى صارم ومدمن للعمل. يقول زملاؤه إن «بانيتا» - الذى يحضر القداس بانتظام - يمكنه أن يلتزم بالمبادئ لدرجة الصرامة. بصورة جزئية، كانت استقامة «بانيتا» وراء حصوله على وظيفة الـ«CIA». أثناء سنوات «بوش»، ندد «بانيتا» بضياع السلطان الأخلاقى فى البلاد؛ وفى مقال شديد اللهجة فى مجلة «واشنطون منثلى Washington Monthly» العام الماضى، أعلن أن الأمريكيين تحولوا من «أبطال الكرامة

بترتيب مع:
The New Yorker

ترجمة: عادل فتحى

الإنسانية وحقوق الفرد، إلى أمة من سادة التعذيب». وقد خلص إلى «إما أننا نؤمن بكرامة الفرد وسيادة القانون وحظر العقاب القاسي غير العادي، وإما أننا لا نؤمن بذلك. وليس هناك موقف وسطي».

أصبح المقال الملتهب لـ «بانيتا» - على غير المتوقع - ذا قيمة كبيرة أثناء فترة «أوباما» الانتقالية، بعد تعرض «جون برينان» - المرشح المبدئي كمدير لـ «CIA» - لضغوط للانسحاب. وقد اتهم المنتقدون «برينان» - الذي كان مسئولا رئيسيا بالوكالة أثناء سنوات «بوش» - بالتواطؤ مع برنامج التعذيب. (شكا لي أحد أصدقاء «برينان» منذ أيام الـ «CIA» بعد أن قام البعض من المدونين أكلي المقرمشات ممن يعملون في السراديب بملابسهم الداخلية بتسجيل احتجاجات صوتية ضد «برينان»، قامت إدارة «أوباما» بسحب اسمه بمجرد ظهور الدخان، ثم قامت بتنحية مجموعة كاملة من العاملين: كل من عمل في الوكالة أثناء السنوات العشر الأخيرة لم يستطع أن يجتاز اختبار المدونين».

كان لدى «بانيتا» مؤهلا قويا آخر: كان مقربا من «رام إيمانويل» الرئيس الجديد لهيئة الموظفين. وقد اشتبهت السيدة الأولى السابقة «هيلاري كلينتون» وآخرون في تسريب «إيمانويل» - الذي كان يعمل مديرا سياسيا للبيت الأبيض أثناء إدارة «كلينتون» - للمعلومات، وكاد أن يفصل. وقد تقوقع «إيمانويل» فيما يسميه «الحقبة المقفرة». ومع ذلك، عندما أصبح «بانيتا» رئيسا لهيئة الموظفين، فقد أعاد تعيين «إيمانويل» كمساعد رئيسي. وأخبرني «بانيتا»: «اعتقدت أن لديه الكثير من الخبرات العملية وحس سياسي جيد».

في عام ١٩٩٤، اكتشف «بانيتا» - لخيبة أمله - أن الرئيس قد تحول في هدوء إلى «ديك موريس» وهو مستشار سياسي له سمعة أخلاقية مثار شك. يتذكر «هارولد أيكس» المساعد السابق في البيت الأبيض «بانيتا» وهو يسير في الممرات في وقت متأخر من إحدى الليالي ويقول إنه في حاجة إلى الاستحمام بعد حضور اجتماع مع «موريس». وفي وقت لاحق، نشرت صحيفة موجزة تقريرا بأن «موريس» كان يلتقي بعاهرة في فندق قريب بواشنطن. وفي عام ١٩٩٧ ترك «بانيتا» البيت الأبيض باتفاق مشترك، وقام مع زوجته «سيلفيا» بتأسيس «معهد بانيتا للسياسة العامة Panetta Institute for Public Policy» - وهو معهد غير حزبي - في شمال كاليفورنيا. وفي يناير عام ١٩٩٨، تم الكشف عن تورط «كلينتون» في علاقة خارج الزواج مع «مونيكا لوينسكي» المتدربة السابقة لدى «بانيتا». في ذلك الوقت، وصف أحد زملائه «بانيتا» بأنه «قد خاب أمله كثيرا في بيل كلينتون» بسبب «مونيكا لوينسكي». فقد





اتهم «ديك تشيني» إدارة أوباما بـ «جعل الشعب الأمريكي أقل أمانا» من خلال منع أساليب الاستجواب القاسية لـ «CIA» مع مشتبهي الإرهاب



اعتبره رجلا يفتقر إلى الانضباط الشخصي».

بعد أحد عشر عاما طلب «باراك أوباما» نصيحة «بانيتا» حول من قد يصلح لأن يكون رئيسا جديدا لهيئة الموظفين. وقد رشح «بانيتا» «إيمانويل» قائلا له: «إن «رام» يعرف طريقه جيدا، كما يعرف البيت الأبيض تماما، كما أنه يتمتع بقوة الشكيمة اللازمة للوظيفة». وفي يناير، أوصى «إيمانويل» بتعيين «بانيتا» لوظيفة الـ «CIA». وقال عنه «يتمتع «ليون» بحكمة بالغة وبوصلة ممتازة. وهو مدير رائع ويثق به كلا الحزبان». (كان «بانيتا» جمهوريا حتى عام ١٩٧١). ويؤيد الاختيار بعض موظفي الـ «CIA» السابقين، مثل «تايلور درامهيلر» الذي تقاعد عام ٢٠٠٥ كرئيس للعمليات السرية في أوروبا، حيث قال لي: «ليس أمرا سيئا جدا وجود شخص قوي قادر على الوصول للرئيس». وقد تنبأ أن «بانيتا» «سوف يستعيد سلامة العملية الاستخبارية. وهذا أمر في غاية الأهمية، بعد كل ما مررنا به في العراق وادعاءات التعذيب».

ويصف «مايكل والدمان»، الذي كان الكاتب الرئيسي لخطب الرئيس «كلينتون» والذي يدير الآن «مركز برينان للعدالة Brennan Center for Justice» في كلية الحقوق بجامعة نيويورك، يصف «بانيتا» بأنه «واحد من أكثر الناس في الحكومة جدارة بالاحترام وأكثرهم لطفا وانضباطا»، ولكنه يعتبر ذلك «أمرا مدهشا لأنه كان منتقدا شديدا للوكالة». ونظرا لما عرف عن «بانيتا» من استقامة، والدور الرئيسي لـ «CIA» في فضيحة الاستجوابات، فقد تساءل «والدمان»: «هل سيتمكن من امتطاء النمر دون أن يتعرض للافتراس؟». وأضاف: «إن وكالة كهذه يمكنها أن تثير ولع مديرها. هذا هو التحدي: عليه أن يقودها ويصلح من شأنها في الوقت نفسه».

هناك تاريخ متناقض للدخلاء الذين تولوا مسئولية الـ «CIA». فكثيرا ما يشار إلى «جون ماكون» قطب الشحن الشهير في كاليفورنيا والذي أدار الوكالة في عهدي «كينيدي» و«جونسون»، باعتباره من أنجح مديريها: فنظرا لتدريبه كمهندس ميكانيكي، فقد برع في تقييم تهديدات الأسلحة التقليدية والنووية. ولكن كان هناك دخلاء آخرين قوبلوا بعداء شديد. كان «جيمس شليزنجر» قد اختير مديرا لـ «CIA» من قبل الرئيس «ريتشارد نيكسون» بعد أن كان رئيسا للجنة الطاقة الذرية. وبناء على تعليمات بـ «التخلص من المهرجين»، أقال «شليزنجر» أو أجبر على التقاعد أكثر من خمسمائة محلل وألف عميل سري. وقد تلقى تهديدات بالقتل ولم يبق في منصبه سوى ستة أشهر. وفي عام ١٩٩٥، قام الرئيس «كلينتون» بتعيين «جون دويتش» الذي كان قد خدم سابقا في وزارة الدفاع، في المنصب. وقد حاول «دويتش» تحسين عملية الإشراف على العملاء السريين بعد ظهور دلائل على قيام عميل في جواتيمالا بالتستر على عمليتي قتل. وقد هوجم «دويتش» من قبل العديد من العملاء السريين، وترك الوكالة بعد ثمانية عشر شهرا. وفي النهاية جرى اتهامه بإساءة التعامل مع الوثائق السرية وتم تجريده من تصريحه الأمني. يقول «مايكل والدمان»: «أنت تختار الـ «CIA» على مسئوليتك الخاصة».

ومع ذلك، يعتقد الكثير من النقاد أن الوكالة يجب أن تتفاهم مع ميراث عهد «بوش». فخلال السنوات القليلة الماضية، ظهرت دلائل لا تقبل الشك على أن الوكالة قد فقدت مدلولاتها الأخلاقية بعد الحادي عشر من سبتمبر. وقد اطلع الرأي العام على تقرير سري للصليب الأحمر مع وثائق حكومية سرية سابقة لا تدع مجالا للشك في أن الوكالة أخضعت عشرات من مشتبهي الإرهاب لقسوة جسدية ونفسية مطولة. لقد قيد العملاء السجناء بالأصفاد لأسابيع في أوضاع ملتوية؛ وقيدوهم بالسلاسل إلى الأسقف لا يرتدون سوى الحفاظات؛ واستغلوا مخاوفهم المرضية؛ ودفعوهم بالرؤوس إلى الجدران. وقد توفى ثلاثة من السجناء على الأقل.

التعذيب جناية، وفي بعض الأحيان يعد جريمة كبرى. وتلزم «الاتفاقية ضد التعذيب The Convention Against Torture» التي صدقت عليها أمريكا عام ١٩٩٤، تلزم الحكومات باتخاذ الإجراءات القضائية ضد كافة أعمال التعذيب؛ ويعد التغاضي عن ذلك خرقا للقانون الدولي. وقد حازت قضية التعذيب أهمية رمزية أثناء الحملة الانتخابية عام ٢٠٠٨، وعندما تولى «أوباما» منصبه توقع الكثير من مؤيديه الليبراليين أن يوقع العقاب بمرتكبي الإساءات. وقد مارس الزعماء الديمقراطيون في الكونجرس ضغوطا خاصة من أجل اتخاذ إجراءات حاسمة. وقام السيناتور «كارل ليفين» رئيس «لجنة الخدمات المسلحة Armed Services Committee» بالتحقيق في دور الجيش في إساءات الاعتقال والاستجواب، ولكن محدودية سلطة لجنته منعته من التحقيق في دور الـ «CIA»؛ ولكنه حث المدعي العام الجديد «إيريك هولدر» على فتح تحقيق، قائلا له: «هناك حاجة لتوثيق عمليات التعذيب في هذا البلد». وطالب السيناتور «باتريك ليهي» رئيس اللجنة التشريعية بتشكيل «لجنة حقائق» مستقلة يمكنها منح الحصانة للشهود، مما يساعد في حماية إدارة «أوباما» من الاتهامات بأنها كانت تستغل قضية التعذيب لتحقيق مكاسب حزبية.

إن دور الـ «CIA» في تقديم معلومات استخبارية مضللة بشأن وجود أسلحة دمار شامل في

العراق أثار أيضا دعوات للإصلاح. وقد أخبرتنى السيناتور «ديان فاينشتاين»، الرئيس الجديد لـ «لجنة الاستخبارات Intelligence Committee»: «ليس هناك تصويت ندمت عليه أكثر من التصويت على تفويض الحرب على العراق؛ لقد صوتت اعتمادا على معلومات استخبارية وصفتها بأنها «مغلوطة تماما». وتواصل «فاينشتاين»: «أنا مصممة تماما على إصلاح عملية جمع وتحليل الاستخبارات».

بمجرد تولى «أوباما» منصبه، قام بتغيير معظم أوجه سياسة التحقيق الخاصة بإدارة «بوش». فقد أصدر أمرا تنفيذيا يحرم المعاملة غير الإنسانية للسجناء من قبل أى مسئولين حكوميين، وأمرا آخر بإغلاق شبكة سجون «المواقع السوداء» السرية الخاصة بالـ«CIA»، والتى امتدت من بولندا حتى تايلاند. كما تعهد بإغلاق السجن العسكرى فى خليج جوانتانامو بكوبا والذى يحتجز به أربعة عشر سجينا سابقا للـ «CIA». ولكن رسالة «أوباما» كانت مشوشة بلا تمييز فيما يتعلق بقضية المساءلة. فقد ذكر أن المدعى العام «هولدر» هو الذى يجب أن يقرر اتخاذ إجراء جنائى من عدمه؛ كما ذكر أيضا أنه سوف يدعم أى تحقيق إضافى للكونجرس طالما جرى ذلك بصورة غير حزبية. فى الوقت نفسه، أشار «أوباما» إلى أنه لا يسعى لـ «النظر للخلف»، وقد رفض فى أبريل - أثناء اجتماع خاص فى البيت الأبيض مع زعماء الكونجرس - فكرة تشكيل لجنة حقائق خارجية. فى الوقت نفسه، تلقف الجمهوريون المبادرة السياسية معبرين عن مخاوفهم العميقة تجاه خطط إغلاق جوانتانامو ونقل السجناء إلى منشآت داخل الولايات المتحدة.

يقول «تيم واينر» مؤلف كتاب «ميراث الرماد Legacy of Ashes» وهو عن التاريخ الحديث للـ «CIA»، إن «بانيتا» يواجه سلسلة من «الاختيارات غير المغرية». يعتقد «واينر» أن البلاد تمر بفترة مشابهة لحقبة «ووترجيت Watergate» عندما انكشفت سلسلة من الأسرار المزعجة للدولة، مثل وجود «برنامج فيونكس Phoenix Program» (برنامج عسكرى استخبارى أمنى، المترجم) وهو مبادرة دعمتها الـ «CIA»، تردد أن الفيتناميين الجنوبيين قاموا من خلالها بتعذيب مدنيين. وعند الحديث عن «بانيتا»، قال «واينر»: «ليس بالأمر المريح لرجل قال «ليس هذا من شيم أمريكا» أن يوضع فى موقف يقول فيه «حسنا، لن نلق بالمسئولية على أحد»».

قال «بانيتا» - الذى كان حديثه معى فى مقر الـ «CIA» هو أول مقابلة مطولة له حول قضية الاستجوابات المسيئة - إنه حينما تولى إدارة الوكالة «أراد أن يكون متأكدا تماما» أنه ليس هناك على جدول الرواتب شخص واحد يجب مقاضاته بسبب التعذيب أو الجرائم المتعلقة به. وقد طلب من «جون هيلجرسون» - المفتش العام للـ «CIA» فى ذلك الوقت - أن يقوم بمراجعة ذلك. من الناحية النظرية، فإن المفتش العام مستقل سياسيا، وهو بذلك يستطيع إصدار أحكام غير منحازة. كان «هيلجرسون» قد كتب عام ٢٠٠٤ تقريرا سريا عن برنامج الـ «CIA» السرى الخاص بالاعتقال والاستجواب، تساءل فيه عن قانونية وفعالية الأساليب الوحشية التعسفية للوكالة. وقد استشهد «بانيتا» بـ«مصداقية» «هيلجرسون» كسبب للوثوق بحكمه. ووفقا لـ «بانيتا»، فقد أكد له «هيلجرسون» - الذى لا يعمل بالمحاماة - أنه لا يوجد بالوكالة حاليا أى موظف تورط فى أعمال تجاوزت الحدود القانونية التى كانت مفهومة أثناء حكم «بوش». يقول «هيلجرسون» - الذى تقاعد من الوكالة فى مايو - إنه لم يخبر «بانيتا» سوى أنه لم يكن على علم بأى قضايا تستحق المحاكمة رغم «استمرار أداء الأعمال».

أخبرنى «بانيتا»: «سأمنح العاملين ميزة الشك. إذا قاموا بأداء العمل الذى يتلقون عليه أجرا، فليس لدى مبرر لأن أطلب المزيد». كانت كلماته تردد صدى كلمات الرئيس «أوباما» الذى تعهد فى السادس عشر من أبريل بمنح الحصانة ضد الملاحقة القضائية لأى موظف بالـ «CIA»، اعتمد على نصيحة مستشار قانونى أثناء حكم «بوش». ويشير «جيفرى هـ. سميث» المستشار العام الأسبق بالـ «CIA»، إلى ذلك باعتباره معيارا منخفضا، على أساس أن «ما أقرته وزارة العدل كان أمرا غير أخلاقى». فعلى سبيل المثال، كانت الولايات المتحدة ولأكثر من قرن من الزمان - تحيل إلى المحاكمة عمليات الغمر بالماء باعتبارها جريمة خطيرة، كما صدر بذلك حكم بالسجن لمدة عشر سنوات فى عام ١٩٨٣. بالفعل فإن المذكرات التى تخول المحققين تعذيب السجناء تصطدم على نحو جلى مع القانون الدولى والقانون الأمريكى، لدرجة أنه قد تم سحب البعض منها لاحقا بواسطة المحامين من نفس وزارة العدل إبان حكم «بوش».

يعتقد «سميث» الذى قدم النصح بصورة غير رسمية لـ «أوباما» حول كيفية التعامل مع ميراث إساءات الـ «CIA»، أن الإحالة للمحاكمة أمر غير قابل للتطبيق سياسيا فى المرحلة الحالية، وأنها ستكون فى جميع الأحوال غير عادلة بالنسبة للموظفين الذين اعتقدوا أنهم ملتزمون بالقانون. وقد أكد الكثير من الجمهوريين بداية من «نيوت جنجريتش» إلى «جون ماكين» أن توجيه الاتهامات ضد مسئولين حكوميين قد يهدد الروح المعنوية ويقيد المخاطرة فى وقت تواجه فيه الوكالة الحرب على







أعرب بعض حماة حقوق الإنسان عن استيائهم مما اعتبروه استمرارا ضمنيا لنهج «بوش»

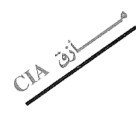


جبهتين وتهديدا مستمرا من تنظيم القاعدة. ويعترض على ذلك «لورانس ترايب» أستاذ القانون بجامعة هارفارد، فيقول: «من الصعب عدم اتخاذ أى إجراء ضد من ارتكبوا تلك الأفعال. ليس من غير المعقول أن نتصور أنه حتى المحصنين بالآراء القانونية يمكن اعتبارهم مسئولين قانونيا عن انتهاك القانون الجنائى فيما يتعلق بالتعذيب».

أخبرنى «بانيتا»: «بصراحة، أنا لم أؤيد تلك الأساليب التى استخدمت، أو المبررات القانونية وراء استخدامها. كما أعتقد أننى لو توليت هذا المنصب، فسوف أتعامل مع التهديدات المطروحة وأحاول فعلا الوصول بالـ «CIA» إلى مرحلة جديدة». وقال إنه إذا ما تيقن أنه لا توجد مسئولية جنائية داخل الوكالة فإنه «لن يرغب فى إضاعة الكثير من الوقت فى التعامل مع الماضى وماهية الأخطاء التى ارتكبت».

على أية حال، فقد تبين أن «بانيتا» قد أيد فى البداية تشكيل لجنة للحقائق. وقد ذكر لى: «أنا لست شغوفا باللجان. ومن جهة أخرى، يمكننى أن أتفهم - صراحة - تشكيل لجنة رفيعة المستوى من أناس مثل «ساندرا داى أوكونور» و«لى هاملتون». كان الهدف أن يتمكن «أوباما» من تفويض الآخرين لمعالجة المشاكل القانونية الناتجة عن تصرفات إدارة «بوش»، بما يتيح له التركيز على جدول أعماله السياسى الطموح. قال «بانيتا» إنه مبكرا فى الربيع وقبل أن يتخذ «أوباما» قرارا بشأن القضية فى مرحلة المناقشة كنت مستعدا لها. لأنه كلما طرح سؤال يمكنك أساسا أن تقول «نأمل أن تنظر اللجنة فى ذلك». ولكن بنهاية أبريل كان «أوباما» قد رفض الفكرة خشية أن يبدو الأمر انتقاميا وربما يستفز سلفه. قال «بانيتا»: «كان الرئيس هو الذى قال أساسا «لو فعلت ذلك لبدا الأمر وكأنى أحاول ملاحقة «تشينى» و«بوش». إنه لم يعتقد بأهمية الأمر. وبعد ذلك بدا لو أن الجميع قد تراجعوا».

يعتقد «كين جود» - المدير المشارك فى «مركز التقدم الأمريكى Center for American Progress» والمتخصص فى قضايا الأمن القومى وله صلات قوية بالبيت الأبيض - أن غريزة «أوباما» مثل «بانيتا» كانت تتجه إلى تشكيل لجنة حقائق من نوع ما. وهو يقول: «أعتقد أن المستشارين السياسيين قد تراجعوا. وقالوا إن ذلك سيعد إلهاء». ويتوجس المستشارون السياسيون من أى قضية يمكن أن تشعل حربا ثقافية وتقلل من تأييد أصحاب الأصوات المستقلة. كما أنهم لا يجدون ميزة تذكر فى إشعال حرب مع الـ «CIA». ولكن قرار التغاضى عن المساءلة - كما يقول «جود» أتى بنتائج عكسية. لقد فقدت الإدارة السيطرة على القضية، حيث توالت انكشافات آثام الـ «CIA» فى الظهور من خلال قضايا



المحاكم والصحافة. يقول «جود»: «لقد تحقق الآن الإلهاء الذى أرادوا تجنبه. لقد سادت إيجازات البيت الأبيض التساؤلات بشأن الإفراج عن الوثائق والصور». وقال أيضا إنه من المفهوم أن «أوباما» لن يريد تبديد طاقته على أخطاء «بوش». ولكنه يحذر: «إنهم لا يستطيعون ترك انطباع بأنهم يحاولون التستر على ذلك».

ربما لا تكون لدى «بانيتا» ندوبا من السنوات الثمانى الماضية، ولكنه محاط بأناس يحملونها. ولدى البعض من أقرب مستشاريه صلات ببرنامج التعذيب. لقد أحضر «بانيتا» معه شخصا واحدا فقط إلى الوكالة: وهو «جيريمى باش» المستشار الرئيسى الأسبق الجدير بالاحترام لـ اللجنة البرلمانية للاستخبارات Home Intelligence Committee، والذى يعمل الآن كرئيس لهيئة موظفيه. يقول «فيل تراونشتاين» - المستشار والمحلل السياسى من كاليفورنيا والذى يعرف «بانيتا» منذ سنوات - يقول عنه: «هذا رجل كان منتقدا بشدة لنظرة «بوش» إلى العالم، وعليه الآن أن يطبق مجموعة جديدة من الإرشادات والسياسات من خلال إدارة نفس الوكالة ونفس الناس كما فى الماضى».

لقد عمل العديد من كبار نواب «بانيتا» جنبا إلى جنب مع «جورج تينيت» مدير الوكالة فى الفترة من ١٩٩٧ حتى ٢٠٠٤. وتحت رئاسة «تينيت» تولت الـ«CIA» زمام محاربة الإرهاب، وأصبح موظفوها هم السجانون وأحيانا المعذبون للعديد من معتقلى الولايات المتحدة. وقد اختفى «تينيت» - الذى يعمل الآن مديرا إداريا لبنك الاستثمار «آلن وشركاه Allen & Company» - تماما عن الساحة العامة فى واشنطون. كما ألغى مؤخرا موعدا للظهور أمام «معهد بانيتا» هذا الشهر. (علق «بانيتا»: «لم يشأ «جورج» أن يتحدث أمام الكاميرا»). ولكن «تينيت» دافع فى تقريره لعام ٢٠٠٧ بعنوان «فى قلب العاصفة At the Center of the Storm» عن تطبيق أساليب الاستجواب «المحسنة» على مشتبهى الإرهاب، زاعما أن المعلومات التى استخرجوها منعت هجمات أخرى وأنقذت أرواح مواطنين أمريكيين. (كما أنه أكد للرئيس «بوش» أن قضية الذهاب للحرب كانت «ورطة مدوية»). ولكن أحد كبار المسئولين السابقين فى الوكالة ممن عملوا مع العديد من كبار أعضاء فريق «تينيت» يقول: «هؤلاء الناس نفذوا تلك السياسة، ولكنهم يعكرون الماء بتبريرهم أن ما فعلوه كان صوابا. سيقولون: «إن «بوش» كان سيئا» وإنهم لم يكونوا كذلك. كثير من هذا الحديث هو فقط لحماية مواقفهم الشخصية. يدهشنى أن كل هؤلاء ممن عملوا مع «تينيت» قد أفلتوا».





حتى الآن، أصر «أوباما» على محاولة إعادة معايرة سياسات الوكالة دون التحقيق فى أخطاء الماضى



خلف مكتب «بانيتا» - بجوار علم أمريكى ممزق فى إطار تم إنقاذه من أطلال مركز التجارة العالمى - هناك باب يؤدى إلى مكتب «ستيفن كابس» الذى احتفظ به «بانيتا» كالرجل الثانى فى الوكالة. يتمتع «كابس» - رجل البحرية الأمريكية الأسبق - بإعجاب العديدين داخل الوكالة، وخاصة لإقناعه الزعيم الليبى «معمر القذافى» عام ٢٠٠٣ بالتخلى عن برنامجه للأسلحة النووية. يقول «جون رادسان» الذى كان محاميا بالـ«CIA» إبان الولاية الأولى للرئيس «بوش»: ««كابس» هو رجل المهام الصعبة». لقد خدم «كابس» - صاحب الشخصية الانفعالية الوقورة الذى يجيد الروسية والفارسية - كرئيس محطة فى موسكو ونيودلهى وفرانكفورت، وأشرف على العديد من العمليات السرية. وفى أبريل، قام الرئيس «أوباما» بزيارة مقر الـ«CIA»، واختار «كابس» باعتباره «الشيخ» الحكيم فى المبنى. وقد أصرت السيناتور «فاينشتاين» سرا للمسئولين فى إدارة «أوباما» على استمرار «كابس» كنائب للمدير، وكان ذلك شرطا لدعمها لـ«بانيتا» الذى أعربت عن قلقها بشأن قلة خبرته بالعمليات السرية.

أثناء الولاية الأولى لـ «بوش»، كان «كابس» مسئولا رفيع المستوى فى «دائرة العمليات Directorate of Operations». كانت تلك المجموعة تشرف على «مركز مقاومة الإرهاب Counterterrorist Center» التابع للوكالة والذى أدار - بالمقابل - البرنامج السرى للاعتقال والاستجواب. ويشك القليلون أن «كابس» كان على علم بأن الـ«CIA» متورطة فى أعمال وحشية. يتذكر أحد العاملين السابقين أنه سمع «كابس» يحذر من أن البرنامج قد تحول إلى «التعذيب». ووفقا لنفس المصدر، فبمجرد تنحية «كابس»، أصبح متعاونا؛ كان «كابس» هو «العقل المدبر» للدائرة كما يقول المصدر. (أنكر «كابس» على لسان متحدث رسمى أى دور مباشر له فى برنامج الاستجواب، أو أنه أطلق على أساليبه وصف التعذيب). يقول عميل سرى سابق آخر للـ«CIA» متحدثا إلى «بانيتا»: «من الصعب القول بأن شخصا تورط إلى تلك الدرجة يمكن أن يكون موضوعيا تماما».

يقول «بانيتا» إن غالبية الأفراد الذين أداروا برنامج الاستجواب السرى قد غادروا الوكالة منذ ذلك الحين. ومن بين من احتفظوا بمناصبهم «جوناثان فريدمان» الذى كان فى السابق المستشار الرئيسى للقسم الذى أدار برنامج الاستجواب؛ وهو مكلف الآن بمهمة مؤقتة مع مدير الاستخبارات القومية. ووفقا لملاحظات من اجتماع عقد عام ٢٠٠٢ وتم الكشف عنها مؤخرا فى جلسة استماع لمجلس الشيوخ، فإن «فريدمان» أفاد بأن التعذيب «يخضع أساسا للحكمة. فإذا توفى المعتقل، فأنت لم تؤد العمل على النحو الصحيح». وتشير الملاحظات - التى شكك «فريدمان» فى دقتها - إلى أنه ذكر أن شرائط فيديو الاستجوابات قد تبدو «بشعة». كان الرئيس السابق لـ «فريدمان» هو «جون أ. ريزو» القائم بأعمال المستشار العام للـ «CIA»، والذى تلقى العديد من مذكرات التعذيب من وزارة العدل. (من المخطط أن يغادر «ريزو» الوكالة بمجرد توفير بديل له). والرئيس الحالى لمركز مقاومة الإرهاب - وهو العميل السرى الذى لا يمكن الإفصاح عنه - هو الذى أدار برنامج الاستجواب لبعض الوقت أثناء ولاية «بوش» الثانية. وقد تورط العديد من رؤساء المحطات والأقسام الحاليين عميقا فى الاستجوابات الوحشية، وكذلك طيارون وخبراء سوقيات وأفراد هيئات طبية وغيرهم.

فى الوقت نفسه، أصبح «جون برينان» الذى اعتبر ضارا جدا من الناحية السياسية ليترأس الـ «CIA»، مسئولا رفيعا فى مجلس الأمن القومى. وكما صرح أحد العاملين السابقين بالـ «CIA»، فإن «برينان» كان فى وقت ما «مرتبطا بشدة بـ «جورج تينيت»». فقد خدم كرئيس لهيئة موظفيه، وهو الآن مستشار لـ «أوباما» لشئون الإرهاب وقضايا الأمن القومى الأخرى. ويشاع أنه قد ناور كثيرا للحفاظ على سرية الإساءات السابقة. وطبقا لما ذكرته مجلة «نيوزويك»، فقد أقنع «برينان» «بانيتا» مؤخرا بالانضمام إليه للاعتراض على خطة «أوباما» للإفراج عن أربع مذكرات مشينة لوزارة العدل بشأن برنامج الاستجواب. وتوضح الوثائق التى كتبها محامون فى مكتب المستشار القانونى أن الـ «CIA» قد غمرت أحد المشتبه بهم بالماء مائة وثلاث وثمانين مرة على الأقل، وعرضت كثيرين آخرين لإساءات مريعة. ويؤكد المعارضون أن الكشف عن مثل تلك التفاصيل يمكن أن يثير ردود فعل معادية لأمريكا. كما انحاز «بانيتا» بشدة لصالح حماية أى عاملين بالـ «CIA» قد تعرضهم تصرفاتهم - كما تصفها المذكرات - إلى اتهامات جنائية. أخبرنى العديد من المسئولين السابقين حسنى السمعة بالـ «CIA»، بما فيهم «فريد هيتز» وهو مفتش عام سابق، و«بول بيلار» وهو محلل سابق للشرق الأوسط، أنهم لم يروا غضاضة فى الإفراج عن الوثائق. كما أيد نشر الوثائق أيضا «دينيس سى. بلير» مدير الاستخبارات القومية، والذى يشرف على البنية الاستخباراتية الأمريكية بما فى ذلك الـ «CIA»، وذلك بعد أن توصل العاملون معه إلى أن الكشف عن تلك الوثائق لن يتسبب فى أضرار على الأرجح.

بعد تفكير عميق ولقاء ليلى متأخر فى مكتب «رام إيمانويل»، رفض «أوباما» آراء «بانيتا» فيما يتعلق بالسرية وقرر أن الإفراج عن المذكرات يصب فى الصالح العام. ولكن

«أوباما» أقر أيضا مفهوم منح مظلة عفو لأى مسئول بال «CIA» يمارس صلاحيات عمله.

لقد بدت معارضة «بانيتا» للكشف عن الوثائق أمرا ليس من شيمته بالنسبة لزملائه القدامى. وقد أخبرنى «فيل تراونشتاين»: «لقد اندهشت لموقف «ليون» بشأن مذكرات مكتب المستشار القانونى. من الصعب أن تحافظ على مبادئك عندما تكون على رأس الـ «CIA»، لأنك تحتاج إلى أن تكون قدوة يرغب العاملون بالوكالة فى اتباعها». ذكر أحد مسئولى البيت الأبيض مازحا أن «بانيتا» أصبح سريعا من مؤيدى السرية «كما لو أنه تحول إلى شخص آخر بسبب غزو كائنات فضائية دقيقة لجسده».

قد يكون لمستشارى «بانيتا» مصلحة خاصة فى معارضة الشفافية. وقد أشار مسئول آخر سابق بالـ «CIA» - وكان يعرف «برينان» جيدا - إلى أنه إذا امتد التحقيق فى برنامج «بوش» للتعذيب «فربما يفقد «برينان» و«كابس» الكثير». وقد أكد مؤيدو «برينان» أنه لم تكن لديه سلطة عملياتية على برنامج الاستجواب، كما أشاروا إلى أن مدة خدمته كرئيس لهيئة موظفى «تينيت» قد انتهت فى مارس من عام ٢٠٠١ قبل هجمات «القاعدة». ولكن «برينان» تم اختياره لاحقا كنائب مدير تنفيذى، وخدم فى ذلك المنصب حتى مارس ٢٠٠٣، وهى الفترة التى وقعت فيها أبشع الممارسات ضد المعتقلين. وبالإضافة لذلك، عادة ما كان «برينان» يطلع الرئيس «بوش» بشأن التطورات اليومية فى الحرب على الإرهاب. وقد وصف «برينان» نفسه كمنتقد داخلى لأسلوب الغمر بالماء، وهو موقف يؤكده أصدقاء له مثل «إيميل نخلة» المسئول الرفيع السابق. ومع ذلك، فأثناء مقابلة معى منذ عامين، دافع «برينان» عن استخدام أساليب الاستجواب «المحسنة» والممارسات غير العادية، والتى قامت الـ «CIA» من خلالها بالقبض على مشتبهى الإرهاب من جميع أنحاء العالم ونقلتهم إلى بلدان أخرى لسجنهم واستجوابهم؛ ولكثير من تلك البلاد سجلات حقوق إنسان مريعة. كما تساءل «برينان» عن تعريف بعض الناس لـ «التعذيب»، حيث قال: «أعتقد أن التعذيب هو أن أضطر لركوب السيارة مع أطفالى وهم يشغلون موسيقى الراب بصوت عال». وعندما سألته إن كانت أساليب الاستجواب «المحسنة» ضرورية لحماية أمريكا، أجاب: «هل ستكون الولايات المتحدة عاجزة إذا لم تتمكن الـ «CIA» فعلا من ممارسة تلك الأساليب من الاعتقال واستخلاص المعلومات؟ سأجيب بنعم».

قال «أنتونى ليك» - مستشار الأمن القومى فى عهد «كلينتون» عن «برينان»: «لقد عرفت «جون» لمدة طويلة، وهو رجل جيد فعلا. رأيى أنه لا يمكن التخلص من الوكالة كلها». فى الواقع أن «ليك» رشح «برينان» لحملة «أوباما» الانتخابية عندما كانت تبحث عن مستشارى استخبارات، وذلك بعد التشاور مع صديقهما المشترك «جورج تينيت». إن مجتمع الاستخبارات الأمريكى حميم جدا، مما يجعل من اقتحامه بالأساليب الفكرية القديمة أمرا صعبا على أى رئيس.

بالفعل، يقول محلل واسع الاطلاع وعلى صلة وثيقة بالبيت الأبيض إن الـ «CIA» كانت تمارس ضغوطا شديدة لحث «أوباما» على إقرار شكل ما من الاعتقال الوقائى لمشتبهى الإرهاب. وينكر متحدث رسمى للوكالة ذلك. ولكن المحلل يقول: «بالتأكيد هم يريدون مرونة احتجاز الناس فى شكل من أشكال الاعتقال. كانوا يقولون «نحتاج سلطات حكيمة». لقد كانوا يقدمون للرئيس سيناريوهات مفزعة».

من ناحيته، اقتنع «بانيتا» أن تسليم المعتقلين إلى جهات أخرى هى أداة تستحق الاحتفاظ بها. لقد بدأ برنامج التسليم - بصورة مراقبة بعناية أكثر - أثناء إدارة «كلينتون»، ولكنه تحول فى عهد «بوش» إلى ما سماه «جون راسدان» المحامى السابق بالـ «CIA» بـ «الأمر المقزز». لقد تم اعتقال ما يصل إلى سبعة أشخاص بطريق الخطأ؛ حيث لم يتم التعرف عليهم بصورة صحيحة؛ وزعم العديد من المشتبه بهم الآخرين أنه تم تعذيبهم بوحشية بواسطة حكومات أجنبية. أخبرنى «بانيتا»: «إن أسوأ أنواع تسليم المعتقلين هو النقل إلى موقع أسود. ولن يحدث ذلك بعد الآن. فلو قمنا بتسليم شخص ما، فسيكون ذلك إلى دولة لها ولاية قضائية عليه». ومع ذلك، فأثناء حكم «بوش»، ارتكبت بعض أبشع ادعاءات الإساءة فى حق معتقلين لم يتم تسليمهم إلى مواقع سوداء وإنما إلى مصر وسوريا والمغرب. يقول «بانيتا» إن إدارة «أوباما» سوف تتخذ الاحتياطات للتأكد من أن المشتبه بهم الذين يتم تسليمهم سيعاملون بإنسانية كما يتطلب القانون. قال «بانيتا»: «لقد تحدث إلى وزارة الخارجية، وعلى رجالنا التأكد تماما من عدم إساءة معاملة الناس. ومن الواضح أن ذلك سيكون أكثر صعوبة فى بعض الأماكن. ولكن سيتوجب علينا أن نضغط للتأكد من عدم حدوث ذلك، لأن ذلك سيبدد كل ما قال الرئيس أننا نمثله». وقد أعلنت إدارة «بوش» أنها اتخذت احتياطات مماثلة.

من الواضح أن الـ «CIA» لم تفعل شيئا لمعاقبة العميلة التى أشرفت على أكثر الممارسات إساءة للسمعة، والمتعلقة ببائع سيارات ألمانى يدعى «خالد المصرى». لقد تم اعتقاله أثناء قضائه عطلة فى مقدونيا ونقلته الوكالة جوا إلى أفغانستان حيث جرى احتجازه فى زنزانة لمدة خمسة أشهر دون اتهام قبل أن يطلق سراحه. منذ البداية، شك فريق







بعد أن قام البعض من المدونين بتسجيل احتجاجات ضد «برينان»، قامت إدارة «أوباما» بسحب اسمه



الـ «CIA» أن تلك هى إحدى حالات الهوية المغلوطة. ولكن مسئولة الـ «CIA» فى «لانجلى» - طلبت الوكالة إبقاء اسمها سرا - أصرت على استمرار استجواب «المصرى». يتذكر أحد زملائها: «لقد نظرت فقط فى كرة الكريستال الخاصة بها وقالت إنه شخص سيئ». يقول «المصرى» إنه قيد بالسلاسل فى زنزانة متجمدة بدون فراش وأعطوا له ماء متعفنا تماما كان يشم رائحته عبر الغرفة. وقد تم تهديده وتجريده من ثيابه، واستطاع سماع معتقلين آخرين يصرخون جميعا من حوله. وبعد عدة أسابيع، علمت مسئولة الـ «CIA» أن جواز السفر الألمانى الخاص بـ «المصرى» لم يكن مزورا كما اشتبهت فى البداية، وأنه لم يكن الإرهابى المشتبه به التى اعتقدت الوكالة أنه هو. (كانت الأسماء متشابهة). ورغم ذلك رفضت المسئولة إطلاق سراحه. فى النهاية، بدأ «المصرى» إضرابا عن الطعام وفقد ستين رطلا من وزنه. وقد ذهب المتشككون فى الوكالة - بدون علم المسئولة - إلى «تينيت» رأسا، والذى أدرك أن وكالته كانت تعامل بوحشية رجلا بريئا. وقد تم إطلاق سراح «المصرى» بعد ١٤٩ يوما. ولكن المسئولة لم تعاقب؛ فى الحقيقة - كما يقول زميل سابق لها - «إنه قد تم ترقيتها مرتين». فى الوقت نفسه، لم يستطع «المصرى» مقاضاة حكومة الولايات المتحدة سواء للحصول على اعتذار أو تعويض عن الأضرار، لأن المحاكم تعتبر أن مجرد وجود عمليات التسليم سر حكومى، وهو وضع أيدته حتى الآن وزارة العدل فى عهد «أوباما».

لم توجه أبدا أية اتهامات جنائية ضد أى مسئول فى الـ «CIA» تورط فى برنامج التعذيب، على الرغم من أن ثلاثة سجناء على الأقل ممن جرى استجوابهم بواسطة العاملين بالوكالة قد لقوا حتفهم نتيجة لسوء المعاملة. فى الحالة الأولى، تجمد حتى الموت تحت إشراف الـ «CIA» فى أفغانستان معتقل مجهول الهوية بعد تقييده بالسلاسل على أرض خرسانية طوال الليل مجردا من ثيابه. وقد تم دفن جثمانه فى قبر غير معلوم. وفى الحالة الثانية، توفى سجين عراقى يدعى «مناضل الجمادى» فى الرابع من نوفمبر عام ٢٠٠٣ أثناء استجوابه بواسطة الـ «CIA» فى سجن «أبو غريب» خارج بغداد. وقد اكتشف محقق جنائى أنه قد تم صلبه؛ ومات بسبب الاختناق بعد تعليقه من ذراعيه وهو مغطى الرأس وتعرض أيضا لكسور فى الضلوع. وقد صنف أطباء الجيش الحالة باعتبارها جريمة قتل. وقد مات سجين ثالث بعد استجواب شارك فيه مسئول بالـ «CIA»، على الرغم من أن المسئول لم يتسبب بالوفاة على ما يبدو. (وقد اختفى العديد من المعتقلين الآخرين ولم يؤخذوا فى الحسبان، وفقا لما ذكرته منظمة مراقبة حقوق الإنسان).

أثناء عمله بالـ «CIA»، قدم «جون هيلجرسون» - المفتش العام السابق - قضية الصلب مع حوالى ستة حوادث أخرى إلى وزارة العدل لإمكانية الملاحقة القضائية. ولكن ملفات القضية تم التلاعب بها. فقد أخبرنى مسئول مطلع على القضايا أن الوكالة قامت بتحريف استفسارات للجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ تطلب معلومات حول أى إجراءات عقابية داخلية. (أخبرنى «هيلجرسون»: «لقد تمت معاقبة بعض الأفراد. وهناك آخرون لم يعودوا يعملون بالوكالة»).

يعترف «بانيتا» أنه مازال يعمل بالـ«CIA» بعض من تلوثوا ببرنامج التعذيب. ويقول: «أنا أحترم فعلا الناس الذين يقولون لم يكن يتوجب علينا أن نتورط فى مسألة الاستجوابات، ولكن كان علينا القيام بالأعمال الموكلة إلينا. لا أعتقد أنه يجب معاقبة من كانوا يقومون بواجبهم. إذا كان لديك رئيس يصدر أحكاما خاطئة، فإن الـ «CIA» هى التى تدفع الثمن».

فى الأول من يونيو، أكد نائب الرئيس السابق «تشينى» فى حديث أن الـ «CIA» - وليس البيت الأبيض - هى التى اقترحت أولا إيذاء السجناء أثناء الاستجوابات، حيث قال: «لقد جاءت المبادرة من جانبهم. كانت لديهم بضع قضايا اعتقدوا فيها أن اللجوء إلى طرق الاستجواب المحسنة سوف يأتى بالمعلومات اللازمة». ولكن «بانيتا» كانت له وجهة نظر أخرى، حيث قال: «ليس لدى أدنى شك. إلى حد ما، لقد فرض علينا موضوع الاستجواب، لأن كلا من الجيش ومكتب التحقيقات الفيدرالى انسحبا منه، وهكذا تكالب الجميع على الـ «CIA». إن ذلك صحيح من الناحية الفنية، رغم أن مكتب التحقيقات الفيدرالى «انسحب» من استجوابات مشتبهى الإرهاب بعد أن وصلت إلى مديره «بوب مويلر» شكاوى من عميل يدعى «على صوفان» بأن طرق استجواب الـ «CIA» وصلت إلى «الحد الفاصل للتعذيب». وقد أخبرنى «جون هيلجرسون» أنه يعتبر الـ «CIA» والبنتاجون والبيت الأبيض جميعا مسئولين بنفس الدرجة: «لقد تضامنوا جميعا فى ذلك».

بدون تحقيق عام شامل سيكون من الصعب التوصل إلى الحقيقة وراء مثل تلك الاتهامات المتناقضة. أخبرنى «ناثانيال ريموند» الذى يعمل مع جماعة دفاع «أطباء حقوق الإنسان Physicians for Human Rights» يقول الجميع «لقد انتهى الأمر، كل شىء معروف». ولكن ما هو المعروف؟ ما زلنا لا نعلم عدد المعتقلين الذين كانوا فى المواقع السوداء أو من هم. لا نعلم بالضبط ما هو دور البيت الأبيض أو الـ «CIA». إننا نحتاج حصرا كاملا، وخاصة أن الأمر يتعلق باختصاصيى الصحة. وقد لاحظ أن







تعهد «أوباما» بإغلاق جوانتانامو والذى يحتجز به أربعة عشر سجينا سابقا للـ «CIA». ولكن رسالته كانت مشوشة فيما يتعلق بقضية المساءلة



مذكرات وزارة العدل المفرج عنها مؤخرا تتضمن إشارات عديدة إلى عمال طبيين تابعين للـ «CIA» شاركوا فى جلسات الاستجواب التعسفية. قال «ريموند»: «لقد كانوا المصممين والمشرعين والمنفذين. ربما كانت تلك أكبر فضيحة أخلاقية طبية فى التاريخ الأمريكى على الإطلاق. إننا نحتاج لإجابات».

يطالب بعض المحافظين أيضا بمزيد من الشفافية. وقد أخبرنى «ويل تافت» المستشار العام لوزارة الخارجية فى إدارة «بوش»: «تقول الـ «CIA» إنها احتجزت فى السابق حوالى عشرين أو ثلاثين شخصا ولكنها لم تعد تحتجزهم. لم يتم الإفصاح أبدا عن تلك الأسماء. يجب على الحكومة أن تحدد كل من شاركوا فى البرنامج وتحاسبهم».

لقد فتحت لجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ مؤخرا وبمفردها تحقيقا مغلقا حول برنامج التعذيب؛ وقد أخبرنى «بانيتا» أنه تلقى تأكيدات بأن عمل أعضاء اللجنة «سيدور حول الدروس المستفادة وليس ملاحقة الأفراد». ولذلك فإن الـ «CIA» «تتعاون معهم وتمنحهم كافة المعلومات التى يحتاجونها لمحاولة إجراء تحقيقهم». كما يقول إن اللجنة قد حددت بالفعل حوالى عشرة ملايين وثيقة متصلة بالموضوع. وأضاف: «سيستغرق الأمر بعض الوقت».

إن تحقيق مجلس الشيوخ سوف يبحث - من بين أشياء أخرى - فى مسألة فعالية التعذيب. لقد ادعى «ديك تشينى» مرارا أن الاستجوابات «المحسنة» تأتى بنتائج. ويقول المعارضون إن التعذيب غير مجد. ولا يميل «بانيتا» لرأى معين. فقد أخبرنى: «الحد الأدنى سيكون هكذا: نعم، تم جمع معلومات هامة من هؤلاء المعتقلين. لقد توفرت معلومات تم فعلا بناء عليها اتخاذ إجراءات عملية. فهل كانت تلك هى الطريقة الوحيدة للحصول على تلك المعلومات؟ أعتقد أن ذلك سيبقى دائما سؤالا بلا جواب». ولكنه واثق من أننا «دفعنا ثمنا لاستخدام تلك الأساليب».

إن عددا من الوثائق المفرج عنها حديثا يطرح سؤالا حول فكرة أن الـ «CIA» لعبت دورا سلبيا فيما يتعلق بسياسة التعذيب. يشير تقرير للجنة الخدمات العسكرية لعام ٢٠٠٨ إلى أن الوكالة استأجرت علماء نفس متعاقدين باشروا تصميم وتنفيذ صور محددة من الإساءات - مثل حبس المعتقل فى وضع منحنى فى قفص صغير بلا هواء - لعدة أشهر قبل أغسطس ٢٠٠٢ عندما منحت وزارة العدل تفويضا قانونيا من خلال «مذكرة التعذيب» المشينة الصادرة عنها. ولمزيد من الإزعاج، تشير ملاحظات فى مذكرات مكتب المستشار القانونى إلى أن بعض محققى الـ «CIA» ربما تجاوزوا ببشاعة الحدود القانونية التى وضعتها

وزارة العدل والبيت الأبيض. مما قد يضعهم خارج المنطقة القانونية الآمنة التى حددها «أوباما» و«بانيتا». فى عام ٢٠٠٢، فوضت إدارة «بوش» المحققين فى إعادة استخدام أساليب الغمر بالماء الآمنة ظاهريا والمستخدمة فى التدريب العسكرى. ولكن بدلا من تحديد عدد الجلسات باثنتين كحد أقصى ولمدة عشرين ثانية فى كل مرة، وبإغراق مقنن كما ورد فى التدريب العسكرى، فقد أجبر محققو الـ «CIA» أحد المعتقلين على التعرض لتلك المحنة ١٨٣ مرة على الأقل، وواحد آخر ٨٣ مرة على الأقل. وبدلا من استخدام مقدار محدود جدا من الماء كما حددت وزارة العدل، قام محققو الـ «CIA» بتعريض المعتقلين لـ «كميات هائلة» من الماء. وتستشهد المذكرات بالنتائج التى توصل إليها المفتش العام «هيلجرسون» فى تقريره السرى لعام ٢٠٠٤ حول الأساليب التعسفية، حيث قام المحققون بزيادة الألم بصورة متعمدة حتى يصبح الشعور بالغرق «أكثر إيلاما وإقناعا». كما توصل «هيلجرسون» أيضا إلى أن علماء النفس والمحققين الذين صمموا برنامج الوكالة - والذين زعموا أن أحكامهم استندت إلى معرفتهم بالمعايير العسكرية - «ربما أساءوا استخدام خبراتهم». بالإضافة لذلك، توصل مكتب الخدمات الطبية التابع للـ «CIA» إلى أنه «لا يوجد ما يدعو للاعتقاد بأن استخدام أسلوب الغمر بالماء بالمعدل والكثافة اللذين استخدم بهما من قبل العالم النفسى/المحققين كان فعالا أو آمنا من الناحية الطبية».

قام «بانيتا» فى أبريل بفصل جميع المحققين المتعاقدين مع الـ «CIA»، بما فى ذلك عالمى النفس العسكريين السابقين الذين قاما على ما يبدو بتصميم أبشع طرق الاستجواب: «جيمس ميتشيل» و«بروس جيسين». وقد أوصى الرجلان اللذان أدارا شركة استشارية «ميتشيل جيسين وشركاه Mitchell, Jessen & Associates» بأن يطبق المحققون على المعتقلين نظريات «العجز المستفاد» القائمة على تجارب إساءة معاملة الكلاب. وقد ورد أن رئيسا المؤسسة تقاضيا من الوكالة ألف دولار يوميا مقابل خدماتهما. قال «بانيتا»: «لقد وفرنا أيضا بعض المال فى تلك الصفقة». (من العجيب أن الـ «CIA» وقعت عقدا جديدا مع المؤسسة بعد شهر من تولى «أوباما» لمنصبه).

ووفقا لما ذكرته مجموعة التحقيقات الإخبارية «بروبابليكا ProPublica»، فقد أغلقت مؤسسة «ميتشيل» و«جيسين» - التى وصل عدد العاملين بها عام ٢٠٠٧ إلى ١٢٠ شخصا - مؤخرا مكاتبها فى «سبوكين» بواشنطون. وكان من بين العاملين «دوس مارتينيز» المحقق السابق للـ «CIA» فى برنامج المواقع السوداء؛ كما كان «جوزيف

ماتارازو» الرئيس السابق لـ «الجمعية النفسية الأمريكية American Psychological Association» عضوا بمجلس إدارة الشركة. (وفقا لما ذكره «كيرك هوبارد» الرئيس السابق لقطاع الأبحاث والتحليل بالـ «CIA»، فإن «ماتارازو» عمل فى مجلس إدارة وكالة ذات معايير احترافية أثناء برنامج الاستجواب، ولكنه لم يستشر بشأن الاستجوابات).

يبقى هناك احتمال لرفع دعاوى قضائية ضد المتعاقدين المسيئين ويمكن أن يكشف أى منها عن سلسلة من التفويضات المؤدية مباشرة إلى كبار المسئولين فى الـ «CIA» والبيت الأبيض. قال «جورج برينت ميكوم الرابع»، وهو محام يمثل «أبو زبيدة» أحد سجناء الـ «CIA» والذى تعرض مرارا للغمر بالماء: «أود أن أقاضى «ميتشيل» و«جيسين» فورا». (كان «ميتشيل» مستشارا فى استجواب «أبو زبيدة»). يقول محامو «أبو زبيدة» إن حالته العقلية تدهورت بعد تعرضه للغمر بالماء، وهو يتعاطى منذ ذلك الوقت عقار «هالدول Haldol» المضاد لمرض الذهان.

يتوقع عدد قليل من النشطاء أن تفلح الدعاوى القضائية ضد الـ «CIA» أو المتعاقدين معها. ولكن «جون سيفتون» - وهو محام متخصص فى قانون حقوق الإنسان، وعضو فى الفريق القانونى لـ «أبو زبيدة» - يشير إلى أن هناك طرق أخرى للكشف عن المحن التى تعرض لها المعتقلون. فقد ذكر «سيفتون»: «إن محاكمة المعتقلين ذوى الأهمية الكبرى ستكون هى المساءلة. فمن المستحيل محاكمة هؤلاء المعتقلين دون السماح لهم بالإدلاء بكافة المعلومات عن تعذيبهم».

وهناك إجراءات قانونية أخرى تهدد بكشف المزيد من أسرار برنامج تعذيب الـ «CIA». فقد دعا «جون دورهام» - المدعى المعين من قبل وزارة العدل - هيئة محلفين كبرى فى واشنطون إلى دراسة إمكانية توجيه اتهامات جنائية إلى موظفى الـ «CIA» المتورطين فى تدمير ٩٢ شريط فيديو توثق استجوابات «أبو زبيدة» ومعتقلين آخرين. وقد أخبرنى «ميكوم» أنه التقى «دورهام» عدة مرات، ويعتقد أنَ نطاق التحقيق الذى يقوم به ربما امتد ليشمل البحث عما إذا كانت الـ «CIA» بدأت تطبيق طرق وحشية على «أبو زبيدة» قبل أن تتلقى تفويضا كتابيا من وزارة العدل. (قد يوفر ذلك حافزا إضافيا لتدمير أشرطة الفيديو). قال «ميكوم»: «لدى إحساس أنه جاد جدا». (امتنع «دورهام» عن التعليق). فى الوقت نفسه، يرفع «الاتحاد الأمريكى للحريات المدنية American Civil Liberties Union» دعوى للوصول إلى وثائق سرية تكشف محتويات أشرطة الفيديو المدمرة. وقدم «بانيتا» الأسبوع الماضى إفادة تعارض الكشف عن تلك الوثائق التى قال إنه «يتوقع أن تؤدى إلى أضرار جسيمة للغاية بالأمن القومى». مرة أخرى، كان يحمى أسرار الاستجواب فى عهد «بوش».

يأتى الضغط أيضا من الخارج. ففى إيطاليا يحاكم غيابيا ٢٤ من موظفى الـ «CIA» للمشاركة فى عملية تسليم عام ٢٠٠٣. ولم يعد «روبرت سيلدون ليدى» - رئيس محطة الوكالة فى ميلانو فى ذلك الوقت - يستطيع السفر إلى إيطاليا دون خطر الاعتقال، وكذلك بقية موظفى الـ «CIA» الواردة أسماؤهم فى القضية. كما فتحت إسبانيا تحقيقا جنائيا حول ستة من مسئولى إدارة «بوش» لصلتهم بالتعذيب. وفى لندن، يقاضى أحد ضحايا التسليم السابقين السلطات البريطانية. وبعد أن حكم قاض بريطانى بالسماح لصاحب الدعوى «بنيام محمد» بالوصول لوثائق الـ «CIA» الاستخباراتية التى تبادلتها الوكالة مع السلطات البريطانية، أدهشت إدارة «أوباما» الليبراليين بالضغط على الحكومة البريطانية لمنع الكشف عن الوثائق.

تواصل العديد من التحديات القانونية العديدة الأخرى لبرنامج استجواب الوكالة شق طريقها خلال النظام القضائى الأمريكى. وقد رفض قاض فى كاليفورنيا مؤخرا ادعاءات وزارة العدل بوجود غطاء سرى حكومى فى قضية رفعها خمسة من ضحايا التسليم ضد «جيبيسين داتابلان Jeppesen dataplan» وهى شركة تابعة لـ «بوينج Boeing» قدمت خطط الطيران لعمليات تسليم الـ «CIA». وقد أشار «أوباما» فى مؤتمر صحفى فى أبريل إلى أنه أعاد النظر بشأن إصرار وزارة العدل على وجود غطاء سرى حكومى فى القضية، ولكن الإدارة أعادت فى الثانى عشر من يونيو تأكيد موقفها الأصلى.

فى بداية هذا الشهر (يونيو)، انسحب «فيليب مود» مرشح «أوباما» لمنصب قيادى فى الأمن الداخلى، وذلك بعد أن أصبح من الواضح أن اعتماده فى مجلس الشيوخ سوف يتحول إلى معركة حول دوره السابق فى برنامج استجواب الـ «CIA». وقد أخبرنى «رام إيمانويل» فى حديثه عن التحديات العديدة الناتجة عن فضيحة التعذيب: «لن أسمى ذلك صراعا، بل مشكلة يومية. هناك صف طويل من القضايا التى تتطلب الرد عليها. الكثير منها. ولكنى قابلت الرئيس فى «غرفة الأزمات»، وأعلم أنه يرغب فى المضى قدما».

يقوم «بانيتا» بالفعل بصياغة أحد الإصلاحات الهامة: فهو يخطط لاستبدال برنامج الاستجواب المسىء ببديل مقبول قانونيا وغير تعسفى. وتقوم قوة عمل يقودها «فيليب هيمان» - الأستاذ بكلية هارفارد للقانون - بتقديم المشورة له بشأن اقتراح بتشكيل فريق استجواب من صفوة الحكومة الأمريكية، يعمل به بعض أفضل العاملين فى البلاد من الـ «CIA» ومكتب التحقيقات الفيدرالى والجيش، ويعتمد على مشورة علماء الاجتماع واللغويين وغيرهم من الخبراء. قال «بانيتا»: «إن ما أسعى إليه هو إقامة كيان نطور فيه فريقا من المحققين المدربين على أحدث الأساليب. بصراحة، هذا هو الأمر الوحيد الذى يهمنى. ليس هناك أبدا العدد الكافى ممن لديهم قدرات الاستجواب التى سوف نحتاجها».



رغم كل شىء، يعتقد الكثير من النقاد أن الوكالة يجب أن تتفاهم مع ميراث عهد «بوش»



ويصف «هيمان» جهود تشكيل «أفضل فريق استجواب غير تعسفى فى العالم» بأنها تعادل «ما يشبه جهود وكالة ناسا لإنزال إنسان على سطح القمر، ولكن فى مجال الاستخبارات البشرية. وذكر أن أعضاء قوة العمل قد سافروا إلى فرنسا وإنجلترا واليابان واستراليا وإسرائيل، لجمع معلومات مقارنة حول ما يفعله المحققون. وأضاف: «لقد ذهبنا أيضا إلى أفضل الناس فى الولايات المتحدة».

لدى «بانيتا» طموحات كثيرة خلال مدة عمله بالوكالة. وقد حدثنى عن حاجة الـ «CIA» لزيادة مهارات لغاتها الأجنبية وتوظيف عاملين من خلفيات أكثر تنوعا يستطيعون اختراق المناطق المعادية فى العالم بسهولة أكبر. ولكن جهود الـ «CIA» لـ «تمزيق وتدمير وتفكيك» «القاعدة» تبقى لها - كما يرى «بانيتا» - الأولوية القصوى. كما أخبرنى أن الوكالة تواصل الحصول على معلومات استخبارية تفيد بأن «القاعدة» تخطط لهجمات على أمريكا. وقال: «إننا نقوم بعمليات فعالة رائعة فى باكستان، كما أعتقد أننا نقوم بعمل جيد فى محاولة تدمير «القاعدة». ولكن من الواضح أنها ما زالت تشكل تهديدا». وقال إن الخطر الأكبر يكمن فى أن «القاعدة» سوف «تجد ملاذات آمنة أخرى تلجأ إليها، فى دول مثل الصومال واليمن». وقال «بانيتا»: «إن مهمتنا هى أن نتأكد أنهم لن يجدوا مكانا للاختباء. إن العثور على زعماء «القاعدة» - وخاصة «أسامة بن لادن» و«أيمن الظواهرى» - وتقديمهم للعدالة سوف يبقى فى بؤرة اهتمامنا. كما يمكنك أن تتصور، فليس الأمر يسيرا».

تطرقت جريدة «تايمز» الأسبوع الماضى إلى الصدام المتزايد بشأن الصلاحية القضائية بين «بانيتا» و«دينيس بلير» مدير الاستخبارات الوطنية. وقد صرح «بانيتا»: «إنى مندهش أمام هذا العدد من التحديات الذى يجب على المرء أن يواجهه فى هذا المنصب. إنك شرطى مرور، بطرق عديدة». قال «بانيتا» إنه عندما كان رئيسا لهيئة موظفى البيت الأبيض، كان باستطاعته تفويض القرارات الكبرى للرئيس. وقال وهو يحدق عبر أراضى الـ «CIA» الهادئة «ومع ذلك، فإن القرارات هنا تأتى إلى. والكثير منها يتعلق بالحياة والموت». وأضاف أن كل ما يستطيع فعله فى بعض الأحيان هو أن «يردد كثيرا تحية السيدة العذراء». ■

اليَمَن القبيلة تعود للخط الأول

ميساء شجاع الدين

■■ كيف تحولت الوحدة اليمنية من مخرج لشطرين مشحونين بالمشاكل إلى بلد له مشاكل تفوق كل ما سبق وإلى مأزق لا يمكن الخروج منه بسهولة؟ فبعد ما كان المفترض أن تشهد البلاد ربيعاً هادئا بعد اتفاق المعارضة والحكومة على تأجيل الانتخابات البرلمانية من إبريل الماضى لعام ٢٠١١، كان ربيع اليمن وذكرى وحدته ساخناً كما لم يسبق. ليستمر المنحنى الذى سارت فيه البلاد منذ عشرين عاماً فى الانحدار معلناً أنه كلما انسد باب تجربة انتخابية فى البلاد سواء بالتأجيل أو التزوير فُتح مقابله باب آخر للجحيم.

يعتبر اليمن اليوم هو أقرب ما يكون لامتداد اليمن الشمالى- سابقاً- وما يحدث فيه هو تطور لأخطاء النظام الذى حكم اليمن الشمالى قبل الوحدة بأحد عشر عاماً واستمر بعدها عشرين عاماً.

عندما تولى الرئيس على صالح الحكم فى اليمن الشمالى عام ٧٨ بعد اغتيال سلفه الذى لم تتجاوز فترة رئاسته عدة أشهر، بطبيعة الوضع السياسى المأزوم وتعقيدات الوضع الاجتماعى والسياسى لليمن بدا أمراً مشكوكاً فيه أن ينجح على صالح فى حكم اليمن طويلاً، لكن بمرور الوقت أثبت على صالح قدرات فذة فى نسج التحالفات بمرونة ونجاح يُشهد له، جعلت الآخرين بالرغم من مساوئ نظامه يعتبرونه الشخص الأقدر على التعامل مع مشاكل اليمن الكثيرة والمعقدة.

لكن هذه القدرات صارت موضع شك من قبل الأطراف الدولية والمحلية منذ بدأت حرب صعدة فى الشمال عام ٢٠٠٤م، وتكاثرت أزمات اليمن حتى بدا حالياً أن عقد الدولة ينفرط ويصعب جمعه من جديد.

منذ تولى الرئيس صالح الحكم فى يونيو عام ٧٨ اعتمد على سياسة التحالفات فى إدراك مسبق منه لضعف الدولة الحديثة والمركزية فى اليمن بسبب طبيعة البلاد الجغرافية وموروثات تاريخها التى انعكست على الوضع الاجتماعى والسياسى الهش. وكان الحليفان الرئيسيان لعلى صالح هما القبيلة والتيار الإسلامى.

لم يكن هذا فقط، بل تمكن على صالح من كسب ثقة دول الجوار بقدرته على صد المد الماركسى القادم من اليمن الجنوبى، وامتدت قدرته على كسب الآخرين ومراضاتهم إلى الشطر الجنوبى من البلاد آنذاك. وهذا أمر يشهد له أبرز القيادات الجنوبية فى لقاء حديث فى قناة الجزيرة لحيدر العطاس- أول رئيس وزراء لليمن وأحد أبرز قيادات الحزب الاشتراكى- عندما تحدث عن حجم الاختراق فى أعلى مراكز القرار السياسى فى دولة اليمن الجنوبى-سابقاً- ذاكراً أول لقاء بينه وبين الرئيس صالح عام ٨٥، بقول صالح: «أنتم تجتمعون فى المكتب السياسى وبعد المغرب بعد اجتماعكم أنا عندى كل المقررات».

ووصل هذا الاختراق أو النفوذ ذروته عند حدوث الحرب الأهلية الدامية فى اليمن الجنوبى- سابقاً- عام ١٩٨٦ والتى كانت بين فصيلى عبد الفتاح إسماعيل الذى قتل أثناء الحرب، وعلى ناصر محمد الذى فر بعدها مع مجموعة كبيرة من رفاقه إلى اليمن الشمالى- سابقاً- واستضافهم الرئيس على صالح كحلفاء له يستخدمهم ورقة ضغط على الشطر الجنوبى.

وسارع وتيرة الأحداث سقوط الاتحاد السوفيتى حتى صارت دولة الجنوب المنهارة اقتصادياً والمكشوفة سياسياً ثمرة ناضجة فى يد رئيس طموح بالشمال هو على عبد الله صالح، الذى استطاع دفع الأحداث بقوة فى اتجاه الجنوب مستغلاً اندفاعا شعبيا عاطفيا جارفا تجاه الوحدة.

وحدة مستعجلة

وأزمة مستعجلة أيضاً

تعجل قيام الوحدة حتم وجود فترة انتقالية استمرت ثلاثة أعوام شهدت فيها اغتيالات واسعة لكوادر الحزب الاشتراكى الذى يمثل الطرف الجنوبى فى دولة الوحدة، وكذلك تحملت الدولة الحديثة أعباء اقتصادية ضخمة ناجمة عن تداعيات حرب الخليج عام ٩٠، غير مديونية دولة الجنوب التى بدت مهولة على قلة عدد سكانها.

وبعد مماحكات سياسية شديدة بين الطرفين، ناتجة عن سوء النية المبيت والخلفية الاستبدادية لهما، جرت أول انتخابات برلمانية إبريل ٩٣. ونتيجة للغلبة السكانية للشمال، التى تبلغ خمسة أضعاف الجنوب تراجع تمثيل الحزب الاشتراكى فى الحكم من المناصفة إلى شريك ثالث بعد حزب المؤتمر الشعبى الذى يمثل حكومة الشمال، ومن ثم الإسلاميين الذين كانوا فى تحالف قوى مع صالح ضد من كانوا يعتبرونهم كفرة ملحدين.

بطبيعة الحال، فقدان التوازن السريع هذا مع حصيلة عدم الثقة التى كونتها سنوات الوحدة للرغبة المتبادلة من كلا الطرفين فى التخلص من شريكه وعدم تحملهما لتجربة الديمقراطية التى فرضها توازن القوى تفجرت الأوضاع فى البلاد إلى حرب أهلية عام ٩٤، ومن المهم هنا معرفة تحالفات هذه الحرب ونتائجها التى تؤثر فى مستقبل البلاد حتى الآن، بل إن أمراءها أو القادة السياسيين الذين دفعوا لها، هم ذاتهم من يعطوا لأنفسهم الحق فى تمثيل القوى الشعبية والسياسية فى البلاد.

يجافى الحقيقة كثيراً وصف الحرب فى ٩٤ بأنها بين الجنوب والشمال، ويعد تبسيطاً وصفها للحرب بين طرف يريد الانفصال وآخر يريد الوحدة. فلولا القوى العسكرية الجنوبية لما كانت رجحت كفة القوات الحكومية، فحينها نجح الرئيس صالح بنسج تحالفاته فى الجنوب بعكس غريمه على سالم البيض- آخر رئيس لليمن الجنوبى- الذى فشلت محاولاته فى نسج أى تحالف مواجه له وأبرز تحالفات الرئيس هى:

١- التيارات الإسلامية المختلفة وعلى رأسها تلك العائدة من أفغانستان، والذين استضافتهم اليمن، وأبرز قادتهم الروحيين الشيخ عبد المجيد الزندانى وقادتهم الميدانيين فى الجنوب طارق الفضلى.

٢- قوات جنوبية استطاع كسب ولائها بعد حرب ٨٦ الأهلية فى الجنوب وأثناء فترة الوحدة، وأبرزها الوية بقيادة على ناصر وعبد ربه منصور.

٣-تمكن صالح أيضاً من الاستفادة من صمت القبائل فى الجنوب أو تعاطف بعض القيادات التقليدية فى الجنوب مثل طارق الفضلى، وهذا نتاج طبيعى لسياسة الحزب الاشتراكى التى حاربت هذه القوى بشراسة.

٤-ارتكب البيض خطأ قاتلا حين أعلن الانفصال بعد أقل من شهر من نشوب القتال، تسبب فى خروج العديد من الألوية الجنوبية وأصبحت بعضها قوات مرتدة عليه.

نشوة النصر

بعد حرب أقصر من جميع التوقعات، تمكنت خلالها حكومة صنعاء من السيطرة على الوضع بعد شهرين ونصف فقط، بدأت مرحلة جديدة فى سياسة الحكومة اليمنية.

هذه السياسة لا يمكن وصفها أو تفسيرها بشىء غير الغرور والعُنجهية، فالرئيس لم يحرص على الاحتفاظ بتحالفاته.

ففى البداية تحالفاته مع الإسلاميين التى بدأت مبكراً منذ بداية توليه السلطة دخلت فى مرحلة تجاذب سياسى شديد وصلت لمرحلة القطيعة. أما تلك التحالفات الجنوبية فتعاملت معها حكومة صالح باستخفاف شديد أو بشكل انتقامى، فالجيش الجنوبى تم تسريح معظمه بشكل تقاعد مبكر أو تسليم قياداته مناصب رمزية.

والحزب الاشتراكى الذى يمثل الشق السياسى المتبقى من دولة الجنوب حاربه صالح بشراسة رغم تبرؤ الحزب من الانفصال ودعمه الكامل لاستمرار الوحدة.

هذه التصفية للشقين العسكرى والسياسى من دولة الجنوب عززت الشعور لدى الكثيرين فى الجنوب، أن ما يحدث ليس شراكة أو وحدة اندماجية، بل أقرب ما يكون للاستعمار الداخلى خاصة مع الفشل المستمر للحكومة فى سياساتها الاقتصادية وخلق هوية وطنية مشتركة.

شهد اليمن بمختلف أرجائه فى الفترة ما بين ١٩٩٤- ٢٠٠٩ الكثير من مظاهر الاحتجاج ضد سياسات الحكومة والأوضاع الاقتصادية المتردية، لكن وتيرة هذه الاحتجاجات ارتفعت بشدة مؤخراً منذرة بعواقب وخيمة على البلاد.

توسعت الاحتجاجات الشعبية فى الجنوب عام ٢٠٠٦، ولقد بدأت بمطالب حقوقية تمثلت فى مطلبين أساسيين هما:

١- قضية الاستيلاء على الأراضى فى مدينة عدن، وهى قضية شديدة الحساسية وأكثر ما تستثير المواطنين. ظهرت هذه القضية جراء سياسة الحكومة التى تعاملت مع مدينة عدن كغنيمة بسط على أراضيها بعض المتنفذين والقادة العسكريين المنتصرين من الحرب الأهلية.

وحاول على صالح معالجة هذه المشكلة بتشكيل لجنة رفعت له تقريراً حددت فيه أسماء خمس عشرة شخصية متنفذة ومتورطة بشكل كبير فى عملية سلب الأراضى، لكن يبدو أن الرئيس آثر مصالحه المرتبطة بهؤلاء الأشخاص على حقوق المواطنين وتجاهل التقرير برمته.

٢- قضية المتقاعدين وهم جنود الجيش الجنوبى الذين سرحتهم الحكومة بعد الحرب ولاقوا سياسة متعسفة جداً.

واجهت الحكومة هذه المظاهرات بقمع شديد زاد من استفزاز المواطنين

ورفع من سقف مطالبهم من مجرد مطالب حقوقية لمطالب إصلاحية سياسية شاملة وتطورت حتى وصلت لمطالب انفصالية.

استطاع هذا الحراك الشعبى إفراز قيادات له صارت تتواصل بشكل دائم مع القيادات الجنوبية المعارضة التى خرجت بعد حرب ٩٤ وعلى رأسهم حيدر العطاس.

ومن إبريل الماضى حتى الآن تزايدت وتيرة هذه الاحتجاجات ومعها قمع الحكومة حتى وصلت لمناوشات مسلحة فى بعض المناطق مثل الضالع، ليبدأ منحنى خطير فى الأحداث تنجرف له البلاد.

وزاد من سخونة الموقف التحركات الدبلوماسية المكثفة لقيادات الجنوب فى الخارج، واكتملت الصور بالظهور الرمزى لآخر رئيس لليمن الجنوبى على سالم البيض فى الذكرى التاسعة عشرة للوحدة يوم ٢٢ مايو الماضى يطالب فيه بفك الارتباط.

حلول تتكرر وأزمات تتوالى

المطالب بالكونفدرالية والإصلاح السياسى بدأت تتراجع باستمرار بسبب ممارسات الحكومة القمعية وتعنتها لتحل محلها مطالب الانفصال، رغم أن الوحدة ظلت حتى فترة قريبة مبدأ وطنيا يلتف حوله الجميع حتى القادة الجنوبيون الذين خرجوا إثر حرب ٩٤ استندوا فى شرعيتهم على الوحدة، فـ«على سالم البيض» لم يكف فى الماضى بالتذكير أنه تنازل عن منصب الرئاسة لصالح الوحدة ، بينما حيدر العطاس فى آخر حواراته فسر إعلانهم الانفصال بأنه دفاعاً عن الوحدة. وبغض النظر عن طبيعة التناقض الكامن فى كلمته إلا أن هذا كان يؤكد قيمة الوحدة كمرجعية وطنية يتفق عليها معظم اليمنيين. لكن هذه المرجعية فى ظل ما يحدث من فوضى وغياب كامل لأى خيارات مستقبلية معقولة ستتراجع قيمتها وتضعف حتى تتوارى تماماً، وهذا ما شجع على البيض فى آخر ظهور له فى قناة الحرة يوم ٧ يوليو الماضى- ذكرى نهاية حرب ٩٤- على إنكار وجود هوية يمنية، معتبراً أن جنوب اليمن هو الجنوب العربى فقط، وهذا التصعيد فى الخطاب بالتأكيد قد يجد له صدى فى ظل أجواء الضغينة والانقسام التى تشهدها البلاد على عكس الالتفاف الوطنى السابق حول الوحدة فى الحرب الأهلية عام ٩٤.

هذه الأزمة ليست فقط الوحيدة التى يمر بها اليمن، بل هى وللمرة الثانية التى يواجه فيها على صالح منفرداً قوى متمردة، بعد تراجع قدراته فى نسج التحالفات وفقدانه للمصداقية، وخير مثال لذلك ما حدث ولا يزال يحدث فى صعدة، فهذه المحافظة الشمالية المتاخمة للحدود السعودية تشهد حروباً مستمرة منذ عام ٢٠٠٤ لم تتوقف وتيرتها حتى تعود للانفجار من جديد.



وبدا منذ أول لحظة اشتعل فيها فتيل هذه الحرب أن على صالح لا يوجد حوله أى قوى سياسية فاعلة مشاركة له، حيث رفضت المعارضة الوقوف بجانبه واعتبرتها حرباً مفتعلة ولم ينجح صالح إلا فى استقطاب التيار السلفى لصالحه بإثارة النعرات الطائفية على اعتبار أن المتمردين الحوثيين فى صعدة شيعة زيود وكذلك استفزاز الثأرات القبلية.

هذه الحرب ربما تقدم نموذجا مستقبليا لما قد تشهده البلاد فى المناطق الجنوبية، فالحراك الجنوبى ربما يخرج من كونه مجرد نضال سلمى إلى تمرد مسلح سوف يكون مقاربا لما تشهده صعدة من حرب عصابات تساعدها الطبيعة الجبلية لليمن والجيش الرسمى الذى استنزفته المعارك.

وفى المقابل، على صالح لا يزال وحيداً يواجه صراعا على السلطة فى صنعاء وتمرداً فى الشمال، أعلن تضامنه مع الحراك الجنوبى. ويمارس على صالح نفس الاستراتيجيات الخاطئة فى الجنوب، فها هو يتحالف مع السلفيين من جديد ضد الحراك الجنوبى ليعلن أحد قادتهم الشيخ الزندانى وقوفه الكامل ضد مطالب الانفصال واستصدار فتوى من علماء اعتبروا فيها الوحدة فرضاً واجباً. وكذلك لجأ على صالح إلى خلق بعض التحالفات الهشة فى الجنوب مثلما عمل فى صعدة عندما قام بتأليب القبائل على بعض، وعلى شاكلتها قام بتشكيل لجان الدفاع عن الوحدة لتتكفل بالصراع والاقتتال الداخلى مع بقية أبناء المحافظات الجنوبية.

وبطبيعة الحال فإن العبرة بالعواقب، بعد حرب استمرت خمسة أعوام فى صعدة لم تكن النتيجة إلا صراعات عسكرية دموية متقطعة تشهدها المنطقة لم تتوقف حتى الآن. هذا الصراع الطويل الأمد أنهك البلاد سياسياً واقتصادياً وما يحدث فى الجنوب قد يكون فى المستقبل القريب أمراً مشابهاً لذلك إذا ما استمرت الحكومة فى سياساتها الحالية.

المتربصون

ليس فقط التمرد الحوثى والقيادات الجنوبية التى عانت من التهميش هى من تعلن انضمامها للحراك الجنوبى، بل يساندها تنظيم القاعدة حيث أعلن قائد التنظيم على الوحيشى فى ١٣ مايو دعمه للحراك وهذه ربما حركة انتهازية من التنظيم الذى يبحث عن موطأ قدم أكبر فى اليمن بعد ما ضاق به الحال فى أماكن تواجده الطبيعى فى أفغانستان وباكستان، ويمكنه من خلال اليمن وباستغلال الوضع فى الصومال تشكيل تحالف قوى وقريب من منطقة مصالح حيوية لأمريكا.

وللقاعدة حضور قوى فى اليمن، وطالما كانت اليمن مرشحة لتلقى ضربة أمريكية لقواعد التنظيم فى أراضيها الذى ينشط جداً فى المنطقة الشرقية (مأرب والجوف وشبوه) الغنية بالبترول والمحرومة تماماً من أى عملية تنمية، وتحميها القبائل هناك.

وهذا التنظيم له أنصاره القدامى مثل: طارق الفضلى ذو النفوذ القوى فى أبين والذى شكل فى وقت سابق جيش عدن أبين الإسلامى المتورط فى قتل سياح غربيين عام ٩٩، وهو حليف قديم لعلى صالح ونسيب لرجل الجيش القوى على محسن الأحمر، وأعلن مؤخراً انضمامه للحراك.

ربما تنتظر القاعدة، لما يحدث فى الجنوب من فوضى، فرصة سانحة للاستغلال، وتوسعة نشاطها فى اليمن خاصة مع بروز جانب عقائدى شيعى فى أقصى الشمال لن تقبله أبداً.

وفى الواقع، تنظيم القاعدة حليف قديم للرئيس لكن العلاقة بينهما توترت بعد اضطرار الرئيس الخضوع للمطالب الأمريكية فى الحرب على الإرهاب وقد تكون هذه فرصة جديدة للانتقام أو أخذ بعض التنازلات من الرئيس.

القبيلة تعود للخط الأول

القبيلة فى اليمن تنظيم اجتماعى قديم كان دائما ما يسد فراغ وجود الدولة المركزية فى اليمن، وهى عامل أساسى ومهم فى تشكيل الوضع السياسى باليمن خاصة أنها مرشحة للظهور بقوة أكبر كلما ازداد ضعف الحكومة.

لطالما تبادل شطرا اليمن الاتهامات حول طبيعة وضع القبيلة فى الشطرين وكثيراً ما استندت مطالب الانفصال على إبراز جوانب الاختلاف بين اليمن الشمالى والجنوبى اعتماداً على هذه النقطة، مشددة أن

اليمن لم تكن دولة موحدة ومركزية يوماً، وإن كان لهذا الحديث صحة فى بعض الأحيان فهى بالتأكيد تميل للمغالطة فى معظم الأوقات.

فاليمن لا توجد فيها مركزية ثقافية أو سياسية، بل طالما تنقلت بين أرجاء اليمن المختلفة، لكن أبرز محورين تاريخيين فى اليمن هما: صنعاء بتراثها الشيعى الزيدى، وحضرموت بتراثها السنى الصوفى. حتى ظهرت عدن كمحور حقيقى له تأثير واسع وقوى على الحركات السياسية والفكرية التى شهدتها البلاد بشطريها فى القرن العشرين، فعدن التى كانت مدينة بحرية صغيرة قبل الاحتلال البريطانى شهدت انتعاشاً حقيقياً بعد الاحتلال البريطانى وموجات هجرة بشرية مختلفة من داخل اليمن وخارجها جمعت بينهم روابط المواطنة الحديثة، ولأول مرة فى تاريخ اليمن تظهر مدينة بمعايير حديثة لا يعمل الرابط القبلى الدور الأساسى فى الحياة الاجتماعية والسياسية، وهذا كان له أكبر أثر على طبيعة الأحداث التى شهدها اليمن الجنوبى فيما بعد.

فكرة الحداثة المثالية والأفكار الإيديولوجية العصرية أثرت على الحركات السياسية التى حكمت عدن حتى جاءت الماركسية وسيطرت على اليمن الجنوبى وتعاملت مع كل القوى التقليدية بتحقير شديد ومحاولة حقيقية لإلغائها، على الرغم من أن فكرة الحداثة عملياً لم تتجاوز مدينة عدن وظلت بقية المناطق المحيطة بها التى كانت مرتبطة باتفاقات حماية مع الاستعمار البريطانى بشكلها القبلى التقليدى دون أى تغيير. وسعت فيما بعد الحكومة المستقلة فى عدن إلى إلغاء هذه الروابط المتخلفة ووصفت النظام القبلى بالإقطاعى كاستعارة مجلوبة من كتب الإيديولوجية الماركسية، لكن بالتأكيد لم تنجح كل محاولات الحكومة فى إلغاء القبيلة بين يوم وليلة، لتستمر القبيلة تحتفظ بنفسها كرابط يجمع الناس لكن بشكل مختلف وهى المناطقية، بعد ما تعذر عليها الاحتفاظ بكيانها التقليدى وقياداتها وأعرافها. وهذه المناطقية ظلت القنبلة التى تفجر الصراعات الدموية القاتلة فى الشطر الجنوبى الذى شهد حروباً أهلية دامية قبل الوحدة.

وفى المقابل لم يسعَ الشطر الشمالى إلى إلغاء العامل القبلى، بل أججه. واستخدم على صالح هذا العامل لصالح الحكومة عن طريق إثارة النعرات والثارات بين القبائل وتعزيز الشعور بأن القبيلة خارج القانون وتغاضى عن الاعتداءات المتواصلة من القبائل على المواطنين حتى وصل الحال إلى الاعتداء على أراضى المواطنين بقرب قصر الرئاسة فى صنعاء، لتصبح صنعاء تحت سيطرة القبائل بالكامل لأول مرة منذ زمن طويل، وهذا الوضع قبل أن يكون خرقاً للقانون هو خرق للعرف القبلى نفسه.

ومن اللافت أنه كلما تراجعت شرعية الحكومة وشعبيتها لجأت للقبائل كوسيلة ترهيب للمواطنين وحماية للحكومة فى ذات الوقت.

القبيلة فى اليمن التى استخدمها الشمال وألغاها الجنوب خلفت الكثير من المشاكل لكلا الطرفين، ولا يمكن لطرف المزايدة على الآخر بنجاحه فى التعامل مع هذا النمط الاجتماعى الضارب جذوره فى تاريخ اليمن.

فالقبيلة حلت محلها المناطقية فى المناطق الجنوبية وبعض المناطق الوسطى أما فى الشمال فقد تراجعت أعرافها القبلية ليحل محلها قانون الغاب مما أضعف من قيمتها واحترامها لدى الكثير من المواطنين، ولم تفلح الحكومة فى محاولات التلميع للقبيلة باعتبارها مصدر فخز واعتزاز ورفضها للمناطقية باعتبارها تعصبا وعنصرية.

وأياً كان فلا يمكن بناء مطالب وحدوية أو انفصالية على أساس عوامل الاتفاق والاختلاف التى توجد بين جميع شعوب الأرض، لكن فى أوقات التأزم السياسى تتحول نقاط الخلاف بين البشر بجميع أشكاله الدينية والسياسية والاجتماعية لقضايا مصيرية فاصلة يتمترس وراءها كل فصيل.

ترقب بخوف

على عكس ما حدث عام ٩٤، عندما لعب الدور الإقليمى دوراً حاسماً وفاعلاً فى تحريك الوضع الداخلى وكان سبباً رئيسياً فى دفعه لانفجار الحرب الأهلية نتيجة للخوف المرضى الذى كانت مصابة به دول الجوار وعلى رأسها المملكة العربية السعودية من الوحدة اليمنية، وكتصرف انتقامى مما كان يعرف آنذاك بدول المع -التى وقفت بجوار الكويت عند احتلالها حسب تصنيفهم- نتيجة لموقف اليمن من حرب عاصفة الصحراء.

هذه المرة، العامل الخارجى حتى الآن يبدو هامشياً وليس مؤثرا بقدر ما سيتأثر بطبيعة التفاعلات السياسية الداخلية، فالسياسة السعودية التى كان لها مخاوفها من الوحدة اليمنية لخشيتها من وجود دولة قوية جنوبها، لها مطالب حدودية واسعة بأراضيها، أدركت أن هذه المخاوف أبعد ما تكون عن الواقع بعد قرابة عشرين عاماً من الوحدة، جعلت اليمن فى أضعف حالاتها واستطاعت أثناءها تحقيق انتصار تاريخى بتوقيع اتفاق حدودى تنازلت فيه اليمن نهائياً عن مطالبها بأراضى شاسعة، بل وعادت سياسة اليمن الخارجية لحالة التبعية الكاملة للسعودية وهذا ما اتضح بتضحية اليمن بعلاقاتها الحميمة بقطر وامتنعت عن حضور قمة الدوحة وقبلها قمة دمشق لتسجل موقفها إلى جانب السعودية فى طرف الدول التى تسمى معتدلة.

لكن السياسة السعودية والأمريكية سيكون لهما أثر بالغ ساعة الحسم، فالسياسة السعودية فى اليمن، التى تميل حالياً للتعاون بسبب المخاوف الأمنية المشتركة من تنظيم القاعدة، والتمرد الشيعى فى الشمال على الخط المحاذى للحدود، وخشية تفجر الأوضاع فى اليمن بألغامها التى لا يعرف فى وجه من ستنفجر لن تصمد كثيراً إذا ما ازداد تدهور الأمور وفقدت الدولة سيطرتها على البلاد، وحينها بالتأكيد ستكون السياسة السعودية تحت تأثير عوامل أخرى.



فجناح الملك عبد الله الذى يميل للسياسة العقلانية الهادئة مع اليمن بحجة أن الفوضى فى اليمن قد تسبب مشاكل جمة للسعودية سيفقد حجته إذا ما اتجهت الأمور للفوضى وهذا سيرجح كفة الجناح السديرى ممثلاً بالأمير سلطان- ولى العهد والمسؤول عن ملف العلاقات مع اليمن منذ الستينيات- ومعه الأمير نايف والأمير بندر وهو جناح قوى يميل إلى انتهاج سياسات أكثر طمعاً وعدوانية تجاه اليمن، وأكثر ما يغرى السعودية فى التدخل لصالح الانفصال باليمن هو حلمها القديم بامتلاك منفذ للبحار المفتوحة؛ أى المحيط الهندى فى جنوب اليمن، وهو كان مطلبا أساسيا لها فى مفاوضاتها الحدودية مع اليمن وفشلت فى تحقيقه، وهذا المخرج الذى تطمح السعودية فى تأمينه لبترولها تزداد حيويته مع زيادة عمليات القرصنة فى خليج عدن واستمرار تدهور الأوضاع فى الصومال وكذلك تأزم الأوضاع فى إيران والعراق فى الخليج العربى. وربما يزيد من تقوية هذا الجانب ويقلل من مخاوف الملك عبد الله وفريقه ما شرعت فيه السعودية من بناء سياجها الأمنى على حدودها مع اليمن لتأمن شر هروب أعضاء القاعدة لليمن ومن اليمن، وتهريب السلاح، هذا غير الهجرة غير المرغوب فيها وغيرها حتى صارت حدودها مع اليمن مصدراً لكل الموبقات يزيد من خطورتها أيضا ظهور ما يقارب الحكم الشيعى بمحاذاة حدودها فى صعدة.

هذا المطمع السعودى القديم فى الإطلال على ثلاثة بحار قد يدفعها لزيادة تغذية النوازع الانفصالية لمنطقة حضرموت والمهرة بواسطة التجار الحضارمة المقيمين فى السعودية، مستغلة الشعور المتزايد لدى أبناء حضرموت بامتلاكهم هوية مستقلة عن بقية اليمن، وكذلك مداعبة أحلام الدولة القطرية الصغيرة السكان الغنية الثروة، فحضرموت تملك ثروات معدنية كبيرة وفيها معظم حقول النفط ونصيب المحافظة من هذه الثروة البترولية لا يتجاوز حوالى ١٠٪.

إذا ما اعتبرنا الموقف السعودى هو الأكثر تأثيراً إقليمياً، فالموقف الأمريكى هو الأكثر أهمية دولياً، ولعب دوراً حاسماً فى عام ٩٤ لصالح الوحدة بعد ما رأت أن النزاع العسكرى يجنح لصالح الفريق الذى يطالب باستمرار الوحدة وهو فعلياً خيار فرضته مجريات النزاع العسكرى ورغبة الولايات المتحدة الأمريكية فى الحفاظ على استقرار هذه المنطقة التى تقترب من منابع البترول الحيوية لها، ويمكننا القول إن الموقف الأمريكى هذه المرة لم يتغير كثيرا فهو موقف لا تعنيه كثيراً فكرة الانفصال أو الوحدة بل يشغله الرغبة فى استقرار اليمن خاصة مع تزايد نشاط القاعدة وإعلان الإدارة الأمريكية مؤخراً أن اليمن أحد المناطق المحتملة لاستضافة تنظيم القاعدة بعد ما ضاق الخناق عليهم فى أفغانستان وباكستان، لكن أيضاً إذا ما استمرت الأمور فى التدهور باليمن وفقدت الحكومة الحد الأدنى من الحفاظ على الاستقرار، حينها ستراجع الإدارة الأمريكية موقفها حسب القوى السياسية التى ستفرزها الأحداث وتفرض نفسها على الساحة.

ولعامل حقوق الإنسان أثر فى الموقف الدولى، وهو وتر نجحت القيادات الخارجية للحراك فى ضربه ولم تفلح محاولات الحكومة فى التعتيم الإعلامى حيث ضيقت على تحركات المراسلين وأغلقت سبع صحف معارضة وغيرها من إجراءات قمعية شديدة على الإعلام، بالرغم أن ما يجرى فى الجنوب من الناحية الإنسانية لا شىء يذكر بالمقارنة لما جرى فى صعدة من تجاوزات إنسانية خطيرة دمرت المدينة بالكامل وخلفت وراءها آلاف الجرحى والقتلى وستين ألف نازح. لكن للحراك الجنوبى وضعاً آخر باتساع مساحته وامتداده لمدن أساسية مثل عدن والمكلا لا يسهل إغلاقها مثل مدينة جبلية بعيده كصعدة، واتضح

الدعم الدولى من هذا المنطلق بمنح على سالم البيض جواز لاجئ دولى بعد سحب جنسيته العمانية لاستعادته النشاط السياسى وهذا الجواز لا يمنح بسهولة ولا يمتلكه إلا قلة ممن يعترف العالم بقضيتهم كقضية إنسانية حيوية مثل الدلاى لاما.

لكن قضية حقوق الإنسان تظل هامشية دون دعم دولة مهمة لهذه المطالب الحقوقية وهو ما لا يزال بعيداً حتى حين، فالسعودية لازالت تعتبر اليمن التهديد الأول لأمنها الداخلى بسبب القاعدة وكذلك الإدارة الأمريكية وهذا لصالح الاستقرار والوحدة، لكن هذا أيضاً رهيناً بطبيعة الأوضاع الداخلية وما سينتج عنها.



خيارات الحل عندما تكون مستحيلة

تعد اليمن من أفقر دول العالم وخطورة الأوضاع الاقتصادية تتزايد مع تجاوز النفط اليمنى ذروة إنتاجه وهو يمثل على ضآلته ٧٠٪ من الدخل القومى بالإضافة إلى انخفاض أسعار النفط والأزمة العالمية وكذلك التأثيرات المناخية التى تسببت فى قلة الأمطار مع نمو سكانى هو الأعلى فى العالم، لتتضافر كل هذه العوامل، ويصل الوضع لحد التحذير من مجاعة حسب آخر بيان أصدره برنامج الأغذية العالمية التابع للأمم المتحدة.

هذا الوضع الاقتصادى يلعب دوراً جوهرياً فى تأزيم الأوضاع باليمن شمالها وجنوبها، لكن فى الجنوب بالتحديد له بعد آخر. فالمنطقة الجنوبية تمتلك معظم الثروات المعدنية وعدد سكانها بسيط قياساً للشمال المزدحم والفقير والذى يهدده الجفاف مما يعطى زخماً حقيقياً للمطالب الانفصالية والرغبة فى التخلص من الشريك الأكبر سكانياً والأفقر معدنياً.

الوضع الاقتصادى يزيد الأمور تعقيداً ويرسم واقعاً مأساوياً لوضع البلاد ويحتاج لمعالجة حقيقية من الحكومة والتخلى عن عنادها فى اعتماد الخيار المعتاد وهو خيار القمع المحدود مصحوباً بالرغبة فى نسج تحالفات جديدة مع قيادات الحراك وزرع الخلافات بينهم، وهذا الخيار القديم يصعب نجاحه مثل السابق لأن هذه الحيلة لم تعد تنطلى على معظم القيادات السياسية فى اليمن والوضع صار أكثر صعوبة من كل الأزمات السابقة خاصة أن النظام يواجهها وحيداً كما لم يكن من قبل.

والخيار الأسلم والمخرج الوحيد من هذا المنزلق الخطير هو أن تقوم الدولة بعدة إجراءات معاً:



يعتبر ما حدث فى صعدة نموذجا لمصير ما سوف تواجهه اليمن أو بعض المناطق فيها، حيث اختفت السيطرة الحكومية تقريبا

أولاً: إصلاح سياسى جذرى واليمن تمتلك وثيقة تاريخية مهمة بالإمكان جعلها مرجعية يتم البناء عليها، وهى وثيقة العهد والاتفاق التى وقعتها الأطراف السياسية اليمنية المختلفة فبراير عام ٩٤، فى محاولة لمنع حدوث الحرب الأهلية التى وقعت بعدها بثلاثة أشهر. وأبرز ما فيها من بنود هى اللامركزية وإنشاء مجلسين تشريعين أحدهما يعتمد على الانتخابات المباشرة بحسب عدد السكان والآخر يعتمد على تمثيل متساو للمحافظات لحل إشكالية الغلبة السكانية للشطر الشمالى، بالإضافة لدعم استقلال القضاء.

ثانياً: حل المطالب الحقوقية وأهمها قضيتا المتقاعدين والأراضى.

ثالثاً: التنمية الاقتصادية وبالطبع إذا ما تكلمنا عن الاقتصاد فلابد من القضاء على الفساد والمحسوبية حتى يمكن خلق بيئة مناسبة للاستثمار.

لكن هذه الحلول المثالية والمصيرية لا يمكن تحقيق حتى نزراً يسيراً منها وذلك لوجود افتراضين لمسار الأحداث، الأول هو نجاح ما يقال عن وساطة خليجية لإعادة شخصيات المعارضة المقيمة بالخارج لليمن حسب اتفاق بينها وبين الحكومة، وهذه طريقة عادة ما يلجأ لها اليمنيون عند تأزم الأوضاع السياسية أو بعد حروب تشهدها البلاد، آخر هذا النمط من الحكومات هى الحكومة الائتلافية التى حكمت البلاد منذ بداية الوحدة مايو ٩٠ حتى الانتخابات فى إبريل ٩٣ ، وبالقياس على كل الحكومات التى شهدتها البلاد بشطريها أو موحدة، يمكننا ملاحظة فشلها وهشاشتها وعادة ما تنتهى بانفراد طرف فى السلطة وانقلابه على الآخرين، وهذا نتاج أنها ائتلافات تكون بين أطراف لا تثق ببعض دون أى إيمان حقيقى بالمشاركة السياسية والديمقراطية مثلما هو حاصل الآن بالأطراف السياسية التى تحكم المشهد السياسى فى اليمن معارضة وحكومة، لذا يصعب التفاؤل بمستقبل البلاد مع وجود نفس النخبة السياسية التى جرت البلاد لحرب عام ٩٤ وما يسبقها من أزمات سياسية شهدتها البلاد موحدة أو منقسمة.

وهناك افتراض آخر هو استمرار النظام على سلوكه القمعى وسياسة فرق تسد وهى طبيعة قديمة يصعب تغييرها، بل أيضاً بحكم عوامل تمس طبيعة النظام نفسه فالسلطة فى اليمن مركزية وشخصية تماماً بيد على عبد الله صالح الذى أمسك بزمام الجيش وصار تحت قبضته تماماً، هذا غير اعتبارات السن والبقاء الطويل فى حكم مر فيها بأزمات خطيرة أفقدته مرونته المعهودة والثقة بالآخرين والمصداقية التى كانت تمكنه من نسج تحالفات ونقض أخرى.

وهناك عامل آخر تغلغل فى السلطة وأحكم وجوده حتى صار لا يمكن التخلص أو الفكاك منه، وهو فئة نسجت خيوطها حول الرئيس وخلقت دائرة مغلقة لا يمكن خرقها بعد ما أخرجت منها كل الشخصيات السياسية النظيفة والخبرات السياسية المحنكة لتصبح دائرة متنفذين خاصة بأصحاب المصالح الشخصية وذوى القربى وتستمد نفوذها وسلطتها من قرابتها من الرئيس أو مناصبها العسكرية أو وجاهتها القبلية أو قدرتها على التملق وهى دائرة لا علاقة لها بالوزراء أو المستشارين أو أعضاء الحزب الحاكم أو غيرهم من السياسيين الذين يمتلكون شرعية دستورية بموجبها يتحركون فى مساحة إدارية وسياسية ضيقة تأثيرها لا يتجاوز مكاتبهم فى بعض الأحيان.

بوجود هذه الدائرة وتراكم الأخطاء السياسية القاتلة يصعب التفاؤل بقدرة البلاد على الخروج من هذا المأزق خاصة مع غياب المعارضة والبدائل السياسية المعقولة. وبغياب الخيارات السياسية السليمة يصعب استمرار الوحدة بهذا الشكل وكذلك مسألة الانفصال ليست بهذه السهولة حتى لو استطاع الحراك الجنوبى من تكثيف تحركاته الداخلية ونجح فى خلق دعم دولى يؤيد مطالبهم بفك الارتباط، لكن الأمور لن تمر بسلام لأن أيضاً معارضة الانفصال لازلت قوية من ناحية الحكومة وشرائح شعبية كبيرة وبذا تكون الدولة مرشحة لحالة فوضى أو حرب أهلية لا تحمد عقباها.

فما يحدث فى الشمال من اقتتال أخذ منحى طائفيا وما بدأ من عمليات قتل بين المدنيين قائمة على أسس مناطقية فى الجنوب مع وضع اقتصادى سيئ جداً وهش، هذا غير تراجع وضع الحريات وحقوق الإنسان من تضييق شديد على الصحافة ومعتقلين على ذمة قضايا سياسية، تبدو الأمور خرجت عن سيطرة الجميع من حكومة أو معارضة.

ويعتبر ما حدث فى صعدة نموذجا لمصير ما سوف تواجهه اليمن أو بعض المناطق فيها، حيث اختفت السيطرة الحكومية تقريباً وأصبحت تحت حكم الحوثيين بشكل مطلق فى بعض أجزائها، وقياساً عليها وبمعرفة بسيطة لأسماء الشخصيات السياسية التى تحاول أخذ نصيبها من هذه الفوضى العارمة يمكننا ملاحظة أن اليمن تفقد جميع منجزاتها التى حققتها خلال خمسين عاماً بثورتيها فى الشمال والجنوب فترة الستينيات والوحدة التى تمت عام ٩٠، لتعود إلى ما كانت عليه فى السابق من دعوات حكم هاشمية زيدية فى الشمال يمثلها الحوثيون فى صعدة معها تطلعات قبلية لدور سياسى أكثر وضوحاً وقوة يمثلها الشيخ حميد الأحمر، وفى الجنوب لا يبدو الوضع أفضل فهناك طارق الفضلى الذى يبحث عن استعادة سلطنة أجداده فى أبين وعدن وأحمد بن فريد الصريمة سليل أمراء شبوه.

وهذا حصاد مر للعقود الماضية فشلت الدولة فيها من دخول العصر الحديث دون اختلال بموروثاتها الاجتماعية والسياسية الحديثة، ففشلت الدولة حتى من تقديم أبسط الخدمات الأساسية وخلق هوية مواطنة حديثة ليعود الناس كما خلقتهم أمهاتهم بانتماءاتهم الطائفية والمناطقية والقبلية، يحتمون بها ويستندون عليها ليتلاشى وإلى حين حلم الحداثة والانعتاق من الفقر بالدخول فى دوامة عنف جديدة قد تكون الأقسى على اليمن. ■


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
SGS
...صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
...ادة صلى
www.maccarpet.com

العلمانية بمفاهيم أصوليّة !!

امحمد جبرون

■■ منذ أن صدر للدكتور سعد الدين العثماني كتاب «تصرفات الرسول بالإمامة» (منذ حوالى ست سنوات كاملة)، والكتاب يثير يوما بعد يوم وعاما بعد آخر، جدلا يستحقه بلا شك. فهو طريف فى موضوعه، ومتقدم من حيث أفكاره وأطروحاته، وله أبعاده ومراميه «الثورية» فى الفكر السياسى للحركة الإسلامية المعاصرة. وسعد الدين ليس نكرة فى العلم والعمل فى الدائرة الإسلامية، فهو رجل ممارس ومفكر «عضوى» ساهم فى صياغة وتطوير أدبيات العمل الإسلامى فى المغرب، ولا أدل على ذلك رسالته القصيرة التى أصدرها مبكرا مقدمة تأصيلية لمشروعية المشاركة السياسية الإسلامية فى الثمانينيات من القرن الماضى التى عنوانها «الفقه الدعوى: مساهمة فى التأصيل». فالتعرض لأطروحة «تصرفات الرسول بالإمامة» بالنقد والتحليل والتصويب مسألة حيوية، بل ومسئولية أخلاقية ومعرفية، لأسباب كثيرة ليس أقلها وأضعفها إمكانية النفوذ العملى التى تتمتع بها مقارنة بغيرها.



تندرج هذه «الرسالة» المسماة «تصرفات الرسول بالإمامة: الدلالات المنهجية والتشريعية» من الناحية المعرفية والمنهجية فى مجال الدراسات التى تعنى بمناهج فهم النصوص النبوية من زاويتى علم الأصول والحديث، والتى ازدهرت فى العقود الأخيرة على هامش «الكلام» المتزايد «حول طرفى الغلو والتقصير فى فهم النصوص الحديثية، ومع تزايد جهود التجديد والإحياء الإسلامى». وقد رغب المؤلف من خلالها فى ترشيد الثقافة الدينية، وخاصة لأولئك المهتمين بالدعوة والنهضة.

يقع الكتاب فى ثلاثة فصول

تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بالإمامة: الدلالات المنهجية والتشريعية
سعد الدين العثمانى
«منشورات الزمن»، الكتاب رقم ٣٧، ط ١، ٢٠٠٣م الرباط، المغرب



بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة، ففى الفصل الأول تحدث عن تنوع التصرفات النبوية: تأصيل وتصنيف، وفى الفصل الثانى تحدث عن التصرفات النبوية بالإمامة: مفهومها وسماتها، وفى الفصل الثالث بين أهمية التصرفات النبوية بالإمامة.

أ- تنوع التصرفات النبوية:

إن التصرفات النبوية تعنى «عموم ما صدر منه صلى الله عليه وسلم من تدابير (وأمور عملية) من قول أو فعل أو تقرير سواء كانت للاقتداء أو لم تكن، وسواء كانت فى أمور الدين أو الدنيا». وهى مختلفة ومتنوعة وأدلة ذلك كثيرة؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ميز بين أنواع من تصرفاته، ولعل أشهر حديث فى هذا الباب هو حديث تأبير النخل الذى رواه مسلم. وكذلك الصحابة من بعده ومتقدمى الأصوليين، أمثال الفراء والباجى وابن تيمية... أثبتوا وأكدوا تنوع تصرفات النبى صلى الله عليه وسلم. ولم يغفل المؤلف عن ملمح آخر من ملامح التنوع والاختلاف ويتعلق الأمر بمقامات التصرفات النبوية؛ فهى أحيانا فى مقام التشريع للأمة، وأحيانا أخرى فى مقام «اجتهاد الإمام فى المصلحة»...

وقد تقدم البحث فى هذا الباب لدى أهل الحديث والأصول، ومن أبرزهم ابن قتيبة الدينورى وابن عبد البر والقاضى عياض والعز بن عبد السلام والقرافى وابن عاشور...، وبالاستفادة من جهود هؤلاء يمكن تقسيم التصرفات النبوية إلى قسمين:

- «تصرفات تشريعية: وهى ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم مما هو للاتباع والاقتداء». وتنقسم إلى تصرفات بالتشريع العام؛ «وهى تتوجه إلى الأمة كافة إلى يوم القيامة»، وتصرفات بالتشريع الخاص؛ «وهى مرتبطة بزمان أو مكان أو أحوال أو أفراد معينين، وليست عامة للأمة كلها. ويدخل ضمنها التصرفات بالقضاء والتصرفات بالإمامة والتصرفات الخاصة».

- تصرفات غير تشريعية: «وهى تصرفات لا يقصد بها الاقتداء والاتباع، لا من عموم الأمة ولا من خصوص من توجهت إليهم»، مثل التصرفات الجبلية والتصرفات العادية والتصرفات الدنيوية والتصرفات الإرشادية والتصرفات الخاصة به صلى الله عليه وسلم.

وأحصى الدكتور سعد الدين من

هذه الأطروحة ترد على المفهوم «السلفية» للسنة، التى تقف عند ظهر النصوص فى عصرنا هذا، وتحرر العمل السياسى الإسلامى من الكثير من «العقدة النصية» الناتجة عن ضعف فى الفقه



هذه التصرفات التشريعية وغير التشريعية عشرة أقسام، خص كلا منها بالشرح والتفصيل. وجعل تصرفات الرسول بالإمامة من أقسام التصرفات بالتشريع الخاص، وعرفها بما يلى «وهى تصرفات منه صلى الله عليه وسلم بوصفه إماما للمسلمين ورئيسا للدولة، يدبر شؤونها بما يحقق المصالح، ويدرأ المفاسد، ويتخذ الإجراءات الضرورية لتحقيق المقاصد الشرعية فى المجتمع».

وفى ختام هذا الفصل نبه المؤلف إلى أن التمييز بين هذه التصرفات أساس فقه السنة، ومن الأسس المنهجية اللازمة للنظر فيها والتعامل معها، والغفلة عن هذا تفضى إلى نظرة غير واقعية وغير شرعية لقوله وفعله صلى الله عليه وسلم.

ب- التصرفات النبوية بالإمامة (مفهومها وسماتها):

«التصرفات النبوية بالإمامة هى تصرفاته صلى الله عليه وسلم بوصفه إماما للمسلمين ورئيسا للدولة، يدير شؤونها بما يحقق المصالح ويدرأ المفاسد، ويتخذ الإجراءات والقرارات الضرورية لتحقيق المقاصد الشرعية فى المجتمع ويسميها بعض العلماء تصرفات بالسياسة الشرعية أو بالإمارة». وبالتالى هى مقام غير مقام النبوة والرسالة والفتيا والقضاء... وبحسب التصنيف السابق هى تصرفات «تشريعية خاصة بزمانها وظروفها»، ولذلك يعبر عنها ابن القيم بأنها «سياسة جزئية» بحسب المصلحة، وأنها مصلحة للأمة فى ذلك الوقت، وذلك المكان، وعلى تلك الحال».

فبعد هذا التدقيق فى المفهوم كشف المؤلف مظاهر وعى الصحابة بهذا النوع من التصرفات، وذلك من خلال أمور أربعة: مراجعتهم إياه فى بعض قراراته، اقتراحهم رأيا مخالفا لرأيه فيما شاورهم فيه، تأويلهم لبعض تصرفاته صلى الله عليه وسلم على أنها كانت لمصالح مؤقتة، مراجعة الخلفاء الراشدين لبعض تصرفاته صلى الله عليه وسلم بعد وفاته. والتفت المؤلف بعد هذا لمتابعة تطور المفهوم لدى العلماء والأصوليين، حيث أكد أن الإمام شهاب الدين القرافى (ت.٦٨٤هـ) هو أول من أبرز تصرفات النبى بالإمامة وبين سماتها، وإن كانت لا تعدم الإشارات إليها فى كتب من سبقه، ومن بين هؤلاء العز بن عبد السلام (ت. ٦٦٠هـ) الذى أشار إلى لفظ التصرف بالإمامة فى كتابه «قواعد الأحكام فى مصالح الأنام»، وتلقفه بعده تلميذه القرافى الذى خص هذا الجانب بالحديث فى فروقه وأيضا فى كتاب «الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى والإمام»، وستتوالى الاجتهادات والتقعيدات فى هذا الباب بعد القرافى مع ابن تيمية وابن القيم وغيرهم.

ومن سمات التصرفات بالإمامة أربعة: أنها تصرفات تشريعية خاصة، مرتبطة بالمصالح العامة، واجتهادية، وتتعلق بأمور غير دينية.

- تصرفات تشريعية خاصة: وهى «تصرفات للاقتداء والتنفيذ، فهى بالتالى سنة تشريعية. لكنها تصرفات جزئية مرتبطة بتدبير الواقع وسياسة المجتمع، فهى خاصة بزمانها ومكانها وظروفها»، وحصر أنواعها فى نوعين: تصرفات تقنينية وترد بصيغة «العام الذى أريد به الخصوص»، وتصرفات تنفيذية صادرة عنه صلى الله عليه وسلم اجتهادا مثل تعيين أمراء البلدان، والسفراء، وتوزيع الإقطاعات...

- تصرفات مرتبطة بالمصالح العامة: إن التصرفات بالإمامة تهدف أساسا إلى تحقيق المصالح العامة، وتعتمد المصلحة الراجحة أو الخالصة فى حق الأمة.

- تصرفات اجتهادية: فعندما «يتصرف بوصفه «إماما» أو «قائدا» سياسيا إنما يتصرف باجتهاده فى رأيه الذى يمكن أن يصيب فيه أو يخطئ»، وكان الصحابة الكرام يدركون هذا المعنى فى تصرفاته صلى الله عليه وسلم والأمثلة على هذا كثيرة فى السيرة النبوية.

- تصرفات فى أمور غير دينية: والمثال القوى على هذا النوع من التصرفات هو حادثة تأبير النخل المشار إليها سابقا، «وأهمية التنصيص على انبناء التصرفات النبوية بالإمامة على مصالح الدنيا تكمن فى إدراك ضرورة تغير تلك التصرفات فى حال تغير المصالح التى انبنت عليها».

وقد خلص من كل ما سبق إلى قاعدة عامة: «تصرفات الرسول بالإمامة ليست ملزمة لأى جهة تشريعية أو تنفيذية بعده، ولا يجوز الجمود عليها بحجة أنها «سنة». وإنما يجب على كل من تولى مسؤولية سياسية أن يتبعه صلى الله عليه وسلم فى المنهج الذى هو بناء التصرفات السياسية على ما يحقق المصالح المشروعة».

ج- أهمية التصرفات النبوية بالإمامة ودلالاتها:

خصص الدكتور سعد الدين العثمانى هذا الفصل -وهو الأخير من كتابه- إلى الفوائد المنهجية والفقهية والحديثية التى يتيحها لنا الوعى بتصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بالإمامة. فمن الناحية المنهجية تدل هذه التصرفات -باعتبارها غير ملزمة ولا يجوز الجمود عليها- على سنة التدرج فى تنزيل الأحكام وإصلاح الواقع، ومراعاة أحوال الناس وخصوصيات الواقع، وكذا الأحوال الطارئة، غير أن أبلغ دلالة منهجية تعبر عنها هذه التصرفات هى تعلقها بـ«منطقة مفوضة» (منطقة العفو أو الفراغ التشريعى) «لاجتهاد أولى الأمر للنظر فيها بحسب مصالح الأفراد والجماعات».

والى جانب هذه الفوائد هناك فائدة أخرى لا تقل أهمية عن تلك السابقة وهى «حل إشكالات فى الفقه والحديث»؛ فاعتبار تصرفات الرسول بالإمامة فى كثير من الحالات يرفع الخلاف، ولا أدل على ذلك الخلاف الذى نشأ بين الفقهاء والمحدثين حول حديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى رواه أبو سفيان، والذى جاء فيه: «من شرب الخمر فاجلدوه، فإن عاد فى الرابعة فاقتلوه»، فمنهم من قال بأن الحديث منسوخ ومنهم من نفى ذلك، والمخرج من هذا كله هو ما ذهب إليه ابن القيم من أن هذا الحد «هو بحسب المصلحة إلى رأى الإمام». وآخر هذه الفوائد تتجلى على صعيد الفقه السياسى، فالوعى بتصرفات الرسول بالإمامة يؤشر على مبدأ فصل السلطات فى الإسلام، ويؤيد مدنية الدولة الإسلامية وتاريخية التجربة الإسلامية بما فى ذلك عهد الراشدين.

- تصرفات الرسول بالإمامة: الأطروحة وتداعياتها:

إن أطروحة «تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بالإمامة» هى إضافة نوعية فى مجال الفكر السياسى الإسلامى المعاصر، ويمكن اختصارها فى التالى: «تصرفات الرسول بالإمامة ليست ملزمة لأى جهة تشريعية أو تنفيذية بعده، ولا يجوز الجمود عليها بحجة أنها «سنة». وإنما يجب على كل من تولى مسؤولية سياسية أن يتبعه صلى الله عليه وسلم فى المنهج الذى هو بناء التصرفات السياسية على ما يحقق المصالح المشروعة». وهى بالإضافة إلى الفوائد التى أشار إليها المؤلف ترفع الحرج عن الفعل السياسى الإسلامى، بحيث تجعل من الممارسة السياسية ممارسة اجتهادية لا تنضبط إلا للمصلحة المشروعة.

فإذا كانت هذه الأطروحة ترد وبكفاءة عالية على المفهوم «السلفية» للسنة، التى تقف عند ظاهر النصوص فى عصرنا هذا، وتحرر العمل السياسى الإسلامى من الكثير من «العقد النصية» الناتجة عن ضعف فى الفقه، والتى تشتغل ككوابح للتفكير والممارسة فى الوقت الحالى، وتحد من إمكانيات التكيف مع ضغوط العصر وصعوباته، فإنها فى المقابل تبدو وكأنها شكل من أشكال التأصيل للعلمانية. وسواء قصد المؤلف هذا الأمر أو لم يقصده، فإن الطريف فى عملية الكتابة من جهة، وجمالية التلقى من جهة ثانية، تكمن فى المعانى وأشكال التلقى اللامتوقعة لهذه الأطروحة. فتمييز «تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بالإمامة»، أو ما يمكن أن نسميه بلغة العصر التصرفات السياسية للرسول صلى الله عليه وسلم، بأنها فى أمور غير دينية واجتهادية ومصلحية[1]، مقابل التصرفات الدينية للرسول هو ترجمة أصولية لمبدأ «فصل الدين عن السياسة»، بل السؤال الأكثر أهمية فى هذا السياق أى مشكل للإسلاميين مع العلمانية مع هذا التمييز وبعده؟ فهذه الأطروحة تطرح السؤال كبيرا حول الطريقة التى يصل بها الإسلاميون، أو على الأقل فريق منهم المسمى «معتدلا» الدين بالسياسة.

فرسالة سعد الدين العثمانى باختصار اشتغلت على التصرفات التى تدخل فى باب الإمامة والسياسة، وحاولت تحديد سماتها العامة وخصائصها، وبنت

على ذلك مفهوما للإمامة يتميز بطبيعته الدنيوية والاجتهادية، والمصلحية والتاريخية. ومن الناحية العملية انتهت إلى حقيقة أصولية وفقهية وهى عدم إلزامية تصرفاته صلى الله عليه وسلم بالإمامة للأئمة بعده، وعدم جواز الاستنان بها. فمقتضى هذه الرسالة وقصدها غير المباشر دعوة الإسلاميين لتمثل هذا المفهوم للإمامة واعتناق حقيقته الأصولية والفقهية. وباعتبارها كذلك كذلك لابد من مناقشتها ومراجعة أحكامها. وسنحاول ذلك من خلال العناصر التالية:

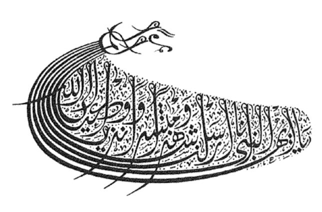
أ- مفهوم الإمامة:

من الناحية المعرفية تقوم أطروحة «تصرفات الرسول بالإمامة» على مفهوم أساسى؛ وهو مفهوم التصرفات بالإمامة، الذى يعنى: «تصرفاته (ص) بوصفه إماما للمسلمين ورئيسا للدولة يدير شؤونها بما يحقق المصالح ويدرأ المفاسد ويتخذ الإجراءات والقرارات الضرورية لتحقيق المقاصد الشرعية فى المجتمع ويسميها بعض العلماء تصرفات بالسياسة الشرعية أو بالإمارة»[٢]. وفى سياق البرهنة على أصالة هذا المفهوم وصحته رجع لكلام بعض الأصوليين وتحديدا القرافى الذى جعل الإمامة مقاما مختلفا عن مقام النبوة والفتيا...، ومن الناحية المنهجية اختار منهج الاستنباط فى بناء أطروحته، حيث اقترح فى البداية مفهوما وبدأ يفصل الكلام ويفرعه على منواله.

فهذه الأطروحة يمكن الاعتراض عليها من خلال الأسئلة التالية: ما مدى صواب قصر التصرفات بالإمامة فقط على تلك التى قام بها النبى باعتباره رئيسا للدولة؟ ألا تدخل فيها بعض التصرفات التى قام بها صلوات الله عليه من منطلق النبوة وتبليغ الرسالة؟ ثم ما مفهوم الإمامة المرجعى لتصنيف تصرفاته صلى الله عليه وسلم؟ وهل سنعتمد على معيار الجهاز/ المؤسسة الدولة فى تمييز هذه التصرفات أم معيار آخر؟

إن الإمامة من المباحث الكلامية والأصولية القديمة فى الفكر الإسلامى، وكل المصنفات وكتب الفرق تنضح بها، ومن المعلوم فى التراث الإسلامى بالضرورة اختلاف الأمة حولها، وافتراقها إلى مذاهب وطوائف لا زال بعضها حاضرا فى حياتنا الدينية إلى اليوم. فالإمامة فى الجناح السنى هى «نيابة عن صاحب الشريعة (النبى) فى حفظ الدين، وسياسة الدنيا به، تسمى خلافة وإمامة، والقائم به خليفة وإماما»[٣]. وقد عبر الماوردى عن هذا المعنى بالشكل التالى: «فإن الله جلت قدرته ندب للأمة زعيما خلف به النبوة، وحاط به الملة، وفوض إليه السياسة، ليصدر التدبير عن دين مشروع، وتجتمع الكلمة على رأى متبوع فكانت الإمامة أصلا عليه استقرت قواعد الملة، وانتظمت به مصالح الأمة حتى استثبتت بها الأمور العامة، وصدرت عنها الولايات الخاصة»[٤]. ونفس الحقيقة يقررها ابن تيمية فى رسالة بعث بها إلى أحد سلاطين المسلمين، حيث افتتحها بقوله: «من أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين، وولى أمر المؤمنين، نائب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته بإقامة فرض الدين وسنته»[٥]. ومعطيات لسان العرب، لا تناقض هذا المعنى، بقدر ما تؤكده، فالإمامة فى اللغة تطلق على الرئاسة فى الدين والدنيا[٦]. فقد ورد عند ابن منظور أن «الإمام كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين»[٧]، «وإمام كل شىء قيمه والمصلح له، والقرآن إمام المسلمين، وسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الأئمة، والخليفة إمام الرعية، وإمام الجند قائدهم»[٨].

ومن ثم، فالإمامة فى القاموس السياسى الإسلامى هى قيادة روحية ومادية، دينية ودنيوية. وبالتالى «التصرفات بالإمامة» هى تصرفات دينية ودنيوية ليست فقط من منطلق الرئاسة السياسية، ولكن أيضا من منطلق الرئاسة الدينية والزعامة الروحية. فمن بين ما يحتويه مدلول كلمة الإمام معنى «القيادة العلمية والتوجيهية للأمة»[٩]. فالطرطوشى على سبيل المثال كان يعى هذا التداخل والاجتماع، ففى كتابه «سراج الملوك»، دل ملكه على طريق إقامة «العدل الشرعى» أو «العدل النبوى» أو «العدل الإلهى»، المؤدى «لاستقامة الدين والدنيا»، وخلاصته إشراك العلماء فى السلطان باعتبارهم «الأدلاء على الله والقائمون بأمر الله، والحافظون لحدود الله، والناصحون لعباد الله»[١٠]، ذلك أن القيام بفروض الإمامة ومهامها متعذر إذا عول السلطان على نفسه وأقصى العلماء عن حكمه، فالمسئوليات الدينية والروحية من أعمال العلماء والصلحاء. وعموما الوعى باتساع دلالة الإمامة واشتمالها على الرئاسة الدينية والدنيوية كان عاما لدى السلف الصالح من علماء الأمة المتقدمين والمتأخرين. ولا أدل على ذلك اشتراط فقهاء الأحكام السلطانية فى المقدم للإمامة «العلم المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل»[١١]. ومع تقدم الزمان وتعذر هذا الشرط فى ضوء التحولات السياسية التى طرأت على العالم الإسلامى فقد أمر المتصدى للإمامة والخلافة بتقديم «من العلماء والقضاة من فيه كفاية وغنية»[١٢] فى جانب الدين.



ب- مفهوم التصرفات بالإمامة:

فمفهوم التصرفات بالإمامة الذى طوره سعد الدين العثمانى فى هذه الرسالة يعود إلى الإمام القرافى وشيخه العز بن عبد السلام، والغموض الذى يداخله يرجع إلى الأصل الذى نقل عنه والأصوليين الذين استعملوه بشكل محدود من بعده. وقد انتبه بعض المتقدمين لهذا الالتباس وحاولوا رفعه بتدقيق تعريف لفظ «التصرف بالإمامة»، لكن الدكتور سعد الدين غفل عن هذا التنبيه، ولم يوليه الأهمية التى يستحقها. جاء فى حاشية ابن الشاط[١٣] على «الفروق» المسماة «إدرار الشروق على أنواء الفروق»، وعلى هامش حديث القرافى عن التصرف بالإمامة ما يلى: «المتصرف فى الحكم الشرعى إما أن يكون تصرفه فيه بتعريفه وإما أن يكون بتنفيذه، فإن كان تصرفه فيه بتعريفه فذلك هو الرسول، إن كان هو المبلغ عن الله تعالى وتصرفه هو الرسالة، وإلا هو المفتى وتصرفه هو الفتوى. وإن كان تصرفه فيه بتنفيذه، فإما أن يكون تنفيذه ذلك بفصل وقضاء وإبرام وإمضاء، وإما أن لا يكون كذلك، فإن لم يكن كذلك فذلك هو الإمام وتصرفه هو الإمامة، وإن كان كذلك فذلك هو القاضى وتصرفه هو القضاء»[١٤]. وعليه يكون تعريف التصرفات بالإمامة حسب ابن الشاط على النحو التالى: التصرف بالإمامة هو تصرف فى الحكم الشرعى بتنفيذه دون فصل وقضاء وإبرام، سواء تعلق بأمور دينية مثل الصلاة والزكاة...، أو أمور دنيوية كالمصالح العامة.

والأمثلة على التصرفات بالإمامة فى المجال الدينى بعد النبى صلى الله عليه وسلم كثيرة، مثل قتال أبى بكر لمانعى الزكاة فى بداية خلافته، وأيضا ما ذكره المؤرخون فى حق «معلم» المرابطين عبد الله بن ياسين، الذى كان يلزم أتباعه ودائرة نفوذه السياسى بصلاة الجماعة فى المسجد، وكل من تخلف عنها كان يعاقبه بالجلد.[١٥] ويدخل فى هذا المعنى عقاب تارك الصلاة والصوم والزكاة... قال ابن تيمية: «فالواجب على ولى الأمر أن يأمر بالصلوات المكتوبات جميع من يقدر على أمره، ويعاقب التارك بإجماع المسلمين، فإن كان التاركون طائفة ممتنعة قوتلوا على تركها بإجماع المسلمين، وكذلك يقاتلون على ترك الزكاة، والصيام، وغيرها، وعلى استحلال المحرمات الظاهرة المجمع عليها، كنكاح ذوات المحارم، والفساد فى الأرض، ونحو ذلك. فكل طائفة ممتنعة من التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة يجب جهادها، حتى يكون الدين لله، باتفاق العلماء»[١٦]. فبغض النظر عن

بالاضافة إلى الفوائد التى أشار إليها المؤلف هناك حاجة شرعية لرفع الحرج عن الفعل السياسى الإسلامى، بحيث تجعل من الممارسة السياسية ممارسة اجتهادية لا تنضبط إلا للمصلحة المشروعة



طبيعة الأحكام التى قررها ابن تيمية فى هذه الأمور، فإن تصرف الإمام فيها ذو طبيعة «دينية»، وبالمعنى الخاص للدين. أما التصرفات بالإمامة فى المجال الدنيوى فكثيرة أيضا وقد ذكر المؤلف فى رسالته طائفة منها لا داعى لتكرارها هنا، وإنما غرضنا من هذا البيان، ومن التركيز على ما هو دينى، إعادة التوازن لطرح العثمانى من جهة، وتلمس الطريق نحو خيار أفضل لضبط التصرفات بالإمامة والأسئلة الشرعية والسياسية الحقيقية التى يتوجب على العقل الإصلاحى الحسم فيها.

فاستنادا إلى ما سبق، تنقسم التصرفات فى «الحكم الشرعى» إلى:

- تصرفات تعرف الحكم الشرعى، وهى من اختصاص الرسول والمفتى من بعده.

- تصرفات تنفذ الحكم الشرعى وهى إما قضائية إذا قامت على فصل وقضاء، وإما تصرفات بالإمامة إذا لم تقم على ذلك.

فجميع ما ذكره سعد الدين العثمانى فيما يتعلق بالتصرفات بالإمامة لدى الصحابة، ولدى العلماء والأصوليين من بعدهم يصدق على التصرفات التنفيذية للأحكام الشرعية عموما، سواء كانت قضائية أو إمامية، دينية أو دنيوية. وحتى الخلاف الذى وقع بين العلماء حول بعض تصرفاته صلى الله عليه وسلم يرجع سببه إلى أن بعضهم صنفها تصرفات تعريفية، بينما رأى فيها البعض الآخر تصرفات تنفيذية.

ج- سمات التصرفات بالإمامة:

إن سمات التصرفات بالإمامة تتحدد لدى سعد الدين تبعا لتصنيفه للتصرفات النبوية فى الفصل الأول، وأهم هذه السمات: أنها تصرفات تشريعية خاصة، مرتبطة بالمصالح العامة، اجتهادية، واردة فى أمور غير دينية. ويمكن أن نعقب على هذه السمات وننقض بعضها، من زاوية المفهوم البديل الذى صغناه اعتمادا على استدراك ابن الشاط على القرافى.

فكونها تصرفات تشريعية خاصة فهذا فيه قدر من الالتباس وعدم التناسب، فالغالب على التصرفات التى وسمها بالتشريعية الخاصة أنها تصرفات تنفيذية، وتغلب عليها هذه السمة، ومن ثم ومن باب أولى تسميتها بالتصرفات التنفيذية. والطريف فى الموضوع أن المؤلف عندما التفت نحو تنويع التصرفات بالإمامة باعتبارها تصرفات تشريعية خاصة سمى النوع الأول منها تصرفات تقنينية، وقال: «وهذا النوع من التصرفات بالإمامة يصطلح عليه أيضا لدى العلماء قديما، إذا صدر من أولى الأمر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالتنفيذ»[١٧]، والنوع الثانى من هذه التصرفات سماه تصرفات تنفيذية. فمادام الأمر على هذه الشاكلة لماذا لا نسم هذه التصرفات بأنها تصرفات تنفيذية حسب تعريف ابن الشاط، أو تصرفات تطبيقية حسب تعريف الدكتور أحمد الريسونى[١٨]؟ وهل دعوتها بهذا الاسم ينقص من قدر النبى صلى الله عليه



وسلم؟ بل الأبلغ من هذا أن ابن عاشور الذى اعتمد عليه سعد الدين فى معرض حديثه عن «مقامات الأفعال والأقوال الصادرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفرقة بين أنواع تصرفاته» قصر التصرفات التشريعية على الأحوال التالية: حال التشريع وحال الإفتاء وحال القضاء[١٩]، ولم يجعل حال الإمامة من بين الأحوال التى تدخل فى باب التصرفات التشريعية.

أما السمة الأكثر حساسية فى هذا الباب هى وصفه للتصرفات بالإمامة أنها تصرفات فى أمور غير «دينية»، وقد بنى هذا الوصف على كلام الإمام القرافى. يقول سعد الدين: «وهو معنى يعبر عنه القرافى بالتأكيد على أن حكم الحاكم يكون «فيما يقع فيه التنازع لمصالح الدنيا»»[٢٠]. ولعل الذى أدى به إلى هذا الفهم هو المطابقة بين الحاكم والإمام واعتبارهما شيئا واحدا، وهو خطأ فى هذا السياق. فالحاكم فى الاصطلاح القرآنى يعنى القاضى، والحُكم يعنى الفصل فى المنازعات وفى مواضع يعنى الحكمة[٢١] وهذا واضح لكثير ممن ألفوا فى هذا الباب، فابن فرحون على سبيل المثال وضع كتابا فى هذا المجال سماه «تبصرة الحكام فى أصول الأقضية ومناهج الأحكام»، وضمنه قسما بعنوان «القضاء بالسياسة الشرعية»، فى إشارة إلى ارتباط لفظ الحكم بالقضاء، حتى فى مجال قد يبدو ظاهريا خارجا عن القضاء[٢٢]. ومن قبله ألف أبو الوليد الباجى كتاب «فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام»[٢٣]، وأفرده للقضاء والمسائل القضائية. ومن ثم يكون مقصود القرافى من هذا القول، سواء من الناحية المعجمية[٢٤] أو من الناحية السياقية، هو ضبط مجال نظر القاضى -وهو ما يقع فيه التنازع لأجل مصالح الدنيا- أكثر من قصده ضبط نظر الإمام أو تحديد مجال الإمامة السياسية.



فمن السمات الأساسية التى نراها معرفة بالتصرفات بالإمامة ومعربة عنها، وسالمة من العيوب الآنفة هى كونها: تطبيقية أو تنفيذية (حسب ابن الشاط) غير قضائية، وبالدرجة الثانية اجتهادية.

فالتصرف بالإمامة فى الأحكام الشرعية، وخاصة تلك التى عرفها النبى صلى الله عليه وسلم، هو تصرف تنفيذى وتطبيقى بالأساس، ويظهر ذلك فى اجتهاد الأئمة فى إخضاع العباد لهذه الأحكام، وإعطائهم إياها مدلولا واقعيا. لكن الحاصل فى بعض الأحيان تغير الحيثيات الواقعية أو الموضوعية لبعض الأحكام، وتغير مقصودها الشرعى فى الواقع، الشىء الذى يدعو إلى مراجعة هذا الحكم أو رفعه. والإمام بحكم مكانته الشرعية كمتصرف فى الأحكام يجوز له هذا العمل. ومثال ذلك ما قام به الخليفة عمر رضى الله عنه بخصوص توزيع الصدقات، فقد أسقط سهم المؤلفة قلوبهم رغم أنه سهم من الأسهم الثمانية التى نصت عليها الآية ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم﴾[٢٥]. ورغم تطبيق النبى صلى الله عليه وسلم لهذا الحكم. وقد علل الخليفة عمر قراره هذا بقوله «إن الله أغنى الإسلام وأعزه اليوم.. فالحق من ربكم فمن شاء فليكفر»[٢٦]. وأيضا ما أثبته الفقهاء بخصوص التسعير، فقد سبق للنبى صلى الله عليه وسلم أن نهى عن التسعير غير أن بعض الفقهاء جوزوا للإمام ذلك، وأشهرهم أبو الوليد الباجى، مراعاة للمصلحة العامة[٢٧].

ومن التصرف بالإمامة فى الأحكام الشرعية أيضا ما يدخل فى باب الحسبة وتحت نفوذ المحتسب، مما لا يدخل فى مجال القضاء، فللمحتسب أمر العامة بالصلوات الخمس فى مواقيتها ويعاقب من لم يصل... ويأمر بالجمعة والجماعات، وبصدق الحديث وأداء الأمانات وينهى عن المنكرات...[٢٨].

وقد يكون تصرف الإمام تصرفا تنفيذيا قضائيا، وليس تصرفا بالإمامة من غير قضاء كما أسلفنا. ويحضرنا فى هذا السياق مثال تاريخى من العصر المرابطى، يتجلى عنده الفرق بين التصرف بالقضاء والتصرف بالإمامة فى المجال السياسى؛ لقد اضطرت الظروف أمير المسلمين على بن يوسف لفرض معونة مالية على الرعية للقيام بفريضة الجهاد، فاستفتى فقهاء العدوتين وأفتوه بجواز ذلك سوى ابن الفراء (ت. ٥١٤هـ) فقد أجاب بالرفض، والطعن فى فتوى الفقهاء الذين جوزوا له ذلك[٢٩]، واستنادا إلى هذه الفتوى عمد أمير المسلمين إلى جمع المعونة. فتصرف «الإمام» فى هذه الحالة تصرف على وجه القضاء بالأساس، إذ كان يمكنه أن يقدم على

هذا القرار دون فتوى من أحد من الفقهاء، ويكون تصرفه فى تلك الحالة على وجه الإمامة.

ويدخل جانب من هذا المبحث فى باب «العام وتخصيصه» من أبواب أصول الفقه، ويدخله بعض الأصوليين كابن حزم وغيره ضمن مباحث الناسخ والمنسوخ. ووجوه التخصيص لدى الأصوليين كثيرة منها المخصصات اللغوية والعقلية والشرعية (تخصيص الكتاب بالسنة، السنة بالسنة...)، غير أن الوجه الذى يقع تحت نفوذ الإمام فى الغالب هو التخصيص بالمصالح المرسلة، بحيث يجوز للإمام أن يبنى أحكاما شرعية (تصرفات) على هذا الدليل (المصالح المرسلة) عند فقدان النص الخاص. وساغ له أيضا أن يخصص بها النص الظنى الدلالة..، ويضعف بها ظنى الثبوت، وفى بعض الحالات يخصص بها القطعى الثبوت والدلالة[٣٠]. ويجوز أن نسمى هذا النوع من التخصيص المخول للإمام أثناء نظره فى «المصالح المرسلة العامة» بالتخصيص بالإمامة، أى الذى يقتضيه نظر الإمام من حيث سعيه فى جلب المصالح ودرء المفاسد. ولا يجب أن يذهب بنا الظن فى هذه النقطة إلى أن التصرف بالإمامة أو التخصيص بالإمامة دائما يكون بمخالفة الأحكام الشرعية التى التزمها الأسلاف والأئمة السابقون. أو أنها من نوع واحد من أنواع التخصيص أى التخصيص بالمصالح المرسلة، بل يجوز عقلا وواقعا أن يستثمر الإمام فى بناء تصرفاته أنواع التخصيص الأخرى.

وعموما، التصرفات بالإمامة سواء تلك التى تدخل فى باب «التخصيص بالإمامة» أو الخارجة عنها لابد فيها من لمسات اجتهادية، فوقف مفعول النص لسبب من الأسباب (ظنية الثبوت أو الدلالة، أو هما معا، أو لمصلحة) أو تدبير مجال ما لا نص فيه لا يسوغه سوى الاجتهاد، وهذا من السمات المصاحبة واللصيقة بالتصرفات بالإمامة، ولكنها ليست شرطا فيها.

د ـ التصرفات بالإمامة ومفهوم المصلحة:

إن المصلحة بشكل عام بالنسبة للتصرفات بالإمامة بمثابة العلة اللازمة لها، والصفة اللصيقة بها، ورغم هذه الأهمية فلا نجد تذكيرا على امتداد الكتاب بمعناها الاصطلاحى الأصولى، مع العلم أن الحاجة لمثل هذا التذكير حاصلة؛ ذلك أن السياقات المختلفة التى ورد فيها مفهوم المصلحة تدفع نحو الاعتقاد بطابعها المادى والدنيوى، وهو ما يقتضى التوضيح والبيان، والتساؤل عن المفهوم الصحيح للمصلحة الشرعية. ولن يتسنى هذا سوى بالرجوع إلى بعض أئمة المقاصد وأهل الأصول الذين تقدموا على غيرهم فى فقه المصالح.

لقد اعتنى فقهاء المقاصد من القدامى والمعاصرين بمفهوم المصلحة واجتهدوا فى ضبطه، ومن بين هؤلاء الغزالى والقرافى والشاطبى وابن عاشور وعلال الفاسى...، وقد اخترنا من



بين التعاريف ما حدده أبو حامد الغزالى فى المستصفى، ونقله عنه كثير، من بينهم ابن عاشور وعلال الفاسى، وذلك لإحاطته ووضوحه؛ فالمصلحة فى نظر الغزالى هى «عبارة عن جلب منفعة أو دفع مضرة»، وزيادة فى الإيضاح قال: «إنه لا يعنى بها ذلك. وإنما يعنى بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع»[٣١]. ولم يترك الغزالى ومن جاء بعده مجالا للتخمين والخبط فى تحديد «مقصود الشرع»، فقد فصل ابن عاشور المصالح التى تنزل منزلة الضرورات الشرعية، باعتبار آثارها فى أمر الأمة على النحو التالى: حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسب وزاد البعض حفظ العرض[٣٢]. «فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعه مصلحة»[٣٣].

لكن من الملاحظات التى أبداها بعض العلماء وعلى رأسهم ابن تيمية على طريقة مقاربة بعض الأصوليين القدامى لأجناس المصالح الخمسة، تغليب الجوانب الدنيوية المادية وبالمقابل إهمال المصالح المعنوية والروحية والخلقية فى تحديدها وذكر أمثلتها وتطبيقاتها[٣٤]، وهى الملاحظة نفسها التى يمكن أن يلاحظها القارئ بيسر على أطروحة سعد الدين خاصة أثناء حديثه عن سمات التصرفات بالإمامة، ولا يخفى أن عيبا كهذا يمكن أن يحول خطاب المصالح إلى وسائل للنفوذ المادى من ناحية ومداخل للتفقير الروحى والخلقى من ناحية ثانية.

فحفظ الدين ككلية شرعية ومصلحة ضرورية على سبيل المثال، سواء بالنسبة للآحاد أو العموم معناه «حفظ دين كل أحد من المسلمين أن يدخل عليه ما يفسد اعتقاده وعمله اللاحق بالدين. وحفظ الدين بالنسبة لعموم الأمة، أى دفع كل ما من شأنه أن ينقض أصول الدين القطعية. ويدخل فى ذلك حماية البيضة والذب عن الحوزة الإسلامية بإبقاء وسائل تلقى الدين من الأمة حاضرها وآتيها»[٣٥] وهذا لن يتحقق فى معظمه خارج الإمامة وبعيدا عنها.



إن محاولة تعبئة «الإمامة السياسية»، شكلا ومضمونا بما هو دنيوى ومدنى وفى المقابل العزوف عن ما هو دينى التى قام بها الدكتور سعد الدين العثمانى فى رسالته القصيرة، رغم منافعها وفوائدها الكثيرة التى عددها فى نهاية البحث، ستؤدى فى حال نفوذها إلى تأصيل الاتجاهات التى ترغب فى إبعاد الدين عن ساحة السياسة أو على الأقل إضعاف العلاقة بينهما. فإذا كانت أسباب نزول هذه الرسالة توجد فى الماضى وتتمثل فى مدافعة تيارات الغلو الإسلامى التى جمدت على الرسوم والمعانى، فإن تداعياتها فى الاتجاه الآخر والسلبيات الناجمة عنها على مستوى فهم العلاقة بين الدين والسياسة فى الوقت الحاضر لا تقل خطورة عما يمكن أن تتسبب فيه تيارات الغلو فى جانب الدين. فالإمامة السياسية فى الإسلام هى إمامة دينية ودنيوية، وهذه من الحقائق التى تنضح بها النصوص الشرعية وتؤكدها التجارب التاريخية. وتأكيد هذه الحقيقة والاعتراف بها لا ينقص من مدنية الدولة الإسلامية ولا يضيق على الاجتهاد السياسى فى الدين والواقع. فالإسلام بطبيعته دين مدنى، وكل شىء حوله وفى تاريخه يدل على هذه الطبيعة، فمطلقاته وقطعياته الدلالية محدودة مقارنة بالمساحات التى تقع تحت مسؤولية العقل ونفوذه.

فإذا كانت تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم فى المجال الدينى تنسب إلى مقام النبوة، فإن تدبير هذا المجال وحفظ التدين بعد النبى (ص) بديهيا يؤول إلى «ورثة الأنبياء» من علماء وخلفاء، على النحو الذى بيناه فى السابق. لقد قصر سعد الدين العثمانى نظره على «التصرفات بالإمامة» الخارجة عن نطاق «التصرفات النبوية الدينية»، وظهر له من هذا التمييز ما ظهر من السمات والإشارات السالفة، التى تؤكد على الطابع الدنيوى والمصلحى للتصرفات بالإمامة، فى حين وجب الامتداد بالنظر إلى أنواع التصرفات الأخرى (التشريعية) والبحث خلالها عما صدر منه صلى الله عليه وسلم باعتباره إماما، حتى يتسنى له ولغيره تحديد السمات الموضوعية للتصرفات بالإمامة.

إن مشكلة الإمامة السياسية فى جانبها الدينى فى الوقت الحالى تكمن فى نموذج الدولة الحديثة ذى الأصول العلمانية، الذى أرسيت قواعده فى العالم العربى والإسلامى أواخر القرن ١٩م وبداية القرن ٢٠م، الذى لا يعترف للدولة بأية وظيفة دينية. وقد حاولت الدول الإسلامية إدخال بعض التعديلات على هذا النموذج بما يراعى

خصوصياتها الدينية والتاريخية، إلا أن حصيلتها في المجال الديني بعد قرابة قرن من الزمان تنطق بالفشل، فقد كثرت الجرأة على الدين بين المسلمين وانتهكت حرماته وأصبح حضوره باهتا في الحياة العامة...، فلابد -والحالة هاته- من تقويم الأداء الديني للدولة الحديثة، والتفكير في نموذج سياسي مختلف تتعايش داخله الوظيفة الدينية والدنيوية للدولة، ويعيد الاعتبار للإمامة الدينية في الحياة السياسية للمسلمين. فبدل الاجتهاد في إضفاء الطابع الدنيوي على الإمامة السياسية -كما هو الحال مع سعد الدين في هذا الكتاب- كشكل من أشكال التكيف مع الواقع السياسي يجب الاتجاه نحو تحديث الفكر السياسي الإسلامي وتطوير نموذج الدولة السائد. ■

هــــوامـــــش

(١) يسم المؤلف هذه التصرفات بأنها تشريعية خاصة الغرض منها الاقتداء والتنفيذ، لكن سرعان ما يستدرك عليها بكونها جزئية وتتعلق بالظروف وهو ما يذهب بهذا الغرض أي الاقتداء والتنفيذ ويجعله نسبيا وظرفيا.

(٢) نفسه، ص ٥٤.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٩٢/١، ص ٢٠٢.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٤ ، ٥.

(٥) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ٢٨، مكتبة المعارف، الرباط، ص ٢٤١.

(٦) من خلال التعريفات السابقة وخاصة تعريف ابن خلدون والماوردي يلاحظ قدر من التشابه من حيث الألفاظ المستعملة بين تعاريف الشيعة وتعاريف أهل السنة والخلاف فقط يظهر في الاستدلال، لكن الذي أردنا بيانه من خلال قول ابن خلدون والماوردي هو أن لفظ الإمامة يشير إلى الديني والدنيوي في الفكر السياسي السني.

(٧) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٢، دار صادر بيروت، ط ١٩٩٧/٦، ص ٢٤.

(٨) نفسه، ص ٢٥.

(٩) لؤي صافي، العقيدة والسياسة، منشورات المعهد العالمي، طبعة خاصة بالمغرب، سلسلة الحوار، ٤٤، ط ٣/ ٢٠٠١، ص ٢١٧.

(١٠) الطرطوشي، سراج الملوك، ج ١، الدار المصرية اللبنانية للنشر، القاهرة، ط ١/ ١٩٩٤، ص ٢١٦ ، ٢١٧.

(١١) الماوردي، م. س، ص ٦.

(١٢) مجهول، الرسالة الوجيزية إلى الحضرة العزيزية في علوم الخلافة، إعداد وتقديم أحمد الدغرني، مطبعة المعارف الجديدة-الرباط، ط ١٩٨٧/١، ص ٣٣.

(١٣) ابن الشاط (٦٤٣- ٧٢٣هـ): هو قاسم بن محمد الأنصاري السبتي المعروف بابن الشاط، صحب أبا الربيع وأخذ عنه، فقيه وأصولي، ومما قيل تعظيما لابن الشاط في هذا المجال «عليك بفروق القرافي ولا تقبل منها إلا ما قبله ابن الشاط»، (محمد علي بن الحسين المكي المالكي، تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية، على هامش الفروق، دار الكتب، بيروت، ص ٣).

(١٤) ابن الشاط، حاشية إدرار الشروق على أنواء الفروق المنشورة على هامش كتاب الفروق، ج ١، عالم الكتب، بيروت، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧.

(١٥) أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ج ٢، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، منشورات دار الحكمة والدار العربية للكتاب، تونس، ص ٨٦٤.

(١٦) ابن تيمية، الفتاوى، ج ٢٨، م. س. ص ٣٠٧ ، ٣٠٨.

(١٧) سعد الدين، م. س. ص ٦٧ ، ٦٨.

(١٨) اقترح علينا الدكتور أحمد الريسوني حفظه الله تسمية هذا النوع من التصرفات بالتطبيقية وذلك لتفادي الالتباس في هذا الجانب.

(١٩) ابن عاشور، مقاصد الشريعة، دار السلام، القاهرة، ط ١/ ٢٠٠٥، ص ٢٧. ٢٨.

(٢٠) نفسه، ص ٧٢.

(٢١) محمد عمارة في «الدولة الإسلامية»، نقلا عن فريد الأنصاري، البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، منشورات ألوان مغربية، ط ٢٠٠٤/١، ص ١٠٠.

(٢٢) ابن فرحون، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٠٤.

(٢٣) أبو الوليد الباجي، فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام، تحقيق د. الباتول بن علي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، ط ١٩٩٠.

(٢٤) نعثر في بعض الأحيان على استعمالات للحاكم بمعنى الإمام في الفكر السياسي الإسلامي.

(٢٥) التوبة، ٦٠.

(٢٦) إدريس حمادي، العام وتخصيصه في الاصطلاح الأصولي، مطبعة السلام، فاس، ط ١٩٨٨، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤.

(٢٧) نفسه، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥.

(٢٨) ابن تيمية، الفتاوى، ج ٢٨، ص ٦٩-٧١.

(٢٩) سعيد أعراب، من الرسائل المرابطية، مجلة دعوة الحق، فبراير ١٩٨٥، ع ٢٤٥، ص ٣٤-٣٧.

(٣٠) إدريس حمادي، العام وتخصيصه في الاصطلاح الأصولي، م. س. ص ٢٠٣-٢٠٩.

(٣١) علال الفاسي، مقاصد الشريعة، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٩١، ص ١٤٢.

(٣٢) ابن عاشور، مقاصد الشريعة، م. س. ص ٧٧.

(٣٣) الغزالي، المستصفى، الأصل الرابع من الأصول الموهومة (الاستصلاح).

(٣٤) أحمد الريسوني، الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، منشورات حركة التوحيد والإصلاح (اللجنة العلمية)، طوب بريس، الرباط، ٢٠٠٧، ص ٦٦.

(٣٥) ابن عاشور، مقاصد الشريعة، م. س. ص ٧٨.

كتاب الزاوية

من شعر الحلاج

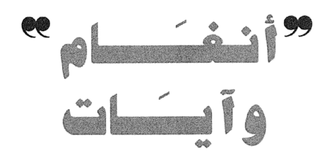
مختارات

وأيّ أرض تخلو منك حتّى
تعالوا يطلبونك في السماء
تَرياهُم يُنظُرونَ إِلَيكَ جَهراً
وَهُم لا يُبصِرونَ مِنَ العَماءِ

■ ■ ■

كانت لقلبي أهواءٌ مفرّقة
فاستجمعَتْ مُذْ راءَتْك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده
وصرتُ مولى الورى مُذْ صرتَ مولائي
ما لامني فيك أحبابي وأعدائي
إلا لغفلتهم عن عظم بلوائي
تركتُ للناس دنياهم ودينهم
شغلاً بحبّك يا ديني ودنيائي
أشعلتَ في كبدي نارين واحدة
بين الضلوع وأخرى بين أحشائي

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾



سيد محمد البخارى

القرآن الكريم والحكمة هما أداتان رئيسيتان فى سنى التكوين للخطاط. ويمثل القرآن الكريم جوهر المعرفة كلها بالنسبة للخطاط، فى حين أن الحكمة تصبح هى الأداة التى ترقى من شأن فن الخطوط إلى ما يتجاوز مجرد الكتابة أو الخط. ويتضح التحام القرآن الكريم والحكمة معًا فى المجموعة المتميزة لصحائف فارسية مفردة فى متحف الفنون الإسلامية فى ماليزيا، والتى تم نسخها ما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر الميلاديين. هذا ولم يحظ وضع تلك الأوراق المفردة أو المدرجة فى ألبومات باهتمام العديد من الدارسين فى الماضى. أما اليوم فإن هذا العمل «أنغام وآيات» سوف يعمل على تحفيز الهمم على رصد تاريخ واضح لتطور هذا الفن، مع إبراز لدور الخطاطين فى هذا المضمار.

يضاف إلى ذلك أن هذا العمل يستشف عن قرب أسلوبية هذه المنتجات الخطية وطرائق تلاوتها، بحيث تنساب الأصوات القدسية لتزدان بها تلك الأوراق. ومن ناحية أخرى، فإن أنماط الكتابة سرعان ما تكشف عن إيقاع القصيدة، والنغم الشجى للنثر، وإعجاز الرنين فى الآيات.

وجدير بالتنويه أنه طيلة معرض كتالوج «أنغام وآيات»، فإن اللمسات الفنية للخطاط ببوصته سوف تكشف عن الأبعاد الجمالية لريشة الخطاط، وعن الحكمة الصدوقة للأوراق المفردة.



إن الأسلوب الإعجازى للقرآن الكريم، بما يتضمنه من إيقاع وآيات، قد تملك قلوب وعقول العلماء المسلمين كافة، وكذا أفئدة الخطاطين والشعراء. فلقد ألهمت الآيات البينات كتابات هؤلاء وأولاء، وانعكس هذا كله فى إبداعاتهم، فجاءت تلكم الإبداعات لتترك فى نفس المتلقى ما هو أبعد من مجرد تأثير الكلمة المنطوقة. ومن جانبه أخذ الخطاط المسلم على عاتقه مهمة تنميق الخطوط وطرائقها المختلفة ليضفى عليها ثوبًا من الجمال ينطق للرائى بإعجاز القرآن الكريم، والحديث، والحكم والأمثال، على أن مسؤولية الخطاط قد تضاعفت من واقع رغبته فى الكشف عن تجويد الآيات القرآنية، وطبقات نغماتها وإيقاعها. ومن ثم انصب هم الخطاط على إخراج مخطوطته فى شكل منغم، وذلك من خلال ريشته من أقلام البوص، حتى تخرج كل كلمة من الآيات الكريمة ذات وقع موسيقى على الصفحة بكاملها، ويأتى هذا الكتالوج «أنغام وآيات» بهدف تقديم مجموعة من الأوراق المفردة من المخطوطات الإيرانية إلى اهتمامات وعناية العلماء، ومؤرخى الفن، والخطاطين، وعامة القوم. وتتألف هذه المجموعة من ٢٥٠ ورقة مفردة بأقلام كوكبة من مشاهير الخطاطين الفرس. وتغطى هذه الأوراق مسافة زمنية تبلغ ٤٠٠ عام فيما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر الميلاديين، حتى تكشف عن تطور الكتابة الفارسية من خلال مقتطفات أدبية مرموقة، إيرانية وعربية على حد سواء.

لقد لعب الخطاطون الفرس دورًا مهمًا فى تطوير الكتابة العربية وتطويعها فى كل من إيران وبلدان آسيا الوسطى. ومع انتشار الإسلام، صارت الغلبة للأبجدية العربية على اللغات القديمة، فتبدلت بذلك أشكال الكتابة، كما دخلت ألفاظ عربية كثيرة فى هذه اللغات. وبهذا التحول، صارت اللغة الفارسية الجيدة فى متناول عامة القوم، فى حين أن كتابة هذه اللغة قد باتت وقفًا على النخبة والقلة المثقفة؛ وهكذا تغيرت أشكال الحروف الأبجدية، وطرأت عليها تحولات وقواعد جديدة من حيث الحجم، والعرض، والطول، وكذا قواعد ترابطها، الحرف بالآخر. ولقد ظهرت فى إيران ثلاث طرائق خطية جديدة: خط «تعليق»، و«نستعليق»، و«شكسته». وقد جاءت هذه الخطوط فى أشكال خفيفة، ومناسبة، ومتناغمة. بحيث توحى لمن يتأملها بانطباعات صوفية وروحانية.

وكان خطاط القرن الخامس عشر الميلادى فى فارس يعزو الجمال الذى أنتجته يده البشرية إلى العناية الربانية والوحى العلوى السماوى. ويروى أن الخطاط مير على تبريزى (ولد سنة ١٤١٦م)، مؤسس خط «النستعليق»، قد تراءى له فى المنام سيدنا على بن أبى طالب (رضى الله عنه) رابع الخلفاء الراشدين، الذى كشف له عن منظر الإوز الطائر، الذى يمكن مقارنته بالانسياب الحر للمسات ريشة الخطاط فى كتابته. وبمرور الوقت ولد خط «النستعليق». ويرى الكثيرون فى خطى «التعليق» و«النستعليق» مذاقًا صوفى النكهة، وهما خطان ينطويان على نسق خاص بهما لا يحصله الخطاط إلا على مدار العمر كله. أما خط «الشكسته» فيتألف من مجموعة ضخمة من العبارات القصيرة التى تندح فى كل اتجاه، ولكنها ترانيم لآيات الله البينات.

إن هذا العمل «أنغام وآيات» يهدف إلى الكشف عن تطور فن الكتابة كمساق تراثى، من خلال سلسلة متعاقبة من الأساتذة إلى مريديهم، وذلك من خلال مجموعة من الأوراق التى استخدمت كمسودات للتمارين، ثم من صحائف بريشة هؤلاء الأساتذة المرموقين.

وفى هذه المجموعة النادرة نماذج من خط «النستعليق» للخطاط سيد مير عماد الحسينى (توفى سنة ١٦١٥م)، إلى جانب مقاطع شعرية ثنائية بخطى النسخ والرقعة بقلم أحمد النيريزى، ومن مرسم شاه طهماسب، ومن نماذج خطية أخرى لكل من شاه محمود نيسابورى (توفى سنة ١٥٦٢م).

وهذه المجموعة تحتوى على صفحات متباينة فى الحجم، ونمط الكتابة والنقوش. وبعض منمنماتها المعروفة باسم «الغبار» كانت تستخدم لأحجبة ورسائل سرية، فى حين أن البعض الآخر جاء فى شكل ألبومات (مرقعات) خاصة بالأمراء والملوك. وتفصح هذه الكتابات جميعًا عن رقة وجمال تزدان بهما الصفحات العديدة، وهى أيضًا ممهورة بالأختام والتوقيعات، مما يزيد من قيمتها التاريخية، كما أنها تلقى المزيد من الضوء على تطور الكتابة الفارسية.

إن هذا العمل فى هذا المعرض يدعو مشاهديه، إلى أن تنفتح آذانهم على إيقاع المقاطع الشعرية الثنائية، وعلى قصائد الفيلسوف والشاعر جلال الدين الرومى، حتى تستشعر وقعها الخلاب من خلال كل سطر فى فيض من النغم الموسيقى الممتع.



معرض: أنغام وآيات
روائع الخط الفارسى
متحف الفنون الإسلامية بماليزيا
كتالوج المعرض: تحرير هبة نايل بركات
مركز الخطوط - مكتبة الإسكندرية





■■ في قصر فسيح يسمى «قصر الخلد»، بناه جده المنصور، وجعله في الجانب الغربي في دجلة، عاش الرشيد. والقصر يقع في منحنى نهر دجلة، بإزاء باب خراسان حتى إذا شبت نار الثورة كان في استطاعته أن يفر إلى خراسان، وهي أهم مؤسس للدولة العباسية. وفي ناحية من نواحيه على الشاطئ الآخر قصور البرامكة، هذا قصر يحيى، وهذا قصر جعفر، وهذا قصر الفضل.

وله فناء واسع قد مُلئ بالجواري والغلمان على مختلف الأشكال والألوان. وقد كان الرشيد يغالي في أثمانهن، خصوصا إذا كانت الفتاة جميلة أو متعلمة الغناء أو أديبة. واشتهر من جواري القصر اللاتي غلبن على الرشيد ماردة، وهي التي ولدت منه المعتصم، وهيلانة وهي يونانية كما يدل عليها اسمها، وقد ماتت وحزن عليها الرشيد حزنا شديدا وقال الشعر فيها:

أف للدنيا وللزيـ
ـنة فيها والإناث
إذ حثا الترب على هيـ
لان في الحفرة حاث

ويقول فيها أبان اللاحقي على لسان الرشيد:

بت ضجيع الحزن ما أغفى
لحادث جل عن الوصف
حزنان: حزن منهما ظاهر
وأوجع الحزنين ما أخفى
أنت أهل الترب من فوقها
مواريا تحت الثرى أنفى
لهفي على هيلان لو أنه
يرد شيئا فاتنا لهفي

وهذا القصر كأنه مدينة صغيرة له أجنحة متعددة، هذا جناح للخيزران أم الرشيد بكتبها وغلمانها وجواريها، وكانت مواكب الأمراء تأتي إلى بابها فنهاها الهادي عن ذلك. وقال لها: «متى وقف ببابك أمير ضربت عنقه. أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو سبحة؟» فقامت الخيزران وهي ما تعقل من الغضب. وقد ذكروا أنها كانت لها شأن في الدسيسة التي حيكت حول ابنها الهادي حتى قتل، فلما تولى الرشيد أعاد لها سطوتها وسلطانها. ولكنها لم تطل مدتها، فماتت بعد ثلاث سنوات من خلافته. وكان يوم وفاتها يوما ممطرا، فمشى الرشيد في جنازتها. وكانت امرأة عاقلة قوية السلطان كبيرة الشخصية، تتدخل في شئون الدولة وتسيرها، يعينها على ذلك يحيى البرمكي وأولاده. وقد خاف ابنها الهادي من سطوتها وتدخلها وشخصيتها، فحجر عليها فكرهته.

وهذا جناح زبيدة زوج الرشيد، وهي كذلك شخصية قوية خيرة لها خدمها الخاصون وغلمانها وجواريها. وكانت كالخيزران في تدخلها السياسي، غير أنها لم تكن مثلها في دس الدسائس بل كانت بارة محسنة، تنفق الأموال على الملاجئ والمستشفيات، ومن آثارها الخالدة عين الماء المسماة باسمها، والتي أنشأتها في الحجاز، ومدت بها الماء إلى مكة ثم كان في حجرها ابنها محمد الأمين.

وهذا جناح علية أخت الرشيد، وكانت شاعرة، جميلة، مفتنة لها عشاقها وزوارها ومجالس أنسها وسرورها.

وهذا جناح العباسة أخت الرشيد، فتاة جميلة أيضا شاعرة تحب جعفر البرمكي وتراسله.

وأخيرا جناح الرشيد وهو أعظم الأجنحة، فيه جواريه الكثيرة وغلمانه الكثيرون وأطباؤه ومضحكوه ومغنوه إلى آخر ما هنالك.

وعلى الجملة، فكان القصر يموج بالفتيان والفتيات والكبار والصغار، هذه جارية فارسية تتكلم بالفارسية، وهذه يونانية تتكلم باليونانية، وهذه حبشية تتكلم بالحبشية، وهذه بربرية تتكلم بالبربرية... إلخ. ثم كانت تموج في القصر تيارات مختلفة، تيارات سياسية من الخيزران وزبيدة. فالخيزران توالي البرامكة وتؤيدهم، وتكره الفضل بن الربيع وتبعده. وتيار من زبيدة: تكره البرامكة وتعاكسهم، وتؤيد الفضل بن الربيع وتقربه. ثم تيارات أخرى غرامية بين شابات القصر وشبانه، والعباسة، وعلية، والجواري والغلمان.

وكانت جواري الرشيد فيما يقولون تبلغ نحو ألفي جارية مختلفة الأجناس، منهن الروميات، والسنديات، والفارسيات. وقد قال خبير بالرقيق وأنواعه: إن لكل نوع من أنواع الرقيق ميزات خاصة يعرف بها، فالهنديات وديعات لينات الجانب هادئات قادرات على حسن رعاية الطفل. ولكن سرعان ما يعرض لهن الذبول. واشتهرت السنديات بالخصر النحيف والشعر الطويل. واشتهرت مولدات المدينة بالدلال والميل إلى السرور والفكاهة والمجون، وبحسن الاستعداد للنبوغ في الغناء. وعرفت مولدات مكة بدقة المعصم والفصل والعيون الناعسة. وعرفت الإماء البربريات المغربيات بأنهن لا يبارين في حسن الإنتاج، وهن لدماثة خلقهن ولين عريكتهن صالحات،قد تعودن القيام بمختلف الأعمال.

والمثل الأعلى للجارية كما يقول أبو عثمان الدلال أن تكون من أصل بربري، فارقت بلادها في التاسعة من عمرها ومكثت ثلاث سنين في المدينة ومثلها في مكة. ثم رحلت إلى العراق في السادسة عشرة من عمرها لتتثقف بثقافته، فإذا بيعت في الخامسة والعشرين كانت قد جمعت من جودة الأصل ودلال المدنيات ورقة المكيات وثقافة العراقيات.

والسودانيات كن يغمرن الأسواق. وقد عُرفن بقلة الثبات والإهمال، كما عرفن بالميل إلى الضرب بالدف والرقص. وهن أحسن خلق الله بياض أسنان، ولكن يعاب عليهن نتن الإبط وخشونة الملمس. والحبشيات عرفن بالضعف والترهل والاستعداد لمرض الصدر، وهن على عكس السودانيات لا يحسنَّ الغناء ولا الرقص ولكنهن قويات الخلق، موضع للثقة، أهل للاعتماد عليهن.



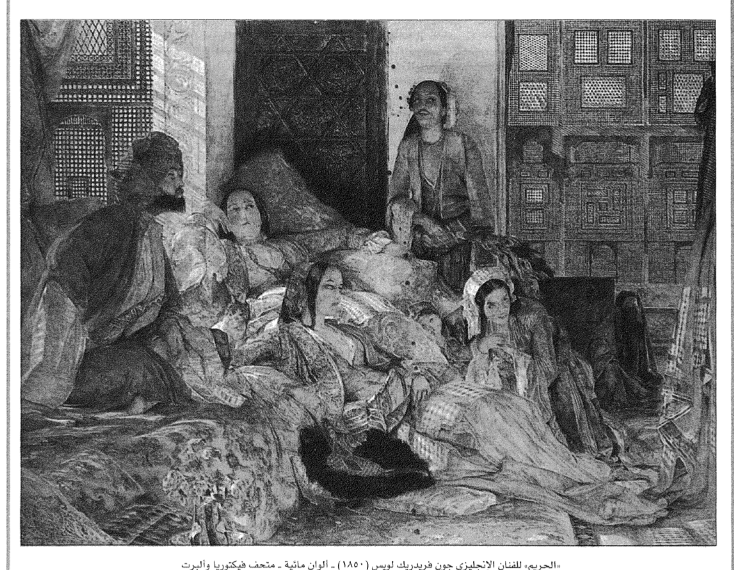
قصر الخلد

ولا يخلو قصر كهذا من العلاقات الغرامية ولذة الوصال وألم الخصام ونحو ذلك من ضروب العواطف، حتى إنهم ليحكون أن سبب اتصال الرشيد بأبي يوسف أن الرشيد رأى مرة منظرا غراميا لم يعجبه، فاستدعى أبا يوسف لسؤاله: هل على الخليفة إذا رأى هذا المنظر أن يحد الجناة؟ فأفتاه بلا، لأن القاضي لا يقضي بعلمه، فسرى عن الرشيد وأجزل لأبي يوسف الصلات، وتوثقت الصلة بينه وبين أبي يوسف من ذلك الحين، حتى عينه قاضي القضاة.

تضيف إلى عظمة قصر الخلد عظمة بغداد. فقد كانت مملوءة بالقصور الفخمة والميادين الفسيحة والأسواق الحافلة بالدكاكين الممتلئة بالسلع. وكان يأتيها من مصر البلسم والكتان والقمح والنحاس والذهب وزمرد النوبة والجلود والأسلحة الصلبة. ومن اليونان النباتات ذات العطر الطيب

للاستزادة:
هارون الرشيد
أحمد أمين
دار الشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٧

أحمد أمين



«الحريم» للفنان الإنجليزى جون فريدريك لويس (١٨٥٠) ـ ألوان مائية ـ متحف فيكتوريا وألبرت

والصمغ. ومن سوريا الزجاج والبلّور والأصداف.

ومن بلاد العرب البخور. ومن سوماطرة البخور الجاوى والزعفران والقرفة. ومن جاوى الماس والعاج والأخشاب. ومن سيلان الياقوت واللازورد. ومن فارس الأصواف. ومن شيراز الفيروز والعقيق والمرجان. ومن أصفهان الأقمشة المختلفة. ومن بخارى الأصواف والسجاجيد والأقمشة. ومن مرو الزبرجد. ومن الموصل صفائح الصلب. ومن سمرقند الأطلس والفضة والأقمشة الناعمة. ومن الصين الصينى وحجر الشب والحرير الخام والصمغ. ومن التبت المسك. وهذه كلها تحول أحسن ما يرد إلى قصر الخلد والقصور حوله، وأحيانا كثيرة يسير الشابان ـ هارون الرشيد وجعفر. ووراءهما مسرور الخادم متخفيين للوقوف وشراء خير ما فى الأسواق، كما تروى لنا ألف ليلة وليلة.

ويقول الاقتصاديون إن الدينار والدرهم ليس لهما قيمة ذاتية، وإن قيمتهما بقدرتهما الشرائية. وكانت قيمتهما فى عهد الرشيد كبيرة لا تقاس بما نحن عليه اليوم. فقد عثرت على قائمة بتثمين بعض الأشياء فيها أن الكبش كان يباع بدرهم، والجمل بأربعة دنانير، والتمر ستون رطلا بدرهم. والزيت ستة عشر رطلا بدرهم، والسمن ثمانية أرطال بدرهم. وكان الرجل يعمل فى سور بغداد كل يوم بخمس حبات، وكان ينادى على لحم البقر فى جبانة كندى تسعون رطلا بدرهم، ولحم الغنم ستون رطلا بدرهم. والعسل عشرة أرطال بدرهم. والأستاذ البناء بخمس حبات. ومن المعلوم أنه فى أيامهم كانت الحبة ثلث درهم، والدانق سدس درهم. والدينار كانت تختلف قيمته تبعا لنقاء فضة الدراهم أو عدم نقائها، فكان يساوى مرة عشرة ومرة خمسة عشر ومرة عشرين. وكان مقدار الدينار ذهبا يساوى ستين قرشا مصريا تقريبا.

ثقافة الرشيد

وكان الرشيد مثقفا ثقافة عربية واسعة، علمه الأدب المفضل الضبى، والنحو الكسائى، وملأه الأصمعى طرفا من طرائفه الأدبية وملحا من ملحه العربية.

وكان نديمه فى الغناء إسحاق الموصلى، وتدلنا مناقشاته الكثيرة للعلماء والأدباء على بحر واسع فى العلم والأدب. وقد روى عنه أنه كان ينقد الشعراء فى أشعارهم، وينقد المغنين فى غنائهم، ويحصى غلطات هؤلاء وهؤلاء، ومزايا هؤلاء وهؤلاء، كما كان من أدلة ذلك ما جمع له من الأصوات الممتازة التى اختارها أبو الفرج الأصفهانى وبنى عليها كتابه الأغانى.

ولعل أكبر ما يدل على ثقافته وصيته المشهورة التى تقدم بها إلى الأحمر معلم ولده محمد الأمين إذ قال: «يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة. وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا

دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه. ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة، وهي وصية حكيمة وضع فيها الرشيد منهج التعليم، ومنهج الأخلاق، واتخذت على مر العصور مرشدا لكل من حاول التعليم وأراد ممارسته.

ويروون أن الرشيد مرة دعا المفضل الضبي والمأمون عن يمينه ومحمد الأمين عن يساره، قال المفضل: فسلمت، فأومأ إليّ بالجلوس فجلست، فقال لي: «يا مفضل». قلت: «لبيك يا أمير المؤمنين». قال: «كم من الأسماء في «فسيكفيكهم الله»؟». فقلت: «ثلاثة أسماء يا أمير المؤمنين». قال: «وما هي؟». قلت: «الياء لله عز وجل، والكاف الثانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والهاء والميم والواو للكفار». قال: «صدقت، كذا أفادنا هذا الشيخ» - يعني الكسائي - ثم التفت إلى الأمين فقال له: «فهمت». قال: «نعم». قال: «أعد المسألة» فأعادها كما قال المفضل. قال الرشيد: «يا مفضل هل عندك مسألة؟». قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قول الفرزدق:

أخذنا بأطراف السماء عليكم
لنا قمراها والنجوم الطوالع

قال الرشيد: «هيهات قد أفادنا هذا قبلك، فقد أخبرنا الشيخ - يعني الكسائي - أن لنا قمريها، يعني الشمس والقمر، كما قالوا سنة العمرين يريدون أبا بكر وعمر. وذلك أنه إذا اجتمع اسمان من جنس واحد، وكان أحدهما أخف على أفواه القائلين غلّبوه فسموا الأخير باسمه. فلما كانت أيام عمر أكثر من أيام أبي بكر وفتوحه أكثر غلّبوه. وسموا أبا بكر باسمه. وقد قال الله عز وجل: ﴿بعد المشرقين فبئس القرين﴾ وهو المشرق والمغرب. قال المفضل: «بقيت مسألة». قال: «وما هي؟». قلت: «أراد بالشمس إبراهيم صلى الله عليه وسلم خليل الرحمن، وبالقمر محمداً صلى الله عليه وسلم. والنجوم الخلفاء الراشدين من آبائك الصالحين». وهو تفسير يرمي إلى نوع من النفاق. قال: «يا فضل بن الربيع احمل إليه مائة ألف درهم ومائة ألف لقضاء دينه». إلى كثير من أمثال هذه الحكايات التي تدل جملتها على ثقافة واسعة واستفادة من المفضل والأصمعي والكسائي وأمثالهم.

ويروى المفضل أيضا أن الرشيد استدعاه وسأله عن بيت من الشعر، فأجاب وفق ما توقع الرشيد. فنزع الرشيد من يده خاتما قيمته ألف وستمائة دينار وأعطاه للمفضل. فلما علمت الخيزران بذلك أعطته الألف والستمائة، وأخذت الخاتم منه، وردته إلى الرشيد لأنه كان يعجب به. فرده الرشيد إلى المفضل، وقال له: «لا يليق بالخليفة أن يسترد ما أعطى»، فصفا له الألف والستمائة.

امتزاج الثقافات

وإلى جانب ذلك كان في عهد الرشيد اختلاط الثقافات كأنها جداول صغيرة تكون منها نهر كبير. فأولا: كان من هذه الثقافات: الثقافة الفارسية، وهي التي عظمت في الدولة العباسية، مما ألفها عبد الله بن المقفع وأمثاله. وقد كسبت الثقافة الإسلامية العباسية من الفرس أشياء كثيرة، منها: الألفاظ اللغوية، خاصة ما ليس للعرب عهد بمدلولاتها، مثل ألفاظ المأكولات الفارسية والنباتات الفارسية وضروب الملابس والأثاث والرياش.

رُوى أن فارسيا ناظر عربيا بين يدي يحيى بن خالد البرمكي، فقال الفارسي: «ما احتجنا إليكم قط في عمل ولا تسمية، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا بأعمالكم ولا لغتكم، حتى إن طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سمينا ما غيرتموها كالاسفيداج والسكباج والدوغباج وكالسكنجبين والخلنجين والجلاب وأمثالها وكالروزنامج والاسكدار وأمثالها». فسكت عنه العربي، فقال له يحيى ابن خالد: قل له: «اصبر لنا نملك كما ملكتم ألف سنة بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج إليكم ولا إلى شيء كان لكم». ونقرأ في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، فنراه يستعمل ألفاظا كثيرة من أصل فارسي، فيسمي الطريق إذا التقت فيه أربعة طرق: «جهارسو» والجهارسو فارسية، ويسمي السوق الوازار وهي فارسية وهكذا.

وثانيا: نقلوا كثيرا من كتب الأدب فارسية الأصل وكثيرا من القصص الفارسية. ويحكون أن كتاب ألف ليلة وليلة أصله فارسي. وقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية كما ترجموا عن الفارسية كتاب زرادشت المسمى أفستا، ترجموه هو وما عليه من شروح. وقد ترجم الحسن بن سهل كتاب «جاويدان خرد» عن الفارسية.

هذا إلى أن كثيرا من الفرس كانوا قد أسلموا وتعلموا العربية، فكانوا ينقلون إلى العربية ما تعلموه من أفكار فارسية كما نُقل كثير من التوقيعات والحكم إلى العربية من غير نص عليها، بل لعل من كان من أصل فارسي كله أو بعضه، كبشار بن برد وأبي نواس لهم معان مأخوذة من أصل فارسي. ومن رأى ابن خلدون: أن كثيرا من واضعي العلوم كسيبويه واضع النحو، وأبي حنيفة واضع الفقة، ونحوهما من أصل فارسي. وأن الفارسيين في هذا الباب أكثر من العرب. وسواء أصح هذا أم لم يصح، فأقل ما يدل عليه أن كثيرا من الفرس وضعوا كثيرا من العلوم، بل ذهب بعضهم إلى أن شعر أبي العتاهية لا يمت إلى العرب بصلة، لأنه ليس مناسبا لحياة الملوك وترفهم ونعيمهم في الحياة، وإنما هو شعر مستمد من الفارسية، خصوصا من مذهب ماني الزاهد.

كذلك انتشرت الثقافة الهندية بدخول كلمات من الأصل الهندي إلى اللغة العربية. وقد سموا السيف مهندا أخذا من الهند. ومن أسمائهم النسائية: هند، وكليلة ودمنة الذي ترجم إلى العربية من الفارسية من أصل هندي. وكان هناك علماء من أصل هندي تثقفوا بالثقافة العربية ونشروا الأفكار الهندية كابن الأعرابي، فقد رووا أن أباه زيادا كان من أصل هندي. كذلك نُقل إلينا أن التجارة بين المسلمين في العهد العباسي والهند كانت واسعة النطاق في التوابل وأنواعها. وقد نقلت إلى العربية مدلولاتها وأسماؤها. وحكى لنا البيروني أنهم كانوا مهرة في الحساب والهندسة، وأن لهم طريقة تخالف طريقة اليونان. هذا إلى أن كثيرا من عقائدهم في الحلول ووحدة الوجود دخلت في التصوف الإسلامي.



وهناك ثقافة يونانية دخلت في الدول العربية منها ألفاظ كثيرة، كما دخلها الطب والفلسفة، وكان في بلاد العرب كثير من المثقفين بالثقافة اليونانية كعلماء حران والإسكندرية وغير ذلك. نعم، إن العرب لم يستسيغوا الأدب اليوناني في القديم لأنه يبعد كثيرا عن الأدب العربي، فلم يأخذوا منها كثيرا، وإن أخذوا منها الطب والمنطق والفلسفة.

والثقافة الرابعة: الثقافة الرومانية، من مثل ألفاظ التقطوها من الجواري الرومانيات ومن الرومانيين في أثناء حروب المسلمين معهم وأسرهم الإسارى منهم. وكان مما عني به في عهد الرشيد والخلفاء العباسيين عامة: الطب والتنجيم فاتخذوهما من الوظائف الرسمية. وكان لكل خليفة طبيب خاص ومنجم خاص. أما حاجة الخلفاء للطب فواضحة: إذ كان أكثر الخلفاء مرضى يحتاجون إلى طبيب يداويهم. ورووا أن المنصور كان مريضا بمعدته ولم يستطع أطباؤه معالجته، فاستدعى طبيبًا من جنديسابور هو جرجيس بن بختيشوع، وكانت مدرسة جنديسابور مدرسة عظيمة وتعد مصدرا للثقافة اليونانية ومركزا لنشر فلسفتها وعلومها، أسسها كسرى أنو شروان وبناها على شكل القسطنطينية، واستجلب لها أطباء من الروم ثم خلفهم من بعدهم من حل محلهم من أهل البلاد.

وكان الذي أنشأه فيه بيمارستانات لمعالجة الفقراء. فلما جاء الرشيد استطب جبريل بن بختيشوع، وأمره بإنشاء بيمارستان ببغداد على نمط ما لجنديسابور، وكانت عائلة بختيشوع كلها نصارى نساطرة.

أما طبيب الرشيد جبريل بن بختيشوع، فقد أراد الرشيد أول الأمر أن يمتحنه فأحضر له بولا مجهولا. فقال جبريل: ليس هذا بول إنسان؛ لأنه ليس له قوام بول الناس ولا لونه ولا رائحته. وكان جبريل بن بختيشوع هذا مشهورا بالفضل، جيد التصرف في المداواة، عالي الهمة سعيد الجد، حظيا عند الخلفاء، رفيع المنزلة عندهم، تأتيه منهم الأموال العظيمة. ولما مرض جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي أيام رضاء الرشيد عنهم، استدعى جبريل بن بختيشوع هذا فعالجه وشاء الله أن يبرأ في مدة ثلاثة أيام. ومرة تمطت حظية من حظايا الرشيد ورفعت يدها فبقيت منبسطة، ولم ينفعها علاج الأطباء ولا الأدهان، فاستدعى جبريل فاستحضرها وأراد أن يكشف عن ساقها، فانزعجت الجارية وحركت يدها وبرئت. وكان الرشيد ينتصح بقوله فيما يأكل ومقدار ما يشرب، وبلغ عنده منزلة عالية حتى قالوا: إنه كان كل من تقلد عملا من الرشيد لا يخرج إلى عمله إلا بعد أن يمر على جبريل. وقد ثار عليه العلوية لقربه من الرشيد حتى أرادوا أن يقتلوه، وعلى العموم كان طبيب القصر، وقد قال فيه أبو نواس:

سألت أخي أبا عيسى
وجبريل له عقل
فقلت الراح تعجبني
فقال: كثيرها قتل
فقلت له فقدر لي
فقال وقوله فصل
وجدت طبائع الإنسا
ن أربعة هي الأصل
فأربعة لأربعة
لكل طبيعة رطل

وقال له المأمون يوما:

أخي طبك يا جبريـ
ـل ما يشفى ذوي العلة
غزال قد سبا عقلي
بلا جرم ولا زلة

الإيمان بالتنجيم

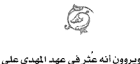
أما التنجيم، فكان الخلفاء يعتقدون أن للنجوم أثرا في أحداث الكون من موت وحياة وسعادة وشقاء وصحة ومرض وسعة وتقتير في الرزق وغير ذلك. ونشأ في الناس الاعتقاد بهذا.

وكان من أكبر من أشاعه الشيعة

فنُسب إليهم كثير من التنبؤ بالحوادث، وربما كان من أكبر الأسباب فى ذلك دعايتهم لأنفسهم، عن طريق التنبؤات. ونسب لعلى بن أبى طالب كثير من أخبار بنى أمية وسقوطهم وظهور بنى العباس وغير ذلك من الأحداث استنادا إلى قوله: «سلونى قبل أن تفقدونى».

وقد نسبوا إليه تنبؤات بأحداث فى الدولتين الأموية والعباسية، ومقتل الحسين، وخروج عائشة يوم الجمل، وخروج الأمر من العلويين إلى العباسيين، وأحداث السفاح، وبعض أحداث بنى بويه، ونحو ذلك. ولكن يظهر أن أكثرها وضع بعد ظهور الحوادث ثم أسندت إليه على أنها من التنبؤات.

وشاع بين الشيعة لأجل ذلك علم الجفر. وهو الذى حُرف فيما بعد إلى «الشيفرة». وسواء أصحت هذه الأخبار أم لم تصح، فإن الناس والخلفاء والأمراء كانوا يعتقدون فيها ويبنون أعمالهم عليها. وكتاب الجفر هذا كان أصله أن هارون ابن سعيد العجلى، وهو رأس الفرقة المعروفة بالزيدية، كان له كتاب صغير يعرف بالجفر، يرويه عن جعفر الصادق. وفيه أخبار عما سيقع لأهل البيت على العموم، ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص. وكان مكتوبا عند جعفر على جلد ثور صغير. فرواه عنه هارون العجلى وسماه الجفر. والجفر فى اللغة هو الصغير. فصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم. وشاع فى الناس وتناقلوه وزادوا عليه. وأنشأوا فى ذلك ما يسمى بالملاحم، وهى أشعار تروى فى أخبار دولة على الخصوص أو دول على العموم، وأكثرها موضوع، تروى فيه الحوادث الماضية صحيحة، ويرجع تاريخها إلى ما قبلها للدلالة على التنبؤ. أما ما يدل على المستقبل فغير صحيح غالبا.



ويروون أنه عُثر فى عهد المهدى على كتاب فى الجفر يروى أن مدة حكم المهدى عشر سنوات، وشاع ذلك فى الناس. فلما علم الربيع وزير المهدى قال: إن الخليفة المهدى لو علم ذلك لقتلنا. فاستدعى الوراقين وأمرهم أن يكتبوا الكتاب ويجعلوا بدل العشر أربعين، حتى يطمئن المهدى إلى مدة حكمه، وهكذا من باب طرق الوضع. وسبب ذلك - على ما يظهر لى - أن لبعض الناس قدرة على معرفة الغيب، ويسمون بالملهمين، إما عن طريق ما يسميه الإفرنج بالتليباثى، وإما بالتنويم المغناطيسى أو نحو ذلك، مما لم يكتشفه العلم إلى اليوم، وهذا لمعرفة الماضى والحاضر أو قراءة أفكار الانسان.

أما معرفة المستقبل فلا أظن أن أحدا يعرفه؛ إذ قد استأثر الله بعلمه. والقرآن الكريم يقول على لسان النبى صلى الله عليه وسلم: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء﴾، فكيف بغيره؟! ولكن الناس تزيدوا وابتدعوا طرقا كثيرة من قراءة الكف والودع ونحو ذلك واعتقدوا بتأثير النجوم. وكان بعض العلماء معتدلين فى ذلك؛ فقد كان بعض الفلاسفة يعتدل فى الاعتقاد بالتنجيم، ويعلل بعضه تعليلا معقولا. وذلك أن للشمس والقمر والنجوم أحداثا فى الدنيا لا شك فيها كأثر الشمس فى الفصول الأربعة، وأثر القمر فى المد والجزر، وأثرهما معا فى الرياح والسحاب والرعد والبرق، ثم لا ينكر أيضا أثر هذه البيئة الطبيعية فى أبدان الناس وأثر الأبدان فى النفس.

غاية الأمر أن بعض هذه الأحداث ناشئ عن حسابات بسيطة لحركات هذه الكواكب كخسوف القمر وكسوف الشمس وحساب المد والجزر ونحو ذلك، وبعضها صعب الاستنتاج لصعوبة المشاهدات التى نبنى عليها احتمالنا، فإن بعض الأوضاع للنجوم لا تتكرر مرة ثانية فى عمر الإنسان الواحد، ومرة واحدة لا تكفى لحكم صحيح. وحسابات الحادثة الواحدة بنسبتها إلى البروج كلها وتأثير كل منها حساب عسير، فقد يحدث خطأ بسيط فى حساب برج من البروج فيخطئ التنبؤ.



على كل حال، فقد شاعت بين الناس حوادث التنجيم والإيمان بها، واستغل المنجمون الناس حتى الخلفاء، وقد رووا أن المنصور تخير وقتا معينا لوضع الحجر الأساسى لبناء بغداد، وتخير الفاطميون بعد ذلك وقتا مناسبا لوضع الحجر الأساسى للقاهرة. وليست حادثة المعتصم بعيدة عن الأذهان، فقد نصحه المنجمون بالخروج إلى الحرب أيام نضج التين والعنب حتى يكون النصر، ولكن الحالة الحربية اضطرته إلى الخروج فى غير هذا الوقت فانتصر وقال:

السيف أصدق أنباء من الكتب
فى حده الحد بين السيف واللعب

وكان الرشيد يؤمن بهذا التنجيم أحيانا، ويستمع إلى أخبار المنجمين وتنبؤاتهم، حتى رووا أن منجما يهوديا قال للرشيد: «إنى أرى فى أحكام النجوم أنك ستموت سريعا». فاغتم لذلك اغتماما شديدا وأحضر جعفر البرمكى ليسرى عنه. فحضر ووجده كئيبا حزينا، فقال جعفر للمنجم: «أترى أن الخليفة يموت سريعا؟». قال: «نعم». قال له: «وماذا تراه فى نفسك؟». قال: «أرى عمرى طويلا». قال: «اقتله يا أمير المؤمنين حتى يتبين كذبه». فقتله، واستراح الرشيد.

ولقد كان هذا التنجيم وسيلة لعلم الفلك، كما كان تحويل المعادن إلى ذهب سببا فى تعرف قوانين الكيمياء الصحيحة. فقد رووا لنا أن محمد بن إبراهيم الفزارى صنع زيجا، ورووا أنه قدم على الخليفة المنصور رجل من الهند عالم بالحساب المعروف بالسند هند فى حركات النجوم. وأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية، وأن يؤلَّف منه كتاب يتخذه العرب أصلا فى حركات الكواكب. وبذلك ابتدأوا العلم بكثير من التخريف، وانتهوا به إلى التصحيح والتدقيق.

وظل أمر التنجيم إلى اليوم فى التنبؤ بالسعادة لمن ولد فى شهر كذا، والشقاء لمن ولد فى شهر كذا، وفى اختلاف أخلاق من ولد فى بعض الشهور عمن ولد فى شهور أخرى ونحو ذلك.

ولو كان هذا صحيحا، لاطردت النتائج فيمن ولدوا فى شهر واحد من سعادة أو شقاء أو سلوك، مع أننا نجد كثيرا من الفوارق بينهم. ولكن هى طبيعة الإنسان تريد أن تخترق حجب الغيب ويستغل الدجالون غريزة الاستطلاع عند الناس والله أعلم.

تقدم العلوم

ولتسرب هذه الثقافات المختلفة والعناصر المختلفة إلى المسلمين، ظهر أثر واضح هو تحول العلوم من أشكالها البسيطة الدائمة إلى قواعد علمية، وتسابق العلماء فى ذلك، كل يريد أن يؤسس علما. وتشارك فى هذا العمل علماء من العرب كالخليل بن أحمد الفراهيدى، وعلماء من الفرس كسيبويه وأبى حنيفة، ومن الهنود كابن الأعرابى، وعلماء من المسلمين وعلماء من النصارى؛ فكانت حركة غريبة حقا. فهذا النحو يتحول من نظرات بدائية ومسائل جزئية. كالتى تروى عن أبى الأسود الدؤلى. إلى علم تام وقواعد منظمة، كالذى كان من الخليل وتلميذه سيبويه.

وهذا الفقه يتحول من مذهب مكون من جمع للحديث واستنتاج منه إلى مذهب قياسى منطقى كالذى يضعه أبوحنيفة وصاحباه أبو يوسف ومحمد.

وهذه اللغة التى كانت تجمع كلمة فكلمة قد تم جمعها وأخذوا يضعون معاجم فى موضوعات خاصة كالخيل والإبل. ثم جاء الخليل بن أحمد هذا، فوضع بكتابه «العين» أساس المعاجم اللغوية. وهذا الأدب الذى كان يروى قصيدة أو قطعة قطعة، أخذ يجمع فى الكتب المطولة كالمفضليات للضبى، والأصمعيات للأصمعى، والنقائض لأبى عبيدة.

وهذا النقد الذى كان يعتمد على الذوق الفطرى، فتُنقد الكلمة إذا كانت نابية مثل كلمة بوزع، أو ينقد المعنى إذا كان سخيفا كقول القائل:

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة
لو شئت ساقكم إلى قطينا

فينتقده عبد الملك بأن هذا يقال لعامل من عماله، وأن الشاعر لو قال: لو شاء ساقكم، لكان أحسن. فينقلب إلى نقد بقواعد وقوانين كالذى فعله ابن سلام فى طبقاته.

وهذا التاريخ الذى كان يعتمد على مجرد جمع الأخبار حيثما اتفق، يؤلف وينظم فيجعل لكل أمة موضعا، ولكل أمة حوادث حسب السنين وما جرى فيها منظمة مرتبة.

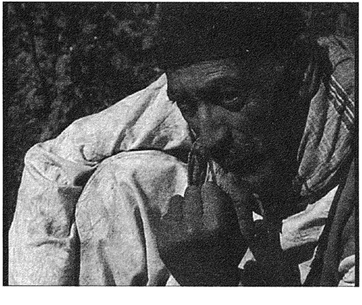
وهذه الأنساب التى كانت فى الصدور كُتبت فى السطور ودونت تدوينا منظما، كالذى فعله الكلبى فى كتابه الجمهرة فى الأنساب.

وهؤلاء رجال المحدثين الذين كان يكتب عنهم كلمة فى تعديلهم أو تجريحهم كانت سببا فى كتب التراجم الواسعة، يعتمد فيها على الأخبار ومعرفة حياة كل مترجم له ونحو ذلك، حتى لو قلنا: إن كل طائفة من المعلومات انقلبت علما ووضعت فى قواعد، لم نكن بعيدين عن الصواب. فربما كانت معيشتنا فى القرون التى أتت بعد، ليس إلا ترديدا لما ذكروا أو تعبيرا عنه بلغة العصور المختلفة، أو تفريقا لمجتمع أو تجميعا لمفترق من غير كثير ابتكار.

يضاف إلى ذلك اختلاف المذاهب والنحل وأخذها أيضا شكلا علميا، حتى إن المذاهب التى كانت سياسية، كالمرجئة والخوارج وأهل السنة والشيعة، انقلبت إلى مذاهب دينية علمية تعلل تعليلا علميا وتحلل تحليلا فلسفيا. وتعددت المذاهب حسب العقليات ومقدار الثقافة والميول السياسية والدينية.

فهذا حر العقل واسع التفكير يذهب مذهب الاعتزال، وهذا يتقيد بالنص وينهج منهج الرواية والجمع فيكون محدثا، وهذا يحب عليا ويترحم على ابنه الحسين ويعطف بقلبه على من اضطُهد من العلويين فيكون شيعيا، وهذا يحب أبا بكر وعمر ويمجد أعمالهما ويفضلهما على على فيكون سنيا، وهذا يميل إلى منصب وجاه وتقرب إلى الخلفاء بالمذاهب فيكون عباسيا، وهذا بدوى لا يحب الرياسة ولا يميل إلى التأقلم ومتابعة الظروف فيكون خارجيا، وهذا يعتنق الإسلام ظاهريا والوثنية باطنيا ويكره العرب من صميم قلبه ويود رجوع دولة الفرس إلى حالتها الأولى، قبل أن يهزمهم العرب ويأخذوا بلادهم فيكون وثنيا. وهكذا وهكذا، من تعدد المذاهب وتنوعها مما ليس له نظير فى مجتمع آخر. ■







لايكاد يمر يوم إلا وتطرح القضية نفسها.. من يملك الأرض فى مصر؟ هل هى الدولة؟ هل هم الأعراب (فى الأراضى الصحراوية) الذين وضعوا أيديهم على مساحات شاسعة منها؟ هل هى الجهات السيادية التى أقامت فيها معسكراتها؟ هل هم رجال الأعمال الذين اشتروا آلاف الأفدنة بأسعار رمزية ليبيعوا أجزاء منها بعد ذلك بأسعار فلكية؟ ماذا تعنى ملكية الدولة؟ وهل تعطى هذه الملكية لحكومة ما حق التصرف بالبيع فى تلك الأراضى؟

المثير أن الأسئلة التى تبدو حديثة هى فى واقع الأمر قديمة جدا.. هذه دراسة جادة تتناول قضية ملكية الأراضى فى مصر منذ القرن الثامن عشر.

المحـــرر



صــــلاح العمـــروسى

مقدمة منهجية

إن غياب تصور دقيق عن ملكية الأرض فى مصر فى العصور السابقة على الرأسمالية يمثل أحد المشاكل الرئيسية التى تواجهنا فى دراسة التكوينات الاقتصادية الاجتماعية فى تلك العصور فضلا عن ذلك فهى تلقى بظلها أيضا على نقطة البدء فى دراسة العصر الحديث، أى على عملية نشأة العلاقات الرأسمالية وتحلل العلاقات السابقة عليها.

ومن المعروف أن هناك اختلافا عميقا حول تلك القضية، فهناك من يرى أن مصر لم تعرف الملكية الخاصة طوال تاريخها، وأن الدولة كانت هى المالك الوحيد للأرض وتبنى هذا الرأى عدد واسع من العلماء والباحثين المصريين والأجانب من بينهم إبراهيم عامر وأحمد صادق سعد وكذلك جبريل باير وغيرهم وقد أصبح هذا الرأى هو الأكثر شيوعا فى مصر بعد نشر كتاب الأرض والفلاح لإبراهيم عامر ثم بعد إحياء نظرية الأسلوب الأسيوى فى الإنتاج.

على الطرف الأخر نجد هناك من يرى على النقيض من الرأى السابق أن الملكية الخاصة كانت هى السائدة فى مصر شأنها شأن أى بلد أخر، ورغم عدم انتشار هذا الرأى إلا أنه لم يعدم ممثلين كبارا يدافعون عنه مثل المستشرق الفرنسى الكبير سلفر دى ساس، وفى مصر د. راشد البراوى، الذى توصل فى رسالته للدكتوراه عن «حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين» إلى أن المصريين بعد الفتح العربى كانوا يمتلكون الأرض ملكية تامة مطلقة أو بتعبير القانون «رقبة ومنفعة»، وأنه لم يكن للحكومة على الملكيات الخاصة سوى حق السيادة العليا، كما كان الشأن فى التشريع الحديث.

فنحن إذن إزاء وجهتى نظر، تبدوان على طرفى نقيض، ومن المفترض بطبيعة الحال أنه لا يتسع لهما معا واقع محدد رغم أن كل فريق لم يعدم الشواهد المستخلصة من هذا الواقع ليقدمها كأدلة لدعم وجهه نظره فى مواجهة وجهة النظر الأخرى. وبالمناسبة فنحن نجد هذا الخلاف نفسه كان قائما بين المؤرخين والفقهاء المسلمين. ففقهاء المذهب الحنفى اتخذوا جانب الملكية الخاصة، ومعظم المذاهب الأخرى اتخذوا جانب ملكية الدولة، وبمعنى أدق إنه فى حالة «الفتح عنوة مع عدم تقسيمها بين الفاتحين»، صارت الأرض وقفا لصالح «جماعة المسلمين»، وأن الدولة بدورها أصبحت مجرد حارسة لهذا الوقف، وبالتالى لا يحق للإمام (أى رأس الدولة نفسه) التصرف فيها وقد كان هذا الخلاف فى الحقيقة تعبيرا أيديولوجيا عن الخلاف الاجتماعى حول ملكية الأرض، وحول حق الدولة فى الخراج بعد انتشار الإسلام بين السكان الأصليين من أهل الذمة، وكذلك استقرار العرب المسلمين واشتغالهم بالزراعة، ومن ثم مطالبه كل هؤلاء بعدم أحقية الدولة فى خراج الأرض الذى فرض أصلا على أراضى أهل الذمة إلخ، ولم يخل الأمر من تبدل فى المواقع بين ممثلى مختلف المذاهب الفقهية المتأخرين.

ونجد الخلاف نفسه بين علماء الحملة الفرنسية حيث وقف لانكريه إلى جانب الملكية الخاصة، بينما وقف جبرار إلى جانب ملكية الدولة أما إستيف وكذلك دى شابرول فقد اتخذا موقفاً وسطاً إلى هذا الحد أو ذاك كما سيرد تفصيل ذلك فيما بعد.

والخلاف الحالى بين الباحثين والعلماء هو من زاوية من الزوايا، انعكاس لهذه الخلافات القديمة، حيث يستعيدون إلى حد كبير نفس الشواهد والبراهين. وهذه المنهجية، التى لا تزال سائدة حتى اليوم، لا تضيف جديدا من الناحية الجوهرية، اللهم من زاوية طريقة العرض والبرهنة، وعدا ذلك فهى مجرد تكرار لتلك الخلافات القديمة. ولكننا فى الحقيقة لا بد أن نتساءل قبل كل شىء عن دلالة مثل تلك الخلافات نفسها، وبدون الكشف عن تلك الدلالة تصبح مجرد لغز محير، أو رياضة ذهنية خارج التاريخ. ولذلك من الضرورى أن نتساءل عن السبب، أو الأسباب، فى ظهور تلك الخلافات سواء بين فقهاء المسلمين، الذين عاصروا تلك الحقب التاريخية القديمة نفسها، أو حتى كانوا قضاة يفصلون بأنفسهم فى منازعات الملكية، أو من الفرنسيين، وهم الذين شاهدوا الوضع على الطبيعة، أو لم تكن تنقصهم الشواهد الإمبيريقية، والذين كانوا، فضلا عن ذلك، يملكون منهجية مستقاة من العلوم القانونية والاقتصادية الحديثة؟ ولما كانت تلك الخلافات قد نشأت بين من عاصروا تلك الحقب التاريخية، فمن المنطقى أنها ليست بالتالى راجعة إلى قصور فى الشواهد الإمبيريقية، وتكرارها وثباتها التاريخى، الذى جعلها تمتد من الفقهاء المسلمين حتى علماء الحملة الفرنسية، يبرهن على أنها ليست ناشئة عن أسباب ذاتية، أو قصور فى الفهم والتحليل، وأنها تعود، بالتالى إلى أسباب موضوعية ما تستحق البحث والتحليل.

ويدفعنا كل ذلك إلى الفرضية التالية: وهى أن تلك الخلافات تنطوى على دلالات معينة وثيقة الصلة بأن هناك التباسا تاريخيا يحيط بحقوق الملكية نفسها فى تلك العصور، وهذا بدوره وثيق الصلة بالعلاقات الاجتماعية القائمة، الأمر الذى أفرز بالضرورة مثل ذلك التضارب.

مـــن يمـلك مصـر!؟



لم يتفق الباحثون والمؤرخون، سواء مصريين أو أجانب، على إجابة واحدة عن هذا السؤال رغم أهميته



ومن هذه الفرضية نرى ضرورة دراسة القضية على ضوء طبيعة العلاقات الاجتماعية القائمة، دون أن نحصر أنفسنا فى مجال الشكل القانونى وحده فهذا من شأنه أن يمكننا من فهم أدق لملكية الأرض بل يمكننا من تفسير تلك الخلافات، بدلا من الغرق فيها نفسها، وإعادة تكرار براهين وشواهد القدماء.

وفقا لهذه الاعتبارات سوف نحاول دراسة أوضاع ملكية الأرض فى مصر فى القرن الثامن عشر على ضوء مشاهدات وآراء علماء الحملة الفرنسية.

تصنيف ملكية الأراضى فى مصر فى زمن الحملة الفرنسية

ومن المعروف أنه كان هناك قسمان رئيسيان من الأرض فى ذلك العصر:

القسم الأول: الأرض الخراجية وهذه تنقسم بدورها إلى أراض الالتزام «الأواسى» من ناحية وأراضى الفلاحين (الأرض الأثرية) من ناحية أخرى.

والقسم الثانى: أراضى الرزق والرزق الأحباسية.

وهناك قسم ثالث: وهو قليل الأهمية وهو يخص أراضى «الأطلاق» ، وهى أساسا تتكون من المراعى الخاصة بباشا مصر والملتزمين فى أواخر العصر العثمانى.

والخلاف يدور أساسا حول الأرض الخراجية بقسميها، اما أراضى الرزق فليس هناك خلاف بشأنها باعتبار أنها كانت قبل وقفها ملكية خاصة معفاة من الضرائب (أو كانت الملكية الخاصة شرط لصحة ونفاذ الوقف)، وذلك بإجماع المؤرخين والفقهاء على اختلاف مذاهبهم وكذلك علماء الحملة الفرنسية، وفيما يتعلق بالأرض الخراجية، هناك أطراف ثلاثة يدور الخلاف بشأن ملكية أى منهم الأرض: الدولة، الملتزمين، الفلاحين.

عرض موجز لآراء علماء الحملة الفرنسية

نعرض فى البداية آراء كل عالم على حدة ثم نقوم بمحاوله لتحليل هذه الآراء.

١ ـ آراء جيرار

ينفى جيرار وجود حق الملكية الخاصة فى الأرض سواء بالنسبة للفلاحين أو الملتزمين وهو إذا كان يعترف بوجود حق الميراث، فإنه لايرجعه إلى وجود حق الإرث وإنما إلى إرادة الحاكم أما حق التصرف بالبيع والشراء فينكره جيرار تماما ويرى أن حق التصرف مقصور على مايسمى «الرهن المؤقت» أى نظام «الفاروقة». وهذه هى مقتطفات من شهادة جيرار:

ففى معرض حديثه عن بؤس الفلاح يتحدث عن انه يرجع «إلى أن الفلاحين ليسوا هم المالكين لأراضيهم».

ثم يتحدث فى فقرة أوسع عن حالة الملكية عموما ودون تمييز بين الأرض الأثرية (أراضى الفلاحين) وأرض الالتزام، فيقول منذ أول احتلال لمصر كان حق الغزو هو السند الوحيد الذى ترتكز عليه حكومتها وكان الانتفاع ببعض أجزاء من الأرض الزراعية قد ترك فى بعض الأحيان للشعب المهزوم فلم يكن ثمة ما يلزم لإيقاف هذا الانتفاع الهزيل سوى صدور فعلى عبر عن إرادة آخر الغزاة. ولا تزال هذه هى حاله ما يطلق عليه الملكيات الخاصة نعم تظل هذه الملكيات فى نطاق نفس العائلة. ليس بسند من حق الإرث بقدر ما هو دليل على حسن صنيع الحكومة التى تظل تحتفظ لنفسها بحق التصرف فى هذه الأراضى حسب مشيئتها.

وكما رأينا، فليست هذه الملكيات سوى إقطاعيات قابلة للنقل (إلى آخرين) ولهذا السبب نفسه غير قابلة للبيع أو التنازل. ولهذا السبب فلا ينبغى علينا أن نلصق بتعبير «بيع عقار من الأرض» فكرة تخويل متبادل ومطلق ولكن فقط فكرة الرهن المؤقت مقابل مبلغ من المال نحصل عليه فى شكل سلفة ويمتلك المقترض الأرض بنفس هذا الشكل من الملكية إلى وقت تحصيله لقروضه، وفى هذه الفترة يقوم المنتفع أو الذى آلت إليه الانتفاع خلالها بالانتفاع بالأرض التى ارتهنها». ويعلق «لانكريه» على الفقرة الأخيرة فى نص جيرار قائلا: «فقد ظن الكاتب المشار إليه (أى جيرار) أن بيع مساحة من الأرض ليس سوى تعاقد مؤقت لا يدوم إلا إلى فترة السداد ومع ذلك فقد لمسنا أن كل الملتزمين فى كل أنحاء مصر كانوا يقومون فيما بينهم بعمليات بيع مطلقة».

سوف تعود إلى ما كتبه لانكريه فى مكان لاحق ولنواصل عرض آراء جيرار.

فقد بقيت فقرة هامة على قصرها وردت فى كتابات جيرار، هذا نصها: «وعلى الرغم من أن كل أراضى الصعيد ملك للحكومه فإنها مع ذلك بقيت مقسمه بين القرى المختلفة ويحق لسكان هذه القرى أن يزرعوا مساحة محددة من أطيانها».

ومن الواضح إذن أن جيرار يرى أن الدولة هى الطرف الوحيد المالك للأرض وينفى أية حقوق كانت للملتزمين أو الفلاحين على السواء، رغم أنه يعترف لهم ببعض الحقوق التى تنتمى إلى حق التصرف ولكن مع الهبوط بها (أى الحقوق) إلى مستوى الرهن المؤقت أى الغاروقة والذى بمقتضاه يتنازل الراهن عن الأرض بصورة مؤقتة للمرتهن (صاحب الدين) لينتفع بها حتى يتم السداد. كذلك يعترف جيرار بحق الميراث «استمرار الأرض فى نفس العائلة» ولكن مع الهبوط به إلى مجرد «حسن صنيع الحكومة»، ودون أن يرقى إلى مستوى الحق المعترف به من الدولة، كما يعترف جيرار بأن الأرض مقسمة بين القرى وهذه بدورها مقسمة بين سكانها، أى أن الزراعة الفردية المنفصلة هى الشكل السائد لاستغلال الأرض حتى فى الصعيد المعروف بأنه أقل تطوراً عن مصر السفلى.

٢ ـ آراء الكونت استيف

أما الكونت استيف، فيذهب، مثلما فعل جيرار إلى أن السلطان هو المالك الوحيد للأرض، وإن كان يعترف للفلاحين والملتزمين على السواء بحقوق أوسع من تلك التى اعترف بها جيرار. فهو يؤكد تمتع الملتزمين بحق التصرف بالأرض، وأنه كان محرماً إبطال الحق الممنوح لهم، فمن النادر حرمان الملتزمين من توريث أراضيهم، وذلك على خلاف جيرار والذى ربط كل ذلك بالإرادة المطلقة للحكومة.

ومن ناحية أخرى، يؤكد استيف، احتفاظ الفلاحين بحق التملك المباشر والوراثى وإن كانوا محرمين من التصرف فيها بالبيع، وأنهم فى ذات الوقت، ليس لهم الحق فى هجرها.

ورغم أن جيرار يستخلص النتيجة العامة التالية وهى أن هذا النظام للأشياء يحقق مزايا تتساوى مع نفس المزايا التى تحفظها الملكية، إلا أنه لا يزال يرى فى نفس الوقت، أن السلطان هو المالك الوحيد للأرض.

وهذا هو نفس ما أورده استيف :-

«وقد أعلن السلطان نفسه المالك الوحيد فكل أراضى مصر ملك له، ومع ذلك فحيث إن الأرض قد انتقلت إلى مستغلين يسمون أنفسهم ملتزمين يستطيعون أن يتصرفوا فيها، وحيث كان محرما إبطال هذا الحق الممنوح لهم، وحيث كان من النادر أن ترفض أيلولة حق الاستغلال إلى ورثة هؤلاء الملتزمين، فإن هذا النظام للأشياء ظل يحقق مزايا تتساوى مع نفس المزايا التى تحققها الملكية، فقد احتفظ الفلاحون بحق التملك المباشر والوراثى للجزء الأكبر من الأراضى التى آلت تبعيتها للملتزمين، وإن كان ذلك لا يعطيهم حق بيع الأرض أو هجرها، واذا حدث أن مات بعضهم دون أبناء أو ورثة فإن الأراضى التى كانوا يملكونها تعود لتصبح تحت تصرف الملتزم الذى يضطر لإعطائها إلى فلاح آخر، وحين يموت أحد الملتزمين، دون أن يخلف هو الآخر من يرثه تعود أرضه إلى السلطان الذى يعهد بها بدورة إلى ملتزم آخر».

وهكذا يلاحظ أن استيف يقترب من الرأى الآخر، على الرغم من أنه قد بدأ شهادته مؤكدا إعلان السلطان عن نفسه بوصفه المالك الوحيد لأرض مصر.

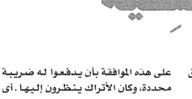
٣ ـ آراء دى شابرول

كذلك يتخذ دى شابرول موقفا وسطا وإن كان يقترب إلى حد كبير من موقف لانكريه فهو يصف أوضاع الفلاحين قائلا: «... الفلاح فى هذه البلاد البائسة، ليس بمالك للأرض، وليس بمقدوره أن يكون كذلك إنه ليس بصاحب للأرض، ولكنه قن منذ ولادته، يعمل لحساب تلك العصبة التى قهرت وطنه، واستذلته إنه رقيق الدولة فى اسبارطة القديمة وعبد المستعمرات الأمريكية التعس».

ويقول أيضا: «يورث الفلاح لأبنائه حق زراعة الأرض التى فى حوزته وعلى هؤلاء أولا أن يدفعوا للملتزم نوعا من رسوم التقليد... وإذا رفض الفلاح المورث أن يسدد هذه الضريبة بالرغم من أوامر وتنبيهات المالك الملتزم فإن الأخير يستطيع أن يرغمه على ذلك

هناك من يرى أن مصر لم تعرف الملكية الخاصة طوال تاريخها، وأن الدولة كانت هى المالك الوحيد للأرض





بمنعه من استغلال الأرض التى كانت فى حوزة أبيه».

ثم يضيف «ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن الفلاح لا يستطيع أن يبيع الأرض التى يزرعها، حيث إن ملكيتها الحقيقة ليست فى يده ومع ذلك فقد كان له الحق فى أن يؤجرها لبعض الوقت ويظل يحتفظ لنفسه بحق الرجوع إليها وعندما يكون الفلاح معسراً غير قادر على سداد ما عليه فإن الملتزم يستدعيه أمام القاضى ويثبت عن طريق شهود أنه لا يستطيع تحصيل أى شىء منه، أى من الفلاح، وعندئذ يعزل الفلاح المسكين من الأرض ويصبح لسيده الحق فى إحلال فلاح آخر محله، ويرشح الفلاح الجديد عادة عن طريق شيخ أول القرية ويقبل الملتزم هذا الاختيار لكن ذلك لا يعنى أن الفلاح القديم قد انتزع من أرضه بغير عودة، فيكفى أن يستطيع دفع الأقساط المتراكمة عليه لكى يحصل من جديد على أرضه، ومن جهة أخرى فإن حدث أن وقع ضرر بين وبالغ على الفلاح على يد الملتزم، فإن بمقدور الفلاح أن يهجر حقله ويحل محله فى هذه الحالة شيخ الفلاحين والملتزم».

هذا ما كتبه دى شابرول عن أوضاع ملكية الفلاحين، فهو وإن كان يتحدث عن غياب حق الملكية للفلاحين على أراضيهم بوصفهم أقنانا إلا أنه يعود فيؤكد أنهم يتوارثونها ويتصرفون فيها بالإيجار، ومن ناحية أخرى فهو يركز على حق الملتزم فى انتزاع الأرض من الفلاح المعسر وعلى هجر الفلاح لأرضه إذا وقع عليه ضرر بالغ من الملتزم، ولكنه يعود فيؤكد حق الفلاح فى استرداد أرضه بعد تسديد ما تراكم عليه من ضرائب وإتاوات للملتزم. ومن الجدير بالذكر أيضا، أنه على الرغم من كل تلك الحقوق المكتسبة للفلاح هذه فإن شابرول يؤكد أنه لا يستطيع أن يبيع ما بيده من أراضى.

أما الملتزمون، فى رأى دى شابرول، فإن حقوقهم فى ملكية الأرض تختلف اختلافاً عظيما عن حقوق الفلاحين، فهو يصفهم بأنهم «هم الذين يمتلكون أراضى هذه القرى امتلاكا فعليا».

ثم يضيف «وللملتزم الحق أن يبيع التزامه، وعندما يحدث ذلك يقوم الملتزم الجديد بدفع الميرى بدلا منه وعندما يبيع التزامه فى أرض الفلاحين فإنه يبيع كذلك الجزء الذى فى حوزته والمقابل لتلك فى أرض الوسية، إذا لا يمكن أن تنفصل هاتان الملكيتان.

ثم يقول «ويرث أبناء الملتزم الالتزام عن والدهم، لكنهم لا يخلفونه إلا بعد موافقة الباشا، وفى الحالة يحصل هذا الضابط (أى الباشا) باعتباره ممثلا للسلطان ثلاثة أمثال قيمة الفايظ السنوى غير مشتمل على البرانى... ويعدل الباشوات فى معظم الحالات من المبلغ المفروض كضريبة إرث ويمارسون فى هذا الخصوص نحو الملتزم ما يمارسه هؤلاء نحو الفلاحين فى نفس الظروف وينظر المصريون إلى ضرائب الإرث هذه باعتبارها استرداداً للأرض وهكذا يصبح أبناء الملتزم أصحاب حق فى الحصول على ممتلكات أبيهم بعد دفع الضريبة المفروضة...».

وهكذا يتميز دى شابرول عن جيرار، وعن استيف أيضا فى أنه يؤكد على وجود حق الملكية الخاصة شبه التامة للملتزمين فهم يورثون أراضيهم لأبنائهم ويتصرفون فيها بالبيع وما إلى ذلك من تصرفات ومن الواضح أيضا أن هذه الحقوق فى الملكية تنطبق على أراضى الالتزام بأسرها، أى على أرض «الوسايا» وعلى أراضى الفلاحين «الأثرية» التى تدخل فى نطاق الالتزام.

ويتميز دى شابرول أيضا بأنه يفض الخلاف حول حق الملكية بين الأطراف الثلاثة: الدولة، والملتزمين و الفلاحين لصالح الملتزمين ويعتبرهم «هم الذين يمتلكون أراضى القرى امتلاكا فعليا أى أراضى الفلاحين الأثرية، وذلك بالإضافة إلى أراضى «الأوسية».

ولكن ينبغى أن نلاحظ أنه لم يتحدث عن ملكية الدولة لا بالتأييد ولا بالرفض وذلك على الرغم من تأكيده على ضرورة موافقة الدولة، ممثلة فى باشا مصر، على توريث أبناء الملتزمين، وعلى حقوق الدولة المالية قبلهم.

٤ - آراء لانكريه

أما لانكريه فهو على خلاف سابقيه جميعا؛ يؤكد على وجود الملكية الخاصة بالنسبة للملتزمين وأيضا بالنسبة للفلاحين هؤلاء الذين ليس لهم حتى الآن (وحسب جيرار واستيف ودى شابرول) الحق فى بيع أراضيهم.

«إن معظم الفلاحين فى أية قرية هم ملاك أراضيها، أى ملاكها الحقيقيون، بمعنى أنهم يستطيعون أن يهبوها أو يبيعوها إلى فلاحين آخرين، والأراضى مهما كانت التغيرات التى تصيبها تبقى على الدوام مقيدة بضريبة، ويحمل الشخص الذى يؤدى إليه هذه الضريبة اسم : ملتزم أو سيد وهو فى الواقع سيد هذه الأرض إذ هو يستطيع أن يزيد أو ينقص من قدر الضريبة التى يحصلها من هذه الأراضى كما أنه يستطيع أن يعطيها أو يبيعها لملتزم آخر، كما أن هذه الأراضى تصبح من بعده ملكا لأبنائه ثم إنه فى النهاية يضمها إلى ملكه الخاص إذا مات الفلاح المالك دون وريث، وهو الأمر الذى لا يحدث بخصوص أنواع الملكيات الأخرى التى يتملكها الفلاح، حيث إن منزل الفلاح وأثاثه وقطعانه تؤول فى حالة موته (بلا وريث، ملاحظة من الكاتب) إلى بيت المال وليس إلى الملتزم».

ثم يقول «وعندما يموت الملتزم ينبغى على أولاده، حتى يحصلوا على أملاكه، أن يحوزوا موافقة الباشا، وكانوا يحصلون على هذه الموافقة بأن يدفعوا له ضريبة محددة، وكان الأتراك ينظرون إليها . أى إلى هذه الضريبة . باعتبارها شكلا من إعادة الشراء للأرض، وبدون ذلك تعود الأرض لتصبح من حق بيت المال . وإذا مات مالك دون أن يخلف أبناء أو يكتب وصية فإن ممتلكاته تؤدى إلى بيت المال ولكن إذا ما كتبت وصية فإن تنفيذها يقع على عاتق من كتبت لصالحهم أياً كانوا، وبذلك يكون عليهم أن يدفعوا الضريبة للباشا».

ويلاحظ أن لانكريه قد بدأ شهادته بالتأكيد على أن فلاحى القرى هم ملاك أراضيها الحقيقيون، ولهم عليها حق التصرف بالبيع والشراء والهبة ولكنه أكد فى ذات الوقت أن الملتزمين هم سادة الأرض نفسها ويتصرفون بدورهم فيها أيضا بالبيع والهبة إلخ، وذلك بخلاف ملكيتهم لأرض الوسايا، تلك التى يعود إليها لانكريه فى نص خاص، وهكذا يصبح هناك طرفان (الفلاح والملتزم) ينسب لهما لانكريه ملكية الأراضى الأثرية للفلاحين، ولعل هذا يشكل تناقصا ظاهريا فى شهادة لانكريه، سوف نتعرض إليه فيما بعد. وبطبيعة الحال فإن الطرف الثالث وهو الدولة لا ينظر إليها لانكريه بوصفها طرفا مالكا للأرض.

ويلاحظ أيضا أن لانكريه يعود فى الهامش ليقول إنه نادرا ما يبيع الفلاحون أراضيهم لأن الأراضى عادة بخسة القيمة وإذا ما أصبح فلاح ما حائزا على وسائل الزراعة فإنه يحصل على الأرض دون شرائها وفى نفس الوقت فإنه من المؤكد أنه كان للفلاحين حق بيعها ولن نعدم أمثلة على ذلك.

وهكذا فعلى الرغم من ندرة وقائع حالات تصرف الفلاحين فى أراضيهم بالبيع للأسباب المذكورة إلا أن لانكريه لا يرى فى ذلك ما يلغى وجود هذا الحق.

ثم يورد لانكريه حقا آخر للتصرف وهو الرهن «الحيازى» المسمى بالغاروقة، الذى بمقتضاه تنتقل أرض المقترض إلى المقرض حتى يتمكن الأول من سداد الدين للأخير «فعندما يجد فلاح نفسه عاجزاً لحد لا يستطيع معه أن يزرع كل أراضيه فإنه يقوم برهن جزء منها لقاء مبلغ معين يستغله فى زراعة الجزء الذى احتفظ به، وعندما يستطيع أن يرد المبلغ الذى حصل عليه فإن الرهن يتوقف وتعود الأرض التى رهنها إلى حوزته، ويسمى هذا النوع من الرهن: الغاروقة».

وبينما يركز دى شابرول على أحد جوانب علاقة الفلاح بالملتزم التى تمكنه من نزع أرض الفلاح إذا ما عجز عن دفع الضرائب، فإن لانكريه يركز على الجانب الآخر فيؤكد أن الملتزم «لا يستطيع أن ينتزع من الفلاح الأرض التى يزرعها، طالما - على الأقل - لم يلمس أن الفلاح غير قادر على زراعتها... وما دام الفلاح، نتيجة لذلك، يقوم بدفع الضرائب المقررة». ثم يركز على حق عودة الفلاح إلى أرضه إذا نزعت منه بسبب عجزه عن دفع الضرائب، وذلك «إذا ما تملك الوسائل التى تمكنه من سداد ما عليه من ديون متأخرة إلى الملتزم».

وأخيراً يضيف لانكريه « أن الفلاحين يتمتعون بكل الحرية فى اختيار نوع المحاصيل التى يريدون أن يزرعوها فى أراضيهم فهم يستطيعون أن يبذروها بالقمح، أو الأرز، أو الذرة حسبما يتراءى لهم بشرط أن يدفعوا الضريبة للملتزم وليس للأخير أن يرغمهم على شىء».

وإذا كانت أراضى الفلاحين كما رأينا، تنشأ عليها حقوق ملكية لكل من الفلاحين والملتزمين، فإن الأخيرين ينفردان بملكية أرض «الوسايا»، يقول لانكريه:

«انتهيت الآن من شرح الطريقة التى كان الفلاحون يمتلكون بها الأرض، وكيف كانت ملكيتها تقسم بينهم وبين الملتزمين، وسأتحدث الآن عن جزء آخر من الملكية كان فى حوزة هؤلاء الملتزمين، وهو يشتمل على الأراضى التى تتبعهم كلية والتى لم تكن تدفع من ضرائب إلا ضريبة الميرى، وهذه الأراضى كانت تعتبر ملكية خاصة كانت تسمى أرض الوسية أو أرض الملاك. ولم يكن هذا النوع من الملكية موجوداً فى

وهناك من يرى على النقيض أن الملكية الخاصة كانت هى السائدة فى مصر شأنها شأن أى بلد آخر



الصعيد بعد المنيا، ولكن يمكن القول عامة أن أراضى الوسية، فى مصر السفلى، كانت تبلغ حوالى ١/١٠ من أراضى الفلاحين(*).

ويلاحظ أن التصرف فى أراضى «الوسية» يرتبط بالتصرف فى أراضى الفلاحين، فإذا باع الملتزم الأولى بأكملها فإنه يبيع معها فى نفس الصفقة الثانية بأكملها، وإذا باع نصف الأولى فإنه يبيع معها نصف الثانية وهكذا، وذلك أياً كانت النسبة بين النوعين من الأرض.

ولكن ما هو الفرق بين طريقة الاستغلال فى أراضى الفلاحين وفى أرض الوسية؟ لقد عرفنا من لانكريه أن أرض الفلاحين تزرع بشكل مستقل عن الإدارة المباشرة للملتزم، ويدفعون له ثلاثة أنواع من الضرائب، الأول: المال الحر: (وهو يتكون من الميرى والمضاف) يدفعه الفلاح للملتزم الذى بدوره يدفع للدولة المال الميرى ويحتفظ لنفسه بالفرق الذى يسمى المضاف، والنوع الثانى: المال البرانى ويحتفظ به الملتزم لنفسه، والنوع الثالث: عبارة عن مجموعة من الضرائب مثل الكشوفية، الفرد، الكلف، المغارم، رفع المظالم...إلخ.

المهم هنا أننا إزاء زراعة صغيرة مجزاة تتم بصورة مستقلة عن الإرادة المباشرة للملتزم، وفى أرض يحوزها الفلاح بشكل وراثى، فضلا عن حقوق التملك الأخرى، وفى نفس الوقت يكون تابعا للملتزم ومقيد إزاءه بدفع الريع، وما يتبقى بعد دفع كل تلك الضرائب والإتاوات يمثل «الإنتاج الضرورى» لمعيشة الفلاح.

وتحدث «لانكريه» عن عدة طرق لاستغلال أرض «الوسية»، فقد كان الفلاحون «يرغمون فى بعض المناطق على زراعتها بطريق السخرة»، أى أن الملتزم يحصل على عمل الفلاحين بصورة مجانية، الذى يمثل نوعا من الريع فى صورة عمل مباشر، أى «ريع عمل».

وفى أحوال أخرى كان الفلاحون يستأجرون أرض «الوسية»، إما بطريق غير مباشر عن طريق تأجيرها جملة واحدة إلى «شيخ البلد الذى يدير فى نفس القرية زراعة أراضيه الأخرى، وثمن الإيجار على الدوام أكبر من مجموع المال الحر والبرانى الذى تغله أرض الفلاحين فى هذه القرية». ويعنى ذلك أن دخل الملتزم يظل أعلى من دخله من أراضى الفلاحين، وإذا ما أخذنا فى الاعتبار أن مشايخ القرى يقومون بإعادة تأجير هذه الأرض مرة أخرى للفلاحين، ويحصلون بدورهم على جزء من الريع، فإن ما يتبقى للمزارع الفعلى، أدنى بكثير مما يحصل عليه من أراضيه الأثرية.

كذلك قد يقوم الملتزم بتأجير أرض «الوسية» مباشرة إلى الفلاحين، وفى هذه الحالة: «يكون للملتزم فى كل واحدة من القرى التى تتبعه بصفة أساسية رجلان مكلفان بزراعة وحصد أراضيه، أى «الوسية»، ويسمى الأول الخولى ويسمى الثانى الوكيل أو المحصل. ويقوم الخولى بالتنسيق مع مشايخ البلد بتوزيع الأرض على مختلف الفلاحين...ويبدأ الوكيل القيام بأعماله عندما يحين وقت الحصاد، فيمسك سجلاً بكميات الحبوب المحصودة ويودعها فى بيته ويحضر معه شيخ البلد كشاهد، ويتلقى الفلاحون ٦٠-٤٥ مدينى عن زراعة الفدان الواحد. أما عن الحصاد فإنهم يحصلون على مكيال من القمح أو الشعير يساوى على أكثر تقدير ١/٢٢ من الإردب، وذلك عن اليوم الواحد».

ويمكننا أن نخلص مما سبق أن حق التملك الفردى لا شك فى وجوده بصورة معينة، ولكن هناك وضعاً متميزاً لهذا الحق بالنسبة للفلاحين من ناحية، وبالنسبة لسادتهم من الملتزمين من ناحية أخرى ولهذا سنناقش هذه النتيجة بصورة منفصلة عند كل من الفلاحين والملتزمين(*)، ثم نتناول مشكلة ملكية الدولة.

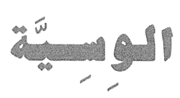
أ- حق الملكية وتناقض أوضاع الفلاحين

١- إن الجميع باختلاف آرائهم يتفقون على وجود الاستغلال الخاص، والتملك الخاص لأراضى الفلاحين. ذلك أن أشد العلماء تطرفاً فى نفى وجود الملكية الخاصة، وهو مسيو جيرار يعترف بأن «الملكيات تظل فى نفس العائلة»، أى يجرى توارثها بين الأبناء، أما نفيه لوجود حق الملكية بما فى ذلك حق النقل بالميراث، فيعود إلى أنه يرجع هذا التوارث إلى «حسن صنيع الحكومة» وليس إلى سند من حق الإرث. فنفى جيرار لحق الفلاح فى الملكية لا يقوم على إنكار واقعة التوارث داخل نطاق نفس العائلة، وإنما يقوم على تفسيره الخاص للمصدر الحقوقى الذى تقوم عليه واقعة التوارث تلك التى يعترف بها.

٢- وإذا كان جيرار، قد نفى حق الفلاحين فى التصرف فى أراضيهم بالهبة والبيع، فإن لانكريه الذى يقف فى أقصى الطرف الآخر فى تأكيده حق الملكية، يؤكد أن الفلاحين هم الملاك الحقيقيون للأرض، ويؤكد أن لهم الحق فى التصرف فيها بالبيع والهبة.

إلا أنه هو نفسه يعود فيؤكد أنه نادراً ما يقع فعل البيع لأراضى الفلاحين «الأثرية»، ولكن بينما يفسر جيرار غياب وقائع التصرف فى الأرض بالبيع والشراء، إلى غياب حق الملكية فإن لانكريه يفسر ندرة وقائع مثل تلك التصرفات بأن أسعار الأرض بخسة.

٣- إن الجميع يتفقون (بما فى ذلك لانكريه الأشد تطرفاً فى تأكيد حق الملكية للفلاحين) على أن هناك قيوداً محددة على حق تملك الفلاحين لأراضيهم: فالفلاح يتوجب عليه دفع رسم توريث، وإلا فقد مؤقتاً حقه فى استغلال الأرض التى له حق توارثها، كذلك فإن الفلاح المعسر يطرد من الأرض، حتى يفى بديونه من



الضرائب المفروضة عليه، وله الحق فى الرجوع إلى أرضه متى كان فى مقدوره الوفاء بديونه.

٤- نخرج من كل هذا العرض، أن هناك اتفاقاً كبيراً على الوقائع الأساسية فيما يخص أرض الفلاحين وأن هناك اختلافات محدودة على تفاصيل تلك الوقائع، لكن الاختلاف الواسع يقوم فى التحليل وفى النتائج المستخلصة، والفصل فى هذا الخلاف يتطلب الخروج من دائرة التحليل القانونى إلى دائرة التحليل الاقتصادى الاجتماعى لعلاقات الإنتاج.

فملكية الفلاحين للأرض هى ملكية قنية أى ملكية محملة بالأعباء والحقوق التى تعود إلى الدولة، وإلى طبقة الملتزمين الإقطاعيين. وعلاقات الإنتاج الإقطاعية تفرض طريقة نوعية محددة للجمع بين الفلاحين وبين الأرض باعتبارها وسيلة الإنتاج الرئيسية، وتقوم هذه الطريقة على تزويد الفلاحين بالأرض وربطهم بها وإجبارهم على عدم هجرها، مقابل دفع الريع الإقطاعى للدولة والملتزمين، والذى اتخذ فى مصر العثمانية صوراً متعددة: المال الحر (وهو عادة ما يكون أكبر من الميرى الذى يعود إلى السلطان، حيث يتضمن المال الفايظ الذى يعود إلى الملتزم، ويتضمن أيضا مال الكشوفية الذى يعود للبك أو حاكم الولاية) والمال البرانى يتكون من مختلف الإتاوات الإقطاعية المستجدة.

وهذه العلاقة يعاد إنتاجها مادام أسلوب الإنتاج مستمرا، أى تبقى الأرض على الدوام فى أيدى الفلاحين ليتوارثوها فى نفس الوقت الذى يتوارثون فيه تلك الالتزامات المتمثلة فى دفع الريع الإقطاعى، ومعنى ذلك أنه أياً كان الادعاء من طرف الحكومة بملكيتها الأخيرة للأرض وبكل ما تتمتع به من جبروت، لا يوجد لها من خيار سوى ترك الأرض بين الفلاحين ليتوارثوها وليكتسبوا عليها حقوق ملكية فعلية (ليست قانونية)، وذلك حتى تستمر عملية الإنتاج، ومن ثم تكون قادرة على إعادة إنتاج الريع، من خلال مجموعة من القواعد والأعراف والحقوق، ودون اللجوء بصفة دائمة إلى الإكراه فوق الاقتصادى (أى العنف)، الذى يستخدم فقط عند الضرورة، ويتركز بصفة خاصة فى المرحلة الأخيرة، أى عند وفاء الفلاحين بدفع الريع المفروض عليهم، أيا كان شكله (ريع نقدى، أو عينى، أو عمل - أى السخرة -). وهى فوق كل ذلك تستخدم كل جبروتها فى ربط الفلاح بالأرض وليس طرده منها، فالملتزم أو الحكومة إذا كان بمقدورهم طرد فلاح ما من أرضه، إذا لم يكن قادراً على سداد الريع، أو سداد رسم التوريث، فإنهما (الملتزم والحكومة) ليس بمقدورهما انتزاع أرض مجموع الفلاحين أو قسم محسوس منهم، طالما كان أسلوب الإنتاج قادراً على إعادة إنتاج نفسه، ومن ثم علاقاته الإنتاجية، أما طرد أفراد من الفلاحين من أراضيهم، كما أن السماح بهجرة فردية للفلاحين، فما ذلك إلا لأن الدولة والملتزم يكونان قادرين على إحلال فلاحين آخرين محلهم إلى حين الوفاء بالضرائب. أما إذا حدثت هجرة واسعة تتخذ أبعاداً ظاهرة، فهى تواجهها بالقوة المسلحة.

٥- وعلى ذلك فإن كان استيف يقول إن الفلاحين ليسوا بملاك حقيقيين فإنه محق فى ذلك تماماً، طالما أنه يقصد أن بؤس الفلاح الفقير ناشىء من حرمانه من الإنتاج الفائض لأرضه، ولا يبقى إلا ما يحافظ على حياته البائسة. أما لانكريه عندما يقول إن الفلاحين هم الملاك الحقيقيون للأرض، فهو محق بقدر معين، أى بقدر ما يتعلق الأمر بوجود حق ما للملكية مكفول لهم بحكم نفس العلاقة الإقطاعية التى تقتضى ربطهم بالأرض وتوارثهم لها أباً عن جد، أى التى ترتب لهم نوعاً من حق الملكية الفعلية على أراضيهم. ببساطة إن كلا منها يركز على أحد جانبى العلاقات الإقطاعية.

وهذا الحق يتضمن التصرف بالبيع والشراء. فعلى الرغم من ندرة حدوثه، إلا أنه كان مكفولاً، ولانكريه فى الحقيقة محق فى حديثه عن وجود هذا الحق، ولا يقلل منه حديثه عن ندرته، ونجد دليلاً على ذلك من شهادة

الخلاف نفسه كان قائما بين الفقهاء المسلمين. فالحنفيون ـ عكس معظم المذاهب الأخرى ـ كانوا مع الملكية الخاصة



اللائحة السعيدية نفسها، التي تعبر بذلك عن وجهة نظر الدولة. ففي البند الرابع تؤكد على حق الدولة في ملكية الأرض، بقولها «إن الأرض الخراجية لا تملك لمزارعين فيها، بل ليس لهم فيها إلا حق الانتفاع بها فقط»، إلا أنها تعترف في البند العاشر بأنه «الجاري منذ قديم الزمان أن المزارعين في الأراضي الميرية الخراجية يسقطون حقوقهم من أراضي الزراعة، ويفرغونها لغيرهم بموجب حجج شرعية».

وربما يوجد تناقض ظاهر بين نفي «ملكية» الفلاحين للأرض والتأكيد على أن ما للفلاحين من حقوق لا تتجاوز «حق الانتفاع» أي لا تتجاوز حقوق المستأجرين، وبين الاعتراف في نفس الوقت «بحق الإسقاط والإفراغ» (أي البيع والشراء) منذ قديم الزمن، فضلاً عن حق الإرث. وذلك بموجب حجج شرعية، أي معترف بها قانونا من الدولة. وفي الحقيقة أن حق الفلاحين من حيث الشكل يتجاوز حق الانتفاع وأقل من حق الملكية التامة، وهو ما يطلق عليه البعض «ملكية الانتفاع» ولكنه من حيث المحتوى يعكس الوضعية الاجتماعية المتناقضة بين الدولة والفلاحين. فالتأكيد الأول (نفي حق الفلاح في ملكية الأرض) لا يعني سوى تأكيد حق الدولة في الريع الإقطاعي، وهنا لا يهم الدولة مسألة التصرف في الأرض وانتقالها من فلاح إلى آخر، طالما أن أي منهما سيتكفل بدفع الريع للدولة. وينهض ذلك دليلاً على عدم كفاية التحليل القانوني لفهم التعقيد القانوني الناشئ من طبيعة العلاقات الإقطاعية. فدائرة التحليل القانوني لن تفسر على الإطلاق لماذا تركت الدولة (مالكة الرقبة) للمستأجر الذي ليس له سوى «حق الانتفاع» إمكانية ممارسة حق التصرف (بالبيع والشراء والهبة والإرث إلخ) مهما تكن هناك قيود على ذلك الحق. أما إذا دخلنا دائرة التحليل الاقتصادي الاجتماعي، فسوف يصبح الأمر شديد الوضوح. فالعلاقة الإقطاعية كما سبق القول تقوم على ربط «الأرض بالفلاح»، وقيام الفلاح بالإنتاج بعيداً عن الإدارة المباشرة لسادة الإقطاع (على نقيض الإنتاج العبودي والرأسمالي على السواء)، ومن هنا تقتضي هذه العلاقة وضع الأرض في يد الفلاح، ثم إلى ورثته من أجل إعادة إنتاج نفس العلاقة، ومع تقادم الزمن يتحول حق الفلاح إلى ما هو أقوى من «حق الانتفاع» الذي يمنح عادة بشكل مؤقت إلى المستأجر وهو أدنى من حق الملكية التامة لسلطان غاز خارجي (أو حماية أمير إقطاعي) يقوم بفرض إتاوات على الفلاحين «ريع إقطاعي» في مقابل عدم نزع أراضيهم من أيديهم ليؤدي ذلك إلى الانتقاص من ملكيتهم التامة لأراضيهم.

وتصبح المشكلة أكثر تعقيداً حينما ندرك التباين الشاسع بين أوضاع الفلاحين في ظل نفس وضعية «الحق الشرعي» في الأرض أياً كان مداه، وأياً كان تكييفه القانوني فهو بالنسبة لفلاح صغير لا يبقى له سوى ما يسد رمقه بعد دفع الريع الإقطاعي، له معنى مغاير تماماً لما يعنيه بالنسبة لفلاح غني يكون قادراً على

فتح.. وصلح.. وآراء اختلفت

ملكية الأرض فقهيا

ارتبط هذا الخلاف بتقسيمات معينة للأقطار التي شملتها «الفتوحات»، فهناك الأرض المفتوحة صلحاً والأرض المفتوحة عنوة ولم يقتصر الخلاف بين الفقهاء على الأحكام الخاصة بهذين الصنفين من الأراضي، وإنما اتسع ليشمل الوقائع التاريخية لعملية الفتح نفسها فرغم أن مثل هذه الوقائع التاريخية كان يجب أن تكون ثابتة وبعيدة عن أي خلاف، باعتبارها أحداث كبرى يفترض أن تعرف طريقها إلى التدوين، إلا أن الطابع الأيديولوجي للخلاف زعزع أي يقين حول طريقة الفتح، فلم يفلت أي بلد من ادعاء طرف أنه فتح عنوة ومن ادعاء طرف آخر أنه فتح صلحاً ولم يعدم أي طرف من حبك رواية أو إبراز وثيقة، ولتكن وثيقة بأحكام للصلح على سبيل المثال.

وفيما يتعلق بمصر نجد هناك من يجزم بأن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد، وهناك من يستثني هذه البلد أو تلك فيذكر البلاذري أن عمرو بن العاص قال من فوق المنبر «لقد قعدت مقعدي هذا وما لأحد من مصر من قبط مصر على عهد ولا عقد، إن شئت قتلت وإن شئت خمست (يقصد توزيع الغنائم حيث كان يستبعد أولا الخمس لله وللرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم يقسم الـ ٤/٥ على الجند) وإن شئت بعت، إلا أهل انطابلس فإن لهم عهدا يوفى لهم به»

وفي نفس الوقت نجد من يؤكد أن مصر قد فتحت صلحا ويورد نص وثيقة للصلح (يراجع البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، كتاب فتوح البلدان، القسم الأول، ملكية النهضة المصرية، بدون تاريخ، ص٢٤٩ - ٢٥٨ - وكذلك تاريخ الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، الجزء الرابع، دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٧٧، ص١٠٦ - ١٠٩).

أما أحكام أرض الصلح فليس هناك خلاف كبير عليها، فهي تعتبر ملك لأهلها من أهل الذمة لهم عليها حق التصرف بمختلف أركانه (التوريث والبيع إلخ) وذلك في مقابل فرض الخراج على أهل الذمة، ويأتي الخلاف حينما يدخل أهلها الإسلام، أو يحصل عليها عربي مسلم، فالمذهب الحنفي يرى أن الخراج لا يسقط بإسلام أهلها لأن الأرض كانت في الأصل دار حرب قبل فتحها بالصلح، لذلك تستمر على حالتها الأصلية ولا تتأثر بالحالة الدينية لمالكها.

أما المذاهب الأخرى جميعا (الشافعية، المالكية، الحنابلة) فقد أقرت بأن خراج أرض الصلح يسقط بالإسلام مثله في ذلك مثل جزية الرؤوس، فهذه المذاهب الأخيرة تبدو أكثر تقوى واتساقا، ومع ذلك فقد كانوا يميلون غالبا إلى الروايات التاريخية التي تؤكد أن أرض العجم فتحت عنوة وليس صلحا، وفي بعض الحالات ابتدع نوع آخر من أرض الصلح ترد فيه شروط للصلح تجعل من أحكام الأراضي فيها متطابقة مع أرض العنوة.

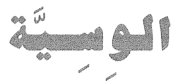
وأما أحكام أرض العنوة فيدور عليها خلاف كبير، فهي في الأصل تعتبر من غنائم الحرب، وبالتالي فقد كان من المفترض أن توزع على الجند وفي هذه الحالة تكون الأرض عشورية وتصبح ملكا تاما للفاتحين المسلمين. ولكن واقع الأمر أن تلك الأراضي لم توزع على الفاتحين وتركت بأيدي أهلها وعند هذا الحد بدأ الخلاف، فالمذهب الحنفي يذهب إلى أن الأرض في هذه الحالة ينسحب عليها ما ينسحب على أرض الصلح مع فارق واحد. ويتلخص هذا الفارق في أن الخراج في أرض الصلح يكون مسمى (أي متفق عليه) في وثيقة الصلح فلا يحق للإمام أن يفرض المزيد. أما مقدار خراج أرض العنوة يكون مرهوناً بإرادة الحاكم. يقول أبو يوسف «أيما قوم من أهل الشرك صالحهم الإمام على أن ينزلوا على الحكم والقسم وأن يؤدوا الخراج فهم أهل ذمة وأرضهم أرض خراج ويؤخذ منهم ما صولحوا عليه، ويوفى لهم ولا يزاد عليهم، وأيما أرض افتتحها الإمام عنوة فقسمها بين الذين افتتحوها... هي أرض عشر، وإن لم ير قسمتها ورأى الصلاح في إقرارها في أيدي أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فله ذلك، وهي أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم، وهي ملك لهم يتوارثونها ويتبايعونها ويضع عليهم الخراج، ولا يكلفوا من ذلك ما لا يطيقون» (القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج. نشرة قصي محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية - ومكتبتها، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٣٩٦ هـ - ص ٦٨-٦٩).

وعلى النقيض من ذلك فإن المذاهب الثلاثة الأخرى، ترى أن أرض العنوة، إذا لم تقسم بين الجند الفاتحين، وتركت بيد أهلها فإنها تتحول إلى أرض وقف لجماعة المسلمين، ويكون خراجها بمثابة أجرة (أي إيجار) لا يسقط إذا ما تحول صاحبها إلى الدين الإسلامي، أي أن حالتها القانونية (ومن ثم الاقتصادية الاجتماعية) تظل مستقلة عن حالة المالك الدينية، على خلاف أرض الصلح.

ويجب أن نذكر هنا أن هذا الخلاف اندلع في فترة متأخرة بعد استقرار العرب المسلمين واشتغالهم بالزراعة وكذلك دخول أهل الذمة (الذين بقيت الأرض سواء كانت صلحاً أو عنوه بأيديهم) في الإسلام ومن ثم نشأت حركة واسعة للمطالبة بإسقاط الخراج أسوة بالجزية ومن هنا نشأ الصراع حول أحكام الأراضي؛ وكذلك نشأ الصراع حول طريقة الفتح نفسها فمال الفقهاء بطرق مختلفة إلى تأبيد الخراج على الأرض، حفاظا على آلة الدولة من الانهيار في مواجهة المطالبة بإسقاطه.

ويمكن أن نقول أيضا إن هذا الخلاف نفسه يؤكد حقيقة تداول الأرض من الناحية الفعلية وكما تؤكد الشواهد التاريخية مثل وثائق البردى العربية، فلم يكن يهم الفقهاء سوى تأكيد استمرار فريضة الخراج بغض النظر عن دخول الشخص الإسلام أو عدم دخوله، أو انتقال الأرض من أهل الذمة إلى المسلمين العرب الذين استقروا بعد الفتح. ومما له دلالة أيضا أن جزية الرؤوس نفسها لاقت مقاومة في إسقاطها عمن دخل من الذميين الإسلام.

ومن الجدير بالذكر أن مواقف الفقهاء قد تبدلت على مر التاريخ وفق تبدل



تأجير أرضه والحصول منها على «دخل» يتبقى له بعد دفع الريع المطلوب منه للدولة وأمراء الإقطاع، علماً بأن التمايز بين الفلاحين شديد القدم فى مصر (انظر على سبيل المثال د. زبيدة عطا فى كتابها «الفلاح المصرى فى القرنين السادس والسابع الميلاديين» حيث تورد وثيقة هامة من القرن الثانى الهجرى لحيازات ٢٤ مزارعاً تتراوح بين ٥,٢ إلى ١٢٠ فدان، وثيقة أخرى تتراوح فيها الحيازات بين ٢٣ ، ٤٠ فداناً). ولعل ذلك يجعل العلاقات الإقطاعية أشد تعقيداً، كما ينهض ذلك دليلاً أخر على قصور التحليل القانونى للملكية، حيث إن ذلك الشكل القانونى الواحد من «حق الملكية» فى الأرض الخراجية، ويخفى تحته علاقات شديدة التباين يستحيل التعرف عليها دون تحليل الواقع الاقتصادى الاجتماعى للفلاحين.

ب. حق الملكية فى أراضى الأوسية «الملتزمين»

إذا كان من الممكن تفهم نفى جيرار لحق ملكية الفلاحين، باعتباره تأكيداً على مضمون العلاقة القنية، وبسبب ندرة الاستخدام الفعلى لحقوق التصرف بين الفلاحين الأقنان، والثمن البخس لأراضيهم؛ إلا أنه لا يمكن بأى حال قبول نفى جيرار لحق الملكية فى أراضى الملتزمين (لأواسى)، حيث إن الاستخدام الفعلى لهذا الحق كان واسع الانتشار (وليس نادرا كما هى الحال فى أراضى الفلاحين)، كما أن سعر أراضى الالتزام لم تكن بخسة كما كان الحال فى أراضى الفلاحين، حيث إن هذه «الملكية» لا تعنى فقط التمتع بحق الحصول على نتاج أراضى الأواسى (التى كانت تزرع بالسخرة، فضلا عن الإعفاء من الضرائب للدولة)، ولكن تعنى أيضا الحق فى الحصول على الفايظ وغيره من الإتاوات الإقطاعية كجزء من الريع الإقطاعى المفروض على أراضى الفلاحين الملحقة بالأوسية. وتلك الأراضى التى تنتقل إلى الملتزم الجديد بنسبة ما اشتراه من أرض الأوسية فإذا اشترى نصف مساحة الأوسية انتقل إليه حق حيازة الريع من نصف أراضى الفلاحين. وعلى ذلك لابد أن يرتفع سعر الأرض (الذى لا يعدو أن يكون رسملة للريع إذا استعرنا مصطلحات العصر الحديث).

ومن هنا فإن نفى جيرار غير مبرر منطقياً، ولا يتفق مع الوقائع فى آن واحد وشهادة لانكريه هى الشهادة الأصح تماماً (وهى تتفق أيضاً مع شهادات كل من استيف، ودى شايرول) تلك الشهادة التى تؤكد حق ملكية الملتزمين، وقيامهم بجميع التصرفات: البيع والشراء والميراث... إلخ.

وفى دراسة حديثة للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، نجد ما يؤكد شيوع التصرف فى ملكية الملتزمين بالبيع والشراء، ويورد بيانات عن عدد الملتزمين وفئاتهم فى سنتى ١٦٥٨ (بداية

الظروف السياسية والاجتماعية. فقد اندلع صراع فقهى مشابه لما سبق فى العصر المملوكى، حينما حاول سلاطين المماليك مصادرة أرض الوقف بعد أن تكاثرت حتى وصلت إلى عشرة قراريط من أرض مصر (أى ٤١,٧٪ من إجمالى المساحة) فى أواخر العصر المملوكى، ولجأ السلاطين إلى نظرية الفتح عنوة لتبرير فك الأوقاف والاستيلاء عليها وقد وقف معظم الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ضد السلاطين عدا من كان منهم يتخذ موقفا مغايرا عن ضعف ونفاق (د. محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٠، ص ٢٧٨، ص ٣٢٤ وما بعدها).

كذلك فعلى الرغم من أن الشيخ الشرقاوى الذى عاصر الحملة الفرنسية كان ينتمى إلى المذهب الشافعى فإننا نجده يخالف رأى أستاذه الذى ذهب إلى مصر (مثلها مثل العراق فتحت عنوة). فهو يقصر واقعة الفتح عنوة على المدينة فقط (أما قراها ففتحت صلحاً) ثم يقول «اعلم أن أراضى مصر ودورها، وما يوجد منها بيد أحد، يقضى له بملكه باليد، ولا يجوز ضرب خراج على ما بأيدى أهلها وذلك لأنها وإن فتحت عنوة، لكن لا نسلم أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وقفها، وما فى بعض التواريخ أنه وقفها لا اعتبار به، لأن الأحكام الشرعية وما يتعلق بها لا تبنى على مثل تلك التواريخ التى لم يعلم ثبوتها، وحينئذ نقول فيما نجده بأيدى أهلها وفيما وقفه ملوكها أو غيرهم أنه يجوز أن يكون انتقل من الغانمين بطريق شرعى لغيرهم وهكذا إلى أن وصل إلى ما هو بيده «أو يجوز أن يكون مات القائمون من غير ورثة، فصار لبيت المال فتصرفت فيه الأئمة بالتمليك وغيره مما يجوز لهم فى أموال بيت المال، فيجوز إقرار أهلها على ما بأيديهم والحكم بصحة وقف الملوك وغيرهم ولا يجوز ضرب الخراج على ذلك (الشرقاوى على التحرير: حاشية شيخ المحققين العلاقة الشيخ (عيسى البابى الحلبى بدون تاريخ،الجزء الثانى، ص ٤٢٢).

ويلاحظ أننا إزاء انقلاب من الناحية المنهجية فهو ينطلق من الواقع الماثل أمامه والمتمثل فى أن الأرض بيد الناس، ولا يعتد بالروايات التاريخية (التى تذهب إلى أن أرض مصر وقف على جماعة المسلمين) ثم يحاول تفسير هذه الواقعة الماثلة أمامه وتخيل احتمالات التاريخية معينة تناسبها، وليس العكس. فالأحكام الشرعية فى نظره لا يجب أن تبنى على الروايات المشكوك فيها والتى يكذبها الواقع ثم إنه ثانيا يصل إلى حد إنكار حق الدولة فى جباية الخراج نفسه.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الآراء أتت فى سياق ما كان يعتبره معاصرو الحملة الفرنسية محاولات لمصادرة حقوق الملكية القائمة لصالح ما أطلقوا عليه «الجمهور» (أى الجمهورية الفرنسية). فيذكر الجبرتى أن قادة الاحتلال الفرنسى «شرعوا فى ترتيب ديوان آخر وسموه محكمة القضايا» تحال إليه «القضايا فى أمور التجار والعامة والمواريث والدعاوى. وجعلوا لذلك الديوان قواعد من الخبث، وأساسا من الكفر، ودعائم من الظلم وأركانا من البدع السيئة... وشرطوا فى ضمنه شروطا، وفى ضمن تلك الشروط شروطا أخرى، وذلك بتعبيراتهم الكثيفة، وألفاظهم السخيفة، محصلتها التحيل على سلب أموال الناس، ونزع ما بأيديهم من مال وعقار وميراث وغير ذلك...»، ثم يضيف أن الفرنسيين اشترطوا «بأن يأتى أصحاب الأملاك بحججهم، وسنداتهم الشاهدة لهم بالتمليك، فإذا أحضروها وبينوا وجه تملكم لها، إما بالبيع، أو الانتقال لهم بالإرث عن أسلافهم، لا يكتفى بذلك، بل يؤمر بالكشف عليها فى السجلات، ويدفع على ذلك دراهم بقدر عينوه... فإن وجد تمسكه مقيدا بالسجل، طلب منه بعد ذلك الثبوت، فإن أثبته بشهادة البينة، وقبلوها دفع مقررا آخر على ذلك الإشهاد، وكتب بذلك تصحيحا (أى التأشير بصحته)، ويكتب له بعد ذلك تمكين (أى سند يعطيه حق الملكية)، وينظر بعد ذلك فى قيمته، ويدفع على كل مائة اثنين، فإن لم يكن له حجة، أو كانت، ولم تكن مقيدة بالسجل، أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد، فإنها تضبط لديوان الجمهور، وتصير من حقوقهم. وهذا من أخبث التحيل على نزع الأملاك والعقارات من أيدى أربابها، وذلك أن الناس إنما وضعوا أيديهم على أملاكهم إما بالشراء، أو بأيلولتها لهم من مورثهم أو نحو ذلك، بحجة قريبة أو بعيدة العهد، أو لحجج أسلافهم ومورثيهم، فإذا طولبوا بإثبات مضمونها وسجلاتها تعسر أو تعذر لحادث الموت أو الأسفار، أو ربما حضرت الشهود فلم تقبل، فإن قبلت فعلت به ما ذكر». (عبد الرحمن الجبرتى: مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق القومية، مركز وثائق تاريخ مصر الحديث والمعاصر، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة،١٩٩٨، ص ٥٧). وقد ورد نفس النص بلهجة مخففة فى «تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار»، دار الجيل، بيروت ج٢، ص ٢٠٩ - ٢١٠).



إضافه إلى ماسبق يمكن الرجوع إلى مراجع عديدة نذكر بعضها:

أبو عبيد القاسم بن سلام،كتاب الأموال تحقيق وتعليق خليل هراس مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، ١٩٦٩، مواضع متفرقة،ص٩٦-١٠٠، ص١١٠-١٣٠،ص٢٢٢-٢٢٩،ولهذا الكتاب أهمية عظيمة.

الإمام الشافعى: الأم، الدار المصرية للتأليف والترجمة طبعة مصورة عن طبعة بولاق ١٣٢١هـ، الجزء الرابع ص ١٠٣ -١٠٥، ص ١٩١- ١٩٣.

الماوردى (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى): الأحكام السلطانية والولايات الدنيية، المكتبة التوفيقية بدون تاريخ، ص ١٥٦ - ١٥٧.

أبو الفرج بن رجب الحنبلى: الاستخراج فى أحكام الخراج، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٢، مواضع متفرقة خاصة ص ١٤-١٩، ص ٣٥-٤٢، ص ٧٢ ، ٧٦.

موسوعة جمال عبد الناصر فى الفقه الإسلامى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٩٠ هـ الجزء الخامس، ص١١١ - ١٢٨. ■

تلك الخلافات تنطوى على دلالات معينة وثيقة الصلة بأن هناك التباسا تاريخيا يحيط بحقوق الملكية نفسها



تطبيق نظام الالتزام) و١٧٩٧(عام سابق على الحملة الفرنسية ١٧٩٨- ١٨٠١) وهى بيانات مستخلصة من دفاتر الالتزام أى من وثائق لا شك فى صحتها وتعطى بيانات عن الواقع بصورة أكثر وثوقاً. وقد بلغ عدد الملتزمين فى السنة الأولى ١٧١٤ ملتزماً، ثم ارتفع إلى ٤٤٢٠ ملتزماً عشية الحملة الفرنسية. وهذه الزيادة لا تعود كلها إلى تفتيت الالتزام بين الورثة، وإنما أيضاً إلى انتقال الأرض من يد لأخرى بالبيع أو الشراء. هذا فضلاً عن ورود كثير من الحصص بأسماء الأسر، وليس بأسماء الورثة، مما يؤكد محدودية تأثير عامل التفتيت بالوراثة على زيادة عدد الملتزمين. وبفحص فئات الملتزمين يبين دخول فئات جديدة ميدان الالتزام، مثل التجار والعلماء، والنساء (بعد أن كان الأمر مقصوراً بشكل رئيسى على المماليك والعسكريين) وهى فئات لم تكن فى بداية الفترة تحتل وزناً له أهمية تذكر، حيث نجد عشية الحملة الفرنسية ٥٨٠ ملتزماً من النساء، ٣٠٧ من العلماء، ٥٧ من التجار. وقد تتبع د. عبد الرحيم أسباب دخول هذه الفئات ميدان الالتزام من واقع وثائق المحاكم الشرعية، فوجد أن التصرف بالبيع والشراء كان سبباً رئيسياً فيها، سواء فيما يتعلق بالفئات الأصلية من المماليك والعسكريين، أو الفئات الجديدة من العلماء والتجار والنساء، ودخول النساء تحديداً ميدان الالتزام يؤكد أيضاً حق الإرث حيث لم يعد التمتع مرتبط بالخدمة العسكرية كما كان الحال فى بداية الأمر.

جـ - ملكية الدولة

بقيت فى النهاية كلمة أخيرة حول ملكية (الدولة، فلا يعنى تأكيدنا اعلاه على وجود أشكال معينة من حق الملكية لكل من الفلاحين والملتزمين، أننا ننكر حق الدولة فى ملكية الأرض، كما فعل د.راشد البراوى الذى سبق لنا اقتباس نص رأيه فى صدر هذا المقال، حيث يرى ملكية الأرض فى مصر باعتبارها ملكية خاصة تامة مطلقة، وأن حق الدولة ليس سوى حق السيادة العليا بالمعنى السياسى.

وفى رأينا أنه من صواب الرأى التسليم بحقوق ملكية لكل من الأطراف الثلاثة (الدولة، الملتزمين، الفلاحين)، وليس إرجاع الملكية إلى طرف واحد من هؤلاء. وهذا الرأى غير معقول على الإطلاق من زاوية منطق القانون الرومانى، أو القانون البرجوازى الحديث، ولكنه شديد المعقولية وفق منطق علاقات الملكية الإقطاعية، التى يؤدى التراتب

الوِسيّة

الهرمى الإقطاعى إلى تعدد الحقوق العينية(*) على نفس القطعة الواحدة من الأرض وعدم النظر إلى الملكية باعتبارها «وحدة معنوية مطلقة»، بحيث تكون مقصورة لشخص واحد بصورة حصرية exclusively، بحيث يزيح من عداه وفق منطق القانون الرومانى. إن الدولة فى مصر تتمتع بحقوق الملكية بوصفها السيد الإقطاعى الأعلى، وتأسيسا على حقها فى جانب من الريع الإقطاعى، وتنتهى السلسلة بالشكل القنى من تملك الفلاح للأرض. كذلك كانت تتوسط تلك السلسلة الملكية الخاصة الإقطاعية للأرض فى مصر، ولكنها كانت مقيدة بحقوق الدولة من جهة وبحقوق الفلاحين من جهة أخرى. أما ملكية الفلاح القنية فقد كانت تئن بحقوق الريع الإقطاعى للدولة وأمراء الإقطاع، ولا تحمل من حق الملكية سوى الاسم والشكل من زاوية معينة، وإن كانت من زاوية أخرى ترتب له حقاً فى الأرض يتمكن منها من الحصول على وسائل عيشه الضرورية. وتصبح فى عصر التحول إلى الرأسمالية ذات أهمية قصوى بالنسبة له، حينما يجرى تجريده من أرضه وتحويله إلى معدم ثم إلى بروليتارى.

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الذين ينفون وجود الملكية الخاصة للأرض فى مصر هم أنفسهم الذين يؤكدون وجودها فى أوروبا الإقطاعية. فالأستاذ صادق سعد على سبيل المثال يتحدث عن أن أمراء الإقطاع فى أوروبا كانوا يتمتعون بحق الملكية المطلق على الطراز المحدد وفق القانون الرومانى، فيتحدث عن «حق الأمير فى التصرف فى أرضه، يقدمها مهراً لبناته، أو يورثها لأكبر أولاده».

ولكن وجود تلك العناصر من حقوق التصرف، (والتى رأينا ما يناظرها فى مصر) ليست دليلاً على أن نظام الملكية فى أوروبا كان يتفق مع منطق القانون الرومانى، فوفق ما يذهب إليه مؤرخو الإقطاع الأوروبيين أنفسهم لم تكن الملكية الخاصة الإقطاعية ملكية مطلقة وإنما كانت مقيدة بأشكال مناظرة لما كان قائماً فى مصر. الأمر الذى يعنى إنكار وجود الملكية الخاصة للأرض فى مصر إنكارها بالضرورة فى أوروبا، والعكس صحيح، حتى يكون هناك انسجام داخلى ووحدة فى المعيار، بدلا من ازدواج المعايير.

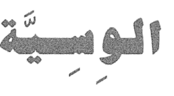
يقول المؤرخ الإنجليزى فينوجرادوف «تنشأ عن العقد الإقطاعى ظاهرة خاصة بقانون ملكية الأرض، وذلك بالإضافة إلى ما بالعقد فى ذاته من صبغة سياسية، وهذه الظاهرة هى أنه يتولد فى العقد تمييز ذو مغزى لعنصرين من عناصر فكرة الملكية (dominium). ذلك أن الملكية فى القانون الرومانى اتسمت فى معظم أيام الدولة الرومانية بأنها وحدة معنوية مطلقة. فالشخص المالك لشىء من الأشياء - بما فى ذلك قطعة من الأرض - له وحده حق الملكية المفردة المانعة. على حين تعين على رجال القانون فى العصور الوسطى أن يعتبروا للقطعة الواحدة مالكين اثنين، متبوع وتابعه، وللأول حق الملكية المباشرة أى ملكية الرقبة عند فقهاء القانون، والثانى حق الملكية الانتفاعية، أى حق استغلال الأرض، وفى إنجلترا تجنب القانون ازدواج فكرة الملكية بالمرادفة بين ملكية الرقبة وملكية الخدمة.. غير أن ضرورة اعتبار نوعين من الملكية فى جميع أحوال التملك أدى من طريق غير مباشر إلى إضعاف الملكية المطلقة للأرض. ولذا دارت قضايا الاختلاف فى ملكية الأرض حول التملك بوضع اليد، وهو التملك المتمتع بالحماية الفعلية، على حين أخذ حق التملك بالحجة المكتوبة يتضاءل تدريجياً».

ويقول كانتور إنه فى البداية «لم تكن التبعية الإقطاعية «Vassalage» ترتبط بملكية الأرض، فقد كان الأفصال(*) «Vassals» يعيشون فى قلعة ذات جدران خشبية سميكة يقيمها سيدهم الذى يتكفل بإطعامهم وكسوتهم وتسليحهم. وفى المرحلة التالية من مراحل تطور النظم الإقطاعية تم الربط بين التبعية الإقطاعية والأرض». «ويلاحظ أن الأفصال سيشكلون لاحقاً الشخصية الرئيسية لأمراء الإقطاع فى أوروبا». ثم يقول كانتور «ولم يكن منح الإقطاع Fief يعنى أن يمنح الفصل الإقطاع كافة حقوق ملكيتها. إذ كان له أن يفيد من عائد الأرض كمكافأة له على خدماته... ولكن من الناحية القانونية كانت ملكية الأرض حقاً للسيد الذى يمكنه استعادتها إذا لم يلتزم الفصل بالولاء له، وعندما يموت الفصل كان الإقطاع يعود إلى السيد بشكل تلقائى» ومن المعتقد أن أصل الحيازة الإقطاعية كان هو نظام حيازة الأرض الذى كان معروفاً فى القرنين السابع والثامن باسم بريكاريوم precarium وهو النظام الذى كان معمولاً به فى أراضى الكنيسة على نحو خاص، ووفقاً لنظام الحيازة المؤقتة هذا، كان مقدم الدير أو الأسقف الذى يتملك مساحة من الأرض أكبر مما يمكنه أن يديرها بنفسه يسمح للمدنيين بالإفادة من هذه الأراضى لقاء إيجار معين، مع العلم أنه يمكن لصاحب الأرض أن يستردها متى شاء». ثم يعرض كانتور للتطورات اللاحقة منتهياً إلى القول بأنه «كانت نتيجة للربط المتزايد بين التبعية الإقطاعية والإقطاع أن نشأ جوع إلى الأرض فى أوساط الأفصال فى المجتمع الإقطاعى.. كما سعوا (أى الأفصال) إلى تأكيد الصفة الوراثية للأرض التى حازوها من سيدهم»

كذلك يقول بيرى أندرسون أن «المفهوم الكلاسيكى لحق الملكية الرومانى Quiritary Ownership قد سقط فى الأغوار المبهمة للإقطاعية المبكرة ويؤكد أيضاً أن حقوق الملكية فى نمط الإنتاج الإقطاعى كانت قائمة على «مبادئ حقوقية للملكية المشروطة والمراتبية المكملة لتقسيم السيادة» كما أن تطور الاقتصاد السلعى المدينى «كان مصحوباً بجهود لإعادة إحياء القانون الرومانى» ثم يتحدث أنه كان من بين تلك الجهود «ابتكار اختلاف بين الملكية المباشرة Dominium directum وبين ملكية الانتفاع dominium utile من أجل تعليل هيرارشية الأفصال، أى «الأتباع»، ومن ثم تعدد الحقوق على نفس الأرض. ومحاولات أخرى تميز التصور الوسيطى لملكية الأرض seisin باعتباره مفهوماً يتوسط ما بين الملكية اللاتينية(*) latin praporty، وبين الحيازة possession التى ضمنت حماية الملكية من الاستيلاء المؤقت ودعاوى النزاع، بينما استمرت المبادئ الإقطاعية فى تعدد حقوق الملكية على نفس الشىء: فحق ملكية الأرض seisin لم يكن مقصورا على صاحبه (exclusive)، ولم يكن متمتعا بصفة الديمومة perpetual، والعودة الكاملة لظهور فكرة الملكية الخاصة المطلقة كانت نتاج الحقبة الحديثة المبكرة».

إن كل ما سبق لا يكشف لنا فقط عن حقيقة خرافة وجود حق الملكية الخاصة المطلقة للأرض على الطراز الرومانى فى أوروبا الإقطاعية، وبالمثل خرافة الغياب المطلق لحق الملكية الخاصة للأرض فى مصر، وإنما يمكننا أيضا من الذهاب إلى أبعد نحو التخلص من الذهنية القانونية الضيقة.

فغياب نظام الملكية على الطراز



الرومانى، لا يعنى غياب حق الملكية الفردية، وإنما نكون إزاء نظام آخر (أو نظم أخرى) للملكية وثيق الصلة بنوعية علاقات الإنتاج، والأشكال الخاصة لتنظيم الطبقة السائدة الداخلى، حيث تتشابك ملكية الأرض كحق عينى (أى حق يقع على الأشياء) مع الحقوق الشخصية لأفراد الطبقة السائدة إزاء بعضهم البعض، ثم يمكن البحث عن جذر كل ذلك فى طبيعة علاقات الإنتاج السائدة. فالأشكال القانونية للملكية هى فى جانب أساسى منها فى التحليل الأخير، صورة فى المرآة لتلك العلاقات، وإذا شئنا التعرف على دقائق الصورة فعلينا البحث عنها فى الأصل، لاسيما إذا كانت المرآة غير مستوية وإذا كان الضوء قبل أن يصلها يتعرض لانكسارات عديدة، لتصلنا فى النهاية صورة مقلوبة عن الواقع ومليئة بالألغاز. ■

المراجع والهوامش

- فى دراسة حديثة للدكتور عبد الرحمن عبد الرحيم «الريف المصرى فى القرن الثامن عشر» يتوصل استناداً على وثائق دفاتر الترابيع، إلى أن النسبة بين أرض الوسية وأرض الفلاحين. كانت أكبر من ذلك بكثير، فضلاً عن أنها كانت بنسبة غير ثابتة، فقد تراوحت ما بين ١/٤ ، ١/٣ ، ١/٢، وفى بعض الحالات تجاوزت النصف بقليل. ويلاحظ الدكتور عبد الرحيم أيضاً أنه كانت توجد أراضى أوسية جنوب المنيا على خلاف ما ذكره لانكريه، انظر المرجع المذكور ص ٧٩/٨٠، وانظر أيضاً هامش المترجم وصف مصر الأستاذ زهير الشايب، ص ٥، ص ١٨.
- يلاحظ فيما يخص أرض الالتزام أن جيرار يبدو منفرداً فى نفيه حق ملكية الملتزمين، على حين نجد أن بقية زملائه (استيف، دى شابرول، لانكريه) يعترفون بشكل واضح بتمتع الملتزمين بجميع أنواع التصرفات فى أراضيهم (أرض الالتزام، أرض الوسية) من توريث وبيع وهبة وإيجار ورهن... إلخ).
- ليس من الضرورى أن يرتبط ذلك بالعلاقات الإقطاعية وحدها، حيث تشهد ظاهرة تعدد الحقوق العينية على نفس العين، ولكن بصورة مختلفة فى مصر الفرعونية فى ظل شكل خاص من العلاقات العبودية.
- انتقلت كلمة «Vassal» إلى العربية من نظام الإقطاع الأوروبى فى فلسطين، فأصبح يطلق على الأتباع وغيرها كلمة «فصل».
- الملكية اللاتينية هى تطبيق خاص للقانون الرومانى فى الأقاليم اللاتينية على اعتبار أن الملكية الرومانية Quiritar كانت مقصورة على مواطنى مدينة روما تحديدا وكانت مشروطة أيضا بأن يكون الشىء المملوك رومانيا، أى موجود بروما، أو إيطاليا، كما كان يجب أن يكون اكتساب الملكية بإحدى الطرق المقررة فى القانون المدنى كالإشهار والدعوى الصورية (انظر د. محمد عبد المنعم بدر، د. عبد المنعم البدراوى، مبادئ القانون الرومانى دار الكتاب العربى ص ٢٤٣ - ٤٢٩).

راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٤٨، ص٢٦-٢٧.

انظر الملحق المرفق بالمقال

انظر، د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، مكتبة مدبولى، ١٩٨٦، ص٨٥ وما بعدها.

- ب. س. جيرار، الزراعة - الصناعات والحرف - التجارة - ضمت كتاب وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، مكتبة، الطبعة الأولى، ١٩٧٨، المجلد الرابع، ص٣٦.

نفسه، ص١٧٦-١٧٧.

لانكريه: الريف المصرى فى مصر المماليك العثمانيين، ضمن كتاب وصف مصر، ترجمة زهير الشايب مكتبة الخارنجى، الطبعة الأولى، ١٩٧٨، المجلد الخامس، ص ٣٠.

جيرار نفس المرجع السابق، ص١٧٨.

الكونت استيف: النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية، ضمن كتاب وصف مصر، المجلد الخامس، سبق الإشارة إليه، ص ٥٨.

ج. دى شابرول : دراسه فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، ضمن كتاب وصف مصر، ترجمه زهير الشايب، مطبعة الجبلاوى، الطبعة الأولى، ١٩٧٦، المجلد الأول، ص٢٢١ .

- نفسه، ص٢٢٢.
- نفسه،ص٢٢٣.
- نفسه، ص٢٢١.
- نفسه، ص٢٢٤.
- نفسه، ص٢٢٤- ٢٢٥.
- لانكريه، مرجع سبق ذكره، ص١٤- ١٥.
- نفسه، ص١٥.
- نفسه، ص١٤ الهامش.
- نفسه، ص١٥.
- نفسه، ص١٥ ، ١٦.
- نفسه، ص١٦.
- نفسه، ص١٧ ، ١٨.
- نفسه، ص١٦ ، ١٧٨، د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، مطبعة جامعة عين شمس، الطبعة الأولى، ١٩٧٤، ص١٠٠- ١١٢.
- لانكريه المرجع السابق، ص٢٢.
- نفسه، ص٢٥.
- نفسه، ص٢٥.
- محمد كامل مرسى بك: الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى، القاهرة، ١٣٥٥ هـ، ١٩٣٦ م، نص اللائحة السعيدية الوارد بالملحق، ص١٢٨، ص١٣١ -١٣٢.
- د. زبيدة عطا : الفلاح المصرى فى القرنين السادس والسابع الميلاديين، مطبعة دار نشر الثقافة، ١٩٧٨، ص٨٩.
- د. عبد الرحيم، مرجع سبق ذكره، ص٨٦- ٩٩.
- أحمد صادق سعد، تاريخ مصر الاجتماعى الاقتصادى، دار بن خلدون،ص١٩.
- ج. د كوبلاند، ب فينو جراوف: «الإقطاع فى العصور الوسطى»، ترجمة محمد مصطفى زيادة، طبعة ثابتة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨، ص٧٣-٧٤.
- نورمان كانتور : التاريخ الوسيط (قصة حضارة : البداية والنهاية) ١٩٦٩، ترجمه د. قاسم عبده قاسم، دار المعارف، الجزء الأول، ١٩٨٤ ص ٢٧٦ - ٢٧٨.
- Perry Anderson , Lineages of The Absalut State, Verso Edition, 1980, pp. 25- 26.



من شعر الحلاج

مختـــــارات

إلى كم أنت فى بحر الخطايا
تبارز من يراك ولا تـراه
وسمتُك سمت ذى ورعٍ تقّى
وفعلك فعل متّبع هـواه
فيا من بات يخلو بالمعاصى
وعين الله شـاهدة تـراه
أتطمع أن تنـال العفو ممّـا
عصمتَ وأنت لم تطلب رضاه
فَتُبْ قبل الممات وقبل يوم
يلاقى العبد ما كسبت يـداه
أتفرح بالذنوب والخطـايـا
وتنسـاه ولا أحد سـواه

■ ■ ■

إذا دهمَتْك خيول البعـاد
ونادى الاياس بقطع الرجا
فخُذْ فى شمالك ترس الخضوع
وشُدّ اليمين بسيف البكا
ونَفْسَك نَفْسَك كُنْ خائفاً
على حذر من كمين الجفا
فإن جاء الهجر فى ظلمـة
فسرْ فى مشاعل نور لصفا




«يوميات النخبة.. أيام الانتداب»



فى حين عمد أصحاب الذكريات المنشورة إلى تبييض سيرهم الذاتية، أو سير غيرهم من القادة والزعماء، يصبح مفيدا دراسة اليوميات العفوية غير المنشورة

سميح حمودة

■■ تتناول هذه الدراسة بالبحث والتحليل جانباً من العلاقات المتشابكة والمعقدة التى كانت قائمة بين أفراد النخبة الفلسطينية فى عهد الانتداب البريطانى، وتقدم بعض الخطوط والاستنتاجات العامة حول الموضوع، وهى تستند بالأساس إلى جملة من الوثائق والمذكرات واليوميات التى كتبها فلسطينيون لعبوا أدواراً مختلفة فى المجتمع الفلسطينى خلال تلك الفترة. إن بعض هذه المصادر قد تم نشرها، بينما بعضها الآخر لم ينشر بعد. ومن الجدير بالإشارة هنا إلى أن العديد من كتب الذكريات المنشورة تروى أحداثاً معينة بصورة تختلف كثيراً أو قليلاً عن رواية نفس الأحداث فى مصادر غير منشورة. وقد عمد أصحاب بعض هذه الذكريات بعد وقوع نكبة ١٩٤٨ إلى تبييض سيرهم الذاتية، أو سير غيرهم من القادة والزعماء، وإلى التأكيد على نقاوة سجلهم، وبالتالى عدم مسؤوليتهم عما حدث. لذا فإن الاعتماد على المذكرات واليوميات التى كتبت وقت الأحداث ولم تتعرض لتغييرات وتعديلات اقتضاها النشر، تسمح للباحث بالغوص عميقاً لسبر أغوار الموضوع، وفهمه وإدراك جوانبه بصورة أفضل بكثير مما تسمح به الذكريات المعدلة أو الوثائق الرسمية، والسبب فى ذلك أن غير المنشورة وبالأخص اليوميات منها، كتبت بعفوية، وعبرت عن أفكار ومشاعر كاتبها ساعة الحدث. وهى لم تكتب لتنشر للملأ، وبالتالى لم تخضع للاعتبارات الاجتماعية والنفسية التى تفرض قيودها على الكاتب.

وقبل أن أتحدث عن الجوانب المختلفة لموضوع البحث، أود الإشارة إلى أن هذه الدراسة تنهج نهجاً شمولياً، بحيث لا يقتصر الاهتمام على الجوانب السياسية فقط، بل يتسع ليشمل تحليل البنية المجتمعية العامة التى تضم النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية للحياة، وهى التى تؤثر فى مسيرة التاريخ. وهى النظم المسئولة عن إنتاج الأشكال المختلفة كما أنه سيكون من المفيد الحديث بصورة مختصرة عن أهم الوثائق واليوميات والأوراق غير المنشورة التى أستند عليها. وبسبب قيود المساحة المتاحة للورقة هنا فإننى سأكتفى لاحقاً ببعض الاقتباسات والإشارات لهذه المصادر دون توسع كبير، مع التأكيد على حقيقة أنها بمجموعها قد شكلت الركيزة الأساسية لاستنتاجاتى حول علاقات وتفاعلات النخبة الفلسطينية.

أوراق الحاج أمين الحسينى (١٨٩٥-١٩٧٤): والمقصود بها مجموعة كبيرة من الأوراق التى تتعلق بالمجلس الشرعى الإسلامى الأعلى خلال فترة رئاسة الحاج أمين، وهى الفترة الممتدة بين ١٩٢١ و١٩٣٧، وعلى ضخامة أوراق المجلس نفسه، فإن الأوراق التى نعنيها هنا هى ذات العلاقة المباشرة بالحاج أمين وبارتباطاته واتصالاته ومراسلاته، وهى أوراق تساعد كثيراً فى فهم عقلية ونفسية الحاج أمين، وفى فهم مراحل بناء وتطور سلطته داخل الحركة الوطنية.

مذكرات عارف العارف (١٨٩٢-١٩٧٣): فى مقدمته لكتاب نكبة فلسطين والفردوس المفقود، والمنشور عام ١٩٥٦، ذكر العارف أنه اعتاد أن يكتب يومياته «منذ عهد الصبا والدراسة فى الأستانة». ويقول إنه درج على تدوين مذكراته فى «يوميات متتابعة ما انقطعت عنها يوماً واحداً خلال الأعوام الأربعين المنصرمة». لا يتوفر أمام الباحثين من هذه اليوميات سوى ما أودعه العارف فى كلية سانت أنطونى ببريطانيا، والذى يشمل يوميات كتبها أثناء عمله سكرتيراً لحكومة شرق الأردن خلال الأعوام ١٩٢٦-١٩٢٩، ويوميات أخرى كتبها خلال عمله قائم مقاماً لمدينة غزة فى الفترة بين ١٩٣٩-١٩٤٠. ورغم أن هذه اليوميات قد تم تعديلها فى فترة لاحقة على تاريخ كتابتها، إلا أنها مصدر غنى لموضوع البحث، لما تتضمنه من تفاصيل ومعلومات حول شخصيات عربية وفلسطينية قيادية تعامل معها العارف بحكم مركزه الوظيفى، كما أنها تقدم نموذجاً لحياة عضو بارز فى النخبة الفلسطينية هو العارف نفسه.

يوميات طاهر الفتيانى (١٩١٠-١٩٧١): وهى يوميات شخصية كتبها الفتيانى خلال عامى ١٩٤٣ و ١٩٤٤، والفتيانى فلسطينى من القدس تخرج من الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وعمل فى جريدة الجامعة العربية ثم عمل مدرساً فى العراق قبل أن يعود سنة ١٩٤١ للقدس ليعمل فى وظائف متعددة. وكان الفتيانى حسينى الميول، وتتضمن يومياته آراء ومواقف مواليه للحاج أمين ومناهضة للمعارضة الدفاعية (أنصار حزب الدفاع)، كما تتضمن معلومات حول محاولات قام بها أعضاء من حزب الاستقلال، مثل رشيد الحاج إبراهيم وآخرون، لتجاوز سيطرة الحاج أمين على الحركة الوطنية، وإعادة ترتيب وضع القيادة الفلسطينية داخل فلسطين خلال سنوات الحرب العالمية الثانية التى كان فيها الحاج أمين فى أوروبة.

أوراق ومذكرات داود الحسينى (١٩٠٣-١٩٩١): والمذكرات فى ثلاثة أقسام، قسم كتبه فى الأربعينيات ويتعلق فقط بثورة ١٩٣٦-١٩٣٩، يتحدث فيه عن دوره فى الثورة وتسليح قادتها، وقسم كتبه خلال مكوثه فى سجن الجفر فى عامى ١٩٦٣- ١٩٦٤، وقسم ثالث كتبه عام ١٩٨٣، وهو عبارة عن ذكرياته المتعلقة بمراحل مهمة من حياته، بما فيها علاقاته المتشعبة والواسعة مع قادة عرب وفلسطينيين معروفين، ونشاطاته السياسية والكفاحية خلالها.

دفتر يوميات سالم الزعرور (١٨٨٨-١٩٧٨): وهو دفتر يوميات شخصية كتبها رئيس بلدية رام الله سالم الزعرور عام ١٩٤٣، وفيها إلى جانب المعلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مدينة رام الله آنذاك، إشارات عديدة للعلاقات الوطيدة والحميمة التى كانت قائمة بين أعضاء من النخبة الفلسطينية وبالأخص المسلمين والمسيحيين منهم. وهذه الإشارات مهمة للغاية للحديث عن التوافق بين هؤلاء الأعضاء ومحافظتهم على ثقافة العيش المشترك، رغم سياسة الانتداب التى سعت لتعزيز الولاء والانقسام الطائفى وتقويته على حساب الولاء الوطنى العام.

أوراق مصطفى أرشيد (١٩١٢-١٩٥٧): وهى مجموعة كبيرة من الأوراق تركها هذا السياسى الفلسطينى الذى كان متأثراً بأفكار أنطون سعادة (١٩٠٤-١٩٤٩)، وعضواً نشطاً منذ ١٩٣٣ فى الحزب القومى السورى الاجتماعى. وقد تولى أرشيد زعامة الحزب سنة ١٩٥٦ لفترة قصيرة قبل وفاته بالسرطان فى آب ١٩٥٧. وتتضمن أوراقه تعليقات ومذكرات ومراسلات ووثائق رسمية وحزبية تعود لفترة الانتداب البريطانى وللعهد الأردنى بعد نكبة فلسطين، كما أنها تتضمن مجموعة من الأوراق العائلية التى تعود للفترة العثمانية. وتكمن أهمية أوراق أرشيد فى أنه شخصياً كان وعائلته من أصحاب النفوذ فى قضاء جنين، ومن المعارضين لزعامة الحاج أمين الحسينى وتفرده بالسلطة والقرار، وقد دفعت العائلة ثمناً باهظاً لهذه المعارضة فى مرحلة الاغتيالات التى شهدتها الثورة العربية الكبرى سنة ١٩٣٨، حيث تم اغتيال شقيقيه محمد وأحمد، والوثائق غنية بمذكرات ومراسلات بينه وبين عديد من الأشخاص فى فلسطين وخارجها حول هذه المرحلة الحرجة من التاريخ الفلسطينى، وفيها دراسات تحليلية له شخصياً حول المجتمع الفلسطينى وقياداته، وبالأخص الحاج أمين والذى كان أرشيد يعتقد أنه صنيعة بريطانيا وأحد عملائها فى

من اليمين: الحاج أمين الحسينى، محمود النقراشى، جميل مردم بك، رياض بك الصلح فى اجتماع الجامعة العربية (القاهرة - يناير ١٩٤٨)

الحاج أمين الحسينى فى القاهرة (يناير ١٩٤٨)




و

تمثل مأزق النخبة فى استفادتها من الحكومة البريطانية، والذى كان يعنى بالتالى الموافقة الكاملة على سياستها الانتدابية.. أو على الأقل مهادنتها فى هذه السياسة والامتناع عن مواجهتها

المنطقة. وتضم الأوراق أيضاً دراسات أخرى حول السياسة البريطانية فى الوطن العربى.

مفهوم النخبة

تمثّل النخبة القيادة الأساسية فى المجتمع، وهى التى تتولى إدارة الأمور فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتعليمية. ويمتاز أعضاء النخبة بتمتعهم بمستوى أعلى فى العلم والمعرفة والخبرة العملية من غالبية العامة. والنخبة هى التى تقوم باتخاذ القرارات اللازمة فى الأمور التى تخص المجتمع أو جزء منه. وحسب على الدين هلال ونفين مسعد (١٦١:٢٠٠٠) فإن النخبة هى مجموعة من الأفراد الذين يقودون المجتمع، وهى مفهوم قديم ارتبط ظهوره تاريخياً بالحاجة إلى تنظيم ممارسة السلطة وعملية صنع القرار، وحسب مدارس فكرية مختلفة فإن النخبة تتولى عمليات القيادة والتوجيه ولديها قدرة تنظيمية فهى الجماعة الأكثر تنظيماً فى المجتمع.

النخبة فى أى مجتمع ليست كتلة متجانسة، بل هى تعبّر عن فئات المجتمع المختلفة، اجتماعية ودينية، كما تعبر عن توجهات سياسية متباينة، فهى امتداد للبنية الاجتماعية نفسها، وجزء لا يتجزأ من تركيبتها. وهى ليست وجوداً قائماً بذاته، أو بصورة مستقلة عن الفئات والقوى المجتمعية المختلفة، بل هى امتداد عضوى لهذه الفئات والقوى، تستمد منها فى نفس الوقت الذى تغذيها وتخدمها وتعبّر عن مصالحها. وبسبب هذا التركيب، فإن النخبة غالباً ما تحمل خصائص فكرية وميول وتوجهات سياسية تعكس واقع القواعد الشعبية، فقد امتازت النخبة الفلسطينية عموماً، كما كان حال المجتمع، بالولاء للعائلة/الحمولة والعمل فى إطار مصالحها وأهدافها، وضمن مقتضيات صراعها وتنافسها مع العائلات/الحمائل الأخرى. ويتضح هذا الأمر بصورة جلية عند تحليل الأحزاب السياسية الفلسطينية، والتى لم تكن فى غالبها سوى أحزاب عائلية.

النخبة الفلسطينية

إنّ من المهم أن نحدد ماهية النخبة الفلسطينية ونفهم تنوعها الفكرى والسياسى، وإن من المهم أيضاً أن ندرس وظائفها الأساسية التى اضطلعت بها فى عهد الانتداب، وكيف كان تأثيرها على المسيرة التاريخية. وفى اعتقادى أن استيعاب هذه القضايا يُتيح لنا المجال للإجابة على سؤال بالغ الأهمية وهو لماذا فشل المجتمع الفلسطينى تحت قيادة هذه النخبة فى مواجهة المشروع الاستيطانى الصهيونى؟ وهو سؤال تؤسس الإجابة عنه القاعدة اللازمة لبحث تطور هذه النخبة وتشكلاتها بعد النكبة الفلسطينية عام ١٩٤٨ وحتى يومنا الراهن، وبحث دورها الحالى فى قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية وعوامل إخفاقها المستمر. ولن تقوم الدراسة هنا بالإجابة عن هذه المسائل ومناقشة تفاصيلها، بل ستكتفى بتقديم أطروحات مختصرة حولها.

موجز تاريخى

تركّزت النخبة فى عهد الانتداب، أساساً فى المدن الفلسطينية، وكانت امتداداً وتواصلاً طبيعياً للنخبة الفلسطينية العثمانية. وقد حكم هذه الأخيرة الإطار العائلى بقيمه وعلاقاته، إذ كان همّ أعضاء النخبة العثمانية البحث عن مناصب وفرامانات سلطانية تعطى لعائلات معينة الحق فى تسلم وظائف دينية أوحكومية، أو الحق فى جمع الضرائب والأعشار، مما سمح لها بالسيطرة على مزارع وقرى فلسطينية أصبحت مصدراً لثروتها وسلطتها ونفوذها. لقد كانت المرجعية السياسية لهذه النخبة هى الدولة العثمانية، ولقد تأثرت وتفاعلت مع التيارات الموجودة والمتفاعلة داخلها، واندمجت فى الشبكات الاجتماعية والاقتصادية المنتشرة فى أنحائها. والمعروف تاريخياً أن النخبة الفلسطينية، رغم وجود الدولة العثمانية ذات الطابع الإسلامى، قد بدأت، مثلها مثل سائر النخب فى الأقطار العثمانية، تنفتح على الغرب بتياراته الفكرية والسياسية المختلفة وبقيم حداثته ولبراليته وعلمانيته، وأخذت تنقل هذا التأثير للمجتمع الفلسطينى. وقد تعمق هذا التأثر بالحداثة الغربية واتسع مع خضوع فلسطين للاحتلال البريطانى المباشر. ونتيجة لهذا الانفتاح على الغرب، فقد شهدت النخبة عموماً انقساماً بين فئة تقليدية محافظة، غالباً ما كان أفرادها قد تلقوا التعليم فى المعاهد العلمية العربية والإسلامية، وقد سعت هذه الفئة للحفاظ على الطابع الإسلامى للمجتمع، وبين فئة ثانية تلقت التعليم فى المعاهد العلمية التبشيرية والأوروبية، وآمنت بالتغيير والتقدم من خلال الاقتباس من الثقافة الأوروبية.

بقيت أسس إنتاج النخبة فى العهد البريطانى هى الروابط والبنى العائلية، وبدلاً من استمداد المناصب من الدولة العثمانية، أصبحت هذه المناصب تأتى من الحكومة البريطانية. وقد خلق هذا التغير معضلة لدى أفراد النخبة، إذ إن الحصول على هذه المناصب من الحكومة البريطانية يعنى الموافقة الكاملة على سياستها الانتدابية، والعمل ضمن نظامها وقيمها ومفاهيمها، أو على الأقل مهادنتها فى هذه السياسة، والامتناع عن مواجهتها، ولو بالثورة، بسبب دورها فى إنشاء وطن قومى يهودى، الأمر الذى كان يتعارض مع مطالب وتطلعات الجماهير الفلسطينية، التى من المفروض أن تقودها هذه النخبة.

لقد خلقت هذه الإشكالية ثلاثة أصناف أساسية للنخبة السياسية الفلسطينية: الصنف الأول تماشى تماماً مع السياسة البريطانية، ولربما عارض داخلياً سياسة إنشاء وطن قومى يهودى إلا أنه سكت عملياً عن هذه السياسة. وقد استلم أعضاء هذا الصنف مناصب حكومية خدموا من خلالها الحكومة البريطانية بإخلاص، وتحالفوا سياسياً فى الغالب مع الأمير عبد الله الذى نصّبه البريطانيون أميراً على شرق الأردن، وأظهروا الولاء له. وقد امتنعوا فى أغلب تاريخهم السياسى عن الانخراط فى التحركات الثورية، وعن المعارضة الفعلية والعملية لسياسات حكومة الانتداب. ويمكن أن نذكر من أعضاء هذا الصنف راغب وفخرى النشاشيبى، أمين عبد الهادى، عارف العارف، روحى عبد الهادى، حسام الدين جار الله، رشدى وأخيه عادل الشوا وسليمان طوقان.

الصنف الثانى عارض سياسة الحكومة البريطانية القائمة على أساس وعد بلفور، ولكنه مع ذلك هادنها وحاول أن يقيم علاقات تبادل مصلحة معها، يقوم خلالها بقيادة جماهير الشعب بطريق لا تتبنى العنف والثورة المسلحة بل تعتمد الأساليب السلمية والاحتجاجات اللاعنفية، ووجّه مع هذه المهادنة جُلّ أسلحته وتحريضه ضد ما أطلق عليه السياسة الصهيونية للانتداب، فطالب الحكومة البريطانية بتغيير هذه السياسة والتخلى عن وعد بلفور، إلا أنّه قام أثناء ذلك بإبقاء جسور الحوار والتعاون مع هذه الحكومة على أمل أن تستجيب لمطالبه. ومن الأمثلة على هذا الصنف أغلب أعضاء اللجان التنفيذية للمؤتمرات الفلسطينية السبع، والحاج أمين الحسينى، الذى نهج هذه السياسة منذ عام ١٩٢١ وحتى قيام الثورة العربية الكبرى عام ١٩٣٦. وأوراق الحاج أمين أثناء رئاسته للمجلس الإسلامى الأعلى دليل قاطع على نهجه هذا.

أما الصنف الثالث فكان منذ وقت مبكّر يعتبر الانتداب البريطانى مسؤولاً مسؤولية تامّة عن الوضع فى فلسطين وعن نمو وتصاعد قوة الحركة الصهيونية فيها، وطالب بالأعمال الثورية ضد الانتداب وضد الحركة الصهيونية، ومن أبرز ممثلى هذا الاتجاه مؤسسى حزب الاستقلال الفلسطينى والشيخ عز الدين القسام والذى كان عضواً فى لجنة الحزب بحيفا، كما يتضح من مذكرات أكرم زعيتر.

محاور أساسية حول النخبة الفلسطينية

امتازت النخبة الفلسطينية بالانقسام على المستويات الفكرية والسياسية. وجاء





الصنف الأول من النخبة تماشى تمامًا مع السياسة البريطانية، وتحالفوا سياسيًا فى الغالب مع الأمير عبدالله الذى نصّبه البريطانيون أميراً على شرق الأردن

هذا الانقسام لاختلاف التنشئة الثقافية والتعليمية لأعضائها، والاختلاف فى الولاءات والارتباطات الاقتصادية والسياسية مع الحكومة ومع القوى والأحزاب المتعددة فى العالم العربى. ولم تستطع النخبة السياسية الفلسطينية إنشاء أحزاب سياسية أو مؤسسات مجتمعية ناجحة وفعّالة إلا فى حالات نادرة. كما أنّها افتقدت إلى شخصية مركزية تجمع حولها غالبية كبيرة من أعضائها، وتستطيع قيادة الشعب من خلال بناء قاعدة واسعة من ممثليه وزعمائه تسير معها.

لقد سعى الحاج أمين الحسينى ليكون هذه الشخصية، ولكنه فشل فى مسعاه لأن مفهومه للقيادة كان يتضمن ولاء الآخرين له وطاعتهم لأوامره دون اعتراض. كما أن مفاهيمه الفكرية وتوجهاته الفلسفية المحافظة لم تتلاءم مع توجهات قطاع واسع من النخبة، والذى اتجه نحو الحداثة بمفاهيمها الليبرالية والتحررية. لذا فإنّه رغم التزامه بالميثاق القومى الذى لا يفرط فى الحقوق الطبيعية والتاريخية للشعب الفلسطينى، إلاّ أنّه فشل فى استمالة عدد كبير من أعضاء النخبة الفاعلين والمؤثرين لصفّه، ولا بدّ من الإقرار هنا بأنّ الكثيرين عملوا وانسجموا معه، ولكن ذلك كان لفترات قصيرة، وكان بالغالب ينتهى بالتصادم والتنافر. وتحفل مذكرات عزة دروزة، ومذكرات عونى عبد الهادى، ومذكرات رشيد الحاج إبراهيم، ومذكرات محمد على الطاهر، ومذكرات ذو الكفل عبد اللطيف، بالأمثلة العديدة على فشل المفتى فى إبقاء الجسور مع الآخرين. وقد فشل المفتى حتّى فى الحفاظ على ولاء أعضاء من عائلته له فى بعض الفترات، بسبب موافقة الحادّة والصّارمة ضد مخالفيه ومعارضيه، ومن ذلك خلافه مع جمال الحسينى وشقيقيه توفيق وداود حول الموقف من موسى العلمى (شقيق زوجة جمال) ومشروعه الإنشائى ومشروع المكاتب العربية للدعاية فى أوروبا وأمريكا، ففى حين اعتبر المفتى موسى العلمى خائناً، وقف جمال الحسينى وإخوته والحزب العربى مع موسى، ودافعوا عنه ودعموا مشاريعه السياسية والاقتصادية.

فى مراحل عديدة من تاريخه السياسى، فتح الحاج أمين حوارات مع أعضاء النخبة الآخرين وعقد اجتماعات تشاورية معهم من خلال التشكيلات الوطنية المختلفة وأبرزها اللجنة العربية العليا التى تأسست فى فترة الإضراب والثورة سنة ١٩٣٦. وكما يورد دروزة فى مذكراته فإن نقاشات حقيقية وصريحة كانت تعقد فى هذه اللجنة، ومنها على سبيل المثال النقاش الذى جرى بين أعضاء اللجنة فى ١٩٣٦/٩/٢٩ حول برقية وردت من الملك عبد العزيز بن سعود تتعلق بوقف الإضراب والثورة. وفى هذا الاجتماع كانت هناك مجموعة تخالف رأى المفتى بضرورة الاستمرار فى الإضراب، وتضغط بقوة من أجل وقفه. ولكن هذه المساحة من النقاش والاختلاف اختفت تماماً فى أعقاب قرار لجنة بيل (Peel) بتقسيم فلسطين سنة ١٩٣٧، وانضمام جزء من النخبة لصف الأمير عبد الله الذى كان موافقاً على التقسيم وطامعاً فى ضم القسم العربى من فلسطين لإمارته شرق الأردنية، (وهو الأمر الذى سعى لتحقيقه بعض صدور قرار التقسيم الشهير سنة ١٩٤٧ وخلال الحرب التى تلت فى عامى ١٩٤٧-١٩٤٨ ونفذه فعلاً فى كانون الأول ١٩٤٨). وقد لجأ أنصار المفتى منذ نهايات ١٩٣٧ حتى نهاية الثورة سنة ١٩٣٩ إلى سياسة الاغتيالات، التى أطلق عليها تأديب الخارجين، لردع هذا الفريق عن موقفه، وطارد الثوار المدعومون من المفتى، والذى بقى صامتاً وممتنعاً عن اتخاذ موقف عملى ضد هذه الممارسات، أنصار المعارضة فى كل المدن والقرى الفلسطينية.

مثّلت هذه الفترة من التاريخ الفلسطينى حالة انقسام حاد فى النخبة، دفع بجزء لا بأس به من أعضاء النخبة ومن الأهالى غير المسيسين للالتجاء للحكومة الإنجليزية لحمايتهم من الاعتداءات المتكررة على أرواحهم وممتلكاتهم من قبل المنتسبين للثورة، وهى اعتداءات نمت بشكل واضح بسبب حالة الفوضى التى عاشها المجتمع الفلسطينى فى تلك الفترة، نتيجة لغياب القيادة المركزية القوية، وغياب البنية المؤسساتية العريقة والراسخة.

عوامل التأثير العربية والدولية على النخبة

تعرضت النخبة الفلسطينية إلى تيارات فكرية وسياسية مختلفة منها العربية ومنها الدولية، فقد كان لهذه النخبة علاقات واتصالات مع القوى الفكرية والسياسية سواء فى العالم العربى المجاور، أو فى أوروبة، وهذا أدى إلى بروز اتجاهات جديدة وإن كانت لم تستطع الحلول مكان النخبة القائمة على الأساس العائلى القديم، بل إن الكثيرين من أعضاء النخبة المتعلمة سخّروا أنفسهم لخدمة الروابط والهوية العائلية، وللدفاع عن مصالح العائلة ونفوذها. ولعل من أبرز الأمثلة على هذا الأمر محاولات موسى العلمى، خريج كامبردج فى القانون وصاحب المنصب الرفيع فى حكومة الانتداب، والعقلية السياسية الناضجة والعميقة، استعادة سيطرة عائلة العلمى على أوقاف الزاوية الأسعدية فى جبل الطور بالقدس، من أجل رفع مكانة العائلة بين عائلات القدس، رغم أن هذا كان مخالفاً لقوانين الأوقاف التى تم إقرارها من قبل حكومة الانتداب. كما يمكن الإشارة هنا إلى الازدواجية فى شخصية عونى عبد الهادى، خريج كلية الحقوق فى باريس، والشخصية الاستقلالية المعروفة، صاحب الخبرة السياسية الواسعة والعقلية القانونية الفذّة، والذى تحلّى بمستوى رفيع من الثقافة العالمية، فرغم وجوده فى أعلى سلم القيادة فى حزب الاستقلال لم يتخلّ عن شعوره بالانتماء والولاء لعائلة عبد الهادى، ذات النفوذ العريق فى منطقة جنين، والواقفة فى صف المعارضة للعائلة الحسينية فى القدس. وقد كان هذا الشعور أحد الأسباب فى التنافر بين عونى عبد الهادى والحاج أمين الحسينى، وهو تنافر أثّر سلبياً على العلاقة بين الحاج أمين وحزب الاستقلال رغم محاولات عديدة من قبل أعضاء مؤسسين فى الحزب كعزة دروزة، بناء جسور التعاون والتفاهم بين الحزب وبين زعيم الحركة الوطنية. وقد كان لهذا الفشل دورٌ فى تعميق الصراع داخل الحركة الوطنية ونخبتها القيادية مما أدى إلى فشلٍ ذريع فى المواجهة الحاسمة مع الصهيونية بعد صدور قرار التقسيم سنة ١٩٤٧. وواضح من مراجعة يوميات عونى عبد الهادى اقتناعه فى مواقف عديدة بضحالة تفكير المفتى، ورغبته فى السيطرة على كل الأمور، والتدخل فى كافة التفاصيل حتى العسكرية منها، بدل ترك الأمور لأهل الخبرة فيها.

يبيّن السجل التاريخى من وثائق ويوميات ومذكرات، ومن أبرزها يوميات ومذكرات خليل السكاكينى وواصف جوهرية وسالم الزعرور، أن النخبة الفلسطينية استطاعت تجاوز الانقسام الطائفى، وانسجم مسلموها ومسيحيوها فى نشاطاتها ومؤسساتها وتشكيلاتها المختلفة، ولكنها فشلت فى تجاوز انقسامها العائلى. وقد أعطت الذهنية العائلية فى المجتمع الفلسطينى فرصة للبريطانيين للاختراق ولجمع الأنصار والعملاء لسياستها ومخططاتها. وسعت الإدارة الانتدابية ليس فقط لتعزيز الهوية العائلية على حساب الهوية الوطنية الجامعة، بل لإحداث الشروخ والانقسامات داخل العائلة الواحدة. ويمكن لنا هنا أن نذكر المساعى البريطانية لتشتيت وحدة العائلة الحسينية، وإضعاف دورها القيادى فى الحركة الوطنية من خلال تشجيع عناصر بعينها لانتهاج سياسة معادية للتوجه الوطنى العام. ومثال على ذلك محمد يونس الحسينى وقريبه الشيخ عارف اللذان نشطا ضد زعامة الحاج أمين، ورغم أن فرع عائلتهما لا يرجع إلى ذات جذور عائلة الحاج أمين، إلاّ أنّ الحكومة كانت راغبة جداً فى تعاونهما معها لأنهما يحملان اسم الحسينى. الأول كان مديراً للمصرف الزراعى العربى، ونشط فى أوساط حزب الدفاع، واشترك مع راغب وفخرى النشاشيبى وسليمان طوقان فى تمثيل الحزب فى مؤتمر سان جيمس بلندن سنة ١٩٣٩، والثانى كان شيخاً للحرم القدسى الشريف، أى





الصنف الثانى عارض سياسة الحكومة البريطانية القائمة على أساس وعد بلفور. ولكنه مع ذلك هادنها محاولا الاعتماد على الأساليب السلمية والاحتجاجات اللاعنفية

مسؤولاً عن إدارة عمليات فتحه وإغلاقه، والأمور المتعلقة بالإنارة والتنظيف فيه، وقد اتهم بتقديم معلومات للحكومة عن الثوار وعن أنصار الحاج أمين خلال الثورة الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩)، وجرت محاولة لاغتياله لم تكلل بالنجاح.

فى الإطار العربى انسجمت النخبة الفلسطينية مع التيارات السياسية والقومية المتعددة فى الأقطار المجاورة، كمصر والعراق وسورية وشرقى الأردن، وبرز ميل واضح نحو الولاء للهاشميين، إلا أن هذا الولاء انقسم بين الانسجام إما مع الخط القومى والاستقلالى الذى نهجه الملك فيصل بن الحسين، أو مع الخط المنبطح أمام بريطانيا ومشاريعها وسياساتها فى المنطقة، الذى نهجه شقيقه عبد الله.

كما كان هناك فى المقابل تأييد للملك عبد العزيز آل سعود، وقد انتشر فى الأوساط الشعبية والقيادية أمل كبير فى أن يلعب الملك عبد العزيز دوراً حاسماً فى مجال إقناع بريطانيا، أو حتى إجبارها، على العدول عن سياساتها الصهيونية. ويلاحظ أن الموالين لنهج عبد الله لم يكونوا منسجمين لا مع فيصل ولا مع عبد العزيز. كما يلاحظ أن المفتى وأنصاره حافظوا على علاقات متينة مع الاثنين. وقد استفادوا من هذه العلاقات الجيدة مع الملك عبد العزيز خلال الثورة الكبرى فى فلسطين وبعد فشل حركة رشيد الكيلانى، واستفاد البعض منها للحصول على وظائف، خصوصاً جمال الحسينى، بعد نكبة ١٩٤٨.

تأثيرات الحداثة الأوروبية

تطورت النخبة السياسية الفلسطينية فى ظل اتساع مساحة الاتصال والتأثر بالغرب الأوروبى، كما تطورت فى ظل النمو الرأسمالى فى فلسطين. وقد أدت أجواء هذا النمو الرأسمالى والتأثر الثقافى والفكرى بالغرب إلى توجه قطاع واسع وعريض من النخبة الفلسطينية نحو نمط اقتباس أو تقليد الثقافة الغربية، وتبنى سلوكيات وقيم النخب فيها، أى تبنى قيم الحداثة الأوروبية. وأدى هذا التوجه إلى سعى أعضاء النخبة للحصول على مصادر ثروة تضمن لهم العبور لمثل هذا التحول، وفى الحقيقة أن جذور هذا التحول تمتد للعهد العثمانى المتأخر وإن لم تكن بارزة خلاله كما هو الحال فى العهد البريطانى. لقد استلزم السعى للحصول على الثروة التوافق مع حكومة الانتداب البريطانى التى تحكمت فى الموارد الاقتصادية لفلسطين، أو بيع الفائض عن الحاجة من الأراضى للشركات الاستيطانية اليهودية. وهناك بين الأوراق الخاصة بالحاج أمين الحسينى أثناء عمله رئيساً للمجلس الإسلامى الأعلى ما يشير إلى توجه قطاع واسع من هذه النخبة نحو الحصول على مناصب حكومية أو تسهيلات من قبل الحكومة لضمان مصادر للثروة، ولترك الاعتماد على الأراضى الزراعية كمصدر أساسى للرزق. وقد كان لوساطة الحاج أمين لدى الحكومة أثر كبير فى تسهيل هكذا تعيينات، وهو الأمر الذى يشير إلى رغبة بريطانيا فى تعزيز سلطة المفتى لتشجيعه على الاستمرار فى نهج الاحتجاج السلمى، وتقوية دوره كوسيط معتدل بينها وبين النخبة.

لقد كان تغير نمط الحياة واضحاً فى اهتمام العديد من أعضاء هذه النخبة ببناء مساكن فارهة لهم فى الأحياء الجديدة التى انتشرت داخل وخارج المدن الرئيسية كالقدس ونابلس وعكا ويافا، وتعكس الأوراق الشخصية للعديد من أعضاء هذه النخبة تغير نمط سلوكهم وحياتهم بحيث أصبحوا وكأنهم يعيشون فى العصر الفكتورى. وهذا واضح مثلاً خلال قراءة مذكرات المحامى عمر الصالح البرغوثى، والتى تشير إلى سعيه لاقتناء التحف النادرة والأثاث الفاخر وإقامة الحفلات الباذخة، وحتى إلى إقامة علاقات جنسية خارج إطار الزواج، وهو الأمر نفسه حول حياة راغب النشاشيبى زعيم المعارضة الفلسطينية (توفى فى ١٠ نيسان ١٩٥١) والتى نجد تفاصيلها متناثرة فى أوراق ومذكرات متعددة أحدها يوميات خليل السكاكينى فى سنوات الاحتلال البريطانى الأولى، وفيها حديث عن حفلاته الباذخة، والتى لا يستطيع أحد مجاراته فيها، على حد تعبير السكاكينى. كما نعثر على تفاصيل أخرى فى مذكرات واصف جوهرية تفاصيل عن حياة راغب ومنها علاقته بعشيقته اليهودية العربية أم منصور.

وجد الكثيرون من أعضاء النخبة أن التحول نحو هذا النمط من الحياة يستدعى اتباع نهج «الاعتدال»، مما كان يعنى سياسياً الانضمام إلى معسكر الأمير عبد الله، والذى كان ينادى بسياسة الواقعية والتعقل وعدم الانجرار وراء العواطف، وهى آراء قادته وقادت معسكره إلى الخضوع التام للسياسة البريطانية وإلى التحالف مع الحركة الصهيونية فى مراحل مختلفة لتحقيق بعض المكاسب. يمكن هنا الحديث عن تغير فى توجهات كل من الشيخ عبد القادر المظفر (توفى فى عمان سنة ١٩٤٩)، وعجاج نويهض (١٨٩٦-١٩٨٢).

عرف الشيخ المظفر، كما تشير مصادر عديدة وذكريات معاصريه، مثل أحمد زكى الدجانى (١٩٨٩)، كأحد الموالين للحاج أمين الحسينى، وكان من أكثر الأصوات تشدداً فى المحافظة على الحق التاريخى للشعب الفلسطينى، وله مواقف عديدة بهذا الخصوص تضمنتها مصادرة منشورة عديدة، إلا أنه فى مرحلة لاحقة بدأ يتخلى عن هذا النهج. يبين الدجانى (١٩٥-١٩٦) أن المظفر، والذى امتاز بالظل الخفيف والنكتة وعمل المقالب وبالبخل، قلل منذ ١٩٣٦ نشاطه السياسى، واهتم ببناء عمارته المشهورة فى يافا فى شارع جمال باشا. وتبين مصادر أخرى منشورة وغير منشورة، مثل مذكرات عزة دروزة، وأوراق المجلس الإسلامى الأعلى وأوراق مصطفى أرشيد، أن الشيخ المظفر قد دخل أثناء انشغاله ببناء عمارته وفى تنمية ثروته، دخل فى صراع قانونى مع إدارة الأوقاف الإسلامية التى اتهمته بالاستيلاء على أرض وقفية فى المدينة، كما لاحقه قانونياً توفيق بسيسو، وهو تاجر فلسطينى غزى امتلك متجراً كبيراً فى يافا، لعدم تسديده ثمن بضائع اشتراها من متجره لبناء عمارته. أما شفيق الحوت (٢٠٠٧:٤٠) فيقول إن أنصار المجلس الإسلامى الأعلى كانوا يشيعون بأن المظفر بنى عمارته من أموال التبرعات التى جمعت من الهند لإعمار المسجد الأقصى، وهو اتهام يصعب إثباته، إلا أنه يشير إلى عدم رضى المجلسيين عن المظفر. وأخيراً، يشير طاهر الفتيانى فى يومياته إلى أن المظفر رفض خلال الثورة الكبرى إيواء شقيقه عبد السلام الذى كان منخرطاً فى العمل العسكرى ضد حكومة الانتداب واحتاج لمكان للاختفاء بعيداً عن أعين الإنكليز. لاحقاً، انضم المظفر لمعسكر الأمير عبد الله وكان من مؤيدى ضم الضفة الغربية للملكة الهاشمية.

أما عجاج نويهض، والذى قام أيضاً ببناء بيت فخم له فى القدس فى الأربعينيات، فقد عرف خلال فترة طويلة من حياته كزعيم استقلالى، وساهم فى دفع التيار الثورى فى الحركة الوطنية من خلال مجلته العرب، وهى المجلة التى أسسها ورأس تحريرها، وأصدر منها ستة وسبعين عدداً ابتداء من ١٩٣٢/٨/٢٧ وانتهاء فى ١٩٣٤/٤/٢٨، إلا أنه بدأ ينحرف نحو المعسكر الهاشمى منذ سنة ١٩٣٧، وتوج هذا الانحراف بنشاطه المثير للانتباه خلال مؤتمر أريحا لضم الضفة الغربية للمملكة الهاشمية فى كانون أول ١٩٤٨.

وثق عجاج علاقات الصداقة مع راغب النشاشيبى منذ عام ١٩٣٧، وأخذ يقترب سياسياً من أفكار المعارضة وأفكار التعقل منذ ذلك التاريخ، بعد أن كان فى الماضى صوتاً ثورياً معروفاً بمعاداته للانتداب البريطانى وللصهيونية، تشهد على ذلك كتاباته فى مجلة «العرب». ويمكن تتبع هذا الانحراف عن النهج الاستقلالى الثورى إلى نهج التعقل من خلال مذكرات عزة دروزة ومن خلال يوميات طاهر الفتيانى، والذى أطلق على عجاج نويهض لقب «المأسوف على وطنيته». وقد عمل عجاج مديراً للإذاعة الفلسطينية فى الأربعينيات خلال الحرب العالمية الثانية، وساهم فى الترويج للسياسة البريطانية خلالها. ثم عمل بعد النكبة مع النظام الهاشمى مديراً للإذاعة الأردنية ثم مديراً للمطبوعات، وبقى فى خدمة العرش الهاشمى إلى أن أعفاه رئيس الوزراء توفيق أبو الهدى من منصبه بعد شهر من اغتيال الملك فى ٢٠ تموز ١٩٥١.



الصنف الثالث اعتبر الانتداب البريطاني مسؤولاً مسؤولية تامّة عن الوضع في فلسطين وعن تصاعد قوة الحركة الصهيونية فيها. وطالب بالأعمال الثورية ضد الانتداب وضد الحركة الصهيونية

يمكن أن يلاحظ التناقض الواضح في مواقف عجّاج من خلال إجراء مقارنة بين صراعه مع الخديوي عباس حلمي الثاني وبين تحالفه اللاحق مع الملك عبد الله. فقد كلفته مواقفه الوطنية السابقة الدخول في صراع قانوني مع الخديوي المصري السابق عباس حلمي الثاني والذي هاجمه نويهض بقوة بسبب علاقاته مع الصهيونية، ونشر ضده مقالة فاضحة في مجلته العرب، مما دفع الخديوي لإقامة دعوى تشهير ضد نويهض أمام المحاكم الفلسطينية. ورغم هذا الصراع مع الخديوي عباس نجد عجّاجاً يتحالف مع الملك عبد الله الذي كانت علاقاته الصهيونية أشد وأقوى من علاقات الخديوي عباس، ومواقفه المناوئة للحركة الفلسطينية مشهورة ومعروفة للجميع آنذاك.

يجدر الانتباه في هذا المقام إلى عمليات تطهير السيرة الذاتية وتبيض صفحة الملك عبد الله وراغب النشاشيبي في مذكرات عجّاج نويهض التي نشرتها ابنته بيان عام ١٩٩٣ في بيروت تحت عنوان «ستّون عاماً مع القافلة العربية»، وفيها نجد صورة مختلفة تماماً للملك القتيل عما تشير إليه الوثائق التاريخية الموثوقة والكثيرة.

ففي حين يدّعي نويهض أنه كان ضد تقسيم فلسطين، نجد ما يشير إلى أن حليفه الملك عبد الله كان مؤيداً لهذا التقسيم وساعياً للحصول على حصة من فلسطين الذبيحة من خلال التفاهم والتحالف مع بريطانيا العظمى ومع الحركة الصهيونية. يشير غلوب باشا في مذكراته إلى سعي رئيس وزراء الملك عبد الله توفيق باشا أبو الهدى، الحصول مبكراً، وقبل دخول الجيوش العربية لفلسطين، على موافقة الإنكليز على أن يكون القسم العربي من خطة التقسيم خاضعاً لسلطة الملك، ويشير عارف العارف في كتابه نكبة فلسطين والفردوس المفقود (١٩٥٦: ١/ ١٢٥) وهو كتاب لا بد وأن نويهض قد قرأه أو اطلع على مضامينه، إلى مساعي الملك عبد الله للتفاهم والاتفاق مع الصهيونيين للحصول على ما يتبقى من فلسطين بعد إقامة الدولة اليهودية. يقول العارف: «ولقد حدثني عمر حسن صدقي الدجاني الذي انتدبه الملك، خلال عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨، لاكتساب الرأي العام في الولايات المتحدة، أنه قام في وقت ما -بعيد قرار التقسيم- بدور الوسيط بينه (أي بين الملك) وبين اليهود، وأن الملك أبدى موافقته يومئذ على تقسيم فلسطين شريطة أن يُعطى القدس كلها ويافا والجليل الغربي، وأن اليهود وافقوا على طلبه خلا القدس، فقد أصروا على أن تكون يهودية.» ويذكر عوني عبد الهادي في مذكراته (٢٠٠٢:٣٢٧) أن الملك أصدر كتاباً موقعاً منه يأمر قواته بالانسحاب من اللد والرملة مما تسبّب في وقوعهما فريسة سهلة للقوات الصهيونية التي ذبحت المئات في الشوارع والبيوت وفي مسجد دهمش. والقارئ ليوميات عارف العارف خلال عمله الرسمي في عمّان يعثر على أمير هاشمي لا يملك من الكرامة أمام أسياده الإنجليز شيئاً، مصروفه الخاص تابع للرقابة الإنجليزية، وحين لا يستلم مخصصاته من بريطانيا في موعدها لا يتورع عن تشبيه نفسه «بالدابة المعلوفة». (كما في يومية ٩ تشرين الثاني ١٩٢٦). وهي نفس الصورة من الخضوع لبريطانيا والمنثورة على صفحات كتاب خير الدين الزركلي (١٩٢٥) «عامان في عمّان».

الاغتيالات السياسية وانشقاق النخبة

مثلت الاغتيالات السياسية في فلسطين حالة تحوّل أساسية في علاقات النخبة، وهي حالة يمكن أن نشبهها بالطلاق. ويبيّن السجل التاريخي أن الأضرار التي نجمت عن اللجوء لهذا الأسلوب كانت أكبر بكثير من الفوائد التي سعى منفذوها لتحقيقها. وقد كان لهذه الاغتيالات دور في تقسيم الصف الفلسطيني وإضعافه وفشله اللاحق في مواجهة الصهيونية خلال حرب ١٩٤٧-١٩٤٨. يمكن لنا هنا أن نذكر باختصار حادثة اغتيال واحدة دفعت عائلة كبيرة في منطقة جنين من معسكر دعم الثورة والثوار، إلى معسكر المناوئين لها ولهم. وأدّت في نهاية المطاف إلى تعاون أفراد من هذه العائلة مع الجيش البريطاني في مطاردة وقتل قائد الثورة آنذاك عبد الرحيم الحاج محمد، والذي كان على ما يبدو خلف عملية الاغتيال.

في أيار ١٩٣٨ أطلقت النار على أخوين وجيهين من إحدى قرى قضاء جنين، فمات أحدهما فوراً، ومات الآخر بعد يومين. وقد أثار الحادث سخط وغضب مجموعة من المثقفين الفلسطينيين، وكتبوا لشقيق الضحيتين معزّين. وعبرت هذه الكتابات عن سوء الحالة التي وصل لها الوضع مع الاغتيالات، ومنها مثلاً ما كتبه في ١٩٣٨/٥/٢٢ الدكتور أنور الشقيري، ابن الشيخ أسعد الشقيري وشقيق أحمد الذي أسّس لاحقاً منظمة التحرير الفلسطينية، معزياً صديقه:

«لك من الثقافة ما يساعدك على تحمل الفاجعة. وليس علي أن أعزيك وأوجه عاطفتك نحو الصبر وإيمانك بالله. ولكن لا بد لي من أن أشاركك في تعزية الأمة كلها على ما حلّ بها من الانحطاط وعدم تقدير الرجال العاملين. فالعزاء إذاً لأمة فقدت رشدها وأخذت تخبط بالجهل والفساد. ولا حول ولا قوة إلا بالله».

في حزيران ١٩٣٩ تمّ اغتيال الدكتور أنور الشقيري نفسه. وقد كتب أحمد الشقيري في مذكراته تعليقاً مقارناً بين موسى كاظم الحسيني والحاج أمين الحسيني (في ممات موسى كاظم بكى أناس كثيرون، أما في حياة الحاج فقد أبكى أناس كثيرين). وعقب اغتيال أنور كتب تيسير الدوجي في ١٩٣٩/٦/١٨ من عمّان لصديقه مصطفى أرشيد يعرب عن قلقه عليه: «إن مقتل الدكتور أنور الشقيري أثار وساوسي ومخاوفي عليك ولهذا أرجوك أن تترك البلد المسعور ولو مؤقتاً وتحضر لعمّان أو إلى دمشق». ■

قائمة المصادر والمراجع

أرشيد، مصطفى: أوراق شخصية غير منشورة محفوظة لدى ورثته.

البرغوثي، عمر الصالح (٢٠٠١): المراحل، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

جوهرية، واصف (٢٠٠٣): القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية: الكتاب الأول من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية، ١٩٠٤-١٩١٧، القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية.

الحاج إبراهيم، رشيد (٢٠٠٥): الدفاع عن حيفا وقضية فلسطين: مذكرات رشيد الحاج إبراهيم، ١٨٩١-١٩٥٣. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

الحسيني، داود: أوراق ومذكرات غير منشورة.

الحوت، بيان نويهض (١٩٩٣): مذكرات عجّاج نويهض- ستون عاماً في القافلة العربية، بيروت: دار الاستقلال.

الحوت، شفيق (٢٠٠٧): بين الوطن والمنفى- من يافا بدأ المشوار، بيروت: دار رياض الريس.

الدجاني، أحمد زكي (١٩٨٩): مدينتنا يافا وثورة ١٩٣٦، د.م.ن: وحدة البحث في المجلس الأعلى للتربية والثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية.

دروزة، محمد عزة (١٩٩٣): مذكرات محمد عزة دروزة، بيروت: دار الغرب الإسلامي. ستة أجزاء.

الزركلي، خير الدين (١٩٢٥): عامان في عمّان: مذكرات عامين في عاصمة شرق الأردن، القاهرة: مكتبة العرب.

الزعرور، سالم، دفتر يوميات لعام ١٩٤١ مخطوط غير منشور، محفوظ لدى الباحث.

زعيتر، أكرم (١٩٩٤)، من مذكرات أكرم زعيتر ١٩٠٩-١٩٣٥: ج١ بواكير النضال، ج٢ من أجل أمتي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

السكاكيني، خليل (٢٠٠٣-٢٠٠٩): يوميات خليل السكاكيني، تحرير أكرم مسلم، سبعة أجزاء، رام الله: مركز خليل السكاكيني ومؤسسة الدراسات المقدسية.

العارف، عارف (١٩٥٦): نكبة فلسطين والفردوس المفقود، ١-٦، صيدا: المكتبة العصرية.

العارف، عارف: ثلاثة أعوام في عمان، مذكرات غير منشورة ومحفوظة في كلية سانت أنتوني بأكسفورد، بريطانيا.

العارف، عارف: يوميات غزة، مذكرات غير منشورة ومحفوظة في كلية سانت أنتوني بأكسفورد، بريطانيا.

عبد اللطيف، ذو الكفل (٢٠٠٠): مذكراتي- قصة كفاحي من الثورة الفلسطينية الكبرى إلى حرب ١٩٤٨، عمّان: دار سندباد.

غلوب، جون (٢٠٠٨): جندي بين العرب، مشاهد تاريخية وسياسية، ترجمة عادل العوا، عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع.

الفتياني، طاهر: يوميات غير منشورة، محفوظة في أرشيف جمعية الدراسات العربية بالقدس.

قاسمية، خيرية (٢٠٠٢): مذكرات عوني عبد الهادي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

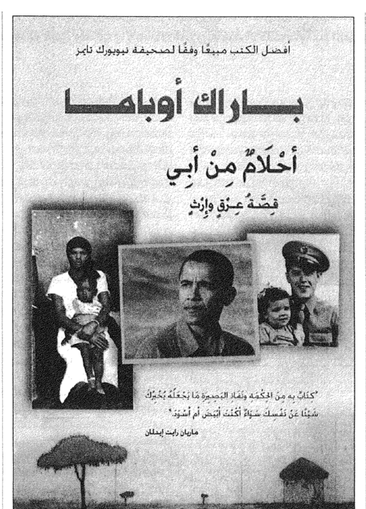
هلال، علي الدين ومسعد، نيفين (٢٠٠٠): النظم السياسية العربية، قضايا الاستمرارية والتغيير، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

أحـــلام مـــن أبـــى:

■■ مر ما يقرب من عقد من الزمان منذ نُشر هذا الكتاب للمرة الأولى. وكما أذكر فى التمهيد الأصلى، تسنت لى فرصة تأليف هذا الكتاب وأنا فى كلية الحقوق بعد انتخابى أول رئيس أمريكى من أصل إفريقى لمجلة «هارفارد لو ريفيو». ففى أعقاب نيلى نصيبًا متواضعًا من الشهرة تلقيت عرضًا من أحد الناشرين وحصلت منه على دفعة مقدمة من مبلغ التعاقد، وبدأت العمل وأنا أومن أن قصة عائلتى، ومحاولاتى لفهم تلك القصة، قد تخاطب بصورة ما صدوع العنصرية التى كانت سمة التجربة الأمريكية، وأيضًا حالة الهوية غير الثابتة - القفزات عبر الزمن وتصادم الثقافات - التى تمثل سمة حياتنا العصرية.

وعلى غرار من يؤلف كتابًا للمرة الأولى غمرتنى مشاعر الأمل واليأس فور نشر الكتاب، أمل فى أن يحقق الكتاب نجاحًا يتجاوز ما يجول فى أحلامى الشابة، ويأس من أن أكون قد فشلت فى أن أقول شيئًا كان ينبغى أن أقوله. أما الحقيقة فكانت تقع فى مكانة بين هذا وذاك: فجاءت المقالات النقدية عن الكتاب إيجابية شيئًا ما، وكانت الجماهير تحضر بالفعل الندوات التى نظمها الناشر وتجرى فيها قراءة أجزاء من الكتاب. لم تكن المبيعات مبهرة. وبعد بضعة أشهر مضيت قدمًا فى حياتى المهنية وكلى ثقة بأن مستقبلى فى تأليف الكتب سيكون قصيرًا، لكنى كنت سعيدًا بأنى خضت تلك التجربة وخرجت منها دون مساس بكرامتى.

لم يتسن لى الكثير من الوقت للتفكير طوال السنوات العشر التالية، فقد أدرت مشروعًا لتسجيل الناخبين فى انتخابات عام ١٩٩٢م، وبدأت العمل محاميًا فى مجال الدفاع عن الحقوق المدنية، وبدأت أدرس مادة القانون الدستورى فى جامعة شيكاغو. واشتريت أنا وزوجتى منزلًا، ورزقنا بطفلتين رائعتين ومشاغبتين تتمتعان بصحة جيدة، وكنا نجاهد لدفع تكاليف معيشتنا. وعندما أصبح أحد المقاعد فى المجلس التشريعى فى ولاية إلينوى شاغرًا عام ١٩٩٦م، أقنعنى بعض الأصدقاء أن أرشح نفسى، وبالفعل فزت بالمقعد. حذرنى البعض قبل أن أشغل المنصب من أن السياسات داخل الولاية تفتقد إلى البريق الذى يشع من نظيرتها فى واشنطن، فالمرء يكدح لكن وراء الستار، وغالبًا فى موضوعات تعنى الكثير للبعض ولكن رجل الشارع يمكنه أن يغض طرفه عنها دون أن يشوب تصرفه هذا شائبة (مثل اللوائح المتعلقة



أحلام من أبى: قصة عرق وارث
باراك أوباما
كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة
كلمة، أبو ظبى
برنامج الكتاب العربى، القاهرة، ٢٠٠٩
ترجمة: هبة نجيب مغربى، إيمان عبد الغنى نجم

Dreams from My Father: A Story of Race and Inheritance
Three Rivers Press
(Re-released in 2004) 1995

بالمنازل المتنقلة، أو التداعيات الضريبية لانخفاض قيمة معدات الزراعة). ومع ذلك وجدت العمل مرضيًا، غالبًا لأن نطاق السياسات داخل الولاية يسمح بالتوصل إلى نتائج ملموسة - توسيع خدمة التأمين الصحى لتشمل أطفال الفقراء، أو تعديل القوانين التى تتسبب فى موت الأبرياء - فى ظل إطار زمنى معقول. وأيضًا لأنه بداخل مبنى المجلس التشريعى لولاية صناعية كبيرة مثل إلينوى يرى المرء كل يوم وجه أمة فى حوار مستمر: أمهات من الأحياء المكتظة بالسكان، ومزارعى الذرة والفول، والعمال من المهاجرين الذين يعملون باليومية، إلى جانب المصرفيين فى البنوك الاستثمارية فى الضواحى، جميعهم يتدافعون ليحصلوا على فرصة لسماعهم، وجميعهم مستعدون بقصص ليرووها.

قبل بضعة شهور فزت بترشيح الحزب الديمقراطى لمقعد فى مجلس الشيوخ الأمريكى عن ولاية إلينوى. كان سباقًا صعبًا فى ساحة تزدحم بالمرشحين الماهرين البارزين الذين يحظون بتمويل كبير. وكان يُنظَر إلى - وأنا رجل أسود له اسم مضحك لا يحظى بأى دعم مؤسسى ولا يمتلك ثروة شخصية - على أن إمكانية فوزى مسألة بعيدة المنال. وهكذا عندما فزت بأغلبية الأصوات فى الانتخابات التمهيدية للحزب الديمقراطى، فى مناطق البيض والسود على حد السواء، وفى الضواحى وكذلك فى شيكاغو، كان رد الفعل الذى تلا هذا يشبه رد الفعل الذى تلا انتخابى رئيسًا لمجلة «هارفارد لو ريفيو». وقد عبر معظم المعلقين عن دهشتهم وأملهم الحقيقى فى أن يشير انتصارى إلى تغير كبير فى سياساتنا العنصرية. وفى مجتمع السود كان هناك إحساس بالفخر تجاه الإنجاز الذى حققته، فَخر يمتزج بخيبة الأمل لأنه بعد خمسين عامًا من قضية براون ضد مجلس التعليم، وبعد أربعين عامًا من إقرار قانون حق التصويت، لا نزال نحتفل بإمكانية (وفقط إمكانية، لأنه كانت لا تزال أمامى انتخابات عامة صعبة قادمة) أن أكون الأمريكى الوحيد من أصل إفريقى فى مجلس الشيوخ والثالث على مدار التاريخ منذ مرحلة إعادة التأسيس التى تلت الحرب الأهلية الأمريكية. انتابتنى، كما انتابت عائلتى وأصدقائى، مشاعر الحيرة من هذا الاهتمام، وكنا دائمًا نعى الفرق بين بريق تقارير وسائل الإعلام وحقائق الحياة العادية الفوضوية كما نعيشها فى الواقع.

وبالضبط مثلما أثارت تلك الموجة من الشهرة اهتمام الناشر قبل عقد من الزمان تسببت هذه الجولة الجديدة من الأخبار الصحفية فى إعادة نشر الكتاب مرة أخرى. ولأول مرة منذ سنوات أخذت نسخة من الكتاب وقرأت بعض الفصول لأرى إلى أى مدى تغير صوتى بمرور الزمن. وأعترف أنى كنت أشعر ببعض الخجل من حين لآخر كلما رأيت كلمة أسأت اختيارها أو جملة مشوهة أو تعبيرًا عن العاطفة يبدو متلطفًا أو مبالغًا فيه. وكانت داخلى رغبة ملحة كى أحذف من الكتاب ما يقرب من خمسين صفحة، فقد أصبحت أميل كثيرًا إلى الاختصار. ولكنى لا أستطيع حقًا أن أقول إن الصوت الذى يتردد فى الكتاب ليس صوتى، وإنى كنت سأكتب القصة بصورة مختلفة إلى حد بعيد اليوم عما كتبتها قبل عشرة أعوام، حتى وإن كانت بعض الفقرات ثبت أنها غير مناسبة سياسيًا، وهو ما يخلق ساحة لتعليقات الخبراء وأبحاث المعارضة.

ما تغير بالطبع تغيرًا شديدًا وقاطعًا هو السياق الذى قد يقرأ فيه الكتاب الآن. لقد بدأت أكتب فى ظل خلفية يميزها وادى السليكون، وازدهار البورصة، وانهيار سور برلين، وخروج مانديلا من السجن

قصة عرق وإرث

باراك أوباما

بخطى ثابتة متأنية ليقود دولة، وتوقيع اتفاقيات السلام فى أوسلو. وعلى المستوى المحلى بدت المناظرات الثقافية، حول الأسلحة والإجهاض وموسيقى الراب، قوية للغاية لأن سياسة بيل كلينتون «الطريق الثالث»، وهى سياسة دولة الرفاهية المتقلصة التى تفتقد الطموح العظيم وتعوزها القوة الحازمة، بدت أنها تصف إجماعاً ضمنياً واسع النطاق على المسائل المتعلقة بقوت الحياة اليومية، إجماع ستوافق عليه حملة جورج دبليو بوش فى فترة رئاسته الأولى بسياستها «المحافظة الرحيمة». وعلى المستوى العالمى أعلن المؤلفون نهاية التاريخ، وبزوغ نجم السوق الحرة والديمقراطية الليبرالية، وزوال الكراهيات القديمة والحروب بين الأمم لتحل محلها المجتمعات الفعالة والمعارك من أجل الحصول على نصيب فى السوق.

ثم فى الحادى عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م تمزق العالم.

ومهارتى فى الكتابة لا تؤهلنى لوصف ذلك اليوم، والأيام التى تلته، كانت الطائرات مثل الأشباح تختفى بين الحديد والزجاج، انهيار البرجين كشلال يتدفق بالتصوير البطىء، أناس يكسوهم الرماد يجولون الشوارع، والألم والخوف. ولا أتظاهر بأنى أفهم العدمية الشديدة التى كانت تحرك الإرهابيين فى ذلك اليوم والتى لا تزال تحرك إخوانهم اليوم. وقدرتى على التقمص، على الوصول إلى قلوب الآخرين، لا يمكن أن تخترق تلك النظرات الخاوية لأولئك الذين غمرتهم مشاعر الارتياح الهادئة غير المنطقية وهم يقتلون الأبرياء.

ولكن ما أعرفه هو أن التاريخ قد أعاد ذلك اليوم حاملاً معه الانتقام، وأنه فى الحقيقة، كما يذكرنا فولكنر إن الماضى لا يموت أبداً ولا يدفن تحت الثرى، بل إنه حتى ليس ماضياً. هذا التاريخ الجماعى، هذا الماضى، يمس ماضىَّ مباشرة. ليس فقط لأن قنابل القاعدة قد تركت بصماتها بدقة غريبة على بعض معالم حياتى؛ المبانى والطرقات والوجوه فى نيروبى وبالى ومانهاتن، ولم يكن ذلك فحسب لأن أحداث الحادى عشر من سبتمبر/أيلول تسببت فى أن يصبح اسمى هدفاً لا يقاوم للسخرية من أنصار الحزب الجمهورى شديدى الحماس، بل أيضاً لأن الصراع الضمنى - بين عوالم الرخاء وعوالم الفقر المدقع، بين الحديث والقديم، بين الذين يعتنقون تنوعنا الشديد والمتضارب والمسبب للمشكلات ويتمسكون بمجموعة من القيم التى تربطنا معاً، وأولئك الذين يسعون، تحت أية راية أو شعار أو نص مقدس، إلى يقين وتبسيط يبرران القسوة تجاه من ليسوا مثلنا - هو الصراع الموضح على نطاق أصغر بين دفتى هذا الكتاب.

أعلم، ورأيت بنفسى، اليأس والاضطراب الذى يشعر به العاجز، كيف يشوهان حياة الأطفال فى شوارع جاكارتا أو نيروبى بالطريقة نفسها تقريباً التى يشوهان بها حياة الأطفال فى الجزء الجنوبى من شيكاغو، كيف يكون الطريق ضيقاً بالنسبة لهم بين الذل والغضب العارم، كيف ينزلقون بسهولة إلى أحضان العنف واليأس. أعلم أن رد فعل من يمتلك القوة على هذه الفوضى - الذى يكون إما رضا متبلد الحس أو، عندما تزيد تلك الفوضى عن حدودها، تطبيقاً صارماً غير عاقل للقوة، وإصدار أحكام بالسجن لمدد أطول، ومزيد من العتاد الحربى المتطور - غير مناسب لهذه المهمة. وأعلم أن التعصب واعتناق الأصولية والقبلية يحكم علينا جميعاً بالهلاك.

وهكذا تحول ما كان مجهوداً داخلياً شخصياً من جانبى لفهم هذا الصراع والعثور على مكانى فيه ليلتقى مع مناظرة شعبية أوسع مجالاً، مناظرة تورطت فيها مهنياً، مناظرة ستشكل حياتنا وحياة أطفالنا لسنوات طويلة قادمة.

أما التداعيات السياسية لكل هذا فهى موضوع كتاب آخر، فدعونى أنتهى بدلاً من هذا بملحوظة شخصية: معظم شخصيات هذا الكتاب تظل جزءاً من حياتى، وإن كان بدرجات متفاوتة، عملاً وأطفالاً وجغرافية ومصائر.

الاستثناء الوحيد هو أمى، التى فقدناها بسرعة وحشية بسبب مرض السرطان بعد بضعة أشهر من نشر هذا الكتاب.

كانت قد قضت السنوات العشر السابقة تفعل ما تحب، فكانت تجوب العالم، تعمل فى القرى النائية فى آسيا وإفريقيا، تساعد النساء على شراء ماكينات خياطة أو بقرات حلوب أو الحصول على فرصة للتعليم قد تمنحهن موطئ قدم فى اقتصاد العالم. وكان لديها أصدقاء من كل مكان، وكانت تتنزه سيراً على الأقدام وتحدق فى القمر وتبحث فى الأسواق المحلية فى دلهى أو مراكش عن شىء صغير مثل وشاح أو قطعة حجرية منحوتة يجعلها تضحك أو يسعد ناظريها. وكتبت التقارير وقرأت الروايات وأزعجت أطفالها وحلمت بأحفادها.

كنا كثيراً ما نرى بعضاً، فصلتنا لم تنقطع، وخلال تأليف هذا الكتاب، كانت تقرأ المسودات وتصحح القصص التى أسأت فهمها، وتحرص على عدم التعليق على وصفى لها لكن تهرع إلى تفسير أو دفاع عن الصفات الأقل جاذبية فى شخصية أبى. وقد تعاملت مع مرضها بلطف ودعابة، وساعدتنى أنا وأختى على أن نستمر فى حياتنا، رغم خوفنا ورفضنا وانقباضات قلبينا المفاجئة.

فى بعض الأحيان أفكر أننى لو كنت أعلم أنها لن تنجو من مرضها كنت سأكتب كتاباً مختلفاً، أقل تأملاً فى الأب الغائب، وأكثر حفاوة بالأم التى كانت موجودة دائماً فى حياتى. وإننى أراها فى ابنتىَّ كل يوم، فرحتها وقدرتها على التعجب، ولن أحاول أن أصف كيف لا أزال فى غاية الحزن لرحيلها. وأعرف أنها كانت أطيب وأكرم روح عرفتها فى حياتى، وأنى أدين لها بأجمل ما فىَّ. ■

نشر باراك أوباما هذه المذكرات الملتهبة بالعواطف التى تهز المشاعر هزاً قبل أن يصبح الرئيس الأمريكى المنتخب الرابع والأربعين بسنوات، وقد تصدر الكتاب قائمة أفضل الكتب مبيعاً التى تنشرها صحيفة نيويورك تايمز عندما أعيد طباعته عام ٢٠٠٤. يحكى كتاب «أحلام من أبى» سعى أوباما الدءوب لفهم القوى التى أسهمت فى تشكيله كابن لأب إفريقى أسود وأم أمريكية بيضاء وهو السعى الذى انطلق به من قلب الولايات المتحدة إلى مسقط رأس جدته فى قرية أليجو الإفريقية الصغيرة.

يبدأ أوباما قصته فى نيويورك حيث يسمع أن والده - وهو الأب الذى عرفه كأسطورة وليس كرجل - لقى مصرعه على إثر حادث سيارة. اجترت هذه الأنباء سلسلة من الذكريات حيث يسترجع أوباما تاريخ عائلته غير المألوف بداية من هجرة عائلة أمه من بلدتها الصغيرة بولاية كانساس إلى جزر هاواى، ومروراً بمشاعر الحب التى نشأت بين أمه وبين طالب كينى واعد شاب، وهو الحب الذى اشتعلت جذوته بفعل براءة الشباب وبالروح المؤيدة للاندماج العرقى التى سادت فى مطلع ستينيات القرن العشرين. ويروى أوباما كيف أن والده رحل عن هاواى وهو لم يزل فى الثانية من عمره بعد أن عادت الحقائق المريرة المتعلقة بالعرق والسلطة تُطل بوجهها من جديد، ويروى عن بداية إدراكه للمخاوف والظنون التى لم تكن موجودة فحسب بين العالم الأسود الكبير والعالم الأبيض بل كانت تعتمل فى نفسه أيضاً.

انتقل أوباما إلى شيكاغو ليعمل فى وظيفة منظم للمجتمع الأهلى مدفوعاً بالرغبة فى فهم القوى التى أسهمت فى تشكيله وأيضاً فى فهم أسطورة أبيه. وهناك عمل فى مواجهة خلفيات الصراع السياسى والعرقى العنيف من أجل إخماد نيران اليأس المتصاعدة فى تلك المنطقة الفقيرة من المدينة. وهكذا تتحد قصته مع قصص من يعمل معهم إذ يتعلم قيمة المجتمع وضرورة معالجة الجراح القديمة وإمكانية وجود الإيمان فى غمرة المحن.

وفى كينيا تعود رحلة أوباما إلى نقطة البداية من جديد حيث يلتقى أخيراً مع الجانب الإفريقى من عائلته ويواجه الحقيقة المرة لحياة أبيه. يكتشف أوباما أنه مرتبط ارتباطاً لا مفر منه بأشقاء وشقيقات يفصل المحيط بينه وبينهم بعد السفر إلى بلد يقاسى بشدة من الفقر المدقع والصراع القبلى وإن كان شعبه يواصل الحياة بفعل روح التحمل والأمل. وفى النهاية - وعن طريق تبنى نضالهم المشترك - ينجح فى جمع شمل إرثه المتمزق.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس

تأليف: شفيق غربال
تقديم: محمد عفيفي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ٦٨ صفحة



المعلم يعقوب أو الجنرال يعقوب كما أطلق عليه الفرنسيون. والفارس لاسكاريس المغامر الأوروبى ظلا حكاية شعبية أسطورية تناثرت أخبارهما فى ثنايا الكتب إلى أن توفر عليها المؤرخ الكبير شفيق غربال ليجلو القصة الحقيقية التاريخية للجنرال يعقوب القبطى الصعيدى الذى تعاون مع الفرنسيين وقاد فرقة عسكرية تقاتل فى صفوفهم، ثم خرج معهم عندما رحلوا عن مصر مشكلا مع جنود فرقته «الوفد المصرى» الأول والذى ذهب إلى أوروبا باحثا عن تأييد لاستقلال مصر عن الدولة العثمانية عام ١٨٠١، ليصبح السؤال: هل كان يعقوب مجرد عميل للحملة الفرنسية، أم مناضلا مصريا يحلم باستقلال بلاده، أو حتى شخصية أسطورية لم يكن لها وجود أصلا ؟! بحنكة الرائد وليبرالية الباحث يتناول شفيق غربال كل هذه الأسئلة وغيرها، مدعما بحثه بالحجج والوثائق.

■

التحول الديمقراطى فى سوريا والخبرة الإسبانية

تحرير: جورج عيرانى ورضوان زيادة
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٩ ، ٢٠٠ صفحة



تبدو التجربة الإسبانية بعد فرانكو وكأنها تجربة تحتل حيزاً خاصاً فى تجارب التحول الديمقراطى فى العالم، لا سيما لجهة المقارنة بالوضع الاقتصادى والاجتماعى والسياسى الذى كانت عليه إسبانيا أيام فرانكو وما هى عليه إسبانيا اليوم.

كما أنها تعد من أنجح تجارب التحول الديمقراطى الأمن نحو الديمقراطية، مقارنة بتجارب تحول أخرى جرت فى أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية.

على ضوء هذه المقارنة نظمت فى إسبانيا حلقة نقاشية بعنوان «استكشاف استراتيجيات دعم الحركة الديمقراطية فى سوريا بالاستفادة من التجربة الإسبانية» فى مدينة طليطلة التاريخية الساحرة الروعة والجمال فى مايو ٢٠٠٦، وقد كانت ثرية وغنية للغاية، إذ جمعت عدداً من الباحثين والناشطين السوريين، وعدداً من السياسيين والمؤرخين والمثقفين الإسبان، الذين كان لهم دور محورى فى عملية التحول الديمقراطى فى إسبانيا، وذلك للنظر فى إمكانية استفادة سوريا من تجربة التحول الأمن الإسبانية.

■

الذرة الاجتماعية
لماذا يزداد الأثرياء ثراءً والفقراء فقراً؟!

مارك بوكانان
ترجمة: أحمد على بدوى
تقديم: حامد عمار
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية بالاشتراك مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ٢٠٠٩



الكتاب ليس كما يبدو عنوانه دراسة اقتصادية فقط، بل هو دراسة علمية فى سلوك الأفراد من البشر، وكيف تتشكل الكتلة البشرية من مجموعة من أفراد، وأى خلل فى سلوك الفرد ينتج عنه سلوك جماعى قد يؤدى إلى كارثة، كما أنه دراسة تحاول فهم الكوارث الطبيعية التى لا يستطيع البشر التنبؤ بها أو مواجهتها أو حتى فهمها، وكيف يقود القادة الكبار شعوبهم إلى كوارث اجتماعية بالحروب بقرار فردى، ذلك أن التحدى الرئيسى فى عصرنا هو فهم التنظيم الجماعى وقوانين التطور، فلم يحدث من قبل أن واجه الجنس البشرى مشاكل بخطورة تلك التى يواجهها اليوم، بدءاً من زيادة حرارة الكون، وما يلحق بالبيئة من تدهور ووصولاً إلى ما استؤنف مجدداً من مضاعفة لأعداد الأسلحة النووية وأنواعها.. وكلها مشاكل ناجمة على هذا النحو مباشرة عن تدبير أنشطتنا الاجتماعية الجماعية.

والكتاب فى كل فصوله العشرة، يواصل نظراته الفيزيائية إلى الذرة الإنسانية، كما يقول د. حامد عمار، مؤكداً أن رؤية الناس كذرات فى مادة اجتماعية يمكن أن تتيح تفسير كثير من الأنماط، التى تنبعث مرة تلو أخرى فى جميع المجتمعات الإنسانية، ويتمثل هذا فى نشوء الطبقات الاجتماعية والتدفق الجائر الذى يتسم به حلول الثروة فى أيدى القلة.

ويدعم الكتاب نظراته بكثير من التجارب الإنسانية والنماذج الرياضية فى تفسير السوى من الأحداث، وفى نقيضها من التحيزات والانطلاقات البربرية، كما حدث فى رواندا وفى يوغوسلافيا من عمليات القتل والذبح، ولا ننسى النموذج الأمريكى الذى ارتكب فظائع العنف والإذلال للأسرى فى سجون أبو غريب.

وفى هذا السياق يثير المؤلف قضيته الأحداث الكبرى فى التاريخ، وهل هى من صنع القادة أم من صنع الشعوب أم هى القوة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتحركاتها السكانية والتأثيرات الحضارية متسعة الآفاق، وقد يسكب القادة الوقود فوق اللهب، حين يتزعزع النظام القائم، فيقومون بحشد القوى الاجتماعية والإعلامية والتربوية حول أسطورة يظهر فيها السبب الحقيقى لتدهور الأوضاع إنما هى أقلية معينة أو فئة معينة، وبذلك ـ ينجحون فى التلاعب بالأنماط الاجتماعية.

هذا الكتاب لقى صدى مدوياً وقت صدوره فى أمريكا وقال عنه رئيس تحرير مجلة «وايرد»: وملف كتاب الذيل الطويل لا جدوى من كل محاولاتنا تفسير أفعالنا.. لأننا فى النهاية لا نفكر ولا نتصرف إلا كبشر، لكن هذا الكتاب نجح من خلال أمثلة ونماذج فى جعلنا نشعر بأن ثمة قوة كبيرة آخذة فى العمل لتقديم تفسير أفضل للعالم.. وقالت عنه الصحافة الأمريكية إن قراءة هذا الكتاب تتيح لنا فرصة رصد لمحة عن الثورة القادمة فى العلوم الإنسانية.

■

مسارات السلطة والمعارضة فى سوريا
نقد الرؤى والممارسات

حازم نهار
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٩ ، ٣٤٦ صفحة



خلال عقد التسعينيات برزت المنطقة العربية، ومن ضمنها سوريا، كاستثناء من الموجة العامة للتحول الديمقراطى التى سرت فى العالم منذ نهاية عقد الثمانينيات، وكانت التحولات الخاصة بالأوضاع السياسية والحقوقية الداخلية فى بلدان المنطقة سلبية فى عمومها.

خلال العقود الأربعة الماضية كبرت سوريا كموقع إقليمى وكدور سياسى خارجى، لكن بالنهج الذى سارت عليه الأمور، كنا فى المحصلة أمام خسارة حقيقية مبرمجة لإنسان هذا البلد ولمؤسسات المجتمع كافة.

هذا النهج بدأ مع إعلان حالة الطوارئ والأحكام العرفية منذ عام ١٩٦٣، وترسيخ التضييق على الأحزاب السياسية فى ميثاق «الجبهة الوطنية التقدمية»، واحتكار العمل السياسى من حزب البعث، الحزب القائد للدولة والمجتمع كما جاء فى الدستور الدائم لعام ١٩٧٣، وتبعية سائر أحزاب الجبهة له وإلغاء المفهوم الديمقراطى للعمل السياسى، ومن ثم تنامت تحت وطأة القوانين التسلطية المتتابعة فئات اجتماعية مستفيدة مباشرة منها، ومراكز قوى متعددة لها مصالح حقيقية فى بقاء التسلط واستمراره، وطال التهميش كل قطاعات المجتمع التى ارتدت إلى مستوى المتطلبات الدنيا، بعد أن كان «الشأن العام» خبزها وملحها.

■

لماذا انتقل الآخرون إلى الديمقراطية وتأخر العرب؟

دراسة مقارنة لدول عربية مع دول أخرى
مجموعة من الباحثين
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٣٠٤ صفحة



يحتوى هذا الكتاب الدراسات والتعقيبات والمداخلات التى شهدها اللقاء السنوى الثامن عشر لمشروع دراسات الديمقراطية فى البلدان العربية، وكان موضوعه هو «الانتقال إلى نظم حكم ديمقراطية: دراسة مقارنة لدول عربية مع دول أخرى».

ويطرح الكتاب سؤالاً محورياً هو: «لماذا انتقلت دول عدة فى جنوب وشرق أوروبا وأمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا وأفريقيا إلى الديمقراطية بينما تأخر العرب؟». وللإجابة عن هذا السؤال تصدى

عدد من الباحثين العرب لمهمتين أساسيتين، الأولى: معرفة الأسباب التى كانت وراء نجاح الكثير من حالات الانتقال من نظم حكم الفرد أو القلة إلى نظم الحكم الديمقراطى فى جنوب وشرق أوروبا وأمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا وإفريقيا، واستخلاص العبر والدروس من هذه التجارب، والثانية: دراسة العقبات التى تحول دون إتمام حالات انتقال مماثلة فى دول عربية شرعت فى عمليات انفتاح سياسى، غير أنها لم تشهد حالات انتقال حقيقية ومكتملة نحو الديمقراطية.

ولعل من أهم استنتاجات هذا الكتاب هو أن الانتقال إلى الديمقراطية فى البلدان العربية يتطلب توافقًا بين القوى السياسية التى تنشد التغيير السلمى على النظام الديمقراطى بأسسه ومبادئه وآلياته وضوابطه المتعارف عليها كنظام بديل لنظم حكم الفرد أو القلة. وهذا الاتفاق يتطلب بدوره، إيمان هذه القوى ذاتها بالديمقراطية، واعتدال خطابها السياسى، وانفتاحها على جميع القوى، ثم تكتلها من أجل توسيع قاعدة من يرون فى الديمقراطية مصلحة لهم، والضغط على السلطة بهدف خلخلة تماسكها، وإضعاف جبهة الداعمين لها، ودفعها إلى القبول بالانتقال فعلاً إلى الديمقراطية.

أوراق فى التاريخ والحضارة
أوراق فى علم التأريخ

عبدالعزيز الدورى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٣٢٠ صفحة



يتكون هذا الكتاب من أربعة عشر بحثًا، تنتظم فى باب البحث فى التاريخ من حيث هو علم ومفهوم، ومنهج، وتقنيات، ففى إطار تدريس التاريخ العربى يسجل المؤلف ملاحظات أساسية، توجيهية، من أبرزها: اعتبار تاريخ الأمة متصل الحلقات، وليس تاريخ أُسر تعاقبت على الحكم، وإنماء الروح العربية وخلق الثقة فى نفوس الطلاب، وبث الروح العلمية المتجسدة فى صحة المعلومات، واعتماد التحليل والنقد فى فهم العقد التاريخية.

وفى سياق استجلاء مفهوم التاريخ جاء بحث المؤلف: «نظرة إلى التاريخ» الذى قدم فيه إطارًا عامًا لآراء المذاهب السياسية والاجتماعية المختلفة وموقفها من تفسير التاريخ، ثم جاء بحثه «فلسفة التاريخ» الذى تضمن عرضًا تاريخيًا لأشهر مدارس الفلسفة الحديثة فى النظر إلى التاريخ، جمع فيه بين جهود الفلاسفة وجهود المؤرخين فى بناء فلسفة التاريخ.

وفى سعيه إلى بيان خصوصية التاريخ العربى، فى مضامينه ومصادره، جاءت بحوثه الثلاثة: «كتابة التاريخ العربى»، و«البحث فى التاريخ العربى» و«فترات التاريخ العربى: نظرة شاملة»، حيث قدم فى هذا الأخير نظرية متكاملة لتحقيب التاريخ العربى، وتقسيم فتراته المختلفة، استناداً إلى طبيعة التطور فى التاريخ العربى واتجاهاته.

وفى سياق عناية المؤلف بمناهج المؤرخين جاءت بحوثه «دراسة فى سيرة النبى (صلى الله عليه وسلم) ومؤلفها ابن إسحق، و«الجغرافيون العرب وروسيا» و«كتب الأنساب وتاريخ الجزيرة» و«ابن خلدون والعرب» و«كتابة التاريخ عند العرب: الفكرة والمنهج» وفيه قدم المؤلف إطاراً شمولياً لكتابة التاريخ عند العرب، تناول فيه فكرة الكتابة التاريخية العربية، وأهم مناهجها، منذ عصر نهضتها فى العصر العباسى إلى العصر الحديث، وأهم المشكلات التى واجهتها.

الحداثة الفلسفية
نصوص مختارة

إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبدالسلام بنعبد العالى

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٣٢٠ صفحة



إن التطور الحضارى والسياق الثقافى الذى تواجهه الأمة العربية اليوم، كان الحافز الرئيسى الذى دفع كلا من الدكتور محمد سبيلا والدكتور عبدالسلام بنعبد العالى إلى تجميع نصوص من الفكر الغربى الحديث والمعاصر ونشرها فى كتاب يكون بمثابة مرجع قيم لكل طالب وقارئ يرغب فى التعرف على الفلسفة الغربية.

إن هذا الكتاب هو مجموعة من النصوص المقدمة والمترجمة بدقة عالية، حول الفلسفة وتاريخها وحول أهم القضايا التى عرفها ذلك التاريخ مثل الشعور واللاشعور والأيديولوجيا والتشيؤ والعلم واللغة والبنية والبنيوية والذات الإنسانية... إلخ.

فهذا الكتاب هو بمثابة نواة تبث فينا الروح الفلسفية من جهة وروح النقد والتساؤل من جهة ثانية، وتدفعنا إلى تملك الفكر الغربى، وفحصه ونقده وتقييمه من خلال تلك النصوص التى ستصبح مستقبلاً أدوات تدريس عملية وعلمية لكل طالب علم.

الشوكولاتة

تأليف: سيمن ساتره

ترجمة: نبيل شلبى

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩ ، ١٧٨ صفحة



يتتبع هذا الكتاب الذى تُرجم إلى عدة لغات رحلة الشوكولاتة، انطلاقًا من حقول الكاكاو فى غرب إفريقيا حتى وصولها إلى المستهلكين فى مئات الأشكال والماركات، ليروى قصص البشر الذين يقفون وراء كل مرحلة من مراحل هذا الطريق. وقد تنقل المؤلف بين كل محطات هذه الصناعة، واطلع على العديد من الأبحاث والتقارير السرية والعلنية ليقدم كتابه المبهر، الذى يلقى الضوء على كواليس عالم الشوكولاتة: من عمالة الأطفال التى تشبه سوق الرقيق، واقتصاد السلع الأساسية، ومضاربات البورصة، وتركيز السلطة فى أيدى الشركات العالمية التى تمثل نوعًا من المافيا.

التأويل سبيلاً إلى الترجمة

ماريان لودورير ودانيكا سيليسكوفيتش

ترجمة: فايزة القاسم

بيروت: مركز دراسة الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٢٢٨ صفحة



«التأويل سبيلاً إلى الترجمة» يعنى فهم ما وراء الألفاظ ثم التعبير عن معنى منعتق من المادة اللغوية.

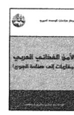
تستند المقالات المجمعة فى هذا الكتاب إلى مبدأ رئيسى يقضى بأن عملية الترجمة تظل هى نفسها، أيًا كانت اللغات أو نوع النصوص، فالانتقال من نص ما إلى فكر منعتق من اللفظ ومنه إلى نص آخر هو عملية مستقلة فى حد ذاتها عن اللغات، وهى لا تختلف عن عملية القول أو فهم الكلام فى فعل التواصل الأحادى اللغة.

بيد أن ملاحظة هذه الظاهرة تكون أسهل عبر إعادة التعبير عن المقصد فى لغة أخرى مما هى عليه فى اللغة نفسها، وذلك عند تلقى سلسلة الكلمات الشكلية المترسخة فى النص المكتوب.

الأمن الغذائى العربى
مقاربات إلى صناعة الجوع

سالم توفيق النجفى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٢٧٠ صفحة



يرى المؤلف أن أوضاع الأمن الغذائى العربى، ورثت فى مطلع الألفية الثالثة إشكاليات معقدة متأتية من الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والبيئية، تراكمت خلال سنوات القرن العشرين، ولا سيما فى النصف الثانى منه، قيدت فاعلية البرامج الساعية إلى النمو والتنمية المؤدية إلى تدنية أعباء انعدام الأمن الغذائى، وأبطأت من سبل معالجة النقص والعجز النسبى فى الغذاء، سواء على صعيد الفرد أو المجتمع، وتتقدم هذه الموروثات نمط السياسات الاقتصادية الزراعية فى البلدان العربية وتباينها من حيث أسس نشأتها وتكوينها المعاصر.

لذا، يتطلب من السياسات الاقتصادية العربية اعتماد برامج وقائية للأمن الغذائى فى مواجهة التغيرات المحتملة من جراء تحرير التجارة الزراعية. ويعتقد المؤلف أنه يمكن حصر فاعلية هذه السياسات فى مستويين؛ الأول: تفعيل السياسات الاقتصادية القطرية، ولا سيما فيما يخص دور الدولة فى المساهمة بهذا المجال، والثانى: اعتماد سياسات قومية تسعى إلى إيجاد تكتلات اقتصادية زراعية على الصعيد الإقليمى.

ويولى المؤلف الدراسات المستقبلية فى مجال الغذاء أهمية بالغة بصفتها جزءاً من مستقبل الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية لأفراد المجتمع العربى، ويفترض أن تعتمد عليها استراتيجية الأمن الغذائى فى البلدان العربية، وترتبط بها دراسات استشراف ممكنات ووسائل تنظيم الأوضاع الأمنية للغذاء، سواء من حيث السياسات أو البنى المؤسسية، مع الأخذ بنظر الاعتبار الممكنات الداخلية والاعتبارات الخارجية، لتؤدى مجتمعة بيئة تستهدف خفض النقص من الغذاء وتدنية الفقر والقضاء على الجوع، ولاسيما فى البلدان العربية الأقل نمواً.

أبناء رفاعة

تأليف: بهاء طاهر

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩ ، ٢٠٠ صفحة



ربما يكون أدقّ وصف لهذا الكتاب هو صعود الدولة المدنية وانحسارها. فالجزء الأول منه مكرس لبيان خطى التقدم التدريجى لخروج مجتمعنا من ظلام العصور الوسطى إلى أنوار الحداثة والحرية. وحاول الكتاب أن يبين الأدوار التى لعبها المثقفون لإحداث هذه النقلة التاريخية على امتداد قرن ونصف القرن من الزمان تقريباً. أما الفصول الأخيرة من الكتاب فتعرض خطى التراجع التدريجى والمنظم لمشروع النهضة ذاك، بغية العودة من جديد إلى المنظومة الفكرية للدولة العثمانية التى يتغزل بها الآن الكثيرون على غير علم، رغم أنها قد أشفت بمصر على الهلاك كما يبيّن هذا الكتاب.

■

مدارات الحداثة

محمد سبيلا

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٢٦٤ صفحة



يضم هذا الكتاب مقالات تعكس اهتمامات آنية كتبت بمناسبات وظروف متباينة، كما أنها تعالج موضوعات ومفاهيم متنوعة، منها ما يتعلق بموضوعات فلسفية تاريخية، كفلسفة اللغة والبنيوية والفرويدية، ومنها ما يتعلق بقضايا الذات والحداثة والأيديولوجيا.

فالفلسفة ليست مجرد تأملات فى المفاهيم الكبرى، أو سباحة فى سماء المفاهيم المجردة، إنها انفتاح على المواقع لفهم واستيعاب مكوناته واتجاهاته.

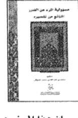
فهذا الكتاب يطرح مجموعة من معطيات الفكر الغربى والفكر المعاصر فى محاولة للاقتراب من الواقع الجديد بمنظور شمولى.

■

مسئولية المرء عن الضرر الناتج عن تقصيره

محمد بن عبدالله بن محمد المرزوقى

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ . ٥٧٤ صفحة



إن هذا الموضوع، وإن بدا جديداً فى اسمه وعنوانه وأسلوب عرضه، إلا أن أصله كان محل عناية الفقهاء، فعرضوا له بالبحث فى أبواب متفرقة من كتب الفقه وأصوله.. ولكن فى عصورهم، وبما أن الحياة كانت تتسم بالبساطة، رأينا تناولهم للموضوع جاء بشكل محدود ومقتضب، ذلك أن الأضرار ما كانت لتكثر فى حياة بسيطة، إذ إن التصرفات فى أغلبها كانت خالية من التعقيد.

أما فى الوقت الحاضر، ومع تكاثر الناس من جهة، وتكاثر وسائل النقل والمصانع والأدوات الميكانيكية من جهة أخرى، ازداد الموضوع أهمية، حيث صاحب استخدام هذه الوسائل والتقنيات حوادث وأضرار غير مقصودة وناتجة من تقصير المرء. فهذا الكتاب يعرض القواعد العامة التى بحثها الفقه الإسلامى حول مسئولية المرء فى منع حصول الضرر، مع التقيد بمقتضيات العدالة، كما يجمع كل ما تفرق فى كتب الفقه ويضعه تحت عنوان واحد، لتصبح نظرية متكاملة قائمة على تأصيل فقهى.

■

أوراق فى التاريخ والحضارة أوراق فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى

عبدالعزيز الدورى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٣٦٦ صفحة



فى هذا الكتاب أربعة عشر بحثًا مختاراً، تشكل فى مجملها إطاراً وأساساً مميزاً لدراسات التاريخ الاقتصادى والاجتماعى.

ففى بحثه «نشوء الأصناف والحرَف فى الإسلام» تناول المؤلف بدء تنظيم أهل الصنائع لأنفسهم، وأهمية هذا الأمر فى الكشف عن هوية الأمة. وجاء بحثه عن «نظام الضرائب فى خراسان فى صدر الإسلام» ليؤكد أن تنظيم الضرائب فى خراسان تضمن مبدأيْ الجزية المشتركة، بالإضافة إلى الضرائب الأخرى. ووصل فى بحثه «نظام الضرائب فى صدر الإسلام..» إلى تثبيت أسس النظام المالى فى بلدان الخلافة الإسلامية، وأتبع ذلك بثلاثة بحوث تلخص دراساته وآراءه عن التنظيمات المالية (الضرائب) فى بعض الأقاليم الإسلامية، فكانت البحوث على التوالى: «التنظيمات المالية لعمر بن الخطاب..»، و«تنظيمات عمر بن الخطاب/ الضرائب فى بلاد الشام»، و«الضرائب فى السواد فى العصر الأموى». ولقى موضوع الأرض عناية المؤلف، وما يتصل بها من تدابير عملية تناسب وضع الأمة، فكان بحثه عن «نشأة الإقطاع فى المجتمعات الإسلامية»، منطلقاً لتوضيح مفهوم الإقطاع، وربطه بملكية الأرض، والقى بحثه «العرب والأرض فى بلاد الشام..» الضوء على طبيعة المجتمع العربى فى الشام، ولاسيما الخطوط المميزة فى فترة التكوين. وحدد بحثه «فى التنظيم الاقتصادى فى صدر الإسلام» الخطوط العريضة المتصلة بالأرض فى إطارها التاريخى.

وفى بحثيه: «دور الوقف فى التنمية» و«مستقبل الوقف فى الوطن العربى» إحياء لفكرة الوقف وتنشيطها رسميًا وشعبيًا، وما لذلك من أثر حيوى فى عملية التنمية، مع اقتراحات لتوسيع أفق الوقف وتطويره إداريًا وفقهيًا. وقدم بحثاه «المؤسسات العامة فى المدينة الإسلامية..» و«المدينة الإسلامية» بعض الخطوط المشتركة عن نشاط المدينة الإسلامية وتخطيطها، إلى جانب بروز دور العامة فيها. وجاء بحثه (فى تقديم كتاب) «التاريخ الاقتصادى للهلال الخصيب» تعبيراً عن نظرته الشمولية الهادفة إلى دراسة الاتجاهات وتحليل التيارات، والاهتمام بتوضيح الاستمرارية والترابط فى التاريخ الاقتصادى.

■

مواسم الأمطار الغرثى

محمد لقاح

المغرب: منشورات مقاربات، ٢٠٠٩، ٣٩ صفحة



حرفٌ أخضر
انسلَ من الرؤيا
وأثيرُ مكتوم
داعبَ أغصانَ الوجدانِ
وعطر مفعوم لا ينكر..
يدُكَ اليمنى تمتد إلى قلم
أبقيتَهُ فى جهة يسرى
قد نالهُ منكَ النسيان،
وعلى الوَرَقَة
حاولَ قلبُ فَنَانٍ
تسكنُهُ أحزانٌ أن يرقى بالأشياء

تصويب

فى عدد يونيو الماضى وفى إطار مقال «الفن الفلسطينى بين الحداثة والمعاصرة» للباحثة الفلسطينية عادلة العايدى هنية، نسب هذا العمل الفنى للفنانة رولا حلوانى فى حين أنه من أعمال الفنانة رنا بشارة التى عرفت باستخدامها الخامات المحلية كالصبار، والخبز، والتوابل، فى تركيبات فنية دالة. رنا التى كانت قد حصلت على الماجستير فى الفنون الحديثة من جامعة نيويورك اختارت أخيرا أن تعيش فى القدس الحزينة لتشهد بنفسها تجربة التهويد والاستلاب. رنا التى شاركت فى العديد من المعارض الفنية فى مدن مختلفة كانت قد واجهت حملة شرسة من الجالية اليهودية فى فرنسا قبل عامين عندما أقامت معرضا ضم ٥٩ لوحة زجاجية بعدد سنين النكبة، تميزت بالرسم على ألواح الزجاج بالشيكولاته المرة تجسيدا للون الدم الجاف تعبيرا عن جرح شعبها التاريخى الذى مازال مفتوحا.

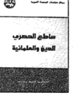


وبالحُزن الجاثم.
ناسُ المقهى
ظنّوك تُحبّرُ شعرَ غرامْ
فالشعرُ لديهم ليس سوى عشقٍ
يتغذى بالأوهام.
من ديوان للشاعر المغربى محمد لقاح

■

ساطع الحصرى الدين والعلمانية

أحمد ماضى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ١٢٧ صفحة



يسلط الباحث الضوء على مسألتين اثنتين، من مسائل كثيرة، تناولها أبو خلدون ساطع الحصرى، فى كتاباته الغنية بالمواقف والنظريات، وعلى رأسها التأسيس للفكر القومى العربى. أما المسألتان فهما: الدين، والعلمانية.

فالحصرى، إذ يميز بين الدين القومى والدين الأممى، يرى فى الثانى العالمية والانفتاح، والميل إلى إيجاد رابطة أعم من روابط اللغة والتاريخ، كما يميل أتباع الدين الأممى كثيراً إلى معارضة القوميات، وفى هذا السياق يذكر المسيحية والإسلام. ويعتقد الحصرى أن الأديان الأممية والعالمية لم تستطع أن توحّد القوميات، حتى عندما بلغت الذروة فى سلطتها. ويذهب إلى عقد الصلة القوية بين الدين واللغة، وعلى هذا فاللغة العربية انتشرت كثيراً بواسطة الإسلام. لكن يبقى تأثير الدين فى اللغة متغيراً. جملة من التساؤلات التى تثير نقاشاً فى هذا الخصوص، ولعل أبرزها ما كان يؤكده الحصرى القومى أن الحضارة العربية كانت قومية، ولا دينية، فى آن معاً.

أما العلمانية فى نهجه وكتاباته ومواقفه، فقد كانت صريحة إلى أبعد الحدود، وهى برأى الباحث نابعة من الظروف التى كانت سائدة فى الدولة العثمانية أولاً، والتى تعززت وتطورت بعد رحيله إلى الوطن العربى. لذا، يتفق الحصرى فى علمانيته مع طه حسين، رغم انتقاداته له، فهو يتفق معه بشأن الفصل بين السياسة والدين، فـ «السياسة شىء والدين شىء آخر»، ولا يمكن إقامة السياسة على الدين، بصورة من الصور. وينسجم مع هذا ما ذهب إليه الحصرى من فصل مطلق بين العلم والدين، مؤكداً أن هذا الفصل لا يفضى بصورة حتمية إلى اللادينية أو إنكار الدين أو التنصل منه، فلكل ميدانه ودوره. وبالنظر إلى نشدانه العلمانية فقد أكد أن الحضارة العربية لم تكن دينية، بل مدنية (علمانية). فهل هذا دعوة صريحة للعرب المسيحيين إلى الانخراط فى العمل من أجل الإسهام فى حضارة المستقبل، كما أسهموا فى قيام الحضارة قبل الإسلام، وبعده؟

■

تاريخ علم الفلك القديم والكلاسيكى

جان بيار فردى
ترجمة: د. ريما بركة
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٢٢٢ صفحة



يرسم هذا الكتاب المراحل الأساسية لتطور علم الفلك الغربى منذ عصر اليونان (مع ما تأثروا به من الحضارات القديمة) حتى عصر تفوق الميكانيك السماوى فى العصور الكلاسيكية. وهو يعرض لوحة عامة لتاريخ هذا العلم بكل قواعده الأساسية التى يرتكز عليها علم الفلك الحديث، كما يركز على الاكتشافات المتوالية التى شهدها علم الفلك فى تاريخه الطويل ويقدم - بالإضافة إلى الأحداث العالمية المتعلقة به - أبرز العلماء الذين طوروا دراسة الأجرام السماوية وأحدثوا انقلابات عظيمة فى رصد السماء وتحديد بنياتها وقوانينها. ولا ينسى مؤلف هذا الكتاب أن يربط تطور هذا العلم بعلوم الرياضيات التى كانت فى أساس عدد كبير من الاكتشافات الفلكية.

■

ما بعد النفط

كينيث س. ديفيس
ترجمة: صباح صدّيق الدملوجى
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٣٣٦ صفحة



هل بدأ ينتهى عصر النفط؟

يبدو أن هذا شىء محتوم، وقد لا يكون الاختلاف إلا على توقيته.

وإذا ما حدث ذلك فما هو البديل؟ هل ستتوقف عجلة الصناعة والنقل اللذين تحركهما الطاقة النفطية؟ أسئلة تؤرق صنّاع القرار الاقتصادى والصناعى والسياسى فى مختلف أقطار العالم، وتؤثر فى حياة كل فرد سواء أكان فى

مــقــتــبــس.. جــوتــه والــعــرب

الأعمال الكاملة

إبراهيم العجلونى
عمان - الأردن: دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩، ٣٧٤ صفحة

فسيفساء من الأردن

كان الشاعر الألمانى (جوته) يرى أن الله قد منح العربى أربعة أشياء لا تقدر بثمن وهى:

- العمامة، التى هى خير من تيجان الملوك والأباطرة.
- السيف، الذى يغنى عن الأسوار الشاهقة والحصون المنيعة.
- الخيمة، التى هى رمز الحرية والإباء، وعنوان الحياة فى القفر الجديب.
- الشعر، الذى تطرب له أسماع الكرام وتبتهج له نفوسهم.

وقد ظهر أثر الثقافة الإسلامية فى أدب (جوته) على نحو بارز، وفى ديوانه المسمى «الديوان الشرقى للشاعر الغربى» شواهد كثيرة على ذلك، ولعل مقطوعته الشعرية التى عنوانها «الحرية» أن تكون أكثر صلة بالأسلوب القرآنى واستهداء به.

«دعونى أنطلق على صهوة جوادى السابح وابقوا أنتم فى عقر مدركم وتحت خيامكم. إنى لأركض جذلان فى الفضاء الشاسع ليس فوق عمامتى غير الكواكب.. وما جعلت الكواكب هدى لكم فى البر والبحر إلا لتكون السماء أبد الدهر قبلة أنظاركم أجمعين».

وإذا كان الشرق قد اتخذ لدى الشاعر الألمانى، فى القرن الثامن عشر، هذا الطابع الروحى القريب من الرومانسية المنبعثة على أشدها آنذاك. فإنه - أى الشرق - قد اكتسب فى أدب شاعر ألمانى معاصر بعداً فلسفياً ذا حس تاريخى رهيف. و«ديتر جلادة» شاعر ألمانى مكث فى بلدنا الأردن ثمانى سنوات طوالاً، لم يترك فيها معلماً تاريخياً أو مشهداً حضارياً، إلا كانت له عنده وقفات تأمل واعتبار، وقد أتى هذا كله فى مجموعة شعرية حملت اسم «فسيفساء: خواطر من الأردن».

ولعلى لا أبالغ إذا ما قلت بأن هذه الربوع الأردنية التى نمر بها وقد انطفأت فى أعين بعضنا الدهشة، ومات فيها ألق الحب، قد أوحت إلى هذا الشاعر الغربى ما لم توحه إلى أكثر شعرائنا، وأنها قد انعكست على نفسه شعراً صافياً يتميز بالقدرة على اقتناص روح الأشياء، وبث الحياة فى الحجر الأصم!

وكم كان جميلاً أن نسمع مثل هذا الشعر من شاعر أردنى، يلتفت إلى جمال بلاده، ويستنطق ترابها وحجارتها، ويقرأ وجوه أطفالها ورجالها ونسائها، ويتقن التحديق فى وجه تاريخها الجليل.

نحن على أى حال مدعوون إلى الدخول فى عالم «ديتر جلاده»، وهو عالم نألفه ونحبه، ونحمد للشاعر أن قد أناره بالكلمة المضيئة والروح النبيلة، متسائلين عما إذا كان الجمال الساكن فى قلب هذه الأرض العربية، سيبرز على أسلات الأقلام، أو أن بلابل الدوح ستظل خرساء فى حين تردّد الأجواء أصداء تغريد الطيور من كل جنس.

حقاً.. إن الألفة لقاتلة، وحبذا لو نزعنا رداءها ونحن نتملى أوطاننا.

إبراهيم العجلونى

ناطحات سحاب مانهاتن أم فى واحات الصحراء الكبرى أم فى أدغال الكونغو. يركز البروفيسور ديفيس، وهو خبير جيولوجى نفطى، على المصادر الأخرى للطاقة التى يمكن أن توفر البديل، وذلك على الرغم من رأيه فى أن البحث عن الجدوى الفنية والاقتصادية لاستغلال هذه المصادر، كان يجب أن يبدأ قبل عشر سنوات ضاعت من دون إنجاز شىء يذكر، ولذا فإن السنوات المقبلة ستكون حرجة بحسب توقعاته.

الجهــــــاد

تأليف: جمال البنا

القاهـــــرة: دار الشـــــروق ٢٠٠٩.

١٢٦ صفحــة



الكتاب الذى بين يديك يختلف عن جميع الكتابات والتصورات عن «الجهاد»؛ فالجهاد - كما ترى هذه الدراسة - كان فى الماضى والحاضر من أكبر الموضوعات التى أسىء فهمها، وأن هذا أفسح المجال فى العصر الحديث لأن يُظلَم من نَقَدة الشريعة، ومن سَدَنة الشريعة، وأن يُظلَم فى الداخل ويُظلَم فى الخارج، وأن يساء تناوله والتعامل معه المستشرقون والجماعات الإسلامية على السواء؛ وإن استهدف الأولون الكيد للإسلام، واستهدف الآخرون الانتصار للإسلام.

وجاء هذا الخطأ فى الفهم نتيجة للخلط بين «الجهاد» و«القتال» واعتبارهما موضوعًا واحدًا، بل وتغليب القتال على الجهاد ومعالجة الجهاد باعتباره «قتالا»..

من هنا ينطلق هذا الكتاب الذى يقوم على التفريق الدقيق بين هذين المصطلحين فى القرآن والسنة والتاريخ الإسلامى.

دوريــات

رواق عربى

مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، عدد ٥١ ، ٢٠٠٩



تصدرت قسم الدراسات هذا العدد دراسة حول مسيرة المفكر والفيلسوف زكى نجيب محمود الذى أثار جدلا واسعا فى حياته وبعد مماته وصل إلى اتهامه بالكفر والإلحاد، متبنى لمدرسة فكرية تتعلق بالمنطق الوضعى ذى البراهين و اشتد الجدل حول موقفه مما يسمى بالميتافيزيقا أو الدين ودورها الذى رآه محايدا فى سبيل النهضة العلمية والفكرية.

أما د.محمد السيد سعيد فيكتب هذا العدد حول تحولات الثقافة العربية من منظور حقوق الإنسان حيث يشير لاشتداد النضال من أجل التحول الديمقراطى فى الوطن العربى ولقد تم هذا بالتوازى مع تحولات ثقافية تتعلق بانحصار الظاهرة الإسلامية السياسية فى التيار السياسى بعيدا عن الثقافة بينما يتخلل التيارين القومى واليسارى اتجاه جديد نحو «اللبرلة» والمدخل الديمقراطى للإصلاح، هذا بالإضافة إلى أن ما يشهده الواقع العربى من أحداث تتعلق بالعانة فى العلاقة مع الآخر وأيضا مشكلات تتعلق بقضايا المرأة والأقليات والمهمشين بما أنذر بتحولات فى التعاطى مع هذه القضايا وفى الثقافة العربية بشكل عام، هذا بينما يرد عليه فى نفس الموضوع مجموعة من الباحثين.

ملف العدد هو رصد وتحليل للوضع الحقوقى فى عدة دول عربية منها مصر ولبنان وتونس والسودان كل هذا تحت عنوان «تحولات المشهد الحقوقى فى العالم العربى»، يحتوى العدد أيضا على مراجعة بشأن تعليم الأديان والمعتقدات فى المدارس العامة بالإضافة إلى مجموعة وثائق تخص موقف مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان من طلب المحكمة الجنائية الدولية للقبض على رئيس جمهورية السودان.

شؤون عربية

القاهرة، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، صيف ٢٠٠٩



يتضمن الملف السياسى لهذا العدد موضوعات متنوعة، تحت عنوان «متاهة الخلافات العربية ومآل المصير العربى» يناقش الكاتب كيف أن القادة العرب قد اتفقوا على التضامن وتسوية الخلافات وتعزيز العلاقات وذلك فى أكثر من قمة عربية، مع ذلك فإن الأمور ليست هادئة والخلافات العربية العربية موجودة بحدة، الأمر الذى يتم فى إطار حالة من التشرذم العربى الداخلى والإقليمى الناتجة عن ضغوط خارجية وارتكاز أغلب النظم العربية على السلطة الفردية مع غياب البعد القومى، ولأن هذا الوضع يهدد الاستقرار والأمان فإنه يحتاج إلى تغيير للأنظمة الداخلية، وفى الملف أيضا تذكير بمبادرة السلام العربية المنطلقة من بيروت ٢٠٠٢ والتى وضعت إطارًا للتسوية فى الصراع العربى الإسرائيلى ولقد أعاد أوباما التأكيد على أهمية هذه المبادرة أثناء زيارته للأردن ويرى الكاتب فى العمل بها فرصة لتغيير سياسة أمريكا الشرق أوسطية وجعلها أكثر توازنا ، هذا إلى جانب موضوعات حول مراكز القوى الجديدة بالشرق الأوسط ودور كل من تركيا وإيران فى السياسة الأمريكية الجديدة.

أما الملف الاجتماعى فيناقش بالأساس الفقر وإشكالية التنمية والديمقراطية فى ظل العولمة فبعد عرضه لمظاهر الفقر الناتجة عن العولمة فإنه أيضا وفى نفس الإطار يتساءل عن أولوية الدول الفقيرة فى أى من التنمية أم الديمقراطية التى تفرضها العولمة؟؟؟ فى الملف أيضا رؤية لكيفية تفعيل منظمات المجتمع المدنى لمكافحة الفساد وتحقيق التنمية المستدامة فى البلدان العربية.

وفى العدد أيضا ملف كامل حول القرصنة البحرية وظهورها وتطورها مع التركيز على وجودها فى البحر الأحمر وتأثير عمليات القرصنة الصومالية على أمن البحر الأحمر والأمن القومى العربى، أما فى الملف الخاص يتضمن العدد موضوعات متميزة حول الدبلوماسية فى تعريفها وعلاقتها بالسياسة الخارجية للدول بالإضافة إلى الترجمة وسؤال التكامل الثقافى العربى، وأخيرا نقل لكتابات إسرائيلية توضح المفهوم الإسرائيلى لكلمة «المحارب» وكلمة «الإرهابى» وكلمة «المدنى» وذلك تحت عنوان «إسرائيل: المدنيون والمحاربون».

العدد أيضا يتضمن دراستين الأولى حول تداعيات الأزمة المالية العالمية على الدول العربية والثانية حول طبيعة القومية الكردية. هل هى انفصالية أم لا؟ مع إدراج حالة كردستان العراق كنموذج، وبعيدا عن السياسة والاقتصاد يعرض العدد لحياة عميد ملحنى لبنان «زكى ناصيف».

شئون عربية معاصرة باللغة الإنجليزية

Contemporary Arab Affairs

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، أبريل - يونيو ٢٠٠٩



يتضمن هذا العدد مقالات قيمة وغنية علميًا وثقافيًا فى مجالات متنوعة منها:

- صراع على الشرعية: الإخوان المسلمون ومبارك ١٩٨٢ - ٢٠٠٩ للدكتور هشام العوضى.
- خيارات إسرائيل التاريخية للدكتور عزمى بشارة.
- الديمقراطية النيابية والتمثيل النسائى فى الدول العربية للدكتورة هنا صوفى.
- التحديات التى تواجه الاقتصاد الريعى والعالمى للباحث صبرى زاير السعدى.
- هذا بالإضافة إلى مقالات أخرى وملفات إحصائية وببليوغرافيا حصرية ومراجعات لكتب مهمة.

هذه المجلة هى نافذة واسعة لكل المختصين والمهتمين بالشئون العربية المعاصرة والراهنة وأبعادها الإقليمية والدولية.

كـــــــتب فرنســـــــية

Entretiens du XXIe siècle: Politiquement incorrects

محاورات القرن الحادى والعشرين

Daniel BENSAID et autres.

Textuel: 383 pp, 2008



يخشى الكتاب أنه بالوقوع بين آليات السوق وآليات الهيمنة، تنتهى السياسة بأن تختفى تماما من العالم. ذلك التوجس يبدو اليوم مؤكدا بالضعف المعلن للسياسات فى مواجهة العنف الاقتصادى: غياب السياسة، العودة لقوة الفلسفة وللأخلاقيات وللدين. حركات المقاومة للآثار الاجتماعية والبيئية للعولمة الليبرالية تبدو أنها تضع صفاء الحركات الاجتماعية فى مواجهة شوائب الممارسات السياسية. تحول الالتزامات والممارسات الثقافية وتطور الحوار بين الفلسفة والسياسة والإنتاج الاجتماعى والنقدى للمعرفة والتجذر الجديد الاجتماعى والسياسى: فمنذ نشأتها فى عام ٢٠٠١ صحيفة ضد التيار تهتم بتلك المسائل. بمحاورات كبرى مع باحثين بالعلوم الاجتماعية وفلاسفة وعلماء ونشطاء الحركات الاجتماعية تبغى إخضاع ممارساتهم للمسألة السياسية. وبتجميع تلك المحاورات يتم وضع اليد على العديد من الإشكاليات المتعلقة بالفعل السياسى على مستوى مختلف مجالات المعرفة. بهذا الشكل، ذلك العمل التاريخى الهام لا يدعى توصله لتحليلات ولا استنتاجات ختامية لكن يفترض تقديم مادة للتفكير على أعتاب قرن جديد مقلق وغير يقينى.

▪

Quelle démocratie voulons-nous?: Pièces pour un débat

أى ديموقراطية نريد؟

Alain Caille, Christophe Aguiton et Roger Sue

Editions La Découverte: 142pp, 2005



قوة وثراء الحركة المناهضة للعولمة يكمنان فى تنوعها. فذلك التنوع هو الذى يسمح للمناضلين بطرح العديد من القضايا والمسارات وبالتواجد فى العديد من المعارك المشتركة. ذلك التنوع مع ذلك قد يخاطر بعدم تجذر تلك الحركة إذا لم يتم تطوير القضايا المشتركة التى تؤسس المشاعر السياسية المشتركة. بالمقابلة ما هى القيم الأخرى التى يمكن تقاسمها على المستوى العالمى قيم ديموقراطية؟ لكن أى ديموقراطية نريدها؟ ديموقراطية الشعوب أم الأمم أم الأفراد أم الأخلاق والثقافات؟ ديموقراطية تشاركية مباشرة للرأى أم مزيج من كل هذا؟ تلك التساؤلات تطرح فى قلب حركات اليسار الجديد فى نفس الوقت الذى يتم فيه غزو الشرق الأوسط باسم الديموقراطية. فهل ينقلب السحر على الساحر ونرى على الساحة ديموقراطية بديلة على كوكب جديد. هذا هو الموضوع الذى يتناوله هذا العمل الهام الديموقراطية التى نريدها لكريستوف أجيتون المناضل النقابى.

▪

La mondialisation : Emergences et fragmentations

العولمة: الظهور والتفتت

Pierre Noel Giraud (ed)

Editions Sciences Humaines: 157 pp, 2008



مع تصاعد حدة الأزمة المالية والإنذار المتصاعد المتعلق بالتغير المناخى والإفقار المتواصل فى العديد من البلدان، تندرج من الآن فصاعدا المناقشات حول العولمة تحت قائمة المسائل الأكثر جذرية بصدد مستقبل العالم بل والرأسمالية. والليبرالية الاقتصادية والسياسية لا تبدو أنها تمثل الحل الأمثل لمواجهة تلك الإشكاليات. والعولمة الحالية لها سوابق، بيد أنها تبدو متفردة. والتداخل بين الأجنحة الثلاث للعولمة -عولمة الشركات والعولمة المالية والرقمية- يبدو أنه يعبر عن تعميم للتنافسات: طرح المنافسة بين الشركات الشاملة فى مجمل العالم والتنافس بين الشركات الكبرى من كبرى المستثمرين المؤسسيين للمالية الشاملة للسوق؛ تلك العمليات تعمق حالات عدم المساواة وتقلل بشكل مشهود حالات أخرى. فهى تحبذ الظهور السريع للكيانات الجديدة وتؤدى إلى التشظى. العولمة لا توحد العالم فهى تفتته وفى تلك الشروط. أى مستقبل ننظر؟ هل الشركات الكبرى هى السيد الجديد للعالم؟ هل ثمة دور ناظم يبقى للدولة أن تلعبه؟ هل يتم سحق الطبقات الوسطى بالبلدان الغنية؟ هل بالإمكان تغيير الرأسمالية؟ أى مصير لمناطق العالم التى تنهار الآن تحت ظل الفقر والحروب؟ دون تنازلات ولا أفكار مسبقة، يحاول بيير نوئيل جيرو الرد على تلك التساؤلات بشكل واضح للقارئ المتوسط. والكاتب هو أستاذ الاقتصاد بجامعة مين باريس وقد نشر له كتاب اللامساواة بالعالم وتجارة التراخيص.

▪

La nouvelle raison du monde : Essai sur la société néolibérale

المنطق الجديد للعالم: دراسة حول المجتمع النيوليبرالى

Pierre Dardot et Christian Laval

Editions La Découverte: 497 pp 2009



بعد الأزمة المالية لعامى ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ أصبح من المعتاد التحدث عن سوق يدار بواسطة ناظم ما. ذلك العمل يبين مع ذلك أنه بعيد عن الجنون المطبق، تلك الفوضى تعكس تعقلا ما وتكشف عن تحول شامل وجلى. ذلك التعقل، وهو سبب الرأسمالية المعاصرة، هو النيوليبرالية فى حد ذاتها. وباستغلال محتواها الفقهى وظروف نشأتها السياسية والاقتصادية الكتاب يطرح العديد من مناطق سوء الفهم الذى يحيط بها: النيوليبرالية ليست العودة لليبرالية الكلاسيكية ولا إصلاح الرأسمالية الخالصة التى قد تعيد إغلاق المرحلة الكنزية، فثمة ضرورة لفهم ما تحمله حقا النيوليبرالية من مستجدات. فبعيدا عن النظر للسوق كمعطيات طبيعية تحجم دور الدولة فهى تثبت كهدف إنشاء مسيرة وجعل من الشركة النموذج للأمور. من خلال طرق متعددة، النيوليبرالية تبدو مفروضة كالمنطق الجديد للعالم الذى يؤكد على دور المنافسة ذلك المنطق ينبغى الإشارة لامتداده للديموقراطية. فهو يدخل أشكالاً جديدة للتكييف الهيكلى تمثل لمن يعارضوها تحديا سياسيا وثقافة جديدة. فقط ذكاء تلك الفلسفة سوف يسمح بإقامة معارضة حقيقية لها وفتح مستقبل آخر. والكاتب بيير داردوت فيلسوف وكرسيستيان لافال عالمة اجتماع.

▪

Théorie anti-utilitariste de l'action: Fragments d'une sociologie générale.

النظرية ضد النفعية فى الفعل الاجتماعى

Alain Caille

Editions La Découverte: 191 pp, 2009



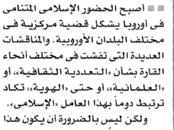
ما الذى يدفع المسائل الاجتماعية إلى التغير؟ محركات أفعالنا تبدو بلا حصر، والأدب بأكمله وكل الفنون وكل الأفلام قد لا تكفى لوصف ذلك. العلوم الاجتماعية أو الفلسفة تحتاج بأن يكون لها علامات تسمح لها بتحديد الدوافع الرئيسية للفعل. وهنا، نمس سريعا الجدالات المركزية لتلك السلوكيات. الرأى بمفهومه الواسع للهيمنة يرى أن السلوك الإنسانى يفسر بالضرورة وبشكل حصرى بالمنفعة. سواء كان ذلك على الصعيد الاقتصادى أو الجنسى أو بالمحافظة أو السلطة أو المكانة. وكما يوضح كاليه فى ذلك العمل الشائق والهام عن النفعية، ظاهرة ضد النفعية فى الفعل بالعكس ترتبط بإظهار أن ذلك التلخيص الضيق الأفق يبدو غير محتمل. فهو يترك بشكل حاسم الأمور الأساسية التى تهم الإنسان لأنه هذا هو بدقة الارتهان بالدائرة الضيقة للمصالح. ما يجوز فى المسائل الاجتماعية المفردة يمكن تعميمه على كل المجتمعات. بالعملية الدينية والسياسية، يوضح الكاتب هنا مفهوم نظامى. وهكذا، نظرية ضد نفعية للعمل والفعل الاجتماعى ينبغى أن تنطوى على إجادة لكل علم الاجتماع العام الذى يمكنه القطع مع المقاربات الاقتصادية المهيمنة بشدة اليوم حول التاريخ والحياة فى المجتمع.

والآن كاليه هو بروفيسير السوسيولوجى فى جامعة باريس اوست ومؤسس ومدير مجلة الحركة ضد النفعية فى العلوم الاجتماعية وله العديد من الأعمال المنشورة فى فرنسا.

▪

أوروبا والإسلام

طارق رمضان



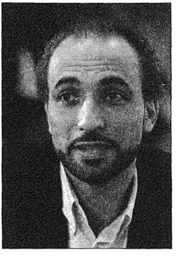
أصبح الحضور الإسلامى المتنامى فى أوروبا يشكل قضية مركزية فى مختلف البلدان الأوروبية. والمناقشات العديدة التى تفشت فى مختلف أنحاء القارة بشأن «التعددية الثقافية»، أو «العلمانية»، أو حتى «الهوية»، تكاد ترتبط دوماً بهذا العامل «الإسلامى».

ولكن ليس بالضرورة أن يكون هذا الربط نابعاً من تعصب، إذ إن هناك علاقة أساسية قائمة بين «القيم» و«القوانين» من جهة، وبين «الثقافة» و«التنوع» من جهة أخرى. والحقيقة أن أوروبا تحتاج إلى ما هو أكثر من النقاش حول «الإسلام» و«المسلمين»، إنها تحتاج إلى حوار جاد مع نفسها بشأن هذه العلاقة، وذلك لأنها تواجه أزمة واضحة.

إن السؤال المناسب هنا هو: هل تستطيع أوروبا أن تظل متوافقة مع قيمها (الديمقراطية، والمساواة، والعدالة، والاحترام، إلى آخر ذلك) وفى الوقت نفسه تتحمل وتستوعب مواطنين جدد ينتمون إلى خلفيات ثقافية وديانات مغايرة؟ أو بعبارة أخرى، هل الأوروبيون مؤهلون فكرياً ولغوياً وثقافياً لمواجهة التحدى المتمثل فى المزاوجة بين قيمة المساواة وهذا التنوع المتنامى على الدوام فى تركيبة المواطنين الأوروبيين؟

الواقع أن نقطة الانطلاق هنا واضحة: إذ يتعين على الحكومات أولاً ألا تخلط بين المشاكل الاقتصادية الاجتماعية (البطالة، والعنف، والتهميش، وما إلى ذلك) وبين القضايا المتعلقة بالثقافة والدين. أو بعبارة أخرى، لا ينبغى لنا أن نضفى بعداً «ثقافياً» أو «دينياً» أو «إسلامياً» على المشاكل الاجتماعية.

وحقيقة أن غالبية الأوروبيين الذين يواجهون البطالة أو التهميش الاجتماعى هم من السود أو الآسيويين أو من أهل شمال إفريقيا أو من المسلمين لا تعنى أن أديانهم أو أعراقهم أو ثقافاتهم تفسر أوضاعهم. إن أى نوع من أنواع الحتمية الثقافية أو الدينية أو العرقية يشكل خطورة بالغة فى هذا السياق: فالبطالة والتهميش يعكسان عملية اقتصادية اجتماعية، ونحن نحتاج إلى تبنى سياسات اجتماعية واقتصادية واضحة لحل مثل هذه المشاكل. أما أن نلجأ إلى تفسيرات ثقافية/دينية/عرقية غامضة وملتبسة فهذا يشكل وصفة أكيدة للتقاعس عن العمل، إن لم يكن العمل المضلل.



لا شك أن الأبعاد الثقافية والعرقية والدينية قد تشكل عوامل ثانوية تابعة لابد من وضعها فى الاعتبار، ولكنها ليست الأسباب الرئيسية للبطالة والتهميش. يتعين على الحكومات الأوروبية بدلاً من الإنصات إلى اللغة الخطابية التى يتشدق بها اليمين المتطرف أن تروض نفسها على تبنى سياسات قوية وخلاقة فى التعامل مع المشاكل الأساسية فى التعليم (المدارس المنفصلة أو مدارس الدرجة الثانية، والمناهج الدراسية، وما إلى ذلك)، وفرص العمل غير المتساوية، واضمحلال المناطق الحضرية.

فى الواقع، وعلى النقيض مما تحول إلى حكمة تقليدية شائعة (والتى تقوم للأسف على مقترحات أحزاب اليمين المتطرف باعتبارها نظريات طبيعية مسلّم بها)، فإن الشباب الأوروبى المسلم ليس لديهم مشكلة فى الاندماج، بل إنهم يشعرون بالإحباط الشديد بسبب غياب (أو فشل) السياسات الاجتماعية القادرة على تلبية احتياجاتهم.

وهذا الفشل لا يعنى أن نوعاً جديدًا من العنصرية، «كراهية الإسلام»، بات الآن سائداً. ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر أن بعض الأفراد يتعرضون للتمييز استناداً إلى «دينهم» (وفقاً لدراسة قامت بها مؤسسة بيو Pew للاستطلاع مؤخراً فإن ٤٥٪ من الأوروبيين ينظرون إلى الإسلام من منظور سلبى). ومن بين أشد الإشارات دلالة على أن الحوار الحالى بات محقوناً بجرعة من التمييز ذلك الهوس بفكرة «الاندماج» رغم أن الأغلبية العظمى من المسلمين الأوروبيين يلتزمون بالقانون ويحترمونه، ويعرفون لغة البلد الذى يعيشون فيه، ويخلصون لذلك البلد (رغم أنهم قد يميلون أحياناً إلى انتقاده، مثلهم فى ذلك كمثل بقية إخوانهم من المواطنين).

إن الإشارة على نحو لا ينقطع إلى «المواطنين من أصول مهاجرة»، أو إلى «المجتمع المضيف»، لا تخدم إلا كأداة لتعزيز الفكرة القائلة بأن المسلمين ليسوا أوروبيين «حقيقيين»، أو لا يشعرون بأنهم «فى ديارهم». إن مثل هذا الكلام يعنى ضمناً أن المسلمين الأوروبيين لابد وأن يثبتوا ولاءهم باستمرار. وهذا التصور للمسلمين باعتبارهم «الآخر» أو «الأجنبى» يشكل عاملاً محورياً فى التحريض على التمييز فى الوظائف أو فى أسواق الإسكان.

وبعيداً عن الخوف وانعدام الشعور بالأمان، فمن الأهمية بمكان أن نعتمد على الحقائق والأرقام لكى نبرهن على أن الموقف، سواء على المستوى المحلى أو الوطنى، أفضل كثيراً مما تصوره المناقشات الحماسية المستقطبة التى تتبناها وسائل الإعلام وبعض الدوائر السياسية. فعلى النقيض مما تصوره المجادلات الدائرة، سنجد أن أداء المسلمين الأوروبيين طيب للغاية اليوم، والمستقبل يبشر بخير أعظم.

إذا كانت البلدان الأوروبية راغبة فى الاستمرار على صدقها فى احتضان حقوق الإنسان العالمية المتساوية وتجنب أى إغراءات قد تدفعها إلى الانزلاق نحو العنصرية وكراهية الأجانب، فلابد وأن يسارع كل الأوروبيين إلى العمل. ويتعين على المسلمين الأوروبيين أن يتجنبوا تغذية «عقلية الضحية»، وأن يقروا بمسؤولياتهم داخل مجتمعاتهم. ومن الأهمية بمكان أن يحرص المواطنون الأوروبيون، المسلمون وغير المسلمين على السواء، والحكومات الأوروبية، على تحاشى أى شكل من أشكال العنصرية.

وهنا يلعب التعليم دوراً محورياً. فلابد وأن تكون المناهج المدرسية أكثر شمولاً (لبناء تاريخ مشترك من الذكريات) وتوسيع معارف الطلاب بالأديان والثقافات. وفى وسائل الإعلام، ينبغى تدريب الصحافيين على رصد «قصص النجاح»، وليس المشاكل فقط. وفى كل الأحوال فإن الخطاب الذى يرسم ارتباطاً ضمنياً بين كلمات مثل «غير قانونى» و«إجرامى» و«مهاجر» و«مسلم»، لابد وأن يُنظَر إليه باعتباره أداة لتغذية الخوف وردود الفعل الكارهة للأجانب.

إن المسلمين يواجهون عنصرية جديدة، ويتعين عليهم أن يناضلوا من أجل الحصول على حقوقهم، ولكن ينبغى عليهم أن يفعلوا هذا جنباً إلى جنب مع إخوانهم المواطنين وفى العديد من المجالات: مثل السياسة الداخلية والخارجية، والتعليم، والإعلام، والنشاط الاجتماعى. كما يتعين على الأوروبيين أن يكفوا عن الشعور بالرضا عن أنفسهم فى اعتقادهم الراسخ بأنهم محصنون على نحو أو آخر ضد أى انبعاث جديد للعنصرية أو خيانة حقوق الإنسان الأساسية. وأخيراً، يتعين على المسلمين أن يكفوا عن التعامل مع مشاكلهم (أو التفاعل معها) فى معزل عن الآخرين.



Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 128 - September 2009

مجلة شهرية . العدد المائة وثمانية وعشرون - السنة الحادية عشرة - سبتمبر ٢٠٠٩ . الثمن عشرة جنيهات

«الإسلام».. عن ماذا يتحدثون؟!

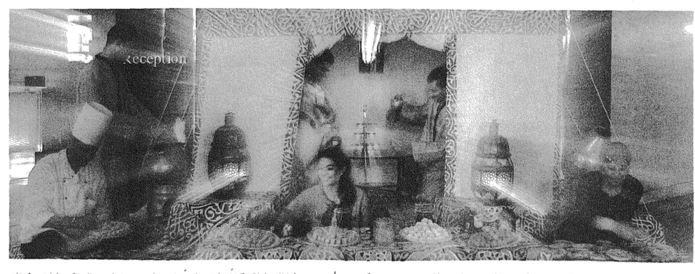
«عدم الإنحياز».. شيخوخة مبكرة

أمريكا في الشرق الأوسط

النصابون عائدون

حلمي التوني 2009

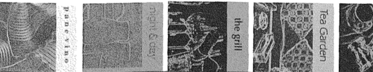
رمضان . . .ثلاثون من ليالى النور . . . !



عاد رمضان وعادت لياليه المتلالأه بالنور، وكعادتنا أستعد الجميع لإستقبال الشهر الكريم فى عُرس يمتد لثلاثين ليلة، كلاً بمذاقه وكلاً بلونه المميز . . .فعلى موائد الصبايا تستقبلك قوائم الإفطار والسحور محمله بنكهة الجبل، وإلى كافيه كورنيش وحديقة الشاى إستمتع بمختارات من حلويات رمضان الشهيرة . ولمذاق مختلف للإفطار الرمضانى ندعوكم لخبرة طعام جديدة فى الجريل . وإلى النايت آند داى تخير من بوفيهات الإفطار من الشرق والغرب، اما إذا كنت تود إفطاراً وسحوراً إيطالياً خالصاً فتوجه مباشراً إلى بانه فينو حيث الإفطار والسحور في الهواء الطلق من تراس بانه فينو . ولعشاق المشويات فهنالك دعوة مدتها ثلاثين يوم فى الهواء الطلق وحول حمام السباحة لأشهى الأطباق التقليدية وأشهرها فى ليال لا تخلو من الطرب والسهر . ولحفلاتك الخاصة للإفطار والسحور وراءك فريق محترف يعتنى بكل تفاصيل الحفل . . .تعال إلى سميراميس فى رمضان حيث إفطارنا شهياً وسحورنا هنياً .

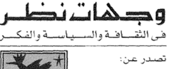
للحجز إتصل بمكتب حجورات المطاعم تليفون : ٢٧٩٧١٨١٨ (٢٠٢+) – ٢٧٩٥٧١٧١ (٢٠٢+) داخلى : ١١٥١

www.intercontinental.com



السنة الحادية عشرة
العدد ١٢٨
سبتمبر ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى





الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

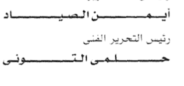
تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى




محتويات العدد:

كتاب العدد:

- إبراهيم العجلونى.. كاتب أردنى
- أبوالعلا ماضى.. ناشط إسلامى - وكيل مؤسسى حزب الوسط (تحت التأسيس).
- أحمد محمد أبوزيد.. باحث فى العلاقات الدولية - الشارقة.
- أمبرتو إيكو.. كاتب وروائى وأستاذ للفلسفة بجامعة بولونيا.
- جوزيف مسعد.. أستاذ السياسة والفكر العربى الحديث بجامعة كولومبيا.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا
- عمرو محيى الدين.. أستاذ الاقتصاد
- مصطفى إبراهيم فهمى.. أستاذ بالأكاديمية الطبية العسكرية
- نيكولسون بيكر.. روائى وكاتب أمريكى.
- وليد محمود عبدالناصر.. كاتب مصرى

رسوم العدد للفنان
محمد حجى





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

3500





نيكولسون بيكر
Nicholson Baker

▪▪ قمت بطلب جهاز «كيندل٢» من «أمازون» Amazon («كيندل» هو قارئ إلكتروني للكتب ـ المترجم). كيف كان يمكنني ألا أفعل؟ لقد امتلأت شبكة الإنترنت بالإعلانات الشريطية عنه. وكلما دخلت إلى موقع «أمازون»، كنت أتعرض للضغوط لشراء واحد. كان الإعلان يقول «ألق التحية على «كيندل٢» بحروف طويلة على الصفحة الرئيسية. وإذا ما بحثت في «أمازون» عن كاتب معين - «ماري هيجنز كلارك» Mary Higgins Clark على سبيل المثال - ووصلت إلى صفحة روايتها المثيرة «ضوء القمر يصبح أنت» Moonlight Becomes You، فإن السطر بأعلى الصفحة يقول «ضوء القمر يصبح أنت» بالإضافة إلى أكثر من ٢٧٠ ألف كتاب آخر متوفرة لجهاز «كيندل» من «أمازون» - جهاز القراءة اللاسلكي الجديد من «أمازون». اعرف المزيد». وتحت صورة النسخة الورقية لكتاب «كلارك» (٧.٩٩ دولار) كان هناك إعلان آخر مثير للفضول: «ابدأ في قراءة «ضوء القمر يصبح أنت» على جهاز «كيندل» الخاص بك في أقل من دقيقة. ليس لديك «كيندل»؟ احصل عليه هنا». وإذا ما ذهبت إلى صفحة «كيندل» للتنزيل الرقمي لـ «ضوء القمر يصبح أنت» (٦.٣٩ دولار)، فسوف تعرض على وصلة للرجوع إلى النسخة المطبوعة. لقد كنت موجها.

كان الجميع يقولون بأن «كيندل» الجديد هام للغاية - وأنه بمثابة صيحة بوق رعاة جبال الألب لإعادة إحياء حقبة ما بعد «جوتنبرج» Gutenberg (مخترع الطباعة الألماني في القرن الخامس عشر. المترجم). في صحيفة «وول ستريت جورنال» Wall Street Journal، كتب الناقد الثقافي «ستيفين جونسون» Steven Johnson أنه كان وحيدا ذات يوم في مطعم بمدينة «أوستن» Austin بولاية تكساس، عندما تملكته رغبة عارمة لقراءة رواية. وبفضل مجموعة الملحقات المجانية لتردد «3G» مع لاسلكي «سبرينت» Sprint والمتوفرة مع «كيندل» - والمسماة بـ «همس نت» Whispernet - كان في خلال دقائق يقرأ الفصل الأول من رواية «عن الجمال» On Beauty من تأليف «زادي سميث» Zadie Smith (٩.٩٩ دولار للنسخة الإلكترونية، و٢٠.١٠ دولار للنسخة الورقية). يعتقد «جونسون» أن الكتابة والنشر لن يعودا أبدا كسابق عهدهما. وفي مجلة «نيوزويك» Newsweek، كشف «جاكوب فايزبرج» Jacob Weizberg، رئيس تحرير «مجموعة سليت» Slate Group، أن «جيف بيزوس» Jeff Bezos - مؤسس «أمازون» ورئيسها التنفيذي - «قد صنع جهازا يعد ثورة ثقافية. فالكتب المطبوعة - أهم ما أنتجته الحضارة البشرية - سوف تلحق بالصحف والمجلات على طريق الاندثار».

لقد أثار «كيندل٢» أيضا شغف العديد من الناس العاديين، فقد كان هناك في ذلك الوقت في موقع بيع «كيندل» حوالي ١٥٠٠ من آراء المستهلكين ذات النجوم الخمس (يحتوي مقياس الآراء على تدريج من خمسة نجوم بحد أقصى - المترجم) تقول جميعها - مرة بعد مرة - «أعشق «كيندل» الخاص بي»، بينما لم يكن هناك سوى عدة مئات من آراء النجمة الواحدة التي تعبر عن الاستياء. كانت كتب «كيندل» نظيفة. وعلى موقع «أمازون»، كتبت «كريستين رينج» Christine Ring، إحدى الزوار، تقول «كانت تعوقني دائما كتب المكتبات العامة والكتب القديمة. لا يمكنك أبدا أن تعرف مكانها! وقال زائر آخر «لقد أثار «كيندل» من جديد اهتمامي بالقراءة». وقال ثالث «لقد تعلقت به. لو سقط جهاز «كيندل» الخاص بي في بالوعة، فسوف أشتري واحدا آخر فورا».

كانت حركة بيع «كيندل» على ما يرام: ففي أبريل انتشرت على المدونات التقنية شائعات بأنه قد تم شحن ثلاثمائة ألف جهاز «كيندل٢» منذ طرحه في ٢٤ فبراير. وقد وجه «بيزوس» رسالة إلى حملة الأسهم: «لقد تجاوزت مبيعات «كيندل» أكثر طموحاتنا تفاؤلا». وقد ظهر وضحك في برنامج «العرض اليومي» The Daily Show». (شاهد فيديو «يوتيوب» YouTube بعنوان «جيف بيزوس يضحك ضحكة عالية غريبة في برنامج العرض اليومي مع جون ستيوارت» Jeff Bezos Laughing Freakishly Loud on The Daily Show with Jon Stewart».

عرض موقع «أمازون» صورة لامرأة ترتدي نظارة شمسية وتجلس على شاطئ حاملة «كيندل» على ركبتيها. وتحت ذلك كانت هناك شهادات فيديو من كبار الكتاب مثل «مايكل لويس» Michael Lewis، و«توني موريسون» Tony Morrison، ترجع إلى انطلاقة «كيندل» الأصلي في خريف عام ٢٠٠٧. وقد ذكر «جيمس باترسون» James Patterson، وهو القوة المحركة وراء فيض من أفضل المبيعات حسب مجلة «تايمز» Times، أنه يستمتع بالقراءة في الهواء الطلق، حيث لديه حسب قوله «باحة خلفية بديعة وحمام سباحة رائع وكل شيء». وقد ابتهج «باترسون» عندما

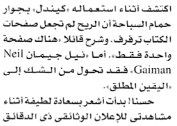


بترتيب مع:
The New Yorker

ترجمة: عادل فتحي.

هل هذا هو ما يطلقون عليه الورق الإلكتروني؟ هل هو تلك النافذة قياس أربع في خمس بوصات





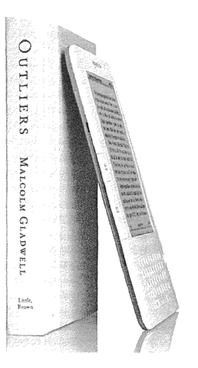
اكتشف أثناء استعماله «كيندل» بجوار حمام السباحة أن الريح لم تجعل صفحات الكتاب ترفرف. وشرح قائلا «هناك صفحة واحدة فقط». أما «نيل جيمان Neil Gaiman» فقد تحول من الشك إلى «اليقين المطلق».

حسنا! بدأت أشعر بسعادة لطيفة أثناء مشاهدتي للإعلان الوثائقي ذي الدقائق العشر. إن «كيندل» غالي الثمن بالتأكيد، ولكن الكلفة هي إحدى طرق شراء الالتزام الكامل. إن بإمكان ذلك أن يغير وإلى الأبد طريقتي في القراءة. لم أكن أبدا قارئا سريعا. وأنا متقلب؛ فأنا لا أكمل الكتب التي أبدأ في قراءتها: فأضع الكتاب جانبا لمدة خمس أو عشر سنوات ثم أتناوله مرة أخرى. وقد فكرت، ربما إذا قمت بشراء هذا الـ «كيندل٢» اللاسلكي فسوف أنجذب إلى عالم من الاستهلاك الأسطوري الإلزامي للكتب. وقد أنكب بشراهة على مؤلفات «ريبكا ويست Rebecca West» أو «جاك فانس Jack Vance» أو «دون باول Dawn Powell». ربما كان «كيندل» هو آلة التمارين الرياضية الخاصة بعالم الكتب: شيء غالي الثمن يجبرك عندما تلتزم به أن تكثر من القيام بعمل ما تعتقد أنه يجب عليك الإكثار منه.

في الحقيقة أن اسم المنتج ليس رائعا. «كيندل»؟ (بمعنى قطيطة، المترجم). كان الاسم ظريفا وشريرا في الوقت نفسه - أسوأ من منتجات أخرى سابقة. ولكن المرء قد يتسامح بشأن اسم رديء. بل قد يقع في غرامه إذا كان المنتج نفسه رائعا.

وصلني الجهاز بالشحن السريع في صندوق كبير من الورق المقوى. وداخل الصندوق كانت هناك بعض الفقاقيع البلاستيكية الشفافة الناتئة وعليها قصاصة التغليف مكتوب عليها «٣٥٩ دولارا» ثم صندوق آخر من الورق المقوى. كان مكتوبا على الصندوق الثاني بحروف صغيرة ناحلة «كيندل». وعلى جانب الصندوق كان هناك شريط بلاستيكي مدفون في الورق المقوى، بهدف أن تجذبه لتمزيق الغلاف وفتح الصندوق تماما. كان مكتوبا على الشريط «يحكى أن». قمت بجذب الشريط وفتحت الصندوق.

بالداخل، كان هناك صندوق آخر أكثر زخرفة من الأول. كان الورق المقوى الأسود مطبوعا بحشد من الحروف السوداء اللامعة، وفي الوسط كانت هناك كلمة «كيندل» مرة ثانية. كان هناك شريط آخر للجذب على الجانب، وكان أيضا يقول «يحكى أن». ولجت إلى كومة من حواديت عالم التغليف مشابهة لحكايات «إيتالو كالفينو Italo Calvino» (صحفي وكاتب إيطالي، ١٩٢٣-١٩٨٥، المترجم). (بالمناسبة، لا تزال حواديت «كالفينو» الشعبية الإيطالية غير متوافرة في منفذ بيع «كيندل»). جذبت مرة أخرى وفتحت.



هناك كان الجهاز نفسه مستقرا ووجهه للأعلى في صندوق ذي بطانة بيضاء. كان شاحبا، تقريبا في حجم رواية ذات غلاف مقوى، ولكنه أقل سمكا بكثير، وكانت له شاشة صغيرة ولوحة مفاتيح قياسية بالأسفل مصنوعة من أزرار نقطية لطيفة دائرية دقيقة تقاوم الضغط. حدقت لبرهة في المفاتيح التي ذكرتني بآلة أكورديون في مطعم.

كان القابس المتصل بوصلة الـ «يو إس بي USB» بديع التصميم للغاية. كان القابس جيدا جدا جدا. قمت بتشغيل «كيندل» وضغطت على الزر الرئيسي «Home». يفتح لك هذا الزر قائمة بما هو متوفر على جهاز «كيندل» خاصتك. كانت هناك بانتظاري بعض الكتب التي كنت قد طلبتها بالفعل - كان ذلك لطيفا - وكانت هناك أيضا رسالة تحية من «جيف بيزوس». كتب «بيزوس»: «إن «كيندل» هو نوع جديد تماما من الأجهزة، ونحن سعداء جدا بانضمامك إلينا كعميل مبكر». قرأت الرسالة وبعضا من «تنين جلالته His Majesty's Dragon» (رواية تنين خيالية من تأليف «ناعومي نوفيك Naomi Novick» تدور أحداثها أثناء الحروب النابوليونية، والرواية مقدمة كهدية مجانية)، و«رحلات جاليفر Gulliver's Travels» و«أيادي بطيئة Slow Hands» وهي رواية ساخنة مجانية من تأليف «ليزلي كيلي Leslie Kelly». قمت بتغيير حجم الخط. وبحثت عن قائمة لأحجام خطوط النص. وانتابني إحساس بخيبة الأمل.

لم تكن المشكلة أن الشاشة باللونين الأسود والأبيض: لو أنها كانت فعلا باللونين الأسود والأبيض لكان الأمر على ما يرام. كانت المشكلة أن الشاشة رمادية. ولم تكن رمادية فحسب؛ بل كان اللون رماديا باهتا ضاربا إلى الخضرة. كان رماديا بلون الموت. لقد ظهر الحجم المتغير للحرف من نوع «Monotype Caecilia» رماديا قاتما. كان اللون الرمادي القاتم على الرمادي الباهت الضارب إلى الخضرة هما درجات ألوان جهاز «كيندل» من «أمازون».



هل هذا هو ما يطلقون عليه الورق الإلكتروني؟ هل هو تلك النافذة قياس أربع في خمس بوصات بعد ظهر يوم ملبد بالغيوم؟ أين كان الورق أبيض أو ضارب إلى الصفرة؟ دعك من الألوان الثلاثية أو الرباعية. أين كانت الحروف السوداء الحادة متراصة كعيدان مطلية بالورنيش على قماش مائدة نظيف؟

أريت «كيندل» لزوجتي. قالت «للأسف لا يوجد به مسند معدني صغير. كان بإمكانك وضعه كمرآة وتقرأ أثناء تناول الطعام». انسجم ابني مع نسخة «كيندل» من رواية لـ «برنارد كورنويل Bernard Cornwell» تدور حول بريطانيا القديمة، وقال «إنه ليس سيئا إلى تلك الدرجة. إن الخريطة تبدو جيدة جدا. وبعض الأسماء الأصغر لا يمكن قراءتها. من الأفضل أن أقرأ ذلك» - مشيرا إلى نسخته الورقية من رواية «كورنويل» والتي كانت ملقاة على وجهها بالقرب منا - «ولكن بالتأكيد يمكنني قراءة هذا».

نعم، يمكنك بالتأكيد قراءة أشياء على «كيندل». وأنا قمت بذلك. قليل من الأشياء في البداية. قرأت بعضا من «اعترافات Confessions» لـ «دي كوينسي De Quincy». وبعضا من «الحب يقهر كل شيء Love Conquers All» لـ «روبرت بينشلي Robert Benchley». وبعضا من الطبعات الجديدة لـ «كتاب الأدغال The Jungle Book» لـ «كيبلنج Kipling». ومع ذلك، لم أعتصر بهجة جديدة من تلك الكتب الرائعة. كانت رسوم «جلوياس ويليامز Gluyas Williams» مفقودة في رواية «بينشلي». بل إن مقطع الزنابير في «هل تفكر الحشرات؟ Do Insects Think?» لم يبد كأنه هو نفسه في اللون الرمادي لـ «كيندل». قمت بعمل تجربة. وجدت نسخة من «الحب يقهر كل شيء» طبعة «Common Reader» وقرأت نفس مقطع الزنابير تماما. وضحكت: ها - ها. ثم عدت إلى «كيندل٢» وقرأت مقطع الزنابير ثانية. لم يكن هناك ضحك. بالطبع كنت عندئذ قد قرأت المقطع ثلاث مرات ولم يعد بنفس القدر من الإمتاع. ولكن جوهر الموضوع أنه لم يكن ممتعا عند قراءته للمرة الأولى عندما كان على شاشة «كيندل». كان الخط من نوع «Monotype Caecila» كريها ومتزمتا، كان لديه أسلوب للإقلال من كل شيء إلى مجرد أكوام عشوائية من الكلمات.

وقد اختبرت خاصية تحويل النص إلى كلام، بقراءة بعض من رواية «ماكس Max» لـ «جيمس باترسون». كانت للقارئ الآلي نبرة أوروبية متوسطة مترددة مؤدبة، مثل «توم هانكس Tom Hanks» في فيلم «المحطة The Terminal». وكانت علامات الوقف تسبب للجهاز ارتباكا في بعض الأحيان. ففي إحدى المرات اعتقد أن «آنسة miss» هي اختصار لاسم ولاية أمريكية (ولاية ميسيسيبي Mississippi، المترجم) حيث قال في أحد المقاطع: «لقد أحب الملاحقة والمطاردة والتقاء الحظ والمهارة في جزء من الثانية، مما مكنه من ممارسة كماله وعجزه أمام ميسيسيبي». فقمت بإغلاق الجهاز.

مع ذلك، فكما تعلمون، وقع كثير من الناس في غرام «كيندل». ولكي أكون عادلا معه، قمت بقراءة كتاب كامل على الأقل من خلاله. يسمى «جيف بيزوس» ذلك بقراءة «الصيغة

3500 كتاب في حقيبتك

المطولة.. وقد حالفني بعض النجاح ذات صباح عندما شققت طريقي بعمق من خلال الجهاز في كتاب «الدليل الكامل للأغبياء إلى كتابة الرومانسيات الجنسية The Complete Idiot's Guide to Writing Erotic Romance» من تأليف «أليسون كنت Allison Kent».. وقد علمت أن هناك أربعة مستويات محددة من القوة في صناعة الروايات الرومانسية الجنسية: القوة اللطيفة واللافحة والمهيجة والحارقة. وقد بدت تلك معلومات وثيقة الصلة، حيث إن قراء الروايات الرومانسية هم من المستخدمين الرئيسيين لأجهزة «كيندل». فقد علق «بيتر سميث Peter Smith» من شركة «عالم تكنولوجيا المعلومات ITworld» قائلا: «إن سوق الروايات الرومانسية والرومانسية الجنسية هو الوقود الذي يؤدي إلى نجاح الكتاب الإلكتروني». ويستشهد «سميث» بالممثلة وعاشقة «كيندل» «فيليشيا داي Felicia Day» التي شاركت في الحلقات التليفزيونية «بافي قاتلة مصاص الدماء Buffy the Vampire Slayer» والتي انغمست في روايات خارقة للعادة مثل «الاحتياجات السوداء على حافة الليلة Dark Needs at Night's Edge». ذكرت «داي»: «لقد قرأت حوالي ستة كتب هذا الأسبوع وطلبت حوالي عشرة آخرين. إنها مواد لم يكن من الممكن أن أبحث عنها في «بارنز آند نوبل Barnes and Noble» (كبرى متاجر بيع الكتب في الولايات المتحدة. المترجم)، لأن صورة صدر الرجل المصقولة المدهونة بالزيت على الغلاف كانت ستجعلني أحمر خجلا أكثر من اللازم».

إن الروايات الرومانسية الإلكترونية ليست هي التفسير الوحيد لنجاح «كيندل» ونمط الولاء الذي يكرسه. ولاكتشاف المزيد، ذهبت إلى مدينة «فريبورت Freeport» بولاية «مين» للتحدث مع «إيلين ميسينا Eileen Messina» مديرة مخزن الواردات البريطانية الواقع تماما مقابل شركة «إل إل بين L. L. Bean» (شركة كبرى للبيع بالتجزئة وعبر البريد. المترجم). لدى «ميسينا» - وهي امرأة في الثلاثينيات من عمرها تتميز بالحكمة والذكاء - جميع أنواع الأشياء على جهاز «كيندل» الخاص بها، بما في ذلك «آنا كارنينا Anna Karenina» و«كافكا على الشاطئ Kafka on the Shore» لـ «موراكامي Murakami»، وكتب لـ «دان سيمونز Dan Simmons» و«إبراهام فيرجيز Abraham Verghese»، والرواية الهزلية «كبرياء وتحامل والموتى الأحياء Pride and Prejudice and Zombies». وهي سعيدة جدا بالجهاز لدرجة أنها تطوعت ضمن حوالي مائة آخرين لعرضه على المشترين المحتملين، كجزء من حملة «أمازون» لترويج الجهاز تحت عنوان «شاهد «كيندل» في مدينتك». كان جهاز «كيندل» خاصتها في حافظتها؛ وقد حاكت له غطاء من خيوط خضراء. قالت «ميسينا» أنها كانت تحصل على الكتب في الماضي من المكتبات العامة، ولكن بعض الكتب كانت تنبعث منها رائحة الدخان، أما كتاب «كيندل» فهو بيئة خالية من الدخان. وقد شكرتها وابتعت بعضا من بسكوت الهضم وإبريقا للشاي، ثم دلفت من الباب المجاور إلى متجر «شيرمان للكتب والأدوات المكتبية Sherman's Books and Stationary». وسألت «جوش كريستي Josh Christie» الذي يعمل هناك أن يرشح لي رواية مشوقة فعلا تثير الاضطراب في الأمعاء. كنت سأقوم بعمل مقارنة بين النسخة الورقية ونسخة «كيندل٢». وقد اقترح «كريستي» «الهوية الغائية The Bourne Identity» وكتاب لـ «مايكل كونيللي Michael Connelly» بعنوان «محامي لينكولن The Lincoln Lawyer» الذي أقسم عليه أحد زملائه بالمتجر. وقد اشتريت الكتابين.

بالخارج، جلست على مقعد طويل بالقرب من شركة «إل إل بين»، أتناول الآيس كريم، وحاولت أن أطلب «الهوية الغائية» باللاسلكي من منفذ بيع «كيندل». ولكن كلا - ليست هناك نسخة «كيندل» من «الهوية الغائية».. لماذا؟

ماذا كان مفقودا غير ذلك؟ عندما عدت للمنزل، أمضيت ساعة واقفا أمام بعض خزانات الكتب الروائية أستعرض العناوين. ليست هناك نسخة «كيندل أمازون» من «جوهرة التاج The Jewel in the Crown».. وليست هناك نسخة «كيندل» من أعمال «جان ستافورد Jean Stafford» أو «فلاديمير نابوكوف Vladimir Nabokov»، ولا توجد رواية «ببغاء فلوبرت Flaubert's Parrot» أو «بقايا اليوم Remains of the Day» أو «عطر Perfume» من تأليف «باتريك ساسكايند Patrick Suskind»، ولا توجد أعمال «بهاراتي مخرجي Bharati Mukherjee» أو «مارجريت درابل Margaret Drabble» أو «جراهام جرين Graham Greene» فيما عدا نص إذاعي، ولا توجد أعمال «دافيد ليفيت David Leavitt» أو رواية «في الريف In Country» لـ «بوبي آن ماسون Bobbie Ann Mason»، ولا توجد أعمال «بينشون Pynchon» أو «تيم أوبراين Tim O'Brien» أو رواية «مكتبة حمام السباحة Swimming-Pool Library» أو أعمال «باربرا بيم Barbara Pym» أو «سول بيلو Saul Bellow» أو «فريدريك إكسلي Frederick Exley» أو رواية «العالم وفقا لـ جارب World According to Garp» أو «الحق-٢٢ Catch-22» أو «إفطار لدى تيفاني Breakfast at Tiffany's» أو «شكوى بورتنوي Portnoy's Complaint» أو «هنري وكلارا Henry and Clara» أو أعمال «لوري مور Lorrie Moore» أو رواية «إدوين مولهاوس Edwin Mullhouse» أو «البرتقال المنتظم Clockwork Orange».



بالطبع سوف يزداد حجم القائمة. وذلك لأنه لا تمارس قوى ذكية على الناشرين والمؤلفين. وهناك تحت مواصفات جميع الكتب المعروضة للبيع لدى «أمازون» والتي لا تتوافر لها نسخة «كيندل» خانة تقول «أخبر الناشر! أريد قراءة هذا الكتاب على «كيندل». وإذا ضغطت على الخانة، فإن «أمازون» تعرض رسالة شكر: «سوف نمرر طلبك المحدد إلى الناشر».

ولكن لنفرض أنك بالفعل وجدت الكتاب الذي تنشده لدى منفذ بيع «كيندل»، وأنك اشتريته. فهل تحصل على ما هو مذكور في نسخة الكتالوج؟ نعم وكلا. نعم، أنت تحصل على الكلمات، وأحيانا على الرسوم بصورة محدودة. أما الصور الفوتوغرافية والرسوم والخطوط البيانية والحروف الأجنبية والجداول فلا تظهر بشكل جيد على الشاشة الرمادية الصغيرة. ولا تظهر أرقام الصفحات، كما لا تعمل الفهارس أحيانا. وليس من السهولة بمكان استعراض هوامش المؤخرة. وإذا أردت أن تستشهد من كتاب اشتريته، فعليك أن تستشهد في نطاق الموقع - فعلى سبيل المثال فإن عبارة ما يمكن العثور عليها في نطاق الأسطر ١٥٩٦-١٦٠٥ في رواية «ماري كار Mari Carr» الرومانسية الجنسية «حقيقة تيكيلا Tequila Truth».

عندما تشتري نسخة «كيندل» من رواية «كونراد لورينز Konrad Lorenz» «خاتم الملك سليمان King Solomon's Ring» بدلا من النسخة الورقية، فإنك توفر ٣.٥٨ دولار، ولكن رسومات «لورينز» الساحرة لأوزة برية رمادية وفراخها يتهادون من منتصف إحدى الفقرات باتجاه الهامش الأيمن قد تم اقتطاعها من النص - لقد ألغيت الملاحظات الهامشية. ويوفر منفذ بيع «كيندل» «كتاب دليل الطبخ لعاشق الجبن The Cheese Lover's Cookbook and Guide» من «سايمون آند شوستر Simon & Schuster». وقد كتبت إحدى زائرات «أمازون» السعيدات معلقة «إن صورة فطائر الـ «بان كيك Pancakes» بجبن الـ «ريكوتا Ricotta» الإيطالي مع شراب الجوز والموز تكفي وحدها لإثارتك بما يكفي لأن تكون تلك هي الوصفة الأولى التي تقوم بتجربتها». كانت تشير إلى الوصفة في النسخة المطبوعة، والتي أعيد تكرار وصفها في نسخة «كيندل» في منفذ بيع «كيندل» - ولكن لم تكن هناك صور للفطائر في نسخة «كيندل».

نعم، يمكنك توفير تسعة دولارات إذا ما اشتريت نسخة «كيندل» من كتاب «الجمال الخلاب للطحالب البحرية والإسفنج والصخور المرجانية The Algorithmic Beauty of Seaweeds, Sponges, and Corals» من تأليف «جاب أ. كاندورب Jaap A. Kaandorp» - فهو سيكلفك ٨٥.٤٠ دولار مع التسليم لاسلكيا، مقابل ٩٤.٨٩ دولار مطبوعا. تقول مجلة «نيو ساينتست New Scientist» أن كتاب «كاندورب» «موضح بالصور الفوتوغرافية والرسومات ومحاكيات الكمبيوتر بطريقة بديعة وأحيانا غريبة». إن الرسومات موجودة في نسخة «كيندل» ولكنها عسيرة تماما على الاستيعاب، حتى لو قمت بتكبيرها باستخدام زر الضغط ذي الحركات الخمس أو «حلمة التحكم» كما يطلق عليه أحد مستخدمي «كيندل». وهناك كتاب نصي طبي فائز بجوائز بعنوان «التصوير في

بعض الكتب كانت تنبعث منها رائحة الدخان، أما كتاب «كيندل» فهو بيئة خالية من الدخان



3500
كتاب في حقيبتك

علم الأورام Imaging in Oncology (الطبعة الثانية) يباع في منفذ بيع «كيندل» بسعر ٢٨٧،٩٦ دولار. الجداول أصبحت مشوهة. وضاع الترميز اللوني - الأصفر للأورام الخبيثة والأزرق للأنسجة السليمة. والأسهم التي تشير للأورام المظللة تصبح غير مرئية في اللون الرمادي. بل أن الأورام نفسها تختفي.

مثال آخر غالي الثمن. تباع نسخة «كيندل» من «مواد وأنظمة هندسية نووية مختارة Selected Nuclear Materials and Engineering Systems»، وهو كتاب إلكتروني للقائمين على تصميم مفاعلات الطاقة النووية، بما يزيد على ثمانية آلاف دولار. والشكل رقم ٢ عبارة عن مخطط مفصل لرسم مفاعل مع العديد من التنويهات والمعادلات الكيميائية. وكلها غير مقروءة. يقول منفذ بيع «كيندل»: «أنت توفر ١٦٠٧،٨٠ دولار (٢٠٪)». وقد علق زائر عنيد لـ «أمازون»: «لن أشترى هذا الكتاب حتى يتم تخفيض السعر».

هذا هو ما تحصل عليه عندما تشترى كتاب «كيندل». أن تشترى الحق في عرض مجموعة من الكلمات أمام عينيك لاستخدامك الشخصي بمساعدة جهاز عرض إلكتروني معتمد من «أمازون». وتستخدم الشركة نظام تشفير يسمى «توباز Topaz» («توباز» هو أيضا اسم رواية لـ «ليون أوريس Leon Uris»، وهي ليست متوفرة في منفذ بيع «كيندل»). هناك صيغ برمجية أخرى للكتاب الإلكتروني - مثل «أدوب أكروبات Adobe Acrobat» و«ميكروسوفت ريدر Microsoft Reader» وصيغة مجانية متاحة تسمى «إيباب ePub» - ولكن أمازون اختارت طريقها الخاص. ولا تستطيع معدات أي شركة أخرى التعامل مع «توباز» دون إذن من «أمازون». ويعني ذلك أنك لا تستطيع قراءة كتب «كيندل» الخاصة بك على حاسوبك الشخصي أو على قارئ إلكتروني للكتب منافس لـ «كيندل». (مع ذلك يمكنك قراءة كتب «كيندل» على «آيبود تاتش iPod Touch» و«آيفون iPhone» - سيرد المزيد عن ذلك لاحقا - لأن أمازون قررت أن من مصلحتها أن تسمح لك بذلك). ربما تكون قد سمعت عن «قارئ سوني Sony Reader»؟ إن أزرار التحكم في قلب الصفحات في «قارئ سوني» أفضل تصميما من أزرار «كيندل»، كما أنه ظهر قبل عام من ظهور «كيندل»؛ كما أن شاشته أقل رمادية بدرجة طفيفة وسطح الطباعة أفضل، كما يستطيع التعامل مع مستندات «إيباب ePub» و«بي دي إف PDF»، دونما حاجة إلى تحويلها، ولكن انس كل ذلك. فلا يمكنك قراءة كتاب «كيندل» على جهاز «سوني» أو على «Ectaco jetBook» أو «BeBook» أو «iRex iLiad» أو «Cybook» أو «Hanlin V٢» أو «Foxit eSlick» (كلها قارئات إلكترونية مختلفة، المترجم). إن كتب «كيندل» غير قابلة للتحويل. فأنت لا تستطيع إهداءها أو إعارتها أو بيعها. كما أنك لا تستطيع طباعتها. إنها لفائف مغلقة من الشفرة الرقمية التي يمكن لمشتر واحد فقط أن يمتلكها. إن النسخة من كتاب «كيندل» تموت مع مالكها.

ومن ناحية أخرى، ليست هناك فوضى، ولا توجد كومة من الكتب بجوار الأريكة. إن كتاب «كيندل» يصل لاسلكيا: لا يمكن لمسه: وهو موجود على سطح أسمى وأكثر نقاء. ومن المفترض أنه صديق لكوكب الأرض أيضا. نعم، إنه مصنوع من مواد أجنبية تشحن عبر جميع محيطات العالم؛ نعم، إنه يحتاج للكهرباء كي يعمل ولوحدات تزويد خدمة مكيفة الهواء كي تغذيه؛ نعم، إنه هش ويحاكي ما تفعله ماكينات أخرى: نعم، إن من الصعب تدويره؛ نعم، إنه غالبا سيستقل في رحلته الأخيرة قاربا إلى مكب نفايات نيجيري في خلال خمس سنوات. ولكن لا يتم قطع غابات أشجار من أجل صناعة كتاب «كيندل»؛ ولا تدور مطابع وزنها عشرة أطنان ولا يراق أي حبر.



بدلا من الحبر على الورق، هناك ما يسمى بالـ «فيزبليكس Vizplex». والـ «فيزبليكس» هو الاسم التجاري لمادة الطبقة التي تصنع شاشة عرض «كيندل» - أي المستطيل الذي تقرأ منه والذي يبلغ قطره ست بوصات. إنها معجزة من الجسيمات الكروية الدقيقة ثنائية الاستقرار، وقد استغرقت كثيرا من العمل وأكثر من مائة وخمسين مليون دولار لتطويرها، ولكنها ما زالت بالفعل في مرحلة النموذج الأولي. تصنع «فيزبليكس» في صورة شبه سائلة في مدينة «كامبريدج Cambridge» بولاية «ماساتشوسيتس» بواسطة شركة تدعى «إي إنك E Ink». وتقوم الشركة بوضع طبقة من تلك المادة على غشاء رقيق أو «صفيحة سطحية أمامية». وذلك بمصنع في غرب «ماساتشوسيتس»، ثم ترسل الصفائح إلى تايوان، حيث تقوم الشركة الأم «بي في آي P. V. I» (وهي اختصار «الدولية للرؤية المثالية Prime View International»، وهي نفسها شركة فرعية لشركة كبرى للورق)، بدمجها مع شبكة إلكترونية أو سطح خلفي. والسطح الخلفي يخبر السطح الأمامي بما يفعله.

لقد برزت احتمالات استخدام «فيزبليكس» للمرة الأولى في عقل العالم «جوزيف جاكوبسون Joseph Jacobson» الذي يعمل الآن بمعمل الوسائط في «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا Massachusetts Institute of Technology»، ويتجنب إجراء مقابلات حول موضوع الورق الإلكتروني. في وقت ما بمنتصف التسعينيات، وفقا لما ذكره أحد زملائه، كان «جاكوبسون» جالسا يقرأ على أحد الشواطئ. وانتهى من قراءة كتابه. ماذا بعد ذلك؟ لم يشأ أن يغادر الشاطئ لجلب كتاب آخر، ولم يرغب في الاستلقاء على الشاطئ وعمل حفر مائية بقدميه وهو يفكر في الجمال الخلاب للطحالب البحرية. ما أراده هو أن يضغط زرا صغيرا لاستبدال الكلمات في الكتاب الذي بين يديه بكلمات من كتاب آخر في مكان آخر. لقد أراد أن يكون الكتاب الذي بين يديه قابلا لإعادة الكتابة عليه إلى الأبد - أن يكون في الواقع آخر كتاب على الإطلاق يتوجب عليه أن يمتلكه. لقد أسماه «الكتاب الأخير». ولصناعة الكتاب الأخير، كان عليه أن يخترع نوعا جديدا من الورق: «ورق البث RadioPaper».

قام «جاكوبسون» ومجموعة من الطلاب في «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا» بإعداد قوائم بالاحتياجات والوسائل والمواد. وكان أحد أفكارهم: ورق البث يجب أن يعكس مثل الورق الحقيقي. لا يجب أن يومض. ولا يمكن صناعته باعتباره نوعا محسنا من شاشات الكريستال السائل. مهما ارتفعت دقة وضوحه أو درجة كمال ألوانه أو سرعة ارتعاشه غير الملحوظة. وذلك لأن الكريستال السائل يضاء خلفيا. والإضاءة الخلفية - حسب اعتقادهم - سيئة لأنها قاسية على العين. كما أنهم اعتقدوا أن ورق البث يجب أن يكون مرنا وأن يدوم حتى يتم تدويره. ويجب أن يحتفظ بصورته حتى عندما لا يسحب أي تيار كهربي، مثل الورق العادي تماما. كيف يمكن تحقيق ذلك؟ جاء أحد الطلاب بفكرة صنع حرام من الكريات البيضاء الدقيقة في صبغة ملونة. ولتشكيل الحرف «A»، على سبيل المثال، فإن نوافير دقيقة من الكهرباء سوف تمسك بعضا من الكريات الدقيقة وتجذبها للأسفل في غشائها، غامرة إياها في الصبغة، ما يجعل ذلك الغشاء والأغشية المحيطة به تصبح داكنة وتبقى داكنة إلى أن تمر مزيد من الكهرباء خلالها في خلال ثانية أو يوم أو أسبوع. كان ذلك هو سحر الحمل الكهربي.

في عام ١٩٩٧، انضم «جاكوبسون» وشركاؤه إلى «روس ويلكوكس Russ Wilcox» وهو مقاول مشروعات من «كلية هارفارد للأعمال Harvard Business School»، لإنشاء شركة «إي إنك». قال «ويلكوكس» مؤخرا عبر الهاتف «عندما شرعنا في ذلك، كان رد فعل الناس «أوه، أنتم تحاولون قتل الكتاب». وكنا نرد «كلا، نحن نحب الكتاب». للأسف، نحن نخشى على مستقبل الكتاب، لأن الناس لا يتوقعون اليوم سوى وسائل الإعلام الرقمية. إن الضغوط الاقتصادية هائلة.

قدر «ويلكوكس» قيمة أعمال صناعة الصحف بمائة وثمانين مليار دولار سنويا، وقيمة نشر الكتب بثمانين مليار دولار إضافية. كانت نصف تلك التكلفة تذهب إلى صناعة الورق وخلط الأحبار والطبع والنقل والجرد وتخزين السلع العينية. وأخبرني «وبذلك يمكنك توفير مائة وثلاثين مليار دولار سنويا إذا ما قمت بنقل المعلومات رقميا. هناك الكثير من القوى الخفية العاملة والتي تتضافر جميعا لتحقيق موجة المد الكبيرة القادمة».

وواجهت «إي إنك» بعض المشاكل بعد عام ٢٠٠٠ عندما تقلص المطروح من حجم رأس المال المغامر. وتغيرت توجهات الشركة قليلا. إنها لن تصنع «الكتاب الأخير»، ولكنها ستبيع لمصنعين آخرين الوسائل لتحقيق ذلك. لقد اقتدت الشركة في ذلك بـ «كوكاكولا Coca-Cola» - التي نمت كثيرا من خلال بيع المشروب والسماح للآخرين بتعبئته - و«نوتراسويت NutraSweet». قال

لا يتم قطع غابات أشجار من أجل صناعة كتاب «كيندل»؛ ولا تدور مطابع وزنها عشرة أطنان ولا يراق أي حبر



3500
كتاب في حقيبتك

«ويلكوكس»: «تخيل أنك «نوتراسويت»، وصناعة الكولا موجودة بالفعل وتعمل. ولا توجد أمامك وسيلة لصناعة كولا الريجيم الخاصة بك والمنافسة رأسا برأس. إذا ماذا تفعل؟ تقوم ببيع المكونات».

كانت «سوني Sony» هي أول عميل كبير متاح لـ «إي إنك». اشترت «سوني» كمية كبيرة من شاشات عرض «فيزيليكس» لقارئها الإلكتروني «PRS-٥٠٠»، الذي طرحه «هوارد سترينجر Howard Stringer»، الرئيس التنفيذي لـ «سوني»، في معرض الإلكترونيات للمستهلكين في «لاس فيجاس» في يناير من عام ٢٠٠٦، واقفا أمام صورة فوتوغرافية للنسخة المحمولة كهربيا من رواية «دان براون Dan Brown»، «شيفرة دافنشي The Da Vinci Code». أنشأت «سوني» منفذا لبيع الكتب على الإنترنت، وباعت أجهزتها في «بوردرز بوكس Borders Books» و«سوني ستور Sony Store» و- لاحقا - في «تارجت Target» و«كوستكو Costco» و«ستابلز Staples» و«وولمارت WalMart». إن «سوني» بالطبع شديدة البراعة في تصميم الأجهزة المحمولة باليد. كان قارئ «سوني» جيدا جدا، بالنظر إلى محدودية إمكانيات مادة «فيزيليكس». ولكن كانت تنقصه خاصية اللاسلكي - كان يتوجب عليك أن توصله بالكمبيوتر عن طريق كابل «يو إس بي USB» حتى تقوم بتحميل كتاب عليه - ولم تكن «سوني» تتمتع بموهبة بيع الكتب بالتجزئة. تم بيع مئات الآلاف من «قارئ سوني» - ويمكنك الآن أن تقرأ عليه نصف مليون كتاب مجاني من «جوجل Google» بصيغة «إيباب ePub» - ولكن من الغريب أن الناس تتجاهله.

بالإضافة لـ «سوني»، سارعت العديد من الشركات الأخرى لتطوير أجهزة مبنية على «فيزيليكس». كانت «أمازون» واحدة منها. فمنذ عام ٢٠٠٠ تطرح «أمازون» أنواعا مختلفة من الكتب الإلكترونية (تقرأ على شاشة الكمبيوتر) ولكنها لم تحقق نجاحا. فكما صرح «جيف بيزوس» لـ «شارلي روز Charlie Rose» في نوفمبر ٢٠٠٧ إبان طرح «كيندل١»: «لا أحد يشتري كتبا إلكترونية. إن التحول إلى الصفحة الرقمية لم يحدث. لماذا؟ لأن الكتب جيدة جدا، حسب قول «بيزوس». وقد أوضح أنها جيدة لأنها تختفي عندما تقرأها: «فأنت تصل إلى تلك الحالة من التدفق - كما أنه (وإن لم يذكر ذلك) باعه بسعر مخفض ليدرأ «سوني» عن التعدي على صناعة الكتاب ويربط المشترين بـ «أمازون» للأبد.

وهكذا، غامر مهندسو «بيزوس» - بما فيهم «جريج زير Gregg Zehr» الذي كان يعمل سابقا لدى «بالم Palm» و«آبل Apple» - بتصميم الجهاز. صرح «بيزوس» لـ «نيوزويك» في ذلك الوقت «هذا هو أهم شيء أنجزناه على الإطلاق. إنه طموح عظيم أن تأخذ شيئا متطورا جدا مثل الكتاب ثم تعمل على تحسينه».

ولكن «كيندل١» لم يكن تحسينا. كان تقليب الصفحات بطيئا وكانت تصاحبه ومضة من السواد عندما كانت الجسيمات الكروية الدقيقة تغوص في العقد المملوءة بالزيت قبل تكوين النص الجديد. كتب «جوزيف فايزنتال Joseph Weisenthal» على موقع paidContent.org: «الشيء الأول الملحوظ هو أن الشاشة لا تشبه قراءة ورق حقيقي. فهي ليست بنفس درجة السطوع، وهناك وهج في حالة ما إذا كان الضوء مباشرا أكثر من اللازم».

لم تكن المشكلة فقط في شاشة «فيزيليكس». كان تصميم «كيندل١» نكسة غريبة - عبارة عن كتلة من البلاستيك غير متناسقة للحمل باليد. كانت لوحة مفاتيحه تتكون من أزرار عديدة مستطيلة متراصة كأنها سيارات في ساحة للانتظار، وزر طويل لتقليب الصفحات شكا المئات من المستخدمين من أنه كان يجعلهم يقلبون الصفحات عن غير قصد عندما كانوا يحملونه. وقد ذكر أحد المعلقين ويدعى «كينك KenC» على موقع Silicon Alley Insider «بصراحة، كان الجهاز قبيحا وينتمي إلى حقبة بداية التسعينيات». وكانت التعليقات على موقع Engadget.com أكثر حدة على وجه الخصوص. كتب «ماركوس»: «يبدو وكأنه جهاز «تايمكس سنكلير Timex Sinclair» تم لصقه أسفل جهاز «بالم Palm» كبير الحجم من الجيل الأول». ووافقه «جوهان»: «هذا هراء قبيح». وسأل «جيروم»: «هل تم تصميم هذا الشيء اللعين بواسطة مجموعة من الجان المخمورين؟ ولخص «سي بي» الموضوع: «إنه فعلا شديد القبح. ياه. قبيح».

لم يرتدع فريق «أمازون» وروجوا لتسويق «كيندل١» في أواخر عام ٢٠٠٧. وكان الحظ في جانبهم. فقد أعلنت «أوبرا Operah» التي تم تسريب «كيندل» إليها قبل طرحه أنها مغرمة به. قالت «إنه الشيء المفضل لدى في العالم على الإطلاق. لقد غير حياتي». ولمواجهة التهديد، كثفت «سوني» من دعاياتها لـ «PRS-٥٠٠»، ولكنها لم تتمكن من المنافسة. فقد باعت «أمازون» جميع أجهزة «كيندل» قبل أعياد الميلاد عام ٢٠٠٧.

لابد أن قراءة آراء النجمة الواحدة حول الجهاز، والتي تراكمت على مدار عام ٢٠٠٨، كانت تجربة مؤلمة لمهندسي منتج «أمازون». ومع ذلك فقد واصلوا العمل لتجهيز النسخة المعدلة - تشذيب الحواف ومعالجة أكثر العيوب المادية الأكثر وضوحا. وقد جعلوا تقليب الصفحات أكثر سرعة بحيث أصبح الوميض الأسود أقل إزعاجا، كما جعلوا الشاشة تعرض ست عشرة درجة من اللون الرمادي بدلا من أربع، وهو تحسين أفاد إلى حد ما بالنسبة للصور الفوتوغرافية.



رغم التصميم الأكثر نعومة، يقول البعض أن «كيندل٢» أكثر صعوبة في القراءة من «كيندل١». كتب أحد المستخدمين ويدعى «تي فورد»: «لقد لاحظت على الفور أن التباين في «كيندل٢» كان أسوأ من «كيندل١». وبدأت إحدى المستخدمات «إليزابيث جلاس» التماسا على الإنترنت ترجو «أمازون» أن تصلح مشكلة التباين. وصرحت ملتمسة أخرى تدعى «لويز بوتر»: «كأنك تقرأ جريدة مبتلة».

كانت هناك مشكلة أخرى مع «كيندل- المعدل - الخبو. فقد اكتشف بعض المستخدمين (لم أكن من بينهم مع ذلك) أن الحروف تبدأ في الاختفاء عندما يقرأون في الشمس. واضطر القراء إلى الضغط على زري Alt-G عدة مرات لاستعادة الحروف. كتب أحد المستخدمين «وودي»: «كان اليوم هو أول يوم تسطع فيه الشمس، ولذلك أخذت «كيندل» إلى الخارج في الشمس، فشعرت بالخيبة لرؤيتي للنص يخبو في خلال ثوان (وخاصة بالقرب من مركز الشاشة). وقال مستخدم آخر «مارك»: لقد فحصت أربعة أجهزة «كيندل» حتى وجدت واحدا جيدا لا يخبو في ضوء الشمس. كان الأمر شجارا، ولكن «أمازون» لديها خدمة عظيمة لما بعد البيع».

بقيت «أمازون» مخلصة تماما لنظرية الحمل الكهربي. وقد أخبر «بيزوس» محللي الأسهم في أبريل «نعتقد أن القراءة هي نشاط هام بما يكفي لأن يستحق أداة تصنع خصيصا لهذا الغرض». في منتصف يونيو، طرحت «أمازون» - مستمدة التشجيع من رواج «كيندل٢» - جهازا أكبر هو «كيندل دي إكس Kindle DX» بحجم جهاز تليفزيون صغير. يستطيع «كيندل دي إكس» أن يقلب الصورة عندما تديره جانبيا. مثل جهاز «iPod Touch» (رغم أن حساسية نظام التوجيه بالقصور الذاتي به تجعل الصفحة أحيانا تدور عندما لا تريد أنت ذلك) كما يمكنك أن تستعرض عليه - ولكن دون خاصية التكبير أو التتبع - ملفات «PDF» غير المحولة. مرة أخرى أصيب المهندس المكلف بتصميم لوحة المفاتيح بنيران الرجعية المقدسة: وكانت النتيجة أزرارا مضغوطة مصفوفة بشكل حبوب الدواء تجمع مفاتيح الأرقام مع مفاتيح الحروف بالصف العلوي في شكل غريب غير متناسق. وقد وضعت برامج رائدة في العديد من الجامعات - بما فيها «برنستون Princeton» بهدف اختبار قدرات «كيندل دي إكس» كبديل للكتب الدراسية والنسخ الورقية من المواد الدراسية. وتقوم مؤسسة «High Meadows Foundation» بتمويل برنامج جامعة «برنستون» جزئيا، تحت شعار المحافظة على البيئة؛ وبالنسبة لـ «أمازون»، تعد تلك أيضا وسيلة لدخول السوق الواعد للكتب الدراسية، بجانب «بارنز آند نوبل» و«كينكو Kinko» وشركة تدعى «زانيدو XanEdu».

ولكن العصف الحقيقي بشأن «كيندل دي إكس» الجديد يتعلق بمصير الصحف. إن «كيندل دي إكس» يتيح من «فيزيليكس» أكثر من ضعف المساحة الموجودة لدى «كيندل٢» - حوالي نصف مساحة قطعة ورق من قياس صفحة الرسائل - وهي مساحة تكفي - كما يؤكد البعض - لجذب قراء الإنترنت للدفع مقابل نسخ رقمية من - على سبيل المثال - «تايمز»، مما يتيح إنقاذ الصحافة اليومية المطبوعة من الخراب المالي. وحسبما يذكر موقع «أمازون»، فإن «قراءة الصحف من خلال شاشة العرض الواسعة لـ «كيندل دي إكس» هي أكثر متعة من أي وقت مضى».

قدر «ويلكوكس» قيمة أعمال صناعة الصحف بمائة وثمانين مليار دولار سنويا، وقيمة نشر الكتب بثمانين مليار دولار إضافية



3500
كتاب في حقيبتك

ستكون ممتعة لو أنك تحب قراءة نسخ ماكينات تصوير المستندات. إن نسخة «كيندل» من «تايمز» (١٣.٩٩ دولار شهريا) تنقصها معظم الصور الرائعة للنسخة المطبوعة - وكذلك العناوين الفرعية والتنويهات وفخامة وتنوع الطباعة البديعة وقابلية التصفح ووصلات الإنترنت وقائمة أسماء المراسلين المشاركين وكذلك الغالبية العظمى من الرسوم والأشكال التوضيحية وخرائط الطقس وألغاز الكلمات المتقاطعة وملخص نتائج المباريات والبيانات المالية وكذلك - بالتأكيد - الإعلانات عن المجوهرات وملابس السباحة وأماكن قضاء الأجازات والمؤسسات الاستثمارية المستحوذ عليها حديثا. إن قرنا ونصف قرن من الجمال المتطور والتعبيرية المعلوماتية قد ذهبت أدراج الرياح فى تلك الأكذوبة الرقمية.

فى بعض الأحيان، تختفى مقالات كاملة ومساهمات فى المقال الافتتاحى. لقد اختفت من نسخة «كيندل»، أو على الأقل لم أستطع العثور عليها (رغم أنها متوفرة مجانا على موقع «تايمز» على الإنترنت) ثلاثة مقالات من عدد الثامن من يوليو ٢٠٠٩ من نسخة «تايمز» المطبوعة - هى مقالة «آدم ناجورنى Adam Nagourney» حول استقالة «سارة بالين Sarah Palin»، ومقالة «أليساندرا ستانلى Alessandra Stanley» عن جنازة «مايكل جاكسون Michael Jackson»، ومقالة «دافيد جونستون David Johnston» عن الحقوق المدنية للمعتقلين؛ وقد افتقدت نسخة «كيندل» بتاريخ ٩ يوليو تقرير النسخة المطبوعة عن شركاء السكن من الأعراق المختلفة فى المدن الجامعية ومعدلات عدم فاعلية حبوب الإجهاض. وقد قمت بالتدقيق ثانية يومى ٢٠ و٢١ يوليو: لقد غابت مقالة «فيرلين كلنكنبورج Verlyn Klinkenborg» فى مديح «والتر كرونكايت Walter Cronkite»، وكذلك مقالة طويلة عن الديانة الشامانية للمغول.

إن «كيندل دى إكس» لا ينقذ الصحف؛ بل أنه يقلصها وينتقص منها - إنه يقتل بهجتها. إنه يحولها إلى مدونات جادة ولكن يمكن الاستغناء عنها.

إن «أمازون» بارعة جدا فى بيع الأشياء، بالقوائم البديعة لمنتجاتها وبالتوصيات التى تكون موجهة أحيانا وبالآراء الخلابة العديدة. ولكنها ليست على نفس القدر من البراعة - حتى الآن على الأقل - فى صناعة الأشياء. ولكن إذا أردت قراءة كتب إلكترونية فهناك لحسن الحظ سبيل آخر أمامك. اشترى «iPod Touch» (يكلف سبعين دولارا أقل من «كيندل٢»، حتى بعد خفض سعر «كيندل٢» مؤخرا)، أو اشترى «iPhone»، وقم بتحميل تطبيق «kindle for iPod» عليه. عندئذ، عندما تستيقظ فى الثالثة صباحا وتحتاج إلى كلمات حزينة كبيرة مرتبة تتدفق ببطء إلى أعماق عقلك، ولا ترغب فى إيقاظ شريكك فى الفراش، فيمكنك مد يديك تحت الوسادة لتجد جهاز «آبل» الناعم وتقوم بتشغيله. إنه صامت تماما. امسكه على بعد بوصات قليلة من وجهك، مع تكبير الكلمات وضبط القضيب المنزلق لسطوع الشاشة على أدنى درجة، ثم اقرأ لمدة عشر أو خمس عشرة دقيقة. وكلما أردت تقليب الصفحة فقط حرك إبهامك فوقها، كما لو أنك تستعد لتوزيع ورقة لعب؛ عندما تفعل ذلك، سوف تنزلق الصفحة بعيدا وتظهر واحدة جديدة مكانها. بعد برهة، سوف تنجرف أفكارك وتذهب فى النوم. سوف تستيقظ بعد لحظة وتكتشف أنك ما زلت تمسك بالجهاز ولكنه قد أغلق نفسه. ضعه ثانية تحت الوسادة. ثم أكمل نومك.

فعلت ذلك مع رواية «جوزيف ميتشيل Joseph Mitchell» «قاع الميناء The Bottom of the Harbor» (١٣.٨٠ دولار لنسخة «كيندل»، و١٧.٢٥ دولار للنسخة الورقية). ورواية «حجر القمر Moonstone» لـ «ويلكى كولينز Wilkie Collins». إن دقة وضوح شاشة «iPod» هى عالية بشكل جيد، بنقاطها الـ ١٦٣ فى البوصة المربعة. (ومع ذلك، من الممكن أن تكون أعلى من ذلك كثيرا. لقد توصلت إلى الاعتقاد بأن كثافة النقاط العالية - وليس السطح العاكس - هو ما يحتاجه الناس عندما يقرأون النشر الإلكترونى). هناك أيضا طرق أخرى لقراءة الكتب على «iPod». والطريقة المفضلة لدى هى تطبيق «يوكاليبتوس Eucalyptus» من إنتاج مطور برمجيات سكوتلاندى يدعى «جيمس مونتجومرى James Montgomerie": ففى مقابل ٩.٩٩ دولار، تحصل على أكثر من ٢٠ ألف كتاب متاح مجانا ويتم تقليب صفحاتها بأناقة مبهجة. وهناك أيضا برنامج «قارئ الأيسبرج Iceberg Reader» من شركة «سكرولموشن ScrollMotion» بأرقام صفحات ثابتة. وهناك تطبيق شائع جدا يسمى «ستانزا Stanza». وبإمكانك - مع «ستانزا» - اختيار ألوان الكلمات والصفحة، وكذلك ضبط درجة السطوع أثناء القراءة بواسطة رافعة إبهامية عمودية. ويأخذك «ستانزا» إلى «Harlequin Imprints» و«Fictionwise» و«Book Store» و«Oص Reilly Ebooks» و«Feedbooks» وعدد آخر من الكتالوجات. وقد قام مليون شخص بتحميل «ستانزا». (فى الحقيقة أن «ستانزا» هو جيد إلى درجة أن «أمازون» اشترت لتوها شركة «ليكسايكل Lexcycle» التى تقوم بتصنيع البرنامج؛ وفى الوقت نفسه، قامت «بارنز آند نوبل» القلقة بشراء شركة «فيكشنوايز Fictionwise».



ينتشر فى العالم أربعون مليون من أجهزة «iPod» و«iPhone»، ومعظم الناس لا يقرأون الكتب عليها. ولكن بعضهم يفعل. واللطيف فى تلك الأجهزة أنها - أولا - جميلة، و- ثانيا - لا تقلد شيئا آخر. إنها لا تحاول أن تكون حبرا على ورق. إنها تشبع حاجة القراءة الليلية التى لا يلبيها «كيندل» عديم الضوء. ومقطع الزنابير فى «هل تفكر الحشرات؟» هو ممتع مرة ثانية على «iPod».

إن الطبعة الورقية من «محامى لينكولن» (٧.٩٩ دولار لدى «شيرمان» فى «فريبورت») تحتوى على غلاف أخضر ساطع عليه صورة مشوشة لسيارة على الغلاف الأمامى. ويظهر على الكتاب «MICHAEL CONNELLY» بحروف أرجوانية معدنية ضخمة، وعلى الغلاف الخلفى، هناك حزام أرجوانى: «رقم ١ على قائمة نيويورك تايمز لأفضل المبيعات». وعلى الغلاف الخلفى «حبكة تتحرك مثل طلقة من مشروب «ريد بول Red Bull». إنه براق وجديد ومناسب ويتمتع بالبساطة الهرمونية المثيرة للبابة والصمغ. عندما تقرأ الكتاب ينفتح أمام عينيك وتشعر وكأنك فى داخله. لقد استحوذت على النسخة المطبوعة من «محامى لينكولن». فى المساء، تحولت إلى النسخة الإلكترونية من الكتاب على «iPod» (٧.٩٩ دولار من منفذ بيع «كيندل») حتى أتمكن من الاستمرار فى الظلام. بدأت فى تقليب الصفحات الدقيقة للـ «iPod» أسرع وأسرع.

ثم أجبرت نفسى - من منطلق الإحساس بالواجب - على قراءة الكتاب على «كيندل٢». كان الأمر أشبه بالانتقال من سيارة «مينى كوبر Mini Cooper» (سيارة بريطانية ضيقة جدا. المترجم) إلى سيارة «إمبالا Impala» (سيارة أمريكية واسعة جدا. المترجم) موديل ١٩٨٢ وذات أجهزة امتصاص صدمات تالفة. ولكن لا يهم: عند تلك النقطة، كنت قد اندمجت فى حبكة الرواية ولم يعد شىء يهم. للعجب، أحسست وكأن «كيندل» قد اختفى. تماما كما وعد «جيف بيزوس». بدأت أمشى ذهابا وإيابا فى طريق خاص، أقرأ فى الشمس. كانت ثلاثة جزازات عشب تعمل بعيدا. وكان شخص يرتدى قميصا وردى اللون يرش بخرطوم عبر الشارع. ولكنى كنت فى قاعة المحكمة استمع إلى شهادة القاتل. شعرت بفضول طفولى شديد لا يقاوم فى معرفة كيف ستسير الأمور.

بدأت فى الضغط على زر «الصفحة التالية» بلهفة متزايدة لدرجة أن عادتى فى تقليب الصفحات، والتى اكتسبتها عبر أعوام من القراءة - وهى مد يدى إلى ركن الصفحة مبكرا قليلا للاستعداد لقلبها - عاودتنى بلا وعى. فكنت أضغط على زر «الصفحة التالية» بمجرد وصولى إلى بداية السطر الأخير، وكانت الصفحة تومض بالسواد وتتغير قبل أن أقرأها بالكامل. كنت أحاول أن أتعجل «كيندل». لا يجب أن تتعجل «كيندل». ولكن هيهات. لم أهتم بذلك. كان قضيب قياس التقدم بالأسفل يشير إلى أننى أنجزت ٩١٪. كنت عند السطر ٧٥٤٧. كنت أطير. فكرت: إن اللون الرمادى جيد. فى النهاية، وصلت للمقطع الأخير. كان بعنوان «بطاقة بريدية من كوبا». أطلقت تنهيدة طويلة ساخرة. قرأت الإهداءات والفقرة عن المؤلف - يعيش «مايكل كونيللى» فى فلوريدا. إنه رجل طيب. وصل مؤشر التقدم الصغير إلى ٩٩٪. ضغطت على زر «الصفحة التالية». فظهر غلاف الكتاب ثانية. ضغطت مرة أخرى، ولكن لم تكن هناك صفحة تالية. لقد وصلت روايتى الأولى على جهاز «كيندل» إلى نهايتها. ■

إن «أمازون» بارعة
جدا فى بيع الأشياء،
ولكنها ليست على نفس القدر من البراعة.
حتى الآن على الأقل -
فى صناعة الأشياء



عودة نظام توظيف الأموال

وعمليات النصب المالية

ما هو نشاط توظيف الأموال؟ وما هى آلياته وكيف يعمل؟ وما هى عوامل استمراره وانهياره؟ وما هى العوامل التى دفعت إلى عودته مرة أخرى بعد اختفائه فى التسعينيات من القرن الماضى؟



عمرو محيى الدين

■ يبدو أن نشاط توظيف الأموال، وعمليات النصب، والغش المرتبطة به قد بدأ يطل برأسه من جديد على الساحة الاقتصادية المحلية، فبعد أن تصورنا أنه قد اختفى تماماً بعد مواجهته فى عقد التسعينيات وظهور قانون توظيف الأموال، عاد هذا النشاط الملعون مرة أخرى ليؤكد أن اختفاءه لم يكن حقيقة بل تصوراً ووهماً، إذ كان النشاط موجوداً طوال الوقت، ولكنه ساكن وخامد ينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض وامتصاص مدخرات القطاع العائلى.

وقد عاد نشاط توظيف الأموال من جديد، وما ينطوى عليه من نصب، وما يقوم عليه من غش واحتيال بحجم يفوق جميع التوقعات، ويكفى للدلالة على ذلك أن نشير وبسرعة إلى بعض القضايا التى حققت فيها ومازالت تحقق فيها نيابة الشئون المالية والتجارية خلال النصف الثانى من العام ٢٠٠٧، والعام ٢٠٠٨، والشهور الأولى من العام ٢٠٠٩، وإذا كانت بعض المصادر تشير إلى أن عدد القضايا التى حققت فيها نيابة الشئون المالية خلال الأشهر الستة الأولى من عام ٢٠٠٨ قد فاقت عدد ٢٠٠ قضية فإننا سوف نشير هنا فقط إلى تلك القضايا التى أشارت إليها وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة.

فهناك أولاً قضية «ع. ك» الذى عرف بنصاب الجيزة التى زادت الأموال التى استولى عليها من عملائه ما يزيد على ٣٠٠ مليون جنيه مصرى، كما تخطت عدد سنوات السجن التى حكم عليه بها خمسمائة عام. كما نذكر على سبيل المثال نصاب المنصورة «أ. م» صاحب محلات الملابس الجاهزة، والذى بلغ حجم المبالغ التى استولى عليها من عملائه والمودعين لديه ما يزيد على نصف مليار جنيه، حيث اتسعت قاعدة زبائنه وتنوعت لتشمل بعض مشاهير الفنانين ولاعبى كرة القدم وفريق كرة اليد فى أحد النوادى الرياضية الكبيرة، كما تضم قائمة عملائه باقة من رجال الأعمال. وتجدر الإشارة هنا أيضاً إلى قضية «ص. ص» بمركز الباجور منوفية اللذين جمعا أموال ضحاياهما بحجة المتاجرة فى السلع الإلكترونية والكهربائية، وإن نسينا فلا ننسى ذكر نصاب مدينة نصر أو من عرف بريان مدينة نصر «إ. ر. أ. ج» الذى بلغ حجم الأموال التى جمعها من عملائه عبر فترة ممتدة من الزمن حوالى مليار جنيه، واتسعت قاعدة عملائه وتنوعت. وأذكر هنا قضية «ت. ع» وهو النصاب الذى هرب تاركاً زوجته بمفردها لتجابه الموقف، وقد بلغ به السفه والاستهتار بأموال مودعيه أن زوجته كانت تصنع شموع تورتة - كعكة - عيد ميلادها مستخدمة أوراق البنكنوت فئة الخمسين أو المائة جنيه كما ظهر من الصور التى أذاعتها قناة دريم فى برنامج الحقيقة.

كما نود أن نشير إلى قضايا توظيف الأموال من خلال الإتجار فى كروت شحن المحمول، والتى تم القبض فيها على «م. ع» وهى معدة برامج فى التليفزيون، وشقيقها مدرس الثانوى اللذين جمعا أموالهما من أهالى إمبابة لتوظيفها فى كروت الشحن، كما هو الحال مع نصاب الخانكة وطوخ الذى جمع أموال مودعيه بحجة توظيفها فى كروت شحن المحمول.

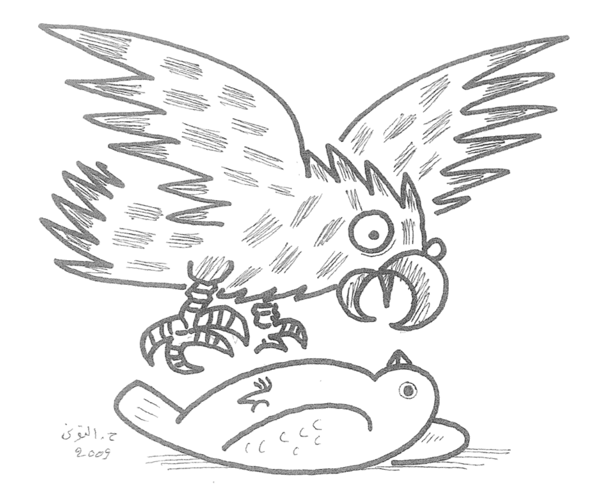
وأخيراً وليس آخراً تأتى قضية نبيل البوشى، والتى كان محورها شركة «أوبتيما» للأوراق المالية، والتى صدرت الأحكام بشأن هذه القضية مؤخراً.

هذه الحقائق والوقائع التى لا ينكرها أحد تطرح علينا التساؤلات الآتية:

- ما هو نشاط توظيف الأموال؟ وما هى آلياته وكيف يعمل؟ وما هى عوامل استمراره وانهياره؟
- ما هى العوامل التى دفعت إلى عودته مرة أخرى بعد اختفائه فى التسعينيات من القرن الماضى؟
- ما هى سلوكيات المشاركين فى هذا النظام - توظيف الأموال - وتلك الآلية سواء تعلق الأمر بسلوك أصحاب الفكرة والمنظمين لهذه الآلية - المجرمون - أو المشاركين فيه - الضحايا؟
- ما هى جذور هذا النشاط؟ ومتى بدأ تاريخياً؟ وما هى سماته؟ ولماذا يختفى ليعود من جديد؟

من هو بونزى وما هى آلياته؟

لقد كان أول من شد اهتمامى لآلية نشاط توظيف الأموال كتاب «كندلبرجر» أستاذ الاقتصاد بمعهد «ماساتشوستس للتكنولوجيا» بالولايات المتحدة، وهو كتاب يتناول تحليل الأزمات المالية وخصائصها ونمطها منذ القرن السادس عشر حيث بدأت الأزمة المالية الأولى وهى أزمة «التيوليب» فى هولندا، وعنوان الكتاب هو «هوس فهلع فانهيار»، وقد حاول هذا الكتاب تطبيق نموذج «هيمان مينسكى» فى الأزمات المالية وانتهى، إلا أن هذا النموذج هو النموذج الوحيد القادر على تفسير هذه الأزمات بل تكاد تتطابق مراحل آليات هذه الأزمات عبر التاريخ. وفى الفصل الخامس من كتاب «كندلبرجر» وعنوانه «الغش - Swindle» أشار «كندلبرجر» إلى حالات الغش والنصب والاحتيال التى تأتى مصاحبة للأزمات المالية سواء فى حالة صعودها أو انهيارها، ولعل من أشهر حالات الغش والنصب هذه ما يعرف الآن بنشاط توظيف الأموال.



ولقد أشار إليه كل من «كندلبرجر» و«مينسكى» تحت عنوان «نظام بونزى ponzi "Scheme» أو آلية بونزى أو نظام بونزى «ponzi "system» أو حسابات بونزى «ponzi Accounts»، وذلك إشارة إلى ذلك الشخص الذى ارتبط هذا النظام باسمه منذ عشرينيات القرن الماضى، ومنذ ذلك الحين. أى منذ العشرينيات من القرن الماضى - تجرى الإشارة إلى هذا النوع من النشاط، وما يرتبط به من غش وتدليس ونصب تحت عنوان «آلية بونزى» وتشير إليه أغلب كتب ومذكرات التمويل تحت هذا الاسم «آلية بونزى» وكان على أن أستشير قاموس مصطلحات الأعمال الشهير لمؤسسة بارون والأهم هو البحث تحت عنوان «آلية بونزى» فى القاموس الاقتصادى «بلجراف» الخاص بمجال البنوك والتمويل ويتمثل نظام بونزى «Ponzi System» فى خلق أى كيان مؤسسى يقوم بتلقى الودائع من الأفراد مع وعد بدفع عائد، أو سعر فائدة مرتفع للغاية يفوق العائد الجارى أو سعر الفائدة السائد فى السوق علىٍ أن يتم دفع الفائدة المرتفعة فعليًا للمودعين القدامى من ودائع المودعين الجدد فى حين يعيش المحتال عيشة فاخرة من الودائع القديمة، ويمكن تعريف نشاط توظيف الأموال بأنه: أى نشاط استثمارى أو فرصة استثمارية غير حقيقية يتم دفع العائد للمشتركين القدامى من أموال المشاركين الجدد. وبطبيعة الحال ينهار النظام وتتداعى تلك الآلية إذا تراجعت المشاركات أو التدفقات الجديدة، بحيث لم تعد تكفى لدفع عائد المشاركين أو المودعين القدامى، أو إذا سحب المودعون ودائعهم... إلخ. ولكن طالما أن النصاب قادر على إقناع مشتركين جدد بالمشاركة فى النظام بحيث تكفى المشاركات الجديدة لدفع العائد المرتفع للمشاركين القدامى فلا توجد مشكلة فى استمرار الآلية إلى أمد بعيد وعبر فترة زمنية طويلة.

ضمان استمرارية «آلية بونزى» إنما يتمثل إذا فى التدفق المستمر غير المنقطع لأعضاء جدد أو قادمين جدد إلى داخل النظام.

وتتشابه «آلية بونزى Ponzi» مع نظام «التمويل الهرمى» أو «الآلية الهرمية» «Pyramid Scheme»، وهو ما سوف نعود إليه فيما بعد عند شرح هذه الآليات وتلك النظم، وقد حاول «مينسكى» من جانبه أن يوسع من مفهوم «آلية بونزى» لتشمل حالات أخرى، على سبيل المثال حالة القرض المستمر، وهو سداد قرض قديم عن طريق قرض جديد، أى سداد الأصل والفوائد لقرض قديم عن طريق التعاقد على قرض جديد وتتمثل حالة «مينسكى» أن المدفوعات النقدية المطلوبة لسداد القرض تتم من خلال زيادة رصيد القرض القائم، هذه القروض لا تستند إلى أصول حقيقية أى أنها غير مضمونة بأصول حقيقية ولكنها مضمونة بديون أو قروض مستقبلية، وهذا هو القرض المستمر. ولكننا سوف نلتزم بالمفهوم التقليدى والشائع وهو دفع عائد وفوائد استثمارات قديمة غير حقيقية من المشاركات فى استثمارات جديدة، ولا ننسى هنا أن بونزى سنة ١٩٢٠ وقد وعد عملاءه بسعر فائدة نسبته ٥٠٪ على ودائع لمدة ٤٥ يومًا قام بدفعها فعلاً حسب وعده ولكن النظام انهار فى النهاية، فمن هو «بونزى» هذا؟ وما هى قصته؟

نشأة بونزى وحياته

هو «تشارلز كارلو بونزى» «Charles Ponzi» ولد فى بارما بايطاليا عام ١٨٨٢، وعمل فى صغره فى إدارة البريد، ثم قبل بعد ذلك فى جامعة لاسبانيزا بروما، وخلال فترة الحياة الجامعية التى لم يهتم بها كثيرًا واعتبرها فترة إجازة. وهو المفهوم الذى كان سائدا بين أصدقائه وشلته من أولاد الذوات فى الجامعة. على الرغم من تواضع نشأته وانتمائه للشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى، وسرعان ما ترك الحياة الجامعية قبل استكمال دراسته واشترى تذكرة سفر على الباخرة الأمريكية «فانكوفر» المتجهة إلى بوسطن «بولاية ماساتشوستس».

وصل «بونزى» إلى الولايات المتحدة عام ١٩٠٣، يحمل فى جيبه دولارين وخمسين سنتًا، حيث خسر بقية أمواله فى لعب القمار على الباخرة من الأشغال والمهن فى الساحل الشرقى، حيث استقر فى مهنة «غاسل للصحون» فى أحد المطاعم الشهيرة، حيث كان يسمح له بالنوم ليلاً على أرضية المطعم، وقد نجح فى تحسين أوضاعه حيث رقى إلى وظيفة «نادل»، ولكنه فصل من عمله نظرًا لتلاعبه المالى مع بعض الزبائن.

وفى عام ١٩٠٧ انتقل «بونزى» إلى مونتريال بكندا وعمل كموظف على الشباك الجوشيه teller فى أحد البنوك التى نشأت حديثًا وهو «بنك زاروسى» Banco Zarossi والذى أنشأه «لويجى زاروس» لخدمة المهاجرين الإيطاليين إلى كندا وبصورة خاصة مونتريال. وبلغ سعر الفائدة الذى دفعه زاروس ٦٪ على الحسابات المصرفية وهو ضعف سعر الفائدة السائد فى ذلك الوقت، ولعل ذلك



زوجة أحدهم كانت تصنع شموع تورتة - كعكة - عيد ميلادها مستخدمة أوراق البنكنوت فئة الخمسين أو المائة جنيه



هو ما أدى إلى سرعة نمو البنك، وقد اكتشف «بونزى» أن البنك يعانى من مشاكل التعثر نتيجة لرداءة بعض القروض العقارية، كما اكتشف أن «زاروس» يدفع الفوائد على الودائع لا من خلال الأرباح المتولدة منه أو العائد على الاستثمارات ولكن عن طريق استخدام نقود الودائع والحسابات الجديدة. وقد أفلس البنك فى النهاية وهرب «زاروس» إلى المكسيك وبصحبته نسبة لا بأس بها من أموال البنك.

واستمر «بونزى» فى البقاء فى مونتريال لمدة زمنية محددة، حيث أقام فى منزل «زاروس» محاولاً مساعدة أفراد أسرة «زاروس» الذين تخلفوا فى مونتريال وكان خلال هذه الفترة يعانى من العجز المالى الشديد، وكان يحاول التخطيط للعودة مرة أخرى إلى الولايات المتحدة الأمريكية والبدء من جديد. وخلال هذه الفترة دخل «بونزى» إلى مكاتب أحد العملاء السابقين «لبنك زاروس» ولما وجد المكاتب خالية استخدم أحد دفاتر الشيكات وكتب لنفسه شيكًا بمبلغ ٤٢٣ دولارًا، حيث قام بتزوير إمضاء مدير الشركة، وقد اعترف بجريمته أمام البوليس، خاصة حينما واجهه البوليس بالقفزة الكبيرة فى إنفاقه على الكمبيالات، وقد ترتب على ذلك أن دخل السجن، حيث حكم عليه بثلاث سنوات أمضاها فى سجن «كويبل»، وكان السيد «بونزى» هو السجين رقم ٦٦٦٠ وبدلاً من القيام بإبلاغ أهله فى إيطاليا بهذه التطورات كتب إلى والدته ليخبرها أنه أخيرًا حصل على وظيفة مساعد خاص لمدير سجن «كويبل» وفى أعقاب الإفراج عنه فى عام ١٩١١ قرر العودة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنه اشترك فى منظمة لتهريب العمالة الإيطالية المهاجرة وعبر الحدود والمخالفة للشروط القانونية، وقد تم القبض عليه فى أطلانطا، حيث أمضى بسجنها عامين كاملين، وفى هذا السجن أصبح مترجمًا لكبير الحراس فى السجن. وكان رئيس الحراس يحاول قراءة خطابات أحد قواد المافيا الإيطالية المسجون بسجن أطلانطا.

نظام أو آلية بونزى

حينما أفرج عن «بونزى» شد رحاله مرة أخرى إلى بوسطن، وهناك التقى بتلك الفتاة الإيطالية «روز جينكو» التى جذبتها شخصية «بونزى» بكل مكوناتها، وعلى الرغم من أن «بونزى» لم يبلغ «روز» بالفترة التى أمضاها بالسجون الأمريكية والكندية، فقد تكفلت والدته بهذه المهمة، مع ذلك زاد إصرار «روز» على التمسك بـ «تشارلز بونزى» حيث تزوجا عام ١٩١٨، وفى الأشهر التالية لزواجه عمل فى عدة وظائف متنوعة ومتفرقة قبل أن يدخل مجال الإعلان بفكرة عمل مجلة إعلانية تمول ذاتيًا بواسطة وحدات الأعمال، وترسل إلى الشركات العاملة فى القطاعات المختلفة. ولم تلق الفكرة رواجًا فى ذلك الوقت، ولكن بعد مرور عدة أسابيع تلقى «بونزى» خطابًا من إحدى الشركات الإسبانية متسائلة حول الكتالوج الإعلانى ووضعت الشركة داخل المظروف المرسل إلى «بونزى» كوبون يعرف باسم الكوبون الدولى للرد International Postal Reply Coupon (IRC) وهو شىء لم يره «بونزى» من قبل. وقد تساءل عنه «بونزى» ووجد أنه ينطوى على نقاط ضعف معينة تسمح له بكسب أموال لم يكن يتوقعها كما تمثل مصادر دخل لم تكن فى الحسبان.

وهدف «كوبون الرد الدولى» هو السماح لأى فرد أو مؤسسة - أى كيان مؤسسى - فى دولة معينة بإرساله إلى مراسل هذا الفرد أو تلك المؤسسة فى دولة أخرى لاستخدامه فى دفع مقابل رسوم بريد الرد أى استخدامه كبديل لطابع بريد يستخدم فى الرد. ففى الخطابات والمراسلات داخل ذات الدولة أى داخل الدولة الواحدة فإن استخدام طوابع البريد المحلية تكفى للوفاء بالغرض، ولكن طوابع البريد المحلية فى دولة لا يمكن استخدامها فى دولة أخرى. الكوبونات الدولية للرد (IRC) يتم تسعيرها على أساس تكلفة البريد فى دولة الشراء - شراء طابع البريد -، ولكنه يمكن مبادلتها بطوابع بريد لتغطية تكلفة البريد فى دولة الاستخدام أو الاستحقاق، إذا اختلفت هذه القيم أو هذه الأسعار فإن عملية المبادلة تنطوى على ربحية.

وقد ترتب على التضخم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى تخفيض نفقات البريد فى إيطاليا إلى حد كبير وذلك مقومًا أو معبرًا عنه بالدولار الأمريكى، بحيث انه يمكن شراء كوبون دولى للرد رخيص جدًا فى إيطاليا ويتم مبادلته بطوابع بريد فى الولايات المتحدة بقيمة أعلى وتسير العملية على النحو التالى:

- ارسل نقودًا إلى الخارج.
- كلف مراسليك بشراء كوبونات دولة للرد.
- ارسل الكوبونات الدولية للرد إلى الولايات المتحدة الأمريكية.
- قم بمبادلة الكوبون الدولى بطوابع بريد بقيمة أعلى.
- قم باستخدامه أو بيع طوابع البريد.

ولقد ادعى «بونزى» أن الأرباح من هذه العملية بعد التكلفة وسعر الصرف تفوق نسبة ٤٠٠٪ وكان هذا نوعا من الـArbitrage وهو المرابحة أى الشراء بسعر مخفض والبيع بسعر أعلى وهو ما ليس مخالفًا للقانون، وقد لاحظ بونزى أن كوبون البريد قد تم شراؤه فى إسبانيا بحوالى سنت واحد بالعملة الأمريكية ولكن حينما تم تحويل هذه الكوبونات إلى طوابع فى أمريكا كان قادرًا على الحصول على ستة طوابع بريدية سعر الطابع سنت واحد. وبدأ فى التفكير فيما يمكن أن يترتب على ذلك، تصور أنك تشترى طوابع بريدية فى إسبانيا قيمتها ١٠٠ دولار أمريكى وأنك تحاول تحويلها إلى طوابع بريد أمريكية فتكون قيمة الطوابع الأمريكية التى تم التحويل إليها ٦٠٠ دولار أمريكى، فإذا قمت ببيع هذه الطوابع إلى طرف ثالث أو قمت بتحويلها إلى نقود فإنك تحصل على ٦٠٠ دولار أمريكى.

وقد حاول «بونزى» خلق نظام للكسب السريع والوفير من خلال بيع طوابع البريد الدولية وتحويلها إلى

كان النشاط موجوداً طوال الوقت، ولكنه ساكن وخامد ينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض وامتصاص مدخرات القطاع العائلى







ذكاء «بونزى» لم يسعفه، فقد خلق نظامًا كان ولابد إن آجلاً أو عاجلاً سينهار

طوابع بريد محلية، ولكنه لم يكن قادرًا على تحريك هذا النظام بالكفاءة المطلوبة مما أدى إلى فشله، ويرجع هذا الفشل إلى أن إدارة البريد جزء من الجهاز الحكومى، وهو ما أخضعه للإجراءات الروتينية والبيروقراطية المعقدة، هذا بجانب التراخى والتعطيل المرتبطين بعملية تحويل العملة، حيث أدت هذه العوامل إلى استيعاب الجزء الأكبر من أرباح «بونزى». إلا أن هذا الفشل لم يكن ليحول دون دخول «بونزى» فى مشروع جديد ونظام وآلية جديدة.

آلية بونزى الجديدة

فى ٢٦ ديسمبر ١٩١٩ قدم بونزى طلبًا إلى كاتب المدينة لإقامة وحدة أعمال جديدة أطلق عليها «شركة تبادل الأوراق المالية Security Exchange Company»، وذلك للترويج لآليته أو نظامه، فقد وعد عملاءه بسعر فائدة - عائد - نسبته ٥٠٪ فى مدة تسعين يومًا، بل زاد على ذلك إذ أعلن عن استعداده للوفاء بالتزاماته فى ٤٥ يومًا، وهذا معناه باختصار شديد «ضاعف نقودك كل تسعين يومًا»، ولقد انتشرت القصة وبسرعة شديدة حول فكرة بونزى الجبارة، وخلال عدد قليل من الشهور امتدت طوابير المشاركين والمودعين أمام مكتبه فى بوسطن، حيث قام الآلاف من المواطنين بشراء السندات الاذنية لبونزى بقيمة تتراوح بين ١٠ آلاف و٥٠ ألف دولار. وهكذا استثمر البعض وحصلوا على العائد الذى تم الوعد به وهذه النقطة جوهرية فى نظام «بونزى» ألا وهو المستثمرون الأوائل فهم الذين يحددون نجاح الآلية من عدمها نتيجة لمارستهم الفعلية فى الآلية وهكذا بدأت تزداد الطلبات على «بونزى» للمشاركة فى نظامه، ففى مارس ١٩٢٠ كان قد حقق ٣٠ ألف دولار، وفى مايو ١٩٢٠ بلغ ما تم الحصول عليه من ودائع ٤٢٠ ألف دولار، وبدأ «بونزى» فى إيداع أمواله فى «بنك هانوفر ترست Trust Bank Hanover»، على أساس أنه عند بلوغ حجم معين من الودائع فإنه يستطيع فرض إرادته على البنك، وفى يوليو ١٩٢٠ وصلت أموال وودائع «بونزى» إلى الملايين وبدأ الناس فى رهن منازلهم واستثمار مدخرات حياتهم فى مشروع «بونزى» واتجهت رغبة أغلب المستثمرين إلى عدم قبض أرباحهم بل اتجهوا نحو إعادة استثمارها إيمانًا ببونزى ومشروعه. وطالما أن التدفقات الجديدة قادمة وبسهولة فإنه يمكن دفع العائد للمستثمرين القدامى. فطالما كانت التدفقات النقدية قادمة فإنه يمكن دائمًا دفع العائد للمستثمرين الحاليين ولكن على أساس مخاطر رهيبة كامنة متمثلة فى تراكم الالتزامات على النظام البونزى.

وقد عاش «بونزى» عيشة الملوك وكبار الأثرياء، حيث قام بشراء الحلى الفاخرة لزوجته وشراء قصر فى بوسطن بحمام سباحة مكيف الهواء والماء وأحضر والدته من إيطاليا فى إحدى كبائن الدرجة الأولى بأكبر باخرة تسير عبر المحيط الأطلنطى. والأكثر من ذلك أن «بونزى» عومل كأحد أهم الأبطال والمشاهير كلما ذهب، حيث يتهافت المواطنون للسلام عليه والتحدث معه وتحيته.

الشك والانهيار

لكن الثراء السريع يجذب انتباه السلطات وقد بدأ الشك فى مدى تماسك «بونزى» وبدأت بعض المؤشرات تؤكد أنه سوف ينهار إن آجلاً أو عاجلاً، فقد تقدم أحد تجار الأثاث برفع قضية أمام المحاكم مطالبًا «بونزى» بدفع قيمة أثاث قام هذا التاجر بتوريدها لبونزى ولكنه تأخر عن الدفع وهو ما يشير إلى معاناة «بونزى» من السيولة اللازمة لشراء بعض السلع وامتناعه عن السداد. وقد بدأ ذلك يثير بعض الشكوك لدى عملائه وزبائنه، ولم تنجح هذه القضية، ولكنها تركت أثرًا متمثلاً فى بدء تساؤل العامة - الجمهور - والخاصة - المشاركين فى النظام - حول كيفية استطاعة «بونزى» فى زمن قصير نسبيًا التحول من حالة الفقر الشديد إلى هذا الغنى الفاحش، وقد دفع ذلك بعض المودعين إلى سحب ودائعهم والتخلص من سنداتهم، وقد قام «بونزى» بدفع مستحقاتهم وبروح طيبة وشجاعة بحيث توقفت تمامًا عملية السحب من الودائع والهروب من شركة «بونزى»، بل على العكس عادت مرة أخرى طوابير المودعين والمستثمرين. ولكن هذه الحقيقة لم تحل دون قيام بوسطن بوست الجريدة اليومية بتكليف أحد أمهر محرريها ببحث هذا الموضوع والوصول إلى أعماق أسرار «بونزى»، كذلك بدأ التحقيق بواسطة المحامى العام المحلى ومساعدين وكان ضمن هؤلاء أحد وكلاء النيابة الذى كان على قناعة تامة بأن هناك خطأ ما وعيبا أساسيا كامنا فى نظام «بونزى». وقد بدأت النيابة العامة فى بحث ملفاته ولكنه حاول لكى يحول دون فحص دفاتره المحاسبية أن يوجه الأنظار وجهة أخرى إذ قدم عرضًا باستعداده للتوقف عن تلقى الودائع طوال فترة التحقيق وهو ما قبلته سلطة التحقيق وأجلت إلى حين فحص دفاتره.

وخلال هذه الفترة كانت هناك محاولات لبونزى للخروج من هذه المصيدة الذهبية التى شيدها لنفسه، ولكن الزمن - الوقت - لم يكن فى صالحه، ففى ٢٦ يوليو بدأت جريدة بوسطن بوست كتابة سلسلة من المقالات طرحت فيها عددًا من الأسئلة الصعبة حول نظام وآلية بونزى واستعانت الجريدة بأحد مشاهير المحللين الماليين ألا وهو «كليرنس بارون» - صاحب جريدة ومؤسسة «بارون» فيما بعد - لفحص آلية ونظام بونزى، إذ لاحظ «بارون» أن «بونزى» بالرغم من دفعه عائدًا عاليًا للاستثمار لم يكن يستثمر فى شركته، هذا بجانب أن «بارون» أكد فى تحليله أنه لكى يتم تغطية الاستثمارات التى تقوم بها شركة «بونزى» لتبادل الأوراق المالية فإن ذلك يعنى وجود حوالى ١٦٠ مليون طابع «بريد دولى للرد» فى التداول، فى حين أن حجم

عاش «بونزى» عيشة الملوك وكبار الأثرياء، حيث قام بشراء الحلى الفاخرة لزوجته وشراء قصر فى بوسطن بحمام سباحة مكيف الهواء والماء





الطوابع الدولية للرد المتداولة بلغ ٢٧٠ ألف كوبون - أى طابع بريد دولى.

ولا شك أن العائد على تداول طوابع البريد الدولية للرد عاليًا للغاية، إلا أن حجم المتداول منها كان قليلاً نظرًا لارتفاع تكلفة البنية الأساسية اللازمة لضمان كفاءة هذا النظام، بالإضافة إلى العقبات المتعددة أمام تنفيذه، ولعل أهمها ما يتعلق بالقيود والإجراءات البيروقراطية باعتبار جهاز البريد جهازًا حكوميًا.

ولقد ترتب على هذه القصص المتداولة بشأن «نظام بونزى» تفشى الهلع وبالتالى حمى الخروج من شركة تداول الأوراق المالية من خلال بيع سنداتها وسحب ودائع عملائها. وكان بونزى حذرًا وذكيًا إذ قام بدفع ما مقداره ٢ مليون دولار أمريكى للجماهير المزدحمة خارج مركز الشركة وتوزيع أكواب القهوة وحلوى الدونت وهو ما أدى إلى استعادة ثقة الجمهور به مرة أخرى، مما دفع بعض عملائه على ترك ودائعهم لدى الشركة.

ولكن ذكاء «بونزى» لم يسعفه، فقد خلق نظامًا كان ولابد إن آجلاً أو عاجلاً سينهار، فقد تدفقت إلى شركته أموال طائلة ولكن على حساب زيادة مديونيته بشكل رهيب وكان التصرف الطبيعى لمجرم كـ «بونزى» هو إعادة توطين نشاطه خارج نطاق السلطات الأمريكية، ولكن الغريب فى الأمر هو استمراره حيث كان واستمر فى الدفع. فقد كان يريد أن يظهر بمظهر الرجل الشريف صاحب الجدارة المالية العالية وطبقًا لمذكراته فقد كان يأمل أن يوظف الثروة التى تراكمت لديه فى أنشطة شرعية ويحقق دخلاً يدفع به عائدًا لكل من وثق فيه واستثمر فى شركته، ومن الأفكار التى طرحها تتمثل فى شراء سفينة حربية بمبلغ ٣٠٠ مليون دولار وتحويلها إلى مجمع تجارى عائم، وهو ما من شأنه تحقيق نشاط تجارى ناجح يقوم على تسويق المنتجات وطنية المنشأ وهو ما يعتبر تأكيدًا للوطنية الأمريكية، وهذه الأفكار مثل كل مشاريع بونزى كان من المستحيل تنفيذها، فلو حدث وتكون لديه ما مقداره ٣٠٠ مليون دولار من نظامه الخرب الذى شيده فإن مديونيته كانت ستصل إلى الحدود التى تحول دون بيعه لسلعة واحدة من هذه السفينة.

وقد استأجر بونزى شركة من شركات الدعاية والإعلان وهى شركة «ماك ماستر»، ولكن ماك ماستر سرعان ما تكونت لديه الشكوك حول «نظام بونزى» وحول دور كوبونات البريد الدولية للرد وحوله التحقيقات التى تقوم بها سلطات المدعى العام فى بوسطن معه، وفى حوار أجراه مع جريدة بوسطن بوسط سمى «بونزى» بأنه «رجل مال عبيط»، وقد عرضت عليه الجريدة - بوسطن بوست - خمسة آلاف دولار مقابل القصة الكاملة لبونزى، وفى المانشيت الرئيسى للجريدة صبيحة يوم ٢ أغسطس كان العنوان «ملاءة بونزى محل شك كبير». وفى العاشرة من أغسطس هاجمت السلطات الفيدرالية شركة تداول الأوراق المالية لبونزى وأغلقتها بالشمع الأحمر، كما أغلق «بنك هانوفر ترست» أيضًا. واستمرت مقالات البوست، حيث ذكرت إحدى المقالات سجل «بونزى» فى السجون وسلوكياته فى كندا، وفى ١٣ أغسطس تم القبض عليه، وبلغ عدد المستثمرين مع «بونزى» حوالى ١٧ ألف مستثمر قاموا باستثمار ما يقرب من عشرات الملايين من الدولارات وخسر الكثيرون بل أغلبهم خاصة الذين أعمتهم الثقة فى «بونزى».

السجن وما بعده

فى الأول من نوفمبر ١٩٢٠ اعترف بونزى بجريمة الغش وحكم عليه بالسجن ٥ سنوات فى السجن الاتحادى، وقد أفرج عنه بعد ثلاث سنوات ونصف السنة ليواجه تهمًا أخرى. وقد ثبتت إدانته وحكم عليه بالسجن تسع سنوات، وفى أثناء ترحيله إلى سجن الولاية استطاع الهروب واتجه إلى فلوريدا، حيث أنشأ نشاطًا جديدًا غير شرعى لبيع الأراضى فى فلوريدا، حيث تم اكتشافه سريعًا بواسطة سلطات الولاية، وللمرة الثانية استطاع الهروب إلى تكساس، حيث قام بتغيير شكله ومظهره وحاول العودة إلى مسقط رأسه فى إيطاليا على متن إحدى البواخر المتجهة إلى أوروبا، ولكن قبض عليه وتم إرساله إلى سجن ولاية ماساتشوستس لقضاء فترة العقوبة. وقد حاولت السلطات بكل جهد كشف حقائق هذا النظام «نظام بونزى» ولكن دون جدوى. وفى سنة ١٩٣٤ أفرج عنه وتم ترحيله فورًا إلى إيطاليا، لأنه لم يكن قد اكتسب الجنسية الأمريكية بعد، وحينما ترك السجن واجهته جماهير غاضبة تريد الفتك به.

وقد انتقل بونزى فى إيطاليا من مشروع مالى إلى مشروع مالى آخر ولكن دون جدوى، واشتغل أخيرًا فى البرازيل كوكيل لشركة الطيران الإيطالية «ألالوتريا» وهى الخطوط الوطنية الإيطالية فى ذلك الوقت، ولكن السلطات البرازيلية أغلقت وكالة الخطوط الإيطالية لاكتشافها استخدام هذه الخطوط لنقل معدات استراتيجية إلى إيطاليا.

وقد أمضى بونزى السنوات الأخيرة من حياته فى حالة فقر شديد وتعرض لأزمة قلبية سنة ١٩٤٨ فى ريودى جانيرو وتوفى فى أحد مستشفيات الأعمال الخيرية بها.

وفى الختام يمكننا أن نتصور كيف يعمل نظام أو آلية بونزى فى الواقع:

يقوم المستثمر «أ» بإيداع ١٠٠٠ دولار لدى صاحب المشروع ومروج النشاط «س» بناء على وعد من «س» يدفع ١٠٠٠ دولار، بالإضافة إلى ١٠٠ دولار فائدة أو عائد فى نهاية ٩٠ يومًا، وخلال التسعين يومًا يقوم «س» بإقناع «ب» و«ج» بالمشاركة فى النظام، حيث يدفع كل منهما ١٠٠٠ دولار إلى «س». وفى نهاية التسعين يومًا قد يطرح «س» على «أ» أن يدفع له الـ ١٠٠ دولار ويرد إليه الأصل وهو الـ ١٠٠٠ دولار، إلا أن الأمر الأكثر احتمالاً هو أن «س» سوف يدعو «أ» إلى إعادة استثمار الأصل وهو ١٠٠٠ دولار، بالإضافة إلى الفائدة ١٠٠ دولار فى مقابل ذات العائد أو فى مقابل عائد أعلى فى نهاية التسعين يومًا الجديدة.

بعد ذلك يقوم «أ» و«ب» بناء على قناعاتهما بأنهما حصلا على عائد مجز بتجنيد مستثمرين أى مشاركين جدد فى المشروع. وبهذه الطريقة يستطيع «س» أن يجمع رصيدًا كبيرًا من الأموال يمكن أن يستخدمها فى دفع الأصل بالإضافة إلى العائد لهؤلاء الذين يرغبون فى الخروج من النظام. ويستطيع «س» أن يستمر لفترة زمنية طويلة يجمع خلالها أموالاً طائلة قبل إعلان انتهاء المشروع أو النظام إما عن طريق الاختفاء والهروب مع كل الأموال التى لديه أو عن طريق الإعلان أن الاستثمارات قد فشلت لأسباب تتعلق بطبيعة النشاط أو الاستثمار.

العوامل التى تدفع إلى نشاط توظيف الأموال واستمراره

أولاً: التضخم الجامح: فالتضخم هو غول يأكل القوة الشرائية للنقود ويدفع إلى تدهور الدخل الحقيقى ومن ثم فهناك ميل قوى نحو البحث عن مصادر بديلة للدخل.

ثانيًا: ضعف العائد فى الأوعية الادخارية المحلية المتاحة: مما يدفع المدخرين الصغار والمتوسطين إلى البحث عن بديل قوى وقت التضخم، مما قد يوقعهم فى مصيدة النصابين. صحيح أن هناك قنوات استثمارية متاحة ذات عائد أعلى قد يصل إلى ٥٪ شهريًا فى مجال الاستثمار المباشر مثل مصانع الملابس الجاهزة الصغيرة ومحلات البقالة ومصانع قطع الغيار، إلا أن هذه الاستثمارات لها متطلبات خاصة وتحتاج إلى فترة تفريغ ولا يستطيع القيام بها الأرامل وأصحاب



الدخول الثابتة من الموظفين والمدرسين الذين تراكم لديهم مدخرات من العمل فى البلاد العربية فى الخليج.

ثالثًا: النصب والطمع: أو كما يقول البعض إذا التقى نصاب مع طماع - جشع - فإن النتيجة تكون شركة لتوظيف الأموال، أما الجانب الأول وهو النصب والغش فإنه ينبت ويترعرع فى بيئة تضعف فيها هيبة السلطة وتتراخى سلطة النظام القضائى وتتعقد إجراءاته ويظهر الضعف فى جوانب كثيرة منه يستطيع النصاب أن ينفذ منها. فالمجرم خاصة فى الجريمة المالية يقارن بين التكلفة أى المخاطرة والعائد المتوقع، أما العائد فهو معروف، وأما التكلفة فتتمثل فى المخاطرة فى أن تكتشف الجريمة ويتم القبض على الجانى، وبالتالى كلما كثرت الفجوات القانونية - وهى لا توجد إلا فى نظام قضائى ضعيف - كلما استطاع النصاب أن يمضى بجريمته. أما الطمع والجشع هى صفات إنسانية يتولد عنها سلوك تغذيه وتدفع إليه البيئة السائدة، خاصة بيئة الربح السريع وتكوين الثروات بلا جهد يذكر من جانب نشاط عوامل الإنتاج المحلية.

رابعًا: الإقناع والمصداقية الظاهرة: ونجاح نشاط توظيف الأموال يتوقف على القدرة على الإقناع حتى يمكن تجنيد مشاركين أو مستثمرين جدد ويتولد الإقناع عن طريق جميع الوسائل والأدوات التى تؤكد مصداقية النظام لعل من أهم هذه المؤشرات على المصداقية. ومن ثم تأكيد القناعة بالنظام هو إقناع المستثمرين الأوائل وتعميق الإيمان لديهم عن طريق الدفع الفورى لمستحقاتهم بالنسبة المتفق عليها وفى الموعد المحدد إذ إن ذلك هو السبيل الوحيد لإقناع المستثمرين الجدد.

خامسًا: العمل على إشراك بعض المشاهير وذوى النفوذ والسلطة فى النظام: لإضفاء صفة الجدية والاحترام والمصداقية عليه. ونحن نعرف أن بونزى قد أقنع بعض العاملين بإدارة شرطة بوسطن وبعض العاملين بالسلك القضائى بالمشاركة فى النظام، كما نعلم أيضًا أن ريان المنصورة قد أقنع بعض مشاهير الفنانين ولاعبى كرة القدم بالاشتراك معه وهو ما دفع عناصر كثيرة نحو الانضمام.

ومن القضايا المهمة فى مجال توظيف الأموال والنظام الهرمى ما تقوم به السلطة القضائية بمدينة ساكرمنتو عاصمة ولاية كاليفورنيا سنة ١٩٩٥ - ١٩٩٦، حيث نشاط نظام مثل نظام بونزى كان ضمن المشتركين فيه ٦٧ موظفًا من العاملين فى إدارة شرطة ساكرمنتو منهم ٤٥ ضابطًا، وقد أطلق على هذا النظام «نادى الحرية» للاستثمار. وقد كان المروج الأساسى لهذا النظام البونزى زوجات أحد كبار ضباط بوليس ساكرمنتو، وقد تم اكتشافه وبسرعة حيث انهار النظام فى النهاية. ولعل أحد أهم أسباب نجاح هذا النظام هو اعتقاد الجميع بمشروعية هذا النظام، وعدم مخالفته للقانون. ■

مصادر هذا المقال:

1- Charles. Kindel Berger. (Manias. Panics and Crashes). A History of Financial Cuises Nnew Yaek 2000, Chapter (5).

2- Zackoff, Mitchell. (Ponzi-Scheme: The True Story of Finamcial Legend) Random House, Nnew Yaek 2005

3- Firz Patrick, Robert. L. and Jayce Reynolds. (Falseprofits - Seeking Financial and Spritual Delivesance in Multi-Level marketing and Pyramid Schemes). Chaslotle. M. C. Heraled Press, 1994

4- Walsh. James. (You Cannot Cheatan Honcst Man: Haw Ponzischemes and Pyramid Fiauds Wail and Why they are Lommon than ever) (Merilt Publishing 1998).



ألف حكاية وحكاية

من الأدب العربى القديم

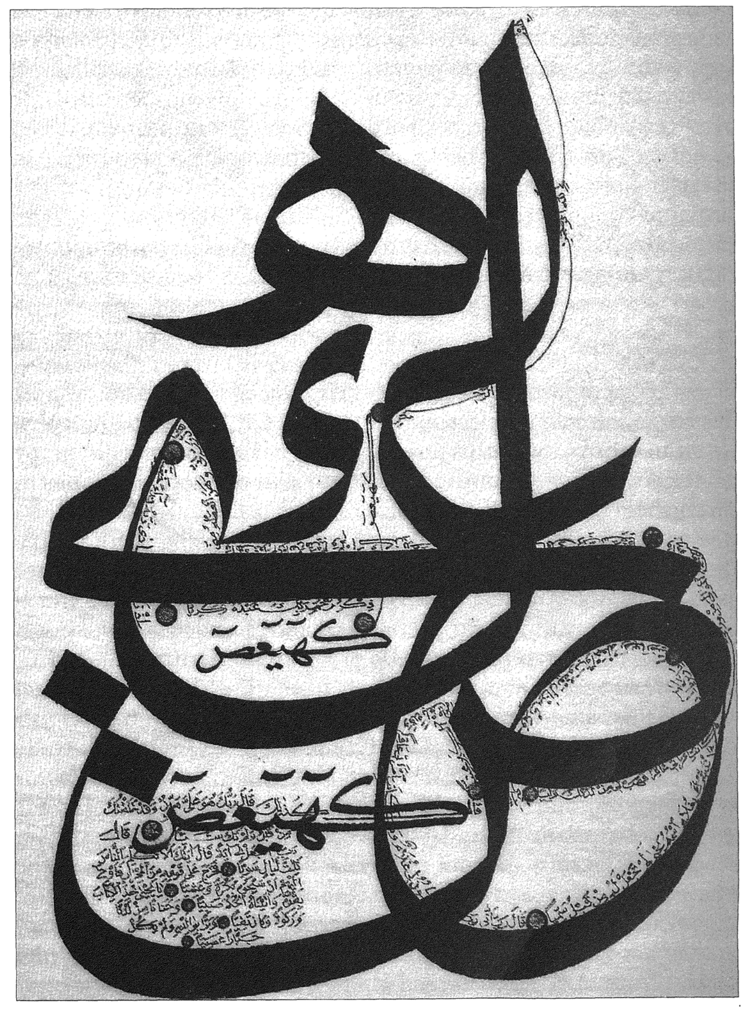
«هذه مجموعة من الحكايات المشرقة. والطرائف المونقة الشائقة. تخيرنا جواهرها من مُتَخيَّر جواهر الأدب الإسلامى. ومحصول جوامع البيان العربى.

وليس لى فى إعداد الكتاب من الافتخار. أكثر من حسن الاختيار. فإن استجاد قارئه ما استجدت. واستحسن ما أوردت. ووجد فى ثماره من المتعة بعض ما وجدت. أكون قد وُفقت إلى ما قصدت. وبلغت ما أردت».

بهذه العبارات المسجوعة قدم حُسين أحمد أمين لهذا الكتاب الشيق الذى أعادت «دار الشروق» إصداره فى القاهرة قبل عشر سنوات بعد أن كانت قد أصدرت طبعته الأولى فى بيروت قبل سنوات طويلة.

الكتاب كما يتضح من مقدمته يجمع حكايا ونوادر جمعها مؤلفه من كتب التراث العربى. وكل حكاية يصحبها رسم بريشة الفنان حلمى التونى. ويبدو أن الكتاب الذى يتضمن مائة طرفة، كان بداية لمشروع يستهدف استكمالها فى سلسلة تضم ألف حكاية وحكاية.




كهيعص
كهيعص

دين.. جغرافيا.. أم هوية جماعية؟!!

لعل من أهم الصعوبات التى تواجهنا عند تحليل ما أصبحت تعنيه وتدل عليه كلمة «الإسلام» منذ القرن التاسع عشر هو غياب الإجماع حول ماهية الإسلام فى الواقع. فهل يسمى الإسلام أحد الأديان أم يسمى موقعاً جغرافياً أم هوية جماعية؟ وهل هو عبارة عن مفهوم أم عن مصطلح تقنى أم هو دلالة أو تصنيف؟ ولعل ما يزيد غياب الوضوح تعقيداً عما إذا كان يمكن للإسلام أن يكون كل هذه الأشياء مجتمعة وفى نفس الوقت، هو حقيقة أن الإسلام قد اكتسب معانى ودلالات لم يكن يتوافر عليها مسبقاً. فقد بدأ المستشرقون الأوروبيون والمفكرون العرب والمسلمون باستخدام «الإسلام» فى صياغات متعددة اعتقاداً منهم بأنه يحيل إلى فهم بديهى لا يعوزه التحديد ولا التعريف. فلم يعد «الإسلام» عند هؤلاء المفكرين الاسم الذى

كان لبعض معانى ودلالات الإسلام الجديدة أثر كبير على الفكر السياسى والاجتماعى، وكذلك على السياسات المحلية والعالمية فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وربما يكون لها أثر أكبر فى القرن الحادى والعشرين



جوزيف مسعد

يقتصر على تعاظم الدلالات فحسب، بل أيضاً على أن الدلالات المتعاظمة هذه باتت تستخدم لا من قبل مفكرين مختلفين ونزعات فكرية وسياسية مختلفة، بل تستخدم من قبل كل مفكر وكل نزعة. فإن المستشرقين الأوروبيين والعلمانيين العرب من مسيحيين ومسلمين، والمفكرين الدينيين ومن بعدهم الإسلاميين، ودول الاستقلال ما بعد الكولونيالية التى تعرف نفسها بأنها مسلمة أو إسلامية ومعارضيها من الدول الغربية والعلمانية يستخدمون جميعاً مصطلح «الإسلام» كل على شاكلته وبطرق شتى للإشارة إلى سلسلة من الأشياء المختلفة. وقد زلزلت المضاعفة الإنتاجية للدلالات التى أخذ الإسلام يكتسبها المعانى التى كانت له قبل هذا التحول وبعده، حيث إنه لم يعد من الواضح فى الكتابات الحديثة عن الإسلام.

الإسلام.. إشكالية المصطلح (١)

أطلقه القرآن على الدين (وهى كلمة تُساء ترجمتها إلى اللغات الأوروبية على أنها تعنى religion والذى له تاريخ مختلف) الذى يشير إلى الإيمان بالله كما نشره الرسول محمد فحسب، وإنما يدل كذلك على تاريخ الدول والممالك المسلمة، والأعمال الفكرية المختلفة فى مجالات الفلسفة والفقه، وعلم الكلام، والطب، والأدب، والعلوم المختلفة، إضافة إلى الممارسات المطبخية والجنسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والطقوسية والأكاديمية والزراعية والمدنية التى مارسها المسلمون منذ القرن السابع وحتى القرن التاسع عشر وما تلاه، بل أكثر من ذلك بكثير. فما هى المشاريع الحداثية والمحاولات الفكرية والنقدية، وأنماط السياسة والحياة السياسية، والروحانية، والممارسات الاقتصادية والثقافية التى تولدها معانى الإسلام هذه ودلالاته، وما هى الأنماط التى تقوضها ؟

لقد كان لبعض معانى ودلالات الإسلام الجديدة أثر كبير على الفكر السياسى والاجتماعى، وكذلك على السياسات المحلية والاجتماعية فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وربما يكون لها أثر أكبر فى القرن الحادى والعشرين. وتكمن أهمية أثر هذه المعانى على السياسة والمجتمع فيما أدت إليه من تحول الإسلام إلى «ثقافة» و«حضارة» و«تراث ثقافى»[٢] و«جهاز»[٣] و«منهج»[٤] و«برنامج»[٥] وكذلك إلى نظام أخلاقى وصيغة للسلوك العام، وشيفرة للباس المجنسن، ومبادئ مصرفية، ونمط حكوماتى. وقد أصبح الإسلام يستخدم كمجاز مرسل: فقد أصبح الفقه والكلام، وهى علوم أسسها مفكرون مسلمون، والشريعة، وهى مصطلح يتصارع على معانيه الكثيرون حيث يشير عادة إلى مجموعة من الآراء والتأويلات، ينظر لها على أنها أجزاء مكونة للإسلام كما يمكن لمصطلح «إسلام» أن ينوب عنها[٦].



وبينما يمكننا تحديد تحول «الإسلام» إلى «ثقافة» و«حضارة» بسهولة نسبية نتيجة مركزية هذين المعنيين عند المستشرقين والمفكرين العرب والمسلمين منذ القرن التاسع عشر، إلا أن تحديد عملية إنتاج معانى ودلالات الإسلام الأخرى تظل أقل وضوحاً. ومع ذلك، فمن الضرورى أن نعى تاريخ مضاعفة معانى الإسلام كى نفهم ما أصبح الإسلام عليه فى أجزاء عالم اليوم التى تحوى شعوباً وقوى سياسية واجتماعية ترفع لواء هذا النمط أو غيره من الإسلام، وكذلك فى الأجزاء الأخرى من العالم التى تحوى شعوباً وقوى سياسية واجتماعية ترى «الإسلام» على أنه آخرها، بغض النظر عن كونها تعارضه أو لا تعارضه. أما الحرب القائمة اليوم، فلا تمثل فى الواقع جزءاً من العملية الإنتاجية التى وهبت الإسلام معانيه ودلالاته الجديدة فحسب، بل أيضاً هى جزء من عملية ثانية مرتبطة بالأولى تهدف إلى التحكم بعملية حرف المصطلح كى يدل قصراً على معان ودلالات معينة، فيما هى تنأى به عن معان ودلالات أخرى. وهكذا أصبح الإسلام يعارض على أنه نقيض مفاهيم معينة (مثل «الغرب»، «الليبرالية»، «الفردانية»، «الديمقراطية» أو «الحرية») لا مفاهيم أخرى (مثل الاضطهاد، والدكتاتورية، والظلم).

لقد برزت نزعتان دينيتان وفكريتان فى القرن التاسع عشر بين المفكرين العرب والمسلمين والمستشرقين الأوروبيين حيث قدموا الحجج على توافق أو عدم توافق الإسلام مع الحداثة والتقدم الغربى. ونتج عن هذا أن أخذت الكلمة أو بالأحرى الاسم «إسلام» باستحضاره فهماً ومعنى مباشراً، وكأنما كان هذا هو معناه دائماً فى الماضى. وقد موضع مشروع التفكير فى «الإسلام» بطرق جديدة فى السياق السياسى لصعود الفكر الإمبريالى الأوروبى وتوسعاته الجغرافية وما لازمه من ضعف السلطة الإمبراطورية العثمانية. ولكن الإسلام الذى أشار له المفكرون الأوروبيون وغير الأوروبيين كان مفهوماً أوسع، ويتضمن ظواهر كان يعتقد حتى ذلك الزمان بأنها خارج نطاقه، حيث لم يكن الإسلام البتة هذا المصطلح الذى يتضمن كل هذه المعانى والدلالات التى صنعها القرن التاسع عشر به، بل، كان، أى الإسلام، على النقيض من ذلك، أكثر تحديداً وأكثر تعييناً مما أصبح يعنيه ويدل عليه.

وثمة بعد آخر لاستخدامات مصطلح «الإسلام» بعد القرن التاسع عشر لم أى دلالات يحظى بها فى أى نص. بل على النقيض من ذلك تماماً، يبدو وكأن الإسلام يشير إلى كل هذه الدلالات مجتمعة فى ذات النص وعبر النصوص المختلفة، مما يحيل الإسلام إلى ما يسميه علم المنطق catachresis بمعنى أن دلالته دائماً هى الدلالة الخطأ.

وقد كان التحليل النفسى والمفكرون التحليلنفسيون الذين بدأوا فى التفكير مؤخراً فى موضوع اسمه «الإسلام» مشاركين نشطين فى هذه العملية لمضاعفة المعانى والدلالات والأضداد دون أدنى تساؤل ذاتى أو تحليل لما يقومون به. فلم يتخذ التحليل النفسى تاريخياً الإسلام كموضوع للدراسة أو كإشكال. وفيما عدا إشارة عابرة لفرويد فى كتابه **موسى والتوحيد** بأن «تأسيس الدين المحمدى» هو «إعادة مختصرة للدين اليهودى، والذى انبثق عنه كمحاكاة»، فلم يكتب إلا القليل عن الموضوع[٧]. ومن الملاحظ أن الدراسات التحليلنفسية للأديان قد خلت فى معظمها من أى ذكر للإسلام، وهو ما ينطبق كذلك على الدراسة المبكرة لإريك فروم حول الموضوع، والتى لا يذكر فيها الإسلام رغم معالجته للمسيحية واليهودية و«البوذية» و«الهندوسية»[٨].

وقد اهتم المفكرون العرب بالتحليل النفسى مبكراً وخاصة بدراسة اللاشعور أو اللاوعى[٩]. أما المحللون النفسانيون العرب الذين درسوا فى فرنسا وبريطانيا وباشروا عملهم

العيادي وتدريسهم الجامعي في الجامعات المصرية في ثلاثينيات القرن المنصرم. فقد قاموا بترجمة أعمال فرويد وغيره من المحللين النفسانيين(١٠). إلا أن أي أحد منهم لم يحاول استخدام المنهج التحليلنفسي لتطبيقه على القرآن، أو سيرة الرسول، أو حتى على الإسلام بذاته(١١)، بل استخدموه للتحليل الثقافي لمواضيع مثل شخصيات تاريخية علمانية كالشاعر العباسي أبي نواس(١٢)، أو لتحليل الأدب العربي الحديث، لاسيما الرواية(١٣)، أو حتى لتشخيص «العصاب الجماعي» الذي زعم أحدهم بأنه أصاب المفكرين العرب المعاصرين الذين يكتبون عن التراث والحداثة(١٤). وفي هذا السياق كتب الكاتب المغربي عبد الكبير الخطيبي أنه «باختصار يمكننا القول إن الإسلام هو فراغ خالٍ في نظرية التحليل النفسي»(١٥). ومع أن أدبيات التحليل النفسي، لاسيما أعمال فرويد، قد تُرجمت إلى العربية وتعامل معها المفكرون العرب من أرجاء العالم العربي بجدية، إلا أن كتب فرويد عن الدين والحضارة (**مستقبل وهم، قلق في الحضارة، وموسى والتوحيد**) كما ذكر مترجمها إلى العربية جورج طرابيشي، قد وصلت إلى المكتبة العربية متأخرة بسبب المواضيع التي تداولها(١٦). كما يضيف طرابيشي في مقدمته لترجمة كتاب **مستقبل وهم** والتي كتبها عام ١٩٧٤، بأن قراء فرويد في الغرب قد فشلوا كذلك في تقدير أهمية هذه الكتب بسبب المواضيع التي تتداولها.

إلا أنه قد برزت مؤخراً عدة محاولات تحليلنفسية للتقييم النقدي لا للإسلام كدين أو لأدبياته المقدسة وتراثه الثيولوجي فحسب، بل أيضاً للحركات الإسلامية المعاصرة والتي غالباً ما تُحسب على أنها «الإسلام» ذاته. وقد بدأ المحللون النفسانيون العرب والمفكرون العرب الذين يستخدمون منهج التحليل النفسي، ومن أبرزهم مصطفى صفوان (مصري)، وفتحي بن سلامة (تونسي)، وعدنان حب الله (لبناني)، وعبد الكبير الخطيبي (مغربي)، وجورج طرابيشي (سوري)، وهم جميعاً من الذكور ويعيشون في فرنسا ويكتبون بالفرنسية بالتركيز على الإسلام (باستثناء طرابيشي الذي يكتب بالعربية عن الأدب العربي والمفكرين العرب)(١٧). يكتبون عن الصلة بين الإسلام والتحليل النفسي في سياق ظهور الإسلامويات، وهي الظاهرة التي يبدو أنها أطلقت العنان لمداخلاتهم(١٨). وقد كان عبد الكبير الخطيبي أول من بتّ في الموضوع، بداية في نص كتبه عام ١٩٨٤ ونشره عام ١٩٨٨ عن الرسالة النبوية(١٩). كما عاد الخطيبي مرة أخرى إلى نصه وخلاصاته من منظور أكثر تحليلنفسي في محاضرة ألقاها عام ١٩٨٧ في مؤتمر كان بن سلامة قد نظمه تحت عنوان «مسألة التحليل النفسي في محيط الإسلام» والذي عقد في الكلية العالمية للفلسفة في فرنسا Collège international de philosophie في آيار/مايو ١٩٨٧ وقد نُشرت محاضرة الخطيبي وأوراق المؤتمر الأخرى في عام ١٩٩١ في العدد الأول من مجلة Cahiers Intersignes والتي يحررها بن سلامة. ومن النقاط المهمة التي أثارها الخطيبي هي فرضيته عن «تضحية» الرسول «بتوقيعه» على القرآن ككتاب لله. هذه التضحية، كما يدعي الخطيبي، كانت الشرط الذي جعل محمداً نبياً(٢٠). ولم يأت الخطيبي على ذكر الحركات الإسلامية المعاصرة ولا الإسلاميين في هذه النصوص(٢١).



أما مقاربة الكتاب الآخرين، كما سنرى، فتتسم بإدراك «الإسلاموية» على أنها «عودة المكبوت» لشيء كان عليه أن يختفي ويزول، حسب رأيهم، منذ عهد بعيد. فيقول بن سلامة صراحة: «اعتقد هذا الجيل (من المفكرين العرب والمسلمين) الذي فتح عينيه على نهاية الاستعمار وبداية إقامة الدولة الوطنية أن قصته مع الدين قد ولّت، وأنه لن يثار أبداً في المستقبل كمسألة في تنظيم المجتمع»(٢٢). أما المفكر التحليلنفسي وعالم الإناسة الجزائري مالك شبل والذي يعيش كذلك في فرنسا ويكتب بالفرنسية، فيقول دون تردد بأن الإسلاموية كـ«صحوة لاهوتية» هي عبارة عن «عودة للمكبوت. وما هو مكبوت، له دائماً صلة بما هو طفولي. ما يعيشه الإسلام في الوقت الحالي هو بمثابة عودة لطور الطفولة»(٢٣). أما عدنان حب الله فيتحدث عن «استيقاظ» الإسلام لمواجهة أخطار محتملة(٢٤). ولكن ما لم يُفكر به في هذه الطروحات هو إمكانية أن تكون «عودة المكبوت» هذه بمثابة وصف لقلق هؤلاء المفكرين وليست، فقط أو بالضرورة، وصفاً لقلق غيرهم من المسلمين والإسلاميين. حيث تنكأ هذه «العودة» من جديد مشهد الصدمة لدى هؤلاء المفكرين بديمومة الإسلام لا كدين (religion) فقط في حياة العرب والمسلمين؛ مما يتسبب لمفكرينا التحليلنفسيين بـ«الحرج» أو «العار» أمام نظرائهم الأوروبيين وما هو أنكى من ذلك، أمام ذواتهم المؤوربة(٢٥). وبالفعل تكشف كتابات هؤلاء المفكرين عن جرح نرجسي عميق يعانون منه كونهم عرباً ومسلمين، وكعرب ومسلمين مؤوربين ترعرعوا في عصور تحديثية هدفت إلى الأوربة كهدف غائي للحداثة. فقد وجدوا أنفسهم فجأة يعيشون في عصر أخفق فيه مشروع الأوربة نتيجة «لعودة» الإسلام على شاكلة الإسلامويات. ويبرز من بين هؤلاء المفكرين فتحي بن سلامة الأكثر طموحاً من ناحية الالتزام والاهتمام الجدي بالتفاصيل وعمق الفكر والحماسة. ولما لتحليلاته من أهمية، فسوف أناقش كتابات بن سلامة بتفصيل أكثر من غيره من المفكرين في محاولة لفهم الآليات النفسانية والفكرية التي تعمل في فكره حول هذه الصلة غير المفكر فيها بين تحليل نفسي مُشيّئ وإسلام مشيّئ بدوره.

يمكن اعتبار كتاب بن سلامة La psychanalyse à l'épreuve de l'islam والذي ترجم فيما بعد تحت عنوان «الإسلام والتحليل النفسي» أكثر الدراسات جدية حول إحدى العلاقات الممكنة بين تحليل نفسي معين مع «إسلام» معين، بمعنى أن يضع هذا التحليل النفسي ذاته (أو يوضع) تحت اختبار الإسلام أو أن يقف هذا التحليل النفسي أمام اختبار أو محنة الإسلام. يكتب بن سلامة كتابه وكأنه تذييل لكتاب فرويد موسى والتوحيد، على نسق «محمد والتوحيد». في الحقيقة، فهذه هي المحاولة الثانية لبن سلامة للقيام بهذه الدراسة. فقد كان كتابه الأول الذي تعاطى مع «الإسلام» وعنوانه La nuit brisée (الليلة المهشمة) وترجم تحت عنوان ليلة الفلق وصدر عام ١٩٨٨ يطرح ذات المشروع ولكن بوضوح وصراحة أقل. أما كتاب الإسلام والتحليل النفسي، فهو محاولة ثانية أكثر عمقاً، أو هو بمثابة إعادة، للتعاطي مع المشروع ذاته. ويعزز الكتاب اعتماد بن سلامة على كتاب **موسى والتوحيد** وهو الكتاب المقدس التحليلنفسي والفرويدي الذي يستهدي به مشروعه.

تتضمن الإنجازات الرائعة لكتاب بن سلامة استكشافاته لدور إبراهيم وإسماعيل كجد وأب العرب على الترتيب، والحجة التي يطرحها بأن القرآن، شأنه شأن التوراة من قبله، قد فرض شخص إسماعيل غير العربي (حيث كانت هاجر المصرية أمه وإبراهيم العبراني هو أبوه) على النسب العربي، وهو نسب لم يرفضه عرب ما بعد الإسلام، بالرغم من أنه لم يكن لإبراهيم أو لإسماعيل أي وجود في الحكايات العربية عن عالمهم قبل اللحظة القرآنية. هنا يبدو وكأن بن سلامة يتجاهل حقيقة أنه كان هنالك فعلاً وجود لإبراهيم وإسماعيل لدى القبائل العربية اليهودية (والتي يبدو أن بن سلامة ينكر بأنها عربية) بخلاف القبائل العربية الوثنية. وبعكس موسى فرويد والذي كشف، بعكس ما تقوله الكتب المقدسة والتعاليم الثيولوجية اليهودية، على أنه مصري غريب عن شعبه المختار، فإسماعيل بن سلامة، وهو ليس بالنبي الرئيس لدعوة محمد، لا يُكشف عن أنه غير عربي، حيث إن نسبه غير العربي واضح بجلاء في القرآن والثيولوجيا الإسلامية. فما يريد بن سلامة فهمه هو تحليل علاقة عدم عروبة إسماعيل هذه بمسألة الهوية والأمومة كي يحاجج بأن هاجر «مكبوتة» في الإسلام والثيولوجيا الإسلامية لصالح سارة دون أي انحراف عن الحكاية اليهودية.

يبدو هنا أن مناقشة بن سلامة قريبة من قراءة إدوارد سعيد الهامة لموسى فرويد على أنها دعوة معادية للقومية ورافضة للجوهرانية وتجانس المجموعات كخرافات تأسيسية لكنها ضرورية. ويخلص سعيد في مناقشته لموسى فرويد إلى الآتي: «بمعنى آخر، لا يمكن للهوية أن يُفكر بها وأن يُعمل بها على حدة؛ فهي لا تستطيع أن تكوّن أو أن تتخيل نفسها دون ذلك الصدع أو القطيعة الجذرية الأصلية التي ترفض أن تُكبت، لأن موسى كان مصرياً وبالتالي كان دائماً خارج الهوية التي وقف وعانى داخلها الكثيرون وربما في النهاية انتصروا»(٢٦). بخلاف سعيد، يريد بن سلامة أن يقرأ كبت هاجر على أنه ملهم نظرة «الإسلام» إلى النساء وإلى شخص الأم بشكل خاص: «لقد وُلد الإسلام من الغريبة في أصل التوحيد، وظلت هذه الغريبة غريبة في الإسلام»(٢٧).

لا يقتصر نقاش بن سلامة على الأبوة والأمومة ومسألة الأصول في القرآن

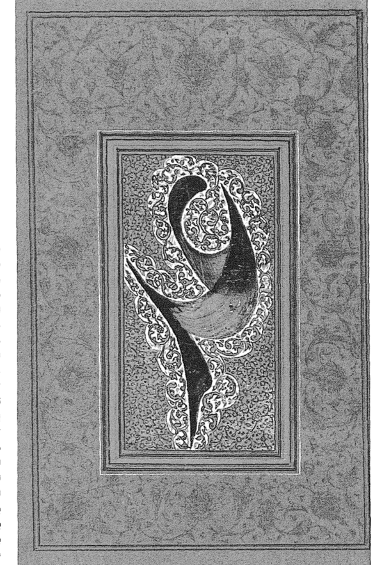
بدأ المستشرقون الأوروبيون والمفكرون العرب والمسلمون باستخدام «الإسلام» في صياغات متعددة اعتقاداً منهم بأنه يحيل إلى فهم بديهي لا يعوزه التحديد ولا التعريف



وتفسيراته الثيولوجية المتعاقبة، بل يستحضر بن سلامة استنتاجاته لتطبيقها على الواقع الراهن. توضح قراءة كتابه بأكمله بأن بن سلامة إنما يقوم بمشروع حفريات في محاولة للإجابة على المزاعم التي تقدمها الكثير من الإسلامويات المعاصرة، ويقدمها أعداؤها أيضاً، عن الإسلام والأصول الإسلامية. ولكن، وفي سياق مناقشته للإسلامويات المعاصرة، لا يتعاطى كتاب بن سلامة كثيراً مع الفكر والمفاهيم التحليلنفسية بل يتحرك باتجاه النقد الليبرالي المرتكز على مفهوم الفرد وحرية الفكر والتسامح وفصل الديني والسياسي بعضهما عن بعض.

يعي بن سلامة على المستوى التعريفي بأن الإسلام متعدد وبأنه دائماً وأبداً «إسلامات»، إلا أنه، مع ذلك، وفي لحظات حاسمة في مجرى سرده، تصبح هذه الإسلامات المتعددة إسلاماً واحداً يدمج مع «إسلاموية» مفردة يمكن النطق باسمها، وكاسم يجب قراءته دائماً تحت الحذف. إني مهتم هنا بالسياق الأيديولوجي لهذه الزلات الواعية واللاواعية وبالفلسفة السياسية والتفاعلات النفسانية التي تتسبب بها. فبالرغم من أن بن سلامة لا يعرف الإسلام في كتابه، إلا أنه يزودنا في مقال لاحق نشره بعد الكتاب بمعنيين له، حيث يطرح أن كلمة إسلام «قد جمدت في معنى لاهوتي على أنها «التخلي عن النفس لله» (un abandon à Dieu)، وأن أصلها اللغوي يحدد هذا الفعل على أنه «تخليص النفس بعد التخلي عنها»[٢٨]. والأخير هو أحد المعاني الممكنة للكلمة ولكن ليس بالضرورة معناها المباشر، حيث إن معنى كلمة إسلام الأكثر شيوعاً في العربية هو «تسليم النفس لله» وليس التخلي عنها، أو حسب الترجمة الاستشراقية الدارجة «الخضوع لله» والذي يدعي بن سلامة أنه المعنى اللاهوتي والثيولوجي للكلمة في «الإسلام»، وحتى عندما يذكر معانيها الأخرى كالخلاص مثلاً، فإنه لا يأتي على ذكر «التسليم» كمعنى محتمل لها[٢٩]. وبينما يدعي بن سلامة أن الإسلاميين هم الذين يريدون تغيير معنى الإسلام إلى الخضوع، فهو يشارك ولو بتردد في هذا المشروع عندما يدعم المعنى الاستشراقي للإسلام على أنه خضوع، وذلك بإصراره على أن «إسلاموية» الجماعات والمؤسسات اليوم هي الخضوع (soumission) لدين الخضوع[٣٠]. مع أنه ليس ثمة صلة جذرية بين كلمة «خضوع» وكلمة «إسلام» في العربية البتة.

وبن سلامة ليس وحيداً في استخدام هذه الترجمات الإشكالية. فمسألة الترجمة واللغة من المسائل الأساسية لدى المفكرين التحليلنفسيين عامة. فالحجة الرئيسة التي يطرحها مصطفى صفوان مثلاً بالنسبة إلى ما يسميه بـ «التخلف» العربي هو مشكلة اللغة. يخلط صفوان (وهو هنا يشبه بن سلامة، ولكن دون الكم المعرفي المتوفر للأخير) أصول الكلمات العربية واللاتينية من أجل أن يظهر اللغة العربية المعاصرة بشكل إكزوتيكي، كما يفعل عند مناقشته للفرق بين الكلمة ذات الأصول اللاتينية «sovereignty» ونظيرتها العربية «سيادة»[٣١]. ويعترض صفوان على أن معنى كلمة سيادة في العربية بخلاف كلمة «sovereignty» تعني «التسيد» بينما معناها الحقيقي، على الأقل حسب كارل شميت هو «الحق في اتخاذ القرارات كخيار أخير». أما الترجمة العربية فتأخذنا إلى العلاقة البدائية والثنائية بين السيد والعبد بينما ما هو أهم هو إدراك سياسي لعملية القرار[٣٢]. ويبدو أن صفوان لا يعرف المعنى اللاتيني لكلمة «sovereignty» والمشتقة من super anus بمعنى «فوق ومن أعلى»، كما لا يعرف أن الاستخدام التقليدي للكلمة بالإنجليزية، حسب قاموس أكسفورد، هو «الرب السيد» أو «الشخص الذي يملك فوقية أو مرتبة أعلى، أو سلطة على الآخرين. شخص ذو مرتبة رفيعة، مسيطر، حاكم، رب، وسيد (على الأشخاص)، إلخ». وأن «sovereignty» تعني «فوقية أو بروز بمعنى الامتياز والفعالية». ويبقى من غير الواضح إن كان صفوان يعتبر المعنى اللاتيني لكلمة «sovereignty» ومعناها الإنجليزي اللاحق «بدائياً» أم إن هذا الوصف لا ينطبق سوى على معناها العربي[٣٣].





أما الإجابة التي يكتشفها صفوان عن السؤال الذي يطرحه ألا وهو «لماذا العرب غير أحرار؟» فيجدها صفوان في الفصل الذي يحدده ما بين العربية الفصحى والدارجة، حيث إنه يدعي بأن الأولى «مقدسة» ومقتصرة في استخدامها على الصفوة، والأخيرة هي لغة العامة. يشيئ صفوان الاستخدامين للغة العربية وكأنهما منفصلان تماماً عن بعضهما البعض وبالفعل يقسمهما إلى لغتين منفصلتين، مما يظهر عدم معرفته بكيفية تداخلهما التعريفي في بعضهما البعض. فهو يعتقد بأن الفصحى اليوم هي لغة القرآن بينما في حقيقة الأمر تختلف الفصحى اليوم عن لغة القرآن بذات قدر اختلاف اللهجات الدارجة عنه. وبينما يستطيع عرب اليوم من المتعلمين قراءة نصوص عربية من القرن السابع وحتى القرن التاسع عشر بدرجات متفاوتة من الصعوبة، شأنهم في ذلك شأن قراء الإنجليزية المتعلمين والذين يستطيعون قراءة مارلو، وتشوسر، وشكسبير بدرجات متفاوتة من الصعوبة، فإنه سيكون من المستحيل على عرب القرن السابع من المتعلمين قراءة نصوص عربية معاصرة بالفصحى عدا عن مقدرتهم على فهمها نتيجة التغيرات في النحو، وبنية الجمل، والمفردات (ناهيك عن أن الحروف العربية نفسها قد تغيرت في هذه الأثناء). هذا التشييء للفصحى الحديثة على أنها مجمدة دون حراك في لغة القرآن ليس مقتصراً على صفوان بل هو زعم استشراقي معروف يفتقر إلى الإثبات. وفي حقيقة الأمر، فإنه من غير الممكن للفصحى الحديثة أو اللهجات الدارجة أن تعيش منفصلة عن بعضها البعض حيث إنها مندمجة في النحو، والبنية، والمفردات لدرجة أن أية محاولة لفكها عن بعضها ستتطلب مشروعاً من الهندسة الاجتماعية الذي ينسبه صفوان إلى الفراعنة الذين يزعم بأنهم أول من أسس الفصل بين اللغة الأدبية والمحكية كي يحكموا الناس دون إزعاج. ولكنه هو من ينادي اليوم بإقامة مثل هذا المشروع، حيث يرى أن على الدولة العربية الحديثة مأسسة الفصل بين استخدامي العربية والذي يصر صفوان على أنه قائم أصلاً، وأن تدرس الدولة في مدارسها اللهجة الدارجة كشرط مسبق للديمقراطية[٣٤]. هذه النظرة إلى الفصحى الحديثة والتي يساويها صفوان باللاتينية تأخذنا إلى عهد التقسيمات الاستشراقية والسجالات بين المفكرين العرب في زمن الاستعمار في الثلاثينيات والأربعينيات[٣٥]. ولا يطرح صفوان هذه الحجة على أنها حقيقة عقلانية وعاقلة فحسب، بل أيضاً على أن إنكارها من قبل أي عربي، يكشف عن موقف ذلك المنكر المعادي للديمقراطية: «يقال عادة بأن العربية لغة واحدة، لكن في الحقيقة المسافة التي تفصل العربية الفصحى عن عربية مصر، أو دول الخليج أو شمال إفريقيا تشبه العلاقة بين اللاتينية واللغات الرومانسية من الإيطالية والإسبانية والفرنسية. وإن الفشل أو رفض الإقرار بهذه الاختلافات هو رفض بالسماح لغير المتعلمين بالمشاركة في صنع مستقبلهم»[٣٦]. وبما أن الثقافات تنجز الحداثة عبر اللغة، يتساءل صفوان قائلاً: «من يستطيع أن يتخيل مصير أوروبا لو كانت اللاتينية قد بقيت لغة الأدب والعلم والفلسفة واللاهوت؟»[٣٧] وليس على المرء أن يغرق بالتخيل للظفر بالجواب، إذ يقدم لنا صفوان العالم العربي كإجابة على تساؤله.

ويجد بن سلامة، شأنه

شأن صفوان. محنة الإسلام فى اللغة أيضاً: «حيث إنها (أى المحنة) ليست فقط ناتجة عن الافتقار للحداثة، كما يقال عادة، بل عن حداثة تجاهلت الذات الفاعلة. حداثة تتعلق بأيديولوجيا تقدمية وجب عليها أن تتضمن التنمية التقنية والاقتصادية الإلزامية دون أن تتنبه لعمل الثقافة.... أو بمعنى آخر، حداثة بدون الأسس اللغوية التى تكون عمل الحضارة، وهو إنجاز، بحسب بن سلامة، كانت المسيحية واليهودية، بخلاف الإسلام، قد أنجزتاه»[38].

ولا يقتصر استخدام بن سلامة لمعانى الإسلام فى كتابه **التحليل النفسى والإسلام**، على المعنيين الذين أوردهما. فبينما يشرح بن سلامة بأن «الإسلامات» التى يفترضها متعددة ومختلفة وفى أحيان كثيرة غير متصلة ببعضها البعض، ومع ذلك فإنها تختبئ جميعها «وراء» اسم «الإسلام» المفرد[39]، فإنه لا يلبث أن يتخلى عن هذه التعددية لصالح إسلام مفرد تبقى معانيه ودلالاته متعددة ولكن غير محددة، لا سيما عندما تطرح بوعى ومن منطلق أيديولوجى على أنها مفردة. ومن النادر مثلاً أن يوضح بن سلامة للقارئ ما يدل عليه مصطلح الإسلام فى نصه- إن كان يدل على تاريخ علم الكلام الإسلامى منذ القرن السابع وحتى اليوم أو على تاريخ دول تسمى نفسها إسلامية أو حتى مسلمة، أو إن كان يدل على القرآن، أو الحديث، أو السنة، أو كلها مجتمعة، وهلم جرا. وبينما يرى بن سلامة أن محاولة مجانسة الإسلامات فى إسلام واحد ليست مشروعاً إسلاموياً فحسب، بل هى أيضاً مشروع أوروبى «سطحى» للتعامل مع الحركات الإسلاموية المتعددة فى بقاع جغرافية وسياقات اجتماعية مختلفة، فإن اختزالها بإسلام واحد من قبل علم الاجتماع السياسى الأوروبى هو ليس أقل من «مقاومة لتعقل الإسلام» عند هؤلاء الخبراء الأوروبيين[40]. ويصر بن سلامة بأن هذه المقاومة تنطبق أيضاً على المحللين النفسانيين الأوروبيين. وتجدر الملاحظة هنا بأن بن سلامة يصر على هذا «التعقل» فى ذات الوقت الذى يصر فيه على تكاثرات استخدام «الإسلام» وكيف أن هذه الاستخدامات غير قابلة للقياس. كما أنه يستحضر هذا «التعقل» تحت عنوان مقاومته من قبل الآخرين، مما يموضع التعقل بصورة سلبية عبر فشله فى الظهور وفى نفس الوقت يجعل من «التعقل» شيئاً فريداً متوفراً لدى بن سلامة فقط دون غيره[41]. ومع ذلك فإن فهم بن سلامة الذكى لتعدد الإسلامات (بالرغم من أن دلالاتها تبقى غامضة فى نصوصه) يختفى عبر توسل «الإسلام» بالمفرد كذات فاعلة تعبر عن نفسها ويمكن تعقل معناها دون وسيط. فيتحدث بن سلامة عن «الواقع الراهن للإسلام»[42] الذى يفرض نفسه عليه، وعن «التقليد الإسلامى»[43] الذى ترعرع فيه الناس، وعلى أنه قد «لاحظ بكل بساطة بأن الإسلام فى معظم الحالات (التى درسها) كان دائماً النتيجة والسبب فى البنى الذاتية والعابرة للأفراد»[44].

ما يهمنا فى هذه الزلات الكاشفة (وهنالك زلات أخرى كثيرة)، هو أن إدراك الإسلام بالمفرد وتأثيره على المسلمين لا ينطبق على بن سلامة وحده، بل يشاركه فيه الكثيرون (ولكن ليس جميع) المفكرين الإسلاميين. وبالفعل يحدد بن سلامة ردة فعل الكثير من الإسلاميين والمسلمين على رواية **الآيات الشيطانية** لسلمان رشدى على أنها حدثت داخل عالم الإسلام المفرد. ويعلن بن سلامة التالى: «جاءت الصدمة فى الإسلام من حيث لا نتوقع، من التخييل الأدبى الذى مشهد حقيقة الأصل باعتبارها زيفاً وبهرجاً»[45]. يتبع بن سلامة فى قوله هذا تقليداً ليبرالياً علمانياً والذى يبدو أنه طالما عرف إسلام بعض الإسلاميين على أنه «الإسلام» الواحد بالرغم من إدراكه (وهو يضيف واعياً هامشاً للترجمة العربية لكتابه موضحاً هذه النقطة) أن ركيزة السجالات المعاصرة هو «معنى الإسلام» وأن ما يتجلى للعيان هو بالفعل «حرب الاسم» أو حرب اسمية[46]. ولكن ورغم احترازه الملحوظ، يختار بن سلامة فى كتابه لا أن يحلل شروط هذه الحرب بين المتحاربين المختلفين فحسب، بل، وهنا يكمن التناقض، أن يدخل الحرب كطرف فيها. وفى ضوء ذلك، أضحت المعركة حول المفهوم الإسلاموى للإسلام (والذى يعارضه بن سلامة وكثير من العلمانيين على أنه الإسلام الواحد)، وكما يدعى الإسلاميون بحق، معركة بين من يريد أن يرفع لواء الإسلام ومن يريد أن يرفع لواء اللاإسلام. وفى الحقيقة يطرح بن سلامة، وإن بتردد، «الإسلام» المفرد، الذى يشترك فى فهم معناه مع الإسلاميين والمستشرقين، على أنه آخر الليبرالية[47]. وهو لا يقول ذلك بجلاء، ولكن توسله لمفاهيم «الحرية» و«التسامح» و«الفردانية» كقيم وعناصر أهم يفتقر لها الإسلام الواحد مع أنها ضرورية لتكوين الإسلام الذى **يتمناه**، إنما يهيكل حججه ضد الإسلاميين. وإصرار بن سلامة أن يحول الإسلام من دين إلى المفهوم المسيحى والليبرالى العلمانى «religion» (ما يسميه بـ«la religion musulmane»[48]) وتهجمه على الإسلاميين الذين على النقيض منه يعتبرون «الإسلام ليس فقط كدين، بمعنى «religion»[49]، يلزمه بالنمط المهيمن للإبستمولوجيا الليبرالية التى تهدف إلى استيعاب وتحويل العالم على شاكلتها[50]. وكى يعزز حجته هذه، يعنون بن سلامة كراسة نشرها مؤخراً بـ«Déclaration d'insoumission» أو «إعلان العصيان» أو بالأحرى إعلان بـ«عدم الخضوع» لـ «دين الخضوع»[51]. ولكن إن اعتبر بن سلامة الإسلام خضوعاً، فيكون إعلانه إذاً أساساً وبوعى «إعلان اللاإسلام»، أو كى نكون دقيقين أكثر، «إعلان ضد الإسلام».



ولكن هنالك تردد وعدم ثبات فى مشروع بن سلامة. فبينما يبدو أن هذا الإسلام، حسب تحليله، نقيض الحريات الفردية لكتاب من نوعية سلمان رشدى، فهو ينتقد أيضاً خبراء أوروبيين فى الإسلام لعدم رؤيتهم لإسلام آخر (والذى تبقى دلالاته متعددة - القرآن، علم الكلام، «الثقافة» الإسلامية، وهلم جرا) يرفع لواء الفردانية. ويصر بن سلامة على أن «الإسلام يتضمن بعداً فردياً هاماً جداً وغنياً من الناحية المفهومية. وما كان لهذا البعد أن يتطور لو لم يكن متطابقاً مع واقع الثقافة. إنها ثقافة قائمة على الفردية، ولكن ما يحكمها هو التماهى مع الله»[52]. وينتقد بن سلامة بشدة التصريحات التحليلنفسية الأوروبية عن الإسلام والثقافات المسلمة التى تصورها على أنها تطمس الفرد، والتى ترى أن الإنجاز الفردى الذى أنتج الفرد على أنه أهم إنجاز حضارى بامتياز. ويشدد بن سلامة على أن من يصر على أن غياب الفردية فى الإسلام هو ما يجعل المسلمين عصيين على التحليل النفسى، بأنهم «جهلاء» مضيفاً: «ولن أذكر أحداً، حتى لا أخص أحداً بفضل السبق فى مجال الجهل والتسرع»[53].

ليس بالضرورة أن يكون تردد بن سلامة هنا واعياً فقط بل هو بالأحرى أثر لالتزام أيديولوجى يقوم بتخيل القراء المختلفين بتمايز. فربما كانت إحالة بن سلامة للإسلامات المتعددة تعبر عن موقف أيديولوجى، و/أو يعبر عن أمنية، بينما الإحالة إلى الإسلام المفرد فى الزلات الكثير التى كشفنا عنها إنما يفضح خوف بن سلامة من أن تكون هذه هى حقيقة الأمر. ويمكن أن يعبر هذا عن مقاومة بن سلامة اللاواعية للادعاء (ادعاؤه هو) أن هنالك عدة إسلامات، أو إدراكه الواعى بأن ادعاءه هو ليس أكثر من أمنية وليس إقراراً لحقيقة يمكن إدراكها وأن ما «يدركه» ويلاحظه بالفعل، كما أخبرنا هو، هو أن هنالك فى الوضع الراهن إسلام واحد فقط وأن علينا أن نعارض هذا الإسلام (أن نكرهه أيضاً؟) لرفضه تعديد نفسه كما هو لازم وواجب عليه. وفى هذا السياق يعلن فى مستهل كتابه أن أسس اهتمامه بالكتابة عن الإسلام برزت فى أوائل الثمانينيات (ويخبرنا فى سياق آخر أن اهتمامه قد بدأ فى منتصف الثمانينيات)[54] أو «فى وضعية تاريخية حرجة تتسم باحتداد التعصب» كقرار لاستكشاف «الفاصل بين إسلام منته وإسلام لا نهائى»[55]. وبينما يحذرنا بن سلامة (وربما يحذر نفسه أيضاً) من استخدام مفردات جديدة، وأن نتكيف مع إبستمولوجيا جديدة تجعلنا «نسمع إسلامات كلما قلنا إسلام»، إلا أنه يبدو وكأن بن سلامة يبقى أصم عن سماع التحذير الذى حذرنا به[56]. وربما تكون واحدية الإسلام الراهن إذن هى نفسها مشهد الصدمة التى لا يستطيع المرء إلا العودة إليها والذى يرغم المرء (أو بن سلامة) على إعادة مزاعمها فى ذات اللحظة وفى ذات النص حيث يصر بن سلامة أن عليه وعلينا أن نقاومها.

يستعيد كتاب **الإسلام والتحليل النفسى** عدة مشاهد ونقاشات عن سيرة الرسول محمد كان بن سلامة قد استحضرها فى كتابه الأول ليلة الفلق. وليس من الواضح إن كان فعل الاستعادة-الاستدعاء هذا هو إعادة للذات حيث يعود به بن سلامة إلى نصه (طفله؟) التدشينى الأول عن الإسلام، أم هو عودة للمشاهد النبوية نفسها كموقع الصدمة الذى يستلزم الإعادة. وبالفعل، فإن أحد المشاهد الرئيسية فى **ليلة الفلق** الذى يعاد فى **الإسلام والتحليل النفسى**، وهو المشهد الذى تؤكد فيه خديجة، زوجة الرسول، لمحمد بأن الملاك جبريل الذى ظهر له هو

هل يسمى الإسلام
أحد الأديان أم يسمى موقعاً
جغرافياً أم هوية جماعية؟ وهل هو
عبارة عن مفهوم أم عن مصطلح
تقنى أم هو دلالة أو تصنيف؟



فعلاً ملاك وليس شيطاناً. إنه مشهد يعيده ويستعيره بن سلامة من عبد الكبير الخطيبي في مقال الأخير التدشيني والذي كان أول زيارة تحليلنفسية لذلك المشهد(٥٧). إلا أن الإسلام والتحليل النفسي يبقى إعادة ملتوية بعض الشيء. فهي محاولة ثانية أكثر شمولية وأكثر تفصيلاً في إنتاج قراءة تحليلنفسية عن «الإسلام».

وبما أن كتاب **الإسلام والتحليل النفسي** هو طفل بن سلامة الأصغر (وكما نعرف فإن الكتب تحمل اسم كتّابها وتُنسب لهم نسلياً، تماماً كما يحمل الأطفال أسماء آبائهم وينسبون لهم)، يبدو وكأن هذا الكتاب ظل الأكثر تميزاً والأكثر احتفاء من قبل النقاد، كما هو حال الابن الأصغر في التوراة والذي يكون دائماً الابن المميز والمفضل - والأمثلة على ذلك كثيرة: هابيل، إسحق، يعقوب وغيرهم. ليس واضحاً إن كان هنالك أمنية لاواعية تعمل في ذهن بن سلامة هنا، حيث يفضل إسحق على إسماعيل، كما هو الحال عند إله إبراهيم.

قبل أن أطلق العنان لهذه التخمينات، دعوني أستشهد بما يقوله بن سلامة عن المهمة التي اضطلع بها في كتابه، ألا وهي: «ترجمة الأصل الإسلامي إلى لغة التفكيك الفرويدي... وليست الترجمة تطبيقاً ولا إلحاقاً، بل هي إعادة قراءة للتقليد في نسيجه ولغته وصوره تتم عبر تحول دال وتهدف إلى فتح مجال أمام ما يُفكر فيه التقليد في غفلة منه(٥٨)». ولكني لست مقتنعاً بهذه الحجة، لاسيما وأنه في معظم الأحيان يبدو أن ترجمة النصوص «الإسلامية» إلى اللغات الأوروبية تقتصر على استخلاص معاني الكلمات وأصولها من القواميس دون التنبه إلى سياقها الفكري وتاريخية استخداماتها ومعاني الكلمات وكيفية تغيرها عبر الزمن - وهي «الصلات» التي حددها محمد أركون بـ«اللغة-التاريخ-الفكر»(٥٩) - وهي شيء يجب أن يتنبه له أي عمل تأويلي معاصر للماضي تلافياً لإسقاط المعاني والقيم المعاصرة عليه. ومن الواضح بأن بن سلامة قلق من أن تصبح الترجمة ضرباً من الإلحاق ولكنه في الوقت ذاته يريد التأكيد على أن الترجمة في هذه الحالة تفتح الطريق إلى لاوعي التقليد (في غفلة منه). حتى ولو كان الأمر كذلك، فلن يجيب هذا على قلقه الأولى، فليست الترجمة في هذه الحالة «إلحاقاً» ولكنها دمج، حيث إن عملية «التفكيك الفرويدي» لبن سلامة إن كشفت عن «إسلام» فرداني أو غير فرداني، فإنها تفعل ذلك عبر مرجعية قيمية أوروبية ليبرالية يطرحها بن سلامة على أنها عالمية، أي الفردانية. وتقدم هذه المناورة الدمجية على أنها ذات نفع للتحليل النفسي وذات نفع تحليلنفسي، لاسيما أنها تؤمن «تعقل منطق الكبت الذي تنبني عليه مقومات المؤسسة الرمزية»(٦٠). ولكن ثمة توتر ما في

بسم الله الرحمن الرحيم
كهيعص
ذكر رحمت
ربك عبده
زكريا إذ
نادى ربه

هذا المشروع الدمجي. ففي بعض الأحيان يصر بن سلامة، شأنه شأن المستشرقين، على عدم ترجمة كلمات عربية مثل كلمة الله إلى نظيرتها الفرنسية Dieu في خضم ترجمته لنص إسلاموي من العربية إلى الفرنسية، بل يظهر على أنه مهتم بطرح الكلمة بطريقة إكزوتيكية على أنها الاسم العلم المحدد والحصري لإله المسلمين، بينما هو نفس الاسم الذي استخدمه المسيحيون العرب لإلههم قبل محمد وبعده(٦١). كما يصر بن سلامة، في سياق آخر، على استخدام كلمة «عورة» حيث يزود القارئ الفرنسي بأصولها اللغوية العربية دون أن يترجمها إلى نظيرتها الفرنسية (والإنجليزية) pudendum والتي لها أصل لغوي مشابه لكلمة عورة، والتي كانت، لو ذكرت، ستزود القارئ الفرنسي بمعناها المماثل(٦٢).

فما يريد أن يطرحه بن سلامة في آخر المطاف هو أنه يمكن دمج إسلامه في المفهوم الليبرالي عن الفردانية، مع بعض الاختلاف. ومن المحتمل أن يكون بن سلامة هنا ضالع في طرح هذه الفردانية الإسلامية كسبيل لتمرير الإسلام على أنه أوروبي، وأن عملية التمرير هذه هي نمط من المقاومة ضد الطروحات الليبرالية الاستشراقية التي تزعم أن الإسلام يفتقر إلى الفردانية. وفي نفس الوقت يقوم بإدانة الإسلاميين لمقاومة عملية التمرير هذه على أنها مرضية أو هي نوع من «الهلوسة الجماعية»(٦٣). وفي نص آخر مبكر، كان بن سلامة قد قدم توصية للبداغوجيا العربية على شكل تحذير مفاده: إن فشل العرب في «إدخال كتاب كانط **نقد العقل المحض** في مناهجهم التعليمية، يكونون قد ارتكبوا خطأً فادحاً(٦٤)».



ويخوض بن سلامة في مشروع يؤخرن فيه إسلام الإسلاميين في ذات الوقت الذي يماهي فيه الإسلام الذي يتمناه مع الأوروبوية. وفي طرحه هذا، يحاكي بن سلامة فرويد جزئياً، حيث إن فرويد كان قد أصر في كتابه **موسى والتوحيد** على دمج يهود أوروبا بإعلانه أنهم ليسوا «آسيويين ينتمون إلى عرق غريب، كما يدعي أعداؤهم، بل إنهم مكونون في الغالب مما تبقى من شعوب البحر الأبيض المتوسط وورثة الحضارة المتوسطية»(٦٥). وقد تساءل إدوارد سعيد حول طرح فرويد هذا: «هل يمكن لشبح اللاسامية المنتشر والمنذر بالسوء فوق عالمه أن يكون قد أجبره في آخر عقد من حياته على حشد اليهود من أجل حمايتهم داخل ما يمكن أن نسميه بمأوى عالم الأوروبي؟(٦٦)». وبخلاف فرويد، يبدو أن بن سلامة محاصر ما بين العداء الاستشراقي لكل الإسلامات وعدائه الخاص للإسلام الإسلاموي الواحد. مما يقوده إلى (عدم) القرار ما بين التماهي والأخرنة في ذات الوقت.

وهنا تكمن أهمية خطاب العلموية والعقلانية الذي يماهيه بن سلامة مع الحداثة والغرب والتحليل النفسي. حيث يضع بن سلامة الإسلاموية (بالمفرد، بالرغم من تأكيده المستمر بأنها ظاهرة متعددة(٦٧)) والإسلام الواحد مقابلها، مكرسا سلسلة من الثنائيات لتوضيح هذه التقابلية: «هذا الخط لا يفصل فحسب بين المتسامحين والمتعصبين، وبين العقلانيين والمؤمنين، وبين منطق العلم ومنطق الإيمان، بل بين موقف من يعتبر نصوص التراث تخييلاً أو حكاية، وموقف من يؤمل العثور على حقيقة الأصل في نصوص التراث، وإن استخدم في هذا البحث آليات عقلانية متسلحة بترسانة هامة من خطاب المنهج التاريخي(٦٨)». ومن المحير هنا وفي هذا السياق أن يفسر بن سلامة محاولات بعض الإسلاميين لجعل النص القرآني متوافقاً مع المعرفة العلمية على أنه نوع من العصاب، أو، لأكون أكثر دقة، «هذيان تأويلي» كما يسميها، وعلى أنها ليست جزءاً من عقلنتهم للقرآن(٦٩). ويضيف بن سلامة قائلاً: «إن الإطلاع على هذه الوثائق يترك لنا انطباعاً بأن الأمر يتعلق بهذيان تأويلي على نطاق واسع. وهو ككل هذيان، ينبع من قلق تدمير، ويحاول أن يرمم من الخارج ما قد انهار من الداخل(٧٠)». هذا بالفعل كلام غريب لا سيما ونحن نسمعه من أحد الملتزمين بالعقلانية حتى إنه اختار أن يكون أحد أعضاء «رابطة العقلانيين العرب». ولست أتهكم فهذا هو الاسم الذي اختاره المؤسسون لهذه الرابطة، كي تنشر الترجمة العربية لكتابه(٧١). إن استخدام بن سلامة لهذه التصنيفات من عقلانية ولاعقلانية، والعلم والإيمان، والمعرفة والجهل، هو استخدام يشاركه فيه مفكرون إسلاميون كثر. فبينما كان المفكر الإسلاموي سيد قطب قد أشار إلى معاصريه من المسلمين وغير المسلمين على أنهم يعيشون في عصر الجاهلية،

فإننا نجد بن سلامة يصرّ على استخدام نعوتات عصر التنوير الأوروبي لوصف الإسلاميين بـ «الظلامية» والغموض المتعمد وبأن رجال الدين المسلمين يعيشون في «جهالة كبرى»(٧٢).

إن الطرح الذي يعارض ما بين العلم والدين ووصف التحليل النفسي على أنه «علم» يعارضه الإسلام كـ«دين» بمعنى religion، هو طرح يشترك فيه الكثير من المحللين النفسانيين مع بن سلامة ومنهم طرابيشي، وصفوان، ومؤخراً أيضاً، عدنان حب الله. ويقدم صفوان مثلاً نظريتين لتفسير طبيعة العلاقة ما بين «الإسلام» والعلم. فيقول من ناحية بأن «العرب» كانوا منفتحين على علوم الأجانب وطوروا فيها عندما كانوا يحكمون وفي السلطة، ولكن بعد أن خسروا السلطة رفضوا أن يأخذوا بعلم أتى مع قوى الاستعمار»(٧٣). ومن ناحية أخرى، يقدم صفوان تحليلاً آخراً غير متسق مع تحليله الأول وهو أن الأتراك هم من قوض العلم في «الحضارة الإسلامية»(٧٤). ويؤكد صفوان أن «الإسلام كان ضحية الأمم التي غزاها لأن هذه الأمم كانت ذاتها ضحية لأنظمة سياسية وأجهزة إدارية كان هدفها الوحيد هو سيطرة الدولة على كل مظاهر الحياة»(٧٥). ويقدم صفوان أيضاً تعميماً مقلقاً بأن في العصر الحالي «قد حقق الغرب إنجازات علمية هائلة بسبب هذا الفصل (ما بين العلم والدين)، في حين أن العالم الإسلامي لم ينتج شيئاً بسبب تعميم فكرة مفادها أن الخطاب العلمي نشأ عند الكفرة ولا يجب الأخذ به»(٧٦). وربما تكون هذه النبرة الغاضبة والمحتقرة من قبل صفوان ناتجة عن أن نصه هذا منشور في اللغة العربية مما يجعله بمثابة حديث خاص بينه وبين قراء عرب إسلاميين، وهو عبارة عن نقد ذاتي لا يمكن لمعظم الأوروبيين أن يشهدوه.

ويدعي صفوان أن الكنيسة في الإسلام، بخلاف الكنيسة في المسيحية، هي الدولة، وتحديداً المملكة الدكتاتورية والتي تزيل إمكانية وجود مجتمع مدني. وما ينتجه هذا الوضع هو حالة مفرطة من «باثولوجيا الطبيعية»(٧٧)، والتي تجعل من كل أفراد المجتمع يتبعون بعضهم البعض في ممارسة الطقوس الدينية. ويرفض صفوان الحجج الجوهرانية التي تميز المسيحية عن الإسلام في انفتاحها المزعوم على العلم والديمقراطية، ولكن تحليله المادي يقودنا إلى نفس الخلاصة، التي مفادها إن كان الإسلام أو العرب معادين للعلم والديمقراطية بجوهرهما أو أنهما عادياها نتيجة اجتياحات أجنبية وعوامل اجتماعية واقتصادية، فالنتيجة هي أنهما اليوم معاديان لهما مما يفسر، حسب صفوان، شرط اللاحرية الذي يعيشون فيه.

فلنأخذ عدنان حب الله كمثال آخر على مفكر مهتم في موضوع العلم والدين والتحليل النفسي (وهو عنوان مؤتمر كان قد نظمه مع زملائه من المحللين النفسانيين العرب في مؤتمرهم الثالث المنعقد في بيروت عام ٢٠٠٧) واستقبال المفكرين العرب غير المرحب بالتحليل النفسي، كما يزعم(٧٨). وحب الله مهتم أيضاً بغياب الديمقراطية في الدول العربية اعتقاداً منه أن غيابها هذا هو ما يسبب عدم الترحيب بالتحليل النفسي، حيث لا يمكن للأخير أن «يتخيل» على أنه موجود في بلد قامع لأن «التحليل النفسي هو التعبير عن حرية الفكر»(٧٩).

ويصر حب الله بأن الديمقراطية قد «فشلت في غزو الفكر العربي». فمفهوم الفرد يتراجع أمام الرعية والمجتمع، حيث سلطة الراعي، «الخليفة»، قد فرضت بأمر إلهي وهو أمر لا يمكن للجميع إلا أن يخضعوا له (être soumis)(٨٠). وما يلاحظ هنا هو فهم حب الله لمفهوم الفرد والديمقراطية على أنهما مفهومان أوروبيان بينما يعتبر مفهوم الرعية مفهوماً إسلامياً! إن جوهرانية مفهوم الرعية عند حب الله على أنه مفهوم إسلامي يقهر الفرد ولا يمكن للديمقراطية أن تقهره، هو المفتاح الذي من خلاله نستطيع فهم مقاربة حب الله الذي يصر على أن «موضوع العلم لم يدخل حتى الآن في الثقافة العربية»(٨١).

ويحاجج حب الله (وهو يستخدم كلمة «إسلام» دون تحديد، شأنه شأن بن سلامة) في خطابه المرحب بالمشاركين في مؤتمر المحللين النفسانيين العرب بأن «الإسلام في العصر العثماني (كان) بمنأى عن هذه التطورات العلمية والثورات الاجتماعية (الثورة الفرنسية)، نظراً للحدود الجغرافية. أما الآن بعد أن تصدعت كل الأبواب وانفتحت على مصاريعها، فلم يعد للإسلام بد سوى مواجهة الموجة العلمية لما بعد الحداثة. وبرأيي يشكل العنف المتفجر في كل مكان ظاهرة بدائية كردة فعل دفاعية أولى لابد أن تتبعها لاحقاً موجة فكرية تستوعب الحداثة وتتفاعل معها»(٨٢). والسؤال الذي يطرحه حب الله «لماذا شعر الإسلام بخطر الحداثة؟»(٨٣)، يجيب عليه بقوله إن العرب والمسلمين (وحب الله لا يميز حتى في عنوان مقاله بين المجموعتين) لم يخضعا لعمليتين جراحيتين «منذ نشوء الإسلام وهما فصل الدين عن السلطة، أي لم يحصل ثورة شبيهة بالثورة الفرنسية، وفصل الدين عن العلم»(٨٤).



هنا يبدو جليا بأن هذا التشييء للتحليل النفسي كعلم لا يحث مفكرينا أن يقروا أو أن يشيروا إلى تجاهلهم للسجالات المهمة داخل التحليل النفسي حول علمويته، ناهيك عن عدم ذكرهم لعلاقة فرويد المترددة والمزدوجة والمتعددة الأسباب مع العلم. وربما تكون مقاومة أو قلق بن سلامة (ومعه صفوان وحب الله) من إمكانية وجود تحليلات نفسية متعددة وليس فقط تحليل نفسي واحد أصيل توازي قلقه من الإسلام المفرد والمتعدد. على أي حال، فهؤلاء المفكرون يختلفون فيما بينهم في بعض النقاط عن طبيعة علاقة الإسلام مع العلم. ولكن هذه المعارضة بين الاثنين والتي يكرسونها ليست جديدة بل هي بمثابة استمرار لتقليد بدأه المستشرق إرنست رنان في سجاله المشهور مع جمال الدين الأفغاني في القرن التاسع عشر حول هذه المسألة بالذات؛ حيث وبخ رنان العرب والمسلمين لـ «عدائهم للعلم»، وهو سجال لم يذكره أي من مفكرينا ولا يبدو أنهم يعرفون عنه(٨٥).

يبدي بن سلامة قلقاً على مفهوم التسامح الليبرالي، والذي يجد إسلام الإسلاميين (كلهم؟) مفتقراً إليه، وبينما يجده بوفرة في العلمانية والعقلانية الأوروبية (كلها؟). هنا يبرز التزام بن سلامة بالليبرالية على أنه التزام بالمعادلة الفرويدية بين الفردانية ونضج النوع البشري ونضج الفرد، والذي يقابلها فرويد بعصبية الجماعة والعضوانية باعتبارهما بدائيين ونكوصيين، وهو أيضاً التزام باعتبار فرويد للتسامح أعلى إنجاز للسياسة الليبرالية، والذي هو مرادف لأعلى درجات الحضارة. ويمكننا قراءة شرح فرويد لهذه المسائل، كما بينت وندي براون، في اتجاهين: فالإنسان يتغلب على لااجتماعيته البدائية من خلال أنماط من الحياة الاجتماعية الخالية من الصراع على شاكلة العقد الاجتماعي (**قلق في الحضارة والطوطم والتابو**)، كما أنه يتغلب على العصبية البدائية والعضوانية في إنجاز الفردية المتحضرة (**علم نفس الجموع وتحليل الأنا**). وفي المقابل، تصر المفاهيم الليبرالية على أن التسامح الليبرالي الفرداني المتحضر، كما وصفته براون، «متوفر فقط لاستخدام الذوات الليبرالية والأنظمة الليبرالية ويكون أفضلية الإثنين على بدائلهما الخطيرة. وهما يقيمان الأنظمة العضوانية على أنها الحدود الطبيعية للتسامح الليبرالي، مما يؤدي إلى عدم التسامح معها نتيجة عدم تسامحها هي أصلاً»(٨٦). إذاً، في حين يوبخ بن سلامة الإسلام الواحد والإسلاميين (الذين يمنحون في نظره معنى وتأويلاً واحداً مفرداً للإسلام الواحد) لافتقارهم لأية عقلانية أو تسامح (وهو ينكر عليهم أي تسامح على أساس لاتسامحهم المزعوم)، فإنه يضفي صفة التسامح على الإسلام الفرداني الذي ينقذه من براثن (كل) الإسلاميين والمستشرقين باعتباره يتضمن هذه القيمة المتحضرة والهامة. وبهذا المعنى لا تختلف قيمه إلا قليلاً عن فهم الليبرالية العام للمجتمعات التي تصر على أنماط مختلفة من الاجتماعوية والتي يعتبرها آخر. وكما توضح براون «إن الأنظمة العضوانية ليست فقط آخراً جذرياً لليبرالية بل هي تمثل «العدو في داخل الحضارة وعدو الحضارة في ذات الوقت». وأكثر هذه الأنظمة خطراً هي الأنماط العالمية والعابرة للأوطان والتي تتخيل على أنها عضوانية من منظور ليبرالي وتصل المعنيين معاً - اليهودية في القرن التاسع عشر، والشيوعية في القرن العشرين، واليوم بالطبع الإسلام»(٨٧). وهنا يبدو أن الصلات التاريخية بين اللاسامية الليبرالية والاستشراق والعداء الليبرالي للشيوعية تساكن سياسات التماهي والآخرنة ذاتها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن اليهودية التي برزت بعد الحرب العالمية الثانية داخل الثنائية الليبرالية الغربية التي تعرف بالحضارة «اليهو-مسيحية»، والتي حلت مكان صيغة ما قبل الحرب والتي سماها فرويد «الحضارة البيضاء المسيحية في حاضرنا»(٨٨)، لم تعد هذه الصفات تنطبق عليها، إلا في حالة اليهوديات التي تقاوم زجها داخل النظام الليبرالي. ومن الواضح

وهكذا أصبح الإسلام يعارَض على أنه نقيض مفاهيم معينة (مثل «الغرب»، «الليبرالية»، «الفردانية»، «الديمقراطية» أو «الحرية») لا مفاهيم أخرى (مثل الاضطهاد، والدكتاتورية، والظلم)



أن لدى بن سلامة نفسه الانطباع الملمح به حول الإنجاز اليهودى لليبرالية الغربية (بمعنى أن اليهود قد وصلوا إلى مرتبة النضج الفردى الليبرالى والغربى)، والذى يود لو يحاكيه المسلمون: فهو يذهب إلى حد المبالغة فى الإنجاز العلمى اليهودى لدرجة أنه يهب المفكرين المسيحيين هويات يهودية. ففى غمرة تسرعه فى سبيل إثبات دفاعه عن اليهود المتنورين والناضجين والمؤوربين، وبالتالى الليبراليين إزاء عداء عربى ظلامى وبدائى متخيل لليهود والذى يفسر له ما يراه على أنه رفض «عربى» و«مسلم» للتحليل النفسى باعتباره «العلم اليهودى» (وهو مفهوم أوروبى ليس له إلا القليل من الصدى بين المفكرين العرب والمسلمين)، يرد بن سلامة قائلاً: «أشعر بشىء من العار إذ أجد نفسى مضطراً إلى لفت النظر إلى أن من يفكر على هذا النحو، عليه أن ينكر أيضاً نظرية الجاذبية مثلاً أو نظرية النسبية، وهما من وضع عالمين يهوديين هما: نيوتن وأينشتين»[89]. ويبدو هنا أن بن سلامة لا يجهل حقيقة أن نيوتن كان مسيحياً فقط (ربما يكون اسم نيوتن الأول «إسحق» هو ما أدى إلى الالتباس لدى بن سلامة؟)، وإنما كذلك كون الأخير قد كتب الكثير من الشروحات حول اللاهوت المسيحى. إن مبالغة بن سلامة بالإنجازات اليهودية والإخفاقات العربية يحيلنا مرة أخرى إلى ما ذكرناه سابقاً بتفضيله إسحق على إسماعيل.

لدى قراءة بن سلامة، يبدو للمرء بأن الدراسات التحليلنفسية للإسلاميين (والذين يقدمون فى مجملهم كرافعين للواء الإسلام الواحد اللاليبرالى) هى إعادة لمنهجية علم نفس الأنا الأمريكية Ego Psychology، التى تبحث عن الأليات العصابية فى طفولة الأشخاص كى تفسر عدم مقدرتهم على القبول بالسلطة وتلبية دعوة السوية. إن المقاومة المسلمة والإسلامية للسوية الغربية العلمانية والليبرالية (اقرأ المسيحية) تفسر باعتبارها مقاومة نفسية للنضوج وسلطة الراشدين، وعلى أنها عصيان ضد السوية. إن التحليل النفسى الليبرالى الحضاروى الذى يدفع به بن سلامة يسعى شأنه شأن الإمبريالية الأمريكية، لإعادة العناصر المتمردة والمريضة إلى المجتمع والعناية بها إلى أن تتعافى.

وكان جاك دريدا قد أبدى قلقه على ما أسماه فرويد «السياسة الخارجية» للتحليل النفسى، كما تذمر من صمت ومراوغة التحليل النفسى كمؤسسة فى مسألة التعذيب والعنف فى «بقية العالم»، والذى خشى أن تكون نوعاً من التواطؤ. وأضاف دريدا بأنه «يمكن للتحليل النفسى أن يخدم كصلة وصل لهذه الأنماط الجديدة من العنف (إساءة المعاملة غير المرئية التى يصعب اكتشافها - إن كان فى أوروبا أو على حدودها - ويمكن أن تكون أجدد بمعنى آخر)، أو أن يكون وسيلة لا بديل عنها لفك شيفرتها، وبالتالى شرطاً مسبقاً لإدانتها من خلال تعابير محددة - وهكذا يكون شرطاً ضرورياً مسبقاً للنضال والتحول. وبالقدر الذى لا يحلل التحليل النفسى ولا يدين أو يناضل أو يحول (أو حتى يحول نفسه من أجل هذه الأهداف)، فهو بالتأكيد فى خطر من أن يصبح استملاكاً معقداً وشاذاً للعنف ليس أكثر، أو فى أحسن الأحوال سلاحاً جديداً فى ترسانة الذخيرة الرمزى»[90]. أما التدخلات التحليلنفسية عبر الترجمة كخدمة مباشرة أو غير مباشرة للسلطة، فيمكن أن تكون هى أيضاً تواطؤاً مع سوء المعاملة والعنف. ولا يبدو هنا أن بن سلامة يشاطر دريدا قلقه من بعض أنماط التحليل النفسى وكيفية مقاربتها لموضوع أسمته بـ «الإسلام». فهو يحتمى خلف اللغة الليبرالية: كالفردانية والحرية وحقوق الإنسان. ولكن، وكما أوضح دريدا، إن هذه ليست مفاهيم تحليلنفسية: «تستخدم لغة لا تحتوى على طبيعة تحليلنفسية كملجأ يختبأ خلفه... فما هو صالفرد؟ وما هى «الحرية الشرعية» من منظور التحليل النفسى؟»[91]. يمكن أن تكون إجابة بن سلامة على هذا التساؤل «ترجمة» أكثر.

تظهر فى نص بن سلامة نزعتان، واحدة تدين ثيولوجيا إسلامية ساكنة، يعتبرها قد «تكلست طوال قرون طويلة من الجمود»[92]، وأخرى هى بمثابة قطيعة مع الأصول الإسلامية (جلبتها الحداثة عبر الإستعمار) أدت إلى ظهور الإسلام الواحد كردة فعل على هذه القطيعة. وبناء على الأبحاث التى قام بها، يشخص بن سلامة الوضع الحالى كالتالى: «ما يحصل فى الإسلام منذ ما يزيد عن عشرين عاماً هو من هذا القبيل. إنه ناتج عن وقف يقطع تاريخه ويفتح داخله إمكانية أخرى للتاريخ»[93]. وما وجده بن سلامة فى سياق بحثه «عن تحول شخص الأب والدور الأبوى» فى إحدى ضواحى تونس العاصمة فى منتصف الثمانينيات كان كافياً بالنسبة له للوصول إلى الاستنتاج بأن هناك ضيق («malaise») «أعمق» و«أطول مدى» قد أصاب «الحضارة الإسلامية» برمتها، وليس فقط ضاحية سكنية واحدة[94]. وليس جليا إن كان ذلك الخلط الرمزى بين الأب ودور الأبوة والإسلام هو استنتاج بن سلامة أو استنتاج سكان الضاحية التونسية الذين درسهم. وهذه نقطة هامة، وذلك لأن بن سلامة يحاجج، وهو على صواب فيما ذهب إليه، بأن «الإسلام»، وبعكس المسيحية، ليس فيه دور أبوى لله: بل على العكس، فهذا الدور مرفوض بجلاء فى القرآن. ويلوم بن سلامة المثقفين العرب والمسلمين والنخبة السياسية على هذا الضيق الذى يعانى منه الإسلام: «نخبة لم تتوصل إلى ترجمة الحداثة إلى العامة، ولم تستخدم الإمكانيات التأويلية والسياسية بما يتناسب مع سلطتهم المفرطة»[95]. وأما استنتاجه بأنه فى العالم العربى «لم تكن الحداثة إذاً سوى صورة مزيفة لما هو حديث»[96] فيظهر إيمانه بأن «الحداثة» فى الغرب هى حقيقة وليست تأويلاً.



على الرغم من أن بن سلامة يصرح «بأن «الإسلام» (ولكن أى إسلام؟) لا يتلخص فى الإسلامية (والتى يراها مرة أخرى كظاهرة مفردة)»[97]، فهو يصر على أن «تحليل الآثار المدمرة للقطيعة يجب أن لا يفضى إلى محاكمة ماهوية، لأن ذلك يعنى أننا نغيب القوى التاريخية والمادية المعاصرة التى جعلت الإسلام يخرج من طوره»[98]. فإن عمل الثقافة، كما يقول بن سلامة، يجد مشقة فى التفكير فى هذا الإنبتات للمسلمين عن تاريخهم فى تجربتهم مع الصورة المزيفة للحداثة: «هذا الخرق الذى لا كلام له هو الذى يحدد هنا مهمة المحلل النفسانى»[99]. ولكن فى نهاية الكتاب وبعد أن قدم الأسباب التى من أجلها يجب أن تقرأ كلمة «الإسلاموية» تحت الحذف، يذكرنا بن سلامة بأنه «لا يمكن أن نبرئ الإسلام من هذه الأيديولوجيا «الإسلاموية»![100] ويطغى هذا التوتر بين الإسلام الواحد والمتعدد على مناقشة بن سلامة فى مجمل كتابه.

ولكن ثمة حل لهذا التوتر القائم، حيث يؤمن بن سلامة بأن السبيل الوحيد للخروج من هذا الإسلام الواحد هو عبر العلمانية الليبرالية. وقد أسس مؤخراً مع زملاء له «رابطة بيان الحريات»، وهو أحد موقعى (أو كاتبى) نص إعلانها المؤسس[101]. وما تجدر الإشارة إليه هو أن المفردات التى تطغى على الإعلان، والتى تتضمن فيما تتضمن وصفاً لطبيعة «شمولية» مزعومة للإسلاموية، مستعارة برمتها من قاموس العداء الأمريكى للشيوعية أثناء الحرب الباردة. حيث يؤكد الإعلان بأن أعضاءه الذين «يحملون قيم العلمانية والمشاركة فى عالم واحد... على صلة عبر تواريخهم الفردية، وبطرق مختلفة، مع الإسلام، ذلك الإسلام الذى يعرفه الإعلان بأنه «مكان حيث تتبلور الكثير من أخطار العالم المعولم: الفاشية الهوياتية والسيطرة الشمولية، الحروب الأهلية والكولونيالية، والطغيان والدكتاتورية، وعدم المساواة والظلم، والكره الذاتى وكراهية الآخرين، فى خضم تطرف اقتصادى ودينى وسياسى»[102]. ويقال بأن الإسلاميين (كلهم؟) هم بمثابة «قوى دمار» تجب معارضتهم عبر الديمقراطية وتأسيس السياسى، والذى لا يمكن أن يفرض عسكرياً ولكن يجب أن «يركز على البنيان الداخلى للإسلام (ولكن أى إسلام؟) وأن يعدل من علاقاته مع حدوده الجغرافية-السياسية»[103]. وبينما يميز الإسلام المفرد عن غيره (ويتضح من قراءة بن سلامة بأنه لا يمكن للإسلام فى الحاضر إلا أن يكون مفرداً) فى الإعلان عن حاجته إلى التحول، يصر الموقعون على أنهم سيحاربون ويقاومون ما يسمونه «بالإسلاموية الشمولية»[104]. وما يعقد استخدام لغة الحرب الباردة هذه أحياناً هو نزعة مسيحية معادية لليهودية، حيث تجرى المقارنة، كما كان الوضع دائماً، بين إله المسيحية «المحب» و«المتسامح» وإله اليهودية «الغاضب» و«المنتقم». ويتبنى بن سلامة لاواعياً (؟) هذا التوصيف. فما يعرضه الإسلاميون اليوم على المسلمين «الخاضعين»، كما يقول بن سلامة، ليس أقل من «إله منتقم ومانح مكافآت (un Dieu vengeur et rémunérateur)»[105]. والتعبير الأخير rémunérateur، وهو تعبير تجارى من عالم رجال الأعمال، فيه تلميح بأن إله الإسلام يجلب مكاسب وأرباح بالمعنى المالى، مما يقترح صلاتاً أكثر مع المفاهيم اللاسامية عن اليهود والمال.

ومن المفارقة أن جميع الإسلاميين لا يعارضون التحليل النفسى، بل إن بعضهم منفتح عليه[106]. فبعكس بن سلامة الرافض لإسلام الإسلاميين (والاثنان يطرحان بالمفرد فى

برزت نزعتان دينيتان وفكريتان فى القرن التاسع عشر بين المفكرين العرب والمسلمين والمستشرقين الأوروبيين حيث قدموا الحجج على توافق أو عدم توافق الإسلام مع الحداثة والتقدم الغربى

اسميهما ودلالتيهما)، فإن أحمد السيد على رمضان، وهو أستاذ مصرى يدرس علم النفس فى السعودية، ليس فقط متسامحاً مع التحليل النفسى الفرويدى، بل يذهب أبعد من ذلك، إذ يعرض لنا تقييماً إسلامياً لمظاهره «الإيجابية» و«السلبية» من منظور «إسلامى». وبعد مراجعة أعمال فرويد والتعليق عليها وعلى منهج التحليل النفسى وتاريخ النقد الغربى له وتاريخ ممارسته فى مصر، يخلص رمضان إلى قائمة من المساهمات الإيجابية للتحليل النفسى، والتى تتضمن مفاهيم فرويد عن «اللاشعور»، ومنهج «التداعى الحر»، و«تفريغ المريض من شحناته الإنفعالية»، و«خلق الثقة عند المريض»، و«إخراج الصراعات المترسبة فى اللاشعور إلى سطح الشعور»، و«تخفيف مقاومة» المريض، واكتشاف عقدة أوديب، وهلم جرا[١٠٧]. ويأخذ رمضان التحليل النفسى على محمل الجد، لدرجة أنه يقارنه مع المفاهيم القرآنية عن النفس، ويشير إلى التقائهما وتباعدهما عن بعضهما البعض[١٠٨]. ولكنى لم أثر هذه النقطة كى أستشهد بانفتاح رمضان على التحليل النفسى الفرويدى فحسب، وإنما كذلك أيضا كى أبيِّن بأن بن سلامة ليس غير متسامح مع «عدم تسامح» الإسلامويات فحسب، بل هو غير متسامح حتى مع تسامحها.

ويسعى بن سلامة، شأنه شأن بعض الإسلاميين الذين يندد بهم، وبخلاف غيرهم غير الموجودين فى إطاره الإبستمولوجى، إلى تحديد الإسلامات المتعددة التى يجدها فى شكل واحد. فبالنسبة إليه، هناك إسلام واحد يمكنه التسامح معه، وهو الشكل الليبرالى للإسلام، الذى يرفع لواء كل قيم أوروبا الليبرالية الناضجة، ولا يتسامح مع إسلام الإسلاميين، الذين يزعم بن سلامة أن قيمهم تعارض قيم الليبرالية، حتى عندما لا تعارضها. وهذا هو الإسلام الذى يستطيع هو لا غيره «تعقله». ويريد بن سلامة أيضاً أن يحدَّ من معنى الإسلاموية باعتبارها من ترفع لواء الإسلام اللاليبرالى، والذى لا يمكنه التسامح معه. وهكذا يغدو التحليل النفسى فى كتابات بن سلامة أَمَة الليبرالية الأوروبية، ولا يُظهر أى تردد داخلى أو تردد حيال الآخر الذى هو نتاج إسقاطه. بل على العكس من ذلك، فإن الثقة التى يُعمِّد فيها «الإسلام» كآخر الليبرالية والغرب تضع الإسلام فى مكانة الإنسان البدائى والطفل ما قبل الأوديبى فى عالم فكر فرويد فى التحليل النفسى. وبن سلامة ليس وحيداً فى إنجاز هذا التحول، بل هو جزء من ثلة كبيرة من المفكرين العرب والأوروبيين الذين يصرون على هذه التصورات. وبينما حلل بن سلامة شخصية إبراهيم وإسماعيل فى القرآن بجدارة كما حلل شخصيتيهما وشخصية هاجر فى التقليد الكلامى الإسلامى (حيث إنه لا هاجر ولا سارة مذكورتان فى القرآن البتة)، فإن فطنته التحليلنفسية تتحول، عندما يتعامل مع الإسلاميين المعاصرين، إلى ابتهالات ليبرالية.

وفى حين يُبدى بن سلامة قلقاً مستمراً من الفظاعات التى تقترف «باسم الإسلام»، فإنه لا يُبدى ذات القلق إزاء الفظاعات الأكبر التى تُرتكب باسم العداء للإسلام. بل على العكس من ذلك تماما، وكما بينت آنفاً، فهو مشارك ولو مع شىء من التردد فى الخطاب المعادى للإسلام، كما يبين اختياره الواعى لعنوان كراسته «إعلان ضد الإسلام». ولكن يمكن لمشكلة الاسم أن تُعقَّد أكثر مما سَمَحتُ به حتى الآن. ففى سياق كتابته عن الرسالة النبوية، تحرى عبد الكبير الخطيبى الأسباب التى دفعته للكتابة عنها بذكر اسم أخيه محمد، واسم أبيه أحمد، واسمه هو عبد الكبير، إذ إنه ولد فى يوم العيد الكبير، وهو عيد يكرم تضحية إبراهيم بابنه، باعتبارها الأسباب التى يمكن أن تكون قد دفعته للكتابة عن هذه المواضيع[١٠٩]. وفى المقابل، لا يقرأ بن سلامة اسمه فى رغبته فى الكتابة عن التحليل النفسى والإسلام، بل يضع اللوم على «الإسلام»، حيث يُعلمنا بأنه لم يتخذ «قراراً بالاهتمام بالإسلام إلا عندما ابتدأ الإسلام يهتم بنا»[١١٠]. ولكن إذا قرأنا اسمه فى هذه المعادلة، وهى قراءة لا يقوم بها بن سلامة (بالرغم من أنه كثيراً ما يتلاعب فى كتبه فى الكلمات والأسماء وأصولها العربية ومصادرها الثلاثية وعلاقتها باللاوعى) ستزودنا هذه القراءة بتأويل تحليلنفسى مثير للاهتمام لاكتشافاته. فإن بن سلامة أو ابن سلامة (واسمه على شاكلة الأسماء الإنجليزية مثل Johnson أى ابن جون أو Christianson أى ابن المسيحى أو Christopherson إبن المسيح)، يشترك مع الإسلام فى اسم الأب، إذ أن الإسلام وسلامة لهما نفس المصدر الثلاثى س ل م. وسلامة وهو أحد معانى الإسلام التى يعددها بن سلامة نفسه[١١١]. وبهذا المعنى، يمكننا أن نعتبر بأن بن سلامة يتكلم باسم سلامة، أى اسم الأب الرمزى الذى يفرض القانون، والذى يقول لا (كما عرَّفه لاكان le nom/non du père)، وهو أيضاً اسم الإسلام. ولكن بن سلامة يتكلم باسمه كى يصدر إعلاناً ضده، ضد اسمه وضد أبيه سلامة-إسلام. ولكن وفى واقع الأمر يقوم مشروعه بأكمله على محاربة هذا الإسلام («فى كل مكان»[١١٢]، كما يقول)، هذا الإسلام الواحد، الإسلام الإسلاموى، من أجل قتله واستبداله بأب آخر أكثر رقة وحنانا ولا يفرض القانون، ألا وهو الإسلام الليبرالى، الذى يمضى بن سلامة كثيرا من الوقت متمنياً وجوده. ويمكن لهذه القراءة الشرطية لاسم بن سلامة وعلاقته بالإسلام أن تفسر التمرد الأوديبى (insoumission) الذى يعلنه بن سلامة ضد الإسلام كالأب الرمزى الذى ينظم الرغبة، والذى تمكن قراءته بالنسبة لمحاولات بن سلامة المستمرة والذكية لتخليص هاجر، أم وجدة العرب، من تهميش «الإسلام» لها.



ويبدو هنا وكأن موقع بن سلامة الجغرافى والسياسى فى فرنسا، شأنه شأن أقرانه، يملى عليه التزاماته الليبرالية بشكل واع. وهو بالطبع يفسر شعوره بـ«العار» من انتسابه لمجموعة من المسلمين ذوى العلاقة الملتبسة مع التحليل النفسى، ورفضه المتردد لاسم الأب ونسبه الأبوى بشكل عام لصالح تحليل نفسى ليبرالى وأوروبى (فرنسى). كما يبين موقعه أيضاً سياق النظريات النقدية التى يريد بن سلامة أن يشارك فيها، وحيث يريد أن **يولج** نقده. وهو ذاته من يستوقف نفسه للتأكيد على أن إصدار إعلانه «هنا فى فرنسا، على هذه القارة الأوروبية التى يعاد تنظيمها، يلزمنا خاصة وبطرق عدة: أولاً بفرصة أن نكون فى حيز ديمقراطى يتساءل عن مستقبله ويبتهل إلى ديمقراطية قادمة»[١١٣]. ويعمل هذا الالتزام المطلق بقيم الليبرالية، من الفردانية والحرية والتسامح وفصل الثيولوجى عن السياسى[١١٤]، وكأنه عقيدة دينية عند المفكرين والمؤمنين به، وحيث إنهم كذلك يمكننا تشبيه التزامهم بالعصاب الوسواسى، كما شبه فرويد الدين. وفى ضوء هذا التشبيه، وكما وصف فرويد أتباع الأديان، فإن أتباع العقيدة الليبرالية الورعين «محصنون لدرجة كبيرة ضد خطر بعض الأمراض العصابية. فقبولهم لهذا العصاب العالمى يريحهم من مهمة بناء (عصاب) خاص بهم»[١١٥]. وعلى المهاجرين الفكريين العرب والمسلمين إلى أوروبا، بالمعنى الجغرافى أو السياسى، ممن تحولوا دينياً إلى العقيدة الليبرالية، أن يضيفوا إلى مهامهم الصعبة مهمة أخرى صعبة ألا وهى أخرنة الذات، والتبرؤ من الإسلام الذى يرفض أن يكون ديناً فقط بمعنى religion كى يدمجوا نسخة منه فى المفهوم الليبرالى المسيحى والعلمانى للدين religion فقط، والذى سيجعل هذا الإسلام قابلاً لتسامح الليبراليين الأتقياء.

أما الهوية الليبرالية والآليات التى تُنتج من خلالها آخريها، فتؤخذ دون مساءلة فى أعمال بن سلامة وغيره. وهذا يحد من أعمال بن سلامة عامة ويمكن قراءته بطريقة منتجة عبر التحليل النفسى. حيث إنه يمكن لقراءة كهذه أن تكون مفيدة للتحليل النفسى فى الوقت الحاضر، وهو أن ندرس الآليات التى من خلالها تتكون الذات الليبرالية عند الأوروبيين والمهاجرين الفكريين المسلمين وغير المسلمين من المستعمرات الأوروبية السابقة. فإن تحليلاً نفسياً أكثر فضولاً ربما ينجز الكثير إن أخذ على عاتقه دراسة علم نفس الجموع للمفكرين العلمانيين والليبراليين عامة فى مسألة الإسلام كى يكشف عن الآليات والعمليات اللاواعية التى تعمل على تكوين الأنا الليبرالية عندهم، والتى بالتالى تفضل هذه القراءة الليبرالية لشىء يصرون على أخرنته كـ«إسلام».

وفى أثناء ذلك كله، يبقى السؤال الهام الذى طرحه بن سلامة والخطيبى فى إعلانهما عن حاجتهما لأوراق بحث للمشاركة فى مؤتمرهما التدشينى عن التحليل النفسى والإسلام فى عام ١٩٨٧ (ونصه «من أى أسس وبالنسبة لأى مشاكل محددة يمكن للتحليل النفسى أن يدخل فى علاقة مع هذه الحضارة الأخرى دون أن يفعل ذلك على شاكلة علم النفس الثقافى أو عملية نقل صافية تعيد إنتاج ثوابت الفكر الكولونيالى بالنسبة لموضوع الكائن النفسى؟») سؤالاً يبحث عن إجابة ويظل تحدياً قائماً ومفتوحاً[١١٦]. ■

يدعى صفوان أن الكنيسة فى الإسلام، بخلاف الكنيسة فى المسيحية، هى الدولة، وتحديداً المملكة الدكتاتورية والتى تزيل إمكانية وجود مجتمع مدنى



الهوامش

(١) لقد قدمت نسخة أقصر من هذه الورقة فى محاضرتى التى كانت الكلمة الرئيسة فى مؤتمر «التحليل النفسىَ، الفاشيَة، والأصوليَة» الذى عقد فى ٢٩ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٨ فى متحف فرويد فى لندن تحت رعاية متحف فرويد وجامعة مدلسكس البريطانية والجمعيَة العالميَة لتاريخ طبَ الأعصاب والتحليل النفسىَ الفرنسيَة Société Internationale d'Histoire .de la Psychiatrie et de la Psychanalyse والتى لم أتمكن، لسوء الحظ، من إلقائها شخصياً نتيجة إجراءات تحرَى السفارة البريطانية عن بصماتى مما أدى إلى تأخر صدور التأشيرة البريطانية لى فى الوقت المناسب. وقد ألقى الكلمة نيابة عنى الأستاذ غلن بومان مشكوراً. وقد أتيحت لى المشاركة فى المؤتمر عبر الهاتف فى آخر الجلسة كى أجيب على أسئلة الجمهور. وأود هنا أن أشكر د. جوليا بوروسا لدعوتها لى للمشاركة فى المؤتمر وكذلك الأستاذة جون كوبتشك لدعوتها لى للمساهمة بمقال فى العدد الخاص لمجلة Umbr(a) التحليلنفسيَة عن الإسلام والتحليل النفسىَ التى تحررها، حيث حثتنى دعوتها على الضلوع فى هذه الدراسة. كما أنى قدمت هذه المحاضرة فى جامعة بيرزيت فى ٢٣ آذار/مارس ٢٠٠٩ عبر الفيديو وأتقدم بالشكر للأستاذ روجر هيكوك لدعوته لى لإلقائها. كما أجدنى ممتناً أيضاً للأستاذ طلال أسد والأساتذة ليشا روزنتال ونبفبل هود لملاحظاتهم على مسوَدة هذه الورقة وللصديقين محمد أيوب وحسن أبو هنية لمراجعتهم ترجمتى لهذه الدراسة.

(٢) انظر E.G. Von Grunebaum, Islam, Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition, (London: Routledge and Kegan Paul, Ltd، ١٩٥٥).

(٣) D. S. Margoliouth referred to Islam as a "system", in his Mohammedanism, (London: Williams and Norgate، ١٨٩٦)، صفحة ٤٢.

(٤) يستخدم سيد قطب مصطلح «منهج» فى معظم كتاباته، لا سيما فى كتابه **الإسلام ومشكلات الحضارة**، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥)، كما يستخدم المصطلح أيضا محمود محمد شاكر فى كتابه **رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا**، (القاهرة: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢).

(٥) حول استخدام مصطلح «برنامج» أو «programme»، انظر Muhammad Asad, Islam at the Crossroads, (Lahore: Arafat Publications، ١٩٤٧). صفحة ٥، ١٤، ١٥ وغيرها. وقد نشر الكتاب أصلا عام ١٩٣٤.

(٦) لقد كتب ديل آيكلمان وجيمز بيسكاتروى بفطنة عن «جهزنة» الإسلام و«تشييئه»، وكيف أنه «يعيد ترتيب الإنتاج الرمزى لسياسة المسلمين». إلا أن مصطلح «إسلام» عندهما يشير إلى «religion»، ولا يشير إلى دلالات متعَدَدة. انظر Dale F. Eickelman and James Piscatori, Muslim Politics, (Princeton: Princeton University Press، ١٩٩٦). صفحة ٣٨.

(7) Sigmund Freud, Moses and Monotheism, in J. Strachey, The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud, (London: Hogarth Press, 1953-1974), Volume XXIII,. صفحة ٩١.

(8) Erich Fromm, Psychoanalysis and Religion, (New Haven: Yale University Press, 1950).

(٩) انظر كتاب سلامة موسى المبكر **العقل الباطن ومكنونات النفس**، (القاهرة: دار الهلال، ١٩٢٨)، وكتابه اللاحق **عقلى وعقلك**، (القاهرة: سلامة موسى للنشر، 1947).

(١٠) حول تاريخ المحللين النفسانيين المصريين، انظر Hussein Abel Kader, "La psychanalyse en Egypt entre un passé ambitieux et un future incertain, in La Célibataire, No. 8, Printemps 2004, صفحة ٦١-٧٣. وحول تاريخ التحليل النفسىَ فى المغرب وعن تورط المحللين النفسانيين الفرنسيين إبان حكم الاستعمار الفرنسى وبعده، انظر Jalil Bennani, Psychanalyse en terre d'islam: introduction à la psychanalyse au Maghreb, (Strasbourg: ?ditions Arcanes, 2008), وقد نشر قبلها فى عام ١٩٩٦ من قبل Editions Le Fennec in Casablanca,.

(١١) فى سيرة الرسول التى كتبها المستشرق الفرنسى ماكسيم رودنسون، يستخدم الأخير مفهوم «اللاوعى» لتفسير بعض تجارب الرسول، ولكنَه لا يستخدم المفهوم بمعناه التحليلنفسى. انظر Maxime Rodinson, Muhammad, Prophet of Islam, (London: Tauris Parke Paperbacks, 2002),. صفحة 77.

(١٢) انظر محمد النويهى، نفسيَة أبى نواس، (القاهرة: دار الفكر، ١٩٧٠)، وقد نشر أصلا عام ١٩٥٣، وكتاب عباس محمود العقاد، أبو نواس، الحسن بن هانئ، دراسة فى التحليل النفسانىَ والنقد التاريخىَ، (القاهرة: كتاب الهلال، ١٩٦٠)، وقد نشر أصلاً عام ١٩٥٣. انظر أيضا نقد حسين مروة لتطبيق التحليل النفسىَ على أبى نواس فى كتابه دراسات نقديَة فى ضوء المنهج الواقعى، (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٦٥). لمناقشة مفصلة لهذه الدراسات، انظر Joseph Massad, Desiring Arabs, (Chicago: University of Chicago Press, 2007),. صفحة 84-92.

(١٣) انظر جورج طرابيشى، عقدة أوديب فى الرواية العربيَة، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٢)، والرجولة وأيدلوجية الرجولة فى الرواية العربيَة، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٣)، وأنثى ضد الأنوثة، دراسة فى أدب نوال السعداوى، (بيروت: دار الطليعة، 1984).

(١٤) انظر جورج طرابيشى، المثقفون العرب والتراث: التحليل النفسىَ لعصاب جماعىَ، (لندن: رياض الريس للنشر، 1991).

(١٥) Abdelkebir Khatibi, "Frontières, - in Cahiers Intersignes, No. 1, Spring 1991,. صفحة 15.

(١٦) جورج طرابيشى، «تقديم»، فى كتاب سيغموند فرويد، مستقبل وهم، ترجمة جورج طرابيشى، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٤). لقد قام طرابيشى أيضا بترجمة كتاب موسى والتوحيد عن الفرنسية عام ١٩٧٣ وقلق فى الحضارة عام ١٩٧٧. انظر سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشى (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٣)، وسيغموند فرويد، قلق فى الحضارة، ترجمة جورج طرابيشى، (بيروت: دار الطليعة، 1977).

(١٧) لقد بدأ طرابيشى مؤخرا بالكتابة عن الإسلام وفى بعض الأحيان يستخدم فى نصوصه دلالات تحليلنفسيَة كما يفعل فى هرطقات ٢، عن العلمانيَة كإشكالية إسلاميَة-إسلاميَة، (بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٨)، حيث يشير إلى كتب فرويد موسى والتوحيد والطوطم والتابو ويتكلم عن «عودة المكبوت» فى مستهل مناقشته للطائفية السنية-الشيعية فى عراق ما بعد الاجتياح الأمريكى. ويزعم طرابيشى بأنه يفترق عن فرويد باعتباره (أى طرابيشى) أن المسيحية والإسلام الشيعى بمثابة «ديانتين بنوتين» وليسا ديانتين «أبويتين»، كما أوَل فرويد «نشوء الديانات التوحيدية من منطلق مخططه المستوهم عن جريمة قتل الأب»، والذى طبقها فرويد، حسب زعم طرابيشى، بحق على اليهودية. ولكن «المسيحية والإسلام الشيعى يفترقان عنها». انظر هرطقات ٢، صفحة ١١، ١٥، هامش صفحة ١٧. ولكن إدعاء طرابيشى هذا بالافتراق عن فرويد غريب حيث إن فرويد كان واضحاً فى نهاية كتابه موسى والتوحيد بأن «المسيحية التى انبثقت عن دين أبوى، أصبحت ديانة بنوية»، صفحة ١٣٥ من كتاب فرويد.

(١٨) يرى بن سلامة هذا بوضوح، حيث إنه يستثنى نفسه بأنه قد أظهر اهتماما بـ «الإسلام» قبل زملائه، ويقول بأن اهتمامه الأول بـ «الإسلام» قد بدأ نتيجة تعرفه ببيار فديدا حيث إنه نشر بعد ذلك كتابه الأول الذى يتعامل مع الإسلام والتحليل النفسىَ فى عام ١٩٨٨ «عندما لم يكن الإسلام قد أصبح مشكلة حادة فى الحيز العالمى العام، ولا مسألة للبحث التحليلنفسىَ»، فى فتحى بن سلامة " Une "recherche psychanalytique sur l'islam، فى عدد خاص من مجلة La Célibataire عنوانه «التحليل النفسى والعالم العربى»، رقم ٨، ربيع ٢٠٠٤، صفحة ٧٧. أما بالنسبة لكتاب بن سلامة الأول، انظر Fethi Benslama, La nuit brisée, (Paris: ?ditions Ramsay, 1988). هذا ادعاء مثير للاهتمام لا سيما وأن تأريخ الاهتمام العالمىَ بـ «الإسلام» كـ «إسلاموية» يصادف مع قيام الثورة الايرانية فى عامى 1978/1979.

(19) Abdelkebir Khatibi, "Du message prophétique (argument), in Abdelkebir Khatibi, Par-Dessus l'épaule, (Paris: Aubier, 1988).

ويكتب الخطيبى فى صفحة ١٣٥ بأنه قد كتب المقال عام 1984.

(٢٠) Khatibi, "Frontières, -، صفحة ١٧.

(٢١) هنالك آخرون أيضا يكتبون عن مواضيع تحليلنفسيَة مثل المصرى كريم جبيلى والذى يعيش فى كندا وكتابه Le psychisme des Orientaux, différences et déchirures, (Montréal: Liber, 2006) عبارة عن سلسلة من التأملات تعتمد على جوهرانيات هوياتية عن ماهية «الشرقى» و«الغربى» وممَ يتكون ذهن كل منهما، وكيف أنه عندما يشير إلى ذلك إنما يقصد أن يحدد خصوصيتهما لا أن يقوم بتشيينهما.

(٢٢) (Fethi Benslama, La - psychanalyse à l'épreuve de l'islam, (Paris: Flammarion, 2002, صفحة ١٧. ومن الجدير بالذكر هو أن الجزء الأخير من الجملة «وأنه لن يثار أبداً فى المستقبل كمسألة فى تنظيم المجتمع» محذوف فى الترجمة العربيَة للكتاب من دون تفسير. انظر فتحى بن سلامة، الإسلام والتحليل النفسىَ، ترجمة د. رجاء بن سلامة، (بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٨)، صفحة 29.

(٢٣) انظر المقابلة التى قام بها المطيع قبال مع مالك شبل: «الإسلام وصحوة الطفولة»، فى كتاب التحليل النفسىَ والثقافة العربيَة-الإسلاميَة، (دمشق: دار البدايات، ٢٠٠٨)، صفحة ٧٧. ويتضمن الكتاب عدة مقالات لكتَاب مختلفين.

(٢٤) يصفهما هكذا فى حوار مع مصطفى صفوان فى مصطفى صفوان وعدنان حب الله، إشكاليات المجتمع العربىَ: قراءة من منظور التحليل النفسى. وقد كتب أدونيس مقدمة الكتاب، (بيروت: المركز الثقافى العربىَ، ٢٠٠٨)، صفحة ٩٦.

(٢٥) فى إجابته على سؤال حول الرفض (المزعوم) للتحليل النفسىَ فى المجتمعات العربيَة الإسلاميَة نتيجة اعتباره منهجاً أجنبياً، يقول مالك شبل: «يكشف هذا القول عن واقع له قدرة على الإحراج». انظر مقابلة المطيع قبال مع مالك شبل، «الإسلام وصحوة الطفولة»، صفحة ٧٨. بخلاف شبل، يشعر مصطفى صفوان بالألم لا لعودة الإسلام بل لما يعتبره غياب التفكير الديمقراطى فى العالم العربىَ والذى يؤكده، حسب تخمين صفوان الخاطئ، عدم ترجمة كتاب ألكسيس دى توكفيل Democracy in America، والذى يجب ترجمته لما فيه من أهمية بيداغوجية لشعب يفتقر إلى الديمقراطية: «إنه إثبات مؤلم لتخلفنا أن (كتاب دى توكفيل الديمقراطية فى أمريكا) لم يترجم للعربيَة حتى الآن»، فى Moustapha Safouan,

الملاحظ أن الدراسات التحليلنفسيَة للأديان قد خلت في معظمها من أى ذكر للإسلام، رغم معالجتها للمسيحية واليهودية و«البوذية» و«الهندوسية»



Why the Arabs Are Not Free? The Politics of Writing, (Oxford: Blackwell Publishing, 2007)، صفحة ٦٠. وبغض النظر عما يمكن أن تعنيه ترجمة أو عدم ترجمة الكتاب إلى العربية، فإن الكتاب كان قد تُرجم ونُشر بالفعل عام ١٩٨٤ (قبل ٢٣ عاما من إعلان صفوان عن ألمه والتعبير عنه فى كتاب نشره عام ٢٠٠٧) وقد قام بترجمته أمين مرسى قنديل وحققه محسن مهدى ونشرته دار كتابى فى القاهرة عام ١٩٨٤ وعالم الكتب فى القاهرة عام ١٩٩١ تحت نفس العنوان: الديمقراطية فى أمريكا.

(٢٦) - (Edward W. Said, Freud and the Non-European, (London: Verso, 2003, صفحة.54

(٢٧) - Fethi Benslama, La psychanalyse,. صقحة.171

(٢٨) - Fethi Benslama, "Une recherche psychanalytique sur l'islam، صفحة ٧٩. يذكر بن سلامة عددا من معانى الإسلام الممكنة باستثناء «تسليم»، فى Fethi Benslama, Déclaration d'insoumission: à l'usage des musulmans et de ceux qui ne le sont pas, (Paris: Flammarion, 2004)، صفحة.28-29

(٢٩) - Fethi Benslama, La nuit brisée, صفحة.176

(٣٠) - Fethi Benslama, Déclaration d'insoumission, صفحة.24

(٣١) - Moustapha Safouan, Why the Arabs Are Not Free? صفحة.65

(٣٢) المصدر السابق.

(٣٣) انظر كلمة «Sovereignty» فى Oxford English Dictionary.

(٣٤) ويسهب صفوان فى تفسير هذه الأراء فى حواره مع عدنان حب الله فى «التحليل النفسىَ والمجتمع العربى»، فى مصطفى صفوان وعدنان حب الله، إشكاليات المجتمع العربىَ، صفحة ١٣٧، ١٣٨.

(٣٥) عن هذا السجال، انظر Yasir Suleiman, The Arabic Language and National Identity, A study in Ideology (Washington DC: Georgetown University Press, 2003).

(٣٦) -Safouan, Why the Arabs Are Not Free? صفحة.10

(٣٧) المصدر السابق، صفحة.49

(٣٨) - Benslama, Déclaration d'insoumission, صفحة.76-77

(٣٩) - Fethi Benslama, La psychanalyse, صفحة.23

(٤٠) المصدر السابق، صفحة.24

(٤١) أشكر الصديقة ليشا روزنتال على إثارتها لهذه النقطة.

(٤٢) Fethi Benslama, La psychanalyse, صفحة.26

(٤٣) المصدر السابق، صفحة.27

(٤٤) المصدر السابق.

(٤٥) المصدر السابق، صفحة.43

(٤٦) Fathi Bin Salamah, Al-Islam wa al-Tahlil al-Nafsi, صفحة ٣٦، الهامش.

(٤٧) انظر صفحة ٤٥ من La psychanalyse عن دفاعه الليبرالىَ عن الحرية الفردية وعن الفرد.

(٤٨) Fethi Benslama, La psychanalyse, صفحة.24

(٤٩) المصدر السابق، صفحة ٢٥.

(٥٠) وأود الإشارة هنا إلى أن بن سلامة يعى أن كلمة دين فى العربيةَ تعنى «دَين»، وأن منطق معناها مختلف عن كلمة religion، ولكنَّه يستمر فى طرح أن القرآن يقوم بـ «تعيين المصطلح المساوى أو المشابه لما نسميه فى المسيحية "religion"». انظر Benslama, Déclaration d'insoumission، صفحة ٢٦، الهامش. أما عن كيف أن أصل المفهوم العالمىَ لمصطلح religion أتى من المسيحية فى بداية عصر الحداثة، فانظر Talal Asad, "Religion as an Anthropological Category," in Talal Asad, Genealogies of Religion: Disciplines and Reasons of Power in Christianity and Islam, (Baltimore MD: Johns Hopkins University Press, 1983)، صفحة.237-259

(٥١) المصدر السابق.

(٥٢) - Benslama, La psychanalyse, صفحة 302.

(٥٣) المصدر السابق.

(٥٤) - Fethi Benslama, "Une recherche psychanalytique sur l'islam»، صفحة.77

(٥٥) - Benslama, La psychanalyse, صفحة ٢٠.

(٥٦) المصدر السابق، صفحة ٧٦

(٥٧) - Abdelkebir Khatibi, "Du message prophétique (argument)»، صفحة ٨٣ ٨٤. ويستشهد بن سلامة بهذه المقالة فى سياق شرحه لوجهات نظر الخطيبى عن مسألة أمية أو لاأمية الرسول وعن أهمية خديجة فى مسألة الوحى، ولكنَّه لا يستشهد به لتعريفه بهذا المشهد المهم والذى لا يُذكر عادة فى السير الحديثة عن الرسول ولا يُعتبر من القصص الاعتيادية عن بداية الوحى والتى تتضمنها هذه السير بالرغم من أن هذه السير تناقش بإسهاب أهمية علاقة خديجة ببداية الوحى. وحول غياب هذه القصة من سير الرسول الحديثة، انظر مثلا الكتاب الشهير لصافى الرحمن مباركفورى، الرحيق المختوم: بحث فى السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، (الرياض: مكتبة دار السلام، ١٩٩٥). وهنا أتقدم بالشكر لأحمد عاطف أحمد لمشاركته لى بمعرفته الهائلة عن سير الرسول القديمة والحديثة.

(٥٨) Benslama, La psychanalyse. صفحة 319.

(٥٩) انظر محمد أركون، تاريخ الفكر العربىَ الإسلامىَ، (الدار البيضاء: المركز الثقافى العربى، ١٩٩٨)، صفحة.160

(٦٠) Benslama, La psychanalyse, صفحة 319.

(٦١) المصدر السابق، صفحة.59

(٦٢) المصدر السابق، صفحة ١٩٧. ويستخدمها بن سلامة مرة أخرى فى Déclaration d'insoumission, صفحة.35

(٦٣) Benslama, La Psychanalyse, صفحة 49.

(٦٤) شجرة الإسلام، التحليل النفسىَ، الهوية»، مقابلة قام بها حسين القبيسى مع فتحى بن سلامة فى التحليل النفسىَ والثقافة العربيةَ- الإسلاميةَ، (دمشق: دار البدايات، ٢٠٠٨)، صفحة 15.

(٦٥) Sigmund Freud, Moses and Monotheism, صفحة.90

(٦٦) Edward W. Said, Freud and the Non-European, صفخة.40

(٦٧) Benslama, La Psychanalyse, صفحة.24-25

(٦٨) المصدر السابق، صفحة.36

(٦٩) المصدر السابق، صفحة.70

(٧٠) المصدر السابق، صفحة.70

(٧١) انظر فتحى بن سلامة، الإسلام والتحليل النفسىَ. وجورج طرابيشى هو أحد مؤسسى الرابطة الرئيسيين.

(٧٢) شجرة الإسلام، التحليل النفسىَ، الهوية»، صفحة.18

(٧٣) Moustafa Safouan, "Pratique analytique dans le monde arabe: incidences et difficulté», La Célibataire, No. 8, Printemps, 2004. صفحة.15

(٧٤) المصدر السابق، صفحة.,16

(٧٥) - Safouan, Why the Arabs are not Free?, صفحة.43

(٧٦) صفوان، فى حواره مع عدنان حب الله، إشكاليات المجتمع العربىَ، صفحة.117

(٧٧) - ? Safouan, Why the Arabs are not Free صفحة.14

(٧٨) - عن أوراق ومناقشات المؤتمر، انظر العلم والدين والتحليل النفسىَ، أعمال المؤتمر الدولى الثالث للمحللين النفسيِّين العرب، بيروت ١٧ - ١٩ أيار ٢٠٠٧، (بيروت: دار الفارابى، ٢٠٠٧). عندما أشير إلى هذا الكتاب، سأوضح إن كنت أستشهد من النص العربىَ والذى يحمل ترقيم صفحات خاص به أم استشهادى هو من النص الفرنسى والذى له ترقيم منفصل للصفحات خاص به أيضا. أما عن عدم ترحيب المفكرينَ العرب المزعوم بالتحليل النفسىَ، انظر مقدمة حب الله لكتاب إشكاليات المجتمع العربىَ، صفحة ٨. ويناقش حب الله هذا الموضوع بإسهاب فى «La psychanalyse et le monde arabe,» in La Célibataire, No. 8, Printemps 2004, صفحة ١٩-٢٨. قبل أن يظهر اهتمامه هذا بالإسلام والعلم، كان حب الله قد كتب كتاب كشبه سيرة ذاتية عن الحرب الأهلية اللبنانية حيث لم تكن معظم اهتماماته الجديدة قد تبلورت بعد. انظر Adnan Houbballah, Le virus de la violence, la guerre civile est en chacun de nous, (Paris: Albin Michel, 1996). وقد ترجم الكتاب إلى العربيةَ تحت عنوان جرثومة العنف: الحرب الأهلية فى صميم كل منا، (بيروت: دار الطليعة، 1998).

(٧٩) - Houbballah, "La psychanalyse..»، صفحة 20

(٨٠) المصدر السابق، صفحة.22

(٨١) المصدر السابق، صفحة.28

(٨٢) عدنان حب الله، «العلم والدين فى ما بعد الحداثة»، فى العلم والدين والتحليل النفسىَ، أعمال المؤتمر...، صفحة ١٥ من ترقيم الصفحات العربيةَ. من المثير للعجب أن الفقرة التى أخذ منها هذا الشاهد غير متضمنة فى النص الفرنسى لخطابه والمطبوع فى نفس الكتاب (انظر صفحة ١٦ من ترقيم الصفحات الفرنسية).

(٨٣) عدنان حب الله، «لماذا تخلَف العرب عن العلم المعاصر: عمليتان جراحيتان لم يخضع لهما المسلمون»، فى العلم والدين والتحليل النفسىَ، أعمال المؤتمر...، صفحة ٦٧ من ترقيم الصفحات العربيةَ.

(٨٤) المصدر السابق، .73

(٨٥) حول هذا السجال المهم، انظر Massad, Desiring Arabs, صفحة.16 -11

(٨٦) Wendy Brown, "Subjects of Tolerance," in Hent De Vries and Lawrence E. Sullivan, Political Theologies: Public Religions in a Post-Secular World, (New York: Fordham university Press, 2006)، صفحة ٣٠٣.

(٨٧) المصدر السابق، صفحة ٣١٠.

88 Sigmund Freud, The Future of an Illusion, in J. Strachey, The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud, (London: Hogarth Press, 1953-1974), Volume XXI, published originally in 1927, صفحة.19

(٨٩) «شجرة الإسلام، التحليل النفسى، الهوية»، صفحة ١٤. ويعود بن سلامة إلى هذا الموضوع مرة أخرى عندما يتحدث عن «العداء التقليدى لليهودية فى العالم العربى»، وعن «العداء لليهودية الموجود من بدايات الإسلام»، فى Benslama, Déclaration d'insoumission، صفحة ٣٨، ٤٠. وفى سياق مناقشته للصراع الفلسطينى- الإسرائيلى، يعبر بن سلامة عن قلقه من «القراءات الدينية» الإسلاموية لأصول «الصراع» دون أن يبدى أى قلق من تهويد المغامرة الكولونيالية الصهيونية

تكشف كتابات هؤلاء
المفكرينَ عن جَرحٍ نرجسىٍ عميق
يعانونَ منه كونهم عرباً ومسلمين «مؤوربين»
ترعرعوا فى عصور تحديثيةٍ هدفت إلى
الأوربة كهدف غائى للحداثة



منذ بدايات الحركة الصهيونية. وعلى الرغم من وضوح نقده لسياسات الحكومات الإسرائيلية، فإن بن سلامة لا يمدح إلا الفلسطينيين المستعدين لـ «المساومة» بالاعتراف بإسرائيل، إذ إنه يطلق عليهم صفة «الديمقراطيين»، دون أن يشير إلى أنهم على استعداد للاعتراف بدولة إسرائيل غير الديمقراطية والعنصرية قانوناً، والتى تعطى مواطنيها اليهود امتيازات وحقوق قانونية تنكرها على مواطنيها من غير اليهود. ومن المثير للفضول أن يسمى بن سلامة الموقف الفلسطينى «الرافض للعنف» على أنه الموقف الديمقراطى، بينما يحكم على موقف المقاومة العنيفة لاحتلال عنيف على أنه غير ديمقراطى. انظر المصدر السابق، صفحة ٤٤. وحول الصهيونية وإسرائيل، انظر جوزيف مسعد، ديمومة المسألة الفلسطينية: دراسات عن الصهيونية والفلسطينيين، (بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٩). وتجدر الإشارة هنا إلى أن باكورة النصوص التى تتهم التحليل النفسى بالتعاطف مع الصهيونية كتبها طبيب أعصاب مصرى مسيحى كان من المعجبين بفرويد فى الثلاثينيات ولكنه غير رأيه فيه عام ١٩٧٠. انظر د.صبرى جرجس، التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى: أضواء على الأصول الصهيونية لفكر سيغموند فرويد، (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧٠). ويفسر المحلل النفسانى حسين عبد القادر تغير موقف جرجس من فرويد على أنه كان جزءا من خصومة جرجس مع مصطفى زيور، وهو عميد المحللين النفسانيين المصريين، والذى كان الهدف الحقيقى لتهجم جرجس، «وليس فرويد». انظر Hussein Abdel Kader, "La psychanalyse en Egypt»، صفحة ٦٥. وبالمناسبة كان زيور قد كتب المقدمة وحقق ترجمة مصطفى صفوان لكتاب فرويد تفسير الأحلام للعربية عام ١٩٥٨. انظر أحدث طبعة للكتاب والتى طبعت تحت إشراف المركز العربى للأبحاث النفسية والتحليلية والذى يرأسه عدنان حب الله. انظر سيغموند فرويد، تفسير الأحلام، ترجمة مصطفى صفوان، (بيروت: دار الفارابى والمركز العربى للأبحاث النفسية والتحليلية، ٢٠٠٣). وقد قام عبد المنعم الحفنى بإعادة ترجمة الكتاب عام ١٩٩٥ فى طبعة جديدة تتضمن نقاشاً نقدياً اتسم بالاحترام لترجمة صفوان، وأعيد طبع الكتاب مع مقدمة جديدة عام ٢٠٠٤. انظر سيغموند فرويد، تفسير الأحلام، ترجمة عبد المنعم الحفنى، (القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٤).

(٩٠) Jacques Derrida, "Geopsychoanalysis... 'and the rest of the world,» American Imago, 48: 2, Summer, 1991, صفحة 211.

(٩١) المصدر السابق، صفحة ٢١٥.

(٩٢) Benslama, La Psychanalyse, صفحة 43

(٩٣) المصدر السابق، صفحة ٣١٧.

(٩٤) Fethi Benslama, "Une recherche psychanalytique sur l'islam»، صفحة 76

(٩٥) Benslama, Psychanalyse, صفحة 317-318.

(٩٦) المصدر السابق، صفحة ٣١٨.

(٩٧) المصدر السابق، صفحة ٣١٩.

(٩٨) المصدر السابق.

(٩٩) المصدر السابق.

(١٠٠) المصدر السابق، صفحة ٣١٨.

(١٠١) وجورج طرابيشى أحد موقعى البيان، ولكن لا صفوان ولا حب الله وقعاه. انظر http://www.manifeste.org/signatures.php3?id_article=1&alpha=T وكان طرابيشى قد استشير فى عملية الترجمة لكتاب بن سلامة للعربية. انظر مقدمة المترجمة فى فتحى بن سلامة، الإسلام والتحليل النفسى، صفحة ١٨.

(١٠٢) Déclaration de fondation de l'Association du Manifeste des libertés، in Fethi Benslama, Déclaration d'insoumission, صفحة 91-92

(١٠٣) المصدر السابق، صفحة ٩٢.

(١٠٤) المصدر السابق، صفحة ٩٣.

(١٠٥) Benslama, Déclaration d'insoumission, صفحة 48-49.

(١٠٦) أما كمثال على سوء فهم نظريات فرويد ونبذها على أنها «إباحية»، انظر سعد الدين السيد صالح، نظرية التحليل النفسى عند فرويد فى ميزان الإسلام، (جدة: مكتبة الصحابة، ١٩٩٣). ولكن ربط فكر فرويد بالصهيونية واليهودية فى هذا الكتاب ليس ابتكاراً إسلاموياً، حيث كما أشرنا أنفاً فى الهوامش، كان أول من قدمه طبيب أعصاب مصرى مسيحى.

(١٠٧) انظر أحمد السيد على رمضان، الإسلام والتحليل النفسى عند فرويد، (المنصورة: مكتبة الإيمان، ٢٠٠٠)، صفحة ٢٢٧-٢٢٨.

(١٠٨) المصدر السابق، صفحة ٢٦٩ - ٣٢٧.

(١٠٩) (Khatibi, "Du message prophétique argument)»، صفحة 88-89.

(١١٠) Benslama, La Psychanalyse, صفحة 17.

(١١١) Benslama, La nuit brisée, صفحة 176.

(١١٢) Benslama, Déclaration d'insoumission, صفحة 93

(١١٣) المصدر السابق، صفحة ٥٩-٦٠.

(١١٤) بعد أن قدمت هذه المحاضرة فى المؤتمر (انظر الهامش رقم ١)، قامت إليزابيت رودينسكو، وهى مفكرة فرنسية مشهورة ومؤرخة لمؤسسة التحليل النفسى فى فرنسا ومحللة نفسانية وقد كتبت سيرة لاكان، بالوقوف، وأعلنت عن أن فتحى بن سلامة صديقها ومن ثم تلت على الحاضرين قائمة طويلة بأسماء أصدقائه الآخرين أمثال الراحل جاك دريدا والفيلسوف السياسى إتيان باليبار، وأصرت على أن بن سلامة ليس نيوليبرالياً كما زعمت المحاضِرة، حسب رودينسكو، بينما لم تقدم المحاضِرة على هذا الوصف لبن سلامة. وطالبت رودينسكو فى نهاية خطابها غير المدرج فى جدول المؤتمر بأنه علىّ (أى جوزيف مسعد) أن أعلم الجمهور إن كنت «أدعم الإرهاب أم لا». تجدر الإشارة هنا إلى أن رودينسكو هى إحدى الموقعات على بيان بن سلامة، وهو شىء لم تذكره فى مداخلتها. انظر http://www.manifeste.org/signatures.php3, id_article=1&alpha=R.

(١١٥) Freud, The Future of an Illusion, صفحة 43.

(١١٦) "Argument," Cahiers Intersignes, No.1, Spring 1991, صفحة 11.

كتاب الزاوية

الأميرة وورقة الآس

قرأت فى سير العجم أن أردشير سار إلى الحضر. وكان ملك السواد متحصنًا فيها. فحاصره فيها زمانًا لا يجد إليه سبيلاً، حتى رَقيَت ابنة الملك يومًا. فرأت أردشير فعشقته. وأخذت نُشَّابة وكتبت عليها:

إن أنت شَرطت لي أن تتزوجنى، دللتك على موضع تفتتح منه هذه المدينة بأيسر حيلة وأخف مؤونة.

ثم رمت بالنشابة نحو أردشير. فكتب الجواب فى نُشابة: لك الوفاء بما سألت.

ثم ألقاها إليها. فكتبت إليه تدله على الموضع. فأرسل إليه أردشير فافتتحه، ودخل هو وجنوده، وأهل المدينة غافلون، فقتل ملكها وتزوجها.

فبينما هى ذات ليلة على فراشه. أنكرت مكانها حتى سَهِرت لذلك عامة ليلتها. فنظروا فى الفراش فوجدوا تحت الحشية ورقة من ورق الآس قد أثرت فى جلدِها.

فسألها أردشير عند ذلك عما كان أبوها يغذوها به. فقالت: كان أكثر غذائى الشهد والزبد والمخ.

فقال أردشير:

ما أحد ببالغ لك فى الحباء والإكرام مبلغ أبيك. ولئن كان جزاؤه عندك على جُهد إحسانه مع لُطف قرابته وعِظَم حقه جُهدَ إساءتك، ما أنا بآمن لمثله منك.

ثم أمر بأن تعقد قرونها بذنب فرس شديد المراح جموح، ثم يُجرى. ففعل ذلك حتى تساقطت عضوًا عضوًا.

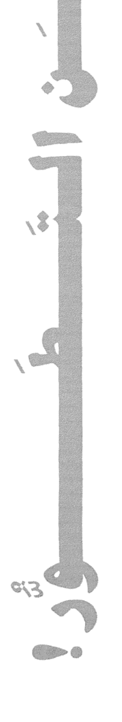
من كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة



الداروينية تثير أحيانًا انتقاد الأفراد، بل حتى عداوتهم لها أكثر مما تفعل أى من العلوم الأخرى



مصطفى إبراهيم فهمى



مر فى فبراير الماضى مائتا عام على ميلاد تشارلز داروين الذى أثار الأوساط العلمية البيولوجية بأبحاثه عن التطور والانتخاب الطبيعى. وقد رأى علماء البيولوجيا أن يكرس عامنا الحالى كله للاحتفال بداروين وأبحاثه. يعرض هذا المقال لبعض القضايا المتعلقة بالداروينية مع التركيز على نقطتين أساسيتين، الأولى أن التطور لم يعد بعد مجرد رأى أو فرض أو نظرية، وإنما هو حقيقة علمية. والثانية هى أنه قد أجريت مؤخرًا تجارب وأبحاث حديثة على أساس البيولوجيا الجزيئية التى تدرس الكائنات الحية على مستوى الجزيئات الكيماوية المكونة لها. وهذه الأبحاث والتجارب تثبت نهائيًا التطور وصحة الانتخاب الطبيعى.

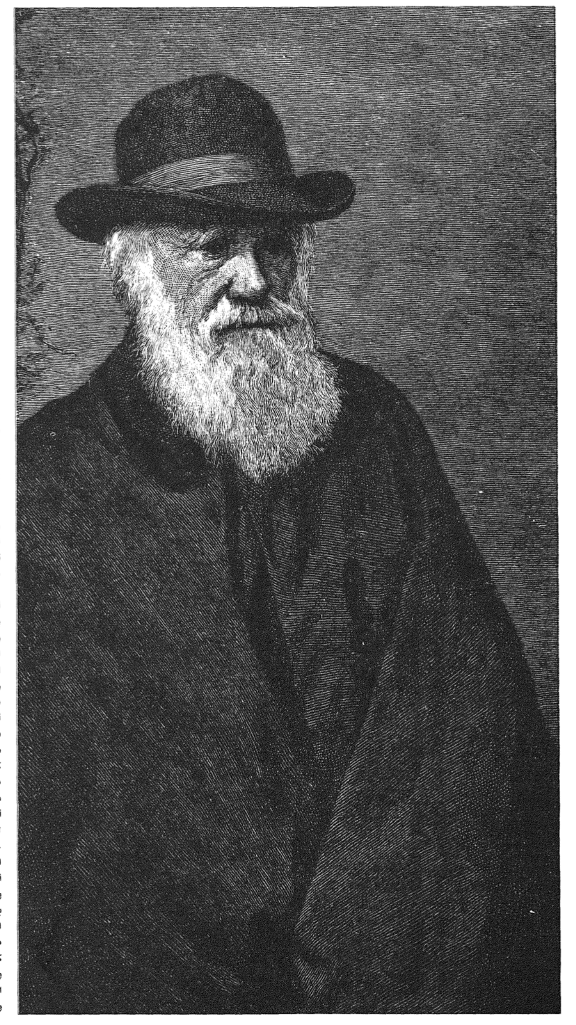
يعيش العالم الآن عصر الثورة العلمية البيولوجية أو ثورة البيوتكنولوجيا. فى القرن الماضى كانت هناك ثورة فى الكيمياء والفيزياء، أما القرن الحادى والعشرون فهو قرن ثورة التكنولوجيا بما فيها مثلاً من أبحاث الجينوم والهندسة الوراثية والاستنساخ، وهى ثورة بدأت تباشيرها فى النصف الثانى من القرن العشرين مع اكتساب الشفرة الوراثية وتركيب المورثات أو الجينات. مع هذه الثورة يقرر علماء البيولوجيا أنه لا يمكن فهم علم البيولوجيا أو الأحياء إلا فى ضوء التطور الداروينى. بل إن تعريف الكائن الحى الآن هو أنه كائن «يتطور» بالإضافة إلى الصفات الأخرى للحياة من تكاثر وأيض.. إلخ. بدون التطور يصبح علم البيولوجيا مجموعة من توصيفات شتى غير مترابطة بخيط يضمها معًا وهى هكذا غير جديرة بدراستها كعلم قائم بذاته. فالتطور الآن أصبح حقيقة أو ظاهرة علمية مثل الحقائق والظواهر العلمية الأخرى، أى مثل كروية الأرض ودورانها حول الشمس، وهذه أمور أنكرها بعض رجال الكنيسة فى أول الأمر تمامًا مثلما كانوا ينكرون الداروينية إلى عهد قريب ومثلما ظل الشيخ الباز مفتى السعودية يفتى بكفر من يقول بكروية الأرض حتى وفاته من سنين قليلة. على أن معظم الناس الآن يؤمنون بكروية الأرض ودورانها حول الشمس مثلما يؤمنون بوجود الزلازل والأعاصير، فهذه كلها حقائق وظواهر علمية لا يشك أحد فى حقيقتها، وهى تدرس وتحلل لمعرفة آلياتها ونتائجها. الميكانزمات أو الآليات هى التى تظهر بشأنها النظريات والاختلافات، كآلية أو نظرية الانتخاب الطبيعى بالنسبة للتطور. والانتخاب الطبيعى شعاره المشهور هو أن البقاء للأصلح، والأصلح تعنى الأكثر قدرة على التكيف وليس الأقوى كما يقول بعض رجال السياسة فى محاولة لاستغلال الداروينية والانتخاب الطبيعى لتبرير اضطهاد الشعوب واستعمارها أو اضطهاد الطبقات الفقيرة أو أجناس معينة.

الداروينية تثير أحيانًا انتقاد الأفراد، بل حتى عداوتهم لها أكثر مما تفعل أى من العلوم الأخرى. أغلب الناس لا يجرؤون، بل لا يحاولون معارضة ميكانيكا الكم أو النسبية فى الفيزياء، وذلك ببساطة لأنها يصعب فهمها واستيعابها، وفيها معادلات ورياضيات. أما الداروينية فيتحدث عنها الجميع مع العارفين وغير العارفين لأنهم يظنون أنها بسيطة جداً بالنسبة للفيزياء والرياضيات حتى ليعتقد الكل أنه يفهمها. الداروينية تقول ببساطة إن تكاثر الكائنات الحية مع ما يصحبه من طفر يؤدى تدريجيًا إلى نتائج بعيدة المدى بالتراكم بالانتخاب الطبيعى. إلا أنه مع هذه البساطة الظاهرة ظلت حقائق التطور غير مكتشفة لزمن طويل حتى تسنى لداروين بنفاذ بصيرته أن يكشف عنها وعن بساطتها. وعندما قرأ هكسلى أحد العلماء المعاصرين لداروين ما كتبه داروين عن التطور صاح مذهولاً، «كيف غابت عنا هذه الحقائق حتى الآن؟». إذا كان العلماء الآن يقر أغلبهم بحقائق التطور وتفسيره بالانتخاب الطبيعى، إلا أنه غير مستوعب لدى الأغلبية من غير المتخصصين. وحتى فى بلد متقدم علميًا كالولايات المتحدة تبين الإحصائيات أن ٣٥٪ فقط من الأفراد الراشدين يؤيدون التطور، على أن هذه النسبة تتزايد مع تزايد تحصيل العلم، فترتفع إلى ٥٢٪ بين خريجى الجامعات، ثم إلى ما يقرب من ٦٥٪ ممن نالوا دراسات عليا.

من بين أسباب عدم استيعاب حقائق التطور أنها تتناول تغيرات تدريجية بطيئة تحدث على مدى أزمنة بالغة الطول من ملايين أو حتى بلايين السنين. المخ البشرى بُنى أساسًا لاستيعاب أحداث بمقاييس الحياة اليومية أو بمقاييس التاريخ البشرى وهى قصيرة تمامًا بالنسبة للزمان التطورى والجيولوجى. مما يجعل من الصعب على المخ تصور هذه الأزمنة الأخيرة بطولها البالغ.

كذلك لا يستطيع البعض الاقتناع بالتطور على أساس أنه يحدث نتيجة لصدف عمياء من الطفر، ومن غير المعقول أن ينتج عن صدف عشوائية ما نراه من تصميمات مركبة معقدة فى الكائنات الحية وأعضائها. ويضرب المثل عادة بالعين البشرية حيث لا يعقل أنها بكل تركبها وتعقدها يمكن أن تنشأ من بدايات بسيطة. على أن علماء التطور يردون على ذلك بأن دور الطفرة دور ثانوى وليس بالأساسى، فهى مجرد بداية لتغير بسيط قد يختفى أو يبقى. وما يبقى من الطفرات التى تعطى للكائن ميزة فى التكيف، وتتراكم هذه التغيرات البسيطة بفعل الانتخاب الطبيعى لينتج عن ذلك التركب الحالى. وإذا كانت الطفرة عشوائية فإن الانتخاب الطبيعى ليس عشوائيًا، وإن كان فى الوقت نفسه لا يتجه إلى هدف مستقبلى، فهو فحسب ينتج عنه تراكم الطفرات وكأنه صانع ساعات أعمى. وما يبدو لنا كأنه تقدم واع لهدف هو نتيجة عارضة للتغير المتراكم بالانتخاب الطبيعى. يضرب العلماء المثل لحالة من عدم التركيب تؤدى إلى قدر من الترتب. وذلك عندما نسير على أحد الشواطئ ونلاحظ أن هناك ترتيبًا للحصى على الرمال بتأثير الأمواج. سنجد أن قطع الحصى الأصغر توجد فى مناطق منفصلة، والقطع الأكبر فى مناطق أخرى. الأمواج ليس لها عقل ولا هدف مستقبلى، ولكنها تؤدى إلى نوع من فرز لا عشوائى.

كذلك فإن دراسة الكائنات الحية سواء ما يوجد على سطح الأرض حيًا أو ما يوجد فى طبقاتها من حفريات تبين أن أى شىء مهما كان مركبًا يمكن أن ينشأ من أشياء بداياتها بسيطة جداً ثم تتغير تدريجيًا إلى التركب والتعقد. العين البشرية نفسها لا يمكن أن تنشأ من لا عين مباشرة، ولكن هناك سلسلة من تدرج فى تركيب جهاز الإحساس بالضوء


Charles Darwin in 1881
From a photograph by
Messrs Elliott and Fry

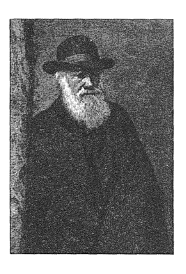
فى شتى الكائنات. هناك حيوانات وحيدة الخلية فيها فقط نقطة حساسة للضوء من خلفها ستار صغير من إحدى الصبغات يحميها من الضوء الآتى من أحد الاتجاهات لتستطيع إدراك الاتجاه الآخر الذى يأتى منه الضوء. الحيوانات متعددة الخلايا فيها تنظيم لإدراك الضوء مشابه لذلك فى الديدان والمحار مثلاً، ولكن الخلايا الحساسة للضوء تتخذ موضعها فى قدح صغير، وهذا يعطى قدرة أفضل فى إدراك الضوء. ثم يزاد القدح عمقًا ويزداد التركب والتحسن البصرى، وأخيراً فإن القدح الأكثر عمقًا تقلب الجوانب عليه بحيث يكون وكأنه كاميرا ذات ثقب، بلا عدسة أولاً ثم تظهر له عدسة. تظهر هذه التغيرات التدريجية فى سلسلة من الكائنات حتى تنتهى إلى عين الإنسان. وهكذا فإن تصميماً مركبا كالعين البشرية قد سبقه تطور تدريجى يبدو فى تطور الجهاز الضوئى فى الكائنات ابتداء من وحيدة الخلية حتى الإنسان.

عندما يصر علماء البيولوجيا على أن التطور حقيقة علمية يظهر من يقول لهم إن الحقائق العلمية نسبية وأنها إما فروض أو حتى نظريات ينالها التفنيد أو التغيير. قد يصدق هذا على الفروض والنظريات غير الراسخة، ولكن هناك حقائق بسيطة راسخة حتى فى الحياة اليومية، كالقول بأن الشمس أسخن من الأرض، أو أن المكتب الذى نكتب عليه مصنوع من الخشب. هناك بالمثل حقائق علمية راسخة ثابتة، كالقول بأن الجينات أو المورثات مصنوعة من جزىء الحامض النووى دنا الذى له شكل مثل شكل لولب مزدوج، أو كالقول بأن التكوين الوراثى للشمبانزى، أو جينوم الشمبانزى يشبه جينوم الإنسان أكثر مما يشبه جينوم الغوريلا. وقد تكون الحقائق العلمية أحيانًا مما يتعارض مع الحس المشترك والبداهة، كما فى ميكانيكا الكم، حيث يسلك أحد الجسيمات تحت الذرية فى الوقت نفسه سلوك الجسيم والموجة معًا، إلا أنه هناك مقابل ذلك تنبؤات كثيرة اختبرت بها ميكانيكا الكم ونجحت نجاحًا هائلاً أدى إلى الثورة الإلكترونية والمعلوماتية.

وبالتالى فإن ميكانيكا الكم

أو بعض نسخة منها تُعد حقيقة علمية مثل كل شىء حقيقى نعرفه.

التطور عموماً ليس فى البيولوجيا وحدها، ولكنه موجود فى كل العلوم بمعنى العلوم الحديثة. حالياً النموذج العلمى الأساسى أو الإرشادى (البارادايم) يؤكد أن هناك باستمرار أشكالاً جديدة تنشأ عن الأشكال الطبيعية الأقدم، وأن هذا يلاحظ فى كل العلوم وعلى النطاق الكونى. الفيزياء الفلكية مثلاً تبين لنا تطور الكواكب والمجرات والنجوم. النجوم تولد وتحيا ثم تموت، وينشأ بعد موتها أجيال جديدة من نجوم تحوى بقايا من النجوم التى احتضرت. شمسنا أحد هذه النجوم الثانوية. ثانوية بمعنى ترتيب ظهورها وليس بمعنى أهميتها. وتحتوى المجموعة الشمسية عناصر ثقيلة كالأوكسجين والكربون تكونت فى أفران النجوم الأولية التى سبقتها فى الوجود. هذه العناصر الثقيلة هى التى تنشأ منها الحياة على الأرض. فى الجيولوجيا تبين دراسات طبقات الأرض وهيئاتها من جبال ووديان وبحار وبراكين وجود تطور جيولوجى. دراسة تشريح أشباه الإنسان والإنسان نفسه تُظهر تطوراً تدريجياً فى أعضائه، وأهمها تطور المخ بزيادة حجمه مع تغير شكل الجمجمة وبروزها أماماً لتتسع له. كما توضح علوم الإنسانيات وجود تطور فى المجتمعات البشرية وثقافة الإنسان ونظمه السياسية. تظهر كل هذه العلوم تطوراً وتغيراً مستمراً بظهور أشكال جديدة من الأشكال القديمة الموجودة من قبل. ويكمن فى الأساس من هذه التغيرات أنماط يمكن دراستها إحصائياً ورياضياً، وينتج عنها تطور يكون غالباً فى اتجاه التقدم. يعترض البعض أحياناً على أن التغيرات المستحدثة قد لا يكون فيها تقدم، وهذا يعتمد على ما نعتبر أنه تقدم أو ما يكون هناك إجماع على أنه تقدم. سرعة الانتقال مثلاً يتفق الجميع على أنها من عوامل التقدم، وقد تطور النقل فى المائتى عام الأخيرة من الحصان إلى النفاثات والصواريخ. والتقدم البيولوجى قد يكون على مدى قصير أو طويل ولكنه مدى يحسب بالزمن التطورى. وتعرِّف الداروينية الحديثة التقدم التطورى بأنه تراكم الخصائص التى تسهم فى زيادة تكيف أفراد السلالة موضع البحث. وكمثل لذلك هناك تطور العين فى الفقريات عموماً فى اتجاه متقدم من حيث وظيفتها وفائدتها، أو تطور الخفافيش من حيث تحديد الموقع





كما أن هناك تطوراً مستمراً وظهور أشكال وأنواع جديدة من الكائنات الحية، فإن هناك أيضاً انقراضاً مستمراً للكثير من أنواع الكائنات



بصدى الصوت. كل السلالات تظهر فى تطورها تقدماً وظيفياً وإن كان هذا التقدم قد يحدث فى أكثر من اتجاه، إلا أن الاتجاه العام فيه تقدم. على أنه يحدث أحياناً أن يكون التطور فى اتجاه معاكس كما يحدث فى تطور طول «الجونلة» أو التنورة عند السيدات، إذ إنها تزداد قصراً!

كما أن هناك تطوراً مستمراً وظهور أشكال وأنواع جديدة من الكائنات الحية، فإن هناك أيضاً انقراضاً مستمراً للكثير من أنواع الكائنات. تبين لنا دراسات الحفريات الجيولوجية ودراسات الباليونتولوجيا، أو علم دراسة أشكال الحياة فى العصور السابقة كما تبدو من حفريات النبات والحيوان، أن معظم أشكال الحياة الحالية لم تكن موجودة فيما سلف. تقدر الإحصائيات العلمية أن نسبة الانقراض بين كل أنواع الكائنات الحية التى ظهرت فى العالم منذ بدء الحياة حتى الآن تصل إلى ٩,٩٩٪ ، بمعنى أن الأحياء الموجودة حالياً لا تمثل إلا جزءاً واحداً من الألف مما وُجد من الأحياء عموماً، ويقدر عدد الأنواع الحالية بأنه بين ثلاثة أو مائة مليون حسب طريقة التصنيف. نظرية الانتخاب الطبيعى لها دور أساسى فى تفسير ما يحدث من انقراض لبعض الأنواع وظهور لأنواع أخرى أكثر تكيفاً. الانقراض يحدث فى اتجاه عام تدريجى تتخلله أحداث انقراض كبرى حادة معدودة كانقراض الديناصورات. تلعب البيئة دوراً مهماً فى هذه الانقراضات مثلما يحدث من تغيرات مناخية أو انتشار للأوبئة أو اصطدام بنيزك، إلا أن الانتخاب الطبيعى وتأثيره فى التكوين الوراثى له دور لا يقل أهمية عن عوامل البيئة. فالأنواع الأقل تكيفاً تنقرض بأكثر، بينما تبقى الأنواع الأكثر تكيفاً. وأياً كان السبب البيئى لانقراض الديناصورات مثلاً فقد صحبه بقاء للثدييات الأولية التى تطورت بعدها للإنسان. وهذه التغيرات التطورية تحدث على مر أزمنة يبلغ من طولها أن تقدر بملايين السنين.

طول الأزمنة التى يحدث بها التطور يتفق مع ما ثبت مؤخراً بأدلة عديدة على أن عمر الأرض طويل ويقدر بعدة بلايين من السنين تقرب من أربعة بلايين، بينما ظهرت الحياة فى آخر ٥,٣ بليون سنة. هذا التقدير لعمل طويل للأرض والحياة يختلف تماماً عما قدره اللاهوتيون والتكوينيون من أن عمر الأرض هو ٤٠٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح. والتكوينيون هم من يؤمنون حرفياً بسفر التكوين على أنه تاريخ حقيقى. وهم يعتمدون فى تقدير عمر الأرض على تاريخ الأنساب فى سفر التكوين، حيث عاش آدم ٩٣٠ سنة وأنجب شيث وعمره ١٣٠ سنة، وشيث عاش ٩١٥ سنة وأنجب أنوش وعمره ١٥٠ سنة، وهكذا دواليك حتى ميلاد المسيح. ويقول التكوينيون إن الحياة ظهرت فى الوقت نفسه مع تكوين الأرض بما فى ذلك كل أشكال الحيوان والنبات كما هى عليه الآن. أول تسجيل كتبه اللاهوتيون لعمر الأرض حسب تاريخ الأنساب هو ما ورد عن مارتن لوثر، وهو رغم نزعته التحررية دينياً لم يكن بالعالم الأمثل فى العلوم الطبيعية وقد تحذلق بعدها لاهوتى آخر فى القرن السابع عشر وهو الأسقف آشر وعدل عمر الأرض ليكون ٤٠٠٤ سنوات قبل المسيح. ذلك أنه ورد فى الكتاب المقدس أن الدنيا أظلمت عند صلب المسيح. استنتج كبلر عالم الفلك أن هذا الإظلام نتج عن كسوف الشمس، وأقرب وقت للكسوف الشمسى عند صلب المسيح يسبق التاريخ المحدد لذلك بأربع سنوات. وهكذا عدل الأسقف آشر عمر الأرض إلى ٤٠٠٤ سنوات ق. م، ثم أتى من هو أكثر تحذلقاً، وهو جون لايتفوت نائب رئيس جامعة أوكسفورد، الذى حدد عمر الأرض بالسنة والشهر واليوم والساعة. فمولد الأرض هو فى يوم الأحد ٢٦ أكتوبر من عام ٤٠٠٤ ق. م فى الساعة التاسعة صباحاً بتوقيت ما بين النهرين! ظل هذا التاريخ مسجلاً فى الطبعة الرسمية للإنجيل حتى زمن طويل من القرن التاسع عشر. والأمر كله كما ثبت هذر سخيف، وإن كان لايزال يظهر الكثير مما يماثله حتى الآن عندما يحدث خلط بين مناهج البحث العلمى ومناهج الفكر الدينى مع أن كلا منهما يختلف عن الآخر تماماً فى مجالاته ووسائله، بحيث لابد أن يؤدى الخلط بينهما إلى التباس الأمور والإساءة للدين والعلم معاً. عندما أخذت دراسات الجيولوجيا تزداد رسوخاً فى القرن التاسع عشر عجز بعض المشتغلين بهذه الأبحاث عن تشرب منهج هذا العلم الحديث وأزعجهم ما يوجد من تعارض بين طول عمر الأرض حسب ما تدل عليه طبقاتها وسجل حفرياتها، وبين ما يؤمنون به من تقدير هذا العمر لاهوتياً بآلاف معدودة من السنين لا تكفى لتفسير الطبقات والتطور فى سجل الحفريات. وجد أحد هؤلاء الباحثين المنزعجين الحل الذى يرضى عذابه الروحى بين الجانبين، وفسر الأمر بأن الكون عمره حقاً آلاف معدودة من السنين، ولكن الله خلق الأرض وفيها هذه الطبقات الجيولوجية والحفريات كما ينبغى أن تكون وليس كما كانت، وعندما يراها الإنسان يظن جاهلاً أن عمر الأرض أطول من ذلك كثيراً. هناك قصة طريفة تشبه هذا التفسير، وتدور حول صور آدم كما يصوره الرسامون، فهو يظهر دائماً فى وسط بطنه سرة. كيف لآدم وهو غير مولود أن تكون له سرة؟! وتبرع من يفسر الأمر بأن الرسامين يصورون آدم هكذا كما ينبغى أن يكون وليس كما كان.

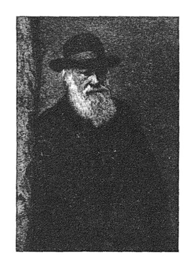
صاحب دراسات التطور أن أخذ العلماء يصنفون الكائنات الحية فى درجات وشعب وطوائف... إلخ، وصولاً إلى الأجناس والأنواع، وذلك حسب التشابه والقرابة ومدى التطور بمرور الزمن. فى أول الأمر اعتمد علماء البيولوجيا فى ذلك على تشابه الكائنات فى الملامح أو التشريح أو وظائف الأعضاء، سواء بين

الكائنات الحية الموجودة حاليًا أو تلك التى تظهر فى سجل الحفريات. من أمثلة التشابه فى الصفات التشريحية ما وجده العلماء فى أربعة حيوانات لها تشابه فى تشريح عظام الطرف الأمامى وإن كان هذا الطرف قد طور لنفسه وظيفة مختلفة فى كل واحد منها، فهو قد تطور فى الخفاش إلى جناح للطيران، وتطور فى البطريق إلى زعنفة للسباحة، وفى السحالى إلى ساق تندفع كالسهم، وفى الإنسان إلى ذراع يمده للآخرين. على الرغم من تطور هذا الاختلاف الوظيفى إلا أن تشريح هذه الأطراف فى الحيوانات الأربعة يبين أنها تحوى المجموعات نفسها من العظام، عظم العضد والكعبرة واليد والرسغ، كما تبين دراسة أجنتها أن هذه العظام تتبرعم أثناء تنامى الجنين من الأجزاء التمهيدية نفسها. يعنى هذا أن هذه الحيوانات الأربعة كلها سلالة لجد فقارى واحد بأربعة أطراف.

يتضح أيضًا من دراسات الجيولوجيا والبانتولوجيا وجود سجل من الحفريات تتراتب فيه أنواع الكائنات فى حقب متتالية من حقب الحياة القديمة، ثم المتوسطة فالحديثة. وكل حقبة منها تنقسم إلى طبقات متتالية تنتمى لها أنواع حية مختلفة توضح صفاتها حقيقة التطور. على أن هذه الدراسات التصنيفية للكائنات الحالية والمنقرضة كان فيها الكثير من الحدس والتخمين، كما فى أى علم حديث عند نشأته، خاصة أن سجل الحفريات يستحيل أن يكون كاملاً غير منقوص، فهناك عوامل عديدة تؤثر فيه مثل الزلازل والبراكين والانهيارات وغير ذلك مما يؤدى إلى تداخل الطبقات فى أماكن، وزوال بعضها فى أماكن أخرى. ومع ذلك فقد انبثق من هذه الدراسات مبادئ راسخة استقر العلماء عليها. من أهم هذه المبادئ أن هناك ترتيبا ثابتا للكائنات فى كل حقبة لا يمكن الخروج عليه، وتوزيع أنواع الكائنات فى القارات والحفريات فى العالم كله هو كما يتوقعه العلماء من حقائق التطور. لا يمكن أن توجد مثلاً حفرية لأرنب فى حقبة الحياة القديمة التى سادتها الكائنات ثلاثية الفصوص(١) وانتهت منذ مئات الملايين من السنين. كما لا يمكن أن توجد حفرية بشرية أو لأشبه البشر فى زمن يسبق نشأة الثدييات، ولو حدث ذلك لانهار كل أساس سجل الحفريات. فكل حفرية توجد دائمًا فى المكان المناسب والزمان المناسب.

فى أول الأمر كان ترتيب العصور الجيولوجية المختلفة ترتيبًا نسبيًا فى تتال للواحد بعد الآخر، بمعنى أن عصر ما يأتى سابقًا عصرآخر، ثم يلحقه عصر تال، وذلك كله دون تقدير كمى بالأرقام لعدد السنين فى كل عصر. مع تقدم الدراسات الذرية والإشعاعية فى القرن العشرين تمكن العلماء من تحديد عمر الحفريات بالسنين عن طريق ما يوجد فيها من ذرات مشعة. الذرات المشعة لها ما يسمى «عصر النصف» يعتمد عمر النصف على معدل اضمحلال الذرات المشعة حتى تتحول إلى نظائر مستقرة غير مشعة، ويبقى فقط نصف المادة المشعة الأصلية. يتخير العلماء أبحاث عمر النصف كساعة جيولوجية، فيقارنون النسب بين النظائر التى لاتزال تشع ببطء وتلك التى تم استقرارها، ويدركون بذلك إلى حد معقول طول الزمن الذى ظلت فيه الصخرة وحفرياتها مدفونة تحت الأرض. ويصلون بذلك إلى عمرها وراء بما قد يبلغ مئات الملايين من السنين. تستخدم نظائر الكربون لقياس مدى قصير نسبيًا من آلاف السنين، ذلك أن الكربون وكأنه ساعة يدور زنبركها بسرعة ثم يتوقف وتصبح الساعة غير موثوق بها لقياس الزمن التطورى الأطول من الآلاف. إذا كان عمر الحفريات تقريبًا بأقل من ٥٥٠٠٠ سنة يستخدم الكربون لتدقيق المدى الزمنى، فتقاس نسبة ما يوجد من نظيرين للكربون هما كربون ١٤ وكربون ١٢(٢). كلما كان كربون ١٤ أقل من كربون ١٢ تكون الحفرية أكبر سنًا، عندما يقدر الزمن التطورى بما يقرب من ملايين السنين يكون ما يصلح لتدقيقه هو ساعة ذرية غير الكربون كساعة البوتاسيوم أو الأرجون أو اليورانيوم. وعمومًا فقد ثبت وجود تطابق كبير بين تتالى سجل الحفريات النسبى وبين تتاليه بالتدقيق بالساعات الذرية.

بعد وفاة داروين اكتشف العلماء أبحاث مندل أبو علم الوراثة الحديث بعد طول إهمال لها فى حياة مندل. وتروى فى هذا الصدد قصة عن أن مندل أرسل أبحاثه لداروين، لكن داروين أهمل الاطلاع عليها وبقيت فى أرفف مكتبه دون أن يقرأها. أيًا كانت صحة هذه القصة، فإن الأمر المهم هو أن داروين لم يكن على دراسة بوراثيات مندل ولو أنه قرأ أبحاث مندل لاستطاع داروين أن يجعل أبحاثه فى التطور أكثر متانة وقوة، لأن إحدى نقاط الضعف فى أبحاث داروين ترجع لعدم معرفته بالوراثيات





بعد وفاة داروين اكتشف العلماء أبحاث مندل «أبو علم الوراثة الحديث» بعد طول إهمال لها فى حياة مندل



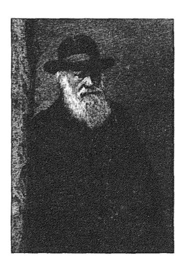
الحديثة. مع إعادة اكتشاف مندل أمكن لعباقرة مثل فيشر ولاند إدخال براهين حديثة لإثبات الانتخاب الطبيعى فى أمور يصعب إثباتها إلا بالمعادلات الرياضية والتحليل الإحصائى، هكذا دخلت الرياضيات والإحصائيات فى إثبات الانتخاب الطبيعى وإثبات الانتخاب الجنسى وهو نوع ثانى سريع من الانتخاب تحدث عنه داروين. حسب الانتخاب الجنسى تفضل إناث الطاووس أن تواقع الذكر صاحب الذيل الأكبر والأجمل، وإن كان الذيل الكبير هكذا يهدد حياة الذكر بالخطر لأنه بكبره وثقله يعوق الذكر عن أن يطير عاليًا بسرعة ليفر من مفترسيه. ولكن هذا الذيل الكبير أيضًا يدل على سلامة صحة الذكر أكثر من غيره. هناك طائر الهويد الأفريقى الذى تنجذب أنثاه أيضًا إلى الذكر الأطول ذيلاً. وقد أجريت تجارب طريفة على ذلك، فقصر من ذيل مجموعة من هذه الذكور، وزيد طول الذيل فى مجموعة أخرى بلصق ريش فيها، وتركت مجموعة ثالثة بالذيل الطبيعى، كما شكلت مجموعة حاكمة بذيل بطول عادى ولكنه فيه ريش ملصق. قورن نشاط الذكور الجنسى فى كل مجموعة بإحصاء عدد البيض فى الأوكار بالمنطقة التى يعيش فيها الإناث من حريم الذكور. وقورنت نتائج كل مجموعة أخرى وحللت رياضيًا وإحصائيًا حتى لا يكون هناك دخل للصدفة فى النتائج. وثبت وجود أهمية لها مغزاها لطول الذيل، حيث تفضل الإناث الذيل الطويل حتى ولو كان اصطناعيًا. هكذا لم تعد أبحاث التطور مجرد دراسات وصفية فيها الكثير من الحدس والتخمين، وإنما أصبح لها براهين من الرياضة والإحصاء.

على أن أقوى وأحدث البراهين التى تستخدم حاليًا فى أبحاث التطور هى ما ظهر بعد منتصف القرن العشرين نتيجة التقدم الهائل فى البيولوجيا الجزيئية التى نتج عن معرفة تركيب الجينات أو المورثات التى تنقل الصفات الوراثية من جيل للآخر. فى سنة ١٩٥٣ اكتشف واطسون وكريك تركيب الحمض النووى دو أوكسى ريبونيوكليك أو «دنا» وهو المكون الأساسى للجينات فى نواة الخلية. كان هذا الاكتشاف إيذانًا بإرهاصات الثورة البيولوجية. يتكون حمض دنا من جزىء عملاق تنتظم فيه ملايين الذرات فى خيطين مجدولين معًا فى لولب مزدوج. يتكرر على الخيطين تتابع لأربع قواعد أو مواد عضوية نيتروجينية هى الأدنين (أ) الثيمين (ث) والجوانين (ج) والسيتوزين (س). هذه القواعد الأربع (أ، ث، ج، س) هى الحروف الأبجدية للغة الوراثية فى كل الأحياء. أدى اكتشاف تركيب دنا إلى براهين وأدلة راسخة على صحة نظرية الانتخاب الطبيعى ودورها فى التطور، وأتاح إجراء تجارب جديدة لإثبات هذا كله.

من هذه الأدلة مجرد وجود دنا بقواعده الأربعة نفسها فى كل أشكال الحياة من أبسطها لأكثرها تركبًا وتعقدًا، من الكائنات وحيدة الخلية حتى الإنسان، حيث يؤدى جزىء دنا الوظيفة نفسها من تشكيل الجينات لنقل الصفات الوراثية للأجيال التالية. هذه اللغة الموحدة مكنت العلماء لأول مرة من تنفيذ تجارب الهندسة الوراثية التى تنقل جينات

وصفات وراثية من نوع من الكائنات لنوع آخر، كأن ينقلوا مثلاً جين منع التجمد من السمك القطبي لثمار الطماطم فيمنع تأثر محصولها بالبرد الشديد. فلغة دنا الوراثية واحدة في كل الكائنات، ويمكن نقل جملة أو جين بهذه اللغة من أحد الكائنات الحية إلى كائن آخر، فيفهم هذا الأخير الجملة أو الجين الجديد ويعبر عنها بظهور صفة جديدة. ما السبب في أن دنا كلغة للوراثة يوجد بالشكل الأساسي نفسه في كائنات حية متباينة كالموز والسرطان البحري والإنسان، بل هو موجود أيضاً في بقايا الأحياء المنقرضة؟ كما أن جزيء دنا في شكله كلولب تكون دوراته دائماً في اتجاه عقرب الساعة في كل هذه الكائنات، مع أنه لو كان دوران اللولب في اتجاه عكس ذلك لما أثر هذا في تفاعلات جزيء دنا ودوره في الحياة. لغة دنا في كل الأحياء تتكون من الحروف الأبجدية نفسها أو القواعد النيتروجينية الأربع (أ، ث، س، ج)، وليس هناك غير تفسير واحد معقول لهذا كله وهو أن كل جزيئات دنا الحالية هي سلالة تنحدر من جزيء واحد أصلي، فالحياة كلها لها الأصل الواحد نفسه.

أدى تقدم الوراثيات الجزيئية أيضاً إلى تسهيل تعيين موقع الجينات في نواة الخلية فوق ما يعرف بالكروموسومات. وذلك عن طريق ما يسمى بأبحاث الجينوم. تحدد هذه الأبحاث موقع الجينات في نواة الخلية فوق ٢٣ زوجاً من الكروموسومات نصفها من الأب ونصفها من الأم. أبحاث الجينوم تحدد أيضاً ترتيب تتابعات قواعد دنا أو الحروف الأبجدية للغة دنا، وترتيب هذه التابعات يختلف من كائن للآخر. تتيح دراسات الجينوم هكذا دراسة وظائف الجينات في الكائنات المختلفة والمقاومة بينها. تبين من هذه الدراسات وجود تشابه في جينات معينة بالكائنات المختلفة، مثل جود جينات متشابهة في الثدييات تختص بتعيين الموقع النسبي للأنسجة والأعضاء في محاور تنامي الجنين في الثدييات أو ما يسمى في بعضها بجينات «هوكس»، وهي تحدد مثلاً موقع الفقرات والضلوع والعضلات والجهاز الهضمي. كذلك هناك تشابه في الجينات المختصة بتنامي الأعين في أجنة كائنات مختلفة، ويثبت ذلك وجود صلة قرابة تطورية بين هذه الأنواع المختلفة. تركيب العين يختلف مثلاً في الحشرات اختلافاً كبيراً عما في الفأر والإنسان، إلا أنه قد عزلت من كل هذه الكائنات قطاعات متماثلة من جين





بعد قرن ونصف القرن من أبحاث داروين تزايد رسوخ البراهين العلمية وتزايد إجماع العلماء على حقيقة التطور الدارويني وصحة الانتخاب الطبيعي



ضروري لتنامي عين الجنين تنامياً سليماً. إذا غاب هذا الجين عن أحد هذه الكائنات يؤدي ذلك إلى إعاقة تنامي العين، وأحياناً يعالج ذلك في الحشرات مثلاً بنقل الجين المشابه في الفأر، وذلك على الرغم من الاختلاف الكبير بين عين الحشرات المركبة العدسات وعين الثدييات ذات العدسة الواحدة. ويدل هذا على أن هذه الأعين قد استُمدت كلها أصلاً من نموذج أولي مشترك ما لبث أن تطور في كل كائن منها في اتجاه مختلف.

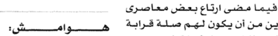
بالدراسات المقارنة بين جينومات الكائنات المختلفة يتمكن العلماء من معرفة أوجه التشابه أو الاختلاف في تركيبها بين كائن والآخر، وبالتالي فإنهم يتمكنون من تصنيف درجة القرابة بين الكائنات المختلفة حسب درجات التشابه.

فيما مضى كان تصنيف درجة القرابة يتم بالمقارنات الماكروسكوبية، أي أوجه التشابه في الملامح والتشريح والوظائف. هذه المقارنات الماكروسكوبية كانت أشبه باسكتش أو خطوط عريضة لدرجات القرابة. التصنيف الحالي حسب التشابه الجزيئي أو الميكروسكوبي أدق كثيراً وإن كانت نتائج التصنيفين فيها توافق بصفة عامة مع اختلاف في التفاصيل. ثبت مرة أخرى من مسلسل القرابة الجزيئي أن الإنسان يشبه الفأر مثلاً في الجينوم أكثر مما يشبه ذبابة الفاكهة، فهو يتماثل مع الفأر في ٧٠٪ من الجينات، ويتماثل مع الذبابة في ٤٧٪ من الجينات، وإن كان هناك من يستكثر حتى هذه النسبة من التشابه بين الإنسان والذبابة! أما الإنسان والشمبانزي فإنهما يتماثلان في ٩٦٪ أو أكثر من الجينات، بينما يتشابه الشمبانزي والغوريلا بنسبة أقل، وبالتالي فإن الشمبانزي قريب للإنسان أكثر من قرابته للغوريلا.

دراسات دنا التطورية في الجينوم وتحديد درجة القرابة بين الكائنات المختلفة سهلت للعلماء أيضاً تصنيف الكائنات الحية كلها في شجرة واحدة للحياة تتفرع كلها من أصل واحد وتتطور فيها أشكال جديدة لأنواع جديدة تظهر بالطفر والانتخاب الطبيعي. حسب نظريات الداروينية الحديثة لا توجد إلا شجرة حياة واحدة صحيحة، وهي شجرة تُصنف في طبقات، بمعنى أن فروع الشجرة تظل تتفرق دائماً ولا تتلاقى قط. ليس هناك تهجين طبيعي بين الأنواع المختلفة، فلا يمكن تهجين أحد الطيور بالثدييات (وإن كان يمكن ذلك الآن بالهندسة الوراثية في المعمل وليس طبيعياً!). تتميز الطيور أنها تنحدر كلها من جد مشترك لا يكون جداً لغير الطيور، كما أن الثدييات كلها لها جد مشترك لا يكون جداً لغير الثدييات. على أن الطيور والثدييات معاً لها فيما هو أقدم من ذلك جد مشترك لهما ولكائنات أخرى كالزواحف. هناك دائماً صلة قرابة وثيقة أو بعيدة وجدود مشتركة قريبة أو بعيدة حسب درجة القرابة. شجرة الحياة كلها نشأت عن جد أو كائن واحد وحيد الخلية هو غالباً البكتيريا.

فيما مضى ارتاع بعض معاصري داروين من أن يكون لهم صلة قرابة بالشمبانزي، ومازال الكثيرون من المعاصرين يعارضون التطور بسبب هذه القرابة الوثيقة بالشمبانزي. ترى ماذا يقولون الآن عن أن الجد الأصلي هو خلية بكتيريا؟ عموماً أدت أبحاث ثورة البيولوجيا الجزيئية إلى أن أصبحت الأمور تتجاوز كثيراً الحكايات العتيقة عن الحلقة المفقودة بين القردة العليا والإنسان. مع مضي الزمن يتزايد اكتشاف حفريات لأشباه الإنسان تزداد قرباً من الشمبانزي. وإذا كان هناك نقاش الآن فهو يدور حول ما إذا كانت أصول الحياة ترجع إلى كائن وحيد الخلية أقرب للبكتيريا أو أقرب للأميبا. كما يدور نقاش حول احتمال أن تكون الحياة قد نشأت أولاً عن تتناسخ جزيئات دنا أو ربما تكون قد نشأت عن تناسخ جزيئات حامض نووي آخر هو حامض الريبونيوكليك أو «رنا» (RNA) وهو حامض يختلف تركيبه هوناً عن (DNA) ويوجد في بعض أنواع البكتيريا التي تعيش في أعماق مياه شديدة الحرارة.

هكذا فإنه بعد مرور ما يزيد على قرن ونصف القرن من أبحاث داروين تزايد رسوخ البراهين العلمية وتزايد إجماع العلماء على حقيقة التطور الدارويني وصحة الانتخاب الطبيعي. بل إن الفاتيكان الذي كان من ألد أعداء التطور أصدر في ١٩٩٦ تصريحاً بابوياً بأن التطور قد ارتفعت منزلته من مجرد فرض إلى نظرية علمية متفق عليها. هذا عند علماء الغرب المصدر الرئيسي للعلم الحديث، أما في بلادنا المحروسة فنجد أن بعض ما نالوا أعلى الدرجات في دراسة البيولوجيا يؤلفون كتباً عن نهاية الداروينية ويحتجون في ذلك بحجج لا علاقة لها بالبيولوجيا ولا بأي علم. وتظارف أحدهم فيكتب أن التطور ورد في اتجاه معكوس في الكتب السماوية، فالإنسان هو الذي تطور إلى قرد عندما حلت لعنة الله على الكافرين فحولهم أو طورهم إلى قرود! وعندما يكتب علماء بيولوجيا كلاماً من هذا النوع فإنه يظهر أنهم يعانون من نوع من انفصام الشخصية أو الشيزوفرينيا يشيع بين بعض المشتغلين بالعلم في مصر، حيث يدرسون العلم لكسب عيشهم وهم في أعماقهم لا يؤمنون بالمنهج العلمي ولا يتبعونه في دراساتهم، ولا في حياتهم اليومية، على أن هذا أمر يحتاج لحديث آخر، وقانا الله وإياكم شر الشيزوفرينيا البيولوجية. ■



هوامش:

(١) ثلاثيات الفصوص حيوانات مفصلية قشرية بائدة من حقب الحياة القديمة.

(٢) رقما ١٤ و١٢ يمثلان الرقم الذري للكربون أو عدد البروتونات في نواة كل نظير.

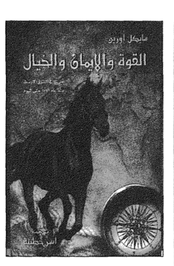
القوة والإيمان والخيال



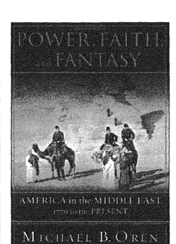
■■ من شجرة صنوبر بيضاء كبيرة نحت جون ليديارد John Ledyard قاربًا بيديه وأبحر به فى نهر كونيتيكت، كان شابًا قويًا يجدف وشعره البنى ينسدل على ظهره، وأنفه الأقنى يتجه نحو مقدمة القارب. ووسط المياه التى ارتفع منسوبها نتيجة لذوبان الثلوج فى الربيع أبحر ليديارد مئات الأميال نحو مصب نهر كونيتيكت على المحيط الأطلنطى، وكان عليه اجتياز مسافات شاسعة قبل أن يبلغ غايته، وهى بلاد تعج بأطلال كالمتاهات وصحارى تلفحها الشمس الحارقة. ولم يكن جون ليديارد يعلم فى ذلك الوقت من عام ١٧٧٣ أنه سيصبح أول مواطن فى الولايات المتحدة المستقلة يستكشف منطقة الشرق الأوسط، ويسجل انطباعاته عنها، ويقربها إلى أذهان الأمريكيين.

لم يكن اهتمام ليديارد فى ذاك الربيع منصبًا على الوصول إلى الشرق الأوسط، بل كان يرغب فى الهروب من رقابة القس اليعازر ويلوك Eleazar Wheelock رئيس جامعة دارتموث المستبد، وكان ويلوك قد اقتنع بأن ليديارد - الذى يعيش على الحدود فى نيو هامبشير، والذى عاش ذات مرة بين قبائل الإيروكوى - يمكن أن يصبح قسًا ومبشرًا عظيمًا، لذا ضغط عليه للالتحاق بالجامعة. أما ليديارد ابن الثالثة والعشرين فكان ولعه بالاستكشاف يفوق كثيرًا ولعه بدراسة اللاهوت، وكان يتوق إلى المغامرة، ليصبح - كما كتب ذات مرة لوالدته الأرملة - «أكبر رحالة فى التاريخ ... غريب الأطوار، نسيج وحده، سريع الحركة، غامض، محب للاستطلاع ... شامخ كالشهاب». استمر ليديارد فى الدراسة لفصل دراسى واحد فى دارتموث قبل أن يبحر بقاربه على نهر كونيتيكت، متجهًا نحو المحيط والعالم.(١)

لم تكن بداية رحلة ليديارد واعدة، فقد كان بحارًا عاديًا على متن سفينة تجارية متجهة إلى جزر الهند الغربية، ولم تكن الحياة على ظهر السفن المليئة بالفئران فى أواخر القرن الثامن عشر ممتعة بأية صورة من الصور، وعندما استدارت السفينة شرقًا تجاه البحر الأبيض، قرر ليديارد أن يهرب من جديد، فغادر السفينة عند جبل طارق فى يوليو/تموز ١٧٧٦، وانضم إلى جنود البحرية البريطانية. وفى الشهر نفسه دخلت بريطانيا الحرب ضد مستعمراتها الأمريكية المتمردة التى كانت عندئذ قد اتحدت تحت اسم الولايات المتحدة، وكان من الممكن أن يجد ليديارد نفسه فى



أمريكا في الشرق الأوسط
منذ ١٧٧٦ حتى اليوم
مايكل بي. أورين
ترجمة: آسر حطيبة
كلمات عربية للترجمة والنشر - القاهرة
كلمة - أبو ظبى



Power, Faith, and Fantasy: America in the Middle East: 1776 to the Present
Michael B. Oren
W. W. Norton, 2007

مواجهة أبناء بلده، ولكن شاء القدر ألا يخدم على بارجة حربية، بل على السفينة «ريزولوشن» التى كان قائدها جيمس كوك James Cook أشهر قبطان إنجليزى.

كان كوك - مكتشف تاهيتى وجزر هاواى - يستعد فى ذلك الوقت لرحلته الثالثة حول العالم، عابرًا المحيط الهادئ ومتجهًا نحو سواحل أوريجون والاسكا بحثًا عن ممر بحرى عبر القارة، هو الممر الشمالى الغربى الأسطورى. كان ليديارد يدون مذكراته خلال الرحلة، واصفًا بكل حيوية سكان بحر الجنوب الذين قابلهم والوشم يغطى أجسادهم، وكذلك محاربى هاواى الذين هاجموا وقتلوا كابتن كوك فى ١٤ فبراير/شباط ١٧٧٩. ولكن لم تستطع بشاعة هذا الحادث أن تقلل من جمال منطقة أوريجون المليئة بالغابات والواقعة على الساحل الشمالى الأمريكى. كان ليديارد تواقًا إلى العودة إلى تلك المنطقة، وتحقيق ثروة من خلال بيع الفراء، لذا اتخذ أول خطوة فى طريق تحقيق حلمه بأن غادر السفينة عند شواطئ لونج أيلاند فى ١٧٨٢، والرجوع إلى موطنه الأصلى.

ومع أن الولايات المتحدة كانت قد أوشكت فى ذلك الوقت على أن تحصل على استقلالها، فإن جيشها ظل فى حالة تأهب للحرب، وكان يمكن أن يخدم ليديارد بين صفوفه، ولكنه كان قد ركن إلى الدعة ولم يرغب فى التطوع، فقد رأى نفسه «يتنقل فى الحياة ... بين طرفى نقيض، هما السعادة والتعاسة»، «وأنه كائن لا ينتمى لأى ميدان ولا يصلح لأى مجال». نشر ليديارد مذكراته عن رحلة الكابتن كوك، وأصبحت أول كتاب فى أدب الرحلات يطبع فى الولايات المتحدة، ويعد ذلك الكتاب - بمعايير القرن الثامن عشر - من الكتب الأكثر مبيعًا. وفى سن الثالثة والثلاثين كان ليديارد قد رأى من العالم ومن القارة الأمريكية أكثر من أى شخص آخر عاش فى تلك الفترة. ومع ذلك ظل عقله معلقًا بأوريجون، وبحلمه فى إقامة مركز لتجارة الفراء، وعندما فشل فى إيجاد مؤيدين لمشروعه فى الولايات المتحدة، ترك ليديارد بلاده مرة أخرى ليبحر عام ١٧٨٥ إلى فرنسا.

كان ليديارد يجسد روح الرواد الأوائل التى كان يقدرها الفرنسيون فى ذلك الوقت، مما مكنه من التعرف على عدد من كبار الشخصيات فى باريس، وصادق ليديارد أيضًا بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin، أول سفير أمريكى فى فرنسا، بالإضافة إلى الثورى المتقد حماسًا توم بين Tom Paine وبطل البحرية جون بول جونز John Paul Jones. أما أعمق علاقاته وأكثرها تأثيرًا فكانت مع رجل أرستقراطى لم يكن يشترك - فيما يبدو - إلا فى صفات قليلة مع هذا البحار البسيط الذى كان يعيش فى الغابات.

«حين كنت فى باريس تعرفت إلى جون ليديارد... رجل عبقرى غزير العلم يتحلى بالجرأة والشجاعة الفائقة». هذا ما كتبه توماس جيفرسون، الذى كان قد خلف فرانكلين سفيرًا للولايات المتحدة بفرنسا. وكان جيفرسون طويل القامة نحيفًا فاتح البشرة، وهذه الصفات تمثل تناقضًا تامًا مع صفات هذا الرحالة مفتول العضلات الذى عركته الظروف والمغامرات. ومع ذلك توثقت علاقتهما سريعًا، كان جيفرسون يرى فى ليديارد «رجل الحقيقة، صاحب الشجاعة الفائقة والشخصية المغامرة الجوالة»، وفى رده على هذا الثناء والمديح، أطلق ليديارد على جيفرسون «أخى وأبى وصديقى».(٢)

كان جيفرسون مفتونًا بوصف ليديارد لأوريجون وسال لعابه لفكرة أنه قد يعثر على مجرى مائى بين هذه المنطقة والساحل الشرقى للولايات المتحدة، وقد أقنع ليديارد بالعودة إلى أوريجون عن طريق روسيا ومضيق بيرنج، ثم البحث عن هذا الممر الشمالى الغربى الأسطورى. وطلب جيفرسون من الإمبراطورة الروسية كاثرين العظيمة Catherine the Great أن تسمح لليديارد بالعبور سالمًا عبر بلادها، ولم توافق كاثرين على هذا المشروع، معتبرة إياه «خيال». ولكن هذا التشكك من جانبها لم يثن ليديارد؛ وفى شتاء ١٧٨٧ انطلق ليديارد فى رحلته من ستوكهولم إلى سانت بطرسبرج، ثم أكمل رحلته بالقارب والزلاجة الثلجية لمسافة ثلاثة آلاف ميل من الجليد نحو شرق سيبيريا. وهناك ألقى عملاء كاثرين القبض عليه، وجرى ترحيله من روسيا.

أثرت هذه المحنة فى ليديارد كثيرًا فبدا عجوزًا، لكنها لم تثن من عزمه ولا إصراره، وأعلن أن «الوجه الأمريكى لا يتحمل كما يتحمل القلب الأمريكى». واستمر ليديارد يراسل جيفرسون، واضعًا نظريات كانت آنذاك ثورية بأن الأمريكيين الأصليين كانوا أحفاد مهاجرين من آسيا فيما قبل التاريخ، وأن كل البشر - بصرف النظر عن جنسهم - ينحدرون من سلف واحد. لكنه لم يتخل أبدًا عن طموحه فى استكشاف مناطق خارج الخريطة. انتقل ليديارد إلى لندن بحثًا عن راع جديد، وهناك لفت انتباه الجمعية الأفريقية وسكرتيرها هنرى بوفوى Henry Beaufoy، وانبهر بوفوى «برجولة ليديارد، وانفتاح أساريره، وحيوية نظرات عينيه»، فاقترح على ليديارد أن

مايكل أورين
Michael B. Oren



الرئيس دوايت أيزنهاور ووزير خارجيته فوستر دالاس - ١٩٥٦

يستكشف ضفاف النيل، من القاهرة وحتى سنار فى شرق السودان، وهى رحلة لم يقم بها أى غربى من قبل، وأبدى ليديارد رغبته بالتحرك فوراً، ولكن بوفوى شرح له أن الجمعية قد خططت رحلاتها بدقة، وأنه لن يتمكن من التوجه إلى مصر قبل عدة أشهر على الأقل.

استعد ليديارد جسمانيًا بالركض لمسافة عشرين ميلا، وذهنيًا بالانكباب على خرائط الشرق الأوسط، التى كان معظمها غير مستقى من الواقع. فقام بالاتصال بالسفير الأمريكى فى بريطانيا، ويليام ستيفن سميث، واتفقا - عن طريقه - على «توظيف مواهبه وبذل جهده فى سبيل خدمة وطنه»، وأن تكون استكشافاته باسم الولايات المتحدة. وأخيراً، فى ٣٠ يونيو/حزيران ١٧٨٨ غادر ليديارد لندن متجهاً إلى مارسيليا بعد أن استكمل جميع استعدادات السفر. وقد كتب فى رسالة أخيرة لوالدته: «من هنا سيبدأ طريقى... عبر البحر المتوسط... إلى القاهرة العظيمة. أما ما وراء ذلك فمجهول، وستبدأ منه اكتشافاتى. أما أين سينتهى بى المطاف، وكيف فستعلمينه إذا بقيت على قيد الحياة». وكتب رسالة لجيفرسون يشكره فيها على صداقته وثقته، وواعداً إياه بالحفاظ عليهما: «أنا لا أعتقد أن الجبال أو المحيطات ستقف عقبة أمام وصولى إلى المجد، فقلبى مشتعل حماساً». هكذا تنبأ ليديارد.

كان جون ليديارد متجهاً إلى الشرق الأوسط، وهى منطقة غارقة فى الغموض، وندر أن يكون قد زارها أى غربى من قبل، فما بالك باختراق أعماقها؟ فما الذى كان يتوقع العثور عليه هناك، بجانب المشقة والعداوة؟ وما أوجه التشابه فى التاريخ والعقيدة والثقافة التى كان يمكن أن تربط هذه البلاد البعيدة الغريبة بديمقراطية الولايات المتحدة الحديثة؟ وما هو المستقبل المشترك الذى قد ينتظر هذين الجزأين غير المتوافقين من العالم: الولايات المتحدة والشرق الأوسط؟

كانت مثل هذه الأسئلة مطروحة فى ١٧٨٠، ومع ذلك فقد استمر الأمريكيون فى الإلحاح عليها منذ ذلك الحين. بينما كان ليديارد - الذى سوف نصف رحلته بالتفصيل فى الفصل التالى - أول أمريكى يستكشف الشرق الأوسط، وواحداً من ملايين من بنى جلدته الذين سافروا عبر قرنين من الزمان إلى المنطقة ودرسوها وكتبوا عنها وحاربوها. هذا التفاعل كان لا بد أن يحدث تحولًا فى الشرق الأوسط، لكنه أثر أيضاً على الولايات المتحدة، تارة بالضعف وتارة بالقوة وتارة بالانقسام.

كانت رحلة ليديارد إلى الشرق الأوسط بالفعل «ممراً إلى المجد» له ولغيره من الأمريكيين، فى الحاضر والماضى. وحينما رست سفينته فى مصر، قال ليديارد: «انتبهوا، إننى أتيت بشخصية جديدة إلى العالم، وموضوعًا جديداً للتراجم والسير»[3] وكان بإمكانه أن يضيف «بداية لمشاركة الولايات المتحدة بصورة متميزة فى الشرق الأوسط».

استحضار الماضى

قليل من الأمريكيين يمكنهم اليوم معرفة من هو جون ليديارد، أما من يقدر مساهمته فى علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط فعددهم أقل بكثير. غير أنه منذ حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١، وبالتأكيد منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر/أيلول، زادت معرفة الأمريكيين بالشرق الأوسط إلى حد بعيد. ومنذ خمسة عشر عاماً، كم عدد من كان يعرف منهم معنى كلمة «جهاد»، أو «القاعدة»، أو «انتفاضة»، أو «الوهابيين»؟ وكم عدد من كان بإمكانه أن يفرق بين العرب والإيرانيين؟ والبعثيين والإسلاميين؟

والسنة والشيعة؟ يضاف إلى ذلك أن أسماء مدن الشرق الأوسط كالفالوجة وجنين أصبحت أقرب لأذهان وأسماع الأمريكيين اليوم من مدن الوسط الأمريكي.

إن معرفة الأمريكيين المطردة بالشرق الأوسط تعكس الدور الرئيسي الذى تحتله المنطقة فى حياتهم الآن. لقد أصبحت الولايات المتحدة متضامنة ومشاركة فى الشرق الأوسط بصورة كبيرة تمس حتى وجودها وكيانها. فحرب العراق والتهديدات الإرهابية والبحث عن موارد للطاقة والوقود يمكن الاعتماد عليها أصبحت موضوعات تفرض نفسها على وسائل الإعلام فى الساحة الأمريكية بوجه عام وعلى خطة العمل القومية بوجه خاص. وأصبح الشرق الأوسط يمثل إلهاماً دينياً لملايين الأمريكيين أيضاً، كما أصبح مصدر تخوف كثير منا. واحتل العرب مكانا رئيسيًا فى إجهاد الجيوش الأمريكية، وحل الاهتمام باللغة العربية محل الاهتمام بالروسية، خاصة لهيئات الاستخبارات الأمريكية، وأصبحت علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط أكثر مادية من علاقاتها بأمريكا الجنوبية وأفريقيا وأوروبا، وأكثر إلحاحاً من علاقاتها بكوريا الجنوبية أو حتى بالصين. وبذلك أصبح الشرق الأوسط بوجه عام مؤثراً على أمن الولايات المتحدة وسلامة كل سكانها.

وعلى الرغم من هذه الأهمية القصوى للشرق الأوسط، فلا يزال الأمريكيون - إلى حد بعيد - غير واعين بتاريخ بلادهم الثرى متعدد الجوانب فى هذه المنطقة، إذ يبدو أن معظمهم يعتقد أن الولايات المتحدة أصبحت نشطة فى الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية، أو مع بدايات الصراع العربى الإسرائيلى، أو مع اكتشاف النفط السعودى. والدهشة هى رد فعل الغالبية على أى ادعاء بأن العلاقات مع منطقة تبعد عنهم نحو خمسة وثلاثين ألف ميل (من نيويورك إلى أقرب مدينة فى الشرق الأوسط وهى سيدى إفنى بالمغرب) يمكن أن يكون لها هذا التأثير على صياغة الدستور وتكوين البحرية الأمريكية، وسيندهش معظمهم إذا عرفوا أن الأمريكيين وشعوب الشرق الأوسط قد تقابلوا ليس فقط فى حقول النفط والمعارك فحسب، ولكن فى مجالات الفن والتعليم والأعمال الخيرية أيضاً، فالأمريكيون هم أول من بنى جامعة حديثة فى الشرق الأوسط، وبدا كل من العلم الأمريكى وتمثال الحرية من تجربة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط.

يرجع نقص المعرفة بتاريخ الشرق الأوسط - ولو جزئياً - إلى عدم وجود كتاب شامل فى هذا الموضوع، ففى حين يستطيع أى بريطانى مهتم بقراءة تاريخ بلاده أن يراجع كتاب إليزابيث مونرو Elizabeth Monroe الكلاسيكى Britain's Moment in the Middle East أو غيره من الأعمال المميزة الأخرى التى وضعها ويليام روجر لويس William Roger Louis، فإن الأمريكيين عليهم الخوض فى مجموعة كبيرة من المؤلفات ليتمكنوا من الحصول على الموضوعات التى يبغونها فى هذا المجال. وقد وُضعت عشرات الكتب عن حروب البربر - وهو أول صراع أمريكى مع الشرق الأوسط - وعن سياسة الولايات المتحدة نحو تسوية الأوضاع فى الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى. ولكن لا توجد دراسة واحدة عن التدخلات العسكرية الأمريكية فى الشرق الأوسط أو عن الدور الذى لعبته الولايات المتحدة فى عمليات التحرر من الاستعمار. كما تحتل قائمة المؤلفات التى تتناول السياسة الأمريكية نحو إسرائيل والصراع الفلسطينى عدة صفحات، ولكن لا يوجد عمل واحد عن التراث الأدبى الأمريكى فى الشرق الأوسط أو عن اندماج اقتصاديات الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ عام ١٧٧٦.



لكن عديداً من الباحثين سعوا إلى تحرى جوانب أكبر فيما يخص تاريخ الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. ففى كتاب Pioneers East الذى نشر عام ١٩٦٧، قدم ديفيد فينى David Finnie سرداً نابضاً بالحياة للأمريكيين العاملين والمسافرين والمبشرين فى المنطقة فى أواخر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبعد ذلك بعامين أضاف جيمس فيلد James A. Field عمقاً أكاديمياً إلى استقصاء فينى الشعبى فألف كتاب America and the Mediterranean World, ١٧٧٦-١٨٨٢، وسار جون دى نوفو John DeNovo على نهج فيلد من خلال كتابه American Interests and Policies in the Middle East, ١٩٠٠-١٩٣٩ الذى يعتبر عملاً موسوعياً. وبعد دى نوفو وضع جوزيف جرابيل Joseph L. Grabill كتابه الرائد Protestant Diplomacy and the Near East: Missionary Influence on American Policy, ١٨١٠-١٩٢٧. أما آخر هذه الدراسات الموسعة فكانت دراسة بعنوان American Diplomatic Relations with the Middle East, ١٧٨٤-١٩٧٥ نشرت منذ ثلاثين عاماً ووضعها توماس برايسون Thomas Bryson، ومنذ ذلك التاريخ ركز المؤرخون على فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وعلى الأبعاد السياسية والاستراتيجية لعلاقة الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. وتعتبر كتب American Presidents and the Middle East لجورج لينشيفسكى George Lenczowski، و The Other Arab-Israeli Conflict لستيفن سبيجل Steven L. Spiegel، و Peace Process لويليام كوانت William B. Quandt ثلاثة أمثلة من أفضل الكتابات فى هذا المجال، ومن الكتب الرئيسية الأخرى كتاب The Arabists لروبرت كابلان Robert D. Kaplan، وهو كتاب يغطى فترة زمنية واسعة، لكنه يبحث بصورة أساسية تأثير وزارة الخارجية الأمريكية على سياسة الشرق الأوسط.

وتلك القائمة ما زال ينقصها بحث النطاق الكامل للعلاقات الأمريكية الشرق الأوسطية التى دامت قروناً فى جميع الجوانب العسكرية والاقتصادية والثقافية، ولم تسعَ أية دراسة إلى التعرف على الموضوعات المكررة فى هذا التاريخ، أو إلى تقديم إطار منهجى لتحليله، وحتى يومنا هذا لم تقدم أية دراسة عرضاً أكاديمياً لدور الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، أى عرض ميسر للعلماء وعامة القراء على السواء. ويسعى هذا الكتاب إلى ملء ذلك الفراغ.

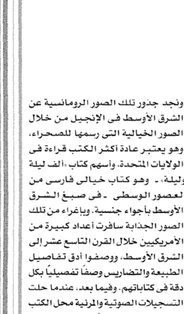
إن كتابة مثل هذا العمل تثير العديد من التحديات، وعلى رأسها إجابة السؤال الآتى: «أين يقع الشرق الأوسط؟». ومع أن مصطلح الشرق الأوسط يكاد يكون اليوم مقبولاً ومعروفاً فى العالم بأسره، فالواقع أنه لا يوجد إجماع على حدوده، فكثير من الباحثين يصنفون المغرب وتونس والجزائر على أنها دول شرق أوسطية، فى حين يعتبر آخرون دول شمال أفريقيا كياناً منفصلاً، وأقسام دراسات الشرق الأوسط ببعض الجامعات تستبعد أفغانستان وباكستان من نطاق دراساتها، ولكن برامج أخرى منها تغطى القوقاز وجنوب غرب آسيا، وكلما عدنا تاريخياً إلى الوراء يزداد عمق الخلافات حول معايير المنطقة، فالمؤرخون يختلفون حول ما إذا كانت دراسة الشرق الأوسط فى القرن الثامن عشر يجب أن تتضمن بلغاريا العثمانية واليونان، أو ما إذا كانت هذه الأقاليم تتبع شرقاً أدنى منفصلاً وغامض المعالم، وينفى بعضهم أن يكون الشرق الأوسط قد ظهر للوجود قبل ١٩٠٢، عندما استخدم هذا المصطلح لأول مرة.

يعمل هذا الكتاب على حل تلك المشكلات عن طريق التعامل مع «الشرق الأوسط» كمرادف للمنطقة التى كان الأمريكيون - ومعظم الأوروبيين - فيما مضى يعرفونها باسم «الشرق». فعلى الأقل قبل القرن العشرين كان «الشرق» يتكون من منطقة واسعة تمتد من الأناضول ومنطقة تراقيا الغربية إلى شمال أفريقيا ومصر، ومن الجزيرة العربية إلى الخليج العربى، وكانت البلاد الخاضعة لسيطرة العثمانيين فى أوروبا وآسيا الوسطى تندرج أيضاً تحت هذا التصنيف مع أنها أصبحت أقل «شرقية» بعد حصولها على الاستقلال. هذه البلدان كانت ترتبط فى أذهان الأمريكيين بحضارة مشتركة، ولباس متشابه، وتقارب فى العمارة، والفنون، والمعتقدات الدينية، وأنظمة الحكم، ومع ذلك فلا يزال معظم الأمريكيين يصنفون الليبيين والإيرانيين والفلسطينيين والتونسيين واللبنانيين ضمن إطار جغرافى سياسى يطلقون عليه اسم «الشرق الأوسط».

بعد تحديد مفهوم الشرق الأوسط، تصبح مهمتنا التالية هى توضيح هيكل الدراسة، وهنا أيضاً تثور تساؤلات رئيسية: هل يجب أن نوجه اهتماماً متساوياً لكافة مراحل تاريخ العلاقات الأمريكية الشرق أوسطية؟ أم نختار فقط الفترات التى لم يكتب عنها إلا القليل؟ وماذا - بجانب المنظور - يمكن أن يسهم به الكتاب بجانب الموضوعات التى نوقشت من قبل، مثل سياسة أيزنهاور نحو أزمة السويس عام ١٩٥٦، أو موقف نيكسون من الحرب العربية الإسرائيلية فى عام ١٩٧٣؟ وكيف يمكن لنص يعتمد على أوراق دبلوماسية مصنفة على أنها سرية ولم تفتح ملفاتها بعد أمام الجمهور والعامة واستعمالها لإعادة بناء أول قرنين من علاقات الشرق الأوسط بالولايات المتحدة، وفى توثيق الثلاثين عاماً الأخيرة من هذا التفاعل؟

الإجابات على كل تلك التساؤلات تنعكس على هيكل الكتاب وبنائه. ووفقاً لذلك تقدم الأجزاء الستة الأولى من الدراسة عرضاً مفصلاً لعلاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن العشرين، أما الجزء الأخير فيستقصى أحداث السنوات الستين الأخيرة، بدءاً بالحرب الباردة وانتهاءً بحرب العراق، وخلال صفحات الكتاب بأكمله، سنجد أن التركيز سيكون على تعريف الأنماط الأساسية لدخول الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، مع متابعة الموضوعات التى تمتد كالخيط المشترك خلال النص، رابطة بعضه ببعض وموضحة إياه.

أكثر تلك الموضوعات التى تفرض



نفسها وتظهر بوضوح هو موضوع القوة. فالقوة تشير إلى السعى وراء المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط من خلال العديد من الوسائل: العسكرية والدبلوماسية والمالية، والقوة هى التى ظهرت فى قرار الرئيس ماديسون بإرسال بوارج حربية إلى الجزائر عام ١٨١٥، وفى جهود لنكولن عام ١٨٣٦ لإثناء مصر عن التدخل فى المكسيك، لكن الولايات المتحدة لجأت أيضًا إلى استخدام القوة فى الشرق الأوسط لحماية مواطنيها الذين كانوا يقيمون هناك، وللدفاع عن الأقليات المهددة بالخطر، فعندما أنقذت الباخرة يو. إس. إس. إنديبندنس USS Independence مبشرين أمريكيين من الخطر فى لبنان عام ١٨٤٤، أو عندما قامت الباخرة تينيسى Tennessee بإجلاء لاجئين يهود من فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى، لم تكن القوة تخدم مصالح اقتصادية أو سياسية فقط، بل كانت تساند الإيمان الأمريكى.



أما الإيمان - وهو الموضوع الثانى - فيشير إلى تأثير الدين فى تشكيل المواقف والسياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط، ومع أن الكاثوليك واليهود لعبوا دورًا نشطًا فى تحديد مسار العلاقات الأمريكية فى المنطقة، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، فقد كانت السيطرة للنفوذ البروتستانتى. غادر أول المبشرين البروتستانت بوسطن متوجهًا إلى الشرق الأوسط عام ١٨١٩ بهدف إعادة فلسطين للسيادة اليهودية وإنقاذ أرواح المسيحيين الأرثوذكس والموارنة والدروز. ولكن الإيمان بالنسبة إلى الولايات المتحدة كان له بُعد دنيوى ومدنى أيضًا، يدفع الأمريكيين إلى تصدير مفاهيمهم الوطنية والديمقراطية للخارج. ومع ذلك فقد فشلت الإرساليات التبشيرية فى التنصير وفى إعادة بناء دولة يهودية، لكنها نجحت فى تأسيس أول جامعات حديثة فى تركيا والعالم العربى، فعن طريق غرس مشاعر الانتماء الوطنى والاعتزاز فى طلابها، تمكنت هذه المؤسسات من إطلاق قوى جبارة جديدة فى الشرق الأوسط، وغيرت سياسة المنطقة بلا رجعة.

الموضوع الثالث هو الخيال؛ فلطالما سبت فكرة الشرق الأوسط عقول الأمريكيين، وسحرتهم بصور خيالية تملؤها مآذن المساجد والأهرامات والواحات والجمال والكثبان الرملية، ونجد جذور تلك الصور الرومانسية عن الشرق الأوسط فى الإنجيل من خلال الصور الخيالية التى رسمها للصحراء، وهو يعتبر عادة أكثر الكتب قراءة فى الولايات المتحدة، وأسهم كتاب «ألف ليلة وليلة» - وهو كتاب خيالى فارسى من العصور الوسطى - فى صبغ الشرق الأوسط بأجواء جنسية. وبإغراء من تلك الصور الجذابة سافرت أعداد كبيرة من الأمريكيين خلال القرن التاسع عشر إلى الشرق الأوسط، ووصفوا أدق تفاصيل الطبيعة والتضاريس وصفًا تفصيليًا بكل دقة فى كتاباتهم. وفيما بعد، عندما حلت التسجيلات الصوتية والمرئية محل الكتب باعتبارها الوسائل الأساسية لتخليد الأساطير، أصبحت الأعمال المستوحاة من الشرق الأوسط هى الأكثر رواجًا فى هوليوود وفى مجال الموسيقى، ولم تؤثر هذه الأعمال فقط على رؤية الجمهور للمنطقة، بل أثرت أيضًا على سياسات الحكومات الأمريكية. فالخيال - كما سيظهر فيما بعد - قد أسهم فى قرار الرئيس بوك Polk برعاية رحلة بحرية استكشافية إلى نهر الأردن، وكذلك فى قرار الكونجرس عام ١٨٥٦ بإنشاء سلاح للجمال بجمال عربية مستوردة من مصر.

ولم يكن واحد من تلك الموضوعات حكرًا على علاقات الولايات المتحدة مع الشرق الأوسط، فالأوروبيون قد أدخلوا عناصر القوة والإيمان والخيال فى سياساتهم نحو الشرق الأوسط أيضًا. ومع ذلك فإن استمرار تلك الأنماط على مدار أكثر من مائتى عام من تدخل الولايات المتحدة فى شئون الشرق الأوسط - والتفاعل الديناميكى بينهما - كان أمرًا انفردت به الولايات المتحدة.

يهدف هذا الكتاب إلى تقديم فهم أكثر عمقًا وتنوعًا لهذا الجزء المحورى من تاريخ الولايات المتحدة عن طريق بحث تلك الموضوعات وإعادة تشكيل تاريخ العلاقات الأمريكية مع الشرق الأوسط، ويقدم الكتاب أيضًا خلفية تاريخية لتحليل الدور الحالى للولايات المتحدة فى المنطقة؛ فسياسات الولايات المتحدة فى العراق وإيران وفى الصراع الفلسطينى الإسرائيلى تعتبر اليوم محل جدال واسع داخل الولايات المتحدة وخارجها، وهدف هذا الكتاب ليس الانحياز لأية جهة أو الدعاية لها فى هذه الخلافات، أو الدعوة إلى مسار معين، بل يسعى إلى تقدير الميراث المشترك لهذين العالَمين اللذين أحيا فيهما واللذين أقدرهما بنفس القدر وأكن لهما نفس الاحترام: الولايات المتحدة والشرق الأوسط. ■



ويل للمكذبين

لما غضب هارون الرشيد على ثمامة بن أشرس المعتزلى، دفعه إلى سلام الأبرش، وأمره أن يضيق عليه، وأن يدخله بيتًا ويطين عليه ويترك فيه ثقبًا. ففعل دون ذلك، وكان يدس إليه الطعام. فجلس سلام عشية وهو يقرأ فى المصحف، فقرأ (ويل يومئذ للمكذَّبين). فقال ثمامة: إنما هو (المكذِّبين). وجعل يشرح ويقول: (المكذَّبون) هم الرُّسُل، و(المكذِّبون) هم الكفار.

فقال سلام:

قد قيل لى إنك زنديق ولم أُصدِّق!

ثم ضيق عليه أشد الضيق.

ثم رضى الرشيد عن ثمامة فجالسه. فقال له يومًا: أخبرنى عن أسوأ الناس حالاً.

قال ثمامة:

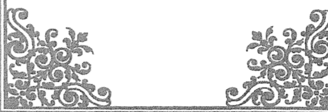
عاقل يجرى عليه حكم جاهل.

فظهر الغضب فى وجه الرشيد. فقال ثمامة: يا أمير المؤمنين، ما أحسبنى وقعتُ بحيث أردت.

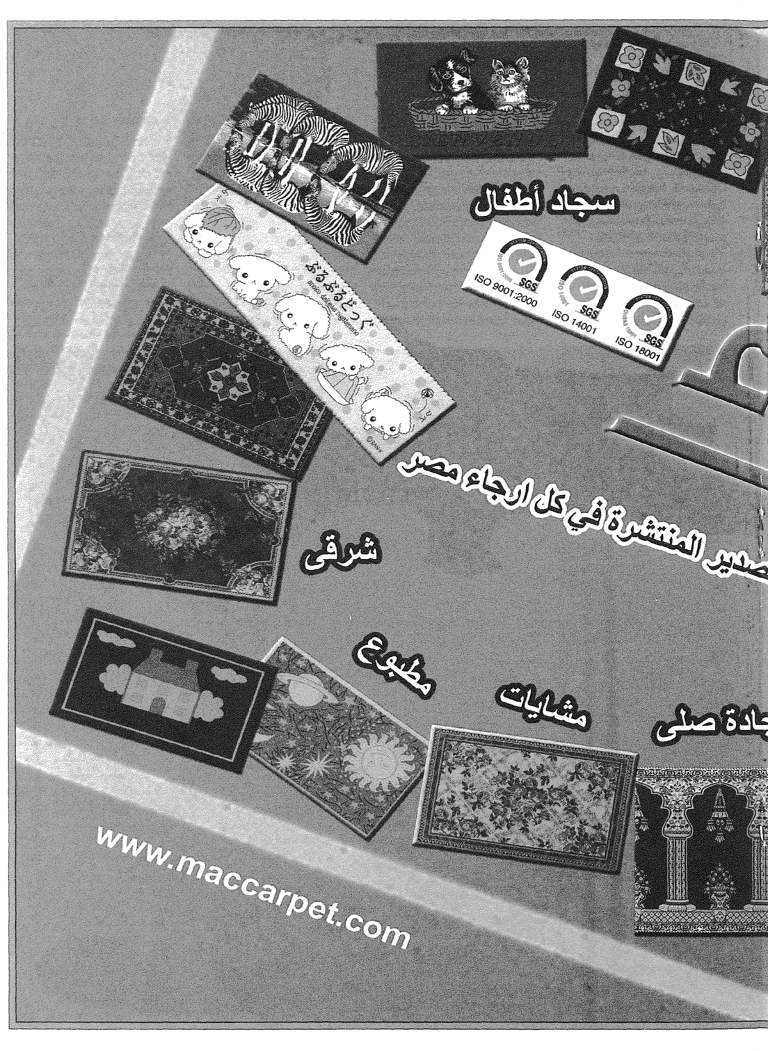
قال: لا والله، فاشرح.

فحدثه بحديث سلام، فضحك الرشيد حتى استلقى.

من كتاب «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزى




سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى ا
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
SGS
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com







أحمد محمد أبو زيد

■■ هناك كتب كالخمر: كلما قدمت ازداد طعمها حلاوة. من هذه الكتب كتاب البروفيسور محمد السيد سليم الذى نتناوله اليوم. فبالرغم من أنه صدر منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً إلا أن المرء - المتخصص - لا يمل أبداً من قراءاته مراراً وتكراراً.

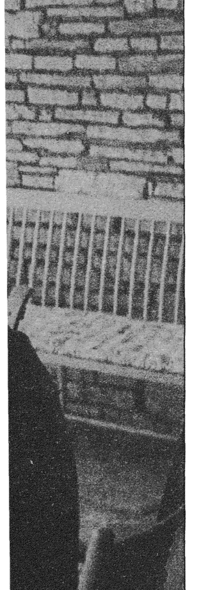
عدت مؤخراً لقراءة كتاب «عدم الانحياز فى عالم متغير» تحرير العلامة محمد السيد سليم - أستاذ العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، الذى يعتبر بحق من القلة القليلة من الناطقين بالضاد الذين يكتبون بمنهجية و«حرفنة» فى مجال العلاقات الدولية والسياسة الخارجية؛ وله فى المجالين مراجع لا يمكن لأى باحث أو متخصص التغاضى عنها. وسبب كتابة هذا المقال هو بالطبع انعقاد القمة الخامسة عشرة لدول منظمة عدم الانحياز فى شهر يوليو السابق فى مصر. وبمناسبة قرب بلوغ هذه المنظمة العظيمة عامها الخمسين (أنشئت عام ١٩٦١). حيث لاحظ الباحث غياب وجود دراسة متخصصة عالجت موقف ووضع المنظمة ومستقبلها فى ظل النظام العالمى الجديد (الأحادى القطبية). وهو ما وجدته فى كتاب البروفيسور سليم على الرغم من مرور أكثر من عقدين ونيف على صدوره.

فى هذا الكتاب توقع البروفيسور سليم أن يكون التحدى الكبير الذى سيواجه منظمة عدم الانحياز فى المستقبل القريب والمتوسط هو «تحد اقتصادى». حيث ستقف معدلات النمو المنخفض وضعف البنية التحتية وعدم وجود قاعدة صناعية وتبعية أغلب دول المنظمة للقوى الكبرى ... الخ. على الرغم من وجود أقطاب وقوى اقتصادية كبيرة داخل المنظمة قادرة على تحدى القوى الغربية. بالطبع وقت كتابة هذا الكتاب لم تكن النهضة الاقتصادية والتنموية قد أخذت مجراها وصورتها الحالية - والتى يتابعها أيضا عن كثب البروفيسور سليم فى دراسته الحديثة. إننى هنا أتفق مع اطروحة البروفيسور سليم القائلة بأن التحدى الرئيسى أمام استمرار منظمة دول عدم الانحياز هو تحد اقتصادى. كذلك أجادل هنا بأن التغيرات الهيكلية Structural Changes التى شهدتها بنية النظام الدولى منذ نهاية الحرب الباردة: بتحول البناء الدولى من نظام ثنائى القطبية Bipolarity إلى نظام احادى القطبية Unipolarity بهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية يعتبر هو التحدى الرئيسى الذى يواجه منظمة دول عدم الانحياز - أى أن التحدى أمام هذه المنظمة هو تحد سياسى بالأساس.

فى هذه الدراسة سنتطرق أولاً لخلفية تاريخية عن منظمة دول عدم الانحياز والأسباب التى دعت أباء الاستقلال الوطنى فى العالم الثالث لإنشاء هذه المنظمة؟ وماهى الاهداف التى كانوا يرجون تحقيقها من وراء انشاء مثل هذه المنظمة؟ ثم سنتناول المبادئ العامة لهذه المنظمة؛ وظروف نشأتها وردود القوى العظمى الموجودة آنذاك فى النظام الدولى (الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى) على إنشاء هذه المنظمة. وثالثاً ماهية العوامل التى ساهمت فى إنجاح إنشاء وفاعلية هذه المنظمة؛ وما هى العوامل أو المعوقات التى ساهمت فى تراجع وضعف دور ونفوذ منظمة عدم الانحياز على المستوى الدولى؟ واخيراً كيف السبيل لإعادة تفعيل حيوية ونفوذ منظمة دول عدم الانحياز فى ظل النظام الدولى الجديد؟

حركة عدم الانحياز: (الماضى.. الحاضر .. المستقبل)

يقارب عمر حركة عدم الانحياز الآن نحو خمسين عاماً. حيث انعقدت أول قمة لحركة دول عدم الانحياز Non-Alignment Movement, NAM فى بلجراد عام ١٩٦١. بحضور حوالى ٢١ دولة منها حوالى ١٧ دولة أفرو - أسيوية؛ لاتينية ودولة أوروبية واحدة هى يوغوسلافيا. إلى جانب ممثلين عن كل من الجزائر؛ كوبا والبرازيل كمراقبين



جمال عبد الناصر وجواهر لال نهرو وجوزيف بروز تيتو - الهند ١٩٥٦

Mohamed El-Sayed Selim (eds): "Non-Alignment in A Changing . (Cairo: American World University in Cairo Press, 1983).



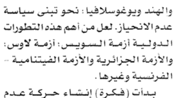
دوليين. ظل هذا العدد من الدول الأعضاء فى تزايد حتى وصل فى القمة الرابعة عشرة والتى عقدت فى هافانا - كوبا فى سبتمبر ٢٠٠٦ إلى حوالى ١١٨ دولة فضلاً عن وجود ٢٤ مراقبا دوليا (١٧ دولة؛ ٧ منظمات دولية وإقليمية). لتصبح بذلك حركة عدم الانحياز «أكبر تجمع دولى بعد الأمم المتحدة».

ترجع تسمية الحركة بحركة دول عدم الانحياز إلى خطاب ألقاه الزعيم الهندى العظيم «جواهر لال نهرو» فى أبريل ١٩٥٥ فى مؤتمر باندونج للدول الأفرو-آسيوية. حيث رأى أن «عدم الانحياز» تعنى (وجود هوية مستقلة؛ ودور إيجابى نشط لدول العالم الثالث. وليس موقفاً سلبياً إزاء التكتلات الخارجية). أما كلمة «عدم الانحياز» كمعنى لغوى فتعنى (البعد عن التورط لصالح جانب على حساب جانب آخر). ولذلك فضل البعض إطلاق معنى «الحياد الإيجابى» على الحركة وذلك بسبب اللغط الحادث والقائل بان دول عدم الانحياز تعنى (السلبية واللامبالاة) وهو ما لم يرد فى مخيلة وتفكير قادة الحركة. إلا أن مثل هذه المناقشات فى رأينا هى مجرد جدال فكرى عقيم. فالمهم لدينا الدور الذى ستلعبه هذه الحركة فى إعادة تشكيل النظام الدولى وليس التسمية.

هناك شبه إجماع على أن حركة عدم الانحياز بدأت خلال انعقاد مؤتمر باندونج ١٩٥٥ «لتضامن الدول الأفرو-آسيوية». بل ويتخذ العديد من الكتاب والمحللين من تاريخ باندونج ١٩٥٥ تاريخاً لبدء الحركة. والصحيح أن حركة عدم الانحياز بدأت رسميا عام ١٩٦١ من خلال انعقاد «مؤتمر عدم الانحياز الأول» فى بلجراد - يوغوسلافيا السابقة - ١٩٦١. أما مؤتمر باندونج ١٩٥٥ فيمكن القول انه كان بمثابة «الإرهاصة الأولى لولادة الحركة». فقد اشتركت كل من مصر والهند واندونيسيا وبورما فى إنشاء تيار يرفض الانحياز إلى أى من المعسكرين. إلا أن هذه الدول؛ وعلى الرغم من ثقلها فى مؤتمر التضامن الأفرو- أسيوى: لم تستطع تعميم فكرتها لكونها أقلية. وبالتالى فقد تبنى المؤتمر سياسة عدم الانحياز بصورة ضمنية غير رسمية.

بعد انفضاض مؤتمر باندونج للدول الأفرو- آسيوية حدثت تطورات دولية وإقليمية كانت السبب؛ بصورة أو بأخرى: وراء إسراع دول العالم الثالث: خاصة مصر

رأى الآبـاء المـؤسـسـون لـهـذه الحـركـة (نـاصـر؛ تـيـتـو ونـهـرو) فـيـهـا تـحـقـيـقـاً لآمـالـهـم وأحـلامـهـم فـى الـتـقـدم وتـحـقـيـق طـمـوحـاتـهـم الـدولـيـة والإقـلـيـمـيـة



والهند ويوغوسلافيا: نحو تبنى سياسة عدم الانحياز. لعل من أهم هذه التطورات الـدولـيـة أزمـة الـسـويـس: أزمـة لاوس: والأزمة الجزائرية والأزمة الفيتنامية - الفرنسية وغيرها.

بدأت (فكرة) إنشاء حركة عدم الانحياز تأخذ منحى عمليا أثناء وجود الرئيس اليوغسلافى «تيتو» فى مصر فى أبريل ١٩٦١؛ حيث تمت إثارة الموضوع من جانب الرئيس «عبد الناصر» ووافق الرئيس «تيتو» على المقترحات المصرية. وقام الزعيمان بإرسال دعوة إلى رئيس وزراء الهند «نهرو» وإلى زعماء وقادة ٢٠ دولة أخرى تؤمن بفكرة عدم الانحياز.

إلى جانب الانضمام لهذه الحركة الوليدة دعت الرسائل إلى الإسراع فى عقد مؤتمر دولى يضم هذه الدول. وبالفعل انعقد أول مؤتمر لحركة دول عدم الانحياز فى سبتمبر ١٩٦١ بعد إرسال الدعاوى بخمسة أشهر - تم إرسال الرسائل فى أبريل ١٩٦١ أثناء وجود تيتو فى مصر - وهو الأمر الذى يعكس سرعة (وإيجابية) استجابة الدول إلى المشاركة فى فعاليات هذا المؤتمر؛ ولإيمانها بأن مثل هذا التجمع الدولى الكبير لدول العالم الثالث من الممكن أن يحقق آمال وطموحات شعوبها الساعية نحو الاستقلال والتنمية والخروج من أسر التبعية الغربية فى ظل نظام دولى قائم على الاستقطاب Polarization والاحتواء Containment وهيمنة قطبين دوليين Bipolarity على النظام الدولى بصورة تجعل العالم الثالث - الذى لم يلبث أن خرج من دوامة الاستعمار الأوروبى - يدخل فى عواصف الاستقطاب الدولى وهيمنة قطب دولى على مقدرات شعوبه ومستقبلها.

رأى الآباء المؤسسون Founder Fathers لهذه الحركة (ناصر؛ تيتو ونهرو) فيها تحقيقاً لآمالهم وأحلامهم فى التقدم وتحقيق طموحاتهم الدولية والإقليمية. حيث رأى الزعماء الثلاثة فى الحركة طريقاً ثالثا فى النظام الدولى القائم على الثنائية القطبية وسياسات الاستقطاب الحاد الذى تتبعه القوى العظمى لإحكام سيطرتها على دول الجنوب بصورة تخدم مصالحها الكونية. وبصورة تمكن دول الجنوب من إعادة استثمار مواردها وثرواتها الطبيعية بصورة تخدم مصالح شعوبها وتحقق التنمية والرخاء لهم بصورة مستقلة



اقتصادياً وسياسياً عن الغرب والشرق. وبالتالى؛ على المدى المتوسط والبعيد: تغيير هيكل النظام الدولى الموجود آنذاك؛ نحو نظام دولى متعدد الأقطاب Multipolarity يسع الجميع بدون صراعات. ويحقق مصالح الجميع دون ظلم أو إجحاف.

على الجانب الآخر؛ وبصورة واقعية: فقد رأى الزعماء الثلاثة فى إقامة الحركة مخرجاً أو مجالاً أوسع لتعظيم دورهم الخارجى فى التأثير على النظام الدولى. فالرئيس ناصر الذى كان خارجا من انتصار سياسى عظيم بعد أزمة السويس ١٩٥٦ وبداية انطلاقته نحو القيادة الإقليمية Regional Hegemony للعالم العربى بمعارضته الوحشية للاستعمار والصهيونية والهيمنة الدولية . . . الخ. قد رأى أن الحركة ستخدم معاركه ضد الاستعمار والهيمنة القطبية. وذلك عن طريق توسيع نطاق معاركه: لتخرج من الحيز الإقليمى الضيق نسبياً إلى آفاق دولية أرحب وأوسع نطاقاً؛ وهو ما رآه فى حركة عدم الانحياز. أما الرئيس تيتو فقد رأى فى حركة عدم الانحياز محاولة لاعادة تفعيل دور يوغسلافيا الدولى والخارجى بعد حدوث القطيعة بينه وبين الاتحاد السوفيتى على أثر أزمة حلف وارسو. وبالتالى فإن حركة عدم الانحياز ستعوض يوغسلافيا عن المجال الدولى الأرحب الذى كان الاتحاد السوفيتى يعطيه لها؛ باعتبار أن «صديق صديقى . . هو صديقى أيضا». وبالتالى فلا حاجة لها للمساندة السوفيتية. فسوف تمنحها حركة عدم الانحياز نفس المجال؛ إن لم يكن أكبر. أما نهرو؛ فقد رأى فى حركة عدم الانحياز خير حليف له ضد مواجهة مخاطر التهديد الصينى للهند. خاصة بعد القطيعة بين الهند والولايات المتحدة على أثر الصراع فى كشمير مع باكستان التى ترى الهند أنها جزء لا يتجزأ منها. وعدم اعتماد الهند على المعونات

الأمريكية بقرار من نهرو؛ ومن جانب آخر الابتعاد الهندى التقليدى عن الاتحاد السوفيتى. فالصين قد رأت أن الهند يعتبر مجالاً حيوياً للمصالح الصينية: خاصة العسكرية- الاستراتيجية؛ وبالتالى فوجود «هند ضعيفة ومسالمة» هو خدمة للمصالح الصينية. وعلى ذلك لجأ نهرو- الرافض الأبدى للهيمنة الغربية على الشرق خصوصاً والجنوب عموما لأسباب فكرية وثقافية فى المقام الأول - إلى الفضاء الجنوبى والعالم الثالث الذى اعتبره خير ظهير للهند فى مواجهة أعدائه.

من ناحية أخرى؛ واقعية أيضا؛ يمكن القول أيضا أن التطورات التى حدثت فى الأنظمة الدولية والإقليمية بل والمحلية فيما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩: ١٩٤٥) كان لها أثر كبير على اتجاه دول العالم الثالث/الجنوب نحو إيجاد تكتل دولى ثالث بعيداً عن القطبين؛ من أجل الدفاع عن مصالحها وتحقيق طموحات شعوبها.

ويمكن تلخيص الدوافع التى دفعت وحدات العالم الثالث لبلورة هذه السياسة واعتناقها فيما يلى:

أولاً: اشتداد حدة الحرب الباردة وظهور استراتيجية الكتلتين القائمة على الاستقطاب الدولى والنظر إلى دول العالم الثالث باعتبارها أدوات فى صراع القوى العالمى. وبالتالى فيجب على هذه الدول التكتل سوياً لمواجهة مثل هذه السياسات؛ إذا أرادت المحافظة على استقلالها ومصالحها الحيوية ومكانتها القومية.

ثانياً: إن سياسة عدم الانحياز تأكيداً لدور الدول الأفرو- الآسيوية فى السياسة الدولية وتحريرها من كونها مناطق نفوذ وأذيالا للكتل الدولية الكبرى. فهذه

الدول رأت أنه لابد أن يكون لها دور فعال فى التفاعلات الدولية الجارية خاصة بعد حصول أغلبها على الاستقلال عن الاستعمار الأوروبى؛ وبالتالى فمن المستحيل أن تبقى بمحض إرادتها - مرة أخرى - تحت قيظ الاستعمار الاجتماعى (الاتحاد السوفيتى) أو الاستعمار الرأسمالى الإمبريالى (الولايات المتحدة). فلابد من وجود طريق ثالث. وهو ما وفرته حركة عدم الانحياز.

ثالثاً: الاعتقاد بأن تفادى الارتباط بالكتل الدولية يدعم ويدفع إمكانيات تحقيق التنمية الاقتصادية لدول العالم الثالث. فبدلاً من استمرار نهب الدول العظمى لموارد وثروات دول العالم الثالث تقوم هذه الدول باستثمار هذه الموارد لصالح تحقيق التنمية الاقتصادية لصالح شعوبها بصورة تمكنها من مقاومة التبعية الاقتصادية للدول العظمى مثلما ذكر عبد الناصر فى إحدى خطبه: «من يملك خبزه يملك قراره».

رابعاً: إن وجود تكتل ثالث فى النظام الدولى يتكون من دول الجنوب؛ سوف يقابله زيادة دور هذه الدول فى التأثير على البيئة الدولية. وبالتالى تحقيق مصالحها وإمكانية التأثير المتبادل على سياسات الدول الكبرى تجاهها؛ من منطلق المعاملة بالمثل Equal Treatment وليس الهيمنة Hegemony أو التفوق Primacy.

خامساً: إن وجود حركة دولية حكومية International Governmental Organization-IGO's من دول الجنوب سوف يساعد بصورة كبيرة على إمكانية إدارة وحل الصراعات الدولية والإقليمية والمحلية فى دول الجنوب بآليات وأدوات سلمية بصورة تحقق التكامل الإقليمى والمحلى لهذه الدول؛ على العكس من آليات وأدوات حل الصراع الذى تستخدمه القوى العظمى. فالقوى العظمى لا يهمها مستقبل الدول وتكاملها بقدر ما يهمها ألا تؤثر هذه الصراعات على مصالحها الدولية بصورة سلبية.

سادساً: إن الحركة - منذ قيامها ككيان مادى. سوف تحقق أمانى أكثر من نصف سكان العالم (الجنوب) فى تحقيق التوازن مع الشمال؛ ولو معنوياً. بعدما ظل الجنوب تابعاً ومهملاً ولا وزن له فى



إذا كانت الكتلة الشرقية قد سقطت؛ فإن الأخرى قد هيمنت على النظام الدولى كله. وعليه فمازالت الحركة سارية المفعول



النظام الدولى طوال ما يزيد على ستمائة عام؛ أى منذ بداية الاستعمار الأوروبى ـ الغربى. حيث قامت هذه الحركة بإحياء فكرة إعادة تفعيل وتكتل دول العالم الثالث على الساحة الدولية. وذلك من خلال اللعب على تناقض نماذج التبعية الموجودة وطبيعة التحالفات القائمة (المؤقتة والدائمة) مع القوتين العظميين.

العضوية وآليات العمل

قامت حركة عدم الانحياز؛ باعتبارها منظمة دولية ذات نطاق إقليمى (أو ما يمكن تسميته بالنطاق الدولى المحدود. حيث تقتصر العضوية على دول العالم الثالث-الجنوب الرافضين لهيمنة القوتين العظميين على سياق التفاعلات الدولية). فقد كانت العضوية متاحة أمام جميع دول العالم الثالث - ما يزيد على ٦٠٪ من سكان العالم - باشتراط تواجد عدة محددات جوهرية لانضمام هذه الدول لعضوية الحركة. هذه المحددات هى:

١. أن تكون سياستها مستقلة ومبنية على التعايش السلمى وعدم الانحياز.

٢. أن يكون اتجاهها وديا إزاء هذه السياسة.

٣. أن تكون مؤيدة لحركات التحرر الوطنى.

٤. أن تكون غير مشتركة فى أى حلف عسكرى جماعى؛ يجعلها طرفاً فى الصدام بين الدول الكبرى.

٥. أن تكون غير مشتركة فى أى حلف ثنائى مع دولة كبرى.

٦. أن لا تكون قد سمحت لدولة أجنبية بإقامة قواعد عسكرية فى أراضيها؛ بصورة إرادية.

من الشروط السابقة يتضح لنا وجود علاقة بين حرص مؤسسى الحركة على عدم اجتذاب الدول الملتزمة بأحلاف مع الكتلتين المتحكمتين فى النظام الدولى، وذلك لأن النظام الدولى آنذاك قد شهد توسعا شديداً فى إقامة الأحلاف الدولية بهدف استقطاب اكبر عدد ممكن من الدول تجاه إحدى الكتلتين. فمن جانب أقامت الولايات المتحدة حلف شمال الأطلنطى لاستقطاب دول أوربا فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ رد عليها الاتحاد السوفيتى بإقامة حلف وارسو لاستقطاب دول أوربا الشرقية؛ لمعادلة التوازن مع الولايات المتحدة فى التواجد فى أوربا أثناء الحرب الباردة الأولى (١٩٤٥:١٩٥٥). كان العالم الثالث عامة، والشرق الأوسط خاصة: مسرح عمليات الحرب الباردة الثانية (١٩٥٥:١٩٧٠) فردت عليه الولايات المتحدة بسعيها نحو إقامة حلف بغداد الحلف الإسلامى لمواجهة الشيوعية؛ إلا أن الحلف فشل لأسباب عديدة أهمها لدينا قيام حركة عدم الانحياز؛ على الأقل كفكرة جوهرية وعقائدية فى تفكير الرئيس جمال عبد الناصر وسلوكه الخارجى والدولى.

بدأت حركة عدم الانحياز بحوالى ٢١ دولة؛ كما سلف الذكر. ووصل عدد الأعضاء فى القمة الرابعة عشرة التى عقدت فى هافانا - كوبا سبتمبر ٢٠٠٦ لحوالى ١١٨ دولة وحوالى ٢٤ مراقبا دوليا.

أغلب هذه الدول معروف عنها انتقادها الشديد لسياسات القوى الكبرى وخاصة الولايات المتحدة. وتعقد حركة عدم الانحياز قمة كل ثلاث سنوات؛ ويترأس كل قمة دولة يتم اختيارها خلال القمة الحالية أى قبلها بثلاثة أعوام.

عندما فكر الآباء المؤسسون لحركة عدم الانحياز فى إنشاء مثل هذه الحركة كانت هناك وجهتا نظر فى طبيعة هيكل هذه الحركة. من ناحية كان هناك رأى يرى ضرورة وجود تنظيم/هيكل تنظيمى لإدارة شئون الحركة بصورة علمية وتنظيمية. ومن ناحية أخرى تواجه التكتل الدولى الموجود فى النظام الدولى. وكان من مؤيدى هذا الاتجاه الزعيمان نهرو وتيتو. الاتجاه الثانى تزعمه الرئيس «جمال عبد الناصر» الذى رأى أن العالم يتعذب بسبب الصراع بين الكتلتين؛ وبالتالى فإن وجود تكتل ثالث سوف يزيد من حدة هذا الصراع بدلاً من الحد منه. وهو ما يجب على دول عدم الانحياز الابتعاد عنه. فالتورط فى صراع دولى مع القوى الدولية من جانب والقوى التحررية فى الجنوب ستصيب دول الجنوب بصورة قد تكون قاتلة. وعليه فإن حركة عدم الانحياز لابد أن تكون على خلاف الأحلاف والتكتلات والمنظمات الدولية والإقليمية؛ وإنما تكون بمثابة تجمع للدول التى تتبنى وتمارس استراتيجية عدم الانحياز.

انتصرت وجهة النظر المصرية فى تحديد آليات عمل الحركة. فالحركة الآن يمكن القول بأنها تتبع أسلوب اللامركزية فى الإدارة؛ بمعنى عدم وجود جهاز إدارى مستقر ودائم لمتابعة وتيسير شئون الحركة والمستجدات الدولية التى تواجهها الحركة. وعليه فقد استقر الاتفاق على عدم وضع هيكل إدارى منظم ودائم للحركة. وذلك بعلة تجنب الحركة سلبيات التضخم والترهل البيروقراطى الذى يصيب المنظمات الدولية المشابهة كالأمم المتحدة.



تدار الحركة حاليـاً بأسلوب (المستضيف هو القائد). بمعنى أن الدولة المضيفة للقمة هى التى تتولى الشئون الإدارية للحركة؛ وبالتالى فإن عاتق الإدارة كله يقع على كنف الدولة المستضيفة.

يتضمن الإطار التنظيمى لحركة عدم الانحياز ست مجموعات عمل. كل مجموعة متخصصة بموضوعات بعينها. هذه المجموعات هى: (مجموعة عمل إصلاح مجلس الأمن؛ مجموعة العمل القانونية وتتولى إداراتها مصر؛ مجموعة حفظ السلام وتتولى إداراتها المغرب؛ مجموعة عمل حقوق الإنسان وتتولى إداراتها ماليزيا؛ مجموعة تفعيل دور الجمعية العامة للأمم المتحدة وتتولى إداراتها الجزائر؛ ومجموعة نزع السلاح وتتولاها إندونيسيا).

تعقد الحركة قمة كل ثلاث سنوات؛ إلى جانب انعقاد مؤتمر على مستوى وزراء الخارجية مرة كل عام. وعقب كل قمة يتم اختيار ما يسمى بمكتب التنسيق؛ الذى يقوم بالإعداد للقمة التالية إلى جانب «ترويكا الرئاسة» والتى تتكون من الرئيس السابق للقمة والرئيس الحالى والرئيس الذى تم أختياره لرئاسة الحركة خلال القمة التالية. ومكتب التنسيق ليس مقصوداً به كيان إدارى ملموس لإدارة شئون الحركة وإنما هو اقرب ما يكون إلى لقاء غير رسمى بصفة دورية لتبادل وجهات النظر وتوحيد المواقف الدولية للدول الأعضاء فى الأمم المتحدة؛ الذين هم فى نفس الوقت أعضاء فى حركة عدم الانحياز؛ أمام المشاكل والأزمات والقضايا المتعلقة بدول الحركة مع الأطراف الدولية الأخرى.

المبادئ العامة

تم خلال المؤتمر التحضيرى الأول لقمة عدم الانحياز الذى عقد فى القاهرة خلال شهر يونيو ١٩٦١ بحضور ٢١ دولة وضع القواعد العامة لحركة عدم الانحياز؛ وهى كالآتى:

أولاً: أن تنتهج الدولة الراغبة فى الانضمام للحركة سياسة مستقلة قائمة على التعايش السلمى بين الدول ذات النظم السياسية والاجتماعية المختلفة؛ وأن تكون قائمة على عدم الانحياز أو أن تظهر اتجاها يؤيد هذه السياسة.

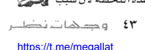
ثانياً: يجب أن تؤيد الدولة الراغبة فى الانضمام حركات الاستقلال الوطنى بصورة دائمة.

ثالثاً: يجب على هذه الدولة ألا تكون عضواً فى حلف عسكرى جماعى تم فى نطاق الفراغ بين الدول الكبرى.

رابعاً: يجب أن لا تكون هذه الدول طرفاً فى اتفاقية ثنائية مع دول كبرى.

خامساً: يجب أن لا تكون الدولة الراغبة فى العضوية قد قامت بمنح أو بالسماح لدولة أجنبية بإقامة قواعد عسكرية فى أقاليمها بمحض إرادتها الحرة.

على هذا الأساس تم تدشين حركة دول عدم الانحياز بعقد أول مؤتمر لها فى عام ١٩٦١ فى بلجراد - يوغسلافيا بحضور ٢١ دولة أفرو- آسيوية ودولة أوربية واحدة هى يوغسلافيا. ومازالت هذه المبادئ قائمة وسارية حتى هذه اللحظة لأن سبب



شيخوخة مبكرة!!



ظلت حركة عدم الانحياز فى تأرجح مستمر بين الغزل السوفيتى والهجاء الأمريكى طوال عصر الثنائية القطبية

وجودها لم ينته بعد. فإذا كانت الكتلة الشرقية قد سقطت؛ فإن الأخرى قد هيمنت على النظام الدولى كله. وعليه فمازالت الحركة سارية المفعول؛ وإن تطلب الأمر إجراء تغيرات جوهرية فى آليات عمل الحركة وتوجيهاتها. والسؤال المهم الآن هو ماذا كان رد فعل القوتين العظميين إزاء إنشاء هذه الحركة؟

رد فعل القوى العظمى

أثبتت التجربة التاريخية وتحليل وقائع العلاقات الدولية خلال الخمسة قرون الأخيرة أن القوى العظمى لا تتأنى فى الدفاع عن مصالحها؛ بل والقيام بالهجوم العسكرى والمقاطعة الاقتصادية والحصار الدبلوماسى ضد أية قوى دولية مناوئة تقف عائقاً أمام تحقيق مصالحها الممتدة فى أنحاء الكرة الأرضية.

لم تنج حركة عدم الانحياز من هذه المحاولات - الهجوم. فالقوى العظمى ليست جمعيات خيرية أو تعاونيات؛ وإنما هى كيانات تصارعية/عدوانية. فإذا لم تكن التحالفات والمنظمات الدولية تخدم مصالحها وتحقق أهدافها؛ أو على الحد الأدنى تكون ايجابية أو معتدلة تجاه مصالحها؛ فلن تبقى أبداً مهما عظمت مبادئها وقيمها. ولعل فى منظمة عصبة الأمم خير مثال على ذلك. فالقوى العظمى هى صاحبة اليد الطولى فى النظام الدولى: فهى التى تستطيع جعل مشيئتها وآمالها أفعالاً وسلوكاً حياً. وعلى دول العالم الرضا والخضوع؛ فمن هو أقوى هو الذى يحكم. ومن هنا نستطيع تفسير طبيعة رد الفعل العنيف الذى اتخذته القوى العظمى تجاه حركة عالمية مثل حركة عدم الانحياز. فالولايات المتحدة اتخذت رد فعل عنيفا جداً تجاه الحركة؛ بصورة قاربت حافة الهجوم العسكرى على إحدى دول الحركة - كوبا - والحصار الاقتصادى للبعض الآخر - سحب تمويل السد العالى من مصر، والضغط على البعض الثالث. أما الاتحاد السوفيتى فإنه قد لجأ لاستراتيجية معاكسة وهى «إذ لم تستطع المواجهة... فعليك بالتعاون». وعليه فقد كان الاتحاد السوفيتى أقل عدوانية مع الحركة؛ وإتخذ سياسة ما يمكن أن يسمى بالارتباط الحذر Cautiously Engagement بمعنى عدم إظهار العداء التام أو التعاون الكامل؛ وإنما الحفاظ على مجال وسيط بين القطيعة التامة وعدم التعاون الكامل. بمعنى آخر فإن الولايات المتحدة رأت فى الحركة «أفعالا خطرة» Threaten Actions تهدد المصالح الأمريكية؛ بينما نظر الاتحاد السوفيتى للحركة على أنها «معوق محتمل» Potential Gelatin للمصالح السوفيتية فى العالم الثالث.

رد فعل الولايات المتحدة

فى ظل النظام الدولى الثنائى القطبية زادت حركة الدول الصغرى/النامية. حيث أتاح المناخ الدولى السائد آنذاك «قدراً كبيراً من حرية الحركة» بصورة جعلت هذه الدول تبحث عن سبل تجميع طاقاتها وعن أنسب الطرق لاستثمار مواردها لصالح تحقيق مصالح وآمال شعوبها فى الاستقرار والتنمية بصورة جعلت من هذه الفترة «ثنائية القطبية» بمثابة العصر الذهبى لكل من حركة عدم الانحياز: التجمع السياسى الأكبر لدول النامية ومجموعة الـ ٧٧: التجمع الاقتصادى الأكبر لتلك الدول.

رأت إدارة الرئيس إيزنهاور فى حركة عدم الانحياز حركة معادية للولايات المتحدة. حيث كانت الإدارة فى خضم الحرب الباردة تقسم العالم إلى معسكرين أو إلى عالمين «العالم الحر» الذى يضم حلفاءها والمتعاونين معها من ناحية. والعالم «المتخلف» أو المعسكر الشيوعى من ناحية أخرى.

بدلاً من أن تنظر الولايات المتحدة للحركة باعتبارها صوتا مستقلا من الجنوب يعبر عن آمال وطموحات دول الجنوب بعيداً عن صراعات القوى الكبرى (بتعبير جمال عبد الناصر) نظرت إليها باعتبارها أداة من أدوات الشيوعية والمعسكر الاشتراكى. وبالتالى فإنها حركة معادية للغرب؛ بل ووصل الأمر إلى تصريح «جون فوستر دالاس» وزير الخارجية الأمريكى بأن حركة عدم الانحياز هى حركة «جنون» واتهمها بالانتهازية واللاأخلاقية. مثل هذه التصريحات كانت مرآة للسلوك الأمريكى الفعلى تجاه الحركة. فقد بدأت الولايات المتحدة فى محاصرة الحركة ومحاولة شل فاعليتها وذلك عن طريق الاستقطاب Polarization من جانب وبناء التحالفات من جانب آخر. وإغداق المساعدات الاقتصادية والعسكرية من جانب ثالث؛ ومحاولة إثارة الصراعات الدولية والإقليمية فى دول العالم الثالث - أو ما يعرف بالإدارة بالأزمات - بهدف الدفع نحو تدخل الأطراف الثالثة - القوى الدولية - لإدارة هذه الصراعات؛ وبالتالى دخول هذه القوى فى صميم التفاعلات الدولية والإقليمية بما يجعلها تحاول استقطاب هذه الدول من جانب رابع. هذه الاستراتيجية جاءت بنتائج جيدة لصالح الولايات المتحدة؛ على المدى المتوسط والطويل؛ وهى النتائج التى بدأت وحرب فيتنام ١٩٦٣ وحرب يونيو ١٩٦٧ والصراع الهندى الباكستانى ١٩٧١ وغيرها. فى ظل عدم مقدرة الحركة على إدارة مثل هذه الأزمات والصراعات.

رد فعل الاتحاد السوفيتى

على عكس الولايات المتحدة رأى الاتحاد السوفيتى فى حركة عدم الانحياز «ظهيراً ومساندا للمصالح السوفيتية فى العالم الثالث». وإن ظهرت عوارض امتعاض هذه الحركة من الدور السوفيتى المتزايد فى العالم الثالث، خاصة من ناحية الهند ويوغسلافيا. نظراً لتزايد جنوح الاتحاد السوفيتى لاستغلال حركة عدم الانحياز باعتبارها غطاء للتدخل السوفيتى فى العديد من مناطق العالم الثالث وتوريطها فى الصراع الدولى القائم بينه وبين الولايات المتحدة مثل أنجولا والكونجو ومنطقة القرن الأفريقى وغيرها. وهو ما حذا بالزعيم الهندى «نهرو» للتنديد بهذا الدور معلناً أن دول العالم الثالث لم تخلع أو تنبذ المعسكر الغربى - أوربا الاستعمارية وأمريكا الإمبريالية - ليحل محلها المعسكر الاشتراكى ذو الهيمنة الاجتماعية والثقافية على دول العالم الثالث.

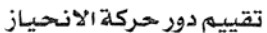
أستغل الاتحاد السوفيتى السلوك الأمريكى العدوانى تجاه حركة عدم الانحياز فحاول تطبيق سياسة «عدو عدوى.. فهو صديقى» و«بناء الجسور». فحاول التقرب لدول وقادة عدم الانحياز، سواء عن طريق الاستقطاب الناعم Soft Polarization بمعنى العمل على جذب تأييد دول العالم الثالث له - الاتحاد السوفيتى - عن طريق المساعدات التنموية والتكنولوجية والتعليمية بدلاً من الأدوات العسكرية والاقتصادية ذات السمة الاكراهية التى يستخدمها الولايات المتحدة فى تطبيقها لسياسات الاستقطاب الصلب Hard Polarization. فكثف الاتحاد السوفيتى من حجم المساعدات الخارجية المقدمة لدول عدم الانحياز؛ سواء مادياً أو معنوياً، حتى أصبح الاتحاد السوفيتى «نصيراً لحركات التحرر الوطنى» و«القطب العادل» و الداعى لنشر التكنولوجيا ومحاولة انتشال دول العالم الثالث من التبعية والتخلف فى نظر اغلب دول العالم الثالث.

ظلت حركة عدم الانحياز فى تأرجح مستمر بين الغزل السوفيتى والهجاء الأمريكى طوال عصر الثنائية القطبية. إلا أن هذا التأرجح كان قد مال بصورة لا يمكن تجاهلها حتى النصف الأول من عقد السبعينيات من القرن العشرين لصالح الاتحاد السوفيتى؛ نظراً لكثرة المساعدات الاقتصادية والعسكرية التى قدمها الاتحاد لدول عدم الانحياز. بحيث بات واضحاً أن الحركة باتت أكثر انحيازاً للاتحاد السوفيتى من كونها عدم انحياز لأى من القطبين، والعكس بالعكس. تحولت الحركة منذ عقد الثمانينيات والتسعينيات، على أثر سقوط الاتحاد السوفيتى وإرساء قواعد النظام الدولى الجديد الأحادى القطبية؛ لمجرد ظاهرة صوتية تعارض الولايات المتحدة، وثقل سياسى واقتصادى واستراتيجى منحازاً للولايات



هناك تحولات سبقتها بعض التغيرات الأخرى ساهمت فى إضعاف الحركة

المتحدة أحياناً، وبصورة تبدو فيها بعض دول عدم الانحياز أمريكية اكثر من الأمريكيين أنفسهم. إن الحركة التى ارتبطت بأباء الاستقلال الوطنى قد قضى على فاعليتها بغياب هؤلاء القادة.



تقييم دور حركة الانحياز

بعد اكثر من ٤٨ عاماً على إنشاء حركة عدم الانحياز يبرز التساؤل عن مدى فعالية الحركة فى التأثير على التفاعلات الدولية والتطورات التى حدثت فى العالم خلال الأربعة عقود ونصف الماضية؟. وهل حققت الحركة ما كانت تصبو إليه أفئدة وعقول زعماء وقادة العالم الثالث؟. وكيف سيكون مستقبل الحركة فى ظل الأحادية القطبية والهيمنة الأمريكية على مقدرات صنع القرار الدولى؟. وغيرها مما ستواجهه الحركة فى المستقبل القريب: فى ظل شهود بروز مشاكل وصراعات دولية غير تقليدية وغير مسبوقة من قبل مثل الإرهاب الدولى العابر للقوميات وانفجار الصراعات الإقليمية والمحلية المستعصية على الحل فى العالم الثالث وغيرها.

عندما قامت حركة عدم الانحياز كان النظام الدولى آنذاك قائما على أساس الثنائية القطبية Bipolarity وهو الأمر الذى أوجد مجالا ضيقا للحركة وسط اختلافات القطبين (منطقة رمادية). هذه الفجوة الموجودة بين القطبين كانت نقطة انطلاق محاولات التكامل الإقليمى والدولى بعيداً عن السطوة والهيمنة والتبعية لأحد القطبين والعثور على طريق ثالث بينهما. وعليه فإن حركة عدم الانحياز فى رأى البعض قد أوجدت نوعا جديدا من الحوار لم يكن مألوفا من قبل. فالحوار الدولى القائم منذ بزوغ القوى والإمبراطوريات العظمى هو حوار القوة Power Dialogue بمعنى حوار بين قوة وقوة أخرى مساوية أو متوازنة معها سواء عسكرياً أو اقتصادياً أو سياسياً. أما الجديد الذى أوجدته حركة عدم الانحياز هو حوار القيم Value Dialogue بمعنى تسلح دول العالم الثالث وعدم الانحياز بسلاح القوانين الأخلاقية والسياسية فى تعاملها مع القوى الدولية الأخرى الموجودة فى النظام الدولى.

عوامل نجاح حركة عدم الانحياز

طوال الأربعين عاماً المنصرمة كانت هناك بعض الفترات الذهبية لحركة عدم الانحياز التى جعلت المنظمة ملء سمع وبصر العالم اجمع، خاصة فى ظل الوضع الدولى الموجود آنذاك من ناحية، ولوجود زعامات تاريخية من نوعية ناصر، نهرو، تيتو، سوكارنو ولومومبو وغيرهم. وكانت هناك لحظات مظلمة. انزوت خلالها الحركة فى ظلمات الاستقطاب وعدم الفاعلية والخلافات الداخلية بين أعضائها. مثلما حدث فى عقد السبعينيات من القرن العشرين عندما ذهب الرئيس السادات لعقد سلام منفرد مع إسرائيل ١٩٧٧. وتوسيع نطاق الارتباط الوثيق مع الولايات المتحدة؛ والاعتراض الهندى على الوجود السوفيتى فى أفغانستان ١٩٧٩. وتحيز بعض أعضاء الحركة لهذا الوجود، بل والنداء باعتبار الاتحاد السوفيتى حليفا للحركة مثل كوبا. على كل حال، يمكننا إجمال الإيجابيات التى قامت بها حركة الانحياز طوال العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين فى بعض النقاط الآتية:

أولاً: استمرار بقاء الحركة قائمة حتى الآن. فذلك فى حد ذاته يعتبر من إيجابيات الحركة التى ظلت مستمرة رغم التحولات الدولية والإقليمية التى جرت فى النظام الدولى؛ بصورة تأكد معها إيجابية الحركة فى التكيف وملاءمتها للتطورات الدولية الحادثة فى النظام الدولى.

ثانياً: أن الحركة قد قامت بتحطيم أصنام Taboos قدسية القطبين، سواء موسكو أو واشنطون. حيث وضعت نفسها فى موضع تحد مع القوى العظمى للتخلص من التبعية والهيمنة ومحاولة النهوض بالجنوب كقوة مستقلة عن الغرب أو الشرق لأول مرة فى تاريخ الجنوب المعاصر.

ثالثاً: نجاحها فى القضاء على مشكلة الاستعمار من قارات العالم الثالث المستعمرة (آسيا؛ أفريقيا؛ وأمريكا اللاتينية) بصورة أصبح معها الجنوب حراً ومستقلاً كلياً لأول مرة فى التاريخ عن الهيمنة الغربية، ولو صورياً.

رابعاً: تزايد حجم التبادل الاقتصادى بين دول الجنوب. حيث أكدت بعض الدراسات (معهد دراسات دول أمريكا اللاتينية: ٢٠٠٦) أن حجم التبادل التجارى بين كل من البرازيل والصين والهند وكوريا الجنوبية قد تضاعف حوالى سبع مرات خلال الفترة ما بين ١٩٩٥-٢٠٠٣.

خامساً: العمل على تكتيل دول العالم الثالث فى المنظمات الدولية الأخرى مثل الأمم المتحدة من اجل أيجاد ثقل دولى لهذه الدول فى المحافل الدولية للمحافظة على مصالحها وطموحاتها التنموية والسلام والاستقرار.

سادساً: مقاومة الهيمنة الدولية بكل صورها على العالم الثالث؛ حتى ولو بصورة بلاغية وباستخدام العبارات الصارخة وليس الصواريخ العابرة للقارات. وذلك من أجل المناداة بنظام دولى عادل ومتعدد القطبية. فالحركة حاليا يوجد بها ما يزيد على ٥٠ رئيس دولة ورئيس وزراء يعرف عنهم انتقادهم اللاذع والشديد للولايات المتحدة.

سابعاً: وجود اكبر عدد من القوى (الإقليمية) داخل إطار الحركة بصورة تزيد من خطورة وأهمية وفاعلية الحركة داخل المحافل الدولية وتزايد تأثيرها على التفاعلات الدولية لصالح دول الحركة. خاصة أن مصالح هذه القوى السياسية غير متضاربة (كالهند: البرازيل، مصر، جنوب أفريقيا، إندونيسيا وغيرهم) وبصورة تجعل الحركة قادرة على معالجة بعض الصراعات الإقليمية بين بعض دول الحركة بعيداً عن التدخلات الخارجية. مثلما حدث خلال القمة الأخيرة فى هافانا عندما أتفقت الهند وباكستان على استئناف عملية السلام المتوقفة بين البلدين وعلى التعاون المشترك فى مجال مكافحة الإرهاب.

عوامل تراجع فاعلية حركة عدم الانحياز

هناك تحولات سبقها بعض التغيرات الأخرى ساهمت فى إضعاف الحركة. ويمكن تحديد أهم السلبيات التى وقعت فيها حركة عدم الانحياز؛ والتى أدت بصورة أو بأخرى لإضعاف الحركة على المدى القريب وسقوطها على المدى الطويل - إذا لم تعالج أسباب هذه الضعف والوهن. من أهم هذه العوامل ما يلى:

أولاً: الإذعان والانحياز لإحدى القوى الدولية؛ وبصورة باتت معها أسس وقواعد الحركة مجرد حبر على ورق. فأغلبية دول الحركة الآن إما فى حالة تعاون أو تحالف أو تفاهم مع الولايات المتحدة أو بعض القوى الأوربية كفرنسا؛ ألمانيا؛ بريطانيا وغيرها من القوى الغربية. مثل هذه العلاقات باتت تشكل عبئاً على الحركة بصورة قد تؤدى لتضارب مصالح هذه الدول مع مصالح وأهداف الحركة.

ثانياً: التوسع بصورة مفرطة فى العضوية - حوالى ١١٨ دولة؛ أى كل بلاد العالم الثالث تقريباً - مثل هذا التوسع جعل اغلب الحركة مجرد «كيس ممتلئ بالهواء» لا وزن له .. على الرغم من اتساع حجمه.

ثالثاً: عدم مقدرة الحركة على تجميع وتكتيل الدول الأعضاء فيها من أجل لعب دور حيوى وأساسى فى النظام الدولى الحالى؛ بصورة جعلت البعض يصرح بأن الحركة «لم تعد لاعباً أساسياً فى توجيه دفة الأمور فى المنظمة الدولية رغم أن ما لها من ثقل تصويتى كبير فى الجمعية العامة للأمم المتحدة يعطيها - أو يفترض أن يعطيها القدرة ليس فقط على الدفاع عن مصالحها وإنما أيضا على تبوؤ موقع الصدارة فى قيادة المنظمة».

رابعاً: فشل الحركة فى مواجهة مشاكل مستعصية مثل الجهل والتخلف والفقر



أصبحت الحركة مجرد تجمع لإلقاء الخطب بعد ما كان العالم يترقب قممها ليرى ما ستسفر عنه



والمرض. فلم تكد هذه الدول تستقل عن الهيمنة الاستعمارية الأوربية حتى عادت مرة أخرى للحظيرة الأمريكية والتبعية لها بصورة لا إرادية (نتيجة عجزها عن التعامل مع تحديات ما بعد الاستقلال من جانب: وعدم رحمة القوى الدولية لها من جانب آخر: خاصة فى مجالات مثل التكنولوجيا والتقدم الصناعى والعلمى) على الرغم من امتلاك دول الحركة من الموارد والثروات الطبيعية والاقتصادية ما يؤهلها: بلا أدنى شك: لاحتلال صدارة النظام الدولى على كافة المستويات سياسياً واقتصادياً وجيو-إستراتيجي.

خامساً: بدء تحول الحركة من مجال الفعل Action إلى مجال الكلام Rhetorical. بمعنى أن الحركة بعدما كانت تتخذ قرارات مؤثرة جداً على طبيعة العلاقات الدولية تحولت لمجرد منبر لإلقاء الخطب الرنانة فقط التى تنتقد وتلعن السياسات الأمريكية والأوربية (نهاراً) بينما تنسق وترتب تعاونهما الثنائى (ليلاً). ففى القمة الرابعة عشرة سمع العالم كافة الانتقادات التى يمكن توجيهها للسياسات الأمريكية خاصة فى العراق وأفغانستان بينما فى نهاية البيان الختامى أوصت دول الحركة العراق باتباع القوانين الدولية التى ترسخ للاحتلال.

سادساً: عدم نجاح الحركة فى بلورة كيان/إطار اقتصادى فعال لمساعدة دول العالم الثالث. رغم دعوتها لإنشاء بنك عالمى لدول العالم الثالث لمساعدته فى تحقيق التنمية. ووجود مجموعة الـ ٧٧ التى تمثل الكيان الاقتصادى لحركة عدم الانحياز. فمن الملاحظ أن أغلب دول الحركة من الدول التى لا تتمتع بأى ثقل يذكر على الساحة الدولية: وتعانى من أزمات وتعثر فى عمليات التنمية. إلى جانب تفشى عوارض الاستضعاف الهيكلى - بجانبيه الداخلى والخارجى معاً - بصورة بدت فيه الحركة على أنها «منتدى للفقراء والمتسولين Poor's Forum» الذين يقفون على أبواب البنك الدولى وصندوق النقد الدولى فى انتظار الصدقات/المعونات.

سابعاً: التضارب الشديد فى مبادئ وقيم وأهداف ومصالح بعض دول عدم الانحياز بصورة تعيق من فعالية الحركة. فمثلاً الهند والصين غير مستعدين بعد لتأسيس محور مواز للولايات المتحدة على الرغم من اتفاق دول الحركة على ذلك. والاعتراض المصرى على دعوة كوبا وفنزويلا تحويل الحركة إلى كتلة دولية لمواجهة الهيمنة الأمريكية وتدعو بدلا من ذلك لضرورة الالتفات لمشاكل اكثر خطورة على العالم الثالث مثل الفقر، المجاعات والتخلف.

ثامناً: تعارض بعض مصالح الدول الإقليمية والوطنية مع مصالح وأهداف الحركة. فمثلاً دول مجلس التعاون الخليجى قد عارضت المبدأ الخامس من ميثاق دول عدم الانحياز: والذى يدعو إلى عدم إقامة قواعد عسكرية لقوى عظمى داخل أراضى الدولة العضو فى الحركة برضاها. وهو ما فعلته السعودية، قطر، الإمارات، الكويت. وأيضا المبدأ الثالث والذى يدعو إلى عدم التزام الدول الأعضاء فى الحركة بتحالف ثنائى عسكرى مع إحدى القوى الدولية. وهو ما فعلته أيضا الدول السالفة الذكر وغيرها. وهو الأمر الذى خلف تضارباً عميقاً فى ولاء هذه الدول للحركة من جانب ومخاوفها ومصالحها القومية من جانب آخر: بصورة جعلت الحركة مجرد تجمع ودى لإلقاء الخطب والرجوع وكأن شيئا لم يكن: بعدما كان العالم ينتظر ما سيحدث فى النظام الدولى بعدما ينصرف زعماء دول عدم الانحياز من عقد قممها.

تاسعاً: استخفاف العالم الغربى بحركة عدم الانحياز بصورة جعلت الغرب ينظر لحركة عدم الانحياز باعتبارها مجرد ناد تتباهى فيه كل دولة بأنها غير منحازة فى سياستها الخارجية فقط: بينما هى فى الواقع حليفة لإحدى القوى العظمى. فبعد رحيل الآباء المؤسسين للحركة وانهيار المشروعات التنموية الطموحة لحركة عدم الانحياز واتساع الفجوة التكنولوجية بين دول الحركة وعالم الشمال وزيادة الاعتماد على دول الشمال جعل الحركة تواجه ظروفا ومتغيرات لم تعهدها من قبل. وإذا لم تطور الحركة آليات عملها وتحول نفسها إلى شكل آخر اقتصادياً وسياسياً مغاير لما ظهرت عليه فى الخمسينات وقاراته الثورية الثلاث: آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.



مستقبل حركة عدم الانحياز

على الرغم من وجود تيار عام غير متفائل بشأن مستقبل العالم الثالث عامة وحركة عدم الانحياز: بصورة جعلت البعض يصف حالة العالم الثالث وحركة عدم الانحياز بـ «الموت السريرى/الإكلينيكى». بمعنى توقف الجسم عن أداء وظائفه الحيوية دون تحرك أو فاعلية تذكر: بصورة تجعل من موته هو أفضل الحلول المقترحة من أجل التخلص من وجوده عديم الجدوى. إلا إننا: وعلى النقيض من ذلك: نرى أن هناك احتمالات لنجاح حركة عدم الانحياز فى المستقبل - على المدى المتوسط والبعيد - فى سبيلها لإعادة تفعيل دورها فى النظام الدولى الحالى. فعلى الرغم من المشاكل الإدارية والهيكلية والتنظيمية والحركية التى تواجهها الحركة: ليس فقط لفاعليتها ولكن حتى لوجودها، إلا أن الحركة مازال لديها ما يدعم ويرسخ دورها فى المجتمع الدولى وأمام المحافل الدولية.

لعل من أهم عوامل/مصادر قوة عدم الانحياز المحتمل استخدامه فى المستقبل، إذا صدقت النوايا واتحدت السواعد والعقول يتمحور فى الآتى:

● ديمومة فعالية المبادئ العامة التى قامت عليها الحركة. فمازالت المبادئ التى قامت عليها الحركة صالحة وصحيحة: خاصة مبدأى السيادة والمساواة بين الدول. وضرورة التعامل مع المتغيرات الدولية. فالدول عادة ما تميل للتعامل/التعاون مع الوحدات الدولية الأخرى (دولا كانت أو منظمات) المشابهة لها: من منظور الاتفاق الجماعى الذى يحفزها على العمل المشترك والاعتماد المتبادل وصولا لتحقيق افضل مستويات المعيشة وتحقيق الأمن والاستقرار لجميع البشر.

● تعاظم المصالح الاقتصادية بين دول الجنوب بصورة تجعل من التعاون الاقتصادى بين حركة عدم الانحياز كياناً اقتصادياً منافساً للأقطاب الاقتصادية الأخرى الموجودة فى العالم: خاصة مع وجود قوى دولية مثل الصين والهند وماليزيا وإندونيسيا وغيرها داخل الحركة.

● تعاظم حجم الموارد والثروات الطبيعية والديموغرافية والإستراتيجية التى تمتلكها دول حركة عدم الانحياز. فعدد سكان الحركة يزيد عن نصف سكان العالم: وتمتلك دول الحركة ما يزيد على ٨٦٪ من موارد الطاقة فى العالم - البترول. وما يزيد على نصف موارد العالم المائية. وتحقيق بعض دول الحركة أعلى معدلات نمو اقتصادى فى النظام الاقتصادى العالمى الحالى حيث يبلغ معدل النمو فى محور الجنوب - الجنوب (الذى يضم الصين: الهند: جنوب أفريقيا ودول أمريكا اللاتينية) حوالى ٦,١٧٪.

كل هذه الأسباب وغيرها بالتأكيد: تجعل مستقبل حركة عدم الانحياز مبشراً بصورة أو بأخرى. إلا أن هذا الأمل: وكل هذه المقومات التى قد تجعل الحركة فى مقدمة النظام الدولى: يتوقف على عاملين أساسيين هما:

أولاً: وجود إرادة سياسية موحدة من الدول الأعضاء للمساعدة فى اتخاذ قرارات حيوية وفعالة وجدية تهدف لتفعيل دور الحركة دولياً. وهو الأمر الذى يتطلب السمو عن المصالح القومية/الوطنية الضيقة النطاق. وفك الارتباط الثنائى لدول الحركة مع القوى الدولية الأخرى: خاصة الولايات المتحدة. وهو الأمر الذى قد يتطلب جهداً لا تستطيع كافة دول الحركة احتماله أو القيام به.

ثانياً: الوعى بأن النظام الدولى ما هو إلا مباراة وصراعاً من أجل القوة - على حد قول مورجانثو. فالمهم هو المصالح وما تساويه الحركة من وزن فى عمليات توازن القوى الدولية ... لا ما تريده أو ما تنادى به. فالقوى يفعل - وفق ما يملكه من قوة - ما يريد. والضعيف يتحمل - بسبب ضعفه - ما يتوجب عليه أن يتحمله. هكذا تكلم ثيوديتودس منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام■

لم تنجح المقاومة في جنوب أفريقيا إلا بعد أن أدركت أن لا مواجهة للعنف إلا بالعنف، ولا مكان للنضال السلمي.. وكان الفضل لمانديلا



مانديلا ما بعد التسعين

وليد محمود عبد الناصر

■■ منذ سنوات قاربت على العقد ونصف صدر لى كتاب بعنوان: «مانديلا وجنوب أفريقيا: بين الماضى والحاضر» عن دار المستقبل العربى، ربما كان حينذاك الأول من نوعه باللغة العربية عن انتصار نضال حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى وبقية القوى المناضلة من أجل جنوب أفريقيا ديمقراطية غير عنصرية، وإسقاط نظام الفصل العنصرى «الأبارتيد»، أحد أقسى الأنظمة غير الآدمية التى فرضها بعض البشر على بعضهم الآخر بسبب الاختلاف فى المعتقد أو اللون أو العرق أو غير ذلك، وهو فى هذه الحالة اختلاف فى اللون. فى عام ١٩٩٤. كما كان لى فرصة أن يقبل بكتابة مقدمة هذا الكتاب حينذاك السيد/ محمد فائق وزير الإعلام الأسبق، ومستشار الرئيس الراحل عبد الناصر للشئون الأفريقية، وكانت قد ربطته بالزعيم نيلسون مانديلا علاقة وصداقة منذ ما يقرب من خمسة عقود.

وبالنسبة لى فإن أول اطلاع تفصيلى عن «نيلسون مانديلا» كان عام ١٩٨٢، إبان دراستى الجامعية، وذلك عندما درست «قضايا التغيير فى جنوب افريقيا»، على الدكتورة/ «جيل جيرهارت»، إحدى أبرز المتخصصات فى جنوب أفريقيا منذ زمن بعيد، وكان قد سبق لها إصدار كتاب هام باللغة الإنجليزية عام ١٩٧٩ بعنوان «القوة السوداء فى جنوب أفريقيا»، وعقب تخرجى عملت مع الدكتورة/ جيرهارت، فى المساعدة فى إعداد المادة العلمية لنفس المادة التى كانت تقوم بتدريسها حول جنوب افريقيا، واستمر وتصاعد اهتمامى بالأوضاع فى جنوب أفريقيا والزعيم مانديلا، كتابة وقراءة، خاصة العمل الموسوعى الضخم للدكتورة/ جيرهارت نفسها والمكون من خمسة أجزاء حول نضال شعب جنوب افريقيا ضد العنصرية، ومذكرات «مانديلا» نفسه.



وكان من أصعب القرارات التى اتخذها «مانديلا» قرار اللجوء إلى تبنى حرب العصابات فى عقد الستينيات من القرن العشرين. فلم يكن ذلك سهلاً فى إطار قوى فكرية وسياسية تأثرت طويلاً بمفاهيم المقاومة السلمية التى أطلقها «المهاتما غاندى» عندما كان مقيماً فى جنوب أفريقيا، واستمر انبهار هذه القوى الجنوب الأفريقية بنهج حزب المؤتمر الهندى فى تحقيق الاستقلال عن طريق

المقاومة السلمية. إلا أن «مانديلا» نجح فى إقناع قيادات المؤتمر الوطنى الأفريقى - التى كانت تتبنى منهج اللا عنف من حيث المبدأ - باللجوء إلى خيار حرب العصابات وتكوين الجناح العسكرى للمؤتمر باسم «أمكونتو وى سيزوى»، أى رمح الوطن. وكانت حرب العصابات من أهم الأسلحة التى احتفظ بها «مانديلا» كورقة فى يده ووظفها لإسقاط نظام «الأبارتيد» (الفصل العنصرى). ونذكر فى هذا السياق أن «نيلسون مانديلا» أعلن عام ١٩٨٥ - من سجنه ومنفاه - أنه لا مواجهة للعنف إلا بالعنف، ولا مكان للنضال السلمى. وقد سبق لمانديلا أن رفض فى عام ١٩٨٤ عرضاً من نظام «الأبارتيد» يتضمن شروطاً مسبقة للإفراج عنه تتعلق خاصة بإعلان التزامه بالتخلى عن العنف. ولذا جاء الإفراج عنه عام ١٩٩٠ دون الحصول منه على أى وعد بالتخلى عن استخدام العنف، علماً بأن سلطات بريتوريا حينذاك عمدت إلى إفهامه بأنها تحتاج إلى مثل هذا التعهد من المؤتمر الوطنى الأفريقى قبل بدء أى مفاوضات جادة معه. ولدى انتهاء سجن ونفى «مانديلا» سأله الإعلاميون عن «رأيه فى العنف»، ورد بالقول بأن الأسباب التى دعت لاستخدام العنف مازالت قائمة، وأنه لن يعلن انتهاء حرب العصابات إلا بانتهاء نظام «الابارتيد». وكان ذلك مما دفع «مانديلا» للتفاوض من موقع القوة مع «دى كليرك» - رئيس حكومة بريتوريا العنصرية حينذاك - مستنداً إلى صمود شعبه وأدائه البطولى، وقادراً على التعبير عن تطلعات هذا الشعب المعلم. لذا، لم يكن من المستغرب أن يتحقق النصر الحاسم والنهائى على يديه وأيدى رفاقه لنضال شعب جنوب أفريقيا الطويل، فسقط نظام الفصل العنصرى إلى غير رجعة، وقامت دولة حديثة أفريقية ديمقراطية وغير عنصرية فى جنوب أفريقيا واستحق «مانديلا» أن يكون بطلاً بجدارة، لا لشعبه فقط، وليس لقارته فحسب، بل للنضال الإنسانى بعالميته.

ومن المسائل اللافتة للانتباه موقف «مانديلا»، مثله مثل بقية قيادات المؤتمر الوطنى الأفريقى كأوليفر تامبو مثلاً، تجاه الشيوعيين والماركسية. فبالنسبة له، كان الشيوعيون داخل جنوب أفريقيا ولسنوات طويلة - وبالرغم من قلة عددهم وتأثيرهم فى مجتمع البيض هناك - هم الوحيدون بين البيض الذين يعاملون الأفارقة كآدميين. كما أن تطبيق قانون مكافحة الشيوعية لعام ١٩٥٠ فى زمن «الأبارتيد» ضد كل من يطالب



ولدى انتهاء سجن ونفى «مانديلا» سأله الإعلاميون عن «رأيه فى العنف». ورد بالقول بأن الأسباب التى دعت لاستخدام العنف مازالت قائمة، وأنه لن يعلن انتهاء حرب العصابات إلا بانتهاء نظام «الابارتيد»



بالحريات الأساسية من بين الأفارقة جعل مرادف الشيوعية لدى هؤلاء هو «الحرية» فى ذلك الوقت. إلا أنه ورغم تبنى كل من المؤتمر الوطنى الأفريقى والحزب الشيوعى لجنوب افريقيا لميثاق الحرية عام ١٩٥٥، فإن «نيلسون مانديلا» اعتبر حينذاك أن الشيوعيين يرون فيه مجرد خطوة أولى نحو بناء مجتمع اشتراكى، بينما اعتبرته قطاعات أساسية داخل المؤتمر الوطنى الأفريقى غاية فى حد ذاته. إلا أن الحزب الشيوعى لجنوب افريقيا كان هو القوة السياسية الوحيدة فى صفوف البيض التى تحالفت مع المؤتمر الوطنى الأفريقى والمؤتمر الهندى (أحد التنظيمات السياسية الخاصة بالأقلية الهندية فى جنوب أفريقيا) لبدء العمل العسكرى السرى بدءاً من عام ١٩٦١، وكانت قيادة هذا العمل من جانب المؤتمر الوطنى الأفريقى ممثلة فى «نيلسون مانديلا». وبالرغم من إعلان «مانديلا» فى مراحل مبكرة عن إعجابه بالماركسية، فإنه كان قد أعرب عن إيمانه بأن «اشتراكية من نوع خاص» - يختارها الأفارقة - هى وحدها القادرة على القضاء على الفقر وتحقيق التنمية فى جنوب أفريقيا.



وفى أبريل ١٩٩٢ طرح المؤتمر الوطنى الأفريقى ورقة، وعند عرضه لها تحدث «مانديلا» عن اقتصاد مختلط يجمع بين القطاعين العام والخاص، كما دعا إلى تقليص عدد موظفى الحكومة الذين وصفهم بأنهم يشكلون عبئاً على الدولة. أما فى عرضه لبرنامج المؤتمر الوطنى الأفريقى لانتخابات أبريل ١٩٩٤، أول انتخابات غير عنصرية فى تاريخ جنوب أفريقيا، فقد اعتبر «مانديلا» أن تأصيل الديمقراطية والوحدة الوطنية أمر حتمى لتجنب الفوضى العامة، وأن الإنعاش الاقتصادى يمثل بدوره الضمانة الحقيقية لتحقيق السلام الاجتماعى وتمكين المؤسسات الديمقراطية من مد جذورها بقوة. إلا أن «مانديلا» أعلن بالمقابل فى مؤتمر لمنظمة شباب المؤتمر الوطنى الأفريقى - التى كان يسيطر عليها حينذاك الراديكاليون - بأن على الحكومة القادمة فى جنوب أفريقيا أن تخدم مصالح الغالبية من الجماهير وإلا فسيطيح بها الشعب. وكان الزعيم «مانديلا» قد أكد فى مناسبة أخرى على الارتباط بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاقتصادية، باعتبار أنه لا ديمقراطية سياسية بدون اقتصاد متحرر وقوى ونام، معارضاً تركز الاقتصاد فى أيدى تجمعات محدودة العدد مكونة من تحالفات المؤسسات المملوكة للبيض، وداعياً إلى القضاء على الاحتكارات، والالتزام بضمان كفاءة عمل القطاع الخاص، ونافياً العداء من حيث المبدأ للمؤسسات الكبيرة. وخلال نفس الفترة تقريباً، وفى لقاء له مع أصحاب المزارع البيض فى فبراير ١٩٩٤، أقر الزعيم «مانديلا» بتراجع جذرى فى دعوته الأصلية لتأميمات واسعة وطمأن هؤلاء بعدم تأميم مزارعهم، وذلك فى ضوء عامل براجماتى هو احتياجه لهم لإنتاج الغذاء فى جنوب أفريقيا، وأعرب عن الاتجاه لاقتصاد السوق وتشجيع القطاع الخاص على الاستثمار فى المشروعات الإنتاجية، إلا أنه ذكر أن آليات السوق وحدها لا تستطيع إصلاح الخلل الهيكلى الناتج عن قرون من حكم الاستعمار ثم «الأبارتيد» لعدم توافر تكافؤ الفرص ولغياب المنافسة العادلة، وتحدث «مانديلا» عن اقتصاد يجسد التعاون بين الدولة والشركات الخاصة والمؤسسات المالية ونقابات العمال ومنظمات المجتمع المدنى. وفى هذا الإطار، تحدث الزعيم «مانديلا» عن تشابه بين ما يريده المؤتمر الوطنى الأفريقى لدور الحكومة فى جنوب أفريقيا الديمقراطية غير العنصرية، وبين الدور الذى مارسته الحكومة فى الاقتصاد الماليزى منذ سبعينيات القرن العشرين، وهو ما يعطى للدولة دوراً قائداً فى قطاعات التنمية الريفية والتعليم والإسكان والصحة والرفاهية الاجتماعية والكهرباء والمياه والاتصالات والبنية الأساسية بصفة عامة. وعلى المستوى الاجتماعى، دعا الرئيس «مانديلا» إلى تطوير الموارد البشرية، خاصة برامج التدريب، على أن يكون ذلك لصالح كافة فئات السكان، إلا أن البعد الاجتماعى فى برنامج المؤتمر الوطنى الأفريقى امتد للعمق ليتناول قضايا الفقر وتركز الثروة فى أيدى الأقلية البيضاء وسد احتياجات القاعدة الجماهيرية. وقد جاءت هذه المواقف فى ضوء تزايد ضغوط سكان المدن الأفريقية من أجل توفير الخدمات الأساسية، خاصة الكهرباء، بالإضافة إلى ضغوط الحزب الشيوعى لجنوب أفريقيا - الحليف التاريخى والتقليدى للمؤتمر الوطنى الأفريقى - وتخوف المؤتمر من فقدان قاعدته الشعبية مما استوجب الدعوة إلى تدخل الدولة بقوة فى الاقتصاد لاعتبارات اجتماعية.



وعقب الإفراج عن «نيلسون مانديلا» عام ١٩٩٠، أصر على اشتراط إنهاء حالة الطوارئ والإفراج عن المزيد من المعتقلين السياسيين وعودة المنفيين خارج البلاد قبل بدء المفاوضات الفعلية مع حكومة بريتوريا



ونعود إلى «مانديلا» وموقعه وأدوارد المتعددة فى قيادة نضال شعب جنوب افريقيا ضد العنصرية. فعندما تشكلت الجبهة الديمقراطية المتحدة من المؤتمر الوطنى الأفريقى وقوى سياسية ونقابية ودينية عديدة فى النصف الأول من عقد الثمانينيات من القرن الماضى، طالب قادتها فى كافة المحافل بالإفراج عن «نيلسون مانديلا» معتبرين ذلك مطلباً أساسياً ومشتركاً لتلك القوى. وكان المطلبان الآخران المرتبطان به هما: الإفراج عن كافة المسجونين السياسيين وإسقاط نظام «الابارتيد» بالطرق السلمية. وخلال عامى ١٩٨٧ و١٩٨٨ كانت شروط المؤتمر الوطنى الأفريقى للتفاوض مع نظام بريتوريا هى الإفراج عن «نيلسون مانديلا» وبقية المسجونين السياسيين دون شروط، ورفع الحظر عن المؤتمر الوطنى الأفريقى وبقية التنظيمات السياسية المحظورة، وإحلال برلمان وطنى واحد محل البرلمان ثلاثى الغرف الذى كان موجوداً حينذاك للبيض والملونين والهنود، مع إعطاء الأفارقة حقا متساويا للتصويت مع الجماعات الثلاث الأخرى المكونة لشعب جنوب أفريقيا. ووضع «مانديلا» من جانبه حينذاك أربعة شروط للحل السلمى لقضية جنوب أفريقيا، وهى: اعتبار المسألة السياسية هى المسألة المركزية، الحفاظ على جنوب أفريقيا موحدة، التمثيل للأفارقة فى برلمان مركزى موحد، وأخيراً وليس آخراً تطبيق مبدأ صوت واحد لكل مواطن، بما يعكس أولوية المسألة الديمقراطية فى فكر «مانديلا» خلال تلك الحقبة من النضال. وفى أكتوبر ١٩٨٩، كان «نيلسون مانديلا» قد تحدث من سجنه حول الحاجة لبناء مجتمع حر وديمقراطى فى جنوب أفريقيا يعيش فيه كل المواطنين فى ظل فرص متكافئة، مشيراً إلى أنه يود المساهمة فى إيجاد مناخ يؤدى إلى السلام فى جنوب أفريقيا. وأكد «مانديلا» أن البيض هم جزء من جنوب أفريقيا، وأن الأفارقة يودون المشاركة فى السلطة معهم، كما تحدث عن تأمين مستقبل البيض فى جنوب أفريقيا ديمقراطية وغير عنصرية.

وعقب الإفراج عن «نيلسون مانديلا» عام ١٩٩٠، أصر على اشتراط إنهاء حالة الطوارئ والإفراج عن المزيد من المعتقلين السياسيين وعودة المنفيين خارج البلاد قبل بدء المفاوضات الفعلية مع حكومة بريتوريا. وبالفعل، فقد تم رفع الحظر عن المؤتمر الوطنى الأفريقى من قبل حكومة بريتوريا

وبدء إجراء مشاورات أولية معه. وسعى «مانديلا» من جانب آخر إلى توحيد كافة تنظيمات الأفارقة تمهيداً لبناء كتلة تفاوضية موحدة مع الحكومة العنصرية. ودفعت هذه المهمة «مانديلا» للالتقاء فى يناير ١٩٩١ مع «بوتوليزى» زعيم حركة «إنكاثا» الأفريقية، التى تحالفت فى السابق مع نظام الفصل العنصرى، بهدف تنسيق المواقف، وإن كان الاتفاق بينهما اقتصر فى نهاية الأمر على العمل لوقف العنف المتصاعد فيما بين التنظيمات المختلفة للأفارقة، خاصة بين المؤتمر الوطنى الأفريقى وحركة «إنكاثا». إلا أن اللقاء بين «مانديلا» و«بوتيليزى» فشل فى وقف العنف بين الحركتين وأنصارهما، واتهم «مانديلا» لاحقاً حركة «إنكاثا» بأنها امتداد لنظام «الأبارتيد» وأن أنشطتها وتسليح وتدريب أعضائها يتم بواسطة حكومة بريتوريا. بينما رد «بوتيليزى» باتهام المؤتمر الوطنى الأفريقى بزعامة «مانديلا» بالشراهة للسلطة وبمحاولة احتكار تشكيل مستقبل جنوب أفريقيا. واستمرت الحساسية بين المؤتمر الوطنى الأفريقى وحركة «إنكاثا» حتى بعد تشكيل حكومة الاتحاد الوطنى بعد سقوط العنصرية عقب انتخابات ابريل ١٩٩٤، وبالرغم من منح «مانديلا» منصب وزير الداخلية لبوتيليزى. ففى مواجهة أعمال العنف السياسى المتزايدة فى إقليم «كوازولو/ناتال» - معقل حركة «إنكاثا» - خلال شهرى فبراير ومارس ١٩٩٥، نتيجة مقاطعة حركة «إنكاثا» لأعمال البرلمان، بناء على ضغوط من «بوتيليزى»، عقد الرئيس «مانديلا» سلسلة اجتماعات مع القادة العسكريين والأمنيين لمعالجة هذا الوضع.

ونعود إلى الدور التاريخى لمانديلا لإنهاء نظام الفصل العنصرى فى بلاده، حيث يذكر لمانديلا أن قراره بمقاطعة المفاوضات الدستورية فى يونيو ١٩٩٢ نقل المناقشات بين الحكومة والمؤتمر الوطنى الأفريقى من قاعة الاجتماعات المغلقة إلى الشارع من خلال الـ ١٤ مطلباً التى أرسلها «مانديلا» إلى «دى كليرك» لاستئناف المفاوضات ثم رد «دى كليرك» عليه، ثم رد «مانديلا» على الرد. وقد أدى لجوء «مانديلا» إلى مجلس الأمن - والذى سنتناوله تفصيلاً فى جزء لاحق من هذا المقال - بدى كليرك إلى العمل للحد من أعمال العنف فى مدن الأفارقة من خلال سحب ثلاث فرق من الشرطة والجيش كان معروفاً عنها ارتكاب أعمال عنف ضد المواطنين الأفارقة فى مدنهم، كما وعد بإجراءات لمكافحة ظاهرة حمل السلاح فى مدن الأفارقة ولتحسين الظروف الأمنية حول البيوت الجماعية



أظهرت نتائج انتخابات ١٩٩٤ أنه بالرغم من أن كافة الجماعات العرقية تثق فى «مانديلا» فإنها لم تكن تثق بنفس القدر فى المؤتمر الوطنى الأفريقى



للعمال بالقرب من مدن الأفارقة. إلا أنه عندما زار «مانديلا» مدينة «بويباتونج» فى يونيو ١٩٩٢ عقب وقوع مذبحة بها ضد الأفارقة، كانت حركة «إنكاثا» ضالعة فيها، ووجه بانتقادات من الأهالى على ما أسموه سلوك «الحمل» الذى يسلكه فى وقت يتعرض فيه الأفارقة للقتل، كما طالبوه بتسليحهم. وبينما أكد «مانديلا» تمسكه بخيار السلام فإنه اشترط تفاوض الحكومة بنية حسنة، وتحدث بعد مذبحة «بويباتونج» عن عدم استبعاد اللجوء مرة أخرى للكفاح المسلح إذا ما فشلت المفاوضات مع الحكومة - علماً بأن المؤتمر الوطنى الأفريقى كان قد أعلن التخلى عن الكفاح المسلح فى أغسطس ١٩٩٠ - واتهم «دى كليرك» شخصياً بالتورط فى دفع أعمال العنف بين صفوف الأفارقة. وربط مجرد قبوله الاجتماع بدى كليرك مجدداً باتخاذ الأخير إجراءات ضد العنف فى مدن الأفارقة، خاصة معاقبة ضباط الشرطة المسئولين عن العنف، واتهم «مانديلا» جيش جنوب أفريقيا بتدريب عناصر من جيش ناميبيا السابق (قبل استقلال ناميبيا عن جنوب أفريقيا عام ١٩٨٩) وإشراكها فى عمليات العنف ضد عناصر المؤتمر الوطنى الأفريقى. ويمكن تفهم موقف «مانديلا» هذا فى ضوء إحساسه بالمنافسة من قبل حركة «إنكاثا» بين الأفارقة، وكذلك تخوفه من تعريض قاعدته الجماهيرية للاهتزاز إذا لم يتجاوب مع مشاعر الغضب لدى أنصاره، خاصة أن الراديكاليين داخل صفوف المؤتمر الوطنى الأفريقى كانوا يدفعون فى ذلك الوقت بتأكيد فشل الخيار التفاوضى ومشككين فى مصداقية استراتيجية التفاوض ككل، ومشيرين إلى عجز «مانديلا» عن إجبار «دى كليرك» على وقف العنف فى مدن الأفارقة، ومتهمين «مانديلا» بتقديم ما أسموه بتنازلات ضخمة. وقاد هؤلاء مظاهرات فى مدينة «كيب تاون» فى ٣٠ يونيو ١٩٩٢ واجهتها الشرطة بالنيران.

وعندما قام المؤتمر الوطنى الأفريقى، بالتعاون مع الحزب الشيوعى لجنوب أفريقيا والاتحاد العام لنقابات عمال جنوب أفريقيا (كوساتو)، بحملة إضرابات بدأت فى ٣ أغسطس ١٩٩٢ لإجبار الحكومة العنصرية على التخلى عن السلطة، حرص «مانديلا» على التأكيد على أن تلك الحملة الجماهيرية ستكون سلمية، بالرغم من أن سكرتير عام «كوساتو» حذر من أنه إذا لم تستجب السلطات فى جنوب أفريقيا لمطالب «كوساتو» والمؤتمر الوطنى الأفريقى للعودة للمفاوضات فإن جنوب أفريقيا ستشهد فوضى كاملة وحرباً أهلية. وفى مواجهة دعوة «دى كليرك» إلى اشتراط أن يحصل أى تعديل على الدستور القادم على غالبية أكبر من ٧٥٪ بما يحتاج إلى دعم أكثر من حزب واحد، اتهم «مانديلا» هذا السيناريو بأنه يعطى الأقليات - خاصة الملايين الخمسة من المواطنين البيض - حق نقض (فيتو) فعال. وبقى منطق الاختلاف هو نظرة دى كليرك للهدف باعتباره المشاركة فى السلطة مقابل نظرة «مانديلا» والمؤتمر الوطنى الأفريقى باعتبار الهدف هو حكم الأغلبية.

وفى ٢ مايو ١٩٩٤ - وقبيل ظهور النتائج النهائية لانتخابات ٢٧ أبريل ١٩٩٤ وهى أول انتخابات غير عنصرية فى جنوب أفريقيا - ألقى «نيلسون مانديلا» خطاباً فى فندق «كارلتون» بجوهانسبرج التزم فيه بجماعية القيادة فى المستقبل، مؤكداً تعاون المؤتمر الوطنى الأفريقى مع بقية الأحزاب بما يحقق الصالح العام فى إطار حكومة اتحاد وطنى، ومشاركة كافة التنظيمات فى هذه الحكومة وأخذ آرائها فى الاعتبار. إلا أن «مانديلا» دعا هذه الأحزاب والتنظيمات إلى الالتزام ببرنامج الحكومة، وإلا توترت الأمور فى الإئتلاف الحاكم معتبراً أن هذا البرنامج جاء نتيجة لمناقشات جماهيرية فى الساحات الشعبية، ومن خلال حوار منظمات شبابية ونسائية ورجال دين ورجال أعمال ومنظمات نقابية ومؤسسات اقتصادية. وتعهد «مانديلا» فى خطابه هذا بأن الحكومة ستخدم مصالح كافة فئات شعب جنوب أفريقيا، وليس مجرد أعضاء المؤتمر الوطنى الأفريقى، وبإنشاء قوات جيش وأمن قوية موالية للشعب والدستور، وباحترام التعددية الثقافية وإعطاء أولوية لمداواة الجروح القديمة، وتحقيق المصالحة الوطنية وإيجاد وظائف للعاطلين عن العمل. واختتم خطابه بالدعوة إلى تجنب التوتر، خاصة فى المناطق التى لم يحصل فيها المؤتمر الوطنى الأفريقى على الأغلبية. ويعتبر خطاب «مانديلا» هذا بمثابة عرض موجز لبرنامجه فى الحكم، وجاء موجزاً لما فصله البرنامج الانتخابى للمؤتمر الوطنى الأفريقى. وقد أظهرت نتائج انتخابات ١٩٩٤ أنه بالرغم من أن كافة الجماعات العرقية تثق فى «مانديلا» فإنها لم تكن تثق بنفس القدر فى المؤتمر الوطنى الأفريقى، أحياناً بسبب تحالفه مع الحزب الشيوعى لجنوب أفريقيا، أو لتحالفه مع اتحاد نقابات العمال (كوساتو) الذى يعبر عن مصالح الطبقة العاملة الصناعية.

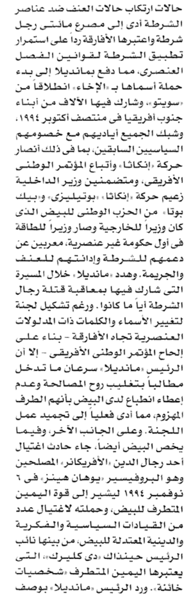
ونتذكر هنا أن «مانديلا» قال بعد أول

انتخابات غير عنصرية فى تاريخ جنوب افريقيا. وهى انتخابات أبريل ١٩٩٤، أنه منح صوته لفردريك دى كليرك، آخر رئيس وزراء لجنوب افريقيا فى زمن «الابارتيد» والذى تم فى عهده التحول نحو تفكيك هذا النظام وفق عملية تفاوضية طويلة وشاقة. وبرر «مانديلا» ذلك بأنه لا يخشى المعارضة، حيث كان «دى كليرك» حينذاك زعيماً للحزب الوطنى، الحزب الأساسى للبيض «الافريكانر» (أى من ذوى الأصول الهولندية) فى جنوب افريقيا، بل أكد «مانديلا» حرصه على أن تكون جنوب أفريقيا ملكاً لكل مواطنيها وليس للحزب الذى يحوز على الأغلبية فقط، حتى لو كان هذا الحزب هو حزبه «المؤتمر الوطنى الأفريقى». وأثبت «مانديلا» التزامه العملى بهذا الموقف عندما حرص على تشكيل حكومة ائتلافية مع حزب «دى كليرك» وأحزاب أخرى مثل حركة «إنكاثا» بعد ظهور نتائج الانتخابات، بالرغم من أنه لم يكن بالضرورة محتاجاً لذلك نتيجة الفوز الكبير الذى حققه حزبه، ومنح «دى كليرك» منصب نائب الرئيس و«بوتيليزى» منصب وزير الداخلية.



وسنتعرض هنا لعدد من المواقف والتحديات الداخلية خلال فترة ولاية الرئيس «مانديلا» الوحيدة كرئيس للجمهورية وتعامل الرئيس معها حتى نتعرف مع القارئ الكريم على ذلك المزيج العجيب من المواقف المبدئية والقدرة على التأقلم مع معطيات الواقع ومخزون الطاقة النضالية والإمكانيات الذهنية والمهارات القيادية لدى زعامة «مانديلا».

ونبدأ بأحد مظاهر العلاقة مع البيض، وهى علاقة المؤتمر الوطنى الأفريقى مع قوات الأمن. فقد ازداد التوتر بين الطرفين رغم تدخل «مانديلا» شخصياً أكثر من مرة. وعاد هذا التوتر فى السنوات الأولى بعد سقوط نظام «الأبارتيد» لاستمرار السياسات والممارسات العنصرية للشرطة - التى كان لا يزال يسيطر عليها البيض - تجاه الأفارقة. وقد نجح الرئيس «مانديلا» فى القضاء على تمرد للشرطة ضم ألفى شرطى فى معزل الترانسكاى الأفريقى السابق، وقتل خلاله ٤٥ شرطياً، وتزامن ذلك مع اقتحام وحدات خاصة تابعة للرئيس سجناً بنفس الإقليم حدث به تمرد أدى إلى احتجاز رهائن ومصرع مسجون. ودعا «مانديلا» فى الوقت ذاته إلى القضاء على وجود السلاح غير



الشرعى عبر البلاد. إلا أن تضاعف حالات ارتكاب حالات العنف ضد عناصر الشرطة أدى إلى مصرع مائتى رجل شرطة واعتبرها الأفارقة رداً على استمرار تطبيق الشرطة لقوانين الفصل العنصرى، مما دفع بمانديلا إلى بدء حملة أسماها بـ «الإخاء» انطلاقاً من «سويتو»، وشارك فيها الآلاف من أبناء جنوب أفريقيا فى منتصف أكتوبر ١٩٩٤، وشبك الجميع أياديهم مع خصومهم السياسيين السابقين، بما فى ذلك أنصار حركة «إنكاثا» وأتباع المؤتمر الوطنى الأفريقى، ومتضمنين وزير الداخلية زعيم حركة «إنكاثا» «بوتيليزى» و«بيك بوتا» من الحزب الوطنى للبيض الذى كان وزيراً للخارجية وصار وزيراً للطاقة فى أول حكومة غير عنصرية، معربين عن دعمهم للشرطة وإدانتهم للعنف والجريمة. وهدد «مانديلا» خلال المسيرة التى شارك فيها بمعاقبة قتلة رجال الشرطة أياً ما كانوا. ورغم تشكيل لجنة لتغيير الأسماء والكلمات ذات المدلولات العنصرية تجاه الأفارقة - بناء على إلحاح المؤتمر الوطنى الأفريقى - إلا أن الرئيس «مانديلا» سرعان ما تدخل مطالباً بتغليب روح المصالحة وعدم إعطاء انطباع لدى البيض بأنهم الطرف المهزوم، مما أدى فعلياً إلى تجميد عمل اللجنة. وعلى الجانب الآخر، وفيما يخص البيض أيضاً، جاء حادث اغتيال أحد رجال الدين «الأفريكانر» المصلحين وهو البروفيسير «يوهان هينز» فى ٦ نوفمبر ١٩٩٤ ليشير إلى قوة اليمين المتطرف للبيض، وحملته لاغتيال عدد من القيادات السياسية والفكرية والدينية المعتدلة للبيض، من بينها نائب الرئيس حينذاك «دى كليرك»، التى يعتبرها اليمين المتطرف «شخصيات خائنة». ورد الرئيس «مانديلا» بوصف «هينز» بأنه أحد جنود السلام، حيث سبق له انتقاد «الأبارتيد» منذ عام ١٩٧٩.

وقد أظهر «مانديلا» أيضاً تشدداً فى التعامل مع أنصاره من المؤتمر الوطنى الأفريقى مؤكداً أنه لن ينزلق إلى نظام «شعبوى». ففى سبتمبر ١٩٩٤، كان «مانديلا» قد نجح فى إعادة مئات من مقاتلى الجناح العسكرى السابق للمؤتمر الوطنى الأفريقى (رمح الوطن: أمكونتو وى سيزوى) إلى ثكناتهم بعد تظاهرهم من معسكر خارج بريتوريا إلى داخل المدينة مطالبين بحقوق متساوية وأجر متساو فى جيش جنوب أفريقيا. إلا أنه فى منتصف أكتوبر ١٩٩٤، تمرد آلاف من الأعضاء السابقين فى «رمح الوطن» فى وجه ما اعتبروه سوء معاملة تعرضوا لها عند إدماجهم فى جيش جنوب أفريقيا، وطالبوا «مانديلا»





أكد «مانديلا» حرصه على أن تكون جنوب أفريقيا ملكاً لكل مواطنيها وليس للحزب الذى يحوز على الأغلبية فقط، حتى لو كان هذا الحزب هو حزبه «المؤتمر الوطنى الأفريقى»



بمعالجة هذا الوضع. وقد سافر «مانديلا» إليهم فى قاعدة شمال بريتوريا فى ٢٠ أكتوبر. إلا أنه هذه المرة تعامل معهم بقدر كبير من الحزم، وأعطى مهلة لثلاثة آلاف مقاتل كانوا قد تركوا مواقعهم دون إذن للعودة إلى الثكنات أو التعرض للعزل من الجيش. وأعقب ذلك مظاهرة شارك فيها مائة وخمسون من عناصر «رمح الوطن» أمام مكتب «مانديلا» فى مدينة «الكيب». ولكنها لم تثن «مانديلا» عن موقفه. كذلك بالنسبة للجناح العسكرى غير الرسمى للمؤتمر الوطنى الأفريقى المسمى بـ «وحدات الدفاع الذاتى» والتى ظهرت فى مدن الأفارقة كرد فعل على العنف الذى مارسته حركة «إنكاثا» ضد أنصار المؤتمر. وقد حظيت بإنذار مماثل من «مانديلا». وتلا ذلك توجيه إنذار لكل من لديه سلاح غير مرخص لتسليمه للشرطة خلال سبعة أيام أو مواجهة عقوبات القانون. وعقب ذلك تم بالفعل اعتقال اثنين من عناصر «وحدات الدفاع الذاتى» وبحوزتهما رشاشان. إلا أن هذا الإجراء دفع مائتين من عناصر تلك الوحدات إلى احتلال مقر للشرطة مما أدى بالشرطة إلى إطلاق سراح العنصرين. وقد أبدى «مانديلا» فى أكثر من مناسبة تخوفه من التأثير السلبى لعدم الاستقرار الذى تسببه عناصر «رمح الوطن» و«وحدات الدفاع الذاتى» على المستثمرين الأجانب والمحليين.

وقد حاول الرئيس «مانديلا» إحداث توازن داخل المؤتمر الوطنى الأفريقى بين الإقرار بدور قدامى المناضلين والخلصاء من رفاقه، وهم شخصيات لها شعبية وتأثير قوى مثل «بانتو هولوميسا» و«بيتر موكابا»، وبين العناصر الشابة الأكثر راديكالية فى المؤتمر، إلا أن التعايش بينهما لم يكن أمراً سهلاً. فعلى سبيل المثال، حتى فيما بين الكبار حدثت خلافات برزت عندما رفض «سيريل رامافوسا» تولى منصب وزارى عندما عين «مانديلا» منافسه «تابو مبيكى» فى منصب نائب الرئيس. وفضل «رامافوسا» قيادة سكرتارية الحزب لضمان استمرار قوة الحزب وعدم انحداره وسقوطه ضحية لإغراءات السلطة أو خضوعه للحكومة.

وكان من علامات وجود خلافات داخل صفوف المؤتمر الوطنى الأفريقى هو قرار اللجنة التنفيذية للمؤتمر فى مارس ١٩٩٥ بإنشاء لجنة نظامية للتحقيق فى انتهاك قاعدة سلوك أعضاء الحزب، على أن تستمع اللجنة إلى ادعاءات بشأن عدد من قيادات وأعضاء الحزب. وقد ذكر فى هذا الإطار اسم «ويني مانديلا» بعد ما أجبرت

بواسطة الرئيس «مانديلا» نفسه على الاعتذار علناً عن بيان انتقدت فيه الحكومة متهمة إياها بمحاباة البيض. وجاء تشكيل هذه اللجنة أيضاً رداً على مطالبات قواعد وكوادر المؤتمر الوطنى الأفريقى بجعل قادة المؤتمر قابلين للمساءلة من قبل قواعد المؤتمر.

وعندما انتقدت جريدة «سويتان» الجماهيرية السوداء سياسات وزير التعليم، والتى دعته إلى التركيز على إيجاد مدارس بأماكن العمل والمزارع ومدن الأفارقة، وقام الطلاب الموالون لحركة «الوعى الأسود» ذات التوجهات القومية الأفريقية بالتظاهر احتجاجاً على توظيف المدرسين البيض فى مدارس الأفارقة فى ظل وجود أعداد من المدرسين الأفارقة يعانون من البطالة، تجنب وزير التعليم السفر إلى المناطق التى حدثت بها قلاقل طلابية تاركاً هذا الدور لوزيرى العمل والمواصلات اللذين حثا الطلاب على العودة إلى فصولهم والمدرسين على العودة إلى أماكن عملهم. وعندئذ خرج الرئيس «مانديلا» محذراً من أنه بدأ يفقد صبره مع المدرسين والطلاب المضربين.

ومن جهة أخرى، فقد تخوفت عناصر من المؤتمر الوطنى الأفريقى من أن استيعاب قوى المعارضة فى حكومة الاتحاد الوطنى سيؤدى إلى ضياع الوقت والجهد بحثاً عن توافق آراء، ومن التناقض بين الحرص على الوحدة الوطنية مقابل الحاجة لتغيير اقتصادى- اجتماعى سريع. إلا أن «مانديلا» واجه ذلك بالتأكيد على أنه لن يسمح بتخريب برنامج التنمية وإعادة الإعمار الخاص بالمؤتمر الوطنى الأفريقى، الذى كان قد تضمن بناء مليون مسكن وإيجاد مزيد من فرص العمل وتحديث البنية الأساسية فى مدن الأفارقة. وطبق «مانديلا» هذه الدعوة من خلال تعيين «جاى نايدو» كوزير لبرنامج التنمية وإعادة الإعمار بهدف التدخل فى شئون الوزارات الأخرى لعدم السماح للبيروقراطيين بجذب الحكومة بعيداً عن تنفيذ البرنامج.

وتعد قضية الفساد من القضايا التى ثارت خلال ولاية «نيلسون مانديلا» كرئيس لجنوب أفريقيا، وطالت قيادات بالمؤتمر الوطنى الأفريقى وأثرت سلباً على صورة المؤتمر. وسنكتفى هنا بالإشارة إلى حالتى «وينى مانديلا» - زوجة «مانديلا» السابقة - والآن بوساك، أحد قادة الجبهة الديمقراطية المتحدة المعادية للأبارتيد خلال الثمانينيات. وبالنسبة للسيدة «مانديلا»، فهى عانت من ظهور فضيحة تلو الأخرى. وبرر أنصارها أحياناً أخطاءها بأنها تعانى من





أظهر «مانديلا» أيضاً تشدداً فى التعامل مع أنصاره من المؤتمر الوطنى الأفريقى مؤكداً أنه لن ينزلق إلى نظام «شعبوى». وأن العدالة لابد أن تطال الجميع، وإلا فلن تكون هناك دولة



«انفصام الشخصية» (الشيزوفرينيا). وكانت قد تعرضت قبل ذلك للإقصاء من تولى إدارة مكتب الرفاه الاجتماعى وزعامة تنظيم المرأة بالمؤتمر الوطنى الافريقى. إلا أنها سرعان ما عادت لزعامة تنظيم المرأة، ثم حصلت على منصب نائب وزير الثقافة والعلوم والفنون وجاء ترتيبها الخامس فى إطار الانتخابات للجنة التنفيذية الوطنية للمؤتمر الوطنى الأفريقى. بل إنها مدت نفوذها عندما تم انتخابها لمنصب أمين صندوق مؤتمر القادة التقليديين لجنوب أفريقيا المؤيد للمؤتمر الوطنى الأفريقى، والذى كان يضم قادة قبليين. إلا أن أهم الفضائح التى أحاطت بالسيدة «مانديلا» تعلقت باكتشاف اختفاء حوالى ٩١ ألف جنيه استرلينى كانت رئيسة وزراء باكستان حينذاك الراحلة «بنازير بوتو» سلمتها للسيدة «مانديلا» بغرض بناء مساكن للطبقات الشعبية عبر تنظيم المرأة التابع للمؤتمر الوطنى الافريقى. كما ثارت تساؤلات حول عقد سياحى مشترك وقعته «وينى مانديلا» وابنتها مع الممثل المصرى العالمى «عمر الشريف» وحول استخدام أوراق رسمية لتوجيه دعوات لمستثمرين أجانب للمشاركة فى مشروعات سياحية معها ومع ابنتها. وجاء رد الرئيس «مانديلا» مهدداً بعزل «وينى» من منصبها الحكومى. وجاءت حلقة أخرى فى هذا المسلسل ممثلة فى قيام قوات شرطة جنوب أفريقيا بعمليات تفتيش لمكاتب «وينى مانديلا» على أساس تورط اسمها فى عمليات احتيال واختلاسات مالية وقيام الشرطة بتحقيقات حول هذه القضية. وذكرت الشرطة أنها عثرت على مستندات هامة فى مقر جمعية ترأسها «وينى مانديلا» وهى «مشروع التنسيق لمكافحة الفقر». وأخيراً اضطر «مانديلا» إلى إقالة «وينى» من منصبها الحكومى. أما بالنسبة لبوساك، فقد اتخذ قرار انسحابه من ترشيح الرئيس «مانديلا» له كممثل دائم لبلاده لدى الأمم المتحدة بجنيف عقب إعلان مكتب الجرائم الاقتصادية بجنوب أفريقيا أنه يقوم بتحقيقات فى سوء استخدام مساعدات مالية قدمت إلى مؤسسة السلام والعدالة التى يرأسها «بوساك». إلا أن «بوساك» لم يعتبر انسحابه من الترشيح إقراراً بأى اتهام موجه إليه. وقد اضطر «مانديلا» فى خطاب له إلى الإقرار بوجود فساد اخترق نسيج المجتمع فى جنوب أفريقيا، وتعهد بالتعامل بحزم مع كل متورط فى الفساد، إلا أنه أوضح أنه لن يعتمد فى ذلك على مجرد ادعاءات أو اتهامات.

وبالرغم من نزعة حكومة الاتحاد الوطنى للتوصل إلى توافقات آراء ولو لم تعكس سياسات صحية ومطلوبة، فقد اضطر برلمان جنوب أفريقيا لعقد جلسة طارئة فى يناير ١٩٩٥، وذلك لبحث الخلاف بين الرئيس «مانديلا» ونائبه «دى كليرك». وجاء ذلك عقب رفض المؤتمر الوطنى الأفريقى إقرار عفو صدر من حكومة «دى كليرك» بحق وزيرين و٣٥٠٠ رجل شرطة، قبيل انتخابات ابريل ١٩٩٤. واعتبر «دى كليرك» هذا الرفض هجوماً شخصياً عليه. وجاء - مرة أخرى - الحل الوسط متمثلاً فى مطالبة الوزارات المعنية بتقديم اقتراحات لحل الموقف بهدف تجنب انهيار حكومة الاتحاد الوطنى. وكان «مانديلا» قد سبق له اتهام «دى كليرك» بأنه عنصرى يشكك فى قدرة الأفارقة فى جنوب أفريقيا على حكم البلاد. وجاء اتهام «مانديلا» هذا رغم ما عرف عنه من ضبط النفس. وكان قد سبق ذلك الصراع بين الحزبين خلاف حاد آخر بينهما حول السيطرة على أنشطة أجهزة الاستخبارات والأمن. وقد انتهى الأمر بتعيين «مانديلا» لنائبه «دى كليرك» رئيساً للجنة حكومية للإشراف على أجهزة الأمن والاستخبارات، فى وقت أعلن «مانديلا» فيه أنه سيشرف بنفسه على أنشطة الاستخبارات. ووضع تجدد هذه الخلافات الشراكة بين «مانديلا» و«دى كليرك» على المحك رغم ما قيل عنهما من ميزة الجمع بين مهارات وخبرات متنوعة.



وفى فبراير ١٩٩٥، ألقى الرئيس «مانديلا» خطاباً برلمانياً هاماً قاد فيه حملة على ما أسماه بالفساد والجريمة، ومقاطعة دفع الإيجارات واحتلال المساكن والإضرابات غير القانونية، والخلط بين الحرية والفوضى. كما حذر من توقع الكثير من إدارته بعد شهور فقط فى السلطة، موضحاً أن الدولة لا تملك ثروات غير محدودة، وبينما وعد «مانديلا» بالعمل على تخفيض العجز فى الموازنة والحد من الإنفاق العام، اكتفى على الصعيد الاجتماعى بالإشارة إلى التزام الحكومة ببناء منازل لثمانية ملايين أفريقى أى حوالى ٢٥٪ من السكان، ومد شبكات المياه النقية. وجاء بيان «مانديلا» ليعكس تجاوباً مع الأقليات ومطالب التكنوقراط، بدلاً من الاستجابة لضغوط القواعد الجماهيرية للمؤتمر الوطنى الأفريقى. كما جاء بيان «مانديلا» فى ظل عدم تحقيق الحكومة سوى ١٠٪ من المستهدف بالنسبة لبناء المساكن للأفارقة فى السنة الأولى من حكم حكومة الاتحاد الوطنى، وعكس

قبول حكومة - معظم وزرائها من الاشتراكيين والشيوعيين - لنصائح مؤسسات الاقتراض الدولية بأن الطريق الأمثل لإعادة توزيع الثروة لصالح الفقراء هو من خلال توسيع اقتصاد القطاع الخاص. كما استهدف بيان «مانديلا» طمأنة المستثمرين على خلفية تزايد حالات احتلال مساكن البيض والهنود بشكل غير قانونى بواسطة الأفارقة، وحدوث حالة نهب فى فبراير ١٩٩٥ فى مدينة «الكيب» بواسطة آلاف الطلاب، التى كان هدفها منطقة تجارية للبيض، وجاءت رداً على طعن طالب أسود حتى الموت فى مدرسة للبيض اليوم السابق. ونعود إلى خطاب «مانديلا» حيث وعد بأن الحكومة ستتعامل بحسم مع العنصريين البيض، بمن فيهم من يعترض على إنهاء الفصل العنصرى فى المدارس أو على تولى الأفارقة وظائف أعلى. ولكن قصر «مانديلا» معظم فترات خطابه على التوجه للأفارقة الذين يقتلون عناصر الشرطة ويحتجزون الرهائن ويمارسون النهب والفوضى وتخريب الثروات العامة والخاصة، واعتبرهم أقلية سيتعرضون لعقاب الدولة. وفى الإطار نفسه، حذر «مانديلا» اتحاد الموظفين العموميين الذى كان قد هدد بأخذ كبار الموظفين من البيض كرهائن إذا لم تتم الاستجابة لمطالبه الخاصة برفع المرتبات. ورغم إعلان تعاطفه مع الوضع الاقتصادى المأساوى للموظفين الأفارقة، أعلن «مانديلا» أن الحكومة ستضرب بيد من حديد على الإضرابات غير القانونية. وفى حين رحب قادة المؤتمر الوطنى الأفريقى وقادة الأحزاب الأخرى، سواء المشاركة فى الإئتلاف الحاكم أو فى المعارضة، بخطاب «مانديلا» فإنه لم يقابل بحماس من كل من كان يطالب بسياسات جذرية لإعادة توزيع السلطة والثروة كما هو الحال مع قطاعات من الأفارقة.

ويبرز ما سبق مركزية الأدوار التى لعبها الرئيس «مانديلا»، خاصة خلال ولايته الوحيدة كرئيس منتخب لجمهورية جنوب أفريقيا، وعقب رفضه الترشح لولاية ثانية، سواء فى حسم القضايا الخلافية على المستويات السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، أو العلاقة بين الحكومة المركزية والسلطات الإقليمية والمحلية، أو بالنسبة لإعطاء القوة والتأثير لجنوب أفريقيا فى المجالات الخارجية القارية والدولية وضمان بيئة مواتية لمساعدة جنوب أفريقيا اقتصادياً وضمان تدفق رءوس الأموال والاستثمارات اللازمة إليها، مما كان له أبلغ الأثر فى صياغة صورة جديدة لجنوب أفريقيا لدى مواطنيها فى الداخل ولدى العالم الخارجى تتصف بالإيجابية الخارجية والديمقراطية السياسية والفاعلية الاقتصادية والسعى لإنجاز مهمة العدالة الاجتماعية.

وإذا انتقلنا من المشهد السياسى الداخلى فى جنوب أفريقيا إلى الصعيد الخارجى، تتبدى لنا أهمية مطلب الإفراج عن «مانديلا»، المتصاعدة بشكل خاص فى ثمانينيات القرن العشرين على الصعيد الدولى، من تمرير الكونجرس الأمريكى لمشروع قانون باسم «قمع «الأبارتيد» عام ١٩٨٦، حيث طالب القانون بالإفراج عن كافة المسجونين السياسيين ذكراً واحداً منهم فقط بالاسم وهو «نيلسون مانديلا». وإن كان هذا القانون قد طالب أيضاً بحق كافة التنظيمات السياسية، بما فيها المؤتمر الوطنى الأفريقى، فى العمل بصفة قانونية داخل جنوب أفريقيا، فقد عابه أنه طالب باقتسام السلطة بين البيض والأفارقة بدلاً من الدعوة لإقامة ديمقراطية غير عنصرية، كما كان ما زال متأثراً بأجواء الحرب الباردة عندما كرر مخاوف من «التغلغل الشيوعى» داخل المؤتمر الوطنى الأفريقى، كما انه حذر من «توجهات إرهابية» داخل المؤتمر، مما يدلل على تاريخانية استخدام تعبير «الإرهاب» فى قاموس السياسة الخارجية الأمريكية، وإن كان حينذاك موجهاً ضد قوى اليسار وكل معارض لسياسات الهيمنة الأمريكية فى «الحقبة الريجانية» وليس ضد التيارات الإسلامية المتشددة كما صار الحال بعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وخلال زيارته للولايات المتحدة عام ١٩٨٧، اشار «أوليفر تامبو» زعيم حزب المؤتمر الوطنى الافريقى حينذاك إلى إمكانية التفاوض مع نظام بريتوريا العنصرى، ولكنه اشترط أن يسبق ذلك الإفراج عن «نيلسون مانديلا» وبقية المسجونين السياسيين، وكذلك الإقرار بحق المؤتمر الوطنى الأفريقى وكافة التنظيمات السياسية والنقابية المحظورة فى جنوب أفريقيا فى العمل الشرعى داخل جنوب أفريقيا، وهكذا تداخلت دائماً بشكل عضوى العلاقة بين مطلب الإفراج عن «مانديلا» والانتقال إلى مرحلة نوعية جديدة فى نضال شعب جنوب أفريقيا ضد العنصرية. ومن جانبها، حددت الأمم المتحدة شروطاً لبدء عملية التفاوض للتوصل إلى حل عادل ودائم للصراع فى جنوب أفريقيا تمثلت فى قيام حكومة بريتوريا بالإفراج عن «نيلسون مانديلا» وبقية المسجونين السياسيين من الأفارقة، ورفع الحظر المفروض على المعارضين السياسيين وتنظيماتهم، وسحب القوات العسكرية من مدن الأفارقة ومناطقهم، وإعادة حرية الصحافة ووقف نقل السكان الأفارقة إلى «المعازل (البانتوستانات)». وقد شهدت نهاية عقد الثمانينيات من القرن العشرين إقراراً دولياً متزايداً - بما فى ذلك من جانب الولايات المتحدة الأمريكية - بأن المؤتمر الوطنى الأفريقى بزعامة «مانديلا» - الذى أصبح بدورد رمزاً أسطورياً عالمياً للنضال ضد العنصرية - وليس بوتوليزى زعيم حركة «إنكاثا» أو زعماء المعازل الأفريقية (البانتوستانات التى أوجدتها أصلاً حكومة الفصل العنصرى فى بريتوريا) - هو المؤهل للتفاوض مع البيض لإنهاء الصراع على جنوب أفريقيا. كما تجدر الإشارة إلى أن مواقف كل من المملكة المتحدة والولايات المتحدة تغيرت من المطالبة بتعديل «الأبارتيد» وليس إزالته وتفضيل جنوب أفريقيا «شبه عنصرية، ولكن رأسمالية على جنوب أفريقية غير عنصرية ولكن اشتراكية، إلى ممارسة الضغوط على حكومة بريتوريا للإفراج عن «نيلسون مانديلا» ورفع الحظر عن المؤتمر الوطنى الأفريقى والتفاوض معه. ولم ينس الزعيم «مانديلا» ولا المؤتمر الوطنى الأفريقى لاحقاً دور الضغوط الأمريكية على حكومة بريتوريا لإطلاق سراح مانديلا ورفع الحظر عن نشاط المؤتمر داخل جنوب أفريقيا.



وتعد قضية الفساد من القضايا التى ثارت خلال ولاية «نيلسون مانديلا» كرئيس لجنوب أفريقيا، وطالت قيادات بالمؤتمر الوطنى الأفريقى وأثرت سلباً على صورة المؤتمر

ومن الهام التوقف قليلاً أمام أحداث اجتماع مجلس الأمن يومى ١٥ و١٦ يوليو ١٩٩٢، والذى أشرنا إليه عابراً فيما سبق. فمانديلا ذهب إلى المجلس فى محاولة لعقاب «دى كليرك» على عدم قبوله مطالب المؤتمر الوطنى الأفريقى لاستئناف المفاوضات الدستورية، وملوحاً بالدعوة لتحقيق دولى فى العنف السياسى فى جنوب أفريقيا. وألقى بياناً وصف بالتشدد متهماً حكومة بريتوريا بتنظيم حملة «إرهاب دولة» لقهر الحركة الديمقراطية متعددة الأجناس وطالب المجلس بإجراءات فى ضوء تحقيقات الممثل الخاص للسكرتير العام للأمم المتحدة، وحث على نشر قوات حفظ سلام تابعة للأمم المتحدة، مع علمه مسبقاً بان ذلك المطلب غير مقبول على الإطلاق من قبل حكومة بريتوريا. وحرص «مانديلا» على تلقى دعم دولى يلقى على الحكومة مسئولية العنف وإفشال المفاوضات. وجاء بيان رئيس لجنة الأمم المتحدة لمناهضة «الأبارتيد» على هوى «مانديلا» وحسب خطته، حيث اتهم حكومة بريتوريا بتجاهل أعمال العنف بين الأفارقة، ومشاركة قوات الأمن فى إشعال العنف. كما ألقى معظم المتحدثين باللائمة فى أحداث العنف

على حكومة بريتوريا. إلا أن «بيك بوتا» - وزير خارجية الحكومة العنصرية - عمد من جانبه أمام المجلس إلى نفى اتهامات «مانديلا» وإلى التركيز على مسئولية الأطراف الداخلية فى جنوب أفريقيا عن حل مشكلاتها، وهى «أطروحة» حظيت بدعم الوفد الأمريكى مما شكل ضربة مؤقتة للمؤتمر الوطنى الأفريقى. ودعا «بوتا» الأمم المتحدة إلى إرسال مراقبين يشاركون مع لجان مراقبة مشتركة لأعمال العنف دعا لإنشائها بين حكومة بريتوريا والمؤتمر الوطنى الأفريقى وحركة «إنكاثا». وركز على دعوة «مانديلا» للعودة إلى مائدة المفاوضات، وهى دعوة ركز عليها أيضاً وفدا الولايات المتحدة والمملكة المتحدة. وجاء قرار مجلس الأمن رقم ٧٦٥ خالياً من أى إدانة مباشرة لحكومة بريتوريا بشأن تورطها فى أحداث العنف، نتيجة اعتراض المملكة المتحدة أساساً والتى أشاد وفدها بما أسماه تقدم حكومة بريتوريا فى محادثات السلام وإجراءات تفكيك نظام «الأبارتيد». إلا أن نتيجة اجتماع مجلس الأمن حققت مكاسب للمؤتمر الوطنى الأفريقى من جهة تبنى هدف إنشاء مجتمع ديمقراطى غير عنصرى فى جنوب أفريقيا، كما ذكر المجلس بإعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ديسمبر ١٩٨٩ حول «الأبارتيد» ونتائجه المدمرة على الجنوب الأفريقى، وطالب حكومة جنوب أفريقيا باتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لوقف العنف وحماية حياة وممتلكات المواطنين، إلا أنه - واستجابة للموقف البريطانى - حث القرار كافة الأطراف على العمل لوقف العنف والعودة للمفاوضات السلمية. ولم يحدد القرار ولاية الممثل الخاص للسكرتير العام للأمم المتحدة وإنما اكتفى بتحديد أهداف هذه المهمة، وهى التوصية بإجراءات تؤدى إلى إنهاء العنف وإيجاد ظروف مواتية للمفاوضات. وأكد القرار بوضوح دعم نضال شعب جنوب أفريقيا المشروع من أجل بناء مجتمع ديمقراطى وغير عنصرى، وأدان بوضوح أيضاً مذبحة «بويباتونج» وما تلاها من إطلاق للنار على المدنيين العزل، وطالب سلطات بريتوريا بمحاكمة المسئولين عن العنف.

وفيما يتعلق بالمسائل الدولية أيضاً، وفى البرنامج الانتخابى لحزب المؤتمر الوطنى الأفريقى لانتخابات ١٩٩٤، وعلى صعيد التناول الدولى لموضوعات حقوق الإنسان، فقد ركز «مانديلا» على تلك الموضوعات كأحد محاور دور جنوب أفريقيا فى العلاقات الدولية، أخذاً فى الاعتبار عدم اقتصار حقوق الإنسان على الجانب السياسى فقط، بل امتدادها للمجالين الاقتصادى والاجتماعى، خاصة فى ضوء طول معاناة شعب جنوب أفريقيا من





عندما ثارت تساؤلات حول عقد سياحى وقعتـــه «وينى مانديلا» وابنتها مع الممثل المصرى العالمى «عمر الشريف» وحول توجيه دعوات لمستثمرين أجانب للمشاركة فى مشروعات سياحية معها ومع ابنتها. جاء رد الرئيس «مانديلا» متمثلا فى عزل زوجته من منصبها الحكومى



«الأبارتيد»، الذى مثل فى الأساس عدواناً ضد حقوق الإنسان. كذلك طالب المؤتمر بتحقيق الديمقراطية والتسامح داخل كافة دول العالم - خاصة فى أفريقيا - لحل مشكلات العالم بشكل عادل ودائم، خاصة فى ضوء نضال المؤتمر الوطنى الأفريقى الطويل من أجل الديمقراطية فى جنوب أفريقيا.

وقد ساهمت شخصية «مانديلا» الأسطورية فى دفع العلاقات الدولية لجنوب أفريقيا وبنائها السريع لشبكة علاقات دبلوماسية امتدت من أيرلندا إلى تنزانيا إلى إندونيسيا وإلى المملكة العربية السعودية.

فخلال زيارته للولايات الأمريكية فى أكتوبر ١٩٩٤، ساوى الرئيس «مانديلا» بين دور كل من إدارة كلينتون الديمقراطية وإدارة بوش الأب الجمهورية فى إحداث التحولات التى حدثت فى جنوب أفريقيا، وهى مساواة ربما أثارت امتعاض البيت الأبيض فى إحدى حقب سيطرة الحزب الديمقراطى، وأظهر «مانديلا» أن لدى جنوب أفريقيا أولوياتها وسياساتها الخاصة التى لا تنوى جعلها تابعة للولايات المتحدة. وفى هذا الإطار رفض «مانديلا» التنسيق مع الولايات المتحدة فى مجال الاستخبارات أو لعب دور قوة تدخل فى صراعات القارة الأفريقية لحساب واشنطون، ومع إعطاء الأولوية للتنسيق مع المنظمات الإقليمية فى أفريقيا خاصة منظمة الوحدة الأفريقية فى ذلك الوقت (وهى الكيان الذى سبق الاتحاد الافريقى وأنشىء عام ١٩٦٣). إلا أنه على الجانب الإيجابى، فقد تلقى «مانديلا» وعوداً بمساعدات أمريكية تبلغ بلايين الدولارات خلال سنوات قليلة، وتعهدت الولايات المتحدة بتسهيل دخول جنوب أفريقيا فى المؤسسات السياسية والاقتصادية الدولية. وتم خلال الزيارة إنشاء لجنة على مستوى نائبى الرئيسين لدعم العلاقات بين قطاع الأعمال فى البلدين والتعاون العلمى والتكنولوجى وفى قطاعات تطوير الموارد البشرية والطاقة والبيئة والتعاون الثقافى. كما التزمت الولايات المتحدة بإنشاء صندوق لتنمية المشروعات الخاصة بجنوب أفريقيا بقيمة مائة مليون دولار أمريكى على أن ينفق منها خمسون مليون دولار داخل جنوب أفريقيا، وبمنح قرض لضمان بناء المساكن لمحدودى الدخل بقيمة خمسة وسبعين مليون دولار أمريكى، وإنشاء صندوق آخر بقيمة ٧٥ مليون دولار لتقديم رأس المال للمستثمرين ورجال الأعمال الأفارقة، مع إرسال متطوعى كتائب السلام من الولايات المتحدة إلى جنوب أفريقيا. كما التقى الرئيس «مانديلا» خلال وجوده بالولايات المتحدة مع الرئيس الهايتى المنتخب الذى كان مخلوعاً حينذاك «أريستيد» لإظهار تأييده للديمقراطية عبر العالم.

وبالإضافة إلى مصر التى سنتعرض لها تفصيلاً فى آخر جزء من هذا المقال، حرص «مانديلا» فور الإفراج عنه على التوجه إلى ليبيا لتوجيه الشكر لقيادتها على دعم نضال شعب جنوب أفريقيا ضد «الأبارتيد»، دونما اهتمام بعدم ارتياح بعض الدوائر الغربية تجاه هذه الزيارة. كما زار الرئيس «مانديلا» عدة دول عربية أخرى، حيث زار الرباط عدة مرات أولها فى يونيو ١٩٩٤، وزار المملكة العربية السعودية فى أكتوبر - نوفمبر ١٩٩٤. وخلال الزيارة، تناول الرئيس «مانديلا» إمكانية استيراد جنوب أفريقيا لنفط سعودى.

وعلى الصعيد الإقليمى الأفريقى، جاءت مشاركة «مانديلا» فى القمة الأفريقية بداكار فى ١٩٩٢ مخيبة لآماله، حيث دعت القمة وزير خارجية حكومة بريتوريا العنصرية «بيك بوتا» لحضور أعمالها أيضاً، بينما كان «مانديلا» يأمل فى تعبئة موقف أفريقى موحد حازم ومؤيد لمواقف المؤتمر الوطنى الأفريقى، إلا أن بعض التقارير ذكرت أن ما حدث كان العكس: أى أن «مانديلا» تعرض فى داكار لضغوط للعودة إلى مائدة التفاوض مع حكومة بريتوريا، وهو الأمر الذى جسد نجاحاً نسبياً لسياسة العصا والجزرة التى اتبعتها حكومة بريتوريا فى ذلك الوقت مع معظم دول الجوار الأفريقية التى كانت معروفة باسم «دول المواجهة». وفى برنامج المؤتمر الوطنى الأفريقى لانتخابات ١٩٩٤، دعا «مانديلا» إلى تغيير القاعدة الاقتصادية للقارة الأفريقية وتنويع شبكات علاقاتها التجارية.

وعلى المستوى الأفريقى أيضاً، ولكن بعد انتخاب «مانديلا» رئيساً، شارك وزير خارجية جنوب أفريقيا مع وزيرى خارجية بتسوانا وزيمبابوى فى الوساطة لدعم الاتفاق الذى أعاد إلى ليسوتو أول حكومة ديمقراطية منتخبة فى البلاد منذ ٢٤ سنة. وقد هدد الرئيس «مانديلا» ورئيس زيمبابوى «موجابى» بفرض عقوبات على ليسوتو إذا لم يتم العمل بالدستور. وأكد «مانديلا» أن جنوب أفريقيا لا تستطيع ان تقف مكتوفة الأيدى وتسمح بتدمير الديمقراطية فى أى دولة فى المنطقة، وهو ما عكس التزاماً إقليمياً بالديمقراطية ولكنه عنى أيضاً دوراً أمنياً وعسكرياً إقليمياً لجنوب أفريقيا، وفرصة لإثبات فاعلية جيش جنوب أفريقيا إقليمياً، وخاصة حين طارت طائرات ميراج تابعة للسلاح الجوى لجنوب أفريقيا فوق ثكنات لجيش ليسوتو. وفى نفس الإطار هدد اتحاد

نقابات العمال بجنوب أفريقيا - كوساتو - بفرض حظر على نقل البضائع من وإلى ليسوتو المغلقة أرضياً إذا لم تعد الحكومة الديمقراطية إلى السلطة. وقد توقع البعض حينذاك أن تطرح بعض القوى داخل جنوب أفريقيا مجدداً فكرة إعادة إدماج ليسوتو فى جنوب أفريقيا. وفى إطار الدفاع عن حقوق الإنسان على المستوى الأفريقى، قاد الرئيس «مانديلا» الدعوة إلى فرض عقوبات على نيجيريا عقب تنفيذ حكم الإعدام هناك فى عدد من دعاة حماية حقوق الأقليات.



أما عن علاقات «مانديلا» مع مصر التى نتناولها هنا فى آخر جزء من هذا المقال التحليلى، فهى قديمة قدم انضمامه للمؤتمر الوطنى الأفريقى ودعم مصر الفعال للمؤتمر، مثل غيره من حركات التحرر الوطنى فى أفريقيا، بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو المصرية. وقد زار «مانديلا» القاهرة فى أواخر ١٩٦١ واستقبله السيد/محمد فائق فى مكتبه، وكان بصحبة «أوليفر تامبو» الذى تولى زعامة المؤتمر الوطنى الأفريقى خلال وجود «مانديلا» فى المنفى بجزيرة «روبينز». ولكن مانديلا لم يتمكن خلال الزيارة من مقابلة الرئيس الراحل عبد الناصر الذى كان مشغولاً بضيفه حينذاك الرئيس اليوغوسلافى الراحل «جوزيف بروز تيتو» الذى تواكبت زيارته لمصر مع الفترة القصيرة التى قضاها «مانديلا» فى القاهرة لارتباطه ببرنامج زيارة لبعض الدول فى غرب أفريقيا. وبعد مغادرة «مانديلا» القاهرة مباشرة، اتصل به السيد/محمد فائق فى غرب أفريقيا وأبلغه أن الرئيس عبد الناصر يرغب فى لقائه وطلب منه الحضور للقاهرة. وقد سعد «مانديلا» بهذا الاتصال وهذه الدعوة، ولكنه ذكر أنه مضطر للعودة إلى جنوب أفريقيا ولكنه وعد بالعودة للقاهرة خلال أسبوع واحد. إلا أن القدر كان لديه ترتيبات أخرى، فبعد عودة «مانديلا» إلى بلاده تم القبض عليه وأرسل للسجن بجزيرة «روبينز» لسبعة وعشرين عاماً. وعندما جاء مانديلا لزيارة القاهرة بعد الإفراج عنه، وبدعوة من الرئيس مبارك، وفى لقائه مع السيد/محمد فائق ذكر له مازحاً أنه يأسف لحضوره متأخراً عن موعده بسبعة عشرين عاماً تقريباً!

ومما لا شك فيه أن الأبرز - وربما الذى أخذ قدراً من الإقرار الدولى والتغطية الإعلامية على الصعيد الدولى - ضمن جهود مصر لدعم نضال شعب جنوب أفريقيا كانت مساهمتها فى الإفراج عن «نيلسون مانديلا»، ثم دعوة واستقبال «مانديلا» عقب الإفراج عنه. وبالنسبة لجهود الإفراج عن «مانديلا» تحديداً، فإن صحفاً بريطانية وأمريكية قد أقرت بجهود مصر لسنوات طويلة للإفراج عن «مانديلا»، سواء من خلال المجموعة الأفريقية أو من خلال الأمم المتحدة، أو الاتصالات الثنائية مع الدول الغربية، بل ومع حكومة جنوب أفريقيا ذاتها، خاصة خلال لقاء الرئيس مبارك ورئيس الوزراء الجنوب أفريقى حينذاك «فردريك دى كليرك» على هامش الاحتفال باستقلال ناميبيا عن جنوب أفريقيا عام ١٩٨٩، وخصت بالذكر جهود الرئيس مبارك والدكتور بطرس بطرس غالى عندما كان لسنوات وزير دولة للشئون الخارجية فى مصر. وعندما تم الإفراج عن «مانديلا» من جزيرة «روبينز»، لم يكن من الغريب أن تكون إحدى أوائل الدعوات التى وجهت إليه لزيارة دول خارج الحدود قد جاءت من مصر. كذلك جاء طبيعياً أن يلبى «مانديلا» هذه الدعوة سريعاً. وجاء استقبال مصر لمانديلا حافلاً على المستويين الرسمى والشعبى استقبالاً يليق بمكانة «مانديلا» وتاريخه النضالى من جهة، وبدور مصر الدائم فى دعم كفاح شعب جنوب أفريقيا من أجل القضاء على «الأبارتيد» وبناء الديمقراطية من جهة أخرى. وخير شاهد على ذلك هو العدد الضخم من المثقفين والمواطنين وشباب مصر الذين اكتظ بهم مقر جمعية الدراسات الأفريقية بالقاهرة والشوارع المحيطة به عندما ذهب الزعيم «مانديلا» لإلقاء خطاب، وكذلك منحه درجة الدكتوراة الفخرية فى مصر.

وفى الختام، لا يسعنا إلا أن نقول إن «مانديلا» يمثل نوعاً فريداً من الزعامات التاريخية، وخلال وجوده فى سجنه ومنفاه، ظلت شعبيته الأسطورية ميراثاً تتناقله الأجيال، حيث جذب انتباه العالم وحظى بتقدير وإعجاب الجميع، كما ارتبط بشعبه بعلاقة عضوية غير قابلة للانفصام نظراً لتجسيده لآلام وأحلام هذا الشعب، مما جعله من أشهر السجناء السياسيين، إن لم يكن أشهرهم على الإطلاق، فى العالم بأسره، بعد أن تحدى السلطة العنصرية وصمد فى منفاه وسجنه لمدة فاقت ربع القرن، وقامت من أجله أكبر حملة للإفراج عرفتها الإنسانية، وعقب ذلك صار بدوره من أشهر الزعماء ورؤساء الدول فى زماننا. فقد عكس بصدق وثبات قيم الحرية والوطنية والعزة القومية والنضال من أجل العدالة. لقد ولد «مانديلا» عام ١٩١٨، وهو نفس عام ميلاد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وتأثر بعبد الناصر وبغيره من القادة التاريخيين لأفريقيا ونضالها. مثل «كوامى نكروما» فى غانا و«أحمد سيكوتورى» فى غينيا، و«موديبو كيتا» فى مالى، و«جوليوس نيريرى» فى تنزانيا» وغيرهم كثيرون. فقد رفع شعار الوحدة الوطنية والعدالة الاجتماعية، وحلم ببناء مليون منزل فى عشر سنوات لفقراء بلاده، ووعد بتوفير التعليم للجميع وإعادة توزيع الأراضى الزراعية على المعدمين وإلغاء الضرائب على المواد الغذائية الضرورية للمواطن العادى فى بلاده. ولكنه فى ذات الوقت جعل من مطلب الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان هدفاً له. لقد ناضل «مانديلا» ضد سيطرة الرجل الأبيض على بلاده، ولكنه رفض التعصب ضد البيض، ودعا إلى وعمل من أجل مجتمع ديمقراطى حر يعيش فيه الجميع فى انسجام وفى ظل تكافؤ الفرص والمساواة أمام القانون. فلم يتورط «مانديلا» أبداً فى إطلاق موجة تعصب جديدة تدعو لسيطرة الأفارقة كرد فعل أو كانتقام على سياسات التمييز التى مارسها ضدهم المستوطنون البيض لعقود طويلة. فقد كانت قناعة «مانديلا» هى أنه عندما تسقط عن المستوطنين البيض صفة «العنصرية» يصبحون مواطنين لهم كافة الحقوق بهذه الصفة. وعندما أصبح «مانديلا» رئيساً لجنوب أفريقيا، ظهرت محورية المسألة الديمقراطية وبرزت فى سياساته، مثل مساهمة جنوب أفريقيا فى جهود إعادة الديمقراطية إلى ليسوتو فى الجنوب الأفريقى، وتهديده بفرض عقوبات على ليسوتو إذا لم يتم إعادة العمل بالدستور هناك، وإعلانه بوضوح أن بلاده لن تقف مكتوفة الأيدى أمام أى تراجع عن الديمقراطية فى أى دولة بالمنطقة. كذلك لا ننسى دعوته لفرض عقوبات على نيجيريا لإعدامها تسعة من نشطاء حركات حقوق الإنسان بها. ■





أظهر «مانديلا» أن لدى جنوب أفريقيا أولوياتها التى لا تنوى جعلها تابعة للولايات المتحدة. وفى هذا الإطار رفض «مانديلا» التنسيق مع الولايات المتحدة فى مجال الاستخبارات أو لعب دور قوة تدخل فى صراعات القارة الأفريقية لحساب واشنطون



المراجع:

— Gail M. Gerhart. Black Power in South Africa: The Evolution of an Ideology. University of California Press, 1979
— Nelson Mandela. Long Walk to Freedom: An Autobiography of Nelson Mandela. Little, Brown and Company, 1995.
— Gail M. Gerhart and Others. From Protest to Challenge: A Documentary History of African Politics in South Africa. 5 Volumes. Volume 5 published in 1997 by Indiana University Press.
د. وليد محمود عبد الناصر، مانديلا وجنوب أفريقيا: بين الماضى والحاضر، تقديم السيد/ محمد فائق، دار المستقبل العربى بالقاهرة، ١٩٩٦

حلمى محمد القاعود

فتاوى كبار الكتاب والأدباء

[١]

■ يعجب المرء لمرور الزمان، دون أن تتغير القضايا الرئيسية التى تشغل الناس فى بلادنا العربية كثيراً، فمنذ أقل من قرن طرحت مجلة الهلال التى تصدر فى القاهرة شهرياً مجموعتين من الأسئلة على عدد من كبار الكتاب والأدباء فى ذلك الحين، وكان الطرح تحت مسمى «الاستفتاء»، أى طلب الفتوى، أى الإجابة على مجموعتين من الأسئلة على عدد من كبار الكتاب والأدباء فى ذلك الحين. وكان الطرح تحت مسمى «الاستفتاء»، أى طلب الفتوى، أى الإجابة على مجموعتين من الأسئلة، ترتبط كل مجموعة بالأخرى وتتدخل معها، ولم تكتف المجلة بطرح الأسئلة وطلب الفتوى أو الإجابة على مدى شهور فى بضع سنوات، نشرتها المجلة متفرقة، بل بادرت إلى طبعها فى كتاب يحمل عنوان «فتاوى كبار الكتاب والأدباء، فى: ١. مستقبل اللغة العربية، ٢. نهضة الشرق العربى وموقفه إزاء المدنية الغربية».

ولنا أن نتأمل فى استخدام بعض الألفاظ فى هذا العنوان، والدلالة الكامنة وراءها، ولفظة «فتاوى» بمعنى إجابات، تشير إلى هيمنة الحس الدينى الإسلامى، التى تشير إليه «الفتوى»، كما تشير إلى الرغبة فى معرفة الإجابة الصحيحة، والطريق السليم، كأن الأمر عبارة تقتضى الوضوح والاستقامة والإخلاص، حيث لا مجال هنا لمزايدات أو مناقصات أو خداع.. ثم لنا أن ندرك مدى التسامح والتقابل الذى كانت عليه الحياة الثقافية آنئذ - مع الاختلاف والتنوع - فى احترام الشعور الإسلامى، بل التماهى معه، واستخدام معجمه دون غضاضة أو ضيق أو تأفف، فالمعروف مثلاً أن أصحاب «الهلال» آنئذ من غير المسلمين، ولكنهم لم يستنكفوا عن استخدام اللفظ ذى الدلالة الشرعية الفقهية بالدرجة الأولى، ويذكر فى هذا السياق أن «جرجى زيدان»، كان أول من



جرجى زيدان

كتب ما يسمى «روايات تاريخ الإسلام» - مع التحفظات الفكرية والفنية على ما ورد فيها - دون أن يستشعر غرابة، أو يجد المجتمع فى ذلك شيئاً خارقاً للعادة، بل عده سياقاً طبيعياً للحضارة الإسلامية، واستيعابها لما يسمى الآن بـ«الآخر»، وهى تسمية مستهجنة من وجهة نظرى لأنه ليس آخر بقدر ما ينتمى إلينا وننتمى إليه - وقدرة هذا الآخر على العمل والمبادرة فى دائرة الحضارة الإسلامية المتسامحة، وإنسانيتها الرائعة.

ثم إن استخدام محرر «الهلال» للفظة «المدنية» الغربية، دون استخدامه للفظة «الحضارة» الغربية، يوضح مدى الوعى بدلالة الألفاظ وأبعادها، فالمدينة هى الجانب المادى أو التجريبى من الحضارة، التى تعنى الروح والمادة معاً، كما يقرر علماء المجتمع. فنهضة الشرق العربى - لاحظ استخدام الشرق العربى لا الشرق الأوسط ولا الشرق الأدنى كما كان شائعاً يومئذ! - وموقفه إزاء المدنية الغربية، تعنى أن الشرق العربى يملك الجانب الروحى، الذى يمثل الحضارة فى المجال الثقافى، وكأنه ليس بحاجة إلى قيم الغرب الثقافية

التى تتناقض مع القيم الروحية الإسلامية، فالقيم الثقافية الغربية هى قيم الاستعمار والنهب والقتل والعنصرية واحتقار الآخر أياً كان، والخداع والمراوغة، والمكر والدهاء، والأنانية والتسلط.. إلخ، وهى قيم مرفوضة إسلامياً وإنسانياً.. إذاً فالنهضة المشرقية تبحث عما فى المدينة الغربية من مخترعات وسلع وأدوات ونظم ومستجدات، تساعد على البناء والتعمير والتطوير فى شتى المجالات، ونقل الشرقى العربى، من دائرة التخلف والتفرق والتشرذم والضعف والهوان والاستلاب، إلى دائرة التقدم والوحدة والتماسك والقوة والعزة والكرامة.

استخدام اللفظ قديماً، كان له مدلوله الدقيق والعميق، وعلى أساسه كان الاستفتاء الذى يبحث عن المستقبل، ويطرح احتمالاته ومتطلباته فى ظل أوضاع صعبة ومؤلمة، على أكثر من مستوى عربى ومحلى.

وسوف نجد فى مجموعتى الأسئلة اللتين طُرحتا على كبار الكتاب والأدباء فى ذلك الوقت، وعياً حقيقياً بطبيعة الواقع، وحلم المستقبل، فالمجموعة الأولى الخاصة بمستقبل اللغة العربية، وكونت الإجابات عليها، ما سمته «الهلال» الكتاب الأول، تقول:

- ما هو مستقبل اللغة العربية فى نظركم؟

- وما عسى أن يكون تأثير التمدين الأوروبى والروح الغربية فيها؟

- وما يكون تأثير التطور السياسى فى الأقطار العربية؟

- هل انتشارها (أى اللغة العربية) فى المدارس العالية (يقصد الجامعات بلغة عصرنا) وغير العالية، وتعلم بها جميع العلوم؟

- وهل تتغلب على اللهجات العامية المختلفة وتوحدها؟

- وما هى خير الوسائل لإحيائها؟

والمجموعة كما نرى بالسؤال عن المستقبل تتبعه أسئلة أخرى تصب فى سياق الإجابة عنه.

أما المجموعة الأخرى فتمضى فى الاتجاه ذاته، وتجمعها «الهلال» تحت ما تسميه «الكتاب الثانى»، وترتبط بالمستقبل أيضاً، انطلاقاً من الواقع بحثاً عن النهضة العربية الشاملة:

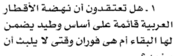
استخدام محرر «الهلال» للفظة «المدنية» الغربية، دون استخدامه للفظة «الحضارة» الغربية، يوضح مدى الوعى بدلالة الألفاظ وأبعادها



فتاوى كبار الكتاب والأدباء
إدارة الهلال بمصر
القاهرة ١٩٢٣

إن كبار الكتاب والأدباء الذين سجلت «الهلال» فتاواهم،
لم يكونوا فى اتجاه واحد،
أو فكر واحد





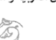
فى "اللغة والنهضة"

١ - هل تعتقدون أن نهضة الأقطار العربية قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء أم هى فوران وقتى لا يلبث أن يخمد؟

٢ - هل تعتقدون بإمكان تضامن هذه الأقطار وتآلفها؟ ومتى؟ وبأى العوامل؟ وما شأن اللغة فى ذلك؟

٣ - هل ينبغى لأهل الأقطار العربية اقتباس عناصر المدنية الغربية؟ وبأى قدر؟ وعند أى حد يجب أن يقف هذا الاقتباس:

أ - فى النظامات السياسية الحديثة.
ب - فى الأدب والشعر.
ج - فى العادات الاجتماعية.
د - فى التربية والتعليم؟



تظل هذه الأسئلة (فى المجموعتين) مطروحة قديماً وحديثاً لسبب بسيط، وهو أن الحالة العربية الإسلامية لا تزال تراوح مكانها، صحيح أنه حدثت تغيرات وتطورات، ولكنها لا تزال محدودة، بل هناك فى بعض الجوانب تراجع بعد تقدم، وضعف بعد قوة، وتردد بعد حسم نتيجة لظروف شتى، لا مجال للحديث عنها هنا.

لقد تخلصت الأقطار العربية من الاستعمار الغربى رسمياً، ولكنه لم تزل له الكلمة العليا فى مصائر شعوبنا سياسياً واقتصادياً وثقافياً، وحضارياً إن صح التعبير.

صارت دولنا حرة، وتحظى بعضوية الأمم المتحدة، ولها جامعة عربية تضم اثنتين وعشرين عاصمة عربية، ولكل عاصمة جيش ونشيد وعلم، وحكومة ومجالس نيابية وثقافية واقتصادية، ودستور وقوانين، ونقابات واتحادات، وجامعات ومدارس وسفارات ومجامع لغوية وعلمية وقنوات تليفزيونية ووسائط إعلامية.. ولكن اللغة تتعرض للخطر، والنهضة لم تمض فى طريقها المأمول.. لماذا؟

استفتاءات كبار الكتاب والأدباء قبل تسعين عاماً أو يزيد تجيب، أو مازالت صالحة للإجابة عن ذلك، لأن ما أجابوا عليه آنئذ، وما أصدروا من أجله الفتاوى قائم لم يزل..

طه حسين

وسوف نلاحظ أن كبار الكتاب والأدباء الذين سجلت «الهلال» فتاواهم، لم يكونوا فى اتجاه واحد، أو فكر واحد، أو تصور واحد، بل كانوا خليطاً يمثل ألوان الطيف الفكرى أو الثقافى فى الواقع العربى الإسلامى يومئذ، ابتداء من المستشرقين الأجانب الذين يمثلون ثقافة المستعمرين الغزاة، وعاشوا بين ظهور العرب المسلمين واطلعوا على طبيعة الحياة العربية الإسلامية والثقافة السائدة، فى الواقع السائد، إلى أدباء المهجر الذين يعيشون فى الغرب الأمريكى برؤاه وأفكاره وأحواله المادية والثقافية المختلفة، فضلاً عن أدباء الأمة فى المشرق العربى الذين يعانون مشكلاته ويحيون واقعه الشعبى وعلى مستوى النخبة..

تستطيع أن تجد المستشرق «جويدى» والأب لامنس وخليل مطران وجبر ضومط، إلى جوار مصطفى صادق الرافعى وإبراهيم حلمى العمر وأمين واصف بك، وتجد محمد كرد على وعيسى إسكندر المعلوف وسليم سركيس ومحمد لطفى جمعة بجانب ميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران وجميل صدقى الزهاوى وطه حسين.. وآخرين يختلفون فى الثقافة والتصور، ولكنهم يحترمون بعضهم البعض، ويعبرون عن «وجهات نظرهم» برقى وتحضر وأدب رفيع، وفى السياق العام تجد منهم جميعاً احتراماً للثقافة العامة، وتقديراً لدين الأغلبية الساحقة ومعطياته، فلا تجد تهجماً أو اجتراء أو إهانة أو أوصافاً قبيحة متدنية تصف الإسلام بالإظلام والتخلف والماضى البغيض والإرهاب الدموى والوحشية والدين الذكورى ودين البداوة ودين السيف.. إلخ، ما تفتقت عنه قرائح المخالفين ممن يحملون أسماء إسلامية أو غيرها، فى محاولات غير خلقية وغير وطنية لإرضاء المهيمن الغربى والغازى الأجنبى والحكومات المستبدة الموالية لغير شعوبه ولغير أمتها ولغير دينها.

بل إن العناصر المتطرفة أو شديدة التطرف، كانت ترى أن هناك حدوداً تقف عندها حرصاً على مشاعر الناس وأحاسيسهم، وتعرض ما لديها من آراء وأفكار فى سياق مهذب، يحاول أن يقدم الحجج والبراهين لإقناع الآخرين.

وقد نشأت فى هذه البيئة فرصة مناسبة للجدل حول المستقبل، ومعالجة الأخطار المحدقة بالأمة، والآمال المعلقة على تنفيذ أفكار بعينها، أو رؤى بذاتها، ولا عجب أن تكون القضايا العامة التى دار حولها الجدل محل اهتمام من الفرقاء جميعاً، وإن عبّر كل فريق عن رأيه تعبيراً صريحاً مباشراً.

لذا، فإن قيمة الأسئلة المطروحة والإجابات التى سجلها الكتاب والأدباء الكبار يومئذ، تتجدد فى زماننا، وتظل مهمة للمعاصرين، وربما من يأتون بعدها، بسبب استمرار الظروف التى كانت سائدة فى مطلع القرن العشرين، وإن اختلفت الأزياء والأشكال.



إن العناصر المتطرفة أو شديدة التطرف، كانت ترى أن هناك حدوداً تقف عندها حرصاً على مشاعر الناس وأحاسيسهم



[٢]

مستقبل اللغة العربية..
يمثل قضية مهمة خاصة بالوجود الحضارى للأمة، فالأمة التى تفقد لغتها، وتنبطح

مستقبل اللغة العربية إذاً قضية قديمة جديدة

أمام اللغات الأخرى، تبعية واستسلاماً وتماهياً، تتحول إلى عنوان كبير، يؤكد ضياع الأمة وانسحاقها وهزيمتها الكاملة، وهو ما يجرى لأمم عديدة على مر التاريخ.. والعكس صحيح، حين تستعيد اللغة حضورها ووجودها وتجددها الدائم، فهى عنوان على القوة والسيادة والتفوق.

كانت اللغة العربية فى مطلع القرن العشرين تنهض رويداً رويداً، شعر عربى يستعيد الصياغة والرواء والنضارة التى عرفها فى أيام عزه القديم ومجده الراحل، ونثر يتماسك، وينفض عن نفسه تراب التكلف والتعقيد والخواء، ومدارس تعبير ترقى باللفظ والتركيب والصورة، فضلاً عن الفكرة والمضمون، وأجيال جديدة تتعلم وتدرس وتتثقف، وتقارن بين ما لديها وما لدى الأقوياء.. واللغة تنمو وتترعرع من منظور إسلامى وقومى ووطنى، أملاً فى مواجهة الغزاة والطغاة، وقد تحقق للأمة كثير من النجاح حتى ستينيات القرن الماضى، ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهى السفن، فقد تدهور التعليم مع اتساع رقعة المدارس والجامعات، بل إن الحياة اليومية صارت تشهد حوارات ومناقشات وأحاديث، تتدخل فيها الألفاظ والعبارات الإنجليزية والفرنسية، وراحت دول وحكومات تتراجع عن خطط التعريب، وتستسلم للفرنسية أو الإنجليزية فى الصحافة والتلفزة والإذاعة والندوات والمؤتمرات، بل تجد مسئولين عرباً لا يتورعون عن الحديث بالإنجليزية فى مؤتمراتهم الصحفية داخل بيوتهم ومقرات الحكم العربية، ولا يجدون غضاضة، والمترجم العربى، يترجم ما يقولونه إلى لغتنا العربية الأسيرة، ناهيك عن لوحات الإعلانات الكبيرة، وأسماء المحلات والشركات والمؤسسات والبنوك والمطارات والموانئ وغيرها، التى تعلو فيها اللغة الإنجليزية على اللغة العربية، أو تنفرد فيها الأجنبية تماماً، فلا تجد أثراً للغة العربية وحروفها..

بل إن الشبكة العنكبوتية (النت) دفعت كثيراً من الشباب العربى إلى استخدام كثير من مصطلحاتها الأجنبية فى التعامل اليومى، والكتابة عبر الرسائل الإلكترونية، والمدونات ونحوها..

وفى الوقت ذاته ينعقد مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنوياً، ويأتى علماء اللغة من البلاد العربية، ويلتقون ويتدارسون حال اللغة وما وصلت إليه، ويصدرون التوصيات التى تطلب



جبران خليل جبران



جميل صدقى الزهاوى



ميخائيل نعيمة

الاهتمام باللغة والحفاظ عليها، ولكن أحداً لا يستجيب أو يسمع، فالضغط قوى من ناحية اللغات الأجنبية، وأضحت معاهد وجامعات ومدارس ومناهج فى بلاد العربية لا تعرف اللغة العربية فى مقرراتها وكتبها وطرق تدريسها.

هناك مخلصون فى الجامعات والمدارس والإعلام يحاولون الوقوف فى وجه التيار أو الطوفان المتدفق ولكن إمكاناتهم محدودة، أمام الانبطاح العام الذى نتج عن «الدونية» أو الإحساس بها فى مناخ الضعف والمشكلات العامة المتجذرة.

ومن المفارقات أن الغزاة النازيين اليهود فى فلسطين المحتلة، بعثوا لغة مهجورة منذ آلاف السنين أعنى اللغة العبرية، وفرضوها فى المحافل الدولية، فضلاً عن الصحافة والتعليم والثقافة والتعامل اليومى والبحث العلمى فى كيانهم الغاصب، دون أن يخجلوا منها، أو يستشعروا الدونية، بل جعلوها لغة توحيد، لمن يسمونهم «يهود الشتات» الذين قدموا إلى فلسطين المحتلة من شتى بقاع الأرض بشتى اللغات واللهجات..

مستقبل اللغة العربية إذاً قضية قديمة جديدة، تستدعى طرح فتاوى كبار الكتاب والأدباء فى مطلع القرن العشرين مرة أخرى فى مطلع القرن الحادى والعشرين..

وتبدو وجهات النظر القديمة متطابقة إلى حد ما، مع وجهات النظر المعاصرة، مع الفارق الذى تفرضه طبيعة الزمان والأحداث، ولكن ما قاله القدماء صالح تماماً لمعالجة مستقبل اللغة العربية، ويحتاج منا إلى درسه وقراءته والتأمل فيه، خاصة أنه يأتى من مصادر متنوعة ومعقدة.

وهناك شبه اتفاق، بل اتفاق، على أن نهضة اللغة العربية تبدأ من التعليم أو المدارس، واستقلال الأمة، ولعل ما ورد فى إجابة «نقولا الحداد» يلخص ما أجمع عليه كبار الكتاب والأدباء فى إجاباتهم على الطريقة الأمثل لنهضة اللغة الفصحى ونشرها.. يقول:

«يلزم حتماً أن تنتشر اللغة العربية فى المدارس كلها، وأن تعلم بها العلوم، وانتشارها على هذا النحو يفتح باباً واسعاً للمطبوعات العربية، وبالتالى يعظم عدد قرائها وتترقى صناعة القلم جداً.

ومتى صارت العربية لغة التعليم وعم التعليم الأهلى الأمة كلها، تغلبت اللغة الفصحى على اللهجة العامية بحكم الطبع. ترى الشاهد على ذلك الآن فى كلام المتعلمين والطلبة، فإن كلامهم يبتعد عن العامى ويقرب من الفصيح.

أما إحياء اللغة فلا يتعمَّل تعملاً بوسيلة صناعية، لأن وسيلته طبيعية، وهى ما تقدم قوله من استقلال الأمة الذى يفضى إلى استقلال التعليم الأهلى، واستقلال التعليم يقضى باستعمال اللغة الوطنية فيه، فحياة اللغة موقوفة على إحياء الأمة بروح الحرية والاستقلال، فإلى الاستقلال!».

وإذا كان «نيقولا الحداد» يمثل فى كلامه روح الاتفاق العام على نهضة اللغة من قاعات الدرس بما يفضى إلى استقلال الأمة، وما أدراك ما معنى الاستقلال وأهميته فى ذلك الزمان، فقد كان هناك شبه اتفاق أيضاً على وسائل ترقية اللغة العربية وتنميتها..

فى مقدمة هذه الوسائل نقل الأدب الغربى إلى اللغة العربية، بوساطة المترجمين الأكفاء الممتازين، فهذا يدفع إلى انقلاب عظيم بما يُنقل من أساليب التفكير وطرائق التعبير، ونجد أن هناك من يشيد بالشباب النشيط فى ذلك الحين من أمثال: عبدالرحمن شكرى، وإبراهيم عبدالقادر المازنى، ومحمد السباعى، بحكم تفوقهم فى العربية واللغات الأجنبية أو اللغات التى ينقلون عنها فى آن واحد.

ثم هناك شبه اتفاق حول إنشاء مجمع علمى عربى، يكون كمجامع أوروبا، يعمل عملها ويأخذ بسنتها، وليس ما يطلق عليه المجمع اللغوى..«فإنما هى كتب فى دار الكتب»، كما يقول مصطفى صادق الرافعى.

ثم هناك شبه اتفاق على إصلاح تعليم العربية وآدابها، ونبذ الدفاتر الغثة التى يتم التدريس فيها، والرجوع إلى طريقة الرواة المتقدمين الجامعة (الإنكلوبيديا)، مما يجمع الفن والأدب واللغة والبلاغة، ويطبع الناشئ على الملكة الصحيحة، ويستحدث له ذوقاً فى لغته، ويقيم الكتب نفسها مقام العرب والرواق الذين كانوا هم أصل دولة البلاغة.

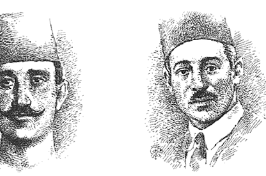
ثم هناك شبه اتفاق على عناية الصحف الكبرى بلغتها وكتابتها وأساليبها، فهى فى الأفق اللغوى كالهواء صحة أو وباء، وأن تحفل بالأدب، وتبذل فيه، ولا تخص السياسة دونه بشىء، فهو سياسة ألسنتنا وقوميتنا وتاريخنا. ولو كان التليفزيون آنئذ موجوداً، ومثله الإذاعات، والشبكة الضوئية (النت)، لأدرجوها مع الصحافة، فى السياق ذاته..

ثم هناك أمر أكد عليه «الرافعى»، وعياً منه بالطريقة المثلى لترقية اللغة، وتحويلها إلى ملكة لدى أبنائها، وهى وجوب حفظ القرآن الكريم أو أكثره فى المدارس، ولو على المسلمين وحدهم، مع درس الوجوه التى يجب أن يؤدى بها تأدية صحيحة، وذلك أساس متين، إن لم نحكم البناء عليه، فما أقرب أن يتداعى البناء كله، وهنًا وتراخياً، والأمر يومئذ لله.

وإذا كان هناك شبه اتفاق على عوامل إنها من اللغة العربية وتقويتها، فهناك



فإذا كانت الأمة قوية أو تأخذ بأسباب القوة، فإن اللغة تقوى وتتجدد وتنمو وتنتشر



مصطفى صادق الرافعى



سليم سركيس



محمد لطفى جمعة

وعى ملحوظ، فى توصيف الحالة التى تمر بها اللغة، وهذه الحالة لا تتعلق بحياتها ولا موتها، ولكن بضعفها وقوتها، فإذا كانت الأمة قوية أو تأخذ بأسباب القوة، فإن اللغة تقوى وتتجدد وتنمو وتنتشر، أما إذا كانت الأمة ضعيفة، فإنها تقلد القوى، وفقًا لنظرية أن المغلوب يقلد الغالب، وإذا استمر ضعف الأمة، فإن أمر اللغة ينتهى إلى الاضمحلال.

وتجدر الإشارة إلى أن موقف المستشرقين فى مجمله، كان أقرب إلى توقع مستقبل حسن للغة العربية، والإشارة بما قدمته فى صنع الحضارة الإسلامية، ويشير الأستاذ «ريتشارد كوتهيل» إلى أهمية اللغة العربية وغناها، ويرى أنها «بفضل تاريخ الأقوام، التى نطقت بها، وبداعى انتشارها فى أقاليم كثيرة، واحتكاكها بمدنيات مختلفة، قد نمت إلى أن أصبحت لغة مدنية بأسرها، بعد أن كانت لغة قبيلة واحدة»، ويشبهها بالإنجليزية التى اجتازت البحار، وقطعت القارات، وغدت أساسًا لمدينة جامعة.

ومع أن «كوتهيل» لا يرى سببًا يمنع جعل العربية لغة التعليم فى المدرسة وفى الكلية، بل يجب جعلها كذلك، إلا أنه يستثنى فلسطين حين تصبح وطنًا سياسيًا لليهود، إذ تكون العبرانية لغة التعليم فيها(!)، وكأن الرجل يعلم متأكدًا - مع أن الوقت كان مبكرًا - قيام دولة الغزاة النازيين اليهود فى فلسطين، وسيادة اللغة العبرانية فى أرجائه، وهو ما حدث بالفعل، وصار حقيقة واقعة بعد ربع قرن تقريبًا من حديثه لـ «الهلال».. ثم يستدرك الرجل على كلامه، وكأنه أحس أن هناك من يلاحظ كلامه عن فلسطين ونكبتها المتوقعة آنئذ، فيقول: «ولكننى أطلب جعل تدريس العربية إجباريًا لأنها لغة مواطنىّ اليهود فى فلسطين ولغة المدنية المحيطة بهم». ثم يضيف: «وإننى ممن لا يستحسنون جعل اللغات الأوروبية لغات تدريس عامة، بل أنا ممن يقولون بتدريسها فى الكليات وأندية العلم العليا».

ويربط الأب اليسوعى «لامنس» مستقبل اللغة العربية باتحادها الوثيق مع المدنية الغربية ويطلب من العرب أن يعنوا بلغتهم على أساس أنها لغة وطنية، وفى الوقت نفسه، عليهم أن يثابروا على تعلم اللغات الأوروبية التى مكنت السوريين (يقصد بلاد الشام) بوجه خاص أن يلعبوا دورهم التاريخى، ويرى أن العرب إذا جعلوا التعليم العالى باللغة العربية فإنهم ينعزلون شيئًا فشيئًا عن الحركة العامة، إذ تصبح اللغة الوطنية حاجزًا منيعًا دون مواصلة التقدم.

والمفارقة أن «سوريا» تكاد تكون الآن هى الدولة العربية الوحيدة التى تعتمد العربية الفصحى وسيلة التعليم العالى فى الطب والهندسة والعلوم والزراعة والاقتصاد وغيرها، دون أن يحول ذلك بينها وبين التقدم العلمى، واستيعاب المنجزات العلمية لدى الآخرين، وسوريا هى الدولة العربية الوحيدة التى تعقد اختبارًا أساسيًا فى اللغة العربية للمتقدمين للدراسة فى كلياتها التجريبية، مع الاهتمام باللغات الأجنبية..

ولكن الأستاذ «لامنس» ينسى أن التقدم العام له شروطه الخاصة، التى تتجاوز فرص اللغات الأجنبية على التعليم العالى، وللأسف الشديد، فإن بعض العرب فى العقود الأخيرة، رددوا كلام «لامنس» وغيره فى هذا المجال، وتناسوا أن دولاً عربية جعلت التعليم العالى، وخاصة فى الطب والهندسة والعلوم باللغات الأجنبية، ولم يحدث التقدم المأمول، مما يعنى أن للتقدم شروطه الأخرى التى لم يتحدث عنها هؤلاء!

هناك أصوت استشراقية بشرت بمستقبل العاميات، وانتصارها على الفصحى، التى ستبقى فى أفضل الأحوال لغة تعبير عن الموضوعات الأدبية، وهناك من طالب بتسهيل الفصحى وتعديل حروف الكتابة وإصلاح الأساليب.. إلخ، وقد ردد البعض منا - ومايزال - هذه الآراء، لدرجة أن هناك من طالب بإلغاء النحو، وهتف بسقوط «سيبويه»، دون أن يولى وجهه شطر الأسباب الحقيقية لتراجع اللغة الفصحى وتعثرها فى أقطارنا العربية، وفى مقدمتها ضعف العرب كما سبقت الإشارة أو «طموّ التمدن الأوروبى» وتعزيز هيمنة الغربيين، وامتداد سلطتهم، وتسلطهم الأدبى والسياسى حسًا، كما يقول الأستاذ «جبر ضومط»، مما يعنى إقبال المغلوبين على آداب الغالبين ولغتهم، وإهمال آدابهم ولغتهم الوطنية نوعًا.

[٣]

تمثل قضية النهضة العربية الركن الأساسى فى حركة البلاد العربية فى العصر، وهى الشغل الشاغل لكل المهمومين بمستقبل الأمة، وكانت مجموعة الأسئلة التى وجهتها «الهلال» لكبار الكتاب والأدباء حول «النهضة» دليلاً على شوق عارم يتحرك فى أحشاء العرب، ليلحقوا بركب الحضارة الإنسانية، من حيث المشاركة والبناء والقوة والإبداع وهو أمر مازال قائمًا فى أيامنا، مع وجود مظاهر عديدة لهذه النهضة. بيد أننا لو تأملنا السؤال الأول الذى يقول: «هل تعتقدون أن نهضة الأقطار العربية قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء أم هو فوران وقتى لا يلبث أن يخمد؟».

والمهم فى السؤال هو البحث عن أساس النهضة الوطيد، أى الدائم، وليس المؤقت، مما يعنى أن طرح السؤال ينطلق من مفهوم دقيق للنهضة وطبيعتها ومستقبلها أيضًا.

ولعل هذا كان من وراء شبه إجماع أيضًا بين المستفتين على ضرورة الحفاظ على الشخصية القومية، أو الهوية التى تشكل ملامح الأمة، مع الاستفادة بما يلائم هذه الهوية أو تلك الشخصية.

لقد كان هناك شبه يقين أن النهضة العربية الحديثة قائمة على شعور عام يملأ نفوس الأمم الشرقية عمومًا، شعور بشىء من احترام النفس والكرامة القومية، وهو أثر من آثار اليقظة العمومية فى الشرق، وقبس من ذلك النور الداخلى فى حياة شعوبها الواقعة تحت سيطرة الغريب، أو هو نار من ذلك البركان الاجتماعى الذى قد أخذ ينفث حممه فى كل أمة لم يزل فيها رمق من الحياء.

ومع إدراك الكتاب أن أقطار الشرق مازالت فى دور الحداثة، ولم تصل إلى مرحلة البلوغ والنضج، فقد كان موقفهم من اقتباس عناصر المدينة الغربية فى اللغة والأدب والسياسة والاجتماع، قائمًا على الاختيار والاصطفاء، لا التبعية والتماهى. إن إجابة الأستاذ «أنيس الخورى المقدس» على هذه النقطة: نعم ولا. نعم إذا أريد بالعناصر الغربية محاسن ما عند القوم من أسباب المدنية والعمران، كأسباب الصناعة والإدارة والعلوم الطبيعية موضوعات الآداب الراقية واستعمالها لأجل ترقيتنا صناعيًا واجتماعيًا وأدبيًا..

ولا.. إذا كان المراد تقليد المدنية الغربية تقليدًا أعمى يذهب بشخصيتنا القومية، ومحاسن عواطفنا الشرقية.

وهذه الرؤية هى نفسها التى تبناها الدكتور «طه حسين» تقريبًا، وخالف فيها ما ذهب إليه بعدئذ فى كتابه الشهير «مستقبل الثقافة فى مصر»، فهو هنا يشير إلى أن المصريين والسوريين- الذين يمثلون طليعة النهضة العربية الحديثة - مضطرون بحكم الطبيعة الاجتماعية، والمنفعة، إلى أن يقتبسوا نظم الحضارة الغربية، ولكن هذا الاقتباس يجب أن يتفاوت قلة وكثرة. ويشرح «طه حسين» هذا الاستدراك، بالقول:

«فأما من الوجهة السياسية فيجب أن نمضى فى ذلك مسرعين، لا يقيدنا إلا شىء واحد، وهو استعداد شعوبنا لقبول النظم



لقد نظر كتاب آخرون إلى الحضارة الغربية نظرة فاحصة، فرأوا فيها مزايا وعيوبًا



السياسية المعتدلة أو المتطرفة. فالجمهوريات مثلاً ممكنة جداً فى سوريا، ولعل نظامها شىء من الاعتدال أشد النظام ملاءمة لأحوالها السياسية والدينية والاجتماعية والجغرافية. وهذا النظام نفسه مستحيل خطر سيئ العاقبة فى مصر. فيجب أن تسلك مصر طريقها الملكية الدستورية، على أن يكون دستورها أقرب الدساتير إلى النظام الحر الذى تستمتع به البلاد الإنجليزية. وكذلك قل فى العلم. فيجب أن نندفع فى الطرق العلمية الغربية اندفاعاً لا حد له إلا مقدرتنا الخاصة، لأن العلم قد أصبح غربياً خالصاً، وليس لنا فيه نصيب قومى. وعلى العكس من ذلك فى الفن والأدب والحياة الاجتماعية. فلنا فنوننا وآدابنا ونظامنا الاجتماعى. وواجبنا هو أن نحتفظ بشخصيتنا قوية واضحة فى هذه الأشياء، وألا نقتبس من أدب الغرب وفنه ونظامه الاجتماعى إلا ما يمكن شخصيتنا من أن تنمو وتتطور وتحتفظ بما بينها وبين العالم المتحضر من الاتصال».

وهناك من شرح وأفاض فى مضمون ما ذهب إليه طه حسين وأنيس الخورى المقدس، وأضاف إليها تفصيلاً لما يحمله التشريع الإسلامى من مرونة تامة، ويستشهد بما أخذه العرب فى صدر الإسلام من أنظمة الروم والفرس، وطبقوها فى الشام ومصر والعراق وفارس وما وراء النهر. ووضعوا نظام حكوماتهم على هذه النظم الأجنبية عنهم، ولم يتحرجوا فى اختيارها والعمل على أصولها.

بيد أنه من الملاحظ أن التشديد كان على اقتباس العادات الغربية، فقد طالب المستفتون، أو كثير منهم، أن يكون هذا الاقتباس موضع التدقيق والحذر، حتى لا يدخل منه إلا محاسن الأخلاق، وقويم العادات:

إنما الأممُ الأخلاق ما بقيتْ
فإن همُ ذهبتْ أخلاقهم ذهبوا

«وللغربيين عادات كثيرة يشكون منها ويتأففون، ولكنها تأصلت فى مجتمعهم، وتورطوا فيها، فلم يعد لهم مخرج منها ولا محيص عنها، كالخمور وتبرج النساء وغيرها. فليحذر الشرقيون خطر الوقوع فى وعثائها، فإنها أمراض اجتماعية معضلة».

وهذا كلام «أمين واصف بك» الذى يستشهد بمقولة للأستاذ المحقق «إدوار مونتيه»، جاء فيها: «إن احتفاظ المسلم بعقيدته، وفيها ما يوجب عظيم احترامها، وممارسته لآداب لغته، وفيها ما يدعو للإعجاب بها، لا يحولان قط دون تحرير الإسلام، فإن الإسلام يمكنه فى تطوره أن يتمشى جنباً إلى جنب مع أرقى الأمم التى تحكم العالم الآن، ويتخذ سبيلها التى رسمته للحياة والمدنية من غير أن يحمل المسلم على ترك عقائده، أو ينصرف عن ممارسة لغته الجميلة وآدابها الرائقة».

ويلحق «أمين واصف بك» رأيه بالإشارة إلى ضرورة أن تكون التربية على الأصول الدينية للمسلمين وغيرهم من الشرقيين، فإن التربية - كما يرى - إذا خلت من عواطف الدين كانت ضعيفة الأثر فى الأخلاق والضمائر. فليس كالدين فى سلطانه على الضمائر، ولا يخفى عليك أن العظمة الشخصية والقوة المعنوية للأمم، لا تأتى إلا من طريق الدرس المنظم، أو التربية العملية للعقل والقلب معاً.

وإذا كان الرغبة فى إنهاض العرب وتفوقهم تدفع بعض الكتاب إلى السخرية من الواقع العربى أو هجائه، مثلما نرى فى آراء ميخائيل نعيمة، وجبران خليل جبران، فإن هناك من رأى أن يلحق العرب بالغرب تماماً، ويطالب بتغيير نظم الحكومة والعائلة والطبقات الاجتماعية، والإنتاج الاقتصادى والأسلوب الكتابى..

لقد رأى «سلامة موسى» تحقيق هذه الأفكار بضرورة تهيئة العقول، بنشر حقائق التاريخ الطبيعى، وأصول الأديان التاريخية، والأفكار الديمقراطية الحديثة.

ويضيف أنه ليس هناك حدٌ يجب أن نقف عنده فى اقتباسنا من الحضارة الأوروبية. والحقيقة كما قلت: إن فى العالم العربى الآن صراعاً بين المبادئ الآسيوية(؟) التى ينصرها ويذود عنها رجال الدين، والمبادئ الأوروبية التى يدين بها ويعمل فى نشرها طبقة صغيرة عدداً، ولكنها كبيرة حرمة وجاهاً، لأن فى يدها مقاليد الأحكام، فهذه الطبقة تستطيع أن تحضر العالم طفرة بسن القوانين، كأن تعاقب مثلاً المرأة المتحجبة، كما عاقبت حكومة الصين الرجال الذين يرخون ذؤابات على رءوسهم. ولا قبل لنا بانتظار التطور الاجتماعى.

ويذهب «سلامة موسى» بعيداً فى غلوه وتطرفه بالدعوة إلى ما يسميه «الرقابة النيرة»، لمنع من يسميهم «الرجعيين» ذوى الثقافة «الآسيوية» من نشر آرائهم فى صحفهم، أو طبعها



محمد كرد على

للجمهور، فلا ينبغى مثلاً لصاحب المجلة أو الجريدة أن ينشر دفاعاً عن الحجاب أو ما شابه ذلك!

ولا شك أن الفكر «القمعى» الذى يتبناه «سلامة موسى»، ينبع من اعتناقه للأفكار الشيوعية المتطرفة، التى عاشها فى صدر شبابه، ثم قلقه الواضح فى التفكير، وتحولاته الحادة التى جعلته يرى أن علة العلل ورأس بلواها فى الأقطار العربية تكمن فى الاعتقاد بأن هناك مدنية غير المدنية الأوروبية.. ثم حملته الضارية على ما يسميه «المبادئ الآسيوية» وهو يقصد الأديان السماوية، خاصة الإسلام، ومن يسميهم «رجال الدين»، أى علماء الإسلام..

والشكل أن رجلاً يعد متحرراً مثل «سلامة موسى» يشغل نفسه بمسألة مثل «الحجاب»، ويدعو إلى سن القوانين لمعاقبة من تتحجب، ومنع نشر الدفاع عن الحجاب وما شابه. إن هذا المنهج «القمعى» ينسف الادعاءات التى أطلقها الرجل عن فتح الباب على مصراعيه للحضارة الأوروبية والمبادئ البرلمانية والديمقراطية والاشتراكية.

آراء «سلامة موسى» صادمة للمجتمع العربى المسلم، ولكنها نُشرت فى «الهلال» آنئذ، وجمعت فى كتاب الفتاوى، مما يدل على التسامح الإسلامى العريض، ولعله فى مقابل ذلك لم يستخدم لفظة صريحة واحدة تشير إلى «الإسلام»، بل وضع أفكاره فى إطار مجازى من قبيل «المبادئ الآسيوية»، «رجال الدين»، «الرجعيين»..

وفى كل الأحوال، فقد كان الرجل نشازاً فى آرائه التى عبرت عن عاطفة مشبوبة بالانفعال، أكثر منها تعبيراً عن عقل يدرس ويتأمل ويحقق، كما نرى مثلاً فى آراء المستشرق الأمريكى الأستاذ «وليم وريل» الذى يتحدث عن «الديمقراطية» فى أمريكا، بأنها لا تزال «رهن التجربة»! مع أن العالم بأجمعه يؤمن بالديمقراطية وينتظر من ورائها خيراً. ويشير إلى أن الديمقراطية تحتاج إلى التعليم العام الذى لم ينتشر بعد فى البلاد العربية، كما أنها تحتاج إلى «روح عامة» لم تتكون بعد فى الشرق كما يبدو. ففى الشرق يوجد ولاء للقبيلة أو للأسرة أو للدين، وفيه أيضاً وطنية فى طور الابتداء والتكوين، ولكن ليس هناك - كما يرى - روح عامة، أو ميل عام لفعل الخير.

لقد نظر كتاب آخرون إلى الحضارة الغربية نظرة فاحصة، فرأوا فيها مزايا وعيوباً، فبينما تجد عجائب العلم وآيات الصناعات، تجد إلى جانب ذلك شيئاً من فوضى العقول، وفوضى النظام، وفوضى الأخلاق..

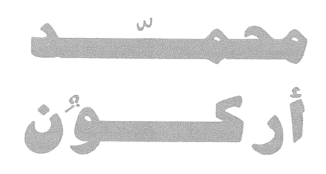
فما مذاهب الاشتراكية المتطرفة، والبلشفية، والفوضوية وغيرها، إلا فوضى عقلية، إثمها أكثر من نفعها، ولله الحمد - كما يقول أمين واصف بك - إن هذه النظامات الاجتماعية لا تتفق والتعاليم الإسلامية، ولا تنبت فى أرض إسلامية إلى حين.



ومهما يكن من أمر، فإن الجدل الذى حمله كتاب «فتاوى كبار الكتاب والأدباء».. كان يمثل حلقة فى النهضة العربية ذاتها، بدليل أن قراءته بعد تسعين عاماً، كشفت عن قيمته فى معالجة قضايا اللغة والنهضة جميعاً..

ونحن اليوم أحوج ما نكون، إلى قراءة مسار النهضة منذ القرن الماضى حتى الآن، ومراجعة الآراء التى تضمنها الكتاب، على ما وصلت إليه الأحوال فى البلاد العربية، وما استجد من ظروف، فمازالت الأسئلة التى طرحها «الهلال» قائمة، وأيضاً مازالت الأجوبة قائمة، وصالحة لمعالجة قضايا اللغة والنهضة..

أضف إلى ذلك ضرورة القراءة الواعية لتراثنا العربى الإسلامى الهائل، وما تضمنه من إمكانات هائلة يمكن أن تخدم مسيرتنا، وتدفع حركتنا إلى الأمام، على أن تكون القراءة مصحوبة بالمقارنة مع ما قدمه، ويقدمه الغرب من أفكار وآراء، قد تفيد فى بلورة رؤية أو رؤى أكثر نضجاً واكتمالاً، وتوفر مزيداً من المتاعب والآلام! ■



قراءة في ما كتب

■■ يمثّل محمد أركون، في اعتقادنا، حالة استنساخ أنموذجية للاستشراق، بكل ما احتمله من دعاوى وتنفّجات؛ وعلى ما في قولنا هذا من «ايجاز»، فإنه أشبه شيء برؤوس المسائل التي يقع تحتها كلامٌ كثير يقتضي المقام أن نجتزئ بما يفيدنا منه في مسألة تفسير القرآن عنده. وهي مسألة تجتمع فيها شبهات الاستشراق اجتماعها القصديّ المسبق فيما يتعلق بالسيرة النبوية وبتاريخ الإسلام جملة.

وإن مما نُثْبتُه ابتداءً أن آراء محمد أركون، فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم، ثم بتحليل الخطاب القرآني، تأتي في سياق ما يسمّيه تطبيقاً لاشكاليات ومناهج اللسانيات والسيميائيات، وكان أول ذلك ما كتبه في مقدمته لترجمة كازيميرسكي للقرآن (١٩٧٠) التي جمع إليها بحوثاً أخرى ونشرها عام ١٩٨٢ تحت عنوان «قراءات من القرآن» ثم صدر كتابه «القرآن من التفسير الموروث الى تحليل الخطاب الديني» عام ٢٠٠١م متضمناً ثلاثة فصول من كتابه السابق هي: «قراءة سورة الفاتحة» و«قراءة سورة أهل الكهف» و«احتجاج المشركين وأهل الكتاب على قضية التنزيل أو موقف المشركين من ظاهرة الوحي»، مضافاً إليها الفصل المعنون بـ«المكانة المعرفية والوظيفية المعيارية» للوحي القرآني.

ويحرص محمد أركون ابتداء على إحاطة عمله هذا بما يتعاظمه من أمر تكوينه العلمي واحاطته بالأرضية المفهومية الخاصة باللسانيات والسيميائيات الحديثة مع ما يصاحبها من أطر التفكير والنقد الابستمولوجي، شأنه في ذلك شأن المستشرقين الذين يبالغون في تعظيم ما يرون أنهم يحذقونه من «الفيلولوجيا» أو فقه اللغة، كما يحرص على تنبيه قارئه الى أن عمله أبعد شيء عن ذلك «الاحتجاج والإدراك والتأويل والتفسير الذي يتم في الإطار المعرفي العقائدي الدوغمائي». وأدخل شيء في «التحليل والتفكيك للخطاب الديني» أي لإبراز ما يراه في الخطاب النبوي «وهو يقصد الوحي الإلهي» من صفات لسانية لغوية وآلات عرض واقناع وتبليغ ومقاصد معنوية خاصة.

وليس يخفى على الناظر أن محمد أركون يعلن انتسابه إلى المدرسة الاستشراقية التقليدية بتوكيده على الجانب الفيلولوجي من جهة وبتوكيده أن القرآن خطاب نبويّ لا إلهي، إذ لطالما اتخذت الفيلولوجيا سبيلاً الى تلمّس أصول اسطورية للقرآن الكريم، من ثقافات الأمم الغابرة. كما اعتبر القرآن «نصاً» محمدياً وإن كان أركون يحتاط فيقول إن مفهوم الخطاب النبوي يُطلق عنده على «النصوص المجموعة في كتب العهد القديم والأناجيل والقرآن» وإن التعريف والتفهم اللغويين للنصوص (تلك الدعوى الاستشراقية المعروفة) لا يلغيان التعريف والتفهم اللاهوتيين. وإن كان يزعم أن التحليل اللغوي والسيميائي سابق منهجياً وابستمولوجياً على التحليل والتأويل اللاهوتيين!



ولقد يكون غاب عن أركون أن الأناجيل التي بين أيدي الناس تقع جميعها في باب «السيرة» على حين تقع التوراة التي بين أيديهم في باب الحكايات والتواريخ الخاصة والقوانين. أما في الإسلام فثمة سيرة نبوية، وحديث نبوي، وحديث قدسي، وقرآن كريم. وليس يجوز، إلا في موازين الاستشراق العرقي المتعالم، اعتبار القرآن والحديث القدسي جزءاً من «الخطاب النبوي» على نحو ما يذهب أركون.

ثم إن المساواة بين التوراة والإنجيل على نحو ما انتهينا إليه وقت نزول القرآن وبين القرآن مساواة غير موضوعية لأنها تساوي بين المنقود والناقد، وبين المشهود والشاهد. إذ جاء القرآن الكريم بنقض شمولي للاهوت اليهودي المسيحي. وإذا جاز له أن يتحدث عن الدوغمائية التي تتحكم بالأذهان بحيث يجعل صاحبها الحقيقة حكراً عليه وأن يراها الملمح الرئيس في المشهد العقدي ما قبل الإسلام، فليس يجوز له ذلك في دين جاء مشتملاً على نقد محيط بالعقائد التي تدفع حامليها إلى إطلاق أحكام ببطلان الآخرين وبأنهم «ليسوا على شيء». فالمدرسة النقدية القرآنية بعيدة عن مثل هذا الإطلاق، وهي ترى أن أهل الكتاب ليسوا سواء في الأخلاق كما أنهم ليسوا سواء في الاعتقاد كما أن آياته بيّنات في أن العبرة ليست بالاختلاف، إذ هو سنّة كونية وتقدير ربّاني ولكنها في الإيمان والعمل الصالح أيّاً كان صاحبهما، ومن أي دين كان..

إن هذه السذاجات إذا جمعت إلى دعوى الفيلولوجيا التي اتخذها الاستشراق التقليدي المرتبط بالتبشير والاستعمار، جاءتنا بأخبث الثمار. وإذا شئنا مثلاً على تنفجات الفيلولوجيا الاستشراقية فنحن واجدوها في المستشرق الفرنسي بوستل الذي كان يجمع معارف سطحية من كل من اللغات الجيورجية والصربية والعربية والعبرية

إبراهيم العجلوني

في عدد أكتوبر ٢٠٠٨، نشرت وجهات نظر عرضا للدراسة المتعمقة التى أعدتها دكتورة نايلة أبى نادر عن التراث والمنهج عند أركون والجابرى (الشبكة العربية للأبحاث والنشر - بيروت)، والطبيعى أن مفكرا بقامة أركون سيظل موضوعا للجدل والاختلاف، وهنا تعقيب للكاتب الأردنى ابراهيم العجلونى أراده استطرادا يراه ضروريا لما سبق أن قدمناه هنا.

المحــــرر

والألمانية والأرمنية واللاتينية واليونانية والتركية والايطالية والاسبانية والحبشية والسامرية والبرتغالية والسريانية «الكلدانية الحديثة» تحت وهم أن هذا الانتشار الأفقى الطائر كفيل بتزويده بعمق التحليل وبفهم الجذور الأولى للأفكار والعقائد من جهة، وكفيلة من جهة أخرى بإبهار السياسيين من غير المشتغلين بالأديان والعقائد واللغات، بحيث يسارعون إلى استفتائه وغيره من المستشرقين، والى اعتمادهم مستشارين للحملات العسكرية والثقافية التى كانت وما تزال تُشَنّ على الشعوب العربية الإسلامية.

فإذا زدنا على ذلك أن هذا المستشرق تعلم العربية على يد معلم تركى فإن لنا أن ندرك حجم المزاعم التى جاءت بها الفيلولوجيا الاستشراقية، والتى يرفع رايتها محمد أركون ولا يغادر دوائر مقاصدها.

ولايترك محمد أركون، مُنْذُ مقدمة كتابه، فرصة للتلويح بأشكال الفيلولوجيا الحديثة من لسانيات وسيميائيات وانثروبولوجيا وسوسيولوجيا دينية، وعلم نفس تاريخى، لتوكيد أن القرّاء «المؤمنين» لن يكون باستطاعتهم فهم قراءاته، وأن رفضهم لهذه القراءات متأت من قصور وعيهم ومن سيطرة «التفسير الموروث» عليهم.

يقول هذا بعد أن يلوّح بما يشبه إلقاء القنابل الدخانية، بما يسميه «المثلثات الانثربولوجية» وهى أطر تحكميَة خالصة يجترحها، كمثلث «العنف والتحريم والحقيقة» أو «الوحى والتاريخ والحقيقة» أو «اللغة والتاريخ والفكر»، الأمر الذى يعطى محاولاته طابع التجريب الذاتى على الفهم ويحول دون أن تؤخذ مأخذ النظر العلمى الموضوعى الجاد..

وإذ نجهد فى دفع التعالم الفيلولوجى الاستشرافى القائم على أوهام الإحاطة بجذور اللغات ونُظمها كافة، فإننا لا نغفل دور «فقه اللغة» فى تفسير القرآن الكريم، ولا ننكر فى الوقت نفسه أهمية الدراسة المقارنة للغات أو أهمية الاطلاع على أكثر من لغة فى حدود المعقول المقبول من هذا الاطلاع لا خارج حدود المعقول من ضروب الادعاء..

نشير هنا الى ان تفسير الإمام الفخر الرازى يشتمل على مقدمة فى العربية ونحوها وبلاغتها تقع فى حدود ستين صفحة من القطع الأكبر وأن ثمّة تفسيراً هو البحر المحيط جعل اللغة أكبر همّه وأن ثمّة إعراباً للقرآن كله، وأن العرب والمسلمين باشروا كل ذلك أو أخذوه بقوّة ولم يكونوا فيه يدعون فلسفة فى العلم تؤهلهم للنظر باستعلاء إلى الأمم والشعوب.

أما أن الانتشار الأفقى على السطوح الخارجية للغات يتأدّى الى علم يقينى ثابت بالثقافات ويؤسس لانثربولوجيا لغوية قادرة مقتدرة، فيدفع ذلك أن شارح أرسطو الذى تتلمذ عليه اساطين أوروبا فى بدء نهضتها الحديثة وهو(ابن رشد) لم يكن يتقن من اللغات غير العربية، فالتعمق والتثبّت والتبيّن؛ كل ذلك لا يكون بالطيران فوق الثقافات، ولكن يكون بدَرك منجزاتها على سبيل التمكن، وذلك ما أخطأه الاستشراق الاستعمارى، على الرغم من دعاواه العريضة قديماً وحديثاً..

ويتصل بالمسألة السابقة ما يأخذه محمد أركون على المسلمين عرباً وغير عرب من تقاعسهم -كما يرى- فى ترجمة كتاب المستشرق «يوسف فان اس»: «اللاهوت والمجتمع فى القرون الهجرية الثلاثة الأولى» وهو الكتاب الذى يكفى -عنده- أن يتصفح المرء الفهارس وقائمة المراجع القديمة والحديثة التى اعتمد عليها المؤلف وحللها (!) أدق تحليل (!) (وهو التحليل العلمى الذى اشتهرت به المدرسة الفيلولوجية الألمانية منذ القرن التاسع عشر)؛ لكى يُقيّم الثروة العلمية لهذا الكتاب.

وواضح هنا أن طول قائمة المراجع (وهى مسألة شكلية فى أغلب الأحيان) لا تتواءم دائماً مع التحليل العميق الذى يشير إليه أركون فى سياق «انبهاره» بالفيلولوجية الألمانية، وأنّ ثمة كتباً مثل «أساس التقديس» للرازى و«مقال فى المنهج» لدكارت و«القسطاس المستقيم» للغزالى أو «المنقذ من الضلال» للغزالى أيضاً، أو «مقدمة شرح الأصول الخمسة» للقاضى عبدالجبار أو غير ذلك من الكتب التى تركت أثراً عميقاً فى مجرى التفكير الإنسانى لم تكن مزوّدة بقوائم للمراجع قديمها وحديثها بل لم يكن أصحابها بحاجة إلى مثل هذه القوائم لبيان مبلغ اطلاعهم أو غزارة معارفهم.

كانت «نصوصهم» هى الدليل على معارفهم وعلومهم ومناهجهم وكان عمق النظر ومنطق سياقاته هو البرهان الذى ما وراءه برهان على ما حصّلوه من ذلك.

ولا يكتفى أركون بالترويج لهذا الكتاب الذى يتوفر مؤلفه على «مرحلة التكوين»، -وكم من خائض اليوم فى شأن هذه المرحلة بقصد اثبات أن القرآن وهو محورها الأساس كان انتاجاً محمدياً لا وحياً إلهياً- بل نراه يؤكد أن هذا الكتاب ضرورة ووضع لا بُدّ منه وأنه لو تُرجم لكان سبباً فى دفع القمع الفكرى والسياسى.

وإذْ لا نعدم من يوافق أركون على أهمية هذا الكتاب أو على أنه «ضرورى» لفهم مناهج الاستشراق فإننا نؤكد جانب المبالغة والغُلوّ فيما يقول، فضلاً عما نراه-فى رؤية علمية أقرب الى الواقع- من ضرورة تحقيق ما يقارب خمسة ملايين مخطوطة عربية متناثرة فى أرجاء العالم، واستخلاص كنوزها المعرفية وتقديمها للعالم، كل العالم.

إن فى هذه المخطوطات من العلوم ما تحتاج إليه البشرية كلها لا العرب والمسلمون وحدهم وهى قارة مفقودة (اطلانطس) غارقة فى الظلام، وعلى اكتشافها المعوّل (بعد القرآن الكريم والسنة النبوية المشرّفة) فى تقديم صورة حقيقية لمراحل تكوين العقل الإسلامى.

ولا يفاجئنا أركون فى حديثه بعد ذلك عن مفهوم الوحى كما يراه وتراه المدرسة الاستشراقية التى ينتسب إليها، وعن ما يسميّه «المصحف الرسمى المغلق»، وعن «القراءة اللاهوتية الأرثوذكسية للوحى، بالمعنى السنّى والشيعى والخارجى». الى غير ذلك مما تتطلبه مقتضيات «ما وراء الحداثة» من رفض لكل مرجع، أو مما يقتضيه التجديد الأركونى فى ظلال الفيلولوجيا الاستشرافية..

لا يفاجئنا أركون
فى حديثه بعد ذلك
عن مفهوم الوحى كما يراه وتراه
المدرسة الاستشراقية
التى ينتسب إليها

ومهما يكن الأمر فى هذه الأسس التى يقوم عليها الفكر الأركونى فنحن إذا ما أخضعنا نظام فكره لمنهجيَة (الحفر الأركيولوجى العميق) التى يدّعيها، من أجل اكتشاف بناها التحتية المدفونة فإننا واجدون أنّه -وباختصار- قناع جديد للاستشراق الاستعمارى الذى يريد، بدعوى الحداثة وما وراء الحداثة وبدعوى العولمة واستحقاقاتها إنهاء اليقينيات، كل اليقينيات التى قد تدفع إلى مقاومة الاستعمار أو التى تدفع إلى مقاومة تذويب الثقافة أو إلغاء التعدديات التى هى بنى أصيلة يتمايز بها البشر فى كل زمان ومكان، ولا يزالون..

إذا كان ما تقدّم مُنْصَبّاً على ما قد نسميه «النظرية الأركونية» التى هى «استنساخ فكرى» بامتياز، فإن منهجه فى قراءة سورتى الفاتحة والكهف، يقفنا على كيفية بلوغ هذا الاستنساخ عنده مداه الأقصى وعلى كيفية انضوائه الأمثل فى فيلق المستشرقين، القدماء منهم والمحدثين، ولكنّ ذلك ينبغى أن يكون منظوراً إليه فى ضوء حرص أركون على تلبية المطلب الاستشراقى بنزع القداسة عن القرآن الكريم وبمساواته بغيره من النصوص، إذ بحسب ما يقول: «لا يمكن استثناء أى نظام من أنظمة الحقيقة بحجة أنه إلهى منزّل، وغيره بشرى زائل أو دنيوى عرضى» ولقد جرّه ذلك -فى امتثالات أخرى لمطالب الاستشراق الاستعمارى- الى اعتبار القرآن نصاً له حياة وموت، والى ما وراء ذلك من بعيد ضَلالة ومزيد عماية وبالغ تخليط..

ولعل فى مقدمة المطالب الاستشراقية ما يذهب إليه أركون من أنّ القرآن الكريم قد «أثبت حرفياً أو كتابياً بعد القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى» إذ القرآن -بحسب ما طلب إليه أن يقرر «لم يثبت كلياً أو نهائياً فى عهد عثمان على عكس ما نظن، وإنما ظل الصراع حوله محتدماً حتى القرن الرابع الهجرى حين أغلق نهائياً باتفاق ضمنى بين السنة والشيعة» حيث اعتبر بحسب اركون «نصاً نهائياً» لا يمكن أن نضيف إليه أى شىء أو نحذف منه أى شىء».

وواضح هنا أشد الوضوح أن محمد (!) أركون يتجاهل



حقائق تاريخ ثابتة: أولها أن القرآن جُمع كاملاً فى الصدور وكتابة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه عُرض كاملاً عرضتين على الرسول الكريم قبل وفاته عليه صلوات الله وسلامه، وأن نسخاً مكتملة منه كانت فى حوزة عدد من الصحابة الكرام، وأن المصحف العثمانى اعتمد هذه النسخ (المكتوبة) فى تحرير المصحف الشريف الذى يقرؤه المسلمون اليوم كما تنزّل على نبيهم الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه.

بيد أن أركون غير معنىّ هنا بالحقائق الثابتة، وهو يختلق إرضاء لسدنة الاستشراق مؤامرة سنية شيعية (أو بحسب ما يقول اتفاقاً ضمنياً) تم عقده فى القرن الرابع الهجرى، حيث لم يعد بالإمكان اضافة أى شىء لنص الكتاب. وهذا يوحى بالضرورة بأن الكتاب ليس تنزيلاً أحكمت آياته واكتمل نهائياً فى عصر النبوة، بل هو مجموع ما كتبه المسلمون خلال أربعة قرون، تماماً كما كان من النص التوراتى الذى يقرؤه الناس اليوم. فانظر كيف تأدّى طلب رضاء السادة المستشرقين الى مثل هذا التخريف. وانظر أى منطلقات علمية (!) للرجل، وأى هُوى معرفى وأخلاقى اداركت آراؤه (ما بعد الحداثية) فيه..

ويتساءل أركون، الى ما تقدم، «عن التصحيحات أو التحفظات، التى ينبغى اجراؤها لكى نستطيع أن تطبق على القرآن تلك المواقف الفكرية الملخصة من كتاب لكلود ليفى شتراوس: «الإنسان العارى» يقول فيه: «إن كل عمل أدبى ابداعى، شفهياً كان أم كتابياً لا يمكنه أن يكون فى البداية إلا فردياً، ولكن إذا سُلّم بسرعة الى التراث الشفهى كما يحصل ذلك لدى الشعوب التى لا كتابة لها، فإن المستويات المركبة أو الراسخة التى ترتكز على أسس مشتركة تظل هى وحدها الثابتة؛ أما المستويات الاحتمالية فتُبدى قابلية كبيرة جداً للتغير أو التحول المرتبط بشخصيات الرواة المتتالين، ولكن فى أثناء حصول عملية النقل الشفهى تصطدم المستويات الاحتمالية ببعضها البعض ثم تتآكل بفعل هذا الاصطدام محررة بالتدريج -من كتلة الخطاب الأساسية- ما يمكن أن ندعوه أجزاءه البلورية الشفافة؛ وإن الأعمال أو المؤلفات الفردية (ما يزال الكلام هنا لشتراوس) هى جميعاً أساطير محتملة أو أساطير كامنة بالقوة، ولكن تبنّيها على مستوى الهيئة الاجتماعية هو وحده ما يجسد إذا ما لزم الأمر، اسطوريتها».

إن استشهاد أركون بهذا النص على طوله هو لون من ذر الرماد فى العيون، واستظهارٌ بقامة محترمة فى الانثروبولوجيا، فى سياق مختلف تماماً فنحن إذ لا نمارى فى أن بعض الأعمال الأدبية أو الحكايات تبدأ فرديّة ثم تتغير أولاً بأول على شفاه الرواة، تماماً كما هو الأمر مع الفولكلور الغنائى حيث يساهم الشعب، جيلاً بعد جيل فى تكوين نصوص مختلفة على نحو أو آخر عن بداياتها عند مبدعيها الأوائل، ويقول المثل الشعبى فى مثل ذلك «إن ابن الحكاية يكبر بسرعة»، كما أننا لا نمارى فى أن مخض العصور سيستقر (مع تسجيل الروايات وضبطها) على صيغ ثابتة للأعمال الأدبية والحكايات الشعبية؛ ولا فى أن كل ابداع فردى قابل لأن يتطور الى اسطورة أو أنه أسطورة بالقوة على نحو أو آخر؛ إلا أن هذا كله غير ذى صلة بالقرآن الكريم الذى بيّنت آياته الكريمة امتيازه عن «اساطير الأولين»، فضلاً عن كونه محفوظاً بنصه المنزل كما أنزل، وكما رتبه سوراً وآيات سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

وإنّ فى توظيف أركون لهذا النص -من شتراوس- لدلالة على ضعف أطروحته حول القرآن الكريم. بل على ضعف أطاريح الاستشراق الاستعمارى الذى يدّعى وصلاً بالانثروبولوجيا واللسانيات ويتخذ منها خندقاً يرمى الاسلام منه، كما نجد لدى بروكلمان وتوماس آرنولد وبرنارد لويس وغيرهم من أساتذة أركون وعرّابيه..

ولقد يصح لنا هنا المقارنة بين أركون الذى يقول بصعوبة قراءة القرآن وفهمه نظراً «لوعورته وغرابته» أو «لبعده عن مناخنا المعنوى واللغوى الحديث» او بين ما يزعمه من تناقضاته ونواقصه الاسلوبية! -الكتاب نفسه ص ١١٥-، وبين ما ذهب إليه «كارلايل» فى حديثه -عن القرآن- الذى يكاد يكون هو الأصل الذى صدر أركون عنه، كما يصح لنا -فى الجملة- العودة بكثير من تجديدات أركون الى مظانها فى أعمال المستشرقين الذين اجترحوا علوماً كيدية للاسلام، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره، ولو كره الكافرون. ■



شُرَيح القاضي وابنه

يُحكى أن ابنًا لشريح القاضى قال لأبيه:

إن بينى وبين قوم خصومة. فانظر فى الأمر. فإن كان الحق لى خاصمتهم، وإن لم يكن لى الحق لم أخاصم.

ثم قص قصته عليه.

فقال شُريح:

انطلق فخاصمهم.

فانطلق إليهم فخاصمهم. فقضى شريح على ابنه!

فقال ابنه له لما رجع إلى أهله:

والله لو لم أتقدم إليك بطلب النصح لم ألمك. فضحتنى!

فقال شريح:

يا بُنى، والله لأنت أحب إلىّ من ملء الأرض مثلهم. ولكن الله هو أعز علىّ منك. خشيت أن أخبرك أن القضاء عليك فتصالحهم على مال فتذهب ببعض حقهم!

من كتاب «الطبقات الكبرى» لمحمد بن سعد





الوسطيّة

بين التراث والعقل..

في ظل حالة الجمود والتخلف التي تسود العالم العربي والإسلامي منذ عقود طويلة،ثار جدل كبير بين النخب الفكرية والثقافية والسياسية حول الموروث الثقافي والفكري ودور العقل والتعامل مع النصوص الإسلامية ومدى أهمية هذه النصوص وتلك المرجعية الإسلامية في واقع الناس المعاش وانقسمت تلك النخب إلى مواقف ثلاثة على الأغلب، فريقان منها اختارا التطرف والغلو والثالث اختار الاعتدال والوسطية. فأما الفريقان اللذان اختارا الغلو والتطرف في هذه المسألة فأولهما عادى التراث كله ورفض النصوص وتمرد على المرجعية الإسلامية، وثانيهما تمسك بكل ما ورد في التراث حسب مفهومه وأعمل النص بغير عقل واجتهاد وفسر المرجعية الإسلامية بطريقة مغالية ومتشددة. وكلاهما جانبه الصواب. أما الفريق الثالث الذي اختار الاعتدال والوسطية فقد قدم حلا متوازنًا لكل هذه المسائل في موقفه من التراث والعقل والنقل والمرجعية الإسلامية وهنا نحاول الإجابة عن هذه النقاط من خلال خلفية الفريق الثالث فريق الاعتدال والوسطية.

أولا ـ التراث:

لقد اتخذ الفريقان اللذان اختارا الغلو والتشدد موقفًا واحدًا من التراث الإسلامي فقد وضعا النصوص السماوية (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة) والتاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي في درجة واحدة دون تمييز، فرفض الفريق الأول الذي يتبنى موقفًا علمانيًا متشددًا سواء بارتباطه بالغرب ودعوته للتغريب أو بادعاء الثورية التقدمية التراث كله بلا تمييز بين أنواعه المختلفة، كما دعا الفريق المتطرف الثاني من المتشددين الإسلاميين أيضًا إلى الالتزام بكل ما ورد في التراث بلا تمييز وقد صار التشدد الإسلامي والتشدد العلماني موقفين يغذي كل منهما الآخر.

ولذلك نحن نميز من خلال الأرضية الوسطية بين ثلاثة روافد للتراث :-

١- النصوص السماوية (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة)
٢- الفقه الإسلامي على مر العصور
٣- تاريخ المسلمين



أبو العلا ماضي

● أنواع التراث

١ ـ النصوص السماوية (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة):

والمقصود بالنصوص هو خطاب الوحي من قرآن وسنة صحيحة، وهذا الرافد من روافد التراث هو الملزم للمسلمين في كل عهد وزمان والذي يتوجب على كل مسلم الإيمان به والتسليم بأحكامه وحجية نصوصه.غير أن فهم النص في علاقته بالواقع هي مهمة من يملكون ناصية العلم الشرعي من الفقهاء الذين يضعون قواعد التعامل معها من حيث الناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد والخاص والعام وكيفية فهم النص وإسقاطه على الواقع وتجدد ذلك الاجتهاد من زمان إلى زمان ومن مكان إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى...... الخ.

إذن أهل الاعتدال والوسطية يسلمون بالنوع الأول من التراث الإسلامي كاملا حيث إنه المصدر الأساسي للدين والتشريع وفق الآليات العلمية الشرعية كما أشرنا.

٢ ـ الفقه الإسلامي :

لقد بدأ المسلمون في تدوين الفقه والاجتهادات الفقهية منذ العصور الأولى للإسلام وبدأوا في وضع قواعد ذلك الفقه وتعددت مدارسهم الفقهية ومذاهبهم نتيجة لتعدد اجتهاداتهم،بل وتغيرت اجتهادات الفقيه الواحد بتغير المكان مثل ما حدث مع الإمام الشافعي حين انتقل من العراق إلى مصر وحينما اجتهد أهل الفقه القدامى، منهم من أصاب ومنهم من أخطأ بحكم أنهم بشر وليسوا معصومين، وحتى الذين أصابوا فإن صوابهم قد يكون صالحًا لزمان غير الزمان ولمكان غير المكان كما أسلفنا فقد نأخذ منه بعضًا ونترك آخر، سواء

هناك آلاف القضايا والموضوعات التى جدت فى حياة الناس وتحتاج لمعالجة واجتهاد وفقه جديد



والنقل والمرجعية

لخطئه فى قياس العلماء أو لعدم مناسبته لعصورنا الحالية، فباب الاجتهاد مفتوح لأهل العلم والاختصاص وبالتالى هؤلاء يراجعون النصوص الفقهية ويختارون منها المناسب أو يقدمون اجتهاداً جديداً مخالفاً لهذا الفقه أو ذاك وكما يقول المفكر الإسلامى الكبير د.محمد سليم العوا فى ذلك «وجمود العلماء على نقل آراء أصحاب الكتب المذهبية دون نظر فى صحة الآراء أو خطئها، ودون بحث فى مدى قوة الدليل الذى يستند إليه كل قول أو ضعفه، واكتفاؤهم بالإحالة إلى أقوال مؤلفى هذه الكتب وكأنها هى الوحى المعصوم.كل ذلك غير جائز»[1].

كما أن هناك آلاف القضايا والموضوعات التى جدت فى حياة الناس وتحتاج لمعالجة واجتهاد وفقه جديد وكما يقول أيضاً د.محمد سليم العوا «والقضايا التى تحتاج إلى اجتهاد جديد لا تحصى، وهى لا تتوقف عن الحدوث لأنها نتيجة طبيعية لسير الحياة البشرية كل يوم إلى طور جديد لم يكن معروفاً فى الأمس، بل ربما كان بعض أطوارها الجديدة بعيداً حتى عن الخيال»[2].

٣ ـ تاريخ المسلمين:

ويمثل تاريخ المسلمين وحضارتهم على مر العصور جزءاً من التراث،والتاريخ ليس من صنع النصوص القرآنية ولكنه من صنع البشر أى المسلمين حكاماً ومحكومين، فهو تفاعل واجتهاد من المسلمين فى كل عصر وفق ما فهموه من الإسلام وترجموه فى حياتهم وحضارتهم ووفق ما تأثروا وتفاعلوا معه فصنع التاريخ أشبه بصنع الفقه وإن كان الفقه هو النص البشرى المكتوب فإن التاريخ هو الفعل الناتج عن اجتهاد المسلمين فى ذلك العصر، وتاريخ المسلمين وفق هذا التعريف هو اجتهاد فيه جوانب مشرقة وأخرى مظلمة، جوانب إيجابية وأخرى سلبية، ولذلك فإن التاريخ كله مثل الفقه ليس ملزماً للمسلمين فى عصرنا الحالى وفق منهج أهل الاعتدال والوسطية فمن حقنا أن نختار ما نجده صالحاً لمجتمعاتنا ومناسباً لظروفها ونترك ما لا يتفق مع مجتمعاتنا وظروفها.

ولقد تبنى هذا المنهج الوسطى فى التعامل مع التاريخ علماء ومفكرون بارزون جمع بينهم الدكتور/ ريموند بيكر الأستاذ بكلية ترينتى ونشره فى كتابه «إسلام بلا خوف» وهم المرحوم الشيخ محمد الغزالى والشيخ الدكتور يوسف القرضاوى و الدكتور أحمد كمال أبو المجد والمستشار طارق البشرى و الدكتور محمد سليم العوا والأستاذ فهمى هويدى، ويقرر د. بيكر عن هؤلاء الذين أسماهم الإسلاميون الجدد. «ولا يقبل الإسلاميون الجدد حجية التاريخ ولا حجية مفسرين عاشوا فى زمان ومكان مختلف، وهم يعودون إلى النصوص نفسها ويقدمون تفسيرهم لها»[3]. كما يقول عنهم أيضاً د.بيكر «ويسعى الإسلاميون الجدد فى اجتهادهم بشأن النصوص إلى استلهام الوحى، لا الخبرات التاريخية الفاسدة»[4]. ويعود د.بيكر ليؤكد فى موضع آخر «ويصر الإسلاميون الجدد على أن النصوص وحدها الملزمة للمسلمين، فلا هم ملزمون بتفسيرات بعينها، ولا هم مقيدون بالخبرات التاريخية للمسلمين»[5].

الخلاصة أن منهج الاعتدال والوسطية يفرق ويميز بين أنواع التراث الثلاثة فلا ملزم له غير النصوص وأما الفقه والتاريخ فهما غير ملزمين ويخضعان لمعايير الصواب والخطأ والمناسب من الصواب وغير المناسب منه.

ثانياً ـ العقل والنقل:

لقد قسم هذا الموضوع أيضاً مجموعات من الأمة العربية والإسلامية إلى أكثر من تصنيف، فهناك من بالغ فى الاستناد إلى العقل حتى رفض المنقول وهى النصوص، وهناك من بالغ فى الاستناد إلى النص دون إعمال للعقل مطلقاً كمقابل لمن رفض النقل بالكلية. وهذان الصنفان على طرفى نقيض، كما أن هناك داخل الأرضية الإسلامية من اختلف حول هاتين النقطتين (العقل والنقل) وهما أصحاب الرأى وأصحاب النص، فأصحاب الرأى تعاملوا مع النص بالعقل وأعملوا العقل فى فهم النص وأسباب نزوله وجمعوا بين النصوص وفرقوا بين العام والخاص والمطلق والمقيد.... الخ، فى حين أن أهل النص يريدون تطبيقه بغير إعمال للعقل ويأخذون بظاهر النص. وهذا الموضوع شديد الارتباط بالموضوع الأول وهو التراث، حيث إن تنظيم العلاقة بين العقل والنقل (أى النصوص) أمر بالغ الأهمية لأنه لا يوجد فى الواقع تعارض بينهما، فمن وضع العقل فى مواجهة النص يحتاج لمراجعة إيمانه.ومن وضع النص فى مواجهة العقل عليه مراجعة فهمه واستيعابه لرسالة الإسلام ومقاصده.



أو كما قسمهم الشيخ الدكتور/ يوسف القرضاوى فى كتابه «دراسة فى مقاصد الشريعة الإسلامية» فقد اعتبر الذين قدموا العقل على النص وعطلوا النص بـ«المعطلة الجدد»، وسمى الذين قدموا النص ورفضوا العقل «بالظاهرية الجدد»، وأعطى كل فريق سمات، فقد قال عن سمات الظاهرية الجدد وخصائصها «١-حرفية الفهم والتفسير، ٢-الجنوح إلى التشدد والتعسير، ٣-الاعتداد برأيهم إلى حد الغرور، ٤-الإنكار بشدة على المخالفين، ٥ -التجريح لمخالفيهم فى الرأى إلى حد التكفير، ٦-عدم المبالاة بإثارة الفتن الدينية والمذهبية وغيرها»[6].

كما قال أيضاً عن سمات المعطلة الجدد «١-الجهل بالشريعة، ٢-الجرأة على القول بغير علم، ٣-التبعية للغرب»[7].

ولذلك فقد اختار الشيخ القرضاوى الموقف الصائب فى هذا المجال وأسماها «المدرسة الوسطية» تلك التى تربط بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية وقال عنها «وتتجلى وسطية هذه المدرسة فى موضوعنا بأنها تربط بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية، وتفهم الجزئيات فى ضوء الكليات. ولا تغلو فى اتباع ظواهر النصوص، والتمسك بحرفية الالفاظ :غلو المدرسة اللفظية، التى سميناها :«مدرسة الظاهرية الجدد»...... كما لا تفرط، فتعمد إلى إهمال النصوص والإعراض عنها:تفريط المدرسة التغريبية، التى سميناها: «مدرسة المعطلة الجدد»[8].

كما كتب كثير من الفقهاء، والعلماء عن دور العقل فى فهم النص وفى إدراك وتحديد وإثبات مقاصد الشريعة التى من أجلها شرعت وينقل د.جمال الدين عطية فى كتابه «نحو تفعيل مقاصد الشريعة» عن د. الخادمى فى الاجتهاد المقاصدى «وليس تنزل منظومة الأحكام على مسرح الحياة فى شتى نواحيها ومشكلاتها، إلا دليلا على تدخل العقل فى صياغتها وتنفيذها بما قام به من أدوار معتبرة فى الفهم والتحصيل والترتيب والتنسيق بين الأدلة نفسها، وبين تلك الأدلة والأوضاع المتنزلة فيها والناس المخاطبين بها»[9].

والخلاصة أن المدرسة الوسطية تجمع بين العقل والنقل بحيث تعمل العقل فى فهم المنقول وهو النص ولا ترفع العقل فوق النص لكنها تسخر العقل الذى منحه لها الله فى فهم النص واستنباط الأحكام منه، فالثابت يقيناً لدى هذه المدرسة أن النص الشرعى الثابت (قطعى الثبوت قطعى الدلالة)لن يصطدم أبداً مع الحقيقة العلمية أو صريح العقل.

ثالثاً ـ المرجعية الإسلامية :

يثير هذا الموضوع أمرين هامين وهما فكرة المرجعية ومعناها إذا ارتبطت بالإسلام لتكون مرجعية إسلامية.

الثابت يقيناً لدى هذه المدرسة أن النص الشرعى الثابت لن يصطدم أبداً مع الحقيقة العلمية أو صريح العقل





١ ـ المرجعيـــــــــة :

لقد عرّف البعض المرجعية بتعريفات مختلفة فمنهم على سبيل المثال تعريف د.إبراهيم البيومى غانم بأنها «... هى مجموعة المبادئ والموجهات المعيارية الكبرى التى ترشد إلى ما هو صواب وما هو خطأ، ما يجوز وما لا يجوز من منظور المصلحة المعتبرة للمجتمع، لها سلطة نظرية مطلقة من كل وجه ومن كل اعتبار فى الفصل بين ما هو صحيح وما هو خطأ»[١٠].

عن المرجعية، وبصفته أحد المؤسسين لحزب الوسط المصرى (رفضت السلطات المصرية المختصة التصريح به أكثر من مرة)، كتب المفكر الكبير الراحل د.عبد الوهاب المسيرى فى مقدمة برنامجه «وانطلاقا من فكرة المشترك الإنسانى والتعددية والخصوصية... يذهب برنامج الحزب إلى أن الإسلام هو «المرجعية النهائية للمجتمع المصرى». وهذه العبارة تحتاج إلى توضيح. إذ يرى البعض أن الحديث عن الإسلام كمرجعية نهائية هو دعوة إلى العودة إلى الحكومة الدينية وحكم الكهنوت وما شابه من مخاوف. وما غاب عن هؤلاء أن أى مجتمع، بما فى ذلك المجتمعات العلمانية، رأسمالية كانت أم اشتراكية، ديمقراطية كانت أم شمولية، تتحرك فى إطار مرجعية نهائية ما، فبدون هذه المرجعية لا يمكن للمجتمع أن يحدد أولوياته أو يسير أموره لأنه سيفتقد المعايير التى يمكن أن يحكم بها على ما يحيط به من ظواهر وما يقع حوله من أحداث. ففى الاتحاد السوفيتى السابق كانت مصلحه الطبقة العاملة والفلسفة المادية هى المرجعية النهائية، وباسم هذه المصلحة وباسم هذه الفلسفة تمت مصادرة ملكية صغار الفلاحين وصغار التجار حتى لا تظهر طبقة تتناقض مصالحها مع مصالح الطبقة العاملة (التى أصبحت تدريجيا مصلحة بيروقراطية الحزب الحاكم). والمرجعية النهائية فى الولايات المتحدة هى الملكية الفردية والفرد المطلق وحرية رأس المال وصيغة معلمنة من المسيحية. وهى فى فرنسا تقريبا نفس الشىء فى إطار قانون نابليون. أما فى الدولة النازية (العلمانية المادية) فالفلسفة العرقية المادية التى تصنف البشر حسب لون البشرة وحجم الجمجمة، أى حسب صفات مادية كامنة فيهم، كانت هى الإطار المرجعى النهائى (ألمانيا فوق الجميع بسبب تفوق الجنس الآرى - المنفعة المادية هى المعيار الوحيد). والدولة الصهيونية (أو اليهودية كما تزعم) فمرجعيتها هى المرجعية المادية بعد أن اكتست برداء يهودى (اليهود لهم حقوق مطلقة فى فلسطين بسبب تقدمهم وتفوقهم الحضارى وانتمائهم للتشكيل الحضارى الغربى ولأنهم شعب واحد مختار).

المرجعية النهائية إذن أمر حتمى، ومن لا يقرر لنفسه مرجعيته النهائية سيقررها له الآخرون، أو سيتبنى بدون وعى مرجعية ما دون إدراك لتضميناتها بالنسبة له»[١١].

٢ ـ المرجعية الإسلامية :

إذن اختيار مرجعية نهائية لكل مجتمع أمر حتمى وبالتالى اختيار المجتمعات العربية الإسلامية ذات الأغلبية المسلمة للإسلام كمرجعية أمر طبيعى، لكن الاجتهادات أيضا فى تفسير وشرح وفهم المرجعية الإسلامية تختلف باختلاف الجماعات والمجموعات البشرية وفى منهج تعاطيها مع الإسلام كدين وشريعة، واختيارنا الدائم للوسطية كمنهج فى فهم الإسلام وشريعته وأحكامه يجعلنا نشرح المرجعية الإسلامية وفق هذا المنهج، كدين وشريعة، واختيارنا الدائم للوسطية كمنهج فى فهم الإسلام وشريعته وأحكامه يجعلنا نشرح المرجعية الإسلامية وفق هذا المنهج.

عن المرجعية يضيف المسيرى: «الشريعة الإسلامية كمرجعية نهائية لا تستبعد أحدا، فالإسلام قرر وحدة «الدين» فى أصوله العامة، وأكد على أن شريعة الله تعالى للناس تقوم على قواعد ثابتة من الإيمان والعمل الصالح والإخاء، وأن الأنبياء جميعا مبلغون عن الله، وأن الكتب السماوية جميعا من وحيه، وأن المؤمنين جميعا فى أية أمة كانوا هم عباده، وأن الفرقة فى الدين والخصومة باسمه إثم يتنافى مع أصوله وقواعده، ويتناقض مع غايته ومقاصده. ومن هنا نرى «أن الرقابة الروحية والوصاية على الضمير والمعتقد الدينى إهانة لكرامة الإنسان، وإهدار لحقه فى الحرية بل وتعد على إرادة الله سبحانه وتعالى».

والشريعة كمرجعية ليست مجرد نصوص تتلى أو أحكام يتم تطبيقها أمام المحاكم، فالمسألة أعمق من هذا بكثير، فالشريعة منظومة قيمية ومعايير مرجعية يهتدى الناس بهديها فى سلوكهم أمام القانون، وأمام أنفسهم فى حياتهم العامة والخاصة، والشريعة كمرجعية لا تعنى أنها مجموعة من القيم الساكنة، وإنما هى عملية متحركة حية تهدف إلى تحقيق المقاصد العامة للشريعة من حرمة النفس الإنسانية وحفظ العقل وتفصيل دوره فى الحياة وحرية الاعتقاد وحرمة المال العام والخاص وصيانة العرض وكرامة الإنسان.

وحينما نطرح الشريعة كمرجعية نهائية فاننا نسعى لجعلها متفاعلة مع جوانب الحياة جميعا، ووضعها موضع التطبيق عن طريق تخير الاجتهادات التى لا تصيب حركة المجتمع بالشلل، وهى اجتهادات بشرية تستضئ بمقاصد الشريعة العامة وكلياتها الأساسية، ولكنها تظل اجتهادات تحتمل الصواب والخطأ، وقابلة للأخذ والرد والنقد والمراجعة، كما أنها قابلة أيضا لإعادة النظر والتغير من زمان لزمان ومن مكان لمكان»[١٢].

كما يعود ويؤكد د.المسيرى على شرح مفهومه للمرجعية الإسلامية فى موضع آخر فيقول «لكل هذا نذهب إلى أن طريق الإصلاح الذاتى «ينبنى على قيمنا الحضارية وخصوصيتنا الثقافية المستمدتين أصلا وأساسا من الدين الذى يؤمن به المصريون كافة، إسلاما كان أم مسيحية. وهم يرون أن مرجعية الإسلام العامة فى هذا الوطن محل احترام بنيه أجمعين، فهى بالنسبة للمسلمين مرجعية دينهم الذى به يحيون وعليه يموتون ويبعثون، وهى بالنسبة لغير المسلمين مرجعية الحضارة التى بها تميزت بلادهم، وفى ظلالها أبدع مفكروهم وعلماؤهم وقادتهم، وبلغتها نطق وعاظهم وقديسوهم، ولهم فى إنجازاتها كلها دور مشهود وجهد غير منكور»[١٣].

كما أن فهمنا للمرجعية الاسلامية التى تجمع بين أبناء الوطن الواحد حتى لو كان هناك نسبة من غير المسلمين، يعود إلى أن الاسلام هو دين وحضارة فى نفس الوقت، فتقديمنا للمرجعية الاسلامية هى تلك التى تجعل الحضارة الاسلامية التى تنظم حياة الناس هى الجامع بين المسلم وغير المسلم، وليس الدين الاسلامى وإن كان الدين هو. ■

حينمـــا نطـرح الشـــريعـة كمرجعيـــة نهائيـة فإننـا نسـعى لجعلهـا متـفـاعـلـة مـــع جـــوانــب الحيـــاة جميعـــا

هـــــوامـــــش

(١) د. محمد سليم العوا، الفقه الإسلامى فى طريق التجديد، سفير الدولية للنشر، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة ٢٠٠٦م، ص٦٥.
(٢) المصدر السابق، ص٦٦.
(٣) د.ريموند وليام بيكر، إسلام بلا خوف، ترجمة د.منار الشوربجى، المركز العلمى للدراسات السياسية، عمان الأردن، ٢٠٠٨م، ص٢١٧.
(٤) المصدر السابق، ص٢١٠.
(٥) المصدر السابق، ص٢١٥.
(٦) د.يوسف القرضاوى، دراسة فى مقاصد الشريعة، دار الشروق، القاهرة -مصر، ٢٠٠٧م، ص٥١.
(٧) المصدر السابق، ص٩١.
(٨) المصدر السابق، ص١٣٧.
(٩) د.جمال الدين عطية، نحو تفعيل مقاصد الشريعة، دار الفكر، دمشق-سوريا، ٢٠٠١م، ص٢٧.
(١٠) د.إبراهيم البيومى غانم، معنى المرجعية الإسلامية، ورقة غير منشورة ٢٠٠٧م، ص١.
(١١) د.عبد الوهاب المسيرى، أوراق حزب الوسط، مطبوعات حزب الوسط، القاهرة-مصر، ٢٠٠٤م،ص ١١.
(١٢) المصدر السابق، ص١٢.
(١٣) المصدر السابق، ص١١،ص١٢.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

يوم غائم فى البر الغربى

محمد المنسى قنديل
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٥٧٢ صفحة



تدور أحداث هذه الرواية الشيقة والممتعة للكاتب المتميز محمد المنسى قنديل فى مصر فى مطلع القرن العشرين، حيث يحكى لنا عن عائشة، الفتاة الجميلة التى عاشت الحب وعانت من النبذ والخديعة، ورحلتها الطويلة، من أعماق الصعيد، إلى عوالم القاهرة الخفية، إلى مقابر وادى الملوك فى طيبة.

وعلى خلفية هذه الفترة الخصبة - وشبه المجهولة - من تاريخ مصر والتى امتلأت فيها البلاد بمحاولات إحياء الروح المصرية نرى تشكل حياة عائشة ومخاوفها وتجربتها لاكتشاف ذاتها.

نزع السحر عن الشرق

غيل أيال
ترجمة حسن خضر (عن الإنجليزية)
عدد الصفحات ٣٤٢
المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية «مدار» - رام الله - ٢٠٠٩



يرصد الكتاب التحوّلات والديناميات التى أسهمت فى بلورة مواقف يعتنقها الإسرائيليون تجاه العرب والفلسطينيين، والتى تفسر أيضا طريقتهم الخاصة فى تعريف أنفسهم.

ويعالج الكاتب ما يدعوه بتجربة اللقاء مع الشرق، من خلال مراحل تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر، ولا تنتهى مع نهاية القرن العشرين، إلا بقدر ما يستدعى التحقيب والرصد التاريخيان من محددات زمنية.

ورصد الكاتب تجربة اللقاء مستخدما مفهوم الشبكة، بمعنى أن جملة المعارف المتحصلة فى حقل ما تعتمد على نوع من التراتبية، وسلسلة من علاقات وموازين القوة، وعلى ضوابط خاصة يفرضها قانون العرض والطلب. وهذه الأشياء مجتمعة هى ما يسهم فى صياغة الخطاب فى حقل من حقول المعرفة. بيد أن هذه الأشياء تفترض، وتستدعى، صراعا بين الهامش والمتن، أى بين مصالح داخلية، وإكراهات خارجية متضاربة، تتجلى فى ممارسات خطابية متباينة.

ويخلص غيل إلى أن «على كل راغب فى الكلام بشكل مختلف عن الخطاب المكرس، خاصة الراغب فى إعادة إنشاء الشرق كعالم مسحور، إدراك اصطفاف مصالح مختلفة فى وجهه، لأفراد تدربوا على النظر إلى أنفسهم من خلال تصنيفات الانعزالية الثقافية، والتى أضم إليها أيضا تصنيف هوية اليهود الشرقيين. فمن فى نهاية الأمر لديه مصلحة أكبر فى مراقبة الحد الفاصل لفئة اليهود الشرقيين، أكثر من أولئك الأشخاص، الذين تدربوا على تصنيف أنفسهم «كيهود شرقيين»، وحولوا هذه الهوية إلى مصدر لممارسات مقاومة».

ويضيف: «على كل راغب فى الكلام بشكل مختلف، أيضا، إدراك اصطفاف المصالح المختلفة للخبراء فى وجهه، أولئك الذين تعتمد معيشتهم ومكانتهم على استمرار الفصل بين مختلف العوالم. وكذلك، كافة المصالح المختلفة للمؤسسات التى تستمد مبرر وجودها من تطهير المهجنين.

علاوة على ذلك، عليه إدراك أن المحصلة الإجمالية لتلك المصالح، بمعنى آخر، آليات الجمود التى يتكلم ضدها، ترتبط فى نهاية الأمر على نحو وثيق الصلة، بعملية توليد مظهر الدولة».

ويختتم غيل: لذا، سينظر إلى كل راغب فى الكلام بشكل مختلف كشخص يهدد الدولة، حدودها، شخصيتها، مبررها، أو وجودها نفسه. لهذا السبب، يبدو الاستمرار فى عملية قائمة بالفعل: بناء أسوار للانفصال الحقيقى بمحاذاة حدود متوهمة خارجية وداخلية، أسهل بكثير.

ومن مقدمة الكاتب حسن خضر الذى ترجم الكتاب نختار:

«لعل أهم ما رصده الكاتب فى شأن اللقاء مع الشرق يتمثل فى قياس الممارسات الخطابية، وما فيها من تباين، أو ما يمكن بعضها من احتلال المتن، والتحول إلى خطاب سائد، استنادا إلى مفهوم الحدود الفاصلة. يشتمل هذا المفهوم على إنشاء وتعزيز حدود ثقافية وجغرافية وسياسية تفصل بين قوميات وأقوام أو لغات مختلفة، وعدم السماح أو التسامح مع عبور الحدود على الجانبين، أى رفض الهجنة، والسعى إلى تطهير المهجنين.

وقد جابه الإسرائيليون مشكلة فى هذا السياق، بحكم أن السيطرة على الأقلية الفلسطينية، بعد قيام الدولة، تستدعى ضرورة اجتياز الحد الفاصل، على أحد جانبى الحدود على الأقل، والاحتكاك بالآخر، لممارسة آليات المراقبة والضبط، التى يصعب تحقيقها عن بعد.

نشأت هذه المشكلة قبل قيام الدولة الإسرائيلية، وتجسدت فى شخصيات المستعربين من الطراز القديم. سواء الذين «فتنهم» الشرق، وأرادوا إعادة إنتاج اليهودى الجديد، بمحاكاة نموذج العربى، أو أقاموا علاقات تجارية واجتماعية مع أقرانهم الفلسطينيين، بصرف النظر عن الدوافع.

بيد أن الحدث الأهم، فى نظر الكاتب، يتمثل فى حرب العام ١٩٤٨، التى طرد بموجبها الفلسطينيون من أرضهم، فتحولوا إلى لاجئين، أو أصبح من تبقى منهم فى أرضه، أقلية قومية تخضع لحكم وقوانين، وحدود ومحددات، الأغلبية اليهودية الجديدة.

هذا الحدث هو الأهم بقدر ما يتعلق الأمر ببلورة وممارسة مفهوم الحدود الفاصلة، وانتقاله من مرتبة الاستيهام، أو الاجتهاد الثقافى لدى هذه الجماعة أو تلك من المستشرقين، والمستوطنين الأوائل، إلى مستوى الممارسة السياسية والثقافية، من جانب مؤسسات حكومية، وأجهزة رسمية، تسهر على إنشاء وحماية الحدود الفاصلة، وتنشئ آليات خاصة لمكافحة وتطهير المهجنين».

روعة الكيمياء

مونتى فيتروف وكاثى كوب
ترجمة: فايقة جرجس
القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٩



نجد كتب الكيمياء عادة فى واحدة من فئتين، إما كتب دراسية أو كتب للأطفال وهى تستهدف فى جوهرها القارئ العادى، وثمة أعمال رائعة تصدت لهذا العيب، ومن أهم هذه الأعمال كتاب «وصلات الكيمياء: الأسس الكيميائية للظواهر اليومية» Chemistry Connections: The Chemical Basis Everyday Phenomena تأليف: كيرى كيه كاروكستيس Kerry K. Karukstis وجيرالد أر. فان Gerald R. Van. وكتاب «الجنى الذى فى الزجاجة» The Genie in the Bottle لجو سكوارز Joe Schwarcz. ومع ذلك فقد رأينا أن ندلى بدلونا فى هذا المقام مؤمنين بأننا سوف نقدم منهجا به بعض الاختلاف الطفيف عما سبقه من مناهج. ولقد حاولنا أن نكتب الكيمياء بطريقة مبسطة. فهذا الكتاب هو كتاب كيمياء موجه لمن يريد دراسة الكيمياء نظريا كى يقرأه بإمعان وهو جالس فى منزله مستريحا. ويضم بين دفتيه أيضا تجارب عملية مباشرة يمكن تنفيذها فى المطبخ أو فى المرأب. وما دعانا لكتابة هذا الكتاب هو أنه من نوعية الكتب نفسها التى أحببناها عندما استهللنا دراستنا للكيمياء. وقد كتب كيميائيون هذا الكتاب، لكنه لم يكتب للكيميائيين خاصة. فقد كتب للطلاب الذين اعتدنا أن نكونهم وللدارس الموجود داخل كل منا. ونتمنى أن يتمتع القارئ بالصفحات التالية تماما ما تمتعنا به بكتابتها.

المسيح العربى

النصرانية فى الجزيرة العربية والصراع البيزنطى - الفارسى
فاضل الربيعى
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٩



يجد قارئ هذا الكتاب نفسه أمام مفاهيم وتعريفات لم يتطرق إليها الباحثون والمؤرخون من قبل، وكأننا أمام أشخاص وأماكن لم نعرفها من قبل وغابت حقيقتها عنا. فما هى الجاهلية والجاهلية الأولى، وماذا عن مملكة الحيرة، والنصرانية، والنسطورية. ومن هو الأبرش؟ وماذا عن امرئ القيس بن عمرو ابن عدى، والنعمان، وعبيد بن الأبرص، تلك الشخصيات المتعددة ذوات الأسماء الواحدة، والملتبسة.

بعد إعادة تعريف تلك الأماكن والشخوص، يعود الباحث فاضل الربيعى إلى البحث فى الأحداث التاريخية محققا فى روايات الإخباريين العرب وصولا إلى إعادة بناء الأساطير من داخل التاريخ لفض التشابك بين صورتين متناظرتين للمسيح عرفهما العرب إحداهما للنبى عيسى ابن مريم، والأخرى للرب يسوع المسيح. ولا يسعى فاضل الربيعى فى بحثه العلمى هذا إلى ترجيح صورة للمسيح العربى على أخرى، أو تبنى عقيدة دون

الثانية. إنما يحاول توضيح صورة المسيح عبر إعادة بناء صوغ الأساطير والروايات بدءاً بإعادة تعريف الأشخاص والأماكن وصولاً إلى ربط الأحداث التاريخية ربطاً علمياً ومنطقياً متوسلاً بذلك نحو ستين مرجعاً من المراجع العربية و الأجنبية، بالإضافة إلى مجموعة من النقوش واللقى الأثرية والتاريخية أثبتها في آخر الكتاب والهوامش.

ألم خفيف كريشة طائر تنتقل بهدوء من مكان لآخر

علاء خالد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٣٧٦صفحة



بلغة تجمع بين العذوبة والدفء والعمق والثراء يكتب علاء خالد روايته الأولى. عائلة سكندرية يؤسسها الجد الكبير ابراهيم العائد من شرود طويل في الصحراء وتمتد إلى الكاتب نفسه في جيلها الخامس. هنا تتجاور الحكايات والشخصيات في عالم من الحميمية الأخاذة لتصنع بانوراما أبطالها الراوي والأم والأصدقاء والجيران والزملاء، وهناك في خلفيتها يقف البيت الذي منحه الكاتب حياة جعلت منه شاهداً على مصائر كل هؤلاء. «ألم خفيف...» هي فصل من تاريخ الإسكندرية. لكنها إسكندرية الناس العاديين الذين نقابلهم طول الوقت وربما لا نعرفهم إلا عندما نقرأ رواية كهذه.

ماذا تمخض عن حملة الرصاص المصبوب

آراء اسرائيلية حول الحرب على غزة

سلسلة «أوراق إسرائيلية» العدد ٤٨

المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية «مدار» ـ ٢٠٠٩



الورقة رقم ٤٨ من سلسلة «أوراق إسرائيلية»، تضم آراء إسرائيلية حول الحرب على غزة بأقلام مجموعة كبيرة من المعلقين والخبراء السياسيين والعسكريين.

وأشير في الورقة إلى أن المنابر الإسرائيلية الإعلامية المختلفة حفلت بكمٍ كبير من التحليلات لحملة «الرصاص المصبوب» العسكرية الإسرائيلية على غزة، التي استمرت خلال الفترة بين ٢٧ كانون الأول ٢٠٠٨- ١٧ كانون الثاني ٢٠٠٩. وقد اختيرت منها مجموعة متنوعة، سواء من حيث المواقف السياسية لأصحابها، أو من حيث تخصصاتهم المهنية. وجرى الحرص على أن تكون مكتوبة في الفترة التي تلت موعد انتهاء الحملة، وعلى أن تعكس شتى الموضوعات التي تمّ التطرق إليها في معرض إجمال الحملة المذكورة وأساساً من خلال مقارنتها بسيرورة الحرب في لبنان في صيف ٢٠٠٦ ونتائجها. وقد جرى تحديد هذه الموضوعات في ما يلي:

- أداء المؤسستين السياسية والعسكرية في إسرائيل والعلاقة فيما بينهما، علاوة على أداء الجيش الإسرائيلي نفسه، والهيئات المسؤولة عن الجبهة الإسرائيلية الداخلية.
- تحديد أهداف الحملة العسكرية.
- أداء وسائل الإعلام الإسرائيلية.
- ردود الفعل الصادرة عن القوى السياسية الإسرائيلية، وعلى نحو خاص أحزاب اليسار الصهيوني وقوى السلام الإسرائيلية والمواطنين الفلسطينيين في الداخل.
- الأبعاد السياسية المترتبة على الحملة العسكرية، وخصوصاً ما يتعلق بمواقف الأطراف المجاورة والقوى الإقليمية والأسرة الدولية.

ومما جاء في تقديم الورقة، الذي كتبه أنطوان شلحت، محرر سلسلة «أوراق إسرائيلية»: حتى موعد شنّ حملة «الرصاص المصبوب» العسكرية الإسرائيلية على غزة كانت إسرائيل منهمكة، حتى أذنيها، في مسألة تجاوز آثار الفشل الذي منيت به خلال الحرب على لبنان في صيف ٢٠٠٦، والذي اعتبره كثيرون فشلاً ذريعاً. ولذا فمن البديهي أن تشمل التحليلات، التي وضعت تلك الحملة في الميزان، قبل أي شيء، الموضوعات نفسها التي خضعت للدراسة والتحليل واعتبرت عوامل رئيسة للفشل المذكور، وخصوصاً في ضوء ما تضمنه التقريران الجزئي والنهائي لـ«لجنة فينوغراد»، التي تقصّت وقائع الحرب في لبنان.

لقد بات معلوماً أن «الحسم» و«الردع» يشكلان حجري الزاوية في نظرية الأمن الإسرائيلية. لكن بما أن «الحسم» في الحروب، التي على غرار الحربين في لبنان وغزة، يكاد يكون مستحيلاً، فإننا نلاحظ أن ثمة تركيزاً خاصاً، في الآراء الإسرائيلية المختلفة التي تتضمنها هذه الورقة، على السؤال بشأن قوة الردع الإسرائيلية، وفيما إذا كان قد طرأ تغيير إيجابيّ عليها، وذلك بعد أن اعترتها ثقوب كثيرة في إثر حرب ٢٠٠٦ في لبنان.

وعقب انتهاء حملة «الرصاص المصبوب» قال رئيس الحكومة الإسرائيلية، إيهود أولمرت، في معرض إجماله لنتيجتها العامة، في سياق مقابلة أدلى بها إلى صحيفة «معاريف» الإسرائيلية، إن «قوة الردع الإسرائيلية أضحت الآن أفضل مما كانت عليه في أي وقت مضى، وليس أفضل مما كانت عليه خلال العقد الأخير فقط. وهي تنطوي على ما من شأنه أن يردع عناصر محور الشرّ كلها»... لكن على الرغم مما يقوله أولمرت وخلافاً له فإن الانطباع أو الشعور العام، الذي لا يزال طاغياً على أوساط واسعة في المؤسسة السياسية والمؤسسة العسكرية في إسرائيل، وكذلك على معظم أوساط الجمهور الإسرائيلي العريض، هو أن إسرائيل «فوتت فرصة انتصار أخرى» في هذه الحملة. وهو شعور يتضاد مع ما حاولت قيادة المؤسستين السياسية والعسكرية أن تروج له، وفحواه أن «إسرائيل حققت أهداف الحملة كاملة»!.

غنا المجاذيب

منال السيد

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ١٢٠ صفحة



برغم صغر حجم الرواية فإنها تغوص في عالم جديد على أجواء الرواية المصرية، حيث تختلط عوالم المجاذيب وحكاياتهم ولحظات انفلاتهم مع العالم الواقعي، فلا نعرف في لحظة محددة من العاقل ومن المجذوب؟ عبر لحظات شجن إنساني عذب، فكل شخصية في الرواية لها عالم مستقل مليء بالمفارقات والأحداث وحتى على مستوى العالم الواقعي تقوم الرواية بعمل ضفيرة بين ما يجري من أحداث تجري الآن، أي الواقع الآني، الذي تحكيه الكاتبة بضمير المخاطب فيما يشبه فن السيرة الذاتية، وتمزج بينه وبين واقع آخر متوهم يحضر في الجسد الروائي على هيئة مشاهد سينمائية آتية من أفلام الأبيض والأسود، وكأنها تشكل المعادل الموضوعي أو الهروبي للعمل ككل، في لغة راقية وشفافة ومقتصدة.

ستصادفنا في الرواية شخصيات رشدي أباظة وعماد حمدي وتحية كاريوكا وسامية جمال، تتعامل معهم الكاتبة وكأنهم شخصيات حية تعيش بيننا، يطبعون شخصياتهم على الأحداث الجارية الآن ويكونون مؤثرين وفاعلين فيها، أو تستحضرهم الروائية ليقوموا بدور الخلفية الروائية للمشاهد المعاشة:

سامية جمال خرجت من الكادر الأبيض والأسود، غمزت لي غمزة وضحكت برقي، لبست فستان الفرح فبدت طويلة وخفيفة مثل عود، شاهدها عمي الذي يشبه «وصفي زوج العروس ليلى» شاهدها في ليلة زفافها فهاج في صمت، وهي بصت إليه في تعال.

تدخل الرواية عالم هذيانات المجاذيب، والأفعال غير المبررة للبشر العاديين التي تشبه في حدوثها ما يقوم به المجاذيب، فكان العالم كله يصير في لحظة مرثية لأعمار كثيرة ضائعة، ومشاعر مهدرة لا تقابل بما تستحق، وعواطف تراق على التراب تحت وقع عام مليء بالبشر وسوء الفهم، حتى إن الرواية تصير أحد هؤلاء المجاذيب الذين سيغزون الكون كله في وقت ما، «فالمجاذيب ليس بالضرورة أن تكون وجوههم متسخة، ملابسهم يملؤها طين متيبس، شعورهم ثقيلة من وطء الرياح لها، ليس بالضرورة أن تكون أقدامهم جافة، كل هذا ليس مهماً، فدائماً عيونهم تبرق وحتى في صمتهم يغنون».

سوسيولوجيا الغزل العربي: الشعر العذري نموذجاً

تأليف وترجمة: د. الطاهر لبيب

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩



المستشرق الفرنسي أندريه ميكال قال عن هذا الكتاب:

«إني على يقين من أن مَنْ يقرأ هذا الكتاب لا يعود، بعد قراءته، إلى ما ورثناه من أفكار عن الحب وعن الغزل عند العرب. إنه يُحدث، فعلاً، قطيعة مع الفكر السائد في موضوعه.

أعتقد أنْ لا أحد، قبل الطاهر لبيب، بذل الجهد وأصر عليه، بهذا القدر العالي من الموهبة والتحقيق معاً، ليتذوق حكايات المحبين، وليفكك رموزها ويعيد بناءها، في الوعي الجماعي للقبائل ومخيالها».

عرفنا، أخيراً، لماذا شعر البعض بالحاجة، تحت سماء الجزيرة العربية، إلى قول الحب، كما لم يقله أحد قبلهم، ولماذا عشقوه».

عُرف هذا الكتاب، عربياً، في ثلاث ترجمات مختلفة، صدرت بين عامي ١٩٨١ و١٩٩٤. وهذه الترجمة الرابعة هي من وضع المؤلف وتقديمه.

كتاب مالوش اسم

أحمد العسيلي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٢٠٠ صفحة



وانا صغيّر كان فيه حلم يقظة بيجيلى كتير جداً: قال خير اللهم اجعله خير، طالع انا فى التليفزيون بقول نظريات وأفكار ورأيى فى كل حاجة فى الدنيا، والمذيعة الحلوة منبهرة جداً بكل كلمة بقولها. وقاعد انا بقه منَجعص بثقة فى الكرسى بتاعى ومكتوب تحت صورتى بالبنط العريض «المفكر الكبير: أحمد العسيلى». حلم غريب جداً طبعاً. هى دى شغلانة يحلم بيها طفل دى؟ المفكر الكبير؟!

بس الحمد لله.. جزء من النبوءة تحقق.. بَطلّع فى التليفزيون وفى الراديو وبكتب مقالات وكمان بكتب كتاب اهه.. بس الأهم، لإنه السبب فى كل ده.. إنى على طول بفكر.. بفكر.. بفكر..

■

كود «ساويرس»

مجموعة قصصية

محروس أحمد

القاهرة: دار مزايا للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩



الكتاب الأول لمحروس احمد وهو يتضمن عددا كبيرا من القصص اغلبها شديدة القصر مكتوبة بأسلوب مميز وتتسم بروح تجريبية تبدو ربما فى مثل هذا النص:

«أصابتنى رعشة بسلسلة ظهرى عندما غيرت من وضع قدميها، فوضعت اليمنى فوق اليسرى بدلاً من العكس، تتحرك أشعة الشمس القادمة من نافذة مفتوحة تعرض الشمس والقمر فى سماء واحدة.. فتفترش الظاهر من النهدين وتدب أصابعها بينهما فتزيده ألقا، الوجنتان «خوختان» نائمتان على غصنيهما قبيل استواء الشفاه موّال.. بوابة سر.. وصندوق كنز ضائع المفتاح، تخفيان فى سكونهما طاقة حياة تكفى لإحياء صحراء لتنبت نرجساً عراقيًا وبرتقالاً فلسطينيًا!!

الأنف فرعونى الشموخ ينتصف بدلال بين سحابات الأعين أعلاه وبساتين الوجنات على جانبيه وعذب أنهار الشفاه أسفله.. يا له من محظوظ!!»

■

أميركا والإبادات الثقافية

لعنة كنعان الإنجليزية

مُنير العَكْش

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٩



فى هذا الكتاب يطارد أستاذ الإنسانيات واللغات الحديثة ومدير البرنامج العربى فى جامعة سفلك بوسطن، والمشارك فى إدارة أحد أبرز مراكز الأبحاث العربية فى الولايات المتحدة، يطارد «الزنابير» (البيض الأنكلوسكسون البروتستانت مستعمرى العالم ومنشئى أميركا) وأصحاب فكرة احتلال أرض الغير، واستبدال شعب بشعب، وثقافة بثقافة وتاريخ بتاريخ. هذه الفكرة القائمة على أساس أنه لابد من كسر العمود الفقرى لضحيتهم أى «لغتهم وثقافتهم وتراثهم الروحى»، والتى أرست الثوابت التاريخية الخمسة التى رافقت كل تاريخ أميركا (١ - المعنى الإسرائيلى لأميركا. ٢ - عقيدة الاختيار الإلهى والتفوق العرقى والثقافى. ٣ - الدور الخلاصى للعالم. ٤ - قدرية التوسع اللانهائى. ٥ - حق التضحية بالآخر).

لكن منير العكش لا يلقى الكلام على عواهنه ولا يتوسل بالعبارات الإنشائية، بل يعتمد فى هذا الكتاب على مراجعة مئات المصادر العامة والتنقيب فى صناديق الوثائق الحكومية التى تضم آلاف الأوراق والتى تمثل شريطًا مصوراً من مأساة «تعجز كل مخيلات الرعب عن محاكاتها، وأبطالها وضحاياها ملايين عدة من أبناء البشرية.

■

فتاوى الصيام والزكاة

فى سؤال وجواب

خالد الجندى

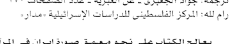
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩



كلما أقبل شهر رمضان الكريم، تزداد الحاجة إلى معرفة بعض القضايا التى

قراءة إيران فى إسرائيل

قراءة إيران فى إسرائيل - الذات والآخر، الدين والحداثة.



تأليف د. حجاى رام

ترجمة: جواد الجعبرى - عن العبرية - عدد الصفحات ٢٧٠

رام لله: المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية «مدار»

يعالج الكتاب على نحو معمق صورة إيران فى المرآة الإسرائيلية، عبر قراءة لجذور العلاقة فى حقبة الشاه، وصولاً إلى الفترة الحالية، كاشفاً مسببات الإنشغال الإسرائيلى بالحالة الإيرانية، وما يدمغها من تنميط.

يروى حجاى رام (محاضر كبير فى قسم الدراسات الشرق أوسطية فى جامعة بئر السبع) العلاقة البنيوية لإسرائيل مع نظام الشاه، والخلفيات الاقتصادية والمنفعية لها، وما اعتراها من إسكات لبعض أوجه العلاقة، وما أسفر عنه ذلك من قراءة أحادية جعلت تغييرات ثورة ٧٩ مفاجئة لإسرائيل.

الكتاب يفكك الخطاب الإسرائيلى حول إيران، كخطاب استشراقى، ليقدم قراءة موضوعية لديناميات الحراك السياسى داخل إيران، ودوافع ثورة ٧٩ وما يقف خلفها من قوى ومركبات قومية ودينية، وما تحمله من خطاب، دون تجميل ودون تشويه.

قراءة إيران فى إسرائيل وثيقة أيضاً بقراءة إسرائيل لنفسها فى إطار علاقة الدين بالدولة، وتدخل شيطنة النموذج الإيرانى فى إطار بناء المعارضة الداخلية للحركات الدينية فى إسرائيل.

قدم للكتاب أنطوان شلحت ومن مقدمته نختار:

يقدم الباحث الإسرائيلى حجاى رام فى هذا الكتاب قراءة نقدية غير مسبوقة على المستوى الإسرائيلى فى الخطاب التأويلى بشأن إيران، الذى نما وتطور فى إسرائيل خلال الأعوام الفائتة، وإلى جانب تفكيك البنيات الاصطلاحية التحتية لهذا الخطاب، وكشف صلته الوثيقة بنظم القوة والهيمنة وإعادة إنتاج الرأى والمواقف فى إسرائيل، فإنه يضع أمام القارئ حقيقة أن الخطاب الإسرائيلى الرائج حول إيران «مشتق أساسا من السيرورات التى يخضع لها المجتمع الإسرائيلى فى هذا الصدد، منذ نهاية السبعينيات فى القرن الماضى»، وفقما يؤكد المؤلف، أى منذ نهاية فترة حكم الشاه وصعود النظام الحالى إلى سدة الحكم فى إيران.

وحجاى رام هو محاضر كبير فى قسم الدراسات الشرق أوسطية فى «جامعة بن غوريون» فى بئر السبع. وقبل هذا الكتاب نشر العديد من الدراسات حول التاريخ الثقافى والسياسى للشرق الأوسط وإيران فى القرن العشرين. كما صدر له فى العام ١٩٩٤ عن منشورات «الجامعة الأميركية فى واشنطن العاصمة» كتاب بعنوان «الأسطورة والحراك فى الثورة الإيرانية».

يستعين رام، هنا، بالعديد من النظريات الما بعد بنيوية وخصوصاً نظرية إدوارد سعيد حول الاستشراق لوضع الخطاب الإسرائيلى حول إيران فى سياق نظرى محدد. بيد أن قيمته الإضافية الحقيقية تكمن فى إظهاره أن منظومة التصاوير والتمثيلات التى تكونت حيال إيران ما بعد الشاه مرتبطة، ضمن أشياء أخرى، بالمخاوف الوجودية المعشَشة لدى «وكلاء المعرفة والهيمنة» الإسرائيليين من مغبة انعكاس بعض الظواهر الملازمة للثورة الإيرانية على إسرائيل، لناحية تعزيز نزعات «حردنة» (من الحريديم، أى اليهود المتدينين المتشددين) و«شرقنة» المجتمع اليهودى فيها، وتأسيساً على هذا فإن الجهود المنصرفة بكليتها نحو إقصاء إيران قسراً إلى تخوم «الأخرية الراديكالية» إنما تعكس أساساً رغبة دفينة فى إقصاء ما يسمى «العفريت الطائفى والأصولى» من المجتمع الإسرائيلى، وذلك لمصلحة توكيد الطابع التجانس المتخيل لهذا المجتمع الذى يعج بالمتناقضات، أكثر مما تعكس حقيقة نوايا نظام الحكم الإيرانى وسياسته الخارجية والداخلية.

وفى وصوله إلى هذه الخلاصة، على وجه التحديد، يعتبر هذا الكتاب مرجعاً لا استغناء عنه لجميع المهتمين بمورفولوجيا (تشكل وتكوين) المجتمع الإسرائيلى، فضلاً عن كونه معيناً لتحليل دور إسرائيل فى الشرق الأوسط، عموماً.

من شأن عنوان الكتاب «قراءة إيران فى إسرائيل» أن يثير للوهلة الأولى تداعيات حول ما يسمى بـ«التهديد الإيرانى»، الناجم عن سعى إيران فى الأعوام القليلة المنصرمة إلى امتلاك قدرة نووية، ورغم أن المؤلف لا يقلل من «خطورة التهديد الإيرانى»، إلا أن سعيه الأرأس هو نحو إيضاح الجذور الثقافية الراسخة فى المجتمع الإسرائيلى، التى تقف من خلف الاشتغال الاستحواذى بهذا الموضوع، وكذلك إيضاح التنميطية والجهل الصارخين اللذين يسمان هذا الاشتغال المتواتر.

إن حجاى رام هو، باعترافه، أحد المناصرين لمقولة المفكر إيميه سيزار المناهض للكولونيالية بأن «المعارف المتخيلة تولد من رحم الصمت الهادر للمعارف العلمية». وفى ضوء ذلك فإنه فى موازاة القراءة التفصيلية، المعمقة، لـ«المعارف المتخيلة» والملفقة بشأن إيران والتى تتجند من أجل إنتاجها وترويجها «كتيبة مختارة» من الباحثين والأكاديميين والساسة والإعلاميين الإسرائيليين، يقدم قراءة، لا أقل دراية وتفصيلاً وعمقاً، للمشهد الإيرانى بإحداثياته المختلفة والمتنوعة والمتعددة، بما يسعف المعارف العلمية المرجوة فى هذا الصدد فحسب.

تهم كل المسلمين في فقه الصيام والزكاة، في أسلوب سهل ومبسط، ويذهب إلى الهدف مباشرة دون التواء أو تعقيد. اكتسب خالد الجندي خبرة طويلة من تصديه لأسئلة المشاهدين، وهي في الغالب تكون قصيرة وتحتاج إلى إجابات شافية في أقل وقت ممكن. وجاء هذا الكتاب تتويجًا لمشوار سنوات مع الفتوى في بساطة وتلقائية.

ينقسم الكتاب إلى قسمين، الأول اختص بفتاوى الصيام، ويندرج تحته ستة فصول، والثاني يتناول فتاوى الزكاة وتمت تغطيتها من خلال ستة فصول أيضًا، وقد راعى المؤلف في كتابه بسط مختلف المسائل الفقهية من أحكام الصيام والزكاة في صورة سؤال وجواب مركزين متسارعين آخذا في الاعتبار عددًا من الأمور المهمة منها:

ـ حيوية القضايا المطروحة وتصحيحها وابتعادها عن نمطية الفتاوى التقليدية.

ـ اختيار أسئلة مباشرة تمس صميم الاهتمامات الشخصية والعامة.

ـ انطلاق الأجوبة كومضات لامعة خاطفة ليست مقتضبة مخلة أو مسهبة مملة.

■

يوسف شاهين
نظرة الطفل وقبضة المتمرد

إبراهيم العريس

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٣١٦ صفحة



يقدم هذا الكتاب أول تحليل وافٍ للتجربة الإبداعية الكاملة للمخرج العالمي يوسف شاهين. ويتناول بالشرح والتعليق أهمية كل فيلم في مسيرته الطويلة، وكذا التنوع الغزير لإنتاجه بين نوعيات سينمائية مختلفة: من الكوميديا الموسيقية، إلى الميلودراما، ومن السيرة الذاتية إلى القضايا القومية. متتبعًا بعمق لا يتخلى عن جاذبية الكتابة، أساليب وتقنيات سينماه الروائية والتسجيلية. ويحتوي الكتاب على ثلاثة ملاحق مهمة، تعرض أولا: رأي شاهين في كل من أفلامه على حدة، ثم سينما شاهين في عيون نقاد وسينمائيين عرب وأجانب، وفي النهاية فيلموغرافيا كاملة للمخرج الكبير. بالإضافة إلى عدد كبير من الصور النادرة ليوسف شاهين ومشاهد من أفلامه.

إبراهيم العريس باحث في التاريخ الثقافي وصحافي وناقد سينمائي ومترجم ولد في بيروت ١٩٤٦، درس الإخراج السينمائي في روما والسيناريو والنقد في لندن. يعمل بالصحافة منذ عام ١٩٧٠. يرأس حاليًا القسم السينمائي في «الحياة»، كما يكتب فيها زاوية يومية حول التراث الإنساني وتاريخ الثقافة العالمية. ترجم نحو أربعين كتابًا عن الفرنسية والإنجليزية والإيطالية في السينما والفلسفة والاقتصاد والنقد والتاريخ. من أهم مؤلفاته: رحلة في السينما العربية، مارتن سكورسيزي: سيرة سينمائية

■

إضـافـات
المجلة العربية لعلم الاجتماع
مجلة أكاديمية فصلية محكمة

تصدر عن الجمعية العربية لعلم الاجتماع بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية، ربيع ٢٠٠٩



صدر العدد السادس من مجلة إضافات متضمنًا افتتاحية: التحديات أمام علم الاجتماع في عالم غير متكافئ للدكتور ساري حنفي.

وقد تضمن العدد ملفا بعنوان «الجنس والمجتمع العربي»، تمثل بأربعة بحوث:

ـ الخادمات والجنس: دراسة التصورات التي يحملها العرب عن الحياة الجنسية للخادمات المنزليات المقيمات لـ «راي جوريديني».

ـ سوسيولوجيا المرأة والجنس في أعمال عبدالصمد الديالمي لـ «عصام العدوني».

ـ الجنوسة في فهم الشباب اللبناني: ثبات في الأحكام وتبدل في المواقف لـ «مأمون طربيه».

ـ المراهق والجنس: سيرة حياة مراهق قروي لـ «عبدالله هرهار».

وفي العدد أيضًا أربعة بحوث:

ـ اتحاد المعلمين الأمريكيين والاستعمار الأمريكي: تدريب المعلمين العرب والاستعمار الثقافي لـ «ميسون سكرية».

ـ موقع الحركة الإسلامية داخل الحقل السياسي الديني في المغرب: مقاربة سوسيولوجية لمواقف الطلبة من الحركة الإسلامية لـ «فوزي بو خريص».

ـ المواطنة والمؤسسة التعليمية في الجزائر: دراسة سوسيولوجية تحليلية لكتب المواد الاجتماعية نموذجًا لـ «راضية بوزيان».

ـ الثقافة السياسية الليبية والفساد لـ «مبروكة الورفلي».

في العدد أيضًا حوار مع عمر الشارني حول رينيه ديكارت: حديث الطريقة. أجرى الحوار سعيد بو خليط.

كما تضمن العدد مراجعات للكتب التالية:

ـ الجنس في العالم العربي (سمير خلف وجون غانيون)، أعدها كمال ديب.

ـ بلا حشومة: الجنسانية النسائية في المغرب (سمية جسوس)، أعدها محمد طيفوري.

ـ الجسد والصورة والمقدس في الإسلام (فريد الزاهي)، أعدها فضيل ناصري.

ـ عبور الحدود وتبدل الحواجز: سوسيولوجيا العودة الفلسطينية (تحرير ساري حنفي)، أعدها مينو هيكسبور.

ـ الشتات اللبناني: التاريخ والعنصرية والانتماء (تحرير بول طبر)، أعدتها سامية الأسطة.

ـ الصعود من دول الجنوب: الأفغانيون والمغاربة في أوروبا الجنوبية (آلان تاريوس)، أعدها نيكولا بويغ.

ـ في التنمية السياسية: مقدمات في سوسيولوجيا الإصلاح والتحديث والتحول الديمقراطي في المغرب المعاصر (مصطفى محسن) أعدها محمد المرجان.

ـ غزة، في كواليس الحركة الوطنية الفلسطينية (حسان البلعاوي) أعدها ساري حنفي.

كما تضمن العدد، في باب آراء وردود، ردا على النقد لمقالة «الدوافع المتعلقة بموضة الثياب في الحياة اليومية عند اللبنانيين» بقلم رانية سعد.

■

إسرائيل ٢٠٠٨
انحسار الشعور بالرفاه والأمن الاجتماعي!
تقارير جديدة عن صورة الأوضاع الإسرائيلية الاقتصادية- الاجتماعية

إعداد وتقديم أنطوان شلحت

ترجمة سعيد عياش

سلسلة أوراق اسرائيلية - العدد ٤٩

رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية «مدار»، ٢٠٠٩



تحت عنوان «إسرائيل ٢٠٠٨- انحسار الشعور بالرفاه والأمن الاجتماعي» نقرأ ثلاثة تقارير جديدة عن صورة الأوضاع الاقتصادية- الاجتماعية صدرت حديثًا عن مركزين إسرائيليين متخصصين في دراسة السياسات الاقتصادية والاجتماعية هما «مركز أدفا- معلومات حول المساواة والعدالة الاجتماعية في إسرائيل» و«مركز طاوب لدراسة السياسة الاجتماعية في إسرائيل»: الأول حول «صورة الأوضاع الاجتماعية في إسرائيل خلال العقد بين ١٩٩٨- ٢٠٠٧»؛ الثاني بعنوان «ثمن الاحتلال... عبء النزاع الإسرائيلي- الفلسطيني: صورة ومعطيات شاملة، ٢٠٠٨»؛ الثالث- تقرير «الاستطلاع الاجتماعي في إسرائيل- ٢٠٠٨».

وادراكا لحقيقة انه ورغم أن ما اصطلح على تسميته بـ «حل الدولتين» يحتل صدارة المشهد العام المنشغل بمشاريع التسوية السياسية، إلا أن هناك حلولاً أخرى يتم التداول فيها إمّا من خلال المحافل الأكاديمية وإمّا من خلال الاجتهادات الخاصة. من ملاحظة أن عمليات تداول مشاريع الحلول الأخرى تنطلق، أساسًا، من القناعة بأن «حل الدولتين» غير قابل للتطبيق لأسباب كثيرة، تحيل في معظمها إلى وجود فجوات كبيرة بين الموقف الفلسطيني وبين الموقف الإسرائيلي إزاء هذا الحل.

ولهذا فقد تم تخصيص معظم هذا العدد لمجموعة من الرؤى الإسرائيلية بشأن مشاريع التسوية السياسية، والتي تتراوح بين حل الدولتين وحل الدولة الواحدة وبين حل الاتحاد والحل الإقليمي، ويتراوح استنادها بين نموذج ١٩٦٧ وبين نموذج ١٩٤٧- ١٩٤٨.

ولا شك في أن هناك رؤى أخرى لمشاريع تسوية سياسية لم يشملها هذا المحور الخاص، فضلاً عن وجود اجتهادات موازية في هذا الشأن أيضًا لدى الطرف الفلسطيني وسائر الأطراف العربية. علاوة على ذلك ثمة من يرى أن عدم توفر ظروف سياسية مواتية للتوصل إلى حل، على غرار «حل الدولتين»، يستدعي البحث في طرق أخرى تؤدي إلى «اتفاقيات جزئية أو مرحلية»، تزكي الحل الأشمل، كما يبرز من المقابلة الخاصة في هذا العدد مع أحد أبرز الدبلوماسيين الإسرائيليين السابقين، الذي يتولى الآن رئاسة «معهد دراسات الأمن القومي» في جامعة تل أبيب.

وتركز القراءات في هذا العدد على كتب إسرائيلية تتناول الجدل داخل الحركة الصهيونية بشأن مشاريع الحلول المختلفة، وخصوصًا من جانب التيارات التي كانت تنادي بحل الدولة الثنائية القومية، وترصد بالصورة سنوات تأسيس إسرائيل على العنف ونظام العنف المستتر في واقع الاحتلال ونُظمه، وتحلل جوهر العلاقة بين المجالين الأمني والمدني في إسرائيل.

ولعل القاسم المشترك لموضوعات العدد كافة هو أنها تتيح الإطلالة، عن كثب، على خلفيات السياسة الإسرائيلية من خلال ارتباط حاضرها الراهن بماضيها الذي لا يزال حاضرًا.

■

إبراهيم باشا فى سوريا

سليمان أبو عز الدين
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩، ٣٠٨ صفحة



يُعدّ هذا الكتاب باكورة المؤلفات التي تتناول حياة إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا ومؤسس إمبراطوريته الحديثة، خطه قلم المؤرخ الشامي سليمان أبو عز الدين ونشر في بيروت عام ١٩٢٩، مختصا بجانب مهم من حياة هذا القائد الكبير؛ إذ عالج المؤلف فيه باستفاضة تلك الفترة شبه المجهولة والتي قضاها إبراهيم باشا حاكمًا للشام من عام ١٨٣١ إلى عام ١٨٤١، لكنه كان حريصًا أيضًا على بدء هذه الرحلة التاريخية الشائقة بتتبع رحلة الأب (محمد علي باشا) منذ قدومه إلى مصر وتوليه حكمها وطموحه التوسعي غير المحدود، وموقع الشام في مشروعه هذا، ثم تحقيق رغبته في الاستيلاء عليه. وهنا يبدأ في استعراض انتصارات إبراهيم باشا العسكرية المتوالية، وإدارته المدنية والصعوبات التي واجهها نتيجة للسياسات التي فرضها أبوه من ناحية، وبروز الأطماع الأجنبية ثم تحققها من ناحية أخرى. وهو ما أسفر فيما بعد عن فشل مشروعه وتحجيم الدور المصري في الشام.

لقد نجح المؤلف في أن يوظف مادته جيدًا، وتمتع بحيادية الباحث عن الحقيقة برصده لكل من مميزات وسلبيات الحكم المصري في الشام. كما أن الدراسة العلمية الجادة التي قدمت بها الدكتورة لطيفة محمد سالم للكتاب أضافت إليه قيمة علمية ورصانة تجعله يسد نقصًا كبيرًا في المكتبة العربية

■

قواعد لغة الحضارات

فرنان بروديل
ترجمة: د. الهادى التيمومى
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٦٤٠ صفحة



فى بداية الستينيات من القرن العشرين. تمت استشارة بروديل حول الإصلاحات التى يمكن إدخالها على برامج التاريخ للتعليم الثانوى فإذا هو ينجح فى إدراج دراسة الحضارات الكبرى فى الأقسام النهائية. بعد أن وافق على وضع هذا الكتاب المدرسى الذى نشره سنة ١٩٦٣، ثم أدرج فيه بعض الإضافات سنة ١٩٦٦. وإذا كان هذا الكتاب لم يفقد شيئًا من قيمته العلمية فإن فائدة الرجوع إليه تزداد فى السياق التاريخى الحالى.

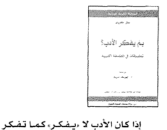
إن الحضارة المعرفة، تباعًا، بالاعتماد على المجال وعلى المجتمع وعلى الاقتصاد وعلى الذهنيات الجماعية، تتماهى، هنا، مع المدى الطويل، الذى يرى بروديل التاريخ من خلاله. هكذا تم استعراض حضارات الإسلام وإفريقيا السوداء والشرق الأقصى والغرب.

هل نحن أمام مشروع أولى للتأريخ للعالم؟ إن «قواعد لغة حضارات» عالم اليوم تهيئ لهذا المشروع وتكمله من زوايا مختلفة.

■

بِمَ يفكر الأدب؟ تطبيقات فى الفلسفة الأدبية

بيار ماشيرى
ترجمة: د. جوزيف شريم
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٣٧٦ صفحة



إذا كان الأدب لا «يفكر» كما تفكر الفلسفة، ولا يحتمل وجود أفكار فلسفية جاهزة تضاف إليه وتنتزع منه، لأنها تكون بمثابة خلايا ميتة فى جسد حى، وإذا لم يكن فنًا لغويًا صرفًا ولا شكلاً خاليًا من مضمون، فإن الأدب وهو يُنتج أشكالاً وصورًا وأنماطًا تعبيرية وصفية وسردية وحوارية، يُنتج فى الآن ذاته «أفكارًا» ويطلق «رسائل»، ولكنها ليست أفكارًا مجردة كما هى المفاهيم الفلسفية، وليست رسائل مباشرة، كما هى الرسائل فى التوجيهات الأخلاقية والمبادئ التعليمية، وكونها كذلك لا ينتقص من قيمتها كتجارب فكرية، بل يكسبها صفة خاصة ويمنحها بُعداً آخر. إنها نسيج ضمن نسيج متشابك الخيوط كثير التشعب، متعدد الألوان، على الباحث أن يُحسن تمييزها وملاحقة تعرجاتها والتفافاتها من دون أن ينقلها إلى نطاق آخر، ومن دون أن يجردها من طبيعتها الأدبية.

■

اعادة اختراع العالم

انهيار العولمة.. وإعادة اختراع العالم

جون رالستون سول
ترجمة: محمد الخولى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية
بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم - ٢٠٠٩

ينقسم هذا الكتاب إلى خمسة أجزاء كبرى تحيط بموضوع سقوط العولمة من كل جانب، وعلى كل أصعدتها: الاقتصادية والسياسية والثقافية، وكيف أثر مفكروها الكبار على العالم بإطلاق مقولاتهم عن العولمة واعتبارها الدين الجديد، ونهاية التاريخ... إلخ ما روجوه من قيم وعقائد أضرت بالكثير من دول العالم، بل وأدت إلى انهيارها.

ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب والدراسات التى سعت إلى تقييم النظام العولمى، فى محاولة للتعرف على مصادر قوته ونقاط ضعفه، وتحديد مبادئه ومنطلقاته، وفى تأثيراته الكونية على مجالات الاقتصاد والسياسة والأحوال الاجتماعية والإنسانية للبشر والعمران، وربما هو الكتاب الوحيد الذى تنبأ بانهيار إمبراطورية التجارة الحرة.

وأول خطوة رآها المؤلف كبداية لانهيار العولمة أنها تحولت منذ سبعينيات القرن الماضى، خصوصاً فى شقها الاقتصادى إلى اعتبارها حقيقة مطلقة، بحيث غدت نوعًا من المعتقد الدينى، ورأى المناصرون لها أنها المحرك الوحيد لمسيرة التاريخ. ثم يقدم المؤلف ملخصاً لأهم الوعود والآمال التى أطلقتها عقيدة العولمة منذ أوائل السبعينيات، من خلال مختلف القيادات السياسية والأكاديمية، ورجال الأعمال، والإعلاميين والمؤسسات الدولية، وما أوصت به مئات المؤتمرات والندوات والبحوث ورجال الفكر من أمثال: فوكوياما، وعالم الاجتماع أنتونى جيدنز، وميلتون فريدمان، وتوماس فريدمان وغيرهم من المروجين لفكر الرأسمالية، وكان من أبرز مؤسسات العولمة التى خططت لبسط سيطرتها على الكون: صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى، ومنظمة التجارة العالمية، ومنتدى دافوس.

على أن الخطوة الأخطر فى هذا السياق هى ما لاحظه المؤلف جون والستون سول فى الجزء الرابع بعنوان: «السقوط» من أنه لا العولمة ولا التجارة الحرة صادفت مشكلات لمجرد أن هناك من عارض أيًا منهما أو التمس معالجة لهما بطريقة واقعية، إنما صادفتهما المشكلات بسبب نهج اللامبالاة والرومانسية والتمسك بالأيديولوجية الذى اتبعه غلاة مؤيديهما، لأنهم كما يرى المؤلف أرادوا تأكيد نظرية شمولية خالية من دور محورى سواء للقيادة على المستويات المحلية أو على+ مستوى المجتمع ككل.

ثم جاء القرن الحادى والعشرون ليبدأ الناس فى التركيز على العدد المتزايد من الديمقراطيات الفاشلة ومن ثم الدول الفاشلة، حيث سيطر التدهور على سلطة الدولة القومية، كما لوحظ بعض الساسة والمسئولين المدنيين أن نظريات العولمة المحددة التى تكفل نموًا صحيًا وتؤدى إلى توسيع نطاق الثروة لم تكن تؤدى هذا الدور من قريب أو بعيد، والمثل الأبرز على هذا ما جسده التوسع فى خصخصة شركات الدول، وما أدى إليه ذلك من تحريك تريليونات من الدولارات، كما تبخرت النقود، وأدت إلى التضخم، فنحن أمام مبالغ طائلة من الأموال تدخل إلى السوق، وبسرعة شديدة يبدو وكأنها تتبخر دون أن تترك أى أثر خاص، وكأنها تحاكى قصة الصعود المبارك للسيدة العذراء إلى أطباق السماء، وربما تكون هى الاستجابة الطبيعية للاقتصاد إزاء هذا الانفصام الذى يفصل بين الأسواق والرأسمالية المتصاعدة حلزونيًا والحركة الراسخة للنشاط الحقيقى.

وبدأت الأسئلة تتوالى على جدوى العولمة مثل: لماذا لم يسفر هذا التوسع المدهش والمتواصل فى التجارة عن نمو اقتصادى واسع النطاق؟ أو عن انتشار الثروة وخفض البطالة، وربما كما يقول المؤلف، كان أسوأ ضروب الفشل هو الاعتراف بذلك الانفصام بين التجارة والنمو، فالتجارة كانت محورًا من محاور نظام العولمة القصائدى، وعليه فبدلاً من إجراء حوار صريح بشأن خصائصها الإيجابية والسلبية عمد المؤمنون بالعولمة إلى إحاطة شكوكهم بسياج من الصمت والكتمان.

وبدءاً من الفصل الثالث من الجزء الرابع، يرصد المؤلف التسلسل الزمنى لانهيار العولمة، وصولاً إلى ما نحن فيه الآن من بطالة وأزمات عالمية كان قدومها واقعًا لا محالة أمام أعين الجميع، لكن قوة الإعلام وهيمنته خدرت الجميع ووضعتهم فى هذا المأزق ويستشهد المؤلف بمقطع شعرى من «سوفو كليس»:

المال أيها السادة، المال هو الآفة
التى تصيب البشر بكل مرض
ولا نملك لهذه النازلة الرهيبة اسماً
إلا هذا الاسم.

كـــــتب فرنســـــية

Le fait du prince
Amelie Nothomb
ALBIN MICHEL: 169 pp¨ 2008



هكذا فى هذا العمل الأدبى الشائق لأميلى نوتومب الكاتبة الأشهر فى فرنسا وبلجيكا يسرق أحد الأشخاص هوية آخر وبلمسة صغيرة يتحول الشخص العادى إلى أرستقراطى. وأميلى نوتومب ولدت فى اليابان وتعيش بين باريس وبروكسيل ومنذ رواياتها الأولى الصادرة فى عام ١٩٩٢ فقد حصدت شعبية عريضة. حيث تبيع أعمالها عدة آلاف من النسخ فى فرنسا وبلجيكا وحصلت على جائزة الأكاديمية الفرنسية عن إحدى رواياتها وترجمت أعمالها لأكثر من ثلاثين لغة حية.

■

empire du moindre mal:L Essai sur la civilisation libérale

إمبراطورية العالم الأقل سوءا
Jean-Claude Michea (Ed)
Climats: 209 pp¨ 2007



طموح الليبرالية هو تأسيس المجتمع الأقل سوءا، المجتمع القادر على إنقاذ البشرية من جنونها الأيديولوجى. بالنسبة لمؤيديها، فهى تأسيس النظام المناسب الذى هو فى مركز كل المشكلات التى يعانى منها الجنس البشرى. يجب فهم الليبرالية بهذا الشكل كسياسة من أجل الأقل سوءا. فهى تعبر عن تشاؤم عميق قبل قدرة البشر على تأسيس عالم جديد. ذلك المجتمع يعمل أفضل حين يهتم كل فرد بطموحاته الخاصة دون الاهتمام بالجوانب الأخلاقية. كيف يمكن إذن تفسير أن ذلك التوجه، على اعتبار أن ظله سيمتد على الأرض، يتخذ واحدا فواحدا مظاهر عدوه القديم، العالم الأفضل، حتى يصل لمنتهاه وهو تأسيس إنسان جديد؟ ذلك الكتاب يصف تلك العملية وأهدافها سواء على المستوى الاقتصادى، مرتكزا على السوق وهى بشكل تقليدى مفضلة من قبل اليمين، أو على المستوى الثقافى المرتكز على القانون. والدفاع عن تلك الليبرالية من الآن فصاعدا سيكون المنطق الوحيد للبقاء يسارا. فهى تفضل بشكل مثير للإعجاب المنطق الليبرالى فى وحدته الأصيلة مع الإعداد لأسس لمجتمع مقبل يتوافق مع الدفاع عن الإنسانية ذاتها. وبكثافة وبطموح استثنائيين، يضع الكاتب كل شىء تحت يد الإنسان الثائر فى لحظة ما. وجون كلود ميتشا يدرس فى مونتبلييه وصدرت له العديد من الكتب فى نفس المجال.

■

Au commencement du temps

فى بدايات الزمان
IGOR et GRICHKA Bogdanov
Flammarion: 317 pp 2009



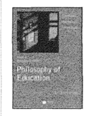
لو كان لنا العبور فى خط إلى الكون من قلب باريس والوقوع رأسا برأس مع ألبرت أينشتاين. هل لنا ذلك؟ هل لنا الانتقال بحرية عبر الزمان؟ ذلك التاريخ الكونى هو ما يحاول ايجور وجريشكا بوجدانوف دفعنا إليه حيث تشوه الزمان، ويظهرون لنا من خلال عملهم ما قد كانت الأشياء عليه. وكيف بدأت. وقد قاموا بتفكيك المعادلات الكبرى للفيزياء وأثاروا بذلك جدالات مشتعلة. بيد أن أبحاثهم، والقائمة على تطبيق أدوات رياضية جديدة على كون ما قبل الانفجار العظيم، وصلت إلى مناهج جديدة لمواجهة غموض الأصول: فقبل ظهور الزمان والمكان كيفما نعرفهم كان بالتأكيد هناك شىء ما. معلومات ذات طبيعة رياضية توجه تطور الكون ولا تفسرها إلا الرياضيات الأكثر تجريدا. شفرة كوزمولوجية لا يمكن تفسيرها إلا بالزمان التخيلى. رصودات القمر بلانك الذى أتم انطلاقه عام ٢٠٠٩ تجلب دون أدنى شك عناصر حاسمة فى ذلك الشأن. لو أن شكل الكون وفقا لأحدث الرصودات كروى، ولو أننا فهمنا طبيعة المادة القاتمة الغريبة بالكون، فيمكن التأكيد على أطروحاتهم. فى لحظة الصفر كان الزمن تخيليا أى أن كل الكون كان مضغوطا كالاسطوانة المدمجة فى لحظة واحدة.

وايجور وجريشكا بوجدانوف حاصلان كلاهما على رسالتى دكتوراه فى الفيزياء النظرية والرياضيات منذ عام ٢٠٠٥ ولهم العديد من الإصدارات فى موضوع نشأة الكون وآخرها هو ذلك العمل الهام الصادر هذا العام ويديرون حاليا برنامجا تليفزيونيا فى فرنسا على قناة فرانس ٢.

■

1-philosophy of education

فلسفة التعليم
Randall Curren
Wiley-Blackwell 2007¨ 608pp
$79.85



«لا نحصل على الثمار الجيدة إلا من البذور الجيدة» مقولة جاءت على لسان أحد الحكماء الصينيين القدامى تركها فى ذاكرة الفكر البشرى التى تزدحم بكميات هائلة من الأفكار الخصبة التى لاتحتاج سوى من يهتم وينظر إليها بعين معتبرة، تفاعلت هذه المقولة مع موضوع تتعاظم أهميته إلى درجة استحقاقه أن يوضع فى بؤرة الدراسة والبحث ألا وهو فلسفة التعليم فى مراحله المبكرة. فإذا أقررنا بحاجة المجتمع إلى القادة العظام القادرين على الأخذ بيد أمتنا العربية إلى الأمام متجاوزين المراحل الفائتة من التأخر والتى لا مفر من الإعتراف بمرورنا بها- من منطلق أن الاعتراف بالأخطاء هو الخطوة الأولى للإصلاح -ولا مفر أيضا من الاعتراف بسبق الكثير من الأمم التى كانت معنا عند نفس النقطة أو ربما كانت متأخرة، هذه المقدمة هى البوابة التى من خلالها ندلف إلى بهو الحديث عن التعليم منذ مراحله المبكرة فى الروضة وحتى الوصول إلى أعلى الدرجات العلمية. فلو زعمنا أننا نحتاج إلى مجموعة من الأفراد ليكونوا قادة بعد مرور خمسة وأربعين عاما على كتابة هذا المقال- على فرض أن اختيار القادة يكون ممن تدور أعمارهم فى فلك الخمسين فسوف تكون تلك الشريحة هى من الأطفال اللذين تتراوح أعمارهم اليوم حول الخمس سنوات أى سن الروضة. يتعرض الأطفال عند بداية خطواتهم فى مشوارهم التعليمى للعديد من التجارب الشخصية ويتأثرون بكل ما يتعرضون له من عوامل بيئية وأشخاص جدد يتعاملون معهم فى المؤسسات التعليمية، ولابد أن نراعى أن كل طفل هو حالة فى حد ذاته والأطفال يختلفون اختلافات بينة وهذا يؤكد ضرورة تلبية كل احتياجات الأطفال فى هذه المرحلة حتى تكون بالفعل مفيدة لهم. تتكون تحت أقدام الأطفال فى تلك المرحلة الأرضية التى سوف يقفون عليها طوال العمر وهى إما أن تكون صلبة قوية أو تكون رخوة مهترئة، من هنا يضع كتاب فلسفة التعليم خطوطا سوداء تحت أهمية تلك المرحلة فى تشكيل الإنسان، الذى هو اللبنة الأولى فى المجتمع الذى يحتاج إلى القادة والعلماء وأصحاب المواقف الجادة والشخصيات القيادية الماهرة. فإذا كانت قضية صناعة القادة هى موضوع جدير بالطرح فإن هذه الصناعة يبدأ تفعيلها فى مرحلة الروضة .

■

2- The American Journey of Barak Obama

رحلة باراك أوباما الأمريكية
By Editors of Life magazine
Little¨Brown and company 2008
176pp $15.74



الذكاء، الكياسة، اللباقة، الجمال، اللون، الجنس، المستوى العلمى والإجتماعى، المال، الأناقة، إتقان الإتيكيت ومكونات لا حصر لها تندرج تحت عنوان رئيسى هو «القبول» الذى يتشكل من بعض هذه العوامل أو جميعها وهذا القبول هو البداية الحقيقية للنجاح، لايشترط توافر كل هذه العوامل لكى يصل الفرد إلى مبتغاه من النجاح يكفيه فقط واحدة أو على الأكثر اثنتين حتى يحصل على مفاتيح أوسع أبواب النجاح المهم فقط هو أن يعرف ما وهبه له خالقه ثم يراعيه ويصقله، وعندما يطرح مصطلح القبول على طاولة النقاش فإن أسرع من يقفز إلى الذهن هو الرئيس الأمريكى باراك أوباما الذى أثار اهتمام الجميع ولفت إليه الأنظار مما دعا البعض إلى وصفه بالظاهرة. ترى من يكون هذا الظاهرة؟ هذا هو السؤال الذى أوكلت مهمة الإجابة عليه إلى بعض محررى مجلة لايف الأمريكية وتجلى ذلك فى كتاب«رحلة باراك أوباما الأمريكية». فى هذا الكتاب نجد الأدوات التى من خلالها نستطيع الإجابة على هذا السؤال، لقد اتسمت حياة أوباما فى أمريكا بمزيج من الكفاح الذى كلل بنجاح جاء بعد المرور بطرق وعرة مليئة بالأشواك ولعل هذا هو أهم ما يميزه. كما توافرت فى حياة هذا الرجل بعض العوامل التى حفرت آثارها بشكل واضح منتجة هذا الرجل الظاهرة. كان لأوباما فى سنوات شبابه الأولى اهتمام واضح بالسياسة مهدت له دراسته للقانون كما كان له توق شديد وحلم للوصول إلى العرش الأمريكى وارتبط

ذلك بالسعى الجاد وفعل كل ما يسهل الوصول إلى هذا الهدف من دراسة وإحساس عال بالمجتمع الأمريكى ومتطلباته خاصة فى وقت تظلل فيه الأزمة الاقتصادية الأمريكية بغيوم قاتمة على تلك الولايات المتحدة التى تركها سابقه وهى تمر بأسوأ الأيام على مر تاريخها. ويرتبط تميز أوباما بخلفية تاريخية لها تأثيرها الواضح من خلال أصول أفريقية مسلمة وتعليم على مستوى راق من خلال أم من البيض ويعرض الكتاب بشكل موضوعى الأخطاء التى وقع فيها أوباما والعقبات التى واجهته وتغلب عليها. وسوف يجد القراء الكرام العديد من الصور الطريفة لأوباما مع عرض يتميز ببساطة السرد لسيرته الذاتية منذ شبابه فى هاواى إلى جذوره وعائلته الأفريقية ومن هارفارد إلى شيكاغو. حقا هو كتاب يضم بين دفتيه مضمونا قيما قد يكون ذا فائدة عظيمة للعديدين من عشاق النجاح والتفوق.

■

3-Healing and preventing Autism
الوقاية والعلاج من التوحد

Jenny Mccarthy¨Dr.Jerry Kertzinel
Penguin Group 2009 272PP $17.51



يتصف التوحد بوجود تأخر فى اكتساب اللغة لدى الطفل وضعف العلاقات الاجتماعية مع من حوله فيكون لهذا الطفل حركات متكررة وتظهر هذه الأعراض منذ السنة الاولى وقد يكون طبيعيا ثم يحدث له تراجع وفقد لمهارات التواصل مع الآخرين. أصدرت الكاتبة الأمريكية جينى ماكارثى بالمشاركة مع د.جيرى كارتزينيل كتابا حول مشكلة التوحد عند الأطفال وهى من أهم الاضطرابات التى قد تواجه الأطفال والتى يجد الوالدين صعوبة فى التعامل معها تناول الكتاب أساليب الوقاية من هذا المرض وكذلك علاجه فى حالة تعرض الأطفال له ومن المعروف أن معدلات انتشار هذا المرض قد زادت فى أمريكا وكثر الحديث عنه فى الأوساط العلمية بدءا من عام ٢٠٠٦ حيث قام فريق من الأطباء المبدعين بتطبيق طرق حديثة فى مجال علاج هذا الاضطراب السلوكى وأظهرت هذه الطرق نتائج فعالة واعتمدت على تغيير الظروف البيئية المحيطة بالطفل وابتكار نظام حياة جديد له يرتبط بتغيير معاملة المحيطين به وعدم التعامل معه على أساس أن لديه نوعا من التخلف الذهنى لأن الطفل المتوحد هو فقط فاقد للقدرة على التواصل فإذا ساعده المحيطون به على الخروج من عزلته فسوف يشفى ويتجاوز تلك الحالة من الاضطراب السلوكى. يقول د.جيرى أن الاكتشاف المبكر هو مفتاح العلاج الناجح ولذا فعلى الوالدين اللذين يلاحظان أى سلوك غير طبيعى لطفلهما- كالهدوء الشديد أو الانعزال عن الآخرين فى اللعب- أن يأخذا بنصيحة المختصين لتشخيص الحالة فى الوقت المناسب لضمان فعالية العلاج.

جينى ماكارثى هى كاتبة أمريكية معروفة تنشر مقالاتها فى النيويورك تايمز ولها بعض المؤلفات فى مجال الأسرة والأمومة وقد قام د. كارتزينيل بعلاج ابنها من اضطراب التوحد السلوكى وأصبح طبيعيا تماما ويعد د.كارتزينيل من أشهر الأطباء الأمريكيين الذين قاموا بعلاج مشاكل التوحد لدى الأطفال وهو من الشخصيات التى تحظى باهتمام إعلامى فى أمريكا. ومن بين المشاهير الذين قيل عنهم أنهم كانوا يعانون من التوحد العالم نيوتن مكتشف الجاذبية الأرضية والموسيقار العالمى بيتهوفن الذى ألف تسع سيمفونيات وكان ذا فضل فى تطور الموسيقى الكلاسيكية وأينشتاين عالم الفيزياء الألمانى الشهير، كل هؤلاء استطاعوا التغلب على التوحد والتفوق على الأسوياء.

■

5-Understanding Arabs
فهم العرب

Margret K.Nydell
Intercultural Press 2006¨ 260pp $14.93



«العرب يؤمنون بالقدرية والاعتقاد بعجز الإنسان عن التحكم فى الأحداث، فهم يعتقدون أن الله وحده هو الذى يسير الأمور وهذا يعطى مبررا قويا وإحساسا بالراحة لمن يعجزون عن تحقيق أهدافهم وتتضح سطوة هذا الاعتقاد عندهم فى تكرار كلمة inshaa allah إن شاء الله» هذا ما قالته مارجريت ك. نايديل التى عاشت سنين طويلة فى العديد من الدول العربية منها تونس وبعض دول الخليج. قدمت هذا الكتاب ليكون دليلا مرشدا للقراء من غير العرب ممن يفتقدون المعلومات عن المنطقة العربية ويفدون إليها بغرض الدراسة أو السياحة أو العمل فى السلك الدبلوماسى وغيره. تصف د.مارجريت الصورة الذهنية للعرب فى الغرب بأنها إلى حد كبير غير حقيقية وانه لابد من تطوير النظرة إلى هذه الشعوب ولابد من الكف عن النظر إليهم كأنهم مجموعة من البدو فقد تجاوزوا هذه المرحلة منذ وقت طويل. وفى تقديمه للكتاب يقول د.ألفينو فانتانى بأن أحداث الحادى عشر من سبتمبر قد صبغت جهل الأمريكان بالعرب والمسلمين بصبغة درامية وأن هذا الكتاب يساهم فى محو سوء الفهم الضخم والمتبادل بين العرب والغرب فى آن واحد. وفى عقدها للمقارنات بين الجانبين العربى والغربى ترى المؤلفة أن الغربيين يتميزون بالموضوعية وتمحيص الحقائق بطريقة عقلانية مع تجنيب المشاعر وتصف تلك الطريقة بالنضج والفعالية فى حين تصف العرب بالانسياق وراء المشاعر التى يعطونها وزنا هائلا قد يصل إلى اختراقها مجال العمل مما يحدث آثارا سيئة على مجرياته كما تصف العرب بأنهم شغوفون بالحديث فى السياسة والدين وأنهم يقومون بالدعوة للإسلام كلما سنحت الفرصة لذلك ويعتقدون أنهم ذوو الدين الأمثل الذى يجب اعتناقه ولو بشكل جبرى- قد يكون رأى المؤلفة مؤشرا جيدا للمعنيين بقضية تجديد الخطاب الدينى التى تحتل أهمية كبرى فى الوقت الحالى - وعن العادات الاجتماعية للعرب تصفهم المؤلفة بالكرم الشديد ولكن تعيب عليهم مشكلة الاستهانة بالوقت وتصفها بأنها ظاهرة عامة تتطلب من الأجنبى المقيم فى دولة عربية أن يتحلى بالصبر ولا يفقد أعصابه بسبب المرونة العربية فى إنجاز المواعيد ، يمثل هذا الكتاب مرآة تعكس فى داخلها صورة للمجتمع العربى قد تقدم مساعدة للأجنبى المقيم فيه كى يتعامل مع مفرداته ولكننا إذا وضعنا كائنا حيا أمام مرآة فسوف نرى بأعيننا جسم الكائن وكذلك صورته فى آن واحد وما أعنيه هنا أن الصورة برغم دقة تشابهها مع الجسم فهى شىء والحقيقة شىء آخر، الجسم الحقيقى يحتوى الروح أما الصورة فهى مجرد صورة وكذلك الكتاب هو انعكاس قريب جدا من حقيقة المجتمع العربى المسلم ولكنه لم يلمس روح هذا المجتمع الذى يتخذ من الآية الكريمة «ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا، إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا» مقودا لحياته إذا لم يحكم القبضة عليه فقد يضل الطريق ولا يوجد أى تعارض بين الأخذ العلمى بالأسباب والاعتماد على قدر الله والمشيئة.

■

6-The Social Atom
الذرة الاجتماعية

Mark Buchanan
Bloomsbury 2007¨242pp $9.99

يدور مضمون الكتاب حول المجتمع البشرى من وجهة نظر فيزيائية حيث يضع كل من الذرة والإنسان تحت مجهر واحد ويرصد أوجه الشبه والاختلاف بينهما من حيث بناء الذرة وسلوكياتها وتفاعلاتها مع الذرات المحيطة وكذلك الإنسان من خلال نفس السياق بدءا من تواجده منفردا ووصولا إلى تفاعلاته الجماعية وكتاب الذرة الاجتماعية يقدم لنا رؤية جديدة تندمج فيها علوم الفيزياء التجريبية المتخصصة فى علم الذرة مع علمى الاجتماع والاقتصاد وكذلك علم النفس ويقدم الكتاب إجابات لأسئلة عديدة قد تكون بسيطة أو معقدة لماذا يزداد الأغنياء غنى؟ لماذا نتشابه مع جيراننا فى بعض السلوكيات؟ لماذا تحدث أحيانا اختناقات مرورية بلا سبب؟ لماذا تحدث الحروب الأهلية والنزاعات العرقية؟ لماذا تحدث المذابح؟ مؤلف هذا الكتاب هو مارك بوشنان له إصدارات هامة فى نفس المجال مثل «لماذا تحدث الكوارث» و«المكونات الأساسية لنظرية الشبكات» ويقدم الكتاب نظرية اجتماعية حديثة ويناقش الكثير من الموضوعات منها علاقة الإنسان بالكون من حوله ويرى المؤلف أن الإنسان يعانى من استعباد التفكير له فالتفكير رغبة أساسية لدى البشر لا يملكون القدرة على التخلص منه ولابد أن يتحرك هذا التفكير فى سياق سليم وإن لم يحدث ذلك فسوف يقود إلى المزيد من الحواجز والمشكلات للجنس البشرى إما بينه وبين الطبيعة أو بين البشر بعضهم البعض وينهى المؤلف كتابه بفصل ذى عنوان طريف وهو «التقدم نحو الماضى» يناقش فيه مفاهيم الأنانية والفردية والتناغم مع الآخرين من خلال السياق الاجتماعى والقيمى ويدعو إلى المزج بين ما هو حديث وما هو قديم أصيل وله جذور فلسفية مجربة حتى لو لم يتمتع بنفس الجودة المنهجية الحديثة.

عن الكتاب

أمبيرتو إيكو
Umberto Eco

■■ تمّ التطرّق خلال اليوم الختامى لورشة عمل خاصة ببائعى الكتب نُظّمت حديثاً فى البندقية (إيطاليا) إلى الطابع العابر لوسائل حفظ البيانات. وشملت الأساليب المُستخدمة لحفظ المعلومات البلاطات الحجريّة، وألواح الطين، وورق البردى، والبرشمان، إلى جانب الكتب المطبوعة بطبيعة الحال. وقد نجح العديد من هذه الكتب فى الصمود طوال السنوات الخمسمائة الأخيرة، لكنّها اقتصرت على المراجع المصنوعة من ورق الخرق.

فى أواسط القرن التاسع عشر، لجأ المصنّعون إلى الورق المصنوع من لبّ الخشب الذى يبدو أنه يدوم لسبعين سنة كحدّ أقصى. (حاولوا مسك صحف أو كتب تعود إلى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ولاحظوا كيف يتفتّت العديد من أوراقها بين أيديكم لدى قلب صفحاتها). لذا، يقدم عدد من الخبراء منذ فترة على عقد المؤتمرات ودراسة الأساليب والوسائل المختلفة لتفادى تلف الكتب الموجودة فى مكتباتنا. وتقضى إحدى الأفكار الأكثر شيوعاً (رغم شبه استحالة تطبيقها على الكتب كافة) بمسح جميع الصفحات ونقلها إلى جهاز إلكترونى.

غير أنّ هذا الأمر يؤدى إلى مشكلة أخرى، ذلك لأنّ كلّ الوسائل المُعتمدة لنقل المعلومات وحفظها، من الصور الفوتوغرافيّة إلى بكرات الأفلام والأقراص ومحركات الأقراص، هى أكثر قابليّة للتلف مقارنةً بالكتب.

ويدرك معظم الناس اليوم السيئات التى ينطوى عليها بعض الأساليب القديمة لحفظ البيانات. فعلى سبيل المثال، كلنا نعلم أنّ بعد فترة من الوقت، يلتوى الشريط الموجود داخل الأشرطة الصوتية وعلينا محاولة تحريك البكرة بواسطة قلم لتشغيلها مجدداً، علماً أنّ هذه المحاولات تبوء غالباً بالفشل. أما شرائط الفيديو، فتخسر بسهولة لونها ووضوحها؛ وإذا تمّ استعمالها بصورة متكرّرة - أى إذا كان مستخدمها مثلاً يضغط باستمرار على زرى الترجيع والتقديم السريع - تتلف هذه الشرائط بسرعة.

إلى جانب ذلك، يدرك العديد من الناس، بحكم الوقت الذى مرّ على دخول الأسطوانات المصنوعة من الفينيل إلى السوق، المدّة التى يمكن الاستماع فيها إلى هذه الأسطوانات قبل أن تصبح مخدوشة لدرجة تحول دون استخدامها. إلا أنه لم يتوافر لنا حتى الآن الوقت الكافى للتحقّق من مدّة استخدام الأقراص المُدمجة لأنها سُحبت بسرعة من السوق عندما بات من الممكن الولوج إلى المعلومات عينها عبر شبكة الإنترنت بتكلفة أقل، وذلك رغم الترحيب الذى لاقته هذه الأقراص باعتبارها اختراعاً يمكن الاعتماد عليه لحفظ المعلومات المتضمنة فى الكتب. كذلك، نجهل إلى أى مدى يمكن لأقراص الفيديو الرقميّة المعروفة بالـ«دى فى دى» أن تدوم. لكن ما نعرفه بالتأكيد هو أنّ هذه الأقراص تعمل فى بعض الأحيان بصورة غريبة إذا ما استخدمناها لفترة طويلة. ولم يتوافر لنا أيضاً الوقت لمعرفة طول مدة استخدام الأقراص المرنة كونها استُبدلت بسرعة كبيرة بالأقراص الصلبة، ومن ثمّ بالأقراص القابلة لإعادة التسجيل التى استُبدلت بدورها بمحركات الأقراص.

تزامن زوال هذه الوسائل القديمة الطراز لحفظ البيانات مع زوال الحواسيب المُجهّزة لقراءتها. وبالفعل، ثمّة القليل القليل من الناس الذين لا يزال لديهم اليوم حواسيب مزوّدة بفتحات مُخصّصة للأقراص المرنة. وبالتالى، إذا لم تعمدوا إلى نقل جميع البيانات المُسجّلة على الأجهزة القديمة إلى الأنواع الجديدة منها كلّ سنتين أو ثلاث سنوات، وإلى ما لا نهاية على الأرجح، فلا شكّ فى أنكم ستخسرون هذه البيانات إلى الأبد، إلا إذا كنتم قد كدّستم فى سرداب منزلكم عشرات الحواسيب القديمة الطراز، بواقع حاسوب واحد لكل جهاز مُخصص لحفظ المعلومات.

وبالتالى، عندما يتعلّق الأمر بوسائل حفظ المعلومات على اختلافها، أكانت ميكانيكيّة أو كهربائية أو إلكترونية، فإما نعلم أنها تتلف بسرعة أو نجهل حتى الساعة إلى أى مدى قد تدوم. وعلى الأرجح أننا لن نحصل يوماً على هذه الإجابة فى ما يخصّ بعض أنواع أجهزة حفظ البيانات.

أخيراً، تكفى نبضة كهربائية واحدة أو سقوط صاعقة فى الحديقة أو غيرهما من الأحداث العادية التى قد نشهدها فى حياتنا اليومية لإزالة مغنطة كلّ نوع تقريباً من أنواع الأجهزة الإلكترونية لحفظ البيانات. وإذا دام انقطاع الكهرباء لفترة طويلة، لا يعود باستطاعتى الولوج إلى أىّ من ملفاتى. وإذا سقط حاسوبى أو كتابى الإلكترونى من الطابق الخامس، فمن المؤكد حتماً أننى سأخسر كلّ البيانات المتضمّنة فيه. لكن إذا سقط كتاب عادى من العلو نفسه، فأسوأ من يمكن أن يحدث هو تمزّقه.

وعليه، يبدو أنّ الوسائل الحديثة لحفظ البيانات قد استُحدثت لنشر المعلومات أكثر منه لحفظها. لكن لطالما كان الكتاب الأداة الرئيسيّة لنشر المعلومات (فكروا بالدور الذى أدّته النسخة المطبوعة للإنجيل فى «الإصلاح البروتستانتى»)، ولحفظها أيضاً. ومن المحتمل أنّ الأسلوب الوحيد للولوج إلى المعلومات القديمة سيقتصر خلال القرون القليلة المقبلة، عندما ستكون مجمل الوسائل الإلكترونية لحفظ البيانات قد فقدت مغنطتها، على قراءة الكتب التى طُبعت فى القرن الخامس عشر باستخدام أسلوب غوتنبرغ. وستتمثل المراجع الحديثة الوحيدة التى ستتحدى عوامل الزمن فى تلك التى طُبعت على ورق عالى الجودة أو ورق خال من الحمض، وهى كتب يعمد الكثير من الناشرين إلى توفيرها للقراء اليوم.

لست من المحافظين المتشدّدين. ولدىّ فى الحقيقة نسخ عن أعظم تحف الأدب العالمى وتاريخ الفلسفة على قرص صلب تبلغ سعته ٢٥٠ غيغابايت، ذلك لأنّه من الأسهل بكثير استخدام هذا الجهاز للبحث عن اقتباس لدانتى أو عن «الخلاصة اللاهوتيّة»، بدلاً من الوقوف لسحب مجلّد ثقيل من رف كتب. لكنّنى سعيد لوجود تلك الكتب على رفوف مكتبتى، فهى بمثابة ضمان للأوقات التى ستخذلنا فيها الأدوات الإلكترونية. ■



Weghat Nazar - Volume 11 - Issue ~~128~~ 129 - October 2009

مجلة شهرية. العدد المائة وثمانية وعشرون - السنة الحادية عشرة - أكتوبر ٢٠٠٩ . الثمن عشرة جنيهات

نساء مصر «الأخريات»

جوديث تاكر

هذه الديمقراطية «المزيفة»

أروانداتى روى

هل هو إسلام واحد ؟!

تشارلز تريب

فجور المحظيات والسبايا

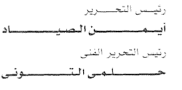
محيى الدين عميمور

حلمى التونى 2009

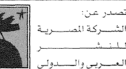


السنة الحادية عشرة
العدد ١٢٩
أكتوبر ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى



الكتب وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفني
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أحمد أشقر.. كاتب وباحث فى مقارنة الأديان
- أروندهاتى روى.. كاتبة وروائية هندية
- إيمانويل ولرشتاين .. كبير باحثين بجامعة ييل
- تشارلز تريب.. أستاذ السياسة بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن
- جوديث تاكر.. أستاذة التاريخ بجامعة جورج تاون
- دونا ديسكنسون.. أستاذة للأخلاق الطبية بجامعة لندن
- روجر كوهين.. كاتب بالنيويورك تايمز
- سمير أمين .. مفكر مصرى. ومدير سابق لمعهد الأمم المتحدة للتخطيط الاقتصادى IDEP
- ستيفن جونسون.. كاتب أمريكى متخصص فى الشئون العلمية
- عيد عبدالله الدحيات.. رئيس لمجلس أمناء جامعة العلوم التطبيقية بالأردن
- محيى الدين عميمور.. وزير الثقافة الجزائرى الأسبق
- هاشم النحاس.. ناقد سينمائى

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى - Patrick Chappatte - olverton - RJ Matson





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

هذه الديمقراطية

أروندات روى
Arundhati Roy

في الوقت الذى ما زلنا نتناقش فيه ما إذا وجدت حياة ما بعد الممات، هل لنا أن نضيف سؤالاً آخر إلى الجعبة؟ هل من حياة ما بعد الديمقراطية؟ ما هو نوع هذه الحياة؟ لا أعنى بالديمقراطية كمثال أو كوجى، بل أعنى بها المفهوم العملى: الديمقراطية الغربية الليبرالية ومتغيراتها، أى فى شكلها الحالى.

إذاً، هل من حياة ما بعد الديمقراطية؟

ان المحاولات للاجابة عن هذا السؤال غالباً ما تتحول إلى عملية مقارنة ما بين أنظمة حكم مختلفة وتنتهى بدفاع مغيظ وقتالى عن الديمقراطية.

نقول، إنها مغلوطة (الديموقراطية) وهى ليست بكمالية، غير أنها لا تزال أفضل من أى شيء آخر مطروح».

ومن ثمَّ وبشكل محتوم، يهم واحدٌ من بين الجمع بالقول:

«أفغانستان، باكستان، السعودية، الصومال... هل هذا ما تفضلونه؟»

أن تكون الديموقراطية هى اليوتوبيا التى تطمح اليها كافة المجتمعات المتطورة، سؤالٌ مستقل بحد ذاته. وأظن أنه ينبغى أن يكون كذلك. فالمرحلة الأولية المثالية لنشأتها هى ربما مصدر غبطة.

إن السؤال عن الحياة ما بعد الديمقراطية موجه إلى هؤلاء الموجودين بيننا الذين يعيشون أصلاً فى ظلّ الديمقراطيات، أو فى بلدان تزعم بأنها ديمقراطية. وليس المقصود بالسؤال هنا أن ننحدر إلى أشكال قديمة ومشوهة من الحكم التوتاليتارى أو الاستبدادى.

بل المقصود أن نظام الديمقراطية التمثيلية، وهى أكثر تمثيلاً منها ديمقراطية، بحاجة إلى بعض التعديل الهيكلى.

الكلمة الافتتاحية لمهرجان برلين الدولي التاسع للآداب
Opening Speech: Arundhati Roy at the 9th international literature festival berlin (september 9th - 20th 2009)

قد يكون من غير الملائم أن ينتقد شخصٌ الديمقراطية أمام جمهور يجمع ما بين كتاب من بلدان لم تعرف شعوبها الديمقراطية قط، أو أن أنظمتها التوتاليتارية حرمت شعوبها من الحقوق الأساسية ولكننا كلنا نعلم بأن الأنظمة السياسية مرتبطة ببعضها البعض تماماً كالرأسمال العالمى.

وفى أغلب الأحيان، تكون الأمم الديمقراطية العظمى، المتنكرة بزى حرّاس الأخلاقية ومخلصى الانسانية، هى التى تمول وتقوى الأنظمة الديكتاتورية والتوتاليتارية. ونعلم تماماً بأن الحروب فى كل من العراق وأفغانستان والتى، بسببها، فقد الآلاف من الأشخاص حياتهم ودُمّرت مدن بأكملها، قد شُنّت باسم الديمقراطية. ونعلم أيضاً بأن البلدان التى تعتبر نفسها ديمقراطية تدير العديد من الاحتلالات العسكرية فى العالم، وأشير هنا إلى فلسطين، العراق، أفغانستان والى كشمير.

إذاً السؤال الفعلى هنا هو:
ماذا فعلنا بالديمقراطية؟
والامَ حوّلناها؟

ماذا يحدث حين تستهلك الديمقراطية إلى درجة تفريغها من المعنى؟

ماذا يحدث حين تتفشّى مؤسساتها كالمرض الخبيث وتتحول إلى شيء خطير؟

وماذا سيحدث الآن لا سيّما أن الديمقراطية والسوق الحرة قد انصهرتا معاً فى جسم مفترس موحد ذات خيال نحيل وواهن يدور تقريباً بأكمله حول فكرة زيادة الربح إلى أقصى حدوده؟

هل من الممكن عكس هذه العملية؟
هل يمكن أن يعود شيءٌ متحولٌ إلى ما كان عليه من قبل؟

ما نحن بحاجةٍ إليه اليوم هى رؤية بعيدة المدى.

هل بإمكان الحكومات التى تقوم استمراريتها على مبدأ الكسب المباشر والسريع والآنى، تأمين هذه الرؤية؟

هل يمكن أن تكون الديمقراطية وهى الجواب المقدس لصلواتنا وآمالنا، قصيرة المدى، والحامى لحرياتنا الفردية وقوت أحلامنا النهمة، نهاية اللعبة للبشر؟

هل يعقل أن تكون الديمقراطية قد نالت الشعبية الواسعة لدى الإنسان العصرى تحديداً لأنها المرآة لحماقتنا الكبرى لقصر نظرنا؟



إن عدم مقدرتنا على العيش كلياً فى الحاضر (كما تفعل غالبية الحيوانات)، المصحوبةَ بعدم قدرتنا للرؤية بعيداً فى المستقبل تجعلنا مخلوقات عجيبة فى هيئات نصفية، لا نحن وحوش ولا أنبياء.

ويبدو أن ذكاءنا الرائع قد تخطى غريزة البقاء لدينا، فنحن ننهب الأرض ونعيث فيها خراباً آملين بأن الفائض المتراكم سيعوض علينا هذا الشيء العميق الذى لا يُسبر غوره، وقد فقدناه.

لقد عشت كل حياتى فى الهند، هذا البلد الذى يسوّق نفسه على أنه الديمقراطية الأكبر فى العالم.

(وأقول الأكبر إذ أن التشبيهات الأخرى كـ«الأعظم» و«الأقدم» قد استعملت قبلاً). لذا، ومن بعد اذنكم، سأنتقد الديمقراطية من موقعى الخاص والمميز.

منذ أسابيع قليلة، أعلنت الحكومة الهندية تعبئة ٢٦ ألف عسكرىٍ لتصعيد عملية عسكرية ضد الماويين «الإرهابيين» فى الغابات ذات الثروات المعدنية الكثيفة فى الهند الوسطى.

ومنذ عشرات السنين وحتى الآن، يقوم الجيش الهندى بالانتشار فى ولايات «ناغالاند»، مانيبور، أسام وكشمير، حيث يحارب الشعب لنيل استقلاله.

ولكن أن تقوم الحكومة بالإعلان صراحة عن تجييش قلب الهند، فإن ذلك اعتراف رسمى بالحرب الأهلية.

ومن المقرر أن تنطلق العملية، وهى، بفعل الصدفة، التسمية التى تُطلق على الحرب فى أيامنا هذه، فى شهر أكتوبر/ تشرين الأول، بعد أن تُشرف الأمطار الموسمية على الانتهاء وتغدو الأنهار أقل غضباً والأراضى سهلة الولوج.

أما الشعوب التى تعيش فى هذه الغابات، ومن بينهم الماويون الذين يعتبرون أنفسهم راية حرب ضد الولاية الهندية، هم شعوب قبلية والأكثر فقراً فى البلد. عاشوا فى الأرض لقرون عديدة من دون مدارس، أو مستشفيات، أو طرقات، أو مياه عذبة.

جريمتهم هى بالشكل قديمة: فهم يعيشون على أرض غنية بالحديد الخام، والبوكسيت والأورانيوم والقصدير، جميعها معادن تريد وضع اليد عليها، بشدة، شركات التعدين الكبرى ومن بينها تاتا وفيدانتا وأسّار وسترلايت.

وكان رئيس الحكومة قد أعلن أن «حكومته موجبة باستغلال ثروة الهند المعدنية لدعم ازدهار الهند الاقتصادى». ووصف الماويين بأنهم «التهديد الأمنى الداخلى الأوحد والأكبر للهند».

أما فى الصحافة التابعة للشركات، فبات استعمال مصطلحات «محو» و«إبادة» عاماً لدى الحديث عمّا يمكن أن يُفعل بهم.

فى اليوم الذى ستدخل فيه القوات الأمنية إلى الغابات، لن يعرف أحد كيف



سيتم التفريق ما بين الماويين والمتعاطفين معهم من جهة والشعب العادى من جهة أخرى.

وليس من باب الصدفة أن تكون الهند قد تصدت لتحركات أوروبية لدى الأمم المتحدة تطالب بإجراء تحقيق دولى فى جرائم حرب يشك بأنها ارتكبت على يد حكومة سيريلانكا فى هجوماتها الحديثة على نمور التاميل. واعتبرت الحكومات فى هذا الجزء من العالم النموذج الإسرائيلى كطريقة فضلى لكيفية التعامل مع «الإرهاب»:

أخرج الاعلام وأقفل الساحة للقتل.

وبهذه الطريقة لن يقلق أحد ويجهد نفسه للتمييز بين من هو «إرهابى» وبين من هو ليس بإرهابى. ومن الممكن أن يتسبب (هذا القتال) بفورة غضب دولية، غير أنها لن تلبث أن تخمد سريعاً.

منذ سنين، تُشن حربُ أهلية خافتة غير معترف بها. دُمرت قُرى (قتلت) مئات آلاف الأشخاص وأُحرق مخزونهم الغذائى. هاجر الكثير إلى المدن حيث يعملون بأجور زهيدة لا تؤمن لقمة العيش. أما الباقون فلا يزالون مختبئين فى الغابات، يعيشون من الأعشاب والفاكهة البرية وقد أدركت المجاعة معظمهم.

والآن بدأت التحضيرات لحرب رسمية تتلقى خلالها القوى الأرضية الدعم من طائرات الهيليكوبتر والتوجيهات الجغرافية عبر الأقمار الاصطناعية. يتم تدريب قيادات الألوية فى رايبور، عاصمة شاتيسغار وتسيّج الغابة وإقامة الحواجز فيها. توضع القيود على الصحفيين وتسن العديد من القوانين التى تُجرم أى نوع من المعارضة ولو كانت سلمية فى حين يتم توقيف أعداد لا تُحصى من المشتبه بهم وسجنهم من دون كفالة.

وإذا قامت حرب أكتوبر/ تشرين الأول، من غير أن نحول دون إيقافها، فستكون الدامجة، أو الزواج إذا صح التعبير، ما بين نوعين منفصلين من الحروب التى لا تزال تشتعل فى الهند منذ عقود وحتى الآن: أولاً، الحرب على «الإرهاب» التى تشنها الهند ضد شعب كشمير، ناغالاند ومانيبور، وثانياً الحرب للاستيلاء والسيطرة على الثروات الطبيعية.

نعلم تماماً بأن كثيرا من الحروب التي بسببها، فقد الآلاف من الأشخاص حياتهم، قد شُنّت باسم الديمقراطية



بعبارة أخرى، حرب أصبحت تَعرف بمسيرة «التقدم».

في يناير/ كانون الثاني عام ٢٠٠٨، دُعيت لإلقاء محاضرة في إسطنبول بمناسبة الاحتفال بالذكرى الأولى لاغتيال الصحفي الأرمني هرانت دينك. وكان دينك قد قتل في الشارع خارج مكتبه بسبب تجرؤه على إثارة موضوع محظور في تركيا: إبادة الأرمن التي وقعت عام ١٩١٥ والتي ذهب ضحيتها أكثر من مليون شخص.

تناولت محاضرتي تاريخ الإبادة ونكرانها بالإضافة إلى العلاقة القديمة وشبه العضوية ما بين مفهوم «التقدم» والإبادة الجماعية. ما زلت مصعوقة بمفارقة: إن الحزب السياسي في تركيا الذي قاد المجزرة كان اسمه حزب «الاتحاد والترقي».

إن تاريخاً طويلاً يجمع ما بين الاتحاد والتقدم، أو بحسب المصطلحات الحالية، بين القومية والتطور، وهما الركيزتان الرصينتان لديمقراطية السوق الحرة.

حين كانت «تتقدم» البلدان الأوروبية و«تتنور» في طور دخولها عصر الصناعة، كانت تطور نماذج جديدة من الديمقراطية وحقوق المواطنين محصورة في «البلاد الأم»، و تبيد في الوقت نفسه شعوباً بالملايين في المستعمرات. وفي السنين الأولى من الاستعمار، كانت إبادة الشعوب الأصلية بهدف التحضر، فكرة مقبولة بشكل صريح.

مع نمو الحديث حول حقوق الإنسان، بدأ نوعٌ جديد من الازدواجية الأخلاقية يكون مفاهيمه إلى ولادة ظاهرة جديدة: نكران الإبادة الجماعية.

والآن، حين تلتقي سياسات الابادة الجماعية مع السوق الحرة، بات الاعتراف الرسمي (بالإبادة)، أو نكرانها، أو بحسب ما يجري في الأونة الأخيرة،(الاتهام ب) فبركة إبادات ومجازر وهمية، مشروع شركة تجارية متعددة الجنسيات، نادراً ما يتصل بحقيقة تاريخية أو بدليل جنائي، لا مكان فيه للأخلاقية.

والمشروع عملية مقايضة هجومية تنتمي إلى مفاهيم المنظمة العالمية للتجارة أكثر منها للأمم المتحدة حيث العملة المتداولة هي السياسة الجغرافية والاقتصادية والبشرية، والسوق المتقلبة للثروات الطبيعية، وهذا الشيء اللافت الذي يدعى التجارة المستقبلية، والاقتصاد البحث والقوة العسكرية.

بكلمات أخرى، تُنكر الإبادة الجماعية للأسباب نفسها التي تدفع إلى مقاضاتها: الحتمية الاقتصادية المشبعة بالتمييز العرقي/ المذهبي/ الديني/ القومي.

وبمعنى أكثر صراحةً، يقرر كل من ارتفاع سعر برميل النفط (أو طن الأورانيوم) وهبوطه، والسماح بإقامة قاعدة عسكرية، والانفتاح الاقتصادي لبلدٍ معين، حصول الإبادة الجماعية أو عدمها.

وفي حال حصلت الابادة، وتم التقرير عنها، فكيف سيُحرّف هذا التقرير؟

على سبيل المثال، لمَ يتم التقرير حقاً وبشكل وافٍ عن مقتل مليوني شخص في الكونغو.

لماذا؟

وهل كان مقتل مليون عراقي في ظل نظام العقوبات، الذي سبق الاجتياح الأميركي عام ٢٠٠٣، إبادةً؟ (حسب المنسق الإنساني للعراق لدى الأمم المتحدة دينيس هاليداي) أو ما «يستحق العناء»، بحسب زعم مادلين ألبرايت، سفيرة الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة؟

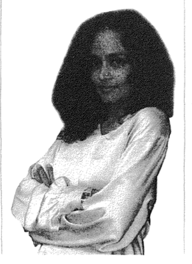
يعتمد الاعتبار على من يسن القواعد.

أهو الرئيس الأميركي؟

أم الأم العراقية التي فقدت طفلها؟

يخبرنا تاريخ المجازر الجماعية بأنها ليست انحرافاً، أو شذوذاً أو خللاً في النظام الانساني.

بل هي عادة قديمة مترسّخة في



الحالة الانسانية بقدر ما هو عليه الحب والفن والزراعة.

و معظم القتل ابتداءً من القرن الخامس عشر قُدماً، كان جزءاً لا يتجزأ من بحث أوروبا عن «فضاء العيش»، أي المرادف للمصطلح الألماني «lebensraum»، بحسب العالم الألماني في علم الجغرافيا والحيوان فريدريتش راتزل.

ابتكر هذا الأخير كلمة «lebensraum» لوصف دافع طبيعي مسيطر في الجنس البشري، ليس فقط لتوسيع محيطه بل أيضاً لضمان القوت والاستمرارية.

وفي حين لم يظهر مفهوم «lebensraum» إلا في عام ١٩٠١، كانت أوروبا قد باشرت ببحثها عن «فضاء العيش» الخاص بها يوم وطأ كولومبس الأرض الأميركية.



في كتابه «أبيد كل الوحوش»، يحاول سفن ليندكفيست أن يبرهن بأن بحث هتلر عن الـ «lebensraum»، في عالم نحتته الدول الأوروبية الأخرى على قياسها، كان وراء اندفاع النازيين إلى الامتداد نحو أوروبا الشرقية ومن ثم نحو روسيا. ووقف اليهود في أوروبا الشرقية وغرب روسيا بوجه طموحات هتلر الاستعمارية. ولذلك، توجب استعبادهم أو تصفيتهم تماماً كما حصل مع الشعوب الأصلية في أفريقيا وأمريكا وآسيا.

إذاً يقول ليندكفيست بأن عنصرية النازيين التي جردت اليهود من حقوقهم الإنسانية، ما هي إلا نتاج الخليط المألوف، مرة أخرى، ما بين الحتمية الاقتصادية المشبعة (جيداً) بعنصرية قديمة التاريخ. وهو نتاجٌ تماشى مع التقليد الأوروبي السائد في ذلك الوقت.

وإذا تسلحنا بهذه القراءة التاريخية، هل من المنطقي أن نقلق بشأن بلد كالهند، إذا كان على عتبة استهلال إبادة جماعية، وهو يستهل «التقدم»؟ هل من الممكن أن تكون الهند التي تلقى احتفاءً عالمياً باعتبارها أعجوبة التقدم والديمقراطية، في طور استعمار نفسها وعلى حافة ارتكاب الإبادة الجماعية؟ يبدو مجرد طرح هذا التساؤل همجياً، واستعمال كلمة ابادة غير مبرر في هذه الفترة من الزمن. و لو عاينا المستقبل، فسنجد بأن قياصرة التقدم قد صدّقوا دعاياتهم وبأن لا بديل عن نموذج التقدم الذي اختاروه. فهم بالتالي مضطرون إلى القتل، وبأعداد كبيرة، بغية الوصول إلى هدفهم.

إذا نظرتم إلى خارطة الغابات في الهند وثرواتها المعدنية، وإلى أماكن منشأ شعب الأديفازي، لرأيتم بأنها متداخلة. مما يعني بأن من حسبناهم يوماً فقراء، هم في الحقيقة الأكثر ثراءً.

وفي حين يحكم الاقتصاد التجاري المعولم قبضته على حياتنا وخيالنا، يتحد المستفيدون منه وينسحبون إلى الفضاء الخارجي.

ومن فوق، يتطلعون إلى الأسفل إلى الغابات والأودية النهرية حيث يعيش الفقراء، ويرون شعوباً «فائضين» مستقرين على موارد ثمينة.

فيحتارون في أمرهم ويتساءلون:

ماذا تفعل مياهنا نحن في أنهارهم؟

ماذا يفعل قصديرنا نحن في جبالهم، وحديدنا الخام نحن في أوديتهم؟

خصص النازيون كلمة محددة لوصف الشعوب الفائضين: «uberzahligen Essen»، أي الأكلة الفائضين.

بعد مراقبته عن كثب للصراع بين الهنود الأصليين ومستعمريهم الأوروبيين في شمال أميركا، يقول فريدريتش راتزل أن «الكفاح من أجل فضاء العيش» هو كفاحٌ مبيد. والإبادة لا تعني بالضرورة قتل الشعوب أو ضربهم بالهراوة، أو حرقهم، أو طعنهم بالحربة، أو قتلهم بالغاز، أو بالقنابل أو بإطلاق النار عليهم. (باستثناء بعض الأحيان وبالتحديد حين يحاول الشعب القتال، اذ يسمونه عندها «إرهابي»).

تاريخياً، كان نقل الشعب من موطنه، تجميعه كالقطعان وقطع الماء والغذاء عنه، أكثر أشكال المجازر فعاليةً إذ يموت الناس من دون أي عنف ظاهر وغالباً بأعداد أكبر بكثير (من أعداد ضحايا المجازر).

هذا ما حدث بالضبط في أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٠٤، يوم أباد الجنرال الألماني أدولف ليبريشت فون تروتا شعب الهيريرو في جنوب-غربي أفريقيا.

ويكتب سفن ليندكفيست: «وضع النازيون نجمة صفراء على معاطف اليهود وجمعوهم ضمن «محميات»، تماماً كما حصل للهنود، وشعوب

ونعلم أيضاً بأن البلدان التى تعتبر نفسها ديمقراطية مسؤولة عن العديد من الاحتلالات العسكرية فى العالم

الهيريرو، والبوشمان، والأمنديبيل وكافة أطفال النجوم الذين جمعوا مع بعضهم البعض. وماتوا من تلقاء نفسهم بعض أن قطع الغذاء عنهم».

يشير أمرتيا سين، إلى أن المجاعة شبه مستحيلة فى ظل نظام ديمقراطى. حسناً فلنستبدل المجاعة العظيمة فى الصين بسوء التغذية العظيم فى الهند. (ونشير هنا إلى أن الهند وحدها تحوى ما يفوق ثلث نسبة الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية فى العالم وعددهم خمسة وسبعون مليون طفل).

فى دانتيوارا، فى مقاطعة شاتسغار، التى تحوى أجود أنواع الحديد الخام فى العالم، تم إخلاء ٦٤٤ قرية وتهجير ٥٠٠٠٠ شخص إلى مخيمات رثّة تابعة للشرطة. اختارت الشرطة الأصغر سناً من بينهم أعطتهم السلاح ودربتهم ليصبحوا ميليشيا شعبية ماكرة اسمها سلوا جودوم. أما الـ ٣٠٠٠٠٠ الباقون فهم غير ظاهرين على رادار الحكومة ولا أحد يعرف حقاً كيف يعيشون. وصبغت الشرطة كل من ظل خارج المخيمات بوصمة الماويين أو المتعاطفين مع الماويين، الأمر الذى يجعلهم أهدافاً شرعية لعمليات القتل الهندية.

لا تزال قوات الأمن تتمركز بانتظار انتهاء هطول الأمطار

ومع توافد الأخبار، يبدو أن القتل والموت واغتصاب النساء وهو شكل لا مفر منه فى السياسة الحربية، قد بدأ فعلاً.

كيف انتهى بنا الأمر إلى هذه الشاكلة؟

منذ عشرين عاماً، فى شتاء ١٩٨٩، شهدنا جميعاً لحظة سقوط حائط برلين وتوحيد هذه المدينة. ولكننا علمنا فى الوقت نفسه أن المطارق التى هدمت الحائط كانت وليدة حرب أخرى تدور فى أقاصى جبال أفغانستان الخشنة، حيث انتصرت الرأسمالية بعد جهاد طويل على الاتحاد السوفياتى. وفى غضون أشهر من انهيار الاتحاد السوفياتى ووقوع حائط برلين، قامت الهند بعد أن عُرفت تاريخياً بانتمائها إلى حركة عدم الانحياز، بقلب مسارها سريعاً وتوحدت كلياً مع الولايات المتحدة ملكة العالم الأحادى الجديد.

فجأة، تغيرت قواعد اللعبة فى الهند بشكل تام. لم يتخيل ملايين الأشخاص وبعضهم من الذين يعيشون فى القرى البعيدة وعميقاً فى قلب الغابات العذراء، ومنهم من لم يسمع ببرلين أو بالاتحاد السوفياتى من قبل، لم يتخيلوا كيف يمكن أن تؤثر أحداث كهذه وقعت فى مناطق بعيدة جداً، على حياتهم. ألقى الاقتصاد الهندى مفتوحاً أمام رأس المال العالمى، فكّكت القوانين الحامية لحقوق العمال وحل علينا عصر الخصخصة والتعديل الهيكلى.

أصبحت اليوم مصطلحات كـ«التقدم» و«التطور» مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالاصلاح الاقتصادى وعملية إلغاء القوانين المُنظمة والخصخصة. وأصبحت «الحرية» تعنى «الخيار». ولها فى ماركات العطور أكثر من ما لها فى الروح الانسانية.

لم تعد «السوق» هى المكان الذى تزوره لتشترى احتياجاتك، بل أصبحت فضاء بدون حدود جغرافية، تقوم شركات تجارية مجهولة الأوجه بممارسة أعمالها فيها، بما فى ذلك شراء «المستقبل» وبيعه. أصبحت «العدالة» تعنى «الحقوق الانسانية»، أو أحياناً بعض هذه الحقوق.

إن نهب اللغة اغتصاب الكلمات ومن ثمَّ اطلاقها كأسلحة واستخدامها لتمويه النوايا وتشويه المعانى الأصلية والتقليدية التى تدل عليها فعلياً هى من أشدّ الانتصارات الاستراتيجية ذكاءً فى التوزيع الجديد.

وقد سمحت لهم هذه الاستراتيجية بتهميش منتقديهم، وتجريدهم من اللغة التى تساعدهم على توجيه انتقاداتهم، ونبذهم على أنهم «ضدّ التقدم»، «ضدّ التطور»، «ضدّ الاصلاح»، وطبعاً «ضدّ القومية». تلك أسوأ أنواع الأضداد الممكن إطلاقها.

لمن ينادى بإنقاذ نهر وحماية غابة، يجابهونه بالقول «ألا تؤمن بالتقدم؟». للناس الذين غرقت أرضهم فى الخزانات والسدود، وتمحى منازلهم، يسألون «ألديك نموذج بديل للتطور؟». ولهؤلاء المقتنعين بأن الدولة موجبة بتأمين أسس التربية والصحة العامة والضمان الاجتماعى للشعب، يقولون «أنت ضد السوق.» ومن غير المختل عقلياً ليقف فى وجه السوق؟

نحن ككتاب، نجتهد فى حياتنا لتقليص المسافة ما بين الفكرة والتعبير، ساعين لإعطاء شكل لأفكارنا الأكثر حميمية وبدائية. أما لغة التقدم الجديدة هذه فتفعل العكس تماماً: فهى مصممة على الغش وإخفاء النوايا. هذه اللغة المسلوبة قد تكون حجر الأساس لخرابنا.

خلق عقدان من هذا التطور فى الهند طبقة وسطى واسعة مأخوذة بالثراء المفاجئ وبالاحترام الذى ينتج عنه من جهة، وطبقة دنيّة أوسع بأشواط (من الطبقة الوسطى) من جهة أخرى. جُرِّد عشرات الملايين من الأشخاص من ممتلكاتهم وهجّروا من أرضهم بسبب الفيضانات والجفاف والتصحر الناتج عن الهندسة البيئية الهمجية، ومشاريع البنى التحتية الهائلة، والسدود والمناجم والمناطق الاقتصادية الخاصة. تُروج هذه المشاريع كلها باسم خدمة الفقير، ولكنها فعلاً ليست إلا لتوفير المطالب المتزايدة للأرستقراطية الجديدة.

إن الصراع على الأرض يكمن فى قلب الجدل حول تطور الهند

منذ سنة، صرح وزير المالية السابق فى الهند ب. شيدنبرم بأن رؤيته تقضى بجعل ٨٥ فى المائة من سكان الهند يعيشون فى المدن. لتحقيق هذه الرؤية، تلزمه هندسة اجتماعية بمعيار يفوق الخيال. ويعنى ذلك استمالة أو حتى اكراه خمسمائة مليون شخص للهجرة من المناطق الريفية إلى المدن. هذه العملية هى فى طور التطبيق فعلاً وتحول الهند سريعاً إلى دولة تجبر الأشخاص بقوة السلاح على التخلى عن أرضهم. وضمن هذا الكابوس المتنكر بهيئة «الرؤية»، مشروع افراغ الأراضى الشاسعة وثروات الهند الطبيعية، وتركها عُرضة لنهب الشركات الكبرى.

شركات عالمية ناهبة تدعمها حكومة فقدت مرساها بدأت بتخريب جبال وأنظمة مائية، مرتكبة ما يُسمى تحديداً بالابادة البيئية.

ففى شرق الهند، تتسبب مناجم القصدير والحديد الخام بتدمير أنظمة بيئية بأكملها، محولة الأرض الخصبة إلى صحراء.

سوف تعانى الهمالايا من عواقب وخيمة لا مفر منها بسبب انشاء السدود العالية المخطط لها.

فى السهول، تسبب السدود على طول الأنهر المزيد من الفيضانات بدل أن تحدها، وتتسبب أيضاً برفع مستوى مياه الأنهر، واتخام التربة بالماء فتفقد الأملاح المعدنية، مما يقضى على رزق الملايين من الأشخاص.

تحولت معظم الأنهر المقدسة فى الهند، ومن بينها نهرا الغانج واليامونا، إلى مصارف صحية للمياه القذرة والدفق الصناعى، وبات من الصعب على أى نهر أن يكمل مساره ليصب فى المحيط.

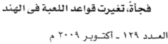
واستُبدل ما تبقى من الغذاءات الطبيعية الملائمة لشروط التربة المحلية والمناخات المصغرة، بأخرى هجينة ومعدلة جينياً ومُشبعة بالمياه تباع وتُشرى، مكوناتها الأسمدة الكيميائية والمبيدات. أما طرق الرى والتنقيب الهمجى للمياه الجوفية فكلها مرتبطة كلياً بالسوق التجارية.

وفى حين تتحول تدريجياً الأراضى الزراعية المستغلة والمشبعة بالكيميائيات إلى أراض مرهقة وغير خصبة، يرتفع الاستثمار الزراعى، فيقع المزارعون الصغار فى إشراك الدين.

خلال السنين القليلة الأخيرة، انتحر أكثر من ١٨٠٠٠٠ مزارع هندى.

وفى الوقت الذى تعجّ فيه اهراءات الدولة بالمحاصيل الغذائية التى تفنى بعد حين، تترصد المجاعة الأرض الهندية تماماً كما حصل فى أفريقيا-جنوب الصحراء الكبرى.

وكأن مجتمعاً قديماً، يضمحل تحت وطأة نظام



ألم يكن مقتل مليون عراقى فى ظل نظام العقوبات، الذى سبق الاجتياح الأميركى عام ٢٠٠٣، ابادةً؟



الإقطاع والطبقات، يُمخض فى آلة كبيرة.

ويمزّق المخيض شبكة اللامساواة القديمة، معدلاً البعض منها ومقوياً معظمها.

وهكذا تخثر المجتمع القديم وانقسم إلى طبقة رقيقة من الزبد تعلوه الكثير من المياه.

الزبد هى السوق الهندية المؤلفة من ملايين المستهلكين (مستهلكى السيارات، والهواتف النقالة، والكومبيوتر، وبطاقات فالنتاين للمعايدة) مما يثير حسد الشركات التجارية العالمية.

أما المياه فلا فائدة كبيرة منها.

إذ يمكن دفقها فى أى مكان، أو احتوائها فى خزانات، أو فى آخر الأمر تصريفها.

هذا على الأقل ما يعتقدون به.

لذا لم يفاوضوا واشتعلت فى قلب الهند: فى شاتيسغار، جاركهاند، أوريسا وغرب البنغال.

لنرجع الآن إلى عام ١٩٨٩. وكمثَل قاطع على العلاقة بين «التقدم» و«التطور»، عندما بدأ حزب بهارتيا جناتا اليمينى BJP، وكان وقتها فى المعارضة، بشن حملته الشرسة باسم القومية الهندوسية، أى ما يعرف أيضاً بالـ«هيندوتفا». وتزامن ذلك تحديداً مع قرار الحكومة بفتح الأسواق الهندية للمال العالمى. ومشروع الهيندوتفا هو وليد حزب راشتريا سوايامسيفاك سانغ RSS، الجوهر الأيديولوجى لشركة BJP المهيمنة. تأسس حزب RSS عام ١٩٢٥ علناً وصراحةً على شاكلة الفاشية الايطالية. وهنا تظهر صورة هتلر أيضاً كالوحى. واليكم بعض المقتطفات من انجيل حزب RSS وعنوانه «تحديدنا أو تحديد أمتنا» بقلم أم. أس. غولووكر:

«منذ هذا اليوم المشؤوم، يوم وطأ المسلمون أرض هندوستان، وحتى اللحظة الحاضرة، ما فتئت الأمة الهندوسية تقاتل ببسالة لدحض هؤلاء الناهبين. واستيقظت حينها الروح العرقية».

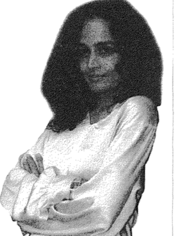
وأيضا:

«فى سعيها للابقاء على نقاوة العرق والثقافة، صدمت ألمانيا العالم بتطهيرها البلاد من الأعراق السامية: اليهود. وتجلى الفخر العرقى هنا بأسمى مظاهره... وهو درسٌ لنا لنعتبر ونستفيد منه فى هندوستان».

ويملك الـ RSS اليوم أكثر من خمسة وأربعين ألف «شاكا»، أى فرع، وجيشاً مؤلف من عدة ملايين الـ«سوايامسيفاك»، أى متطوعين، يبشرون بعقيدته فى الهند. وفى طليعة المبشرين، أتال بيهارى فاجبايى، رئيس الوزراء وقائد حزب المعارضة أل. كى. أدفانى، بالاضافة إلى ناريندا مودى، الوزير الأول لغوجارات لثلاث دورات. ويضم حزب الـ RSS أيضاً أتباعاً غير رسميين، وهم شخصيات كبيرة فى الإعلام، فى الشرطة، فى الجيش، فى الوكالات الاستخبارية، وفى الدوائر القضائية والإدارية.

عام ١٩٩٠، سافر أل. كى. أدفانى عبر البلاد مثيراً الكراهية ضد المسلمين ومطالباً بهدم مسجد بابرى، الذى يعود تاريخ إنشائه إلى القرن السادس عشر فى موقع متنازع عليه فى أيوديا، وإقامة معبد رام مكانه. وعام ١٩٩٢، قامت عصابة مدعومة من أفاندى بهدم المسجد. وفى مطلع عام ١٩٩٣، ثارت عصابة أخرى فى مومباى وهاجمت المسلمين وقتلت حوالى ألف شخص منهم. فى ردة فعل انتقامية، أطلقت سلسلة تفجيرات فى أنحاء المدينة وذهب ضحيتها ٢٥٠ شخصاً تقريباً. مما ولّد حالة جنون فى المجتمع، عوّل عليها حزب الـ BJP ليفوز على الكونغرس عام ١٩٩٨ ويتبوأ السلطة.

وليس بصدفة أن يتزامن تصاعد الهيندوتفا مع قرار أميركا التاريخى باستبدال الشيوعية بالاسلام كعدوها الأكبر. وفجأةً، أصبح المجاهدون، أى المسلمين الراديكاليين، «ارهابيين». بعد أن استقبلهم الرئيس الأميركى ريغن يوماً بحفاوة فى البيت الأبيض وشبّههم



بالأجداد المؤسسين لأميركا. ومن ثم، كما تعلمون وقعت حرب الخليج الأولى عام ١٩٩٠. واستحالت الحكومة الهندية من صديق وفىّ للفلسطينيين إلى «الحليف الطبيعى» لإسرائيل. واليوم تقوم الهند وإسرائيل بتدريبات عسكرية مشتركة، ويتبادلون المعلومات ويدونون الملاحظات معاً حول كيفية إدارة الأراضى المحتلة بالطرق الأفضل.

وبالطبع، وبمجرد تبوئه السلطة، اعتنق حزب الـBJP مذهب السوق الحرة.



وفى غضون أسابيع من تسلمه الحكم، قاد سلسلة من التجارب النووية الحرارية. وأدخلت حمى الانتصار القومى التى رافقت هذه التجارب لغة تعنيفية جديدة ومخيفة على الحديث الشعبى السائد. وفى فبراير/ شباط عام ٢٠٠٢، مات خمسةٌ وثمانون حاجٍ هندوسى حرقاً فى حادثة قطار فى طريق عودتهم إلى أيوديا. على أثر الحادثة، قام الوزير الأول ناريندرا مودى، رئيس حزب الـ BJP فى غوجارات، بالتخطيط لابادة جماعية شنّها بحق المسلمين فى تلك الولاية. ساعده فى ذلك ظهور «فوبيا الإسلام» فى جميع أنحاء العالم عقب هجمات ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١. ووقفت آليات الجيش فى غوجارات جانباً تتفرج على ذبح أكثر من ألفى شخص وطرد ١٥٠٠٠٠ مسلم من بيوتهم. كانت هذه مذبحة جماعية. ورغم أن أرقام الضحايا قد لا توازى الحجم المرعب لنقل، فى روندا أو الكونغو، أريد لابادة غوجارات أن تكون عرضاً شعبياً ذات أهداف لاشك فيها. كانت تحذيراً شعبياً للمواطنين المسلمين أطلقته الحكومة الديمقراطية المفضلة عالمياً. وحتى اليوم، لا يزال مسلمو غوجارات يعيشون فى مخيمات تعانى من المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية من دون أى أمل فى تحقيق العدالة فى القريب المنظور. ولا يزال القتلة وهم من وجهاء المجتمع، أحرار.

وعقب الابادة، مارس ناريندرا مودى الضغوط لاقامة انتخابات مبكرة. فأعيد إلى السلطة بتفويض شعبى حاسم من أهل غوجارات. وبعد خمس سنوات، كرر نصره وهو الآن وزير للمرة الثالثة.

فى يناير/ كانون الثانى عام ٢٠٠٩، خلال مناسبة رسمية، قام كل من راتان تاتا (من مجموعة تاتا) وموكيش أمبانى (من مصانع ريلاينس)، وهما رئيسا اثنتين من أكبر الشركات فى الهند، بتبنّى ناريندرا بحرارة كمرشح مستقبلى لرئاسة الوزراء.

وهكذا، وبقبلة، أحكموا على العلاقة العضوية ما بين «الاتحاد» و«التقدم»، أو إذا أردتم القول، ما بين الفاشية والسوق الحرة.

انتهت الانتخابات الهندية لعام ٢٠٠٩ وبلغت تكاليفها مليارى دولار، ما يفوق بقليل ميزانية الانتخابات فى الولايات المتحدة الأميركية. وبحسب بعض التقارير الاخبارية، تقرب تكاليفها الفعلية عشر مليارات دولار.

ولنا أن نسأل، من أين يأتى هذا المال كلّه؟

ربح الكونغرس وحلفاؤه، أو الحلف التقدمى المتحد UPA، الانتخابات بأكثرية وثيرة.

فى المقابل، ومما يثير التساؤل، خسر أكثر من تسعين فى المائة من المرشحين المستقلين.

من الواضح أن الفوز بالانتخابات صعب بغياب التمويل. فليس بمقدور المرشحين المستقلين أن يعدوا الناخبين بإعانات الرز، وأجهزة التلفزيون المجانية وأن يشتروا الأصوات، وأن يقدموا على غيرها من الأعمال الخيرية المنحطة التى صارت بضاعة كل الانتخابات.

وعند معاينة النتائج عن كثب والتدقيق بالعملية الحسابية لها، تلاحظون بأن مصطلحات كـ«وثيرة» و«أكثرية» مخيبة للمعنى أو بالأحرى غير دقيقة برمّتها.

على سبيل المثال، لا تُطبّق حصة الأصوات المحصاة من قبل الـ UPA فى هذه الانتخابات إلا على ١٠.٣ فى المئة فقط من سكان البلد! وتثير العمليات الحسابية فى الديمقراطية الانتخابية الاهتمام الشديد كونها منمقة بذكاء يحوّل أقلية صغيرة إلى تأييد ضخم.

عشية الانتخابات، كان هناك إجماع مطلق بين مختلف الأحزاب على مشروع الاصلاح الاقتصادى. واقترح العديد من الأشخاص على سبيل التهكّم أن يشكّل الكونغرس وحزب الـ BJP ائتلافاً مع بعضهما البعض... أما الشركات الكبيرة فكانت أكثر المهتمين بالانتخابات العامة الأخيرة، بعد أن اطمأنت إلى التعاون «البنّاء» والاجماع ما بين الأحزاب السياسية. فأدارت الحملات الدعائية

مع نمو الحديث حول حقوق الانسان، بدأ نوعٌ جديد من الازدواجية الأخلاقية يكون مفاهيمه الى ولادة ظاهرة جديدة: نكران الابادة الجماعية



الباهظة على التلفزيون، وشارك في بعضها نجوم الأفلام البوليوودية ليحثوا الشعب الفقير كما الغني على الخروج للتصويت.

بغض النظر عما إذا كانت النتيجة ايجابية أو سلبية، فقد ضمنت الانتخابات العامة للعام ٢٠٠٩ في الهند قيام مشروع التقدم واستمراريته.

مما لا يعني أن مشروع الاتحاد قد وُضع جانباً.

وعقب اختتام الحملة الانتخابية لعام ٢٠٠٩، دعا فارون غاندي، المبتدئ في حزب بي جي بي، ومتحدر آخر من سلالة نهرو الحاكمة، والذي يبدو ناريندرا مودي بالمقارنة معه سياسياً معتدلاً ورصيناً، دعا إلى تعقيم المسلمين بالقوة.

وصرح: «سيُعرف هذا بحصن الهندوسية حيث لن يتجرأ أي مسلم xxxx (واستعمل هنا كلمة ازدرائية لوصف الاختتان) على رفع رأسه. لن أقبل ولو بصوت مسلم انتخابي واحد».

فاز فارون غاندي بحملته الانتخابية بفرق هائل على منافسيه، الأمر الذي يدفعك للتساؤل ما اذا كان الأغلبية دائماً على حق؟

غالباً ما تفعل المؤسسات التابعة للديمقراطية الهندية، المؤسسات التشريعية، الشرطة، الصحافة «الحرة» وطبعاً الانتخابات، عكس ما هو مفترض منها، أي عكس تطبيق نظام الضوابط والتوازن. وظهرت المحاكم التشريعية وكأنها في قبضة مصالح الشركات التجارية. أما الإعلام فمدين طبعاً بأكثر من ٩٠ في المائة من مدخوله لإعلان الشركات. وتؤمن هذه المؤسسات ككل غطاءً لبعضها البعض بهدف التسويق للمصالح الكبرى للاتحاد والتقدم.

وفي خضم هذا المسار، يسود الارتباك والتنافر في اللهجات لدرجة أن الأصوات المتصاعدة التي تُنذر وتُحذر، تصبح جزءاً من الضجة العامة. مما يساهم في تعزيز صورة الديمقراطية المتسامحة، التعددية، الكثيرة الألوان والفوضوية إلى حدٍ ما.

الفوضى حقيقية

وكذلك الاجماع

بالحديث عن الإجماع، تذكيرٌ بسيط بمسألة كشمير الحاضرة أبداً. فالإجماع واضح ولا جدال فيه في الهند في ما يتعلق بكشمير. ويمتد الأمر على مختلف القطاعات والمؤسسات بما فيها الإعلام والبيروقراطية والاستخبارات وحتى بوليوود. لا وقت الآن لسرد قصة كشمير، تلك التراجيديا الأبدية. لكنني لن أسامح نفسي إن تحدثت عن الهند دون أن أذكر كشمير.

بدأ الصراع لنيل الحرية في كشمير عام ١٩٤٧، لكن المناوشات المسلحة بدأت عام ١٩٨٩ أي منذ عشرين عاماً. ذهب ضحية هذا النزاع حوالي سبعة آلاف قتيل، وتم تعذيب عشرات الآلاف كما «اختفى» آلاف أيضاً. تعرضت النساء للاغتصاب وترملت الكثيرات. اجتاح أكثر من نصف مليون جندي هندي وادي كشمير فغدى المنطقة التي تشهد أكبر حضور عسكري في العالم (علماً بأن عدد الجنود الأمريكيين في العراق في قمة الاحتلال بلغ حوالي ١٦٥ ألفاً).

ويدعي الجيش الهندي اليوم أنه ألغى التشدد في كشمير، ولعل هذا صحيح، إنما هل تعني سيطرة الجيش الانتصار حتماً؟

تكمن المشكلة في أن كشمير تقع على الخطوط الخاطئة أي في منطقة زاخرة بالأسلحة على شفير الغرق في الفوضى العارمة، كما أن النضال نحو الحرية في كشمير غارق في دوامة من النزاعات الايديولوجية الخطيرة: القومية الهندية (الشركات بالإضافة إلى الهندوسية، تختبئ في ظل الامبريالية)، والامبريالية الأمريكية (فرغ صبرها بسبب الاقتصاد السريع النمو)، ونظام الطالبان الإسلامي الذي ظهر من جديد من العصور الوسطى (ينتشر بسرعة على الرغم من وحشيته المجنونة لأنه يقاوم الاحتلال الأجنبي). وتتصف كل من هذه الايديولوجيات بقساوة تتراوح بين الإبادة الجماعية والحرب النووية. أضف إلى ذلك، الطموح الامبريالي الصيني العدواني الأشبه بروسيا، والمخزون الهائل من الغاز الطبيعي في منطقة بحر قزوين والأخبار المشاعة على الدوام حول الغاز الطبيعي، والنفط واليورانيوم في كشمير ولاداخ، فتحصل بذلك على الوصفة المناسبة لحربٍ باردة جديدة (وهي كما الحرب الأخيرة، باردة بالنسبة إلى البعض وحامية بالنسبة إلى البعض الآخر).

من المقدر أن تصبح كشمير صلة الوصل التي من خلالها ستتسلل الفوضى المستشرية في افغانستان وباكستان إلى الهند حيث سيستعر الغضب في نفس مائة وخمسين مليون مسلم هندي تم تعنيفهم وإذلالهم وتهميشهم. وقد أعلنت عن ذلك الاعتداءات الإرهابية التي كان أبرزها اعتداءات مومباي عام ٢٠٠٨.

ساهمت الحلول الحربية التي اعتمدتها الهند لمعالجة الاضطرابات في كشمير، في تفاقم المشكلة وترسيخها في أعمق الأعماق.

لعل الاستعارة الأنسب لوصف جنون أيامنا هذه هي قصة جبل سياشين الجليدي، أرض المعركة الأعلى في العالم حيث انتشر آلاف الجنود الهنود والباكستانيين في موا جهة الرياح الثلجية والبرد القارس الذي يصل إلى ٤٠ درجة تحت الصفر. ومن بين المئات الذين ماتوا في ذلك المكان، عدد كبير قضى حتفه من جراء الصقيع وحروق الشمس. اما اليوم فأصبح الجبل الجليدي مكباً للنفايات تتكوم عليه بقايا الحرب وآلاف القذائف وبراميل الوقود الفارغة، والأحذية القديمة، والخيم، وكل أنواع النفايات التي يخلفها الإنسان عقب خوضه الحرب. بقيت تلك المخلفات على حالها وحافظت عليها الحرارة المنخفضة لتصبح ذكرى لغباء الإنسان. أنفقت الحكومتان الهندية والباكستانية مليارات الدولارات على الأسلحة والمسائل اللوجستية الخاصة بالحروب على المرتفعات، وبدأت ساحة المعركة بالذوبان.

اما اليوم، فقد تقلص حجم الجبل إلى النصف تقريباً. ويساهم أولئك الذين يعيشون حياة رغيدة في الجهة الأخرى من العالم بذوبان الثلوج أكثر من المواجهات العسكرية. وهم أناس طيبون يؤمنون بالسلام وحرية التعبير وحقوق الإنسان: يعيشون في أنظمة ديمقراطية مزدهرة لا تأبه حكوماتها لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة فيما تعتمد اقتصاداتها بشكل كبير على تصدير الحروب وبيع الأسلحة إلى بلدان كالهند وباكستان (وروندا والسودان والصومال وجمهورية الكونغو والعراق وأفغانستان... واللائحة تطول). علاوةً على ذلك، سيتسبب ذوبان الجبل الجليدي بفيضانات كبيرة في شبه الجزيرة ما سيؤدي إلى جفاف شديد يؤثر في حياة ملايين الأشخاص. وسيمنحنا ذلك المزيد من الأسباب للقتال. وسنحتاج إلى المزيد من الأسلحة. ومن يعرف، قد يكون ذلك النوع من الثقة الاستهلاكية ما يحتاج إليه العالم لتخطي الركود الراهن. وعندئذ، سيحصل كل من يعيشون في ظل الأنظمة الديمقراطية المزدهرة على حياة أفضل فيما يذوب الجبل الجليدي بسرعة أكبر.

فيما كنت أحاضر أمام حضور متوتر في إحدى جامعات اسطنبول (وسبب التوتر استعمالي لكلمات مثل الوحدة، والتقدم، والإبادة، والأرمن التي، عند جمعها في حديث واحد، تُغضب السلطات التركية)، رأيت راكيل دينك، أرملة هرانت دينك، تجلس في الصف الأمامي وقد ذرفت الدموع طوال فترة محاضرتي. وعندما انتهيت، عانقتني وقالت لي: «نحن نحافظ على الأمل. لم نحافظ على الأمل؟»

قالت نحن.

لم تقل أنت.

في تلك اللحظة، استذكرت كلمات الشاعر الأوردو فايز أحمد فايز التي غنتها عبيدا بارفين:

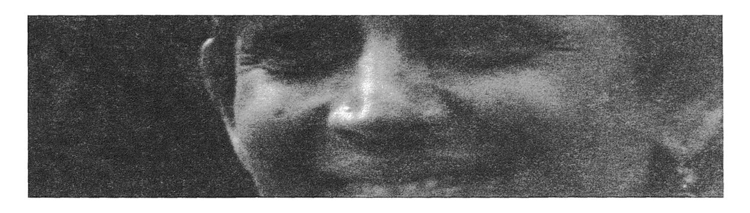
nahin nigah main manzil to justaju hi sahi
nahin wisaal mayassar to arzu hi sahi

وحاولت ترجمتها:

إن أُحبطت الأحلام فعلى التوق إليها
أن يحل محلها
إن استحال اللقاء فعلى الشوق إليه
أن يحل محله

النهاية ■

المكـتـبـــــــة



اروندهاتي روي (ولدت في ٢٤ نوفمبر عام ١٩٦١) روائية هندية وناشطة ومواطنة عالمية. حصلت على جائزة البوكرعام ١٩٩٧ عن روايتها الأولى «اله الأشياء الصغيرة» The God of Small Things.

ولدت روي في شيلونج ميجهاليا، لأم كيراليتية سورية مسيحية وأب هندوبنغالي من العاملين في زراعة الشاي. قضت طفولتها في ايمانام بمدينة كيرالا. تلقت تعليمها في مدرسة كوربس كريستي. في سن السادسة عشرة رحلت من كيرالا إلى دلهي لتبدأ في العيش كالمشردين. أقامت في كوخ صغير بسقف من الصفيح بجوار أسوار موقع فيروز شاه كوتلا الأثري، وعاشت من بيع الزجاجات الفارغة. بعد ذلك بدأت في دراسة العمارة في مدرسة دلهي للهندسة المعمارية حيث التقت بزوجها الأول المهندس جيرارد دا كونها.

وتعد رواية «اله الأشياء الصغيرة» الرواية الوحيدة التي كتبتها روي . فمنذ حصولها على جائزة البوكر ركزت كتاباتها على القضايا السياسية مثل مشروع سد نارمادا، وأسلحة الهند النووية، وقوة فساد أنشطة شركة إينرون.

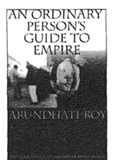
روي هي الرئيس الشرفي لحركة مناهضة العولمة / العولمة البديلة، وهي ناقدة عنيفة للأمبريالية الجديدة.

في ردها على التجارب الهندية للأسلحة النووية في بوكهاران وراجاستهان، كتبت روي مقال «نهاية التخيل» The End of Imagination الذي انتقدت فيه السياسات النووية للحكومة الهندية، ونشر في مجموعتها «ثمن الحياة» The Cost of Living والتي شنت فيها أيضاً حملة عنيفة ضد مشاريع الهند الضخمة لسدود توليد الكهرباء المائية في الولايات الوسطى والغربية في مناطق مهاراشترا ومادهيا براديش وجوجارات . ومنذ أن كرست نفسها كلية للسياسة والأعمال غير الأدبية نشرت مجموعتين إضافيتين من المقالات بجانب عملها الخاص بالقضايا الاجتماعية.

منحت روي جائزة سيدني للسلام في مايو من عام ٢٠٠٤ تقديراً لعملها في الحملات المدنية والدفاع عن مبدأ اللاعنف.

في يونيو ٢٠٠٥ شاركت في المحكمة الدولية لأجل العراق. وفي يناير ٢٠٠٦ منحت جائزة أكاديمية ساهيتيا عن مجموعة مقالاتها «جبر العدل اللانهائي» The Algebra of Infinite Justice، ولكنها رفضت تسلمها.

- «دليل القارئ العادي للأمبراطورية»
An Ordinary Person's Guide to Empire
South End Press - 2004



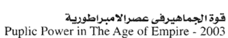
تقدم لنا اروندهاتي روي هذا العرض الواضح عما تعنيه في الحقيقة ادارة بوش عندما تتحدث عن تعاطف المحافظين والحرب على الإرهاب. لروي روح مميزة في تلك المقالات تفضح نفاق مايمكن تسميتهم بمجموعة «أنا ديمقراطي أكثر منك»، ولكن قبل كل ذلك تسعى لتذكيرنا بأننا نملك جوهر القوة وأساس الديمقراطية الحقيقية، قوة الشعوب في الوقوف بأنفسهم ضد طغيان القادة الذين يخدعون الحشود بالخطب النارية. تعد تلك المقالات نداء للتكاتف ضد «أدوات سفر رؤية الإمبراطورية الأمريكية».

■

لغة الحرب War Talk
2003/152 Pages/ South End Press/ISBN :0896087247

في كتابها غير الروائي الثالث عالجت روي بشجاعة قضايا السلطة وسوء استخدامها، وانعدام السلطة وتحولها من خلال المعارضة إلى قوى إيجابية من أجل التغيير. تشرح روي الصراعات الدينية في بلدها، تحتفي وترثي بما هو ظاهر من أعمال لوصية غاندي الموروثة. تدين روي مشروعات السدود الهندية الضخمة لتوليد الكهرباء المائية والضارة بيئياً، والتي سيصاحبها تشريد مئات الآلاف من السكان. كما تعرض روي بوضوح الفوضى في الشرق الأوسط وتقدم تفسيرات حادة كشفرة الموسى للسياسة الخارجية للأدارة الأمريكية والنفوذ المتنامي للشركات العملاقة.

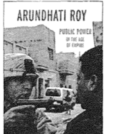
■



قوة الجماهيرفي عصرالامبراطورية
Puplic Power in The Age of Empire - 2003

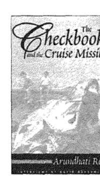
توضح روي الركائز السياسية والبشرية لتغيير النظام، وتعيد التأكيد على أهمية الفعالية والاحتجاج وذلك في خطابها الرئيسي للمؤتمر السنوي التاسع والتسعين للرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع في ١٦ أغسطس ٢٠٠٤ وقد أذيع الخطاب محلياً عبر قناتي سي-سبان بوك تي في والديمقراطية الآن والاذاعة البديلة. عرضت روي على نحو شديد الذكاء القيود المفروضة على الديمقراطية في العالم الحاضر، وتحدثت عن الحاجة لحركات مدنية للأحتجاج على احتلال العراق وانحسار الديمقراطية عن انتخابات غير مسموح فيها بأية خيارات ذات معنى.، كما تكشف خطورة مقاومة منظمات المجتمع المدني، مستعرضة كيف أن الحكومات هي التي تسد الطريق أمام الاحتجاج السلمي مما يؤدي لتشجيع الارهاب، و دور الاعلام الذي يشارك في تهميش الأصوات المعارضة.

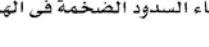
■



دفتر الشيكات والصواريخ العابرة
The Checkbook and the Cruise Missile
South End Press - 2004

إن أى صحفى ماهر يستطيع أن يكشف عن جوانب صوت الكاتب بطريقة حكى بسيطة، كروائية، أروندهاتى روى معروفة ببلاغة لغتها وبنائها المركب، وككاتبة مقالات سياسية نثرها دقيق وعنيف، كل تلك الكفاءات تلمع عبر المقابلات التى جمعها «ديفيد بارزنيان» فى كتاب «معارضة العولمة: حوارات مع اروندهاتى روى»، المقابلات التى سجلت بين عامى ٢٠٠١ و٢٠٠٣ سيجد فيها القراء الجدد والقدامى تقديرا إضافيا لأعمالها السابقة.





سياسة القوة
Power Politics
South End Press - 2002

اروندهاتى روى - التى تصفها النيويورك تايمز بأنها أكثر نقاد الهند حماسة ضد العولمة - أضافت مقالتين جديدتين للطبعة الأولى من الكتاب تتناولان الحرب الأمريكية على الإرهاب.

وقد اختير «سياسة القوة» ضمن قائمة «البوك سينس» book sense، لأفضل ٧٦ كتابا لشهرى نوفمبر وديسمبر ٢٠٠١، كذلك ضمن قائمة «اكتشافات» مجلة لوس أنجلوس تايمز.

تتحدى روى فى «سياسة القوة» فكرة أن الخبراء فقط هم من يستطيعون الحديث عن قضايا ملحة كالحرب النووية وتخصيص تزويد الهند بالطاقة لشركات الطاقة الأمريكية وبناء السدود الضخمة فى الهند.

تكلفة الحياة
The Cost of Living
Modern Liberary - 1999

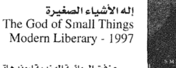
يتكون هذا الكتاب من جزءين، الجزء الأول بعنوان «الخير الأعظم شيوعا» يهاجم بناء سد «ساردار ساروفار» على نهر النارمادا فى غرب الهند، والجزء الثانى بعنوان «نهاية النخيل» يستنكر تجارب الهند النووية التى جرت فى مايو ١٩٩٨.

وكانت حركات مثل «إنقاذ النارمادا» و«جذور العشب» و«ضد السد» الاحتجاجية والتى تحركت لنحوعقد كامل، كانت تؤمن بأن السد بدلا من أن يكون حلا لمشكلة عجز المياه والكهرباء فى الهند سيكون سببا لأزمة مالية قاسية نظرا لتسببه فى تشريد ٤٠ مليون مواطن، كذلك سيؤدى إلى غرق ٢٤٥ قرية وإجحاف بحق المستحقين لإعادة التوطين بالإضافة للكوارث البيئية.

تجادل «أروندهاتى» حول الفائدة من هذا المشروع، وترفع أسئلة هامة حول «الثمن الحقيقى للتنمية» سواء فى شكل سدود كبيرة أو قنابل نووية.



إله الأشياء الصغيرة
The God of Small Things
Modern Liberary - 1997



عزفت الروائية الهندية اروندهاتى روى - الحاصلة على جائزة البوكر - فى روايتها الأولى لحناً من الكلمات تصاعدت من الصفحات كموسيقى الجاز. فإله الأشياء الصغيرة هى قصة توأم صغير هم راهيل وإستها و باقى أفراد عائلتهم. ولكن الكتاب قد يبدو مثل مليون قصة تصدر دون توقف ولكنه يدور عن عقل طفل عبقرى يتلقى كل شىء ليحوله إلى كيمياء شعرية. والرواية من البداية غريبة ومألوفة للقارئ الغربى مكتوبة بانجليزية جديدة تماماً أنعشها التأثير الأسيوى الهندى فى الثقافة واللغة.



«نونية» ابن زيدون فى ولاّدة بنت المستكفى

ولد الشاعر «أحمد بن عبد الله بن أحمد بن أحمد بن غالب بن زيد المخزومى» سنة ٣٩٤هـ - ١٠٠٣م بالرصافة من ضواحى قرطبة. وينتمى «ابن زيدون» إلى قبيلة «بنى مخزوم» العربية، التى كانت لها مكانة عظيمة فى الجاهلية والإسلام، وعرفت بالفروسية والشجاعة.

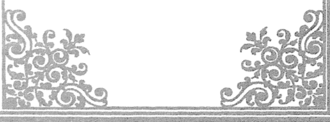
وكان والده من فقهاء «قرطبة» وأعلامها المعدودين. كما كان ضليعًا فى علوم اللغة العربية، بصيرًا بفنون الأدب، على قدر وافر من الثقافة والعلم.

اتصل «ابن زيدون» بكثير من أعلام عصره وأدبائه المشاهير، كما ساهم بدور رئيسى فى إلغاء الخلافة الأموية بقرطبة، كما شارك فى تأسيس حكومة جَهْوَرِيّة بزعامة «ابن جهور» حيث حظى بمنصب الوزارة فى دولة «ابن جهور».

كان ابن زيدون شاعرًا مبدعًا مرهف الإحساس، وقد حركت هذه الشاعرية فيه زهرة من زهرات البيت الأموى، وابنة أحد الخلفاء الأمويين، وهى «ولادة بنت المستكفى». وكانت شاعرة أديبة، جميلة الشكل، شريفة الأصل، عريقة الحسب، وكانت لما تملكه من جمال باهر بغية الكثير من الشعراء الذين يدلفون إلى مجلسها ليمتعوا أنظارهم بها وليتغزلوا بجمالها ودلالها، وكانت هى بنفس الوقت تشعر كل واحد منهم بانجذابها إليه، ومحبتها له، فظلت تلعب بمشاعرهم - حبًا للشعر - حتى يقولوه، وكان مما قالته طمعًا فى استثارتهم:

أمكّنُ عاشقى من صحنِ خدى
وأعطى قبلتى مَنْ يشتهيها

وبقيت على هذه الحال إلى أن رآها الشاعر ابن زيدون فهام بها، ولم تكن هى بأقل منه عشقًا له، إلا أنها فارقته ليس كرهًا له: وإنما لإعجابها بشعره، فأرادت أن تبتعد عنه - مع شوقها إليه - حتى يتعذب بفراقها ويتوجد عليها: لينطق بأعذب الشعر وأجمل القصيد، فكان ما أرادت، وكتب ابن زيدون قصيدته (النونية) إلى حبيبته ولادة بنت المستكفى، وكان هو فى إشبيلية وهى فى قرطبة وهى من أشهر أشعاره



هل ستواصل إيران بعد ثلاثين عاما من الثورة عزلتها عن قوى العولمة وترسخ نفسها فعلاً كقوة ثورية مضادة تحت شعار «عدالة اجتماعية» جديدة





يوميات إيرانية: الكارثة والمستقبل

روجر كوهين
Roger Cohen



■ أقل ما يمكن قوله صبيحة إعادة انتخاب «محمود أحمدى نجاد» كرئيس لإيران، هو أن الاحتفالات المواكبة لانتصار بنسبة ثلثى الأصوات قد ألغيت بسبب القلاقل التى تقارب محاولة انقلاب. وقد تدفقت قوات شرطة مكافحة الشغب المسلحة بالعصى ودروع السيقان السوداء بارتفاع الفخذ من وزارة الداخلية مغلقة الأبواب فى الساعات الأولى من يوم ١٣ يونيو. لقد توجهوا إلى عملهم لضرب الناس. كان التصويت للانتخابات الإيرانية الرئاسية العاشرة من عهد الثورة قد انتهى فى الليلة السابقة. وفى خلال ساعات، كانت وكالة الأنباء القومية (وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية IRNA) قد أعلنت فوزا ساحقا لـ «أحمدى نجاد» من الجولة الأولى. لقد تغيرت طهران، تغيرت تماما.

ما بين ليلة وضحاها، تحولت مدينة احتفالية يغمرها الحماس المعربد للحيوية الظاهرية للحراك الديمقراطى للجمهورية الإسلامية ذات الواحد وثلاثين عاما، إلى مكان ملىء بالعيون المتقدة والخوف الكامن والسفاحين الهائجين المرخصين من قبل الدولة. لقد بدا الناس مذهولين - بالطبع - وانقلب حالهم فجأة من البهجة إلى التعاسة. كل الحرية والمناظرات فى فترة ما قبل الانتخابات بدت فجأة وكأنها مسرح قاس للدمى يحركه لاعب منحرف. كان الناس يهمسون «إنه انقلاب، محاولة لقلب نظام الحكم».

خارج المقر المقوض بالفعل للحملة الانتخابية لـ «مير حسين موسوى» - مرشح المعارضة الذى ازدهرت حملته مؤخرا فى أدغال كثيفة من الرايات الخضراء والمناديل الملونة - كانت صفوف متراصة من قوات الشرطة على الدراجات النارية والمترجلة تذرع المكان جيئة وذهابا. كان التلكؤ يعنى أن تصبح هدفا. صرخت فى امرأة وهى تشهق قبل أن تختفى فى دوامة الزحام «ألق قلمك ودفترك وتعال لمساعدتنا».

كنت ما زلت أستخدم دفترا فى ذلك الوقت. لم يكن «آية الله على خامنئى» - الزعيم الأعلى - قد وصف المراسلين الأجانب بعد بعملاء «الشر»، مما ينطوى على دعوة مقدسة لضربهم أو طردهم أو اعتقالهم، وهو ما حدث بعد ذلك. فى صبيحة ذلك اليوم، كنت - مثل الجميع - متحيرا. كانت الحكومة الإيرانية فى السابق تتقدم بحسابات حذرة. ولم يكن بقاء الثورة يعتمد على نزوة. هل قامت تلك الحكومة حقا بدعوة مئات من الصحفيين إلى عيد للحرية فقط كى تغير رأيها؟ تلكأت قدر استطاعتى، وهرولت عند الضرورة، واصطدمت بشابة أخرى من المعارضة غارقة فى دموعها. وبينما توقفنا للحديث، اقترب رجل متوسط العمر. قال لها «لا تبكى، ابقى شجاعة ومستعدة».

سأدعوه «محسن». لقد أرانى بطاقة هويته التابعة لوزارة الداخلية حيث عمل هناك لمدة ثلاثين عاما حسب قوله. وقد ذكر أنه قد أوقف عن العمل، مثل عدد آخر من زملائه، الذين فصل عدد كبير منهم خلال الأسابيع الأخيرة. توارينا سريعا داخل مقهى، وكانت الأغانى الوطنية تهدر من جهاز التلفاز مصحوبة بصور الجنود والنساء الملتزمات فى أردية سوداء. هل كنا نشهد انتخابات أم فرضا للأحكام العسكرية؟ تحدث «محسن» عن شقيقه - أحد شهداء الحرب الإيرانية-العراقية بين عامى ١٩٨٠-١٩٨٨ - وكيف أنه هو نفسه لم يشارك فى تلك الحرب أو يتحمل فقدان شقيقه كى يرى «هذا الظلم ضد الثورة والضمير والإنسانية».

قال «محسن» أن كرامة إيران قد أهينت، لقد خرجت نتائج الانتخابات المزعومة من وزارة الداخلية وسط هواء الصيف. سألته لم عاتب الشابة؟ أجابنى: «لأنه فى أحلك الظروف تكون هناك حاجة لأفضل القرارات، والبكاء ليس هو الرد المناسب». أخبرنى «محسن» أنه عاتب رجال الشرطة أيضا: «سألتهم: إذا كان «أحمدى نجاد» قد فاز، فما ضرورة كل هذا القمع؟».



كان تساؤله عقلانيا فى مواجهة أعداد غير عقلانية. لقد ظهرت النتائج طوال الصباح تباعا فى كتل تراوح ما بين مليونين إلى خمسة ملايين صوت دون اعتبار للمناطق. (الإحصاء الجغرافى الكامل استغرق عشرة أيام للظهور، على فرض أن الهندسة العكسية تستغرق وقتا). طوال عملية الانتخاب غير المراقبة لم يكد يتأرجح نصيب «أحمدى نجاد»، مظهرا اتساقا شبه كامل عبر مناطق من التنوع الاجتماعى والعرقى الهائل، انتهى بـ ٢٤.٥٢٧.٥١٦ صوتا (٦٢.٦٣٪) أو حوالى ٢٠ مليون صوت أكثر من الأصوات التى فاز بها فى الجولة الأولى عام ٢٠٠٥ وعددها ٥.٧١١.٦٩٦ صوتا.

جرى الاحتفاء بهذا الفوز الصاعق بعد حملة انتخابية وضع فيها سجل الرئيس - من ارتفاع معدل التضخم وزيادة البطالة وتبديد عائدات النفط وما وصفته كلمات «موسوى» من سياسة خارجية «استفزازية ومغامرة» - تحت مراقبة دقيقة من قبل الإيرانيين المهتمين بمواردهم المالية أو بالفخر بمكانة بلاد فارس فى العالم. لقد وصف «خامنئى» نفسه النتيجة بأنها معجزة «إلهية».

أما المهزلة المهينة فكانت المناخ العام فى طهران، حيث كان المراسلون الأجانب بالفعل مقيدى الحركة إلى حد كبير فى ظروف أكثر تشددا (على الرغم من أن زميلى «بيل كيلر Bill Keller» كان قد ذهب إلى أصفهان قبل أربعة أيام من التصويت ووجد نفسه وسط معركة تصادمية بين المحتجين وقوات الأمن). من الصحيح أيضا أن «أحمدى نجاد» خصص ساعات وإعانات لا حصر لها لكسب أصوات سكان المدن الصغيرة الذين ربما كانوا سريعى التأثر بما سمعوا فى المساجد المحلية عن مساهمته فى تقدم برنامج إيران النووى، والذى حوله الرئيس إلى رمز وطنى لا يقل فى قوته عن تأميم النفط.

لكن «أحمدى نجاد» كان قد ضمن فوزه عام ٢٠٠٥ عن طريق المدن وليس المناطق الريفية، وهو نمط للمحافظين منذ عام ١٩٩٧. إن تحقيقه لفوز ساحق فى الريف هو أمر مستبعد تماما. بل إن المجلس الرقابى المكون من اثنى عشر عضوا - والمخول بالإشراف على التشريع والانتخابات - ومعظمهم من رجال الرئيس، وجد انحرافات فى خمسين مدينة تشكل أكثر من ثلاثة ملايين صوت، أو ما يزيد على ٧.٥٪ من إجمالى الأصوات. ولكن ذلك لم يمنع المجلس - بعد تحقيق صورى — من إعلان الانتخابات «سليمة» فى الثلاثين من يونيو.

بدا ذلك متشددا. إن انخفاض التأييد لعالم الدين الإصلاحى «مهدى كروبى» من أكثر من خمسة ملايين صوت عام ٢٠٠٥ إلى ما يزيد بالكاد عن ثلاثمائة ألف صوت، أو ما يوازى ٠.٨٥٪ من الأصوات، كان مجرد واحد من التفاصيل العديدة المنافية للمنطق، مثل الفوز الساحق لـ «أحمدى نجاد». إن وجود عدد أكبر من اللازم من بطاقات الانتخاب المطبوعة، وحوالى أربعة عشر ألف صندوق متنقل للأصوات، وقلة عدد المراقبين - طرد مراقبى «موسوى» من معظم الدوائر الانتخابية - كل ذلك شكل تربة خصبة للتحايل. هل كان هناك عنف؟ ليس تماما. هل كانت تلك انتخابات حرة وعادلة وفقا لمعايير الأمم

كتب هذا المقال فى يوليو الفائت

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحى

المتحدة التى تعتبر إيران نفسها عضوا فيها؟ كلا. بالتأكيد كلا.

تحدثت عشية الانتخابات إلى «كاووس سيد إمامى»، وهو خبير سياسى مرموق قام بعمل عدة استطلاعات. كان متأكدا من شىء واحد فقط. «بالنظر إلى التحول مائة وثمانين درجة منذ شهر مضى. عندما كان موضوع الانتخابات فاترا وتوقعت نسبة حضور ٥٥٪ مقابل الـ ٨٠٪ التى أتوقعها الآن. فقد أصبح من المستحيل أن يحصل «أحمدى نجاد» على ٥٠٪ فى الجولة الأولى. ويعنى ذلك عمل جولة ثانية».

لقد أثبت أنه كان متحفظا: فقد أدلى ٨٥٪ من مجموع الناخبين بأصواتهم. ومع ذلك. فأسبوع آخر من الحملة الانتخابية كان سيعنى مزيدا من المناظرات المستمرة والموجات الخضراء التى تذكر بـ «ثورات الألوان» فى أوكرانيا وجورجيا. هناك تصريح لـ «يد الله جوانى» رئيس المكتب السياسى للحرس الثورى، قبل الانتخابات بأربعة أيام. كان يجب أن يستحق مزيدا من الاهتمام: لو كان «موسوى» يفكر فى ثورة ناعمة، فإنه كان سيراها «تسحق قبل أن تولد».

كان القمع عنيفا صبيحة ذلك اليوم الأول من الفوضى. كل شخص هناك كان يعلم أن هناك شيئا عفنا فى دولة إيران. كان الغش يملأ الهواء. فى ذلك المساء، فى الجادة الأنيقة التى تحفها الأشجار، جادة «والى عصر» التى تقطع المدينة من الشمال إلى الجنوب، هرولت باتجاه شخص يدعى «ماجر ميربور»، كان يرتعد وهناك أثر ضربة ناتئة فى ظهره وجروح أعلى ذراعه وفخذه، وحكى لى كيف أنه ضرب «مثل خنزير» عندما انحنى لمساعدة امرأة جريحة. شعرت بالصدمة، وفى الحقيقة أنه فى خلال الأيام العشرة التالية لم يتضاءل إحساسى بالصدمة، حيث رأيت النساء يضربن بالهراوات، عادة بواسطة رجل من ميليشيا «الباسيج»، المزود بدرع وخوذة وعصا ولديه تعليمات بعمل أسوأ ما لديه.

بعد أسابيع، كنت ما زلت مصدوما. لقد ترنحت إيران. كان الترنح عنيفا. ومع ذلك، برزت حقائق معينة بقدر من الوضوح بفضل الرصيد الدائم للهيكل الثورى القوى للبلاد. إن الجمهورية الإسلامية، التى يزعجها دائما التوتر الكهنوتى-التحررى الذى يعبر عنه اسمها. والموجود فى إيران منذ أن طالب الشعب بدستور عام ١٩٠٥. لن تعود أبدا كما كانت فى السابق.

لقد تحول ملايين



الإيرانيين من الإذعان غير المبالى إلى نهج أمنوا من خلاله أن لديهم نفوذا محدودا رباعى الأعوام عبر معارضة صريحة لنظام أصبحوا الآن ينظرون إليه باحتقار تام. لقد أصبح البناء الكهنوتى والسياسى أكثر تصدعا ـ وتقلبا ـ أكثر من أى وقت منذ الأعوام الدموية قبل الثورة. عندما جرت تصفية أعداد كبيرة بينما كان «آية الله روح الله خومينى» يتلاعب بذكاء بأولئك الذين حاربوا فى سبيل الديمقراطية وليس الحكم الدينى.

قام خليفة «الخومينى» كمرشد أعلى. «آية الله على خامنئى»، بتقويض المفهوم الجوهرى لولاية الفقيه. فقد تخلى عن دوره كمحكم إلهى ـ رجل يمثل الإمام الثانى عشر الغائب إلى حين عودته المنتظرة ـ لصالح دور منحاز إلى جانب «أحمدى نجاد». إن ذلك لا يحمل شيئا من هالته السابقة ـ يترجم الفرنسيون لقبه بـ «المرشد» ـ أو إنكاره المحمود للذات فى السابق. لم يعد «خامنئى» ممثلا للسماء، وأصبح الآن عالقا فى الوحل.

هناك يجد «خامنئى» نفسه بجانب ثانى أبنائه، عالم الدين «مجتبى خامنئى»، الذى يبدو دوره فى القمع العنيف شديد الأهمية، وخاصة فى السيطرة على الميليشيات المغيرة. كانت «الموت لخامنئى» هى أكثر صيحات الاحتجاج التى سمعتها غرابة، وذلك معيار لما آلت إليه الأحداث الأخيرة من تحطيم للمحظورات. فى الوقت نفسه، انتقل الحرس الثورى بقيادة اللواء «محمد على جعفرى» إلى وسط مسرح الأحداث فيما وصفه «جعفرى» نفسه بأنه «مرحلة جديدة من الثورة والصراعات السياسية» عندما قامت قواته النخبوية «بأخذ زمام المبادرة لقمع قلاقل لا تنتهى».

بالاختصار، ظهرت إيران جديدة أكثر هشاشة وتصدعا وعسكرية. فقد تقوضت سطوتها الإقليمية الحديثة بسبب انهيار أسعار النفط وازدياد المعارضة الداخلية ووجود قيادة أمريكية أكثر مرونة وأناة. إن ذلك يطرح الكثير من الأسئلة. هل يتجاوز التضامن الصدام بين الملالى؟ كيف يمكن أن يؤثر مزيد من عدم الاستقرار على البرنامج النووى المتسارع للبلاد؟ هل يمكن لـ «موسوى» تنظيم معارضة سياسية فعالة؟ وهل يمكن التضحية بـ «أحمدى نجاد» ـ الرمز السياسى الأكثر إثارة للجدل فى التاريخ القصير للجمهورية الإسلامية ـ فى سبيل التوصل إلى تسوية لدعم نظام مزعزع؟ بالنظر إلى التصدعات السياسية والدينية والاجتماعية الظاهرة الآن، فلا أستبعد إلقاء الرئيس من النافذة فى النهاية. ومع ذلك، فلا يجب لأى شخص ـ وخاصة صناع السياسة الأمريكيين ـ أن يعول على ذلك.

ترتفع جبال «البرز» عاليا فى الطرف الشمالى من طهران، وتثير قممها أحلام الهروب لدى الناس المحاصرين فى أعناق الزجاجة اللانهائية بالمدينة. بالنسبة للإيرانيين الشباب - ٦٥٪ من تعداد السكان الذى زاد أكثر من الضعف منذ الثورة إلى ٧٥ مليون نسمة، هم أقل من سن الخامسة والثلاثين ـ فإن الدروب الجبلية هى مهرب طبيعى، ولكنها أيضا مهرب عقلى: من الرقابة الذاتية ومن الملابس أحادية اللون ومن أى إنذار لشرطة الأخلاق لانكشاف عنق أنثى أو ظهور شعرها من أسفل الوشاح.



قبل نهاية زيارة استغرقت ثلاثة أسابيع فى يناير وفبراير، تنزهت فى جبال «البرز» وجدت أن الإحباط ـ بسبب أحكام ملابس الإناث وندرة فرص العمل وارتفاع الأسعار ـ كان أمرا بارزا فى العديد من المحادثات التى رسمت صورة لإيران المستغرقة فى لعبة القط والفأر المعقدة: بنية كهنوتية عليا على رأس مجتمع أصبح ـ فى جوانب عديدة ـ علمانيا، مع قوانين قمعية تجاهد لمنع تمكين النساء اللاتى أعتقهن التعليم الذى جاءت به الثورة. اليوم تبلغ نسبة طلاب الجامعات من الإناث ٦٠٪. لقد خاطب آيات الله العائلات الشيعية التقليدية للسماح بتعليم بناتهن.

فى ذلك الوقت، أخبرنى «ناصر هديان» عالم السياسة: «أقول لطلابى أن الانتظار صعب ولكن عليكم بالصبر. إن قوانين البلاد لا يمكن أن تتلكأ للأبد خلف الواقع، والواقع الإيرانى اليوم أن النساء قد تم تمكينهن وانتشرت العلمانية». وبدورى، لم أعتقد أن السياسة يمكن أن تتلكأ خلف تلك الحقائق فى عام الانتخابات.

لقد وفرت انتخابات الثانى عشر من يونيو جسرا محتملا بين إيران الشابة التى تتطور سريعا والشغوفة بالعالم والتى تتواصل معه مباشرة وبازدياد، وبين المؤسسات الثورية التى تحولت إلى اتجاه محافظ تحت حكم «أحمدى نجاد». لقد خدمت الانتخابات الرئاسية كصمامات أمان فى الماضى. فقد وفرت تصحيحات متواضعة للمسار جعلت من مصطلح «جمهورية» أمرا ذا مغزى حقا. لقد تميزت إيران فى منطقة مستبدة بانتخاباتها التى لا يمكن التكهن بها مستقبلا، مثلما فاز الإصلاحى «محمد خاتمى» باكتساح عام ١٩٩٧.

صرح «خاتمى» ـ الذى انتهى به الأمر إلى تغيير فى اللهجة أكثر من الجوهر ـ بأنه سوف يترشح مرة ثانية هذا العام، قبل أن يتنازل لصالح «موسوى» رئيس الوزراء الأسبق صاحب المؤهلات الثورية المعصومة، الذى يمت بصلة قرابة بعيدة لـ «آية الله خامنئى»، والوطنى المخلص والتجسيد المباشر على ما يبدو للتغيير الذى لا ينذر بالتهديد. لقد عمل «خامنئى» ـ كرئيس ـ مع «موسوى» خلال أعوام الثمانينيات التى دمرتها الحرب. كانت العلاقة بينهما غير مريحة، ولكنها صمدت لمدة ثمانى أعوام. ويبدو أن الزعيم الأعلى ـ نظرا لحساسيته تجاه رئاسة ثانية لـ «خاتمى» ـ قد مد جسور السلام مع «موسوى»، حتى لو كان تفضيله لـ «أحمدى نجاد» واضحا.

ولكن انصياع «خامنئى» كان لـ «موسوى» الرتيب والمتحفظ والمطيع فى بداية مايو، أما فى بداية يونيو فقد أصبح النشط المناوئ لـ «أحمدى نجاد». لقد أفسحت لا مبالاة الإيرانيين المجال للحراك الذى سيحقق نسبة حضور ٨٥٪. كان «موسوى» مدفوعا جزئيا بزوجته «زهرة راهنفارد» صاحبة الشخصية الكاريزمية، والتى رأيتها قبل الانتخابات مباشرة فى حشد كبير بطهران، حيث بدأت فى الصياح عاليا مرتدية حجابها الزهرى «مرحبا بالحرية» وتابعت محذرة «لو حدث تلاعب، فستقوم ثورة فى إيران».

كانت الأشرطة والرايات الخضراء فى كل مكان بينما كانت «زهرة» تدعو لأفكارها: «إنكم تبحثون عن هوية جديدة لإيران تحقق لكم الكرامة فى العالم، إيران حرة متطورة مفعمة بالحياة. إننا نسعى إلى علاقات مسالمة مع بقية العالم وليس هجمات لا معنى لها وصداقات غير محسوبة». كان ذلك أمرا مزعجا. ولكن تلك كانت أياما وليالى مزعجة، تتسم بالاتهامات والاتهامات المضادة فى المناظرات الرئاسية التى يشاهدها عشرات ملايين الناس على التلفاز. كان انعدام الشفافية هو ما اعتمد عليه النظام، ويبدو أن ذلك تبخر مع العنف المتهور.



كان «على أكبر هاشمى رافسنجانى» نفسه، والذى ظل لوقت طويل الحاكم الخفى للنظام، رئيس مجلس الخبراء المشرف على مكتب المرشد الأعلى، قد احتد فى خطاب إلى «خامنئى» بأن «أحمدى نجاد» قد يواجه نفس السقوط المفاجئ لأول رئيس للجمهورية الإسلامية «أبو الحسن بنى صدر»، لأنه «كذب وانتهك القوانين ضد الدين والأخلاق والعدالة». لقد اتهم «أحمدى نجاد» «رافسنجانى» وآخرين فى السلطة الكهنوتية بإثراء أنفسهم. إن أى نجاح كاسح فى الانتخابات كان سيكون مقبولا، ولكن فى «شيكاغو».

ما الذى حدث إذن لتلك العاصفة التعددية العاتية التى سادت الجمهورية حتى ليلة ١٢ يونيو؟ ربما لن نعرف ذلك تماما قبل وقت طويل، وربما لن نعرف أبدا. ولكن ما نعرفه واضح للعيان. لقد اشتعلت معركة أساسية بين الثوريين القوميين وبين الإصلاحيين من أنصار العولمة، وقد ساعدت مبادرات الرئيس «أوباما» على إشعال تلك الحرب. وفى قلب المعركة تكمن مسألة ثقة إيران بذاتها.



ما بين ليـلـة وضحـاهـا،
تـحـولت مدينـة يـغـمـرهـا الحـمـاس
للحـراك الديـمـقـراطي للـجـمـهـوريـة الإسلاميـة
ذات الواحد وثلاثين عاما، إلى مكان ملىء
بالعيون المتقدة والخوف



ما الذى حدث إذن لتلك العاصفة التعددية العاتية التى سادت الجمهورية حتى ليلة ١٢ يونيو؟ ربما لن نعرف ذلك تماما قبل وقت طويل. وربما لن نعرف أبدا

هل ستواصل إيران. بعد ثلاثين عاما من الثورة - عزلتها عن قوى العولمة الاقتصادية والسياسية وأن ترسخ نفسها فعلا كقوة ثورية مضادة تحت شعار «عدالة اجتماعية» جديدة، بهدف الحفاظ على الحكم الدينى الإسلامى؟ أم أنها أصبحت واثقة من هويتها الإسلامية ومن أمنها بجوار عراق يسيطر عليه الشيعة حاليا، ومن استقلالها الراسخ عن أمريكا (وهو إنجاز ثورى آخر)، بما يكفى للتخلى عن الهجوم اللاذع المبتذل ضد الشيطان الأعظم والعزلة المدمرة للذات؟

فى النهاية، جاءت الإجابة واضحة. أعود بذاكرتى إلى المفكر والصحفى صاحب الإعاقة الشديدة «سعيد هاجريان» وهو يقف بجسارة بجوار «زهرة راهنفارد» فى هذا السباق. وهو الآن ملقى فى السجن ومريض جدا. أفكر فى الاقتصادى «سعيد ليلاز» الذى رأيته بالأمس - ملقى الآن فى السجن - وإصلاحى آخر «محمد أترينفار» كنت قد تحدثت إليه، أيضا فى السجن. أفكر فى «مازيار بهارى» مراسل «نيوزويك» الذى رأيته فى المؤتمر الصحفى لـ «أحمدى نجاد» بعد الانتخابات والذى خصص للحديث بإسهاب عن «الديمقراطية الأخلاقية» لإيران، وهو أيضا فى السجن.

لقد جرى تجميع غالبية هيئة الخبراء الإصلاحية انتقائيا. وأى شخص - مثل «رافسنجانى» آمن بقوة بـ «الخيار الصينى» لإيران - أى إمكانية الانفتاح على أمريكا والعالم مع الحفاظ على النظام - جرى كبته. وفى النهاية، فإن الذى فاز هو عدم الثقة بالانفتاح وبالتطورات الاجتماعية السريعة جدا التى حققتها الثورة.

أقول «فى النهاية» لأنى أعتقد أن الأمر تحقق بالكاد. فقد جاء مد «موسوى» متأخرا جدا وكان أخضر اللون، مطلقا الإنذارات بخصوص ثورة ملونة فى مقار الحرس الثورى وميليشيا «الباسيج». وقد جاء ذلك مع عرض مقلق للحوار من «أوباما» بقى على الطاولة دون جواب. أخبرنى «محسن محمودى»، رجل الدين المحافظ المؤيد لـ «أحمدى نجاد»، بعد أسبوعين من الانتخابات «لا يمكن أن نسمح لـ «موسوى» أو «خاتمى» باستعادة علاقتهما، لأنهما قد يحققان عندئذ وضعا بطوليا».

إن أمريكا تلقى شعبية لدى معظم الإيرانيين الذين يمكن أن يرحبوا الآن بتطبيع حذر. أى أن اليمين الجديد فى إيران الملتف حول «أحمدى نجاد» أدرك وجود خيالين - معارك سهلة وتقارب مع واشنطون قد يصبح خارج السيطرة. وقد اختار - غالبا فى الساعات الاثنين وسبعين الأخيرة - المطرقة الساحقة.

لو أن المعارضة السياسية كانت واضحة، فإن القلق الدينى أصبح أكثر وضوحا. وفى «قم» المركز الدينى للبلاد، قامت هيئتان للعلماء بشجب الانتخابات باعتبارها مزورة

بدا كل شىء أخرق ومرتجلا فى الأيام التالية للتصويت: الأسلوب المبالغ فى التدقيق الذى أعلنت به النتائج المشينة: «خامنئى» يلتمس من «أحمدى نجاد» أن يكون رئيسا لكل الإيرانيين. يتبعه على الفور خطاب شديد الانحياز من نصيرد يشجب كل من لم يصوت له باعتبارهم غوغاء لا قيمة لهم مثل «التراب»: والحشد غير المقنع بالحافلات لمؤيدى «أحمدى نجاد» الذين سببوا كثيرا من الجلبة ولكن كان عددهم قليلا بالمقارنة.

بعد ثلاثة أيام من التصويت، وفى الخامس عشر من يونيو، اجتمع حنق الإيرانيين فى أروع مظاهرة شعبية يمكن أن أشهدها على الإطلاق. نادرا ما انتشر الصمت بمثل تلك القوة. من ميدان «انقلاب» (الثورة) إلى ميدان «آزادى» (الحرية)، عبر مسافة أميال عديدة، شكل ثلاثة ملايين من البشر بحرا أخضر اللون. ومع تعطيل الهواتف الخلوية وحجب خدمة الرسائل النصية وتقطع خدمة الإنترنت، تجمع كل هؤلاء بكلمة من الشفاه فى مدينة من الهمسات.

ساروا ببطء، طلاب وأصحاب حوانيت، كبار وشباب، رافعين الأذرع بإشارة «V» علامة النصر. كانوا يقولون «سكوت» (صمتا) لو ارتفعت مجرد همهمة. همسوا لقوات الشرطة «ارفعوا أيديكم». كانت إحدى اللافتات تسأل «أين الـ ٦٣٪؟». أخبرتنى امرأة شابة اسمها «نجار»: «كنا نأمل أنه بعد ثلاثين عاما سيكون لنا قليل من الاختيار». وبجوارى جاء صوت رجل لحوح: «نحن تراب، ولكننا سنصيبهم بالعمى».

فى تلك اللحظة، بدا الحشد لا يمكن مقاومته، وضخما لدرجة أنه لا يمكن إيذاؤه، وقويا بحيث لا يمكن ترويضه، وبدا الأمر كما لو أن كل السعى الإيرانى المحبط عبر قرن من الزمان نحو نمط من أشكال التعددية الديمقراطية، تسوية قابلة للتطبيق بين الكهنوتية والعلمانية، والتى لا تنكر العقيدة الإسلامية الواضحة للبلاد أو انجذابها الشديد للقيم التحررية، قد تدفق إلى الجادة الواسعة.

تم دفع المد الهائل للخلف. كانت الحشود تجتمع يوميا، ولكن ليس بتلك الأعداد مرة ثانية. ولم يكن «موسوى» - مقيد الحركة - مرئيا بدرجة كافية أو متحمسا لاقتناص اللحظة. لقد مر هو وزوجته على مسافة أربع أقدام منى فى مظاهرة كبيرة فى الثامن عشر من يونيو. وقد لوح للجمع ولكنه لم يقل شيئا. زعيم مقيد. كان «أوباما» مقيدا أيضا وكان واعيا بحق للتاريخ المسموم. ولكن ربما متأخرا ليومين خلف المنعطف بتنديداته المتزايدة بالعنف.

فى صلاة الجمعة بعد أسبوع من الانتخابات، لم يظهر «خامنئى» مثل ذلك التقيد، حيث وقف بوضوح فى صف «أحمدى نجاد» وصرح بأن احتجاجات الشوارع يجب أن تتوقف وإلا فإن الدماء المراقة سوف تلطخ أيدى «موسوى». وقد شاهدت دماء تراق فعلا فى اليوم التالى. نساء تعرضن للضرب يعرجن بأقدامهن. سحب الغاز المسيل للدموع تتلوى. الصيحات ترتفع، بينما اندلعت المعارك التصادمية بين قوى الأمن التى تعمل الآن بتفويض إلهى وبين عشرات الألوف من المحتجين الذين يتحدون المرشد. فى ذلك المساء، حدد اغتيال «نيدا أغا-سلطان» ذات الستة والعشرين عاما بطلقة واحدة والذى تم تصويره بالفيديو وبثه عالميا، الوحشية الطائشة لتلك اللحظة: صورة العيون الشاردة وتضاؤل قيمة الحياة والدماء تسيل على وجهها. سوف يسقط إلى الأبد حديث «أحمدى نجاد» عن «العدالة».

إنه رئيس عطلة نهاية الأسبوع. كانت اليد العليا للقوة. مؤقتا على الأقل. ولكن بتكلفة فادحة. فمع ازدياد الضغط، ألغى «أحمدى نجاد» رحلات إلى مدينة شيراز وليبيا. وقد هاجم كل من «على أردشير-لاريجانى» المتحدث النافذ لـ «المجلس» (البرلمان الإيرانى) و«محمد باقر قليباف» عمدة طهران، قمع «أحمدى نجاد» للمعارضة. وكلا الرجلين من المحافظين المعتدلين المقربين لـ «خامنئى». وأعتقد أن «لاريجانى» - صاحب الطموحات الرئاسية - سيكون مؤشرا مفيدا للمشاعر السياسية خلال الأشهر القادمة. وكانت الانتقادات شديدة داخل المجلس أيضا. وقد اختار غالبية الأعضاء عدم حضور احتفال بالفوز. وما تزال تحلق فى الهواء مقارنة «رافسنجانى» لـ «أحمدى نجاد» بـ «بنى صدر» - الرئيس الأول للبلاد بعد الثورة والذى خلعه رجال الدين - وبالتأكيد، فإن «رافسنجانى» ما يزال يشغل مناصب عليا.

لو أن المعارضة السياسية كانت واضحة، فإن القلق الدينى أصبح أكثر وضوحا. وفى «قم» المركز الدينى للبلاد، قامت هيئتان للعلماء بشجب الانتخابات

باعتبارها مزورة. أما «آية الله حسين على منتظرى»، الذى تشاجر مع «الخومينى» ثم، لاحقا، مع «خامنئى»، جزئيا، بسبب مفهوم ولاية الفقيه، فقد قال عن نتيجة الانتخابات «لا يمكن أن يصدقها شخص حكيم عاقل»، وشجب حكام إيران باعتبارهم «مغتصبين ومتجاوزين». أما «آية الله سيد حسين موسوى تبريزى» المدعى العام السابق فى عهد «الخومينى» فقد صرح بأن من حق المحتجين أن يتظاهروا. وذكر «تبريزى»: «الشاه أيضا وصف المتظاهرين بمثيرى الشغب، ولمثل تلك الأسباب كان نظام الشاه غير شرعى».

فى عهد «بوش» المتشدد، حقق «أحمدى نجاد» المتشدد المتقلب نجاحا على حساب البيت الأبيض. ومع تصنيفه ضمن محور الشر، أثبت «أحمدى نجاد» سرعة بديهته فى رد الهجوم، واصفا نفسه بالمستضعف فى مواجهة «قوى الغطرسة». ولكن نظرا لما أصابه من أضرار بسبب العنف فى الداخل، ومواجهته لرئيس أمريكى أسود من أصول مسلمة جزئيا يمد يده للعالم الإسلامى، ومع فقدان مصداقيته فى الغرب إلى الأبد بسبب إنكاره للمحرقة، فربما أثبت الآن أنه عبء أكثر من كونه مكسبا. ولو تمكن «أوباما» من استمالة سوريا - الحليف العربى الرئيسى لإيران - إلى عملية سلام عربية-إسرائيلية، فربما بدأ الوضع الإقليمى لإيران يبدو أقل نفوذا بكثير، خاصة مع انخفاض سعر برميل النفط إلى ستين دولارا وسقوط الاقتصاد فى دوامة حلزونية وتصلب المعارضة فى العراق ضد التدخل الإيرانى. لقد سمعت نموذج «آية الله على السيستانى» من العراق يتردد عدة مرات بعد الانتخابات كمثال واضح للزعامة الدينية الشيعية القوية التى تحترم العملية الديمقراطية.

ولكن من المؤكد أن انتصار «أحمدى نجاد» يعكس حقيقة قاسية: سطوة الزمرة المتشددة التى تحارب الآن من أجل بقائها وثروتها، ثروتها التى يغذيها جزئيا إسناد الرئيس لعقود الأمر المباشر الخاصة بعمليات حفر وإنشاء آبار النفط للحرس الثورى. بعد يومين من الانتخابات، أخذنى واحد من الدائرة المقربة لـ «رافسنجانى» إلى مصعد وأخبرنى أن الرجال الأربعة المسئولين عن التزوير والقمع هم «حسين طائب» قائد ميليشيا «الباسيج»، و«مجتبى خامنئى» ابن المرشد، و«سعيد جليلى» رئيس مجلس الأمن القومى والمفاوض الرئيسى لإيران حول القضايا النووية، و«خامنئى» نفسه. لم يذكر الرجل «جعفرى» رئيس الحرس الثورى، ولكن أهمية ١٢٥ ألفا من النخبة القوية بالنسبة لبنية النظام هى أمر واضح. ويأتى الدعم الكهنوتى لتلك القوات أساسا من «أحمد جاناتى» الأمين العام لمجلس الشورى و«محمد مصباح يزدى» الرئيس الأسبق للقضاء والزعيم الروحى لـ «أحمدى نجاد».

هل ستتمكن تلك المجموعة من تجاوز تلك المرحلة الصعبة؟ هذا هو السؤال المطروح خلال الأشهر القادمة. أم أنها ستسعى إلى خيار التعاون مع المعتدلين فى حكومة جديدة لـ «أحمدى نجاد» لمحاولة تهدئة الغضب الشعبى وإرسال إشارة المصالحة إلى العالم؟ لقد واصل «موسوى» و«خاتمى» و«كروبى» شجب العنف المستخدم ضد احتجاجات الشوارع، كما أشار «موسوى» إلى تشكيل حزب سياسى جديد. ولكن المجال الحقيقى أمامه للمناورة فى مناخ يشبه الأحكام العرفية ما يزال غير واضح.

فى الواقع أن الحالة الجديدة لإيران هى الفوران. إن انتكاسات الثانى عشر من يونيو هى أبعد ما تكون عن الانتهاء، وهى تؤثر على مجتمع منعزل ونظام منقسم. والقوميين الذين كانوا يتحدثون إلى فى فبراير عن مرونة الجمهورية الإسلامية يقومون الآن بتنزيل طرق تصنيع قنابل المولوتوف من الإنترنت. لقد تحول المد الشعبى الساخط المطالب بإعادة إحصاء الأصوات أو إعادة الانتخابات الزائفة إلى شىء أكبر. أصبح ذلك التقلب واضحا عندما استؤنفت مظاهرات الشوارع بحضور الآلاف فى التاسع من يوليو، وهى الذكرى العاشرة لقمع احتجاجات الطلبة عام ١٩٩٩. وقد قتل أحد الطلبة فى ذلك الوقت: كما قتل عشرات على الأقل منذ انتخابات العام الحالى المثيرة للجدل. إن للاستشهاد قوة ضخمة فى إيران الشيعية، مع دورات حداد الموتى التى تستغرق ثلاثة أيام وسبعة أيام وأربعين يوما على التوالى، واستعراض الطقوس التى تستعيد - من خلال جلد الذات - ذكرى حزن وفاة أفراد من آل بيت النبى (عليه الصلاة والسلام). من المؤكد أن ذكرى شهداء هذه الانتخابات الانقلابية سوف تبقى ويتردد صداها فى الذاكرة الإيرانية الشاملة.



فى الوقت نفسه، ما زالت أجهزة الطرد المركزى تدور. فهناك اليوم ما يقارب السبعة آلاف جهاز منها، وقد أنتجت إيران حوالى طن من اليورانيوم منخفض التخصيب. وقد صرح مسئولون إسرائيليون بأن الخط الأحمر قد اقترب وأنهم أشاروا أكثر من مرة إلى أن إسرائيل على أهبة الاستعداد لقصف المنشآت الإيرانية لمنعها من أن تتحول إلى قوة نووية أو حتى قوة نووية افتراضية. وقد ذكر «جو بايدن Joe Biden» أن ذلك حق مطلق لإسرائيل، ولكن يبدو أن «أوباما» قد نأى بنفسه عن ذلك، حيث ذكر أن الولايات المتحدة أرادت حل المسألة النووية «بطريق سلمية». إن دعوة الرئيس الأمريكى شديدة الأهمية للعالم الإسلامى لن يتبقى لها سوى القليل إذا ما تساقطت القنابل الإسرائيلية على «ناتانز»: ولن يكون هناك تمييز بين إسرائيل والولايات المتحدة لدى ملايين المسلمين من القاهرة إلى طهران وما بعدها. يقول «أوباما» أن عرضه لا يزال قائما، حيث سيكون هناك سبيل للتطبيع إذا ما أبدت إيران استعدادا لقبول تسوية بشأن برنامجها النووى. ولكن من الواضح أن العملية المفترضة قد أصبحت صعبة كلية: فشرعية الحكومة الإيرانية تحيط بها الشكوك، وأيديها ملطخة بالدماء، وهى واقعة تحت ضغوط تزلزل استقرارها وقد تؤدى إلى الانفجار. وقد طالب «أوباما» وزعماء القوى الصناعية الرئيسية برد إيرانى بشأن المحادثات النووية بحلول سبتمبر، معجلين بالمهلة الفضفاضة التى كانت محددة بنهاية العام. هناك «نفاد صبر» عالمى رسمى تجاه إيران. ولكن لا أحد يستطيع السيطرة على أو التنبؤ بانهيار سلطة «أحمدى نجاد»، وبات من الواضح استحالة عودة الأمور إلى سابق عهدها ما دام الناس يضربون بالهراوات فى الشوارع.

إن الالتزام الإستراتيجى بمواجهة إيران يبقى قائما، بالنظر إلى تاريخ الأحداث فى العراق وأفغانستان وغزة. كما أن الالتزام الأخلاقى بمساندة الإيرانيين الساعين للديمقراطية والذين يتعرضون للضرب بسبب الاحتجاج السلمى هو أمر واضح أيضا. ويستلزم هذا الالتزام المزدوج، والمتناقض - فترة من التهدئة التى يمكن أن تزيد من ضعف «أحمدى نجاد». و«أوباما» بارع فى التهدئة.

إن المأساة الإيرانية تطغى على مشاعر الناس. بإمكانى الخروج فى المساء إلى الشرفة الصغيرة بغرفة نومى أو إلى الأسطح برفقة أصدقاء والاستماع لصيحات «الله أكبر» و«الموت للطاغية» يتردد صداها بين المرتفعات. وعادة ما تقود النساء الإيرانيات الباسلات الأناشيد. ليست طهران مدينة جميلة، ولكنك تشعر مع انتشار مدرجاتها الجبلية أنها مدينة مهيبة ومثيرة. إن الشوق المتشدد هو حالة فارسية. لقد شعرت بتلك الحالة فى الشتات الإيرانى - تناثر الإيرانيون فى أنحاء العالم بسبب «الخومينى» - كما شعرت بها لدى كثير ممن أعرفهم من الإيرانيين الذين ما زالوا ينشدون الحرية التى تسعى إليها بلادهم منذ أن هب الشعب فى وجه أسرة «كاجار» الحاكمة للمطالبة بدستور عام ١٩٠٥.

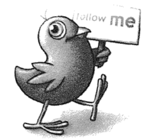
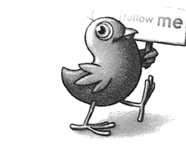
لقد هيمن الشوق والغضب على صيحات الأسطح. وما زلت أسمعها. لدى إيران الآن - بفضل الثورة بصورة جزئية - كثير من مقومات الديمقراطية، بما فى ذلك طبقة متوسطة كبيرة وتعليم عال على نطاق أوسع وتعداد كبير من الشباب المتفتح الإيجابى. وإذا ما أنكر «خامنئى» ومؤسسة الثورة ذلك، كما فعلوا بالعنف بعد ١٢ يونيو، فسينتهى بهم الأمر إلى تدمير أنفسهم. ولا أعلم متى يكون ذلك، ولكن حكومة إيران وشعبها يسيران فى اتجاهين متناقضين. ولكنى أعلم أنه إذا ما واصل المتشددون قبضتهم الواهية، فإن السبيل الوحيد لأن يحكموا قبضتهم لوقت طويل هو أن تسقط القنابل على إيران. إن عروض التسوية قد زعزعت استقرار النظام. أما المواجهة العسكرية فسوف ترسخه بقوة. ■



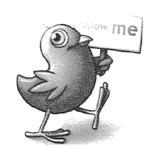
فى الواقع أن الحالة الجديدة لإيران هى الفوران. إن انتكاسات الثانى عشر من يونيو هى أبعد ما تكون عن الانتهاء. لقد تحول المد الشعبى الساخط المطالب بإعادة إحصاء الأصوات أو إعادة الانتخابات الزائفة إلى شىء أكبر









أداة جديدة للحب والتواصل.. والثورة

Twitter

إعلام جديد

ستيفن جونسون
Steven Johnson

لقد سمعتم عن «تويتر» بالتأكيد.. إذا كنتم سمعتم عن ماجرى فى إيران هذا الصيف. البعض اعتبره، مع رسائل المحمول القصيرة SMS وغيره من تقنيات الاتصال الحديثة مسئولا إلى حد كبير عن ماجرى. قد يكون فى هذا بعض المبالغة. ولكنه بالتأكيد يصبح «الوسيلة الإعلامية» الأولى حين تضع السلطات قيودا على الوسائل التقليدية المعروفة.

■■ إنها خدمة تترك انطباعاً هائلاً عند كل من يتعامل معها، فهذه الخدمة الجديدة تتيح الفرصة لمستخدمها لإرسال تحديثات tweets عما يفكر فيه بحد أقصى ١٤٠ حرفا ليقرأها كل متابعيه followers.

وقد نتساءل لماذا يحتاج العالم لمثل هذه الخدمة، فلم يكن يخطر على بالنا منذ أقل من ٤ سنوات أننا نتمنى وجود خدمة تتيح لنا تعريف أصدقائنا واختيارنا للإفطار.

أنا أيضاً كنت متشككاً فى أهمية هذه الخدمة فى البداية. كنت قد قابلت Evan Williams أحد مؤسسى موقع «تويتر»[1] Twitter عدة مرات فى التسعينيات التى شهدت انتشار الشركات العاملة فى مجال الانترنت وخدماته وعرفت باسم حقبة «dotcom 90?s» وكان هو وقتها يبدأ فى إطلاق Blogger.com[2] وحينها كانت الناس قلقة من أن يستبدل بالتدوين بشكله التلغرافى المقالات وبالكتب بشكلها التقليدى والتفصيلى، ولكن هنا Williams وشركاؤه خلقوا بعداً جديداً للتدوين بإطلاق مساحة تواصل تحد التدوين فى جملتين على الأكثر... فماذا بعد؟! اختزال التدوين بعد ذلك فى علامة ترقيم واحدة ؟!!!

ولكن «تويتر» كما يصفه الملايين من مستخدميه الدائمين لا يخلو من عمق واضح. حيث يبدو أن المعلومة البسيطة حول ماذا تناول صديقك على الإفطار حين توضع فى إطار بدلا من استقبالها بشكل منفرد تصبح أهم من ذلك بكثير؛ فهى تندرج كجزء من لوحة فسيفساء كبيرة مليئة بالتفاصيل والمعلومات التى تنتهى للوحة تشكل وعى الفرد.

وهذه العملية هى ما أطلق عليها الكاتب التكنولوجى Clive Thompson مصطلح «الوعى بالإحاطة» ambient awareness وفيه يقصد أن هذه التحديثات المختصرة من أعضاء شبكتك الاجتماعية على موقع «تويتر» تعطيك لمحة واضحة عن حياتهم اليومية وهو ليس بالأمر التافه فبدلاً من الاتصال بصديق والسؤال عن أحواله ستعرف المعلومة دون سؤال.

وهذا الدفء الاجتماعى لا يجب أن يؤخذ على محمل الهزل لأنه يحمل فى طياته معنى أعمق: ماحدث على «تويتر» فى العامين الماضيين هو احتضان فائق السرعة لثقافة تنشرها هذه الخدمة الجديدة.

والمفتاح الرئيسى لفهم هذا التماس مع ثقافة «تويتر» هو كيفية تطور هذه الأداة بشكل هائل على يد مستخدميها واستحداث استخدامات لنفس الأداة لم يكن يحلم صانعها بوجودها.

لذا نخلص إلى أن أهمية «تويتر» ليست ما فعله بنا، بل ما نفعله نحن به.

الحوار المفتوح

فى بداية هذا العام حضرت مؤتمرا ليوم واحد فى «منهاتن» عن إصلاح التعليم تحت عنوان «اختراق التعليم»[3] Hacking Education. حضر هذا المؤتمر أربعون من رواد الأعمال، الباحثين، المستثمرين، والمعلمين فى حوار استمر لست ساعات حول مستقبل المدارس.

منذ عشرين عاماً، كان يقتصر النقاش فى مثل هذه المسألة على الحاضرين فقط. زمن عشر سنوات، كان سينشر محضره بعدها بأسابيع او شهور على الإنترنت ومن خمس سنوات كان المشاركون يدونون تجربتهم وانطباعاتهم بعد انتهاء المؤتمر على مدوناتهم الشخصية.

ولكن فى ٢٠٠٩، وفى محاولة لتدوين الحدث بزمنه الفعلى. كانت تجرى محادثة موازية للمحادثة الفعلية على «تويتر». فى انطلاقة المؤتمر طلبت من المنظمين أن نبدأ أى تحديثة tweet بكلمة hackedu: فى البداية اقتصر الأمر على المشاركين فى المؤتمر وحدث ما يمكن أن نسميه «محادثة فى الظل» shadow conversation وبعد نصف ساعة بدأت المناقشة تنساب فى محيط «تويتر» وبدأت تظهر تدوينات من غرباء يعلنون أنهم يتابعون خيط تحديثات hackedu؛ وبدأ المشاركون غير الموجودين فى حيز المؤتمر مكانياً فى إبداء ملاحظاتهم وطرح مواضيع أخرى لدراستها وتدقيقها: حتى أن هناك بعض الخبراء الذين اشتكوا من عدم دعوتهم للمؤتمر. أخذنا الأفكار المهمة والمثيرة للانتباه من الشاشة وناقشناها فى مناقشاتنا.

مع انتهاء المؤتمر سجلت مئات التحديثات تسجل للمؤتمر والنقاش. واستكملت المناقشات بعدها لأسابيع مع أن المؤتمر كان فى مارس الماضى.

إدخال «تويتر» فى هذا النقاش بالضرورة غير من قواعد التواصل وأضاف مستوى آخر للنقاش وأدخل جمهورا أوسع لما قد يصنف على أنه شكل من أشكال الاتصال الحصرى، هذا التغيير منح الحدث استمرارية بعد انتهائه. وقد تم بناء كل هذا من تحديثات لا تتعدى مائة وأربعين حرفا. ولكن مجموع هذه التحديثات أنتج شيئا ثابتا وحقيقيا مثل فكرة أن مجموعات الحصى هى التى فى النهاية كونت الجسر المعلق.

الإنترنت الطازج

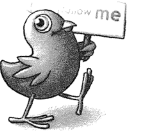
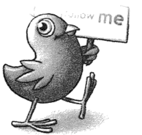
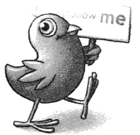
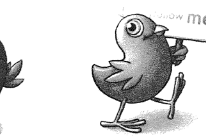
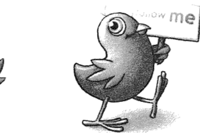
إن تقنية استخدام «تويتر» بسيطة للغاية: ينشر المستخدمون تحديثات بحد أقصى مائة وأربعين حرفا للرسالة الواحدة، وذلك مباشرة عبر موقع «تويتر» أو عن طريق إرسال رسالة نصية قصيرةSMS عن طريق الهاتف المحمول.

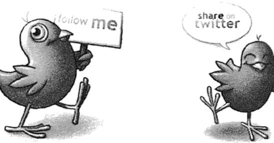
وكشبكة اجتماعية، تعتمد الفكرة على وجود «متابعين» followers: حين تختار أن

How Twitter Will Change the Way We Live
By: Steven Johnson
Time Magazine

ترجمة: منة إكرام



تتابع أحد مستخدمي «تويتر»، تظهر التحديثات بترتيب زمني معكوس على صفحتك الرئيسية. لو تابعت عشرين شخصا، ستجد تحديثات متنوعة: عن الأفطار، روابط مثيرة للإهتمام، اقتراحات لسماع موسيقى معينة، أو حتى تأملات عن مستقبل التعليم.

بعض المشاهير على «تويتر» وأشهرهم[4] Ashton Kutcher تخطوا حاجز المليون متابع مما منحهم جمهورا في حجم جمهور يضاهي جمهور البث التليفزيوني.

إن تشكيلة الشبكة الاجتماعية على «تويتر» تستوعب: الأصدقاء، الزملاء، المعارف من خلال «تويتر» نفسه، وحتى المشاهير؛ مما يعرض مستخدمه لتجربة إعلامية ليس لها مثيل، حيث تختلط بها الحميمية مع الهوس بالمشاهير. وفي هذا الإطار قد يعرف اى مدرسة التحق بها قريبه و أن Shaquille O.Neal[5] انتهى من عمل تمارينه الصباحية في «فينيكس».

الشهر الماضي أضاف «تويتر» محرك بحث يمكنك من خلاله البحث عن أي موضوع قد تتخيله. فمن الممكن أن تجد نقاشات حول الانتخابات الرئاسية الأمريكية، أو عن نهائيات American Idol[6]، أو أخبار Tiger Woods[7]، أو نقاشات مؤتمر في «نيويورك» عن إصلاح التعليم.

وهذا يبدأ الاتهامات التي يطلقها الخبراء عن الانترنت ودوره في عدم وجود «وعي قومي» national experiences مثل ما كان ... كأنباء النزول الأول للإنسان على القمر، أو إعلانات «من قتل جي آر؟» who shot JR?[8] التي شاهدها الملايين في حجرة المعيشة الأمريكية التقليدية، وهم يشاهدون أيضا[9] Walter Cronkite. ولكن «تويتر» يرد على كل هذه الاتهامات فمازالت هناك أحداث قومية ولكن الآن يكون لدينا حوار علني وحقيقي حول هذه الأحداث يتخطى حدود الأسرة والجيران: قد يكون بعض هذه الحوارات سطحيا ولكن البعض الآخر يكون محركا، وذكيا، ودقيق الملاحظة، وكذا يحرض على الفعل.

وهنا يعود المتشككون ليسألوا كيف لمائة وأربعين حرفا أن يكونوا محركين، ولكن تم استخدام هذه المساحة الضيقة من قبل المستخدمين لفتح مجالات أوسع...كاستخدامها لمشاركة الروابط لمقالات، ومناقشات، وتدوينات، وفيديوهات...أى كل ما يكمن وراء رابط الانترنت URL.

في المواقع الاجتماعية «تويتر» و«الفيسبوك» من الممكن ان تنشر الكلمة عن مقال مهم نشر اليوم في «النيويوركر».

إذن لو جمعنا العناصر الثلاثة: الشبكات الاجتماعية، والبحث الحي، ومشاركة الروابط فقد يكون هذا هو البديل لمحرك البحث Google: حيث أن «جوجل» في جوهره يعتمد على التراكم البطىء وغير المعروف للاستخدام، حيث أن أسلوب ظهور النتائج عند البحث عن أي موضوع في محرك البحث يظهر المواقع الأكثر زيارة والتي ولج اليها أكبر عدد من مستخدمي الإنترنت، وهو حل مثالي للبحث عن إبرة في كوم القش...أي استخلاص المعلومة من وسط هذا الفيض الهائل من المعلومات المتوافرة على شبكة الانترنت؛ ولكنه ليس الحل الأمثل لمعرفة ما يقوله الناس الآن.



لذا حين يأتي الأمر «للانترنت الحديث جدا» super fresh web وهو مصطلح أطلقه رائد في صناعة الانترنت John Batelle، «فتويتر» و«فيسبوك» سيكون مقدما أكثر كفاءة لهذه الخدمة وهي المعلومات الطازجة.

على سبيل المثال: إن أردت مقالات ومواقع تتحدث عن Kobe Bryant ستقوم بالبحث باستخدام «جوجل»، ولكن إن أردت تعليقات شبكتك الإجتماعية عن رمية الثلاث نقاط التي أحرزها منذ ثلاثين ثانية، ستذهب إلى «تويتر».

من الفرن الكهربائي للميكروويف

معظم وسائل الإعلام التي تناولت ظاهرة «تويتر» ركزت على الشركة، وهل سيقوم مؤسسو الموقع ببيعه «لجوجل» أم سيماطلون للحصول على صفقة أكبر من الخمسمائة مليون دولار التي عرضت عليهم من «فيسبوك» ورفضوها. والتركيز على مثل هذه الأخبار يفقدنا التحليل لنقطة هامة حينما يتعلق الأمر بوسيط مثل «تويتر» وهي أن معظم خصائصه وتطبيقاته تم تطويرها على يد مستخدميها.

والأمر لا يقتصر على إيجاد استخدام جديد لأداة موجودة سلفاً فقط؛ بل إعادة تصميم الأداة الموجودة. مثل فكرة تجميع التحديثات ذات الصلة أو التي تتحدث عن موضوع واحد باستخدام «رمز الشباك» hashtag فقد كانت من أفكار المستخدمين كما أن فكرة استخدام الرمز @ للرد على شخص محدد في التحديثة كانت فكرة المستخدمين أيضاً.

ومسألة البحث عن الموضوعات أو سلسلة من التحديثات تم تطويرها على يد شركة أخرى اشترتها «تويتر» وهي[10] Summize. فالتجديد وإعادة التصميم قد يتم على مستوى المستخدمين أو شركات تضم خدماتها إلى «تويتر».

وبفضل هذه الابتكارات فإن مسألة التواصل من خلال «تويتر» التي كانت أمرا شبه مستحيل منذ سنة أصبحت حقيقة واقعة، كمن اخترع فرنا كهربائيا وبعد سنة فوجئ به وقد أصبح ميكروويف.

ومن الحقائق اللافتة أيضاً أن معظم مستخدميه يستخدمونه عن طريق برمجيات يقدمها طرف ثالث، مثل تطبيقات iPhone و Blackberry التي صممها صغار المبرمجين لمتابعة التحديثات على «تويتر»؛ كما أن هناك تطبيقات تساعدك على تحميل الصور على الموقع وربطها بتحديثاتك، وأخرى تساعدك على تحديد الأماكن التي يوجد بها مستخدمو «تويتر» القريبون منك. ومن العجيب أن الخدمات المقدمة على «تويتر» لم تتغير خلال العامين الماضيين ولكن كل هذه التطبيقات متوفرة خارج الموقع.

وكما تتطور الأداة... تتطور الأشياء التي من الممكن ان ننجزها من خلالها، ففي الشهر الماضي على سبيل المثال قامت انتفاضة ضد الشيوعية في «مولدوفا»[11] Moldova وتم تنظيمها عبر «تويتر»، كما يستخدمه العديد من الناشطين السياسيين في الصين ولكن الحكومة تحاول حجب الموقع حتى لا تستمر النقاشات حول إحياء الذكرى العشرين «لمظاهرات ساحة تيانانمن»[12]... كما يستخدمه بعض المشاهير أمثال Kutcher لتمويل الأعمال الخيرية في منظمته لمحاربة الملاريا the Malaria No More organization.

على الرغم من أن الشبكات الاجتماعية تتأثر كثيراً بالذوق المتقلب والملول للمراهقين والشباب في العشرينيات، لذا فمن الممكن جداً في غضون ثلاث أو أربع سنوات أن نجد بديلا لـ«تويتر». ولكن ستبقى وتستمر عناصره الأساسية: تركيبة المتابعين followers structure، مشاركة الروابط link sharing، والبحث الآني real-time searching. مثلما بقيت المنتديات والمدونات على مدى العقد المنصرم.

ومن هنا أقول ان كل قنوات الاتصال سيتم استخدام أسلوب «تويتر» لتطويرها twitterfied:

١. الآراء والأخبار:

أصبحت هناك الكثير من القصص التي تمر مرور الكرام، مثل: أنباء عن تحطم طائرة، أو مقالة افتتاحية مهمة؛ كل هذه الأخبار والآراء ستصل في متوالية لوغرتمية تعتمد على ما قرأه من هم ضمن شبكتي الاجتماعية ووضع لها رابطا على أي منصة للتواصل الاجتماعي.

مما سيؤدي حتماً إلى تنوع واستقطابات في صفحتي الرئيسية لتكون انتقائية أكثر من أي جريدة

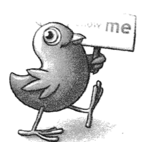


المعلومة البسيطة حول ماذا تناول صديقك على الأفطار حين توضع في إطار بدلا من استقبالها بشكل منفرد تصبح أهم من ذلك بكثير









تقليدية. مما قد يساعد بعض الشخصيات الحزبية على التعبير عن آرائها ومواقفها السياسية أمام أى معارضة تواجهها.

٢. البحث:

أرشيف الروابط التى تمت مشاركتها على «تويتر» ينمو، والبحث عن المعلومات باستخدام شبكتك الاجتماعية حتماً سينافس الطريقة التقليدية باستخدام محرك البحث Google.

على سبيل المثال لو كنت أبحث عن مقال عن Benjamin Franklin فمقالة شارك رابطها أحد أعضاء شبكتك الاجتماعية ويعمل كباحث تاريخى معروف ستكون هذه المقالة أكثر قيمة من أول نتيجة على بحث «جوجل».

٣. الإعلان:

إن لغة الإعلانات اليوم تسيطر عليها الانطباعات، وهذه الانطباعات مؤقتة ولكنها قد تكون دائمة إن كانت على شكل سلسلة من التحديثات على «تويتر» لمستخدمى هذا المنتج الذين يشاركون انطباعاتهم وخبراتهم فى استخدام هذا المنتج أو ذاك.

ومثل هذه التحديثات من شأنها أن تضمن وصول المستخدم للمنتج بسهولة، و توفير خدمة عملاء سريعة ووقتية، وكذا مشاركة المستخدم فى عملية العصف الذهنى brain storming حول المنتجات الجديدة أو تطوير المنتجات القديمة.

٤. إدمان المعلومة:

ليس كل التطورات الناجمة عن «تويتر» أو «فيسبوك» بالضرورة إيجابية؛ فحين دخل البريد الإلكترونى e-mail إلى حياتنا أصبحنا متعلقين جداً به، نتفقده بين الحين والآخر بحثا عن رسالة من المدير أو رد على موعد العشاء أمس...الخ

ولكن مع «تويتر» تسارعت الوتيرة واللهفة لمعرفة ما هو جديد ليس فقط على المستوى الشخصى بل كل التحديثات التى يرسلها كل الأعضاء فى الشبكة الاجتماعية.

ومن الجوانب الأخرى هى العلاقة بالمشاهير؛ فشخصية مثل: Oprah Winfery قد ترسل تحديثة تشكو من وجود طفيليات فى كلبها، وتستقبل مئات الردود ويكون من الصعب معرفة أى الردود قرأت، ولكن لدى متابعيها فإن ذلك يخلق إحساسا زائفا بالحميمية ويجعلهم يتصورون أنهم ساعدوها فى تطبيب كلبها.

٥. تطوير المنتج على يد المستخدم:

لنضرب مثالا «بالفيسبوك» Facebook الذى تحول من «نظام تشغيل اجتماعى» Social Operating system يحدد من هو الشخص الأكثر شعبية على مستوى جامعته أو كليته، ليصبح بيئة غنية تعبر فيها كيانات تتنوع بين: شركات إعلامية كبرى، أفراد، صانعى ألعاب اليكترونية، مجموعات سياسية، وحتى مؤسسات خيرية عن أنشطتها المتنوعة.

وهذا أيضاً من الممكن تطبيقه على تاريخ تطور شبكة المعلومات (الإنترنت)، حيث انتقلت من وسيط يساعد الأكاديميين فى عملية البحث ومشاركة المعلومات مع الزملاء؛ إلى وسيلة تمكنك من مشاهدة البرامج التليفزيونية، وإعادة اكتشاف الأصدقاء القدامى، لعب البوكر مع أشخاص من حول العالم،وحتى نشر جريدتك الخاصة. وهذا كل ينطبق على «تويتر» فمن كان يصدق أن القواعد الصارمة التى تلزمنا بحد مائة وأربعين حرفا استخدمت للدعوى لانتفاضة سياسية.

ومن هنا فإن «تويتر» يغير مفهوما يتعلق بتعريف «الابتكارات الحديثة» modern innovation فحين نتحدث عن هذا المفهوم فى إطار المنافسة العالمية نخضعه لمعيار عدد براءات الاختراع ورسائل الدكتوراه؛ ونصيب الولايات المتحدة وفقاً لهذا المعيار فى انحدار متواصل منذ السبعينيات. وفى الثمانينيات خاف المتشائمون من أن هذا التناقص فى عدد براءات الاختراع ورسائل الدكتوراه فى مجال الأعمال سيؤثر على نصيبنا فى السوق العالمى وينهى عصر «الابتكارات الأمريكية». فالتهديد على حسبهم فى الثمانينيات من اليابان إلى الهند والصين الآن.

ولكن ما الذى حدث حقيقة «للابتكارات الأمريكية»؟

لقد توصلنا لابتكارات مثل: America Online, Netscape, Amazon, Google, Blogger, Wikipidea, Craiglist, TiVo, Netflix, eBay, the iPod, the iPhone, Xbox, Facebook and Twitter.

ربما لم نخترع أو نطور سيارات كهربائية أو أجهزة إلكترونية معقدة ولكن إن كان معيار «الابتكار العالمى» يخضع للتغيير الفعلى الذى تحدثه هذه الابتكارات فى نمط الحياة lifestyle وليس مجرد المنتجات وبراءات الاختراع وأعداد الخريجين، فالولايات المتحدة كانت رائدة فى هذا المجال على مدى عشرين عاماً.

هذا لأننا دائماً ما نتتبع جانباً واحداً من جوانب الابتكار، إذا التحق شخص بالجامعة و ابتكر مصيدة فئران فلقد أضاف قيمة، ويمكن حصرها بإصدار براءة اختراع وبيعها بعد ذلك إلى إحدى الشركات لتسويقها؛ لكن إذا اشتراها أحدهم وقام بتحويلها إلى براد، فهو أيضاً أضاف قيمة. ولكننا نفضل إلقاء الضوء على النوع الأول من القيمة لأنه ببساطة سيكون ظاهراً ومعروفاً ولكن ملايين المستخدمين والشركات الصغيرة التى تبتكر طوال الوقت لا تجد من يلقى الضوء عليها.

هناك تنويعات مختلفة فى هذا النوع من الابتكار، إحداها ما أطلق عليها البروفيسور Eric von Hippel فى جامعة MIT[13] مصطلح «ابتكار المستخدم للمنتج» end user innovation، مثل:

التمميز باستخدام رمز الشباك hashtag، و١١٠٠٠ تطبيق التى ابتكرها طرف ثالث. وكل هذه الاستخدامات المبتكرة «لتويتر». قد يكون بعض هذه الابتكارات عاديا، ومملا وغير نافع ولكن بعضها الاخر يكون عظيماً.

فلننظر مثلاً الى الابتكار البسيط باستخدام رمز @ ليمكن الرد على تحديثات شخص ما. هذه العلامة البسيطة حولت تحديثات منفردة ومعزولة الى سلسلة من التحديثات tweets المتصلة التى حولت Twitter «تويتر» إلى بيئة تفاعلية حقة. كل هذه الأفكار لم تبدأ فى المقر الرئيسى «لتويتر». لذا فلا حاجة لبراءات اختراع أو شهادات لتبتكر فى مثل هذا الوسيط.

خــــاتمــــة

ما أجده مصدر إلهام فى «تويتر» Twitter هو أننا نعيش أزمة اقتصادية طاحنة وتزيد من هولها عناوين رنانة تهدد بانتهاء الرأسمالية كما نعرفها؛ وفى وسط كل هذا مهندسون «تويتر» فى المقر الرئيسى يحاولون ملاحقة الأعداد الهائلة التى تتفاعل مستخدمة هذه الخدمة بمرونة وتأويل لكل قدرات هذه الأداة لنتواصل. ■

المفتــاح الرئيــسى لفهــم ثقــافة «تويتــر» هو كيفيــة تطــور هذه الأداة بشكل هائل على يد مستخدميها واستحداث استخدامات لنفس الأداة لم يكن يحلم صانعها بوجودها

هــــوامــــش

(١) موقع شبكات اجتماعية يقدم خدمة تدوين مصغر www.twitter.com
(٢) هو نظام نشر مدونات الكترونية
(٣) مؤتمر يناقش تأثير تكنولوجيا الانترنت على التعليم وكيفية تحديث الأساليب التعليمية
(٤) ممثل وعارض أزياء فاز على شبكة سى ان ان فى مسابقة المليون متابع على «تويتر»
(٥) لاعب كرة سلة فى دورى المحترفين الأمريكى
(٦) البرنامج الأشهر فى الولايات المتحدة لاكتشاف المواهب الغنائية
(٧) لاعب جولف أمريكى،وصنف عام ٢٠٠٥ كأغنى رياضى فى العالم
(٨) جملة شهيرة استخدمت لترويج مسلسل «دالاس» عام ١٩٨٠، أذيع على شبكة سى بى اس
(٩) قارئ النشرة المسائية الأشهر فى شبكة سى بى اس بين عامى ١٩٦٢-٨١
(١٠) موقع لجمع أهم عروض الكتب والموسيقى والأفلام على مدونات الانترنت
(١١) بلد فى اوروبا الشرقية. يقع بين رومانيا واوكرانيا
(١٢) مظاهرات بدأت فى ١٤ ابريل ١٩٨٩ فى بكين للمطالبة بالديمقراطية فى تأبين الزعيم «هو يابنج»
(١٣) معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا

أفول العصر الأمريكى!

إيمانويل ولرشتاين
Immanuel Wallerstein

يبدو أن خروج جورج دبليو بوش من العراق مشيعا بحذاء منتصر الزيدى، لم يكن غير العلامة الأولى على الخروج الكبير. إيمانويل ولرشتاين الباحث البارز بجامعة ييل الأميركية، ومؤلف كتاب «انحدار القوة الأميركية: الولايات المتحدة فى عالم مضطرب» الصادر عن دار «نيو پرس»، يقدم هنا رؤية يراها «تشاؤمية» لمستقبل التواجد الأمريكى فى الشرق الأوسط الاسلامى من العراق إلى أفغانستان ومن فلسطين إلى باكستان.

(المحرر)

■■ هناك عاصفة نار قادمة فى الشرق الأوسط، لم تستعد لها الحكومة الأميركية ولا الجمهور الأميركى. ويبدو أنهم نادراً ما يدركون قربها الشديد فى الأفق أو مدى عنفوانها. فحكومة الولايات المتحدة. (وكذلك معظم الجمهور الأميركى، لا مناص)، يخدعون أنفسهم على نحو واسع حول قدرتهم على تناول الوضع فى الشرق الأوسط من حيث الأهداف

بترتيب مع:
Middle East Online

ترجمة: مازن النجار

المقررة. سوف تمتد العاصفة من العراق إلى أفغانستان إلى باكستان إلى إسرائيل/فلسطين، والتعبير الكلاسيكى يقول أنها «سوف تنتشر كالنار فى الهشيم».

لو بدأنا من العراق، سنجد أن الولايات المتحدة قد وقعت مع الحكومة العراقية «اتفاقية وضع القوات» (الأميركية) المسماة اختصاراً صوفا(SOFA)، والتى دخلت حيز التنفيذ فى مطلع يوليو/تموز الماضى. تنص الاتفاقية على تسليم الأمن الداخلى بالبلاد إلى الحكومة العراقية، وهذا يعنى نظرياً تقييد وجود القوات الأميركية فى البقاء بقواعدها، إضافة إلى دور محدود فى تدريب القوات العراقية. جاءت بعض صياغات أو عبارات الاتفاقية غامضة، وعلى نحو متعمد، إذ كان ذلك هو السبيل الوحيد لكلا الطرفين لتوقيع الاتفاقية.

لقد أظهرت الأشهر الأولى للعمل بالاتفاقية مدى البؤس الذى ينطوى عليه تنفيذها. فالقوات العراقية تفسرها حرفياً تماماً، بحيث تحظر رسمياً كلاً من الدوريات المشتركة بينها وبين القوات الأميركية، علاوة على أى إجراءات عسكرية أميركية أحادية الجانب، بدون إذن مسبق ومفصل من الحكومة العراقية. وقد وصل الأمر إلى حد منع القوات العراقية للقوات الأميركية من اجتياز نقاط التفتيش ناقلة لوازمها وإمداداتها خلال ساعات النهار.

استولى الحنق على القوات الأميركية بسبب هذه الإجراءات. وحاولت تفسير عبارة أو شرط حق الدفاع عن النفس على نحو فضفاض جداً أكثر مما تريد القوات العراقية. وتلوّح القوات الأميركية بتصاعد أعمال العنف بالعراق، وبالتالى فهى تلمّح إلى عدم قدرة القوات العراقية على حفظ الأمن والنظام.

يبدو الجنرال راى أوديرنو، الذى يقود القوات الأميركية، بوضوح غير راض بتاتاً عن الوضع الحالى، ومن الواضح أيضاً أنه يدبر المكائد للعثور على مبررات لإعادة تأسيس الحكم الأميركى المباشر للعراق. وقد التقى الجنرال مؤخراً برئيس الوزراء العراقى نورى المالكى، ورئيس حكومة إقليم كردستان العراق مسعود البرزانى؛ حيث سعى أوديرنو إلى إقناعهما بقبول تسيير دوريات مشتركة ثلاثية (عراقية/كردية/أميركية) فى الموصل ومناطق أخرى بشمال العراق، من أجل منع العنف أو الحد منه. وقد وافق الرجلان بأدب على النظر فى اقتراحه. لسوء حظ أوديرنو، تتطلب خطته مراجعة أو تنقيحاً رسمياً لاتفاقية وضع القوات (صوفا).

كان من المفترض فى الأصل أن يكون



هناك استفتاء شعبي في مطلع يوليو/تموز الماضي حول إقرار اتفاقية وضع القوات. وكانت الولايات المتحدة تخشى من خسارة نتيجة الاستفتاء، مما سوف يعني بدوره أن تخرج القوات الأميركية كلها من العراق بحلول ٣١ ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٠، أي قبل الموعد «النظري» المحدد في اتفاقية وضع القوات بعام كامل.

ظنت الولايات المتحدة أنها كانت بالغة البراعة لدى إقناعها المالكي بتأجيل هذا الاستفتاء الشعبي إلى يناير/كانون الثاني القادم (٢٠١٠). بيد أن الاستفتاء سيُجرى متزامناً مع الانتخابات البرلمانية (التشريعية)، حيث يسعى كل طرف عادة للحصول على أكبر عدد من الأصوات. وعند ذلك لن يكون هناك من يروج لصالح إقرار الاتفاقية في الاستفتاء. وكي لا يكون هناك شك في ذلك، تقدم المالكي بمشروع قانون يسمح في الاستفتاء لأي أغلبية بسيطة ضد الاتفاقية بإبطالها. على الأرجح، ستكون هناك أغلبية ترفض الاتفاقية. بل قد تكون نتيجة الاستفتاء أغلبية ساحقة ضد الاتفاقية. لذلك، من المفروض أن يكون الجنرال أوديرنو قد بدأ الآن بتجهيز حقائبه للرحيل.

يرجح ولرستاين أن أوديرنو لا تزال لديه أوهام بأنه يستطيع تجنب ظهور عاصفة النار. كلا لن يستطيع.

ماذا سيحدث بعد ذلك؟

في الوقت الحاضر، لكنه قد يتغير بين الآن ويناير/كانون الثاني القادم، يبدو أن المالكي سوف يفوز بالانتخابات؛ وسيحقق ذلك بتقديم نفسه كبطل أول للوطنية العراقية. وسوف يعقد صفقات مع الجميع ودون استثناء على هذا الأساس. فالوطنية العراقية في هذه اللحظة ليس لها كبير شأن إزاء إيران أو المملكة العربية السعودية أو روسيا أو إسرائيل. إنها معنية في المقام الأول بتحرير العراق من آخر بقايا الحكم الكولونيالي الأميركي، وهي النظرة التي يُشخّص بها جميع العراقيين تقريباً ما كانوا يعيشون في ظله منذ ٢٠٠٣.

هل سيكون هناك عنف داخلي في العراق؟

سيكون على الأرجح، وإن كان ربما أقل مما يتوقع أوديرنو وغيره.

لكن ماذا في ذلك؟

«تحرير» العراق الذي سوف يعتبره الشرق الأوسط بكامله تفسيراً لنتيجة الاستفتاء العراقي الرافضة لاتفاقية وضع القوات (صوفا)، سوف يكون له فوراً تأثير عظيم في أفغانستان. هناك، سيقول الأفغان: إن كان العراقيون قادرين على تحقيق ذلك، فنحن نستطيع ذلك أيضاً.

بالطبع، الوضع في أفغانستان مختلف، بل مختلف جداً، عن الوضع في العراق. لكن انظروا إلى ما يجري الآن للانتخابات في أفغانستان. لدينا تشكيل حكومة تم وضعها في السلطة لاحتواء وتدمير حركة طالبان. وقد تبيّن أن طالبان أكثر عناداً وفعالية عسكرياً مما بدا في توقعات أي من المراقبين. بل إن قائد القوات الامريكية شديد المراس هناك، الجنرال ستانلي ماكريستال، قد أقرّ بذلك. يتحدث جيش الولايات المتحدة هناك الآن عن «النجاح»، ربما في عقد من السنوات. لكن من الواضح أن الضباط والجنود الذين يعتقدون أن لديهم عقداً من الزمن للفوز بالحرب ضد المتمردين، لم يقرأوا التاريخ العسكري.

انظروا إلى السياسيين الأفغان أنفسهم. فالمرشحون الرئيسيون الثلاثة للرئاسة، بما في ذلك الرئيس حامد قرضاي، ناقشوا في مناظرة على شاشات التلفزيون الحرب الداخلية الراهنة؛ واتفقوا على شيء واحد: يجب أن يكون هناك نوع من المفاوضات السياسية مع حركة طالبان. لكنهم اختلفوا على التفاصيل. قوات الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي (ناتو) موجودة هناك، في الظاهر على الأقل، لأجل تدمير طالبان؛ في حين يتناظر كبار السياسيين الافغان حول كيفية التوصل إلى حلول سياسية معها. هناك انفصام خطير حول تقدير الواقع، أو ربما حول الأهداف والغايات السياسية.

بصرف النظر عن قيمتها أو صدقيتها الفعلية، تظهر استطلاعات الرأي العام بأفغانستان أن غالبية الأفغان تريد من قوات حلف شمال الأطلسي (ناتو) أن تغادر بلادهم، وكذلك أيضاً تريد أغلبية الناخبين الأميركيين الشيء نفسه. الآن نتطلع قدماً إلى يناير/كانون الثاني القادم (٢٠١٠)، عندما يصوت العراقيون لصالح إخراج الولايات المتحدة من العراق. ولنتذكر أنه قبل وصول حركة طالبان إلى السلطة، كانت بلاد الأفغان مسرحاً لقتال عنيف وقاس بين أمراء الحرب المتنافسين. وكل منهم يستند إلى قاعدة إثنية (عرقية) مختلفة، في سبيل السيطرة على البلاد.



شعرت الولايات المتحدة في الحقيقة بالراحة عندما استولت طالبان المدعومة من باكستان على السلطة. فأخيراً، سادت حالة النظام أفغانستان. لكن تبيّن أن هناك مشكلة جانبية. فقد كانت طالبان جادة في موضوع تطبيق الشريعة الإسلامية، وصديقة لتنظيم القاعدة البازغ. لذلك، بعد أحداث ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١، قامت الولايات المتحدة بغزو أفغانستان، بموافقة أوروبا ومباركة الأمم المتحدة. وتمت إطاحة طالبان من السلطة، ولكن لفترة وجيزة.

لكن: ماذا سيحدث الآن؟ على الأرجح، سيعود الأفغان إلى حروب الإثنيات (الأعراق) الكريهة المتواصلة بين أمراء الحرب، حيث تكون طالبان مجرد فصيل واحد آخر. وسوف يتبخر تماماً قبول الجمهور الأميركي لاستمرار هذه الحرب (الأميركية في أفغانستان). وسوف تتحين جميع الفصائل الأفغانية والبلاد المجاورة، روسيا وإيران والهند وباكستان، الفرص لخوض قتال حول ما تبقى من شظايا البلاد.

ثم تأتي المرحلة الثالثة: باكستان. فباكستان وضع معقد آخر: لكن لا أحد من اللاعبين هناك يثق بالولايات المتحدة. وتظهر استطلاعات الرأي العام هناك أن الجمهور الباكستاني يعتقد أن الولايات المتحدة هي الخطر الأكبر على باكستان، وذلك بأغلبية أصوات ساحقة. وجاءت الهند التي هي العدو التقليدي لباكستان بعد الولايات المتحدة بمسافة (أصوات) بعيدة في نتائج الاستطلاعات. وعندما تسقط أفغانستان في حرب أهلية شاملة، سيكون الجيش الباكستاني منشغلاً جداً بدعم حركة طالبان (أفغانستان). وبما أنهم لا يستطيعون دعم حركة طالبان الأفغانية بينما هم يقاتلون طالبان الباكستانية، فلن يستطيع الباكستانيون الاستمرار في قبول القصف الذي تقوم به الطائرات الأميركية بدون طيار.

وهنا تأتي المرحلة الرابعة من عاصفة النار القادمة في إسرائيل/فلسطين. سوف يتابع العالم العربي انهيار المشروعات الأميركية في العراق وأفغانستان وباكستان. المعلوم أن المشروع الأميركي في إسرائيل/فلسطين هو اتفاق سلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين. ولن يتزحزح الإسرائيليون قيد بوصة واحدة عن موقفهم المعروف. ولن يتزحزح الفلسطينيون أيضاً بوصة واحدة، لا في الوقت الراهن، ولا بعد وقوع عاصفة النار بشكل خاص. وستكون النتيجة الأرجح أن الدول العربية الأخرى سوف تمارس ضغوطاً هائلة على حركتي «فتح» و«حماس» للانضمام إلى «مشروع» اتفاق سلام. لكن ذلك لن يحدث إلا على جثة محمود عباس (ميتاً أو قتيلاً)، وربما هذا ما قد يحدث حرفياً.

وهكذا فقد مضى برنامج أوباما كله ليحترق بين ألسنة اللهب، التي سوف يقدم الجمهوريون القش لها. فهم سوف يسمّون هزيمة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط «خيانة»، ومن الجليّ أن هناك جماعة كبيرة من داخل الولايات المتحدة منفتحة جداً على مثل هذه الرؤية.

في هذا السياق، ليس للمرء الذي يتوقع عواصف النيران إلا أن يفعل إزاءها شيئاً مفيداً، أو أن تكتسحه داخلها. ■

لن يتزحزح الإسرائيليون قيد بوصة واحدة عن موقفهم المعروف. ولن يتزحزح الفلسطينيون أيضاً بوصة واحدة، لا في الوقت الراهن، ولا بعد وقوع عاصفة النار بشكل خاص



هل هو إسلام واحد؟!

فى العدد الماضى (سبتمبر ٢٠٠٩) نشرت وجهات نظر مقالا للأستاذ فى جامعة كولومبيا جوزيف مسعد حول «الاسلام .. وإشكالية المصطلح» رصد فيه كيف كان لبعض معانى و«دلالات» الاسلام الجديدة أثر كبير على الفكر السياسى والاجتماعى وكذلك على السياسات المحلية والعالمية فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وكيف أن أثر تلك «المفاهيم الدلالية» مع مايعتريها من تحول سيستمر فى القرن الحادى والعشرين. والحاصل أن كثيرين قد تفضلوا بالاتصال بوجهات نظر مبدين اهتمامهم بالموضوع. ومطالبين بالمزيد.

وهنا قراءة لكتابين مهمين ذوى صلة، صدرا حديثا عن ناشرين لهما مكانتهما الأكاديمية: جامعة هارفارد وجامعة ييل.

المحـــرر

■■ إن مفهوم «الإسلام دين ودولة» غالباً ما يتم استخدامه لتحديد ما هو الإسلام، حيث يقترح أن الإسلام ديانة ذات مهمة سياسية فى جوهرها. وكلا الطرفين اللذين يترنمان بهذا التعبير أو التعويذة؛ سواء كانوا من المتحمسين والمؤمنين بها أو كانوا من القلقين المتحفظين على هذه الحقيقة لأنها تؤثر على نظرة المسلمين للعالم، حتى أن بعض هؤلاء المتحفظين يرون أن بديهية «الإسلام دين ودولة» لابد أن ينتج عنها شكل محدد للدولة وبالتبعية سلوك سياسى ما.

ولكن هذه العبارة لا تتعدى كونها «شعاراً سياسياً»، يحتمل تأويلات كثيراً وفقاً لاستخدامه والسياق الذى سيفهم فيه ومنه. ولكن صفة تأويل النص أو الشعار لا تجعله أقل اهمية أو بغير ذات معنى للمسلمين؛ فهناك من يرى أن هذا يعكس الدور الذى يجب أن تلعبه الدولة

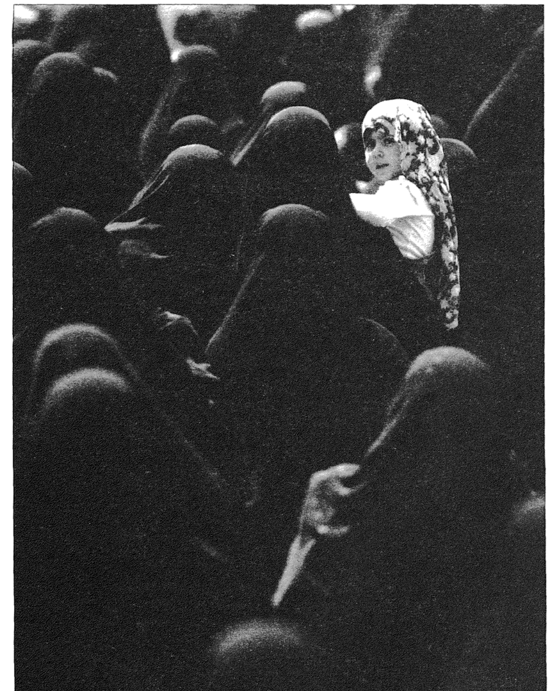
Beyond Terror and Martyrdom: The Future of the Middle East
Gilles Kepel
Harvard University Press
2008 - 336 pp.

■■■

The Crisis of Islamic Civilization
Ali A. Allawi
Yale University Press
2009 - 304 pp.

بترتيب مع:
Foreign Affairs

ترجمة: منة إكرام



تشارلز تريب
Charles Tripp



الدلالات المتباينة للتعبيرات التى شاعت مثل «الجهاد» و «الحرب على الإرهاب» أدت إلى خلط كبير وفهم خاطئ للجماعات الإسلامية المختلفة بدءاً من أفغانستان مروراً بالعراق وفلسطين وصولا إلى لبنان



كسلطة فى العالم الحديث modern world.

الملتزمون بهذا المبدأ لا يقلون عدداً عن من لا يؤمنون به من المسلمين كما لا يقلون عن عدد غير المسلمين: وكلهم نتاج هذا العالم. وهذه نقطة من المهم إيضاحها لأن معظم الجدل الدائر الآن حول دور الإسلام فى السياسة العالمية world politics يميل لتحجيم ما هو سياسى أو على الأقل تحليله من وجهة نظر واحدة لفهم الطموح السياسى والسلوك السياسى للإسلاميين Islamists وأحياناً كل المسلمين Muslims ولذا يتم التعامل مع المسألة بغرابة شديدة تتحدى أبسط قواعد التحليل السياسى العادية وتكون فقط تحليلا قائما على تحليل عقيدة هذه الجماعة.

ومهما كانت مرجعية الشخص فأحياناً الجانب اللاأخلاقى للممارسة السياسية يكون قادراً على جعل المثاليات والنوايا والمشاعر الكبيرة تتعامل مع أرض الواقع بشكل حقيقى تضطر فيه أحياناً فى مضمار الممارسة السياسية أن تتآلف مع الممارسات العملية للسلطة practicalities of power. وهذا يتطلب فهماً لما يقوم الناس بما يقومون به حين يقومون به، ولما يتفاعلون ويتحركون، وما يرونه مناسبا سواء على مستوى النشاط السياسى ولماذا؟، وما هو أخلاقى وعملى فى الوقت نفسه ليحقق لهم إنجاز أجندتهم سواء كان هذا الفصيل إسلاميا أو قوميا أو غيرهما.

إن التحرى عن إجابات دقيقة لهذه الأسئلة المطروحة سلفاً قد يكون تحدياً على المستوى التجريبى empirical والمعرفى epistemological ولكنه لا يتضمن عزل الدوافع الدينية سواء ما كانت إسلامية أو غيرها. فنفس هذه الأسئلة يجب الإجابة عليها عند فحص الجماعات التى تحركها دوافع دينية religiously motivated أو حتى عند الأخذ بالتحليل: الليبراليين، المحافظين، الماركسيين، الفاشيين، القوميين وغيرهم من الجماعات التى تحاول ممارسة وتطبيق ما تعتبره وفقاً لها مبادئ الحياة الصحيحة. وهنا لا يجب علينا الاعتماد فقط على ما يقدمه هؤلاء اللاعبون السياسيون للتعريف بأنفسهم؛ ولكن هذا هو ما حدث وتم الاعتماد عليه عند محاولة فهم دور الدين فى حياة المسلمين. والكثير من الإعلاميين والأكاديميين الغربيين وقعوا فى خطأ تقديم أكثر جماعات المسلمين تطرفاً على أن هذا هو «الإسلام السياسى» Islamism أو حتى هذا هو «الإسلام» Islam.

قراءة كتابين يقومان بمجهود مختلف ولا يقع فى شرك التعميم مسألة تثقيفية بحق؛ حيث يضع Gilles Kepel «السياسة» فى خلفية «الإسلام السياسى»، وكذا Ali Allawi الذى يحاول كشف العلاقة المضطربة فى الغالب بين «القوة الدنيوية» و«روحانية المعتقدات الإسلامية». وكلا الكاتبين يوضحان كل بطريقته أن كل المسلمين الذين يودون إعادة تشكيل العالم وفقاً للمثاليات والتقاليد الإسلامية ومهما كان تعريفهم لهذه المثاليات تواجههم حاجة دنيوية ملحة لعمل مساومات بسبب واقع عنيد يعمل عكس إرادتهم.

الدين والسلطة

إن ممارسة السلطة محكومة بالزمن والمكان وتعتمد على كفاءة اللاعبين السياسيين. هذه الظروف تحدد الأثر السياسى لأى مبادئ إسلامية. وفى هذا السياق من الممكن التمثيل بالمقارنة بين أثر «آية الله خامنئى» ودعوته للتظاهر فى إيران بين عام ١٩٦٣ و ١٩٧٨؛ حيث تعثرت الدعوى الأولى وفى حين أن الثانية أشعلت ثورة. ولكن فى بعض الحالات فساد اللاعبين السياسيين قد يحرك خيبة الأمل وإعادة التقييم للالتزامات الإسلامية مما يؤدى أن يديروا ظهورهم عن برامج الإسلام السياسى وهذا قد يكون الوضع فى إيران بعد القلاقل التى حدثت فى الانتخابات الرئاسية الأخيرة مبكراً هذا العام. أى برنامج سياسى لا يعمل بشكل فعال ويبدو متآكلا أو يتضح أنه خادع يفقد مصداقيته وبالتالى يفقد تابعيه؛ وبالتالى يفقد القدرة على تحريك الناس. وهذا قد يكون نتيجة عدة عوامل لا علاقة لها بالدين او الايديولوجيا، ولكنها بالتأكيد تؤثر على فهم الناس وممارساتهم لمبادئهم حتى الدينية منها.

Allawi يرصد هذه النقطة فى متابعته لصعود وسيطرة وهبوط الايدولوجيات العلمانية وملحقاتها فى الشرق الأوسط. لأنه عاش فى العراق سنوات الثورة المضطربة وشهد انضمام آلاف العراقيين للحزب الشيوعى العراقى معتقدين أن «القومية العربية» و«الاشتراكية العربية» و«البعثيين» سيجلبون الحداثة للعراق. ولكنه كان واعيا ان هذه الآلهة ستسقط فى لحظة ما.

ولكن بالنسبة له حركات الإسلام السياسى التى بدأت فى الظهور مطلع الخمسينيات فى القرن الماضى قد حصلت على القوة بفضل الاحتلال الأمريكى للعراق فى عام ٢٠٠٣ ولم يأت فقط من العلمانيين الذين توهموا القوة. بالتأكيد هو يراهم كنتاج للسياسة العراقية، فهم يقدمون أنفسهم كمسلمين سواء سنة أو شيعة ولكنهم أيضاً يمثلون اللاعبين السياسيين فى «العراق الجديد» contemporary Iraq مما يوجب عليهم التعامل مع: الانفصاليين الأكراد، التدخل الأجنبى، والسياسات الإقتصادية القائمة على النفط. موارد هذه الجماعات الإسلامية قد تكون اختلفت عن مواردها عند بداية ظهورها؛ حيث تغيرت تركيبات القوة والديموغرافيا. ولكن حتى إن تغير الأسلوب السياسى وأصبح لصيقاً بالحدود الإسلامية إلا أنه متشابه مع من سبقهم. لذا فهناك اهتمام خاص بالدفاع عن «الولاء الجمعى»، وأهمية التحكم والإدارة الإقليمية، وبناء التحالفات، وقضايا التمثيل، واستخدام العنف، ومسائل الثقافة والمال فى تنافس واضح للوصول للقيادة السياسية. إن الحركات والأحزاب الإسلامية وكذا الأحزاب العلمانية القومية بشكل واع مهمومة بالآليات التى تنجح وكيفية نجاحها.

الموقع، الموقع، الموقع

التأسيس للمنظمات الإسلامية والمتعاطفين معها فى الواقع السياسى المحلى يتشكل بالتاريخ، والمأزق والانشغالات التى يعيشها الناس ويسعون من خلالها للتعبئة أو التجمع حول مفهوم مركزى كما أوضح Kepel فى دراسته واسعة التغطية للعديد من حركات الإسلام السياسى وبالتحديد فى الشرق الأوسط. وجزء من نيته كانت توضيح أن هذه الحركات تضع تعريفات لنفسها وفقاً لقراءاتها للتراث الإسلامى وتحليله الدقيق فى ضوء السياقات التى أنتجته. فهى ليست ظواهر عامة مثل «الإسلام الحداثى» او «الإسلام الراديكالى».

بالنظر للمنظمات الإسلامية بدءاً من افغانستان مروراً بالعراق. من فلسطين للبنان: يرى Kepel أن الفشل فى فهم هذه الجماعات ينتج من «الشروح الكبرى» grand narratives التى سيطرت على الفهم المشترك لماهية الإسلام السياسى فى العقد الماضى. وأول هذه «الشروح» هو مفهوم «الحرب على الإرهاب» war on terror الذى أطلقته إدارة «بوش الابن» ومنظروها، والمحت أن القوة العسكرية الأمريكية ستفتح الطريق أمام الديمقراطية فى الشرق الأوسط. وثانى «الشروح» هو الهدف والمرآة للأول وهو اتجاه نشره «أسامة بن لادن» ورجله الأول «ايمن الظواهرى» ويدهو «للجهاد» ضد الغرب الكافر كحل أمثل لإنشاء حكم إسلامى فى الدول ذات الأغلبية المسلمة وغيرها. والباحث هنا يرى أن كلتا النظريتين «أوهام» ويتم بدعواهما و باسمهما تحقيق أهداف غير محتملة الحدوث ولها أثر مدمر فى الغالب ما يستفز مقاومة محلية: مما جعل الولايات المتحدة و«القاعدة» متورطين فى سياسات متعنتة فيما يخص المكان، ومواجهة النقد، وتفكيك التحالفات، والعزلة.

وبعيداً عن النفور الأخلاقى الذى أثارته هاتان النظريتان بين المسلمين وغير المسلمين على حد سواء، فهناك مشكلة أخرى يوضحها Kepel وهى بعد هذه النظريات عن الواقع الفعلى والمتباين لتجارب المسلمين. حيث أن فى كلتا النظريتين يتم الحسم بأن الدين هو المحرك الوحيد «للسلوك السياسى» بمعزل عن السياقات الموجود فيها المسلمين ومبادئهم و هوياتهم التى بالتأكيد تساهم فى تكوين اللاعبين السياسيين. وكما ان هذه النظريات تقترح انه لا يمكن فهم الساسة المسلمين وبالخصوص فى حالة «بن لادن» بمعزل عن عقيدتهم. ومع ذلك فالحقيقة أكثر تعقيداً من هذه الافتراضات التى تقدمها هذه «الشروح»، لأنها لا تشرح لماذا فى مكان وزمان معين يختار مجموعة من المسلمين هذه التوليفة من وسط كل هذا التراث الإسلامى الواسع ليكون هو ما يلهم سلوكهم السياسى. كما لا ترد هذه «الشروح» على سؤال لماذا تتبنى مجموعات أخرى من المسلمين فهما مختلفا للإسلام؛ ولماذا يرى بعض المسلمين أن التشابك مع السلطة ليست له أى علاقة بمعتقداتهم الدينية.

إذن، ماذا يشرح هذه الإختلافات فى سياق سياسى؟ إن تباين الإسلام السياسى ليس



فقط فى الشرق الأوسط، وشمال افريقيا، وجنوب آسيا، وحتى فى أوروبا الغربية: حيث وقعت سلسلة من الحوادث العنيفة والمواجهات على مدار العقد الماضى؛ وضعت بالضرورة الحديث عن عدم توافق فى القيم و «صراع حضارات» تحت الضوء. وبنظرة شاملة وسريعة على الواقع السياسى يوضح أن معظم الخلافات التى كانت فيها الأقليات المسلمة طرفاً سواء فى الدنمارك، فرنسا، هولندا أو المملكة المتحدة من الممكن إرجاعها فى الأغلب إلى السياسات التى اتبعتها هذه الدول أكثر من الهوية الإسلامية أو حتى النزعات الإسلامية لقادة الرأى protagonists. من وجهة نظر Kepel أن سياسات عدم الدمج فى هولندا المعروفة باسم «التعميد» pillarization، وهومصطلح يعنى تقسيم المجتمع الهولندى أو البلجيكى إلى قطاعات «أعمدة»، وفقاً للديانة أو الايديولوجية، وكل من هذه «الأعمدة» له مؤسساته الثقافية والإقتصادية ويكون هناك فصل حاد بين كل قطاع، وكذا سياسة «التعددية الثقافية» multiculturalism، والتى تعنى أن تسمح الدولة لكل مواطنيها على اختلاف ثقافتهم تنظيم شئونهم الخاصة مما ادى إلى وجود تربة خصبة لنمو مشاعر الإسلام الراديكالية بين المسلمين المهاجرين فى البلدين.

لهذه المقاربات جذور فى هولندا والمملكة المتحدة فى ماضيها الإمبريالى؛ حيث فضل المستعمرين الإنجليز والهولنديين أن يحكموا بشكل غير مباشر من خلال زرع قادة من الشعوب الأصلية للحفاظ على النظام محلياً. ولذا اليوم فى كلا البلدين السياسات التى شكلتها التقاليد رفعت يدها عن المجتمعات المسلمة على الأقل حتى تهدد الأمن القومى للدولة؛ وحتى حينها تتخذ الدولة إجراءات دائماً تقع تحت بند التمييز العنصرى.

وفى مثال متناقض مع ما سلف يتناول Kepel بالتحليل النموذج الفرنسى، والتى اتبعت بشكل واضح سياسات اقتحامية بوصف الكثيرين لفرض العلمانية على الحياة العامة. ومع ذلك فأنه يرى أن سياسة «الاستيعاب» assimilation كانت أنجح فى دمج المسلمين المهاجرين من الناحية الحضارية عنها اقتصادياً؛ لذا حدثت هذه الخصومات القانونية والتظاهرات التى اشترك فيها عدد من الفرنسيين ذوى الخلفية المسلمة من آن لآخر. ولكنه يفسر أعمال الشغب هذه بأنها انتفاضة العاطلين والمهمشين من الشباب الفرنسى فى الضواحى ولا تقترب بأى شكل من الأشكال من الإسلام السياسى.

مهما اختلفت سياسات الدمج من بلد لآخر ولكن المفتاح الرئيسى لاختلاف ممارسة الإسلام السياسى بين المهاجرين المسلمين فى أوروبا مازال قيد البحث؛ حيث يربط البعض هذه الممارسات بتأثير «البلد الأصلى» لهؤلاء المهاجرين عليهم. فى حين أن تحليل Kepel قد اخذ فى الإعتبار السياسات المجهرية micro politics للمجموعات المختلفة. وهو يرى أن كلما دققنا سنجد أن «الشروح الكبرى» لا علاقة لها او تسبب مشاكل عند التعامل مع الإسلام وحضارته.

الخصخصة والإسلام

أما عن كتاب Allawi الذى ينم عن سعة معرفة وتفكير عميق؛ فهو يتحدث عن الإسلام كعقيدة موجودة فى التاريخ الإنسانى ويناقش كما يوضح العنوان «أزمة الحضارة الإسلامية». وهو هنا يقصد عدة أشياء بالأساس: تجزأ السلطة، عدم وجود وحدة فى المرجعيات الثقافية، والانقسام بين السلوك الروحانى والمادى عند المسلمين. وكل هذه العوامل مجتمعة حرمت الإسلام من فرص الحكم والتجديد الذاتى المتاح لباقى الحضارات الأخرى (مثلاً الصين والغرب) مما جعلها طيعة أكثر لسيطرة قوى العولمة، سواء ما كانت فى شكل حكومات قوية، او الرأسمالية، أو الهيمنة الثقافية. كما يرى Allawi أن الإسلام تمت خصخصته، حيث أن عماد العقيدة الداخلى يختلف عن أطر الحياة العامة التى كانت ويرى أنها ستظل تاريخية. أما بالنسبة لـKepel خصخصة الإسلام هى الحل للوصول إلى التناغم الثقافى وهدف من أهداف الدولة العلمانية، ويختلف معه Allawi ويرى أنها بداية النهاية.

وحين يطرح معضلة، حيث يطالب Allawi من جهة أن يجدد المسلمون الجوهر الروحى القوى للإسلام حتى يرجع الإسلام دوره فى تشكيل تاريخ العالم؛ ومن ناحية أخرى هو قلق للغاية من رؤية الساسة الإسلاميين يستخدمون كل السبل المتاحة سواء ما كان الكسب غير المشروع، أو الفساد أو العنف للحصول على امتيازات سياسية تبعدهم كثيراً عن «منابع الأخلاق الإسلامية» wellsprings of Islamic ethics. وهو هنا يقصد منظمات مثل: القاعدة، والأحزاب الإسلامية فى العراق التى يراها من أعراض أزمة الحضارة الإسلامية عوضاً أن تكون جزء من الحل. وهذه الجماعات على حد وصفه تعكس قسوة من يحاربون وليس قيم الإسلام.



وهنا يكون السؤال، كيف يمكن لأحدهم أن يؤثر على النظام القائم دون العمل بمنطق الممارسات السياسية الكائنة أصلاً؟ الحقيقة القاسية مهما كان الإسلام قادر على عرض مجموعة من المثل والأفكار إلا أن اللاعبين السياسيين سيفرض عليهم الالتزام بالنظام السياسى القائم حتى يدركهم ويستوعبهم. وهناك عدة طرق لتحقيق ذلك، ويكون هناك خلاف على اى هذه الطرق أفضل وحتمى ولكن فى واقع المر يظل اللغز السياسى الأكبر هو كيفية التواصل مع النظام القائم دون التخلى عن المبادئ الأساسية. ومن هنا وبناء على هذا التحليل قد نرى أن الخطاب السياسى political discourse هو مناقض للخطاب الحضارى civilizational discourse حتى وإن استخدم الخطاب الحضارى بشكل مثير للجدل فى المناظرات السياسية. إن النظرة المتفحصة لمجموع الآمال، والأحكام المسبقة، والمخاوف، والنشاطات التى تتكون منها الحياة السياسية؛ يصعب حينها تطبيق نظام سياسى يتماشى مع شمولية، وتجانس، وضرورية مصطلح «الحضارة».

الحداثة وإشكالياتها

إحدى أقوى فقرات كتاب «أزمة الحضارة الإسلامية»، هو ما يتحدث فيه الكاتب عن فساد الحكومات فى الشرق الأوسط ،وجملته الشهيرة التى تحدث فيها عن «المدن الشريرة» sinister cities فى الخليج الفارسى Persian Gulf التى اعتنقت المادية materialism و«حداثة القهر» oppressive modernity. هذه الأوجه القاتمة للعولمة شكلت حقيقة العالم الحديث الذى يعيش فيه المسلمون وغير المسلمين على حد سواء. ومن هنا فمعظم قلق Allawi ليس على الإسلام كديانة او حضارة بل هو فى الأغلب عما يحدث للمسلمين؛ من حيث تجاوبهم المتفاوت لمفهوم الحداثة وما خلقته من طرق جديدة لممارسة الإسلام. قد يكون بعض هذه الطرق سلمياً أو عنيفاً، متوائماً أو رافضاً، أو قد يصبح إلهاماً للملايين.وفى هذه الحالة لن يكون نشر للعقيدة بل وسيلة لإكتساب السلطة والقوة بجميع أشكالها.

وهذه هى الرسالة الأهم للكتابين، حيث قام كل من Kepel و Allawi بدراسة الإتجاهات الثقافية والسياسية التى كونت تجربة المسلمين حول العالم؛ وهذه الاتجاهات بحسب الكاتبين جعلت المسلمين لاعبين حقيقيين فى تاريخ العالم، سواء تحركت بشكل واعيا وفقاً لهويتها الدينية أو لا. أن تكون مسلم فى العالم الحديث فأنت تتشكل وتشكل؛ والحداثة بكل غموضها وتناقضاتها هى مسألة مركبة تتغير بتغير المشاركين فيها.

هذان الكتابان تذكرة أن السياسة رهن زمان ومكان، وأنها لا تتبع منطقا واحدا حتى ولو فى أوضاع متشابهة؛ وفهم هذا المنطق مع الأخذ فى الاعتبار السياقات تساعد على فهم سلوك اللاعبين السياسيين ليس فقط المسلمين منهم. ■

كلا الكاتبين يوضحان كل بطريقته أن كل المسلمين الذين يودون إعادة تشكيل العالم وفقا للمثاليات والتقاليد الإسلامية ومهما كان تعريفهم لهذه المثاليات تواجههم حاجة دنيوية ملحة لعمل مساومات بسبب واقع عنيد يعمل عكس إرادتهم



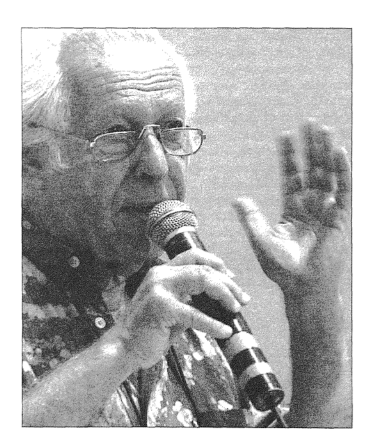
ضبط المفاهيم

فى نقد الخطاب العربى الراهن

يبدو أن التحولات العميقة التى يشهدها الفكر العربى استجابة لمتغيرات قرن جديد، كان من الضرورى أن تأتى بقضايا «المفاهيم والمصطلحات» إلى قلب الجدل الدائر بين المفكرين العرب. القضية تناولها الأستاذ فى جامعة كولومبيا جوزيف مسعد فى مقال نشرناه فى العدد الماضى، وهنا يتناول المفكر اليسارى المعروف سمير أمين قضية المفاهيم من زاوية أخرى.

ولد أمين فى مصر عام ١٩٣١ لأب مصرى وأم فرنسية. درس العلوم السياسية فى باريس حيث حصل على الدكتوراه فى الاقتصاد من السوربون وانتسب إلى الحزب الشيوعى الفرنسى. إلا أن الماركسية السوفياتية لم تثر إعجابه. عمل مديرا لمعهد الأمم المتحدة للتخطيط الاقتصادى IDEP بداكار طوال السبعينيات، حيث تصدى لمقولات عديدة سائدة عن التنمية والتحديث وخطط المؤسسات المالية الدولية.

المحـــرر



ســـــمير أمـــــين

■ تستخدم فى اللغة السياسية مصطلحات تُفهم للأسف بمعانٍ تتباين طبقًا لمراجع الثقافة السياسية، الأمر الذى كثيرًا ما يترتب عليه التباسات وسوء فهم، علمًا أيضًا أن استخدام المصطلحات المعنية قد يستفز حساسيات خاصة.

ولكل مصطلح تاريخه. ومن المهم معرفة هذا التاريخ لإدراك مضمونه المحدد بالمرجعية النظرية للمؤلف، وكذلك بالظروف التى أحاطت اختراعه. ولعل هذه الظروف تتغير فيفقد المصطلح صلاحيته.

بيد أن هناك أيضًا «موضات» فى اللغة السياسية. وكذلك فإن معرفة مصادر هذه الموضات مطلوبة أيضًا لتحديد المعنى، ونقد صلاحيته لمقاربة الواقع الحقيقى. فليست المصطلحات «محايدة»، بل تستلهم النظرية التى تختفى وراءها.

أود هنا أن أبين ما أعنيه ببعض المصطلحات التى أراها صالحة فى تحليل واقع الرأسمالية القديمة والمعاصرة، كما أود أن أشرح أسباب رفضى لاستخدام بعض المصطلحات المطروحة.

البروليتاريا والطبقات الشعبية والشعب

حدد ماركس معنى مصطلح البروليتاريا الذى صار دارجًا فى لغة الماركسية التاريخية بأنواعها.

ورغم أن اللفظ رومانى الأصل إلا أن ماركس ربط تحديد مضمونه بما رآه هو جوهر العلاقة الاجتماعية التى يتسم بها نمط الإنتاج الرأسمالى. وهذا النمط قائم على عنصرين (رأس المال والعمل) تتناسق معهما طبقتان (البورجوازية والبروليتاريا).

فالبروليتارى هو الإنسان الذى لا يملك سوى قواه للعمل والمضطر إلى عرضها للبيع فى سوق العمل الرأسمالى. الأمر الذى يفترض بدوره شروطًا اجتماعية أنتجت الفصل بين العامل وأدوات العمل. كما يفترض أن تلك الأدوات قد بلغت مقدارًا من الضخامة لا يقارن بما كان عليه فى العصور السابقة (أى بمعنى آخر: درجة من نمو قوى الإنتاج تفوق ما كانت عليه سابقا).

لا ينحصر المجتمع الرأسمالى الملموس («التكوين الاجتماعى») فى نمط الإنتاج الرأسمالى. إذ يشمل التكوين منتجين لهم وضع مختلف، مثل الفلاحين الذين يملكون الأرض والأدوات اللازمة لاستغلالها. ولكن لا يستخدمون عملا مأجورًا. فهم ليسوا رأسماليين ولا بروليتاريين.

بيد أن الاتجاه العام الذى يصاحب تطور الرأسمالية يتجلى فى توسيع المجالات التى تحكمها علاقة رأس المال بالعمل الأجير، وإن كان هذا التوسع لا يتخذ بالضرورة شكل العلاقة المباشرة المذكورة. إذ إن رأس المال يطور أيضًا وسائل يخضع بها المنتج المستقل لتحكمه، حتى يفقد هذا المنتج المستقل ظاهريًا استقلاله الحقيقى ويصبح «شبه بروليتارى». وهذا هو الوضع السائد بالنسبة إلى الكثير من صغار الفلاحين المستقلين ظاهريًا والمنتجين بالأساس للسوق، لا للاكتفاء الذاتى.

فإذا أخذنا بتحديد ماركس لاحظنا أن عدد ونسبة البروليتاريين (الذين يبيعون قواهم للعمل الرأسمالى بشكل مباشر) قد أخذا فى التصاعد خاصة فى المراكز، بل وأيضًا فى تخوم المنظومة الحديثة.

بيد أن أشكال العمل المأجور نفسه قد تكيفت بدورها لتغيرات مستمرة عبر تاريخ الرأسمالية، مع إنماء قوى الإنتاج من جانب، وما ترتب من نتائج الصراع الطبقى من جانب آخر.

ولذلك ينبغى أن ننظر من قرب فى تكوين طبقة البروليتاريا بالمعنى الواسع والشامل للكلمة. والنواة الرئيسية لهذه الطبقة، ذلك القسم الذى أخذ فى النمو العددى السريع فى أوروبا والولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر، تشكلت من عمال فى

يظهر المقال قريبا إلى جانب مقالات أخرى في كتاب ينشره مركز البحوث العربية والأفريقية ويصدر عن دار العين للنشر - القاهرة

لكل مصطلح تاريخه. ومن المهم معرفة هذا التاريخ لإدراك مضمونه المحدد بالمرجعية النظرية للمؤلف، وكذلك بالظروف التى أحاطت اختراعه. ولعل هذه الظروف تتغير فيفقد المصطلح صلاحيته



مصانع أخذ حجمها فى التضخم المستمر خلال هذه الفترة. وبما أن هذا القسم من الطبقة هو القسم الذى نجح أكثر من غيره فى تنظيم نفسه - لأسباب واضحة، ألا وهى كثافة التجمع فى مكان عمل واحد - فإن الاستخدام السياسى لمصطلح البروليتاريا قد أخذ بالتدريج يشير فقط إلى هذا القسم من الطبقة وإلى الاستخفاف بالمنتجين فى الأقسام الأخرى من الطبقة، مثل المأجورين فى مؤسسات صغيرة (والكثير منهم فى قطاعات خدمية) واعتبارهم «شبه بروليتاريا»، وذلك بالرغم من أنهم ينتمون فى الواقع إلى البروليتاريا، لا غير.

واليوم تسود ظروف أدت إلى تلاشٍ تدريجى لوحدات الإنتاج العملاقة، وتغلب التفتت فى وحدات صغيرة نسبياً. وهذا هو الاتجاه السائد فى المراكز على الأقل. وليس معنى ذلك مزيداً من التبعثر فى ملكية رأس المال. بل على العكس فإن تفتت أماكن العمل يصاحبه مزيد من التمركز فى ملكية رأس المال.

بالإضافة إلى ذلك أدت التطورات فى المراكز إلى تصاعد نسبة العاملين فى قطاعات الخدمات. وقد تجلت هذه الظاهرة فى توسيع مجال الإدارة العامة (الحكومة بالمعنى الواسع) إلى جانب توسيع مجالات الأنشطة الخاصة. ولكن هنا أيضاً نلاحظ تجمع «الموظفين» (مصطلح آخر لتسمية هؤلاء العمال الذين يبيعون قواهم للعمل) فى مكان عمل واحد، إلى جانب أشكال توظيف قائمة على التفتت. فهم أيضاً جميعاً بروليتاريون بالمعنى المحدد للكلمة.

يضاف إلى ذلك أيضاً أن التطور يخلق - من نفسه - أنواعاً جديدة من العاملين المستقلين، حقيقة أو ظاهرياً.

هذا من جانب مجتمعات المراكز أما فى التخوم، وخاصة فى تلك التخوم «الصاعدة» حيث تتحقق معدلات نمو وتراكم رأس مال مرتفعة، فإن التطور الاجتماعى يتخذ أشكالا أخرى.

فهناك تزايد ملحوظ فى العدد والنسبة الخاصة بقطاع البروليتاريا الصناعية. وبالنظر إلى نسبة التصدير لمنتجات هذه الصناعات الآخذة هى الأخرى فى التصاعد، فقد أصبحت هذه البروليتاريا تخضع لاستغلال رأس مال المراكز، مباشرة أو من الباطن. بحيث نستطيع القول بأن «بروليتاريا الولايات المتحدة (التى تستورد من الصين) هى عمال الصين الجديدة». وهذه هى حقيقة العولمة.

على أن هذه الظاهرة لا تمثل الشكل الوحيد السائد فى تطور مجتمعات التخوم المعاصرة. فنلاحظ أيضاً ابتكار وسائل تسعى إلى إخضاع منتجين لا يزالون مستقلين ظاهرياً لمنطق سيادة رأس المال المهيمن. وترافق اندماج الإنتاج الريفى فى الأسواق العامة.

بل إن التطور العام ينتج - فى ظروف هيمنة رأس المال على مساحات متوسعة من المنظومة الإنتاجية - فائضاً متزايداً من «الناس» الذين لا يجدون من يشترى قواهم للعمل. وقد أطلق عليهم تسمية «المهمشين»، بيد أنهم ليسوا خارجين عن فعل منظور التوسع الرأسمالى إذ إن وجودهم يضغط على شروط عمل غيرهم. فوجودهم يفيد النظام.



تثبت الملاحظات التى أبديتها هنا أن النظام واحد، يضم المراكز والتخوم بحيث لا يصح الفصل فى التحليل بينهما، لأن الفصل لا يساعد على إدراك التكامل - ولو غير المتكافئ وغير المؤدى إلى مزيد من التجانس بين مختلف العناصر المكونة معاً «للبروليتاريا» - على صعيد المنظومة العالمية.

ولهذه الأسباب أعتقد أن الحديث عن البروليتاريا لم يفقد معناه على الإطلاق، فيظل هو المصطلح الذى يناسب تماماً استخلاص الجوهر (القاسم المشترك) من تنوع الأشكال.

خلاصة القول إن البروليتاريا هى طبقة صاعدة بالفعل من حيث الحجم المطلق والنسبى، وفى الوقت نفسه تتكون من فئات متباينة من حيث شكل اندماجها ووسائل استغلالها، فينبغى إعطاء أهمية متساوية لجانبى المشكلة.

ينبغى اعتبار الطبقة فى جملتها، إذ إن احتمال التخلص من سيادة الرأسمالية منوط برفع هذه الطبقة من طبقة فى ذاتها (بسبب موقعها فى إعادة إنتاج التراكم الرأسمالى) إلى طبقة لذاتها وواعية بقدرتها على بناء مجتمع اشتراكى بديل.

ومن جانب آخر ينبغى عمل حساب لتنوع الأشكال المذكورة. وبالتالى تطوير ممارسات فى الصراع الطبقى تجمع الأقسام المتباينة فى تحالفات وكتل تسعى إلى الوحدة، ولو بالتدريج.

ولعل استخدام المصطلح «الطبقات الشعبية» قد يساعد فى إدراك مقتضيات العمل الفعال المطلوب. بيد أن هذين المصطلحين ليسا مترادفين، دون أن يكونا أيضاً مستقلين عن بعضهما. فالبروليتاريا لا وجود لها إلا من خلال تنوع أشكال تجلى وجودها.

يذهب الخطاب الدارج فى أيامنا إلى إنكار وجود البروليتاريا باسم تنوع أشكال توظيف العمل الخاضع لمطالب فعل قوانين الرأسمالية، وبالتالى يقال إن اللفظ ينتمى إلى لغة «الماضى»، لغة «الديناصورات» (الماركسيين بالطبع). وهذا الاستنتاج يخالف حقيقة الأوضاع.

لا ينكر أحد أن أقساماً من البروليتاريا، بل ربما الأغلبية فى ظروف العالم المعاصر، لا تعى أنها متشاركة فى مصلحتها المعادية أصلا للرأسمالية. وهذا صحيح خاصة بالنسبة إلى أقسام واسعة من بروليتاريا المراكز التى أصبحت تتضامن مع الطبقات الحاكمة عندها فى مواجهة «شعوب الجنوب».

ولهذا التضامن أرضية موضوعية، ألا وهى ما أسميته «الريع الاستعمارى»، أى تركيز فائض القيمة المستخرجة من استغلال العمل فى التخوم (بالإضافة إلى نهب مواردها الطبيعية) لصالح «مجتمعات المراكز». إذ إن تحويل هذا الفائض من التخوم إلى المراكز يتيح تحقيق أرباح ضخمة من جانب، ورفع مستوى الأجور أيضاً من الجانب الآخر.

على أنه من الجانب الآخر: بلغت الرأسمالية المتهالكة حدوداً جديدة. فأصبح الجانب المدمر فى عملية التراكم القائم بالفعل (والمؤسس على التضاد المتفاقم بما يترتب عليه من نتائج فى المراكز والتخوم) يفوق الجوانب الخلاقة التى كانت تسود فى مراحل سابقة.

وبهذا المعنى أصبحت الرأسمالية نظاماً «ينتمى إلى الماضى» بمعنى أنه صار يعادى الإنسانية بجملتها، هذه الإنسانية التى أصبحت «البروليتاريا العامة».

ملاحظة أخيرة سبق أن ألمحت إليها، إلا أن أهميتها تدعو إلى التشديد المطلوب: هناك تطوران لا فصل بينهما، فمن جانب ينتج التطور ظروفاً تتيح تكوين بروليتاريا عامة متنوعة الأشكال. ومن الجانب الآخر يؤدى هذا التطور نفسه إلى تمركز متصاعد فى ملكية رأس المال، حتى أصبحت مجموعة محدودة من التكتلات الأوليجاركية تهيمن على معظم الأنشطة الاقتصادية على صعيد عالمى. وتمثل هذه الأوليجاركية العمود الفقرى لما أسميته الاستعمار الجماعى للثالوث (الولايات المتحدة، أوروبا، اليابان).

فالعالم المعاصر ينقسم، أكثر مما كان الأمر عليه سابقاً - إلى طبقتين أساسيتين: أوليجاركية رأسمالية من جانب، وبروليتاريا عامة متنوعة الأشكال من الجانب الآخر.

يتجلى التحدى السياسى الحقيقى فى تنوع أشكال البروليتاريا العامة، لا فى غياب وجوده! فالصعوبة الحقيقية هى فى تطوير ناجح لممارسات تسعى - بالتدريج - إلى استبدال ما أسميته «الالتقاء مع التنوع» محل التفتت والتجاهل المتبادل، إن لم يكن دخول الفئات التى تتشكل منها البروليتاريا العامة فى صراعات بينية لصالح تكريس سيادة رأس المال الأوليجاركى.

يذهب الخطاب الدارج فى أيامنا إلى إنكار وجود البروليتاريا باعتبار اللفظ ينتمى إلى لغة «الماضى»، لغة «الديناصورات». وهذا الاستنتاج يخالف حقيقة الأوضاع



ولا أتصور إنجاز مثل هذا الالتقاء «فورا»، بل أزعم أن العملية تتطلب عقودا من النضال والعمل السياسي، بل قد تمتد بطول القرن «الموجة الثانية».



لذلك اقترحت استبدال نظرة «طويلة» للانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية محل النظرة القصيرة التي تجلت في مشروعات «بناء الاشتراكية» خلال «الموجة الأولى». بيد أن إنجاز المشروع يقتضي في كل لحظة ألا تغفل القوى الديموقراطية التقدمية الفاعلة في الساحة: الأفق البعيد. ولذلك يجب التمسك بمفهوم البروليتاريا، لا إلغاؤه من الذاكرة والتحليل. وإلا أصبحنا لا نعرف إلى أين ستقودنا الصراعات، وبالتالي من شأنها أن تنتج الفوضى، لا التقدم في الاتجاه المطلوب.

وهنا اقترحت إدخال مفهوم سياسي ثالث، وهو مفهوم «الشعب»، علما بأن الشعب المعني ليس مرادفا لأهل الوطن بأجمعه (وهو المفهوم الدارج). فإن تحديد حدود «الشعب» منوط بالأهداف الاستراتيجية المرحلية التي تسعى إلى إنجاز «الالتقاء مع التنوع» المذكور أعلاه.

ولعل الظروف المحيطة في المجتمعات المعاصرة تقضي بإدراج طبقات «غير شعبية» في تحالف عمل مشترك. على سبيل المثال يمكن اعتبار أن تلك الأقسام من البورجوازية (بالمعنى الصحيح أي: أصحاب مؤسسات رأسمالية) التي لا تنتمي إلى الأوليجاركية.. لها مصالح تلتقي مع مصالح الطبقات الشعبية في وضع حدود لانفراد الأوليجاركية بالسيادة. وفي مجتمعات التخوم، حيث يظل إنماء قوى الإنتاج بمعدلات حثيثة هدفا هاما، يمكن أن يكون إدراج «البورجوازية الوطنية» (إن وجدت) في التحالف أمرا مفيدا.

ولكن يجب إدراك أن التحالف الفعال من أجل إنجاز الهدف لا يمكن أن يخضع لقيادة تلك الفئات الخارجة عن الطبقات الشعبية. فالأمر يدعو إذن إلى «حلول وسطى» وتنازلات متبادلة، وتظل الخيارات السياسية دائما مفتوحة وعرضة للخطأ.

إذن فإن تعريف الشعب هنا هو تعريف سياسي، هدفه هو جعل هذا الشعب يرتفع إلى مستوى الفاعل في إنجاز خطوات نحو الهدف. وبالتالي يواجه الشعب المعني عدوا في داخل المجتمع، هو الأوليجاركية في المراكز والبورجوازية الكومبرادورية في التخوم (عميلة الأوليجاركية السائدة على صعيد عالمي).

ونظرا لأن البورجوازية في التخوم تتصف عموما بهشاشة تكوينها، ونظرا لأن الدولة تقوم في هذه الظروف بدور البورجوازية حتى تصبح «دولة بورجوازية» تصاحب ممارسات «رأسمالية الدولة»، فإن هذه الدولة يمكن أن تكون دولة ذات طابع كومبرادوري، أي «دولة كومبرادورية» تقوم بدور البورجوازية الكومبرادورية.

البورجوازية الصغيرة والفئات الوسطى

ليس مقام مصطلح ومفهوم «البورجوازية الصغيرة» مقاما مماثلا لما هو عليه بالنسبة إلى مفهومي البروليتاريا والبورجوازية - فلهذين الأخيرين مقام الواقع الموضوعي المرتبط مباشرة مع جوهر نمط الإنتاج الرأسمالي.

هذا بينما المصطلح «بورجوازية صغيرة» لا يشير إلى موقع جوهري في داخل البناء التحتي للنمط الرأسمالي، بل يخص البناء الفوقي، ولا سيما المواقف الأيديولوجية والممارسات السياسية.

ليست البورجوازية الصغيرة فئة اجتماعية تملك رأسمالا يوظف عاملا أجيرا (بروليتاريا) ولو على صعيد «صغير»، فصاحب المؤسسة الرأسمالية الصغيرة هو بورجوازي (نقطة بعد الكلمة)، ولا غير.

أما البورجوازي الصغير فهو شخص آخر، لا يملك رأس مال يحركه من أجل استخراج فائض قيمة منه.

فما يعرف به البورجوازي الصغير هو «ذهنيته» فهو، بالرغم من كونه ليس بورجوازيا بالمعنى الصحيح، إلا أنه لا يرى نفسه «بروليتاريا» يستغل رأس المال قوة عمله؛ بل يرى نفسه «شخصية مستقلة». فهو لا يعادي مبدئيا الرأسمالية كنمط اجتماعي عام، وإن كان يتخذ في بعض الظروف مواقف معادية للسياسات الملموسة التي ينفذها رأس المال المسيطر.

وقد خصص ماركس (وغيره من بعده في الماركسية التاريخية) كتابات تشير إلى هذا التركيز على مستوى «الذهنية». لقد ورث ماركس المصطلح من لغة الشعب الفرنسي السياسية الدارجة. وفي هذه اللغة كان النعت «صغير» يحمل معنى مستهزئا فالبورجوازي «الصغير» هو ذلك الشخص الذي يعتبر نفسه «بورجوازيا» بالرغم من أنه ليس كذلك، فهو شخص يخطئ في تقدير حقيقة موقعه في المجتمع.

وبهذا المعنى ليست الذهنية البورجوازية الصغيرة احتكارا لبعض الفئات «الوسطى» في المجتمع الملموس. ولعل بعض البروليتاريين أيضا يشاركون صغار البورجوازيين في نقدهم المحدود للنظام ولا يعون جوهر موقعهم فيه.

ومن جانب آخر فإن السمات الملموسة للتكوين الرأسمالي القائم على تنوع أشكال استغلال العمل كما رأينا، هذه السمات تتجلى في تواجد فئات اجتماعية تملك بالفعل رأس مال «صغير الحجم»، مثل العامل الحرفي أو التاجر الصغير. فهؤلاء يشكلون فئة (أو فئات) تحتل بالفعل مواقع خاصة في التكوين الاجتماعي. ومن هنا لعلهم يشاركون ذهنية غيرهم من البورجوازية الصغيرة.

على أن الطابع المركب وتنوع فئات البورجوازية الصغيرة الموصوفة هنا قد يؤدي إلى الالتباس في استخدام المصطلح، بل يشجع على توظيفه في مجالات بوليميكية. فأصبح المصطلح نوعا من السب يوظف في رفض وجهة نظر الطرف الآخر في النزاع رفضا يحول دون تبادل الحجج. هكذا يتهم المخالف (في حزب واحد يزعم أنه «شيوعي» مثلا) بأنه صاحب «انحراف بورجوازي صغير». وفي كثير من الأحوال يضاف إلى هذا النعت صفة أخرى تشير (أو تزعم) إلى الطابع «اليميني» أو «اليساري» للانحراف المذكور.

هذه الممارسات أثارت الحنق والاستفزاز، لأسباب مفهومة. فتجعت في نهاية المطاف على استبعاد المصطلح من لغة تحليل الواقع باسم «الموضوعية»، واستبداله بمصطلح آخر، محايد ظاهريا، وهو «الفئات الوسطى».

بيد أن الالتجاء إلى المصطلح الأخير لا يحل المشكلة بالمرة.

أولا: لأن الفئات الوسطى هي تلك الفئات التي تحتل مواقع «وسطى» في هرم توزيع الدخل والثروة، ولا غير. فإن اختيار الحد الأعلى والحد الأدنى اللذين يحيطان الفئة المعنية يظل اختيارا اصطناعيا.

ثانيا: لأن المجموعة المكونة لهذه الفئة ليست متجانسة، فهي مشكلة من مجموعات لكل منها طابعه الخاص.

ثالثا: لأن الذهنية والمواقف الخاصة بهذه الجملة غير المتجانسة تختلف وتتباين وتتغير طبقا للظروف. لذلك لست مقتنعا بأن استبعاد مصطلح البورجوازية الصغيرة يفيد في التحليل والعمل.

فالمفهوم يشير إلى واقع حقيقي وهام، ألا وهو التذبذب في اتخاذ الموقف، بين الانحياز لقبول مبادئ الرأسمالية الحاكمة وبين الاقتراب من الطبقات الشعبية في بعض صراعاتها. كما أن الظروف الموضوعية التي تحيط المواقع التي تحتلها

تنطبق هذه الملاحظات على مصطلح «المجتمع المدني»، وهو مصطلح أمريكي الأصل، يجد مرجعيته في ما أسميته «أيديولوجيا التوافق» بمعنى قبول جوهر مبادئ «اقتصاد السوق»



فئات معينة فى البناء العام تشجع على هذا التذبذب.

علمًا بأن التمسك بالمصطلح يحمل فى طياته مخاطر الانزلاق واستبدال السجال البوليميكى محل التحليل البارد الرزين. فينبغى بالتالى الاحتراز فى توصيف شخص أو فئة أو موقف بأنه تجل لظاهرة بورجوازية صغيرة.

وهناك ظاهرة هامة تكررت (ولا تزال) تجلياتها عبر التاريخ المعاصر لمجتمعات التخوم. أقصد بالأساس نظم السلطة التى ظهرت فى «عصر باندونج» والتى يصعب تعريف طابعها مهما كان مجال دراسة ممارساتها وانجازاتها وعيوبها.

ففى مجال التنمية الاقتصادية حققت هذه النظم معدلات نمو ملحوظة. وقد قدمت تحليلاً تفصيليًا لهذه المشروعات التنموية فى دراساتى عن عصر باندونج ولن أكررها هنا. علمًا بأن جوهر النتيجة التى توصلت إليها هو أن طابع هذه النظم ينتمى إلى «رأسمالية دولة مع بعض الاهتمام بالتقدم الاجتماعى». وفى المجال الأيديولوجى والسياسى جمعت بين عناصر متباينة الطابع، منها تمجيد الوطن إلى جانب رفع أعلام العدالة الاجتماعية والاشتراكية، وممارسة الشعبوية بمعنى أنها «أعطت» للشعب دون السماح له بالمبادرة.

هل يمكن إطلاق نعت «الوطنية» (أو «القومية») على هذه النظم؟ نعم إلى حد ما نظرًا لأنها اصطدمت بالفعل - وبدرجات مختلفة - بخطط الاستعمار. بيد أن هذه التسمية لا تقدم إجابة مقبولة للتساؤل حول طابع القوى الاجتماعية التى وقفت وراء المشروع الوطنى الملموس المعنى.

فلم تكن هذه القوى ممثلة فى تحالف طبقى واضح، وظلت الطبقات الشعبية صامتة وإن كانت قد ساندت النظام لإنجازاته الاجتماعية والوطنية. ولم تكن أيضًا البورجوازية هى المحركة الفاعلة، فظلت البورجوازية فى المعارضة، ولو الصامتة، إلى أن أتى يوم عودتها إلى الحكم.

إن هذا الجمع بين عناصر متناقضة يفسر هشاشة الإنجازات التى أثبت التاريخ اللاحق سهولة انقلابها. ومن ثم فإن تسمية «البورجوازية الصغيرة» تأتى فورًا إلى الذهن بسبب الطابع المتذبذب فى ممارسات هذه التجارب. بيد أن هذه التسمية هى الأخرى ليست مرضية وإن كانت الفئات الوسطى هى التى استفادت أكثر من غيرها من سياسات النظم المعنية فى «عصر باندونج». على أن أهم ما تتسم به هذه الفئات هى بالأساس «ميولها» الرأسمالية، أى رغبتها فى إدارة الاقتصاد (ولو باسم الدولة) طبقًا لمعايير الرأسمالية، إلى أن تتحول فيما بعد إلى بورجوازية تستولى على الملكية العامة وتحولها إلى ملكية خاصة.

لذلك اقترحت اعتبار هذه النظم أنواعًا من «رأسمالية الدولة» و«وطنية شعبوية» و«رأسمالية بدون رأسماليين» (تحولت إلى رأسمالية برأسماليين:)، تفاديًا لنعتها بتسمية «بورجوازى صغير»، هذا مع الاعتراف بأننى لست بريئًا تمامًا من مشاركة آخرين فى التبسيط السريع الذى تحمله هذه التسمية.



وقد تحققت تطورات شبيهة فى النظم التى أقيمت فى أعقاب ثورات اشتراكية «الموجة الأولى»، الأمر الذى يدعو إلى مزيد من البحث حول التناقضات الموضوعية التى تواجهها شعوب التخوم فى محاولتها للتحرر والتقدم.

ثم ينبغى أيضًا إعطاء بعض الأهمية لظاهرة «السلطة» فى حد ذاتها، والميل إلى حب ممارسة السلطة لذاتها. وهى مشكلة لم تُدرس فى العلوم الاجتماعية بصفة عامة (بما فيها الماركسية) بالقدر المطلوب.

على أننى أرفض نظرية «التوتاليتارية» التى يقدمها الفكر الليبرالى بديلاً للبحث فى الطابع الاجتماعى للنظم المعنية، وهو طابع متباين من بلد لآخر ومن مرحلة إلى أخرى، وللنظر فى مقتضيات ممارسة السلطة فى هذه الظروف.

الحركات الاجتماعية والمجتمع المدنى

أشير هنا إلى هذين المصطلحين اللذين تفرضهما «الموضة» السائدة فى المرحلة الراهنة، حتى أن خطاب «الحركات الاجتماعية» و«المجتمع المدنى» يكاد يعفى من ذكر الطبقات والصراع الطبقى.

لا ريب أن مصطلح «الصراع الطبقى» استخدم بالفعل - خاصة خلال القرن السابق، قرن «الموجة الأولى» كما أسميتها - بمعنى محدود. بل تم توظيفه لإضفاء شرعية على ممارسات السلطة. فتم التمييز بين «الصراعات الصالحة» - تلك التى تساند أهداف السلطة - والصراعات «المضللة» - تلك التى تقف عقبة فى طريق المشروع المعنى. كما تم التمييز الاصطناعى بين الصراعات ذات «الأهمية الحاكمة» والصراعات «الثانوية» (مثل صراع النساء!) وهذا التمييز مرفوض - عن حق - من قبل ضحاياه.

وأصبحت هذه التجاوزات بوليميكة الطابع مستفزة، عن حق. بيد أن استبدال مصطلح «الحركات الاجتماعية»، كمصطلح «موضوعى» و«محايد» ظاهريًا، لا يضيف، بل يدخل مزيدًا من الالتباس. فأية «حركة» فى المجتمع هى فى حد ذاتها «حركة اجتماعية» مهما كان مجال عملها وأهدافها وشكل تنظيمها وأسلوب ممارساتها. والعبارة غير متجانسة. وبالتالى تتزايد الحاجة إلى كشف حقيقتها، بمعنى كشف المصالح التى تقف وراءها. علمًا بأن هذا البحث يفترض التنظير سواء اعترفنا بهذا أم لا.

وقد كتبت فى هذا الموضوع ما لا يحتاج إلى تكراره هنا خاصة بالنسبة إلى مجموعة الحركات التى تزعم أنها تسعى إلى «تغيير العالم» انطلاقًا من نقد الواقع السائد. ولفت النظر إلى طابعها الملتبس فى كثير من الأحوال وتفتتها، وهو ما يحول دون إنماء قدرتها على أن تصبح بديلاً فاعلاً.

وتنطبق هذه الملاحظات على مصطلح «المجتمع المدنى»، وهو مصطلح أمريكى الأصل، يجد مرجعيته فى ما أسميته «أيديولوجيا التوافق» بمعنى قبول جوهر مبادئ «اقتصاد السوق» (الرأسمالية) وممارسة الديموقراطية التعددية الانتخابية دون مزيد. بل يفترض هذا الخطاب ضمنًا نظرية اجتماعية لا تهتم بالدولة، إذ إنها تعتبر أن الدولة تمثل «العدو» من حيث المبدأ، لأنها تضع حدودًا لممارسة «الحرية» التى تصير بدورها وعمليًا حرية المبادرة فى إطار العلاقات الاجتماعية الخاصة بالرأسمالية.

فلا يهتم خطاب المجتمع المدنى - بالتالى - بالبحث عن الطابع الطبقى للسلطة السائدة. هذا بالإضافة إلى أن الدعوة إلى رفع شأن وتقدير «منظمات المجتمع المدنى» ترسى قبول شرعيتها وصلاحية ممارساتها بالجملة، وبالتالى تضع على قدم المساواة منظمات ذات أهداف رجعية مع منظمات تقدمية، على أساس أنها جميعًا تعادى النظام القائم.

ثم إن ظروف إدارة المنظومة العالمية - الاستعمارية الطابع - تجعل العديد من منظمات المجتمع المدنى المذكورة تعدو

الحوكمة هى الأخرى مصطلح أمريكى الأصل، وطبقًا للميل الأمريكى إلى تحويل المشاكل الاجتماعية إلى موضوعات أخلاقية يتم التمييز بين الحوكمة «الجيدة» والحوكمة «السيئة»





كونها حزم وصل توظفها القوى الاستعمارية القائدة.

الحوكمة والسلطة

الحوكمة هى الأخرى مصطلح أمريكى الأصل، قائم على مرجعية أيديولوجيا التوافق المذكورة. وطبقًا للميل الأمريكى إلى تحويل المشاكل الاجتماعية إلى موضوعات أخلاقية يتم التمييز بين الحوكمة «الجيدة» (الصحيحة، السليمة، المطلوبة) والحوكمة «السيئة» (الشريرة، المكروهة).

فالتضاد هو بين الخير والشر، الإله وإبليس. ولا تستحق هذه المقولة أن تُعتبر «مفهومًا»، فليست مرجعيتها نتاج مجهود فى البحث العلمى، وإنما نتاج «خطاب التبشير والوعظ».

ثم يضاف إلى خطاب الوعظ هذا: تقديم «وصفات» تكنيكية الطابع مطلوب تنفيذها، من أجل ضمان إنجاز الهدف، أى تحقيق الحوكمة الطيبة. ويعطينا تصفح أجندات البعثات الأمريكية التابعة «للمعونة الخارجية» معرفة دقيقة وتفصيلية عن محتوى هذه الوصفات، التى تركز على «إصلاح» ذهنية وممارسات القائمين بالقرار وإصلاح مواز للمؤسسات الإدارية المسئولة عن تنفيذ أوامرهم.

فالمطلوب من صاحب القرار أن يكون عادلاً، ومحايداً فى مواجهة المتنازعين والمختلفين فى الرأى، وموضوعياً بمعنى أنه يختار الحل الأفضل، وقبل كل شىء أن يكون شريفًا وصادقًا، غير فاسد، وأن لا يتنازل أمام طلبات وضغوط أفراد عائلته وأتباعه.

ألفت النظر هنا إلى أن التوصيات المطروحة تقترب كثيرًا من «عرض حال» موجه «للمستبد العادل» المذكورة فى الأدبيات القديمة.

على أن صاحب القرار فى نظام الحوكمة السليمة هو «ديموقراطى» (مضاد المستبد) بمعنى أنه مختار من خلال عملية انتخابية تعددية، كما أن الديموقراطية المعنية هنا ترادف «حكم القانون»؛ فلا شرعية لقرار إلاّ إذا اعتمد على نص قانونى موجود وسابق.

كذلك المطلوب هو أن تكون المؤسسات المسئولة عن التنفيذ مشكلة من موظفين يشاركون صاحب القرار فى الفضيلة والنزاهة. أما أساليب العمل المرسومة فى اللوائح فتساعد فى سهولة التنفيذ الصحيح. على سبيل المثال أن تكون الاستمارات سهلة الفهم وغير ملتبسة، وأن يكون البت فى أمرها سريعًا.

إن الأيديولوجيا الليبرالية التى تقف وراء خطاب الحوكمة تسعى ـ بهذه الوسيلة ـ إلى التهرب من طرح السؤال المركزى حول طبيعة السلطة والمصالح الاجتماعية التى تمثلها ومنطق الآليات التى تحكم النظام الاقتصادى والسياسى السائد، وكأن الإجابة على هذه الأسئلة موجودة ضمنيا فى قبول صلاحية الرأسمالية والديموقراطية الأمريكية، وهى النموذج للحوكمة السليمة.

بل أقول إن هذه الوصفات تسعى عمدًا إلى التهرب من طرح الأسئلة المذكورة. فهذا الخطاب لا يعدو كونه أداة لتكريس سيادة الرأسمالية وسيادة السلطة التى تخدمها.

فالتضاد هنا هو بين نظام حوكمة سليمة ونظام حوكمة شريرة، لا بين سلطة تمثل الشعب بالفعل وسلطة تسعى إلى تكريس الاستغلال والاضطهاد.

الفقراء والمستضعفون والعدالة الاجتماعية

سبقت لغة الإحسان تبلور الفكر الحديث ـ ومنه الفكر الاشتراكى ـ بعصور. فممارسات الإحسان قديمة قدم الإنسانية. وكرستها العقائد الدينية. فالفقراء والمساكين والشحاذون يتكتلون أمام أبواب المساجد والكنائس والمعابد منذ زمن بعيد.

والقاسم المشترك الذى يشمل جميع خطب الإحسان ـ الدينية وغير الدينية ـ هو تجاهلها أسباب «الفقر» وإغفال التساؤل حول الآليات الموضوعية التى تنتجه. ويكتفى خطاب الإحسان بمعاينة وجود الفقر (مهما كان تعريفه) دون التساؤل عن أسبابه. وتنتمى هذه النظرة إلى الفكر القديم، الفكر الذى تجاوزه الفكر الحديث الذى يسعى إلى مزيد من العلمية منذ زمن.

إذن العودة إلى هذا الخطاب تمثل ردة لا تقدمًا، فلا عجب فى أن هذه الردة قد صاحبت وكرست الردة فى موازين القوى الاجتماعية لصالح تحكم رأس المال الأوليجاركى المذكور، فالمشروع يسعى إلى تكريس هذه السيادة، لا غير.

تتعدد الألفاظ المشيرة إلى ظاهرة الفقر، ولم يستثن التراث الإسلامى فى هذا الأمر، فهو نقل إلينا لفظ «المستضعفون» الذى جددت الثورة الإيرانية الإسلامية استخدامه. ولم يكن الالتجاء إلى هذا المصطلح وليد الصدفة. فهو يفيد تماماً طابع النظام الذى يقبل مبادئ «اقتصاد السوق» (أى الرأسمالية فى واقع عصرنا، بل رأسمالية التخوم فى ظروفنا). ولو أنه يغلفه بخطاب شبه دينى. فلا يختلف خطاب «المستضعفين» عندنا عن خطاب الفقر عند الغربيين فهما يفيدان نفس الهدف، ألا وهو صب زيت على دواليب النظام لتسهيل سيرها.

هناك مصطلح آخر أود مناقشته هنا وهو «العدالة الاجتماعية». فالمصطلح لا يختلف من حيث الجوهر عن مصطلحات فكر الإحسان. حيث يتشاركان فى غياب الدقة. فما هو مقدار العدالة المطلوبة؟ وما هو حجم تبرعات الإحسان المطلوبة؟ وما هى قائمة المبادرات التى تتيح استئصال الفقر؟

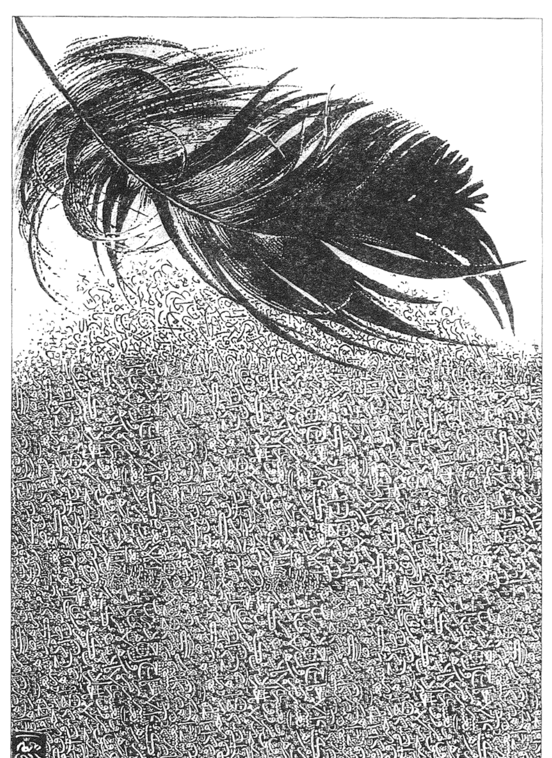
وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة إذن فى أن مصطلح العدالة الاجتماعية قد استبدل تلك القيم التى قدمها الفكر الاشتراكى، ومنها بالأساس قيمة المساواة كعنصر لا بد منه لإنجاز مشروع تحرير الإنسان والجماعة. وبالتالى كبديل للقيم التى تحكم الرأسمالية، وأولها «المنافسة». وقد أظهرت نظم عصر باندونج «المتذبذبة» شغفا باللجوء إلى هذا المصطلح حامل الالتباس.

فلا أرى أية ميزة فى استبدال هذه المصطلحات محل قاموس المفاهيم العلمية (أو التى تسعى إلى أن تكون علمية) الناتج عن تجارب تاريخ الصراع الطبقى، وتنظيرها بالأدوات التى طورتها الماركسية، علماً بأن توظيف هذه الأدوات توظيفًا صحيحًا يقتضى فهم الماركسية فهماً خلاقًا.

خلاصة قولى أن اللغة «الحديثة» وجملة مصطلحاتها ـ الحوكمة والعدالة والفقر ـ ليست محايدة وموضوعية و«عملية» فى مقابل مصطلحات العلوم الاجتماعية الحديثة ومنها الماركسية ـ السلطة ومنطق فعل آليات النظام ـ التى يقال عنها إنها «أيديولوجية» وتنتمى إلى الماضى. والحقيقة أن الأمر على العكس من ذلك تماماً، فالمصطلحات المطروحة فى إطار «الموضة» (الأمريكية الأصل) هى أيديولوجية بحتة (غير علمية) وتنتمى للماضى (السابق على الرأسمالية!) فتقوم بدور تسويغ الامتناع عن العمل من أجل تغيير النظام. ■

القاسم المشترك الذى يشمل جميع خطب الإحسان ـ الدينية وغير الدينية ـ هو تجاهلها أسباب «الفقر» وإغفال التساؤل حول الآليات الموضوعية التى تنتجه





فجور المحظيات والسبايا

محيي الدين عميمور

■ ■ يتردد في بلادنا، عند الحديث عن اللغة الفرنسية، تعبيرٌ يصفها بأنها «غنيمة حرب»، والمقصود هو (Butin de guerre، وليس Putain de guerre، لطفاً) وهو ما يعيد إلى الذاكرة أياماً، أو على الأصح قروناً خلت، كان المقاتل فيها يخوض غمار حرب شرسة، فإذا ظفر فإنه يعود بغنائم ربما كان من بينها سبيَّةً يجعل منها محظيَّة أو خليلة إذا كانت شابة وجميلة ومتألقة، أو يكلفها بمهام الخادمة أو ما دون ذلك، إذا كانت غير ذلك.

عندنا نعيش العجب العُجاب، فالسبيَّة، التي لم تكن «بريجيت باردو» أمس ولا «نانسي عجرم» اليوم، استولت على عقل مالكها وخلبت لبه، فسلمها لحيته وأسلم لها قياده، ولأنها لم تكن تؤمن بالتعددية وكانت ترفض المساواة فقد طردت زوجه وأبناءه، وجاءت بأهلها فأسكنتهم المنزل وسلمتهم مفاتيحه، وأرغمت بعلها «الجايح» على أن يكتب كل أملاكه باسمها، وتعطفت عليه في نهاية الأمر فخصصت له غرفة مهجورة يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة، وراحت تقضي نهارها هائمة ومساءها راقصة وليلها عاشقة لأي عابر سرير.

وهكذا سادت في بلادنا لغة «سانت آرنو وبيجار ولاكوست»، التي كان مولود قاسم - رحمه الله - يردد بأنها أصبحت لغة متخلفة، مقارنة باللغات الأخرى كالإنجليزية، وهي اليوم لغة العلم وأداة العلماء، والإسبانية التي تتحدث بها نحو ثلاث قارات، والصينية التي يتعامل بها خمس سكان العالم، والألمانية التي تشق طريقها نحو العالمية.

وبأموال الدولة، التي استعادت استقلالها بدماء ملايين الشهداء واسترجعت ثرواتها بتضحيات أجيال وأجيال، ازدهرت لغة الخادمات (femmes de ménage) والكونسييرجات (concierges) وازدادت صفاقة من تحولوا من الفرانكفونية إلى الفرانكوفيلية ثم إلى «الفرانكومانيا» الممتزجة بالأرابوفوبيا والحساسية المرضية من كل ما تفوح منه رائحة العروبة والإسلام.

ونتيجة للتراخي المُعيب لمن يعنيهم الأمر أو يجب أن يعنيهم الأمر استطاع «التسونامي» الفرنسي إغراق معظم

غربة

طاشت آمال تعريب المحيط، وأعطى أصحاب القرار فى المواقع التنفيذية ظهورهم للقوانين المتعلقة بتعميم اللغة العربية، ولعلهم تصوروا أنهم بذلك ينسجمون مع إرادة مواقع عليا، تملك لهم نفعا كثيرا وضرا أكثر



المجالات، خصوصا مجالات الإعلام والثقافة، وأصاب المحيط الاجتماعى والاقتصادى ومعالم العمران ومجالات البيئة بأسوأ مظاهر الاستلاب.

وأصبحت بلادنا فريسة للفرنسية السوقية (Registre familier argotique et grossier) وأبعدها عن المستوى الرفيع (Registre soutenu) وحتى عن اللهجة العادية (Registre courant) للغة لعلها من أجمل لغات العالم، وسيطرت على التعاملات الاجتماعية فاحشة لغوية هجينة أفسدت اللغتين، ونددت بها القيادة العليا علنا، ثم نسى الأمر كله فى اليوم التالى.

هذه هى وضعية «راهن اللغة العربية» فى واحد من أهم بلدان الوطن العربى، وقد يكون هذا واقعها فى سنوات قادمة فى بلدان أخرى عندما يشتد عود المهاجرين إليها، فتسود الأوردو ولغات البنغال والباشتون والهازارا، وتكون الكلمة الأخيرة لكل من يكتب من اليسار إلى اليمين وربما أيضا من أعلى إلى أسفل.

ولقد شهدت بلادنا فى السنوات الأخيرة تراجعا رهيبا فى الوجود المؤثر للغة العربية، يكفى للتأكد منه متابعة الحصص القديمة التى تقدمها التلفزة الجزائرية من حين لآخر وتبرز بوضوح تقهقر اللغة العربية اليوم، وجودا ونوعية وانتشارا، مقارنة بالستينيات والسبعينيات وحتى بعض الثمانينيات، وتكفى للدلالة عليه أيضا جولة فى الشوارع الرئيسية للعاصمة الجزائرية، حيث توسع استعمال اللغة الأجنبية على واجهات المحلات العامة وأصبح نوعا من الفجور اللغوى، حتى تندر البعض بأن محيط بعض الأحياء فى بعض مدن بريطانيا وفرنسا قد يكون أكثر تعريبا منه فى العديد من أحياء عاصمتنا العربية.

وأعترف أننى، عندما تقدمت فى بداية الألفية إلى مجلس وزراء الثقافة العرب باقتراح أن تكون الجزائر عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٧، كنت أتصور أن الاحتفالية، التى ستدوم سنة كاملة، ستكون فرصة سانحة للقيام بتعريب المحيط تعريبا كاملا، وحاولت قبل انطلاقة السنة بشهور طويلة أن ألفت النظر إلى التقصير الملحوظ فى هذا المجال، ولكن صيحاتى ذهبت أدراج الرياح، وعشنا فضائح يندى لها الجبين، حتى بالنسبة لقوائم الطعام فى معظم الفنادق التى تستقبل الضيوف فى عاصمة الثقافة العربية.

ثم لاحظت طوال السنة، بكل مرارة، قلة عدد المسئولين، صغارا وكبارا وكبارا جدا، الذين اهتموا بمتابعة الحفلات الرسمية لتظاهرة ثقافية وطنية لا يعيشها جيل واحد غالبا أكثر من مرة واحدة طوال حياته المثمرة، وبرغم أن الدعوات كانت توزع بانتظام على جل القيادات وقصر الثقافة كان مفتوح الأبواب على مصاريعها.

وطاشت آمال تعريب المحيط، وأعطى أصحاب القرار فى المواقع التنفيذية ظهورهم للقوانين المتعلقة بتعميم اللغة العربية، ولعلهم تصوروا أنهم بذلك ينسجمون مع إرادة مواقع عليا، تملك لهم نفعا كثيرا وضرا أكثر.

وأتذكر هنا أن مسئولا ساميا، كنت أحاول دعوته للمساهمة فى مجال تعريب المحيط، قال لى، باستعلاء واضح، أن هذا كله قشور خارجية وبأن علينا أن نهتم بالجوهر والمضمون، مما جعلنى أسأله متهكما، بوضوح لم أحاول إخفاءه، عمن منعه من الاهتمام بالجوهر والمضمون، ومجال نشاطه المهنى يعرف العجز الواضح فى جل الممارسات.

ولم تتحرك الأحزاب والهيئات والمؤسسات المعنية لتفرض كلمتها التى تجسد إرادة جماهير تدعى أنها تمثلها، ولم نعرف مظاهرات مليونية هدد بها البعض يوما لكى تفرض إرادة الشارع فى استرجاع عنصر رئيسى من عناصر الهوية الوطنية، والقاعدة الرئيسية لأمن البلاد القومى، ولم يخرج بعض مثقفينا، ممن جعلوا العربية بضاعتهم، عن اجترار الكتابات الروتينية التى كانت، فى معظمها، استعراضا للعضلات اللغوية ومحاولة للاستفادة الشخصية، ولم تتحرك معظم صحفنا التى تكتب من اليمين إلى اليسار لتقرع أجراس التنبيه بشكل مؤثر ومتواصل ومستنفر بل ومستفز، أما معظم الصحف الخصوصية المكتوبة من اليسار إلى اليمين فقد عتمت على جل عناصر التظاهرة، وأكدت بذلك أن الأمر يتجاوز التراخى واللامبالاة والإهمال ليكون اختيارا عقائديا وفكريا وسياسيا.

من المسئول ؟

إذا كنت توقفت طويلا عند تلك التفاصيل فلكى يتضح أن المسئول هو غياب الإرادة السياسية الجماعية ونقص الوعى القومى فى جل المستويات، فالطبقة السياسية، سلطة ومعارضة، لم تدرك، كما لم يدرك المجتمع المدنى والنخبة المثقفة، أن اللغة الوطنية، وبالإضافة إلى أنها هى خط الدفاع الأول فى ميدان الأمن القومى لأى بلد كان، هى إسمنت الوحدة الوطنية التى تعطى لأى بلد قوته الحقيقية فى مواجهة الآخر والتعامل معه بمنطق الندية، والتمسك بها هو، فى حد ذاته، تجسيد لهيبة الأمة وتعبير عن كرامتها ورمز لمكانتها ودعم لإرادتها عندما تتصارع الإرادات الدولية.

ولم يتوقف من بيدهم القرار التنفيذى عند الصور التى يقدمها دائما وزراء العالم المتقدم، بل وغالبا المتخلف، ومسئولوه فى التعامل مع لغاتهم الوطنية، والذى وصل أحيانا إلى تجاوزات قد تكون محل مؤاخذة ديبلوماسية، ولكن نتائجها كانت دائما تقديرا متزايدا لمن يحرص على التعامل بلغته الوطنية ولا يتشدق بغيرها، خصوصا إذا لم يكن يتقنها.

ولا أنكر أن مأساة اللغة العربية، كلغة وطنية ورسمية، ليست احتكارا للجزائر وحدها، بل إن أقطارا عربية متعددة تعانى صورا مختلفة من الاستهانة باللغة الوطنية، ويمكن القول بأن العديد من عواصمنا تعيش تلوثا لغويا يأخذ أشكالا متعددة، فقد يكون خليطا هجينا يشبه «الشكشوكة» اللغوية التى تجترها جموعنا، ويستعملها، بكل أسف، أساتذة جامعيون بل وسياسيون عبر البرامج المتلفزة، وقد يكون تلوثا شبه كامل بلغة أجنبية يفرضه الخدم الوافدون على أطفال البلاد الذين يكلفون برعايتهم فى غياب الأم، وربما مع أشكال أخرى من التلوث الأخلاقى، وقد يكون غزوا واضحا يتعرض له أبناؤنا فى المدارس الأجنبية التى تسربت إلى العديد من الأقطار، وغالبا نتيجة لنشوء رأسماليات طفيلية، عبر عنها توفيق الحكيم بأنها تمثل «انتفاخ الجيوب وفراغ العقول»، وهى فئات مترفة إلى حد السفه، استغلت ثغرات التنمية الوطنية والكفاءة المحدودة للقائمين عليها كما استفادت من وضعية الإرهاب الإجرامى، ولا أعرف على وجه التحديد دورها فى اندلاع ناره، وتحالفت مع مراكز نفوذ مستفيدة من المستنقع السياسى الذى ألقينا فيه أو انزلقنا إليه، لكى تفرض، بجهلها وجاهليتها، الثقافة التى تتناسب مع مستواها الفكرى، حتى فى مجال الفنون بكل أنواعها، وهى التى تشجع النضال!! العقارى لأمثال الشابة «الشهوانية»، وتروج للأغانى «الفراشية» من أمثال «بوس الواوا» أو «قول لى وين ترقد».

ولكيلا يبدو حديثى تلذذا بالبكاء على الأطلال، سأتوقف عند الأسباب التى وصلت بنا إلى هذا الوضع، لأن تقرير الواقع الذى يتلوه التشخيص الصحيح هو الطريق نحو العلاج الناجع.

وأتصور أن المرض الرئيسى الذى يعانى منه الوضع الثقافى العربى، فكرا ولغة وممارسة سيادية، هو تعدد مناهج التعليم فى الوطن العربى بتأثير إقليمية مرضية تطلق على العملية ألقاب مملكة فى غير موضعها، فهى جزأرة وسعودة ولبننة وتونسة وما إلى ذلك.

وكان من المتوقع، على ضوء ما أفاء الله به على الوطن العربى من ثروات هائلة، أن ينعكس هذا على واقع التعليم والتكوين، فنجد تطورا فى الكتب والبرامج الموجهة للكبار وللصغار على حد سواء، لتتمكن من اجتذاب القارئ بكل الوسائل التقنية التى وفرها التطور العلمى، ولكن المؤسف أن ما حدث هو تصاعد النزعة الشوفينية التى هيجها الدخل المالى المرتفع، ومتاجرة بعض رجال التعليم بالمعرفة، وبغض النظر عن نوعية المادة المقدمة للمتمدرس وشكلها وأسلوبها، مقارنة بما تقدمه اللغات الأخرى للباحثين عن التفوق فيها.

وأصبح لكل بلد كتبه التعليمية الخاصة به، وكان معظمها، خصوصا فى البلدان ذات





الكثافة السكانية المرتفعة، إنجازات متخلفة لا تشجع الطالب على الدراسة ولا تحبب المواطن في القراءة، وإلى هذا يعود حجم كبير من السقوط الرهيب للتعليم، ثم للتربية.

ولتوضيح أبعاد الأمر أدعو لإلقاء نظرة سريعة على واقع الثقافة الفرنسية، لنجد أن المتمدرس الفرنسي يتلقى نفس المنهج في نفس المدرسة ومن نفس الكتاب وبنفس الأسلوب، سواء كان ذلك في باريس أو واغادوغو أو مونتريال أو سيدني أو نجامينا، وهكذا تنتج المدرسة الفرنسية مثقفين يتمتعون بالانسجام الكامل الذي يحقق وحدة الفكر، مع تعدد التفكير، وتوافق الرؤية بغض النظر عن اختلاف المنطلقات، كما يضمن النظرة الاستراتيجية الواحدة بدون تناقض مع الممارسات التاكتيكية المتغيرة، ليصبح الجميع جنودا في جبهة «الفرانكفونية».

فعندما يرتبط الإنسان بلغة ما تصبح هذه جزءا من حياته، لأنها تحدد الصحيفة التي يقرأها وبرنامج التلفزة السياسي أو الثقافي الذي يتابعه، وربما الفيلم السينمائي أو حتى الاستعراض الغنائي الذي ينسجم معه، وشيئا فشيئا تدفعه، بدون أن يشعر، إلى تبني نظرة معينة تقدم بتلك اللغة، قد تكون اجتماعية أو اقتصادية، وقد تصبح اتجاها سياسيا يحمل خلفيات نجحت مخابر مختصة في إعدادها ليشربها مستهلك حسن النية خالي الذهن.

والقوم هناك لا يلعبون، وابتساماتهم يجب أن تذكرنا ببيت الشعر المشهور عن ابتسامة الليث، ومن هنا أشرت إلى أن اللغة هي من أهم عناصر الأمن القومي لأي شعب ولأي أمة.

ولنفترض، جدلا، حدوث تناقض سياسي بين الجزائر وفرنسا، فإن من المنطقي أن من يرتبطون بالمصادر الإعلامية الفرنسية، سيكونون بعيدين، إلى حد كبير، عن تفهم المنطق الجزائري في التعامل مع الأمر، خصوصا في غياب مؤسسات وطنية تمدهم بالأساسي من المعلومات، وفي سيطرة إعلام وطني يخلط بين الخبر والتعليق، ولا يتابعه إلا العاجز عن متابعة القنوات الأجنبية أو الباحث عن أمر معين قد يكون ما ارتكبه هو من تحركات.

وهكذا تتحدد صياغة مواقف أولئك تجاه بلادهم أو تتأثر بعض جوانبها.

وهنا يأتي سبب آخر في حدوث الخلل الذي أصاب وضعية اللغة العربية، وهو ما ابتليت به مسيرة الفكر القومي العربي نتيجة لسلسلة الأخطاء والعثرات التي أصابت المشروع القومي العربي، والذي تأثر في بداياته بما سمي ثورة عربية كبرى، وهي عملية مخابراتية بريطانية كلف بها «لورنس» في مطلع القرن الماضي للإجهاز على الإمبراطورية العثمانية، وفتح الطريق أمام الجنرال «ألنبي» لدخول القدس، واستكمال تحقيق وعد «بالفور».

وهكذا أخذ تعبير الفكر القومي مع نهايات القرن الماضي معنى قدحيا، أو أعطي ذلك، وهو ما أحسنت استغلاله مؤامرات الاستعمار القديم المتواصلة وأطماع الاحتكارات الدولية المتنامية، بالإضافة إلى قنابل موقوتة جسدتها شرائح القوة الثالثة التي كان المستعمر السابق قد أعدها لتضمن وجوده المستقبلي، وكنت أطلقت عليهم في الثمانينيات صفة «الطلقاء»، بكل ما تعنيه وتدل عليه.

وفي ظروف لا أريد أن أتوقف عندها حدث الشرخ بين الفكر القومي والتيار الديني، والإسلامي على وجه الخصوص، حيث إن المسيحيين في شمال المشرق كانوا جزءا من الحركة القومية التي رأوها علمانية تنسجم مع شعار: «الدين لله والوطن للجميع» الذي رُفع في مصر آنذاك.

وراح كلٌ يُحمّل الآخر مسئولية الانهيار الشامل لحال الأمة، ولم يُدرك أيٌ من الذين يجسدون الفكر القومي والذين يرفعون اللواء الإسلامي أنهما جناحان لطائر واحد، وأن الوطنية الحقة لها، كالعملة المعدنية، وجهان، واحدٌ قومي وآخر ديني، وأن الممارسة الدينية التي لا ترتبط بأرضها وقومها وتاريخها هي سباحة في الهواء، والمولى عز وجل يقول لنبيه الكريم: «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها»، لأنه تعالى كان يعرف حب سيد المرسلين، لبلده، لأم القرى.

ومن جهة أخرى فإن الفكر القومي بدون انتماء روحاني يضمنه الدين وطاقة روحية يوفرها الإيمان بالله واليوم الآخر هو إبحار بلا بوصلة في بحر لُجيٍّ تتشنج أمواجه، وتحت سماء غائمة لا تظهر فيها نجوم وعبر ضباب يحجب كل الآفاق.

والفكر القومي بدون لغة قومية هو كائن يفتقد كل الحواس، وبالتالي فإنه يفقد صفة الفكر.

النظرة المستقبلية

يبدو هنا أن طريقنا نحو التألق الحضاري العالمي المنطلق من نهضة ثقافية وطنية شاملة مرهون بأمرين، أولهما توحيد مناهج التعليم في الوطن العربي كله، بحيث تكون لغة العلم القاعدية هي العربية، ومن هنا أشرت إلى منهج تعليم الفرنسية، وثانيهما أن ندرك بأن الإسلام يضم قوميات متعددة يزداد تألقها يوما بعد يوما، بينما لا تجد أهم القوميات طريقها نحو موقف موحد يضمن لها مكانها ويكفل لها مكانتها، لأنها لم تفهم ضرورة التكامل بين القومية والدين، وما زالت أسيرة أحقاد الجمال الجرباء ورهينة الخلفيات الظلامية وحسابات أشباه الزعماء.



لا بد أن نسترشد بتعامل بلدان العالم المتقدم مع تاريخها وثقافتها وحضارتها وتطور لغاتها، حتى لا نكون شيئا مثل الهنود الحمر في المُحتشدات الأمريكية



وأنا أعرف أن هناك من يزعمون بأن كلاما كهذا هو من قبيل «لغة الخشب»، لكن الحقائق عنيدة، والدراسة المتأملة للواقع تثبت أن من يرددون هذه المزاعم هم جزء من أسباب نكبتنا، لأنهم جزء رئيسي من جموع «الطلقاء»، الذين سرقوا الإسلام بالأمس ويسرقون اليوم أوطانا تهاونت في الحفاظ على مقومات وجودها.

والخروج من هذه الوضعية التي تختلط فيها المأساة بالمهزلة، بحيث لا يعرف الإنسان هل يضحك أم يبكي، منوطٌ أولا بالطبقة السياسية، سلطة ومعارضة، وبجمعيات المجتمع المدني التي تدرك دورها في خلق الانسجام الاجتماعي العام، ويتلخص الأمر هنا بكل بساطة في أن يجعل كلٌ من الانتماء الحضاري العربي الإسلامي جزءا أساسيا من برنامج عمله ونظام حياته، يسهر على رعايته ويراقب فعاليته ويحاسب كل من هم تحت سلطته على أدائهم لمستلزماته.

وربما كان أهم الأدوار هنا ذلك المنوط بالتجمعات الوطنية، أحزابا أو جمعيات، التي تنادي باللغات أو اللهجات الجهوية، والتي يتحتم عليها أن تدرك أن اللغة الوطنية والرسمية هي تلك التي تجسد تواصلا حضاريا يمتد من الأمس إلى الغد، وجسرا وجدانيا يربط بين كل أبناء الأمة، وساحة فكرية تلتقي فيها جموعهم، وقاعدة لبناء مشروع المجتمع الذي يعكس الإجماع الوطني الواعي، ويترجم الإرادة الوطنية في المجالات الداخلية والخارجية.

ولغة التواصل بالتالي ليست مجرد موروث صوتي، تجاوزه الزمن والعلم والتطور ويتعصب له البعض بحكم انغلاق مفتعل، ولا هي مجرد حنين لوجود سكاني قديم، ينطبق عليه قوله تعالى: «تلك أمة قد خلت»، أو توقف عند لحظة تاريخية، كانت جنينا نما وتطور فتغيرت معالمه، يتجاوز الاعتزاز المشروع بالطفولة إلى تشبث ببعض صورها، والنتيجة شروخ وطنية تفتت الأمة وتعرقل بناء المجتمع الواحد.

وهنا لا بد أن نسترشد بتعامل بلدان العالم المتقدم مع تاريخها وثقافتها وحضارتها وتطور لغاتها، ونقتدي ببرامجها المستقبلية التي تحقق ديناميكيتها المتواصلة، حتى لا نكون شيئا مثل الهنود الحمر في المُحتشدات الأمريكية.

وهذا يفرض أن يكون التعامل مع اللغات المحلية ولهجاتها المختلفة كجزء من كل، يهتدي في ممارساته بتجارب الأمم التي تملك شعوبها جذورا مشتركة وثقافات متعددة وتاريخا واحدا ومستقبلا متكاملا، ولست أرى في بلادنا مجالا للخلط بين الاعتزاز بالأمازيغية كعمق تاريخي وكلغة وطنية وبين الانزلاق إلى اعتبارها عرقا مستقلا عن عرق باقي الأمة.

ومن جانب آخر فإن وطنية اللهجات في بلادنا يجب ألا تنطلق من الكره المرضي للعربية (ARABOPHOBIE) والذي زرع الاستعمار بذوره في بعض مناطقنا ويتأكد دور المخابرات الأجنبية في محاولة استغلاله، ومن معالمه قصر الثنائية اللغوية على اللهجة المعنية واللغة الفرنسية دون غيرها، ثم يأخذ الأمر طابعا مستفزا هدفه مجرد إثبات الوجود وتسجيل المواقف بما يُحوّل اللهجة أو اللغة المستعملة إلى «جيتو» ينغلق حول نفسه ويستثير عداء لا مبرر له.

إن المُقارنة بين العربية واللغات الحية الأخرى تثبت أن لغتنا ليست أصعب اللغات، خصوصا فى التعامل اليومى



والواقع أن قضية اللهجات تحتاج دراسة واعية

وأنا لست خبيرا فى اللسانيات لكننى أتصور أن ما يقصد به، غالبا، من تعبير اللهجة (Dialecte) هو فى واقع الأمر لكنة (Accent) وهى اختلاف فى نطق كلمة لا يغير من كتابتها، فكلمة: «مشينا» تنطق فى الجزائر بجزم البداية، بينما تفتح الميم فى النطق المشرقى، ولا اختلاف جوهريا عن الفصحى فى الحالتين.

ويمكن أن تحرف بعض الكلمات نطقا وكتابة، كأن تقول «فيروز» ... «نطرتك فى الصيف، وتقصد ... «انتظرتك فى الصيف، ومثلها كلمة «المسيد» فى الجزائر والدالة على المدرسة والتى هى تحريف لكلمة «المسجد» بتحويل الجيم ياء، ومثلها كلمة «الحيَة» فى الغرب الجزائرى والتى يقصد بها «الحاجة»، ولكن تغير الكلمة الدالة على معنى معين هو الذى يحول اللكنة إلى لهجة، ففى لبنان مثلا نجد كلمة «العجقة» التى تعنى «الزحام» أو كلمة «بلشنا» وتعنى «ابتدأنا»، وهو ما يضاف إلى طريقة النطق لتكون اللكنة لهجة.

ورغم أن العامية، بلكناتها ولهجاتها، يمكن أن تكون مصدر إثراء للغة الفصحى، فإن الفصحى هى دعامة الوحدة اللغوية، وهى التى تجعل من الشعوب أمة، ومن هنا فإن المطلوب هو الالتزام فى الحياة العامة بلغة تقترب من الفصحى، اكتفاء بتسكين الأواخر وابتعادا عن استعمال الكلمات المغرقة فى إقليميتها، خصوصا فى المواد الإعلامية التى تسوق عبر التلفزة والإذاعة والأفلام السينمائية.

وأذكر من جديد، ونحن نعيش أمطار الشمال الثقافية والإعلامية، بأن اللغة الوطنية هى جزء أساسى فى إستراتيجية الأمن القومى (Sécurité Nationale) وهو ليس أمرا يحتكره رئيس أو وزير أو مؤسسة سيادية بل هو مهمة الجميع لأنه مسئولية الجميع، والمثقفون الوطنيون هم النخبة المنوط بها السهر على نقاء اللغة وانتشارها عبر التعامل اليومى، خصوصا عندما يكون بجانبهم قانون يدعم نشاطهم ويحمى حركتهم من كل اتجاهات التلوث اللغوى، وتكون وراءهم طبقة سياسية واعية، بالمعنى الحقيقى لكلمتى الطبقة والوعى.

الشيطان الكامن فى التفاصيل

يبقى أمر قد يعتبره البعض تفصيليا مما جعلنى أتركه لآخر هذا الاستعراض، وهو نقائص بعض الجهود المبذولة لتعريب المحيط، والتى تعانى أحيانا من تجاوزات لا يمكن تبريرها، ولست أقصد هنا ما حدث يوما من تشويه للكلمات المكتوبة باللغة الأجنبية على لافتات المرور باستعمال طلاء بشع وساذج، وهو ما نسب القيام به لأعضاء لجنة التعريب التى كان يرأسها أخونا عبد القادر حجار، وثبت أنها كانت عملية دبرتها عناصر استعملت الأساليب الإسرائيلية فى تشويه الخصم، وأضافت يومها لذلك تكسير شواهد القبور المكتوبة بالفرنسية ثم تصوير حطامها وإرسال الصور إلى الرئيس هوارى بو مدين لاستعدائه على دعاة التعريب، ومن حسن الحظ أن الرئيس، رحمه الله، لم يكن ممن تنطلى عليه هذه الممارسات.

وما أقصده هنا أمران، أولهما التحذير من الاستجابة لمن لا يملكون ناصية التحكم فى اللغة العربية ويقدمون اقتراحات سطحية يدعون أنها تبسط اللغة العربية وتسهل استعمالها وبالتالى تحبب الناس فيها، ومنها اقتراح تقدم به صحفى مصرى مؤخرا بإلغاء صيغة المثنى، وكأنه لا يعرف أن القرآن الكريم هو المرجع الرئيسى للغة العربية، وإلغاء صيغة المثنى، والتى لا تعرفها فعلا لغات أجنبية، يعنى ببساطة إلغاء عشرات الآيات القرآنية، أى المساس بقاعدة الدين واللغة فى آن واحد، «فبأى آلاء ربكما تكذبان».

وفى الوقت نفسه فإن المقارنة بين العربية واللغات الحية الأخرى تثبت أن لغتنا ليست أصعب اللغات، خصوصا فى التعامل اليومى.

والأمر الثانى هو إثراء العربية آليا بتعريب المصطلحات الأجنبية أو ترجمتها، وهو ما لفتت نظرى إليه الرسالة التى تلقيتها من الدكتور محمد العربى ولد خليفة، حيث ترجمت كلمة «فاكس» (Fax) لتكون «الناسوخ»، فسارت على درب كلمة «الحاسوب»، ولعلى كنت أفضل كلمة «الناسخ»، رغم أننى لست مرجعا.

لكننى أذكر هنا من يرفضون ذلك بأن الفرنسيين لا يستعملون كلمة «الفاكس» لأنها رجس من عمل الشيطان الأمريكى، وهم يترجمونها إلى «تيلى كوبى» (Télécopie) كما فعلوا بكلمة «بايب لاين»، التى جعلوها «أوليودوك»، وكلمة «كاميرا مان»، التى جعلوها «كادرور» (Cadreur)

غير أنه من الضرورى أن يكون من يتصدون لترجمة الكلمات الأجنبية ممن يتحكمون فى اللغتين، وربما قبلت كلمة «شطيرة» لترجمة كلمة «ساندويتش»، وهى اسم مخترع الأكلة السريعة المشهورة، بدلا من الترجمة الفكاهية: «شاطر ومشطور وبينهما كامخ»، لكننى لا أجد ضرورة لترجمة كلمة «باشاميل»، وهى اسم طاه روسى اخترع الصلصة التى تستعمل فى العجائن، ولا أجد مبررا لترجمة كلمة «تلفزة»، ليحل محلها، كما يرى العقيد القذافى، تعبير «الإذاعة المرئية»، وأرفض أن أستعمل عبارة «شهية طيبة»، التى يستعملها البعض كترجمة لتعبير (Bon appétit)، لمجرد أن التعبير العربى: «هنيئا»، هو أجمل وأصح، وأثق فى أن الترجمة الصالحة تفرض نفسها على الاستعمال، تماما كما فرضت كلمة «الهاتف» نفسها وحلت محل كلمة «المسرة» فى الدلالة على «التليفون»، لأنه لا أسرار فى الهاتف اليوم.

ولعلى أنتهز الفرصة لكى أسجل التقصير الرهيب فى برامج «الحاسوب» العربية، والتى يبدو أن من يعدونها هم تقنيون غير أكفاء، لا يفهمون من اللغة العربية وفنونها ونحوها وصرفها أكثر بكثير مما يفهمه بعض «النُدل» فى فنادقنا، وهو ما يعانى منه المثقف العربى، مقارنة بزميله فى الثقافات الأخرى، وهذه مهمة مشتركة يجب أن تسهر عليها الحكومات، وكان من المفروض أن تتولاها الأقسام الثقافية فى جامعة الدول العربية، لولا أنها مجرد تكايا للمتقاعدين ومصدر دخل لبعض العاطلين من أقارب هذا المسئول أو ذاك.

ونظرة إلى الموسوعات العالمية التى تصدر تباعا على شكل أقراص مضغوطة ومدعمة بالرسوم المتحركة والصور الملونة والموسيقى الجميلة ستجعلنا نحس بأننا ما زلنا فى العصر الحجرى، ويكفى لتأكيد ذلك أن نحاول فتح «لسان العرب»، الذى يباع على شكل قرص مضغوط، بمقدمة موسيقية بائسة وبأسلوب عرض يكفى لإصابة الباحث بالقرف والإحباط.

ويدفعنى هذا إلى القول بأن دور المجتمع المدنى وجمعياته قد يكون أحيانا أكثر فعالية، ولأن الفرنسيين هم قدوتنا وتاج رأسنا وقرة عيننا، وبالإضافة إلى ما سبق أن أشرت له، فإننى أذكر بأن مواطنين فرنسيين رفعوا قضية على شركة «سيتا» للدخان لأنها استعملت فى كتابة كلمة «مرشح» على علب السجائر الكتابة الإنجليزية للكلمة، أى (Filter) وليس الفرنسية (Filtre) وخسرت الشركة القضية، وعدلت الكلمة بعد إتلاف كل الأغلفة التى كانت تحمل الكتابة القديمة، وانتصر عشاق الفرنسية.

وأذكر بأن الرئيس جاك شيراك خرج غاضبا من لقاء اقتصادى لأن متعاملا فرنسيا ألقى خطابه بالإنجليزية.

مقارنات

اللغة الوطنية الواحدة والموحدة هى عصارة الثقافة الوطنية فى البلد المعنى وعنوانها، بل إنها اختزال لصفة الوطنية، وهى صورة لوحدة الأمة أيا كانت أصولها وأعراقها، وتجسيد لهيبتها وتأكيد لعزتها وتعبير عن كرامتها، ومن هنا كنت أرفض دائما مفهوم «الازدواجية» اللغوية الذى يجعل من الفرنسية آليا الطرف الآخر من الثنائية المستعملة، فتخلق للغة الوطنية «ضرة»، تقوم بدور السبية سالفة الذكر، وكنت وما زلت أفضل الحديث عن «التعددية» اللغوية، التى تكون العربية قاعدتها الرئيسية، ولن أضيع وقتا طويلا فى اجترار ما سبق أن تناولته، والذى أكدته المشاكل الأخيرة فى بلجيكا، وأكتفى بالقول بأن وحدة اللغة الوطنية هى ضمان وحدة الوجدان الوطنى، وهو ما لا يتناقض مع الاستفادة بأى فنون شعبية أو ثقافات محلية، لا تتجاهل الرمز الموحد والموحد للأمة، وما لا يمنع من الانفتاح الواعى على ثقافة العالم وفنونه.

والجماهير فى جل بلاد العالم تلتف حول رمز واحد تجمع عليه بدون أن يعنى ذلك سحق رموز أخرى، جهوية أو مزاجية، أو تجاهل رموز أخرى عالمية، وهكذا نجد «إديث بياف» فى فرنسا و«أم كلثوم» فى مصر و«فيروز» فى لبنان و«إلفيس بريسلى» فى أمريكا و«البيتلز» (وليس الخنافس) فى بريطانيا، وكلها رموز تمثل مرجعية فنية لكل مواطن، لا تحول بينه وبين أن يحب «عبد الوهاب» ويعجب «بعبد الحليم» ويعشق «بيتهوفن» ويسهر مع «فردى» وينسجم مع «تشايكوفسكى» ويرقص مع «كوستاغوفيتش» ويغنى مع «أزنافور» ويطرب «لدحمان الحراشى».

وتبدو أهمية هذا المثال عندما نسجل أننا لا نجد عندنا مطربا واحدا يجمع عليه كل المواطنين، من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وربما كان الاستثناء الجدير بالانتباه هو بعض الأناشيد الوطنية، ربما لمجرد أنها تجسد الوحدة الوطنية.

لكن المثير للأسى هو أن بلادنا لم تعرف أغنية وطنية واحدة جديدة بهذه الصفة منذ أنشودة «عيد الكرامة» فى منتصف الثمانينيات، ولعل المسؤول الأول عن هذا هو خلل وحدة الوجدان الوطنى بفعل الشروخ اللغوية التى تفاقم أثرها وتأثيرها.

أما فى المجال الأدبى فإننا سنجد أن روسو وفيكتور هيجو وبلزاك وديماس، الكبير والصغير، عند الناطقين بالفرنسية هم

رموز للاعتزاز بالوطن مثل شيكسبير وألدوس هكسلى وإدجار ألان بو وتينسى وليامز وغيرهم عند الناطقين بالإنجليزية. كما أننا نجد كل مصرى يحرص، مهما كان اتجاهه السياسى، على قراءة «الأهرام» حرص الفرنسى على قراءة «لو موند» والبريطانى على قراءة «التايمس» والأمريكى المُسِن على قراءة «الواشنطون بوست» واللبنانى المارونى على قراءة «النهار» وزميله السنى على قراءة «الأنوار». وهى هنا ثنائية تستحق التوقف عندها عندما نعرف أن «الفلامان» فى بلجيكا لا يقرءون صحيفة «لو سوار».

وفى بلد يصدر أكثر من ستين صحيفة، بعضها لا علاقة له بالهدف الحقيقى لوجود الصحافة. لعلى أتساءل عن خريطة توزيع القراء على الصحف. وأقصد أساسا القراء الذين يشترون الصحف، وبالتالى عن نسبة مقروئية كل صحيفة وكل مجلة. وعن الكتاب الذين يتابعهم جل المواطنين ويتأثرون بما يكتبون، وأتساءل: هل عندنا أمثال «غسان توينى» فى لبنان و«حسنين هيكل» فى مصر «وفونتين» فى فرنسا «وروبرت فيسك» فى بريطانيا و«سالزبيرغر» فى بلاد الأمريكان وغيرهم من خلق الله فى بلاد الله؟

وربما دفعت السكين فى الجرح أكثر فأكثر لأتساءل عن عدد الناطقين بالفرنسية الذين يتابعون ما يُكتب بالعربية ويتتبعون كُتابا بعينهم فى مجال الثقافة العربية، وهو أمر لا يُطرح كثيرا بالنسبة لعدد من قراء العربية يحاولون، بانتظام يكاد يكون رتيبا، الاطلاع على ما يكتب بالفرنسية، استزادة للمعرفة، أو فضولا يبحث عن جديد، أو تقربا من أهل «السبية» الجائرة.

لكننى لا أدرى لماذا يريد البعض عندنا أن يكون كاتب ياسين، وله قدره واحترامه فى مجال تخصصه، مرادفا وحيدا لاسم الجزائر، فى حين يجرى تجاهل رموز وطنية لمجرد أنها تكتب بالعربية، ويراها الوطن العربى تجسيدا للجزائر وتعبيرا عنها، بينما يجهلها ويتجاهلها بضعة آلاف تعطى لهم الصدارة لأنهم اخترعوا أسطورة «غنيمة الحرب» ثم صدقوها ويريدون منا أن نسلم لهم بالريادة، ونهمل رموزا من أمثال عبد الله شريط ومزيان وخرفى ووطار وركيبى وزهور وولد خليفة وسعيدى، وقبلهم ابن باديس والميلى ثم عبد الرحمن الجيلالى، ومعهم دودو وبو عزيز والعربى الزبيرى، ثم بو عقبة والعقاب ورزاقى وبو القرون ورحاليلة أو البرناوى وخمار وعشرات آخرون. بل ويريدنا البعض أن نتجاهل كتابا وطنيين عبروا بالفرنسية مثل مالك بن نبى ومالك حداد ولكن التزامهم بحضارتهم جعلهم رموزا تاريخية.

ولا أعرف كيف لا يتوقف أحد عند مأساة المسرح الوطنى الذى أدت انعكاسات الشرخ اللغوى إلى تدمير دوره، فلم يعد هناك مسرح وطنى يكون تجسيدا لمشاعر أمة وتعبيرا عن إرادتها السياسية وانسجاما مع ذوقها الفنى وترجمة لوجهتها الاجتماعية.

ولن أتوقف عند الأغانى فقد تكفلت الأعراس بتلويث الواجهة الغنائية للبلاد، ولم تنتج الجزائر منذ الاستقلال، ودائما نتيجة للشرخ اللغوى، مطربا يُمكن أن يُجسد الوطن كله. وهكذا ظللنا عالة على ميراث قبل الثورة، وفيه ما يُمكن أن يُقال، وتصدرت الساحة صورا من الغناء المُبتذل الذى تمكنت الآلات النحاسية من جعله أداة صاخبة لإلهاء الجمهور بالرقص المتشنج.

أما الفنون التشكيلية فقد تحولت غالبا إلى مجرد مصدر رزق يعتمد التقليد تلبية لرغبة أثرياء جدد يريدون «تزويق» منازلهم بما يتصورون أنه لوحات فنية أو لتوفير سلعة فولكلورية رخيصة يأخذها السواح معهم وهم يعودون إلى بلادهم.

ذلك كله أمر يثير التساؤل حول المنطلقات ويستثير الشكوك حول الخلفيات، وبحيث أن السؤال الذى يفرض نفسه اليوم على خلفية قضايا الثقافة والفكر واللغة الوطنية وعند الحديث عن النخبة وموقعها ودورها : من يمثل من، ومن يعبر عن من، ومن نشلت منه بطاقة تعريفه فأصبح شبحا بغير وجود، ومن ينتحل دورا مزيفا وينتزع مكانة غير مشروعة ببطاقة مزورة؟

ومن الذى يتآمر على تزوير الإرادة التاريخية للأمة وعلى تشويه دورها الحضارى؟

الصورة الثقافية إذن قاتمة، ولعلها أكثر ظلاما مما قدمته باقتضاب، والوضعية اللغوية كارثة وطنية. وهذا كله يهدد بتحول الشعب إلى مجرد سكان (Population).

وأنا أعرف أن كثيرين كانوا ينتظرون منى أن أكتفى بأن أصب جام غضبى على تقصير الحكام وتقاعس القيادات السياسية. لكننى أكرر بأن المسؤولية هى مسؤولية الجميع، وهو ما يجعلنى أسجل تقديرى للقلة التى تبثت على المبدأ، أفرادا أو مؤسسات، والتى تحاول أن تحافظ على ضوء شمعة يخترق الظلام ويحافظ على الأمل، ولهم أقول : فليكثر الله من أمثالكم. ■



غريبــة فى وطنـهـــا!

عيد عبد الله الدحيات

■■ أدى ارتباط اللغة العربية بالدين الإسلامى وبالقومية العربية ارتباطاً لا تنفصم عراه إلى جعلها أهم ركائز الوحدة العربية ودعائم هوية العرب وسيادتهم. ولأنها لغة القرآن الذى أنزله الله «بلسان عربى»، استطاعت أن تتغلب، فى فترة وجيزة، على كل اللغات التى واجهتها أثناء الفتوحات الإسلامية وما بعدها مثل الفارسية والسريانية والقبطية وغيرها من اللغات المحلية للشعوب التى دخلت فى الإسلام أو عاشت بين المسلمين فى ذمتهم وحمايتهم. كما استطاعت استيعاب الفكر الفلسفى والعلمى فى الحضارات القديمة مثل الفارسية واليونانية وحتى الهندية، وأصبحت لغة ترجمة نقل بواسطتها التراث الإنسانى المعروف حتى ذلك الزمان إلى أوروبا العصور الوسطى. وقد أقبلت الأمم التى دخلت فى الإسلام على تعلمها حيث أصبح بعض أبناء تلك الأمم والشعوب من أبرز رجال اللغة والأدب والعلوم فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

ونتيجة لهذا التقدم، تمكنت الحضارة العربية الإسلامية منذ القرن التاسع للميلاد أن توجد نظاماً تعليمياً مكوناً من مدارس وجامعات انتشرت فى شتى ديار الإسلام. وأصبحت اللغة العربية لغة دينية ولغة قومية فى آن واحد. انصهرت فى بوتقتها كل الاختلافات والتناقضات العرقية والمذهبية والثقافية، مقدمة للعالم كله أنموذجاً فريداً للوحدة والتناغم بين مختلف مكونات المجتمع والأمة. ما زالت تقوم فى الوقت الحاضر وفى ظروف صعبة وقاسية بدورها التاريخى هذا كعامل ربط بين أكثر من ثلاثمائة مليون عربى يعيشون على رقعة جغرافية تمتد من شواطئ الخليج العربى إلى شواطئ المحيط الأطلسى، إضافة إلى مئات الملايين من المسلمين الذين يتوزعون على قارات الدنيا كلها. وبسبب هذه الأعداد الكبيرة، توقع الباحث Graddol. D أن تحتل اللغة العربية المكان الثالث فى العالم - بعد اللغة الصينية واللغة الهندية - من حيث عدد المتكلمين بها بحلول عام ٢٠٥٠م[١].

ولأسباب لا مجال للخوض فيها، نظرت أوروبا للحضارة العربية الإسلامية نظرة يغلفها الخوف وتكتنفها الريبة والشك، واستهدفت، من بين ما استهدفت، هذا الرابط اللغوى الجامع لإضعافه وإفقاده دوره التاريخى الذى حباه الله به. فقد نظرت إلى اللغة العربية، فى بداية الأمر، كوسيلة يمكن استغلالها فى الحملات الصليبية ضد الإسلام ضمن مسعاها لتحويل المسلمين عن دينهم وعقيدتهم. وبأمر من رجال الدين تم اختيار مدينة طليطلة فى العام ١٢٥٠ (وهى المدينة التى استرجعها الإسبان من العرب عام ١٠٥٨) لتصبح مركز مدرستهم «للدراسات الشرقية وتعلم اللغة العربية، التى أنشئت لإعداد المبشرين الخاصين بالمسلمين»[٢]. كما قرر المجلس الكنسى فى فيينا عام ١٣١١، بناء على توصية من ريموند لُل Lull Raymond، أكبر المبشرين وأهمهم فى أوروبا العصور الوسطى كلها، إنشاء مراكز للأستاذية للغة الإغريقية واللغات الشرقية (وخاصة العربية والسريانية والعبرية) فى «باريس، وأكسفورد، وأريجون، وسلامانكا»[٣]. واستمر هذا المسعى الذى بدأ فى العصور الوسطى فى عصر النهضة الأوروبية حيث انتشرت مراكز الدراسات العربية بشكل واسع ابتداء من القرن السادس عشر. وفى عام ١٦٣٢، أنشئ كرسى أستاذ لتدريس اللغة العربية فى جامعة كيمبردج وعين إبراهام ويلوك Abraham Wheelock أول أستاذ محاضر للغة العربية فى تلك الجامعة. وفى رسالة الشكر التى وجهها نائب رئيس جامعة كيمبردج وعمداء الكليات فيها إلى توماس آدمز Thomas Adams (الذى تحمل نفقات تأسيس كرسى تدريس اللغة العربية) نجد الأهداف والدوافع لمثل هذا التأسيس مكتوبةً بشكل واضح لا يقبل اللبس والتأويل؛ إذ جاء فى هذه الرسالة (٩ أيار، ١٦٣٦) ما يلى:

إننا نعد هذا العمل ليس تقدماً للأدب الرفيع فحسب، ولكن خدمةً حسنة للملك والدولة، ودعماً لتجارتنا مع الشعوب الشرقية، وعلى المدى البعيد بمشيئة الرب، فرصة لتوسيع حدود الكنيسة، والدعوة للدين المسيحى لدى أولئك الأقوام الذين لا يزالون يعيشون فى الظلام[٤].

شجع المبشرون هذا التوجه ودعموه بكل عزم بحيث بقى حجر الأساس للدراسات العربية الإسلامية فى الغرب لزماننا هذا[٥]. ولكن فى حين نجحت

هل تصبح الثالثة فى العالم؟



توقع الباحث أن تحتل اللغة العربية المكان الثالث فى العالم من حيث عدد المتكلمين بها بحلول ٢٠٥٠م.



تجارة أوروبا مع العالم العربى، آلت آمالها التبشيرية فى تحويل المسلمين عن دينهم إلى الفشل الذريع. ولهذا، بدأ الغرب ابتداءً من تاريخ حملاته العسكرية الاستعمارية فى القرن التاسع عشر بانتهاج إستراتيجية قائمة على محاربة اللغة العربية فى عقر دارها. واتخذ من أجل تحقيق هدفه مخططاً قائماً على ركيزتين، هما: ١) تشجيع استعمال العامية المحكية فى كل قطر بدلاً من اللغة العربية الفصحى كلغة تعامل فى مؤسسات الدولة وأنشطتها المختلفة: ٢) استعمال اللغات الأجنبية (الإنجليزية والفرنسية) كلغات تدريس على أوسع نطاق ممكن فى مؤسسات التعليم وخاصة مؤسسات التعليم العالى.

ومن اللافت للنظر أن الدعوة لاستعمال العامية بدل الفصحى بدأت على يد بعثات المبشرين منذ عام ١٨٨٣، وفى طليعتهم وليم ولككس الذى كان يعمل مهندس رى فى مدينة القاهرة، ويقوم فى الوقت عينه بممارسة مهامه التبشيرية. كما نشط لويس ماسينيون فى هذا المجال فى لبنان من خلال عمله مستشاراً فى دائرة المستعمرات فى وزارة الخارجية الفرنسية. وكان لهؤلاء وغيرهم أتباع وتلامذة من أهل البلاد اقتفوا أثرهم واتبعوا خطاهم، وسعوا من خلال كتاباتهم واتصالاتهم إلى نشر هذه الأفكار بين الناس وبخاصة المثقفين منهم، ومنهم من دعا صراحةً إلى تقليد الزعيم التركى كمال أتاتورك فى استعمال الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية، كما ادَّعى آخرون أن اللغة العربية لغة صعبة عاجزة عن استيعاب منجزات العلوم الحديثة. وعمل دعاة استعمال العامية على كيل المديح لما سمَّوه «الكنوز الأدبية والثقافية» التى تحتويها العاميات. والهدف من ذلك خلط الأوراق بحيث تذهب أولويات الأمة فى جلبة الآراء المتضاربة مما يؤدى إلى زعزعة قناعاتها فى ثوابتها. وقد نسى هؤلاء أن العاميات موجودة عند كل الشعوب وتشكل لغات الحياة اليومية المتداولة بين الناس، ولكن اللغة الفصحى هى وحدها لغة العلم والتعليم والفكر ونقل المعلومات والمعارف الإنسانية. ويكمن الخطر فى الخلط بين وظيفة كل منهما. فإذا ما قامت العامية مقام اللغة العربية الفصيحة، فإن عقد النظام الفكرى الذى شكله الدين والتراث عند الإنسان العربى على مدى قرون طويلة سوف ينفرط دون انتظام. وإذا ما سادت العامية (لا قدر الله). فإننا سوف نشهد سيادة عدد من العاميات التى سوف تتطور مع مرور الزمان إلى لغات لكل واحدة منها قواعدها وأصولها، و(ربما) حروفها الخاصة بها. وتصبح اللغة العربية الفصحى لغة كتب صفراء (مثل السنسكريتية واللاتينية) لا يستطيع قراءتها وفهمها إلا نفر قليل من المتعلمين. وهكذا يحدث الانقطاع بين الناس وماضيهم، وبين المسلمين ودينهم، وتضيع هوية الأمة، وتستبدل بها هوية جديدة تشكلها وتحدد ملامحها وخصائصها وسائل الإعلام والثقافة الغربية التى يساعدها فى عملها هذا مجموعات وقوى تكونت داخل المجتمعات العربية وارتبطت مصالحها مع هذه القوى الأجنبية.

إن من المؤسف أن نرى استعمال العامية فى التدريس الجامعى فى الجامعات العربية بدلاً من الفصحى فى الكليات الإنسانية والاجتماعية، واستعمالها مع اللغات الأجنبية (الإنجليزية والفرنسية) فى التدريس فى الكليات العلمية والطبية. وقليلون هم الذين يستطيعون فى الكليات الإنسانية والاجتماعية (بما فيها كلية الآداب) استخدام العربية الفصحى بكفاية من بداية المحاضرة إلى نهايتها. كما يبعث على الأسى استعمال العامية فى مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه فى كليات الدراسات العليا فى الجامعات الرسمية



وفى جامعات الدراسات العليا التى أنشئت حديثاً فى بعض الدول العربية مثل المملكة الأردنية الهاشمية. ويلاحظ وجود ضعف واضح فى مهارات اللغة العربية الفصحى من محادثة وكتابة بين أساتذة الجامعات العربية وطلابها، بمن فيهم طلبة أقسام اللغة العربية وبعض خريجيها.



أما الدعوة إلى استعمال اللغات الأجنبية فى التعليم العالى فقد بدأت أيضاً مع الحملات العسكرية الاستعمارية على الوطن العربى فى القرن التاسع عشر. ففى أقطار المغرب العربى بدأت هذه الدعاوى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر حيث بدأت اللغة الفرنسية تحل محل اللغة العربية فى مختلف مستويات التعليم ومراحله. وتبعتها أقطار المشرق العربى التى كان يتم التعليم فيها باللغة العربية، ولكن المستعمر الأوروبى اعتبرها لغة عاجزة عن استيعاب العلوم الحديثة. وهكذا أصبحت اللغة الإنجليزية والفرنسية لغات التدريس فى العلوم الهندسية والطبية فى مؤسسات التعليم العالى. ومن الطريف أن الجامعة الإنجيلية التى أنشئت عام ١٨٦٦، وعرفت فيما بعد بالجامعة الأمريكية فى بيروت، على أيدى الإرساليات التبشيرية كانت قد بدأت التدريس باللغة العربية فى جميع كلياتها وتخصصاتها. واستمرت تدرس باللغة العربية حتى عام ١٨٧٢ عندما بدأت استعمال اللغة الإنجليزية[٦]. ومن الجدير بالذكر أن هذه الجامعة كانت قد بدأت حركة ترجمة نشطة فى المجالات العلمية، ولكن استبدال لغة التدريس أدى، للأسف، إلى اضمحلال تلك الحركة الرائدة وتلاشيها.

استطاعت بعض الدول العربية خلال فترات التحرر الوطنى فى منتصف القرن العشرين أن تجعل التدريس فى مؤسسات التعليم العالى فيها باللغة العربية. ولكن هذه الفترة «الذهبية» لم يكتب لها أن تُعمّر طويلاً حيث عادت الأمور إلى سابق عهدها أيام حكم الاستعمار الأوروبى. وعلى الرغم من تضمين دساتير الدول العربية وقوانين جامعاتها مواد تنص على أن اللغة العربية هى لغة الدولة ولغة التعليم فى مختلف مراحله. إلا أن استعراض واقع استعمال اللغة العربية فى معظم الأقطار العربية يوضح ما يلى:

(١) المملكة الأردنية الهاشمية

تستعمل اللغة العربية كلغة تدريس فى الكليات الإنسانية والاجتماعية فى الجامعات الرسمية والخاصة فى المملكة الأردنية الهاشمية. وتستعمل اللغة الإنجليزية، المزوجة أحياناً بالعامية، فى التخصصات العلمية والطبية والهندسية وفى تخصصات إدارة الأعمال والاقتصاد والعلوم الإدارية والمحاسبة. وتدرس جامعة الأميرة سمية، وهى جامعة خاصة، باللغة الإنجليزية فى جميع تخصصاتها. أما فى الجامعة الألمانية الأردنية (جامعة رسمية) فيتم التدريس باللغة الإنجليزية فى السنوات الثلاث الأولى وباللغة الألمانية فى السنوات الرابعة والخامسة. ويشترط تقدم طلبتها لامتحان كفاءة فى اللغة الإنجليزية إضافة إلى دراسة مادتين إجباريتين هما إنجليزى ٢٠١ وإنجليزى ٢٠٢ كمتطلبات تخرج. ويشترط على طلاب السنة الثالثة النجاح فى امتحان كفاءة فى اللغة الألمانية قبل التحاقهم بالسنة الرابعة. أما فى جامعة نيويورك للتكنولوجيا NYIT فيتم التدريس باللغة الإنجليزية بشكل كامل.

ولعل من المناسب أن أذكر هنا أن قانون الجامعات الأردنية الرسمية رقم (٢٩) تاريخ ١٩٨٧ وقانون معدل رقم (٥) لعام ١٩٩٨ قد نص أن اللغة العربية هى لغة التدريس فى الجامعات الأردنية، ولكنه - فى الوقت عينه - أجاز استعمال لغة أخرى للتدريس عند الضرورة بقرار من مجلس الأمناء فى كل جامعة. أما قانون التعليم العالى رقم (٦) لعام ١٩٩٨ فقد نص فى الفقرة (ك) من المادة الثالثة على أن من أهداف التعليم العالى فى الأردن «تعميم استعمال اللغة العربية لغة علمية وتعليمية فى مراحل التعليم العالى، وتشجيع التأليف العلمى بها، والترجمة منها وإليها». كما نص فى الفقرة (ل) من نفس المادة على أن من أهدافه كذلك «إتقان الدارسين لغة أجنبية واحدة على الأقل فى ميادين تخصصهم».



الدعوة للعامية بدأت منذ ١٨٨٣ على يد وليم ولككس وكان يعمل مهندس رى بجانب مهامه التبشيرية

(٢) جمهورية مصر العربية

يتم التدريس باللغة العربية فى الكليات الإنسانية والاجتماعية، وبالإنجليزية (الممزوجة بالعربية) فى الكليات العلمية والطبية والهندسية وكليات الاقتصاد والعلوم الإدارية وإدارة الأعمال فى الجامعات المصرية الرسمية مثل جامعة القاهرة وجامعة الإسكندرية وجامعة عين شمس وجامعة أسيوط وغيرها. أما فى الجامعات المصرية الخاصة مثل جامعة المستقبل والأكاديمية الدولية للهندسة وعلوم الإعلام وغيرها فيتم التدريس باللغة الإنجليزية.

(٣) الجمهورية العربية السورية

تستعمل اللغة العربية كلغة تدريس فى الجامعات السورية فى كافة الكليات والتخصصات. ولكن يلاحظ أن المراجع، وخاصة فى الكليات الهندسية وعلوم الحاسوب وتكنولوجيا المعلومات، مراجع باللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية. أما الجامعات الخاصة التى تمت الموافقة على إنشائها حديثاً فى سوريا فتعطى اهتماماً ملحوظاً ومتزايداً للمراجع باللغات الأجنبية فى شتى تخصصاتها بما فيها التخصصات الإنسانية، كما يكثر استعمال المصطلحات الإنجليزية والفرنسية فيها. ولكن، على الرغم من ذلك، استطاعت الجمهورية العربية السورية أن تجعل اللغة العربية الفصحى لغة تدريس فى مؤسسات التعليم العالى فيها، وأوجدت حركة تعريب فى الميادين الطبية والهندسية.

(٤) الجمهورية اللبنانية

يتم التدريس فى الجامعة الأمريكية فى بيروت (AUB) والجامعة الأمريكية اللبنانية (LAU) بالإنجليزية، فى حين تدرس جامعة بالاماند والجامعة الفرنسية وجامعة نوتردام وجامعة سانت جوزيف بالفرنسية . أما الجامعة اللبنانية فتدرس بالعربية والإنجليزية والفرنسية حسب الكلية وحسب اختيار الطالب، إذ يوجد برنامج للتدريس بالفرنسية وآخر بالإنجليزية فى كلية العلوم وكلية الهندسة وكلية الصحة العامة. أما التدريس باللغة العربية فيطرح كخيار من خيارات ثلاثة (عربى، إنجليزى، فرنسى) فى كلية التربية وفى كلية الإعلام والتوثيق وفى كلية الحقوق وفى كلية إدارة الأعمال .

(٥) المملكة العربية السعودية

اللغة العربية هى لغة التدريس فى جامعة أم القرى والجامعة الإسلامية. أما فى جامعة الملك خالد وجامعة الملك فيصل فيتم التدريس باللغة العربية ولكن يسمح بتدريس «بعض المواد» باللغة الإنجليزية. وتدرس جامعة الملك سعود باللغة العربية واللغة الإنجليزية، فى حين تدرس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن باللغة الإنجليزية. أما مؤسسات التعليم الخاص مثل كلية الرياض للصيدلة وطب الأسنان وكلية البترجى الطبية والتقنية فتدرس باللغة الإنجليزية.

(٦) الإمارات العربية المتحدة

تدرس جامعة الإمارات العربية المتحدة (جامعة حكومية) باللغة الإنجليزية فى جميع كلياتها باستثناء كلية الشريعة والقانون وقسم الدراسات الإسلامية واللغة العربية التى يتم التدريس فيها باللغة العربية . وتدرس جامعة عجمان الخاصة باللغة العربية باستثناء الكليات العلمية التى تدرس باللغة الإنجليزية . أما الجامعات الخاصة مثل الجامعة الأمريكية فى الشارقة وجامعة الحصن وجامعة العين وجامعة ولقونق فتدرس باللغة الإنجليزية . وتدرس جامعة باريس باللغة الفرنسية .

(٧) دولة قطر

تدرس جامعة قطر باللغة العربية باستثناء الكليات العلمية التى تدرس باللغة الإنجليزية . أما فى المدينة الجامعية فيتم التدريس باللغة الإنجليزية بشكل كامل.

(٨) دولة البحرين

تدرس جامعة الخليج العربى (التابعة لمجلس التعاون الخليجى) باللغة العربية ما عدا كلية الطب وكلية تكنولوجيا المعلومات فهما اللتان تدرسان باللغة الإنجليزية. أما الجامعات الخاصة فى البحرين مثل جامعة نيويورك وجامعة البحرين الطبية والجامعة الملكية للبنات وجامعة دلمون للعلوم والتكنولوجيا وجامعة بنتلى فتدرس جميعها باللغة الإنجليزية.

(٩) جمهورية السودان

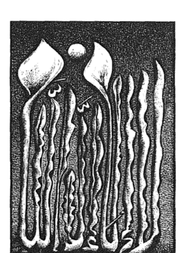
صدر قرار من رئاسة الجمهورية السودانية عام ١٩٩٠ بتعريب المناهج فى الجامعات والمعاهد السودانية. وشهد السودان على إثر هذا القرار محاولات جادة لتعريب التعليم فيها حيث عُدّ التعريب واجباً دينياً ووطنياً. ولكن سكان جنوب السودان نظروا إلى استعمال اللغة العربية كوسيلة لهيمنة الدين الإسلامى والعنصر العربى. ولهذا فرضت اتفاقية السلام مع سكان الجنوب السودانى عام ٢٠٠٥ استعمال اللغة الإنجليزية فى التعليم فى الجنوب.

(١٠) أقطار المغرب العربى

يتم التدريس فى أقطار المغرب العربى باللغة الفرنسية ومنذ أمد طويل. ولكن يلاحظ مزاحمة اللغة الإنجليزية للغة الفرنسية فى هذا المجال بسبب ازدياد النفوذ السياسى والاقتصادى والثقافى للولايات المتحدة الأمريكية فى هذه البلدان.

وهكذا نرى، باستثناءات قليلة، وجود ازدواجية لغوية فى مؤسسات التعليم العالى فى الوطن العربى. ويلاحظ أن الجامعات التى أنشئت خلال العشرين عاماً الماضية فى الوطن العربى تفضل التدريس باللغة الإنجليزية أو اللغة الفرنسية، كما هو الحال فى الجامعات التى أسست فى جمهورية مصر العربية ولبنان ودول الخليج العربى. وتتبع الجامعات الخاصة الأردنية خطى الجامعات الرسمية حيث يتم تدريس العلوم الإنسانية والاجتماعية فيها باللغة العربية وتدرس العلوم الأساسية والهندسة والإدارية والصيدلانية باللغة الإنجليزية الممزوجة باللغة العربية الدارجة.

أما الجامعات الأجنبية التى فتحت فروعاً لها فى الدول العربية أو تقوم بتقديم برامج علمية بالاشتراك مع بعض الجامعات العربية فيتم التدريس فيها باللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية. وقد أصدر مجلس التعليم العالى فى المملكة الأردنية الهاشمية القرار رقم (٦٤) بتاريخ ٢٠٠٧/٣/١، المتعلق بإبرام اتفاقيات تعاون أكاديمى مع جامعات أجنبية ينبثق عنها برامج وشهادات، يشترط الالتزام بأن تكون لغة التدريس فى البرامج المطروحة بلغة البلد الأجنبية. ويلاحظ أن اللغة الإنجليزية هى اللغة المستعملة فى معظم المؤتمرات والندوات التى تبحث استراتيجيات التعليم العالى العربية. ففى المؤتمر الذى عقد فى أحد الفنادق فى البحر الميت فى شهر شباط ٢٠٠٧، كانت اللغة الإنجليزية لغة المؤتمر المعتمدة مع أن عدد المشاركين الأجانب الذين لا يعرفون اللغة العربية فى ذلك المؤتمر لا يتعدى العشرين من أصل أربعمائة مشارك كلهم من العرب(٧). ومن ناحية أخرى، فإن اللغة العربية المستعملة فى التدريس فى الجامعات العربية ليست اللغة الفصحى، بل هى لغة هجين تمزج بين اللغة الفصحى والعامية، كما أنها فى مجملها أقرب إلى العامية المستعملة فى كل قطر عربى.



ويبدو أن توصيات مجامع اللغة العربية فى شتى أقطار الوطن العربى بخصوص تعريب التعليم لم تلق آذاناً مصغية، على الرغم من أن هذه المجامع اللغوية تعد مؤسسات رسمية أنشأتها الدول العربية وتمولها لغايات الحفاظ على اللغة العربية وحمايتها. ولكن من النادر أن تستشار هذه المجامع حين وضع الاستراتيجيات اللغوية فى الجامعات، كما يتم فى أغلب الأحيان استثناؤها من حضور المؤتمرات الخاصة بتطوير التعليم العالى ووضع استراتيجياته وخططه.



لقد حان الوقت لندرك جميعاً أن التعليم العالى بغير اللغة القومية ينطوى، إضافة إلى الأخطار الواضحة على هوية الشعوب ولحمتها، على الكثير من المحاذير التربوية التى تؤثر سلبياً على مجمل العملية التعليمية التربوية. ومن هذه السلبيات ما يلى:-

١) لقد دلت البحوث التربوية على أن استعمال لغة أجنبية فى التعليم مسئول إلى حد كبير عن الهدر فى الموارد خاصة فى الدول الفقيرة، ومسئول عن الارتباك والإحباط وارتفاع نسب التسرب بين الطلاب الذين يجدون أنفسهم فى وضع لا يمكنهم من معرفة ما يدرس باللغة الأجنبية بسبب عدم معرفتهم الكافية لهذه اللغة(٨)، ويبدو أن استعمال اللغات الأوروبية فى التعليم فى البلدان النامية مرتبط إلى حد كبير بقرارات سياسية لا علاقة لها بالاعتبارات التربوية الصحيحة. ومن الأمثلة على ذلك ما حدث فى الأقطار الأفريقية فى جنوب الصحراء التى وجدت أن استعمال اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية فى التعليم يعيق عملية الاندماج الاجتماعى بين فئات الطلبة فى الصف الواحد. وتدل الدراسة التى قام بها Heugh. K على أن ٧٥٪ من أطفال المدارس فى جمهورية جنوب أفريقيا لا يستطيعون إنهاء المدرسة بنجاح بسبب العائق اللغوى المتمثل باستخدام اللغة الإنجليزية كلغة تدريس. ولهذا السبب بالذات، تمت الموافقة باستعمال اللغة المعروفة بـ «Afrikaans»(٩).

٢) إن استخدام اللغة الأجنبية فى تدريس العلوم الأساسية والهندسية

والطبية وتكنولوجيا المعلومات يوجد شعوراً بالاستغراب وحتى الدونية عند الطالب العربى الذى يجد أن اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية هما لغات تدريس العلوم الحديثة، فى حين تستعمل اللغة العربية فى تدريس مواد أقل أهمية.

٣) إن من المسلّمات التربوية التى أبانها البحث التربوى وأثبتتها التجربة العملية أن الطالب يستوعب الموضوع الذى يدرسه بلغته بشكل يفوق استيعابه له إذا ما تعلمه بلغة غير لغته. ويلعب التعليم باللغة القومية دوراً حاسماً فى تحقيق نوعية التعليم وجودته، كما أنه يساعد على توطين العلوم وترسيخ طرائقها وتطور منهجية البحث العلمى فيها فى وجدان المتعلمين وإدراكهم.

٤) صحيح، أن بعض الدول مثل الهند وأثيوبيا، قامت باستعمال اللغة الإنجليزية فى التدريس كحل لمشكلة تعدد لغات الطلبة. وقد لاقى هذا نجاحاً لا بأس به. أما فى البلاد العربية فاللغة العربية هى اللغة الوحيدة، ولولاها لأصبحت العاميات لغات عدة. فالتدريس باللغة العربية يؤدى أصلاً لعدم وجود مشكلة تعدد اللغات.

إن من غير المعقول ومن غير المنطقى أن يدعو امرؤ إلى اللحاق بالحضارة والتقدم عن طريق الإساءة إلى هويته ولغته وإظهارهما بمظهر العجز والتخلف. فلا توجد أمة على وجه الأرض تبدأ مشروعها النهضوى بتحقير ذاتها وزعزعة الثقة بإنجازاتها ومكونات شخصيتها. إن البناء الحضارى يحتاج إلى مخزون كبير من الثقة فى النفس والقدرات الذاتية . لقد كثر عند بعض من يدعون إلى «الحداثة» هذه الأيام لوم «الثقافة العربية» «واللغة العربية» وتحميلهما وزر عجزهم هُم عن تقديم برامج للإصلاح والنهضة «تنفع الناس وتمكث فى الأرض». أما مقولة أن اللغة العربية لغةٌ صعبةٌ ومعقدةٌ لا تصلحُ أن تكون وسيلة تعليم فى مجالات العلوم الحديثة فأمر يدعو إلى الدهشة والعجب. فقد أثبتت اللغة العربية قدرة فائقة على التعامل مع معطيات الحضارة على مدى العصور، بل إنها كانت لغة الإبداع العلمى وحاضنته. كما امتازت بقدرتها على الاشتقاق وبثراء قاموسها اللغوى وتنوعه، واستطاعت أن تبقى صامدة فاعلة على الرغم من هزائم أبنائها وهوانهم. أما الادعاء بأن اللغة العربية لغة صعبة فأمر مردود على مدّعيه، فالعربية ليست أكثر صعوبة من اللغة الألمانية واللغة اليابانية واللغة الصينية. والحقيقة أن هذه اللغات وغيرها أكثر صعوبة من اللغة العربية، وصعوبتها هذه لم تقف حجر عثرة أمام تقدم الألمان واليابانيين والصينيين. واللافت للنظر إصرار هذه الشعوب المعتزة بنفسها وبمكونات حضارتها على استخدام لغاتها الوطنية فى كافة أوجه النشاطات الحياتية معتبرة ذلك تأكيداً لسيادتها وهويتها وحضورها الثقافى والحضارى فى العالم. لقد وصل الاعتزاز عند الأخرين بلغاتهم إلى حد جعل شخصية بحجم الرئيس الفرنسى السابق جاك شيراك يخرج عندما كان رئيساً من قاعة مؤتمر لرجال الأعمال الفرنسيين غاضباً ومستاءً لأن أحد رجال الأعمال المشاركين فى المؤتمر تكلم باللغة الإنجليزية عوضاً عن لغته الفرنسية. ولو كان استعمال اللغة الأجنبية وصفة سحريةً للتقدم العلمى والحداثة، لاستطاعت دول المغرب العربى والدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية، وهى التى ما زالت تدرس بالفرنسية منذ زمن طويل، أن تغزو الفضاء الخارجى وتصنع السفن الفضائية والطائرات الحديثة وتنافس فرنسا واليابان فى الصناعات الإلكترونية المتقدمة. ولو كان التنكر للغة العربية والدعوة إلى التخلى عن استعمالها فى تدريس العلوم الحديثة الدواء الشافى من كل داء، لاستطاعت تركيا التى تخلت عن استعمال الحروف العربية والتراث الإسلامى منذ أكثر من ثمانين عاماً أن تلحق بالدول الأوروبية الصناعية المتقدمة. ولكن تركيا لم تستطع إلى ذلك سبيلاً، بل إن أوروبا لم تقبلها ضمن منظومتها الحضارية والسياسية إلى الآن على الرغم من مسلسل التنازلات التى قامت بها لإرضاء الغرب دون طائل.



إن الشعوب الحية هى التى تُعلى من شأن لغاتها وتدفعها إلى الصدارة . وليس هنالك لغات حية ولغات ميتة، بل إن هناك شعوباً حية وأخرى تريد أن تموت. ومن خصائص الشعوب الحية أنها تتخذ عادة ما تستطيع من إجراءات للحفاظ على لغاتها وتدافع عنها فى وجه هيمنة اللغات الأجنبية. فعندما شعرت فرنسا، على سبيل المثال، أن الانتشار الهائل للغة الإنجليزية نتيجة للعولمة التى تقودها الولايات المتحدة الأمريكية يهدد اللغة الفرنسية لجأت، كإجراء احترازى، إلى إقامة ما يسمى بالاتحاد الفرانكوفونى الذى، كما هو واضح، يعتمد اللغة كأساس للهوية الثقافية.

أما فى بلادنا العربية، فيبدو أن العزوف عن استعمال اللغة العربية فى التعليم الجامعى وفى أوجه أخرى يأخذ اتجاهاً يتصف بالعناد واللامبالاة. ويلاحظ المراقب لسير الأمور أن استخدام اللغة الإنجليزية قد ازداد فى بلاد المشرق العربى وتعمق منذ بداية القرن الحادى والعشرين بحيث أصبحت اللغة الإنجليزية تتبوأ مكانة اللغة الثانية ولم تعد مجرد لغة أجنبية فحسب. وقد ساعد على ذلك، إضافة إلى استعمالها فى التعليم الجامعى وفى المدارس الخاصة. استخدامها كلغة مال وأعمال واستخدامها فى شبكة الإنترنت كما أدت برامج التصحيح الاقتصادى وإعادة الهيكلة الاقتصادية وتوسع القطاع الخاص وبناؤه علاقات تجارية واسعة مع العالم الخارجى إلى احتلالها مكان الصدارة. كما قامت الدول العربية بإنشاء محطات إذاعية وتلفزيونية تبث برامج بالإنجليزية ووافقت على صدور صحف يومية وأسبوعية ومجلات باللغة الإنجليزية. وساعدت الحركة السياحية على انتشار اللغات الأوروبية، وبخاصة الإنجليزية، بين الناس العاديين من أدلاء سياحيين وعاملين فى الفنادق ومكاتب السياحة وشركات النقل والمطاعم وغير ذلك. كما بدأت اللغة الإنجليزية بمزاحمة اللغة الفرنسية فى أقطار مثل سوريا ولبنان ودول المغرب العربى . ويرى بعض الباحثين أن اللغة الإنجليزية أصبحت «لغة قاتلة» Killer Language ، وأنها سوف تكون اللغة الثانية لعدد كبير من سكان الكرة الأرضية بحلول عام ٢٠٥٠، واللغة الأولى فى العالم فى التجارة الدولية والبحث العلمى فى المائة سنة القادمة[10]. وعلينا أن ندرك أن اللغة الإنجليزية ارتبطت بالعولمة وأصبحت إحدى أهم ركائزها وأدواتها للسيطرة على العالم. وكدليل على ذلك، فإن منظمة التجارة الدولية WTO تعطى اهتماما كبيراً لموضوع التعليم العالى. وما اتفاقية الـ GATS إلا محاولة من الشركات العالمية الكبرى والمنظمات الحكومية فى البلدان الغنية لدمج التعليم الجامعى فى هياكل التجارة العالمية من خلال منظمة التجارة الدولية[11].

أمام وضع مثل هذا، علينا فى الوطن العربى أن نقتفى خطى غيرنا من الأمم والشعوب التى أدركت أن البعد عن لغاتها هو بعد عن هويتها، وأن عزل لغاتها القومية وإهمالها وإبعادها عن أن تكون وسائل التعليم فى كل مراحله، هو قتل مبرمج لهذه اللغات وتهديد لكيان الأوطان ومستقبلها. وعلى أبناء اللغة العربية العمل كل من موقعه للحفاظ على لغتهم الفصحى، معتبرين الدفاع عنها فرض عين على كل فرد منهم. وليس هنالك وسيلة للحفاظ على أية لغة مثل الاستعمال فى كل ميادين الحياة ومجالاتها المختلفة. ومما لا شك فيه أن مسئولية كبيرة تقع على كاهل أبنائها من أدباء وعلماء ورجال أعلام ومثقفين وغيرهم فى إشاعة استعمال اللغة الفصحى ونشرها بين الناس أجمعين. ولا بد كذلك من الاعتناء بتعليم اللغات الأجنبية واكتساب مهاراتها والتركيز على الترجمة إلى اللغة العربية وإنشاء مؤسسات متقدمة تضطلع بهذه المهمة النبيلة. ولعل من المناسب أن أذكر هنا أن أكثر الدول نشاطاً فى حقل الترجمة إلى لغاتها كل من اليابان وروسيا وإسرائيل. فالترجمة، بلا شك، ركيزة من ركائز التنمية الإنسانية للأمة وأساس من أسس أمنها ومشروعها للنهضة والتقدم. ■

هـــــوامــــــش

(١) انـــظـــر Graddol " The Future of.D English (London: The British Council .2005.

(٢) Philip K. Hitti" Islam and the West : A Historical Cultural Survey (N.J. D. Van Nostrand Company" INC" 1962) .pp50

(٣) Southern " Western Views of.W.R Islam in the Middle Ages (Cambridge" Mass." : Harvard University press" 1962) pp72

(٤) Arthur O. Arberry "The Cambridge School of Arabic (Cambridge: Cambridge University press" 1948) "p.5. see also J.w. Clark " The Endowments of the University of Cambridge" 1904" .pp 172

(٥) انظر Islam and the missions : papers Read at the Second Missionary Conference on behalf of the Mohammedan World at Lucknow " January 23-28"1911" ed. E.m.Wherry . (et.al. (N.York F.H. Revell 19911

(٦) Munir Bashshur" "Higher Education in the Arab States"" UNISCO Regional Bureau of Education in the Arab States" .2004.pp 81

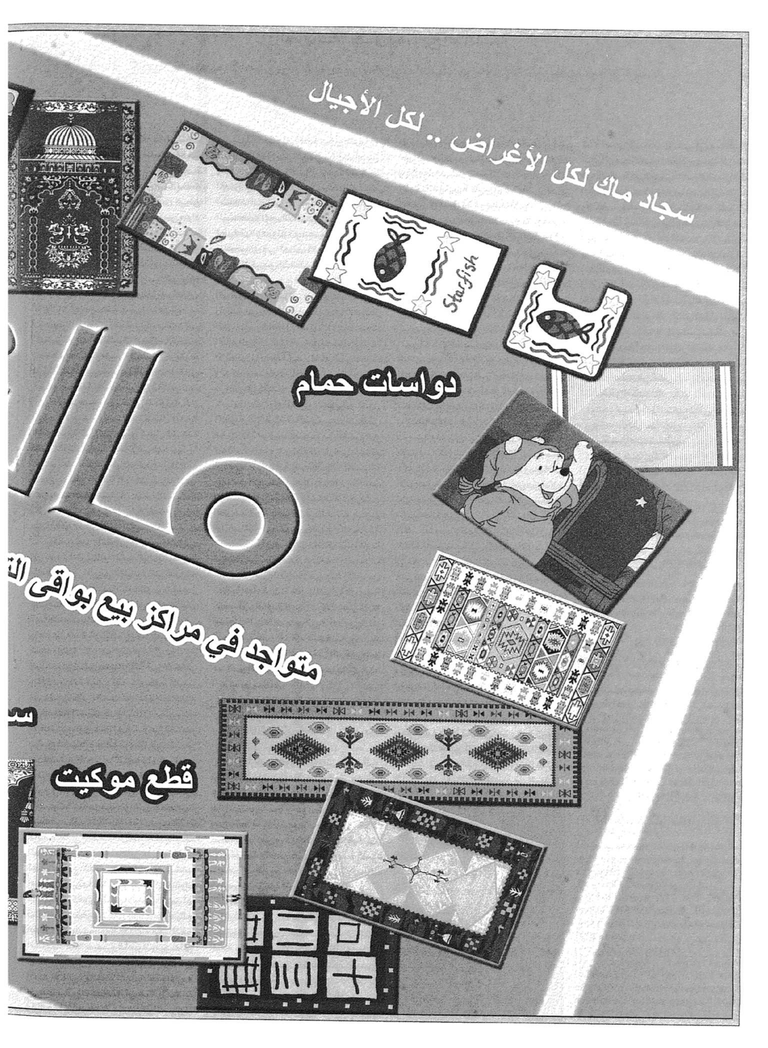
(٧) انظر جريدة الدستور، عدد ١٢، شباط ٢٠٠٧ ص ٦ .

(٨) David Marsh " " English as a Medium of Instruction in the New Linguistic Order: Global Characteristics "Local Consequences"" 2006" p.30.

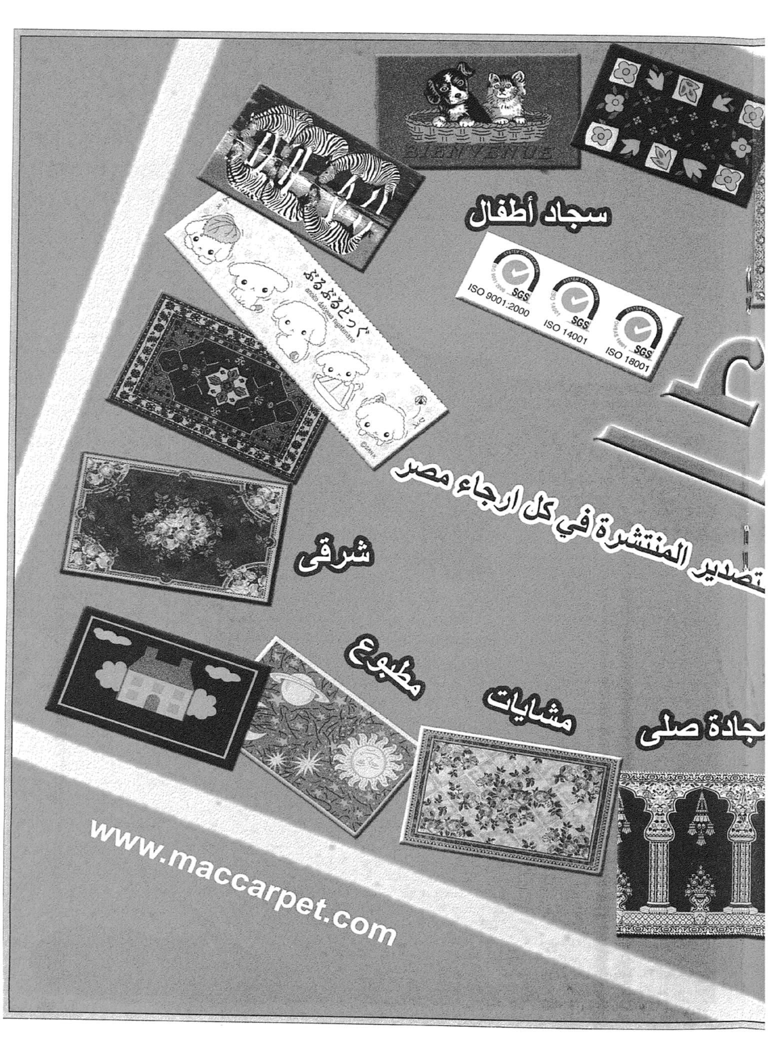
(٩) Heugh" The Case against.K Bilingual Education and Multilingual Education in South Africa" (Cape Town: .(praesa 2000

(١٠) Graddol " op. cit .D.

(١١) Philip C. Altbach" " Knowledge and Education as International Commodities : The Collapse of Common Good" " International Higher Education .(2002) p 5- 20



سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
تصدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com

نساء مصر

"الأخريات"

فى القرن التاسع عشر

جوديث تاكر

Judith E. Tucker

انتمت نساء مصر إلى طبقات مختلفة وأقمن فى أماكن جغرافية متنوعة، وكانت رابطة الانتماء إلى جنس النساء أضعف بلا شك من الفواصل الواسعة فى التجارب والهموم تبعًا للطبقة والبيئة. يبدو ذلك واضحا عند المقارنة بين فلاحة من الدلتا، وبائعة صغيرة فى القاهرة، وامرأة من أفراد حريم القصر. وتركز الدراسة التالية على الفلاحات ونساء الطبقة الدنيا الحضرية، ولا تتم الإشارة إلا عابرًا إلى نساء النخبة فى الحضر والأقاليم، وذلك عندما تسهم تجاربهن فى توضيح تطور أدوار النساء. إن عالمهن، أى عالم نساء القصر وكبار التجار والمؤسسة الدينية هو عالم جدير بدراسة منفصلة تستكشف حياة الفئات المرتبطة بأهل الثروة والسلطة.

لم ينل تاريخ النساء فى مصر والشرق الأوسط عامة سوى القليل من البحث والدراسة، وهو إهمال يعكس جزئيًا الحالة العامة لتاريخ الشرق الأوسط، حيث إن التركيز على المؤسسات السياسية الظاهرة والمرئية، والأحداث الدبلوماسية، والتيارات الفكرية لثقافة الصفوة على النقيض من الثقافة الجماهيرية هى أمور أدت كلها إلى طول المدة التى تم خلالها قصر مجال البحث على رجال الطبقات العليا، وذلك على حساب دراسة الدور الذى لعبته طبقة اجتماعية أو جنس دون الآخر فى المسار التاريخى، وحتى فى الزمن الحاضر، الذى يشهد التفات جيل جديد من المؤرخات والمؤرخين فى الشرق الأوسط والغرب نحو التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للمنطقة، وبينما يبدأون فى كتابة تاريخ الطبقات الاجتماعية - من الفلاحين، والحرفيين الحضريين، والعمالة اليومية - وهى طبقات ظلت مجهولة أو غير مهمة بالنسبة للباحثات والباحثين المستشرقين، تظل النساء عادة غائبات تمامًا أو تتم الإشارة إليهن إشارات عابرة.

ومن المؤكد أن المشكلة تنبع جزئيًا من التصورات الأساسية المغلوطة بشأن تاريخ النساء وعلاقته بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى عمومًا، الشرقى منه أو الغربى، فقد تمتعت النساء دائمًا بأهمية عددية ضمن تعداد السكان، بما يمثل ربما سببًا قويًا فى حد ذاته وجديرًا باستكشاف تاريخ النساء، ولكن الأهمية القصوى لدراسة النساء تكمن فى جوانب أخرى، فتاريخ النساء يتطلب وعيًا فوريًا بكم القوى والمؤسسات والأنشطة التى تغيب عن أنظار التحليل الذى يتناول المؤسسات السياسية الرسمية، أو الحركات الفكرية السائدة، أو الرؤى الاقتصادية العامة، بل إن عالم الصلات والشبكات غير الرسمية، والثقافة الشعبية الجماهيرية، والقوى الأساسية الخاصة بالإنتاج والإنتاج هو العالم الذى تحدد مكوناته الساحة الخاصة بأنشطة النساء وبالتالى الدراسة النسائية (women,s studies). فالحياة الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بالرجال وكذلك النساء من الفلاحين والطبقات الحضرية الأدنى - وهم الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان فى المجتمعات ما قبل الرأسمالية، بل وضمن الفئات الرأسمالية على الأقل فى العالم الثالث - هى حياة تشكلت بتلك الأنشطة والمؤسسات التى لعبت فيها النساء دورًا رئيسيًا ومميزًا. وهكذا فليس فى إمكاننا معرفة تضاريس المجتمع ككل دون أن نفهم أشكال الأنشطة النسائية وأبعادها.

كما أن التوجهات الغربية المتأصلة تضفى مزيدًا من التعقيد على مسألة تاريخ نساء العالم الثالث. فالنزعة السائدة فى القرن التاسع عشر، القائمة على معادلة الغرب بالتقدم والحداثة ومعادلة الشرق بالركود والتراث، مازالت تؤثر فى كثير من المناقشات بشأن النساء فى مجتمعات العالم الثالث. وفى الوقت الذى نجد فيه أن الصيغ المتشددة والمبالغ فيها التى نشرها أسلافنا من العصر الفيكتورى، باعتبار أن المرأة المستعبدة هى مثال الضحية فى المجتمعات الهمجية الخاضعة للغزو - لم تعد تلقى قبولاً واسعًا، إلا أننا مازلنا نجد أمامنا المفهوم القائل بأن «تقدم النساء جاء من الغرب وكان يستدعى فى الأساس رفضًا وإنكارًا للتراث المحلى. وهكذا فإن تاريخ النساء، بمعنى التقدم إلى الأمام فى خط مستقيم، بدأ بتغلغل الأفكار الغربية التى تسربت داخل المجتمع المستقبل لها وعملت على تحويله وتغييره، وبالتالى، يصبح تاريخ النساء فى العالم الثالث هو تاريخ النخبة الفكرية التى اتصلت بالفكر الغربى، وأثارت الجدل الدائر بشأن دور النساء فى المجتمع، ذلك الجدل الذى تجمع آخر الأمر واتخذ شكلاً قانونيًا وسياسيًا محددًا. إن هذا المسار فى التحليل، مع ما يتصف به من اشتقاقية ومثالية، إنما يتعامل مع جزء صغير من تاريخ النساء باعتباره كلاً متكاملاً، كما يفرض حدودًا على البحث التاريخى فيقصره على المجال الفكرى، ويتجاهل البنى الاقتصادية والاجتماعية المحلية وتطورها بمرور الزمان.

إن تاريخ النساء فى الشرق الأوسط ينوء بعبء إهمال تاريخ النساء عامة، وما يحيط تاريخ العالم الثالث من تصورات مغلوطة، ولكنه يكشف كذلك عن مجموعة معينة من المشاكل التى يمكن اقتفاء آثارها وإرجاعها إلى علاقة تاريخ النساء فى الشرق الأوسط بالاستشراق، فالتراث الاستشراقى الذى وصفه إدوارد سعيد بقدر من

للاستزادة:

Women in Nineteenth-Century Egypt
By: Judith E. Tucker
Cambridge University Press
2002

نساء مصر فى القرن التاسع عشر
تأليف: جوديث تاكر
ترجمة وتقديم: هالة كمال
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٨، ٤٥٧ صفحة

ترجمة: هالة كمال



شارع فى القاهرة نهايات القرن التاسع عشر © Carpenter Collection



التفصيل، هو تراث أورث تعريفاً «إسلامياً» للتاريخ والثقافة، معضداً قيام منهج معرفي مثالي تم عن طريقه النظر إلى تاريخ الشرق الأوسط باعتباره يجسد الروح الإسلامية بدلاً من أن يكون نتاجاً للتفاعل المعقد بين القوى المادية والتكوينات الأيديولوجية الفكرية[1]. ومع ندرة المعلومات بشأن الواقع التاريخي للنساء في المنطقة نجد كثيراً من الكتاب يرجعون ببساطة إلى «الإسلام» للحصول على توصيف وضع النساء وسببه[2]. إن العادات والمفاهيم والأعراف الجنسية «الإسلامية» تعمل على رفض دور النساء في المجتمع وتحديده. وتسود مقولة متكررة وخالية خلواً ملحوظاً من أي عملية إثبات أو برهنة، وترى تلك المقولة أن قوانين النساء وأعمالهن من خلال دراستنا لتلك القواعد، الرسمية منها وغير الرسمية، من حيث تطبيقاتها على النساء، ولكن هذه القواعد تمثل الأداة الرئيسية لقهر النساء، حيث تفرض على النساء وضعاً أدنى في المجتمع وتقلل من أنشطتهن فيه. إن صورة الإسلام باعتباره القوة التي تتحكم في الحياة الاجتماعية وتفرضها، هي صورة ترتكز أيضاً على مجموعة من الفرضيات التي لم تخضع للدراسة التاريخية والاجتماعية. فمع تزايد الأدلة والبراهين على تنوع أدوار النساء وتعقيداتها في المجتمعات التي يسودها الإسلام، فإن طرح تلك الفرضيات يتضمن المخاطرة بالخلط بين العرف والواقع.

إن التركيز على وجود إسلام واحد أوحد يشير إلى أن النساء قد عشن في عالم خاص غير متصف بالزمان ولم يمسه التغير التاريخي. ونجد أن تاريخ النساء في مصر القرن التاسع عشر يفند تلك الصيغة الساكنة للماضي، حيث تأثرت النساء كما أسهمن من خلال أفعالهن في تشكيل التغييرات الكاسحة التي شهدتها تلك الفترة. فما بين عامي ١٨٠٠ و١٩١٤م كان دخول مصر واندماجها في النظام الاقتصادي الأوروبي وما أعقبه من خضوع سياسي، هو التطور الأساسي الذي كانت له تبعاته المؤثرة في المجتمع. وعلى الرغم من أن غالبية العالم الثالث خضعت هي الأخرى للتوسع الإمبريالي الأوروبي، فإننا سنركز هنا على خصوصية الحالة المصرية. فقد كان الاستعمار الكولونيالي يعني في كل مكان قدراً من تشويه الأساس الاقتصادي للبلد أثناء خضوعه لمركز إمبريالي ما، وهو خضوع كانت تستتبعه عملية تحول اجتماعي وسياسي. ويتحتم علينا أن ندرك تماماً الاختلافات المهمة فيما بين المناطق والتي تنجم عن أربعة أوجه متنوعة على الأقل فيما يتعلق بعملية الاندماج تلك:

أولاً: لقد أثرت طبيعة الاندماج الاقتصادي وسرعته في مدى التغير الاجتماعي. وقد بدأ التغير الاقتصادي في مصر مبكراً وأخذ يتصاعد حثيثاً، ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر ومع تسارع التغلغل الأوروبي، نجد أن النشاط الزراعي كبير المدى والموجه نحو الإنتاج من أجل التصدير أخذ يسود الريف المصري ليحل محل النظام العائلي القائم أساساً على الاكتفاء الذاتي، كما حلت المصنوعات المستوردة محل الكثير من الحرف والمنتجات اليدوية المنتجة محلياً. إن عملية الاندماج مع كونها دوماً غير قائمة على المساواة بين الطرفين كانت عملية شاملة وسريعة، ويمكننا أن نتوقع قيامها بتحول في الاقتصاد عموماً، كما أثرت في حياة السكان جميعاً.

ثانياً: إن التغلغل الأوروبي لم يقم بإلغاء كل الأنشطة والمؤسسات السابقة عليه، حيث إن خصائص المجتمع المحلي، وهياكل الإنتاج والإنجاب، والأيديولوجيا التي سبقت مجيء المصالح الاقتصادية الغربية، أدت جزئياً إلى تحديد نتاج التفاعل بين الغرب والمجتمع المحلي، كما أن خصوصية مصر في بدايات القرن التاسع عشر ـ من حيث تكوينها الاجتماعي الواسع ـ ساعدت على تشكيل مسار التوغل الغربي. وسواء أطلقنا على النمط السائد في الإنتاج صفة «الشرقي» أو «الفرعي» أو «الإقطاعي»، إلا أن مصر تمتعت ضمن ما تمتعت به بنشاط متسع في إنتاج البضائع، وبشكل الدولة القوية والمركزية نسبياً، وهما جانبان أثرا في تطورات القرن التاسع عشر. وبينما نجد أن عملية التشكل الطبقي داخل إطار النمو الرأسمالي تدين بالكثير لإيقاع الغرب، فإن الحقائق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على أرض الواقع كان لها هي الأخرى دورها الحقيقي. ومع تتبعنا لأثر التغلغل الأوروبي على حياة النساء، يجب أن نتمتع بقدر مساو من الحس والإدراك لأنشطة النساء والمواقف والتوجهات حيالهن في الفترة التي سبقت إحساس مصر بالتأثير الكامل للغرب، وكذلك الالتفات إلى الطرق التي تفاعلت بها تلك الأنشطة والتوجهات مع متطلبات التطوير الجديدة.

ثالثاً: إن التغلغل الإمبريالي والحكم الاستعماري لم يتبع نسقاً واحداً موحداً، حيث تنوعت الاستراتيجيات المستخدمة والمؤسسات الناشئة عن القوى الاستعمارية تنوعاً ملحوظاً ما بين منطقة وأخرى ومن فترة إلى أخرى. إن تاريخ مصر، وخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يتقاطع مع التطور التاريخي للاستراتيجيات الاستعمارية البريطانية وسياساتها. ففي أعقاب عام ١٨٨٢م كان المسئولون البريطانيون هم الحكام الفعليون في البلاد باعتبارهم مستشارين للحكومة المصرية، وكانت قراراتهم بشأن ميزانية الدولة ـ أي قدر الإنفاق على أنظمة الري أو التعليم على سبيل المثال ـ مؤثرة في البنية والنمو الشامل للدولة إلى جانب معدلات وأنواع الخدمات التي توفرها للسكان. وأصبح تاريخ تكوين الدولة المصرية في الفترة ما بين عامي ١٨٨٢ و١٩١٤ هو في مجمله تاريخ الحكم الاستعماري الساعي إلى الدفع قدماً بمصالح الدولة الإمبريالية. وفي الوقت الذي لم تلعب فيه الأهداف الفردية أو حتى السمات الشخصية لوكلاء الاستعمار أي دور مؤثر في هذا المسار، فإن النسق العام للاستراتيجية الاستعمارية ـ من حيث الاعتماد على طبقة ملاك الأراضي، وتعزيز الزراعة على حساب القطاعات الأخرى، والاعتقاد في التفوق العنصري للغرب ـ كان متغلغلاً في آراء الفئة الحاكمة كما لعب دوره في التأثير الفعال على المجتمع المصري عن طريق أفعال تلك الفئة الحاكمة. ويتعين علينا توجيه نظرة عن قرب إلى السياسة الاستعمارية وخاصة من حيث تأثيرها على المستوى الاقتصادي والاجتماعي الأساسي، وذلك في سبيل فهم عواقب التجربة الاستعمارية الكولونيالية على النساء.

وأخيراً: إن عملية الاندماج تأثرت بالمصريين أنفسهم، لا من أعضاء دوائر النخبة السياسية، بل ومن قبل الرجال والنساء من الفلاحين وأعضاء الطبقات الأدنى. إن الرؤية الخاصة بوجود تاريخ شعبي أو جماهيري، باعتباره فوق كل شيء هو تاريخ المقهورين وتاريخ ضحايا المسار التاريخي، هي رؤية تتضمن عنصراً من الحقيقة ولكنها تتجاهل الدور الحقيقي الفعلي الذي لعبه الشعب في تشكيل هذا المسار. وقد تعرضت النساء تحديداً بسبب جنسهن إلى التمييز وخضعن للقيود، وفي نفس الوقت فإن قدرتهن على إقامة مؤسساتهن الخاصة أو حتى حمل نضالهن من أجل بعض الحقوق إلى الشارع أسهمت في صنع تاريخهن. ولم يشهد السكان المصريون، رجالاً ونساء على السواء، تحولات القرن التاسع عشر بروح سلبية أو منقادة، فقد كافحت نساء كثيرات ـ على سبيل المثال ـ لحماية العادات وأشكال العلاقات الأسرية التي كانت تبدو في صالحهن، وعلى المستوى الأعم الخاص بالتمرد الجماهيري، وعلى الساحة المصغرة الممثلة في المعارك القانونية الفردية، قام الناس بمقاومة التغير أو التكيف معه بأساليب ساعدت في تحديد معالم المجتمع الناشئ. ويشكل دور النساء في بناء تاريخ مصر الحديث جانباً نهائياً وحاسماً في تاريخ نساء تلك الحقبة.

ولم تعايش كل النساء تلك التغيرات بنفس الطريقة، حيث انتمت نساء مصر إلى طبقات مختلفة وأقمن في أماكن جغرافية متنوعة، فقد كانت رابطة الانتماء إلى جنس النساء أضعف بلا شك من الفواصل الواسعة في التجارب والهموم، تبعاً للطبقة والبيئة عند المقارنة بين فلاحة من الدلتا، وبائعة صغيرة في القاهرة، وامرأة من أفراد حريم القصر. وتركز الدراسة التالية على الفلاحات ونساء الطبقة الدنيا الحضرية، ولا تتم الإشارة إلا عابراً إلى نساء النخبة في الحضر والأقاليم، وذلك عندما تسهم تجاربهن في توضيح تطور أدوار النساء. إن عالمهن، أي عالم نساء القصر وكبار التجار والمؤسسة الدينية هو عالم جدير



«النسا مفصل اعوج..
قال لولاه
اعوج ماكنش ضم»

مثل مصري



«عمر النسا ما تربى عجل ويحرت»

مثل مصرى



بدراسة منفصلة تستكشف حياة الفئات المرتبطة بأهل الثروة والسلطة.

ثانياً: كيف يمكننا ترتيب وتحديد وضع النساء فى فترة خفية ولكن سريعة التغير فى التاريخ المصرى؟ إن هذا الكتاب يتناول أربعة أبعاد متداخلة بشأن وضع النساء وسلطتهن، وذلك من أجل تقييم التغير الطارئ على أدوار النساء داخل الأسرة وفى المجتمع الأوسع:

(١) إمكانية التمسك بالنسبة للنساء.

(٢) وضع النساء داخل وحدة الأسرة.

(٣) مشاركتهن فى الإنتاج الاجتماعى.

(٤) التعريفات الأيديولوجية السائدة بشأن أدوارهن. ولابد من مناقشة كل بعد من تلك الأبعاد فى إطار التغيرات الاقتصادية والاجتماعية الواسعة التى نشأت جزئياً عن الاندماج المتواصل لمصر ضمن نظام اقتصادى يسيطر عليه الغرب.

البعد الأول يختص بإمكانية التملك بالنسبة للنساء أى حق النساء فى استخدام أو السيطرة على حصص من الأملاك العائلية أو المملوكة ملكية فردية، وهى مسألة لاقت اهتماماً محورياً فى الأدبيات التى تتناول وضع النساء منذ صدور كتاب إنجلز عن «أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة» (Engels, The Origin of the family, Private Property and the state) وقد تم ربط خضوع النساء لسيطرة أفراد الأسرة من الذكور بنشأة الملكية الإنتاجية الخاصة (من أراض أو حيوانات) وما ترتب عليه من احتكار الرجال لاستخدام تلك الأملاك والتصرف فيها[٣]. وعلى الرغم من أنه قد تمت الإشارة تكراراً إلى تمتع النساء بقدر أضعف نسبياً من التحكم فى الملكية العائلية مقارنة بالرجال فى معظم المجتمعات، فإن تركيز إنجلز على الملكية الخاصة خضع للمراجعة وإعادة النظر على أسس نظرية وعملية تطبيقية، فإرجاع قهر النساء إلى الملكية الخاصة عموماً دون الالتفات إلى المعانى المختلفة للملكية فى الأشكال المختلفة للإنتاج هى مسألة يجب الاعتراف بها باعتبارها نقطة ضعف نظرية أساسية، كما ترى بعض البحوث أن إمكانية التملك. على أهميته . لا يؤدى بالضرورة إلى ممارسة للسلطة الحقيقية فى مجال العلاقة الأسرية[٤].

ففى حالة النساء المصريات سيتم طرح سؤالين بشأن إمكانية التملك، أولهما سيتناول الحقوق الرسمية المتجسدة فى القواعد القانونية والأعراف المقبولة بشأن حق النساء فى الأملاك التى يحصلن عليها عن طريق الميراث أو المهر أو العمل، ولا يمكن هنا الافتراض فى احتكار الرجال للملكية العائلية. أما السؤال الثانى فيركز على أن قدرة النساء على استخدام حقوقهن تلك لبلوغ الاستقلال الاقتصادى وعلو المكانة، ودرجة تمتع الحقوق الرسمية بالدلالة الحقيقية فى مجال العلاقات الاقتصادية، هى قدرة لا يمكن استنتاجها ببساطة، بل يجب تتبعها ودراستها فى سياق المشاركة الفعلية للنساء فى شئون الأعمال الحرة والأنشطة الإنتاجية، ومدى تحكمهن الشخصى فى ثمار جهودهن وأعمالهن.

وفى الفصل الأول سيتم تناول علاقة النساء بالملكية وذلك فى سياق دور المرأة فى الإنتاج الزراعى: فإلى أى حد قامت الفلاحات بإسهامات جوهرية فى العمل الزراعى؟ وكيف أثرت تلك الأنشطة فى إمكانية حصول النساء على الملكية والسلطة؟ كيف أثرت التغيرات الكبرى فى مستوى ونظام الإنتاج الزراعى، وتحديداً فى التحول إلى نظام زراعى تحكمه العلاقات الرأسمالية، على إسهامات النساء وبالتالى امتلاكهن للأملاك؟ ويطرح الفصل الثانى أسئلة شبيهة بشأن النساء المصريات فى التجارة والحرف والصناعة وأعمال الخدمات. وفى هذا الصدد نتوقف عند نساء الحضر ونعاود تأمل العلاقة بين أنشطتهن فى الأشكال الأساسية للإنتاج وحقوقهن الرسمية والفعلية فى التملك.

إن التحكم فى الملكية مع ارتباطه بمستوى الإسهام فى الإنتاج عادة ما كان يتم من خلال التربيطات العائلية، التى تمثل البعد الثانى. فقد يؤدى امتلاك الأملاك إلى تقوية وضع المرأة داخل بنية السلطة فى الأسرة، ولكن تحكم العائلة فيها قد ينفى أى ممارسة فعلية لحقوقها فى الملكية، وتكمن المسألة هنا فى فهم العائلة باعتبارها فى الأساس نتاجاً لمتطلبات الإنتاج المادى، أو من ناحية أخرى باعتبارها مؤسسة تعكس وتبنى هياكل الإنتاج المادى والحياة الاجتماعية. حيث نجد فى أعمال وولف (Wolf) على سبيل المثال ميلاً إلى الربط بين تطور العائلة الريفية من الفلاحين وبعض المعالم الخاصة بالإنتاج الزراعى، حيث إن مدى توفر الأرض وكثافة الزراعة وسيادة العمل المأجور أثرت جميعها فى تقسيم العمل، وبالتالى فى أعداد وأدوار وسلطات أفراد العائلة[٥]، أما غيره فيؤكدون أن ملامح وحدة العائلة لا تتشكل بفعل وظيفتها فى الإنتاج المادى، بل أيضاً بواسطة الوظائف الأشمل الخاصة بالإنجاب وإعادة إنتاج ظروف الحياة والوجود، بما فى ذلك رعاية الأطفال أو كبار السن أو المرضى، فبناء على علاقات القرابة تقوم العائلة بإعادة توزيع ضرورات الحياة لأفراد العائلة من المنتجين وغير المنتجين على حد سواء، مع ربط بعضهم بعضاً فى الوحدة الاقتصادية الأساسية من وحدات المجتمع. إن وضع النساء فى العائلة يخضع بالتالى للحاجة إلى إعادة الإنتاج بمعناه العام، وفرض أدوار بعينها . وخاصة رعاية الأطفال ـ على النساء[٦]. ومثلما تنطلق الترتيبات داخل العائلة من مطالب الإنتاج والإنجاب ـ إعادة الإنتاج، وكذلك تعتمد إمكانية التملك للنساء على دورهن فى هذين النشاطين المتداخلين عادة.

وفى الفصلين الأول والثانى ستتم دراسة العائلة عند الفلاحين وفى الطبقة الدنيا من الحضر، وذلك بتناولها فى علاقتها المتبادلة بالمجتمع. إن الحاجات الخاصة بالإنتاج فى المناطق الريفية والحضرية، والحاجة إلى تجنب تقسيم الأرض عن طريق الميراث، أو ضرورة إفساح المجال أمام بعض أفراد العائلة للعمل خارج نطاقها لتحقيق المطالب من خارج وحدة العائلة على سبيل المثال، كان لها تأثيرها على حجم العائلة وتقسيم العمل والسلطة داخلها . فى الوقت نفسه فإن مطالب الإنجاب ـ إعادة الإنتاج والأعباء المتعلقة بتربية الأطفال وتوفير الكثير من الخدمات الضرورية كان يستدعى تقسيم الأدوار الذى عادة ما كان يتم بناء على أفراد العائلة من حيث الجنس والعمر. ومن منطلق نشأة وتحدد دور النساء فى الإنجاب ـ إعادة الإنتاج داخل وحدة الأسرة، فإن العائلة باعتبارها الهيكل الاجتماعى الأساسى أدت إلى فرض وتحديد معالم عمليات الإنتاج والعلاقات الاجتماعية على مستوى المجتمع ككل. وفى سبيل فهم وضع النساء يتعين علينا دراسة العائلة المصرية لا باعتبارها وحدة إنتاج بل وحدة إعادة إنتاج وقد شهدت ظهور قيود على حقوق النساء وسلطتهن لا من جراء أدوار النساء فى الإنجاب ـ إعادة الإنتاج، بل من أدوارهن الإنتاجية. إن ترتيب الزيجات وممارسات الميراث والالتزامات القائمة على علاقات القرابة كانت تعكس فى مجملها كما كانت تؤثر فى نفس الوقت فى الطرق التى كانت العائلة تفى باحتياجاتها المتباينة.

ثالثاً، لقد دار نقاش كبير حول مدى إسهام دور النساء فى الإنتاج الاجتماعى، أو العمل خارج سياق العمل العائلى المشترك بما يقلل





من درجة التحكم الاقتصادى والاجتماعى التى تمارسها العائلة، وبالتالى يعزز استقلال المرأة وسلطتها، وقد كان إنجلز أول من فتح هذا الطريق أمام البحث من خلال طرح فكرته بأن تحرر المرأة يعتمد على مشاركتها فى الإنتاج «على نطاق اجتماعى كبير»، وهو محال دون تحطيم الأسرة المكونة من زوجين اثنين فقط دون تعدد باعتبارها وحدة اقتصادية من وحدات المجتمع[٧]. وعلى الرغم من اعتراف كتّاب ينتمون إلى عصور أحدث من إنجلز بمركزية الإنتاج الاجتماعى بالنسبة لوضع النساء، فإن مقولة إنجلز قد خضعت للتعديل والتوسيع الكبير كى تشتمل لا على الإنتاج الاقتصادى فحسب، بل أيضًا على مشاركة النساء فى نطاق السياسة والعلاقات الاجتماعية خارج الأسرة والعائلة. وفى هذا التحليل نجد أن التكون التاريخى للدولة أعطى دفعة لنشأة وتطور مفهوم المجال «العام» وتمييزه عن المجال المنزلى «الخاص»، وعادة ما يتم إقصاء النساء من خلال أدوارهن فى إنجاب ورعاية الأطفال واستبعادهن من المجال العام الخاص بالعلاقات الاجتماعية خارج الإطار العائلى وبالسلطة السياسية. وكلما ازدادت حدة التمييز بين هذين المجالين ازدادت عزلة النساء بعضهن عن بعض ووُضِعنَ تحت سلطة وسيطرة أفراد العائلة من الذكور. وهكذا، فمع تمتع النساء فى بعض المجتمعات بالملكية الإنتاجية وما يترتب عليه من قدر من السلطة فى المجال «الخاص»، فإن الاستبعاد الجزئى أو الكلى من المجال «العام» يعمل على التقليل من مكانة النساء وسلطتهن[٨].

وفى دراستنا لوضع النساء داخل الأسرة المصرية، فإننا نتحرك مع توجيه الانتباه نحو مشاركة النساء فى المجال العام وأثر ذلك على النظام العائلى. وفيما يتعلق بالفترة التى تتناولها هذه الدراسة كان للأنشطة الاقتصادية غير القائمة على وحدة الأسرة - مثل أعمال السخرة والعمل المأجور فى الزراعة والصناعة - دورها فى إثقال كاهل الأسرة بمتطلبات جديدة، ولابد من تتبع دور النساء فى هذا المجال المتسع من العمل العام، كما أن الحياة العامة فى مصر ما قبل الرأسمالية كانت حياة تعتمد على عدد من المؤسسات كالنقابات الحرفية والطرق الدينية وجمعيات الأحياء وعلاقات الجوار. ونبدأ أولا فى الفصل الثالث بالتوقف أمام مشاركة المرأة فى المؤسسات التى كانت تقوم بتنظيم وضبط الحياة الاجتماعية والسياسية فى المدن. ولكن أنشطة النساء داخل مؤسسات وضعها الرجال ليست بالضرورة كاشفة عن الصورة الكاملة لدخول النساء إلى المجال العام، كما قامت نساء الطبقة الحضرية الأدنى إلى حد ما بخلق عالم عام خاص بهن، وكذلك فإن بنية الجمعيات ذات الطابع الإنسانى وأثرها على وضع النساء داخل الأسرة تضيف بعداً آخر إلى مشاركة النساء فى المجال العام.



ومع ذلك فعلى مدار القرن التاسع عشر كان لنمو الدولة، بداية فى شكل نظامها المطلق ثم فى شكلها الاستعمارى فى أعقاب الاحتلال البريطانى، دوره فى توسيع المجال العام وتشجيع التدخل الرسمى فى مناحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية. فكيف تأثرت النساء بذلك الاتساع الذى شهده المجال العام، ودخول الدولة إلى مناحى الحياة التى كانت فيما سبق مقصورة على الأسرة أو الاتحادات والمجموعات؟ وفى الفصل الثالث نتناول أيضًا تلك العملية من خلال استعراض التطورات التى حدثت فى الصحة والتعليم، حيث كان تدخل الدولة ملموسًا على مدار القرن، كما ترتب على نمو الدولة تجديد جهازها القمعى - نظام القضاء والشرطة والسجون - والذى تسارعت خطاه مع تعدد أعمال التمرد والمقاومة الفردية للقوة المركزية. وينتقل الفصل الرابع إلى مشاركة النساء فى المجال العام ضمن الانتفاضات فى الحضر والريف خلال القرن، مع تتبع الطرق التى لجأ إليها النظام القمعى للدولة فى التعامل لاحقًا مع النساء.

وبينما تظل السيطرة على الملكية والعلاقات الأسرية والمشاركة فى المجال العام عاملاً أساسيًا فى الاعتراف بأدوار النساء ومكانتهن، فإنه لا يمكن تجاهل البعد الرابع ممثلاً فى التعريفات الأيديولوجية لأدوار النساء. إن إرجاع السمات الشخصية والعادات السلبية إلى النساء، والدفع بالنساء إلى مكانة الجنس الثانى هى أمور متجذرة بلا شك فى الأوضاع المادية الماضية مع إلقاء الزمن بظلاله عليها، وتفاقمها بفعل التنظيم المستمر للإنتاج والإنجاب. إعادة الإنتاج بما يتضمنه من إخضاع وتبعية النساء. وهكذا، فعلى الرغم من نشأة الآراء الاجتماعية بشأن النساء وصدورها عن الحاجات الاجتماعية، فإن مجموعة القواعد القانونية، والعادات والتصورات الشعبية التى تحدد أدوار النساء ومكانتهن، قد تبدو فى بعض الحقب التاريخية مستقلة نسبيًا وتلعب دورا حقيقيًا فى تحديد وضع النساء. ومن المؤكد أن التصور المثالى للنساء ودورهن قد يكون هو العامل الأكثر أثرًا فى اللحظات التى تشهد تغيرًا سريعًا فى الوضع العام والموضوعى للنساء، كما أن السعى من أجل الاستقرار والاستمرار يضفى مزيداً من القوة على الجانب الأيديولوجى.

إن التنوع القائم فى التعبير عن تلك الآراء والذى يتضح عادة فى الأساطير والحكايات الشعبية للثقافة الجماهيرية الشعبية متخذاً شكلاً مميزًا عن المقولات الرسمية السياسية والدينية، هو تنوع يضفى على تلك الآراء ميوعة تتسبب بلا شك فى ميل الأدبيات إلى تجاهل هذا البعد برمته، أو التركيز فقط على آراء النساء من بين المؤسسة الرسمية المتعلمة أو أحكام «الإسلام».

وفى محاولة التحقق من آراء النساء فى مصر القرن التاسع عشر نجد أنفسنا محددين بإطار الوثائق المكتوبة والاستنتاجات المستخلصة من مجريات الأحداث المعروفة. إن المواد المكتوبة، من حوليات أو بيانات رسمية أو وثائق قانونية، إنما تعبر عن آراء ثقافة رجال الطبقة العليا، ونجد أنفسنا نعتمد أساسًا على محاضر قضايا المحاكم الدينية التى تكشف بقدر من التفصيل عن تصورات الرجال والنساء على حد سواء، وهى المحاضر التى تسجل أصوات المتقاضين من مختلف الطبقات الاجتماعية. إن شئون «المحكمة الشرعية» كانت بالطبع متأثرة بمبادئ القانون الدينى الإسلامى، أى الشريعة الإسلامية. إن تقييم المواقف تجاه النساء بناء على سجلات المحاكم لابد بالتالى أن يميز بين بين التعريفات الخاصة بأدوار النساء فى حد ذاتها، والتفسيرات والتأويلات والتعديلات الضمنية التى طرأت على القانون أثناء تطوره استجابة للظروف الاجتماعية. إضافة إلى ذلك، وخاصة فى فترة التغير الاقتصادى والاجتماعى السريع، قد تؤثر التعريفات التى تتناول أدوار النساء بناء على القانون الدينى فى الوضع المادى للنساء، حيث إن حقوق النساء فى التملك - على سبيل المثال - أضفت شرعية وقوة على النساء اللاتى كان فى وسعهن ممارسة تلك الحقوق. إن مجموعة التوجهات الثقافية بما فى ذلك تلك الواردة صراحة فى الشريعة لم تكن العامل الوحيد المحدد لوضع النساء، ولكنه تعرض للتعديل، وبدوره قام بتعديل الحياة الأسرية وعمل النساء.

إن البنى الأيديولوجية والتوجهات الثقافية المحيطة بأدوار النساء والمحددة لمعالمها تكتسب قدراً من الوضوح والجلاء عند تركيزنا على هوامش المجتمع، حيث نجد أن النساء اللاتى احتللن العالم السفلى من المجتمع، بسبب السلوك غير المقبول - بالنسبة للعاهرات - أو العجز القانونى المطلق - بالنسبة للجوارى والعبيد - وجدنَ أنفسهن محرومات من وسائل الحماية والهويات التى توفرها العلاقات والاتصالات العائلية. وهكذا كان نشاطهن فى الإنتاج والإنجاب يحظى بالتسفيه أو التشويه، حيث إن أدوارهن الاقتصادية والاجتماعية كانت تنتمى إلى مجال آخر، فمع افتقادهن العلاقات الأسرية التى كثيراً ما تساعد فى تحديد الحقوق والواجبات تجاه الآخرين، عاشت هؤلاء النساء خارج شبكة الأقرباء، وواجهن المجتمع دون التمتع بوسائل المساندة والحماية المعهودة. ومن هنا، فبإمكاننا ملاحظة كيف قام البعد الأيديولوجى فى صورته الخالصة بتحديد دور النساء فى بيئة تفتقر إلى العمليات الاقتصادية الأساسية والبنى الاجتماعية. إن العاهرات اللاتى تتم



«جوزوا الشحاته تتغنى..
حطت اللقمة فى الطاقة،
وقالت ياستى حسنة»

مثل مصرى



«ايه يحرر النسا .. قال بعد الرجال عنهم»

مثل مصرى



دراستهن فى الفصل الرابع، والجوارى فى الفصل الخامس شكّلن نسبة ضئيلة من النساء المصريات، كما أن حياتهن لم تمثل على الإطلاق حياة بنات جنسهن، ولكن بسبب تهميشهن وأحادية البعد المشكّل لوجودهن الاجتماعى، فإننا نجد فى دراستهن وسيلة إلى فهم مجموعة التوجهات التى شكلت وضع كل النساء فى مصر.

ثالثًا: إن دراسة نساء الطبقة الدنيا وأنشطتهن الخاصة فرضت علينا استخدام سجلات المحاكم الشرعية استخداما كبيرًا. إن المحكمة الشرعية كانت المؤسسة الوحيدة التى تضم سجلات متاحة للنساء من جميع الطبقات، وكانت هى المكان الذى يمكن للنساء فيه سرد حكاياتهن وتقديم شكاواهن. ومع أنه قد تمت الاستفادة من سجلات المحاكم الإسلامية لإلقاء الضوء على عالم النساء فى الأناضول فى القرن التاسع عشر، فإن سجلات القرن التاسع عشر المصرية تعرضت للتجاهل[٩]. إن دراسة أندريه ريمون (André Raymond) التى تمثل علامة فى الدراسات عن القاهرة، قامت بتقصى المعلومات المتاحة تباعاً والمسجلة فى المحاكم الدينية فى أوائل القرن، ولكن الكثير مما هو متوفر من القضايا الخاصة بشئون الأسرة والأعمال مازالت فى انتظار المزيد من التناول الكامل، وقلما تم توظيفها[١٠]. ولعل ندرة معرفتنا عن كيفية عمل المحاكم فعليًا والعاملين فيها وتطورهم بمرور الزمان تفسر تلك الظاهرة.

سيدة قاهرية (بين ١٨٩٠ و ١٩٢٣) © Carpenter Collection

إن المحاكم الشرعية المصرية التى تبعت المذهب الحنفى منذ عام ١٨٠٥م خضعت للتغيير فى وظيفتها وتأثيرها عبر القرن التاسع عشر، وكانت هنالك علاقة وثيقة بين إجراءاتها واستقلالها وقوة قراراتها وبين تنامى سلطة الدولة وأثرها على النظام القضائى. فقد حفلت السلطة القضائية وتنظيم المحاكم الشرعية بتاريخ من الصراع والتعاون بين سلطة الدولة والنظام القضائى. فمع ازدهار السلطة المدنية كان نظام المحاكم الشرعية أحيانًا يقوم بدور كأداة للسيطرة السياسية فى دعم سياسات الدولة وتطبيق تعليماتها، فى حين كان تراجع السيطرة والسلطة المركزية يمكّن المحاكم الشرعية من تأكيد قدر ضئيل من استقلالها، بل واكتساب بعض امتيازات الدولة السياسية[١١]. إلا أنه على مدار الجزء الأكبر من التاريخ أعربت المحاكم عن انصياعها للسلطة السياسية وخدمتها لأهداف الحكام ومصالحهم بلا تردد.

ولكن القرن التاسع عشر فى مصر شهد صراعًا متناميًا بين علماء الدين (العلماء) ورجال الدولة من أجل السيطرة على النظام القضائى، فخلال فترة الحكم العثمانى، أى منذ عام ١٥١٧م وحتى وصول محمد على إلى الحكم، كان موظفو المحاكم الشرعية يتم تعيينهم ويخضعون نظريًا لإسطنبول، ووضع السلطان سليمان رجلاً تركيًا من فئة «قاضى العسكر» على رأس النظام القضائى المصرى، وتمثلت مهمته فى الإشراف على إدارة القضاء الشرعى بمساعدة أربعة قضاة برتبة ملازم أول، وتم تقسيم مصر إلى ٣٦ دائرة قضائية، وكان قضاة كل دائرة يعينون فى مناصبهم من قبل قاضى عسكر الأناضول. وكان يتم اختيار قاضى عسكر القاهرة والقضاة المحليين من بين القضاة المتحدثين بالتركية والعاملين فى خدمة الإمبراطورية العثمانية فى مناطق متفرقة. وعلى مدار القرن الثامن عشر كان لتراجع السيطرة المباشرة للعاصمة العثمانية على النظام القضائى أثره فى إضعاف دور القضاة فى النظام الإدارى العثمانى، وتم تمصير المحاكم تدريجيًا، وبحلول عام ١٧٩٨ لم تتم الاستعانة بإسطنبول فى تعيين قضاة ٣٦ دائرة قضائية فى مصر، فيما عدا ستة قضاة بمن فيهم قاضى العسكر الذين تم اختيارهم من بين



العلماء المتحدثين بالتركية. أما غالبية القضاة فتم اختيارهم من بين علماء الدين المصريين(١٢). ولم تعد المحاكم الدينية يرأسها قضاة أتراك ممن تداخلت أدوارهم القضائية بالمهام الإدارية الخاصة بالإمبراطورية. وتم استبدال القضاة الموالين للقوة الإمبراطورية ليحل محلهم قضاة يتمتعون بصلات ومصالح محلية. وهكذا نالت المحاكم، مثلها في ذلك مثل غيرها من البنى الإدارية في تلك الحقبة، قدراً من الاستقلالية مع ضعف الحكم العثماني في مصر.

وفي أعقاب المحاولة القصيرة والمجهضة التي قامت بها قوات الاحتلال الفرنسي لفرض السيطرة على نظام المحاكم الشرعية في أواخر القرن الثامن عشر، تحركت الدولة في القرن التاسع عشر بقدر أكبر من الحرص والحذر، وكذلك بدرجة أكبر من الدقة سعياً وراء التحكم في النظام القضائي. ومع احترامها الظاهري لاستقلال المحاكم الشرعية أخذت السلطة المدنية تدريجياً في تأكيد سيطرتها على موظفي المحاكم والعاملين فيها، ووضع مزيد من القيود على أحكامها. أما قاضي قضاة القاهرة الذي عينته إسطنبول بفرمان إمبراطوري، فقد قام بدوره بتعيين قضاة لكل المحاكم المحلية عدا الإسكندرية. وهكذا. فعلى الرغم من احتفاظ الإمبراطورية نظرياً بقبضتها المباشرة على المحاكم الشرعية، فإن القاضي الذي عينه السلطان لم يكن بالضرورة في صراع علني مع إسطنبول. وبالتالي، فإن قضاة المحاكم الشرعية ممن أتوا من بين علماء الدين في القاهرة والأقاليم تمتعوا بقدر من التحرر من التدخل العثماني، ولكنهم خضعوا بلا شك لقدر أكبر من الضغوط من السلطات السياسية في القاهرة والأقاليم، ولكن الدولة امتنعت عن اتخاذ أي تدخل صريح في إجراءات التقاضي في المحاكم الشرعية حتى عام ١٨٥٦، وذلك عندما توصل الخديو سعيد إلى اتفاق مع إسطنبول مفاده أن كل القضاة في مصر، عدا قاضي قضاء القاهرة، سيتم تعيينهم ودفع رواتب ثابتة لهم بواسطة الحكومة المصرية، كما تم نشر القواعد الإجرائية التي تلتزم بها المحاكم، وإلغاء نظام الشهادة في المحاكم بما فيه من تفاصيل وتعقيدات. وفي النصف الثاني من القرن تم إخضاع موظفي المحاكم والعاملين فيها لمزيد من سيطرة الدولة، وجاء قانون تنظيم المحاكم الشرعية لعام ١٨٨٠ ليمنح خديو مصر سلطة تعيين كل القضاة بما في ذلك قاضي القاهرة. كما جاءت القوانين الجديدة لعامي ١٩٠٨ و١٩١١ لتوسع من سيطرة الدولة على التعليم الديني وعلى الاعتراف بالعلماء وإجازتهم لتولي منصب القضاء(١٣).

وخلال تلك الفترة ذاتها قامت الدولة بمد نفوذها على المحاكم الشرعية، وجاءت سلسلة القوانين الجديدة، خاصة «قانون الفلاحة لسنة ١٨٣٠»، و«قانون السياسة الملكية لسنة ١٨٣٧»، و«القانون العام لسنة ١٨٤٩»، وقانون العقوبات الجديد في سنة ١٨٦٣، لتمثل جميعها إعلاناً لمواقف رسمية من قبل السلطة المدنية بشأن مجال المحاكم الشرعية وحدودها. ومن خلال الاعتراف بأن معظم الأمور الجزائية يتولاها أعضاء الإدارة المدنية، وأن جميع العقوبات حتى في المسائل التي تقتصر على حكم القاضي، هي أمور تختص بها السلطات العلمانية، رسخت تلك القوانين بوضوح وبشكل رسمي دور الدولة في العملية القضائية.

إن تطور القوانين المدنية صاحبه تأسيس المجالس والمحاكم المدنية التي تولت تدريجياً إصدار الأحكام القضائية في المسائل القانونية التي كانت متروكة في السابق للمحاكم الشرعية. وعلى الرغم من إصدار الدولة أحكاماً غير عادية في مسائل جزائية وإدارية لفترة طويلة، فإن خلق أجهزة قضائية قائمة بصفة رسمية لها سلطتها المحددة أدى إلى تعميق وتنظيم سيطرة الدولة على إدارة شئون القضاء. وفي العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر أسست الدولة عدداً من الدواوين (الوزارات) الجديدة تتمتع بسلطات قضائية تمتد إلى الشئون الجنائية والخلافات حول الملكية، بل والشئون المتعلقة بالأوقاف، وقد تم تأسيس محكمة عليا مدنية هي «مجلس الأحكام» في نهاية أربعينيات القرن التاسع عشر، وأعقبته بسنوات قليلة إقامة مجالس قضائية شبيهة به في أربع مناطق من الأقاليم المصرية، ومن خلال تعيين ممثلين من الإدارتين العسكرية والمدنية إلى جانب علماء الدين قامت تلك المجالس بتنفيذ قوانين الأراضي التي صدرت حديثاً. وأخيراً، ففي الفترة ما بين عامي ١٨٧٦ و١٨٨٣ تولت المحاكم المدنية الجديدة، والمحاكم المختلطة والمحاكم الوطنية (المحلية) مسئولية إدارة معظم القوانين المدنية وتنفيذها. أما قوانين الشريعة فاقتصرت على مسائل الأحوال الشخصية من الزواج والطلاق والميراث والبنوة والوصاية والولاية والأوقاف(١٤).

وعلى الرغم من أن القوانين والمحاكم المدنية المتنوعة لم تكن تصدر أحكاماً رسمية في مسائل قانون الأسرة، فإن مجرد وجود أنظمة للقضاء المدني أدى إلى تأثير على مجال المحاكم الشرعية، حيث كان باستطاعة مسئولي الدولة - ممن لديهم السلطة القضائية - التدخل في بعض الحالات كمحكمة استئناف لبعض الأحكام الصادرة عن المحاكم الشرعية، والتمتع بوسائل تطبيق القانون، فقد أصدر «حاكم سياسي» (أي قاض مدني) حكماً قضائياً بتطليق امرأة في قضية كانت المحكمة الشرعية سوف ترفضها بالتأكيد، حيث كان زوج تلك السيدة قد تركها خلال فترة غياب قصيرة مع توفير جميع احتياجاتها المادية(١٥). وكان بوسع المسئول الرسمي ذي السلطة القضائية مواجهة سلطة القانون الديني بشكل مباشر كما يرد في تقرير يتضمن رأي المفتي في القاهرة.



(سئل) في رجل عجز عن نفقة زوجته الحالية، فطلبته مراراً لدى بعض أهل العلم فلم يقدر، فطلبته لدى حاكم سياسي فأمره بالإنفاق فلم يجد ما ينفقه، فأمره بالطلاق فامتنع، فأحضر له آلة الضرب وخوفه، فقال لها أنت طالق بحضرة الحاكم وجمع من المسلمين، وبعد رجوعه من عند الحاكم أقر بذلك، فهل إذا انقضت عدتها وأرادت التزوج بغيره يسوغ لها ذلك وليس لمطلقها منعها من ذلك متعللاً بأنه طلاق إكراه لا يقع؟ (أجاب) طلاق المكره واقع عندنا والله تعالى أعلم(١٦).

ويتضح هنا أن القاضي المدني قد تدخل في مسألة من اختصاص المحكمة الشرعية، بل قام بتوظيف أساليب (الإجبار) التي كانت محرمة في القضاء الشرعي، وقد اعترف المفتي نفسه في رده الموجز المحدد أن المحاكم الشرعية كانت في وضع يكاد لا يتيح لها معارضة سلطة الدولة حتى عند تدخلها في المجالات الخاصة بالمحاكم الدينية.

ومع أن الدولة كانت قادرة بالتالي وقائمة بتأكيد سيطرتها على العاملين في المحاكم الشرعية وعلى إجراءاتها وأحكامها، فإن نظام المحكمة الشرعية احتفظ بنوع من الاستقلالية والنزاهة خلال الجزء الأكبر من القرن. وفي الوقت الذي تعرضت له أحياناً المحكمة الشرعية للاتهام بالفساد، مثلما حدث في القضية التي قاضت فيها الدولة سنة ١٩٣٢ الوكلاء الذين استخدموا ممارسات مشبوهة في أعمال التيسير والتسهيل، فإن المحكمة الشرعية حافظت على هوية خاصة بها منفصلة بقدر كاف عن الحكومة المركزية، كما احتفظت أيضاً بقدر كاف من سمعتها كجهة عادلة، مما جعلها تظل مؤسسة شعبية(١٧). إن عدد القضايا المحفوظة في أرشيفات المحاكم (انظر الملحق) تقف دليلاً مقنعاً على أن المصريات والمصريين اعتبروا المحكمة الشرعية مؤسسة خاصة بهم ومكاناً يلجأون إليه، فعلى سبيل المثال، نجد أن نساء الطبقات الدنيا اللاتي كانت الكثيرات منهن أميات وعلى غير علم بتفاصيل الإجراء القضائي، كثيراً ما جئن إلى المحكمة وحدهن لعرض القضية أمام القاضي المحلي، وعلى الرغم من العبء المادي الثقيل المتمثل في التكاليف والرشاوى ظلت المحكمة مكاناً يتردد عليه أبناء الشعب. ومن هنا، يمكننا افتراض أن إجراءات المداولات القضائية ومضمونها كانت مألوفة ومريحة بالقدر الكافي لتشجيع غير النخبة على النظر إلى المحكمة باعتبارها مؤسستهم التي يلجأون إليها. إن القانون الإسلامي في بعده التراثي المتخصص ظل بلا شك مجالاً خاصاً بحلقة صغيرة من النخبة المثقفة، ولكننا نجد في المحاكم الشرعية في القرن التاسع عشر حدوث تداخل بين مجالات من ثقافة



«راحت تاخد بتار ابوها.. رجعت حبلى»

مثل مصري



«بنت الأكابر غالية .. ولو تكون جارية»

مثل مصري



النخبة. وبين التراث الثقافي والترتيبات الاجتماعية الخاصة بالطبقات الدنيا في الريف والحضر. وكان القاضي حلقة صلة بين تراثين ثقافيين، حيث كان تطبيق المبادئ الإسلامية يتجانس مع الاعتراف بالواقع الاجتماعي. إن انتشار مدى اللجوء إلى المحاكم الشرعية من قبل فئات سكانية متباينة يشهد على نجاح تلك الرابطة بين هذين العالمين.

إن التأثير الفعلي للقرارات الشرعية هو أمر يصعب تقييمه، فوثائق المحاكم لا تقدم سوى اليسير من المعلومات بشأن أسلوب تنفيذ حكم القاضي. وتوضح بعض القضايا من هنا وهناك أنه لم يكن بوسع المحاكم الدينية وتنفيذ أحكامها، خاصة في وجه حكم مواز صادر عن السلطات السياسية. ومع ذلك، يمكننا الاستدلال أن المحكمة الدينية كانت أبعد ما تكون عن منبر للخطابة الجوفاء، حيث إن انتشار الممارسة القائمة على عرض الخلافات وتقديم الشكاوى إلى القاضي كان سيتضاءل لو كانت المحكمة لا تتمتع بأي قدر من الفاعلية والفعالية على الإطلاق. ولكن، ليس بوسعنا التيقن ما إذا كان قد تم تنفيذ أي قرار من قراراتها وأحكامها، كما أن القرارات القضائية لا تقدم في حد ذاتها صورة دقيقة للمجتمع، حيث تمزج بين الاهتمامات الأيديولوجية وبين مقتضيات الحياة اليومية.

وهكذا، يكون نتاج قضية ما من قضايا المحاكم مسألة أقل أهمية للمؤرخة أو المؤرخ الاجتماعي مقارنة بكم المعلومات المتاحة. إن وثائق المحاكم تقدم نظرة متعمقة وقيمة إلى داخل علاقات الأسرة والملكية، حيث يتم تعريف المتقاضين تبعاً لاتصالاتهم الأسرية، وكثيراً ما يتم وصف الأملاك بشيء من التفصيل. ومن خلال وضعها في سياق تاريخي تكشف سجلات المحاكم من القرن التاسع عشر عن قضية مجتمع في طور التكوين، فمع تشبعها بالقيم «الإسلامية» ووعيها بالعادات والأعراف المحلية، تبدو المحاكم الشرعية في موقع الدفاع عن طريقة حياة كان يتم استبدالها سريعاً مع انجذاب مصر إلى المحيط الأوروبي برعاية الدولة المتجددة. وكان من بين علماء الدين العاملين في المحاكم الشرعية وكلاء عملية تكوين الدولة الجديدة، كما كان من بينهم خصومها المعادون لها، الذين تمسكوا بالحقوق والواجبات التقليدية في مواجهة تجاوزات الدولة والتفكك الاجتماعي، وبمجيئهم إلى المحكمة حاملين الدعاوى والشكاوى كان الفلاحون وفقراء الحضر في مصر أبعد ما يكونون عن مجرد شاهدين سلبيين على تلك العملية، فمن خلال تتبع استخدامهم للمحكمة دفاعاً عن حقوقهم السابقة ونظامهم الاجتماعي تتبين لنا صورة للمقاومة، حيث شكلت المحكمة الإسلامية منبراً جوهرياً لبلورة استراتيجيات لتقليل تدخل الدولة وعواقب التغلغل الرأسمالي.

وفي الدراسة التالية التي تتناول النساء في القرن التاسع عشر تمثل سجلات المحاكم مصدراً معاصراً قيماً: حيث نجد أن محاضر القضايا ومجموعات الفتاوى تقدم لنا معلومات عن النساء من حيث الأملاك والعمل وعلاقات الأسرة، وصورة عامة معبرة عن وضع من الضغوط والتغير. إن النساء من جميع الخلفيات الاجتماعية حملن شئونهن إلى المحكمة، ونادراً ما كانت نساء النخبة يظهرن شخصياً في المحكمة، بل فضلن ترك شئونهن في أيدي الوكيل، أما الفلاحات ونساء الطبقة الدنيا الحضرية فعادة ما كنّ يعرضن قضاياهن شخصياً أمام القاضي، فمن خلال بيع وشراء الأملاك وملاحقة اللصوص والمستدينين منهن والسعي للحصول على النفقة أو الطلاق، استخدمت النساء المحكمة للحصول على عون من متابعة أعمالهن وشئونهن الخاصة. وهكذا، فإن إجراءات التقاضي لا تسجل الأنشطة الاقتصادية للنساء فحسب، بل تصوراتهن بشأن حقوقهن في ظل القانون.

ولكن سجلات المحاكم وفتاوى المفتي هي المصدر الرئيسي فقط فيما يتعلق بالجزء الأول من القرن التاسع عشر، فمع ما شهدته المحكمة الشرعية من تضييق لأحكامها، ومع فقدانها التدريجي لاستقلالها عن القوة المركزية نلحظ تراجعاً تدريجياً فيما تعكسه المحاكم الدينية من الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية على تنوعها، فبحلول السبعينيات من القرن التاسع عشر لم يتجاوز عمل هذه المحاكم وفعاليتها سوى مسائل الأحوال الشخصية. كما أن التغيرات العديدة التي طرأت على بنية المحكمة وإجراءاتها والعاملين فيها، يجعل المقارنات عبر الزمان لحالات التقاضي وتغير الأحكام وغيرها مقارنات لا معنى لها نسبياً. حقاً إن ما شهده الجزء الأخير من القرن التاسع عشر من نشأة المحاكم المدنية، وتنامي جهاز الدولة أدى إلى تطويق وتحديد نطاق أنشطة المؤسسات «التقليدية» كالمحاكم الشرعية، مع نقل وظائفها إلى عدد من المؤسسات الجديدة. وفي الوقت الذي تتضمن فيه سجلات المحاكم قدراً أقل من المعلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في تلك الفترة، فإن ذلك يواكبه ظهور مصادر أخرى للمعلومات، حيث تبدأ الدولة بجهد متزايد في عرض ومسح وتسجيل النشاط السكاني. وهكذا، مع مرور سنوات القرن التاسع عشر يزداد اعتمادنا على مواد صادرة عن جهاز الدولة بدلاً من نظام المحكمة الشرعية، وهي مقاربة بحثية توحي بالفرضية القائلة بأن الدولة وخاصة في شكلها الاستعماري تزايد تأثيرها على سكانها، وأن السياسة الرسمية قد أخذت تلعب دوراً واضحاً في حياة النساء والرجال. ■

هوامش

(١) انظر/ي كتاب إدوارد سعيد عن «الاستشراق»: Edward said, Orientalism.

(٢) على سبيل المثال: Nadia Youssef, Women and work in the Developing society, and Fatima Mernissi, Beyond the Veil, Male-Female Dynamics in a Modern Muslim Society.

(٣) انظر/ي: Frederick Engels, The Origin of the Family, Private Property and the State, pp 94-146.

(٤) انظر/ي Eli Zaretsky, Capitalism, the Family and Personal Life, p. 93, and Karen Sacks, Engels Revisited: Women, the Organization of Production, and Private Property, in Rayna Reiter (ed.) Toward an Anthropology of Women, pp211-234.

(٥) انظر/ي: Eric Wolf, Peasants, pp 65-72.

(٦) انظر/ي Jane Humphries, The Working Class Family, Women's Liberation, and Class Struggle: The Case of Nineteenth Century British History, RRPE, ix, 3 (Fall 1977), 25-41; also Zilla Eisenstein, ?Developing a Theory of capitalist Patriarchy, in Z. Eisenstein (ed.), Capitalist Patriarchy and the Case of Socialist Feminism, pp 5-40.

(7) Engels, Origin, pp. 137-139, 221.

(٨) انظر/ي: Viana Muller, The Formation of the State and the Oppression of Women: Some Theoretical Considerations and a Case Study in England and Wales, RRPE, ix, 3 (Fall 1977), 7 , 21; Michelle Zimbalist Roslado, A Theoretical Overview?, in M. Z. Rosaldo and Louise Lamphere (eds.), Women, Culture, and Society, P. 36; and Sacks, Engels Revisited?, in Reiter (ed.), Toward an Anthropology, pp 211-234.

(٩) انظر/ي: Ronald C. Jenning, Women in Early Seventeenth Century Ottoman Judicial Records, JESHME, 18 (January 1975) 53-114.

(10) Andrè Raymond, Artisans et commercants au Caire au XVLLLe siècle. كما نجد اعتماداً كبيراً لدى تيرينس والتز على سجلات المحاكم في الدراسة المقدمة عن تجارة الرقيق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. انظر/ي: Terence Waltz, Trade between Egypt and Bilad as-Sudan, 1700-1820.

(١١) انظر/ي: Emile Tyan, Histoire de L,organisation Judiciare en pays d, Islam, pp 11-12.

(١٢) انظر/ي: Raymond, Artisans, p. 418; and also Dèscription de l?Egypte, etat moderne, vol. 2, part 2, p ٤٧٥.

(13) Chafik Chehata, Droit Musulman, p. 28; Gabriel Baer, Studies in the Social History of Modern Egypt, pp. 130-131. وكذلك: عبدالمجيد محمد الحفناوي، تاريخ القانون المصري، ص ٤٦٦-٤٦٧.

(١٤) أحمد فتحي زغلول، المحاماة، ص ١٥٩ ـ ١٦٥، ١٨٥ ـ ١٨٧، وكتاب الحفناوي، تاريخ القانون المصري، ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤، وكذلك: Farhat Ziadeh, Lawyers and the Rule of Law and Liberalism in Modern Egypt, pp 12-15.

(١٥) محمد العباسي المهدي، الفتاوى المهدية في الوقائع المصرية، المجلد الأول، ٨ ذو القعدة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م، ص ٢٢.

(١٦) المصدر السابق، المجلد الأول، ٢٠ ربيع الثاني ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م، ص ١٥٤.

(١٧) زغلول، المحاماة، ص ٢٤٩ ـ ٢٦٦.

«حاجة الست
في الصندوق .. وحاجة الجارية
في السوق»

مثل مصري



الفيطانى .. وشلبى .. ونجيب سرور

ناصر الرباط

▪ تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر المقريزى (١٣٦٤-١٤٤٢) واحد من أهم المؤرخين العرب القروسطيين على الإطلاق. فهو صاحب المؤلفات التاريخية العديدة التى طالت مختلف المواضيع من سير وتراجم وخطط ورسائل مقتضبة فى مباحث شتى. وهو كذلك صوت متفرد ومتميز فى تاريخ مصر وبلاد الشام، بل وفى التاريخ الإسلامى برمته، أثبت فى كتاباته التاريخية أنه يمتلك حسا تاريخياً حقيقياً، مغايراً كل المغايرة للاجترار التدوينى الذى طبع معظم إنتاج معاصريه وسابقيه والكثير من تابعيه. يعود الفضل فى ذلك بالدرجة الأولى للنفس النقدى المدقق الذى يظهر واضحاً فى الكثير من مؤلفاته (وإن كان غائباً فى بعضها الأكثر تقليدية)، حتى أنه يشكل العصب المنظم لأشهرها وأعظمها مثل تاريخه لمدينته القاهرة وبلده مصر «كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» (الخطط اختصاراً) و«السلوك لمعرفة دول الملوك» وهو تأريخه للدولة المملوكية حتى عصره، وكتيبى «إغاثة الأمة بكشف الغمة» عن الضائقة الاقتصادية التى واجهت المجتمع المملوكى فى بداية القرن الخامس عشر، و«شذور العقود بذكر النقود» عن السياسة النقدية للدولة المملوكية.

يمكن اعتبار كتاب الخطط بحق كتابا مؤسسا فى التاريخ العمرانى على مستوى العالم وواحد من أعمق الدراسات التاريخية العمرانية فى التراث العربى المكتوب حتى اليوم وأكثرها موسوعية وموضوعية، وأنا الأن بصدد إنهاء كتاب عنه وعن أسبقيته فى مجال التاريخ العمرانى. فهذا الكتاب بدءاً يحوى بين دفتيه صورة معمارية وعمرانية وبشرية شبه كاملة لما كانت عليه مدينة القاهرة فى بداية القرن الخامس عشر، وللأدوار التى لعبها الساسة والأعيان فى الحياة المدنية والعمرانية والاقتصادية والسياسية والمراسيمية والاحتفالية فى المدينة المملوكية. وهو كذلك يقدم لنا جرداً سردياً متكاملاً لتاريخ مصر قبل الإسلام كما تصوره المسلمون من خلال مصادرهم الدينية وشبه التاريخية، وتأريخاً مدققاً لتطور الفسطاط وبعدها القاهرة منذ نشأتها عقب الفتح الإسلامى ومروراً بعظمتها الخلافية إبان العهد الفاطمى وتفوقها العسكرى الجهادى فى العهدين الأيوبى والمملوكى المبكر إلى ظهور بوادر الانحطاط والتدهور فيها مع تحول السلطة إلى العنصر الجركسى فى العصر المملوكى مع نهاية القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر، أى عندما كان المقريزى يجمع مواد كتابه ويصنفها. ويضم الكتاب أيضاً مسحاً شبه شامل لكافة المبانى العامة أو المهمة فى القاهرة والفسطاط من قصور ودور وجواسق ومساجد وجوامع ووكالات وخانات وخانقاهات ومدارس وزوايا ودور حديث وبيمارستانات وأسوار وأبواب وخوخ، وحتى كنائس المسيحيين وكنس اليهود، بالإضافة لجرد الحارات والأزقة والأقنية والخلجان والبرك والطرق، وتبيان تطورها منذ الفتح الإسلامى وحتى نهاية القرن الرابع عشر. فالمتصفح لكتاب المواعظ والاعتبار سرعان مايلاحظ أن المقريزى فى الحقيقة يقدم لنا صورة نصية أقرب ماتكون للخرائط المفصلة التى تستخدم اليوم فى المسح والطوبوغرافيا، بالإضافة لمباحث متقدمة فى التاريخ الطبيعى وعلم الآثار والتخطيط العمرانى وتاريخ العمارة والتاريخ السياسى والثقافى لمصر كوحدة جغرافية وإدارية وكانتماء.

وقد استحوذ كتاب الخطط على اهتمام معاصرى المقريزى وتابعيه بدليل العدد الكبير من مخطوطات كتبه المنتشرة فى مكتبات العالم (هناك مثلاً أكثر من أكثر من ١٧٠ مخطوطة منه وفقاً لأيمن فؤاد سيد)، وبدليل ترجمة العديد من نصوصه إلى لغات أوروپية شتى منذ نهاية القرن الثامن عشر، وبشكل خاص الفرنسية والألمانية. وبدليل العديد من الكتب اللاحقة التى اقتبست منه أو أكملته بل واعتمدت مخططه أو بنت على منواله حتى اليوم الحاضر على الرغم من تغير المقاييس وتطور النظريات واختلاف الأهواء والمشارب. ولهذه الشعبية واستمرار الأهمية أسباب عديدة تتجاوز سعة وتفصيلية مواد الكتاب لتشمل معالم أساسية فى توجهه وهدفه ونبرته وشموليته الموضوعية والتحليلية وخلفية كاتبه الاجتماعية والشخصية والدينية التصوفية. فكتاب الخطط فى الحقيقة يخرج من دائرة النقل والتدوين التى طبعت غالبية أدبيات الفترة بطابع الجمود والتكرار لكى يقرب قارئه أكثر من فكر وعاطفة وهموم كاتبه ويجعله يعايشها ويتعاطف معها، أو على أقل تقدير يتفاعل معها بطريقة أو بأخرى حسب ثقافته وخلفيته وزمانه ومحيطه.



ولعل أكثر مايقرب المقريزى إلى القارئ المعاصر هو أن كتابه يصب بنهاية الأمر فى خانة الدراسات النقدية الإصلاحية ذات النفس الحى والمتألم التى قل ما نجد مثيلها فى التراث القروسطى برمته. فالمقريزى كان بحق نسيج وحده. فهو وإن ابتدأ حياته المهنية على نفس المنحى المعتاد عند معظم العلماء القروسطيين من التلمذ لكبار علماء عصره والاستفادة من اتصالات عائلته والسعى لنيل الحظوة عند الأمراء وأصحاب الشأن، و«قضى شطراً طويلاً من فتوته وهو يجالد فى كواليسهم للوصول إلى منصب يرضاه»، نجده فجأة ومن دون سبب واضح يقرر الكف عن التزلم للأكابر وينعزل فى بيته العائلى فى حارة برجوان فى قلب قاهرة المعز وهو فى عز الشباب وفورة النشاط وينصرف للمطالعة والكتابة والعبادات التى قاربت التصوف. ولاندرى سبباً مباشراً لهذا القرار وإن كان يبدو حصيلة سنين من المعاناة من الصراعات المذهبية (أى بين أتباع المذاهب السنية الأربعة) والسياسية والمنفعية والتكالب على المناصب والفساد والرشاوى التى عايشها المقريزى عن قرب من خلال اتصاله بالسلطان برقوق وابنه فرج وبكبار رجال دولتيهما ومن بعدهما بالسلطان المؤيد شيخ الذى أدناه فى بداية حكمه ثم أبعده من غير ما سبب واضح، ومن خلال المناصب التى شغلها خلال تلك الفترة وعلى رأسها وظيفة حسبة القاهرة التى احتلها ثلاث مرات (آذار-آب ١٣٩٩ ؛ كانون الثانى- نيسان ١٤٠٠ ؛ نيسان-آيار ١٤٠٥) والتى أتاحت له الفرصة لكى يشاهد بعينيه السوس الذى كان ينخر فى بنية السلطة المملوكية والفساد الذى استشرى فى مختلف طبقات المجتمع من عامة وحكام. وقد شحنت تجربة الحسبة قريحة المقريزى وأمدته بالخبرة اللازمة والمعلومات الوفيرة التى استعملها فى تأليف كتيبيه المهمين: الأول، إغاثة الأمة بكشف الغمة، عن الضائقة الاقتصادية التى واجهت المجتمع المملوكى فى بداية القرن الخامس عشر، والثانى، شذور العقود بذكر النقود، عن السياسة النقدية للدولة المملوكية، ليأتى من بعدهما كتابه الفريد عن الخطط وافياً وشاملاً فى معلوماته العمرانية والاقتصادية والتاريخية.

وقد ظهرت أول أعراض القرف على هذا العالم الشديد الإيمان ونقيه عندما كان بصحبة السلطان فرج بن برقوق وحاشيته فى دمشق بين ١٤٠٧ و ١٤١٢. فقد عرض السلطان عليه قضاءها مراراً وهو يرفض ولو أنه باشر بعضاً من الوظائف الصغيرة من تدريس وإدارة وقف. وبعد مقتل فرج وانتقال السلطة إلى السلطان المؤيد شيخ عام ١٤١٢، عاد المقريزى إلى القاهرة من دمشق وأعرض عن الوظائف وانقطع فى داره عاكفاً على الخلوة والعبادة والتأليف، وتوقف عن التردد لأحد إلا فيما ندر. ولم يغادر القاهرة إلا مرتين على الغالب فى أواخر حياته للحج والمجاورة فى

«يامقريزى..
يا من تأتى دوماً بعد الطوفان
الطاعون هو الطاعون،
يأتى دوماً فى ذيل مجاعة»



المقريزى فى الوجدان المصرى المعاصر

عهداً.. عهداً يامقريزى..
ألا أترك هذا العالم.. دون فضيحة
لاأسأل أحد عدلاً.. فالعدل العادل لايُستجدى


مقهى قاهرى فى القرن الثامن عشر

مكة إتماماً لفروض دينه وانعكاساً لمتطلبات زهده المتنامى.

وقد قضى المقريزى النصف الثانى حياته (من ١٤١٢ إلى ١٤٤٢) فى عزلة نسبية بعيداً عن مواقع السلطة ومسييريها من سلاطين وأمراء وكتاب ووزراء. وكتب وصنف مجموعة من كتب الأخبار عن السلالات التى حكمت مصر الإسلامية وعن أهم رجالاتها، مجموعها سبعة، ابتدأها بكتاب صغير عن دخول العرب إلى مصر وترتيب قبائلهم سماه البيان والإعراب عمن دخل مصر من الأعراب، أتبعه بكتاب عن عاصمة مصر الإسلامية الأولى تحت عنوان، عقد جواهر الأسفاط فى تاريخ مدينة الفسطاط، وهو للأسف مفقود اليوم، ثم كتابه المهم عن الفاطميين، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، المتعاطف مع هذه السلالة الحاكمة التى أدانتها العقلية السنية السائدة والذى يفصح عنوانه ومضمونه عن ميول المقريزى للفاطميين الذين كان يعتقد أنه من سلالتهم، وفى النهاية كتابه الكبير والمهم السلوك لمعرفة دول الملوك، الذى يعرض فيه حوادث العهدين الأيوبى والمملوكى بما فيها مشاهداته الشخصية حتى قبيل وفاته.

ويبدو أن المقريزى قد اتبع الترتيب الزمنى فى تأليف هذه الكتب مع أنه شغل نفسه خلال نفس الفترة بتجميع كتيبات صغيرة عن مواضيع مختلفة، أغلبها تاريخى أو ترجمى (مجموعها ١٩ كتيباً، منها ١٢ منشورة وفقاً لمعلوماتى). وخلال هذه الفترة الطويلة كلها كان المقريزى مشغولاً على الدوام بكتابه المركزى، «كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، الذى أخذ من جهده أكثر من أى من مؤلفاته الأخرى ومات دون أن يكمله كما أراد واشتهى. فهو على مايبدو من خلال التواريخ التى تظهر ضمن الكتاب مافتئ يزيد وينقح فيه منذ بداية تأليفه حوالى العام ١٤١٥ وحتى سنتين قبل وفاته (١٤٤٠)، بل حتى يظهر أنه عدل فى مخططه الأساسى ومنهجه مع مرور الزمن وتراكم المواد الأولية لديه من جهة، وتغير رأيه بالنظام المملوكى القائم من جهة أخرى، كما يظهر ذلك واضحاً من مقارنة المسودة التى نشرها أيمن فؤاد سيد والتى تمت كتابتها بين ١٤١٥ و١٤٢٠ على رأى ناشرها، مع المبيضة المنشورة والتى تعود افتراضاً إلى آخر تنقيح وإضافة أجراهما المقريزى على الكتاب قبيل وفاته وإن كان مازال غير كامل وفقاً لما وعد المقريزى به نفسه فى ديباجة الكتاب. ولايقتصر النقص على غياب جزء أو اثنين من المخطط الأصلى، خاصة القسم الأخير الذى كان يفترض أن يحلل أسباب الخراب فى مصر، بل يتعداه ليشمل بقاء عدد كبير من الأقسام ناقصاً أو مخلوط العبارة، بل وأحياناً مشوشاً ببعض الأخطاء اللغوية. ومع ذلك فهذه المبيضة التى وصلتنا ونشرت فى بولاق عام ١٨٥٤ أقرب مايكون إلى الاكتمال بحيث أننا إذا ماضربنا صفحاً عن الأخطاء غير المقصودة لأمكننا أن نعتمدها معياراً لفكر المقريزى النقدى وأسلوبه فى قراءة التاريخ العمرانى لمدينته وبلده.



فهذا العالم والمؤرخ الملتزم والحساس كان، كما يخبرنا تلميذه المؤرخ ابن تغرى بردى، «مبعوداً فى الدولة، لايدنيه السلطان مع حسن محاضرته وحلو منادمته.» وبما أن السلاطين بعد الظاهر برقوق الذى كان حاميه وسميره. خاصة فرج ابن برقوق فى آخر عهده ولكن أيضاً المؤيد شيخ وبرسباى، «أبعدوه من غير إحسان» على حد رأى ابن تغرى بردى أيضاً فقد أخذ هو فى ضبط مساوئهم وانتقاد سياساتهم نقداً عنيفاً»، على أنه كان «ثقة فى نفسه، ديناً، خيراً. وقد قيل لبعض الشعراء إلى متى تمدح وتهجو، فقال، مادام المحسن يحسن والمسىء يسىء.» وهذا هو فى الحقيقة لسان حال المقريزى الذى تمكن، بحكم إبعاده عن الدولة، من الجهر فى كتاباته بما لم يقله غيره علانية حفاظاً على المنصب والصلة، ومن تتبع أخطاء ومثالب وفساد الحكام فى زمانه. وحاول من ضمن معطيات علمه وعقيدته تحليل مظاهر الفساد وتبيان نتائجها فى تدهور الاقتصاد المملوكى وزيف العملة وتفسخ المجتمع وفى الخراب الذى حاق بعمران مصر والقاهرة بشكل خاص. وهو قد اتخذ منهجاً جديداً للولوج إلى مبتغاه النقدى، أى المدخل العمرانى، وتطرق إلى نقد الدولة والمجتمع والاقتصاد



والسياسة والثقافة وبعض العادات والتقاليد من خلال تتبع آثارها العمرانية والمعمارية. أى أنه جعل العمارة بأوابدها ومبانيها العادية والعمران من أحكار وخطط وحارات وأسواق وطرق وترع وخلجان مؤشرات على صحة المجتمع والدولة ودلائل تاريخية يمكن للدارس الفطن أن يقرأ فيهما تاريخ مصر والقاهرة، وبالقياس غيرها من المدن. وهذا أيضاً سبق منهجى آخر فى الثقافة العربية.

لايخفى على قارئ اليوم ملاحظة مدى وعمق تعلق المقريزى ببلده مصر ومدينته القاهرة، لامن خلال تخصيصه كتاب الخطط للبحث فى تاريخها العمرانى فحسب، وإنما أيضاً من خلال النبرة التى يعتمدها فى الكلام عن مصر أو عن القاهرة أو عن أماكن ذكرياته المفضلة فى المدينة وخاصة حارته، حارة برجوان، خلال الكتاب كله. ويظهر حبه لمصر أوضح مايظهر فى المقدمة التى تنفح بالمشاعر الجياشة تجاهها كونها «مسقط رأسه وملعب أترابه ومجمع ناسه ومغنى عشيرته وموطن خاصته وعامته وجؤجؤه الذى ربى جناحه فى وكره.» وهو بهذه المشاعر يظهر أكثر مايظهر وطنياً غيوراً قبل ظهور فكرة الوطنية نفسها وإن كان فى سرده المسجع والسهل قد اختزل كل ما حاولت الوطنية الحديثة بعده بأربعة قرون إذكاءه فى نفس المواطن من مفاهيم تهدف لتثبيت انتمائه لبلده وقومه وتجذيره فى تاريخهما ولغتهما وانتصاراتهما وكبواتهما.

وفى المقدمة أيضاً، يفصح المقريزى عن الهدف الأساسى الذى حداه إلى وضع هذا الكتاب الموسوعى: الخوف على ذكرى الخطط والمصانع والأوابد الهامة فى مدينته من الزوال بسبب التدهور الحاصل فى عمرانهما فى الفترة العصيبة والقلقة التى عايشها المقريزى نفسه، والتى تعددت فيها أسباب الانحطاط والتدهور. فهناك الصراعات والفتن الداخلية فى بداية العهد الجركسى من الدولة المملوكية التى شهدت انقلاباً فى نظام الحكم قاده المغامر الأمير برقوق الذى قضى على السلالة القلاوونية التى حكمت أكثر من قرن (١٢٨٠-١٣٨٢) والذى احتاج وقتاً وجهداً وسياسةً لتثبيت حكمه والقبول به من مختلف قطاعات الجيش المملوكى. وهناك الآثار الرهيبة لطاعون «الموت الأسود» الخاطف والهائل الذى ضرب حوض البحر الأبيض المتوسط بين عامى ١٣٤٨-١٣٤٩ وحصد أكثر من ثلث مجموع السكان فى تلك البلاد، وغير معادلات النمو والاقتصاد فيها والذى لم تستطع الدولة المملوكية -على خلاف الدول الأوروبية التى أصيبت به أيضاً- النهوض من كبوتها بعده. وهناك الغزو التيمورلنكى العاصف والكاسح فى بداية القرن الخامس عشر الذى دمر الاقتصاد السورى، رديف اقتصاد مصر، وقضى على طبقات الحرفيين المستقرة فى المدن السورية، واستنزف موارد مصر فى تهيئة ودعم الجيش المملوكى. وفوق ذلك كله، هناك السبب الأول والأساسى للتدهور - برأى المقريزى - ألا وهو فساد المماليك أنفسهم وابتعادهم عن الطريق الشرعى القويم وتكالبهم على جمع الثروات بكل الطرق بغض النظر عن الخراب الناتج عن أساليبهم الشرهة وقصيرة النظر فى الإثراء على حساب دوام الاستقرار الزراعى والتجارى ورضا الرعية.



هذا الهاجس يجد طريقه للظهور فى الكتاب أكثر من مرة. ويبدو لى أننا يمكننا اعتباره المفهوم الناظم للكتاب بحق. فهو الذى يدفع المقريزى فى سباق محموم مع الزمن لأن يسجل بوله زائد كل تفصيلة عمرانية ومعمارية وتاريخية مهمة من وجهة نظره ومن ضمن مفاهيمه عن كل مبنى فى القاهرة وبدرجة أقل فى الفسطاط والمدن المصرية الأخرى خوف اندثارها وبالتالى نسيانها ونسيان العز والبحبوحة والاستقرار الذين أنتجوها بادئ ذى بدئ. ومن هنا تأتى جدة الكتاب وتباينه عن غيره من كتب الخطط التى عنيت بتسجيل الملامح العمرانية للقاهرة والفسطاط قبل وبعد المقريزى. فهذا القاهرى المتفرد والحساس، غريب الأطوار والمسكون بهموم مدينته يكتب بعاطفة جياشة ومفعمة تنسل إلى كلماته وجمله وأفكاره فتضفى عليها بعداً أيدولوجياً وأنطولوجياً (كينونياً) واضحاً. فهو من خلال كتابه يتمسك بذكريات قاهرته التى ولت مع التدهور الحاصل فى العهد الجركسى المبكر ويحاول إعادة سكبها وصفاً مفصلاً ومعبراً ومكتملاً لكل دقيقة من دقائق تاريخها. فهو بذلك يحاول أن يخلق فى خططه «موئلاً للذاكرة» (lieu de mémoire) كما عرفها المنظر الفرنسى پيير نورا (Pierre Nora) بعد أن فقدت المدينة - مدينة طفولته ومدينة الذكريات التى تشربها من أهله عن عظمتها أيام عنفوانها - قدرتها على أن تكون «محيطاً للذاكرة» (milieu de mémoire) أى على أن تكون بما هى عليه الأرضية الواقعية التى تنداح عليها صورة المدينة كما يتمثلها أناسها ويعيشونها ويتذكرونها، والأهم من ذلك كله، يحبونها ويستمدون هويتهم وانتمائهم منها.

وهكذا نجد المقريزى يستعمل تيمة (theme) الخراب والخوف من النسيان والرغبة بحفظ ذكرى الماضى السعيد كلازمة ناظمة للعديد من فصول كتابه. فالأوقاف انتهكت من قبل الأمراء الشرهين ودمر دورها الاقتصادى والعمرانى بفعل الاستيلاء والاستبدال والبيع التعسفى وهى كلها بدع أدخلها الجراكسة على حد زعم المقريزى. والكثير من خطط القاهرة الجديدة التى انتعشت فى العهد المملوكى المبكر، وخاصة خلال فترة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (حكم ثلاث فترات بين ١٢٩٣-١٣٤١)، اضمحلت وتراجعت. وبعضها، كالمقس ومنشأة المهرانى والدكة والخندق والرصد وبلبيس تحول إلى خرابات. ومستوى المعيشة تدهور واتضعت أحوال الناس فتحول الأغنياء إلى لبس الجوخ بدل الحرير، وإلى إزالة التكفيت الفنى الرائع من أوانيهم النحاسية لبيع الذهب والفضة صرفين فقراً وإملاقاً. وزالت الأعياد الزاهية وذهبت بهجتها، فالفوانيس فى ليالى المواسم لم تعد تشعل كما فى الماضى، والزوارق التى تحمل اللاهين لم تعد تصعد وتهبط فى النيل وفى البرك، وأسواق الرفاه اختفت. والحكام ازدادت شراهتهم لوضع يدهم على كل مايطالونه من أموال الرعية حلالاً أو حراماً، والقضاة والأعيان صارت تعين بالرشوة. هذه الصور التى تبدو لنا اليوم مكررة بعض الشىء أعطت الكتاب إيقاعاً تشاؤمياً واضحاً بحيث لايمكن للقارئ إلا أن يحس به ويتألم لألم المقريزى وهو يشاهد عياناً استشراء الخراب فى مدينته.

ولكن المقريزى لايكتفى بنقد السلطة من خلال التركيز على الخراب العمرانى الحاصل بنتيجة فسادها وتجبرها وسوء إدارتها وابتعادها عن تعاليم الدين كما حددها حماته من العلماء والفقهاء، بل إنه يعمد للنقد نقداً صريحاً من خلال نماذج واضحة من بين السلاطين أو الأمراء الكبار الذين تسببوا بشكل مباشر فى الخراب العمرانى أو التدهور الاقتصادى أو فى فساد الذمم وطغيان الأهواء. ثم يثبت خلاصة رأيه فى تدهور السلطة المملوكية فى فقرة هى من أدق التحليلات السياسية التاريخية التى أعرفها - والتى يجدر بى أن أثبتها كاملة - يستخدم فيها ببراعة فائقة نظرية معلمه ابن خلدون بعد أن كيفها لتتلاءم مع النظام المملوكى الخاص بعصبيته الاصطناعية وبطبقته الحاكمة المكونة من جيل واحد لا يمرر السلطة لأبنائه وإنما يستورد مجموعة جديدة من المماليك لتحفظ عصبيته وتحل محله على قمة هرم السلطة.



فالنظام المملوكى الصارم والدقيق الذى وضع قواعده الأباء المؤسسون مثل الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون مكنهم من أن يصبحوا «سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون فى سبيل الله وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل ويردعون من جار أوتعدى، وكانت لهم الإدرارات الكثيرة» كما يرى المقريزى ماضى دولتهم الزاهى من موقعه. هذا النظام الذى سمح لهم بإقامة هرم سلطوى راسخ وعتيد اقتفى آثاره خلفاؤهم من بعدهم حتى عهد برقوق تضعضعت أسسه خلال حياة المقريزى الذى كان شاهد عيان لما يحلله. وهذا النظام الذى أفرز تراتبية محكمة لايمكن فيه للفرد المملوك من الصعود إلى رتبة الإمارة فيه إلا بعد مروره بمراحل تدريبية عسكرية ودينية وأدبية متعددة وصارمة بحيث تكون «أخلاقه قد تهذبت وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتد ساعده فى رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل ومنهم من يصير فى رتبة عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر» قد زال وولى على حد رأى المقريزى. ثم لما كانت أيام الظاهر



«ضاعت بنت المقريزى..
فى الطاعون
والطاعون يجىء دوماً فى ذيل مجاعة،
....
حين تصير اللحمة حلماً للفقراء»



برقوق «رخص للمماليك فى سكنى القاهرة وفى التزوج فنزلوا من الطباق فى القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلى البطالة ونسوا تلك العوائد ثم تلاشت الأحوال فى أيام الناصر فرج بن برقوق... وبقى الجلب من المماليك إنما هم من الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد فى تنور ومحول ماء فى غيط أشجار ونحو ذلك واستقر رأى الناصر «فرج بن برقوق» على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يتركون وشئونهم فبدلت الأرض غير الأرض وصارت المماليك السلطانية من أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً وأشحهم نفساً وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضاً عن الدين مافيهم إلا من هو أزنى من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب... فلا جرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولى الأمر».

هذا هو بيت القصيد من نقد المقريزى اللاذع والمباشر: خروج السلطة المملوكية عن قواعد الحكم والعدل والشريعة أدى إلى خراب البلاد. ولاأظن أن أى وصف تقريرى لسوء الحكم كان يمكنه أن يبلغ من التأثير مايبلغه وصف المقريزى للآثار العمرانية التى سببها هذا التدهور وهذا التخبط الإدارى والسياسى. وعلى هذا الأساس تبرز للسطح الخاصية السياسية النقدية لكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. فالموعظة والعبرة هنا ليست تجريدية أخلاقية محضة، بل هى تقريرية وفاعلة: عمران الخطط لايتم إلا بصلاح السلطة. ولايجدر بنا أن ننتظر من المقريزى أن يذهب أبعد مما ذهب إليه، كأن يدعو لتغيير الحكام مثلاً. فلا تربيته ولا خلفيته الإسلامية ولا محيطه العلمى أو الفقهى تسمح بهذا النوع من التفكير والاستنتاج. ولكنه بنظرة المؤرخ المحلل والمنظر الثاقبة تمكن من استيعاب العلاقة بين ازدهار المدينة وعدالة السلطة، ووضع يده بجرأة يعز نظيرها حتى فى يومنا هذا على الجرح الذى عاينه ينزف وحلل مسبباته وبين نتائجه. فالمقريزى بالحقيقة فى كتابه هذا رائد معرفى سابق للعديد من الأنواع التاريخية الاجتماعية التحليلية التى ظهرت فى أوروبا القرن التاسع عشر وأسست من خلالها علوم اجتماعية مهمة كالتاريخ الاقتصادى والتاريخ العمرانى والسوسيولوجيا، والنوع الأكثر شمولية والذى كان يعرف بتاريخ الحضارات (History of Civilization).

على ذلك فقد صار هذا الكتاب مرجعاً أساسياً لكل من كتب عن تاريخ مصر والقاهرة العمرانى. فقد سار على منواله كل من تنطح للكتابة فى هذا الموضوع فى العصرين المملوكى والعثمانى مثل السيوطى فى كتابه «حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة»، وأبى حامد القدسى فى «الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة»، ولو أنهما وغيرهما لم يصلوا إلى مستوى المقريزى فى استيعاب العلاقة بين العمران والمجتمع والسلطة السياسية. ولم يأت من يتحدى الموقع الريادى للمقريزى كمؤرخ القاهرة الأهم والأعمق حتى بداية القرن التاسع عشر عندما هبت رياح التغيير المعرفى على مصر على شكل نزول مجموعة من العلماء الفرنسيين مع حملة نابوليون بونابرت الاستعمارية (١٧٩٨-١٨٠١) وانكبابهم على دراسة كل مايمكن دراسته عن مصر، تاريخياً وجغرافياً وطبيعياً وانثربولوجياً وعمرانياً ومعمارياً، دراسة وافية ومفصلة ظهرت نتائجها على شكل المجموعة الموسوعية الهائلة الحجم «وصف مصر»، التى ظهرت تباعاً فى باريس بين عامى ١٨٠٣ و١٨٢٨ على شكل تسعة أجزاء من النصوص واثنى عشر جزءاً من الأشكال من القطع الكبير شكلت فيما بينها قاعدة معرفية متكاملة لدراسة مصر حسب ماتوصلت إليه مناهج الابستمولوجيا الأوروبية فى القرن التاسع عشر. وقد احتلت دراسة عمران وعمارة القاهرة مايقارب الجزء من النصوص وجزءاً من الأشكال من القسم المخصص لمصر الحديثة. وكان المقريزى، ولا غرابة، مصدراً أساسياً للعلماء الفرنسيين الذين اعتمدوا على ترجمات ناقصة لخططه فى نصوصهم، ولكنهم، بطبيعة الحال، لم يشاركوه نقده للسلطة ولا ألمه لتدهور القاهرة فى عصره، وإن أدانت نصوصهم أيضاً سوء سلطة المماليك فى العهد العثمانى وحملتهم مسؤولية مباشرة عما آلت إليه أحوال مصر فى القرن الثامن عشر. وقد اختلفت الأهداف طبعاً بين المقريزى والفرنسيين الذين كانوا يفتشون عن مبرر أخلاقى وعملى لاحتلالهم لمصر من خلال نظرتهم لأنفسهم كأصحاب مهمة حضارية هدفها انتشال مصر صاحبة الحضارة الفرعونية المتألقة من وهدة قروسطيتها المتطاولة وإدخالها العصر الحديث، طبعاً فى ظل الحماية، أو الوصاية، الفرنسية.



حافظ المقريزى على موقعه كمؤرخ القاهرة الرئيسى فى الفترة اللاحقة لكتاب «وصف مصر»، بل واستمر باحتلال مركز الصدارة كمرجع أساسى بالنسبة للمؤرخين المصريين المحدثين الذين ابتدأوا منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحت ضغط الحداثة الأوروبية المنشأ بالاهتمام بتاريخ مصر العمرانى ثانية بعد ركود طويل. ولم يعامل هؤلاء المؤرخون المحدثون المقريزى على أنه مصدر معلوماتى فقط، بل اتخذه الكثير نبراساً فكرياً ومنهجياً، حتى أن البعض قلدوه فى لغته كما هى حال على باشا مبارك فى كتابه «الخطط التوفيقية الجديدة»، الذى أكمل فيه خطط المقريزى من حيث انتهت فى القرن الخامس عشر، بل وبنى ما أضافه من معلومات واحصائيات على ديدن خطط المقريزى من دون إدخال أية أشكال توضيحية أو مخططات على النص الوصفى التفصيلى مع أنه كان قطعاً مطلعاً على الكتب العمرانية الأوروبية الحديثة، وعلى «وصف مصر» بالذات. ولكن خطط مبارك على عكس خطط المقريزى لاتحمل فى طيات تحليلها العمرانى هموماً اجتماعية ولاتنبئ عن نفس نقدى قوى، بل ولاحتى توحى بأن هناك علاقة مباشرة بين العمران والسياسة على الرغم من أنها كتبت على الأغلب بهدف حصر منجزات الخديوى اسماعيل، راعى مبارك الأصلى، وابنه توفيق الذى أخذ الكتاب اسمه.

ومازال المقريزى حتى يومنا هذا يشغل موقعاً متميزاً بالنسبة لمؤرخى القاهرة من مصريين وغيرهم الذين يعولون عليه فى بحثهم فى تاريخ القاهرة العمرانى وتاريخ مصر بل وحتى بعض النقاط المهمة فى التاريخ الثقافى الإسلامى، ليس فقط فى معلوماته بل أيضاً فى منهجه واتجاهه. وهو بالإضافة لذلك يحتل موقعاً متميزاً فى وجدان المؤرخين المصريين المعاصرين الذين يشعرون بتآخ عقلى وعاطفى معه من خلال وطنيته الواضحة فى الخطط حتى أن بعضهم، كمحمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، نعته بالوطنى الغيور بغض النظر عن أنه عاش ٤٠٠ سنة قبل ظهور فكرة الوطنية كما نعرفها.

ولم يبق التأثر بالمقريزى والإعجاب بخططه محصوراً بمجال الكتابة التاريخية بل تجاوزها فى السنين الأخيرة ليلج المجال القصصى والروائى على يد روائيين كبار مثل جمال الغيطانى الذى تقمص دور المقريزى فى مجموعته الصغيرة «خطط الغيطانى» (١٩٨٠) والتى يمكن رؤيتها كاستكمال معنوى لتأريخ عمران القاهرة الذى بدأه المقريزى فى محاولة منه لحفظ ذكرى العصر الذهبى الذى ولى. ولكن خطط الغيطانى تؤرخ لقاهرة معاصرة بأسلوب فردانى، غير سردى أساساً، يتمحور حول علاقة الكاتب نفسه الحميمية والخاصة بالقاهرة الشعبية المعاصرة، وحول رؤيته السياسية النقدية لتغير ملامح المدينة وطبوغرافيتها بتغير رموز وأشكال السلطة فيها وتطور وسائل قمعها وسيطرتها على الرأى العام. وقد خطا الغيطانى خطوة جريئة جديدة فى كتابه «سفر البنيان» (روايات الهلال، سبتمبر ١٩٩٧) حيث تماهى مع العمارة نفسها وأحياناً مع عناصرها المكونة، محولاً إياها إلى أدوات تعبيرية عن فلسفته الوجودية التى طورها بشكل حثيث من خلال تواصله مع الكتابات التصوفية الإشراقية القروسطية، وبخاصة فلسفة ابن عربى وأتباعه، وتجاربه فى إعادة صياغتها روائياً وتعبيرياً. فهو هنا، بعد تجارب متتابعة أودعها معظم كتبه التى نشرها فى الثمانينيات وبدايات التسعينيات، يستلهم من العمارة الكثير ويحملها من المعانى مايتجاوز المباشر والصريح إلى «بث لرسائل خفية يصعب التصريح بمضامينها لصعوبة العوامل المدبرة للوقت»، حسب تعبيره.

ولم يقتصر ظهور المقريزى فى الأدب المصرى الحديث على الرواية التاريخية أو شبه التاريخية أو السيرة الذاتية كما فى أعمال

«ضاعت بنت المقريزى..
فى الطاعون..
فى طوفان المال..
ضاعت فى أنياب رجال الأعمال»

المقريزى فى الوجدان المصرى المعاصر



الغيطانى، بل تعداها ليظهر فى نوع أدبى قليل الانتشار فى الأدب العربى مقارنة بطغيانه فى آداب ثقافات أخرى: الخيال العلمى، وبالتحديد روايات السفر عبر الزمن. فالمقريزى نفسه يظهر كشخصية متميزة فى واحدة من أكثر الروايات المصرية المعاصرة سخرية ونقداً، وبالنهاية تشاؤماً من الوضع الصعب الذى تمر به البلاد، «رحلات الطرشجى الحلوجى» (١٩٩١) لخيرى شلبى. فى هذه الرواية الخيالية يتنقل الراوى، ابن شلبى أو الكاتب نفسه، فى الزمان القاهرى الماضى من دون أن يكون له أدنى سيطرة على سفره عبر الزمن من أجل هدف مضحك: حضور احتفال أول يوم من رمضان الذى يقيمه الخليفة الفاطمى المعز لدين الله بمناسبة انتهاء أعمال البناء فى عاصمته الجديدة القاهرة. ولكن الهدف الأعمق من هذه الرحلات العشوائية على الأغلب هو تمكين الراوى/ الكاتب من بناء شخصية مصرية متسامحة، مرحة، طيبة القلب وأزلية البعد، ربما كمحاولة من خيرى شلبى لدفع الشعور الكئيب بالعجز عن فهم التطورات المعاصرة فى مصر حيث يسود التعنت والتعصب والانغلاق والعودة إلى أصالة صناعية ومركبة من تأثيرات سلفية من داخل وخارج مصر.

ولايتمكن الراوى ابن شلبى من الوصول إلى دعوته فى القصور الفاطمية، وإنما نتابعه وهو يترامى من زمن قاهرى لآخر قبل وبعد بناء القاهرة ومروراً بعهود الفاطميين والمماليك. وهو فى تجواله عبر الزمن يمر بشخصيات فوق-زمنية مثله، كابن الحكم وابن تغرى بردى وستانلى لين پول صاحب كتاب تاريخ القاهرة، ولكن أهمها تقى الدين المقريزى الذى يلعب فى الرواية دوراً أساسياً كدليل ابن شلبى فى كل مايتعلق بتاريخ القاهرة السياسى والمعمارى. فهو شيخ جليل مهتم بمتابعة تاريخ القاهرة العمرانى أينما حل ومهما حصل له. وهو يشرح لابن شلبى كلما التقاه عبر الزمن أهمية لحظة اللقاء وطوبوغرافية مكان اللقاء. وهو متواضع وتواق للعلم والمعرفة لايتردد فى أن يعبر لابن شلبى عن امتنانه لكل معلومة إضافية يمكنه تسجيلها على الرغم من وعيه بأنه قد جمع كل مايمكن جمعه فى زمنه. وعندما يشرح ابن شلبى للمقريزى ماحل بموقع خان الخليلى فى زمانه هو أى فى القرن العشرين، يتنهد المقريزى ويقول: «لم يبق إلا الاسم...آه يا مصر كم تحتفظ ذاكرتك من أسماء».

هذه العبارة القصيرة تختصر مكانة المقريزى فى الوعى المصرى المعاصر كصاحب أوسع وأشمل وأعمق كتاب عن تاريخ مصر القروسطى. فهو الذى حفظ ذكرى العديد من الأمكنة التى اندثرت بحفظه لأسمائها، وهو أيضاً الذى حفظ وصف هذه الأمكنة والقصص التى نسجت حولها مما منحها بعداً تاريخياً بغض النظر عن اختفائها مما أبقاها حية فى أفئدة المعاصرين. فالمقريزى إذن لعب ومازال يلعب دوراً مهماً فى خطاب الهوية الوطنية المصرية، فهو الذى يقدم تاريخ المكان وتاريخ الناس، أى الأجداد، الذين عاشوا فيه، على الأقل حتى القرن الخامس عشر.



أى أن كتاب المقريزى عن خطط مصر أصبح فى عصرنا هذا المفعم بالوطنية المهيضة التى تفتش عن خلاصها موئل ومخزن التراث الوطنى ببعديه القومى، كتاريخ سردى متكامل لصيرورة الناس الذين عاشوا فى البلاد فى الماضى، والمكانى، كتاريخ مادى متكامل لكل مابنى وعمر واستصلح وأسس وأوقف ثم تهدم وزال واندثر، فى الوقت الذى اختفى فيه ممثلو البعدين الأصليين، أى الناس والأبنية. هذان البعدان يشكلان فيما بينهما الدعامتين الأساسيتين لأى شعور بالتراث الوطنى، ذلك المكون الأساسى للهوية الوطنية مع غيره من العناصر الأساسية كاللغة والأرض والمصير المشترك. وهما كذلك، بالكتابة عنهما كما فعل المقريزى بجرأة واقتدار وبعد نظر، يشكلان الطرفين الرئيسيين فى أى محاولة لإعادة استحضار هذا التراث الوطنى إما لتأجيج الإحساس بالمواطنة والانتماء أو لأسباب أخرى مثل زيادة الوعى بأهمية التراث المبنى أو دعم حملات ترميمه وحفظه وإعادة استخدامه استخداماً لائقاً.

وبالتالى فالمقريزى قد أصبح اليوم علامة وهادياً ورائداً فى الشعور والمخيال المصرى المعاصرين ليس فقط بفضل المعلومات التى حفظها فى كتابه عن الخطط، بل بفضل تحليله التاريخى العميق ونفسه الوطنى شديد الانتماء والعارم المبثوثين فى تضاعيف الكتاب الذى أزعم أنه أسس لكتابة تاريخية منتمية وملتزمة فى مصر. وقد لاحظ خيرى شلبى نفسه هذا البعد وعبر عنه بصراحة فى إهدائه لكتابه الشيق «بطن البقرة» إلى ابن عمه الشيخ على محمد عكاشة إذ يقول عن ابن عمه هذا: «قلّبتُ فى مكتبته وأنا طفل فى سنوات الدراسة الأولى، فوقع فى يدى المجلد الأول من خطط المقريزى، ففتنتُ به، كان بلا غلاف، وبلا عنوان، فأعطيته عنواناً من عندى استقيته من موضوعه: تاريخ البيوت والشوارع، وأظن أن تلقائية الشعور فى ذلك العنوان لا تزال تحكم نظرتى لهذا العلم الفريد: علم الخطط، أى تاريخ المكان.» ولا يكتفى شلبى بتلك الإحالة إلى خطط المقريزى بل إنه يستخدم فى روايته التى ينعتها بأنها رواية جغراوية أو رواية جغرافية، أسلوباً سردياً يذكرنا بالمقريزى فى بحثه المحموم عن كل نتفة معلومات عن المبانى التى يوثقها وعن تاريخها وعن مآلها من أجل هدف أوسع من التحقيق والتوثيق: إبراز أهمية المكان وفعاليته فى تأطير حياة البشر، ونقد الإهمال الذى تتعرض إليه المدن والمبانى والتلميح إلى أسبابه ومسببيه، بل والتصريح أحياناً، مما يضفى على «الخطط» وعلى «بطن البقرة» معاً صفة النقد السياسى على الرغم من اختلاف المنحى والمنهج والزمن بين المقريزى وخيرى شلبى.

النقد السياسى إذن هو البعد الأعمق فى خطط المقريزى الذى تنبه له الكثيرون من المبدعين المعاصرين الذين استخدموا خطط المقريزى لأهداف أوسع من دراسة تاريخ القاهرة أو مصر. فللانتماء والالتزام بعد جامع مهم تمثله المقريزى فى خططه بطريقة واضحة وبتارة ودامغة لكل من ساهم فى تدهور قاهرته وتعثر بنيانها. وقد التقط هؤلاء المبدعون الحساسون والملتزمون المعاصرون هذه الخصلة وبنوا عليها نقداً معاصراً لايقل فى التزامه وانتمائه عن نقد المقريزى وإن كان يفوقه تحليلاً وعمقاً، وفى حالة الأدباء منهم، شاعرية. هناك العديد من الأمثلة التى يمكن أن تطرح هنا ولكن أروع وأعمق ماقرأت فى الأدب العربى المعاصر الذى يستلهم المقريزى، وأكثره تشاؤماً ويأساً فى الآن نفسه، هى قصيدة «تداعيات السكر والضياع» للشاعر المرحوم نجيب سرور الذى أسماها قصيدة انتحارية وكتبها فى نهاية ١٩٧٧ قبل أقل من عام على وفاته المبكرة. ففيها يقول نجيب سرور:

ماذا سوف يقال
أيقال بأنا قلنا بالرمز..
بالهمس... الهمز..
وبكل فنون القول الشفرى..
قلنا مافى الخمر...
لكن الناس..
كانوا عنا مشغولين ..
بشئون اللقمة..
وخصوصاً كيلو اللحمة..
لكن سوف يجىء المقريزى يقول:

«قد ذكر الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه فى كتاب أخبار مصر قبل الاسلام، وهو كتاب جليل الفائدة رفيع القدرة أن أول غلاء وقع بمصر كان فى زمن الملك السابع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان واسمه أفروس بن مناوش الذى كان طوفان نوح عليه السلام فى زمنه، على قول ابن هرجيب بن شهلوف. إغاثة الأمة بكشف الغمة، أو تاريخ المجاعات فى مصر

يامقريزى..
يا من تأتى دوماً بعد الطوفان
الطاعون هو الطاعون،
يأتى دوماً فى ذيل مجاعة،
خطف ابنتك، وخطف بنات الناس..

ولكن سرور لايتوقف فى استحضاره عند إخبارية المقريزى، أو مشاركته الغم بالبلاء الحاصل والذى أصاب المقريزى فى أعز الناس لديه، بل يخاطبه كحليف فى انتقاد الخطأ، وحليف فى الأسلوب والمقاربة، حتى أن سرور الشاعر ينبذ الشعر ويعتمد النثر على طريقة المقريزى لأن النثر سلاح أقوى فى النقد المباشر الذى يهدف إليه كلاهما. فها هو نجيب سرور يتابع:

عهداً ..عهداً يامقريزى..
ألا أترك هذا العالم..
دون فضيحة
لاأسأل أحد عدلاً..

«حين تصير اللحمة حلماً للفقراء،

.....

عندئذ يفترس الغضب القردة..
والفيران.. والذؤبان..
عندئذ يأتي الطوفان»

نجيب سرور



فالعدل العادل لايُستجدى،
والقاضى فينا الكاهن،
والكاهن فينا القاضى،
كل خائن
فليكتب غيرى الشعر..
لكنى أكتب خطط المقريزى..
أمشى بخريطته فى بحر الظلمات،
أبحث فى وطنى عن وطنى
لكن لاأفقد فى الغوص..
فى الضوضاء.. الصخب.. العنف.. طريقى
فليكتب غيرى الشعر..
لكنى ماكنت لأكتب.
سطراً أو شطراً واحد..
من أجل الشعر فحسب،
هذا عصر النثر
أنى أعرف من أين أتيت،
ولماذا، ولمن جئت،
وإلى أين أسير
أعرف وطنى لكنى لاأجده
أشرب.. أشرب ليل نهار،
وأغوص.. أغوص إلى أعماقى،
وهناك أراه
فى قلبى لؤلؤة قدسية..
لايمكن أن تتحطم،
حتى لو سقط عليها جبل عملاق

وبعد مقطع شديد السوداوية من القصيدة يعود نجيب سرور لاستحضار المقريزى بصفته ضمير الأمة الذى لاحظ الفساد فى عهده وانتقده بجرأة ووضوح، مما أتاح لتابعيه أن يستخدموا نصوصه كرمز للمنهج النقدى الملتزم. فهنا تواصل مابين ناقد قروسطى حساس ومفعم بالأسى لخراب البلاد بسبب عبث أولى الأمر والفساد وطغيان الجور والظلم وشاعر ناقد ماركسى ملتزم وضع يده على الجرح الذى تنزف منه مصر: اختلال الحس الوطنى والحس الاجتماعى بسبب من طغيان السلطة وتكالب رأس المال والجهل وسيادة التقاليد البالية. ويصوغ نجيب سرور آراءه بطريقة لابد أن ترضى المقريزى بالرغم أيضاً من تباين المنهج والأسلوب والنظرة والزمان:

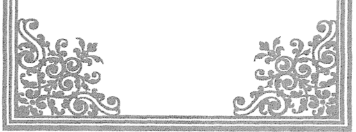
ضاعت بنت المقريزى..
فى الطاعون
والطاعون يجىء دوماً فى ذيل مجاعة،
حين تصير اللحمة ترمومتر الأسعار..
حتى أسعار الكتاب.. القصاصين.. الشعراء..
الفنانين.. العلماء..
حين تصير اللحمة حلماً للفقراء،
ويصير الفول
فاكهة السادات الطبقات العليا-
فاكهة أيضاً للعامة.. للطبقات الدنيا..
عندئذ يفترس الغضب القردة..
والفيران..
والذؤبان..
عندئذ يأتى الطوفان
والسبب الأول يامقريزى:
«السبب الأول وهو أصل هذا الفساد، ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة. كالوزراء والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال، بحيث لايمكن التوصل إلى شىء منها إلا بالمال الجزيل.. فتخطى لأجل ذلك كل كاهل ومفسد. وظالم وباغ إلى مالم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة، لتوصله بأحد حواش السلطان ووعده بمال للسلطان على مايريده من الأعمال فلم يكن بأسرع من تقلده ذلك العمل وتسليمه إياه..»
ضاعت بنت المقريزى..
فى الطاعون..
فى طوفان المال..
ضاعت فى أنياب رجال الأعمال
ياقوت ماأنت ياقوت ولاذهب
فكيف تعجز أقواماً مساكينا؟
كيف لايشرك المضيقين فى النعمة قوم عليهمو النعماء؟
وقد يرزق المجدود أقوات أمة
ويحرم قوتَ واحد وهو أحوج؟

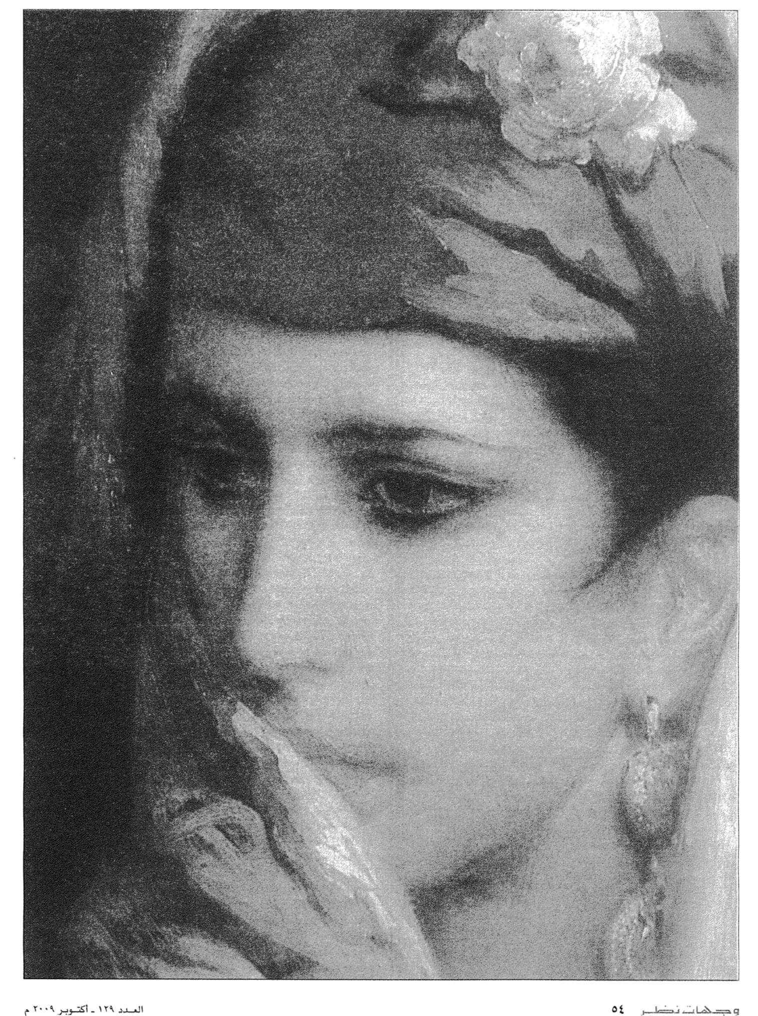
يبدو واضحاً هنا أن نجيب سرور بحساسيته النقدية المرهفة إلى حد الهوس وبالتزامه الأخلاقى العالى قد وجد فى المقريزى، وبشكل خاص فى مقريزى الخطط، صنو روحه ورفيق دربه وكفاحه وميزان حكمه ونقده. ولاأظن أن أحداً ممن كتب الأخبار أو الخطط قد بلغ هذه المرتبة التى بلغها المقريزى أساساً لا لكونه أكثر الإخباريين دقة أو سعة معرفة وشمول نظر فحسب (على الرغم من بعض الهنات التاريخية التى ركز عليها نقاده)، بل بسبب من استنباطه من تأريخ العمران ملاحظات عن الاقتصاد والاجتماع والسياسة، وطرحها لقرائه من منظور عالم مسلم ورع وملتزم، عالم يرى الضرر فلا يملك إلا أن يشير إليه ويبين علته ودواءه الذى هو بطبيعة الحال فقهى ودينى بسبب البيئة والزمان والخلفية العلمية. ومع ذلك فقد استطاع المقريزى أن يصوغ من انتمائه والتزامه ومعرفته وبحثه وألمه لما يراه فى مدينته وبلده خطاباً نقدياً مازال يؤثر فى الوجدان الحى للأمة المصرية ممثلاً ببعض ألمع كتابها ومفكريها وأكثرهم تفاعلاً مع مجريات الأمور فى تاريخها المعاصر. ■

كتاب الزاوية

«نونية» ابن زيدون فى ولادة بنت المستكفى

أضْحَى التّنائى بَديلاً عنْ تَدانينَا،
وَنَابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تجافينَا
ألاّ وَقَد حانَ صُبحُ البَينِ، صَبّحَنا
حَيْنٌ، فَقَامَ بِنَا للحَيْنِ نَاعيِنَا
مَنْ مبلغُ الملبِسينا، بانتزاحِهِم،
حُزْناً، معَ الدهرِ لا يبلى ويُبْلينَا
أَنَّ الزمانَ الَّذى مازالَ يُضحكُنا
أُنساً بقُربِهِمُ قد عادَ يُبكينا
غيظَ العِدا منْ تَساقينا الهوَى فدعَوْا
بِأنْ نَغَصَّ، فَقالَ الدهرُ آمينَا
فَانحَلّ ما كانَ مَعقُوداً بأَنْفُسِنَا؛
وَانْبَتّ ما كانَ مَوْصُولاً بأيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ، وَمَا يُخشَى تَفَرّقُنا،
فاليومَ نحنُ، ومَا يُرْجى تَلاقينَا
يا ليتَ شعرِى، ولم نُعتِبْ أعاديَكم،
هَلْ نَالَ حَظّاً منَ العُتبَى أعادينَا
لم نعتقدْ بعدكمْ إلاّ الوفاءَ لكُمْ
رَأياً، ولَمْ نَتَقلّدْ غَيرَهُ دِينَا
ما حقّنا أن تُقِرّوا عينَ ذى حَسَدٍ
بِنا، ولا أن تَسُرّوا كاشِحاً فِينَا





إصْبَحْ نَديمكَ من صهباءَ صافيةٍ حتَّى يروحَ كريماً ناعمَ البالِ
واشربْ، هُديتَ أبا وهبٍ، مجاهرةً واختلْ فإنَّكَ من قومٍ أولي قالِ

بين قيانٍ مغنياتٍ وراقصاتٍ وآلاتِ طرب

مباهج فى العصر الأموى

■■ الباحثة رجاء أحمد صادق تنكّبت جادّة «الشعر الخمرى فى العصر الأموى»، وفى دخيلتها إيمانٌ متعبدٌ عميق، ينفر من المحرّمات جميعًا، وينبذها قولاً وعملاً، ولا سيّما الخمرة التى هى رأس الشرور فى الإسلام.

ورجاء ابنة أسرة دينية تتوارث العلم الدينى وتترأس مجالسه أبًا عن جدٍ، منذ أكثر من ثلاثة قرون، فالعلامة الشيخ إبراهيم يحيى، الجد الرابع لرجاء صادق، كان المجتهد البارز فقهاً فى زمانه، والمبرز الأول شعرًا، وجدها لأبيها العلامة والشاعر والأديب المبرز، الشيخ عبدالحسين صادق، كان أحد أئمة زمانه فى العلوم الدينية، وكذلك عمّاها: العلامة الشيخ محمد التقى، والمفتى الشيخ حسن، إلى جانب نسيبهم العلامة الشيخ عبدالكريم ووالدها المتفقه فى دينه والمحافظ فى مسلكه ونهجه فى دنياه، كانوا مركز هداية للكثير من المسلمين والمؤمنين، وقد ترعرعت رجاء، وسط هذه الإضمامة الدينية، على إيمان عميق متعبِّد يعاف الحرام، وينكره قولاً وفعلاً، وقد انغرست فى أعماقها حساسية مفرطة نابذة لكل محرَّم، تستنكره وتدعو إلى نبذه، من باب «النهى عن المنكر»، وهو واجب كل مسلم خلوق شريف.

أما لماذا تنكّبت جادة الشعر الخمرى عامة والأموى منه بشكل خاص؟ فلأنها تدرك بعمق مدى الإبداع وقوة الصنعة البيانية والبلاغية لدى شعراء الخمرة عامة، ولأنها، بما لديها من حسٍ تربوى نفسى، وهى المربية الفاضلة العاملة فى ميدان التدريس، أنّ إدمان الخمرة تُشكّل عقدة نفسية لدى المؤمنين، تفرض نفسها على أحاسيسهم وتصرفاتهم وتفكيرهم وانفعالاتهم، فيشعرون بهيمنات روحية تجسِّدها أشعارهم الهائمة فى كل واد.

فهل نجحت الباحثة رجاء فى بحثها الخمرى، المعادى لها نفسيًا واعتقادًا ومسلك حياة؟

وهل استطاعت المواءمة بين حرجها الخمرى وبين الموضوعية والشفافية اللازمتين لأى بحث أو دراسة؟

والإجابة الواضحة والعميقة ستأتى سريعًا، عبر التقصِّى لما سطَّرته رجاء من آراء واستنتاجات فى بحثها: «فى الشعر الخمرى الأموى».

أ - المصادر وتعريفها

فأول ميزة للباحثة رجاء أحمد صادق تعريفها الدقيق والموجز والمؤدى إلى ومضات نقدية لمنهج المؤلف ولخطة التأليف، كما تحدد بدقة مواطن الوهن، فى المصدر وكمثال نذكر ما قالته عن الجاحظ وكتابه «البيان والتبيين».

«ولقد كان مؤلَّفه «البيان والتبيين» الذى له طابع أدبى وعلمى، خير معين لى فى دراستى، فهو مرآة صادقة عكست ثقافة الجاحظ المليئة بألوان العلم والأدب والفلسفة وقد ابتغى من وراء تأليف هذا الكتاب هدفًا تعليميًا يعتمد فيه على سرد الأخبار ويُعَدُّ هذا الكتاب من كتبه المهمة، لأنه جمع بين المنثور والمنظوم، وغُرر الأشعار ومستحسن الأخبار. وضعه فى أربعة أجزاء، غير مترابطة، لا نجد فيها أىّ تنسيق للمواضيع ولا للأحداث التاريخية».

وتذهب رجاء بعيداً فى الدقة، فتحدِّد المواضع، بل الصفحات التى أخذت منها، فتغنى الباحثين الآخرين عن الاستقصاء للعثور على ضالتهم فتقول:

«وقد استعنتُ بهذا المصنَّف فى أخبار بعض الشعراء وترجماتهم وأخبار خلفاء بنى أمية: يزيد بن معاوية (ج ٢، ص ١٢٣). يزيد بن عبدالملك (ج ٢، ص ١٢٣). الوليد بن يزيد (ج ٣، ص ٦٤). شعر عنترة فى الخمر (ج ٢، ص ٣٢٦). شعر المنخل اليشكرى، (ج ٢، ص ٣٦٤). وقول امرئ القيس والأعشى وطرفة فى لذّة العيش (ج ٢، ص ١٧٧). وبعض الأخبار الأخرى المتفرقة.

ثم تعمد إلى تحديد مفصَّل لما استعانت به من المصدر أو المرجع المعرَّف به لتلج، بهذا التفصيل، إلى موطن الاستشهاد المقصود لبيان هدفها البحثى بدقة متناهية، وإذا به البيتان ١١ و١٢ من القصيدة الفلانية، وبذلك تكفى القارئ مظنَّة البحث فى المصدر نفسه، عن صيد ثمين يفوق ما أوضحته وحددته بموضوعية وشفافية متناهية تمامًا كالغواص الحاذق الذى يقع على الدرّ النادر والثمين من بين مئات الأصداف المترامية أمامه بخفّة الباشق وسرعة البرق اللمَّاح.

ثم تُحيلك إلى أنساب الأشراف الذى يتناول أنساب العرب ويشرحها ويتناول الأخبار ويستقصيها بدقة. فهو يُعد كتاب أنساب، وكتاب أخبار أو تاريخ أو استقصاء أو شروح.

والكتاب يختلف عن كتب التاريخ، فهو لا يسوق الحوادث على تسلسل الأعوام ولا يتتبع الحكَّام تتبعًا منطقيًا، فقد يتحدث الكاتب، فى فصل من الفصول، عن خلفاء بنى أميَّة مثلاً، ثم ينتقل بعدئذ لسرد بعض الأخبار فى الجاهلية، فالمهم أن الكتاب ممتع وكبير الفائدة. وقد استعنت بأخبار وردت فى الجزء الرابع منه: تحدث فيها عن الوليد ابن عقبة (ص ٣١ وص ٣٥)، وحروب قيس وتغلب فى عهد الأمويين من ص ٢١٣ حتى ص ٢١٨.

ومادمنا فى إطار المراجع والمصادر، فقد اعتمدت الباحثة رجاء خطة الباحث البارع، ونجحت فيها نجاحًا ملموسًا جسدته فى:

أ - توسيع إطار مراجعها فى بحثها: «فى شعر الخمر الأموى»، حتى شملت مراجعها مصنَّفات غطَّت المرحلة الخمرية ولوجًا إلى مجموعة مؤلفات تحدثت عن الخمريات فى صدر الإسلام، وركَّزت على مؤلفات وتصانيف اختصت بالمرحلة الأموية، حيث بلغت الخمريات أوج ازدهارها على أيدى الوليد بن يزيد والأقيشر وأبى الهندى. هذا الازدهار الذى كان يستشرف فى طياته نضج الخمريات وتطور مجتمعها الخاص بها فى بدايات العصر العباسى على أيدى أساطين المجون والخمرة: أبى نواس وأستاذه والبة بن الحباب، وحماد عجرد، استطاعت بأبحاثها الرصينة والمعمَّقة أن تُقنع قارئها أن ترقى الخمرة الأموية ومجالسها كان أدقَّ نظير لما بلغته الخمرة العباسية النُّواسية التى ارتقت، فى كلا العصرين، إلى عروس تُجلى ويهيم بها عاشقها حتى التعبُّد لها وتقديسها.

ب - تعدد المصادر وتنويعها: لدى الباحثة رجاء أغنى بحثها «فى شعر الخمرة الأموى»،

سالم على سبيتى

الخمريّات
فى العصر الأموى
رجاء أحمد صادق
بيروت: الانتشار العربى، ٢٠٠٩، ٢٧٠ صفحة

ولولا ثلاثٌ هُنّ من لذّة الفتى
وربك لم أحفل متى قام عُوّدي
فمنهن سَبقي العاذلات بشربة
كميت متى ما تُعل بالماء تُزبد





مباهج
العصر الأموي

فلم تقصر مصادرها على المطولات الأدبية التى درست شعر الخمرة كفنٍ أدبىٍ له أركانه وقواعده وحتى مؤسساته الفكرية، بل تعدّته إلى كتب تفاسير القرآن الكريم ومصنّفات الحديث النبوى الشريف، وركّزت على المعركة الضارية التى دارت بين الفقهاء والمفسرين حول تحريم الخمرة تحريماً مطلقاً وبين آراء مفسّرين أباحوا شرب خمرة بعينها، غير مصنوعة من العنب، بل من التمر، وبين موقف شاربى الخمرة ومدمنيها الذين لا يأبهون لآراء الفقهاء وتحليلهم أو تحريمهم لها، بل يرون فى شرب الخمرة، ليل نهار، هو خلاصهم من براثن حياة عبثية قاسية، فتُذهلهم عن الواقع المرير المُعاش وتنقلهم إلى أجواء خيال هائم فسيح، حتى يصيح أحدهم فرحاً جذلاً:

إذا ما نديمى علّنى ثمّ علّنى
ثلاث زجاجات لهنّ هديرُ
خرجتُ أجرُّ الذيلَ تيهاً كأنّنى
عليك، أميرَ المؤمنين، أميرُ

ولكن الباحثة رجاء، بعد أن تُحسن رسم الصورة الخمرية الفنية، سرعان ما تبادر إلى محاولة ردّ هؤلاء الفتيان العابثين إلى نهج السَّداد القويم وتدعوهم إلى نبذ هذا الرَّغد الواهم، وأن عليهم العودة إلى رُشدهم بعيداً عن الغىّ والضلالة، وذلك بدافع من فطرتها الدينية، كونها سليلة أسرة علْمائية طويلة السلسلة، ولم تستطع التنكّر، ولا التحرر، من هذا الإرث الدينى، بحكم تربيتها العائلية التى أثّر فى أسلوبها، وخاصة تهيّبها من التسامح مع المحرّمات التى ترعرعت على نبذها والتى تستنكر ممارستها فعلاً أو قولاً. كما استندت، فى بحثها الناجح «فى شعر الخمرة الأموى»، إلى مؤلفات نفسية واجتماعية تبين دور الخمرة فى إفساد سلوك الفرد ونهج المجتمع معاً، انطلاقاً من قاعدة: «العقل السليم فى الجسم السليم» ومادامت الخمرة تُفسد العقل، فى رأيها، فإنها ولا شك، تفسد جسم الفرد وبنية المجتمع، لأن الفرد السليم هو السّدى واللحمة للمجتمع السليم المعافى.

قررت الباحثة رجاء الاسترسال فى التقصى والبحث دون الابتعاد عن هدف الدراسة الأدبية، فها هى تتساءل: «لست أدرى لماذا أشعر، عند سماع أىّ نصٍ أدبى أو قصيدة شعرية، أننى أسعى لربطها بقائلها: أفتّش عن حياته الخاصة من خلال النص الذى أسمع وأسعى إلى معرفة مدى نقله لصورة المجتمع الذى يعايش». (ص ١٠٢).

وتتابع رجاء العملية الإبداعية الفنية فى الشعر الخمرى الذى يمجّد شاعره الخمرة ويهيم بها، لكنها تعود إلى خلفيتها الإيمانية فتحكم على حياة اللهو والمجون بأنها تدفع صاحبها إلى التحلّل من القيم الدينية فيقع فى الضلالة والفساد. (ص ١٠٣ - ص ١٠٤).

وعودة إلى نزلة الخمرة عند العرب، ترى الباحثة رجاء أنّ الخمرة غرض شعرى قديم قدم الشعر العربى نفسه، عرفه الجاهلى ولازم الشاعر المسلم فى مطلع العصر الإسلامى حتى استقل بقصيدته فى العصر الأموى، فلا غرابة أن يتوقف عنده الدارسون كما يتوقفون عند أى غرض شعرى آخر. وتقول بواقعية مفرطة، إذاً فلست أول من تناول هذا الموضوع بالدراسة ولن أكون الأخيرة، لأنّ الخمرة لازالت تدغدغ عواطف الإنسان وتلهب مشاعره، وتستأثر بمزاجه حتى تصبح دينه وديدنه.

الشعر الخمرى فى الجاهلية

عندما وصف الشاعر الجاهلى وغيره، الخمرة كان ينشد اللذة، مع ما يصحبها من متع الحياة كالغناء والمنادلة، فالخمرة تمثل فرح الجاهلى وغبطته بمناعم العيش، وتمجيده اللذة وتعبّده لها.

لكنّ ما شاع فى شعرهم من الهجوم على الذات والمباهاة فى الاستمتاع بالخمرة فهو صورة عن باطل وسَفَه الشباب وقد كان عقلاؤهم يسفّهون هذه الشهوات ويرذلونها. كما ترى الباحثة رجاء فى اعتراف طرفة الصريح بتحامى القبيلة له ونفيه عن ديارها دليلاً واضحاً على كره العرب العاقل لانغماس المرء باللذة حتى يصبح أسيراً لها.

ولكن الخمرة من الأهمية بمكان عند عشّاقها ومدمنيها، حتى إنها كانت سبب عدول الأعشى عن الإسلام بين يدى النبى محمد صلى الله عليه وسلم، ويخبرنا النقّاد أنّ بعض ولاة اليمامة سأل عن دار الأعشى وعن قبره فدُلّ عليهما، فقصد الدار ورأى القبر فإذا هو رطب، فسأل عن السبب، فأخبر أنّ ندامى الأعشى يشربون حول قبره، حتى إذا جاء دور الأعشى صبوا كأسه فوق قبره، مما يؤكد شدة تعلّق هؤلاء بخمرتهم، ومدى إخلاصهم لبعضهم بعضاً، وهذا التعلّق وذلك الإخلاص هما قيمتان أخلاقيتان بحد ذاتهما.

تؤكد رجاء أن الشعر الخمرى الجاهلى كان غرضاً رئيساً فى القصيدة الجاهلية، بين جملة من الأغراض الشعرية الأخرى، يشحن بها الشاعر قصيدته ليُظهر براعة فائقة ينافس بها الآخرين، عبر تلوين معانيه بزخاريف ذات صور متنوعة مستلبة من طبيعة صحرائه: فوصف محاسن المرأة، وصوَر الصحراء الداكنة الرمال، والشديدة القيظ والتى كان يقوى عليها بناقة وسمها بتشابيه جزلة تدلّ على القوة والنشاط، ولم ينس رسم معالم فروسيته وشجاعته خلال الصراعات الحربية، وصب جهده على تصوير مجالس اللهو والشراب وليالى الأنس فى الحانات بين المزاهر والقيان، لقد حشد الشاعر الجاهلى كل هذه اللوحات الفنية البديعة والحية لإبراز غرضه الرئيسى من القصيدة الذى جسّده طرفة، رمز الفتوة الجاهلية، بقوله:

ولولا ثلاثٌ هُنّ من لذّة الفتى
وربك لم أحفل متى قام عُوّدى
فمنهن سَبقى العاذلات بشربة
كميت متى ما تُعل بالماء تُزبد
وكرّى إذا نادى المضافُ مُحنّبًا
كسيد الغضا نبهتهُ المتورد
وتقصير يوم الدجنِ والدّجْنُ مُعْجِبٌ
ببهكنة تحت الخباء المعمَد

ترى الباحثة رجاء أن هدف شرب الخمرة المعتقة لدى الجاهلى هو التفاخر والتباهى بين أقرانه، ليبرهن أنه الأقدر والأكرم بينهم، لذا غالى شاربو الخمرة الجاهليون فى نسبة خمرتهم هذه إلى معاصر فاخرة مشهورة بصنع الخمرة وتعتيقها، إضافة إلى ندرة وجودها فى الجزيرة العربية، إذ كان يحملها التجار من بلاد الحيرة والشام وفارس ولا سيما البابلية منها رمز الندرة والعراقة فى القدم، وكان نادر مطلوب ومرغوب بثمن غالٍ، وإن كان أدنى أهمية، كالذهب النادر الذى تشتهيه النفوس، على قلّة فائدته الحياتية، بينما الهواء الشائع، والضرورى جداً لكل حياة، لا يأبه أحد لوجوده.

فالأعشى المفتون بالخمرة حتى العشق، وقد امتنع عن الإسلام لإدمانها، أعطى وصفاً دقيقاً لكل ما يتعلق بها من أدوات، ومنادمة، ومجالس تَنْشر فيها الورود والرياحين، إضافة إلى قيان

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه
إن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم
أأزيدكم - سكرا - وما يدرى

مغنيات وراقصات وآلات طرب. فجاءت أبياته فيها وكأنها وليدة عصر عتيد غير العصر الجاهلى. فالأعشى سبق معاصريه بإسرافه فى شرب الخمر واللهو فهو يباكرها مع صياح الديك (ص ٥٢):

فقمنا ولما يصح ديكنا
إلى جونة عند حدادها

وترى رجاء أن الشعر الخمرى الجاهلى له أهمية قصوى، رغم أن الأبيات الخمرية قليلة نسبيا، ومتناثرة فى القصائد الجاهلية، فكانت عبارة عن لوحة فنية رائعة متكاملة، أشبه بجدارية رسام، لا تعنى بإظهار لون زهرة أو إبراز وجه أو تحديد مكان نهر أو بستان، ومع ذلك فهى معلم متكامل يعنى بعرض صراع أو نقل حادثة. باستثناء الأعشى الذى جسد النواة الرئيسية الراقية لفن الخمريات الذى هيمن على العصور اللاحقة: الأموية والعباسة وحتى النهضوية.

الشعر الخمرى فى الإسلام الأول

تقول رجاء: لقد أثر الدين الإسلامى تأثيرا شديدا فى المفاهيم العربية السائدة آنئذ، ونحا بها نحوا مغايرا لما كانت عليه فى الجاهلية، فكان أثر القرآن الكريم عظيما لأنه تضمن، إلى جانب العقائد الدينية والأحكام الفقهية، أسسا أخلاقية نقلت عقلية الجاهلى من ظلم الجهل إلى نور المعرفة الموضوعية والإيمان، مما دفع الاتجاهات الفكرية الإسلامية نحو مواكبة ضرورات الحضارة والرقى، وخاصة بعد الفتوحات الإسلامية واحتكاك المسلمين بغيرهم من الأمم والإمبراطوريات الكبرى القائمة آنئذ، كالروم والفرس وسواهما، فتوسع انتشار اللغة العربية وازدهرت الآداب العربية وتوسعت أغراضها، وابتعدت عن النموذج التقليدى الجاهلى للقصيدة العربية، فزها الشعر العربى خاصة فى الجزيرة العربية وخارجها، ولكنه ظل أسيرا لأغراض الخمرة ومجالسها والندامى وأماكن شربها وبيعها والانتشاء، رغم قانون الحد الإسلامى، الذى ذاقه وعانى منه أكثر شعراء الخمرة فى الإسلام.

وتواكب رجاء التدرج فى موقف الإسلام من الخمرة، بدءا من بيان منافع الخمرة ومضارها الكثيرة حتى «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى»، ووصولا إلى الآية: «إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه»، التى أثارت جدلا فقهيا بين الصحابة وعلماء المسلمين حول «أى الخمر من المحرم»، حتى استنجدوا بالحديث النبوى الذى قرر أن «ما أسكر كثيره فقليله حرام». فعم تحريم الإسلام للخمرة، شربا واتجارا وقولا ومجالسة، حتى إن بعضهم حرم السماع والغناء وكل ما شاع من عادات رافقت مجالس الخمر، وبرزت فى أشعار شاربيها. ولأن الشاعر المسلم مخضرم، ومازال شديد الصلة بالشعر الجاهلى وبأغراضه، خاصة الخمرة منها، فقد ظل متعلقا بأستار الخمرة، فهذا أبو محجن الثقفى، الذى سجنه سعد بن أبى وقاص، أحد قواد معركة القادسية، يصرح مجاهرا: «أما والله ما حبسنى بحرام أكلته ولا شربته، ولكنى كنت صاحب شراب فى الجاهلية، وأنا شاعر يدب الشعر على لسانى، فحبسنى لأنى قلت:

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة
تروى عظامى بعد موتى عروقها

إلى آخر الأبيات، فأبو محجن الثقفى، شرب الخمرة، ووصفها وتحبب إليها، بدافع الحنين الزائد والشوق العظيم المتلهف على أيام قضاها فى الجاهلية ولم يستطع التخلى عنها بعد أن أسلم، رغم جلده وحبسه بسببها، ورغم نضاله الشديد، فى دك حصون المشركين، فى معركة القادسية، مما يدل على إيمان إسلامى عميق، كما ترى رجاء فى دراستها.

تلاحق رجاء، بفهم نقدى ومعرفى، إبداعات شعراء الخمرة فى الإسلام، وتدرك مدى حرجهم النفسى تجاه ذكرها، فلم يفاخروا أو يجاهروا بشربها كما فعل الجاهليون قبلهم، بل سيطر عليهم التخفى والحذر فى أشعارهم الخمرية، وما ورد على لسانهم من ذكر للخمر، رغم امتناع بعضهم عن شربها بفعل تحريم الإسلام لها، كان مسايرة منهم لبناء القصيدة العربية الشعرى، الذى ترسخت أعمدته التقليدية فى العصر الجاهلى، فحسان بن ثابت شاعر الرسول ذكر الخمرة فى قصيدة الفتح لأنها كانت غرضا رئيسيا يعزز مكانة الشعر ويقويه، كما شكل قانون الحد دافع ردع وترغيب فى الوقت عينه، لدى شاربيها، فالشاعر أبو محجن أوغل فى شربها بعدما حده أولو الأمر مرات عدة، ولما تركت له فسحة من الحرية، تاب عنها وكرهها وذمها فى الآفاق، بعد أن كان قد عشقها وتوله بها.

أما الوليد بن عقبة، والى الكوفة من قبل أخيه الخليفة عثمان بن عفان، فقد أم الناس فى صلاة الصبح، وصلاها ثلاث ركعات فذاع خبر فسوقه فى الكوفة، وقد عذره الحطيئة - المشكوك فى إسلامه - بقوله:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه
إن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم
أأزيدكم - سكرا - وما يدرى



وترى رجاء، المتأثرة بإرثها الأسرى العلمانى الإسلامى، أن المهم، فى شعر الخمريين الإسلاميين ليست الصورة الشعرية البديعة، بل الفكرة المستوحاة من المعانى الجديدة التى طرحها هؤلاء الشعراء، والتى ظهر أثر الإسلام فى الأبيات الخمرية القليلة التى ضمنوها قصائدهم، كذلك يوم الحساب، والحق والشفاعة والخير الناجم عن الصلاة. ورغم أن رجاء تقدر تقديرا عاليا براعة شعراء الخمرة فى الإسلام، وتثمن معانيهم وإبداعهم بامتياز، وخاصة فى استشراف صور فنية كانت نبراسا لسائر شعراء الخمرة فى العصور اللاحقة، فإنها تأخذ عليهم أنهم أبرزوا ما حرمه الإسلام، كالغزل الإباحى الفاحش والخمرة، فى قصيدة واحدة، بل فى بيت واحد أحيانا، إلى جانب ذكر الحق والخير وقيام الساعة، هذه المفاهيم التى رسخها الإسلام فى الفكر والنفوس، كما ترى أن هؤلاء المجان لم يحسن إسلامهم، ولم يستطيعوا الابتعاد عن عادات جاهلية قبيحة حرمها الإسلام، لأنها تخالف الحق وتجاهر بالمحرم، وتظهر الباطل فيلجأ الماجن منهم إلى تبرير ما يقترف من المحرمات، فالمقايضة بين الحلال والحرام أصبحت ديدنهم حتى نافسوا فى جدلهم حول أى خمر هو المحرم.

فالوليد بن أرطأة، نديم الوالى الوليد بن عقبة يخاطبه جهرا قائلا:

إصبح نديمك من صهباء صافية
حتى يروح كريما ناعم البال
واشرب، هديت أبا وهب، مجاهرة
واختل فإنك من قوم أولى قال

مخالفا، فى رأى رجاء، نص القرآن الكريم فى الآية: «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما» (النساء الآية ١٤٨).

هذه الدعوة الصريحة بالمجاهرة فى شرب الخمرة «واشرب، هديت أبا لهب، مجاهرة» وجدت أذنا صاغية لدى مدمنى الخمر من رقيقى الدين والإيمان، فكأن اللذة عندهم تتمثل بقدرتهم على مخالفة الأمر الإلهى بالمجاهرة فيما حرمه الدين. هذه المجاهرة التى عنفت جدا، فى العصور اللاحقة، وتحولت تحديا سافرا للمحرمات، بل حتى داست المقدسات وهزئت بها، على لسان الخليفة الأموى الوليد بن يزيد وندمائه من المجان.

الشعر الخمرى فى العصر الأموى

لقد تأثر الشعر الأموى بطوابع حضارية، تلقفها من ثقافات الأمم الوافدة إلى الإسلام بفعل الفتوحات الإسلامية، خاصة فى الحجاز، فجاءت الخمرة عندهم تلبية لعوامل نفسية وليدة، كبلتهم وعانوا منها الخوف من السلطان الآتى، فكانت الخمرة الملاذ الذى يفرون إليه، وهم مدركون أنهم يقترفون آثاما حرمها الدين، فأصبحوا بأمس حاجة لإراحة القلوب بعيدا عن الإكراه الذى يعمى البصر والبصيرة.

وهنا تطرح رجاء السؤال الكبير والعميق: إذا كان أكثر اهتمام الخلفاء منصبا على الجوانب والقيم المضيئة فى الإسلام، فهل يعقل أن ينمو الشعر الخمرى، المنافى للقيم والمبادئ الأخلاقية عامة، فى رحاب دولة إسلامية ناشئة؟ فأى عبادة مقدسة يتعبدون؟ وأى إثم دنس يقترفون؟

وترد رجاء نمو وتطور الشعر الخمرى إلى تعمق ثقافة الشاعر وشدة تفهمه لواقعه الحضارى الوليد حتى غدا يستطيع، بفهمه الثقافى العميق، أن يلم بحالة السكر ونشوته، ويقدمها فى أبهى حلة شعرية زاهية دون أن يمارس السكر الذى يبلغه هذه النشوة فعلا.

ولا تعدو رجاء الصواب عندما تنقد أسلوب شاعر الخمرة الأموى المستعمل، معنى وصياغة واختيار ألفاظ ناعمة راقصة تناسب المعانى المنتشية، فى إطار من التجديد غير المسبوق، فالأخطل، فحل الشعراء الخمريين الأمويين، يجسد صفقة شراء الخمرة التى تتم بعد مساومة وجدل طويلين، فى أسلوب قصصى جاء صورة حية تحاكى لون الخمرة المعتقة التى يشتهيها:



«نونية» ابن زيدون
فى
ولادة بنت المستكفى

كُنّا نرَى اليَأسَ تُسْلِينا عَوَارِضُه،
وَقَدْ يَئِسْنَا فَمَا لليأسِ يُغْرِينَا
بِنْتُم وَبِنّا، فما ابتَلّتْ جَوَانِحُنَا
شَوْقاً إلَيكُمْ، ولا جَفّتْ مآقِينَا
نَكادُ، حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمائرُنا،
يَقضي علَينا الأسَى لَوْلا تأسّينَا
حَالَتْ لِفقدِكُمُ أيّامُنا، فغَدَتْ
سُوداً، وكانتْ بكُمْ بِيضاً لَيَالِينَا
إذْ جانِبُ العَيشِ طَلْقٌ من تألُّفِنا؛
وَمَرْبَعُ اللّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
وَإذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الوَصْلِ دانيةً
قِطَافُها، فَجَنَيْنَا مِنْهُ ما شِينَا
لِيُسقَ عَهدُكُمُ عَهدُ السّرُورِ فَما
كُنْتُمْ لأروَاحِنَا إلاّ رَياحِينَا
لا تَحْسَبُوا نَأيَكُمْ عَنّا يغيّرُنا؛
أنْ طالَما غَيّرَ النّأيُ المُحِبّينَا!
وَاللهِ مَا طَلَبَتْ أهْواؤنَا بَدَلاً
مِنْكُمْ، وَلا انصرَفتْ عنكمْ أمانينَا
يا ساريَ البَرْقِ غادِ القصرَ وَاسقِ به
مَن كانَ صِرْفَ الهَوى وَالوُدَّ يَسقينَا



إذا أقولُ تراضَيْنا على ثمنٍ
ضَنَّتْ بها نفسُ خَبِّ البيعِ مكّارِ
كأنما العِلْجُ إذْ أوجبْتُ صَفْقَتَها
خليعُ خَصْلٍ نكيبٌ بينَ أقمارِ

لقد أحسن الأخطل معالجة نفسية البائع الماكر بألفاظ تناسب واقع الحال، مكتسبة من ثقافة الأمم الأخرى التى سبقت العرب فى إقامة مجالس اللهو والشراب والغناء الراقص فى دواوين الأباطرة والأكاسرة الذين كسر الإسلام شوكتهم وأباد ممالكهم فانهارت وبقى منها آثار ثقافة وحضارة وتقدم، فتلقفها الفاتحون الجدد، وعبوا منها ما يُرضى نهمهم إلى كل جديد مستحسن، ولا سيما العادات والتقاليد لأنها باهرة ومذهلة.

لقد أمعن الأخطل، فى التحليل النفسى والمادى لبائع خمر يساوم ويغالى فى الثمن، وصوّر بوضوح الانشراح الذى هلل وجه البائع عندما نال ما يريد، وكأنما قطرات الخمر تنسلخ من جوارحه تماماً كقطرات دمه، وبلغ ذروة التصوير النفسى لنديمه السكران:

وأبيَضَ لا نكسٍ ولا واهنِ القُوَى
سقَيْتُ إذا أولى العصافيرِ صرّتِ
رَدَدْتُ عليه الكأسَ غَيْرَ بطيئةٍ
إلى اللَّيلِ حتّى هرَّها وأهرّتِ
فقام يجرّ البُرْدَ، لو أنّ نفسَهُ
بكفَّيْهِ من ردِّ الحُمَيَّا لخرّتِ
وأدبرَ لو قيل: اتّقِ السيفَ لَمْ تَخَلْ
ذُؤابَتَهُ من خَشْيَةٍ واقشعرّتِ

صورة فنية التقطها عدسة شاعر فنّان مثقف، تجسّد مدى وضوح الرؤية عنده، وترسم معالم خياله الخصب المشبع بالمعرفة، فاكتفى باللقطة البارعة هذه التى توجت قصيدته الخمرية بتاج الاستقلال عن المدح والفخر والغزل وسواها من أغراض حفلت بها القصيدة العربية فى العصور السابقة، فالعناية الفائقة التى أحاط بها الشاعر الأموى الخمرة عامة، جعلتها لوحة فنية جديدة غير مسبوقة فى الأعماق الأدبية العربية الماضية.

لقد صورت رجاء جرأة شاعر الخمرة الأموى على الخلفاء والأمراء وأولى الأمر التى أصبحت ملحوظة وسافرة فى العصر الأموى، فالأخطل لم يجد حرجاً فى ذكر الخمر أثناء مدحه يزيد بن معاوية ولى العهد الأموى، فمنادمته ليزيد جعلته يصرح بالهم الذى يعانيه والذى لا يفارقه إلا بشرب كأس خمر مهود:

ودافعَ عنّي يومَ جِلّقَ غَمْرةً
وهمّاً يُنسِّينى السُّلافَ المهوّدا

والوليد بن أرطأة، نديم الوليد بن عقبة، والى الكوفة زمن الخليفة عثمان، يدعو ابن عقبة صراحة إلى المجاهرة فى شرب الخمرة، دون وجل من رقيب أو حسيب.

أما مُجّان الكوفة والبصرة، أساتذة الخليفة الأموى الماجن الوليد بن يزيد، كالأقيشر وحارثة بن بدر الغدانى، وأبى الهندى، وابن هرمة وعُطرد، ومطيع بن إياس، فقد كانوا أشد وقاحة من الأخطل، وأكثر مجاهرة بشرب الخمرة، فقد عاثوا فى الكوفة والبصرة فساداً، نقلوه جهاراً إلى قصر سيدهم الوليد بن يزيد، الخليفة الأموى الماجن الذى استقدم أكثر هؤلاء المجّان إلى قصره، لينادمهم ويعبث معهم، حتى غدا أكثرهم وقاحة فى تحدى المحرمات، والاستهزاء بالمقدسات فهو يجاهر علانية:

يا أيها السائل عن ديننا
نحنُ على دينِ أبى شاكر
نشربُها صرفاً وممزوجةً
بالسُّخن أحياناً وبالفاتر

وبلغت جراته على تحدى مبادئ الإسلام ودوس ذروة قيمه عندما مزّق القرآن الكريم، رمز الإسلام وصوت الوحى السماوى، مخاطباً إياه بقوله:

إذا ما جئتَ ربّك يومَ حشْرٍ
فقلْ يا ربِّ مزّقنى الوليدُ

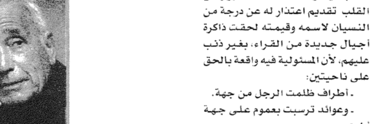
وبعد، تؤكد رجاء أنّ استهتار الخليفة الوليد بن يزيد، فاقم بلّة الطين، وعزّز مكانة الخمرة فى الشعر الأموى، بحيث أضحت قصيدتها مستقلة وثابتة الأركان وكانت تمهيداً للمدرسة النواسية الماجنة فى العصر العباسى.

وتختم رجاء، انطلاقاً من إيمانها الدينى، مؤكدة أنّ بعض المجّان من الكوفة والبصرة خاصة أبدعوا إبداعاً عظيماً فى رسم لوحات خمرية فنية، وطوّروا الشعر الخمرى تطوراً ملحوظاً، ولكنهم انتهكوا حرمة الإسلام بارتكابهم المحرمات، وبسعيهم وراء لذّة حسية نهى الإسلام عنها بل حرّمها فهل يُعقل أن نمجد هذه الأعمال والأقوال؟!

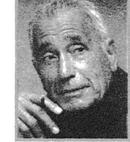
نهايةً إنّ هذه المقدمة المتواضعة ليست سوى صدىً لأبحاث الدارسة المجدة رجاء صادق، ورجع صوتٍ لآرائها النقدية القيّمة التى نعمتُ بمعرفتها وأفدتُ منها معرفةً وذوقاً ورهافة حس، وعُمق إيمان يفرض اقتران القول بالعمل، هى بعض خصال الباحثة رجاء المميّزة. ■



قصة تستحق أن تروى



التابعى صحافيا



محمد حسنين هيكل

■ هذه السطور ليست بالمعنى التقليدى مقدمة لطبعة جديدة لواحد من كتب الأستاذ «محمد التابعى»، وإنما هذه السطور ومن القلب تقديم اعتذار له عن درجة من النسيان لاسمه وقيمته لحقت ذاكرة أجيال جديدة من القراء، بغير ذنب عليهم، لأن المسئولية فيه واقعة بالحق على ناحيتين:

- أطراف ظلمت الرجل من جهة.
- وعوائد ترسبت بعموم على جهة أخرى.

❖ من ظلم الأطراف مثلا أن بعض تلاميذ المدرسة الصحفية للأستاذ التابعى ولأسبابهم، آثروا السكوت عن دوره أو القفز عليه.

ومن ظلم الأطراف أيضا أن كثيرين أخذوا عما كتب التابعى دون أن ينسبوا له، رغبة فى إظهار أمرهم، والنتيجة إخفاء أمره.

❖ أما العوائد التى ترسبت فأولها ظاهرة لها سوابق فى تاريخنا، خصوصا أزمنة الفراعنة والمماليك، ومن هذه العوائد أن كل نجم طالع فى أى مجال يريد نسبا موصولا بالشمس، يستكبر أن يكون ابنا شرعيا لأب، وإنما يطلب أن يكون مولودا بذاته ولذاته بداية ونهاية.

ومع مثل تلك النوازع يتبدى تعاقب الأجيال صفحات باهتة، أو صفحات ممزقة، أو صفحات مزوقة، وعليه لا يصبح التعاقب تاريخا موصولا ومتواصلا، وإنما يصبح غرضا وهوى، أخطره هوى السلاطين قريبا وبعيدا.

سلاطين القرب: يبغون محو أثر، وقطع ذكر لمن سبق، كى يبقى زمانهم وحيدا.

وسلاطين البُعد: يهاجمون ذاكرة ويبعثرون ترتيبا، كى يضيع الزمان كله

من أصحابه ومعه وعيهم، وهو مكمن إرادتهم!



وقلت إننى لا أقدم كتابا للأستاذ «التابعى»، وإنما أتقدم إليه باعتذار، وذلك بالفعل شعورى إزاء رجل أعتبره من أساتذتى الكبار، وأستاذا لكثيرين غيرى من نفس الجيل الذى خطا إلى عالم الصحافة العربية أعقاب الحرب العالمية الثانية وبالتحديد مع مطالع الأربعينيات من القرن العشرين.

وقد كان من حسن حظى أننى عملت مع «التابعى» وهو وقتها صاحب ورئيس تحرير مجلة «آخر ساعة» أيام عزها، قادما إليه من جريدة «الإجيبشيان جازيت» بتوصية من رئيس تحريرها فى ذلك الوقت «هارولد إيرل»، وأظننى - ولعل ذلك كان رأيه أيضا - كنت آخر قائمة طويلة من الشباب (وقتها) تتلمذوا عليه.

ويُقال عن رجل إنه صاحب مدرسة فى علمه أو فنه إذا وصل تأثيره فى مجاله إلى درجة يختلف بها ما بعده عما قبله، بمعنى أنه إذا حذف دوره من المجرى العام للتطور، انقطع الخط على فجوة واسعة.

وذلك نموذجى فى حالة «التابعى»، فقد اختلف مجال الكتابة الصحفية بعده عما كان قبله، وفى هذا الاختلاف بين السابق واللاحق يتبدى حجم تأثيره، مثله فى ذلك مثل غيره من مستواه فى مسيرة أى علم أو فن.

ولكى أكون واضحا ومنصفا، فليس المقصود أن الكتابة الصحفية قبل «التابعى» كانت أقل وزنا أو أدنى قيمة، فذلك بعيد عن القصد لأنه كان هناك قبل وغير «التابعى» كُتَّاب لهم شأن ومقام، لكن «التابعى» أضاف شيئا آخر إذ صاغ أسلوبا مختلفا فى التناول الصحفي، وهذا الاختلاف الذى أحدثه «التابعى» هو نعومة الكلمة، وانسياب الكلام.

أى أن هناك إضافتين تُحسبان لـ«التابعي»: إحداهما فى اللفظ، والثانية فى السياق.

❖ وبالنسبة للإضافة الأولى: فإنه يبدو وكأن الألفاظ كانت على نحو ما فى حالة عشق مع قلم محمد التابعي، فما إن يضع سن القلم على صفحة الورق حتى تذوب المعانى والصور لينة سائلة على السطور.

❖ وبالنسبة للسياق: فإن أى قارئ لكتابات التابعى سوف تنكشف له قاعدة سمعته يكررها علينا كثيرا، مؤداها: أن القصة فى التفاصيل.

وملخص هاتين الإضافتين:

الأولى: أن اللفظ الصحفى فى عرض خبر أو قصة إخبارية لا بد له أن يكون رفيقا رقيقا مع قارئ لا يجلس على مقاعد الدرس والتحصيل يستعد لامتحان آخر السنة وإنما هو قارئ يمسك الجريدة وسط مشاغله، وهدفه أن يعرف ما يريده فيما يجرى حوله ليزيد اطلاعه على ما يهمه ويعنيه بينما هو يمارس حياة كل يوم، وإذن فهو ليس طالبا فى نظام تعليمى مع منهج مقرر ومفروض، وإنما قارئ يختار لنفسه وبرغبته وشهيته!

والإضافة الثانية: أنه إذا كانت القصة فى التفاصيل، فإن أهم لوازم أى قصة أن تستوفى حقها بزيادة البحث فى وقائعها، وبالاقتراب أكثر من ناسها وأهلها، والاهتمام بدوافعهم ومشاعرهم، وتلك ترجمة صحفية للقول المأثور بأن كل قصة فى دنيا الأدب هى فى المحصلة النهائية حكاية رجل وامرأة، وربما دخول طرف ثالث بينهما أى امرأة أخرى أو رجل آخر، لكن الفارق بين قصة وأخرى فى الأدب وفى الصحافة أيضا هو التفاصيل ونبضها بالحياة وبالإنسانية، وتدفقها مع الرواية الواصلة بالتحقيق إلى أدق التفاصيل.

ولقد حاولت وحاولنا جميعا جيلا بأكمله أن نتعلم من «التابعى»، وقلت إننى كنت أسعدهم حظهم، ربما لأنى كما أسلفت آخر من تتلمذ على يديه، والسبب غالبا أننى وصلت إلى صحبته قرب آخر النهار، فى مرحلة من الحياة لها خواصها مع

مقدمتا كتاب «أسرار الساسة والسياسة: أحمد حسنين باشا»
محمد التابعى
دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٨

لعل حياة «التابعى» نفسها قصة تستحق أن تروى بالتفاصيل فى كتاب أو كتب

الناس وفى الطبيعة. وهى مرحلة ما بين الأصيل والغروب.

وعندما حضرت الأصيل فى حياة «محمد التابعى» فقد لفتنى الوهج المهنى والسياسى والاجتماعى المحيط بجوانبها، وكان ذلك حظي.

ثم كان لسوء الحظ أننى حضرت نزول الغروب أيضا حين قرر «محمد التابعى» أن يبيع «آخر ساعة» إلى دار «أخبار اليوم»، وأصحابها الأستاذان «مصطفى» و«على» أمين، وكان البيع لنفس الأسباب التى ضاعت بها من قبل حصة «التابعى» فى جريدة «المصرى»، وقد باعها إلى شريكيه فى إنشائها، وهما الأستاذان «محمود أبو الفتح» و«كريم ثابت».

كان السبب فى الحالتين أن الرجل فنان لا يعرف قواعد الحساب أو يتجاهلها، بظن أن مواهبه فوقها، وكذلك راحت أعباؤه تزيد عن طاقته، أو بمعنى أكثر صراحة راحت ديونه تضغط على دخله بشدة تزداد وطأتها كل يوم، لكنه طول الوقت يرفض النظر إلى العواقب فى عينيها كما يقولون.

وفى الحقيقة فقد كانت هناك علاقة بين التوهج والغروب، وهى علاقة مرئية بوضوح سواء فى الطبيعة أو فى الناس فهى فى الطبيعة سابق ولاحق، وهى فى حياة الناس سبب ونتيجة.

وفى حياة «التابعى» بالذات فقد كان التوهج الاجتماعى والرغبة فى الحفاظ عليه خصوصا مع تقدم السن وتباين الظروف معاناة باهظة.

وبمقدار ما حاولت وحاول غيرى فى مرحلة الغروب أن نعبر للرجل عن عرفاننا بفضله فإن نور الحياة انطفأ عن «محمد التابعى»، رجلا ثقيلة همومه، كسيرا قلبه، جريحة كبرياؤه، برغم أنه مَلَكَ فى لحظات الأزمة شجاعةً، أن لا يرمى المسئولية على غيره، بل يلوم نفسه، وأحيانا بمرارة كما تكشف أوراقه.



لعل صفحات هذا الكتاب صور من أحوال التوهج الاجتماعى للأستاذ «التابعى»، وفى نفس الوقت شهادة على التكاليف الباهظة لذلك التوهج، ومع أن موضوع هذا الكتاب ملامح من القصة الحقيقية للملك «فاروق»، ومأساته التى جعلت منه كما قلت وكررت دائما من ضحايا التاريخ، قبل أن يكون من مذنبيه فإن نفس الصفحات تظهر لمحات من حياة «محمد التابعى»، وكذلك أيضا مأساته، وهى تكشف دون قصد عقدة معروفة ومرصودة فى قصة صعود الصحافة إلى استحقاق الإمارة، وما هو أكثر بأوصاف مثل «صاحبة الجلالة»!

وفى مجتمعات سبقت إلى التقدم فى أوروبا وأمريكا، ومع صحافة استحقت الإمارة، فقد وصل رجال مثل «هيرست» و«ليبمان» و«ثور كليف» و«بوف ميرى» إلى مخالطة القوة والثروة والسلطة، ومن درجة التكافؤ والتساوي، ولم تتعقد الأمور لأن المواقع كانت أكثر جلاءً، وبالتالى أكثر توازنا.

لكن المشكلة فى الصحافة العربية أن الأستاذ «محمد التابعى» كان ظاهرة مستجدة على العلاقة بين الصحفى والأمير ولذلك كان احتمال الخلط واردا.

فقد كتب التابعى عن الملك «فاروق»، وعن الملكة «نازلى»، وعن «أحمد حسنين»، وعن غيرهم من موقع المعايشة، وفى بعض المشاهد فإنه هو نفسه كان جزءاً من الصورة.

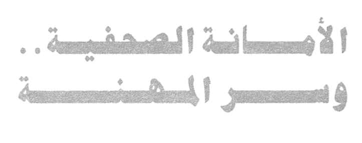
وكان المأزق فى تجربة «التابعى» أنه وهو يعايش الأمراء، تصور أن يجارى الأمراء بظن أنه ليس أقل منهم، ولم يكن بالفعل أقل منهم، بل لعله كان أفضل فهو أمير بالقيمة، والآخرون ودون تعميم أمراء بالألقاب، لكن التعامل مع هذا الوضع يقتضى حدودا واضحة، وانضباطا لا تساهل فيه، ومراعاة للحدود بين المظهر والجوهر.




وأخيرا فلعل حياة «التابعى» نفسها قصة تستحق أن تُروى بالتفاصيل فى كتاب أو كُتب.

وهى قصة أخاذة مشوقة فى فصولها ووقائعها ومشاهدها.

إضافة إلى ذلك فلعلها قصة مليئة بالدروس المهنية والتاريخية والإنسانية قبل الاثنين. ■



الأمانة الصحفية.. وسر المهنة

محمد التابعى

■ اقترح علي كثيرون من الأصدقاء أن أكتب مذكراتى.. عن الساسة والزعماء والنساء والرجال الذين عرفتهم فى حياتى.. وعن الحوادث والأزمات.. إلى آخره..

ورفضت. وكانت حجتى أننى لم أدون مذكراتى إلا فى فترات متقطعة.. متباعدة.. فالتسلسل مفقود والسياق مضطرب والدقة فى الرواية غير مأمونة أو مضمونة.

ثم شىء آخر وهو الأهم عندى.. من الذى يستطيع دائما أن يقول الحق. كل الحق ولا شىء غير الحق؟..

وإذا نشرت مذكراتى فهل أقول فيها كل ما أعرف. وكل ما سمعت. وكل ما رأيت.. وبين الذين سوف تتناولهم هذه المذكرات أشخاص قد انتقلوا إلى رحمة الله. ونحن اليوم نحيطهم بهالة من الإجلال والإكبار؟

وبينهم من لا يزال على قيد الحياة ومن هو معدود من الأعلام والصفوة الممتازة فى هذا البلد.. هل أقول كل ما أعرف عن هؤلاء وهؤلاء؟

هل أروى مثلا حديث الزعيم فلان عن الزعيم فلان.. وهو حديث مملوء غيرة وحقدا؟.. وهل أروى مثلا وأصف صور الضعف والاستهتار.. صور الخنوع والذل والاستمساك بالحكم بأى ثمن؟.. وصور الطمع والجشع.. والنفاق وعدم الوفاء.. وقصص الخلاعة والمجون وأبطالها زعماء وساسة مبرزون؟..

ثم مسألة أخرى.. ما هو الحد الفاصل بين ما يجوز نشره وما لا يجوز نشره؟ والأمانة الصحفية وسر المهنة؟.. ما هى حدود هذه الأمانة وهذه السرية؟..

لقد اشتغلت بالصحافة ثلاثين عاما. وعرفت فيها عشرات وعشرات من الزعماء والساسة وربطتنى ببعضهم أواصر الصداقة والثقة. وبوحى هذه الصداقة والثقة أفضى إلىّ بعضهم بأسرار كثيرة.. وكشف أمامى بعضهم عن مكنون صدره بل وعن خفايا ضعفه.. فهل أروى اليوم كل ما سمعت أو بعض ما سمعت؟

ورواية الكل قد تنفع المجموع.. وتؤذى الفرد.. ورواية البعض قد لا تفيد المجموع ولا تؤذى الفرد، أى الزعيم المروى عنه.. وإذن ما الفائدة وما الغاية من نشر رواية ناقصة أو مبتورة؟

وفى نشر الرواية كلها فضيحة أو خيانة للأمانة.

وفى خلال هذه الثلاثين عاما التى اشتغلت فيها بالصحافة قابلت كثيرين من الساسة وقادة الرأى العام فى مصر وفى بلاد غير مصر. بل وقابلت رؤساء دول ورؤساء حكومات. وكثيرا ما تحدث إلى الواحد منهم وأطال الحديث ثم قال:

- تستطيع أن تنشر كذا وكذا.. ولكن لا تنشر كيت وكيت.

وبعض هذه الأحاديث قد مر عليها عشر سنوات أو عشرون سنة.. وأتساءل اليوم: هل «حظر النشر» لا يزال قائما؟

هل «سرية المهنة» سرية مطلقة مؤبدة.. أو موقوتة بفترة من الزمن؟ وما طول هذه الفترة؟ هل تكفى مثلا العشرة أعوام أو العشرون عاما لكى تحل الصحفى من وعده بعدم النشر؟ أى هل أستطيع أن أنشر اليوم ما وعدت منذ عشرين عاما بعدم نشره؟

هل أستطيع أن أنشره دون أن يتهمنى أحد بخيانة الأمانة والخروج عن مبدأ سرية المهنة وهو المبدأ الذى تقدسه الصحافة ويحترمه الصحفيون؟

ثم اعتراض رابع أو خامس: هل يستطيع الصحفى أن يقدم دائما واجب المهنة على كل اعتبار؟ هل يستطيع أن يذكر دائما أنه صحفى.. وينسى دائما أنه إنسان؟

لقد قابلت مثلا ملك الأفغان الأسبق الملك أمان الله.. قابلته مرتين.. فى سويسرا فى مدينتى مونتريه وزيوريخ.. وكان أمان الله فى المقابلتين رجلا كسير الخاطر محطم الآمال.. كان يمشى تحت وابل المطر.. يتسكع - كما قال هو نفسه - ليقتل الوقت.

وكتبت عنه فى المرتين ورويت الحديث الذى دار بيننا.. إلا جزءا منه.. إلا جزءا خاصا بزوجته السابقة الملكة ثريا.. لقد أبقيته حتى اليوم فى صدرى. هذا الجزء من حديث الرجل الكسير الخاطر المحطم الآمال.. كتمته ولم أنشره لأننى لم أستطع أن أنسى أننى - قبل أن أكون صحفيا - أننى إنسان.

وفاروق الطاغية.. فاروق هذا نفسه لا أستطيع أن أكتب وأروى عنه كل ما أعرف لأننى.. إنسان.

لقد قاومت طغيانه وحاربته قدر ما استطعت.. وهو ملك وحاكم بأمره فكتبت مثلا مقالا عنوانه: «يحيا الظلم» فى آخر ساعة عدد ١١ أكتوبر سنة ١٩٥٠ قلت فيه بين ما قلت:

نعم. يحيا الظلم.. ظلم كل جبار عاتية معتز بسلطانه وسطوته يدوس القوانين ولا يبالى. وظلم كل كبير فاسق وكل عظيم فاجر يسرق ولا يبالى ويختلس ولا يبالى.. ويثلم الأعراض ولا يبالى. ويهدر الكرامات ودم الوطن ويجعل من مصر أمثولة السوء وبصقة كريهة فى فم الزمن.

نعم. يحيا الظلم.. ظلم كل مطالب باحترام القانون ولا يحترمه. وكل قادر على حماية القانون ولا يحميه.. وظلم كل عابث ماجن إباحى مستهتر يضرب للناس أسوأ الأمثال..

نعم. يحيا الظلم لأنه خير مرب للنفوس.. ونفوس المصريين تجيش اليوم بمعنى واحد.. لقد صبرنا طويلا ولن نصبر بعد اليوم. وتحملنا كثيرا ولن نتحمل بعد اليوم.



وقرأ فاروق المقال. وأشر بالقلم على هذه العبارات.. ثم سأل بعض رجال ديوانه «الملكى». ولا داعى لذكر أسمائهم. سألهم.. «من العظيم الفاجر الذى يسرق ويعتدى على الأعراض»؟

وسكتوا عن الرد. وعاد يسألهم.. «من الذى يعنيه التابعى»؟ ولم يجب أحد منهم. وابتسم فاروق ابتسامة صفراء لأنه عرف بكل تأكيد من سكوت رجال حاشيته.. أنه هو المقصود.

وكتبت عن فاروق بعد خلعه وطرده.. كتبت ولم أرحمه وأسهبت فى سرد قصص مخازيه وفضائحه. ومع ذلك فإننى لم أنس فى كل ما كتبت أننى إنسان.. فلم أذكر مثلا لماذا بكى ذات يوم فى دار صغيرة فى حى جناكليس برمل الإسكندرية فى صيف عام ١٩٣٧.

وكان فاروق يومئذ لا يزال الملك المأمول.. لم تفسده الدنيا. ولم ينس ربه ودينه.. بكى كالطفل الصغير حتى بلل الدمع خديه.. لم أكتب ولم أذكر التفاصيل.. لأن «فاروق» بكى ساعتئذ كإنسان.. لا كملك.. ولأننى لا أستطيع أن أنسى دائما أننى.. إنسان.



الذكريات كثيرة.. وما أعرفه كثير.. وما وقع لى فى حياتى مختلف الألوان.. والصعوبة فى الاختيار.. أيها يصلح للنشر.. وأيها لا يصلح.

أيها يجوز نشره.. وأيها لا يجوز.. وأيها يرضى أصحابه وأشخاصه وأبطاله، أو يسكتون عن نشره.. وأيها الذى لا يرضيهم نشره.. هل أروى مثلا ما سمعته من الدكتور محمد صلاح الدين أيام اشتداد الخلاف بين رئيس الوفد مصطفى النحاس وسكرتير الوفد مكرم عبيد؟

ومن الذين سعوا مخلصين لتسوية أسباب الخلاف والإبقاء على وحدة الوفد.. ومن الذين سعوا وعملوا على توسيع شقة الخلاف بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد؟

وهؤلاء وهؤلاء من أعضاء الوفد أو من كبار الوفديين.

وهل أستطيع مثلا أن أروى تفاصيل حديث دار فى مسكنى ذات مساء فى شهر مايو أو يونية عام ١٩٤٢ بين فؤاد سراج الدين وبينى عن مكرم عبيد؟ وهل من الصواب فصله الآن من الوفد.. أو الانتظار أو الأسباب «الوجيهة» التى أبداها الأستاذ فؤاد سراج الدين للتعجيل بفصل الأستاذ مكرم عبيد؟

وهل أذكر الحديث الذى دار بالتليفون بين مصطفى النحاس - وكان فى فندق مينا هاوس - ومكرم عبيد وكان فى المنيا ذات مساء إبان الاستعداد للانتخابات التى جرت بعد قيام وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢.

وهل أروى ما سمعته من فم رئيس الوفد ورئيس الوزارة مصطفى النحاس عن «الملك» فاروق وموقف الوزارة منه ومن الإنجليز؟

وهل من الأمانة الصحفية أن أروى حديثا أو كلاما لم يقله مصطفى النحاس باشا أمامى إلا وهو مطمئن إلىّ وواثق منى؟!!

وهل أستطيع أن أروى كل ما أعرف وكل ما سمعته من صديق راحل كريم هو أحمد محمد حسنين، وللصداقة حقوق، وعليها واجبات؟

وهل مما يستقيم مع حقوق الصديق ولا يتنافى مع واجبات الصداقة أن أروى وأذكر كل ما عرفت وكل ما سمعت؟!

هذه هى الصعوبة. بل هذا هو الصراع بين الصحفى والأمانة الصحفية.. وبينه وبين سرية المهنة.. ثم الصراع بين الصحفى والإنسان. ■

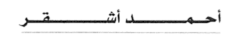


«نونية» ابن زيدون
فى
ولاّدة بنت المستكفى

وَاسـأَلْ هُنـالِكَ: هَلْ عَنّـى تَـذكُّرُنـا
إلـفـاً. تـذكُّرُهُ أمسَـى يـعـنّـيـنَـا؟
وَيَـا نـسـيـمَ الـصَّبَـا بلّـغْ تحـيّتَـنَـا
مَنْ لَـوْ على البُـعْدِ حَيّا كان يحـيينا
فهلْ أرى الدّهـرَ يقضينا مساعفَةً
مِنْهُ. وإنْ لـم يكُنْ غـبّـاً تقـاضِيـنَـا
رَبـيـبُ مُـلـك، كَـأنّ الـلّـهَ أنْـشَـأهُ
مِـسـكـاً. وَقَـدّرَ إنشـاءَ الـوَرَى طِينَـا
أوْ صَـاغَـهُ وَرِقـاً مَـحْـضـاً. وَتَـوجَـهُ
مِنْ نَاصِعِ التّبرِ إبْداعاً وتَحسِينَـا
إذَا تَـأوّدَ آدَتْـهُ، رَفـاهِـيَّـةٌ.
تُومُ الـعُـقُـودِ، وَأدمَتـهُ الـبُـرَى لِـيـنَـا
كانـتْ لَـهُ الـشّمسُ ظئراً فـى أكِلّته.
بَـلْ مـا تَـجَـلّـى لـهـا إلاّ أحـايِـيـنَـا
كـأنّـما أثـبـتَـتْ. فـى صَحـنِ وجنـتـه.
زُهْـرُ الـكَـوَاكِـبِ تَـعْـوِيـذاً وَتَـزْيِيـنَـا
مـا ضَـرَّ أنْ لَـمْ نَـكُـنْ أكفـاءه شـرَفـاً.
وَفـى المَوَدّةِ كـافٍ مِـنْ تَـكَـافِـيـنَـا؟
يـا رَوْضَـةً طـالَـمـا أجْـنَـتْ لَـوَاحِظَـنَـا
وَرداً، جَـلاهُ الـصِّـبـا غـضّـاً. وَنَـسْـرِيـنَـا







■■ تعتبر الترجمة جزءاً من أية عملية للتثاقف مع الآخرين؛ فهى التى تأتى من باب التعاون معهم، أو من باب الاستزادة من معرفتهم وعلمهم وأدبهم، أو من باب: «اعرف عدوك»، إذا كان الآخرون أعداء. وأمتنا العربية على مدار تاريخها الطويل والمؤثر فى الحياة الإنسانية، تعاشرت واشتبكت مع الآخرين، ولا تزال. وعليه، فقد كانت الترجمة فى العصور الغابرة، ولا تزال إلى يومنا الراهن، صنعة هامة، وإن أهملها قادتها الرسميين فى عصرنا الحالى، كى يبقوا عقول أبنائها رهينة الثقافة الرسمية!

صراعنا مع اليهود الصهاينة وحركتهم الصهيونية وذراعها المادية «إسرائيل»، كان من المفترض أن يجعل صنعة الترجمة من العبرية، قديمة كانت أو وسيطة أو حديثة ، صنعة نخبوية يوليها قادة الأمة ومثقفوها جلّ اهتمامهم. إلا أن أمرا كهذا لم يحدث، والذى حدث هو حوادث مريبة، هى ترجمات لبعض هوامش السياسة والثقافة فى «إسرائيل»، يدعون يسارا، يدعوننا للخضوع لهم، وقبول التسوية التى يعرضونها علينا، وإلا فإن «ربّ الجنود» لنا بالمرصاد! هذا ما يمكننا فهمه من المواد المترجمة التى ينشرها فلسطينيون وسواهم من عرب!

من هذا ماتناقلته الأخبار حديثا عن اتفاقات و(صفقات) لترجمة بعض أعمال الشهيرين «عاموس عوز» و«ديفيد جروسمان» للعربية.

وسنكتفى هنا بأن نضع أمام قارئ هذه المجلة. ونترك له الحكم. ترجمة بعض الاقتباسات من أدبيات «عوز» تفصح عن صورة العربى فى كتاباته.

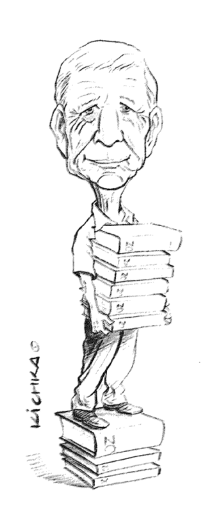
ولد عوز فى مدينة القدس عام ١٩٣٩. لعائلة مستعمرين هاجرت من أوكرانيا عام ١٩٣٤، كانت محسوبة على أكثر التيارات فاشية فى الحركة الصهيونية، جماعة جبوتنسكى. وسكن فى حى استوطنه مهاجرون من شرق أوروبا. ولم يحتك بالعرب فى المدينة، أو باليهود العرب الذين عاشوا فيها. أى أنه رضع الكراهية للعرب مع حليب أمه التى انتحرت عام ١٩٥١. ويقول عن التربية التى تلقاها: «كنت ولدا وطنيا متحمسا فى سنوات الصف الرابع والصف الخامس فى مدرسة تحكمونى. كتبت قصة تاريخية مسلسلة واسمها صنهاية مملكة يهودا' وعدة أناشيد احتلال وأناشيد عن المكابيين وباركوخبا وأناشيد عن عظمة الأمة، التى كانت تشبه القوافى الوطنية الملتهبة لجدى ألكسندر وبذلت جهدا لتقليد نشيد بيتار وباقى أشعار الأمة التى لزئيف جبوطانسكى: (...) «أشعل نارا، لا شيء!/ لأن الصمت وحل/ اترك الدم والروح/ من أجل العُلى المخفى! (...). تأثرت أيضا من أناشيد الفدائيين اليهود ومتمردى الجيتوات! (...). ومن أشعار شؤول تشرنيخوفسكى التى كان أبى يقرأها بنغمات طربية: ألحان الدم والنار! اصعد إلى الجبل وحطّم الحواجز، كل ما تراه- فقير» (عاموس عوز، قصة عن الحبّ والظلام، إصدار كيتر، ٢٠٠٢، ص ٤٧٤). ويضيف: «هم (أى العرب) يفهمون فقط لغة واحدة، لغة الكلمات (العنف) ويعتبرون ضبط النفس ضعفا» («مكان آخر»، ١٩٦٩، ص ١١٤).

يسوّق «عوز» بالقول إنه «يسارى»؛ ليس من قبل «اليسار الصهيونى» فقط، بل من قبل حلفائهم العرب، الذين باتوا يتحالفون أيضاً مع اليمين الصهيونى! وبعض الأوساط الليبرالية فى العالم. فهو أكثر الكتاب «الإسرائيليين» ترجمة وانتشارا فى العالم. وأعتقد أن هنالك دورا هاما للمؤسسة «الإسرائيلية» فى مسألة تسويقه كـ«يسارى»، فهى بحاجة لبوق إعلامى يتحدث بخطاب شكلىّ مغاير للغة السياسيين. لذا، فالمؤسسة هى التى جعلته «يساريا»، وهى التى سوّقته بهذا الرداء. وهو الأثير على الذين يقرءون ويكتبون فى الكيان. ولنا أن نذكر: هذا «اليسارى» كان قد طالب بقصف العراق بالسلاح النووى عام ١٩٩١. وفيما يلى بعض الاقتباسات من كتاباته:

١ - «(...) أودى هذا، مثلا، لو يفتح أوراقه مرة واحدة كان سيقول لى اسمع، زارو، طالما لم تقتل بقنبلة يدوية وبندقية من مسافة متر ونصف أو حربة فى بطن عربوشية، لن تعرف ما معنى الحياة، لن تشعر بالمتعة ببطنك بالمتعة التى لأجلها ولدنا. (...) أودى سيحضر فى الربيع من مقبرة الشيخ ظاهر هيكلا عظميا لعربوش، وسيثبته بأسلاك حديدية كى يكون بعبعا فى الحديقة وليتفجر الجميع (...)» (عاموس عوز، «أيام الراحة»، عام عوبيد، ١٩٨٢، ص ١٨٧).

ما يقوله «عوز» فى السياق فى غاية العنصرية والعنف؛ فهو يصف العرب بصفات تحقيرية: عروبشية، و«عربوش»، ومعنى الحياة عنده الاستمتاع بقتلهم والتمثيل بجثثهم.

٢ - «كان يحزقئيل يقصّ على حفيده أثناء الطعام عن عرب سيئين وعرب ملاح، على نواطير وعلى عصابات هوجاء (...) «يئير كان تلميذا مطيعا ومنكبا على دراسته. لم يُنقص كلمة واحدة ولم ينس كلمة واحدة (...) من رابية تل العريش أطلقت عصابة حسن سلامة النار على حولون «مستعمرة بين يافا والرملة» (...)» (عاموس عوز، ميخائيلى، عام عوبيد، ١٩٨٤، ص ١٠٢).



ومثل كل الصهاينة لا يذكر «عوز» حقّ

العربى بالمقاومة والدفاع عن نفسه. فكل مقاوم عنده: «إرهابى».

٣ ـ «فى بيتنا شرشفا أبيض. باقة أقحوان صفراء فى مزهرية. رجاجة نبيذ أحمر. ميخائيل يقطع خبز السبت. أنشد يئير ثلاثة أناشيد للسبت تعلمها فى الروضة (...) «ميخائيل يبدأ بالحديث إلى يئير حول جزء من أحداث ١٩٣٦. الولد يتشرب التفاصيل بعطش. ويعرض سؤالا مفحما (...)» (عاموس عوز، ميخائيلى، عام عوبيد، ١٩٨٤، ص ١١٦).

أصبح الحديث عن التنكيل بالعرب عام ١٩٣٦، وتربية الأبناء على هذا، طقسا مقدسا وورومانسيا مساء السبت.

٣ ـ «يبدو أنى أخطأت. شهوة سلطة هوجاء تبدو على يئير. ليس ميخائيل هو الذى أعطاه هذا الأساس. ولا أنا. قوة ذاكرته القوية عادت توقظ فى الجزع. حتى الآن يتذكر عصابة حسن سلامة وهجومها على حولون من اتجاه تل العريش. كما تعلم من جده المرحوم قبل أكثر من سنة ونصف» (عاموس عوز، ميخائيلى، عام عوبيد، ١٩٨٤، ص ١٦٨).

يعزو أن سبب العنف «الإسرائيلى» هو مقاومة العرب لهم فى ثورة عام ١٩٣٦، وليس هم، «اليهود، العنف ذاته.

٤ ـ «فيما اليسارى تفحص بدراسة بالغة القسيمة المحوسبة من البنك ولم يتمكن من فهم إن كان أُضيف إلى حسابه مبلغ ٦٠٠ شاقلا أم ٤٥٠ أو العكس. رأسه سقط على صدره وداخل عينيه المغمضتين، حشود مسلمين مروا مهتاجين، يصرخون آيات وشعارات، يدوسون ويحرقون كل ما يصادفهم. حتى فرغت الساحة وفقط قطع أوراق صفراء اختلطت بالريح وذابوا فى أصوات المطر» (عاموس عوز، «الحالة الثالثة»، إصدار كيتر، ١٩٩١، ص ١٤).

هذا «اليسارى» لا يرى فى الإسلام والمسلمين سوى حشود تدميرية تقضى على الأخضر واليابس.

٥ ـ «الرجل من حانوت الملابس النسائية التى لعمتى جيرتا؟ الرجل العربى العطوف الذى أنقذنى من فخ الظلام وحملنى بين ذراعيه عندما كنت ابن أربع أو خمس سنوات فقط، الرجل النعسان واللطيف هذا، الذى ابتسامة خجولة كانت تلمع للحظة على شفتيه، وبسرعة كان يعود ليختبئ تحت شاربيه الشائبتين الطريتين، هو الصوت الذى أذكره كل حياتى من كل قلبى، «يكفى يا ولد كل شىء على ما يرام، يا ولد كل شىء على ما يرام: ماذا، أيضا هو؟ يجلخ الآن حريته بحجر، يسن قلبه ويستعد لذبحنا جميعا؟ وأيضا سيتسلل هو إلى شارع عاموس فى منتصف الليل مع سكينته الطويلة الملتوية بين أسنانه لذبحنا، ليحز حنجرتى وحناجر والدى ويغرقهم فى الدم»؟ (عاموس عوز، قصة عن الحب والظلام، إصدار كيتر، ٢٠٠٢، ص ٧٤٧).

هذه الحادثة حقيقية فى حياة «عوز» وبدل أن يذكر العربى الذى ساعده بالخير، أو ينقلها دون شروح وتعليقات، استخدمها استخداما عدائيا مثيرا للتقزز.

٦ ـ «كنت على استعداد لأتحالف مع إنجلترا، وأنشئ سويا مع البريطانيين تحالف شعوب الثقافة المتنورة- بوجه أمواج الوحشية الشرقية منحنية الأحرف، منحنية السيف، المشتعلة والمبحوحة، التى تهدد أن تندفع من الصحراء لذبحنا ونهبنا وذبحنا بعواء- صيحات حلقية التى تجمد الدم (...) (عموس عوز، «قصة عن الحب والظلام»، إصدار كيتر ٢٠٠٢، ص ٨٣).

فى هذا النص يردد «عوز» بصورة «أدبية» ما قاله مؤسس الحركة الصهيونية «هرتسل» عن الشرق. ويؤكد ما قاله «ماكس نوردو» عن تحالف الصهيونية مع الشيطان ضد الشرق.

٧ ـ «فى حرب الأيام الستة، اقترح جدى أن تساعد أمم العالم إسرائيل الآن، لإعادة كل عرب بلاد الشام «باحترام كبير، دون أن تُسقط ولو شعرة واحدة من رؤوسهم وبدون أن ننهب ولو دجاجة واحدة من أملاكهم إعادتهم إلى وطنهم التاريخى، الذى يسميه (أى الجد) العربية السعودية» (عموس عوز، «قصة عن الحب والظلام»، إصدار كيتر ٢٠٠٢، ص ١٢٤).

بالنسبة لـ«عوز» لا مكان لعرب بلاد الشام فى فلسطين. فوجودهم فيها صدفة ومؤقت. وما على الأمم «المثقفة- المتنورة» إلا أن تساعد «إسرائيل» بتهجيرهم كافة. إذ لا يكفى تهجير عامى ١٩٤٨ و١٩٦٧.

٨ ـ «ومن يعرف ماذا سيفعل لنا البريطانيون قبل خروجهم. وبعد خروجهم. ستقوم جحافل العرب المتعطشة للدماء، ملايين المسلمين المتحمسين، سيقومون وخلال أيام قليلة بذبحنا كلنا. لن يتركوا بين الأحياء ولدا واحدا» (عموس عوز، «قصة عن الحب والظلام»، إصدار كيتر ٢٠٠٢، ص ٣٤١).

ربما هى دعوة منه أن تبقى بريطانيا فى فلسطين حامية ومساعدة لهم، خوفا من المسلمين.

هذا هو «عاموس عوز» الذى يعتبر أكثر الكتاب مبيعا فى «إسرائيل». وعندما نرى جنديا- إرهابيا أو جندية- إرهابية، تقرأ كتاب «عوز» فى محطات الحافلات والقطارات، بانتظار وسيلة نقل تقلها إلى إحدى القواعد العسكرية، وعندما نسمع فى وسائل الإعلام أن الجنود- الإرهابيين اليهود نفذوا مجزرة فى غزة أو الضفة أو شفا عمرو، نفهم الدور الذى يلعبه الأدب، الذى هو بجوهر أدب «عموس عوز»! ■

كتاب الزاوية





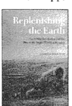
«نونية» ابن زيدون فى ولادة بنت المستكفى

وَيَا حياةً تملّيْنَا. بزهرَتِهَا.
مُنًى ضروبَاً. ولذّاتٍ أفانينَا
وَيَا نعِيماً خطرْنَا. مِنْ غضارَتِهِ.
فى وَشْىِ نُعْمَى. سحَبنا ذَيلَه حينَا
لَسنا نُسَمّيكِ إجْلالاً وَتَكْرِمَةً:
وَقَدْرُكِ المُعْتَلى عَنْ ذاك يُغْنِينَا
إذا انفرَدَتِ وما شُورِكتِ فى صِفَةٍ.
فحسبُنا الوَصْفُ إيضَاحاً وتبْيِينَا
يا جنّةَ الخلدِ أُبدِلنا. بسدرَتِها
والكوثرِ العذبِ. زقّوماً وغسلينَا
كأنّنَا لم نبِتْ. والوصلُ ثالثُنَا.
وَالسّعدُ قَدْ غَضَّ من أجفانِ وَاشينَا
إنْ كان قد عزّ فى الدّنيا اللّقاءُ بكمْ
فى مَوْقِفِ الحَشرِ نَلقاكُمْ وَتَلْقُونَا
سِرّانِ فى خاطِرِ الظّلماءِ يَكتُمُنا.
حتى يكادَ لسانُ الصّبحِ يفشينَا
لا غَرْوَ فى أنْ ذكرْنا الحزْنَ حينَ نهتْ
عنهُ النُّهَى، وَتركْنا الصّبْرَ ناسِينَا
إنّا قرَأنا الأسَى، يوْمَ النّوى، سُوراً
مَكتوبَةً. وَأخَذْنَا الصّبرَ تلقينا

Replenishing the Earth
The Settler Revolution and the Rise of the Angloworld

إعادة تشكيل الخريطة
ثورة الاستيطان وصعود العالم الانجلوفوني ـ الناطق بالإنجليزية.

James Belich
Oxford university press
2009,592 pp, £25.00



هذا الكتاب يعد دراسة رائدة لثورة الاستيطان البريطانية والامريكية فى القرن التاسع عشر والتى اطلقت العالم الانجلو فونى ، تكشف الدراسة الارتباط بين عوامل تاريخية متعددة انجحت الاستيطان وتظهر كيف تعاون الاستيطان مع الثورة الصناعية لاعطاء الميلاد للقوتين المهيمنتين فى القرن التاسع عشر. ويطرح سؤال: ما السبب وراء تحدث معظم انحاء العالم باللغة الانجليزية؟

يقدم المؤلف تفسيرا جديدا لذلك، حيث يرى ان السبب هو ثورة الاستيطان التى حدثت فى اوائل القرن التاسع عشر بالغرب الامريكى وتوأمه المنسى الغرب البريطانى وأدت إلى استيطان واسع النطاق تضمن تأسيس مستوطنات فى كندا واستراليا ونيوزلاندا وجنوب افريقيا

يشير الكتاب إلى تصاعد عدد المتحدثين بالانجليزية من ١٢ مليون متحدث حول العالم إلى ٢٠٠ مليون وذلك بين عامى ١٧٨٠ وحتى ١٩٣٠، بل وتزايد ثروتهم وقوتهم اثر ذلك. السر وراء ذلك- كما يوضح بليش فى كتابه- ليس له علاقة بالعنصرية أو بالثقافة أو حتى بالهيمنة المؤسسية بل يرجعه إلى التداخل القوى والمدوى لمجموعة تغيرات تاريخية شملت التطور المفاجئ لوسائل النقل الجماعى عبر الجبال والمحيطات، وتصاعد الرغبة فى الهجرة إلى جانب تزايد الاعتماد على التكنولوجيا غير الصناعية كالرياح والمياه والخشب تحديدا على حدود المستوطنات، بالاضافة إلى الثورة الصناعية مما انجح المستوطنين فى صنع مستوطنات متفجرة، ولقد ظهر هذا من خلال قدرتهم على خلق مدن ضخمة مثل شيكاغو وملبورن بل واستطاعوا ان يخلقوا اقتصاديات مجتمعية كبيرة خلال جيل واحد.

عندما استقر الاستيطان كما كان يحدث دائما، ظهر الاسلوب الثانى وهو الارتباط الاقتصادى والثقافى مابين الغرب الانجلوفونى ، حيث قويت العلاقات بين لندن ونيويورك وكان التبادل التجارى والثقافى يتم بينهما بالتوازى، هذا التعاون الذى عظم بريطانيا وامريكا وجعل منهما القوتين الاعظم فى العالم.

وعلى الرغم من ان ثورات الاستيطان لم تكن مقصورة على الدول الناطقة بالانجليزية فلقد اختبرتها الارجنتين وسيبيريا على سبيل المثال لكنهم فقط المستوطنين الانجليز الذين نجحوا فى ادماج الحدود بشكل ناجح، وهذا ما اعطاهم القوة ليحكموا العالم خلال المائتى سنة الماضية.

■

Conquest
How Societies Overwhelm Others

احتلال
كيف تغزو المجتمعات غيرها؟

David Day
Oxford university press 2008,
304 pp £14.99



يتكون تاريخ العالم من خلال تحرك الشعوب جغرافيا حول العالم، حيث يحتلون اراضى جديدة يضعون ايديهم عليها ويتخذونها حقا لهم، وبشكل متشابه فى كل الحالات تقريبا كان الاحتلال يعنى الانتزاع العنيف لحقوق وملكية السكان الاصليين فى أرضهم.

كيفما كان المحتل، سواء النورمانديين فى انجلترا أو الصينيين فى التبت أو الالمان فى بولندا أو حتى الاندونسيين فى غرب بابوا فى غينيا إلى البريطانيين والامريكيين فى شمال افريقيا ، كان الاستيلاء على اراضى شعوب اخرى واستبدال المجتمعات الاصلية بغيرها هو ما شكل تاريخ المجتمعات من الماضى السحيق وحتى الوقت الراهن.

يحكى دافيد داى فى كتابه قصة الغزو هذه، كيف حدثت؟ والطرق التى استخدمها المحتلون لتحقيق النصر بل والتبرير لاحتلالهم؟، ويوضح دموية هذا الاحتلال الذى كان يستمر لقرون، وعلى الرغم من اختلاف ملابسات كل محتل الا انهم اتفقوا فى مجموعة صفات وهى: اعادة تسمية الاراضى المحتلة ومحو الاسم القديم، الادعاء بوجود اسباب تاريخية أو عقائدية لتبرير احتلالهم، إلى جانب استغلالهم لموارد الأرض المحتلة، وحتى الابادة الجماعية الكاملة للسكان الاصليين.

فوق كل هذا فإن داى يبين كيف ان الاحتلال له آثار طويلة الامد للمحتل مثله مثل الواقع عليه الاحتلال وله تأثير اكبر فى تاريخ تطور العالم.

■

Veiled Brightness
A History of Ancient Maya Color

البريق المختبئ
تاريخ الألوان فى حضارة المايا القديمة

Stephen Houston, Claudia Brittenham, Cassandra Mesick, Alexandre Tokovinine, and Christina Warinner
Texas university $40.20
press 2009, 162pp



اللون يمثل جزءاً هاما ومكملا للخبرة البشرية، لكنه شائع للتعامل معه باعتباره غير مهم ومع ذلك فإنه شىء لا يمكن تجاهله وتجاهل تنويعاته، فكل ثقافة تتعامل بل وتستخدم الالوان بشكل مختلف ومبهر ومميز فى اغلب الاحوال، وهذا الكتاب يسلط الضوء على اهمية الالوان فى حضارة المايا ودلالة الالوان لفهم الحضارة وتطورها، تلك الحضارة التى ازدهرت بالمكسيك وامريكا الوسطى.

ولقد اعتمد الكتاب فى تحليله على الحفريات واستخدم كل من علم اللغة وتاريخ الفن بالاضافة إلى الترميم ليضع خريطة باستخدام المايا للالوان على مدار الاف السنين، فى منطقة تعطى تقديرا للمنحوتات والحرف اليدوية، كان مدخل الكتاب هو استبيان لمفهوم اللون وكيف يستقبله الاشخاص، مع الاعتماد على نظرية ارسطو عن اللون بالاضافة إلى الدراسات الانثربولوجية التى اجريت على الالوان وعلاقتها بدراسة المجتمعات.

كانت طريقة تعامل المايا مع الالوان تستحق الانتباه، ليس فقط من خلال الاشكال اللونية الاساسية للمايا بل ايضا الظروف التاريخية التى قوت ادراك المايا للالوان، فالمواد والتكنولوجيا المستخدمة فى انتاج المايا من الالوان قدمت بغير قصد مرجعية هامة للبحث العلمى. بالاضافة إلى ان تغير استخدام المايا للالوان عبر الزمن والذى حدث بعد تطورات تاريخية وفنية ظهرت من خلال تغير الصبغات اللونية المستخدمة وطريقة استخدامها، هذه الاكتشافات هى من الادوات الهامة لفهم رؤية المايا الفنية والاجتماعية ، والتى تقدم نموذجا لدراسة دلائل استخدام الالوان فى الحضارات القديمة.

■

The Slave Next Door
Human Trafficking and Slavery in America Today

العبيد بالجوار
الاتجار فى البشر والعبودية اليوم فى أمريكا

Kevin Bales and Ron Soodalter
California university press 2009,
320 pp, $24.95



يعتقد معظم الامريكيين ان العبودية انتهت مع اعلان تحرير العبيد، لكنهم مخطئون فى اعتقادهم، فما يكشفه بيلز وسودالتر فى هذا الكتاب ان هناك الافا من الاطفال والنساء والرجال يعيشون تحت سيطرة العبودية. هو بمثابة فتيل يفجر قضية تجارة الرق ويدعو للتشديد على هذه الجريمة، ويمكن اعتباره دراسة معلوماتية توضح ما هى السبل التى يمكن من خلالها للافراد العاديين ان يتعرفوا ويقوموا بالابلاغ عن حالات الاتجار فى البشر أو استعبادهم واستغلالهم، فهو يفضح حقيقة ماساوية وهى ان هناك حوالى ٢٧ مليون شخص حول العالم محاصرون بالعبودية ويعانون من الاستغلال، الكتاب يعرض لاصوات الناجين والمناضلين يوميا من أجل الحرية.

تنبع اهمية هذا الكتاب من ان العبودية والاتجار فى البشر تحولا إلى ظاهرة مزعجة تنتشر الان فى الولايات المتحدة الامريكية ، حيث تنتشر فى كل مكان ولكن ضحاياها بعيدون عن الانظار، غاسل الاطباق فى المطعم الموجود بالحى، الاطفال الذين يبيعون المجوهرات الرخيصة عند الزاوية، الرجل الذى يكنس أرضية المخزن بالهيئة الوطنية.

على هذه الصفحات مقابلات لاشخاص مثل امراة تكساسية شابة من الطبقة المتوسطة تؤدى عقوبة السجن مدى الحياة على عدة جرائم من بينها الاتجار فى البشر، يعرض الكتاب لنسيج من الاصوات من العبيد والمستعبدين وتجار البشر إلى جانب الخبراء والمستشارين بالاضافة إلى ضباط القوة الجبرية مع مجموعات انقاذ ودعم العبيد، فهو بمثابة نداء إلى المواطنين للتحرك فى سبيل وضع حد لهذه الجريمة المروعة. كتاب يحمل قارئه على الاحساس

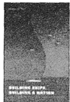
بالغضب. فمن عمال المزارع فى فلوريدا الذين يتم استعبادهم والاتجار بهم لالتقاط الخضروات والفاكهة وحتى السجناء بالصين الذين يصنعون لمبات المكاتب، يؤكد الكتاب على ان العمالة التى يتم استغلالها قد شكلت الاقتصاد الامريكى ويحاول وضع نهاية لذلك.

■

Building ships, building a nation
Korea's democratic unionism under park chung hee

بناء السفن، يبنى أمة
العمل النقابى الديموقراطى فى كوريا تحت حكم بارك شانج هى

Hwasook nam
Washington university press
2009, 336 pp, $75



هذا الكتاب يعرض لصعود وهبوط نضال عمال نقابة الشركة الكورية للهندسة وبناء السفن وذلك تحت حكم بارك شانج هى، تلك الشركة التى كانت تعد اضخم ترسانة سفن كورية إلى ان ظهرت هيونداى على الساحة فى بدايات السبعينيات، بالاعتماد على الارشيف النقابى غير العادى والواسع يركز نام على تصورات وخطابات ومواقف عمال واحدة من اكثر الصناعات الثقيلة وهى ترسانة السفن بالاضافة إلى القائه الضوء على الظروف الاجتماعية والسياسية والتاريخية وراء نضالهم.

بإيحاء من التاريخ النضالى العمالى الذى نشط فى فترات الاستعمار وما بعدها حاربت النقابة العمالية لشركة الهندسة وصناعة السفن الكورية من أجل المساواة والكرامة وكانت صوتا عماليا يناضل من أجل تحسين مستوى معيشتهم هم واسرهم.

الرؤية التقليدية الدارسة للحركة العمالية فى كوريا الجنوبية تجد روابط ضعيفة ما بين المرحلة التالية للحرب والفترة منذ السبعينيات وحتى الان، وتتجاهل وراثة الحركة للنضال العمالى وقت الاحتلال اليابانى لكوريا، يختلف نام مع هذه الرؤية التقليدية و يضع اهمية كبيرة وتأثيرا أكبر لمرحلة ما بعد الاستعمار وما حدث بها من تعبئة عمالية اثرت فى الحركة العمالية الكورية فى العقود التالية.

■

cavafy letters6-The forester Friends at a slight angle

خطابات فورستر ـ كفافى
صداقة متواضعة

Peter jeffreys
Auc press 2009, 212 pp, $29.95



تقابل الروائى الانجليزى فورستر مع الشاعر اليونانى السكندرى كفافى عندما كان يعمل الاول لصالح الصليب الاحمر بالاسكندرية خلال الحرب العالمية الاولى، مراسلاتهما المتتالية تعد شاهدا على علاقة معقدة نوعا ما وتكشف اصرار فورستر الصلب على ترجمة اعمال كفافى إلى الانجليزية دعاية له وتؤرخ ايضا المراسلات رفض كفافى الاستجابة الكاملة لخطة فورستر، تكشف الخطابات ايضا الستار عن العديد من الاسماء الادبية البارزة فى القرن العشرين امثال ارنولد توينبى ، ليونارد وولف وغيرهم ممن كانوا ضمن مشروع فورستر للترجمة، نجح فورستر اخيرا فى اطلاق اسم كفافى وسمعته لدى المتحدثين بالانجليزية واضعا حجر الاساس فى اطلاق الشهرة الادبية العالمية لكفافى .

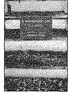
يتضمن الكتاب نصوص المراسلات، صورا ارشيفية، ترجمة مبكرة لاعمال كفافى على يد جورج فالاسوبوس وتنقيح كفافى نفسه لهذه الترجمة، بالاضافة إلى اشعار لفورستر.

■

A Meaningful Life

حياة ذات معنى

Davis J.L
The New York Review of Books
2009, 240 pp $14.95



طبعة جديدة من رواية دافيس التى كتبها فى ١٩٧١ ، كوميديا سوداء مركزة تطرح المطلب الامريكى حول الخلاص وهذا من خلال الصورة الحقيقية لمدينة نيويورك اثناء الانهيار ، تحكى الرواية عن لويل لايك المولود فى غرب امريكا والذى ينطلق - بعد انهائه لدراسته - نحو مدينة نيويورك الذى ينوى ان تستقبله فيها ككاتب، لكنه بدلا عن ذلك يعمل كمحرر فنى.

يكتشف لويل منزلا جميلا لكنه آيل للسقوط فى مقاطعة تجمع للمجرمين فى بروكلين، ممتنعا عن الاستماع إلى النصيحة وضد رغبة زوجته يقرر ان ينفق كل ما يملك لشراء هذا المنزل، يترك عمله وينتقل إلى السكن هناك ويقضى اياما وليالى فى تجديد وترميم البيت، فى النهاية كانت لديه مهمة وهى ان يحفر أرض البيت بحثا عن معنى لحياته واعتقد انه بهذه الطريقة سوف يصلح كل ما فسد فى حياته حتى لو اضطر للقتل من أجل تحقيق ذلك.

يقول عنها النقاد انها رواية تحكى عن الفوضى والعبث عندما يقابل لويل مجموعة من سكان المناطق العشوائية الموجودة فى المدينة ويقرر ان يحقق لنفسه حياة ذات معنى من خلال مطاردة تاريخ بيت قديم وصنع تحفة معمارية ينسبها إلى نفسه.

يرى دافيس انه لا يمكن للبشر ان يهزموا النظام لانهم هم من يكونون النظام، ويسلط الضوء على هؤلاء الذين يتصورون ان مجرد التراكم الكمى هو ما يعطى معنى للحياة.

■

Becoming native in a foreign land9
Sport, visual culture, and identity in montereal, 1840-85

كيف تصبح من السكان الأصليين فى أرض غريبة
الرياضة، الثقافة البصرية والهوية فى مونتريال (١٨٤٠ـ١٨٨٥)

Gillian poulter
University Press 2009, 390 pp, $85 Washington



هذا الكتاب يساعد على فهم العلاقة مابين الرياضة وتشكيل الهوية القومية فى كندا، فهو يسرد لما فعله المحتلين الانجليز فى عهد الملكة فكتوريا عندما احتلوا كندا، وكيف تعاملوا مع انفسهم باعتبارهم من السكان الاصليين، فلقد قاموا بتبنى الانشطة التى يقوم بها كل من السكان الاصليين والكنديين من أصل فرنسى، مثلا مارسوا العاب الصيد والتزحلق على الجليد ولعبة الكروس القديمة والتى كانت منتشرة فى ذلك الوقت - لعبة يستخدم فيها كرة وعصا مربوطا بها شبكة صغيرة - بل ونسبوا هذه الالعاب لانفسهم من خلال فرض اسلوبهم وطريقتهم فى اللعب، خلال هذه العملية كونوا رموزهم الوطنية والبصرية وقاموا بتصديرها للخارج وللداخل باعتبارها كندية اصيلة.

حاكت الهوية الجديدة سابقتها الاصيلة لكنها طردت اللاعبين الاصليين بينما ايدت وناصرت مصالح طبقة البيض المتوسطة والرجال البروتستانت الذين استغلوا الهوية المكتسبة للسيطرة على مجال السياسة، فى النهاية فإن الكتاب يوضح ان الهوية الكندية الانجليزية لم يتم تشكيلها فقط من خلال تطبيق ما هو بريطانى ولكنها كسبت أرضية واسعة عبر اغتصاب والاستيلاء على كل ما هو أصلى فى الأرض الخصبة المحتلة.

■

Nothing: A Very Short Introduction

لاشىء
مقدمة قصيرة

Frank Close
Oxford university press 2009, 176 pp, £7.99



هذا الكتاب ينقل القارئ من الافكار القديمة والخرافات المفسرة للفراغ، عبر نظريات نيوتن واينشتاين وحتى الابحاث الحالية حول الجسيمات الصغيرة - الالكترونات - وقوتها وسرعتها، هو عبارة عن مقدمة صغيرة تحكى كل شىء عن الـلا شىء، و يبين كيف احتار العلماء فى فهم مشكلة فيزيائية و فلسفية تتعلق بما يتبقى عندما تاخذ كل شىء من مكانه.اى بالفراغ.

فرانك كلوز يحكى لنا كيف اكتشف العلماء غموض الفراغ وكيف جاهدوا من أجل فهم الطبيعة الفيزيائية للزمن والفضاء، فالخلاء لايعنى فراغا بل يسكنه جسيمات وجسيمات مضادة ويحتوى على ابعاد لم يكن لنا علم بها وهذا يثير تساؤلات حول كيف نشأ الكون من لا شىء أو من الفراغ؟ وهل من الممكن ان يتواجد الـلا شىء؛ إن لم نتمكن من رؤيته؟ومن اين تاتى الاشياء؟وما الذى يكمن خارج الكون؟وهل يمتد الكون ويتوسع نحو شىء ما؟ وهو ما يحاول الاجابة عليه فى هذا الكتاب.

■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

مذكرات نوبار باشا

تقديم: د. لطيفة سالم
ترجمة: جارو روبير طبقيان
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٧١٦ صفحة



شغل نوبار باشا القادم من أصول أرمنية مناصب عديدة فى حكومات مصرية متعاقبة، إذ عمل وزيرا للنقل والأشغال والداخلية والخارجية، كما اختير أول رئيس وزراء لمصر فى مجلس النظار الذى أسسه الخديو إسماعيل عام ١٨٧٨. وشغل هذا المنصب مرات ثلاثًا قبل أن يتوفى عام ١٨٩٩.

كتب نوبار باشا هذه المذكرات عندما بلغ الخامسة والستين، وتناول فيها الفترة من عام ١٨٤٢ وحتى عام ١٨٧٩، وهى الفترة منذ قدومه إلى مصر وحتى عزله الخديو إسماعيل.

وتكشف المذكرات، التى تترجم هنا كاملة للمرة الأولى، عن الوجه الآخر لنوبار باشا الذى كثيرا ما تعرض للاتهام بموالاته للأجانب على حساب المصريين، وهو يقدم هنا ما يؤكد ضيقه بسيطرة الأجانب على الوضع العام فى مصر، وسعيه لتأسيس المحاكم المختلطة للحد من هذه السيطرة، ثم يتناول علاقته بكل من العضوين الإنجليزى والفرنسى فى مجلس النظار الأول.

وهذا الكتاب يضع بين يدى القارئ والباحث تفسير نوبار باشا للقرار الذى أحدث زلزالاً فى التاريخ المصرى الحديث، وهو تسريح ٢٥٠٠ ضابط من قوات الجيش، مما أدى إلى مظاهرة الضباط الشهيرة فى ١٨ فبراير ١٨٧٩.

■

روعة الكيمياء

مونتى فيتروف وكاثى كوب
القاهرة: كلمات عربية
دبى: مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ٢٠٠٩



قد يصعب عند تناول الوضع الحالى للمجتمع الغربى أن نصدق أن الجنس والطهى كانا يوما ما من المواضيع التى يجرى تناولها بحذر بالغ، لكن عندما كتبت إيرما رومبور Irma Rombauer كتابها «روعة الطهى» The Joy of cooking عام ١٩٣١، وكذا أليكس كومفورت Alex Comfort كتابه «روعة الجنس» The Joy of Sex عام ١٩٧٢، فإنهما بذلك كانا يتناولان مخاوف مجتمعية غاية فى الواقعية. ويوضح كتاب إيرما ما يدور فى المطبخ، أما كتاب كومفورت فهو يزيل الالتباس بشأن ما يحدث فى المخادع، وبالمثل ينظر البعض للكيمياء على أنها أمر مزعج، ومن ثم ربما يكون قد حان الوقت الآن لاكتشاف روعة الكيمياء.

نجد كتب الكيمياء عادة فى واحدة من فئتين، إما كتب دراسية أو كتب للأطفال، وهى تستهدف فى جوهرها القارئ العادى، وثمة أعمال رائعة تصدت لهذا العيب، ومن أهم هذه الأعمال كتاب «وصلات الكيمياء: الأسس الكيميائية للظواهر اليومية» Chemistry connections: The Chemical Basis of Everyday Phenomena تأليف كيرى كيه كاروكستيس Kerry K. Karukstis وجيرالد آر. فان Gerald R. Van، وكتاب «الجنى الذى فى الزجاجة» The Genie in the Bottle لجو سكواركز Joe Schwarcz. ومع ذلك فقد رأينا أن ندلى بدلونا فى هذا المقام مؤمنين بأننا سوف نقدم منهجا به بعض الاختلاف الطفيف عما سبقه من مناهج. ولقد حاولنا أن نكتب الكيمياء بطريقة مبسطة، فهذا الكتاب هو كتاب كيمياء موجه لمن يريد دراسة الكيمياء نظريا كى يقرأه بإمعان وهو جالس فى منزله مستريحا، ويضم بين دفتيه أيضا تجارب عملية مباشرة يمكن تنفيذها فى المطبخ أو فى المرآب. وما دعانا لكتابة هذا الكتاب هو أنه من نوعية الكتب نفسها التى أحببناها عندما استهللنا دراستنا للكيمياء، وقد كتب كيميائيون هذا الكتاب، لكنه لم يُكتب للكيميائيين خاصة، فقد كُتب للطلاب الذين اعتدنا أن نكونهم وللدارس الموجود داخل كل منا.

وسوف نكتشف عبر هذه الصفحات السحر المتأصل فى الكيمياء، من الافتتان بسقوط أوراق الشجر والألعاب النارية إلى أداء كاشف الدخان وأداء أجهزة الحاسوب، وكذا أساسيات الهضم والاحتراق. ولسوف نوضح هذه المبادئ عن طريق التجارب العملية بأنفسنا باستخدام مواد فى متناول الأيدى، ولا يتطلب الأمر ضرورة توافر المعامل والآلات الحاسبة للتمتع بجمال الكيمياء، فالمفاهيم يمكن شرحها فى ضوء خبرات الحياة اليومية وباستخدام المواد التى فى متناول يديك.

وغالبًا ما يُطلق على الكيمياء العلم المركزى لأنها تقع فى لب فهمنا للعالم المادى والحيوى وفى مركز مخاوفنا العامة فى كل المجالات بدءًا من الطب ومرورًا بالسياسة ووصولاً للاقتصاد. ومن ثم ينبغى أن ترن أصداء مبادئ الكيمياء فى مفاهيمنا وخبراتنا. ومن الممكن أن تكون الكيمياء علمًا غاية فى الألفة يناجى حدسنا وعقولنا وحسنا بالمتعة أيضًا، إذا كنا مستعدين أن نترك أنفسنا له بلا قيود. ملذات الكيمياء هى باختصار موضوع هذا الكتاب.

■

مفهوم الدهر

فى العلاقة بين المكان والزمان
فى الفضاء العربى القديم
محمد الرحمونى
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩، ١٦٠ صفحة



انطلاقًا من مجموعة الدراسات والأبحاث التى قدمها الدكتور محمد الرحمونى فى سياق بحثه فى المفاهيم القرآنية، منها الجهاد والجاهلية.. وجد أمامه بابًا مشرعًا لإعادة النظر فى مفهوم، وإن بدا قديمًا، إلا أنه بات مثيرًا للجدل، ألا وهو مفهوم «الدهر».

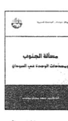
من هنا، قرأ الرحمونى موضوع «الدهر» قراءة واسعة مرتكزة على القرآن الكريم، ووزع كتابه على قسمين: تناول الأول، ماهية الدهر من حيث اللغة والفلسفة وكتب التفسير، وتناول الثانى مفهوم الدهر باعتباره «إحساسا أعرابيا بالزمان» لا يمكن إدراكه إلا بإدراك المكان الذى يرتبط به.

فلما كان الأعراب يتحركون فى فضاء بعيد عن المدينة ومؤسساتها، وجدناهم جاهلين تتخبط حركتهم بصورة عشوائية وتترجم إلى أتباع وهوى، وهذا، بدوره، استدعى النظر فى قفا المكان الذى يتحرك فيه البدوى، وهو الزمان المعبر عنه فى القرآن بـ «الدهر». فالتحكم بالزمان يضفى قيمة على الأعمال الإنسانية من جهة، ويخلق قدرة على بناء مختلف مستويات المجتمع من جهة ثانية. ولا يتم ذلك إلا من خلال عقلنة الزمان وإدراك المكان، والنتيجة ستكون نقلة نوعية من الجهل إلى العلم ومن الصحراء إلى المدينة ومن الضلال إلى الهدى.

■

مسألة الجنوب

ومهددات الوحدة فى السودان
عبده مختار موسى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ٣١٨ صفحة



يرى المؤلف أن مشكلة جنوب السودان قد تفاقمت، ضمن عوامل متعددة، بسبب عجز النخبة السودانية عن تحقيق الانسجام بين مكونات المجتمع السودانى، وأنه لأسباب تاريخية وعوامل موضوعية ظهرت أزمة ثقة بين الطرفين، على مستوى النخبة السياسية.

ويلاحظ المؤلف أن جوهر الصراع بين الشمال والجنوب، فى السودان، هو صراع هويات. ولذلك يقدم إطارًا نظريًا لمفهوم الهوية والظاهرة الإثنية والمضامين السياسية للإثنية، وتأثيرات ذلك فى العلاقات الجنوبية الشمالية.

وهو يعالج فى كتابه هذا مهددات الوحدة السودانية، من خلال رصد استقرائى لأحداث ومقولات تعبر عن الصورة الذهنية التى يحملها الجنوبى عن الشمال والشمالى. ويقدم أمثلة كثيرة فى هذا السياق تعزز أطروحته التى تستند إلى غياب الاندماج الاجتماعى والتفاعل الثقافى بين الشماليين والجنوبيين.

كما قام بتقييم ما انعقد فى هذا الخصوص من اتفاقيات السلام، ولاسيما اتفاقية نيفاشا ٢٠٠٥، فهى، برأيه، أوقفت الحرب، لكنها لم تحقق السلام، عدا أنها فجرت صراع هويات.

أهمية هذا الكتاب أنه يأتى فى وقت تمر فيه علاقة الجنوب والشمال فى السودان بمنعطف خطير، وفق ما جاءت به اتفاقية نيفاشا للسلام الشامل التى أعطت حق تقرير المصير لشعب الجنوب بعد فترة انتقالية مدتها ست سنوات (٢٠٠٥ ـ ٢٠١١). هذا يعنى أن الاتفاقية تشكل نقطة تحول فى تاريخ السودان، مما يستدعى ضرورة البحث فى مجمل المتغيرات ومآلاتها.

لذلك تقوم هذه الدراسة على فرضية أساسية ترى أنه من الصعب تحقيق وحدة

مستدامة بين الشمال والجنوب ما لم يتم ذلك وفق منظور سوسيولوجي شامل واندماج اجتماعي حقيقي يمهد لانصهار بين القوميات في هوية سودانية كبرى واحدة، تتعايش في داخلها عناصر التنوع الثقافي في انسجام تلقائي.

■

غرائب من عهد فاروق وبداية الثورة المصرية

المؤلف: أحمد مرتضى المراغي
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩ ، ١٧٦ صفحة



مازال حكم الملك فاروق موضوعًا مثيرًا للجدل، وبه الكثير من المناطق الغامضة والمجهولة، بما ثار من أساطير حول شخصية الرجل من ناحية، وعلاقاته بالإنجليز من ناحية أخرى، وفي السنوات الأخيرة أعيد الموضوع ليُفتح من جديد، ولتثار أسئلة عديدة لم تُطرح من قبل.

ما يضع هذا الكتاب في قائمة أهم ما صدر حول الملك المخلوع، وكذا طبيعة الصراع السياسي في مرحلة ما قبل الثورة أن الكتاب هو شهادة أحمد مرتضى المراغي الذي شغل منصب وزير الداخلية المصرية على مدار ثلاث حكومات، كانت كلها في عام ١٩٥٢، وكان آخر أيامه على كرسي الوزارة هو يوم ٢٤ يوليو١٩٥٢.

ويستعرض المؤلف من خلال هذه المذكرات سيرة فاروق منذ طفولته وحتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ملقيًا الضوء على ما اشتهر عن آخر ملوك مصر من غرابة الأطوار، مثلما حدث عندما أراد أن يطلق زوجته، وسبب انكساره العنيف بعد حادث ٤ فبراير، ووسائله في إزاحة خصومه وجلسات الحشيش والخمر، وكذا علاقته بالإخوان المسلمين.. وغيرها من أسرار ووقائع تنشر لأول مرة.

■

اعمل عبيط

جمال الشاعر
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ١٧٠ صفحة



«اعمل عبيط» كتاب جديد لجمال الشاعر، المذيع ورئيس قناة النيل الثقافية. صدر حديثًا عن الدار المصرية اللبنانية، وفيه يدخل جمال الشاعر، الكتابة الساخرة من أوسع أبوابها، لكنها كتابة ساخرة مهمومة، تأتي عبر معارف عدة، ومن وجدان مبدع شاعر، لذلك فهي تدخل في صميم الحياة، لتعرف المشكلة، وتعرف حلها، ولا شيء يحدث، تلك هي المفارقة التي يلعب عليها جمال الشاعر، فالمسافة بين معرفة الأزمة ووقوعها، وبين حلها أو تركها على حالها، هي أم الأزمات التي يعانيها المجتمع المصري.

الكتابة الساخرة كما لدى جمال الشاعر في هذا الكتاب تخرج من باب «التريقة» والسخرية من كل شيء كما هو سائد الآن في كتابات سطحية، بل هي كتابة مشغولة بواقعها، ملتصقة بالأرض، ومع ذلك تنظر إلى البعيد، أملها وحلمها الذي تشتغل عليه هو جعل مصر، دولة متقدمة.. دولة حديثة، لا تتسول قوتها.. كتابة تتأمل ما يجري على جميع الأصعدة وتشتبك معه، لذلك فهي لا تركب موجة الكتابات الساخرة.

الكتاب الذي يصل عدد صفحاته إلى ١٧٠ صفحة، يحاول الإحاطة بكل المشكلات في المجتمع المصري بدءًا من تصريحات الوزراء، وأكاذيب السياسيين وقنابل دخانهم التي تحجب الحقيقة، والرشوة الجنسية التي تمرر الصفقات من تحت الترابيزة وفوقها على جانبيها، ومرورًا بحروب شيوخ الفضائيات، ومباريات تسليع الفتاوى، وبيزنس الهاتف الإسلامي، وليس انتهاء بوزراء المجموعة الاقتصادية.. وهم يقولون: إن مصر فيها فرص عمل بالآلاف، لكن الشباب يفضل الجلوس على المقاهي. وكذلك حين تقارن بين راتب شخصين يعملان في المؤسسة نفسها أحدهما يتقاضى ثلاثمائة ألف جنيه، والآخر ثلاثمائة جنيه فقط. ينصحك جمال الشاعر بأن «تعمل عبيط» وأنت ترى كل ذلك أمام عينيك، حتى لا تصاب بحرق الدم، اعمل عبيط واستمتع بفحل البصل والفول المدمس، اعمل عبيط وأنت ترى العمالة المصرية مسحوقة تحت رحمة الكفيل، ومطرودة من أمام أبواب السفارات.

تكتسب الكتابة الساخرة - إذن - على يد جمال الشاعر بعدًا اجتماعيًا وسياسيًا، وعمقًا فلسفيًا يخرج بها عن أن تكون كتابة للتسلية وتزجية الوقت، لتصبح كتابة محفزة، تدعو إلى الفعل الإيجابي وليس الانتظار السلبي، لذلك افتتح كتابه بمقولة «يوجين يونسكو»: لا أريد أن أصبح خرتيتًا. ينضم إلى قطيع الخراتيت. فَعَلَ ذلك جمال الشاعر في هذا الكتاب: اعمل عبيط، ومن قبل فعلها في كتبه: رئيس لمدة دقيقة، ومدونته التي صدرت في كتاب: كدا مذا، وحبيبتي أينشتين لا يعض.. وكلها صدرت عن الدار المصرية اللبنانية، ليتكامل بذلك الدور الذي يقوم به الإعلامي الواعي عبر الشاشة والكلمة.

■

الكائن الحي مفككًا ترميزه

جان - نيكولا تورنييه
ترجمة: هالة صلاح الدين لولو
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٣٥٢ صفحة



أيّ معنى يُعطى لكلمة الحياة؟ هل الجنين حي منذ الحمل به؟ وهل يمكن للذات الأخرى أن تُشيأ من أجل تلبية حاجة شخص ما إلى خلايا جذعية لأن حياته معرضة للخطر؟

هذه الأسئلة الجديدة ما هي إلا صياغة عصرية لأسئلة دائمة. وهي تسمح بإدراك أن علم الأحياء ليس بوسعه الانفصال عن التفكير الأخلاقي.

يقدم هذا الكتاب تعريفًا جديدًا للحياة، بسيطًا وفاعلًا، ويتيح مراجعة بعض ألغاز علم الأحياء المعاصر مثل أصول الحياة وتطورها، والاستفهام عن المسائل الأخلاقية لهذا العلم: مضغة الكائن الحي المعدل وراثيًا، والاستنساخ المولد والعلاجي، والخلايا الجذعية بالنسبة إلى الحياة.

■

خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر

جان جاك روسو
ترجمة: بولس غانم
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٢٣٩ صفحة



لو استثنينا من تاريخ الثقافة الغربية العالمة آثارًا قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة، ومنها ما صدر في القرن السابع عشر، ونعني كتاب «الأخلاق» لسبينوزا وكتابي «اللويثان» و«في الإنسان» لهوبس، لصح القول إن «خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر»، ليس كتابًا مؤسسًا لمبادئ الأنثروبولوجيا الفلسفية وحسب، وإنما يزيد عن سوابقه بكونه وضع شفرات ومفاتيح جديدة لعلوم الإنسان الحديثة.

وما كان لليفي شتراوس أن يكذّب زعمنا هذا لو طال مسامعه. فمع روسو ننتقل من خطاب العقل الكلي إلى البنى الثقافية والسياسية المحكومة بمبدأ الأصل والاختلاف.

وما يعنينا هنا ليس ما إذا كانت تلك الشفرات والعلامات والمفاتيح صادقة أو كاذبة، منذرة بزوال مدنية قديمة أو مبشرة بحلول مدنية جديدة: فقيمة أصل التفاوت، وجدّته الراديكالية كامنتان في بناء قطب معرفي جديد محوره الرئيس إنما هو الإنسان لا غير.

■

حكاية الطفلة العجوز

جنيّ إربنبك
ترجمة: محمد جديد
بيروت: شركة قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ١٠٨ صفحات



الكاتبة الألمانية جني إربنبك تفلح في مؤلفها الأدبي الأول في إضفاء لغة ساحرة خاصة على روايتها الفذة «حكاية الطفلة العجوز»، ومنحها تعبيرات استثنائية أفلح المترجم في نقل روحها بأمانة إلى العربية.

ولدت الكاتبة في برلين في عام ١٩٦٧ وتعلمت لاحقًا مهنة تجليد الكتب، ودرست الإخراج المسرحي الموسيقي حيث تستعد لإخراج أول أعمالها الفنية.

تقول عن إصدارها الأول باللغة العربية: أهدي كتابي الأول هذا، باللغة العربية إلى والدتي دورس كيلياس التي أوقفت كل عمرها لترجمة الأدب العربي إلى اللغة الألمانية، حيث شاءت الأقدار أن أفقدها إلى الأبد في العام ذاته الذي صدر فيه أول أعمالي بالعربية. إني آمل أن تبقى ذكراها حية في روابط هاتين اللغتين.

عثر على فتاة تهيم ليلاً في الشارع وتحمل في يدها دلوا فارغا، والفتاة ليست جميلة وليست قبيحة، ولكن لا أحد يعرف اسمها أو عنوانها أو أصلها، ولا أحد يعرف اسم والديها، ولا حتى هي نفسها تعرف ذلك، وترسل إلى ملجأ أطفال وترسل إلى مدرسة للتعلم.

وتحيط بهذا المخلوق أجواء من الإبهام حيث تخفق كل محاولات الحديث معها، ولكن يبدو في بعض الأحيان وكأنها تعرف أكثر بكثير مما تبوح به..

■

هجرة الشوام

المؤلف: مسعود ضاهر
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩ ، ٤٩٢ صفحة



متى بدأت هجرة الشوام إلى مصر؟ من أي المدن جاءوا؟ وفي أي المدن المصرية استقروا؟ وما الأسباب التي تقف وراء تلك الهجرات المتتالية؟ هذه الأسئلة وغيرها الكثير يجيب عنها هذا الكتاب المرجع. والذي يحلل بمنهجية علمية، وأسلوب ناصع، وتوثيق مدهش كل ما يتعلق بهجرة الشوام إلى مصر، متناولا أهم الأنشطة والأعمال التي التحق بها الشوام، أو طوروها، أو أسسوها في مصر، ولماذا برعوا في هذه الأعمال بالتحديد. كما يلقي الضوء على البعدين العائلي والطائفي وتأثيرهما على جاليات الشوام في المدن المصرية، ثم مصادر ثقافة الشوام وكيف أفسحت لهم المجال واسعا في الحياة الثقافية والاقتصادية والسياسية المصرية منذ عصر محمد علي حتى عصر جمال عبد الناصر.

مسعود ضاهر: المفكر وأستاذ التاريخ اللبناني، نال الدكتوراه من السربون، ويدرس في الجامعة اللبنانية منذ عام ١٩٧٣، كما عمل أستاذا زائرا في طوكيو، وجورج تاون (واشنطن)، وانتدب كذلك خبيرا للبرنامج الإنمائي للأمم المتحدة عام ٢٠٠٤. من أبرز مؤلفاته بالعربية: «الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧-١٨٦١»، والمشرق العربي المعاصر: «من البداوة إلى الدولة الحديثة»، و«الدولة والمجتمع في المشرق العربي ١٨٤٠-١٩٩٠»، و«مشكلات بناء الدولة الحديثة في الوطن العربي»، و«النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج».

■

للموت سرٌ آخر (شعر)

غسان مطر
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٩ ، ١٦٠ صفحة



يتألف الديوان من ثلاثة أقسام: «إيقاعات تائهة»، «مدائن النار والياسمين» (رسائل من الشاعر إلى الغائبين ممدوح عدوان، محمد الماغوط، يوسف سلامة). والقسم الأخير «للموت سر آخر». تتمحور قصائد هذا الديوان حول الموت بصوره وأشكاله المختلفة: الغياب، الرحيل، فقدان الأحبة، الفناء، البقاء... إلخ. ورغم قساوة الموضوعات ووطأتها على كل إنسان، يلمس قارئ القصائد شفافية عالية وحسًا مرهفًا وشاعرية تفوق الوصف، مما يضفي طراوة ويشجي النفس، خصوصًا أن الشاعر ليس من المتكلفين. فهو يصنع الشعر ولا يتصنعه يفلسف الأفكار ولا يتفلسف.

أما الإشكالية الكبرى التي يطرحها غسان مطر والتي أرقت وتؤرق المؤمن والكافر، العالم والجاهل، الكبير والصغير، العربي والأعجمي، على حد سواء فهي: ماذا بعد الموت بقاء أم فناء؟

وفي الانتظار الصعب لمعرفة الجواب اليقين، يقدم الشاعر في خاتمة الكتاب جردة حساب دقيقة: «قلتُ ما قلتُ،

هل كان ما قلتُه عبثًا؟ هل مررتُ غريبًا/ ولم أتخذ لي صديقًا أكاشفه؟/ هل خذلتُ بلادي؟/ وهل كان صوتي قريبًا/ من الله والناس؟/ لا أملكُ الآن أجوبة صافية. / كل ما كان كان/ ولستُ جبانًا لأنكر أو أتنكر/ هذا أنا/ عاريًا مثلما قذفتني الحياة/ ولا سرَّ عندي لأخفيه/ فليأخذ الله راحته حين ألقاه/ لست أفكر في عودة ثانية. / كتبَ الناسُ أقدارهم/ وكتبتُ حروفي على صفحة عارية».

■

الأبعاد الاجتماعية لإنتاج واكتساب المعرفة
حالة علم الاجتماع في الجامعات المصرية

أحمد موسى بدوي
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٤٨٠ صفحة



في هذا الكتاب يضبط المؤلف المشكلة الإبيستيمولوجية، على المستوى الأكاديمي، فإذا هي تغرس جذورها في مشكلة معرفية مزدوجة: يتمثل الشق الأول منها في كون علم الاجتماع علما مستوردا، بنظرياته وتقنياته ومنظوراته، وهو يدعي امتلاك معرفة ثوابت الحياة الاجتماعية في العالم أجمع. أما الشق الثاني فهو أن علم الاجتماع لا يستجيب لمطلب أصيل عندنا، وبالتالي فلا قضية له عندنا كما في موطنه الأصلي، الغرب.

وفي هذا الكتاب استكشاف إبيستيمولوجي لوضعية علم الاجتماع راهنًا في الوطن العربي المعاصر، من خلال التجربة الجامعية، وكشف ملموس للمشتغل/ة، في هذا المجال.

فالمؤلف يسلط الضوء على عنصرين من حقل علم الاجتماع في الجامعات العربية، إذ يتناول عنصر الأفراد (الأساتذة والطلاب في أقسام علم الاجتماع أو كلياته)، وعنصر المواقع من باب الكتاب التعليمي الجامعي. ويستغرق في التحليل من موقع الأكاديمي العارف، والمدقق، والناقد.

فقد بدا للمؤلف أن علم الاجتماع، تعليمًا وتأليفًا وبحثًا، مازال إبيستيمولوجيًا في طور المخاض في الجامعات العربية. ويعود للمهتمين بهذا العلم في الوطن العربي المعاصر، أن يبلوروه، وأن يعيدوا صياغته بحسب استراتيجيتهم هم، النابعة من مصالح ورهانات المجتمعات العربية.

لذا، يساعدنا هذا الكتاب، دون أي شك، في ضبط مكامن الخلل في المسار الذي سلكته بحوث علم الاجتماع العربية حتى الآن، كما أنه يسمح لنا بوعي مكامن الضعف. وبالتالي من المفترض أن يساعدنا عمل المؤلف على الخروج من حالتي المانعة والتبعية، اللتين يعيشهما علم الاجتماع العربي في الوقت الراهن.

■

التحضر العشوائي

جليلة القاضي
ترجمة: منحة البطراوي
القاهرة: دار عين للنشر، ٢٠٠٩ ، ٤٣٨ صفحة



هي مناطق سكنية نشأت على تخوم المدن، غالبًا في أراض زراعية غير مسموح بالبناء عليها بدون تصريح أو تخطيط. متدنية المواصفات العمرانية والإنشائية والمعمارية والبيئية. شوارعها ضيقة لا تسمح بسيولة الحركة، كثافتها البنائية عالية تمنع الإضاءة والتهوية الطبيعية والعزل الصوتي. جيدة كمبان، وخربة كطريقة إنشاء في أغلب الأحيان.. فقيرة كتصميم وكمظهر معماري، وفقيرة كخدمات ومرافق، ولا توازن بين ما هو مكشوف وما هو مبني، ولا مكان لحديقة أو أية مساحة خضراء أو أماكن ترفيهية، مما يجعل تلك المناطق وبحق «تابوتًا للنفس، محبطة للسكان ومحركة لسخطهم وعاملاً أساسيًا يدفعهم للهروب من واقعهم المرير إلى ماض سحيق أو إلى نموذج ميثولوجي مثالي في عالم آخر.

هكذا تعرف جليلة القاضي العشوائيات في مصر، التي أصبحت تؤم ١٧ مليونا من البشر باستجابتها لاحتياج جديد، فهي مخصصة للشرائح الوسطى والدنيا ذات الترقي المحاصر أو الانهيار البادئ، وكذلك للنسبة الضئيلة من الفئات الشعبية التي عملت بالخارج وهي من حالفها الحظ في السبعينيات، إلى جانب تلك التي استقرت في عمل يؤمن لها راتبًا أعلى من الحد الأدنى الحيوي.

كيف نشأت تلك الظاهرة ومتى؟ وما العوامل التي أدت إلى تطورها؟ وما المشاكل التي ترتبت عليها وكيف تمت مواجهتها؟

هذا ما يحاول هذا الكتاب الرائد الإجابة عنه، فهو أول كتاب باللغة العربية يتناول مسألة التحضر العشوائي بالرصد والتحليل.

■

الأمم المتحدة وحماية حقوق الإنسان

دليل استرشادي
إعداد: محمود قنديل
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٩ ، ١٥٢ صفحة



ظلت قضية حقوق الإنسان شأنًا داخليًا على مدى عقود طويلة، حيث اقتصرت أحكام القانون الدولي على مخاطبة الدول والمنظمات الدولية فقط. فيما كان موقع الفرد يتوارى خلف الانتهاكات الجسيمة التي تطول حقوقه وحرياته الأساسية، سواء على الصعيد الوطني أو الدولي إبان النزاعات المسلحة الدولية والداخلية.

ومع بداية عصر التنظيم الدولي في عهد «عصبة الأمم»، شهدت قضية حقوق الإنسان تطورًا جزئيًا، وفر حماية فقط للأقليات، وصدرت خلاله بعض الإعلانات والاتفاقيات الدولية التي تحظر الرق والعبودية، وتجرم العمل القسري، إضافة إلى تقنين بعض قواعد وأعراف القانون الدولي الإنساني، ولكن أهم ملمح في هذا العصر هو إنشاء منظمة العمل الدولية في ١١ فبراير ١٩١٩.

■

ثلاثية علاء الديب

المؤلف: علاء الديب
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ٢٧٥ صفحة



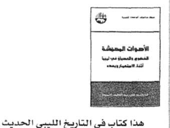
تدور ثلاثية علاء الديب الرائعة حول غربة أسرة: غربة مكانية وغربة نفسية.. تتبع الأب منير فكار، أستاذ الأدب العربي، في الجزء الأول (رواية أطفال بلا دموع)، ثم تتبع الأم، سناء فرج، في الجزء الثاني (رواية قمر على المستنقع)، وأخيرا حياة الابن تامر فكار الشاعر التسعيني (رواية عيون البنفسج).. وفي الروايات الثلاث يغوص علاء الديب بعيدا في أعماق الصراع الأسري والإنساني، وكيف ينظر كل من الأبطال لنفسه وللآخرين، كل هذا بلغة شديدة الصفاء والشعرية تضفي طابعا فلسفيا يمس كل من يقرأ هذا النص.

ولد «علاء الديب» في المعادي عام ١٩٣٩. صدر له حتى الآن خمس روايات تعد علامات بارزة في مسيرة الرواية العربية «زهر الليمون» (١٩٧٨)، و«أطفال بلا دموع» (١٩٧٩)، و«قمر على المستنقع» (١٩٩٣)، و«عيون البنفسج» (١٩٩٩)، و«أيام وردية» (٢٠٠٢). ومجموعتان قصصيتان. بالإضافة إلى ترجمات عديدة أهمها كتاب الطاو للفيلسوف الصيني «لاو تسو». كما قدم واحدة من أفضل ما كتب في فن السيرة الذاتية عنوانها «وقفة قبل المنحدر» (١٩٩٠). وقد حصل على جائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٠١.

■

الأصوات المهمشة
الخضوع والعصيان في ليبيا أثناء الاستعمار وبعده

علي عبداللطيف احميدة
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ١٦٠ صفحة



هذا كتاب في التاريخ الليبي الحديث والمعاصر، يتخذ من نظرية ما بعد الاستعمار إطارًا عامًا له، يعالج من خلاله هذا التاريخ. وبذلك فهو يبرز وجهة نظر المهمشين (السواد الأعظم من الشعب)، ورؤيتهم إلى أنفسهم والآخر، وتاريخهم، مايعني أنه يقف موقفًا نقديًا من فلسفة ورؤية الاستعمار الأوروبي والمركزية الأوروبية. وهو كتاب كُتب من قِبل عالم سياسة ليبي يعيش في أمريكا منذ حوالي ٣٠ سنة، يخاطب فيه القارئ الغربي أساسًا. وهو عالم سياسة ليبي كان أجداده المباشرون وأبواه، كالغالبية الساحقة من معاصريهم الليبيين، قد عايشوا بعض فصول هذا التاريخ، تلك الفصول الأشد ضنكًا وقسوة، وتأذوا منها.

وتفترض هذه الدراسة أن المنظورات الفردية الذاتية والمواد الوثائقية الموضوعية، معًا، هما مصدران أساسيان لاستيعاب صناعة التاريخ. وعليه، تتفحص فصول هذا الكتاب السيرورات الاجتماعية التي تُنتج وتكيف أصوات الليبيين العاديين في استجابتهم للضغوط والفرص، مع التفات خاص إلى الفلاحين والعمال المهاجرين والبدو والنساء والعبيد وضحايا المعتقلات الجماعية الفاشية، ولاسيما في مرحلة مقاومة الاحتلال الإيطالي.

إن هدف كتاب «الأصوات المهمّشة: الخضوع والعصيان في ليبيا أثناء الاستعمار وبعده»، هو إعادة التفكير في تاريخ التحليلات الاستعمارية والوطنية لليبيا الحديثة. وهو ينتقد التوجهات البحثية الراهنة حول ليبيا كونها تتجاهل المجتمع الليبي وثقافته. ويحاول المؤلف أن يثبت أن المجتمع الليبي قد واجه، أثناء الاستعمار وبعده، تناقضات الحداثة، والإبادة، والدولة الوطنية، والاستلاب.

■

مبادئ العمارة الإسلامية وتحولاتها المعاصرة

قراءة تحليلية في الشكل
هاني محمد القحطاني
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٥٧٦ صفحة



العمارة الإسلامية هي التجسيد المادي الأبرز للحضارة الإسلامية. وهذا الكتاب دراسة معمارية، ضمن مناهج حديثة، تأخذ في أهدافها محاولة فهم هذه العمارة الإسلامية والانتقال بها إلى آفاق جديدة كلية من الفهم والممارسة.

أما المنهج المتبع في تأليف الكتاب فيضع (فيه المؤلف) نصب عينيه، أن العمارة بناء ذو شكل ثلاثي الأبعاد، بُني ضمن سياقات تاريخية وجغرافية وثقافية متنوعة، ولأغراض محددة، وبمواد بناء، وأساليب إنشاء معينة.

ويعكس الشكل العام للعمارة الإسلامية بمختلف صورها وتجلياتها، كما يرى المؤلف، هذه العوامل مجتمعة.

زيـــد مطيـــع دمــاج

زيد مطيع دماج.. دراسات وقراءات نقدية

مجموعة من الباحثين والنقاد
اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين (الأمانة العامة)، ٢٠٠٩

المبدعون لا يغيبون، بل إنهم لا يموتون. هكذا يقول تاريخ الإبداع في كل زمان ومكان، وهكذا تقول سيرة الغائب بجسده الحاضر بأعماله الإبداعية: المبدع الكبير زيد مطيع دماج، الذي كان قبل رحيل الجسد ملء السمع والبصر، وظل كذلك بعد الرحيل، وربما صار حضوره الآن أوسع وأكبر. فقد ظهرت أجيال وسوف تتلوها أجيال تبحث عنه وتطيل النظر في أعماله الإبداعية، قاصًا وروائيًا وشاهدًا على عصره. وذلك - في يقيني - بعض الجزاء الذي يتلقاه المبدعون مقابل عذابهم وبحثهم الدءوب في فضاء الكتابة عن جديد يلتقطونه، وهي مهمة شاقة لا يعرف أبعاد مشقتها إلا الذين احترقوا بنارها وعانوا نزيف المشاعر وأنفقوا الجزء الأكبر من أعمارهم في ترويض الكلمات وتوظيفها في أعمال فنية ترقى إلى إمتاع القارئ وإثراء وجدانه.

ومن النافل القول بأن المبدع زيد مطيع دماج واحد من هؤلاء المبدعين الذين احترقوا ليضيئوا، ولقد نجح في وقت قصير، بأعماله القصصية ذات الخصوصية الواضحة وبروايته البديعة «الرهينة»، في أن يحقق حضورًا داخل الوطن وخارجه، لا لأن أعماله تستمد وجودها من ذاكرة الشعب ومن مخزون الأرياف فحسب، وإنما لأن هذه الأعمال استطاعت بشجاعة نادرة الغوص في أعماق الحياة السياسية والاجتماعية، وأن تكون التعبير المتجدد عن الهم العام كما اكتسبت رواية «الرهينة» خاصة مكانة مرموقة بين سائر الروايات العربية ولم يكن اعتباطًا ولا مجاملة لذلك الراقد بجسده تحت ثرى قريته في «النجد الأحمر» أن يتم اختيار هذا العمل الروائي الفريد ضمن مائة رواية عربية نالت اهتمام القارئ العربي والعالمي خلال القرن المنصرم.

ويضم هذا الكتاب مجموعة الدراسات المعدة للندوة التي أقامتها «جماعة الغد» احتفاءً بمرور عشر سنوات على رحيل الروائي والقاص الكبير زيد مطيع دماج. وقد اكتشفت في أثناء مراجعتي لهذه الدراسات أن زيد يرحمه الله يحظى باهتمام نقاد من مختلف الأجيال والمدارس، وأن موهبته السردية كانت موضع إعجاب والتقاء من كل المهتمين بالنقد الأدبي، والفكر، والشعر، بوصفه موهبة إبداعية فذة، وإنسانًا غاية في التسامح والحب للآخرين حتى لو كانوا من خصومه في الآراء، فالحياة «أصغر من أن نتعادى فيها وأن نتفانى» كما قالها أبو الطيب المتنبي منذ أكثر من ألف عام، بعد أن عاش تجربة قاسية مع المنافسين والخصوم. لقد كان زيد شديد الانبهار بالطبيعة وبالناس، ولم تصدمه التجارب المريرة مع البعض، بل رفعته إلى درجة يرى منها البشر على حقيقتهم الإنسانية المفرطة أحيانًا في السلوكيات الصغيرة وأحيانًا في السلوكيات الرائعة. وهذا ما تنطق به أعماله الأدبية التي كانت مرآة عاكسة لسلوكه.

ولست مبالغًا إذا ما قلت إن في مجموع هذه الدراسات ما يعد إغناءً وإثراءً، لا لتجربة زيد وحده، وإنما للتجربة القصصية والروائية بأكملها في بلادنا، فقد تناولت هذه الدراسات تجربة زيد في إطار شامل من الإبداعات والنتاجات السردية المتحققة، وما أفادته إيجابيات الانفتاح على الجديد من إنجازات وتجليات على درجة عالية من الابتكار والتجديد في الكتابة القصصية والروائية، وكذلك مشاهداته الذكية والطريفة عن المدن التي عاش فيها ورصد تفاصيلها وألقى عليها الباحثون في هذا الكتاب أضواء نقدية جديدة بالدراسة والاهتمام.

عبدالعزيز المقالح

ولذلك فإن تحليل الشكل المعمارى يُفضى، بالضرورة، إلى فهم السياقات المختلفة التى بُنيت هذه العمارة فى كنفها.

تهدف هذه الدراسة إلى إيجاد قاعدة معرفية صلبة للمهندسين المعماريين المعاصرين فى محاولتهم الارتقاء بالبيئة العمرانية المعاصرة.

كما أن الدراسة بحث عن نموذج (بارادايغم) يتم بموجبه وضع منهجية شاملة لأشكال العمارة الإسلامية (الاحتواء، الظهور، التحول، الطبقات، التكرار) ضمن إطار عام لفهم هذه العمارة بأسلوب مبسط، ومن ثم البناء على معطيات هذا النموذج فى عمارة اليوم والغد لإضفاء أبعاد ثقافية وحضارية أصيلة على العمارة المعاصرة فى الوطن العربى والعالم الإسلامى.

■

عبدالعزيز الدورى مكرمًا
أوراق وشهادات
حلقة نقاشية
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ١٥٩ صفحة




الدكتور عبدالعزيز الدورى رائد فى الكتابة التاريخية العربية. لقد وسع مجال البحث التاريخى، فاهتم بما سكت عنه الآخرون. ذهب إلى بحث عن وقائع الماضى، فيما لم يكن معتادًا البحث فيه.

على أن مأثرة الدكتور الدورى الكبرى أنه فتح ميدانًا دراسيًا فى البحث التاريخى، كان فيه رائدًا ومرجعيًا، هو التاريخ الاقتصادى. ولعل كتاب «تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى» يشكل نقطة انطلاق مهمة، فى مسار حركة التاريخ العربى المعاصر.

وكان للدورى دور فى خدمة المكتبة العربية، إذ صدر كتابه الشهير «بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب»، ففيه التقاط دقيق للحلقات التأريخية المرجعية الموصلة إلى النص التاريخى المدون، إضافة إلى إنجازه المنهجى المتمثل فى اتساع استخدامه أنواعًا متعددة من المصادر.

أما فى حقل التاريخ للأيديولوجيا والأفكار السياسية فقد كتب الدورى ثلاثيته المشهورة: «الجذور التاريخية للقومية العربية والجذور التاريخية للشعوبية والجذور التاريخية للاشتراكية العربية»، وهى تشهد - بحق - على سيرة هذا المؤرخ المناضل، الذى عرف كيف يمزج بين الذاكرة والتاريخ ونضج ثقافته القومية فى رؤية الظاهرات الاجتماعية والسياسية الحديثة.

ثم جاز سجال «الجذور» وتجاوزه فى نقلة معرفية تجلت فى كتاب «التكوين التاريخى للأمة العربية: دراسة فى الهوية والوعى»، معيدًا بناء الأفكار السياسية العربية، فى نظرة تاريخية تكوينية وتطورية، باحثًا عن سمة الاستمرارية فى فكر الأمة عند العرب.

■

حقوق الإنسان فى الوطن العربى
تقرير المنظمة العربية لحقوق الإنسان عن حالة حقوق الإنسان فى الوطن العربى
التقرير السنوى ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية والمنظمة العربية لحقوق الإنسان، ٢٥٦ صفحة



يتناول هذا الكتاب/ التقرير عرضًا مركزًا لمسار حقوق الإنسان فى الوطن العربى خلال العام ٢٠٠٨ وحتى منتصف العام ٢٠٠٩. ويتضمن ثلاثة أقسام رئيسية، تبدأ بمقدمة تحليلية مفصلة تستغرق، بنظرة كلية، أوضاع الحقوق الأساسية والحريات العامة فى مجمل المنطقة، ويتناول القسم الثانى، أوضاع حقوق الإنسان فى البلدان العربية، ويشمل القسم الثالث أثر الأزمات العالمية المتعددة وانعكاساتها على تلبية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، وتقييم نمط الاستجابة العربية فى مواجهة هذه التحديات.

والجدير ذكره أن البلدان العربية لم تشهد مراجعة لسياساتها واستراتيجياتها تجاه حقوق الإنسان فى ضوء ما حدث فى العام ٢٠٠٨ وحتى منتصف العام ٢٠٠٩ من متغيرات دولية وضعت مسار حقوق الإنسان موضع مراجعة، ليس فقط فى مجال الحريات المدنية والسياسية، بل وعلى الأخص فى مجال الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

بل، على العكس من ذلك، فقد بادرت البلدان العربية إلى تعزيز سياساتها السابقة نحو إعلاء الاعتبارات الأمنية على الحريات المدنية والسياسية، والتراجع عن الإصلاحات السياسية المحدودة التى أدخلتها على تشريعاتها ونُظُمها، وتعللت بالأزمات المالية والاقتصادية للتحلل من البرامج والسياسات الاجتماعية بأكثر مما تأثرت قدراتها من هذه الأزمات.

وغنى عن البيان، أن الانتهاكات التى يرصدها التقرير، لا تعبر بالضرورة عن كل الانتهاكات، وإنما عما نمى إلى علم المنظمة وأمكن توثيقه وتدقيقه.

■

الحكاية فى التراث

الحكاية فى التراث العربى
يوسف الشارونى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨

قُسمتْ الدراسة إلى مقدمة وتسعة فصول، تناولت الأشكال القصصية والاستشهاد بنماذج تمثل كل شكل قصصى، وتحاشت أعمالاً أدبية قد يكون فيها خيط قصصى لكنها ليست أدبًا قصصيًا خالصًا.

كان للكاتب منهجه فى تناول كل شكل قصصى يعرضه ويتلخص هذا المنهج فى:

١ - التعريف بالنوع وعرض نماذج من هذا الشكل.
٢ - التاريخ الذى نشأ فيه هذا الشكل القصصى وملابساته والرجوع إلى أصوله فى الجاهلية وتطوره بعد الإسلام.
٣ - آراء الباحثين المحدثين فى الشكل القصصى وعرض لدراستهم له.
٤ - ما أحاط به من سياقات دينية أو سياسية أو اجتماعية والهدف منه.
٥ - التحولات التى طرأت عليه وتحولها من النظرة التاريخية إلى الأدبية فى السير الشعبية.
٦ - أحوال الرواة وأهدافهم وانتماءاتهم العقائدية والسياسية والاجتماعية.

ويلزم الكاتب نفسه بهذا المنهج فى كل لون قصصى.

وللكتاب سمات خاصة تميز بها:

١ - تنوعت مصادر البحث وشملت اتجاهات الباحثين ومجمل وجهات نظرهم حول الشكل القصصى محل العرض.

٢ - ظهر العمل متماسكًا فى نسيج متكامل ليصنع رؤية متسقة تعرف هدفها فكانت هناك نظرة الناقد الفنان الذى يلتقط مناطق توتر وحيوية، كما كانت هناك إحالات من أحد فصول الكتاب إلى بعض فصولها الأخرى، لطبيعة الدراسة وتداخل بعض تقنياتها الفنية.

٣ - نلمح فى الدراسة أسلوب الباحث وحيطته فى طريقة العرض فهو يسوق ظواهره وأشكالها القصصية وأبعادها المختلفة دون أن يلقى بأحكام نقدية تقييمية قاطعة، تضعه تحت المساءلة من بعض التوجهات الراديكالية، مثل عرضه للقصص ما قبل الإسلام، وتضامنه مع من رأى أن الرواة والباحثين صنعوا ما نسميه الآن «تنميط المصدر»، ونظروا إليه بوصفه تاريخًا وليس فنًا قصصيًا انتقل مما وقع إلى ما يحتمل أن يقع، ونقله للرأى القائل بأن القصص لم يكن مجرد مظهر عارض أو عمل فردى وإنما كان أقرب ما يكون إلى المهنة التى يتخصص فيها الشخص ص ٢٠، وما أورده المؤلف من قراءة «معاوية بن أبى سفيان» لقصص الأمم السالفة فى معرض مناقشته أنه لم يصلنا أى نص جاهلى يتضمن قصصًا دينية أو حتى غير دينية.

٤ - نلمح فى ثنايا الدراسة أيضًا تقدير المؤلف للدور الحضارى والإنسانى الذى أضافه الدين الإسلامى على الثقافة وفنون القول العربية، وعده حدًا فاصلاً يصنع ما قبل، وما بعد، وإشاراته المتعددة إلى الظواهر والأشكال الفنية القصصية التى نزعت إلى الاعتدال والتوازن والتهذيب بعد ظهور الإسلام.

٥ - تتبع الكاتب تأثير هذه الأشكال القصصية على الأدب الغربى والظروف التى حدثت فيها التأثيرات مثل حديثه عن المقارنة بين قصة «حى بن يقظان» و«روبنس كروزو» فى القصة الفلسفية، كما أشار إلى هذه التأثيرات فى صور حديثة عن ألف ليلة وليلة.

٦ - حرص المؤلف أن يرفق نصه النقدى بالنموذج أو الشاهد الذى يمثله مباشرة ليضمن عدم حدوث فجوة بين الحديث النظرى وما يمثله تطبيقيًا.

٧ - نجد فى الكتاب أيضًا مقارنات عميقة الدلالة عن التحولات التى حدثت لمفهوم البطولة والأصول التاريخية لهذه القصص، ثم يتحدث عن طبيعة التعقيدات والصراعات والقوى الخارجية، وطبيعة الشخصية المعاصرة وعدم وصول البطل الحديث إلى أى شىء فى عالم من الانديانات اللامتناهية، تبدو هذه المقارنة بين الماضى والحاضر شديدة الدلالة تلخص التحولات العميقة التى توالت على الإنسانية.

أمانى فؤاد

■

دوريات

بحوث اقتصادية عربية

مجلة علمية فصلية محكمة
تصدرعن الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية
بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية
العدد ٤٧ ـ صيف ٢٠٠٩



صدر العدد متضمناً افتتاحية للدكتور محمد سمير مصطفى، وتسع دراسات، هي:

ـ السياسات الاقتصادية الكلية في ظل الأزمة العالمية الراهنة لـ «منير الحمش».

ـ متضمنات برامج الإصلاح الاقتصادي والفقر في البلدان النامية لـ «سالم النجفي وداوود سليمان سلطان».

ـ صناديق الثروة السيادية ودورها في إدارة الفوائض النفطية لـ «ماجد عبدالله المنيف».

ـ حجم عمليات غسل الأموال وسبل تقديره لـ «بديعة لشهب».

ـ التقلبات الدورية للسياستين المالية والنقدية وفعاليتها في الاقتصاد المصري لـ «هدى عبدالحميد على محمد».

ـ بناء القوة في ثلاثة تنظيمات صناعية مصرية (دراسات ميدانية مقارنة) لـ «محمود صلاح عبدالحفيظ المهر».

ـ الأزمة الاقتصادية العالمية، انعكاساتها على لبنان، وكيفية معالجة تلك الانعكاسات لـ «بطرس لبكي».

ـ الخصائص الاقتصادية وأزمة البطالة في موريتانيا/ مقارنة ببعض الدول العربية لـ «محمد عبدالرحيم بن حمادي».

ـ الأبعاد الاقتصادية للإنتاج المشترك للأفلام في إطار التمويل الأجنبي للسينما التونسية المعاصرة لـ «دينا جلال».

وفي العدد أيضاً مراجعتان للكتب التالية: «الاقتصاد المصري: التحديات الراهنة، وآمال المستقبل» (هناء خير الدين) أعدها محمد سمير مصطفى، و«تقرير النمو: استراتيجيات النمو المستدام والتنمية الشاملة، أعدتها إيناس محمد الجعفراوي.

هذا بالإضافة إلى «يوميات اقتصادية مختارة»، و«ببليوغرافيا اقتصادية مختارة»، و«الملحق الإحصائي لسلطنة عمان»، أعدته إيناس محمد الجعفراوي.

■

شؤون عربية معاصرة
صيف ٢٠٠٩

مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع دار نشر Routledge



يتضمن هذا العدد مقالات قيمة وغنية علمياً وثقافياً في مجالات متنوعة منها:

● «ثقافة الإيجار والطائفية والفساد: الاقتصاد السياسي القائم على الإيجار في الوطن العربي» للدكتور زياد حافظ.

● «آخر إمام من أئمة الزيدية في اليمن: الشباب المؤمن والملازم و«حزب الله» في فكر حسين بدر الحوثي» للدكتور عبدالله لوكس.

● «العمارة الإسلامية كانعكاس مباشر للفلسفة الوظائفية والتفاعلية: الأصول الفكرية في الثقافة والسوسيولوجيا» للدكتور هاني محمد القحطاني.

● هذا بالإضافة إلى ملفات إحصائية وببليوغرافيا حصرية ومراجعات لكتب مهمة.

■

المستقبل العربي

العدد ٣٦٦ ـ أغسطس ٢٠٠٩
مركز دراسات الوحدة العربية



يتضمن العدد مقابلة: جولة أفق مع الدكتور خير الدين حسيب بعنوان: «العراق والعرب.. إلى أين؟» وثمانية بحوث، هي:

١ ـ إيران.. إلى أين؟ لـ «طلال عتريسي».

٢ ـ بين العلمانية المؤمنة والإيمان العلماني: مناقشة لأطروحة «الدين في الديمقراطية» لمارسيل غوشيه لـ «مصدق الجليدي».

٣ ـ أثر المعلوماتية في تفعيل الدور التنموي للتربية لـ «فاطمة الزهراء سالم محمود مصطفى».

٤ ـ أركيولوجيا العمارة الإسلامية: الأصول الفكرية والثقافية للعمارة والبناء عند العرب لـ «هاني محمد القحطاني».

٥ ـ قراءة في التحولات القيمية: دراسة مقارنة بين المغرب وباقي بلدان العالم لـ «رشيد جرموني».

٦ ـ خبرات التكامل الآسيوية، ودلالاتها بالنسبة إلى التكامل العربي: حالة الآسيان لـ «محمد السيد سليم».

٧ ـ الزراعة السعودية: مقوماتها وإمكاناتها، والتحديات التي تواجهها لـ «أحمد صدام عبدالصاحب الشبيبي».

٨ ـ سياسة تهويد القدس: إحصائيات ودلالات لـ «أنور محمد زناتي».

أما في باب آراء ومناقشات فقد كتب عطية عيسوي عن: الصومال.. أرض العجائب والمطامع والصراعات!

وفي باب ترجمات مهمة مقالة بعنوان: «انقلاب الاتجاه في العراق» لـ «ستيفن بيدل».

وفي باب كتب وقراءات، مراجعة للكتب الآتية:

ـ «أن تكون عربياً في أيامنا» (عزمي بشارة)، أعد المراجعة فيصل دراج.

ـ «قواعد لغة الحضارات» (فرنان بروديل)، أعد المراجعة الهادي التيمومي.

ـ «السنة والإصلاح» (عبدالله العروي)، أعد المراجعة يوسف بن عدي.

ـ إضافة إلى كتب عربية وأجنبية وتقارير بحثية مختارة، إعداد كابي الخوري، والكتب العربية هي: الحداثة الفلسفية، ما بعد الحداثة والتنوير، ساطع الحصري: الدين والعلمانية، إشكالية الدولة والمواطنة والتنمية في لبنان، جدلية نهج التنمية البشرية المستدامة، بم يفكر الأدب؟، تاريخ علم الفلك القديم والكلاسيكي، أوراق في علم التأريخ، قطار المعارضة العراقية، مابعد النفط. أما الكتب الأجنبية فهي:

How to Win a cosmic War; Unequal Democracy; A Failure of Capitalism; Torture and Democracy; Life after the Amirican Century.

والتقارير البحثية التالية:

Afghanistan's Election Challenges; Iraq Oil; Iraq Withdrawal Deadline; Going Home?: Propects and Pitfalls Scale Return of Iraqis;-for Large Iraq and the Kurds.

وتضمن باب «مؤتمرات» ثلاثة تقارير، عن:

ـ ورشة العمل حول «مؤشرات قياس الديمقراطية في البلاد العربية»، بيروت، ٢٤-٢٥ يونيو ٢٠٠٩ لـ «محمد عبدالشفيع عيسى».

ـ ندوة «القدس في الضمير»، منتدى الفكر العربي، عمان، ٣-٤ مارس ٢٠٠٩ لـ «فتحي محمد درادكة».

ـ ندوة «تداعيات الحرب العدوانية على غزة وتشكيل الحكومة الإسرائيلية الجديدة»، مركز الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد، ١٤ أبريل ٢٠٠٩ لـ «عبدالهادي الزيدي».

هذا بالإضافة إلى موجز يوميات الوحدة العربية، وببليوغرافيا الوحدة العربية.

واختتم العدد بالملف الإحصائي (١١٤) بعنوان: مؤشرات مختارة عن المالية العامة والدين العام في البلدان العربية، أعده كابي الخوري.

■

العربية والترجمة

مجلة علمية فصلية محكمة
إصدار المنظمة العربية للترجمة، ربيع ٢٠٠٩



صدر العدد الأول من مجلة: «العربية والترجمة»، وهي مجلة علمية فصلية تُعنى بمسائل الترجمة واللغة وتندرج في إطار السعي إلى تطوير ترجمة عربية نوعية والدفع بها إلى أقصى ما يمكن، وقد اشتمل العدد الأول على موضوعات عديدة لعدد من الباحثين والأكاديميين المشتغلين في هذا المجال.

ومن موضوعات العدد: افتتاحية (الطاهر لبيب)، ومقالات: الترجمة البحث (حسن حمزة)، نظم المعلومات والأدوات المساعدة للمترجم العربي (نبيل الزهيري)، ترجمة تخصصية أم تخصص في الترجمة؟ (عبدالمحسن عايض القحطاني)، السوابق واللواحق والرهانات الترجمية (جوزيف ميشال شريم)، إشكالية ترجمة مفاهيم «التفكيك Dèconstruction» في النقد العربي المعاصر (علي صديقي) صفحات من تاريخ نشأة الترجمة الفورية (عبدالله العميد).

فصول من كتب: اقتصاد القرن الحادي والعشرين (وليام هلال وكينث ب. تايلر)، ما الجمالية؟ (مارك جيمينيز).

وأخبار الترجمة: جوائز نالتها المنظمة العربية للترجمة، وقائمة منشورات المنظمة العربية للترجمة.

■

خمسة كتب جديدة في السينما

«مقاربة في المنهج»

في العقد الأخير استقبلت المكتبة العربية عدداً من الكتب السينمائية يفوق ما استقبلته في عدة عقود سابقة. ومن عوامل هذا الانتعاش - النسبي - لإصدارات الكتب السينمائية في العقد الأخير التقليد الذي اتخذه كل من مهرجان القاهرة الدولي للسينما والمهرجان القومي للسينما المصرية، حيث حرص كل منهما على إصدار عدد من الكتب عن الشخصيات السينمائية التي يتم تكريمها في كل دورة من دورتيهما. وفي الدورة الأخيرة للمهرجان القومي للسينما هذا العام صدر عنه خمسة كتب عن خمسة شخصيات سينمائية هي: الفنانة يسرا، والفنان عادل إمام، والمخرج سمير سيف، ومهندس الديكور مختار عبد الجواد، والناقدة السينمائية خيرية البشلاوي. وقد تمايز كل كتاب منها عن الآخر بمنهج خاص اتخذه الكاتب في إعداد وتأليف كتابه.



الممثلة

في كتابه عن الفنانة يسرا نجد سمير فريد قبل أن يستعرض مسيرتها الفنية يربط في فصل خاص بين زمن يسرا وزحف الأفكار الجامدة والتطرف الديني في منطقتنا العربية، وأثر ذلك على فن الفيلم. ولذا نجده يضع عنوانا لكتابه «يسرا فنانة في زمن التكفير».

ويتوقف سمير فريد عند أكثر من عشرين فيلما تمثل في نظره المحطات الرئيسية لمسيرة يسرا الفنية، ابتداء من أولها «فتاة تبحث عن الحب» ١٩٧٧ حتى «عمارة يعقوبيان» ٢٠٠٦، مارا بأفلام مثل «الثأر» محمد خان ١٩٨٢، «حدوته مصرية» يوسف شاهين ٨٢، «الأفوكاتو» رأفت الميهي ٨٤، «الصعاليك» داود عبد السيد ٨٥، «البداية» صلاح أبو سيف ٨٦، «الراعي والنساء» علي بدرخان ٩١، «الإرهاب والكباب» شريف عرفة ٩٢، «دانتيلا» إيناس الدغيدي ٩٨، «إسكندرية نيويورك» يوسف شاهين ٢٠٠٤.

ويستعين سمير بأرشيف يسرا الصحفي فيختار منه بعض الكتابات المتميزة التي كتبها كتاب آخرون مثل: «بورتريه» للكاتب الروائي خيري شلبي، وحواران مع يسرا للناقد الصحفي سمير نصري، وحوار لمنى غندور، واعتراف لحنان مفيد. وتكشف لنا هذه الكتابات المختارة عن جوانب أخرى من شخصية يسرا، ودورها في السينما المصرية.



المخــرج

وإذا كان سمير فريد قد اتخذ من «الزمان» مدخلا للتعرف على شخصية الفنانة يسرا، نجد كمال رمزي في كتابه عن سمير سيف يتخذ المكان مدخلا للتعرف على الشخصية. ودون مقدمات يبدأ بالصعيد وخاصة مركز «أبنوب» الذي احتل في إحصاء الأمم المتحدة عام ١٩٥٢ المرتبة الثانية في عدد جرائم القتل بعد شيكاغو. وفي أبنوب تمتد الجذور العائلية للشخصية موضوع الدراسة. ولعل ذلك ما يفسر لنا - نوعا - ميل المخرج سمير سيف إلى أفلام الجريمة والحركة والمطاردات التي برع في إخراجها، بالإضافة إلى تعامله مع شتى الأنواع السينمائية مثل: الكوميدي والغنائي والاجتماعي والميلودرامي.

ولا يتوقف كمال رمزي عند الأفلام التي تمثل المحطات الرئيسية في أعمال سمير سيف وإنما ينسجها جميعا في صعودها وهبوطها مع حياته الشخصية لتبدو كتجربة حياة، مركزا على الناحية التقنية في صناعة أفلامه ومن هنا جاء عنوان كتابه «سمير سيف سحر الاحتراف». ومن أساتذة سمير سيف الذين تعلم الحرفية السينمائية على أيديهم: شادي عبد السلام وحسن الإمام ويوسف شاهين.

ولم يتردد كمال رمزي في استعراضه لأفلام سمير سيف عن ذكر مواضع القصور في كل منها إلى جانب إبراز مناطق القوة بداية من أول أفلامه «دائرة الإنتقام» حتى «ديل السمكة» ٢٠٠٣ مرورا ببقية أفلامه التي بلغت حتى الآن ٢٦ فيلما ،مثل: «المشبوه» ٨١، «الغول» ٨٣، «آخر الرجال المحترمين» ٨٤، «المطارد» ٨٥، «الهلفوت» ٨٥ ، «الراقصة والسياسي» ٩٠، «سوق المتعة» ٩٨ ، «معالي الوزير» ٢٠٠٢.

وتمثل مجموعة الصور التي يضمها الكتاب عن الشخصية سمير سيف مجموعة نموذجية في نوعها ولا يرجع ذلك إلى وفرتها «حوالي مائة صورة» وإنما يرجع أيضا إلى تمثيلها لكافة مراحل حياته الفنية خاصة، وإلى الدقة في اختيارها تعبيراً عن لحظات محددة.



مهندس الديكور

ويتخذ الدكتور محمد كامل القليوبي مدخلا آخر لمعالجة موضوع كتابه عن مهندس الديكور مختار عبد الجواد «مختار عبد الجواد ، ذكريات من مصنع الأحلام»، فيكتب دراسة تاريخية عن الديكور في العالم وفي السينما المصرية في فصلين «٦٣ صفحة». ولعله بذلك أراد أن يضيف جديدا إلى المكتبة العربية التي تقل فيها الكتابة عن مهنة هندسة الديكور عن غيرها من المهن السينمائية وأصحابها، مثل: التمثيل ونجومه، أو الإخراج وأساتذته .... إلخ.

في الفصل الأول «مدخل إلى الديكور السينمائي» عن بدايات ظهور فن الديكور في الخارج وبداياته عندنا ودور ستديو مصر في تطوير هذا الدور. وفي الفصل الثاني «الديكور السينمائي في مصر» يعرفنا خاصة بالأجيال الثلاثة التي أسست وطورت هندسة الديكور في السينما المصرية، وثالث هذه الأجيال جيل معهد السينما الذي ينتمي إليه مهندس الديكور مختار عبد الجواد.

ما كتبه القليوبي عن مختار عبد الجواد في دراسته لم يحتل سوى عدة صفحات قليلة يحدد بها مكانته على خريطة هندسة الديكور في السينما المصرية، بينما نواصل التعرف على شخصية مختار عبد الجواد وأعماله تفصيلا في الفصول التالية، ومنها فصل عن ذكرياته سجلتها له ثناء هاشم، وأبرز ما فيها في نظري ما يكشف عن اللحظات الإبداعية في عمله وخاصة التي تجمع بينه وبين المخرجين والمصورين الذين عمل معهم.

ومن فصول الكتاب المتميزة التي تؤكد طابعه الفصل الخاص « مدخل لقراءة الديكور»، وفيه نتعرف أكثر على عمل مهندس الديكور مختار عبد الجواد بقدر ما نتعرف أيضا على دور الديكور الإبداعي في التعبير السينمائي وذلك من خلال ما تضمنه الفصل من، تعليقات فنية على بعض الصور والإسكتشات لثمانية من أعماله في السينما ومسلسلين في التليفيزيون، منها : زقاق السيد البلطي، الشوارع الخلفية، السقا مات، القادسية، قاهر الزمن.



النـــاقـدة

أما محمد عبد الفتاح في كتابه «خيرية البشلاوي سلام مع النفس» فينحي نفسه جانبا ليترك القارئ يتعرف على الشخصية موضوع الكتاب عن طريق المواجهة المباشرة مع سيرتها الذاتية التي يسجلها على لسانها.

ويضع لها عنوانا «هكذا تحدثت الأستاذة». كما يعرف القارئ بالناقدة عن طريق مباشر أيضا من خلال جمع باقة مختارة من مقالاتها النقدية معاً ووضع لها عنواناً «هكذا تكتب الأستاذة».

و يعرفنا بها عن طريق غير مباشر من خلال ما جمعه من شهادات رحب بكتابتها بعض الأصدقاء بناء على طلبه وكنت واحداً منهم. ووضع لها عنواناً «كلمات من القلب». وكان من الأفضل أن يحمل عنوان «هكذا تحدثوا عن الأستاذة» حتى يتسق العنوان مع سياق العنوانين السابقين.

وإذا كان من الواضح قلة الجهد الذهنى المبذول فى تأليف/إعداد هذا الكتاب، إلا أنه يقدم خدمة ثقافية كنا فى حاجة إليها، بتوفير مادة معرفية جديدة عن ناقدة سينمائية كبيرة. والغريب أن الناقدة التى قضت من عمرها ما يقرب من أربعين سنة فى كتابة النقد السينمائى، زهدت فى جمع بعض مقالاتها فى كتاب واحد، وهى ما يصلح جمعها فى أكثر من كتاب، حتى يمكن تتبع أفكارها ودراسة أسلوبها النقدى، وهو بعض ما أتاحه لنا كتاب محمد عبد الفتاح عن الناقدة السينمائية خيرية البشلاوى.



المضحكاتى

بأسلوب صحفى واضح بسيط لا ينقصه الحس الأدبى يكتب أيمن الحكيم عن «عادل إمام ضحكة مصر». ويرى فى عادل إمام وريث أجداده من مبدعى فن الضحك الذين تمتد جذورهم حتى عهد الفراعنة. لكنه لا يتوقف عند فن الضحك لدى عادل إمام الذى يمثل بعداً محورياً من أبعاد شخصيته، وإنما يفسح المجال لنفسه للكلام عن الأبعاد المختلفة لشخصية عادل إمام ليرسم أمامنا صورة بانورامية متكاملة لشخصيته تكشف عن جبل الجليد المختفى تحت سطح الماء ولا يظهر منه غير طرف قمته الذى يمثل فن الإضحاك.

لكل بعد من الأبعاد التى تتصف بها الشخصية يضع أيمن الحكيم لها عنواناً: ومنها الحرفوش، والموهوب، والمنتمى، والسياسى، والعنيد، والعاشق .. إلخ. ومع كل فصل يزداد اقترابنا من عادل إمام الإنسان ويزداد فهمنا لعادل الفنان.

يستعين أيمن الحكيم فى تحليلاته لشخصية عادل إمام وأعماله الفنية باقتباسات من أقوال عادل إمام وأخرى من الكتب أو المقالات الصحفية. ولكن الأهم فى نظرى كان هو معايشته الحميمة لعادل إمام التى تكشف عن نفسها من خلال ما يرويه أحياناً من أحداث عايشها معه.

وإلى جانب ما ذكر فى متن الكتاب من اقتباسات لكتابات بعض الكتاب من أمثال رجاء النقاش وأسامة أنور عكاشة ومحمود السعدنى، يضم الكتاب فى فصل خاص مجموعة من المقالات التى كتبها عن عادل إمام مجموعة أخرى من كبار الكتاب مثل: ألفرد فرج، رفيق الصبان، محيى الدين اللاذقانى، يوسف معاطى. وذلك فضلا عن الفيلموجرافيا التى تضم ١١٩ فيلماً ابتدأ من أولها «أنا وهو وهى» عام ١٩٦٤ حتى «حسن ومرقس» ٢٠٠٨. ومنها : «لصوص لكن ظرفاء» ١٩٦٩ إبراهيم لطفى، «البحث عن فضيحة» ١٩٧٣ نيازى مصطفى، «المحفظة معايا» ١٩٧٨ محمد عبد العزيز، «الغول» ١٩٨٢ سمير سيف، «الأفوكاتو» رأفت الميهى ١٩٨٤، «اللعب مع الكبار» شريف عرفة ١٩٩١، «الإرهاب والكباب» شريف عرفة ١٩٩٢، «الإرهابى» نادر جلال ١٩٩٤، «طيور الظلام» شريف عرفة ١٩٩٥، «السفارة فى العمارة» عمرو عرفة ٢٠٠٥، «عمارة يعقوبيان» مروان حامد ٢٠٠٦.

وهكذا نتعرف من خلال هذه الكتب الخمسة على خمسة مناهج/ مداخل لتناول الشخصية، وهى ما يمكن تسميتها كما طرحناها على التوالى: الزمانى، المكانى، المهنى، المباشر، البانورامى. ولا يرجع هذا التباين بينها إلى اختلاف الكاتب فقط وإنما يرجع أيضاً إلى اختلاف الشخصية التى يتم تناولها وخاصة مهنتها. كما يرجع التباين لأسباب أخرى منها، مدى توفر المصادر المرجعية، ومنها طبيعة العلاقة والشخصية التى يتناولها.

هاشم النحاس



كتاب الزاوية

«نونية» ابن زيدون فى ولادة بنت المستكفى

أمّا هواكِ، فلمْ نعدلْ بمَنْهَلهِ
شُرْباً وَإنْ كانَ يُرْوِينا فيُظْمِينَا

لمْ نَجْفُ أفقَ جمالٍ أنتِ كوكبُهُ
سالِينَ عنهُ، وَلم نهجُرْهُ قالِينَا

وَلا اخْتِياراً تَجَنّبْناهُ عَنْ كَثَبٍ
لكنْ عَدَتْنَا، على كُرْهٍ، عَوَادِينَا

نأسَى عَليكِ إذا حُثّتْ، مُشَعْشَعَةً،
فينا الشَّمُولُ، وغنَّانَا مُغَنّينَا

لا أكْؤسُ الرّاحِ تُبدي من شمائلِنَا
سِيّما ارْتياحٍ، وَلا الأوْتارُ تُلْهِينَا

دومي على العهدِ، ما دُمنا، مُحافِظةً،
فالحرُّ مَنْ دانَ إنْصافاً كما دينَا

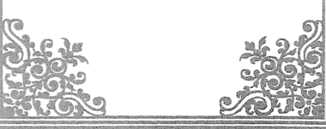
فَما استعضْنا خَليلاً منكِ يحبسُنا
وَلا استفدْنا حبِيباً عنكِ يثنينَا

وَلَوْ صبَا نحوَنَا، من عُلوِ مطلعه،
بدرُ الدُّجى لم يكنْ حاشاكِ يصبِينَا

أبْكي وَفاءً، وَإنْ لم تَبْذُلي صِلَةً،
فَالطّيفُ يُقْنِعُنَا، وَالذّكرُ يَكفِينَا

وَفي الجَوَابِ مَتَاعٌ، إنْ شَفَعتِ بهِ
بيضَ الأيادي، التي ما زلتِ تُولينَا

إليكِ منّا سَلامُ اللّهِ ما بَقِيَتْ
صَبَابَةٌ بِكِ نُخْفِيهَا، فَتُخْفِينَا



جســـــدى، رأســــــمالى؟

دونـــــا ديكنســــون

Donna Dickenson

■■ فى ستينيات القرن العشرين، ابتكرت الحركة النسائية شعار «أجسادنا، هوياتنا». إلا أن هذه الفكرة التحررية خضعت مؤخراً لتحول ساخر. ولقد عبرت سيدة أميركية عن هذه المفارقة فى تبريرها لقرارها بالخضوع لجراحة تجميل فقالت: «كل ما نملكه فى هذه الحياة، وكل ما نستطيع أن نقدمه لهذا العالم فى كل يوم، هو أنفسنا... نفسى هى كل ما أملك».

كما أطنب المعلق الفرنسى هيرفى جوفين فى امتداح هذا التوجه الجديد فى التعامل مع الجسد فى كتابه «قدوم الجسد» الذى احتل على نحو مفاجئ رأس قائمة أفضل المبيعات. إن جراحات التجميل، وزرع رقاقات الكمبيوتر العضوية، وتثقيب الجسد، كل ذلك يزخرف ويمجد الاعتقاد بأن أجسادنا هى ملكياتنا المتفردة. وفى نفس الوقت يجزم جوفين بأنه ما دام لكل إنسان جسد خاص به فقد تحولت الملكية فجأة إلى عملية ديمقراطية.

يبدو أننا نعيش عصراً يشهد أبشع أشكال إخفاق أحلام التنوير، والتقدم، والسلام العالمى، والمساواة بين الأثرياء والفقراء. وذلك، إلى جانب العداوة المنتشرة ضد الأديان المنظمة التى تتجلى فى تلك الكتب التى تحظى بشعبية ضخمة مثل كتاب ريتشارد دوكينز «وهم الرب»، والإحباط إزاء المثل الاجتماعية، يعنى أننا نتحرك نحو الانغلاق على الذات. ومع غياب الإيمان بالحياة الأبدية الآخرة، فإن المرء يستثمر كل ما يملك فى هذه الحياة، فى هذا الجسد.

إن طول العمر رغبة كامنة فينا، والشباب الدائم حق مفترض لنا، وأسطورة الجسد بلا أصل أو حدود هى ديننا الجديد. وربما يفسر هذا السبب وراء انتشار الرأى الذى يقول إن الحكومات لابد أن تضطلع بمهمة إيجابية تتلخص فى

دونا ديكنسون أستاذة فخرية للأخلاق الطبية والعلوم الإنسانية بجامعة لندن، والفائزة فى العام ٢٠٠٦ بجائزة International Spinoza Lens الدولية لإسهامها فى الحوار العام بشأن الأخلاق. وأحدث مؤلفاتها كتاب بعنوان «Body Shopping: The Economy Fuelled by Flesh and Blood».

بترتيب مع:
Institute for Human Sciences

ترجمة: أمين على



BODY SHOPPING

The Economy Fuelled by Flesh and Blood

DONNA DICKENSON

دعم الأبحاث الخاصة بالخلية الجذعية والأشكال الأخرى من أشكال التقدم الطبى. ولقد بدأت الصناعات القائمة على الطب الحيوى تزدهر، بمباركة الحكومة ودعمها، وذلك لأنها تضيف قيمة إلى الجسد، الذى بات ذا قيمة عظمى بالنسبة لنا.

الحقيقة أن تجديد الجسد على نحو لا متناه لا يقتصر على الإصلاحات السطحية التى تتم بواسطة جراحات التجميل. فقد بات من الممكن بالجراحة أيضاً زراعة البدائل الخارجية للمركبات العضوية، الأمر الذى يشكل كسراً للحاجز بين الجسد والعالم الخارجى. وفى نفس الوقت أصبحت الأنسجة المأخوذة من الجسم داخلة فى التجارة باعتبارها سلعة مثلها كمثل أى سلعة أخرى، فى هيئة خلايا جذعية وبويضات بشرية، وغير ذلك من «المنتجات».

ويعتقد أستاذ القانون الأميركى جيمس بويل أننا نستطيع فهم الطريقة التى تحول بها جسم الإنسان إلى مادة للتجارة بربط المسألة بعملية التسييج التاريخية. ففى بريطانيا فى القرن الثامن عشر بدأ تسييج الأراضى لتتحول إلى ملكية خاصة بعد أن كانت تمثل مورداً عاماً. وبعد التحرر من القيود القانونية ذات الأصول الإقطاعية المفروضة على نقل الملكية والحقوق التقليدية التى كانت تحت يد العوام الذين استخدموا الأراضى المشاع لرعى حيواناتهم، بات من الممكن بيع الأراضى المحتفظ بها بوضع اليد بغرض جمع رأس المال، الأمر الذى ساعد فى تمويل الثورة الصناعية.

وفى عالم التكنولوجيا الحيوية الحديث، يرى بويل أن الأشياء التى كانت خارج نطاق السوق، والتى كان من المتصور فيما مضى أن تحويلها إلى سلعة أمر مستحيل، أصبحت الآن خاضعة لعملية خصخصة منظمة. فقد حصل العلماء حتى الآن على براءة اكتشاف واحد من كل خمسة من الجينات البشرية، رغم أن الجينوم البشرى قد ينظر إليه البعض باعتباره ميراثاً مشتركاً للبشر. ورغم أن بويل لم يذكر هذا التطور الأخير، إلا أنه من المعروف أن دماء الحبل السرى، المأخوذة فى المرحلة الأخيرة من الوضع، تُحفَظ الآن بواسطة شركات ساعية إلى الربح باعتبارها مصدراً محتملاً. ولو لم يكن مرجحاً. للخلايا الجذعية للطفل الوليد.

وفى مجال الطب الحيوى نجحت سلسلة من القضايا القانونية فى توليد قوة دافعة عظيمة نحو نقل الحقوق المرتبطة بجسم الإنسان وأجزائه المكونة من «مالك» فردى إلى الشركات والمؤسسات البحثية. وبهذا دخل جسم الإنسان إلى السوق فتحول إلى رأسمال، تماماً كما حدث مع الأراضى، رغم أن الفائدة لن تعم بأكثر مما أثرى العوام الذين انتزعت ملكيتهم أثناء فترة تسييج الأراضى الزراعية.

إن أغلب الناس يصدمون حين يعلمون أن خُمس الجينوم البشرى خاضع لبراءات اكتشاف، أغلبها من قِبل شركات خاصة.

ولكن ما السبب وراء كل هذه الدهشة؟ ألم تكن أجساد النساء خاضعة لأشكال متنوعة من الملكية طيلة العديد من القرون وفى العديد من المجتمعات؟

لا شك أن أجساد النساء تستغل لبيع كل شىء، من السيارات إلى الموسيقى الشعبية. بيد أن الأنسجة الأنثوية تحولت إلى سلعة بطرق أكثر عمقاً وفى ظل أنظمة قانونية، بداية من أثينا وما تلاها منذ ذلك الوقت. ورغم أن الرجال كانوا أيضاً مادة للملكية والتجارة كعبيد، إلا أن النساء عموماً كُن أكثر عُرضة للمعاملة كسلعة فى ظل الأنظمة التى حرّمت ملكية العبيد. فكانت المرأة بمجرد إبداء قبولها المبدئى لعقد الزواج تُحرم من الحق فى عدم قبول العلاقة الجنسية، إلى الأبد.

فثمة أوجه تشابه واضحة بين ذلك الموقف والطريقة التى قدم بها القانون العام أقل قدر من الإنصاف للمرضى الذين حاولوا زعم حقهم فى ملكية الأنسجة التى أخذت منهم، أو الناشطين الساعين إلى تقييد سلطة صناعة التكنولوجيا الحيوية وسيطرتها على البراءات الخاصة بالجينات الوراثية البشرية. والآن بات من المفترض فى كل الأجساد أن تكون «ملكية مفتوحة»، تماماً كما كانت الحال مع أجساد النساء دوماً.

ولكن يبدو أن الاعتداء على الحرية لا يُحَس ولا يُدرَك إلا حين تكون حرية الرجال هى المعتدى عليها. لقد استغرق الناس زمناً طويلاً قبل أن ينتبهوا إلى أن بويضات النساء كانت لازمة بكميات ضخمة لتجريب تقنيات الخلية الجذعية: وهى الظاهرة التى أطلقت عليها «السيدة الخفية». وكثيراً ما تبدو المناقشات الدائرة بشأن قضية الخلية الجذعية وكأنها قائمة على مقدمة منطقية تفترض الأهمية فى حالة الجنين فقط. وما زال العديد من الناس لا يدركون أن بويضات النساء تشكل جزءاً حاسماً من «الاستنساخ العلاجى». وفى المقابل سنجد أن عملية تسجيل براءات اكتشاف الجينات البشرية، والتى تؤثر على كل من الجنسين، أدت (عن حق) إلى توليد إنتاج أدبى ضخم ومناقشات عامة بالغة الحيوية. أهى مجرد مصادفة؟

إن عمليات التسييج الجديدة للملكية العامة للجينات أو الأنسجة البشرية تهدد بمد عملية تحويل الجسد إلى سلعة إلى كل من الجنسين. فقد أصبح لكل فرد الآن جسد أنثوى، أو بعبارة أدق جسد مؤنث. وبدلاً من احتفاظنا باستثماراتنا فى أجسادنا، أصبحنا جميعاً معرضين لخطر التحول إلى رأسمال: «جسدى أنا، ولكنه رأسمال شخص آخر». ■



Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 130 - Noveber 2009

مجلة شهرية . العدد المائة وثلاثون - السنة الحادية عشرة - نوفمبر ٢٠٠٩ . الثمن عشرة جنيهات

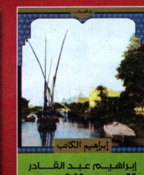
خطّة اغتيال عبد الناصر

قرن من الجاسوسية البريطانية !

حلمي التوني ٢٠٠٨

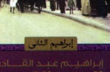


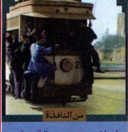
إبراهيم عبد القادر
المازني
الأعمال الكاملة

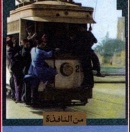


إبراهيم الكاتب
إبراهيم عبد القادر
المازني

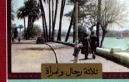










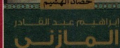


ثلاثة رجال وامرأة
إبراهيم عبد القادر
المازني



قصة حياة
إبراهيم عبد القادر
المازني

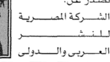
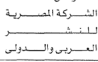






السنة الحادية عشرة
العدد ١٣٠
نوفمبر ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى


الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد حجاج.. أمين عام الجمعية الأفريقية ـ القاهرة.
- أحمد زكريا الشلق.. أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر.
- آلان جريش.. صحفى فرنسى.
- بول إيريك بلانرو.. كاتب فرنسى متخصص فى التاريخ.
- جايل فور.. صحفى فرنسى.
- جويل بينين.. أستاذ التاريخ بجامعة ستانفورد ـ كاليفورنيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية.
- سايمون أوزبورن.. صحفى بالإندبندنت.
- عبد الخالق فاروق.. خبير فى الشئون الاقتصادية.
- فضل مصطفى النقيب.. أستاذ بجامعة واترلو ـ كندا.
- مايكل ماسينج.. كاتب فى النيويورك ريفيو أوف بوكس.
- محمد المهدى.. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- محمد عامر.. أستاذ بكلية العلوم جامعة القاهرة.
- محمد يوسف عدس.. باحث فى التاريخ والشئون السياسية.. مقيم فى إنجلترا.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى ـ Dave Granlund ـ Christo Komarnitski ـ Angel Boligan





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

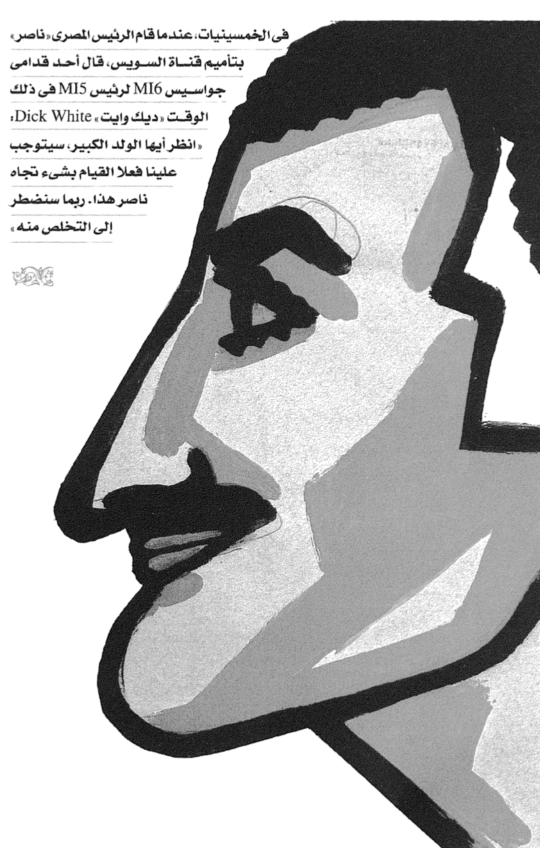
ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

خطة اغتيال عبد الناصر

سايمون أوزبورن
simon Usborne



فى الخمسينيات، عندما قام الرئيس المصرى «ناصر» بتأميم قناة السويس، قال أحد قدامى جواسيس MI6 لرئيس MI5 فى ذلك الوقت «ديك وايت» Dick White: «انظر أيها الولد الكبير، سيتوجب علينا فعلا القيام بشىء تجاه ناصر هذا. ربما سنضطر إلى التخلص منه»

في صيف عام ١٩٠٩، تم تكليف العميد البحرى «ألكسندر بيثيل Alexander Bethell»، رئيس استخبارات البحرية، بالعثور على مرشح مناسب لرئاسة القسم الأجنبى لوكالة جديدة تسمى «مكتب الخدمة السرية Secret Service Bureau». قام «بيثيل» بكتابة خطاب قصير بخط ردىء بعنوان «خاص» وأرسله إلى قائد شبه متقاعد يعيش فى منزل عائم قرب «ساوثامبتون».

«عزيزى «مانسفيلد كامنج Mansfield Cumming»، لابد أن حاجز الطفو الدفاعى (وضع عوائق مادية للسفن حول الساحل) قد أصبح مملا بالنسبة لك، وأن التجارب الحديثة على «فيريت Ferret» (سفينة تستخدم فى التجارب لكسر مثل تلك الدفاعات) ربما تنتقص من تجاربك فى «ساوثامبتون». ولذلك فربما ترغب فى وظيفة جديدة. إذا كان الأمر كذلك فإن لدى شيئا جيدا يمكن أن أعرضه عليك، وإذا رغبت فى المجىء لرؤيتى يوم الخميس وقت الظهيرة تقريبا فسوف أخبرك عن الأمر».

قاتل «كامنج» فى عمليات ضد قراصنة الملايو قبل أن يعلن دوار البحر أنه غير صالح للخدمة. وقد تم تجنيده من قبل الاستخبارات البحرية وأرسل إلى «ساوثامبتون» للإشراف على إنشاء الدفاعات البحرية. وعندما وصله خطاب «بيثيل» وهو فى الخمسين من عمره، قبل العرض وأصبح أول رئيس لما سيصبح MI6.

كراهية تجاه الألمان

فى بدايات القرن العشرين، كانت بريطانيا أمة يشلها جنون الارتياب. وقد ساعد سباق التسلح البحرى مع الألمان على خلق أزمة ثقة تحولت سريعا إلى هياج لمشاعر العداء للألمان من قبل وسائل الإعلام. وروت الصفحات الأولى اللاهثة كيف أن موانئ ومدن إنجلترا قد أصبحت تعج بالجواسيس. وقد عرضت جريدة «ذا ويكلى نيوز The Weekly News» مكافأة قدرها عشرة جنيهات إسترلينية - ثروة

ترجمة: عادل فتحى

.. قرن من الجاسوسية البريطانية

مائة عام.. حربان عالميتان وحرب باردة وحرب «مستحدثة» ضد الإرهاب.

والمائة عام تلك، هى أيضا تاريخ العمل السرى للامبراطورية التى لم تكن تغرب عنها الشمس. والتى كانت أصابعها ـ بحكم الواقع الامبراطورى ـ تلعب فى كل ركن من أركان المعمورة.

فى الذكرى المئوية لإنشاء أجهزة الجاسوسية البريطانية، نشرت الاندبندنت تقريرا مثيرا، كما وفرت الاستخبارات الداخلية البريطانية المعروفة باسم MI5 والتى لم تعترف الحكومة بوجودها إلا فى عام ١٩٨٩، ولوجا غير مسبوق لملفاتها لخبير الاستخبارات الأول فى بريطانيا «كريستوفر أندرو Christopher Andrew» الذى يعد كتابه الجديد «الدفاع عن المملكة The Defense of the Realm» التاريخ الأشمل للوكالة الذى لم يتم نشره على الإطلاق. وقد تحدثت مجلة «تايم» إلى «أندرو» حول نظريات المؤامرة التى كشف زيفها وعن الجواسيس السابقين فى الحكومة البريطانية وعن مشاعره تجاه «جيمس بوند James Bond».

وجهات نظر

صغيرة - لأى قارئ يتمكن من كشف النقاب عن جاسوس ألمانى. فى تلك الأجواء من الخوف - الحقيقى والمبالغ فيه - ولدت الخدمة السرية.

الجاسوس الأعرج العظيم

مع اشتهاره بالتجول فى أنحاء لندن فى سيارته الرولز رويس، كان «مانسفيلد كامنج» فى وطنه يقود أيضا الطائرات والقوارب البخارية. كان ابنه الوحيد «آلاستير Alastair» يقود السيارات الرياضية، وكان خلف المقود عندما تعرض الاثنان لحادث عام ١٩١٤. قتل «آلاستير» فى الحادث وفقد «كامنج» الجزء السفلى من ساقه اليمنى. ومن بين الأساطير العديدة التى أحاطت باسمه، واحدة تشير إلى أنه استخدم مدية لبتر ساقه بنفسه.

لم يرتدع «كامنج»، وكان يجوب ممرات مكاتبه بإرساء ساقه الصناعية على زلاجة أطفال مدولبة بينما يدفع نفسه بالساق الأخرى. وفى المقابلات، يقال أن الجاسوس العظيم كان يختبر أعصاب العملاء المحتملين عن طريق طعن ساقه الخشبية من خلال سرواله بواسطة سكين أوراق. لم يكن يطرف بعينه؛ وكان أى إجفال من قبل ضيف المقابلة يعد علامة ضعف.

خلف المكتب المصنوع من خشب الماهوجنى والذى كان فى وقت ما يزين مقصورة الأدميرال «نيلسون Nelson» على السفينة الحربية «إتش إم إس فيكتورى HMS Victory»، كان «كامنج» يعمل مرتديا نظارة أحادية بإطار ذهبى، وكان يوقع كافة المراسلات بحرف «سى C» مستخدما المداد الأخضر فقط. كان سيحدد المعايير لمن سيخلفونه. فحتى اليوم يعرف رؤساء MI6 بالاسم الكودى «سى» (أصبح يمثل كلمة «رئيس Chief» ولـيـس «كـامـنـج Cumming»، كـمـا يستخدمون المداد الأخضر وكذلك مكتب «نيلسون».

كان «كامنج» يحب المقالب والأجهزة الإلكترونية الصغيرة. وكان سعيدا جدا لاكتشافه أن السائل المنوى يصلح كمداد خفى جيد، حتى أن عملاءه تبنوا شعار «كل رجل يستخدم نمطه الخاص».

مكتب يشبه مكتب المفتش «كلوزو Clouseau» (الشخصية الرئيسية فى سلسلة «النمر الوردى»، المترجم)؟

كان من المقرر افتتاح القسم الأجنبى لمكتب الخدمة السرية للعمل فى الأول من أكتوبر عام ١٩٠٩، ولكن السجلات تظهر أن المدفوعات لهيئة العاملين والمقار لم تبدأ إلا بعد ذلك بعشرة أيام. ولشغفه بوضع بصمته الخاصة، بدأ «كامنج» العمل فى الوقت المحدد. كتب فى مذكراته: «ذهبت إلى المكتب وبقيت هناك طوال اليوم ولكنى لم أر أحدا، كما لم يكن هناك شىء لعمله».

استمرت الحيرة بينما كافح «كامنج» لإرساء مهمته. ونظرا لأنه اقتنع بإيحاء من «بيثيل» بأنه سيتولى مسئولية المكتب بالكامل منفردا، فقد أصيب بخيبة أمل عندما اكتشف أنه سوف يعمل مع أنداد من الجيش. كان النقيب «فيرنون كيل Vernon Kell» يرأس القسم الداخلى (عرف فيما بعد بـ MI5) وكان الأمر سيستغرق سنوات كى يتوصل الاثنان إلى علاقة عمل منسجمة.

كان لدى النقيب «كيل» هيئة عاملين من عشرة أفراد مع سيارة وسائق. ومع تحدثه عدة لغات بطلاقة، وكونه من قدامى المحاربين فى «تمرد بوكسر Boxer Rebellion»، فقد اشتهر أثناء رئاسته MI5 طوال واحد وثلاثين عاما بالاسم الكودى «كيه K». وعلى خلاف «سى» فإن «كيه» لم تلتصق بالمنصب.

تفضلوا، أنتم ضيوفنا

خدم المبنى الضخم لـ MI6 على نهر التيمز عند تقاطع «فوكسهول» - والذى يكنى أحيانا بـ «ليجولاند Legoland» - كمقر لخدمة الاستخبارات السرية لمدة خمسة عشر عاما. وقد بدأ جواسيس بريطانيا العظام فى غرف مستأجرة أكثر تواضعا، كمكاتب بشارع «فيكتوريا» فى «وستمنستر». لم يلق ذلك استحسانا لدى «مانسفيلد كامنج»، وسرعان ما رتب للانتقال إلى مقر «آشلى» على طريق جسر «فوكسهول». وكان هناك انتقالان آخران فى «وستمنستر»، حتى أدت استقطاعات الميزانية بعد الحرب العالمية الأولى بخدمة الاستخبارات السرية إلى مقر «كنسنجتون». هنا عاش «كامنج» وعمل ومات (عام ١٩٢٣). وكان هناك انتقال آخر إلى «وستمنستر» قبل ارتحال MI6 إلى بناية برج «لامبيث» عام ١٩٦٤، حيث بقيت هناك لمدة ثلاثين عاما حتى استقرت فى تقاطع «فوكسهول».

ومنذ عام ١٩٤٤، احتلت MI5 «تيمز هاوس»، وهى بناية ضخمة تعود للثلاثينيات وتطل على جسر «لامبيث». وفى الحقيقة أن المبنى المستخدم فى سلسلة «بى بى سى BBC» «سبوكس Spooks» هو قاعة «فريماسون» فى حديقة «كوفينت» بلندن.

فى الأعوام التالية للحرب العالمية الثانية، عندما رفعت روسيا رأسها كتهديد عالمى، وأدلى «تشرشل Churchill» (بحق) بخطابه الفارق «الستار الحديدى»، سادت مقر MI6 لحظة من الهزل. وعندما شاع أن خدمة الاستخبارات السرية قد خططت لنقل مكاتبها، بدأ المالك فى تنظيم جولات داخل المقر للمستأجرين المحتملين. وكان ضمن هؤلاء مجموعة من الوفد التجارى الروسى. فى كتاب «مايكل سميث Michael Smith» «عباءة جديدة، خنجر قديم New Cloak, Old Dagger» يتذكر رئيس القسم العلمى فى MI6 ما حدث فى اليوم السابق قبل الزيارة. «اندفع مسئول الأمن فى المكان طالبا من الجميع نزع كل الخرائط من على الجدران؟ هل يمكن أن يحدث فى أى مكان غير بريطانيا أن مندوبين من خصمهم المحتمل الرئيسى يمكن السماح لهم بالتجول فى مكاتب خدمتها السرية؟».

ليست هناك أبواب مغلقة

فى بداية الحرب الباردة، تغلبت الخدمة الأمنية على صعوبات التمويل ونقص الحصول على التكنولوجيا الحديثة عن طريق توظيف رقيب أول سابق بالجيش كان شديد البراعة فى الولوج إلى داخل مقار أهداف التجسس لدرجة أنه أطلق عليه «اللص العبقرى».

وقد سمح للضابط الذى تم الكشف عن إنجازاته فى كتاب البروفيسور «كريستوفر آندرو Christopher Andrew» «الدفاع عن المملكة The Defense of the Realm»، بإقامة ورشة فى سرداب مقر MI5 مجهزة بصفوف طويلة من المفاتيح المستنسخة أو المستولى عليها، لأقفال المكاتب والفنادق والمنازل الخاصة. وفى وصف الضابط مجهول الاسم، يقول أحد زملائه فى MI5: «إنه يرفض أن تهزمه الصعوبات





عندما رفض «إيدن» مؤامرة جديدة لضخ غاز الأعصاب فى نظام تكييف الهواء الخاص بـ «ناصر»، اقترح «كوين» علبة سجائر من تصميم وكالة الاستخبارات المركزية تحتوى على سهم مسموم



التقنية؟ إنه أحد أعظم الأصول التى حصلت عليها الوكالة.

تلخيص الميزانية

تعد ميزانيات الخدمة السرية من الأسرار، ولكن MI5 وMI6 ومقر الاتصالات الحكومية Government Communications Headquarters (GCHQ) يتم تمويلهم من «حساب الاستخبارات الوحيد Single Intelligence Account" (SIA)». وفى استعراض الإنفاق الحكومى لعام ٢٠٠٤ تم تحديد الـ SIA بمبلغ ١.٣٨ مليار جنيه إسترلينى. وعموما، يعتقد أن الكلفة الحقيقية للاستخبارات البريطانية هى أعلى من ذلك بكثير. فالـ MI5 تقول بأنها تستخدم حوالى ٣٥٠٠ شخص، ٤٠٪ منهم من النساء و٥٤٪ تحت سن الأربعين. أما الـ MI6 فلا تكشف عن مستويات العاملين لديها.

ناصر يحب الشيكولاتة

فى الخمسينيات، عندما بدأ الرئيس المصرى «ناصر» تقاربا حميما مع روسيا السوفيتية وقام بتأميم قناة السويس، بدأت حكومة «أنتونى إيدن Anthony Eden» فى السعى إلى حل لـ «مشكلة ناصر». ووفقا لما جاء فى كتاب «جوردون توماس Gordon Thomas» «داخل الاستخبارات البريطانية Inside British Intelligence»، قال أحد قدامى جواسيس MI6 لرئيس MI5 فى ذلك الوقت «ديك وايت Dick White»: «انظر أيها الولد الكبير، سيتوجب علينا فعلا القيام بشىء تجاه «ناصر» هذا. ربما سنضطر إلى التخلص منه».

بينما تصاعد التوتر وهدد «ناصر» بالسيطرة الكاملة على قناة السويس، شريان الحياة الذى يربط أوروبا الغربية بنفط الشرق الأوسط، رجعت MI6 إلى دليل من ٨٨ صفحة لوكالة الاستخبارات المركزية «CIA» بعنوان «أساليب الاغتيال Assassination Methods». فى الوقت نفسه، تم تكليف إدارة «كيو Q» بالعثور على طريقة لإنجاز العمل بحيث لا يمكن اقتفاء أثره إلى بريطانيا. وقد شكل ضعف «ناصر» تجاه شيكولاتة «جروبى» المصرية الشهيرة فرصة سانحة، وأرسلت دستة من صناديق تلك الشيكولاتة إلى إدارة «كيو Q» لإجراء تجارب. كما حصل فريق العمل تحت قيادة «فرانك كوين Frank Quinn» - والذى استوحى «فليمنج Fleming» من اسمه الرمز «كيو Q» - على اسم محار عديم الرائحة من المعامل الكيماوية والبيولوجية الحربية البريطانية فى «بورتون داون Porton Down». وقد طور «كوين» أسلوبا لتسخين قاعدة قطع الشيكولاتة حتى تنفصل، مما يسمح بحقن السم. وقد تم تسليم صندوق من قطع الشيكولاتة السامة ولكنه لم يستخدم أبدا.



وعندما رفض «إيدن» مؤامرة جديدة لضخ غاز الأعصاب فى نظام تكييف الهواء الخاص بـ «ناصر»، اقترح «كوين» علبة سجائر من تصميم وكالة الاستخبارات المركزية تحتوى على سهم مسموم. وقام الدكتور «لاديل Ladell»، وهو عالم فى «بورتون داون» يكنى بـ «المشعوذ» باختبار السهم على الأغنام. يقول تقريره «يبدأ الحيوان فى الانهيار عند الركب ثم يشرع فى تقليب عينيه وتخرج الرغوة من فمه. ويسقط الحيوان ببطء إلى الأرض ثم تنسحب روحه بعيدا». كان مقدرا لـ «ناصر» أن يتجنب هذا المصير أيضا - فقد خشى «كوين» من إمكانية تعقب مصدر السهم. ثم تدخلت الاستخبارات الإسرائيلية بخطة لتسميم قهوة «ناصر» بتلويث المحلى الصناعى الخاص به، ولكن عند مرحلة ما ولأسباب غير معروفة، صرف النظر عن خطط اغتيال «ناصر». وقد توفى بأزمة قلبية عام ١٩٧٠.

كانت الاستخبارات المصرية قبل أزمة السويس تنظر بتقدير كبير لـ MI6، لدرجة أن رجل القاهرة فى لندن - وفقا لما جاء فى كتاب «مايكل سميث» «عباءة جديدة، خنجر قديم» - تلقى أوامر بشراء جميع كتب «فليمنج» عن «جيمس بوند» لاستخدامها كقراءة إجبارية فى الدورات التدريبية.

العميلتان «جودى Judi» و«نيجيلا Nigella»

ربما كانت شخصية «فليمنج» «إم M» هى أشهر الجواسيس العظام فى أدب الخيال. فى عام ١٩٩٩، كانت السيدة «جودى دينش Judi Dench»، التى لعبت دور «إم» فى الأفلام الستة الأخيرة لـ «جيمس بوند»، تتعرف إلى جواسيس حقيقيين، عندما دعاها السير «دافيد سبيدنج David Spedding» إلى حفل أعياد الكريسماس الخاص بـ MI6. ويقال أن المحتفلين قد بدت عليهم الحيرة عندما قدم «سبيدنج» «دينش» باعتبارها شخصية «إم» فى «جيمس بوند».

أثناء دراستها فى مدرسة «كوينز جيت Queen's Gate» فى لندن فى السبعينيات، تلقت طباخة التلفاز «نيجيلا لاوسون Nigella Lawson» تعليمها على يد «إليزا مانينجهام-بولر Eliza Manningham-Buller» التى كانت قد رفضت عرضا من مجندى MI5 فى جامعة «أوكسفورد» لتصبح معلمة (تراجعت لاحقا وشقت طريقها فى الخدمة حتى منصب المدير العام). تعرضت «لاوسون» لنفس المحاولة فى جامعة «أوكسفورد». ولكن وفقا لكتاب «جوردون توماس» «داخل الاستخبارات البريطانية»، فإن «نايجل Nigel» والد «لاوسون» والذى كان مستشارا لوزارة المالية البريطانية فى ذلك الوقت، نصح ابنته بـ «البقاء بعيدا عن العاملين بالاستخبارات».

فى عام ٢٠٠٦، اندهش رؤساء «بى بى سى راديو ١ BBC Radio 1» عندما وافقت MI6 على عمل لقاءات للبث أثناء طرح فيلم «جيمس بوند» «كازينو رويال Casino Royal». وقد قدمت «خدمة الاستخبارات السرية (Secret Intelligence Service) SIS» التى كانت فى وسط حملة تجنيد عامة تهدف إلى تحطيم الصورة الكاريكاتيرية الساذجة لعملائها، قدمت عميلين نشيطين بشرط إخفاء أصواتهم الحقيقية. وقد أجرى «راديو ١» المقابلة غير المسبوقة مع «كولن موراى Colin Murray» الذى كان يعلم أنه لم يكن هناك شىء مما يحدث فى فيلم «رخصة للقتل License to Kill» على سبيل المثال، وإنما كان هناك عبقرى فى الأجهزة الإلكترونية يمكن مقارنته بشخصية «كيو» فى أفلام «جيمس بوند».

أزمة الصواريخ الكوبية والمكتب الخارجى ومجبر العظام

استخدمت الحكومة البريطانية مجبر عظام ورسام بورتريه شهيرا، والذى لعب دورا محوريا فى فضيحة «بروفومو»

عرفوا أن ناصر يحب الشيكولاتة، فعكفوا على عمل تجارب لإعداد صندوق من الشيكولاتة السامة، إلا أنه لم يستخدم أبدا. وتدخلت الاستخبارات الإسرائيلية بخطة لتسميم قهوة «ناصر» بتلويث المحلى الصناعى الخاص به



ك «قناة خلفية» بين لندن وموسكو أثناء أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢.

كانت MI5 تعتبر «ستيفن وارد Stephen Ward» - الذى قام قبل عام بتقديم وزير الحرب «جون بروفومو John Profumo» إلى فتاة الاستعراض «كريستين كيلر Christine Keeler» - شخصا «ساذجا» ويخاطر بتهور فى علاقته ب «إيفينى إيفانوف Evgeni Ivanov» الملحق البحرى الروسى الذى كان أيضا ينام مع «كيلر».

ولكن «التاريخ الرسمى الحديث للخدمة السرية» الذى وضعه البروفيسور «كريستوفر أندرو Christopher Andrew» يكشف عن أن المكتب الخارجى لم يكن يشعر بتلك المخاوف. ففى أوج أزمة الصواريخ الكوبية، استخدم «وارد» لتمرير رسائل من السفارة السوفيتية إلى وزير الخارجية، بما فى ذلك رجاء تعتبر موسكو بموجبه لندن «أملها الوحيد فى التوافق» مع واشنطون فيما يتعلق بأزمة نشر أسلحة نووية فى كوبا.

الجاسوسة العظيمة

من بين سبعة عشر رئيس وزراء حكموا طوال مائة عام من الخدمة السرية، كانت ل «مارجريت تاتشر Margaret Thatcher» إحدى أوثق العلاقات مع رؤساء الاستخبارات. ووفقا لكتاب «داخل الاستخبارات البريطانية» ل «جوردون توماس»، فإنها كانت تقرأ التقارير على الإفطار وتعيدها مع تعليقات بخط أزرق. وعلى غير عادة رؤساء الوزارة، كانت تحضر بانتظام لقاءات لجنة الاستخبارات المشتركة التى تشرف على مجتمع الاستخبارات البريطانى من مكتب رئاسة الوزراء. وكانت تذكر العاملين المرتبكين بألا ينسوا أن «العدو الداخلى» قد يكون بداخل MI5 æMI6. وقد صرح مستشارها لوزارة المالية «نايجل لاوسون Nigel Lawson» أن مارجريت كانت مغرمة بروايات «فريدريك فورسيث Frederick Forsyth» المثيرة عن الجواسيس.

العميل المتلون

كان «إيدى تشابمان Eddie Chapman» زير نساء ومجرما ولص خزائن يقضى عقوبة فى سجن جزيرة «جيرسى» عندما غزا الألمان جزر القنال عام ١٩٤٠. وبعد تجنيده من قبل الاستخبارات العسكرية الألمانية، تم إسقاطه بالباراشوت فى بريطانيا لتخريب مصانع الطائرات القاذفة، ولكنه لجأ إلى MI5. وقد زيف رؤساء الجاسوسية صورا لمبان مدمرة ونشروا خبرا فى جريدة «ديلى إكسبريس Daily Express» لإرضاء الألمان. حقق «تشابمان» مهمته، بينما جرى تدريب المجرم ليصبح أعظم عميل بريطانى مزدوج فى زمن الحرب.

أخبر «تشابمان» - ٢٧ عاما فى ذلك الوقت - «رونى ريد Ronnie Reed»، الضابط المسئول عنه، أن رئيسه فى الجاسوسية الألمانية عرض عليه أن يجلسه بالقرب من منصة «هتلر» فى أحد الحشود النازية. ويمكن ل «تشابمان» بعد أن يتخفى كضابط ألمانى أن يفجر الفوهرر. وتحكى ملفات MI5 التى كشف النقاب عنها المحادثة التى تلت ذلك. قال «ريد»: «سواء نجحت أم لا، فستتم تصفيتك فورا». فرد «تشابمان»: «نعم، ولكن يا لها من طريقة للموت».

رفض العرض المفاجئ للعميل المتلوى. ثم عاد إلى ألمانيا مع تحذير من رؤسائه «بألا يقوم بأية مغامرات طائشة»، واحتفى به الألمان لإنجازه مهمته. وفى عام ١٩٤٤، عاد مرة ثانية إلى لندن لمساعدة سلاح الجو الألمانى - ظاهريا - فى توجيه صواريخهم V1 إلى الأهداف الرئيسية. وفى الحقيقة أنه قدم لهم معلومات زائفة وأصبح بطلا أيضا فى بريطانيا فى النهاية، وحصل على عفو عن جرائمه قبل الحرب. وقد توفى عام ١٩٩٧.

الأسماء المتغيرة للخدمة السرية

MI5

:1909القسم الداخلى بمكتب الخدمة السرية.

:1914: MO5(g)، قسم فرعى لدائرة العمليات العسكرية بمكاتب وزارة الحرب.

1916: MI5 (الاستخبارات العسكرية، القسم الخامس).

:1929خدمة أمن الدفاع.

:1931الخدمة الأمنية MI5 (غير رسمى).

MI6

:1909القسم الخارجى بمكتب الخدمة السرية.

1914: MI1©، قسم فرعى لدائرة الاستخبارات العسكرية.

:1920 خدمة الاستخبارات السرية.SIS

MI6 :1930 (غير رسمى).

أبراج «عين القصدير Tin Eye»، المرعبة أثناء الحرب العالمية الثانية، استخدم «لاتشمير هاوس Latchmere House»، وهو منزل كبير على الطراز الفيكتورى يقع فى «هام كومون Ham Common» فى «سيرى Surrey»، كمركز استجواب سرى تحت الاسم الكودى «معسكر ٠٢٠ Camp 020». كان يديره «روبين ستيفنز Robin Stephens»، وهو ضابط منفلت الأعصاب فى MI5 كان يتميز بنظارته الأحادية سميكة الإطار - كانوا يسمونه «عين القصدير Tin Eye» - وباحتقاره لليهود والشواذ والألمان. كان «ستيفنز» - نظرا لإطلاعه على أعمال «فرويد Freud» و«جونج Jung» وإجادته التامة لسبع لغات - سيد الاستجواب. كانت مهمته استخلاص المعلومات من جواسيس العدو لتقرير ما إذا كان يمكن استخدامهم كعملاء مزدوجين. كتب «ستيفنز» فى تقرير كشفت MI5 النقاب عنه مؤخرا «إن مثل هؤلاء الأبطال يولدون ولا يصنعون. ويتحقق الضغط بواسطة قوة الشخصية واللهجة وسرعة الأسئلة، هجوم عنيف فى صورة انفجار يرعب الشخص ويطيح بتماسكه».

كان «ستيفنز» - مرتديا زيه الهندى القديم - يقضى أياما فى تحطيم المشتبه بهم، ولكنه طبق سياسة صارمة من عدم العنف. ومع ذلك، كانت الظروف فى «لاتشمير هاوس» فى نفس قسوة أسلوب «عين القصدير» فى الاستجواب - كانت الزنازين المروعة مسرحا للعديد من وقائع الانتحار. وقد اجتاز أربعة عشر مشتبها الاختبار وتحولوا إلى عملاء مزدوجين (كان من بينهم «إدى تشابمان» - ارجع إلى «العميل المتلوى»). كما أخفق خمسة عشر منهم وتم إرسالهم إلى برج لندن ليشنقوا أو يطلق عليهم الرصاص.

العميل ٠٠٧ الأصلى

«سيدنى رايلى Sidney Reilly» هو الأكثر استحقاقا للقب «جيمس بوند الحقيقى». فعبر عقود، حاول المؤرخون فك الخيوط المعقدة لحياته، ولكن الكثير منها بقى متشابكا فى الأساطير والغموض. ولد «رايلى» فى روسيا عام ١٨٧٣ باسم «روزنبلوم Rosenblum»، ثم وجد نفسه فى لندن عن طريق:

أ- الاختباء على سفينة بريطانية متجهة إلى البرازيل، عقب تلفيق وفاته، بعد أن اتهمه الروس بأنه ثورى، ثم حصل لاحقا على جواز سفر بريطانى بعد أن أنقذ حياة ضابط استخبارات زائر أثناء هجوم شنه مواطنون محليون.

أو

ب - فر من إحدى ضواحى باريس حيث حصل هو وشريك له يدعى «فويتيك Voitek» على كميات هائلة من المال من اثنين من مثيرى الشغب الإيطاليين عثر عليهما فيما بعد مطعونين حتى الموت.

فى لندن، حيث تمسك بالرواية الأولى، سرعان ما تسلق «رايلى» إلى المجتمع الراقى، مشبعا ضعفه تجاه كازينوهات القمار والنساء والحياة السريعة. ومع هويته وجواز سفره الجديدين، عاد زير النساء المهذب إلى روسيا حيث تجسس لصالح بريطانيا واليابان.

فى عام ١٩٠٩، تعلم «رايلى» اللحام وتنكر كعامل أحواض سفن من البلطيق ووجد عملا فى مصنع ألمانى للأسلحة. وقد خنق أحد رؤساء العمال بعد أن أمسك به يسرق تصميمات للأسلحة، قبل أن يفر بها من البلاد. وفى نفس العام - وفقا لإحدى الروايات - شارك «رايلى» كطيار فى معرض فرانكفورت للطيران ونزع مغنيط (مولد كهربائى) متطور من طائرة ألمانية. وقد وضع - بمساعدة شريك له - رسوما تفصيلية للجهاز قبل أن يعيد تركيبه مرة ثانية فى مكانه.

جاء الانتصار الأكبر ل «رايلى» عام ١٩١٨ عندما خطط للإطاحة بالحكومة البلشفية واغتيال «لينين Lenin». وعندما سرب الخطة رجال موالون للزعيم الشيوعى، فر «رايلى» عائدا إلى بريطانيا عبر فنلندا والسويد وحكم عليه بالإعدام غيابيا.

فى عام ١٩٢٥، انضم «رايلى» إلى جماعة وهمية مناوئة للشيوعية يقودها عملاء روس. لاحقا، تحدث أحدهم عن «رايلى» قائلا: «كانت عيناه الداكنتان تعبران عن شىء لاذع وقاس؛ كانت شفته السفلى تتدلى عميقا وكان شديد المراوغة، بشعره الأسود المصفف وحلته شديدة الأناقة. كل شىء فى أسلوبه كان يعبر عن لا مبالاة متغطرسة بما حوله». أطلق الرصاص على «رايلى» - الذى عرف بـ «أعظم الجواسيس» - وقتل، تاركا وراءه سلسلة من





كان «إيدى تشابمان Eddie Chapman» زير نساء ومجرما ولص خزائن يقضى عقوبة فى سجن جزيرة «جيرسى» ثم جرى تدريبه ليصبح أعظم عميل بريطانى مزدوج فى زمن الحرب



الزوجات اللاتى قاضين - بلا جدوى - الـ MI6 للحصول على تعويض. وكان من بينهن ممثلة اسمه «بيبيتا بوبادِيلا Pepita Bobadilla».

عندما ينكشف السر

كثير مما يدور داخل وكالات الاستخبارات يبقى فى الظل. ولم تقر الحكومة بوجود تلك الوكالات إلا فى عام ١٩٩٢. قبل ذلك، كما علق المؤرخ السير «مايكل هوارد Michael Howard»: «فيما يتعلق بسياسة الحكومة، فإن خدمات الأمن والاستخبارات البريطانية، الـ MI5 والـ MI6، لا وجود لهما، وعملاء العدو موجودون تحت شجيرات الكشمش، والمعلومات تصلنا عن طريق طيور اللقلق».

فى عام ١٩٣٣، جرت محاكمة عميل سكوتلاندى سابق لـ MI6 - كان قد هدد بـ «كشف الغطاء» عن الخدمات السرية - بموجب قانون الأسرار الرسمية، وتم تغريمه مائة جنيه لمجرد كشفه عن أن رئيس MI6 كان يعرف بالاسم الكودى «سى C». اليوم لم يعد «سى» مجرد اسم - السير «جون سكارليت John Scarlett» - بل يتم تصويره ورتبت مقابلة معه فى مكتبه من قبل «بى بى سى BBC» أوائل هذا العام.



فى يوليو الماضى تم الكشف عن معلومات شخصية تخص خليفة «سكارليت»، السير «جون ساورز John Sawers» عند اكتشاف أن حساب زوجته فى الـ «فيس بوك Facebook» كان غير محمى. وقد نفى وزير الخارجية «دافيد ميليباند David Miliband» مزاعم بأن الإجراءات الأمنية لم تعد صارمة، قائلا: «أنتم تعلمون أنه يرتدى رداء سباحة من نوع «سبيدو Speedo». ذلك ليس أحد أسرار الدولة».

معدات التجسس الدقيقة

يعتبر القسم «دى D» فى MI6 هو مقر المدير التنفيذى للعمليات الخاصة الحربية والمعروف أيضا باسم «جيش تشرشل السرى». كان هذا القسم مسئولا عن بعض أكثر الأجهزة الإلكترونية الدقيقة براعة فى الخدمة السرية.

كانت قوالب للأقدام الحافية تستخدم فى الشرق الأوسط لصنع خف يترك «بصمات أقدام» تبدو وكأنها تعود للسكان المحليين.

كانت أنابيب كريم الحلاقة تصمم بحجيرات كبيرة بما يكفى لإخفاء رسائل - مع مقدار صغير من الكريم الحقيقى.

كانت الفئران الميتة تملأ بالمتفجرات لتلقى على الفحم بجوار الغلايات الألمانية. وكانت تنفجر بعد أن تجرف للداخل.

كانت جذوع مصنوعة من الجص تطلى لتشبه الأشجار وتملأ بالذخيرة أو الأسلحة قبل غرسها فى غابة شجرية.

كانت حقائب الأوراق الحارقة تصمم لحمل الوثائق. وقد انفجرت إحداها على غير المتوقع مما أوقع إصابة خطيرة بأحد الجواسيس فى تايلاند.

الخيانة الأعظم

ربما كان «كيم فيلبى Kim Philby» وجواسيسه المعروفون باسم «جواسيس كامبردج»، العملاء المزدوجين الأسوأ سمعة الذين أحرجوا MI6، ولكن يقال أن خائنا أقل شهرة قد سبب ضررا أكبر. ولد «جورج بليك George Blake» فى روتردام لأب بريطانى من أبطال الحرب. وقد انضم للبحرية الملكية لاحقا وعمل فى الاستخبارات تحت رئاسة «إيان فليمنج Ian Fleming» الذى كان سيقوم بعد ذلك بتأليف كتب «جيمس بوند». عرض «فليمنج» عملا مع MI6، وبعد دورة خاطفة فى اللغة الروسية أرسل «بليك» إلى كوريا الجنوبية. عززت المهمة ولاءاته الشيوعية، وسرعان ما اتصل بالـ «كى جى بى KGB» (الاستخبارات السوفيتية، المترجم)، مما أدى إلى تدمير معظم عمليات MI6 فى أوروبا الشرقية. وقد اعترف لاحقا «لا أعلم ما الذى قدمته لأنه كان كثيرا جدا».

فى عام ١٩٥٣، أخبر «بليك» أربابه بشأن نفق كان البريطانيون يحفرونه تحت برلين الشرقية التى يحتلها الروس، فى محاولة للتنصت على شبكة اتصالات الجيش الأحمر.

بعد افتضاح أمره فى النهاية على يد منشق بولندى زعم أن «بليك» قد تسبب فى مقتل أربعين عميلا بريطانيا، تم استدعاؤه إلى لندن والقبض عليه. حاولت الحكومة التغطية على خيانة «بليك» ولكنها أخفقت فى ذلك. وفى عام ١٩٦١ حكم عليه بالسجن لمدة ٤٢ عاما - وهو حكم قياسى فى ذلك الوقت - ولكنه تسلق بعد خمس سنوات الجدران الخارجية لسجن «ورمود سكرابس Wormwood Scrubs» باستخدام سلم مصنوع من النايلون مدعم بإبر التريكو. وبعد عام ظهر فى موسكو حيث يعيش حتى الآن. وفى عام ٢٠٠٧، كرم «فلاديمير بوتين Vladimir Putin» العميل المزدوج السابق العجوز البالغ من العمر ٨٥ عاما. وفى العام نفسه ذكر رئيس الاستخبارات الروسية أن «بليك» «لا يزال يلعب دورا نشطا فى شئون الخدمة السرية».

عملاء مزدوجون فى خطر

كان «أوليج جورديفسكى Oleg Gordievsky» هو الأعلى منزلة من بين الجواسيس السوفييت الذين لجأوا إلى الغرب أثناء الحرب الباردة. وقد أرسلته موسكو ليقود عملية جمع المعلومات فى لندن عام ١٩٨٢، ولكنه استمر فى تمرير المعلومات السرية إلى MI6. وقد انكشف أمره عام ١٩٨٥ وعاد إلى روسيا، فقط ليهرب مرة ثانية إلى بريطانيا. وهو يعيش فى لندن، وقد اتهم «عناصر مارقة» فى موسكو بالتآمر لاغتياله بحبوب دواء مسمومة.

أشهر ما يعرف به «آرثر رانسوم Arthur Ransome» أنه مؤلف كتاب «سوالوز آند أمازونز Swallows and Amazons»، ولكنه قبل ذلك كان يعيش فى موسكو وتزوج سكرتيرة «تروتسكى Trotsky» (أحد أقطاب الثورة الروسية) وقطن فى شقة مع رئيس الدعاية البلشفية واعتنق أفكار «لينين» - وقام بتهريب ملايين الروبلات فى صورة ماس لدعم القضية الشيوعية بالخارج وكان عند حسن ظن البلاشفة تماما حتى جندته MI6 كعميل مزدوج.

كان «كيم فيلبى» العضو الأكثر نجاحا من بين مجموعة كامبردج الخمسة سيئى السمعة؛ فقد التقى فى الجامعة بـ «دونالد ماكلين Donald Maclean» و«جاى بيرجيس Guy Burgess» و«أنتونى بلانت Anthony Blunt» و«جون

كيرنكروس John Cairncross». وقد أصبحوا شيوعيين، واستمر «فيلبى» فى التجسس لصالح روسيا لأكثر من خمسين عاما شغل أثناءها منصب رئيس القسم السوفييتى فى MI6 أثناء الحرب. وقد كشف أمره وفر فى النهاية إلى موسكو حيث توفى عام ١٩٨٨.

انضم «دنيس دونالدسون Denis Donaldson» إلى الجيش الجمهورى الأيرلندى فى الستينيات. وقد شق طريقه من مجرد مراهق يحمل سلاحا إلى المساعد الأوثق لدى «جيرى آدامز Gerry Adams»، ولكن الاستخبارات البريطانية جندته سرا فى الثمانينيات. وبعد عشرين عاما من العمل كعميل مزدوج - أقام خلالها صلات جمهورية مع جماعات إرهابية أوروبية من بينها «إيتا Eta» - انكشف أمره عام ٢٠٠٢. وقد فر إلى كوخ مهجور فى «كاونتى دونجال County Donegal» حيث عثر عليه مقتولا بالرصاص عام ٢٠٠٦.

عندما تحولت شخصية «إم M» إلى «إم آند إس M &S» (Marks & Spencer، المترجم)

لعقود عديدة، اقتصر دور النساء داخل الخدمة السرية على الأعمال الإدارية والسكرتارية. ولكن فى عام ١٩٦٧ بدأت أمينة سجلات تعيش فى الهند مع زوجها الدبلوماسى فى تنفيذ مهمات صغيرة لـ MI5. وفى لندن فى بداية السبعينات وضعت اسمها على خطاب مفتوح تطلب فيه الترقية. كان الخطاب يقول «لماذا لا تصبح النساء ضباطا مثل الرجال؟» وبعد عقدين من الزمان أصبحت «ستيلا ريمنجتون Stella Rimington» أول امرأة مدير عام للخدمة السرية.

بعد تقاعدها عام ١٩٩٦، أصبحت «ريمنجتون» مديرة غير تنفيذية فى «ماركس آند سبنسر Marks & Spencer». وكاستغلال غير مألوف لمهاراتها الاستخباراتية، كانت تتنصت على الزبائن أثناء تجولها بين ممرات السوبر ماركت وتبلغ النتائج للمقر الرئيسى.

و«ريمنجتون» هى ملهمة شخصية «إم M» التى قدمتها «جودى دينش» فى أفلام «جيمس بوند». وقد وصفت «ريمنجتون» تصوير الشخصية بأنه «مبهر»، وأضافت بأنها كانت: «جيدة جدا فعلا. بل إنها تمسك يديها كما أفعل». ■

«كريستوفر أندرو» يتحدث عن كتابه

من منكم يعرف MI 5



Gaelle Faure

■ **هل منحت حرية كاملة للوصول إلى ملفات MI5 حتى وقتنا الحاضر؟**

لقد حصلت بالفعل على حرية ولوج غير محدودة. ومع ذلك، فأنا لم أطلب الولوج لملفات القرن الحادى والعشرين للقضايا التى لم تصل بعد للقضاء أو التى ما زالت قيد التحقيق.

● *ما هى أكبر مفاجأة كشفت عنها النقاب؟*

أحد الاكتشافات ترك عندى انطباعا حقيقيا. إن المهمة الأولى لأى وكالة استخبارات هى أن تذكر الحقيقة للسلطة الحاكمة. وقد عثرت على أول مثال لذلك أثناء أزمة ميونخ عام ١٩٣٨، وهى إحدى أهم اللحظات المشينة فى تاريخ السياسة الخارجية البريطانية. فى ذلك الوقت، كانت MI5 بالفعل تفهم «أدولف هتلر Adolf Hitler» بصورة أكبر كثيرا من الحكومة البريطانية ورئيس الوزراء فى ذلك الوقت «نيفيل تشامبرلين Neville Chamberlain» على وجه الخصوص. حيث لم يكن يعير اهتماما لما يقولونه له أثناء المفاوضات التى أدت إلى اتفاقيات ميونخ. ولذلك قرر «فيرنون كيل Vernon Kell» (رئيس MI5 فى ذلك الوقت) أن الطريقة الوحيدة للوصول إلى رئيس الوزراء هى أن يخبره بما يقوله «هتلر» عنه، وبالتحديد أنه يطلق عليه «فتحة الشرج». وقد أبلغه بالكلمة الألمانية التى قيل أن «هتلر» استخدمها «arschloch». (يرجى الرجوع إلى صور صعود هتلر للسلطة).

● *هل تعتقد أن الشفافية تساعد وكالات الاستخبارات على المدى الطويل؟*

نعم. كانت الفكرة فى الماضى أنك لا تريد أن يعرف العامة أى شىء، ولذلك فإنك لم تكن تخبرهم بأى شىء. والذى تغير منذ جيل مضى هو أن الشعب البريطانى أصبح أقل كياسة، وإذا لم تكن لديه فكرة ما عما يدور، فإنه يستسلم لنظرية المؤامرة. وعلى أية حال، فإن الكتاب الأكثر مبيعا فى الولايات المتحدة عن الاستخبارات البريطانية هو «صائد الجواسيس Spycatcher» لـ «بيتر رايت Peter Wright». وما زالت بعض القصص التى ضمنها الكتاب - وهى محض هراء - تلقى قبولا واسعا: أنه كانت هناك مؤامرة ضد رئيس الوزراء الأسبق «هارولد ويلسون Harold Wilson». أعلم الآن أنها غير حقيقية رغم وجود ملف عنه، وأن السير «روجر هوليس Roger Hollis»، رئيس MI5 طوال تسع سنوات، كان فى الحقيقة عميلا سوفيتيا. الملفات تنفى ذلك أيضا. إذا لم تكن لديك معلومات فإنك تحصل على أكاذيب.

● *بعد استعراض مائة عام من الملفات، ما الذى تعتبره أكبر نجاحات MI5؟*

كان ذلك بالتأكيد ضد ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية. فقد تم تحويل بعض أفضل الجواسيس الألمان إلى عملاء مزدوجين، وكان ذلك هو الجزء المحورى للخداع الأكثر نجاحا فى تاريخ الحروب، والذى بدونه لم تكن لتتحقق عملية الإنزال فى نورماندى. وما اكتشفته من خلال الملفات هو الكيفية التى بدأ بها الأمر برمته بأسلوب بريطانى يتسم بغرابة الأطوار. كان أكثر العملاء المغامرين لـ MI5 فى الثلاثينيات هو أحد أبطال الجو فى الحرب العالمية الأولى يسمى «كريستوفر درابر Christopher Draper»، وكان يدعى «الرائد المجنون»، لأنه كان مهووسا تماما بالطيران تحت كبارى لندن. وقد دعى إلى ألمانيا، وكان «هتلر» مهتما به للغاية وأمضى أكثر من نصف ساعة يتحدث معه أثناء أحد العروض الجوية. وعند عودته إلى لندن، طلب منه أن يصبح جاسوسا للاستخبارات الألمانية فأجاب بالموافقة وعرج على MI5 لاستطلاع رأيهم! وبمراقبة الاتصالات التى كان عليه أن يقوم بها مع الاستخبارات الألمانية، اكتشفت MI5 بالمصادفة عميلا ألمانيا لم تكن تعلم عنه شيئا، وبدأت فى الإيقاع بكامل الشبكة الألمانية.

● *إذن كان لـ MI5 نصيبها من الشخصيات المميزة؟*

بقدر علمى، فإن MI5 هى أول وكالة حكومية تحدد الحس الفكاهى كإحدى الخصال المطلوبة فى المجندين لديها. إذا نظرت إلى عالم الجاسوسية، تجد أنها المهنة الوحيدة التى تكون فيها الشخصية الخيالية أكثر شهرة مائة مرة على الأقل من أى شخصية حقيقية. و«جيمس بوند» هو القائد المميز الوحيد الذى بقى على القمة عبر السنين. وقد أخبرنى مسئول فى الاستخبارات ذات يوم أنه التقى فى إحدى المرات فى أعماق العالم الثالث بأحد زعماء القبائل كان يظن أنه لا يعرف الإنجليزية، ولكنه خاطبه بالجملة الشهيرة: «مرحبا سيد بوند». (يرجى الرجوع إلى صور جيمس بوند).

● *ماذا عن أكبر إخفاقات MI5؟*

يرتبط ذلك بأكبر إخفاقات الاستخبارات الغربية عموما. عندما بدأت MI5 فى الانخراط فى أيرلندا فى بداية السبعينيات - كانوا فى ذلك الوقت يعلمون عن بلفاست أقل مما يعلمون عن نيروبى - حسنا، لم أعثر على ملف واحد يتعلق بالاستخبارات أثناء القلاقل التى بدأت عام ١٩٦٩ والاستخبارات فى الفترة من تمرد عيد الفصح عام ١٩١٦ حتى إنشاء دولة (أيرلندية) حرة عام ١٩٢٢. تشير الملفات من تلك الفترة السابقة إلى أن الاستخبارات كانت فى حيرة لا تصدق وكان تنسيقها ضعيفا مع الشرطة المحلية. ماذا حدث فى السبعينيات؟ نفس الشىء تماما. إنه نموذج مثالى تقريبا للمثل القديم القائل بأن أولئك الذين لا يدركون أخطاء الماضى محتم عليهم أن يكرروها.

إن إلقاء نظرة طويلة الأمد كان يمكن أيضا أن يساعد فى التنبؤ بصورة أفضل بالإرهاب الإسلامى فى القرن الحادى والعشرين. كانت MI5 بطيئة فى إدراك التهديد المحتمل، حيث كانت منشغلة فى معالجة حملات الجيش الجمهورى الأيرلندى فى التسعينيات. ولم تدرك MI5 قبل عام ٢٠٠٣ أن تطرف الأقلية المسلمة البريطانية قد يؤدى إلى هجمات إرهابية على أهداف بريطانية. (يرجى الرجوع إلى صور الإرهاب فى المملكة المتحدة).

● *لقد اكتشفت أن ثلاثة أعضاء فى البرلمان من حزب العمال أثناء حكومة «ويلسون» يعدون عملاء سوفييت. هل شكل ذلك صدمة لك؟*

كان ذلك بمثابة مفاجأة. ومع ذلك، فإن ما أدهشنى أكثر هو أن درجة الاهتمام الشديد بتهديد الدمار الشيوعى لم يأت عادة من قبل MI5 وإنما من الحكومة. فقد أرسلت قيادة حزب العمال إلى MI5 قائمة بأسماء ستة عشر عضوا بالبرلمان من حزب العمال اعتقدت قيادة الحزب أنهم شيوعيون أكثر من كونهم عمالا. ولكن MI5 رفضت التورط حيث اعتبرت ذلك مجرد سياسات حزبية. وعلى أية حال فإننا نعلم الآن أن الرجل على رأس تلك القائمة «ويل أوين Will Owen» كان عميلا تشيكيا منذ سنوات! ■

كان الإسرائيليون قد هدموا بالفعل العديد من المنازل والمبانى قبل أن تقرر «راشـيل» الذهـاب الـى هنـاك

راشـــيل كـــورى..........

فى السادس عشر من مارس عام ٢٠٠٣، سحقت «كورى»، الطالبة الأمريكية (٢٣ سنة)، تحت جرافة تابعة للجيش الإسرائيلى فى غزة، كانت تقوم بتسوية الأرض وهدم منازل الفلسطينيين.

جـويل بينين
Joel Beinin

جرى تنظيم مهرجان سان فرانسيسكو للفيلم اليهودى - الأقدم من نوعه فى الولايات المتحدة - كتمرد ضد الحكمة المعتادة. ومنذ العام ١٩٨٠، روج المهرجان للأفلام اليهودية المستقلة التى تفند تصوير هوليوود التقليدى للحياة اليهودية، وخاصة التركيز المتباكى المبالغ فيه على الغبن الواقع على اليهود، وقدم بانتظام «بدائل للنظرة المعتادة غير الانتقادية الرائجة فى المجتمع اليهودى الأمريكى للحياة والسياسة فى إسرائيل». وقد تفاعل جمهور المهرجان - ومعظمهم من اليهود - بإيجابية مع هذا التوجه، حتى فى عام ٢٠٠٥ عندما قرر المنظمون عرض فيلم المخرج الفلسطينى «هانى أبو أسعد» «الجنة الآن Paradise Now» الذى يدور حول التفجيرات الانتحارية.

كما يرحب المهرجان أيضا بالمخرجين المبدعين اليهود الإسرائيليين المنتقدين. ففى عام ٢٠٠٨، قدم إلى سان فرانسيسكو المخرج الإسرائيلى «شاى كارميلى بولاك Shai Carmeli Pollak» لعرض فيلمه «بلعين حبيبتى» الذى يسجل الكفاح السلمى للفلسطينيين ومؤيديهم فى إسرائيل وخارجها لإيقاف بناء الجدار الإسرائيلى الفاصل فى إحدى قرى الضفة الغربية. كما عرض المهرجان فى السابق فيلمين لـ «سيمون بيتون Simone Bitton» المواطنة مغربية الأصل صاحبة الجنسية الإسرائيلية-الفرنسية المزدوجة. الأول هو «محمود درويش: لغة الأرض Mahmoud Darwich: The Land as Language» (١٩٩٨)، وهو فيلم سيرة ذاتية يمجد نابغة الشعر الفلسطينى الراحل. والثانى «جدار Wall» (٢٠٠٥)، عبارة عن تحقيق غير مجامل عن الجدار الفاصل.

إن العمل الجديد لـ «بيتون»، فيلم «راشيل» (من إنتاج شركة سينى-زوت بروموشن Cine-Sud Promotion عام ٢٠٠٨) لم يتم توزيعه بعد. ولكنه عرض فقط فى مهرجانات الأفلام فى برلين وباريس ونيويورك وساراييفو وتورنتو وغيرها. وتم عرضه فى خريف عام ٢٠٠٩ فى مهرجان حيفا للأفلام فى إسرائيل. وقد تم عرضه فى الخامس والعشرين من يوليو والرابع من أغسطس فى مهرجان سان فرانسيسكو للفيلم اليهودى.

من المؤكد أن مجلس إدارة المهرجان كان يعلم أن عرض فيلم «راشيل» - الذى يناقش الموت الوحشى لـ «راشيل كورى Rachel Corrie»، وهى ناشطة سلام أمريكية تبلغ من العمر ٢٣ عاما، على يد الجيش الإسرائيلى - قد يزعج بعض المشاهدين اليهود. ولكنهم فى الغالب لم يكونوا متأهبين للاعتراضات الحادة، بل الهستيرية، للمنظمات الرسمية فى المجتمع اليهودى بـ «منطقة باى Bay Area». وبالنظر إلى تاريخ مهرجان سان فرانسيسكو للفيلم اليهودى، فمن الصعب أن نتخيل أن تلك المنظمات كانت منزعجة فى الأساس بسبب مضمون الفيلم. من المؤكد أنها قد ادخرت أقوى لغة لديها للهجوم على المشاركين فى رعاية عرض الفيلم «الصوت اليهودى للسلام Jewish Voice for Peace» و«لجنة خدمة الأصدقاء الأمريكيين American Friends Service Committee»، ولقرار منظمى المهرجان دعوة والدة «راشيل»، «سيندى كورى Cindy Corrie»، والتى لقبوها بـ «منتقدة إسرائيل»، للمشاركة فى جلسة أسئلة وأجوبة بعد إضاءة الأنوار.

ولكن الغضب الشامل ضد «انتقاد إسرائيل» هو تفسير غير مقنع لغضب المنظمات اليهودية، حيث قامت منظمة «الصوت اليهودى للسلام» فى السابق بالمشاركة فى رعاية أفلام فى المهرجان، كما أن «كارميلى بولاك» ومنتجى أفلام يهودا آخرين انتقدوا سياسات الاحتلال الإسرائيلى بعبارات أكثر حدة بكثير من أى شىء قاله أى شخص من عائلة «كورى» فى هذا السياق. ربما تكمن المشكلة فى أن منظمى المهرجان استقدموا غير يهود - «لجنة الأصدقاء الأمريكيين» و«سيندى كورى» - إلى داخل المجتمع اليهودى ليشهدوا شيئا يخجل منه كثير من أعضاء هذا المجتمع.

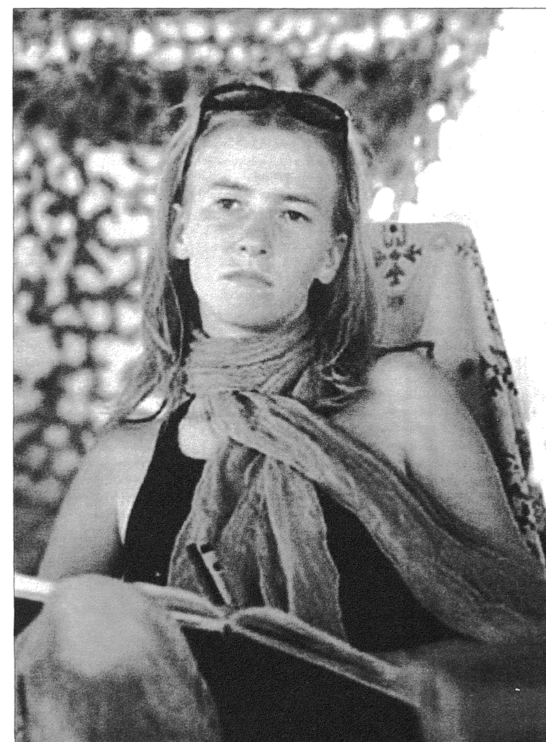
جلب مقتل «راشيل كورى» مجموعة كبيرة من التحقيقات الصحفية، وكلها تدور فى الظاهر حول الاستعراض المتفحص لروايات الناشطين من زملائها فى «حركة التضامن الدولية International Solidarity Movement» الذين يقولون بأنها قد اغتيلت، والرواية المنافسة للدولة الإسرائيلية التى تفضل اعتبار النهاية المبكرة لحياتها «حادثا مؤسفا». وقد تشككت بعض الروايات الإعلامية فى التحقيق الداخلى للجيش، بعكس روايات أخرى. وقد بدا أن بعض المراسلين أكثر توقا لإشعال النار فى نشطاء «حركة التضامن الدولية» الذين كانوا موجودين وقت الحادث، أكثر من الجنود، وهو ما ينسجم تماما مع الهجوم المضاد الذى قام به الجيش الإسرائيلى نفسه: «نحن نتعامل مع مجموعة من المحتجين الذين يتصرفون بلا مسئولية على الإطلاق معرضين الجميع للخطر - الفلسطينيين وهم أنفسهم وقواتنا - عن طريق تعمد التواجد فى مناطق القتال». وبالنسبة للجيش، فرغم ما تردد عن تعهد «آرييل شارون» رئيس الوزراء الإسرائيلى للرئيس

فيلم Rachel «راشيل»
إخراج: Simone Bitton
Cine-Sud Promotion - 2008

ترجمة: عادل فتحى

قتلت «كورى» بينما كانت تقف بدون سلاح أمام منزل الصيدلى الفلسطينى «سمير نصر الله»، فى محاولة لمنع الجرافة من إزالته

.. وأيضا فى سان فرانسيسكو



الأمريكى «جورج دبليو بوش» بإجراء تحقيق «شامل وموثوق وشفاف»، فلم يكن تقريبا مسموحا بأى إشراف خارجى. ولم تستطع منظمة «مراقبة حقوق الإنسان Human Rights Watch»، التى ضمنت فقرة عن «كورى» فى تقرير وضع فى يونيو ٢٠٠٥ عن التحقيقات العسكرية الإسرائيلية القاصرة، أن تعلن عن رأيها فى كيفية وفاتها، ولكنها استنتجت أن «النزاهة والحرفية للتحقيق الإسرائيلى فى وفاة «كورى» مشكوك فيهما إلى حد كبير». وفى جميع الأحوال، لم يكن هناك خلاف يذكر حول الحقائق التالية.

فى السادس عشر من مارس عام ٢٠٠٣، سحقت «كورى»، الطالبة فى السنة النهائية بكلية ولاية إيفرجرين Evergreen State College فى مدينة أوليمبيا بولاية واشنطون الأمريكية، فى غزة تحت جرافة تابعة للجيش الإسرائيلى. كانت الجرافة العملاقة من طراز «كاتربيلار د 9 ,Caterpillar D» والتى جهزتها إسرائيل بالدروع تقوم بتسوية الأرض وهدم منازل الفلسطينيين فى مدينة رفح عبر محور فيلادلفيا، وهو الطريق الذى يمر بجوار الحدود بين مصر وقطاع غزة. كانت العديد من المنازل والمبانى قد هدمت بالفعل لخلق مساحة فارغة استعدادا لبناء حائط على الحدود. كانت «كورى» تعمل مع «حركة التضامن الدولية»، وهى منظمة مكرسة للعمل السلمى المباشر بالتضامن مع الشعب الفلسطينى تحت الاحتلال العسكرى. قتلت «كورى» بينما كانت تقف بدون سلاح أمام منزل الصيدلى الفلسطينى «سمير نصر الله»، فى محاولة لمنع الجرافة من إزالته.

يصور فيلم «راشيل» بصورة مؤثرة للغاية «راشيل كورى» كإنسان وكمتطوعة فى «حركة التضامن الدولية»، وعلى الرغم من غياب أية استنتاجات مؤكدة، يعد الفيلم أيضا أكثر التحقيقات التى أجريت شمولا ومصداقية وشفافية حول كيفية مقتلها على وجه التحديد ومن هو المسئول عن ذلك. وكما كتبت «بيتون» فى إحدى صفحات الـ «فيس بوك Facebook» المكرسة لفيلم «راشيل»، فإنه «يحقق بعضا

مما كان يجب أن تفعله محكمة، من إخضاع رواية دولة إسرائيل عن مصرع «كورى» للفحص تحت المجهر.

تركز «سيمون بيتون» فى البداية على الأسابيع الثمانية الأخيرة من حياة «كورى»، وأسبابها للذهاب إلى غزة، وعلاقاتها بالعديد من الفلسطينيين التى أصبحت شديدة القرب منهم، ونشاط «حركة التضامن الدولية» فى رفح. لقد ولدت الحركة فى ربيع وصيف عام ٢٠٠١. فى خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من الانتفاضة الثانية التى اندلعت فى أعقاب زيارة «آرييل شارون» لـ «جبل المعبد/الحرم الشريف» فى سبتمبر عام ٢٠٠٠، كانت صحيفة «معاريف» اليومية الإسرائيلية اليمينية قد نشرت أن القوات الإسرائيلية أطلقت مليون رصاصة على المتظاهرين الفلسطينيين العزل فى أغلبيتهم. وقد انهمر هذا المطر من الرصاص قبل وقوع أية تفجيرات انتحارية أو أعمال إرهابية أخرى داخل إسرائيل فى حدود ما قبل عام ١٩٦٧. (كان آخر تفجير انتحارى قد وقع عام ١٩٩٨).

وفى مواجهة هذا الخلل فى موازين القوة، توصل «غسان آندونى» و«جورج ريشماوى» و«هويدا عراف» وغيرهم إلى فكرة أن حضورا دوليا سلميا ربما يحمى الفلسطينيين من وحشية الجيش الإسرائيلى. كما اعتقدوا، بالإضافة إلى ذلك، أن الشهود الدوليين الذين يكشفون عما رأوا ومروا به يمكن أن يزيدوا من الوعى العالمى والتغطية الإعلامية للعنف الإسرائيلى. وقد وصل أول فريق تابع لـ «حركة التضامن الدولية» إلى فلسطين فى أغسطس عام ٢٠٠١. كانت «كورى» مشاركة متحمسة، وقد كتبت لعائلتها من هناك «إن حضورى إلى هنا هو من أفضل الأشياء التى فعلتها فى حياتى». ويمثل تكرار تلك الكلمات فى الفيلم لحظة تمزق القلوب، حيث يعلم المشاهدون أن «راشيل كورى» ستموت بعد قليل.

يولى فيلم «راشيل» اهتماما دقيقا بالظروف التى أحاطت بمصرع البطلة. ومثل محقق جنائى، قامت «بيتون» بجمع الشهادات الشفهية والوثائق والصور ومقاطع الفيديو الخاصة بالقضية. ولا تسمع فى الفيلم سوى أصوات أولئك وثيقى الصلة بالموضوع: زملاء «كورى» فى «حركة التضامن الدولية»، والأصدقاء الفلسطينيين، والمضيفين فى رفح، و«أندونى» المشارك فى تأسيس الحركة، وضابط الجيش الإسرائيلى الذى حقق القضية، والمحقق الجنائى من تل أبيب الذى فحص الجثة، و«جوناثان بولاك Jonathan Pollak» عضو الجماعة الإسرائيلية «فوضويون ضد الجدار Anarchists Against the Wall»، (وشقيق منتج الفيلم «بلعين حبيبتى») الذى استضاف زملاء «كورى» بمنزله فى تل أبيب بعد مصرعها. ويسمع فى الفيلم أيضا صوت «راشيل كورى» نفسها من خلال تلاوة الراوى لرسائل البريد الإلكترونى التى أرسلتها لعائلتها.

لا توجد بالفيلم بيانات سياسية مجردة. وتجرى مقارنة الشهادات المتناقضة. ومن الملاحظ أنه من بين جميع من جرت محاورتهم فإن «آندونى» هو الوحيد الذى يعتبر أنه ربما يتحمل جزءا من المسئولية عن مصرع «كورى»، بالنظر إلى أنه قام بتدريبها وأرسلها إلى رفح. ومثل محامى، تواصل «بيتون» استجواب الشهود دون مرافعات للمحكمة أو استخلاص دلائل شهاداتهم. ويجعل هذا الأسلوب من الفيلم سجلا وثائقيا قويا تتجاوز قيمته كثيرا تعاطف «بيتون» الواضح مع «كورى» وتشككها فى الرواية الرسمية.

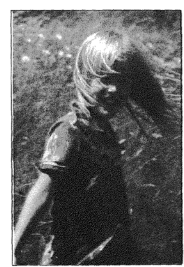
إن تلك الرواية - «من الواضح أن مصرع الآنسة «كورى» لم يقع كنتيجة لعمل مباشر من قبل الجرافة أو مرورها فوقها» - لا تصمد كثيرا أمام عدسة «بيتون». وأمام الكاميرا، يعبر ضابط الشرطة العسكرية الإسرائيلية الذى قاد التحقيق عن ظلال من الشك فى استنتاجاته. فهو يعترف أنه لم يزر موقع منزل «نصر الله» واعتمد أساسا على شهادة الجنود. ومن بين الشهود الذين لم يستجوبهم كان متطوعو «حركة التضامن الدولية» الذين شاهدوا - من مسافة لا تزيد على عشرة أمتار- الجرافة تدهس «كورى». وهم يؤكدون أن زميلتهم قد دهست عن قصد تماما، ليس مرة واحدة، بل مرتين. أما الادعاء الرسمى بأن سائق الجرافة لم ير «كورى» لأنها كانت خلف كومة من التراب فقد دحضه تماما شريط فيديو للجيش الإسرائيلى تظهر فيه «كورى» واقفة فوق قمة الكومة مرتدية معطفا برتقالى اللون عاكسا شديد الوضوح بينما كانت الجرافة تقترب.

فى أبريل عام ٢٠٠٣، نشر المركز الإسرائيلى الوطنى للطب الشرعى تقرير تشريح يرجع مصرع «كورى» إلى «ضغط على الصدر (اختناق) مع كسور فى الضلوع وفقرات العمود الفقرى بالظهر وعظمتى الكتف وجروح قطعية فى الرئة اليمنى مع نزيف فى تجاويف الغشاء البللورى». كيف يمكن لهذه النتيجة - لقد سحقت حتى الموت - أن تستقيم مع الجزم الواضح للشرطة العسكرية بشأن الجرافة؟ ونظرا لأن المحقق الجنائى الذى أجرى التشريح لم يدخر جهدا فى الشرح لـ «بيتون» فمن الممكن أن تكون «كورى» قد قتلت بسبب ثقل التراب على جسدها عندما مرت الجرافة فوقها. وحيث أنه لم يكن هناك ما يدل على أن المعدن قد لامس جسدها، فإنه لم يستطع أن يستنتج أن الجرافة نفسها قد قتلتها.

لم يكن السلوك المريب من نصيب المسئولين الإسرائيليين فقط، ويستمر الفيلم فى توضيح ذلك. يعترف الطبيب الشرعى بحق أسرة «كورى» فى حضور التشريح؛ ونظرا لعدم تمكنهم من الحضور، كان من اللائق أن ترسل السفارة الأمريكية فى تل أبيب مندوبا عنها. ومع ذلك، ورغم طلب عائلة «كورى» أن يشهد مسئولو السفارة إجراء التشريح، فقد أخبروا المحقق الجنائى بعدم اهتمامهم بذلك. ولذلك قام الطبيب الشرعى بالعمل وحده.



يعد الفيلم أيضا أكثر التحقيقات التى أجريت شمولا ومصداقية وشفافية حول كيفية مقتلها على وجه التحديد ومن هو المسئول عن ذلك



حاولت عائلة «كورى» بإلحاح دفع حكومة الولايات المتحدة لفتح تحقيقها الخاص. وقد حصل قرار قدمه ممثلهم فى الكونجرس النائب «بريان بيرد Brian Baird» (نائب ولاية واشنطون عن الحزب الديمقراطى) يطالب فيه وزارة العدل بفتح تحقيق، حصل على ٧٨ مؤيدا، ولكن القرار دفن فى إحدى اللجان. وقد أخبر «جون مكاى John Mckay» المحامى العام الأمريكى الأسبق لمنطقة غرب واشنطون وأحد ثمانية محامى عموم أمريكيين فصلتهم إدارة بوش عام ٢٠٠٦، عائلة «كورى» «لن يكون هناك أبدا تحقيق أمريكى فى قضية «راشيل». وقد ظلت الحكومة الأمريكية عازفة عن التدخل رغم موقفها الخاص الذى لم تتراجع عنه أبدا، والمسجل فى خطاب إلى عائلة «كورى» من مسئول وزارة الخارجية الأسبق «لورانس ويلكرسون Lawrance Wilkerson»، بأن التحقيق الإسرائيلى كان قاصرا.

هل تعمد سائق الجرافة - الذى أبقى الجيش الإسرائيلى اسمه طى الكتمان - قتل «راشيل كورى»؟ لقد ظل الفيلم محايداً عن تلك النقطة. فطبقا لما ذكرته «بيتون»: «إن الجريمة المتعمدة التى يتعرض لها فيلمى ليست مصرع «راشيل كورى». إنها التدمير المتعمد لأحياء بأكملها، والتى تتم مع العلم بأن من سيبقون فى منازلهم أو يحاولون الدفاع عنها سيلقون حتفهم أثناء العملية». ويمكن للمرء أن يرى بوضوح أين يؤدى بنا ذلك: فبعد ست سنوات وفى نفس البقعة، قام نفس الجيش بقتل المئات من الضحايا الأبرياء فى عمليات قصف يفترض أنها دقيقة التصويب. فاليوم وصلنا إلى المحصلة النهائية: فجميع المدنيين الفلسطينيين، وكذلك كل من يسعى لتقديم العون لهم، هم ضحايا متضامنون محتملون. والحديث عن جرائم الحرب أو الإشارة إلى اتفاقيات جنيف يجعلك تبدو ساذجا وعتيقا».

لقد دونت تلك الكلمات فى بداية عام ٢٠٠٩، إثر «الحرب الشاملة» الإسرائيلية على «حماس وأمثالها» فى غزة، وهى العملية التى خلفت ما يزيد على ألف قتيل فلسطينى أعزل، ولكن الكلمات كانت صالحة لعام ٢٠٠٣ أيضا. فقد بدأ الجيش فى تدمير مجموعات كاملة من المنازل فى رفح لإغلاق نفس أنفاق

الإمداد العابرة للحدود التى افتضح أمرها أثناء حرب غزة عام ٢٠٠١.

ما قيمة حياة واحدة؟

إن مما يقلق بلا شك عمل فيلم يركز على حياة وموت شابة أمريكية واحدة بينما قتلت إسرائيل آلاف الفلسطينيين غير المقاتلين منذ اندلاع الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧. أحد المبررات أن كلا من التقاليد اليهودية والإسلامية تؤكد على أن قيمة حياة كل إنسان هى مطلقة بنفس القدر. ومبرر آخر هو شهادة الجندى الذى يقول «لم نكن نعلم أنهم أجانب: اعتقدنا أنهم فلسطينيون». هل يشير ذلك إلى أنه لو كانت «راشيل كورى» فلسطينية، فإن قتلها كان سيكون أمرا روتينيا؟ هل كان الإعلام العالمى سيبقى غافلا عن ملاحظة مصرعها، وخاصة أن أى تحقيق كان سيكون - فى أفضل الأحوال - غير مبال؟ إن سجل إسرائيل فى المناطق المحتلة ورد فعل الإعلام التجارى تجاهها يشير إلى أن هذا الحدس ليس مستبعدا. ومع ذلك، فإن رد الفعل لمصرع «كورى» لم يكن قويا أيضا.

حتى قتلت «كورى»، لم تكن «حركة التضامن الدولية» تتصور أن يقدم الجيش الإسرائيلى على قتل أجانب. وفى الواقع، كانت «كورى» الأولى من بين العديد من الضحايا الأجانب. ففى الحادى عشر من أبريل عام ٢٠٠٣ قتل شاب ناشط آخر من الحركة - «توم هيرندال Tom Hurndall». برصاصة فى رأسه فى قطاع غزة بواسطة قناص إسرائيل يدعى «تيسير الهيب» (وهو بدوى يخدم العديد من أفراد عائلته فى الجيش الإسرائيلى). دخل «هيرندال» فى غيبوبة ومات بعد تسعة أشهر. وفى أبريل عام ٢٠٠٥، أدانت محكمة عسكرية إسرائيلية «الهيب» بالقتل الخطأ وإعاقة العدالة؛ وحكم عليه بالسجن ثمانى سنوات. وبعد ذلك بعام، قررت هيئة قضائية بريطانية أن «هيرندال» كان ضحية «قتل غير قانونى». ووفقا لما ذكره محامى عائلة «هيرندال»، فإن هذا التعبير القانونى يعنى أنه «قتل عمدا» أو أغتيل.

فى الثانى من مايو عام ٢٠٠٣، قتل بالرصاص مخرج أفلام من ويلز - «جيمس ميللر James Miller» على يد جندى إسرائيلى هو النقيب «هيب الهيب». وقد توصلت الشرطة العسكرية الإسرائيلية إلى أنها لم تتمكن من تأكيد أن طلقة «الهيب» هى المسئولة عن مصرع «ميللر». ومع ذلك، عوقب النقيب إداريا لانتهاكه قواعد الاشتباك ولتغيير روايته عن الواقعة. وفى أبريل عام ٢٠٠٦، أصدرت هيئة قضائية تابعة لمحكمة جنائية فى لندن حكما بـ «القتل غير القانونى». وفى أغسطس عام ٢٠٠٧، صرحت جريدة «هاآرتس» اليومية الإسرائيلية أن المحامى البريطانى العام كتب إلى نظيره الإسرائيلى يطالبه بإجراء تحقيق جنائى، على أساس أن اختبارات القذائف التى أجريت فى إسرائيل «تظهر فقط أن الرصاصة التى قتلت «جيمس ميللر» لم تخرج من مواسير بندقية السلاح الذى جرى فحصه». وتأسيسا على تحليل القذائف الذى أجراه البريطانيون، فإنهم يعتقدون أن الإسرائيليين قد اختبروا البنادق الخطأ أو حتى قاموا بتغيير ماسورة السلاح المقصود. ولم تقدم إسرائيل النقيب «الهيب» للمحاكمة.

كانت هناك أيضا عمليات إطلاق رصاص غير قاتلة. ففى الخامس من أبريل عام ٢٠٠٣، أطلقت قوات إسرائيلية عدة طلقات من رشاش آلى فى وجه «بريان آفيرى Brian Avery»، وهو متطوع أمريكى من «حركة التضامن الدولية» فى مدينة «جنين» بالضفة الغربية. وقد حطمت الطلقات فكه ومحجر عينه، ورفع «آفيرى» قضية تعويض عن الأضرار. وقد رفض الجيش التحقيق فى القضية زاعما أن أحدا من الجنود لم يبلغ عن الواقعة. وفى فبراير عام ٢٠٠٥، أمرت المحكمة العليا الإسرائيلية الجيش بإعادة فتح التحقيق. وفى نوفمبر عام ٢٠٠٨، توصل «آفيرى» إلى تسوية خارج المحكمة بقيمة مائة وخمسين ألف دولار. ومؤخرا، فى الثالث عشر من مارس عام ٢٠٠٩، أصيب «تريستان أندرسون Tristan Anderson» من أوكلاند - كاليفورنيا، بتلف خطير فى الدماغ فى قرية «نعلين» بالضفة الغربية، عندما أطلقت القوات الإسرائيلية على رأسه نوعا جديدا من عبوات الغاز المسيل للدموع عالية السرعة، والتى تستخدم منذ شنت إسرائيل هجومها على غزة فى ديسمبر عام ٢٠٠٨، كان «أندرسون» يتظاهر مع القرويين والإسرائيليين والأجانب ضد الجدار الفاصل الذى تبنيه إسرائيل والذى سيضم بالفعل ربع أراضى «نعلين». وقد أصيب أحد سكان «نعلين» فى نفس المظاهرة بطلقة فى ساقه بالذخيرة الحية. وما زال «أندرسون» راقدا فى حالة حرجة، ومن غير المؤكد توقع شفائه على المدى الطويل.

لا يتعرض فيلم «راشيل» لتلك الإصابات أو يحاول تقييم تأثير تدخل «حركة التضامن الدولية» فى الصراع الإسرائيلى-الفلسطينى على المدى الطويل. وحيث أن أى شكل من المقاومة - السلمية أو المسلحة - لم يستطع ردع إسرائيل عن ذبح المدنيين فى قطاع غزة فى شتاء ٢٠٠٨-٢٠٠٩، فربما كان من الإنصاف القول بأن أهم تأثير لأنشطة «حركة التضامن الدولية» كان على المتطوعين أنفسهم. يستكشف الفيلم بإيجاز تنوع الدوافع الشخصية والسياسية التى أتت بـ «راشيل كورى» وزملائها إلى فلسطين. من بين تلك الدوافع، المثالية غير الواعية والسذاجة الشابة (والتى يعترفون هم أنفسهم بها بالنظر على ما حدث فى الماضى). لم يكن أى منهم «خبيرا» بتاريخ الصراع أو أدرك بصورة شاملة تعقيدات المجتمع الفلسطينى الذى أقحموا أنفسهم فيه.

«يحقق الفيلم بعضا مما كان يجب أن تفعله محكمة» من إخضاع رواية دولة إسرائيل عن مصرع «كورى» للفحص تحت المجهر



ولكنهم تعلموا الآن درسا عسيرا: أى شخص يقف فى طريق إسرائيل قد يتعرض للقتل.

تجاوز خط أحمر

بينما يتعرض «غسان آندونى» وبعض أعضاء «حركة التضامن الدولية» للفكر النقدى لمصرع «راشيل كورى»، اتحدت المؤسسات الرسمية للمجتمع اليهودى بمنطقة «باى» للاعتراض على ذلك. من المؤكد أن المؤسسات اليهودية الرسمية لم تكن متأهبة لتأخذ فى الاعتبار تفسير «جوناثان بولاك» لاستعداده استضافة متطوعى «حركة التضامن الدولية» بمنزله: «لم أستطع العيش فى هذا المكان دون مقاومة، ليس فقط باللسان، وإنما بالفعل». وقد أصيب «بولاك». وهو يهودى إسرائيلى - عدة مرات على يد الجيش الإسرائيلى أثناء تظاهره سلميا فى «بلعين». وفى أبريل عام ٢٠٠٥، أطلق جندى على رأسه عبوة غاز مسيل للدموع مسببا له نزيفين داخليين بالدماغ وجرح احتاج ٢٣ غرزة. وحيث إن المؤسسات اليهودية لم تثر فى الماضى احتجاجا ضد أفلام على نفس القدر من الاستفزاز، فربما كان رد فعلهم العنيف تجاه عرض فيلم «راشيل» نوعا من التحصن، بعد الإدانة الدولية الواسعة للهجوم الإسرائيلى على قطاع غزة.

وقد بدأت المواجهة فى المجتمع اليهودى بمنطقة «باى» بمقالة فى الجريدة اليهودية الأسبوعية «J» التى أثار سخطها على وجه الخصوص أنه فى غياب «سيمون بيتون» فإن «سيندى كورى» تلقت الأسئلة بعد العرض. كتبت جريدة «J»: «يعد ظهور «سيندى كورى» تجاوزا لخط أحمر. إن مهرجان الفيلم اليهودى ليس ملزما بتقديم ميكروفون لمكرهى إسرائيل». تشير الجريدة إلى أن هناك - ويجب أن تكون هناك - «خطوط» تعين حدود «الحوار المقبول» داخل المجتمع اليهودى، استخدمها عبارة المدير التنفيذى للمهرجان، «بيتر شتاين Peter Stein». أثناء العرض، تبدو مريبة مثل المفهوم المكارثى لـ «الأنشطة المعادية لأمريكا». ولم يوضح المحررون لماذا افترضوا أن «كورى» الأم كانت «مكرهة إسرائيل».

وبينما منحت جريدة «J» لنفسها الحق فى تحديد الخطوط الحمراء، ضغطت المؤسستان الخيريتان اليهوديتان

الرئيسيتان فى منطقة «باى» - «كوريت Koret» و«طوبى Taube» - على زر الهلع.

وقد هاجمت المؤسسات مهرجان سان فرانسيسكو للفيلم اليهودى لارتكابه «ثلاثة أخطاء فادحة»: أولها «الشراكة مع «الصوت اليهودى للسلام» و«لجنة خدمات الأصدقاء الأمريكية» وهما جماعتان معاديتان بشدة لإسرائيل والسامية وتؤيدان المقاطعة والحظر والعقوبات ضد إسرائيل. وكلتاهما على صلة وثيقة بـ «حركة التضامن الدولية» وجماعات أخرى تساعد وتشجع الإرهاب ضد الدولة اليهودية. وتلك الجماعات تتجاوز الخطوط الحمراء للانضمام فى المجتمع اليهودى». وثانيها «عرض فيلم يلقى بلائمة المصرع العرضى لأحد المدنيين على أعتاب دولة إسرائيل». وثالثها «دعوة «سيندى كورى» إلى داخل مجتمعنا. لا يمكن لهذه الأم المفجوعة إلا أن تمثل انحيازا سلبيا ضد إسرائيل. لماذا تقدم منظمة يهودية لها ميكروفونا وخطابا مرتجلا تستخدمهما لإدانة إسرائيل، بينما يتوقع من الجمهور اليهودى أن يجلس مكانه ويستمع بأدب؟ لا يمكن أن توجد قوة مساوية لأم منفعلة مكلومة».

إن الحديث المنمق للمنظمات - فى أحسن الأحوال - متحيز. وتؤيد منظمة «الصوت اليهودى للسلام» صراحة بيع الأسهم الانتقائى الذى يستهدف الشركات الأمريكية التى تساند سياسات الاحتلال الإسرائيلى، كما نشط أعضاؤها فى جهودهم لحث شركة «كاتربيلار» لإيقاف بيع إسرائيل الجرافات التى تقوض المساكن الفلسطينية منتهكة القانون الدولى. وتذهب المنظمة أبعد من كثير من الجماعات اليهودية المعادية للاحتلال فى رفض إدانة حملات المقاطعة والحظر الأكثر شمولا. وموقع الجماعة على الإنترنت واضح بشأن فكرة أن مثل تلك الجهود وانتقاد إسرائيل عموما ليست بالضرورة عداء للسامية أو حتى «عداء لإسرائيل». وقد نشرت «الصوت اليهودى للسلام» بالفعل تفنيدا بحجم كتاب لتلك الأكذوبة بعنوان «إعادة تعريف العداء للسامية: رؤى يهودية بديلة Reframing Anti-Semitism: Alternative Jewish Perspectives» (٢٠٠٢). فى الوقت نفسه، يصر أعضاء المنظمة على المجاهرة بمعارضتهم للاحتلال باعتبارهم يهودا وليس فقط كمواطنين أمريكيين أو مدافعين عن حقوق الإنسان، بالتحديد لأنهم (وفقا لما جاء بموقع الإنترنت) «كيهود، نستطيع معرفة الفرق بين العداء الحقيقى للسامية وبين التلاعب المشين بتلك المسألة لحماية إسرائيل من النقد المشروع». وبالمثل، فإن هجوم المؤسسات على منظمة «كويكر Quaker» المبجلة للسلام «لجنة خدمات الأصدقاء الأمريكيين» يعتمد على التعريف لا يمكن الدفاع عنها لـ «العداء لإسرائيل» الذى لا يحتمل أى تلاعب بالألفاظ فيما يتعلق بسياسات الدولة اليهودية. ونظرا لأن اثنين من كبار العاملين ببرنامج اللجنة للشرق الأوسط فى سان فرانسيسكو، بما فيهم الحاخام «لين جوتليب Lynn Gottlieb» هما من اليهود، فإن مزاعم العداء للسامية ستستند إلى الفكرة الحمقاء بأن هؤلاء اليهود هم «كارهون للذات».



هل سقطت «سيندى كورى» فى قبضة «الانحياز السلبى لإسرائيل» ومؤيديها فى الولايات المتحدة؟ كلا، إذا احتكمنا لفيديو «يوتيوب YouTube» عن مناقشتها بعد الفيلم مع «شتاين» والجمهور. وردا على سؤال «شتاين» لها إن كانت أدركت مغزى الاحتجاجات الحماسية ضد وجودها، أجابت بأنها اعتبرتها جزءا من «حوار صحى جدا» داخل المجتمع اليهودى. كما علقت أيضا بأن أعضاء فى «لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية إيباك American Israel Public Affairs Committee AIPAC» - الذين تختلف معهم سياسيا - «يعتقدون أنهم يبلون بلاء حسنا». كان سلوك «سيندى كورى» متسقا مع كلمات الحاخام «بريان والت Brian Walt» المدير التنفيذى لمنظمة «حاخامات من أجل حقوق الإنسان - أمريكا الشمالية Rabbis for Human Rights North America»: «لو كنت مكان عائلة «كورى»، فأتصور أن الإغراء بكراهية أولئك الذين قتلوا ابنتى سيكون من العسير مقاومته. ورغم الموت المأسوى لابنتهم، فإن أفراد عائلة «كورى» لم يتحدثوا أبدا بكراهية عن إسرائيل أو اليهود. على العكس من ذلك، فإنهم ملتزمون تماما بالسلام ويأمن كل الناس فى هذا الصراع من إسرائيليين وفلسطينيين». فى الحقيقة أن الحاضرين فى مسرح كاسترو فى الخامس والعشرين من يوليو - وعددهم ألف ومائتان (معظمهم من اليهود) - كانوا على ما يبدو متفهمين لكلمات «كورى» عموما.

مع ذلك، من الواضح أن منظمى مهرجان الفيلم شعروا بالضغوط التى مارسها مسئولو المنظمات اليهودية. فقبل خمسة أيام من بداية المهرجان، استقالت «شانا بين Shana Penn» رئيس مجلس الإدارة وكان لا يزال هناك خمسة أشهر باقية فى مدة عملها البالغة عامين، ونوهت قائلة «خلافات صحية حول كيفية معالجة قضايا حساسة». (سوف تبقى عضوا لمجلس الإدارة). فى النهاية، سمح المنظمون لـ «مايكل هاريس Michael Harris» من منظمة «صوت إسرائيل بسان فرانسيسكو Voice for Israel in San Francisco» (أحد فروع جمعية «قفوا معنا Stand With Us») للتحدث بإيجاز قبل أن يعرض على الشاشة ما سماه بـ «السيرة المبجلة لـ «راشيل كورى». وتوجد ملاحظات أيضا على موقع «يوتيوب». وبينما كانت «سيندى كورى» مسالمة، كان «هاريس» مشاغبا، حيث ذكر أن «راشيل» «ألقت بنفسها عمدا فى طريق المخاطر» وعدد أسماء ضحايا التفجيرات الانتحارية الذين لم يفعلوا شيئا «أكثر خطورة من ركوب حافلة أو الذهاب لشراء شريحة بيتزا أو فنجان قهوة»، بل أنه أكد (للأصوات المستهجنة) أن تلك الوفيات تفسر لماذا كانت الجرافة التى قتلت «راشيل» تعمل فى غزة.

من الصعب تخيل أنه يمكن دعوة «الصوت اليهودى للسلام Jewish Voice for Peace» أو «سيمون بيتون» لمواجهة حضور متحدث من منظمة «صوت إسرائيل» بسان فرانسيسكو أو «إيباك» أو القنصلية الإسرائيلية. فهل كانت المنظمات اليهودية بمنطقة «باى» منزعجة فعلا بسبب عدم التوازن. من المؤكد أن كبار الشخصيات فى جريدة «J» ومؤسستى «كوريت» و«طوبى» يعلمون أن هناك حوارا حادا يدور بين الإسرائيليين بشأن الاحتلال وهدم المنازل وأخلاقيات ممارسات الجيش، فهل كانوا فعلا قلقين بشأن حماية أمن إسرائيل؟ إن النظرية الأكثر إقناعا هى أن صراخهم يتعلق بالنفوذ. إن المؤسسات الرسمية للمجتمع اليهودى تم بناؤها على قاعدة من النقود (كثير من النقود)، وتستمد قوتها من الركيزتين الأساسيتين للهوية اليهودية الأمريكية. إحياء ذكرى المحرقة والدعم غير المحدود لإسرائيل. وغياب إحدى تلك الركيزتين يعد كارثة مؤسسية.



إن الشـــــهود الدوليين الذين يكشفون عما رأوا ومروا به يمكن أن يزيدوا من الوعى العالمى والتغطية الإعلامية للعنف الإسرائيلى



ورغم أن الغضب بشأن فيلم «راشيل» فى المجتمع اليهودى بسان فرانسيسكو مجرد زوبعة فى فنجان شاى مقارنة بالكوارث اليومية التى يعانيها الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية وقطاع غزة، إلا أنها حققت مغزى ما. فهى تكشف بأكبر قدر ممكن من الدقة أن المجتمع اليهودى الأمريكى منقسم بشدة حول القضية الإسرائيلية-الفلسطينية. وتشير استطلاعات الرأى العامة أن مؤسستى «كوريت» و«طوبى» تمثلان موقف الأقلية فى المجتمع، بالتأكيد بين يهود منطقة «باى». ويزداد باطراد عدد اليهود الأمريكيين الذين يجذبهم الالتزام الأخلاقى الذى يبعث الحياة فى فيلم «راشيل»، ولم تؤثر فيهم أساليب جماعات الضغط التى تنفق كثير جدا من المال لمنع الحوار حول إسرائيل وسياسات الاحتلال الخاصة بها. وهذا هو السبب فى أن جماعات الضغط بدأت فى الإخفاق. ■



هل أصبحت فرنسا بلدا صهيونيا؟

لم يجد الكاتب الفرنسى بول ايريك بلانرو ناشرا «فرنسيا» يرضى أن ينشر كتابه الأخير عن «ساركوزى واسرائيل واليهود» فاضطر فى نهاية المطاف الى أن يلجأ لدار نشر بلجيكية لتنشر الكتاب وهو ما أحدث جدلا واسعا فى فرنسا حول اللوبى اليهودى وحرية التعبير فى بلد كان يرمز أساسا لحرية الفكر والتعبير. الكتاب الذى بات معروفا بالكتاب الممنوع يناقش فيه كاتبه مدى تغلغل التأثير الصهيونى الاسرائيلى فى دهاليز صناعة القرار الفرنسى.

المفكر الفرنسى اليسارى المعروف آلن جريش علق على الكتاب فى مدونته التى أصبح يعتمدها منبرا رئيسا لأفكاره وآرائه، فكان أن طلبت منه «وجهات نظر» أن يكتب لها مقالا يبسط فيه رأيه. وهو من أكثر المثقفين الفرنسيين انشغالا بشأن الصراع العربى الإسرائيلى.. فكان هذا المقال، الذى ننشره بجوار مقال كنا قد طلبنا من بلانرو (مؤلف الكتاب) أن يكتبه لنا حول كتابه والجدل حوله.

المحـــرر







ألان جـــريـــش
Alain Gresh

■■ يعد كتاب «ساركوزى وإسرائيل واليهود»، الذى صدر مؤخرا عن دار نشر «أوزى دير «البلجيكية (Oser Dire)، للمؤلف بول إيريك بلانرو، كتابا مثيرا للاهتمام على عدة أصعدة. فهو يمس فى ذات الوقت مسألة حرية التعبير فى أوروبا، ودور الطوائف واللوبيهات فى فرنسا، وسياسة باريس الخارجية. ولنتناول - أولا- مسألة حرية التعبير. فهذا الكتاب، الصادر فى بلجيكا، لم يجد ناشرا فى فرنسا، كما رفض الموزعون الرئيسيون هناك توزيعه. بيد أن هذا الكتاب، بغض النظر عن الرأى السائد حوله، ليس فيه ما يشى بمعاداة السامية. بل إن ذلك الرفض من شأنه - من فرط حمقه - أن يضفى مصداقية على الفكرة القائلة بتعذر توجيه النقد لإسرائيل فى فرنسا، وهو ما يجافى الحقيقة تماما. فالعديد من الكتب التى تنتقد السياسة الإسرائيلية بقسوة، لا سيما تلك المتعلقة بطرد الفلسطينيين مابين عامى ١٩٤٨ و١٩٤٩، قد صدرت فى فرنسا سواء عن دور النشر الكبرى أو الأقل أهمية، بدءا بكتاب ايلان بابيه «التطهير العرقى فى فلسطين» (الصادر عن دار نشر فايار Fayard التابعة لمجموعة أشيت Hachette). وحتى كتاب دومينيك فيدال «كيف طردت إسرائيل الفلسطينيين». فهذه الكتب، شأن الكثير غيرها، لا سيما تلك التى أنجزها باحثون متخصصون، تسلط الضوء على السياسة الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة.

أما المسألة الأكثر حساسية فى فرنسا، فهى مسألة جماعات الضغط أو اللوبيهات. فلقد تنامى لدى فئة من الناشرين والصحفيين خوف من تناول بعض الموضوعات بعينها، خوف يتجلى ما إن يتبادر الحديث إلى «الدور الذى يلعبه اليهود»، خاصة أن عوامل الجهل، وانعدام الثقافة، وسوء النية، والتحيز، تتمازج كلها بهدف الخلط بين معاداة السامية ومعاداة الصهيونية. فثمة اتجاه لإخفاء مجمل التاريخ المعقد الذى تنسجه العلاقات بين الصهيونية، واليهودية، واللاسامية، ولإخفاء ذلك الرفض الذى أظهرته طوال عقود طويلة غالبية يهود ألمانيا أو بريطانيا أو فرنسا أو البلدان العربية إزاء المشروع الصهيونى. وفى المقابل، ثمة إصرار على النظر إلى كل انتقاد موجه لإسرائيل على أنه شكل من أشكال اللاسامية المستترة. ولقد أدت الدعاوى المقامة ضد الصحفى دانييل ميرمى وضد المفكر - اليهودى- الكبير ادجار موران، والحملات الإعلامية العدائية التى استهدفت رسام الكاريكاتير سينيه، أدت إلى خلق مناخ فاسد، وإلى تكريس شكل من أشكال المحرمات المحظورة.

وهو ما لا يعنى بالضرورة أن كل أولئك الذين يكافحون هذا المحظور هم دائما أناس محترمون. ففى فرنسا قد يلجأ جان مارى لو بن زعيم اليمين المتطرف أحيانا لأن يبدو كمدافع عن العرب أو كمنتقد لإسرائيل، لكن ذلك لا يخفى حقيقة كونه رجلا خطرا. وكذلك عندما استضاف الممثل الهزلى «ديودونيه» فى عرضه المسرحى السيد «روبير فوريسون» أحد المروجين فى فرنسا لإنكار المحرقة ولرفض حقيقة إبادة اليهود، لم يرتكب ديودونيه خطأ فحسب، وإنما هو أيضا قد أضر بصالح القضية الفلسطينية. فكما كتب المفكر الأمريكى الفلسطينى الكبير ادوارد سعيد: « إن الفكرة التى تذهب إلى أن المحرقة ما هى إلا صناعة من اختلاق الصهاينة فكرة تروج هنا وهناك بصورة غير مقبولة. فكيف نتوقع من العالم أجمع أن يشعر بآلامنا

«إن الفكرة التى تذهب إلى أن المحرقة ما هى إلا صناعة من اختلاق الصهاينة فكرة تروج هنا و هناك بصورة غير مقبولة. فكيف نتوقع من العالم أجمع أن يشعر بآلامنا نحن كعرب إن كنا نحن غير قادرين على أن نشعر بآلام الآخرين، حتى وإن كان الأمر يتعلق بمضطهدينا.(..) لكن القول بأخذ المحرقة بعين الاعتبار لا يعنى أبدا أنه يتحتم علينا القبول بفكرة استخدام المحرقة كذريعة لسامحة الصهيونية فيما تقترفه من شرور فى حق الفلسطينيين».

ادوارد سعيد

Sarkozy Israel et Les Juifs
Paul-Éric BLANRUE
Oser Dire (Marco Pietteur Eds)
208pp, 15.20 Euro

ترجمة: داليا سعودى

يخطئ الكاتب حين ينسب إلى ساركوزى المنعطف الذى شهدته السياسة الخارجية الفرنسية، خاصة فيما يتعلق بالشرق الأوسط



نحن كعرب إن كنا نحن غير قادرين على أن نشعر بآلام الآخرين، حتى وإن كان الأمر يتعلق بمضطهدينا (..) لكن القول بأخذ المحرقة بعين الاعتبار لا يعنى أبدا أنه يتحتم علينا القبول بفكرة استخدام المحرقة كذريعة لمسامحة الصهيونية فيما تقترفه من شرور فى حق الفلسطينيين».

ومن جهة أخرى، حينما يثار الحديث حول دور وسائل الإعلام الفرنسية فى تناول النزاع الإسرائيلى الفلسطينى، لا يمكن الاسترسال فى تحليلات مبتسرة ومقطوعة عن سياقها التاريخى والسياسى. فأثناء حرب يونيو ١٩٦٧، كانت الصحافة الفرنسية منحازة لإسرائيل بصورة هائلة (على عكس الموقف الذى اتخذه الجنرال ديجول والشيوعيون). وبغير الحاجة إلى استرجاع كافة مراحل التطور الذى نشأ فيما بعد، يمكن القول بأن وسائل الإعلام قد شهدت تطورا مشهودا فى العقود اللاحقة: هكذا، أثناء الانتفاضة الأولى (١٩٨٦-١٩٩٣)، وكذا مع بداية الانتفاضة الثانية، كانت وجهة النظر الفلسطينية تحظى بعرض موسع بل وبإصغاء جيد. ولو اعتقدنا حقا أن وسائل الإعلام مرتهنة بأيدى «اللوبى اليهودى»، فلن يسعنا أن نستوعب ولا أن نفسر أوجه التطور تلك.

ولكن، منذ بضع سنين، ثمة انزلاق للإعلام نحو كفة إسرائيل، وذلك لسببين رئيسيين:

- تنامى الموقف المؤيد لإسرائيل من جانب الحكومة الفرنسية (و يمكن رصد هذا التطور منذ عام ٢٠٠٥، منذ حكم جاك شيراك، وهو ما ازداد قوة مع نيكولا ساركوزى)؛

- تغير مفاتيح قراءة النزاع، والاتجاه المتزايد إلى النظر إليه عبر عدسة «الحرب على الإرهاب»، والصراع بين الغرب والإسلام. وهكذا لم يعد النزاع الإسرائيلى الفلسطينى نزاعا قائما بين محتل وشعب تحت الاحتلال.

هذا وتتجلى القضية التى يطرحها بلانرو منذ الصفحات الأولى لكتابه، إذ يكتب: «لقد صارت إسرائيل خارج نطاق النقاش الديمقراطى (فى فرنسا)». وهو يتساءل: «هل أصبحت فرنسا بلدا صهيونيا؟» ولكنه لا يفسر بالضبط ما يعنيه ذلك التعبير العجيب «بلد صهيونى»:

- هل معناه هو تقبل شرعية دولة إسرائيل؟ ولكن، على حد علمى، لم تقم أية حكومة فرنسية منذ ١٩٤٨، بما فى ذلك حكومة الجنرال ديجول، بالتشكيك فى هذه الشرعية و هو ما ينطبق على كل الأحزاب الفرنسية الكبرى (باستثناء بعض اللحظات الخاطفة فى تاريخ الحزب الشيوعى)، فكل الأحزاب لم تعارض الصهيونية كتيار يحض على العودة إلى أرض الميعاد. فما الذى استجد اليوم؟

- أم أنه يعنى رفض توجيه أى انتقاد لسياسة الحكومة الإسرائيلية الحالية (أو لحكومات إسرائيل على تعاقبها)؟

هنا يفتقر رأى الكاتب إلى تمام الوضوح.

وقد أصاب بلانرو إذ أعرض عن استخدام تعبير «اللوبى اليهودى» فى معرض الحديث عن فرنسا، مفضلا استخدام تعبير «الشبكات المؤيدة لإسرائيل»، فمثلما يشرح بإسهاب فى الفصل الأول، لا توجد فى فرنسا آلية مماثلة لتلك التى تقوم عليها اللوبيهات فى الولايات المتحدة. فالطائفة اليهودية (و هو مصطلح لا ينأى عن إثارة الجدل حول صحته) طائفة منقسمة على نفسها، موزعة ومتفرقة، رغم المحاولات التى يبذلها البعض (وبالأخص فى المجلس النيابى للمنظمات اليهودية بفرنسا، CRIF) من أجل تنظيم الطائفة وتحويلها إلى آلة دعم لدولة إسرائيل. ويؤكد الكاتب أنه يرى أن مصطلح «الشبكات المؤيدة لإسرائيل» «من شأنه أن يعكس بصورة أفضل تلك الحقيقة على تشعبها وتعقدها»، الحقيقة كما سيصفها لنا فى كتابه.

سنجد فى هذا الكتاب عناصر جديرة بالاهتمام حول تأييد نيكولا ساركوزى للتقسيم الطائفى أو الفئوى للمجتمع (سواء بالنسبة لليهود أو المسلمين)، وحول تعاطفه مع إسرائيل، وميله إلى إيجاد تماه كامل بين جميع اليهود ودولة إسرائيل.فهو الذى كتب عام ٢٠٠٤ «هل لى أن أذكركم بالتعلق القوى الذى يربط بين كل يهودى فى فرنسا وبين إسرائيل، بوصفها وطنه الثانى؟»

و هناك أيضا تفاصيل تتعلق بعلاقات ساركوزى بالولايات المتحدة. وبهذا الصدد،ثمة دلالة كبرى لما تم مؤخرا من تعيين مستشارة باريس البلدية فاليرى هوفنبرج فى منصب الممثلة الخاصة لفرنسا للشئون الاقتصادية والثقافية والتجارية والتعليمية والبيئية فى عملية السلام فى الشرق الأوسط. فهذه السيدة تشغل منصب مديرة فرع فرنسا التابع للجمعية الأمريكية اليهودية(AJC)، وهى إحدى المنظمات اليهودية الأمريكية المعروفة بدعمها غير المشروط لإسرائيل. وتبذل تلك المنظمة الأمريكية جهدا نشطا بهدف تحويل المجلس النيابى للمنظمات اليهودية بفرنسا، (CRIF)، إلى لوبى على غرار النموذج الأمريكى.

لكننى أعتقد أن المؤلف يولى أهمية أكبر من اللازم للبعد الإسرائيلى فى سياسة نيكولا ساركوزى: فالرئيس الفرنسى قبل كل شىء ولاؤه أمريكى، وهذا هو العامل الذى يتحكم فى تحركاته على الساحة السياسية والدبلوماسية.

وفى المقابل، يخطئ الكاتب حين ينسب إلى ساركوزى المنعطف الذى شهدته السياسة الخارجية الفرنسية، خاصة فيما يتعلق بالشرق الوسط. فسياسة العداء لإيران ولبرنامجها النووى قد بدأت فى عهد جاك شيراك ولم تشهد أى تغير مع وصول ساركوزى إلى الرئاسة. كما أن التحول لصالح إسرائيل كان يمكن تلمسه منذ عام ٢٠٠٥، مع زيارة أريل شارون لباريس. بالطبع قام ساركوزى بتقوية هذا التأييد، ولكن ليس بصورة مبالغ فيها. (اقرا: «صوت فرنسا المشوش»، La voix brouillée de la France - لوموند ديبلوماتيك، عدد يونيو ٢٠٠٦).

هذا ويصعب الخلاص، أثناء قراءة هذا الكتاب، من شعور بعدم الراحة. فهو يبدو سطحيا فى بعض أجزائه، ويعتمد على كثير من المصادر المأخوذة عن الانترنت (و هو ما لا يمثل مرجعا يعتد به أو برهانا يفوق فى قيمته مقالا فى جريدة)، كما أن الكثير من تلك المصادر بعيد تمام البعد عن الدقة. وحتى وإن كان المؤلف ينأى بنفسه عن الترويج للشائعة التى تدعى أن ساركوزى قد تم تجنيده من قبل الموساد، فهل كان لزاما عليه أن يخصص صفحتين كاملتين لتلك الشائعة؟ أو أن يتناول قضية التسريح الذى تم فى صفوف شبكات الاستخبارات الفرنسية بعد انتخاب ساركوزى، مكتفيا بالاستناد إلى مصدر وحيد؟ (وفقا لما جاء به الكتاب استهدف هذا التسريح الاشتراكيين من العملاء، ومؤيدى العرب، وكل من اكتشفوا طبيعة العلاقات التى تربط بين ساركوزى والمحافظين الأمريكيين الجدد وبعض المنظمات الصهيونية!) ثم من ذا الذى يعتقد أن تعيين برنار كوشنير وزيرا للخارجية يرجع بالأساس إلى نفوذ الشبكات الموالية لإسرائيل؟فهنا أيضا تعد أهواء كوشنير الجانحة عبر الأطلسى، وتقاربه مع الولايات المتحدة، العامل الذى لعب الدور الأساسى فى اختياره.

غير أن الكتاب يحفل بالمقولات وبالتصريحات المثيرة للاهتمام، وهو بحق كتاب محرج للسياسة التى ينتهجها المجلس النيابى للمنظمات اليهودية بفرنسا، CRIF، ولرئيسه الحالى ريشار براسكييه، الذى اجتهد فى المطابقة بين مفهوم «الطائفة اليهودية» و بين جميع ممارسات الحكومة الإسرائيلية، ثم راح يتعجب من اختلاط المفاهيم فى أذهان البعض حتى صارت كلمة اليهود= إسرائيل.

فعندما صرح ريشار براسكييه بأن ٩٥٪ من يهود فرنسا يساندون الجيش الإسرائيلى فى هجومه على غزة، إنما كان يقوم باستيراد النزاع داخل فرنسا وبتحويله إلى نزاع طائفى. ولقد أصاب جان فرانسوا كان، مدير تحرير أسبوعية «ماريان» السابق، إذ ندد بتصريح براسكييه ووصفه بمعاداة السامية.

و لقد كان لى أن أرصد الانحرافات نفسها فى جنوب أفريقيا، إذ كتبتُ فى مقال سابق:

«أما عن إدارة المنظمات اليهودية (بجنوب إفريقيا)، فلقد أعلنت، فى بيان لها، «تأييدها القوى لقرار الحكومة الإسرائيلية بشن عملية عسكرية ضد حماس فى غزة»، ثم ما لبثت الإدارة نفسها أن أبدت استغرابها، بعد بضعة أيام، من أن ما قامت به من خلط بين اليهود وإسرائيل فى نفس الكفة قد أدى إلى انطلاق نداءات معادية للسامية عبر الانترنت- وهى النداءات التى أدانتها بشدة الحكومة وحزب المؤتمر الوطنى الإفريقى وعدد من المفكرين المسلمين والمنظمات المؤيدة للشعب الفلسطينى.» (مقال «نظرات جنوب افريقية على فلسطين»، Regards sud-africains sur la Palestine - لوموند ديبلوماتيك، أغسطس ٢٠٠٩).

وهكذا، يبقى هذا الالتباس الذى يخلط بين دلالات «اليهود» و«الصهاينة» و«إسرائيل» متقدا سواء ما بين اللاساميين الحقيقيين أو بين مؤيدى إسرائيل الدائمين. وينقل المؤلف ههنا عن جان بريكمون قوله: «ينبغى ألا ننسى أن السياسة الإسرائيلية إنما ترسم باسم دولة تقول إنها يهودية، وأن تلك السياسة تحظى بتأييد منظمات تقول إنها تمثل اليهود (سواء كان ذلك بالحق أو بالباطل). فكيف نطمح، فى مثل هذه الأجواء، إلى عدم تحول كثير من الناس إلى معاداة اليهود؟ إن فى ذلك إسرافا فى التعويل على قدرات النفس البشرية».

لكن ما من إسراف فى التعويل على قدرات المفكرين وأصحاب القرار السياسى، لكون معاداة السامية، شأن أية صورة من صور العنصرية، لا يمكن قبولها، ولكون الانزلاق فى مهاوى اللاسامية يعد الحليف الأمثل للحكومة الإسرائيلية التى تسعى لوضع علامة «يساوى» ما بين انتقاد السياسة الإسرائيلية، ورفض الصهيونية، ومعاداة السامية.

وفى معرض مناقشته لدور اللوبى الإسرائيلى فى الولايات المتحدة، يصدر بلانرو حكما جائرا على نعوم تشومسكى، إذ يتهمه بأنه يجفل خائفا حينما يتعلق الأمر بتوجيه النقد لإسرائيل. وهنا لا يكتفى المؤلف بإظهار جهله بكتابات تشومسكى بهذا الشأن، وإنما هو أيضا يقف عن فهم مغزى الجدال الذى ينقسم حوله اليسار الراديكالى فى أمريكا. فالرأى الذى يذهب إليه تشومسكى، ومفكرون راديكاليون آخرون مثل جوزيف مسعد، يتلخص فى أن السياسة الأمريكية تلبى، أولا وقبل كل شىء، مصالح الولايات

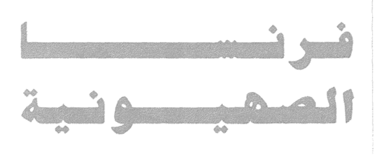
المتحدة (أو بالأحرى مصالح الطبقة الحاكمة هناك) وأنه من العبث الاعتقاد بأن اللوبي اليهودي بوسعه أن يفرض استراتيجيه مخالفة لتلك المصالح.(اقرأ: «جدال حول دور اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة» Débat sur le rôle du lobby juif aux Etats-Unis، على موقع مدونة Nouvelles d†‡‡†orient).

وفي الفصل الختامي من الكتاب، يسترجع بلانرو النقاش الصاخب الذي استتبعه نشر مجلة «تايم» الأمريكية، في ٢١ نوفمبر ٢٠٠٧، لملف حول «موت الثقافة الفرنسية»، وهو يبرز لذلك مقولة منسوبة لكريستوف بويكو- وهو محاضر في الفن- يشرح فيها أن «الكثير من الفنانين الفرنسيين قد تخلقوا فنيا كرد فعل معارض لنظام التعليم السائد. فالرومانسيون والتأثيريون والحداثيون، جميعا، كانوا من الثائرين على القيم الأكاديمية التي راجت في عصورهم.»

إن تلك الأصوات المعارضة المنشقة لم تختف اليوم، ولكنها غائبة عن وسائل الإعلام الكبرى، واستبدلت بها هذيان برنار هنري ليفي، وآلان فينكلكرو، وأندريه جلوكسمان... (المترجمة:ثلاثتهم من «مثقفي» الصف الأول المتعصبين لإسرائيل).

لكن المعارضة والانشقاق، على عكس ما يراه بلانرو، لا تكون أيضا بالاستجابة لنداء جمعية «الحرية من أجل التاريخ»، التي تقول إنها نشأت لمكافحة «مناخ الترهيب» الذي يسود في فرنسا، وللتصدي للتشريعات الخاصة بأحداث الذاكرة الوطنية (المحرقة، الاستعباد، إبادة الأرمن). فهذه الجمعية تدافع في رأيي عن مواقف غامضة وملتبسة، فهي مثلا تعترض على تنديد فرنسا بالاستعباد بوصفه «جريمة ضد الإنسانية». فليس مما يمنع المؤرخين عن عملهم أن نطالب السلطة السياسية بأن تتحمل مسئولياتها: ألم يئن لفرنسا أن تعترف بالجرائم التي ارتكبتها في الجزائر؟ هنا أيضا يبدو المؤلف على غير علم بالجدل الدائر في فرنسا، ذاك الجدل الذي يساعد على فهم أبعاده الكتاب المميز الذي نشرته مؤخرا المؤرخة الكبيرة المتخصصة في شئون أفريقيا كاترين كوكري فيدروفيتش، تحت عنوان «الرهانات السياسية للتاريخ الاستعماري» (منشورات أجون، ٢٠٠٩).

وختاما، من المؤسف ألا يكون هناك دراسات أكثر تعمقا حول هذا الموضوع الهام، موضوع العلاقات بين إسرائيل وفرنسا والمكانة التي تحتلها التجمعات اليهودية الفرنسية، فالساحة تكاد تخلو من هذه الدراسات لاسيما في الأعوام العشرة الأخيرة. ■



فرنسا الصهيونية

بول إيريك بلانرو

Paul-Éric BLANRUE

■■ حتى إجراء الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٧، كانت الشبكات المؤيدة لإسرائيل تواجه في فرنسا مشكلة كبرى، ألا وهي أننا كنا نعيش حتى ذلك التاريخ تحت حكم «ديجولي». ففي عام ١٩٦٧، كان الجنرال ديجول قد أبدى عظيم استنكاره لنشوب حرب الأيام الستة وما استتبعته من احتلال إسرائيل لأراض عربية. وخلف من بعد ديجول رؤساء اقتفوا أثره كيفما اتفق.فقبل انتخاب ساركوزي، كانت المقاومة التي تبديها السلطة في مواجهة مطالب الشبكات الصهيونية، حقيقة واقعة تستشعرها إسرائيل ومؤيدوها، حتى أن السياسة الفرنسية كانت وقتها مصنفة على أنها السياسة «الموالية للعرب» على سبيل التحقير والازدراء. هكذا نادى الصهاينة بالتصويت ضد فاليري جيسكار ديستان عام ١٩٨١ . وفي عهد فرانسوا ميتران، كان رولان دوما وأوبير فيدرين من أشد المتحمسين لاتخاذ موقف متوازن في الشرق الأوسط. أما جاك شيراك فكان يلقب بـ«شيراك العربي» من قبل منتقديه، ولنتذكر حادثة التدافع التي وقعت له أثناء زيارته للقدس عام ١٩٩٦، حينما هدد شيراك رجال الأمن الإسرائيلي المرافقين له بالرجوع إلى طائرته والعودة إلى فرنسا «إن لم يهدءوا» من حوله. كان لسياستنا من التأثير ما جعل رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق أرييل شارون يرفض استقبال وزير الخارجية الفرنسي دومينيك دو فيلبان عام ٢٠٠٣، عندما أعرب هذا الأخير عن اعتزامه زيارة ياسر عرفات في رام الله. غير أنه منذ انتخاب نيكولا ساركوزي، تهاوت تلك المقاومة أمام شبكات مؤيدي إسرائيل، الذين آلت إليهم مقاليد الأمور جميعها.

فكيف وصلنا إلى هنا؟ وصلنا ههنا لأن ساركوزي قد ارتهن لخدمة تلك الشبكات وقام باستخدامها في المقابل لتحقيق مطامحه السياسية.فبصورة ديماجوجية، استعاد ساركوزي ذات الموضوعات التي عرف بها رئيس الجبهة الوطنية جان ماري لو بن، حتى وصل إلى سدة الحكم عام ٢٠٠٧.كما أنه قد اكتسب مناعة كاملة بتحالفه مع اللوبي الداعم لإسرائيل في أمريكا وبمن ينوبون عنه في فرنسا، أولئك الذين كان لهم الفضل في حمايته من أي هجوم إعلامي موسع.



هذا ويعود تاريخ ذلك التحالف إلى بضعة أعوام خالية. فمع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية عام ٢٠٠٠، أدرك ساركوزي مبلغ القوة التي اكتسبها اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة، وسعى لأن يتسلح بها، بأن استجلب إلى فرنسا كثيرا من الممارسات السارية عبر الأطلسي، حيث يتحتم على كل مرشح للرئاسة الانصياع لاملاءات لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (AIPAC). وفي أغسطس من عام ٢٠٠٤، نشرت أسبوعية Forward اليهودية الأمريكية مقالا يقيس حجم النفوذ المتزايد للوبي الصهيوني على الأراضي الفرنسية، ومن بين الأسماء المذكورة آنذاك كان اسم نيكولا ساركوزي يحتل مكانة بارزة.

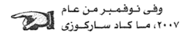
وفي ديسمبر من العام نفسه، عندما حل ساركوزي ضيفا على إسرائيل، كان يستهدف الرئيس شيراك بحرابه عندما صرح لمضيفيه قائلا: «أعلم أنكم تشعرون بأنه، في فرنسا، ثمة من يركن إلى اللامبالاة بآلامكم، أو أنكم على أقل تقدير لا تشعرون بأننا متعاطفون معكم». ولقد علقت صحيفة «ليبراسيون» على تلك العبارة بقولها: «إن الرسالة التي يوجهها نيكولا ساركوزي رسالة بسيطة مفادها أنه لو تم له الوصول إلى الاليزيه، فسيكون ذلك بمثابة نهاية عهد العقيدة الديجولية القائمة على ما يسمى بـ«سياسة فرنسا العربية»».

وفي عام ٢٠٠٦، في واشنطن، في معرض خطاب عمومي آخر، عاود ساركوزي الهجوم على السياسة الخارجية التي ينتهجها شيراك. ولقد أكد يسرائيل سنجر، العضو في مؤتمر اليهود العالمي، أن «ما جاء على لسان نيكولا ساركوزي من تصريحات أمام الرئيس جورج دبليو بوش، بشأن مكافحة اللاسامية، ومحاربة الإسلام الأصولي، وضرورة اتخاذ المواقف الداعمة لإسرائيل، ومكافحة الإرهاب الفلسطيني والتصدي لحزب الله ولإيران، كانت في مجملها تصريحات خليق بها زعيم منظمة يهودية» (والأصح لو أنه قال: «زعيم منظمة صهيونية») .

وفي سعيه لبلوغ الحكم، راهن ساركوزي أيضا على فكرة «الخوف من الضواحي»، التي تقطنها أعداد غفيرة من المهاجرين من ذوي الأصول المغاربية. وإذ هو آنذاك وزير للداخلية، لم يتردد في دعوة رجال من الشرطة الإسرائيلية لكي يشرحوا لزملائهم الفرنسيين كيفية إخماد القلاقل الناشبة في الضواحي، وكأنهم بصدد «أراض محتلة» جديدة. وطوال حملته الانتخابية، استخدم ساركوزي المفردات والأيديولوجية الخاصة بمؤيدي الصهيونية، ممن يخلطون خلطا تاما بين أن تكون «مؤيدا لإسرائيل» وأن تكون «يهوديا»، وهو ما يتيح لتلك الفئة تجنب أي نقاش جوهري. كانت تلك وسيلة لاجتذاب الناخبين اليهود أثناء الانتخابات، وهم في فرنسا يمثلون ثالث أكبر تجمع يهودي على مستوى العالم. ويذكر ما قاله وقتها كريستيان استروزي، العضو في حزب الاتحاد من أجل حركة شعبية(UMP)من أن ساركوزي هو «المرشح الطبيعي لليهود» (والأصح لو أنه قال «المرشح الطبيعي للصهاينة»).

وبتولي ساركوزي الرئاسة، لقي المنعطف الحاد الذي سيقت إليه فرنسا ترحيبا عظيما من أبرز ممثلي اللوبي الموالي لإسرائيل ومن إسرائيل ذاتها. وهو ما عبر عنه ايهود أولمرت بقوله : «إن وصول «صديق بين الصداقة» إلى الحكم في فرنسا ليعد في إسرائيل بمثابة «نعمة» من النعم».

وفي نوفمبر من عام ٢٠٠٧، ما كاد ساركوزي



قبل ساركوزى، كان لسياستنا من التأثير ما جعل رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق أريبل شارون يرفض استقبال وزير الخارجية الفرنسى دومينيك دو فيلبان عام ٢٠٠٣



يتولى الحكم حتى طار إلى الولايات المتحدة، مصطحبا معه رئيس المجلس النيابى للمنظمات اليهودية بفرنسا، (CRIF)، ووزير خارجيته برنار كوشنير، لتستقبله الجمعية الأمريكية اليهودية (AJC)، وهى إحدى أهم مجموعات الضغط الصهيونية الأمريكية، وتسلمه جائزة «النور بين الأمم»، وهى إحدى أرفع المكافآت التى لا ينالها سوى الخلصاء من الشركاء. وعلى جسم الجائزة كُتبت تلك العبارة: «تقديرا لسعيكم الدءوب لخدمة القيم الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والسلام، وعرفانا لصداقتكم ووفائكم للولايات المتحدة، وإسرائيل والشعب اليهودى». وبهذه المناسبة، قام رتشارد سايدمان، رئيس الجمعية، بتحية الرئيس ساركوزى على ما أوتى من «نشاط لا يضاهى ومبادئ نادرة»، مشيرا إلى التحديات المشتركة والتهديدات المتربصة بـ«الديمقراطيات الثلاث الشقيقة»: الولايات المتحدة وفرنسا وإسرائيل.

وفى عام ٢٠٠٨، كانت المرة الأولى فى تاريخ الجمهورية الفرنسية الخامسة التى يوافق فيها رئيس للجمهورية على أن يكون الرئيس الشرفى لحفل العشاء السنوى الذى يقيمه المجلس النيابى للمنظمات اليهودية بفرنسا (CRIF)، وهى المناسبة التى باتت تعد منذ بضعة أعوام بمثابة فريضة واجبة على السياسة الفرنسية. وفى ذلك رسالة واضحة المغزى.

ومع مرور الوقت، لم يفعل ساركوزى سوى كل ما من شأنه أن يوافق الآمال التى عقدها عليه مؤيدو إسرائيل. كما يمكن فهم الطريقة التى تألفت بها الحكومة الفرنسية بمساعدة مفتاح قراءة أساسى: فمن شاء أن يكون جزءا منها عليه أن يعتنق نفس آراء الرئيس فيما يتعلق بإسرائيل. فعلى سبيل المثال، ما كان انتزاع برنار كوشنير من الحزب الاشتراكى لضمه إلى الحكومة إلا لأنه بدا «أكثر توافقا مع إسرائيل» من أوبير فيدرين. كما يسرى ذات التفسير على ما تم مؤخرا من تعيين فاليرى هوفنبرج فى منصب الممثلة الخاصة لفرنسا، للشئون الاقتصادية والثقافية والتجارية والتعليمية والبيئية فى عملية السلام فى الشرق الأوسط»، بينما هى فى الوقت نفسه تشغل منصب مديرة فرع فرنسا التابع للجمعية الأمريكية اليهودية (AJC). وكان لهوفنبرج أن تصرح اثر ذلك قائلة: «لقد تبدى لساركوزى أن السياسة المختلة المؤيدة للعرب التى





انتهجها أسلافه من الرؤساء ووزراء الخارجية قد أدت بفرنسا إلى فقدان كامل تأثيرها فى تلك المنطقة» - وهو رأى كاذب وإن كان كاشفا.

أما ايميريك شوبارد، أستاذ العلوم السياسية بكلية العلوم العسكرية والدفاعية، الذى كان من بين ضحايا محاكم التفتيش الساركوزية، فقد صرح بأن «فرنسا تعيش حاليا حملة من التطهير الناعمة والصامتة، الموجهة ضد كل من تتعارض أفكارهم مع مصالح إسرائيل والولايات المتحدة. وقد يبدو ذلك عصيا على التصديق، لكنها مع ذلك الحقيقة. فسواء كان الأمر يتعلق بأشخاص من اليسار أو من اليمين المحافظ، كل من «يسقطون» يجمعهم قاسم مشترك أوحد، ألا وهو تعارض تحليلاتهم مع المصالح الأمريكية والإسرائيلية».



كما تشى إقامة «الاتحاد من أجل المتوسط» برغبة ساركوزى فى إدخال إسرائيل - التى يراها بمثابة بلد ديمقراطى «شأنه شأن غيره» - فى الاتحاد الأوروبى، وهنا عملية مغيبة عن إدراك الفرنسيين.

ولكن، إلى الآن، بلغ التعاون الفرنسى الإسرائيلى ذروته فى يناير ٢٠٠٩، عندما تم إرسال الفرقاطة الفرنسية «جرمينال» إلى سواحل غزة لكسر المقاومة الفلسطينية، التى كانت فى تلك الأثناء تتعرض للحرق بقنابل

الفسفور، ويذبح أطفالها الأبرياء بالمئات. تلك كانت الصورة المثلى، والأشد قسوة ورعبا، لذلك التحول الذى طرأ على السياسة الخارجية الفرنسية منذ يونيو ٢٠٠٧.

وأخيرا يلاحظ أن الموقف الفرنسى إزاء إيران قد ازداد تصلبا. فعندما صرح برنار كوشنير فى سبتمبر ٢٠٠٧ بأنه «ينبغى التهيؤ للأسوأ» فى مواجهة إيران، وبأن «الأسوأ ما هو إلا الحرب»، إنما كان يبرهن على أن منعطفا خطرا قد تم اتخاذه، استنادا إلى مبادئ ساركوزى، الذى كان قد صرح، أثناء زيارته للولايات المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠٦، فيما يتعلق بإيران، بأن «كافة الخيارات مطروحة». وعلى النقيض، صرح رئيس الوزراء السابق دومينيك دو فيلبان، معلقا على تلك العبارة المثقلة بوخيم العواقب، فقال: «لا مجال اليوم للتهيؤ للحرب، فالأجدر هو النضال من أجل السلام. لأن الحرب ليست خيارا مطروحا ضمن خيارات أخرى. الحرب ملتجأ أخير إذا ما انسدت جميع الطرق. ولقد رأينا ما أحدثه ذلك فى العراق من مظالم وآلام ومآس كبرى». هكذا نلحظ ما بين الرجلين (وما بين السياستين) بونا شاسعا: فأحدهما يستلهم أفكاره من المبادئ الديجولية، أما الآخر فيركن إلى الأيديولوجية الصهيونية، سعيا وراء إعلاء الدفاع عن إسرائيل فوق كل اعتبار.

وعليه، ما كان افتتاح ساركوزى للقاعدة العسكرية فى أبى ظبى فى مايو ٢٠٠٩ محض مصادفة عابرة. فهذه هى القاعدة العسكرية الفرنسية الأولى فى الخليج. ولقد صرح الرئيس قائلا: «إن

فرنسا تظهر بذلك استعدادها الكامل لتحمل كافة تبعاتها لضمان استقرار تلك المنطقة المتحكمة بصورة أساسية فى توازن العالم». والمعروف أيضا أن الإمارات العربية المتحدة تقع جغرافيا فى مواجهة إيران. ولا حاجة بنا ههنا للتذكير بمسلك نيكولا ساركوزى أثناء الانتخابات الرئاسية الإيرانية الأخيرة. هكذا، على الرغم من تحفظات نادرة أبداها ساركوزى فى مناسبات متفرقة، فقد انحاز تماما للرؤية الإسرائيلية للمشهد السياسى العالمى.

هكذا، صار لدينا اليوم فى فرنسا رئيس يفاخر بأنه «ينحاز انحيازا غير مشروط إلى أمن إسرائيل»، وعلى حد ما وصفته به أسبوعية «ماريان»، صار ساركوزى «بوش فى طبعته الفرنسية»، حتى وإن لم يكن يباريه فى عدد الحروب التى أشعلها. ولكن، أى نفع يعود على فرنسا من وراء تلك السياسة؟ أين ذهب استقلالنا الوطنى وسيادتنا على أرضنا؟ إن سياسة ساركوزى ما هى إلا شرخ فى تاريخ فرنسا المعاصرة، وهى تسوق البلاد إلى طريق مسدود، إذ تربط مصيرها بالسياسة اللاعقلانية التى تتبعها الدولة العبرية، التى تحتاج إلى الحروب للحفاظ على تماسكها الداخلى، والتى تجتهد فى مقاومة تفسخها بالتشبث بأوهام القوة.

إن ساركوزى إذ يربط مصيرنا بمصير إسرائيل إنما يخضعنا لمصالح مغايرة لمصالح فرنسا؛ وهو فى ذات الوقت يضحى بالأخلاق وبالعدالة وبالقانون الدولى وبالتوازن العالمى فى مقابل «الدفاع غير المشروط عن أمن» خرافة آيلة للزوال. إن السياسة الخارجية التى ينتهجها ساركوزى توشك أن تزج بفرنسا إلى خضم نزاعات خطيرة. فلقد صارت النظرية الجديدة التى تتبعها فرنسا اليوم هى نظرية «صراع الحضارات»، مع إضافة بسيطة، لم يذكرها هنتجتون، وإن بات ممكنا تلمس آثارها، التى تستلهم ما جاء به مؤسس الصهيونية، تيودور هرتزل، من أن إسرائيل هى «طليعة الحضارة فى التصدى لجحافل الهمجية».

وإزاء هذا الوضع، أطالب بنقاش وطنى موسع، يتناول سياسة بلادى الخارجية. لأجل ذلك ألفت كتاب «ساركوزى وإسرائيل واليهود»، الذى قوبل بـ«الصمت الفصيح» على حد تعبير المحامى الخاص بى، جون باستاردى دومون.

يضم هذا المؤلف نحو ستمائة حاشية وشرح هامشى لمتن يبلغ مائتين

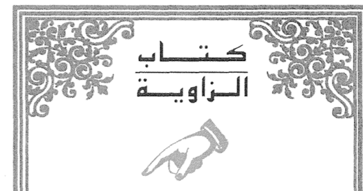
وسبع من الصفحات. وهو أمر استثنائى الوجود فى المشهد الأدبى الفرنسى. وفى كل مرحلة من مراحل بحثى، حرصت على تدعيم جميع أطروحاتى واستنتاجاتى بالأدلة والبراهين الدامغة، كما أننى قد حرصت- عامدا- على أن أشير فى مراجعى إلى مقالات نشرتها الصحف الفرنسية والعالمية الكبرى، بما فى ذلك الصحف الموالية لإسرائيل. ولكن سرعان ما تبين لى برود الناشرين الفرنسيين وإعراضهم التام عن كتابى. فمثلا فرانك سبنجلر، من دار نشر بلانش، التى كان قد صدر لى عنها كتب من قبل، كتب لى بعد أن أتم قراءة المخطوط خطابا جاء فيه: «لا يمكن نشر هذا الكتاب للأسف، لأنه فضلا عن المخاطر التى تكمن وراء النشر، فلن نحظى بسطر واحد فى الصحافة ولا فى الإعلام المرئى أو المسموع، وذلك بالطبع لأن أولئك الذين لا نستطيع التفوه بأسمائهم وعملائهم يضعون الإعلام فى قبضتهم. وبالطبع لن تكفى بعض التحركات على الانترنت لحمل الناس على شراء الكتاب من المكتبات. هذا الكتاب ليس ممنوعا، ولكن يبدو أنه قد كتب عليه أن يدخل فى طى الكتمان...» وقد كان محقا، ولكن بقدر ضئيل، فها نحن قد أصدرنا الطبعة الثانية بعد أن نفدت الطبعة الأولى، بفضل الجهد الهائل الذى بذلته مجموعة من مستخدمى الانترنت الذين تطوعوا بمساندتى بلا كلل أو ملل، وكذا بفضل مثابرة الأستاذ باستاردى دومون وشجاعة ناشرى الهمام ماركو بييتور.

لقد جاء رد سبنجلر ليكشف النقاب عن المناخ السائد فى عالم النشر. فلكى يمتنع الناشرون عن إصدار كتابى، سيقت إلىَّ جميع الأعذار، حتى أن أحدهم قد اعتذر بأن لديه أجندة مكتظة حتى عام ٢٠١٢. وعليه، لكى يصدر كتابى فى هذا الزمان، اضطررت لأن أخرج به من بلادى لكى أجد له ناشرا فى بلجيكا. ولكن لم تنته مغامرة هذا الكتاب عند هذا الحد، وإنما بدأت حين خرجت. ذلك أن الموزع الفرنسى الذى دأب على توزيع كتب ناشرى البلجيكى قد رفض توزيع الكتاب فى فرنسا، وهو ما يعد حادثة لا سابقة عليها فى التاريخ الحديث للمكتبات الفرنسية. ولكن ربما تكون المشكلة فى طريقها إلى تسوية، ولعل نشر هذه السطور يحين فى وقت يكون فيه كتابى هذا على أرفف المكتبات الفرنسية، جنبا إلى جنب مع كتبى السابقة. وهذا لا ينفى أنه كان علىَّ الانتظار ستة أشهر كاملة لكى أتمكن من توزيع الكتاب(رغم أنه لم يصدر ضدى أى قرار قانونى بالحظر أو بالملاحقة)، وهو ما يعد بمثابة عبث فعلى فى بلد يدعى اعتماد حرية التعبير وحقوق الإنسان.

فى فرنسا، صار جليا أن كل جدل يتناول العلاقات مع إسرائيل قد بات من المحرمات. و أضحى كل انتقاد للسياسة الإسرائيلية يصنف بانتظام كمعاداة للسامية، والفرق واضح وبين، فاليهودية ديانة عمرها آلاف السنين، أما الصهيونية فهى أيديولوجية ظهرت قبل قرن من الزمان، وكانت فى وقت من الأوقات تصنف من قبل الأمم المتحدة على أنها «شكل من أشكال العنصرية وضرب من ضروب التمييز العنصرى».

بتنا نشهد اليوم حالة من الابتزاز المعنوى الوضيع. فقد وصلت الصهيونية إلى رأس الحكم؛ ومن هناك، على القمة، راحت تعيد تعريف الخير والشر. فالفيلسوف ادجار موران- اليهودى الأصل- قد استدعى للمحاكمة لأنه تجرأ وانتقد أرييل شارون. وهناك صحافيون مثل ألان مينارج، ودانييل ميرميه، ورسامو كاريكاتير مثل سينيه، والكوميديان ديودونيه، ونائب العمدة برونو جيج، الذين تعرضوا للفصل أو للمضايقات لأنهم سمحوا لأنفسهم بالتشكيك فى كون إسرائيل أهم ديمقراطية على وجه الأرض. وفى نفس الوقت، راح «الفيلسوف» برنار هنرى ليفى يدافع عن جيش «الدفاع» الإسرائيلى، أما زميله ألان فينكلكرو، الذى أصابه الخرس أثناء عملية الرصاص المنصهر، فلقد تم تكريمه ومنحه وسام الشرف الأرفع، فى يناير ٢٠٠٩.

بتنا نسير على أدمغتنا. ولعل ذلك ما يحدوبى إلى دعوة يهود فرنسا إلى التخلى بأسرع وقت ممكن عن ممثليهم الذين لا يمثلون فى واقع الأمر أكثر من سدس الطائفة اليهودية، والذين يسيئون إليهم بما يعمدون إليه من خلط بين الإيمان بالعقيدة اليهودية والدفاع عن الصهيونية. و لعل ذلك أيضا ما يحدوبى إلى دعوة الفرنسيين جميعا إلى تحرير ألسنتهم. لا كى يجهروا برأيهم فى إسرائيل فحسب، ولكن أيضا كى يسارعوا إلى التنديد بالأثر الضار الذى راح يخلفه اللوبى الإسرائيلى على وجه فرنسا. جميل أن تكون بنا رغبة فى مساعدة الفلسطينيين، ولكن يجدر بنا أولا أن نحرر أنفسنا من أيديولوجية مدمرة باتت أيامها على قيد الحياة أياما معدودة. ■



تقرير بعثة الأمم المتحدة لتقصى الحقائق بشأن النزاع فى غزة تقرير جولدستون

(١)

فى ٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٩، أنشأ رئيس مجلس حقوق الإنسان بعثة الأمم المتحدة لتقصى الحقائق بشأن النزاع فى غزة مُسنداً إليها ولاية قوامها «التحقيق فى جميع انتهاكات قانون حقوق الإنسان الدولى والقانون الإنسانى الدولى التى قد ارتُكبت فى أى وقت فى سياق العمليات العسكرية التى جرى القيام بها فى غزة فى أثناء الفترة من ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨ إلى ١٨ كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٩، سواء ارتكبت قبل هذه العمليات أو أثناءها أو بعدها».

وقام رئيس المجلس بتعيين القاضى ريتشارد جولدستون، القاضى السابق بالمحكمة الدستورية لجنوب أفريقيا والمدعى السابق للمحكمتين الجنائيتين الدوليتين ليوغوسلافيا السابقة، ورواندا، لكى يرأس هذه البعثة. وكان الأعضاء الثلاثة الآخرون المعينون هم: الأستاذة الجامعية كريستين تشينكين، أستاذة القانون الدولى بكلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، التى كانت أحد أعضاء «البعثة رفيعة المستوى لتقصى الحقائق» الموفدة إلى بيت حانون ٢٠٠٨؛ والسيدة هينا جيلانى المحامية لدى المحكمة العليا لباكستان والممثلة الخاصة سابقًا للأمين العام المعنية بحالة المدافعين عن حقوق الإنسان، والتى كانت عضواً فى لجنة التحقيق الدولية المعنية بدارفور ٢٠٠٤؛ والعقيد ديزموند ترافيرس، وهو ضابط سابق فى قوات الدفاع الأيرلندية وعضو مجلس إدارة معهد التحقيقات الجنائية الدولية.

أما الإطار المعيارى للبعثة فقد تمثل فى القانون الدولى العام وميثاق الأمم المتحدة والقانون الإنسانى الدولى وقانون حقوق الإنسان الدولى والقانون الجنائى الدولى.



صحافة «أولاد آدو»

فضل مصطفى النقيب

قادنى هذا التماثل فى التجربة بين كتاب تيار «المحافظين الجدد» وكتاب «ثقافة الاستسلام» إلى أن أتساءل عما إذا كان هناك تماثل آخر بالفكر والايديولوجية يجمع بين كتاب المجموعتين؟



■■ المرة الأولى التى سمعت فيها تعبير «أولاد آدو» كانت فى إحدى المظاهرات السياسية فى منتصف الخمسينيات من القرن الماضى، عندما كنت تلميذاً فى المدرسة الثانوية فى دمشق، أيام صعود حركة التحرر الوطنى.

كنا نهتف للوحدة والتحرر ولعبد الناصر عندما سمعت همسات بعض الرفاق بأن علينا أن نأخذ حذرنا لأن بعض «أولاد آدو» قد أندسوا فى المظاهرة.

لم يكن قد مضى على نزوحنا من فلسطين إلى دمشق إلا بضع سنوات، ولهذا كنت ما زلت لا أعرف معنى بعض التعابير الدمشقية، ولكنى أدركت على الفور أن المقصود هو أن بعض المعادين لحركة التحرر الوطنى قد أندسوا فى المظاهرة.

لم أسأل عن المعنى الحرفى للتعبير وأصل استعماله مع أننى رحت أسمعه بشكل متكرر فى سنوات نهاية الخمسينيات حيث كان أصدقائى ينعتون السياسيين والصحفيين المناوئين لحركة التحرر الوطنى فى سوريا ولبنان بأنهم من جماعة «أولاد آدو». وبشكل عفوى، رحت أعدّ الآراء الصادرة عن مقالات كانت تنشرها جريدة «الحياة» فى بيروت، بين الحين والآخر، وتحمل توقيع «الكاتب العربى الكبير»، على أنها ممثلة للفكر السياسى لجماعة «أولاد آدو»، فقد كانت تؤكد أن مصلحة العرب ليست فى انتهاج سياسة التحرر من سيطرة الدول الغربية ولكن فى الانضمام للأحلاف العسكرية التى كانت تقيمها تلك الدول ضد «الخطر الشيوعى». كما كانت تؤكد أن الأسلوب الذى تتبعه حركة التحرر العربى بقيادة عبد الناصر فى الصراع المباشر مع الاستعمار لا يجدى، وأن الأسلوب الذى يحقق نتائج عملية ملموسة هو أسلوب «خذ وطالب» الذى سلكه الملك فيصل الاول، ومن بعده نورى السعيد، فى العراق.

وكان فى إصرار جريدة «الحياة» على عدم إفشاء أسم «الكاتب العربى الكبير» وإبقائه محاطاً بالسرية والغموض ما يزيد من صلاحيته، بالنسبة لى فى تمثيل أراء ومواقف «أولاد آدو» السياسية.

ولم أسمع تعبير «أولاد آدو» مرة أخرى إلا بعد سنوات فى نهاية عام ١٩٦١ حين كنت فى السنة الجامعية الثانية فى إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية وحصل الانفصال فى سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة، التى قامت بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨، فوقتها تلقيت مكالمة هاتفية من أحد الأصدقاء الدمشقيين، الذى كان يدرس فى جامعة ولاية أمريكية مجاورة، وسألنى إن كنت قد سمعت عن أسماء الضباط الذين قادوا حركة الانفصال، وعندما أجبته بالنفى، قال هو : «لا بد أن يكونوا كلهم من جماعة «أولاد آدو».

ومرت بعد ذلك سنوات طوال لم أسمع خلالها ذلك التعبير، ولم أستعمله، ولم أتذكره، حتى جاء وقت توقيع معاهدة السلام المصرية-الإسرائيلية عام ١٩٧٩ فى واشنطن. وكنت مقيماً فى كندا أعمل أستاذاً فى كلية الاقتصاد . فى جامعة واترلو.

كنت أراقب المشهد على شاشة التلفزيون. وفجأة، شعرت أننى لا أرى بيغن والسادات على الشاشة ولكنى أرى «أولاد آدو» الذين تسللوا خلسة فى صفوف المظاهرة وقد تمكنوا من السيطرة عليها وقيادتها وإخراجنا منها حتى وقفنا على جانب الطريق نتفرج عليها. وهذا ما رأيته أيضاً عندما شاهدت عرفات يصافح رابين فى حفل توقيع اتفاقية اوسلو فى البيت الابيض عام ١٩٩٣. وهو منظر يتكرر أمامى كلما شاهدت اجتماعاً من الاجتماعات التى يحضرها عرب وإسرائيليون. فكل اجتماع من تلك الاجتماعات يبدو لى على شاشة التلفزيون على أنه مهرجان سياسى جديد من مهرجانات «أولاد آدو».

وفى نهاية عام ٢٠٠٢، والولايات المتحدة تقرع طبول الحرب على العراق، اتصل بى أستاذ للعلوم السياسية فى الجامعة ينوى القيام برحلة بحثية إلى البلاد العربية، وقال هذا الأستاذ إنه قام بقراءة بعض ما كتبه محمد حسنين هيكل وادوارد سعيد، وأصبح على معرفة تامة بمنطق العرب المعادين للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط، وهو يريد أن يقرأ لكتاب عرب يمثلون وجهة النظر الأخرى، وجهة نظر المؤيدين للسياسة الأمريكية، وهو يطلب منى أن أقترح عليه أسماء بعض الكتاب الذين يمثلون ذلك الاتجاه.



لقد عقدت الدهشة لسانى، فلقد اكتشفت أننى شخصياً لا أعرف أى كاتب عربى يمثل وجهة النظر الأخرى. وبعد هذه الحادثة، تملكنى فضول فى معرفة ما إذا كان هناك كاتب أو صحفى عربى يعبر عن آراء ومواقف وتوجهات «أولاد آدو» فى الوقت الحاضر، فأقرأ له كما كنت أقرأ مقالات «الكاتب العربى الكبير» فى سنوات الخمسينيات. فلا زلت أذكر أننى كنت أنتظر صدور تلك المقالات بشغف، لأنها كانت مكتوبة بأسلوب جميل وترتكز على منطق معين. ومع أننى كنت أعارض ذلك المنطق بشكل تام، إلا أن التعرف عليه كان، ولسبب لم يكن واضحاً لى يومها، يساعدنى على فهم منطق أطروحات حركة التحرر الوطنى بشكل أفضل. وهكذا، وجدت نفسى فى مطلع القرن الجديد أبحث عن كاتب عربى عنده منطق يختلف عن المنطق الذى ترتكز عليه قناعاتى، ويمثل الاتجاه السائد فى سياسات الحكومات العربية التابعة بشكل تام للإملاءات الأمريكية.

حاولت عن طريق الإنترنت قراءة مقالات بعض الصحفيين المؤيدين للتوجه الأمريكى والمعادين لنهج المقاومة فى فلسطين ولبنان، ولكنى اكتشفت سريعاً أنه إذا كانت مقالات «الكاتب العربى الكبير» قد صدرت فى الخمسينيات عن منطق خاطئ من وجهة نظرى، فإن مقالات ممثلى جماعة «أولاد أدو» فى مطلع القرن الجديد خالية من أى منطق. وعندما شكوت ذلك لصديق يشغل منصباً هاماً فى أحد عواصم «الاعتدال» العربية، ضحك وقال : «كنت تضيع وقتك فى قراءة مقالات كتاب التدخل السريع»، ثم شرح لى أن أولئك الكتاب حصلوا على لقب «كتاب التدخل السريع» لأنهم يكتبون مقالاتهم عادة بعد ساعات قليلة من تلقى مخابرة تليفونية من دائرة معينة فى الدولة.

حاولت أن أعثر على «منطق» لكتاب «أولاد آدو» فى عاصمة عربية أخرى، ومرة أخرى، باءت محاولتى بالفشل. وعندما شكوت ذلك لكاتب صديق فى تلك العاصمة، قال : «هؤلاء الصحفيون يكتبون لقارئ واحد، وبما أنك أنت لست ذلك القارئ فقراءتك لتلك المقالات مضيعة للوقت».

فى مطلع عام ٢٠٠٤، أرسل لى الصديق بلال الحسن مخطوطة كتاب يعده للطباعة بعنوان «ثقافة الاستسلام»، وهو عبارة عن قراءة نقدية فى كتابات خمسة كتاب عرب، يعيشون فى العواصم الأوروبية، يؤيدون نهج معاهدات السلام مع إسرائيل كما يؤيدون غزو الولايات المتحدة للعراق. وطلب منى أن أقوم بقراءة المخطوطة وكتابة دراسة تعالج الموضوع من الناحية «الفكرية»، بشكل تكون فيه الدراسة متكاملة مع المعالجة «السياسية» التى تضمنتها مخطوطة الكتاب.

تحمست للاقتراح على أمل أن يكون بين الكتاب الخمسة بحكم حياتهم خارج البلدان العربية، من يكتب بشكل مخالف

لأسلوب «كتاب التدخل السريع» أو «كتاب القارئ الواحد»، وشرعت فى قراءة المخطوطة وقراءة النصوص الأصلية للكتاب الخمسة، وكلى أمل فى أن أعثر أخيراً على كاتب عنده «منطق» أستطيع أن أتعامل معه بما هو ممثل لفكر «أولاد آدو» فى الوقت الحاضر كما تعاملت مع فكر «الكاتب العربى الكبير» قبل عقود من السنين.

كان الكتاب الخمسة جميعاً يكتبون بشكل مخالف لأسلوب «كتاب التدخل السريع» و «كتاب القارئ الواحد»، فلقد كان فى كتابتهم منطق، منطق غريب جداً أثار دهشتى واستغرابى، ولكنه منطق.

كان ذلك المنطق يختلف بشكل جذرى عن منطق أطروحات «الكاتب العربى الكبير» المؤيدة لسياسة الأحلاف العسكرية والمعادية لحركة التحرر العربى فى الخمسينيات. فقد كانت أطروحات «الكاتب العربى الكبير» تصدر عن «منطق» المصالح العربية كما يفهمه الكاتب فى الزمن الذى يتحدث عنه. أما أطروحات الكتاب الخمسة فكانت تدعى أنها لا تصدر عن موقف سياسى ولكن عن موقف «مبدئى». وكان ذلك المبدأ هو الانحياز الكامل لمفهوم «الحداثة» الغربى. وحتى يكون ذلك الموقف «منسجماً» مع ذاته، فإنه يرجع بالزمن إلى الوراء ليعيد كتابة التاريخ العربى فى القرنين الماضيين وفق معيار واحد وهو تصنيف «من وقف من العرب مع الحداثة؟» و«من وقف من العرب معارضاً للحداثة؟». وعلى هذا الأساس، تصبح كل ثورات الشعوب العربية ضد الاستعمار البريطانى والفرنسى ومن أجل نيل الاستقلال حركات متأخرة ظلامية، على أساس أنها كانت تعادى البريطانيين والفرنسيين ممثلى الحداثة فى ذلك الوقت. وفق هذا المعيار فإن تلك الثورات قد أسهمت لحد كبير فى صناعة التأخر العربى الذى تعانى منه الشعوب العربية فى الوقت الراهن. كما أن ذلك «المنطق» يلخص كل المأساة الفلسطينية فى أن «النضال الفلسطينى فشل فى أن يتحالف مع الاستعمار البريطانى» بينما «نجحت الحركة الصهيونية فى ذلك»[1].

أى أن القضية تتلخص فى وجود طرف قاوم «الحداثة» ففشل، وطرف آخر تحالف مع «الحداثة» وانتصر. ويصر الكتاب الخمسة بعد ذلك على أن تصحيح هذا الخطأ التاريخى لا يتحقق إلا عبر التخلى الكامل عن نهج مقاومة «الحداثة» والسير الجدى فى طريق التحالف معها، أى التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية، ممثلة «الحداثة» فى الوقت الراهن.



ومن ناحية أخرى، فلقد وجدت فى تجارب أولئك الكتاب الخمسة نسخاً من تجارب بعض الكتاب الأمريكيين الذين ينتمون إلى التيار المعروف باسم «المحافظين الجدد». فكما كان معظم كتاب ذلك التيار ينتمون إلى فصيل التروتسكية فى اليسار الماركسى، عندما كانوا شباباً فى الخمسينيات ومطلع الستينيات من القرن الماضى،ثم انقلبوا إلى أقصى اليمين فى أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات بعد أن أصبحوا كتاباً وأساتذة وصحفيين فى منتصف العمر، كذلك كان كتاب «ثقافة الاستسلام» ينتمون إلى يسار حركة التحرر العربى عندما كانوا شباباً فى البلدان العربية فى الستينيات والسبعينيات وأوائل الثمانينيات، ثم انقلبوا إلى أقصى اليمين فى مطلع التسعينيات، بعد أن أصبحوا كتاباً وصحفيين فى الصحافة العربية المقيمة فى العواصم الأوروبية.

ولقد قادنى هذا التماثل فى التجربة بين كتاب تيار «المحافظين الجدد» وكتاب «ثقافة الاستسلام» إلى أن أتساءل عما إذا كان هناك تماثل آخر بالفكر والأيديولوجية يجمع بين كتاب المجموعتين؟

وهكذا، كان على أن أقرأ فى الخلفية الفكرية والفلسفية لأشهر كتاب تيار «المحافظين الجدد» فى الولايات المتحدة، حتى أتعرف على وجهة نظرهم بالنسبة لموضوع «الحداثة» الذى يشكل حجر الأساس فى فكر كتاب «ثقافة الاستسلام».

لقد خلفت تلك القراءة فى نفسى رعباً حقيقياً، فبالرغم من أننى كنت قد تابعت التوجهات السياسية لمعظم كتاب تيار «المحافظين الجدد» خلال العقود الثلاثة الماضية، إلا أننى اكتشفت أننى لم أكن على معرفة بالمنظار الايديولوجى الذى ينظرون من خلاله إلى العالم والتاريخ.

كنت قد تعرفت على ذلك التيار عندما ابتدأ فى مطلع السبعينيات يعارض التوجه العام للسياسة الأمريكية فى ذلك الوقت، المبنى على أساس سياسة «الانفراج الدولى» (Détente)، ويدعو إلى انتهاج سياسة العداء الكامل مع الاتحاد السوفياتى. وتابعت تطور أطروحات التيار فى الثمانينيات، عندما أصبح له نفوذ هائل أيام إدارة الرئيس رونالد ريغان التى تخلت عن نهج سياسة «الانفراج الدولى» ودخلت فى سياسة سباق التسلح «حرب النجوم» لإنهاك الاتحاد السوفياتى التى كانت تنظر إليه على أنه «امبراطورية الشر» فى العالم. وتابعت أطروحات التيار فى التسعينيات التى كانت تطالب بغزو العراق، ورفض أسلوب العملية السلمية فى الشرق الأوسط القائم على أساس مقايضة الارض بالسلام والدعوة إلى ضرورة احتفاظ اسرائيل بالضفة الغربية والجولان وتحقيق السلام على أساس مقايضة السلام بالسلام. وتابعت أخيراً أطروحات التيار فى السنوات الأولى من القرن الجديد التى كانت تطالب بالكف عن اعتماد معايير «المصالح القومية» فى رسم أولويات السياسة الأمريكية الخارجية واعتماد معايير «القيم الامريكية» بدلاً عنها. وهذا يعنى عدم الاكتفاء بمعاداة الدول ذات الأنظمة التى تنتهج سياسات تهدد المصالح الأمريكية، بل معاداة أى دولة فيها نظام معاد للقيم الأمريكية التى هى الحرية والديمقراطية.

كنت على معرفة تامة بكل ذلك ولكنى لم أكن مطلعاً على الموقف الفكرى والفلسفى الذى تنطلق منه تلك المواقف. ولقد وجدت من خلال قراءتى أن الخلفية الفكرية لتيار المحافظين الجدد تعود إلى فلسفة الأستاذ ليو ستراس (١٨٩٩-١٩٧٢)،التى تعادى كل مفاهيم «عصر النهضة» وتؤكد أن من واجب النخب الأمريكية الكف عن اتباع أسلوب «الحداثة» فى النقاش والحوار والعودة إلى أساليب الفلاسفة اليونان القدامى فى حجب الحقيقة عن عامة

الناس وتزويدهم فقط بما يحتاجون إليه فى حياتهم العملية. وفى هذا السياق، فليس هناك أى قيمة لمفاهيم الديمقراطية أو الحرية، إلا بقدر ما تستطيع النخب تسخيرها وسيلة للسيطرة على الجماهير.

خرجت من تلك القراءة «المرعبة» وأنا أفكر فى أنه على الرغم من الاختلافات الكبيرة بين أطروحات «الكاتب العربى الكبير» فى منتصف القرن الماضى، وبين أطروحات كتاب «ثقافة الاستسلام» وكتاب تيار «المحافظين الجدد» فى مطلع القرن الجديد. فان هناك شيئاً مشتركاً بينها جميعاً، إذ إن جوهر كل واحدة من تلك الأطروحات الثلاث هو ضرورة التخلص (التحرر) من مفاهيم وممارسات «ضارة» كرستها مرحلة تاريخية معينة.

كان «الكاتب العربى الكبير» فى منتصف الخمسينيات من القرن الماضى، يريد التخلص من مفاهيم حركة التحرر الوطنى وممارساتها التى انطلقت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. أما فى مطلع القرن الواحد والعشرين فكتاب «ثقافة الاستسلام» يريدون التخلص من كل مبادئ فترة النضال ضد الاستعمار الاوروبى الذى صبغ تاريخ العلاقة بين بلدان العالم الثالث والامبراطوريات الأوروبية منذ منتصف القرن التاسع عشر وكل ممارسات هذه الفترة، بينما يصر كتاب تيار «المحافظين الجدد» فى الولايات المتحدة على ضرورة التخلص من كل الأسس المعرفية والمنهجية التى كرستها حركة «الحداثة» كما نشأت وتطورت منذ عصر النهضة الاوروبى وبشكل طبيعى قادنى هذا الشىء المشترك بين الأطروحات الثلاث إلى التفكير فى ظاهرة «أولاد آدو» بما هى ظاهرة عالمية وليست ظاهرة مقصورة على العالم العربى. فهذه الأطروحات تمثل، فى واقع الأمر، ظاهرة التفكير غير العقلانى الذى يريد أن يعود بالتاريخ إلى الوراء. وفى هذا المجال، تساءلت بينى وبين نفسى عما إذا كانت هناك أى صلة بين أصل استعمال تعبير «أولاد آدو» على المستوى العربى كما سمعته أول مرة فى دمشق قبل أكثر من نصف قرن، وبين ما أفهمه اليوم من معنى للتعبير على المستوى العالمى. وخطر لى أن أتصل ببعض الاصدقاء الذين عاشوا خمسينيات القرن الماضى فى دمشق علهم يعرفون من أين جاء تعبير «أولاد آدو» وما هو أصل استعماله. وعندما حدثت زوجتى عن ذلك، ابتسمت، ثم عادت بعد دقائق ومعها ورقة فيها ما طبعته من برنامج «غوغيل» الذى حدد

أن أصل استعمال تعبير «أولاد آدو» يعود إلى السنوات الأولى من القرن العشرين، عندما كانت العائلات الدمشقية العريقة تعيش داخل السوق القديم وتنظر بشك وريبة لتصرفات الذين جاءوا من أمكنة أخرى وأقاموا خارج السور، فتدعوهم «أولاد آدو»، على أساس أن لهم أخلاقاً وقيماً مختلفة عن أخلاق أهالى دمشق وقيمهم. وعلى الفور، رأيت أن إطلاق وصف «أولاد آدو» على «الكاتب العربى الكبير»، وبعد ذلك على كتاب «ثقافة الاستسلام» ثم على تيار «المحافظين الجدد» ينسجم تماماً مع أصل استعمال التعبير الذى يصف الناس الذين يقومون بممارسات تنبع من أخلاق وقيم مغايرة لما هو متعارف عليه. وفى هذا المجال، فإذا كان «الكاتب العربى الكبير» وكتاب «ثقافة الاستسلام» قد طرحوا فكراً يتعارض مع أسس الثقافة العربية فى العصور الحديثة، فإن كتاب تيار «المحافظين الجدد» يقومون بطرح فكر لا يتعارض مع أسس الثقافة الأمريكية فقط ولكنه يتعارض بشكل مطلق مع أسس الثقافة الإنسانية، وهذه التى يشكل عصر النهضة الأوروبية وعصر التنوير وما أنتجاه من نهج الحداثة رافداً أساسياً لها فى العصور الحديثة وهذا يعنى أنهم بالفعل «أولاد آدو» على المستوى الإنسانى.

لا تأتى التيارات الفكرية أو السياسية من فراغ، ولكنها تتشكل دائما تعبيراً عن ظروف موضوعية تخص زمناً ومكاناً



قبل أكثر من نصف قرن، قال ولتر ليبمان: «إن أزمة الديمقراطية الأمريكية هى فى جوهرها أزمة صحافة».. ويبدو أننا فى عالمنا العربى نعيش التجربة ذاتها





ولتر ليبمان

محددين. ولقد كتبت فى مقال سابق عن الظروف الاقتصادية والسياسية فى الولايات المتحدة الأمريكية التى قادت إلى ولادة تيار «المحافظين الجدد»[١]. وأحب فى بقية هذا المقال أن أعرض الدور المحورى الذى لعبته الصحافة الأمريكية فى تكوين البيئة الفكرية والسياسية لولادة التيار ونموه وتطوره. وسنرى من خلال هذا العرض أن صحافة «كتاب التدخل السريع» و«كتاب القارئ الواحد» نشأت وتطورت فى الولايات المتحدة أولاً، وبعد ذلك بسنوات وصلت إلى العواصم العربية، حيث تم تكييفها مع ضرورات الظروف المحلية فى مناخ التبعية للسياسة الأمريكية.

ودرو ولسون و ولتر ليبمان ولــنــدون جــونـــســون

لا تحصل أى مهنة فى المجتمع الأمريكى على الاحترام والتقدير، على المستوى القومى، إلا بعد ظهور نجوم لها يشاركون نجوم الألعاب الرياضية ونجوم هوليوود فى الظفر بالإعجاب الشعبى. ولقد بدأت مهنة الصحافة فى إنتاج نجوم لها فى بداية العقد الثانى من القرن العشرين. وفى بداية العقد الثالث، أصبح من المتعارف عليه أن يطلق على نجم الصحافة لقب «البنديت» (Pundit)، وهى كلمة من أصل سنسكريتى تعنى «الانسان العالم» وتستعمل فى الثقافة الهندية وعلى سبيل المثال، فقد كان رئيس وزراء الهند الأشهر جواهرلال نهرو يدعى البنديت نهرو. وأول صحفى أمريكى دعى بالبنديت هو على الأغلب أهم صحفى فى

التاريخ الأمريكى على الاطلاق، الذى هو بالطبع ولتر ليبمان (١٨٨٩-١٩٧٤)[٣].

ولد ولتر ليبمان فى مدينة نيويورك لعائلة من أصل المانى يهودى، فى وضع مادى مريح، حيث كان أفراد العائلة يقضون جزءاً من أشهر الصيف كل عام فى أوروبا. وعندما بلغ ولتر سن السابعة عشرة انتسب لجامعة هارفرد حيث درس الفلسفة على يدى الفيلسوفين المعروفين جورج سانتانيا (١٨٣٦-١٩٥٢) و وليم جيمس (١٨٤٢-١٩١٠). وفى أثناء دراسته أصبح طالب الفلسفة محرراً لمجلة الجامعة المعروفة باسم «شهرية هارفرد»، كما شارك فى تأسيس النادى الاشتراكى فى الجامعة، وكان طالباً متفوقاً، إذ تخرج بتقدير مرتبة الشرف بعد ثلاث سنوات فقط من الدراسة وليس أربعا كما هو معتاد، ولكنه بقى سنة أخرى فى هارفرد ليعمل مع سانتانيا.

عمل ليبمان فور تخرجه من هارفرد صحفياً فى مجلة تدعى «مجلة كل الناس»، وبعد سنة قام بنشر أول كتاب له بعنوان «مقدمة للسياسة» وحاز الكتاب على شهرة سريعة حتى أن الرئيس ثيودور روزفلت (١٩٠١-١٩٠٩) قال عنه إنه «عبقرى الجيل الجديد». وفى عام ١٩١٤ أسس ليبمان مع أحد رجال الأعمال وصحفى آخر مجلة أسبوعية جديدة باسم «الجمهورية الجديدة» وعمل محرراً فيها. وأثناء الحرب العالمية الأولى عمل مساعداً لوزير الحرب، ثم أصبح على علاقة خاصة بالرئيس ودرو ولسون (١٩١٣-١٩٢١)، حيث ساعده على صياغة «نقاط ولسون الأربع عشرة من أجل السلام». وفى سنة ١٩١٩، كان عضواً فى الوفد الأمريكى لمؤتمر السلام فى باريس، وشارك فى تأسيس عصبة الأمم. وفى سنة ١٩٢٠، ترك العمل فى «الجمهورية الجديدة» وأخذ يعمل مديراً لتحرير الجريدة المؤيدة للحزب الديمقراطى «عالم نيويورك». وعندما توقفت هذه الجريدة عن الصدور عام ١٩٣١ تحول هو إلى العمل فى جريدة «هيرالد تريبون» المعروفة بميولها المحافظة، وفيها أخذ يكتب مقالاً بعنوان «اليوم وغداً» الذى توالى ظهوره ثلاثين سنة. وقد حاز ذلك المقال على شهرة هائلة، إذ كان يتم نشره فى أكثر من ٤٠٠ جريدة يومية.

كان ولتر ليبمان يحب العمل كصحفى، ولقد رفض الكثير من العروض المغرية للعمل فى وظائف لها احترام وتقدير أكبر من مهنة الصحافة فى ذلك الوقت. وعلى سبيل المثال، فقد اعتذر عن العمل استاذاً لفلسفة السياسة فى جامعة هارفرد، كما اعتذر عن قبول منصب رئيس

يصرون على أن تصحيح هذا الخطأ التاريخى لا يتحقق إلا عبر التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية

جامعة نورث كارولينا. وفى ذات الوقت، فقد كان دائم القلق على مستقبل المهنة وقدرتها على خدمة الرأى العام بموضوعية. وظل طوال حياته يعير هذا الموضوع اهتماماً كبيراً، وأصدر عدداً كبيراً من الدراسات والكتب حول الموضوع، وفيها انتقد عدم قيام الصحافة بمهمة توعية المواطن بحقيقة ما يدور حوله من أحداث.

أما التأثير المباشر لكتابات ليبمان على مجريات السياسة الأمريكية، فقد تكرس مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية. فلقد كان هو أول من استعمل تعبير «الحرب الباردة»، وكان كتابه الذى حمل العنوان ذاته والذى نشره عام ١٩٤٧ من أهم كتبه على الاطلاق.

يمكن تقسيم كتاب «الحرب الباردة» إلى قسمين. القسم الأول يتضمن تأييد المؤلف لمشروع مارشال فى إعادة اعمار أوروبا وأهمية ذلك المشروع بالنسبة للأمن القومى الأمريكى والسلام العالمى. أما القسم الثانى والأهم فهو يخص معارضة المؤلف لنهج السياسة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية المتمثل فى «سياسة احتواء الاتحاد السوفياتى» و«مبدأ ترومان».

من المعروف أن أول من تحدث عن سياسة الاحتواء فى عام ١٩٤٦ كان هو الدبلوماسى الأمريكى جورج كينان (١٩٠٤-٢٠٠٥) فى برقية سرية مطولة أرسلها من السفارة الأمريكية فى موسكو إلى وزارة الخارجية فى واشنطن. ثم قام بتحويل أفكار تلك البرقية إلى مقال نشره فى مجلة «الشئون الخارجية» بعنوان «مصادر السلوك السوفياتى» وبتوقيع (X). كانت سياسة الاحتواء تعتمد على أطروحتين: الأولى تؤكد أن طبيعة النظام السوفياتى هى طبيعة توسعية وأنه يهدف فى النهاية إلى السيطرة على العالم. والثانية تؤكد أنه من الخطأ مقاومة التوسع السوفياتى بأسلوب الحرب المباشرة أو أسلوب المفاوضات، وأن الأسلوب المناسب هو منع التوسع السوفياتى عن طريق مساعدة البلدان التى تتعرض لخطر السقوط فى دائرة النفوذ السوفياتى على مقاومة ذلك الخطر.

وبناء على هاتين الأطروحتين، صاغ الرئيس ترومان (١٩٤٥-١٩٥٣) المبدأ المعروف باسمه، هذا الذى أعلنه فى خطاب أمام الكونغرس فى اذار/ مارس ١٩٤٧ والذى قال فيه إن الولايات المتحدة بوصفها زعيمة للعالم الحر سوف تعمل على تقديم العون العسكرى والسياسى والاقتصادى والدبلوماسى لأى بلد فى العالم يعمل على مقاومة الخطر



كيسنجر

الشيوعى والنفوذ السوفياتى. وعلى الرغم من أن جورج كينان مهندس سياسة الاحتواء تخلى عن تلك السياسة بشكل مبكر فى نهاية عام ١٩٤٨، على أساس أن الوضع الدولى قد تغير، ودعا إلى اتباع أسلوب المفاوضات مع الاتحاد السوفياتى، إلا أن إدارة الرئيس ترومان، وبقيادة وزير خارجيته دين اتشسون (١٩٤٩-١٩٥٣)، عملت وفق نهج تلك السياسة حتى أصبحت هى السياسة المعتمدة للولايات المتحدة طوال سنوات الحرب الباردة.



ارتكزت معارضة ولتر ليبمان لسياسة الاحتواء فى كتابه «الحرب الباردة» على أساسين. الأول هو الاختلاف فى تقييم أهداف السياسة السوفياتية، فهو لم ينظر إلى الموضوع على أنه صراع أيديولوجى بين النظام الرأسمالى وبين النظام الشيوعى، كما كان يفعل أكثر الكتاب والصحفيين طوال سنوات الحرب الباردة، بل كان ينظر إلى الموضوع من زاوية مصالح روسيا بما هى دولة كبرى ومصالح الولايات المتحدة بما هى أيضاً دولة كبرى. ومن هذا المنظور كان ليبمان يرى وجود إمكانية كبيرة للتوصل إلى تفاهم بين الطرفين يراعى مصالحهما.

ولقد بنى فهمه للأهداف الحقيقية للسياسة السوفياتية، ليس عن طريق قراءته الأيديولوجية الماركسية-اللينينية التى كان ستالين يدعى أن الاتحاد السوفياتى يعمل وفق تعاليمها، ولكن عن طريق قراءته لتاريخ روسيا وما تكّون عبره من مصالح قومية لا يمكن لأى حكومة سوفياتية تجاهلها. وكان تفكيره هذا مبنياً على أساس إيمانه بأن التفكير السليم يتكون عندما يتمكن الإنسان من التحرر من ضوضاء الوقت الحاضر وتشويشه ويتمكن من «العودة بعيداً إلى الماضى والنظر بعيداً إلى المستقبل». وكان ليبمان فى ذلك الموقف قريباً جداً من وجهة نظر الرئيس شارل ديغول الذى كان يكن له أحتراماً كبيراً ويعتقد أنه من أهم القادة المعاصرين.

أما الأساس الثانى لمعارضة ليبمان لسياسة الاحتواء، وهنا تتجلى حكمته وبعد نظره، فهو اعتقاده بأنه حتى لو نجحت تلك السياسة بشكل كامل، فإن «تكاليفها ستكون أكبر من أرباحها». وقد بنى ليبمان هذا الاعتقاد على أساس أنه سيكون لتلك السياسة تكاليف عسكرية واقتصادية غير مسبوقة فى التاريخ، إذ أنها ستشمل دعماً عسكرياً واقتصادياً وسياسياً لعدد كبير من الدول، بعضها ذات أنظمة دكتاتورية وفاسدة وبعضها الآخر يحكمها قتلة ومجرمون.

وانسجاماً مع خلافه مع سياسة الاحتواء، فقد وقف ليبمان معارضاً لكل مواقف إدارة الرئيس ترومان، وبشكل هام، فقد أخذ موقفاً معارضاً لتأسيس حلف الأطلنطى، كما عارض دخول الولايات المتحدة الحرب الكورية. وفى أثناء حكم ادارة الرئيس أيزنهاور (١٩٥٣-١٩٦٠)، أيد جهود الإدارة فى إنهاء الحرب الكورية، وعارض بعض سياسات وزير الخارجية جان فوستر دالاس التى اعتمدت أسلوب «حافة الهاوية» فى الصراع مع الاتحاد السوفياتى. وكان مؤيداً ومتحمساً لمجيء



اعتذر ليبمان عن العمل أستاذاً لفلسفة السياسة فى جامعة هارفرد، كما اعتذر عن قبول منصب رئيس جامعة نورث كارولينا

إدارة الرئيس جون كنيدى. على أمل أن يكون بمقدور الرئيس الشاب أن يتحرر من قيود الحرب الباردة ويعمل إلى التوصل لتفاهم معقول مع الاتحاد السوفياتى. وبعد اغتيال كنيدى عام ١٩٦٣، كان ليبمان من أشد مؤيدى سياسة الرئيس لندن جونسون التى تمت تسميتها بسياسة «المجتمع العظيم». وهذه هى السياسة التى كان لها شقان: الأول يخص إصدار قوانين جديدة على مستوى الحكومة الفدرالية تلغى التمييز العنصرى ضد المواطنين السود وتمنحهم الحقوق المدنية، والثانى محاربة الفقر فى أمريكا عن طريق قيام الحكومة الاتحادية ببرامج دعم يتمكن بواسطتها الفقراء من الحصول على المسكن والغذاء والخدمات التعليمية والصحية بأسعار رخيصة. ولقد عمل الرئيس جونسون منذ توليه الرئاسة على كسب ود ليبمان، فقام بدعوته لتمضية عطلة نهاية الأسبوع ضيفاً عليه فى مزرعته فى ولاية تكساس، كما فاجأه بالحضور هو وزوجته إلى بيته للمشاركة فى الاحتفال بعيد ميلاده الخامس والسبعين عام ١٩٦٤. وأهم من ذلك، فقد طلب جونسون من وزرائه ومساعديه إحاطة ليبمان بكل ما يجرى من تطورات فى جنوب شرق آسيا، حيث كان ليبمان يدعو إلى انسحاب الولايات المتحدة من تواجدها فى فيتنام وحل الصراع الدائر بين الشمال والجنوب عن طريق مؤتمر دولى للدول العظمى.

وهكذا، مضت السنة الأولى من عمر إدارة الرئيس جونسون وولتر ليبمان قريب جداً منها. فعندما كان أحد مساعدى وزير الخارجية أو وزير الدفاع، أو أحد الجنرالات، يعود من زيارة عمل من فيتنام، كان ولتر ليبمان يجتمع به فى البيت الأبيض قبل اجتماعه بالرئيس، وأحياناً كان يحضر الاجتماع بالرئيس ويشترك فى مناقشات تستمر ساعات طوالا. فلقد كان ليبمان يقوم بشكل كامل بدور «بنديت» الصحافة، أى الدور المزدوج الذى يعمل فيه مستشاراً غير رسمى للادارة فيقدم لها النصيحة والمشورة ويعمل فى الوقت ذاته فى مقالاته على شرح سياسة الادارة للرأى العام، كما يشرح اهتمامات الرأى العام ومخاوفه للإدارة.

ولكن ذلك الوضع لم يستمر طويلاً، فمع نهاية عام ١٩٦٤، تأكد ليبمان أن جونسون مصر على أن يحسم الوضع فى فيتنام عن طريق القوة العسكرية على أساس أنه ومستشاريه الرئيسيين ينظرون للموضوع من وجهة نظر «سياسة الاحتواء»، التى تعنى

أن أى حل فى فيتنام لا يشمل على الهزيمة الكاملة للشيوعيين فى الجنوب يعنى انتصاراً للإتحاد السوفياتى وهزيمة للولايات المتحدة الأمريكية.كما تأكد أن الرئيس جونسون يحرص على إبقاء علاقة جيدة معه هو لأن ذلك يساعد الرئيس على ضمان تأييد الجناح الليبرالى فى الحزب الديمقراطى.

تأكد ليبمان أن جونسون قد خدعه، فراح يكتب المقالات التى يهاجم بها سياسته فى فيتنام، ويحذر من أن سياسة التصعيد العسكرى التى تتبعها الإدارة لن تقود إلا إلى كارثة بالنسبة للمصالح الأمريكية. وعندها شعر جونسون بأن ليبمان قد انقلب عليه وانضم إلى معسكر أعدائه، فأعطى الأوامر إلى مساعديه بقطع أى اتصال به، وراح جونسون يتحدث عنه فى الحفلات الدبلوماسية وأمام السفراء الأجانب على أنه «ذلك العجوز، الخرفان، الخائن».

حدث الشجار العلنى بين رئيس الجمهورية وبنديت الصحافة فى أجواء تزايدت فيها التقارير الصحفية والإشاعات عن أن حادثة خليج تونكن التى حصلت بموجبها إدارة الرئيس جونسون على تفويض من الكونغرس فى ٧ آب ١٩٦٤ باستعمال القوة العسكرية فى جنوب شرق آسيا بدون إعلان حرب، كانت حادثة لفقتها الإدارة وأن القوارب الحربية لفيتنام الشمالية لم تهاجم سفن البحرية الأمريكية كما ادعت إدارة جونسون[٤].

لم يعد ولتر ليبمان قادراً على أن يمارس دوره كبنديت، ولم يعد قادراً على مزاولة مهنة الصحافة، ولم يعد قادراً على الحياة فى واشنطن. وقد قال هو نفسه لأحد أصدقائه إنه لم يعد قادراً على التنفس والتفكير فى واشنطن، فى أجواء كلها كذب وخداع. فكتب ليبمان فى ٢٥ أيار/ مايو ١٩٦٦ آخر مقال له فى عمود «اليوم وغداً» فى الهيرالد تريبيون، واعتزل العمل الصحفى، وترك واشنطن إلى نيويورك.

بخروج ولتر ليبمان من واشنطن، بدأت أوضاع الصحافة الأمريكية تسوء حتى تسلل هنرى كيسنجر من وراء سور دمشق القديم وأسس فى واشنطن «صحافة التدخل السريع»، التى كانت بداية صحافة «أولاد آدو» فى الولايات المتحدة الأمريكية.

هنرى كيسنجر وجيمس رستون

كان لندن جونسون كذاباً ومخادعاً، وعلى ذلك يجمع كل الذين كتبوا عنه،[٥] ولكن فشل إدارته فى حل المشاكل التى تعرضت لها لم يكن بسبب أسلوب الكذب والخداع الذى مارسه طوال سنوات تواجده فى البيت الأبيض (١٩٦٣-١٩٦٩). ففى الواقع كان فشل تلك الإدارة يعود بالدرجة الأولى إلى أنها أستلمت الحكم فى فترة زمنية وصل فيها التوتر بين الاتجاهين الرئيسيين اللذين يشكلان نسيج السياسة الامريكية،إلى درجة عالية من التوتر قادت إلى الصدام.

من المعروف أنه ومنذ انتصار المستعمرات الأمريكية فى حرب الاستقلال وقيام الولايات المتحدة الامريكية (١٧٧٦) والسياسة الأمريكية تتحدد نتيجة للعلاقة بين الاتجاه الذى يكرس «الحرية» كهدف أول فى السياسة وبين الاتجاه الذى يكرس «الامبراطورية» كهدف أول. ومن المعروف أن قوة الاتجاه الأول تنبع من كون معظم المهاجرين الأمريكيين الأوائل قد تركوا أوروبا هرباً من أنظمة تفتقد إلى الحرية السياسية أو الحرية الاقتصادية، كما أنهم حصلوا على الاستقلال بعد حرب دامية ضد الاستعمار البريطانى. وقد كرس هذا التاريخ مفهوماً أمريكياً يؤكد أن الحفاظ على الحرية يتطلب جهداً متواصلاً من جيل إلى جيل، وخصوصاً أن للحرية مضموناً اقتصادياً واجتماعياً يتغير مع الزمن. أما قوة الاتجاه الثانى فتنبع من حقيقة أن التاريخ الأمريكى كله وحتى قبل الحصول على الاستقلال كان تاريخ تأسيس للامبراطورية وتطويرا لها، فقبل الاستقلال، كانت معاملة الأمريكيين البيض للسكان الأصليين من الهنود والمواطنين السود معاملة إمبراطورية بمعنى التحكم فى مصيرهم ونقلهم من مكان لآخر وحرمانهم من الحقوق السياسية والمدنية. وبعد الاستقلال، أصبح التاريخ الأمريكى كله تاريخ التوسع الامبراطورى، ابتدأ فى التوسع فى الغرب الأمريكى طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بشكل تضاعف فيه عدد ولايات الاتحاد من ثلاث عشرة ولاية إلى أضعاف ذلك العدد، ثم تحول التوسع إلى بسط النفوذ على بلدان أمريكا الجنوبية من جهة وبلدان المحيط الهادئ من جهة أخرى، ثم تكرس التوسع على امتداد العالم عبر الدخول فى حربين عالميتين والخروج منهما بسياسة وراثة الامبراطوريات الاوروبية وإقامة القواعد العسكرية فى آسيا وأوروبا وأفريقيا.



فكما كان معظم كتاب ذلك التيار ينتمون إلى اليسار الماركسى، فى الخمسينات والستينيات من القرن الماضى، ثم انقلبوا إلى أقصى اليمين فى أواخر الستينيات





ولتر ليبمان

كان لندن جونسون، من ناحية التربية السياسية، وعلى الرغم من أساليبه فى الكذب والخداع، أميل إلى اتجاه «الحرية» من اتجاه «الامبراطورية» فى السياسة الامريكية، فقد كان اهتمامه الاول هو العمل على تطبيق برامج «المجتمع العظيم»، أى توسيع مساحة الحرية بالنسبة للمواطنين السود والمواطنين البيض الفقراء. ولقد اعتقد أن الطريقة الوحيدة التى يتمكن فيها من ضمان تأييد معسكر «الامبراطورية» فى الكونغرس لتلك السياسة هو اتخاذ الموقف المتشدد فى جنوب شرق آسيا وتحقيق النصر العسكرى فى فيتنام. ولقد نصحه مستشاروه الاقتصاديون بأنه لن يكون قادراً على دفع تكاليف برامج «المجتمع العظيم» و«حرب فيتنام» فى آن واحد. ولكنه لم يستمع لهم، وراح ينفق على الاثنين عن طريق الديون من الداخل والخارج، ولقد قاد هذا الأسلوب، كما هو معروف، إلى حدوث مشكلة التضخم المالى وارتفاع الأسعار. وهكذا، أقترن فشل إدارة جونسون الديمقراطية فى حرب فيتنام بفشل آخر فى الاقتصاد، مما فتح الطريق أمام عودة الحزب الجمهورى إلى الحكم.

جاء هنرى كيسنجر إلى واشنطن عام ١٩٦٩ مع إدارة الرئيس نيكسون منحازاً إلى اتجاه «الامبراطورية» فى السياسة الأمريكية. وإذا كان لندن جونسون قد اكتسب أسلوب الخداع والكذب من تربيته السياسية فى ولاية تكساس[٦] ومن السنين الطويلة فى عقد الصفقات السياسية فى الكونغرس فى واشنطن، فقد كان هنرى كيسنجر يستعمل أسلوب الكذب والخداع بما هو اختيار أيديولوجى مبنى على أساس فكرى.



درس كيسنجر العلوم السياسية فى جامعة هارفرد، وفى عام ١٩٥٤ حصل على شهادة الدكتوراة، وبقى فى هارفرد ليعمل استاذاً وباحثاً فى معهد برامج الدفاع، كما انضم إلى مجلس العلاقات الخارجية فى نيويورك، وأصبح من المستشارين المقربين من نلسون روكفلر الذى كان حاكماً لولاية نيويورك (١٩٥٩-١٩٧٣). وفى منتصف الستينيات عندما أصبح الطلبة والأساتذة فى الجامعات الأمريكية من أشد معارضى حرب فيتنام، كان هنرى كيسنجر يكتب المقالات، ويظهر فى مساجلات تلفزيونية، مؤيداً للحرب.وقد اتضح فيما بعد أنه كان يفعل ذلك ليحصل على الشهرة، فقد كان مقتنعاً بأنه لا جدوى من استمرار الحرب لأنه ليس بإمكان الولايات المتحدة تحقيق الانتصار العسكرى.

جاء هنرى كيسنجر إلى واشنطن مستشاراً للأمن القومى فى إدارة الرئيس نكسون الاولى (ثم أصبح وزيراً للخارجية فى إدارة نيكسون الثانية) وعنده هدفان يريد أن يحققهما.

كان الهدف الأول يخص وضع الولايات المتحدة فى العالم، فقد كان مدركاً أن عجز إدارة جونسون عن دفع تكاليف الحرب فى فيتنام وتكاليف برامج الإصلاحات الداخلية له دلالة خطيرة، وهى أن الامبراطورية الأمريكية قد وصلت المرحلة التى تبدأ فيها الامبراطوريات بالانحدار، اى عندما يصبح وضع الامبراطورية الاقتصادى غير قادر على

كان ولتر ليبمان يحب العمل كصحفى، ولقد رفض الكثير من العروض المغرية للعمل فى وظائف لها احترام وتقدير أكبر

القيام بأعباء متطلبات الامبراطورية العسكرية. وكان مدركاً أيضاً أن سياسة توقيف الإنفاق على برامج الإصلاحات الداخلية، التى ينادى بها اليمين الأمريكى، هى سياسة غير حكيمة وستعمل على إضعاف الامبراطورية من الداخل، فهو فى موقعه فى الحزب الجمهورى لم يكن من المحافظين الرجعيين بل كان من المحافظين المعتدلين كنكسون، والذين يطلق عليهم فى السياسة البريطانية اسم المحافظين الحمر (Red Tories) وكان يعتقد أن بإمكان الولايات المتحدة تقليص تكاليف السياسة الامبراطورية، وذلك عبر إقامة توازن دولى جديد يقلص إلى حدود كبيرة إمكانية نشوب حروب مكلفة كحرب فيتنام. وكان يرى أن الظروف العالمية مواتية لإقامة توازن دولى جديد يحاكى التوازن الذى قام فى أوروبا طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو التوازن الذى تكرس بعد مؤتمر فيينا عقب هزيمة نابليون والذى لعب فى الإعداد له وزير خارجية بريطانيا روبرت كاستليرى (١٧٦٩-١٨٢٢) ووزير الدولة النمساوى كليمنس مترنيخ (١٧٧٣-١٨٨٥). فلقد كان موضوع أطروحة هنرى كيسنجر التى نال عنها شهادة الدكتوراة عام ١٩٥٤ هو «السلم والشرعية والتوازن: دراسة فى موهبة رجل الدولة عند كاستليرى ومترنيخ» ومن أجل تحقيق هدف بناء توازن دولى جديد، بدأ كيسنجر اتصالاته السرية بالصين.

أما هدف كيسنجر الثانى، فكان يخص وضع الصحافة والإعلام فى الولايات المتحدة بشكل عام. فلقد كان مقتنعاً أن إحدى مشاكل حرب فيتنام هى «أن التلفزيون الأمريكى قد أدخل الحرب إلى كل بيت أمريكى». ولذلك بدأ على الفور فى محاولة التأثير على الصحافة عن طريق عقد صداقات مع الصحفيين الذين يستطيعون أن يكونوا نجوماً «بنديتات» قادرين على التأثير فى الرأى العام بشكل يخدم مصالحه.

بعد أن ترك والتر ليبمان واشنطن، كان هناك كثيرون يطمح كل واحد منهم فى أن يخلفه ويصبح بنديت الصحافة الأول، وفى الحقيقة، كان هناك اثنان فقط لهما من القدرة والشهرة ما يؤهلهما لتبوؤ ذلك المركز.

كان الأول هو جوزيف ألسوب (١٩١٠-١٩٨٩) الذى كان يكتب عموداً فى جريدة نيويورك هيرالد تريبيون يتم نشره فى ٣٠٠ جريدة أخرى فى المدن الأمريكية. وكان جوزيف من أسرة لها صلة قرابة مع أسرة روزفلت التى جاء منها رئيسان للجمهورية: ثيودور (١٩٠١-١٩٠٩)



كيسنجر

وفرانكلين (١٩٣٣-١٩٤٥). كما كان من خريجى جامعة هارفرد وله سجل ممتاز فى الحرب العالمية الثانية. ولقد أصبح له شهرة كبيرة جداً فى الخمسينيات والستينيات، وخصوصاً أنه كان معروفاً بأنه من الصحفيين الذين يعملون بجهد كبير للتوصل للحقائق. كما أنه كان يتمتع بتقدير كبير لموقفه الشجاع فى الدفاع عن الصحفيين فى سنوات المكارثية السوداء. ولكن جوزيف ألسوب كان من أول ضحايا حرب الفيتنام، فلقد جره تأييده للحرب إلى أن يتخلى عن الموضوعية المهنية، فاستمر منذ منتصف عام ١٩٦٤ وحتى نهاية عام ١٩٦٨ يتنبأ كل بضعة أشهر بقرب انهيار الفيتكونغ وانتصار الولايات المتحدة بالحرب. وكان من الطبيعى أن يؤدى ذلك إلى خسارته صدقيته كصحفى ومحلل سياسى.

أما الصحفى الثانى فكان جيمس روستون (١٩٠٩-١٩٩٥) الذى كان يعمل مراسلاً لجريدة نيويورك تايمز ومديراً لمكتبها فى واشنطن، والذى كان الكثيرون يرون، فى مطلع السبعينيات، أنه أقوى صحفى فى واشنطن، ويجمع كل الذين كتبوا عنه بالإشادة بأخلاقه وقدرته اللامتناهية على العمل الدءوب ساعات طوالا من أجل الحصول على الأخبار الدقيقة ومن أكثر من مصدر واحد.

كان جيمس روستون معجباً جداً بوزير الخارجية دين أتشسون فى نهاية الأربعينيات. وكان فى تلك الفترة يكتب المقال تلو الآخر، مؤيداً سياسة الاحتواء التى كان أتشسون يقوم بالإشراف على تنفيذها فى إدارة الرئيس ترومان كما ورد سابقاً، وبعد ذلك، أصبح روستون صديقاً وتلميذاً لولتر ليبمان ووصف تلك الصداقة بقوله: «كان ولتر يستعمل قدمى وكنت أستعمل عقله». وكان فى ذلك يصف حقيقة أنه هو روستون كان يدور فى واشنطن طوال النهار بحثاً عن الأخبار، وفى المساء كان يقوم بعرض ما عنده على ليبمان الذى كان يقوم بشرح معنى تلك الأخبار ووضعها فى السياق الصحيح. وبعد سنتين من غياب ليبمان عن واشنطن، جاء هنرى كيسنجر ليملأ مكان الإعجاب الخالى فى عقل جيمس روستون وقلبه.

فى السنوات الأولى من عمر إدارة الرئيس نيكسون كان اسم جيمس روستون من ضمن أسماء «القائمة السوداء» السرية التى وضعها مساعدو الرئيس فى البيت الابيض، وهى القائمة التى تضمنت أسماء أعداء الرئيس من الصحفيين. وفى الوقت ذاته، كان جيمس روستون يكتب المقال تلو الآخر، مؤيداً سياسة كيسنجرالذى يعمل فى البيت الأبيض مستشاراً للأمن القومى. وقد وصل ذلك التأييد إلى ذروته عندما كتب روستون أحد مقالاته فى النيويورك تايمز بعنوان «بقلم هنرى كيسنجر مع جيمس روستون». وقد قادت تلك العلاقة إلى حادثة هامة فى نهاية عام ١٩٧٢. ففى منتصف كانون الأول / ديسمبر من ذلك العام، أقدمت الولايات المتحدة على قصف هانوى عاصمة شمال فيتنام بالطائرات فى العملية المشهورة باسم «قنابل عيد الميلاد»، وعندها، كتب جيمس روستون فى مقالته فى النيويورك تايمز يقول: «من المؤكد أن هنرى كيسنجر يعارض عمليات قصف هانوى، وهو لم يتحدث عنها بشكل علنى. وإذا استمر القصف ولم يتوقف، فإن من حقه أن يقدم أستقالته».

كان كتاب «ثقافة الاستسلام» ينتمون إلى يسار حركة التحرر العربى فى الستينيات والسبعينيات، ثم انقلبوا إلى أقصى اليمين فى مطلع التسعينيات

وما أن صدر المقال حتى جُن جنون الرئيس نيكسون، وذلك لأن هنرى كيسنجر كان هو الذى اقترح فكرة قصف هانوى، وهو الذى اقنع الإدارة بها. وعندما واجهه أعوان نيكسون بالموضوع أنكر كيسنجر أنه هو الذى أوحى لرستون بفكرة المقال، فلم يصدقه نيكسون، بل أمر بفحص سجل تليفونات كيسنجر فتبين أنه أجرى مخابرة تلفونية مع رستون قبل ساعات قليلة من صدور المقال فى النيويورك تايمز. وهكذا، أسس هنرى كيسنجر وبمساعدة جيمس روستون «صحافة التدخل السريع» فى واشنطن(٧).

لقد خدع كيسنجر روستون لأنه كان يريد تضليل الكونغرس وتضليل الشعب الامريكى وتضليل العالم. ومع ذلك، لم يعمد نكسون إلى إقالته، بل على العكس، قام بعد سنة بترقيته من مستشار للأمن القومى إلى وزير خارجية. كذلك، لم يغضب روستون من كيسنجر ولم يتوقف عن الإعجاب به، ونشر المقالات تأييداً لسياساته. فعندما تصل الصحافة إلى وضع «صحافة التدخل السريع» تكون الأمور قد وصلت إلى مرحلة اللاعودة.

عبد الناصر وهيكل والسادات

كان جيمس روستون يتمتع بمزايا شخصية جيدة، ومنها أنه كان يعرف قدر نفسه، فعندما سأله أحد أصدقائه لماذا يكتب دوماً مؤيداً سياسة الإدارة الموجودة فى الحكم، أجابه بأنه «إذا كنت صحفياً يسلك نهج انتقاد من هم فى السلطة، فسيأتى يوم يرفض فيه رجال السلطة الاجتماع بك والرد على مخابراتك التليفونية، وستجد نفسك فى النهاية وحيداً مع آرائك الشخصية، وأنا لا أحب ذلك، لأن آرائى الشخصية ليست جيدة»(٨).

كانت العواصم العربية مليئة بالصحفيين الذين ليس عندهم آراء شخصية جيدة، ولا يستطيعون الحياة بعيداً عن السلطة وما تؤمنه من امتيازات. ومع ذلك، شاءت الأقدار أن لايتم تدشين «صحافة التدخل السريع» بشكل رسمى فى العالم العربى الا بعد أن بدأ هنرى كيسنجر القيام بزياراته المكوكية للعواصم العربية وإسرائيل بعد حرب ١٩٧٣. كما شاءت الاقدار أن لا يتم ذلك التدشين إلا بعد ان ترك هيكل «أستاذ» الصحافة العربية عمله الصحفى فى القاهرة، تماماً كما تم تدشين

تلك الصحافة فى الولايات المتحدة بعد أن ترك ليبمان «بنديت» الصحافة الامريكية عمله الصحفى فى واشنطن.

من المعروف أنه طوال الخمسينيات والستينيات كانت هناك علاقة خاصة بين الرئيس جمال عبد الناصر والصحفى محمد حسنين هيكل. فقد كان هيكل يقدم المشورة والنصيحة لعبد الناصر فى الوقت ذاته الذى يشرح فيه للقارئ سياسة عبد الناصر ويشرح لعبد الناصر هموم واهتمامات القارئ. وكانت تلك العلاقة قوية وفعالة وناجحة، لأن ثقافة الرجلين كانت تسمح بوجود مساحة بينهما شبيهة بالمساحة التى كانت موجودة بين الرئيس ولسون وليبمان، أو الرئيس ديغول واندريه مورو. كان عبد الناصر وهيكل على اتفاق تام حول الإطار العام للمصلحة القومية، ولكن كانت هناك اختلافات كثيرة بينهما حول الأساليب والتفاصيل. وكان الرجلان قادرين على مناقشة تلك الخلافات بالحوار الذى يستفيد منه الاثنان. وعندما أصبح أنور السادات رئيساً للجمهورية بعد رحيل عبد الناصر فى نهاية عام ١٩٧٠، أصر على إبقاء العلاقة بينه وبين هيكل كما كانت أيام عبد الناصر. ولكنه حاول أن تكون علاقة بدون مساحة. ففى الشهر الأول من توليه رئاسة الجمهورية إتصل السادات بهيكل وأخبره بأنه شعر، أثناء اجتماعه الأخير مع جعفر النميرى رئيس جمهورية السودان، بأن النميرى مستاء من أن هيكل يقف ضده منحازا للمعارضة فى السودان. وقال السادات لهيكل إنه طمأن النميرى بأن ذلك غير صحيح وليثبت له ذلك فقد وعده بأن يكتب هيكل مقالاً يزيل فيه كل الشكوك حول الموضوع. بالطبع، اعتذر هيكل ولم يقبل أن يكتب مقالاً يحدد موضوعه رئيس الجمهورية، وبالطبع، فإن ذلك أغضب السادات لأنه اعتقد أن هيكل لا يعامله كما كان يتعامل مع عبد الناصر، ولم يخطر بباله أنه هو الذى يسعى لأن يتعامل مع هيكل بطريقة مختلفة عن طريقة عبد الناصر. وبعد حرب ١٩٧٣ وتوطد علاقة «الصداقة» بين كيسنجر والسادات والتى أسفرت عن انحياز سياسة الحكومة المصرية للمعسكر الأمريكى، كان من المستحيل بقاء أى علاقة بين السادات وهيكل، فترك الأخير رئاسة تحرير الأهرام، وتوقف عن الكتابة فى الصحافة المصرية. وكان لخروج هيكل من «الأهرام» تأثير على الصحافة المصرية مشابه إلى حد بعيد لتأثير خروج ولتر ليبمان من واشنطن على الصحافة الأمريكية. فلقد كان ما حدث مع الاثنين إعلاناً صارخاً مدوياً عن إلغاء المسافة بين السلطة والصحافة فى البلدين، فإما صحافة التأييد المطلق للسلطة وإما صحافة المعارضة الكاملة.

جورج ويل ورونالد ريغان

ليس هناك أى فرق فى العالم العربى بين «صحافة التدخل السريع» و«صحافة القارئ الواحد»، على أساس أن الصحفى الذى يكتب بعد استلام مكالمة تليفونية من مسؤول فى السلطة ينتهى إلى أن يكتب بشكل يرضى ذلك المسؤول فقط، وكلما ازداد رضا ذلك المسؤول عنه كلما ازداد حجم المكاسب والامتيازات التى يحصل عليها من السلطة.



أما الوضع فى الولايات المتحدة فهو ليس كذلك. ففى البيئة الديمقراطية الأمريكية لا يستطيع «كتاب التدخل السريع» أن يحتفظوا بصدقيتهم مدة طويلة كما أنهم لا يستطيعون التحول إلى «كتاب القارئ الواحد». ففى نهاية المطاف يحتاج الصحفى إلى مؤسسة إعلامية يعمل بها، وهذه تحتاج بدورها إلى تمويل الشركات التى لا تأتمر بأمر رجل واحد، حتى لو كان رئيساً للجمهورية أو رئيساً للمخابرات. ولذلك، فإن فهم التطور الذى حصل مع «صحافة التدخل السريع» التى أسس لبداياتها هنرى كيسنجر فى أوائل السبعينيات يتطلب فهم تطورين هامين حصلا فى المجتمع الأمريكى فى أواخر السبعينيات.



لم يعد ولتر ليبمان قادراً على أن يمارس دوره، ولم يعد قادراً على مزاولة مهنة الصحافة، فكتب آخر مقال له فى عمود واعتزل العمل الصحفى





ولتر ليبمان

يخص التطور الأول مجمل الأوضاع الاقتصادية فى بداية السبعينيات، حين لم يعد ممكناً السير على الطريق الذى سارت عليه إدارة الرئيس جونسون فى الإنفاق على الحرب فى فيتنام وعلى برامج الإصلاح الداخلية عن طريق الاستدانة من الداخل والخارج. فلقد قادت تلك السياسة إلى تفاقم أزمة الغلاء والتضخم المالى، كما أن أزمة الطاقة قادت إلى مشكلة الانكماش وارتفاع معدلات البطالة عن العمل. وما أن انتصف عقد السبعينيات، حتى كان الاقتصاد الأمريكى يعانى من الازمة المزدوجة التى أطلق عليها اسم الانكماش التضخمى (Stagflation)، وهى مشكلة لم يعان منها الاقتصاد الأمريكى من قبل. وعندما استفحلت الأزمة وعجزت سياسات الحكومة الاتحادية التقليدية عن التخلص منها أوحتى وقف تفاقمها، اتضح بشكل صارخ أن التاريخ الأمريكى قد وصل إلى لحظة الحقيقة. فلم يعد ممكناً أن يتعايش اتجاه «الحرية» مع اتجاه «الامبراطورية»، وعلى الحكومة الاتحادية أن تختار بين الإنفاق على التسلح أو الانفاق على برامج الإصلاحات الداخلية.

فى هذه الفترة، ظهرت مجموعة من الكتاب الذين أخذوا يصرخون بأصوات عالية جداً محذرين من تعاظم قوة الاتحاد السوفياتى وتهديدها للأمن القومى الأمريكى. وفى الوقت ذاته، أخذ أولئك الكتاب يتهمون الصحف الرئيسية فى الولايات المتحدة أنها تدعى الموضوعية ولكنها منحازة فى الواقع للتيار الليبرالى فى السياسة الداخلية ولتيار التفاهم مع الاتحاد السوفياتى فى السياسة الخارجية، وأنها تقوم بتضليل الشعب الأمريكى وحجب حقائق الخطر السوفياتى عنه. ولقد وجد أولئك الكتاب بسرعة مذهلة عناصر فى اليمين الأمريكى تمول لهم مجلات جديدة ومراكز أبحاث جديدة للدعوة إلى سياسة محافظة فى الداخل تتناقض مع سياسات الإصلاحات الداخلية، والى سياسة متشددة ضد الاتحاد السوفياتى تعتمد على زيادة الإنفاق على التسلح، أى الانحياز الكامل لاتجاه «الامبراطورية» ومحاربة اتجاه «الحرية». ولقد تم فيما بعد تسمية التيار الذى مثله أولئك الكتاب بتيار «المحافظين المحدثين» وانتقل ذلك الاسم فى الصحافة العربية خطأ لاسم «المحافظين الجدد».

أما التطور الثانى الذى حصل فى نهاية السبعينيات وكان له تأثير كبير على الصحافة الأمريكية، فهو تكريس انتصار الاعلام المرئى فى منافسته مع الاعلام المقروء. فقد أصبح المواطن العادى يسمع الأخبار من التليفزيون أكثر مما يقرأها فى الصحف، كما أصبح يتعرف على معنى القضايا المطروحة ومضمونها من مشاهدته برامج الحوارات السياسية فى التليفزيون، أكثر من قراءته لافتتاحيات الصحف. وهكذا، لم يعد ممكناً تواجد نجم أو بنديت صحفى إذا كان يحصر عمله فى الصحافة المقروءة فقط. لقد أصبح النجم الصحفى هو الذى يظهر بشكل دورى على شاشة التليفزيون حيث يشاهده عشرات الملايين. وخبا نجم الصحفى الذى يكتب ويقرأه عشرات الآلاف أو حتى مئات الألوف.

كانت النتيجة الأولى لهذين التطورين الهامين تكريس وضع مؤسسى لرعاية «صحافة التدخل السريع» يمنحها صفة الاستمرار ويجنبها مشاكل الرغبات والأهواء الفردية. وقد تم ذلك عبر تسخير برامج حوارية فى التليفزيون، تبدو من ناحية ظاهرية أنها تهدف إلى تعريف المواطن الأمريكى على وجهات النظر المختلفة حول القضايا السياسية المطروحة، بينما هى تهدف فى حقيقة الأمر أولا وأخيراً إلى إقناع المواطن بوجهة نظر الحكومة حول تلك القضايا. ففى آخر الستينيات ومطلع السبعينيات، أنشات كل قناة تليفزيون أمريكية برنامجاً حوارياً يضم ثلاثة أو أربعة من نجوم «بنديتات» الصحافة المكتوبة، يتحاورون لمدة ساعة أو نصف ساعة كل أسبوع حول أهم قضايا

كان هيكل يشرح فيه للقارئ سياسة عبد الناصر ويشرح لعبد الناصر هموم واهتمامات القارئ

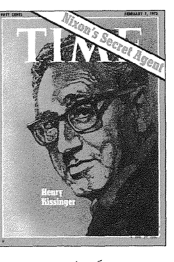


الأحداث، ويستضيفون دوماً واحداً من كبار المسؤولين في الإدارة، كوزير الخارجية أو وزير الدفاع أو مستشار الأمن القومي أو أحد أعضاء مجلس الشيوخ. ويبدو للمشاهد أن المسؤولين عن البرنامج قاموا بأنفسهم باختيار المسؤول الحكومي الذي يظهر في البرنامج ليتحاوروا معه. ولكن، في الواقع، يقوم موظفو البيت الأبيض بتحديد من سيظهر من مسؤولي الإدارة في كل برنامج كل أسبوع. والأهم من ذلك هو أنه بعد أن ينتهي المسؤول الحكومي من شرح وجهة نظره حول القضية المطروحة و يبدأ نجوم الصحافة في توجيه الأسئلة والحوار معه، تتحول الجلسة إلى حوار حقيقي عندما تكون القضايا المطروحة داخلية بحتة كقضايا الضرائب والانفاق الحكومي على المجالات المختلفة أو قضايا الاجهاض أو برامج الرعاية الصحية... الخ. ولكن، إذا كانت القضية تخص الانفاق العسكري أو الشرق الاوسط أو الحرب على الارهاب، فإن «جلسة الحوار» تتحول إلى مشهد وصفه أحد الكتاب الأمريكيين بأنه أقرب ما يكون إلى مشهد «قادة الهتيفة» (Cheers Leaders)، وهو مشهد البنات الجميلات اللواتي يظهرن نصف عاريات على شاشة التلفزيون في مباريات كرة القدم يرقصن ويهتفن تشجيعاً للفريق. أي أن يكون هدف كل أسئلة نجوم الصحافة هو إعطاء المسؤول الحكومي الفرصة ليؤكد على النقاط الرئيسية في موقف الإدارة. فليس هناك نقاش وليس هناك حوار. وهكذا، تحولت برامج التلفزيون الحوارية ببريقها الديموقراطي إلى مقر الإقامة المفضل «لصحافة التدخل السريع».



وهنا يبرز السؤال الطبيعي التالي : إذا كان البيت الأبيض هو من يحدد من سيمثل الحكومة في برامج التلفزيون الحوارية كل أسبوع، فمن الذي يحدد من سيشترك من نجوم الصحافة في البرامج كل أسبوع؟ من الذي يصنع نجوم أو «بنديتات» الصحافة الأمريكية؟.

أشهر برامج الحوارات التلفزيونية هي برنامج «أغرونسكي وشركاه» في محطة التلفزيون العام وبرنامج «داخل واشنطن» في محطة CBS، وبرنامج «هذا الأسبوع مع ديفد برنكلي» الذي أصبح اسمه الآن «هذا الاسبوع مع جورج ستيفانوبليس» في محطة ABC، وبرنامج «العصابة الرئيسية» في محطة



كيسنجر

CNN، وبرنامج «مجموعة ماكلاليغن» في محطة NBC.

عند التدقيق في تاريخ هذه البرامج نلاحظ أن لكل برنامج مشرفا يقوم بدور توزيع الأدوار، وقد احتفظ ذلك المشرف، في كل البرامج، بوظيفته لمدة طويلة، وعادة حتى سن التقاعد أو الوفاة. ونلاحظ أن العكس تقريباً هو ما حصل مع نجوم الصحافة الذين يشتركون في البرامج، حيث تتغير الوجوه بسرعة. هناك من ظهر لمدة أشهر فقط، وهناك من حافظ على موقعه لبضع سنوات، ما عدا نجم واحد الذي هو جورج ويل الذي أبتدأ بالظهور عام ١٩٧٧ في برنامج أغرونسكي وشركاه ثم أخذ يظهر في الوقت ذاته في البرنامج الحواري لمحطة ABC عندما ابتدأ عام ١٩٨١، وما يزال يظهر عليه حتى يومنا هذا مع أن كل الذين ظهروا معه في بداية البرنامج غابوا عنه واحداً بعد الآخر، كما جاء بعدهم من عمل لمدد قصيرة ثم أختفى. فما هو سر جورج ويل؟

كان جورج ويل في أوائل السبعينيات أستاذ جامعة يدرس مادة «فلسفة السياسة»، ثم ترك الحياة الأكاديمية وعمل مستشاراً لأحد أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين. وعندما سقط ذلك الشيخ في انتخابات ١٩٧٢، انتقل جورج ويل ليعمل في مجلة «المصلحة القومية». وكانت هذه في تلك الفترة من أهم وسائل الإعلام التي تمثل الفكر المحافظ وتعادي الفكر الليبرالي. وبسرعة صاروخية، تمكن ويل خلال مدة قصيرة من أن يصبح نجماً صحفياً يظهر على برامج التلفزيون بشكل دائم، ويكتب مقالات صحفية أسبوعية في جريدة الواشنطن بوست ومجلة نيوزويك، وينشر الكتب، ويدعى لإلقاء المحاضرات في الجامعات. لقد



أصبح «بنديت كبيراً» في فترة قصيرة جداً، وكان سر ذلك النجاح غير المسبوق هو أن جورج ويل فهم بشكل مبكر جداً التغيرات التي حصلت في أوضاع الصحافة في عصر التليفزيون، فأدرك أن القرب من السلطة هو شرط أساسي للبقاء والمحافظة على وضع البنديت، حتى يبقى مطلعاً على الذي يدور في عالم صنع القرار، ولكن ذلك ليس كافياً لتأمين الاستمرار في مركز البنديت، فالسلطة لا تستطيع الضغط على الشركات الكبرى للاستمرار في تمويل البرنامج التلفزيوني الذي يظهر فيه البنديت. والقادر على ذلك في البيئة الأمريكية، هم فقط مراكز الضغط (Lobbies)، وعملاً بهذا الفهم اختار جورج ويل منذ البداية تأييد إسرائيل بشكل مطلق حتى يضمن تأييد أقوى مركز ضغط في الولايات المتحدة وهو اللوبي اليهودي، ومن ناحية أخرى، وجد جورج ويل في حاكم ولاية كاليفورنيا رونالد ريغان أفضل من يمثل الاتجاه المنحاز كلياً لمعسكر «الامبراطورية» والمعادي كلياً لمعسكر «الحرية» في السياسة الأمريكية. فقد كان ريغان يتمتع بصفتين متناقضتين، قل أن يتمتع بهما أي سياسي، فهو بما هو ممثل سينمائي محترف، عنده قدرة متميزة على الخطابة وإقناع المواطن الأمريكي العادي بأنه مؤمن بالذي يدعو له وليس واحداً من السياسيين الذين يقولون أي شيء من أجل الفوز بأصوات الناخبين، بينما كان في الحقيقة يزاول العمل السياسي بدون

كانت العلاقة بين ناصر وهيكل ناجحة، لأن ثقافة الرجلين كانت تسمح بوجود مساحة بينهما شبيهة بالمساحة التي كانت موجودة بين الرئيس ديغول واندريه مورو

أي فلسفة، أو مبادئ أو قناعات. وكان مستعداً أن يترك لمعاونيه ومساعديه ترتيب الأولويات ورسم السياسات واقتراح البرامج، بينما يكتفي هو بعرضها على المواطن الأمريكي. وكان يعرضها بشكل ناجح وفعال حتى وصفته وسائل الاعلام بأنه «المتحدث العظيم» (The Great Communicator) ولذلك، أصبح جورج ويل من أشد المتحمسين والداعين والمؤيدين لترشيح رونالد ريغان لرئاسة الجمهورية في انتخابات ١٩٨٠. وعمل اثناء الحملة الانتخابية مستشاراً لريغان، ووصل الأمر به إلى أن يعمل مدرباً لريغان في الساعات التي سبقت مناظرته التلفزيونية مع الرئيس كارتر ثم أن يجلس أثناء المناظرة في مقعد المراقب الصحفي لمحطة ABC وينقل للمشاهد تقييمه لأداء المتناظرين. ولقد رأى بموضوعية تليق بصحافة «أولاد آدو» أن ريغان كان أفضل من كارتر في المناظرة. وبعد انتخاب ريغان، عمل جورج ويل كمستشار غير رسمي للرئيس وكتب له بعض خطاباته.

استمرت إدارة ريغان ثماني سنوات (١٩٨١-١٩٨٩). وطوال تلك السنوات، كان جورج ويل يملأ الفراغ الفكري الموجود في عقل رونالد ريغان، تماماً كما كان هنري كيسنجر قبل سنوات يملأ فراغ الإعجاب الموجود في نفسية جيمس روستون. ولكن الشبه بين هنري كيسنجر وجورج ويل لم يتوقف على ذلك. فإذا كان هنري كيسنجر قد نجح على المستوى الاستراتيجي في تكريس الصراع العربي - الاسرائيلي جزءاً من الصراع بين الولايات المتحدة وبين الإتحاد السوفياتي في سنوات الحرب البارده، فقد نجح جورج ويل في وقتنا الراهن في تكريس الصراع العربي-الإسرائيلي جزءاً من الصراع بين الأنظمة الديمقراطية والإرهاب العالمي. فهو يعرض قضية إسرائيل على أنها مقطع من التاريخ الأمريكي، إذ أنه يؤكد أن الخطر الذي يهدد إسرائيل هو في كونها تمثل في الشرق الأوسط الاستثناء وليس القاعدة، من حيث كونها الدولة الديمقراطية الصغيرة المسالمة التي تعيش وسط عالم عربي كبير تحكمه الدكتاتوريات المتعطشة للدماء. وبشكل مماثل فهو يرى أن الخطر الذي يهدد الديمقراطية الأمريكية هو في كونها الاستثناء في التاريخ وليس القاعدة، من حيث أن الأنظمة الشمولية المعادية هي أكثر تمثيلاً للأنظمة التي حكمت في التاريخ.

وقد شاركه في الانحياز المطلق لإسرائيل صحفيون

آخـرون، مـن أشهرهم وليـم سـافـايـر (١٩٢٩-) فى النيويورك تايمز، وتشارلز كروثمار (١٩٥٠-) فى الواشنطن بوست. ففى الثلاثين سنة الماضية تبنى هؤلاء الثلاثة مواقف متباينة تجاه كثير من القضايا، كما أن كل واحد منهم تبنى مواقف تختلف عن مواقف تبناها فى السابق تجاه قضايا معينة بعد تغير الظروف، ولكن لم يحدث أبداً خلال كل تلك السنوات أن اتخذ أى واحد منهم موقفاً ينتقد فيه إسرائيل، وأكثر من ذلك فهم يهاجمون بشكل دائم ما يسمى بحركة السلام فى إسرائيل ويعتبرون أن دعوتها لتقديم بعض «التنازلات» من الجانب الإسرائيلى من أجل التوصل للسلام مع العرب سياسة خطرة وضارة.

وإذا أردنا أن ناخذ مثالاً حياً على أسلوب عمل «صحافة التدخل السريع» المندمجة فى «صحافة مراكز الضغط»، فعلينا أن ننظر إلى ردود فعل جورج ويل على الخطاب الذى ألقاه الرئيس باراك أوباما فى جامعة القاهرة يوم ٤ حزيران/يونيو ٢٠٠٩. بعد الخطاب مباشرة، قال جورج ويل فى أحاديثه التلفزيونية وفى محاضرة ألقاها فى احتفال لتسلم إحدى الجوائز التى تمنحها له المؤسسات اليمينية بشكل دورى، إن الرئيس أوباما نسى أن يذكر الحقائق التالية فى خطابه:

- لم يكن هناك دولة فلسطينية عبر التاريخ حتى قيام الانتداب البريطانى عام ١٩١٨.
- إن أسرائيل قامت عام ١٩٤٨ على مساحة أرض تساوى سدس من واحد بالمئة من مساحة الأرض التى تعرف بالعالم العربى، ومع ذلك فالعرب لا يعترفون بها.
- لم تنعم إسرائيل خلال واحد وستين سنة من عمرها بثانية واحدة من السلام الحقيقى بسبب الاعتداءات العربية عليها.
- الضفة الغربية ليست كما وصفها الرئيس أرضاً محتلة من قبل إسرائيل، إنها أرض تركت بلا ملكية بعد انتهاء الانتداب البريطانى عام ١٩٤٨، وتم احتلالها بشكل غير شرعى من الأردن حتى عام ١٩٦٧ حين احتلتها إسرائيل بشكل شرعى نتيجةً لتصديها للاعتداء عليها من قبل الأردن فى حرب ذلك العام.

كما أكد ويل أنه من العار على الولايات المتحدة أن تحاول إنتهاج سياسة منصفة ومتوازنة بين العرب وإسرائيل. إذ كيف يمكن لأمريكا أن تساوى بين عالم عربى لا يسعى إلا إلى التحطيم والدمار وبين اسرائيل التى لا تسعى إلا إلى حماية الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط.

وبعد ذلك، بدأ ويل فى كتابة المقالات الصحفية والحديث فى برامج التلفزيون الحوارية مهاجماً سياسات إدارة الرئيس أوباما الداخلية بقسوة لم يمارسها من قبل،حتى وصل به الأمر إلى القول فى مقاله فى الواشنطن بوست فى الأسبوع الأول من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٩ إن أوباما أصبح رئيساً غير فعال وإنه يحاول القيام بمهمات كثيرة بدون جدوى، وإنه أصبح كموسيقى المصاعد، هى دائماً مسموعة، ولكن لا أحد ينصت لها.

وعلى الأغلب أن هذا هو الأسلوب الذى ستتبعه صحافة أولاد آدو فى الولايات المتحدة تجاه الرئيس أوباما فهم لن يهاجموه بشكل مباشر على موقفه من الاستيطان اليهودى فى الضفة الغربية، ولكنهم سيركزون هجومهم على سياساته الداخلية، فهذا هو الأسلوب الذى اتبعوه مع الرئيس بوش الأب عندما قامت إدارته بربط موضوع ضمان حكومة الولايات المتحدة لاقراض إسرائيل عشرة مليارات دولار بوقف الاستيطان اليهودى فى الضفة الغربية فى مطلع التسعينيات. فصحافة أولاد آدو فى الولايات المتحدة تتصرف على أساس إعتبار أى اختلاف مع السياسة الاسرائيلية جريمةً يجب معاقبة مرتكبها أشد أنواع العقاب. ولقد تبنت صحافة أولاد آدو فى العالم العربى ذلك



بدأ كيسنجر فى التأثير على الصحافة عن طريق عقد صداقات مع الصحفيين الذين يستطيعون أن يكونوا نجوماً قادرين على التأثير فى الرأى العام بشكل يخدم مصالحه





ولتر ليبمان

الموقف عندما أخذت تكرس فكرة ان السلام مع إسرائيل هو الخيار الوحيد وأخذت تحرض ضد المقاومة فى لبنان وفلسطين.

مستقبل صحافة أولاد آدو

قبل أكثر من نصف قرن، قال ولتر ليبمان: «إن أزمة الديمقراطية الأمريكية هى فى جوهرها أزمة صحافة»، والذى يقصده بذلك هو أن التطبيق الناجح للديمقراطية يتطلب وجود المواطن الذى عنده معرفة حقيقية بالقضايا السياسية المطروحة حتى يتمكن من ممارسة الاختيار السليم للحكومة التى تمثله وتكون قادرة على التعامل مع تلك القضايا على الشكل الذى يرضيه، ولكن طبيعة الحياة الحديثة تجعل من المستحيل أن يكون عند المواطن العادى الوقت الكافى ليصبح مواطناً مطلعاً على حقائق الأمور. ولذلك فإن للصحافة دوراً مركزياً فى تثقيف المواطن وتعريفه على حقيقة ما يدور حوله من قضايا وأمور. وكان ليبمان يرى أن الصحافة فى وقته لا تقوم بذلك الدور بشكل فعال، حيث لا يقوم الصحفيون بنقل حقيقة الأوضاع السياسية للقارئ، ولكنهم ينقلون له دوماً وجهة نظرهم حول تلك الحقيقة، وغالباً ما تكون وجهة النظر تلك مما يخدم مصالح معينه وليس المصلحة العامة.

ولقد رأينا أن المشكلة مع صحافة «أولاد آدو»، سواءً فى الولايات المتحدة أو فى العالم العربى، ليس أنها لا تقوم بنقل الحقيقة بشكل كامل للمواطن. بل إن المشكلة مع تلك الصحافة هى أنها تقوم بدور تضليل المواطن بشكل دائم. ففى خلال عقد الثمانينيات، مارست صحافة أولاد آدو أكبر عملية تضليل فى تاريخ الولايات المتحدة. ففى الوقت الذى كان الاتحاد السوفياتى على فراش الموت، كانت تلك الصحافة تؤكد للمواطن الأمريكى أن الاتحاد السوفياتى يتقدم بسرعة كبيرة ويزداد تهديده للأمن القومى الأمريكى يوماً بعد يوم. وكانت تلك الصحافة تعتمد فقط على تقارير وكالة الاستخبارات الأمريكية التى أكدت أن الاتحاد السوفياتى فى سنوات ١٩٨١-١٩٨٥ قد نما اقتصادياً بمعدل أكبر من معدل نمو دول الاتحاد الاوروبى بحوالى ٢٥ ٪. كما كانت تلك التقارير قد أكدت فى منتصف الثمانينيات أن متوسط دخل الفرد فى ألمانيا الشرقية أعلى من متوسط دخل الفرد فى المانيا الغربية.

أما فى العالم العربى، فصحافة أولاد آدو تمارس، منذ بداية عقد التسعينيات من القرن الماضى، أكبر عملية تضليل فى التاريخ العربى الحديث، فى تأييدها وحماسها للعملية السلمية مع إسرائيل. ويوماً بعد الآخر، وسنة بعد سنة، يتضح خطر الاستمرار فى تلك العملية على القضية الفلسطينية وعلى المصالح العربية العليا، بينما يزداد تأييد صحافة أولاد آدو للعملية ودعوة الدول العربية التى لم تشترك بعد فى العملية إلى ضرورة الإسراع بالانخراط فيها.



وفى النهاية علينا أن نلاحظ ثلاثة أمور لها أهمية كبيرة.

الأمر الأول هو أن صحافة أولاد آدو فى الولايات المتحدة، أصبحت عبارة عن حوار مستمر بين ممثلى السلطة وممثلى مراكز الضغط، ولم تعد هناك صحافة لها الاستقلالية التى كانت تدعى «السلطة الرابعة». وفى هذا المجال، يكفى ان نلاحظ الفرق بين تغطية الصحافة الأمريكية لحرب الفيتنام وتغطيتها لحرب غزو العراق. ولذلك، أصبح تأثير تلك الصحافة على الرأى العام ضئيلاً جداً. فعندما نقوم بالاطلاع على نتائج استفتاءات الرأى العام فى الولايات المتحدة فى ربع القرن الماضى، نجد أن أراء غالبية الرأى العام كانت دوماً متناقضة مع آراء نجوم الصحافة والتليفزيون. ففى منتصف الثمانينيات، عندما كان نجوم الصحافة يتحدثون بشكل مستمر عن خطر الاتحاد السوفياتى كامبراطورية للشر فى العالم تهدد الامن القومى

جرى تكريس برامج حوارية فى التلفزيون، تبدو أنها تهدف إلى تعريف المواطن على وجهات النظر المختلفة حول القضايا المطروحة



الأمريكى والسلام العالمى، كانت استفتاءات الرأى العام تبين أن أقلية (حوالى ٢٠ ٪) تعتقد أن هناك خطراً سوفياتياً على الولايات المتحدة، وأن الغالبية تعتقد أن ما يهدد المجتمع الأمريكى هو الفقر والجريمة وتدنى مستوى النظام التعليمى. وفى التسعينيات، عندما كان نجوم تلك الصحافة يتحدثون دون توقف عن خطر نظام صدام حسين فى العراق على الأمن القومى الأمريكى لم يظهر ذلك الخطر على الإطلاق فى أى استفتاء للرأى العام الأمريكى. وبعد غزو العراق وبينما كانت غالبية نجوم تلك الصحافة تطالب بضرورة بقاء الجيش الأمريكى فى العراق كانت غالبية الرأى العام تطالب بضرورة الانسحاب الفورى من العراق. وحتى فى الأسابيع الأخيرة، بينما كانت غالبية نجوم تلك الصحافة يصرون على أنه من الخطأ أن تقوم الحكومة الاتحادية بأى دور فى تأسيس نظام قومى للرعاية الصحية، أظهر استطلاع غالوب للرأى العام أن غالبية الرأى العام الأمريكى تعتقد أن من واجب الحكومة الاتحادية أن يكون لها دور أساسى فى ذلك البرنامج.

أما فى البلاد العربية، فليس هناك أى تأثير لصحافة أولاد آدو على الرأى العام العربى، من حيث أنها، فى واقع الأمر، صحافة تستعمل «لغة زائفة» تصف فيها «أحداثاً زائفة» تحدث فى «بيئة زائفة». وأى انسان يقضى أياماً معدودات فى أى بلد عربى يمكن أن يتعرف على تلك الحقيقة بسرعة. أما من يشك فى ذلك فعليه أن يقارن مواقف صحفيى أولاد آدو فى العالم العربى مع نتائج أستطلاعات الرأى العام التى لها مصداقية أكاديمية. وعلى سبيل المثال، إذا أخذنا نتائج استطلاع الرأى العام الذى تقوم به مؤسسة بحثية من جامعة ميرلاند الأمريكية كل سنة فى كل من مصر والسعودية والاردن ومراكش والامارات وقارنا تلك النتائج مع آراء صحافة أولاد آدو فى العالم العربى، فسنجد أن مواقف غالبية الرأى العام العربى مناقضة لتلك الآراء بشكل كلى ودائم. فعلى سبيل المثال، منذ سنوات وصحفيو أولاد آدو يتحدثون عن الخطر الإيرانى على العالم العربى وخطر برنامج إيران النووى على الاستقرار فى المنطقة، وفى كل سنة من السنوات الماضية (٢٠٠٤-٢٠٠٩) وغالبية الرأى العام العربى، وفق الاستطلاعات، ترى أن إيران ليست خطراً على العرب، وأنه من حق إيران الاستمرار فى برنامجها النووى، كما ترى أنه إذا حصلت إيران على القنبلة النووية فإن ذلك سيشكل حدثاً إيجابياً فى المنطقة.



كيسنجر

وبالنسبة للولايات المتحدة، التى ترى فيها صحافة أولاد آدو العربية حليفاً استراتيجياً والقوة التى تكفل الاستقرار والتقدم فى المنطقة والقادرة على حل الصراع العربى-الاسرائيلى بشكل عادل، فإن الغالبية الساحقة (أكثر من ٨٥ ٪) من الرأى العام العربى، وفق الاستطلاعات، لا تثق بالولايات المتحدة بل تعتبرها منحازة لإسرائيل بشكل مطلق وتعتبر سياساتها خطراً على العرب. ومن ناحية أخرى، ففى السنوات الاخيرة، خصوصاً بعد انتصار المقاومة فى حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦ فى لبنان، إنصب غضب إعلام أولاد أدو المقروء والمرئى بشكل هستيرى على قائد المقاومة السيد حسن نصر الله، هذا فى الوقت الذى أظهرت فيه استطلاعات الرأى العام العربى فى كل سنة من السنوات الخمس الماضية أن السيد نصر الله يحتل مرتبة الزعيم الأكثر شعبية فى العالم العربى.

أما الأمر الثانى، فهو أننا رأينا أن «صحافة أولاد آدو» فى الولايات المتحدة صنعت وما تزال تصنع نجوماً وأسماء لامعة، بينما عجزت «صحافة أولاد آدو» فى العالم العربى، عن صنع أى اسم معروف على المستوى الشعبى. ويعود هذا الفرق بين الاثنتين، بحكم طبائع الأمور، إلى أن الأولى تمثل مصالح حقيقية لقوى راسخة الحضور فى المجتمع الأمريكى،ولو كانت تعمل على العودة بالتاريخ إلى الوراء، بينما لا تمثل الثانية أى مصالح حقيقية فى العالم العربى، فصحافة «التدخل السريع» وصحافة «القارئ الواحد» لا تمثل إلا مصالح أفراد على أتم الاستعداد للالتزام اليوم بموقف ثم الدفاع عن موقف مناقض له فى الغد. إنهم فى الواقع لا يمارسون إلا مهنة الطباعة وليس مهنة الكتابة. أما كتاب «ثقافة الاستسلام»، فلقد رأينا أنهم يدعون إلى تأييد السياسة الأمريكية فى العالم العربى بحجة أن الولايات المتحدة هى ممثلة «الحداثة» فى عصرنا.. ولقد رأينا كيف أنهم، فى حقيقة الأمر، يؤيدون سياسات ألد أعداء الحداثة فى المجتمع الأمريكى ويعادون الممثلين الحقيقيين للحداثة فى ذلك المجتمع. إن ولاءهم الحقيقى ليس لمفهوم الحداثة ولكن لجبروت القوة فى العالم العربى، وفى الولايات المتحدة، وفى فلسطين المحتلة، والتبعية للقوة لا تصنع كتاباً.

أما الأمر الثالث، وهو التوأم المنطقى للأمر الثانى، فيخص وجود صحافة حرة شريفة تعمل بشكل شجاع وفى ظروف صعبة فى العالم العربى وفى الولايات المتحدة ولها تأثير هائل على الرأى العام. ففى العالم العربى، يكفى ان نلاحظ إهتمام الناس الكبير ببرنامج «مع هيكل» فى قناة الجزيرة «الذى يبث مساء كل خميس فيختفى كل أولاد آدو فى العالم العربى وراء سور دمشق القديم، ولمدة ساعة كاملة يرتفع فقط صوت الحوار الحر بين ماضى العرب وحاضرهم ومستقبلهم. كما يكفى أن نرصد الأثر الذى يحدثه نشر مقال من مقالات سيمور هيرش فى مجلة النيويوركر الأمريكية،بين آونة واخرى. فنحن نرى كيف يصمت الضجيج المزعج فى صحافة أولاد آدو المرئية والمقروءة فى الولايات المتحدة، وكيف يضطر الجميع إلى الاستماع إلى قصص الفضائح الجديدة التى ارتكبتها حكومة الولايات المتحدة فى العالم العربى مع تواطؤ صحافة أولاد أدو هنا وهناك.

يظهر من هذه الأمور الثلاثة أن هناك مقاومة حقيقية وناجحة لصحافة أولاد أدو فى العالم العربى وفى الولايات المتحدة. وتتم هذه المقاومة فى الولايات المتحدة فى سياق الصراع بين اتجاه «الامبراطورية» واتجاه «الحرية» فى السياسة الأمريكية. كما تتم فى العالم العربى فى سياق الصراع بين اتجاه «التبعية» واتجاه «التحرر».وغنى عن القول أن مستقبل الصراع الدائر فى الولايات المتحدة يؤثر بشكل مباشر على مستقبل الصراع فى العالم العربى. وغنى عن القول أيضاً أن العكس صحيح. ■

> تذكرنا «برامج الحوار» بمشهد Cheers Leaders، نصف عاريات فى مباريات كرة القدم يرقصن ويهتفن تشجيعاً للفريق

هوامش

(١) بلال الحسن(٢٠٠٥). ثقافة الاستسلام بيروت: رياض الريس للكتب والنشر ص.٨٠.

(٢) أنظر مقال «الستالينية الأمريكية» فى وجهات نظر عدد يناير ٢٠٠٦.

(٣) ألذى اطلق لقب البنديت لأول مرة على ولتر ليبمان كان هنرى لوس صاحب مجلة التايم الذى تخرج من جامعة ييل والتى فيها ناد للطلبة المتفوقين باسم (Pundits club).

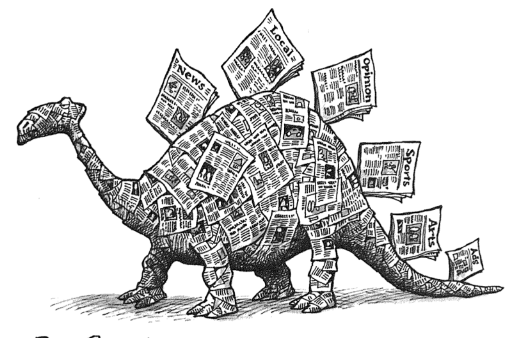
(٤) صوت ٤٨ عضواً فى مجلس الشيوخ مع القرار وعارضه أثنان فقط أما مجلس النواب فقد صوت ٤٥٢ نائباً مع القرار ولم يعارضه أحد.. ومن المعروف أنه أتضح فيما بعد أن الحادثة كانت غير صحيحة وأن الادارة قامت بخداع الكونغرس.

(٥) صدر كثير من الكتب عن السيرة الشخصية للرئيس لندن جونسون. ومن أهمها كتاب سنوات لندن جونسون للمؤرخ روبرت كارو الذى صدر منه حتى الان ثلاثة مجلدات، هى، «الطريق إلى القوة» (١٩٨٢)، و«طرق الصعود» (١٩٩٠)، «سيد مجلس الشيوخ» (٢٠٠٢) وسيصدر بعد سنتين المجلد الرابع. وصفحات المجلدات الثلاثة مليئة بقصص الكذب والخداع التى مارسها جونسون فى حياته منذ أن كان سياسياً ناشئاً فى ولاية تكساس، ثم وهو عضو فى مجلس النواب الاتحادى، ثم عضو فى مجلس الشيوخ، ثم رئيس الاغلبية فى مجلس الشيوخ، ثم نائباً للرئيس.

(٦) كان لندن جونسون مغرماً بترديد حكاية ساخرة فى مجالسه الخاصة عن إن أصل جورج واشنطن هو فى الواقع من ولاية تكساس، وذات يوم وهو فى الثامنة من عمره جاء والده غاضباً يسأل العمال الذين يعملون فى مزرعته عن الذى قام بقصف جذع من أحد الاشجار، فما كان من الصغير جورج الا ان تقدم وقال: «يا والدى أنا لا استطيع أن أكذب،انا ألذى قصف جذع الشجرة». وعندما قال له الوالد: «يا بنى إذا كنت لا تستطيع أن تكذب فهذا يعنى أنك لا تستطيع أن تعيش فى تكساس»، وهكذا قام الوالد ببيع المزرعة والانتقال بعائلته إلى ولاية فرجينيا

(٧) انظر كتاب سيمور هيرش (Summit Books,1983) (The price of power: Kissinger in the Nixon white house

(٨) انظر (Eric Alterman, Harper,1992) Sound and Fury



حبر «الأيام الخوالى»



مايكل ماسينج
Michael Massing



انهار توزيع الصحف والجرائد.. وتراكمت الديون والخسائر، وأصبح كثير من الصحفيين التقليديين بلا وظيفة... ولكن انتبهوا... هل رأيتم ماجرى فى ايران؟

■ وفقاً لمدونة Paper Cuts فإن ١٥٩٧٤ عاملا بالصحف خسروا وظائفهم فى عام ٢٠٠٨ وفى النصف الأول من عام ٢٠٠٩ انضم إليهم ١٠٠٠٠ آخرون: قد يكون هذا رقما مفجعا ولكنه واقع لحوالى ٢٦٠٠٠ مراسل، محرر، مصور، كاتب عامود حول شئون العالم، ومحلل سياسى أو اقتصادى، وصحفيين ممن كشفوا قضايا فساد، وآخرين يكتبون عن الثقافة والترفيه والرياضة... فقدوا وظائفهم ويواجهون هذا الواقع.

لقد تقلصت عضوية «اتحاد المراسلين الحربيين والمحررين» من ٦٠٠ عضو فى عام ٢٠٠١ إلى ١٠٠ عضو حالياً. وفى ابريل، أغلقت صحيفة Cox Newspapers مكتبها فى واشنطن مما ادى الى نقص فى عدد المراسلين الذين يغطون اخبار الحكومة الفيدرالية.

أمـا Boston Globe، وThe Baltimore Sun، وThe Philadelphia Inquirer، وNewsday كلهم اضطروا لإغلاق مكاتبهم الخارجية لتقليل النفقات؛ أما عن مجموعة McClatchy التى تضم صحيفة The Sacramento Bee، The Charlotte Observer، وأكثر من عشرين صحيفة يومية توزع فى أنحاء الولايات المتحدة لا تستطيع تحمل نفقات مكاتبها فى جنوب آسيا أو الحفاظ على مراسل دائم لها فى المكسيك او حتى بغداد، على الرغم من العمل الرائع الذى قام به مراسلو هذه المكاتب. فى «الأيام الخوالى» كان من الممكن الاستغناء عن المراسلين ولا تتغير القدرة على تغطية الأخبار، هذا ما كتبه المحرر الرئيسى فى مجموعة McClatchy الصحفى Mark Seibel ولكنه الآن يعترف أن هذه التقليصات الأخيرة فى الميزانية وما ترتب عليها من تسريحات قد أثرت عليهم وبشدة مهنياً.

فى اوائل هذا العام تحدث رئيس تحرير صحيفة New York Times الصحفى Bill Keller: عن «تناقص منتج صحافة الجودة» وتعبير «صحافة الجودة» هنا يقصد به هذه الصحافة التى يقوم بها مجموعة من المراسلين الذين تتوافر لديهم الخبرة، للذهاب إلى مكان الحدث، والتحدث مع شهود العيان، والبحث فى الوثائق والملفات، والتواصل مع مصادره ليؤكد الخبر مرة واثنتين؛ وعادة ما يكون هذا المراسل مدعوماً بمحرر يطبق أعلى قواعد المهنية الصحفية.

ولكن Keller يرى أن هذه صحافة مكلفة وخطرة فى بعض الأحيان، وأن الممارسين التقليديين لهذه الحرفة خاصة فى الصحف يتم تسريحهم أو المؤسسات بأكملها تعلن إفلاسها. وهذا ادى بالضرورة إلى انتعاش الاتصال من خلال الانترنت الملىء بمحاولات صحفية ولكن فى أغلبها لا ترقى للمهنية المطلوبة.

هذا الاتجاه الذى يعد Keller من الجوقة التى تتغنى به والذى يقلل من شأن الانترنت وقدرته على ممارسة الصحافة وقدرة المدونين على التعليق على الأحداث.

ولكن هذا الاتجاه يواجه نقدا لاذعا على يد المدونين أنفسهم، David Simon المراسل السابق فى جريدة Baltimore Sun ومبتكر The Wire فى مؤتمر عن «مستقبل الصحافة» فى مجلس الشيوخ أعلنها «الإنترنت وسيلة رائعة».

ونفى عنهم صفة الطفيلية التى يتهمهم بها تيار الصحافة التقليدية تحت دعوى انهم يأخذون الأخبار من الصحافة جاهزة ويعلقون عليها دون إضافة جديد؛ ولكن المدونين يرون أن اسهاماتهم تتخطى التكرار والتعليق؛ بل تتعدى هذا الدور بأنها مصدر الأخبار، حيث بدأ مستخدمو الانترنت يعتمدونهم بدلاً من الصحف التقليدية.

ولكن بالتأكيد الصورة الطفيلية التى يوضع فيها الانترنت بها شىء من الصحة، لولا جمع المعلومات الذى تقوم به المؤسسات الصحفية كان لكثير من مواقع الانترنت أن تحتضر وتموت من قلة المعلومات. ولكن هذا الادعاء وحده

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: منة اكرام

.. إعادة اختراع الصحافة!

يبدو قديماً ودفاعيا؛ حيث إنه فى الأشهر الماضية المنصرمة بدأت مواد أصلية، ومثيرة ومبتكرة على الرغم من فوضويتها فى الظهور على الانترنت.

وهذا ما يسمى «بإعادة اختراع الصحافة» باستخدام الانترنت: من خلال تجارب متنوعة فى جمع الأخبار وتقديمها وتوصيلها. وهذا ما يجب أن يفهمه محررو الصحف ليكونوا قادرين على مواجهة هذا التطور والبقاء.

المدونان اللذان يعتبران رائدى هذا المجال هما: Mickey Kaus وAndrew Sullivan. حيث انشأ Kaus مدونته kausfiles سنة ١٩٩٩؛ كما بدأ Slate فى ÉSullivan مدونة The Daily Dish عام ٢٠٠٠ ويدونون أيضاً فى The Atlantic.

وهما مازالا يستخدمان نفس الأسلوب الذى نشراه وتميزا فيه، وهى تدوينات قصيرة وحادة تعلق على الأحداث وتقدم وصلات لمقالات وأعمدة رأى ووثائق ومدونات أخرى؛ مما قد يتهم بالطفيلية. ولكن فى اوائل يونيو مثلاً، كتب Sullivan تحت عنوان «أين يقف اليمين المتطرف الآن؟!»:

«شاهدت هذا فى «آسبن» (حيث كنت أحضر مؤتمرا هناك)، حيث يصرح Michael Scheuer أن امل الولايات المتحدة الوحيد هو هجوم كبير يقوم به «أسامة بن لادن» ليمكن الحكومة الأمريكية من اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية مواطنيها، هم يقفون على حافة الجنون ويقتربون منها كل يوم أكثر، هذا هو مكان اليمين المتطرف».

وذيل هذه التدوينة بوصلة لمقطع فيديو عرض على شبكة Fox التليفزيونية يتحدث فيه المحلل السابق فى الاستخبارات الأمريكية Scheuer عن أمله فى أن يقوم «بن لادن» بهجوم على الولايات المتحدة.

قد يكون فى هذا اعتماداً على الصحافة التقليدية دون الاتيان بأى أخبار من قبله ولكن بالقراءة المستمرة لتدويناته فهى تفتح الباب إلى تنويعة من المصادر التى تعبر عن اتجاهه الكاثوليكى - الثيوقراطى - الراديكالى - الليبرالى؛ مما ينتج عنه رؤية خاصة ومختلفة للعالم.

ومثال واضح على ذلك هو ما حدث بعد الانتخابات الإيرانية، حيث أصبح موقعه متابعا حيا ومنبرا لكل: الرسائل الإلكترونية، تحديثات «تويتر»، مقاطع الفيديو على موقع You Tube، الصور من طهران وبعضها كان يظهر على موقعه قبل الظهور فى وسائل الإعلام الجماهيرية.

ولم يكن Sullivan محايداً أو حاول ادعاء هذا، فلقد كان راغباً وبشدة فى سقوط حكومة «أحمدى نجاد»، وفى حين كانت الكثير من وسائل الإعلام مكممة كانت The Daily Dish هى مركز الأخبار من قلب طهران. فأنا عند مشاهدتى لشبكة CNN كنت أتابع واقرأ موقعه، وأقول وأنا واثق أنه وهو جالس على حاسوبه تفوق على شبكة CNN بكل مواردها.

أسلوب Kaus وSullivan الذى يعتمد على «الاختزال والتعليق» هو أسلوب شائع بين المدونين ولكن على مر السنوات طوره البعض وأصبح له أسلوبه الخاص؛ ومن الأمثلة الواعدة هى مدونة (Talking Points Memo) TPM التى بدأها John Marshall سنة ٢٠٠٠ عندما كان محرراً فى واشنطن فى The American Prospect.

بعد خلافات عدة مع زملائه المحررين حول تأييده لـBill Clinton وسياسات التجارة الحرة بدأ فى العمل بشكل مستقل وبدأ التدوين. وقد استلهم من أسلوب Kaus وSullivan ولكنه اضاف من المحرر بداخله. فلم يقتصر الأمر على التعليق على الأخبار بل كشفها فى بعض الأحيان.



ومن اوائل هذه الأخبار التى فجرها هى واقعة التعليقات العنصرية التى أطلقها Trent Lott حول Strom Thurmond التى كتب عنها فى أكثر من تدوينة مما ساهم فى سقوط Lott. مع اتساع قاعدة القراء لمدونة TPM أصبح Marshall قادراً على جذب المعلنين وأصبح لديه طاقم من الموظفين يساعده فى الكشف عن المزيد من الأخبار. وأيضاً بدأ القراء بتزويده بمعلومات عن الأحداث السياسية فى مجتمعاتهم ومن خلال هذه الرسائل استطاع Marshall الكشف عن نمط اتبعته إدارة الرئيس «بوش» فى طرد المحامين الأمريكيين عبر البلاد. تدويناته الغاضبة ساعدت فى لفت انتباه الصحافة القومية للموضوع مما ساعده فى الحصول على جائزة George Polk.

اليوم موقع TPM من أكثر المواقع السياسية زيارة على شبكة الانترنت بالإضافة إلى مدونة John Marshall الشخصية: التى تضم TPMDC التى تغطى أخبار العاصمة، وTPMmuckraker التى ينشر فيها تحقيقات، وTPMcafe التى تظهر المشاركات من القراء والمتابعين. إن الانتشار السريع لمدونة Talking Points Memo يوضح تغيراً سياسياً كبيراً حدث على الانترنت.



فى عام ٢٠٠٥ حين كتبت عن «عالم التدوين» blogosphere كان اليمين هو المسيطر وكانت أشهر المدونات اليمينية هى Drudge Report: ولكن اليسار الليبرالى هو الاتجاه الصاعد فى الحين الذى وجهت طاقات المحافظين للحديث عبر الراديو.

وفى زيارة مؤخراً لمكتب TPM فى منهاتن، كان المكان به حوالى درزينة من المراسلين الشباب والكتاب و«الموصلين» الذين يقومون بعمل وصلات لمواقع أخرى: يعملون بجد أمام حواسيبهم. أما Marshall الرجل الأربعينى صاحب الوجه المحايد فقد شرح لى انه يقضى معظم يومه فى قراءة الرسائل الإليكترونية. ويقول عنها: «تصلنا رسائل الكترونية من حيث الحجم والجودة أكثر مما يصل الى صحيفتى The New York Times وThe Washington Post.. وهذا يتيح لنا فرصا للعمل أكثر من أى صحيفة بتعدد مصادرنا، التى فى أغلبها تكون مصادر محترفة ممن اعتادوا الاتصال بالمراسلين واعطاءهم المعلومات. معلوماتنا تأتى أيضاً من الطبقة الواسعة التى لا تعمل فى الصحافة السياسية لذا فإذا حدث اى شىء فى أى مكان أسمع عنه».

وعلى مر السنين ساعد Marshall فى تدريب العديد من المدونين الذين اخذ مهاراتهم إلى مؤسسات كبيرة، مثلاً Paul Kiel الذى قضى عامين فى TPM ثم عمل فى ProPublica وهى وحدة تحقيقات الكترونية تدعمها منح تقدر بالملايين من المستثمر العقارى Herbert Sandler وآخرين. ومنذ بداية ProPublica عام ٢٠٠٨ وهى تقوم بتحقيقات هائلة تكشف العديد من الفضائح، عن تورط الأطباء فى عمليات التعذيب حتى تلوث مياه الشرب من استكشاف الغاز الطبيعى. فى البداية قامت ProPublica بعمل تحقيقات مشتركة مع مجموعة من المؤسسات الاخبارية مثل 60 Minutes والNew York Times ونشر هذه التحقيقات من خلال هذه المؤسسات حتى وجدت أنه من الضرورى أن يكون لها موقعها الخاص على الانترنت. ولقد تحدث Paul Steiger رئيس التحرير السابق لصحيفة The Wall Street Journal والمدير الحالى للعملية: «إن الشباب المثقف الذكى الذى يجيد التعامل مع الانترنت الذين أعينهم من أمثال Paul Kiel هم كنز حقيقى فبدلاً من قراءة الوثائق الحكومية فقط فهو يبحث على الانترنت ويتصل بمصادره ويصنع الأخبار من مكانه لتدور عجلة الموقع».

من مهام Kiel الترجمة على الانترنت والبحث عن التحقيقات التى قام بها الآخرون وتوصيل هذه التحقيقات والتعليق عليها لإلقاء الضوء عليها وجذب الانتباه الى ما تحتويه من أخبار وآراء. كما خصص Kiel موقعا فرعيا لمتابعة كل الأموال التى تصرفها الحكومة فى واشنطون ولكن الموقع مازال قيد البناء لتجميع ومنطقة كل هذه الأرقام والاحصاءات والرسوم البيانية وهذا ليس بالعمل السهل ولكنه تجربة مهمة ومنتظرة لتبين جدوى عمل تحقيقات إخبارية على الانترنت.

Kielهو مثال عن جيل جديد هجين بين الممارسة الصحفية التقليدية واستخدامات الانترنت المتعددة ومن هذا الجيل أيضاً Matthew Yglesias وهو مدون يبلغ من العمر ٢٨ عاماً بدأ التدوين وهو طالب فى «هارفارد» ويكتب الآن عن السياسات الأمريكية فىThink Progress وهى مدونة «مركز للتقدم الأمريكى» Center for American Progress.وأيضاً Ross Douthatالذى بعد تخرجه من «هارفارد» فى سنة ٢٠٠٢ عمل فىThe Atlanticمحرراً ومدوناً والتحق هذا العام بصحيفة The New York Times ككاتب عمود. وعلى قائمة هذا الجيل أيضاً Ezra Kleinالذى بدأ التدوين حين كان طالبا فى جامعة كاليفورنيا «بسانت كروز» وقام بتطوير خبرته فى مجال الرعاية الصحية مما أبهر محررى The Washington Post وعينوه ليدون على موقع الجريدة. «الشرح تخطى أهمية التعليق» وفقاً لما يقوله Kleinالذى يبلغ من العمر ٢٥ سنة.

أصبح الانترنت الآن منبرا لكل الأمريكيين من مختلف الخلفيات والأعمار الذين تجول بخواطرهم الكثير من الأفكار ولكن لا يجدون قناة لبث هذه الأفكار؛ مثال على هذا Marcy Wheeler التى



تعيش في «آن اربور» في «ميشيغان» الحاصلة على شهادة الدكتوراه في الأدب المقارن وتعمل مستشاراً في صناعة المحركات وقد بدأت التدوين في عام ٢٠٠٤. بدأت تدويناتها في جذب الانتباه على مدونتها عن Valerie Plame leak case، وفي بداية عام ٢٠٠٧ قامت بعمل تدوين حي ومباشر لمحاكمة Lewis Libby. وفي وقت لاحق من نفس العام بعد ان تركت عملها كاستشارية بدأت في العمل بالتدوين بدوام كامل لصالح مدونة FireDogLake وهي مدونة يسارية جماعية، وهي تركز الآن على قضايا التعذيب والمراقبة للاتصالات دون إذن، وأزمة صناعة المحركات. لقد سمعت عن Wheeler في ابريل الماضي حين ظهر اسمها في مقال تصدر الصفحة الأولى في جريدة The New York Times عن صدور مذكرة عن أساليب الاستجواب في ولاية الرئيس «بوش». فمن خلال قراءة متأنية للوثائق استطاعت Wheeler استخلاص أن «خالد شيخ محمد» قد تم تعذيبه بطريقة waterboarding ١٨٣ مرة في شهر واحد. ونشرت هذا الكشف صحيفة The Huffington Post ونقلته عنها The Times.

«ادعاء ان عملنا هو عمل طفيلي هو مهزلة. هناك الكثير من العمل الجاد والأصلي في عالم التدوين. نصف الصحفيين الآن يرجعون إلى الفضاء التدويني عند كتابة قصة. وفي نفس الوقت يسعدني أن اعترف أنني لازلت اعتمد على الصحفيين. فلا يمكنك الحديث عن التعذيب دون الحديث مع Jane Mayer من The New Yorker، هذا ما قالته لـ Wheeler في حديث تليفوني، كما مدحت كلا من Dana Priest وJoby Warrick من The Washington Post، وJames Risen وDouglas Jehl من The New York Times. «من الأفضل الحديث عن علاقة تكاملية بدلاً من الحديث عن علاقة طفيلية»، وأضافت أن: «أكثر ما يزعج المدونين هو الفصل الذي يقوم به الصحفيون ومحاولة الحفاظ على الوضع الحالي دون تطويره او الاستفادة منه».

وعلى العكس أثبت الفضاء التدويني قدرته على اجتذاب المتخصصين في مختلف المجالات الذين لا تتوفر لهم فرصة الوصول الى افتتاحيات الصحف الكبرى؛ ومثال على هذا هو Juan Cole الباحث في شئون الشرق الأوسط بجامعة «ميشيغان» الذي قام في مدونته Informed Comment بتقديم تحليل دقيق لكل التطورات الحادثة في العراق وإيران الآن أكثر من معظم المراسلين الموجودين هناك فعلاً. اليوم، بإمكانك ان تجد معلقين خبراء تقريباً في كل المجالات على الانترنت. فمثلاً للحصول على رأي حول مشاكل الرعاية الصحية في أمريكا تقرأ مدونة KevinMD لكاتبها Kevin Pho. ولنظرة واقعية ومتجددة على أحوال التعليم في مدونة joannejacobs.com. وللحديث عن سياسات الدواء مدونة The Reality-Based Community للبروفيسور Mark Kleiman في جامعة «كاليفورنيا».

بعيداً عن هذه المجهودات الفردية، فلقد فتح الانترنت المجال للحديث عن المواضيع المسكوت عنها مثل سياسات الولايات المتحدة الأمريكية الداخلية تجاه إسرائيل: كل النشاطات التي تقوم بها الجماعات المساندة لإسرائيل مثل AIPAC كانت مسكوتا عنها خوفاً من إتهام من يتناولها بمعاداة السامية أو معاداة إسرائيل. اليوم الانترنت يعج بأخبار وتحليلات وآراء حول العلاقات الأمريكية - الإسرائيلية. Rob Browne - طبيب الأسنان الذي يعيش في «لونغ آيلند» - يتابع كل التشريعات التي تصدر من الكونجرس بخصوص إسرائيل على مدونته اليسارية الليبرالية Daily Kos. J.M Rosenberg أحد العاملين السابقين في AIPAC وانشق عنهم، يشرح كل نشاطات اللوبي الاسرائيلي على مدونة Talking Points Memo. وفي المقابل هناك كتيبة من المدافعين عن إسرائيل من أمثال Ron Kampeas وMichael Goldfarb المحرر لصحيفة The Weekly Standard الإلكترونية، والصحفي والمدون المهم والأكثر تأثيراً في الأمور الخاصة بإسرائيل Jeffrey Goldberg.



الصحف التي لم تدرك أننا نعيش في عالم له آلياته الاتصالية الجديدة، وأن الخيارات أمام القارئ اتسعت بشكل غير مسبوق، ستنقرض ولو بعد حين

والطرفان يتسلحان بالمعلومات اللانهائية الموجودة على الإنترنت؛ فيضرب المدون Philip Weiss صاحب مدونة Mondoweiss «لم يكن باستطاعتك الحصول على جريدة هاآرتز الإسرائيلية سوى عن طريق Hotaling,s. أما الآن فيمكنني الحصول على كل الصحافة الإسرائيلية والعربية الكترونياً».

Weiss هو احد الذين يناضلون وعانوا لسنوات طويلة من إحباط صوتهم في الوصول لقراء المجلات والجرائد ولكن البديل الإليكتروني من خلال مدونته أتاح له الفرصة لجمع حوالي ٨٠٠٠ دولار من تبرعات القراء والسفر في قافلة مناهضة للحرب إلى غزة؛ وقام بعمل مجموعة تقارير عن أوضاع من قابلهم من طلبة وعاملين بمجال الإغاثة ومسئولين في حركة حماس.

حتى الأحداث التي تتصدر عناوين الأخبار هذه الأيام فالإنترنت قادر على متابعتها بالكشف والتحليل؛ ومثال على ذلك عند احتدام أزمة الرهونات العقارية في أواسط عام ٢٠٠٧؛ هرع الصحفيون إلى مدونات يكتبها اقتصاديون مخضرمون ذوو خبرة واسعة في المجال ليستفهموا عن ماهية الأزمة. ومنها: مدونة Calculated risk لصاحبها Tanta، ومدونة Naked Capitalism التي تحدث فيها Yves Smith عن مسائل تتعلق بصناعة الخدمات المالية ومشاكلها، ومدونة Grasping Reality with Both Hands التي تناول فيها البروفيسور Brad Delong بجامعة كاليفورنيا ببيركلي: الأزمة الاقتصادية وقدم تحليلاً دقيقاً عن السياسات الاقتصادية.

عند قيامي بالأبحاث اللازمة لكتابة هذا المقال صادفت الكثير من المواد المكتوبة عن العلاقة بين وول ستريت وواشنطن، مثل التحقيقات التي يقوم بها Ryan Grim وتنشر على موقع صحيفة Huffington Post التي تتميز بتحقيقاتها المثيرة والتي عادة ما يكون لها صدى واسع لدى القراء خاصة فيما يخص المشاهير؛ ولكن مكتبهم الجاد في واشنطن يضم ٧ محررين متميزين منهم: Dan Froomkin الذي انضم للجريدة بعد إنهاء عقده مع Washington Post بالإضافة إلى Grim، وعمله اللافت في تغطية أخبار الكونجرس والمعارك الضارية بين البنوك، شركات البطاقات الائتمانية، وشركات الرهونات العقارية. وحتى أنه نشر ملاحظات السيناتور Dick Durbin عن تحكم البنوك في أمور الكونجرس، وهي الملاحظات التي أهمل تغطيتها الإعلام المقروء، حيث علق السيناتور قائلاً: «لم يكن احد ليصدق أن البنوك في ذروة الأزمة التي خلقتها بنفسها كان سيكون للوبي الخاص بها كل هذا التأثير في Capitol Hill؛ أنهم بصراحة كمن يمتلكون المكان». ولكن بعد كتابات Grim بعدة أسابيع: كتب Frank Rich عن نفس الموضوع في عموده في صحيفة Times. وتبنت Arianna Huffington الكتابة عن هذا الموضوع المهم في مدونتها تحت عناوين ساخنة، مثل: «لماذا يعامل أصحاب البنوك كالملوك؟» و«مصالح البنوك هي ما يحرك الكونجرس!!».

على الجانب الآخر كانت تغطية الصحافة المقروءة للأزمة الاقتصادية معالجة مخففة، وعرضية، ويتم تحييدها من قبل رجال الأعمال أصحاب المصالح والمتحدثين باسمهم وهو أمر يضطر الصحفيون للرضوخ إليه تحت قواعد المهنية. ولكن هناك استثناءات مثل مجموعة التقارير التي كتبها Gretchen Morgenson وStephang Labaton ونشرت في صحيفة Wall Street Journal.

ولكن المدونين تحرروا من قيود المهنية والحيادية التي تفرض عليهم شكلا لطرح القضايا؛ بل أصبح المدونون يعبرون عن آرائهم واتجاهاتهم السياسية؛ مما جعل محيط التدوين محيطا جاذبا

المؤكد أن التحليلات والصحافة المعمقة (الثقيلة). هى التى ستستمر بعد أن تهجر «الأخبار» الصحافة التقليدية إلى وسائل أكثر سرعة، وأكثـــــر ديناميكيـــــة



وحيا. وهذا يتجلى فى جذب هذا المحيط لأشخاص من خارجه: Glenn Greenwald المحامى ومحامى الادعاء السابق هو حديث العهد بالتدوين فقد بدأه فى ديسمبر ٢٠٠٥؛ ولكنه سرعان ما تبوأ المكانة والقيادة بمقالاته اليومية الطويلة التى تقدم تحليلاً وافياً للأحداث مما جعله من قادة الرأى غير الرسميين.



أهم القضايا التى طرحها Greenwald وأكثرها شراسة هى هجومه الضارى على إدارة الرئيس بوش فيما يخص المراقبة بدون تصاريح؛ وأحدث هذه القضايا هو حديثه عن تأثير Goldman Sachs على إدارة الرئيس أوباما. كما هاجم Jeffrey Rosen ورفضه لتولى Sonia Sotomayor رئاسة المحكمة العليا بالولايات المتحدة. كما هاجم الصحافة القومية ككل لإصرارها على استخدام التلطيف اللغوى euphemism عند تناول مسائل التعذيب؛ وفى هذه المسألة كتب:

«فى ظل إصرار وسائل الإعلام الرائدة فى عدم تسمية ممارسات إدارة بوش «بالتعذيب» على الرغم من موت أكثر من ١٠٠ معتقل، وعدم وصف الوسائل المستخدمة فى «غوانتنمو» على انها تعذيب ولكن عند استخدامها فى بلدان أخرى تحرص هذه الإدارة فى وضعها تحت بند «التعذيب» وفضح هذه الممارسات إعلامياً. وهذا يبين الكثير عن صحفيى هذه الأيام.»

على الرغم من أهمية تدوينات Greenwald إلا أنها تعيبها بعض الأمور المتعلقة بالجرعة الايدولوجية المبالغ فيها بكتاباته والتى غالباً ما تفقدنا القدرة على متابعة مقصده فى وسط متاهة التنظير. مثل موقفه المناهض لرفض الرئيس أوباما نشر صور التعذيب الأخيرة من «غوانتنمو»، فمع وجود منطق لموقفه إلا أن موقفه يغفل الكثير من الاعتبارات العملية للعبة السياسة والتى يجب أن يتقيد بها لاعبوها.

ولكن مشكلة التدوين «غير المحايد» أو المعبر عن آراء أصحابه بوضوح أنه جعل محيط التدوين عبارة عن سلسلة من الوصلات من مدونة لأخرى وبين مجموعة من القراء والكتاب؛ وهذا وفقاً لدراسة قام بها Wasik: أن ٨٥٪ من وصلات المدونات تكون لمدونات تعبر عن نفس الآراء السياسية وتقريباً دون أى احترام للمدونات التى تقف على الجانب الآخر من موقفهم السياسى: مما يؤدى بالتأكيد إلى خلق وعى مفلتر مسبقاً وتدعمه معلومات منتقاة وتعرض جانب واحدا من الحقيقة.

على الرغم من وجود أصوات كثيرة تحاول التعبير عن آرائها؛ تواجه هذه الأصوات نوعا آخر من الفلترة وهو مسألة الأولويات، فمديرو المواقع يحرصون على ظهور الأخبار المثيرة والحسية. فمثلاً على الرغم من العمل الرائع الذى قام به Ryan Grimuk عن حقيقة العلاقة بين وول ستريت وواشنطن إلا أن خبر مثل وجود صورة Lindsay Lohan عارية الصدر على تويتر سيأخذ حيزا وأهمية أكبر على موقع Huffington Post.

بالإضافة إلى كل هذا يعانى كتاب الإنترنت من مشكلة الإيقاع السريع للعمل، الذى يفرض عليهم سرعة التفكير والكتابة وقصر التدوينات مما لا يتيح لهم الوقت للعمل على مشاريع أكبر. فكما يقول Jacob Weisberg المحرر السابق لموقع Slate: «العقبة الوحيدة التى لم نتخطها بعد هى كيفية ممارسة الشكل الصحفى المفصل اليكترونياً... القراء لا يحبون قراءة مقالات طويلة على الإنترنت» وهو ما دفع خليفته David Plotz إلى منح فرصة لكل كاتب فى الموقع مدتها ٦ أسابيع للعمل على مشاريع أكبر.

ولكن كل ما سبق لا ينفى ان الانترنت لا يزال مرتعاً للشائعات، والحقائق المشوهة، والأخبار الملفقة. وأكبر دليل على ذلك هى الانتخابات الرئاسية الأخيرة، فالمدونات اليسارية أشاعت أن «سارة بالين» قد ادعت الحمل لتساعد ابنتها وتجمل موقفها، والمدونات اليمينية أدعت أن الرئيس أوباما زور شهادة ميلاده وأنه لم يكن مواطناً أمريكياً. وكذا ما حدث وقت الانتخابات الإيرانية الأخيرة حيث اختلطت الرسائل الاليكترونية والفيديوهات وتحديثات «تويتر» الحقيقية بالملفقة مما احتاج إلى خبراء لتدقيق هذه المصادر ليتابعها متصفحو الإنترنت.

إذن الإنترنت هو بمثابة حاضنة لكل هذه التجارب المثيرة، فموقع Youtube يقدم نصائح عن عمل التقارير التليفزيونية وكيفية تغطية الأخبار العالمية؛ كما قامت Huffington Post بعمل صندوق لتمويل الأبحاث الصحفية. كما قامت GlobalPost بالتنسيق مع عشرات من المراسلين المستقلين لإيجاد منافذ لنشر عملهم. ومواقع مثل Minn Post فى مينيابولس وVoice فى سان دييغو يختبرون هل من الممكن القيام بخدمات metro reporting اليكترونياً. ومن التطورات الجديدة أيضاً هو القسم المخصص فى The Daily Beast لتدقيق الكتب وتحريرها؛ وكذا وحدة المناظرات المرئية على bloggingheads.tv، وتجمع مدونات المحافظين NweMajority.com الذى أنشأه David Frum بعد انفصاله عن National Review.



كل هذه المبادرات مجتمعة تدل بشكل حقيقى على وجود تغيير حقيقى فى صناعة الخبر حول العالم، كما أوضح مركز دراسات «بيو» للتميز الصحفى فى تقريره لعام ٢٠٠٩ عن «دولة الأخبار»، ما يلى:

إن الدفة تتحول من يد المؤسسات الصحفية إلى ناحية الصحافة الفردية، من خلال البحث والرسائل الاليكترونية والمدونات والإعلام الاجتماعى وغيره الكثير.. وهذا دليله ازدياد طلب المستهلك على صحافة الأفراد بدلاً من الماركة المسجلة للمؤسسات الصحفية. ومثال على هذا تجربة GlobalPost التى تعتمد فى الأساس على مراسلين ومصورين مستقلين.

إذا لم تكن القيادات الصحفية ذاتها واعية بمتطلبات هذه الميديا الجديدة، لن تتمكن من إدارة دفة العمل فى عصر يموج بالتحدى والمنافسة

وفى مقارنة أخرى قدمها باحث فى علوم الإنترنت والبروفيسور فى جامعة نيويورك Clay Shirky قال أن: ما يحدث الآن شبيه لما حدث عندما ابتكرت الصحافة المطبوعة، وكيف أن وسائل نقل المعلومات التى كانت موجودة قبلها اندثرت وأن هذه النقلة صاحبها الكثير من الشك وعدم التأكد: ويمكن رؤية المسألة من زاوية أخرى فكما ساعد اختراع الطباعة على كسر القيد الذى فرضته الكنيسة على أوروبا فى العصور الوسطى: فانتشار الإنترنت والصحافة فى شكلها الجديد قد يحررنا من سطوة وسائل الإعلام الجماهيرية، وما سيحدثه ذلك من آثار على عملية الديمقراطية والتخلص من المركزية.

بالطبع الوسائل التقليدية لنقل الخبار مازالت قادرة على إعلام الناس ولكن هل ستقدر على التكيف مع التغير السريع الحادث فى عالم صناعة الأخبار؟ ومن سيدفع فى مقابل خدمات الأخبار والمعلومات فى المستقبل؟

ان كنا نتحدث عن الأخبار، فالمسألة فعلا محل شك، ولكن المؤكد أن التحليلات والصحافة المعمقة (الثقيلة)، هى التى ستستمر بعد أن تهجر «الأخبار» الصحافة التقليدية الى وسائل أكثر سرعة، وأكثر ديناميكية.. كما يشير بحث جامعة نيويورك، والذى يتفق مع دراسات أخرى ذات صلة، تشير كلها الى أن الصحف التى لم تدرك أن أننا نعيش فى عالم له آلياته الاتصالية الجديدة، وأن الخيارات أمام القارئ اتسعت بشكل غير مسبوق، ستنقرض ولو بعد حين. كما تشير أيضا الى أنه لا يكفى أن يكون شباب الصحفيين فاهمين للآليات الجديدة، فالقائد فى المعركة لن يستطيع أن يقود جنودا يستخدمون أسلحة ليس لديه الخبرة الكافية بها، بمعنى أنه اذا لم تكن القيادات الصحفية ذاتها واعية بمتطلبات هذه الميديا الجديدة، لن تتمكن من ادارة دفة العمل فى عصر يموج بالتحدى والمنافسة. ■

محمد المهدى

منطق تاجر البندقية!!

خيال الف ليلة وليلة وخيال (بوكاشيو) فى الايام العشرة. خيال ابى العلاء وخيال (دانتى) فى تصويرالعالم الاخر. حى بن يقظان وقصة (روبنسون كروزو) أو رحلات (جاليفر). خيال سرفانتس فى دون كيشوت. كليلة ودمنة وامثال الشرق والغرب. وعندما جاء نابليون الى مصر عاد ومعه (زينب). وعندما دار الرحالة الفرنسى (بوجنفيل) حول العالم اصطحب معه شابا من جزيرة تاهيتى الى باريس. والامثلة كثيرة حول خيال الشرق وزمان رومانتيكية الغرب.

وتساءل اهل الغرب من اصحاب دعوة العودة الى الطبيعة فى رحلاتهم الشرقية

هل يتم الحوار؟ هل ينجح اللقاء؟.

تساؤل يثير قضية اكبر. الفارق بين زمان رحالة غربى وزمان رحالة شرقى. الفارق بين زمان وظروف رحلات جماعية شرقية، وزمان ظروف رحلات جماعية غربية، او بمثال واضح الفارق بين رحلات العرب الكشفية ورحلات الغرب الباحثة عن طريق الى التوابل الشرقية. الفارق بين خروج الجماعة العربية ودخولها الأندلس، وبين خروج الجماعة البرتغالية والاسبانية ودخولها جزر الهند الشرقية والغربية. وأرجو أن نتقبل المقابلة بهدوء الى حين، حتى نحسن الاجابة على تساؤل طرحته الاجيال السابقة ومازالت تطرحه الاجيال الجديدة..

هل كان العرب فى اسبانيا محتلين؟

دخلت الجماعة العربية الى اسبانيا بعقيدة. ونعبر على عدة قرون فنرى انها كغيرها فى دمشق وبغداد والقاهرة انتهت الى سلطة فئة مهزوزة العقيدة او شكلية العقيدة. انفصلت العقيدة عن السلطة فى جوهرها الاخلاقى وصارت نوعا من المصالح المشتركة بين الطرفين او مايسمى صاحب الدين وصاحب الدولة. انفصال جعل الدولة لا اخلاقية والدين سلبيا وشكليا و(بركة) فى احسن الاحوال. الخليفة المعتز العباسى ٢٥٥هـ يجر من رجله ويضرب ويهان ويحبس حتى يموت جوعا وعطشا على يد وزرائه الاتراك.

والخليفة المتقى٣٣٣هـ يحاول الهرب من بغداد ثم يعود فيقبض عليه وتسمل عيناه ويصيح فيضربون الدفوف ثم تؤخذ منه البردة والقضيب والخاتم وتسلم الى المستكفى بالله رمزا لانتقال الخلافة اليه. ودخل احد الامراء بغداد فى ايام الخليفة القائم بأمر الله ٤٥٠ هـ، وسيطر على الدولة واكتفى من الخليفة العباسى بعمامته وعرشه وخلعته وارسلها للخليفة الفاطمى فى القاهرة رمزا للانتماء اليه. ولم تختلف صورة الاستهانة بالخليفة فى مصر الفاطمية والاندلس الاموية، عنها فى بغداد العباسية. واذا كنا الان نستمع الى الموسيقى العسكرية من اذاعة ما فنعرف ان انقلابا عسكريا قد حدث بصرف النظر عن نوعية انتماء السلطة، فان رمز الانقلاب فى زمان الخلافة الضعيفة هو الانتقال فى الاذان من (حى على الفلاح) الى (حى على خير العمل) أو العكس هو ذكر اسم خليفة دون اخر على المنابر. أو رفع العمامة من على رأسه وخلع البردة من على اكتافه. اما السلطة السياسية فهى للشاطر يحصلها بصرف النظر عن انتماءاته.



والملاحظ ان فصل الدين عن الدولة فى تاريخ اوروبا جاء مع توازن من مؤسسات ديموقراطية تبلورت بعد ثورات. مؤسسات جاءت لتعوض النقص الاخلاقى نتيجة فقدان قاعدة الدين بمفهومه الاخلاقى والاستعاضة عنه بقاعدة اخلاقية وضعية. اذن حكمت السلطة الدنيوية ببعض الضوابط مهما كان فيها من فرص التلاعب. بينما نجد ان انفصال الدين عن الدولة فى تاريخنا جاء دون تعويض من سلطة دنيوية رقابية على الحاكم والنتيجة واضحة. القاعدة الاخلاقية النابعة من عقيدة صادقة التى تمتع بها الحاكم ضاعت، وكانت تمثل سلطة الضبط الذاتى وجاءت السلطة الدنيوية شكلية منقولة دون جذور. ويكفى ان نقول انها بيد الحاكم ايضا. ونتيجة هذه النتيجة وهى الافتقار للنظام الاصيل، والافتقار ايضا للمنقول بشكل صحيح. افتقار لانتاج قواعد محلية جيدة أصيلة، وافتقار الى حسن استخدام الانتاج اوالصناعه المستوردة مهما كانت فخمة أو مكلفة. وكاننا امام طائرة او سيارة فخمة معقدة التركيب قد نحسن ركوبها وقيادتها ولكن لا نحسن اصلاحها عند العطل، فيظل خبراء شركة انتاجها يطاردوننا فى صورة استعطاف منا لهم.



وليس قولا جديدا ان نقول ان التواؤم مع الذات هو افضل ما يثمر به الانسان ثمرة أصيلة. نعود مثلا الى رحلات العرب ورحلات الغرب. رحلات العرب كانت تحمل احلام الفرد للكشف والبحث والثروة. وليس احلام الجماعة او سيطرة السلطة، او التوسع الاستعمارى، كما جاءت رحلات الغرب فى فترة التوسع القومى الاقتصادى والسياسى والعسكرى. ويعجب الكثيرون كيف ان الانجليزى لبق مهذب عند التعامل معه فرديا بينما هو صاحب سيرة سيئة فى وسط جماعته الاستعمارية. هذا هو الفارق بين الاحلام الفردية التى مهما اتسعت وصارت اطماعا تظل متواضعة، وبين احلام الجماعة بقيادة توسعية استعمارية.. قيادة لاترى بالفرد ولكن بالجملة..تسحق بالجملة وتتوسع على حساب الجملة.

واذا اردت مثالا عكسيا لحالة الانسان بين فرديته وجمعيته. تأمل حالة نجم المجتمع السياسى او الاجتماعى او حتى الفنى والفكرى. ترى سلوك هذا النجم وسط الجماعة التى يحتاجها لتوفر له النجومية بسيطا مهذبا مبتسما، ملوحا فى حب،بينما ينقلب عند لقائه بأحد أفراد المعجبين به على انفراد متجهما،متعجلا، ساخطا. ويعجب المعجبون من امر تأثير قيصر أو نابليون او هتلر او غيرهم ممن سحروا الجماهير بينما كانت سيرتهم الشخصية منفرة تسحق فى تاريخها الحشرات الفردية.

رحلات العرب كانت من نوع الطموحات الفردية بما فيها من نواقض النفس البشرية. بينما كانت رحلات أهل اوروبا بحكم مرحلتها التاريخية ذات نزعة جماعية دموية. رحلات العرب خلا بعضها من بعض الضبط الاخلاقى ولكن بحكم ظروفها التاريخية خلت من روح السيطرة الاستعمارية. اما رحلات اوروبا فقد خلت واكرر بحكم خروجها فى مرحلة ظهور القوميات الاوروبية بجذورها السابقة من فصل بين الدين والدولة، وتولى للسلطة الدنيوية القيادة دون ضوابط اخلاقية مع طموحات الحكام.. خلت هذه الرحلات من اية قاعدة اخلاقية وانتهت الى نهايتها المحتومة وهى السيطرة الاستعمارية.

ولا ابالغ اذا قلت اننا لو خرجنا الان باخلاقياتنا الى دولة استعمارية لفعلنا كما فعل الاستعمار بنا. غياب الضوابط الاخلاقية الدينية للجماعة وغياب ضمير الحاكم. ورغبة السلطة فى التوسع ستؤدى الى نفس النتيجة او نفس المستوى من الانحطاط الذى وصل اليه الاستعمار فى التعامل معنا عندما خرج كجماعة بيدها السلاح تقوده سلطة تفتقرلقاعدة اخلاقية. وقد يسأل سائل.. ولكن الاستعمار الذى تتكلم عنه كان عاتيا ظالما ساحقا فى فترة كان البرلمان الانجليزى مثلا فى قمة سلطاته وسطوة ديموقراطيته؟

بمعنى انه كان يفتقر حقا الى ضبط العقيدة، وان توافرت له سلطة الضبط الدنيوى..



إذا اردت تأمل جزئيات النسيج التاريخى
فاستخدم منظارا مكبرا وتأمل الفرق بين رحلة مكتشف رحالة
شرقى ورحلة مكتشف رحالة غربى

اجيب أن هذا التساؤل يؤيد القضية التى اطرحها. اخلاقيات الجماعة مالم تضبط بقاعدة عقائدية فانها تقع فى هذة الازدواجية. ضوابط ديمقراطية او مجلس (سناتو) دافع عنه اليونانى والرومانى فى الحضارات القديمة. وبرلمان او جمعية وطنية يدافع عنه الاوروبى فى حضاراته الحديثة. ويردد قولة (فولتير) الشهيرة.. انه على استعداد لدفع حياته ثمنا للدفاع عن حقك فى ابداء رأيك حتى لو اختلفت معه.

ضوابط ديموقراطية داخلية تخص اليونانى والرومانى والانجليزى والفرنسى..الخ. ولكن لا تنطبق على شعوب الارض من البرابرة. واذا عدنا الى التساؤل عن الاندلس سنلاحظ ان بتاريخها اربعة قرون عجاف اكلت اربعة قرون خصبة. من القرن الاول الهجرى الى القرن الخامس الهجرى فترة ازدهار، قابلتها والى اواخر القرن التاسع الهجرى فترة استئثار من سلطة دنيوية، او انفصال بين حاكم ومحكوم، او صراع السلطات الدنيوية فيما يعرف بمرحلة (ملوك الطوائف). ضاعت الفرصة لتحويل المحكوم الى حاكم بمنطق واسع لا يحصر السلطة فى طوائف دون غيرها. اربعة قرون من الفصل بين الدين والدولة، أو من احتكار للدين والدولة كانت كفيلة باتاحة الفرصة للطرف الاخر للنمو بمنطق ضيق. ثم اكتساح للعرب والمولدين (من العرب والاسبان) ومن يناصرهم على حد سواء وبصورة بشعة.



ونستطيع ان نتمثل نفسية المسيحى الاسبانى انذاك فى صورة الرجل الذى يأمل للحصول على قصر فى الجنة بقدر ما يسيل من دماء المسلمين الكفار وهى حالة وصل اليها الحكام الاسبان لفصلهم ايضا بين الدين والدولة



وعلى صورة تبدو عكسية تماما. تبدو وكأنها جمع بين العقيدة والسلطة الحاكمة. لقد وظفت الدولة التي تسعى الى التوسع الدنيوى كل مشاعر الحماس الدينى عند الجماعات المسيحية بدعوى انها مكلفة بأمر (الهى) بأمور الدين والدنيا. ويكشف دخول قوات (نابليون) الى اسبانيا في فترة متأخرة حاملة لواء الفصل الصريح بين الدين والدولة بل احتقار شأن الدين الى جانب عزة الدولة القومية.يكشف عن هذه الحالة العجيبة من التناقض. دخلت قوات نابليون بعد الغاء محاكم التفتيش (١٨٠٨) التى تخصصت فى مطاردة وتعذيب بقايا العرب والمولدين ومن يتعاطف معهم، الى احد الاديرة فى مدريد ووجدت فى كهوف تحت الارض ادوات رهيبة للتعذيب والتمزيق والسحق والجنون. .امسكوا برهبان الدير وببساطة سحقوهم بأدوات التعذيب..

كانت علاقة الدين بالدولة. او الملك والكنيسة ايام محاكم التفتيش نوعا من تبادل المصالح المشتركة. فلما طلقت الدولة الكنيسة طلاقا بائنا فى الثورة الفرنسية، الغيت محاكم التفتيش، وهوجمت الاديرة استبيحت دماء رجال الكنيسة.

يقولون أن دخول العرب الى اسبانيا صورة من صور الدخول الجماعى. الذى يبدو فى صورة استعمارية. او صور من صور الرحلة الجماعية يقابلها البعض برحلة الجماعات الاستعمارية فى قرون الاستعمار الاوروبى الشهيرة.. الخامس عشر والسادس عشر.. مشابهة ظالمة دخول العرب إلى اسبانيا كان بقاعدة عقائدية اخلاقية ارادت الاستقرار والاندماج والادماج. يتولى الصالح امور الجماعة دون تمييز بين العربى والاسبانى والمولد، وشاءت السلطة الدنيوية ان تضيع هذه الفرصة سواء من جانب العرب أو من جانب الاسبان.

أما دخول الجماعات الاوروبية إلى مشرق العالم ومغربه فكان صريحا فى استغلاله من اللحظة الأولى. لم ترد فكرة الاندماج او الادماج، وان وردت فكانت بتمييز بين الوافد والمقيم.

وإذا اردت تأمل جزئيات النسيج التاريخى فاستخدم منظارا مكبرا وتأمل الفرق بين رحلة مكتشف رحالة شرقى ورحلة مكتشف رحالة غربى، وتشاء تركيبة التاريخ المنطقية ان تجعل خروج البرتغال والاسبان رواد الاستعمار فى اوروبا فى فترة خروج العرب من اسبانيا. شهد (كرستوفر كولمبس) تسليم عبد الله الاحمر مفاتيح مدينة غرناطة للملك (فردناند) والملكة (ايزابيلا) فى عام ١٤٩٢ حاولوا اعطاء هذا الخروج.. خروجهم إلى الشرق للكشوف البحرية وخروج العرب من اسبانيا قالبا دينيا بتصريح ومباركة من البابا، ولكن النوايا الحقيقية كانت واضحة.



وتعال نتأمل ما دار فى مسرحية (تاجر البندقية) لشكسبير. تاجر البندقية هو انطونيو الثرى النبيل الكريم. اثرى من تجارة الشرق سفنه التجارية موزعة بين طرابلس وجزر الهند، والمكسيك وانجلترا مثال للرحالة الاول خرج يبحث عن ثروة التوابل والاعشاب فى الشرق، وكان المماليك فى مصر حلقة الوصل.

(هنرى الملاح) اول امير برتغالى يجوب المحيط الاطلسى بحثا عن طريق الوصول للهند بعيدا عن المماليك فى الطريق يحلم بالعثور على دولة القديس يوحنا المسيحية الخيالية. قيل انها فى افريقيا او هى اثيوبيا وقيل انها اسيا. دوخت الرحالة الاوروبيين ولم تكن إلا حجة وهى (بركة) دينية او يباركون بها رحلاتهم لصبغ اهداف سفنهم.

انطونيو او تاجر البندقية كان اعقل اكتفى بانتظار سفنه العائدة بثروة الشرق. هنا تبدأ المشكلة مع (شايلوك) المرابى اليهودى الشهير.

شايلوك يضيق به ويفضح اخلاقياته الاستغلالية التى لاتتفق مع مسيحيته النقية. وحينما يضطر انطونيو ان يلجأ إلى شايلوك ليقترض منه انقاذا لصديق وقع فى ضائقة يشترط اليهودى ان يأخذ من لحمه رطلا من موضع الصدر إذا لم يسدد فى موعده.. ويوافق تتأخر سفنه ويقال انها غرقت ضاعت ثروة الشرق، واصبح مهددا بانتقام اليهودى.

اختلف التاجر مع اليهودى كشف اليهودى عن عفونته ووجدها فرصة لفضح نظام التاجر المستغل فيقول (واى خطأ حتى اخشى الحساب؟ ان بينكم عديدا من العبيد الذين اشتريتموهم بالمال وسخرتموهم فى افظع الاعمال واخسها كأنهم حميركم، او بغالكم أو كلابكم لا لشىء إلا لانكم اشتريتموهم بالمال) وتنتهى المسرحية باحباط الاعيب اليهودى الخبيث وتعود سفن التاجر المسيحى النبيل ليسعد الجميع حتى ابنة اليهودى فقد تحولت إلى المسيحية وتزوجت حبيبها المسيحى.

مسرحية تاجر البندقية لها جانب يخصنا بصرف النظر عن قيمتها الدرامية الشكسبيرية اخلاقيات السيد التاجر الذى جمع بين صورة المسيحى الطيب ورغبة الاثراء الاخرين وعندما حمل الزنوج لأول مرة إلى البرتغال كانوا موضع اعتبار مزدوج هم ارقاء وبشر فى وقت واحد وثنيون يمكن كسبهم وتحويلهم إلى مسيحيين اما

المسلمون فيجب ان يقهروا ثم يقتلوا، وهم ايضا سلعة وثروة. وفى عام ١٤٤٤ حملت السفن إلى البرتغال أول شحنة كبيرة من العبيد مائتين وثلاثة وخمسين عبدا، كان نصيب الامير (هنرى الملاح) منها ستة واربعين كان مسيحيا كريما بمنطق السيد النبيل تاجر البندقية فلم يقبل استرقاقهم لذلك اهداهم لاصدقائه.



وفى عام ١٤٤٠م جاء للبابا (اوجينيوس) الرحالة (نيكولودى كونتى) الذى جاب الشرق وحمل ثروة التوابل. احتفى البابا بالرحالة احتفاء عظيما، فقد كان شرابه المفضل هو القرفة الساخنة، بينما كان الرحالة مهموما.. لقد اضطر فى مصر الى اعتناق الإسلام لينقذ نفسه واسرته، وجاء للبابا ليعترف ويطلب المغفرة.

والرحالة الشهير (الـ بوكيرك) حينما وصل إلى الحبشة وجد هناك عرضا يدعو البرتغال ان تتعاون لتحطيم سلطان مصر فى القاهرة، ثم تحطيم مدينة مكة، ووجد الاتفاق يحقق احلامه فى اختطاف رفات الرسول، والمساومة بها مع المسلمين للاستيلاء على فلسطين، وبدأت فكرة تحويل التجارة عن مصر لافقارها هذا الخيال الدينى المختلط بروائح التوابل او دافع الثروة، تبخر سريعا، ولن نصل إلى رحلة (ماجلان) حول العالم عام ١٥١٩ إلا واستقرت رائحة التوابل وابتلعت كل خيال دينى.. كان الشعار الذى منح الامبراطور البرتغالى

لـ (دلاكانو) الذى قدر له ان يعود ببقايا سفن ماجلان بعد مقتله فى الفلبين هو صورة كرة ارضية يرفعها ملكان من ملوك الشرق، يحمل كل منهما فى يده الاخرى غصنا من اغصان اشجار التوابل، بينما على الدرع عودان من القرفة وثلاث وحدات من جوزة الطيب، واثنتا عشرة حبة من حبوب القرنفل.

وكان حملة الاسهم الهولنديون اسبق من غيرهم ربح يصل إلى ٤٠٠٪ من تجارة التوابل وارتفع على يد الانجليز إلى ٦٥٪ من تجارة جوزة الطيب وإلى ٧٠٪ من الفلفل وإلى ٨٠٠٪ من تجارة البهار والقرنفل، وتحولت جمعية (الفلفليين) إلى نقابة عرفت بجمعية البقالين أو العطارين وصار محافظ لندن رئيسا لها، ونظم مهرجان (انتصار لندن) عام ١٦٧٨ على صورة مهرجان (باخوس) رب النبيذ اليونانى. يتقدم المهرجان تمثال على هيئة جمل يجلس فوقه غلام زنجى يتوسط سلتين فضيتين مليئتا بالفاكهة والتوابل، وقد اخذ الغلام ينثرها بين جموع المشاهدين، واشترك فى المهرجان ربة (الثروة) ورب (الطيوب) وانشد الجميع فى مرح قائلين:

بالقرفة والقرنفل والبهاء وغيرها من التوابل

نحن قد زرعنا فردوسا جديدا

دون ان نشعر بذنب من خطيئة ادم

وكان شرفا للملك (وليم) عام ١٦٨٩ ان يصير بعد ذلك رئيسا اعلى لجمعية البقالين.. او العطارين اضحاب الثروة.

وقد يقول متحمس اوروبى صاحب منطق محرج. كيف يحق لكم محاكمة الاستعمار وحالكم اسوأ منه فيما بينكم؟

ان طول لسانكم ليس الا قصر ذيل. وإذا قلت له ان المشكلة هى مشكلة السلطة قال لك.. وعليك ان تناضل لتحصل منها على حقك كما فعلنا، ان السبل واضحة ام التقليد الجيد كأهل اليابان، او تركيبة بجذور محلية أو تركيبة جديدة لن نسمع بها، اما الاخذ بكل الانظمة متلازمة بتلفيق فشىء لايفيد منه الا الانتهازى الذى يجد بهذه الوسيلة منطقا يبرر به الشىء ونقيضه حسب الحاجة.



هكذا اذن ضاعت تجربة الاندلس بفقدان الاصالة، وكان من الممكن ان تكون تجربة حضارية جديدة فى تاريخ البشرية. هكذا ايضا عمر منطق تاجرالبندقية بازدواج شخصيته. واجهة دينية تعلن بها صلاحه مع سعى محموم لجمع الثروة على حساب الاخرين. افرغ الدين من محتواه الاخلاقى، وبالتالى وجد مصلحته مشتركة مع الدولة المستغلة. صار كل منهما يدافع عن الاخر من هذا المنطلق. ■

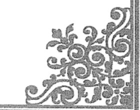


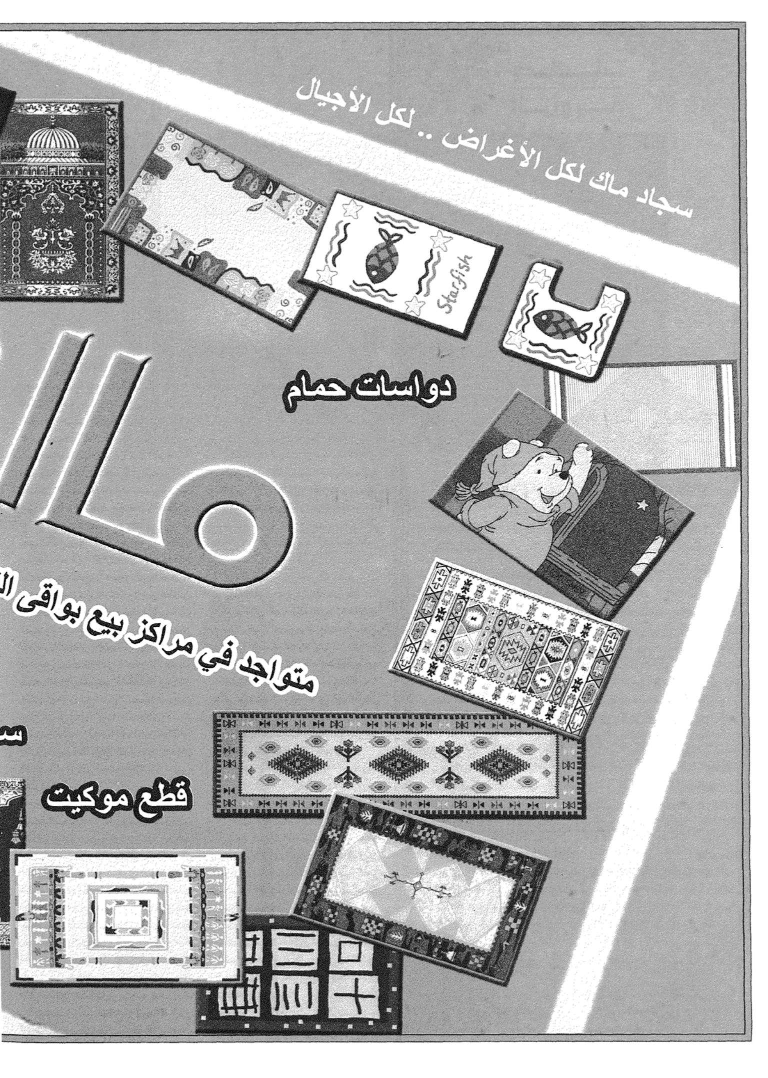
تقرير جولدستون
(٢)

استندت البعثة فى أعمالها إلى تحليل مستقل ونزيه لمدى امتثال الأطراف لالتزاماتها بموجب قانون حقوق الإنسان الدولى والقانون الإنسانى الدولى فى سياق النزاع الأخير فى غزة، وإلى معايير التحقيق الدولية التى وضعتها الأمم المتحدة.

٢٥ ـ وعلى هذا الأساس، حددت البعثة، بقدر ما سمحت به أفضل قدراتها، ما هى الوقائع التى ثبتت. وفى كثير من الحالات تبين لها أنه قد ارتُكبت أفعال تنطوى على مسؤولية جنائية فردية. وفى جميع هذه الحالات، قررت البعثة وجود معلومات كافية لإثبات العناصر الموضوعية للجرائم المعنية. وقد تمكنت البعثة أيضًا، فى جميع الحالات تقريبًا، من تحديد ما إذا كان يبدو أن الأفعال المعنية قد ارتُكبت عمدًا أو على نحو متهوِّر أو فى ظل معرفة أن العواقب التى نتجت كانت ستحدث فى السياق المعتاد للأحداث. وهكذا، أشارت البعثة فى كثير من الحالات إلى عناصر الخطأ ذات الصلة (ركن القصد الجنائى). وتُقدِّر البعثة تمام التقدير أهمية افتراض البراءة: فالاستنتاجات المقدَّمة فى التقرير لا تقوِّض العمل بهذا المبدأ. ولا تحاول الاستنتاجات تحديد هوية الأفراد المسؤولين عن ارتكاب الجرائم كما أنها لا تدعى أنها ترقى إلى مستوى البرهان الواجب التطبيق فى المحاكم الجنائية.

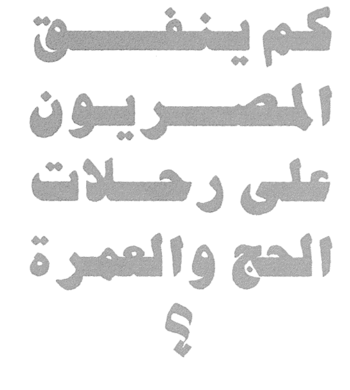
ومن أجل إتاحة الفرصة للأطراف لتقديم المعلومات الإضافية ذات الصلة وللإعراب عن موقفها والرد على الادعاءات، قدمت البعثة أيضًا قوائم شاملة بالأسئلة إلى حكومة إسرائيل وإلى السلطة الفلسطينية وإلى سلطات غزة قبل إتمام تحليلها ووضع استنتاجاتها. وتلقت البعثة ردودًا من السلطة الفلسطينية ومن سلطات غزة ولكن ليس من إسرائيل.


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



BIENVENUE
سجاد أطفال
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
SGS
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com



■■ الحج فريضة وركن من أركان الإسلام الخمسة، أما «العمرة» فهى كما يعرفها صاحب المعجم الوجيز «نسك كالحج ليس لها وقت معين ولا وقوف بعرفة». والفارق فى رأى كثير من الفقهاء بين «الحج» من ناحية و«العمرة» من ناحية أخرى هو فى كون الأولى فريضة من فرائض الإسلام الخمس، لا يصح إسلام المرء إلا بها - من استطاع إليها سبيلاً على عكس «العمرة» فهى شعيرة من الشعائر وسنة عن الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) بحيث لا إجبار عليها ولا إلزام، وإن كانت من الشعائر المحببة لوجدان كثير من المسلمين.

وبقدر هذه القيمة الوجدانية والعقائدية لفريضة «الحج» لدى أهل الأديان كافة والإحساس بالتطهر من الآثام والذنوب فإنها أيضا قد خلقت ملتقى اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً لأصحاب كل عقيدة أثناء هذا التجمع الحاشد، فيتعارفون، ويتبادلون الخبرات والتجارب كما يتبادلون المصالح بالبيع والشراء.

وبهذا المعنى تحولت هذه الأماكن إلى أسواق اقتصادية ومالية هائلة عبر الزمن واستقرت فيها أوضاع ومصالح البائعين والمشترين، ومن خلالها تتزاحم عمليات التجارة والتسويق، بدءاً من البضائع مروراً بالفنادق وأماكن إقامة «الحجيج» انتهاء بنفقات السفر والانتقالات وغيرها.

إذن من هذه الزاوية الاقتصادية المجردة، يمثل موسم «الحج» و«العمرة» إحدى وسائل العلاقات الاقتصادية والمالية بين الشعوب والأمم، ولكنها هذه المرة محكومة بغطاء دينى يجمع بين أهل كل عقيدة على حدة.

ولقد ظلت الأراضى الحجازية - وكذلك بقية الأماكن المقدسة لأهل الديانات الأخرى - أهم الأنشطة الاقتصادية لأهل هذه الأماكن، يعتمدون عليها فى معاشهم ويستندون إليها قبل غيرها فى استكمال مقومات حياتهم الاجتماعية مثل إقامة علاقات المصاهرة والزواج أو غيرها، تماماً كما يرتبط أهل المجتمعات الزراعية بموسم جنى المحصول لاستكمال مقومات حياتهم الاجتماعية. ولقرون وراء قرون، ظلت فريضة «الحج» وشعيرة «العمرة» لدى ملايين المسلمين فى بقاع الأراضى المترامية الأطراف فريضة دينية، وسنة نبوية تمارس دونما حسابات هنا وهناك، ودونما استثمار واستغلال سياسى يقوم به طرف هنا أو طرف هناك.



وتثير قضية مصروفات المصريين - أو غير المصريين - على رحلات «الحج والعمرة» مشكلات متعددة، سواء على المستوى العلمى والأكاديمى أو على المستوى السياسى والاجتماعى بقدر ما تثير مخاوف وهواجس جماعات وفئات اجتماعية وثقافية معينة.

ذلك أن هذا الموضوع برغم طابعه الدينى والعقائدى المرتبط بوجدان ومشاعر المصريين عموماً والمتدينين منهم على وجه الخصوص، فإنه علاوة على ذلك له أبعاد وجوانب اقتصادية ومالية مسكوت عنها منذ سنوات طويلة لاعتبارات عديدة، برغم الأزمات الاقتصادية التى تعيشها البلاد وتنعكس سلباً على مستوى معيشة الفقراء والفئات الوسطى تحديداً.

وما يدركه الكثير من المصريين وغير المصريين، أن موضوع «الحج والعمرة» بقدر عمق علاقته بالمشاعر الدينية بقدر ارتباطها بحركة أوسع نطاقاً من الناحية المالية والاقتصادية على الصعيد الإقليمى والدولى يطلق عليها «إعادة التدوير» Recycling ذلك أن مئات الملايين من الدولارات التى حصل عليها المصريون العاملون فى منطقة الخليج والمملكة السعودية قد عاد جزء كبير منها إلى اقتصاد المملكة السعودية فى صورة نفقات لزيارات «الحج والعمرة» التى قام بها عشرات الملايين من المصريين طوال نفس الحقبة النفطية (١٩٧٤م- ٢٠٠٨م)، ومن ثم فإن الحركة المالية والاقتصادية بين مصر والمملكة السعودية لم تكن ذات اتجاه واحد وإنما كانت فى إتجاهين متوازيين وإن كانا متناقضين ومتعاكسين.

وإذا كانت كثير من الدراسات الاقتصادية سواء من جانب المملكة السعودية أو الخبراء المصريين قد قدرت حجم المساعدات التى قدمتها المملكة السعودية إلى مصر فى صورها المتعددة (قروض - منح - مشروعات مشتركة - دعم عسكرى.. إلخ) خلال الفترة التى أعقبت هزيمة الخامس من يونيو عام ١٩٦٧م حتى قطع هذه العلاقات عام ١٩٧٩م ثم عودتها عام ١٩٨٦م إلى اليوم بحوالى ١٢ إلى ١٧ مليار دولار أمريكى، فإن أحداً لم يلتفت أو يرغب فى أن يلتفت إلى حجم الحركة المالية والاقتصادية العكسية التى ذهبت من مصر والمصريين إلى المملكة السعودية فى صورة أفواج من المعتمرين والحجاج خلال نفس الفترة.

نفقات الحج والعمرة خلال الفترة (١٩٥٥ - ١٩٧٣)

برغم قدسية ممارسة المسلمين لفريضة «الحج» ووجدانية الحدث، فإن الله سبحانه وتعالى وتخفيفاً على عباده وضع شرط «الاستطاعة» كأساس لحساب المسلم على أدائه أو تقصيره لهذه الفريضة الدينية الأساسية. و«الاستطاعة» هنا تتخذ ركنين أساسيين هما:

- ركن مالى.
- ركن مادى وجسدى.

فتوافر هذين الركنين يلزم المسلم بأداء هذه الفريضة وسنة نبيه فى أداء شعيرة «العمرة».

وتاريخياً يمكن النظر إلى الأمر عبر أربع مراحل متمايزة ومتباينة وهى:

المرحلة الأولى: الممتدة منذ ظهور الدعوة المحمدية وحتى ما قبل عام ١٩١١م.

المرحلة الثانية: من عام ١٩١٨م وحتى عام ١٩٧٣م.

المرحلة الثالثة: من عام ١٩٧٤م حتى عام ١٩٨٤م.

المرحلة الرابعة: من عام ١٩٨٥م حتى اليوم.

ومعاييرنا فى التمييز بين هذه المراحل المختلفة أربعة عناصر متكاملة هى:

المعيار الأول: مدى توافر وتطور وسائل النقل والمواصلات.

المعيار الثانى: مقدار التكاليف المالية والأعباء المادية لأداء الفريضة الدينية.

المعيار الثالث: مدى توافر الاستقرار السياسى فى الأراضى الحجازية بما توفره من التجهيزات الإدارية والبنية اللوجيستية فى الأماكن المقدسة وخدمة زوار بيت الله الحرام.

المعيار الرابع: نظم التسجيل ورسوم دخول الأماكن الحجازية من حيث الإقامة أو القيود الكمية والنوعية والمالية.

فإذا تأملنا المرحلة الأولى: (منذ الدعوة المحمدية حتى عام ١٩١٠م): والتى تميزت بتدنى وسائل النقل والمواصلات، واعتماد أفواج «الحجيج» و«المعتمرين» على وسائل بدائية للسفر والترحال، كان أكثرها تقدما حتى ذلك الحين، السفن التى تنقل الحجاج القادمين من مصر ومنطقة المغرب العربى من ميناء السويس وميناء سفاجا أو بعض الموانئ البسيطة على ساحل البحر الأحمر، اجتيازاً لهذا البحر وصولاً إلى موانئ الأراضى الحجازية خصوصاً فى جدة.

أما قوافل الحجيج القادمين من الشام وبلاد الرافدين. فقد كانت تنتقل براً على ظهور الجمال وغيرها من الحيوانات لمدة شهور طويلة قاطعة الصحراء الشمالية والشمالية الشرقية للأراضى الحجازية وصولاً إلى «مكة المكرمة» و«المدينة المنورة».

ومن ثم فقد كان للأعباء الجسدية والمالية على هؤلاء الحجيج أثر فى تواضع أعدادهم ومن ثم تواضع حصيلة رسوم «الحج» و«العمرة» التى تحصل لصالح القائمين على هذه الأماكن المقدسة من القبائل الحجازية.

كما أدت عمليات السلب والنهب التى كانت تتعرض لها بعض قوافل الحجيج فى بعض السنوات التى تعرضت فيها البلاد إلى اضطرابات وصراعات بين القبائل (آل سعود - آل الرشيد - آل الحسين - آل غالب.. إلخ) إلى عدم انتظام مواسم الحج، وتقلب حصيلة رسوم «الحج»، وكذا تواضع كمية «الأضحية» وسوق التجارة الذى كان يعد المصدر الرئيسى لمعيشة القبائل الحجازية عموماً، والقبائل ذات الصلة المباشرة بالأماكن المقدسة «مكة» و«المدينة» خصوصاً.

وبرغم هذه الظروف غير المستقرة فقد ظل الحجيج المصريون والأتراك هم الأكثر عدداً من ناحية والأكثر إنفاقاً فى مواسم «الحج» طوال هذه المرحلة، لأسباب موضوعية بعضها يعود لطبيعة الحجاج المصريين والأتراك الذين كان ينتمى معظمهم إلى أبناء الطبقات الوسطى وكبار ملاك الأراضى والأعيان الذين تتوافر لديهم فوائض مالية تمكنهم من أداء هذه الفريضة الإسلامية من ناحية، وبعضها الآخر بسبب تقدم مصر وتركيا نسبياً مقارنة ببقية شعوب العالم الإسلامى امتداد من إندونيسيا والهند شرقاً انتهاء بمراكش غرباً والسودان وبعض الجماعات الإسلامية فى أفريقيا جنوباً.

أما المرحلة الثانية (١٩١٠م- ١٩٧٣م): فقد تميزت بعدة تطورات إيجابية فى هذا المجال لعل أولها، ذلك التطور السريع فى وسائل النقل والمواصلات، حيث بدأ المهندس الألمانى «ميسنر» منذ عام ١٩٠٥م تحت تصور إستراتيجى للإمبراطورية الألمانية الصاعدة - بالتواجد فى هذه المنطقة ببناء ومد أول خط سكة حديد يمتد من دمشق شمالاً مروراً بفلسطين انتهاء «بمكة المكرمة» وانتهى من بناء هذا الخط الاستراتيجى عام ١٩١٠م وأطلق عليه «خط سكة حديد الحجاز» ولم يتوقف الرجل وطموحاته عند هذا الحد بل أنه شرع فى مد خط سكة حديد جديد يمتد من بغداد وبلاد ما بين النهرين شرقاً إنتهاءاً «بمكة المكرمة» غرباً وسعى بعدها إلى مد خط «الحجاز» الأول إلى حلب وعاصمة الخلافة العثمانية «القسطنطينية» والذى لم يسعفه اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م - ١٩١٨م) لاستكماله فتعرضت هذه الخطوط الحيوية للتدمير من جانب بعض القبائل العربية الموالية والمتعاونة مع بريطانيا وبقيادة ضابط الاستخبارات «إدوارد لورنس» إلى التدمير قطعة بعد قطعة بحجة إضعاف المجهود الحربى العثمانى والحقيقة أن وراء هذا التدمير هدفا آخر أكثر خبثاً يتعلق بانفراد بريطانيا بهذه المنطقة الواعدة بكنز من النفط الأسود وتقطيع أواصر الاتصال بين شعوب هذه المنطقة العربية (اتفاقية سايكس - بيكو السرية عام ١٩١٦م).

كما شهدت هذه المرحلة تطور وسائل المواصلات الحديثة مثل السيارات والطائرات وبداية استخدام بعضها (خاصة الحافلات لنقل الحجيج) فى مواسم «الحج» و«العمرة».

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، وأعلن عن قيام «المملكة العربية السعودية» عام ١٩٣٣م واستقر الأمن إلى حد كبير فى طرق قوافل الحجيج سواء القادمون من مصر أو الشام أو بلاد ما بين النهرين. وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن دخل الحكومة السعودية من الضرائب والرسوم على الحجاج المصريين عام ١٩٣٨م بلغ حوالى ٥ ملايين جنيه مصرى وهو مبلغ ضخم فى ذلك الزمان. هذا علاوة على النفقات المباشرة التى ينفقها الحجاج فى الأراضى المقدسة (المأكل والمشرب والسكن والأضحية وشراء الهدايا للأقرباء.. إلخ) والتى تزيد بدورها على ثلاثة إلى خمسة أضعاف هذا المبلغ أى نحو ١٥ مليونا إلى ٢٠ مليون جنيه بأسعار ذلك الزمان.

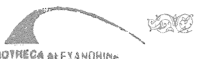
وهذه الضرائب والرسوم على الحجاج المصريين كانت تعنى أن عدد هؤلاء الحجاج ذلك العام (١٩٣٨م) يزيد على ٥٠ ألف حاج مصرى (بمتوسط ١٠٠ جنيه للحاج الواحد) أى أن نفقات الحجاج المصريين سنوياً كانت تتراوح من ٢٠ مليون جنيه إلى ٢٥ مليون جنيه (بما يعادل ٦٠ مليون دولار إلى ٧٥ مليون دولار).

ولعل التطور الأبرز فى هذه المرحلة. إكتشاف آبار النفط فى شبه الجزيرة العربية بكميات هائلة بعد عام ١٩١٣م وبداية الحفر المكثف فى المملكة السعودية منذ عام ١٩٣٣م مما أدى لتراجع مداخيل مواسم «الحج» و«العمرة» إلى المرتبة الثانية فى الاقتصاد.

ويشير أحد الباحثين السعوديين إلى هذه الحقيقة بقوله «أنه بعد أن كان الاعتماد يقوم على رسوم الحجيج وما ينفقونه أثناء مواسم «الحج» و«العمرة» أصبح النفط أهم مصدر للدخل خاصة بعد عام ١٩٧٣م».

ومع زيادة الثروة النفطية بدأ التنظيم الإدارى الحديث للمملكة السعودية ويشير الباحث السعودى إلى أن هذه البلاد لم تعرف أى نظام للإدارة حتى عام ١٩٥٢م(١٣٧٤ هـ) حينما أنشئ أول مجلس للوزراء وإن ظل «للملك عبد العزيز بن سعود» ومن بعده ابنه «الملك سعود» السلطة المطلقة فى الشئون المالية والسياسية فى المملكة حتى تعرضت البلاد إلى أزمة مالية عاصفة خلال أعوام (١٩٥٦م - ١٩٦٠م) كادت تدفع بها إلى حافة الإفلاس مما اضطر الأسرة السعودية إلى عزل «الملك سعود» وتنصيب شقيقه

> **تثير قضية مصروفات المصريين - أو غير المصريين - على رحلات «الحج والعمرة» مشكلات متعددة، سواء على المستوى العلمى والأكاديمى أو على المستوى السياسى والاجتماعى والاقتصادى**



«فيصل» ملكاً على البلاد لما عرف عنه من حزم وقسوة فى أحيان كثيرة.

وعلى الفور استخدم الملك «فيصل» بعثة متخصصة من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى أوصت بضرورة إنشاء مجلس أعلى للتخطيط تابع إلى رئاسة مجلس الوزراء توكل إليه مهمة وضع الخطط الشاملة للمملكة، وفى عام ١٩٦٣م عقدت الحكومة السعودية اتفاقية مع مؤسسة فورد الأمريكية Ford foundation تقوم بمقتضاه الأخيرة بتنظيم الجهاز الإدارى للمملكة.

أما المرحلة الثالثة (١٩٧٤م - ١٩٨٤م): فقد حدث بها أربعة تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية كبرى عكست نفسها على حركة «الحج» و«العمرة»، ليس فى مصر وحدها وإنما فى ربوع العالم الإسلامى كله، وقد تمثلت هذه التحولات الكبرى فى الآتى:

الأول: التطور السريع والمذهل ليس فى استحداث وسائل النقل والمواصلات فحسب وإنما فى امتلاك الدول العربية والإسلامية (خاصة المملكة السعودية وبقية دول الخليج) لأساطيل بحرية للنقل وكذا أساطيل من طائرات الركاب الحديثة.

الثانى: تحركات العمال العرب عموماً والمصريين خصوصاً بأكثر من ٢٠ مليون عامل ومهنى من كافة المستويات العلمية والمهنية خلال هذه الحقبة النفطية (١٩٧٤م - ١٩٩١م) ومعهم تحركت مليارات الدولارات فى صورة تحويلات نقدية أو عينية من هؤلاء العمال والمهنيين إلى بلدانهم وإلى أسرهم، مما جعل مئات الآلاف من الفقراء ومتوسطى الحال قادرين على أداء فريضة «الحج» وتكرار رحلات «الاعتمار».

الثالث: تنامى النفوذ الفكرى والثقافى والسياسى للتيارات الوهابية عموماً فى المنطقة العربية والإسلام السنى خصوصاً بدءاً من أندونيسيا والباكستان انتهاء بمصر والجزائر وبلاد المغرب العربى، وانتقال هذا النفوذ الفكرى والثقافى من إطاره العقائدى والوجدانى إلى الإطار السياسى الحركى (الجماعات الإسلامية بكافة أنواعها)

ومنها تأججت مشاعر دينية تعرضت للقنص من جانب جماعات وجمعيات مصالح وجدت فى هذه المشاعر الدينية فرصة سانحة للكسب فتشكلت آلاف الجمعيات التى جعلت من تنظيم رحلات «الحج» و«العمرة» سوقاً للكسب والتربح.

الرابع: اكتساح رياح العولمة الرأسمالية وآليات السوق بكل وحشيتها لكل الأنشطة والمجالات ونزولها العاصف إلى حركة «الحج» و«الاعتمار» فحولتها إلى سوق بكل موبقات السوق وجشع العاملين فيه.

أما المرحلة الرابعة (١٩٨٥م حتى اليوم): فقد اتسمت بانفلات العقال من كل قيد وتسابق كل الأطراف الرسمية (الأجهزة المصرية والأجهزة السعودية) وغير الرسمية (الجمعيات - الوكلاء - شركات السياحة - السماسرة.. إلخ) لتحقيق الأرباح الهائلة دون حسيب أو رقيب وأسقطوا تماماً المعانى الوجدانية والإنسانية والدينية لهذه الفريضة المقدسة.



المشاعر الدينية تعرضت للقنص من جانب جماعات وجمعيات مصالح وجدت فيها فرصة سانحة للكسب فتشكلت آلاف الجمعيات التى جعلت من تنظيم رحلات «الحج» و«العمرة» سوقاً للكسب والتربح

الحقبة النفطية و«الصحوة الإسلامية»:

ثلاثة متغيرات إقليمية كبرى تزامنت، أو تكاد بعد هزيمة يونيو عام ١٩٦٧م ولعبت دوراً مؤثراً فى سير الأحداث فى المنطقة العربية والإسلامية وهى:

الأولى: تناقص دور القيادة القومية للمنطقة العربية وشعوبها سواء فى شكلها الناصرى أو البعث السورى أو العراقى.

الثانية: بداية بروز ثم صعود نفوذ الجماعات الوهابية والسلفية فى المنطقة تحت مسمى «الصحوة الإسلامية» كرد فعل سياسى وثقافى لفشل القيادة القومية للمنطقة العربية.

الثالثة: بداية امتداد النفوذ السعودى السياسى والاقتصادى فى المنطقة العربية والذى ازداد أثره بعد وفاة الزعيم القومى التاريخى «جمال عبد الناصر» عام ١٩٧٠م وتولى «أنور السادات» الحكم من بعده.

ومع تضافر هذه العوامل الثلاثة، وتدفق أموال المساعدات السعودية العلنية وغير العلنية للمؤسسات والأشخاص والجمعيات الدينية الإسلامية والأزهر فى مصر والعالم العربى تنامت وترعرعت ثلاثة عناصر جديدة فى الحركة الاجتماعية والسياسية والدينية المصرية، وكذلك فى كثير من الدول العربية والإسلامية وهى:

الأولى: انتشار الجمعيات الأهلية الإسلامية.

الثانية: انتشار حركة بناء وتشييد المساجد الأهلية.

الثالثة: بداية تمدد نفوذ الحركات السياسية الإسلامية.

فإذا تأملنا العنصر الأول (الجمعيات الأهلية) نجد أن عدد الجمعيات الأهلية العاملة فى مصر عام ١٩٦٠م تزيد على ٣٤٩٤ جمعية (علاوة على ١٥٨ جمعية فى أسوان) ولم تكن الجمعيات الإسلامية تزيد على ٥٧٩ جمعية (أى بنسبة ١٦,٦٪) وتكاد تساويها الجمعيات الأهلية المسيحية التى بلغ عددها ٤٢٧ جمعية (بنسبة ١٢,٢٪) أى أن أكثر من ٢٨٪ من الجمعيات الأهلية العاملة فى مصر تكاد تكون دينية أو ذات غطاء دينى وهو ما حدا بالمشرع المصرى إلى محاولة التضييق على الجمعيات ذات الطبيعة الدينية فأصدر القانون رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤م الخاص بالجمعيات الأهلية.

وقد استهدف المشرع من هذا القانون التضييق على الجمعيات الأهلية الدينية فحدد نشاط الجمعيات فى ثلاثة عشر نشاطاً يسمح لهذه الجمعيات بممارستها ولم يكن من بينها نشاط تنظيم رحلات «الحج» و«العمرة»، وإنما اندرج هذا النشاط داخل نشاط أوسع نطاقاً هو «الخدمات الثقافية والعلمية والمهنية» لكن التغير الذى طرأ على السياسة المصرية بعد عام ١٩٧٠م وبداية انتهاج الدولة تحت قيادة الرئيس «السادات» لسياسة دعم نشاط الجماعات الدينية الإسلامية (بما فيها الإخوان المسلمين) قد أدى لغض الدولة (ممثلة فى وزارتى الشئون الاجتماعية والداخلية) الطرف عن الأنشطة ذات الطبيعة الدينية لهذه الجمعيات، فزاد عدد هذه الجمعيات من ٣٤٩٤ جمعية عام ١٩٦٠م إلى ١١٣١٣ جمعية عام ١٩٩٠م، أما فى عام ٢٠٠٧م فقد بلغ عدد الجمعيات الأهلية (المسجلة) لدى وزارة الشئون الإجتماعية ٢٢١٠٢ جمعية (أكثر من نصفها تقريباً مجرد لافتة) منها ما لا يقل عن أربعة آلاف جمعية إسلامية.

مئات الملايين من الدولارات التى حصل عليها المصريون العاملون فى منطقة الخليج والمملكة السعودية عاد جزء كبير منها إلى اقتصاد المملكة السعودية فى صورة نفقات لزيارات «الحج والعمرة» التى قام بها عشرات الملايين من المصريين طوال نفس الحقبة النفطية (١٩٧٤م- ٢٠٠٨م)

وبينما كانت الجمعيات الإسلامية المصرح لها بتنظيم رحلات «الحج» و«العمرة» عام ١٩٧٠م حوالى ٣٦ جمعية فإن هذا العدد قد قفز إلى عشرة أضعافه بنهاية عام ٢٠٠٧م ليزيد على ٣٦٥ جمعية وتخفى بعضها الآخر خلف حركة بناء واسعة للمساجد والزوايا الدينية مستفيدة بعد ١٩٧١ من صدور القانون رقم (..) لسنة ١٩٧١م الذى أعفى أصحاب العقارات من أداء ضريبة العقارات والمبانى فى حال تخصيص بعض شقق العقار لإقامة الشعائر الدينية الإسلامية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإذا تأملنا حركة بناء المساجد الأهلية خلال نفس الفترة الممتدة من عام ١٩٧٤م حتى عام ١٩٨١م نجد أنه قد جرى بناء حوالى ٢٥٣٦١ مسجداً أهلياً مقابل وجود حوالى ٥١٠٢ مسجد حكومى واستمرت هذه الحركة حتى مطلع التسعينيات من القرن العشرين حينما اصطدمت الدولة المصرية بالجماعات السياسية الدينية المسلمة «الجهاد والجماعة الإسلامية والتكفير والهجرة وغيرهم». فجرى ضم آلاف المساجد الأهلية إلى عصمة وزارة الأوقاف وفى نفس الفترة جرى توظيف عشرات الآلاف من خريجى «الأزهر» فى وظائف الدعاة والأئمة حتى أصبحت هذه الوزارة رابع وزارة فى ترتيب العاملين فيها (٢٥٠ ألف موظف عام ٢٠٠٦م) معظمهم من الدعاة والأئمة، ولعل هذا ما دفع مئات الآلاف من الطلبة للالتحاق بمعاهد الأزهر التعليمية وجامعة الأزهر بحيث أصبحت هذه الجامعة تضم حوالى خمس طلاب الجامعات الحكومية عام ٢٠٠٦م والبالغ عددهم حوالى ١,٧ مليون طالب جامعى.

وأخيراً فإن انضمام عشرات الآلاف من الشباب والمراهقين إلى الجماعات الدينية والإسلامية بكافة تياراتها بدءاً من الإخوان المسلمين مروراً بجماعتى «الجهاد والجماعة الإسلامية» انتهاء بجماعة (التبليغ والدعوة وجماعة التكفير والهجرة وغيرها) حتى الجماعات ذات الطبيعة السلفية والصوفية والمقدر عددهم بأكثر من مليون شاب خلال هذه الفترة (١٩٧١م-٢٠٠٦م) كل هذا قد عزز من نفوذ هذه الجماعات وزاد من تأجيج المشاعر الدينية لدى ملايين المصريين.

الفريضة: «السوق» و«العولمة»

وسط هذه الظروف والمتغيرات، تأججت مشاعر الشوق لملايين المصريين لأداء فريضة «الحج»، وأحد أركان الإسلام الخمسة، خاصة أن تدفقات وتحركات ملايين المصريين فى سوق العمل بالخليج والبلاد العربية النفطية قد ساعد على توفير عنصر «الاستطاعة» المالية، وزادها الشوق والوجدان الدينى التلقائى لدى المصريين البسطاء لهيباً واندفاعاً.

وهنا كان الصيادون من كل صوب وحدب متربصين ومتحفزين.

- كان بينهم مصريون.
- وكان بينهم سعوديون.

وبين هذا وذاك تحركت مئات الملايين من الدولارات الأمريكية والريالات السعودية فى شرايين الحياة الاقتصادية لتنقل نبضات الحياة من هنا إلى هناك.

صحيح أن «سوق الحج» كان قائماً منذ مئات السنين ظهور الرسالة المحمدية - وحتى قبلها فى عهد الوثنية. ولعب دوراً أساسياً فى اقتصاد ومعيشة أهالى المنطقة الحجازية (خاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة) إلا أن ظهور «النفط» فى هذه البلاد المترامية الأطراف منذ عام ١٩٣٣م قد أدى لتغيرات فى أوزان مصادر الثروة، وتغير المشهد كله بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م حينما قفزت أسعار البترول العربى وغير العربى من أقل من ٣ دولارات للبرميل إلى ١١,٣ دولار فى أواسط عام ١٩٧٤م وها هو اليوم يدور صعوداً وهبوطاً حول ٨٠ دولارا للبرميل الواحد.

وقد ترتب على هذا أن قفزت عوائد صادرات النفط العربى خلال الفترة (١٩٧١م- ١٩٨٣م) إلى ١,٢ تريليون دولار أمريكى نالت السعودية فيها حصة الأسد (بقيمة ٥٥٢,٨ مليار دولار) يليها الإمارات المتحدة (١١٧,٠ مليار دولار) فالكويت (١٠٨,٤ مليار دولار) وبقية الدول العربية مثل ليبيا والعراق والجزائر وغيرها.

ونشأ على ضفاف هذه التدفقات المالية والنقدية الهائلة حركة تحويلات مالية من مراكز الثروة الجديدة إلى مواطن العمال والخبراء والمهندسين ومختلف الفئات فى مصر والسودان وفلسطين ولبنان وسوريا واليمن والبنجلاديش والهند والباكستان وغيرها.

ومن بين حجم تحويلات وتعويضات على مستوى العالم قدرت بحوالى ٨٠ مليار دولار سنوياً خلال الفترة من عام ١٩٧٥م حتى عام ١٩٨٥م كان نصيب البلدان العربية (مصدرة ومستوردة لهذه الأموال والتحويلات) تقدر بحوالى ٢٠ مليار دولار سنوياً ازدادت أو انخفضت وتيرتها وأحجامها مع انخفاض أسعار برميل النفط أو ارتفاعه.

وقد بلغت هذه التحويلات والتعويضات للعاملين خارج دولهم على مستوى العالم عام ٢٠٠٠م حوالى ١٣١,٥ مليار دولار زادت عاماً بعد آخر حتى بلغت عام ٢٠٠٧م حوالى ٣٣٦,٩ مليار دولار وكانت حصة البلدان العربية منها حوالى ٢٠٪ تقريباً ولم تزد حصة مصر منها ذلك العام عن ٨,٥ مليار دولار.

ووفقاً لأحدث دراسة قام بها الباحث الاقتصادى السعودى «عبد الحميد العمرى» عضو جمعية الاقتصاد السعودية ونقلاً عن مؤسسة النقد السعودى فإن إجمالى ما قام بتحويله الأجانب العاملون فى المملكة السعودية (عددهم ٧ ملايين مشتغل معظمهم من شرق آسيا) - إلى بلدانهم خلال السنوات العشر الأخيرة (١٩٩٨م-٢٠٠٧م) قد بلغ ١٦٤,٣ مليار دولار أى بمتوسط ١٦,٤ مليار دولار سنوياً تتفاوت من سنة إلى أخرى وإن كان المقدر لها أن تتجاوز ٢٤ مليار دولار أمريكى فى السنة خلال الأعوام القادمة.

ومن جانب آخر فإن البيانات الصادرة عن النشرة الشهرية من البنك المركزى المصرى فى أغسطس (آب) عام ٢٠٠٩م تكشف عن جانب آخر من الصورة حيث تراوحت تحويلات العمالة المصرية فى المملكة السعودية بين ٦٤٠ مليون دولار أمريكى عام (٢٠٠٣/٢٠٠٤) إلى ٩٥٩,٠ مليار دولار أمريكى عام (٢٠٠٧/٢٠٠٨) شاملة التحويلات النقدية والعينية معاً والأخيرة هى تلك المصاحبة للعامل المصرى أثناء عودته أو التى قام بشرائها ونقلها إلى ذويه فى مصر مثل السيارات أو السلع الكهربائية المعمرة أى أنها تشمل جزءا جرى إنفاقه داخل أراضى المملكة السعودية وفى شرايين اقتصادها.

بينما كانت الجمعيات الإسلامية المصرح لها بتنظيم رحلات «الحج» و«العمرة» عام ١٩٧٠م حوالى ٣٦ جمعية فإن هذا العدد قد قفز إلى عشرة أضعافه بنهاية عام ٢٠٠٧م ليزيد على ٣٦٥ جمعية



مع تلك الطفرة فى التدفقات المالية من دول النفط، بدا أننا بدأنا نشهد شيئا شبيها بسياسة «التدوير» Recycling ذاتها التى اتبعتها الدول الأوروبية والولايات المتحدة فى مواجهة فوائض الأموال المتحققة لدى دول النفط العربية، وذلك بإعادة إدخال وتدوير هذه الفوائض المالية داخل الاقتصادات الغربية سواء فى الأسواق المالية أو أسهم الشركات الصناعية وغير الصناعية أو أذون الخزانة الأمريكية والأوروبية.

يشبه ذلك وإن اختلف السياق أن مئات الملايين من الدولارات تدفقت مرة أخرى من خارج المملكة السعودية إلى داخلها مصاحبة لعشرات الملايين من الحجيج والمعتمرين المسلمين من مصر وبقية ربوع العالم الإسلامى.

وعلى أية حال لقد ظل موسم «الحج» وتدفقات المعتمرين من كل أنحاء العالم الإسلامى طوال العام تقريباً تعد مصدراً أساسياً من مصادر الدخل لدى المملكة السعودية عموماً والعاملين منهم فى قطاع الحجيج على وجه الخصوص.

وهكذا تشكلت مصالح، وأنشئت شركات هنا وهناك، ويكشف تتبع التطور والتغير الذى حدث فى عمليات ترشيح وقبول الراغبين فى «الحج» أو الذاهبين إلى «العمرة» خلال الخمسين عاماً الماضية مقدار التحول المذهل من مفهوم «الخدمة» Service الدينية المصحوبة بمنافع اقتصادية لبعض الأطراف هنا وهناك إلى مفهوم ووقائع «السوق» Market بكل آلياته القاسية والوحشية فى عصر العولمة بما لم يعد يتلاءم إطلاقاً مع جوهر «الحج» كفريضة دينية واجبة أو «الاعتمار» كشعيرة دينية محببة إلى نفوس المسلمين.

ومع تسارع التطورات التكنولوجية فى عالم المواصلات والتواصل (طائرات - سفن - سيارات.. إلخ) زادت بالمقابل أعداد الحجيج فى كل موسم من هذه المواسم بحيث زاد عددهم من عدة عشرات الآلاف من الحجاج قبل عام ١٨٠٠م إلى أن تجاوز خمسة ملايين حاج فى مواسم «الحج» فى السنوات القليلة الماضية.

كم ينفق المصريون على رحلات الحج والعمرة ؟

خلال هذه العقود الطويلة الممتدة حوالى ١٣٠٠ عام من الهجرة المحمدية، ظل الطابع الغالب على هذه الشعيرة الدينية هو جانبها الوجدانى والروحى، برغم وجود عنصر «السوق» المتزامن والمصاحب لأداء فريضة الحج ومن مقوماتها:

١- وجود عشرات الآلاف من الذبائح (الفدو) التى وفرت سوقا كبيرة لتجارة اللحوم.

٢- وجود أماكن لإقامة ورعاية الحجيج (المبيت) يتولاها مئات من المطوفين وأصحاب أماكن الإقامة والضيافة.

٣- حركة بيع الهدايا للزائرين من الحجيج التى تحمل نفحات وبركات الأماكن المقدسة.

٤- تكاليف الطعام والشراب لمئات الآلاف من الحجيج.

٥- ثم اتسعت حركة التجارة غير المشروعة (تجارة الشنطة) خاصة فى رعاية الدول ذات القيود الاستيرادية (مثل مصر) خلال عقدى الخمسينيات والستينيات.

برغم أن الحجاج المصريين لم يكونوا هم الأكثر عدداً خلال العقود السابقة على عام ١٩٧٤م، مقارنة بحجيج دول إسلامية أخرى (مثل إندونيسيا أو دول جنوب آسيا المسلمة) فإنهم - أى المصريين - كانوا الأفضل من حيث التجارة والشراء بحكم كونهم من الطبقة الوسطى وفوق الوسطى ومن ثم القادرين مادياً على أعباء وتكاليف «الحج» فى تلك السنوات وساهم وجود «التكية المصرية» فى «مكة» و«المدينة» فى إضافة مظهر مميز لمصر لدى الحجيج عموماً والسعوديين على وجه الخصوص.

وعلى الجانب الآخر فإذا تأملنا تطور إنتاج النفط السعودى منذ عام ١٩٣٥م حتى عام ١٩٥٥م والعوائد السنوية المتحققة نكتشف الثقل الاقتصادى لقطاع «الحج» و«الاعتمار» فى الاقتصاد السعودى خلال هذه المرحلة.

ذلك أن إنتاج النفط السعودى قد مر بعدة مراحل متمايزة من حيث حجم الإنتاج وسعر برميل النفط:

ففى المرحلة الاولى (١٩٣٥م- ١٩٤٠م): كان متوسط حجم الإنتاج السعودى خلال هذه المرحلة لا يزيد على ٥٠٠ ألف برميل يومياً وسعر البرميل يتراوح بين نصف دولار إلى ٦٢ سنتا أمريكياً وبالتالى فإن متوسط إيرادات المملكة السعودية من النفط يدور بين ٧٥ مليون دولار أمريكى إلى ٩٣ مليون دولار سنوياً.

أما المرحلة الثانية (١٩٤١م- ١٩٤٥م): والتى زادت فيها طاقة الإنتاج والتصدير السعودية إلى ١,٥ مليون برميل يومياً، كما زاد سعر البيع إلى الشركات إلى دولار أمريكى ومن ثم فقد زادت إيرادات المملكة السعودية إلى نحو ٤٥٠ مليون دولار أمريكى سنوياً.

وفى المرحلة الثالثة (١٩٤٦م- ١٩٥٥م): زاد إنتاج المملكة السعودية إلى ٢ مليون برميل كما زاد سعر بيع البرميل ما بين ١,٢ دولار إلى ١,٥ دولار أمريكى فحققت إيرادات قدرت بنحو ٧٥٠ مليون دولار سنوياً إلى ٩٠٠ مليون دولار سنوياً.

ومقابل كل هذا فإن قوافل الحجاج المصريين خلال نفس هذه المرحلة كانت تؤدى ضرائب ورسوم زيارة للأماكن المقدسة تتراوح بين ٥ ملايين جنيه مصرى إلى ٨ ملايين جنيه مصرى (الجنيه المصرى يعادل وقتئذ ٢,٨٦ دولار أمريكى) تدخل إلى خزينة المملكة فإذا أضفنا إليها نفقات هؤلاء الحجيج - والمقدر عددهم سنوياً بحوالى ٤٠ ألفا إلى ٥٠ ألف حاج - فى صورة انتقالات وإقامة ومأكل ومشرب وشراء هدايا وثمن الفدو أو (الأضحية) فإن هذه النفقات تقدر بحوالى ٢٠ مليون جنيه أى ما يعادل من ٥٧,٢ مليون دولار إلى ٦٠ مليون دولار أمريكى سنوياً هذا بخلاف عشرات الآلاف من الحجاج القادمين من كافة البقاع الإسلامية.

إذن حتى عشية اندلاع حرب من أكتوبر عام ١٩٧٣م كانت عائدات النفط فى المملكة السعودية تكاد تعادل تقريباً عائدات المملكة من نفقات يؤديها الحجيج والمعتمرون القادمون من كافة بقاع العالم الإسلامى ومن بينها مصر وتعتبر مسئولة عن تحريك القطاع الشعبى الأكبر فى الاقتصاد السعودى.

بين وجد الشوق.. وسوق عكاظ..!!

قبل عام ١٩٥٥م كان أداء فريضة «الحج» وسنة «العمرة» يكاد يكون محصوراً على الطبقات الثرية فى مصر من طبقة ملاك الأراضى الزراعية والتجار ورجال المال والأعمال، وفئة قليلة من متوسطى الدخول من كبار الموظفين ومن على شاكلتهم، نظراً للتكاليف الباهظة التى كان يتحملها المسافر لأداء فريضة «الحج» والتى كانت تتراوح بين ٢٠٠ جنيه إلى خمسمائة جنيه مصرى وهو مبلغ باهظ لا يتوافر للكثيرين من غالبية الشعب المصرى ورغبة من نظام الرئيس «عبد الناصر» فى إتاحة أداء هذه الفريضة للفئات الوسطى ومحدودى الدخل بدأ عام ١٩٥٥م بإعادة تنظيم هذا القطاع، حيث جرى التعاقد بين وزارة الداخلية المصرية من جهة وكل من الشركة المصرية للملاحة البحرية وشركة مصر للطيران من جهة أخرى لمدة ١٠سنوات يتم بمقتضاه حصول الوزارة على تأشيرات زيارة الأماكن المقدسة وإصدار وثائق السفر الخاصة بها مع تنظيم أفواج الحجيج بحيث لم تتجاوز تكاليف السفر ذهاباً وعودة والإقامة والتنقلات بين مكة والمدينة وميناء جدة أو ضبا حوالى ١٢٠ جنيهاً (فى حالة السفر بحراً) تزيد إلى ١٥٠ جنيهاً (فى حالة السفر جواً) بالإضافة بالطبع إلى رسوم وضرائب زيارة الأراضى المقدسة.

وقد ساهم هذا فى توسيع قاعدة المسافرين من المصريين لأداء فريضة «الحج» بحيث زاد عددهم على حوالى ٤٠ ألف حاج سنوياً خلال الفترة التى أعقبت ذلك العام وحتى عام ١٩٧٣م.

ولم تشمل هذه التكلفة بالطبع نفقات المأكل والمشرب وشراء الهدايا من جانب الحجاج المصريين فى الأماكن الحجازية.

ومن جهة أخرى فقد بدأ منذ ذلك التاريخ «نظام القُرعَة» الذى كانت تنظمه سنوياً وزارة الداخلية المصرية، بسبب تزايد الإقبال على هذا «الحج» الشعبى - إذا جاز التعبير - فى ظل وجود تأشيرات محددة للسفر إلى الأراضى الحجازية قد لا تزيد على ٤٠ ألف تأشيرة سنوياً، بالإضافة إلى الاعتبارات المالية التى أخذت بها الحكومة المصرية - ولا زالت - بشأن تأثير هذه المسحوبات من العملة الأجنبية (الدولار الأمريكى أو الريال السعودى أو الجنيه الأسترلينى) على احتياطياتها المتاحة من النقد الأجنبى.

وحتى ذلك التاريخ.. لم تكن قد برزت

إذا تأملنا تطور إنتاج النفط السعودى منذ عام ١٩٣٥م حتى عام ١٩٥٥م والعوائد السنوية المتحققة نكتشف الثقل الاقتصادى لقطاع «الحج» و«الاعتمار» «فى الاقتصاد» السعودى خلال هذه المرحلة

ما دفعه المصريون فى الحصول على تأشيرة السفر لأداء فريضة «الحج» عام ٢٠٠٨م (١٤٢٩هـ) يتراوح بين ٥٠ مليونا إلى ٧٠ مليون جنيه تقريباً



أدوار أطراف أخرى فاعلة فى عمليات تنظيم رحلات «الحج» و«العمرة» مثل شركات السياحة التجارية أو الجمعيات الأهلية فظلت أفواج الحجيج فى معظمها تتولاها أجهزة وزارة الداخلية بالتعاون مع السلطات السعودية من الجانب الآخر.

وبرغم التدهور الذى ساد فى العلاقات السياسية بين مصر والمملكة السعودية بعد عام ١٩٥٨م واستمر تقريباً حتى عام ١٩٧١م، فقد حافظت روابط أفواج الحجيج المصريين للأراضى المقدسة التى ظلت قائمة مستمرة وعند معدلاتها العادية.

فإذا حاولنا تقدير حجم النفقات التى دفعها المصريون الحجيج والاقتصاد المصرى فى سوق الرحلات المقدسة تلك خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٥٥م حتى عام ١٩٧٣م والتى تشمل:

١) تكاليف السفر ذهاباً وإياباً بحراً وجواً

٢) تكاليف التنقلات داخل الأراضى الحجازية

٣) تكاليف الإقامة

٤) تكاليف المأكل والمشرب داخل المملكة السعودية

٥) تكاليف الفدو (الأضحية)

٦) تكاليف شراء الهدايا من الأراضى المقدسة

وبإجراء المعادلات الرياضية على البيانات المتوافرة عن تلك الفترة (١٩٥٥م- ١٩٧٣م) يصل مجموع ما تحملته مصر من اقتصادها فى رحلات «الحج» لهذه الفترة إلى

= ١٢ مليون جنيه مصرى (ما يعادل ٣٤,٧ مليون دولار أمريكى)

نصفهم تقريباً حصل عليها الاقتصاد السعودى

بعد عام ١٩٧٤م تحول المشهد كله فى مصر والمنطقة العربية والإسلامية للأسباب التى سبق وعرضناها والمتمثلة فى:

١) أثر حركة العمالة المصرية والعربية والإسلامية إلى دول النفط العربية على توزيعات الدخول.

٢) تصاعد نفوذ المملكة السعودية على سياسات المنطقة.

٣) صعود التيار الوهابى والسلفية وانتشارها بين قطاعات واسعة من السكان.

وهنا اتسع نطاق الرحلات الدينية المقدسة وكذلك تعددت الأطراف والعناصر الفاعلة فى هذه الحركة فحولتها إلى سوق ضخم له قواعده العرفية ومعدلات أرباحه الخيالية وممارساته أحياناً غير الأخلاقية وغير الدينية ومن أبرز هذه الأطراف الجديدة أو المتجددة على كلا الجانبين:

- الشركات السياحية
- الجمعيات الأهلية
- الأجهزة الرسمية وشبه الرسمية

وقد زاد الأمر سوءاً لجوء السلطات السعودية بعد تكرر أحداث مظاهرات الحجاج الإيرانيين إلى فرض نظام الحصص عام (١٩٩٣م) لحجيج كل دولة إسلامية وفقاً لقاعدة (واحد لكل ألف من السكان) حتى تستطيع تحجيم عدد الحجيج الإيرانيين من ناحية ولتمكين الأجهزة الأمنية من السيطرة على الموقف من ناحية أخرى.

بيد أن هذه السياسات الجديدة قد لعبت دوراً كبيراً فى خلق «سوق سوداء» ضخمة فى مصر وبقية الدول الإسلامية وانتشر ممارسو السمسرة فى «تأشيرات الحج» وفنادق الإقامة وغيرها.

أدى انتعاش هذه الحركة الواسعة بعد عام ١٩٧٤م وتحرك ما يزيد على ١,٥ مليون مصرى سنوياً فى قوافل «الحج» و«العمرة» إلى انتعاش مقابل فى شركات السياحة العاملة فى هذا السوق. ففى عام ١٩٧٥م لم تكن شركات السياحة المصرية تزيد على ١٨٠ شركة من جميع الفئات زاد عددها عام ١٩٨٥م إلى ٥٠٢ شركة ثم إلى ٨٩٢ شركة عام ١٩٩٧م ثم وصلت الزيادة إلى ٩٩٠ شركة عام ٢٠٠٠م، وبحلول عام ٢٠٠٧م كان عدد شركات السياحة العاملة فى مصر قد بلغ ١٤٠٩ شركات وفى نهاية عام ٢٠٠٨م كان عدد الشركات السياحية فى مصر قد قارب على ١٧٠٠ شركة.

وقد أدى دخول هذه الشركات - ووكلائها السعوديين من الجانب الآخر - على خط تنظيم هذه الرحلات الدينية إلى فتح أبواب جهنم على الأسعار والتكاليف، فانتشرت عمليات البيع والشراء - وعمليات السمسرة - فى تأشيرات «الحج» التى كانت القنصليات السعودية تصدرها مجاناً، خاصة بعد اتباع المملكة السعودية عام ١٩٩٣م أسلوب النسبة العددية لكل بلد (واحد لكل ألف من السكان)

وبالتالى فقد بلغت حصة الشركات السياحية حوالى ٣٢ إلى ٣٥ ألف تأشيرة وزعت على الشركات العاملة فى هذا المجال.

ونظراً لقلة حصص بعض هذه الشركات (أقل من ٢٠ تأشيرة) فقد لجأ بعضها إما إلى بيع حصته تلك إلى شركات سياحية أكبر مقابل الحصول على ١٠ آلاف إلى ١٤ ألف جنيه للتأشيرة الواحدة أو تجميع حصص عدد من الشركات فى كتلة واحدة حتى تتمكن من التفاوض مع وكلائها السعوديين والحصول على شروط مناسبة لإقامة وتنقلات الحجيج التابعين لهم وتحقيق أرباح معقولة فى موسم «الحج».

أما وزارة التضامن فقد بلغت حصتها فى ذلك العام ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م) حوالى ١٦ ألف تأشيرة يجرى تجنيب حوالى ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف تأشيرة، يوجه بعضها إلى وزارات معينة (وزارة الدفاع وبعض الأجهزة الرئاسية) ويتسرب جزء آخر إلى «السوق السوداء» حيث تباع التأشيرة بمبالغ تتراوح بين خمسة آلاف إلى ٦ آلاف جنيه للتأشيرة الواحدة مما ساعد على انتعاش واستمرار «السوق السوداء» فى هذا النشاط الدينى. وكذلك الحال فى تأشيرات الجمعيات الأهلية (١١ ألفا إلى ١٣ ألف تأشيرة على حوالى ٥٠٠ جمعية)

كيف تكون سوق «الحج» و«العمرة» بعد عام ١٩٧٤م؟

أدت العوامل التى سبق أن أشرنا إليها (العمالة المتحركة - التحويلات - الصحوة الإسلامية) إلى تدافع مئات الآلاف من المصريين المسلمين لأداء الفريضة المقدسة «الحج» والسنة النبوية المحمودة «العمرة» مصحوبين بقوة شرائية هائلة ومشاعر شتى ومثلهم ملايين من المسلمين فى كافة أرجاء العالم الإسلامى.

وبطبيعة الأشياء، فإذا كان السوق حاضراً فى مواسم «الحج» منذ مئات السنين - حتى قبل انبعاث الدعوة المحمدية - فإنه يعد الآن منادياً وجاذباً وله رجاله والمتربحون منه من كل صوب وحدب.

وأغرى هذا السيل المتدفق - بلا توقف - الكثيرين بالمشاركة فيه حتى لو كانت أدوارهم لا تستلزم ذلك سواء على الجانب السعودى (وزارة الحج - هيئة مخاع - الغرف التجارية والسياحية) أو على الجانب المصرى (وزارة الداخلية - الشركات - السماسرة - وزارة السياحة.. إلخ).

ففى البداية لم يكن هناك سوى الرسوم المقررة المتواضعة لإصدار وثيقة السفر والباقى يتحمله المسافر من تذاكر الطائرة أو الباخرة وتكاليف الإقامة والتنقلات فى المملكة وغيرها سواء تحملها بصورة مباشرة وشخصية أو من خلال وسيط كشركات السياحة أو الوكلاء أو الجمعيات الأهلية.. إلخ.

وهكذا بدأ تحميل «الحاج» أو «المعتمر» بعشرات الرسوم والمصاريف المبالغ فيها حتى وصل سعر «الحج» السريع من فئة الخمسة نجوم إلى ١٠٠ ألف جنيه (لأحد عشر يوماً).



انتشرت عمليات البيع والشراء ـ وعمليات السمسرة ـ فى تأشيرات «الحج» التى كانت القنصليات السعودية تصدرها مجانا، خاصة بعد اتباع المملكة أسلوب النسبة العددية لكل بلد



تجارة «التأشيرة»:

من الناحية القانونية - والشكلية - مازالت تأشيرة السفر لأداء فريضة «الحج» التى تصدرها القنصليات السعودية مذيلة بتعبير «مجانية» أى بدون مقابل لكنها ومنذ مطلع التسعينيات بدأت السلطتان السعودية والمصرية تتسابقان فى فرض رسوم على إصدار هذه التأشيرات حتى قاربت مبلغ الألف جنيه فى الوقت الراهن.

ففى عام ١٩٩٣م وضعت السلطات السعودية نظاماً جديداً قائماً على فكرة الحصص لكل دولة من الدول الإسلامية (واحد لكل ألف من السكان) خاصة بعد تزايد التظاهرات التى كان يقوم بها الحجاج الإيرانيون وأدت إلى مقتل المئات منهم فى العام السابق (١٩٩٢م) وقد لاقى هذا الإجراء ترحيباً من السلطات المصرية لعدة أسباب بعضها سياسى والبعض الآخر اقتصادى:

- سياسياً: أعتبرت

كم ينفق المصريون على رحلات الحج والعمرة ؟

السلطات المصرية أن تقليص أعداد المعتمرين والحجاج يصب لصالح تقليص الأرضية والبيئة الثقافية والفكرية المؤيدة أو المحتضنة لتيارات الإسلام السياسي خصوصاً جماعة الإخوان المسلمين التى تشكل خطراً سياسياً وربما انتخابياً للنظام العسكرى القائم فى مصر.

- واقتصادياً: فإن ما تتحمله خزينة البنك المركزى المصرى والنظام المصرفى من أعباء مالية بسبب توفير العملات الأجنبية (الريال السعودى - الدولار الأمريكى) لهذه الأعداد الهائلة سنوياً يؤثر لا شك على حصيلة النقد الأجنبى والاحتياط النقدى المتاح لدى الاقتصاد المصرى.

ومن ثم فقد جاءت إجراءات المملكة السعودية فى فرض رسوم على إصدارات تأشيرة «الحج» متوافقة مع الرغبة المصرية، كما شجعت الحكومة المصرية

ضمن تكلفة الحج السريع الذى تنظمه الشركات السياحية الكبرى (١٠٠ ألف جنيه لأحد عشر يوماً) أو الشركات السياحية المتوسطة (٣٦,٥ ألف جنيه إلى ٤٦,٥ ألف جنيه لذات المدة) فى حين يتسرب حوالى ٥ آلاف تأشيرة أخرى إلى جهات سيادية وأمنية.



تعالوا هنا - كمثال - لنحسب كم أنفق المصريون على الحج فى العام الماضى ٢٠٠٨م - ١٤٢٩ هـ:

١- حجاج الشركات السياحية:

بلغت الحصة الرسمية لهذه الشركات فى العام الماضى (١٤٢٩هـ) حوالى ٣٢ ألف تأشيرة (بنسبة ٤٠٪ من الإجمالى)، علاوة على عدة آلاف قليلة من التأشيرات تقتنصها هذه الشركات من خلال «السوق

٤- الحصول على الرسوم التى فرضتها الوزارة على تأشيرة ووثائق السفر التى سبق وعرضنا إليها من قبل.

بيد أن نداهة السوق كانت أكبر فى الغواية من تقاليد وزارة الداخلية المحافظة فنزلت بدورها إلى سوق «الحج» بتنظيم قوافله من بين المتقدمين الذين وقع عليهم الاختيار وفقاً لحصة الوزارة (٤٠٪ من إجمالى التأشيرات الممنوحة من المملكة السعودية) فبدأت إدارة «الحج» و«العمرة» بالوزارة بالتعاقد مباشرة مع بعض الوكلاء السعوديين ونظمت قوافل السفر بالطائرات أو السفن ونزلت إلى سوق ضخم فانزلقت أقدامها وتاهت بوصلتها فى دهاليز الخصخصة الجديدة.

على أية حال ووفقاً للتعاقد الذى تم بين إدارة «الحج» و«العمرة» التابعة لوزارة الداخلية المصرية وبين أفواج الحجاج المصريين فى موسم «حج» عام ٢٠٠٨م (١٤٢٩هـ) فإن متوسط سعر أداء المناسك كان فى حدود ٢٥ ألف جنيه شاملة الإقامة والطعام والتنقلات الداخلية داخل المملكة السعودية علاوة بالطبع على السفر من مصر إلى المملكة السعودية والعكس دون أن يشمل بالطبع الهدايا التى اشتراها الحجيج على حسابهم الخاص لذويهم فى مصر.



جاءت اجراءات المملكة السعودية فى فرض رسوم على إصدارات تأشيرة «الحج» متوافقة مع الرغبة المصرية، كما شجعت الحكومة المصرية على فرض رسوم مماثلة



وأجهزتها الأمنية على فرض رسوم مماثلة. ووصل الأمر فى نهاية المطاف أن أصبح على الحاج المصرى سداد ما يقارب ٥٩٣,٦ جنيه مصرى أو (٣٩٣ ريالا سعوديا) مقابل الحصول فقط على تأشيرة «الحج».

ويجرى فيما بين الشركات السياحية الصغرى والكبرى عمليات بيع وتجارة واسعة النطاق فى هذه التأشيرات بحيث تصل قيمتها من ١٠ آلاف جنيه إلى ١٤ ألف جنيه كما يجرى تسريب أعداد من تأشيرات «الحج» من حصة وزارة التضامن أو وزارة الداخلية مقابل مبالغ تتراوح بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف جنيه للتأشيرة الواحدة خاصة أن سعر الحج السريع (١١ يوماً) لدى بعض الشركات المتوسطة يتراوح بين ٣٦,٥ ألف جنيه و٤٦,٥ ألف جنيه إلى ١٠٠ ألف جنيه للشركات ذات الخمسة نجوم.

فإذا قدرنا ما دفعه المصريون فى الحصول على تأشيرة السفر لأداء فريضة «الحج» لعام ٢٠٠٨م (١٤٢٩هـ) نجدها تتراوح بين: ٥٠ مليونا إلى ٧٠ مليون جنيه تقريباً.

بينما تحتسب تكلفة التأشيرة لحوالى خمسة عشر ألف حاج آخرين

السوداء»، وكذلك ما يتسرب من تأشيرات من حصة وزارتى التضامن الاجتماعى (الجمعيات الأهلية) والداخلية.

وبالتالى فإن العدد الفعلى لهذه الشركات يصل إلى حوالى ٣٥ ألف تأشيرة تتوزع بين مستويات اجتماعية واقتصادية مختلفة من الحجيج المصريين ووصل عدد المتعاملين مع هذه الشركات حوالى النصف تقريباً أى حوالى ١٩ ألف حاج فى ذلك العام.

واذا أخذنا بالاعتبار التوزيع النسبى لحجاج الشركات، وتبعا للمعلن من أسعار سنجد أن مجموع ما أنفقه الحجاج المصريون المسافرون فى أفواج الشركات السياحية = ١٦٨٥ مليون جنيه مصرى

٢- حجاج وزارة الداخلية:

قبل عدة سنوات قليلة كان دور وزارة الداخلية المصرية يقتصر فقط على أربعة واجبات:

١- الحصول على تأشيرات السفر بالتنسيق مع السلطات السعودية.

٢- إصدار وثائق السفر الخاصة بالحجاج.

٣- إجراء «القُرعَة» لاختيار من يقع عليهم الاختيار من بين المتقدمين ويترك لكل منهم السفر بوسائله الخاصة.

وبالتالى فإن حجم ما تحمله الحجاج المصريون المتعاقدون مع وزارة الداخلية لعام ٢٠٠٨:

= (٢٩ ألف حاج × ٢٥ ألف جنيه)

=٧٢٥ مليون جنيه مصرى

٣- الجمعيات الأهلية

كما سبق وذكرنا فإن حصة وزارة التضامن من تأشيرات «الحج» ذلك العام حوالى ١٦ ألف تأشيرة (٢٠٪ من الإجمالى) يتم توزيع ١٢ ألفا منها فقط (وفقاً لتصريحات وزير التضامن الاجتماعى) يتسرب معظم الباقى إلى السوق السوداء.

ويقدر متوسط تكلفة الحاج الواحد فى هذه الجمعيات بحوالى ١٥ ألف جنيه إلى ٢٠ ألف جنيه تدفع عادة على دفعات قبل السفر.

وبالتالى فإن متوسط ما تحمله الحجيج المصريون أعضاء هذه الجمعيات ذلك العام يتراوح بين:

= (١٢ ألف تأشيرة × ١٥ ألف جنيه)

= ١٨٠ مليون جنيه مصرى

أو = (١٢ألف تأشيرة × ٢٠ ألف جنيه)

= ٢٤٠ مليون جنيه مصرى

تكاليف الهدايا بصحبة الحاج العائد:

إذا استثنينا عمليات التجارة المصاحبة لرحلات بعض المسافرين المصريين لأداء فريضة «الحج» و«العمرة» (تجار الشنطة) والمرتبطة باستخدام هذه الرحلة المقدسة للتغطية على عمليات تهرب جمركى والاستفادة من فروق الأسعار فى بعض السلع بين مصر والمملكة السعودية. فإن المؤكد أن جميع الحجيج تقريباً يستحضرون معهم أثناء العودة بعض المشتريات والهدايا إما لإهدائها لأقربائهم وأبنائهم وأحبائهم فى مصر أو تبركاً بها من الأماكن المقدسة.

وعلى قدر المستطاع لدى الحاج المصرى فإن هناك حدودا دنيا للإنفاق على هذه الهدايا لم يقل عن ألف ريال سعودى (١٥٠٠ جنيه مصرى فى المتوسط) ويتدرج صعوداً إلى ما يقارب ٢٠ ألف ريال سعودى (٣٠ ألف جنيه مصرى) فإذا كان عدد المسافرين المصريين لأداء فريضة «الحج» ذلك العام (٢٠٠٨م) قد بلغ حوالى ٨٠ ألف شخص تتفاوت قدراتهم المالية والشرائية فإننا نستطيع عبر استخدام توزيعات الأعداد المسافرة على المستويات الثلاثة السابق الإشارة إليها أن نقدر الآتى:

١- أن حوالى ٢٥٪ من الحجاج المصريين (أى ٢٠ ألف حاج) هم من القادرين على شراء هدايا فى حدود ٢٠ ألف ريال سعودى لكل حاج (أى حوالى ٣٠ ألف جنيه).

٢- وأن هناك ٢٥٪ من الحجاج المصريين (أى ٢٠ ألفا آخرين) هم من متوسطى الحال الذين لن تتجاوز مشترياتهم عشرة آلاف ريال سعودى للحاج الواحد (أى حوالى ١٥ ألف جنيه مصرى)

٣- وأن هناك ٥٠٪ من الحجاج المصريين (أى حوالى ٤٠ ألف حاج) لن يستطيعوا أن يستصحبوا معهم سوى هدايا فى حدود ألف ريال سعودى فقط لكل حاج (أى ١٥٠٠ جنيه مصرى).

وبالتالى وبحسبة بسيطة سنجد أن تكاليف الهدايا فى صحبة الحجاج المصريين العائدين:

= ٦٠٠ مليون جنيه + ٤٠٠ مليون جنيه + ٦٠ مليون جنيه

=١٠٦٠ مليون جنيه مصرى



والخلاصة أنه بحساب أرقام إنفاق الفئات المختلفة للحجاج السابق الإشارة إليها مع نفقات شراء الهدايا وكذلك نفقات التأشيرات، يصبح مجموع ما أنفقه الحجاج المصريون فى موسم «حج» عام (١٤٢٩هـ) الموافق عام ٢٠٠٨م

= (٧٠ + ١٦٨٥ + ٧٢٥ + ١٨٠ + ١٠٦٠)

=٣٤٨٨ مليون جنيه مصرى

أو =٣٥٤٨ مليون جنيه مصرى

أى ما يعادل=٦٢٢,٩ مليون دولار أمريكى

أو =٦٣٣,٦ مليون دولار أمريكى

أو بالعملة السعودية = ٢٣٢٥,٣ مليون ريال سعودى

أو = ٢٣٦٥,٣ مليون ريال سعودى

ذهب نصفها تقريباً إلى الاقتصاد السعودى وذهب نصفها الآخر إلى قطاعات فى الاقتصاد المصرى (السياحة - وزارة الداخلية - شركات الطيران والعبارات البحرية ووسائل النقل المصرى).

وإذا حاولنا تقدير الصورة الإجمالية لمصروفات الحجيج من كل بقاع العالم الإسلامى والمقدر بحوالى ٤ ملايين حاج لذلك العام (٢٠٠٨م) تتفاوت قدراتهم المالية والاجتماعية (حجاج بنجالاديش والهند والباكستان واليمن مقابل حجاج تركيا ومصر ودول الخليج العربى.. إلخ).

فإذا قدرنا أن متوسط التكلفة لفقراء الحجاج المسلمين فى الدول المشار إليها هو ألف دولار للحاج الواحد وأن متوسط إنفاق حجاج بقية الدول الإسلامية يتراوح بين ثلاثة آلاف دولار إلى عشرة آلاف دولار أمريكى.

وأن نصف الحجيج من البلاد الإسلامية الفقيرة (باكستان - بنجالاديش - الهند - نيجيريا - اليمن.. إلخ) بينما ربعهم الآخرون من الدول متوسطة الإنفاق والربع الأخير من الدول ذات القدرات المالية الكبيرة.

فإن حجم الإيرادات التى تتحقق للمملكة السعودية

= (٢ مليون حاج × ألف دولار) + (١ مليون حاج × ٣ آلاف دولار) + (مليون حاج × ١٠ آلاف دولار)

= (٢ مليار دولار) + (مليار دولار) + (١٠ مليار دولار)

= ١٣ مليار دولار أمريكى

أى ما يعادل ٤٨,١ مليار ريال سعودى

وهو مبلغ هام فى الاقتصاد السعودى يكاد يعادل ماجرى تحويله من أموال سعودية لصالح العمالة الأجنبية والعربية العاملة على أراضيها والذين قدرتهم دراسات بعض الخبراء السعوديين بأنها بلغت ١٦,٤ مليار دولار سنوياً خلال العشر سنوات الممتدة من عام١٩٩٨م حتى عام ٢٠٠٨م. ■



تقرير جولدستون (٣)

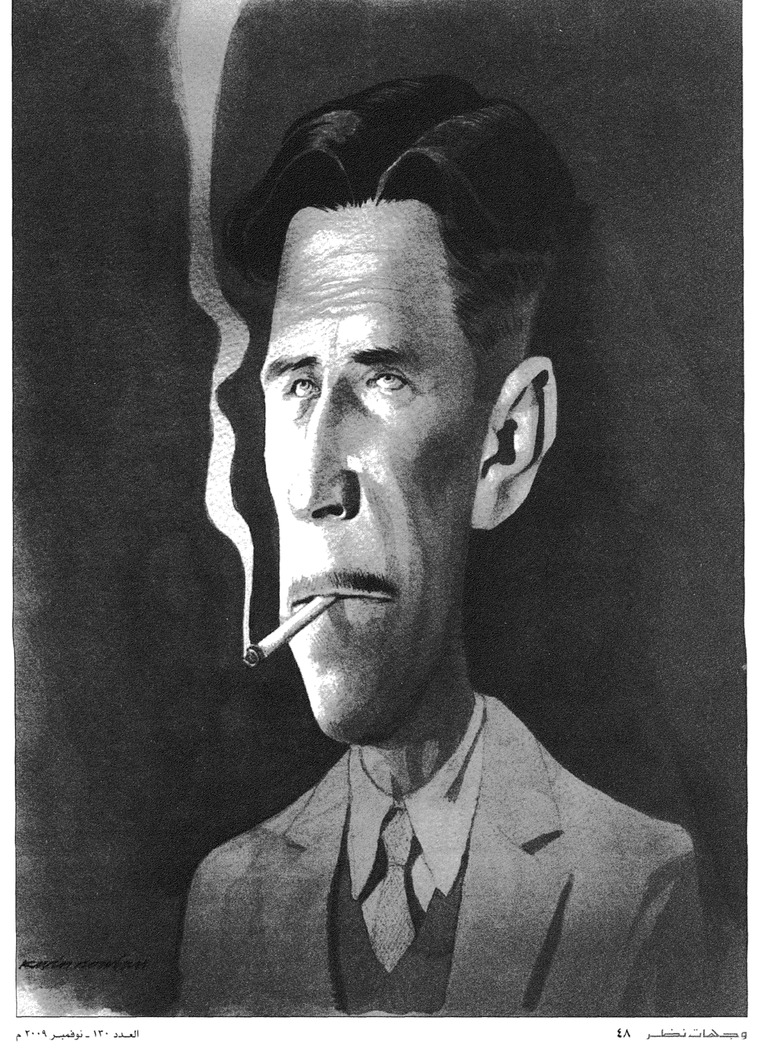
الحصار

ركزَّت البعثة (الفصل الخامس) على عملية العزل الاقتصادى والسياسى الذى تفرضه إسرائيل على قطاع غزة، والمشار إليه بصورة عامة باسم الحصار. ويشمل الحصار تدابير مثل فرض قيود على السلع التى يمكن استيرادها إلى غزة وقفل المعابر الحدودية أمام الأشخاص والسلع والخدمات، وهو ما يستمر أحيانًا لأيام، بما فى ذلك إجراء تخفيضات فى الإمداد بالوقود والكهرباء. كما يتأثر اقتصاد غزة تأثرًا شديدًا بتقليص مساحة الصيد المسموح بها للصيادين الفلسطينيين وإنشاء منطقة عازلة على طول الحدود بين غزة وإسرائيل، مما يُخفِّض مساحة الأرض المتاحة للزراعة والصناعة. وبالإضافة إلى أن الحصار يخلق حالة طوارئ، فإنه قد أضعف كثيرًا من قدرات السكان وقدرات قطاعات الصحة والمياه والقطاعات العامة الأخرى على الاستجابة لحالة الطوارئ الناشئة عن العمليات العسكرية.

٢٨ ـ ومن رأى البعثة أن إسرائيل مازالت مُلزمة بموجب اتفاقية جنيف الرابعة وإلى أقصى حد تسمح به الوسائل المتاحة لها، بضمان توريد المواد الغذائية واللوازم الطبية ولوازم المستشفيات والسلع الأخرى بغية تلبية الاحتياجات الإنسانية لسكان قطاع غزة دون قيد من القيود.

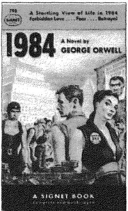
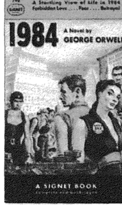
ومن رأى البعثة أن إسرائيل مازالت مُلزمة بموجب اتفاقية جنيف الرابعة وإلى أقصى حد تسمح به الوسائل المتاحة لها، بضمان توريد المواد الغذائية واللوازم الطبية ولوازم المستشفيات والسلع الأخرى بغية تلبية الاحتياجات الإنسانية لسكان قطاع غزة دون قيد من القيود.







جورج أورويل

هَل تتذكره..؟!

أحمد حجاج

«انتهت الحرب مع أورآسيا ووجد ونستون نفسه يعمل طويلا أثناء الليل لكى يعيد كتابة تاريخ الحزب الذى كان يصور أورآسيا كعدو. أنا وجوليا فى حاجة إلى مكان منعزل نستطيع أن نمارس فيه الحب ونحن نستمع إلى نشيد «الله يبارك لك أيها الحاكم»



■■ «لقد كان يوما باردا فى أبريل، وكل الساعات دقت الساعة الثالثة عشرة».

هل تتذكرون هذه الجملة المشهورة؟ أنها من الرواية التى ألفها جورج أورويل منذ ستين عاما. اعتقد أن جيلا كاملا تأثر بها كثيرا حول العالم. عندما عثرت فى شبابى على نسخة مستعملة من هذا الكتاب دفعنى الفضول إلى شرائها بثمن رخيص بعد ان سمعت عنها وعن مؤلفها. عندما بدأت فى الاطلاع عليها سهرت ليلة كاملة حتى انهيتها. ليست رواية طويلة من أمثال قصص تولستوى وغيره ولكنها تستحوذ عليك من الصفحة الاولى. انها رواية ١٩٨٤ ـ نعم هذا هو عنوانها. وكان أورويل يرمز بها عندما كتبها عام ١٩٤٩ إلى ما قد ينتظر العالم بعد ستين سنة، عالم مخيف وقاس تتلاشى فيه ارادة الفرد ويخضع المجتمع لسيطرة ونفوذ ومراقبة ما يسمى «بالأخ الكبير» وهو شخصية غير مرئية ولكن هذا الأخ ونظامه لا يتركون للفرد أى حرية لكى يعيش حياته كما يشاء، فمنذ استيقاظه وعمله طوال النهار وحتى فى نومه فإنه مراقب وأى خروج عن النظام أمر يستحق العقاب. لا توجد صداقات أو حتى عداوات ولكن فقط الأخلاص للنظام والأخ الكبير.

فى عام ١٩٤٦ كان جورج أورويل كاتبا مغمورا ولكن المحرر الأدبى فى جريدة الأوبزرفر البريطانية توسم فيه خيرا بالرغم من كل مظاهر عدم الأتزان والجنون أحيانا التى كانت تلم به بين الحين والآخر، واعاره كوخه الريفى لكى يتفرغ للانتهاء من كتابة هذه الرواية التى تحدث عنها كثيرا من قبل. هذه الرواية اعتبرت من أفضل الروايات التى ظهرت خلال القرن العشرين وأصبحت بمثابة الرواية الكلاسيكية التى تدرس لطلاب الأدب فى الجامعات المشهورة. وكتبت عنها مئات من رسائل الماجيستير والدكتوراه وأصبحت من أكثر الكتب مبيعا فى الكثير من الدول وترجمت إلى لغات عديدة- ٦٥ لغة بالضبط - واعيد طبعها ولا يزال عشرات المرات.

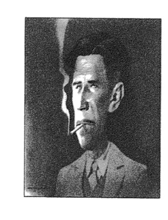
هذه العبارة السابقة التى بدأ بها أورويل روايته تجعل القارئ متسمرا فى أحداثها حتى النهاية. قد يرى البعض فيها بعض الرتابة ولكن أحداثها تشدك حتى تنتهى من قراءتها. الرواية فى صورتها النهائية التى طبعت بها لم تكن هى الرواية الأصلية التى كتبها أورويل، ولكن كما تظهر المخطوطة الأصلية فقد ادخل عليها أورويل تعديلات واعاد صياغتها بالكامل عدة مرات. والمراقب الذى يقوم بتحليل هذه «الروايات» يمكنه ان يرى بوضوح الأزمة العميقة التى كانت تستحوذ عليه نفسيا والتى جعلته اقرب إلى الجنون منه إلى التعقل والاتزان.

١٩٨٤ أصبح تعبير يستخدمه الكثيرون للاشارة إلى الأنظمة القمعية، ويمكن مثلا أن تقول «الأخ الكبير» لكى يعرف أنك تريد الاشارة إلى دكتاتور أو حاكم مطلق يطلب الطاعة العمياء من الرعية، كذلك هناك تعبير «التفكير المزدوج» Doublethink أى أن ما تفكر به هو متناقض تماما مع ما تتحدث به، بل هناك لقب «الاورواليه» المرتبط باسم المؤلف ويقصد به الآن أى نظام شمولى متسلط يلغى حرية الشعب والفرد. يطلق الآن ناس كثيرون هذه الوصف على أنظمة كثيرة وهم لا يعرفون أنه مشتق من مؤلف رواية يدعى جورج أورويل. «بطل» الرواية ونستون سميث ما هو إلا شخص عادى بين ملايين من أمثاله فى مجتمع كل أفراده متشابهون ويتوجب عليهم التفكير بنفس الشىء، أى أن الفرد ما هو إلا صامولة من آلاف الصواميل فى آلة عملاقة.

الرواية جاءت بعد أكبر حرب عالمية فى التاريخ هى الحرب العالمية الثانية التى حصدت أرواح عشرات الملايين من الضحايا، ومثلت فى نظر الكثيرين الصراع بين الشر الذى مثله هتلر والنازية وبين «الخير» الذى مثله الغرب. لم يكن أورويل بالطبع يقصد ذلك من روايته وانما عكس مخاوف الملايين التى خرجت من الحرب وهى تحلم بالمستقبل. كان هناك بالفعل تخوف مما قد يحدث لهم خاصة بعد تثبيت النظام الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى الذى وأن كان حليفا للغرب فى هذه الحرب ضد النازية. انما كان هذا تحالفا مؤقتا اقتضتة الضرورة ضد «عدو» واحد. ولكن هذا النظام كان أقرب فى نظر الكثيرين إلى النظام الدكتاتورى الذى محا حرية الفرد ليس فقط فى روسيا وانما سيطرته على العديد من دول شرق أوروبا دون ان يحرك الغرب ساكنا ورفض محاولة التعايش مع هذا النظام الشمولى. كما أن شخصية ستالين كانت تقريبا تماثل شخصية الأخ الأكبر أى أن الطاعة والولاء له تعلو فوق كل اعتبار.

توضح المراحل التى مر بها اورويل حتى الانتهاء من روايته، نموذجا فريدا فى الاطلاع على نفسيته المعقدة. كان مريضا تراوده أحلام فظيعة تظهر فيها الكثير من الشخصيات المرعبة والوحوش المخيفة التى تطوف فى مخيلته بين الحين والأخر. جلس يكتب الرواية فى مكان منعزل فى اسكتلندا بعيدا عن العمران ومن صحبة الآخرين. كانت فكرة الرواية تختمر فى ذهن أورويل لعدة سنوات قبل ان يشعر بالقدرة على بداية وضعها على الورق. كان يريد ان يسميها فى الأصل «الإنسان الأخير فى أوروبا» ولكنه عدل عن ذلك إذ ايقن فى رأيه ان الحضارة التى نعرفها فى طريقها إلى الزوال وفى وقت أقرب مما نتصور، ولذلك اختار هذا الاسم مكتوبا كما يلى «ألف وتسعمائة وأربعة وثمانين» بدلا من الأرقام ١٩٨٤، وعاده يطلق البريطانيون شفاهة عليها اختصارا «تسعة عشر أربعة وثمانين».

الفكرة راودته ما بين



> «جلس داخل شقته بعيدا عن أنظار بوليس الفكر. بدأ فى تصفح الكتاب الذى أحضره من مكان محظور على أعضاء الحزب أن يدخلوا إليه، وشعر على الفور برعشة فى معدته»



عامى ١٩٤٣/١٩٤٤ أو خلال فترة أشد المعارك ضراوة فى الحرب العالمية الثانية واعتقد الكثيرون ان القوة النازية الهتلرية هى التى ستنتصر وستختفى «الحضارة» الغربية كما عرفها العالم أو أصحابها على الأقل. فى هذه الفتره هو وزوجته ايلين تبنيا ولدهما الوحيد ريتشارد. هل كان ذلك علامة على بعض الأمل فى المستقبل، أم مجرد ملاذ لهما يؤنس حياتهما؟ لا نعرف. أورويل نفسه يقول انه تأثر باجتماع عقده قاده الحلفاء فى مؤتمرهم فى طهران عام ١٩٤٤. ويقول زميله المعروف إيزاك دويتشر الذى كان من ألمع الصحفيين والأدباء فى بريطانيا فى ذلك الوقت ان أورويل كان واثقا ان ستالين وتشرشل وروزفلت تآمروا فى طهران لتقسيم العالم فيما بينهم. هذا التصور من جانب أورويل لم يكن بعيدا عن الحقيقة، فكما نعرف من مؤتمر بوتسدام عقب الحرب أن ستالين انتزع من زعماء الغرب - تشرشل وروزفلت - الاعتراف بإلحاق موسكو لدول عديدة فى شرق أوروبا للنفوذ السوفيتى والتى أصبحت ذات أنظمة شيوعية بالإضافة إلى تقسيم ألمانيا وهو ما أدى بعد فترة قصيره إلى ظهور الحرب الباردة بين النظامين الشيوعى والرأسمالى.

جريدة الأوبزرفر العريقة التى أدين لها بمعلومات كثيرة عن تاريخ أورويل تعد من أكثر الجرائد رصانة فى تاريخ الصحافة البريطانية ولا زالت فى رأيى من أفضلها. أجبرتها الأزمات المالية على تقليص نشرها وان تصبح أسبوعية ولكنها مع ذلك تضم أفضل المحللين السياسيين والاقتصاديين وتخصص صفحات هامة للأدب وتنشر فى كل أسبوع أهم الكتب التى تصدر عالميا. الجريدة كان يملكها فى ذلك الوقت الناشر البريطانى المعروف والارستقراطى فى نفس الوقت «دافيد استور» الذى الحق عام ١٩٤٢ جورج أورويل ضمن الكتاب العاملين فى الصحيفة، أول الأمر ككاتب يستعرض الكتب الجديدة ثم مراسلا فى مهام مختلفة. اعجب استور باسلوب أورويل و قدرته على «الحياد» الموضوعى والأسلوب المباشر فى مقالاته التى كانت تتسم بالعرض الأمين فى نفس الوقت. ولذلك إذا كان يصح استخدام هذا التعبير فإنه وضع أورويل تحت جناحيه او رعايته، بل أصبحا صديقين وهو عامل أثر إلى حد كبير فى صياغة رواية ١٩٨٤.

بالمناسبة تاريخ ١٩٨٤ كان فى نظر الخارجين من الحرب وما خلفته من دمار وعذاب، تاريخا قد يبدو بعيدا للكثيرين، ولو أنه إذا ما حسبت فانه كان يتحدث «مجازيا» عن مستقبل سيحل بعد خمسة وثلاثين عاما فقط. ولكن الغالبية كانت تريد ان تستريح وتنعم بالحياة ولا تريد أن تفكر فى احتمال أى مستقبل مظلم لها أو للعالم.

جورج أورويل أيضا هو صاحب الرواية المعروفة «مزرعة الحيوانات» التى ترجمت إلى العربية ومن يبدأ فى قراءتها أيضا لن يسكت حتى ينتهى منها. هى أيضا من الروايات التى أثرت فى جيل كامل وكانت مقدمة لرواية ١٩٨٤ وتتصور مزرعه للحيوانات فقط يسود فيها الخنزير صاحب السيطرة الذى تسعى بقية الحيوانات إلى التقرب منه بل والحصول على حظوته. كل ذلك بأسلوب رشيق تهكمى ساخر وقصد بها أورويل ان يشير إلى الأنظمة الشمولية التى يحاول فيها الأفراد والمؤسسات اغداق المديح على «القائد» وحكمته وبعد نظره إلخ..... وقد انعكس ذلك على أسلوبه فى عرض الكتب التى كان يختار عرضها كل أسبوع فى الأوبزرفر.

تدخلت عوامل أخرى لكى تؤثر فى نفسية أورويل وفى الرواية التى اختمرت عناصرها فى ذهنه. بعد فترة قصيرة من تبنى ابنه «ريتشارد» دمرت شقته تقريبا بفعل بعض القوارض، وهو ما مثل فى ذهنه قيام نظام ما لا تراه يقوم بتخريب حياتك وأنت لا تستطيع مقاومته أو حتى رؤيته أو التعرف عليه. كان ذلك أيضا مثالا لما حدث للكثير من مبانى لندن خلال الحرب التى استهدفتها الطائرات الألمانية دون تمييز ودمرتها من أجل احباط البريطانيين والتأثير على معنوياتهم وعزيمتهم على مواصلة الحرب، حيث كان هتلر يريد منهم أن يثوروا على تشرشل الذى أدخلهم فى حرب لا صلة لهم بها. وأسوأ من ذلك تلقى أورويل عندما كان فى مهمة للجريدة فى أوروبا نبأ وفاة زوجته ايلين التى كانت تخضع لجراحة بسيطة فى المستشفى.



لقد وجد نفسه فجأة ارملا وابا لطفل صغير يحاول مقابلة نفقات الحياة فى شقة متواضعة وأن يجتر أحزانه ووحدته خاصة بعد فقده زوجته. ركز على عمله لنسيان ما الم به وانكب على عمله فى الأوبزرفر حتى أنه يقال أنه خلال عام ١٩٤٥ وحده كتب مقالات كثيرة فى الأوبزرفر قدرها البعض أنها ضمت أكثر من مائة ألف كلمة. هذا فى وقت كانت فيه الصحافة تمثل أهم مصدر للمعلومات والرأى لغالبية السكان ولم يكن التليفزيون قد انتشر بعد.

وهنا تدخل صديقه ناشر الجريدة استور الذى كانت عائلته تمتلك جزيرة منعزلة فى إسكتلندا، بعيدة جدا عن أى عمران. فى البداية عرضها استور على أورويل لكى يقضى فيها عطلة واجازة له وقبل أورويل ذلك بحماسة شديدة. فى مايو ١٩٤٦ شد الرحال إلى هذا المكان المنعزل قائلا لصديقه أرثر كوستلر الكاتب المعروف أنه استعد للرحلة كما لو كان ذاهبا فى رحلة طويلة إلى القطب الشمالى. بالمناسبة أرثر كوستلر هذا صاحب الكتاب الشهير فيما بعد عن اليهود تحت اسم «القبيلة الثالثة عشرة» الذى انتقدته الأوساط الإسرائيلية واليهودية ولكنه حظى بتغطية واسعة.

لم يكن أورويل فى ذلك الوقت يتمتع بصحة جيدة، وكان شتاء عام ١٩٤٦ أقسى برودة فى بريطانيا على مدار قرن كامل، وكان المجتمع البريطانى لايزال يعانى من اجراءات التقشف وبطاقات التموين وعدم توافر السلع ونقص التدفئة، كل ذلك فاقم من مرضه. ولكن على كل حال فقد بعد عن حياة الصحفيين ومناوراتهم فى العمل التى كانت تسود لندن، وتوفر له لأول مرة الوقت والجو الملائم من أجل بدء كتابة روايته المشهورة.

ومن المفارقات أن بعض الصعوبات التى واجهت أورويل فى تلك الفترة كانت بسبب نجاح روايته السابقة «مزرعة الحيوانات»، فبعد أن شعر بالمرارة لأهمال المجتمع الأدبى له، وجد نفسه فجأة محط اهتمام الدوائر الأدبية ولعبقريته. فبعد انتهاء هذا الاهمال اسر إلى زميله «كوستلر» ان الكثيرين كانوا يطلبون منه الموافقة على إلقاء محاضرة أو الادلاء بحديث صحفى أو المشاركة فى مشروع معين، وهو يريد فى الواقع ان يتحرر من كل ذلك وتتاح له الفرصة لكى يفكر من جديد. وجد هذه الفرصة فى تواجده فى مكان منعزل فى إسكتلندا ولكن كان عليه ان يدفع ثمنا لذلك. كان قد كتب مقاله قبل ذلك بعدة سنوات تحت عنوان «لماذا اكتب؟» شرح فيها المعاناة التى يقابلها من أجل الانتهاء من كتاب ما، فالأمر فى رأيه بمثابة «معاناة فظيعة مثل مرض طويل يسبب للإنسان الاما كبيرة، ولا يجب على المرء ان يقدم على ذلك إلا إذا كان مسيطرا عليه شيطان ما، لا يمكنه ان يقاومه أو يتفهمه».

من ربيع عام ١٩٤٧ حتى وفاته عام ١٩٥٠ كانت كتابات أورويل تعكس كل هذه المعاناة والشكوك، ويظن البعض أنه وصل إلى الحد الذى قد يجعله يسعد بهذه المعاناة وهى أمور تلحق بمن يشعرون باللذة من تعذيب أنفسهم. كتب إلى ناشر روايته يقول «اننى اقاوم مع كتابة هذه الرواية التى يجب ان انتهى منها هذا العام، وعلى كل حال سينتهى بى الأمر بكسر ظهرى بحلول الخريف». الحياة فى هذا المنزل المنعزل لم تكن فاخرة، فهو بيت صغير نسبيا ولم يكن مزودا بالكهرباء وكان عليه استخدام الوقود من أجل طهو طعامه أو تدفئة المياه. كان مدمنا على تدخين السجائر ولم يرتبط مع العالم الخارجى إلا عن طريق راديو صغير يعمل بالبطارية.

عاش أورويل على سرير بسيط جدا ومنضدة صغيرة وكرسيين، وبالرغم من ذلك فقد أحب هذه الحياة البسيطة الخالية من أى كماليات. عرفه أهالى المنطقة باسمه الأصلى «اريك بلير» ووصفوه بأنه رجل مهذب طويل القامة ولكن تبدو على وجهه علامات الحزن. عندما التحق به ابنه ريتشارد الصغير مع مربيته فإنه كان يلجأ إلى أخته «ابريل». يذكر ريتشارد فيما بعد أن هذه الأخت كانت عونا عظيما لأخيها وطاهية ومدبرة منزل ممتازة وكان وجودها عاملا مساعدا لأورويل الذى بمجرد استقراره بدأ فى

كتابة الرواية بالفعل و كتب إلى ناشره انه يعتقد انه قد انتهى من ثلثى الكتاب، ولكن للأسف لم يستطع ان يفعل أكثر من ذلك بسبب سوء صحته. كان يدرك ان الناشر بدأ ينفد صبره من التأخير فى تسليم مسودات الرواية، فكان يخبره ان الفكرة الرئيسية جاهزة وانه يعتقد انه سينتهى من الرواية بحلول أكتوبر.

من الأمور البسيطة التى كانت تدخل السعادة على قلبه تمكنه من القيام هو وابنه بنزهات فى المنطقة المحيطة بمنزله فى الجزيرة أو صيد السمك. ولكن خلال رحلة بقارب صغير ضمه مع أخته وابنه كاد ان يغرق وظل فترة طويلة فى المياه الباردة التى تقارب درجة الصفر وهو ما أضر بصحته كثيرا وتعرض خلال شهرين لمعاناة مرضية شديدة. حتى ذلك الوقت كان ينوى ان يكون عنوان الرواية هو «اخر إنسان فى أوروبا» ولكن فى اطار شكه وتردده قال انه يجب اعادة كتابة ثلثى الرواية على الأقل مرة أخرى.

يبدو انه ادرك أن اجله قريب ولذلك بدأ يعمل بصورة مكثفة وكل يوم لساعات طويلة، ولكن فى نوفمبر انهار مصابا بحمى شديدة وكتب إلى احد زملائه انه اصيب بالسل مما اقتضى نقله بسرعة إلى المستشفى ولكن فى ذلك الوقت لم يكن العالم قد اكتشف بعد دواء لمعالجه هذا المرض وكان الاطباء ينصحون بمجرد تعرض المريض للهواء النقى مع غذاء معين. كان هناك دواء امريكى جديد تحت التجربة تم احضاره ولكن ابنه يعتقد ان والده قد اعطى جرعات زائده منه مما فاقم من اعراض المرض وفقد شعره وتغير جلده. ولكن بحلول شهر مارس من عام ١٩٤٨ تحسنت صحته إلى الحد الذى جعله يعتقد انه قد شفى تماما ولكنه يتهكم قائلا «ان الأمر كما كان بمثابة اغراق السفينة من أجل التخلص من الفئران التى تعبث بها، ومع ذلك فإن الموضوع يستحق».

انتهى من مسودة الرواية فى النهاية، لم يكن كما ذكر لناشره راضيا تماما عنها ولكنه فى نفس الوقت لم يكن شعوره سيئا نحوها، وكانت ستكون بالقطع أفضل لولا كتابته لها تحت تأثير مرض السل. كان مترددا فى عنوانها هل سيكون ١٩٨٤ أو «آخر إنسان فى أوروبا». كان فى صراع مع الزمن ولكنه قرر ان ينهى العمل بنفسه دون أى مساعده من الناشر وكتب النص النهائى على آله كتابة عتيقة، وانتهى منها فى ديسمبر ١٩٤٨. ادرك الناشر على الفور قيمه الرواية بعد ان وصلته واعتبرها من أفضل الكتب التى قرأها وأكثرها اثارة فى حياته وتوقع ان تبيع الرواية على الأقل ٢٠ ألف نسخة خاصة وان الأوساط الأدبية وصلتها أخبار عن مستواها الرفيع. فى هذا الوقت وصلت صحة أورويل إلى مرحلة حرجة جعلته يبصق دما ولكنه شعر ببعض السعادة من التعليقات الصحفية المرحبة بالرواية.

صدرت الرواية فى يونيو ١٩٤٩ فى بريطانيا، وبعدها بخمسة أيام فى الولايات المتحدة، وعلى الفور اعتبرت انها من أفضل الكتب التى صدرت حتى أن ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا قال انه قرأها مرتين. أورويل فى غرفته فى المستشفى ومع تدهور صحته تزوج سيدة تدعى «سونيا براونيل» وشعر مؤقتا ببعض السعادة ولكنه توفى فى يناير ١٩٥٠ وهو ما مثل صدمة لعدد كبير من القراء والأوساط الأدبية فى نفس الوقت.

احتار النقاد فى سبب اختيار أورويل لعنوان ١٩٨٤، البعض قال ان هذا التاريخ كان يتناسب مع مئوية الجمعية الفابية وهى جمعية تأسست عام ١٨٨٤ وكانت تضم بعض الذين اعتبرهم المجتمع من الحالمين والمثاليين وكان من ضمنهم الكاتب الايرلندى الساخر المعروف جورج برنارد شو. البعض الآخر يظن ان العنوان متعلق برواية الكاتب المعروف جاك لندن «القدم الحديدية» التى تنبأ فيها بوصول حركة سياسية إلى الحكم عام ١٩٨٤ إلى غير ذلك من التكهنات. ولكن احد الكتاب الذى عمل على جمع ونشر كل اعمال أورويل يرى ان العنوان ينبع من مجرد تغيير أماكن الأرقام من ١٩٤٨ إلى ١٩٨٤ وإلى تاريخ مولد ابنة بالتبنى عام ١٩٤٤، أما عن تخليه عن اسم «آخر إنسان فى أوروبا» فإن أورويل لم يكن متحمسا له فضلا عن انه ناشره قال له ان ١٩٨٤ عنوان أفضل.



الكتاب بلغت شهرته ان ظهر فى عدة أفلام ممتازة. اتذكر جيدا مدى تأثرى بالفيلم الذى ظهر فيه الممثل ريتشارد بيرتون والذى حاول الايحاء بالحكم النازى، كما قام التليفزيون بعرضها فى مسلسل تحت عنوان «الأخ الكبير» دون ان يدرى الكثير من المشاهدين مغزى عنوان ١٩٨٤ بل ان الغرفة رقم ١٠٠ التى ورد ذكرها كثيرا فى رواية جورج أورويل كمكان للاستجواب جعل بعض الفنادق تتفادى ان يكون بها غرف تحت هذا الرقم خشية ان يعرض عنها النزلاء، تماما مثل بعض الفنادق التى تتفادى الاشارة إلى الدور الثالث عشر الذى يتشاءم منه النزلاء. وأصبحنا الآن نسمع اسم «بوليس الفكر» الذى اورده أورويل فى روايته عن شرطة تقوم بمراقبة أفكار المواطنين وعدم السماح لهم بالتفكير فى أى شىء يتنافى مع آراء السلطة.

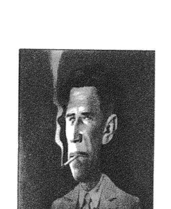
١٩٨٤ تظهر اسلوب اورويل الساخر الذى يوضح للمجتمع ماذا ستكون عليه الاحوال اذا ما قبل بوجود نظام شمولى او دكتاتورى حتى لو امكن لهذا النظام أن يوفر حدا أدنى من المعيشة المادية ولكنه يلغى الحرية والفكر. تماما كما فعل فى روايته الشهيرة «مزرعة الحيوانات» التى رفض نشرها الشاعر الشهير ت. أس. اليوت الذى كان مديرا لإحدى دور النشر فى عام ١٩٤٤ باعتبارها غير مناسبة ولأنها فى رأيه تعارض الفكر التروتسكى ومعادية لروسيا حليفة بريطانيا فى الحرب ضد النازية. ولكن منذ صدور هذه الرواية أو ١٩٨٤ لا تمر سنة إلا ويعاد طبعهما نتيجة شعبيتهما الكبيرة فى مختلف أنحاء العالم.

ولكن هل طباعة كتاب معين يعنى أنه يقرأ بالكامل؟ فى استفتاء مثير أجرى فى بريطانيا مؤخرا ظهر أن نصف من تم سؤالهم أفادوا أنهم يذكرون أنهم يقتنون الكتاب ولكنهم فى الحقيقة لم يقرأوه والأمر هو محاولة التظاهر «الكاذب» بذلك فى المجتمع حتى لا يظهروا أنهم متخلفين عن المثقفين. ١٩٨٤ كان على قائمة أكثر الكتب شهرة، ولكن عندما سئل الذين تم استقصاؤهم عما إذا كانوا قد ادعوا أمام آخرين أنهم قرأوا كتابا ما وفى الواقع لم يقرأوه، أجاب ٦٥٪ بنعم وقال ٤٢٪ أنهم ادعوا كذبا أنهم قرأوا رواية ١٩٨٤ لأورويل من أجل التأثير فى الآخرين. من الكتب الأخرى التى تدخل فى هذا الاطار رواية الحرب والسلام لتولستوى (٣١٪) وأوليسيس لجيمس جويس (٢٥٪) وحتى الانجيل (٢٤٪) أى أن حمى التظاهر بقراءة الكتب المشهورة موجودة بين الكثيرين وأعتقد أنها كذلك وأكثر فى مجتمعاتنا العربية أيضا.

هذا الاستقصاء الذى تم بمناسبة يوم الكتاب العالمى أظهر أن الكثير منا قراء عجولون ليس لديهم الصبر على قراءة الكتاب بالكامل بل نتعجل نهايته. ٣٣٪ قالوا أنهم لم يكذبوا أبدا ولكن الغالبية أقرت بذلك. وإذا كنت أحد الأشخاص الذين تلقوا أحد الكتب كهدية من شخص ما وأكتشفت أن الكتاب غير جديد بل إن الذى قدمه إليك كهدية قد قام بقراءته أولا من قبل فإنك مصيب فى شكوكك، ٤٨٪ أقروا بذلك.

الكتب المجلدة تجليدا فاخرا كما تعودت اجيال عديدة على فعل ذلك أنتهت وحتى فى مصر فإن ظاهرة التجليد أختفت إلى حد كبير وأصبح من العادة أن تطوى الصفحة عندما تتوقف عند جزء معين وهى عادة قبيحة إذ يمكن استخدام وسائل أخرى تساعدك على البدء من الصفحة التى انتهى إليها مثل وضع ورقة أو حتى بقايا تذكره إلخ... ولكن بعض الناس لديهم قدرة عجيبة على «بهدلة» الكتب التى يقتنونها. يتنبأ البعض أيضا باختفاء الكتاب المطبوع على ورق فى مستقبل قريب، والموضة الآن هى شراء الكتاب الإلكترونى أو أسطوانة رقمية مسجل عليها عشرات الكتب، أى أن المكتبات التى نشاهدها حاليا وبها أرفف موضوع عليها مختلف الكتب ستختفى أيضا.

رواية ١٩٨٤ هى محاولة لاستقراء المستقبل. هل صدقت توقعات أو تخيلات جورج أورويل أم لا؟ لقد مر عام ١٩٨٤ ولم تحدث أو تتحقق هذه التخيلات، وأن كان البعض يرى أنها بالفعل موجودة وقد تحققت فى بعض أنحاء العالم. كان الاتحاد السوفيتى فى هذا التاريخ فى أوج قوته وكان يناطح الولايات المتحدة، هذا إضافة إلى نظام الصين الشعبية بقيادة ماوتسى تونج وكوريا الشمالية وبعض الدول الأفريقية التى جثمت على

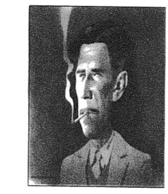




«لقد فعلت ذلك مئات المرات مع رجال عديدين» هذا ما قالته جوليا برقة وحنان وهما يجلسان على الحشائش فى إحدى الحدائق وهما يدخنان فى السر سيجارة الانتصار







«شعـر بمشـاعـر النشـوة والتفوق. لم يحـدث شيء كثير حتى تلك اللحظة لأن كل عمـل قـام بـه حتـى الآن كان يرمـى فقط لإظهار هشاشة العـالم القمعـى المقسـم الى ثلاث قوى عظمى..»



أنفاسها أنظمة الحكم الواحد أو القائد الأوحد أو الزعيم والرئيس مدى الحياة. ولكننى أعتقد أن ما قصدة أورويل هو إطلاق طلقة تحذير إلى الإنسانية حتى تكون على حذر من انسياقها الأعمى وراء زعيم أو نظام أو مؤسسة الخ... هو لم يقصد أن ذلك يمكن أن يحدث فقط فى الأنظمة الشيوعية الشمولية، وإنما حتى فى الأنظمة الرأسمالية التى تتغول فيها الرأسمالية بطريقة وحشية وتكاد تنمحى فيها حرية الفرد. العالم يجرب ولا يزال فى بعض الأحيان يصيب وفى أحيانا كثيرة يخطئ. فى عالمنا الحديث أصبحت بعض الشركات العالمية متعددة الجنسيات أقوى من دول بكاملها وتستطيع التأثير على أنظمة مستقرة.

قراءة المستقبل أصبحت علما يدرس فى الجامعات والمعاهد المتخصصة وكل فترة تخرج علينا مؤسسات مختلفة بتصوراتها حول مستقبل العالم بعد عشر أو عشرين أو خمسين سنة. بل إن المخابرات الأمريكية خرجت علينا منذ سنتين بتقرير مفصل حول رأيها لما سيكون عليه العالم بعد ربع قرن وأى القوى ستكون هى الرائدة و مدى تأثر مركز الولايات المتحدة فى هذا الصدد وما يجب أن تفعله لكى تظل فى الصدارة دائما. بعض هذه التصورات تخيب مثل تنبؤات المخابرات الأمريكية حول القوة العسكرية السوفيتية التى هولت منها كثيرا وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى تبين أن هذه القوة لم تكن بهذه المنعة التى تصورتها وتخوفت منها المخابرات الأمريكية. ولكن صدقت تنبؤاتها حول قوة الاقتصاد السوفيتى وأنه يعانى من صعوبات جمة بسبب البيروقراطية وعدم الكفاءة والإدارة إلخ... على العموم علم المستقبليات يجب أن يحظى باهتمام فى بلادنا النامية والعالم العربى على وجه الخصوص ويحتاج إلى علماء السياسة والاقتصاد و الاجتماع والنفس إلى غير ذلك. مثلا ماذا سيكون عليه مستقبل الدول العربية المنتجة للنفط إذا انتهى النفط فى العالم أو إذا ما اخترعت بدائل للنفط؟ أو كيف يمكن أن تسد الموارد العربية المتاحة احتياجات السكان المتزايدة؟ ماذا ستكون عليه علاقة الأفراد بالمركز أو الحكومة؟ أو - وهو ما نتحدث عنه كثيرا الآن - ما هو مستقبل مصر على ضوء شح المياه وانعكاسات تغير المناخ؟ كل هذه الاحتمالات مطروحة وحتى أن لم تكن ملحة الآن إلا أنها تحتاج إلى تأمل وبحث ومعالجة وتقدير من أفضل العقول عندنا.

على العموم فإن استقراء المستقبل لا يقتصر على الحكوميين أو الخبراء الرسميين وأساتذة الجامعات، وإنما امتد منذ قرن تقريبا إلى الكتاب والروائيين وظهرت أفلام كثيرة عما سيحدث فى المستقبل من صواريخ فى الفضاء إلى كائنات غريبة تغزو الأرض وطبعا كلها تستهدف المجتمع الأمريكى الذى تغار من رخائه ولكن البطولة والشجاعة الأمريكية هى التى تنقذ الأرض ومن عليها.

على العموم أفضل الكتب التى ظهرت حتى الآن عن تصورات المستقبل وأعمل فيها مؤلفوها العنان لخيالاتهم هى:

(١) «العالم يطلق سراحه» للمؤلف الأنجليزى الشهير هـ.ج ويلز الذى كتبه عام ١٩١٤ وتنبأ من قبل بظهور عدة اختراعات حدثت بالفعل، ولكنه فى هذا الكتاب تنبأ بعالم تسوده الطاقة النووية. قرأه عالم معروف هو «ليو سيزلارد» عام ١٩٣٢ وأثار فى مخيلته إمكانية انتاج القنبلة الذرية.

(٢) «فرانكشتاين» للمؤلفه مارى شيلى عام ١٨١٨ الذى شاهدناه فى أفلام رعب عديدة. أثار هذا الكتاب الملايين من البشر الذين قرأوه ويحبون أن يحسوا بالخوف والرعب ولو لفترة قصيرة.

(٣) «من الأرض حتى القمر» بقلم جول فيرن عام ١٨٦٥ الذى أخرج أيضا فى فيلم معروف. تنبأ فيرن باختراع الغواصات والطائرات ولو أن البعض يقول أن الأفكار حول تلك الاختراعات سبقت عصره ولكنها لم تدخل حيز التنفيذ وحتى عندما تخيل فيرن طريقة الوصول من الأرض إلى القمر فإنه تصور مدفعا يقذف بإنسان إلى سطح القمر، ولكنه قد يكون قد تخيل شكل صاروخ المستقبل. صدقت توقعاته عندما اختار فى كتابه ولاية فلوريدا كمركز لإطلاق المدفع وهى المنطقة التى تستخدم الآن فى الولايات المتحدة لإطلاق صواريخ الفضاء.

(٤) «انجازات لوثر ترانت» بقلم كل من أدوين بالمر وويليام ماكهارج عام ١٩١٠. الأثنان كتبا سلسلة من الروايات تتناول حياة أحد علماء النفس الذى تحول إلى مخبر بوليسى يدعى ترانت. الأخير استخدم فى تحقيقاته آله لكشف الكذب قبل أربعة عشر عاما من استخدام الشرطة لمثل هذا الاختراع.

(٥) «رحلات جاليفر» بقلم جوناثان سويفت عام ١٧٣٥. من منا فى حياته وحتى عندما كبر لا يغرم برحلات جاليفر المشهورة فى مناطق العمالقة ومناطق الأقزام والتى أخرجت فى عشرات الأفلام والمسلسلات التلفزيونية. فى منطقة لاجادو التى يشير اليها الكتاب، يتخيل سويفت آلة يمكنها كتابة الكتب، بينما فى الجزيرة لابوتا الطائرة بسبب قوة مغناطيسية، فإن علماء الفلك اكتشفوا - فى الرواية - قمرين صغيرين يحيطان بكوكب المريخ. حدث ذلك فى الحقيقة فيما بعد عندما استطاع علماء الفلك مشاهدة القمرين ولكن بعد مائة عام.

(٦) «بواسطة البريد الليلى» بقلم روديارد كيبلنج عام ١٩٠٥ وهو الكاتب الاستعمارى الذى كان يحتقر غير الأوروبيين وصاحب المقولة الشهيرة «الشرق شرق والغرب غرب». تخيل كيبلنج أن روايته تحدث عام ٢٠٠٠ والسماء مليئة بسفن فضائية أو طائرات تستخدم فى نقل الخطابات وغيرها إلى أى مكان فى العالم. هناك بالطبع الأن طائرات مخصصة لنقل البريد وغيره عن طريق شركات متخصصة بل أصبحت غير ضرورية فى نقل الرسائل بعد اختراع الأنترنت والفاكس الخ...

(٧) «القمر المصنوع من قوالب الطوب» اسم غريب لكتاب بقلم إدوارد ايفريت هال عام ١٨٦١. هال هذا أعطى لأول مرة وصفا لتصور كيف تعمل محطة فضاء تخيلها فى صورة شكل مخروطى مصنوع من قوالب طوبية طولها حوالى ثمانين مترا. بالمناسبة هال كان قسيسا مولعا بالقصص الخيالية.

(٨) «تشريح الميلانخوليه» بقلم رويرت بيرتون عام ١٦٢١ الذى أشار لأول مرة إلى وجود مخلوقات خضراء تأتى إلى الأرض من الفضاء وهو ما تصوره أفلام الخيال مرة بعد أخرى منذ عدة عقود.

(٩) رواية ١٩٨٤ لجورج أورويل التى صدرت عام ١٩٤٩ والتى تشير إلى كاميرات مراقبة فى كل مكان يستخدمها الأخ الأكبر فى مراقبة المواطنين وشرطة مراقبة التفكير الخ...

(١٠) «نيو رومانسير» بقلم ويليام جيبسون عام ١٩٨٤ وهى السنة التى شهدت مولد أكبر كمبيوتر طرح للبيع للأفراد. تصور جيبسون فى كتابه قيام الأفراد فى المستقبل بتوصيل أنفسهم إلى الكمبيوتر للحصول على حياة متخيلة.



كل هذه الاختيارات التى توصل اليها بعض الكتاب البريطانيين تخضع لاعتبارات شخصية تماما، ولكن كنت اتمنى أن تشمل القائمة مثلا كتاب «آلة الزمن» التى شاهدناها فى أفلام عديدة ومسلسل تليفزيونى ناجح ويستطيع من يستعملها أن يرجع بالزمن إلى الوراء أو إلى المستقبل حيث يعايش أقواما كانوا يعيشون فى تلك الفترة أو أقواما أخرى فى المستقبل. كتاب خيالى جميل جدا لا أعتقد أن تنبؤاته ستتحقق فى المستقبل القريب، ولكن قد يحدث ذلك بحيث يجعلنا مثلا نعيش فى عهد رمسيس أو أحمس أو الحياة فى عام ٢٥٠٠. تخاريف نعم ولكن كل الاختراعات الحديثة نشأت من وحى تخاريف أصابت مبدعيها.

والآن نقتبس بعض فقرات كتاب ١٩٨٤ لجورج ايرويل حتى نتعرف على مغزى وأسلوب الرواية:-

«دقت الساعة الثالثة عشرة عندما دخل ونستون سميث شقته فى الدور السابع فى مبانى فيكتورى. الصوت الذى كان يسمع من الشاشة كان يتحدث عن الانجازات التى تحققت فى خطة العام الثالث والتسعين. تطلع من النافذة، المنظر الذى شاهده فى الخارج كانت تنتشر فيه صورة رجل بشوارب كثة وتحتها عبارة «الأخ الكبير يراقبك». كانت هذه هى مدينة لندن المدينة الرئيسية فى المطار رقم واحد وهى أيضا مقاطعة لدولة أوسيانيا.

«جلس داخل شقته بعيدا عن انظار بوليس الفكر. بدأ فى تصفح الكتاب الذى أحضره من مكان محظور على أعضاء الحزب أن يدخلوا إليه، وشعر على الفور برعشة فى معدته. الشىء الذى هو على وشك القيام به كان هو كتابة

مذكراته وهو جرم يعاقب عليه بالموت أو على الأقل ٢٥ سنة فى السجن مع الأشغال الشاقة.

« أنا عمرى الآن ٣٩ سنة ولدى مشاعر حقيقية. أنا لست مجرد صامولة فى تمثيلية هزلية داخل النظام السوفيتى الدكتاتورى.

«توقف ونستون عن الكتابة، قائلا لنفسه: ما فائدة ذلك؟ أننى مجرد كاتب. شرب من كوب يحتوى على شراب الجين (الكحولى) وذهب إلى عمله فى وزارة الحقيقة. شاهد صورة أمانويل جولد شتاين عدو الشعب على شاشات العرض تبعها فيلم تحت عنوان «دقيقتان من الكراهية» أعقبه إعلان معروف يقول: «الحرب هى السلام، الحرية هى العبودية، الجهل قوة». «عندما اختفت الصورة من على الشاشة، شاهد ونستون اوبريان عضو الجهاز التنفيذى للحزب الذى غالبا يكون قد رآه حوالى عشر مرات خلال السنوات الماضية. شىء فى وجه أوبريان أعطاه الانطباع أنه يتشابه معه فى ميوله السياسة، أى ليس كاملا فى هذا الاتجاه.

«شعر بمشاعر النشوة والتفوق. لم يحدث شىء كثير حتى تلك اللحظة لأن كل عمل قام به حتى الآن كان يرمى فقط لإظهار هشاشة العالم القمعى المقسم إلى ثلاث قوى عظمى هى أوسيانيا وأوراسيا وايست آسيا وكل منها فى حالة حرب دائمة مع الأخرى. وأثناء تجواله ادرك أن شابة صغيرة من وزارة الحقيقة قد وضعت خطابا فى جيبه.

«قرأ ونستون هذا الخطاب ووجد عليه عبارة «أنا أحبك». تساءل: لماذا تخاطر فتاه جذابة بكل شىء فى العالم فى وقت الحب والعلاقات الحميمة فيه ممنوعة لأعضاء الحزب، هل تخاطر من أجل رجل متوسط العمر وجهه مملوء بالندبات ولم تتحدث اليه قط من قبل؟ ولكن كل هذه التناقضات لم تزعجه لمدة طويلة، وفى الواقع بالمرة. دق قلبه بسرعة، إذ فى نهاية المطاف فإن الأمر قد بدأ بالفعل.

«لقد فعلت ذلك مئات المرات مع رجال عديدين» هذا ما قالته جوليا برقة وحنان وهما يجلسان على الحشائش فى إحدى الحدائق وهما يدخنان فى السر سيجارة الانتصار.

« أجاب ونستون» أنت بالطبع تعرفين أننا سنضبط معا فى النهاية؟ على المرء الإينسى وجود نظام قمعى مضيفا: «عند ذلك فإنه سيتم القضاء علينا».

«أجابت جوليا بتحد غير مدركة أنها قالت نفس الشىء مرات عديدة من قبل: «أنا لا آبه بأى شىء».

«كانت لقاءاتهما متباعدة خلال الأسابيع التالية، كل منها لا يستغرق أكثر من نصف ساعة ما بين الالتزامات الواجبة عليهما للحزب. وحتى ضجيج أحد الفئران بأحد الكنائس لم يتمكن من إخافة ونستون فعقله وقلبه أصبحا الآن حرين.

«قالت فى أحد الأيام: «يجب أن نذهب معا إلى أوبريان، فإننى واثقة أنه أحد الشخصيات القوية فى منظمة الأخوة ويمكن لنا أن نسجل أنفسنا فى حركة المقاومة».

أجاب: «يبدو ذلك كما لو أنه افتراض متسرع». لم تعلق جوليا.

«قال أوبريان وهو يشرب كوبا من النبيذ «أننى سعيد أنكما استطعتما المجىء، سأعطيكما نسخة من كتاب جولد شتاين المحرم لكى تقرآه.

«أنتهت الحرب مع أورآسيا ووجد ونستون نفسه يعمل طويلا أثناء الليل لكى يعيد كتابة تاريخ الحزب الذى كان يصور أورآسيا كعدو. أنا وجوليا فى حاجة إلى مكان منعزل نستطيع أن نمارس فيه الحب ونحن نستمع إلى نشيد «الله يبارك لك أيها الحاكم».

«وجد ونستون الغرفة التى عثر فيها على كتاب الذكريات. قالت جوليا وهى تضع بعض مساحيق التجميل المهربة على وجهها: «حبيبى أنها غرفة ممتازة». أجاب هامسا: «إنك تبدين جذابة جدا وأنت تخالفين وتتحدين السطوة الستالينية. والآن دعينى أقرأ عليك صفحة بعد أخرى من كتاب جولد شتاين الممل جدا الذى يكرر كل شىء تعلمينه عن النظام».

«سمعا صوتا من الشاشة يقول: «ارفعا أيديكما فى الهواء واقتربا ببطء، لقد تم ضبطكما وكنتما تعلمان أن ذلك سيتم».

«قال أوبريان ببطء وهو يضع جهاز الصدمات الكهربائية حول جسم ونستون»: يجب عليك أن تتعلم كيف تفكر فى شيئين متعارضين، أى فن الاحتفاظ بعقلين متعارضين فى نفس الوقت».

«أوكى أوكى أننى أومن أن ذلك شىء سياسى عظيم وأفضل نقد لروسيا السوفيتية، ولكننى لازلت أحب جوليا».

«إذن ستذهب إلى الغرفة رقم ١٠١ وتسمع حركات الجرذان».

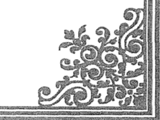
«جلس ونستون فى الميدان الفسيح وهو يستمتع بالإصغاء إلى ما يقوله الأخ الأكبر عن الانتصار العظيم. لماذا كافح كثيرا ضد الحزب؟ أنه لشىء عظيم أن تكون مجرد صامولة فى عجلات إحدى المهازل».

هذه مقتطفات مما جاء فى رواية جورج أورويل ١٩٨٤. قد تبدو الكلمات غير حية ومملة ولا تتناسب مع أحداث متلاحقة أو مثيرة، ولكن الرواية يجب أن تقرأ بالكامل حتى نستمتع بها. هى بالفعل تثير التأمل والتفكير أكثر من أى شىء آخر فليس بها حبكة بوليسية أو دموع وابتسامات وانما شذرات من هنا وهناك. أرجوكم اذا كانت لديكم نسخة من الكتاب أن تقرأوها مرة أخرى. أنا نفسى أعاود قراءتها كل ثلاث أو أربع سنوات فهو ليس كتابا طويلا ولكن فى كل مرة تكتشف شيئا جديدا. اذا لم تكن لديك نسخة أرجوك شراء واحدة. الذكرى الستون لهذه الرواية تجبرنا أن نتأمل ما حل بعالمنا، ونتساءل: هل كان جورج أورويل على حق؟ ■



تقرير جولدستون (٤)

شنت القوات المسلحة الإسرائيلية هجمات عديدة ضد المبانى وأفراد سلطات قطاع غزة. ففيما يتعلق بالهجمات التى شُنت على المبانى، فحصت البعثات الهجمات الإسرائيلية على مبنى المجلس التشريعى الفلسطينى والسجن الرئيسى بقطاع غزة (الفصل السابع). وقد دُمر كلا المبنيين ولا يمكن استخدامهما من بعد. وقد بررت البيانات الصادرة عن ممثلى الحكومة والقوات المسلحة الإسرائيلية هذه الهجمات بحجة مفادها أن المؤسسات السياسية والإدارية فى غزة هى جزء من «البنية الأساسية الإرهابية لحماس». وترفض البعثة هذا الموقف. فهى لا تجد أى دليل على أن مبنى المجلس التشريعى والسجن الرئيسى بقطاع غزة قد قدما إسهامًا فعالاً فى العمل العسكرى. وترى البعثة، بالاستناد إلى المعلومات المتاحة لها، أن الهجمات التى شُنت على هذين المبنيين تشكل هجمات متعمدة على أهداف مدنية بما يشكل انتهاكًا لقاعدة القانون الإنسانى الدولى العرفى ومفادها وجوب قصر الهجمات قصرًا حصريًا على الأهداف العسكرية. وتشير هذه الوقائع كذلك إلى ارتكاب خرق خطير يتمثل فى التدمير الواسع النطاق للممتلكات، الذى لا تبرره ضرورة عسكرية والذى تم القيام به على نحو غير مشروع ومفرط.





لقد تعلمنا أن الذين يقبضون على زمام السلطة العليا فى أمريكا ليسوا هم أولئك الذين تظهر أسماؤهم فى الانتخابات.. وإنما أولئك الذين تظهر توقيعاتهم أسفل الشيكات المخصصة للإنفاق على الحملات الانتخابية

الأدويــــة
التجـــارة أولا..

محـــمـــد يـوســــف عــــدس

■■ فى صحيفة (الشروق) المصرية قرأت تلخيصا لمقال بصحيفة التايمز الأمريكية يتساءل فيه صاحبه: من المستفيد من إنفلونزا الخنازير؟ ومن الذى تضخمت أرصدته فى البنوك؟؟ يذكر من بين كبار المستفيدين من رواج (أو ترويج) إنفلونزا الخنازير شركات الأدوية ومنها شركة روش التى تتوقع جمع مليارى فرانك سويسرى بنهاية هذا العام من بيع لقاحاتها.. وتشارك فى هذه الأرباح بنصيب كبير شركة جيلد.. التى كان يرأس مجلس إدارتها دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى السابق..!! كما تتوقع شركة جلاكسو أيضا أن تحقق إرتفاعا فى أرباحها من مبيعات عقارها البديل (ريلينزا).. والشركة بسبيل إنتاج لقاح آخر جديد سينزل السوق مع قدوم الخريف.. حيث يتوقعون تفجر وباء إنفلونزا الخنازير..

فى هذا الإطار قرأت تقريرا حديثا عن الأرباح التى حققتها شركة فايزر فى العام الماضى ٢٠٠٨، لا لأن هذه الشركة بالذات يهمنى أمرها، وإنما الذى يهمنى هو أن أرى حجم الأرباح والأموال التى تجمعها شركة واحدة ضمن مجموعة من الشركات فى كارتلة معينة.. يقول التقرير: إن شركة فايزر قد حصلت من مبيعاتها حول العالم فى عام واحد ثلاثة وخمسين بليون دولار، بلغت أرباحها من هذا المبلغ أحد عشر بليون دولار، ولكن النقطة الأهم هنا فى التقرير هى قول صاحبته (مارسيا أنجل) وهى باحثة وخبيرة فى مجال صناعة الأدوية: «كنت أظن فى الأيام الخالية أن شركات الأدوية تعنى فى أبحاثها بتطوير أدويتها لخدمة الإنسانية.. ولكنى اكتشفت أنها معنية فقط بتحقيق مزيد من الأرباح.. ولا تضيف إلى الأدوية شيئا ذا قيمة.. وإنما تنفق أكثر على برامج تسويق القديم تحت أسماء جديدة.. وتضع عليه أغلفة جذابة..» ثم تتابع فتؤكد ما هو أخطر، حيث تقول: «كانت الشركات فى الماضى تروج أدوية لمعالجة الأمراض، أما اليوم فإنها تروج لأمراض تناسب أدويتها القديمة..!».

وكنت قد التقيت مصادفة بأحد أساتذة الطب بجامعة الإسكندرية، فلما ذكرت أمامه حقيقة أن الأبحاث العلمية لم تقدم عقارا واحدا فعالا يمكن الاستغناء به عن الكيماوى فى علاج السرطان منذ أعلن نيكسون سنة ١٩٦٧ إطلاق مشروع بحث علمى للقضاء على مرض السرطان فى العالم، اعترض قائلا: بل هناك عشرات العلاجات الجديدة.. فسألته: هل تم الاستغناء عن العلاج الكيماوى..؟! قال: لا ولكنها أدوية مصاحبة، أثبتت فاعلية.. قلت: أنا لا أناقش فاعليتها.. ولكنى معنى بعلاجات بديلة تحل محل هذا الكيماوى الرهيب الذى يدمر الخلايا الحية ويقضى على جهاز المناعة فى جسم الإنسان ويسبب آلاما مروعة للمريض.. والحقيقة أن دراستى للتكتلات الاحتكارية أو (الكارتلات) وتأثيرها على الإنسان المعاصر هى التى لفتت نظرى إلى بشاعة تأثيرا كارتلات الصناعات الدوائية بصفة خاصة على حياة الإنسان ومصيره.. كان يدفعنى لمواصلة هذه الدراسة معاناة اثنين من أعز أصدقائى معاناة أدت إلى وفاتهما بسبب السرطان هما الدكتور عبد الوهاب المسيرى واللواء أحمد رمزى سليمان يرحمهما الله..

أود أن ألفت النظر هنا إلى نظرية راجت بين المهتمين والمراقبين، خلاصتها: أن القوى الكبرى الفاعلة فى هذا العالم تضم مجموعة من العلماء وكبار رجال المال والصناعة وأباطرة الإعلام فى العالم يجمعهم جميعا أيديولوجية واحدة يعتنقونها ويروجون لها.. مفاد هذه الأيديولوجية أن الموارد الطبيعية على الكرة الأرضية لا تكفى إلا لعدد من البشر لا يزيد على (٣.٨ بليون نسمة).. وأنه لا بد من التخلص من العدد الباقى من الستة بلايين نسمة (مجموع سكان العالم اليوم) ويتحدث البعض عن مذكرة قدمها هنرى كيسنجر (مستشار الأمن القومى) إلى الرئيس رتشارد نيكسون.. تحت رقم (NSSM٢٠٠)... وخلاصة هذه الوثيقة أن الزيادة السكانية المطردة فى دول العالم الثالث تعتبر تهديدا للأمن القومى الأمريكى، وأن الحروب والأوبئة الطبيعية وحدها لم تعد وسيلة ناجعة لوقف الانفجار السكانى ولا بد من اللجوء لوسائل مستحدثة وأسلحة جديدة لوقف الزيادة السكانية فى العالم، (من بينها التحكم فى إنتاج الغذاء العالمى، والتحكم تكنولوجيا فى خصوبة النساء، واستطاعت بذلك إقناع الكونجرس بتخصيص مئات الملايين من الدولارات لهذا المشروع الإنسانى العظيم..! ولكن ثبت أن هذه الأموال قد أنفقت على تطوير أسلحة سرية بيولوجية وكيمائية.. ولم ينفق منها شىء يذكر على بحوث السرطان.. ولم يظهر منذ ذلك الوقت حتى اللحظة الحالية دواء واحد جديد يمكن أن يحل محل العلاج الثلاثى.

حقيقة صادمة:

إن شركات الأدوية لا تسعد فقط بانتشار الأمراض والأوبئة فى العالم بل هى تعمل على نشرها..! ومن وسائلها لتحقيق ذلك أن تغلق الطريق على العلاجات والأدوية البديلة غير المركبة كيميائيا.. وتستصدر من الحكومات قوانين وتشريعات لتحريمها، وتجريم من يقوم بممارستها من الأطباء، وتستعين عليهم بأجهزة الإعلام التى تملكها فتصمهم بالشعوذة والنصب والتدليس.. بينما هى فى الحقيقة علاجات أكثر فاعلية وأقل تكلفة.. ولا تسبب أضرارا جانبية مهلكة كالتى تلحقها الأدوية الكيميائية بالجسم والعقل.. ومن أبرز وأخطر الحملات الأمريكية فى هذا المجال حملتها على استخدام مستخلص نباتى فى علاج السرطان أطلق عليه مكتشفه اسم فيتامين (بى١٧) المعروف أحيانا باسم لاترايل Laetrile أو أبريكيرن أو أميجدالينا Amigdalina.. فقد طورد الأطباء الذين يمارسون العلاج بهذا العقار فى أمريكا.. واضطهدوا وحكم على بعضهم بالسجن.. وسحبت منهم رخص العمل.. لحرمانهم من ممارسة مهنة الطب والعلاج.. حتى اضطر بعضهم إلى الهجرة إلى المكسيك لممارسة مهنتهم التى حرموا من ممارستها فى بلادهم

أين تذهب الأبحاث العلمية المستقلة:

تسمع من وقت لآخر عن أبحاث فردية مستقلة بعيدا عن مراكز الأبحاث الهائلة التى تملكها أو تسيطر عليها كارتلة الصناعات الدوائية، ولكن سرعان ماتندثر هذه الأبحاث فلا تجد لها أثرا بعد إعلان نتائجها الأولية.. ذلك لأن شركات الصناعات الدوائية لها بالمرصاد.. فهى قادرة بوسائلها المالية ونفوذها وتغلغلها فى الإدارات الحكومية على قمعها فى المهد..إما بالمحاصرة أوالإجراءات القانونية وغير القانونية.. وقد تشترى براءة الاختراع من أصحابها بسخاء.. ثم تضعها فى ظلمات خزائنها فلا ترى النور أبدا.

وهـــم كـبـيـــر:

من حقك أن تقول «إنك تتحدث عن عالم تسود فيه الرأسمالية.. والرأسمالية تقوم على ركيزتين أساسيتين: المنافسة وحرية السوق أو الحرية التجارية..» وجوابى ببساطة هو: أن هذا مجرد نظرية.. ولكن ما أبعد هذه النظرية عما يجرى فى الواقع.. لا شك أن هناك هالات من القداسة الزائفة تحجب عن أبصارنا الحقائق المجردة.. وأعتقد أنه قد حان الوقت لإزاحتها.. لقد ترسخت هذه الهالات فى وعينا بفعل التضليل المكثف لعمليات التعليم والإعلام والتثقيف.. وهى عمليات تحيط بالإنسان المعاصر منذ ولادته حتى يتوارى فى قبره.. قلة

World Without Cancer: The Story of Vitamin B17,
G. Edward Griffin
American Media (CA); 1996

من الناس أفلتوا من هذه المصيدة واستطاعوا أن يروا العالم من منظور آخر.. وحاولوا تقديم رؤيتهم إلينا.. وأعترف أن على الإنسان أن يبذل جهدا مضنيا لكى يفلت من هذه الدائرة الجهنمية التى تحيط به.. لكى يتمكن من فهم واستيعاب هذه الرؤية.. ولكنه عندما يفعل سيشعر أنه يملك أداة جديدة تفسر له أشياء كثيرة كان يراها من قبل ألغازا وأسرارا ومتناقضات غير مفهومة.. أداة ستمكنه من رؤية العالم على حقيقته...!

الإحصاءات الرسمية عن انتشار مرض السرطان فى العالم تؤكد أنه فى تزايد مستمر لا تراجع فيه.. وأن معدلات الزيادة تشير إلى مصير بالغ السوء.. إذ يوجد فى أمريكا خمسة آلاف مريض بين كل مليون أمريكى، بينما تتضاعف إصابات السرطان فى بلاد أخرى كل عشر سنوات بمقدار ١٠٠٪.. وقد لاحظت المؤسسات الدولية المعنية بالأمر أن الإحصاءات التى ترد إليها من دول العالم الثالث (لأسباب عديدة) لا تمثل الواقع. وأن الحقيقة فيما يتعلق بانتشار مرض السرطان أبشع مما تمثله هذه الإحصاءات.. وأهم أسباب هذه المأساة إلى جانب تفاقم التلوث البيئى هو قصور العلاجات التقليدية.. وقصور البحث العلمى الجاد عن إيجاد علاجات حاسمة وآمنة.. والعقدة كامنة فى عدم رغبة الشركات المنتجة للعقاقير التقليدية أن تتخلى عن إنتاج هذه العقاقير باهظة التكاليف بالنسبة للمريض.. مادامت تدر عليها بلايين الدولارات بلا جهد يذكر ولا بحث ولا خوف من منافسة.. إنه موقف متعنت ولكنه مفهوم وواضح...!

أمل جديد:

فى مقابل هذا التعنت هناك قدر كبير من المعرفة الطبية عن مادتين تستخدمان بنجاح فى السيطرة على مرض السرطان هما فيتامين سى بجرعات كبيرة.. وفيتامين بى ١٧.. وقصة هذا العقار الأخير هى ماتعنينى هنا بالدرجة الأولى.. يقول الأطباء الأمريكيون الذين استخدموه فى العلاج أنه حقا يحتوى على مادة سامة كما يروج أعداؤهم.. ولكن لا يمكن مقارنة سميته بسمية العلاج الكيماوى إذ لا تؤثر على الخلايا السليمة ولا تتفاعل مع أجهزة الجسم ولا الدم..



ولا تنطلق هذه المادة الفعالة إلا عندما تصادف خلية سرطانية فتدمرها.. ليتخلص منها الجسم مع بقية إفرازاته.. ولمزيد من التفاصيل عن قصة فيتامين بى١٧ اقرأ كتاب (World Without Cancer لمؤلفه G. Edward Griffin...

مدرسة جديدة فى علاج السرطان:

نحاول الآن استعراض وجهة نظر هذه المدرسة الجديدة فى كيفية نشوء مرض السرطان؟ وما هى نظريتهم فى الغذاء الذى يرجعون إليه صحة الإنسان ومرضه..؟.. وكيف يصبح التحكم فى العناصر الغذائية طريقا إلى الصحة والوقاية من المرض وعلاجه إذا حدث..!؟ : السرطان فى نظريتهم هو نمو عشوائى لخلايا تسمى تروفوبلاست Trophoblast. التى هى نفسها جزء طبيعى وحيوى لعملية الحياة.. هذه الخلايا يقوم الجسم بإنتاجها خلال سلسلة من تفاعلات يتدخل فيها هرمون الإستروجين.. وعادة مانجد الإستروجين بكميات كبيرة نسبياً فى أماكن الجروح والتمزقات بالأنسجة ليساعد كمنظم أو محفز على ترميمها.. وينشأ السرطان نتيجة تمزقات أو إجهاد مزمن فى مكان ما بالجسم (إدمان التدخين مثلا إجهاد مزمن للرئتين) وقد يحدث المرض نتيجة لتراكم المواد الكيميائية المضافة فى أطعمتنا المحفوظة. أو نتيجة فيروسات معينة تدخل إلى الجسم.. فهذه كلها من الأسباب التى تفجر هرمون الإستروجين كجزء من عملية الالتئام الطبيعية.. وهى آلية شديدة التعقيد تستهدف السيطرة والحد من نمو (خلايا تروفوبلاست).. وهناك عناصر كثيرة تتفاعل فى هذه العملية ربما من أكثرها تأثيرا مباشراً إنزيمات البنكرياس.. مع عنصر غذائى يعرف باسم Nitriloside أو فيتامين (بى١٧) وهى مادة عجيبة لها قدرة على تدمير الخلايا السرطانية بينما تحافظ فى الوقت نفسه على الخلايا الأخرى غير المصابة.. إنها مادة ذات طعم مر مستخلصة من نواة ثمار المشمش التى نلقى بها عادة فى صناديق القمامة.. جهلا بقيمتها العظيمة..! لا تندهش فما خلق الله داء إلا جعل له دواء فى هذه الطبيعة أو فى داخل الجسم نفسه لو استطعنا أن نمد أبصارنا بعلم إلى أبعد من مواقع أقدامنا..!

تبين لنا من نظرية هذه المدرسة الجديدة أن الإنسان لكى يتجنب السرطان عليه أن يتجنب أسباب التمزق والإجهاد المزمنين لأنسجة الجسم.. وأن يقلل من الأطعمة التى تحتاج الى إنزيمات البنكرياس فى هضمها.. والمحافظة على نظام غذائى غنى بالفيتامينات والمعادن خصوصاً فيتامين بى ١٧.. ولكن هذا التفسير الغذائى لنشوء السرطان والوقاية منه يلقى معارضة هائلة.. عالية الصوت من قبل المؤسسات الرسمية الكبرى فى الولايات المتحدة.. ومنها وكالة الأغذية والأدوية FDA، وجمعية السرطان الأمريكية ACS، والجمعية الطبية الأمريكية AMA.. فكل هذه الهيئات دمغت التفسير الغذائى بالهرطقة والتدليس.. وذلك لدوافع سوف نتطرق إليها فى موضعها.. فما هو موقف الأطباء الأمريكيين بصفة عامة...؟؟ يجيب على هذا السؤال «جى. إدوارد جريفين» فى كتابه المذكور آنفا حيث يقول: «إذا ذهبت تقيم موقف الأطباء لوجدت بينهم شيئا من التفصيل: فهم أولاً ليسوا جزءاً من هذه المعارضة الضارية ولكنهم يستمعون إلى تصريحات المؤسسات الطبية الرسمية ويتقبلونها بثقة وبدون مساءلة.. غير أن البعض منهم لايمانع من أن يعطى العلاج بفيتامين بى١٧ الفرصة للتجريب فى العلاج، ولا يعرفون عن نتائج تجربته إلا مايصل إلى أسماعهم من بعيد.. وكلما ظهرت أدلة على نجاح هذا العلاج يشتد الجدل وتتعاظم المعارضة فى الأوساط الطبية، لماذا؟ يذهب البعض الى الاعتقاد بأن السبب يكمن فى أن السرطان قد أصبح فى الولايات المتحدة تجارة كبرى تتداول فيها عشرات البلايين من الدولارات التى تصب فى أرصدة كارتلات الصناعات الدوائية...»



حصلت شركة فايزر من مبيعاتها حول العالم فى عام واحد ثلاثة وخمسين بليون دولار، بلغت أرباحها من هذا المبلغ أحد عشر بليـــون دولار



ويؤكد جريفين أن هذه الثروات لا تأتى من ناحية التوسع فى الأبحاث وتطويرالأدوية كما قد يخطر على الذهن.. وإنما يوجد جانب سياسى غير منظور يتمثل فى تبادل المصالح بين الأحزاب فى تنافسها على السلطة وبين المهيمنين على احتكارات الأدوية الخاصة بعلاج السرطان.. فالسياسيون يحتاجون إلى مال أصحاب هذه الصناعات العملاقة للإنفاق على الحملات الانتخابية الباهظة التكاليف.. وأصحاب هذه الصناعات يستفيدون من منافسات السياسيين ووعودهم.. إلى جانب مصالح تجارية ومكاسب أخرى...!» ويرى جريفين «أن هذا سوف يؤدى إلى تكريس الأوضاع الراهنة فى الاتجاهات العلاجية.. التى تضيف فى النهاية كل يوم جيشاً جديداً من المنتفعين بهذه التجارة الرائجة... ثم يتابع جريفين كلامه فيقول: إذا كنا نريد حقاً أن نسد هذا الشرخ الهائل الذى تتسرب منه المليارات، فليس علينا إلا أن نجرب هذا العلاج البسيط الذى يوجد فى الطبيعة بكثرة وبثمن بخس.. ولكن هذه الحقيقة فى حد ذاتها تجعل أصحاب هذه التجارة يبذلون كل مافى وسعهم للتعتيم على أى حقيقة علمية تبشر بوسائل بديلة لعلاج السرطان.. لأن معنى ذلك أن يتنازلوا عن الأرقام الفلكية من أرباحهم فى تثبيت العلاج على وضعه الراهن...

أعوان ولكن خارج دائرة الاتهام:

يجب أن ننبه هنا إلى أن (الجراحين وأطباء الأشعة والصيادلة والباحثين وكذا الآلاف من الناس الذين يثقون فيهم وينفقون بسخاء للحصول على العلاج والتخلص من هذا المرض البشع).. كل هؤلاء جميعاً لا يمكن أن يمنعوا (وهم واعون) أى محاولة مخلصة للسيطرة على مرض السرطان...! فلا أحد يشك أنهم جميعا مهتمون بمقاومة السرطان.. وليس أحب إلى قلوبهم أكثر من أن يتمكنوا من وضع حد لمعاناة الإنسانية التى يسببها مرض السرطان.. علاوة على كل هذا فإن الأطباء والجراحين والصيادلة والمعالجين بالأشعة، يشعرون بأن هذا المرض المهلك يهددهم أيضا هم أنفسهم وأسرهم.. بنفس الدرجة التى يشعر بها بقية الناس.. ومن المعلوم والواضح انهم لا يملكون علاجات أخرى سرية للسرطان يحتفظون بها لأنفسهم ولأسرهم..! يقول جى. إدوارد جريفين معلقا على هذه النقطة : «هل يتبع هذا بالضرورة أن نفهم أن كل معارضة للتشخيص والعلاج البديل الذى ألمحنا إليه سالفا هى معارضة بريئة .. وهل من الواجب علينا أن نؤمن بأن المنافع الشخصية والمصالح الخاصة الراسخة ليست عاملاً قائماً وفعالاً..؟! لا .. بل يجب أن نعلم أن هناك فى أعلى الهرم الإقتصادى والسياسى للسلطة فى الولايات المتحدة توجد تكتلات ومصالح مالية وصناعية وسياسية متداخلة تداخلا مذهلا.. تشكل بطبيعة تركيبتها وأهدافها العدو الطبيعى للمقترب الغذائى للصحة والعلاج.. ويحدد جريفين هذه النقطة بتفصيل أكثر حيث يقول: إنهم أعداء لفكرة أن منشأ السرطان والوقاية منه يتوقفان على كل ما يدخل الجسم من عناصر غذائية (ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه..!) وقد استطاع هؤلاء بما يملكون من قوة المال ونفوذ فى السلطة السياسية والإدارة أن يخلقوا مناخاً متحيزاً.. بل مناهضاً لموضوعية البحث العلمى،.. فالتكتلات الاحتكارية فى الصناعات الدوائية والكيميائية والأغذية سوف تقضى على أى بحث علمى يشكك فى قيمة منتجاتها أو يقترح بديلا عنها أنفع وأرخص تكلفة.. وسوف تحارب كل أسلوب أو طريقة علاجية بديلة عن الأساليب العلاجية التى فرضتها هى، وجعلتها

لاتسعد شركات الأدوية فقط بانتشار الأمراض والأوبئة فى العالم بل ربما كانت تعمل أيضا على نشرها..! بأن تغلق الطريق على العلاجات والأدوية البديلة غيرالمركّبة كيميائيا



بروتوكولا راسخا فى الأوساط الطبية والتعليم الطبى.. وسخّرت للحفاظ عليها واستمرارها قوى ومؤسسات ذات نفوذ خطير فى مجالات: السياسة والتشريع والإعلام، وبإنفاقها الهائل فى كل هذه المجالات... هناك كتب تتحدث عن وتحقيقات دارت فى أروقة مجلسى النواب والشيوخ فى الكونجرس الأمريكى.. وعلى لسان رجال من داخل هذه المنظومة الاحتكارية أصيبوا بصحوة ضمير مفاجئة.. إذا كنت تريد الحقيقة المجردة.. ولديك الصبر والقدرة على الإطلاع على ماهو مطبوع فى كتب ومقالات منشورة فى أوعية ورقية أو إلكترونية فسيصيبك الذهول.. ويصعب سرد هذه المصادر فى هذا الحيز المسموح به وإنما نشير إلى بعضها فى عجالة: كتاب روبرت بروكتر How Politics Shapes What We Know and Don't Know About Cancer.

وكتاب لين كينسكى وروبرت بول Drug Industry In America Today: The Impact of FDA وكتاب رالف موس The Cancer Industry: Unravelling the Politics وكتاب Doctors Business..

فى منظومة التزاوج الاقتصادى والسياسى لا شىء مستغرب.. فهنا تتوحد الدولة مع (البزنس).. ومن الناحية التاريخية لم يحدث هذا التوحد بطريقة طبيعية ولكن نتيجة جهود طويلة منظمة قامت بها قيادات التكتلات الاحتكارية.. مستندة فى نجاح عملها إلى عنصرين هما: قابلية السياسيين للإفساد والفساد، وسذاجة الناخبين وجهلهم...!

المشهد الأمريكى:

لقد تعلمنا أن الذين يقبضون على زمام السلطة العليا فى أمريكا ليسوا هم أولئك الذين تظهر أسماؤهم فى الانتخابات.. وإنما أولئك الذين تظهر توقيعاتهم أسفل الشيكات المخصصة للإنفاق على الحملات الانتخابية.. ونادراً ماتظهر أسماء هؤلاء الممولين للسياسيين أمام الجمهور.. إن اللُحمة المصيرية بين هذه الشركات فى الكارتل تؤكد على أن انتماءها الأكبر والأوثق ليس لأوطانها الأصلية، وإنما لإله المصلحة العليا للكارتل.. وأعنى به جمع الثروات والأموال بأى ثمن.. وهى تسلك لتحقيق هذا الهدف كل سبيل يمكنها من ذلك.. ولكى تقوم بدورها على أفضل وجه تحرص على أن يوجد بصفة دائمة رجال فى أعلى قيادات السلطة الفدرالية يتولون مناصب إدارية فى الشركات التابعة للكارتل ويتلقون مرتبات عالية.. ويحتفظون دائما بعلاقات ونفوذ داخل الإدارة الأمريكية..!

إضافة إلى كل هذا فإن أسرة روكفلر (وهى تملك وتسيطر على أضخم إمبراطورية للصناعات الدوائية والبترولية والمالية فى العالم) قد استطاعت إنشاء علاقات وثيقة بالشخصيات المؤثرة فى الدوائر السياسية الحاكمة بتعيينهم مستشارين (لايعملون شيئا).. ولكن يتلقون مرتبات عالية نظير خدمات غير منظورة.. وعلاقات أخرى وثيقة مع المرشحين للكونجرس من كلا الحزبيين الأمريكيين.. وكان إسم وزير العدل نفسه على قائمة الذين يتناولون مبالغ كبيرة بصفة منتظمة نظير إستشارات مجهولة الهوية



كان جون فوستر دالاس (وزير الخارجية الأمريكى فى عهد الرئيس أيزنهاور) من رجال روكفلر البارزين.. كذلك كان هنرى كيسنجر مستشار الأمن القومى فى إدارة الرئيس ريتشارد نكسون ثم وزير الخارجية بعد ذلك ونعلم أيضا أن ديك تشينى نائب الرئيس بوش الابن كان مديرا لشركة هاليبارتون وأن دونالد رامسفيلد وزير الدفاع السابق كان (وعاد الآن) مديرا لشركة مونسانتو التى تنتج مادة الـ (إسبراتيم)، والتى تدخل فى صناعة آلاف المنتجات لتحلية المشروبات والأغذية.. وهذه قضية أخرى طويلة..! ولكن السؤال هنا هو: ألا تعطيك هذه الصورة نوع القوة التى تملكها الشركات العملاقة ونوع الشخصيات التى تسخرها التكتلات الاحتكارية لخدمة مصالحها فى العالم والتغطية على أخطائها وجرائمها...؟!

وكالة الأغذية والأدوية:

هل تتصور أن وكالة الأغذية والأدوية الأمريكية يمكن أن تتخذ موقفا معاديا لمواد لا خطر فى تناولها فتضع عليها قيودا هائلة وتتراخى بالنسبة لأدوية ثبت ضررها على صحة الإنسان؟! قد يكون ذلك صعب التصديق، ولكن موقف الوكالة من فيتامين (B17) بالذات فلا يمكن وصفه إلا بأنه حرب إرهابية فاقت كل تصور معقول.. وهذا ما جعل كريج هوسمار عضو الكونجرس الأمريكى يوجه انتقادا لاذعا إلى الوكالة يقول فيه: «أعلم أنه لم تحدث وفاة واحدة بسبب تعاطى جرعات كبيرة من الفيتامينات. ولكنى أعلم أيضا أن هناك شخصا يموت كل ثلاثة أيام بسبب تعاطى جرعات كبيرة من الأسبرين. وعلى الرغم من أن الإحصاءات الرسمية تؤكد أن الأمريكيين يستهلكون فى السنة ما لايقل عن عشرين مليون رطل من الأسبرين فإن الوكالة لم تفكر مطلقا فى وضع إجراءات تنظيمية على تعاطى هذا العقار.. ولم تشترط على صانعيه وضع ملصق تحذيرى عليه.. وعلى عكس ذلك تماما اهتمت الوكالة بتحديد (ومراقبة) مقدار الجرعات التى لا ينبغى تجاوزها من مواد لا ضرر منها مثل الفيتامينات والمعادن.. إن الخطر الحقيقى على الصحة العامة لا يوجد فى المكملات الغذائية العضوية ولا فى الفيتامينات التى تباع فى محلات الأغذية الصحية، إنما تكمن الخطورة فى الأدوية الكيماوية المصنّعة، والتى تتكدس على رفوف الصيدليات وفى المستشفيات بكميات كبيرة.». وينطلق من هذه النقطة جى إدوارد جريفين فيقول «إن الجرعة الزائدة من الأسبرين ليس من الضرورى أن تكون فى مرة واحدة، ذلك لأن الاستخدام المستمر للأسبرين له تأثير تراكمى. وإذا كان هذا العقار يتسبب فى وفاة أكثر من تسعين شخصا فى السنة فهذا العدد من الضحايا ليس بالأمر الهين..» (حاليا تروج شركات الأدوية إعلانا متلفزا ينصح بتناول قرص أسبرين يوميا بدعوى أن البحث العلمى أثبت فائدته فى الوقاية من مرض السرطان...!) ومع أن للأسبرين مضار كثيرة على الصحة فإنه يباع فى الصيدليات بدون روشتة طبيب. وقد أثبتت الخبرة اليومية لمئات من البشر أن أضرار تعاطى الأدوية الكيماوية يستوى فيها ما هو مباح وما هو مقيد بروشتة طبيب.. فالإحصاءات الأمريكية تشير إلى أن خمسة بالمائة على الأقل من المرضى الأمريكيين يدخلون المستشفيات بسبب الآثار الضارة لأدوية موصوفة بطريقة قانونية. ويبلغ عدد هؤلاء ثلاثة ونصف مليون مريض فى السنة.. هذا الإحصاء يرجع إلى الستينيات فى القرن العشرين. ويزداد عدد الضحايا من ذلك الوقت بصفة مستمرة.. وفى مقابل ذلك يقول جى إدوارد جريفين: «إن العلاج بالغذاء الطبيعى لم يتسبب فى أخطار صحية كالتى تنتج من تعاطى الأسبرين. ولم يتسبب فى كوارث صحية أو تشويه للمواليد كالذى نتج عن استخدام عقار «ثاليدومايد» فى عقد الستينيات من القرن الماضى. ولم تفعل الوكالة شيئا يذكر بإزاء هذه المخاطر بل تعاملت باسترخاء بالغ فى سحب هذه الأدوية من السوق ولم تتهم صانعيها ولا قدمتهم للمحاكمة، ولا قامت باضطهادهم ومطاردتهم كما فعلت مع منتجى فيتامين B17 ، ومع الأطباء الذين وصفوه علاجا لمرضى السرطان.. بل مع بعض المحاضرين الذين حاولوا توعية مرضى السرطان بوجود بدائل علاجية آمنة وأكثر فعالية من العلاج الكيماوى الشائع.. والقصة التالية تصور ما يمكن أن نسميه بدراما فيتامين بى ١٧:

تصفية المنافسين بأساليب مكيافلية:

فى سنة ١٩٧٣ أوقفت وكالة الأغذية والأدوية إنتاج وتوزيع مادة غذائية كان يطلق عليها اسم أبريكيرن Aprikern وكان هذا هو الاسم التجارى لمستخلص من نواة المشمش تم طحنه وعصره على البارد لإخراج الزيت منه واستبعاده، ثم وضعت المادة المطحونة الجافة على هيئة بودرة فى كبسولات، بهذه الطريقة يحتفظ المنتج بالنترلوسايد Nitrloside مادة ذات طعم مر) وهو الذى أطلق عليه مكتشفه فيتامين بى ١٧.. استخدمت هذه المادة فى علاج السرطان على نطاق واسع خلال العقد السادس وأوائل العقد السابع من القرن الماضى، وقدر عددهم بسبعين ألف مريض ولم ينتج عنه أى مخاطر أو

أضرار بمستخدميه، ومع ذلك أقدمت الوكالة على تحريم استخدامه وتجريم تداوله أو وصفه كعلاج..واعتبرت من يحاضر أو يكتب دفاعا عنه مروجًا لدواء محظور استخدامه بحكم القانون يستحق العقوبة بالغرامة والسجن..وقد استندت الوكالة فى موقفها المتعسف إلى دراسة مزعومة أجريت فى جامعة أريزونا (يقال) أنها أثبتت أن «الأبريكيرن» يحتوى على سموم (يمكن أن تقتل) الكبار والصغار..تلاحظ فى هذا التقرير أنه يقول (يمكن أن تقتل) ولم يقل أن الأبريكيرن (يقتل) كما هو ثابت بالنسبة للأسبرين مثلا..كما تلاحظ أيضا إن الذين نسب إليهم القيام بهذا البحث قد أعلنوا فى شهاداتهم أمام المحكمة أنهم جربوا العقار على الفئران فقط وليس من شأنهم أن يعمموا الحكم على الإنسان كما أشاعت الوكالة فى وسائل الإعلام أثناء نظر القضية التى رفعتها أمام المحكمة.. ويستنتج جى إدوارد جريفين من هذا الموقف الغريب للوكالة حقيقة لا مفر من مواجهتها حيث يقول :«أليس من حقنا أن نتشكك فى أن الإدارات الحكومية (ومنها وكالة الأغذية والأدوية) لا تعمل لصالح الشعب ورعاية صحته وإنما لصالح كارتلات صناعة الأدوية، إذ تقوم نيابة عنها باضطهاد بل تدمير كل منافس يظهر فى طريقها.. إن هذه الكارتلات بإنفاقها الواسع على العملاء والمنافقين داخل الوكالة وخارجها لا تعدم وجود شخصيات ذات تأثير جماهيرى بحكم تخصصهم وموقعهم من السلطة، نذكر واحدا منهم هو «دكتور لويس كاسوث» مدير الصحة فى ولاية أريزونا الذى يذهب أبعد من ذلك حيث يقول: «إن نواة المشمش خطر على الصحة فلا يجب كسرها أو أكل ما بداخلها» بينما تؤكد بعض الدراسات أن مجموعات بشرية فى بلاد العالم الثالث تعتبر بذور المشمش وغيرها من البذور ذات الطعم المر جزءا ثابتا من طعامها اليومى، ولم يعرف عن هذه المناطق أنها تعانى من أمراض السرطان على الإطلاق.. والأمثلة موجودة عند الأبخاز وعند قبائل الهونزا فى جبال الهملايا ومناطق أخرى من العالم...

معضلة براءة الاختراع:

مشكلة فيتامين بى١٧فى نظر الوكالة الأمريكية أنه عقار ليس له براءة اختراع مسجلة، ومن ثم لا يمكن للطبيب وصفه كعلاج لمرضاه إلا بالمخالفة للقانون، خصوصا بعد صدور قرار الوكالة بحظر استخدامه. لن نخوض فى أسباب صدور مثل هذا القرار فهى واضحة من السياق، ولكن من صاحب المصلحة..؟ ومن الذى وضع قانونا ينظم هذه العملية بحيث يستبعد تلقائيا أى دواء ليس له براءة اختراع.. والأدهى من ذلك أنه وضع شرطا لا بد من توفره فى العقار لكى يكون مؤهلا لبراءة الاختراع، وهى أن يكون مركبا من عناصر كيميائية (سنتاتك).. أما العقار الذى يستخلص من مواد طبيعية مباشرة فلا يمنح براءة اختراع.. وعلى هذا الأساس المتعسف تم استبعاد فيتامين بى ١٧ من قائمة الأدوية المصرح للأطباء بوصفها كعلاج للسرطان..يظن كثير من الناس أن الوكالة لا تكذب ولا تقرر شيئا إلا بعد البحث العلمى والدراسة.. فهى فى نظرهم مؤسسة محترمة موثوق بها، وهناك ملايين من الأطباء حول العالم عندما يتحدثون عن هذه الوكالة يتحدثون بقداسة كأنها المرجع النهائى لكل ما هو صحيح وصادق فى مجالى الدواء والعلاج... هالة زائفة لو كانوا يعلمون...!!



الإحصـــاءات الرسمية عن انتشار مرض السرطان فى العالم تؤكد أنه فى تزايد مستمر لا تراجـــع فيه.. وأن معدلات الزيادة تشير إلى مصير بالغ السوء





المقاومة الباسلة:

يكشف جى. إدوارد جريفين عن عدد من الشخصيات الذين انتقدوا بقوة موقف وكالة الأغذية والأدوية المتحيز.. كما يعرض قصصا لمجموعة من الأطباء الأمريكيين الذين قاوموا هذه الوكالة ببسالة نادرة، وصمدوا أمام تحيزها واضطهادها لهم فى محاكمات قضائية، وحاولوا إثبات زيف ادعاءاتها وكذبها فيما ادعت أنها أبحاث علمية استندت إليها فى موقفها ضد فيتامين بى ١٧ واستخدامه فى العلاج.. من أبرز هؤلاء دكتور «إرنست كريبس» مكتشف فيتامين بى ١٧ الذى استخدمه فى علاج عدد كبير من المرضى وأثبت نجاحه، ولكنه اضطر إلى الدخول فى معارك شرسة مع الوكالة التى عانى الأمرين من اضطهادها له فكتب إلى صديق له يصف بعض ما عاناه من جراء إصراره على إقناع الناس فى محاضرات شرح فيها أهمية العلاج بفيتامين بى ١٧ وفاعليته.. كتب يقول : إذا أصر طبيب ما على اقتحام هذا المجال فلابد أن يفهم أن أفعاله وكلماته يمكن أن تكون لها آثار مدمرة على مركزه المهنى وعلى زوجته وأسرته.. بل حتى على سلامته الشخصية.. لقد أمضيت خمس ساعات فى محاضرة مثمرة عن السرطان وعلاجاته البديلة أمام جمهور من المستمعين بلغ عددهم أربعمائة شخص فى لوس أنجليس.. وفى الطريق وأنا عائد إلى سان فرنسسكو أصيب الزجاج الأمامى لسيارتى بعيار نارى..وفى الليلة التالية أستهدف الزجاج الخلفى للسيارة بطلق نارى على بعد ثلاثمائة ميل من موقع الطلقة السابقة.وكان من رأى رجال الأمن (أنه ربما كان شخص ما أراد أن يبلغك رسالة..!)..ويمضى دكتور كريبس فى رسالته المطولة ليقول «لا أريد أن أدخل فى تفاصيل كثيرة فيما يتعلق بالعنف المادى الذى يمكن أن نتعرض له من قبل جهات مجهولة..ولكن لا تنسى أن المرحوم دكتور «آرثر تى. هاريس» هدد بالقتل بواسطة رجلين مجهولين إذا هو استمر فى استخدام عقار لاترايل (فيتامين بى ١٧) فى علاج السرطان.. ومنذ هذه الواقعة قمنا بتقسيم العمل فيما بيننا بحيث إذا أصيب اثنان منا بطلقات نارية يبقى برنامجنا حيا مقاوما دون أن يصل إلى نهايته المأساوية بالتوقف كما يرغبون.»

ويعلق جى إدوارد جريفين على ذلك فيقول : «إن مثل هذا الأمر يستدعى رجلا غير عادى يستطيع أن يصمد أمام الضغوط والتهديدات من هذا النوع البشع .. فهناك كثيرون يتحدثون عن الشجاعة الأدبية والتمسك بالمبادئ، ولكن عندما يجد الجد وتتناثر الشظايا فى المكان فلن يبقى فى المعمعة سوى نخبة قليلة من الرجال.. وكان دكتور كريبس واحدا من هؤلاء الرجال...!»

يتضح من تقارير كثيرة للأطباء أن إعلانات شركات الأدوية تحتوى على معلومات مبالغ فيها كما تحتوى على تزوير للحقائق..ومع ذلك لم تكلف الوكالة نفسها بالتحقيق فى واقعة واحدة مما ورد فى هذه التقارير، وفى نفس الوقت اتجهت بكل قوتها لمطاردة المحاضرين الذين يتحدثون عن فوائد الأغذية الطبيعية لصحة الإنسان وأطلقت كلابها فى حرب على مواد تباع فى محلات الأغذية الصحية مثل عسل النحل وأجنة القمح ونوى المشمش...!

فارس آخر من فرسان المقاومة:

دكتور (جون ريتشاردسون) طبيب آخر من مجموعة دكتور كريبس المناضلة من أجل حصول مرضى السرطان على حق اختيار الطبيب الذى يرغبون فيه وعلى العلاج الذى يطمئنون له، كانت له مقاومته الباسلة ومأساته المدمرة أيضا: ففى ٢ يونية١٩٧٢ ألقى القبض عليه بتهمة انتهاكه لقانون الوكالة فى كاليفورنيا وبالتحديد لاستعماله لا ترايل فى علاج السرطان...هبط عليه ضباط الشرطة فى عيادته أمام مرضاه وفى حضور مصورى الصحف والتلفزة الذين جلبتهم الوكالة خصيصًا لتصوير الواقعة.. فوضعوا القيود الحديدية فى يديه كما فعلوا نفس الشىء مع مساعدين له.. وبعثروا كل شى فى مكتبه واستولوا على أوراقه وملفاته ثم اقتادوه إلى السجن.. لقد كانت معركة دكتور ريتشاردسون القانونية للحصول على الحرية الطبية طويلة وباهظة التكاليف.. فبعد محاكمة استمرت عامين أعلن القاضى أن الأدلة غير كافية ولم يجمع المحلفون على إدانته فأطلق القاضى سراحه.. ولكن لم تهدأ وكالة الأغذية والأدوية فأخذت تتصل بمرضاه لعلها تجد واحدا متأففا من العلاج لتغريه برفع دعوى ضد دكتور ريتشاردسون وستدفع كل تكاليف القضية..ولكن ولا واحد من مرضاه قبل

هذا العرض..فيما عدا والد لإحدى المريضات..كان له رأى مسبق بعدم جدوى هذا العلاج..فلما جاءت ابنته للشهادة أمام المحكمة دافعت عن العلاج وأكدت أنها تحسنت على تعاطيه ومن ثم رفضت الدعوى...

فاتجهت الوكالة إلى أساليب مكيافيلية أخرى، وفتحت لمحاربته جبهة جديدة.. فأخذت تراقب رسائل الأدوية المرسلة إلى مرضاه فى ولايات متعددة وأقامت ضده دعاوى قضائية بتهمة نقل دواء (لاترايل)المحظور بالقانون..وبهذه الطريقة حاولت إنهاكه وتدمير حياته فقد كان عليه أن يُوكل محاميا عنه فى كل ولاية، وأن يحضر عشرات المحاكمات فى ولايات مختلفة استهلكت وقته وماله وحولت حياته إلى جحيم..وأغرقته فى مستنقع من التحقيقات التى لا تنتهى.. ثم سلطوا عليه مصلحة الضرائب فاجتاحت مكتبه مرة بعد مرة..واستولت على كل دفاتر حساباته..وطالبته بوضع مبلغ كبير من المال فى مصلحة الضرائب قيد القضية..ووجهت له تهديدا باقتحام منزله إذا لزم الأمر..وشعر بأنه قد هُزم أمام مكائد وكالة الأغذية والأدوية..!!

وفى سنة ١٩٧٦ كان فى طريقه للإدلاء بشهادته أمام لجنة كاليفورنيا للقوانين الصحية وكان الموضوع: مشروع بقانون لاستخدام لاترايل فى علاج السرطان..ولكن قبل وصوله إلى قاعة الاستماع ألقى زبانية الوكالة القبض عليه مرة أخرى، واقتادوه مكبلا بالقيود الحديدية بتهمة التآمر لتهريب لاترايل.. وفى أثناء التحقيق أرسلت الوكالة إلى جمعية الأطباء الفدرالية وإلى مجلس امتحان الأطباء فى فلوريدا بمذكرة مطولة عددت فيها مخالفات نسبتها إلى دكتور ريتشاردسون افتراءً.. واتهمته بتشجيع مرضاه على عدم الخضوع للجراحة أو العلاج الكيماوى مما يلحق أكبر الضرر بصحة المرضى.. وأنه يستخدم علاجا ثبت عدم فاعليته فى علاج السرطان..لذلك تطلب الوكالة من المجلس سحب ترخيص العمل من هذا الطبيب المتمرد..ثم كانت الضربة القاضية عندما تآمرت عليه بأساليب خسيسة أخرى إذ رفعت ضده قضيتين فى محكمتين بولايتين مختلفتين لتُنظرا فى نفس الوقت..! خطة جهنمية تجبره على التغيب قهرا من إحدى المحكمتين ومن ثم يُحكم عليه غيابيا بالسجن.. يصف الرجل جلسة المحاكمة التى تمكن من حضورها بأنها كانت استعراضية أشبه ماتكون بمحاكمات ستالين الشهيرة..وفى ٢٨ أكتوبر ١٩٧٦ صدر قرار بسحب رخصة عمل دكتور ريتشاردسون فاضطر إلى الانتقال إلى المكسيك حيث توفى سنة ١٩٨٨...

وإلى جانب الطبيبين (إرنست كريبس) و(ريتشاردسون) ناضل أطباء آخرون وأدخلوا السجن بتهم ملفقة منهم (جيمس بريفيتيرا) و(دوجلاس برودى) و(فيليب بينزل).. وهذا الأخير لم يسجن ولكنه أمضى عشر سنوات (مرمطة) فى المحاكم الأمريكية لأنه تجرأ على مقاضاة شركات الأدوية التى تحتكر صناعة أدوية السرطان وتفرض حظراً على الأطباء الذين وصفوا لمرضاهم بدائل فعّالة فى العلاج.. بريئة من الآثار السمية للعلاج الكيماوى..

ويلخص دكتور ريتشاردسون تجربته هذه فى خطاب له يقول فيه :عندما قامت الولايات المتحدة بمحاكمة مجرمى حرب النازى بتهمة ارتكاب جرائم حرب دافعوا عن أنفسهم بأنهم إنما كانوا ينفذون أوامر قادتهم ويطيعون قوانين الدولة.. ولكن هذا العذر لم يشفع لهم للتنصل من مسئوليتهم الجنائية..وهب العالم الحر كله يصيح: لا.. إنكم مذنبون فإن الإنسان من واجبه الأخلاقى أن يستجيب لقانون أعلى من قانون وطنه عندما تأمر قوانين وطنه بقتل أناس أبرياء..عليه أن يرفض هذه القوانين ويقف مع ضميره.. فإذا لم يفعل فإنه يستحق العقاب، وهكذا حكم عليهم بالإعدام..يقول الرجل:« فى المعركة التى جرت مؤخرا فى مجال علاج السرطان قضى كثير من الناس نحبهم بلا مبرر سوى أنهم خضعوا مستسلمين للعلاج بجرعات سامة يسمونها الكيماوى..لقد مات من مرضى السرطان حتى الآن أعداد أكثر بكثير من ضحايا كل الحروب مجتمعة فكم من المعاناة والموت على الأمريكيين أن يتحملوا قبل أن يقفوا ضد البيروقراطية العاتية؟! كم من الأطباء سيوضعون فى السجون قبل أن تستيقظ جموع الأطباء وتصيح: كفى...؟! كم من فضيحة مثل (ووترجيت) نحتاج قبل أن نفهم أن الإنسان تفسده السلطة..؟! إن روح المقاومة موجودة..إنها معلقة فى الهواء فوق رؤوسنا.. أشعر بها تهفهف كنسيم منعش..إنها تمنحنى أملا فى المستقبل..لقد قررت أن أقف وحدى حتى لو انفض جميع الناس من حولى...! ولكنى وأنا أكتب كلماتى الأخيرة يساورنى العجب: هل هناك من أحد غيرى يقف معى فى هذه المحنة..؟!»

ثم سكت ريتشاردسون ■

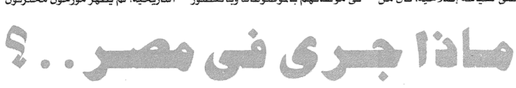
كتاب الزاوية

تقرير جولدستون (٥)

وعلى الرغم من أن الأحداث التى حققت فيها البعثة لم تثبت استخدام المساجد لأغراض عسكرية أو كدروع لحماية أنشطة عسكرية، فإنها لا تستطيع استبعاد احتمال أن يكون ذلك قد حدث فى حالات أخرى. ولم تعثر البعثة على أى أدلة تدعم الادعاءات القائلة بأن سلطات غزة أو الجماعات المسلحة الفلسطينية قد استخدمت مرافق المستشفيات كدروع لحماية أنشطة عسكرية أو أن سيارات الإسعاف قد استخدمت لنقل مقاتلين أو لأغراض عسكرية أخرى. وبالاستناد إلى التحقيقات التى أجرتها البعثة بنفسها وإلى البيانات الصادرة عن مسؤولى الأمم المتحدة، تستبعد البعثة أن تكون الجماعات المسلحة الفلسطينية قد باشرت أنشطة قتالية من منشآت الأمم المتحدة التى استخدمت كملاجئ أثناء العمليات العسكرية. بيد أنه لا يمكن للبعثة أن تستبعد احتمال أن تكون الجماعات المسلحة الفلسطينية قد عملت بالقرب من هذه المنشآت التابعة للأمم المتحدة وهذه المستشفيات. وفى حين أن مباشرة أعمال القتال فى المناطق المبنية لا يشكل فى حد ذاته انتهاكًا للقانون الدولى، فإن الجماعات المسلحة الفلسطينية، فى الحالات التى تكون فيها قد أطلقت هجمات بالقرب من مبانٍ مدنية أو مبانٍ محمية، تكون قد عرضت سكان غزة المدنيين للخطر على نحو غير ضرورى.



أحمد زكريا الشلق



يتفرد نهر النيل بين أنهار الدنيا، كما تتفرد مصر فى حوضه، ولسنا نبالغ إن قلنا إن مصر هى النيل، فتلك حقيقة أولية تتعلق بوجود مصر، فبدونه لا كيان لها، كما يقول جمال حمدان، ليس فقط من حيث مائه، وإنما كذلك من حيث تربته، فالنيل، بأى مقياس، نهر غير عادى، جيولوجيا وجغرافيا، تاريخيا، وحضاريا..

وكانت تلك نقطة البداية فى تفكير مؤلفنا «أمين سامى باشا» حين اتخذ من النيل، فى سخائه وكرمه وفيضانه، ومن شحه وبخله وتحاريقه، تقويما حوليا وركيزة أساسية للكتابة، ليس فقط عن أحواله، وإنما عن مجمل أوضاع مصر، فتتبع أحوالها، مقرنا ذلك بأحوال النيل، ليضع لنا هذا السفر الضخم، الجليل والقيم، بعد أن أنفق فى تأليفه ما ينيف عن ربع قرن من الزمان.

ومؤلفنا سليل مدرسة تاريخية مصرية أصيلة، تمتد جذورها إلى العصور الوسطى الإسلامية، وإن تطورت بعد ذلك تطورا عظيما - كانت لها تقاليدها ومناهجها، وكانت سمتها البارزة أن كتابها كانوا يعتمدون على النقل الحرفى فى معظم الأحيان، عندما يؤرخون لعصور سبقتهم، ولا يأتون بجديد، إلا عندما يصلون بكتاباتهم إلى التأريخ للعصر الذى يعيشون فيه، كما لم يحفلوا كثيرا بنقد الروايات أو تحليلها، أو حتى إبداء الآراء بشأنها، وبشكل عام كان معظمهم يتبعون طريقة «الحوليات» التى يؤرخون فيها لمصر، وللعالم الإسلامى، عاما فعام، وقليل منهم حاول التأريخ للموضوعات أو الدول، كما فعل ابن خلدون.

غير أن هذه المدرسة ما لبثت أن تطورت مع بداية العصر الحديث، خلال فترة الحكم العثمانى، حتى لقد برزت فيها ثلاث مدارس واضحة، أولها مدرسة المؤرخين من العلماء، وهم أولئك الذين ظلوا على ولائهم لتقاليد مدرسة التاريخ الإسلامى التى كانت سائدة قبل عصرهم، ومن أبرز أعلامها، ابن إياس وأحمد شلبى بن عبدالغنى والإسحاقى والبكرى والشرقاوى، ثم الجبرتى، الذى مثل نقلة نوعية كبيرة فى تطور هذه المدرسة. وثانيها مدرسة التراجم، التى نشطت خلال العصر العثمانى بشكل واضح، وكان من أبرز كتابها العينى والمحبى والزبيدى، وكذلك الجبرتى. أما المدرسة الثالثة فيمكن تسميتها بمدرسة الأجناد، التى قدمت مادة تاريخية فريدة فى أهميتها، رغم افتقادها إلى خطة للبحث والكتابة، ويمثلها ابن زنبل والدمرداش كتخدا عزبان، ومصطفى ابن الحاج إبراهيم.

صحيح أن هذه النهضة فى مجال التأليف التاريخى فى مصر بدأت مع غروب القرن الثامن عشر، وعلى أيدى شيوخ الأزهر وعلمائه، والذين برز منهم الزبيدى والشبراوى والعطار والخشاب والجبرتى، مما كان يوحى بأنها نهضة طبيعية تلقائية، بدت لبعض الكتاب وكأنها إرهاصات نهضة فكرية عامة، بيد أن تطور التعليم والثقافة خلال القرن التاسع عشر، أدى إلى ظهور رواد جدد فى مجال البحث والتأليف، أسهموا بدورهم فى دفع هذا التطور الثقافى العام، الذى غذى التأليف التاريخى، ومع تبنى محمد على لسياسة إصلاحية، كان من أبرز أسسها الاستفادة من حضارة الغرب والنقل عنه، من خلال البعثات والمبعوثين، واستقدام الخبراء والمعلمين والفنيين، فضلا عن حركة الترجمة الواسعة والنشطة، ونتيجة لهذه النهضة العامة، أعطيت دفعة جديدة لنهضة الكتابة التاريخية، التى كان الجبرتى قد بدأها. فاتخذت هذه الدفعة سبيلا آخر، وتأثرت بعوامل كثيرة كان أهمها اعتماد النهضة العلمية والثقافية على الترجمة، وبطبيعة الحال لم تشذ حركة الكتابة التاريخية عن ذلك، ولعل هذا يفسر كيف ترجمت فى عصر محمد على أعداد كبيرة من كتب التاريخ ومن سير الحكام.

وقد بدا واضحا أن المؤرخين المصريين فى القرن التاسع عشر قد تأثروا بالمنهج العلمى الحديث، الذى لاحظوه، فيما قرأوا ودرسوا وترجموا من كتب التاريخ الأوروبية، فتخلوا عن الكتابة بطريقة الحوليات على نحو كبير، وبدأوا يهتمون فى مؤلفاتهم بالموضوعات وبالعصور والدول، فيؤرخون لهذا العصر أو ذاك أو يضعون فصولا مستقلة فى موضوعات بعينها أو يؤرخون لدولة ما، وقد برز هذا واضحا فى كتابات الطهطاوى، وميخائيل شاروبيم، ومحمود فهمى، وإسماعيل سرهنك، وجورجى زيدان.

كما بدأ المؤرخون يستفيدون من العلوم المساعدة لتفسير الواقع وفهمه، فاستعانوا بالوثائق والنميات والآثار والنقوش والكشوف الجغرافية وغيرها، وهى علوم قل من استعملها من السابقين، وقد ضمن الجبرتى كتابه الشهير «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» الكثير من وثائق الحكم الفرنسى لمصر، فضلا عن وثائق المماليك والأتراك، كما كان يرجع إلى النقوش المرقومة على شواهد القبور، وسجلات الكتبة والمباشرين، كما فعل ذلك أيضا على مبارك فى كتابه «الخطط التوفيقية»، وكذلك سليم نقاش فى كتابه «مصر للمصريين»، وفيليب جلاد فى «قاموس الإدارة والقضاء».

ويلاحظ كذلك أن أساليب الكتابة قد تغيرت كثيرا، فابتعدت تدريجيا عن العناوين المسجوعة، والألفاظ والعبارات المثقلة بالمحسنات، حيث بدأ المؤرخون ينشئون بأسلوب سهل مرسل، ومع أواخر القرن التاسع عشر كادت لغتهم أن تخلو من السجع لتتميز بأسلوب جميل خال من الركاكة والعجمة. أما موضوعات التاريخ فقد تغيرت هى الأخرى واتسعت مجالاتها وتنوعت، فبعد أن كان مؤرخو مصر الإسلامية يعنون بالتاريخ السياسى عناية فائقة، ولا يحفلون كثيرا بالنواحى الحضارية الأخرى، ارتاد مؤرخو القرن التاسع عشر مجالات النشاط البشرى الحضارية جميعا فى مؤلفاتهم، فأرخوا لنظم الأراضى والتعليم، وشئون الحكم والإدارة، كما أرخوا للرق ولمشاكل المجتمع، وللثورة العرابية، ولتاريخ التمدن على وجه العموم.

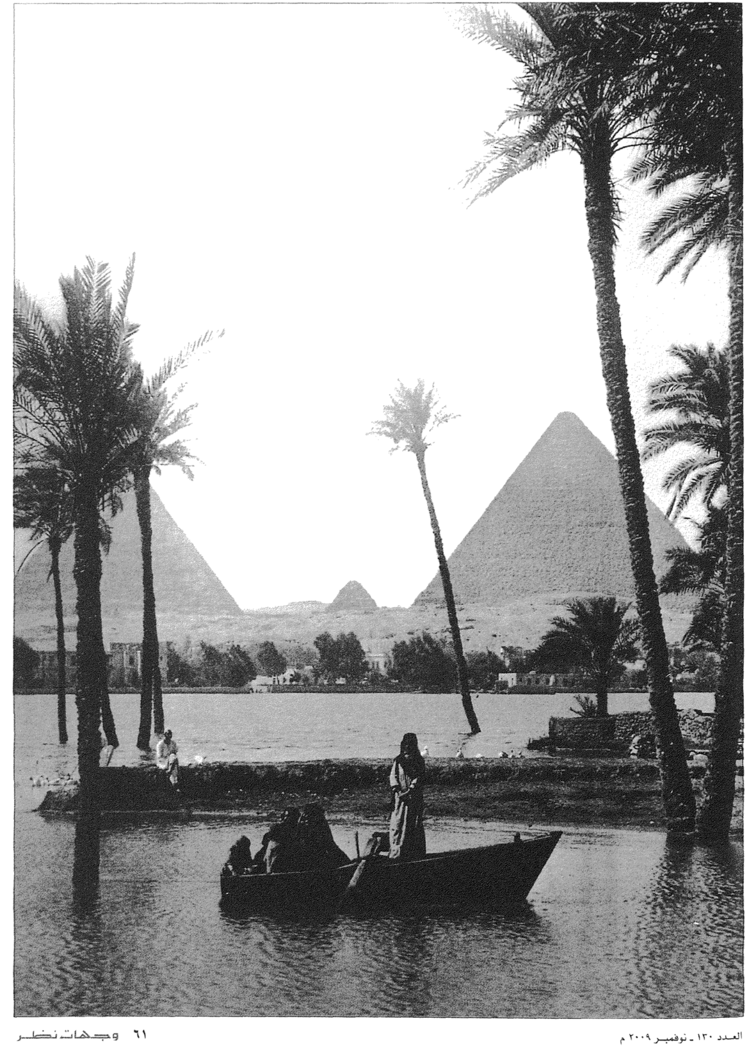
ومع ذلك التطور الذى حظيت به كتابة التاريخ من حيث مصادرها وأساليبها وموضوعاتها، نلاحظ أن ذلك كله قام على جهود أولئك الهواة الذين شغفوا بالتاريخ حبا، فباستثناء جهود الجبرتى والطهطاوى فى مؤلفاتهم التاريخية، لم يظهر مؤرخون محترفون كرسوا حياتهم لدراسة التاريخ وتخصصوا فى كتابته والبحث فيه.

ولسنا نبالغ كثيرا إن قلنا إن المدرسة التاريخية المصرية شرعت تتنقل تدريجيا من تقاليد «الحوليات» إلى التاريخ العلمى، وإن ظل الاهتمام بالتسجيل الحولى قائما بدرجة أقل كثيرا مما سبق، وقد أسهمت جهود المؤرخين فى بلورة وعى تاريخى، ساهم بدوره فى تكوين الوعى القومى العام، وتكوين الأيديولوجية الوطنية والفكر الاجتماعى فى مصر «النهضة»، كما يذكر أنور عبدالملك، كما يلاحظ أن هذه الجهود مرت بمرحلتين واضحتين أولاهما مرحلة الجبرتى ومدرسته، والتى ينبغى النظر إلى كتاباتها فى إطار عصرها وفى دائرة قرائها المحدودة التى تتمثل فى كبار رجال الدولة والقادة، أما جمهور المثقفين فقد كان عليهم أن ينتظروا الطهطاوى الذى أطلعهم على الثقافة التاريخية وعلى الثقافة الحديثة فى شتى مجالاتها. وثانيتهما مرحلة الطهطاوى ومدرسته وحركة الكتابة التاريخية فى عصر الخديو إسماعيل، حين حدث الاعتراف بالتاريخ كعلم لأول مرة، وصار مادة من مواد الدراسة فى مدرسة الألسن، يدرسها معلمون مختصون، وبينما

اتخذ مؤلفنا «أمين سامى باشا» من النيل، فى سخائه وكرمه وفيضانه، ومن شحه وبخله وتحاريقه، تقويما حوليا وركيزة أساسية للكتابة، ليس فقط عن أحواله، وإنما عن مجمل أوضاع مصر



تقويم النيل
لواضعه: أمين سامى باشا
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة،
ط ٣، ٢٠٠٩.



اهتم تلاميذ الطهطاوى بترجمة الكتب التاريخية على نحو ما هو معروف، فإن عصر إسماعيل شهد اهتماماً واضحاً بتأليف الكتب. وبفضل جهود فريقين من مدرسة الطهطاوى، فريق الأزهريين وفريق مدرسة الألسن، وجد المثقفون المصريون والعرب بين أيديهم مجموعة من المؤلفات التاريخية تعالج مختلف العصور فى العالم وبطريقة علمية حديثة.

لقد ذكر الطهطاوى فى كتابه «أنوار توفيق الجليل...» عبارة لها مغزاها حين ذكر أن أعمال مؤرخى العصور القديمة يجب أن تمر عبر غربال النقد العقلى، حتى يستبعد منها ما يرى أنه من «محض الخرافات أو من اختراع الأباطيل.. والعجائب التخيلية وخوارق العادات». وهكذا أصبح التسجيل التاريخى بفضل الطهطاوى ومدرسته، تأريخاً بالمعنى العلمى للكلمة، وذلك بفضل تحرى الدقة ونقد الأصول وإعمال العقل، وبفضل المنهج الحديث الذى استخدم.

وقد حظى النيل والتأريخ له، ولفيضانه وتحاريقه، باهتمام كتاب القرن التاسع عشر، فها هو المهندس محمود باشا الفلكى، أستاذ على مبارك وأمين سامى، والذى نشرت أبحاثه فى المجلات العلمية الأوروبية، والتى مزج فيها بين الدراسات التاريخية والدراسات العلمية الخالصة، جمع بيانات موثقة عن فيضان النيل وتحاريقه عن الفترة ما بين عامى (١٨٢٥ ـ ١٨٨٤) وضمنها فى كتاب كان مرجعاً لمهندسى الرى والنيل، كما أن تلميذه على مبارك قد ضمن الأجزاء الثلاثة الأخيرة من خططه، دراسات مستفيضة عن النيل وفيضانه ومقاييسه وترعه، كما يصدق نفس القول على كتاب له يحمل عنوان «نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر» الذى طبع بالقاهرة عام ١٨٧٢، وهو كتاب تتمثل أهميته فى دراسة تاريخ نهر النيل ونظم الرى ومشاريعه فى مصر. ثم جاء أمين سامى باشا، الذى كان تلميذاً للفلكى وعلى مبارك، ليضع لنا كتابه الوثائقى المهم «تقويم النيل» الذى لم يكن مجرد كتاب عن النيل وأحواله، وإنما عن تاريخ مصر والمصريين.

أمين سامى ومؤلفاته:

ومؤرخنا أمين سامى باشا (١٨٥٧ ـ ١٩٤١) هو ابن الشيخ محمد حسن البرادعى المصرى، الذى ينسب إلى «البرادعة» إحدى قرى قليوب بالدلتا المصرية، وكان أبوه وجده شيخين للقرية مما يعنى أنه نشأ فى أسرة ميسورة من أسر شيوخ القرى المصرية فى القرن التاسع عشر. وبالرغم من أنه ليس لدينا معلومات كافية عن نشأته وسنى تعليمه الأولى، إلا أنه من الواضح أنه تلقى تعليماً أولياً فى قريته، لم يلبث أن استكمله فى القاهرة، التى لا تبعد كثيراً عن بلده، قبل أن يدخل مدرسة المهندسخانة، (التى كانت قد تأسست منذ عام ١٨٣٤) وذلك فى عهد نظارة محمود باشا الفلكى لها (١٨٧١ ـ ١٨٨٢) وفى هذه المدرسة تلقى أمين سامى تعليماً فنياً، أهله لحياة عملية انتظم خلالها فى سلك التعليم الفنى، فعين مدرساً بمدرسة المساحة فى بنى سويف وذلك فى أواخر عهد الخديو إسماعيل، وكانت هذه المدرسة تؤهل الطلاب للدراسة بمدرسة المهندسخانة، وقد شغل أمين سامى وظيفته تلك نحو خمس سنوات، قدم فيها لطلابه مختصراً لهندسة إقليدس.

انتقل مؤلفنا بعد ذلك للعمل مفتشاً بنظارة المعارف حيث أظهر نشاطاً كبيراً فى ظل رئاسة المسيو دوريبه السويسرى، الذى يعد أحد الشخصيات الأوروبية المرموقة التى خدمت التعليم بمصر، وإليه يعزى تأسيس أول مدرسة للمكفوفين بمصر. وقد انتهى عهد الخديو إسماعيل (١٨٧٩) وأمين سامى فى وظيفته تلك. ونتيجة لنشاطه الجم وخبرته الواسعة وسمعته الطيبة. عهد إليه بإنشاء مدرسة ابتدائية بالمنصورة، فأسسها على أحدث طراز فى عصرها،

تتبع مؤلفنا «أمين سامى باشا» أحوال مصر، مقرناً ذلك بأحوال النيل، ليضع لنا هذا السفر الضخم، الجليل والقيم، بعد أن أنفق فى تأليفه ما ينيف عن ربع قرن من الزمان

وطورها بأن أضاف إليها فصولاً تجهيزية (ثانوية) وكان من أنجب تلاميذه فيها أحمد لطفى السيد ـ أستاذ الجيل فيما بعد ـ الذى روى عنه فى ذكرياته أنه كان غلاماً ذكياً ينزع إلى الفلسفة والتفكير مع حداثة سنه.

وفى مدرسة المنصورة قدم أمين سامى أسلوباً جديداً فى التربية والتعليم لتنشئة الطلاب، فكان يكلفهم بإعداد موضوعات معينة خلال الأسبوع ثم يحشد المعلمين وكبار الموظفين والنابهين ليتحدث إليهم الطلاب، كل فى موضوعه من الذاكرة حديثاً مرتجلاً. وقد زار الخديو توفيق هذه المدرسة عام ١٨٨٣ حيث اصطف التلاميذ لاستقباله وهم يلبسون ثياباً بيضاء كالتى يلبسها الجند بالثكنات، وقد أبدى الخديو إعجاباً شديداً ببناء المدرسة وتنظيمها ونظافتها وبنظام التعليم فيها، حتى إنه تولى بنفسه امتحان التلاميذ باللغة الفرنسية.

ويبدو أن أمين سامى عمل فترة فى دار المحفوظات المصرية منذ عام ١٨٨٠، انتقل بعدها للعمل مفتشاً بنظارة المعارف مرة أخرى، ومنها انتقل إلى وظيفة أكبر وأكثر أهمية عندما تولى مدرسة الناصرية (المبتديان) حيث مكث بوظيفته هذه نحو ربع قرن، بين عامى (١٨٨٥ ـ ١٩١٠) استطاع خلالها تأسيس مبنى عصرى للمدرسة بالمنيرة، حتى صارت مدرسة لأبناء الأعيان وصفوة المجتمع المصرى، باعتبارها أرقى مدرسة فى مصر حينئذ، وكانت أشبه بكليتى «هاو» و«إيتون» بإنجلترا حيث يربى أبناء العائلات والأسر تربية خاصة. وقد ذكر أمين سامى أن اللورد كرومر، المعتمد السياسى البريطانى فى مصر قد زار المدرسة وأثنى على نظامها ونظافتها وبرامجها الدراسية، كما زارها الخديو عباس حلمى مرتين.

وقد أضاف أمين سامى فى ذكرياته عن هذه المدرسة أنه ابتدع مخالطة المعلم لتلاميذه، والعناية بالرياضة، وإذكاء المنافسة بين الطلاب عن طريق الجوائز ولوحات الشرف وتنشئتهم على النهج الذى رسمه الدين الحنيف «وقد تهافت رجالات مصر وكبراؤها وأعيانها على المدرسة يضعون أبناءهم تحت رعايتى وإشرافى، وكانوا يفضلون إلحاقهم بالقسم الداخلى رغم سكناهم بالقاهرة..»، وقد تخرج من هذه المدرسة من كبار شخصيات مصر البارزين كل من مصطفى النحاس وعلى ماهر وأحمد ماهر وعلى الشمسى وزكى العرابى وحافظ رمضان وغيرهم.

ونتيجة للسمعة العلمية والإدارية التى حازها أمين سامى، عهد إليه فى نهاية القرن التاسع عشر بنظارة مدرسة دار العلوم أيضاً، وذلك فى عهد نظارة مصطفى فهمى باشا (١٨٩٥ ـ ١٩٠٨) الذى أطلق يده فى المدرسة ليعيد تنظيمها، حيث نجح فى مهمته نجاحاً لقى عليه ثناء الأستاذ الإمام محمد عبده، الذى كان رئيساً لهيئة امتحان الطلاب بها، وقد شهد له الإمام بأنه أحيا اللغة العربية فيها، وقد تخرج على يديه منها عدد من كبار الكتاب والعلماء والشعراء.

لقد كان شغوفاً بالعلم والتعليم طوال حياته، وقد ذكر الزركلى فى «الأعلام» أنه ألف كتاباً مدرسياً بعنوان «النفحات العباسية فى المبادئ الحسابية» المهم أن مؤلفنا بذل جهوداً كبيرة فى سبيل نشر التعليم، وإصلاح التعليم الابتدائى والثانوى فى عهدى الخديو توفيق وعباس حلمى، وكان من أنصار جعل التعليم الإلزامى فى مصر مجانياً وإجبارياً للقضاء على الأمية. وفى حديث نشر له بمجلة الهلال عام ١٩٣١ ذكر أنه يتمنى أن يعيش حتى يتعلم آخر أمى فى وطنه، وقد عبر عن اغتباطه لانتشار التعليم الإلزامى ثقة منه بأن تعليم الشعب هو أساس كل تقدم وفلاح، وكان يرى أن القضاء على الأمية وما يصحبه من تطور هو الخطوة الأساسية لمنافسة الشعوب الأخرى.

لقد كان ينظر إلى أهمية ازدياد المدارس الصناعية والزراعية نظرة خاصة، ويرتب على تقدمها والإقبال عليها، ارتقاء الصناعات الوطنية وتغير طرق الزراعة وارتقاء أساليبها، كما كان من أنصار تعليم البنات طوال حياته، وكان يدعو الشباب إلى العمل والنضال خارج دوائر الحكومة، لكى يقبضوا على زمام الشئون الحيوية كلها منافسين للأجانب. وكانت نظرته للجامعة المصرية على درجة كبيرة من الوعى، فهو ينتظر منها أن تكون معهداً للبحث الحر، يتلقى فيه الطلبة كيف يبحثون ويقومون بالتجارب، سعياً وراء الكشف والاختراع والابتكار فى العلم والأدب والتاريخ والفلسفة، ويرى أن الهدف من إرسال الطلبة فى بعثات علمية، ليس الحصول على الشهادات والدرجات العلمية، وإنما جلب العلوم والمعارف ونشرها بين الأمة.

وعموماً فإن المسئوليات التى تولاها فى شئون التعليم فضلاً عن نشأته الاجتماعية، قد هيأ له مكانة اجتماعية مرموقة، ومن ثم الاختلاط والتحرك داخل الدوائر الاجتماعية العالية فى مصر، فكان عضواً بالمجلس الأعلى للمعارف، كما عين عضواً بمجمع اللغة العربية، وكانت نشاطاته الاجتماعية والثقافية العامة مدعاة اختياره عضواً

فى مجلس الشيوخ منذ عام ١٩٢٨، وحتى وفاته عام ١٩٤١.

ومع ذلك كله فإن وجهات نظره وآراءه السياسية لم تنعكس على كتاباته التاريخية، كما كان نادرًا ما يفصح عن آرائه الخاصة ويعبر عن مشاعره بشأن أى موضوع يكتب عنه. وفى تقديرنا أنه لم يكن يعتبر نفسه رجل سياسة بمعناها المباشر، ولم يشتهر بذلك، ربما لأنه اختار أن يخدم بلاده بإخلاص وتفان شديدين من خلال وظائفه الإدارية والتعليمية، ومن خلال مؤلفاته العلمية والتاريخية. باختصار، لقد اختار أن يكون رجلا عمليًا، معلمًا وكاتبًا، يكرس جل وقته لما يحبه ويقدر عليه، ومن داخل جهاز الدولة الحكومى، فلم نعرف أنه كان حزبيًا أو معارضًا، رغم علو المد الوطنى وميلاد الموجة «الثانية» من الحركة الوطنية المقاومة للاحتلال البريطانى، وميلاد الحركة الحزبية، ثم بلوغ الحركة الوطنية والسياسية ذروتها بثورة عام ١٩١٩، فقد شهد أمين سامى ذلك وهو فى ذروة نضجه، حيث استغرقه العمل فى التأليف خلال هذه السنوات الحيوية والخصبة من تاريخ الوطن.

أما عن مؤلفاته، فإنه باستثناء كتاباته المدرسية التى كتبها للطلاب، ولم تنشر خارج هذا السياق، فإن أول كتاب ألفه ونشره كان المجلد الأول من «تقويم النيل» الذى يتضمن مقدمة الكتاب (١٣٤ صفحة) ثم الجزء الأول منه الذى يتناول أوضاع النيل وتاريخ مصر من الفتح الإسلامى حتى الفتح العثمانى، وقد نشره عام ١٣٣٣هـ.١٩١٥م، ثم أعقبه بكتاب يحمل عنوان «التعليم فى مصر فى سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥، وبيان تفصيلى لنشر التعليم الأولى والابتدائى بأنحاء الديار المصرية» وقد نشره عام ١٣٣٥هـ.١٩١٧م، مدفوعًا بأن عليه دينا لمصر يجب أداؤه عند القدرة عليه، وبالرغم من أنه أراد أن يكتب عن التربية والتعليم منذ القرون الأولى وحتى عصره، إلا أنه ركز كتابه حول عامى ١٩١٤ و١٩١٥، مستعينًا بالوثائق، والإحصائيات التى تناولت أعداد التلاميذ والمدارس وخطط التعليم، مما يجعله مصدرًا وثائقيًا مهمًا لمؤرخى التعليم فى مصر خلال هذه الفترة.

ثم شرع مؤلفنا بعد ذلك فى استكمال إعداد ونشر مشروعه الطموح «تقويم النيل»، فنشر عام ١٩٢٨ مجلده الثانى الذى تناول تاريخ مصر من الفتح العثمانى حتى نهاية عصر محمد على. ونتيجة لاتساع نطاق ومجال العمل لديه، لم يستطع أن يصدر المجلد الثالث، بأجزائه الثلاثة، فضلاً عن جزء خاص بالملاحق، إلا فى عام ١٩٣٦، وهى الأجزاء التى غطت عهود خلفاء محمد على، عباس باشا ومحمد سعيد والخديو إسماعيل.

وبعد أن أتم أمين سامى نشر مجلدات «تقويم النيل» بين عامى ١٩١٥ - ١٩٣٦، كانت لديه بقية من علم ووثائق عن النيل وعن التعليم فى مصر، لذلك صنفها فى كتاب آخر، كان آخر مؤلفاته، حيث توفى بعد نشره بثلاث سنوات، وكان تحت عنوان «مصر والنيل: من فجر التاريخ إلى الآن»، وقد نشرته دار الكتب المصرية عام ١٩٣٨، ويلاحظ أن الحديث فيه عن التعليم فى مصر من عصر محمد على وخلفائه، حتى عهد فاروق، اختلط بالحديث عن النيل ووفائه وفيضانه، كما امتلأ هذا الكتاب بالوثائق والإحصائيات التى لم يكن قد نشرها فى أعماله السابقة.

تقويم النيل: الهدف والأهمية

يقع هذا السفر الضخم فى مجلدات ستة اشتمل المجلد الأول منها على مقدمة طويلة، أوضح فيها أسس مشروعه الطموح وتحدث عن جهوده وأهدافه من هذا العمل، كما اشتمل على الجزء الأول الذى وضع له عنوانًا فرعيًا طويلاً إلى جانب العنوان الرئيسى «تقويم النيل» هو (وأسماء من تولوا مصر ومدة حكمهم عليها وملاحظات تاريخية عن أحوال الخلافة العامة وشئون مصر الخاصة عن المدة المنحصرة بين السنة الأولى وسنة ١٣٣٣هـ. ٦٢٢ - ١٩١٥م) وكما أشرنا يتناول هذا الجزء الفترة التاريخية الممتدة من الفتح الإسلامى لمصر، وتعاقب حكام وولاة الدول الإسلامية عليها حتى نهاية حكم سلاطين المماليك، ليقف عند بداية دخول مصر تحت الحكم العثمانى.

ويلاحظ أن المؤلف وضع تقويمًا للنيل من حيث تواريخ تحاريقه وفيضاناته، بتسلسل زمنى فى الصفحات اليمنى، وما يقابلها من الولاة والحكام وأهم أحداث عهودهم فى الصفحات اليسرى، ملتزمًا هذه القاعدة فى الجزء كله، كما يلاحظ أنه يذكر الكثير من مصادره فى نهاية العديد من فقرات كتابته، فيشير بين قوسين إما إلى اسم المصدر أو اسم المؤلف، دون استكمال بقية معلومات المصادر.

أما المجلد الثانى فقد استكمل به حلقات تاريخ مصر فى الفترة التالية أى منذ بداية الحكم العثمانى مرورًا بالغزو الفرنسى، ثم عودة مصر إلى حكم الدولة العثمانية، وولاية محمد على باشا عليها، لينتهى الجزء بوفاة إبراهيم باشا عام ١٨٤٨. وهناك عدد من الملاحظات بشأن هذا الجزء أولها أن المؤلف مر سريعًا على فترة الحكم العثمانى لينتقل إلى عصر محمد على الذى استغرق أكثر من أربعمائة صفحة (الجزء كله ٦٢١ صفحة) وقد ذكر أنه أراد توضيح أعمال «ولاة الدولة العثمانية من خير وشر، وقوة وضعف، وما كان من نفوذ الأمراء المصريين» يقصد المماليك، «الذين صيروا نفوذ الولاة معدومًا فى أغلب الأحيان، حتى تسبب عن استمرار الخلافات بينهم تسهيل الاحتلال الفرنسى». وقد أضاف أنه اجتاز القرون التى تخص هؤلاء مكتفيًا بذكر أهم حوادثهم، ليصل إلى بغيته، أى أن عصر محمد على باشا الذى يهم الناس معرفة حوادثه مفصلة لأهميتها ولاتصال تاريخها بها اتصالاً تامًا.

وثانيها أنه تخلى عن التقليد الذى اتبعه فى الجزء الأول المتعلق بتقويم النيل وأحواله، فعرض بشكل أساسى للأحداث التاريخية، وجاء حديثه عن النيل فى سياقها، حسبما توفرت مادة تاريخية له أو حسب تعبيره «دون - ما تيسر له العثور عليه من أمر فيضان النيل وتحاريقه فى المدة من ١٥١٥ - ١٨٤٨». وأضاف أن هناك سنوات خلت من معلومات عن النيل (حصرها فى جدول) مبررًا ذلك باضطراب الأحوال وباكتفاء المؤرخين بذكر وفاء النيل والاحتفال به، وقد أبدى أسفه لخلو المدة بين عامى ١٨٠١ - ١٨٢٤ من بيان نهاية الفيضان ونهاية التحاريق، وفسر ذلك بانهماك الوالى فى سياسة الإنشاء والتجديد، وأضاف أنه بذل جهده فى الحصول على معلومات عن النيل خلال هذه الفترة واتصل بأسر كبار المهندسين، الذين ذكرهم بالاسم، ممن تولوا الإشراف على الأعمال الهندسية فى عهد محمد على، ووعد بأنه سيراجع الدفاتر الموجودة فى مخازن خلف القلعة مرة أخرى.

وثالثها: أن المؤلف، إلى جانب اهتمامه بسير الحكام وتطور الأوضاع السياسية والإدارية،



أبدى اهتماماً كبيراً بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، فقد تحدث عن نظم ولوائح ترتيب الأراضي والأطيان، وإنشاء الفابريقات والصناعات، والمدارس وشئون التعليم، وتسعيرة الأصناف والبضائع والعملة، وإنشاء المستشفيات، وتنظيم الجيش وتحديثه، وحتى تسمية الشوارع وتنمير البيوت وتعداد أهالي القطر، وقد استقى معلوماته من نصوص الوثائق والأوامر والمراسيم والتقارير التي حصل عليها من الدفترخانة المصرية (دار المحفوظات) ومن جرنال الوقائع المصرية، ومن مصلحة الرسم بالمساحة العمومية، ومن نظارة الأشغال، فضلاً عن مؤلفات العصر وكتبه.

أما المجلد الثالث الذي تضخم في الواقع، حتى جعله المؤلف ثلاثة مجلدات (الثالث والرابع والخامس) بثلاثة أجزاء، فتناول الجزء الأول منه عصري عباس باشا ومحمد سعيد باشا (١٨٤٨ - ١٨٦٣) بينما انفرد عصر إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) بالجزءين الثاني والثالث بسبب وفرة المادة العلمية. ويلاحظ أن مؤلفنا في هذا المجلد بأجزائه الثلاثة، تخلى أيضاً عن تقليده القديم الذي التزمه في المجلد الأول، بوضع تسجيل لتقويم النيل في الصفحات اليمنى، وإن ظل ملتزماً بالتسلسل الزمني «الحولي» في عرض الأحداث الكبرى. ويعد هذا المجلد على درجة كبيرة من الأهمية لندرة المادة الوثائقية المنشورة عن عصري عباس الأول وسعيد باشا، خاصة أنه تناول موضوعات مهمة مثل إنشاء السكك الحديدية في مصر، وتأسيس القناطر الخيرية، وأوضاع الحكم المصري في السودان، وإنشاء وترتيب المجالس والدواوين. كما قدم لنا المؤلف في عصر إسماعيل معلومات ووثائق عن مختلف أوضاع مصر الداخلية والخارجية، خاصة ما يتصل بعلاقات مصر بالباب العالي، وتأسيس ونشاط مجلس شورى النواب، والمحاكم المختلطة، وتطور ميزانية مصر... إلخ.

وأخيراً أصدر أمين سامي المجلد السادس كملحق وثائقي يحمل عنوان «ملحق تقويم النيل عن الجسور والقناطر والكباري والخزانات على النيل وفروعه بمصر والسودان، من فجر التاريخ إلى الآن» ضمّنه ما استطاع من وثائق وخرائط وجداول وإحصائيات ورسوم توضيحية، استكمل بها موضوعات المجلدات السابقة.

وإذا تحدثنا عن أهداف أمين سامي باشا من وضع هذا العمل الكبير، فمن الواضح أنه كان مدفوعاً إليه بشعور الالتزام بخدمة العلم والتاريخ وبالرغبة في خدمة الوطن، كما قصد منه تلبية احتياجات العلماء والمؤرخين والمهندسين، وحسب تعبيره فإنه يقدم هذا العمل «للقراء والباحثين. ولم أرد بذلك إلا القيام بواجب العلم والتاريخ وخدمة الوطن العزيز». وقد حدد مؤلفنا ثلاثة أهداف أو مآرب لوضعه هذا العمل الكبير، أولها: أنه أراد أن يضع تقويماً للنيل المبارك، يتضمن فترات تحاريقه وفيضانه كل عام منذ بداية التاريخ الهجري حتى عام ١٣٣٢هـ/ ٦٢٢ - ١٩١٤م معتمداً في ذلك على ما كتبه مؤرخو مصر، الذين سجلوا حالة النيل في حولياتهم كل سنة هجرية. وثانيها: أن يقرن ذلك بعرض تاريخي للوقائع والأحداث التي مرت بمصر خلال نفس الفترة، وثالثها: أن يوضح النتائج التي ترتبت على حالة النيل وتأثيرها على الحوادث التي حلت بمصر وسكانها، من رخاء وشدة عبر التاريخ. ورغم هذا الجهد الكبير واتساع العمل كلما اقترب مؤلفنا من السنوات التي عاصرها، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإن القدر لم يمهله لإنجاز عمله كله، ومن هنا توقف به الجهد عند نهاية عصر الخديو إسماعيل (١٨٧٩).

وقد اقتضى منه تحقيق هدفه الأول المتعلق بوضع تقويم للنيل أن يرجع إلى ما سجله المؤرخون، ولما كان هؤلاء قد سجلوا معلوماتهم بالسنوات الهجرية، فقد رأى أمين سامي أن يقارنها ويطابقها على السنوات الميلادية، ليزيد الصورة وضوحاً ودقة، فتحرى الاختلاف بين التقويمين الهجري (القمري) والميلادي (الشمسي)، وأثبت ما يوافق غرة المحرم



من كل عام بما يوافقه من التاريخ الميلادي، ليستنتج أن كل ٣٤ سنة هجرية تعادل ٣٣ سنة ميلادية، وعندما اطلع على مذكرات ومستخرجات من الكتب المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس، والتي نشرها المجمع العلمي الفرنسي عام ١٩١٠، باعتبارها تشتمل على تحاريق النيل وفيضانه بين عامي (٢٠ - ٨٥٥هـ) حيث لاحظ أيضاً نفس الفارق بين التقويمين، مما أكد لديه ملاحظته السابقة.

مصادر الكتب ومنهج المؤلف:

إن قيمة أي عمل علمي تُستمد من أهمية مصادره ومنهج وأسلوب الكاتب في التعامل مع المعلومات والحقائق الواردة في هذه المصادر، ونقدها نقداً تاريخياً لاستخراج الحقائق الصحيحة منها، وتوظيفها لبناء معرفة تاريخية علمية. وقد كشف لنا أمين سامي عن مقدرة عالية وعن تمكن ملحوظ في الاستفادة من المصادر على نحو علمي، وربما كان هو أول مؤرخي مصر في القرن العشرين الذين استخدموا الوثائق التاريخية على نطاق واسع، كما استطاع أن يخضع الكثير من هذه المصادر للنقد التاريخي، من خلال مقارنة الروايات والتحقيق والتدقيق فيما ورد سعياً وراء الحقيقة، ورغم استخدامه للشكل الحولي، إلا أن مضمون عمله جاء مختلفاً عمن سبقوه.

وسنضرب مثلاً يوضح هذه المسألة، فهو عند استعانته بجدول أعده الكاتب الفرنسي «مسيو كاترمير» ذكر أنه استقى معلوماته من كتاب أبي المحاسن «النجوم الزاهرة»، تشكك مؤلفنا في الأرقام التي وردت بالجدول وفي التواريخ، فشد الرحال إلى باريس عام ١٩٠٣ ليطلع على مخطوط أبي المحاسن، وعندما قارنها بما ورد في الجدول وجد أن المعلومات غير مطابقة للأصل، واكتشف أنها نقلت عن نسخ حدثت بها أخطاء، لذلك أورد أمين سامي المعلومات والأرقام الدقيقة عن نسخة المخطوط الأصلية، مصححاً بذلك ما ورد بالجدول الفرنسي، وأضاف أن «ظفره بذلك شجعه على مزيد من البحث والتنقيب في مؤلفات مثلها تعرضت لذكر تحاريق النيل وفيضانه».

ومن السهل ملاحظة أن أمين سامي استعان بأقصى ما استطاع أن يصل إليه من مصادر عربية وأوروبية، أشار إليها في سياق موضوعاته، وأنه سعى إلى مظانها جميعاً، واستفاد منها مقارناً ومحللاً، ولم يكن مجرد ناقل، بل كان يثبت ملاحظاته وتفسيراته وتعليقاته دائماً، وكان عادة ما يستخدم عبارة «ولي على ذلك ملاحظات». ومن أشهر مصادره العربية ذكر أنه رجع إلى كتابين لأبي بكر ابن عبدالله بن أيبك هما «درر التيجان، وكنز الدرر وجامع الغرر» بيد أنه لم يأخذ المعلومات الواردة بهما بشكل مسلم به، وإنما يبدي عليها الملاحظات ويدقق في الاختلافات الواردة بها عن غيرها، وكان ذلك حسب قوله «من أقوى البواعث لي على دقة مراجعة كل كتاب نوه بأي شيء عن أمر النيل» ككتابات ابن الحكم والمقريزي والمسعودي وابن تغري بردي، مما يظهر في نهايات الكثير من اقتباساته.

وفي معرض حديثه عن مصادره كذلك ذكر أنه استفاد من كتاب عبداللطيف البغدادي «الإفادة والاعتبار» وأنه عندما قرأ كتاب ابن إياس «نشق الأزهار في عجائب الأقطار» وجد فيه زيادة عن كتابه «النجوم الزاهرة» كما قارن المعلومات التي استقاها من كتاب أبي السرور البكري «قطف الأزهار» بغيرها من المصادر للتحقق والتثبت من صحة ودقة هذه المعلومات.

وفيما يتعلق بالمصادر الحديثة، فيلاحظ أنه استفاد بكشف فيضان النيل (١٠٥٠ - ١٢١٥هـ) الذي أعده المسيو لوبير، أحد رجال البعثة العلمية الفرنسية في مصر، وقد أخذه عن عدد من مشاهير الكتاب العرب، فاقتضت أمانته أن يذكر أنه «غير واثق من دقته». كما استعان بمحررات أستاذه محمود باشا الفلكي بين عامي (١٢٤١ - ١٣٠١هـ) أما ما يتصل بتحاريق النيل وفيضانه عن الفترة بين عامي (١٣٠٢ - ١٣٣٢هـ) فقد استقى معلوماته من صحيفة الوقائع المصرية، طبقاً لما سجلته وزارة الأشغال العمومية. ويستفاد من ذلك كله أن مؤلفنا استقى معلوماته من مصادرها الأصلية طبقاً لطبيعة عصرها، سواء كانت مخطوطات أو مؤلفات أو تقارير ومحررات رسمية، سواء وجدت في القاهرة، بدار المحفوظات ومصلحة المساحة ووزارة الأشغال، أو في العواصم الأوروبية كباريس واستانبول وغيرها.

أما عن المعلومات التاريخية أو «الشذرات التاريخية». كما كان يسميها. من حيث أهميتها والمنهج الذي اتبعه في عرضها، فقد كشف أمين سامي عن وعي كبير بمناهج المؤرخين وطرائقهم، من قدماء ومحدثين، وربط بين ذلك وبين أهمية المعرفة التاريخية على نحو مهم، فذكر أنه لم يسلك في عرضه التاريخي الخطة التي اعتاد كل فريق من المؤرخين اتباعها، وقد صنف هؤلاء إلى ثلاثة فرق: فريق يتبع أسلوب تراجم الأعيان من

مولدهم حتى وفاتهم «من غير تعرض لترتيب الدول» وفريق يروى تاريخ الدول على سبيل الحكاية والقص «من غير نظر إلى ترتيب سلسلة الحوادث التى يقتضى بعضها بعضًا. وهذا لا ثمرة له فى المقصود من التاريخ»، ولعله يعنى هنا من غير النظر إلى الوقائع ومسبباتها ونتائجها، أما الفريق الثالث فأنصاره يذكرون تاريخ الدول أيضًا، لكن مع ترتيب سلسلة الحوادث وأن بعضها يقتضى بعضًا، وذلك لاعتبارهم أن التاريخ هو تبيان حوادث الأيام، التى أهمها سلسلة حوادث الأعمال الإنسانية الاختيارية، وما لكل من سبب وغاية، من جهة تأثيرها فى الاجتماع المدنى، تقوية أو إضعافًا، وذلك بهدف تربية العقول وتعويدها الحكم على الحوادث، سواء بالتحسين أو التقبيح، سعيًا وراء الحقيقة وإعراضًا عن الظواهر باعتبار ما لها من التأثير».

ونتيجة لوعيه التاريخى وفهمه لطبيعة علم التاريخ، فإنه رغم تأكيده على أهمية الفريق الثالث، الذى يهتم بالبحث عن علل الأحداث والوقائع التاريخية، وينظر فى نتائجها، ويستهدف من التأريخ لها تنمية ملكة النقد وتكوين الآراء وإصدار الأحكام استنادًا إلى العقل، فإن مؤلفنا مزج بين أغراض كل فريق من الفرق الثلاثة فى اختيار ما أراد تدوينه من الأحداث، فأعار العصور التاريخية ما يناسب أهميتها، ورأى أن يسرع فى اجتياز القرون الأولى، ليصل إلى القرون الأخيرة، التى يرى أنها تهمنا مباشرة، أى ليصل بنا إلى «الأحوال المدهشة التى انتشل فيها ساكن الجنان محمد على باشا، بحسب تصرفه، مصر من وهدة الانحطاط إلى الدرجات العالية. مقدمًا الرجال والأحداث بصورة تشحذ القدرة على التصور وتنمى الوعى والوجدان».

وقد ذكر أمين سامى أنه اعتمد فيما كتبه على ثقات المؤرخين «وما أنا بالنسبة لهم إلا ناقل» «أمين». وإن كنا نعتقد أنه غمط نفسه حقها فى الجملة الأخيرة التى أراد بها الإشارة، فى تورية بلاغية، إلى أمانته فى النقل وإلى اسمه، لأنه لم يكن مجرد ناقل، وإنما كان باحثًا مدققًا وناقدًا فى كثير من الأحيان. ولتأكيد أمانته فى استخدام المصادر، أشار إلى أن المحررات الرسمية التى جمعها من سجلات الحكومة، والتى وردت فى الجزء الثالث تحت عنوان (إيرادات) كانت مدونة فى الأصل باللغة التركية وأنه ترجمها إلى العربية، أما المحررات التى نقلها عن نفس السجلات تحت عنوان (أوامر عالية أو أوامر كريمة) فقد دونها كما هى «محافظة على أمانة النقل وقيامًا بحق التاريخ فى نقل الأشياء بصورها الحقيقية، وعدم تشويهها بأى تغيير، حتى يرى القارئ بعينه ما كان عليه الأمر على حقيقته. ومن أجل ذلك ترى فيها أغلاطًا لغوية وصرفية ونحوية وإملائية وأساليب ركيكة. فليتنبه القارئ وليلاحظ أن أكثر ما كان ذلك وأشده وقوعًا فى عهدى عباس وسعيد، أيام طمست معالم التعليم وكاد يقضى عليه».

ويبدو أن مؤلفنا على امتداد سنوات تأليفه للكتاب، كان يتلقى أسئلة تتعلق بالنيل وشئونه من قبل القراء، بعد أن نشر الجزء الأول عام ١٩١٥، وقد اعتذر لهم عن إبطائه فى الإجابة عن بعض ما أرسلوه إليه، معللاً ذلك بأنه لا يريد أن يجازف بالإجابة دون تحرى المسائل أشد التحرى، ولا يجيب حتى يتأكد ويتثبت بأقصى ما فى وسعه «كما تقتضى بذلك أمانة العلم وكرامة النفس» حتى لقد كان ذلك يكلفه السفر ومراجعة المصادر فى مختلف المكتبات الأوروبية «ليطمئن إلى أن كل ما أجاب به لم يكن إلا بعد التحرى العظيم والتثبت الشديد».

وأخيرًا، يمكن القول إن أمين سامى باشا كان متنبهًا لتطور منهج البحث فى التاريخ، بفضل ثقافته الحديثة، وما بداخلها من مؤثرات أوروبية، فضلاً عن معرفته بتراث ثقافته العربية، فلم يأت عمله مجرد سرد للوقائع والأسماء والتواريخ، وإنما جعل يغوص فيما تحت الظواهر التاريخية لإدراك أبعادها مع تقديم تحليلات وتفسيرات لكثير من الوقائع، بأسلوب سهل متميز تتدفق فيه الأحداث والوقائع والحقائق عبر سياقها الزمنى فى تتابع منتظم، وبلغة عصرية مباشرة خالية من السجع والتزيد.

لقد تضمنت المجلدات التى تناولت عصر محمد على وخلفائه، ثروة ضخمة من الوثائق والتقارير الرسمية والفرمانات والأوامر العالية، التى أجاد مؤلفنا ربطها فى تطورها الزمنى، مخلفًا لنا عملاً موسوعيًا فريدًا، على درجة كبيرة من الأهمية لا تتوفر بسهولة فى مرجع آخر، ومساهمًا بذلك فى بناء الإرث القومى المصرى. كما تميز هذا العمل بشمولية واضحة جعلته لا غنى عنه لأى مثقف أو باحث أو مؤرخ، لذلك ضمنت له أبعاده الموسوعية الخلود والبقاء، وربما كانت القيمة الأعلى والأهم لذلك السفر الجليل، ليس باعتباره «تاريخيًا» فى حد ذاته، وإنما باعتباره «مصدرًا» للكتابة التاريخية، والمصدر بطبيعة الحال أكثر أهمية وبقاء من التاريخ ذاته.

ولله الحمد من قبل ومن بعد. ■

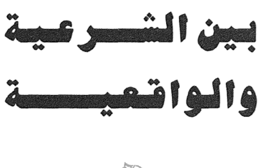


تقرير جولدستون
(٦)

وقد بحثت البعثة أيضًا الاحتياطات التى اتخذتها القوات المسلحة الإسرائيلية فى سياق ثلاث هجمات محددة قامت بها. ففى ١٥ كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٩، تعرض مجمع المكاتب الميدانى لوكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين فى الشرق الأدنى (الأونروا) فى مدينة غزة للقصف بالذخائر العالية التفجير وذخائر الفوسفور الأبيض. وتلاحظ البعثة أن الهجوم كان خطيرًا إلى أبعد حد، بالنظر إلى أن هذا المجمع كان يتيح المأوى لما بين ٦٠٠ و٧٠٠ شخص من المدنيين، وكان يتضمن مستودعًا ضخمًا للوقود. واستمرت القوات المسلحة الإسرائيلية فى هجومها على امتداد ساعات عديدة على الرغم من أنه جرى تنبيهها بشكل كامل إلى الأخطار التى أحدثتها. وتخلص البعثة إلى أن القوات المسلحة الإسرائيلية قد انتهكت ما يتطلبه القانون الدولى العرفى من اتخاذ جميع الاحتياطات الممكنة فى اختيار وسائل الهجوم وأسلوبه بقصد تجنب - وعلى أية حال التقليل إلى أدنى حد من - الخسائر العرضية فى أرواح المدنيين، وإصابة المدنيين وإلحاق الضرر بالأعيان المدنية.

وبحثت البعثة كذلك حادثًا استُهدف فيه أحد المساجد بقذيفة أثناء صلاة المغرب، مما أسفر عن موت ١٥ شخصًا كما بحثت هجومًا استُخدمت فيه ذخائر سهمية ضد حشد أسرى ومعهم جيران فى خيمة عزاء، مما أدى إلى قتل خمسة أشخاص. وترى البعثة أن كلا الهجومين يشكلان اعتداءات متعمدة على سكان مدنيين وأهداف مدنية.





بين الشرعية والواقعية



محمد عامر

■■ كما أن القوانين قد تكون غير دستورية، فإن القرارات الدولية قد تكون غير شرعية. ويكون القانون غير دستورى إذا تعارض مع الدستور، فما المقصود بعدم شرعية قرار دولى؟ إذ يتعارض القرار مع حقوق الإنسان الأساسية، فردية كانت أو جماعية، مثل تلك التى ذكرها ميثاق الأمم المتحدة بقوله فى ديباجته «نؤكد من جديد إيماننا بحقوق الإنسان الأساسية، وبكرامة الفرد وأهميته، وبالحقوق المتساوية للرجال والنساء، وللأمم كبيرها وصغيرها».. وتلك التى ذكرها الإعلان العالمى لحقوق الإنسان بقوله فى ديباجته «لما كان الإقرار بالكرامة الأصيلة والحقوق المتساوية والثابتة لكل أبناء الأسرة البشرية هو أساس الحرية والعدل والسلام فى العالم».. ويولد الإنسان مكتسب هذه الحقوق، إذ يقول الإعلان فى مادته الأولى «يولد كل الناس أحراراً متساوين فى الكرامة والحقوق، متمتعين بالعقل والضمير، ويجب أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الإخاء».

غير أنى - لتقليل فرص الاختلاف - سأتبنى هنا مفهوماً أكثر تحديداً لعدم الشرعية: يكون القرار الصادر من جهة ما غير شرعى، إذا كان متعارضاً مع ميثاقها. وعلى هذا الأساس سأناقش ما يثار منذ نجاح حماس فى انتخابات ٢٠٠٦م، وازداد التركيز عليه منذ عدوان الكيان الصهيونى على غزة فى ٢٠٠٨ / ٢٠٠٩م: الاعتراف بقرارات «الشرعية الدولية». المقصود الاعتراف بتقسيم فلسطين، والتخلى عن تحرير كامل التراب الفلسطينى. وأيضاً التخلى عن المقاومة المسلحة كوسيلة لإنجاز التحرير.

فى مقدمته المعنونة «الأمم المتحدة وإدانة الصهيونية» لكتاب «الصهيونية والعنصرية» الصادر عن معهد البحوث والدراسات العربية عام ١٩٧٧م، يقول د. مفيد شهاب الدين أستاذ القانون الدولى العام (ص ١٤) «وقد جاءت وثيقة الانتداب تكريساً للنظرة العنصرية إلى الشعب العربى الفلسطينى، فقد تضمنت فى صلبها نص وعد بلفور وأضافت التزاماً على بريطانيا بأن تهيئ البلاد بما يُمكن من تنفيذ ذلك الوعد».

والمقصود انتداب عصبة الأمم بريطانيا وصية على فلسطين (عام ١٩٢٢م) إعمالاً للمادة ٢٢ من ميثاق العصبة، كما تقول وثيقة الانتداب. وتنص هذه المادة على أن الشعوب الموضوعة تحت الانتداب «ينطبق عليها المبدأ القائل بأن رفاهية هذه الشعوب وتقدمها يعد وديعة مقدسة فى عنق المدنية» وأن «أحسن وسيلة لتنفيذ هذا المبدأ عملياً، هى أن يعهد بالوصاية على هذه الشعوب للأمم المتقدمة».

ولما كان قرار الانتداب متعارضاً مع هذا المبدأ، فإنه غير شرعى، هو وكل ما يترتب عليه من آثار متعارضة مع رفاهية وتقدم شعب فلسطين.

وهذا التعارض ليس صدفة، بل هو نية مبيتة، كما أفصح عن هذا بلفور نفسه، صاحب الوعد المعروف باسمه، والذى كان قد وقعه نيابة عن حكومة صاحب الجلالة البريطانى والذى ينص على «تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين».

بعد هذا بربع قرن شكلت الجمعية العامة للأمم المتحدة (عام ١٩٤٧م) لجنة لبحث موضوع فلسطين. وجاء فى تقرير اللجنة الذى قدم فى نفس العام «فيما يتعلق بمبدأ تقرير المصير فإنه، رغم الاعتراف الدولى بهذا المبدأ فى نهاية الحرب العالمية الأولى، ورغم أنه تم الالتزام به فى الأقاليم العربية الأخرى، لم يتم، عند وضع صكوك الانتداب من الفئة «أ»، تطبيق ذلك المبدأ على فلسطين. ويرجع ذلك بوضوح إلى النية فى تيسير إنشاء الوطن القومى اليهودى هناك. ومن الجائز جداً، فى الواقع، القول إن الوطن القومى اليهودى والانتداب الفريد من نوعه على فلسطين يتعارضان مع ذلك المبدأ».

وقد تبنت الأمم المتحدة حق الشعوب فى تقرير المصير، عندما جعلته أحد مقاصدها، التى حددتها المادة الأولى من ميثاقها. إذ إن الفقرة الثانية من هذه المادة تنص على «تنمية العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام مبدأ المساواة فى الحقوق، وأن يكون للشعوب تقرير مصائرها».. ومن ثم كان حرياً بالأمم المتحدة أن تتخذ ما يلزم لإعمال حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره. لكنها بدلاً من ذلك شكلت اللجنة سالفة الذكر، سائرة بهذا على درب عصبة الأمم، بما فيه من تناقض وسوء نية، كما قال بلفور، وكما أشارت اللجنة نفسها.

رغم ما جاء (عاليه) فى تقرير اللجنة، فقد اقترحت أغلبيتها تقسيم فلسطين. وهذا ما أخذت به الجمعية العامة للأمم المتحدة فى قرارها رقم ١٨١ (د ٢) الصادر فى ٢٩ / ١١ / ١٩٤٧م، مهدرة بهذا حق شعب فلسطين فى تقرير مصيره، ومناقضة ميثاقها الذى يكفل هذا الحق. ولذا فقد ولد هذا القرار منعدم الشرعية.

وعلى النقيض من الممارسات والقرارات الدولية غير الشرعية سالفة الذكر، كان من ثمار حرب أكتوبر المجيدة أن أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارات عديدة بشأن فلسطين متوافقة مع الشرعية، نتوقف عند ثلاث منها:

(١) القرار رقم ٣٠٨٩ (د ٢٨) الصادر فى ٧ / ١٢ / ١٩٧٣م الذى تؤكد فيه الأمم المتحدة «أن لشعب فلسطين الحق فى حقوق متساوية، وفى حق تقرير المصير وفقاً لميثاق الأمم المتحدة»، وتعرب فيه عن قلقها الشديد لأن إسرائيل قد حرمت شعب فلسطين من التمتع بحقوقه الثابتة وممارسة حقه فى تقرير المصير.

يلاحظ هنا عدم الإشارة إلى قرار التقسيم، أو إلى قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ (الصادر فى ٢٢ / ١١ / ١٩٦٧م)، والتأكيد على أن حق تقرير المصير إنما هو وفق ميثاق الأمم المتحدة، الذى يطلق هذا الحق لجميع الشعوب على كامل ترابها، وبالتالى فهو يطلقه لشعب فلسطين على كامل ترابه، إذ إن لهذا الشعب حقوقاً متساوية مع غيره من الشعوب بنص الميثاق.

بناء على هذا، وعلى ما سبق، فإن تحرير كامل التراب الفلسطينى هو الهدف الذى تمليه الشرعية الدولية، وفى أى انتقاص منه إهدار لهذه الشرعية.

(٢) القرار رقم ٣٢٣٦ (د ٢٩) الصادر فى ٢٢ / ١١ / ١٩٧٤م والذى تعترف فيه الأمم المتحدة «بحق الشعب الفلسطينى فى استعادة حقوقه بكل الوسائل وفقاً لمقاصد ميثاق الأمم المتحدة ومبادئه».

ولما كان من مبادئ الأمم المتحدة (م ٢ - ف ٤) أن «يمتنع الأعضاء جميعاً فى علاقاتهم الدولية عن التهديد بالقوة، أو استخدامها، ضد سلامة الأراضى أو الاستقلال السياسى لأية دولة أو على أى وجه آخر لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة». ولما كان حق تقرير المصير أحد مقاصد الأمم المتحدة (م ١ - ف ٢) فإن استخدام القوة لحرمان شعب فلسطين من إنجاز هذا الحق أمر غير مشروع. أما استخدام هذا الشعب العظيم، وأنصار الخير والعدل والسلام، القوة لإحقاق هذا الحق فهو أمر مشروع، قياساً على المادة ٥١ م الميثاق التى تنص على أنه «ليس فى هذا الميثاق ما ينتقص من الحق الطبيعى فى الدفاع الفردى أو الجماعى عن النفس إذا وقع عدوان مسلح على عضو فى الأمم المتحدة»، وإعمالاً للقرار سالف الذكر ولقرار الجمعية العامة رقم ٢٧٨٧ (د ٢٦) الصادر فى ٦ / ١٢ / ١٩٧١م الذى يؤكد على «شرعية نضال الشعوب فى سبيل تقرير المصير والتحرر من الاستعمار والتسلط والاستعباد الأجنبى.. وعلى الخصوص شعوب زمبابوى و... وكذلك الشعب الفلسطينى، بكل الوسائل المتوفرة التى تنسجم مع ميثاق الأمم المتحدة»، غيرها من القرارات التى تؤكد حق الشعوب فى تقرير المصير وحقها فى الكفاح المسلح (راجع مقال د. أحمد فتحى سرور بأهرام الأحد ٦ / ٨ / ٢٠٠٦م، ص ١٠).

(٣) القرار رقم ٣٣٧٩ (د ٣٠) الصادر فى ١٠ / ١١ / ١٩٧٥م الذى يخلص إلى أن الجمعية العامة «تقرر أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية التمييز العنصرى». صدر هذا القرار تحت عنوان «القضاء على جميع أشكال التمييز العنصرى»، وتصدرته حيثيات مفصلة ترجع إلى قرارات سابقة للأمم المتحدة وغيرها من المحافل الدولية تقول بأن «أى مذهب يقوم على التفرقة العنصرية.. خاطئ علمياً ومشجوب أدبياً وخطر اجتماعياً»، وتدين «التحالف الآثم بين العنصرية بجنوب أفريقيا وبين

الصهيونية والعنصرية
د. مفيد شهاب الدين
معهد البحوث والدراسات العربية - ١٩٧٧

الصهيونية»، كما تدين «الصهيونية بأقصى شدة بوصفها تهديداً للسلم والأمن العالميين» وتطلب من «جميع البلدان مقاومة هذه الأيديولوجية العنصرية والإمبريالية»، وتعلن أن «التعاون والسلم الدوليين يتطلبان تحقيق التحرير.. وإزالة الاستعمار.. والصهيونية، والفصل العنصرى، والتمييز العنصرى بجميع أشكاله».

ويرى د. مفيد شهاب الدين فى مقدمته للكتاب سالف الذكر (ص ١٠) أن هذا القرار الكاشف عن حقيقة الصهيونية «أهم القرارات التى أصدرتها منظمة الأمم بخصوص القضية الفلسطينية والصراع العربى الإسرائيلى بأكمله». ويضيف (ص ٢٤) أن بيان المدلول الحقيقى لهذا القرار «واتخاذه أساساً لطرح شرعية الصهيونية والكيان الإسرائيلى.. يتطلب جهداً فكرياً دؤوباً حتى تتهيأ الأرضية المناسبة لحركة التحرير العربى لخوض الصراع المصرى ضد الصهيونية»..

وبدلاً من بذل الجهد الفكرى الدؤوب، وخوض الصراع المصيرى ضد الصهيونية، كانت زيارة القدس واتفاقات كامب ديفيد والمعاهدة المصرية الإسرائيلية. ورداً على ذلك قامت جبهة الصمود والتصدى، التى لم تصمد ولم تتصد. ثم انشغلت العراق بحربها مع إيران لنحو عقد من الزمان، قامت بعدها بـ «تحرير» الكويت بدلاً من تحرير فلسطين، الأمر الذى كان من تداعياته زيادة خطيرة فى النفوذ والقواعد الأمريكية فى الخليج.. ثم كان مؤتمر مدريد واتفاقية أوسلو والمعاهدة الأردنية الإسرائيلية (وادى عربة).. مما قلب الأمور رأساً على عقب، وأدخلنا فى مرحلة جديدة شعارها: «الواقعية».

ولا مانع من أن تعمل «الواقعية» على تزييف الواقع، فتضفى على الكيان الصهيونى العنصرى الغاصب شرعية زائفة: دولية وعربية، وحتى فلسطينية. وغداة مؤتمر مدريد، وتحت ضغوط أمريكية، نكصت الجمعية العامة للأمم المتحدة على عقبيها، وأصدرت قرارها رقم ٨٦ / ٤٦ فى ١٦ / ١٢ / ١٩٩١م الذى ينص على أن «الجمعية العامة تقرر إلغاء الحكم الوارد فى قرارها ٣٣٧٩ (د ٣٠) المؤرخ فى ١٠ / ١١ / ١٩٧٥م».

ورغم أن هذا القرار يلغى الحكم الكاشف عن عنصرية الصهيونية، دون أن يلغى حيثياته، فهو يشكل نكسة خطيرة للعدل والسلام وحقوق الإنسان. والمأساة أنه صدر تحت عنوان «القضاء على جميع أشكال التمييز العنصرى»، لتضيف به الأمم المتحدة قراراً جديداً إلى قراراتها غير الشرعية.

وكما لم يَرْقَ فكرنا الاستراتيجى إلى تحديات مهمة التحرير، فقد فشل فى التنبؤ بمرحلة «الواقعية» أو التمهيد لها، أو حتى مواكبتها وترشيدها وتأصيلها، أو معارضتها وتقديم بدائل لها، رغم مرور نحو ثلث قرن عليها.

ولذا فليس بغريب أن يخبو الحديث عن «السلام» ليحل محله الحديث عن «عملية السلام»، وبدوره يخبو هذا الحديث ليحل محله الحديث عن التهدئة.. ويطول بنا انتظار أن تجود علينا أمريكا بحل الدولتين، رغم أننا نعلم أن أمريكا ترومان (ديمقراطى) قد لعبت دوراً محورياً فى اغتصاب فلسطين وإقامة إسرائيل (١٩٤٧-١٩٤٨م)، وأمريكا جونسون (ديمقراطى) هى التى حالت دون أن يصدر مجلس الأمن قراراً بعودة قوات العدوان إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧م، وأمريكا نيكسون (جمهورى) هى التى استنفرت أسلحتها النووية (١٩٧٣م) لتضمن حصار جيش العدوان الإسرائيلى مدينة السويس (لكن المقاومة الشعبية الباسلة منعته من اقتحامها). ولو كانت أمريكا راغبة فى انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة عام ٦٧، ما أرسلت ميتشل ولا غيره، بل لأنجزت هذا الأمر فى أسابيع، أو حتى أيام، كما فعلت بشأن انسحاب سوريا من لبنان (٢٠٠٦م).

رغم صمود الشعب الفلسطينى فى غزة، فقد كشف العدوان الإسرائيلى عليها (ديسمبر ٢٠٠٨ / يناير ٢٠٠٩م) ضعفنا جميعاً: دولاً ومنظمات إقليمية، وتنظيمات شعبية و... وما المعارك الصبيانية الجارية حالياً بين المعتدلين والممانعين والمعارضين والموالين و... إلا أحد المظاهر المؤسفة لهذا الضعف الشديد، ولن تزيده إلا تفاقماً.

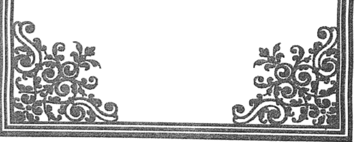
إننا جميعاً أمام معضلة مزمنة خطيرة، فنهضتنا مجهضة منذ أن بدأنا السعى إليها مع محمد على منذ قرنين من الزمان. وبدءاً من أربعينيات القرن الماضى فإن الصراع ضد الصهيونية ومن هم وراءها هو أهم العوامل الخارجية لهذا الإجهاض. أما على الصعيد الداخلى فإن أحد أهم عوامل الإجهاض هو غياب الفكر الاستراتيجى الذى يضرب فى أعماق التاريخ ويستوعب تعقيدات الحاضر ويستشرف آفاق المستقبل، فبدونه ستظل حركتنا خبط عشواء. فهل لنا أن نأمل فى أن يركز مفكرونا ومؤسساتنا البحثية على هذه المعضلة، فيقلبونها على مختلف أوجهها، ويتعاملون مع مختلف أبعادها وتفاعلاتها، ويقدمون مختلف الاجتهادات لحلها، بكل ما يحتاجه هذا من صبر وعمق وجرأة؟



تقرير جولدستون (٧)

وتخلص البعثة أيضًا إلى أن القوات المسلحة الإسرائيلية قد قامت فى اليوم نفسه على نحو مباشر ومتعمد بمهاجمة مستشفى القدس فى مدينة غزة ومستودع سيارات الإسعاف المجاور بقذائف الفوسفور الأبيض. وتسبب الهجوم فى نشوب حرائق استغرقت عملية إطفائها يومًا كاملاً وأوقع الذعر فى نفوس المرضى والجرحى الذين تعين إجلاؤهم. وقد وجدت البعثة أنه لم يصدر فى أى وقت تحذير بوقوع هجوم وشيك. وترفض البعثة الادعاء القائل بأن نيرانًا قد وُجهت إلى القوات المسلحة الإسرائيلية من داخل المستشفى. وهى تستند فى ذلك إلى تحرياتها هى.

وتخلص البعثة، استنادًا إلى الوقائع المتحقق منها فى جميع هذه الحالات المذكورة أعلاه، إلى أن سلوك القوات المسلحة الإسرائيلية يشكل خرقًا خطيرًا لاتفاقية جنيف الرابعة من حيث القتل العمد والتسبب عمدًا فى إحداث معاناة كبيرة للأشخاص المحميين وعلى ذلك فإنه يُنشئ المسؤولية الجنائية الفردية. وهى تخلص أيضًا إلى أن الاستهداف المباشر والقتل التعسفى للمدنيين الفلسطينيين يشكل انتهاكًا للحق فى الحياة.



تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

قصة حياة

إبراهيم عبد القادر المازنى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ١٤٠ صفحة



يختار لنا المازنى فى هذا الكتاب بعضًا من المشاهد التى مر بها فى طفولته وشبابه وكهولته، ويرويها بأسلوبه الرشيق، ولغته الثرية، والخبرة العميقة بالحياة، التى ينقلها هنا كعصارة لتجربة واسعة وحياة حافلة.

إبراهيم عبد القادر المازنى (١٨٨٩ - ١٩٤٩)

واحد من الآباء المؤسسين للكتابة العربية الحديثة: شعراً ورواية وصحافة ونقداً وترجمة. أسس مع العقاد وعبد الرحمن شكرى «جماعة الديوان» الأدبية للدفاع عن المعاصرة فى مواجهة الأدب الكلاسيكى. ونشر مقالاته الممتعة بسخريتها اللاذعة على صفحات أهم جرائد عصره. عمل رئيسًا لتحرير أكثر من جريدة، كما انتخب وكيلا لمجلس نقابة الصحفيين، وعضواً بمجمع اللغة العربية.

■

العولمة وأزمة الليبرالية الجديدة - الكتاب الثانى

إشراف: الدكتور محمد عابد الجابرى

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩، ٣٩٢ صفحة



يضم كتاب «العولمة وأزمة الليبرالية الجديدة»، مجموعة من المقالات التى نشرت فى مجلة «فكر ونقد»، والتى تمثل بمجملها الكتاب الثانى من سلسلة فكر ونقد التى تصدر بإشراف الدكتور محمد عابد الجابرى وبالتعاون مع الشبكة العربية للأبحاث والنشر. الهدف من هذه المقالات هو البحث فيما يشهده العالم اليوم من تحولات جذرية على مختلف الأصعدة، العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتى باتت أشبه بالتحولات الحاصلة فى أوروبا والعالم أجمع.

فالاكتشافات العلمية التى غزت القرن الماضى منها: نظرية النسبية، القنبلة الذرية، غزو الفضاء.. فتحت آفاقًا جديدة وكانت امتداداً من جهة وتعميقًا من جهة ثانية لكل التحولات الحاصلة. كما لا ننسى التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التى تراوحت بين انتصارات وهزائم وفتوحات، كلها كان لها الأثر الكبير فى تعبئة النفوس فكريًا واجتماعيًا وقوميًا.

من هنا، تتميز مقالات هذا الكتاب بتناولها أدق التفاصيل حول طبيعة تلك التطورات وأثر التحولات فى الشأن الإنسانى، كما تتميز الدراسات المطروحة، بطريقة معالجتها للموضوع متناولة عدة موضوعات منها: الشأن الإنسانى فى عصر العولمة، العولمة ومسألة الهوية الثقافية، خطاب العولمة الهيمنى، الثقافة، مقاربة رفض العولمة الاقتصادية، التعليم وتحديات العولمة، الترجمة، الليبرالية الجديدة، الوضع اللغوى فى المغرب، الديمقراطية المعولمة.. وغيرها من الموضوعات والدراسات التى كتبها خيرة المفكرين والتى تستحق الاهتمام.

يهدف هذا الكتاب إلى رسم إطار عام للتحولات والتطورات الجذرية الحاصلة فى عالمنا اليوم، والتى باتت تؤثر فى الشأن الإنسانى، الذى لم يعد يوضع، بحسب الدكتور الجابرى، فوق كل شأن آخر وذلك بسبب ما يتعرض له فى مختلف الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والسياسية.

يرى الدكتور الجابرى أن الأمور انقلبت رأسًا على عقب، حيث حل شعار «الخوصصة» محل شعار «التأميم»، وحل شعار «العولمة» محل شعار «الأممية البروليتارية»، كما ارتفعت الأصوات التى تنادى بـ «الليبرالية» باعتبارها هى الحل.

فهذا الكتاب يقدم تفاصيل دقيقة حول موضوع تلك التحولات، وآثارها السلبية والإيجابية على الوضع العربى بخاصة، وذلك من خلال مجموعة من المقالات والدراسات التى سبق نشرها فى مجلة «فكر ونقد»، والتى أشرف الدكتور الجابرى على إعادة تجميعها لتكون ضمن الكتاب الثانى من سلسلة «فكر ونقد».

والدكتور محمد عابد الجابرى ولد فى المغرب عام ١٩٣٦ وحصل على دكتوراه الدولة فى الفلسفة عام ١٩٧٠ من كلية الآداب بالرباط، له عدة مؤلفات، منها: مدخل إلى القرآن الكريم (٢٠٠٦)، فى غمار السياسة: فكرًا وممارسة (٢٠٠٩)، الإسلام والغرب (الأنا والآخر) (مشرف) (٢٠٠٩).

■

تجربة توفيق صايغ الشعرية

سامى مهدى

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٩، ٢٦٠ صفحة



توفيق صايغ شاعر طليعى ومجدد، كان له أثر كبير فى تطور الشعر العربى الحديث. عمل أستاذاً محاضراً فى النقد والشعر فى العديد من جامعات بريطانيا وأمريكا. أصدر فى بيروت مجلة «حوار» الرائدة ورأس تحريرها. تولت «شركة رياض الريس للكتب والنشر» إصدار جميع أعماله الأدبية والشعرية فى «المجموعة الكاملة».

هذا الكتاب يتيح للقارئ معرفة توفيق صايغ والاطلاع على أعماله من منظور نقدى علمى، إن من حيث فكر صايغ وموضوعاته التى تناولها أو من حيث أسلوبه الشعرى المجدد بأغراضه ولغته وأدواته وصولاً إلى نظامه الإيقاعى.

يحتوى الكتاب على عشرات الفصول وضعها المؤلف فى خمسة أقسام رئيسية، وخاتمة: ١ - شعر صايغ ونقاده. ٢ - مشروع صايغ الشعرى: مرجعياته وموجهاته. ٣ - تجربة صايغ اللغوية. ٤ - صايغ والبحث عن نظام إيقاعى بديل. ٥ - شعر التجربة الدينية الإنجليزى وتأثيره فى شعر صايغ.

■

أجمل قصة عن اللغة

باسكال بيك ولوران ساغار وجيسلان دوهان وسيسيل ليستيان

ترجمة: ريتا خاطر

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٢٣١ صفحة

كل كائن بشرى يُبصر النور وهو يملك استعداداً للتكلم، ولكن ينبغى، مع ذلك، تلقينه فعل هذا الأمر. فأى تكييف أنجزه التطور، أفضى ذات يوم من أيام العهود السحيقة إلى بروز اللغة؟ وكيف كان أسلافنا يعبرون؟ هل كان ثمة لغة وحيدة كونية فيما مضى؟ ولمَ تنوعت اللغات، فيما بعد، على سطح المعمورة؟

إن اللغز المحير هو فى معرفة كيفية تعلّم كل طفل بشرى الكلام من جديد: كيف يتعرف إلى الكلمات، وما الذى يحصل فى دماغه؟ إن الاكتشافات المذهلة التى أنجزها الأنثروبولوجيون والألسنيون وغيرهم تسمح لنا اليوم بتعقب مسارب اللغة، منذ الأحافير الأولى. وهنا، فى هذا الكتاب، يتعاون ثلاثة باحثين ليرووا لنا، بكلام بسيط، إحدى أجمل قصص البشرية وأكثرها فرادة، بلا أدنى شك.

■

محمود درويش.. عصى على النسيان

ميشال سعادة

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٩، ٢٤٠ صفحة



تكريمًا للشاعر الكبير محمود درويش، وفاء له فى ذكرى وفاته الأولى، أصدرت شركة «رياض الريس للكتب والنشر» كتاباً جديداً بعنوان «محمود درويش - عصى على النسيان»

للباحث والأستاذ الجامعي ميشال سعادة. بعد المقدمة أخر نص كتبه محمود درويش (عن المنفى) بعنوان «صرت لاجئًا في بلادي وخارجها»، ثم تأتي سيرة الشاعر ووصيته. يلي ذلك مختارات مما كُتب عنه من مقالات وقصائد رثائية ودراسات وأبحاث، بالإضافة إلى قسم مخصص لأهم اللقاءات والحوارات التي أجريت معه وعنه وما أقيم من ندوات.

وفي القسم الأخير قائمة مفصلة بما كُتب عن الشاعر تتضمن عناوين الموضوعات وكتّابها وأسماء الصحف والمجلات التي أصدرتها وتواريخ صدورها. مما يضيف إلى الكتاب صفة المرجع التوثيقي للدارسين والباحثين وذواقة الشعر ومحبي محمود درويش.

■

أوراق في التاريخ والحضارة: أوراق في التأريخ العربي الإسلامي

عبدالعزيز الدوري

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ٤٣٠ صفحة



يتضمن هذا الكتاب عشرة بحوث، تضيء جوانب أساسية في التاريخ العربي ـ الإسلامي: اجتماعية، واقتصادية، وإدارية، وفكرية، إضافة إلى الإطار السياسي.

في البحوث الثلاثة عن التاريخ العباسي، يتناول المؤلف موضوع الدعوة العباسية، مستندًا فيما قدمه لهذا الموضوع، إلى مخطوط أخبار العباس وولده، فكشف عن نقاط غامضة في الدعوة. وأفرد بحثًا لموضوع الآراء في الدعوة، بما في ذلك فكرة المهدي آنئذ، معتمدًا على معلومات خارج الرواية التاريخية، كالنقود والآثار. ويضاف إلى هذا بحث شامل عن بغداد، منذ نشأتها حتى القرن الثالث الهجري.

وفي بحثه «الجزيرة العربية في عصر الخلفاء الراشدين» حديث عن تاريخ الأمة، ولاسيما مصادر هذا التاريخ، وما تميزت به هذه المرحلة من إنجازات نوعية على صعيد مؤسسة الخلافة ونجاح حروب الردة والفتوح، وترسيم أصول النُظُم والضرائب.

ويقدم المؤلف صورة شاملة ومتصلة للأحداث التاريخية عبر بحثه «اليهود في المجتمع الإسلامي عبر التاريخ» كاشفًا ما لقي اليهود من حرية ورخاء في ظل عدالة المسلمين.

أما بحثاه عن القدس فجاءا من منطلق القول بتعدد جوانب اهتمامات الدكتور الدوري في إطار التاريخ الإسلامي. وكذلك الأمر في بحثيه: «مدخل إلى تاريخ الأمة العربية» و«التكوين التاريخي للأمة العربية»، فهو إلى جانب ما قام به من تغطية لفترات التحولات الكبرى في تاريخ الأمة، يشدد على مفاهيم تراثية أساسية، ليجعلها منطلقًا في دراسة مفاهيم الأمة الواحدة، واللغة الواحدة، والفضائل الموروثة، إرادة تحديد هوية الأمة، ورصد بدايات الوعي لديها.

إن هذه البحوث العشرة، بما تضمنته، تشكل إضافة نوعية، سواء في الفكر أو في المنهج، ولعل ذلك أساس في الكتابة التاريخية.

■

المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر (١٨٤٠ ـ ١٩١٨)

فدوى أحمد محمد نصيرات

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ٤٨٠ صفحة



يهدف هذا الكتاب إلى الكشف عن الدور التاريخي الذي قام به المسيحيون العرب في التبشير بالأفكار القومية وتفعيلها في سياق الحياة العربية، لاسيما بعد أن كشفت القومية التركية عن وجهها الحقيقي من خلال نزعتها الطورانية المتطرفة.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تناولت دور المسيحيين العرب في بلاد الشام ومصر (١٨٤٠ ـ ١٩١٨) في نشأة الفكر القومي العربي، وذلك في ضوء معطيات الصحف والمجلات التي أسسها أو ساهم في تأسيسها المسيحيون العرب، بالإضافة إلى المذكرات والأدبيات والأرشيف، مما احتفظت به الجمعيات، على وجه الخصوص، فضلاً عن الكتابة المعاصرة التي تبلورت في سياق البحث

حفـــر الـــــذات

كتاب «حفر الذات»
دراسات أدبية
إخلاص عطا الله
الهيئة المصرية العامة للكتاب

سيجد القارئ بين دفتي هذا الكتاب ثقافة ما قد تكون معلوماتية، وقد تكون خبرة حياتية إنسانية، مما يعتمل في مكونات النفس ويحرك في داخلنا شيئًا ما قد يدفعنا إلى تفكير أو سلوك ما.

تقول الكاتبة في مقدمة «حفر الذات»: «أعرف نفسك بنفسك». هكذا كان سقراط يردد دائمًا على تلاميذه في حجرات الدرس وعلى سامعيه في الأسواق وفي الشوارع.. بل طالما وجه هذه الحكمة مرارًا إلى نفسه علّه يصل إلى الحقيقة هو والآخرون.. وعلى الرغم من أن معرفة الحقيقة على إطلاقها أمر عسير، بل عديم المنال على البشر، إلا أن الغوص في النفس وكشف مستوراتها ومكنوناتها فيما يسمى «المونولوج الداخلي» قد يقف بنا في لحظة بعينها على شيء من الحقيقة.

على أن سقراط بترديده هذه الحكمة «اعرف نفسك بنفسك» لم يبتدع شيئًا جديدًا.. وليس فقط لأنه قرأها من قبل على جدران معبد ديفلي بأثينا. بل أيضًا لأنها وثيقة الصلة بالإنسان الأول. آدم. الذي كانت شهوة نفسه في البداية «المعرفة» والتي تجسدت في لهفته على شجرة معرفة الخير والشر، تلك الشجرة المحرمة ضاربًا بالوصية الإلهية عرض الحائط اعتقادًا منه أن هذه الشجرة تمثل الطريق الأمثل للمعرفة.. وبذلك سبقت شهوة الإنسان للمعرفة شهوة الجسد وغيرها من غرائز الطبيعة الإنسانية.. ودفع آدم والبشرية كلها من بعده ثمن هذه الشهوة بالخروج من جنة عدن إلى حياة الأرض بكل ما فيها من شقاء.

وتضيف الكاتبة: المعرفة على ما يصاحبها من عناء البحث وعلى ما تولده في أحيان كثيرة من شقاء. هي أيضًا تمثل قيدًا. كما يذكر الفيلسوف الأمريكي «هربرت ماركيوز» أحد فلاسفة القرن العشرين في كتابه (الإنسان ذو البعد الواحد). إلا أنه قيد حديدي يروق للمرء في كل زمان ومكان (كل وفق طبيعته) أن ينسجه بيديه.. وفي هذا وذاك تعد المعرفة بمثابة الرهان على وجودنا الحقيقي في العالم غير قانعين بالبعد المادي من مأكل وملبس.. ولكن ما المعرفة؟

تجيب: ليس هناك اتفاق على تعريفها، لكنها. في رأيي. تشمل الحقائق والقصص والعلوم والتاريخ والثقافة والتقنيات والعلوم الإنسانية والدين والفن والأدب والأيديولوجيا، وهي بذلك تشمل كل نشاط يقوم به العقل الإنساني.

من هنا فحاجتنا للمعرفة حاجة ملحة في كل عصر، وهنا يحضرني ما قاله الدكتور طه حسين عن عاهة فقد البصر وما تركته من أثر نفسي بالغ الأسى: «جعلتني أستكشف خصلة أخرى أرى أنها صحبتني منذ الصبا، هي الظمأ الشديد إلى المعرفة، الظمأ الذي لا يطفئه اكتساب العلم، وإنما يزيده قوة وشدة والتهابًا، فأنا لا أحصل نصيبًا مع المعرفة إلا أغراني بأن أحصل شيئًا آخر أبعد منه مدى وأشد عمقًا...».

والسؤال: كيف نصل إلى المعرفة؟

إن هذا يقودنا إلى ما يسمى بـ (عملية الاتصال الإنساني) والاتصال «Communication» كلمة مشتقة من كلمة «Communis» اللاتينية ومعناها الشيء المشترك، والاتصال «علم التفاعل بين الأفراد» يتضمن كل الوسائل الخاصة بنشر المعرفة والأفكار والاتجاهات.

وإذا كان الأمر هكذا.. فما أدوات ذلك العالم الرحب «عالم المعرفة»؟

تتعدد أدوات المعرفة في عصرنا الحالي ما بين الثقافة المكتوبة والثقافة الإلكترونية المسموعة، وإذا كان العصر يحدد أولويات هذه الأدوات وفق متطلبات المجتمع واحتياجاته.. فإن الثقافة المكتوبة ليست فقط من أهم وأقدم أدوات المعرفة فحسب بل تظل الأداة المعرفية الأكثر إنسانية والأقدر تواصلاً، حيث يبقى. أنيسًا للبشر في حياتهم اليومية، أينما ووقت ما يسافرون ويجيئون، معززًا لقيمته الثقافية.

عن أفق جديد للحياة العربية فى تلك الفترة العاصفة بالأحداث والتحولات الجوهرية العميقة فى بنية المجتمع ثقافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا.

وقد تشكل الكتاب من أربعة فصول؛ فتضمن الفصل الأول أوضاع المسيحيين العرب فى ظل الحكم العثمانى، وتنامى النشاط التبشيرى فى بلاد الشام ومصر، مع رصد لأبرز تجليات النهضة الفكرية فى إطار فترة الدراسة. وخصص الفصل الثانى للحديث عن التيارات القومية لدى المسيحيين العرب، بدءًا بالتيار العروبى، ثم التيار العروبى العلمانى، ثم التيار العروبى الاشتراكى. واشتمل الفصل الثالث على عرض لأهم الجمعيات والتنظيمات السياسية العلنية والسرية، تلك التى أسسها أو شارك فيها المسيحيون العرب؛ كما تم إبراز دورهم فى المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس ١٩١٣. أما الفصل الرابع فقد خصص للكشف عن دور المسيحيين العرب فى الثورة العربية الكبرى، والانخراط الفعلى فى مجرياتها، حيث تم رصد مظاهر هذه المشاركة، ولاسيما فى الأدبيات الثقافية.

■

شؤون عربية

مجلة فصلية تصدر عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

العدد ١٣٩ خريف ٢٠٠٩م



فى إشارة إلى محتويات العدد يكتب رئيس التحرير فى افتتاحيته: «التطورات السريعة والمتلاحقة التى تشهدها ساحة المنطقة، سواء فى اتجاه إجراء انتخابات، أو انسحاب قوات، أو محاولات دفع جهود المصالحة، أو تهدئة الأوضاع فى بعض القضايا المثارة، وذلك وسط جو عام تسوده رغبة أمريكية فى الحوار والانفتاح، لا تلقى الاهتمام الكافى أو رد الفعل المناسب من السياسات العربية التى يعزف معظمها عن التورط فى قضايا المنطقة، وتحرص بنفس القدر على الحفاظ على الأوضاع الراهنة، والتوازنات القائمة، وهو الأمر الذى تشاركها فيه معظم قوى المعارضة العربية التى تخشى بدورها من اتجاهات التغيير خوفًا من تأثيرها على مواقعها السياسية. ومن هنا كان حرص الطرفين على تحييد نتائج الانتخابات، وتعطيل مفاعيل الانسحابات، والدفع فى مسار تأجيل إتمام المصالحات. هذا فضلاً عن الاتجاه العربى العام لترك القضية الفلسطينية لعناية الإدارة الأمريكية. وانتظار إعلان خطتها لدفع عملية السلام دون محاولة التقدم بمقترحات لدعم وجهة النظر العربية، أو للتأثير فى التقديرات الأمريكية أو موازنة الضغوط الإسرائيلية، وهو الأمر الذى يوضح أن حالة الجمود التى تسيطر على الأوضاع العربية بفعل السياسات الرسمية وممارسات قوى المعارضة، أصبحت تمثل الاتجاه الغالب فى المشهد العربى الراهن. حيث تحرص معظم الأطراف على احتواء نتائج أية تطورات أو مستجدات على الساحة بما يضمن إبقاء نفس السياسات تراوح مكانها، والحفاظ على نفس الأوضاع عصية على التغيير».

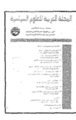
■

المجلة العربية للعلوم السياسية

مجلة دورية محكمة

تصدر عن الجمعية العربية للعلوم السياسية بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية

العدد ٢٤ خريف ٢٠٠٩م



يتضمن العدد افتتاحية للدكتور عدنان السيد حسين: «الولاء الوطنى والولاءات الفرعية».

وملف بعنوان: قضايا دولية، يتضمن ثلاثة بحوث:

- «الفشل العلمى الأمريكى فى العراق وفشل استراتيجيات تحويل الصراع»، لأحمد جميل عزم.
- «إضاءات على تراجع اليسار العربى وصعود اليسار الأمريكى اللاتينى» لجميل مصعب محمود.
- «الاستمرار والتغير فى السياسة الروسية تجاه العراق (فى فترة ما بعد الاحتلال الأمريكى)» لنورهان الشيخ.

أما الدراسات فهى:

- الخليج العربى: الأصول التاريخية للقيادة المركزية الوسطى: دراسة فى الاستعمار الجديد (١٩٤٥.٢٠٠٣) لفتحى العفيفى.
- وظائف النخبة المحلية فى النسق السياسى المغربى لسلمان بونعمان.
- الكم والكيف فى مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية عامة، والسياسة خاصة (قراءة فى الجدل بين دارسى المتغيرات والحالات وما غاب عنهم من مشكلات بناء المفاهيم) لأحمد على سالم.

وفى باب آراء: «التجمع اليمنى للإصلاح بين البرنامج السياسى وشعار الإسلام هو الحل» لعادل مجاهد الشرجبى.

وفى باب كتب، مراجعات للكتب الآتية:

- «الاجتهاد بين أسر الماضى وآفاق المستقبل» (محمد حسين فضل الله): أعدها عفيف عثمان.
- «مستقبل السياسة الأثيوبية فى منطقة القرن الأفريقى» (طارق عبدالله ثابت الحروى): أعدها طلال عبده الجندى.

وفى باب نشاطات: تقرير عن ندوة المائدة المستديرة «العرب وتحديات الحاضر والمستقبل» الزاوية ـ ليبيا، ٢٤ ـ ٢٥ يوليو ٢٠٠٩، أعده أحمد حلوانى.

بالإضافة إلى «يوميات عربية ودولية مختارة»، و«ببليوغرافيا مختارة».

■

المستقبل العربى

العدد ٣٦٨ أكتوبر ٢٠٠٩

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية



يتضمن العدد خمسة بحوث، هى:

١ ـ المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية فى بلاد الشام ومصر (١٨٤٠ ـ ١٩١٨) لفدوى أحمد محمود نصيرات.

٢ ـ تطور العلاقة بين الدين والسياسة فى أوروبا: دراسة حالة الأحزاب الديمقراطية المسيحية: إيطاليا وألمانيا نموذجًا، لسالى خليفة إسحق.

٣ ـ الكويت.. إلى أين؟ التحديات ومستقبل النموذج الديمقراطى لعبدالله الشايجى.

٤ ـ اللغة الفرنسية فى المغرب العربى: غنيمة حرب أم استلاب هوية؟ لمحمود الذوادى.

٥ ـ وفيات الأطفال فى العراق: أرقام ودلائل (محافظة نينوى أنموذجًا) لفراس البياتى.

كما تضمن العدد أيضًا حلقة نقاشية بعنوان: السعودية.. إلى أين؟ تضمنت: ورقة العمل بعنوان: مشروع تحديث الحكم السعودى. أعدتها الدكتورة مضاوى الرشيد.

وفى باب ترجمات مهمة، بحثان:

- الحرب الأمريكية على العراق: تدمير حضارة، لجيمس بيتراس.
- الحريات فى دائرة الخطر.. هل تعود الدولة البوليسية إلى العراق؟ من الإيكونومست.

أما فى باب آراء ومناقشات، فقد كتب فريحة محمد كريم، عن الجامعة الخاصة (الأهلية) والإشكالية المنهجية فى التكوين والتوجيه.

وفى باب كتب وقراءات، مراجعة للكتب الآتية:

- «الأعمال الكاملة للدكتور نبيه أمين فارس»، أعد المراجعة رياض زكى قاسم.
- «حقوق الإنسان فى الوطن العربى: تقرير المنظمة العربية لحقوق الإنسان، ٢٠٠٨ ـ ٢٠٠٩»، أعد المراجعة السيد يسين.
- «أزمة العولمة وانهيار الرأسمالية» (السيد يسين)، أعد المراجعة فيصل دراج.
- إضافة إلى كتب عربية وأجنبية وتقارير بحثية مختارة، إعداد كابى الخورى، والكتب العربية هى: أزمة الوعى الأوروبى، خطاب فى أصل التفاوت وفى أسسه بين البشر، معركة إضعاف حزب الله، الاحتلال الأمريكى للعراق وأبعاد الفيدرالية الكردية، مسألة الجنوب ومهددات الوحدة فى السودان، المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية فى بلاد الشام ومصر، التقرير الاستراتيجى اليمنى ٢٠٠٨، مدينة القدس: السكان والأرض، اليسار العربى: رؤيا النهوض الكبير، مبادئ العمارة الإسلامية وتحولاتها المعاصرة

وتضمن باب «مؤتمرات، تقريرين، عن:

- ندوة مشروع «التيار المتوسط» وأثره فى المصالح العربية. المنتدى الثقافى العراقى، دمشق ١١ ـ ١٢ يناير ٢٠٠٩ لمحمد عبدالشفيع عيسى.
- ندوة «العلاقات الأمريكية ـ الروسية والبحث عن توازن جديد» الجامعة المستنصرية، بغداد، ٢٢ أبريل ٢٠٠٩ لمى مضر الأمارة.

هذا بالإضافة إلى موجز يوميات الوحدة العربية، وببليوغرافيا الوحدة العربية.

■

The Lost Symbol

الرمز المفقود

By Dan Brown

Doubleday Books press 2009- 528 p.



دعونا نبدأ بالسؤال الذى يسأله كل محبى دان براون: هل «الرمز المفقود» على نفس مستوى «شفرة دافنشى»؟ ببساطة، نعم. دان براون بارع فى فن مزج القلق المشوق مع الألغاز العشوائية. والرمز المفقود مزيج ساحر بينهم. تبدأ الرواية بطقوس قديمة وجماعة غامضة وبالتأكيد، لغز محير. يعرف القارئ أنه فى منطقة دان براون عندما يكتشف لغز داخل لغز كما فى نهاية الفصل الأول. الكشف عن أحداث الرواية سوف يضيع متعة قراءتها لذلك لن تجد أثرا لمفسدى المتعة هنا. يكفى أن نقول أن الرمز المفقود مثل العديد من السلاسل التى لديها طابع متكرر فيظهر بها، مرة أخرى، دكتور جامعة هارفارد المرموق روبرت لانجدون حيث يجد نفسه فى مأزق يتطلب معرفته الواسعة بعلم الرموز وتفسيرها وقدراته المميزة فى التخلص من المتاعب. وتدور أحداث الرواية فى الولايات المتحدة الأمريكية على خلاف روايات روبرت لانجدون ولكن قلم براون بارع فى تصوير مدينة واشنطن بنفس سحر وجمال باريس ودولة الفاتيكان. وكما فى جميع روايات براون فإن الأحداث سريعة متلاحقة وسلسلة لانهائية من الألغاز المكتشفة ستجعلك تشعر وكأنك تقضى كل نهارك مع ألغاز ورموز روبرت لانجدون.

Arguing with Idiots: How to Stop Small Minds and Big Government

المجادلة مع الحمقى: كيف توقف العقول التافهة والحكومات الكبيرة

By Glenn Beck

Threshold Editions press 2009- 336 P.



انه كتاب مضحك، مرعب، حقيقى.

كثيرا ما يحدث لنا جميعا، تنكب على عملك الخاص عندما يظهر أحمق ليخبرك بأن الأسلحة شر، أن سيارة تويوتا فى وسعها أن تنقذ الكوكب، أو أن على الأغنياء، أخيرا، دفع حصتهم من الضرائب.

ابتعد فورا! وفكر فى نفسك. ولكنهم يزدادون بغضا يوما بعد يوم. يزداد معدل ضربات قلبك. هل بدأت فى التعرق. لا يمكنك الابتعاد؟ إذن فأملك الوحيد فى هذا الكتاب.

تصنف جريدة نيو يورك تايمز فى قائمة البست سيللر الكاتب جلين بيك مؤلف صاحب «كتاب مزعج» و«المنطق السليم» فى المرتبة الأولى. فهو لديه خلطة سرية لكسب المجادلات ضد أصحاب الأفواه الكبيرة ولكن بعقول صغيرة وهذا الكتاب ملىء بهم. لا يمكننا التعرف على الحمقى من خلال سجلات التصويت، ولكن يمكننا إيجادهم بالبحث عن الشخصيات التى تختبئ وراء الآراء الجاهزة التى يسمعونها من الآخرين بدون رؤية فردية، والتى تؤمن بأن الشعارات الكبيرة بديل عن الحس السليم. إذن، إذا وجدت شخصا مناسب لهذه اللائحة، فإن «المجادلة مع الحمقى» سوف يساعدك فى إسكاتهم بالسلاح الجوهرى: الحقيقة.

Too Big to Fail

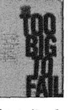
The Inside Story of How Wall Street and Washington Fought to Save the Financial System— -and Themselves

أكبر من الفشل

القصة الداخلية عن كفاح وول ستريت وواشنطن للبقاء ولحفظ النظام المالى

By Andrew Ross Sorkin

Viking Adult press 2009- 624 P.



عرف اندرو روس سوركين الحقيقة الأولى وراء الكواليس، واصفا دقيقة بدقيقة كم الأزمة المالية الضخمة منذ الهبوط الهائل الذى تطور فى عقب التسونامى العالمى. من داخل المكتب الذى يقع فى زاوية منشأة «أخوان ليمان» مرورا بالاجتماعات السرية فى كوريا الجنوبية حتى أحاديث الطرقات فى واشنطن، «أكبر من الفشل» كتاب دقيق عن رجال ونساء فعالين فى الشئون المالية والسياسية المتصارعة بين النجاح والفشل، الغرور والطمع وبشكل جوهرى مصير العالم الاقتصادى.

خلال المبادرة التى ليس لها مثيل فى الاقتراب من أجواء هذه البنوك والمؤسسات، فإن هذا الكتاب يعيد تقديم كل الدراما والاضطراب العظيم ويكشف عن تفاصيل لم يقترب منها احد من قبل كما انه يوضح كيف يتم اتخاذ القرارات فى وول ستريت عبر العقد الماضى كله. فهذه القصة ليست فقط مجرد نظرة للبنوك على أنها «أكبر من الفشل» ولكنها تصور الحياة الحقيقية المثيرة وتلقى ظلالا على أسماء جريئة واثقة من أنها دوما اكبر من الفشل.

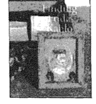
Finding Frida Kahlo

اكتشاف فريدا كاهلو

By Barbara Levine

Princeton Architectural Press

2009- 256 p.



يقدم هذا الكتاب لأول مرة الأرشيف الرائع التائه لواحدة من أكثر فنانى القرن العشرين وقارا. مختبئا من النشر لأكثر من نصف قرن. هذا الكتاب الفنى ملىء بتفاصيل ساحرة عن حياة فريدا العاطفية وعن أصدقائها وأعمالها فى فترة تمتد لأكثر من ثلاثة عقود، بداية من عشرينيات القرن الماضى فى فترة مراهقتها حتى وفاتها عام ١٩٥٤. حياة مليئة بالرغبات المتوهجة والغضب الجامح والحس الفكاهى العنيف. «اكتشاف فريدا كاهلو» نظرة نادرة إلى وجود متوهج بالحياة والاضطراب: مذكرات حية مدونة لقاءها الجنسى العابر مع امرأة تدعى دوروتى، صندوق مزخرف يحتوى على أحد عشر طائرا طنانا محشوا مخبأ أسفلهم خطاب تندب حظها به حينما اكتشفت أن زوجها دياجو ريفيرا قام بتشريح هذه المخلوقات الجميلة ليستخلص منها عقارا مثيرا للشهوة الجنسية. وكتاب فرنسى طبى يصف الألم الذى كانت تعانى منه اثر بتر قدمها اليمنى رسمت فريدا فوق أوراقه شكلا توضيحيا لتقنية عملية البتر وخطاب لأحد أصدقائها تصف فيه مدى وحدتها وطلبها لثمار جوز الهند. لم تكتب فريدا أى سيرة ذاتية. ولكنها تركت وراءها الكثير من المواد الإنسانية المعقدة.

The Venus Fixers: The Remarkable Story of the Allied Soldiers Who Saved Italy's Art During World War II

المحافظون على الجمال: قصة حفظ قوات الحلفاء الرائعة لتاريخ ايطاليا الفنى أثناء الحرب العالمية الثانية

By Ilaria Dagnini Brey

Farrar, Straus and Giroux press

2009- 320 p.



لقد كانوا مجموعة من شخصيات مختلفة. جنود الحلفاء الملقبون «بالمحافظين على الجمال» الذين آمنوا بأن حفظ ثقافة ايطاليا من القنابل وقذائف النازى والأب الروحى للجستابو هيرمان جورينج ومن الجنود المهملين عنصر أساسى فى جهود الحرب.

فى البداية كان الإيطاليون هم أول من حاولوا إيجاد مأوى للفن، ولكن بعد ذلك تسربت الحماسة لكل الجنود الذين قاموا بفرز المنطقة للبحث عن الأعمال الفنية بعد أن قام الجيش بتأمينها. فى واحدة من الحكايات المروعة تصف برى كيف استطاعت مجموعة «المحافظون على الجمال» من إنقاذ مجموعة مخطوطات نادرة من تجريفها وسحقها فى نهر أرنو. عادة كانوا هؤلاء المخربون على خلاف مع جيوشهم. فى كتابها الأول، كانت الصحفية والمترجمة بيرى ماهرة وراغبة فى جلب جنودها للحياة على الورق بالنظر إلى مجموعة فريدة من نوعها ومدى تميز المهمة التى اعتبروها واجبا عليهم. كما أن الكتاب يوضح عن ماذا كان الحلفاء يدافعون فى ايطاليا، انه تاريخهم وأعمالهم الفنية التى مازالت تلهمنا حتى اليوم.

تغريدة البجعة

By Mekkawi Said

Translation by Adam Talib

American University in Cairo

P. ٣٠٤ -press 2010



تغوص الرواية فى مشاكل المجتمع

المصرى وتمر على أحداث قد نكون قرأناها فى الصحف، ولكننا هنا أمام نوع من التأريخ الوجدانى للحدث. مصطفى، طالب راديكالى سابق، يحكى قصصا عن الأطفال القاهريين الذين يتخذون الشارع بيوتا لهم، مصطفى مضطر إلى الاعتماد على مساعدة صديقته الأمريكية التى لا يستطيع أن يثق بها. وهناك صديقه أحمد الحلو الذى انتقل من أقصى اليسار الثورى إلى أقصى يمين الفكر الوهابى فى غضون سنوات قليلة.

من بين تحولات فى مجتمع يغلفه الفساد يرى مصطفى القاهرة تتداعى من حوله. الرجال والنساء يبحثون عن من يستحق مشاعرهم وعن من يجعل تضحياتهم لبلد لم تعد تستحق ولاءهم ثمينة وذات قيمة.

ولد مكاوى سعيد فى القاهرة عام ١٩٥٥. ظهرت أول مجموعة قصصية له عام ١٩٨١ ومنذ ذلك الحين أصدر أربع مجموعات أخرى. فازت روايته الأولى بجائزة سعاد الصباح للإبداع العربى عام ١٩٩١. تغريدة البجعة روايته الثانية كانت فى القائمة القصيرة التى وصلت لجائزة البوكر العربية عام ٢٠٠٨. والمترجم آدام طالب خريج جامعة كاليفورنيا والجامعة الأمريكية بالقاهرة ويعمل حاليا على الدكتوراه فى الأدب العربى فى جامعة أكسفورد.

■

What the Dog Saw: And Other Adventures
ماذا رأى الكلب واكتشافات أخرى
By Malcolm Gladwell
Little, Brown and Company press 2009- 432 P.



لماذا توجد أنواع عديدة من الخردل فى مقابل نوع واحد من الكاتشب؟ ماذا يعلمنا لاعبو كرة القدم عن كيفية تعيين المدرسين؟ بماذا يخبرنا الشعر المصبوغ عن تاريخ القرن العشرين؟

فى العقد الماضى كتب مالكوم جلادويل ثلاثة كتب عن كيفية فهمنا لعالمنا ولأنفسنا، The Tipping Point; Blink; and Outliers، والآن فى كتابه «ماذا رأى الكلب» يجمع جلادويل لأول مرة أفضل كتاباته من مجلة «ذا نيو يوركر».

هنا قصص ممتعة ممزوجة بالألم عن مخترع طرق تحديد النسل، والمبتكرين المتأنقين لصوص المكرونة.

جلس جلادويل مع رون بوبيل، اكبر طاه فى الولايات المتحدة الأمريكية وأشترى أفرانا ذات مشواه واكتشف أسرار كاسر ميلان الذى يقدمها فى برنامجه الشهير «dog whisperer» ويستطيع أن يجعل أكثر الحيوانات بربرية أليفة بلمسة من يده. فهو يكتشف الأذواق المميزة والسلوك العرقية والتحرك بعد فوات الأوان.

يقول جلادويل فى مقدمة كتابه «الكتابة الجيدة لا تنجح أو تفشل بناء على قوة قدرتها على الإقناع. إنما على قدر قدرتها على جذبك نحوها وجعلك تفكر لتعطيك لمحة من تفكير شخص آخر».

يعتبر «ماذا رأى الكلب» مثالا آخر على روح مبهجة ومعرفة قوية جعلت مالكوم جلادويل باحثا رائعا عن الجوانب العظيمة المختبئة حولنا.

■

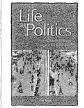
Women, Water, and Memory Recasting lives in Palestine
النساء والماء والذاكرة: إعادة تشكيل الحياة فى فلسطين
By: Nefissa Naguib
AUC Press, 2009



المياه هى من المصادر الأساسية للحياة، والمرأة كذلك أحد مقومات الحياة لكل من حولها، ومن هنا تأتى أهمية هذا الكتاب للباحثة «نفيسة نجيب» الأستاذ المساعد فى جامعة أوسلو فى دراسات الانثروبولوجى والتنمية. فهى ترصد فى هذا الكتاب ممارسة المرأة جلب المياه من النهر قبل وبعد دخول الأنابيب، ففى هذه الرحلة اليومية للبحث عن مورد المياه تمارس المرأة أنوثتها بشكل أكثر حرية وتتحدث عن نفسها. وهنا اختارت الباحثة المرأة الفلسطينية التى اعتبرت دائماً من دعائم الصمود الفلسطينى والمياه الفلسطينية الشحيحة التى تدل على إصرار وعزيمة هذه المرأة فى الاستمرار. والكتاب يرصد الفترة من نهاية الحكم العثمانى حتى وقت الانتفاضة الفلسطينية. كتاب يتحدث عن السعادات الصغيرة: تدخين سيجارة، رقصة عفوية فى أحد الأفراح أو حتى الأوجاع الكبيرة: الأسرى ومن ماتوا واستشهدوا... فى كتاب يعد احتفاء بالذاكرة والمرأة والماء وبفلسطين.

■

Life as Politics
How ordinary people change the Middle East?
الحياة كسياسة: كيف يغير اشخاص عاديون الشرق الأوسط
Asef Bayat
AUC Press, 2009



إن التصور الأبسط عن الشرق الأوسط أنه حبيس تقاليده وتاريخه، فهو ارض المآذن والجوامع، النساء المحجبات والأنظمة الاستبدادية والصحراء الشاسعة. ولكن مثل هذه الصورة تغفل ما هو أهم؛ التغيير الاجتماعى والسياسى الذى يأتى بأشكال كثيرة، وهذا ما يحاول «عاصف بيات» أستاذ السوسيولوجى ودراسات الشرق الأوسط فى جامعة «ليدن» كشفه أن تحت الأنظمة الشرسة، والسلطة الدينية، والنخب الاقتصادية... أناس عاديون يمارسون التغيير بممارسة حياتهم اليومية. وبالرغم من أن هذه الممارسة لا تتجلى فى شكل مظاهرات أو احتجاجات كبيرة أو ثورة شاملة للملايين فى الشرق الأوسط إلا أنه يتم خلق مساحات إجتماعية جديدة لممارسة الحرية والذات، بدءاً من البائع المتجول الذى ينصب تجارته فى الميدان ويتعايش سلمياً مع السلطة الموجودة فى الشارع إلى ممارسة الحرية من خلال المدونات الإليكترونية. ومع أن هذه الممارسات ليست متحدة فى «حركة» واحدة إلا أنها تفرض واقعا جديدا. لذا فهذا الكتاب يعتبر نافذة على قضية شديدة التعقيد فى منطقة من أكثر مناطق العالم توتراً، ولذا فهو يقدم رؤية جديدة عن مفهوم الحركات الإجتماعية وديناميكا التغيير الاجتماعى.

■

The Help
المساعدة
By Kathryn Stockett
Amy Einhorn Books/Putnam press 2009- 464 P.



يا له من وقت مناسب لهذه الرواية المتفائلة الراقية التى ظهرت لأول مرة وافتتحت باكورة أعمال ايمى انهورن فى مجال النشر. تمت كتابتها خلال حركة حقوق المدنيين الوليدة فى ولاية المسيسبى، حيث النساء السوداوات الموثوق بهن لتربية الأطفال البيض ولكن غير مسموح لهن، مثلا، باختيار اللون الذين يفضلون طلاء واجهة منازلهم به. تبدأ الرواية عندما نصح ناشر من نيو يورك الفتاة الصغيرة سكيتر التى تطمح فى أن تكون كاتبة أن تكتب عن ما يمكنه إزعاج وتحريك الجمهور فقررت الكتابة عن عالم الخادمات السمراوات اللاتى يقضين عمرهن فى تربية أطفال بيض وعندما يكبرون ويتسلل إليهم سم التفرقة العنصرية ينكرون حقهن وينسونهن وتنتقل الخادمات إلى بيت ابيض آخر.

المساعدة، قصة ايبلين ومينى والعديد من الخادمات السمراوات اللاتى يقصصن تاريخهن مع العنصرية أثناء تناولهن القهوة فى بيت ايبلين فى سرية لان سكيتر اضطرت أن تخبر والدتها إنها مكرسة حياتها لخدمة الدين والله! إنها رواية مليئة بالحب والذكريات وقد حققت أعلى مبيعات فور صدورها.

■

Life is more beautiful than paradise
الدنيا احلى من الجنة
Jihadist's own story A
Khaled al-Berry
AUC Press, 2009

الحديث عن مفاهيم مثل التطرف والتدين والإلتزام وهى تعبيرات قد تحمل نفس المعنى أو تتفاوت كلياً فيما تعنيه وأصبحت مصطلحات يلوكها الكثيرون دون فهم حقيقى لها أو وضعها فى سياق يجعل لها دلالة، فأصبح التعبير مطاطا ويحتمل التأويل وفقاً لايدولوجية الشخص وتوجهاته، ومن هنا تأتى اهمية هذه السيرة الذاتية التى كتبها «خالد البرى» الكتاب الذى يبدأ فى صعيد مصر والكاتب فى سن الرابعة عشرة ويعيش فى «أسيوط» وكيف سحره مفهوم «المسلم القوى» أو «الملتزم» فانخرط فى هذه الجماعة وأصبح واحداً من أفرادها، حتى يقبض عليه وهو خارج من الجامعة بعد مظاهرة وفى السجن يعود إلى الحياة التى عاشها فى الخارج «ويراجعها» وعند خروجه والتحاقه بجامعة القاهرة يبدأ الكاتب فى الابتعاد عن هذه الجماعة التى تعمل بالاسلام الراديكالى.

■

كتب عبرية

مطاعم، العدد التاسع عشر، كتاب حانوخ لفين الشاب، رئيس التحرير إسحق لاؤور.

في هذه الأيام تمر عشر سنوات على وفاة المسرحي الإسرائيلي حانوخ لفين، وهو المسرحي الأكثر استفزازا للجمهور الإسرائيلي بسبب آرائه الحادة ضد الجيش والشعب الإسرائيليين، وخاصة بسبب مسرحيته «ملكة الكبانية»، وأنا وأنت والحرب القادمة، اللتين عرضتا بعد حرب ٦٧ وكانتا مثار احتجاجات شعبية رهيبة ضده. وبهذه المناسبة فلقد خرج العدد التاسع عشر من مجلة «مطاعم» دورية للنقد والفكر الراديكالي، مخصصا بالكامل للفين في فترة شبابه، تحت عنوان «كتاب حانوخ لفين الشاب».

يبدأ رئيس تحرير المجلة الشاعر إسحق لاؤور بمقدمة قصيرة يطرح فيها السؤال عما أسماه «لغز حانوخ لفين»، ويتساءل فيها كيف أمكن لشاب في بداية طريقه أن يحظى بالشهرة بفضل الكراهية الشعبية الواسعة له من قبل اليمين ومن قبل قطاع من اليسار أيضا بسبب ثلاث أمسيات لعروض ساخرة كتبها وهي العروض التي أثارت غضب الجمهور وفي إحداها جاء المشاهدون وبأيديهم قنابل دخانية وألقوها على المنصة. وفي أمسية ثانية تم إخراج الممثلين من المسرح بعد ١٩ مشهدا من العرض فحسب. ولكن هذا الشاب غير المعروف، المستفز للغاية، تحول بعد هذا في فترة قصيرة إلى كاتب معروف، وشعبي جدا في إسرائيل حتى لدى من لا يذهبون للمسرح.

وينشر العدد قصيدة من القصائد الأولى التي كتبها لفين، يخاطب فيها عرب إسرائيل ويسخر من التمييز ضدهم: «أيها الشاب العربي، القسم الصحي لبلدية تل أبيب يدعوك!/ لو كنت موهوبا، طموحا ومبادراً / لو كنت مؤيدا للنظافة وغسل اليدين/ فمكانك عندنا/ كنس الشوارع في الليل في مناخ من الهدوء الجوي الذي يساعد على الاسترخاء والهواء المنعش/ تحت سماء تملؤها النجوم، شوارعنا تنتظرك/ شوارع مليئة بصناديق القمامة، في ساعات الصباح المبكرة، صناديق موسيقية، قمامة مثيرة للمفاجآت لدى ظهور الفئران/ التفتيش على التبول العام هو عمل حيوي، مليء بالانتعاش/ تبولنا ينتظرك/ صحة المستشفى، لو كنت تشكو من شيء، لو شعرت بأنك مظلوم/ توجه للمستشفى المدني واحقن اليهود/ مؤخراتنا تنتظرك!».

كما ينشر في العدد العرض المسرحي الساخر الأول الذي كتبه لفين. وفيه يقرر الرب أن يخلق النور ويقول: «ليكن نور». ولكن كل اللجان تحتج، وكل منها تعبر عن رأيها فيما يجب أن يخلق بدلا من النور. لجنة الطلبة تقرر أنه يجب القول: «ليكن طلبة». (ويبصق الرب على العالم، ويغرق حتى من يعرفون السباحة).

■

الحياة السرية لموشيه ديان

مكان جيد في الجانب، نئورا برنيع متلون، دار كوتاريم



السكرتيرة الشخصية لموشيه ديان تحكي قصته في هذا الكتاب الجديد، الذي أخذ عنوان «مكان جيد في الجانب» للكاتبة نئورا برنيع متلون. موشيه ديان، وهذا ما لا يعرفه عرب كثيرون، هو رمز شبه جنسي في دولة إسرائيل، لتعدد مغامراته العاطفية. وهو ما يدفع الصحفي وأحد أقطاب المؤرخين الجدد في إسرائيل، توم سيجيف، ليكتب عرضا للكتاب بصحيفة هآرتس. يبدأ العرض بقصة طريفة عن ديان. سمعت متلون، مؤلفة الكتاب والسكرتيرة السابقة لديان، قصصا كثيرة عن علاقة يقيمها رئيسها مع امرأة تعمل في البناية، امرأة غير جندية. دعته متلون على كوب من الشاي. تحدثت معه بحزن وغضب. قالت له أنه يهين الوظيفة التي يعمل بها ويهين نفسه كإنسان.

يكمل سيجيف القصة: «طلب منها ديان الاحتراس من الشائعات وقال لها: هل تظنين أن الناس لا تتحدث عنا؟ حتى روث تعتقد أن هناك ما هو أكثر من علاقة العمل يجمع بيننا». كانت نئورا تدير مكتبه بينما هو رئيس قسم العمليات، وواصلت العمل لديه كسكرتيرة عندما أصبح رئيس هيئة الأركان.

في الكتاب تحاول متلون الدفاع عن ديان من الشائعات التي ارتبطت به: «على مدار السنتين اللتين عملت فيهما عنده لم تنتقل رسائل أو أحاديث تليفونية من نساء». ولكنها لم تكن تعرف كل شيء، كما سيتضح لها يوما، عندما وضع ديان على مكتبه مظروفا وواصل طريقه لغرفته. في المظروف كانت ثمة أوراق حملت عنوان «فصل من رواية»، وفيها وصف مفصل لعلاقات جنسية، وكاتبة الأوراق، هاداسا مور، لا تحاول إخفاء هوية أبطالها، وواحد منهم كان ديان، الذي أطلقت عليه اسما متخيلا.

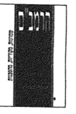
قرأت متلون هذا الفصل، وفيما بعد لاحظت أنه كتب احتجاجا موجها لدار النشر وأرسلها هي لتسليم المظروف. والسبب غير واضح: هل كان يأمل بمنع النشر أم كان يطالب بالحصول على نسخة من الكتاب المنشور الذي أصبح الأعلى مبيعا؟

في الكتاب ثمة قصص أخرى، على سبيل المثال، ذات مرة اضطر ديان لدفع عشرة آلاف ليرة لامرأة هددت بمقاضاته لكونه أخل بوعده لها بالزواج منها. وظلت القصة خارج جدران المحكمة. ولكن هذه القصص، كما يقول سيجيف، لا تأخذ إلا حيزاً ضئيلا من الكتاب. نئورا برنيع متلون تهتم بالتاريخ والسياسة والاستراتيجية أكثر من اهتمامها بالشائعات.

ظل موشيه ديان في الكتاب لغزا. متلون مثلا رأته بدون العصابة السوداء على عينيه، وهي العصابة التي تشكل لغزا لإسرائيليين كثيرين حاولوا تخيل ما وراءها، ولكنها مع هذا لم تستطع الدخول في أعماقه. هذه صفة مشتركة بين أشخاص عديدين كتبوا كتبا عن عملهم المشترك مع ديان. لم يغص أحدهم في أعماق شخصيته. يعلق سيجيف، الذي ينتمي لجماعة المؤرخين الجدد بأن: «ديان ظل رجلا وحيدا بلا ولاءات. لقد وجد صعوبات كثيرة في خلق صلات حقيقية مع الناس، لم يكن ملتزماً لا تجاه رجل أو امرأة، قانون أو حقيقة. وظل متقلبا حتى بدا أنه يخون نفسه أيضا: هو الذكي، البارد والمتغطرس، لطيف المعشر وغير المكبوح، لقد بنى نفسه دائما بحماية من هم أقوى منه: دافيد بن جوريون، جولدا مائير ومناحيم بيجين. ودوما ما كان يخاف من المسئولية الكاملة».

■

التأثير الإسلامي على ابن ميمون



موسى بن ميمون، المحافظة، الأصالة والثورية، مجموعة مقالات في مجلدين، تحرير أفيعيزر رافيتسكي، مركز شازار.

واحد من المجالات التي يمكن للمسلمين فيها القول بتأثيرهم على اليهودية هي الشريعة. كتاب صادر مؤخرا عن مركز شازار الإسرائيلي بعنوان «موسى بن ميمون، المحافظة، الأصالة والثورية»، ويضم مجموعة مقالات في مجلدين قام بتحريرهما أفيعيزر رافيتسكي، يثبت تأثير الشريعة الإسلامية على العالم والطبيب اليهودي موسى بن ميمون والذي عاش في العصر الأيوبي واشتهر بكونه طبيب السلطان صلاح الدين الأيوبي.

واحد من مقالات الكتاب يتحدث عن الحاخام أبراهام، ابن موسى بن ميمون، والذي كان قريبا من العالم الروحي والأدبي للمتصوفة المسلمين الذين عرفهم في مصر. ولكن الابن كان يرى أن أغلب تقاليد الصوفيين قد نبعت من مصادر يهودية.

التأثير الديني لدوائر إسلامية على أبراهام ابن موشيه ابن ميمون يطرح سؤالا عما إذا كانت هناك فعلا علاقة بين تشريعات موسى بن ميمون نفسه وبين الشريعة الإسلامية، وهو السؤال الذي يتم طرحه أكثر من مرة في البحث وتتم الإجابة عنه بالإيجاب أيضا أكثر من مرة. خصص جدعون لايفزون لهذا الموضوع مقالا طويلا ومفصلا. يخمن أنه: «كانت لموسى بن ميمون صلة مباشرة بمصادر التشريع الإسلامي، بما فيها القرآن، ومؤلفات أخرى، وأنه: «كان مكشوفا أمام نخبة من مؤلفات مشرعي القانون الإسلامي»، بل وكان يستطيع الوصول إلى المكتبات الثرية من حوله. يعتقد لايفزون أنه كانت بالفعل هناك «أسس كثيرة استعارها موسى بن ميمون من مصادر خارجية، ولكن هذه الاستعارة كانت تحدث عندما لم تكن تتوافر لدى بن ميمون مصادر يهودية واضحة ومهمة على قدر الحاجة. ربما كان الأكثر تأثيرا هو الفيلسوف ابن رشد، والذي كان يعمل في الأندلس وشمال أفريقيا في عصر موسى بن ميمون، وعلى أية حال، فبن ميمون أو أي من حوله لم يكونوا يشيرون في أي مكان لصلتهم الجزئية بالشريعة الإسلامية».

واحد من المجالات التي يتم التعبير فيها عن هذا التأثير، وفق حديث الكاتب، هو القانون التشريعي وبالتحديد الحديث عن مكانة ووظيفة الملك. المصادر التلمودية قليلة في هذا الشأن، وغير متبلورة، وثمة تشابه واضح بين مكانة ووظيفة الملك في كتاب «هالاخوت ملاخيم» لموسى بن ميمون وبين مكانة ووظيفة الخليفة المسلم. كما أن هناك تشابهاً واضحاً أيضا في مكانة المرأة وأحكام العائلة.

هذا التأثير، يؤدي لعدم ارتياح ما بين يهود كثيرين، وابن ميمون نفسه يبدي كذلك استهانة بل وعداء صلبا ضد الإسلام. سماحه للمسيحيين بدراسة العهد القديم، في رأيه، ينبع من إيمانهم بقداسته، وأنهم «إذا أحاطوا بالتفسير الصحيح فمن المحتمل أن يعودوا لما هو أفضل»، وهو الشيء الذي لا يسري على المسلمين، وهم لا يؤمنون بقداسة العهد القديم.

■

السياسة.. والمعرفة

محمد السيد سعيد



لا يوجد فى الحقيقة ما يسمى بمجتمع المعرفة، والمصطلح نفسه نتج عن حسرة المثقف الحكيم فى مجتمع يحتقر المعرفة ولا يعرف قيمتها.. المعرفة إذن قيمة وليست علاقة ومثلها فى ذلك مثل الثروة والقوة، كل تلك القيم تنتج عن نظام بعينه للعلاقات الاجتماعية ولكنها ليست هذه العلاقات نفسها. فالثروة تنتج عن أشكال فعالة لتوظيف وإكثار الثروة. ولكننا لا نعرف سوى القليل عن المجتمع لو وصفناه بصفة الثروة فقلنا مجتمعاً فقيراً أو مجتمعاً غنياً.. ويمكننا أن نتحدث عن مجتمع المعرفة بالمعنى نفسه، فهو هنا المجتمع الذى تكثر فيه المعرفة وتتاح أدوات إنتاجها وتدويرها أو نشرها. ولكن إنتاج كثرة من المعارف مثل إنتاج كثرة من الثروات ليس أمراً دالا بالضرورة على نمط توزيع المعرفة أو طرق إنتاجها أو علاقتها بالثروة وبالسلطة. ولهذا لا يعنى مصطلح «مجتمع المعرفة» الكثير. وهناك سبب أهم لنقد مفهوم «مجتمع المعرفة» فتوفر تدفق جبار من المعارف لا يعنى الإفادة بها فعلاً فيما له دلالة على قيم هذا المجتمع ومستقبله ودوره فى العالم، ناهيك عن عدالته أو صواب اختياراته. ولكى نحكم على مجتمع ما بهذه المعايير لا بد أن نشخص طبيعة عملية إنتاج المعرفة وتوزيعها والأهم طبيعة عملية إنتاج السلطة وتوزيعها وعلاقتها بالمعرفة ومنتجى المعرفة. لنفترض أننا نعرف قانوناً علمياً ما فى مجال المجتمع فهل نتصرف على أساسه بالضرورة؟ إننا نحتاج للمعرفة لأن ثمة متعة فى المعرفة بذاتها. ويستحيل فى نفس الوقت أن نكتفى بالمتعة المعرفية الساكنة فى الصدور لأنها حتماً تنقلب إلى غم وضيق إذا لم نتصرف على أساسها عندما نحتاجها حقاً.. فللمعرفة غرض جوهرى وهو إدراك الاختيارات المتاحة والأخذ بأفضل اختيار ممكن فى لحظة بعينها. ولكى نعرف أفضل اختيار لا بد أن نعى نتائجه السلبية والإيجابية بالمقارنة بغيره، وأبسط صور المقارنة السليمة هى مضاهاة تكلفة كل اختيار بعائده مادياً وأخلاقياً. فهذه المضاهاة هى المقياس الذى تستعمله المعرفة العقلانية للاختيار بين بدائل. لم يعد من الممكن لأى مجتمع يعيش عصر العلم الحديث ولو من بعد أن يتجاهل حصيلة المعرفة الناجمة عن البحث المنظم سواء كان علمياً أم إبداعياً، ولكن ليس هناك مجتمع موجود بالفعل يؤسس اختياراته وسياساته على المعرفة العلمية باعتبارها القيمة أو المحك المتفق عليه للاختيار.. وربما يجب أن ندهش لهذه الحقيقة على الأقل بالنسبة للمجتمعات المتقدمة التى يتوافر لديها سيل لا ينقطع من المعارف.. لماذا. إذن. لا تأخذ المجتمعات بالمعرفة العلمية كحكم نهائى وخالص للاختيار بين بدائل مختلفة وممكنة؟ هناك بالطبع أسباب عديدة، فالمجتمع يتشكل من بشر والسلوك البشرى فيه دوافع كثيرة لا صلة لها بالمعرفة أو العلم أو حتى السلامة العقلية والوجدانية، فالعقلانية واللا عقلانية يتعايشان بنسب مختلفة فى كل شخص وكل جماعة بشرية بل إنهما يتفاعلان بالضرورة.. فقد تستخدم النزعات اللا عقلانية موهبة العقل. وقد يسعى العقل لتهذيب أو السيطرة على النزعات اللا عقلانية لضمان تقييد الشرور الناجمة عنها.. والواقع أن أغلب المجتمعات تعرف العقلانية المستلبة بمعنى توظيف المعارف العلمية لتحقيق أغراض لا شأن لها بالمعرفة أو بالأخلاق.. وظاهرة الحرب وخاصة الحرب العدوانية هى تجسيد تقليدى لهذه الحالة.. ومن هنا يميز الفلاسفة بين المعرفة الاستعمالية والمعرفة النقدية أو الأخلاقية. ولأن المجتمعات المتقدمة من حيث التعريف هى تلك التى تستعمل المعرفة العلمية دون أن يكون الغرض من هذا الاستعمال خيراً أو نبيلاً بالضرورة نمت ثورة ضد. أو نزعة احتقار. هذه المعرفة بين طائفة من أنبل العلماء والمفكرين والحكماء داخل هذه المجتمعات المتقدمة، ولكن هذه الطائفة صغيرة العدد ولا تملك سوى نفوذ معنوى محدود.. بل أعتقد أنها تنكمش بالمقارنة بمرحلة ما بعد الحرب الثانية. ولكن هناك مصدراً آخر تماماً لنزعة احتقار المعرفة وهو السياسة.. فالسياسة تعبير عن مصالح وهى تتدخل فى تشكيل وتوظيف المعرفة وتدفقاتها أو طعن أبسط المعارف فى الصميم بأشكال غاية فى التنوع.. وتتوقف هذه الأشكال على مدى ما حققه أى مجتمع فى الأصل من إنجاز ديمقراطى.. فعندما نضاهى بين اختيار وآخر قد نسأل أيهما أقل تكلفة وأكثر عائداً، ولكننا يجب أن نسأل أيضاً: أفضل بالنسبة لمن؟ فأفضل اختيار بالنسبة للمجتمع مأخوذ كأنه فرد واحد ليس بالضرورة هو أفضل اختيار بالنسبة لمختلف الأفراد والأقسام التى يتشكل منها المجتمع، وقد يكون أفضل اختيار بالنسبة للمجتمع هو أسوأ اختيار بالنسبة لبعض شرائحه. هناك أمثلة معروفة وواضحة تماماً فالإقطاع مثلاً هو امتياز منسوب لطبقة لا لسبب سوى قوتها وتوارثها للقوة والسلطة، ومهما قال العلماء والعارفون إن الإقطاع اختيار سيئ بالنسبة للمجتمع لن يتخلى الإقطاعيون عن امتيازاتهم طوعاً ولا يقع الإقطاع فى مجال الأرض والاقتصاد وحدهما بل فى مجال السياسة أيضاً.. يعنى الإقطاع هنا منح طبقة أو شريحة ما لنفسها حق «امتلاك» السلطة وممارستها كشىء يخصها، هذا الإقطاع السياسى أسوأ وأصعب على التغيير من إقطاع الأرض أو حتى الإقطاع المالى.. ذلك أن الإقطاع السياسى عادة ما يكون هو المصدر لكل صور الإقطاع الأخرى بما فى ذلك الإقطاع المعرفى. يعنى الإقطاع المعرفى منح منتجين ما للمعرفة امتيازاً ثابتاً وسابقاً على ثبوت امتيازهم فى مجالهم أو قيمة وفائدة ما يملكونه وينتجونه من معارف.. وهم بهذا المعنى موظفون برتبة علماء أو حكماء أو كهنة. وبينما يحصل هؤلاء على امتيازاتهم بفضل التوظيف التعسفى للسلطة فهم يردون الجميل بمنح الاستبداد مسحة معرفية أو سمة رعاية المعرفة.. ومعنى ذلك أن المجتمع قد يكون إقطاعياً ولكنه ينتج معرفة بل يشيعها، فالاستبداد ليس ضد كل معرفة وإنما ضد المعرفة النقدية وحدها والواقع أن التطور الرأسمالى المعاصر يعيد إلى الحياة أشكالاً معينة من الإقطاع المعرفى حيث لا يكاد يكون هناك أمل حقيقى فى ترجمة المعرفة إلى خيرات مجتمعية إلا بالقدر الذى تحدده وتقرره مؤسسات الأعمال العملاقة والهياكل الجبارة لبيروقراطية الدولة وخاصة جهازها الأمنى. وتنهض الفكرة الديمقراطية باعتبارها تحريراً للمجتمع من هذا الإقطاع السياسى، فالديمقراطية وحكم القانون هما أفضل اختيار بالنسبة للمجتمع ككل.. ولكنهما ليسا أفضل اختيار بالنسبة للطغاة أو بالنسبة للطبقة أو الفئة التى تحكم بصورة استبدادية وتعسفية، لأن الديمقراطية تسلب منها امتيازات معينة تصل. فى حالة الدول العربية مثلاً. إلى امتلاك سلطة الحياة والموت على بقية المواطنين وتغير الديمقراطية تماماً مفهوم السلطة، فبدلاً من أن تكون امتيازاً لشخص أو طائفة من الأشخاص تصبح عقداً اجتماعياً أو وظيفة يمنحها المجتمع ويسحبها باختياره الحر لمن يراه. كما أنها تغير تماماً ممارسة وظائف السلطة فبدلاً من أن تكون أمراً من «سيد» تصبح أداء لخدمة عامة يحاسب من يؤدونها على نوعية أدائهم وقد يخلعون من وظائفهم، لأن صاحب السلطة هو المجتمع وهو الذى يعين ويفصل من يقومون بالوظائف العامة. والطغاة العصريون لا يحتقرون المعرفة بالضرورة كما أكدنا، ولكنهم يحتقرون حاملى المعرفة أو منتجيها، فغالباً ما تكون هناك أغلبية من منتجى المعرفة على استعداد تام لخدمة الطغاة مهما كانت أوهامهم أو أهدافهم مناقضة لأية قيمة أخلاقية أو معرفية.. وغالباً ما يعمق هذا الاستعداد للخدمة نزعة الطغاة لاحتقار العلماء أو منتجى المعرفة... ويجب أن نلفت النظر أيضاً إلى كيفية إنتاج المعرفة وطبيعة النظام التعليمى وتشكيل آليات الإعلام الحديث.. وقد يدهش البعض من الكيفية التى يتم بها بث برامج وأفكار أشد بدائية وهمجية ذهنياً وأخلاقياً فى شبكات تلفازية ومعلوماتية كبرى فى أكثر المجتمعات العصرية توفراً على إنتاج المعارف مثل الولايات المتحدة.. إن لم تكن تصدق ما أزعم هنا عليك متابعة عشرات من الشبكات التلفازية فى امريكا مثلاً وهى تبث خرافات بدائية بصورة بالغة العدوانية والبهلوانية.. وإن لم يكن لديك وقت يكفى أن تتابع واحدة من أكبر الشبكات التلفازية والإخبارية والمعلوماتية اسمها فوكس نيوز عندها قد تدرك أن طغاة العالم الثالث ليسوا وحدهم فى التلاعب الفظ بالعقول أو احتقار المعرفة النقدية أو كراهية العلماء ومعاقبتهم بهم.

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

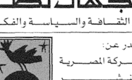
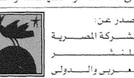
مجلة شهرية - العدد المائة وواحد وثلاثون - السنة الحادية عشرة - ديسمبر ٢٠٠٩ - الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 131 - December 2009



السنة الحادية عشرة
العدد ١٣١
ديسمبر ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

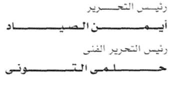





الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة



رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- اوليفييه موس.. دكتور فى التاريخ المعاصر فى جامعة «فرايبورغ»
- أيمن الصياد.. صحفى
- باتريك هانى.. مدرس فى جامعة باريس دوفيت - ومدير مشارك فى جمعية Polarités
- جويل كوهين.. أستاذ علم السكان فى جامعة روكفلور وكولوبيا
- حلمى القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا
- دايفيد كول.. أستاذ القانون بجامعة يال
- دايفيد ليفى شتراوس.. كاتب وناقد أمريكى
- سمير أمغار.. باحث فى شئون المسلمين فى أوروبا
- عصام تليمة.. باحث فى شئون الحركات الإسلامية
- فاروق جويدة.. شاعر - مصرى
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى
- ماكس رودنبيك.. مراسل الأيكونوميست بالشرق الأوسط - يعيش بالقاهرة
- ميجان مالك أرديل.. كاتبة اقتصادية أمريكية
- نايف حواتمة.. أمين عام الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين
- نيكولاس بيلهام.. كبير مستشارى «المجموعة الدولية للأزمات بالقدس»
- وليد محمود عبد الناصر.. كاتب مصرى

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى - Daryl Cagle, Peray Thailand, Petar Pismestrvic, Riber Hansson

«مصر التى فى خاطرى...»

لوحة للفنان حلمى التونى ٢٠٠٩ (تفصيل)





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠ / ٢٣٩٣٠٤٩٢ / ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

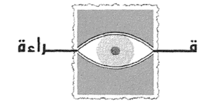
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩. فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦. subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير. اليمن ٣٠٠ ريال. فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة



■■ تأملوا الرسم جيدا..

قبل عامين كاملين، وبالتحديد فى سبتمبر ٢٠٠٧، نشرت صحيفة نمساوية الرسم الذى يصور الاتحاد الأوربى (بنجومه الاثنى عشر) عينا تجرحها «مئذنة» اختفت تحت الجفن. الرسم الذى حمل عنوان Thorn in Eye أو بالعربية: «قذى فى العين»، لم يلفت وقتها الانتباه. ولكننى تذكرته عندما وصلتنى أنباء، لم تفاجئنى، بموافقة «المواطنين» السويسريين فى استفتاء عام، ورغم معارضة الحكومة والبرلمان، على اضافة مادة للدستور «تحظر بناء المآذن» فى ذلك البلد الأوربى الوديع الذى اشتهر تقليديا بتسامحه.

قبل ذلك بأسابيع كانت مواطنة مصرية «مسلمة» قد فقدت حياتها داخل محكمة ألمانية بسكين مواطن «متطرف» لم يعجبه حجابها. أو بالأحرى لأنها مارست حريتها «الأوربية» فى ارتداء ماتشاء.

ما الذى يجرى هناك؟

وماهو تفسير تلك المشاعر لدى المواطنين الأوربيين التى تبدت فى الاستفتاء السويسرى؟



((Thorn in Eye))





أيمن الصياد



القضية فكرية وثقافية وقانونية / دستورية بالأساس. وليس محلها أبدا مظاهرات الشوارع الغاضبة، ولا منابر الجوامع التى بدأت فى استحضار اللعنة على كل ماهو سويسرى



«ولاتقف ماليس لك به علم»

ربما كان علينا ابتداء - حسب القاعدة الفقهية - وقبل أن نسارع بالذهاب مع الخارجين فى المظاهرات، أو المنددين على صفحات الصحف، أن «نعلم» تفاصيل ماجرى.

الذى زار تلك الدولة الأوربية الصغيرة الجميلة، النائمة فى أحضان جبال الألب، يعرف كم هى - لعقود طويلة من الزمان - ظلت تجسيدا للتعايش رغم التنوع والاختلاف. فأهلها رغم أن عددهم لايتجاوز كثيرا السبعة ملايين نسمة لايتحدثون لغة واحدة (هناك أربع لغات رسمية) ولا يوجد دين رسمى للدولة، وتحظى الكانتونات التى يتكون منها الاتحاد السويسرى بكثير من الاستقلال القانونى والادارى. وتعتبر سويسرا من أكثر بلدان العالم ثراء حسب دخل الفرد. وتحتل المرتبة الأولى فى العالم من حيث المنشورات العلمية. وتصنف احدى جامعاتها كثالث أفضل جامعة فى أوروبا، كما تضم أكبر عدد من المبدعين الحائزين على جوائز نوبل بالنسبة لعدد السكان: وحتى وقت قريب لم يكن لدى السويسريين مشكلة مع الغرباء فحسب الاحصاءات تحتل سويسرا المركز الأول فى أوروبا من حيث أكبر عدد للطلاب الأجانب وثانى دولة فى العالم بالنسبة لإجمالى عدد الطلبة فى البلاد. والسويسريون لايعرفون الحروب، بل ويكاد بلدهم أن يكون البلد الأوربى الوحيد الذى حمته حياديته المطلقة من ويلات الحروب الأوربية على مدى القرون الماضية.

ويعرف السويسريون الحريصون على التعايش والتوافق نظاما ديموقراطيا فريدا يذكرنا بديموقراطية أثينا «المباشرة» القديمة. حتى أن إزالة شجرة فى الطريق العام، أو تغيير لون الطلاء الخارجى لمنزلك، قد يتطلب استفتاء عاما يشارك فيه كل السكان ذوى العلاقة. وحسب الديموقراطية السويسرية «المباشرة»، يمكن لأى مجموعة من المواطنين أن يتقدموا بطلب لاصدار قانون ما أو حتى لتعديل الدستور الفيدرالى. ولهذا آليته المحددة، وهو ما جرى فى حكاية المآذن. اذ ينبغى لأصحاب مطلب ما أن يضمنوه مايسمى «مبادرة شعبية» يتقدمون بها للسلطات الفيدرالية، وبالتالى يصبح لديهم ثمانية عشر شهرا لجمع ما لايقل عن مائة الف توقيع صحيح. إذا تم جمع العدد المطلوب من التوقيعات فى حدود المهلة الزمنية المحددة، تقوم السلطات بدراسة المبادرة وتحديد ما إذا كانت لا تتعارض مع المعاهدات الدولية التى تلتزم بها البلاد.

فى حالة اعتبار المبادرة مقبولة، تلتزم السلطات بطرحها للتصويت. وفى الوقت نفسه، يمكن للبرلمان صياغة واقتراح مشروع ما ضد هذه المبادرة. (وهو ماجرى بالفعل)

ولاعتماد المبادرة، يجب أن يتم قبولها بنسبة «الأغلبية المزدوجة»، وهذا يعنى أنها يجب أن تحصل ليس فقط على أغلبية أصوات المواطنين الناخبين، ولكن أيضا على أغلبية الكانتونات (أى على الأقل ١٤ من الـ ٢٦ كانتونا المكونة للاتحاد السويسرى).

ويسمح نظام «المبادرة الشعبية» هذا، وهو نظام تتميز به سويسرا، للمجموعات الموجودة على هامش النظام السياسى (الأحزاب الصغيرة، وجماعات الضغط) بتمرير مطالب على الساحة السياسية عن طريق قنوات اتصال مباشرة وليس عن طريق مؤسسات التمثيل الكلاسيكية. وان كانت الأرقام تقول (ولهذا دلالته البالغة فى موضوع المآذن) أن المبادرات التى حظيت بالقبول نادرة (أقل من ١٥ من ١٦٠ مبادرة قدمت منذ عام ١٨٩١).



المبادرة كانت موضوعا لكتاب «مهم» صغير الحجم، صدر عن مؤسسة مرصد الأديان السويسرية (Religi-Scope) (www.religion.info) وقامت على ترجمته الى اللغة العربية islamonline.net وقدم لطبعته العربية الباحث النابه حسام تمام.

وفى الكتاب، يشرح لنا جان فرانسوا ماير Jean-François Mayer وهومؤرخ. تتركز أبحاثه حول الحركات الدينية فى العالم المعاصر. (له أكثر من عشرة كتب فى الموضوع). كيف أن نشأة الجدل حول المآذن فى سويسرا تعود إلى عام ٢٠٠٥، رغم أن وقتها لم تكن هناك فى سويسرا كلها غير مئذنتين (كان المسلمون يهتمون بإيجاد مساجد للصلاة، ولا يعطون الأهمية ذاتها للمئذنة).

فى سنة ١٩٦٣ بنيت المئذنة الأولى فى سويسرا بارتفاع ثمانية عشر مترا،

معارك حول الإسلام فى الغرب
ستفان لاتيون وباتريك هانى
ترجمة: عومرية سلطان
تقديم: حسام تمام
Religi-Scope & islamonline.net
جنيف - القاهرة
نوفمبر ٢٠٠٩

المروجون لفزاعة نشوء أوروبا عربية مسلمة «معادية لقيم الحرية والديموقراطية»، يجدون للأسف فى الحقائق كما فى «الصور الإعلامية» مايساعدهم على ترويج أفكارهم



دون أى اعتراض. وفى عام ١٩٧٨ بنيت الثانية بارتفاع اثنين وعشرين مترا فوق مركز اسلامى افتتحه وقتها الرئيس السويسرى مع ملك العربية السعودية. ولمدة ثلاثين عاما كاملة لم يتقدم أحد بطلب بناء مئذنة فى أى من المدن السويسرية، رغم أن الثلاثين سنة تلك كانت قد شهدت زيادة متسارعة فى عدد المسلمين فى سويسرا خاصة بعد موجة من الهجرة القادمة من تركيا ودول البلقان. على الناحية الأخرى. ينبهنا مايير. الى تحولات كبيرة فى النظرة الى الاسلام خلال هذه الثلاثين سنة الأخيرة. ويذكرنا بأحداث ١١ سبتمبر. موضحا «كيف أن الأراء المتناقضة حول التيار الإسلامى والجهادى شكلت أيضا العناوين الرئيسة فى وسائل الإعلام السويسرية».

فى هذا السياق «المختلف» تم طرح قضية المئذنة فى النقاش السياسى السويسرى. ففى ١٠ يناير ٢٠٠٥ فى مدينة «فانجن»، أطلقت جمعية تركية مشروع «مئذنة رمزية» بارتفاع خمسة إلى ستة أمتار. واجه المشروع موجة من الاعتراضات ومنها عريضة تحمل ٤٠٠ توقيع، وتم رفض المشروع من طرف اللجنة البلدية المختصة فى البناءات؛ لكن الرفض ألغى فى يوليو ٢٠٠٦ من طرف سلطات الكانتون(أو المحافظة وهى تعتبر كيانا سياسيا شبه مستقل فى إطار الكونفدرالية السويسرية) والتى وضعت شرطا وحيدا هو عدم استخدام المئذنة فيما يقلق الراحة.

ورغم أن المئذنة شيدت فى نهاية المطاف «بحماية القانون»، الا أنه بدا أن «نارا تحت الرماد». فقضية «فانجن» كانت الباعث على انطلاق حركة اعتبرت المئذنة مؤشرا أو بالأحرى «رمزا» على أسلمة زاحفة لسويسرا. وبقدر ما كانت هناك مشاريع أخرى لمآذن جديدة بقدر ما ازدادت إشارات الشعور بالتهديد. ورغم تأكيد مقدمى المشاريع فى كل مرة على انه لن تكون لهذه المآذن سوى وظيفة رمزية وأنها لن تستخدم لإلقاء أذان الصلاة، الا أن الحقيقة التى غابت عن الجميع أن «الرمز» فى ذاته كان فى الأغلب السبب الرئيس فى الانزعاج أكثر مما يمكن أن يشكله ضجيج مفترض للمؤذن.

وسرعان مابدت للخلاف أبعاده السياسية لا الدينية، ففى حين تزعمت الأحزاب اليمينية الصغيرة التحركات المناهضة لبناء المآذن، نوه بعض المسلمين الى حقيقة أنه لا حاجة عملية لمئذنة لمعرفة متى يحين الوقت للصلاة، مع توفر الموارد التكنولوجية (كبرامج الحاسب الآلى، والإشارات التلقائية على الهواتف المحمولة والساعات...)، ووقف مطران الروم الكاثوليك فى «بازل» المقاطعة السويسرية الكبيرة عند مبدأ الحقوق، مؤيدا حق المسلمين فى «أن تكون لهم مئذنة تعبر عن رمز للهوية» ، «فالأمر بالنسبة إليه لا يفوق المسألة التى تثيرها صومعة كنيسة طالما أن قواعد البناء ستظل محترمة».

لم تفلح معارضة المطران الكاثوليكى للمبادرة، كما لم تفلح معارضة الحكومة أو البرلمان، وتم التصويت فى نهاية المطاف ووافق السويسريون على حظر بناء المآذن.



يتفق مايير مع جوناثان بلوم Jonathan Bloom، أستاذ تاريخ المآذن فى معهد «بوستن» فى أن وظيفة المئذنة كمكان لإلقاء نداء الصلاة(الأذان) فى مدن حديثة حيث يعم الضجيج. لم تعد أكيدة. «ورغم ذلك سوف يستمر بناء المآذن لتقوم بدور الرموز الصامتة. لكن البارزة بوضوح، للإسلام فى العالم بأسره». وأن طابع الرمزية هذا هو ما سيجعل المئذنة فى قلب الجدل الدائر اليوم فى سويسرا. «فخلف المئذنة تختبئ قضايا مقلقة أكثر اتساعا».

يدعونا مايير الى أن نتذكر السياق الذى نمت فيه الحركة المناهضة لبناء المآذن منذ نشوئها عام ٢٠٠٥. ففى يوليو من ذلك العام حدثت تفجيرات لندن وكان وراءها جماعات اسلامية. وفى ٢٠٠٦ اندلعت أزمة الرسوم الدانماركية، وبدا رد الفعل لدى المسلمين. من وجهة النظر الغربية. غير متفهم لخصوصية الثقافة الأوربية، ومكانة حرية التعبير فى القلب منها. وتم تصوير الأمر كما لو أن المسلمين لايريدون للأوربيين أن يمارسوا حرية التعبير حتى فى بلدانهم. وفى ضوء غياب محاولات «جادة» للفهم والتوضيح، عمق الجهل المتبادل من الهوة التى كانت. لعديد من العوامل. جاهزة للاتساع.

أطلقت المبادرة رسميا فى مايو ٢٠٠٧ وتبنتها لجنة تتكون من أعضاء فى الاتحاد الديمقراطى للوسط (الـUDC) والاتحاد الديمقراطى الفدرالى (الـUDF) وهو حزب مسيحى صغير ذو انتماء إنجيلى. وكان نص المبادرة بسيطا ومباشرا ويدعو الى إضافة فقرة الى المادة ٧٢ من الدستور الفدرالى تنص على أن: «بناء المآذن ممنوع».

وعلى مدى عامين كاملين، دار حوار واسع فى سويسرا . لم يشعر به للأسف أحد هنا . وتنوعت الأراء وتباينت، حتى بين أصحاب المبادرة أنفسهم. بعضهم أكد على أن المئذنة «ليست ضرورية لاكتمال عقيدة المسلمين، كما أن عدم وجودها لايؤثر على قيامهم بالشعائر». وتعجب أحد مسؤولى الاتحاد الديمقراطى للوسط من كون المسلمين الذين يقيمون فى سويسرا منذ عشرات السنين بدءوا يشعرون فجأة بالحاجة إلى أن تكون لهم مآذن فى المبانى التى يرتادونها للصلاة منذ سنوات. . البعض الآخر ممن دعا الى المبادرة ذهب فى موقفه الى أبعد من ذلك معتبرا أن الاسلام فى جوهره هو

فى داخل مقر الجماعة الإسلامية اللندنية التى تطالب «بالخلافة» فى بريطانيا، صورة ضخمة. لاتخلو من دلالة. لقصر باكنجهام» بعد أن استبدلوا بأبراجه مآذن إسلامية باسقة»



«إعلان حرب على العالم المسيحى وباقى المعتقدات».

قبل أن تنتهى المهلة القانونية، وبالتحديد فى ٨ يوليو ٢٠٠٨ كان أصحاب المبادرة قد نجحوا فى جمع مائة وخمسة عشر ألفا من التوقيعات، ليتقدموا بمبادرتهم رسميا باسم «المحافظة على قيم المجتمع السويسرى». ولم يكن أمام الحكومة التى طالما أعلنت قلقها من إضرار المبادرة بصورة سويسرا المتسامحة، غير اللجوء للاستفتاء.

ورغم أن الحكومة (ومعها البرلمان) اتخذت منذ البداية موقفا واضحا ضد المبادرة، الا أنها اعتبرت ـ من وجهة النظر القانونية البحتة ـ أن المبادرة لا تمثل خرقا للقواعد الآمرة للقانون الدولى، طالما أنها لا تمنع المسلمين من «أن تكون لديهم عقيدة دينية يعيشون وفقها بحرية». كما أنها «لن تعطل نمو الإسلام فى سويسرا والحيلولة دون استيعاب القانون السويسرى للشريعة»؛ ذلك لان ارتياد المساجد سيستمر بشكل أو بآخر فى وجود المآذن أو فى غيابها. ودعت الحكومة المواطنين السويسريين الى عدم التصويت لصالح المبادرة لأنها تتضمن «حالة من عدم المساواة فى المعاملة طالما أنها لا تستهدف إلا المجموعة المسلمة». وترى الحكومة أيضا أن ذلك سيضر بمصالح البلاد وانه لن يؤدى إلى تقليص حالات التمييز التى يتعرض لها المسيحيون فى البلدان الإسلامية؛ «بل بالعكس».

وحرصت الحكومة السويسرية فى رسالتها الى المواطنين على تذكيرهم بأن دساتير عامى ١٨٤٧ و١٨٤٨ كانت قد تضمنت إجراءات تمييزية ضد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية (مثل طرد المسيحيين اليسوعيين من التراب السويسرى، ومنع بناء أديرة جديدة، وحظر بناء أسقفيات بدون موافقة الحكومة). وذلك فى المادة ٧٢ ذاتها من الدستور. الأمر الذى اقتضى تعديلها مرتين لالغاء التمييز سنتى ١٩٧٣ و٢٠٠١ على التوالى.

البرلمان من ناحيته. رغم تحفظه على المبادرة، ودعوة المواطنين لرفضها. اعتبرت أغلبيته أن المبادرة تعتبر مقبولة من الناحية القانونية. وعليه فقد تم إطلاق النقاش العام حول المبادرة. وانحصرت حجج الطرفين تدور حول الطروحات نفسها: فالمعارضون يعتبرون المبادرة تمييزية وتمس بالحرية الدينية ويعلنون أنها تحول دون اندماج المسلمين بدل تسهيل ذلك. وبالمقابل فإن المؤيدين للمبادرة يرون أنها تتضمن رفضا «للغزو الإسلامى لثقافتهم»، وإنها تشجع الأقلية المسلمة على التكيف مع القواعد والإجراءات السارية فى سويسرا.

استطلاعات الرأى العديدة (ودلالاتها هنا مهمة لن يهمه التعامل مع الموضوع بطريقة تتجاوز بيانات التنديد ومظاهرات الشوارع) بين المواطنين السويسريين أشارت الى أسباب أربعة للتصويت. أشار اليها مايير فى مقاله. هى:

١. أن المآذن لا تنتمى إلى المحيط والثقافة السويسرية.

٢. أن الإسلام غير متسامح وهو يمنع بناء الكنائس.

٣. الحفاظ على الهوية الثقافية، والتخوف من تأثير وانتشار الثقافة الإسلامية.

٤. الحاجة الى تشجيع المسلمين على التكيف والاندماج فى مجتمعاتهم الجديدة.

يبقى مثيرا مايشير اليه مدير مرصد الأديان السويسرى فى الكتاب من أن هناك اليوم فى سويسرا «نقاشات أخرى حول مسالة المبانى ذات الطبيعة الدينية. هناك جمعية نشطة فى المنطقة الناطقة بالألمانية فى سويسرا تجمع أشخاصا يزعجهم صوت أجراس الكنائس (وبالمناسبة أجراس الأبقار أيضا). وقد أعلنت الجمعية أنها ستتحرك أيضا للحد من الضوضاء التى ستنتج عن أصوات المآذن فى حالة ما إذا استخدمت للأذان».



مطالعة الكتاب الذى حسنا فعلت «اسلام أون لاين» بإقدامها على ترجمته، تكشف لنا كيف يفكر الذين كانوا وراء المبادرة، وماذا يشغل بال الذين وافقوا عليها. بل وأطروحات أولئك الذين حاولوا ايقافها.

«اوسكار فرايزنكر» كاتب وبرلمانى ينتمى الى حزب الاتحاد الديمقراطى للوسط، يهتم خاصة بحشد التأييد ضد الأخطار المحتملة التى يمكن أن تحدث جراء الهجرة غير المتحكم بها، حرص على أن يذكر ناخبيه «بالأحياء المسلمة» التى زارها فى بلجيكا : فهى «أسوأ من المدن الخارجة على القانون».

يعتبر «فرايزنكر» أن مشكلته ليست مع المسلمين كمواطنين، بقدر ما يريد فتح معركة مع هذه الإيديولوجية الدينية «التى ما زالت لم تحل مشاكلها بعد مع دولة القانون». ويرى الكاتب والبرلمانى أن الخيارات المعتدلة لدى المسلمين تخسر دائما لأنه «وفى سياق التنافس، فإن المتطرفين دائما يكسبون».

وحقيقة أن المتطرفين يشكلون أقلية ليست حجة مقبولة لديه؛ وذلك لسببين. أولا، بسبب الخوف من السلطة التى تملكها الأقليات: فهى التى استولت على السلطة فى تشيكوسلوفاكيا وألمانيا النازية، ثم، لأن وضع الأقلية هو وضع مؤقت فقط «فى فرنسا، هم يتضاعفون أكثر كل سنة. وحتما، وفى النهاية، فإنهم سيفرضون ما يريدونه». ان حظر المآذن ليس حلا. يقول البرلمانى السويسرى، بقدر ما هو سلوك مقاومة فى مواجهة «رمز غير برىء تنبعث منه رائحة الكبريت».

وفى حين تبقى رؤية «فرايزنكر» الاختزالية متطرفة، ومتأثرة بصورة نمطية جرى ترويجها فى الغرب على نطاق واسع عقب ١١ سبتمبر، الا أن استيعابها وقراءتها جيدا تبقى مهمة، يؤكد باتريك هانى، وهو مدرس فى جامعة باريس دوفيت وباحث فى الاجتماع الدينى فى الشرق الأوسط، على الرأى الذى يذهب الى أنه لايجب علينا أن نختزل الأمر فى مسألة المئذنة، فالموضوع اكبر من مجرد مسألة تتعلق بالعمارة فأصحاب المبادرة «يستخدمون المآذن ليتناولوا قضايا ذات صلة بالاسلاموفوبيا، وللهجوم على الإسلام والإصرار على انه لا يتوافق مع المجتمعات الغربية»، كما يتفق باتريك فى كل الأحوال مع ستيفان لاتيون Stéphane Lathion وهو باحث مشارك فى مرصد الديانات فى لوزان. انتهى من تأليف كتاب عن الاسلام وتحدى الحداثة. فى أن ماجرى فى سويسرا هو «خطوة أولى نحو الأسوأ».

اوليفيه موس Olivier Moos وهو دكتور فى التاريخ المعاصر فى جامعة «فرايبورغ»، يتفق مع باتريك هانى فى أن موضوع الإشارات الدينية يوضح كيف أن الإسلام صار أوروبيا الآن بحيث لم يعد دينا يخص المهاجرين بل مكونا من المشهد الدينى الاجتماعى والعمرانى فى أوروبا، ويعتبران أن التواجد الإسلامى بات يطرح مسألة «هوية» المجتمعات الغربية التى تعانى هى الأخرى من أزمة بسبب عوامل لا تخص سويسرا فقط وليس الإسلام موضوعها (العولمة، وانفتاح الحدود، والسوق الموحدة...). إن المعادلات السابقة التى كانت بين الإقليم والدين قد تم تجاوزها بشكل واسع؛ فإشكالية انضمام تركيا «المسلمة» إلى اتحاد أوروبى يرى نفسه كتراث يهودى- مسيحى وعلمانى فى آن واحد، يظهر إلى أى حد يمكن للمسائل السياسية أن تتقاطع مع نقاشات الهوية.

يشرح الباحثان كيف أنه «من الطبيعى أن تنمو مشاعر الرفض أو الخزى حين يتم رؤية ممارسات بعيدة

كما تعبر المسألة السويسرية عن فشل الأقلية المسلمة فى الغرب فى تحويل وزنها العددى إلى قوة سياسية، تعبر أيضًا عن فشل مثقفينا فى الحديث الى الآخر «بلغته التى يفهمها»



عن عاداتنا وطباعنا الغربية السائدة. وكيف أن هناك مظاهر للإسلام تزعزع حياتنا اليومية وتشوش، بسبب اختلافها عما اعتدناه، ثقافتنا المستقرة. وبمواجهة التغطية الإعلامية التى تظهر الإسلام بوصفه قنابل بشرية فى بغداد، والكمائن التى تنصبها طالبان، وأعمال الشغب فى الضواحى، فإن كل ما له علاقة بالإسلام ينظر إليه على أنه غريب وغير قابل للتطويع وقائم على اللاتسامح والعنف. نحن لا نستطيع أن نتجاهل أن عددا من الذين يتوجسون من الإسلام لا يفعلون ذلك بناء على أحكام مسبقة أو إيديولوجية مضادة للإسلام، ولكن لان تجربتهم المستمدة من الحياة اليومية ومن متابعة الأخبار توفر لهم الأسباب الشرعية ليقلقوا، حتى لو كانت أسبابا لا يمكن حصرها فى تفسيرات تتعلق بالإسلام فقط.



ربما يكون صحيحا أن قضية المئذنة فى سويسرا ليست حدثا سياسيا غريبا ولا هى حالة شاذة تشكل استثناء سويسريا. فهناك قضية النقاب فى فرنسا، وقضية الرسوم الكاريكاتورية فى الدانمرك (٢٠٠٥ - ٢٠٠٦)، وكذا الجدل الذى أثاره فيلم فتنة للبرلمانى الهولندى «جيرت فيلدرز» سنة ٢٠٠٨.

ولكن، فى المقابل، علينا أن ندرك أن لقضية المئذنة خصوصيتها ودلالتها المختلفة. حيث يتلخص موضوع المواجهة هذه المرة فى «الرمز» وليس فى الممارسات الحياتية للجاليات المسلمة ومدى انسجامها أو تقاطعها مع المجتمعات المحيطة بها. ما يميز القضية هذه المرة فى المقام الأول هو أنها مفصولة عن واقع الحياة اليومية، مما يجعلها مختلفة بالضرورة عن مسألة النقاب، أو اعفاء الطالبات من دروس السباحة والجمباز، أو حتى ذبح الأضاحى، وأراضى المقابر. اذ تبقى حقيقة أن عدد المآذن فى سويسرا اليوم أربع ونادرا ما تقدم طلبات تراخيص جديدة. القضية هذه المرة لا تمس إذن المسلمين كأفراد ولكنها تمس الإسلام؛ فكثيرون من أنصار المبادرة يقرون بـ«الاسلاموفوبيا». ويحرصون دائما على توضيح أن قلقهم أو مخاوفهم ليست من المسلمين كأجانب، وانما من الإسلام منظورا إليه «كأيديولوجيا».

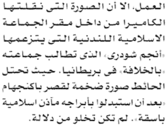
فى يوليو من هذا العام تصدرت غلاف النيوزويك الأمريكية الشهيرة صورة لعمامة بيضاء كبيرة وأسفلها عنوان واحد «فزاعة أسلمة أوروبا». ورغم أن مقال المجلة الرئيس ذهب الى التأكيد على أن الكلام عن نشوء «أوروبا مسلمة» يستند، رغم انتشاره اعلاميا، الى أدلة مشكوك فى صحتها، الا أن وليام أندر هيل كاتب المقال - الذى يستحق أن نعيد قراءته الآن - يشير الى أنه عند الإصغاء إلى اليمين المتطرف الأوروبى،الذى يذكرنا يوميا بمعركة «بواتييه» عام ٧٣٢، نشعر وكأن القارة على وشك خوض صراع مرير ثان مع خصم تعود العداوة معه إلى قرون.

يعتقد كثير من المفكرين اليمينيين التقليديين أن أوروبا «التى قوضت عزمها العلمانية والتساهل فى كل المسائل. سمحت طوال عقود بهجرة جماعية من دون قيود جدية. والحكومات، الأضعف من أن تدافع عن قيمها، أظهرت استعدادا لاسترضاء الرأى العام الإسلامى وعليها أن تتوقع الأسوأ».

إن قراءة لكتاب: America Alone: The End of the World as We Know It فضلا عن حقيقة أنه احتل لوقت طويل مكانة متميزة فى قائمة نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعا، ربما تساعدنا على ادراك طبيعة الأفكار التى تنتشر الآن فى الغرب، دون مقاومة فكرية تذكر، اللهم الا من المثقفين الغربيين أنفسهم. يقول Mark Steyn مؤلف الكتاب، وهو كاتب كندى له خمسة كتب: إن الهجرة ومعدلات المواليد المرتفعة قد تعنى أن المسلمين سيشكلون ٤٠ بالمائة من سكان أوروبا بحلول عام ٢٠٢٥. تلك «المخاوف» أو التى أصبحت كذلك. يروج لها أيضا على الجانب الآخر من الأطلنطى المؤرخ البريطانى Niall Ferguson الذى يدرس التاريخ فى هارفارد، والذى يتحدث عن مجتمع اسلامى شاب فى جنوب وشرق المتوسط على وشك «استعمار» أوروبا العجوز:

a youthful Muslim society to the south and east of the Mediterranean is poised to colonize a sene-scent Europe

وعلى الوتر نفسه يعزف أمريكيون محافظون يروجون لفزاعة نشوء أوروبا عربية مسلمة «معادية للمصالح الأمريكية». وبسهولة يجد هؤلاء وأولئك، فى الحقائق كما فى «الصور الاعلامية» مايساعدهم على ترويج أفكارهم. فمن الحقائق ما بات معروفا من أن محمد عطا قائد «غزوة مانهاتن» كان مصريا مسلما مهاجرا فى ألمانيا، كما أن مسلمين مهاجرين كانوا متورطين فى هجمات لندن ومدريد. فضلا عن الصور الاخبارية التى يتم نقلها على مدار الساعة من العراق وأفغانستان.

على هامش الصور الاعلامية.. وتبعاتها، وفى الأسبوع ذاته الذى دعى فيه السويسريون للتصويت على  التعديل الدستورى، أذاعت قناة France 24 الفرنسية برنامجا خاصا عن الجماعة البريطانية المناهضة لجماعات اليمين المتطرف المطالبة بإخراج المسلمين من بريطانيا. ورغم أن برنامج القناة الفرنسية أوضح كيف أن تركيبة جماعات اليمين تلك تتكون أساسا من شباب الحانات العاطلين عن العمل. الا أن الصورة التى نقلتها الكاميرا من داخل مقر الجماعة الاسلامية اللندنية التى يتزعمها «أنجم شودرى» الذى تطالب جماعته «بالخلافة» فى بريطانيا. حيث تحتل الحائط صورة ضخمة لقصر باكنجهام «بعد أن استبدلوا بأبراجه مآذن اسلامية باسقة». لم تكن تخلو من دلالة.



هل تصبح أوروبا مسلمة فعلا؟

دون المصادرة على احتمالات مستقبل هو بحكم التعريف مفتوح دوما لكل الاحتمالات، الا أن قراءة لحقائق الحاضر ربما لا تبشر بما يتمنونه هنا (أو يحذرونه هناك). فواقع المسلمين فى أوروبا أكثر تعقيدا - أو ربما أكثر بساطة - بكثير مما يظنون. واسمحوا لى بأن أذكر بما سبق أن كتبته فى هذا المكان قبل أربعة أشهر. اذ رغم كل الأوهام هنا عن «عودة مجد الاسلام من أوروبا»، وكل الهواجس هناك عن «الغزو الإسلامى للغرب». تبقى حقيقة أن المسلمين كغيرهم، مختلفون. وأن موروثاتهم تتلاقح بحكم طبائع الأمور مع ثقافة المجتمع السائدة. (انظر الاستبيان الذى أجرته مؤسسة «جالوب» وتضمنه كتاب «من يتحدث باسم الاسلام» الذى ترجمته دار الشروق الى العربية) فكما أن هناك رشيدة داتى (الفرنسية من أصل مغربى) التى وصلت الى أن تكون وزيرة للعدل فى فرنسا، والتى لم توجد لديها مشكلة فى أن تحتل صورها بلباس البحر ذى القطعتين (تحمل رضيعها الذى أنجبته خارج الزواج) أغلفة المجلات الفرنسية الشعبية. هناك أيضا «المنتقبات» من الفرنسيات اللواتى اعتنقن الاسلام أخيرا «لأنه يحفظ كرامة المرأة» كما قالت احداهن لقناة France 24. كما أن هناك أولئك الدعاة الذين يعتاشون من أموال دافعى الضرائب



ربما تساعدنا قراءة للكتاب الأكثر مبيعا America Alone: The End of the World as We Know It على إدراك طبيعة الأفكار التي تنتشر الآن في الغرب



الأوروبيين ليقفوا في مساجدهم «الأوروبية» كل جمعة داعين الى محاربة «هؤلاء الكفار»..؟! ثم هناك بعيدا عن كل هؤلاء «الأغلبية» التي هي عادة بعيدة عن الصورة الاعلامية: قوم بسطاء، يبحثون عن علم أو لقمة عيش أو نسمة حرية عزت عليهم ربما في أوطانهم. ولايطلبون من الآخرين. الذين يتباهون دوما بالمواطنة والديموقراطية. غير احترام لمعتقداتهم، نحرا كان للأضاحي، أو زيا يختارونه لبناتهم.

بل ان المشهد السويسري نفسه يكشف حقيقة أن المسلمين في أوروبا كغيرهم من الجماعات، ليسوا كتلة صماء، أو جسما واحدا. فللمفارقة، تقول البيانات أن أول مئذنة بنيت في سويسرا (سنة ١٩٦٣) كانت فوق مسجد للطائفة «الأحمدية»، والتي يعتبر اتباعها في معظم الدول الاسلامية «غير مسلمين».



أيا ماكان الأمر، فقد صوت السويسريون «العاديون» إلى جانب قرار حظر المآذن. وعلى هامش ماجرى (وهو ذو دلالة عميقة) يبقى هناك عدد من الملاحظات والحقائق والأسئلة:

١- أن القضية فكرية وثقافية وقانونية/ دستورية بالأساس. وليس محلها أبدا مظاهرات الشوارع الغاضبة، ولا منابر الجوامع التي بدأت في استحضار اللعنة على كل ماهو سويسري.

٢- أن المبادرة الشعبية ضد بناء المآذن في سويسرا، كما ينظر اليها باحثو مرصد الأديان في سويسرا، ليست مسألة تتعلق بالعمارة فحسب، فأصحاب هذه المبادرة يفتحون من خلالها المجال لنقاش واع وأكثر اتساعا يمتد من مسألة طبيعة الهجرة الإسلامية في سويسرا، إلى الإسلام السياسي في أوروبا ووصولا إلى الإسلام نفسه بشكل عام.

٣- أن نتيجة التصويت. ورغم أني أتفق هنا مع راشد الغنوشي. في أنها تعبر عن فشل الأقلية المسلمة في سويسرا وفي عموم الغرب في تحويل وزنها العددي إلى قوة سياسية، بسبب عزلتها وتشرذمها وتدني مستوى وعيها العام وانشغالها بخلافات «مستوردة» من العالم الإسلامي. الا أنها تعبر أيضا عن فشل مثقفينا في الحديث الى الآخر «بلغته التي يفهمها».

٤- بدلا من الصراخ التحريضي، الذي لاتؤمن عواقبه، ينبغي أن يعطي الدعاة جل جهدهم لتدبر المقاصد العليا للدين، وأن يعملوا على فك الاشتباك الحادث لدى بسطاء المسلمين هناك مابين التزامهم الديني وبين المواطنة: حقوقا وواجبات. أو بالأحرى مابين الشريعة (الملزمة لمن يؤمن بها) والقانون (الملزم بدوره) للذين يعيشون تحت مظلته. وربما كان واجبا على الصارخين على منابر الجمعة، أو في منتديات الانترنت أن يعودوا أولا الى ماكتبه يوسف القرضاوي أو طارق رمضان في «فقه الأقليات»، وخاصة ماكتبه العلامة طه جابر العلواني في «نسبية الفقه» وإقليمية المذاهب.

٥- رغم اختلافنا التام مع أطروحات اليمين المحافظ الذي يغذي مخاوف الاسلاموفوبيا في أوروبا، الا أنه يصبح من قبيل الغفلة أن ننسى أو نتناسى حقيقة ماجرى في لندن ومدريد، وقبلهما في نيويورك. وحقيقة أن هناك من يدعو في قلب لندن ملكة بريطانيا الى الاسلام «والا فهي الحرب». ثم حقيقة أن دماء مسلمين تراق كل يوم بأيدي مسلمين... وأن ذلك كله يمثل تحديا اعلاميا، علينا ابتداء أن نعترف بوجوده، ثم نتدبر طريقة التعامل معه ومع آثاره.

....

....

وبعد.. فقد كنت في طوكيو، الجادة «والمهذبة جدا»، عندما وصلنا الخبر. وكان بجواري في طائرة العودة السفير محمود كارم سفير مصر السابق لدى الاتحاد الأوربي، سألته عن امكانية لجوء المسلمين «السويسريين» إلى هيئات أوربية طعنا في القرار، وكان طبيعيا على هامش اجابته أن يذكرني بقرار البرلمان الأوربي في يناير ٢٠٠٨ الذي يتعرض للحريات الدينية في مصر مشيرا الى الأقباط والشيعة والبهائيين وهو أمر، وان لم نعتبره نحن هكذا، سيرونه هم ذا صلة. وارجعوا من فضلكم الى بيانات سياسييهم وكتابات مفكريهم.

أيا ماكان الأمر، فإننا نخطئ بالتأكيد، اذا واجهنا ماجرى في سويسرا بالصراخ ومظاهرات الاستعداء كما فعلنا في أزمة الرسوم الدانماركية. ولكننا نخطئ أيضا اذا ألقينا ماجرى وراء ظهورنا، ولم نعطه مايستحقه من اهتمام.

ثم ينبغي علينا في النهاية أن ندرك . وأن نتعلم . أن الذين طالبوا بحظر المآذن عملوا بدأب عبر الأساليب القانونية خمس سنوات كاملة. وبوسع المسلمين في سويسرا أن يلجأوا - كمواطنين - إلى الأسلوب ذاته، اذا أحسنوا قراءة الدستور والقوانين الأوروبية.

ولكني أخشى أن أقول أننا قوم فضلا عن أن نفسنا قصير، نجيد اهدار مالدينا من حقوق (وفرص) قانونية. تذكروا من فضلكم مافعلناه بحكم المحكمة الدولية بشأن الجدار الاسرائيلي. ثم كيف ألقينا بتقرير جولدستون (القاضي اليهودي) الذي يدين الممارسات الاسرائيلية في غزة في دوامة خلافاتنا الصغيرة.

كما لعلي أخشى أيضا أن يلهينا البكاء على مئذنة في سويسرا لن يعطل غيابها صلاة أو دعاء، «جعلت لي الأرض كلها مسجدا وطهورا» عن ضياع الأقصى ذاته. «أولى القبلتين، وثالث الحرمين».. هكذا يقول كل يوم من سيكتفون غدا بإقامة سرادقات العزاء. ■

.. وفي المسألة الجزائرية

أخشى أن نتعامل مع الموضوع بـ «اللامنطق» ذاته الذي تعاملنا به في مصر مع موضوع الجزائر. تغيب «حقائق» ماجرى، ويغيب معها بالتالي السؤال الأهم: لماذا جرى ماجرى، مهما كانت تفاصيله.

أرجو ألا نسلك الأسلوب المعتاد ذاته. ففي المسألة الجزائرية أعفينا أنفسنا من كل مسؤولية. حتى مسؤولية الدفاع عن المرمى، واكتفينا باتهام الآخرين «كلهم»، الجزائريين، والسودانيين، والفيفا، بل وبقية العرب «الذين تجرأ بعضهم فشجع الجزائر» وطبعا. كالعادة. قناة الجزيرة.

في المسألة الجزائرية، نسينا، وسط الصراخ والضجيج، أن البلدين لم يتساويا فقط. قبل موقعة أم درمان. في النقاط المؤهلة للمونديال، بل تساويا أيضا في «الفساد». حيث احتلتا سويا المركز الحادي عشر بعد المائة في ترتيب الشفافية الدولية.

في المسألة الجزائرية، خرجت صحف الجزائر تعدد المآثر والمناقب، وخرجت مانشتات القاهرة تقول «مصرُ فوق الجميع».. وبدا وكأننا صدقنا أننا خير شعوب الأرض. ناسين أنه كما أنه «لافضل لعربي على أعجمي في الآخرة الابالتقوى..» فلا فضل في الدنيا الا بالعلم والعمل، وهما قيمتان غابتا للأسف عن واقعنا ضمن قيم كثيرة مثل العدل والمساواة والنزاهة والضمير.

في المسألة الجزائرية، غابت حكمة السياسة، وتركت مكانها للحسابات الشخصية، والمزايدات الرخيصة.

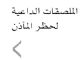
في المسألة الجزائرية، بدا أن الملعب كله لم يكن فيه على اتساعه غير لاعبين ثلاثة:

● جمهورٌ . في مصر والجزائر . كشأن كل جمهور عام، تحركه الشائعات والصيحات، خاصة تلك المطالبة بالثأر.

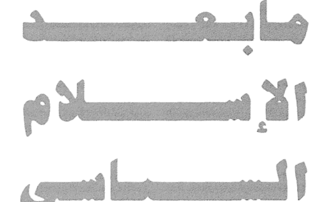
● وإعلامٌ . هنا وهناك . يشعل النار، ثم يزايد بعضه على بعض في من يصب زيتا أكثر على نار كانت قد اشتعلت فلم تبق ولم تذر.

● ونظامٌ سياسيٌ . هنا كما هناك . يبحث عن «شرعية» باتت قلقة.. فأخذ ينفخ في «الكرة».

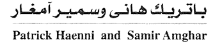
وكل كرة . بحكم التعريف . لايملؤها الا «الهواء».



الملصقات الداعية
لحظر المآذن



والرسوم المعارضة للمبادرة



Patrick Haenni and Samir Amghar

تشكل المبادرة بالنسبة لأصحابها دعوة إلى الحوار، والموضوع الأساسى الذى يطرحونه من خلالها هو انتشار الإسلام أو فكرة ميله إلى التوسع. بهذا المصطلح هم يرون من جهة أن هناك مشروعا للهيمنة السياسية موجود بالطبيعة داخل الإيديولوجية الإسلامية (فهى تتسم بالولادة المولعة بالكثرة وقائمة على الدعوة والفتوحات)، و من جهة أخرى أن هناك استراتيجيات لفاعلين محددين (الإسلاميون و«مشروعهم»). ليس هناك شك أن هناك خطابا إسلاميا سائدا متشبثا بالدين وبالدعوة إليه، وأن هناك جماعات تناضل لأجل ذلك: فالإسلام هو دين الخلاص للإنسانية باعتباره آخر الرسالات. والأزمنة الأولى للإسلام التى نصبت ليتم اعتبارها العصر الذهبى والنموذج بالنسبة لهذا الخطاب، هى مرحلة توسع مكونة من غزوات عسكرية ومن حركات دعوية.

لكن خلف ذلك كله يبدو الواقع أكثر تعقيدا: هناك فعلا إسلاميون فى الغرب ولديهم «مشاريع» للنفوذ وحتى للتوسع مثلما يدافع عن ذلك «سيلفين بيوسون»: (La Conquête de l'Occident. Le projet secret des islamistes, Paris, Seuil, 2005) ؛ لكن مشروع الإسلاميين لن ينجح عندما يوجدون فى وضع الأقلية: وفى غياب هدفهم التقليدى فى بناء الدولة الإسلامية فهم يتحولون إلى أعيان أو يتوجهون إلى الوعظ الدينى الذى أصبح اليوم مجالا حكرا يشغله أصوليون ورعون يقعون خارج السياسة مثل التيار السلفى أو حركات كحركة التبليغ والدعوة. وحاليا هؤلاء يتشددون فعلا، لكنهم يفعلون ذلك وفق مسار انغلاق على الذات، مما يجعلهم بعيدين عن أى اتجاه توسعى مثلما هو ملاحظ طبعا فى الديناميكيات الاجتماعية التى تسجل تراجعا ديمغرافيا ونموا واضحا لتدين يتجه أكثر فأكثر نحو الفردانية.

لا للدولة ولا «للجيتو»: معضلات الإستراتيجية لدى إسلاميى الغرب

بحسب ما يسميه اوليفييه روا Olivier Roy «انتقال الإسلام إلى الغرب» بما يتضمنه من انتقال الإسلام إلى وضع الأقلية، فإن المنظمات الإسلامية تعرف وضعيات تتسم باللا مساواة. فالانتقال يسهل مسار التجنيد الإيديولوجى على حساب مشروع ملموس للتأثير السياسى.

الإسلاميون الأعيان: من إسلاموية الأقلية إلى ما بعد الإسلام السياسى

هناك تياران رئيسيان معروفان فى الإسلام السياسى حاولا بشدة تسييس الهوية الإسلامية فى الغرب عبر مسار معارض: الإخوان المسلمون وحركة الرأى الوطنى (ميلى قوروش) التركية: بفضل ما يحملونه من خيال عالمى (بوصف الإسلام دينا عالميا) وتوسعى (هدف أستاذية العالم كما ورد لدى الشيخ «حسن البنا» مؤسس حركة الإخوان). وعلى الرغم من ذلك فالغرب لم يشكل لديهم، فى الواقع، هدفا استراتيجيا واضحا، فهم لم يحضروا إلى الغرب لهدف التوسع ولكن بعد أن تعرضوا للقمع السياسى فى بلدانهم الأصلية: لقد جاءوا بحثا عن قاعدة خلفية، وهذا هو حال «سعيد رمضان» والد «طارق رمضان». لقد كانت إقامتهم الطويلة فى الغرب هى التى دفعتهم إلى التفكير بشأن علاقتهم به.

ومع ذلك وجد الإخوان أنفسهم فى معضلة: فخصوصيتهم تنطلق من سعيهم نحو «الدولة الإسلامية»، أو على الأقل المشاركة السياسية، بينما فى الغرب وبسبب من طابع الأقلية للمسلمين فليس هناك إمكانية لبناء دولة إسلامية أو مشروع سياسى متكامل. ولذلك لم يتبق أمامهم سوى ما نسميه: «الإسلام السياسى للأقلية»: وهو يتسم إما بالوعظ الدينى (وحالة هانى رمضان فى سويسرا هى مثال جيد)، أو التحول إلى أعيان: أى الدخول فى إستراتيجية بحث عن دور الوسيط بين السلطة والسكان المسلمين وتمثيلهم وتأطيرهم مما يؤدى إلى تكوين علاقات زبائنية بينهم وبين دول الغرب. وبذلك هم يتركون قضاياهم الكبرى، ويتراجعون عن التعبئة وراء الأسئلة المحرجة فى الغرب مثل الحجاب فى فرنسا أو قضية فلسطين. بل قد يصبحون محل نقد بسبب تحولهم إلى برجوازيين أو تنازلاتهم التى تدفع الشباب المسلم إلى التفرق من حولهم: واجه طارق رمضان، الحفيد الأشهر لمؤسس حركة الإخوان المسلمين «حسن البنا»، حالة من الرفض من بعض مؤيديه السابقين منذ أن عينه «تونى بلير» مستشارا للحكومة البريطانية فى ٢٠٠٥.

إن مسارات القطيعة مع الأطروحة- الإسلامية- التى تتضمن ذلك الربط الصارم بين الدين والسياسة تتضاعف أكثر فأكثر لتفضى إلى ظاهرة «ما بعد الإسلام السياسى» وهى الظاهرة التى تتميز بثلاثة

المداخل الثلاثة لما بعد الإسلام السياسي لا تقوم إذن على فكرة التوسع؛ ففي السياسي الصرف لا يوجد أثر للديني وبالتالي نحن خارج نطاق الأسلمة.



مداخل مهمة: العودة إلى السياسى الصرف؛ والبحث عن الدينى النقى؛ وأخيرا التطبيع الثقافى.

المدخل الأول هو إرادة «العودة إلى المجال السياسى الصرف». إذا ما اقتبسنا مقولة «يمين مكرى» احد رواد حركات الشباب المسلم فى التسعينيات فى فرنسا. هذه العودة تعكس الرغبة فى الانخراط فى عمل سياسى يخلو من أى بعد دينى. ويمكن لهذا البحث أن يتم عبر الاندماج فى الأحزاب الأوروبية اليسارية واليمينية على حد سواء، أو عن طريق جماعات الضغط فى بروكسل. وأحيانا يمكن ابتداع تعريفات هوياتية غير دينية تتجاوز اللحظة الإسلامية إلى ما قبل ظهور الإسلام مثل «حركة أهالى الجمهورية» le mouvement des Indigènes de la République الموجودة فى فرنسا والتى تدين الطابع الاستعمارى الجديد لعملية التمييز بين المجموعات المختلفة. ومصطلح الأهالى Indigènes يلى من حيث المصطلحات لفظ «Pote» فى الثمانينيات، ولفظ «أخ» فى التسعينيات.

المدخل الثانى هو المعاكس للمدخل الأول، أى البحث عن «الدينى النقى» والذى تؤطره السلفية الوهابية القادمة من المملكة العربية السعودية. وهو تيار دينى متشبث بالتعاليم الدينية وذو طابع مذهبى يدعو إلى القطيعة مع المجتمعات الغربية. العديد من الإسلاميين اليوم يرون فى الانخراط السياسى عامل إفساد للدينى أكثر منه وسيلة تحقيق لشريعة الله على الأرض. وبتحررها من الانبهار الإسلامى بالسياسة، وعدم التزامها بالمشاركة فى المجتمع، وبدون مطالبات محددة، فإن السلفية تفضل الانسحاب من المجتمع الغربى دون الدعوة إلى هيكلة المجموعات المؤسلمة فى أوروبا.

المدخل الثالث والأخير هو التطبيع الثقافى، ويستهدف البحث عن هوية إسلامية لا تحمل وصما معينا: هوية ذات طبيعة فردانية بحيث يعتمد الخلاص على الفرد والنجاح الشخصى والفعالية بشكل يدشن عصر الناجح الورع الذى يخلف الإسلامى المناضل. التطبيع الثقافى يزدهر ضمن الثقافة الإسلامية الجديدة التى يتم إفراغها من أهميتها السابقة التى تميزت بها. فهى ليست ثقافة مضادة ولكنها عملية اشتقاق لثقافات فتية. وبالتالى فهى إذن إشارة على بدء الاندماج (فمن الحجاب الإسلامى إلى «الستريت وير» streetwear الإسلامى مرورا بالأغنية الورعة التى تتطور على شاكلة الـ-rock louange» للمسيحيين الأمريكيين بالإضافة إلى «الفريد تشيكن» fried chicken الحلال). التدين هنا هو اقل رغبة فى البروز والإظهار، ومنغمس فى ثقافة جماهيرية معولة.

المداخل الثلاثة لما بعد الإسلام السياسى لا تقوم إذن على فكرة التوسع؛ ففى السياسى الصرف لا يوجد اثر للدينى وبالتالى نحن خارج نطاق الأسلمة. فى الدينى النقى نحن فى مجال إعادة الاسلمة لكن خارج أى مشروع للهيمنة السياسية. فى التطبيع الثقافى نحن داخل الدينى لكن أيضا داخل التمازجات الثقافية الغربية وليس المواجهة أو الرغبة فى التوسع.

تصاعد التشدد الدينى:

من الجيتو إلى الهجرة

الصعوبة التى يسجلها الإخوان فى السياق الغربى لا تعنى اختفاءهم، بل هى تضعهم بالمقابل فى تنافس مع الحركات الأصولية الأخرى. وفى الطيف الأصولى الذى يملأ الفضاء اليوم، فإن السلفية الوهابية هى السائدة؛ ليست التوجهات الجهادية وإنما التزمت والتشدد العقائدى.

تنجح السلفية بقوة فى مجال التحول الدينى وهى تجذب إليها المتحولين للإسلام الذين خاب ظنهم فى الإسلام السياسى كما فى الحركات الأصولية الأكثر قدما فى الفضاء الأوروبى مثل جماعة التبليغ. وبعكس حركة الإخوان، فهى تتمدد فى الضواحى حيث تعطى مصداقية لفكرة الإقصاء والتهميش بما تدعو إليه من قطيعة مع المجتمع الغربى، فتجعل بالتالى من الوضعية التى يعانى منها المسلمون فى أوروبا، خيارا دينيا.

ومع ذلك، فالسلفية لا تشكل الرافعة الجديدة لفتح الغرب لعدة أسباب: أولا، لأنها تدعو إلى الانغلاق على النفس حتى داخل التجمعات الإسلامية فى الغرب. فهى تشجع الانسحاب من المجتمع وتخشى على إفساد القيم التى تدعو إليها. وهى ترتكز على جذب واستعادة مجموعات الشباب الذين يعتبرون أنفسهم «الفرقة الناجية» أكثر من استهدافها تأطير العائلات أو الجاليات المسلمة ككل؛ بحيث لا تهتم السلفية بالجاليات المسلمة الحقيقية بل تعتبر هجومية تجاه العائلات وتنتقد الأئمة التقليديين. إن هذه السلفية تبدو كإسلام الشباب الذين يعكسون الرغبة فى القطيعة مع المجتمعات الغربية كما مع الأقليات المسلمة الموجودة فيها، لذلك غالبا ما يتم التجنيد حيث تضعف الروابط الاجتماعية كما هو الحال لدى الأتراك وأولئك القادمين من جزر القمر.

ثانيا، ولان السلفية تقع ضمن «الدينى الصرف» فهى لا تهتم لا بالثقافة (وبالتالى بالمجتمع) ولا بالسياسة، فهى بعيدة عن أن تكون التعبير الجديد عن مشروع للهيمنة السياسية لأنها الثمرة المرة لصعوبة عملية تسييس الإسلام: إنها تعبر عن إيديولوجية تبرير و«شرعنة» لفكرة الانسحاب من وتجنب المجتمعات الغربية. فنهاية المسار إذن ليست فتح الغرب ولا بناء «جيتوهات» مؤسلمة، وإنما «الهجرة»؛ أى العودة إلى دار الإسلام (حتى إذا كان حلم العودة هذا الذى يحتاج إلى تمويل مالى نادر الحدوث).

ومن خلال تأسيس فكرة الرحيل هذه، فإن مصطلح الهجرة يضع الجيل الجديد فى نفس حالة الانتظار ودون تعبئة خلف انخراطات محتملة كما كان الحال لدى أوليائهم. فهؤلاء كانوا يعيشون ويحلمون بالعودة إلى بلدانهم الأصلية، أما الجيل الجديد فهو مسكون أيضا بالرغبة فى الرحيل لكن من البلد الذى ولدوا فيه. السلفيون إذن لا يطرحون مسائل الحجاب ولا ينتظمون للدفاع عن أئمتهم المطرودين وهم غائبون فى التظاهرات المؤيدة لفلسطين.

خارج الجالية المسلمة وبدون مشروع: العدمية الجهادية الجديدة

الجهادية المناضلة (كما فى حالة القاعدة وحركة «كابلان») تتقاسم مع السلفية غير المقاتلة رغبتها فى الانغلاق على الذات، فهى تصف بالتكفير كل خصومها الذين تحاربهم سواء كانوا يهودا أو مسيحيين أو مسلمين غير ملتزمين طبقا لتعريفها الخاص للالتزام الدينى وبذلك يشملون ضمنها الإخوان المسلمين. ولا يتعلق الأمر فى الغرب بإنشاء «مجموعات مقاومة» كما هو الحال لدى حزب الله أو حركة حماس، أو خلق ثقافات مضادة للجيتو، بل هى تخلق خلايا ورعة ومناضلة تعيش فى قطيعة مع المجتمع الأوروبى الكلى كما مع الجالية المسلمة التى تعتبرها فى حالة جاهلية وجهل بحكم الله. التشدد يعمق القطيعة مع المجتمع ومع الحى مثلما يوضحه «اوليفييه روا» فى كتابه عولمة الإسلام (Paris, Seuil, 2002).. بهذه الحالة الواسعة من اللعنة والقطيعة، فان الجهاديين الجدد لم يعد لهم مجتمعات يحررونها ولا يمكنهم التواجد سياسيا. إنهم لا يستهدفون غاية محددة (مثل تراب الدولة أو تغيير علاقات القوة أو الإطاحة بالنظام)، ولكنهم يستهدفون المواجهة والصدام الإعلامى وتدمير الرموز المرتبطة بالامبريالية السياسية (التى تمثلها القوة الأمريكية).

أصبح العنف يعتبر تضحية، ولم يعد مفهوم المجاهد يمثل تلك الشخصية المرتبطة بالنضالية العسكرية الجديدة (الذى يحارب فى حرب مقدسة) بل مفهوم «الشهيد». وبخلاف الجهاديين القدامى المرتبطين بالفضاءات الوطنية (حزب الله فى لبنان وحماس فى فلسطين و«لشكر الطيبة» فى كشمير)، فان المحاربين الجدد فى الغرب لا ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم «عادلين» بل كـ«طاهرين» يعيشون فى عالم دنس بالجاهلية، وهذا هو مصدر عدم اهتمام السلفية الجهادية باستراتيجيات تأطير الجاليات المسلمة فى الغرب وبالتالى رفضهم المطلق من قبل القوى الإسلامية الأخرى برمتها.

وبذلك، فإن التشدد يتجنب شبكة المساجد، بل بالعكس، هناك عدم ثقة بين المتشددين الجهاديين وبين فضاء المسجد: أولا لان المساجد سهلة التحكم من قبل الأجهزة الأمنية، وهى أيضا فضاءات للتفاوض مع الغرب الذى يعتبرونه ملعونا، وبهذه الصورة فان أئمته يعدون على وفاق مع الغرب. شبكة «فريد بن يطو»، كما يذكر«جان بيار فيليو» فى كتابه«حدود الجهاد» (Paris, Fayard 2006) وهى إحدى أهم الشبكات الجهادية الموجهة للعراق والتى تم تفكيكها فى فرنسا، قد تشددت بعد طرد زعيمها من مسجد ستالينغراد فى الدائرة رقم ١٩ فى باريس. نفس العملية يمكن ملاحظتها بالنسبة للمسئولين عن اعتداءات مدريد فى ١١ مارس ٢٠٠٤ والتى تشددت خارج مسجد مدريد الكبير بعد المواجهة بين زعيمها وإمام المسجد. إن هذا يؤكد أنه، سواء لأسباب أمنية أو إيديولوجية، فان التجنيد فى صفوف الجهاديين يمر عبر طرق أخرى متنوعة تمتد من مقاهى الانترنت إلى نوادى الرياضة إلى قاعات تعليم فنون القتال وصولا إلى الانترنت والسجون. فى حالة الـ«لندنستان» أى أماكن النفور الإسلامى الراديكالى، نلحظ استثناء، ولكن هنا وكما يلاحظ «اوليفييه روا» فى حالة «زكريا موسوى»، فان التشدد يحدث قبل أن يتم الالتحاق بالمسجد لاحقا، خاصة إذا كان هذا الأخير ذا صبغة متشددة أصلا؛ فى هذه الحالة فان التشدد هو الذى يقود إلى المسجد وليس العكس.

الفضاءات المختلفة للإسلام الحركى والنضالى لم تعد تجسد فكرة الفتح: فمن جهة، لان الإسلام السياسى يتحيد ويبدأ يفقد حيويته الصراعية، ويتم تجاوزه من قبل أصولية جديدة هى السلفية. ومن جهة ثانية لان السلفية التى تتجاهل استراتيجيات تأطير الجاليات المسلمة فى الغرب وتنتقد إسلامية المجتمع المسلم الواقعية، التى تؤدى إما إلى الهجرة أو إلى العدمية السياسية الناتجة عن خيار الخلاص عبر الشهادة.

الديناميكيات الاجتماعية:

عندما يسود التغريب

ويتبقى لدينا الديناميكيات الاجتماعية التى يمكن أن تحمل روح التوسع أو الفتح وتتضمن: الديمغرافيا المسلمة، تجديد الممارسة الدينية (إعادة الاسلمة بالنسبة للمسلمين والتحول الدينى إلى الإسلام لغير المسلمين) وواقع «الجيتو» كفضاء لتوزع لثقافة فرعية دينية يؤطرها تيار الإسلام السياسى.

أوهام حجة الديمغرافيا المسلمة

إحدى الحجج المركزية فى أطروحة التوسع هى فكرة الديمغرافيا المسلمة الزاحفة. هذه الحجة تشير إلى ارتفاع كبير فى معدلات الخصوبة، يتم اعتبارها واقعا يصم روحا «ولادة» مولعة بالكثرة العددية متضمنة بالماهية فى الطبيعة التوسعية للإسلام.

هناك فعلا روح تشجع على الإنجاب متضمنة فى النصوص الدينية، وأحيانا يطرق هذا الموضوع فى المنتديات الإسلامية حين يرد سؤال عن شرعية تحديد النسل، أو يطرح فى النقاشات التى تتعلق بموضوع تنظيم النسل. مع ذلك لا بد من الإشارة إلى نقطتين هامتين:

أولا: الديمغرافيا المسلمة فى تراجع كبير فى كل أنحاء العالم الإسلامى (باستثناء باكستان وبعض الدول فى أفريقيا السوداء). يشير «ايمانويل تود» ويوسف كارباج» فى كتابهما الاخير «تلاقى الحضارات» (Paris: Le Seuil, 2007) أن معدل الخصوبة لدى النساء المسلمات يكون قد انتقل من ٦,٨ طفل للمرأة الواحدة سنة ١٩٧٥ إلى ٣,٧ فى سنة ٢٠٠٥، وفى خلال فترة الثلاثين سنة الأخيرة هذه فقط، انتقلت النسبة فى المغرب من ٧,٣ إلى ٢,٤ للمرأة الواحدة، وفى الجزائر من ٢,٤ إلى ٢,٦، وفى السعودية من ٨,٥ إلى ٣,٦. أما فى تونس كما فى إيران الإسلامية، فتقع النسبة تحت خط الزيادة السكانية بسقوطها من ٧,٣ إلى ٢. ولا تقاوم المجتمعات القبلية هذا الأمر بشكل أفضل، ففى ليبيا انتقل معدل الخصوبة من ٧,٦ إلى ٢,٨، وفى الأردن من ٨ إلى ٣,٥، وفى عمان من ٨,٦ إلى ٣,٦: لقد تأخر التحديث الديمغرافى فى العالم العربى والإسلامى لكنه تم فى زمن قياسى وتسارعه الحالى ثابت.

ثانيا: هذا الانخفاض يتزامن مع حركة صعود المد الإسلامى. فلا الصحوة الإسلامية إذن ولا الحكم الإسلامى (كما فى إيران) استطاعا التأثير فى اصطفاف المسلمين خلف المعايير الديمغرافية الحديثة: أولا، حدث انعكاس فى منحنيات الولادة فى العالم الإسلامى تدريجيا وفى فترة بدأت فى دول شبه الجزيرة العربية على الرغم من كونها المكان الذى تعهد السلفية الوهابية بالنشأة والتطور. وأكثر من ذلك فان معدلات الولادة بدأت فى التراجع فى دول عرفت أوج حالات ازدهار الدينى والسياسى: ففى إيران حدث ذلك الانقلاب الديمغرافى، ليس فى عهد الشاه إبان الملكية التحديثية التغريبية، بل بحدود ١٩٨٥ أى فى أوج النشاط الإسلامى و تصدير الثورة بحيث انهارت نسبة المواليد من ٦.٨ سنة ١٩٨٥ إلى ٢.١ حاليا. أما بالنسبة لروح المجتمع المقاوم الذى يسود فى لبنان الشيعى أو فى فلسطين حيث تدفع النساء بأبنائهن إلى الجهاد والشهادة ضد الجيش الإسرائيلى، فإن هذا لم ينتج عنه «ديمغرافيا حرب» إذا ما استعرنا مصطلح «فيليب فارغس» فى كتابه «أجيال عربية»، Paris, Fayard, 2000. خاصة أن بنية النموذج العسكرى الذى طوره حزب الله فى لبنان لا يقوم على عدد الرجال بقدر ما يرتكز على المواجهة اللاتناظرية والنخبوية. أما الانتفاضة الثانية فى فلسطين، فعلى عكس انتفاضة ١٩٨٧ التى أدت إلى تنشيط نسبة المواليد، لم تؤد الانتفاضة الحالية إلى تحفيز النساء على زيادة الإنجاب.

هكذا، وعلى عكس ما حدث فى التعاليم المسيحية حيث كان الارتداد عن المسيحية (إلى جانب انتشار التعليم) احد أهم عاملين ساهما فى مخاض عملية «التحديث الديمغرافى»، فان مسار الارتداد عن الأسلمة لم يكن ضروريا فى العالم الإسلامى. أحد العوامل يرتكز على أن التدين الذى يظهر مع المد الإسلامى يرتبط بالقيم الفردية فى حين يرتبط نمو المواليد بمبدأ جماعى تمثله الرغبة فى زيادة عدد الأمة. هذا لا يعنى أن الوجود الإسلامى فى سويسرا وأوروبا سيستقر بل سيستمر فى الزيادة: عن طريق الهجرة ولكن أيضا بسبب خصوبة متزايدة مرتبطة بارتفاع سن الشباب لدى هؤلاء. ما يجانب الصواب هو ربط هذا النمو بالإسلام نفسه.

العودة إلى دار الإسلام والتحول الدينى: تتويج للفرد

تراجع نسبة السكان المسلمين تقع ضمن حركة عامة من «التطبيع السوسيولوجى» للسكان المسلمين، أى اصطفافهم حول اغلب معايير الحداثة الغربية. خارج نطاق التحديث الديمغرافى، فإن هذا التطبيع السوسيولوجى يلاحظ أيضا فى نسب التعليم والتمدن. وتراجع نسب الزيجات العائلية المرتبة تقليديا، وضعف نسب زواج الأقارب، وارتفاع سن الزواج، وارتفاع معدلات الطلاق (بمن فيهم النساء السلفيات). إضافة إلى الزواج المختلط بين مسلمات ورجال غير مسلمين والخروج الكثيف للنساء إلى العمل.



العودة إلى الدينى فى الإسلام، وكما فى التقاليد الدينية الأخرى، يحدث أولا من خلال الفرد وليس عبر مشروع جماعى. حتى لو كانت هذه العودة تتم عبر البحث عن تضامنات جماعية، وتتموضع الأشكال الاجتماعية السائدة لهذه العودة للدينى ضمن الجماعات الطوعية التى تتهيكل حول خيارات شخصية للأفراد (على عكس الانتماء لمجموعة الذى يعتبر بديهيا) وبالاعتماد على الذات، بل إن مسارات إعادة الأسلمة تقع أكثر فأكثر خارج نطاق الأطر الدينية التقليدية سواء كانت مؤسسات أو طرقا أو حركات. هكذا فالأسلمة لم تعد تمر عبر الإسلاميين كما كان يحدث غالبا، بل بصفة فردية، تسودها حالة من الترقيع، وغير منظمة: الصلاة مثلا تتعلم عبر الكتب وارتياد المساجد. ولكن لم يحدث أن حركة إسلامية أخذت على عاتقها هذه التطلعات الدينية. هناك سيادة للفتوى الفردية، وشيوع لثقافة التحريم ومقاولون خاصون للأخلاق، وحين يكون هناك تأطير فإن ذلك يحدث بفضل الحركة الاجتماعية وليس عبر المؤسسات الدينية الرسمية. بالنتيجة، يرتفع عدد الأئمة ببطء شديد فى فرنسا حيث ارتفع من ٨٠٠ سنة ١٩٩٥ إلى حوالى الـ ١٠٠٠ بعد عشر سنوات كاملة.

ولكن، وعلى النقيض من ذلك فإن هذه الفردنة هى أيضا نتاج تأثير جماعى: فوجود بيئات مسلمة (من ضواحى Bradford فى المملكة المتحدة إلى Minguettes وضواحى ليون فى فرنسا مرورا بـ Kreuzberg فى ألمانيا)، يخلق عادات ومعايير اجتماعية (مثل احترام الصيام خلال رمضان)، بينما يؤدى تعميم المؤسسات الدينية (المكتبات الدينية، مواقع الانترنت، وأماكن العبادة) إلى تحويل عملية المد الإسلامى إلى عمل ذاتى ممكن ليس فقط بالنسبة للشباب بل، وهذا هو الجديد، للمهاجرين الأوائل أيضا.

بشكل أكثر تحديدا، يمكننا أن نستخرج توجهين كبيرين لهذه العودة إلى الإسلام: من جهة، تدين يتميز بالرغبة فى التطبيع الثقافى والهوياتى يجد تمظهره فى «الستريت وير» الإسلامى والحجاب «المودرن»، وأنغام البوب الحلال ومكة كولا، و«مسلم آب». ومن جهة ثانية، أصولية تعيش على قطيعة مع النظام الغربى. ثم لا هذا ولا ذلك يتبع توجه الفتح: الأصولية كما رأينا تنتهى بفكرة الهجرة بينما ينتهى التطبيع الثقافى أو الحضارى بالتخلى عن فكرة البديل والتى تقدم نفسها بوصفها إضافة روحانية لثقافة غربية مقبولة كونيا.

أما بالنسبة لحالات التحول الدينى فهى موجودة لكن دون أن تمثل حالة عامة ظاهرة. تقيم مصادر فى وزارة الداخلية فى فرنسا عدد الذين تحولوا إلى الإسلام باثنى عشر (١٢) تحولا يوميا فيما يوجد ٥٠٠٠٠ متحول إلى الإسلام فى فرنسا. من جهة ثانية فإن التحول الدينى فى الاتجاه الآخر يزداد بحيث يقدر فى فرنسا بـ ٨٠٠٠ متحول مسلم إلى المسيحية فى السنة، خاصة تجاه البروتستانتية فى مقابل ٤٠٠٠ حالة تحول إلى الإسلام سنويا. وليس هناك تقديرات موثوق منها بشأن التحول الدينى فى سويسرا.

يجب أن نتذكر من جهة



في الديني النقي نحن في مجال إعادة الأسلمة لكن خارج أي مشروع للهيمنة السياسية. وبالتالي خارج فكرة التوسع



أخرى أن الأطر التنظيمية وإن كانت تثمن التحول الديني، فهي لا تسمح بتمدد تأثيرهم داخلها: فنادرا ما يتبوأ المتحول دينيا مكانة داخل تيار الإسلام السياسي. فقط السلفية العلمية أو الجهادية تمنحهم مكانة (٢٣ بالمائة من المتحولين في فرنسا جاءوا من السلفية حسب تقرير للاستخبارات العامة ورد في صحيفة لوموند بتاريخ ١٢ يوليو ٢٠٠٥) وهي فعلا تشكل الحركة الوحيدة التي لا ترتبط بمكان محدد ولا تخضع لثقافة، وهي المسئولة عن التمفصل الذي وقع بين النشاط الإسلامي في الغرب وبين القضايا الشرق أوسطية: الشيء الذي يقتلع الانتماء الديني عن الانتماء الاثني ويسهل اندماج ذوي الأصول الغربية من غير العرب داخل السلفية.

في قلب «الجيتو»: إقصاء وغياب للأطر الجماعية

ماذا عن «الجيتو» إذن؟ جيوب المسلمين هي حقيقة واقعية في أوروبا، لكنها لا تشكل نقطة انطلاق لعملية توسع إسلامي ولا حصان طروادة يخترق الغرب. أما الرؤية التي تقول بأن السكان المسلمين موجودون تحت وصاية إسلاميين يقودونهم على أساس من مشروع قائم على القطيعة الجماعية مع المجتمع المحيط، فهذا يبدو مبالغا فيه حتى مع الاعتراف بوجود درجة من الرقابة الاجتماعية.

«الجيتو» لا يتهيكل حول إستراتيجية سياسية للجماعية بل هو نتاج للعمليات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المعقدة. هو نتيجة أيضا لموقف السلطة ليس فقط في الدول التي تسود فيها أيديولوجية التأطير المجموعاتي (مثل هولندا وبريطانيا مثلا) ولكن أيضا في الدول حيث تسود اللائكية بشكل قوي كما في فرنسا: فمداعبة الزعماء الدينيين في إطار الاستراتيجيات الانتخابية، وتوزيع السكنات الشعبية على أساس اثني وعرقي أحيانا، ومحاولة استخدام وسطاء من القيادات الاجتماعية والدينية لإدارة الضواحي: هذه الاستراتيجيات تشكل كلها ممارسات منتجة لجيوب عمرانية موحدة دينيا وعرقيا.

أما بالنسبة للعلاقة بين الإسلام والإسلاميين مع مسألة الجيوب المسلمة، فهناك عدة نقاط يمكن إيضاحها:

أولا: الإسلام السياسي المرتكز على الطبقة الاجتماعية الوسطى وعلى نموذج نخبوي ليس له تأثير قوي على الضواحي: عدم فعالية الفتوى التي تضمنت الدعوة إلى التزام الهدوء والتي وجهها اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا، ذو القرابة الإيديولوجية مع حركة الإخوان المسلمين، خلال أعمال الشغب التي حصلت في فرنسا سنة ٢٠٠٥ تظهر ذلك بوضوح. الحركات الإسلامية (السياسية والوعظية) موجودة هنا فعلا، ومع ذلك فهي تظل بدون مواقع للهيمنة: إنهم يشكلون عناصر من ضمن أخرى من النسيج الاجتماعي في الضواحي في الغرب وهم في النهاية بدون تأثير كبير. بالنسبة للسلفيين فهم يملكون خطابا يدعو للانغلاق على الذات إذ يثمنون التضامن بين الأتقياء، ويطورون استراتيجيات لتجنب المجتمع المحيط، وهم حاضرون جدا في الضواحي لكنهم لا يسيطرون: أولا لأنهم لا يملكون تأثيرا عدديا كافيا، ثانيا لأن السلفية ليس لها تراث تنظيمي يسمح لها بممارسة هذا الدور، وأخيرا لأن السلفي لا يستهدف كما قلنا إنشاء فضاءات مدينية مؤسلمة، سواء أكانت ثائرة أم مسالمة، بل الهجرة والعودة إلى دار الإسلام.

بشكل خاص، نلاحظ أن القيم السائدة في الأحياء ذات الغالبية المسلمة هي قيم فردية استهلاكية وقيم السوق، أعلن «ايمانويل تود» في «مصير المهاجرين» (Paris, Seuil, 1994)، عن تفكك البنى التضامنية المغاربية وهذا هو ما يحدث بشكل عارم: هناك انخفاض نسبة زواج الأقارب لدى الرجال والنساء (نسبة الزواج المختلط من غير المسلمين لدى النساء الجزائريات انتقل من ٦,٢ إلى ٢٧,٥ بالمائة بين سنوات ١٩٧٥ و ١٩٩٠، أما بالنسبة للمغربيات فقد انتقل من ٤ إلى ١٣ بالمائة)، وصعوبة كبيرة في الانتظام الجمعوي، ضعف سلطة العائلات. هناك ضعف آخر يسجل على مستوى مدارس المسلمين بحيث إن المشاريع القليلة السارية اليوم ليست أكثر من مجرد رد فعل للقانون الذي صدر حول الرموز الدينية في المدارس الفرنسية سنة ٢٠٠٤ ولا تعبر عن اتجاه مهيكل يعم فرنسا، ومن المفارقات الملحوظة، هو أن المسلمين في هذا الإطار هم الأقل بالنسبة للمسيحيين كما لليهود من حيث تعبيرهم عن تأطير فعلي لأتباعهم. ففي حين أن هناك ٣٠٠٠٠ طفل يهودي متمدرس في فرنسا في ٢٥٦ مؤسسة دينية، وأن كل الثانويات المسيحية رفضت ٢٠٠٠٠ طلب دخول جديد إليها بسبب نقص الأماكن سنة ٢٠٠٥، فليس هناك سوى ما يقرب من مائة (١٠٠) تلميذ فقط مسجلين في المدرستين المسلمتين العاملتين حاليا. أما التصويت «الإسلامي» فهو لا يجدي نفعا لأنه وببساطة لاحظنا كيف أن القوائم التابعة للمجموعات العرقية - والنادرة أصلا - وحتى في حالة حصولها على دعم المساجد، فهي تمنى بالفشل. ما يسود في «الجيتو» هو التفكيك والإقصاء، حتى عندما تظهر تعبئة الديني كرد على هذا التفكيك وبالرغم من وجود السيطرة الاجتماعية المؤسسة على القيم الإسلامية.

المسجد في كل هذا؟

موضوع التوسع الإسلامي يعاني من خلل يقوم على الخلط بين أربعة مستويات: الديمغرافيا، والتدين، والجيتو والمشروع السياسي: يفترض أن المشروع السياسي يستهدف «الجيتو» وينبثق من تدين غير قادر على الفصل بين السياسي والديني، مؤسسا «لأيديولوجية إسلامية» تشجع على نسبة مواليد خيالية. لكن وكما رأينا، الديناميكيات على مختلف المستويات تنفصل عن بعضها البعض بوضوح: الديمغرافيا الإسلامية في حالة انخفاض عام وهي تخيب آمال عدد من الإسلاميين مثل «احمدي نجاد» الذي يرى فيه اصطفافا لصالح الثقافة الغربية (لكنه يخلط بين التحديث والتغريب)، «الجيتو» موجود فعلا وهو مفروض أكثر من كونه اختياريا وداخله يسود التفكيك. التدين فعلا في حالة يقظة وانبثاق لكنه بالمقابل يمر عبر الفرد وتأطيره الآن ينفلت من يد الإسلام السياسي.

أما بالنسبة للمسجد فهو حينا على خلاف مع الجيتو وحينا ضد التشدد حتى إذا كان يساهم في توليد المحافظة.

المسجد يعارض منطق «الجيتو» لأنه أساسا، يشكل فضاء للتفاوض من اجل الحصول على تصريح بإدارة المعارضة المحتملة.. الخ. هذا المشروع يفترض أو ينتهي إلى إجراء عملية اتصال مع المحيط السياسي والاجتماعي: مثل عمدة البلدية، الجيران والمصالح الإدارية للبلديات. لذلك تلوح أهمية محاولة استثمار الرصيد الانتخابي الذي يمثله المسجد: لا سيما للحصول على أصوات لرئيس البلدية كما يسحبها منه في حالة إبدائه العداء، وسيتم ذلك من خلال التفاوض مع مختلف المرشحين لأجل الحصول على منافع للأتباع. وشيئا فشيئا يتحول مسيرو المساجد إلى أعيان للمدينة التي يقيمون فيها. يذكر «برنار غودار» المستشار لدى مكتب المركزي للديانات في فرنسا، كيف أن وزير الداخلية لا يصدق بأن المساجد يمكنها القيام بوظيفة تنظيمية وكيف يعتبرها بعيدة جدا عن الأسئلة الحقيقية كالتشدد وحالات اليأس. بالإضافة إلى ذلك، فإن المسجد حاليا هو فعلا عامل مهم لاحتواء العنف، فالتشدد لا يمر عبر المساجد، بل عبر القطيعة مع المسجد كما رأينا ذلك عبر مسارات التشدد في شبكة «بن يطو» والمسئولون عن اعتداءات مدريد.

المسجد يولد الرقابة الاجتماعية كما يؤدي إلى نشوء ظاهرة الأعيان. وتظل المساجد في مجموعها مسيرة من طرف المهاجرين القدامى الذين كانوا حتى نهاية التسعينيات يفضلون الحذر، ثم بعد ذلك أصبحوا قلقين من فقدان الاتصال مع محيطهم لاحقا. ولأن المساجد تعني المفاوضات والاتصال بالمحيط والتحول إلى أعيان، فإن السلفية لا تهتم كثيرا بإدارتها أو السيطرة عليها، وفي أحسن الأحوال استخدامها لنشر خطابها الخاص.

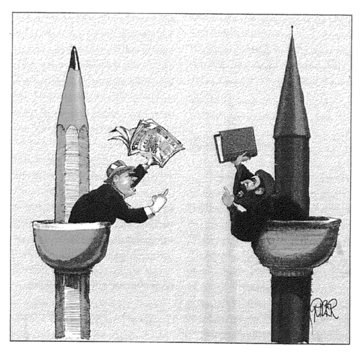
المبادرة حول المآذن تطرح أسئلة جيدة حول مستقبل الإسلام في أوروبا، وأشكال التعبئة التي تتم باسم الإسلام، وعلاقته بالغرب. رغم ذلك فالتركيز على المبادرة يحول الموضوع إلى مسألة عبادية وإيديولوجية. بذلك فهي تتجنب الأبعاد الاجتماعية والسياسية، ولكن المشكلات الحقيقية إنما تظهر في هذه الأبعاد وهي ستستمر بالظهور.. بوجود المئذنة أو في غيابها. ■

في التطبيع الثقافي نحن داخل الديني بالتأكيد، لكن أيضا داخل التمازجات الثقافية الغربية وليس المواجهة أو الرغبة في التوسع



أجندات سياسية.. واستراتيجيات في نقد الإسلام

أوليفيه موس
Olivier Moos



■■ المبادرة الشعبية التى تستهدف حظر بناء المآذن فى سويسرا ليست فقط نتيجة لسياق سياسى خاص، فالخطاب النقدى لأصحابها يتموضع فى إطار منظور أوسع. هذا الخطاب يستمد لغته ومفرداته ومنطقه من تيار النقد تجاه الإسلام الذى تطور فى أعقاب تفكك النظم الشيوعية، ثم تدعم بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. المبادرة حول المآذن توضح قدرة هذا التيار العابر للحدود على أن يوطد نفسه فى سويسرا ويستغل الفرص التى يتيحها له نظامها السياسى.

من الخطر الشيوعى

إلى الخطر الإسلامى

منذ نهاية الحرب الباردة ونحن نلاحظ انبثاق حركة فكرية تتمحور حول نقد الإسلام (أو الإسلام السياسى) تتلو لائحة من التهم التى كانت متضمنة فى حركة معاداة الشيوعية. اختفاء الاتحاد السوفيتى وعدم توضح الرؤية بشأن العدو المحتمل أنتجت الحاجة إلى وضع هذه المناظرة الجديدة. ومنح ذلك فى آن واحد، فرصة لتحديد الملامح التى تسمح بتقديم تعريف للغرب، وتوفير إطار ملائم للتحول الذى طال الفاعلين المسؤولين عن تحديد مصادر التهديد الذى يترصده. لقد تم استبدال شرق سوفياتى قابل للتسجيل وقريب جغرافيا ومعاكس إيديولوجيا بفضل وجود الأحزاب الشيوعية فى أوروبا. ووضع مكانه الشرق، غير القابل للقياس، المختلف بشكل جوهرى. المزيج من المخاطر الإسلامية، والصراعات خفيفة الحدة، وتدفقات الهجرة، والجرائم العابرة للحدود. أحداث كثيرة ساهمت فى هذا الانتقال منذ الثورة الإيرانية ١٩٧٩، والحملة الإسلامية التى قادها القذافى بين ١٩٨٠ ومنتصف التسعينيات، ثم قضية سلمان رشدى ١٩٨٩، والأزمة الجزائرية من ١٩٩٢ إلى اليوم، وتفاقم الصراع الفلسطينى الإسرائيلى والجدل الذى صاحب اتفاق أوسلو ١٩٩٣-١٩٩٩، ووصولا إلى اعتداءات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. هذه الأخيرة التى انتهت بتكريس هذه التهديدات وتجميعها تحت مسمى «الإسلام السياسى» فى شكل دليل بتعريفات متنوعة تميل فى الواقع إلى أن تجمع تحتها، وفى آن واحد، أشكالا متنوعة من النضال الإسلامى، ومظاهر الوجود المسلم المتزايد بوضوح فى أوروبا.

النقد الجديد تجاه الإسلام:

الاستشراق الجديد

إلى حد كبير، فان إعادة التعريف هذه سيتم التنظير لها ومنحها المصداقية من طرف نفس هذه الحركة الفكرية التى توفر الآن اللغة والمنهج المستخدم من طرف أصحاب المبادرة حول المآذن والمعارضين لها فى سويسرا. هذا التيار لا يمثل مدرسة فكرية ولا وحيا محددا بوضوح، بل ما يشبه الرواية التى تتعلق بالمواجهة بين الإسلام والغرب. بمنطق الرواية ، نحن نحيل إلى أحداث لها علاقة بالإسلام يتم ربطها بالغرب، وحيث يفترض أنها تفسر وتكشف عن حقائق لكن عبر استخدام حبكة موضوعة مسبقا. بالاعتماد على الموقف العام القائم على مبدأ الدفاع عن الديمقراطية، فان هذه الرواية تستعيد لنفسها نفس مفردات الحرب الباردة وسلسلة من الافتراضات الموروثة من الاستشراق التقليدى كما وصفه باقتدار «ادوارد سعيد» (١٩٣٥-٢٠٠٣) فى نهاية السبعينيات: ومن خلال هذه العدسة الثقافية يظهر الإسلام كعامل وحيد يفسر الدوافع والممارسات الاجتماعية والسياسية للمسلمين. هكذا، ليست كراهية الأجانب هى التى تقع فى قلب هذا الانتقاد، ولكن «الإسلام» كإيديولوجية والمسلمين كقطع تقع خارج سياقات الزمان والمكان. إن هذا المنظور وبهذه الصورة يصبح قادرا للامتثال لمختلف الأجندات السياسية والإيديولوجية، المحلية والدولية.

فى الولايات المتحدة الأمريكية كما فى أوروبا، يقترح أنصار هذه الرواية أن يتم حل القضايا والرهانات المختلفة التى يكون الإسلام موضوعها من خلال ثنائية الشرق والغرب: فمنذ الجدل الذى أثير فى فرنسا حول الحجاب ١٩٨٩-٢٠٠٠ مرورا بالبرلمانية الهولندية السابقة Ayaan Hirsi Ali ووصولا إلى خطاب الرئيس بوش فى فترة ولايته ٢٠٠١-٢٠٠٩ حول دواعى غزو أفغانستان، أصبح هناك عدد لا يحصى من السياقات التى يمكنها أن تفسر باستخدام ثلاثة محاور تحليل رئيسة على النحو التالى:

١- نحن نتعامل مع عالم إسلامى حيث الهويات الاجتماعية والدينية والسياسية ثابتة ومجزأة وغير قابلة للتطور أو الامتزاج.

٢- الحيز الإسلامى استثنائى من الناحية الثقافية ويستعصى على الحداثة

٣- مظاهر العنف التى تمتد من قضية الحجاب المفروض على النساء إلى الهجمات الانتحارية تجد سببها فى العقلية الإسلامية نفسها.

هذه الأفكار تبدو جذابة من حيث أنها تقدم نموذجا تحليليا عالميا قابلا للاستخدام من الضواحى الفرنسية إلى المناطق القبلية الباكستانية، وهى تجعل التحديات المعقدة ثابتة بفضل ما توفره من صيغ تأكد وقدرة على التنبؤ بحيث تمحو ما هو عارض لصالح ثبات وفعالية الثقافى والدينى والأنثروبولوجى. الأفكار حول هذه الاستثنائية والحتمية مفيدة: فهى من جهة تدعم المواقع الاحترافية لمتعهدين خبراء (متخصصون، مثقفون، سياسيون، وصحفيون) مكلفين بالحديث عن جذور

هذه الرواية تستعيد لنفسها نفس مفردات الحرب الباردة وسلسلة من الافتراضات الموروثة من الاستشراق التقليدي كما وصفه باقتدار «ادوارد سعيد» (١٩٣٥ ـ ٢٠٠٣) في نهاية السبعينيات



التهديد الملموس منه فعلا أو المحتمل وتفسيرها (الإسلام أو المسلمون يقومون بالفعل بناء على كذا نص وكذا حديث)، من جهة ثانية هي تستجيب لحالة الفراغ التي نجمت عن اختفاء العدو السوفياتي وكذا المخاوف التي تسببها عمليات العولمة، وذلك من خلال الإشارة إلى «غيرية» (من الغير) جديدة تحيل إلى وجود المعسكر الثقافي المتجانس الذي يمثله «العالم الإسلامي» وفق النموذج -الصالح أم لا- والذي وضعه صامويل هنتنجتون (١٩٢٧-٢٠٠٨).

الخطاب الاستشراقي الجديد إذن مرن بما فيه الكفاية ليستوعب متطلبات وأشكال النقاش المحلية (كما تبرهن عليه هذه المبادرة)، وهو صارم بما يكفي ليقدم نموذجا تفسيريا متنوعا قابلا للتطبيق على عدد لا يحصى من الأحداث المرتبطة بالإسلام. وبدون أن تكون هذه الرواية «كاذبة» تماما من الناحية الواقعية والكمية، فهي بالمقابل تصبح غير عملية من الناحية النوعية. إذ سيكون من العبث محاولة فهم استراتيجيات الأفراد أو الجماعات المسلمة بالاعتماد على نموذج يقوم على السببية الدينية: سيستحيل فهم مسار صنع القرار في إيران باختصار العوامل المسؤولة في الجانب الإيديولوجي فقط. كما لا يمكن فهم مسألة ارتداء الحجاب المطبوع بعلامات تجارية غربية في شوارع أنقرة وباريس بإرجاعها إلى فكرة «خضوع المرأة». ورغم كل الطموحات التي تحملها هذه الرواية فهي لا تشكل شبكة صالحة للتفسير بل هي فقط تروي وبشكل حرفي، من «نحن» ومن «هم» الذين يشكلون الآخر.

في «ما يختبئ» خلف موضوع المئذنة..

كل الحجج المقدمة والطريقة التي رتبت بها هذه الحجج في المبادرة ضد المئذنة تضع الموضوع ضمن اتجاه النقد الموجه للإسلام. وبالفعل فبالاعتماد على قراءة محايدة للمشكل الإسلامي مع الديمقراطية، خاصة فكرة الجمع بين السياسي والديني في الإسلام، مضافا إليها «طبيعة» توسعية غير متلائمة مع دولة القانون لدينا، فان هذا الاقتراح بتعديل الدستور يقوم بخلق المشكل ومن ثم ليتم بلورته انطلاقا من مقدمات تنتمي إلى الاستشراق الجديد بحيث تبدو مصادر الإيحاء فيه كافية ونتاجا لأوساط متنوعة جدا.

يتجمع حول هذه الرواية فاعلون متنوعون وكتاب بدوافع كثيرة وأحيانا متناقضة تمتد من الالتزام السياسي ووصولا إلى الانتهازية الإعلامية، مرورا بخدمة أجندات سياسية واستراتيجيات تموقع مهني. سنجد أن هناك مجموعة كبيرة من شبكات البث وجماعات ضغط وفاعلين يخضعون للتنسيق، يغذون رواية قائمة على لغة وحجج محددة بما فيه الكفاية بالشكل الذي يسمح لنا فعلا بالحديث عن حركة فكرية. ويأتي هذا التحرك من دوائر النفوذ والكتاب الذين يتمتعون بالتأثير أو بالخبرة الفكرية: أستاذ الصحافة «بول بيرمان» Paul Berman وكتابه «الإرهاب والليبرالية» Terror and Liberalism. 2003)، أو دائرة الخطابة في باريس التي ينسقها الصحافي «ميشيل توبمان» (Michel Taubmann) مرورا بمراكز التفكير think-tanks التي عادة ما تجتمع فيها المسائل السياسية والنقد الموجه للإسلام (أوالإسلام السياسي) («شركة بنادور» Benador Associates في نيويورك، ومعهد اتلانتيس Atlantis Institute في بروكسل)، ووصولا إلى طيف متنام من مناضلين ذاتيي التكوين الناشطين في المدونات ونوافذ الانترنت مثل Ajm.ch (2004-2008) في سويسرا أو (LibertyVox.com) في فرنسا. في الولايات المتحدة هناك فاعلون متميزون كمثل «دانيال بايبس» Daniel Pipes، مدير مركز منتدى أبحاث الشرق الأوسط Middle East Forum، والناشط «روبرت سبنسر» Robert Spencer وموقعه الالكتروني Jihadwatch.org أو أيضا مجلة FrontPage Magazine التي يظهر فيها «ديفيد هورويتز» David Horowitz وضيوفه الكثيرون. على الجهة الفرانكفونية سنجد المختص في الجغرافيا السياسية «الكسندر ديل فالي» Alexandre del Valle، والمؤرخة «بات يجاور» Bat Ye'Or والاسلامولوجية «أن ماري دلكامبر» Anne-Marie Delcambre، هؤلاء يجسدون الشخصيات الرئيسية التي تمثل القراءة التي تنتمي إلى الاستشراق الجديد.

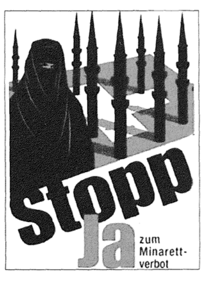


هذه المقاربة للحالة الإسلامية لا تقتصر على قطاعات هامشية معينة أكثر أو أقل تطرفا من الناحية الإيديولوجية بل تخترق الانقسامات السياسية والإيديولوجية التقليدية. والحال أنها تتصلب وتتحول تدريجيا إلى خطاب غير قابل للنقد، وذلك عبر المدونات التي تسمح لها بتجاوز القيود الموجودة في الصحافة المطبوعة، كما تمثل مصدر التجارة المربحة التي يمارسها تيار اليمين الوطني، إضافة إلى أنها تظهر أيضا وبشكل أكثر دقة في أوساط «اليسار المعادي للشمولية» في فرنسا، لتتقاطع مع معارضي الكنيسة الذين تحولوا إلى انتقاد الإسلام، والمدافعون عن الهوية العلمانية، وبعض النسويات، والداعمون لمبدأ التدخل الإنساني.

وبتأثير تسرب هذه الحجية، تتمتع هذه الافتراضات بقدرة على التأثير بشكل أكثر إلحاحا من أي وقت مضى في مجالات وسائل الإعلام والمثقفين والسياسيين الأوروبيين، والسويسريين بالطبع، الذين يخدمون أجندات سياسية فيفككون بعض الخطابات بتخفيف حدة حمولاتها الإيديولوجية. بهذا الشكل، وعلى سبيل المثال، انحرف المستشرقون الجدد من لفظ «العربي» نحو لفظ «المسلم» عبر خلعه من جذوره، الأمر الذي سهل الاستقبال المخفف نسبيا لكتاب الصحافية الايطالية «اوريانا فالاتشي» Oriana Fallaci (١٩٢٩-٢٠٠٦). «الغضب والكبرياء» (Paris, Plon, 2002) والذي ينضح بكراهية الأجانب، من قبل عدد من المثقفين الأوروبيين الذين يصنفون في خانة المدافعين عن القيم الديمقراطية، أو في صورة البطل التي منحت للفيلسوف الفرنسي «روبير ريديكير» Robert Redeker («في مواجهة الترهيب الإسلامي، ما الذي يجب على العالم الحر فعله؟»، لوفيجارو، ١٩سبتمبر ٢٠٠٦) ومن قبل نفس الكتاب.

المئذنة كمرآة للهوية

التصور المرتبط بلفظ «الإسلام» يغذي سجلين من عدة مستويات، الظاهرة والمستترة، كما يتضح في كثير من النواحي في حجج المؤيدين للمبادرة. النائب «والتر فوبمان» (عن الاتحاد الديمقراطي للوسط)، يوضح في مقالته بعنوان «أسباب إطلاق المبادرة ضد المآذن» (Minarets.ch يونيو ٣، ٢٠٠٧): «(...) تنص بوضوح على أن الإسلام ليس إلا ضيفا في سويسرا، وبالتالي في بلد ذي عمق مسيحي وديمقراطي»، وأنه من المتوقع من المسلمين «أن يندمجوا بسرعة» وفقا للقوانين ولكن أيضا «وفقا للقواعد غير المكتوبة»، وهذا يشمل أيضا «وضع المرأة في المجتمع، وتعليم السباحة في المدرسة، وما إلى ذلك»؛ هذه هي القواعد التي تسخر منها عملية أسلمة مجتمعنا اليومية. وتتفق مع هذه الرؤية، النائبة «ياسمين هوتر» (عن الاتحاد الديمقراطي للوسط أيضا): «المدارس تتخلى عن أعياد الميلاد بناء على طلب من الأولياء المسلمين، ولحم الخنزير ممنوع في قوائم أغذية السجون، والفتيات المسلمات معفيات من تعليم السباحة أو معسكرات الرياضات الشتوية. (...) وحرصا على الديمقراطية



السويسرية والمساواة بين الجنسين، فمن الضرورى للغاية وقف المحاولات الإسلامية لاحتكار السلطة؛ والمآذن هى بالتحديد رموز هذه الإمبريالية». («الشريعة والمئذنة فى نظر المرأة»، على موقع Minarets.ch، ٨ يوليو ٢٠٠٨)

وخلف ذلك كله تندفع الملامح الضمنية التى تحمل انتماء سويسريا بوعى يزيد أو يقل. فالمئذنة تظهر هنا كرمز للهوية الإسلامية وهى تسهم، وبشكل خاص، فى التعبير عن حقيقة خفية أو مكبوتة تظهر للعلن؛ وحيث يتم توصيفها بأنها حامل لعملية أسلمة للمجتمع السويسرى، فهى تستدعى صورة عن حالة من «الغيرية الإسلامية» (المهاجرون المسلمون، والحجاب، والزواج القسرى، والإرهاب «الإسلامى»... الخ). التى تمارس عنفا تجاه البلاد وقيمها المسيحية والديمقراطية. إن ذلك هو البعد الأول من الخطاب.



وثانيا، الملامح السويسرية موجودة من خلال مجموعة شاملة من الدلالات، لها علاقة بما يمكن الشعور به، وبالممارسات اليومية، والبروتوكولات التى تحكم العلاقات بين الجنسين، والأذواق، والعادات، وحتى الإشارات السمعية، حيث مثلا وكما يتنبأ أصحاب المبادرة، فإن نفس الحجج المستخدمة اليوم لتبرير بناء المآذن، سيتم استخدامها فى الخطوة المقبلة للسماح بوجود المؤذن. (نشرة «المئذنة ومعناها» على موقع المبادرة: Minarets.ch). هذه المبادرة هى أيضا ممثلة فى صورة وشعار تتضمن إشارات رمزية قوية؛ حيث يظهر فى شعار المبادرة شكل لمئذنة حادة تخترق سويسرا من خلال صورة لقلب صليب سويسرى. ويتضمن ذلك تعبيرا عن شرف المواطنة الذى تمزقه أعمال عنف تمارسها هوية إسلامية زاحفة وقاهرة، لكن ذلك لا يتم عن طريق العدد بل عبر الإسقاطات، والنشرات والخيالات التى تقود تقدمه الواضح. نشرية المبادرة أيضا تمزج، وبشكل استراتيجى، بين صورة ومقولة مقتبسة لرئيس الوزراء التركى «رجب طيب أردوغان»، مع إدراج مسألة طقوس الذبح الشرعى، وصورة من الحشود «الغازية» لمسلمين يصلون على باب البرلمان للاحتجاج على الرسوم الدنمركية للرسول (محمد) بين سنتى ٢٠٠٥ و٢٠٠٦. فصورة «اردوغان» العضو ضمن حزب ينحدر من تيار الإسلام السياسى التركى (حزب العدالة والتنمية) تحيل إلى التهديد الذى تمثله تركيا «الإسلامية» والتى تقف على عتبة أوروبا. وبشكل مواز فى الأدبيات الاستشراقية الجديدة فى أوروبا؛ يتم تقديم المآذن باعتبارها حصان طروادة فى مدن بلادنا والخطوة الأولى فى عملية غزو ثقافى تكشف هوامش التطرف فى هذه الحركة فى عبارات مشابهة جدا لمحتوى المبادرة. ثم هناك طقوس الذبح التى تنسب إلى الإسلام الممارسات الوحشية والدموية، ثم تلك المساواة بين مسألتى القبول بحظر المآذن ورفض ونبذ العنف «الإسلامى». ثم صورة المسلمين فى الصلاة أمام البرلمان التى تدلل على حصار رمزى لحكومتنا من قبل حشود أجنبية. وعلى الرغم من أن الأطراف ترفض هذه الاستدلالات التى تقوم على أساس الحجج والصور التى اختارها أصحاب المبادرة، فان مسألة المئذنة تتضمن بدون شك تعبيرا عن رفض أوسع «للإسلام». إن الأساس المنطقى لهذه المبادرة يحمل المئذنة قدرا من المعانى السياسية والإيديولوجية التى تعمل على طرح فكرة النقاش أكثر من طرح السبب.

حين سئل المستشار الوطنى للاتحاد الديمقراطى للوسط «اوسكار فرايزنغر» من قبل صحفية من جريدة «الواشنطن تايمز» بمناسبة إطلاق هذه المبادرة، عن مكانة إسرائيل فى فكر الحزب الديمقراطى للوسط فى مواجهة «الخطر الإسلامى»، قدم هذا الأخير إجابة كاشفة: «حزبنا دافع دائما عن إسرائيل، لأننا ندرك جيدا انه إذا اختفت إسرائيل فسنفقد طليعتنا (...). فطالما يركز المسلمون صراعهم على إسرائيل، فالنضال سيكون سهلا بالنسبة لنا. لكن بمجرد أن تختفى إسرائيل، فسوف يلتفت المسلمون إلى الغرب. (...) أحزاب جناح اليمين فى أوروبا يجب أن يوحدوا جهودهم لمحاربة الاسلمة».

المئذنة إذن، وأكثر من كونها حاملا لعملية مزعومة لأسلمة المشهد السويسرى، تميل إلى أن تصبح أداة للاستخدام السياسى لمخاوف الجمهور، سواء أكانت مصطنعة أو مشروعة، تجاه موضوع الهوية الإسلامية. وخلف الاعتراض على المآذن تقبع مسألة بروز الإسلام والتفسيرات التى تثيرها هذه الظاهرة، وهذه هى المشكلة الحقيقية. ■

كتاب الزاوية

نظرات تأسيسية فى فقه الأقليات
طه جابر العلوانى

الدكتور طه جابر العلواني من أهم من كتبوا في فقه الأقليات. ولد عام ١٩٣٥، في العراق. وهو رئيس المجلس الفقهي بأمريكا منذ عام ١٩٨٨، ورئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية (SISS) بهرندن. فيرجينيا. الولايات المتحدة الأمريكية. حصل على الدكتوراة في أصول الفقه من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر في القاهرة. مصر. عام ١٩٧٣. كان أستاذاً في أصول الفقه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، المملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٧٥ حتى ١٩٨٥. في عام ١٩٨١ شارك في تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة. كما كان عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة. وعضو مجمع الفقه الإسلامي الدولي في جدة. هاجر إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٨٣. يرأس طه العلواني الآن جامعة قرطبة الإسلامية في الولايات المتحدة. يسكن مع عائلته في القاهرة.

من مؤلفاته

- الاجتهاد والتقليد في الإسلام
- أدب الاختلاف في الإسلام
- أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة
- إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم
- التعددية: أصول ومراجعات بين الاستتباع والإبداع
- حاكمية القرآن
- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير
- الجمع بين القراءتين

وهنا اقتباسات من كتابه «نظرات تأسيسية في فقه الأقليات».

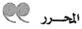




نيكولاس بيلهام - ماكس رودنبيك

Nicolas Pelham - Max Rodenbeck

منذ أن أدار لها المجتمع الدولى ظهره، رافضا الاعتراف - عمليا - بنتائج الانتخابات «الحقيقية» التى أتت بها إلى الحكم. ومنذ أن فرض الإسرائيليون الحصار على غزة عقابا للفلسطينيين على احتكامهم على صناديق الاقتراع، ومنذ توافقت الحكومات العربية المعنية مع السلطة الفلسطينية على ترك «هؤلاء الهواة / عديمى الخبرة» للزمن، و«حماس» التى جىء بها من خنادق المقاومة إلى دوائر الحكم، تواجه تحديات لاتتمثل فقط فى إدارة وتدبير شئون شعب تحت الحصار، بل وفى التعامل مع تيارات داخلها وخارجها تميل أكثر فأكثر إلى التشدد، وتساعدها كل الظروف الخانقة، وانتشار مشاعر اليأس والإحباط على الازدهار.
كيف يقرءون فى الغرب مايجرى فى غزة؟ هنا مقال لكاتبين يناقشان فيه كتبًا ثلاثة من قائمة طويلة صدرت هناك (أكثر من خمسين كتابا فى عام واحد) عن حماس وغزة.. والقضية.

 **المحـــرر**

[١]

■■ وسط الحطام فى غزة، يجاهد قادة حماس للظهور بمظهر متفائل. ويتجنب وزير الداخلية قوى البنيان، فتحى حماد، الذى قتل سلفه سعيد صيام بقنبلة إسرائيلية، يتجنب - متحديا - الاحتياطات الأمنية فى مكتبه المؤقت بمقر الشرطة الرئيسى فى مدينة غزة.

يقول الوزير، الذى ذكر أنه كان يفضل لو أنه كان يحضر لنيل درجة فى الدراسات الإعلامية «إن المزاعم بأننا نحاول إقامة دولة إسلامية كاذبة. حماس ليست طالبان. وهى ليست القاعدة. إنها حركة إسلامية معتدلة مستنيرة».

لم يكن مثل هذا الكلام هو الجهد الوحيد للعودة إلى الحياة الطبيعية. فقد انتشرت هذا الصيف المظلات وكبائن الشواطئ على طول الساحل الرملى لغزة البالغ طوله ٢٨ ميلا، والذى يعد المتنزه العام الرئيسى للقطاع المزدحم.

تم قصف مبنيين للجامعة الإسلامية، وهى أهم مؤسسة تعليمية لحماس، ولكن الجامعة أقامت حفل تخرج بأضواء احتفالية وسلسلة من البالونات متعددة الألوان وملصقات بشكل القلوب تتمنى مستقبلا ناجحا لطلابها الذين كان معظمهم من النساء اللاتى تباهت بعضهن بارتداء الجينز والكعوب العالية تحت عباءاتهن السوداء. وفى مسرح بجوار البرلمان الفلسطينى، الذى دمرته القنابل أيضا، رقصت الممثلات وتمايلن فى العرض الأول لمسرحية «نساء غزة وصبر أيوب» تحت رعاية الحكومة.

إن مثل تلك الأحداث تعكس جانبا واحدا من الصراع الدائر داخل حماس بين الواقعيين الذين يضعون احتياجات أبناء غزة فى المقام الأول، والذين سعوا لتخفيف ظروف معيشتهم بعد سنوات من الحصار العقابى والحرب المتقطعة، وبين العقائديين الذين يجعلون الأولوية لـ «تطبيق شريعة الله على الأرض».

لقد حاول أنصار الفريق الأخير تطبيق الشريعة الإسلامية بالكامل، مطالبين المجلس التشريعى الفلسطينى فى غزة الذى تسيطر عليه حماس باستبدال القوانين الجنائية من عهد الانتداب البريطانى بقانون للشريعة ينص على عقوبة الإعدام للردة، والرجم والجلد للزنى، ودفع قيمة الدية بالإبل. وحتى الآن، نجح الواقعيون فى إحباط جهود هؤلاء إلى حد كبير.



يقول نافذ المدهون، مدير عام المجلس التشريعى الفلسطينى، والحاصل على درجة الدكتوراة فى القانون من جامعة مينيسوتا وقام بإلقاء محاضرة بها، «لا تستطيع أسلمة القانون عندما لا يكون النظام السياسى إسلاميا تماما. يجب أن تكون لديك حكومة وقضاء ونظام سياسى إسلامى. ونحن ليس لدينا ذلك».

فى المقابل، لجأ العقائديون إلى وسائل أخرى لإدخال الشريعة من الأبواب الخلفية. فبمساعدة مساجد حماس، شكلت وزارة الأوقاف الإسلامية شرطة للأخلاق «للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» يتجاوز عملها مجرد تفتيش الشواطئ بحثا عن مؤشرات للخلاعة مثل نساء غير محجبات يستحممن ورجال نصف عراة.

وقد أقامت الشرطة لجان تحكيم فى مقارها للحكم على المحتجزين سريعا طبقا للفتاوى أو الأراء القانونية التى يكون مصدرها أحيانا رابطة العلماء المسلمين.

كانت الشرطة تسأل «حكم الله أم حكم القاضى؟». وتصر وزارة التعليم أنها لم تصدر أية تعليمات بأن ترتدى فتيات المدارس «الجلباب»، وهو رداء للجسد لا شكل له، ولكن بعض نظار المدارس طلبوا ذلك فى بداية العام الدراسى.

ما زالت حركة المقاومة الإسلامية (حماس) قوية، ولكن بعد أربع سنوات تقريبا من فوزها بانتخابات ٢٠٠٦، وبعد عامين من قيام مسلحيها بالإطاحة بقوات السلطة الفلسطينية للسيطرة على القطاع، لم تعد حماس تتصرف وكأنها معارضة وصلت فجأة إلى سدة الحكم.

بعد أن كان صامتا منذ عام، يتفاوض الآن وزير الاقتصاد القومى مع مقاولين يطلبون تراخيص لآخر مشروعاتهم. إن مشروع الوزارة للأعمال الصغيرة يقدم

داخل حماس: القصة غير المحكية للحركة الإسلامية المقاتلة Inside Hamas: The Untold Story of the Militant Islamic Movement، تأليف: زكي شهاب Zaki Chehab، Nations Books، ٢٥٠ صفحة.

■ ■ ■

حماس في السياسة: الديمقراطية، الدين، العنف. Hamas in Politics: Democracy, Religion, Violence، تأليف: جيروين جانتج Jeroen Gunning، Columbia University Press، ٣١٠ صفحة

■ ■ ■

اقتلوا خالد: محاولة الموساد الفاشلة لاغتيال خالد مشعل وصعود حماس Kill Khalid: The Failed Mossad Assassination of Khalid Mishal and the Rise of Hamas، تأليف: بول مكجاف Paul McGeough، New Press، ٤٧٧ صفحة

بترتيب خاص مع: The New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحي



يعد تعافى حماس وبراعتها فى مواجهة التحديات قصة نجاح مجهولة إلى حد كبير. ولكن سعيها لاحتكار السلطة أطاح بالإجماع الذى كان مضرب المثل فى السياسة الفلسطينية



قروضا بلا فوائد لأشياء مثل ثلاجة تجميد بقيمة خمسة آلاف دولار لإعادة جزار إلى العمل.

تدير وزارة الشئون المحلية مكتب تراخيص للأنفاق الواصلة إلى مصر، والتى تعد شرايين الحياة لغزة: إن وزارة الأشغال العمومية تعيد رصف الطرق بالقطران المهرب؛ وقد كلفت وزارة الخارجية صحفيا من الولايات المتحدة لتدريب الدبلوماسيين؛ كما تقوم وزارة المالية بتحصيل الضرائب بصرامة متزايدة. ويوفر موقع إلكترونى شامل (www.diwan.ps) تفاصيل عن التعيينات والقرارات الحكومية بشفافية أفضل من السلطة الفلسطينية. نظيرة حماس فى رام الله، والتى كانت تدير فى الماضى كلا جزئى المناطق الفلسطينية ولكنها الآن تصرف شئون الضفة الغربية وحدها تحت السيطرة الإسرائيلية.

لقد أصلحت حماس الخدمة المدنية. وخفضت حجم العمالة فى الإدارات التى كان بها فى ظل السلطة الفلسطينية المنتفخة عدد من وكلاء الوزارة يزيد على عدد سكرتارية المكاتب. وقد وفرت الاحتجاجات المدنية للموالين لفتح بعد استيلاء حماس على الحكم فى يونيو ٢٠٠٧ ذريعة لحكام غزة الجدد لخفض مستوى الرواتب وتسريح الوظائف.

وفقا لما ورد على لسان مسئول بوزارة الداخلية صرح بأنه خفض ثلث عدد العاملين معه البالغ عددهم ١٢ فردا (منهم تسعة مدراء عموميين) فإنها «كانت هبة من الله، كان معظمهم زائدا على الحاجة». ونظرا لأن الرواتب تدفع فى مواعيدها - فى معظم الأحيان - فإن أبناء غزة يستفيدون من الخدمات البلدية التى أصبحت خالية من الإضرابات، بما فى ذلك الحافلات والمدارس. وإذا ما عادت خدمة السكك الحديدية ثانية إلى غزة، فإن حماس سوف تقوم بتشغيل القطارات فى مواعيدها.

كما أن المحاولات الدولية الرامية إلى عزل حماس ساعدت بدلا من ذلك على مؤازرة الإسلاميين. ومع حظر جميع السلع - عدا الأساسية منها - بالنسبة لغزة، فقد ازدهر التهريب من خلال خطوط الإمداد التى تسيطر عليها حماس. ورغم القصف الإسرائيلى ونشاط الشرطة المصرية التى تزداد كفاءتها، فقد زاد عدد الأنفاق منذ عام ٢٠٠٦ من بضع عشرات إلى أكثر من ألف. وقد علق رجل أعمال من غزة «لقد عزز الحصار من سلطة أولئك الذين أراد المجتمع الدولى أن يجردهم من السلطة».



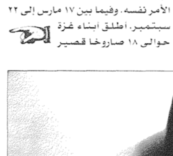
ومن بين ثلاثين ألف شخص تقريبا تقول السلطات أنهم حصلوا على وظائف منذ الاستيلاء على السلطة، هناك خمسة وعشرون ألفا فى قوات الأمن.

يقول أحد المصرفيين «يمكنك أن تطلب رقم ١٠٠ وتأتى الشرطة. أثناء حكم السلطة الفلسطينية كانت الشرطة تخشى اللصوص، والآن فإن اللصوص يخشون الشرطة».

يقول آخر أنه قبل استيلاء حماس على السلطة كان هو وأصدقاؤه يختارون أكثر سياراتهم تضررا عند ذهابهم للمطعم خوفا من سرقات السيارات. وفى هذا الصيف، امتلأت الشوارع المكتظة بالسيارات الجديدة كتحد صامت على حظر استيراد المركبات الذى فرضته إسرائيل لمدة عامين.

ويقترن الهدوء الداخلى بتنفيس خارجى. فعندما انسحبت إسرائيل فى يناير، مخلفة وراءها ١٣٨٧ قتيلا من أبناء غزة (وفقا لمنظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية «بتسليم B.Tseleem») والآلاف من المشردين والمصانع والمدارس والبنية التحتية مدمرة بالكامل، احتفت حماس ببقائها باعتباره نصرا عظيما.

ولكن إسرائيل فرضت شروطها الخاصة، حيث أجبرت حماس على خفض سقف مطالبها بهدوء، والخاصة برفع إسرائيل للحصار قبل أن توقف حماس إطلاق الصواريخ على الدولة اليهودية. وبينما زاد مدى صواريخ حماس من ١٥ إلى ٤٠ كيلو مترا، مما جعل ضواحى تل أبيب تقع فى مرمى الصواريخ، فإن حماس نادرا - إن لم يكن أبدا - ما أطلقت أية صواريخ منذ انتهاء الغزو الإسرائيلى، وغلت يد منافسيها الإسلاميين، مثل الجهاد الإسلامى، عن الأمر نفسه. وفيما بين ١٧ مارس إلى ٢٢ سبتمبر، أطلق أبناء غزة حوالى ١٨ صاروخا قصير



المدى دون وقوع قتلى. وقد ردت إسرائيل بالغارات وأحيانا بالقصف القاتل. وفى الواقع، فإن حماس تعمل الآن كحرس للحدود الإسرائيلية لمنع مزيد من الهجمات.

بعد مبادلة إسرائيل عشرين سجينة فلسطينية مقابل أول مقطع فيديو لـ «جلعاد شاليط»، وهو جندى إسرائيلى أسرته حماس قبل ثلاث سنوات، انتعشت آمال حذرة فى غزة بقرب التوصل إلى صفقة أكبر. وطبقا لقادة حماس، فإن إسرائيل سوف تفرج فى القريب العاجل - مقابل «شاليط» - عن مئات من السجناء الفلسطينيين لدى إسرائيل والبالغ عددهم عشرة آلاف سجين وربما أيضا تخفف من الحصار.

فى اتجاه الجنوب أيضا، تلمح حماس إلى مستقبل أفضل. فبينما اخترقت حماس برعونة ثقبا فى الدفاعات الحدودية المصرية عام ٢٠٠٨، مطلقة العنان لتدافع محرج للفلسطينيين إلى المتاجر المصرية، يقول حماد أن حماس الآن «تنسق بالكامل» مع الجارة العربية الوحيدة لغزة. بل إن حماس تعمل كحارس لأمن مصر القومى، حيث قتلت أنصار القاعدة ومؤيديها فى غزة.

يقول حماد «مهمتنا الآن هى الحكم، لتحقيق الاستقرار وليس استمرار المقاومة».

مع ذلك، فبعد يوم واحد من تلك الكلمات اللطيفة، قدم وزير الداخلية رؤية سياسية مختلفة للغاية. فمن وسط الحراس الشخصيين ضخام الجثة من الجناح العسكرى لحماس «كتائب القسام»، ألقى خطابا ملهما أمام حشد من شيوخ العشائر. وقد أرغى وأزبد قائلا: إن الملائكة هى التى طاردت جيش إسرائيل من غزة فى حرب الشتاء الماضى، مضيفا - بمباهاة عددية - أنه بينما تتفوق إسرائيل على ٢٢ أمة عربية فإن المقاومة الإسلامية فى غزة دحرت العدو فى ٢٢ يوما فقط. وقد اختتم بقوله: إن الدولة اليهودية سوف تزول بحلول العام ٢٠٢٢. وتكشف مثل تلك التناقضات البلاغية عن حركة تجاهد لمصالحة جمهورين متنافسين: «المجتمع الدولى» الذى يدعو حماس كى تكون أكثر اعتدالا، والناخبين الهامين الذين تساورهم الشكوك تجاه أى إشارة لخيانة القضية.

وقد ذكر «طالما لم نرفع أيدينا استسلاما وواصلنا الكفاح، فتلك هى المقاومة».

وقد أخفقت حماس فى تحقيق المطلب الرئيسى لحياة أكثر طبيعية: ألا وهو إنهاء الحصار. إن غزة تحت الحكم الإسلامى هى طريق مسدود. فالطرق الجوية والبحرية مغلقة. ولا يسمح بالمرور من خلال المعابر البرية إلى إسرائيل ومصر والتى لا تفتح بين الحين والآخر سوى للحالات الحرجة من المرضى والمصابين ولذوى الصلات القوية. بل إن القليلين الآن يحاولون المرور بالتجربة المريرة لعبور الحدود إلى إسرائيل أو مصر.



وقد ذكر أحد خريجى كلية هارفارد للأعمال من أبناء غزة «لا تستطيع الصعود إلى طائرة تابعة لمصر للطيران للذهاب للوطن عبر القاهرة دون فاكس من المخابرات المصرية».

وبينما يستفيد بعض أبناء غزة من رواج البضائع المهربة، فإن مدخرات ورواتب وأعمال غالبية الناس هناك قد تلاشت على مرأى من أعينهم. ورغم كل الحديث عن المقاولين، فإن تسعة أعشار أهل غزة يعيشون الآن تحت خط الفقر، وفقا للأمم المتحدة التى قدرت بأن مستويات المعيشة قد هوت إلى ما قبل مستويات عام ١٩٦٧. فى إسرائيل يبلغ متوسط دخل الفرد من إجمالى الناتج القومى ٢٧.٤٥٠ دولارا، بينما يبلغ فى غزة دولارين أو ثلاثة يوميا. وحتى عائلات التجار تحصل على المعونات الغذائية للأمم المتحدة.

إذا كان الغزو والحصار لم يؤديا إلى شل حماس، الا أن الواضح أن قادة حماس - بما فيهم القيادة الأكثر فصاحة المنفية والمتمركزة فى دمشق - قد كفت عن انتقاد فتح، فى سبيل المصالحة الفلسطينية الداخلية، حتى بعد أن أذعنت السلطة الفلسطينية بقيادة محمود عباس للضغوط الإسرائيلية وسحبت طلب إصدار قرار للأمم المتحدة ضد إسرائيل بعد تقرير القاضى «ريتشارد جولدستون Richard Goldstone» للأمم المتحدة بشأن جرائم الحرب التى ارتكبها الطرفان المتحاربان فى حرب الشتاء بغزة.

لقد قللت حماس من أهمية ميثاقها التأسيسى النارى الذى يرفض أى اعتراف بإسرائيل، وهى تلمح إلى إمكانية التعايش مع حل الدولتين. وفى مسودات قوانينها، لا تطلق حماس اسم «فلسطين» على المنطقة التى تضم إسرائيل والضفة الغربية وغزة، بل على المساحة الجغرافية التى تحكمها السلطة الوطنية الفلسطينية.

ومثلما فعل قادة من فتح قبل جيل، فقد التقى أعضاء من حماس سرا بإسرائيليين فى مؤتمرات دولية وتحدثوا عن السلام على الإفطار. وبالإضافة لذلك، فقد قرر قادة حماس داخل إقطاعيتها تعليق إعلان دولة إسلامية وتطبيق الشريعة، والتركيز بدلا من ذلك على الاقتصاد.

تسيء مثل تلك التحولات فى المواقف إلى أتباع حماس المتشددين. فلم جاهدوا إن لم يكن لإقامة مملكة الله على الأرض؟

تعزز الشائعات فى غزة من صورة انحراف القيادة عن الصراط المستقيم. ويقال أن ابن أحد قادة القسام يدخن الشيشة. كما يبدو أن قوات الأمن أيضا تتبع النهج الشائع فى المنطقة للدول البوليسية.

بعد صلاة الجمعة بعد ظهر أحد أيام أغسطس ألقى عبد اللطيف موسى، أحد الدعاة فى رفح كبرى المدن على الحدود المصرية، خطبة أمام عشرات من المؤيدين المسلحين. وقال أنه إذا لم تكن لدى حماس الشجاعة لإعلان غزة إمارة إسلامية، فإنه سوف يفعل ذلك هنا وعلى الفور.

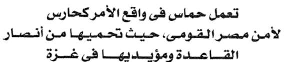
بعد ساعات من خطبة موسى، اندفع إلى الحى مقاتلون مقنعون من كتائب القسام التابعة لحماس. كان موسى والعديد من مقاتلى القسام من بين القتلى الذين بلغ عددهم ثمانية وعشرين، وقتل بعضهم فى أول واقعة مسجلة لتفجير انتحارى فلسطينى داخلى.

كانت تلك أولى علامات قسوة حماس على الإطلاق تجاه مواطنيها من الفلسطينيين. أثناء الانتفاضة الأولى ضد الحكم الإسرائيلى والتى اندلعت بعد تأسيس حماس رسميا عام ١٩٨٧، كان جناحها العسكرى الوليد يستهدف المشتبه بهم من الخونة والعاهرات وتجار المخدرات مثلما كانوا يستهدفون الإسرائيليين. وكثيرا ما اشتبك إسلاميون مع نشطاء فتح الذين وصفوهم بـ «الخونة»، وذلك قبل انقلاب حماس المفاجئ ضدها عام ٢٠٠٧ الذى انتهى إلى قتال شوارع ترك أكثر من مائة قتيل. منذ ذلك الوقت، فتحت كتائب القسام نيران الرشاشات على متظاهرى فتح وضيقت الخناق على كوادر فتح حتى توقفوا عن التظاهر. كما ضربت حصارا على الأحياء المتمردة للعشائر المعادية وأطلقت القذائف الصاروخية داخلها حتى وافق زعماء العائلات على الاستسلام.

ولكن أثناء إطلاق النار فى رفح فى أغسطس، لم تكن حماس تحارب «الخونة» وإنما أشقاءها - الناس الذين صلوا فى نفس المساجد ودرسوا واستخدموا نفس التعبيرات التى استخدمتها حماس للإطاحة بفتح. عامة، يطلق على مثل هؤلاء الإسلاميين شديدى التزمت اسم السلفيين، أتباع أحد المذاهب التى نشأت فى المملكة العربية السعودية والتى تقول أنها تسعى للاقتداء التام بسنة صحابة النبى (صلى الله عليه وسلم، المترجم).

سعى بعض السلفيين إلى التسلل إلى صفوف حماس حيث وجدوا أرضا خصبة للتطوع، وخاصة فى جناحها المسلح. واختار آخرون البحث عن الخلاص فى التحدى الجهادى للنظام القائم وتجنب البعض السياسة كلها، قاصرين أنشطتهم على الدعوة. ورغم تكريس جهودهم للقضاء على النفوذ الأجنبى، فإن مدرسيهم هم من بين أكثر أهل غزة ارتحالا، حيث درسوا فى جنوب أفريقيا وباكستان واليمن وأوروبا. وقد درس موسى على أيدى مثل هؤلاء







المدرسين في مدينة خان يونس قبل التحول إلى مسار الجهاد.

بدأت التصدعات عندما تحولت حماس من النشاط الاجتماعي والكفاح المسلح إلى السياسة. فبعد قرار حماس بالمنافسة في انتخابات عام ٢٠٠٦، ترك أحد دعاتها الحركة مع عشرات من الأتباع. وقال «إرادة الله فوق إرادة البشر، كما أنه لا شأن لحماس بالمشاركة في سلطة أقيمت بالاتفاق مع إسرائيل».

أثناء الفترة الجدلية لفراغ سلطة حكومة الوحدة الوطنية قبل استيلاء حماس على غزة في يونيو عام ٢٠٠٧، سعت كل من فتح وحماس للحصول على تأييد السلفيين. وقد دعمت العشائر الجامحة صفوفها سعيا إلى غطاء إسلامي لدعم مطالبها. وسعى السلفيون وسط الفوضى إلى تعزيز سلطتهم من خلال شن حملة أخلاقية غاشمة ضد مقاهي الإنترنت ومصففي الشعر والمدرسة الأمريكية وغيرها من تلك الأماكن ذات السمعة السيئة.



وقد جاءت المواجهة المسلحة مع السلفيين سريعا في أعقاب استيلاء حماس على السلطة. فقد فرضت كتائب القسام في يوليو ٢٠٠٧ حصارا على معاقل إحدى جماعات الجهاد - جيش الإسلام - وأجبرتهم على إطلاق سراح مراسل إذاعة «بي بي سي BBC» المختطف «آلان جونستون Alan Johnston».

في الأشهر التالية، قاتلت حماس لتوسيع سيطرتها، مما جعل أفراد جيش الإسلام يفرون إلى مدن أخرى. وهناك سعوا إلى حشد التأييد وسط أجواء من السخط، متحدين شرعية حماس ببلاغة إسلامية متشددة تتهمها بالخيانة فيما يتعلق بتطبيق الشريعة ومقاومتها ضد إسرائيل. وقد شكلوا خلايا جديدة تدعي انتماءها لتنظيم القاعدة وتسعى لتخليص غزة من الوثنية من خلال إجراءات مثل إزالة تمثال الجندي المجهول الفلسطيني من الميدان الرئيسي لمدينة غزة.

إحدى أكبر الفصائل «الجلجلة» - وهي الاسم العربي لـ «هزيم الرعد» - حصلت على دعم كبير داخل حماس وسعت إلى استهداف كبار الزائرين إلى غزة، من بينهم كما تردد الرئيس الأسبق «جيمي كارتر Jimmy Carter».

كان «جند أنصار الله» بقيادة موسى إضافة حديثة نسبيا. وقد اشتملت عملياتها على هجمات للخيالة بجياد بيضاء يقصد منها محاكاة المحاربين المسلمين الأوائل، على الرغم من وجود الألغام على الحدود الإسرائيلية الحصينة.

أغارت كتائب القسام في منتصف يوليو على منزل في مخيم خان يونس للاجئين يستخدمه «الجند»، وعثروا على أموال وأسلحة وأحزمة ناسفة. وعقب ذلك مباشرة، انفجرت قنبلة في حفل زفاف ابن شقيق محمد دحلان، أحد كبار المسئولين السابقين لفتح في غزة، مما أدى إلى جرح ٦١ شخصا.

عقب تلك الواقعة، استهدفت قوات القسام قاعدة موسى في رفح، أقوى حصون «الجند» بما تتمتع به من سهولة الوصول للأنفاق والدعم الإقليمي. وقد وجد السلفيون الفارين من رفح ملاذا بعيدا في الشمال، مشعلين مزيدا من الصدامات حول مدينة غزة عندما حاولت حماس القبض عليهم. وفي غضون يومين، أعلن مسئولو حماس أنهم اعتقلوا ٢٥٠ إسلاميا.

في محاولة لامتصاص أي رد فعل عنيف من جانب السلفيين، نظم مسئولو حماس عرضا لتكريم القتلى من «الجند» - مع قتلى حماس - باعتبارهم شهداء. وقد سعوا إلى إعادة توثيق أوراق اعتمادهم الإسلامية من خلال حملة أخلاقية تسمى «الفضيلة» كان القصد منها إحكام القبضة الروحانية للإسلاميين. وقامت وزارة الشئون الإسلامية بتعيين ٧٠٠ موظف جديد لضبط الأخلاق العامة من خلال إجراءات مثل فحص تراخيص زواج أي رجل وامرأة يجتمعان في الأماكن العامة.

مرة أخرى يغلف غزة إحساس غير مريح. فقد جاء شهر رمضان - وهو وقت للاحتفال - بلا طعم، ليس فقط بسبب الحصار.

في أكبر اختراق أمني لحماس حتى الآن، نشرت مواقع السلفيين على الإنترنت قائمة بالمستهدفين من أعضاء حماس مع ذكر رتبتهم في الحركة ومخابئهم في الأنفاق والمساجد التي يمكن استهدافهم بها. أما الدعاة الروحانيون للجهاد فلم يصدقوا على دعوات الهجمات الانتقامية، ودعا بعضهم إلى الوحدة والهدوء.

ولكن بعد سفك الدماء في رفح، كان من الملاحظ أن الشوارع والمساجد في غزة أصبحت أكثر قهرا. كما عادت نقاط تفتيش حماس - التي كانت قد اختفت تماما من قطاع غزة - للظهور في قلب مدينة غزة، وأحيانا أثناء ساعات النهار.

والعدد الضئيل من الأجانب الذين تسمح لهم إسرائيل بزيارة غزة، والذين شهدوا لبضعة أشهر هدوءا قصيرا مع الاسترخاء على شواطئها وتصفح الإنترنت في مقاهيها المزودة بخدمة الإنترنت اللاسلكي «واي-فاي wi-fi»، يجازفون الآن بدخول غزة في سيارات مصفحة.



يعد تعافي حماس وبراعتها في مواجهة التحديات قصة نجاح مجهولة إلى حد كبير. ولكن سعيها لاحتكار السلطة أطاح بالإجماع الذي كان مضرب المثل في السياسة الفلسطينية واستبدله بدويلة من حزب واحد. هناك قلة تعتقد أن حماس ترغب في إجراء انتخابات في أي وقت قريب. وعلى الرغم من الكلمات المعسولة التي يخصصها قادة حماس للعملية الانتخابية، فإنهم قلقون بسبب أن جزءا كبيرا من الشعب الفلسطيني يلقي عليهم باللائمة في صمت بسبب إطالة أمد محنة غزة.

بدون انتخابات، لا توجد فرصة تذكر لعصيان مدني منظم. وليس أمام الخصوم الساعين لتصفية الحسابات مع سلطات غزة من سبيل سوى القوة. تزعم حماس أنها قد سحقت «المنحرفين»، ولكن أثناء ذلك نشرت نفس تكتيكات اجتياح المساجد التي استخدمتها فتح ضدها ذات مرة، مثيرة الاحتقار تجاه تلك الوسائل. وفي غياب منهج أكثر شمولا، فإن الإنجاز الأعظم لحماس - استعادة استقرار غزة - يبدو أحيانا وكأنه جائزة مرة وحلوة في آن واحد بالنسبة للفلسطينيين العاديين، مثله في ذلك مثل «الانتصار» الذي تدعيه على العدو الصهيوني.

[٢]

أصبحت حماس - إلى حد ما - رهينة نجاحها. بينما تكافح للتوافق مع الحاجات اليومية الملحة للحكم من خلال العقيدة التي انتهجتها عندما كانت في صفوف المعارضة وللتوفيق بين قضيتها الفلسطينية وبين القضية الإسلامية الأكبر، وبين عقيدة السلاح والاستشهاد مع المتطلبات الواقعية.

وكما تكشف العديد من الكتب الجديدة المفيدة عن حماس، فإن التوترات الداخلية المزعجة متأصلة في الأسلوب الذي انتهجه الإسلاميون تجاه القضية الفلسطينية منذ أصولها الأولى. وبالنظر إلى «القضية» بمصطلحات الألفية كجزء من صراع عالمي، فإن الحركة القائمة على الإيمان أساءت بشدة إلى دولة كانت هشة وقاصرة قبل قيام إسرائيل، وكافحت بشدة منذ ذلك التاريخ لتبقى موحدة.

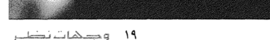
ورغم أن حماس نفسها لم يتعد عمرها ربع قرن، فمن المهم أن نتذكر أن أول مقاومة مسلحة ضد الاستعمار الصهيوني لم تكن قومية بل بإلهام إسلامي.

في كتابه الملىء بالشائعات والحقائق «داخل حماس Inside Hamas»، يذكرنا زكي شهاب، وهو صحفي فلسطيني موال لفتح، أن صاحب اسم كتائب القسام التابعة لحماس كان في الحقيقة سوري تعلم في جامعة الأزهر بالقاهرة. وعندما احتلت فرنسا سوريا عام ١٩٢٠ قاد عز الدين القسام خلية مسلحة لوقت قصير. ولكنه سرعان ما فر إلى بر الأمان في فلسطين التي تحتلها بريطانيا. وقد شهد إبان عمله كداعية في مسجد بحيفا طفرة الهجرة اليهودية التي أعقبت صعود نجم هتلر.



لم يقل عدد حملة الدرجات العلمية العليا من الجامعات الأمريكية في حكومة حماس عن سبعة من بين ٢٤ وزيرا



وبدأ حملة سرية لتسليح المقاتلين المسلمين.

«استشهد» القسام نفسه على يد القوات البريطانية عام ١٩٣٥ فى بداية الثورة الفلسطينية، ثم ذهب طى النسيان إلى حد كبير حتى قامت حماس بإحياء ذكراه. أما الثورة التى ساعد فى إلهامها فقد سحقت فى النهاية على يد البريطانيين الذين قاموا أثناء العملية بتصفية القيادة الوليدة للفلسطينيين. بعد عشر سنوات، ثبت أن هذا الضعف المقترن بالتوترات العرقية داخل المجتمع الفلسطينى، وكذلك تهميش الأقليات الدرزية والمسيحية، كانت أخطاء فادحة، عندما نجحت جماعة «ييشوف Yishuv» اليهودية، الأفضل قيادة وإعدادا والمصممة باستماتة فى غزو معظم فلسطين التاريخية.

وقد جعلت «نكبة» عام ١٩٤٨ الفلسطينيين - الذين كانوا لا يزالون بلا قيادة ومشتتين جسديا الآن - سريعى التأثر على وجه الخصوص بالأفكار الإسلامية والمفهوم الرومانسى لحرب العصابات.

لم تثبت الجيوش العربية العلمانية فقط عجزها عن الدفاع عنهم، ولكن يبدو أن نجاح الدولة اليهودية قدم درسا عمليا فى إمكانيات الدين كقوة سياسية. فى الوقت نفسه، فإن تشريد آلاف الفلاحين الفلسطينيين إلى معسكرات اللاجئين خلق مناخا من التخريب والفساد والبطالة مماثل للمناخ الذى شجع التيارات الإسلامية فى الأحياء الفقيرة بمدن المنطقة.

ليس من الغريب أن العديد من جيل المستقبل من القادة الفلسطينيين - بما فيهم ياسر عرفات - دخلوا عالم السياسة كأعضاء فى الإخوان المسلمين، الحركة الإسلامية الشرسة المعادية للاستعمار التى تأسست فى مصر عام ١٩٢٨.

وحتى قبل عام ١٩٤٨، وفقا لـ «جيرون جاننج»، وهو أكاديمى بريطانى يعد كتابه «حماس فى السياسة» مقدمة سياسية مثالية عن تطور وبنية وفكر الحركة الإسلامية، كان للإخوان المسلمين كما تردد ٣٨ فرعا فى فلسطين تضم عشرة آلاف عضو.

من المفارقة أن تأسيس عرفات لفتح، الحركة العلمانية التى هيمنت على السياسة الفلسطينية منذ التسعينيات، لم ينشأ عن رفض للأفكار الإسلامية، وإنما بواسطة الإخوان المسلمين، فى ظل ضغط مكثف قاس مستمر من الأنظمة العربية للتخلى عن «الكفاح المسلح» فى الخمسينيات.

بعد جيل، تزامن إحياء النزعة الإسلامية بين الفلسطينيين - إلى حد كبير - مع صحوتها عبر العالم الإسلامى الأكبر. إن جيلا أول من حملة الدرجات العلمية - الكثير منهم من المهندسين والأطباء - تطرفوا، ليس فقط بسبب احتلال إسرائيل واستعمارها للضفة الغربية وغزة بعد حرب عام ١٩٦٧، ولكن أيضا بسبب ضآلة فرص الترقى داخل المجتمع الفلسطينى.

ومع إلقاء اللوم على الصفوة العربية المهيمنة بسبب سلسلة الهزائم، شعر الإسلاميون بأحقيتهم فى السلطة، باعتبارهم أكثر اعتمادية لتمثيل الجماهير وأنهم - حسب رؤيتهم - هم الورثة الحقيقيون لتقاليد المقاومة، ثقافيا وسياسيا.



يستشهد «بول مكجاف»، وهو صحفى استرالى ألف كتابا سرديا رائعا عن صعود خالد مشعل، أبرز قادة حماس اليوم ورئيس مكتبها السياسى، بقوله ساخرا من منافسيه «نحن الجذور؛ أما فتح فمجرد فرع».

حتى أثناء وجوده بالجامعة فى الكويت فى السبعينيات، حيث استقر والده كداعية بأحد المساجد بعد فراره من قريته بالضفة الغربية عام ١٩٦٧، رفض مشعل الانضمام لإتحاد الطلاب الفلسطينيين القائم الذى تهيمن عليه فتح، بل أصر على تأسيس إتحاد إسلامى مواز.

وقد رفضت حماس لاحقا بموجب توجيهاته الانضمام إلى منظمة التحرير الفلسطينية، المظلة الجامعة للأحزاب الفلسطينية. كما رفضت حماس التنسيق مع آخرين أثناء انتفاضة ١٩٨٧-١٩٩٢ ورفضت المشاركة فى الانتخابات الوطنية قبل عام ٢٠٠٥. وقد رأت فى نفسها الزعامة الشرعية الوحيدة للفلسطينيين، مما خيب آمال الآخرين.

عندما اتجهت الغالبية الفلسطينية أثناء الثمانينيات نحو تسوية مع إسرائيل، تحولت الفصائل الإسلامية إلى المعارضة التامة.

وبينما احتفظ الإخوان المسلمون بشبكة داخل فلسطين مقرها المساجد والأندية الطلابية، شكل مشعل ومجموعة من الإسلاميين الأصغر سنا فى الشتات شبكة خاصة بهم، وجمعوا الأموال من العمال الفلسطينيين فى دول الخليج الغنية. وقد تضافرت جهودهم المزدوجة لتأسيس حماس.

عندما وقع عرفات أول اتفاق سلام مع العدو الإسرائيلى عام ١٩٩٣، مؤسسا دولة أولية برئاسته فى غزة والضفة الغربية، كانت لدى حماس الوسائل والتصميم ليس فقط لتحدى هذا المسار وإنما أيضا لتخريب «عملية السلام» بكاملها.

وقد أدت جهود حماس التى استمرت أساسا من خلال سلسلة دموية من التفجيرات التى استهدفت مدنيين إسرائيليين بداية من عام ١٩٩٤، إلى تشويه سمعتها عالميا. ولكنها لم تحقق لها - فى البداية - شعبية كبيرة بين شعبها. كتب «جاننج» أن استطلاعات الرأى طوال هذا العقد تقريبا نادرا ما كشفت حصول الإسلاميين على أكثر من ٢٠ بالمائة من الأصوات، وهو مستوى يعكس على نطاق واسع أداء الأحزاب الإسلامية المماثلة فى دول أخرى. وعموما، جاء الصعود البطىء لحماس إلى الفوز فى انتخابات عام ٢٠٠٦ كنتيجة لإخفاق جميع خصومها.

فى الحقيقة أن إسرائيل قد أساءت التعامل مع حماس حتى قبل تأسيسها. فقد غض الإسرائيليون البصر عن عمليات التجنيد التى قامت بها جماعة الإخوان المسلمين فى السبعينيات والثمانينيات، لأنهم - إلى حد كبير - رأوا فى الإسلاميين سياجا حاميا ضد الجماعات القومية.

ومع تأخر إسرائيل فى التنبه لتسليح خلايا حماس إبان الانتفاضة الأولى، فإنها ساهمت فى تألقها عن طريق الإذاعة التليفزيونية لمحاكمة الشيخ أحمد ياسين، داعية غزة الكسيح الذى كان الزعيم الروحى لحماس، ثم نفى المئات من نشطاء حماس إلى لبنان حيث سنحت لهم فرصة جيدة للاتصال برفاقهم من الإسلاميين مثل حزب الله.

يرجع لجوء حماس لاحقا إلى التفجيرات الانتحارية التى يطلقون عليها «عمليات استشهادية» - فى جانب كبير - إلى فكر حزب الله وربما أيضا إلى خبرته الفنية. وقد زاد رد إسرائيل بالاغتيالات المستهدفة بصورة كبيرة من التعاطف الفلسطينى مع حماس، بل إنه زاد من تطرف أتباعها. وكما يوضح كتاب «مكجاف» تماما، فإن مشعل على سبيل المثال، وهو متشدد نسبيا، وصل إلى السلطة داخل حماس فوق موجة الغضب التى أعقبت المحاولة الخرقاء لإسرائيل لتسميمه فى عمان عام ١٩٩٧. وعلى النقيض من ذلك، فعندما نجحت إسرائيل عام ٢٠٠٣ فى اغتيال إسماعيل أبو شنب، وهو مفكر مرموق من غزة يحمل درجة فى الهندسة من جامعة ولاية كولورادو، فإنها اغتالت فى الواقع قياديا فى حماس كان يقف بشدة ضد التفجيرات الانتحارية ولصالح هدنة طويلة الأمد.

لقد أقنع تسارع إسرائيل المفاجئ للاستيطان اليهودى فى المناطق المحتلة أثناء التسعينيات، وتدميرها المنظم للاقتصاد الفلسطينى من خلال حواجز الطرق وإغلاقها، أقنع كثيرا من الفلسطينيين أن حماس ربما كانت على حق فى حكمها على عملية السلام بأنها لم تكن أكثر من خدعة. وحتى عندما ضعفت مصداقية عرفات بين شعبه، فإن إسرائيل وإدارة «كلينتون» دفعتاه لاتخاذ إجراءات صارمة ضد حماس. وقد فعلا ذلك بالفعل، ببعض القسوة وكثير من النجاح، من خلال حملة ألقت بالمئات من نشطاء حماس داخل السجون الفلسطينية. ومع ذلك، فبدلا من مكافأته على المخاطرة بإثارة غضب شعبه، مورست - ببساطة - الضغوط على عرفات للقيام بالمزيد، كما أبلغ بأنه سيعد مسئولا عن أى عمل وحشى تقوم به حماس.

فى الواقع أن إسرائيل - وإن لم يكن



ويوفر موقع إلكترونى شامل (تابع لحماس) تفاصيل عن التعيينات والقرارات الحكومية بشفافية أفضل من السلطة الفلسطينية





ذلك فى نيتها - سلمت الإسلاميين سلطة نقض عملية السلام. كما أنها بذلك أضعفت كثيرا من سلطة عرفات، لدرجة أنه عندما لوحت إسرائيل بإمكانية تقديم عرض فى كامب دافيد عام ٢٠٠٠، فإن الزعيم الفلسطينى لم يجرؤ على ملاحقة العرض. وذلك - إلى حد كبير - بسبب تخوفه من عدم قدرته على استمالة شعبه لدعمه.

عندما اندلعت الانتفاضة الثانية فى خريف عام ٢٠٠٠ فى أعقاب ذلك الفشل، شعر عرفات أنه مضطر لركوب موجة العنف بدلا من محاولة احتوائها، وسرعان ما فقد السيطرة، حيث سعى نشطاء فتح المحليين لهزيمة حماس بعنف شديد.



لم يكن عرفات ضحية. وقد قدمت فتح العون لحماس منافسها الرئيسى. ولم يبد لكثير من الفلسطينيين أن قمع عرفات لحماس خيانة فقط، بل اشتهر أيضا رفاق عرفات بالفساد والعجز. وكما وصف «جانتج»، فإن معالجتهم للانتخابات التشريعية عام ٢٠٠٦ التى جاءت بحماس إلى السلطة كانت تقريبا تدميرا سخيفا للذات.

يستشهد «شهاب» بأحد ناخبى غزة الذى أخبره فى ذلك الوقت «نحن لا نؤمن بآراء حماس السياسية، ولكننا نريد أن نبين لقيادة فتح أن لدينا بدائل».

ولكن يمكن لحماس أيضا أن تنسب لنفسها جزءا كبيرا من نجاحها. فهى - على النقيض تماما من فتح - تعمل برؤية إستراتيجية وتخطيط حريص ونظام دقيق. وللكثير من قياداتها جذور محلية عميقة، وهم عادة ذوو منزلة رفيعة: فى مجلس الوزراء المشكل بعد انتخابات عام ٢٠٠٦، لم يقل عدد حملة الدرجات العلمية العليا من الجامعات الأمريكية عن سبعة من بين ٢٤ وزيرا. والسياسيون من أمثال مشعل يتمتعون بكاريزما عالية على شاشة التلفاز أكثر من محمود عباس الخليفة سيئ الحظ لعرفات.

من خلال بنيتها السرية من الخلايا المحلية وقياداتها المتناثرة التى تعمل بالإجماع، أثبتت حماس مرونة فائقة فى الهجوم. ورغم دموية وسائل حماس وعبثيتها الواضحة فى مقاومة إسرائيل، فقد أظهرت درجة عالية من المقدرة الإدارية والاستجابة للرأى العام الفلسطينى الذى يمكن أن يكون مذهلا لمنظمة ملهمة دينيا.

مع ذلك، فإن الحاجة للتخفيف من الجوهر المذهبى وكذلك تطوير حماس لهيكلية تربط مشعل وأمواله - الأمنين على الشاطئ - مباشرة بقادة القسام، بما يؤدى إلى تجنب الإشراف السياسى من قبل زملائهم الأقل صخبا، تصب أيضا فى جانب التشدد حول القضايا الرئيسية، وأوضحها قضية السلام. ومما يؤسف له أن تشدد حماس قد أثبت فى العادة - فى عيون ناخبيها - مبررا نتيجة للأحداث الجارية.

إن الإطاحة بحماس من معقلها فى غزة هو أمر غير مرجح فى المدى القريب، وهى تلعب لعبة انتظار، آملة أن ينفد صبر القوى الأخرى قبل أن تفعل هى: أى أن يشعر المجتمع الدولى بالعار فيخفف الحصار عن غزة، أو أن يسقط النظام المعادى فى مصر، أو أن تؤكد إسرائيل بزعامة بنيامين نتانياهو تشددها الشديد فى تعاملها مع محمود عباس فتنهار حكومة فتح فى الضفة الغربية.

ولكن حماس تتعرض فى الوقت نفسه لضغوط لتقديم شىء لشعبها أكثر من مجرد العنترية الظاهرية. وكما يشير «جانتج»، فربما تعترف حماس ذات يوم أن صراعها المسلح ضد إسرائيل (على العكس من صراعها ضد منافسيها الداخليين) كان رمزيا إلى حد كبير، وأن إعلانها عن الحق الإلهى فى فلسطين هو تعبير عن العقيدة أكثر من كونه برنامجا سياسيا.

يمتنع «جانتج» عن إبداء رأيه، فيما يتعلق بآمال السلام فى الشرق الأوسط، فيما إذا كانت حماس هى ما يطلق عليه علم السياسة «المعطل الكامل»، أو أنها مجرد معطل محدود. ولكن السياسة - حسب قوله - لا تكون ثابتة أبدا، وكذلك المنظمات السياسية. ■

حمـــــاس .. إلـــى أيـــن ؟!



نظرات تأسيسية فى فقه الأقليات
طه جابر العلوانى

أولاً: تحديد المفاهيم

لم تكن كلمة «فقه» ـ بالمعنى الاصطلاحى المعروف الآن ـ شائعة لدى الصدر الأول من هذه الأمة: بل كانوا يستعملون كلمة «الفَهم». لكنهم إذا وجدوا الأمر دقيق المسلك ربما عَنُوا بـ «الفقه» بدلاً من «الفهم». وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته إلى ذلك بقوله: «الفقه معرفة أحكام الله فى أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة. وهى مستقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة. فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها (فقه)».

ولم تكن تسمية «الفقهاء» شائعة أيضاً. بل كان أهل الاستنباط من الصحابة يُعرفون باسم «القرّاء» تمييزاً لهم عن الأميين الذين لم يكونوا يقرءون. وفى هذا يقول ابن خلدون: ... ثم عظمت أمصار الإسلام. وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتابة. وتمكن الاستنباط. ونما الفقه وأصبح صناعة وعلماً. فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء.

أما كلمة «الأقليات» فهى مصطلح سياسى جرى فى العرف الدولى، يُقصَد به مجموعة أو فئات من رعايا دولة من الدول تنتمى من حيث العرق أو اللغة أو الدين إلى غير ما تنتمى إليه الأغلبية. وتشمل مطالب الأقليات عادة المساواة مع الأغلبية فى الحقوق المدنية والسياسية، مع الاعتراف لها بحق الاختلاف والتميز فى مجال الاعتقاد والقيم.

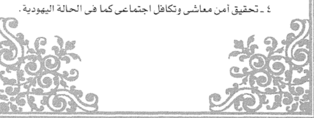
وتتأسس قيادات للأقليات ـ فى كثير من الأحيان ـ تحاول التعبير عن أعضاء الأقلية من خلال الأمور التالية:

١ ـ إعطاء تفسير للأقلية التى تنتمى إليها عن جذورها التاريخية، ومزاياها ومبررات وجودها، لتساعد الأقلية على الإجابة على سؤال «مَن نحن؟» وضمناً عن سؤال «ماذا نريد؟».

٢ ـ تجميع عناصر الأقلية وإقامة روابط بينها.

٣ ـ تبنى الرموز الثقافية المعبرة عن خصوصية الأقلية.

٤ ـ تحقيق أمن معاشى وتكافل اجتماعى كما فى الحالة اليهودية.



إنجازات المشروع الصهيونى وإخفاقات المشروع العربى



بحجم مافى القضية الفلسطينية من تعقيدات، بقدر ماتختلف «الرؤى» حول سبل التعامل معها. لاأحد بمقدوره أن يزعم أن لديه «الوصفة السحرية». يختلفون فى إسرائيل، ويختلف العرب، أو بالأحرى «كانوا» يختلفون عندما كانوا يهتمون بالقضية.. ويختلف الفلسطينيون - أو هكذا أريد لهم - بعد أن تركهم «الختيار» الذى كان بتاريخه ودهائه قادرا على أن يؤلف المختلفين «عقائديا ..أو تنظيميا». ومنذ أن نجح «المخططون» بعد نجاح حماس فى الانتخابات التشريعية، فى شق الصف الفلسطينى الذى بقى صلبا لعقود رغم الأهوال والمحن، ولاشىء مبشرا يبدو فى الأفق، رغم حوارات لم تنجح إلا فى إبراز حقيقة الارتباك والتشرذم فى الحالة العربية بعامة.

نايف حواتمة (٧٤عاما) الأمين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، يقلب صفحات فى التاريخ العربى، تخضبت بالدماء، ولعبت بها رياح السياسة.. وأهواء السياسيين. ويكتب لـ«وجهات نظر»، وجهة نظره فى الموضوع.

المحـــرر

نايـــــف حـــواتمــــة

الأمين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين

على ضفاف القرن العشرين، وحتى عام ١٩٧٤، نحن الشعب الفلسطينى، والشعوب العربية؛ كذلك الأحزاب والقوى والتيارات الأيديولوجية والسياسية والاجتماعية، والدول العربية، ناضلنا وعملنا على مدى أجيال متتابعة، وبرامج متباينة وكثيراً ما كانت ولا زالت متناقضة، من أجل صيانة الحقّ القومى، والوطنى الفلسطينى، وعلى قاعدة تحشيد وتكتيل كل الطاقات العربية، طاقات الشعوب والدول، لحماية فلسطين، ومحاصرة ودحر المشروع الاستعمارى الاستيطانى الصهيونى، حملت هذه الأفكار التيارات الفاعلة جميعها فى ذلك السياق التاريخى؛ بأشكالها الوطنية والقومية التعددية. كما كان هناك تيار ذو طبيعة دينية منهجية، يسعى لحل هذه المسألة على قاعدة شعار نظرى أوسع، تقوم على تحشيد كل الطاقات فى بلدان العالم المسلم، لم يكن فاعلاً إيجابياً فى صف المشروع النهضوى القومى العربى والوطنى على مساحة القرن العشرين، بل كان سلبياً تحت سقف الأنظمة اليمينية والمحافظة العربية، بشأن القضايا العربية والدولية، وماذا كانت النتيجة؟

ماذا كان الحصاد؟

فى الممارسة العملية، المشروع الاستعمارى الصهيونى شق طريقه، بسلسلة متراكمة من «الإنجازات». وبالمقابل، المشروع النهضوى، الوطنى والقومى، لحقت به سلسلة من التراجعات، أو الهزائم، بعد إضاعة عدد من الفرص التاريخية الاستثنائية (١٩٣٩، ١٩٤٧، ١٩٤٨)؛ فى بداية تاريخ قضيتنا الوطنية والقومية الفلسطينية، وصولاً إلى النكبة الوطنية والقومية الكبرى عام ١٩٤٨.

وبدل الإمساك بما تبقى من الأرض، وتثبيت شعبنا على أرضه فى الضفة الفلسطينية وقطاع غزة والقدس الشرقية، حصل تواطؤ بين المشروع الصهيونى، ممثلاً بدولة العدو الناشئة والكولونيالية البريطانية، وبين الأنظمة العربية الإقطاعية القائمة حينذاك؛ على أساس المعادلة الإسرائيلية . الصهيونية: «فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». قامت دولة العدو على ٧٧٪ من الأرض الفلسطينية، وما تبقى أرضاً وشعباً جرى إلحاقه أو تقاسمه بين دولة العدو والدول العربية المجاورة؛ وبدلاً من التمسك بما بقى فى اليد، وبناء دولة فلسطين المستقلة عليه، حتى يتأسس طرحٌ جديدٌ فى اليوم التالى لإقامة هذه الدولة؛ يقوم على ضرورة استئناف النضال للوصول إلى حل ديمقراطى، شامل وعادل؛ عنوانه الكبير دولة فلسطينية ديمقراطية موحدة، على كامل أرض فلسطين التاريخية، من البحر إلى النهر، بدلاً من ذلك، تمت عملية التواطؤ التى ذكرت، وقامت دولة «إسرائيل»، وما تبقى من الأرض جرى إلحاقه بالدول العربية المجاورة، القدس والضفة الفلسطينية ألحقت بالأردن، الأراضى الفلسطينية التى دخلها الجيش السورى جرى إلحاقها بالجولان والأراضى السورية، ووضع قطاع غزة تحت الإدارة الملكية الإقطاعية المصرية، وعليه؛ فقد ضاع حق الشعب الفلسطينى فى تثبيت وجوده على أرضه، بدولة فلسطينية مستقلة، تمثل خط الدفاع الأمامى عن الحقوق الوطنية بتقرير المصير والدولة والعودة، وعن الأقطار المجاورة، كما تم توزيع واقتسام الشعب الفلسطينى بين «إسرائيل» والدول العربية المجاورة.

وتالياً؛ واصلت القيادات الصهيونية مزاعمها، انطلاقاً من مقولة: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، وأما فلسطين فكانت فى الماضى، واليوم هى «إسرائيل»،

وما تبقى هو أراض لدول عربية، وللفلسطينيين .. ولم يكونوا يذكرون كلمة (شعب فلسطيني). وقد أصبح اليوم بعض هذا الشعب «عرب إسرائيل»، وما تبقى هم «عرب البلدان العربية». وبذلك: ضاعت القضية الوطنية الفلسطينية بين عامي ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧، وأخذت عنواناً يتيماً هو «قضية اللاجئين».

في حزيران/ يونيو من العام ١٩٦٧، ونتيجة هزيمة الأنظمة العربية أمام «إسرائيل» كان النهوض العملاقي للثورة والمقاومة الفلسطينية. ولكن هذا النهوض الكبير لم يأت من فراغ، بل هو نتاج ما أوردنا آنفاً، بالإضافة إلى أن نهج النضال في إطار تجميع وتحشيد كل القوى والطاقات العربية باتجاه فلسطين، وعلى طريقها، قد أنجز خطوة كبرى بعد نكبة ١٩٤٨، وبعد النهوض القومي والوطني الحداثوي العظيم: بدءاً من ثورة ٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٢، من أجل نهضة مصر والأقطار العربية المجاورة، وكذلك سلسلة التحولات الوطنية والقومية الطبقية الكبرى، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، على يد قادة ثورة (٢٣ تموز) الناصرية والتيار الوطني والقومي العريض، بمختلف ألوان طيفه، والذي استولد لاحقاً وحدة سورية ومصر، بالجمهورية العربية المتحدة، ومن ثم ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق، والنضال أو الصراع من أجل توسيع الجمهورية العربية المتحدة، لتشمل العراق، في إطار اتحادية تتمثل فيها قوى الطوق القومية الأساسية.

لكن انهيار وحدة مصر وسورية، وسقوط الجمهورية العربية المتحدة، أي فكّ الكماشة باتجاه فلسطين، وانخراط قادة ثورة ١٤ تموز في العراق، للتصادم مع الجمهورية العربية المتحدة، أدى إلى تسريع حركة المراجعة المتراكمة في صفوف قوى التحرر والتقدم العربية، بما فيها الاتجاهات الفلسطينية، والتي انخرطت بالكامل في إطار حركة التحرر الوطني العربية (قوميون، بعثيون، ناصريون، يساريون، وطنيون ثوريون وتقدميون). وهذه المراجعة هي التي ولدت بالتراكم أيضا التململات باتجاه صيرورة وطنية فلسطينية قائمة بذاتها، وبمعادلة جديدة تجمع بين القومي والوطني، بدلاً عن مصادرة القومي للوطني أو انعزال الوطني عن القومي، على قاعدة أن المتراس الأمامي يجب أن يكون بيد الشعب الفلسطيني، دفاعاً عن هويته الوطنية، وعن مجموع الحقوق العربية، في الصراع المرير ضد المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني. وقد بدأت التململات منذ ذلك الزمن مسبوقة بتململات أولية على يد القوى والقيادات الوطنية في قطاع غزة، مسنودة بمصر عبد الناصر، ولاحقاً بالجمهورية العربية المتحدة ... لماذا؟! ...

لأن قطاع غزة لم يتم إلحاقه وضمّه كاملاً بالإدارة المصرية، كما حصل مع الأراضي الفلسطينية الأخرى، وعليه احتفظ القطاع بعنوان فلسطيني. بدأت التململات في غزة، باتجاه البحث عن صيرورة قائمة بذاتها فلسطينياً. بينما في أقطار الطوق العربية المجاورة لفلسطين المحتلة «الأردن، سورية، لبنان». وفي القواعد الخلفية المساندة عربياً. لم تبدأ هذه العملية في السياق الزمني الذي بدأت فيه في قطاع غزة. وكان حينذاك في ذلك السياق خطان: خط بدأ يتململ في غزة باتجاه استعادة الحضور الوطني الفلسطيني. وخط في جميع الأقطار العربية المشرقية، حافظ على المقولة التي تقول بتحشيد كل الطاقات العربية نحو فلسطين. وتحت راية «الوحدة العربية طريق تحرير فلسطين». بالإضافة إلى خط لم يكن ذا فعل أو تأثير جاد في الحركة الفلسطينية والعربية، هو الاتجاه الديني المذهبي، والذي وجّه اهتمامه إلى مراكز بعيدة جداً عن



يوليو ١٩٧١ - العرب في ليبيا لبحث الأزمة في الأردن



فى الممارسة العملية، المشروع الاستعمارى الصهيونى شق طريقه، بسلسلة متراكمة من «الإنجازات». وبالمقابل، المشروع النهضوى، الوطنى والقومى، لحقت به سلسلة من التراجعات

خطوط التماس مع العدو الإسرائيلى الصهيونى.

انهيار وحدة مصر وسوريا...
المراجعة الجديدة

بقى الوضع على هذه الحال حتى انهيار وحدة مصر وسورية، وعلى أساس هذا الانهيار، تفكك فكّا الكماشة على جوار وطوق الأراضى المحتلة عام ١٩٤٨، أى حول دولة «إسرائيل» التوسعية العدوانية، بعد ذلك، جرت مراجعة جدية، وكان السبّاق لإجراء هذه المراجعة بخطوات عملية هو الرئيس جمال عبد الناصر، عام ١٩٦٤ بعد أن تكرس الانفصال بين جناحى الجمهورية العربية المتحدة، واتضح لعبد الناصر أن لا أفق ولا خطط ملموسة: مصرية أو سورية أو عربية، تجاه فلسطين، فأطلق صيحته الشهيرة: «أن للشعب الفلسطينى أن يأخذ قضيته بيده» ودعا لعقد أول قمة عربية، وهى انعقدت فعلاً فى الإسكندرية عام ١٩٦٤، من أجل بناء هيكلية جديدة، سياسية ونضالية، لشعب فلسطين. وهكذا: فى قمة الإسكندرية كان إطلاق بناء منظمة التحرير الفلسطينية الائتلافية، إطاراً جامعاً لكل الشعب الفلسطينى، فى كافة أماكن تواجده، مع اشتراط شرطين بارزين، بقرار القمة العربية، الشرط الأول: ألا يشمل هذا الإطار الضفة الغربية والقدس العربية، التى كانت بيد الإدارة الأردنية. والشرط الثانى: القوات المسلحة الفلسطينية فى كل بلد ترتبط برئاسة أركان ذلك البلد، وعليه عندما انعقد المؤتمر الأول لتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة (ودعوة) أحمد الشقيرى فى القدس العربية، احترم هذا المؤتمر والتزم: بأن منظمة التحرير لا تضم الضفة الغربية أو القدس، باعتبارها جزءاً من أراضى الدولة الأردنية، وتم أيضاً التشريع لإلحاق القوات المسلحة الفلسطينية برئاسة أركان جيوش الدول العربية، قوات عين جالوت بمصر، وقوات القادسية بالعراق، وقوات حطين بسورية، وهكذا ولدت منظمة التحرير إطاراً سياسياً مجرداً من «الأنياب»، وبعدما حاولت المنظمة أن تلعب دوراً فاعلاً، اتضح أن قدرتها محدودة، ومقيدة بقرارات قمة الإسكندرية، والقمم العربية الأخرى بعدها؛ مما دفع، فى ظل هذه الظروف، خصوصاً بعد انهيار وحدة مصر وسورية، باتجاه بناء حركة وطنية فلسطينية جديدة؛ وكان فى مقدمة الذين دعوا إلى ذلك، مجموعات فلسطينية (معظمها من قطاع غزة) تواجدت فى الخليج، وشكلت النواة الأولى لمنظمة «فتح»، ومجموعات من سوريا بدعم وتشجيع حزب البعث، فى إطار صراع حكم البعث مع عبد الناصر، وفى أقطار الطوق العربية، جرت محاولات على يد القوميين العرب، تحت عنوان «شباب الثأر»؛ وأيضاً تحركت مجموعات فلسطينية فى سورية ولبنان، ممثلةً بجبهة التحرير الفلسطينية، طريق العودة برئاسة شفيق الحوت، وجبهة التحرير الفلسطينية، التى أصبحت فيما بعد الجبهة الشعبية، القيادة العامة، بعد أن انفكت عن ائتلاف الجبهة الشعبية الرباعى (جناحا القوميين العرب، اليسارى الديمقراطى والقومى، جـ. ت. ف.، منظمة فلسطين العربية)، وعليه: بدأت تتراكم هذه المحاولات، لكنّ العمل الجاد لم يبدأ فعلياً إلا بعد هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧.



فى هذا السياق أيضاً، لاحظنا أنه منذ البداية، تداخلت الحالة الفلسطينية مع الصراعات العربية - العربية، ومن هنا: كان الجهد الجهيد لسوريا النظام البعثى، والعراق النظام البعثى، مع محاولات إطلاق اتجاهات فلسطينية، تقوم بعمليات داخل «إسرائيل»، والوجه الأبرز لهذا المسار كان الصراع بين البعث (فى سوريا والعراق) وبين عبد الناصر على النفوذ فى المنطقة، وكان الإحراج أيضاً لعبد الناصر، والذى أخذ يتعمق أكثر فأكثر بسبب الصراع بين هذه الدول، لذا ظلّت المحاولات الأولى متواضعة جداً، قبل هزيمة عام ١٩٦٧، وحينها: وقعت كل الأراضى الفلسطينية تحت الاحتلال، إضافةً إلى سيناء والجولان. وسنة ١٩٦٨ احتلت «إسرائيل» أراضى أردنية فى وادى عربة، وفى مثلث أم قيس. بعدها نهضت المقاومة الفلسطينية بفصائلها المتعددة، التى تناسلت بشكل كبير، على إيقاع ردود الفعل على الهزيمة، وعلى إيقاع زلزال هذه الهزيمة أيضاً، جرت مراجعة جديدة للأفق الفكرى والسياسى والتنظيمى والاجتماعى، وبرامج العمل، والوسائل النضالية الناجعة للرد، على يد التيار الوطنى والتيار اليسارى الثورى الديمقراطى.

انطلقت مقاومة الفصائل الوطنية والقومية، لتحمل شعارات عامة، وهى لم تستخلص شيئاً كثيراً من هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧، مما أدى إلى الانطلاقات أو التحولات المتسارعة فى الحالة الفلسطينية، وفى عموم حركة التحرر والتقدم العربى، خاصةً فى مصر (وثيقة برنامج ٣٠ مارس ١٩٦٨، عمليات تطهير وتحديث الجيش)، الزلازل والتصفيات الداخلية فى النظام البعثى فى سوريا والعراق، وفى عدد من بلدان المشرق العربى والمغرب العربى.

وفى صفوف التيار اليسارى الثورى الديمقراطى فى الحركة الفلسطينية والقومية خصوصاً حركة القوميين العرب تحولات يسارية ثورية كبرى، بدأت فى أواخر الخمسينيات، تطورت مع التحولات الطبقية الاجتماعية والسياسية فى ثورة ٢٣ يوليو فى مصر والجمهورية العربية المتحدة، ثورة واستقلال الجزائر، انهيار وحدة مصر وسوريا، ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ فى العراق، ثورتى اليمن سبتمبر/ أيلول ١٩٦٢ شمالاً وأكتوبر ١٩٦٣ جنوباً، وجاء زلزال هزيمة ١٩٦٧ حاسماً فى مسار التحولات اليسارية الكبرى الجديدة وغير المسبوقة، وهى تحولات فكرية وثقافية واجتماعية وسياسية، دعت إلى بناء مقاومة فلسطينية مسلحة، تجمع بين: «أيديولوجيا السياسة وأيديولوجيا السلاح»، أو بين «سلاح السياسة وسياسة السلاح»، أى بين الأفق التحليلى الاشتراكى العلمى بيد، والسلاح المادى باليد الأخرى، وهذا شكل بداية انطلاق قوى اليسار الثورى الفلسطينى الجديد، إلى جانب قوى اليمين والوسط الوطنى والقومى، الذى لا يحمل سوى شعارات عامة، وهنا بدأت الطروحات من أجل إعادة بناء حركة المقاومة الفلسطينية، بأفق جديد يتجاوز منظمة التحرير، بأفقها السياسى العامّ وتركيبها المبنى على تشكيلات فردية، لتكوين منظمة تحرير ائتلافية من فصائل وقوى وشخصيات تمثل الجبهة الوطنية العريضة، على برنامج القواسم الوطنية المشتركة.

منظمة التحرير...
التأسيس الجديد

وصلت منظمة التحرير إلى الطريق المسدود بعد هزيمة ١٩٦٧ مباشرة، واستمر هذا الوضع عام ١٩٦٨، وفى مطلع عام ١٩٦٩، أدركت منظمة التحرير أنها تقف أمام حدود العجز؛ وكذلك، وصلت الدول العربية فى مؤتمر الخرطوم «قمة الخرطوم»، إلى نتيجة مماثلة، بأن القيادة الحالية، حينذاك، لمنظمة التحرير المتمثلة فى الأفراد الذين تناسلوا من أبناء العائلات التى أورثتنا نكبة ١٩٤٨ قد فشلت. ولذا؛ فى قمة الخرطوم نفسها، وبعد انتهاء أعمالها، طلبت الدول العربية من الأستاذ أحمد الشقيرى ومن اللجنة التنفيذية للمنظمة أن ترحل (تستقيل)، عاندت المنظمة بدايةً، مما أدى إلى الإطاحة بالشقيرى على يد الأغلبية فى اللجنة التنفيذية، وتسلّم الأستاذ يحيى حمودة رئاسة اللجنة التنفيذية بالوكالة، لكن هذا التغيير لم يؤد إلى نهوض منظمة التحرير، فوصلت إلى حد الاستقالة.



عملنا على مدى أجيال متتابعة، وبرامج متباينة وكثيراً ما كانت ولا زالت متناقضة، من أجل صيانة الحق القومى، والوطنى الفلسطينى.. فماذا كان الحصاد؟



أننا أمام وضع جديد يتطلب نقد الذات، وإجراء مراجعة شاملة لنخرج من عنق الزجاجة إلى أفق أرحب؛ يفتح أمام شعبنا طريقاً من أجل بلورة شخصيته وهويته الوطنية الفلسطينية



حال ذاك، بدأت المباحثات من قبل اللجنة التنفيذية برئاسة يحيى حمودة، وبدفع من مصر، لتدخل فصائل المقاومة منظمة التحرير، وتتشكل منها ومن الشخصيات المستقلة هيئات منظمة التحرير، وفعلاً فقد جاءنا يحيى حمودة على رأس وفد إلى عمان، وكان يضم عبد القادر يغمور، فايز الصايغ، عبد المجيد شومان وآخرين، وبدأ التباحث مع لجنة من المقاومة الفلسطينية، وكانت هذه اللجنة مشكلة من ياسر عرفات وأبو إياد ونايف حواتمة وضافى الجمعانى: «فتح، الجبهة الديمقراطية، الصاعقة»، لأن الرفاق فى الجبهة الشعبية أحجموا حينها عن المشاركة فى هيئات منظمة التحرير وفى أعمال هذه اللجنة، وكانت اللجنة وبتكليف من مصر وموافقة الدول العربية، واضحة جداً فى القول بأن على فصائل المقاومة فى المنظمة أن توافق على أن تحتل فتح ٤٠٪ من مقاعد المجلس الوطنى ومن هيئات منظمة التحرير، بما فيها اللجنة التنفيذية: وتكون الرئاسة من فتح؛ وأن تتشكل الهياكل المعبر عنها بالمجلس الوطنى واللجنة التنفيذية على قاعدة هذه النسب تحديداً. لم تكن حينذاك قيادة فلسطينية وسيطة، ومجلس مركزى؛ فهذا إصلاح لبناء الائتلاف الوطنى بين فصائل المقاومة تمّ على يد صلاح خلف، نايف حواتمة، ضافى الجمعانى، مطلع عام ١٩٧٠، حين كان عرفات فى زيارة للصين. فى هذا السياق، جرى التوصل إلى اتفاق، وأصبحت منظمة التحرير بيد فصائل المقاومة، بدءاً من المجلس الوطنى، الذى تشكل وانعقد فى أيلول سبتمبر ١٩٦٩، وإخوتنا فى الجبهة الشعبية أحجموا عن المشاركة فى ذلك الوقت حتى عام ١٩٧١، بعد مجازر أيلول الأسود، وفشل كل محاولاتنا لحل التعارضات بالحوار والوسائل السلمية بين المقاومة وبين الدولة الأردنية، فنحن جميعاً لنا عدو أساسى ورئيسى مشترك، وهو الاحتلال الإسرائيلى، لكنّ العديد من التدخلات العربية والإقليمية والأمريكية وضغط العمليات الحربية الإسرائيلية المتواصل على الأراضى الأردنية (قرى الأغوار ومدن الشمال وخاصة إربد ...) دفعت إلى التصادم بين قوتين لهما مصلحة مشتركة واحدة فى النضال للخلاص من الاحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية والعربية.

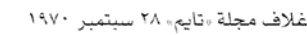
المقاومة وقضايا التعارض والتناقض الإقليمية

جرى تصعيد التعارضات وتحويلها إلى تناقضات رئيسة: بدلاً من التوحد على التناقض الرئيس الحقيقى ضد العدو الإسرائيلى، وهذا التاريخ مازال يعيد نفسه كل فترة وبطريقة أو بأخرى. حصل هذا فى الأردن، فى لبنان، وبين المحاور الإقليمية والعربية، والعلاقات الفلسطينية . العربية، وأخيراً بين «فتح» و«حماس» هناك اليوم صراع على السلطة والمال والنفوذ، إذن؛ وصلنا إلى مرحلة انفجار التعارضات . كما أشرنا . ووقعت مجازر أيلول الأسود (١٩٧٠)، ما أدى إلى تعميق الانفصام السياسى والمجتمعى والسيكولوجى بين المقاومة الفلسطينية والأنظمة العربية المجاورة، وهذا المسلسل تواصل فيما بعد: ومن هنا. كان الامتحان الذى فرض مراجعة جذرية على الجميع. وقد بدأت هذه المراجعة بعيد وقف إطلاق النار بين المقاومة الفلسطينية والدولة الأردنية، برعاية القمة العربية التى انعقدت فى أيلول، والتى فى ختامها جاء «الوجع الكبير» برحيل عبد الناصر، ومنذ الأيام الأولى، بدأ التفكير: كيف تكون هذه المراجعة، وكيف ننقذ المقاومة من الاختناق بعنق الزجاجة!.

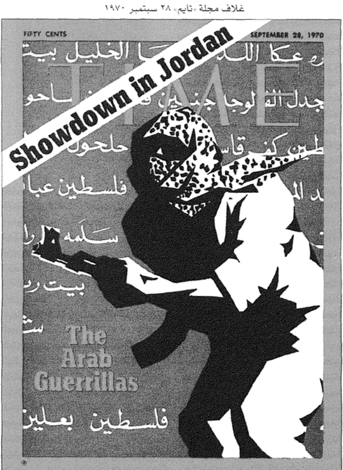
لذا بدأ العمل على صياغة جديدة لأفق جديد للشعب الفلسطينى، تقوم على حق تقرير المصير، ولو خطوة خطوة، وعلى ضرورة إعادة بناء الكيانية الوطنية الفلسطينية، لتثبيت وجود الشعب الفلسطينى، وحقه فى الوجود، وكانت الأفكار الأولية بتثبت حق تقرير المصير باتجاه إقامة دولة فلسطينية مستقلة، وصيانة حق العودة. وفى ذات السياق حل قضايا التعارض والتناقض فى العلاقات الفلسطينية . العربية بروح الجمع بين الوطنى والقومى على برنامج القواسم المشتركة.

شخصياً كنت أول من بادر إلى تثبيت هذه الأفكار، حين كنت مختفياً فى عمان، كونى مطلوباً للسلطات الأردنية حياً أو ميتاً، مقابل مكافأة مالية تعتبر أسطورية فى ذلك الوقت، وقد التقيت فى المكان السرى الذى كنت موجوداً فيه، مع ياسر عمر عضو لجنة تنفيذية لمنظمة التحرير ممثل الصاعقة، وإبراهيم بكر نائب رئيس اللجنة التنفيذية، وجلسنا على الأرض، وقلت أننا أمام وضع جديد يتطلب نقد الذات، وإجراء مراجعة شاملة لنخرج من عنق الزجاجة إلى أفق أرحب: يفتح أمام شعبنا طريقاً من أجل بلورة شخصيته وهويته الوطنية الفلسطينية، وحقه فى الوجود، وتقرير المصير، فى إطار دولة فلسطينية مستقلة. وهذا الحل أخذ يتبلور خطوة خطوة، إلى أن طرحت الجبهة الديمقراطية فى آب/ أغسطس ١٩٧٣ وقبل حرب تشرين/ أكتوبر ١٩٧٣ النقاط العشر الشهيرة، ودخلنا فى نقاش ساخن مع إخواننا فى «فتح»، وخاصة مركز الإعلام الفتحاوى والإذاعة الفتحاوية، وكذلك مع الفصائل الفلسطينية الأخرى، وحوار شامل فى كل تجمعات شعبنا داخل الأرض المحتلة وبلدان اللجوء والشتات، وفى صف قوى وأحزاب حركة التحرر والتقدم العربيَة والأممية، وعلى المدار الدولى. وهنا اقترح مراجعة كتاب «البرنامج الوطنى المرحلى» لنايف حواتمة وقيس عبد الكريم: وفيه النقاط العشر والردود عليها، بالنصوص الحرفية كما جرت فى حينه.

هذا الحوار الداخلى الفلسطينى جاءت بعده حرب تشرين/ أكتوبر ١٩٧٣، ليبرز الخطر الأكبر على الحقوق الوطنية الفلسطينية، عندما تمت الدعوة إلى مؤتمر جنيف برعاية الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية، وقد دُعيت إلى مؤتمر جنيف أربع دول فقط، هى مصر وسورية والأردن و«إسرائيل»، مع شطب حضور المقاومة الفلسطينية ومنظمة التحرير الائتلافية والشعب الفلسطينى. وبات واضحاً أن المطروح هو حل إقليمى عربى . «إسرائيلى»: العودة إلى حدود ١٩٦٧، وإبعاد الشعب عن قضيته، ومصادرة حقوقه الوطنية القائمة بذاتها، أى تقرير المصير والحرية والاستقلال والعودة، ليواصل أخذ أموره



غلاف مجلة «تايم» ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠





كنّا نخوض صراعاً على جبهتين؛ واحدة مع قوى الرفض بالشعارات والدول التى تتزعمها؛ وجبهة أخرى مع الدول العربية و«الثنائية» الدولية الداعية لمؤتمر جنيف

بيده. وبعد إنجاز هذه العملية، تُطرح مرحلة جديدة تقوم على الحل الشامل، الديمقراطى والعادل، فى دولة ديمقراطية موحدة، على كامل أرض فلسطين التاريخية: ومن بحرها إلى نهرها، ولكل مواطنيها من الفلسطينيين العرب والإسرائيليين اليهود (راجع كتاب «أزمة المقاومة الفلسطينية» الصادر عن الجبهة الديمقراطية. دار الطليعة/ بيروت ١٩٦٩). وفى حينه: أصبح واضحاً ضرورة دفع هذه الرؤية إلى الأمام بكل الوسائل السياسية والجماهيرية والحوار الفكرى، وأيضاً عبر العمليات المسلحة النوعية، ونذكر جميعاً العملية الشهيرة «معلوت. ترشيحا» فى أيار/ مايو ١٩٧٤، والتى خاضتها وحدة من الجبهة الديمقراطية، وأدت إلى أسر مجموعة من (شبيبة جدناع) العسكرية الصهيونية فى ترشيحا، وقد طرحت المجموعة الفدائية (مجموعة الشهيد كمال ناصر) مقايضة، بفك أسر (شبيبة جدناع) مقابل إطلاق سراح ٢٧ أسيراً فلسطينياً، فى مقدمتهم عمر القاسم، منديلا فلسطين: والمعلم الكبير فى الحركة الأسيرة، الذى لازالت الكتابات تدور حوله فى كل عام، وهى دارت هذا العام بمناسبة الذكرى العشرين لاستشهاده فى سجون الاحتلال، بعد ٢٧ عاماً من أسره. إضافة إلى المطران هيلاريون كبوتشى وبقية القائمة. لماذا العدد ٢٧؟ لأنه مقابل مرور ٢٧ عاماً على النكبة، أى أنها عملية مرموزة بسنوات النكبة، وقد انعقد المجلس الوطنى لمنظمة التحرير فى حزيران/ يونيو. وهذه العملية حصلت فى أيار؛ وبالتحديد فى ١٥ أيار/ مايو: أى يوم النكبة. حيث وجه المقاومون رسالة إلى المجلس (المجموعة الفدائية التى استشهدت)، كما استشهد عنوان عمليتها قبل ذلك التاريخ: الشهيد والشاعر الصديق كمال ناصر وإخوانه أبو يوسف النجار وكمال عدوان فى فردان، وخمسة من الجبهة الديمقراطية فى الفاكهانى/ بيروت بذات اليوم على يد وحدات إسرائيلية واحدة بقيادة ايهود باراك والأخرى بقيادة الجنرال اسحق شاحاك (١٩٧٣). وتمت تلاوة رسالة شهداء عملية الشهيد كمال ناصر، التى خاطبت المجلس الوطنى بضرورة تبنى البرنامج السياسى الجديد. وفعلاً: وقف المجلس الوطنى تصفيقاً بالإجماع لهؤلاء الشهداء، وتم إقرار هذا البرنامج بالإجماع، من جميع الفصائل بلا استثناء، ومن كل الشخصيات السياسية، ما عدا شخصيتين: الشاعر يوسف الخطيب: وعضو المجلس الثورى لفتح ناجى علوش.

جميع فصائل المقاومة والاتحادات النقابية والشعبية واتحاد المرأة والشخصيات المستقلة وافقت بدون استثناء وبدون تحفظ. بعدها: عادت التدخلات العربية من جديد، وتدخلت الصراعات العربية. العربية، وتشكلت جبهة رفض للبرنامج المرحلى الجديد من بعض القوى الفلسطينية بزعامة حاكمى العراق حينذاك، أحمد حسن البكر وصدام حسين؛ وبتمويل ليبى. بالمقابل: هذا البرنامج المرحلى دخل فى صراع جديد مع مؤتمر جنيف. ورعاته: فالدول الأربع المدعوة للمؤتمر كانت ضد تمثيل الشعب الفلسطينى فى منظمة التحرير الفلسطينية والمقاومة الفلسطينية، والمشطوب الحقيقى من الدعوة كان الشعب الفلسطينى.

وهذا الصراع أيضاً أخذ مداه، فكنّا نخوض صراعاً على جبهتين؛ واحدة مع قوى الرفض بالشعارات والدول التى تتزعمها؛ وجبهة أخرى مع الدول العربية و«الثنائية» الدولية الداعية لمؤتمر جنيف، وعلى الضفة الأخرى تكثيف وتطوير العمليات النوعية المسلحة ضد قوات العدو فى عمق فلسطين. وهكذا انشق الطريق أمام شعبنا بأفق يمكّنه فعلاً من تحقيق أهدافه؛ وكانت المعركة الكبرى، الفكرية والسياسية والجماهيرية، التى أدّت إلى تطوير النقاط العشر، والتى اتخذت عنوان البرنامج الوطنى المرحلى عام ١٩٧٩، عندما تفككت جبهة الرفض الفلسطينية، بعد أن عقدت سورية والعراق الميثاق القومى الشهير؛ وكنا هنا فى دمشق. فى دورة المجلس المركزى ودورة المجلس الوطنى لمنظمة التحرير الفلسطينية، بقاعة اتحاد نقابات العمال السورية؛ وقد علّقت أعمال المجلس الوطنى لثلاثة أيام؛ وكنا قد وحدّنا مجموعة من القوى من أجل الإصلاح التنظيمى والائتلافى الديمقراطى فى منظمة التحرير. وكان هناك موقفٌ موحدٌ ومشتركٌ لفريق من «فتح» ممثلاً بأبو إياد وإخوانه (أبو جهاد وآخرين)، والجبهة الديمقراطية و«الصاعقة» والجبهة الشعبية، من أجل الإصلاح الحقيقى لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكنا متفقين على أنه حان وقت الإصلاح والتطوير، مع شىء من الديمقراطية، ومحاولة تطوير عملية تشكيل اللجنة التنفيذية، مع إنشاء حلقة وسيطة بين اللجنة التنفيذية والمجلس الوطنى، على أساس ائتلاف وطنى عريض، أو جبهة وطنية عريضة. وتتشكل لجنة تنفيذية للمنظمة من رئيس: «أبو عمار»، وثلاثة نوّاب للرئيس: واحد من «الديمقراطية»: والثانى من «الصاعقة»: والثالث من «الجبهة الشعبية»: رغم أن الجبهة الشعبية كانت لا تزال فى إطار جبهة الرفض، لنُشكل قيادة مركزية، أخذت فيما بعد اسم: «المجلس المركزى»، بين المجلس الوطنى واللجنة التنفيذية، لتكون اللجنة تحت مراقبة ومحاسبة هذه الحلقة الوسيطة، لأن إمكانية عقد المجلس الوطنى الفلسطينى على الطريقة البرلمانية لم تكن متوفرة؛ فكان المجلس الوطنى يجتمع خلال سنة واحدة مرتين أحياناً، وقد يبقى عشر سنوات بدون انعقاد! وتعلمون أن المجلس الوطنى لم ينعقد منذ عام ١٩٩١، باستثناء دورة انقسامية عقدت عام ١٩٩٦ فى غزة لتمرير اتفاق أوسلو وتداعياته، حيث رفض أبو عمار ما كنّا اتفقنا عليه.

وقد افتعل أبو عمار ما افتعل، مستخدماً دم الشهيد على حسن سلامة (أبو حسن سلامة) الذى استشهد أثناء الدورة فى عملية عدوانية إسرائيلية فى قلب بيروت؛ وعطل أعمال المجلس الوطنى لثلاثة أيام. فى هذا السياق، تم استدعاء الرفاق: زهير محسن وسامى عطارى وعصام القاضى من الصاعقة، وعبد الرحيم أحمد أمين عام جبهة التحرير العربية (بعث العراق)، وأحمد جبريل وطلال ناجى وفضل شرورو من القيادة العامة إلى مبنى وزارة الخارجية السورية، وكان عبد الحليم خدام مجتمعاً مع طارق عزيز؛ وقد طلب الوزيران من تلك الفصائل. «الصاعقة، جبهة التحرير العربية، القيادة العامة». أن تفكك أى ارتباط بما كنا اتفقنا عليه معها. (ذكرت هذا أيضاً فى كتابى «حواتمة يتحدث» ١٩٩٧. دار الكاتب/ دمشق، ودار الجليل/ عمّان). وفى هذا الإطار، الصاعقة تفك الارتباط معنا، لأن جبهة التحرير العربية والقيادة العامة وإخوتنا فى الجبهة الشعبية كانوا فى جبهة الرفض، مع آخرين. وأضافا. الوزيران. ما كان بين سورية والعراق قد تم حلّه؛ وبالتالى بيننا الآن ميثاق قومى. وعليه: ما ارتبطت به «الصاعقة» مع آخرين من «فتح» و«الجبهة الديمقراطية» يتم إلغاؤه. وأيضاً، يتم حل جبهة الرفض، التى لم يعد لها ضرورة؛ وطلبا من الفصائل الثلاثة أن تعود إلى المجلس الوطنى، وتدخل إلى قاعة المجلس الوطنى، وتبايع الأخ ياسر عرفات. وفعلاً: دخلت هذه الفصائل؛ وألقى الشهيد زهير محسن. غفر الله له. كلمة بايع فيها أبو عمار رئيساً من جديد؛ وبقيت أنا وجورج حبش فقط خارج القاعة، ومعنا وفدا الجبهة الديمقراطية والشعبية. ودبكت كل حركة «فتح»: من يمينها إلى يسارها «غلاّبة فتح، فتح ثورة على الأعادى»! ومن هم الأعادى فى هذه الحالة، ليس الاستعمار الأميركى، و«إسرائيل» الصهيونية التوسعية، والأنظمة العربية التى تتدخل سياسياً ومادياً ومالياً فى المعادلة الفلسطينية، لدفعها نحو اليمين والالتحاق بهذا المحور العربى أو ذاك؛ بل القوى الفلسطينية الشقيقة، التى ناضلت وجاهدت من أجل وضع أُفق أمام الشعب الفلسطينى، من أجل تطبيق الإصلاح والتطوير الديمقراطى فى منظمة التحرير الفلسطينية.

حدث هذا فى الدورة الخامسة عشرة

عند ذاك وقع الذى وقع، وتمّ حل جبهة الرفض، دون أن يصدر عن هذه الجبهة أىّ إعلان إلى يومنا هذا، يفسّر: لماذا تشكلت ولماذا انفرطت؟!

وقد أخذ البرنامج السياسى لمنظمة التحرير آنذاك عنوان البرنامج الوطنى المرحلى، ومرةً أخرى، يتّضح من خلال النضالات التى جرت ما بين عام ١٩٧٤ وعام ١٩٧٩، أن الأفق أمام القضية الفلسطينية، سياسة ومقاومة، وطنياً وقومياً ودينياً (بكل ألوان الطيَف



اعترف جورج بوش الابن بحق الشعب الفلسطينى بدولة، باسم الإدارة الأمريكية.
واعترف بيل كلينتون قبله بحق الشعب الفلسطينى بدولة، فى مباحثات كامب ديفيد الثانية



الدينى)، هو الممر الضرورى، الوطنى والقومى والإنسانى، الأممى والدولى، لتحشيد كافة الطاقات إلى جانب النضال الوطنى الفلسطينى؛ وهذا هو البرنامج الوطنى المرحلى، المبنى على النقاط العشر منذ عام ١٩٧٤: حق تقرير المصير للشعب الفلسطينى، وبذلك تحل مشكلة التجمعات الفلسطينية، وتلبى حقوقها بأن تقرر مصيرها بنفسها؛ بدءاً من أبناء شعبنا داخل أراضى ١٩٤٨ إلى كافة أماكن تواجده الأخرى: دولة فلسطينية مستقلة، وعاصمتها القدس العربية المحتلة، لحل مشكلة شعبنا تحت الاحتلال أوالاستعمار الاستيطانى فى القدس والضفة وقطاع غزة، وهناك بالطبع حق العودة للاجئين الفلسطينيين. وبالتالى؛ نحن وحدنا الشعب الفلسطينى لأول مرة، على امتداد الفترة ما بعد ١٩٤٨ (١٩٧٤ حتى ١٩٧٩). نحن شعب واحد؛ لكننا لم نكن شعباً موحداً، بعد النكبة، والتشطير الذى وزع شعبنا على أكثر من خمسين بلداً. ولذا مرة أخرى. وهنا أختم هذه المسألة. بالقول الواضح: هناك من يتكلم بدءاً من سنة ١٩٧٤. وهذا ليس جديداً. بأن تجربة البرنامج الوطنى المرحلى لم يتم إنجازها، وأنها دخلت فى طريق مسدود؛ بينما الحقيقة أن برنامج النقاط العشر، ثم البرنامج الوطنى المرحلى، هو الذى أنقذ القضية الفلسطينية والحقوق الوطنية الفلسطينية «تقرير المصير، الدولة، العودة»، والشخصية الوطنية الفلسطينية من خطر الموت السريع؛ بدلاً مما تم طرحه بعد حرب تشرين (١٩٧٣) مباشرة، والقائم على عقد مؤتمر جنيف بين أربع دول، وشطب الشعب الفلسطينى وممثلى هذا الشعب. والصراع يدور منذ عام ١٩٧٤ بشكل واضح على هذا البرنامج المرحلى، وحتى اليوم: «تقرير مصير، أم لا تقرير مصير»، من قبل الشعب الفلسطينى، عبر ممثله الشرعى والوحيد؛ منظمة التحرير الفلسطينية الائتلافية، التى تضم وتجمع كل أطياف وتشكيلات الشعب الفلسطينى، هذا أولاً. ثانياً: دولة مستقلة للشعب الفلسطينى، حاله حال أى شعب من الشعوب تحت الشمس، على حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، وعاصمتها القدس الشرقية المحتلة عام ١٩٦٧. ثالثاً: عودة اللاجئين، عملاً بالحق التاريخى والمقدس والأممى للقرار (١٩٤). وكل الصراعات تدور حول هذا المحور، وقد ساندتنا فى البداية العديد من قوى التحرر والتقدم العربية والعالمية: ثم الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية والبلدان الاشتراكية الأخرى: فالحركة الثورية العالمية، وشرائح واسعة من الرأى العام داخل أوروبا، وبعض الشرائح داخل الولايات المتحدة. لكن الإدارات الأمريكية ظلت حتى عام ١٩٩٣ ترفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطينى، وترفض التعامل معها، مع إنكارها أى حق من حقوق شعبنا.

عام ١٩٩١ وعشية حرب الخليج الثانية تمت صياغة معادلة أمريكية. عربية جديدة «مشاركة الدول العربية فى حرب الخليج مقابل عقد مؤتمر دولى للسلام مع «إسرائيل» برعاية الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، وعلى أساس قرارى مجلس الأمن الدولى ٢٤٢، ٣٣٨، وتتم المشاركة الفلسطينية بوفد من الضفة وقطاع غزة فقط فى إطار وفد مشترك أردنى. فلسطينى، لا أحد من القدس، لا أحد من الشتات، ولا علاقة له بمنظمة التحرير (شروط شامير). تدخلت الدول العربية مع عرفات للنزول عند هذه الشروط، وهذا ما كان. كسر عرفات قرار المجلس الوطنى لمنظمة التحرير (سبتمبر/ أيلول ١٩٩١) بعناصره الستة، واستجاب لضغوط الدول العربية وشروط شامير، هكذا وقع الانقسام السياسى الكبير فى منظمة التحرير (راجع كتاب حواتمة «أوسلو والسلام الآخر المتوازن»).

عام ١٩٩٣ جرى التوقيع بالأحرف الأولى على اتفاقات أوسلو الجزئية، ذهب أبو علاء/ أحمد قريع وشمعون بيريز إلى الولايات المتحدة الأمريكية، والتقيا بـ«وارن كريستوفر» وزير الخارجية فى كاليفورنيا، فى ذلك الوقت، بحضور دنيس روس؛ وطلبا منه موافقة الإدارة الأميركية على اتفاقات أوسلو الجزئية، وإبرازها على أنها إنجاز لها. بينما هى فى الحقيقة، تمت من دون مشاركة مباشرة من الإدارة الأميركية؛ فضلاً عن أنها عقدت بإدارة الظهر لكل القوى الفلسطينية، ولقوى التقدم والتحرر العربية، والعديد من الدول العربية، ولأصدقائنا فى العالم؛ دولاً وحركات تحرر وطنى وقوى تقدمية. بعض الدول العربية كان لديها علم بما يجرى فى «أوسلو»؛ والإدارة الأمريكية تبنت أوسلو فعلياً. فبعد أقل من شهر تقريباً، حصل الاحتفال الشهير فى واشنطن (١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣)، بالإخراج الهوليودى لهذه الاتفاقات، الجزئية والمجزوءة، والتى أعلنا فى الجبهة الديمقراطية موقفنا منها منذ اللحظة الأولى، وحتى يومنا هذا، بأنها اتفاقات جزئية لن تقود إلى حلول شاملة، وانتقدناها، ودعونا فوراً إلى تجاوزها فى مسيرة النضال من أجل إعلان دولة فلسطين المستقلة، على الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧، مع دعوة كل دول العالم إلى مساندتنا فى النضال لتحريرها من الاحتلال. أما بالنسبة للعدو، فهو ظل ينكر علينا أننا شعب موجود، له الحق فى الوجود، حتى ما بعد عام ٢٠٠٠؛ لأن اتفاقيات أوسلو تعترف فقط بالفلسطينيين، ولا تعترف بشعب



فلسطينى. والفلسطينيين تم تحديدهم فقط، وفق أوسلو، بسكان القدس والضفة الغربية وقطاع غزة. بينما ٦٨٪ من الشعب الفلسطينى اللاجئ لا يدخل فى الحسبان! بقى هذا التصور إلى ما بعد فشل مفاوضات كامب ديفيد الثانية فى تموز من العام ٢٠٠٠، بين ياسر عرفات وفريقه وبين ايهود باراك وفريقه، وبدأ الشعب الفلسطينى يستعيد موقعه ودوره مجدداً، فى إطار الانتفاضة الفلسطينية الثانية المجيدة، التى قدمت إنجازاً عملاقاً، كان قد دخل إلى كل بيت فى العالم: فى الانتفاضة الأولى، ليتعمق فى الانتفاضة الثانية؛ ومفاده أن لا أفق لإنهاء هذا الصراع إلا بالاعتراف بالشعب الفلسطينى، وبممثله الشرعى والوحيد، منظمة التحرير الفلسطينية الائتلافية، والاعتراف بأنه شعب موجود، له الحق فى الوجود، كما فى تقرير المصير والدولة المستقلة. لكن، كان هناك فريق يقول: حق العودة لكل لاجئ؛ وفريق آخر يقول: حل مشكلة اللاجئين. ومن هنا، علينا أيضاً أن ننظر إلى التطورات اللاحقة، التى جرت بعد كامب ديفيد الثانى، وبعد مقترحات كلينتون فى كانون الأول/ ديسمبر من العام ٢٠٠٠، ومباحثات طابا فى كانون الثانى/ يناير ٢٠٠١ (راجع كتاب «أوسلو والسلام الآخر المتوازن»).

بعد ذلك، استلمت حكومة شارون الحكم فى «إسرائيل»؛ ومن ثم جاء أولمرت، والآن عاد حكم الليكود المتطرف بزعامة نتنياهو!

إذاً: فى سياق هذا المسار التاريخى، أوروبا اعترفت بنا؛ والولايات المتحدة اعترفت بنا. لكن أوروبا تأخرت حتى نهاية الثمانينيات، والولايات المتحدة تأخرت إلى ما بعد عام ٢٠٠٠. وقبل ذلك العام، كانت قد اعترفت بوجود فلسطينيين وبمنظمة التحرير؛ لأن اتفاقية أوسلو تم توقيعها من وراء ظهر قوى منظمة التحرير؛ وكانت هذه العملية مقصودة، من أجل مفاضلة الحقوق الفلسطينية «حق تقرير المصير وحق العودة»، لأن اتفاقيات أوسلو (وتداعياتها) تدور فقط فى إطار الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧.

فيما بعد: اعترف جورج بوش الابن بحق الشعب الفلسطينى بدولة، باسم الإدارة الأمريكية. واعترف بيل كلينتون قبله بحق الشعب الفلسطينى بدولة، فى مباحثات كامب ديفيد الثانية. لكنه رفع «الكرت الأصفر» لياسر عرفات، بأن «الإدارة القادمة لن تتبنى مقترحاته؛ إذا لم يقبل بها «عرفات»! ثم رفع «الكرت الأحمر» فى وجه عرفات فى كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٠ بأنه «لن يوصى الإدارة القادمة بالبناء على ما توصل إليه من مقترحات؛ وأضاف أنه . أى عرفات . «لن يكون ضيفاً على البيت الأبيض فى الإدارة القادمة». إدارة بوش كانت قد انتخبت. وفعلاً: هذا الذى حصل مع ياسر عرفات، إلى أن تمت محاصرته فى المقاطعة، ورحل مسموماً.

بعد كل ذلك أقول: بوش طرح حق الشعب الفلسطينى بدولة، من موقعه كرئيس للإدارة الأميركية: ثم تقدم بمشروع قرار للأمم المتحدة، تم تبنيه بالإجماع ما عدا «إسرائيل» ومكرونيزيا، حول ما سماه بوش إقامة دولتين: دولة «إسرائيل» ودولة فلسطين، تعيشان جنباً إلى جنب،

☞



إنه الانقسام والانشطار العمودى المدمّر فى المجتمع ومؤسسات السلطة التشريعية والسياسية، إنه الصراع العبثى على السلطة والنفوذ تحت سلطة الاحتلال واستعمار الاستيطان

بأمن وسلام: ثم وعد. طرح مشروع هذا القرار سنة ٢٠٠٣. أنه حتى حزيران/ يونيو ٢٠٠٥ تكون التسوية السياسية الشاملة، على جبهة الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، قد أنجزت! كذلك: أعلنت خطة الرباعية الدولية في نيسان ٢٠٠٣، التي تحدثت عن أن التسوية السياسية الشاملة ستكون تامة الانجاز في العام ٢٠٠٥. لكن، سقط ذلك كله: وجرى عقد مؤتمر أنابوليس. ونتائجه أيضاً تلاشت، لأن الوعود كانت. من قبل أكثر من ٥٦ دولة اجتمعت في ذلك المؤتمر، بأنه تحت سقف نهاية ٢٠٠٨، تكون التسوية السياسية الشاملة قد تمّت، لماذا لم ينجز كل هذا؟! ... لأكثر من سبب:

أولاً: لا يدور الحل المقترح حول القضايا الرئيسة في البرنامج الوطني المرحلي: القدس، الحدود، المستوطنات، اللاجئون، الأمن، والأسرى. هذا هو جوهر الصراع الدائر منذ عام ١٩٧٤: وإقرار برنامج النقاط العشر. حتى الآن: لأن دولة «إسرائيل» بحكوماتها المتعددة، لم تسلم، حتى هذه اللحظة، بأن القدس العربية المحتلة عام ١٩٦٧، وهي مدينة عربية وفلسطينية بشعبها، عاصمة لدولة فلسطين. كما لم تسلّم بعد بالانسحاب من الأراضي التي احتلت في دولة فلسطين بحدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، لم تسلم بعد بتفكيك المستوطنات ورحيل المستوطنين من جميع الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧: ولا بحق العودة للاجئين الفلسطينيين. وهكذا يتضح تماماً لماذا لا يزال الصراع مع هذا الكيان دائراً حتى اليوم!.

الإدارة الأمريكية الجديدة بدأت تقترب من هذه الحقائق الموضوعية، خطوة خطوة. لكنها حتى الآن لم تحسم خيارها مع «إسرائيل»، وآخر مثال على ذلك، موقف أوباما بعد إلقاء خطابه في ٤ حزيران/ يونيو ٢٠٠٩ في القاهرة، وعدم تجاوب نتنياهو والليكود معه، حين قال: لا بد من شيء من الحزم مع «إسرائيل»! عندئذ، ارتعب الليكود ونتنياهو: فانحنى الأخير من خلال خطابه في ١٤ حزيران/ يونيو ٢٠٠٩ في جامعة بار إيلان، التي خرّجت قاتل اسحق رابين في ميدان تل أبيب، ليُلقي خطاباً على مدى ٣٠ دقيقة، ٢٩ دقيقة منه لمغازلة وطمأنة اليمين واليمين المتطرف في «إسرائيل»، وفقط: في نصف الدقيقة الأخيرة، لفظ كلمة «دولة فلسطينية»، ثم كبّلها بالشروط والقيود، من أجل أن يستخدم هذه الشروط والقيود في مناوراته على الفلسطينيين والعرب والعالم، وخاصةً على الإدارة الأميركية. فالذي أعلنه نتنياهو لأول مرة، يكسر الايدولوجيا والميثولوجيا الليكودية، والتي بسببها اضطر شارون أن ينشق عن الليكود ويشكل حزب كاديما. ولأول مرة منذ عام ١٩٧٧، فضلاً عن تاريخه ما قبل ذلك، بزعاماته التي جاءت إلى حكومات «إسرائيل» المتعاقبة، يلفظ الليكود بلسان نتنياهو كلمة «دولة فلسطينية»، لكنّ أوباما واصل ضغطه: وكانت النتيجة في يوم ٥ تموز/ يوليو ٢٠٠٩، خلال اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلي، الذي لفظ عبارة «دولتين لشعبين». لكن، حتى الآن، لم ينزل الكيان عن شجرته التوسعية الاستيطانية في القدس والضفة الفلسطينية، ولا عن رفضه عودة القدس العربية إلى أهلها: وهو لازال يعلن أنها:

«عاصمة موحدة أبدية لإسرائيل»: مع تأكيد رفضه لحق اللاجئين في العودة إلى بلادهم.

إذاً: نحن نسير على الطريق الصحيح، طريق البرنامج الوطني المرحلي، وهذا ما وافقت عليه كل فصائل المقاومة بلا استثناء في الحوار الوطني الشامل (إعلان القاهرة آذار/ مارس ٢٠٠٥، برنامج وثيقة الوفاق الوطني/ غزة يونيو ٢٠٠٦، قرارات الحوار الشامل في القاهرة ١٠. ١٩ آذار/ مارس ٢٠٠٩). لكننا فقدنا الوزن المؤثر، كما فقد العرب قبلنا الوزن المؤثر. العرب فقدوه في ظل الانقسامات العربية - العربية، حتى غاب الموقف العربي الموحّد، وتآكل التضامن العربي. ونحن فقدنا تأثيرنا بسبب الانقسام الذي وقع في صفوفنا: بدءاً من الانقسام السياسي والائتلافي على خلفية اتفاقات أوسلو الجزئية: إلى الانقسام الانشطاري العمودي الكامل، العبثي والمدمّر، والذي قاد إلى سلسلة من الانقلابات السياسية والعسكرية، مع إجراء الانتخابات في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٦ وفق قانون انقسامي، لا ديمقراطي، ولا وحدوي: قانونٌ مختلطٌ يقوم على قاعدة: ٥٠٪ تمثيل نسبي، و٥٠٪ دوائر.

كنتُ ووفد الجبهة الديمقراطية القوة المناضلة الأولى، بل القوة المبادرة، التي طرحت في الحوار الوطني الشامل في آذار ٢٠٠٥ في القاهرة، إعادة بناء البيت الفلسطيني على أساس قوانين انتخابية جديدة، تقوم على التمثيل النسبي الكامل «بلديات، جامعات، نقابات، مهنيات، اتحادات شباب، اتحادات نسائية، المجلس التشريعي للسلطة، والمجلس الوطني لمنظمة التحرير»؛ حتى نعيد بناء النظام السياسي الفلسطيني كله، على قاعدة ديمقراطية كاملة، بالتمثيل النسبي الكامل، وبشراكة وطنية شاملة لكل مكونات وتيارات الشعب الفلسطيني. لكن، في آذار ٢٠٠٥، أعضاء وفد «فتح» برئاسة محمود عباس (أبو مازن) عاندوا ورفضوا طرحنا، ثم وافقوا بعد حوار دام أربعة أيام على تمثيل نسبي كامل بالنسبة للبلديات، ورفضوا ذلك فيما يخص المجلس التشريعي. وأقصى ما استطعنا أن ننتزعه في الحوار كان: ٥٠٪ تمثيل نسبي و٥٠٪ دوائر (١٦ دائرة: ١١ ضفة، ٥ غزة، بأكثرية الصوت الواحد للقائمة)؛ لأن ممثلي «فتح» كانوا يعتقدون أنهم في الانتخابات القادمة سيفوزون بالأغلبية. وهم فوجئوا بالانهيار الكامل لعشر حكومات «فتحاوية»؛ وهنا السؤال: لماذا وافقوا على التمثيل النسبي الكامل في البلديات؟ لأن الجولة الأولى من الانتخابات البلدية تمّت ولحقت هزيمةٌ مُرّةٌ بفتح؛ وهذا ما تكرر في الجولة الثانية. لذا: هم وافقوا على قانون انتخابات بلدية، ينص على التمثيل النسبي الكامل. وحتى اليوم، انتخابات النقابات العمالية والمهنية لا تقوم على التمثيل النسبي الكامل في الضفة الفلسطينية.

وفي غزة: لا شيء يقوم على التمثيل النسبي الكامل: سواء أثناء سيطرة سلطة «فتح»، أو في ظل سلطة حماس. ولا توجد انتخاباتٌ في غزة منذ العام ١٩٦٧. فقط، هناك انتخابات في الجامعات، على أساس أن القائمة التي تحصل على زيادة صوت واحد، تأخذ كل المقاعد: والتي تحصل مجموع أقل بصوت واحد تُشطب بالكامل! إنه الانقسام والانشطار العمودي المدمّر في المجتمع ومؤسسات السلطة التشريعية والسياسية، إنه الصراع العبثي على السلطة والنفوذ تحت سلطة الاحتلال واستعمار الاستيطان.

إذاً: هذا هو الانقسام الذي يتراكم يوماً بعد يوم. أربع سنوات وثمانية أشهر ضاعت على الشعب الفلسطيني، في ظل الانقسامات والانقلابات السياسية والعسكرية، التي تحولت إلى انقلابات دموية انشطارية عامودية، أدّت إلى هيمنة فتح على الضفة، وهيمنة حماس على غزة، وإقصاء باقي مكونات الشعب الفلسطيني، من فصائل وقوى وأحزاب ونقابات واتحادات ومنظمات جماهيرية: كما أدت أيضاً إلى «صوملة» الأراضي الفلسطينية المحتلة (من الصومال: حيث تشكلت منذ العام ١٩٧٦ ثلاث حكومات، وثلاثة مجالس تشريعية: أي ثلاثة كيانات سياسية، في بلد مشطوب من التاريخ، وموجود في الجغرافيا: لكنّه غير موجود في محيطه). وقد تمت عملية «صوملة» الأرض الفلسطينية المحتلة، بالفصل بين قطاع غزة والضفة الفلسطينية والقدس.

في كل جولات الحوارات الوطنية الشاملة التي خضناها حتى الآن، كنا معاً نحقق انجازات كبرى. وفعلياً: كان الإنجاز الأول الكبير في حوار القاهرة الشامل في آذار/ مارس ٢٠٠٥. والانجاز الثاني الأكبر، السياسي الوحدوي الديمقراطي، تمثّل في الحوار الشامل في غزة في حزيران/ يونيو ٢٠٠٦، والذي ارتدت عنه «فتح» و«حماس». وعقد صفقة المحاصصة الاحتكارية الثنائية في ٨ شباط/ فبراير ٢٠٠٧ في مكة المكرمة، فأنتجت الحرب الأهلية والانقلابات العسكرية والسياسية وهيمنة حماس على قطاع غزة تحت عنوان «الحسم العسكري بلغة حماس» والصراع الذي لا يتوقف على السلطة والنفوذ بين فتح وحماس، وإقصاء كل فصائل وتيارات ومكونات الشعب الفلسطيني. وكان الانجاز الكبير الثالث في حوار القاهرة ٢٦ شباط/ فبراير ٢٠٠٩، وصولاً إلى جولات (حوار النهار والليل)، ما بين (١٠. ٢٠) آذار/ مارس ٢٠٠٩.

لكن، كل هذه الحوارات، ارتدّ قادة فتح وحماس عنها: ولا زالوا في حالة ارتداد! لقد عقدوا ست جولات احتكارية وإقصائية، وارتدادية إلى الخلف، عن ما أنجزنا في الحوار الشامل في القاهرة.



تم عقد اجتماع بين الجبهة الديمقراطية والجبهة الشعبية وحماس والجهاد الإسلامى فى قطاع غزة؛ ولا زالت حماس مصرة على استئناف الحوار الثنائى

وهم يحضرون لجولة سابعة: جولات محاصصة ثنائية طالت فى دمشق ومكة، وتطول فى القاهرة حتى يومنا، ومن الآن أقول: هذه الجولة ستصل إلى طريق مسدود إذا ما انعقدت! ولقد تمنينا، نحن وفد الجبهة الديمقراطية حين التقينا فى دمشق ورام الله الوفد المصرى برئاسة وكيل الوزير عمر سليمان، السيد اللواء محمد إبراهيم، ألاّ تنعقد الجولة السابعة. لكنها انعقدت وانتهت إلى فشل آخر. كفى تيئيساً وإحباطاً للقطاعات الاجتماعية، فى صفوف شعبنا وأمتنا؛ حوار المحاصصة الاحتكارية بين فتح وحماس وبرعاية وتمويل عواصم عربية وغير عربية لا يريد «معادلة وحدة وطنية يمين ويسار ووسط» بل «معادلة يمين . يمين، يمين وطنى، ويمين سلفى/ أصولى»، لا يُحرج أى عاصمة عربية فكرياً وسياسياً وبرنامجياً.

لذلك، نحن دعونا إلى استئناف الحوار الوطنى الشامل فى ٢٠٠٩/٧/٧. تم عقد اجتماع بين الجبهة الديمقراطية والجبهة الشعبية وحماس والجهاد الإسلامى فى قطاع غزة؛ ولا زالت حماس مصرة على استئناف الحوار الثنائى، بينما الفصائل الثلاثة طلبت إلغاء الحوار الثنائى والعودة إلى الحوار الشامل. يجب البناء على ما أنجزنا فى ذلك الحوار (١٠ . ٢٠ /٢٠٠٩/٣) واستكماله؛ وفى غزة تواصلت الاجتماعات بين هذه الفصائل، كما بين الديمقراطية والشعبية وحزب الشعب مع فتح حتى يومنا، إذ لا حلول جذرية إلا فى إطار الكل الفلسطينى؛ بينما الحلول الثنائية بين فتح وحماس، هى حلول جزئية احتكارية وإقصائية لمختلف مكونات الشعب الفلسطينى.

نحن فى مرحلة تحرر وطنى. وعلينا فى مرحلة التحرر الوطنى أن نبنى وحدة وطنية تتمثل فيها كل مكونات شعبنا، بكل تياراته واتجاهاته: كما بقواه وفصائله ومستقليه، ونقاباته ومهنييه واتحاداته الشعبية؛ شرط «ديمقراطية» كل هذه المؤسسات، بانتخابات من القاعدة إلى القمة، تقوم على التمثيل النسبى الكامل، وبدون عتبة حسم. على سبيل المثال، فى الحوار الوطنى الشامل، فى القاهرة، فى آذار/ مارس من هذا العام ٢٠٠٩، قادة حماس فى لجنة منظمة التحرير الفلسطينية، وافقوا على انتخاب مجلس وطنى فلسطينى جديد، موحّد فى الداخل والخارج: الداخل دائرة انتخابية واحدة: والخارج . الشتات . دائرة انتخابية واحدة، بالتمثيل النسبى الكامل، وبدون عتبة حسم. لكن، عندما «جئنا» للمجلس التشريعى، رفضوا وأصروا على القوانين القديمة، التى أنتجت الحروب الأهلية، والانقسامات السياسية والعسكرية، وأصروا فى انتخابات المجلس التشريعى على قانون مختلط، مقترحين ٦٠٪ تمثيلا نسبيا، و٤٠٪ دوائر، وعتبة حسم ٨٪: حتى يبقى الاحتكار محصوراً بين حماس وفتح، ولإقصاء الشعب الفلسطينى عن ذلك المجلس، وكأننا فى مرحلة ما بعد الاستقلال. لكن، حتى فى ما بعد الاستقلال، الدول الديمقراطية الفعلية، تأخذ بمبدأ التمثيل النسبى الكامل، أو الدائرة الفردية «النائب الواحد فى الدائرة الواحدة». المفارقة العجيبة: لماذا يكون فى المجلس الوطنى، تمثيل نسبى كامل وبدون عتبة حسم، بينما فى «التشريعى»، النسبة هى ٦٠٪ مقابل ٤٠ ٪، وعتبة حسم ٨٪؟! لأن قادة حماس لا زالوا يسعون نحو الاحتكار والمحاصصة بينهم وبين فتح، وقد جرّت حماس حركة فتح إلى الخلف، حيث «الحنين» إلى المحاصصة الثنائية برعاية الانقسامات العربية . العربية.

هذا من جانب: وهناك الإقصاء أو التنازع حول سلطة تحت الاحتلال؛ وهذا مذلة ومهانة للجميع؛ لا يتحرك أحد من قطاع غزة إلى خارجه أو يعود إليه: وكذلك لا يتحرك أحد من الضفة إلى خارجها أو يعود إليها؛ إلا بإذن من سلطات الاحتلال.

فى اجتماع ٢٠٠٩/٧/٧ وما بعده حتى يومنا فى غزة، الذى شارك فيه ممثلو حماس: «خليل الحيّة، وإسماعيل رضوان، وأيمن طه، وإسماعيل الأشقر»، وممثلو الجبهة الديمقراطية: «صالح زيدان، وصالح ناصر، وعصام أبو دقة»؛ وممثلو الجبهة الشعبية: «رباح مهنا، وهشام مجدلاوى، وكايد الغول»؛ وممثلو الجهاد: «محمد الهندى، وخالد البطش»، وممثلو حزب الشعب: «وليد عوض، وطلعت الصفدى»؛ يقول خليل الحيّة نصاً: «نؤكد أننا جادون بالحوار. وليس عيباً أن نقول أننا اقترينا كثيراً من مواقفكم ومواقف فتح». لكن، عندما أكمل حديثه، عاد وأكّد على معادلة ٦٠ بـ ٤٠ بالنسبة للتشريعى. كان هناك إجماع فى آذار ٢٠٠٩ من قبَل ممثلى اثنى عشر فصيلاً، بما فيهم فتح، ومن كل الشخصيات الفلسطينية المستقلة، على التمثيل النسبى الكامل بالنسبة للتشريعى، وبعتبة حسم (١ . ٥ . ١٪). لضمان الشراكة الوطنية الشاملة.

فى ٢٠٠٩/٧/١٠: وردتنا رسالة من هيئة العمل الوطنى فى غزة (ائتلاف كل فصائل المقاومة ما عدا حماس، شبكة المنظمات الأهلية. شخصيات مستقلة)، والتى يتمثل فيها اثنىَ عشر فصيلاً. ما عدا حماس، توجهت فيها الهيئة لأبى مازن وللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية بالقول: «لا للحوار الثنائى. يجب وقف الحوار الثنائى. والعودة إلى الحوار الشامل، والبناء على واستكمال ما تم إنجازه فى الحوار الشامل فى (١٠ . ١٩ آذار/ مارس ٢٠٠٩)».

وهنا أقول: يجب أن نستعيد الغائب الفلسطينى الأكبر، وهو الوحدة الوطنية، لإنهاء الانقسام. والحل السحرى لإنهاء الانقسام والصوملة هو اعتماد الدمقرطة. و«دسترة» هذه الدمقرطة فى قوانين، مع



تمثيل نسبى لكل جوانب الحياة الفلسطينية؛ تمثيل نسبى كامل، دون عتبة حسم؛ كما فعلت . مثلاً . جنوب إفريقيا. حين توحَد الشعب، بكل تياراته وأعراقه وأحزابه وأديانه ومذاهبه، . كان لديهم ما يزيد عن ٥٧ حزباً فى مسيرة النضال لإنهاء الاستعمار العنصرى الأبيض. وقد حصلوا على ذلك، بإنهاء الاستعمار العنصرى. وحتى اليوم، كل هياكل السلطة هناك تتشكل من جميع الأحزاب البرلمانية وغير البرلمانية، لأنهم يريدون إعمار البلاد. هذا هو المسار حتى ننهض نحن؛ ونضغط، بالوحدة الوطنية والبرنامج السياسى الموحَد، على إدارة أوباما كى تندفع إلى الأمام، وتضغط بدورها على «إسرائيل»، وتقطع الطريق على ادعاءات حكومة نتنياهو، التى أعلنت مجدداً عدم وجود شريك فلسطينى؛ حيث سلطة عباس وفتح فى الضفة، وحكومة حماس فى غزة.

وأيضاً: علينا أن نضع نهاية للانقسامات العربية . العربية، من خلال موقف عربى موحد حول قضية مشتركة لكل الدول العربية. أوباما خاطب العرب فى ٤ حزيران/ يونيو ٢٠٠٩: تعالوا للمصالحة فيما بيننا على قاعدة «المصالح المشتركة والاحترام المتبادل». إذن: ضعوا أيها العرب المصالح الأمريكية فى كفة الميزان، والمصلحة العربية المشتركة فى الكفة الأخرى: وأهمها إنهاء الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية والفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، وحق الشعب الفلسطينى فى تقرير المصير والدولة والعودة.

وهناك العامل الثالث المحلى: على القوى الإسرائيلية المحبَة للسلام، وهى ضعيفة وفقدت الكثير من قطاعات الرأى العام. داخل «إسرائيل»، والتى تريد السلام تحت سقف قرارات الشرعية الدولية، وكذلك الكتلة الفلسطينية العربية داخل أراضى ١٩٤٨. (التى تعدَ نحو ١.٥ مليون من البشر)، والأحزاب العربية والقوى النقابية فى صفوف العرب، أن تعزز العمل المشترك فيما بينها لتضغط باتجاه التأثير فى الرأى العام الإسرائيلى، الذى انحاز بأغلبيته لليمين واليمين المتطرف فى الانتخابات الأخيرة؛ ومن أجل بلورة حلول تتقارب، أو تتناغم مع قرارات الشرعية الدولية.

بدون هذه العوامل الثلاثة داخل فلسطين وخارجها؛ أى بين شعبنا الفلسطينى وقواه وفصائله، والموقف العربى الموحد، والجانب الداعم من قبَل قوى داخل «إسرائيل»، بدون ذلك، سيتبخر أو يتآكل خطاب أو خط أوباما الجديد، كما تبخرت الدعوة السابقة الصادرة عنه! وهذا ما برز فى القمة الثلاثية: أوباما، عباس، نتنياهو فى نيويورك بتراجع أوباما من «الوقف الكامل للاستيطان قبل استئناف المفاوضات» إلى «لجم النشاط الاستيطانى» والدعوة إلى «استئناف المفاوضات بدون شروط مسبقة»، وبرز فى جولة وزيرة الخارجية كلينتون فى الشرق الأوسط (٢ . ٢٠٠٩/١١/٦) وتصريحاتها «استئناف المفاوضات بدون شروط مسبقة» و«خطة نتنياهو للجم الاستيطان إيجابية غير مسبوقة»، وهذه تراجعات خطيرة عن خطاب أوباما فى ٤ حزيران/ يونيو ٢٠٠٩ فى القاهرة.

على الجانب الآخر من الصراع، المشروع الصهيونى

**لقد شكلت هذه القوى، مجتمعةً، ثقلاً موازياً للكولونيالية الفرنسية.
ولذلك، مالَ ميزان القوى جزئياً لصالح فيتنام الشمالية؛ التي لم تنتزع كامل حقوقها...**



أخذ هذا العنوان حتى عام ١٩٤٨، ثم أصبح مشروعاً «إسرائيلياً» صهيونياً توسعياً في مسار عملية الصراع التاريخية. لكن في قلب هذا المسار، يبقى السؤال الأكبر:

لماذا حقق العدو ما حققه، وراكم «إنجازاته»، بينما لحق بنا نحن ما لحق؟ العدو يحمل هذا المشروع على أكتاف قوى تشكلت وسط قوى منظمة واتجاهات داخل التجمعات اليهودية (من حيث الدين)، في بلدان متطورة جداً. أوروبا، أمريكا، روسيا. وعليه، الذي حمل هذا المشروع هي قوى اجتماعية وسياسية متطورة، على المستويين العلمي والمعرفي. ولذا: خاض العدو كل معاركه معنا ومع العرب بواسطة خطط وبرنامج، وجداول عمل عملية وعلمية، خطوة خطوة، مرحلة بعد مرحلة. وعلى حد قول بن غوريون: «أخذنا البلاد دونماً بعد دونم، وشجرة بعد شجرة»: أي أنهم طبقوا الحلول المرحلية.

كما فعلت بلدان العالم الثالث وناضلت من أجل التحرر الوطني «بسلاح السياسة وسياسة السلاح»، وفق حلول مرحلية، في كل أنحاء العالم: من فيتنام إلى جنوب إفريقيا. وقد انتصرت الثورة الفيتنامية عام ١٩٥٤، لكنها لم تتمكن حينذاك من انتزاع فيتنام الواحدة الموحدة، بعد أن انهزمت الكولونيالية الفرنسية: فقدمت حلاً مرحلياً يطبق في الشمال، ليشكل فيتنام الديمقراطية الشمالية: فيما ظل جنوب فيتنام تحت احتلال الكولونيالية الفرنسية ... لكن، لماذا نجحوا؟

أولاً: لأن ميزان القوى كان في صالح فيتنام: وكان ذلك عام ١٩٥٤.

ثانياً: بسبب دعم الصين الشعبية والاتحاد السوفيتي بالسلاح والسياسة.

ثالثاً: تأييد كل قوى السلام والتحرر والتقدم في العالم.

لقد شكلت هذه القوى، مجتمعة، ثقلاً موازياً للكولونيالية الفرنسية. ولذلك، مال ميزان القوى جزئياً لصالح فيتنام الشمالية: التي لم تنتزع كامل حقوقها...

حينها، الاتجاهات القومية اليمينية واليمينية المتطرفة اتهمت هوشي منه ابن الجنوب وقادة الثورة، كما اتهمت فيتنام الشمالية «بالانهزامية والحلول الاستسلامية»، لأنها تركت فيتنام الجنوبية تحت هيمنة الكولونيالية الفرنسية وحكومة سايغون الرجعية العميلة، وتوقف إطلاق النار خمس سنوات طوال.

في المعركة الفاصلة الكبرى، معركة ديان بيان فو تتويجاً لحرب ١٩٤٥ . ١٩٥٤ كان انتصار الثورة نسبياً، لم يكن حاسماً، وعليه: طرحت الثورة الحل الوطني المرحلي، قاتلت وفاوضت، لبناء دولة فيتنام الشمالية وتطويرها قاعدة خلفية لقوى التحرر في الجنوب وتوحيدها في جبهة تحرير وطنية شاملة ضمت ٢٧ حزباً ومنظمات جماهيرية.

وفي ١٩٥٩، رتّب الفيتناميون أوضاعهم من جديد، وانطلقت الثورة الجامعة بين السلاح والسياسة. وهذا ما علينا أن نفعل: نجهز أوضاعنا بعد أن نجتاز هذا الممر الإجباري لتقرير المصير والدولة وحق العودة. الفيتناميون دخلوا في عملية تجهيز أوضاعهم الذاتية من جديد وانطلقت الثورة الجامعة بين السلاح



والسياسة، بعد توقف إطلاق النار (٥٤ . ٥٩): ثم استأنفوا الكفاح السياسي والجماهيري والمسلح من جديد.

نحن الفلسطينيين والعرب شعوباً ودولاً وبجانبنا قوى دولية عظمى الاتحاد السوفييتي، الصين، فيتنام، كوبا، البلدان الاشتراكية الأخرى، بلدان آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، قوى التحرر والتقدم في أوروبا وداخل أمريكا الشمالية، لم نتمكن من خلق موازين قوى تمكننا من إنجاز الحل المرحلي الذي يدور عليه الصراع منذ ١٩٧٤ حتى يومنا. إنها الأخطاء والتراجعات الإستراتيجية والانقسامات في الصف الفلسطيني والعربي أولاً وبالأساس.

عام ١٩٥٩ بدأ الكفاح الفيتنامي الموحد من جديد لإلحاق الهزيمة بالكولونيالية الفرنسية في جنوب فيتنام. وهنا، تدخل الإمبرياليون الأمريكيون نجدة للكولونيالية الفرنسية . ولا أقول فرنسا .. فنحن نميز بين هذا وذاك: ولسنا مع مقولة «كله عند العرب صابون»! في كل بلد، يوجد من يقف إلى جانبنا. والدليل على ذلك، عشرات الملايين من البشر من قوى التحرر واليسار والتقدم في أوروبا وأمريكا، الذين يرفعون أعلام فلسطين ويقفون إلى جانب الشعب الفلسطيني، كما وقفوا مع شعب العراق ضد الغزو الوحشي الإمبريالي الأمريكي.

نذكر هنا الموقف في صفوف الرأي العام الأوروبي، الذي توصل، وفق إحصائية معينة، لاستنتاج بأن «إسرائيل» هي الخطر الأول على الأمن والسلام في العالم ...

كل الثورات وحركات التحرر الوطني في العالم قاتلت وفاوضت، والمسألة المطروحة: أي إشكال من المقاومة والقتال تحقق النصر، وأي إشكال تحصد التراجعات والهزائم، أي أشكال في المفاوضات وبأي برنامج سياسي تحقق إنجاز النصر، وأي مفاوضات تحصد التراجعات والهزائم، هذه هي المسألة. وأمامنا مخزون هائل من التجارب والدروس المرة الفلسطينية والعربية على مساحة القرن العشرين وحتى يوم الناس هذا. حوار العقل العلمي والنقدي يسأل لماذا ضاع علينا فلسطينيين وعرباً القرن العشرون؟ لماذا بين هزيمة ١٩٦٧ وحرب أكتوبر المجيدة ١٩٧٣ ست سنوات فقط، وبعد ٧٣ ست وثلاثون سنة الجبهات العربية راكدة والحدود مغلقة على المقاومة؟

الفيتناميون اضطروا خلال الأعوام (٥٩ . ٧٥) للقتال، وعمليات القتال هذه كان لها جانب سياسي ومفاوضات. عندما أقرّ الأمريكيون أنهم مستعدون للمفاوضات: لأن الأمر تأخر كثيراً. الحرب حيث استمرت ١٦ سنة، بعد ١٦ سنة حتى قبلت الإدارة الأمريكية بالمفاوضات. فأنجز الثوار تحرير الجنوب بالقتال والمفاوضات، وأعادوا الوحدة القومية للبلد، الذي أصبح حراً بخياراته الإستراتيجية، بتحرير العقل، الإصلاح والانفتاح، وجبهة الائتلاف الوطني نحو الثورة الصناعية وتصفية الإقطاع على طريق دولة مجتمع الرعاية والعدالة الاجتماعية في هذه المرحلة وبآفاق مراحل قادمة نحو دولة مجتمع الرفاه الإنتاجي بثورة العلم والاختراع وتكنولوجيا الإلكترونيات.

المشكلة عندنا أن موازين القوى لازالت مختلة في صالح العدو، الذي يعتبر بمثابة دولة إقليمية كبرى: وهو مدجج من رأسه إلى أخمص قدميه، ولديه اقتصاد صناعي وتكنولوجي متطور، وينافس مع البلدان الرأسمالية المتطورة. و«إسرائيل» هي سادس دولة في الإلكترونيات على مستوى العالم، مرتبطة بالإمبريالية الأمريكية بقوة: بينما نحن ننتمي إلى بلدان «عالم ثالث». وبالتالي، علينا أن ننجز تصحيح أوضاعنا، فلسطينياً وعربياً، في ضوء طبيعة هذا الصراع وتطوره، ومراكمة قوانا الذاتية. ثمة قوى من داخلنا الفلسطيني ارتكبت أخطاء إستراتيجية. كما حصل مثلاً في اتفاقات أوسلو (١٩٩٣): وكما حصل في آذار ٢٠٠٥: خلال الحوار الشامل: أو ارتداد فتح وحماس عن وثيقة الأسرى، التي أنضجت الرؤى السياسية والائتلافية والديمقراطية في وثيقة الوفاق الوطني ٢٠٠٦، والتي وقعنا عليها جميعاً: وصولاً للارتداد إلى الوراء، عبر الحرب الأهلية والمحاصصة، والانقلابات السياسية والعسكرية! هذا جانب أساسي من المشكلة: والجانب الآخر يتمثل في الحالة العربية التي بدأت بالتدهور بعد حرب تشرين ١٩٧٣: وهي لازالت تتدهور. لقد دمرت رفقة السلاح بين مصر وسورية والثورة الفلسطينية، وبين العرب والعرب، بين السلاح المادي وسلاح النفط، إلى أن ارتد أنور السادات نحو الحلول الثنائية الجزئية! لذلك، نحن استخلصنا درساً من كل هذه الحلول، ألا نقع فيها: وقررنا ألا نقع فيها. لكن، شذ عنا وكسر قرارات المجلس الوطني، رفيق الدرب الطويل، ياسر عرفات ومعه جناح في منظمة التحرير (اليمين ويمين الوسط)، والتآكل في الأوضاع العربية بدأ من ذلك الحين، وانهار التضامن العربي بالكامل في حرب الخليج الثانية، عند غزو الكويت من قبل حاكم العراق عام ١٩٩٠.

قصدت أن أقول بأننا كلنا أخطأنا: فلسطينيون وعرباً، نضالاتنا هائلة وعظيمة وشجاعة، وبيننا من يستوحي العقل والروح العلمية والعملية، والرؤى الواقعية الثورية على الأرض وفي الميادين: وبيننا من يتخلف عن كل ذلك، فيلجأ إلى كسر قرارات الإجماع الوطني والقرارات العربية المشتركة، وضرب القضايا المشتركة: بحيث تتشتت الطاقات والإنجازات، بفعل الارتداد

والتراجعات إلى الخلف ونحو اليمين بسلسلة من التنازلات تحت الأجندة الأمريكية والضغوط الإسرائيلية، وعلى الضفة الأخرى الجنوح نحو سياسات فئوية مقامرة لا أفق لها، وحصادها انقسامات عبثية مدمرة وكوارث وطنية وقومية، مثالها حروب الخليج الثلاثة والانقسامات العربية ـ العربية، وزرع وتمويل الانقسام فى الصف الفلسطينى، اللبنانى، فضلاً عما يجرى من حروب داخلية وأهلية فى بلدان عربية كثيرة منها السودان، العراق، الصومال، اليمن ... الخ.

إستراتيجية المراحل طريق الخلاص

أمامنا الخيار الوطنى الملموس؛ ولا يوجد أمامنا خيار آخر. وهنا علينا أيضاً أن نستذكر تاريخنا؛ عام ١٩٣٩، الكولونيالية البريطانية تراجعت عملياً عن وعد بلفور وتجاوزته، عندما قدمت بعد سنتين من اندلاع الثورة الفلسطينية، الكتاب الأبيض الذى ينص على قيام دولة فلسطينية واحدة على كامل فلسطين التاريخية: اقتصاد واحد، وسوق واحدة، وجيش واحد، وسياسة خارجية واحدة، ووقف الهجرة الجديدة، مع السماح بوصول ٨٥ ألف يهودى فقط خلال ثلاث سنوات، وتتوقف الهجرة الصهيونية! والكتاب الأبيض ينص أيضاً على إقامة هذه الدولة خلال عشر سنوات بالحد الأقصى، لكن المشروع الصهيونى الاستعمارى رفض الكتاب الأبيض، ممثلاً بالوكالة اليهودية، بزعامة بن غوريون. فهو يريد دولة يهودية، وفقاً لوعد بلفور؛ ورفض الحاج أمين الحسينى (رحمه الله ومن معه)، الذى كان على درجة عالية من العداء لكل متنور يتقدم عليه خطوة، لا يلبث أن يجد نفسه مغتالاً. والأنظمة العربية الإقطاعية الأربعة التى كانت آنذاك، رغم أن بعضها كان مرتبطاً بالكولونيالية البريطانية، رفضت الكتاب الأبيض. والحكمة تقول: «قل لى ماذا يقول عدوى، أقول ما يجب أن أقوله».

لقد ارتكبوا الحماقة نفسها مرة أخرى عام ١٩٤٨، وأضاعوا الفرصة التاريخية. بينما كان عليهم أن يتعلموا من عدوهم، وتتالت الأخطاء التى أشرنا فى سياق هذا البحث عن أزمتنا الفلسطينية الأزمة العربية.

الوكالة اليهودية كانت تريد دولة يهودية، وترفض الكتاب الأبيض، لأنها أردت العودة إلى وعد بلفور. الكتاب الأبيض تجاوزٌ لوعد بلفور. كان علينا أن نمسك بالحل الملموس. ولو أمسكنا به، لكسرنا شوكة وسيوف المشروع الصهيونى، المتواطئ مع الكولونيالية البريطانية والأنظمة العربية الإقطاعية عام ١٩٤٨، وكان ما كان. نتنياهو فى كتابه «مكان بين الأمم» يعتبر البرنامج الوطنى المرحلى للثورة ومنظمة التحرير، برنامج تقرير المصير والدولة والعودة «الأخطر على إسرائيل والمشروع الإسرائيلى الصهيونى، ويمثل المرحلة الأساس لإزالة دولة إسرائيل».

علينا أن ننظر دائماً بعين المحاسبة والمراجعة لكل خطواتنا. نستحضر فيها أقصى ما نتمكن من العقل النقدى، مع إطلاق الحوار النقدى، علنـاً حول القضايا المطروحة. أين أخطأنا وأين أصبنا، حتى نصحح مسار النضال. هذه هى المشكلة التى لا تزال قائمة؛ ومن هنا دعوتنا الدائمة، إلى ضرورة تحكيم واستدعاء العقل والروح العلمية: لأن العقل هو الروح العلمية: على قاعدة فهم موازين القوى المحلية والإقليمية والدولية، واشتقاق الإستراتيجية المرحلية التى هى ذات طبيعة واقعية ثورية، وليس ذات طبيعة واقعية فقط. والخيار الآخر هو الهروب إلى الشعارات اللفظية الثورية العامة، الفاقدة البرنامج الوطنى والعملى إلى حد الإفلاس، وكأنها خيارات مطروحة. علينا فقط أن نفكر ونختار.

وختاماً، يعلمنا تاريخ ثورات وحركات التحرر الوطنى الظافرة فى القرن العشرين الدرس الأساس والكبير: بالبرنامج الوطنى الواقعى الموحد؛ بإنهاء الانقسام العمودى المدمر، وإعادة بناء وحدة الشعب والوطن والمؤسسات؛ بالدمقرطة الشاملة وفق انتخابات قوانين التمثيل النسبى الكامل، فى مرحلة التحرر الوطنى؛ بحوار العقل النقدى لحل التعارضات فى الصف الفلسطينى، والعربى، نقهر الفشل وننتصر على أعدائنا.

هذا هو الذى يوصلنا إلى حلول وطنية وقومية جذرية لكل قضايانا ... والسلام المتوازن فى ختام هذه المرحلة، وفى اليوم التالى نفتح على مرحلة جديدة، مرحلة النضال نحو الحل الديمقراطى الشامل والعادل «فلسطين ديمقراطية موحدة»، لكل مواطنيها الفلسطينيين العرب والإسرائيليين اليهود. ■



نظرات تأسيسية فى فقه الأقليات
طه جابر العلوانى

مفهوم: فقه الأقليات:

إن الحديث عن فقه الأقليات يثير عدداً من الأسئلة المنهجية. منها:

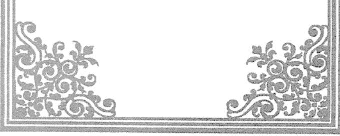
١ ـ إلى أى العلوم الشرعية أو النقلية ينتمى هذا الفقه؟

٢ ـ بأى العلوم الاجتماعية يمكن لهذا العلم أن يتصل. وما مقدار تفاعله مع كل منها؟

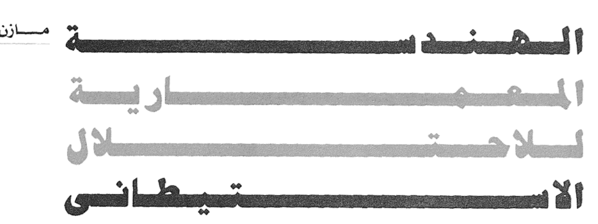
٣ ـ لماذا سُمِّى بـ «فقه الأقليات»؟ وإلى أى مدى تُعتبَر هذه التسمية دقيقة؟

٤ ـ كيف نتعامل مع القضايا التى يثيرها وجود المسلمين بكثافة خارج المحيط الجغرافى والتاريخى الإسلامى؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات نقول: لا يمكن إدراج «فقه الأقليات» فى مدلول «الفقه» كما هو شائع الآن ـ أى فقه الفروع ـ بل الأولى إدراجه ضمن «الفقه» بالمعنى العام الذى يشمل كل جوانب الشرع اعتقاداً وعملاً، بالمعنى الذى قصده النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قوله: «من يُرِدِ الله به خيراً يفقهه فى الدين» (صحيح البخارى، كتاب العلم، الحديث ٦٩. وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، الحديث ١٧١٩). ومن هنا كانت ضرورة ربط هذا الفقه بالفقه الأكبر وضعاً للفرع فى إطار الكل، وتجاوزاً للفراغ التشريعى أو الفقهى. ومعنى هذا أن فقه الأقليات هو فقه نوعى يُراعى ارتباط الحُكم الشرعى بظروف الجماعة وبالمكان الذى تعيش فيه، فهو فقه جماعة محصورة لها ظروف خاصة، يصلح لها ما لا يصلح لغيرها، ويحتاج متناوله إلى ثقافة فى بعض العلوم الاجتماعية، خصوصاً علم الاجتماع والاقتصاد والعلوم السياسية والعلاقات الدولية.



مــازن الـــنـــجـــار



الهندسة المعمارية للاحتلال الاستيطانى

■■ هذا الكتاب للناشط والمهندس المعمارى الإسرائيلى، إيال وايزمن، مدير مركز بحوث الهندسة المعمارية بكلية جولدسميث، جامعة لندن، وعمل مع مجموعة متنوعة من المنظمات غير الحكومية وجماعات حقوق الانسان، وأحد محررى مجلة «كابينت». وقد نال جائزة المحاضرة التذكارية «جيمس ستيرلينغ» لعام ٢٠٠٦-٢٠٠٧.

«الأرض الجوفاء» هو العنوان الذى وضعه وايزمن لكتابه الذى يتناول استكشافه للفضاء السياسى والنظام البنيوى الاستيطانى الذى صنعته إسرائيل باحتلالها الاستعمارى للأرض المقدسة. يحلل إيال وايزمن فى هذا الكتاب براعة إسرائيل فى استخدام التخصصات العلمية الإنسانية التقليدية والخطاب الإعلامى لخدمة حملتها الاستيطانية ضد الفلسطينيين. يوضح الكتاب نتاج التفكير الذى يجعل الاحتلال والاستيلاء والإخضاع بديهيات له.

وكون مؤلف الكتاب إسرائيلى الجنسية، فإن هذا الأمر يعطيه معرفة عميقة بالموضوعات، يفتقر إليها كثير من الكتاب والمؤلفين الآخرين. فهو ناشط سياسى وحقوقى وفنان يعمل فى مجال قضايا الصراع العربى/الفلسطينى الإسرائيلى. وكونه أيضا مهندساً معمارياً، فهذا بدوره يعطى لعمله منظوراً فريداً للصراع الإسرائيلى الفلسطينى بأكمله. ويظهر وصفه للأنماط المعمارية للاحتلال الاستيطانى الإسرائيلى معرفة عميقة بالحقائق على أرض الواقع، وبأيديولوجية الواقع الاستيطانى ذاته.

يكشف الكتاب بجرأة المحاولات الرامية إلى إيجاد طريقة جديدة تماماً لوضع تصور للعلاقة بين الأسطح أو المساحات، والحركة، وأصول الحرب. يتميز الكتاب باتساع نطاق الموضوع الذى يتناوله، والبحث الدقيق فى التفاصيل، ليقدم للقراء فهما حقيقيا للمشروع

«الأرض الجوفاء: المعمار الإسرائيلى فى الاحتلال»
إيال وايزمن، فيرسو، ٢٠٠٧، عدد الصفحات ٢٢٨

نقطة مراقبة جوازات سفر الفلسطينيين فى معبر جسر اللنبى الحدودى بين الأردن والضفة الغربية المحتلة، ١٩٩٩

Miki Kratsman

الاستيطاني الإسرائيلي فيما يتعلق باقتلاع الفلسطينيين.

يسرد الكتاب الطرق العديدة التي يحول بها الاحتلال الإسرائيلي الأرض المقدسة المحتلة إلى «أرض جوفاء» أو حالة من الفراغ، الضرورية لتخريج أو تبرير المشروعات الاستيطانية. لم يتم كشف الوقائع الحقيقية من قبل بمثل هذا الوضوح الصارخ والناقد. في تركيبة رائعة من الكلمات والصور، ينتقد الكتاب السياسات الإسرائيلية في تغيير المعالم المعمارية والتخطيط الحضري للمدن في الأرض المحتلة بما يتناسب مع أهدافها الاقتلاعية والاستيطانية. وهكذا يكشف الكتاب التصور الإسرائيلي الجديد «المخيف» للجغرافيا السياسية في المناطق المحتلة.

يصطحب الكتاب القراء في رحلة إلى المساحات الخفية من الضفة الغربية وغزة، وإلى مجالهما الجوى العسكري، مستعرضا آليات إسرائيل في التحكم وتحويلها الأراضي المحتلة إلى شرك، وكيف وظفت فيه التضاريس الطبيعية والمساحات المبنية كأسلحة وعتاد وذخيرة يتم شن الصراع بها.

يستعرض الكتاب طرق إسرائيل في تحويل هندسة المناظر الطبيعية نفسها إلى أداة للهيمنة والسيطرة الكلية. يكشف الكتاب النظام السياسي الكامن وراء هذا المشروع الاحتلالي الاستعماري المعقد والمخيف.

يتتبع وايزمان تطور هذه الأفكار من حيث علم الآثار والتخطيط الحضري، إلى إعادة التصورات التي قدمها أرييل شارون في مفهوم الدفاع العسكري خلال حرب ١٩٧٣، وكذلك التخطيط والهندسة المعمارية للمستوطنات إلى الخطاب (الاستيطاني) الإسرائيلي المعاصر، وممارسة حرب العصابات في المدن.

يبدأ وايزمن مقدمة كتابه بحكاية قصة تأسيس «ميغرون»، وهي مستوطنة يهودية مقامة على أراض فلسطينية في الضفة الغربية. أقنع المستوطنون الجيش الإسرائيلي بأنهم في حاجة إلى بناء برج لهوائي الهاتف الجوال، وعينوا حارسا لمدة ٢٤ ساعة يوميا، جاء الحارس مع عائلته، وتلتها خمس عائلات. وبحلول منتصف عام ٢٠٠٦، كانت هناك حوالي ٦٠ من المقطورات والحاويات -تضم أكثر من ٤٢ عائلة، أي ما يقرب من ١٥٠ شخصا، متناثرة على قمم التلال المحيطة ببرج الهوائي.

لا يكتفي وايزمان بسرد وقائع الاحتلال الإسرائيلي، وإنما يعتمد تحليله اعتمادا كبيرا على نظرية ما بعد البنيوية. يغطي كل شيء في المعمار الإسرائيلي من جمالياته إلى نقاط التفتيش والمعابر الحدودية، إلى الجدار العازل، إلى مفهوم أرييل شارون لأمن العمق، والمذهب الإسرائيلي في حرب المدن والاغتيالات المستهدفة. وهو مرارا وتكرارا، يخترق سطح الأبحاث التجريبية واسعة النطاق لتلك المفاهيم،



يبدو أن وايزمن قد اكتسب ثقة عالية لدى العديد من كبار جنرالات جيش الاحتلال بما فيه الكفاية، لحملهم على التحدث بصراحة واضحة عن الطريقة التي يرون بها استخدام كل من الأرض والمجال الجوي في عملياتهم



ويحدد الخطابات الاجتماعية التي تنتج هذه الظواهر.

يهتم وايزمان في المقام الأول بما يطلق عليه الجغرافيات «المرنة» أو «الرخوة» في المناطق المحتلة، والتي تقوم على حدود يتم تعديلها باستمرار. كما يستخدم وايزمان تحليل الهندسة المعمارية والتخطيط العمراني لفهم القضايا السياسية ذات الأهمية على المحك.

بعض المسائل التي كان يتناولها مؤلف الكتاب مستهلكة وربما قتلت بحثاً، ولكن الجمع بين عمله الميداني واسع المجال كمستشار لمؤسسة «بيتسيلم»، وهي منظمة غير حكومية تسمى «مركز المعلومات الإسرائيلي حول حقوق الإنسان في الأراضي المحتلة»، مع المقاربة النظرية القوية، يجعل ما يقوله فيها ذا قيمة حقيقية.



في سلسلة من الفصول التي تتناول المستوطنات الإسرائيلية ونقاط التفتيش وتشييد الجدار العازل، لا يفضح وايزمان فقط السيطرة الإسرائيلية الواسعة على المجتمع الفلسطيني، ولكنه يكشف أيضا أن الطريقة التي تشعر بها إسرائيل بالأمن صارت تعتمد على مفهوم الأراضي بوصفها فضاء طيعاً وضعيفاً.

يؤكد وايزمان أن انتشار آليات الرقابة (الأمنية الشاملة) هذه في المجتمع الإسرائيلي، تمثل نظاماً «معرفياً وعملياً يرى ضرورة الفصل المادي بين اليهود والعرب، والسيطرة التامة على حركة الفلسطينيين، باعتبارهما عنصراً هاماً للأمن الجمعي اليهودي».

إلا أن بعض القضايا التي يطرحها الكتاب ليست معروفة على نطاق واسع مثل تحليله لعلم الآثار، والهندسة المعمارية، وهندسة تصميم المناظر الطبيعية الإسرائيلية. يعرض الكتاب المدى الذي يحاول واضعو السياسات الإسرائيلية في تخطيطهم للمدن والهندسة المعمارية جعل القدس «معرضاً حياً للآثار التوراتية». يظهر فيه الفلسطينيون على أنهم «حفريات تدل على صدقية التوراة»، ليس أكثر. وفي الوقت نفسه تسعى للحد من وجودهم المعاصر.

تكمن قوة محاججات وايزمان في الطريقة التي يضرب بها على نقطتين في آن واحد. النقطة الأولى تدور حول القدس والمحاولات الإسرائيلية المستمرة لتقليل عدد السكان الفلسطينيين في المدينة، و«لتوحيد» الضواحي اليهودية بصريا وفكريا مع المدينة التاريخية. والنقطة الثانية هي محاولة الاستفادة من التعبيرات الدائمة عن التناقض بين حداثة الصهيونية العلمانية والوعد القديم في الكتاب المقدس.

يتضمن الكتاب أيضاً فصلاً هاماً عن تهويد القدس وإضفاء الصبغة الإسرائيلية عليها. في هذا الفصل يصف الكاتب قواعد الاحتلال الإسرائيلي في التخطيط المعماري لمدينة القدس قائلاً: «بالنسبة للسكان الفلسطينيين في القدس، على عكس السكان اليهود، لم يخطط لهم أي شيء باستثناء رحيلهم».

كتاب وايزمن «الأرض الجوفاء» لا يحلل فقط الممارسات المكانية للاحتلال الإسرائيلي، بل هو يستكشف أيضاً الطريقة التي يندرج بها فهم الذات للإسرائيليين وللفلسطينيين في هذه الممارسات. هذا هو الإسهام الجديد الذي يقدمه وايزمان في هذا الموضوع.

يرسم وايزمان صورة توضح كيف فقد الإسرائيليون أنفسهم في هذا الصراع وأهمية إيجاد طريق للخروج منه.

هذا الكتاب هو نتاج عملية بحث شامل، ومن الواضح أن إيال وايزمن متحمس للموضوع.

يقدم الكاتب وجهة نظر مثيرة للاهتمام حول موضوع نقاش يتسع مجال الجدل فيه. كما أن اهتمام وايزمان بالهندسة المعمارية في بعض الأحيان يدفع الكتاب للاستطراد في اتجاهات مختلفة، مثل تاريخ اختيار التصميم المعماري لمستوطنة معاليه أدوميم بالقرب من القدس، وتعد ثالث أكبر مدينة إسرائيلية في الضفة الغربية. ولكن على وجه الإجمال، يقدم الكتاب منظورا جديدا، ومعلومات ورؤى جديدة.

من الواضح أن للمؤلف آراء قوية وجريئة حول مختلف موضوعات اهتمامه. بيد أن هذا لا يتعارض مع قوة السرد والقدرة على الإقناع في الكتاب.

يعد هذا الكتاب مصدراً هاما لكل من يهتم برصد ومتابعة قضية فلسطين وكذلك بنية وفلسفة الاحتلال الاستيطاني المعاصر، كما يمثله نموذج الاحتلال الإسرائيلي.

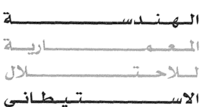
يحلل وايزمن في كتابه صياغة المساحة (تقسيمها، وتوحيدها، وتحديد أبعادها، وغير ذلك)، كتعبير أولي عن توجهات وطبيعة السلطة السياسية وكتجسيد لها. يعد هذا التحليل إلى حد كبير منهجا أصيلاً، حافلاً بالأفكار غير العادية، كما يقدم حجة أخلاقية قوية ضد احتلال فلسطين. لا شك أن بعض الكتاب مولعون بتنظير هذا النوع من الموضوعات، إلا أن تطبيق وايزمن لأفكار محددة على ممارسات ملموسة يبرهن على وجود قدر من القدرة والبلاغة والشجاعة يندر أن توجد في المناقشات حول إسرائيل وقضية فلسطين.

هذا الكتاب ليس مجرد مجموعة من الانتقادات الجافة لسياسة الهندسة المعمارية في الأراضي المحتلة، بل هو استكشاف عميق ومدروس، وبعيد المدى للعديد من السبل التي يؤثر بها «الفضاء» المادي ويتأثر بالمشروعات الإسرائيلية الجارية لزرع الاستعمار والاستيطان في فلسطين.

يمتلئ الكتاب بالصور التوضيحية، حيث يتضمن العشرات منها، ومعظمها صور ملونة موضوعة في سياق النص. وإذا لم يكن القارئ قد ذهب قط إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة، ويرغب في الحصول على فكرة حية لتضاريس المكان، فضلاً عن جغرافية السيطرة على الإنسان الفلسطيني المحتل، والتشريد والتطهير المكاني، فإن هذا الكتاب سيعطيه فكرة جيدة عن الموضوع.

كما يتضمن الكتاب فصلاً كاملاً عن نقاط التفتيش، موضحاً الحقيقة المروعة الفظيعة لمواقع السيطرة هذه والتي تتحكم في تشويه الحياة اليومية لجميع الفلسطينيين في الضفة الغربية. يبدأ هذا الفصل بصورة في صفحة كاملة لنقطة عبور جسر اللنبي بين الضفة الغربية المحتلة والأردن. والصورة مأخوذة من فوق كتف ضابط السلطة الفلسطينية لمراقبة جوازات السفر، ينظر عبر زجاج (يفترض أنه واقٍ من الرصاص) على جمع من الفلسطينيين متجهمي الوجوه.

في التعليق على الصورة، تذكر المصورة الأميركية ميكي كرافتسمان أنها عندما اتخذت وضعها وراء كتف شرطي الحدود الفلسطيني لأخذ هذه الصورة، سمعت فجأة أصواتا تصيح من ورائها: Zooz! Zooz! (باللغة العبرية: تحرك! ...



تحرك!) عندها فقط، تقول كراتسمان أنها لم تدرك أن وراء المرآة - خلفها - كان العسكريون الإسرائيليون. وعندما حاولت كرافتسمان التقاط صورة أخرى للمرآة، أخرجها من نقطة العبور شرطي فلسطيني غاضب.

فى تحليله لهذه الصورة يذكر الكتاب المادة العاشرة من إتفاق غزة-أريحا بعنوان «الممرات» أى المعابر، والتى تتعلق بالمحطات بين العالم الخارجى والمناطق التى تم تسليمها إلى سلطة فلسطينية محدودة. يهدف نمط الهندسة المعمارية لهذه المحطات الأمنية إلى حل التناقض الهيكلى الذى نتج عن رغبة تبدو متناقضة لتمكينها السيادة الفلسطينية من التفعيل، مع الحفاظ على السيطرة الأمنية الإسرائيلية.

بالنسبة للفلسطينيين، كانت المعابر الحدودية تجسد حكماً ذاتياً هم فى حاجة ماسة إليه، فى حين أنها بالنسبة لإسرائيل، تمثل بلورة مفهوم جديد للأمن يعتمد على التفويض المباشر للسلطة الفلسطينية الوليدة، للتحكم فى السكان الفلسطينيين أو السيطرة عليهم.

كما يتضمن الكتاب فصولاً عن الجدار العازل والمستوطنات، وفصلين عن الطبوغرافيا البشرية للطريقة الإسرائيلية فى الحرب: أحد هذين الفصلين يتناول «الابتكارات» التى طورتها قوات الاحتلال الإسرائيلى فى حرب المدن، والآخر يدور حول استخدام قوات الاحتلال للمجال الجوى الفلسطينى فى الحرب. يتضمن هذا الفصل جزءاً كبيراً عن استخدام منصات «القصف» المحمولة جواً، وعادة ما تكون على متن طائرات بدون طيار، لإجراء عمليات القتل المستهدف.

هذان الفصلان الأخيران استثنائيان، إذ يبدو أن وايزمن قد اكتسب ثقة عالية لدى العديد من كبار جنرالات جيش الاحتلال بما فيه الكفاية، لحملهم على التحدث بصراحة واضحة عن الطريقة التى يرون بها استخدام كل من الأرض والمجال الجوى فى عملياتهم.

فى حاشية الكتاب لفت إيال وايزمن إلى أن أى شخص يعيش فى إسرائيل، أو يزورها، أو يعيش فى ظل نظامها الحاكم، يدرك جيداً مدى انتشار النزعة العسكرية الإسرائيلية فى جميع مجالات الحياة. كثير من الضباط والجنود كانوا على استعداد للحديث، ومعظمهم طلبوا عدم الكشف عن أسمائهم، حول العمليات العسكرية، والتكتيكات، والإجراءات المتبعة. من بين أهم المصادر الخصبة لهذا العمل كانت المقابلات التى أجراها المؤلف مع شمعون نافيه، وهو ضابط متقاعد ومدير سابق للعمليات العسكرية فى «المعهد العسكرى لبحوث ونظرية العمليات»، وشكره لتعاونه.

فى الواقع كان نافيه متعاوناً فعلاً، فجزء كبير من المواد الواردة فى الفصلين عن حرب المدن والحرب الجوية جاءت من نافيه، الذى اعتقد أنه تقاعد على رتبة عميد، ومن زميله أفيف كوخافى، الذى كان قائدا للجبهة فى قطاع غزة فى الفترة بين عامى ٢٠٠٥ و٢٠٠٦.



يبدو أن وايزمان كان يجرى المقابلات مع نافيه، وكوخافى فى وقت واحد، عندما فقدا المصداقية بشخصيهما، وبما قدماه للمعهد العسكرى لبحوث نظرية العمليات. شهد هذا الوقت الكثير من الاضطراب بين العاملين فى جيش الدفاع الإسرائيلى فى الفترة بين ٢٠٠٥ و٢٠٠٦.

كان نافيه وكوخافى و«المعهد العسكرى لبحوث ونظرية العمليات» كله على ما يبدو يعمل تحت رعاية رئيس هيئة الأركان السابق، المتهم بجرائم حرب، ونائب رئيس مجلس الدولة الحالى، الجنرال موشيه يعلون. وعندما تولى دان حالوتس منصب رئيس الأركان فى ٢٠٠٥، قام بتفكيك المعهد. لكن يظهر ان نافيه شعر بأن العديد من الدروس التى كان يقوم بتدريسها للضباط الإسرائيليين فى المعهد قاموا بتطبيقها فى الحرب ضد لبنان فى يوليو/تموز وأغسطس/آب ٢٠٠٦.

ولكن، كما اعترف نافيه فى مقابلاته مع وايزمن، وكان ذلك فى إحدى المقابلات فى شهر أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٦، والتى يستشهد بها وايزمن فى كتابه، قال نافيه: «كانت الحرب على لبنان فاشلة، ويرجع جزء كبير من هذا الفشل لى، فما قدمته لجيش الدفاع الإسرائيلى جعله يمنى بالفشل».

أخفقت هذه الدروس فى لبنان حيث تمكن «حزب الله» من إنشاء شبكة ذكية جداً ومنضبطة من التشكيلات الدفاعية التى كانت مسلحة تسليحاً جيداً نسبياً – على الأقل مسلحة تسليحاً جيداً مقارنة بالفلسطينيين فى مخيمات اللاجئين فى جنين وبلاطة – حيث قام نافيه ومن معه بتطوير أساليبهم فى السيطرة، حتى لو كان تسليح هذه التشكيلات المعادية لا يعد شيئاً بالمقارنة مع تسليح جيش الاحتلال الإسرائيلى.

يقدم هذا الكتاب لوايزمن أمثلة عديدة على الفكر «البنيوى» الرفيع و«ما بعد الحداثى» الذى حدد طريقة نافيه فى التخطيط لهجمات شنها الجيش الإسرائيلى ضد عدة مناطق فلسطينية مكتظة بالسكان فى الفترة بين عامى ٢٠٠٢ و٢٠٠٦.

أحد الابتكارات المهمة للمعهد العسكرى لبحوث ونظرية العمليات كان التخطيط لغارات «الحشود الجماعية» حيث يتقدم الجنود الإسرائيليون من عدة نقاط حول محيط -على سبيل المثال- مخيم لاجئين، ويتوجهون إلى المركز فى وقت واحد. وفى العديد من الحالات، ينطلقون عبر منازل السكان الفلسطينيين فى المخيم، بينما يرتعد هؤلاء السكان أينما كانوا فيما تبقى لهم من منازل.

يختتم إيال وايزمن بالفقرة التالية: «هذا الاقحام غير المتوقع للحرب إلى الحرمات الخاصة بالمنازل والذى شهده المدنيون فى فلسطين، كما هو الحال أيضاً فى العراق، يعتبر من أعمق صور الصدمات وأشكال الإذلال.»

أحد الأهداف الأساسية لهذه التكتيكات الجديدة فى السيطرة على السكان الواقعين تحت الاحتلال، التى قام المعهد (العسكرى لبحوث ونظرية العمليات) بتطويرها هو إعفاء إسرائيل من ضرورة الحضور المادى داخل المناطق الفلسطينية، مع بقائها قادرة على استمرار السيطرة على الوضع الامنى هناك. يرى نافيه أن نموذج العمليات فى الجيش الإسرائيلى ينبغى أن يهدف إلى استبدال القدرة على التحرك خلال المناطق المحتلة بدلاً من مجرد التواجد بها، وإحداث ما يسميه تأثيرا بهذه المناطق، وهى العمليات العسكرية مثل الهجمات الجوية أو غارات الكوماندوز التى تؤثر فى العدو نفسياً وتنظيمياً.

ومن ثم فإن الأساليب التى قام هذا المعهد ومعاهد أخرى بتطويرها تحت قيادة جيش الدفاع الإسرائيلى، يكون الهدف منها هو توفير الأدوات اللازمة لاستبدال هيمنة جديدة لاإقليمية بالهيمنة الاقليمية التقليدية، وهى نظرية جديدة يطلق عليها المعهد العسكرى لبحوث ونظرية العمليات «الاحتلال عن طريق الاختفاء». بطبيعة الحال، المثال الساطع على هذا النهج هو ما يحدث فى قطاع غزة.

يوضح وايزمن أيضا أن مفهوم قوات الاحتلال الإسرائيلى للجدار فى الضفة الغربية، هو أنه ينبغى أن تكون قابلة للاختراق من الغرب إلى الشرق، حتى لو كان مصمماً بشكل صريح لمنع المرور من الشرق إلى الغرب. ويمكن القول هنا، أن الهدف منه أن يعمل كأنه مرآة أخرى ذات سطح واحد عاكس والآخر شفاف. ■



إعادة نظر

■ وبعد فهذا بحث يتناول «مجالس الشورى فى عصر سلاطين المماليك»: حفزنى على تناوله بالدراسة ما رأيته من تعرض الدولة المملوكية لكثير من الاتهامات التى وجهها إليها بعض الباحثين، وكان من أهمها: أنها دولة عسكرية استبدادية، وكان المستشرق الإنجليزى وليم موير أول من ادعى هذا من المستشرقين فى كتابه «دولة المماليك فى مصر»، وتابعه فى ذلك بعض الباحثين العرب، منهم: «أنور زقلمة» فى كتابه «المماليك فى مصر»، زعم فيه أن سلاطين المماليك كانوا يعاملون الشعب المصرى معاملة استبدادية، مما جعل الشعب المصرى يعيش فى خضوع واستكانة، وسلم بعض الباحثين بهذا الادعاء، ونظروا إليه على أنه حقيقة مسلمة لا مجال للشك فيها، ولم يحاول أحد منهم دراسة نظام الشورى بخصائصه وقواعده الأساسية فى هذا العصر لاستجلاء حقيقة هذا الادعاء وتفنيده والرد عليه.

وفى المقابل كان هناك قليل من الباحثين أشاروا إلى وجود مجالس الشورى فى هذا العصر، ورأوا أن وجود هذه المجالس لم يكن ملزماً لسلاطين المماليك، ولهذا رأيت أنه من الواجب علىّ أن أجلى هذه المسألة بنظرة منصفة توضح حقيقة هذا الأمر، ووجدت نفسى مضطراً لمراجعة كثير من المصادر والمراجع التى تناولت الجوانب المختلفة لهذا العصر، وكذلك لما يكتنف هذا الموضوع من غموض شديد، وافتقار المكتبة التاريخية المملوكية - على الرغم من كثرة الدراسات بها - إلى دراسة جادة توضح موضوع مجالس الشورى، وتبين معالمه، وتظهر الجوانب الإيجابية لمواجهة النظرة السلبية التى حاول بعض الكتّاب إلصاقها بالدولة المملوكية ونظمها.

وينقسم هذا البحث إلى تمهيد، وستة فصول يتصدرها مقدمة، وتعقبها خاتمة تتضمن أهم النتائج التى توصل إليها البحث، ثم أتبعتها بعدة ملاحق وثيقة الصلة بالموضوع، ثم ثبت بالمصادر والمراجع التى اعتمدت عليها خلال هذه الدراسة، وجاء التخطيط على النحو التالى:

فقد تناولتُ فى التمهيد تعريف الشورى لغة واصطلاحاً، ثم عرضتُ لمبدأ الشورى فى الإسلام وتطبيقاته فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم فى عهد الخلفاء الراشدين، كما تعرضتُ لبعض القضايا حول الشورى فى الفقه الإسلامى، وهل هى ملزمة للحاكم أم لا ؟، ومجال الموضوعات التى يمكن إجراء الشورى فيها.

وخصصت الفصل الأول للحديث عن الهيكل التنظيمى لمجالس الشورى فى هذا العصر، وبينتُ عوامل نشأتها، وأصحاب الحق فى دعوة المجالس للانعقاد، ومن يقوم برئاستها، والمواعيد التى يتم عقد المجالس فيها، وأماكن عقدها، وأعضاء المجالس ووظائفهم، وأعدادهم، وهيئة المجلس أثناء الانعقاد ومكان جلوس كل عضو فيه، ومواضع وقوف الموظفين ودورهم فى المجلس.

أما الفصل الثانى: فقد اقتصر على تحليل مجالس الشورى السياسية، مثل: مجالس تولية الخلفاء العباسيين فى مصر، وكيفية اختيار الخليفة، والمجالس التى قامت باختيار السلاطين وتوليتهم، والمجالس التى قامت بعزل بعض السلاطين، وأسباب ذلك، وكيفية اختيار السلاطين الجدد، ومجالس ولاية العهد، ومدى صوريتها، كما تعرض هذا الفصل لمجالس الحرب والصلح.

أما الفصل الثالث: فقد اختص بالحديث عن «مجالس الشورى الإدارية والاقتصادية». والمجالس الإدارية تنحصر فى مجالس اختيار الولاة والموظفين، ومجالس اختيار قضاة المذاهب الأربعة وتعيينهم، ومجالس محاسبة الموظفين الذين ثارت حولهم الشكوك وتورطوا فى اختلاس الأموال.

أما المجالس الاقتصادية فقد كانت تهتم بمناقشة إقامة بعض المشروعات الاقتصادية، كما كانت تنعقد لتحديد أسعار العملة وسكها، وكذلك تعرض لموقف مجالس الشورى من محاولات بعض السلاطين فرض ضرائب جديدة، أو الاستيلاء على الأوقاف، أو مصادرة أموال التجار والأغنياء.

أما الفصل الرابع فتحدثت فيه عن «مجالس الشورى الدينية»، مثل: مجالس الدعاوى، ووضحت أهم النظم المتبعة لإقامتها وكيفية الحكم فيها، والمجالس التى كانت تعقد لمناقشة المنازعات بين الأفراد حول العقارات أو الأوقاف، ومجالس الفتاوى الدينية التى عقدها سلاطين المماليك للاسترشاد بها فى بعض الموضوعات المهمة.

أما الفصل الخامس: فتناولت فيه «مجالس الشورى الخاصة»، وفيه تعرضت لموضوعات تتعلق بالسلاطين. كما تعرضت للمجالس التى كانت تناقش أحوال أهل الذمة، ومجالس المناظرات الدينية ومجالس تعيين مدرسى المدارس الدينية ومناقشة مدى صلاحيتهم لهذه الوظيفة.

أما الفصل السادس: فهو «دراسة نقدية لمجالس الشورى فى العصر المملوكى»، توضح الإيجابيات التى نتجت عن مجالس الشورى، وأهم السلبيات التى شابتها عند التطبيق وأسبابها، تعرض للمجالس الصورية (الشكلية) والحقيقية، وقرارات المجالس ومدى إلزامها للحكام، وطرق سيطرة الحكام على قرارات المجالس، وموقف الحكام من أعضاء المجالس بعد عقدها..

أما الخاتمة: فقد وضحتُ فيها أهم النتائج التى توصل إليها البحث.

أما الملاحق: فقد تضمنت عدة موضوعات، منها: جدول عن مجالس الشورى السياسية فى الملحق الأول، وجدول عن مجالس الشورى الإدارية والاقتصادية فى الملحق الثانى، وجدول عن مجالس الشورى الدينية فى الملحق الثالث.

ثم أعقبت ذلك بقائمة لأهم المخطوطات والمصادر والمراجع التى اعتمد عليها البحث.

وقد اعتمد البحث على عدد من المصادر الأصيلة التى ألمت بجوانب الموضوع، وقدمت المعلومات الأساسية لبنائه وتطوير فكرته، وعلى رأسها بعض المخطوطات التى كان من أهمها:

- «كتاب فى التاريخ»: وهى مخطوطة مجهولة المؤلف وكان صاحبها معاصراً لخشقدم وقايتباى، ويبدو أنه كان أحد رجال الفقه، وقد أفدت من هذه المخطوطة إفادات كثيرة، وبخاصة فيما يتعلق بالمجالس الدينية التى كان يذكرها بالتفصيل ويعلق على ما انتهت إليه.

- «إظهار العصر لأسرار أهل العصر»: أو تاريخ البقاعى لإبراهيم بن عمر البقاعى المتوفى عام (٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠م)، ويتناول هذا المخطوط أحداث الفترة من عام (٨٥٥ : ٨٧٠هـ)، وقد أفدت منها كثيراً. حيث كان البقاعى يطنب فى ذكر المجالس، ويورد المجلس كاملاً كأنه محضر تفصيلى للاجتماع، ويركز على الخلافات التى كانت تحدث بين القضاة والعلماء والموظفين، ثم يعقب عليها، ويسهب فى ذكر الأحكام الفقهية، ويدلى برأيه الفقهى فى الموضوعات الفقهية التى كان يناقشها المجلس، ويرجح رأياً على آخر ويذكر الدلائل على صحة كلامه من القرآن الكريم والأحاديث النبوية.

- «نثر الجمان فى وفيات الأعيان»: لعلى بن محمد بن على المقرئ، المعروف بالفيومى المتوفى عام (٧٧١هـ/ ١٣٥٩م) تقريباً، وهو مخطوط فى ثلاثة أجزاء بخط نسخ جميل فى معظمها، وقليلاً منها كتب بخط الرقعة، وهو كتاب حوادث ووفيات، ورتبه مؤلفه على النظام الحولى، غير أنه لم يلتزم بترتيب أحداث الشهر.

وقد اعتمد البحث على عدد من المصادر المطبوعة التى أفاد منها، ومن أهمها:

- «تاريخ ابن قاضى شهبة»: لمؤلفه «تقى الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضى شهبة»، المتوفى عام (٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)، وقام بتحقيقه الدكتور: عدنان درويش، وقد أفدت من هذا الكتاب إفادات كثيرة، حيث كان يذكر بالتفصيل الحوادث ويربط بينها، ويذكر مقدمة المجالس، وأسباب عقدها.

- «كتاب السلوك لمعرفة دولة الملوك»: لتقى الدين أحمد بن على المقريزى الذى ذكر بعض مجالس الشورى بالتفصيل، ووضح أسباب عقدها، وقد تميز المقريزى عن غيره من المؤرخين بأنه كان أثناء عرضه لبعض هذه المجالس يذكر ما شابهها فى الماضى، ويوضح الفروق بينهما، غير أنه اهتم بالمجالس السياسية أكثر من غيرها.

- «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»: لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى، فقد اهتم بذكر المجالس، رغم تركيزه على المجالس السياسية، ويتميز ابن تغرى بردى بأنه كان يذكر المجالس ويعقب على قراراتها، ويبين إيجابياتها وسلبياتها.

- «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»: لابن إياس الحنفى، كان يذكر المجالس التى لم يعاصرها بإيجاز شديد، ولا يوضح نتائجها، وكان نادراً ما يعلق على قرارات المجالس، أما المجالس الدينية فكان يذكرها بالتفصيل. ■

عثمان على عطا

مجالس الشورى فى عصر سلاطين المماليك
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)
عثمان على عطا
القاهرة: الدار الثقافية للنشر

ما الشىء المشترك بين المصرفيين الاستثماريين، منظمى الأعراس، مديرى الجنائز، والمعلقين على إعلانات الأفلام ذوى الصوت الأعلى دوما من الممثلين؟ رسوم عالية لمغامرات كبيرة، صفقات لا تأتى إلا مرة واحدة فى العمر

What do investment bankers, wedding planners, funeral directors, and movie-trailer voice-over artists have in common? High fees for high-stakes, once-in-a-lifetime deals.

لماذا دائما يفوز جولدمان؟

ميجان ماك آرديل
Megan McArdle

■■ فى صيف عام ٢٠٠٠، طار بى ديفيد بوور، احد أحفاد مؤسس شركة Standard & Poor's، بطائرته النفاثة الخاصة إلى منزل عائلته بنانتوكيت فى ولاية ماساتشوستس الأمريكية.

أنا على ثقة انه لن يتذكر أنه فعل ذلك. فى ذلك الوقت، كان هو رئيس شركة ميريل لينش Merrill Lynch للخدمات التمويلية، وكنت عاملا منتسبا فى الفترة الصيفية بقسمه. المرة الوحيدة التى حصلت فيها منه على أكثر من لمحة كانت فى تلك الأجازة الأسبوعية، حينها كنا انتهينا للتو من ماجستير إدارة الأعمال ونحاول أن نلفت انتباه رئيسنا فى العمل بخيلاء ونحن نرتدى قميصا صيفيا غير أنيق أو سروالا مجعدا جديدا ماركة «Nantucket Reds».

فى بيت والدته الريفى تجمع عدد قليل من السيدات يتحدثن أحاديث تافهة. لقد قضيت هذه العطلة بحذر شديد أحتسى مشروبات منعشة ومحاولا التلاشى فى الأريكة.

بعد مرور أسابيع بعد هذه المحنة بقيت حائرا. لماذا يقوم ديفيد بوور، وميريل لينش، بإنفاق الكثير من المال من أجلنا؟ لقد كنا جميعا أمريكيين رائعين، أنا متأكد من ذلك، ودرسنا البيزنس فى جامعات مرموقة. لكن فى هذا الصيف، وكل صيف، عشرات من مئات الشباب دارسى إدارة الأعمال يكدحون بعيدا فى سعادة داخل طرقات ميريل لينش البيجية اللون حتى ولو بدون وجبات طعام. بالرغم من فقد هذه الشركة للقليل منا حيث ذهبوا إلى بنك جى بى مورجان تشايس أو بنك جولدمان ساتشز، إلا أنه كان من الممكن استبدالنا بدون أى جهد. ولكن الشركة لم تكن تعاملنا كمن يقوم برحلة وتعطينا غداء فخما فحسب ولكنها أيضا كانت تدفع لنا ٢٥.٠٠٠ مقابل العمل لمدة ١٠ أسابيع.

لقد استخدمت كلمة «عمل» بشكل موسع إلى حد ما. فلقد امتد تدريبى الصيفى حتى الربيع اقضى الوقت فى ردهة حجرة التدريب، مراقبا بورصة نازداك. فى الوقت الذى نعد فيه تقريرا ضريبيا فى منتصف شهر يونيو، انخفض مؤشر التقنية الثقيلة خاسرا نحو ١.٣٠٠ نقطة من ذروتها فى شهر مارس الذى وصل إلى ٥.١٣٢.

قبل الانهيار اخبرنا الموظفون المتحمسون أن بنوك ميريل لينش ستكون بخير مهما حدث، ففى السوق الصاعدة طرحوا الاكتتابات العامة IPOs وفى الأسواق الهابطة سيقومون بعمليات الاندماج والاستحواذ وإعادة شراء الأسهم بدلا من ذلك. تحول هذا التنبؤ إلى وهم مثل نشرة شركة pets.com ضعيفة الأساس. فكان المكتب جيدا تماما. فلقد قضينا معظم أيامنا ولياليبنا فى تأدية ما يشبه رقصة الكابوكى اليابانية متظاهرين بإنجاز عمل للرؤساء الذين يعرفون بالطبع أن لا يوجد عمل لنا. بينما العشاء والرحلات والراتب الوفير فى استمرار.

لماذا؟ لقد اتضحت لى إجابة السؤال فى أحد شهور أغسطس بينما احتسى شراب الكوكتيل فى حانة Clarke's J.P، المنطقة المالية الشبيهة بنسخة معدلة من سوق اللحم. هناك شريك آخر واضح، تافه كالبوم، التفسير هو «٧٪».

حيث ثبتت التحليلات الجديدة معدل «الانتشار الإجمالى»، أو الرسوم، فى طرح الاكتتابات العامة، وهو النوع الوحيد من الصفقات الحية التى عملت عليها فى ذلك الصيف. لتتأكد بنفسك، قامت ميريل لينش باقتسام هذه الرسوم مع البنوك الأخرى. ولكن عندما أصبحت مئات الملايين من الدولارات، كما تصبح دائما بسهولة، أمست النسبة البسيطة تساوى كثيرا من المال. بالتأكيد المحاسب المختص أو السكرتير القانونى قد قاموا بالشق الأكبر من عملنا. ولكن فى رسوم البنوك كانت رواتبنا تحسب كخطأ حسابى ينجم عنه تقريب الأرقام لأقرب عدد عشرى.

ولكن يبقى السؤال، لماذا لا ينافسون بخفض رواتبنا إذا كانوا يستطيعون ذلك؟ أكاد أن اجزم أنه إذا عين ديفيد بوور ومديريه دارسى ماجستير إدارة الأعمال من جورج تاون ونوتردام عوضا عن هارفارد وشيكاغو، فإنهم كانوا سيجدون ما يفعلونه بالمال المقتصد.

يبدو السؤال ملائما تماما فى هذه الأيام، وغامضا، أكثر من أى وقت مضى. بتسريح موظفى البنوك الذى انتشر فى الأسواق ستفكر أن الرواتب أخيرا قد انخفضت. ولكن حتى أعضاء الكونجرس الغاضبين يبدو أنهم لديهم تأثير محدود على كم استعداد الصناعة المالية لدفع رواتب موظفيها. التحقيقات والخطب اللاذعة نجحت فحسب فى إجبار الشركات على دفع المزيد من المكافآت كرواتب بدلا من صرفها كعلاوات، كما لو أن القضية الأساسية لصرف الرواتب الضخمة فى إنقاذها التدريجى للبنوك كانت توقيت الصرف.

لنفهم لماذا يبدو الدفع المصرفى غريبا باصرار، لابد أن نفكر فى صناعة أخرى مغلفة برواتب وفيرة جدا وهى صناعة إعلانات الأفلام movie trailers.

إلا إذا كنت أصم أو كنت تعيش فى اعتكاف دينى فى الأربعة عقود الأخيرة فانك بالتأكيد سمعت صوت دون لافونتاين Don LaFontaine الأمريكى المشهور بقوة فى مجال صناعة إعلانات الأفلام والذى يعرف باسم «صوت الله». صوته الأجش الاوبرالى يبسط الجمل ويقربها للجمهور كجملة «فى عالم حيث...» ويغوينا فيلما بعد فيلم بداية من فيلم دكتور سترانجلوف إلى فيلم آل سمبسون. عندما توفى العام الماضى عن عمر يناهز السادسة والثمانين ذُكر فى نعيه أن الدون كان راتبه تقريبا ٣٠ مليون دولار فى العام من جراء تسجيله لإعلانات الأفلام وللإعلانات التجارية.

بالفعل يعتبر هذا مجرد اجر، خاصة عندما يُحلل إلى اجر بالساعة. فى خلال فترة عمله الطويلة، سجل لافونتاين أكثر من ٥.٠٠٠ إعلان تلفزيونى وآلاف المئات من الإعلانات التجارية التى تفصل بين البرامج، ولكن بصوت أعلى كثيرا من صوت الفنانين الذين يخرجون قليلا من المناخ السينمائى ويقومون بتسجيل إعلان لا يقل عادة عن دقيقتين ولا يطول عن خمس. شىء واحد يجعل توم كروز يتقاضى ٢٥ مليون دولار فى الفيلم الواحد وهو أنه يقوم بتمثيل فيلم واحد فقط فى العام، حيث يجذب قاعدة كاملة من معجبيه ولكن لا يقوم أى شاب بسؤال فتاة لمواعدته إذا عرف إنها راغبة فى رؤية إعلان فيلم جديد بصوت دون لافونتاين.

وبالرغم من ذلك، تنمو صناعة إعلانات الأفلام لتصل تقريبا إلى ١٠٠ مليون دولار، وتستمر الشركات فى تعيين زمرة من المحنكين فى هذا المجال الذين يدفعون بشكل جيد، بدلا من إعطاء هذا العمل لعدد من الممثلين الجائعين للفت انتباه شوارع لوس أنجلوس. وبالنظر إلى اقتصاد صناعة الأفلام فإن هذا التصرف قد بدأ يكون له معنى.

بدأ دون لافونتاين سنوات عمله الأربعين عندما لفظ نظام أستوديو هوليوود القديم أنفاسه الأخيرة. القوات التى قضت على احتكار الأستوديو قضت أيضا على احتكار خدمة الشاشة الوطنية National Screen Service التى كانت تقوم بإنتاج كل إعلانات الأفلام لمدة تزيد على ٤٠ عاما. فى أعقابه، بدأت الشركات المستقلة تنافس على العمل المربح،

بترتيب مع:
The Atlantic Monthly

ترجمة: أميمة صبحى

عندما ينفقون عشرة ملايين من الدولارات لإنتاج فيلم ثم عشرة ملايين مثلها ليعلنوا عنه. ثم يدفعون راتبا شحيحا لمعلق إعلانى سيئ.. يفسد كل هذا الجهد



وتدريجيا بدأت تحل محل الإعلانات الرسمية التى تفصل بين البرامج التى كانت تعرض على شاشة Turner Classic Movies حيث كان يظهر الممثل الكوميدى بوب هوب على الشاشة ليخبرك كم ستكون صورته التالية رائعة.

لأكثر من سنوات، التغييرات التى حدثت تضافرت لجعل إعلانات الأفلام والتلفزيون التجارية أكثر أهمية. فى البداية كان التلفزيون ثم الفيديو وأخيرا الـDVD الذى قلل من عدد المرات التى يذهب فيها الجمهور لمشاهدة الفيلم فى دور السينما. أثناء طفولتى، شاهدت فيلم «حرب النجوم» لأكثر من ١٧ مرة عندما عُرض لأول مرة. ولكنى بالكاد أستطيع أن أتذكر اسما لفيلم واحد شاهدته مرتين فى دار السينما منذ تخرجى من الجامعة.

فى أول عطلة أسبوعية بعد عرض «حرب النجوم» حقق هذا الفيلم ١.٥ مليون دولار كان هذا فى أواخر مايو عام ١٩٧٧، ثم وصل فى ذروته إلى ٧,٧ مليون دولار فى أول عطلة أسبوعية فى شهر سبتمبر. وفى بداية ديسمبر، كان مازال يحصد أكثر من مليون دولار أسبوعيا. هذه الأيام، تنشر الأفلام على اسطوانات DVD .

بسبب القرصنة والمنافسة الشديدة فى سوق الـDVD، لم يعد هناك متسع من الوقت للأفلام لتستطيع جمع جمهورها. فهم فى حاجة إلى الصراخ خارج الأبواب، وجمع الكثير من المال فى أسابيع قليلة، ثم يتراجعون ليُخرجوا دورة حياة الفيلم الجديدة للساحة الدولية ولتنظيم العرض الأول فى التلفزيون وكيفية توزيعه فى اسطوانات الـDVD. لذلك تحتاج الإعلانات المروجة للأفلام إلى جذب المراهقين المتشوقين لكل ما هو غريب وغير مألوف، أما الجمهور المستهدف الناضج لصناعة الفيلم فإنهم خارج دار السينما بأعداد هائلة. الاستثمار الهائل فى الترويج الرفيع هو ما يجعل اناسا مثلى يقولون أن إعلان الفيلم هو الجزء المفضل منه. حتى إذا لم يجن الأستوديو أرباحا من شباك التذاكر المحلى، كما يحدث معظم الوقت، فالمبيعات العالية فى شباك التذاكر تساعد فى بيع الفيلم فى الأسواق الأجنبية.

عندما ينفق الأستوديو عشرة ملايين من الدولارات لإنتاج فيلم ثم عشرة ملايين مثلها ليعلن عنه، ثم يدفع راتبا شحيحا لمعلق إعلانى سيئ يُفسد كل هذا الجهد. كما يمكنك أن تدفع لشخص ما يقوم بدور خليفة دون لافونتاين ٣٠٠,٠٠٠ دولار فى الإعلان وتظل تحصل فقط على نسبة ضئيلة من الميزانية الفعلية للفيلم. فالصوت السيئ سيكلفك أكثر كثيرا مما تتمنى أن تكسبه. عندما يكون لديك فرصة واحدة لتفعل هذا بشكل صحيح، فإنك ستميل إلى فتح حافظة نقودك ثم تصلى لله. لذلك فإن الاتفاقات لتصوير لقطة واحدة فقط مكلفة بشكل مرعب وهذا هو المنطق الذى يسود حفلات الأعراس والجنائز والدبلومات الجامعية.

نفس المنطق يوضح لماذا ينوى العملاء دفع رسوم سخية لبنوك الاستثمار للقيام بالاكتتاب وبالعروض الثانوية والاكتتاب فى السندات والاندماج والاستحواذ والعمل الاستشارى. غموض استثمار الرسوم البنكية غالبا ما يتحدد كنوع من مديرى البنوك المخادعين الساذجين أو المديرين الذين يغدرون بمساهميهم فى مقابل مكان شاغر فى طائرة ميريل لينش الخاصة. ولكن الرأسماليين المغامرين الواقفون خلف الكثير من الاكتتابات العامة ليسوا مبتدئين تحت رحمة المصرفيين الكبار، فهم ومديرو الشركة يعتمدون على الاكتتاب العام القوى وسيولة ما بعد البيع لأن هذا يسمح لهم باسترجاع جزء من أموالهم الموجودة خارج الشركة. فإذا تسامحوا فيما يخص الرسوم الكبيرة فلابد من وجود سبب لذلك.

عندما قام البنك الاستثمارى WR Hambrecht + Co بإقناع شركة جوجل لاستخدام مزاد لاكتتابها العام فى ٢٠٠٤، كان هناك أحاديث كثيرة عن نهاية الاستثمار البنكى التقليدى. بعد مرور خمس سنوات أصبحت شركة جولدمان ساكس مهيمنة أكثر من أى وقت مضى.

كما أصبحت المزادات نادرة الحدوث. يمكن لشركة جوجل أن تعتمد على اسمها لبيع الأسهم وخلق سوق ثانوية قوية حيث يمكن لموظفيها ممارسة حقهم فى بيع أو شراء الأسهم. ولكن معظم الشركات فى حاجة إلى مساعدة أكثر. بالرغم من أن جولدمان ساكس قد لا يكون صفقة إذا كنت تقوم باتفاقات من نوع «تصوير اللقطة الواحدة»، فإنك قد تريد أن تدفع أكثر لتسمع شيئا واحدا لن يستطيع المدعى الجائع أن يقوله لك: أن الشركة تدرك كيفية قيادة الوضع الحقيقى والمعقد وذلك لأنها فعلت هذا الأمر كثيرا من قبل.



بالطبع، الاكتتاب ليس هو المكان الوحيد الذى تصنع فيه الشركة المالية والعاملون أموالهم. ولكن منطق «صفقة تصوير اللقطة الواحدة» يطبق على مدفوعات التجار وآخرين كثيرين. وقت الحساب سيأتى سواء كانت الصفقة جيدة أم لا، هذا الوقت صعب لدفع الدين قبل استحقاقه وإذا سارت الأمور بشكل خاطئ فمن الصعب إصلاحها. فى هذه الحالات، حتى الإشارة لوجود مهارات ضعيفة، بوسعنا ضرب مثال بمتدرب حاصل على ماجستير إدارة أعمال من مدرسة عليا، فان الحصول على مكافأة مجزية أمر مستحق.

لم احصل على عرض عمل دائم من ميريل لينش فى نهاية الصيف، فكلا من الشركة وأنا أدركنا مبكرا إننى لا امتلك نزعة داخلية للاستثمار البنكى. (حتى فى صفقة «تصوير اللقطة الواحدة»، الإشارة الضعيفة تصل بك إلى هذا الحد). العديد من زملائى الذين حصلوا على عرض العمل كدحوا لعام أو اثنين ثم تم وقفهم عن العمل أو تركوا هذه الوظيفة لأخرى تسمح لهم برؤية الشمس من حين لآخر.

ولكن الذين بقوا فى هذا المجال استطاعوا أن يجمعوا مالا وفيرا. وساعدوا فى تدعيم استحواذ كونجرس أخر (رفع أمريكا للدخل بشكل متفاوت). وتقترح الأدلة المتنامية أن تضخم القطاع المالى الفادح فسر جزءا كبيرا من الفجوة الآخذة فى الاتساع بين الأغنياء والفقراء على مدى العقدين الماضيين. حتى بالنسبة إلى شخص متحرر بشكل جوهرى مثلى فإن هذا يمثل مشكلة. فالأسواق المالية مساهم ذو قيمة كبيرة فى الاقتصاد. ولكنها ليست بالقيمة التى تجعلها تمتص معظم الزيادة فى الدخل خلال العقود القليلة الماضية.

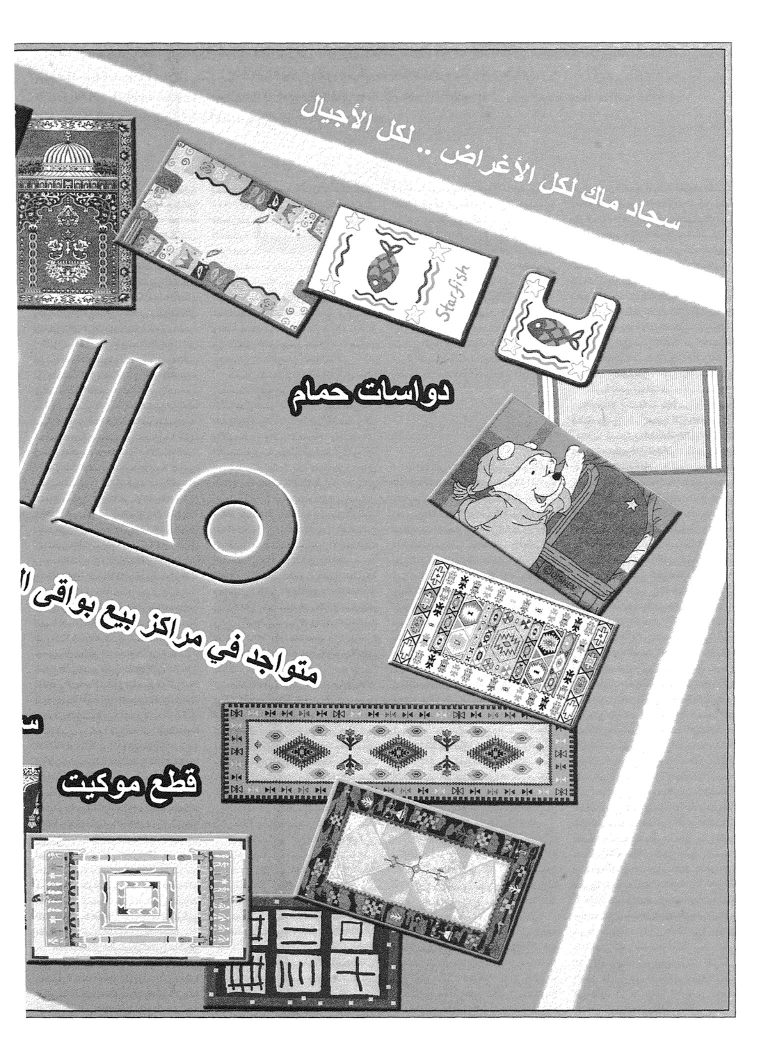
بينما يمثل هذا المقال للطبع. أعلن جولدمان ساكس لتوه تحقيق أرباح قياسية. والتفت الإشاعات حول المعيار السنوى الجديد لراتب المصرفى. كم من الوقت يمكن لذلك أن يستمر؟ فى كل مرة يتم الإعلان عن علاوة احد المصرفيين. يصيح الكونجرس. ويبحث موظفوه عن طريق شبه قانونى لتغطية الرواتب المالية. ولكن البحث الأخير للاقتصاديين توماس فيليبون واريل ريشف يقترح الآتى عندما يسمح تحرير الأسواق من السيطرة الحكومية للقطاع المالى المعقد ولاسيما فى ميادين الاكتتابات العامة ومخاطر الائتمان التنافسية. فان أجور العاملين المموليين ستبقى فى تضخم خطير نسبة إلى العاملين فى باقى مجالات الاقتصاد.

هل يستحق الأمر حزم التعقيد والمخاطر من اجل الحد من راتب المصرفى؟ الآن. تبدو الإجابة واضحة. ولكن التكنولوجيا والفقاعات الائتمانية خلقت ودمرت فى نفس الوقت، بافتراض أننا نخطط للحد من كساد النشاط الاقتصادى والوظيفى الحالى، لن نكون بالضرورة أفضل حالا فى خمس سنوات أو عشر إذا حاولنا طرد العائدات الزائدة خارج القطاع المالى.

للأسف، التنظيم نفسه واحد من صفقات «تصوير اللقطة الواحدة»، لن نعرف حتى وقت طويل إذا ما كنا قد فعلنا ذلك على نحو صحيح أم لا. ربما يجب على العم سام أن يقضى وقتا اقل فى القلق على رواتب المصرفيين ووقتا أكثر فى التودد إلى المنظمين المتوقعين لرحلة خيالية فوق طائرة خاصة. ■

عندما توفى العام الماضى ذُكر فى نعيه أن دون لافونتين كان يتقاضى ٣٠ مليون دولار فى العام من جراء تسجيله لإعلانات الأفلام وللإعلانات التجارية

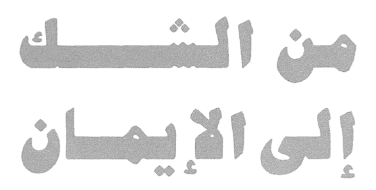



سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى ال
قطع موكيت



BIENVENUS
سجاد أطفال
SGS
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
دير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
ادة صلى
www.maccarpet.com

أغضب الماركسيين... والإسلاميين



«.. لو أنى أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودنى لأعفيت نفسى من عناء الجدل.. ولقادتنى الفطرة إلى الله..»



حلمى محمد القاعود

[١]

منذ عدة سنوات كتبت مقالا بعنوان «مصطفى محمود فى بيتنا». كان نجلى محمود مولعا بكتب الرجل قراءة وفهما واستيعابا، اتصل به وتعرف عليه وصار صديقا له مع أنه فى عمر أحفاده،ولكن تواضع العالم الأديب الكبير جعله يقدم عطفه وحنوه على شاب صغير رأى فيه ملامح مستقبل قد يكون طيبا فى عالم الفكر والثقافة. ودارت بينهما مناقشات وحوارات، وفتح له مكتبته، وأهداه كثيرا من مؤلفاته.. وحدثه حديث الصديق الحميم إلى صديقه الحميم. يقول محمود ابنى فى مقال له:

(منذ سنوات غير بعيدة، كنت أحدثه وأطمئن عليه وأدعو له بطول العمر.. فرد بصوته المحبب إلى قلبى ونبرته الهادئة: خلاص العمر أوشك على الانتهاء!

قلت له مازحاً إنه ما زال شاباً بالنسبة للملكة إليزابيث الأم زوجة الملك جورج السادس، التى عاشت حتى بلغت المائة عام.. فرد ضاحكاً:

دى يا عم محمود تربية ملوكى! إحنا متربيين فى الحارات والشوارع والبلهارسيا)

.. وكان على أن أتوقع أن يسافر نجلى كثيرا من قريتنا التى تبعد عن القاهرة قرابة مائتى كيلو متر ليزور الدكتور مصطفى محمود فى بيته بالقاهرة، ويتابع أخباره الأدبية والفكرية.كان الرجل يريدنى أن ألتقى به، ولكن ظروفى الصحية وبعد الشقة حالا بينى وبين هذا اللقاء.. وبصفة عامة صار الرجل محورا ثقافيا حاضرا بقوة فى بيتنا نتناقش حوله ونتحدث.. فقد كان يستحق الاهتمام نظرا لما يقدمه للإسلام والأمة والوطن من جهد وفكر وعطاء.

وأظن أن مصطفى محمود من المفكرين الذين شكلوا وجدان كثير من القراء والمثقفين، على مدى ستين عاما أو يزيد، فقد كانت رحلته الفكرية مثيرة، وعاصفة فى بعض مراحلها، ثم إنها انطلقت من مفاهيم التساؤل والعلم والمعرفة الخالصة بحثا عن اليقين أو الحقيقة حتى وصل إليها مأجورا بإذن الله.

ولد مصطفى كمال محمود حسين آل محفوظ عام ١٩٢١ فى شبين الكوم بالمنوفية، وكان توأما لأخ توفى فى العام نفسه، ويروى عنه أن كان يتأمل فى زواج والده ووالدته، حيث إن كلا منهما قد تزوج مرتين قبل أن يلتقى أحدهما بالآخر، ولم ينجبا. وكان الإنجاب بينهما ممثلا فى هذا التوءم الذى بقى منه مصطفى وحده. شغل هذا الأمر مصطفى محمود: وفكر فيه كثيرا ليدرك بعد حين أن الله ادخره لمهمة جليلة ظهرت آثارها فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين،والعقد الأول من القرن الحادى والعشرين ولعلها تمتد بعد رحيله إلى ما شاء الله.

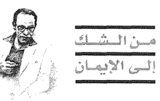
توفى والد مصطفى محمود عام ١٩٣٩ بعد سنوات من الشلل، ولكن ابنه واصل دراسته فى طنطا، وفى الأحمدية الثانوية ظهرت بوادر تمرده الفكرى، وشكل جمعية مثيرة، وهناك وجد مطاردة من بعض المدرسين، فتوقف عن الدراسة ثلاث سنوات، عاد بعدها إلى الدراسة حين أطمأن إلى أن من يطاردونه قد ذهبوا عن المدرسة، ثم درس الطب وبعد السنة الثالثة من دراسته للطب انقطع عن الدراسة لظروفه الصحية مدة عامين، وكما يقول «أدى هذا الانقطاع الطويل إلى تطور إيجابى فى شخصيتى.. إذ عكفت طوال هذه المدة على القراءة والتفكير فى موضوعات أدبية، وفى هاتين السنتين تكونت فى داخلى شخصية المفكر المتأمل وولد الكاتب الأديب».

تخرج فى الطب عام ١٩٥٣ م. وكان اهتمامه واضحا بالتشريح ومعرفة أسرار الجسد الإنسانى حتى أطلق عليه لقب ساخر (المشرحاتى!)، بيد أنه بعد تخرجه، آثر العمل فى المجال الصحفى وانشغل بالأدب والتأمل والبحث، وقد تزوج مرتين ولم يوفق، وأنجب طفلين، أدهم وأمل وكلاهما الآن فى سن النضج، ويقال إن عائلته من الأشراف التى ينتهى نسبها إلى على زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه..

ورحلة مصطفى محمود الإنسانية هى رحلة البحث المضنى الذى يبحث عن شاطئ الأمان الروحى، أو الإشباع الروحى الذى لا يجده الإنسان إلا عند خالقه، ولذا تعمر كتبه التى قاربت التسعين بفحوى هذه الرحلة الطويلة المثيرة التى استوى فيها على الجودى الإيمانى إن صح التعبير، مع ما تضمنته كتبه من قضايا فلسفية وأدبية ودينية وعلمية واجتماعية وعاطفية، وتنوعها بين قصص قصيرة وروايات ومسرحيات ورحلات ومقالات وأبحاث وردود على مشكلات إنسانية، فضلا عن برنامجه الشهير العلم والإيمان الذى قدم منه حوالى أربعمائة حلقة جذبت جماهير المشاهدين من المسلمين وغير المسلمين وأثرت فيهم تأثيرا عميقا، وكشفت لهم تجليات الحكمة الإلهية فى المخلوقات، وأسرار الكون التى تتبدى فى بعض الكائنات، وما يرافقها من جمال ساحر جاء فيضا من رب العباد على عباده.

لقد تساءل فى كتابه «الإسلام.. ما هو؟» عن الدين.. ما هو؟؟ وأجاب: «الدين حالة قلبية.. شعور.. إحساس باطنى بالغيب.. وإدراك مبهم، لكن مع إبهامه شديد الوضوح بأن هناك قوة خفية حكيمة مهيمنة عليا تدبر كل شىء... إحساس تام قاهر بأن هناك ذاتا عليا.. وأن المملكة لها ملك.. وأنه لا مهرب لظالم ولا إفلات لمجرم.. وأنك حر مسئول لم تولد عبثا ولا تحيا سدى، وأن موتك ليس نهايتك..





وإنما سيعبر بك إلى حيث لا تعلم.. إلى غيب من حيث جئت من غيب.. والوجود مستمر.

وهذا الإحساس يورث الرهبة والتقوى والورع، ويدفع إلى مراجعة النفس ويحفز صاحبه لأن يبدع من حياته شيئا ذا قيمة، ويصوغ من نفسه وجودا أرقى وأرقى كل لحظة؛ متحسبا لليوم الذى يلاقى فيه ذلك الملك العظيم.. مالك الملك.

إن العمدة فى مسألة الدين والتدين هى الحالة القلبية. ماذا يشغل القلب.. وماذا يجول بالخاطر؟ وما الحب الغالب على المشاعر؟، ولأى شىء الأفضلية القصوى؟، وماذا يختار القلب فى اللحظة الحاسمة؟، وإلى أى كفة يميل الهوى؟

تلك هى المؤشرات التى سوف تدل على الدين من عدمه، وهى أكثر دلالة من الصلاة الشكلية، ولهذا قال القرآن: ولذكر الله أكبر، أى أن الذكر أكبر من الصلاة.. برغم أهمية الصلاة.و لذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام لصحابته عن أبى بكر، إنه لا يفضلكم بصوم أو بصلاة ولكن بشىء وقر فى قلبه.هذا هو الدين.. وهو أكبر بكثير من أن يكون حرفة أو وظيفة أو بطاقة أو مؤسسة أو زيا رسميا».

[٢]

فى بدايات العمل الصحفى الذى مارسه مصطفى محمود عمل فى مؤسسة روز اليوسف، وكتب بمجلة صباح الخير، وهى مجلة تخاطب الشباب،وتعتمد فى الأغلب موضوعات خفيفة تناقش القضايا الآنية التى يعيشها الشباب من الجنسين، فضلا عن اعتمادها على الكاريكاتير وما يمنحه من سخرية مبهجة للتغلب على متاعب الحياة. وكانت الظاهرة الواضحة فى التيار العام الذى يهيمن على محررى روز اليوسف، هو التيار الماركسى، أو العلمانى بصفة عامة، وقد تأثر به مصطفى محمود إلى حد ما، ولكنه رفضه فيما بعد، وهاجمه هجوما حادا، وكتب أكثر من كتاب فى نقد الماركسية. وأذكر أننى كتبت فى منتصف السبعينيات عرضا لكتابه الإسلام والماركسية ضمنته بعض كتبى: فند فيه دعاوى الماركسية وتهافتها. وكان ذلك فى وقت مبكر نسبيا قبيل سقوط الاتحاد السوفيتى وانهيار النظرية. بيد أنه يمكن القول إن كتابه الذى سماه (لماذا رفضت الماركسية؟) يمثل موقفه من الماركسية بصورة واضحة، فقد أشار فى فصله الأول إلى أن الماركسية كانت فى الخمسينيات من القرن الماضى؛ موضة الشباب الثائر، وكان هو وزملاؤه يقرءون منشوراتها فى نهم يحرك مثالياتهم،وخاصة وعودها بالفردوس الأرضى والعدالة الاجتماعية والرخاء والغذاء وتحرير العامل والفلاح والقضاء على الإقطاع والاستغلال.. ويشير إلى أن الصحوة الأولى من هذا الحلم كانت حينما سافر مع رفاقه إلى الخارج ورأى الخراب والبؤس والوجوه الكئيبة المتجهمة فى المجر ورومانيا وألمانيا والبلاد الشرقية كافة التى كانت خاضعة للنظام الماركسى؛ حيث لم يجد أثرا للرخاء أو الرفاهية أو الحرية أو الفردوس الأرضى. ويتحدث عن الصدمة الأولى التى صنعها خروشوف بفتح ملف ستالين، وأعلن على رءوس الأشهاد المظالم التى ارتكبها ستالين ضد الملايين من العمال والفلاحين والمثقفين الذين قتلهم فى السجون والمعتقلات،وأعدمهم بالرشاشات وألقاهم للموت فى جليد سيبريا وأسلمهم للتعذيب وآلاته الجبارة بين يدى الجلاد الرهيب بريا! وكان تبرير هذا الفشل العظيم يقول: إنه التطبيق، ولكن النظرية بريئة من هذه الأخطاء والخطايا!

اقتضى الأمر سنوات طوالا من القراءة الشاقة المجهدة والأبحاث والدراسات حتى يكتشف مصطفى محمود أن الفساد فى المذهب نفسه وليس فى التطبيق. يقول ماركس إن التاريخ عبارة عن تنازع مصالح مادية، وأنه يتحرك إلى الأمام بدفع من الصراع الطبقى بين السادة والعبيد، وكلما تغير شكل الإنتاج تغير معها شكل المجتمع وحضارته وفنونه، ولا يرى ماركس أثرا لأية عوامل أو قوى غيبية أو إرادة إلهية وراء هذه العوامل المادية التى تؤثر فى التاريخ، وما الله فى نظر ماركس - تعالى الله عما يصف - إلا الصنم الذى أقامته البرجوازية لتخدع به الطبقة العاملة، وتشغلها بالسجود والركوع بين يديه انتظارا لفردوس وهمى بعد الموت لتخلو لهم الدنيا يستمتعون بثمراتها كما يشاءون دون خوف أن ينازعهم العمال امتيازاتهم، فما الدين فى الحقيقة من وجهة نظر الماركسيين إلا مخدر الفقراء، وأفيون الشعوب، والحشيش الذى يغيبون به العقول كلما أوشكت أن تصحو وتنفجر على ثورة. ولهذا جعل ماركس القضاء على الأديان على رأس مخططه، وبدأت الثورة البلشفية بهدم المساجد والكنائس وإحراق الأناجيل والمصاحف، واعتقال علماء الدين وإلغاء التربية الدينية من المدارس، وتدريس الإلحاد والماركسية كمادة إجبارية للأطفال والكبار.

يدحض مصطفى محمود النظرية الماركسية فى مجموعة من النقاط أبرزها:

أولا: اعتماد ماركس فى استنباط نظريته عن التاريخ على بعض مراحل التاريخ دون بعضها الآخر، فانتقى ما يتفق مع هواه وأهمل ما يناقض فكرته، وأقوى البراهين على ذلك نشأة الإسلام فلم يكن من إفراز النظام الطبقى فى قريش، ولم يكن دينا رجعيا يحفظ للظالمين المستبدين أموالهم وامتيازاتهم، ولم يكن مخدرا للفقراء ودافعا لهم إلى قبول فقرهم، فقد دعا الإسلام إلى التمتع بالحياة ودعا إلى قتال الظالمين المستغلين. كما لم يأت الإسلام نتيجة انقلاب مناظر فى نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج فى قريش.. وإنما جاء ظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة، وقرر المساواة وضمان حق الكفاية وتحقيق التوازن الاقتصادى بين الفرد والمجتمع، والملكية الخاصة والملكية العامة، والاقتصاد الحر الموجه...

ثانيا: وقع الفكر الماركسى فى تناقض أساسى بين كونه فكرا يدعو إلى التضحية والبذل من أجل الآخرين وبين كونه فكرا محروما من الحافز الدينى والمبدأ الروحى.. والدين كما هو معلوم يمد الإنسان بأعظم طاقة ليضحى ويبذل بلا حدود وعن طيب خاطر. وقد جعلت الماركسية هذه الأخلاق مستحيلة بالفكر والنظرية بحكم مادية النظر إلى الأشياء.لقد تصور الماركسيون أن ثلاث وجبات دسمة يمكن ن تكون عزاء كافيا للإنسان وكان هذا وهما كبيرا. فقد وجد ستالين نفسه أمام هذا التناقض عندما هجم الجيش النازى على روسيا وبلغ أبواب ستالينجراد، ورأى الفلاح الروسى يقف متخاذلا لا يعرف لماذا يحارب ولماذا يموت.. فقد سلبت منه الشيوعية الجنة وسرقت منه الخلود. ولم يجد ستالين بدا من العودة لبناء الكنائس وفتح المساجد ليحيى القلوب التى ماتت! وأصدر أوامره بعدم التحدث عن الغيبيات، لأن الوقت غير ملائم.

ثالثا: سقوط العامل الاقتصادى علميا؛ فهو ليس السبب الوحيد الذى تداعى من ورائه كل التغيرات التاريخية والحضارية. والرأى السائد الآن أنه فى ميدان الظواهر الاجتماعية لا يوجد سبب واحد مستقل منفصل وفاعل يولد النتائج والظواهر الثانوية وإنما هناك عوامل متعددة تؤثر فى بعضها تأثيرات متقابلة، فالعامل الجوهرى اليوم يمكن أن يصبح عاملا ثانويا فى الغد.

رابعا: كانت ديكتاتورية البروليتاريا انتقالا بالمجتمع من ظلم طبقى إلى ظلم طبقى آخر.. وكانت استبدالا للاستغلال الموجود باستغلال آخر أشمل وأسوأ وأعم.. فقد جاء الحزب الحاكم الجديد وجاء معه بزبانية مراكز القوى ليسجنوا ويعتقلوا ويظلموا ويستبدوا للحفاظ على امتياز الذين تميزوا وسلطان الذين تسلطوا.. وهكذا نقلوا المجتمع من طغيان إلى طغيان أفدح وأشاعوا مناخا من الرعب والصمت الرهيب والخرس الذى قطعت فيه الألسن، وكسرت الأقلام وكممت الأفواه.. فالصحف جميعا ملك السادة الجالسين فى مراكز القوى وسياط الرقابة مسلطة على الجميع.. وهذه أمور - كما يقول مصطفى محمود - جربناها واحترقنا بنارها ونعرف ماذا تعنى؟

خامسا: هذا العسف المنهجى الذى اتسمت به الماركسية وإصرارها على أن تكون فكرا شموليا يجيب عن كل شىء، ويبتكر حلا لكل معضلة، ويفتح كل باب ويجاوب على كل سؤال، ثم ادعاؤها لحتمية قوانينها؛ مع أنه من الأمور المعلومة أنه لا حتمية فى الأمور الإنسانية.. لأن الناس ليسوا جمادات ولا هم آلات صماء.

ويمضى مصطفى محمود فى دحض الماركسية حتى يصل إلى أنها

«الدين حالة قلبية.. شعور..
إحساس باطنى بالغيب.. و إدراك مبهم،
لكن مع إبهامه شديد الوضوح بأن هناك قوة خفية
حكيمة مهيمنة عليا تدبر كل شىء..»

مصطفى محمود



إن العمدة فى مسألة الدين والتدين هى الحالة القلبية. ماذا يشغل القلب.. وماذا يجول بالخاطر؟ وما الحب الغالب على المشاعر؟. ولأى شىء الأفضلية القصوى؟. وماذا يختار القلب فى اللحظة الحاسمة؟. وإلى أى كفة يميل الهوى؟

مصطفى محمود



انتهت من العالم بوصفها فكرا، بيد أنه يناقش فكرة التلفيق التى ابتدعها الماركسيون المصريون ليوفقوا بينها وبين الإسلام من خلال لغة إسلامية ووجه إسلامى محاولين ركوب الموجة السائدة. ويطرح طرحا طريفا يثير حفيظة خالد محيى الدين عضو مجلس قيادة الثورة ورئيس حزب التجمع اليسارى، حيث يصفه بأنه يضع نيشان لينين على صدره ومصحف محمد فى يده، ويكتب مقالا طويلا غريبا فى روز اليوسف عن الماركسى المسلم يقول فيه: «ولماذا لا نضيف إلى الماركسية بعدا روحيا؟» ناسيا أنه يفترى بذلك على ماركس فى قبره ويفترى على محمد «صلى الله عليه وسلم» فى مثواه، إنه يزيف لنا الاثنين فى الوقت نفسه.

إن لينين يقول: إننا لا نؤمن بالله ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والإقطاعيين والبرجوازيين لا يخاطبوننا باسم الله إلا استغلالا.

والمانيفستو الشيوعى يقول: الدستور والأخلاق والدين خدعة برجوازية تتستر من ورائها البرجوازية من أجل مطامعها.

وإنجلز يقول: الفكر لم يخلق المادة وإنما المادة هى التى خلقت الفكر.

وستالين يقول فى «المادية الجدلية»: العالم يتطور تبعا لقوانين المادة وهو ليس بحاجة إلى أى عقل كلى.

ويوجه مصطفى محمود تساؤلات عديدة لخالد محيى الدين، منها: كيف يلعن هذه الفلسفة على السجادة ثم يعود فيروجها بين الجماهير؟ ويتهم الذين يؤمنون بالماركسية فى مصر بأنهم شباب لا يقرءون، ولا يتابعون ما يجرى فى الدنيا.. ويضرب أمثلة بنجاح اليابان وخروجها من الدمار قوة اقتصادية عظمى، ويقول: إذا كان خالد مسلما حقا فلماذا لا يصغى إلى صوت الإسلام العذب الصافى، ويأخذ من نبعه ويستمد من مدده الذى لا يكف عن الفيض والعطاء، ويصغى إلى الرب الكريم الواحد، ولا يشرك معه هؤلاء النكرات الذين أنكروه وسبوا أنبياءه وحرفوا كتبه؟

إن الإسلام لا يتملق الكثرة.. ولا يحرك كتل الفلاحين ليضرب بها الملاك، ولا يحرك كتل العمال ليضرب بها الطلبة وأصحاب الأعمال.. ولا يداهن الأغلبية لأنها على جهل (أكثر الناس لا يعلمون) (يوسف: ٢١)، (أكثر الناس لا يؤمنون) (غافر: ٥٩) ، (بل أكثرهم لا يعقلون) (العنكبوت: ٦٣)....

وقد رد خالد محيى الدين ردا طويلا ضمنه مصطفى محمود فى كتابه قال فيه: نحن لا نلعن الماركسية على السجادة ووصف الماركسية بأنها أصبحت مثل





حصان طروادة الذى يركبه الجميع حيلة وخداعا، كما أصبحت كبش الفداء لما يحدث فى واقعنا والشماعة التى يعلق عليها أعداء التقدم مآسى الناس، ويشير خالد محيى الدين إلى أنه لن يرد على ما أثاره مصطفى محمود حول الماركسية نظرية وتطبيقا، ولكنه سيرد على ما يراه من هجوم على التجربة المصرية فى عهد الثورة ويسأله عن برنامجه لحل المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى بلادنا.. ويقول خالد: إننا لا نسعى إلى صلح انتهازى بين الماركسية والإسلام ولكننا نهدف إلى فهم صحيح للإسلام وتفسير علمى عصرى له تحقيقا لمطالب عصرنا فى الثورة الوطنية والاجتماعية، ولا نسكت على الصلح الانتهازى بين الرأسمالية والدين، إنه الأخطر على مكتسباتنا الوطنية والاجتماعية أمام هجمات الاستعمار الجديد والشركات العالمية الاحتكارية المتعددة الجنسيات..

ويستمر خالد فى بيان وجهة نظره التى يرد عليها مصطفى محمود قائلا: هذه لعبة الموت يا رفيق.. ومن خلال تحليل الواقع وموقف الماركسيين وخلافاتهم وصراعاتهم، يختم كتابه بالحديث عن ضرورة أن تكون مصر قوية بل القطب الأقوى الذى تتوحد حوله العائلة العربية الكبيرة، فالقوة مازالت فى عالمنا هى صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة. الاحترام للأقوياء والغلبة للأقوياء والقيادة للأقوياء. فلننهض ولنسترد عافيتنا.. لنجد لنا مكانا على مائدة الأقوياء.

[٣]

إن اليقين الذى وصل إليه مصطفى محمود جاء بعد رحلة الشك العظيمة التى صهرته بنارها، ولكنه لم يستسلم مثل بعضهم ويكتفى باللجوء إلى ملاذات فلسفية أو عقدية من صنع البشر يسودها الاضطراب والقلق، بل ظل يبحث فى إخلاص نادر وصبر جميل ينتقل من ضفة إلى أخرى، ومن مركب إلى آخر، ومن ميناء إلى شاطئ، حتى اهتدى إلى السكينة الروحية التى عبر عنها فى معظم كتبه المتأخرة، وسبقتها أفكار ومقالات أثارت نقاشا كبيرا من بينها: «على حافة الانتحار»، «الله والإنسان»، «حوار مع صديقى الملحد»، «رحلتى من الشك إلى الإيمان»، «الزلزال»..



وإذا كان مصطفى محمود: قد بدأ رحلة الشك الكبرى فى الستينيات، فى كتابه «الله والإنسان» الذى وصف بأنه كتاب إلحادى، قاده فيما بعد إلى ما وصف باليقين القائم على العقل، وليس فقط على الوراثة والتواكل،... فقد صار كتابه «رحلتى من الشك إلى الإيمان» فى السبعينيات، الأكثر شعبية، حيث استقطب قطاعا كبيرا من الشباب كان يعيش الحيرة بين العقل والإيمان، واستطاع بأسلوبه القصصى السهل البسيط أن يجذب قطاعا كبيرا من هؤلاء الشباب إلى دائرة اليقين. وساعد على ذلك ظهور برنامجه «العلم والإيمان»، الذى يربط بين الإيمان والعقل ويثبت فيه ومن خلاله أن الإسلام ليس ضد العلم، بل إن العلم يهدى إلى الإسلام ويؤكد التوحيد ويجعل العقل الإنسانى خادما مطيعا فى ساحة الإيمان،وعنصرا فعالا فى مجال بناء الحياة وإعمار الكون عن طريق البحث والتجريب والاكتشاف.

لقد جاء فى كتابه «رحلتى من الشك إلى الإيمان» قوله:

«.. لو أنى أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودنى لأعفيت نفسى من عناء الجدل.. ولقادتنى الفطرة إلى الله.. ولكننى جئت فى زمن تعقد فيه كل شىء وضعف صوت الفطرة حتى صار همسا وارتفع صوت العقل حتى صار لجاجة وغرورا واعتدادا.. والعقل معذور فى إسرافه إذ يرى نفسه واقفا على هرم هائل من المنجزات وإذ يرى نفسه مانحا للحضارة بما فيها من صناعة وكهرباء وصواريخ وطائرات وغواصات وإذ يرى نفسه قد اقتحم البر والبحر والجو والماء وما تحت الماء.. فتصور نفسه القادر على كل شىء وزج نفسه فى كل شىء وأقام نفسه حاكما على ما يعلم وما لا يعلم».

ويطرح فى نهاية كتابه مجموعة من الأسئلة تستنكر واقع الناس الذين ينحرفون عن الفطرة الربانية، ويدخلون فى متاهات تصنعها المطامع والشهوات والأنانية واليأس والإحباط، دون أن يلجأوا إلى الله القوى القادر الذى جئنا من غيبه المغيب ومصيرنا إلى غيبه المغيب.. يقول مصطفى محمود:

«..لماذا يسجن الإنسان نفسه داخل شق فى الحائط مثل النملة ويعض على أسنانه من الغيظ أو يحك جلده بحثا عن لذة أو يطوى ضلوعه على ثأر.

و لماذا يسرق الناس بعضهم بعضا ولماذا تغتصب الأمم بعضها بعضا والخيرات حولها بلا حدود والأرزاق مطمورة فى الأرض تحت أقدام من يبحث عنها.

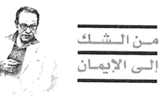
لماذا اليأس وصورة الكون البديع بما فيها من جمال ونظام وحكمة وتخطيط موزون توحى بإله عادل لا يخطئ ميزانه.. كريم لا يكف عن العطاء، لماذا لا نخرج من جحورنا.. ونكسر قوقعاتنا ونطل برؤوسنا لنتفرج على الدنيا ونتأمل.

لماذا لا نخرج من همومنا الذاتية لنحمل هموم الوطن الأكبر ثم نتخطى الوطن إلى الإنسانية الكبرى.. ثم نتخطى الإنسانية إلى الطبيعة وما وراءها ثم إلى الله الذى جئنا من غيبه المغيب ومصيرنا إلى غيبه المغيب.

لماذا ننسى أن لنا أجنحة فنجرب أن نطير ونكتفى بأن نلتصق بالجحور فى جبن ونغوص فى الوحل ونغرق فى الطين ونسلم قيادتنا للخنزير فى داخلنا، لماذا نسلم أنفسنا للعادة والآلية والروتين المكرر وننسى أننا أحرار فعلا. لماذا أكثرنا نمل وصراصير..».

لقد كان اهتمام مصطفى محمود بالعلم جارفا، فلم يكتف بالبحث النظرى والقراءة المكتبية،ولكنه انتقل إلى التطبيق على

من الشك إلى الإيمان



أرض الواقع ثقة منه أن العلم يؤدى إلى الإيمان واليقين، وأنشأ مركزا علميا ضمن جمعيته التى سنشير إليها فيما بعد، ويضم المركز أربعة مراصد فلكية، ومتحفا للجيولوجيا، يقوم عليه أساتذة متخصصون. كما يضم المتحف مجموعة من الصخور الجرانيتية، والفراشات المحنطة بأشكالها المتنوعة وبعض الكائنات البحرية، وهى كما نرى تؤكد على فكرة أن العلم طريق للإيمان،وفهم الظواهر الكونية، بل وتفسير بعض القضايا الدينية مثل الإعجاز القرآنى.

صحيح أن مصطفى محمود حاول أن يخضع الإعجاز القرآنى للعلم،ولكنه شط به المزار حين أراد بسلامة نية أن يفسر بعض الآيات الكريمة من خلال بعض النظريات العلمية التى تتغير بتغير الظروف والأحوال، وهو ما اقتضى بعض الردود من جانب بنت الشاطئ وعبد المتعال الجابرى وغيرهما، وقد تأثر ببعض الردود العنيفة، فقد كانت سلامة مقصده - كما يتصور - تسوغ له أن يلقى ردودا هادئة، خاصة أن مشاعره الرقيقة لا تحتمل القسوة فى الردود التى وصل بعضها إلى اتهامه وتجريحه.

وقد تكرر الأمر نفسه عندما تناول موضوع الشفاعة، وهو موضوع مشكل فى الفكر الإسلامى منذ القرون الهجرية الأولى وفيه أقوال وآراء، ويبدو أن مصطفى محمود أراد أن يهاجم من يفرطون فى أمر الدين ويهملون القيام بواجباتهم اعتمادا على أن شفاعة النبى - صلى الله عليه وسلم - ستنقذهم من العذاب، أو هكذا يتصور البعض، وقد جاءت الآيات القرآنية تفيد نفى الشفاعة على الإطلاق، أو فى حالات مقيدة، وقد وردت أحاديث عديدة فى الموضوع تفيد بإطلاق الشفاعة.. وكان ذلك حاضرا فى ذهن مصطفى محمود، وإن لم يوضحه التوضيح الكافى، ومن هنا ثارت ثائرة البعض، وتلقى ردودا عديدة، بعضها أغضبه، والبعض الآخر جعله يقر بموضوعيته وعلميته، من بينها ما رد به الراحل العظيم الشيخ عبد العظيم المطعنى، رحمه الله؛ وقد نشر رد المطعنى كاملا وناقشه تفصيلا، بعد أن وصفه أنه يقف موقفا معتدلا بين النفى مطلقا للشفاعة، وبين الإباحة مطلقا بأن جعل الشفاعة مشروطة وليست نهبا لكل من يطمع بها.. كما أنه يحول دون هذه الاتكالية التى يرتاح إليها كل مسلم فيتصور أنه من أهل الجنة مهما فعل.. وكيف يدخل النار ومعه الشفيع الأعظم الذى لا ترد شفاعته.. وهى اتكالية كما يرى مصطفى محمود أوردت هذه الأمة إلى حتفها. ويضيف أن الدكتور المطعنى على حق لسبب آخر مهم.. هو أن موضوع الشفاعة وتفاصيل ما سيجرى فيها والآخرة وأسرارها وحسابها، هى أمور غيبية لا يستطيع أحد أن يقطع بما سيحدث فيها تفصيلا. والقطع فى هذه المسائل مستحيل، والتعصب فيها إلى جانب دون الآخر هو تطاول بغير علم، خاصة إذا جاء القرآن بنفى الشفاعة فى بعض آياته، وجاء بجوازها فى آيات أخرى، والمرجع الحق هو الله وحده فى الحالين..

ويبدو أن الآراء الموضوعية جعلته يتراجع عن بعض أفكاره الحادة فى الشفاعة، فأوضح فى مفتتح الكتاب الذى ضم ما كتبه عن الشفاعة بأنه محاولة لفهم، واجتهاد قد يصيب ويخطئ، وأشار إلى أنه لا يدعى لنفسه كمالا ولا عصمة، ويرى أن من حق كل قارئ أن يختلف معه وأن يفهم القضية على طريقته، والله وحده هو صاحب العلم الكامل... وغاية غاياتنا هى رضاه وأن نسجد ونقترب..

ولكن الردود العنيفة سببت له ألما أحزنه، وأثر فى نفسه، وهو ما عبر عنه فى أكثر من موقف، فقد كان يود أن تكون المناقشة مراعية للغاية التى كتب من أجلها الموضوع، وهى مكافحة التواكل أو الكسل الذى يخيم على الأمة الضعيفة المنهارة، المستباحة من كل طامع وشرير!

[٤]

ولعل حساسية مصطفى محمود الزائدة كانت من وراء حزنه الشديد الذى أفضى به إلى المرض الطويل فى أواخر حياته، فقد كان يكتب عن العدوان الصهيونى على العرب فى فلسطين وخارجها، وهو ما أزعج الغزاة الصهاينة فى فلسطين المحتلة، فاستنكروا كتاباته فى اعتراضات أرسلوها إلى المسئولين المصريين، الذين قاموا بدورهم بمخاطبة الصحف التى تنشر كتابات مصطفى محمود مما أدى إلى إيقافها، وتبع ذلك إيقاف برنامجه الجماهيرى المشهور «العلم والإيمان»، وكان لذلك صداه المؤلم القاسى على نفسيته التى تأثرت، وبالتالى تأثر جسده الضعيف وانتهى به الأمر إلى لقاء ربه فى ٢٠٠٩/١٠/٣١م.

وقد صرح ابنه أدهم أن السبب وراء اعتلال صحة والده هو جواب أرسله الدكتور أسامة الباز، مدير مكتب رئيس الجمهورية للشؤون السياسية، عام ١٩٩٤، عقب نشر الفيلسوف الراحل مقالاً فى الأهرام أثار استياء القيادات الصهيونية والمنظمات اليهودية «المعادية للتشهير»، وهو ما جعل الباز يرسل الخطاب إلى إبراهيم نافع، رئيس مجلس إدارة «الأهرام» آنذاك. طالباً منه لفت نظر مصطفى محمود إلى حساسية الكتابة فى هذه الموضوعات، وأن تأثيرها لا يقتصر على الصهاينة فقط بل على اليهود أيضاً.

وقال أدهم فى برنامج «الحقيقة» لوائل الإبراشى، على شاشة دريم، إن الخطاب كان له بالغ الأثر على صحة والده، الذى دخل بعدها فى نوبة حزن شديدة أثرت على صحته بشكل واضح، خاصة أن الخطاب عبر عن توبيخ سياسى واضح من الدولة لم يقتصر فقط على كتابات المفكر الراحل، بل امتد إلى الاعتراض على محتوى ومضمون برنامجه «العلم والإيمان»، كاشفاً أن دولة الاحتلال الصهيونى لعبت دوراً رئيسياً فى توقف عرض البرنامج على القنوات الأرضية.

وكشف أدهم أن والده ذهب للقاء وزير الإعلام آنذاك، شاكياً له توقف البرنامج، ولما عرف بشأن الخطاب أدرك أن الدولة الصهيونية تمارس ضغوطاً سياسية ودبلوماسية لمطاردة أفكاره، مؤكداً أن والده عانى الأمرين من تدخلات الأزهر المتكررة لحذف مقاطع كثيرة من حلقات برنامجه، حتى إنه كان يضطر إلى الذهاب إلى شيخ الأزهر لمناقشته مراراً حول المقاطع المحذوفة..

ولعل هذا ما دفع الإبراشى إلى القول: إن مصطفى محمود كان يمثل خطراً على إسرائيل لأنه كان الوحيد الذى يرد على ادعاءاتهم من خلال قراءته المتأنية فى العقائد والتاريخ والعلوم، وأن سلوكه هذا تسبب فى حرج شديد للمسئولين فى الدولة، وهو ما يفسر تخليهم عنه فى محنة مرضه وحتى لحظة وفاته.

لقد خصص مصطفى محمود معظم كتاباته فى المرحلة الأخيرة من حياته التى تشمل الثمانينيات وما بعدها لتناول القضية الفلسطينية والعلاقات مع الغزاة الصهاينة،وخاصة ما كان ينشره على صفحات الأهرام وأكتوبر وأخبار اليوم، وقد جمع ما كتبه فى كتب منها: «إسرائيل البداية والنهاية» و«إسرائيل النازية ولغة المحرقة» تحت عنوان «الجريمة» يقول مصطفى محمود فى الكتاب الأول:

«ما هو السبب الذى يشجع أى طرف على دخول حرب؟؟

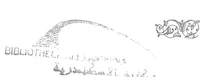
السبب الوحيد الذى يغرى خصمك على أن يحاربك هو أن يشعر أنه الأقوى.. وأنه يتفوق عليك فى أسلحته ومعداته.. وأنه يسبقك فى العلن،وأنه مسنود ومؤيد بحلفاء أقوياء أشداء سوف ينصرونه ويؤازرونه ويقفون إلى جانبه ولو بالباطل ويؤيدونه ظالما ومظلوما.. وأن هزيمتك سوف تحقق له مصلحة عظمى.. وأن مغامرته ستكون كلها مكسبا ..

وإسرائيل تشعر بكل هذا.. وتتصرف بهذا اليقين.. وهى تسوس قضيتها وقد امتلأت إحساسا بأن أمريكا معها وأوربا فى صفها.. والرأى العام يناصرها،والصحف تكتب لصالحها،والإذاعات تهتف لها والعالم كله يعطف على قضيتها،وأن مصر هى العدو التاريخى،وهى العقبة الكئود فى طريق ميلاد إسرائيل الكبرى،ولا ترى فى الدول العربية إلا دولا بدائية أكثرها متخلف أو ضعيف.. وترى نفسها الحارسة الموكلة من دول الغرب للحفاظ على البترول وكنوز الطاقة التى تجلس على تلها...».

ويناقش مصطفى محمود ويستعرض ألاعيب الصهاينة وتحركاتهم الظاهرة والمستترة لإضعاف مصر وتمزيق العرب والمسلمين، وإسهامهم فى

إن الإسلام لا يتملق الكثرة..
ولا يحرك كتل الفلاحين ليضرب بها الملاك، ولا يحرك كتل العمال ليضرب بها الطلبة وأصحاب الأعمال

مصطفى محمود



«..لماذا يسجن الإنسان نفسه داخل شق في الحائط مثل النملة ويعض على أسنانه من الغيظ أو يحك جلده بحثا عن لذة أو يطوي ضلوعه على ثأر»

مصطفى محمود



إشعال الحروب والفتن على أرض الإسلام. والهدف في النهاية هو مصر التي تحول بينهم وبين إقامة دولتهم الكبرى من النيل إلى الفرات.. إنه يصرخ في العرب بأن الذين يؤثرون السلامة هم أول من يطمع العدو فيهم وهم أول من يفقدون الأمن والسلامة.

«إننا نعيش في عالم ذئاب..ولم نعرف طعم السلامة إلا مجرد استراحة عابرة بين حربين..وتاريخ المنطقة ملطخ بالدم نابا ومخلبا..

ونحن نواجه عدوا حقيقيا.. وجارا غادرا.. ومفاوضا كذابا..

أفيقوا يا عرب إلى الكارثة التي تدبر لكم..

أعدوا واستعدوا واعلموا أنكم مقبلون على (ذات الشوكة) لا مفر ولا مهرب..

السلام الذي تلوكونه بين أفواهكم هو مخدر موضعي.. يدسونه في طعامكم الإعلامي كل يوم.. فإسرائيل وعصابتها الصهيونية لا تفكر في أي سلام أبدا، وإنما غرضها أن توهن عزائمكم وتميت قلوبكم وتعمي عيونكم عن الكارثة المقبلة حتى تأتيكم على حين غرة ودون استعداد..».

وفي الكتاب الثاني يقول مصطفى محمود تحت عنوان «إنهم يلعبون بالنار» بمناسبة طواف الإرهابي شارون بالمسجد الأقصى بالأحذية عام ٢٠٠٠م، في عملية استعراضية تحت حماية ألفين من حراسه مستفزا المسلمين في كل مكان:

«وأهداف إسرائيل أبعد من ضرب الفلسطينيين.. أهدافها التحكم في المنطقة كلها ونهب خيراتها..ومرادها العلو والسيطرة وإعادة ملك سليمان وبسط سلطانها على العالم، وهو جنون يسكن العقل الصهيوني من قديم..

والتحكم الصهيوني في مقدرات أمريكا وفي إعلامها وفنونها وثقافتها وسياستها حقيقة.. وتحكم اليهود من خلال أمريكا في أوربا وفي العالم..وما جرى للمجتمع الروسي من فوضى ومخدرات ودعارة ومافيا وانهيار اجتماعي تخطيط صهيوني مدروس ومحكم..

أنهم ينفذون بروتوكولاتهم حيثما حلوا..

والقدس هي الهدف الأسمى وبيت القصيد وبها تكتمل رقعة الشطرنج ولا يبقى إلا دخول الملك..

ولا يريد اليهود للعالم سلاما بل خرابا..وهم يريدون عقابه على سجون «الجيتو» التي قهرهم العالم عليها بطول التاريخ.. فيذوق بعض ما ذاقوه..

إنهم في نظر أنفسهم أبناء الله والجنس الأسمى الذي جرى عليه الظلم والهوان عدوانا بغير حق..والنابغون فيهم كثير..والنابغون في الشر أكثر.. ومن ورائهم الظهير الأمريكي الذي يمدهم بلا حدود فيما يقدرون عليه وفيما لا يقدرون عليه.........

ومثل هذه الكتابات مزعج للغزاة الصهاينة.. ولأنهم تعودوا ألا يزعجهم أحد فقد كان من الضروري إسكات صوت الرجل، حتى لا يستمر في الإزعاج. ولكنهم يتناسون أن أفعالهم التي لا تراعي حرمة ولا ترقب ذمة كفيلة بجعل كتابات الرجل حية في القلوب والعقول، خاصة أنها تصل مباشرة بسبب أسلوبها السهل البسيط القادر إلى مخاطبة المستويات المختلفة..

[٥]

على المستوى الإنساني فإن مصطفى محمود لم يدع للإسلام نظريا ويدافع عنه على الورق، ولم يكتف بذلك كما يفعل بعض الناس، ولكنه كان مشغولا بالواقع وتغييره بما يملك من قدرات وإمكانات، ولو كانت محدودة، فقد كافح من أجل استمرار برنامجه العلم والإيمان على مدى سنوات، ويروى أنه كان يدفع من جيبه ثمن الأفلام التي كان يعرضها في البرنامج، وكان التليفزيون - الذي يكافئه مكافأة ضئيلة - لا يدفع له ثمنها، ولكنه كان يعتقد أنه صاحب رسالة يؤديها وفقا لما يستطيع، فلم تكن التجارة أو الكسب المادي هدفه، فالدعوة والتجارة لا يجتمعان إلا في إهاب شخصية زائفة تفتقد الإخلاص والإيمان النقي، لقد أنشأ عام ١٩٧٩ في القاهرة مسجده المعروف بـ «مسجد مصطفى محمود» وتتبعه ثلاثة مراكز طبية تهتم بعلاج ذوي الدخل المحدود ويقصدها كثير من أبناء مصر الفقراء نظرا لسمعتها الطبية، كما شكل قوافل للرحمة من ستة عشر طبيبا. وارتبط المسجد بخدمة الجماعة المصرية كلها: لا فرق بين مسلم وغير مسلم. ولعل ذلك كان من وراء بكاء الفقراء الذين أجهشوا بحرقة يوم رحيله، وخرجوا وراءه إلى مثواه الأخير حين تجاهلته السلطة والقوى التي تكره ما يمثله مصطفى محمود..

ولعل هذا أيضا ما دفع أكثر من ٩٥ ألفا من محبي الراحل إلى التعبير عن حبهم له على موقع التواصل الاجتماعي الشهير «فيس بوك»، بالإضافة إلى مدونة أسسها مجموعة من الشباب باسم «مصطفى محمود بنحبك»، منهم إسلام أبوبكر، مهندس كمبيوتر، الذي قال إن «الجروب» يمثل ردة فعل على التجاهل الرسمي للراحل الذي أفنى عمره وماله في العلم ومساعدة الفقراء.

وأشار أبوبكر إلى أن هناك «جروبات» أخرى مناصرة لـ صاحب العلم والإيمان».

وستجد في «جروب» مصطفى محمود كثيرا من الموضوعات المطروحة للمناقشة حول أعماله، فضلا عن تدوين ١٩٠من حلقات «العلم والإيمان» البالغة ٤٠٠ حلقة.

لقد رفض مصطفى محمود المناصب الرسمية، والوزارة في عهد الرئيس السادات مع اقترابه منه، وعلق ساخرا: كيف أدير وزارة وأنا لم أنجح في إدارة بيت، في إشارة إلى إخفاقه في حياته الأسرية. لقد كان اهتمامه مركزا على القراءة والبحث والكتابة، وخدمة البسطاء والمحتاجين في تواضع الزاهدين الذين يبحثون عما عند الله.



وليس ما عند الناس.. ولذا كان في تفكيره باحثا عن الجوهر وليس العرض. ولم يفعل مثل بعضهم حين يصدمون المجتمع في عقيدته أو قيمه من أجل الشهرة أو الكسب المادي أو البطولة الجوفاء أو إرضاء هذه الجهة أو تلك. ولعل هذا كان من وراء شجاعته الأدبية حين أعلن تحولاته الفكرية من المادية إلى الإسلام بوضوح وشفافية ودون مداورة أو مواربة أو إمساك العصا من الوسط. بل كان صريحا وواضحا وقاطعا. وهذا بالطبع أفقده أشياء كثيرة،ولكنها في الحسبان لا تساوي شيئا لأنها من العرض الزائل. والعهن المنفوش. وهو ما جعل بعض الكتاب يقررون هذا المعنى في وصفهم الرجل. فها هو مكرم محمد أحمد نقيب الصحفيين يشير إلى أن بكاء الفقراء والمساكين من الذين كان يشملهم مصطفى محمود بعطفه ومساعدته دليل على مكانته الجليلة في نفوس الناس،وأنه بتأملاته وتدبره في الكون ومخلوقات الله صار من أكبر المدافعين عن الدين الإسلامي. ويركز مكرم على أن الرجل لم يبتغ شهرة أو مالا ولكنه كان يبتغي مرضاة الله. ووهب حياته للأعمال الخيرية ومساعدة الفقراء وعلاجهم ونشر الدعوة فعاش هادئا ورحل هادئا.

ويبدو أن رد الفعل الشعبي لتقدير الرجل وتكريمه تمثل في إطلاق اسمه عفويا على مسجده الذي كان يحمل اسم رئيس وزراء سابق، وعلى الميدان الذي أمامه، والشارع الكبير الذي يؤدي إلى هذا الميدان فقد ارتبط مصطفى محمود بالمسجد والمستشفى والجمعية، وقبل ذلك بالناس وخاصة البسطاء والفقراء والعامة.

تميز أسلوب مصطفى محمود - كما وصفه أنيس منصور - بالبساطة والرشاقة والقدرة على تقريب الأفكار والنظريات العلمية المعقدة إلى عامة الجمهور، وخاصة من خلال برنامجه الشهير «العلم والإيمان» الذي قدمه التليفزيون المصري وبثته العديد من القنوات العربية على مدار عدة عقود، وحظي بنجاح غير مسبوق. ويقول أنيس: كنت أندهش كيف أن عالما يكتب بهذه السلاسة والجمال ثم لا يذكرون اسمه. ويصفه أنه كان طبيب الأدباء.. وأديب الأطباء!

رحم الله مصطفى محمود، وجعل الفردوس الأعلى منزله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ■

لم يطلب «المفتى» مصادرة الكتاب. بل اكتفى بمناقشة الكاتب فى أفكاره، فمن أين تسربت إلى الأزهر ثقافة المصادرة؟

قــراءة فى فتــوى

فى الخمسينيات والستينيات، عندما كانت مصرُ غير تلك «المحتقنة تعصبا» التى نعرف الآن، صدرت عن دار الإفتاء تلك الفتوى الرسمية بالرأى فى كتاب الدكتور مصطفى محمود «الله والإنسان»، وهوالكتاب الذى تناول أفكارا تراجع عنها الكاتب الراحل بعد ذلك وفندها فى كتابه الشهير «رحلتى من الشك إلى الإيمان». الباحث النابه عصام تليمة يقدم لنا هنا «نص» الفتوى معلقا عليها، وموضحا كيف سمح المناخ الثقافى «المتسامح والعقلانى» فى الخمسينيات والستينيات أن تخرج تلك الفتوى بلا دعوة للمصادرة، ولااتهام بالكفر. وكيف أن عدم وجود الجماعات التى تصدر فتاوى التكفير وإباحة الدم، ساعد المفتى وساعد المؤلف، فساعد المفتى على إصدار فتوى بعيدة عن التأثر بمخافة الاتهام فى دينه إن خرجت فتواه فيها رفق ورأفة بالكاتب، وساعدت الكاتب فى أن يعود لأفكاره ليقرأها «قراءة ثانية».

رحم الله مفتى الستينيات الشيخ حسن مأمون، ورحم الله مصطفى محمود، الذى كان من حظه، ومن حظ قرائه ومحبيه، ومن حظ المترددين على مؤسسته الخيرية الكبيرة، أن كتابه «الله والإنسان» لم يصدر فى زمن فتاوى الفضائيات. والتعصب القاتل.. حتى فى مباريات الكرة.


المحــرر



عصـــــام تليمـــــة

■■ رحم الله الدكتور مصطفى محمود، فهو رجل يصدق عليه قول القائل: ملأ الدنيا، وشغل الناس، ومن بين ما شغل به الناس من تاريخ الدكتور مصطفى محمود، ما بدأ يعاد ذكره من موقف الأزهر منه، وقت أن كتب كتابه (الله والإنسان)، وقد لاحظت أن معظم المواقع والصحف التى ترجمت للرجل لم تترك هذه المرحلة دون مرور عليها، ما بين تفصيل وإيجاز. غير أن ما لفت نظرى هو تجنى الكثير على الأزهر والمؤسسة الدينية فى نقل معلومات غير صحيحة عن هذه المرحلة تحديدا، من حيث علاقتها بمصطفى محمود.

وسوف أنقل فتوى إحدى المؤسسات الدينية، وهى (دار الإفتاء المصرية) كاملة فى كتاب الدكتور مصطفى محمود (الله والإنسان) وقد كنت منذ عامين نقلتها فى احتفالية اتحاد الأطباء العرب، فى حفل تكريم الدكتور مصطفى محمود بحضور كريمته أمل، وقد تفاجأ الحضور، وكان من بينهم: د. محمد عمارة، والأستاذ فهمى هويدى، والأستاذ لويس جريس، عندما علموا أن لدار الإفتاء المصرية فتوى فى الدكتور مصطفى محمود، ويبدو أن القلق انتاب معظم الحاضرين، فقد توقعوا والكتاب كتب بلغة إلحادية، ودعا فيه الكاتب للإلحاد، أن تكون الفتوى من أعنف ما يكون، ولكن كانت المفاجأة التى أعتقد أن القارئ سيفاجأ كما فوجئوا، بفتوى كانت متزنة وقوية فى نفس الوقت، وها هو نص الفتوى، ثم أتبعه بتعليقاتنا عليها[1]:

رأى الإفتاء فى كتاب (الله والإنسان)

(سئل: من الأستاذ: م.ح.أ بطلب قيد برقم ١٣٥٧ سنة ١٩٥٧ يرغب فيه منا أن نطلع على كتاب (الله والإنسان) ونبدى رأينا فيه.

أجاب:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده. وبعد:

الفتاوى الإسلامية... فتاوى دار الإفتاء المصرية، فتوى رقم (١١١٦) بعنوان: رأى الإفتاء فى كتاب (الله والإنسان) (٢٦٥٧/٤-٢٦٦٤) طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

لم تذكر الفتوى أى حكم بالتكفير، أو التفسيق، أو التبديع، أو أى عنف لفظى ضد الكاتب



١ - فقد اطلعنا على هذا الكتاب الذى ألفه الدكتور م. م وأخرجه فى مارس سنة ١٩٥٧ بعد أن نشر بعض فصوله فى مجلة روزاليوسف. ونظرا لأن هذا الكتاب قد آثار ضجة كبيرة.

٢ - وطلب منى الطالب بصفته ممثلا لمجمع البحوث العلمية، وجماعة البر والتقوى إبداء رأيى فيما نشر بمجلة روزاليوسف من الكتاب، وفى الكتاب نفسه بعد طبعه وتوزيعه على القراء.

٣ - وقد قرأت هذا الكتاب من أوله إلى آخره قراءة هادئة غير متأثر بما أثير حوله، لأننى لا أحب أن يصدر حكمى عليه فى جو عدائى له أو جو تسيطر عليه فكرة سيئة عنه.

المتفق عليه بين الأزهر ومحمود:

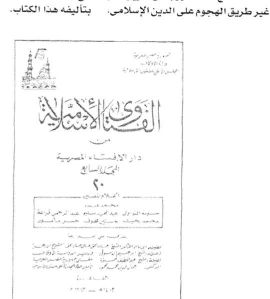
٤ - ولذلك أجد من الإنصاف أن أقول: إن الكاتب عنى فى كتابه بتمجيد العقل والعلم والحرية، وإظهار أثرها فى تقدم الفرد والأمة. ولا جدال فى أن الدين الإسلامى قد سبقه إلى ذلك، فقد عرف للعقل قيمته وقدره. وطالب الناس بالتفكير فى خلق الله، وبالنظر والاعتبار، ونجد آيات القرآن الكريم حافلة بذلك.

كما أنه دعا إلى العلم بكل ما يحتاج إليه الإنسان فى حياته وبعد مماته، وكل ما يرفع شأن البشرية، ويحقق على الوجه الأكمل معنى خلافة الإنسان عن الله فى أرضه، يعمرها ويستخرج كنوزها، ويفيد من كل ما أودع الله فيها. وأيضا فإن الإيمان الذى فرضه الإسلام وسائر الأديان السماوية، وهو الإيمان بأن للعالم إلها واحدا هو الله سبحانه وتعالى. وهو المستحق وحده للعبادة، والذى يستعان به، ولا يستعان بغيره فى كل شئون الحياة، يحقق معنى حرية الإنسان فى أسمى صورها وأعلى مراتبها. فالمؤمن إيمانا صادقا لا يكون عبدا لغيره، ولا عبدا لشهواته، ولا لأى شىء آخر سوى الله سبحانه وتعالى الذى خلقه وخلق كل شىء.

فدعوة الكتاب إلى تمجيد العلم والعقل، وإلى أن يفكر الإنسان تفكيرا حرا مستقيما: دعوة لا ننكرها عليه، ولا ينكرها عليه الدين الإسلامى. فما جاء فى آخر الكتاب من الدعوة إلى أن يتكاتف المسلم المفكر الحر، والسياسى اليقظ، ورجل الدين العصرى إلى أن يكونوا فى توثب دائم ليكسروا الدروع السميكة حول أعدائنا، ويمزقوا عن وجوههم القبيحة النقاب لا شىء فيه، وهو مما نوافقه عليه.

مصدر الأخطاء التى وقع فيها د. محمود:

٥ - غير أن الكتاب لم يخل من أخطاء لا نستطيع أن نمر عليها بدون إبداء رأينا فيها. وقبل أن نبين هذه الأخطاء نقول: إننا قد خرجنا من قراءة الكتاب بحقيقة لمسناها، وهى: أن الكاتب قد عاش فى وسطنا المصرى الشرقى، وشاهد بعض تصرفات ممن لا يفهمون الدين الإسلامى، أو لا يفهمون منه إلا بعض رسومه وأشكاله، والذين يحاولون أن يقتنعوا بهذه الصور الشكلية التى لا روح فيها، ولا غناء، متناسين روح الدين وتعاليمه التى ترفع من شأن الإنسان، وتدفعه إلى العمل الحر الكريم لنفسه، ولأسرته، ولوطنه، بل وللإنسانية كلها، ولعل الكاتب قد ظن أن ما يراه يمثل حقيقة الدين الإسلامى، فازدرى هؤلاء وكتب ما كتب متأثرا بهم وبأحوالهم، ولو أنصف لعالج هذه العيوب من طريق آخر غير طريق الهجوم على الدين الإسلامى،



وعلى الأديان كلها هجوما واضحا نلمسه فى كتابه فى كثير من المواطن.

٦ - وأعتقد أن هذا الكاتب وأمثاله لم يقعوا فيما وقعوا فيه من خطأ، إلا لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء دراسة الأحكام التى دعا الإسلام الناس إلى اتباعها، بدليل أنى لم أجد فى كتابه شيئا منسوبا إلى الدين يستحق أن ينقد أو أن يزدرى. وسنذكر بعض أمثلة من خطئه الذى لا نقره عليه. بل إننا نعتقد أنه لو راجع نفسه لا يقر هذا الخطأ.

مناقشة محمود فى أخطائه:

٧ - من ذلك قوله فى ص ٢٤: (والطريقة العصرية فى بلوغ الفضيلة ليست الصلاة، وإنما هى الطعام الجيد والكساء الجيد، والمسكن الجيد، والمدرسة والملعب وصالة الموسيقى) فإنه إذ يمجد الطريقة العصرية يخطئ الطريق. فيظن أن الصلاة من العوائق التى تمنع من بلوغ الفضيلة. ولذلك حط من قدرها، ونسى أو تناسى، أثرها فى تقويم الخلق، وتهذيب النفس، ولا يفهم معنى للربط بين الصلاة وبين ما يتطلبه الجسم والعقل، فقد أمر الله الناس بالصلاة وفرضها عليهم، ونهاهم عن الزهد فى الحياة، وأباح لهم الطيبات من الرزق، وكل ما يحتاج إليه الجسم ليكون قويا، والعقل ليؤدى واجبه فى فائدة صاحبه. فالصلاة لا تتعارض مع مطالب الحياة ولا تنافيها. فلا وجه لقوله: إن الفضيلة ليست الصلاة، بل الصلاة تجىء على رأس الفضائل كلها. وإذا كان هذا هو ما قد يفهمه بعض المتصوفة من الدين. فلا يجوز بحال من الأحوال أن يفهمه كاتب متحرر يحاول أن يحل مشكلة مع نفسه، ومشاكل الناس مع أنفسهم، بتأليفه هذا الكتاب.

تقليل المؤلف من شأن الصلاة:

٨ - ومن أمثلة خطئه أيضا: ما كتبه فى ص ٢٦: (لقد صنعنا الصلاة وحددنا إلى هكسلى وأجداده. وجربناها على المذاهب الأربعة، ولم يبق إلا أن نجرب الطعام الجيد). وفى هذه العبارة خطأ فاضح، فليس من الإنصاف أن يقول كاتب: إننا صنعنا الصلاة. فالصلاة لم يصنعها الإنسان، وإنما أمر بها الله، ولا أدرى ما الذى دعاه إلى مثل هذا التهجم على أوامر الله بإنكار فائدتها أولا. وبنسبة صدورها لا إلى الله بل إلى الناس ثانيا. ولو قال بدل هذه العبارة: إننا امتثلنا أمر الله بالصلاة، وذقنا أثرها، وحلاوتها فى صدورنا. فلنضف إليها أيضا ما تحتاج إليه أجسامنا، ومقومات حياتنا، لنكون أقوياء بإيماننا، وبأجسامنا، وأرواحنا، حتى نستطيع أن نواجه عدونا بهذه الأسلحة مجتمعة.

تهجم المؤلف على الأديان:

٩ - ومن ذلك أيضا قوله فى ص ٥٤: (والأديان سبب من أسباب الخلط فى معنى السعادة، لأنها هى التى قالت عن الزنى والخمر لذات وحرمتهما. فتحولت هذه المحرمات إلى أهداف يجرى وراءها البسطاء والسذج على أنها سعادة، وهى ليست بسعادة على الإطلاق) ولا أدرى هل ذكر الحقائق أمر معيب؟ فإذا قرر الدين الإسلامى: أن الخمر والزنى لذات كما يقول الكاتب، أى مشتهيات تشتهيها النفوس، وتميل إليها الحيوانية التى هى جزء من الإنسان ثم حرمها. فهل يكون ذلك دعوة للناس إليها. أو يكون إيحاء للناس بأن السعادة فيها؟ الواقع: أن الدين وهو يحرم بعض ما يشتهيه الإنسان ويلذ له، إنما يحرمه للضرر الذى يعود عليه من الجرى وراء لذاته. فقد حرم الخمر ليحفظ على الناس عقولهم. وحرم الزنى ليحملهم على الزواج والتناسل، فيحفظ بذلك النوع الإنسانى على أكمل الوجوه، ويقيه شر الانحلال والانهيار والانقراض. هذه هى الحقيقة التى ما أظن أن الكاتب غفل عنها. ولكنه مع هذا يخطئ فى التعبير فيقول: إن الأديان سبب من أسباب الخلط فى معنى السعادة، وأن السعادة ليست تحررا بحيث يفعل الإنسان كل ما يريد، وكل ما تشتهيه نفسه، ولو كبه ذلك على وجهه وأوقعه فى الهلاك.

طعن المؤلف فى الذات العلية:

١٠ - ثم يستمر الكاتب فى خطئه. ويتجاوز هذا الخطأ إلى الطعن فى الذات العلية. فيتحدث عن الله تعالى حديثا ما كان يليق من كاتب مثله أن يتحدث بهذه العبارات التى لا تليق. ومن ذلك قوله فى ١١١: (إن الله فكرة، إنه فكرة فى تطور مستمر كما تدل على ذلك قصة الأديان) ثم ينتهى إلى قوله: (وشريعة هذا الدين (أى الذى يدعو إليه) بسيطة جميلة إنها الولاء للحياة) لا أيها الكاتب المتعلم تعليما جامعيا، ليس الله فكرة كما تقول، وإنما الله سبحانه وتعالى ذات منزهة عن صفات الحوادث، ومتصفة بجميع صفات الكمال، وهو الذى خلقك وخلق كل ما تراه حولك. فليس الله فكرة متطورة كما تقول. وليست الأديان قصة كباقى القصص التى لا أصل لها. وإنما الأديان السماوية حقيقة أيدها الله سبحانه وتعالى بالمعجزات التى أجراها على أيدى رسله.

١١ - ومن هذه المعجزات المعجزة الباقية الخالدة، التى أعجزت العرب وغير العرب عن أن يأتوا بمثلها، وهى القرآن الكريم الذى قلت فى ص ١٨: (إنك فتحت عينيك



فى يوم لتجد نفسك وحيدا وإلى جوارك مصحف، وحجاب لمنع الفقر) فالمصحف الذى وجدته. والذى لا يمكن أن يكون مثلك بعيدا عنه. هو المعجزة التى يكفيك أن تقرأه، وتمعن النظر فيه. لتعرف الأسس التى تضمنها، والتى لو عمل بها الفرد وعملت بها الأمة لتحقق الفرد الصالح، والأمة الصالحة، ولما صار الشرق كما تراه الآن بعيوبه وبضعفه، فإن الإسلام لا يعرف الضعف والضعفاء، ولا يعرف السعادة التى يحققها حجاب أو دعاء، كما تريد أن تلمز به الإسلام بحملك الحجاب مع المصحف، فلا يوجد فى الشريعة الإسلامية حجاب يمنع الفقر، أو يجلب السعادة، وإنما يوجد عمل دائب مستمر لتحقيق معنى السعادة الحقيقية، السعادة المؤسسة على قوة المادة، وقوة الروح معا، ولعلك لو تحدثت عن الشرق؛ وقد استحال أمره إلى أن يكون له جيوش ومصانع وطيارات وغير ذلك مما يوجد فى الغرب، والذى لا يحول الإسلام بينه وبين أن يبلغه لما كان حديثك عن الإسلام هذا الحديث المتأثر بحالة الشرق الآن، تأثرا دعا إلى أن تمجد المادة التى وصل إليها الغربيون، والتى لم يصل إليها الشرق بعد. لا لأن الدين قد حال بينه وبين بلوغه، ولكن الاستعمار الذى رزح على صدر الشرق والشرقيين فى القرون الأخيرة هو السبب الأكبر فى ذلك كله.

إنكار المؤلف لليوم الآخر:

١٢. ثم يتابع بعد أفكاره لله فى صورته الحقيقية إنكار الحياة الثانية التى اتفقت عليها الأديان السماوية كلها، والتى يدعو إليها العقل والعدل فليس من العدل أن يتحارب الناس بعضهم مع بعض، وأن يغلب قويهم ضعيفهم، ويظلم بعضهم البعض من غير أن يكون هناك حياة ثانية يأخذ فيها الله سبحانه وتعالى بيد المظلوم من الظالم. ومن ذلك قوله عن الحياة الأخرة بعبارة فيها سخرية فى ص ١١٩ وما بعدها: (فلا محل لافتراض بقاء آخر روحانى لهذا الترابط المادى البحت... وإنها لنهاية طبيعية إذن أن يبعث الإنسان حيا بعد الموت هو والدودة التى فى بطنه والقملة التى فى رأسه، فهكذا تعنى روحية الأديان. وقوله: إن دعوى الخلود الشخصى لا يسندها العلم، ولم تعد تسندها الضرورات الاجتماعية القديمة) فإن هذه الدعوى العريضة التى يدعيها الكاتب فى كتابه، ويقول عنها: إن دعوى الخلود الشخصى لا يسندها العلم. لم يقل لنا اسم العلم الذى ينكر الحياة الآخرة... اللهم إلا أن يكون قولا لبعض العلماء المتطرفين الذين يدعون إلى الوجودية والذين مجدهم الكاتب فى أثناء كتابته. أما العلماء الذين بحثوا فى أصل الإنسان وعرفوا عظمة الله وقدرته فيما كشفوه عن بعض آثارها فى الأرض أو السماء فما أظن أنهم ينكرون الحياة الثانية. أو ينكرون وجود الله وقدرته وعظمته.

١٣. ثم يعود الكاتب مرة أخرى إلى إنكار الله بتعبيرات ضعيفة لا يسندها منطق ولا دليل ولا شبه دليل، كقوله فى ص ١٣١: (إن الله ليس فوق الجدل، وليس فوق العقل، وليس فوق الواقع. إن الله هو العقل، وهو الواقع، وهو مجموع القوى الكونية التى تعمل لخيرنا فى كل وقت، وهى قوى تقبل المراجعة والتفكير والبحث والتطور). ما الذى يريده الكاتب من هذه العبارات؟ هل يريد أن يوحى إلى قارئيه بأن الكون الذى يعيش فيه ويعيش فيه الناس خلق هكذا بدون خالق؟ وهل العقل الذى يمجده ويقول: إنه هو الله هو الذى أوجد هذه المخلوقات كلها، وإذا كان العقل هو الموجد كما يقول، فلماذا وجد عند قوم وكان ضعيفا، أو معدوما عند آخرين؟

١٤. وإذا كان يريد أن يوحى إلى القراء بأن الكون محتاج دائما إلى التفكير والبحث والتطور، فإن هذه الدعوى لا تتطلب بحال من الأحوال إنكار الله سبحانه وتعالى الذى أوجد هذا الخلق، وخلق للإنسان العقل الذى يفكر ويبحث ويتدبر فى كل مخلوقات الله ليصل أولا إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبألوهيته وربوبيته وليحقق للناس السعادة.

١٥. ولعله قال ما قال ليضفى على نفسه الكاتب المتحرر، الذى لا يؤمن بالله، ولا يقر بوجوده، ولا بأن لهذا العالم إلها واحدا خلقه ونظمه وأبدعه على هذه الصورة التى عجز الإنسان عن فهمها، وعن فهم ما فيها من أسرار تدل على عظمة الله وقدرته. ولو أنصف لمجد الله سبحانه وتعالى ما دام قد تعلم وعرف قيمة العلم وآثاره فى نهضة الأمم وقوتها. وجدير بمن يمجد العقل، ويمجد العلم أن ينصف فيمجد من خلق العقل، ومن خلق الأرض والسماء، وأودع فيها من الأسرار ما دأب الإنسان على كشفه منذ أزمان طويلة، ولا يزال للآن أمامه شوط بعيد أو شوط لا يعلمه إلا الله ليستكمل معرفة هذه الأسرار الكونية، التى تكفى وحدها للإيمان بوجود الله وبقدرته وعظمته هذا ما وصلنا إليه من قراءتنا لهذا الكتاب.

القول بعدم سماوية الأديان:

١٦. ولا يفوتنا أننا قد تجاوزنا عن كثير من العبارات اللاذعة والتى تعرض فيها للأديان كلها، وحكم عليها بأن فكرتها صعدت من الأرض ولم تنزل من السماء: صعدت من احتياجات الإنسان ورغباته وضروراته. انظر: ص ١١٣. وغير ذلك من العبارات التى لا يراد منها إلا أن ينكر الناس عقائدهم وأديانهم لمجرد فكرة ملأت رأس الكاتب لم يقم عليها دليل ولا برهان. ولو كانت الأديان تعالج بكتاب يسلك فيه الكاتب مسلك الروائى الخيالى لما بقيت هذه الأديان صامدة آلاف السنين، تنادى بجحود كل من ينكرها.

دعاء ودعوة للكاتب:

١٧. نسأل الله لهذا الكاتب وأمثاله: الهداية والرجوع إلى الحق، فإن الرجوع إلى الحق فضيلة، والله أعلم.

تعريف بالمفتى:

هو فضيلة الشيخ حسن مأمون، ولد فى يوم العاشر من ذى الحجة سنة ١٣١١هـ الموافق: ١٣ يونيو سنة ١٨٩٤م، بحى الخليفة بالقاهرة، وكان والده إماما لمسجد الفتح بقصر عابدين، وحفظ القرآن الكريم وجوده، ثم التحق بالأزهر، ولما أنهى دراسته اتجه إلى مدرسة القضاء الشرعى وتخرج فيها عام ١٩١٨م، وكان إلى جانب إتقانه اللغة العربية، ملما باللغة الفرنسية، فجمع بذلك بين الثقافتين العربية والفرنسية.

ولى دار الإفتاء المصرية فى مارس سنة ١٩٥٥م، وظل مفتيا إلى أن تولى مشيخة الأزهر فى يوليو سنة ١٩٦٤م، بعد وفاة الشيخ محمود شلتوت. وظل قائما بأعماله فى مشيخة الأزهر، حتى تناوشته الأمراض، فطلب إعفاءه نظرا لحالته الصحية، واستجيب لطلبه، وتوفى رحمه الله فى السابع عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٩٣هـ. ١٩ مايو سنة ١٩٧٣م.[٢]

وقفات مع الفتوى:

هذه هى فتوى الشيخ حسن مأمون رحمه الله، فى د. مصطفى محمود وكتابه (الله والإنسان)، ولنا معها وقفتان، وقفة مع المنهجية التى اعتمدها المفتى فى هذه الفتوى، وتتضح من خلالها، ووقفة مع العوامل والمؤثرات التى ساعدت فى خروج الفتوى بهذا الشكل المنهجى.

منهجية المفتى فى الفتوى:

لقد اعتمد المفتى (الشيخ حسن مأمون) على منهجية واضحة فى فتواه، تبرز من خلال الفتوى، وهى:

أولا: لم يعتمد على ما يثار حوله من صخب حول الكتاب، بل قرأ بنفسه، وتابع الكتاب منذ صدوره على صورة مقالات فى مجلة (روزاليوسف) حتى صدورد فى كتاب.

ثانيا: لم يكتف بأخذ صورة عامة عن الكتاب، أو ملخص موجز له، بل قرأ الكتاب كله من أوله إلى آخره، قراءة متأنية متبصرة، غير متحيزة لرأى من الآراء، كما فى الفقرة (٣).

ثالثا: لم يذكر المفتى اسم المؤلف، بل أشار فقط إلى اسم الكتاب، ورمز لاسم المؤلف بالدكتور. م. م. وفى هذا التصرف ما فيه من دلالة على عدم التشهير بالكاتب، أو عدم إشهار الكتاب، ولفت النظر إليه، وهو ما يخطئ فيه كثير ممن يعارض كتبا تهاجم الإسلام وشعائره، يكتب عن مؤلف مغمور لا يعرفه قراء أكثر من أصابع اليد، فيقوم بدعاية مجانية للمؤلف!!

رابعا: ذكر المفتى الأمور التى يتفق عليها مع الدكتور مصطفى محمود قبل أن يذكر ما يختلف معه فيه، وهى نقطة منهجية دعوية مهمة جدا، فقد عنيت الفتوى بذكر ما يتفق فيه مع د. مصطفى محمود، وهو واضح فى الفقرة رقم (٤)، من حيث تمجيد الكاتب للعقل والعلم والحرية، وهو ما يتفق مع منهج الإسلام، الذى عنى بتكريم العقل، وإعلاء شأنه، ودعوته للعلم، وتقديسه لحرية الإنسان، وهو أمر بلا شك له دلالته فى تقريب وجهات النظر، والإنصاف الذى يغيب كثيرا عن ساحاتنا العلمية عند الخلاف، فكثير ممن يكتبون فى مثل هذه القضايا لا يرون إلا الخطأ فى الكاتب، ويركزون عليه، وأحيانا يضخمونه تضخيما متعمدا، يؤدى فى النهاية إلى غياب الحقائق التى لا يختلف عليها بين ثنايا أفكار الكتاب. وقد استقت الفتوى هذا المنهج. بلا شك. من منهج القرآن الكريم، الذى ليس من أسلوبه فى الحكم: التعميم بإطلاق، فنقرأ كثيرا فى القرآن: (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة) ويلاحظ القارئ للقرآن أن معظم لفظة (ومن) فى القرآن هى لون من الإنصاف للآخر، لأنها تدل على التبعيض لا التعميم.

خامسا: لم تذكر الفتوى أى حكم



أمر يحمد للمفتي أنه بحث عن الأسباب التي أدت بالكاتب إلى هذا الفكر، ولم يهتم فقط بالنظر إلى المشكلة من خارجها

بالتكفير، أو التفسيق، أو التبديع، أو أي عنف لفظي ضد الكاتب، رغم أن هناك بعض العبارات أشارت إليها الفتوى كفيلة بأن توهم أي قارئ بأن الفتوى ستنتهي إلى تكفير المؤلف لا محالة، رغم ورود فقرات منقولة من الكتاب، كانت كفيلة بالتمهيد لمن يريد أن يحكم بكفر المؤلف لو أراد الحكم عليه، كما في الفقرات: (٩) و(١٠) و(١٢) و(١٣) و(١٦).

وفي اعتقادي أن المفتي نأى بنفسه عن هذا المزلق لاعتبارات ثلاثة: الأول: أنه أراد أن يجعل للكاتب رجعة للحق، وفيئا إلى الصواب، حيث إن المفتي غَلّب طابع الرفق والدعوة على طابع الفقيه المفتي، وذلك نلاحظه في ترفقه بالكاتب في أكثر من فقرة، وأكثر من عبارة، بل عدم نقله عبارات قد يثير نقلها القارئ للفتوى، وقد لمح إلى ذلك المفتي في الفقرة (١٦)، بل نراه يخاطب فيه عوامل الخير، كما في قوله: (فالمصحف الذي وجدته والذي لا يمكن أن يكون مثلك بعيدا عنه) الفقرة: (١١).

الثاني: أنه لا يجوز للإنسان إصدار حكم بتكفير إنسان معين (محدد) مذكور بالاسم، فلو كانت الفتوى تسأل عن عبارات مطلقة، ينطق بها إنسان غير محدد، لكان للمفتي وقتها أن يحكم بكفر من يقول كذا، أو فسقه أو تبديعه، أما وقد عين الاسم، وحدد، فهنا محظور شرعي نأى بنفسه المفتي أن يقع فيه.

الثالث: لأن المؤلف شاب، وغالب الشباب الكُتّاب يكون أحيانا ما يكتبه تمردا على واقع يعيشه، أو نظرة متعجلة لم تعركه الخبرة والسنون في تمحيص ما ذهب إليه، فلو ووجه الكاتب الشاب بمن هو أثقل منه علما وخبرة، بشدة وقوة، فلربما دفعه غرور الشباب إلى رفض الحق، لا لبغض الحق ذاته، ولكن لقسوة من وصل إليه الحق.

سادسا: عُني المفتي بالبحث عن الأسباب التي أدت بالكاتب إلى هذه الأفكار التي يختلف معها كلية، والتي هي ضرب من ضروب الإلحاد، ونكران وجود الله، واحتقار الأديان، وازدرائها؛ فأحال كل هذه الأسباب إلى سببين رئيسين: الأول: اعتماد د. مصطفى محمود على تدين العوام الشعبي، المملوء بالأخطاء، حيث يجمع هذا التدين الشعبي بين أمرين: القصور في فهم الدين، والتقصير في تطبيقه، أو تطبيقه بفهمه المخطئ القاصر. والثاني: أنه لم يدرس الإسلام من منبعه الأصيل، ومن كتبه المعبرة عنه بوضوح لا غموض فيه. فقرة: (٥) و(٦).

وهو أمر يحمد للمفتي أنه بحث عن الأسباب التي أدت بالكاتب إلى هذا الفكر، ولم يهتم فقط بالنظر إلى المشكلة من خارجها، ليفصل بين ما هو ناتج عن مؤثرات معينة، قد لا تكون الفكرة أصيلة عند الكاتب، ونتجت عن هذا التأثر، وهنا يتضح العلاج، في إزالة هذه المؤثرات. أو أن تكون الفكرة أصيلة فعندئذ يكون العلاج النقاش حول الفكرة ذاتها.

عوامل ومؤثرات ساهمت في الفتوى:

كما لا شك أن هناك عوامل ومؤثرات مهمة جدا لمن يدرس الفتوى أن يتعمق فيها، ساهمت في خروج الفتوى بهذه الوسطية والرصانة العلمية. منها:

أولا: ثقافة المفتي الشرعية المتعمقة، الجامعة بين الأصالة والمعاصرة، فالمفتي أزهري تثقف بالثقافة الأزهرية الرصينة، من حفظ للقرآن الكريم، واستظهار له، ووعي بالسنة النبوية، وطول باع في دراسة الفقه الإسلامي، الذي يعلم دارسه أن المسألة فيها أقوال عدة، ما بين قوي، وضعيف، وشاذ، وخارج عن إجماع أهل العلم والأمة.

ثانيا: المناخ العام: فالمناخ الذي صدرت فيه الفتوى ساعد المفتي على التحرر من أي مؤثر يدفعه دفعا لإصدار فتوى متأثرة بالواقع المثير، كما أوضح في مقدمة فتواه، أنه تمهل وتريث في قراءة الكتاب، أيضا ساعده المناخ العلمي آنذاك، فلم يكن وقتها نشأت جماعات العنف التي تسبق فتوى العلماء بتصريحات وبيانات، تجعل تركيز الكاتب يتجه في اتجاه معين، أو يتأثر تأثرا ما برأي من الآراء، وعدم وجود هذه الجماعات التي تصدر فتاوى التكفير وإباحة الدم، ساعد المفتي وساعد المؤلف، فساعد المفتي على إصدار فتوى بعيدة عن التأثر بمخافة الاتهام في دينه إن خرجت فتواه فيها رفق ورأفة بالكاتب، وساعدت الكاتب في لو أننا تخيلنا جماعة من جماعات العنف قامت بقتل مصطفى محمود قبل عودته للإيمان، ما النتيجة التي ستبنى على ذلك؟!

ثالثا: عمله بالقضاء: كما أن عمل المفتي بالقضاء أثر في أسلوب الفتوى، فالمفتي يميل إلى التريث، والسماع لكل الأطراف، وعدم إصدار حكم قبل سماع كل أطراف القضية، أو وضع حكم مسبق، وعدم تأثره بالأجواء المحيطة مما ينشر في الصحف، مما يجعل ضغط الرأي العام عليه كبيرا، فمما لا شك فيه: أن طبيعة القاضي بخصائصه كانت ملازمة لروح المفتي.

رابعا: اطلاعه على الواقع: كما يتضح من فتوى المفتي إطلاعه الدائم على ما تمور به الحياة من أفكار، فهو ليس منعزلا عن العالم في برج عاجي، لا يدري ما يدور بدنيا الناس، وبخاصة في عالم الأفكار، وليس اهتمامه بعالم الأفكار التي هو مختص بها من حيث الفقه، والتفسير والحديث، بل عالم الأفكار الأخرى التي هي أبعد ما تكون عن تخصصه الديني، فاطلاع المفتي على الواقع المعيش آنذاك، وما يراه من فتنة الإلحاد، والتجرؤ على الأديان، كانت أشبه ما تكون بموضة في كتابات كثير في هذا الوقت، بداية من ثلاثينيات القرن العشرين وحتى ستينياته.

خامسا: استقلالية الفتوى: وساهم في خروج الفتوى بهذا التوسط والاعتدال، أن الرجل لم يكن مضغوطا عليه، لا من جهة السلطان، ولا من جهة العوام، وكلاهما له ضغطه، وله أثره الشديد على فتوى العالم، وهذا هو شأن الأزهر وعلمائه دوما عندما يكون بعيدا عن مراكز التأثير السلطوية أو العامة، وما من قرار بمصادرة أو فتوى فيها بعد عن الوسطية إلا وتجد وراءها أحد الضغطين: المؤسسة الحاكمة، أو ضغط العامة، فهناك نماذج لا حصر لها، تبين مدى تأثير عدم استقلالية المؤسسة الدينية على الفتوى.

على هامش الفتوى:

١. لم تبادر دار الإفتاء بإصدار الفتوى من نفسها، بل كان جوابا عن سؤال وجه إليها، ويبدو أنه لم يكن السؤال الوحيد، بل عدة أسئلة، فاختاروا منها سؤالا أرسله ممثل لمجمع البحوث العلمية، وجماعة البر والتقوى، لإبداء الرأي في الكتاب، وهذا ديدن الأزهر عموما في فتاويه وتقاريره، وهو رد على من يتهمون الأزهر بحشر أنفه فيما لا يعنيه.

٢. الفتوى لم تنشر وقتها، بل نشرت في مطلع ثمانينيات القرن العشرين، عندما تولى الشيخ جاد الحق رحمه الله دار الإفتاء المصرية، وقام بإعداد فتاوى الدار للنشر، فلم أجد الفتوى في أي جريدة، أو مجلة دينية أو غير دينية في ذلك الوقت فيما قمت به من بحث.

٣. يبدو أن الدكتور مصطفى محمود لم يطلع على الفتوى، أو لم تصل إليه، فقد بحثت في كتبه، وبخاصة ما تناول فيه حياته، أو تعرض فيها لمواقف في حياته، فلم أجد أي إشارة، وأعتقد أن فتوى كهذه كان حريا بالدكتور مصطفى محمود لو وصلته واطلع عليها، أن يشيد بها، وأن يتناولها بالتعليق أيا كان موقفه منها، كما فعل مع منتقديه في قضية الشفاعة، والرجم، وغيرها من المسائل الدينية التي تناولها وتعرض بسببها للنقد والهجوم.

٤ ـ لم نشم رائحة دعوة لمصادرة الكتاب، ولا طلبا بذلك، بل اكتفى المفتي بمناقشة الكاتب في أفكاره، والفتوى وثيقة رسمية مثبتة في دار الإفتاء المصرية، وهو ما ينفي ما يشاع كثيرا عن مصادرة المؤسسة الدينية للكتب.

٥ ـ هذه الفتوى وغيرها من مواقف الأزهر المجهولة تلح على فتح باب البحث في تاريخ المؤسسة الدينية، وموقفها من ثقافة المنع والمصادرة، ومدى صحة ما يشاع عنها؟ ومتى بدأت المؤسسة الدينية في توجه المصادرة؟ ومن أين تسربت هذه الثقافة إليها؟ أسئلة كثيرة تحتاج إلى رصد وتحليل. ■

١ ـ قمت بنقل الفتوى كما هي، غير أني وضعت لها عناوين جانبية توضح الفتوى، حيث إن الفتوى كتبت بصفحاتها الثماني بلا أي عنوان جانبي، ووضعت أرقاما للفقرات كلما جدت فقرة، للتوضيح للقارئ في قراءتنا للفتوى، والإحالة إليها، وإضافة بعض علامات الترقيم المهمة للتوضيح.

٢ ـ انظر: الجزء السابع من الفتاوى الإسلامية، وموقع دار الإفتاء المصرية: http://www.dar-alifta.org/ViewScientist.aspx?ID=٢٢).

ديفيد كول
David Cole

ألقى المعلقون السياسيون باللوم منذ أربع سنوات فقط على نشطاء حقوق المثليين ومحكمة ماساتشوستس العليا لتحميل الديمقراطيين تكلفة الانتخابات الرئاسية فى عام ٢٠٠٤. أعلنت محكمة ماساتشوستس فى قضية «جودريدج ضد وزارة الصحة العامة» عام ٢٠٠٣ أن رفض زواج المثليين انتهاك لدستور الولاية، وهى المرة الأولى التى تعترف فيها محكمة عليا بأية ولاية أمريكية بحق الزوجين من نفس الجنس فى الزواج[١]. أثار القرار ردود فعل واسعة النطاق، ففى عام ٢٠٠٤ أصدرت إحدى عشرة ولاية استفتاءات لتعديل دساتيرها لتجريم زواج المثليين، وحذت حذوها سبع ولايات أخرى فى عام ٢٠٠٦. ولم تكن هذه ظاهرة قصيرة الأجل، ففى خلال العقد الماضى، أقَرت إحدى وأربعون ولاية قوانين تحظر الاعتراف بزواج المثليين، كما عدَلت ست وعشرون ولاية دساتيرها لهذا الغرض.

لكن يبدو أن المد قد تحول بشكل كبير فى الشهور الثمانية الماضية: ففى أكتوبر ٢٠٠٨، أعلنت محكمة كونيتيكت العليا أن رفض منح وثائق زواج المثليين تمييز غير دستورى على أساس التوجه الجنسى، بالرغم من أن قانون كونيتيكت قد منح بالفعل الزوجين من نفس الجنس جميع الحقوق والمزايا القانونية للزواج تحت مسمى «الزيجات المدنية».[٢] أصدرت محكمة أيوا العليا فى أبريل ٢٠٠٩ قانونا بالإجماع يفيد بأن حظر ولاية أيوا لزواج المثليين ينفى المساواة فى حماية القانون للمثليين.[٣] وفى الشهر نفسه، سَنت السلطة التشريعية بولاية ڤيرمونت قانونا يجعل من زواج المثليين قانونيا ليعارض قرار حاكم الولاية بالرفض. كما سنت ولاية مين قانونا لزواج المثليين فى ٦ مايو ٢٠٠٩، وتبعتها ولاية نيوهامبشاير فى ٣ يونيو. وفى نيو جيرسى، طلبت المحكمة العليا من الولاية ضمان تمتع الأزواج من نفس الجنس بجميع المزايا والحقوق التى يتمتع بها الأزواج غير المثليين، كما تفكر السلطة التشريعية بمنح الزواج نفسه للمثليين.[٤] كما وافقت الجمعية العامة لولاية نيويورك على مشروع قانون لإتاحة الزواج للأزواج من نفس الجنس. وحظى مشروع القانون بدعم الحاكم ديفيد باترسون، لكن فرص تمريره فى مجلس شيوخ الولاية لا تزال غير مؤكدة.

يظهر نمط مماثل فى الدول الاسكندنافية وغيرها فى أنحاء أوروبا. ففى عام ١٩٨٩، أصبحت الدنمارك أول بلد فى العالم يمنح الاعتراف الرسمى للأزواج من نفس الجنس باعتبارهم أزواجا مدنيين. وفى عام ٢٠٠١، أصبحت هولندا أول دولة توسع نطاق الزواج ليشمل الأزواج من نفس الجنس. ويمكن اليوم للأزواج من نفس الجنس الزواج فى هولندا وبلجيكا وإسبانيا والنرويج والسويد، كما يمكن تسجيل العلاقات والحصول على العديد من المزايا الممنوحة للمتزوجين فى جمهورية التشيك والدنمارك وفنلندا وفرنسا وألمانيا ورومانيا وسلوفاكيا ولوكسمبورج وسلوفينيا وسويسرا والمملكة المتحدة.

بالرغم من التقدم الدرامى الذى أحْرزَ مؤخراً فى الولايات المتحدة، لا تزال هناك معارضة عامة شديدة وكبيرة. فعندما أعلنت محكمة كاليفورنيا العليا فى مايو ٢٠٠٨ أن دستور الولاية يتطلب الاعتراف بزواج المثليين، عَمَدَ الناخبون فوراً إلى تعديل دستور الولاية من خلال استفتاء لحظر زواج المثليين. وأيدت محكمة كاليفورنيا العليا هذا التعديل فى ٢٦ مايو ٢٠٠٩ باعتباره ممارسة مشروعة لاستفتاء الشعب فى السلطة، لكنها أقرت ١٨ ألف زيجة لأزواج من نفس الجنس تم تسجيلها خلال الفترة الانتقالية. (يذكر أنصار زواج المثليين أنهم على أمل بإلغاء الحظر عن طريق الاستفتاء فى الانتخابات القادمة). بينما قرر المعارضون لزواج المثليين بولاية

هل من مستقبل لهذا «الزواج» ؟!



مين السعي إلى قلب الإجراءات التي يتخذها ممثلو الولاية عن طريق استفتاء شعبي. وأظهرت استطلاعات الرأي أن هناك غالبية في الولايات المتحدة لا تزال مقتنعة بأن الزواج لابد أن يقتصر على الرباط بين رجل وامرأة، رغم تصاعد تأييد زواج المثليين في السنوات الأخيرة. عارض كل من باراك أوباما وهيلاري كلينتون زواج المثليين - ربما كرد فعل لاستطلاعات الرأي - في انتخابات عام ٢٠٠٨ (رغم تأييد كل منهما للزيجات المدنية).

[١]

ما الذي يفسر الاتجاه الواضح نحو الاعتراف القانوني بزواج المثليين أو الزيجات المدنية؟ وكيف ينبغي لنا أن نفهم التناقض الحاد بين القانون والسياسة في زواج المثليين؟ لم يكن هناك تفاوت كبير منذ زمن ليس بعيداً. كان زواج المثليين بوصفه مسألة قانونية وسياسية مبالغة أو على حد تعبير بعض مناهضيه «استحالة أخلاقية». وكان العداء للمفهوم واسع النطاق وصارخا، ففي عام ١٩٧١، عندما جادل مايكل وذربي محامي الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية بولاية مينيسوتا حول حق الزوجين من نفس الجنس في الزواج بموجب دستور الولاية، أدار أحد قضاة محكمة مينيسوتا العليا مقعده بالفعل مشيحاً بوجهه عن وذربي وهو يدلي بحجته. ولم يطرح قاضٍ واحد أي سؤال. استشهد قرار المحكمة بالإجماع الرافض للدعوى المذكورة بسفر التكوين لدعم النتيجة التي خلص إليها وهي قصر الزواج على الرباط بين رجل وامرأة.

وبعد عقد من الزمن، قضى قاضٍ فيدرالي بعدم استحقاق زوجين مثليين حصلا على ترخيص بالزواج من قبل مسئول المحفوظات والوثائق بمقاطعة بولدر في كولورادو لمزايا الهجرة الممنوحة للأزواج. وعلل ذلك بأن الزواج تعريفاً ترجع أصوله إلى القانون الكنسي، و«القانون الكنسي في كل من اليهودية والمسيحية لا يمكنه معاقبة أي زواج بين أشخاص ينتمون إلى نفس الجنس بسبب الإدانة الشديدة في الكتب المقدسة لكلتا الديانتين لجميع العلاقات المثلية». عندما أعلنت إحدى محاكم الاستئناف في هاواي أن منع الولاية لزواج المثليين غير دستوري في ١٩٩٦، رد الناخبون في هاواي بتعديل الدستور لإلغاء الحكم. وفي العام نفسه، أصدر الكونجرس الأمريكي قانون حماية الزواج لضمان أن الزواج المثلي المعترف به في ولايات معينة لن يكون مُخَوِّلاً للحصول على أية مزايا للزواج وفقا للقانون الفيدرالي، ويمكن للولايات الأخرى أن تتجاهلها.

غير أنه وفي عام ١٩٩٩، قضت محكمة فيرمونت العليا بأن رفض منح المزايا المرتبطة بالزواج المثلي انتهك البند بدستور الولاية الذي يحظر التمييز في تخصيص المزايا التي تقدمها الولاية. تركت المحكمة الشكل الدقيق للعلاج إلى سلطة فيرمونت التشريعية التي لجأت إلى حل وسط من نوع ما - حيث احتفظت باسم الزواج للزوجين غير المثليين، بينما استحدثت فئة جديدة هي «الزواج المدني» الذي أعطى المثليين نفس الحقوق والمزايا التي يتمتع بها المتزوجون غير المثليين.

سجل دعاة حقوق المثليين سلسلة مبهرة من الانتصارات بالمحاكم منذ ذلك الوقت في نيو جيرسي وماساتشوستس وكاليفورنيا وكونيتيكت وأيوا. وفتحت هذه القرارات آفاقا جديدة، لكن الأكثر إثارة بشأنها هو بيان مدى ضعف الحجج المناهضة للزواج المثلي لدرجة أنه من الصعب رؤية كيف يمكن للمحاكم أن تحكم بخلاف ذلك أساساً. هناك ثلاث حجج رئيسة هي: (١) الولاية هي المسؤولة عن الحفاظ على المفهوم التقليدي للزواج؛ (٢) قصر الزواج على الأزواج من الجنسين يعزز مصالح الولاية في تشجيع الإنجاب وتربية الأطفال الصحية أو كليهما و(٣) للدولة مصلحة مشروعة في رفض التغاضي عن السلوك المثلي الذي تراه سلوكا غير أخلاقي.

الحجة الأولى التي تستند إلى الحفاظ على التقاليد حجة تدور حول نفسها؛ إذ تسعى إلى تبرير قصر الزواج على الروابط بين الرجل والمرأة على أساس أن الزواج كان مقصوراً دائماً على الروابط بين رجل وامرأة. وكما كتبت القاضية جوديث كاي بمحكمة نيويورك للاستئناف «تبرير التقليد لا يفسر التصنيف، بل هو مجرد تكرار له». أوضحت محكمة كونيكتيكت العليا في قرارها الخاص بزواج المثليين أنه يجب النظر إلى ما وراء التقليد «لتحديد ما إذا كانت الأسباب الكامنة وراء هذا التقليد كافية». فالتقليد نفسه ليس مبرراً للتمييز. فقد استبعدت النساء مثلاً بصورة تقليدية من المشاركة في العمل القضائي والعديد من المهن، كما أنكر على السود بصورة تقليدية حق التصويت وتعرضوا للتفرقة.

لا تفضي حقيقة تشكيل العقيدة الدينية لتقليد الزواج إلى تقوية الاعتراض عليه. ففي الواقع، تتصف وجهات النظر الدينية حول هذه المسألة بالانقسام انقساماً عميقاً كما هي الحال مع غيرها في الكثير من المسائل. تعتقد بعض الأديان أن الزواج يجب أن يقتصر على الرباط بين رجل وامرأة. ولكن الديانات الأخرى مثل البوذية والتوحيدية اليهودية الإصلاحية، تعتقد بشكل لا يقل عمقاً بضرورة أن يكون الأفراد أحراراً في الزواج ممن يشاركونهم أو يشاركونهن نفس الجنس. والولاية ليس لها مصلحة مشروعة وفقا للدستور الأمريكي في تأييد وجهة نظر دينية دون الأخرى.(٥)

تذهب حجة بديلة للتقليد إلى أن للولاية مصلحة مشروعة في الحفاظ على مؤسسة الزواج. ولكن كيف سيؤدي بالضبط توسيع الحق في الزواج إلى الأزواج من نفس الجنس إلى تقويض الزواج غير المثلي؟ بالتأكيد سيؤدي إلى تغيير المؤسسة، بمعنى قبول الأزواج الذين كانوا مستبعدين بشكل تقليدي. لكن مؤسسة الزواج تغيرت تغيراً دراميا بمرور السنين. وكما يقول أندرو سولي فان:

إذا لم يتغير الزواج اليوم عما كان عليه منذ ألفي عام، فسوف يكون من الممكن أن تتزوج بفتاة تبلغ من العمر اثنى عشر عاماً لم تلتق بها قط، أو تمتلك زوجة مثل المتاع تتصرف بها كما تشاء، أو تسجن أي شخص تزوج من شخص ينتمي إلى عرق مختلف، كما سيكون من المستحيل الحصول على الطلاق.(٦)

من المؤكد أن هناك ما يدعو للقلق بشأن حالة الزواج اليوم: فقد انخفضت معدلات الزواج، وزيادة عدد الأسر ذات العائل الواحد، والمواليد خارج إطار الزواج. لكن ويليام إسكريدج وداريين سبيديل أستاذي القانون بجامعة ييل في كتابهما «زواج المثليين: في السراء والضراء؟» ذكرا أن الأرجح أن تعزى تلك الحالة إلى تغيرات طالب بها الأزواج من الجنسين أكثر منها بسبب أي تهديد يمثله زواج المثليين. قد يرتبط تضاؤل أهمية الزواج بحقيقة أنه صار من المقبول قانونياً واجتماعياً العيش معاً خارج إطار الزواج، وممارسة الجنس والحمل وتربية الأطفال خارج الزواج، وإنهاء الزواج عن طريق طلاق بلا تبعات مادية.

غير أنه لا يوجد سبب يدعو إلى الاعتقاد بأن منح الزواج للزوجين من نفس الجنس والملتزمين بعلاقات طويلة المدى قد تسبب بأي شكل من الأشكال أو سوف يتسبب في الإسراع نحو هذه الاتجاهات. وكما لاحظ إسكريدج وسبيديل، فإن معارضة زواج المثليين على هذا الأساس «سيكون مثل فرنسا التي أنشأت خط ماجينو ضد لوكسمبورج بينما كان النازيون يحتسون الشمبانيا في باريس».

وفي الواقع، إذا كنا حقاً ملتزمين بالحفاظ على مؤسسة الزواج، فإنه سيكون من المنطقي أكثر أن يشمل ذلك الزوجين من نفس الجنس اللذين يسعيان لأن يصبحا جزءاً من المؤسسة. ومن المحتمل أن تؤدي معارضة زواج المثليين إلى انتشار بدائل كالزيجات المدنية والشراكات المنزلية، وبدائل «الزواج لايت» تلك قد تبدو مغرية وقتذاك للأزواج من الجنسين، وبالتالي تقلل من المكانة المركزية للزواج.

[٢]

عند الضغط على الولايات لذكر الأسباب الكامنة وراء رغبتها في الحفاظ على الزواج «التقليدي»، فإنها غالباً ما تدعي أنها تسعى إلى تشجيع الإنجاب ورعاية الأطفال أو كليهما. وخلافاً للحفاظ على تقاليد تمييزية لمجرد الحفاظ عليها، هذه المصالح مشروعة ولا شك. المشكلة تكمن في أن هذه المصالح يبدو أنها لا علاقة لها كلياً بقانون يسمح تقريباً لأي زوجين من الجنسين بالزواج، بينما لا يُسمح به لأي زوجين من نفس الجنس.

بالنسبة للإنجاب، لا توجد ولاية تقصر الزواج على الأزواج الذين يريدون إنجاب أطفال، بينما تمنعه بالنسبة للأزواج الذين يعانون من العقم. علاوة على ذلك، إمكانية حصول الأزواج من نفس الجنس على الأطفال والعمل على تربيتهم في ازدياد عن طريق وسائل كالتخصيب المختبري ومانحي الحيوانات المنوية والأمهات البديلات والتبني. وتشير بيانات إحصائية إلى

The Same-Sex Future

Gay Marriage: For Better or for Worse? What We've Learned from the Evidence
by William N. Eskridge Jr. and Darren R. Spedale
Oxford University Press

Same-Sex Marriage and the Constitution
by Evan Gerstmann
Cambridge University Press

Marriage, Sexuality, and Gender
by Robin West
Paradigm, 287

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة علاء الدين محمود



أن ما يقرب من ٤٠ فى المئة من الأزواج من نفس الجنس يقومون بتربية الأطفال فى عام ٢٠٠٠. لا يوجد دليل موثوق به على أن أطفال الأزواج من نفس الجنس أسوأ حالاً من أبناء الأزواج من الجنسين. الحقيقة أن العديد من الولايات التى تمنع زواج المثليين تسمح للأزواج من نفس الجنس بتبنى الأطفال ورعايتهم. ولذلك، فإن من غير المرجح أن يؤدى منع مزايا الزواج عن الأزواج من نفس الجنس إلى خدمة الإنجاب أو رفاهية الأطفال بأية طريقة عقلانية.

ثالث المبررات الرئيسية التى تُساق لرفض الزواج المثلى اعتبار ممارسة الجنس المثلى عملاً غير أخلاقى، وأن للولاية مصلحة مشروعة فى حجب موافقتها على السلوك الذى يرى المجتمع أنه سلوك غير أخلاقى. رأت بعض المحاكم وأنصار حقوق المثليين أن أمورًا مثل «التقليد» و«الرفض الأخلاقى» وحدها لا تكفى ببساطة لتبرير التمييز. ودعمًا لهذه المقولة، استشهد قرار المحكمة العليا فى عام ٢٠٠٣ بقضية «لورنس ضد ولاية تكساس» وأعلن عدم دستورية القانون الجنائى الذى يحظر ممارسة الجنس المثلى.(٧) بينما رأت المحكمة فى قضية «لورانس» أنه على الأقل فيما يخص العلاقات الجنسية القائمة على الرضا بين البالغين «الحقيقة أن رؤية الأغلبية الساحقة بشكل تقليدى فى ولاية معينة لممارسة ما غير أخلاقية سبب غير كاف للتمسك بقانون يحظر هذه الممارسة». كما ذكر البروفيسور إيفان جيرستمان بكلية لويولا - ميريماونت فى «زواج المثليين والدستور»، أن الحكم فى قضية «لورانس»، «ربما يقوض واحدًا من أكثر الأسباب شيوعًا لحظر زواج المثليين وهو الرفض الأخلاقى للعلاقات بين المثليين من الذكور والإناث».

إلا أن جيرستمان استخدم كلمة «ربما» بعناية. حاولت المحكمة فى قضية «لورانس» جاهدةً ذكر أن قدرة الولاية فى الحفاظ على الزواج للأزواج من الجنسين أمر عسير. كما أقرت روبن وست أستاذة القانون بجامعة جورج تاون فى كتابها «الزواج والرغبة الجنسية والنوع» بأن هناك فرقًا بين الحظر الجنائى على السلوك المثلى من جهة وتسهيل الولاية للزواج المثلى من جهة أخرى. تتخذ أية ولاية قراراتها بصورة منتظمة بشأن ما سوف تدعمه أو تؤيده بناءً على أحكام أخلاقية. والواقع أن قسطًا كبيرًا من التعليم العام سيكون مستحيلاً إذا عجز مسؤولو الولاية عن اتخاذ قرارات على أساس الأخلاق حول ما ينبغى وما لا ينبغى تعليمه. وبينما اعترفت المحكمة العليا بحق دستورى يمنع الحظر الجنائى للإجهاض، فإن المحكمة قد سمحت للولاية بأن تفضل الولادة على الإجهاض لأسباب أخلاقية عن طريق توفير غطاء التأمين الصحى للولادة فقط.

اعترضت المحاكم والمعلقون الآخرون على الحجة المبنية على الرفض الأخلاقى مشيرين إلى الإصلاحات القانونية الأخيرة كدليل على أن الولاية محل التساؤل لا تعترض فى الواقع على السلوك الجنسى المثلى رسميًا. ومن ثَمَّ، استشهدت محكمة كاليفورنيا العليا بقوانين الولاية التى تحظر التمييز على أساس التوجه الجنسى وتلغى العقوبات الجنائية ضد ممارسة الجنس المثلى لدعم الاستنتاج القائل بأن «السياسات والسلوك الحالى بهذه الولاية بشأن المثلية الجنسية تعترف بأن للمثليين نفس الحقوق القانونية ونفس الاحترام والكرامة التى يتمتع بها جميع الأفراد الآخرين».(٨) وذكرت محكمتا ماساتشوستس وفيرمونت العليا أيضا تطورات مماثلة فى قوانين ولايتها لرفض الدعاوى بأن منع المزايا عن الأزواج المثليين سيعزز رفض الولايات للعلاقات الجنسية بين المثليين.

[٣]

بينما بدت حجة الرفض الأخلاقى ضعيفة فى المحاكم، يبدو أنه لا يزال ثمة اهتمام بها فى السياسة الأمريكية، إذ ربما كانت سببًا من أسباب عدم الترابط بين الوضع القانونى لزواج المثليين والمقاومة السياسية له. ترى وست أن مؤيدى زواج المثليين لا ينبغى أن يغفلوا الجانب الأخلاقى، كما فعلت المحاكم، بل عليهم تقبل هذا الجانب. كما عبَّرت تعبيرًا مقنعًا عن حالة أخلاقية معنوية إيجابية وهو أن «الجانب الجيد» فى الزواج - وهو تعزيز العلاقة الحميمة بين الزوجين وتقديم الرعاية لمن يعولون من أطفال - ينطبق بالتساوى على الأزواج من الجنسين ومن نفس الجنس. وعلاوة على ذلك، رأت وست أيضًا أن الجنس المثلى مفيد لنفس الأسباب التى تجعل الجنس بين الجنسين الذى لا يسعى إلى إنجاب أطفال مفيدًا حيث «يسهم فى العلاقة الحميمة وبناء الثقة وتشجيع الانفتاح والمسؤولية المشتركة... فلِمَ تسمى مطارحة الحب بهذا الاسم من فراغ».

فى السياسة، يلقى الدين بظلاله على الحجة الأخلاقية فيعقدها، فالمفاهيم اليهودية المسيحية عن المسموح به وغير المسموح به من السلوك الجنسى ذات تأثير عميق على مواقف الجمهور نحو الزواج. وأظهر استطلاع للرأى بعد فترة وجيزة من قرار «جودريدج» من محكمة ماساتشوستس العليا أن ٥٣ فى المئة ممن شملهم الاستطلاع يرون أن الزواج مسألة دينية فى المقام الأول، بينما يراه ٣٣ فى المئة فقط مسألة قانونية فى المقام الأول. وبينما كانت هناك معارضة ساحقة لمفهوم الزواج المثلى بين أفراد المجموعة الأولى؛ فضلت الغالبية بالمجموعة الأخرى الاعتراف بزواج المثليين.

أكدت القرارات الصادرة عن المحاكم فى الأونة الأخيرة مرارًا على أنها لا تعالج سوى مسألة «الزواج المدنى»، وهى مؤسسة علمانية أنشأتها الدولة وعرَّفتها، بينما تترك للأديان التى لا تُمس حرية تحديد «الزواج الدينى» وتنفيذه وفقًا لشروطها الخاصة. لكن وكما ذكر دوجلاس لايكوك أستاذ القانون بجامعة ميشيجان فى مقاله «زواج المثليين والحرية الدينية» أن المشكلة أعمق من ذلك:

جزء من السبب وراء اعتبار الزواج المثلى مسألة مستعصية جدًا يعود إلى نشأته فى سياق أكثر خروقاتنا جوهرية وطولاً لفصل الدين عن الدولة... فى الزواج، تمتزج المؤسسات القانونية والدينية امتزاجًا كاملاً.

ويشير لايكوك إلى أن الجدل حول الزواج قد يكون أقل حدة إذا كان الفارق بين الزواج المدنى والدينى أكثر وضوحًا. كما يقترح تحقيقًا لهذا الغرض ضرورة أن يضطلع موظفو الدولة فقط بإتمام «الزواج المدنى»، وتحديد كل المزايا المدنية والحقوق والواجبات التى تصحب هذا الزواج. بينما سوف يضطلع رجال الدين بإتمام «الزواج الدينى»، وفقًا لقواعدهم وأنظمتهم الخاصة، ولن يكون له تأثير على قوانين الدولة. مع مرور الوقت، من شأن هذه الطقوس والقواعد تأكيد الرسالة بأن الزواج المدنى والزواج الدينى مؤسستان متمايزتان.

تقدم وست وصفة مشابهة حينما اقترحت تبنى دعاة إصلاح الزواج لاستراتيجية لا تهدف إلى توسيع نطاق الزواج من نفس الجنس، لكن إلى استبدال الزواج بالزيجات المدنية للجميع. كما أنها ترى أن مثل هذا التطور القانونى من شأنه بيان الطبيعة العلمانية المحضة لمصلحة الولاية فى العلاقات الملتزمة طويلة المدى، وتحرير مسألة العوامل الدينية التى تجعل من الإصلاح أمرًا مثيرًا للجدل. المستقبل الذى تصورته مستقبل تُتاح فيه الزيجات المدنية لأى شخصين ملتزمين تجاه بعضهما، بغض النظر عن توجههما الجنسى. سيكون الزواج متاحًا أيضًا. لكن وست تأمل أن يفضل الأزواج الزواج المدنى على الزواج مهما كانت ميولهم أو ميولهن الجنسية، لأن الزواج المدنى أكثر اتساقًا مع مفهومى العدل والعدالة.

علاوة على ذلك، وكما لاحظت وست، هناك أسباب كثيرة للنظر إلى مؤسسة الزواج بعين النقد، تلك المؤسسة التى سمحت للمجتمع بالتنصل من المسؤولية الجماعية عن رعاية القُصَّر والتى خصصت للمجال الخاص، حيث تحمل المرأة على عاتقها نصيبًا غير متناسب من العبء. وقد يخلق التحول إلى الزواج المدنى فرصة لإعادة تشكيل المؤسسة للتخفيف من بعض الآثار السلبية للزواج؛ وضم الأزواج من نفس الجنس سيعمل على تقويض المفاهيم النمطية للنوع والتى تسهم فى إبراز عيوب الزواج.

قد يكون وست ولايكوك على صواب من الناحية النظرية بأن إخراج الدين من الزواج المدنى سيمثل تطورًا ملحوظًا. لكن من الناحية العملية، لا يوجد أى أنصار سياسيين لاستبدال الزواج بالزيجات المدنية أو الفصل بين الزواج المدنى والزواج الدينى. وطالما أن الزواج لا يزال الخيار المفضل، فإن المرجح أن يصر أنصار حقوق المثليين على أن تخصيص الزواج المدنى للزوجين من نفس الجنس يحرمهما لسبب وجيه نفس



كيف ينبغى لنا أن نفهم التناقض الحاد بين القانون والسياسة فى زواج المثليين؟





القدر من الاحترام. حتى إن استطعنا تحديد مؤيدين لفصل الزواج المدنى والدينى، فمن المرجح للغاية أن تثير مثل هذه الحملة معارضة حادة كتلك المعارضة التى أثارتها حركة زواج المثليين.

أيد إسكريدج وسبيديل فى كتابهما «الزواج المثلى» استراتيجية تركز على الحقوق المدنية، وإن كانت مبنية على أسس أكثر برجماتية. يرى إسكريدج وسبيديل نقلاً عن مقال البروفيسور كيز ڤاليديك الذى ساعد فى تطوير الاستراتيجية التى كانت وراء اعتراف هولندا بزواج المثليين،[٩] أن أفضل طريقة للمضى قدمًا هى التطور التدريجى. وفقا لهذه النظرة، من المحتمل ألا تُقر الولايات (أو الدول القومية) زواج المثليين إلا بعد عملية تدريجية تبدأ أولاً بإلغاء القوانين التى تُجرم ممارسة الجنس المثلى، ثم تعديل القوانين المناهضة للتمييز لتشمل التوجه الجنسى، ثم تمتد لتشمل المزايا التى تمنحها الحكومة والمتعلقة بالعمل للعاملين بها من أزواج من نفس الجنس، ثم سن قانون للمعاشرة المدنية أو الزواج المدنى. حينما يضغط دعاة الزواج المثلى دون الأساس التدريجى، فالأرجح ألا تكلل مساعيهم بالنجاح، أو يحدث الأسوأ، حيث تفضى إلى إثارة ردود فعل عكسية كما حدث مع القرارات القضائية المؤيدة للزواج المثلى فى هاواى فى التسعينيات.

تؤيد قرارات محاكم الولايات الأخيرة التى تعترف بحق الزوجين من نفس الجنس فى الزواج الرؤية التدريجية. وكما جاءت الإشارة سلفًا، فإن محكمتى ولايتى كاليفورنيا وڤيرمونت اعتمدتا على تاريخ الإصلاحات القانونية لحقوق المثليين ضمن ولاياتهما لمواجهة الدعاوى الرفض الأخلاقى للمثلية الجنسية. وكانت حقيقة توسيع السلطة التشريعية فى ولايتى كونيتيكت وكاليفورنيا لكافة مزايا وحقوق الزواج للأزواج من نفس الجنس تحت عنوان الزيجات المدنية أو العلاقات المنزلية أمرًا حاسمًا لتحقيق الانتصارات القانونية. ووجدت كلتا الولايتين نفسيهما نظرًا لعدم وجود اختلافات ملموسة بين العلاقات الزوجية وغير الزوجية تدافعان عن قانون بدا أنه لا يخدم أى غرض سوى غرض غير شرعى وهو إنزال الأزواج من نفس الجنس إلى مرتبة الدرجة الثانية.

استراتيجية زواج المثليين الحالية بالولايات المتحدة تدريجية أيضًا من الناحية الجغرافية، حيث تتقدم ولاية ولاية لا على المستوى الفيدرالى. لقد بذل أنصار حقوق المثليين جهداً واعيًا لإبقاء المسألة بعيدًا عن المحاكم الفيدرالية مفضلين تطوير حججهم على أسس دستورية على مستوى الولاية أو فى المجالس التشريعية للولايات لحمايتها من العرض على المحكمة الأمريكية العليا المحافظة.

وبناء على ذلك، انتقدت هذه الجماعات انتقاداً واسعًا للقضية الأخيرة فى تحد للمادة رقم ٨ لمحكمة كاليفورنيا على أسس دستورية فيدرالية، رغم أنها قُدمت من قبل فريق مكون من تيودور أولسون وديفيد بوايس، وهما المحاميان اللذان مثّلا بوش وجور على التوالى فى المعركة القانونية حول انتخابات عام ٢٠٠٠. ويخشى أنصار الزواج المثلى من أن المناخ السياسى الأمريكى ليس مستعداً بَعْدُ للاعتراف بزواج المثليين. فلم يَحْظَ مشروع قانون فيدرالى واحد لحقوق المثليين بموافقة الكونجرس على الإطلاق، كما أن التمييز على أساس التوجه الجنسى ليس محظوراً بموجب القانون الفيدرالى. فآخر قانون فيدرالى يعالج هذه المسألة، وهو قانون حماية الزواج لعام ١٩٩٦ يقصر بشكل صريح مزايا الزواج الفيدرالى على الأزواج من الجنسين. وعد الرئيس أوباما خلال الحملة الانتخابية بإلغاء قانون حماية الزواج وإنهاء سياسة «لا تسأل ولا تقل» العسكرية، لكنه لم يتخذ أى مبادرة بشأن كلتا المسألتين بعد.

ربما اعتبر أولسون وبوايس الحجج القانونية ضد الزواج المثلى من الضعف عمليًا بمكان لتشكل تحديًا دستوريًا فيدراليًا. قد تكون كاليفورنيا أفضل مكان لمثل هذه الدعوى، تمامًا لأنها، وكما ذُكر سلفًا، الولاية التى تمنح للأزواج من نفس الجنس جميع حقوق ومزايا الزواج بما لا يدع أى مبرر لحرمانهم من لقب «الزواج» غير مجرد الرغبة فى وضع المثليات والمثليين جنسيًا فى المرتبة الثانية - وهى الرغبة التى وصفتها المحكمة العليا بأنها غير شرعية فى كل من قضيتى «لورانس ضد ولاية تكساس» و«رومر ضد إيڤانز»[١٠] حيث جاء الحكم عام ١٩٩٦ ليبطل استفتاءً مناهضًا لحقوق المثليين فى كولورادو. ورغم ذلك، فإن المخاطر مرتفعة للغاية، واحتمال صدور قرار عكسى من المحكمة العليا كبير. فى هذه الحال الاستراتيجية التدريجية هى الاستراتيجية الأكثر ذكاء.

فضلاً عن ذلك، يساعد كل انتصار تدريجى على مستوى الولاية على تمهيد السبيل لإصلاح أوسع نطاقًا فى نهاية المطاف لسببين على الأقل. أولاً، المعارضة المبنية على أساس أن الزواج المثلى مبالغة ليست ممكنة مادام لا يوجد شىء اسمه زواج المثليين. لكن الآن ومع زواج الآلاف من الأزواج من نفس الجنس بالفعل، لا يمكن لأحد أن يدعى ببساطة أن زواج المثليين لا يمكن تصوره. ثانيًا، بما أن زيادة ظهور المثليين والمثليات خلال الجيل الماضى قللت من الخوف والتعصب النابع من الجهل، فإن حقيقة توسيع الزواج ليشمل الزوجين من نفس الجنس فى العديد من الولايات والدول دون أية عواقب وخيمة من المرجح أن تقوض المعارضة القائمة على الخوف من المجهول. وفى حين أن أغلبية الأمريكيين لا تزال تعارض الزواج المثلى، فإن ٥٧ فى المئة من الأمريكيين الأقل من أربعين عامًا تؤيده: فالوقت فى صالح الزواج المثلى.



يرى إسكريدج وسبيديل ووست أن أفضل محفل لتحقيق النصر الدائم هو الهيئات التشريعية، وليس المحاكم. لكن هذا يبدو أقل وضوحًا. ليس هناك شك فى أن أولئك الساعين إلى التغيير لا يمكن أن يقصروا الدعوة إلى المحاكم: فالاستراتيجية متعددة المستويات أمر بالغ الأهمية. إلا أن قرارات المحكمة تشير فى الأونة الأخيرة إلى أنه من الخطأ إلغاء القضاء. ووفقًا لاستطلاعات الرأى التى تظهر استمرار المقاومة الشعبية للزواج المثلى، فالأرجح أن إحراز تقدم فى المجال السياسى سيكون أمرًا صعبًا. وفى الوقت نفسه، فإن ضعف الحجج القانونية البيّن ضد الاعتراف بزواج المثليين سيجعل المحاكم ميدانًا أكثر تقبلاً. كما تظهر استطلاعات الرأى مقاومة أقل بكثير للزيجات المدنية، بل فى بعض الحالات، تأييد الأغلبية لذلك البديل. ومن ثَمّ، فإن استراتيجية الولاية تلو الولاية الساعية وراء الزواج المدنى سياسيًا، والزواج المثلى عن طريق المحاكم، قد تكون الأكثر نجاحًا وفقًا لأفضل الاحتمالات.

وعلاوة على ذلك، وكما يرى جيرستمان، فإن القرارات القضائية قد تكون حافزًا للتغيير السياسى. ففى السنة الأولى بعد موافقة محكمة ماساتشوستس العليا على زواج المثليين، عُقِدَ مؤتمر دستورى فى ماساتشوستس صوّتَ فيه ١٠٥-٩٢ لصالح تعديل يمنع الزواج المثلى، يتطلب قانون ولاية ماساتشوستس أن تأتى نتيجة مثل هذا التصويت لصالح قرار ما لمدة عامين على التوالى، ومع ذلك، وخلال العام التالى، جاء التعديل بأصوات ١٥٧-٣٩. وفى عام ٢٠٠٧، هُزِمَ التعديل مرة أخرى بنتيجة ١٥١-٤٥. واليوم صوّتَ ٥٦ فى المئة من الناخبين فى ولاية ماساتشوستس بالموافقة على زواج المثليين. استغرق قرار المحكمة العليا بعض الوقت كى يستقر، لكن يبدو أنه قد لعب دورًا إيجابيًا فى تغيير المشهد السياسى.

تاريخ القانون الدستورى كما أقرت المحكمة الأمريكية العليا «قصة تمديد الحقوق والحماية الدستورية لأولئك الذين تعرضوا يوما للتجاهل أو الإقصاء».[١١] وكما أن مؤسسة الزواج تخطت توسيع نطاقها لتشمل الأزواج من أعراق مختلفة فى الستينيات، وبالتالى فإنها سوف تتخطى توسيع نطاقها لتشمل الزوجين من نفس الجنس فى القرن الحادى والعشرين. وإذا كان إدراج الزوجين من نفس الجنس سوف يغيّر المؤسسة، فإن الاحتمال الأكبر أنه سوف يغيرها للأفضل، ويجعلها أكثر اتساقًا مع المثل العليا للعدالة. أما بالنسبة للزواج نفسه، بعد ذلك، والأهم بالنسبة لمبدأ المساواة الدستورى، فإن النتيجة العادلة الوحيدة هى توفير نفس القدر من الكرامة والاحترام لجميع أولئك الذين يختارون أن يدخلوا فى علاقات أسرية ملتزمة طويلة المدى بغض النظر عن توجههم الجنسى. ■

هوامش

(١) «جودريدج ضد وزارة الصحة العامة» NE2d ٧٩٨ ٩٤١ ((ماساشوستس ٢٠٠٣)

(٢) «كريجان ضد مفوض الصحة العامة» ٩٥٧ A.٢d ٤٠٧ ((كونيتيكت ٢٠٠٨)

(٣) «فارنوم ضد برين» ٧٦٣ N.W.٢d ٨٦٢ ((أيوا ٢٠٠٩)

(٤) «لويس ضد هاريس» ٩٠٨ A.٢d ١٩٦ (نيو جيرسى ٢٠٠٩)

(٥) رأى رونالد دوركين فعلا أن الزواج كالدين مؤسسة يصوغها التاريخ لكنها تخضع باستمرار لإعادة صياغة من قبل أولئك الذين يشاركون فيه. ولابد أن نكون غير متسامحين مع قوانين الولايات التى تجمد معنى الزواج مثل عدم تسامحنا فى حالة تجميد تلك القوانين لمعنى الدين. انظر رونالد دوركين، «هل الديمقراطية ممكنة هنا؟» (دار نشر جامعة برينستون، ٢٠٠٦). ص ٨٧-٨٩.

(٦) أندرو سوليڤان، «حالة الاتحاد»، ذا نيو ريبابليك، ٨ مايو ٢٠٠٠.

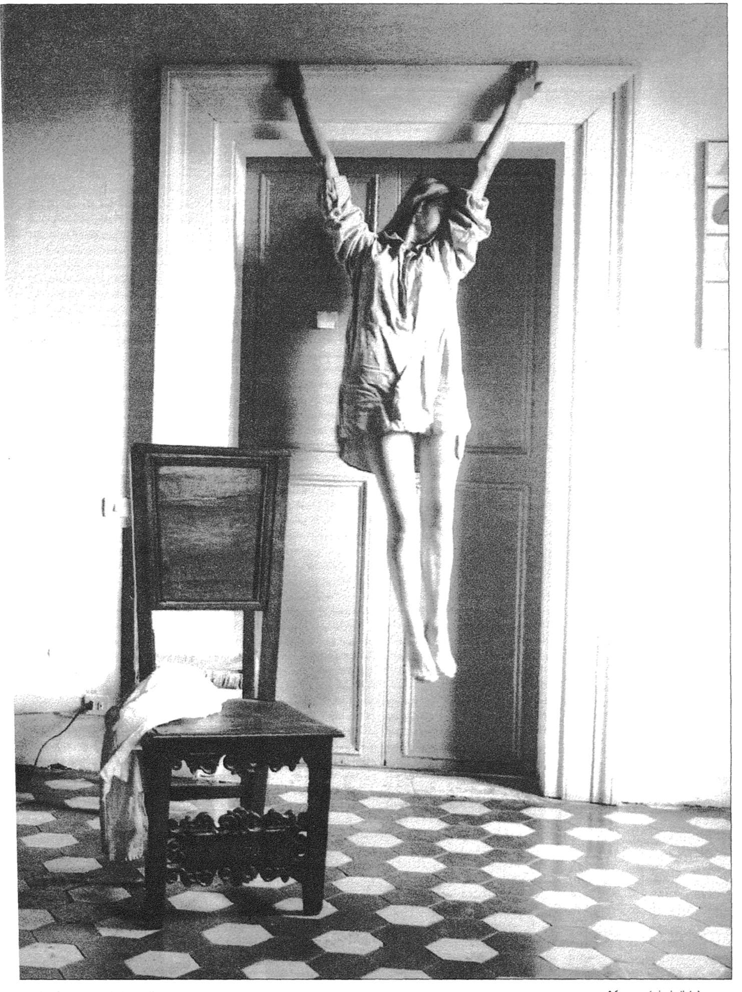
(٧) «لورنس ضد ولاية تكساس»، ٥٣٩ الولايات المتحدة ٥٥٨ (٢٠٠٣).

(٨) «فى حالات الزواج من جديد» (٤٣)، كاليفورنيا. ٧٥٧ الرابع(٢٠٠٨).

(٩) كيس ڤاليديك، «تغيير صغير: كيف مُهِّد الطريق إلى الزواج المثلى فى هولندا»، فى «الاعتراف القانونى بالعلاقات المثلية: دراسة القانون الوطنى الأمريكى والأوروبى والدولى. تحرير روبرت ونتميوت ومادس أندينايس (هارت، ٢٠٠١).

(١٠) «رومر ضد إيڤانز» ٥١٧ الولايات المتحدة ٦٢٠ (١٩٩٦).

(١١) «الولايات المتحدة ضد ولاية فرجينيا» ٥١٨ الولايات المتحدة ٥١٥، ٥٥٧ (١٩٩٦).



بدأت فرانشيسكا فى التقاط صورها الذاتية فى عامها الثالث عشر أو الرابع عشر. وقبل أن تبلغ عامها الثالث والعشرين. فى التاسع عشر من يناير عام ١٩٨١، قررت أن تنهى حياتها بنفسها. هاربة إلى موتها، من النافذة من مبنى فى شرق مانهاتن

قبل الموت

عشرون عاما من الضوء والظل والغموض

دافيد شتراوس

David Levi strauss

أول أعمالها كانت صورة شخصية ذاتية لها، فى عامها الثالث عشر.. وكانت ببساطة تتنبأ بأعمال عظيمة فى طور التكوين. الصورة ترسم فرانشيسكا جالسة على جانب من مقصورة خشبية، ويداها موجهتان نحو العدسة إلى الأمام، على جانب وجهها شعرها منسدل برفق على كتفيها، خصلات ناعمة محجوبة بالظلال، كـ أسطورة إغريقية (أريادن). جسدها مغطى بسترة صوفية، وسروال جينز، مرفقها الأيمن متكئ برشاقة على ذراع المقصورة، متدلى بشكل مريح ومعبر وسط الإضاءة، ويدها اليسرى ممسكة بحبل غليظ متجها بشكل مائل نحو العدسة، مشكلاً مع الإضاءة حاجزا أسود رفيعا يقطع أسفل الصورة بشكل قطرى، معبراً بشكل إيحائى عن أو طريقة الخلاص المتمثلة فى أسطورة خيط أريادن.

ولدت فرانشيسكا وودمان francesca woodman فى عام ١٩٥٨، ابنة لجورج وبيتى وودمان. وبدأت فرانشيسكا فى التقاط الصور الفوتوغرافية فى عامها الثالث عشر أو الرابع عشر، واستمرت هكذا طيلة العشرين عاماً التى بقيت من حياتها، منتجة فى وقت قصير جداً، جسد متماسك ومتجانس من الأعمال التى ستظل بارزة وجديرة بالاهتمام.

وقبل أن تبلغ عامها الثالث والعشرين، فى التاسع عشر من يناير عام ١٩٨١، قررت أن تنهى حياتها بنفسها، هاربة إلى موتها، من النافذة من مبنى فى شرق مانهاتن.

فى الحقيقة، لم تستطع أى قوة أن تمنع تأثير تلك الحادثة المأساوية على طريقة رؤيتنا لأعمالها، ففى كل منها يمكنك أن تلمس شواهد لا مفر منها على تلك الحادثة، فكما يعتقد رونالد بارثيس، أن الفنون التشكيلية المتمثلة فى الرسم والنحت تعتبر أعمالا إبداعية فى المقام الأول، بينما التصوير الفوتوغرافى يعتبر أعمالا رمزية، تعبر دائماً عن دلالات ما.

الصور التى التقطتها فرانشيسكا وودمان دائماً ما توحى بأنها مطاردة بشىء ما، كالموت مثلا، أو أشباح أخرى. ولأنها صور شخصية من نوع ما، فنحن نتدارس وندقق فيها بحثاً عن خيوط أو أفكار توصلنا لأسباب نهايتها المفاجئة. ولكننا بذلك سنكون قد أضعنا على أنفسنا قدرا عظيم من المتعة إذا تركنا رؤيتنا لأعمالها تنحصر بشكل مبالغ فيه فى فهم تفاصيل قضائية خاصة بحالة انتحارها أو موتها بتلك الطريقة.

منذ بداية عملها، كانت رؤية فرانشيسكا من خلال العدسة بعيدة كل البعد عن التقليدية، وعادة ماتتسم طريقتها فى التقاط الصورة بشىء من الغموض.

فى أحد أعمالها، صورة لجسدها عاريا منحنيا ومقوسا خلف حائط قديم، يبدو ظهرها مغطى بورق حائط رقيق كأنها قشرة او صدفة، وكفاها تربتان برفق على الحائط كما لو كانت لوحة مفاتيح موسيقية. أما عنوان الصورة فكان كما يلى: «فى لحظة معينة لم أكن بحاجة لترجمة المذكرات، فهى تدفقت مباشرة من بين يدى».

صورة أخرى ذاتية لها، مميزة جداً، تجسد ذاتها فى ثوب ديباج أسود مطرز، معرى من جانب واحد ليظهر صدرها، والجانب العلوى من الصورة يخفى رأسها، وعلى الجانب الأيمن العلوى تظهر قطعة من الدانتيل الأبيض كجزء تعويضى للصورة.

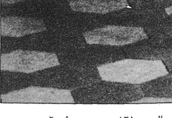
أسفل الصورة يظهر تعليق خافت وغامض، ممحو بضربة فرشاة: «عندما بدأت مجددا»، وتعليق آخر كتب بشكل أكثر وضوحاً: «لم يعد بوسعى اللعب». وتتدلى من كفها اليمنى سكين أسود منحن، التقطته العدسة فى وضع متحرك، ومن الخط أسفل صدرها العارى يبرز خيط من صورها الذاتية، ملطخة ببقع دماء متناثرة وحقيقية. وبتلك الصورة

Francesca Woodman
by Chris Townsend
Phaidon Press (June 1, 2006)
256 pages, $600.00

Francesca Woodman
by Isabel Tejeda
Murcia Cultural (March 1, 2009)
180 pages, $161.84

Francesca Woodman, photographic work: Exhibition (Paperback)
Wellesley College Museum (1986)
62 pages, $200.00

ترجمة: إيناس فؤاد





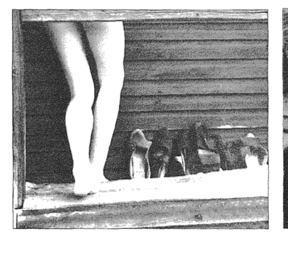
كان جسدها عبارة عن مولد مستمر تلقائى نتيجة جرح ذاتى عميق. وكل ما عليها فعله لتنتج صورة رائعة جديدة، هو أن تقوم بكشف ذلك الجرح مرة أخرى.

فى صورة أخرى لها، تعبر تقريباً عن الوقت ذاته، تظهر الفنانة (وهى الموديل فى الوقت نفسه)، جالسة على حافة كرسى ابيض اللون، تنتعل زوجا من الأحذية السوداء، التقطت العدسة المشهد من زاوية سفلية، ويظهر ظلها منعكسا على الأرض قبل جسدها، التأثير السلبى المنعكس نتيجة جسدها المرهق الواهن، يحاكى تأثير الإضاءة الناعمة، التى ظهرت كأنها رمال رقيقة فضية متناثرة.

وفى صورة أخرى تظهر ساجدة على مرآة ذات إطار عريض، ملقاة على الأرض، جسدها ورأسها يقومان بحركة سريعة، تظهر وجهها مشوها، وبذلك تكون العدسة مركزة فقط على أرجلها ويديها. وفى مجموعة أخرى من الصور تحمل العناوين: «المرآة، المرآة و امرأة على المرآة من أجل رجل»، تظهر المرآة ذاتها بالإطار العريض، ولكن فى هذه الصورة يبدو فى وضع رأسى مائل فى زاوية الأستوديو، وتبدو هى محدقة به. وفى الصورة التالية، تضع ذاتها بشكل مربك بين المرآة ولوح زجاجى، وبذلك يظهر تناغم رائع بين ظاهرتى الانعكاس والانكسار، فى محاولة لخلق صورة ذاتية لها مسطحة على كل من المرآة والزجاج. أو ربما هى تحاول أن تهرب عبر الزجاج لعالم آخر، عالم ما قبل إدراك ذاتها، وتمثيلها بتلك الصورة، ما قبل تمثيل جرح ذاتها معكوس بشكل مأسوى فى صورة فوتوغرافية.

هناك أيضاً سلسلة صور، تحمل عنوان «المنزل» وكانت مابين عامى ١٩٧٥ و ١٩٧٦، إحدى هذه الصور، تظهر فيها فرانشيسكا فى رداء من العصر الفيكتورى، متقمصة شخصية أليس، محدقة بشكل غريب فى العدسة، وملوحة بكلتا يديها نحو باب مغلق نسبياً، كاشفاً خلفه عتمة سوداء (ممثلة الصندوق المظلم الخاص بالكاميرا).

نظراً لأن فرانشيسكا وودمان قامت بمعظم أعمالها وهى فى عمر الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، أدى ذلك إلى ترك انطباع أن أعمالها غير ناضجة بشكل كاف للعرض ضمن سياق الأعمال الفوتوغرافية المنتجة الأخرى فى ذلك الوقت. الا أن قراءة نقدية «نسائية» لأعمالها قامت بها Abigail Solomon-Godeau وصفت فيها أعمالها بالمعجزة أو بالأعجوبة، وأضافت: «الأعمال التى يمكن أن تتصف بالإعجاز فى التصوير يمكن أن نطلق عليها أنها حالات فردية،





كانت فرانشيسكا تشير في عبارتها إلى الموت: «كلنا سنصبح صورا في آخر المطاف»



نادرة جداً، معجزة نسائية تقريباً لم نسمع بها مطلقاً.

ربما تكون نشأة فرانشيسكا مع أبوين وأصدقاء من الوسط الفني هي المسؤولة عما اكتسبته من معرفة واسعة في المجال الفني وصناعة الفن، أن صناعة الفن تحتاج منطقا خاصا بها، يبدو واضحا في العمل ذاته، أن الأفكار لا قيمة لها بل القيمة تكمن في التجسيد ذاته، وأن الفن كعملية الولادة في طور التكوين، وأن العمر قد يبدو قصيرا لكن الفن دائما ما يكون رحلة طويلة. ورغم كل شيء، سيظل مثيرا أنه رغم العمر القصير لفرانشيسكا، لم تبد أعمالها ابدا ساذجة، أو قليلة الخبرة.

العلاقة بين أعمال فرانشيسكا والسريالية، ليست مقتصرة على الأسلوب فحسب، فبالرغم من أنها مركزة على الاختلافات في المعالم الجمالية في الجسد الأنثوي العاري، إلا أنها دائما ما تشير الى أن المعالم الجمالية الخارجية تبدو متهالكة ومحطمة نتيجة ما تحويه من حزن داخلي. يضاف إلى ذلك أنها تستخدم في صورها عناصر مرتبطة إلى حد كبير بالسريالية كـ الأصنام، المرآة، المظلات أو المجوهرات. (كل تلك العناصر تعتبر استعارات سريالية)، ولكن سرعان ما تخلت فرانشيسكا عن هذا الأسلوب، حين استهلكت السريالية في المجال التجاري للدعاية عن المنتجات المختلفة أو في تصوير الأزياء، حيث رغبة المصور تقلصت تحت مسمى ذوق المستهلك. ف الأسلوب السريالي منذ ذلك الحين تحول لـ ما يشبه التقليد الذي لا يمارسه أحد.

لم تكمن العلاقة بين أعمالها والسريالية على الأسلوب المادي وحده، ولكن قدر الرغبة العارمة التي تتولد في كل أعمالها لتحطيم كل القيود، والرؤية من خلف كل الحواجز، كانت أكثر أهمية من استخدامها للعناصر المادية وفي مقالة أخرى بعنوان: «الفوتوغرافيا في خدمة السريالية»، ذكرت كراوس أن الصور الفوتوغرافية السريالية تخدم في التواصل بين الأعمال الفوتوغرافية الموهوبة والاتصال بالواقع. الفنانون السرياليون لديهم القدرة على جعل الرموز طاغية في أعمالهم كالرموز الهدامة للقيم البرجوازية، وتصف كراوس أن العلاقة الأساسية بين الفوتوغرافيا والسريالية قائمة على الابتكار والاختراع وحده. كما أن المصور الفوتوغرافي السريالي، يهتم دائما ويصمم على التشييد والابتكار المطلق للمشهد الذي يرغب في تصويره، متضمناً ذلك كل الفروع لمعاني الهوية والحياة.

يمكننا أن نلاحظ أن الأنثى في أعمال فرانشيسكا دائماً ما توحي بأن لا سلطة تتدخل بين علاقتها الذاتية بالعدسة، وأن لا سلطة تتحكم فيها من خارج إطار الصورة، كل ما يدور في الصورة هو من صنع ذاتها هي فقط.

العلاقة في الصور التقليدية عادة ما تدور في إطار يوضح العلاقة بين المصور والشخص الذي يقوم بتصويره (الموديل) وهذه العلاقة دائماً ما تكون منهارة في أعمال فرانشيسكا، ولا يعبر ذلك دوماً عن النرجسية العالية الواضحة في أعمالها (حيث هي المصور والموديل في آن واحد)، بل هي دائماً ما تدخل في أعمالها عوامل أخرى خارجية، كالوقت (العامل الزمني) أو الفراغ.

كما أن الإثارة الجنسية التي تظهر في بعض أعمال فرانشيسكا ليست نرجسية أو وجهة نظر ذاتية منها نحو أي أفكار هدامة للحاجة للرجل. ف أعمالها واضحة جداً أنها موجهة لوجهة أخرى خارجية (سواء للعدسة ذاتها، أولأي شخص آخر)، وليست ذاتية على الإطلاق، ففي كل الحالات هي لا تعبر عن نرجسية راجعة لذاتها. فعندما تنظر فرانشيسكا في المرآة، فهي تقصد أن تنظر نحو العدسة، والعدسة بدورها موجهة لنا، بافتراض أن الفكرة السائدة أن العدسة دائماً ما تكون في قبضة يد الرجل، وهو يحاول أن يلتقط صورة جميلة للنساء، أما فكرة أن المرأة هي من تحمل عدستها بنفسها وتلتقط صورها بشكل ذاتي لهذه الدرجة فالتساؤل يصبح مطروحا.

عادة ما تطلق كراوس مصطلح «جمال مضطرب» على الأعمال السريالية التي تحوي معالم جمالية، وهي تقصد به: «التقليص من الخبرات الواقعية وتحويلها إلى مشاهد مجسدة ومتمثلة في رموز». وفي مقالة بعنوان «حب الجنون» طالب بريتون، بنوعية جديدة من الجمال، جمال يصور العاطفة بشكل حصري وقوي، كما أنه وصف مصطلح: «الجمال المضطرب» بهذه العبارة حرفيا: «قد لا يكون هناك أي معالم جمالية على الإطلاق في هذا النوع من الجمال في الفن، وبقدر ما أظهر اهتمامي بـ هذا النوع من الجمال، فما ذلك إلا اقرار بما فيه من تأكيد للعلاقة المتبادلة بين العناصر في وضع الحركة والسكون».

ونعود مرة أخرى لتطبيق كل تلك الأشياء على أعمال فرانشيسكا، فنرى أن في صورها، يظهر جسدها وقد التقطته العدسة بشكل محكم وساكن بينما هو في وضع حركة، وكل العلامات العابرة سكنت بشكل هادئ على الصورة، وفي أعمال أخرى لها. قد يظهر الجسد في وضع حركة صريح، بينما توجه تركيز العدسة على أي عنصر آخر ثابت. كالحائط مثلا أو المرآة، أو تظهر هذه العلاقة (الحركة والسكون) بين جسدين، أحدهما متحرك، والآخر ساكن. كما ظهرت في سلسلة مصورة لها بعنوان «الموديل شارلي».

«الموديل شارلي» هي سلسلة مصورة، لتأملات مختلفة في فن الحاجة للتجسيد، ففي الصورة الأولى، يظهر شاب متوسط العمر لطيف، أمام الفنانة في وضع يحرضها على التقاط صورة له وهي من خلف العدسة لا من أمامها كالعادة. (لكن بعد ذلك تضعف محاولتها لمقاومة أن تصبح هي من في الصورة. فتقرر فرانشيسكا أن تنضم له وتستند بجانبه لتظهر في الصورة).

في الصورة الأولى يظهر شارلي مرتديا قميصا أبيض، وسروالا ويحمل لوحا زجاجيا أمامه، وينظر في مرآة مكتوب عليها أسمه. وخلف هذه الصورة تركت فرانشيسكا تعليقاً: «والآن قد أصبح شارلي موديل في مدرسة «رزدي» (مدرسة للتصميم) منذ١٩ عاماً، وأعتقد أنه الآن خبير في كيفية جعل ذاته مسطحا كالورقة». وفي هذه الصورة تحديداً، تظهر ٣ عناصر مغيرة للوسط مختلفة توضح أنواع الانتقال والتحول: لوح زجاج (الشفافية)، المرآة (الانعكاس)، والنافذة (الإنارة). ويظهر شارلي في ركن، هو من صنع التقاء الحائط مع المرآة، ويحمل في يده اللوح الزجاجي ويميل بجسده قليلاً نحو المرآة. المرآة، العدسة،الحائط والركن يحددون معاً شكلا رباعيا متعامدا مع المستوى البؤري للعدسة. في الصورة الأخيرة من السلسلة يظهر شارلي عاريا جالساً على الأرضية، وأرجله ممتدة أمامه، يحمل لوحا زجاجيا مضغوطا بشكل مؤلم على جسده، ويظهر جسده تحت اللوح بشكل مسطح، وبعينين نائمتين يستند بميل نحو مرآة خلفه، بشكل محبط. وبتعليق أسفل الصورة: «في بعض الأحيان، تصبح الأمور داكنة جداً، يبدو أن شارلي يعاني أزمة قلبية، آمل أن يلاقي شارلي أي تحسن عما قريب».

«أن تصبح كالصور... أن تصبح مسطحاً كالورقة».

كانت فرانشيسكا تشير في عبارتها إلى الموت: «كلنا سنصبح صوراً في آخر المطاف».

المعالجة البارعة التي تقوم بها فرانشيسكا في عالم الفوتوغرافيا، تظهر جلية في تلك السلسلة. حتى إني أعتقد أن التلاعب كان واضحا في العامل الزمني (الوقت) بشكل قهري. وهذه المعالجة كانت في أوج وضوحها في آخر أعمالها. في ربيع ١٩٨٠ في نيويورك في Temple Project . . حيث نرى في أحد أعمالها، امرأتين عاريتين، يحملن صناديق من قماش باهت خفيف فوق رأسيهما. والصناديق في وضع متحرك، صانعة بذلك إضاءة خافتة ضبابية بيضاء من أسفل الصورة حتى أعلاها. وبذلك تجعل أعيننا تتبع تلك الخطوط من الأسفل وحتى الأعلى مع انحناءة بسيطة لليسار. هل تذكرون هيئة تمثالي الكرتيد (تمثال امرأة إغريقية موضوعة في شكل عمود بنائي). وهذه قد يعتبرها البعض معالجة إبداعية أو تافهة لتجسيد الهروب من الزمن. كما لو كانت تنفخ الحياة في هذا العمود البنائي البالي المجسد في صورة امرأة إغريقية،أو امرأة من عصر أكثر قدماً. (من القصور التاريخية في دلفي). فهي الرموز تمثل Artemis Caryatis التي كانت ترأس الطقوس النسائية في ذلك الوقت، فترة التحول من العذراء إلى امرأة كاملة النضوج والتثقيف. فرانشيسكا ترى في هذه الرموز بعضا من الإثارة لتحويلها لرموز فوتوغرافية. كل هذه العناصر كانت بمثابة أدوات تمثيل في أعمالها عبر الزمن.

وفي دراسة أخرى لأعمالها، تظهر حائطا في دورة مياه، ويظهر الطلاء مقشرا من على بلاط مزخرف الحدود، ومرآة فضية، وهيكل حديدي يبدو أنه يخص رف من الزجاج، وبرج اسطواني من الزجاج، يظهر عليه أقمشة حريرية محكمة على طوله بشكل مغزلي لولبي. وبذلك يكون الشكل النهائي لتلك الغرفة، كما لو كانت في بومباي، هذه أيضاً كانت واحدة من أعمالها التي تتسم بالهروب الواضح من الزمن لأصداء بالية.

ربما لم يكن الهروب من الزمن مجسدا فقط في أعمال فرانشيسكا. فلربما كان «انتحارها» في نهاية رحلتها القصيرة جدا، هو التجسيد الأقوى للهروب من الزمن. وربما لم تكن كل أعمالها المميزة تلك إلا تجسيدا لحالتها. تتلاعب بالظواهر والعناصر المختلفة للتحول حول الزمن. عبرت عن ذلك بشكل شديد الوضوح وبدرجة غير عادية، في آخر أعمالها في Temple Project في نيويورك. هل نجحت فرانشيسكا حقا في الهروب من الزمن، لا أظن.. لأنها ببساطة مازالت هنا، متمثلة في كل أعمالها المميزة.■



تحت عنوان منذر بالتشاؤم «اتجاهات وكوارث عالمية.. الخمسون عاما المقبلة» قدم فاسلاف سميل. وهو باحث جغرافى متنوع فى جامعة مانيتوبا Manitoba . رؤية واسعة للعوامل التى ستشكل مستقبل العالم حتى عام ٢٠٥٠ وكذلك الاحتمالات المرتبطة بهذه العوامل والآثار المتوقعة منها وهو يحذر القارئ بعدم ترقب أى نوع من التوقعات الكبرى أو العلاج لهذا الوضع أو انتظار أى دعم لمن لديهم رؤية تبعث على البهجة فى مقابلة كوارث المستقبل كما يحذر من أى خطاب أو حجة تميل إلى المثالية، ولكنه يعد قائلا: «إن هذا ما ينبغى علينا القيام به».

وبدلا من ذلك نتوقع استفسارات انتقائية والاعتماد على منظورات تاريخية طويلة الأجل تذكر بأن الفهم المحدود والشكوك الكامنة سوف يكونان رفيقين دائمين لنا عند تقييم المخاطر على الصعيد العالمى من ثغرات قاتلة ونتائج متناهية القوة للاتجاهات التى تتكشف.

بشكل عام يحقق سميل وعده. على طريق ذلك فهو يبهج القارئ ببعض الحقائق التى تتسم بكونها ليست معروفة ولا متوقعة . بطبيعة الحال يصعب على الإنسان أن يشم رائحة أنفاسه وكما سيتضح فإنه يعرض مطالب قابلة للشك.

يعتقد سميل أن المجتمعات تتغير عن طريق الصدامات والاحتكاكات الطاحنة برغم عدم استخدامه لهذه الكلمات. الصدمات هى أحداث قصيرة الأجل واحتمالاتها ضعيفة ولها آثار انتقالية عالمية كما هوالحال عندما ضرب كويكب الأرض منذ ٦٥ مليون سنة. المشاكل الطاحنة مثل الاحتباس الحرارى تتصف بكونها دائمة وقد اثبتت الاتجاهات التى تتكشف تدريجيا أن آثار هذه المشاكل ليست بعيدة المدى. يعترف سميل بأن هذا الانقسام البسيط غير كاف للإمساك بتفاصيل الواقع كلها. ويوضح التواصل بين الصدامات والاحتكاكات الطاحنة كسبب للتحولات العظمى فى الديموجرافيا والطاقة والبيئة، مثل هذه التغيرات. على سبيل المثال انتشار مقاومة البكتيريا للمضادات الحيوية - تمتد على مدى لا يقل عن بضعة عقود من الزمن وهى تمثل وقتا طويلا على مقياس الزلازل

Global Catastrophes and Trends:
The Next Fify Years by Vaclav Śmil
MIT Press, 307 pp., $29.95

بترتيب خاص مع:
Newyork Review of Books

ترجمة: إيمان عبدالهادى الكيلانى

ولكن وقتا قصيرا لتشكيل العالم. يحاول سميل حساب احتمالات الخطر الرئيسية وتقييم الاتجاهات باستخدام البيانات الاحصائية ولكن بناء على الامثلة التاريخية فإنه يخلص إلى أن «التنبؤات الوحيدة التى نستطيع الاعتماد عليها هى عدم قدرتنا على التنبؤ».

يعرف سميل الكوارث بكونها المصائب التى تحدث فى غضون دقائق إلى شهور ولها تأثير عميق على مستوى العالم أو على مستوى نصف الكرة الأرضية وذات آثار إقليمية واسعة النطاق على مدار التاريخ وتحدث على الأقل مرة كل مليون سنة. يقدم سميل تقديرات كمية وتاريخية مذهلة للأحداث التى يعتبرها كوارث ومن هذه الأحداث التى تتوافق مع معايير سميل الأحداث الطبيعية المادية مثل الاصطدام بين الأرض والأجسام الكبيرة خارج الكرة الأرضية، الثورات البركانية الضخمة، والشرائح البركانية التى تولدها تسونامى فى المحيط.

يذكرنا اجتياح انفلونزا الخنازير- الذى حدث مؤخرا على نحومنذر بالخطر- بأن البيولوجيا قد أضافت الانفلونزا إلى هذه القائمة القصيرة من الأهوال. فى يوم ٢١ يوليو ٢٠٠٩ عندما وصلت انفلونزا الخنازير إلى أربع وسبعين دولة وأصابت ما يقرب من تسعة وعشرين ألف شخص وقتلت ١٤٤ إنسانا أعلنت منظمة الصحة العالمية World Health Organization مرض انفلونزا الخنازير كوباء، وكما كتب سميل يعد هذا أول وباء عالمى للأنفلونزا منذ واحد وأربعين عاما قبل بداية هذه الجائحة.

احتمال حدوث جائحة أخرى للانفلونزا خلال الخمسين سنة القادمة هو على التقريب ١٠٠٪ ، لكن الاحتمالات الكمية للأحداث وما إذا كانت خفيفة أو معتدلة أو حادة فإنها لا تزال إلى حد كبير خاضعة للتخمين. لأننا ببساطة لا نعرف كيفية نشوء الفيروس المسبب للمرض ولا نعرف ماهى الفئات العمرية التى يفضل مهاجمتها.

من بين الصراعات العنيفة التى يركز عليها سميل Smill ما يسميه بالحروب التحويلية وهى الحروب النابوليونية Napoleonic Wars ١٧٩٦-١٨١٥)) ، حرب التيبينج (Taiping War ١٨٥١-١٨٦٤)، الحرب الأهلية الأمريكية، الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية. تضاف هذه الحروب إلى اثنين وأربعين عاما من الصراع على مدى قرنين من الزمان حيث بلغ معدل الوفيات سبعة عشر مليونا من العسكريين والمدنيين فى كل من هذه الصراعات. يقدر سميل احتمالية نشوب حرب تحويلية فى خلال الخمسين سنة القادمة بما لا يقل عن ١٥٪ وعلى الأرجح نحو ٢٠٪، تعد هذه التقديرات من عشر إلى

إن الفحم لايزال وفيرا ورخيصا ومصادر الطاقة الجديدة ليس من المرجح أن تكون رخيصة ولا سهلة الاستخدام على الرغم من أنها قد تنتج كميات من الغازات أقل بكثير من غازات الصوب الزراعية



مائة مرة أعلى من احتمالات كوارث طبيعية مدمرة على مستوى العالم فكما يقول بوجو Pogo «العدو هو نحن».

وعن الهجمات الارهابية كتب سميل Smill ما يلي «نستطيع التوصل إلى نتيجة واحدة على سبيل اليقين وهى أنه كثيرا ما تكرر بعد عام ٢٠٠١ التطلع إلى القضاء على الارهاب أو الفوز فى الحرب على الارهاب» وهذا لا يمكن تحقيقه. يقدر سميل الخطر الذى يتعرض له الأمريكان جراء الهجمات الإرهابية والاستجابات العسكرية للرد عليهم بما فى ذلك جميع الخسائر العسكرية الأمريكية فى أفغانستان والعراق وحالات الوفاة التى ليست ذات صفة قتالية - بعشر مرات أقل من خطر الموت قتلا وألف مرة أقل من خطر الموت فى حوادث السيارات القاتلة وذلك فى المتوسط بين عامى ١٩٩١-٢٠٠٥ ففى الخمس سنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين تجاوز عدد الأرواح - التى تحصد على الطرق السريعة فى الولايات المتحدة فى الشهر الواحد - عدد القتلى فى حادث ٩/١١.

على الصعيد العالمى بلغ متوسط الوفيات الناتجة عن هجمات إرهابية فى الفترة ما بين ١٩٧٠-٢٠٠٥ نسبة أقل من ألف فى السنة وهذا لا يتعدى كثيرا نسبة حوادث الطيران والثورات البركانية ولكنه أقل بكثير من الوفيات فى الفيضانات والزلازل والتى كانت بدورها أقل بكثير من الوفيات الناتجة عن حوادث السيارات والأخطاء الطبية والتى قدرها سميل Smill كمسببات لوفيات تبلغ مئات الآلاف سنويا. لم يذكر سميل أن التبغ يقتل ما بين خمسة إلى ستة ملايين شخص سنويا على مستوى العالم، أى أكثر من ضعف العدد الذى كان يتسبب فيروس نقص المناعة البشرية الايدز HIV/AIDS فى وفاته، وأكثر من ثلاثة أضعاف عدد ضحايا السل Tuberculosis والذى يمثل نحو مليونى وفاة سنويا وخمسة أو ستة أضعاف ما تسببه الملاريا Malaria والتى تتسبب فى وفاة ما يقرب من مليون شخص سنويا، ألا يشكل تدخين التبغ تهديداً أكبر بكثير من القاعدة؟

تتسم توصيات سميل للتعامل مع الارهاب بأنها محيرة «يجب ألا تحاط استراتيجية مكافحة الارهاب بإطار يضفى عليها شكل الحرب ولكنها مجرد اجراءات قمعية للخلايا أو الشبكات أو التنظيمات السرية العنيفة» كما يشير «بينما أوافق على أن استراتيجية مكافحة الارهاب ينبغى ألا تأخذ إطار الحرب فإن الهدف ليس منظمة واحدة ولكن لابد من تحويل الاهتمام إلى المنظمات الوهمية المشبوهة التى تظهر وتختفى».

فى انتقاله من الصدمات إلى الأحداث الطاحنة يركز سميل على الاتجاهات التى تتكشف فى مجال الطاقة وما يسميه بالنظام العالمى الجديد New World Order، فى عام ٢٠٠٥ كان إجمالى استهلاك الطاقة على مستوى العالم ما يقرب من ١٥ تيراوات TeraWatt «التيراوات يساوى مليون مليون وات» من هذا المجموع حوالى ٨٧٪ أو نحو ثلاثة عشر تيراوات تولدت عن طريق الوقود المستخرج من الأرض. وللمقارنة فإن الشخص العادى يولد تقريبا نفس الكمية من الطاقة كمصباح قوته ١٠٠ وات وبالتالى فإن الستة ونصف بليون شخص الذين كانوا على قيد الحياة فى عام ٢٠٠٥ قاموا بتوليد ٠.٦٥ تيراوات. فى المتوسط فإن ما يحصل عليه الفرد من الطاقة المولدة من مصادر وقود مستخرجة يزيد عشرين ضعفا عن الطاقة التى يحصل عليها من مصادر أخرى.

فى جدله يشير سميل إلى أن التحول إلى الطاقة غير المستخرجة «Nonfossil» سوف يكون صعبا وذلك بسبب أن التغيير المطلوب سوف يكون ذا نطاق واسع وضخم، والمستوى المنخفض للطاقة المستمدة من مصادر الوقود البديلة مقارنة بالبترول وكذلك تفاوت التوزيع المكانى لمصادر الطاقة المتجددة، ومن بين مصادر الطاقة المتجددة فإن الطاقة الشمسية هى الوحيدة القابلة للتحول إلى تيار كهربى وهى تعد مصدرا أكبر بكثير من الإجمالى الحالى لإمدادات الطاقة الأولية، كون هذا التغيير عمليا وقابلا للتطبيق يعد مثار جدل. تقنيا فإن الطاقة القصوى التى يمكن أن يستمدها العالم من تيارات المحيطات والمد والجزر ومصادر الطاقة الحرارية الأرضية والرياح على حسب تقديرات سميل هى أقل من عشرة تيراوات، ويعد توليد الطاقة من الرياح هو أكبر مصدر محتمل.

أما اليوم فإن الإعتماد على المادة النباتية، مثل حرق الخشب والفحم النباتى والروث المجفف، التى ساد استهلاك الانسان لها فى الطاقة فى القرن التاسع عشر لا يعد أحد الكروت المستخدمة». الاقتراحات المقدمة مؤخرا بشأن مشروعات طاقة الكتلة الحيوية الضخمة هى من بين أكثر الأمثلة المؤسفة للجهل والتفكير المبنى على التمنى «فعلى سبيل المثال إذا اعتمد قطاع النقل فى الولايات المتحدة على الإيثانول المستخرج من الذرة بمعدلات ٢٠٠٥ فإن ذلك يتطلب ما يقرب من ثلاثة أرباع الأراضى الزراعية فى البلاد».

من بين مصادر الطاقة البديلة يفضل سميل «توليد الكهرباء بقوة الدفع النووية Aggressively Pushing Nuclear Electricity Generation» وهو يقر بأن الطاقة النووية تفتقر إلى كل من القبول العام والطريقة الآمنة دائما للتخلص من الوقود المستهلك، ويعطى اهتماما قليلا لمخاطر استخدام المحطات النووية كأهداف إرهابية أو كمصادر لمولد تصلح لصنع الأسلحة النووية.

يجادل سميل قائلا: إن اعتماد أشكال جديدة من الطاقة سوف يختلف عن الانتقال الذى كان يحدث فى وقت سابق من محطة مواد الوقود إلى الوقود المستخرج والذى ترافق مع اختفاء الغابات، ومزايا الوقود المستخرج هى كثافة الطاقة، والتخزين، ومرونة الاستخدام، وانخفاض تكاليف الهيدروكاربون والفحم. بالنسبة للمستقبل بينما تزداد تكاليف البترول فإن الفحم لايزال وفيرا ورخيصا ومصادر الطاقة الجديدة ليس من المرجح أن تكون رخيصة ولا سهلة الاستخدام على الرغم من أنها قد تنتج كميات من الغازات أقل بكثير من غازات الصوب الزراعية.

فيما يتعلق بتغير المناخ فإن سميل يتسم بعدم الوضوح فهو يعترف باحتمالية العواقب بعيدة المدى لظاهرة الاحتباس الحرارى Global Warming ويحذر من أن استمرار حرق الوقود يمكن أن يزيد نسبة ثانى أكسيد الكربون CO_2 فى الغلاف الجوى إلى مستويات لم نشهدها منذ أيام القطعان الكبيرة من الخيول والجمال التى كانت ترعى فى السهول العشبية الأمريكية. وقد كتب أيضا «لن تكون هناك دولة محصنة ضد التغيرات المناخية، وحتى القدرة العسكرية والإنتاجية الاقتصادية أو حتى الديانة الأرثوذوكسية لن تستطيع توفير الحماية ضد عواقبها المتنوعة» ولكنه يشير إلى أن هذا الانشغال بثانى أكسيد الكربون يفقدنا ما يقرب من نصف المشكلة لأن الغازات الأخرى المسببة للاحتباس الحرارى - الذى ينبعث من الماشية والغاز الطبيعى والتحلل العضوى - لها آثار حرارية أكثر فعالية حتى إذا كانت أقل فى الكمية. كما أن سميل يوجه اهتماما بالغا للتنبؤات حول ظاهرة الاحتباس الحرارى المستمدة من النماذج المعقدة للسلوك المناخى والتى يعتبرها «اجتهادات تخمينية».



يجب ألا تحاط استراتيجية مكافحة الارهاب بإطار يضفى عليها شكل الحرب ولكنها مجرد اجراءات قمعية للخلايا أو الشبكات أو التنظيمات السرية العنيفة



من أجل التنبؤ بالسخونة الإضافية التى قد تحدث بحلول عام ٢٠٥٠ فيجب علينا الاعتماد على مجموعة من الافتراضات غير المؤكدة تماما. فنحن لا نعرف المعدلات المستقبلية لحرق الوقود المستخرج والتغيرات فى استخدام الأراضى واستخدام الأسمدة وانتاج اللحوم. سوف يعتمدون على الزيادات المستمرة فى استخدام الطاقة ونطاق الاكتشافات الجديدة للمخزون الطبيعى من المواد الهيدروكربونية، ومعدلات تغلغل تحويلات الطاقة البديلة nonfossil والسياسات الوطنية لاستخدام الاراضى والدخل المتاح وعلى الحيوية الكلية للاقتصاد العالمى.

ربما يرى سميل - نتيجة لذلك - التغير المناخى باعتباره واحدا من تغيرات بيئية كثيرة واسعة النطاق ومثيرة للقلق ولم يناقش الكوارث المحتملة التى حذر منها علماء المناخ (١).

بالإضافة إلى تغير المناخ، يحمل سميل علامتى استفهام كبيرتين تشغلان حيز تفكيره بشأن المدى الذى سيستمر به تأثيرنفوذ الاسلام فى النمو ومدى الزيادة التى ستحدث فى التفاوت فى الدخل والثروة بين الدول «سآخذ فى الاعتبار هنا تأثير نفوذ الإسلام فقط». يجادل سميل فى معقولية خلافة إسلامية مركزية محكومة من المغرب إلى باكستان.

لأن العالم الإسلامى يتسم بعدم التجانس (فى الطائفية والمذاهب الاقتصادية والثقافية والسياسية) فإن فرص رؤية كيانات قوية متماسكة وذات نفوذ عالمى واسع النطاق سياسيا واقتصاديا قبل عام ٢٠٥٠ تعد صغيرة إلى حد التلاشى. المشكلة لا تكمن فى الإسلام وهو دين يحمل معتقدات متناقضة ومنفتح لتفسيرات مختلفة ومربك فى مجمله مثل اليهودية والمسيحية وهما ملهمتاه الكبيرتان للفكر التوحيدى الإلهى، المشكلة تكمن فى تسييس الإسلام، يقدم الإسلام تفسيرات متحيزة أو لا يقدم أية تفسيرات على الإطلاق ومن ثم فإنه يرتكز بصلابة على أصوله التى ترتبط بالعصور الوسطى.

يعتقد سميل أن العالم الاسلامى ممنوع من إحراز قدر أعظم من النفوذ العالمى بسبب التأخر والقصور اللذين يميزان تحولاته الديموجرافية فما يحدث هو

تارة ارتفاع لمعدلات المواليد والوفيات ثم تارة أخرى انخفاض لمعدلات المواليد والوفيات يشير سميل إلى أن هذه المشكلة قد ادت فى الكثير من الدول الإسلامية إلى النمو السريع للسكان مع وجود نسبة عالية من الشباب الذين يحتاجون للتعليم والتوظيف. من ناحية أخرى يعتقد سميل أن أوروبا ككل ممنوعة من كونها قوة عظمى من خلال التحول المبكر والمنتشر لديموجرافيتها إلى معدلات أقل من المواليد والوفيات. هل تحتاج العظمة إلى تحولات ديموجرافية مثل الثريد للدببة الثلاث لا هو حار جدا ولا هو بارد جدا؟

من وجهة نظرى فإن الوضع الديموجرافى للمجتمع هو فى أن واحد ناتج من / ومؤثر فى العوامل الاقتصادية والثقافية والبيئية والتى تشترك جنبا إلى جنب مع الديموجرافيا فى تحديد قدرة المجتمع ورفاهيته إذا كانت الشيخوخة وتراجع المواليد للسكان الأصليين يمثلان تحديا لأوروبا فإن لديها تحديا آخر على نفس القدر وهو بطؤها أو عدم رغبتها فى إدماج المهاجرين الأفارقة أو الآسيويين أو الشرق أوسطيين. إذا كانت بعض الدول الإسلامية مهددة بشكل كبير بالخصوبة المرتفعة والنمو السكانى فذلك ليس لأنهم مسلمون. فيما يلى بعض الأخطاء الوقائعية المحيرة التى كتبها سميل:

فى بداية القرن الواحد والعشرين كانت البلدان ذات الأغلبية المسلمة والتى كانت الخصوبة الكلية فيها تقارب مستوى الإحلال هى فقط ايران واندونيسيا وماليزيا. فى كل الدول الإسلامية ذات الكثافة السكانية العالية فى جنوب أفريقيا، الشرق الأوسط فضلا عن باكستان وبنجلاديش كانت الخصوبة تعادل ٥٠٪-١٠٠٪ أعلى من مستوى الإحلال.

كان المعدل الكلى للمواليد فى ماليزيا عام ٢٠٠٠-٢٠٠٥[٢] لا يؤهلها لأن تكون دولة منخفضة الكثافة حيث بلغ هذا المعدل (٢.٩ طفل لكل امرأة) وكان ذلك أعلى من المعدل العالمى وهو (٢.٦ أو ٢.٧ طفل لكل امرأة) فشل سميل أيضا فى أن يدرج ضمن هذه الاستثناءات تركيا والتى بلغ معدل مواليدها ٢.٢ طفل للمرأة الواحدة وتونس بمعدل ٢.٠ طفل لكل امرأة وهذا يعد أقل من مستوى الإحلال. ربما تكون لبنان التى يبلغ تعدادها أربعة ملايين نسمة أقل بكثير من أن توصف بالكثافة السكانية العالية ولكن خصوبتها الكلية تبلغ ٢.٣ وهذا أيضا يقارب معدل الاحلال.

أما إيران والتى معدل خصوبتها الكلية ثابتا عند ٧.٠ طفل لكل امرأة بين عامى ١٩٥٠-١٩٦٥ فإن هذا المعدل قد انخفض إلى ٢.١ طفل لكل امرأة فى السنوات بين ٢٠٠٠-٢٠٠٥. فى ايران هناك نسبة صغيرة من النساء المتعلمات (يجدن القراءة والكتابة) ارتفعت نسبة محو الأمية بين النساء من ١٥٪ عام ١٩٦٦ إلى ٦٥٪ عام ١٩٩١[٣] فى الجمهورية العربية السورية



انخفضت الخصوبة الكلية من ٧.٣ طفل لكل امرأة فى الفترة من ١٩٥٠-١٩٥٥ إلى ٣.٥ طفل لكل امرأة فى الفترة بين ٢٠٠٠-٢٠٠٥ معظم الانخفاض حدث فى العقود الأخيرة وذلك فى أعقاب الارتفاع الكبير فى محو أمية المرأة السورية من ١٥٪ عام ١٩٦٠ إلى ٦٢٪ عام ١٩٩٠. ما يسمسه سميل (تأخر التحول الديموجرافى) ليس مشكلة متعلقة بالإسلام ولكنها مشكلة متعلقة بتأخر التنمية.

فى تساؤله حول امكانات أوروبا فى سيادة عالمية فى المستقبل. يلاحظ سميل أن حصة أوروبا الغربية فى الناتج الاقتصادى العالمى قد انخفضت من ٣٤٪ فى عام ١٩٠٠ إلى ما يزيد قليلا على ٢٠٪ عام ٢٠٠٠، من وجهة نظره لا تلوح الأفاق إلا عن المزيد من الانخفاض النسبى فى القوة الاقتصادية حيث يستمر السكان الأوروبيون فى التقلص والدخول فى الشيخوخة. يصرح سميل - متأثرا بباول ديمينى Paul Demeny وهو متخصص فى علم السكان - قائلا إن أوروبا تواجه تحديا عظيما على مدى نصف القرن القادم. فى عام ٢٠٠٥ مقابل كل عشرة أشخاص من الدول الخمس والعشرين للاتحاد الأوروبى (الاتحاد الأوروبى الـ٢٥) كان يوجد ١٤ شخصا فى الدول الاسلامية المحيطة. بحلول عام ٢٠٥٠ ووفقا للتوقعات فإن المتوسط سوف يكون مقابل كل عشرة أشخاص فى (الاتحاد الاوروبى الـ٢٥) ما يقارب ٢٨ شخصا فى الدول الإسلامية المحيطة وحتى مع وجود صافى الهجرة الذى يتجاوز ٣٥ مليونا ما بين الآن وحتى عام ٢٠٥٠ فإن (الاتحاد الأوروبى ٢٥) من المتوقع له أن يفقد حوالى ١٠ ملايين نسمة ويصل إلى ٤٥٠ مليون نسمة بينما سوف تنمو السكان من جيرانه فى الجنوب والجنوب الشرقى للبلاد ربما بنسبة ١.٢٥ مليار.

فى نهجه لتناول النظام العالمى الجديد New World Order يتساءل سميل عن الدولة التى ستكون على القمة On Top وهو يتوقع اثنين من الاتجاهات الأساسية هما صعود الصين وتراجع الولايات المتحدة والذى سوف يستمر فى الجيل القادم ولكن ما زال نتاج ذلك غير واضح.

ولدى الصين بعض العوائق ومواطن الضعف التى تشمل حكومة استبدادية، احصاءات لا يعول عليها، عدد قليل جدا من الفتيات الصغيرات، الكثير من الشباب العاطلين، الشيخوخة المبكرة كنتيجة لسياسة الطفل الواحد المتبعة فى الدولة، عدم كفاية خطط التقاعد وعدم المساواة فى النمو والتدهور البيئى فالأرض الزراعية محدودة للغاية (ما يزيد قليلا عن ٠.١ هكتار للفرد الواحد مقارنة مع نسبة ٠.٥ هكتار للفرد الواحد فى الدول الغربية الغنية. الاعتماد على دول أخرى فى الحبوب واللحوم والنقص فى المياه والإفراط فى انبعاثات أكاسيد الكبريت والنيتروجين، ومشروعات كهرومائية ذات عواقب وخيمة على البيئة وعدم وجود أفكار جديدة لتدعيم سلطة الحزب الحاكم.

يعرب سميل عن إعجابه بالولايات المتحدة ومع ذلك فمما لا لبس فيه فى تقييمه للوضع «أن شريحة الولايات المتحدة من الهيمنة العالمية ظلت تأخذ مجراها فترة من الزمن. ولكن الآن الكثير من العناصر قد أصبحت أكثر بروزا» وهو يشير إلى حدود القوة العسكرية فى كوريا وفيتنام والصومال والعراق وعدم قدرة الدولة على السيطرة على الهجرة، ويستشهد بارتفاع العجز فى الميزانية الأمريكية والذى من المرجح أن يزداد أكثر من ذلك بكثير فى الأزمة الاقتصادية الراهنة وتدهور ميزان الحساب الجارى فضلا عن اعتمادها على الاستيراد فى اللوازم والمواد الصناعية والطاقة والسلع الرأسمالية والسلع المصنعة والأولية. لقد انخفض نصيب الولايات المتحدة من الناتج الاقتصادى فى العالم من ٣٥٪ عام ١٩٤٥ إلى ٢٠٪ فقط عام ٢٠٠٥ (حتى ٢٠٠٥ كان سكان الولايات المتحدة ٤٪ من سكان العالم).

لدى سميل الكثير ليقوله عن المشاكل الديموجرافية أو السلوكية داخل أمريكا، يتصف سكانها بالشيخوخة وإن كان ذلك بشكل أقل من أوروبا واليابان، لا يوجد عدد كاف من الشباب الأمريكيين القادرين على شراء الأسهم والأصول العقارية بقيمها العليا من هؤلاء الأطفال الأثرياء الذين وصلوا الآن لسن التقاعد. جزء يتجه إلى التزايد من هذه الممتلكات سوف ينتهى به المطاف إلى أيدى مستثمرين غير غربيين بحلول منتصف هذا القرن. فى عام ٢٠٠٣ كانت المهارات الرياضية (الحسابية) للأمريكيين البالغين من العمر خمسة عشر عاما فى مرتبة أدنى من كل دول منظمة التعاون والتنمية OECD باستثناء البرتغال Portugal، واليونان Greece، وتركيا Turkey، والمكسيك Mexico. اللياقة البدنية تتناقص وتظل نسبة البدانة فى ارتفاع مستمر. من الواضح جدا على الأقل بالنسبة لسميل أن الولايات المتحدة US تعيش فى الوقت الضائع وليس لديها نوايا وشيكة للقيام بغير ذلك. إذا أجبرت الولايات المتحدة على العيش ضمن حدود إمكاناتها فسوف تكون مكانا مختلفا تماما إن قيادة الولايات المتحدة للعالم تمر بمرحلة الغروب، يفترض سميل ما يلى:

إن الذى يكون على رأس الأمور قد يتولى ذلك الوضع بسبب كونه منقذا، مهيمنا، قدوة، نموذجا، جذابا لا يمكن مقاومته أو لديه القدرة على فرض قوته بشكل وحشى، من الممكن أن تكون الولايات المتحدة US قد شغلت دورا أو أكثر من الأدوار السابقة بالنسبة لدول مختلفة فى أوقات مختلفة. ولكن تراجعها عن مثل هذه الأدوار لن يخلق عالما أكثر استقرارا لا سيما إذا لم يكن هناك تحالف كبير أو قوة مهيمنة بشكل واضح. إن الأوضاع فى غياب زعيم عالمى فى ظل عالم تجتاحه قوى العولمة سوف تتشابه مع الأوضاع التى كانت موجودة فى أعقاب تراجع القوة الرومانية من حيث الفوضى والتشرذم طويل المدى والأضرار المعوقة للتقدم الإقتصادى وهذا من شأنه أن يؤدى إلى تفاقم كبير للإتجاهات المقلقة فى هذه الأيام سواء كانت اجتماعية أم بيئية.

ولكن يؤكد سميل - على العكس - أن الدول أصبحت أكثر ترابطا وتزايد الاعتماد المتبادل بينها.

فى وجود مصادر طاقة أبعد وأكثر تنوعا ومواد خام ومواد غذائية ومنتجات مصنعة وتزايد الأنظمة العالمية للاتصالات ومعالجة المعلومات، فلا مفر لأى دولة الآن من هذه الحقيقة الملحة التى لا سبيل لتجاهلها، وكما سلف سوف يكون من المستحيل على أى دولة - بغض النظر عن مدى براعتها من الناحية الفنية أو القوة العسكرية - أن تحصل على مكان القيادة فى القمة.

إذا كان الأمر هكذا وأنا أعتقد بذلك فلن توجد دولة - بإحساس سميل - متفردة على القمة ويتساءل المرء لماذا كل ذلك القلق حول الأمة التى ستأخذ زمام القيادة - إن وجدت - وفى رأيى أن عدم وجود دولة على القمة يعد تحسنا لأن الهيمنة باستخدام القوة لابد أن يستعاض عنها بالمفاوضات والاستبدال سوف يكون مبنياً على الميزة النسبية.

لا يحترم سميل «التقييمات المتضاربة للخبراء» عندما يتمسكون بوجهات نظر

معارضة فى غياب المعلومات الموثوق بها أخذاً فى الاعتبار أنه تتوافر الكثير من الأدلة التاريخية لإثبات فشلهم المتكرر فى وضع صورة لمدى التعقيد الذى تتميز به الشئون الانسانية والطبيعية المستقبلية. فى المقابل فإن سميل يفكر جيدا فى نفسه ويخبر القارئ بأصله التشيكى وقدرته على قراءة جميع اللغات الاوروبية الرئيسية ودراسته لليابانية والصينية وانجازاته على مدى خمس سنوات فى تعلم اللهجة العربية واللهجة المصرية ومعيشته فى الولايات المتحدة وكندا وزياراته المتكررة إلى آسيا. وهو يستعرض مهاراته اللغوية من خلال بدء كل فصل بحكمة أو مقطع من قصيدة باللاتينية (ومترجمة أيضا بالانجليزية) وفى نقطة واحدة ذكر أنه اقتبس قولا مأثورا بالحروف الصينية ولم يترجمه وهو يكتب بتواضع عندما يواجه تحدى تقييمات المتحمسين لأوروبا.

المنظور الذى يقدمه مؤلف من المتشككين الأوروبيين يتصف بفهمه لكافة اللغات الأساسية للقارة والذى عاش واكتسب المال من قارات أخرى والذى درس مجتمعات أخرى لابد أن يقدم تقييما أكثر واقعية.

يخلص سميل كما فعل فى كتبه ومقالاته السابقة إلى:

أن الزعم بأنه ينبغى علينا التصرف على نحو يقلل المخاطر كما لو كنا صناع قرارات غير قابلة للندم يجعلنا نبرر تصرفاتنا بالفوائد التى قد تعود حتى لو كانت تقييمات المخاطر الأصلية مهددة بالفشل الجزئى أو حتى الكلى.

وهو يعتقد أن الانشغال بالإرهاب لا يجب أن يحجبنا عن التهديدات التى نحن أكثر عرضة لها خلال الخمسين سنة القادمة وهى «الحرب الضخمة» فضلا عن وباء أو اثنين مثل الانفلونزا، فإذا أخذنا فى الاعتبار المعاناة الهائلة التى تسببها الأشكال الحالية من فيروس نقص المناعة البشرية HIV فإن فيروس الانفلونزا يتميز بكونه أكثر ضراوة وعدوى مما سيشكل كارثة أخرى لوباء فيروسى آخر فى نفس الوقت.

الدعوة إلى تجهيزات وقائية أو اجراءات تخفيفية هدفها تفادى العواقب الوخيمة للنتائج الخارجة عن الإرادة والسيطرة سواء كانت فى وباء فيروسى أو احتباس حرارى أو استخدام أسلحة الدمار الشامل من قبل الإرهابيين.

بعد ذلك بتسع صفحات يكتب سميل «ببساطة ليس هناك طريقة للتحضير لهجوم إرهابى بصواريخ مخطوفة ذات رؤوس نووية تستطيع إحداث عشرات الملايين من الوفيات الفورية ، أو مواجهة وباء شديد الخطورة من شأنه أن يؤدى إلى مائة مليون حالة وفاة. هل نستطيع الاعداد الكافى لمثل هذه التهديدات؟ أم لا نستطيع». يعرب سميل عن حيرته فيقول «فى هذه الدراسة أنا لست على دراية بمصير وقدر الحضارة البشرية».

ومن ثم فهل هناك قيمة لهذا التفكير القلق - أو غيره من الأفكار القلوقة وغير المؤكدة الأخرى - فى علم المستقبل؟[4] نعم. إذا كان يحفزنا ويرشدنا للإعداد لمستقبل بطبيعته غيبى وغير معروف لا. إذا كان الهدف هو تشتيتنا بتخيلات لمشاكل المستقبل بينما مشاكل الحاضر مرعبة. فى أفريقيا الوسطى على سبيل المثال يعانى ٥٥٪ من الناس من سوء التغذية[5]. فى عالم اليوم الذى يضم ٦.٧ بليون نسمة يعانى حوالى شخص من بين كل عشرة أشخاص من الجوع المزمن. يعانى ٢ بليون شخص أو أكثر من نقص العناصر الأساسية الدقيقة فى الغذاء. ما يقرب من طفل واحد من بين ثلاثة أطفال فى الدول النامية يعانون من التقزم وهؤلاء هم الناجون. الآن ما يوفره العالم من الغذاء هو ما يكفى للناس من تغذية على حد الكفاف[6] وفى الوقت نفسه فإن أى مصادر إضافية للدخل يتم إنفاقها فى التجهيز للعنف المنظم وتنفيذه. فقد تجاوزت النفقات العسكرية على مستوى العالم فى عام ٢٠٠٦ نسبة ١.٢ تريليون دولار بالقيمة الحالية للدولار[7] إن الكارثة العالمية اليوم هى ضياع صحة وموهبة وكرامة المليارات من الناس والنفقات فى فرص ضائعة لا تحصى.

فى تركيزه على الكوارث العالمية والاتجاهات التى تتطلب مدى طويلا للنقاش يغفل سميل كثيرا الاتجاهات المختلفة التى تبشر بالخير للمستقبل مثل اتجاهات التعليم وتقنيات حفظ المعلومات والتكنولوجيا الحيوية. فى القرن العشرين انتشر التعليم الابتدائى وتحول من كونه امتيازا يحصل عليه قليل من أطفال الدول الغنية إلى إنجاز يحققه معظم أطفال العالم (على الرغم من تواجد فجوات بارزة)، ويمكن تعميم التعليم الثانوى بنوعية جيدة المستوى وبتكلفة معقولة بحلول عام ٢٠٥٠[8] مع توافر منافع هائلة للأفراد والمجتمعات[9].

انتشر الحفاظ على السلالات والمناطق الطبيعية على نطاق واسع فى الفترة بين تأسيس أول حديقة وطنية على مستوى العالم ييلوستون Yellowstone فى عام ١٨٧٢ إلى اجتماع ١٩٨٢ فى المؤتمر العالمى للحدائق الوطنية والذى أوصى بالحفاظ على ١٠٪ على الأقل من أراضى الدولة كمناطق محمية[10] وقد تم اعتماد هذا الهدف أو ما يعادله سنة ١٩٨٧ من قبل اللجنة العالمية المعنية بالبيئة والتنمية التابعة للأمم المتحدة ومن قبل بعض منظمات حماية البيئة. يشير سميل إلى أن تكلفة هذه الحماية متاحة بينما يضيف خطر التغيير المناخى العالمى كسبب عملى يؤكد أهمية الحفاظ على الغابات.

تقنيات المعلومات فى القرن العشرين والتى تشمل - الاذاعة والتليفزيون والكومبيوتر والهواتف المحمولة والشبكات ذات النطاق الواسع من الكابلات والأقمار الصناعية - تستطيع فى القرن الواحد



والعشرين أن تزيد الوعى العالمى لمن يتضورون جوعا ولمن يعتبرون من ضحايا العنف ونفس التقنيات يمكن أن تستخدم فى تعزيز التعليم والتوجيه البيئى وتقليل كمية المواد التى تشبع احتياجات الانسان إن التكنولوجيا الحيوية فى القرن العشرين والتى تشمل اكتشاف أسس الكروموسومات الجينية «الوراثية» والحمض النووى DNA,RNA والبروتينات واختراعات المضادات الحيوية واللقاحات ووسائل منع الحمل واستحداث تقنيات قوية للكتابة السريعة للحمض النووى، كل هذه العوامل يضاف إليها عوامل أخرى يمكن أن تكون تمهيدا لتحسن صحة البشر واعترافا على نحو أفضل بأهمية التنوع الذى يتيح للإنسان صحة ورفاهية أكثر.

هذه الاتجاهات لديها القدرة والاحتمالية لتحويل تاريخ العالم ومثلها أيضا الكوارث والاتجاهات التى حددها سميل كموضع لتساؤلاته، ووجهة النظر هذه ليست تفاؤلاً ساذجا. فلا يمكن تحقيق الاتجاهات الايجابية إلا إذا أحببنا وأطعمنا وعلمنا ووظفنا ووفرنا الحماية للناس فى يومنا الحاضر وعلى وجه الخصوص الشباب. ■

الهـــــوامـــــش

(١) انظر عرض Bill Mckibben لكتاب الصفقة العالمية The Global Deal فى نيويورك ريفيو. ١١ يونيو ٢٠٠٩ ومؤلف الكتاب هو Nicholas Stern

(٢) معدلات الخصوبة الكلية للسكان متوافرة فى قسم السكان بالأمم المتحدة «التوقعات السكانية العالمية World population prospects ، تنقيح عام ٢٠٠٦ وهو متاح على /esa.un.org/unpp ٢=index.asp?panel

(٣) كتاب «التغيير فى معدلات الخصوبة للسكان فى إيران» والمؤلفة مارى فولادى Marie Ladier-Fouladi "The Fertility Transition in Iran in population" An English Selection(Paris: Institut National d'Etudes De'mographiques,Vol.9.pp ١٩١-٢١٣.

(٤) يعد كتاب سميل هو المحاولة الثالثة التى رأيتها خلال العام الماضى لتصنيف وقياس وتفسير المخاطر الكبرى فى السنين القادمة. ناقش المنتدى الاقتصادى العالمى للمخاطر العالمية عام ٢٠٠٨ World Economic Forum's ٢٠٠٨ Global Risks «المخاطر المالية العالمية واحتياطات المواد الغذائية وأسعارها والتمزق فى سلاسل التوريد وإمدادات الطاقة والأمن، انظر www.weforum.org/pdf/globalrisk/report2008.pdf. لخص السجل الوطنى للمخاطر الخاص بالمملكة المتحدة The UK National Risk Register الحالات الطارئة الأكثر أهمية والتى من المحتمل أن يواجهها مواطنو المملكة المتحدة على مدى الخمس سنوات المقبلة فى الحوادث والأحداث الطبيعية والهجمات الشريرة الخبيثة . انظر wwwcabinetoffice.gov.uk/reports/.national_risk_register.aspx

(٥) انظر «أسباب الجوع: نظرة عامة على أسباب أزمة الغذاء فى أفريقيا» Causing Hunger: An Overview of the Food Crisis in Africa، ملخص أوكسفام Oxfam صفحة رقم ٩١ (٢٠٠٦) متاحة على /www.cfr.org/publication/11625 Oxfam.html.

(٦) منظمة الأغذية والزراعة، الصندوق الدولى للتنمية الزراعية، برنامج الغذاء العالمى «الحد من الجوع والفقر، الدور الحاسم للتمويل من أجل الغذاء والزراعة والتنمية الريفية التى أعدت للمؤتمر الدولى للتمويل من أجل التنمية فى مونتيرى Monterrey المكسيك Mexico فى الفترة من ١٨ إلى ٢٢ مارس ٢٠٠٢ وهذه المعلومات متاحة على /www.fao.org/docrep/003/y6265e y6265e00.htm.

انظر أيضا منظمة الأغذية والزراعة، توقعات الغذاء، تحليل السوق العالمية نوفمبر ٢٠٠٨ متاحة على /www.fao.org/docrep/011/ai474e ai474e00.htm.

(٧) SIPRI Yearbook ٢٠٠٧ أبحاث فى التسلح ونزع السلاح والأمن الدولى (منشورات جامعة أوكسفورد ستوكهولم، معهد أبحاث السلام الدولى ٢٠٠٧) متاحة على/yearbook2007.sipri.org chap٨.

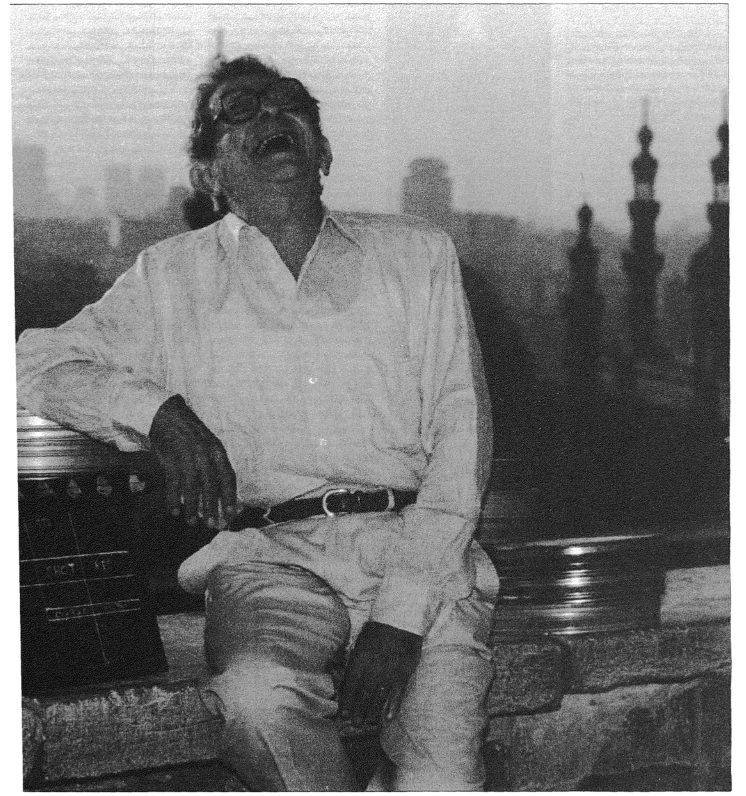
(٨) انظر «تفتح العقول، التمويل والتنمية» لجويل كوهين Joel E.Cohen وديفيد بلوم David E.Bloom مجلد (٤٢) رقم (٢) يونيو ٢٠٠٥ Vol.42,No.2,June٢٠٠٥»، متاح على /www.imf.org/external/pubs/ft/fandd/2005/06 cohen.htm.

(٩) جويل كوهين «جعل التعليم الثانوى عالميا» Make Secondary Education Universal الطبيعة Nature عدد ٤ ديسمبر ٢٠٠٨

(١٠) A.M. Sanjayan and M.E. Soule',"Moving Beyond Brundtland: The Conservation Value of British Columbia's 12 percent Protected Area strategy»، ما وراء برونتلاند قيمة الاحتفاظ بمساحة ١٢٪ من مقاطعة كولومبيا البريطانية كمناطق محمية استراتيجية (السلام الأخضر، ١٩٩٧) متاح على /archive.greenpeace.org/comms/97/forest soule.html.

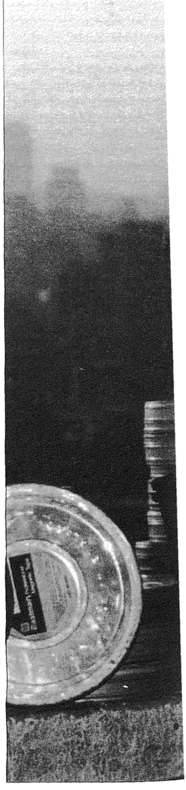
"دبلوماسية السينما"

وليد محمود عبد الناصر



يوسف شاهين فى اليابان

بدأ الاهتمام بالتعاون السينمائى المشترك بين مصر واليابان مبكراً. وكانت التجربة الأولى فى عام ١٩٦١



ينظر اليابانيون دائماً باهتمام للتراث والأداء المصرى فى الفنون المختلفة، باعتبار أن الفنون المصرية هى التى تترك البصمة الأكبر على الشعوب العربية كافة، بل تشكل وجدان هذه الشعوب وتؤثر على تكوينها الثقافى.

ومن أهم الفنون التى كان لمصر الريادة فيها عالمياً، وليس عربياً وأفريقياً ومتوسطياً، هى الفن السابع أو فن السينما.

وفى اليابان، تنتج صناعة السينما سنوياً ٧٠٠ فيلم، وهم يقدرون تماماً أن مصر هى أقدم صناعة سينما فى المنطقتين العربية والأفريقية تنتج فى المتوسط مائة فيلم، وأنها صناعة السينما الأكبر فى المنطقة، بل إنها صناعة السينما الوحيدة فى العالم العربى، حيث إن ما عداها فى الوطن العربى لا يعدو أن يكون تجارب سينمائية أكثر منها صناعة سينما، حيث لا تتعدى كونها إنتاجا متقطعا لأفلام عبر سنوات، أو على الأكثر إنتاج فيلم أو عدد أقل من أصابع اليد الواحدة من الأفلام سنوياً.

وقد بدأ الاهتمام بالتعاون السينمائى المشترك بين مصر واليابان مبكراً، وكانت التجربة الأولى فى عام ١٩٦١، حيث أنتجت شركة الإنتاج السينمائى اليابانى الشهيرة «نيكاتسو» فيلماً بعنوان «صخرة العرب»، واختارت لبطولته الفنانة الكبيرة شادية.

ولكن هذه التجربة، وإن كانت الأولى لم تكن الأخيرة بأى حال من الأحوال. ففى عام ١٩٩٢ كان لقاء السينما اليابانية هذه المرة مع النجم المصرى العالمى عمر الشريف. وكان اسم الفيلم اليابانى: «تنجوكو نو تايزاى»، وبالعربية يعنى «الجريمة الكبرى فى السماء». ومنذ ذلك الوقت، يحظى الفنان عمر الشريف بشهرة كبيرة وشعبية جارفة فى اليابان، ويرتبط فى ذهنهم بالسينما المصرية، بالرغم من انتقاله إلى العالمية منذ فترة مبكرة.

وكان اللقاء الثالث للشعب اليابانى مع السينما المصرية هو هذه المرة مع المخرج المصرى العالمى الراحل يوسف شاهين. فقد اختارت اللجنة المنظمة لمهرجان طوكيو السينمائى الدولى فى أكتوبر ١٩٩٧ فيلم «وداعاً بونابرت» من إخراج الراحل يوسف شاهين للمشاركة فى المهرجان. وحقق الفيلم نجاحاً بين النقاد وعلى المستوى الجماهيرى على حد سواء. وقد شكل هذا النجاح دافعاً للتسويق التجارى للأفلام المصرية فى اليابان، ومن الطبيعى أن يكون التركيز على أفلام المخرج الكبير الراحل يوسف شاهين. وتمثل ذلك فى عرض فيلم «المصير» تجارياً عام ١٩٩٨، وفى العام نفسه تم الاحتفاء بالفيلم من خلال دعوة المخرج وكذلك الفنان محمد منير والفنان هانى سلامة والأخيران من أبطال فيلم المصير، للحضور لليابان بمناسبة العرض الأول لفيلم المصير فى دور العرض السينمائى اليابانية.

ولكن ما بين التاريخين، قامت شركة «توى» اليابانية الشهيرة فى مجال الانتاج السينمائى بإنتاج فيلم بعنوان «النيل»، وكتب له السيناريو عالم المصريات اليابانى الشهير «ساكوجى يوجيمورا»، وكانت البطولة النسائية فيه للنجمة المصرية الصاعدة فى ذلك الوقت «رانيا يوسف»، وتم عرض الفيلم تجارياً فى اليابان على نطاق واسع.

وفى مارس ٢٠٠٧، نظمت «مؤسسة اليابان»، وهى الذراع الثقافية للسياسة الخارجية اليابانية، مهرجاناً للفيلم العربى ضم ١٨ فيلماً، وكما هو متوقع كان نصيب الأسد فى المشاركة من حيث عدد الأفلام لصالح السينما المصرية، فهى الأقدم والأهم والأكثر تأثيراً فى العالم العربى. وعرض عدد من الأفلام تمثل مراحل تاريخية مختلفة فى مسيرة السينما المصرية. وشارك من مصر فى هذا المهرجان كل من المخرج الكبير داود عبد السيد، والأستاذ على أبو شادى رئيس المركز القومى للسينما فى ذلك الوقت وأمين عام المجلس الأعلى للثقافة فيما بعد، وأخيراً وليس آخراً المؤرخة والناقدة الرائعة للسينما المصرية الأستاذة ماجدة واصف.

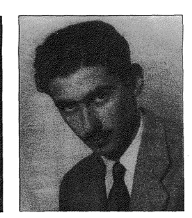
ولكن فى الاستعداد لمهرجان طوكيو السينمائى الدولى العشرين فى أكتوبر ٢٠٠٧، كانت قد دارت جهود اللحظة الأخيرة فى شهر سبتمبر من نفس العام من جانب السفارة المصرية فى طوكيو والمكتبين الثقافى والإعلامى التابعين لها مع إدارة المهرجان لتضمين فيلمين مصريين فى المهرجان. وكان المدخل للنجاح فى هذا الجهد هو حث إدارة المهرجان على عرض أفلام لمخرجات من الجيل الجديد فى السينما المصرية والنظر إذا ما كانت أفلام مخرجات الجيل الجديد تتكلم عن قضايا المرأة المصرية فقط، أم تتخذها مدخلاً لتناول كافة قضايا المجتمع المصرى بفئاته المختلفة، أم تتناول مباشرة قضايا مجتمعية تخص كافة المصريين، رجالاً ونساءً. ومن هنا جاء الاتفاق على دعوة المخرجة الموهوبة والمتميزة «هالة خليل» لحضور المهرجان، وعرض فيلميها حتى ذلك التاريخ وهما «أحلى الأوقات»، و«قص ولصق». وقد لاقى الفيلمان إقبالاً جماهيرياً مثيراً للانتباه، كما لقيا تقديراً من النقاد.

وكانت هناك محطة أخرى هامة فى تاريخ التعرف اليابانى على السينما المصرية، وجاءت فى مارس ٢٠٠٨، حيث نظمت «مؤسسة اليابان»، وللعام الثانى على التوالى، مهرجاناً للفيلم العربى تم خلاله أيضاً عرض أفلام مصرية، كانت جميعاً من إخراج الفنان والمخرج المخضرم محمد خان، وفى مقدمتها آخر أفلامه فى ذلك الوقت «فى شقة مصر الجديدة».

وفى أغسطس ٢٠٠٨ رحل عن عالمنا المخرج المصرى العالمى يوسف شاهين، وكان من الطبيعى أن تسعى السفارة المصرية بطوكيو للتنسيق مع إدارة مهرجان طوكيو السينمائى الدولى الحادى والعشرين فى أكتوبر ٢٠٠٨ لإحياء ذكرى المخرج الراحل بشكل يتناسب مع مكانته العالمية، وكذا فى اليابان ذاتها، بناء على سابق عرض أفلام له فى اليابان والنجاح الكبير الذى لاقته، سواء فنياً أو جماهيرياً، وتحديداً «اسكندرية ... ليه»، «وداعاً بونابرت»، و«المصير». وبالفعل تفاعلت إدارة مهرجان طوكيو السينمائى الدولى إيجابياً مع هذا المسعى، وتم الاتفاق على عرض فيلم «باب الحديد»، الذى يمثل علامة بارزة ليس فقط فى تاريخ الأستاذ يوسف شاهين رحمه الله، بل فى تاريخ ومسار السينما المصرية ككل. ولم يتم الاكتفاء بعرض الفيلم فى ثلاثة عروض بدور عرض فى مناطق متنوعة فى العاصمة اليابانية، ولكن تم أيضاً تنظيم ندوة كبيرة شهدت مشاركة مكثفة وإيجابية من فنانين ونقاد ومشاهدين يابانيين معنيين بالسينما عموماً، وبالتأكيد بالسينما المصرية على وجه الخصوص، عن الفنان الراحل يوسف شاهين، تحدث فيها السيد «إيشيزاكا»، منسق العلاقات الدولية بإدارة المهرجان عن بصمات المخرج يوسف شاهين على السينما المصرية والعربية والعالمية، وعن معرفة الشعب اليابانى بالمخرج الراحل وعطائه،

مهرجان «بانوراما السينما المصرية»، «رياح آسيا والشرق الأوسط» طوكيو - أكتوبر ٢٠٠٩





وشكلت بانوراما السينما المصرية نافذة غير مسبوقة ليطل المواطن اليابانى منها على المجتمع المصرى المعاصر ويدرك أنه مجتمع إنسانى يتصف بالديناميكية والحراك



سواء عبر زيارته الفنية لليابان فى عام ١٩٩٨، أو من خلال أفلامه التى عرضت فى اليابان، سواء فى مهرجانات سينمائية أو فى عروض تجارية. ثم دعانى السيد «إيشيزاكا» للتحدث فى هذه الندوة أيضاً، حيث عرضت لموجز وتطور تاريخ سينما الأستاذ يوسف شاهين وخصائصها وإفرازاتها من الأفكار والنجوم من ممثلين ومخرجين وغير ذلك، وما أثارته من قضايا وإشكاليات فى مراحل مختلفة بالإضافة إلى خصوصيتها التى أهلتها للوصول إلى المهرجانات العالمية والحصول على عدد من الجوائز فيها، وتنوع هذه المدرسة وعطائها ورمزية دلالاتها فى العديد من الأفلام.

ولكن هذه النجاحات جميعاً اتصفت بالطابع الجزئى، ومن ثم نمت وتبلورت بالتدريج فكرة تنظيم مهرجان للسينما المصرية فى اليابان. وهنا ثار عدد من التساؤلات: هل يكون المهرجان مستقلاً وقائماً بذاته بكل ما يحمله ذلك من تكلفة مالية وعبء تنظيمى ودعائى ضخم؟ أم يكون فى إطار مهرجان أكبر، خاصة مهرجان طوكيو السينمائى الدولى السنوى، بما يجعله يستفيد من البنية التحتية الموجودة والمتجذرة أصلاً لهذا المهرجان وماكينته الدعائية وقدراته التنظيمية؟ وارتبط هذا الخيار بين بديلين بدوره بخيار آخر: هل تنظم هذا المهرجان للفيلم المصرى جهات مصرية وحدها، بكل ما يحمله ذلك من احتمال ظهور أوجه قصور لا تتصل بالتقصير بل ببساطة بعدم المعرفة الكافية بذوق المشاهد اليابانى وأفضلياته وكيفية الاقتراب منه والتفاعل معه؟ أم يتم التنظيم عبر تطوير شراكة مع جهة يابانية تكون لها خبرتها فى مجال تنظيم المهرجانات السينمائية، خاصة لدول خارج اليابان، ولها سجل جيد من التجارب الناجحة المتراكمة فى هذا السياق؟ ويقودنا هذا الخيار بدوره إلى تساؤل ثالث ولا يقل أهمية، وأعنى هنا كيفية اختيار الأفلام المصرية التى ستعرض فى هذا المهرجان للفيلم المصرى فى اليابان وعددها والموضوعات التى تتناولها وتاريخ إنتاجها وغير ذلك من خصائص هامة وذات دلالة؟ ويرتبط السؤال الأخير بالضرورة والطبيعة بسؤال آخر حول تشكيل الوفد المصرى القادم من القاهرة لطوكيو للمشاركة فى هذا المهرجان ومكوناته والتوازن فيما بينها؟



ولم يكن الرد على هذه التساؤلات بالأمر الهين أو اليسير. وكانت نقطة البداية تحديداً منذ مهرجان طوكيو السينمائى الدولى الحادى والعشرين الذى دار فى أكتوبر ٢٠٠٨، حيث بدأ التفكير فى تنظيم مهرجان للسينما المصرية فى اليابان. وجاءت الإمكانية أولاً من منطلق اتفاق الحكومتين المصرية اليابانية على أن يكون عام ٢٠٠٩ عاماً للترويج السياحى لمصر فى اليابان. وبالتالى، ترتب على ذلك إدراج تنظيم مهرجان سينمائى مصرى ضمن فعاليات هذا العام. وكان لهذا الاختيار منطقه. فالشعب اليابانى، بكافة فئاته العمرية وعلى تنوع خلفياته التعليمية والثقافية والاجتماعية، يعلم الكثير جداً عن مصر الفرعونية، حضارة وثقافة. فالصغار يتعلمون عن الحضارة المصرية القديمة فى مناهج الدراسة بالمدارس الابتدائية، والكبار يشاهدون عنها الكثير فى برامج التليفزيون اليابانى وفى معارض الآثار المصرية فى مختلف المدن اليابانية. ولكن بالمقابل، فإن اليابانيين لا يعلمون الكثير عن أوجه الحياة فى مصر الحديثة والمعاصرة، وما يعلمونه يأتى غالباً من خلال الصحافة ووسائل الإعلام الغربية، التى يكون لها بدورها فى العديد من الأحيان تحيزاتها أو افتراضاتها المسبقة التى قد لا تكون بالضرورة إيجابية تجاه هذه الأوجه من الحياة المعاصرة فى مصر. ومن هنا جاءت فكرة تنظيم هذا المهرجان للسينما المصرية بهدف توظيف ذلك كوسيلة لتعريف المواطن اليابانى بمعطيات الحياة فى المجتمع المصرى حالياً من خلال عرض أفلام سينمائية تعرض رؤى لهذه الحياة وتجذبه أيضاً لزيارة هذا المجتمع والتعرف عليه عن قرب.

وبدراسة البدائل الخاصة بتنظيم المهرجان بشكل منفرد أو بالتعاون مع جهة يابانية أخرى، وعما إذا كانت الشراكة فى التنظيم ستشمل أطرافاً يابانية أيضاً، فإنه بالبحث والدراسة تبين أنه من الأفضل تنظيم المهرجان بالتعاون مع جهة يابانية متخصصة لها خبرتها فى هذا الميدان. وكان الاختيار فى ضوء سابق التعاون مع كل من إدارة مهرجان طوكيو السينمائى الدولى ومع «مؤسسة اليابان» فى هذا المجال بين كل من الجهتين. وجاء التفضيل للتعاون مع إدارة مهرجان طوكيو السينمائى الدولى، بل والخلوص إلى أنه من الأوفق أن يكون مهرجان السينما المصرية جزءاً من فعاليات مهرجان طوكيو السينمائى الدولى الثانى والعشرين فى أكتوبر ٢٠٠٩. وكان المنطق وراء السعى لهذه الشراكة هو الاستفادة من التاريخ الطويل والرصيد الضخم لمهرجان طوكيو السينمائى الدولى من القدرات الإدارية والمهارات التنظيمية واللوجيستيكية التى تسمح بضمان خروج مهرجان السينما المصرية على أفضل نحو ممكن. كما أن لإدارة مهرجان طوكيو علاقات مؤسسية ومستدامة مع شبكة واسعة من الصحفيين والنقاد والكتاب والإعلاميين اليابانيين المعنيين بالسينما وقضاياها بما يسمح باستكمال ما لدى السفارة المصرية بطوكيو ومكتبها الإعلامى من اتصالات وعلاقات فى هذا المضمار. كذلك فإن إدارة مهرجان طوكيو لا شك أنها بمرور الوقت صارت على دراية بتفضيلات الجمهور اليابانى واهتماماته وأولوياته فيما يتعلق بنوعية الأفلام التى يقبل على مشاهدتها والموضوعات التى تسترعى انتباهه. ومن تعدد تجارب التفاعل مع الجمهور اليابانى تولدت لدى إدارة مهرجان طوكيو السينمائى الدولى المعرفة بميول المشاهد اليابانى وتوقعاته والأسس والمعايير التى يبنى عليها النقاد السينمائيون اليابانيون تقييمهم لمختلف الأعمال والتجارب السينمائية.

وجاءت المرحلة الثانية ممثلة فى التوصل إلى الصيغة المثلى لتنظيم مهرجان للسينما المصرية فى إطار مهرجان طوكيو السينمائى الدولى. وتمثلت تلك الصيغة فى أن يكون المهرجان باسم «بانوراما السينما المصرية»، وأن يكون داخل سياق ما يسمى بـ «رياح آسيا والشرق الأوسط»، وهو قسم ثابت سنوياً ضمن فعاليات مهرجان طوكيو السينمائى الدولى، على أن تكون مصر ضيف شرف مهرجان طوكيو السينمائى الدولى فى دورته الثانية والعشرين. كما تم الاتفاق بين السفارة المصرية وإدارة مهرجان طوكيو السينمائى الدولى على ألا تقتصر العلاقة بين الطرفين على كون إدارة مهرجان طوكيو مجرد جهة منفذة لبانوراما السينما المصرية، بل أن تتصف العلاقة بالشراكة الكاملة، بحيث تشارك إدارة مهرجان طوكيو السينمائى فى تحمل





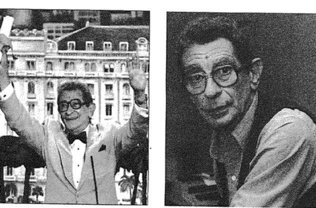
التكاليف المالية لهذه البانوراما بما يجعل لها مصلحة مباشرة فى ضمان أفضل إنجاح للبانوراما وفعالياتها واهتمام النقاد بها وإقبال المشاهدين عليها، وقبل ذلك وكله الترويج الإعلامى الواسع لها من خلال الصحف ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمواقع الالكترونية على الشبكة العنكبوتية الدولية (الانترنت)، والمنتديات والنوادى والمحافل المختلفة للمعنيين بالشأن السينمائى فى اليابان، بل والملصقات فى الشوارع ومحطات القطارات والحافلات ومترو الأنفاق. وداخل المدارس والجامعات ومواقع العمل. وكذلك المنشورات التى تطبعها وتوزعها إدارة المهرجان بالآلاف فى النوادى الخاصة والمطاعم والمقاهى والفنادق وغيرها من الأماكن التى يرتادها اليابانيون داخل طوكيو الكبرى، بل وخارجها أيضاً.

وكان من الطبيعى الانتقال لمرحلة تالية فى الإعداد للمشاركة المصرية المتميزة فى مهرجان طوكيو السينمائى الدولى، وهى معايير اختيار الأفلام المصرية التى سيتم اختيارها لتمثيل السينما المصرية فى تلك البانوراما التى ستتم فى طوكيو. وهنا تداخلت العديد من الاعتبارات. أما الاعتبار الأول فكان أنه كما سبق أن أوضحنا، فلأسباب كثيرة سبق عرضها وتناولها كان الأكثر شهرة من رموز السينما المصرية لدى الجمهور اليابانى هما تحديداً الفنان الكبير عمر الشريف والمخرج الراحل يوسف شاهين، وبالتالى كان يتعين أخذ ذلك فى الاعتبار عند اختيار الأفلام التى ستشارك فى المهرجان. ولكن تزامن ذلك مع الحاجة لضمان تجنب التكرار، أى اختيار أفلام لم يسبق عرضها فى اليابان، سواء فى مهرجانات أو فى عروض تجارية، حتى لو كانت هذه الأفلام من بطولة الفنان عمر الشريف أو من إخراج الفنان الراحل يوسف شاهين. أما الاعتبار الثانى فكان الرهان بالمقابل على عرض عنصر التسلسل التاريخى فى تطور مسيرة السينما المصرية بهدف تعريف الجمهور اليابانى بتطورها التاريخى ومراحله المختلفة وخصائص كل مرحلة من حيث الموضوعات التى تم تناولها ومدارس الإخراج والتمثيل وغيرها من الفنون ذات الصلة بالسينما التى برزت أو تميزت أو غلبت فى كل مرحلة. وكان لهذا الطرح دلالته، من حيث أن تنظيم بانوراما السينما المصرية فى إطار مهرجان طوكيو السينمائى الدولى تزامن مع الاحتفال بمئوية السينما المصرية، وهى مئوية كان قد سبق أن أعدت المؤرخة والناقدة السينمائية المصرية الأستاذة ماجدة واصف عملاً موسوعياً ووثائقياً وتحليلياً رائعاً صدر فى مجلد ضخم عن معهد العالم العربى فى باريس. وبالتالى كانت هذه الذكرى مناسبة ملائمة لأن تكون الأفلام المصرية المشاركة فى مهرجان طوكيو معبرة عن هذا الزخم الثرى من العطاء الفنى والثقافى، بل والاجتماعى والحضارى، للسينما المصرية عبر تاريخها الطويل. إلا أنه بالمقابل، فإن هذا المنهج التاريخى كان قد اتبع بالفعل فى اختيار الأفلام المصرية التى شاركت فى مهرجان السينما العربية الذى كانت قد نظمته «مؤسسة اليابان» فى مارس ٢٠٠٧، كما عرضنا من قبل. وكان الاعتبار الثالث هو ضرورة انتهاز هذه الفرصة، وهى الأولى من نوعها من حيث تنظيم مهرجان مكرس بالكامل للسينما المصرية فى اليابان، بل لأول مرة تكون دولة عربية أو أفريقية ضيف شرف فى مهرجان طوكيو السينمائى الدولى، لعرض تجارب جديدة فى السينما المصرية وتعريف المشاهد اليابانى بمخرجين وممثلين وممثلات يمثلون نجوماً فى سماء السينما المصرية والعربية، استمراراً للنهج الذى تكرس منذ الدورة العشرين لمهرجان طوكيو السينمائى الدولى فى أكتوبر ٢٠٠٧، والتى سبق التعرض لها، والذى انعكس فى استضافة المخرجة هالة خليل وعرض فيلمين لها. وتمثل الاعتبار الرابع فى محاولة أن يتم استغلال هذه المناسبة أيضاً لعرض فيلم أو أكثر من الأفلام الوثائقية والتسجيلية التى باتت أكثر انتشاراً وشهرة، بل وشعبية، فى السينما المصرية خلال السنوات الماضية، وحصل الكثير منها على جوائز فى مهرجانات دولية وعربية، وعلى تقدير وتثمين من النقاد داخل مصر وخارجها.



وفى هذا المضمار دار حوار ثرى بين الأطراف ذات العلاقة، ونتيجة نصائح الشريك اليابانى فى تنظيم بانوراما السينما المصرية فى اليابان، وهى إدارة مهرجان طوكيو السينمائى الدولى، تم الانحياز للجمع بين الخيارات الأول والثالث والرابع، أى التركيز على عرض أفلام للمخرج الراحل الاستاذ يوسف شاهين، لا تكون قدر الإمكان قد عرضت من قبل، وتمثل سياقاً متصلاً يساعد المشاهد على تتبع إسهامه السينمائى ورؤيته لتطور المجتمع المصرى فى إطار ما يعرف باسم «سينما يوسف شاهين»، وأيضاً عرض أفلام للممثل المصرى العالمى عمر الشريف، تكون لمرحلة ما بعد عودته للسينما المصرية وتكون حديثة نسبياً، وتعرض أيضاً لقضايا مجتمعية تتناول حياة الشعب المصرى، والجمع بين ما تقدم وبين عرض أعمال لمخرجين ينتمون لأجيال تالية للأستاذ يوسف شاهين، ومن هنا نشأت فكرة أن يكون بعض هؤلاء المخرجين ممن تتلمذوا على يد الأستاذ يوسف شاهين، بحيث يتمكن المشاهد من المقارنة والمفارقة ومعرفة أوجه التماثل والشبه والتباين والاختلاف بين «الأستاذ» والتلميذ»، وأخيراً إدماج عرض أفلام تسجيلية أو وثائقية مصرية فى سياق هذه المنظومة المتكاملة.

وجاء هذا الاختيار بشكل أكثر تحديداً ممثلاً فى رباعية الفنان يوسف شاهين التى تمثل رؤيته السينمائية لسيرته الذاتية، وهى أفلام «حدوتة مصرية»، «اسكندرية ... ليه»، «اسكندرية ... كمان وكمان»، وأخيراً «اسكندرية ... نيويورك». أما بالنسبة لأفلام لمخرجين من جيل تال للفنان عمر الشريف ولكنهم فى الوقت ذاته من تلاميذه، فكان من المنطقى اختيار المخرج «خالد يوسف» الذى بقى مع الفنان الراحل يوسف شاهين حتى النهاية، بل وشارك معه فى إخراج آخر أفلام يوسف شاهين «هى فوضى»، برغم إصرار الأستاذ خالد يوسف على أن هذا كان تكريما له من الفنان يوسف شاهين وأنه كان مصراً على رفض ذلك ولكنه قبله من منطلق عرفانه وامتنانه لتقدير أستاذه له، وكان الاختيار ضمن أفلام المخرج خالد يوسف هو لفيلم «خيانة مشروعة» الذى كان قد سبق أن شاهده مدير مهرجان طوكيو السينمائى الدولى فى مهرجان أبو ظبى السينمائى الدولى منذ عامين وأعجب به بدرجة كبيرة. ولم يقتصر اختيار الأفلام الجديدة نسبياً على فيلم الأستاذ خالد يوسف، بل تم اختيار فيلمين آخرين لمخرجين من جيل تال للأستاذ يوسف شاهين أيضاً، الأول هو «ألوان السما السبعة» للمخرج سعد هنداوى، وأيضاً فيلم «واحد صفر» للمخرجة كاملة أبو ذكرى ومن إنتاج جهاز السينما بمدينة الإنتاج الإعلامى. وبالنسبة للفنان عمر الشريف، كان من الطبيعى أن يأتى اختيار فيلم «حسن ومرقص» الحديث



ناقش الطرفان هماً مشتركاً يتمثل فى الموقف من هيمنة السينما الأمريكية على الساحة السينمائية العالمية، سواء فى اليابان أو فى مصر



نسبياً والذى يتناول مسألة هامة فى تاريخ المجتمع المصرى المعاصر، وهى العلاقة بين المواطنين المسلمين والمواطنين الأقباط. أما فيما يتعلق بالأفلام الوثائقية والتسجيلية، فكان اختيار فيلم حديث للغاية هو «حق مر» للمعدة والمخرجة والكاتبة زينب عبد الرزاق، وهو يتناول معاناة المرأة المصرية على أرض الواقع فى حالة تعرضها للطلاق للحصول على حقوقها كما تقررها لها القوانين وأحكام المحاكم.

وبعد هذا الحسم بالنسبة للأفلام المشاركة كان لابد من الاتفاق على قائمة قوية لتشكيل الوفد المصرى المشارك فى مهرجان طوكيو السينمائى الدولى بمناسبة تنظيم بانوراما السينما المصرية، بحيث تمثل مختلف فئات المساهمين فى نهضة الفن السابع فى مصر اليوم، ويكون لها أيضاً صلة بالأفلام المعروضة فى بانوراما السينما المصرية. وفى هذا السياق تم صياغة قائمة موسعة من جانب كافة الجهات المصرية واليابانية المشاركة فى التنظيم لتوجيه الدعوة إليها للمشاركة فى الوفد المصرى رفيع المستوى للمهرجان.

وبالتالى وفى نهاية الأمر، فقد تشكل وفد رفيع المستوى لتمثيل السينما المصرية فى هذا الحدث الهام، وغير المسبوق بالنسبة للاحتفاء بالسينما المصرية وتكريمها فى اليابان. وكان حضور الوفد المصرى لافتاً خلال مراسم الافتتاح الرسمى لفعاليات المهرجان، حيث قام رئيس الوزراء اليابانى بافتتاحه، وأشار رئيس مهرجان طوكيو السينمائى الدولى الثانى والعشرين فى كلمته التالية إلى المشاركة المصرية المتميزة كضيف شرف فى المهرجان عبر بانوراما السينما المصرية مرحباً بالوفد السينمائى المصرى. وتلا ذلك حضور حفل الافتتاح، الذى كان فريداً هذا العام ومتسقاً مع «السجادة الخضراء»، حيث أن الفيلم كان وثائقياً بعنوان «المحيطات» من إنتاج فرنسى بالتعاون مع عدد كبير من المؤسسات فى عدد ضخم من دول العالم، من بينها مصر. وكان اختتام مراسم الافتتاح ممثلاً فى حفل استقبال ضخم شارك فيه كافة الحاضرين من اليابان وعبر العالم من فنانين ومنتجين ونقاد ومسئولين وسفراء أجانب معتمدين لدى اليابان، مما أتاح الفرصة للتفاعل الحى والتعارف المتبادل بين الوفد المصرى وبقية الوفود بشكل عام، والسينمائيين اليابانيين على وجه الخصوص.

أما اليوم التالى فكان مخصصاً بالكامل لبانوراما السينما المصرية فى اليابان، حيث بدأ بعرض فيلمين، الأول روائى وهو «حسن ومرقص»، ثم تلاه الفيلم الوثائقى «حق مر»، ومن ثم بدأت فعاليات الندوة الخاصة بالسينما المصرية التى أدارها السيد «إيشيزاكا» منسق العلاقات الدولية بمهرجان طوكيو السينمائى الدولى، وشارك فيها كافة اعضاء الوفد السينمائى المصرى، كما كان لى شرف المشاركة فيها. وبدأت الندوة بتقديم من السيد «إيشيزاكا» تناول أهمية السينما المصرية إقليمياً وعالمياً، كفن وصناعة وتجارة فى آن واحد، وتتبع تاريخ معرفة الشعب اليابانى بهذه السينما وإنتاجها. ثم كان لى فرصة التحدث عما أسهمت به السينما المصرية فى فترات سابقة عندما مثلت ثانى صادرات مصر للعالم الخارجى بعد القطن، واستعراض الدورات التى مرت بها صعوداً وهبوطاً، والتعرض لإسهامها الثقافى مصرياً وفى دوائر الدول والشعوب العربية والإسلامية والأفريقية والمتوسطية، وتفاعلها مع المجتمع المصرى وقضاياه. ثم تحدث كل من أعضاء الوفد المصرى المشارك، فى شكل ردود على أسئلة متنوعة ومتعددة الأبعاد والدلالات من السيد «إيشيزاكا»، الذى هو شخصياً على معرفة عميقة ومنذ وقت طويل بالسينما المصرية وأنماط تطورها. تناولت موضوع الإنتاج السينمائى فى مصر وما يواجهه من ظروف، وتحديات توزيع الفيلم المصرى خارج مصر، وتقييم الفنانين المصريين ورؤيتهم لموقع السينما المصرية اليوم على خارطة السينما العالمية. وتداخلت الإسهامات فى الندوة من جانب المشاركين وتعددت الآراء، وهو الأمر الذى زادها ثراء، خاصة أنها أخذت شكلاً حوارياً متعدد الأطراف. وتشعب النقاش بشأن مسألة موقع السينما المصرية ما بين المحلية والإقليمية والعالمية، ومدى مساحة وحجم التداخل والتباعد بين الدوائر الثلاث، وتقدير المشاركين للعوامل التى يمكن أن تسهم فى أن تكون السينما المصرية أكثر تعبيراً عن الواقع المعاش فى مصر بمشكلاته وطموحاته وأحلامه وتحدياته وقضاياه، وفى الوقت نفسه، أو حتى بسبب ذلك، تكون أكثر عالمية. كما تطرق الحديث إلى مسألة النقد السينمائى فى مصر، وموقف بقية أطراف العملية السينمائية منه وتقييمهم لدوره، وكان من الطبيعى أن يقود ذلك بدوره إلى حديث جاد حول دور الصحافة والإعلام فى مصر فى التأثير على أوضاع صناعة السينما إيجاباً وسلباً. ولم يكن من الممكن التحدث فى كل هذه الموضوعات دون التعرض لمدى رؤية السينمائيين المصريين للسينما اليابانية كصناعة وفن، ووجهات نظرهم بشأن فرص وآفاق التعاون بين السينما المصرية واليابانية، خاصة فى ضوء سابق وجود حالات تعاون منفردة وعلى فترات بين الطرفين، كما عرضنا آنفاً فى جزء سابق من هذا المقال. بل ذهب الحديث خطوة أبعد ليمس هماً مشتركاً لدى السينمائيين على الجانبين المصرى واليابانى على حد سواء، وأعنى هنا الموقف من هيمنة السينما الأمريكية على الساحة السينمائية العالمية، سواء فى اليابان أو فى مصر. فالفيلم الأمريكى يزاحم وينافس الفيلم المصرى داخل مصر والوطن العربى بنفس القوة التى ينافس بها الفيلم اليابانى داخل اليابان وعلى امتداد آسيا. وتنوعت الآراء واختلفت بشأن طبيعة هذا التحدى الذى تمثله السينما الأمريكية وإيجابياته وسلبياته على صناعة السينما فى مصر واليابان، ولكن اتفقت المواقف بشأن أهمية إفراد مساحة أكبر وبشكل تدريجى فى مصر لعرض الأفلام اليابانية، ونفس الشىء فى اليابان بالنسبة للأفلام المصرية، سواء عبر المشاركة فى مهرجانات السينما المقامة فى البلدين أو عبر التسويق التجارى والعرض الجماهيرى، وهو الأمر الذى من شأنه أن يمهد لبناء جسر إضافى للمزيد من التعارف والتفاهم بين الشعبين المصرى واليابانى والنخب الثقافية والفنية فى المجتمعين وكانت السمة الأبرز فى هذه الندوة هى الحضور الجماهيرى المكثف الذى اقترب من الألف شخص.

وأعقب الندوة مؤتمر صحفى، كان الحضور فيه كثيفاً أيضاً، سواء من جانب النقاد أو الصحفيين والإعلاميين اليابانيين، بالإضافة إلى مواطنين يابانيين معنيين بالساحة السينمائية فى اليابان وخارجها، ويابانيين آخرين مهتمين بمصر ونطاقها الجغرافى والثقافى، بجانب مشاركة ممثلى الصحافة ووسائل الإعلام المصرية والعربية فى العاصمة اليابانية. وشهد المؤتمر الصحفى طرح أسئلة على النجوم المصريين تدل على أن من طرحها على دراية عميقة ويحتفظ بمتابعة دقيقة للسينما



المصرية. ومن عينة هذه الأسئلة كان سؤال حول السبب في غياب الأفلام التاريخية عن الساحة السينمائية المصرية منذ سنوات، وربطت من طرحت السؤال بينه وبين ابداء إعجابها بفيلم «المصير» من إخراج الراحل يوسف شاهين، والذي ذكرت أنها شاهدته في اليابان عندما تم عرضه تجارياً بها منذ أكثر من عقد من الزمان(!). ومن الأسئلة التي طرحت ما تناول العلاقة بين السينما المصرية ووضع المرأة في المجتمع المصري، سواء كان التأثير سلبياً أو إيجابياً، أي الترويج لصور نمطية سلبية عن المرأة، أو بالمقابل حمل لواء قضايا تهم المرأة المصرية والدفع نحو علاجها بشكل منصف لها وللمجتمع ككل. كما طرح سؤال عن تصور الوفد السينمائي المصري لسبل التعاون مع اليابان في المجال السينمائي والبناء على الإنجاز الذي تحقق عبر تنظيم أول بانوراما للسينما المصرية في اليابان، بل أول بانوراما لسينما عربية أو أفريقية في اليابان. وقد عكست كافة هذه الأسئلة وعياً إنسانياً متقدماً لدى النقاد والإعلاميين والمشاهدين اليابانيين يتجاوز الخصوصية اليابانية، ويتفاعل مع أحد معطيات المجتمع المصري المعاصر، وهي السينما المصرية، متجاوزاً بذلك التركيز التقليدي الياباني على الحضارة الفرعونية القديمة والانبهار بها.

كان لافتاً أن يحضر حفل الاستقبال بدار سكن السفير المصري بطوكيو والذي مثل فرصة للقاءات وأحاديث ودية وللاتفاق على مشاريع في المستقبل، بين أعضاء الوفد السينمائي المصري وبين رئيس مهرجان طوكيو السينمائي الدولي الثاني والعشرين وكبار معاونيه، عدد كبير من الفنانين والمنتجين والسينمائيين والنقاد اليابانيين، بالإضافة إلى عدد من نجوم الفن السابع من مختلف بلدان العالم، مثل فرنسا وإسبانيا وإيطاليا وتركيا وغيرها من وفود الدول المشاركة في مهرجان طوكيو السينمائي الدولي، وذلك كله بهدف بناء جسور والتمهيد ربما لعلاقات عمل وشراكة في المستقبل. وكانت السمة الأخرى المميزة لحفل الاستقبال هي الحضور الياباني الرفيع من كبار مسئولي وزارتي الخارجية والتعليم والثقافة، وأعضاء من البرلمان الياباني بمجلسيه، وممثلين عن الأحزاب اليابانية الكبرى. أما السمة الثالثة فهي إتاحة الفرصة لكم هائل من الأحاديث الإعلامية والصحفية لنجوم الوفد السينمائي المصري مع ممثلي وسائل الإعلام المصري والعربي والياباني من تليفزيون وإذاعة وصحافة عامة وأخرى متخصصة في الفن عموماً أو في السينما على وجه الخصوص. وفي هذا الحفل استكملت قناة تليفزيون «فوجي بي إس» اليابانية الشهيرة تسجيل برنامج متكامل عن المشاركة المصرية كضيف شرف في مهرجان طوكيو السينمائي الدولي، تم إذاعته لاحقاً كما أدمج فيما بعد في برنامج شامل غطى كافة فعاليات عام الترويج السياحي لمصر في اليابان ٢٠٠٩، باعتبار هذه المشاركة في مهرجان طوكيو السينمائي الدولي إحدى فعاليات هذا العام.

وفي الخلاصة، يمكن القول بقدر كبير من اليقين أن بانوراما السينما المصرية في إطار مهرجان طوكيو السينمائي الدولي الثاني والعشرين في أكتوبر ٢٠٠٩ شكلت نقلة نوعية في العلاقات الثقافية والفنية بين مصر واليابان، وفتحت باباً واسعاً أمام العمل على انتظام العلاقة بين أطراف العملية السينمائية في البلدين، سيتعين على الطرفين معاً توظيفه والبناء عليه وضمان دوريته وانتظامه كساحة تفاعل وتعارف. وتتضمن سيناريوهات هذا التواصل في المستقبل تبادل الوفود السينمائية بين الطرفين، خاصة في سياق المشاركة في المهرجانات السينمائية، والسعي لتبادل اشتراك أفلام كل طرف في المهرجانات السينمائية للطرف الآخر، والنظر في فرص التسويق التجاري لأفلام كل طرف لدى الآخر، وطرق أبواب الإنتاج المشترك بين البلدين، خاصة أن اليابان سبق لها في السنوات الأخيرة خوض تجارب الإنتاج السينمائي المشترك مع دول ليست بعيدة عن مصر جغرافياً أو ثقافياً. كما أن بانوراما السينما المصرية في اليابان وإن كانت قد أوفت بحق المخرج الراحل يوسف شاهين والفنان الكبير عمر الشريف المعروفين أصلاً لدى الشعب الياباني، فقد قدمت جديداً للمشاهد الياباني ممثلاً في ثلاثة أفلام روائية أخرى بالإضافة إلى فيلم وثائقي. وشكلت بانوراما السينما المصرية نافذة غير مسبوقة ليطل المواطن الياباني منها على المجتمع المصري المعاصر ويدرك أنه مجتمع إنساني يتصف بالديناميكية والحراك، له مشكلاته، ولكن له أيضاً إنجازاته وآماله وأحلامه، وأمامه تحديات يسعى لمواجهتها وفي الوقت ذاته لديه طموحات يعمل لتحقيقها. ■



نظرات تأسيسية في فقه الأقليات
طه جابر العلواني

وإذا ثار سؤال ذو صلة بفقه الأقليات على لسان فرد، أو دار على ألسنة جماعة، فإن المفتي المعاصر يحتاج إلى تجاوز الموقف الساذج البسيط الذي يحصر الأمر بين سائل ومجيب: سائل يعوزه الاطلاع الشرعي، ومجيب يعتبر الأمر منتهياً عند حدود الاستفتاء والإفتاء. فهذا موقف غير علمي ورثناه عن عصور التقليد، وكرسته عقلية العوام التي استسهلت التقليد واستنامت له.

والمطلوب تبني موقف علمي يبحث في خلفية السؤال والسائل، والعوامل الاجتماعية التي ولدت السؤال وأبرزت الإشكال، وهل هو سؤال مقبول بصيغته المطروحة، أم يتعين رفضه بهذه الصيغة، وإعادة صياغته في صورة إشكال فقهي، ثم معالجته في ضوء رؤية شاملة تستصحب القواعد الشرعية الكلية، والمبادئ القرآنية الضابطة، وتراعي غايات الإسلام في الانتشار والتمكين على المدى البعيد؟

ومن هنا نستطيع أن نفهم نهي القرآن المجيد عن أسئلة معينة من شأن إثارتها والإجابة عنها أن تؤدي إلى مشكلات اجتماعية خطيرة: لأن تلك الأسئلة صاغتها ظواهر سلبية، فإذا أُجيب عنها في ذلك السياق استحكمت تلك الظواهر وتمكنت. كما نستطيع في ضوء ذلك فهم نهي الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن «قيل وقال، وكثرة السؤال...».

فإذا سأل سائل - مثلاً - هل «يجوز» للأقليات المسلمة أن تشارك في الحياة السياسية في البلد المقيمة فيه، بما يحفظ لها حقوقها، ويمكنها من مناصرة المسلمين في بلدان أخرى، ويبرز قيم الإسلام وثقافته في البلد المضيف؟ فإن الفقيه الواعي بعالمية الإسلام وشهادة أمته على الناس، وبالتداخل في الحياة الدولية المعاصرة لن يقبل السؤال بهذه الصيغة؛ بل سينقله من منطق الترخص السلبي إلى منطق الوجوب والإيجابية، انسجاماً مع ما يعرفه من كليات الشرع وخصائص الأمة والرسالة.



تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

رباعية الإسكندرية

لورنس داريل
ترجمة فخرى لبيب
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ١٣٨٦ صفحة.



رباعية الإسكندرية هى ملحمة القرن العشرين، تدور أحداثها فى الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية. فى هذا العالم البراق والفاسد الذى قارب شفا الانهيار يحاول «ل. جى. دارلى» أن يقنع نفسه بنهاية علاقته مع الجميلة المثيرة «جوستين حوسنانى» ليبدأ رحلة مراوغة للخداع الجنسى والسياسى أطلق عليها المؤلف «بحث فى الحب المعاصر». لقد ظلت «رباعية الإسكندرية» مصدراً ملهماً عن تلك الإسكندرية الكوزموبوليتانية التى رصدها لورنس داريل بعين رجل مخابرات، أو على الأقل مستشرق تقليدى ينظر إلى الشرق باعتباره صوراً نمطية، مما أضفى على الرواية بعداً سياسياً مشوقاً. كما أنها من ناحية أخرى رؤية بالغة العمق لمعنى «الحب» ذلك الذى نعيشه أو نتكلم عنه جميعاً بينما يحتفظ كل واحد لنفسه بصورة متفردة عن معناه، هذه الروايات الأربع: «جوستين»، «بلتازار»، «ماونت أوليف»، «كليا» هى أربع روايات عن تلك الصور المتفردة، والمتعددة فى آن واحد، لمعنى الحب. رباعية الإسكندرية هى إحدى علامات الأدب الحديث، وكاتبها لورنس داريل كان واحداً من أصحاب الإضافات الكبرى لتاريخ الرواية الإنجليزية، وربما تاريخ الرواية بشكل عام.

■

الكنــز

سلمى لاجرلوف
ترجمة وتقديم: حسين عيد
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩



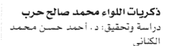
كانت الدار المصرية اللبنانية من أوائل الدور التى انتبهت إلى كتاب نوبل، وذلك منذ إنشائها فى منتصف الثمانينيات، فخصصت سلسلة لترجمة إبداعهم وإتاحته للقارئ العربى فى سلسلة «روايات جائزة نوبل» والتى صدرت عبرها أكثر من عشرين عملاً مثل: «اللا أخلاقى وإيزابيل» لأندريه جيد، و«العجوز والبحر» لأرنست هيمنجواى، و«الأم الكبيرة» لماركيز، و«رياح الشرق ورياح الغرب» لبيرل باك، و«الآلهة عطشى» لأناتول فرانس، و«مغامرات نلز العجيب» لسلمى لاجرلوف، ثم قلدتها بقية دور النشر، فتوقفت الدار المصرية لتعيد النظر فى الأمر برمته، أو كما يقول محمد رشاد رئيس مجلس إدارة الدار المصرية اللبنانية: توقفنا لنراجع مشروعنا الطموح الذى تسرب إلى جهات كثيرة فى الداخل والخارج، ومع هذا يظل مشروعنا هو الرائد والأفضل لأننا نختار ونحسن الاختيار، نختار أبرز وأشهر الفائزين بالجائزة، وأبرز روايات هؤلاء الفائزين، ونختار أكثر المترجمين دقة ومهارة وتميزاً وتترجم عن اللغات الأصلية، كما لا تكتفى السلسلة بالترجمة، بل تضيف إليها المقدمات الوافية عن الروائيين والروايات.

عاودت السلسلة ظهورها الآن مع نهاية عام ٢٠٠٩ وقبل معرض الكتاب المقبل فى القاهرة لتضع بين يدى القارئ العربى أبرز روايات الفائزين بجائزة نوبل، وكان باكورة الإصدارات هو رواية الكاتبة السويدية «سلمى لاجرلوف» «الكنز» الفائزة بنوبل عام ١٩٠٩ بترجمة الناقد والكاتب المصرى حسين عيد، وهى رواية صدرت عام ١٩٠٤ وتحولت إلى فيلم سينمائى ناجح، وهى رواية تنقل القراء كما يقول المترجم إلى عالم عجائبى يتجاوز فيه الواقع البشرى وما وراء الواقع، ويتجلى الواقع فى رواية الكنز بكل ما يجيش به من خير وشر، فهناك شخصيات نبيلة متواضعة، وهناك الكاهن المتواضع المؤمن الذى يبسط حمايته على من حوله ويتبنى فتاة يتيمة هى «إلزاليل»، أما جانب الشر فيظهر من خلال ثلاثة أفراد يتسمون بالنهم إلى المال والسلطة، فيرتكبون مذبحة أثناء سرقة كاهن المنطقة.

كما تعلى الرواية، على عادة «سلمى لاجرلوف» فى كل كتاباتها من شأن المرأة، كما تحض على التكاتف الأسرى والسعى نحو العدل والإقبال على الحب المنزه عن الغرض.

الجدير بالذكر أن «سلمى لاجرلوف» التى لم يسبق ترجمتها إلا فى الدار المصرية اللبنانية، وافتتحت بها سلسلتها روايات جائزة نوبل، قد دخلت عالم الكتابة مصادفة وبتشجيع من صوفى آدلر التى ساعدتها على نشر جزء من مخطوط كان لديها بعنوان: «حكاية جرستا برلنج البطولية» فى مجلة تعمل بها صوفى، وحينما اشتركت فى مسابقة فى نفس المجلة فازت بالجائزة الأولى فكان ذلك محفزاً لها على إكمال تلك الرواية، والسير على درب الكتابة الوعر الطويل، حتى أنجزت فيه أبدع وأجمل الروايات.

■



ذكريات اللواء محمد صالح حرب

دراسة وتحقيق: د. أحمد حسن محمد الكنانى
مراجعة وتقديم: د. أحمد زكريا الشلق
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ١٦٠ صفحة



لقد كان محمد صالح حرب متعدد الأدوار، فقد شارك فى جبهات المقاومة والجهاد الإسلامى، فضلاً عن دوره الوطنى فى مصر قبل الحرب وبعدها.. ومن هنا اكتسبت شخصيته أهميتها التاريخية، ليس فقط من خلال دوره الوطنى والقومى الذى قام به فى دعم وتأييد حركة الجهاد الليبى ضد الغزو الإيطالى، ثم نضال الحركة القومية التركية (١٩١١ـ ١٩٢٤)، كما اكتسبت هذه الشخصية أهمية أخرى عندما انتخبت عضواً بمجلس النواب المصرى (١٩٢٦ ـ ١٩٣٠)، وهناك استطاع أن يثير ويناقش عدداً من القضايا الوطنية، خاصة ما يتعلق بالجوانب العسكرية مثل ضرورة تأمين الصحراء المصرية وتسليح الجيش المصرى وتحديثه، والمطالبة بإلغاء الامتيازات الأجنبية.

والواقع أن القضايا التى أثارها، مع خلفيته العسكرية وخبرته فى ميادين القتال، قد أهلته لكى يعين وزيراً للدفاع الوطنى فى وزارة على ماهر (١٩٣٩ ـ ١٩٤٠) حين أخذ على عاتقه مهمة تطوير الجيش المصرى وتحديثه، والتصدى لنفوذ البعثة العسكرية البريطانية وتثبيت أقدام العناصر الوطنية المصرية فيه، فضلاً عن محاولته مع على ماهر تجنيب مصر ويلات الحرب العالمية الثانية، وهى السياسة التى أدت إلى صدامه مع الإنجليز، والثابت أن نشاطه مع عزيز المصرى قد أثار الشعور الوطنى داخل الجيش، خاصة لدى فئات الضباط الذين شكلوا فيما بعد خلايا الضباط الأحرار وقادوا ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

■

تركت الهاتف يرن

إلهام منصور
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٩، ٣٨٠ صفحة

بطلة الرواية كاتبة جامعية تنتمى إلى شلة من المثقفين والنُخب الحزبية ينسجون فيما بينهم علاقات حميمة تارة ومتوترة أطواراً، حيث الغيرة والحب والخيانة والجنس والمنافسة فى أجواء من الحرية حيث العبث. والأحداث فى بيروت أيام الحصار الإسرائيلى والحرب المجنونة واليسار واليمين... إلخ.

إلهام منصور بصمتها واضحة فى الأسلوب والمفردات ـ المصطلحات. وفى التحليل العميق لنفسية كل شخصياتها، والتركيز دائماً على العلاقة المعقدة بين شخصياتها الثلاث: أنا ـ هو ـ هى.

وفى مقطع نموذجى تقول:

«تركت الجامعة بعد أن أنهيت محاضرتى وأنا مسكونة بهاجس إبعاد ليال عن هادى. فهى امرأة جميلة ومتحررة ويمكنها أن تشد أى رجل، وهى واثقة من نفسها إلى درجة المفاخرة ولا يمكن التحكم بها بسهولة. سأجعل منها صديقة وأعرفها بطبيعة علاقتى العميقة بهادى. لن أتركها تستميله ولن أتركه يُستمال إليها، سألاحقه وأكثف لقاءاتى به، لن يفلت من يدى.

■

أنا، أورهان والى (شعر)

أورهان والى
ترجمة: عبدالمقصود عبدالكريم
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ٢١٦ صفحة



بقدر ما يكون المرء قادراً على استيعاب خبرة الجسد على التضخيم البلاغى، يكون قادراً على استيعاب أورهان والى. إنه شاعر خبرة التفاصيل الدقيقة على الأكل، والوقوع فى الحب، والشعور بالضجر، والحزن، والدعابة، وتأمل الأسباب. إن

تكوينه الشعرى معد لإنجاز هذه الفاعلية. يهبط أسلوبه تدريجيًا ليتناول نسخة غير ميتافيزيقية من الواقع، نسخة ترتبط بالزمن ارتباطًا تامًا. وفى لحظات الرقة تخلق قصائده وهمًا بأنها ليست قصائد، وأن أى إنسان يستطيع ارتجالها بيسر، وأظن أن هذه الخاصية هى المصدر الأساسى للنقد الذى تعرض له. وهى فى الوقت ذاته دليل على إنجازه الرئيسى.

■

فساد الأمكنة

صبرى موسى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ١٨٨ صفحة.



صدرت هذه الرواية عن سلسلة نصوص متميزة التى تنشرها دار الشروق وتعنى بنشر النادر أو المنسى من الأدب المتميز والممتع والذى شكل علامات مهمة فى مسيرة الأدب العربى. يوم صدرت فساد الأمكنة للمرة الأولى قال عنها الدكتور على الراعى إنها رواية فذة. كتبها روح شاعر يتمتع بحس اجتماعى وسياسى مرهف، وروح تنفذ إلى ما وراء الأشياء، وتستحضر روح الطبيعة والإنسان معًا، وتكتب هذا كله بلغة مشرقة: أنيقة ورصينة وجميلة. وهى بهذا علامة بارزة فى الأدب العربى». كما قال الدكتور غالى شكرى «راح صبرى موسى يبحث فى صبر وأناة وجمال عن رؤى تخترق أحشاء الواقع، فتصل إلى نبوءة جمالية عميقة لأخطر الهزائم وأبقاها فى كياننا الروحى». كتبت هذه الرواية العلامة فى أجواء نكسة ١٩٦٧ حول نيكولا المغامر العجوز الذى وصل إلى جبل الدرهيب فى جنوب مصر ليؤسس حياة زاخرة بالحيوية والنجاح، يستخرج المعادن من بطن الجبل ويوزعها عبر البحر الأحمر الذى أقام عليه ميناء عند قدمى الجبل الشاهق، مشاركًا لأغنياء مصر فى ذلك الحين من الباشوات ورجال السلطة بفسادهم الذى حول بكارة الجبل إلى مسرح للخوف والمؤامرات. ويصل الأمر إلى ذروته عندما يتلقى نيكولا زيارة من زوجته الإيطالية الفاتنة وابنته فى صحراء الدرهيب القاسية. هنا يلتقى هؤلاء القادمون من خلف الحدود مع أبناء الصحراء بقلوبهم الناصعة مع الملك وحاشيته بما بلغوه من ذروات الفساد، فيتشكل عالم سرعان ما ينفض مخلفًا وراءه أسئلة بالغة العمق عن أثر الوجود الإنسانى ومغزاه، فى استجابة أدبية بالغة العمق على ما حدث فى ١٩٦٧.

■

القـــرار

أحمد سراج
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ٢٧٢ صفحة



بين أيدينا مسرحية تاريخية عن ملهاة السلطة ومأساة الشعب فى العصر الأموى فى دراما تتماس مع التراجيديا ولا تكونها، تتماس بها لصالح بعض شخصياتها ولا تكونها لحساب الشخصيات الأخرى. هذا المزيج النصى بين عمومية الدراما وخصوصية التراجيديا يتطابق مع المزج بين عمومية التاريخ وخصوصية الإبداع فيه، فالمسرحية تقوم على توظيف كل من الإكراهات التاريخية التى يدفعها المؤلف إلى حدودها القصوى لتتبين رؤاها ومواقفها وحتى سيكولوجياتها وبالإبداع المسرحى، حيث إضافاته وتوزيعاته وتأسيساته ومضمنًا إياه رؤيته.

■

ليلة الدخول إلى الجنة

روكز استطفان
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٩، ٢٩٠ صفحة



تحكى الرواية قصة صراع عنيف مع الذات لأستاذ جامعى عاش سنوات عديدة فى باريس، حيث عاش الحب الأول الذى كان مع مومس فرنسية، والذى انتهى إلى مأساة طبعت حياته كلها وحولته إلى ثائر على كل شىء. لكنه عاش ثورته هذه بشكل متناقض: سلبى وماجن على الصعيد العاطفى الخاص، وثورى على طريقة الإنسان الغربى، على الصعيد الفكرى النظرى. ينقلب على نفسه. يعود إلى الإنسان الشرقى القديم «المتخلف» الذى كان منذ البداية، عندما يستبد به، وهو فى الخمسين من عمره، هوس شرقى مجنون: الزواج من فتاة عذراء، فيستسلم لهذا الهوس ويتزوج من فتاة. طفلة فقيرة غير متعلمة، يكبرها بخمس وثلاثين سنة!

وفى مقابلة لطيفة بين النساء والرجال يقول الراوى:

«النساء يخشين، ربما، من أن تضيق

كيف يكون «التأمين» اسلاميا



التأمين التكافلى العام
مقارنة تقنية لاستبعاد الغرر والميسر والربا
مهيمن إقبال
ترجمة: تيسير التريكى ومصباح كمال
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩، ٢٧٢ صفحة

مؤلف مختص وذو خبرة طويلة فى أعمال التأمين ومطلع فى الوقت نفسه على المبادئ الأساسية لفقه المعاملات فى الشريعة الإسلامية الغراء، ومترجمان يملكان ناصية التأمين واللغتين (العربية والإنجليزية)، هذه الإمكانيات مجتمعة حرية بتقديم ما هو مفيد للمكتبة التأمينية العربية.

وبالرغم من قدم مفهوم التكافل فى المجتمعات الإسلامية، فإن مفهوم التأمين المتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية لايزال، من حيث التسمية والمضمون، محل اجتهادات مختلفة. هذه الاجتهادات هى بيئة تعتمل فى داخلها عناصر شاحذة للفكر، دافعة للتطور.

فالتسمية مازالت متعددة، مما أدى إلى تعددها فى الطرف الآخر. فمن قائل بالتأمين الإسلامى مقابل التأمين التجارى، ومن قائل بالتكافل مقابل التأمين التقليدى.

ولكى تُحسم التعددية فى التسميات للتفرغ للموضوع نقول، اختصارًا للوقت والجهد: هناك تأمين وهنا تأمين تكافلى. والسبب فى اختيارنا هذا هو الآتى: الشركات التى تمارس التأمين المتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية هى تكوين (هجينى)، فمن ناحية توجد شركة ويوجد (مساهمون) يتعاونون فى مواجهة الأخطار، يدفعون اشتراكات تؤدى إلى تكوين صندوق المساهمين. أى أننا بصدد تكوين يجمع بين الصفة التعاونية وصفة شركة التأمين الاعتيادية.

وفى المضمون، مازالت وثيقة التأمين التكافلى فى بداية عهدها. هذه الوثيقة يفترض بها أن توائم بين الجوانب الفنية ومتطلبات السوق وبين أحكام الشريعة الإسلامية، وهذه مهمة فقهية قانونية فنية تحتاج إلى متخصصين فى التأمين والقانون وفقه المعاملات، بل إلى مختصين فى لغة التأمين ولغة الفقه الإسلامى.

لقد أحسن المؤلف صنعًا حينما قام بإبراز العناصر الأساسية للتأمين التكافلى، وركز من جانب آخر على القيم فى الإدارة التكافلية وخصوصًا فى متطلبات الشفافية وميدان المساءلة وهما عنصران أساسيان من عناصر إدارة التأمين التكافلى. كما قام بتخصيص مساحة واسعة للحديث عن نظام المشاركة فى تحمل المخاطر ومنتجات التأمين التكافلى والتسعير، بل وإعادة التأمين. كل ذلك يتم تكريسه بجداول وخطوط بيانية تسهل على القارئ فهم هذا الجانب أو ذاك من جوانب التأمين التكافلى.

وأعتقد أن ما أثاره المؤلف من تساؤلات وما أطلقه من مقترحات ستؤدى إلى مزيد من البحث والدراسة، خصوصًا فى مجال تطويع شروط وأحكام وثائق التأمين المستعملة كى تكون صالحة للاستعمال من قبل شركات التأمين التكافلى. هذه مهمة كبيرة تتطلب حوارًا وتنسيقًا بين المختصين فى التأمين وإعادة التأمين من جهة، والمتفقهين فى قواعد المعاملات فى الشريعة الإسلامية من جهة أخرى. وأعتقد أن المجتمعات الإسلامية زاخرة بالفريقين.

مصطفى رجب

الشياطين المحبوسة في دواخلهن، وتشعل الأرض. وهن، عندما تصبح الحاجة قاهرة جداً، لا يترددن لحظة في أن ينخرطن في سلك القحباوات الرسميات وغير الرسميات. ولكن الرجل عموماً أضعف بكثير من المرأة على التحمل. عندما تستبد به حاجته ينغلق عليه رأسه، فلا يعود إنساناً، يتحول فقط إلى ..... صاحب قضية واحدة، لا غير: ......

■

ألوان أخرى

أورهان باموق

ترجمة سحر توفيق

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٤٤١ صفحة.



هذا هو أول كتاب للأديب التركي الشهير أورهان باموق بعد فوزه بجائزة نوبل في الأدب عام ٢٠٠٦، ويضم مجموعة رائعة من المقالات التي تدور حول حياته الشخصية والعائلية، ومدينته، وعمله، ورأيه في كتّاب آخرين. اختار باموق هذه المقالات من بين عشرات النصوص والمقالات التي كتبها على مدى ثلاثين عاماً. هنا يفتح باموق نافذة جديدة على حياته الخاصة منذ كراهيته للمدرسة في صباه، إلى الأحزان المبكرة في طفولة ابنته. من نضاله الناجح للإقلاع عن التدخين، إلى القلق الذي اعتراه لدى احتمال قيامه بالشهادة ضد لصوص خائبين سرقوه أثناء زيارة لنيويورك. في هذا الكتاب يتطرق باموق إلى الزلزال العنيف الذي هز تركيا وبالتحديد مدينة إسطنبول وما تلاه من روع وفزع. كما يكشف عن انحيازه العميق لفن القصة وتأمله الدائم لأعمال كتّابها العظام. إنها رحلة خصبة في خبرات وعقل الكاتب التركي الأشهر أورهان باموق.

■

المستقبل العربي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، العدد ٣٦٩، نوفمبر ٢٠٠٩



يتضمن العدد ثمانية بحوث، هي:

١ - الحركات الإسلامية المعاصرة رد فعل أم استجابة لتحدٍّ؟ لـ «مخلص الصيادي».

٢ - القوة الناعمة: أو في المتظهرات الجديدة للتسلط لـ «يحيى اليحياوي».

٣ - أثر المراكز الفكرية في السياسة الخارجية الأمريكية لـ «باسم خفاجي».

٤ - مبادئ العمارة الإسلامية وتحولاتها المعاصرة: قراءة تحليلية في الشكل لـ «هاني محمد القحطاني».

٥ - التخطيط الإعلامي وصعوباته في الدول النامية لـ «عبدالقادر صالح معروف».

٦ - سوريا وتركيا: الواقع الراهن واحتمالات المستقبل لـ «عقيل سعيد محفوض».

٧ - مؤسسات المجتمع المدني في سلطنة عمان: الواقع والتحديات لـ «سعيد بن سلطان الهاشمي».

٨ - القرصنة البحرية في خليج عدن: الخلفيات والرهانات لـ «مصطفى بخوش».

والمقابلة مع الدكتور حليم بركات أجراها: هاشم قاسم.

أما في باب آراء ومناقشات، فهناك بحثان، الأول: «لغة التعليم العالي: العربية أم الأجنبية؟» لـ «عبدالحي عباس»، والثاني: «صراع أم جدل الهويات في العراق؟» لـ «عبدالحسين شعبان».

وفي باب ترجمات مهمة، بحثان:

- الأقليات في العراق: الضحية الأخرى لـ «مختار لاماني».

- النقص في المياه يهدد مليوني شخص في الجنوب العراقي لـ «مارتن تشولوف».

وفي باب كتب وقراءات، مراجعة للكتب الآتية:

- «لماذا انتقل الآخرون إلى الديمقراطية وتأخر العرب؟ دراسة مقارنة لدول عربية مع دول أخرى» لـ «احمد مالكي وآخرون»، أعد المراجعة السيد يسين.

- «من النهضة إلى الحداثة» (عبدالإله بلقزيز)، أعد المراجعة يوسف بن عدي.

- «التأويل سبيلاً إلى الترجمة» (ماريان لودورير ودانيكا سيليسكوفيتش)، أعد المراجعة موريس أبو ناضر.

- إضافة إلى كتب عربية وأجنبية وتقارير بحثية مختارة، إعداد كابي الخوري.

وتضمن باب «مؤتمرات» ثلاثة تقارير، عن:

- البيان الختامي لاجتماع الأمانة العامة للمؤتمر القومي العربي، بيروت ٢ - ٣ أكتوبر ٢٠٠٩.

- مخيم الشباب القومي العربي (الدورة التاسعة عشرة) دار الحنان، البقاع الغربي (لبنان)، ٢٦ يوليو - ١١ أغسطس ٢٠٠٩ لـ «هزرشي بن جلول وصبرا الجموسي».

- المؤتمر الحادي عشر للجمعية التاريخية الليبية «التاريخ الاقتصادي لليبيا عبر العصور» جامعة التحدي، سرت - ليبيا، ٢٨ - ٣٠ أبريل ٢٠٠٩ لـ «مفيد الزيدي».

هذا بالإضافة إلى موجز بيوميات الوحدة العربية، وببليوغرافيا الوحدة العربية.

■

زاهي حواس يكشف أسرار الأسرة الرابعة

عائلة الملك خوفو

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩



يواصل د. زاهي حواس رحلة العاشق مع الحضارة الفرعونية، وذلك بإخراج كنوزها والكشف عن إبداعاتها، وتيسيرها للقراء في شتى أنحاء العالم. وتعد كتبه في هذا المجال من أهم وأخصب ما كتب عن تلك الحضارة. وقد صدر له حديثاً كتابه الجديد «عائلة الملك خوفو.. تاريخ وأسرار الأسرة الرابعة» عن الدار المصرية اللبنانية في ٢٧٠ صفحة من القطع الكبير، مجلداً تجليداً فاخراً يليق بالموضوع والكاتب.

يوضح د. زاهي حواس في هذا الكتاب المكانة المتميزة التي تحتلها الأسرة الرابعة في التاريخ المصري القديم، حيث تشهد آثار ملوكها الباقية حتى الآن من أهرامات ومعابد على مدى عظمة وتقدم مصر في تلك الحقبة الزمنية، والتي لا تزال تبهر العيون وتحير العقول من دقة تصميمها وإبداعها المعماري والفني.

يحتوي الكتاب على معلومات مهمة عن الأهرامات والغرض من بنائها، بالإضافة إلى دلائل وبراهين علمية وتاريخية تؤكد أن الأهرامات لم تبن بالسخرة، كما يزعم الكارهون والحاقدون على أي إنجاز مصري، ولكنها بنيت بأيد مصرية خالصة محبة للفن والعمل والجمال. يؤكد ذلك الكشف عن جبانة العمال بناة الأهرام، والتي تنقسم إلى قسمين: قسم خاص بالفنانين والنحاتين، وقسم يخص العمال الذين قاموا بنقل الأحجار .

كما يتطرق الكتاب إلى العديد من القضايا المتعلقة بالتاريخ الفرعوني، ففيه معلومات عن أحدث الاكتشافات الأثرية التي تمت بمنطقة الأهرامات، وتاريخ الملوك العظام للأسرة الرابعة، وعائلاتهم والأحداث المهمة التي جرت في عصرهم. لكن الاكتشاف الذي يضع د. زاهي يدنا عليه هو أن بناء الأهرامات كان المشروع القومي لمصر كلها، حيث استطاعت العائلات الكبيرة التي تحكم الصعيد والدلتا أن تشارك في بناء الأهرام عن طريق إرسال العمال الذين يدفعون لهم الأجور بدلاً من دفع الضرائب، بالإضافة إلى إرسال المؤن الخاصة بالمعيشة من أكل وحيوانات وعيش.

هذا المشروع القومي هو الذي بنى مصر، فبناء الأهرام جعل المصريين يبرعون في العمارة والفنون والفلك والتكنولوجيا.

■

الكتاب بأبوابه الخمسة وصوره ورسوماته إحدى درر د. زاهي حواس أشهر الأثريين في العالم لاكتشافاته الأثرية المهمة مثل: مقابر العمال بناة الأهرام، ووادي المومياوات الذهبية، ومومياء الملكة حتشبسوت : والتي أحدثت دوياً إعلامياً هائلاً في العالم.

كما قام د. زاهي حواس بتأليف أكثر من ١١٥ كتاباً وبحثاً ومقالة باللغات المختلفة عن الآثار المصرية، وهو محاضر في العديد من المتاحف والجامعات بأمريكا واليابان وأوروبا. وقد أصدرت له الدار المصرية اللبنانية من قبل «الملك الذهبي» عام ٢٠٠٨، وله كذلك كتاب باللغة الإنجليزية عن المرأة المصرية، وكتاب «أسرار من الرمال» وأربعة كتب عن الملك توت عنخ آمون. وقد حقق كتابه وادي المومياوات الذهبية أعلى المبيعات بين كتب الآثار.

■

القوى الاجتماعية في الثورة العرابية

لطيفة محمد سالم

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٥٤٣ صفحة.



يتناول هذا الكتاب موضوعاً مهماً في تاريخ مصر الحديث، فالثورة الوطنية (١٨٨١ - ١٨٨٢) المشهورة بالثورة العرابية لها موقعها اللافت للنظر على خريطة الثورات المصرية، حيث قامت لمواجهة الظروف التي مر بها المجتمع، من تسلط الأوتوقراطية والانحراف والظلم واستغلال الأقلية المحدودة للأكثرية الساحقة، والتدخل الأجنبي الذي احتكر الاقتصاد وأساء إلى القيم وتغلغل في السياسة، فكان لا بد من دفع هذا الجور الذي لا حدود لسلطانه. ومن هنا تذهب المؤرخة المعروفة لطيفة سالم إلى أن الثورة فرضت على مصر، لتكون حركة وطنية شاملة، تسعى إلى تغيير جوهري في كيان المجتمع. ويؤكد الكتاب على أن «هوجة» عرابي كانت ثورة عميقة وشاملة وعامة: لم تحفل بالأشياء السطحية بقدر ما ركزت جهودها على أساسيات المجتمع ودعائمه. وهكذا تستعرض الدكتورة لطيفة سالم القوى الاجتماعية المصرية المختلفة التي قامت على أكتافها تلك الصفحة المصرية المجيدة، وكيف أثرت وتأثرت كل من هذه القوى بقيام الثورة العرابية.

■

The Islamic Challenge Politics and Religion in Western Europe

تحديات الإسلام فى أوروبا الغربية السياسة والدين

Jytte Klausen
Oxford University
Press¨USA2008¨264pp$29.95



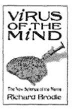
مع توالى جلسات محاكمة قاتل الشهيدة المصرية الشابة مروة الشربينى فى المانيا يكشف النقاب عن وجه قبيح من التعصب الدينى والعنصرى فى أوروبا برغم محاولات الأجهزة الاعلامية فى هذه الدول إضفاء اللمسات الجمالية الوهمية- باستخدام مختلف الادوات من الشعارات الزائفة حول الحريات الدينية وحرية ممارسة المعتقدات واعتناق الديانات كحق أساسى من حقوق الانسان والبعد عن التعصب او التفرقة بسبب العرق او الجنس او الاصل اوالدين- وذلك من اجل خلق صورة ذهنية جيدة لهذه المجتمعات على مستوى العالم تدعيما للمظهر على حساب الجوهر. ليست هذه هى المرة الاولى التى يتعرض فيها المسلمون للإيذاء بسبب التصرفات المتطرفة الشاذة التى يواجه بها المسلمون فى تلك المجتمعات ولكنها السمة الغالبة. يتناول كتاب «تحديات الاسلام فى أوروبا الغربية السياسة والدين» هذه الظاهرة بالدراسة والبحث وقد وصفت مجلة «الإيكونومست» هذا الكتاب القيم بأنه يضع الاوروبيين فى مواجهة مع صورتهم الذهنية العلمانية والتى تتميز بها القارة الاوروبية ككل. يعالج الكتاب أهم القضايا التى تواجه الاوروبيين المسلمين فيما يتعلق بالدين والسياسة والهوية والاندماج الاجتماعى والتعددية الثقافية والسياسة الخارجية. كما ذكرت مجلة الدراسات العرقية والهجرة ان أهم التحديات الاسلامية: السياسة والدين تبدو جلية فى الاسهامات الادبية فى الادب الاوروبى والتى تطرح مجموعة من الاسئلة لم يتم التطرق اليها من قبل وذلك ضمن دراسة هامة قامت بها المجلة. يمثل الكتاب أصوات مجموعة من البرلمانيين وأعضاء مجلس المدينة والاطباء والمهندسين وعدد قليل من اساتذة الجامعات والمحامين والعاملين الاجتماعيين واصحاب الاعمال التجارية الصغيرة والمترجمين ونشطاء المجتمع المحلى وجميعهم من المسلمين الذين قرروا الانخراط فى الحياة السياسية والمنظمات المدنية. تؤكد جميع الفئات السابقة أنهم ليسوا من الارهابيين - التهمة اللصيقة بالمسلمين - كما ينفون تماما كونهم اصوليين ولايطالبون ابدا بتطبيق الشريعة الاسلامية فى أوروبا ولا تصل طموحاتهم الى ذلك من الاصل. يعرض الكتاب ثلاثمائة حوار تم إجراؤها مع كبار الشخصيات الاسلامية فى اوروبا فى ستة بلدان اوروبية هى السويد ، الدنمارك، هولندا، بريطانيا العظمى، فرنسا وألمانيا .إن مسألة الاسلام فى أوروبا ليست مسألة حرب أو سلام عالمى بقدر ما تثير الاسئلة حول موقع الاسلام والمسيحية فى الحياة العامة هناك وارتباط ذلك بالهوية الاوروبية. ولا يهدف المسلمون فى أوروبا إلى قلب النظام الديمقراطى الليبرالى وإحلال الشريعة الاسلامية محل القانون العلمانى. يحاول المسلمون الاوروبيون طرح العديد من وجهات نظرهم لتنمية أوضاعهم فى أوروبا من خلال مؤسسات تتيح لهم ممارسة دينهم الاسلامى مع تحقيق الاندماج فى المجتمع بدون ان يكون اسلامهم سبة يحاولون طول الوقت نفيها عن انفسهم أو جريمة يحاولون تبرئة انفسهم منها. الكتاب من تأليف جيت كلاوزن وهو من الإصدارات الحديثة لجامعة أكسفورد .

■

Virus of the Mind: The New Science of the Meme

فيروس العقل: العلم الحديث لبناء المعتقدات

Richard Brodie
Hay House¨2009¨288pp$18.47



مثلما يمتلك الإنسان هيكلا عظميا يبنى عليه جسده ليتخذ شكلا وهيئة يعرف بهما بين الناس لدى كل فرد هيكل عقائدى يحتوى معتقداته حول شتى الموضوعات التى تتضمنها حياته، يتم بناء هذا الهيكل فى الطفولة ويستمر فى النمو حتى آخر لحظات العمر. ماذا لو تم اختراق هذا الهيكل، ماذا لواستهدف البعض تغيير الهيكل العقائدى لفرد أو جماعة واستبداله بهيكل آخر مغاير تماما للأصل ، هذا ما يتناوله كتاب فيروس العقل للمؤلف ريتشارد برودىRichard Brodie وهو يسلط من خلاله الضوء على موضوعات عديدة مثل تساؤلاته حول الأسباب التى تجعل بعض الناس يصبحون بشكل آلى عبيدا للإعلانات أو الخيال الجنسى أو الطائفية أو الدين. أشياء عديدة قد تسيطر سيطرة كاملة على البشر ويجيد بعض الأشخاص السيطرة على الآخرين بل وتوجيههم من خلال هذه الاشياء. يعد هذا الكتاب هو الأول من نوعه الذى يتناول هذا الموضوع وكان هذا هو سبب حصوله على مرتبة عالية بين الكتب الأكثر مبيعا . يتميز كتاب برودى بكونه سيفا ذا حدين فهو من جهة يوفر الحصانة والوقاية من عدوى فيروسات العقول ويقدم للقارئ الطريقة لحماية نفسه ومعتقداته من اختراق الآخرين وفى نفس الوقت هو يقدم طريقة لمن يجد فى نفسه شغفا للتأثير فى الآخرين والسيطرة عليهم من خلال اختراق منظومتهم العقائدية. فن السيطرة على الآخر بفعالية وكذلك مهارة مقاومة التأثير الخارجى على المعتقدات هو صلب موضوع هذا الكتاب.

■

Strong Kids¨ Healthy Kids¨ The Revolutionary Program For Increasing your Childs Fitness in 30 minutes aweek.

أطفال أقوياء، أطفال أصحاء، البرنامج الثورى لزيادة لياقة طفلك فى ثلاثين دقيقة فى الأسبوع.

By Fredrick Hahn
Amacon 2008¨ 176pp$14.93



حلم يكاد يجمع عليه كل الآباء والأمهات وهو أن يروا أولادهم أصحاء يتمتعون بالنشاط واللياقة والحيوية ولكن شيئا ما يمنع الأطفال من الوصول إلى كامل لياقتهم وطاقاتهم. تبنيا لهذا الحلم قدم لنا فريدريك هان Fredrick Hann هذا الكتاب الذى يتناول الاعتقاد القديم والشائع بأن الرياضيين الشباب يجب ألا يقوموا بتدريبات عنيفة لأنها تسبب أضرارا. أثبتت الأبحاث الحالية ومنها دراسة أجريت مؤخرا فى مايركلينيك أن ذلك بعيد تماما عن الحقيقة. فالتدريبات القوية هى الطريقة الوحيدة الفعالة لمكافحة السمنة لدى المراهقين حيث يمكن من خلالها تغيير وتحسين التكوين البنيوى لجسم الطفل. من خلال هذا الكتاب - الذى لاقى إقبالا جماهيريا منقطع النظير - كشف المدرب الشهير فريدريك هان عن سر تقوية العضلات وتعزيز المرونة وحرق الدهون وتحسين الأداء فى ثلاثين دقيقة فقط فى الأسبوع. ويقدم المؤلف فى كتاب أطفال أقوياء أطفال أصحاء للآباء ومسئولى رعاية الأطفال والمدرسين والأطباء كيف يمكن لبرنامجه الخاص باللياقة البدنية تغيير حياة الأطفال والمراهقين فى كل مكان بغض النظر عن القدرة الرياضية أى أن الطفل إذا لم تكن لديه أنشطة رياضية أو إذا لم يكن مشاركا فى مسابقات رياضية من التى تستهدف تحقيق مراكز عليا فإنه يستطيع أن يكون قوى البنية وذا لياقة عالية. يتميز فريدريك هان فضلا عن كونه مؤسس برنامج اللياقة «مايتى تايكس» للمراهقين بأنه خبير فى اللياقة البدنية للأطفال. وفى كتابه هذا يوضح للأطفال الكيفية التى يكتسبون بها القوة بشكل سريع، ويستطيعون زيادة كثافة عظامهم ومقاومة الإصابة، تحسين صحة القلب والأوعية الدموية، تعزيز المرونة، زيادة التمثيل الغذائى وتقليل الدهون فى الجسم. وعن طريق هذا البرنامج يستطيع الأطفال تحسين أدائهم والإحساس بالتقدير والاحترام لذاتهم من خلال التعود على أنماط الحياة الصحية، قدم للكتاب د. واين ويستكون الذى يرى أنه خير دليل للآباء الذين يحلمون ببريق الصحة والعافية فى عيون أبنائهم.

■

The Gamble: General David Petraeus and the American Military Adventure in 2008-Iraq¨2006

المقامرة: الجنرال ديفيد بيتريوس والمغامرة العسكرية الامريكية فى العراق. ٢٠٠٦-٢٠٠٨

Thomas E¨Ricks
Penguin Press 2009¨
400pp$18.45



حققت مؤلفات توماس ريكس حول

حرب العراق أعلى معدلات للبيع نال على أثرها جائزة بوليتزر. ريكس هو مراسل رفيع المستوى للواشنطن بوست في البنتاجون «وزارة الدفاع الأمريكية»، تابع حرب العراق واحتلت بؤرة اهتمامه. أثمر هذا الاهتمام الكتاب الأول «فياسكو» الذي صدر عام ٢٠٠٥ عقب الحرب. تابع ريكس الحرب في العراق ولاحظ أن العديد من أبطال الدمار والضباط والمحللين كانوا على علم بالخطأ الدائر في هذه الحرب في حين أن بقية القيادة السياسية والعسكرية لم تكن كذلك منذ توليها موقع المسئولية بدءا من الجنرال ديفيد بيتريوس الذي تولى القيادة في العراق وقاد حربا أصبحت تعرف «بالطفرة» و«المقامرة» هو الكتاب الثاني لريكس وهو يعد امتدادا لكتابه الأول ولكن يتميز عنه بزيادة أولا معدلات البيع وثانيا بتناوله قصة الحرب بشكل أعمق وأكثر تفصيلا. يحكي الكتاب قصة رائعة جوهرها هو الكيفية التي يقوم من خلالها عدد قليل من الناس من داخل وخارج البنتاجون بدفع استراتيجية جديدة برغم المعارضة التي تواجهها تلك الاستراتيجية من مختلف الاتجاهات على الساحة السياسية ومن كبار القادة العسكريين. كما يطرح صعوبة تنفيذ الجنود الأمريكان لمهمة تبدو بالغة التعقيد وعسرة في مواجهة المقاومة العراقية. ولكن القصة لا تنتهي عند هذا الحد فقد كان الاستنتاج الختامي لريكس حول الوضع في العراق أن المؤسسة العسكرية الأمريكية سواء شئنا أم أبينا لا تزال وسوف يكون لها دور ضروري في العراق ولسنوات قادمة.

■

WOLF HALL: A Novel

رواية: قاعة الذئب

Hilary Mantel

Henry Holt and Co¨2009¨560pp. $14.85



لم يكتب مثلما كتب عن هنري الثامن ولم تحظ شخصية بالاهتمام الذي نالته هذه الشخصية ولكن هذا لم يمنع هيلاري مانتيل من تناولها وتركيز الضوء عليها من خلال روايتها قاعة الذئب. عبرت هيلاري قرونا من الزمن وقفزت فوق روايات عديدة وأبحرت في محيط التاريخ والسير الحياتية والمسرحيات لقد قفزت حتى على هنري نفسه. قامت هيلاري بكل هذه القفزات بما لديها من ثقة في إمكانية إعادة صياغة التاريخ ومناطق السيادة فيه. لم يكن الملك هو الذي تتمنى أن تراه ولكن واحدا من أكثر رجال الملك غموضا. يدخل توماس كرومويل Thomas Cromwell إلى حيز رواية مانتيل في هيئة رجل عصامي واسع الأفق استطاع أن يصعد الى الملك ويكون ذراعه اليمنى. كان يمتلك فكرا واقعيا وكان متطلعا برغم عدم معرفته عن الكثير من اهتمامات جلالة الملك. مهد الطريق لزواج الملك من بولين Anne Boleyn وهي فتاة ليست معروفة ومن العامة. استطاعت مانتيل الاستفادة ببراعة وخفة يد من عرض رصيدها الهائل من الحقائق بدون أن يخل ذلك بروعة أسلوبها النثري. الشخصيات الرئيسية وتسلسل شجرة العائلة يعطى انطباعا مبدئيا للقراء، والخطوط الذكية للرواية تصطحب القارئ للمضي قدما في قراءة الرواية مما قد يقنعه بأن البقاء في برج لندن قد لا يكون شيئا سيئا للغاية.

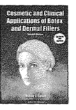
■

Cosmetic and Clinical APPLICATIONS OF BOTOX AND DERMAL FILLER

مستحضرات التجميل والتطبيقات السريرية لحقن البوتوكس وتقويم الجلد بدون جراحة

William J.LIpham MD Facs

Slack Incorporated¨2nd edition2007¨192pp. $109.74



يركب المرء قطار العمر الذي يبدأ في التحرك منذ يوم الميلاد وتنتهي الرحلة يوم لقائه بخالقه وبين البداية والنهاية تنحصر محطات العمر من طفولة المهد إلى الطفولة إلى المراهقة إلى الشباب فالكهولة ثم الشيخوخة ولا يتوقف نحات العمر عن العمل في أي من هذه المراحل ولا يكل من إضفاء لمساته وخطوطه على كل مرحلة ولكن تتولد لدى البعض وخاصة من النساء الرغبة في الانتظار قليلا عند بعض هذه المراحل أملا في إطالة فترة الشباب من أجل الاستمتاع بنضارته حتى لو كان ذلك مجرد مظهر خارجي فقط. ومعظم من يخضعن لتقنيات التجميل هن من النساء اللائي تتطلب طبيعة حياتهن مظهرا خاصا مثل النجمات اللائي تسلط عليهن الأضواء فنجد كثيرات يؤكد تاريخهن الفني تعديهن لمرحلة الشباب بينما يتمتعن باستدارة وجه وبشرة مشدودة لا تكاد تختلف عن بشرة فتيات ماقبل العشرين. ولايخفى على أحد أن السر في ذلك هو جراحات وتقنيات التجميل التي تقدمت إلى حد كبير. ولكن برغم هذا التطور فإنه لابد لكل من تتولد لديه الرغبة في إجراء مثل هذه التطبيقات التجميلية أن يتعرف جيدا على هذا العلم وماله وما عليه فقد لا تكون الصورة وردية تماما وقد تتولد آثار جانبية لهذه التدخلات مما يوجب التأني قبل اتخاذ القرارات المتعلقة بإجراء هذه العمليات. كتاب «مستحضرات التجميل والتطبيقات السريرية لحقن البوتوكس وتقويم الجلد بدون جراحة» يقدم وصفا تفصيليا لعمليات شد الوجه والمواد العلاجية والتقنيات التي تستخدم في هذا الاتجاه وفي مقدمتها توكسين البوتولينوم Botulinum Toxin وهو ما يعرف بالبوتوكس Botox وكذلك مجموعة من المواد التي تستخدم لشد وحشو البشرة. هذه هي الطبعة الثانية للكتاب وهو بالفعل مرجع ذو قيمة عالية حيث يكشف الاستار عن حقائق ذات أهمية عظمى لمن يهتمون بموضوع التجميل سواء كانوا أطباء أم مرضى وبرغم كونه مرجعا طبيا بحتا مما قد يوجد احتياجا عاليا للتركيز في قراءته بالنسبة للقارئ غير المتخصص إلا أنه لاغنى عنه بالنسبة للمرضى أيضا تشمل موضوعات هذا الكتاب ١- آلية عمل حقن البوتوكس فضلا عن تشريح عضلات الوجه المطلوبة لإحداث عملية التجميل المناسبة ٢- تخزين البوتوكس وإعادة تشكيله ٣- بعض الاضطرابات الوظيفية مثل التشنجات والحول ٤- المستحضرات التجميلية المستخدمة لحشو الجلد مثل الكولاجين وحمض هيالورونيك وحمض البولي لاكتيك. يتميز هذا الكتاب باحتوائه على ١٦٢ من الرسوم التوضيحية والصور الفوتوغرافية لتقنيات الحقن، كما يضم الكتاب فصلا يبين الاستخدامات العلاجية للبوتوكس للتقليل من بعض التوترات مثل الصداع النصفي والصداع اليومي المزمن. الكتاب من تأليف د. وليام ليفام وهو حاصل على الدكتوراة في طب العيون والجراحات التجميلية والجراحات البلاستيكية بولاية مينيسوتا.

■

The Won Thing: The "one" Secret to a Totally Fulfilling Life

الجائزة: سر واحد لحياة رغدة تماما

Peggy McColl

Hay House2009¨192pp. $10.17



ما هو السر الوحيد لتحقيق النجاح والحياة الرغدة؟ ألا نتمنى جميعنا أن نعرف ذلك السر؟ مؤلفة هذا الكتاب بيجي ماكول Peggy McColl خبيرة دولية في مجال تحقيق الأهداف تتمتع مؤلفاتها بشهرة واسعة النطاق وتحقق أعلى المبيعات. أمضت سنوات عديدة في دراسة هذا الموضوع وكان هدفها الوصول إلى إجابة لهذا السؤال. قادها شغفها بالكتب الروحانية إلى محاضرات وندوات التنمية البشرية وورش عمل تحقيق الذات. كما أنها استوعبت أفضل النصائح من عشرات الاشخاص الذين حققوا نجاحا مبهرا في حياتهم وكل منهم كانت له أفكاره الخاصة حول هذا «السر الوحيد». مثل الكثيرين من الناس الذين يعيشون في حالة بحث عن هدف معين. نظرت بيجي خارج نفسها للتوصل إلى دليل ومرشد واكتشفت من خلال تدريسها للآخرين أن أفضل ما يستطيع المرء تحقيقه يتواجد داخل نفسه هو وهي تقول أن السعادة الحقيقية موجودة داخل كل منا ولكن يكمن ذكاء الانسان في مدى توفيقه في اكتشاف ذاته وبالتالي اكتشاف النقاط الإبداعية التي تتيح له تحقيق الحياة الرغدة.

في هذا الكتاب الرائع تعرب المؤلفة عن نية صادقة لأن توقظ ما لدى القارئ من قدرة فطرية على بناء وصفته الخاصة به للفوز بالجائزة التي منحها الله له. تعد بيجي ملهمة للكثير من الرياضيين المحترفين والمنظمات والأفراد وهي رئيسة ومؤسسة شركة Dynamic Destinies Inc. وهي مؤسسة ملتزمة بتقديم المبادئ السليمة لخلق تغيير دائم وايجابي. بيجي تقيم في كندا مع ابنها ميشال وزوجها دينيس.

■

«أنا من سنين أحب الجزائر»

فاروق جويدة

■ ■ شهيدٌ على صدر سيناء يبكى
ويدعو شهيداً بقلب الجزائر
تعال إلى ففى القلب شكوى
وبين الجوانح حزن يكابر
لماذا تهون دماء الرجال
ويخبو مع القهر عزم الضمائر
دماء توارت كنبض القلوب
ليعلو عليها ضجيج الصغائر
إذا الفجر أصبح طيفا بعيدا
تباع الدماء بسوق الحناجر
على أرض سيناء يعلو نداء
يكبر للصبح فوق المنابر
وفى ظلمة الليل يغفو ضياء
يجئ ويغدو.. كألعاب ساحر
لماذا نسيتم دماء الرجال
على وجه سينا.. وعين الجزائر؟!

■ ■ ■

على أرض سيناء يبدو شهيد
يطوف حزينا.. مع الراحلين
ويصرخ فى الناس: هذا حرام
دمانا تضيع مع العابثين
فهذى الملاعب عزف جميل
وليست حروبا على المعتدين
نحب من الخيل بعض الصهيل
ونعشق فيها الجمال الضنين
ونطرب حين يغنى الصغار
على ضوء فجر شجى الحنين
فبعض الملاعب عشق الكبار
وفيها نداعب حلم البنين
لماذا نراها سيوفا وحربا
تعالوا نراها كناى حزين
فلا النصر يعنى اقتتال الرفاق
ولا فى الخسارة عار مشين

■ ■ ■

على أرض سيناء دم ونار
وفوق الجزائر تبكى الهمم
هنا كان بالأمس صوت الرجال
يهز الشعوب.. ويحيى الأمم
شهيدان طافا بأرض العروبة
غنى العراق بأغلى نغم
شهيد يؤذن بين الحجيج
وآخر يصرخ فوق الهرم
لقد جمعتنا دماء القلوب
فكيف افترقنا بهزل القدم ؟!
ومازال يصرخ بين الجموع
قم اقرأ كتابك وحى القلم



على صدر سيناء وجه عنيد
شهيد يعانق طيف العلم
وفوق الجزائر نبض حزين
يدارى الدموع ويخفى الألم
تعالوا لنجمع ما قد تبقى
فشر الخطايا سفيه حكم
ولم يبق غير عويل الذئاب
يطارد فى الليل ركب الغنم !
رضيتم مع الفقر بؤس الحياة
وذل الهوان ويأس الندم
ففى كل وجه شظايا هموم
وفى كل عين يئن السأم
إذا كان فيكم شموخ قديم
فكيف ارتضيتم حياة الرمم ؟!
تنامون حتى يموت الصباح
وتبكون حتى يثور العدم

■ ■ ■

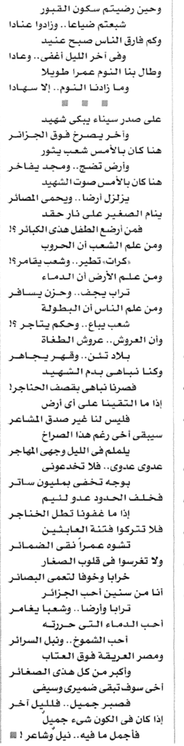
شهيد على صدر سيناء يبكى
وفوق الجزائر يسرى الغضب
هنا جمعتنا دماء الرجال
فهل فرقتنا «غناوى» اللعب
وبئس الزمان إذا ما استكان
تساوى الرخيص بحر الذهب
هنا كان مجد.. وأطلال ذكرى
وشعب عريق يسمى العرب
ويا ويلهم.. بعد ماض عريق
يبيعون زيفا بسوق الكذب
ومنذ استكانوا لقهر الطغاة
هنا من توارى.. هنا من هرب
شعوب رأت فى العويل انتصارا
فخاضت حروبا.. بسيف الخطب

■ ■ ■

على آخر الدرب يبدو شهيد
يعانق بالدمع كل الرفاق
أتوا يحملون زمانا قديما
لحلم غفا مرة.. واستفاق
فوحد أرضا.. وأغنى شعوبا
وأخرجها من جحور الشقاق
فهذا أتى من عيون الخليل
وهذا أتى من نخيل العراق
وهذا يعانق أطلال غزة
يعلو نداء.. يطول العناق
فكيف تشرد حلم برئ
لنحيا مرارة هذا السباق ؟
وياويل أرض أذلت شموخا
لترفع بالزيف وجه النفاق

■ ■ ■

شهيد مع الفجر صلى.. ونادى
وصاح : أفيقوا كفاكم فسادا
لقد شردتكم هموم الحياة
وحين طغى القهر فيكم.. تمادى



وحين رضيتم سكون القبور
شبعتم ضياعا.. وزادوا عنادا
وكم فارق الناس صبح عنيد
وفى آخر الليل أغفى.. وعادا
وطال بنا النوم عمرا طويلا
وما زادنا النوم.. إلا سهادا

■ ■ ■

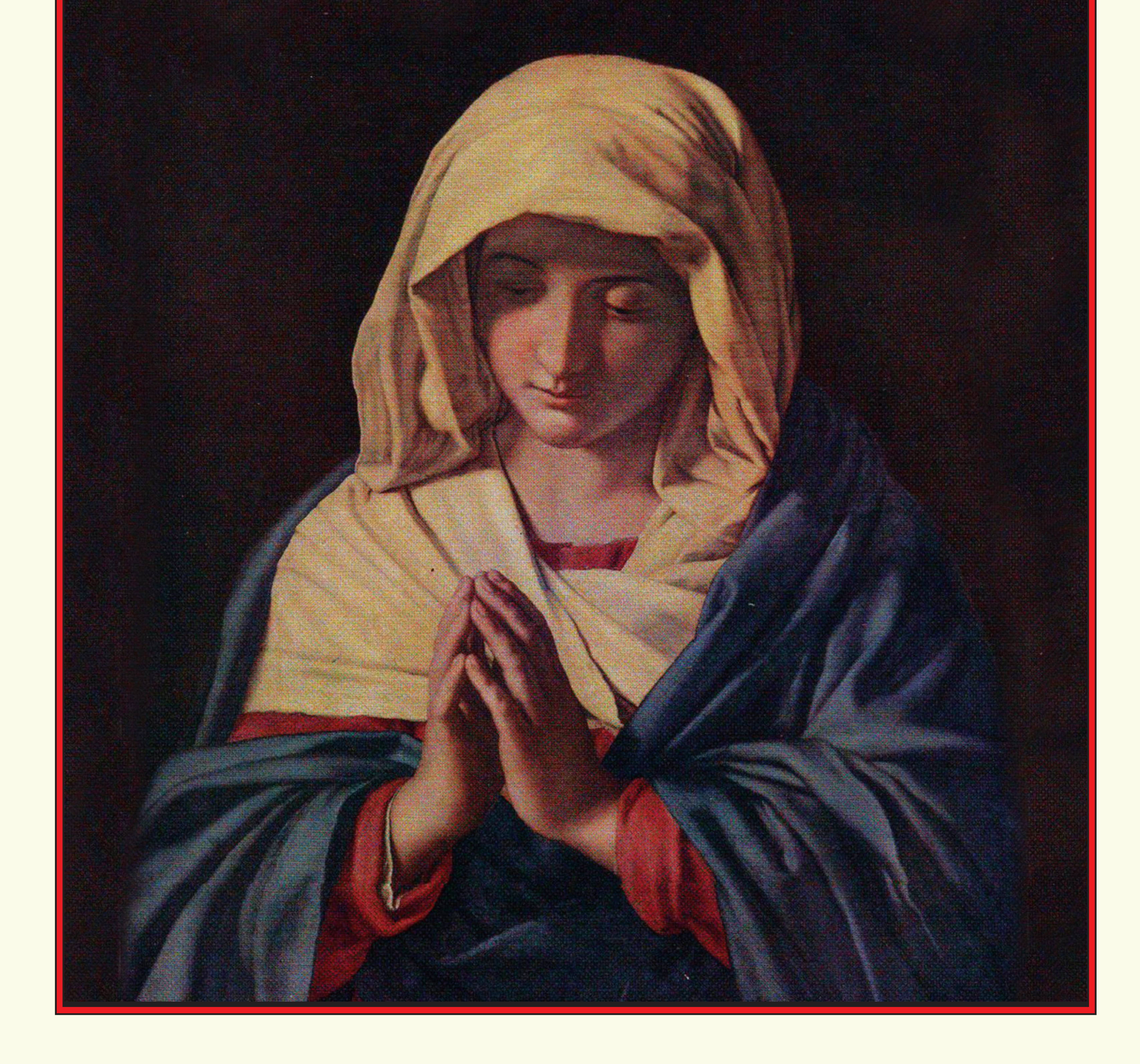
على صدر سيناء يبكى شهيد
وآخر يصرخ فوق الجزائر
هنا كان بالأمس شعب يثور
وأرض تضج.. ومجد يفاخر
هنا كان بالأمس صوت الشهيد
يزلزل أرضا.. ويحمى المصائر
ينام الصغير على نار حقد
فمن أرضع الطفل هذى الكبائر ؟!
ومن علم الشعب أن الحروب
«كرات» تطير.. وشعب يقامر؟!
ومن علم الأرض أن الدماء
تراب يجف.. وحزن يسافر
ومن علم الناس أن البطولة
شعب يباع.. وحكم يتاجر ؟!
وأن العروش.. عروش الطغاة
بلاد تئن.. وقهر يجاهر
وكنا نباهى بدم الشهيد
فصرنا نباهى بقصف الحناجر!
إذا ما التقينا على أى أرض
فليس لنا غير صدق المشاعر
سيبقى أخى رغم هذا الصراخ
يلملم فى الليل وجهى المهاجر
عدوى عدوى.. فلا تخدعونى
بوجه تخفى بمليون ساتر
فخلف الحدود عدو لئيم
إذا ما غفونا تطل الخناجر
فلا تتركوا فتنة العابثين
تشوه عمرا نقى الضمائر
ولا تغرسوا فى قلوب الصغار
خرابا وخوفا لتعمى البصائر
أنا من سنين أحب الجزائر
ترابا وأرضا.. وشعبا يغامر
أحب الدماء التى حررته
أحب الشموخ.. ونبل السرائر
ومصر العريقة فوق العتاب
وأكبر من كل هذى الصغائر
أخى سوف تبقى ضميرى وسيفى
فصبر جميل.. فلليل آخر
إذا كان فى الكون شىء جميل
فأجمل ما فيه.. نيل وشاعر ! ■

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

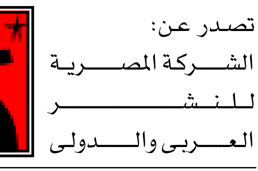
Weghat Nazar - Volume 11 - Issue132 - January 2010

مجلة شهرية العدد ١٣٢ – السنة الحادية عشرة – يناير ٢٠١٠ – الثمن عشرة جنيهات



السنة الحادية عشرة
العدد ١٣٢
يناير ٢٠١٠

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد محمد أبو زيد.. باحث فى العلاقات الدولية
- آريل إيلان روث .. أستاذ الدراسات الأمنية بجامعة جون هوبكينز
- إسماعيل سراج الدين.. مدير مكتبة الإسكندرية (والرئيس السابق للمجموعة الاستشارية للبحوث الزراعية الدولية CIGAR)
- السيد أمين شلبى.. الرئيس التنفيذى للمجلس المصرى للشئون الخارجية
- أيمن الصياد .. صحفى
- باراك أوباما.. رئيس الولايات المتحدة الأمريكية
- باميلا ماتسون.. عميدة كلية علوم الأرض بجامعة ستانفورد
- زكى سالم.. كاتب مصرى يحمل درجة الدكتوراه فى الفلسفة
- كمال حبيب.. باحث فى شئون الحركات الإسلامية
- كمال عبد اللطيف.. كاتب وأكاديمى ـ من المغرب
- كوجى أومى.. وزير مالية اليابان الأسبق
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى
- مايكل آر. نيلسون.. أستاذ زائر بجامعة جورج تاون والمدير السابق للتكنولوجيا وإستراتيجيات الإنترنت بشركة IBM
- ميشيل دوس.. أستاذ تاريخ الديانات فى جامعة السوربون ـ باريس
- نسيم الخورى.. أستاذ الإعلام السياسى بكلية الإعلام والتوثيق فى الجامعة اللبنانية

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى - Ares - Dario Castillejos - Dave Granlund - Petar Pismestrovic





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

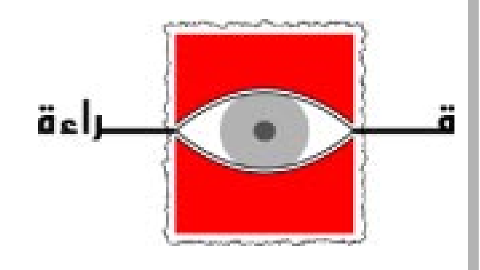
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



أيمن الصياد

اطلبوا العلم..

كلام فى السياسة!

■ ■ على مقهى فى بيروت، المعجون تاريخُها العربى الحديث. فضلا عن فضاء مقاهيها. بتناقضات السياسة وحكاياها، وعشية حوار عربى، طلب «برنامجُ الأمم المتحدة الإنمائى» من «وجهات نظر» تنظيمه وإدارته حول القضايا الواردة فى تقريره الأخير، سألنى مثقفٌ عربىٌ مرموق «مستنكرًا» أن تهتم المطبوعة الفكرية «الرصينة» بمناقشة قضايا مثل الأمن البيئى والجوع والفقر والعلوم وتعليم الأطفال.. بدلا من الاهتمام بما أسماه Hard Topics من قبيل السياسة ومترادفاتها وقضاياها التى لاتنتهى، وهى قضايا ـ حرص على أن يوضحَ لى ـ يظلُ الاهتمامُ بها «فرضَ عين» فى وطن عربى يبدو تاريخُه الحديث محصورا (قدرا) بين استبداد حاكميه، وطمع الغزاة فيه(!)

بدا لى السؤالُ. وإن كان استنكاريًا. فى محله.

«ولكن»..

طلبت من محدثى الغيور. بداية. أن يعود إلى أجندة الحوار «كله. لابعضه». وطمأنته. أولا. الى أن التقرير؛ والذى موضوعه التهديدات والتحديات التى تواجه «أمن الإنسان»فى بلداننا العربية، خصص فصلا كاملا للاحتلال والتدخل الأجنبى، كعاملى تهديد رئيسيين لأمن الانسان فى عالمنا العربى. كما أنه ، وفضلا عن خروجه بنتيجة أن «الدولة» فى عالمنا العربى تمثل فى ذاتها تهديدا حقيقيا للمواطن، بدلا من أن تكون هى «الضامنة لأمنه»، يهتمُ التقريرُ بمناقشة واقع التنوع الإثنى والعرقى والطائفى فى المنطقة، متسائلا ماإذا كان الصراعُ الدائرُ اليوم فى شوارعنا وأزقتنا وأودية جبالنا حتميا، أم أنه «نتاجٌ لفشل الدولة الاستبدادية فى إدارة هذا التنوع»، مما يفسح مجالا فى «عالم عولمى» لتدخلات خارجية، قد تمثل هى الأخرى تهديدا، إن لم يكن لأمن المواطن، فلاستقلاله وكرامته.

ثم كان فى رحلة العودة، أن شغلنى السؤالُ، وإشكاليةُ «التعريف»: ماهى السياسة فى عالم اليوم..؟ هل هى. فقط. الحربُ والدبلوماسية..؟ وماهى حقا «عناصرُ القوة» الضرورية الآن، لأى دولة ترغب فى أن تحفر اسمها على خارطة تتشكلُ فى قرن جديد؟

وهل صحيحٌ أن العلمَ / أو التعليم «الحقيقى»، يبقيان «فرضَ كفاية» فى مجتمع يصبو إلى أن يضع مواطنيه فى مكان يليق بتاريخهم الذى يسجلُ أن حضارتهم قامت يوما ما على العلم، وأن غَلَبتهم أو «امبراطوريتهم» بتعبير السياسة، لم تكن إلا يومَ أن كانوا الأكثر علمًا والأرقى تعليمًا؟

■ ■ ■

فى سفره الضخم عن صعودِ وانهيار الامبراطوريات منذ القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين لايرى البروفيسور Paul Kennedy أن التقدم العسكرى سيكون حاسمًا «منفردًا» فى تحديد مكانة الدول على سلم القوى فى القرن الواحد والعشرين، فإلى جانب عاملى التقدم الاقتصادى والثقافى، سيكون هناك «التقدم التكنولوجى.. والاتصالات العابرة للقارات».

وأنا أكتبُ مقالى هذا فى القطار، وعلى لوحة مفاتيح حاسوب مصنوع فى «Infinite Loop, Cupertino» ومعتمدا على بيانات يوفرها لى «لحظيًا» هاتفى المحمول iPhone المتصل بمكتبات ثلاثة من أهم المراكز البحثية فى العالم، ومتذكرا أن الذى اخترع «الإنترنت» هى وزارة الدفاع الأمريكية، أجدنى مضطرا إلى الاقتناع «عمليًا» بما ذهب إليه كيندى/ «البروفيسور» فى كتابه.

هل قرأتم Joseph Nye صاحب النظرية الشهيرة حول «القوة الناعمة»، ؟ تعالوا إذن لنقرأ التاريخ. فى القرن السادس عشر انعقدت لأسبانيا أسباب القوة لروابطها الملكية ولما كنزته فى خزائنها من سبائك الذهب. قبل أن تنتقل فى القرن السابع عشر إلى هولندا بسلطان التجارة والقوة البحرية. ثم إلى فرنسا المؤهلة للثورة والحرية فى القرن الثامن عشر، قبل أن ترسو فى التاسع عشر على شواطئ الامبراطورية التى «لاتغربُ عنها الشمس» بقوة الرأسمالية؛ وقودا للأساطيل، وبارودا للمدافع. يومها رسمت «شركة الهند الشرقية البريطانية» باعتبارها الطبعة الأولى، للشركات العملاقة العابرة للقارات، الخطوط الأولى فى خارطة العالم الحديث (اقتصادا وعلاقات دولية).. تمهيدا. ربما. ليوم ترتفع فيه فى كل عاصمة «أعلام ماكدونالدز»، ويرتدى فيه العالم كله بنطلون «الجينز»، قبل أن يؤدى فيه العالمُ كله أيضًا أدوار «كومبارس» مختلفة فى فيلم يُبث «على الهواء مباشرة» خلف البطل الأوحد الذاهب إلى العراق.



الذين قرأوا لجوزيف ناى أخيرا «The Paradox of American Power» سيستوقفهم كيف يرى أن التراجع الذى يبدو أحيانًا فى «الهيمنة الأمريكية» بعد أن كانت قد احتكرت زعامة العالم، إنما جاء عَرضًا لغرور القوة، ترتب عليه افراطٌ فى الاستخدام الغاشم «للقوة الصلبة»، أدى فى نهاية المطاف إلى ائتلافات. ولو غير معلنة. مناهضة لما فى الهيمنة الأحادية من طغيان.

■ ■ ■

أيا ماكان أمر نظريات أساتذة العلاقات الدولية، يبقى فى المشهد الواقعى المنظور حقيقة أن «قوة السلاح» على أهميتها التى لا تقبل تشكيكًا، لم تعد وحدها على قائمة عناصر القوة الحاسمة أو «المُرتِّبة» لمكانة الدول على الساحة الدولية فى عالم مابعد الحداثة، وذلك لأسباب كثيرة نلحظ منها تصاعد الدور الذى باتت تلعبه الحرب اللامتوازية فى أيامنا هذه. إذ مازالت «القاعدة» الهلامية غير محددة الملامح، عدوا لاتعرف القوة العسكرية الأمريكية العاتية، ومعها كل التحالفات العسكرية التقليدية (الناتو) سبيلا للقضاء عليه. كما أن لا أحد بوسعه أن يدعى. رغم الانتشاء المغرور للرئيس الأمريكى السابق جورج دبليو بوش. أن «القوة المسلحة الأمريكية» قد نجحت فى أن تحقق نصرا نهائيا فى العراق الذى ذهبت إليه قبل سبع سنوات قاربت أن تكتمل. أو فى أفغانستان التى تاهت فى فيافيها وتشابكاتها القبلية والعقائدية المعقدة منذ مايقارب عقدا كاملا من الزمان.

هناك إذن عناصرأخرى للقوة، لاتنتقص من قيمة البارود، ولكنها لاترضى لدخانه أن يحجب ماعلى الأرض من حقائق:

١ ـ نخطئ لو اعتقدنا أن أمريكا «سيدة العالم» هى فقط دبابات الـ M1 أو طائرات الـ F16. بل هى أيضًا المستشفيات التى نذهب إليها إذا مرضنا، والجامعات التى نسعى إليها لنعلم أبناءنا تعليما متميزا. هى أيضا مايكروسوفت، وأبل، وجنرال موتورز، وجوجل، وأمازون، وفيس بوك. وهى أيضا هوليوود، ومكتبة الكونجرس، وهارفارد وكورنيل وجورج تاون، ومعاهد بحثية لولم يذهب إليها زويل ماكان حصل على نوبل.

٢ـ أن أمريكا «تلك» قلقة على مكانتها فى ميدان العلوم، وعلى القدرة التنافسية لطلبتها الصغار «فى الفيزياء والرياضيات» أمام أجيال آسيوية جديدة.

٣ـ أن حال جامعاتنا، وطلبتنا «بالأرقام» لايخفى على أحد (راجع تقرير المعرفة الصادر قبل شهرين عن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم).

٤ـ أنه يكفى التعرف على عناوين الكتب العربية المنشورة على الإنترنت، كما قد يكفى ـ وزيادة ـ تصفح المنتديات العربية على الشبكة العنكبوتية، المفترض أنها «معلوماتية»، لنعرف مستوى التفكير «العلمى» لدى شبابنا، وأين تقع عندهم مرتبة «الرؤية النقدية» التى هى أساسُ كل علم ومعرفة وتقدم.

٥ـ أن إسرائيل؛ عدونا «الحقيقى»، وموضوع كل «سياسة» عربية على مدى النصف الثانى من القرن العشرين، ورغم أنها تسبقنا مجتمعين، فى كل ماهو علم وتعليم وتكنولوجيا، إلا أنها وضعت خطة نشرت حديثا تستهدف «جعل الدولة العبرية تحتل موقعا فى غضون السنوات العشرين المقبلة بين الدول العشر أو الخمسة عشر الرائدة دوليا» (تقرير إسرائيل ٢٠٢٨، مفوضية العلوم والتكنولوجيا الأمريكية الإسرائيلية. نُشرت ترجمته العربية بواسطة المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية)

....

....

وبعد.. هل هو كلام يبعد بنا فعلا عن السياسة؟

أحترم استنكار صديقى على المقهى فى بيروت. ولكن أرجوكم؛ راجعوا تقرير المعرفة العربى، واقرأوا التقرير الإسرائيلى، وانظروا عن ماذا يتحدث باراك أوباما. واسمحوا لى إذن أن أقول «بل هو كلام فى السياسة».. ■

احتفالا بمرور خمسة وعشرين عاما على إصدار المجلة ربع السنوية «قضايا العلوم والتكنولوجيا» Issues in Science and Technology والتى تصدر فى الولايات المتحدة الأمريكية تحت رعاية كل من الأكاديمية القومية للعلوم والأكاديمية القومية للهندسة والمعهد الطبى وجامعة تكساس فى الولايات المتحدة الأمريكية صدر عدد خاص للاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاما على إصدار المجلة. وقد دعى للكتابة فى هذا العدد نخبة من الشخصيات العامة والعلماء المهتمين بالعلوم والتكنولوجيا. وقد كان على رأس من تمت دعوتهم للكتابة فى هذا العدد الخاص الرئيس الأمريكى الحالى باراك أوباما والذى يتناول مقاله الإجابة عن سؤال هام يتعلق بماذا يمكن أن تقدمه العلوم فى الوقت الحالى؟

هذا بالإضافة إلى المساهمة التى كتبها الرئيس الأمريكى فقد اشترك فى تحرير هذا العدد الخاص عدد من العلماء المشهود لهم بالخبرة وبمساهماتهم فى ترسيخ استخدام العلوم والتكنولوجيا من أجل المصلحة العامة ورفاهية الإنسان.

تبقى ملاحظة أنه من بين الخمسة عشر عالما الذين تمت دعوتهم للمساهمة للكتابة فى هذا العدد الخاص كان هناك عربى واحد؛ هو الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية (وهو الرئيس السابق للمجموعة الاستشارية للبحوث الزراعية الدولية CIGAR) والذى كتب عن «الجوع» كواحد من أهم التحديات أمام البشرية فى عالم يرفل فى الرفاه والتقدم.

وجهات نظر



لكى تظل الدولة «العظمى».. عظمى

ماذا يمكن للعلم أن يفعله؟

What Science can do?



بـــــــــاراك أوبــــامــــــا

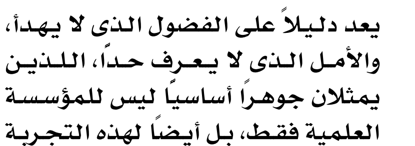
Barack Obama

■■ أصبح العلم ضرورياً لرخائنا وأمننا وصحتنا وبيئتنا ونوعية حياتنا أكثر من أى وقت مضى.

إنه لشرف عظيم أن أخاطب الأعضاء المتميزين بالأكاديمية الوطنية للعلوم، وأيضاً قادة الأكاديمية الوطنية للهندسة، ومعهد الطب، الذين اجتمعوا هنا هذا الصباح.

وأود أن أبدأ حديثى اليوم بقصة لزائر سابق ألقى خطاباً أمام هذا اللفيف المهيب. ففى أبريل/نيسان ١٩٢١ زار ألبرت آينشتاين الولايات المتحدة للمرة الأولى، وكانت مصداقيته العالمية تزداد عندما بدأ العلماء فى العالم يفهمون ويتقبلون النتائج الهائلة لنظرياته عن النسبية العامة والخاصة. وقد حضر هو هذا الاجتماع السنوى وبعد أن انتهى من سماع سلسلة من الخطب الطويلة التى ألقاها آخرون، قيل إنه قال: «لقد توصلت للتو إلى نظرية جديدة عن الخلود!» ومن ثم فإننى سأضع نصب عينى هذه القصة التحذيرية.

إن تأسيس هذا المعهد فى حد ذاته



يعد دليلاً على الفضول الذى لا يهدأ، والأمل الذى لا يعرف حداً، اللذين يمثلان جوهراً أساسيًا ليس للمؤسسة العلمية فقط، بل أيضاً لهذه التجربة التى نطلق عليها أمريكا.

بعد بضعة أشهر من الهزيمة المفجعة فى معركة «فريدريك سبيرج» قبل الانتصار فى معركة جيتيسبورج، قبل سقوط ريتشموند وقبل أن يصبح مصير الاتحاد مؤكداً، وقع الرئيس أبراهام لينكولن على قانون لتأسيس الأكاديمية الوطنية للعلوم، فى غمار الحرب الأهلية.

رفض لينكولن قبول فكرة أن يكون الهدف الوحيد لأمتنا هو البقاء فحسب، فأنشأ هذه الأكاديمية، وأسس الكليات التى حظيت بهبات الأراضى الحكومية بموجب قانون موريل، وبدأ العمل على إنشاء خط سكة حديدية عابر للقارة، مؤمناً أننا يجب أن نَسْكُب «وقود المصلحة على نار العبقرية فى اكتشاف... أشياء جديدة ومفيدة». وفقاً لكلماته.

هذه هى قصة أمريكا، حتى فى أصعب الأوقات، ورغم أشد الصعوبات، لم نستسلم للتشاؤم قط، لم نسلم مصيرنا إلى الفرصة قط، لقد تحملنا، وكدحنا فى العمل، وسعينا لبلوغ حدود جديدة.

إننا اليوم بالطبع نواجه تحديات أعقد مما واجهناها من قبل؛ نظاماً طبياً يحمل وعد الكشف عن أدوية وسبل علاج جديدة مرتبطاً بنظام رعاية صحية يحمل فى طياته احتمال الإفلاس للأسر والشركات، ونظام طاقة يحرك اقتصادنا لكنه يعرض فى الوقت نفسه كوكبنا للخطر، وتهديدات لأمننا تسعى

باراك أوباما هو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وقد ألقى ذلك الخطاب فى الاجتماع السنوى للأكاديمية الوطنية للعلوم الذى عقد فى الثامن والعشرين من أبريل/ نيسان ٢٠٠٩

بترتيب خاص مع مجلة:
Issues in Science and Technology

ترجمة: ....



لن نظل دولة عظمى، مادام يتفوق
على طلابنا فى مجال الرياضيات نظراؤهم فى سنغافورة واليابان وإنجلترا وهولندا
وهونج كونج وكوريا وغيرها



لاستغلال العلاقات الوثيقة والانفتاح الأساسيين لرخائنا، وتحديات فى السوق العالمية تربط متداول أدوات المشتقات المالية فى وول ستريت بمن يملك منزله فى المدن الصغيرة والموظف الإدارى فى أمريكا بعامل المصنع فى الصين، إنها سوق نتشارك فيها جميعاً الفرصة، لكنها تتعرض لأزمة.

فى هذه اللحظة العصيبة، هناك من يقول إننا لا نستطيع تحمل نفقات الاستثمار فى العلم، وأن دعم الأبحاث يعد من الرفاهية فى ظل لحظات تحددها الضروريات، وأنا أختلف معهم اختلافاً جوهرياً، فإن العلم ضرورى لرخائنا وأمننا وصحتنا وبيئتنا ونوعية حياتنا أكثر من أى وقت مضى.

ولو أن هناك يوماً سيذكرنا بمصلحتنا المشتركة فى العلم والأبحاث فإنه يومنا هذا. إننا نراقب عن كثب حالات الإصابة بأنفلونزا الخنازير التى تظهر فى الولايات المتحدة، وهذا لا شك مدعاة للقلق، ويتطلب رفع حالة التأهب، لكنه ليس سبباً للذعر. فقد أعلنت وزارة الصحة والخدمات الإنسانية حالة الطوارئ فى الصحة العامة كوسيلة تحذيرية لضمان أننا نمتلك تحت تصرفنا الموارد التى نحتاج إليها للاستجابة لأى موقف بسرعة وكفاءة. وتردنى تقارير منتظمة بأحدث الأخبار عن الموقف من الجهات المسئولة، ووزارة الصحة والخدمات الإنسانية، وستقدم مراكز مكافحة الأمراض للشعب الأمريكى تقارير محدثة بانتظام أيضاً، وستقدم الوزيرة نابوليتانو تقارير منتظمة أيضاً تحمل أحدث الأخبار للشعب الأمريكى حتى يعرف الخطوات التى يجرى اتخاذها والخطوات التى قد يحتاجون لاتخاذها.

لكن هناك شيئاً واضحاً وهو أن قدرتنا على التعامل مع تحديات الصحة العامة من هذا النوع تعتمد بقوة على عمل المجتمع العلمى والطبى، وهذا مثال آخر على سبب عدم إمكانية تركنا أمتنا تتأخر فى هذا الشأن.

ولسوء الحظ، هذا بالضبط ما حدث، فلقد انخفض التمويل الفيدرالى فى مجال العلوم الفيزيائية كجزء من إجمالى الناتج المحلى بمقدار النصف تقريباً على مدار ربع القرن الماضى، ومراراً وتكراراً سمحنا للائتمان الضريبى للأبحاث والتجارب - الذى يساعد الشركات على النمو والابتكار - أن ينخفض.

وتستمر مدارسنا فى تتبع خطى الدول المتقدمة الأخرى، بل الدول النامية أحياناً. ويتفوق على طلابنا فى مجال الرياضيات نظراؤهم فى سنغافورة واليابان وإنجلترا وهولندا وهونج كونج وكوريا وغيرها. ويظهر تقدير آخر أن الطلاب الأمريكيين فى الخامسة عشرة من العمر يحتلون المركز الخامس والعشرين فى الرياضيات، والحادى والعشرين فى العلوم عند مقارنتهم بدول فى مختلف أنحاء العالم، ولقد رأينا الأمانة العلمية تتقوض والبحث العلمى يُسيَّس فى محاولة لدفع أجندات فكرية محددة مسبقاً إلى الأمام.

إننا نعرف أن بلدنا أفضل من هذا، فقبل نصف قرن من الزمان، تعهدت هذه الأمة بقيادة العالم فى الابتكارات العلمية والتكنولوجية والاستثمار فى التعليم والأبحاث والهندسة، ووضع هدف الوصول إلى الفضاء وإشراك كل مواطن فى هذه المهمة التاريخية، وكان ذلك ذروة استثمار أمريكا فى الأبحاث والتطوير، ومنذ ذلك الوقت أخذت استثماراتنا تنخفض باطراد كجزء من دخلنا القومى، ونتيجة لذلك بدأت دول أخرى الآن تتقدم فى السعى وراء اكتشافات هذا الجيل العظيمة.

وأنا أومن أن صفة الاتباع ليست من شيمنا، ليست من شيم الشخصية الأمريكية، بل القيادة هى شيمتنا، وقد حان الوقت كى نعود ونمسك زمام القيادة مرة أخرى. لذا أنا هنا اليوم كى أحدد هذا الهدف: سنخصص أكثر من ٣٪ من إجمالى الناتج المحلى للبحث والتطوير، إننا لن نصل إلى المستوى الذى وصلنا إليه فى ذروة سباق الفضاء فقط بل سنتخطاه، وذلك عن طريق سياسات تستثمر فى الأبحاث الأساسية والتطبيقية، وخلق حوافز جديدة للابتكار الخاص، وتعزيز التقدم فى مجالى الطاقة والطب، وتحسين التعليم فى مجالى الرياضيات والعلوم.

وهذا يمثل أكبر التزام للابتكار والبحث العلمى فى التاريخ الأمريكى، فكروا ما الذى سيساعدنا هذا فى الوصول إليه: الخلايا الشمسية ستصبح زهيدة الثمن مثل الطلاء، والمبانى الخضراء التى تنتج الطاقة التى تستهلكها، وتعلم البرمجيات سيكون فعالاً مثل المعلم الشخصى، والجراحة الترقيعية ستكون شديدة التقدم حتى إنه يمكن لمن يجريها العزف على البيانو مرة أخرى، وتوسيع حدود المعرفة البشرية عن أنفسنا والعالم حولنا. يمكننا فعل كل هذا.

مَثَّل السعى وراء الاكتشاف قبل نصف قرن وقوداً لرخائنا ونجاحنا كدولة فى الخمسين عاماً التالية، والتعهد الذى أتعهد أنا به اليوم سيكون وقود دفع نجاحنا لخمسين عاماً أخرى، وهذه هى الطريقة التى سنضمن بها أن أطفالنا وأطفالهم سينظرون إلى عمل هذا الجيل بوصفه العمل الذى يحدد التقدم ويحقق الرخاء فى القرن الحادى والعشرين.

وهذا العمل يبدأ بالتزام تاريخى للعلوم الأساسية والأبحاث التطبيقية، من المعامل فى الجامعات ذائعة الصيت إلى الأماكن التى يمكن إثباته عليها فى الشركات المبتكرة. ومن خلال قانون الانتعاش وإعادة الاستثمار الأمريكى، وبدعم من الكونجرس، تقدم إدارتى بالفعل أكبر دعم فردى للاستثمار فى الأبحاث الأساسية فى التاريخ الأمريكى. وقد حدث هذا بالفعل.

وهذا أمر مهم الآن، فى الوقت الذى تعتمد فيه الكليات والجامعات العامة والخاصة فى جميع أنحاء البلاد على الهبات الآخذة فى التقلص والميزانيات المحدودة. لكن هذا له أهمية لا تصدق لمستقبلنا. فكما قال فانيفار بوش Vannevar Bush المستشار العلمى للرئيس فرانكلين روزفلت جملته الشهيرة: «البحث العلمى الأساسى هو رأس المال العلمى».

والحقيقة هى أن الأبحاث فى مواضيع الفيزياء والكيمياء وعلوم الأحياء قد لا يكون لها مردود مالى لمدة عام وربما عقد من الزمن أو قد لا يكون لها مردود بتاتاً. وعندما يكون لها مردود، غالباً يشارك هذه العوائد ويستمتع بها أولئك الذين تحملوا نفقاتها مثلما يتمتع بها أيضاً أولئك الذين لم يتحملوا هذه النفقات.

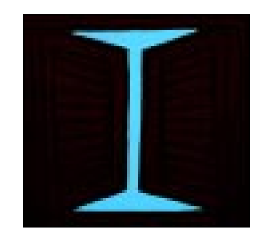
لهذا السبب فإن القطاع الخاص يقتصر فى استثماره على العلوم الأساسية، ويتعين على القطاع العام أن يستثمر أموالاً فى هذا النوع من الأبحاث. ذلك لأنه فى حين قد تكون المجازفات كبيرة فإن العائدات على اقتصادنا ومجتمعنا تكون كبيرة أيضاً.

لا يمكن لأحد توقع ما التطبيقات الجديدة التى ستولد من رحم الأبحاث الأساسية: أنواع جديدة من العلاج فى مستشفياتنا، أو مصادر جديدة من الطاقة الفعالة، أو مواد بناء جديدة، أم أنواع جديدة من المحاصيل أكثر مقاومة للحرارة والجفاف. لقد كان البحث الأساسى فى مجال الكهرباء الضوئية، فى تأثير الكهرباء الضوئية، هو الذى قاد فى أحد الأيام إلى ابتكار الألواح الشمسية. ولقد كانت الأبحاث الأساسية فى



عندما تفوق علينا
السوفييت فى الوصول
إلى الفضاء، كان علينا الاختيار:
إما أن نقبل الهزيمة
أو نقبل التحدى





ماذا يمكن للعلم أن يفعله؟

الفيزياء هى التى أسهمت فى ظهور الفحص بالأشعة المقطعية بعد ذلك. كما أن حسابات الأقمار الصناعية التى تستخدمها أجهزة تحديد المواقع تستند إلى معادلات استنبطها العالم الشهير آينشتاين قبل أكثر من قرن من الزمن.

وإضافة إلى الاستثمارات فى قانون الانتعاش The recovery Act وإعادة الاستثمار، فإن الميزانية التى قدمتها، وجرى إقرار بعض من بنودها فى مجلسى النواب والشيوخ، تزيد من الاستثمارات التاريخية فى الأبحاث التى تشتمل عليها خطة الانتعاش. لذا فقد ضاعفنا ميزانية بعض الهيئات الرئيسية بما فى ذلك المؤسسة الوطنية للعلوم، وهى مصدر رئيسى للتمويل للأبحاث الأكاديمية، والمعهد الوطنى للمعايير والتكنولوجيا، الذى يدعم نطاقًا واسعًا من المساعى؛ من تحسين تكنولوجيا معلومات الصحة إلى قياس نسبة التلوث بالكربون، ومن اختبار تصميمات الشبكة الذكية إلى تطوير عمليات التصنيع المتقدمة.

إلى جانب أن الميزانية التى وضعتها تضاعف التمويل لمكتب العلوم فى وزارة الطاقة الذى يبنى ويشغل أجهزة المسرعات وأجهزة التصادم وأجهزة الكمبيوتر الفائقة ومصادر الضوء عالية الطاقة، ومنشآت لتصنيع مواد النانو، لأننا نعلم أن قدرة الأمة على الاكتشافات العلمية تتحدد بالأدوات التى تقدمها لباحثيها.

لكن هذا الالتزام المتجدد لأمتنا لن تحركه استثمارات الحكومة وحدها، إنه التزام يمتد من المعمل إلى السوق، ولهذا فإن الميزانية التى وضعتها تجعل الائتمان الضريبى للأبحاث والتجارب دائمًا. إنه ائتمان ضريبى يعيد دولارين للاقتصاد فى مقابل كل دولار ننفقه عن طريق مساعدة الشركات فى تحمل النفقات العالية لتطوير الأفكار الجديدة، والتقنيات الجديدة والمنتجات الجديدة. لكننا فى بعض الأحيان تركناه يهبط إلى أقل من المستوى، أو لم نجدده إلا من عام إلى عام، ولقد سمعت هذا مرارًا وتكرارًا من أصحاب أعمال خاصة فى مختلف أنحاء هذه الدولة، ولكن إذا جعلنا هذا الائتمان دائمًا فسنجعل من الممكن للشركات أن تخطط نوعية المشروعات التى توفر فرص عمل وتحقق نموًا اقتصاديًا.

ثانيًا: لن يكون الابتكار أكثر أهمية فى أى مجال منه فى مجال تطوير التقنيات الحديثة لإنتاج الطاقة واستخدامها والحفاظ عليها، ولهذا السبب التزمت إدارتى التزامًا غير مسبوق بتطوير اقتصاد طاقة نظيفة فى القرن الحادى والعشرين، ولهذا السبب عينّا أحد العلماء ليشغل منصب وزير الطاقة.

إن مستقبلنا على هذا الكوكب يعتمد على استعدادنا لمواجهة التحدى الذى يفرضه تلوث الكربون، ومستقبلنا كدولة يعتمد على استعدادنا لقبول هذا التحدى كفرصة لقيادة العالم فى السعى نحو اكتشاف جديد.

عندما أطلق الاتحاد السوفيتى القمر الصناعى بنجاح المركبة الفضائية سبوتنيك قبل ما يزيد قليلاً على نصف قرن، صعق الأمريكيون؛ فقد تفوق علينا السوفييت فى الوصول إلى الفضاء، وكان علينا الاختيار: إما أن نقبل الهزيمة أو نقبل التحدى. وكما هو الحال دائمًا، اخترنا قبول التحدى؛ فوقع الرئيس أيزنهاور تشريعًا لإنشاء وكالة ناسا والاستثمار فى تعليم العلوم والرياضيات من المدرسة الابتدائية إلى الدراسات العليا. وبعد ذلك بسنوات قلائل، بعد شهر واحد من خطابه فى الاجتماع السنوى للأكاديمية الوطنية للعلوم عام ١٩٦١، أعلن الرئيس كينيدى بشجاعة أمام جلسة حضرها أعضاء مجلس النواب ومجلس الشيوخ معًا أن الولايات المتحدة سترسل رجلاً إلى القمر وتعيده سالمًا إلى الأرض.

وقد احتشد المجتمع العلمى خلف هذا الهدف وشرع فى تحقيقه، ولم يفض إلى تلك الخطوات الأولى على القمر فقط، بل أفضى إلى قفزات عملاقة فى فهمنا هنا فى الوطن. فقد أثمر برنامج أبوللو تقنيات حسنت من عمليات غسيل الكلى، ونظم تنقية المياه، ومجسات لاختبار الغازات الخطيرة، ومواد بناء موفرة للطاقة، والأنسجة المقاومة للنيران التى يستخدمها رجال الإطفاء والجنود. وعلى نطاق أوسع، فإن الاستثمار الهائل فى ذلك العصر فى العلم والتكنولوجيا وفى التعليم وتمويل الأبحاث تمخض عن تدفق عظيم من الفضول والإبداع اللذين لا يمكن إحصاء ما لهما من منافع. فهناك منكم من أصبح عالمًا بسبب هذا الالتزام، وعلينا أن نضاعفه.

لن تكون هناك لحظة سبوتنيك مرة أخرى أمام تحديات هذا الجيل لإنهاء اعتمادنا على الوقود الحفرى، بل إن هذا يجعل التحدى أصعب فى حله، ويزيد من أهمية أن نضع نصب أعيننا العمل الذى ينتظرنا.

لكن الطاقة هى مشروعنا العظيم، المشروع العظيم لهذا الجيل، ولهذا حددت هدفًا لأمتنا يتمثل فى أننا سنخفض تلوث الكربون بنسبة تزيد على ٨٠٪ بحلول عام ٢٠٥٠، ولهذا السبب فإننى أسعى، بالعمل مع الكونجرس، للتوصل إلى السياسات التى ستساعدنا على تحقيق هذا الهدف.

تقدم لنا خطة الانتعاش التى وضعناها الحوافز لمضاعفة قدرة أمتنا على توليد الطاقة المتجددة على مدار السنوات القليلة القادمة، مما يزيد الائتمان الضريبى على الإنتاج، ويقدم ضمانات قروض ومنح للحث على الاستثمار. فعلى سبيل المثال، خفضت الأبحاث والتطوير التى تحظى بتمويل فيدرالى تكلفة الألواح الشمسية عشرة أضعاف على مدار العقود الثلاثة السابقة، وستضمن جهودنا المتجددة أن تقنيات الطاقة الشمسية والمصادر النظيفة الأخرى ستكون تنافسية.

وتتضمن ميزانيتى ١٥٠ مليار دولار على مدار عشر سنوات مخصصة للاستثمار فى مصادر الطاقة المتجددة وأيضًا الاستخدام الفعال للطاقة. وتدعم هذه الميزانية جهودًا فى ناسا، زكاها المجلس القومى للأبحاث بأن جعل لها الأولوية، لتطوير الإمكانيات الجديدة القائمة على الفضاء لمساعدتنا فى تحسين فهمنا للتغيرات المناخية. واليوم أعلن أيضًا أننا للمرة الأولى سنمول مبادرة، زكتها هذه المنظمة، يطلق عليها وكالة مشروعات الأبحاث المتقدمة للطاقة.

ومما لا يثير الدهشة أنها تعتمد على وكالة مشروعات أبحاث الدفاع المتقدمة التى أنشئت فى عهد إدارة الرئيس أيزنهاور نتيجة لإطلاق سبوتنيك. وقد وكل إليها طوال تاريخها إجراء أبحاث شديدة الخطورة وشديدة النفع، وتدين مشروعات مثل شبكة أربانت وهى سلف الإنترنت، وتقنية التخفى، ونظام التموضع العالمى بالكثير لعمل وكالة مشروعات أبحاث الدفاع المتقدمة.

ولهذا فإن وكالة مشروعات الأبحاث المتقدمة للطاقة تسعى لإجراء النوع نفسه من الأبحاث شديدة الخطورة والنفع أيضًا، وستسعى إدارتى أيضًا وراء التوصل إلى تشريع شامل لوضع حد لانبعاث غاز الكربون استنادًا على رغبات السوق، وسنجعل الطاقة المتجددة هى النوع المربح من الطاقة، وسنوفر الموارد حتى يستطيع العلماء التركيز على هذا المجال الخطير، وأنا واثق بأننا سنجد ينبوعًا متدفقًا من الابتكار ينتظر أن يزيح عنه الباحثون فى هذه الغرفة، ورجال الأعمال فى جميع أنحاء البلاد، الستار. بإمكاننا حل هذه المشكلة.

الآن، الدولة التى تقود طاقة العالم النظيفة فى القرن الحادى والعشرين ستكون هى الدولة التى تقود الاقتصاد العالمى فى القرن الحادى والعشرين، وأنا أومن بأن أمريكا يمكن - بل يجب - أن تكون هى هذه الدولة. لكن كى نقود الاقتصاد العالمى وكى نضمن أن شركاتنا بإمكانها أن تنمو وتبتكر، وعائلاتنا يمكن أن تزدهر، سيكون علينا أيضًا أن نتعامل مع نقاط القصور فى نظام الرعاية الصحية.

وسيدعم قانون الانتعاش The Recovery Act الخطوات التى كان لا بد أن نتخذها قبل وقت طويل من تحويل السجلات الطبية فى أمريكا إلى الكمبيوتر لتقليل عمليات التكرار والتبديد والأخطاء التى تكلف مليارات الدولارات وآلاف الأرواح، لكن من الضرورى أن نلاحظ أن هذه السجلات تحمل أيضًا إمكانية منح المرضى فرصة أكبر للمشاركة الفعالة فى الوقاية من أمراضهم وعلاجها. إننا يجب أن نحافظ على تحكم المرضى بهذه السجلات ونحترم خصوصيتها. وفى الوقت نفسه، تكون لدينا فرصة عرض مليارات ومليارات من نقاط البيانات مجهولة الاسم إلى الباحثين فى المجال الطبى الذين قد يجدون فى هذه المعلومات دليلاً يمكن أن يساعدنا على فهم المرض بصورة أفضل.

والتاريخ يعلمنا أيضًا أن أعظم تقدم يُحرز فى الطب ينبع من الرقى العلمى، سواء أكان ذلك التقدم فى اكتشاف المضادات الحيوية أو فى ممارسات أفضل فى الصحة العامة، واللقاحات للجدرى وشلل الأطفال وأمراض معدية عديدة أخرى، والعقاقير التى تستخدم فيها



هناك من يقول إننا لا نستطيع تحمل نفقات الاستثمار فى العلم، وأن دعم الأبحاث يعد من الرفاهية فى ظل لحظات تحددها الضروريات، وأنا أختلف معهم اختلافاً جوهرياً



الفيروسات المعاودة التى يمكن أن تعيد مرضى الإيدز إلى حياتهم الإنتاجية والحبوب التى يمكن أن تتحكم فى أنواع محددة من سرطانات الدم، والكثير غير ذلك.

ونظراً للتقدم الذى تحقق حديثًا، ليس فى علم البيولوجيا والوراثة والطب فقط، بل فى الفيزياء والكيمياء وعلوم الكمبيوتر والهندسة أيضًا، فإن لدينا إمكانية إحراز تقدم هائل فيما يخص مقاومة الأمراض فى العقود القادمة. ولهذا فإن إدارتى تكرس جهدها لزيادة التمويل للمعهد القومى للصحة بما فى ذلك ٦ مليارات دولار لدعم الأبحاث فى مرض السرطان، كجزء من خطة مستديمة تستمر لسنوات لمضاعفة أبحاث السرطان فى بلدنا.

يلى ذلك أننا نعيد العلم إلى مكانته التى يستحقها، ففى التاسع من مارس/آذار وقعت مذكرة تنفيذية تنص على رسالة واضحة، وهى انتهاء الأيام التى كان العلم يحتل فيها مكانة ثانوية خلف الأيديولوجيات، إن تقدمنا كأمة ومبادئنا كأمة تضرب بجذورها فى التساؤل الحر الصريح، وإن تقويض الأمانة العلمية لهو تقويض لديمقراطيتنا، وهذا ضد أسلوبنا فى الحياة.

ولهذا كلفت جون هولدرن John Holdren ومكتب البيت الأبيض لسياسة العلوم والتكنولوجيا بالقيام بجهود جديدة بهدف ضمان اعتماد السياسات الفيدرالية على أفضل المعلومات العلمية وأكثرها حيادية. وأود أن أتأكد من أن الحقائق هى التى تؤدى إلى القرارات العلمية وليس العكس.

وكجزء من هذه الجهود، أطلقنا بالفعل موقعاً على شبكة الإنترنت لا يتيح للأفراد إبداء نصائح لتحقيق هذا الهدف فقط، بل التعاون على تنفيذ هذه النصائح أيضاً، إنها خطوة صغيرة لكنها خطوة تستحدث حكومة أكثر شفافية ومشاركة وديمقراطية.

إننا نحتاج أيضاً لإشراك المجتمع العلمى مباشرة فى صنع السياسات العامة. ولهذا فإننى اليوم أعلن أننا نستكمل قائمة أعضاء مجلس مستشارى الرئيس فى العلوم والتكنولوجيا PCAST، وإننى أعتزم العمل معهم عن كثب. وقد تحدد بالفعل رؤساؤه وهم الدكتور فارموس Varmus والدكتور لاندر Lander إضافة إلى الدكتور جون هولدرن، ويمثل هذا المجلس الرواد من مجالات علمية عديدة سيجلبون معهم تجارب وآراء مختلفة. وسأكلف المجلس بإسداء الاستشارات لى فيما يخص الاستراتيجيات القومية لإنشاء ثقافة الابتكار العلمى ودعمها.

وفى مجال الطب الحيوى، فقط كى أمنحكم مثالاً لما يستطيع المجلس أن يفعل، يمكننا أن نستغل التقارب التاريخى بين علوم الحياة والعلوم الفيزيائية الذى يحدث اليوم، وننفذ مشروعات عامة بنفس حماس مشروع الجينوم البشرى لإنشاء بيانات وإمكانيات تشعل فتيل الاكتشافات فى عشرات الآلاف من المعامل، وتحديد الحواجز العلمية والبيروقراطية والتغلب عليها لترجمة التقدم العلمى سريعاً إلى علوم تشخيصية وعلاجية تخدم المرضى.

وفى العلوم البيئية سيتطلب الأمر أن نزيد من قوة قدرتنا على التنبؤ بالطقس، ومراقبة كوكب الأرض من الفضاء، وإدارة أرض بلدنا ومياهه وغاباته وإدارة مناطقنا الساحلية ومصايد الأسماك على المحيطات.

إننا نحتاج أيضاً للعمل مع أصدقائنا فى مختلف أنحاء العالم، فإن العلم والتكنولوجيا والابتكار تتقدم بسرعة أكبر وبتكلفة أقل عندما تتشارك الدول الرؤى والتكلفة وأوجه الخطورة، والكثير من التحديات التى سيساعدنا العلم والتكنولوجيا فى مواجهتها إنما هى تحديات عالمية. وهذا ينطبق على اعتمادنا على النفط، وتأثير التغير المناخى، وتهديد الأمراض الوبائية، وانتشار الأسلحة النووية.

ولهذا فإن إدارتى تزيد المشاركة والتزامنا بالتعاون الدولى فى العلم والتكنولوجيا فى مناطق كثيرة يتضح أنه من مصلحتنا أن نفعل ذلك فيها. وفى الواقع سوف تستضيف إدارتى هذا الأسبوع قادة أكبر كيانات اقتصادية فى العالم لبدء العمل معاً بهدف مواجهة تحديات الطاقة المشتركة.

وخامساً: نظراً لأننا نعلم أن تقدم أجيال المستقبل ورخاءهم سيعتمد على ما نفعله الآن لتعليم الجيل القادم، فإننى اليوم أعلن تجديد التزامى بالتعليم فى مجالى الرياضيات والعلوم، وهذا أمر أهتم به بشدة. وعبر هذا الالتزام سينتقل الطلاب الأمريكيون من المرتبة المتوسطة إلى العليا فى العلوم والرياضيات على مدار العقد التالى، لأننا نعلم أن الدولة التى تتفوق علينا فى التعليم اليوم ستتفوق علينا فى المنافسة غداً، وأنا أعتزم ألا أترك مجالاً يتفوق علينا أحد فيه.

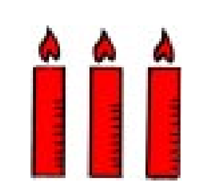
لكننا لا نستطيع البدء مبكراً بما يكفى، ونحن نعلم أن كفاءة مدرسى الرياضيات والعلوم هى أكثر عامل فردى مؤثر فى تحديد هل سينجح الطلاب فى هاتين المادتين أم سيفشلون. ومع ذلك نجد أنه فى المدارس الثانوية هناك أكثر من ٢٠٪ من الطلاب فى الرياضيات وأكثر من ٦٠٪ من الطلاب فى الكيمياء والفيزياء يتلقون التعليم على أيدى مدرسين ليست لديهم خبرة فى هذه المجالات. وهذه المشكلة تسير من سيئ إلى أسوأ؛ إذ إنه من المتوقع حدوث عجز بمقدار ما يزيد على ٢٨٠ ألف مدرس رياضيات وعلوم فى جميع أنحاء البلاد بحلول عام ٢٠١٥.

ولهذا فإننى أعلن اليوم أن الولايات التى تلتزم بقوة بأن تحرز تقدماً فى تعليم الرياضيات والعلوم ستكون مؤهلة للمنافسة فى وقت لاحق من هذا الخريف للحصول على تمويل إضافى بموجب برنامج «السباق إلى القمة» الذى وضعه وزير التعليم وميزانيته ٥ مليارات دولار. وأنا أحث الولايات على تحسين إنجازاتها بقوة فى مجالى الرياضيات والعلوم عن طريق رفع المقاييس وتحديث معامل العلوم وتحديث المناهج وعقد شراكات لتحسين استخدام العلوم والتكنولوجيا فى فصولنا. وأحث الولايات أيضًا على دعم إعداد المعلمين وتدريبهم، وجذب مدرسى رياضيات وعلوم جدد مؤهلين لتحسين مستوى مشاركة الطلاب ومنح حياة جديدة لهذه المواد فى مدارسنا.

وفى ظل هذه المساعى سنعمل على دعم الأساليب المبتكرة. فلنستحدث نظماً تحافظ على المدرسين الأكفاء وتكافئهم، ولنمهد طرقًا جديدة للمحترفين ذوى الخبرة للوصول إلى الفصول. فهناك الآن كيميائيون يمكنهم تدريس مادة الكيمياء، وفيزيائيون يمكنهم تدريس مادة الفيزياء وخبراء فى الإحصاء يمكنهم تدريس مادة الرياضيات، لكننا بحاجة إلى استحداث طريقة لتوصيل الخبراء والمتحمسين من هؤلاء الرجال، رجال مثلكم، إلى الفصول.

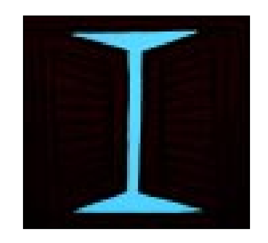
فعلى سبيل المثال، هناك ولايات تقوم بعمل إبداعى، ويسعدنى أن أعلن أن الحاكم إيد رينديل Ed Rendell حاكم بنسلفانيا سيقود محاولة مع جمعية المحافظين الوطنية لزيادة عدد الولايات التى تمنح أولوية مطلقة للتعليم فى مجال العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات. وحاليًا تشارك ست ولايات فى هذه المبادرة بما فى ذلك بنسلفانيا التى أطلقت برنامجاً فعالاً لضمان أن الولايات لديها القوة العاملة الماهرة لتناسب وظائف القرن الحادى والعشرين. وأنا أريد أن تشارك جميع الولايات الخمسين.

لكن كما تعرفون، إن عملنا لا ينتهى بحصول



الفضول الذى لا يهدأ، والأمل الذى لا يعرف حداً، لا يمثلان فقط جوهراً أساسيًا للعلم، بل أيضاً لهذه التجربة التى نطلق عليها أمريكا





مـــاذا يمكــن للعـــلم أن يـفعـــله؟

المرء على شهادة الثانوية، فعلى مدى عقود قدنا العالم فى الإنجازات التعليمية، ونتيجة لذلك تولينا قيادة العالم فى النمو الاقتصادى. فقانون الجندى الأمريكى GI Bill، على سبيل المثال، ساعد فى إيفاد جيل إلى الجامعة، لكن فى ظل هذا النظام الاقتصادى الجديد أصبحنا نتخلف عن دول أخرى فى معدلات التخرج، وفى الإنجازات العلمية، وفى تخريج العلماء والمهندسين.

ولهذا وضعت إدارتى هدفًا سيدعم بقوة قدرتنا على المنافسة فى وظائف المستقبل ذات الرواتب العالية فى مجال التكنولوجيا المتقدمة، وفى تنشئة الجيل القادم من العلماء والمهندسين. ففى العقد القادم، وبحلول عام ٢٠٢٠، سيكون لدى أمريكا مرة أخرى أعلى نسبة من خريجى الجامعات فى العالم، وهذا هدف سنضعه نصب أعيننا، وقد قدمنا ائتمانات ضريبية ومنحًا كى نجعل التعليم الجامعى ميسور التكلفة بقدر أكبر.

والميزانية التى وضعتها تضاعف أيضًا عدد الزمالات فى الدراسات العليا البحثية فى المؤسسة الوطنية للعلوم بمقدار ثلاثة أضعاف. وقد أسس هذا البرنامج كجزء من سباق الفضاء قبل خمسة عقود. وفى العقود التى تلت منذ ذلك الحين ظلت بالحجم نفسه تقريبًا، حتى مع ارتفاع أعداد الطلاب الذين يسعون للحصول على هذه الزمالات ارتفاعًا كبيرًا وسريعًا. وينبغى لنا أن ندعم أولئك الشباب الذين يسعون وراء مجال عمل علمى، لا أن نضع العوائق والعراقيل فى طريقهم.

هذه هى الطريقة التى سنقود بها العالم فى الاكتشافات الجديدة فى هذا القرن الجديد، لكننى أظن أن جميعكم تتفهمون أن الأمر يحتاج أكثر بكثير من عمل الحكومة، سيتطلب اتحادنا جميعًا، سيتطلب مشاركتكم جميعًا، لذا أود أن أحثكم اليوم على استخدام حبكم للعلوم ومعرفتكم بها لإشعال فتيل الإحساس بالتعجب والإثارة نفسيهما فى جيل جديد.

وسيكون شباب أمريكا على مستوى المسئولية عند مواجهة هذا التحدى إذا ما أتيحت لهم الفرصة، إذا ما طُلب منهم الانضمام إلى قضية أكبر من أنفسهم. ولدينا دليل على ذلك، فهل تعلمون أن متوسط أعمار المشاركين فى مركز التحكم فى ناسا فى أثناء بعثة أبوللو ١٧ كان ٢٦ عامًا فقط. وأنا على ثقة أن شباب اليوم على القدر نفسه من الاستعداد للتغلب على كبرى تحديات هذا القرن.

لذا أود أن أقنعكم بتمضية بعض الوقت فى الفصول تتحدثون إلى الشباب وتبينون لهم ما يعنيه عملكم، وماذا يعنى لكم. أريد أن أشجعكم على المشاركة فى برامج كى تمنحوا الطلاب فرصة الحصول على شهادات عليا فى المجالات العلمية وشهادات تدريس فى الوقت نفسه. أريد أن نفكر جميعًا فى طرق جديدة ومبتكرة لإشراك الشباب فى العلوم والهندسة، سواء أكان ذلك عن طريق مهرجانات علمية أو مسابقات بأجهزة الروبوتات، أو معارض تشجع الشباب على الإبداع والتصنيع والابتكار، أن يكونوا مصنعين لا مستهلكين فقط.

أريدكم أن تعلموا أننى سأعمل معكم جنبًا إلى جنب، وسأشارك فى حملة للتوعية العامة والوصول إلى من يحتاجون المساعدة بهدف تشجيع الطلاب على التفكير فى مجالات عمل فى العلوم والرياضيات والهندسة لأن مستقبلنا يعتمد على هذا.

وستطلق وزارة الطاقة والمؤسسة الوطنية للعلوم مبادرة مشتركة بهدف حث عشرات الآلاف من الطلاب الأمريكيين للسعى لامتهان هذه المهن نفسها، لاسيما فى مجال الطاقة النظيفة. وستدعم المبادرة حملة تعليمية لإثارة مخيلة الشباب الذين يمكنهم مساعدتنا فى مواجهة تحدى الطاقة، وستخلق فرصًا بحثية للطلاب، وفرصًا تعليمية للنساء والأقليات الذين غالبًا ما كانوا يحظون بتمثيل ضعيف فى المجالات العلمية والتكنولوجية، لكنهم ليسوا أقل من حيث قدرتهم على ابتكار الحلول التى ستساعدنا فى تنمية اقتصادنا وإنقاذ كوكبنا. وستدعم هذه المبادرة الزمالات وبرامج الدراسات العليا متعددة التخصصات، والشراكات بين المعاهد الأكاديمية والشركات المبتكرة لإعداد جيل من الأمريكيين لهذا التحدى الذى يواجه جيلهم.

وذلك لأننا يجب أن نتذكر دائمًا أنه فى مكان ما فى أمريكا هناك صاحبة عمل تسعى للحصول على قرض لإنشاء شركة يمكنها أن تغير وجه صناعة من الصناعات، لكنها لم تتمكن من الحصول عليه بعد. وأن هناك باحثًا لديه فكرة لتجربة قد توفر علاجًا جديدًا لمرض السرطان، لكنه لم يجد تمويلاً بعد لإجراء بحثه. وأن هناك طفلة تتمتع بعقلية محبة للبحث والفضول تحدق فى السماء ليلاً، وقد تكون لديها القدرة على تغيير عالمنا، لكنها لا تعرف بعد.

وكما تعرفون فإن الاكتشافات العلمية تتطلب أكثر بكثير من وميض العبقرية الذى يأتى من حين لآخر، رغم أهمية ذلك الوميض. لكنها عادة ما تتطلب وقتًا وعملاً شاقًا وصبرًا، وتتطلب تدريبًا، وتتطلب دعمًا من الأمة، لكن إمكانيات نجاحها لا يضاهيها أى نشاط من الأنشطة البشرية الأخرى.

عام ١٩٦٨، وهو عام تميزه الخسارة والصراع والجلبة، حملت المركبة أبوللو ٨ إلى الفضاء أول مجموعة من البشر للخروج إلى ما وراء نطاق الجاذبية الأرضية، وكانت المركبة الفضائية ستدور حول القمر عشر مرات قبل أن تعود إلى الوطن، لكن فى مدارها الرابع، دارت المركبة، ولأول مرة أصبحت الأرض مرئية من النوافذ.

فأسرع بيل أندرز، وهو أحد رواد الفضاء الذين كانوا على متن أبوللو ٨، لإحضار الكاميرا، والتقط صورة للأرض وهى ترتفع فى أفق القمر، وكانت تلك الصورة هى أول صورة على الإطلاق يجرى التقاطها من مثل هذه النقطة البعيدة التى تمنح رؤية رائعة، وأصبحت هذه الصورة تعرف باسم «شروق الأرض».

وقد قال أندرز إن تلك اللحظة غيرته للأبد؛ أن يرى العالم، ذلك الجسم الكروى الأزرق الباهت، بدون حدود، بدون انقسامات، تملؤه السكينة والجمال ويقف وحيدًا، وقال: «لقد قطعنا كل تلك المسافة كى نستكشف القمر، وأهم شىء هو أننا اكتشفنا الأرض».

نعم إن الابتكار العلمى يقدم لنا فرصة تحقيق الرخاء، فقد قدم لنا منافع حسنت صحتنا وحياتنا، تحسينات نتعامل معها بسهولة شديدة على أنها أمور عادية. لكنه يمنحنا شيئًا آخر، ففى جذور العلم يجبرنا على أن نحسب حسابًا للحقيقة باستخدام أفضل الطرق التى تمكننا من أن نتأكد منها.

وبعض الحقائق تلقى فى قلوبنا الروع، والبعض الآخر يجبرنا على الشك فى آراء اعتنقناها لوقت طويل. والعلم لا يستطيع الإجابة عن كل سؤال، بل يبدو أنه فى بعض الأحيان كلما استكشفنا ألغاز العالم المادى أصبحنا أكثر تواضعًا. والعلم لا يستطيع أن يمحو أخلاقنا أو قيمنا أو مبادئنا أو إيماننا، لكن بإمكانه أن يساعدنا فى وضع هذه القيم - تلك الأحاسيس الأخلاقية وذلك الإيمان - موضع التنفيذ مثل إطعام طفل صغير أو علاج مريض، أو فى أن نكون مدبرين بارعين لشئون الأرض.

هناك ما يذكرنا بأنه مع كل اكتشاف جديد والقوة الجديدة التى يسفر عنها تظهر مسئولية جديدة، وبأن هذا الضعف وهذا التميز الفريد للحياة يتطلب منا أن نتجاوز اختلافاتنا ونواجه مشكلاتنا المشتركة، وأن نتحمل ونستمر فى نضال البشرية من أجل عالم أفضل.

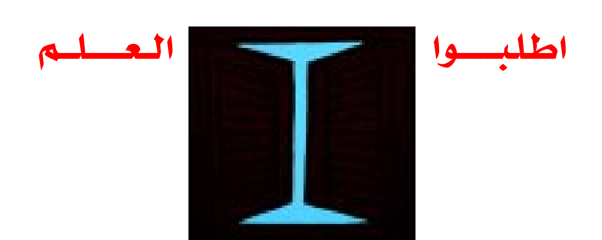
وكما قال الرئيس كينيدى عندما ألقى خطابه أمام الأكاديمية الوطنية للعلوم قبل ما يزيد على ٤٥ عامًا: «إن التحدى قد يكون، باختصار، هو خلاصنا».

شكرًا لكم جميعًا على اكتشافاتكم الماضية والحاضرة والمستقبلية. أسأل الله أن يباركوكم، ويبارك الولايات المتحدة الأمريكية. ■



هـــذه هـــى قصـــة أمريكا، حتى فى أصعب الأوقات، لم نستسلم للتشاؤم قط، لم نسلم مصيرنا إلى الفرصة قط، بالسعى إلى «العـــلم»، وبالجـــدية فى العمل، بلغنا حدودا جديدة





لا يمكن للمنزل المنقسم على نفسه أن يستمر كما أن البشرية والتى يوجد فيها بعض الأغنياء والغالبية من الفقراء لا يمكن لها البقاء والاستمرار

القضاء على الجوع

إسماعيل سراج الدين

■■ يتناول الهدف الأول من أهداف الألفية التنموية، والتى تبناها قادة العالم فى الأمم المتحدة عام ٢٠٠٠، وعداً بمكافحة الفقر وخفض أعداد الذين يعانون من الجوع فى العالم إلى النصف مع حلول عام ٢٠١٥، أى خفض عدد الأشخاص الذين يعانون من الجوع فى العالم بأسره من ٨٥٠ مليونا إلى ٤٢٥ مليون شخص. ولكن للأسف وهو أمر يدعو للخزى حيث نجد أنه مع حلول عام ٢٠٠٨ فإن الأعداد السابقة قد زادت ووصلت إلى ٩٥٠ مليون شخص، كما أنه من المقدر أن يبلغ عددهم بليون شخص خلال أعوام قليلة.

وبالتأكيد فإنه من غير المعقول أن يوجد قرابة بليون شخص يعانون من الجوع فى العالم الذى نعيش فيه والذى يمتاز بقدر كبير من الإنتاجية والتواصل. وخاصة أن الناس كانوا ينظرون إلى العبودية فى القرن التاسع عشر ويقولون أن ممارستها تعتبر سلوكا همجيا وغير أخلاقى، ويجب القضاء عليها. وقد تم تسميتهم فى ذلك الوقت بمناهضى العبودية حيث لم يكن دافعهم من وراء ذلك أية مصالح اقتصادية أو شخصية، ولكن كان يرجع إلى أسباب أخلاقية.

هذا ويعتبر موضوع انتشار الجوع حاليا وخاصة فى عالم يمتاز بالوفرة أمرا يشبه حالة من الهمجية وانعدام الضمير، ولذلك يجب القضاء عليه عن طريق أن نصبح جميعا من الأنصار الجدد للقضاء على الجوع، كما يجب علينا، وبنفس الحماس والغضب الأخلاقى، الوقوف ضد اللامبالاة السائدة والتى تغض البصر عن هذه

«Abolishing Hunger»
بترتيب خاص مع مجلة:
Issues in Science and Technology

ترجمة: محسن يوسف



الإبادة الجماعية الصامتة، والتى ينجم عنها يوميا ما يقرب من أربعين حالة وفاة بسبب الجوع.

وبمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الثانية لأبراهام لينكولن، مؤسس الأكاديمية الوطنية للعلوم بالولايات المتحدة، ومحرر العبيد العظيم، يجب أن نصبح من بين هؤلاء المناهضين الجدد للجوع. وقد قال لينكولن أنه لا يمكن للمنزل المنقسم على نفسه أن يستمر، وبالمثل العالم المنقسم على نفسه لا يمكن أن يستمر كما أن البشرية والتى يوجد فيها بعض الأغنياء والغالبية من الفقراء لا يمكن لها البقاء والاستمرار.

ويسعى العالم بأسره إلى أن تتمتع كافة الناس بالأمن الغذائى والتى تعنى إمكانية الوصول إلى قدر كاف وجيد ومتنوع من الغذاء والذى يمكن معه الحفاظ على حياة مليئة بالصحة والنشاط. وقد حققت الغالبية من الدول المتقدمة هذا الهدف من خلال خطوات كبيرة من التقدم فى التقنيات الزراعية، والإنتاج الزراعى، وهندسة خطط الرى والصرف، وفى نفس الوقت أصبح لهذه التقنيات أثر كبير على الدول النامية. وقد تم تفادى الكابوس المالثوسى والذى كان من المتوقع أن يحد من النمو السكانى بسبب المجاعات حيث نرى أن النمو السكانى فى العالم يتنامى دون توقف، وقد حققت العديد من المجتمعات التى لم يحدث لها نمو سريع فى السكان قدرا من التقدم فى توفير الأمن الغذائى والذى لم يكن من الأمور الوارد التفكير فيها على الإطلاق منذ نصف قرن. حيث إن الهند، والتى لم تكن قادرة على إطعام ٤٥٠ مليون نسمة فى عام ١٩٦٠، أصبحت الآن قادرة على توفير الطاقة الغذائية الضرورية لبليون نسمة، بالإضافة إلى أنه قد تم تحقيق ذلك بالرغم من أن كميات المياه والأراضى لديها ظلت فى جوهرها دون تغير.

وبالرغم من ذلك فإنه



يستطيع المجتمع العلمى أن يقوم بدور جوهرى فى توفير الوسائل الضرورية للبشرية من أجل الوفاء بالتزاماتهم الأخلاقية لإطعام الجوعى



لايزال هناك الكثير الذى يجب القيام به، وأن تحقيق الأمن الغذائى العالمى يتطلب تحقيق تقدم فى المجالات التالية:

• زيادة الإنتاج من أجل مضاعفة مردود السعرات الحرارية للغذاء والتغذية بمعدلات تتناسب مع أو تفوق كمية وجودة الاحتياجات المطلوبة للنمو السكانى والذى تتغير نظمه ومتطلباته الغذائية بسبب الزيادة فى الدخول. كما يجب أن تكون هذه الزيادة فى الإنتاج زيادة سريعة حتى يمكن أن يحدث انخفاض فى الأسعار والذى يمكن معه زيادة إمكانية وصول الفقراء للغذاء، والذى يمكن أن يتحقق من خلال زيادة إنتاجية صغار المزارعين فى الدول الأقل تقدماً والتى تعمل على رفع الدخل فيها على الرغم من انخفاض الأسعار.

• إن تحقيق الزيادة الإنتاجية يتطلب كافة أشكال التكنولوجيا المتاحة، بما فى ذلك استخدام التكنولوجيا البيولوجية، وهو منهج اعترفت به الهيئات العلمية بأنه منهج آمن، مع أنه يواجه حربا ضارية تمارسها جماعات الضغط من مزارعى الأغذية العضوية والعديد من المنظمات غير الحكومية الأوروبية.

• أثرت التغيرات المناخية على المزارعين من الفقراء فى المناطق التى يتم ريها بمياه الأمطار وكذلك على السكان الذين يعتمدون عليهم بطريقة أكثر. ولذلك يجب الاهتمام بشكل خاص بالإنتاج الزراعى والذى يتميز بأنه أكثر مقاومة للجفاف وأكثر مقاومة للملوحة وأقل احتياجا للمياه من أجل إنتاج الغذاء والأعلاف الرئيسية.

• هناك احتياج للمزيد من الأبحاث من أجل تطوير التقنيات الضرورية لخفض خسائر ما بعد الحصاد، ورفع إمكانية التخزين والنقل، وزيادة المحتوى الغذائى فى الأطعمة الشعبية من خلال عملية التحصين البيولوجى.

• لا يمكن الاستمرار فى السماح باستخدام الغذاء الخاص بالفقراء من أجل أن يستطيع الأغنياء قيادة سياراتهم. كما أن هناك حاجة إلى تطوير جيل جديد من الوقود البيولوجى، باستخدام الأعشاب السلولوزية فى الأراضى الهامشية التى يتم ريها بمياه الأمطار، أو من طحالب البحار، أو غيرها من المصادر المتجددة وحتى لا يتم تحويل الغذاء والمنتجات العلفية من أجل إنتاج الوقود.

• ان سعى كل بلد بمفردها إلى تحقيق الاكتفاء الذاتى من الغذاء يعتبر أمرا غير عملى ولذلك فإن هناك حاجة للحفاظ على نظام تجارى دولى عادل، يتيح امكانية الحصول على الغذاء وتوفيره وفى نفس الوقت يمكنه أن يساهم فى الحد من الارتفاعات المفاجئة فى أسعار التداول العالمى للأغذية والأعلاف.

• يقع على عاتق المجتمعات العلمية والطبية والأكاديمية عبء ضرورة أن تقود حملات للتوعية العامة عن الأمن الغذائى وعادات الطعام السليمة، وذلك مثل الحملات العالمية ضد التدخين، حيث إن هناك حاجة إلى مبادرة عالمية للغذاء الصحى.

• هناك ضرورة لإقناع الحكومات للحفاظ على قدر معقول من المخزون الاحتياطى وأن تتيح قدراً كافياً من الغذاء للمساعدات الإنسانية، والتى يتوقع أن تكون هناك حاجة أكبر وضرورية إليها وخاصة فى العديد من مناطق النزاع حول العالم.

تقنيات جديدة للخلاص من الأزمة

لا يمكن الاعتماد على إجراءات وحلول منفردة للوصول إلى حل لكافة مشكلات الجوع فى العالم. إلا أن هناك عددا من المسارات المتاحة والتى إذا تم اتباعها سوف يتحقق تغير ملحوظ فى خلال خمسة أعوام أو من خلال خطة خمسية. وخاصة أن هناك بالفعل الكثير من السياسات التى أصبحت واضحة، ولكنها تفتقد الإرادة الكافية لتنفيذها. ورغم ذلك فهناك ضرورة لعدد من الإجراءات الأخرى والتى يمكن أن تصبح فعالة بعد استحداث تقنيات جديدة وهى على وشك الانتهاء بالفعل. هذا بالإضافة إلى إن إحراز تقدم جذرى وهائل فى مجال الأراضى والمياه والزراعات والموارد المائية سيساعد فى اتخاذ مجموعة من الخطوات التى من شأنها أن تعمل على الرجوع إلى المسار الصحيح نحو الحد من مشكلة الجوع بشكل كبير فى السنوات القليلة القادمة.

الأرض:

يعد النشاط الزراعى هو المستحوذ الأكبر على الأرض الموجودة فى الطبيعة. وقد أقدم البشر على قطع وحرق ملايين الهيكتارات من الغابات ليمهدوا الأرض للزراعة. وللأسف، ونظراً لسوء الإشراف والإدارة، فإن الكثير من الأراضى الزراعية فقدت التربة الفوقية، بالإضافة إلى جرف الكثير من الأراضى الخصبة. كما أن هناك ضغوطا كثيرة تتعاظم لزيادة التوسع فى الرقعة الزراعية، مما يؤدى إلى المزيد من خسارة التنوع البيولوجى نظراً لفقد المواطن الطبيعية لهذه الكائنات. ولذلك يجب مقاومة مثل هذه الضغوط ومحاولة حماية الغابات الاستوائية فى أمريكا اللاتينية، وأفريقيا، وآسيا. كما أن هذه المجموعة من المشكلات تقتضى أن يقوم العلماء بما يلى:

• الإسراع فى نشر الجهود المنتظمة لجمع وتصنيف كافة أنواع السلالات الزراعية واستخدام بصمة الحمض النووى DNA لعمل تصنيف علمى، ثم القيام بإضافة هذه التصنيفات إلى بنوك البذور/ الجينات العالمية وتوفير الطرق المناسبة لتخزين وتبادل هذه الموارد.

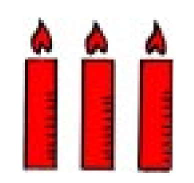
• استخدام صور الأقمار الصناعية لتصنيف أنواع التربة ومراقبة حالة التربة (بما فى ذلك مدى رطوبتها)، وعندما يتطلب الأمر القيام بحملات تحذيرية مبكرة.

• يجب على المدى البعيد إجراء المزيد من الأبحاث لفهم الطبيعة العضوية لخصوبة التربة، وليس فقط احتياجاتها من الأسمدة الكيميائية.

الميــــــــــاه:

المياه هى الحياة. ويحتاج البشر من أجل البقاء إلى عدد محدود من اللترات من المياه للاستهلاك اليومى وكذلك إلى ما بين ٥٠ إلى ١٠٠ لتر من المياه لتمتعه بحياة كريمة، إلا أنه وبالإضافة إلى ذلك فإنه يتم فى المتوسط استهلاك ٢٧٠٠ لتر من المياه يومياً من أجل الغذاء الذى يستهلكه الإنسان: أى حوالى لتر واحد لكل سعر حرارى، غير أن الاستهلاك من المياه يزيد عن ذلك بالنسبة للغذاء الذى يتميز بالغنى فى البروتين الحيوانى، وخاصة من اللحوم الحمراء، ومن الجدير بالذكر أن إنتاج طن من القمح يتطلب فى الوقت الحالى ١٢٠٠ طن من المياه، كما يتطلب انتاج طن الأرز ما بين ٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ طن من المياه.

هذا ومن المرجح أن يصبح سقوط الأمطار أقل انتظاماً فى المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية حيث تعيش الغالبية العظمى من فقراء العالم. هذا بالإضافة إلى أن تعاقب الفيضانات مع فترات الجفاف سوف يؤدى إلى تدمير بعض المزارعين الذين يعانون من الفقر المدقع، والذين لا يملكون الوسائل اللازمة لمواجهة



وعدنا قادة العالم فى الأمم المتحدة عام ٢٠٠٠ بخفض أعداد الذين يعانون من الجوع فى العالم إلى النصف مع حلول عام ٢٠١٥، ولكن للأسف فإن الأعداد فى الواقع قد زادت



الظروف الموسمية السيئة. ولذلك يجب أن نستغل كل قطرة مياه لإنتاج المزيد من المحاصيل. ويمكن إنجاز بعض الأمور التى نحتاجها عن طريق استخدام تقنيات بسيطة ومنها تسوية الأراضى، وتحسين إدارة الرى والصرف، وكما أن هناك احتياجا أيضا إلى زراعات تتناسب بشكل أفضل مع الحالات المناخية التى نتوقعها مستقبلاً. ولذلك يمكن الاستفادة بشكل كبير من المعرفة والتقنيات الحالية، غير أنه يمكن تحقيق نجاحات أكبر فى حالة تحقيق تقدم فى أربعة مجالات بحثية ضرورية وتشتمل على ما يلى:

● أولاً، تنعدم معرفتنا تقريبا عن المياه الجوفية، ولذلك يمكن وعن طريق استخدام التقنيات الحديثة وضع خرائط لمخزون المياه الجوفية من خلال صور الأقمار الصناعية. كما أن هناك حاجة ملحة لوضع خرائط دولية لمواقع الطبقات الصخرية المائية ومداها. وكذلك هناك حاجة ملحة للقيام بتحليلات جديدة عن الإمكانيات المحتملة لوجود المياه الجوفية، حيث انه من الأرجح أن حوالى نسبة ١٠٪ من حبوب العالم تتم زراعتها عن طريق استخدام كميات من المياه تفوق فى كمياتها معدلات الاستعادة لمخزون المياه الجوفية التى يتم السحب منها.

● ثانياً، تتسبب التغيرات المناخية فى ظهور العديد من المشكلات وبالرغم من وجود بعض النماذج الدولية/ العالمية التى تتصدى لهذه التغيرات فإنها لا تعتبر مفيدة لاتخاذ إجراءات محلية. ولذلك فمن الضرورى أن يتم وضع نماذج إقليمية يمكن استخدامها للإجراءات المحلية. ويتفق العلماء على أن هناك حاجة إلى هذه النماذج التى تعتبر نماذج مكملة لتنفيذ النماذج العالمية والتى تساعد على وضع وتصميم استراتيجيات سليمة للمياه على الصعيد الإقليمى والمحلى وبحيث نتمكن فى النهاية من تصميم المشروعات.

● ثالثاً، هناك حاجة إلى إعادة تدوير المياه وإعادة استخدامها، وخاصة لأغراض الزراعة فى المناطق المحيطة بالحضر(الزراعة فى المناطق المهمشة)، والتى تنتج الفواكه والخضراوات ذات القيمة العالية. كما ينبغى العمل على سرعة نقل الاستراتيجيات الجديدة التى تقلل من تكلفة إعادة التدوير من المعامل إلى الأسواق. ويمكن لصانعى القرار العمل على تشجيع الإسراع فى برامج التنمية بالقطاع الخاص مع تقديم الوعود بإعادة الشراء بأسعار مناسبة.

● وأخيراً، فإن عمليات تحلية مياه البحر ممكنة بل وهامة حتى وإن لم تكن بالكميات الكافية لدعم كافة أشكال الزراعة الحالية، إلا أنها يمكن أن تكون مناسبة لدعم الاستخدام المنزلى والصناعى فى المناطق الحضرية، بالإضافة إلى أهميتها فى الزراعة بدون تربة والزراعة فى الأماكن العشوائية أو الأماكن المحيطة بالحضر.

النـــبــاتـــات:

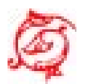
من المتوقع أن يؤدى التغير المناخى إلى تقليل الإنتاجية فى المحاصيل ما لم نعمل على هندسة الزراعات بشكل خاص لمواجهة التحديات القادمة. ولذلك فإن هناك احتياجا إلى عملية تحول كبرى للزراعات الحالية وحتى تصبح أكثر قدرة على مقاومة الحرارة والملوحة والجفاف، بالإضافة إلى أن تكون قادرة على اكتمال النضج فى مواسم نمو أقصر. كما يمكن للأبحاث أيضاً ان تعمل على تحسين الجودة الغذائية للمحاصيل، كما حدث فى زيادة نسبة فيتامين (أ) فى الأرز ولذلك فإن هناك ضرورة لدعم الأبحاث الجديدة. فعلى سبيل المثال، فإن استكشاف المسارات البيوكيميائية فى أشجار المنغروف والتى عن طريقها استطاعت الازدهار فى المياه المالحة قد يفتح المجال أمام امكانيات اضافة هذه القدرة إلى زراعات أخرى.

لقد ركزت الكثير من الأبحاث على دراسة المحاصيل الفردية وكيفية تطوير منشآت الزراعات الأحادية الكبيرة، مما أدى إلى ممارسات كان لها ثمنها البيئى والاجتماعى الواضح. ولذلك ينبغى إعادة توجيه الدعم المخصص للأبحاث إلى تقديم دفعة قوية للزراعات التى تنمو فى المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية، والمناطق الجافة وشبه الجافة. كما أن هناك حاجة للتركيز على نظم الزراعة المناسبة للنظم البيئية المعقدة لدى المزارعين الصغار فى الدول الفقيرة.

وينبغى التعامل مع هذا النوع من البحث العلمى على اعتبار أنه يخدم مصالح البشر فى العالم، كما يجب دعمه من مصادر التمويل العام، وأن تتاح ثمار نتائجه بدون مقابل للفقراء، حيث ان مثل هذا الاستثمار كفيل بخفض الحاجة إلى المساعدات الإنسانية لاحقاً.

الموارد البــحـريـة:

يعتبر كل العاملين فى كل مجالات إنتاج الغذاء من المزارعين، باستثناء من يعملون فى قطاع الموارد البحرية، حيث يعتبرون من الصيادين وجامعى الغذاء. وقد حدث فى القرن التاسع عشر أن قام الصيادون بالقضاء على وإبادة الثيران التى كانت تعيش فى السهول الشاسعة فى الولايات المتحدة. وفى الوقت الحالى زادت وبشكل كبير عمليات صيد الأسماك فى كل الأماكن التى تتواجد فيها الأسماك البحرية فى العالم، وخاصة مع توافر الجهود التى تركزت على تنمية تقنيات صيد أكثر كفاءة وتدميراً. وبالإضافة إلى أنه يوجد حاليا عدد من السفن التجارية الضخمة والتى يمكنها البقاء فى عرض البحر لشهور عديدة، وهو الأمر الذى أمكن من خلاله إبادة بعض الأنواع من أجل التجارة.



ولذلك فإن هناك حاجة للاستثمار فى أشكال التكنولوجيا الجديدة الخاصة بالمزارع السمكية. ويجرى حاليا تركيز بعض الجهود لتعزيز تربية أسماك البلطى بالمزارع السمكية، والذى يعرف أحياناً باسم الدجاج البحرى. وذلك بالإضافة إلى أنه تتم حاليا عمليات دمج لبعض أشكال التربية السمكية مع التقنيات الزراعية المتعارف عليها لدى صغار المزارعين التى أثبتت إمكانية تطبيقها وفعاليتها من الناحية البيئية والاقتصادية. كما يقوم حاليا القطاع الخاص بالاستثمار فى بعض المنتجات العالية القيمة، مثل أسماك السالمون والجمبرى، إلا أن التربية السمكية لا تزال فى طور البداية بالمقارنة مع غيرها من مجالات الإنتاج الغذائى. ولذلك فإن هناك حاجة لبرنامج دولى ضخم.

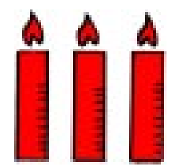
هذا ورغم أنه من المعروف أن الكائنات البحرية تتكاثر بشكل سريع وبأعداد هائلة، إلا أن التربية العلمية للموارد البحرية تكاد تكون معدومة. ولذلك يمكن العمل على ابتكار نظم تربية سليمة تصبح قادرة على توفير بروتينات زهيدة الثمن وصحية للأعداد المتزايدة من السكان. وخاصة أن حوالى نصف السكان فى العالم تقريباً يعيشون بالقرب من البحار، كما أنه وفى ضوء البلايين التى يتم إنفاقها فى عمليات دعم أساطيل الصيد التجارية، فمن غير المعقول أن لا تعطى أية أولوية لهذا النوع من الأبحاث الواعدة. كما ينبغى على صانعى القرار الاهتمام فورا بهذا الموضوع.

ضرورة التركيز على الفقراء:

لقد استطاع العلم ونجح فى استحداث نظام للإنتاج الغذائى من الزراعات الخضراء، والذى تميز بقدرته على الوفاء باحتياجات سكان كوكب الأرض والبشر. وهو الأمر الذى يؤكد على انه لن يصعب على العلماء تحويل هذا الخير الوفير للنظام الإنتاجى إلى غذاء لأكثر الناس احتياجاً وضعفاً فى الأسرة الإنسانية.

من المعروف أن العلم والتكنولوجيا والابتكار قد ساعد على إنتاج سلسلة لا نهائية من خطوات التقدم التى أفادت البشرية. ولذلك حان الوقت لأن يتم تحويل هذا الإبداع والابتكار إلى تطبيقات عملية لمواجهة التحديات البيئية الشديدة التى تواجهنا وحتى يمكن ضمان حصول الناس جميعا على الحق فى الأمن الغذائى وهو حق من الحقوق الأساسية للإنسان.

هذا وتتوافر حاليا أغلب المعرفة الضرورية كما أن الكثير من تقنياتها على وشك التطبيق. ولذلك فإنه من الممكن الوصول إلى طريقة لتحويل إنتاج خيرات هذه الأرض وتوزيعها. كما أنه من الممكن أيضاً استخدام الموارد المتاحة بشكل مستدام وكذلك من الممكن أيضا أن نقضى بالفعل على الجوع فى المستقبل القريب، حيث إننا فى حاجة لتحقيق ذلك من أجل الإنسانية جمعاء. ■



سيظهر قريباً عصر جديد من الحوسبة أكثر مرونة وأمناً وأقل تكلفة حين تتصرف الحكومات بحكمة



The Cloud The Crowd

and the Public Policy

السحابة والزحام والسياسة العامة



مايكل أر. نيلسون

Michael R. Nelson

▪▪ سيظهر قريبًا عصر جديد من الحوسبة أكثر مرونة وأمنًا وأقل تكلفة حين تتصرف الحكومات بحكمة.

فالإنترنت يدخل مرحلة جديدة تمثل تحولاً جوهريًا فى كيفية استخدام الكمبيوتر، وهذه المرحلة، التى يطلق عليها الحوسبة السحابية Cloud Computing، تتضمن أنشطة مثل الويب ٢.٠، وخدمات الويب، والشبكة، والبرمجيات كخدمة، ستمكن المستخدمين من الحصول على البيانات والبرمجيات الموجودة على الإنترنت بدلاً من الكمبيوتر الشخصى أو جهاز خادم محلى. وقد تنبأ بعض أبرز التقنيين أنه فى غضون مدة تتراوح بين خمس وعشر سنوات، سيكون ٨٠٪ أو ٩٠٪ من استخدام العالم للكمبيوتر وتخزين البيانات «فى السحاب».

ومع أن التوجه نحو الحوسبة السحابية هو توجه واضح للعيان، فإن شكل هذه السحابة - تفاصيلها التقنية والقانونية والاقتصادية والأمنية - ليست كذلك. وستكون قرارات السياسة العامة شديدة الأهمية فى تحديد خطى التطور وخصائص السحاب أيضًا.

حدث تطور الاستخدام الشخصى للكمبيوتر فى ثلاث مراحل منفصلة: فى المرحلة الأولى: كانت أجهزة الكمبيوتر أجهزة مستقلة تُخزن فيها البرمجيات والبيانات، وكانت التطبيقات التقليدية هى برامج معالجة الكلمات وجداول البيانات. والمرحلة الثانية: كانت تتميز بظهور شبكة الويب العالمية، التى أتاحت الوصول إلى ثروة من البيانات على الإنترنت، مع أن معظم المستخدمين كانوا لا يزالون يعتمدون على برامج تعمل على أجهزتهم الخاصة، وكان أهم تطبيق هو متصفح الويب. وفى المرحلة الثالثة: ستكون معظم البرمجيات والبيانات أيضًا على الإنترنت، وسينتشر عدد كبير من التطبيقات المختلفة لأن المستخدمين لن يكون عليهم تثبيت برامج التطبيقات على أجهزتهم.

ومعظم العمل الذى نقوم به على أجهزة الكمبيوتر لا يزال يُنَفَّذ باستخدام أدوات المرحلة الأولى أو المرحلة الثانية، لكن المزيد والمزيد من المستخدمين، لاسيما بين الجيل الأصغر، بدءوا يستغلون مميزات الحوسبة السحابية التى تقدم:

- مرونة بلا حدود: عن طريق القدرة على استخدام ملايين البرمجيات وقواعد البيانات المختلفة والجمع بينها فى خدمات مخصصة، سيكون المستخدمون قادرين أكثر على العثور على الإجابات التى يحتاجون إليها، ومشاركة أفكارهم، والاستمتاع بالألعاب على الإنترنت والفيديو والعوالم الافتراضية.
- درجة اعتماد أكبر وأمان أكثر: لن يقلق المستخدمون بعد الآن من انهيار المحرك الصلب فى حواسيبهم، أو أن تسرق حواسيبهم المحمولة.
- زيادة التعاون: عن طريق تشغيل إمكانية مشاركة المعلومات والتطبيقات على الإنترنت، تقدم السحابة طرقًا جديدة للعمل (واللعب) معًا.
- قابلية التنقل: قدرة المستخدمين على الدخول إلى البيانات والأدوات التى يحتاجون إليها من أى مكان يمكنهم فيه الاتصال بشبكة الإنترنت.
- أجهزة أبسط: نظرًا لأن البيانات والبرامج التى يستخدمونها موجودة فى السحاب، فالمستخدمون لا يحتاجون إلى أجهزة قوية لاستخدامها، فمن الممكن أن يكون الهاتف الخلوى، أو جهاز المساعد الرقمى أو مسجل الفيديو الشخصى أو جهاز ألعاب الفيديو أو السيارة أو حتى المجسات المضمنة فى خزانات الملابس يمكن أن تكون هى الواجهة.

ولدى الحوسبة السحابية إمكانية خفض تكلفة وتعقيد تنفيذ مهام الحوسبة الروتينية ومشكلات البحث التى تتطلب استخداما شديدا للكمبيوتر. وعن طريق تقديم قدرات حوسبة أكثر بكثير بتكلفة منخفضة، يمكن للحوسبة السحابية أن تمكن الباحثين من التعامل مع التحديات التى تعد حتى الآن مستحيلة فى البحث فى مجال الجينوم، والنماذج البيئية، وتحليل الأنظمة الحية وعشرات المجالات الأخرى. وعلاوة على ذلك، فعن طريق تمكين مجموعات البحث الكبيرة الموزعة من أن تشارك البيانات وموارد الكمبيوتر بصورة أكثر فعالية، ستسهل الحوسبة السحابية البحث متعدد التخصصات الذى نحتاج إليه لتحسين فهم النظم البيئية والتغيرات المناخية العالمية وأمواج المحيطات والظواهر المعقدة الأخرى.

والجمع بين قوى الحوسبة السحابية والبيانات التى جمعتها الآلاف أو حتى الملايين من أجهزة استشعار الحركة غير الباهظة الثمن والمجمعة فى شبكات



The Cloud, The Crowd and the Public Policy

بترتيب خاص مع مجلة:

Issues in Science and Technology

ترجمة: ....



الســــحـابـة والـزحـــــام

سيمنح العلماء طرقًا جديدة ومثيرة لتتبع كيفية تغير كوكبنا ونظمه البيئية. وفى الوقت نفسه، شبكات أجهزة استشعار الحركة هذه ستمنح أصحاب الأعمال طرقًا جديدة لتقديم خدمات جديدة، بداية من مراقبة المرور إلى تتبع الماشية إلى تحسين المراقبة على أرض المعركة أو فى الأحياء التى ترتفع فيها نسبة الجرائم.

دور الحكومة

ستعتمد خطى تطور الحوسبة السحابية وانتشارها على العديد من العوامل المختلفة بما فى ذلك مدى سرعة نضج التكنولوجيا الأساسية، ومدى سرعة اتفاق صناعات الكمبيوتر والاتصالات عن بعد على المعايير المستخدمة، ومدى كثافة استثمار الشركات فى البنية التحتية التى نحتاج إليها، وكم عدد التطبيقات الجذابة منخفضة التكلفة التى تتطور، ومدى سرعة تقبل المستخدمين المحتملين لهذه الطريقة الجديدة وقبولهم شراء موارد الحوسبة.

ويمكن أن تؤثر سياسات الحكومة على كل هذه العوامل، وهناك طرق أخرى يمكن للحكومات بها زيادة سرعة الوتيرة التى تنمو بها السحابة أو وضع العراقيل أمامها. وبالضبط مثلما اختلفت خطى تطور الإنترنت باختلاف الدولة والصناعة، فإن خطى تطور السحابة ستختلف بشدة، وعوامل السياسة الأساسية التى ستؤثر على خطى التطور تتضمن:

البحث: إتاحة إمكانية الوصول إلى خدمات الحوسبة السحابية للباحثين فى جميع أنحاء العالم ستقود إلى إضفاء قدر أكبر من طابع العالمية على العلم، وتوسيع قاعدة البحث المتميز. وستجعل من الأسهل بكثير المشاركة مباشرة فى المشروعات متعددة المواقع ومشاركة البيانات والنتائج على الفور.

لكن كيفية حدوث هذا ستعتمد على القرارات التى تتخذها هيئات الأبحاث الحكومية، فهل ستقدم الاستثمارات التى نحتاج إليها لتوفير خدمات السحابة إلى قطاع ضخم من مجتمع الأبحاث؟ أم ستقتصر مبادرات السحابة التى ستُموَّل على قطاع ضيق من الباحثين الذين لديهم احتياجات حاسوبية ضخمة للغاية؟ ولا تزال هناك حاجة إلى الأبحاث فى بعض أحجار بناء السحابة قبل الانتقال إلى المستوى التجارى، مثل نظم توثيق لديها قابلية شديدة للتوسع، وخطط فيدرالية لمنح الأسماء (للمستخدمين والمواقع). فهل سيكون هناك تمويل كافٍ لهذا البحث والتطوير المهم للغاية؟ هل سترغب الهيئات الحكومية (والسياسيون الذين يحددون ميزانياتها) فى تمويل خدمات السحابة التى ستصبح أكثر عالمية بمرور الوقت؟ هل سيرغبون فى استثمار الأموال الحكومية فى المشروعات التعاونية الدولية حيث تتوزع الفوائد (والتمويل) بين الباحثين والشركات فى عدة دول؟

الخصوصية والأمان: كثير من أنجح تطبيقات الحوسبة السحابية وأكثرها بروزًا اليوم هى خدمات المستهلك مثل خدمات البريد الإلكترونى (جوجل ميل، وهوتميل، وياهو ميل) والشبكات الاجتماعية (فيس بوك، وماى سبيس) والعوالم الافتراضية مثل سكند لايف. والشركات التى تقدم هذه الخدمات تجمع تريليونات البايتات من البيانات، معظمها معلومات شخصية وحساسة، تخزن بعد ذلك فى مراكز البيانات فى مختلف دول العالم. وكيفية تعامل هذه الشركات والدول التى تعمل على أرضها مع قضايا الخصوصية سيكون من العوامل بالغة الأهمية التى ستؤثر على تطور الحوسبة السحابية وقبولها.

من سيكون له إمكانية الوصول إلى سجلات الفواتير؟ هل سنحتاج إلى لوائح حكومية كى نسمح باستخدام السحابة دون اسم، وكى نضع قيودًا على إمكانية الوصول إلى سجلات الاستخدام لمقدمى خدمة السحابة؟

هل سيتمكن واضعو اللوائح فى الحكومة من وضع قواعد لاستخدام المعلومات الخاصة والشخصية فى الوقت الذى تنقل فيه الشركات تريليونات البايتات من المعلومات الحساسة عن موظفيها وعملائها عبر حدود الدول؟ والشركات التى تتمنى أن تقدم خدمات السحابة على نطاق عالمى يجب أن تتبنى تقنيات أمان وتدقيق على أعلى مستوى، وأفضل الممارسات العملية. وإذا فشلت هذه الشركات فى اكتساب ثقة عملائها عن طريق تبنى سياسات تتمتع بالوضوح والشفافية عن كيفية استخدام معلومات العملاء وتخزينها وحمايتها، فإن الحكومات ستتعرض لضغط متزايد بهدف وضع قوانين منظمة للخصوصية فى السحابة. وإذا ما كانت سياسات الحكومة مصممة على مستوى ضعيف، فمن الممكن أن تضع عوائق أمام نمو السحابة وخدمات السحابة التجارية.

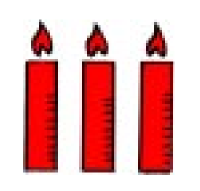
إمكانية الوصول إلى السحابة: تتمتع الحوسبة السحابية بإمكانية إتاحة فرص متساوية للشركات الصغرى والمتوسطة التى لا يمكنها حاليًا تحمل نفقات امتلاك نظم تكنولوجيا المعلومات المتطورة وتشغيلها الموجودة فى الشركات الكبرى. علاوة على ذلك، ستكون هذه الشركات الصغرى والمتوسطة فى وضع يسمح لها بتقديم معرفتها المحلية ومهاراتها المتخصصة كجزء من خدمات الشركات الأخرى. وبالمثل، يمكن للباحثين والمطورين وأصحاب الأعمال فى كل مكان فى العالم استخدام الحوسبة السحابية للتعاون مع شركائهم فى أى مكان آخر، ومشاركة أفكارهم وتوسيع آفاقهم وتحسين المجال أمام عملهم تحسينًا كبيرًا، لكن هذا لن يكون إلا إذا أتيحت لهم إمكانية الوصول إلى السحابة. والعاملون من المنازل وعلى الطرق سيكون لديهم أيضًا إمكانية الوصول إلى البرامج والبيانات نفسها التى تُستخدم فى المكتب، شريطة أن نزيد من إمكانية الاتصال بالإنترنت بسرعات عالية فى نقل البيانات سواء فى المنزل أو بالاتصال لاسلكيًا.

ونتيجة لذلك سيعمل تطور السحابة على زيادة الضغط على الحكومات لكى ترأب الصدع الرقمى عن طريق تقديم مساعدات مالية أو تبنى سياسات تزيد الاستثمار فى الشبكات ذات السرعات العالية فى نقل البيانات فى المناطق الريفية وتلك التى لا تحظى بخدمة جيدة. ولسوء الحظ، كان التأثير الرئيس للكثير من الجهود السابقة لتعزيز انتشار الشبكات لتشويه السوق أو حماية الشركات التى تقدم الخدمة من المنافسة. ونظرًا لأن الحوسبة السحابية تصبح شديدة الأهمية لنسبة كبيرة من الشركات، وستحتاج الحكومة لأن تجد طرقًا مناسبة التكلفة لتضمن للمنازل والشركات لديها إمكانية الولوج إلى السحابة بتكلفة غير باهظة بصرف النظر عن مواقعها.

الحكومة الإلكترونية والمعايير المفتوحة: يمكن أن تثمر الحوسبة السحابية عن منافع جمة للحكومة، والسحابة ليست عصًا سحرية لحل مشكلات الحوسبة المتعلقة بالعتاد والمشكلات الإدارية، لكنها ستقلل عوائق التنفيذ، وتقضى على التأخير، وتخفض التكاليف، وتشجع التعاون بين الهيئات. وبعض الرواد، مثل حكومة واشنطن العاصمة، قد كشفوا بالفعل عن الإمكانيات الهائلة للحوسبة السحابية التى يمكن أن تقدمها للحكومة الإلكترونية، وقد بذل فيفيك كوندرا Vivek Kundra، الذى كان آنذاك رئيس قطاع التكنولوجيا فى حكومة واشنطن العاصمة، جهودًا لنقل بريد الآلاف من موظفى الحكومة إلى بريد جوجل الإلكترونى وبرمجيات مكتبية فى السحابة، وقد قال عام ٢٠٠٨: «لماذا أنفق ملايين على برمجيات خاصة بحل المشاكل المؤسساتية فى حين أنه يمكننى تنفيذها بعشر التكلفة وعشر مرات أسرع؟ إنها عملية ناجحة تمامًا لى».

وستكون الحوسبة السحابية جذابة بصورة خاصة للعاملين فى الحكومة بسبب أمانها وزيادة إمكانية الاعتماد عليها، وتكاليف الصيانة القليلة، والمرونة المتزايدة. وستتمتع عملية إدارة عمليات الحكومة باستخدام بنية تحتية موحدة للسحابة بقدر أكبر من الأمان والثقة وبقدر أقل من تكلفة محاولة صيانة مئات النظم المختلفة وإدارتها. إضافة إلى ذلك، فإن الحوسبة السحابية إذا ما نُفِّذَت بصورة صحيحة فسيمكن أن تساعد الحكومات فى تجنب أن تكون مقيدة بمجموعة صغيرة من البائعين.

ولدى الحكومات إمكانية أن تكون مستخدمًا نموذجيًا للحوسبة السحابية.



سيكون المستخدمون قادرين أكثر على العثور على الإجابات التى يحتاجون إليها، ومشاركة أفكارهم، والاستمتاع بالألعـــاب على الإنترنت والفيـــديو والعوالم الافتراضية





يمكن للحوسبة السحابية أن تمكن الباحثين من التعامل مع التحديات التى تعد حتى الآن مستحيلة فى البحث فى مجال الجينوم، والنماذج البيئية، وتحليل الأنظمة الحية وعشرات المجالات الأخرى



وبصفتها أكبر كيان اقتصادى فى معظم البلاد، فإن الحكومة لديها سلطة أن تضع مقاييس ومتطلبات يمكن أن تؤثر على السلوكيات فى جميع قطاعات الاقتصاد. وبالضبط مثلما كشفت مواقع الحكومة الفيدرالية فى الولايات المتحدة إمكانيات الويب، وحثت حكومات الولايات والحكومات المحلية والشركات على أن يكون لها حضور على الإنترنت، فيمكن أن تكون الحكومات الوطنية فى طليعة من يتبنى الحوسبة السحابية، التى ستقدم التكنولوجيا وتعلن عنها. على أن الحكومات إذا كانت تعتزم بالفعل أن تصبح فى طليعة من يتبنى خدمات السحابة، فيجب عليها أن تتغلب على العوائق البيروقراطية والتنظيمية والثقافية التى تعوق مشاركة الموارد ويمكن أن تبطئ تبنى الحوسبة السحابية. فيجب أن تُحدث قوانين الشراء التى تتناول شراء العتاد والبرمجيات فى قسم تكنولوجيا معلومات الحكومة حتى تتمكن من شراء خدمات السحابة.

وقد كانت قرارات الشراء التى اتخذتها حكومة الولايات المتحدة فى ثمانينيات القرن العشرين - التى قادت إلى استخدام واسع النطاق لبروتوكول الإنترنت لربط شبكات الهيئات التى لم تكن مرتبطة قبل ذلك - محركًا بالغ الأهمية فى وقت حيوى فى تطوير الإنترنت. وبالمثل، يمكن لكبار الهيئات الحكومية المستخدمة أن تضطلع بدور مهم؛ عن طريق إرغام الصناعة بالتوصل سريعًا إلى إجماع على مقاييس سحابة دولية مفتوحة، حتى يمكن لموردى الحكومة والمتعاقدين معها وشركائها الحصول بسهولة على خدمات السحابة التى تمولها الحكومة.

وفى يومنا هذا يعتمد الكثير من مصممى الشبكة والسحابة على برمجيات ملكية خاصة غير متكافئة. وسيتطلب الوصول إلى الإمكانيات الكاملة للحوسبة السحابية «سحابة من السحب الإلكترونية»؛ برامج مختلفة قائمة على الشبكة ترتبط جميعاً معاً ببرنامج وسيط مشترك، حتى يمكن جمع البيانات وبرامج التطبيقات الموجودة على الجزء الخاص بشركة ما على السحابة، مع البيانات والبرامج الموجودة على نظم يديرها مقدم خدمة سحابة آخر دون مشكلات.

المنافسة ومقاومة الاحتكار: سيتحدد هيكل السحابة على مدار السنوات القليلة القادمة عندما يرسخ اللاعبون الأساسيون المقاييس والتقنيات لخدمات السحابة، وعندما تتطور نماذج العمل وممارسات الشركات. وربما يكون أهم عامل يحدد كيف تتطور السحابة هو تمكن شركة واحدة أو بضع شركات من الوصول إلى مكانة تسمح لها بالهيمنة على السوق فيما يخص خدمات السحابة، أو إذا ما أصبحت السحابة نظاماً مفتوحاً قادراً على العمل المشترك، فيمكن لمئات بل لآلاف الشركات المختلفة أن تصمم جزءاً من سحابة مرتبطة وتُشَغِّلها، وتقدر على تشغيل تطبيقات مختلفة طورها ملايين المطورين فى العالم.

وفى ظل وجود الإنترنت دفعت الفوائد الاقتصادية القوية وطلب العملاء مقدمى خدمات الشبكة للربط بين شبكاتهم المختلفة وإنشاء شبكة من الشبكات. بيد أن الموقف قد لا يكون بهذا الوضوح مع السحابة، وقد يكون بإمكان بعض الشركات التى تصمم البنية التحتية للسحابة استخدام وفورات الحجم، وامتلاك حقوق الملكية الفكرية الأساسية، واستخدام ميزة التحرك الأول لمنع المنافسة أو إبطائها. وستحتاج الحكومات للمراقبة جيداً كى تتأكد أن الشركات لا تستخدم موقفها المسيطر فى قطاع واحد من تكنولوجيا المعلومات أو سوق الاتصالات عن بعد للحصول على ميزة غير عادلة فى السوق لخدمات السحابة. فالسحابة التى تبنيها شركة واحدة أو شركتان فقط ولا تدعم سوى مجموعة محدودة من التطبيقات لن تكون فى مصلحة العملاء من الأفراد أو الشركات.

وعندئذ تحتاج الحكومات لاتخاذ قرارات حذرة وغير متهورة، ودعم مقاييس دولية مفتوحة للسحابة، حتى يكون بإمكان المستخدمين الانتقال بين مقدمى خدمات السحابة بأقل تكلفة وأقل نسبة خطورة. وسياسات الحكومات المرنة ونافذة البصيرة وقرارات الشراء يمكن أن تدعم العمل المشترك، بدون إملاء تصميم محدد أو مجموعة من المقاييس للسحابة. ونظراً لأن السحابة لا تزال تتطور بسرعة، فإن الحكومات تحتاج لأن تسمح للشركات المختلفة والمجموعات لأن تجرب هذا وتشجعه. فعلى سبيل المثال، فى قرارات شراء الحكومات لخدمات السحابة، يمكن للحكومات أن تطلب العمل المشترك، وخطط الانتقال إذا أرادت إحدى الهيئات تغيير مقدمى خدمات السحابة فى تاريخ لاحق، دون تحديد مقياس محدد أو خدمة شركة محددة. وفى ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته، عندما كان الكثيرون يلجئون إلى أجهزة الكمبيوتر الشخصية على نطاق واسع، تبنت بعض الحكومات الاتجاه الخطأ، فاختاروا برنامج «مايكروسوفت وورد» ليكون مقياس برامج معالجة الكلمات على مستوى الحكومة، بدلاً من تبنى مقياس عام مثل تنسيق الملف المفتوح، وطلبت من جميع البائعين دعمه. وفى وقت لاحق اضطرت بعض هذه الحكومات إلى اللجوء لقرارات ضد احتكار مايكروسوفت مع أنها هى التى ساعدت فى حدوثه.

التنصت والمراقبة الإلكترونية: قد يكون أحد أكثر الموضوعات الشائكة المرتبطة بالسحابة هو المراقبة الإلكترونية لاسيما عندما تتخطى السحابة الحدود الدولية. وفى الولايات المتحدة يحمى الدستور المواطنين ضد عمليات التفتيش والمصادرة غير العادلة. وفى معظم الحالات يجب أن تحصل الشرطة على إذن تفتيش لفحص البيانات الموجودة على جهاز الكمبيوتر فى منزل أى شخص. ومن غير الواضح على الإطلاق أن البيانات نفسها ستكون محمية إذا ما كان لها ملف احتياطى فى مركز بيانات فى السحابة، لاسيما إذا كان مركز البيانات هذا فى دولة أخرى. وإذا كان الموقف داخل الولايات المتحدة غير واضح، فإنه من غير الواضح كذلك مسألة كيف ومتى يمكن لوكالة الاستخبارات الأمريكية أو أى هيئة استخباراتية أخرى الوصول إلى البيانات المخزنة فى السحابة من أشخاص تابعين لدول أجنبية. وإذا كان المستخدمون يرون أن الحكومات ستراقب أنشطتهم، فستقل دون شك رغبتهم فى استخدام السحابة فى المسائل المهمة.

الملكية الفكرية والمسئولية القانونية: ترتبط بقضية التنصت قضية محاولة فرض الحكومات قوانين ضد القرصنة على الإنترنت بطريقة تَحُدُّ من تطور خدمات السحابة أو تبطئها. فإتاحة قدرة حاسوبية وتخزينية غير محدودة يؤدى إلى تسهيل خدمات السحابة لمشاركة المواد ذات الملكية الفكرية على الإنترنت. فهل سيُطلب من مقدمى خدمات السحابة أن يتخذوا إجراءات محددة لمنع هذا؟ هل سيكونون مسئولين قانونياً عن الأنشطة غير القانونية لعملائهم؟ وهل هذا سيجعل من غير العملى للشركات أن تقدم خدمات السحابة للعامة؟

حماية المستهلك: إذا ما أصبحت الشركات والأفراد يعتمدون على خدمات السحابة مثل البريد الإلكترونى، ومعالجة الكلمات، ووضع ملفات احتياطية للبيانات، ثم اكتشفوا أن الخدمات منهارة لوقت طويل، أو الأسوأ وهو أن بياناتهم قد ضاعت، فإنهم سيسعون للحصول على تعويضات، على الأرجح سيكون ذلك فى المحكمة. فإذا ما أصبحت إمكانية الاعتماد على خدمات السحابة مشكلة خطيرة، فقد تتدخل حكومات الولايات والحكومات القومية لتضمن للعملاء الحصول على الخدمة التى يتوقعونها.

ما نوع المسئولية القانونية التى من المتوقع أن تتحملها شركة تقدم خدمات السحابة فى حالة حدوث توقف خطير للخدمة؟ إذا ما اختل تشغيل برنامج يعمل فى السحابة، فمن الممكن أن يؤثر على مستخدمين آخرين، ومع ذلك فإن تعقب المشكلات فى السحابة وتحميل مسئولية الإخفاق سيكون صعباً. وشبكة الإنترنت تشجع بالفعل شركات الاتصالات عن بعد والمحاكم إلى تبنى اتجاهات جديدة فى تحميل المسئولية القانونية لحالات توقف الخدمة عن العمل والاختراق الأمنى.

إن صياغة أسلوب عالمى متطابق لهذه المشكلة لن يكون سهلاً، لكن إذا أمكن هذا فيمكن أن يزيد ثقة المستهلك، ويسرع من وتيرة تبنى خدمات السحابة بصورة كبيرة. ونظراً لصعوبة إيجاد أسلوب حكومى عالمى لحماية المستهلك فى السحابة، فقد يكون وجود أسلوب عالمى يتحكم فيه المستخدمون، قائم على أفضل الممارسات وسبل الحماية وقوانين العقود، أسرع وأكثر فعالية وأكثر مرونة وقابلية للتعديل فى ظل تطور التكنولوجيا وتقديم الخدمات الجديدة.

زمام المبادرة

ستضطلع الحكومات بدور خطير فى تشكيل السحابة، فيمكنها تشجيع اتفاق على نطاق واسع خاص بالمعايير، ليس فقط لوضع الشبكة الأساسية وبروتوكول الاتصالات فى السحابة، بل أيضًا لإدارة مستوى الخدمة والتفاعل. وباستخدام قوة النقود فى سياسات الشراء فى تكنولوجيا المعلومات، يمكن للحكومات أن تضغط على الشركات للتوصل إلى اتفاق بالإجماع على مقاييس السحابة الرئيسية.

وتحتاج الحكومات إلى تقييم كيف يمكن للقوانين واللوائح الموجودة فى نطاق واسع من المجالات أن تؤثر على تطوير السحابة، ويجب أن تحمى القوانين الموجودة من التغيرات المستقبلية وأن تضمن عدم حد قرارات السياسة الجديدة من إمكانية هذا الأسلوب الثورى الجديد للحوسبة.

وأكبر المخاوف سيكون من وضع اللوائح السابقة لأوانها؛ فستكون السحابة بِنْيَة تحتية أساسية للاقتصاد والأمن القومى والمجتمع بصفة عامة. وسيكون رد الفعل الطبيعى هو أن نطلب كفاءة عالية بصورة مستمرة، وأن ننظم عدداً من السمات والخدمات التى تستخدمها. لكن بدون المزيد من الخبرة، فإننا لا نعرف ما يكفى عن ماذا ستكون المجموعة المناسبة من

الخدمات الأساسية، وما الاختلافات المناسبة فى أسعار الخدمات وجودتها، وما أفضل التقنيات لتقديم خدمة يعتمد عليها، وأين ستكون أفضل الصفقات الهندسية؟

ويمكن للحكومات أن تضع قيمة مضافة لهذا الأمر عن طريق تشجيع التجربة والخدمات الجديدة، ويجب أن تتجنب إغلاق التكنولوجيا الخاطئة، التى ستضع دولة فى وضع تنافسى سيئ أو تقلل من قيمة السحابة ككل. ويجب أن تتبع الحكومات الممارسات الصناعية بأقصى ما يمكنها بدلاً من فرض حلول غير مجربة.

وعلى غرار الإنترنت نفسه، فإن السحابة تكنولوجيا مزعجة تتحدى نماذج العمل والقوانين والنماذج التنظيمية الموجودة بالفعل. ونتيجة لذلك، ستكون هناك على الأرجح مقاومة من جهات مختلفة عديدة للانتشار الواسع لتكنولوجيا السحابة. ويجب أن تكون الحكومات مستعدة لتحدى وتغيير السياسات الموجودة التى يمكن أن تستخدم لإعاقة نمو السحابة. فمحاولة ضبط اللوائح الموجودة على السحابة قد تسمح للمصالح المترسخة بتأخير الاستثمارات والمجهودات التى يتطلبها انتشار استخدام الحوسبة السحابية. ونظراً لأن الحوسبة السحابية أسلوب للحوسبة والاتصالات مختلف اختلافًا جوهريًا، فيجب أن تدرس الحكومات أساليب جديدة بصورة جوهرية لسياسة المعلومات والاتصال عن بعد.

والكثير من قضايا السياسة العامة، بما فى ذلك الخصوصية وإمكانية الوصول وحماية حقوق النشر والتأليف، التى أثارتها الحوسبة السحابية تشبه قضايا سياسة الإنترنت التى ظلت الحكومات تناضل فيها على الأقل ١٥ عامًا. وعلى أية حال، فإن معالجة هذه القضايا فى حالة السحابة ستكون على الأقل أصعب بمقدار الضعف، وأهم بمقدار خمسة أضعاف. ولأن السحابة تتسم بالعالمية بطبيعتها، فإن الحلول التى تضعها السياسات يجب أن تكون من خلال مختلف أصحاب السلطات. ولأن السحابة وسيلة من عدد هائل من المستخدمين إلى عدد هائل منهم أيضًا، فإنه ليس من السهل دائمًا أن تحدد من المسئول عن ماذا. ولأن تكنولوجيا السحابة، وتطبيقات السحابة تتطور بسرعة كبيرة، فيجب أن تكون سياسات الحكومة مرنة وقابلة للتعديل. ولأن التحديات هائلة والفرص كثيرة، أصبح لزامًا أن يبدأ الآن واضعو السياسات والتقنيون الذين يطورون السحابة فى البحث عن حلول تقنية وسياسية مبتكرة. ■

كل الحركة تعتمد عليه

تعالوا نودع عصر النفط



كـــوجـــى أومـــى
Koji Omi



■■ لقد تمخض العلم والتكنولوجيا عن نمو اقتصادى وشاركا فى تحسين مستويات المعيشة، وفى السنوات الأخيرة تقدما بسرعة كبيرة وأثمرا فوائد هائلة لحياتنا. فعلى سبيل المثال، أدى تطور النقل إلى توسيع نطاق الأنشطة البشرية بصورة كبيرة، وتطور الأبحاث فى مجال الجينوم البشرى جعل العلاج بناءً على حالة كل مريض ممكنًا، وتقدم تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أدى إلى تقليص الوقت والمسافة فى الاتصالات.

وعلى أية حال، لم يتمخض العلم والتكنولوجيا عن النور فقط ولكن عن الظلام أيضًا؛ فقد قاد تطورهما إلى مشكلات خطيرة للبشرية مثل التغيرات المناخية والمخاوف الأخلاقية فى العلوم البيولوجية، والانتشار النووى ومشكلات الخصوصية والأمان فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. ولهذا أصبح من الضرورى أن نتحكم فى الجوانب السلبية من ناحية، ونطور العوامل الإيجابية من ناحية أخرى.

وفى هذا السياق نحتاج إلى استراتيجيات مناسبة متوسطة المدى لتعزيز هدفين هما النمو الاقتصادى والاستدامة لكوكبنا. لا بد أن يساعد العلم والتكنولوجيا فى تحقيق نمو اقتصادى يتوافق مع قدرتنا على الاستدامة أى تحقيق الاستراتيجيات التطويرية التى تراعى متطلبات أجيال الحاضر والمستقبل معًا ورغباتهم. ومن بين التحديات المعاصرة التى نواجهها الآن تطوير مصادر للطاقة البديلة لتصبح وقوداً لوسائل النقل.

الآثار السلبية للوقود الحفرى

اعتمدت الكثير من الدول المتقدمة فى القرن العشرين على الوقود الحفرى مثل الفحم والنفط لتوليد الطاقة. وقد أثمرت مصادر الطاقة هذه فوائد عظيمة لأنشطة اقتصادية واسعة النطاق، والإنتاج الكمى، ووسائل النقل على مستوى العالم. لكن للوقود الحفرى آثاراً سلبية على الجنس البشرى، فاستهلاك النفط مسئول عن

Alternative Energy for Transportation
بترتيب خاص مع مجلة:
Issues in Science and Technology

ترجمة: . . .



يجـب أن يتقبـل مواطنـو العـالـم وحـكـومـاتـه أن مـوارد الأرض مـحـدودة، ويـكـرسـوا أنـفـسـهـم لـتـطـويـر مصـادر طـاقـة جـديدة



انبعاث الغازات الدفيئة إلى الغلاف الجوى، وعن التغيرات المناخية، وعن تلوث الهواء. ونظراً لأن النفط مصدر محدود، فإنه عرضة لارتفاع أسعاره بنسبة كبيرة، ولهذا فإن اليابان والعالم بأسره يواجهان عدداً كبيراً من التحديات المروعة المرتبطة بالطاقة.

ونظراً للزيادة المتوقعة فى الاحتياجات العالمية للطاقة والمخاوف البيئية، فإننا نحتاج لإحراز تقدم سريع فى الاستخدام الفعال للطاقة وتطوير نطاق كبير من مصادر الطاقة البديلة النظيفة لتقليل الغازات المنبعثة وحل مشكلات التغيرات المناخية.

تبذل الكثير من الدول المتقدمة جهوداً مكثفة لتطوير مصادر طاقة بديلة مثل الطاقة النووية والشمسية، وأنا أومن إيمانًا شديداً بأن الطاقة النووية يجب أن تكون هى البديل الرئيسى للوقود الحفرى. ففى اليابان تعد الطاقة المولّدة نووياً أقل تكلفة من الطاقة التى يولدها النفط. علاوة على ذلك، أقنعت التغيرات المناخية وارتفاع أسعار النفط ارتفاعًا مستمراً بعض الدول التى كانت تتبنى موقفًا حذراً تجاه الطاقة النووية لتغيير رأيها والتفكير جدياً فيها كمصدر طاقة بديل. وأهمية توليد الطاقة باستخدام الطاقة النووية، التى تعتمد على المبادئ الثلاثة وهى الوقاية، الأمان، الحماية، واضحة ولا تقبل الجدال. ومع أن الشك لا يساور أحداً فى أن تطوير مصادر طاقة بديلة أخرى، بما فى ذلك الطاقة الشمسية، مهم للغاية، فإنه لا يمكن تلبية الطلب المتزايد على الطاقة إلا إذا استخدمنا الطاقة الذرية.

وعلى أية حال، فعندما يتعلق الأمر بسهولة الحركة والتنقل للبشر، فلا تزال جميع وسائل النقل تقريبًا تعتمد اعتماداً كبيراً على الوقود الحفرى لأن المركبات التى تعمل بالبنزين وزيت وقود الديزل هى السائدة فى جميع أنحاء العالم. حتى إذا كانت عدة دول تطور أنظمة لتوليد طاقة بديلة وتستخدمها، فلا يمكنها البقاء بدون الوقود المشتق من النفط، وهو الذى يحرك وسائل النقل. بعبارة أخرى، حالياً لا يوجد بديل فعال. وهذا يؤدى إلى ارتفاع أسعار النفط ارتفاعًا كبيراً وسريعاً، وقد تمتعت الدول المصدرة للنفط بنفوذ اقتصادى وسياسى منذ منتصف القرن العشرين نتيجة اعتماد كل دولة على البنزين وأشكال الوقود الأخرى. وقد أصبح لهذه الدول نفوذ حيوى على باقى دول العالم بسبب حقيقة أن إنتاج النفط مقصور على عدد محدود من الدول، وأن وسائل النقل لا يمكنها الاستغناء عنه. ففى بعض الأحيان، تتحكم الدول المنتجة للنفط فى كميات الإنتاج والتصدير، تاركة الدول الأخرى تتعامل بشق الأنفس مع أسعار النفط المرتفعة. ويجب علينا، من أجل تطوير متناسق لاقتصاد العالم، أن نتخذ خطوات كبرى للتغلب على المشكلات التى تنشأ عن التوزيع غير المتكافئ للنفط.

تمتلك بعض الدول المتقدمة شبكات نقل عامة كهربائية شديدة التقدم مثل القطارات أو مترو الأنفاق، لكن هذه الوسائل بها عيبان رئيسيان؛ أولاً: أنظمة النقل العامة الضخمة تُستخدم بصورة رئيسية فى المناطق الحضرية إذ إنها تصبح غير عملية فى المناطق الريفية لأن تعداد السكان قليل نسبياً. وثانياً: السيارات تمنح الأشخاص حرية التنقل حسب رغبتهم، والتطور الاقتصادى يمنح الأشخاص حرية العمل والاشتراك فى الأنشطة الترفيهية كما يشاءون، ومن ثم فإن سهولة تنقل الأفراد مهمة، ولذا يكون من الصعب فى بعض الأحيان على من اعتادوا على سهولة التنقل الشخصية الانتقال إلى استخدام وسائل النقل العامة.

وفى العقد الأخير من القرن العشرين، طور بعض مصنِّعى السيارات نافذى البصيرة سيارات هجينة، وكانت شركة تويوتا تصنع وتبيع مركباتها الهجينة ذات المحرك المزدوج الذى يعمل بالبنزين والكهرباء منذ عام ١٩٩٧. وهذا النظام يحسن من الاستخدام الفعال للطاقة، لكن مثل هذه السيارات لا تزال تعتمد على البنزين كوقود. وتستهلك وسائل النقل ٣٠٪ تقريباً من إجمالى استهلاك الطاقة فى العالم، لكن نظراً لأنه يوجد عدد قليل من مصادر الطاقة البديلة فى هذا القطاع، فإن الطلب على النفط فى بعض الأحيان يتسبب فى الارتفاع المفاجئ فى الأسعار، فلا توجد مرونة فى الأسعار، ولا تعمل آلية التسعير بصورة فعالة.

وهذا يوضح حقيقة أن وسائل النقل تعتمد على النفط بصورة أكبر من اعتمادها على الكهرباء، والتقنيات المتوفرة لا تقدم سوى عدد قليل من الحلول الجوهرية للبدائل فى قطاع النقل.

طاقة بديلة لوسائل النقل

يبدو جلياً أنه من الضرورى تطوير مصادر طاقة بديلة لوسائل النقل لتحل محل الوقود الحفرى، وهناك تقنيتان واعدتان هما السيارات ذات المحرك الذى يعمل بالكهرباء EV، والسيارات التى تعمل بخلايا الوقود FCV. وتطوير هاتين التقنيتين الرئيسيتين فى السنوات الخمس القادمة سيكون له تأثير حاسم على مستقبلنا، وسيساعد فى ترسيخ آلية اقتصادية يمكن باستخدامها تثبيت أسعار النفط فى نطاق معقول. فإذا أمكن تحويل هذين النظامين بحيث يجرى استخدامهما على المستوى التجارى فإنهما سوف يساعدان على خفض أسعار النفط وانبعاث غاز ثانى أكسيد الكربون.

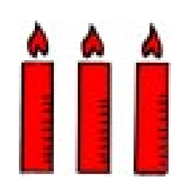
وفى اليابان، تكلفة توليد الطاقة النووية تنافس توليد الطاقة الحرارية مثل منشآت الطاقة التى تستخدم النفط كوقود، ومن حيث الطاقة المستخدمة فى وسائل النقل، تعد الكهرباء هى مصدر الطاقة لكل من السيارات التى تعمل بالكهرباء، وتلك التى تعمل بخلايا الوقود، وهذه الكهرباء يمكن توليدها من الطاقة النووية.

فعلى سبيل المثال، تُستخدم الكهرباء فى السيارات التى تعمل بالكهرباء مباشرة لشحن البطاريات الموجودة بها، كما أن السيارات التى تعمل باستخدام خلايا الوقود تعمل بالهيدروجين الذى يُنتج باستخدام الكهرباء. وبهذه الطريقة من الممكن استخدام الطاقة النووية فى وسائل النقل، وهذا النظام سيثبت أسعار النفط، وفى الوقت نفسه يوفر الوقود الحفرى ويخفف من حدة التغيرات المناخية، مما يحقق الاستدامة لكوكبنا.

إن بحث نظم طاقة بديلة للسيارات الكهربائية وتلك التى تعمل بخلايا الوقود وتطويرهما بدأ يحرز تقدماً. وإذا أمكن التغلب على التحديات التقنية فى هاتين التقنيتين المقنعتين، فإن تكلفة طاقة هذين النظامين يمكن أن تكون مكونًا مهماً لوضع سقف لأسعار النفط. بعبارة أخرى، من الضرورى أن نركز على خفض تكلفة هذين النظامين الجديدين بالإضافة إلى حل الصعوبات التقنية.

وأحد المميزات الرئيسية للسيارات التى تعمل بخلايا الوقود هى الفعالية الشديدة فى توليد الطاقة، لأنه على عكس نظام التوليد العادى، فإن النظام لا يعتمد على كفاءة دورة كارنو المرتبطة بالمحركات الحرارية. والسيارات التى تعمل بالكهرباء لها مميزات أيضاً، يأتى فى مقدمتها أن المحركات الكهربائية بسيطة للغاية من الناحية الميكانيكية ولا ينبعث منها أى ملوثات للهواء تقريباً أثناء تشغيلها. وثانياً، أن السيارات التى تعمل بالكهرباء، سواء أكانت ثابتة أم تتحرك، فإن الاهتزازات والتلوث الضوضائى الصادر عنها يكون أقل من السيارات التى تعمل بمحرك احتراق داخلى.

وعلى أية حال، هناك تحديات نحتاج للتغلب عليها قبل أن نضع هاتين التقنيتين موضع التطبيق، وأحد العوائق التكنولوجية الرئيسية للسيارات التى تعمل بخلايا الوقود هى صعوبة الحفاظ على سلامة وعاء الضغط وغشاء الفصل الذى ينخفض أداؤه عن المستوى الطبيعى طوال فترة العمل. وفى حالة السيارات الكهربائية، فإن العوائق تتمثل فى أن شحن



لاستهلاك النفط آثار سلبية على الجنس البشرى. فهو مسئول عن انبعاث الغازات الدفيئة إلى الغلاف الجوى، وعن التغيرات المناخية، وعن تلوث الهواء



البطارية لا يمكن السيارة من السير إلا لمسافات قصيرة نسبياً فى المرة الواحدة، إضافة إلى قصر عمر البطارية، علاوة على القدر الكبير من الطاقة التى نحتاج إليها لشحن بطارية السيارة التى تعمل بالكهرباء.

وهكذا يحتاج الباحثون لتركيز جهودهم على التعامل مع هذه التحديات التكنولوجية، وكلما أصبحت أنظمة الطاقة الجديدة هذه تنافسية مع السيارات التقليدية التى تعمل بالبنزين بشكل أسرع، أحرزنا تقدماً أكبر فى تحقيق الاستدامة لكوكبنا. وأنا أود أن أرى هذه التقنية الجديدة قابلة للتطبيق فى غضون السنوات الخمس القادمة، وسيتطلب هذا المزيد من الاستثمار الحكومى وخلق نماذج مشروعات فى هذه المجالات.

وخلاصة القول إن تطوير طاقة بديلة لوسائل النقل سيثير المنافسة بين أشكال الوقود، وسيبقى على أسعار الوقود الحفرى فى مستويات معقولة، ويبطئ من التغيرات المناخية. ومن ثم، فإن التقنيات التى تجعل هذا ممكنًا يجب أن تتطور أكثر.

قبــــول الحـــدود

ظلت موارد الأرض حتى نهاية القرن العشرين غير محدودة لنشاطنا الاقتصادى ولاحتياجاتنا، لكن فى القرن الحادى والعشرين، أدركنا أن هذه الموارد محدودة. ومع ما أحرزناه من تقدم فى التكنولوجيا؛ أصبحت السيارات فى كل مكان، وباتت الأغلبية تستخدم الكهرباء وتستهلك كميات هائلة من الطاقة، وتزايد عدد السكان. لقد زاد رخاء الجنس البشرى حتى هذه اللحظة. لكن من أجل بقائنا فى المستقبل يجب أن نغير سلوكنا الاقتصادى وحياتنا اليومية لنعكس حقيقة أن موارد الأرض محدودة.

ووجود استراتيجية لتقليل اعتماد وسائل النقل على النفط فى السنوات الخمس القادمة أمر حيوى، وعلى أية حال، فإن هذه الاستراتيجية لن تصبح حقيقة إلا إذا أدركنا جميعاً، وهذا يشمل واضعى السياسات والخبراء فى المجالات العلمية والعامة، أننا بحاجة للحفاظ على كوكبنا المحدود الذى لا يقدر بثمن. وإذا لم نتقبل جميعاً القدرة المحدودة للأرض على تحملنا، فإن الحكومات لن تستثمر مبالغ هائلة من النقود فى البحث والتطوير المبدئى لنظم طاقة جديدة لوسائل النقل. وبالمثل، لن تجد العامة ما يحثها على التحول تماماً من استخدام السيارات التى تعمل بالبنزين إلى تلك التى تعمل باستخدام النظم الجديدة إذا كانت تفتقد إلى الوعى بأن الموارد الطبيعية محدودة، وبأن تقليل انبعاث الغازات الدفيئة أمر ضرورى لبقاء كوكب الأرض. فإذا أصبحت مصادر الطاقة الجديدة لوسائل النقل تنافسية، سيتغير السلوك العام، وستحقق السيارات التى تعمل بالطاقة الجديدة مبيعات. وستصبح مصادر الطاقة لوسائل النقل أقل تكلفة وستصبح وسائل النقل الخالية من ثانى أكسيد الكربون حقيقة ملموسة، ومن ثم تسهم فى بقاء واستدامة كوكب الأرض.

وفى منتدى العلم والتكنولوجيا فى المجتمع، الذى أسسته بنفسى عام ٢٠٠٤، دارت الكثير من مناقشاتنا حول العلاقة بين الجنس البشرى والطبيعة من منظور العلم والتكنولوجيا. واليوم قد يصدق البعض أن الطبيعة يمكن التحكم بها نتيجة لتطور العلم والتكنولوجيا، لكن يجب أن ندرك أن الأنشطة البشرية أيضاً جزء من الكون. وما يمكننا أن نفعله لتحقيق الانسجام بين حياتنا والطبيعة فى المستقبل هو أهم موضوع يشغل البشرية اليوم.

يجب أن نضمن أن النمو الاقتصادى والحفاظ على البيئة يتحققان معاً. لكن هل هذه الاستدامة ستظل لخمسين عاماً أم مائة عام، أم ستظل لخمسمائة عام أم ألف عام فى المستقبل، فإن هذا يعتمد على الوعى المشترك بأن الكوكب محدود. وقد كانت مناقشاتنا فى منتدى العلم والتكنولوجيا فى المجتمع تستند إلى فكرة أن الجنس البشرى جزء من الكون، وإلى فلسفة الانسجام مع الطبيعة.

ومنتدى العلم والتكنولوجيا فى المجتمع لهذا العام، الذى سيقام فى كيوتو فى مطلع شهر أكتوبر/تشرين الأول، سيناقش من بين موضوعات أخرى مصادر طاقة بديلة لوسائل النقل، بما فى ذلك تكنولوجيا السيارات التى تعمل بالكهرباء والهيدروجين، التى ستوفر مصادر جديدة للطاقة كى تجعل وسائل النقل أقل اعتماداً على النفط خلال السنوات الخمس القادمة.

إن الجنس البشرى يتشارك المصير نفسه، وأتمنى أن يفيد التقدم التكنولوجى والقرارات السياسية الخاصة بمصادر الطاقة البديلة لوسائل النقل المجتمع، ويقودنا على الطريق إلى البقاء بالانسجام مع الطبيعة من أجل مستقبل طويل ومشرق للبشرية. ■

تخصصات مختلفة ومعارف مختلفة وتحديات مختلفة



بـامـيــــــلا مـاتـســــون
Pamela Matson

■ ■ تعد الاستدامة من أكبر التحديات التى تواجه البشرية فى القرن الحادى والعشرين: كيف يمكن تلبية الاحتياجات الأساسية للناس من الطعام والطاقة والمياه والمأوى بدون إفساد البنية التحتية التى تدعم الحياة على الكوكب؛ غلافه الجوى، وموارد مياهه، ونظامه المناخى، والأنواع والمنظومات البيئية على اليابسة وفى المحيطات التى نعتمد عليها وستعتمد عليها الأجيال القادمة فى المستقبل؟ ومع أن التعريف الدقيق لمفهوم الاستدامة لا يزال موضوعاً للمناقشة والجدال، فقد ظهر اتفاق عام بشأن المجالات التى تستحق منا اليقظة الشديدة، وهناك إجراءات تتخذ فى كل منها. ومع أننا لن نحقق هدف الاستدامة بين عشية وضحاها، فقد بدأ البشر يتخذون قرارات تستند إلى معايير تعكس قلقهم على أنفسهم وعلى أنظمة دعم الحياة. لقد شرعنا فى العبور إلى الاستدامة.

The Sustainability Transition

بترتيب خاص مع مجلة:

Issues in Science and Technology

ترجمة: . . .

وفى ظل استمرار تزايد تعداد البشر، وازدياد معدل الاستهلاك بسرعة، والضغوط المتزايدة باستمرار على الخدمات البيئية التى نعتمد عليها، فإن هذا العبور ينبغى أن تتسارع وتيرته. وسيكون اشتراك مجتمع العلم والتكنولوجيا أساسياً، مع أنه ليس كافياً، لتحقيق عملية الإسراع هذه. وعلى غرار مجالى العلوم الطبية والعلوم الزراعية، فإن علم الاستدامة كمجال وليد لا تحدده مناهج دراسة بل تحدده مشكلات يجب التعامل معها وحلها. وهذا العلم يشمل عناصر من العلوم الفيزيائية الحيوية، والعلوم الاجتماعية، والهندسية، والطبية والدراسات الإنسانية أيضاً، ويعتمد عليها، وغالباً ما يكون متعدداً ويتداخل فى تخصصه مع علوم أخرى. والتركيز الأساسى لعلم الاستدامة يكون على الديناميكيات المعقدة للنظام المزدوج الذى يضم الإنسان والبيئة معاً. ويمتد المجال ليشمل المعرفة ذات الصلة بالطبيعة الجوهرية للتفاعل بين البشر وتقنياتهم والبيئة، وباستخدام صناع القرار لهذه المعرفة لمعالجة المشكلات الملحة للتنمية الاقتصادية وحماية البيئة والموارد.

تُنشر أبحاث الاستدامة فى المجلات العلمية وتؤثر



إن تلبية الاحتياجات الإنسانية الأساسية بدون إفساد نظم الكوكب الحيوية يتطلب برنامجًا بحثيًا طموحًا، ومتعدد التخصصات، وموجهًا للبحث عن حــل



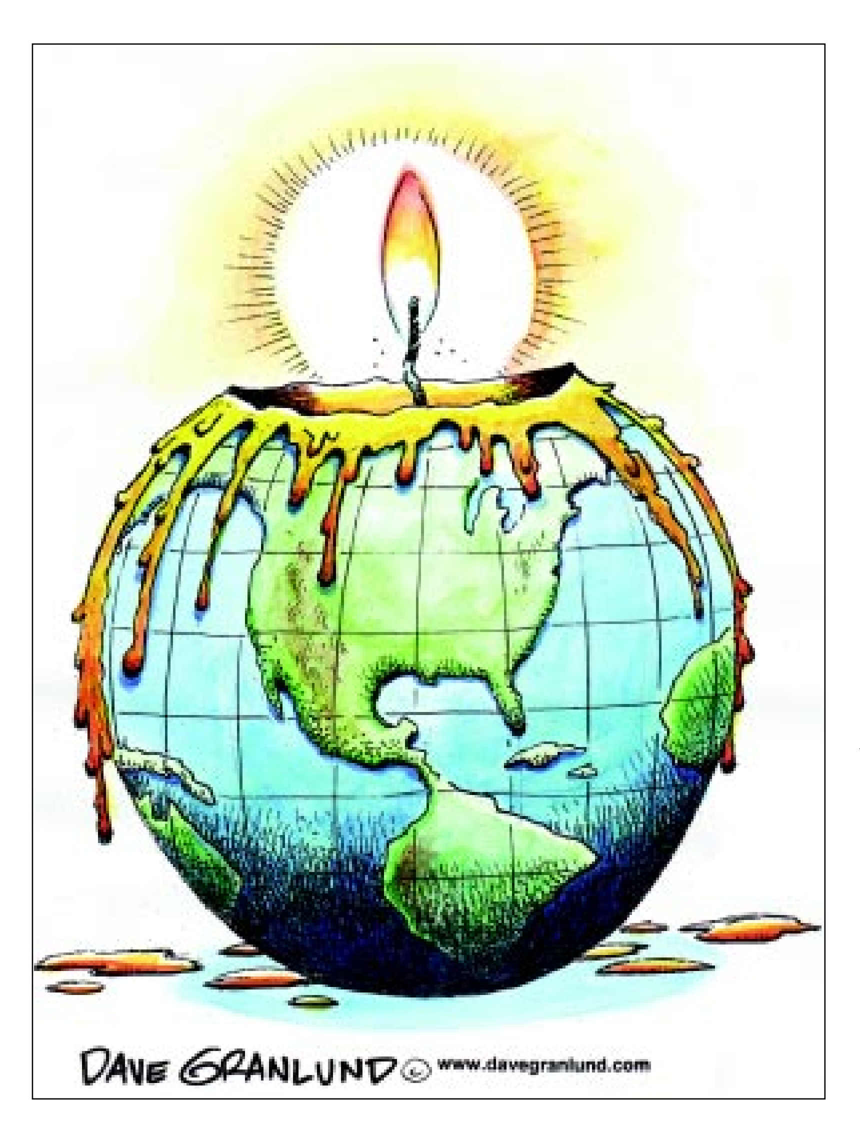
على بعض القرارات فى عالمنا الواقعى، ويحتاج المجال الآن إلى خطة مدروسة جيداً تشترك فيها الأوساط البحثية والتعليمية والتمويلية. ومع أن الاستدامة، على غرار جميع التحديات المجتمعية طويلة الأمد، ستستفيد فى النهاية من أحد مناهج العلم والتكنولوجيا الذى «يشجع أفكاراً عديدة نابعة من مصادر متعددة»، فإن مثل هذا المنهج ليس كافياً. إننا نحتاج إلى عملية بحث وتطوير تستهدف تقديم حلول، وتستمد إلهامها من الاستخدام الواقعى، من أجل العبور إلى الاستدامة، ونحتاج إليها بسرعة، ومن ثم فإننا بحاجة إلى خطة واضحة للبحث. ومع أن «كل» فرع من فروع المعرفة يمكن، ويحتاج إلى، أن يسهم بدوره فى تقديم جوهر المعرفة العلمية والتقنية بهدف المساعدة فى مواجهة تحدى الاستدامة، فإن أيًا من فروع المعرفة هذه لا يستطيع أن يحرز تقدمًا جيداً وحده، ولهذا فإننا بحاجة إلى جهود مكثفة لتوحيد هذه المعارف العلمية للتأثير على هذه التحديات المتكاملة.

خـطـة بـحـثـيـة

عندما نواجه بعض التحديات الهائلة للاستدامة تتضح الحاجة إلى أبحاث متكاملة تركز على المشكلة. انظر إلى مشكلة الطاقة على سبيل المثال؛ فالجزء الأكبر من الطاقة التى يستخدمها العالم يعتمد على الوقود الحفرى، والطلب على الطاقة فى تزايد سريع فى الدول النامية، إلى جانب أن مسألتى «نفاد النفط» والمخاوف الأمنية من زيادة المنافسة العالمية للحصول على النفط والغاز قد حظيا باهتمام كبير. على أن أهم تحديات الاستدامة وأكثرها إلحاحًا هو تأثير نظام الطاقة على المناخ وعلى تلوث الماء والهواء. ومع أن المجهودات البحثية التى تركز على مصادر جديدة للطاقة تعد فى غاية الأهمية، فإنها من منظور الاستدامة ليست سوى طرف واحد من أطراف المسألة. فيجب أن تركز الأبحاث على واجهة النظام التكنولوجى/البيئى/ الاجتماعى بهدف تطوير مصادر طاقة تقلل من التأثيرات البيئية، ويمكن تطبيقها على نطاق واسع، ومتاحة لأفقر شعوب العالم. إن التحدى لا يكمن فقط فى أن فهم أى من التقنيات الجديدة ضرورى، بل يكمن أيضًا فى كيفية تطبيقها بأسلوب يتجنب العواقب غير المقصودة على الناس وعلى الكوكب. وتجربتنا الحديثة مع الوقود الحيوى المشتق من المحاصيل الغذائية توضح ما الذى يمكن أن يحدث عندما نركز، بضيق أفق شديد، على تحقيق هدف طاقة محدد فى معزل عن تفاعله مع إنتاج الطعام، وتلوث الماء والهواء، والتجارة، والمناخ، والاحتياجات البيئية والاجتماعية الأخرى.

وهناك تحدٍ رئيس آخر فى التنمية المستدامة ألا وهو حماية التنوع البيولوجى، وقد قدمت مجالات الدراسة فى علمى الأحياء التطورى والبيئة رؤى جوهرية عن العوامل التى تحافظ على الأنواع أو تمنعها من النمو. على أن الأبحاث الخاصة بالتنوع البيولوجى ليست كافية فى حد ذاتها لعلم الاستدامة؛ إذ لا تزال هناك حاجة إلى الجهود التى تركز على الروابط بين حماية التنوع البيولوجى والاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية للبشر. ويعد ظهور الأبحاث والجهود الواقعية لتوضيح الفوائد الناتجة عن النظم البيئية، واستخدامها صراحة لتحقيق رخاء البشر، يعد هذا توضيحًا جليًا لعلم الاستدامة.

والتحدى الذى تمثله مشكلة المناخ يقدم أيضًا توضيحًا للاحتياجات الخاصة لعلم الاستدامة. ولا ينبغى أن تركز المحاولة البحثية التى تتناول مشكلة التغير المناخى على فهم التغيرات فى النظام الفيزيائى للمناخ عن طريق المشاهدة ووضع النماذج فحسب، بل ينبغى أن تركز أيضًا على الطرق التى يستجيب بها الناس والمنظومات البيئية، ويتكيفون معها، ويخففون من حدتها. والقيام بهذه الأشياء كل على حدة بدون وجود برنامج يجمع بينها يقود إلى حدوث فجوات هائلة.



إضافة إلى هذا، تحدث الكثير من مثل هذه التحديات فى النظام المزدوج الذى يضم الإنسان والبيئة معًا على نطاقات مختلفة. على سبيل المثال فإن الجهود التى تركز على تقييم حساسية النظام الذى يجمع بين البشر والبيئة للتغيرات المناخية، والحد من هذه الحساسية، تتطلب مجهودات متعددة التخصصات على المستويات المحلية والإقليمية والدولية فى ظل وجود احتمال بأن تظهر هذه الحساسية بصورة مختلفة فى المكان والنطاق والزمان.

وكما توضح هذه الأمثلة، فإن الأبحاث من أجل العبور إلى الاستدامة تحتاج لأن تكون متكاملة ومنسقة، وإحراز تقدم عظيم فى مجال واحد محدود لا يضمن النجاح. إننا نحتاج لأن نتأكد من أننا نغطى نطاق البحث الصحيح حتى تكون الحلول ممكنة، وتكون التقنيات والأساليب الجديدة مفيدة حقًا وقابلة للاستخدام. وهذا سيتطلب جهوداً بحثية متوازنة ومنسقة مع منح تمويل أبحاث متوازنة.

وأهمية مثل هذه الخطة المنسقة لا تعزى فقط إلى فوائدها العملية على المدى القصير لمجالات موارد تمكننا من مواجهة التحديات، بل تعزى أيضًا إلى التطور الجوهرى للمجال وتقدمه على المدى البعيد. ومع أن علم الاستدامة يخاطب مجموعة كبيرة من احتياجات العلم المحددة، التى قد تبدو فى بعض الأحيان غير مرتبطة، فإنها ترتبط بالأفكار الأساسية والأسئلة التى تظهر بصرف النظر عن أى مجموعة من تحديات الموارد أو التحديات البيئية نتناول. فعلى سبيل المثال، الأسئلة المرتبطة بالقوى المحركة للتغيير؛ مثل الاستهلاك والسلوكيات والقيم، والتوجهات السكانية التى تشكل أساس استخدام الموارد والاستنزاف، هى أسئلة مشتركة فى جميع المجالات. وبالمثل فإن الأسئلة عن استجابة نظام البشر/ البيئة - وتعرضه للخطر وقدرته التكيفية ونقاط قصوره وحدوده - تكون من الأمور ذات الصلة سواء أكنا نتناول مشكلة العلاقة بين المناخ والطاقة أو التفاعل بين الأمن الغذائى والبيئة.

اطلبوا العلم

فالأسئلة الأساسية حول القوانين والمحفزات والنظم الحاكمة شديدة الأهمية فى جميع المجالات. ومع أن الأسئلة الرئيسية لعلم الاستدامة نوقشت فى أدبيات العلوم، وحول موائد المؤتمرات فى الأكاديمية الوطنية للعلوم والمؤسسات الأخرى، فلم توجد جهود دولية حديثة لتحديد المكونات الجوهرية لبرنامج البحث لعلم الاستدامة. وهذا ينبغى أن يكون جزءاً من الخطة الخمسية، وربما يكون أفضل من يقوده منظمات مثل الأكاديميات الوطنية فى الولايات المتحدة ونظيراتها فى العالم.

التغيرات المؤسسية

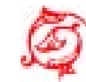
سيكون البرنامج البحثى لعلم الاستدامة برنامجاً هائلاً، وفى أعقاب تحريك مجتمع العلم والتكنولوجيا لدعم العبور إلى الاستدامة ستبذل جهود مكثفة وستتطلب التنفيذ بأسلوب يختلف عما كان معتاداً فى الماضى. ونحتاج إلى مجموعة من التغيرات فى المؤسسات البحثية وفى المنظمات التمويلية إذا كنا نعتزم السير بخطى أسرع نحو طريق الاستدامة.

وفيما يتعلق بالكثير من المؤسسات الأكاديمية، فإن تحدى الاستدامة يكون صعباً بصورة خاصة لأنه يتطلب منا العمل معاً بطرق لا تدعمها جيداً الكيانات المؤسسية من جامعاتنا لأنها تتطلب التركيز على حل المشكلة مع المعرفة الجوهرية، ولأنها تتطلب أن يشارك مجتمع العلم والتكنولوجيا بنشاط مع صناع القرار بدلاً من افتراض تبادل وحيد الاتجاه للمعرفة يتبعه الاستخدام التلقائى لها، وهذه الصعوبات تقترح عدداً من الخطوات اللازمة داخل الدوائر الأكاديمية.

أولاً: تحتاج المؤسسات الأكاديمية لأن تجد طرقاً لتسهيل الجهود التى تجمع بين التخصصات المختلفة والتى تزيد من نقاط قوى العديد من المعارف المختلفة، مما يسمح لها بالاتحاد وتحقيق التكامل بين معارفها حول تحديات محددة فى قضية الاستدامة. ويشترك عدد من الجامعات الآن فى تجارب حول هذه الفكرة. وقد حدد البعض كليات جديدة داخل الجامعة للاضطلاع بدور واضح يتمثل فى حل المشكلات متعددة التخصصات. وطور آخرون مؤسسات شاملة الهدف منها توحيد نقاط القوى المشتتة فى مجالات الدراسة بالجامعات وتسهيل التفاعل البحثى الذى سيجمع بينها وتشجيعه. كما أسس آخرون مراكز حرة تعمل بصورة مستقلة عن الأجزاء الأكاديمية من الجامعة، والبعض طبق أكثر من أسلوب. وفى العديد من الحالات، تقدم هذه التجارب مجالاً ليس فقط لاتحاد مجالات الدراسة المختلفة، بل أيضاً لظهور محاور جديدة متعددة التخصصات، وتطوير الخبراء الذين يعملون بها وتدريبهم، ويجب علينا أن نتعلم من هذه التجارب.

وتقوم هذه الجامعات بصورة متزايدة أيضاً بتدريب جيل تال من القادة الذين يفهمون المحيط الواسع لمشكلة الاستدامة ويعملون داخله، وهو الجيل الذى يحمل أعضاؤه فى بعض الأحيان نقاط القوة الموجودة فى أكثر من مجال دراسة، والذى يمكنه الجمع بين العديد من مجالات الدراسة - إما بالجهود الفردية أو الجهود الجماعية - لتناول أسئلة يواجه أكثرنا ممن تلقوا تعليماً نظامياً تقليدياً تحدياً فى تناولها. ولا شك فى أن الطلب على هذه البرامج متعددة التخصصات فى ازدياد وبمعدلات أكبر بكثير من ازدياد الطلب فى العديد من مجالات الدراسة الأساسية.

وهناك جانب آخر رئيس من البرامج الأكاديمية حول علم الاستدامة ألا وهو النية المؤكدة فى الربط بين المعرفة والسلوكيات. فالجزء الأكبر من علم الاستدامة بحث أساسى مكثف، لكن المجال فى جوهره يعتمد على الاستخدام كمصدر إلهام وموجه إلى عملية صنع القرار من جميع الأنواع. وكما هو الحال فى المجالات الزراعية والطبية، فإن الوصول إلى العامة وامتداد المعرفة جوانب أساسية من علم الاستدامة، ومع ذلك فإن معظم الجامعات ليس لديها آليات مصقولة لهذا النوع من الحوار والشراكات الذى نحتاج إليه كى يصبح علم الاستدامة مفيداً حقاً ويستخدم فى عملية صنع القرار. ويتطلب الأمر تدفقاً متعدد الاتجاهات من المعلومات، لمساعدة المجتمع الأكاديمى فى فهم التحديات الأساسية من منظور صناع القرار، وإشراك المجتمع الأكاديمى فى الجهود المتكاملة التى لا تركز فقط على تطوير الابتكارات والأساليب الجديدة، بل تركز أيضاً على تطبيقها الفعلى. ومرة أخرى، تُجرى أبحاث بأنواع جديدة من الشراكات البحثية، والحوارات وورش العمل، واستراتيجيات الاتصالات، وتطوير «منظمات وسيطة بين العلم والسياسة» داخلية تربط بشكل هادف بين الباحثين وصناع السياسات. ومثل هذه الجهود تكون مليئة بالتحديات بصورة استثنائية، لاسيما للجامعات لأنها تمثل تكاليف لا يوجد لها مصادر تمويل تقليدية.



والربط بين العلم والتكنولوجيا من ناحية وعملية صنع القرار من ناحية أخرى أصبح أكثر صعوبة؛ لأن تحديات الاستدامة تختلف باختلاف الموقع كوظيفة للخصائص لكل من النظم الاجتماعية والفيزيائية الحيوية للمكان. ففى أماكن معينة - يحدث فيها التفاعل وسط تغيرات بيئية على نطاق يتراوح بين المحلية والعالمية - تظهر السياسات العامة، والموارد والقدرات الجغرافية وعملية اتخاذ القرار الفردية والأفعال. وهذا يؤيد إطارات العمل والآليات التحليلية القائمة على المكان، التى تربط العمل عبر نطاقات مكانية. وهذا الأمر أسهل فى قوله من فعله؛ فالبرامج على المستوى القومى والمراكز التى أسست لمواجهة تحديات الاستدامة قد لا تكون فعالة على نطاق المكان إذا لم يكن هناك كيان إقليمى أو محلى لتقديم التكامل والترابط مع المشاركين المحليين. وهناك حاجة لإجراء تجارب على المستوى الإقليمى وعلى مستوى الدول فى تطوير موارد الاستدامة ومراكز الأبحاث ونظم المعرفة. ومثل هذه المراكز يمكنها أن تكون منطقياً شريكة للمؤسسات الأكاديمية والعامة والخاصة، كما اقتُرح فى مناقشات عن إمكانية إنشاء هيئة مناخ قومية.

وربما يكون الأمر الأهم على الإطلاق هو أنه لا يمكن التعامل مع تحديات الاستدامة بفعالية إذا لم تشارك فيها هيئات البحث المستقلة والفيدرالية. وقد أظهر فهم الوظائف الأساسية لأنظمة البشر/البيئة وقدرتها على التكيف والاستجابة للتحديات البيئية والاجتماعية المتعددة، حاجة علمية ملحة، ومع ذلك فإنه لا يوجد سوى جهود قليلة تركز على هذا الاحتياج فى الهيئات. ويحتاج تطوير المعرفة والأدوات والأساليب المبتكرة - التى تفى باحتياجات الناس فى الوقت نفسه الذى تقوم فيه بحماية البيئة والموارد - لأن يكون بؤرة اهتمام، لكنه اليوم لا يُنفذ إلا تدريجياً فى العديد من البرامج عبر هيئات متعددة. ومرة أخرى، يمكن للمرء أن ينظر إلى تاريخ تطوير الوقود العضوى فى الولايات المتحدة كى نرى عواقب غياب الحوار والتنسيق بين الهيئات التى تركز عملها على الطاقة والغذاء وموارد المياه والبيئة. وفى مجال علم المناخ والسياسة أوضحت تحليلات حديثة الفجوات الخطيرة التى نتجت عن غياب التكامل والتنسيق بين العلوم الفيزيائية والاجتماعية.

يجب أن يكون هذا التكامل خطوة مهمة أخرى فى الخطة الخمسية لتطوير جهود منسقة بين الوكالات فى مجال الاستدامة على النطاق القومى، تركز على البحث الأساسى، الذى يعتمد على الاستخدام كمصدر إلهام، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بصناع القرار ويسهم فى النهاية فى فهمنا للعالم وإدارته المستمرة. وإذا كان علم الاستدامة يناظر العلوم الصحية أو الزراعية، فربما ينبغى الدعوة إلى إنشاء هيئة جديدة تركز تحديداً على تحديات الاستدامة. وأنا أومن على أية حال أن تحدى الاستدامة يتطلب جهوداً منسقة تتضمن اشتراكنا جميعاً فى جميع المجالات والمناهج العلمية وجميع البرامج والهيئات. والمنظمات التى تستبعد بعض العلماء تجازف بالتخلى عن معارف وأدوات ووجهات نظر شديدة الأهمية. وما نحتاج إليه هو جهود تنسيقية حريصة تضمن أننا نأخذ فى الاعتبار جميع أبعاد المشكلة. وهذا سيتضمن ما هو أكبر من الحوار؛ إذ سيتطلب جهوداً تنسيقية دولية وعالمية فى البحث والتطوير. وفى الولايات المتحدة سيتطلب مشروعات مشتركة، وشراكات عامة وخاصة، وبرامج بحثية منسقة، وإشراك لاعبين جدد. إن تغيير المؤسسات أمر صعب، لكننا بحاجة إليه اليوم على المستويات المحلية والقومية والعالمية، إذا كنا نعتزم إشراك مجتمع العلم والتكنولوجيا بنجاح فى العبور إلى الاستدامة. ■

بالضبط .. عام كامل مضى، على مشاهد الجحيم التى «تفرجنا» عليها، ومعنا العالم كله فى غزة. والثابت أن «الصورة» متلفزة أو مبثوثة على شاشات الإنترنت، لعبت دورا رئيسا فى مجرى الأحداث وفى صناعة القرارات وصولا ربما إلى «تقرير جولدستون» الهام ذاته.

كيف غطّى الإعلام الإسرائيلى والعربى هذه الحرب؟ ما هى المعايير التى استخدمتها وسائل الإعلام فى نقل المشاهد المؤلمة للقتل والدمار والتى تلوّنت بتلوّن هذه الوسائل الكثيرة المنتشرة فى الفضاء؟

فى كل الأحوال، كان مشهد الإعلام العربى متباينا. فهل ساهم الإعلام العربى فى ترسيخ الانقسام العربى؟ وكيف يمكننا النظر إلى تقاطع استراتيجيات الإعلام وأدوارها فى تحديد مستقبل العرب؟

المحــــرر



نسيم الخوري

الصورة

■■ «الحرب الخفيّة» أو «المخطوفة خطفاً»، أو «الحرب البعيدة عن الأنظار» أو «الحرب المسروقة والمهرّبة أو المغلقة»،هى بعض الصفات التى يمكن لصقها باستراتيجية التعتيم الإعلامى الإسرائيلية لو صمدت فى الحرب على غزّة(٢٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨) مقابل كشف الشاشات العربية للأغطية بعفوية ذكيّة وشجاعة أو ارتجالية لافتة وحماسٍ وقتال شرسٍ قذف العين العالمية بمشاهد الضحايا والأشلاء والتدمير، بما كان يدعو إلى الغثيان والرجفة والقشعريرة والبكاء والتقيؤ والغيبوبة والإدانات بوسائل الاتصال المتيسرة كافة. وهذا ما لا ينضوى، علمياً أو موضوعياً، تحت أى استراتيجية أو ثقافة أو تنسيق قد يجيب عن الأسئلة الكثيرة المطروحة فى هذا المنتدى الهادئ والمتقدم.

صحيح أن الصورة نمت فى الغرب وبلغت حدود إشباع الأعين بالعنف والدم والجنس ومشتقاتها عبر الأفلام، بعدما كانت خرجت من رحمى الهيروغليفيا فى مصر وبلاد ما بين النهرين، لكن الصحيح أيضاً أن مفارقات كبيرة ومسافات شاسعة سياسية تقوم بين عين الغرب وعين الشرق، لتنشق وجهات نظر متباينة بين العرب أنفسهم، وهنا يكمن هذا التحدّى الخاص بكيفية التعامل مع تقنيات العصر الحديث الإعلامية التى هى من ابتكار الغرب. هل هى صدفة وهواية أم مهنة ومهنة عالمية لها ثقافتها وأصولها وقوانينها؟ هل يجوز للغرب بث تلك الصور المجبولة بالدماء والغرائز الحيوانية فى الأفلام والمسلسلات وأخيلة الغربيين، ولا يجوز للعرب بث الصور المشابهة أو المتجاوزة لكلّ القساوات المعهودة فى الأفلام عندما تكون واقعية وحاصلة كما فى غزة أو فى أية بقعةٍ من العالم؟

للتوطئة تذكرنى حرب





غزة، باستراتيجية حرب «عاصفة الصحراء» التى بدت «وكأنها لم تقع أصلاً» عندما اعتمدت قوات التحالف،أيضاً، استراتيجية حجب الحقائق وتغطيتها وتقنينها. وكانت الكاميرات لا ترى إلاّ بعيون جنود التحالف. وما خروجها عن المسموح به من التقاط صور أو بثّها بما يثبط من عزائم الأمريكيين أو يرفع من حدّة التظاهر والاحتجاج على الحرب فى عواصم العالم، إلاّ مسألة بقيت تحت دوائر الرقابة المشددة. ولأنّ الصور القوية الدموية تولد ميتةً غالباً فى ثقافة الغرب، إذ تقع ضحية اعتبارات كثيرة تحول دون نشرها قبل ثلاثة أيام من وقوعها، فإنها تصل غالباً متأخرة، فتُهمل أو تخسر الكثير من قيمتها الخبرية والتأثيرية، بالإضافة إلى عوامل التحيز التى تهمل نشر هذا النوع من الصور المدانة سلفاً وأساساً.

وقد تذكرنا هذه الخطة بالذات، بصورة القرن الواحد والعشرين أو صورة نسف برجى مركز التجارة العالمى فى واشنطن وسقوطهما، والتى احتلت مراكز الصدارة والاهتمام ومازالت فى وسائل الإعلام فى العالم، لكن الإدارة الأميركية حجبت عن العين العالمية منذ لحظة وقوعها إظهار نقطة دم واحدة أو إظهار جثة متشوهة. واكتفت، بالرغم من تقديسها للديمقراطية، وهول ما حصل، بتزويد وسائل الإعلام بنسف مائة طابق وطابق أو نصف مليون طن من الجدران المتناثرة بالإضافة إلى صور أربع طائرات مدنية تمّ خطفها واستخدامها فى التفجير، وهو الأمر الذى كان لا يمكن تلافيه أو حجبه عن أنظار العالم، مهما كانت أبعاده ومراميه وتداعياته.

هكذا تقود الصفات الإعلامية الخاصة بحرب غزة، طبيعياً، فى مقاربتها ووقعها أو فى وظائفها الأفقية، إلى التخفيف من صورة الكوارث والمذابح والتشوهات والأهوال التى وقعت، والتى تمّ حجبها، بالاستناد إلى مراعاة القوانين الدولية التى وضعت عتبات تفاهم بين ما هو مسموح أو محظور نشره وبثّه أمام المشاهدين فى العالم، بما لا يكسر العين والنفس والمشاعر، وهذه مسألة تختلف من شعب إلى آخر، ومن عين إلى أخرى، ومن ثقافة لأخرى، لكن كشف الأغطية العربى الفجّ والصادق فعلياً عمّا حصل فى غزّة، يرشدنا إلى زلزالٍ حقيقى ضرب قطاع غزّة، وتنكّب له الإعلام العربى، بما أحرج أو «ضرب» الإعلام العربى والعالمى فى الصميم بحيث وجد نفسه منقاداً بدوره، فى نهاية المطاف، إلى المساهمة الصادقة أو الثقيلة أو البطيئة أو المترددة فى كشف بعض الصور عمّا أورثه هذا الزلزال من مساحات دموية ودمار هائل، خصوصاً بعدما تبدّى المشهد مخيفاً عندما وضعت الحرب أوزارها بعد ٢٢ يوماً من وقوعها. وقد يمكن الاستنتاج، فى مسار تحرّك الشاشات العربية، أن تلك المترددة منها أساساً فى نقل الوقائع، كانت تعكس تردداً وارتباكاً رسميين من قبل مجموعات من الأنظمة التى بانت وكأنها تحرق أصابعها مرّتين: مرةً حيال عجزها أمام تململ شعوبها وتحركها حيال ما كان يرد من صور من مجازر غزّة، ومرّة أخرى حيال عجزها عن الاستمرار فى الوقوف بثبات فى التزاماتها غير المعلنة تجاه الإدارات الغربية، والتزامات الأوراق والأفكار المرسومة لقضايا الشرق الأوسط.



وإذا كان العرب، وهم يبحثون عن عناصر وجودهم الأربعة، يحبون بسليقة جاذبة ولافتة فى الهواء أو يركضون بخطىً ثابتة فى الفضاء بعدما تعثّروا طويلاً فى تحقيق حضاراتهم الترابية والمائية، على اعتبار أنّ عدوهم الإسرائيلى يتكفّل دائماً بالنيران والحروب والحرائق، فإنّ حركتهم تلك فى الفضاء هى بعض فضائل العولمة ونعمها. رسّخها الغرب وأوقع سياساته غير العادلة فى جبّها المشوك. وما التمسك بالعولمة سوى لأنها تشابه الحر أو المطر اللذين يستحيل حجبهما. وهذا القول مخصص لمن يصر من المفكرين العرب على العوربة فى وجه العولمة، حيث لا حدود ولا سدود بين شعوب العالم قادرة أن تعاند الحرية وكشف الحقائق والصور.

المهم أن بعض وسائل الإعلام العربية وغيرها، خرقت حرب غزة المطبقة القاسية بعرض صورها المروّعة كما هى فى الواقع. وسبقت الشاشات المتلفزة السياسات الصغرى والكبرى وتجاوزتها. وساندت شاشات الإنترنت القنوات والإذاعات وسبقتها عندما هبّ أبناؤنا وبناتنا فى أرجاء الدنيا، وأغرقوا الأبواب والنوافذ الإلكترونية والمواقع بصور المجازر الإسرائيلية التى دفعت الشعوب بمئات الألوف فى العواصم والمدن العالمية إلى الشوارع والساحات. كلها كانت تطالب بالتحرك لوقف هذه الحرب البشعة بجرائمها ومحارقها وكوارثها، وبإبداء الدعم والتأييد لنضال الغزّاويين، ومحاولة مواساتهم فى ما حلّ بهم. ولم يتردد حتّى فنانو العالم والمشاهير عن الانشغال بملحمة غزّة، حتّى أن مغنياً أمريكياً ذائع الصيت فى العالم مثل مايكل هارت راح يغنّى متعاطفاً مع غزّة ونقلته وسائل الإعلام فى الدنيا. ولهذا السبب وأسباب كثيرة، أوقفت اسرائيل مجازرها وعملياتها العسكرية،مستفيدةً من التجاذب والانقسام العربيين، معلنةً أنّ العملية مستمرّةٌ «حسب الحاجة». فسحبت قواتها من غزة انصياعاً لخيبتها من تحقيق الردع الشامل، وكذلك للكثير من المبادرات والنداءات التى كانت تتطلّع بعينٍ واحدة، وبقلقٍ كبير إلى إطلاق صواريخ حماس الكثيف نحو الجنوب الإسرائيلى، وتجاوباً مع غضب الرأى العام العالمى وسخطه وضغوطاته على حكوماته.

تحـولات إعـلاميـة

تتوخى هذه الدراسة المختصرة، فى تلميحها إلى التحولات الكبرى على مجمل المستويات فى الصراع العربى الإسرائيلى، سواء على مستوى الانقسامات العربية والإقليمية، أو على مستوى التنافر العربى الإيرانى، أو على مستوى نظرة الدول العظمى، وفى رأسها الولايات المتحدة الأميركية إلى منطقة الشرق الأوسط، الافتراض أن حربى تموز٢٠٠٦ وغزة ٢٠٠٨ ساهمتا مساهمة فاعلة فى تلك التحولات، وبات القطاع والجنوب اللبنانى معها نقطتى جذب عالميتين تتقاطع عبرهما الاستراتيجيات المتجددة التى لا يمكن فصلها عن بعضها البعض، كما لا يمكن دراستها منفردة، كأن نتناول سلوك وسائل الإعلام فى حرب غزة بمعزلٍ عن استراتيجية إعلام حزب الله فى الجنوب، أو بعيداً عن استراتيجية الأنفاق وصور الموت فى غزة أو بعيداً عن استراتيجية المبادرات والتسويات الكثيرة. هناك تقاطع وتكامل فى تفاصيل الحربين، تدفعنا ننظر إلى الزمن الذى نحن فيه، وكأنه مشابه للعام ١٩٤٨ الذى أدرجنا على تسميته بتاريخ ضياع فلسطين وهو يتّخذ اليوم تسمية جديدة هى عودة فلسطين إلى فلسطين، ويضاف إليه معطى ثانٍ جديد بالغ الأهمية هو المقاومة التى تسلخ من لاوعى العرب عادات الهزائم فى الحروب والعجز أمام قضم إسرائيل للمستوطنات والأراضى، واستحالة الانسحابات أو عدم فهم ألغازها والتباس الأوراق والاستراتيجيات المتكررة منذ ذلك التاريخ. يضاف إليه معطى ثالث بالغ الأهمية هو انخراط العرب، بالمعنى الواسع الداخلى العربى والخارجى العالمى، فى حضارة الصورة وقوتها.

يقول الياهو فينوغراد: «أن الجيش قد طبّق فى غزّة إعلامياً دروس حرب لبنان الثانية، ومنع تسريب الصور والمعلومات. ولم يتنافس الصحافيون على تحقيق سبقٍ صحافى، وانخفضت التسريبات والاتصالات من قبل الضباط والجنود، خلافاً لما حصل فى حرب لبنان من تسيبٍ إعلامى إسرائيلى، حيث كان الجنود والضباط يتكلمون فى الهواتف من الجبهة، ويخبرون الأهل بأحوالهم، وتبيّن أن حزب الله كان يرصد المكالمات، ويترجم مضمونها، ويعرف من خلال الذبذبات الصوتية مواقع الجنود الإسرائيليين، ويستفيد من ذلك فى إدارة الحرب إلى درجة تمكّن فيها حزب الله من إنزال الهزيمة بجنودنا إلى تدمير المركز الإعلامى الذى كنا أقمناه فى شمالى إسرائيل لإدارة حرب تموز إعلامياً». لقد تعاطى الإعلام الإسرائيلى فى الحرب على غزّة بأساليب مختلفة تماماً، وبتوجيه وتأييد وتعاطف بارز. ومن يراجع بعض مواد الوسائل الإعلامية الإسرائيلية، يلمس بأنها كانت شريكة فعلية فى صنع



بات الموت فى غزّة جزءاً حميما من حياة الغزّاويين، فإمّا أن تموت قصفاً هناك أو حصاراً أو منتظراً دواءً لن يصل ولن يأتى، أو أن تموت صامتاً كحياتك الترابية. تدفن نفسك قبل أن تدفن





هذه الحرب كما في قراراتها وعند حدوثها وما بعد انتهائها، وهي شراكة أربكت الجيش الإسرائيلي الذي لم يحترم وسائل الإعلام كثيراً على بعض مواقفها، لهذا كنا نراه يتشدد في فرض القيود على تغطية مجريات الأحداث، بعدما أقفل الأبواب الغزاوية في وجه الصحافة الإسرائيلية والأجنبية محاولاً الإطباق على القطاع، وطمس معالم الحرب الإجرامية، وتشويه أهدافها وصورها ومجراها الحقيقي بما يحمّلها زوراً عدم استهداف المدنيين وتخليصهم من المقاومة القائمة في ما بينهم، وفارضاً لذلك رقابة عسكرية وإعلامية صارمة، بحيث كان لا يمرّ أو يبث أي تقرير من دون مقص «السانزورا» بالعبرية أو الرقيب بالعربية أي ال Censure إلى درجة التعتيم الكامل، وهو ما يتنافى مع مقتضيات القانون الدولي لحماية حقوق الإنسان، والقانون الدولي الإنساني، والقوانين الدولية في حماية الصحافيين.

يمكن الافتراض، أنّ غزّة كمسألة لم تكن تملأ الأعين والوجدان العالميين قبل هذه الحرب، التي جاءت حلقة في سلسلة من الحروب التي ارتكبتها إسرائيل طيلة العقود الستة من عمرها الحافلة بالحروب والمجازر بحق الفلسطينيين والعرب. وأمام هذه الإشكالية يمكن طرح السؤال: هل يعود الفضل، في تحريك الرأي العام إلى وسائل الإعلام التي باتت قادرة على تخطّي أو فضح معظم الإستراتيجيات العسكرية والإعلامية، أو كشف الكثير من جوانبها ونتائجها، أي أنه يعود إلى حسن توظيف هذه الوسائل واستخدامها ببراعة في قرن العولمة تحديداً؟ ولو انسحب هذا السؤال على بعض الإعلام العربي، وخصوصاً في ميدان صراع الشاشات،هل يمكن القول أن العرب، بعدما انخرطوا في الفضاء متسلحين ببعض إعلامهم، باتوا أكثر قدرةً وجدارة على الانتقال إلى مكان آخر أكثر جدوى في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي المشبع بالهزائم والخطب التي لم تضف شيئاً ؟ وهل يمكن للإعلام أن يساهم بتقارب الشعوب العربية كي لا نقول بتوحيدها والذي عجزت عنه معظم الأنظمة والمحاولات والمؤتمرات الكثيرة والقمم الطويلة في جامعة الدول العربية وغيرها من المنظمات العربية؟

وإذا كان الأمر كذلك، هل يحقّ لنا، أن نعتقد، أنّ السلطات الإعلامية، بمعناها الواسع، وأمام وطأة الحروب والدماء، هي قادرة على خوض الحروب، أو تحقيق سلطاتها بما يتجاوز السلطات التقليدية المعهودة المسكونة بالخيبات؟ وبالتالي ما هو مستقبل العرب من حيث تعاملهم مع الصورة، وكيف يوفقون بين توفيقهم باستعمالها المتنوع سياسياً مع ثقافات استعمالها المغاير لهم في العالم على المستويات الثقافية والقانونية؟ وكيف بالتالي يمكن التيقن من أن إعلاماً جديداً يتأسس من مثلّث بغداد لبنان فلسطين المحتلة؟



لنقل أولاً، إنّ استراتيجيات الإعلام، بمعناها التقني المتطور، قد تضاهي، بل تتجاوز في أحيانٍ كثيرة الإستراتيجيات العسكرية في كسب الرأي العام واستمالته عن طريق صناعة الصورة وصناعة الإعلام بشكلٍ عام يصحبهما شعور بالانتماء وإخلاص في الأداء، وخصوصاً عندما نراعي بشكلٍ عام مسائل كبرى مثل التركيز على تركيز المشاهد حول نقطة محددة مع استعمال التحريض والتحفيز والتبرير وعدم تنخيل الصور والمشاهد أو تصفيتها وحجبها ،وذلك عن طريق ممارسة مهارات التكرار والهزء أو تحقير الخصم وفنون الحروب والدعايات النفسية في التغطية والكشف، وحسن استخدام العلاقات العامة كعلوم للتوجه إلى الدبلوماسية العالمية، وفي تجنيد الإعلام لغسل الأبصار والأدمغة والاستعانة بخلق الشائعات والتضليل وقلب الحقائق وتسويق الأوهام وغيرها من فنون الإعلام أو علومه التي كادت أن تحوط بمجمل الجوانب الذكية والبرّاقة من كافة العلوم الإنسانية. لكنّ الابتعاد عن مسرح المعارك، ووضع الحرب لأوزارها والانصراف إلى لملمة بقايا المشاهد والصور، تجعلنا أمام مسائل استراتيجية متجددة المساحات، وتختلط فيها الموضوعية بشيءٍ من الذاتية، يمكن، في ما يتعلّق بغزّة أو بفلسطين ومستقبلها تحديداً، أن تشكّل أبواب لمجموعة من الإستراتيجيات المتشابهة في ملامحها لبعض ما حصل في تموز ٢٠٠٦ وقبله بكثير من تاريخ الجنوبيين في لبنان، ولتشكّل كلها نظرةً جديدة إلى ما نحن فيه اليوم.

صحيح أن العين تلتقط اللحظة وتؤبدها، وتدفع بها نحو العقل والعاطفة والشعور استدراراً لردود فعلٍ طبيعية أو موقف أو سلوك، لكن الذاكرة سرعان ما ترقد وتذهب إلى نسيان لتنشغل بمدى بصري دائم وغني هو إعلام ما بعد الحروب. وفي هذا المجال، ليس سوى الصورة قادرة على سلخ اللحظة وتجميدها وحقنها بنبض الحياة لتغزو المساحات اللامحدودة، وتحرّض الآخرين على تقاسم ملامحها، خصوصاً عندما تكون تلك اللحظة الملموسة محشوة بالدم والأشلاء والصراخ. وعلى الرغم من قوّة الصور ووظائفها الضاغطة على الجماهير في فورتها وهدأتها، كما على مراكز القرار على السواء، فإنها بالمعنى الحقيقي للكلمة تبقى عاجزة عن نقل تفاصيل الحروب والصراعات بالكامل. نحن نلتقط نتفاً من المشاهد،إذن، إلاّ إذا تيسّرت لنا رؤيتها بطريقة بانورامية عبر الأفلام التي قد تلتقطها الأقمار الاصطناعية، وهنا تبرز مهارة المصورين وحذقهم في التقاط المشاهد، كما تبرز مهارة السرعة في بث الصور الفعالة والتعليقات عليها وتكرارها . يصعب إذن تركيب أو إعادة تركيب المشهد العام في استراتيجيات ترتيب الصور أو إعادة ترتيبها والخروج منها إلى تفاصيل الصراع بين استراتيجيات المشاهد فوق صفائح الورق وعلى الشاشات.

ولنقل ثانياً بأن هذه الصفات التي ألصقناها ببدايات حرب غزّة قبل تدخل العرب إعلامياً، تكاد تفسّر أو توحي باستراتيجية إعلامية إسرائيلية قوامها التجهيز الكامل للخطط الإعلامية والإعلاميين بما يتناسب مع حدود الحرب المرتقبة وعدتها وتوقيتها وأهدافها السياسية المتوخاة منها، ليتمّ عند إعلانها حجب المعلومات والصور التي رافقتها ولتستمرّ بعدها في دفاعات إعلامية متنوعة بتنوع وسائل الإعلام والأشخاص، فتشكّل محطةً مهمة تطرح الكثير من الإشكاليات والمتغيرات في الصراع العربي الإسرائيلي. وتتجاوز عملية تغطية الحقائق الدموية والمشاهد العنيفة التي رافقت هذه الحرب إلى مستوى لافت من الانحياز الكبير أو الصمت في هذا المجال لبعض أجهزة الإعلام العربية والعالمية التي يمكن أن تقع في خانة التواطؤ، خصوصاً في هذه المراحل المهمدة لنشوبها.

لقد سبقت الشاشات السياسات، لكن ردود الفعل على الصور سبقت الأمرين حتّى في قلب اسرائيل. كان هناك من لم يتمكن من الصمت عن هول ما حصل، على الرغم من وسائل الردع الصحفي ، وتأثيراتها الداخلية والخارجية. وقد يكون أفضل مثالٍ نسوقه عرضاً كفتقٍ ظاهر في استراتيجيةِ التعتيم الإسرائيلية، في هذا المجال، تعرّض مذيعة التلفزيون الإسرائيلية الشابة يونيت ليفي من القناة الثانية الإسرائيلية لحملة تحريضٍ شعبية دموية بسبب جملة جاهرت بها في خلال البث، وصاحبتها دمعة حملت بعض التعاطف مع صور ضحايا العدوان الإسرائيلي من النساء والأطفال الممزقة أجسادهم من جراء الغارات الإسرائيلية في قطاع غزة. هي لم تعبر عن موقف معارض للحرب، ولم تنتقد الجيش الإسرائيلي أو تشكك في رواياته عن الحرب، مع أن رواياته العسكرية كانت تثير الكثير من الشكوك والتضليل في المجتمع الإسرائيلي، حتّى أنّ صحيفة هآرتس في (٣٠ كانون الأول ٢٠٠٨) خرجت بمقالٍ افتتاحي يشكك في صدقية المعلومات التي يطلقها هذا الجيش.

كل ما فعلته تلك الصحافية هو إطلاق جملة هي: «من الصعب أن نقنع العالم بعدالة موقفنا في هذه الحرب، عندما يكون عدد القتلى الفلسطينيين ٣٥٠ مقابل قتيل إسرائيلي واحد». وبسبب هذه الجملة، وقّع أربعون ألف مواطن اسرائيلي على عريضة تطالب بمعاقبة وإقالة المذيعة الإسرائيلية التي «ضعف شعورها القومي»، مع أنها من أنجح المذيعات في اسرائيل، تدير نشرة الأخبار، وتقابل أبرز الشخصيات السياسية والعسكرية والخبراء. لا تساير ولا تهادن ولا تجرح ولا تعادي ضيوفها، وهي نجحت في إبقاء القناة الثانية الأكثر مشاهدةً. ولكن هذا تبخّر



من يراجع بعض مواد الوسائل الإعلامية الإسرائيلية، يلمس أنها كانت شريكة فعلية في صنع هذه الحرب كما في قراراتها وعند حدوثها وما بعد انتهائها





كلّه بسبب تلك الجملة الصحيحة والموضوعية والمهنية للغاية لأن أكثر من نصف الضحايا كانوا حقيقةً من النساء والأطفال. وما حصل مع ليفي ينسحب أيضاً على المذيعة أشورات كوتلر في القناة العاشرة الإسرائيلية، عندما ضمّنت نشرتها قولها: «لا بدّ من التفاوض مع حماس قبل أن نضحّي بمئات الإسرائيليين على مذبح ذكورة اسرائيل. لا يمكننا في عصر الصورة أن نغطّي الصور في الإنترنت والهواتف المحمولة والشاشات التي تسحر العالم».

وعلى الرغم من المسافة الزمنية البسيطة التي تبعدنا عن هذا الزلزال الغزّاوي، والذي يحتاج في قراءة تداعياته وعبره ودروسه إلى الكثير من التروي توخياً للموضوعية العلمية واستدرار العبر، فإنّ نقاطاً استراتيجية إعلامية جديدة يمكن إدراجها في هذا المجال:

تحوّلات موقع لبنان الإعلامي بعد غزة

لم يأت غياب مصر «أم الدنيا»، مثلاً،وفقاً للتسمية الرسمية المصرّح بها من وزير خارجيتها أحمد أبو الغيط، ومقاطعتها للقمة العربية الواحدة والعشرين الأخيرة في قطر ذا بعد استراتيجي يصبّ في التنافر القائم بين عرب المقاومة والممانعة وعرب الاعتدال والسلام ، بقدر ما جاء نابعاً من جرح أحدثته «امبراطورية الجزيرة» الإعلامية التابعة لقطر في أثناء حرب غزّة في مواقف هذه الأخيرة من معضلة فتح معبر رفح. صحيح أن التباينات سياسية واستراتيجية بين العربين، ولو لم تقرّ مصر رسمياً بذلك، يكاد المرء يرى العرب وكأنه يرى لبنان الذي عانى في ومن تاريخ المآزم العربية. هذا اللبنان قد استفاد، للمرّة الأولى، بشكلٍ غير مقصود، على الرغم من تشظياته أو تعدديته السياسية الإعلامية من هذا المناخ الإعلامي الجديد. كيف؟

كان يعتبر لبنان، إلى زمن قريب، «الدولة الإعلامية» أو الـ Media state، التي كانت تلعب دور «المرآة المتورطة» التي يمكن أن تنعكس في صفحتها بوضوح وخبث، الكثير من التجاذبات والخلافات العربية السياسية والإيديولوجية وغيرها من المتناقضات التي غالباً ما كانت تصل بين العرب إلى حدود الانقسام. وقد وفّرت له طبيعة نظامه السياسي ومساحات الحرية الواسعة فيه دوراً إعلامياً كبيراً، في تاريخ العرب السياسي المعاصر، أورثه الكثير من المتاعب والمشاكل التي كانت تصل بدورها إلى مستوى شن النزاعات والحروب الداخلية. وقد كان يتجاوز هذا الدور وظيفية الانعكاس إلى وظيفتي المشاركة وإذكاء الصراعات والفتن بين اللبنانيين من ناحية وبين الأنظمة العربية نفسها كما بينها وبين بعض الفئات من اللبنانيين من ناحية أخرى.

وعلى الرغم من أنّ لبنان، لم يفقد بعد هذا الدور المميز إعلامياً، فإنّ العرب في أقطارهم كافة قد انخرطوا في الشاشات، مستعينين بالكثير من الخبراء والإعلاميين والإعلانيين اللبنانيين، وراحوا ينفقون الثروات الهائلة على وسائل الإعلام التي فتنوا بها. هكذا تحوّلت هذه الصراعات والتجاذبات والانقسامات في طبيعتها، وتوسعت في حدودها إلى أكثر من نقطة ودولة عربية لتصبح ذات طابع عربي وإقليمي بعدما كانت محصورة بلبنان إلى حدّ كبير.

بات لبنان جزءاً مهماً ومتقدماً ولكنه ليس وحيداً في تعميم مصطلحي المقاومة مقابل المساومة أو الاعتدال والممانعة مقابل القتال والدفاع في المناخ الذي خيّم وما زال يخيّم على المنطقة والعالم في موضوع الصراع العربي الإسرائيلي.

السلاح القاطع لأطراف الأطفال

صورتان شاملتان تسكنان من يدخل في تفاصيل تاريخ غزّة والغزّاويين: الصورة الأولى تمثّل الإنسان هناك يأتي من تراب ليعود إليه بعدما يعيش حياته في قلب الأرض، وهو مشهد يضعنا ، في استراتيجية بناء الأنفاق ، أمام الأطفال الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة والخامسة عشرة يمضون ساعات طويلة يحفرون الأنفاق بأيديهم تحت الأرض، وكأنهم تراب طري ينبش في التراب ليبني مدينته ويحصّن حياته ومقاومته. يسميهم الكاتب الفرنسي جورج مالبرونو: «أهل «الطفولة البائسة» التي لا تحتمل ولا تنتهي ملامح مشهدها البائس حيث تسعفهم أجسادهم الصغيرة في صناعة الأنفاق إذ يحفرون في الرمل أجيالاً مجبولة بالبؤس التاريخي والمقاومة الطبيعية». وكأن هؤلاء قد اقتبسوا غريزتي النمل والنحل في هموم البقاء والتواصل والتبادل تحت التراب، وهم يتجاوزون، بالطبع، كلّ خبر وقولٍ وتحليل في تثبيت قانون الحياة وقوة الإنسان. فالأطفال الذين يحفرون الأنفاق بأجسادهم الطرية الصغيرة أقوى من كلّ سلاح ولو أن المخيلة البشرية اخترعت لهم سلاحاً خيالياً استعملته اسرائيل للمرّة الأولى في حرب غزّة الأخيرة، ووظيفته بتر النتوءات الظاهرة. فقد استعملت اسرائيل في هذه الحرب، قذائف محرّمة دولياً من الفوسفور الأبيض JBU-١٣٩ الشديد الاحتراق، وصنعت مصانع الأسلحة الغربية لأطفال غزّة،تحديداً، القنبلة المخصصة لبتر الأطراف التي عرفت باسم دايم التي تظهر للمرّة الأولى، ويُعتبر استخدامها من جرائم الحرب الكبرى. وتعني DIME، انفجار المعدن المكثّف الصلب أو Dense inert metal exploses.

يقول المفكّر الفرنسي جوزف فندريس، أنّ اليدين هما أغلى الأعضاء في جسد الإنسان. وقد بنى حولهما نظرية في خلال بحثه عن العناصر المتشابهة والمتطابقة التي تؤلف عناصر بني البشر، فتوحدهم قبل صرخة الولادة وبعد الموت في دائرتين متشابهتين هما الرحم والقبر يبدون فيهما مثل طبقةٍ واحدة يتساوى فيها الناس ملوكاً ومعدومين بشكل كامل، وهم لا يفترقون ويتباينون في الشكل واللون والقامة والذكاء والحظوظ إلاّ في دائرة الحياة التي تتوسط بين الدائرتين المذكورتين. كان فندريس يتوخى في بحثه التطلّع إلى ايجاد أو اختراع لغة واحدة يتواصل بواسطتها أبناء البشر الذين لا يعقل، في رأيه، أن تتبلبل ألسنتهم وتنشب الحروب اللامنتهية في ما بينهم لطالما بدأ تواصلهم متشابهاً ومشتقاً من صرخاتهم الأولى. وهو يرى بأن هذه الكتل البشرية التي افترقت عن الكائنات الأخرى بنعمة العقل والحوار، افترقت أيضاً عن تلك الكائنات بأطرافها الأربعة، فيقترح فرضية التساوي بين نعمة العقل وقوّة الأطراف التي لولاها لما استطاع الإنسان بناء الحضارات.

إن من يدخل ولو بالصورة والصوت والنص عبر هذه الأنفاق، ومن خلال الشاشات، يدرك معنى تلك التسميات الوحشية التي اخترعتها اسرائيل لغزّة، ، هذا الجبل المشتعل منذ ما قبل الميلاد، كأن يطلقون عليها تسمية «وكر الأفاعي» أو «مستنقع التماسيح» أو «البركان المخيف»، ويحلم كلّ مسؤول اسرائيلي بأن يستيقظ يوماً وقد ابتلعها البحر، في الوقت الذي يرتعد فيه بعض المستفيدين من بعض رجال الأعمال العرب من اختفاء هذه الأنفاق الغائرة في عمق الصحراء التي تدرّ عليهم ذهباً.

بات الموت في غزّة جزءاً حميماً من حياة الغزّاويين، فإما أن تموت قصفاً هناك أو حصاراً أو منتظراً دواءً لن يصل ولن يأتي، أو أن تموت صامتاً كحياتك الترابية. تدفن نفسك قبل أن تدفن. تدفن داخل الأنفاق نتيجة الانهيارات وتشققات التربة، وتدفن هناك، بالطبع، في أعقاب التفجيرات الإسرائيلية داخل الأنفاق. لا من ينوح عليك سوى التراب المطبق على حياتك،ولن تجد كفناً لك سوى التراب أنت هناك تولد وتموت في التراب».

السؤال الأكبر المطروح: هل غزّة هي معبر عرب الاعتدال وإعلامه نحو المزيد من نزول الدرج في قضايا العرب ومستقبلهم وفي مقدمتها قضية فلسطين، أم أن غزّة المفتونة بروح المقاومة في لبنان هي المعبر الذي منه سينفذ عرب المقاومة إلى طلوع الدرج ولو بمستوى نتوء غزّة الجغرافي الذي لا يتجاوز الـ٤٥ متراً عن سطح البحر؟

وبسؤال أكثر شجاعة، هل يدفع «الرصاص السائل»، الدم الفلسطيني والعربي إلى الجريان في مختلف الاتجاهات، بما يفتح المنطقة ككل على مزيد من الاستغراق في الدماء والحروب التي لا بدّ أن تمسح أو تغير سياسة أميركا



**يأتي الإنسان من ترابٍ ليعود إليه..
هكذا يتجسد مشهد الأطفال الصغار يمضون
ساعات طويلة يحفرون الأنفاق بأيديهم تحت الأرض،
وكأنهم تراب طري ينبش في التراب ليبني
مدينته ويحصّن حياته ومقاومته**





التى شاءها الرئيس الأميركى الجديد باراك أوباما عنواناً له، والذى لم يجد بين يديه سوى خريطة الطريق مجدداً والمبادرة العربية التى ستتغيّر فى نصها أو ستقبع عن الطاولة؟

مكاشفة حول عناصر الحرب الإعلامية فى غزّة

يمكن القول، فى خلاصة أولية، أن الحرب على غزّة قد كشفت عن تحولات كثيرة طاولت وسائل الإعلام، وألزمتها بمواقف سياسية متناقضة فى موضوع جوهرى عربى هو القضية الفلسطينية. وانعكس هذا التباين فى الإستراتيجيات المتعددة كما فى طرائق تغطية هذه الأحداث إعلامياً وفى استعمالات الصور، ومعايير استعمال المصطلحات واستضافة المحللين والمعلقين.

وهنا نتساءل: كيف غطّى الإعلام الإسرائيلى والعربى هذه الحرب؟ ما هى المعايير التى استخدمتها وسائل الإعلام فى نقل المشاهد المؤلة للقتل والدمار والتى تلوّنت بتلوّن هذه الوسائل الكثيرة المنتشرة فى الفضاء؟

وهل ساهم الإعلام العربى وغيره فى تعميق بل فى ترسيخ الانقسام العربى أو الاجتماع العربى على أكثر من مستوى؟ وكيف يمكننا النظر إلى تقاطع استراتيجيات الإعلام وأدوارها فى تحديد مستقبل العرب؟

فى الإجابة عن هذه الأسئلة التى تحتل مساحات مميزة فى الشاشات، والجامعات ومراكز الأبحاث والدراسات العربية والإسرائيلية والأجنبية، يفترض التطرق إلى بعض العناصر والخطط التى هى على ارتباط بخصوصيات وضع قطاع غزة، والتى ساهمت فى احتدام المعارك الإعلامية العربية والعالمية، وكشفت مشهد الانقسام العربى الفاضح حول مستقبل فلسطين، وبين منطقى السلام والمقاومة.

١ـ سقوط وسائل الإعلام فى لعبة التجاذبات

لقد بدت الحرب الإعلامية فى غزّة عالمية، لم تتمكن أية وسيلة من التغاضى عنها كلّياً، مع أن ما كان يميّز بينها كلها هو تاريخ دخولها أو انخراطها فيها، فمنها ما قام بالتغطية منذ الساعة الأولى لوقوعها أو تأخر بدرجات متفاوتة حتّى بعد أن وضعت الحرب أوزارها. وقد كان المشهد العام واضحاً فى التشظيات التى أدخلت وسائل الإعلام فى لعبة التجاذبات والانقسامات المتعددة بتعدد الأنظمة ووجهات النظر المختلفة. عرب المقاومة والممانعة والتحريض لهم وسائلهم وأسلوبهم، وعرب الاعتدال والمساومة والتحريض لهم مواقفهم ووسائلهم وأسلوبهم أيضاً، وعرب التوفيق فى ما بين النوعين كان لهم وسائلهم وتغطيتهم وموضوعيتهم، وكل هؤلاء مقابل الإعلام الإسرائيلى الذى برع، أساساً، فى حجب المعلومات والتواطؤ والصور والفتك عسكرياً بالقطاع وما فيه وعليه.



كنّا نجد إعلاماً اسرائيلياً خاضعاً بشكل كامل للمراقبة الكاملة، كما كنا نجد إعلاماً غائباً عن غزّة إلاّ فى نشرات الأخبار، وهو لم يبد متعاطفاً مع ما يحصل على حساب التغطية، كما كنا نجد إعلاماً ينقل ما يحصل من أحداث بموضوعية مقبولة إلى جانب إعلام رابع ينقل الصور والأحداث بتحيّز كامل. وكان هذا التحيّز يأتى سلبياً لائماً لحماس ولفكرة المقاومة بشكل عام معتمداً الأسلوب التبريرى والانهزامى أو يأتى، فى المقابل، إيجابياً مقاوماً، داحضاً للاستسلام، محرّضاً، مقتنعاً بحقوق العرب والفلسطينيين وعاملاً على إقناع المشاهدين بهذه الحقوق والحقائق، فيؤثر بالعدو الإسرائيلى ويكشف غموض ممارساته الإعلامية من ناحية، ويتحمس من ناحية أخرى لفجاجة الصورة ودمويتها التى أربكت الإعلام الإسرائيلى كما أربكت وسائل الإعلام الأخرى الموضوعية والمحايدة.

وهكذا اختلفت المصطلحات، وتباينت المناخات فى فرز الصور والتعليقات عليها، وبثها كما فى استضافة المحللين والخبراء العسكريين إلى درجة يمكن اختصارها بأن الأخبار صارت مثل الآراء والتعليقات والمقالات والتوقعات وجهات نظر مختلفة بين وسيلة وأخرى، وتفتقر إلى الموضوعية، الأمر الذى ولّد اختلاطاً لدى المشاهدين، كان لا يمكن الخروج منه أو التخلّص من آثاره، لولا صورة رامتان وقوّة قناة الجزيرة واندفاعتها نحو صدارة القنوات، فى استعمالها الجرىء والعفوى لكلّ ما كان يحصل هناك.

وقد ساعد حجم القطاع على الشمولية فى التغطية التى بان فيها تباين فاضح بين ما كان يحصل فى الواقع وما يظهر فى الإعلام العالمى. هكذا برزت قنوات أجنبية راحت تنطق بالعربية مثل الفرانس ٢٤، والبى بى سى، والأورو نيوز إلى جانب الفضائيات العربية المعروفة، بالإضافة إلى الإذاعات والشاشات العالمية.

٢ـ عناصر الإستراتيجية الإعلامية الإسرائيلية

يعنى الحديث عن الإعلام الإسرائيلى الإشارة إلى ثلاث صحف كبرى أولها يديعوت أحرونوت المنفتحة والأوسع انتشاراً، وتضم العديد من المراسلين الذين يمثّلون التيارات السياسية المختلفة، يليها معاريف المتطرفة يمينياً مع أنها عرفت بعض الانفتاح نتيجة التغييرات التى طالت رئاسة تحريرها قبل شهرين من وقوع الحرب. وقد يمكن التكهن بأنّ هذا التغيير ربّما جاء استباقاً لتوقعات وصول اليمين الإسرائيلى إلى سدّة الحكومة الحالية برئاسة ناتنياهو. وتأتى هآرتس بعدهما محافظة على صدقيتها ورصانتها وضآلة انتشارها وقوة تأثيرها، وخصوصاً على كتلة قرائها من النخب السياسية والاقتصادية فى اسرائيل. وهناك ثلاث أقنية تلفزيونية هى الأولى وهى قناة عامة رسمية تتميّز بحريتها المقننة كونها ممولة من ضرائب مباشرة يدفعها الإسرائيليون، والقناتان الثانية والعاشرة الخاصتان اللتان تحظيان بفسحة أوسع من الحرية، بالإضافة الى إذاعة للجيش وإذاعة رسمية، إلى العديد من الإذاعات التابعة فى أخبارها لشركة أخبار خاصة تخضع بمجملها لرقابة الجمهور.

تعتبر فسحة الحرية فى هذه العناصر الإعلامية مقبولة فى مراقبتها للحكومة ونقدها للفساد والتقصير، إلى درجة تمكنها من إقالة حكومة أو تطيير مسؤول. هذه الصحافة هى التى دفعت حكومة إيهود أولمرت، مثلاً، إلى الاستقالة بسبب تقصيرها فى حرب تموز فى لبنان كما بسبب الفساد، وهى التى أطاحت دان حالوتس رئيس أركان الجيش وعامير بيرتس وزير الدفاع، لكن تلك الحرية تبقى أسيرة نقطتى ضعف بارزتين فى إعلام إسرائيل أولاهما قدسية الأمن القومى والانصياع بسهولة لمشيئة الجيش بما ينسفها من الأساس وثانيتهما قدسية القتال والعدائية المطلقة المشوبة بالعنصرية للعرب، وهما مسألتان تظهران أمام الأخطار وعند نشوب الحروب حيث تنقاد الصحافة كلياً، ولو بالترهيب، للقرارات والخطط والأهداف العسكرية.

لقد عمدت اسرائيل إلى تشكيل هيئة الإعلام القومى قبل ستة أشهر من الهجوم على غزّة، حيث راحت وسائل الإعلام تغالى من التركيز على صواريخ حماس خصوصاً فى الصحافة المكتوبة التى احتلت عناوين كثيرة باللون الأحمر واحتلت مانشيتات الأخبار، تحضيراً للرأى العام. ثم حصرت فى سريّة مطلقة المعلومات بالجيش ووزارة الخارجية وراحت تقنن فى تسريبها، وأقامت دورات مكثفة للمتحدثين العسكريين باسم الحكومة والوزارات، كان نجمهم فى أثناء الحرب أفيخاى أدرعى الذى يتكلّم اللغة العربية بطلاقة لافتة، والذى أطلق عليه تسمية «بوق الأكاذيب». وأوعزت إلى الصحافيين الأجانب بمغادرة القطاع، كما منعت الصحافيين الآخرين من الدخول إلى القطاع، بحجج واهية مختصرها أن الجنود الإسرائيليين غير ملزمين التضحية بحياتهم من أجل حماية هؤلاء من المخاطر التى تقع كلّ يوم من جرّاء سقوط صواريخ حماس.

ومنذ أن وطأت تسيبى ليفنى وزيرة الخارجية



عندما قالت المذيعة الإسرائيلية:
«من الصعب أن نقنع العالم بعدالة موقفنا فى هذه الحرب، عندما يكون عدد القتلى الفلسطينيين ٣٥٠ مقابل قتيل إسرائيلى واحد» وقّع أربعون ألف مواطن إسرائيلى على عريضة تطالب بإقالتها





الإسرائيلية فى ٢٥ كانون الأول٢٠٠٨ ، أرض القاهرة، وبيدها تقرير مبالغ فيه حول حجم الصواريخ التى تقصف بها حماس جنوبى اسرائيل، صارخة فى أعقاب زيارتها من على شاشات الأقنية المصرية: «كفى يعنى كفى أى الحرب»، كان الشرخ العربى يتعمّق مع مصر متّهماً النظام المصرى بالتهاون والتواطؤ مع العدو. وكان ينتظر ضربة جديّة مؤكّدة لقطاع غزّة عبّر عنها رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود أولمرت الذى قال: «أريد ألاّ ينام أحد الليلة فى قطاع غزّة». وفى المقابل، لم تكن حماس تتوقّع ما حصل على الإطلاق، حتى لحظة الهجوم على غزة. وهذا الاعتقاد الخاطئ أدى إلى حالةٍ من الارتخاء العسكرى والخسائر الفادحة، خاصةٍ فى مواقع الشرطة الغزاوية التى خسرت الكثير من قادتها وضباطها وجنودها إبّان الضربة الجوية الأولى. وقد يمكن تبرير هذا التراخى بأسبابٍ منطقية كثيرة، أولها وضع رئيس الحكومة المتلاشى والضعيف والمتهم آنذاك إيهود باراك، ومعضلة التحضير للانتخابات الإسرائيلية التى ولّدت تجاذبات كبرى فى إسرائيل، على صعيد تأليف الحكومة، وانشغال العالم بانتخابات الرئيس الأميركى الجديد، وكلها أمور كانت تقدّم العالم سياسياً وكأنه مشغول بأمور أخرى، ويمرّ بمرحلة فراغ وإعادة ترتيب، بالإضافة إلى ما علق فى الأذهان بعد هزيمة إسرائيل فى الجنوب من صعوبة تكابدها إسرائيل لخوض مغامرات عسكرية جديدة غير مضمونة النتائج. ولربما يفترض التفكير بأن العملية، جاءت فى مرحلة انتقالية، تحمل الكثير من الاستباق للتفكير الأميركى أو للتأثير عليه، وقد جاء حافلاً بالرغبة العارمة لتقديم الحوار على الحرب.

أ - الهدف هو حماس وليس غزّة

قد يكون الفصل بين غزّة وحماس من أهم النقاط التى بنيت عليها استراتيجية اسرائيل الإعلامية فى تثبيتٍ سياسة الردع كهدف أساس تتبعه فى العملية كما منذ زمن بعيد . كانت حماس هى الهدف، ركّزت عليها اسرائيل إعلامياً دون غزّة كهدف عسكرى مباشر، مع أنها كانت تقصف المستشفيات والمدارس والجامعات والبنى التحتية من ماء وكهرباء وأطفال ونساء وشوارع ضيقة، وكلّها شاءت أن تجمعها إعلامياً بهدف واحد هو حماس. فكنا نجد فى وسائل إعلامها تسميات مثل: مسلحو حماس، مخربو حماس، ميليشيا حماس، عناصر حماس، الإرهابيون. وتكفى قراءة مجمل التصريحات الرسمية الإسرائيلية التى كانت تصاحب الحرب على ألسنة أولمرت وليفنى وباراك وأدرعى التى كانت تتمحور حول صواريخ حماس فى جملةٍ استراتيجية تضليلية مفادها: «نحن لا نحارب الشعب الفلسطينى، نحن نحارب حماس وصواريخ حماس».

وقد حرصت الدعاية الإسرائيلية فى إعلامها، فى خلال ٢٢ يوماً من الحرب وبتجاهل مقصود، على عدم ذكر أى كلمة أو تفصيل أو تسمية للفصائل الفلسطينية الأخرى فى غزّة مثل: كتائب عز الدين القسام، كتائب شهداء الأقصى التابعة لفتح، سرايا القدس التابعة للجهاد الإسلامى، كتائب أبو على مصطفى التابعة للجبهة الشعبية، كتائب المقاومة الوطنية التابعة للجبهة الديمقراطية، ألوية الناصر صلاح الدين التابعة للجان المقاومة الشعبية التى غيّبها الإعلام الإسرائيلى، وبانت وكأنها غير موجودة أصلاً فى الصراع الدائر. ليس سوى حماس هو الهدف الأول الماثل فى الإعلام. وهذا الأمر نفسه ينسحب أيضاً على تجاهل تام وعدم ذكر اسمى إسماعيل هنية أو محمود عبّاس فى وسائل الإعلام. وهنا يمكن القول أنّه حتّى حماس نفسها قد انفردت أحياناً بالقرارات، وتغاضت بدورها عن التشاور مع هذه الفصائل المذكورة، وخاصة عند إعلان وقف إطلاق النار من قبل المقاومة، وفى هذا نوع من إهمال الصمود الجماعى الفلسطينى والجهد الوطنى العام الذى شاركت فيه تلك الفصائل مع الشيوخ والأطفال والنساء إلى جانب صمود المقاتلين.

وقد حرصت إسرائيل عبر وسائل إعلامها على تضخيم صورة مقاومة حماس والمبالغة بالحديث عن قوتها الصاروخية وصمودها بإشاعة معلومات عن أنّ بحوزة حماس نسخا معدّلة من صواريخ فجر ٣ وفجر ٥، وربّما صواريخ سام المضادة للطائرات، وكلّ ذلك بهدف تبرير جرائمها ومجازرها الفظيعة ضد المدنيين الفلسطينيين وتجاه العالم. وقد استفادت من هذه المبالغات بربطها بإيران التى، كما جاء، هى وراء ترسانة صواريخ حماس، وهى التى تستقبل المقاتلين بعد نقلهم من غزّة إلى مصر فطهران حيث يخضعون لتدريبات عسكرية على يد الحرس الثورى الإيرانى.

ولو استطلعنا، أيضاً، مضامين المنشورات التى كانت ترميها الطائرات الإسرائيلية فوق أراضى القطاع، فى أثناء العدوان، وتابعنا البيانات التى كانت توزع مقننة على المستوى الدولى، لوجدنا وفرة هائلة لكلمة حماس وحيدة فى العملية الإعلامية. وعلى الرغم من هذا التركيز الهائل على حماس، فإنه أعطى نتائج عكسية لما هدفت إليه إسرائيل، إذ صبّ فى مصلحتها أيضاً، خصوصاً أننا رحنا نتابع مظاهرات فى لندن تنادى بـ حماس، وكذلك فى باريس(٢٠٠٩/١/١٧) حيث رفعت يافطات تقول: كلنا حماس باللغة الفرنسية، وكذلك أصوات مناصرة لحماس بالاسم ولأطفال حماس لا لأطفال غزّة. هذا يعنى أن إخفاء الاسم جعله طاغياً وحاضراً بكثافة فى الخارج.

ب - الاعتداء على الصحافة

دفع التمسك الإُسرائيلى بسياسة التعتيم إلى القيام بردود فعلٍ قاسية على وسائل الإعلام والإعلاميين الذين كانوا يفضحون بصورهم الجرائم الصهيونية فى قطاع غزة أمام الرأى العام العالمى، فقصفهم الإسرائيلى وقتل منهم الكثير مساوياً فى ما بينهم وبين المقاومين والعسكريين ، وذلك أمام صمتٍ مطبق لمنظمات الدفاع عن حرية الإعلام التابعة للأمم المتحدة والقوانين الدولية التى تحمى الإعلام فى أثناء الحروب، وهو ما اعتادت اسرائيل تجاوزه وعدم الاعتراف به. ولم تتردد القوات الإسرائيلية من القصف التحذيرى لمبنى الجوهرة الذى كان مركزاً معروفاً للبث، ويضم أغلب أجهزة البث الإعلامية، وهو الأمر الذى كان يعرفه الإسرائيليون جيّداً بسبب أجهزة الإرسال الواضحة للعيان على سطح المبنى وكذلك الإشارات الإعلامية النافرة مثل press وغيرها من الإشارات وأجهزة الإرسال التى كانت أهدافاً واضحة لآلتها العسكرية. لقد سقط مجموعة من شهداء الصحافة من بينهم علاء مرتجى من قناة الإخبارية وباسل فرج من تلفزيون الجزائر وايهاب الوحيدى من تلفزيون فلسطين وأشرف على الذى كان يصوّر منزل اسرته عندما كان الجيش الإسرائيلى يقوم بجرفه، وعلى الرغم من ذلك استمرّ بعمله.

جـ - تحرير الصورة أقوى من الحرب

كان تحرير الصورة من العتمة المفروضة عليها فى أثناء الحرب وبعدها، أقوى من الحرب نفسها، حيث بان التباين الواضح والفاضح، وكشفت الأغطية والحقائق. كيف حصل ذلك؟

لقد تقبلت الصحافة الإسرائيلية قرار شراكتها فى صنع قرار الحرب ومواكبته باعتماد سياسة التعتيم الإسرائيلية، قبل الحرب وحتى نهاية الأسبوع الأول من نشوبها ، لكن الانتقادات الصحافية وتململ الصحافيين ازداد مع بدء الاجتياح البرّى بعد ١٢ يوماً، إذ اضطر الجيش الإسرائيلى بالسماح للمراسلين العسكريين بالدخول إلى القطاع، لكن مصحوبين مع قوات الجيش، وتحت مراقبتهم بما حدّ من تجولهم بحرية للمعاينة عن قرب ماذا يدور أو لتحديد الأهداف التى تقصف، ومدى ضغطها على حماس، وهل هى تشكّل ضربات قاصمة نهائية للمقاومة، كما كان يأتى فى تقارير المخابرات.

ولم يغيّر الجيش الإسرائيلى هذه السياسة التعتيمية، إلاّ بعد مرور ١٨ يوماً من نشوب الحرب، كان المراسلون الصحافيون يتابعون، مثل العالم كلّه، المشاهد التى كانت تبثها القنوات الفضائية العربية، نقلاً عن شاشة «رامتان» التى



كأنما هو عقاب على «سلاح الأنفاق» التى يحفرها الفلسطينيون بأيديهم، استخدمت إسرائيل للمرّة الأولى فى حرب غزّة سلاحا وظيفته بتر الأطراف يعرف باسم DIME





ظهرت فى أثناء هذه الحرب ولعبت دوراً مميزًا، وكذلك شاشة الجزيرة القطرية، حيث كانت الصورة تأتى شمولية وبعيدة يتم بثها من فوق السطوح وليست تفصيلية إلا عندما يتم التقاطها من داخل المستشفيات وغرف العمليات الجراحية المرتجلة.

لقد هزّت الشاشات العالم بالصور المريعة الخام لآثار القصف الإسرائيلى، من هدم وتمزيق لجثث الأطفال والنساء، ولجأ الصحافيون إلى أهالى القطاع وصحافييه والأطباء فى مستشفى الشفاء أو لمسؤولين سابقين فى السلطة الفلسطينية أو لبعض رجالات فتح الذين بقوا فى القطاع، وكذلك إلى هيئات ومؤسسات حقوق الإنسان ووكالة غوث اللاجئين بهدف تعميم الصورة المخنوقة ونشرها على الملأ.

٣ ـ الشاشات المقاومة

مقابل الإعلام الإسرائيلى وتضليله، كان هناك إعلام عربى يفتقر إلى الخطط الاستراتيجية الموحدة، لكنه كان يكتشف أن قوّة الصورة مسألة قيادة مثل قيادة الحروب، وأن الصور تحول الشاشات إلى وسائل قتالية، وتبقى مثل الجواهر القابلة للإشعاع، كما تبقى كل إمكانيات الحجب والتعتيم محاصرة بما يجعل الصورة صفحة مفتوحة شديدة الأهمية. هذه النظرة الصادقة إلى الصورة دون الأخذ فى الاعتبار المشاهدين، قلبت المقاييس إذ كان من المستحيل على المراسلين العرب أن يحجبوا المشاهد التى لم يسبق لهم مشاهدة مثيلاتها سوى فى الأفلام ولربّما منذ حرب تموز فى لبنان ٢٠٠٦. ولولا التماع نجم وكالة رامتان فى سماء الفضائيات، لكان ممكناً طمس المجازر التى ارتكبتها اسرائيل المغطاة بسياستها التعتيمية الإعلامية.

مثلما كانت رامتان «الشمس» الإعلامية فى حرب غزة، كانت قناتا الجزيرة والعربية «شمس» الغزو الأميركى للعراق(٢٠٠٣)، وقناة المنار والجزيرة «شمس» حرب تموز على المقاومة فى لبنان(٢٠٠٦)، وكذلك العربية فى أثناء أزمة نهر البارد فى شمالى لبنان(٢٠٠٧).

وعلى الرغم من أنّ عباس ناصر مراسل الجزيرة بقى أسبوعين أمام معبر رفح، ولم يتمكن من الدخول إلى قطاع غزة، ومنع الإعلامى غسّان بن جدو المزود بترخيص رسمى، قطعياً من الدخول إلى القطاع، إلاّ بعد نهاية الحرب، فى ٢١ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٩ لتغطية آثار الحرب، فإن الجزيرة والجزيرة الدولية تمكنتا من كشف المجازر أمام الشعوب بحرفية عالية وبعفوية مطلقة، بحيث منعها النقل المباشر من تنبيه مشاهديها لهول المشاهد التى جعلت بعض الخبثاء يستنتجون من خلالها أن الجزيرة هى قناة همها ترسيخ العجز والمستحيلات والخسائر فى الذهن العربى الذى سيبقى مسكوناً بالمجازر لطالما بقيت الأنظمة العربية فى دوائر عروبة الممكن والمهادنة، وهى باقية. وعلى الرغم أيضاً من استضافتها لتسيبى ليفنى وغيرها من مسؤولى إسرائيل على شاشتها بما استفزّ مشاعر الكثيرين، ودفع بعضهم إلى اتهامها، من ناحية أخرى بالتواطؤ، إلاّ أنها استطاعت فى قناتيها العربية والإنكليزية من التعامل مع صور الشهداء والجرحى بجرأة كبيرة، قلبت الصورة، حيث قدمت صوراً حية ومؤثرة للدمار والمشردين، إلى درجة أنّ جون سنو المذيع الشهير فى القناة الرابعة فى بريطانيا بيّن فى فيلمه الوثائقى النجاح الفذ الذى لعبته قناة الجزيرة فى تغطية صور الحرب وتأليب الرأى العام العالمى أمام الرسائل والوثائق والمعلومات والصور المضللة التى كانت تقذف بها اسرائيل وسائل الإعلام ومراكز القرار العالمى. صحيح أن الجزيرة لم تكن حيادية، لكنها كانت قادرة على تعبئة الجماهير بما جعلها فاعلة لا فى صناعة القرار، بل فى الضغط القوى على صانعى القرار.

ولقد لعبت القنوات اللبنانية دوراً مميّزاً فى تغطية حرب غزّة، إذ وحّدتها العناوين العامة، لكنها انقسمت فى المواقف والتعليقات والمحللين بين فريقى الممانعة والاعتدال على المستويين اللبنانى والعربى.

وقد ساعد فى ذلك قناة المنار اللبنانية الشريكة الأساسية فى فعل المقاومة التى كان لها مراسلون فى الضفة والقطاع قدموا تقارير وافية لتغطية ما أسمته العدوان على غزّة، كما كان لها طول الباع فى الحرب النفسية التى كانت تظهراسرائيل فى خانة المنكسر والواصلة إلى حد التفكك، عبر شريط الأخبار العاجلة التى كانت تركز على أعداد الصواريخ التى تسقط على المستوطنات .كان يمكن تسميتها شاشة المقاومة فى مواجهة المحور العربى المنحاز أو المحرج أمام قواعده الشعبية. وبرعت فى الإعلام المقارن بين وضع العدو ووضع المقاومة، يسعفها فى ذلك تمكن فريقها الواسع من اللغة العبرية، ورصد الشاشات العبرية بدقة، بهدف الوصول إلى الحقائق التى يحجبها العدو عن الرأى العام.



وبرزت قناة الجديد NTV، وشعارها «غزّة بطعم العزّة»، فى تغطيتها ومقدمات برامجها السياسية ونشرات أخبارها، وكأنها جزء أساسى وحيّ من المقاومة. كان يسهل سقوط الموضوعية والاعتدال ما دامت المحطة أمام الاحتلال الإسرائيلية. والمعروف عنها بأنها قناة لا يمكن أن تقف على الحياد فى القضايا التى يشتمّ منها تخاذل عربى فى موضوع جوهرى مثل فلسطين. وهذا ما ينطبق أيضاً على قناة الـ NBN التى جهدت بشكل بارز فى التغطية المستمرّة وركّزت على المحللين بما يسعف المقاومة باستنفار طاقات المحطة والاعتماد بشكل كامل فى المرحلة الأولى على صور رامتان التى تمّ توضيبها وإنزالها على الخرائط والوقائع الخاصة بغزّة، مستدعياً فى ذلك الكثير من المحللين السياسيين والعسكريين الذين انخرطوا فى عملية غزة إلى حدود برزت جيدة أمام جمهورها. وما قيل فى هذه القنوات يمكن أن ينسحب بموضوعية على الفضائية السورية وقناة العالم والكثير من القنوات الأخرى.

لقد برزت إخبارية المستقبل، التى لم تكن قد احتفلت بعيدها الأول، متميزة فى حضورها وجهودها الذى ظهر فى فريق عملها الدءوب والمنتشر فى المناطق الفلسطينية، بالإضافة إلى تخصيص برامج لافتة ساهمت بفعالية على الإضاءة بما كان يحصل فى غزة.

٤ ـ شاشات الاعتدال

أمّا الإعلام المعتدل أو المتساهل فكنّا نجده فى مصر حيث بدا طيلة ٢٢ يوماً أسير إقفاله التام لمعبر رفح، ومربكاً بغسل أدمغة جماهيره واستنفار عواطفها بمعاداة المقاومة والعرب الذين عرفوا بالممانعين. وقد انهمكت الأقلام المصرية والشاشات، وما زالت، بعدما فاجأت الرأى العام العربى، بأخذ موقف الدفاع عن مصر حيث كلّ من ينتقد السياسة المصرية كان يعتبر عميلاً لإيران وسوريا وقطر، مع أنّ مظاهرات طنطا ودمنهور والقاهرة والكثير من المظاهرات التى كانت تنتفض فى القاهرة والمدن المصرية، وتقمع، كانت تؤكد أن النظام فى واد وتعاطف المصريين فى واد آخر. وقد يكون أفضل ما يعبّر عن هذا الوضع المساوم تلك المانشيتات التى تصدرت إحدى الصحف المصرية لتكتب بالخط العريض: فضحتونا.

لم تستعمل وسائل الإعلام المصرية ولا شاشة العربية أى مصطلح يدين اسرائيل، وكان ضحايا القصف قتلى يعدون خارج أى عمل استشهادى. وقد اعترف مدير تحرير العربية ناصر الصرامى بمأزق القناة بعد نهاية العدوان، حيث راحت تستلحق تقصيرها وتدعو مشاهديها لأن يتواصلوا مع شعورهم القومى. كانت العربية باردة مترددة وحيادية ومتحفظة جداً فى نقل الصور التى تسىء من وجهة نظرها إلى المشاهد، والأرجح أنه لم يكن لها جمهور، أو خسرت جمهورها الذى أشاح بصره عنها بحثاً عن شاشات أخرى. وينسحب الأمر نفسه على شاشة المستقبل الأرضية والفضائية والOTV حيث غابت عنها حرب غزّة ما عدا فترات الأخبار وكانت تتناولها بموضوعية نقلاً عن المحطات الفلسطينية. والمفارقة أن محطة ال أل بى سى الأرضية كانت تنقل حفلة للفنان اللبنانى فارس كرم فى ما كانت الفضائية تبث مسرحية لبنانية ساخرة، عندما كان الجيش الإسرائيلى يباشر عمليته البريّة على قطاع غزة.

لم يكن مستغرباً هذا التحيز الفاضح والتباين



مقابل الإعلام الإسرائيلى وتضليله، كان هناك إعلام عربى يفتقر إلى الخطط الاستراتيجية الموحدة، لكنه كان يكتشف أن قوّة الصورة مسألة قيادة مثل قيادة الحروب، وأن الصور تحول الشاشات إلى وسائل قتالية





الواضح فى التغطية بين القنوات العربية.. الأمر الذى جعل المشاهدين يتابعون بعض وسائل الإعلام الغربى بحشرية التعرف عن كيفية تغطيتهم للعدوان، والغريب أنهم لاحظوا موضوعية وإنسانية فى بعض القنوات الغربية أكثر من بعض القنوات العربية، لسبب واضح هو غياب المصالح هناك التى يتمتع بها هذا الإعلام العربى فى انقساماته خدمة لأنظمته ولبعض الجهات المعادية للعرب.

ومن أهم مظاهر الانقسام الذى برز بشكلٍ حاد بين شاشات المقاومة والاعتدال فى الإعلام العربى، عدم اتفاق الشاشات على مصطلحات متقاربة إن لم نقل موحدة. تأتى فى طليعة هذه المصطلحات تسمية الضحايا بالشهداء فى شاشة ليصبحوا قتلى فى شاشةٍ أخرى مع ما هناك من فروقاتٍ بين المصطلحين تعكس مدى الارتياب الإعلامى العربى الناتج بالطبع عن الارتباك السياسى الحاد. وكان يسهل ملاحظة حرب المصطلحات المستعملة أيضاً بين حماس كحركة تحرير أو مقاومة أو تنظيم إرهابى، أوبين الانقلابيين والشرعيين أو بين ممثلى الشعب الفلسطينى وسكان المناطق، كما بين الانسحاب الإسرائيلى كما ورد فى خريطة الطريق من غزّة مقابل مصطلح إعادة الانتشار الإسرائيلى، وبين الحرب أو الهجوم على غزة والحرب فى غزة، وبين قصف الأونروا أو قصف المدرسة التى تؤدى مقاتلى حماس، وبين الحكومة الفلسطينية مقابل الحكومة الفلسطينية المقالة. وأهم ما برز فى هذا الانقسام المبالغة فى تضخيم صواريخ حماس وفعاليتها كسببٍ أساسى لما حصل مقابل التغاضى الكامل عن السياسة الإسرائيلية التوسعية المعروفة بعدوانيتها ونبذها التاريخى للسلام. ما هو صارخ فى تلك المتناقضات التى كنا نشهدها، فى المقارنة بين محاور العرب المنقسمين بين خاص وعام رسمى أى مقاوم ومهادن، وبين الأول وإعلام الغرب الرسمى والخاص (وهذا حمل بعض إشارات إيجابية)، أنّ بعض الديمقراطيين والليبراليين راحوا مستسلمين يلقون تبعات الحرب ومسؤوليتها على المقاومة والضحايا هازئين من مصطلحات الجهاد والمصطلحات المقاومة الأخرى.

ولا يخفى أن تلك التناقضات بين المصطلحات، كان لها أصداؤها كونها جاءت على إيقاعات محورى الخير والشر اللذين أطلقتهما إدارة الرئيس الأميركى بوش، وتحكمت بأدبيات المنطقة ونصوصها وسياساتها، وما زالت آثارهما تتفاعل بأشكالٍ مختلفة.

٥ ـ صورة غزة فى الإعلام الغربى

كشف الإعلام العربى المقاوم، بفضل نعمة العولمة ومشتقاتها ووسائلها الإعلامية، عن مجازر العدوان الصهيونى على غزة، وما خلّفه من استهداف للمدنيين أكثر منه للمقاومين، وذلك على الرغم من التعتيم الإسرائيلى والانحياز الغربى وموضوعيته وثقافته التى تحجم عن عرض جثث القتلى وصور الضحايا والأشلاء والمصابين لأسبابٍ على علاقة بحرمة الموت. هكذا خرجت شعوب العالم إلى الشوارع فى باريس وكوبنهاغن وامستردام ولشبونة ومدريد وواشنطن وفنزويلا والبرازيل وتركيا وأندونيسيا والباكستان ومصر وبريطانيا والمغرب وسوريا ولبنان وغيرها، وكلها تتظاهر وتطالب بوقف العدوان وتندد بإسرائيل وجرائمها وحتّى بالدول المؤيدة لها، وهى شعوب ما كانت ستستكين لو أدركت باكراً هول ما حصل فى العدوان المخطوف خطفاً. وقد يقفز إلى العين فى خلال إحدى المظاهرات صورة أحد حاخامات إسرائيل وهو يحرق جواز سفره الإسرائيلى، فى مقابل الصور التى كان يبثها الإعلام الإسرائيلى، مانحاً لعدوانه أبعاداً دينية، مثل صور الجنود الذين يقرأون فى التلمود فوق دباباتهم أو يؤدون الطقوس الدينية.

لقد تشوهت الصور والتحليلات والتعليقات بين الشاشات العربية، كما بين الشاشات وأجهزة الإعلام الغربى. وراح كلّ طرفٍ من أطراف الصراع يلقى المسؤولية على وسائل الإعلام ويتهمها، وخصوصاً فى الدول غير المنخرطة مباشرة فى الصراع، بأنها تشوه الحقائق، وتصبّ الزيت على النيران المشتعلة فى غزّة. والسبب أن طرفى النزاع لم يعثرا فى الإعلام الغربى على عرضٍ يتطابق كلياً مع تصوراته ورغباته لحيثيات الصراع. كان كلّ طرف يشعر بأن قضيته تعرض بشكلٍ غير مناسب، مع رجحان الكفة لمصلحة الفلسطينيين والعرب بشكلٍ لافت.

لقد تغاضى الإعلام الغربى عن الحصار وحياة الأنفاق ونسف الانتخابات الديمقراطية وكلّ ما أسلفنا ذكره من بطش اسرائيل المستمر على غزة، وتناسى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى الحافل بالمجازر، ملقياً اللوم على حماس ومؤيّداً اسرائيل التى بدت أو راحت تزعم بأنها مربكة وغير قادرة، حيال هجمة الصورة العربية فى تعرية أفعالها، أن تخرج منتصرة فى المنافسة على كسب ود المواطنين فى الغرب. وقد يكون هذا الإرباك حقيقياً لأمرين: الخلفية التاريخية الراسخة فى مناصرة الغرب لإسرائيل ومعاداة العرب وقضاياهم وفق سياسات غير عادلة، والذى حدّد الرأى العام الغربى بأحكام مسبقة من ناحية والكره المتنامى للمسلمين فى العالم الغربى، بشكلٍ عام، بعد ١١ أيلول ٢٠٠١. وقد يضاف إلى هذين الأمرين فكرة الصورة الأوروبية التى تتميّز بها اسرائيل لدى الرأى العام الغربى بالإضافة إلى صورة أو فكرة حماس التى راح الإعلام الغربى يربطها بحركة طالبان وتنظيم القاعدة وحتى بحزب الله، وخصوصاً بعدما نجحت اسرائيل فى إقناع الاتحاد الأوروبى بإدراج حماس ضمن لائحة المنظمات الإرهابية. وهنا أمثلة:

نشر مركز أبحاث «بيو» المتخصص بالأبحاث واستطلاعات الرأى المتعلقة بوظائف وسائل الإعلام فى دراسة «أن وسائل الإعلام الأميركية والأميركيين كانا ضئيلى الاهتمام بأوضاع غزة التى لم تخصص لها وسائل الإعلام سوى اثنين بالمئة من تغطيتها الإعلامية التى لم تطال سوى اثنين بالمئة من مشاهديها». واشتكى جون دانيسوفسكى مدير قسم الأخبار العالمية فى وكالة اسوشيتدبرس الأميركية التى تنقل أخبارها إلى أكثر من ألف صحيفة وخمسمائة محطة تلفزيونية وإذاعية من منع اسرائيل لـ ٤٠٠ صحافى من دخول غزة، الأمر الذى لا يعرقل نشر الأخبار المستقلة وحسب، وتقديم وجهة نظر واحدة، بل لا يخدم الرأى العام ولا الحكومة الإسرائيلية ولا الإعلام نفسه .

فرنسا فى الـ FR2 خلت من صور الشهداء، وأفرطت فى التركيز على صور ما خلّفته صواريخ القسام. الفرانس انترن صرخت بلسان أحد مذيعيها: صبر إسرائيل نفد، وكأن المذيع ضابطاً إسرائيليا. العديد من الصحف الفرنسية وخصوصاً جريدة الليبراسيون الفرنسية أغلقت مواقعها الإلكترونية لكبح ما كان يتدفق عليها من صور مريعة من أبناء العرب.



كنّا نلمس فى المانيا إشارات إعلامية إيجابية بسيطة جداً تعاطفت مع غزة، مثل اعتبار الحرب على غزة «خطأ» أو «وحشية»، أو أن إسرائيل دولة قد «أفرطت فى استعمال القوة». وقد غالت الصحافة العربية فى إبرازها مشيرةً إلى تغيير ما حصل هناك، لكنها تغاضت عن المانيا المسكونة بعقدة الذنب التاريخية الملطّفة بشكلٍ طفيف على مستوى الشباب تجاه اليهود، وكره الألمان للحروب منذ هزيمتهم فى الحرب العالمية، وموقفهم العدائى من المسلمين، وكلها مسائل تبقى ألمانيا كما الكثير من الدول الأوروبية فى خانة المناصر لإسرائيل. ولا يعنى توجيه انتقاد بسيط من مذيع أو محلل، بالمعنى العلمى للظاهرة، أن تعاطفاً إعلامياً أكيداً وفاعلاً مع الفلسطينيين بدأ يظهر فى الغرب.

كانت البى بى سى الإذاعة البريطانية، الأكثر استماعاً فى الشرق الأوسط واضحة الانحياز لإسرائيل تماماً كما مجمل وسائل الإعلام البريطانية، ومنقادة كالمعتاد، للوبى الرسمى الصهيونى الذى سحب بعض مراسليها من فلسطين المحتلة.

وقد رفضت هيئة الإذاعة البريطانية، بذريعة الحيادية، بث «نداء غزة» الإنسانى الذى تقدمت به ثمانى عشرة مؤسسة وجمعية بريطانية لجمع التبرعات لضحايا العدوان الإسرائيلى، وبثته



فى فيلمه الوثائقى بين جون سنو المذيع الشهير فى القناة الرابعة فى بريطانيا نجاح «الجزيرة» فى تغطية صور الحرب أمام الصور الإسرائيلية المضللة مما جعلها قادرة على تعبئة الجماهير و الضغط على صانعى القرار





القناتان البريطانيتان الرابعة والخامسة والـ«اى تى فى». وكان رد الفعل شجب الصحف البريطانية لهذا الموقف وقيام مظاهرات أمام مبنى الإذاعة البريطانية شارك فيها خمسون نائباً بريطانياً باعتبار أن النداء إنسانى للإغاثة وليس للحصول على السلاح لحماس .

الخلاصة: النهضة العربية الثانية

تتداخل الإستراتيجيات وتتناقض إلى درجة الغموض حيال نقطتين مستقبليتين: مستقبل المقاومة العربية انطلاقاً من غزة ولبنان أى قدرة العرب على القتال أو إدارة الصراع وجهوزيتهم للسلام مع عدو لا يركض نحو السلام، ومستقبل الصورة العربية، وقدرتهم على الاستمرار فى خوض العصر الفضائى وكسب مقدراته ومعاركه. فقد توقفت حرب غزّة لكن ليس بشكلٍ نهائى. قطاع غزّة ما زال محاصراً، وما زالت إمكانية سقوط صواريخ حماس ممكنة فوق الجنوب الإسرائيلى، كما أنّ إمكانية تمرير السلاح عبر الأنفاق ممكنة أيضاً وناشطة بكثافة أكثر قد تقود إلى المزيد من تأزيم الصراعات بين العرب أنفسهم، وبين مصر وإيران ، وبين العرب وإيران ، ولم يباشر بعد فى إعمار ما تهدم. وقد لا تفضى الحوارات بين حماس والسلطة أى بين الحكومة المقالة أو الحكومة المستقيلة قانوناً إلى مسائل ثابتة وجوهرية. ولم تزل الأمور مفتوحة على شتى الاحتمالات. ومن يغص فى تفاصيل ما هو قائم بين هذه الأطراف متفرقة ومجتمعة، يكاد يشعر أنّ ضياعاً كبيراً يصيب الوطن العربى، ويدخله فى أنفاقٍ أين منها أنفاق غزة. ضياع كامل بين مفاهيم السلام والتسويات والاستسلام والمقاومة. أمس ضاعت فلسطين، واليوم يضيّع العرب أدوارهم الكبرى اليوم، وتنسحب قضاياهم نحو طاولات تركيا وإيران والغرب ومعه إسرائيل. وتبقى المعضلة الكبرى فى وحدتهم المشتتة بين عروبة الإمكان وعروبة الاستحالة. فقد وحّدهم الإعلام وقرّبهم بما يتجاوز السياسات والمؤتمرات والجهود المضنية لجامعة الدول العربية منذ تأسيسها. يزداد اهتمام وسائل الإعلام بالصراعات وبث أخبار الحرب وتداعياتها بكثافة ملحوظة. ولقد شغلت غزة العالم شهراً كاملاً بالأخبار والصور والتقارير والتحليلات، وفشلت مسألة طمس الصور والحقائق، وعرفت نتائج الحرب، وبقيت الآراء على تباين شديد تورث الحيرة والاختلاط والتشتت فى تكوين موقف متغير فى الغرب أو لدى بعض العرب حيال هذا الصراع.

المتغيّر الحقيقى هو ملامح جيّدة لنهضة عربية ثانية إعلامية المظهر. نحن نشهد عرباً يخوضون حروباً فضائية هائلة بلغات العالم المختلفة، ويحققون خطى متقدمة، ولو كانوا ما زالوا يتمرّسون فى الفضاء قياساً إلى مقدراتهم لا المهنية بل التقنية المرتبطة بهوامش تحركات الأنظمة فى بلادهم المقبلة على الإعلام، وعلى الرغم من تحركات رساميلهم المتعثّرة بسياسات الدول الكبرى ومستقبلها التنموى والنهضوى. وقد نلمس، فى المقابل، إخفاقات استراتيجية إسرائيلية للخروج بسلام من هزيمتها الإعلامية فى غزة كما فى جنوبى لبنان. يكفى استعادة المشاهد، والأحداث، ومتابعة الجهود الإسرائيلية المضنية المستمرّة، حتى الآن وفى المستقبل، باهتمام كبير،على الأقل، أمام ما يمكن تسميته بـ«معضلة الإعلام»، التى تجعلنا نشهد، مثلاً، الحملات الإسرائيلية المدروسة لتجميل صورة اسرائيل وتنظيفها ممّا لحق بها من جراء حربى غزة ولبنان، باعتمادها الغوغل ماب والـ you tub، والـ Facebooks ومحركات البحث والمدونات والصفحات الإلكترونية الرابطة له وغيرها من وسائل الترويج الحديثة الإلكترونية.

وقد لا يجازف الباحث، أيضاً، فى الملاحظة بأن اسرائيل، تعترف وكأنها قد خاضت معارك خاسرة، تحاول إعادة كسبها أو التعويض عنها عبر الانترنت والمعارك الإلكترونية. قد نلمس حضوراً عربياً شبابياً وفعّالاً ومناصراً للعرب منتشراً فى العالم، تمكّن بقدراته التكنولوجية، وكثرة المتدفقين إليه، من مفاجأة الإسرائيلى والقفز فوق مجمل المعضلات التى يكابدها الإعلاميون العرب. فمنذ صورة محمد الدرة مروراً بحرب لبنان وحروب العراق وحرب غزّة، يتقاتل العرب واسرائيل على اجتياح المواقع الإلكترونية أو «الهاكرز» لتغيير الصور والتقارير وتحويل ذاكرات البحث ومحوها، لا سيما وأن من بين المليار ونصف مشترك بالإنترنت، هناك حضور شبابى عربى لافت لمصلحة كشف الحقائق والصور، قد يتجاوز فى أهميته الإخفاق التاريخى العربى فى ميدان ترويج هذه الصور والنصوص وغيرها عبر الصحف اليومية أو عبر شاشات التلفزة.

لعلّ أجيال الأبناء والأحفاد تنجح فى تحقيق ما عجزت عنه محاولات الآباء والأجداد طيلة العقود الستة الغابرة فى تلقف هذه المنجزات الإعلامية والعسكرية وتطويرها؟ ■



عصـــر العـــلم
أحمد زويل

إن ما يجرى يتطلب منا وقفة تاريخية، كيف وصلنا إلى هذه الدرجة من التطور؟ وما هى طريقة الوصول إليها؟ وما الذى يحمله المستقبل من جديد.. للناجحين والخاملين؟

إننى واحد ممن ينشغلون كثيرا بهذه التساؤلات وبالبحث فى طرق الإجابة عليها، وحين حصلت على جائزة نوبل فى عام ١٩٩٩.. والتى جاءت فى عام له دلالته الرمزية، حيث يختتم القرن العشرون فتوحاته العلمية، ليستكمل «عصر العلم» فتوحات أخرى فى قرن جديد. منذ ذلك الحين وأنا ألتقى بكثير من الزعماء والقادة السياسيين، وبالعديد من الفلاسفة والمفكرين ورجال الاقتصاد والإدارة، فضلا عن الاحتكاك الدائم مع أعظم علماء العصر.

يضاف إلى ذلك زياراتى أو مشاركاتى فى تجارب البناء والنمو فى بلدان عديدة.. بعضها لدول تحاول الوصول إلى بوابة العصر ولم تصل، وأخرى لدول وصلت ومضت.. مثل الصين وكوريا الجنوبية وسنغافورة وماليزيا والهند.. وأيرلندا.

هنا جاءت فكرة هذا الكتاب.. كمحاولة لفهم طبيعة هذا العصر، من العلم إلى ما وراء العلم.. من إرادات سياسية وطاقات اجتماعية وثقافات للشعوب.

وعليه.. فإن هذا الكتاب يجمع بين تجربتى الذاتية فى «عصر من العلم» ورؤيتى الشخصية للعالم فى «عصر العلم».

(من مقدمة المؤلف)



كــــــارتــــــون 2009



الحرب على غزة، واستشهاد مئات الأطفال ـ © Emad Hajjaj, Jordan



إسرائيل تستخدم قنابل الفوسفور فى غزة © Phosphor bomb, Jiho, France

٢١ يناير ـ باراك أوباما (الرئيس الـ ٤٤) يدخل البيت الأبيض © Taylor Jones



© Rainer Hachfeld, Neues Deutschland, Germany
٢٢ يناير ـ أوباما يقرر إغلاق معسكر جوانتنامو



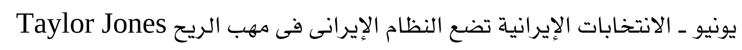
العراق: لاجديد هناك ,Dave Granlund

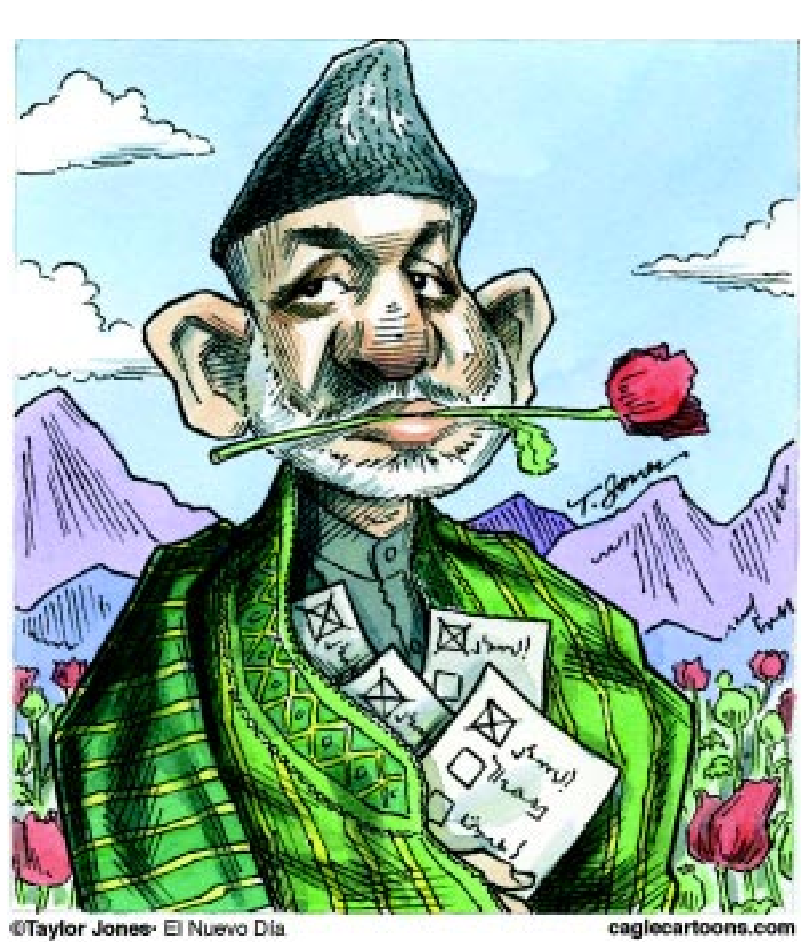


The Khaleej Times, Paresh Nath, UAE أزمة إيران النووية



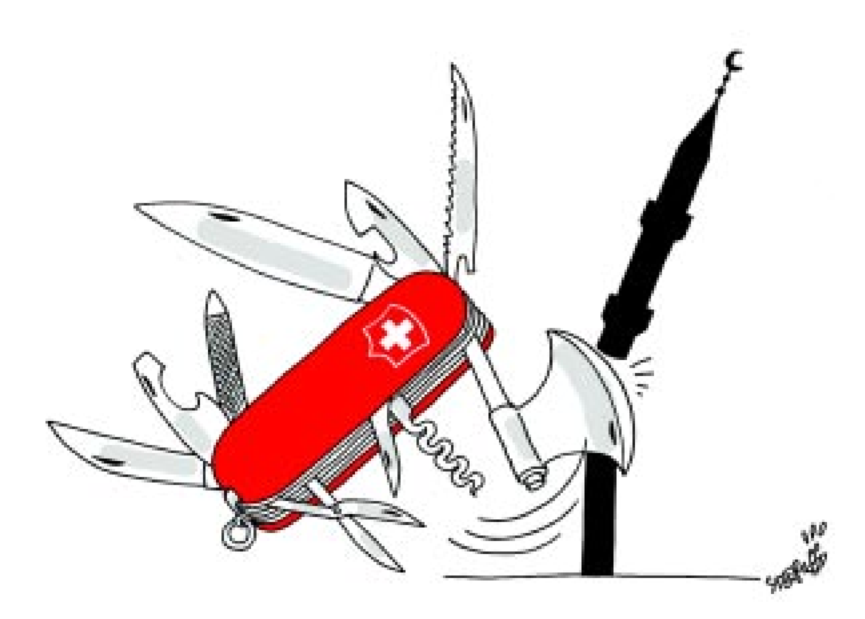
نوفمبر ـ أوباما يفوز بنوبل «للسلام» ويقرر مضاعفة قواته فى أفغانستان
Christo Komarnitski, Bulgaria


يونيو ـ الانتخابات الإيرانية تضع النظام الإيرانى فى مهب الريح Taylor Jones

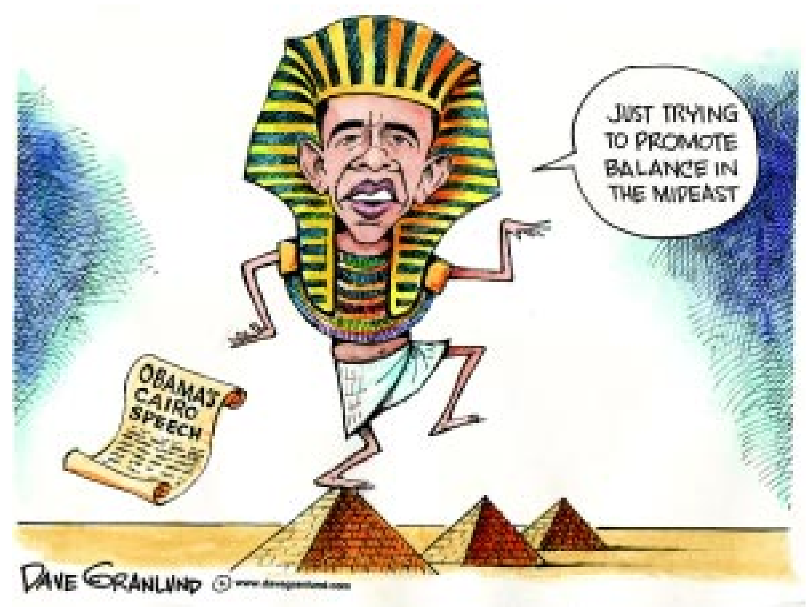


نوفمبر ـ كارازاى مازال رئيسا، فى انتخابات مثيرة للجدل
Taylor Jones, El Nuevo Dia, Puerto Rico

كـــــــــــارتـــــــــــــون ٢٠٠٩



نوفمبر ـ السويسريون يوافقون على قانون يحظر بناء المآذن Peray, Thailand



٤ يونيو أوباما يتحدث من القاهرة Dave Granlund

صراع شركات الإنترنت Paresh Nath, The Khaleej Times, UAE



اليونسكو ينشئ المكتبة الرقمية Keefe, The Denver Post

الأزمة المالية، مازال العالم يعانى Manny Francisco, Manila, The Phillippines

كـــــــارتـــــــــــــون ٢٠٠٩



غزة، الحصار والجدار ـ عام رابع Jiho, France



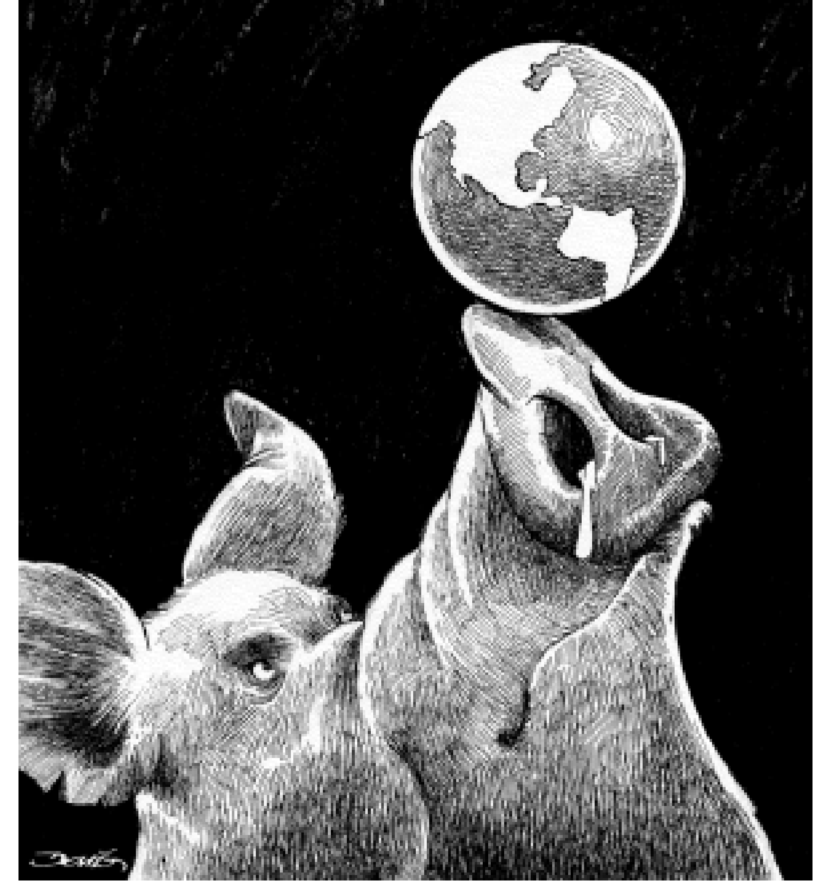
Taylor Jones - El Nuevo Dia, Puerto Rico
ديسمبر ـ جدل حول قرار محكمة بريطانية بالتحقيق مع وزيرة الخارجية
الإسرائيلية السابقة لدورها فى الحرب على غزة



الجوع: أطفال تحت الحصار Emad Hajjaj, Jordan



رعب إنفلونزا الخنازير Dario La Crisis



١٤ سبتمبر ـ تقرير جولدستون عن جرائم الحرب فى غزة Paresh Nath



البشير مطلوب للعدالة TNate Beeler - The Washington Examiner

الغفـــران
فى ضوء النقد الأسطورى

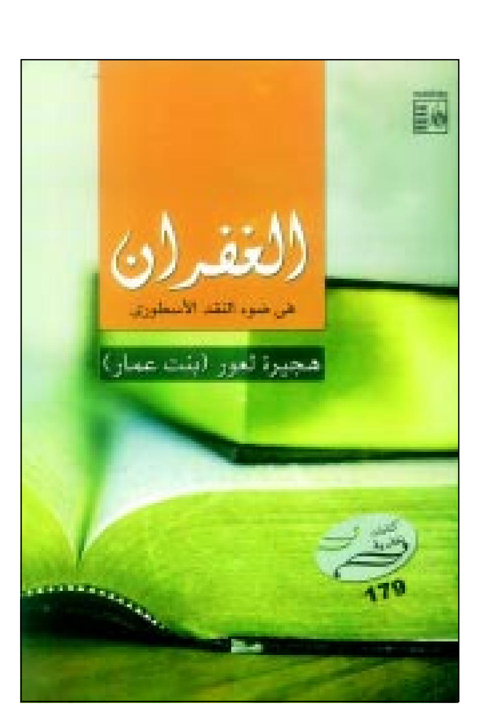
■■ كانت ولاتزال الأسطورة محل اهتمام كبير، منذ نشأتها إلى يومنا هذا، منذ ذلك الرجل البدائى الذى أوجدها لتجيب عن تساؤلاته إزاء الظواهر الطبيعية والميتافيزيقية المحيطة به، ولتكون المتنفس الوحيد له، لينعم بارتياح نفسى طالما عانى منه، وصولاً إلى الرجل المعاصر الذى لايزال يرى فيها المتنفس ـ أيضاً ـ لكن من وجهة نظره هو كمبدع ـ أديب وشاعر ـ عبر تلك الانزياحات والتعديلات التى يضفيها عليها، ناقلاً إياها من كونها مجرد قصة خلق مقدسة إلى اعتبارها المعادل الموضوعى لمعاناته إزاء الواقع الذى يعيشه بكل زخمه المادى والأيديولوجى وغيرهما..

وكما ولدت الأسطورة فى أحضان الأدب منذ بداياته الأولى وهو على شكل سجع الكهان، فإنها لاتزال لصيقة به، وبالتالى كان أكثر الحقول ارتباطاً بها إبداعاً ونقداً، مما دفع بالنقاد إلى محاولة إيجاد منهج يهتم بهذه الظاهرة الأدبية التى تتعامل مع الأسطورة بشتى أنواعها، فنتج عن ذلك ما نسميه بمنهج «النقد الأسطورى»، وما منهج النقد الأسطورى «La Mythocritique» إلا واحد من أحدث المناهج النقدية المهتمة بذلك، حيث يلامس النص الأدبى فيبحث بداخله عن تجليات العناصر الأسطورية ويبرز أهم مطاوعاتها، ومن ثم يرصد الإشعاع الناتج عن توظيفها فى النص الإبداعى سواء كان نثراً أم شعراً.

ومنهج النقد الأسطورى لصاحبه بيير برونيل يعتبر من أحدث المناهج النقدية على الساحة الغربية والعربية معاً، حيث وضعه صاحبه سنة ١٩٩٢، ويعتمد على ثلاث خطوات إجرائية على التوالى: التجلى ـ المطاوعة ـ الإشعاع.

وحتى نستفيد أكثر من آليات هذا المنهج النقدى الحديث ارتأيت تطبيقه على مدونة عربية قديمة، حتى أثبت أن هذه الأخيرة لاتزال متجددة، قابلة أن تدرس مرات عديدة بطرق مختلفة، وأنها أيضاً، مرنة تتعامل حتى مع أحدث المناهج النقدية الغربية.

هجيرة لعور (بنت عمار)
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩ ، ٢٤٠ صفحة



وقد واجهتنى أثناء اختيارى للمدونة عدة تساؤلات أهمها:

ـ ما هى المدونة الأليق لتطبيق آليات منهج النقد الأسطورى والتى تنتمى إلى الأدب العربى القديم؟

ـ وهل فعلاً يمكن لنص عربى قديم أن يتعامل مع آليات منهج غربى حديث؟

ـ وهل يمكن الخلوص ـ فعلاً ـ إلى أن هنالك نصوصاً عربية قديمة، قد وظفت رموزاً أسطورية مفعمة بكل سمات الرمز الفنى؟

ـ وهل يمكن لنص قديم أن يمنحنا جماليات فنية من خلال تعامله مع الرموز الأسطورية؟

وبعد عملية اطلاع وتمحيص وقع اختيارى على نص عربى قديم، يعد نصاً ثرياً متنوعاً، حيث تتلاقح بداخله نصوص نثرية وشعرية معاً ـ يتمثل فى «رسالة الغفران للمعرى»، وذلك راجع لعدة أسباب أهمها:

١ ـ انعدام دراسات نقدية أسطورية تستثمر آليات منهج النقد الأسطورى فى الساحة العربية، خاصة منها ما يطبق على المدونات الأدبية العربية القديمة.

٢ ـ الرغبة فى استثمار آليات منهج النقد الأسطورى وتطبيقها على رسالة الغفران كونها نصاً عربياً قديماً وثرياً جداً، حيث تتلاقح فيه نصوص شعرية ونثرية، وتثريه مجالات معرفية عديدة كالنقد والبلاغة وفن القص وغيرها.

٣ ـ لكون رسالة الغفران جاءت على منوال الرحلات الخيالية، التى تجنح بالخيال، إلى عالم غيبى مدهش.

٤ ـ ولكونها ذات شهرة عالمية، جعلت العديد من المبدعين ينسجون على منوالها، من أشهر تلك الأعمال «الكوميديا الإلهية لدانتى».

٥ ـ ولأنها توظف إشارات ورموزاً أسطورية متعددة، مشحونة بإيحاءات دلالية هائلة.



أما عن النتائج المرجوة من هذه الدراسة النقدية الأسطورية فهى:

١ ـ استثمار آليات منهج النقد الأسطورى فى دراسة مدونات عربية قديمة، وذلك بهدف تطويع تلك النصوص القديمة لمناهج نقدية حديثة.

٢ ـ محاولة دحض تلك المزاعم التى تعتبر النص العربى القديم نصاً عقيماً ولا يتماشى والمناهج النقدية المعاصرة.

٣ ـ محاولة إثبات أن النصوص العربية القديمة لاتزال حية متجددة، تمنح فى كل مرة دلالات جديدة للناقد.

٤ ـ نفى الزعم أن مرحلة التوظيف الرمزى للأسطورة اقتصرت على النصوص الإبداعية الحديثة والمعاصرة فقط، بل يمكن لنص قديم كرسالة الغفران أن يوظف رموزاً أسطورية توظيفاً واعياً له جمالياته.

٥ ـ استخلاص جماليات التوظيف الرمزى فى رسالة الغفران، بعد إثبات هذا التوظيف.

وبعد عملية اختيار المدونة، وحصر أهم الأهداف المرجوة من الدراسة، وبعد استقراء المدونة، ومحاولة الربط بينها وبين آليات المنهج المختار، جاء عنوان الدراسة موسوماً بـ:

«الرموز وتجلياتها فى رسالة الغفران للمعرى ـ دراسة نقدية أسطورية».

من خلال العنوان أحاول التركيز على عدة أمور أهمها:

١ ـ محاولة تتبع تجليات الرموز الأسطورية داخل نص الرسالة وإبرازها.

٢ ـ محاولة تتبع جملة المطاوعات التى لحقت بها والمتمثلة فى البعد القائم ما بين الأسطورة الأصلية والرمز الأسطورى الموظف داخل الرسالة.

٣ ـ محاولة معرفة البعد الدلالى القائم ما بين الثابت والمتحول من خلال الإشعاع الناتج عن توظيف تلك الرموز الأسطورية داخل نص الرسالة وبالتالى استخلاص أهم جماليات هذا التوظيف الرمزى الأسطورى.

٤ ـ محاولة استخلاص جماليات توظيف الرموز الثلاثة فى نص رسالة الغفران.

أما عن خطة البحث، فقد حاولت من خلالها أن أتتبع منهجياً كل تلك الأمور المذكورة سابقاً، وبالخصوص أهداف الدراسة نفسها، آخذة بعين الاعتبار طبيعة المدونة والمنهج معاً، وأخيراً خلصت إلى خطة بحث أظنها الأقرب منهجياً إلى الإلمام بكل أطراف الدراسة، فقسمتها إلى مقدمة ومدخل وثلاثة فصول وخاتمة.

١ ـ المدخل: عنوانه: «النقد الأسطورى وأعلامه البارزين»

حاولت تخصيصه للمنهج المتبع فى الدراسة، منهج النقد الأسطورى للأسباب التى ذكرتها سابقاً، حيث رأيت أنه من الضرورى بعد طرح الإشكال أن أعرض المنهج على القارئ، ليمكنه فيما بعد تتبعه وهو فى طور الاشتغال على

المدونة، حيث حاولت فيه التطرق إلى بدايات الاهتمام بالنقد الأسطورى، ثم أهم الأعلام الذين تبنوا مثل هذا النقد وفى الأخير استرسلت فى عرض منهج النقد الأسطورى لصاحبه بيير برونيل بآلياته الثلاث.

الفصل الأول: عنوانه «ماهية الأسطورة الأولية والأدبية»

حيث حاولت فى هذا الفصل عرض ماهية الأسطورة الأولية من تعريف لغوى واصطلاحى إلى عرض أنماطها وذكر أهم خصائصها، ومحاولة حصر وظائفها، ثم الانتقال إلى علاقة الأسطورة بالأدب والتركيز على الأسطورة الأدبية، وقد رأيت أن تخصيص هذا الفصل للأسطورة وحدها ضرورى للدراسة، لأن مفهوم الأسطورة لايزال غامضًا للكثيرين، خاصة فيما يتعلق بالأسطورة الأدبية.

الفصل الثانى: عنوانه «الرموز وتجلياتها فى نص رسالة الغفران»

ويعد الفصل التطبيقى من الدراسة، حيث قمت من خلاله برصد أهم تجليات الرموز الأسطورية داخل نص الرسالة ثم تتبعت هذه الرموز بعد تصنيفها بآليات المنهج المتبع، وأبرز هذه الرموز ما حصرته فى ستة عناوين هى على التوالى: رمز الشجرة ويندرج تحته رمزان هما: الشجرة ذات أنواط وشجرة الحماطة، ثم يليه رمز الشيطان ويندرج تحته رمزان هما: الخيثغور وأبو الهدرش، وأخيرًا يأتى رمز الحية ويندرج تحته رمزان هما: الحية ذات الصفا والحية القارئة.

الفصل الثالث: عنوانه «جماليات التوظيف الرمزى فى رسالة الغفران»

ويعد بمثابة الفصل التتويجى للدراسة ككل، حيث خلصت فيه إلى أهم جماليات التوظيف الرمزى الأسطورى داخل المدونة، وذلك من خلال تتبع جماليات مطاوعة كل رمز من الرموز الثلاثة، ثم الجماليات التى يختص بها كل رمز، فأدرجت جماليات القالب القصصى الحوارى وجماليات الشخصية الحيوانية تحت رمز الحية، بينما أدرجت جماليات القالب القصصى الحوارى وجماليات الشخصية الغيبية تحت رمز الشيطان.

الخاتمة:

حاولت فيها الإجابة عن مجمل التساؤلات التى طرحتها فى المقدمة.

أما فيما يخص مصادر البحث ومراجعه، فقد اعتمدت على رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، تحقيق عائشة عبدالرحمن، لتكون مدونة الدراسة، أما فيما يخص المنهج، فقد اعتمدت أساسًا على كتاب النقد الأسطورى لصاحبه بيير برونيل، بالإضافة إلى مخصوص للأستاذ الدكتور عبدالمجيد حنون أستاذ الأدب المقارن بجامعة عنابة، وهو عبارة عن محاضرة مقدمة لطلبة الماجستير (تخصص أدب مقارن) يشرح فيها آليات المنهج بالتفصيل.

أما مصادر ومراجع البحث الأخرى فقد كانت متنوعة، منها القرآن الكريم والكتاب المقدس والمعاجم وموسوعات منها موسوعة الفلكلور والأساطير لشوقى عبدالحكيم، إضافة إلى كتب عربية وأخرى أجنبية (عملت على ترجمة ما هو غير مترجم منها)، ومجموعة من الدراسات الحديثة المنشورة على مواقع مختلفة للإنترنت.

وككل دراسة تنشد الكمال اعترض سبيلى جملة من العوائق أهمها قلة الدراسات النقدية المتعلقة بمنهج النقد الأسطورى وكان عزائى فى ذلك اتصالى المباشر مع صاحبه بيير برونيل وهو بروفيسور بجامعة السوربون من خلال البريد الإلكترونى (وقد أشاد بدوره بخطة البحث)، حيث وجهنى إلى مخبر الأبحاث العلمية الذى يترأسه. كما كانت إشكالية ندرة الكتب الأجنبية المترجمة - خاصة منها الكتب المتخصصة. مطروحة أيضًا، مما دفعنى إلى اعتماد ترجمتى الخاصة فى ذلك، بالإضافة إلى عدم توفر الكتب المختصة. أيضًا، ومن بين المشكلات التى واجهتنى خلال هذه الدراسة، هو عدم مقدرتى على اعتماد طريقة الهوامش المفتوحة لشرح مفردات النصوص المأخوذة من رسالة الغفران على الرغم من أهميتها، بسبب أن جل ألفاظ الرسالة جزلة يتحتم شرحها بمعدل ثلاث مفردات إلى ست فى السطر الواحد، بالإضافة إلى أنه حينما أوردت المحققة عائشة عبدالرحمن شرح المفردات كانت تورد أكثر من مرادفتين مختلفتى المعنى للمفردة الواحدة فى أغلب الأحيان، مما سيأخذ مساحة واسعة من البحث. ولهذا كنت أعمد إلى تقريب معنى قول أبى العلاء قبل أو بعد إيراده فى الدراسة. ■



عصر العلم
أحمد زويل

البحث عن المعرفة

وفى هذه الرحلة من تاريخ العلم والعالم، تزاحمت اجتهادات لا حصر لها، والتمس طريق العلم عدد هائل من الناس، غير أن الثورات العلمية بهذا المعنى الكبير كانت قليلة ومتباعدة، وكان عدد أصحابها قليلين.. وبقيت أسماؤهم ساطعة فى التاريخ.

وفى أثناء غروب القرن العشرين كانت ثلاث ثورات علمية كبرى قد تعاقبت.. الكوانتم والكمبيوتر والجينوم. وقبلها كانت نظريتا الجاذبية والنسبية قد أسهمت الإسهام الأكبر فى حركة العلم.. وبقيت كلتا النظريتين هما الأبرز حتى بالمعايير العامة للشهرة والذيوع.

وبالتوازى مع جهود النظريات العلمية وقوانينها، برع عدد من العباقرة فى تطوير آليات وتقنيات أفادت حركة الإنسانية نحو المستقبل، وخطت بالعلم إلى آفاق فسيحة.

وبمثل ما احتل نيوتن وأينشتين وماكس بلانك مواقع بارزة فى حقل نظرية العلم، احتل ابن الهيثم وجاليليو وواطسون وكريك وغيرهم مواقع بارزة فى تطبيقات العلم وانطلاقاته الملموسة.

وأصبح العلم بعد مجمل الجهود النظرية والعملية بالغ الرفعة والشموخ، ومع توالى قوانين العلم، تعاقبت انجازاته التكنولوجية المذهلة من الميكروسكوب إلى التلسكوب إلى الفمتوسكوب. ومن دراسات الكائنات إلى دراسات الخلايا إلى دراسات الجزيئات. ومن دراسات الجزيئات فى الخلايا إلى دراسات الأسس الجينية للضمير. ومن حروب تقليدية إلى نووية إلى احتمالات حروب جينية.. قد تساهم فيها تحالفات المال والعلم.

وهكذا حركة عملاقة من داخل الذرة إلى آفاق الكون. ومن حركة الجزيئات إلى حركة الكواكب.. فى ظل مفاهيم جديدة للزمان والمكان.



آيـــــات و جنـــــرالات..

أحـمـد مـحـمـد أبـو زيـد

مقدمة لابد منها

■■ إن إسرائيل لن تكف أبداً عن ممارسة أسلوب التحريض على منافسيها الإقليميين الساعين لبناء قوتهم واستقلالهم الخارجي والاعتماد على الذات. فمنذ أن وجدت هذه الدولة الطفيلية - ومن قبل وجودها عام ١٩٤٨- وهى تقوم بتحريض القوى الكبرى على جيرانها الإقليميين - عرباً كانوا أو مسلمين. إن إسرائيل لا تقبل بأقل من أن تكون هى المهيمن الإقليمى على الشرق الأوسط.

آخر حلقات مسلسل التحريض هو ما تقوم به المؤسسات اليهودية - الأمريكية الموالية لإسرائيل (اللوبى الإسرائيلى) من تحريض الإدارة الأمريكية على الجمهورية الإسلامية الإيرانية. بحجة أن امتلاك النظام الثيوقراطى فى طهران للسلاح النووى سوف يجر على الولايات المتحدة والعرب وقبلهم إسرائيل ويلات وكوارث لم تعهدها البشرية من قبل.

الكتب - أو بمعنى أصح الدراسات - التى بين أيدينا اليوم تروج لأوهام مخيفة ستنتج جراء حيازة النظام الإيرانى للسلاح النووى. هذه الدراسات صادرة عن مصنع أفكار اللوبى الإسرائيلى فى الولايات المتحدة الأمريكية (معهد واشنطون لسياسات الشرق الأدنى Washington Institute for Near East Policy). هذا المركز الفكرى Think Tank وكما يعلن فى موقعه الرسمى هو ذراع لجنة العلاقات العامة الأمريكية-الإسرائيلية American-Israeli Public Affairs Committee (AIPAC). والغرض الظاهرى لهذه الدراسات هو توضيح الرؤية أمام صناع القرار الخارجى الأمريكى وتوسيع نطاق البدائل والخيارات المتاحة أمامهم بخصوص منطقة الشرق الأدنى. بينما غرضها فى الحقيقة تشويه وتلويث وتزوير الحقائق امام صانع القرار الأمريكى لصالح أمن ومصالح دولة إسرائيل.

هذه الكتب تروج كما سبق الذكر لخرافات استراتيجية حول عواقب حيازة إيران لقدرات نووية مثل زيادة السلوك العدوانى الإيرانى تجاه دول الخليج العربى؛ بزوغ سباق تسلح نووى وتقليدى فى المنطقة؛ بيع هذه الأسلحة للجماعات الارهابية الدولية وابتزاز الدول العربية واخيراً محاربة دولة إسرائيل. ونحن من منظور واقعى متخصص فى العلاقات الدولية سنقوم بتحليل وتفكيك هذه الدعاوى. والرد عليها واثبات عدم حقيقتها وضعف منطقها. مجادلين بأن الخطر الحقيقى من وراء سعى إيران لحيازة السلاح النووى سيكون من نوعية الاستجابة والفعل الإسرائيلى تجاه هذه المساعى.

قسمت هذه الدراسة لأربعة أجزاء. الجزء الأول نناقش فيه وندحض ادعاءات المؤلفين القائلة بكارثية حيازة إيران للقدرات النووية من منظور المدرسة الواقعية الجديدة فى العلاقات الدولية. الجزء الثانى نطرح فيه رؤية عربية لماهية العواقب وحقيقة المخاوف التى قد تنتج لا عن حيازة إيران للسلاح النووى بقدر ما هى نتاج المواجهة الإسرائيلية - الإيرانية من أجل منع الجمهورية الإسلامية من كسر الانفرادية القطبية النووية Nuclear Regional Unipolarity الإسرائيلية. الجزء الثالث - وباستخدام مقولات مدرسة الاقتصاد - السياسى الـدولـى International Political Economy لتوضيح موانع قيام الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبى - وليس إسرائيل - عن توجيه ضربة عسكرية ضد إيران لمنعها من حيازة القدرات النووية. الجزء الرابع والأخير سنتطرق بإيجاز لاستراتيجية إيران لادارة صراعها مع القوى الدولية والإقليمية حول برنامجها النووى.

* Patrick Clawson and Michael Eisenstadt (eds): “Deterring the Ayatollahs: Complications in Applying Cold War Strategy to . (Washington D. C.: The»Iran Washington Institute for Near East Policy, 2007).
* Chuck Freilich: “Speaking about the Unspeakable: US-Israel Dialogue on Iran’s Nuclear . (Washington D. C.:»Programme The Washington Institute for Near East Policy, 2007).
* The Soref Symposium: “Iran‘s ‘Unacceptable‘ Bomb: Deterrence and Prevention in the . (Washington D. C.:»Age of Terror The Washington Institute for Near East Policy, 2007).

مخاوف وهمية... ومخاوف حقيقية

هل معنى أن تكون ضعيفاً بين أطراف قوية (نووية) أن يضمن بقاءك أن تكون حليفاً لأحد هؤلاء الأقوياء؟ وكيف السبيل للنجاة إذا كان الخطر والتهديد الموجه ضدك غير تقليدى (نووى)؟ وإذا كان هذا الحليف لا يبالى ببقائك قدر مبالاته بمصالحه. مثل هذه الدعاوى هو ما يحاول المؤلفون وكثير من المعلقين والمحللين السياسيين (غير المتخصصين) إيهامنا وتخويفنا بها. باعتبارها الموقف/المعضلة التى تجد فيها الدول العربية ودول مجلس التعاون الخليجى خاصة نفسها فى خضم الصراع الإيرانى مع الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل. إننا نجادل هنا بأن مثل هذه الدعاوى هى مخاوف «وهمية» لا تثبت أمام أى تحليل علمى وواقعى. حيث نرى أن تحول إيران لقوى نووية لن تكون له عواقبه الكارثية على الدول العربية والخليجية كما يروج مؤلفو هذه الكتب.

فى الشرق الأوسط لا يوجد ما هو أهم من موضوع السعى الإيرانى لحيازة السلاح النووى. ولكن على قدر الأهمية لا يوجد هناك الكثير من الدراسات المحايدة التى تناولته. إننا هنا سنحاول تحليل الدعاوى «الإسرائيلية» القائلة بكارثية العواقب المتوقعة جراء سعى إيران لحيازة السلاح النووى على الوطن العربى. متخذاً من أطروحات ومقولات النظرية الواقعية البنائية منهجاً تحليلياً.

بين مفكرى العلاقات الدولية الواقعيين فإن انتشار السلاح النووى قد يكون عاملا للاستقرار الإقليمى والدولى. حيث تمنع القدرات المميتة والرهيبة الناتجة عن استخدام المحتمل لهذه الأسلحة من تقييد ومنع الدول الأخرى من انتهاج سلوكيات عدوانية تجاه هذه القوى النووية. ومن جانب آخر وكما يذهب عالم السياسة الجليل Kenneth Waltz؛ فإن التجربة التاريخية أثبتت أن السلاح النووى لا يستخدم إلا لأسباب دفاعية خاصة بالردع Deterrence؛ ولم يعرف استخدام آخر لهذا السلاح غير الردع؛ ومن المتوقع أن يستمر الأمر كذلك فى المستقبل.

فى العلاقات الدولية للشرق الأوسط العديد من الأوهام والخرافات التى باتت للأسف تشكل الخريطة المعرفية للفكر السياسى للمنطقة. فعلى سبيل المثال يعتقد الكثير أن إيران هذه مصدر الخطر على المنطقة العربية وليست إسرائيل؛ كما يذهب المؤلفون. وإننا - أى العرب والمسلمين - نخوض حرباً صليبية ضد بعضنا البعض؛ فالشيعة يحاربون السنة؛ والمسلمون يحاربون المسيحيين؛ والعرب يحاربون الأقليات غير العربية... كأن العصور الوسطى ومحاكم التفتيش قد بعثت من جديد. إن هناك خللا معرفيا ووظيفيا هيكليا فى البيئة المعرفية والسياسية العربية؛ نتيجة تردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتراجع قيمة العلم والتعليم والتخلف التكنولوجى وسيادة ثقافة الاستهلاك والترفيه وغلبة وسائل الإعلام الموجهة والمستقطبة. حيث بات العرب يعيشون فى زمن «الجاهلية السياسية» كما يذهب فهمى هويدى.

بالنسبة لموضوع مثل السعى الإيرانى لحيازة السلاح النووى؛ فإن الكثير من



«فى اليوم الذى تكون فيه أمريكا محايدة بيننا وبين العرب والمسلمين... فهذه هى بداية النهاية لدولة اليهود».
كاهانا المغدور- رئيس منظمة جيش الدفاع اليهودى JDA فى واشنطون



الهواجس العربية الجديدة

الأوهام تحولت بصورة غريبة لحقائق ومخاوف ونوع عجيب من الرهبة والرعب؛ بفعل العوامل سالفة الذكر وبالطبع بفعل التحريض الإسرائيلى؛ من مغبات حيازة إيران للسلاح النووى. فمن الخوف من بزوغ سباق تسلح إقليمى جديد بين القوى الإقليمية فى سبيلها للتوازن ضد إيران - خاصة من جانب قوى مثل مصر وتركيا والسعودية وبالطبع إسرائيل. أو سعى إيران لحيازة موقع المهيمن الإقليمى Regional Hegemony على منطقة الخليج العربى والشرق الأوسط عامة بعد كسرها للانفراد الإسرائيلى فى امتلاك السلاح النووى. وثالثًا المخاوف من تحول إيران لدولة متنمرة وعدوانية تجاه جيرانها - ذوى القدرات التقليدية - وابتزازهم. وأخيراً وليس آخراً احتمال قيام إيران بتسريب أو إعطاء السلاح النووى لإحدى الجماعات «الإرهابية» - وفق المفهوم الغربى والأمريكى - التى قد تفتقد من الرشادة والعقلانية ما يمنعها من استخدام هذه الأسلحة ضد أطراف إقليمية الأخرى. كل هذه المخاوف والأوهام مردود عليها. فقد أثبت التحليل الواقعى لسلوك الدول القومية فى النظام الدولى الفوضوى أن الدول التى تحوز السلاح النووى لن تستخدم هذه الأسلحة إلا عندما يكون وجودها المادى Physical Survival هو المهدد؛ أما غير ذلك فإن كل الأزمات والصراعات التى تخوضها القوى النووية - سواء مع دول ضعيفة غير نووية أو مع قوى عظمى أو إقليمية تمتلك قدرات نووية - ستجد طريقها للحل بالطرق التقليدية (دبلوماسياً أو بحرب تقليدية محدودة).

قبل الرد على هذه المخاوف يتوجب علينا توضيح الدعاوى (المبررات) التى دعت إيران للسعى لحيازة السلاح النووى من منظور واقعى. متخذين من نظرية توازن القوى وتوازن التهديد معياراً للتحليل.

ترى إيران أن وجود قوات أمريكية بهذا القرب الجغرافى حولها فى كل من الكويت وقطر والبحرين والعراق وأفغانستان يجعلها جزيرة وسط بحر من القوات الأمريكية المعادية لها وتهديداً جوهرياً لبقائها. وهو ما يوجب عليها انتهاج كافة السبل المتاحة أمامها - مشروعة كانت أم لا - للحفاظ على وجودها وبقائها واستقلالها وأمنها الوطنى.

وهو الأمر الذى وجدت



إن تكرار مثل هذه الدعاوى يعتبر استخفافًا كبيراً بعقول الناس ودليلا كبيرا على الجهل بميكانيزم عمل الدول القومية فى النظام الدولى.



السبيل إليه فى سعيها نحو حيازة السلاح النووى. حيث تنظر إيران لحيازتها السلاح النووى بالأساس كسلاح ردع Deterrence دفاعى Defensive وليس كسلاح هجومى Offensive - تماماً كما تؤكد أطروحات البروفيسور Waltz. الذى يرى أن السلاح النووى هو سلاح للردع وليس للهجوم والحرب - التى سيصبح اندلاعها بعيد الاحتمال. فالسلاح النووى بمثابة مانع Preventive وضمان للدول التى تحوزه من مغبة تعرضها لهجوم خارجى.

اما عن المخاوف والعواقب التى طرحها المؤلفون فى كتبهم فيمكن رصدها فى الآتى:

سباق تسلح جديد

يجادل المؤلفون بأن حيازة إيران للسلاح النووى سيؤدى فيما سيؤدى إليه إلى بزوغ سباق تسلح تقليدى وآخر «نووى» فى الشرق الأوسط. حيث ستسعى قوى إقليمية مثل مصر أو تركيا أو السعودية وبالتأكيد إسرائيل للتوازن ضد إيران. إن النظر عن كثب للبيئة الاستراتيجية الإقليمية يؤكد ضعف مثل هذه الأطروحات. فمصر- القوة العربية الكبرى- وعلى الرغم من توافر الكوادر العلمية اللازمة لبناء برنامج نووى مصرى بسهولة؛ إلا أنها تعانى من تصلب شرايين اقتصادى مميت. حيث مازال الاقتصاد المصرى يعتمد بصورة كبيرة على المساعدات الخارجية. وسعيها لحيازة السلاح النووى قد يهدد بقطع هذه المعونات عنها. كما أن مكانة مصر الدولية المحترمة التى بنتها على أساس دعوتها منذ عقود لإخلاء المنطقة من الأسلحة النووية قد يجلب عليها نقدا قاسيا؛ بصورة تزعزع مكانتها الدبلوماسية. أما السعودية؛ وعلى الرغم من امتلاكها القدرات المادية والتكنولوجية إلا أنها تعانى من غياب الكوادر البشرية المؤهلة للبدء فى مثل هذه الطموحات. إلى جانب التقارب الحميم بين الرياض وواشنطون. والتى لن تسمح أبداً بأى تهديد لبنك نفط العالم. أما عن تركيا؛ فإن عضويتها فى حلف شمال الأطلنطى وتوافر المظلة النووية الأمريكية لحمايتها يجعلها تزيد من تركيزها على تدعيم قدراتها العسكرية التقليدية وتعميق ثقلها الدبلوماسى والاقتصادى الإقليمى كنموذج يحتذى به فى التنمية



إن النظر عن كثب للبيئة الاستراتيجية الإقليمية يؤكد ضعف مثل هذه الأطروحات



والديمقراطية. أما إسرائيل فهى بالتأكيد لن تسعى لامتلاك أسلحة نووية لانها تمتلكها فعلياً. وإن كان امتلاك إيران للسلاح النووى سيدفعها للتخلى عن سياسة التعتيم عن ترسانتها النووية وإعلانها رسمياً عن امتلاكها للسلاح النووى. وحينها لن يكون هناك سباق تسلح بقدر ما سيكون هناك حرب إقليمية باردة.

الهيمنة الإقليمية الإيرانية

يروج المؤلفون - وطبقًا للمدرسة الواقعية - بأن إيران - كباقى القوى الإقليمية - تسعى فى التحليل الأخير لإقامة منطقة نفوذها Sphere of Influence لمواجهة القوى الخارجية الداعية للهيمنة على جوارها الاستراتيجى. ومن وسائل تحقيق وإقامة منطقة النفوذ هذه (الهيمنة الإقليمية) حيازة السلاح النووى وتشكيل نظام تحالفات وتكتلات مع أطراف إقليمية مجاورة. وإيران تسعى من وراء حيازتها للسلاح النووى لإقامة منطقة نفوذها فى الخليج والشرق الأوسط. مثل هذه الدعاوى مردود عليها بسهولة. فطبقًا للدكتور Richard Haass فإن إيران ليست بالقوى الصاعدة أو الجديدة فى المنطقة - كإسرائيل - وإنما هى قوى كلاسيكية كانت فى يوم من الأيام صاحبة الكلمة الأعلى فى المنطقة من وراء وادى النيل وحتى جبال قندهار. وامتدادها الدينى واللغوى والثقافى موجود فى المنطقة المجاورة لها بكثافة. إضافة إلى وزنها الديمغرافى الكبير مقارنة بجيرانها. وقوتها العسكرية التقليدية الجبارة. وعليه فإنها - أى إيران - لا تسعى للهيمنة الإقليمية بقدر ما تسعى للحيلولة دون صعود إسرائيل أو الولايات المتحدة لتبوؤ مثل هذه المكانة. فكلاهما معاد للجمهورية الإسلامية الإيرانية.

تزايد السلوك العدوانى الإيرانى

يذهب المؤلفون للقول بأن الدول التى تحوز السلاح النووى تميل لأن تكون أكثر عدوانية ضد جيرانها ذوى القدرات التقليدية أو الذين لا يمتلكون قدرات نووية. حيث يجادل البروفيسور Scott Sagan بأن السلاح النووى يعطى الدول التى تحوزه مزيداً من «حرية الحركة» ضد الغير. فقد تميل هذه الدول لابتزاز جيرانها وانتهاج سياسات عدوانية Aggressive ضدهم. وإيران - كما يدعى المؤلفون - قد تستخدم قوتها النووية فى ابتزاز دول الخليج العربى الثرية. أو من أجل التلاعب بأسعار النفط بما يتلاءم مع المصالح الإيرانية. أو أن تمارس الضغط على هذه الدول من أجل فك ارتباطها مع الولايات المتحدة الأمريكية. أو قد تستغل إيران قوتها النووية للتدخل فى الشئون الداخلية للدول العربية. إننا لا ننكر أن السلاح النووى يعطى للدول حرية حركة أكثر من غيرها. لكنه فى ذات الوقت يقيدها أكثر من الآخرين. إن مغبة التورط فى صراعات مسلحة مع إحدى الجيران أو مع حلفاء لقوى عظمى نووية تمنع إيران - وغيرها - من الإفراط فى التعامل العدوانى والجاف مع جيرانها. ومن جانب آخر؛ فإذا كان توزيع القدرات العسكرية غير التقليدية يميل لصالح إيران فى حالة حيازتها للسلاح النووى؛ فإن التوازن فى القدرات التقليدية يميل لصالح جيرانها؛ وهو الأمر الذى قد يساعد على تخفيف حدة العدوانية الإيرانية المحتملة.

بيع السلاح النووى للإرهابيين

يجادل المؤلفون - والكثير معهم - بأن إيران قد تحاول إعطاء حلفائها الإقليميين - فاعلين غير دوليين - مثل حزب الله أو حماس أو المجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق أو حتى تنظيم القاعدة سلاحًا نوويًا من أجل حماية وجود ومصالح إيران الإقليمية ولحلفائها. وهو ما قد يهدد - كما يذهب المؤلفون - لقيام إحدى هذه الجماعات الارهابية (طبقًا للمفهوم الغربى) نتيجة عدم عقلانية Irrationality هذه الجماعات وعدم مسئوليتها Irresponsibility وعدم قدرتها على التحكم فيها لاستخدامه ضد إحدى القوى الدولية (الولايات المتحدة) أو الإقليمية (إسرائيل). إن تكرار مثل هذه الدعاوى يعتبر استخفافًا كبيراً بعقول الناس ودليلا كبيرا على الجهل بميكانيزم عمل الدول القومية فى النظام الدولى. لقد سبق التذكير بالقول بأن الدول لا تحوز السلاح النووى إلا لأغراض ردعية. وبأن هذه الأسلحة لن تستخدم إلا عندما يكون بقاء الدولة ووجودها مهددا بالفناء. أما تكرار دعاوى مثل إعطاء أو بيع مثل هذه الأسلحة لجماعات إرهابية أو لدول أخرى فإن هذا محض خيال. إن السلاح النووى ليس سلاحًا تقليديًا يمكن بيعه وتزويد الحلفاء به؛ كما تفعل أغلب الدول الآن. ولكنه سلاح كلى رهيب Absolute - كما يذهب برنارد بردوى - وهو سلاح ذاتى الاستخدام؛ أى أن الدول التى تحوزه لا ولن تسمح بتزويد الآخرين به أو تسريبه إليهم إلا فى نطاق تعاونى ومؤسسى وشرعى - كما فعلت الولايات المتحدة عندما نشرت مظلتها النووية لحماية أوروبا من الاتحاد السوفيتى أثناء الحرب الباردة وبعدها. من جانب آخر؛ فإن مراقبة المجتمع الدولى ومحاولته الصادقة للتقليل من انتشار السلاح النووى تمنع الدول النووية من محاولات بيع هذه الأسلحة أو حتى التكنولوجيا النووية لبعض الدول خشية العقوبات الدولية التى قد يفرضها عليها المجتمع الدولى كما هو الحال الآن مع نظام كوريا الشمالية. وأخيراً؛ فإن مع أفتراض عقلانية مثل هذه الدعاوى؛ فإن قيام أحدى هذه الجماعات الإرهابية بضرب إحدى القوى الأخرى بهذه الأسلحة؛ وفى ظل نظام المراقبة المشدد على حركة وانتقال هذه الأسلحة؛ الذى يجعل من السهل معرفة مصدر هذه الأسلحة؛ فإن الدولة التى خاطرت بإعطاء هذه الأسلحة للإرهابيين عليها تحمل عواقب مثل هذا الغباء الذى وقعت فيه عندما أعطت لحلفائها فرصة

إن إسرائيل ترى فى بزوغ وصعود نجم أى دولة إقليمية فى الشرق الأوسط مصدر تهديد لها



تقديمها للانتحار طواعية. ونحن لا نعتقد أن هناك دولة من الغباء بدرجة أن تعطى الآخرين فرصة اصطيادها.

الخلاصة: إن مقولات المدرسة الواقعية القائلة بأن حيازة بعض الدول للسلاح النووى لا يشكل مدعاة للخطر بقدر ما هو مصدر للاستقرار - وتدعمها التجربة التاريخية - تدعونا جميعاً للتقليل من مستوى قلقنا وخوفنا - بل ورعبنا - من مغبات تحول إيران لقوى نووية. إن النظام الإسلامى الحاكم فى طهران - كما يحاول المؤلفون والكثير من إخواننا العرب إيهامنا - حتى لو امتلك سلاحاً نووياً - بكل تأكيد لن يكون أخطر على العرب من النظام الصهيونى البريتونى الموجود فى تل أبيب. إن تخويف العالم والعرب من وجود إيران نووية هو تضليل ووهم. فالعالم والعرب يتوجب عليهم - واقعياً - التخوف من الصراع الإيرانى - الإسرائيلى القادم فى الأفق. فذلك هو المخاوف الحقيقية.

إيران وإسرائيل والقطبية النووية فى الشرق الأوسط

منذ بزوغ دولة إسرائيل - وربما قبل وجودها الرسمى - فإن الهدف الأساسى لإستراتيجيتها للأمن القومى هو «إعاقة والحيلولة دون صعود ووجود أى منافس إقليمى لها يشاركها النفوذ أو يمثل تهديداً لوجودها ولمصالحها». مثل هذا الهدف وجد طريقه للتطبيق طوال النصف الثانى من القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين خلال حروب أعوام ١٩٥٦؛ ١٩٦٧؛ ١٩٨١؛ ١٩٨٢؛ ٢٠٠٠؛ ٢٠٠٦ و ٢٠٠٨. ومحاولة إيران لحيازة أسلحة الدمار الشامل من وجهة إسرائيل وصناع القرار داخلها هو أخطر وأوخم صور التهديد التى قد تواجه مستقبل الوجود الإسرائيلى منذ وجودها عام ١٩٤٨.

إن إسرائيل ترى فى بزوغ وصعود نجم أى دولة إقليمية فى الشرق الأوسط مصدر تهديد لها. فالأساس فى العقيدة السياسية - الإستراتيجية الصهيونية هو منطق «الهيمنة والتفوق Primacy». إن إسرائيل بتفوقها التكنولوجى والعسكرى (النوعى) وضعفها الديمغرافى (عدد سكان إسرائيل أقل من عدد سكان العاصمة المصرية القاهرة) يجعلها تفضل أسلوب الضربات الإجهاضية Preemption لأعدائها قبل إتمامهم عملية بناء قوتهم. لإدراكها استحالة التوازن معهم نتيجة هذا الخلل الديمغرافى العظيم بينها وبينهم. هذا الأسلوب الإسرائيلى نفذ ضد مصر الناصرية عامى ١٩٥٦؛ ١٩٦٧ ونفذ كذلك ضد العراق البعثى بضرب مفاعلها النووى «تموز» عام ١٩٨١.

طبقاً للبروفيسور Schweller فإن «القوى المؤيدة لاستمرار أوضاع وصور توازن القوى القائم Status quo Powers تسعى نحو زيادة معدلات أمنها Preserve its Security؛ بينما تسعى القوى الطموحة Revisionist Powers والرافضة لتلك الأوضاع Anti-Status quo Powers إلى زيادة إمكانياتها المادية ومعدلات قوتها Maximize its Power. إن إسرائيل هى آخر الأطراف الإقليمية التى تريد تغيير أوضاع توازن القوى السائد حاليا فى منطقة الشرق الأوسط. فهى تسعى الآن نحو توسيع نطاق أمنها القومى بانفرادها بحيازة السلاح النووى؛ وباعتبارها أقوى وأكبر القوى الإقليمية تسليحاً (نوعياً). وبفضل - من جانب ثالث - تحالفها مع القطب الأوحد وعلاقاتها الممتازة مع باقى القوى الدولية فى النظام الدولى ومع القوى الإقليمية المؤثرة فى المنطقة مثل مصر وتركيا.

ينظر المؤلفون - وهى بالضبط وجهة النظر الرسمية الإسرائيلية - للمساعى الإيرانية نحو حيازة السلاح النووى كقوى طموحة تسعى لتنمية قدرتها وزيادة إمكانيات قوتها المادية سعياً وراء تغيير أوضاع ومعادلات توزيع القوة والقدرات الإقليمية؛ بهدف تغيير أوضاع التوازن القائم الآن فى المنطقة. وهو ما سيجعلها (أى إسرائيل) تحاول جاهدة مواجهة طموحات القوى الإيرانية الصاعدة لأسباب إستراتيجية - بالأساس - وليس لأسباب عقائدية. وذلك عن طريق ممارسة أستراتيجية التصعيد التدريجى ضد إيران على أمل أن تنجح هذه الاستراتيجية فى إرغام إيران على الموافقة على الرؤية الإسرائيلية للسلام والاستقرار فى الشرق الأوسط.

ومن منظور إسرائيلى - وكذلك هو منظور المؤلفين - فإن إيران فى سعيها نحو حيازة السلاح النووى؛ وفى ظل وجود نظام ثيوقراطى تسلطى يعلن عداءه الصريح لإسرائيل؛ تمثل تهديداً جوهريا لإسرائيل وتقييداً لمساعى إسرائيل الداعية لفرض هيمنتها وانفرادها النووى الإقليمى(١).

إن تخويف العالم والعرب من وجود إيران نووية هو تضليل ووهم

واقعياً: فإن إيران بسعيها نحو حيازة السلاح النووى ستكون قادرة على تغيير صور توزيع القوة والقدرات الإقليمية بما يجعلها قادرة على تغيير أوضاع وصور توازن القوى الإقليمى السائد حالياً. بل وتغيير بنية Structure النظام الإقليمى فى الشرق الأوسط من نظام إقليمى أحادى القطبية النووية Nuclear Unipolarity إلى نظام إقليمى ثنائى القطبية النووية Nuclear Bipolarity وهو ما سيدخل النظام الإقليمى فى دوامات حرب «نووية» باردة قد تنتهى بفنائه كلياً. هذه الرؤية هى جوهر التفسير الذى نتبعه لتفسير الصراع الإسرائيلى - الإيرانى. فكما تذهب أطروحات الواقعية الهجومية Offensive Realism تحاول إسرائيل (ومعها بالتأكيد الولايات المتحدة) بكافة السبل الحيلولة دون صعود إيران لموضع «المهيمن الإقليمى Regional Hegemony». وهو الوضع الذى ستؤكده حيازتها للسلاح النووى وكسر الاحتكار الإسرائيلى له فى الشرق الأوسط؛ وتشكيل نظام تحالفات ومحاور يضم أطرافاً إقليمية أخرى - كما يذهب البروفيسور John Mearsheimer. وبالتالى زحزحة إسرائيل من مكانتها الحالية كمهيمن إقليمى على الشرق الأوسط. وهذا فى رأينا السبب الحقيقى وراء الرعب الإسرائيلى من سعى إيران لحيازة السلاح النووى. الغريب أننا لاحظنا عدم تطرق المؤلفين لهذه النقطة بالتحديد رغم أن القارئ لهذه المؤلفات يلاحظ أن هذه الفكرة تطير حول رأسه أثناء القراءة. ومن ناحية أخرى فقد لاحظنا غياب - إن لم يكن انعدام - فى أدبيات العلاقات الدولية العربية أية دراسات تطرقت لهذه النقطة الجوهرية والواضحة جداً فى أدبيات المدرسة الواقعية. اللهم إلا كتابات المعلق السياسى اللبنانى سعيد محيو فى جريدة الخليج.

تؤكد أطروحات ومقولات المدرسة الواقعية؛ وتدعمها الحقائق الراهنة على أرض الواقع؛ أن الولايات المتحدة وإسرائيل(!) سوف تقبل التعايش مع إيران نووية فى الشرق الأوسط. وكذلك دول الخليج العربى. وذلك لاستمرار تواجد القوات الأمريكية فى الخليج وتوليها مهام حماية دول الخليج العربية؛ واحتمال توفيرها - أى الولايات المتحدة الأمريكية - مظلة نووية لحمايتهم. أما القوى العربية الكبرى - مصر - فمن المتوقع؛ نظراً لعمق الارتباط المصرى - الأمريكى؛ ولتردى الأوضاع الداخلية والاقتصادية المصرية؛ وتوجهات النظام السياسى المصرى الحالى وارتباطه العميق بالغرب أن تنتهج منهج الولايات المتحدة. وكذلك الأمر لباقى وحدات النظام الإقليمى العربى.

إلا إننى أختلف مع اطروحات المدرسة الواقعية الجديدة - بالرغم من أننى أعتبر نفسى واقعياً - بخصوص إسرائيل؛ وأتفق للمرة الأولى وربما الأخيرة مع المؤلفين وإن كان من منظور مغاير تماماً. فالمؤلفون يجادلون بأنه بسبب المخاوف والعواقب التى قد يسببها حيازة النظام السياسى الإيرانى للقدرات النووية فإن الولايات المتحدة وإسرائيل تجد أنفسها مجبرة على مواجهة هذه الطموحات الإيرانية. على العكس من هذا؛ إننى أجادل بأن دولة إسرائيل - وليست الولايات المتحدة - بسبب التخوف من كسر إيران لانفرادها النووى وعواقب تقييد حركة إسرائيل الخارجية نتيجة حيازة إيران للسلاح النووى - سوف تقوم بتجاهل كافة الاطروحات والافتراضات التى تطرحها المدرسة الواقعية فى طريقة تسوية أو حل الصراع مع إيران. معتمداً فى ذلك أيضا على اطروحات واقعية تقول بتعمق وتغلغل الدور الذى يلعبه العسكريون فى صياغة

إن الاقتصاد السياسى للامن القومى الأمريكى قد منعها من التورط فى حرب جديدة ضد إيران



السياسة الإسرائيلية (الداخلية والخارجية). وهى الأطروحات التى تطرق إليها البروفيسور Samuel Huntington فى خمسينيات القرن العشرين فى دراساته عن الدور الذى تلعبه المؤسسات العسكرية فى صياغة سياسات الامن القومى والسياسات الدفاعية للدول القومية (ما عرفه بالنظام البروتيانى). ومن ناحية أخرى؛ فإننى ادعى بأن إسرائيل تمثل حالة دراسة فريدة من نوعها فى انتهاج سياسات مفرطة فى الواقعية؛ حتى لو فاقت المخاطر والاثار الكارثية المكاسب المتوقعة. ويرجع ذلك لطبيعة دولة إسرائيل والنظام السياسى والاجتماعى الإسرائيلى القائم بالاساس على الخوف Fear والشك Suspicion الاستباقية Preemption. فإسرائيل بالفعل مثال لما أعرفه بالدولة القنفذ Hedgehog State صغيرة الحجم ولكنها محاطة بالكامل بالاشواك التى تحميها - بصورة استباقية - من الآخرين وتجعلهم يفزعون منها بالرغم من صغر حجمها وضآلتها. وهو ما تريده إسرائيل بصورة تجعلها فى كثير من الأحيان تبدو - كما يذهب سعد محيو - فى حالة توازن منفرد ضد العالم اجمع.

إن كافة المؤشرات تؤكد أن هذه الدولة الشكاكة والغشاشة والعدوانية بنظامها الهجين «المدنى- البروتيانى» قد اتخذت قرارها بعدم قبول وجود دولة إقليمية بامتلاك سلاح نووى مثل إيران - وهو ما نلمحه بين سطور هذه الكتب. الذى تنظر إسرائيل لنظامها السياسى الحالى بانه نظام ذو أيدلوجية متطرفة وراديكالية لا تتردد فى ارسال شبابها للانتحار من اجل اهدافها التى تعكس خللا كبيرا فى الثقافة والعقيدة التى تحكمه - كما يذهب نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلى فى كتابه الصادر عام ١٩٩٥.

الاقتصاد السياسى للأمن القومى كمقيد للردع

العيب الخطير الذى يواجه أغلبية الواقعيين وطريقة تحليلهم لظواهر العلاقات الدولية والصراعات الدولية هو تجاهلهم - عن دون قصد - للدور الذى تمثله وتلعبه العوامل الاقتصادية فى تشكيل وصياغة نوعية السلوك الخارجى للدول القومية. فقد فشلت الواقعية - كما



إن هذه التحولات لن تقف فى وجه إسرائيل الداعية للحيلولة دون حيازة إيران للسلاح النووى



يجادل البعض - فى ضم وتفسير أثار الظواهر الاقتصادية فى اطارهم النظرى. وهو ما يعتبره الكثيرون عيباً وتقصيراً من جانب الواقعيين ومعوقاً أمامهم وأمام محاولتهم وسعيهم لتقديم تفسير شامل لسلوك الدول. والمؤلفون - بالرغم من كونهم «محافظون جدد» إلا إنهم باتوا يشكلون تياراً فكرياً بات يعرف أمريكياً بالواقعيين المحافظين Conservative Realists - قد وقعوا فى هذا العيب.

إن الاقتصاد السياسى للأمن القومى بات بعد لا يمكن تجاهله بأى صورة عند التطرق للسياسات والاستراتيجيات القومية التى قد تتخذها الدول القومية فى صراعاتها الخارجية. بل ان كبار الواقعيين الجدد قد بدوا فى مراجعة أطروحاتهم التى كانت تعطى أهمية نسبية للعوامل الاقتصادية فى التأثير على السياسات القومية والخارجية للدول. ففى دراسته عن «متى تستخدم الدول قوتها العسكرية» يجادل Kenneth Waltz بان الدول «كلما زادت التكاليف التى يمكن أن تتكبدها نتيجة تورطها ما؛ كلما قلت قدرتها على اتخاذ قدرات متهورة». ومن جانب آخر يجادل Waltz كذلك بأن الدول ليست «نهمة Lust» أو متعطشة بالفطرة لحيازة ولاستخدام القوة العسكرية- كما يذهب الواقعيون الهجوميون مثل Morgenthau, Mearsheimer وغيرهما - وانما تضطر الدول لاستخدام القوة العسكرية عندما تعجز عن إيجاد طرق أخرى لتحقيق مصالحها واهدافها الوطنية. ويذهب Waltz أخيراً للادعاء بأن وضع استراتيجية للحرب هو عملية أسهل بكثير من وضع استراتيجية للحيلولة أو لتجنب هذه الحرب[٢]. وعلى ذلك فإن حسابات المكسب والخسارة تلعب دوراً كبيراً فى تحديد النمط السلوكى وطبيعة استراتيجية التوازن التى قد تستخدمها الدول؛ وليس فقط توزيع القدرات المادية (العسكرية) فقط - كما ذهب Waltz فى كتابه المرجعى الصادر عام ١٩٧٩ وغيره من الواقعيين.

يقول المثل العربى القديم «رب ضارة نافعة». يصدق هذا المثل على أثر الازمة النقدية العالمية الاخيرة على مسارات الصراع الإيرانى - الأمريكى/الإسرائيلى. حيث ادى انهيار اسواق المال والقطاع المصرفى والعقارى العالمى وسيادة احتمال دخول العالم فى دوامات الانكماش وربما الركود والكساد على نوعية الاستراتيجيات التى كانت الادارة الأمريكية تريد تنفيذها فى مواجهتها المتوقعة مع إيران.

إن الاقتصاد السياسى للامن القومى الأمريكى قد منعها - جراء الازمة المالية العالمية - من التورط فى حرب جديدة ضد إيران؛ كانت ستؤدى بالتأكيد إلى ارتفاع مستوى العجز فى ميزان المدفوعات وفى ارتفاع مستويات التضخم وزيادة العجز فى الميزانية العامة للدولة؛ بصورة لم يعد معها الاقتصاد الأمريكى قادراً على تحمل نفقات هذه الحرب. حيث هددت هذه الأزمة المالية الحالية بصورة جدية النظام المالى والنقدى - بل والسياسى - الذى اقامته الولايات المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية[٣]. وهو السيناريو الذى لو انخرطت فيه الولايات المتحدة فى صراع مسلح مع إيران لأمسى واقعاً.

من ناحية أخرى؛ فبينما تراجعت الولايات المتحدة الأمريكية عن سيناريو المواجهة العسكرية المباشرة مع إيران؛ فقد بدأت جدياً فى التفكير بانتهاج استراتيجيات أخرى مثل المهادنة Appeasement والاهتمام بتحقيق المكاسب النسبية Relative Gains فى الشرق الأوسط بدلا من خسارته كلياً. حيث عرضت الولايات المتحدة على الجمهورية الإسلامية انهاء حالة الحصار والمقاطعة الاقتصادية المفروضة عليها مقابل تعهد إيران بتجميد برنامجها النووى. إلا أن إيران رفضت - ومازالت - مثل هذه الاقتراحات بدعوى عدم جديتها.

كانت الولايات المتحدة تتمنى من وراء الغاء حالة الحصار والمقاطعة الدولية عن إيران؛ وتوسيع نطاق المساعدات والاستثمارات الخارجية من جانب المجتمع الدولى إلى تحويل سلوك إيران المتنمر Revisionist إلى سلوك دولة قانعة ترضى بالوضع القائمة Status-quo كما يدعى بعض الواقعيين الجدد. ولكن الاختلافات والخلافات الداخلية بين أجنحة صنع القرار الأمريكى - خاصة بين وزارة الخارجية والبيت الأبيض ووكالة الاستخبارات الأمريكية - حالت دون اتمام مثل هذه الاستراتيجيات الواقعية. وهو ما جعل إيران تتوجس خيفة وترفض محاولات التقارب الأمريكى؛ واتهامها بعدم الجدية فى حل الصراع معها.

من جانب اخر؛ فإن إيران تنظر للتحركات الأمريكية فى المنطقة ومحاولاتها المتكررة لتشكيل تحالف إقليمى يضم إسرائيل وبعض الدول العربية الكبرى مثل مصر والسعودية والاردن ودول مجلس التعاون الخليجى والمغرب وغيرها؛ والعمل على «شيطنة» إيران فى نظر الرأى العام العربى والإسلامى والعالمى؛ وزيادة التحريض الاعلامى ضد إيران وسياساتها فى المنطقة بالادعاء بأنها تسعى للهيمنة الإقليمية Regional Hegemony على الشرق الأوسط ونشر الفكر الشيعى على المسلمين السنة... الخ كما يدعى المؤلفون. وهو الأمر الذى جعلها - أى إيران - تشك فى نوايا الولايات المتحدة وكذلك من محاولات بعض دول المنطقة للتقارب اليها - خاصة دول مجلس التعاون الخليجى - فهذه الدول يفوق حجم مصالحها وارتباطها مع الولايات المتحدة مثيلها مع إيران. ومن جانب اخر؛ فإن تبعية هذه الدول للولايات المتحدة باعتبارها القطب الاوحد فى النظام الدولى والحامى الوحيد Pacifier والضامن لأمنها ولاستقرارها يجعل سياسات وسلوكيات هذه الدول مجرد انعكاس للسلوك وللسياسة الأمريكية تجاه إيران.

حدثت عدة تحولات على كافة المستويات حالت فى رأينا دون توجيه ضربة عسكرية ضد إيران من جانب الولايات المتحدة الأمريكية أو احدى الدول الأوروبية. ولكن؛ ومن جانب آخر؛ فإن هذه التحولات فى رأى الباحث لن تقف فى وجه إسرائيل الداعية للحيلولة دون حيازة إيران للسلاح النووى.

إن التهديد الحقيقى أمام استكمال إيران لمساعيها لحيازة السلاح النووى هو إسرائيل وحلفاؤها



أما عن التحولات التى قد تحول دون تصعيد الصراع الأمريكى - الإيرانى لحرب إقليمية أو دولية فهى كالاتى:

- نجاح إيران فى اقامة نظام تحالفات أقليمى؛ وبتدعيم ومساندة الشعب الإيرانى للمساعى الوطنية الرسمية الرامية لحيازة السلاح النووى.
- استمرار حالة التقييد التى تعانى منها الولايات المتحدة الأمريكية جراء تداعيات الازمة المالية العالمية.
- استمرار الخسائر والتورط المزرى للقوات الأمريكية فى المستنقع العراقى والافغانى.
- نهاية عصر الهيمنة الأمريكية العالمى والإقليمى فى الشرق الأوسط وكما يجادل Richard Haass. الذى يؤكد ان بنية النظام الدولى لم تعد احادية القطبية Unipolarity ولا حتى متعددة الاقطاب Multipolarity - كما يدعى الليبراليون - وإنما أمسى النظام الدولى «عالم اللاقطبية Nonpolarity»؛ اى بلا قوى مهيمنة أو قادرة على فرض ارادتها على باقى الوحدات الدولية وإنما مراكز قوى كثيرة ومتنوعة - ليست دولا - قومية.
- وصول رئيس جديد « ديمقراطى» للحكم فى البيت الأبيض يعطى الاولوية القصوى للداخل؛ وينحو منحى جماعيا Multilateral ودبلوماسيا للتعامل مع الأزمات والصراعات الخارجية والدولية.
- استمرار غياب رؤية عربية موحدة للتعامل مع الطموحات الإيرانية ومساعيها لحيازة السلاح النووى نتيجة استمرار حالة الضعف و «العزلة الاختيارية» التى تعانى منها القوة العربية الكبرى - مصر.
- تضعضع العمل العربى المشترك نتيجة اختلاف الغايات والوسائل والطموحات - بل والولاءات؛ وتردى الاوضاع الداخلية. وسيادة أجواء عدم الاستقرار المحلى داخل أغلب الدول العربية.

أما بالنسبة لإسرائيل؛ فعلى الرغم من توقع النظرية الواقعية إما لاحتمال قبولها التعايش إلى جوار إيران النووية؛ أو قيامها بتوجيه ضربة عسكرية لمنع إيران من حيازة السلاح النووى وتغيير بنية النظام الإقليمى فى الشرق الأوسط؛ إلا أن النظرية لم ترجح كفة أى من الخيارين. فقد يكون Waltz محقاً فى قوله بأن إسرائيل لا خيار أمامها إلا القبول بتحول إيران لدولة نووية إذا نجحت فى حيازة السلاح النووى.

ولكننى أقول - استناداً إلى حقائق تاريخية وافتراضات نظرية واقعية - أقول: بأن إسرائيل لن تقبل أبداً بذلك؛ وستحاول كما دأبت دوماً على القيام بهجوم استباقى أو وقائى ضد أعدائها. وكذلك يذهب المؤلفون. «فقد ولى العصر الذى يصبح فيه اليهود خرافاً تساق للمذبحة» كما يدعى نتنياهو. أو أن تظل إسرائيل فى انتظار «مخلصها» الغربى أو الأمريكى. فإسرائيل توقن أن سر بقائها حتى اليوم ليس الولايات المتحدة الأمريكية أو الغرب؛ وإنما قوتها وانفرادها بامتلاك السلاح النووى. أما إذا حازه أحد جيرانها فإن ذلك سيكون بداية النهاية لدولة إسرائيل. وهى لن تقبل بحدوث ذلك أبداً وتحت أى ظرف. فإسرائيل - كما أعلنت خلال احتفالاتها بعيد ميلادها الستين بأنها- وجدت لتبقى. وهذا البقاء لن يهدده - فى رأى اغلب قادة وصناع القرار والعامة فى إسرائيل - إلا وجود إيران النووية.

ومهما ادعى بعض كبار الواقعيين بأن مقولات وافتراضات النظرية الواقعية - والتى يدعمها السجل التاريخى للتفاعلات والأحداث التاريخية - تؤكد بأن إسرائيل لا سبيل أمامها إلا التعايش «رغماً عنها» جنباً إلى جنب مع إيران نووية[4]. إلا اننا - ومن منظور واقعى أيضاً - نجادل بأن اطروحات وافتراضات المدرسة الواقعية صحيحة تماماً؛ ولكن نظراً لطبيعة ونوعية النظام السياسى والاجتماعى والتاريخى والدينى لليهود عامة ولدولة إسرائيل خاصة ؛ وأيضاً ما يدعمه ويؤكده بالدليل الدامغ السجل التاريخى لسلوك إسرائيل الخارجى وتجاه جيرانها العرب منذ ١٩٤٨ - فإن إسرائيل لن تقبل أو تجبر على القبول بتحول الجمهورية الإسلامية الإيرانية - أو أى دولة إقليمية - بحيازة السلاح النووى.. حتى ولو كان الثمن لذلك هو نهاية دولة إسرائيل.

إن التهديد الحقيقى والعائق الحقيقى (الوحيد) أمام استكمال إيران لمساعيها لحيازة السلاح النووى هو إسرائيل وحلفاؤها على الأراضى الأمريكية (اللوبى الإسرائيلى). الذى كاد ينجح فى جر الولايات المتحدة الأمريكية أثناء إدارة الرئيس بوش الابن لحرب عالمية ثالثة مع إيران.

إن التجربة التاريخية - السياسية التى خاضها اليهود عبر تاريخهم؛ من تعرض لانتهاكات ومذابح وحشية على أيدى الفرس والرومان والكاثوليك والنازيين وغيرهم؛ جعلتهم - بعد أن تم اقتطاع جزء من الأراضى العربية وتحويلها لوطن قومى لهم دون حق - يلجئون إلى انتهاج مذهب عسكرى هجومى Offensive Doctrine بل واستباقى Preemption[5]. فقد اتفق واضعو السياسة الأمنية لإسرائيل بعد حرب ١٩٤٨ وربما قبلها على انتهاج أسلوب وقائى Preventive واستباقى فى التعامل مع مصادر الخطر والتهديد الذى (قد) يهدد مصالح وبقاء دولة إسرائيل ولو افتراضياً Virtual. وهو ما أثبتته الحوادث التاريخية فى المنطقة منذ حرب ١٩٥٦ - ١٩٦٧ - ١٩٨١ - ١٩٨٢ - ٢٠٠٦ - ٢٠٠٨ وغيرها. حيث لخص رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نتنياهو (الذى وصفناه فى مقال سابق هنا فى وجهات نظر كمثالا نموذجى للواقعية الهجومية) أن إسرائيل لن ترضى أبداً بأن تكون مرة أخرى «شعباً من الخراف يساق للمذبحة طوعاً». وعليه؛ فإننا نتوقع قيام إسرائيل بتوجيه ضربة عسكرية (جوية) استباقية Preemption Strike ضد المنشآت النووية الإيرانية. والتى بالتاكيد لن تقدر على تدميرها بصورة كاملة؛ ولكنها ستعطلها لبضع سنوات أو شهور. حتى يتم التوصل لاتفاق أو وفاق دولى أو إقليمى على ضرورة صياغة استراتيجية تهدف إلى القضاء تماماً - ليس فقط على البرنامج النووى الإيرانى ولكن على النظام السياسى الإيرانى نفسه. فهذا بالضبط ما تريده إسرائيل.



قام النظام الإيرانى بمحاولات ناجحة لتنويع القاعدة الاقتصادية الإيرانية



الإدارة الإيرانية للصراع حول برنامجها النووى

فى سبيلها لإدارة صراعها مع الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل وحلفائهم العرب فإن إيران لجأت إلى بناء وتشكيل نظام توازن القوى - بوجهيه المحلى حيث بدأت إيران فى اعادة بناء وترميم وإصلاح أوضاعها الداخلية المتأزمة. وخارجياً؛ عن طريق تشكيل نظام تحالفات ومحاور مع بعض القوى والأطراف الدولية والإقليمية.

محلياً؛ بدأ النظام الإيرانى فى انتهاج سياسات اقتصادية إصلاحية - وإن لم تكن إصلاحات هيكلية - من شأنها تحسين الظروف المعيشية للمواطنين؛ وكذلك استمرار سياسات الدعم الحكومى للسلع الأساسية (كالغذاء والبنزين) لامتصاص الغضب الشعبى من ارتفاع الأسعار جراء نسب التضخم المرتفعة نتيجة تأرجح أسعار النفط العالمية. وكذلك قام النظام الإيرانى بمحاولات ناجحة لتنويع القاعدة الاقتصادية الإيرانية بعيداً عن مجال النفط والصناعات التحويلية لمشتقاته؛ حيث التوسع الزراعى بغرض تحقيق الاكتفاء الذاتى من الغذاء؛ والأهم هو التوسع فى إنشاء قاعدة صناعية - عسكرية؛ مستفيداً من الارتفاع الجنونى الذى وصلت إليه أسعار النفط فى عام ٢٠٠٨؛ محولا بذلك القوة الاقتصادية إلى قوة عسكرية. وكل ذلك - وهذا هو المهم - رغم حالة الحصار والمقاطعة الاقتصادية الدولية المفروضة عليه منذ حوالى ثلاثة عقود.

أما على الجانب الخارجى: وفى سبيلها لمواجهة التحالف الدولى والإقليمى المعادى لها؛ قامت إيران بالعمل على تشكيل ائتلاف ونظام تحالفات مضاد Counter-Alliance للتوازن والتحالف الأمريكى الإسرائيلى. يضم نظام التحالفات الإيرانية أطرافاً دولية رسمية (دولا) وفاعلين دوليين غير رسميين (جماعات هوية وتنظيمات عابرة للقوميات). التى يراها طارق على - رئيس تحرير دورية New Left Review- قد أصبحت من أقوى العوامل والأطراف المؤثرة على عملية صياغة وتشكيل الأحداث فى المنطقة؛ وتحديد مخرجاتها المحلية والإقليمية والدولية.

حيث ضم المحور الإيرانى

قوى دولية مثل الصين وروسيا ودولا وقوى إقليمية مثل باكستان وأفغانستان وسوريا والعراق والسودان ولبنان وموريتانيا. وكذلك نجحت إيران فى استقطاب دول خليجية مثل قطر؛ واستطاعت تحييد دول أخرى مثل البحرين والامارات العربية المتحدة. إلى جانب أطراف دولية غير رسمية Non-State Actors مثل حزب الله وحركة أمل فى لبنان؛ حماس فى الأراضى الفلسطينية؛ الجماعات الشيعية المسلحة فى العراق؛ والتجمعات الشيعية الممتدة عبر الخليج العربى والمنطقة العربية والعالم من أندونسيا وحتى أمريكا اللاتينية. ومن جانب ثالث فإن إيران قد كسبت - وبالضربة القاضية - معركة «العقول والقلوب Hearts & Minds». والمتمثلة فى رفض قطاعات الرأى العام العربى والإسلامى الاداعاءات الإعلامية الداعية لكراهية إيران ونبذها. حيث توضح استطلاعات الرأى العام العربى والإسلامى وجود دعم وتأييد شعبى كبير لدى قطاعات متعددة من الجماهير العربية والإسلامية للسياسات الإيرانية؛ وكذلك محاولات إيران لحيازة سلاح نووى. حيث تنظر الجماهير العربية والإسلامية للسياسات الإيرانية باعتبارها إعادة انبعاث للمشاعر الوطنية والقومية والدينية التى تحارب وتقف فى وجه الاستعمار الأمريكى والغربى الصهيونى المعادى للعرب وللإسلام وللمسلمين.

خاتمة: البحر خلفكم والعدو أمامكم

لم يجد القائد المسلم العظيم «طارق بن زياد» ما يشحذ به همم مقاتليه عند وصوله لآخر حدود اليابسة على شواطئ الأطلنطى إلا أن قال لهم هذه الجملة العظيمة «البحر خلفكم... والعدو أمامكم». فإما أن ننتصر على عدونا أو لنقتل أنفسنا كالحيتان التى تمارس الانتحار الجماعى فى الماء. إن المدرسة الواقعية - التى أنتمى إليها - تتطرق لظواهر العلاقات الدولية كما هى فى الواقع. والتحليل السابق الذى قدمناه قد يصيب البعض بخيبة الأمل وبعض التشاؤم ولكن هكذا يفكر مفكرو «العدو» الإسرائيلى. إن ذكر الحقائق كما هى موجودة على أرض الواقع لا يخيف سوى الضعيف «قليل الحيلة والقدرات». إن العرب مطالبون بالإسراع فى وضع استراتيجية عظمى تقيهم الشرور المحتملة من وراء إدارة وكيفية إدارة إسرائيل لصراع القوى بينها وبين إيران وكيفية الاستجابة الإيرانية على ذلك. فى كلتا الحالتين فإن العرب لا مفر أمامهم. فالعدو «الإسرائيلى» أمامهم؛ والبحر «الإيرانى» خلفهم. وعليهم الخيار... وأى الخيارات سيشكل مستقبل الأجيال العربية القادمة. وهذا هو الاختبار ومصدر التخوف الحقيقى للعرب. أى مستقبل وأى أرث سنتركه لأبنائنا وأحفادنا. هل سنتركهم يعيشون فى «العصر الإيرانى» أم فى «العصر الإسرائيلى» على حد قول أسامة الغزالى حرب. أم أننا قد نشهد أنبعاثا جديدا للعرب... كالعنقاء... تولد من وسط النيران. من يدرى... فالشعوب والأمم مهما طال سباتها لا تموت. ■

(١) يناقض السجل التاريخى لمجمل أحداث العلاقات بين إسرائيل والنظام «الثورى» فى إيران كل ما هو معلن. فعلى الرغم من أن إسرائيل تملأ العالم بصريخها ضد التهديد الذى تمثله إيران على الوجود الإسرائيلى؛ إلا أن الغريب أن النظام الإيرانى لم يطلق رصاصة واحدة على تل أبيب. بل إن إسرائيل كانت الدولة الوحيدة التى وقفت بجانب إيران خلال حرب الخليج الأولى مع العراق - ما عرف بفضيحة إيران كونترا.

(٢) إن Waltz لم يقل بأن الولايات المتحدة لا تستطيع مواجهة إيران أو غيرها عسكرياً للحيلولة دون حيازتها للسلاح النووى؛ ولكنه يرى ان شروط استخدام الولايات المتحدة للقوة العسكرية فقط عندما لا تجد طريقًا أخرى لتحقيق اهدافها ومصالحها الوطنية. كذلك ذكر والتز إنه من السهل إنجاز استراتيجية تساعدنا على خوض الحرب؛ أما الصعب فهو ايجاد استراتيجية تجنبنا مغبات التورط فى إحدى هذه الحروب.

Kenneth Waltz: “A Strategy of Rapid Deployment Force, in Robert Art and Kenneth Waltz (eds): “The Use of Force: Military Power and . (Lanham: MD;» International Politics University Press of America, 1988).

Kenneth Waltz: “Theory of . (Reading; MA:»International Politics Addison-Wesley, 1979).

(٣) أحمد محمد أبو زيد: «أزمة الأقتصاد السياسى». جريدة الخليج (الخميس ٢ أبريل ٢٠٠٩).

(٤) هذه رؤية عالم السياسة الكبير Kenneth Waltz.

Scott Sagan, Kenneth Waltz and Richard Betts: “A Nuclear Iran: Promoting . Journal»Stability or Courting Disaster of International Affairs, Vol. 60, No. 2 (Spring/Summer 2007), pp. 143-148.

(٥) لاحظ المؤلف أن المؤلفات باللغة العربية التى تطرقت للمذاهب العسكرية والاستراتيجية الإسرائيلية تكاد تكون قليلة إن لم تكن معدومة. فبعيداً عن الكتابات الصحفية والانطباعية وأساليب نظريات المؤامرة والتفكير بالتمنى؛ لم يجد الباحث فى ما أطلع عليه دراسات جديرة بالاحترام إلا الدراسات المتميزة للراحل العظيم «حامد ربيع» و النابغة الراحل «جمال حمدان». ومؤلفات الأستاذ الكبير «محمد حسنين هيكل» خاصة مجموعة «حرب الثلاثين عاماً». ومؤلفات الراحل «أمين هويدى».

أصل المخاوف



آريــيــــــــــل إيـــــــــلان روث
Ariel Ilan Roth

■ ■ إن العلاقة الخاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة على وشك أن تدخل على ما يبدو فى أصعب مراحلها على الإطلاق. فإسرائيل تستشيط سخطا تجاه جهود إدارة أوباما لاستخدام الدبلوماسية لعرقلة برنامج إيران المتنامى لتخصيب اليورانيوم. وتعلم إسرائيل أكثر من أى شخص آخر أن الخدعة فى تطوير سلاح نووى بالنسبة لدولة صغيرة تكمن فى مماطلة العملية الدبلوماسية وعمليات التفتيش لمدة تكفى لإنتاج كميات كافية من المواد القابلة للانشطار. يجب أن تعلم إسرائيل ذلك: فقد تعمدت إسرائيل فى الستينيات من القرن الماضى أن تضلل المفتشين الأمريكيين وقامت بتأخير الزيارات الميدانية عدة مرات، مما منحها الوقت لإنشاء مفاعل ديمونة الخاص بها وإعادة معالجة كمية كافية من البلوتونيوم لصناعة قنبلة. وقد اتبعت كوريا الشمالية نهجا مشابها وحققت نتائج مماثلة. وتشك إسرائيل الآن فى أن إيران تفعل الشىء نفسه، ولكن مع اليورانيوم عالى التخصيب بدلا من البلوتونيوم.

يعتقد معظم المراقبين أن هاجس إسرائيل تجاه برنامج إيران النووى يرجع إلى خوفها من احتمال أن تستخدم إيران سلاحا نوويا ضد إسرائيل أو أن تسلم القنبلة إلى أحد وكلائها المباشرين، حزب الله على الأرجح. ومع أخذ عداء إيران الواضح تجاه إسرائيل فى الاعتبار، فإن مثل هذا التشاؤم يكون منطقيا. ولكن مثل هذا السيناريو بعيد الاحتمال على الأرجح.

على الرغم من كراهية إيران الشديدة تجاه الدولة اليهودية، فمن غير المرجح أن تهاجم إسرائيل بسلاح نووى لأن الترسانة الذرية لإسرائيل أعظم حجما عشرات المرات من أى قدرة ناشئة قد تحشدها إيران فى المستقبل المنظور. بل يعتقد أن إسرائيل تمتلك قدرة محصنة من سلاح الغواصات قادرة على توجيه ضربة ثانية يمكنها تدمير إيران.

كما لا يمكن أيضا أن تزود إيران حزب الله بأسلحة ذرية بسهولة. فلم تقم أى دولة نووية على الإطلاق بتسليم أثمن مقوماتها العسكرية إلى لاعب ثانوى أو تتخلى عن سيطرتها الحصرية على سلاح بذلت جهودا هائلة للحصول عليه. والأكثر أهمية أنه لو حصل حزب الله على سلاح نووى واستخدمه ضد إسرائيل، فلن يكون هناك شك حول مصدر السلاح وسوف تواجه إيران فورا ثأرا مدمرا. بمعنى آخر، فإن هجوما على إسرائيل قد يعنى نهاية إيران.

على الرغم من أن كثيرا من المحللين يتشككون فى عقلانية النظام الإيرانى، إلا أنه فى الواقع متحفظ بدرجة معقولة فى سياسته الخارجية. إن لدى إيران هدفين بعيدى المدى، تحقيق هيمنة إقليمية ونشر الإسلام الأصولى، ولن يتحقق أى منهما إذا بدأت إيران تراشقا نوويا مع إسرائيل.

بترتيب مع
Foreign Affairs

ترجمة عادل فتحى

إن نفوذ إيران المتزايد فى العراق والخوف الذى تبثه فى دول الخليج الفارسى يحققان الهدف الأول بالفعل. إن إيران لا تحتاج لاستخدام أسلحة نووية بل فقط امتلاكها، وذلك لكى تزيد من هيبتها الدولية وتجبر خصومها على أخذها على محمل الجد. كذلك فإن قوة الردع لقدرة نووية غير مستخدمة سوف تمكن النظام من نشر عقيدته دون القلق باستمرار من تغيير للنظام يفرض من الخارج.

وحيث إنه من المشكوك فيه أن إيران سوف تستخدم أسلحة نووية ضد إسرائيل أو تتخلى عن السيطرة على السلاح الأعظم إلى حزب الله - وهى نقطة طرحها مؤخرا الجنرال المتقاعد «شلومو جازيت» فى «معاراشوت Ma'arachot»، الجريدة ربع السنوية التى يصدرها الجيش الإسرائيلى - فمن الممكن أن نفترض بأمان أن منبع هاجس إسرائيل تجاه إيران يكمن فى مكان آخر.

إن إسرائيل تخشى أن طموحات إيران النووية يمكن أن تقوض تفوقها النوعى فى الأسلحة وقدرتها الراسخة على إنزال خسائر فادحة بخصومها - وهى حجر الزاوية فى إستراتيجية الدفاع الإسرائيلية. ورغم أن بعض المثاليين يحلمون بمصالحة فى الشرق الأوسط على أساس من الاعتراف الحقيقى والمتبادل بالحقوق المشروعة لجميع الأطراف، فإن غالبية الإسرائيليين يعتقدون أن مفتاح السلام الدائم فى الشرق الأوسط يكمن فى إقناع خصوم إسرائيل بأن الإطاحة بها عن طريق القوة هى مهمة مستحيلة لا تستحق المتابعة.

تكمن أهمية تسويق هذا الشعور باليأس فى قدرة إسرائيل على مواصلة ضرب أعدائها فى ميدان المعركة مع معاناة خسائر أقل كثيرا مما تنزله بهم. إن البرنامج النووى الإيرانى يهدد قدرة إسرائيل على تحقيق ذلك بطريقتين. أولا، من المرجح أن تؤدى قدرات نووية إيرانية إلى إرغام إسرائيل على كبح جماحها خوفا من أن أسلحة إيران النووية قد توفر ضمانا أمنيا ضمنيا لقوى أخرى معادية للصهيونية - وهو نوع الضمان الذى قد يمنع إسرائيل من إنزال الخسائر



الفادحة مثلما كانت تفعل فى الماضى، بينما يمنح القوى المعادية لإسرائيل الثقة لمواصلة القتال.

إن تقييد حرية إسرائيل أثناء الحرب قد يأخذ أشكالا عدة، ولكن من غير المرجح أن المسار المفرط الذى اتخذته حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، أو التهديد المباشر المحدق بالعواصم العربية فى نهاية حرب يوم الغفران عام ١٩٧٣، كان يمكن أن يتحققا فى ظل ضمان نووى وشيك من خصم إقليمى حقيقى مثل إيران، وليس من قوة عظمى بعيدة مثل الاتحاد السوفيتى، يكمن اهتمامها الأول فى إهانة القوة المنافسة لها وليس فى تدمير إسرائيل.

إن التهديد الأكثر خطورة الذى يطرحه برنامج إيران النووى هو قدرته على إطلاق العنان لانتشار نووى سريع فى الشرق الأوسط، بدءا من مصر والمملكة العربية السعودية. فبالنسبة لكلتا الدولتين، فإن فكرة أن اليهود والفرس يمكن أن يحتكرا الأسلحة النووية فى منطقة يسودها العرب ديموجرافيا وثقافيا هى فكرة مهينة. وبالنسبة للمملكة العربية السعودية فسيكون هناك دافع أمنى مطروح أيضا، بالنظر إلى قربها الطبيعى من إيران والضرورة الإستراتيجية لردع أى تهديد إيرانى لتسهيلات إنتاج النفط فى المملكة.

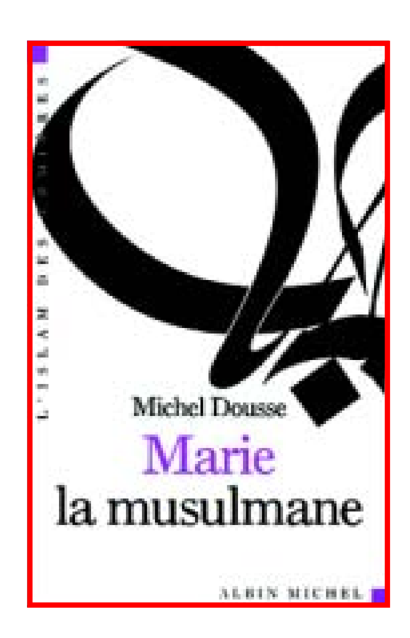
إن تطوير أسلحة نووية من قبل مصر أو المملكة العربية السعودية سوف يمثل خطرا حقيقيا للدولة اليهودية، رغم حقيقة أن مصر قد وقعت معاهدة سلام مع إسرائيل. ويرجع ذلك إلى أن الزعماء الذين وطنوا أنفسهم على قبول وجود إسرائيل - بمن فيهم زعماء مصر والأردن وفصائل معينة من الحركة الوطنية الفلسطينية - إنما فعلوا ذلك لأنهم آمنوا أن إسرائيل كانت قوية ولكنها - على الأرجح - لن تصمد على المدى الطويل. فعلى سبيل المثال، برر الرئيس المصرى أنور السادات سعيه إلى عملية سلام مع إسرائيل بمقارنته الإسرائيليين بالصليبيين: اليوم أقوياء، غدا راحلون. وبوضوح أكثر، فكما أوضح كتاب عالم السياسة الفلسطينى-الأمريكى هلال خشان حول المواقف العربية تجاه السلام، فإن استعداد العرب للصلح مع إسرائيل هو نتيجة مباشرة لإدراكهم أنها منيعة. وتماما، مثلما تنطوى قدرة نووية إيرانية على ضمان نووى لوكلائها المعادين للصهيونية، فإن قدرة نووية مصرية أو سعودية قد تثبط من دوافع دول عربية أخرى للصلح مع إسرائيل، لأنهم - بانضوائهم تحت مظلة نووية عربية - لن يعودوا خائفين من التعرض لهزيمة منكرة أو فقدان مزيد من الأراضى.

إن مثل تلك التطورات قد تحطم مفهوم المناعة الإسرائيلية التى علقت عليها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة آمالها فى سلام نهائى بالمنطقة. ونتيجة لذلك، فإن أمن إسرائيل سيبقى معتمدا على الإبقاء على استعداد مسلح دائم وترقب شديد الحذر يستطيع مواجهة التهديدات الفورية ولكن فقط بطريقة غير حاسمة، كما تبين مؤخرا فى لبنان وغزة. إن ضبط النفس الذى أظهرته إسرائيل فى كلا الصراعين بسبب الامتثال للمخاوف الأمريكية والأوروبية سوف يزداد نظرا للمخاوف الجديدة من تجاوز خط عربى أحمر. من المرجح أن تكون العمليات المستقبلية المشابهة لغزو لبنان عام ٢٠٠٦ أو الهجوم على غزة فى يناير عام ٢٠٠٩ أكثر ضبطا للنفس، ولذلك، فوفقا للمعايير الإسرائيلية الخاصة، ستكون مثل تلك العمليات أقل فعالية لدفع العرب نحو السلام. فى الواقع أن مثل تلك العمليات قد تكون ضارة بإسرائيل بدلا من أن تكون لصالحها، حيث أنه باستخدامها لقوة أقل وإنزالها خسائر أقل، فإن تأثير الردع الذى تأمل إسرائيل فى تأكيده من خلال مثل تلك العمليات سوف يتعرض لمزيد من التآكل.

إن إمكانية أن إسرائيل ربما لن تعد قادرة على فرض السلام على أولئك المنكرين لحقها فى الوجود قد بدأت تلوح لكثير من الإسرائيليين. وسواء هاجمت إسرائيل البنية التحتية النووية لإيران أم لا، فقد حان الوقت لمجتمع الدفاع الإسرائيلى لتطوير عقيدة إستراتيجية لتعايش طويل الأمد لا تعتمد على استعراض المناعة. ولكن بالنظر إلى أنه لا يبدو أن هناك فى الأفق قبولا عربيا واسعا لحق إسرائيل فى الوجود، فإن غالبية الإسرائيليين، بمن فيهم رئيس الوزراء الحالى، يصرون على أن الهدف الإستراتيجى الأكثر إلحاحا لإسرائيل هو منع إيران من تطوير سلاح نووى. إن القيام بذلك قد يطيح مؤقتا بتهديد الانتشار النووى ويحافظ على تفوق إسرائيل فى التسليح. والأكثر أهمية أن ذلك قد يؤكد الشكوك بأن إسرائيل ربما لا تحقق أبدا سلاما حقيقيا. إن لذلك الخوف متزايد الانتشار تأثيرا ضارا على الروح المعنوية الوطنية، ويمثل تهديدا وجوديا للدولة اليهودية، ويكمن فى أصل الهاجس الإسرائيلى تجاه القنبلة الإيرانية. ■



مريم "المسلمة"



ميشيل دوس
Michel Dousse

■■ هنالك طرفة تعود إلى بدايات الإسلام الأولى، قد أتى على ذكرها الرواة المسلمون منذ نهاية القرن السابع، وتجعلنا نشعر، خيراً مما تفعل أية حجة، بمناخ الورع الروحى والاتحاد بالإيمان مع المسيحيين، الذى رُسِمت فيه صورة مريم منذ الشهادات الإسلامية الأولى.

حين بدأت دعوة محمد تلاقى بعض الصدى فى صفوف مواطنيه فى مكة، انتاب القلق سُراة المدينة المشركين، وخافوا على مصالحهم من أن ينالها من الدعوة الجديدة الضُر. ومكّة آنذاك مدينة قوافل هامّة، تتوسط تجارةً مزدهرة. ولما لم يجرؤوا على إلحاق الأذى بالرسول مباشرة، نظراً للمكانة الكبرى التى يتمتع بها عمّه أبو طالب، صبّوا أذاهم على الناس البسطاء من أفراد الدين الناشئ، حتى جعلوا حياتهم مستحيلة. وكان محمد شاهداً على تلك المنغّصات، فنصح ضحايا أعمال القمع بمغادرة المدينة سراً والتوجّه إلى الحبشة لاجئين عند النجاشى، ملكها المسيحى. حصل ذلك فى حدود عام ٦١٦، ليكونَ أولَ ارتحالٍ للمسلمين عن ديارهم، أى هى الهجرة الأولى فى الإسلام (حصلت الثانية من مكّة إلى المدينة، وكان الرسول من أول المهاجرين عام ٦٢٢، فاعتُمِدت بدايةً للتقويم الإسلامى).

حين فطِن سراة مكة لهروبهم، قرروا إرسال وفد إلى النجاشى للمطالبة بإرجاع أولئك المنشقين إلى بلادهم. وعلى الرغم من الحُجج التى ساقها المبعوثون، ورغمَ هداياهم الثمينة، رفض الملك أن يستجيبَ لمطلبهم ويطردَ أولئك اللاجئين ضدَ رغبتهم، من قبل أنْ يراهم ويسمعهم. فقام باستدعائهم وطرح عليهم السؤال التالى: «ما حقيقة هذا الدين الذى دعاكم لأنْ تهجروا قومكم، على الرغم من أنكم لم تدخلوا فى دينى أنا ولا فى دين أىّ من الشعوب المحيطة بكم؟».

فأوضحوا له أنّ الله بعث برسول منهم يدعوهم للشهادة بالتوحيد الإلهى، وبرفض الأوثان، والصدق وقول الحق والوفاء بالعهد وصلة القريب والجار. فطلب الملك إليهم تلاوة ما تيسّر من ذلك الوحى الجديد. فتقدّم أحدهم، واسمه جعفر، فتلا بعضاً من سورة «مريم» التى كانت حديثة العهد بالنزول:

«واذكرْ فى الكتاب مريمَ إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقياً. فاتخذتْ من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويا...» (مريم:١٦، ١٧)

ويجب التنويه فى هذا السياق بالطريقة التى يؤسّس فيها القرآنُ المسيحية، من وجهة نظره، فيجعلُها تقدِم على هجرة، هى هجرة أم عيسى المسيح العتيدة، التى تنفصل عن ذويها، وكم لذلك الوجه أنْ يكون بليغاً فى خطابه لأولئك المسلمين الأُوَل المرغمين هم أيضاً على الرحيل عن ديارهم.

ويقول الراوى إنّ النجاشى تأثر لسماع تلك التلاوة حتى فاضت دموعه، وكذلك حال الأساقفة الذين استدعاهم لسماع حكمهم، فبكَوْا. كأنّما دلالةً على ما أحدث سحرُ اللغة القرآنية نفسُه حتى من قبل أنْ يفهموا معنى الكلمات التى تُليت. ثمّ بكى الجميع أكثر حين تُرجِمت لهم. عندئذ أعلم الملك المبعوثين المكيين بأنّ عزمه قد عُقد وأنّه لن يسلِّمهم أبناء جلدتهم.

إلا أنّ المبعوثين لم يسلّموا بهزيمتهم وعادوا فى اليوم التالى إلى العاهل لإقناعه بتغيير رأيه. وتذرّعوا بأنّ الذين يؤويهم يزعمون بأنّ السيد المسيح عبد (لأن كلمة «عبد» تعنى بالعربية الرقيق والعابد). فأمر الملك باستدعاء المؤمنين مجدداً لاستجوابهم، وسؤالهم هذه المرة تحديداً عما تعلّموا بشأن المسيح. فأجابه جعفر نفسه: «نقول عنه ما علّمنا نبيّنا، إنّه عبد الله ورسوله وروحُه وكلمته التى أُلقيت إلى القديسة مريمَ العذراء البتول».

فأمر الملك بأنْ تُرَدَّ للمبعوثين هداياهم وأن ينصرفوا نهائياً دون أنْ يتنازل لهم عن شىء. أما عن جماعة المؤمنين الصغيرة، فأعلن أنَ بوسعهم البقاءَ فى بلاده بأمان، قدر ما يشاؤون، وأنْ يمارسوا فيها عبادتهم بحرّية[1].

ومهما يكن من الواقعية التاريخية لهذه الحادثة، بل حتى فى حال أنّ الأقوال المنسوبة إلى أبطالها الرئيسيين قد وُضعت فيما بعد، فإنّ ذلك لا يحول دون أنّ واقعَ وجودها فى أقدمِ الروايات، يشهدُ وحده على القرابة الروحية المُعْتَرَف بها منذ فجر الإسلام. لا يمكن إذن للحكاية تلك أنْ تكون نتاج محاولة مسيحية ما، جاءت لاحقاً، فى معرض «احتواء» للقرآن. إنّها تشكل شهادة أصلية وحيّة على الطريقة التى استُقْبِلَ بها الوحىُ الجديد، فجرى تفسيره وتمثله وتجسيده من قبل الجماعة الإسلامية الأولى.

إنّ صورة مريم تقعُ فى لبّ ذلك اللقاء وقوعاً ذا دلالة. وسواءٌ اختار المسلمون أنْ يُقدِّموا أنفسهم للمسيحيين من خلالها أو أنّ مسيحيى الحبشة أحسنوا استقبالهم عرفاناً لذلك التكريم الموجّه لمريم، فإنّ ذلك يبيّن كم تُطلّ صورةُ مريمَ منذ البداية على سرٍ معترَف به اعترافاً مشتركاً، لا على مجادلة.

صفة استثنائية لصورة
مـــريم فى القـــرآن

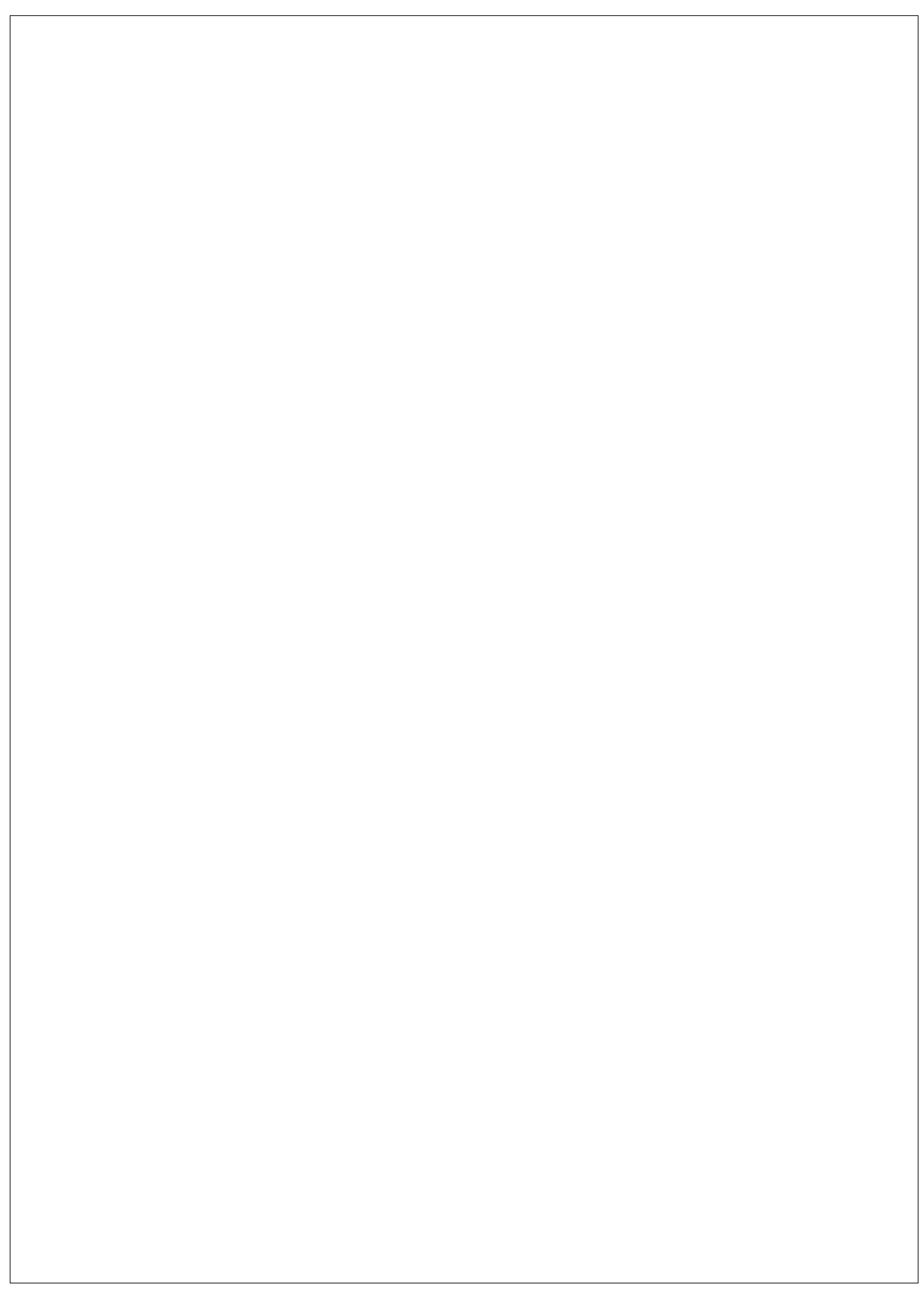
نقع على اسم مريم، أمّ عيسى، مذكوراً فى القرآن أكثر مما هو مذكور فى العهد الجديد بأجمعه[2]:

للاستزادة:

Marie la musulmane
Michel Dousse
L‘islam des Lumières
Albin Michel

■■■

مريم المسلمة
ميشيل دوس
ترجمة عبود كاسوحة
قدمس للنشر ـ دمشق ٢٠٠٨
بالتعاون مع المعهد الفرنسى للشرق الأدنى – فرع الدراسات العربية ـ ٢٠٤ صفحات



نجده فى أربع وثلاثين واقعة مقابل تسع عشرة مرة فى الأناجيل وأعمال الرسل (لا وجود له فى الرسائل ولا فى الرؤيا). لكنْ علينا أنْ نلاحظ أنّ الاسم يظهر ثلاثاً وعشرين مرة من بين الأربع والثلاثين مشفوعاً بالإعلان عن اسم ابنها «المسيح عيسى بن مريم» (أو «ابن مريم» فقط). وبالتالى فإنّ مريم ليست مذكورة باسمها ولذاتها سوى إحدى عشرة مرة. ولنُشِرْ، على سبيل المقارنة،الى أنّها لم تُذكر فى العهد الجديد بمجموعه مرات أكثر بكثير (تسع عشرة مرة فقط). ولئن كانت المكانة التى تحتلّها متواضعةً نسبياً إذن، من وجهة نظر عدد مرات ذكرها، فإنّ دورها مع ذلك سام ومركزى، لكنْ بلهجات متباينة وتأثير بواعث شتى فى هذا الجانب أو ذاك. ويظهر فى القرآن، بخلاف العهد الجديد، بعضُ التوازن فى عدد المرات المتعلقة بذكر مريم وابنها الذى يرد اسمُه خمساً وعشرين مرة (يقابلها ألفٌ ومئةٌ وسبعٌ وثلاثون مرة فى العهد الجديد). فتشكلُ هذه الملاحظات الإحصائية، الخارجية تماماً وذات المدى المحدود بالتالى، دليلاً لا يصحّ إهماله حول تنوّع المنظورات ووجهات النظر بين الجانبين.

إلاّ أنها المرأة الوحيدة - ولهذا الواقع دلالة خصوصية - التى يُشارُ إليها باسمها، فى القرآن كلّه. بل حتى حواء، أمّ البشرية، لا تظهرُ فيه إلا بوصفها «امرأة آدم». ولا تُذكر كافة الوجوه النسائية الأخرى إلا مقرونة برجل (مذكور هو باسمه الشخصى)، وبوصف وضعها حيالَه، زوجة أو أماً أو ابنةً أو أختاً. وكأنّما مريم بتلك الإشارة الاسميّة، لا الاستثنائية فقط بل الفريدة، تختصرُ بصورتها كافة النساء، بدءاً بحواءَ التى تجدُ اسمها فيها.

وإذا ما تجاوزنا كل مرجعية اجتماعية حول مكانة المرأة التى يتوجّه إليها القرآن داخل الجماعة، فإنّ بوسعنا أنْ نتبيّن فى ذلك الاستثناء، الظاهر فى منتهى الوضوح، إشارة إلى المكانة الفريدة التى تحتلها مريم ضمن المخطط الذى وضعه الله لخلاص العالم.

يُضاف إلى ذلك أنّ مريم فى القرآن هى المرأة الوحيدة المكرّسة لله حتى من قبل أن تولد (آل عمران: ٣٥) والوحيدة التى يتولّى الملائكة أنفسُهم السلامَ عليها بكل تبجيل، بوصفها من قبل الله مرتين بالمصطفاة والمفضلة «على نساء العالمين» (آل عمران: ٤٢).

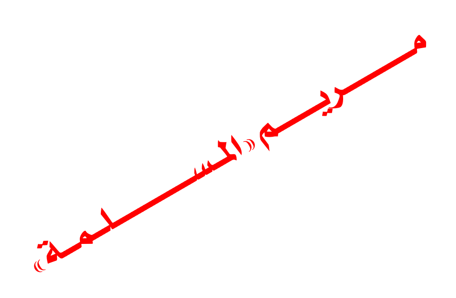
هذه المكانة الخارقة التى خُصّت بها مريم تثير الدهشة، لاسيما أنّ القرآن، بخلاف الأناجيل، لا يعترفُ بسرِ التجسّد والفداء، الذى يشكّل أساسَ الإيمان المسيحى نفسه. بل نقول بمزيد من التحديد إنّه لا يعترف بألوهية ذاك الذى يدعوه «عيسى ابن مريم»، ولا بحقيقة دربِ آلامه، ولا بموته على الصليب، ولا بقيامته. فالمسيح وفقاً للقرآن، لم يمتْ بل رفعه الله إليه دون المرور بمحنِ العذاب (٣-٥٥).

وفضلاً عن تدوينات أساسية، لكنّها دقيقة ومتفرِّقة، يكرّس القرآن لمريم حكايتين متواصلتين وطويلتين نسبياً، ومختلفتين جداً فى الشكل والمضمون، وكان الوحى بهما متباعداً زمنياً. تقع الحكاية الأولى فى السورة ١٩ واسمها «مريم»، وهى وفقاً للتقليد مكّية. والأرجح أنها الرابعة والأربعون من حيث تاريخ التنزيل. أما الأخرى فهى السورة ٣ واسمها «آل عمران» التى نزل بها الوحى فى المدينة، فتقع لاحقاً وعلى فترة طويلة إلى حد ما. ويردُ ذكر مريمَ خارج حدود هذين المرجعين الرئيسين، فى خمس سورٍ أخرى تتوزّع زمنياً حول هذين القطبين.

وعلى الرغم من أنّ صورة مريم لا تقبل الفصل عن ابنها، سواء فى القرآن أم فى الأناجيل، فإنّ المرجعية إلى يسوع المسيح (عيسى) ليست مع ذلك متماثلة بين طرف وآخر، وتحديداً ضمن الحدّ الذى لا يكون فيه المسيح يتّسم بالهوية نفسها (الهوية الإلهية). والحالُ أنّ كافة المزايا المعترفُ بها لمريم، وفقاً للتراث المسيحى ولاهوت الكنيسة (الكاثوليكية)، إنما هى بصفة وضعها «أمّ الربّ» ثيوتوكوس (theotokos) على نحو ما أقرّ مجمع أفسس علناً عام ٤٣١.

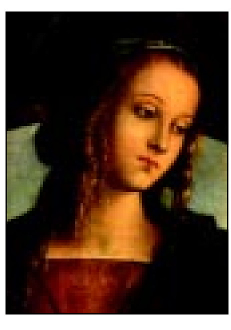
أما فى القرآن، فمريم هى التى تدخل فى تسمية ابنها: «عيسى ابن مريم»، بدءاً من تسميته: «المسيح عيسى ابن مريم» وليس العكس (مريم أم عيسى). تجعلنا هذه الدلالة الأوّلية نشعر سلفاً بأنّ القرآن يتصدى لسرّ يسوع المسيح انطلاقاً من سرّ أمه، وسوف نرى أنّ صورة مريم تتبوأ فيه حصة كبرى مما لم يُقَل بشأن ابنها.

السؤال المركزى إذن، والذى نجد أننا نتصدى له هو مثالى: بأية صفة يقلّد القرآن صورة مريم موقعاً استثنائياً جداً، فيضعُها فوق الكائنات كلها، إنْ لم يكن بوصفها والدة الرب؟ وتشير إلى ذلك السورة الخامسة، سورة المائدة، التى جاء فيها: «ما المسيح ابنُ مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام انظرْ كيف نبيِّنُ لهم الآيات ثم انظرْ أنّى يؤفكون...» (٧٥). ينمّ هذا التأكيد على موقع عام فى القرآن حيال مريم وعيسى: إنها الإشارة من ناحية وبإلحاح إلى صفتهما البشرية، ويسعنا القول «الحالة السوية». ومن ناحية أخرى عدم تجاهل البعد الخفى أو الغامض الذى يضعهما على حدة حيال البشر كافة، فى علاقة خارقة وفريدة فيما بينهما، وفيما بين كل منهما والخالق فوراً.



فى القرآن، نقع على اسم مريم، أمّ عيسى، مذكوراً أكثر مما هو مذكور فى العهد الجديد بأجمعه







حكايتا سورتى مريم وآل عمران

لمَ يعرضُ القرآن حكايتين طويلتين تفصّلان الإشارات الرئيسةَ فى حياة مريم وابنها؟ قبل أن نقترح جواباً أولياً على هذا السؤال، نذكر بأنّ الأناجيل الأربعة نفسها تعرض أربع روايات من شهادة بالإجماع تتعلق بمريم. وهنالك العرض الآخر من لوقا عبر ما سُمّى بإنجيل الطفولة، يورد فيه طرائفَ عديدة غنيّة بالدلالة، وعرضٌ آخرُ من يوحنا للصيغة اللاهوتية الأكثر تنقية للسرّ الذى يتصدى له، بدءاً من الأزلية والأخروية، وهو المجال الذى يكشف فيه القرآن عن تماثل أكثر خصوصية مع يوحنا (وذلك ما يتم التحقق منه عبر أمثلة عديدة أخرى).

ينبغى أن نشير أيضاً إلى أنّ القرآن لا يعتمد، حتى فى هذه الحالة، شكل سيرة حياة خالصة، بخلاف الأناجيل الإجمالية، لا سيّما إنجيل لوقا. فتقوم وظيفة السرد الرئيسة فيه على استدعاء إشارات الكشف الهامّة وتجميعها فى بوتقة ذات دلالة بنفسها. ولا يسعى القرآن إلى تدوين اسم مريم فى تاريخ العهد وسلالاته، بل باقتراح صورتها على أفق الآيات[٣] التى تسود التاريخ. وقد فعل يوحنا الشىء نفسه فى الرؤيا حين أعلن قائلاً: «آية عظيمة ظهرت فى السماء: إنّها امرأة...» (١٢-١).

ولئن كانت السورتان ١٩ و٣ متقاربتين بالمواضيع المتناوَلة والمتعلقة بمريم، وبالسرِّ الذى تهبه صورة وبالمنصب الذى تتسنّمه فى القصد الإلهى المتعلق بالكشف التوحيدى بمجمله، فإنهما تتباعدان مع ذلك تباعداً عميقاً فى الزاوية التى تتصديان منها لما سبق، وتلوينها الروحى على التوالى.

ففى حين أنّ سورة مريم رقم ١٩ - التى لا تتجاوز ثمانى وتسعين آية - مسجوعة من (الخواتم هى «يان» أو «آن»، باستثناء الآيات ٣٤-٤٠)، مما يجعلها من حيث الشكل تنطوى على نفسها فى مناخ من الحميمية والاستبطان، فإن السورة ٣ «آل عمران»، أكثر جلاء، واتساعاً وعلانية - فيها مئتا آية. وهى سورة تصريحية أكثر منها تأمليّة. ومع ذلك، فإنّ الآيات المخصصة لمريم، حتى فى هذه الحال، وبشكل خصوصى أكثر الآيات التى تروى البشارة، تستعيد حميمية التأمل المضيئة استعادة غامضة.

تتميز السورة ١٩ «مريم» بتلوُّن عام ذى عذوبة كبرى وحميمية. وهى كذلك السورة التى يرد فيها ذكر الله «الرحمن» مكرراً (ست عشرة مرة من بين ست وخمسين مرة فى القرآن بمجموعه)، فى حين أنّه لم يرد مرة واحدة بهذا الاسم فى السورة ٣ (آل عمران). لئن كان هذا التعبير عن الله هو شائع ومستخدم لدى المسيحيين جنوب الجزيرة العربية، فلا يكفى بالتأكيد ليفسّر سبب استخدام هذه التسمية الإلهية بأكبر تواتر فى هذه السورة تحديداً والتى تحمل اسم مريم. فهنالك استشعار بوجود لباقة أساسية، أكثر غموضاً.

تأتى السورة ٣ «آل عمران» متأخرة أكثر، وشاهداً على مناخ آخر روحى وترابطى بالملّة الجديدة التى نضجت، وتماسكت ووجدت حيالها، بالإضافة إلى معتنقى الديانة العربية التقليدية، عدداً أكبر مما كان فى مكة من اليهود والمسيحيين الذين يذكرهم القرآن بتعبير «أهل الكتاب». وكان لتلك المجابهة، الخلافية فى الغالب، تأثير لا يُنكَر على وعى هويتها عبر تجربتها المعكوسة والمنتَقَدة والمضاءة بالوحى.

بينما كان الجدل غائباً عن السورة ١٩ «سورة مريم»، المكرّسة بكاملها للتذكير بالسّر المفترض أنه موضوعُ اعتراف المسيحيين، فإنّ السورة ٣ توضح المواقف المتتالية وتعيّنها. لكن، بعد تجاوز كل مجابهة مع الملل الأخرى، يتراءى بصورة إيجابية الاهتمامُ القرآنى بإبراز «شركة» أو رؤية جامعة للوحى

التوحيدى، منذ الخليقة وحتى يوم الحساب. وإنما تجرى ضمن هذا المنظور، مواجهة اختيار آل عمران بآيته ونتائجه، وكذلك الحال بالنسبة لاختيار مريم، ولكن بخصوصية أكبر وبشكل شخصى لافت.

الهوية المزدوجة لمريم فى القرآن

إن ما يمكن أن يباغت القارئ غير العالِم بالوحى القرآنى، بادئ ذى بدء، ناهيك بتشويشه، هو أن «مريم» تجمع فى ذاتها شخصية بنت عمران - بفعل ذلك أختُ موسى وهارون - وشخصية أم يسوع. فالسورة ٣، المسماة تحديداً «آل عمران»، تقول بجلاء ووضوح إنّ تلك الطفلة التى وضعتها امرأة عمران وسمّتها مريم ونذرتها للهيكل، هى نفسها التى تلقّت من الملاك، فى المكان نفسه، البشارة بيسوع. كذلك تقدم السورة (١٢:٦٦) مريم أنموذجاً كونياً للمؤمنين والمؤمنات، فتقول فيها «...ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين.» يمنح هذا العرض، الذى يجابه التاريخ والتسلسل الزمنى، امتيازا لمبدأ آخر من التنظيم، وتركيب آخر من الآيات التى سيكون علينا أن نكتشف سَدادها ومرماها. ومن البداهة ألا يتعلّق المرء بخلط بين الأشخاص ولا بتماثل فى اللفظ، بل بتشخيص صورتين تتحققان فى مريم بوصفها أم عيسى (يسوع). يهمّنا إذن أن نأخذ على محمل الجد هذا التحدى للعقل التاريخى، الذى يطلقه الوحى القرآنى، عن طريق السعى إلى سبر دلالته بدلاً من تجنبه. فالقرآن لا يجرى، عبر التطابق النموذجى للوجهين المريميين، استنسابا جذرياً للتاريخ وتشابكاته، انطلاقاً من وجهة نظر تؤثِر الأصل، أى الخلق، بل يحدّد العزم على تجميع الدلائل المبعثرة فى الزمن بتنظيمها فى علائق مستحدثة، نظراً لمثاليتها اللازمنية.

ولا يسع تكرارَ الترسيمة الأولّية نفسها، من أجل تحديد هوية الصورتين فى سور متعددة وعهود مختلفة، أن يدعَ مجالاً للشك فى طابعه المأخوذ على العاتق عمداً. وبدلاً من إكراه النص على قول عكس ما يقصد بجلاء، يبدو الموقف الموضوعى والمتناغم إذن هو القائم حول الاستفسار عن الدافع إلى ذلك العرض وعن دلالته؛ فالعرض يضفى دونما جدال طابع النسبية على الحقيقة التاريخية بذاتها. فكيف السبيل إلى التعرّف فى الوجه الوحيد نفسه على شخصيتين اثنتين بينهما فاصل زمنى يناهز الألف عام؟

مع ذلك، فإن هذا النص القرآنى، الذى يواشج عبر صورة مريم، ما بين العهدين ،هو الدليل على مقاربة مبتكرة للتعاقب الزمنى وللتاريخ، ذلك التعاقب الذى لا تنال منه تلك المقاربات. ويشكّل هذا الانحياز أحد المفاتيح التأويلية لذلك الوحى، أما العلاقة بالزمن الذى يركز عليه القرآن فمختلفة جداً عنها فى

إلا أنها المرأة الوحيدة التى يُشار إليها باسمها، فى القرآن كلّه. بل حتى حواء، أمّ البشرية، لا تظهر فيه إلا بوصفها «امرأة آدم»







التوراة والأناجيل: ليس الرجوع فيه إلى الحدث فى الغالب إلا تلميحياً ومتناثراً، والتواصل الزمنى فيه يتقطّع كثيراً حتى التفتت. فينظّم الوحى بنفسه آياته المنتقاة ويعرضها واضحة، حسب التوجّه المحورى لرسالته.

يبدو مسعاه، المتمحور بكامله على الخلق ويوم الحساب فى نهاية الزمان، أكثر استعجالاً من ناحية التاريخ، كأنما بنفاد صبر من الأجل، وغير مباشر أكثر منه فى الكتب المقدسة الأخرى. ويسوق جاك بيرك، فى هذا الشأن، ملاحظاً بفطنة: «كأن القرآن يسعى إلى جعل آيات التنزيل السابقة تتعدى كلّها ما سبقها وتضيف إليها.»[٤]

ويسعنا أن نلاحظ بشكل عام أنّ القرآن يظهر شيئاً من التحفّظ حيال أى تفسير أو تثبيت عقائدى خارج الاعتراف الوحيد بوحدانية الله الواحد الأحد وتجلّيه فى خلقه. (لا يبلغ البند الثانى من الإيمان المتعلق برسالة محمد المستوى نفسه من قانون الإيمان الأوّل المطلق فى الإسلام). القرآن وحى «بلغة عربية»، وهى لغة ناجزة وقائمة فى ثقافة تحمل خاتم البداوة والبادية، وكأنّه مبهر بالأصل ومتمحور عليه. يُفهم هذا الأصل هنا بوصفه تواجداً فى البؤرة، وراهناً على الدوام، لا يدخل فى جريان الزمن. فكل لحظة بالنسبة للقرآن تعود فى أصلها الفورى إلى أحكام الله، بفعل عملية خلق راهنة دوماً. ويُترجَم هذا التشبّث البيّن بالأصل بتفضيل المضمر وغير المنطوق تعبيراً صامتاً عن السر.

أوهام التاريخ حيال الجدوى الوحيدة للعلة الأولى

تبرز أصالة العرض القرآنى فى قراءته للزمانية ببداهة لا جدال فيها عبر طريقتها فى عرض القصص التاريخية والأسطورية والمنزّلة. وينقطع السرد فى الغالب فينفرط وتتعثر عناصره، إما داخل السورة نفسها، وإما عبر عدة سُوَر. وتبدو استمرارية الزمان، الذى يمضى على نحو مستقيم، وهى تشكل فى نظر هذا الوحى وهماً يلزم كسره لجعل جدوى العلة الأولى الوحيدة أكثر وضوحاً، وجعل الخالق الأوحد الذى تقدّمه الآية ٢ من السورة ٣ الكائنَ الذى كلّ شىء به يبقى «القيوم». أمّا أن تخرج بعض القصص عن القاعدة ويجرى تفصيلها وفقاً للترابط السردى المطبق بشكل شامل، فلا يزيد على تأكيد الطابع القصدى من الطريقة المألوفة فى تفجير التاريخ. ومن ناحية أخرى، تصدر تلك الاستثناءات عن الحكاية الخرافية التوراتية أكثر من صدورها عن القصة التاريخية، سواء تعلق الأمر بيوسف وإخوته (يوسف١٢) أم بقصة يونس (الصافات: ١٣٩-١٤٨) أم أيضاً بقصة رحلة موسى العرفانية (الكهف:٦٠-٨٢).

ليس مدهشاً فى هذه الظروف أن يجد القارئ غير المتدرّب نفسه حائراً أحياناً لدى قراءة ترجمة للقرآن، حتى لو كانت ممتازة. فكلّ ما فى النصّ العربى يتنادى ويتجاوب عبر المفردات وجذور الأفعال المستخدمة، والنهايات المسجوعة والإيقاعات والصور والصيَغ والأوضاع، يوحى بكثرة من القراءات التى لا يشكل تاريخها أو طرافتها أحياناً - بل فى الغالب - سوى الداعم أو المبرّر.

والواقع أنّ القرآن يستخدم من الخطاب ما يوافق هويته الثقافية الخاصة وقصده الخاص، على نحو شديد التنوع عن أشكال الوحى الأخرى ومختلف جداً أيضاً عن الاستخدام الشائع للغات الغربية. كما يُظهر تقطّع الخطاب، وتجاور المصطلحات والتعابير، دونما وسيط منطوق، «تخاريمَ» تطفح هى نفسها بالمعانى وحاملاً لإضمار متماسك. وتزين فترات الصمت والتلميحات، نحو الوحى المكشوف ونحو ما فى النص من غيب، خشية إعلان مفرط فى التحديد وملتبَس. «قد لا يدرك المرء الذى لا يعرف شيئاً عن فيض الإضاءة فى اختصارات المادة اللفظية نفسها، تلك القوة الكامنة فى نصّ يحرِّك كوامن نفوس المؤمنين حتى أنّ عيونَهم تفيض بالدمع»[٥].

وإنّ من آثار فترات الصمت أيضاً فى الترتيل (المنزلة والمرمّزة)، بطولها وإيقاع تواترها، دعوة المؤمن، فى جملة ما تدعو، إلى توقّف تأمّلى كى يتاح للكلمة التوسّع فى موجات إيحائية.

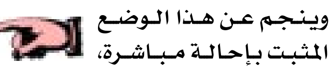
كان علم قراءات القرآن وترتيله واحداً من أول العلوم التى ظهرت فى الإسلام، وتطوّر هذا العلم بالتزامن مع علم آخر هو التفسير. ويؤكّد هذا الواقع على أوّلية السماع والمشافهة فى نقل الكتاب، بما فى ذلك فترات الصمت. أما المقاربة العلمية الحديثة، المتأثرة بطرائق التحليل الغربية (التاريخية واللسانية والتفسيرية) المطبوعة بتفرّع حَضنها المتخصّص، فتخاطر بإضاعة الإدراك لكمالية لا تقبل القسمة ولتأثيرها الإجمالى. «فيخشى على قسم من الكمالية الأولى أن يكون قد ضاع إلى الأبد، بالنسبة لنا نحن السامعين، أو بالأحرى القراء الحديثين للقرآن. بل إنها لا تؤثر، حتى على العرب، إلا بوصفها داعمة للمعنى. وتمضى بذلك المعنى، صوب الفكرة، قرونٌ طويلة من الثقافة العميقة وتأثيرُ نوعٍ من الحداثة»[٦].

وضع القرآن فى حقل الوحدانية الإبراهيمية

يضعُ القرآنُ ضمن منظوره الخاص، وهو الثالث فى الترتيب الزمنى للظهور، كتابَىْ الوحى الاثنين اللذين جاءا قبله. وهو الوحيد القادر، بحكم موقعه، على أن يضع فى الحسبان علاقتهما المتبادلة وتمفصلهما، ناهيك بالحكم عند اللزوم على الموقف المتبادل من الجماعتين، اليهودية والمسيحية.

إلا أنه، خلافاً للإنجيل، لا يُسجِّل استمراراً وتكملة لما سبقه[٧]. وتكمن الأصالة الوحيدة التى يؤكّد عليها فى «نزوله» الفورى من المصدر الوحيد نفسه، بمبادرة من مصدر الوحى الوحيد نفسه.

ويَنجم عن هذا الوضع المثبت بإحالة مباشرة،



دونما وسيط، إلى مصدر كل وحى، وإلى الكتاب المثالى لدى الله (أم الكتاب)، شكلٌ من برانية القرآن، حيال التنزيلين السابقين أولاً (واللذين يؤكد ثانيهما الأول)، وأيضاً، وبالدرجة الأولى، حيال محمد، ناقله الشخصى.

ويؤكد القرآن بدوره، لكن انطلاقاً من وجهة نظر أخرى، على أنه لا مجال لانتظار وحى آخر من بعده، ما دام قد جاء فيه أنّ محمداً هو خاتم الأنبياء (٣٣:٤٠). وينسب القرآن إلى عيسى، بطريقة غنية بدلالتها، الإعلانَ عن ذلك المجىء لمحمد، معترفاً عن طريق تلك الواقعة، اعترافاً متكتماً، بوجود صلة عضوية مع الكتب المنزلة التى سبقته (على الرغم من أنّ تلك الصلة لا تقع ضمن نظام تسلسلات التاريخ):

«وإذ قال عيسى ابنُ مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد...» (الصف: ٦).

يعيدنا هذا الإعلان عن مجىء محمد (المشار إليه فى الآية باسم «أحمد») إلى إنجيل يوحنا ١٤: ١٦ و١٥: ١٢-١٣ حيث يعد يسوعُ بإرسال «بارقليط» آخر (المعزّى: الروح القدس). ويمكن تفسير التأويل القرآنى لذلك المقطع من الإنجيل، من وجهة نظر خارجية تماماً، عبر التقارب بين الكلمتين اليونانيتين: «باراكليتوس»، التى تعنى المحامى أو المعزّى، وكلمة باريكليتوس، التى تعنى الجدير بالإطراء والمديح والتى تعبرّ عنها الكلمة العربية «محمد» تعبيراً دقيقاً. هذا والانتقال من تعبير يونانى لآخر مسألة تسهلها تقاربات التراث الشفوى وكذلك التدوين الناقص للغات، مثل الآرامية أو العربية، حيث لا تدوّن فيها سوى الحروف الساكنة[٨].

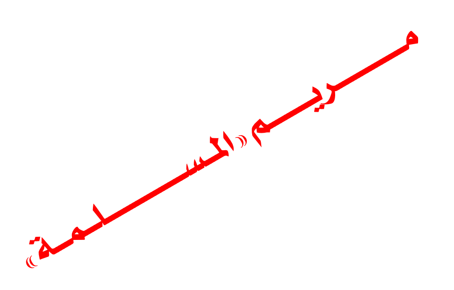
ويأخذ القرآن هنا على اليهود عدمَ اعترافهم بأنّ يسوع هو المسيح، فى حين أنّ القرآن نفسه يعترف به على هذا الأساس، ويأخذ على المسيحيين بالمقابل اعتقادهم بإله إلى جانب الله أو بأنّ الرحمن «اتخذ» له ولدا:

«قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنىّ له ما فى السماوات وما فى الأرض» (يونس: ٦٨)[٩].

وتعلن الآية ٤٠ من سورة الأحزاب: «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسولُ الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليماً».

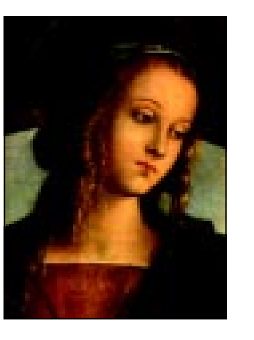
إنّ القرآن، الذى بيّنّا بأية طريقة تفسيرية ينهض بالمصدر السماوى للكتاب مرجعية وحيدة، ويتوضع على ذلك النحو بشكل من الخارجية الموضوعية بالنسبة للتنزيلات السابقة، يؤكد بنفسه على أصالته بتأكيده على أصالتها.

يندرج القرآن بوضوح كبير فى الحقل المشترك للتنزيل التوحيدى حتى ليقالُ للنبى – والله هو المتكلم: «فإن كنتَ فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحقّ من ربك فلا تكن من الممترين» (يونس:٩٤ وانظر أيضاً سورة النحل:٤٣



مريم فى القرآن هى المرأة الوحيدة المكرّسة لله حتى من قبل أن تولد (آل عمران:٣٥)







وسورة الأنبياء:٧)، ولا يقتصر القرآن فقط فى عدم الخلوص من النظام التراتبى الزمنى للتنزيلات على النتائج نفسها لدى اليهود والمسيحيين، نظراً لأنّ وجهة نظره هى أساساً تكوينية وأخروية، بل يعترف أيضاً بوضوح بأنّ فى الوحى الجمعى خيراً لا يحتكره لنفسه.

إلا أنّ القرآن، وهو يغطى بجلاء ميدان التنزيلات السابقة نفسَه[١٠]، لا يبدو مع ذلك قد وُضع فى الفترة الزمنية نفسها، بل بوصفه نزل مباشرة من عند الله بشكله الناجز، انطلاقاً من الأصل السماوى لأىّ وحى كان: أمّ الكتاب. وضمن هذا المعنى فإنّ واحدة من مهامه الأساسية، على نحو ما يُعلِن، تقوم على تثبيتها التكامل معها وتضمين نصّه الخاص بعضاً من عناصرها وتوزيعها. ويُبْرِزُ فى تلك الأثناء، بالإضافة إلى الدلالات الواصلة وغير الباطلة، دلالاتٍ جديدةً تظهر عبر تنظيم جديد للآيات التى يقترحها. وانطلاقاً من هذا المكان المتسامى، النموذج السماوى الأصيل، والذى يندرج تمثيله بالعلم الأبدى للخالق، والمتعلق بخليقته، يفصّل القرآن مجموع الآيات وفقاً لتركيب يتعلق حصراً بتبعيتها الفورية والمشتركة والدائمة حيال الخالق. وانطلاقاً من هذا الواقع يمثل تشكيل القرآن المنزل، والذى يندرج مثل التنزيلات السابقة، فى مكان وزمان بعينهما، مفارقة تلك التكييفات الزمانية فى صيغة أخروية غيبية واستنتاجية تاريخية فى الوقت نفسه. وحينئذ نتخذ تلميحاته التى يمكن التعرف إليها والتى تشير إلى أمكنة نزوله وأزمنتها ما يشبه التكييف مع الزمانية وليس كشرطية أرضيّة للوحى. ويمكن أن نميز هنالك تماسكاً متشدداً، إذا ما قبلنا بالمسلّمة لفورية «النزول» الواضحة، ضمن دلالتها على الأقل.

ويتجلى هذا الاختيار المقصود للكشف القرآنى فى فرادته: تمفصل إشارات التاريخ فى تسلسلها السببى والزمنى ليحل محلها عرض تكون الأسبقية فيه للمرجعية المثالية الأصيلة دون وسيط. وينبغى، ضمن هذا المنظور، تفسير رجحان الصور أو النمطية المثالية على الفرادة التاريخية للأشخاص. وإذا ما واجهنا من هذا المنظور، توضّح الصورتين لمريم، مريم التوراة ومريم الأناجيل، فإنه لا يطرح أية مشكلة من بَعْد، ولا يؤدى إلا إلى التشديد على عناصر نمطية استرجاعية. عندئذ تجد شتى عناصر التنزيل السابقة وقد بدت وفقاً لتطابقاتها المعاصرة، على طريقة معرفة التاريخ فى اللحظة الأبدية للعلم الإلهى (مما يعنى «الكتاب عند الله»). ويجد تقليص الامتداد الزمنى هذا إلى التزامنية تعبيراً عنه فى رمز الكتاب الواحد، الذى يضم المتعدد. ولنُضفْ أنّ قراءة الآيات ليست هى نفسها وفقاً لاكتشافها مع انقضاء الفترة الزمنية (التى تفرض الذاكرة والاستباق) أو وفقاً لتجارب الآيات ضمن تزامن شبه فضائى.

فمن الملائم أن نؤوّل أيضاً على هذا الضوء وفى ذلك المنظور، الطابع المفكّك ظاهرياً والبعيد عن التنظيم للنص القرآنى، حيث الحكايات المتواصلة نادرة، على نحو أشرنا إليه. ويسعنا الكلام فى هذا الشأن عن نظام «تركيبى» حيث تُنسج العصور وخطوطُ الموضوعات والحكايات، فيما بينها[١١]. وهى طريقة تُمكّن، عن طريق اللغة، من أداء «الحاضر» المحدد الذى يدقّ عن الوصف للأزلية الإلهية (التى عرفها علماء الكلام بعبارة Tota simul، أى الكليّة، أو بدقة أكبر العنصر الخامس الذى يقع ضمن اللحظة، دونما تتابع أو انبساط). وتُرغم هذه الصيغة، التى قد تبدو للقارئ غير المطّلع عشوائية بعض الشىء، على نظرة جديدة، تتضافر مع منطق مغاير، يُرجِع الزمنية للأبدية ولا يُرجع الأبدية للزمنية.

وتكمن قرينة أخرى تتعلق بالتموضع الفريد للقرآن، فى بنيته نفسها، نظراً لأنّ فصوله أو سوره[١٢] ليست مرتبة وفقاً للمعيار الزمنى لنزولها، مثلما يتكوّن تدريجياً شكل الخطاب بتسلسل سطوره، وإنما وفقاً لترتيب ارتجالى تماماً جاء من بعد وفقاً لطول السور. بل إنّ هذا المعيار نفسه ليس مطبّقاً بصورة منهجية متشددة.

يتجلى أيضاً موقف القرآن الفريد حيال التعاقبات الزمنية فى طريقته باختصار تنظيم الوحى الإلهى عبر الإشارة البسيطة إلى الأسماء المتسلسلة لبعض الشخصيات المثالية، ممن يحدّدون سير التاريخ. ويُذكر هؤلاء أحياناً وفقاً للتسلسل التاريخى المُفْتَرَض لظهورهم: آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى بن مريم. وتُجمع أسماؤهم، أحياناً أخرى، بمرفقات وفقاً لتشكيلات قائمة على تجانسات غامضة تنتمى إلى نظام المثالية. وهكذا يسعنا أن نقرأ فى سورة «الانعام» (٨٤-٨٦):

«ووهبنا له إسحق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلاً فضلنا على العالمين».

تتأكد النظرة التى يسلطها القرآن على الأسرار الأساسية التى تؤسس للإيمان المسيحى، مع احترامها لتلك الأسرار، باختلافها عنها، وليس اختلافَ معارضة، بل مغايرة. إنما يواجه القرآن ضمن إطار من فهم أصيل لمخطط الله للأسرار المؤسسة للمسيحية وينهض بها، بحيث تجد المسيحيةُ نفسَها كأنها نُقِضت، على الطريقة نفسها التى تمكننا من القول إن القراءة المسيحية للكتاب المقدس تستملكه من اليهودية. والحال أنّ هذا الواقع يفسر، إلى حد كبير، تحفّظ المسيحيين حيال القرآن وتجاهلهم المألوف لفرادة هذا التنزيل الموضوعية. إنّ إمعان الفكر فى صورة مريم يبدو إذن ملائماً بشكل خاص لإظهار ما يمكن أن يكون عليه غنى الإضاءة والمنظور المغايرين، ضمن موقف لا هو بمنافح ولا بمخاصم.

ويُظهر القرآن على الأقل، انسجاماً كبيراً جداً فى انحيازاته حتى يستحيل النفوذ إليها غصباً. فيسعنا بالتأكيد انتقاد التفكك الظاهر وخلط الأجناس، والمفارقات التاريخية، والحرية الكبرى فى الاستشهاد والإيحاء، بالإضافة إلى ملامح أخرى تسبّب صدمة للعقل الديكارتى، لكنّ هذه الانتقادات تظلّ خارجة عن تلاحمه الخاص. هذا، وانطلاقاً تحديداً من مثل تلك الانتقادات الخصوصية، القائمة هى نفسها بنفسها، من غير أن تكون فى الوقت

ذاته وجيهة، تعرّض بعض المستشرقين الغربيين للنص القرآنى، معتمدين على معايير تعود للمخزون التاريخى اليهودى المسيحى الذى يبدو القرآن يستشهد به للوهلة الأولى، إلا أنّه يتميّز عنه صراحةً.

منذئذ نجد أنفسنا فى مواجهة واقعة موضوعية تقول بعدم وجود مفاتيح أخرى ملائمة لبلوغ النص القرآنى فى انسجامه الخاص سوى ما يقترح هو نفسه. ولسوف تزوّدنا صورة مريم، التى ستكون فى مركز حديثنا بمثال بليغ عن تلك المفاتيح.

صورة مريم، مفتاح تأويلى للقرآن

ولئن كان القرآن، على نحو ما يؤكد، يتولى النهوض بالتنزيلات السابقة، فإن ذلك الصعود يتناغم مركزياً فى صورة مريم، أخت موسى وأم عيسى، عبر تنظيم حساس وفائق الدقة يعتمد على الصور ووظائفها فى الكتب التى انبثقت هى منها. وهذا التضافر تحديداً لوجهين يشكلان هوية تلك التى نسميها «مريم المسلمة» هو الذى يشكل صورة وإشارة جديدتين لوحى التوحيد الإبراهيمى.

ولا تبسط صورة مريم غنى مدلولاتها إلا بقدر ما تساهم فى القرآن بمجموعه، وتنهض فيه بمهمة «مفصلية» أساسية حتى لتبدو غير قابلة للانفصال عنه. أما الطعن فى التقاء تلك الوجوه المتباعدة فى تسلسلها التاريخى، بحجة الأمانة التاريخية، فيعود فى نهاية المطاف إلى رفض أصالة ذلك الوحى فى تدبيره وتنظيمه للإشارات انطلاقاً من الوحدة السامية لمصدرها.

يعمد القرآن إلى حركة ثنائية: واحدة تنسب كل حدث إلى بدايته حتى بإرجاعه إلى تدوينه الأصلى، منذ أبد الآبدين، فى الكتاب عند الله. وتعترف الأخرى، خلافاً لذلك، بالعزم والجدوى الإلهيين حتى التجليات الأرضية الأكثر تواضعاً[١٣]، والتى أعطتها واقعاً ودلالة فى آن معاً. ويؤدى القرآن دور المرآة، حتى فى أدق التفاصيل، عاكساً الواقع العابر ليدلّ فى تلك الأثناء على ضرورة البحث عن الواقع فيما وراء المرآة.

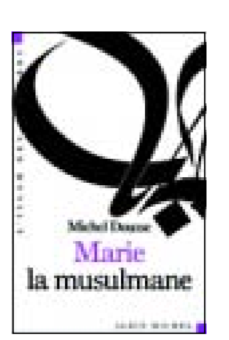
وسواء تعلق الأمر بتاريخ المؤرخ أم بقصص الراوى، فإنها تجد نفسها أيضاً منسوبة فى واقعها الحدثى، للدلالة فى نهاية المكان على أنها منظمة فقط بفعل النحو الإلهى. ويبدو على التربية القرآنية أنها ترمى إلى تعويد الإنسان على نظرة إلى الكائنات والأحداث، غير علمانية، بل فقهية وقدسية كى ما تظهر فيها الإشارة الوحيدة على الإرادة الإلهية.

قراءة نصّية بينية للتنزيلات

سوف نجد أنفسنا ضمن هذه الصفحات المكرّسة لصورة مريم الإسلامية، ونحن نقوم بجولات عديدة غدواً ورواحاً بين التنزيلات الثلاثة، التوراة والإنجيل والقرآن، من خلال واقعها الآنى (سواء كان النظر إلى تلك المعاصرة انطلاقاً من تعايشها الأصيل فى النموذج السماوى،

مــريــم «المســلـمـة»

مـريـم فـى الـقـرآن هـى الـتـى تـدخـل فى تسمية ابنها: «عيسى ابن مريم»، وليس الـعـكـس (مـريـم أم عـيـسـى)







مصدر مفارق لكل وحى - مثلما يؤكد القرآن - أو انطلاقاً من الوضع التاريخى الراهن). إنّ الثراء المضىء لقراءة إجمالية للتنزيلات التوحيدية الإبراهيمية الثلاثة بشأن تلك الصورة الأساسية، يفرض نفسه بوضوحه. ولسوف يتجلّى على هذا النحو سداد الرأى الذى يأخذ بعين الاعتبار حقلاً مشتركاً للوحى التوحيدى، تتجاوب النصوص نفسها فى داخله، قبل تجاوب أصحابه على التوالى، وهى نصوص تتنادى فتتجاوب فيتردّد صداها، وكل منها ينطلق من حقله الثقافى الخاص ومن موقعه ومن «وجهة نظره».

ولسوف نجد أنفسنا أحياناً منساقين لأن نقول عنها أكثر مما يقول القرآن بوضوح، مع الحرص الأكيد على عدم جعله يقول شيئاً آخر غير ما يذكر أو يسكت عنه. «كيف لنا أن نؤدى ما لا يكمُن فى الكلمات، القوية والمتحفّظة فى آن معاً، ولا فى السياق المضمر والمختزل، لكنه ينفذ كما يقال، عبر تخاريم مدلول متقطّع...»[١٤].

إنّ القرآن هو الأكثر حفاظاً على الوحدة، من بين تنزيلات التوحيد الإبراهيمى الثلاثة: نجم ذلك أولاً عن نقل الوحى عن نبى واحد فى فترة زمنية لم تتجاوز عقدين من السنين. ونشأ كذلك عن صيغته القائمة على تشابكات وعلى شكله «التركيبى». ومع ذلك، تشكل كل سورة، داخل هذا الكل المتجانس، كياناً شديد التمايز، تطبعه علامات فرادة تمنحه «شخصية» حقيقية.

وجاء فى الحديث عن الرسول تمييزه لسورة «مريم» فقرن تفضيله إياها بسورة «الإسراء» وكذلك سورة «الكهف» - وهذه الأخيرة تلقينية بامتياز - واصفاً إياها بـ «الأوّليات»، قائلاً: «هى إرثى الشخصى».

كذلك أجرى مقاربة تقوم على الإعجاب بين سورتى البقرة وآل عمران، واصفاً الاثنتين بالآيتين «الزهراوين».

يقع ما أشرنا إليه من فرادة القرآن فى ميدان الوحى التوحيدى، وخصوصيته ويتجلّى جوهره فى السورة ١٢، سورة «يوسف» ابن يعقوب. وتشكّل فى الوقت نفسه ذلك الاستثناء الذى يؤكّد القاعدة لأنّها مخصّصة من أولها إلى أخرها، لسرد نموذجى، لمغامرات مؤسّس أحد الأسباط، الذى باعه إخوته.

حين نستعرض هذه السورة التى تبدو كأنها استعارة وفى الوقت نفسه تفسيرٌ تأويلى لقراءة القرآن، عبر مغامرات يوسف وإخوته، تبدو مدخلاً لتأويل الأحداث والأحلام والعلامات، بالرجوع إلى الأصل.

أما وأنّ مغزى قراءة الحكاية (والتاريخ) لن يُعطى إلا فى نهاية الأزمنة، فالمطلوب من المؤمن صبرٌ وتسليمٌ إيجابىٌ للذّات. وإنّ كلمة تأويل التى نصادفها سبع عشرة مرة فى القرآن، تتكرر ثمانى مرات فى السورة ١٢. أما السورة ١٠، سورة يونس (وهى وجه آخر من الامتحان التعليمى) فتُدين الذين «كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله» الآية (يونس: ٣٩).

ويسعنا أن نلاحظ فى ثلاث مناسبات ذات دلالة خاصة، أنّ الله يقطع رسالته أثناء الوحى ليخبر الرسول بأنّ الرواية التى تصله ليست تراثاً متداولاً، بل تأتيه من الغيب. بالإضافة إلى إشارة أخرى تذكر أنه لم يكن هو نفسه حاضراً تلك اللقاءات.

كانت المرة الأولى أثناء العلاقة بالبشارة الموجّهة لمريم (آل عمران: ٤٤). والثانية تتعلّق بموسى لدى اللقاء فى سيناء (القصص: ٢٦). وتتعلق الثالثة أخيراً بالمؤامرة التى دبّرها إخوة يوسف للإيقاع به (يوسف: ١٠٣). ويتعلق الأمر كل مرة باختيارٍ مشهود: تسليم التوراة لموسى. الحمل بعيسى لدى بشارة مريم وبالتالى أصل التنزيل المسيحى. وإنّ اختيار يوسف، مما أثار ضغينة فى قلوب إخوته وحقداً عليه، اختيارٌ بقصد التأويل، الذى يبدو أنّه يلخصُ المهمة القرآنية. لقد قيل ليوسف: «وكذلك يجتبيك ربّك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك...» الآية (يوسف: ٦). ■

---

(١) من المصادر العربية الرئيسة (فى القرنين الميلاديين الثامن والتاسع) سيرة الرسول لابن هشام، وكتاب الطبقات الكبرى لابن سعد، الذى استعاده (Lings .M) تحت عنوان: النبى محمد، حياته استناداً لأقدم المصادر، باريس Seuil، ١٩٨٦ انطلاقا من الأصل الإنكليزى عام ١٩٨٣.

(٢) يظهر اسم مريم ٥٥ مرة فى العهد الجديد، لكنه لا يشير من هذا العدد الى أم يسوع إلا ١٩ مرة. فمريم مذكورة باسمها ٥ مرات لدى متى، ومرة واحدة لدى مرقص، و١٢ مرة لدى لوقا. أما يوحنا فلا يذكرها باسمها المجرّد البتة وإنّما بصلتها «أم» (١٥ مرة). (كما يرد وصف «أم» ٢١ مرة لدى متى، ومرتين لدى مرقص، و٧ مرات لدى لوقا).

(٣) «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحق. أو لم يكف بربّك أنّه على كل شىء شهيد» (سورة فصلت:٥٣).

(٤) جاك بيرك (Berque .J)، فى دراسته التمهيدية لترجمة القرآن التى قام بها جان غروجان (Jean Grosjean)، باريس، فيليب لوبو(Philippe Lebaud) ، ١٩٩٧، ص ١٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٣.

(٧) وعلى ذلك فإن موقف اليهودية ليس نفسه حيال المسيحية والإسلام. فهو للمسيحية أشدّ انتقادا.

(٨) مراجعة تعليقات الرازى، المجلّد الثامن. وبالفرنسية ملاحظات بوبكر، فى ترجمته للقرآن، باريس، ميزونوف ولاروز, Maisonneuve et Larose ١٩٩٥، ص ١٢٦٣ و ١٩٠٣.

(٩) راجع أيضاً: السّور البقرة:١١٦ وَمريم:٨٨ وَالأنبياء:٢٦ وَ الجن:٣.

(١٠) نقع فى القرآن ٣٣ مرة على كلمتى «ذكر، وتذكرة»، تذكيراً بنعم الخالق، ورسائل المرسلين والكتب السابقة والآيات (بدءاً بالطوفان أيضا).

(١١) يُراجع بهذا الشأن كتاب ج. بيرك (J. Berque)، الإسلام فى مواجهة التحدى (L,Islam au défi)، باريس، غاليمار (Gallimard) ، ١٩٨٠، ص ١٩٣: «ترمى الرسالة لأن تكون ختامية، وتلخيصية بالنسبة للتوراة والزبور والإنجيل. فتعكس تعديدتها كافة المواضيع أو معظم ما جاء فى الكتب السابقة، مع إضافة أخرى عليها.».

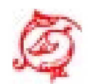
(١٢) الكلمة العربية سورة غنية بالمعانى التى تدلّ على المصاف والصفة، كما تدل أيضا على سور المدينة وعلى السوار الذى هو عنصر تجميل.

(١٣) «إنّ الله لا يستحى أن يضرب مثلا بعوضة...» البقرة:٢٦ وأيضاً فى لقمان:١٦ : «حبة خردل...».

(١٤) جاك بيرك (Berque .J) ، فى دراسته التمهيدية لترجمة القرآن من قبل جان غروجان(Jean Grosjean) ، باريس، ص ٣١.

متَّى المسكين

قراءة فى الرحلة



زكى سالم

■■ فى يوم ٢٠ سبتمر عام ١٩١٩م. جاء إلى هذه الفانية طفل يُدعى «يوسف إسكندر» لأسرة قبطية محافظة تتكون من عدد كبير من الإخوة والأخوات، وكان والده رجلا متدينا يعمل موظفا بالسكة الحديد، ويحفظ الكثير من الحكم والقصص والأمثال، وكل حدث يحدث دون رضائه ينقده بمثل لاذع أو قصة ذات مغزى، والمدهش أنه عند تكرار الحادث لا تتكرر القصص، ولا تعاد الأمثال!

وكان هذا الوالد يحترم الوالدة احتراما جما، وأخذ يخدمها بتفان عند مرضها، أما هى فكانت متدينة جدا إذ تظل واقفة بالساعات تصلى وتسجد، فكان الطفل يوسف يحاول أن يقلدها حتى تخور قواه!

وعن معنى الصلاة مع الأم بالنسبة لطفل صغير، يكتب أبونا: «كان أمرا يحير عقلى، ولكن يملؤنى شعور عجيب بالرغبة الملحة كل مرة لأصلى معها، فكنت أترقبها حتى تدخل الغرفة، فيطير قلبى من الفرح حينما تسمح لى بالدخول معها، وأبدأ أسجد!» هذه الأم الصالحة أضفت على حياة الأسرة كلها معانى التقوى، والرضا، وروح الصلاة.

وعن علاقة هذا الطفل البصير بالطبيعة، يحكى أبونا: «كنت أختلس وقت الظهيرة بينما الكل نائم بعد تناول طعام الغداء، وأخرج من المنزل وأذهب إلى شارع البحر (فى المنصورة) وأقف فى منتصف كوبرى طلخا أتأمل النيل مدة طويلة، وأسير على ضفافه وأنا محمل بمشاعر غريبة تربط بين الصلاة والسجود والطبيعة التى أمامى: البحر، الشاطئ، الأشجار الجميلة، الفلاحون العائدون من الأسواق... لقد كانت روح أسلافى تسرى عبر الطبيعة والأرض والنيل والتراب لتتسلل فتستقر فى أعماقى».

■ ■ ■

وفى مرحلة الصبا اندمج الشاب يوسف إسكندر مع أقرانه من المسلمين والمسيحيين على السواء، إذ كان صديقا للجميع، وبالأخص ذوى الاتجاهات السياسية، وبدء الاتصال بمدارس الأحد وهى فى بداياتها، وفى جلسة محبة معهم طرح يوسف على نحو عشرين من شباب مدارس الأحد سؤالا محرجا، وهو: هل يدخل الملكوت البروتستانت والكاثوليك؟ فكانت الإجابة بالإجماع: لا بروتستانتى ولا كاثوليكى سيدخل الملكوت طبعا! وهنا أدرك يوسف - وهو مازال شابا - أنه أمام كارثة إيمانية، وكارثة وطنية معا.

ويعلق على ذلك بقوله: «إنها عتمة العقول وضيقها وانحصارها فى أفق شخصى ورؤية ضيقة. إنها عزلة فُرضت علينا نحن الأرثوذكس المصريين منذ مجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١ م) بحصار ثقافى ولغوى وحضارى، فقد فقدنا اللغة اليونانية وهى لغة اللاهوت والفلسفة والعلم، وفقدنا معها تراثنا الآبائى كله... ثم فقدنا اللغة الثانية (اللغة القبطية)... فباتت كل المخطوطات التى ملأت خزانات الكتب فى البيوت والكنائس والأديرة المكتوبة باليونانية والقبطية بلا أى قيمة ولا معنى ولا أثر... فلا عجب أننا متعصبون، إنها العزلة والخوف والجهل معا فرضت علينا هذا التعصب الفكرى والإيمانى الذميم، وطغى علينا التعصب - الذى فى حقيقته عتمة رؤية وانحصار فكرى - ليشمل ويحكم كل علاقاتنا... لأن التعايش الحر مع الذين يخالفوننا فى عقائدنا يحتاج إلى سعة قلب وفكر... لا فرق بين العلم والسياسة والدين، فالكل يحتاج إلى قائد أمين جدا ومتفتح جدا وحر جدا، كما يحتاج تلميذ لا يبيع عقله لكل مناد أو يجرى وراء القطيع ليدخل أية حظيرة. وكان ألعن ما واجهت فى اختباراتى ومشاهداتى فى أيام شبابى هو رؤيتى كيف يعرض الزعيم رأيه على من يتبعه فيستعبده، وكيف يبيع الشباب عقولهم ونفوسهم بسذاجة عن حماس وإخلاص وثقة لمن هم ليسوا أبدا أهلا لهذه الثقة، وبمضى الأيام تكتشف الأجيال أنه غرر بها».

■ ■ ■

ومما يذكره القديس متى المسكين فى سيرته الذاتية قوله: «والعجيب أن صداقتى وحبى للمسلمين كانا موضع تساؤل مستمر من المسيحيين وكأنه أمر يؤذيهم، فكنت أزداد عجبا وغيرة فأحدثهم عن أصالة الوعى المسيحى أنه وعى إنسانى قبل كل شىء. كنت أبذل جهداً فى إزاحة الحواجز التى تحجزنى عن المسلمين لأنها حواجز موروثة ومتبادلة، غير أنى كنت أكتشف يوما بعد يوم أنها حواجز مصطنعة وليست أصيلة، فليس لها أصل عرقى عنصرى قط، ولكن تحفظ المسيحيين وتكتلهم وسرية حياتهم وممارستهم الدينية أنشأت لدى المسلمين نوعا من الشعور بالمفارقة ثم خوفا منهم ومن التعامل معهم مما أنشأ عندهم نوعا من الاضطهاد حسب المبدأ القائل إن كل هارب ينشى له مُطارداً».

■ ■ ■

وقد تخرج يوسف إسكندر فى كلية الصيدلة جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٤م. وعمل فى قسم المستشفيات لفترة ثم عمل حراً، وفتح صيدلية لحسابه فى دمنهور، وحقق نجاحا كبيرا جدا بسبب رحمته بالفقراء والمحتاجين، وأمانته ودقته فى تركيب الأدوية، ورخص ثمنها بالمقارنة بالصيدليات الأخرى، مما أثار حفيظة البعض، وحدثت مظاهرة تعصبية لتحطيم الصيدلية، فجاء رئيس الإخوان المسلمين بدمنهور، وكان صديقا للدكتور يوسف، وجلس على

أبونا متى المسكين: السيرة التفصيلية
إعداد رهبان دير القديس أنبا مقار
دار القديس أنبا مقار - ٢٠٠٨

■ ■ ■

رسائل القمص متى المسكين
إعداد رهبان دير القديس أنبا مقار
دار القديس أنبا مقار - ٢٠٠٧

خرج يوسف إسكندر من عالمه، واتجه بكليته إلى الدير، كأول شاب متعلم يلج طريق الرهبنة فى جيله



باب الصيدلية، وحينما جاءت المظاهرة، وقف الرجل وأشار إليهم بالعبور، فوقفوا مترددين كثيرا ثم رحلوا.

وبرغم كل النجاح الذى حققه الدكتور يوسف إسكندر فى حياته العملية فقد ازداد حنينه الداخلى إلى التحقق الروحى فى عبادة خالقه، وقد عبر عن ذلك بهذه الكلمات: «ازداد حنينى جدا للحرية فى الله التى سبق أن حاولت أن أجدها فى العلم والسياسة والدين، وأنى لى أن أجد هذه الحرية فى عالم مستعبد، خصوصا فى مصر التى قيدت العلم بسلاسل التعصب والفكر الضيق، وقيدت السياسة بأصنام الزعامة التى فرضت نفسها على الشعب حتى اعتاد عليها الشعب ثم عبدها عن طواعية منهزمة، وقيدت الدين حتى جعلته تحت الوصاية، وسلسلت الإنجيل بسلسلة وربطته فى ركن الكنيسة، تحله عندما تشاء وتربطه عندما تشاء، وتُلبسه الثوب الذى تريد: ثوبا أرثوذكسيًا أو كاثوليكيًا أو بروتستانتيًا... أين أجدك يا الله؟ لقد بحثت عنك فى كل مكان فما وجدتك: لا فى العلم، ولا فى السياسة، ولا فى تعصبات رجال الدين، ولا فى المال الذى بدأ يملأ خزانتى. فأين أجدك؟».

ثم يعبر عن عمق أزمته الروحية بقول: «طلبت من الله بلجاجة أن يسهل خروجى من العالم لكى أعيش حرًا من بنى الإنسان، أو بالحرى لأعيش منتهى حريتى فى الله، أو على الإطلاق أعيش فى الله. كان هذا أمرا غير مُصدق لى ولجميع أقاربى وأصدقائى».

وهكذا انطلق الدكتور الشاب فى رحاب الله لينمو بلا قيود، إذ لم تستطع جميع المعوقات - وكانت هائلة ومُخيفة - أن تمنعه من الانطلاق نحو الخلاص. إنه الإيمان القائم على الثقة بما يُرجى والإيقان بالأمور التى لا تُرى. كما خرج إبراهيم عليه السلام يسير فى القفار أياما كثيرة، وهو لا يعلم إلى أين يذهب! لم يكن هذا صعبا عليه لأنه سبق وخرج بكل قلبه من أرضه، ومن وطنه، ومن عشيرته. أخرجهم جميعا من قلبه، ولم ينظر خلفه، بل رفع نظره إلى السماء طالبا وطنا أفضل.

وكذلك خرج يوسف إسكندر من عالمه، واتجه

بكليته إلى الدير، كأول شاب متعلم يلج طريق الرهبنة فى جيله، وذلك فى مايو عام ١٩٤٨م.

■ ■ ■

وقد بدأت حياته الرهبانية بامتحان عسير، ففى أثناء فترة الاختبار الرهبانى مع رئيس دير الأنبا صموئيل، أراد الرئيس أن يخدم معه الراهب الجديد فى القاهرة، وأن يكون الذهاب إلى الدير للبركة فقط. فرفض أبونا ذلك وأصر على التوجه للدير، فكان هذا بداية لنزاع زاد وتفرع بعد ذلك! وهنا يشرح لنا - هذا الراهب الجديد - مفهوم الطاعة بقوله: «الرهبنة كانت عند الرهبان تسير مغمضة فى العبودية الإنسانية الجديدة للإنسان، بلا مقابل إلهى يعكس ما كان لها من ماض مُشرق فى مفهوم الحرية الروحية، حتى صارت الرهبنة نوعا من الخضوع الخانع والتقيد بمفاهيم الرؤساء، وطاعة ميولهم الشخصية حتى غير الإنجيلية، وأوامرهم التعسفية بدون نقاش مستغلين المقولة المتوارثة: إن الرهبنة طاعة. وهذه المقولة صحيحة وحقيقة لا تُناقش، ولكن أصل الطاعة فى الرهبنة أنها كانت للأب الروحى المختبر والمطيع لله، وعلى أساس أن الطاعة ستُوصله إلى الحرية. فالطاعة عندى فى حدود الإنجيل والحق، ودون أن تؤذى حريتى فى الصلاة والعبادة».

وهكذا انطلق الراهب الجديد إلى دير قصى مهجور، لا يوجد فيه كهنة، ولا أوقاف يتشاجرون عليها، ولم يكن له مرشد، ولا أب روحى، فرهبان الدير كلهم أُميون! فانخرط فى صلاة متصلة، وأخذ يبحر وحده فى أعماق الكتاب المقدس متجردا من كل شىء.

■ ■ ■

وثمة كلمات من نور كتبها قلم ذاق معنى الحب الإلهى، إذ يصف هذه الخطوة المدهشة بقوله: «ذهبت إلى الدير مفعماً بمشاعر وقوة لا أستطيع قط أن أعبر عنها. لم تكن الرهبنة هدفا لى، ولكن التحرر من الناس، وما يربط الناس بتراب الأرض حتى يطويهم تحت هذا التراب عينه. هذا كان هدفى. كنت أحب الناس جداً، وهم يحبوننى ويلاحقوننى أينما كنت. وهذه هى إحدى معطلات حياتى فى تكميل مسيرتى نحو الحرية والتحرر من ذاتى، ولكنى طلبت الرهبنة كأفضل حياة أستطيع فيها أن أعيش حريتى مع الله، وأتحرر من ذاتى ومن كل ما يربطنى بالأرض عبر الناس. لقد ذهبت إلى الدير ظنا منى أننى هناك سأبلغ فى نهاية المطاف أمنية حياتى، ولم أكن أدرى أنى قد بلغتها قبل أن تطأ قدماى عتبة الدير!»



متـــى المســـــكين

■ ■ ■

قضى الراهب متى فى دير الأنبا صموئيل - فى جبل القلمون بمديرية بنى سويف - ثلاث سنين تقريبا، كانوا كما يصفهم بنفسه ملء الشبع، وقد ألف خلالها كتابه الأول «حياة الصلاة الأرثوذكسية » وقد صدرت طبعته الأولى باسم الدير ودون ذكر اسم المؤلف!

ثم نزل من الدير إثر مرض أصاب عينه، وقابل القمص مينا المتوحد (قبل أن يصير بطريركًا) فدعاه إلى زيارة أديرة وادى النطرون، وهناك رسمه أسقف دير السريان قساً رغما عن إرادته، وذلك فى مارس ١٩٥١م. باسم متى المسكين على اسم القديس متى المسكين مؤسس دير الفاخورى بجوار الأقصر فى أوائل القرن الثامن.



ولأن الحياة الروحية ينبغى أن تكون أصيلة (Original, Authentique) أى ليست صورة لآخر مهما كان قديساً عظيماً، لذلك لم يطق أبونا حياة المجمع بدير السريان، إذ كانت - كما يصفها - حياة مصطنعة، ويستحيل أن يتحملها إنسان يريد أن ينطلق فى أسرار العبادة بالروح، والسعى فى طريق الحق، فأخذ إذنا من رئيس الدير، وخرج وحفر لنفسه مغارة بعيدة عن الدير فى الصحراء التى لا يحدها البصر، وأخذ يعول نفسه ولا يذهب إلى الدير إلا للتناول كل شهرين!

وتعد هذه الفترة مرحلة مكملة لحياة الرهبنة الأولى، إذ فى الوحدة المطلقة تحررت روحه من قيود الجدران العالية والأمان المصطنع، وتعمق وامتد وجوده مع الوجود الإلهى الكلى (The Whole Presence) فقد كانت الذئاب تزور مغارته فى الليالى القمرية وتلعب أمام المغارة طوال الليل وهو قائم أو ساجد يصلى، وثمة ضبع يطوف أحيانا حول المغارة أو يجلس على بابها، بينما الثعابين والحيات والعقارب تسعى هنا وهناك! وكل هذه المخلوقات حوله عمقت من طبيعة إحساسه بالخليقة عن قرب لأنه أدرك كم يحبها، وهى - كما يؤكد - لم تؤذه قط!

ويقرب لنا القديس متى المسكين بعض خبراته الروحية فى مرحلة التوحد هذه حين يقول: «ازداد تعمقى جدا وأدركت علاقة الله بالكون، وأحسست بالأبدية - اللازمن - واستنشقت روح الله، وذقت السرور المفرط، وفهمت معنى أن الله واحد، وأنه بسيط، وأنه كلى القدرة وكلى الوجود، وأنه واجب الوجود بذاته... هذا يشير إلى انفتاح بصيرة الإنسان لإدراك الله فى ذاته - قليلا قليلا - لأن أى طمع فى الامتداد فى التعرف على الله فى ذاته كفيل بأن يشل كل ملكات التأمل، والروح، والعقل معا، ويُدخل الإنسان فى اضطراب وتشويش وشك».

وهذا الخوف من الامتداد أكثر فى الدخول فى أسرار الله كان هو بذاته المؤشر الصحيح، أو العلامة لإشراق النور الإلهى، كما يقول بولس الرسول: «حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوى». وهذه إحدى متناقضات (Paradox) السعى فى معرفة الله، وهى تختلف جذريا عن أسلوب المعرفة الزمانية فى أمور العالم المادى. فالطريق الروحى قائم على قوانين تتجاوز حدود المادة، وتعلو فوق قيود المنطق، وتحلق بعيدا فى سماوات الحب الإلهى، فتتجلى حينئذ أنوار كلمات المسيح: «من يُهلك نفسه من أجلى يجدها. لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه». (إنجيل متى ١٦: ٢٥ و٢٦)

■ ■ ■

وفى مارس ١٩٥٤م. وبعد مضى ثلاث سنوات من الحياة داخل مغارة فى وسط الصحراء، تم استدعاء القمص متى المسكين للمثول أمام البطريرك أنبا يوساب الثانى، فقد قرر البابا تعيين القمص فى أعلى منصب كنسى فى الإسكندرية «وكيل للبطريركية » فكان رده: «أنا راهب مبتدئ ولا أصلح لذلك»..! فأصر البابا، فانطلق أبونا ليخدم الناس بتواضع وفهم ومحبة، إذ قال لهم فى خطبته الأولى بالإسكندرية: «ما كنت أريد أن أترك الدير، ولكننى شعرت بدعوة إلهية لهذه الخدمة. ومعروف أن الخَدام يخدم أولاد سيده كما يخدم سيده تماما، وأنتم أولاد سيدى». فظلوا زمنا طويلا يتذكرون تأثرهم من طريقته المؤثرة فى التعامل، وفى قراءة الإنجيل.

وفى هذه الفترة حدثت قصة شراء أرض كنيسة مار جرجس باسبورتنج، وقد كانت هذه الأرض ملعبا لطائفة الأرمن، وهى مؤجرة من هيئة الأوقاف الإسلامية، وكان وزير الأوقاف عندئذ هو الشيخ أحمد حسن الباقورى، والذى سبق له مقابلة الأب متى، ومن ثم قال

«لـم تكـن الرهبنـة هـدفا لـى، ولكـن التحـرر من النـاس، ومـا يـربط النـاس بتـراب الأرض حتـى يطـويهـم تحـت هـذا التراب عينـه»





متى المسكين

الأب عن الشيخ: «هذا رجل متسع الفكر وغير متعصب» وطلب من المجلس الملى تجهيز كل الأوراق والذهاب إلى الشيخ الباقورى لطلب بناء كنيسة على هذه الأرض، وبمنتهى السماحة وافق الشيخ على بيع الأرض وهو يقول: «هذه كلها بيوت الله».

وبنعمة الله، وبالحكمة الروحية استطاع القمص متى المسكين تحقيق الكثير من الإصلاحات خلال فترة وجوده فى الإسكندرية، فقد كان يُقابل الإساءة بالإحسان، والاعتداء بالصفح، إذ لم يدافع عن نفسه قط، تاركا الله يُدافع عنه.

وهذه الإصلاحات أثارت بعض الكهنة وأصحاب المنافع الشخصية فتكتلوا للتخلص منه حتى تعود لهم امتيازاتهم المادية! ومن ثم صدر قرار بإعفائه من عمله! وهاج الشعب وعقد المظاهرات والاجتماعات، وأحست الدولة بخطورة الوضع على الأمن العام، فأرسل وزير الداخلية (زكريا محيى الدين) الوزير (جندى عبد الملاك) ليقابل القمص فى دير السريان - الذى ملأ الشعب السكندرى ردهاته - وقد أفهم أبونا الوزير أنه لا يتصرف بمشورة ذاتية بل باستلهام مشيئة الله.

وهذه الخبرات نبهت بعض المطارنة لخطر إمكان ترشيح القمص متى المسكين بطريركا خلفا للأنبا يوساب، فتبدلت أحوال عدة، وتغيرت أمور كثيرة!

■ ■ ■

ولم يدم الأمر طويلا فى دير السريان، وتفاديا لصراعات تهدد حياته الروحية أخذ إذنا من الأسقف، وغادر الدير بعد أن قطع على الرهبان حرماً أن لا يأتى أحد منهم خلفه، وذهب إلى رئيس دير أنبا صموئيل القمص مينا المتوحد (البطريرك أنبا كيرلس بعد ذلك) ليأخذ إذنه للعودة إلى الدير، لكنه فوجئ بحضور ١٢ راهبا من أولاده! فتضايق وحاول اقناعهم بأن دير الأنبا صموئيل فقير جدا، ويستحيل عليه إعالتهم، فقالوا له: «نعيش معك، ونموت معك».

وهكذا فى عام ١٩٥٦م ذهبوا جميعا إلى دير الأنبا صموئيل، وتكاتفوا معا لإعادة بنائه بجهد شاق، وعمل متواصل. وبعدما تنيح البابا يوساب، وانتخاب القمص مينا المتوحد بطريركا، إذا به يرسل تلغرافا إلى المسئول عن الدير بضرورة مغادرة القمص متى المسكين ورهبانه! وعندما ذهب القمص إلى البطريرك وسأله عن سبب قراره، قال البابا: «لكى تعيشوا فى دير السريان»!

وفى يناير ١٩٦٠م ذهبوا إلى دير السريان، فشعروا بعدم الترحيب بهم! فأخذوا الحل من نيافة الأسقف رئيس الدير، ونزلوا إلى بيت التكريس فى حلوان (فى أحد قصور الخديو عباس القديمة) وكان الأب متى المسكين قد أعده للشباب المكرس للخدمة والكرازة. وإذا بالبطريرك - فى أغسطس ١٩٦٠م - يرسل اثنين من المطارنة الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ومعهما خطاب بالتهديد بالحرم إذا لم يتركوا القاهرة فى ظرف ٢٤ ساعة!



وهكذا تكرر الترحال من دير إلى دير، لكن الخروج الجديد هذه المرة كان إلى صحراء وادى الريان حيث عيون الماء مالحة، والأرض لا تخرج أى نوع من المزروعات إلا النخيل وبعض الحشائش، والوادى يقطعه المهربون الذين أرادوا - فى مرات - أن يطلقوا النار على الرهبان جميعا!

وفى خلال هذه المرحلة الصعبة، والتى يعدها أبونا أصعب وأشق فترة عاشها فى حياته، إذا بإعلان فى صحيفة الأهرام يوم ١٧ أكتوبر ١٩٦٠م. يُعلن فيه أسقف دير السريان أنهم مجردون ومشلوحون من رتبهم الكهنوتية والرهبانية! وقد جاء هذا الإعلان بدون أى إجراءات لمحاكمات كنسية قانونية، وهذا ضد القانون الكنسى، بل وضد المبادئ الإنسانية.

وفى وسط هذه المصاعب الجمة لم يتوقف الأب متى المسكين عن الكتابة الروحية واللاهوتية داعيا - فى كتبه - للبابا كيرلس السادس بالأيام السعيدة، ففى يونيو ١٩٦٠م. صدر له كتاب «العنصرة»، وفى مايو ١٩٦١م. صدر كتاب «الباراكليت» وغيرهما من كتبه القيمة، وهنا يتجلى منهج القديس متى المسكين فى التمثل بالرسل: «نُشتم فنبارك. نُضطهد فنحتمل. يُفترى علينا فنعظ» (١ كورنثوس ٤: ١٢ و١٣)

ويصف أبونا هذه الفترة العصيبة هكذا: «كان على أن أقود هذه الجماعة وأرفع عنها الوحشة والإحساس بالظلم وأفرحهم وأسليهم وأثقفهم وأرسخ فى أرواحهم الحب الإلهى، وعشق كلمة الله، وأرفع من معنوياتهم، وأيسر لهم لوازم الحياة. كان اختباراً رائعا حقا لى شخصيا إذ نجحت فيه عندما تجردت من نفسى وضعفى ومرضى، وظللت على أعلى مستوى من المسئولية الروحية والجسدية لمدة تسع سنوات، استطعت خلالها أن أسلم الرهبان حياة الإيمان المطلق، ودخلوا جميعا فى اختبار الوحدة والحب الإلهى والتأمل فى الإنجيل ودراسة كتب الآباء... عشنا فى أعلى صلة بالله، متجردين من ذواتنا بلا أى معونة فى أشق الظروف، ولم يمرض أحد منا مرضا يقعده عن العمل قط، أو نجوع أو يُسىء إلينا أحد. وترهبن معنا أربعة رهبان استهوتهم هذه الحياة المتجردة العنيفة».

يا الله، حياة روحية خالصة كحياة الآباء الأوائل فى الرهبنة سواء فى البعد عن العالم، أوالنسك، أوالبساطة، أو حب الإنجيل، أوالإيمان المطلق. حياة روحية ممتدة لتسع سنوات كاملة دون أن يذهب إليهم زائر لصعوبة المواصلات!

وعن طبيعة الحياة وعبادة الله بهذا المكان الموحش فى واد غير ذى زرع، أو فى وادى الريان، كتب أبونا: «طبيعة بكر، لم تعبث بها يد إنسان بعد، ولا وطأتها أقدام بشر، تُضفى إحساساً غير ما واجهته كل أيام حياتى من أحاسيس، فالطبيعة بدت وكأنها حزينة متألمة، فالجبال جرداء تماما، والنسور والصقور تتجول فى السماء تصرخ من الجوع، والمناظر موحشة، وصوت يخرج من أعماقها يحكى عن الزوال فقمم الجبال المتآكلة صارت شبه مناقير لطيور منقرضة، والوديان المنحدرة فى الصخور المتآكلة تحكى عن أثر سيول المياه الجبارة فى العصور السحيقة، وبقايا أجسام حيوانات هائلة مدفونة فى الجبال والشقوق، وبقايا هياكل عظمية لبنى آدم مطروحة فيما يشبه المغائر، ربما كانوا رهبانا سبقونا. كنت أبحث عن أعلى قمة لأستريح عليها، وأتأمل نفسى من خلال هذا الوجود. من أنا؟ ومن هو الله؟ وإلى أين المسير؟ أليس إنى قمة كإحدى هذه القمم المتآكلة التى قسا عليها الزمن فجردها مما حولها وجعلها هكذا منفردة عالية مدببة، فصارت علامة على الأفق للسائرين يسيرون على هداها... ولم يعزنى إلا صلتى الخاصة بالرب يسوع، إذ كان يُشعرنى بأنه يحمل معى النير ويُشاركنى المسئولية، ووعدنى أنه لن يصيبنا ضرر قط، ولن يسمح بمرض أى واحد منا أو يتركنا لحظة واحدة».

■ ■ ■

وقد كانت فترة وادى الريان - من عام ١٩٦٠ وحتى ١٩٦٩م. - على صعوبتها، من أكثر

«إنها عتمة العقول وضيقها وانحصارها فى أفق شخصى ورؤية ضيقة. إنها عزلة فُرضت علينا نحن الأرثوذكس المصريين بحصار ثقافى ولغوى وحضارى»



متى المسكين

مراحل حياة القديس متى المسكين خصوبة فى التأليف الروحى، والدراسات اللاهوتية، والكتابات الثقافية، فقد أصدر فى خلال هذه الفترة مجموعة مهمة من الكتب التى تعد علامات فى الطريق الروحى، وهى: «مع المسيح فى آلامه وموته» و«العنصرة» و«الباراكليت» و«الوحدة المسيحية» و«توجيهات فى الصلاة» و«كيف تقرأ الكتاب المقدس» و«فى التدبير الروحى» و«المسيحى فى المجتمع» و«المسيحى فى الأسرة» و«القديسة العذراء مريم» و«القديس أنطونيوس ناسك إنجيلى» و«التسبحة اليومية ومزامير السواعى» و«كلمة الله » و«الكنيسة والدولة» و«رأى فى تحديد النسل».

وكما يقول القديس متى المسكين عن عالمه الداخلى: «إن حركة الروح داخلى لم تتأثر بالمقاومة السلبية من الرؤساء والزملاء، وظلت كتابتى بنفس العمق أثناء الضيق كما هى أثناء السعة. ولشعورى باضمحلال العمق الروحى فى الدراسات الكنسية اتجهت إلى الكتابة متعمداً التنوع حتى أغطى أكبر مساحة من هذا العوز الكنسى لعل من يأتى بعدى يكمل ما بدأت... أما أفكارى ومبادئى سواء الروحية أو اللاهوتية أو السياسية أو الأدبية فهى لم تتطور ولم يعترضها تحولات بل كانت تنمو دون أى تغيير فى جوهرها».

■ ■ ■

وبعد تسع سنوات فى وادى الريان أرسل البابا القمص صليب سوريال كاهن الجيزة إلى الأب متى المسكين ليخبره أن البطريرك يريد مقابلته! فرفض أبونا، فألح عليه القمص، وقال له إن البابا مريض ومتألم وقد طار النوم من عينيه، وهو يشعر بتأنيب الضمير. فذهب إليه أبونا، وعندئذ اعتذر له قداسة البابا كيرلس، وطلب منه السماح والحل عما فات! وحلل كل منهما الآخر، واشتركا معا فى صلاة القداس، وطلب البابا حضور جميع الرهبان من صحراء وادى الريان إلى دير أنبا مقار.

■ ■ ■

وفى ٩ مايو ١٩٦٩م. كان الوصول إلى دير القديس أنبا مقار، وحالة الدير آنذاك سيئة جدا، فالأسوار والقلالى مليئة بالشقوق، والكنائس متداعية، ولا توجد أماكن صالحة للسكنى، فرهبان الدير ستة مسنين ومرضى، أحدهم طريح الفراش، واثنان منهم ضريران، وكانوا جميعا يائسين من حالة الدير ومن احتمال زيادة عدد الرهبان، وكانوا يتوسلون ببكاء أمام أنبوبة رفات أنبا مقار ويقولون: «كيف تترك ديرك يسقط ويُهدم علينا ولا يوجد أحد لتعميره».

ويصف أبونا حاله الداخلى عندئذ بقوله: «كنت فى منتهى الإعياء، وفى أشد الحاجة إلى الراحة والهدوء والوحدة، لأسترد صحتى الجسدية وفرحى الروحى الصافى. ولكن أمام مسئولية إنقاذ بيت الله من الخراب، نسيت نفسى وتجردت من كل شهوة قلبية فى الوحدة، وبدأت أعمل فى دير أنبا مقار، معتمداً على الرهبان الذين يرسلهم الله..»

■ ■ ■

الحقيقة أن ما حدث من نهضة روحية، وعمرانية فى دير أنبا مقار تحتاج إلى دراسة خاصة. وقد ابتكر أبونا تصميماً رائعًا للقلالى، جمع «قلاية»، وهى كلمة يونانية «Kellia» معناها «خلية». وتم بناؤها بعمارة علمية حديثة تراعى عوامل الصحة الجسدية والنفسية والعصبية. فهندسة القلاية تناسب واقع حياة الراهب كإنسان متوحد، يمكن أن يقضى فيها أياما دون حاجة إلى الخروج منها، فهى واسعة، ومنيرة تدخلها الشمس، وممرات للهواء تتخللها للتهوية، وحجرة للقراءة بها مكتب ومكتبة، ودورة مياه كاملة، وحجرة أخرى «Closet» بأرضية من الخشب للصلاة والنوم. مع مراعاة عدم تلاصق القلالى، والفصل الكامل بين مساكن الرهبان وآثار الدير، لتيسير الانفراد والسكون الذى هو جوهر الرهبنة.

وكل شىء فى دير أنبا مقار مشترك بين الجماعة، فلا يميز أحد عن الآخر فى ثياب، ولا فى مسكن، ولا فى طعام، ولا فى شراب، فالكل يأكل ويشرب من يد الله. وقد تمت عمليات إعادة بناء وتطوير هذا الدير العظيم بأيدى رهبان ضعفاء، وعمال فقراء - يُعتنى بهم روحيا - حتى تظهر قوة الرب التى تكمل فى الضعف!

ومن أسرار النجاح فى تشييد وتعمير هذا الدير المقدس، طريقة تعامل أبونا متى مع العمال، فهو يتعامل معهم معاملة أب لأبنائه. ويقول فى وصاياه للسلوك الرهبانى: «لا ترفعوا نجاح العمل وإتقانه فوق الرحمة أو المحبة، لأن العمل سيفنى ولكن الرحمة والمحبة ستبقى إلى الأبد شاهدة لنا أو شاهدة علينا».

■ ■ ■

وفى أثناء العمل فى تجديد الدير تم اكتشاف رفات إليشع النبى ويوحنا المعمدان عند رفع ركام أرضية الكنيسة - فى داخل قبو تحت الأرض - كما هو مكتوب فى المخطوطات، ومعروف من التقاليد المتوارثة لدى الرهبان القدامى، ففى تاريخ الكنيسة أن رفات هذين النبيين كانت فى مقبرة واحدة فى أورشليم فى فلسطين. ثم عندما أمر الإمبراطور يوليانوس الجاحد بحرق عظام الأنبياء والقديسين، أنقذها المسيحيون وأرسلوها فى مركب إلى الإسكندرية، واستلمها البابا أثناسيوس الرسولى، ثم بنى عليها البابا ثاوفيلوس كنيسة فى منطقة عمود السوارى، ولكن حدثت قلاقل واضطرابات فى القرن العاشر، فهرب المسيحيون هذه الرفات من الإسكندرية إلى دير القديس أنبا مقار.

■ ■ ■

ويرى أبونا أن العمل الشاق مع الصلاة القلبية هو طريق البركة والخلاص، فالشغل إلى حد الإجهاد، وفوق الطاقة بصبر وجهاد يعد إماتة، وهذه الإماتة تعد ركنا من أركان الرهبنة، فالعمل الجسدى أنسب وسيلة للراهب لكى يسلك كل يوم فى طريق الإماتة. أى أن يهلك ذاته من أجل الله لكى يخلُص. فطوبى لمن يعرف ضعفه، ويعترف به لكى ينمو فى طريق الحياة الروحية.

إذ ليس بالإرادة، ولا بالأعمال نقترب إلى الله، وإنما بالاتضاع الكامل، أى الإيمان القلبى بانعدام الحول والقوة، والاحتياج الشديد إلى الله وحده.

وفى الوحدة يمكن أن تكتشف أخطاءك، وتقدم توبة حارة من القلب، فيغفر لك، أما أن تجحد نفسك، وتبذل ذاتك بتواضع ومحبة، فهذا لا يتم إلا مع الآخرين. ومن ثم فأكبر خدعة يقع فيها متصوف هى أن يتقوقع على نفسه، ويتعمد إيجاد حد فاصل بينه وبين الخليقة، فيلقى بنفسه بعيدا عن الحياة الروحية، ويعيش على هامشها. إذ لا يمكن أن يسعد إنسان بالله، أو يعيش

إن صداقتى وحبى للمسلمين كانا موضع تساؤل مستمر، وكنت أحدث المتسائلين عن أصالة الوعى المسيحى.. أنه وعى إنسانى قبل كل شىء



فى عمق وجوده، وهذا الخط الوهمى يفصله عن الخليقة.

وعندما ينفتح الوعى الروحى انفتاحا سليما، تتجلى أمامه الخليقة بصورتها الحقيقية، فلا يكون فيها شىء باطل أو شرير، فكل شىء طاهر للطاهرين.

■ ■ ■

إن الإيمان هو الذى يصنع المعجزة، والمعجزة شهادة على وجود الإيمان بشرط أن يكون الهدف من المعجزة تحقيق مشيئة الله، وليس مشيئة الإنسان. أو كما يقول أبونا: «أنا لا أعتمد فى حياتى على المعجزة، ولكن بعد أن يتم العمل المطلوب أقول: إن هذه فعلا معجزة».

وهكذا نهض هذا الدير المعدم المهدم، والذى كان يتلقى هبات قليلة ومعونات محدودة من الخارج، فإذا به يتحول إلى منارة مبهرة تشع نوراً ورخاء ومحبة إلى كل من حولها، وتبعث بالعطايا، والمنح، والمساعدات للفقراء والمحتاجين.

وقد جاء يوما بعض الشيوخ من قرية بنى سلامة المجاورة للدير، وطلبوا مساعدتهم فى توسيع مدرسة صغيرة ببناء فصلين للدراسة. فطلب أبونا معرفة تصورهم عن احتياجات قريتهم من الفصول بعد عشرين عاما؟! فقالوا: عشرة فصول. فأمر ببناء مدرسة متكاملة ونموذجية للقرية من دورين، وملاعب، ودورات مياه، ومكتبة كاملة بالكتب العلمية والإسلامية والثقافية. ولما أراد أهالى القرية أن يسموها «مدرسة دير أنبا مقار» رفض أبونا الروحى ذلك، وقال: لا بل تسمى مدرسة بنى سلامة الإعدادية، وساهم الدير أيضا فى بناء الجامع ودار المناسبات بالقرية.

■ ■ ■

وثمة نقطة مهمة فى حياة القديس متى المسكين، وهى تتعلق بموقفه الحاسم تجاه تقلد أى منصب، أو سلطة، أو أى شكل من أشكال التكريم التى يمكن أن تعيق حركة مساره الروحى، إذ يقول: «أنا راهب فى البرية، ما لى ولكرمات العالم!» ومن ثم لم يقبل فى عام ١٩٧٠م. رغبة البابا كيرلس أن يُرسم أسقفاً على لندن، ولما رُشح للبطريركية عام ١٩٧١م. رفض ذلك لأنه كان يضع أمام عينيه مبدأ القديس يوحنا ذهبى الفم: «عجبى على رئيس يخلُص».

وحين ألغت الكنيسة الاحتفالات بعيد القيامة فى أبريل ١٩٨٠م. بسبب أحداث طائفية فى الإسكندرية وأسيوط. عُد ذلك بمثابة تحد للرئيس السادات، وبخاصة أنه جاء متزامنا مع استعداده للسفر إلى أمريكا. وقد ضغط بعض الأراخنة الأقباط على الأب متى المسكين من أجل أن يتدخل لحل الأزمة، فقابل الرئيس السادات - بعلم البابا شنودة - ووجده مُستاء جداً من تصرف الكنيسة، وخلال ساعتين استطاع أبونا أن «يمتص غضب السادات» (بتعبير الوزير عثمان أحمد عثمان).

وفى أحداث سبتمبر ١٩٨١م. كان السادات يريد أن يعتقل رئيس الكنيسة ويقدمه للمحاكمة، ولكن أبونا استطاع أن يقنعه أن يكتفى بأن يعتكف البابا، وتشكل لجنة أساقفة مؤقتة للقيام بمهام البابوية، واقترح أبونا أسماء خمسة أساقفة، فسأله السادات: «هل أنت الأب متى الذى كنت مرشحا لمنصب البطريرك عام ١٩٧١م». فأجابه بالإيجاب، فاستطرد الرئيس: «ألا تعلم أن اثنين من هؤلاء الذين اخترتهم اتهموك أنك شيوعى وتتآمر على سلامة الدولة، ومازال خطابهما موقعا باسميهما أمامى»! وطلب الرئيس السادات من أبونا أن يكون مسئولا، فرفض تماما، فألح عليه الرئيس، فرد أبونا قائلا: «إذا ألححت على فسوف تفقدنى نهائيا، ولن تعثر لى على أثر فى أى مكان فيما بعد».

وقد اعترض أبونا على قرارات سبتمبر باعتقال المعارضين، ورجى الرئيس أن يتراجع عنها «لأن العنف يولد العنف» فرد عليه الرئيس: «كل شىء قد أعد، ولا يمكن التراجع عنه».

■ ■ ■

كان أبونا - وهو فى هذه السن المتقدمة - يقضى فى اليوم الواحد أكثر من أربع عشرة ساعة عاكفاً على القراءة بلغات عدة، وهو يدقق فى البحث، ويكثر من التأمل، وينطلق فى الكتابة، من أجل استعلان أعماق كلمات الحكمة المقدسة.

وفى يوم الخميس ٨ يونيو ٢٠٠٦م. سلم القديس متى المسكين وديعة حياته بين يدى خالقه، وسجى فى مغارة خارج الدير، كان قد أوصى بمكانها قبل وفاته بأربع سنوات. ■

كتاب الزاوية



عصر العلم
أحمد زويل

إن نقص القاعدة العلمية والتكنولوجية فى أى دولة ليس دائما ناتجا عن فقر المصادر أو الثروة البشرية، ولكنها أحيانا تنبع من غياب الإرادة فى تقدير الدور الحيوى الذى تلعبه العلوم والتكنولوجيا فى التنمية، فضلا عن عدم وجود سياسة واضحة للتعرف على الاحتياجات القومية الحقيقية. وبعض البلدان تعتبر التقدم العلمى مجرد رفاهية مقارنة بالاهتمامات الأخرى والبعض الآخر يعتقد أن القاعدة العلمية يمكن أن تتوافر عن طريق شراء تكنولوجيا من دول متقدمة. مثل هذه المعتقدات تتحول وتترجم إلى تخلف أو على الأقل إلى تقدم ضعيف وبطىء.

وتشير هذه القضايا إلى ثلاثة احتياجات أساسية للتنمية.. إلى تنمية بشرية تستهدف التخلص من الأمية وتأمين مشاركة فعالة للمرأة وتطوير الثقافة الاجتماعية، وإلى إطلاق حرية الفكر وتقليل حجم البيروقراطية مع رفع كفاءتها والقضاء على الفساد أو تقليصه وتطوير نظام من الحوافز والترقيات فى إطار لوائح وقوانين متزنة وقابلة للتطبيق، ثم إلى بناء قاعدة علمية تعمل على الاستثمار فى الموهوبين وإقامة مراكز للتميز. وإيجاد الفرص للحصول على المعلومات عن الأسواق الصناعية والاقتصادية داخليا وخارجيا وتلاحم المعرفة العلمية مع القاعدة الصناعية.. ويجب أن يسير كل ذلك جنبا إلى جنب مع خطة عامة شاملة لتطوير التعليم العام فى مدارس الدولة وجامعاتها.

فى الخمسين عاما القادمة. ستحظى المجتمعات القائمة على العلم والمهارة بنصيب الأسد من السوق والمكانة فى العالم. وبدون تقدم علمى ملائم، سوف يكون حديث العالم عن الجينوم والاستنساخ والطب الجزيئى والذكاء الاصطناعى ومعالجة المادة.. حديثا غريبا وبعيدا!



هل تحكم الصين العالم؟!!



السيد أمين شلبي

■■ تستطيع أن تحكم كيف تغيرت نظرة الولايات المتحدة والغرب إلى الصين من مراقبة زيارات المسئولين الامريكيين، فلم يعد هؤلاء المسئولون يحضون الصين على مراعاة حقوق الإنسان، أو تخفيض عملتهم، وانما على الاستمرار فى شراء اذونات الخزانة الامريكية بمئات البلايين من الدولارات، او كما فعل وزير الخزانة الامريكى فى زيارته للصين عندما أكد للصينيين ان الخطوات التى تتخذها إدارة اوباما انما سوف تعمل على استعادة النمو، ولا يقتصر توقع امريكا والغرب من الصين على البعد الاقتصادى وإنما كذلك على طلب المساعدة فى قضايا كوريا الشمالية.

كيف تبدو الصين الجديدة بعد ان استعادت مكانتها وكيف سوف تتفاعل البلدان الأخرى معها؟ هل سوف يتم تقويض الغرب بشكل مصيرى أو ان الصين سوف تتبنى النموذج الغربى الناجح للاقتصاد والدولة والمجتمع؟

لا أحد يعلم الاجابة على هذه الاسئلة. فى الاجابة على هذه الاسئلة لدينا «الكتابة على الحائط» لويل هتون Will Hutton الصحفى والاقتصادى اليسارى، وكذلك «الصين تهز العالم» لجيمس كينج المراسل السابق «للفايننشل» تايمز فى الصين والآن تضاف اليهم «عندما تحكم الصين العالم» لمارتن جاكز رئيس تحرير دورية «الماركسية اليوم» والكاتب فى الجارديان والاكاديمى الزائر فى عدد من المؤسسات وتقف رسالة جاكز معارضة لروح الانتصا رالتى سادت الولايات المتحدة بعد سقوط الشيوعية فى اوربا، وموضوعه هو هجوم واضح على كتاب هيوتن ووجهات نظره ان قيم التنوير ومؤسساته المنافسة، الحكومة المنتخبة، وتوازن السلطات وتشجيع التساؤل، والانفتاح والقضاء المستقل والصحافة أمور مطلوبة للصين لكى تواصل نجاحها الراهن، وبينما يرى هيوتن تناقضات ضخمة والمتاعب التى تنتظرها. يقول جاكز «ان السيطرة الغربية.. سوف تأتى إلى نهايتها ويرى الصين تواصل رخاءها واكثر من هذا يتصور جاكز ان العديد من البلدان الأخرى فى نطاق الصين سوف تنجذب إلى طريق الصين فى الأداء ومبتعدة عن الاساليب التى يشجعها الغرب الآفل.



ويقدم مارتن جاكز لكتابه بالقول: «اننا نشهد الآن تغيرا تاريخيا ورغم انه مازال نسبيا فى مرحلة الطفولة، إلا أنه مقدر له ان يغير العالم. فالعالم المتقدم، والذى لمدة اكثر من قرن كان يعنى الغرب (الولايات المتحدة وكندا واوربا الغربية واستراليا ونيوزيلاندا) اضافة إلى اليابان، انما يلحق بالمعنى الاقتصادى بالعالم النامى. وكما توضح استطلاعات جولدمان ساكس فإن الاقتصاديات الكبرى الثلاثة فى عام ٢٠٥٠ ستكون الصين فى مقدمتها تتبعها امريكا بقرب ووراءها الهند ثم البرازيل، والمكسيك وروسيا واندونيسيا. ولن تقع فى قمة العشرة سوى المملكة المتحدة والمانيا، ولن يقع من مجموعة السبعة فى القمة سوى اربعة فقط.

ويشير جاكز إلى ما كتبه عام ٢٠٠٤، المحلل المحافظ ذو النفوذ:

Charles krauthmmer :

«فى ٢٦ ديسمبر ١٩٩١ مات الاتحاد السوفيتى وولد شىء جديد، شىء جديد كلية، عالم احادى القطبية تسيطر عليه قوة اعظم واحدة لا تجاريها أى منافس وذات وصول حاسم فى كل ركن من العالم. وهذا تطور مذهل فى العالم لم ير منذ سقوط روما ».

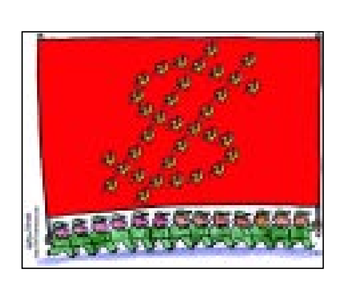
وفى عصر ما بعد الحرب الباردة كان الانفاق العسكرى الامريكى تقريبا عظيما مثل بلدان العالم الاخرى مجتمعين، ولم يحدث ابدا فى تاريخ الجنس البشرى ان كان عدم المساواة العسكرية بين امة واحدة وبين كل الدول الأخرى بمثل هذه العظمة.

وتعتبر مكانة امريكا كقوة اعظم نتاجا لنموها الاقتصادى السريع من ١٨٧٠ . ١٩٤٥، وحقيقة انه من النصف الثانى للقرن العشرين كانت الاكبر والاكثر ديناميكية.

وعلى الرغم من اننا نشهد صعود عدد نام من البلدان النامية فإن الصين حتى الآن هى الأكثر أهمية اقتصادية فهى حاملة وقائدة العالم الجديد. وقد امتد تأثير الصين عبر شرق آسيا، وآسيا الوسطى، وجنوب آسيا، وامريكا اللاتينية وافريقيا فى اكثر قليلا من عقد. وتختلف الصين كثيرا جدا عن النمور الآسيوية المبكرة مثل كوريا الجنوبية وتايوان. وعلى عكس الأخيرة، فلم تكن ابدا دولة تابعة للولايات المتحدة، وزيادة على ذلك فهى تتمتع بعدد سكان ضخم بكل ما يعنيه هذا. والتحدى الذى تمثله الصين، نتيجة لهذا، على نطاق مختلف لدول النمور الآسيوية. ورغم هذا فإن التوافق فى الغرب، على الأقل حتى وقت قريب، ان الصين سوف تنتهى، نتيجة لعملية التحديث فيها، أو كنتاج لها، أو لكليهما، كدولة على النموذج الغربى. وقد اهتدت السياسة الامريكية خلال العقود الثلاثة الأخيرة بهذا الاعتقاد. وقد دعم هذا استعداد امريكا للتعاون مع الصين، وفتح اسواقها للصادرات الصينية، والموافقة على قبولها فى منظمة التجارة العالمية والسماح لها ان تكون عضوا كاملا بشكل متزايد فى المجتمع الدولى.

وقد اعتقد التيار الرئيسى فى الاتجاه الغربى، فى اساسياته، ان العالم سوف يتغير نسبيا بشكل قليل بصعود الصين. وكان هذا مستندا إلى ثلاثة افتراضات : ان تحدى الصين سيكون فى المقام الأول اقتصاديا فى طبيعته، وان الصين فى الوقت المناسب سوف تصبح امة غربية طبق الأصل، وان النظام الدولى سوف يظل بشكل واسع كما هو الآن، وحينئذ ستذعن الصين للوضع الراهن starus quo، وتصبح الصين عضوا متظللا فى المجتمع الدولى.

يعتبر جاكز ان كلا من هذه الافتراضات سيئة التصور، فصعود الصين سوف يغير العالم بأكثر الطرق عمقا. ويعتبر ان تأثيرات صعود الصين يجرى الشعور بها حول العالم وبشكل أوضح فى الثمن المنخفض فى العديد من المنتجات الاستهلاكية وارتفاع اسعار السلع. وبعدد سكان يبلغ (٤) اضعاف وبمعدل نمو مضاعف، مما يجعل جولدمان ساكس يتوقع انه فى عام ٢٠٢٧ سوف تتخطى الصين الولايات المتحدة كأكبر اقتصاد عالمى. وباعتبار مثل هذه التنبؤات الاقتصادية التى تأخذ



يدعم الكتاب حججه حول مستقبل الصين بما يسميه «ثقل الارقام»، فعلى عكس قوى مثل الولا يات المتحدة، والاتحاد السوفيتى سابقا، وأوربا، فإن الصين تضم ٢٠,٧٪ من سكان العالم عام ٢٠٠١



Jacaues, Martin
"when china rules the world , the rise of the middle kingdom and the end of the western world" ,
Allen lane, penguin books, 2009

الأنفاس، لماذا نفترض ان صعود الصين سيكون فى المقام الأول اقتصاديا فى طبيعته. فالقوى الصاعدة دائما ما تستخدم قوتها الاقتصادية الجديدة لغايات سياسية، وثقافية، وعسكرية واسعة. وهذا ما يعنيه أن تكون قوة مسيطرة وسوف تصبح الصين بالتأكيد واحدة من هذه القوى. ومع هذا فإن الغرب يجد من الصعوبة ان يتصور مثل هذا السيناريو. فبقاؤه مسيطرا لمدة طويلة اصبح الغرب فى الجزء الأكبر، سجينا داخل افتراضاته الخاصة وغير قادر على ان يرى العالم على غير صورته. فالتقدم، وفقا لهذا التصور الغربى، انما يتجدد بشكل دائم وفقا لدرجات التغريب، Westernization، ونتيجة لهذا فإن الغرب يجب ان يحتل دائما القمة للتطور البشرى طالما انه بالتحديد الاكثر غربية فى الوقت الذى يقاس فيه تقصير الآخرين لمدى أخذهم بمقاييس الغرب. ومع هذا، فإنه من غير المتصور ان الصين سوف تصبح امة على الطراز الغربى بالطريقة التى يتعود عليها الغرب، فالصين هى نتاج تاريخ وحضارة، والتى لديها القليل أو ليس لديها شىء مشترك مع التاريخ والحضارة الغربية، ويخلص الكتاب فى هذا السياق إلى انه فقط باستبعاد آثار التاريخ والحضارة، وخفض العالم إلى مستوى الاقتصاد والتكنولوجيا، فإنه يمكن استخلاص ان الصين سوف تصبح غربية.



والسيناريو الذى يستند اليه الكاتب فى تصوره لمستقبل الصين هو انها سوف تستمر فى ان تنمو بشكل اقوى وان تبرز فى النهاية فى نصف القرن القادم، أو أكثر مما يتوقع الكثيرون، باعتبارها القوة القائدة فى العالم. غير ان السؤال الرئيسى الذى يناقشه الكتاب هو فى الوقت الذى ستبدأ فيه الصين فى الظهور كقوة عالمية، فأى اشكال ستأخذها قوتها؟ أو بمعنى آخر، كيف ستبدو السيطرة الصينية؟ كيف ستعبر عن قوتها وكيف ستسلك فى مثل هذا السيناريو؟

لقد كان التاريخ العالمى فيما سبق بشكل جوهرى تاريخا اوربيا، ولكن بصعود الصين لن يكون هذا هو الحال. ولن يكون التاريخ الصينى مألوفا فقط للصينيين ولا حتى للآسيويين الشرقيين ولكن للعالم كله. ومثلما تحول الكثيرون حول العالم بالأحداث الكبرى فى التاريخ الامريكى (وبنفس الشىء اصبح صحيحا بالقرارات الحاسمة فى التاريخ الاوربى مثل الثورة الفرنسية، والتنوير والثورة الصناعية وعصر النهضة كنتيجة للتفوق الاوربى المبكر)، كذلك فإن العلامات الاساسية فى التاريخ الصينى ستكون بشكل مشابه ملكية عالمية. واكثر الملامح الجاذبة للتاريخ الصينى هى تحقيقه فى الوقت الذى تجزأت فيه اوربا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية إلى عدة اجزاء. ثم بعد ذلك إلى عدة أمم، كانت الصين تتحرك بالفعل تماما إلى الاتجاه المعاكس وبدأت تتفوق فالوحدة كانت من اكثر الأمور الاساسية فيما يتعلق بالتاريخ الصينى أن لم تكن اكثرها اساسية.

وهناك ايضا العديد من مظاهر التاريخ الصينى التى سوف ستطبع الخطاب العالمى وعلى سبيل المثال ان الصين كانت مسئولة عن الكثير من التجديدات التى تم تبنيها بعد ذلك فى أماكن أخرى وخاصة فى الغرب وهو ما يطرد الأسطورة المعاصرة ان الغرب هو اكثر ثقافات التجديد.

ومثلما كانت نيويورك مع نهاية القرن هى عاصمة العالم الفعلية، وفى عام ١٩٠٠ خلال الموجة الأولى للعولمة، كانت لندن عاصمة العالم، فإنه بالنظر إلى المستقبل مرة أخرى فإنه يبدو من الأكثر احتمالا ففى تصور الكتاب فإنه خلال خمسين عاما وبالتأكيد مع نهاية هذا القرن، فإن بكين سوف تتبوأ مكانة عاصمة العالم الفعلية. وسوف تواجه المنافسة من مدن صينية أخرى مثل شنغهاى، ولكن كعاصمة الصين، مركز المملكة الوسطى وموطن المدينة المحرمة، فإن ترشيح بكين سيكون مؤكدا مع افتراض ان الصين حتميا هى القوة القائدة فى العالم. غير ان هذا ليس ببساطة مسألة مكانة بكين، فنحن نستطيع ان نفترض أن هيمنة الصين سوف تتضمن على الأقل تحولات جيولوتيكية اساسية: الأولى أن الصين سوف تبرز كعاصمة عالمية وثانيا أن الصين سوف تصبح قوة عالمية قائدة، وثالثا أن شرق آسيا سوف تصبح اكثر مناطق العالم أهمية ورابعا ان آسيا سوف تتبوأ دور أكثر

الصين كانت مسئولة عن الكثير من التجديدات التى تم تبنيها بعد ذلك فى أماكن أخرى وخاصة فى الغرب وهو ما يطرد الأسطورة المعاصرة أن الغرب هو أكثر ثقافات التجديد



قارات العالم أهمية، وهى عملية سوف تتدعم بصعود الهند. وسوف يؤدى كل هذا إلى تحول فيما يتعلق بعلاقة الصين بالنظام العالمى وبتأثير هذا فإن الصين سوف تفكر عن نفسها بشكل متزايد، وسوف يتعامل معها الآخرون كدولة حضارة Civilization state

ويدعم الكتاب حججه حول مستقبل الصين بما يسميه «ثقل الارقام»، فعلى عكس قوى مثل الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتى سابقا، واوربا، فإن الصين تضم ٢٠ر٧٪ من سكان العالم عام ٢٠٠١، وزيادة على ذلك فإنه ايا كانت أوجه الشبه الواضحة التاريخية والثقافية والعرقية والتى تساهم فى ربط ودمج العالم الغربى، فإن هذا يختلف جدا عن الوحدة والتماسك التى تتمتع بها الصين كأمة واحدة. والمقارنة الحقيقية هى ان نسبة ٢٠ر٧٪ الذى تمثله سكان الصين ضد ٦ر٤٪ للولايات المتحدة وبعبارة أخرى فإن الصين كقوة عالمية قائدة سوف تتمتع بالثقل الديموجرافى والذى يختلف نوعيا عن أى قوة مهيمنة أخرى فى العصر الحديث.

كذلك يتوقع الكتاب ان بروز الصين كأمة عالمية مهيمنة فإنه من غير المحتمل جدا أن تأتى بحكم ديموقراطى عالمى، ولكن صعود أمم نامية مثل الهند، والبرازيل وروسيا مع الصين يجب أن يفتتح اقتصادا عالميا ديموقراطيا واكثر ديموقراطية من النظام الغربى الذى سبق ان ساد. ويعنى حجم السوق الصينى انه فى الوقت المناسب سوف يكون حتما أوسع اقتصاد فى العالم ونتيجة لذلك فسوف يتبوأ دور المقياس الفعلى لأكثر المقاييس العالمية، وسوف يكون من نتيجة حجم السوق الداخلى ان تصبح الشركات العالمية الاكبر فى العالم وكذلك البورصة الصينية. وقد تنبأ المجلس العالمى للسفر والسياحة انه مع عام ٢٠١٨، بأن قيمة السياحة الصينية سوف تكون أعظم من الولايات المتحدة. وبصورة مشابهة فإن اللغة الصينية سوف تتبوأ قيمة عالمية، كذلك مع ٢٠٠٨ فإن عدد مستخدمى الانترنت قد فاقوا بالفعل المستخدمين الامريكيين. اما على المستوى العالمى والتكنولوجى يعتبر الكتاب ان هناك الكثير من الشواهد ان الصين تتسلق بثبات السلم العالمى، وفى الوقت الراهن فإنها تمثل اقتصادا مبادرا iniator اكثر منه مجددا innivator ولكن حجم البحث العلمى الجاد يرتفع بشكل سريع شأن الانفاق على البحث والتطوير، فالصين هى بالفعل الأمة القائدة الخامسة فيما يتعلق بنصيبها من الاصدارات العلمية القائدة وهى قوية بوجه خاص فى المجالات الاساسية مثل النانوتكنولوجى. وفى عام ٢٠٠٦ ووفقا «Oecd» تجاوزت الصين لكى تصبح ثانى اكبر مستثمر فى البحث والتطوير بعد الولايات المتحدة. ويخلص الكتاب من هذا العرض للابعاد الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية للصين إلى أن أحد الآثار الاقتصادية الاساسية لصعود الصين هو تحول وإعادة تشكيل النظام المالى العالمى.



اما السؤال الرئيسى الذى يناقشه ويدور حوله الكتاب فهو كيف ستسلك وتتصرف الصين كقوة عظمى؟ فى هذا الشأن يثير عاملين يجب أن يكونا فى الاعتبار: الأول يرتبط بما يسمى المدرسة الواقعية فى العلاقات الدولية والتى تركز على أهمية المصالح ولهذا تركز على كيف تميل لأن تتصرف فى طريقه مشابهة فى نفس الظروف، ومثلما يجادل عالم السياسة روبرت كاجان، فان القوى الصاعدة لديها بشكل مشترك احساس بالتوسع فى المصالح والاهلية. وتبعا لذلك فإن الصين، وفقا لوجهة النظر هذه، سوف تميل للسلوك وفقا لأى قوة اعظم أخرى بما فيها الولايات المتحدة. اما العامل الثانى فإنه على النقيض، يركز على كيف تصاغ القوى العظمى بتاريخهم وظروفهم ولذلك فإنها تتصرف بطرق مميزة. ومثلما فى حالة الولايات المتحدة، فإن هذين العاملين المختلفين سوف يجتمعان لتشكيل سلوك الصين كقوة اعظم. فما هى الدروس التى يمكن أن نستخلصها؟ يقول مارتن جاكز، انه ربما لنصف القرن القادم فإنه يبدو من غير المحتمل ان الصين سوف تكون عدوانيه بوجه خاص، وسوف يستمر التاريخ فى ان يلقى بثقله بشكل كبير على كيف تدير قوتها النامية وبشكل ينصح بالحرص وضبط النفس، ومن ناحية أخرى وفى الوقت الذى تصبح فيه الصين اكثر ثقة فى النفس، فإن الاحساس القديم بالتفوق سوف يكون واضحا بشكل متزايد على الاتجاهات الصينية. ولكن اكثر من أن يكون امبريالية بالمعنى الغربى التقليدى. رغم ان هذا، بمرور الزمن، يصبح سمة نامية وهى تملك المصالح وغرائز القوة الأعظم، فإن الصين سوف تتميز بنظرة تراتبية قوية للعالم، مجسدة لذلك الاعتقاد انها تمثل شكلا اعلى من الحضارة اكثر من غيرها.

وبالنظر إلى حجم سكانها وطول حضارتها فإن الصين سيكون لها دائما اتجاها مختلفا تجاه مكانها فى العالم من أوربا إلى الولايات المتحدة. وقد شكلت الصين نفسها دائما واعتقدت أنها عالمية، وهذا معنى عقلية المملكة الوسطى. وبمعنى عام، فإن الصين لا تأمل أن تدير العالم لأنها بالفعل تعتقد انها مركز العالم وان هذا هو دورها الطبيعى وموقعها. ومثل هذا الاتجاه من المحتمل ان يقوى عندما تصبح الصين قوة عالمية كبرى، ونتيجة لذلك فإنها يمكن ان تثبت انها أقل عدوانية بشكل مكشوف اكثر مما كان الغرب، ولكن هذا لا يعنى انها ستكون اقل عدوانية أو أقل تصميما لفرض إرادتها وترك بصمتها. وقد تفعل هذا بطريقة مختلفة من خلال اعتقادها العميق فى تفوقها الموروث وتراتبية العلاقات التى تترتب بالضرورة وبالطبيعة عن هذا.

وعلى الرغم من ان الغرب يجد من الصعوبة ان يتصور بديلا جادا قابلا للحياة، ايا كان تاريخه وحضارته، فإن الصين تقدم مثل هذا البديل ـ ومن الممكن، بل من المحتمل، أنه فى المدى الطويل فإن الصين سوف تصبح بشكل متزايد ديموقراطية ولكن شكل هذه الديموقراطية سوف يحمل حتما بصمة تقاليدها الكونفوشيوسية العميقة.

وببروز الصين كقوة عالمية كبرى، فإنها سوف تمثل قوة سياسية مختلفة بالنسبة للغرب. ومنذ أن اشرف الحزب الشيوعى الصينى على تحول ناجح بدرجة عالية للبلد فإنه يتمتع بدرجة كبيرة من المكانة والتأييد كما ينعكس فى الثقة بالنفس التى يعرضها الصينيون حول توقعات مستقبلهم. وكنتيجة للعقدين القادمين، وربما أطول، فإن الحزب الشيوعى من المحتمل ان يستمر فى السلطة بل وربما يتمتع بشكل اكثر احياء بل ودعما لسمعته الدولية ، وهى العملية التى تجرى فعلا. فى هذا السياق فإننا يجب أن نفكر فى النظام الشيوعى الصينى بشكل مختلف جدا عن الاتحاد السوفيتى، فبعد كل شىء، فقد نجح فى الوقت الذى فشل فيه الاتحاد السوفيتى. ومنذ ان تابع دنج تشاوبنج استراتيجية مختلفة جدا مبتعدا عن الاشتراكية نحو الرأسمالية بما فيها جرعة كبيرة من النيوليبرالية. ويستخلص مارتن جاكز ان الصين سوف تتصرف كنموذج بديل للغرب مستخدمة نوعا مختلفا من فن الحكم، بلدا ناميا، نظام شيوعى، ونظام سياسى كونفوشيوسى سلطوى اكثر من ديموقراطى.



ويناقش الكتاب ماذا ستكون عليه مكانة الصين المتفوقة فى عدد من المجالات مثل : الجامعات، والقوة الناعمة، والرياضة، والطب. فحول الجامعات الصينية يذكر بالطريقة العامة التى تركت الولايات المتحدة بصمتها على العالم كله من خلال الجامعات، فهى تمتلك ما اعتبر انه أفضل جامعات والتى جذبت بعضا من أفضل الاكاديميين والطلاب من حول العالم. اما الصين فقد كانت هناك خمس جامعات من بين ٢٠٠ جامعة فى القمة. وفى ترتيب جامعة شنغهاى لجامعات العالم فان جامعات القمة الصينية تحقق تقدما نحو المراتب العالمية. كذلك تبرز الصين كمركز رئيسى لتعليم الطيران. ويدرس عدد متنام من الطلاب الاجانب فى الجامعات الصينية، فخلال العام الجامعى ٢٠٠٣، كان عدد ٧٧٦٢٨ من الطلاب الاجانب يدرسون لدرجات متقدمة فى الجامعات الصينية وحيث ٨٠٪ من دول آسيوية. وهكذا يبدو من المحتمل أن الجامعات الصينية خلال الحقبتين القادمتين، سوف تصعد بثبات مراتب القمة وعلينا وحيث ستحتل بعد



صعود الصين يجعل جولدمان ساكس يتوقع أنه فى عام ٢٠٢٧ سوف تتخطى الصين الولايات المتحدة كأكبر اقتصاد عالمى



هل سوف يتم تقويض الغرب بشكل مصيرى أم أن الصين سوف تتبنى النموذج الغربى الناجح للاقتصاد والدولة وا لمجتمع لا أحد يعلم الإجابة عن هذه الاسئلة



ذلك بين العشرة الأوائل ومن الأسرع بعملية لجذب الدارسين الصينيين فى الخارج للتعيين فى الجامعات الصينية، فإن جامعة مثل بكين وتسينجهوا Tsinghua وفودان Fudan ورنميين فى الوقت المناسب سوف تصبح مؤسسات للتميز Center of Excelence معترفا بها عالميا والتى ستكون قادرة بشكل متزايد لجذب بعض أفضل الباحثين من حول العالم سواء كانوا صينيين ام غيرهم بينما الاتجاه الواضح بالفعل سوف ينمو فى الوقت الذى بدأوا فيه لاداء دور اكاديمى مماثل للدور الاقتصادى الذى تلعبه الصين فى المنطقة. اما عن الثقافة كعنصر من عناصر القوى الناعمة Soft Power، فإنه فى الوقت الذى تنمو فيه الصين بشكل أغنى ويتمتع شعبها بآفاق متوسعة فإن الناتج الثقافى للبلد سوف يتزايد بشكل استثنائى. ومن المعروف ان هوليوود قد احتلت صناعة الفيلم العالمى لمدة اكثر من نصف قرن وبشكل همشت صناعات السينما الوطنية الأخرى ولكن الآن هناك منافسان جادان فى الأفق. وكما يجادل مايكل كيرتل : مان مراكز الفيلم والتليفزيون الصينية برزت بشكل متزايد كمنافسين هامين لهوليوود فى حجم وحماس مشاهديهم. ان لم يكن بالفعل فى العوائد. ولأول مرة، فإن الرؤساء التنفيذيين فى عالم الميديا وللمرة الأولى بدأوا يفكرون فى مستقبل المشاهدين الصينيين الذى يتضمن روادا اكبر للسينما ومزيدا من حائزى التليفزيون اكثر من الولايات المتحدة واوربا مجتمعين. وقد بدأت الحكومة الصينية مؤخرا فى توسيع وصول الصين الاعلامى عالميا بتحديث وكالة الأنباء الصينية تشنوا cyinhua واصدار طبعات عالمية من صحيفة الديلى نيوز وطبعات انجليزية من Global Times ويجعل القناة التليفزيونية CCTV اكثر مهنية وتمكين المشتركين فى القنوات الصينية. ومقارنة بالمشاهدين الدوليين الذين حققتهم الميديا الصينية بدأت تمس السطح، ولكن نجاح «الجزيرة» يوحى بأن مواجهة التحدى الجاد للميديا الغربية ليس صعبا كما بدا من قبل. وخلال الحقبة القادمة نستطيع أن نتوقع محاولة كبيرة من جانب السلطات الصينية لتحويل وصول الميديا الصينية عالميا. وعن الرياضة يقول الكتاب انها ليست النشاط الذى تتفوق فيه الصين تقليديا، ولكن خلال السنوات العشرين فإن الرياضيين الصينيين قد أصبحوا ناجحين بشكل متزايد، وقد استثمرت الحكومة مبالغ ضخمة من المال فى التسهيلات الرياضية من اجل رفع مستوى الصين فى الانجاز، وبالتركيز الرئيسى على مثل هذه الفروع الممثلة فى الأولمبياد وحيث ينظر إلى النجاح باعتباره أحد الرموز الأولية المطلوبة للقوة الكبرى. ورغم ان الصين لم تتنافس إلا فى أوليمبياد لوس انجلوس عام ١٩٨٤ فإن الاستثمار قد كوفئ فى اولمبياد اثينا عام ٢٠٠٤ حين كسبت الصين ٣٢ ميدالية ذهبية خلف الولايات المتحدة ولكن متفوقة على روسيا . وقد تقدمت الصين لأول مرة لاستضافة الاولمبياد عام ١٩٩٣، ولكن نجح طلبها فقط عام ٢٠٠١- وقد كانت اولمبياد عام ٢٠٠٨ المناسبة الأولى التى استضافت فيها حدثا رياضيا عالميا وكان واضحا خلال الاعداد ان الحكومة الصينية رأت هذا الحدث كفرصة لتثبت للعالم ما الذى أنجزته الصين منذ عام ١٩٨٧- أما عن الطعام والدواء الصينى فإن الكتاب يقرر ان هناك طريقين تتمتع فيهما الصين بالفعل بمنظور ثقافى عالمى كبير وهما، الطعام وإلى حد أقل الطب الصينى التقليدى، ورغم هذا فهو يتوقع ان الوصول العالمى للطب الصينى من المحتمل ايضا ان يستمر، فكل مستشفى صينى لديه فرع مخصص للطب الصينى، بأطباء متخصصين فى كل من الطب الغربى والصينى.

وإذا كان الكتاب قد كرس معظم فصوله لتوضيح الطرق التى من المحتمل أن تنمو بها الهيمنة العالمية الصينية خلال نصف القرن التالى، فإنه يعتبر ان هناك جانبا آخر من العملة لابد أن يناقش ويستكشف ويعنى بهذا أن اغلب النتائج الصادمة لهذه العملية هى التى سيشعر بها الغرب لأن الغرب هو الذى سيجد ان وضعه التاريخى تسلبه الصين. ومثل هذا التغيير من الصعوبة المبالغة فيه ذلك أنه لأكثر من قرنين وفى مثل هذه الأحيان اكثر طولا، فإن الغرب أولا فى صورة أوربا وبعد ذلك فى شكل الولايات المتحدة، قد تمتع بتفوق عالمى بالغ. واذا ما كانت اوربا سوف تعانى فإن هذا ليس شيئا أمام الازمة الجارية والوجودية التى سوف تواجه الولايات المتحدة. فهى كلية غير مستعدة لحياة لا تسيطر فيها عالميا. ففى ظل إدارة بوش فقد سعت لإعادة تحديد نفسها باعتبارها القوة الأعظم الوحيدة فى العالم قادرة على توسيع مصالحها من خلال الاحادية وتحت الحاجة للتحالفات وبعبارة أخرى، ابعد من الاعتراف بانحدارها النسبى Relative Decline واحتمالات نقصان قوتها، فإنها قد استخلصت النتيجة العكسية وبدت منتشية بفكرة ان قوة الولايات المتحدة يمكن أن تتوسع بشكل اكثر وان امريكا فى صعود وان العالم فى القرن الواحد والعشرين يمكن أن يعاد صنعه على صورة الولايات المتحدة. وهكذا فإن إدارة بوش مثلت اكثر تعبير متطرف عن امريكا العدوانية التوسعية المؤكدة لذاتها، وحتى بعد ان رؤيت بشكل واسع انها فشلت كنتيجة للاندحار فى العراق فإنه لم يكن هناك الكثير فى الولايات المتحدة الذين استنتجوا ان الولايات المتحدة هى فى حالة انحدار على المدى الطويل، وأنها أبعد من أن تكون مقبلة على سيطرة عالمية جديدة، وان قوتها بالفعل قد وصلت القمة، فإنه على العكس كان هناك تصور منتشر بشكل واسع ان الولايات المتحدة تحتاج ببساطة إلى طريق اقل تصادمية واكثر توازنا لممارساتها العالمية. وحتى التقدم الذى حققته الصين فى شرق آسيا لم يفسر كنذير لتحول كبير فى القوة العالمية. كذلك فإن عملية البحث التى صاحبت الحملة الانتخابية حول باراك أوباما لم تصل إلى نتيجة ان كل الولايات المتحدة عليها ان تتعلم ان تعيش مع الانحدار. وحتى الانحدار السريع فى قيمة الدولار ٢٠٠٦-٢٠٠٧، لم يؤشر لانحدار امريكا، على الرغم من اقلية صغيرة من المراقبين ادركوا انه فى المدى الطويل فإن وضع الدولار قد يتعرض للتهديد. وهكذا ظلت الولايات المتحدة عمياء لما قد يحمله المستقبل وانها مازالت تنعم فى مجد ماضيها وحاضرها ومفضلة أن تعتقد انه سوف يستمر فى المستقبل. وقد اظهرت بريطانيا جهلا مماثلا وانكارا حول انحدارها بعد ١٩١٨ واستمرت فى التمسك بما سبق ان اكتسبته، غير أنها بدأت تظهر اعترافا بانحدارها فى الخمسينيات، حينما أصبح واضحا أنها سوف تفقد مستعمراتها.

غير ان نقطة التحول فى الولايات المتحدة قد تثبت ان الانهيار المالى عام ٢٠٠٨ ومع اقتراب انهيار النظام المالى وموت الليبرالية الجديدة. فقد مثل تقرير مجلس الاستخبارات القومى عام ٢٠٠٨ تحولا بنسبة ١٨٠ درجة مقارنة بالتقرير الذى سبقه منذ أربع سنوات مضت عام ٢٠٠٤. ففى الوقت الذى تنبأ فيه الأخير باستمرار السيطرة الامريكية العالمية، فإن التقرير الجديد يشير إلى بروز التعددية القطبية، وعالم تجبر فيه الولايات المتحدة بشكل متزايد لكى تشارك القوة مع الصين والهند، فقد أعلن التقرير «مع ٢٠٢٥ سوف تجد الولايات المتحدة نفسها كواحدة من لاعبين هامين على مسرح العالم وان كانت مازالت الاكثر قوة ». وهكذا فإن المهمة التى تواجه رئاسة باراك اوباما هى أبعد من أن تحسد، فالنشوة العالمية الواسعة التى رحبت بانتخابه تقف فى مواجهة لما يبدو اكثر المهام صعوبة التى واجهت أى رئيس امريكى عبر القرن الماضى :

إدارة انحدار طويل فى سياق أسوأ ركود منذ عام ١٩٤٥ والالتزام بمحاربة حربين. غير انه مما يشجع أن انتخاب أوباما يوحى بأن الولايات المتحدة قادرة على اختيار استجابة حميدة واكثر خيالا لما تواجهه من عناء. لكن مازلنا فى الأيام الأولى فنحن فقط فى بداية عملية طويلة تتضمن العديد من الاعمال التى تتبع عبر عدة عقود ان لم تكن اكثر. فاليمين الامريكى قوى ومتخندق وله مصادر قوية من التأييد. الخطر الأكبر الذى يواجه العالم ان الولايات المتحدة عند نقطة ما ستتبنى موقفا عدوانيا يعامل الصين كعدو ويسعى لعزلها.



يتصور الكاتب أن الصين سوف تستمر فى النمو بشكل أقوى وتبرز فى النهاية فى نصف القرن القادم



هل تحكم الصين العالم؟!!

يعود مارتن جاكز إلى السياق الأوربى ومدى تاثره بصعود الصين فيعتبر أن حقيقة الصين تنبع من حضارة وجذور تاريخية مختلفة تماما عن الغرب وانها تمتلك من مكونات جيوغرافية مختلفة سوف يدعم احساس الغرب بالخسارة واقتصاد الاتجاه والوعكة. وواقع أن بريطانيا قد وجهت بالولايات المتحدة، وباعتبار الروابط المشتركة التى يتمتعون بها، كخليفتها ومنافستها كقوة عالمية مسيطرة، كل هذا شىء، ومسألة مختلفة تماما بالنسبة للولايات المتحدة ان تواجه بالصين، والتى لايجمعها شىء مشترك سواء فى الظروف الحضارية أو السياسية، كقوة سوف تسلبها مكانتها وتحل محلها فى النهاية. وبالنسبة للولايات المتحدة فإن صدمة أنها لم تعد تمتلك العالم والذى كان يرقى إلى حقها تحديد ما يحدث حول كل القضايا الدولية الكبرى، سوف تكون عميقة. ومع صعود الصين، فإن عالمية الغرب سوف تتوقف ان تكون عالمية، وقيمها ونظرتها سوف تصبح بثبات اقل تاثيرا. فصعود الصين فى الواقع بصورة عالمية سوف يجعل كل شىء نسبيا، فقد تعود الغرب فكرة ان العالم هو عالمه، وان المجتمع الدولى هو مجتمعه والمؤسسات الدولية هى مؤسساته والعملة العالمية - وخاصة الدولار، هى عملته، واللغة العالمية - الانجليزية، هى لغته، وكان الافتراض أن صفة «الغرب» تتبع بشكل طبيعى وضمنى أمام أى اسم هام. وهذا ما لن يعود هو الحال. فسوف يكتشف الغرب بشكل متقدم، ولعدم ارتياحه الحاد، ان العالم لم يعد بعد غربيا. وزيادة على ذلك فسوف يجد نفسه بشكل متزايد فى نفس الوضع الذى كان فيه بقية العالم خلال عصر الغرب الطويل من التفوق، بمعنى ان يكون ملزما أن يتعلم ان يعيش وفق شروط الغرب. وللمرة الأولى، فإن الغرب المنحدر سوف يكون مطلوبا ان يرتبط مع حضارات وبلدان أخرى وان يتعلم من عناصر قوتها. أما الولايات المتحدة فهى تدخل فى فترة طويلة من الصدمة الاقتصادية والسياسية والعسكرية. وهى تجد نفسها على مشارف أزمة سيكلوجية وعاطفية ووجودية ورد فعلها المتوسط المدى ليس من المحتمل ان يكون، وعلى العالم أن يأمل أن لا يكون.

غير أن مثل هذا الحماس والثقة التى يكتب بها مارتن جاكز عن صعود الصين ووصولها إلى مرتبة القوة العظمى وتأثير ذلك على تراجع مكانة الغرب بما فيه الولايات المتحدة، مثل هذا الحماس يقابل بالتحفظ والاعتراض من عدد من الخبراء من بينهم برناب بروان استاذ الاقتصاد فى جامعة كاليفورنيا الذى رفض المبالغة حول كل من الصين والهند ولاسباب فصلها فى كتابه «الصين، الهند، دولة عظمى؟ ليس بهذه السرعة» والذى صدر عام ٢٠٠٥. وكان آخر من عبروا عن هذا التحفظ ميتكسين باى فى دورية Foreign policy عدد يوليو / اغسطس ٢٠٠٩. فهو يجادل بأنه ليس حقا « ان السلطة تتحول من الغرب إلى الشرق » ورغم انه لا مجال لانكار النمو الاقتصادى المطرد السريع منذ الحرب العالمية الثانية انتعش الناتج الاقتصادى للمنطقة وقدرتها العسكرية لكن من المبالغة الفادحة ان يقال ان آسيا ستصبح لاعب السلطة الابرز فى العالم، واقصى ما يمكن ان يؤدى إليه صعود آسيا هو حلول عالم متعدد الاقطاب لا إلى عالم ذو قطب واحد. وآسيا ليست قريبة بأى درجة من اغلاق فجوتها الاقتصادية والعسكرية مع الغرب. فالمنطقة تنتج حوالى ٣٠٪ من اجمالى الناتج العالمى ولكن بسبب ضخامة عدد سكانها فإن حصة الفرد فيها من الناتج المحلى الاجمالى لا تتعدى ٥٨٠٠ دولار بالمقارنة مع ٤٨٫٠٠٠ فى الولايات المتحدة، وكذلك سيحتاج الآسيوى المتوسط إلى ٧٧ عاما ليصل إلى دخل الامريكى المتوسط ويحتاج الصينى إلى ٤٧ عاما والهندى ١٢٣ عاما، ولن تتساوى ميزانية آسيا العسكرية مع نظيرتها فى الولايات المتحدة لمدة ٧٢ عاما. اما عن الصين تحديدا وسيطرتها على آسيا فإن مييكسين يعتبره افتراضا غير محتمل، فرغم انه صحيح ان الصين ستصبح اقوى بلدان آسيا بأى مقياس وان لصعودها حدودا كامنة. ومن غير المحتمل ان تسيطر على آسيا بمعنى ان تحل محل الولايات المتحدة كحافظ إقليمى للسلم وان تؤثر تأثيرا حاسما فى السياسة بخاصة للبلدان الأخرى كما أن نموها الاقتصادى واستدامته ليس مضمونا على أى نحو، فضلا عن ان للصين جيرانا هائلين فى روسيا والهند واليابان سيقاومون بضراوة أى محاولات صينية لأن تصبح المهيمن الإقليمى. ■

كتاب الزاوية

عصر العلم
أحمد زويل

وأذكر أننى حين حضرت احتفالات جائزة نوبل بعيدها المئوى عام ٢٠٠١، ضمن مائة وتسعة وستين عالما من الأحياء الحاصلين على الجائزة من بين ستمائة شخص تقريبا حصلوا على الجائزة فى تاريخها. وقد استعرض القائمون على الاحتفال تاريخ الجائزة والحاصلين عليها.. وكان لافتا لانتباهنا أنه منذ عام ١٩٠١ وحتى عام ١٩٥١ كانت الولايات المتحدة الأمريكية لا تحتل المرتبة الأولى فى نسبة الحائزين على الجائزة حيث احتلت ألمانيا المرتبة الأولى وبريطانيا المرتبة الثانية.

وفى النصف الثانى من القرن العشرين تغير الوضع تماما.. قادت الولايات المتحدة ثورة علمية جبارة خلقت وضعيتها الاستثنائية فى خريطة العالم المعاصر واحتلت المرتبة الأولى فى الحصول على جوائز نوبل. وفى اعتقادى أن ذلك لم يتأت نتيجة معجزات ضخمة أو خوارق غير ملموسة.. بل جاءت ببساطة نتيجة تأسيس قاعدة علمية قوية ومتماسكة، وفى ظل قيادة فاعلة وجسورة فى وزن جون كينيدى الذى كانت عقيدته الأساسية سيادة أمريكا على العالم فى العلم والتكنولوجيا والاقتصاد.





■ ■ مؤلف هذه الرواية هو الروائى الهولندى ليون دى وينتر الذى ولد عام ١٩٥٤ فى مقاطعة برابانت سبتينتريونال، فى جنوب هولندا. كتبت الرواية باللغة الهولندية وترجمت إلى الألمانية فقط. نشأ المؤلف ليون دى وينتر فى عائلة يهودية أرثوذكسية، وبعد تخرجه من المدرسة الثانوية التحق بأكاديمية با?اريا لاستديوهات السينما فى ميونيخ، وأكاديمية هولندا للفيلم فى أمستردام والتى يوجه إليها انتقادات كثيرة، ليغادرها فى النهاية عام ١٩٧٨ بدون أن يحصل على شهادة تخرج.

كتب دى وينتر بعض المسلسلات التليفزيونية بالإضافة إلى الروايات التى تدور أحداث بعضها فى إسرائيل، وتتسم معظم هذه الأعمال ببحث البطل عن هويته اليهودية، خاصة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. كما نشر دى وينتر الكثير من المقالات السياسية فى الصحف والمجلات، وظهر على شاشات التلفزة أكثر من مرة، لعل أشهرها هو عندما كان يعلن دعمه لغزو العراق. وقام بإخراج ثلاثة أفلام بين عامى ١٩٧٩ و١٩٩٣.

تصف رواية «حق العودة» رؤية سياسية، وتدور أحداثها فى المستقبل، وتحديداً فى ٢٠٢٤ بمدينة تل أبيب، حيث تقلصت مساحة دولة إسرائيل إلى مدينة محصنة. هناك فى هذه البقعة من الأراضى المقفرة يقع مكتب برام مَنهايم Bram Mannheim الذى يديره ليساعد الآباء فى البحث عن أبنائهم المفقودين. كان الدافع وراء تخصص برام مَنهايم فى هذا النشاط شخصيا فى المقام الأول فقد اختفى ابنه منذ ستة عشر عاما. كما كان مَنهايم يعمل أيضا متطوعا فى خدمة الإسعاف.

بعد إحدى الهجمات على موقع حدودى، يكتشف مَنهايم أن حياته فى سبيلها لأن تشهد تغيراً كبيراً مرة أخرى، حيث يكتشف أن ابنه قد يكون أحد المتورطين فى هذا الهجوم. فى الرواية يقول بطل الرواية مَنهايم أن: «التضامن... ينبثق عن المصير الذى يشاركهم (طلابه وزملاؤه ووالده) فيه، والفكرة التجريدية العظيمة التى كانت تتمثل فى هذا البلد (إسرائيل). إننى لا أستطيع أن أحرر نفسى منه، حتى لو أردت ذلك».

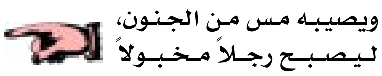
يرى دى وينتر أنه ليس قادراً على تغيير العالم بما يكتبه من مقالات لذلك يحاول أن يفعل هذا من خلال رواياته. فى رواية «حق العودة»، لا يدع دى وينتر مجالاً للشك فى أنه ما لم يتمكن اليهود من اقتلاع الفلسطينيين من وطنهم، فلسوف يحدث العكس بالتأكيد. وهو يرى أن المسلمين سيكون لهم اليد العليا على كل حال أينما كانوا وفى أى مكان فى العالم. تعكس هذه الرؤية موجة الإسلاموفوبيا السائدة فى الوقت الحاضر فى الغرب. هذا الخوف من المسلمين لا يعبر عنه البطل الرئيس فى الرواية (برام مَنهايم)، وإنما والده وصاحب الشركة التى يعمل بها وزملاؤه فى العمل.

تبتعد هذه الرواية عن التقاليد الأدبية الهولندية، بل تحاكى روايات الإثارة الأمريكية وهذا النوع الأدبى لا يدع الكثير من المجال للغموض أو الألغاز وإنما يتخذ مجاله مباشرة إلى مقصده الرهيب.

تصف الرواية إسرائيل فى المستقبل حيث تقلصت إلى منطقة لا تتجاوز تل أبيب مع الجزء الشمالى من صحراء النقب، بما فى ذلك مفاعل ديمونة بعد أن انسحبت من الشمال والجنوب ومن القدس، لتصبح مجرد حارة يهود (غيتّو) كبيرة محصنة. كان انهيار إسرائيل ناتجاً عن الضغوط الخارجية المتمثلة فى القصف الصاروخى المستمر الذى تسبب فى رحيل العائلات الإسرائيلية، وأيضا بسبب التآكل الداخلى؛ حيث تحول عرب اسرائيل واليهود المتدينون المتشددون بعيداً عن الجوهر اليهودى العلمانى للدولة، ومن ثم تفضيلهم لمغادرة إسرائيل إلى أماكن أخرى أكثر أمناً واستقراراً فى العالم. وتركوا وراءهم اليهود ممن لهم سجل إجرامى، وكبار السن، ومجموعة أخرى مفتونة بأن تكون جزءاً من سفر الرؤيا (الحافل بنبوءات تدور حول آخر الزمان)، وأولئك الذين لا يريدون سوى البقاء والدفاع عن إسرائيل، بصرف النظر عما سوف يحدث.

هذه هى الخلفية التى أعدها ليون دى وينتر لتدور فيها أحداث روايته. ينصب التركيز الأساسى على بطل القصة برام مَنهايم، وهو فى الأصل يهودى هولندى هاجر إلى إسرائيل عندما كان فى الثامنة عشرة من العمر، ليصبح فى عمر مبكر أستاذاً جامعياً معتبراً يُدرِّس تاريخ الشرق الأوسط فى جامعة تل أبيب. وتبدأ مأساته فى ٢٠٠٨ عندما يقرر الانتقال إلى الولايات المتحدة ليصبح أستاذاً جامعياً هناك. وفجأة يختفى ولده البالغ من العمر أربعة أعوام.

عندما ينهار زواجه، وتتوقف حياته، ويصيبه مس من الجنون، ليصبح رجلاً مخبولاً



LEON DE WINTER

Het recht op terugkeer

مـــــــــازن الـنـجــــــار

Leon de Winter, Het recht op terugkeer, De Bezige Bij, 2008, 458pp.

حق العودة
للمؤلف والروائى الهولندى ليو دى وينتر

يتجول هائما على وجهه فى أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، إلى أن يجده والده ويعيده إلى تل أبيب مرة أخرى. وتمر السنوات حتى نصل إلى عام ٢٠٢٤، ويصبح برام منهايم مديراً لمكتب يساعد الآباء فى البحث عن أطفالهم المختفين فى هذا الغيتو اليهودى المسمى إسرائيل.

بعد الهجوم المدمر على أحد المواقع الحدودية، يكتشف برام أن من نفذ هذا الهجوم هو أحد الشباب اليهود الذين اختفوا فى نفس الفترة التى اختفى فيها ابنه، فيتجدد أمله فى العثور على هذا الابن المفقود الذى يبدو أنه انضم إلى مجموعة من الصبية اليهود الذين تم اختطافهم وتدريبهم ليكونوا انتحاريين مسلمين -على حد قول دى وينتر- أبناء يهود يعودون إلى إسرائيل لقتل آبائهم.

أحدثت هذه الرواية ضجة كبيرة عندما نشرت فى ألمانيا حيث اتهم بعض النقاد دى وينتر بأن رؤيته القاتمة لمستقبل إسرائيل تدعم وتحرض المزيد من الأصوات التى تجادل فى أن قيام إسرائيل كان خطأً فى المقام الأول.

ورداً على هذه الاتهامات، يوضح دى وينتر قناعاته وانتماءاته الشخصية، مشيراً إلى أنها ليست دائماً متطابقة مع انتماءاته بصفته روائيا، ويؤكد أنه معجب بالمشروع الصهيونى ومؤمن بالحتمية التاريخية لبناء ملاذ آمن ليهود أوروبا، كرد فعل على موجة معاداة السامية التى اجتاحت أوروبا فى القرن التاسع عشر.

يرى ليون دى وينتر أن قيام إسرائيل كان مغامرة لالتقاط الأنفاس؛ بيد أنه لم يحدث فى فراغ جغرافى أو ثقافى أو تاريخى، وإنما تم فى فترة كان فيها العالم الإسلامى يفيق ببطء من الضربات المتلاحقة التى وجهتها إليه القوى الأوروبية الضخمة، والتى بدأت باجتياح نابليون السهل لمصر فى ١٧٩٨، وببحث المفكرين العرب والمسلمين عن إجابات السؤال حول سبب انهيار عالمهم.

آنذاك ثار الكثير من الجدل حول قيام دولة يهودية فى فلسطين، ويرى دى وينتر أن هذا الاسم أطلقه الرومان على المنطقة لأنه لم تكن توجد قبيلة عربية تسمى فلسطين حتى وقت قريب. لكن دى وينتر يؤكد أنه لو كان الأمر بيديه، لكان اختار منطقة أخرى من العالم، ليقيم فيها دولة إسرائيل، مثل سورينام المستعمرة الهولندية السابقة أو ولاية مونتانا أو ولاية نيومكسيكو بالولايات المتحدة الأميركية، أو حتى أى منطقة أخرى يكون فى باطنها بعض الذهب والنفط.

يرى دى وينتر أن إسرائيل، شأنها شأن الولايات المتحدة الأمريكية، هى تعبير عن فكرة. ولهذا يمكن مناقشتها، بل ويمكن حتى إنكارها، على العكس تماماً من الصين أو فرنسا مثلاً، والتى هى بدورها كيانات تاريخية، وليست مجرد مفاهيم أو أفكار. لكنه يعود فيؤكد أن إسرائيل دولة قائمة بالفعل فى الوقت الراهن، وأنه معجب بها ويحب زيارتها، ويتأثر إلى حد البكاء عندما يسمع



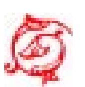
ليس فى هذا الموقف المتطرف جديد أو غريب على دى ونتر؛ فقد سبق أن نشر مقالا قبيل غزو العراق يشجع فيه هذه الحرب، ويؤكد أن الغرب عليه قطع رأس الوحش



نشيدها القومى أو يشاهد طائراتها المقاتلة، بيد أنه فى الوقت ذاته ينتابه الكثير من القلق بشأن مستقبلها.

يفكر دى وينتر أنه ربما كان من الأفضل أن تقوم دولة إسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة فيما أصبح يعرف بعدها بجمهورية ألمانيا الديموقراطية، حيث إن هذه هى الطريقة المثلى التى يسدد بها الألمان ديونهم لليهود.

وفى معرض رده على اتهامات النقاد والمعارضين الذين يرون أنه يؤذى إسرائيل برسمه لهذا المستقبل القاتم للدولة اليهودية فى روايته، يقول دى وينتر أيضاً أنه لن يكون من الواقعية أن يكتب رواية تدور أحداثها فى عام ٢٠٢٤، حيث يصف فيها ذهاب اليهود فى رحلات إلى مكة المكرمة واستمتاع الأمراء السعوديين بإقامتهم الفاخرة فى الفنادق الفخمة فى تل أبيب، وتصبح فيها الصحراء الأردنية مزهرة، وتتحول فيها الأحياء الفقيرة فى القاهرة إلى ضواح غنية، ويعم السلام والفرح والسعادة الشرق الأوسط بأكمله.



لهذا يشير دى وينتر إلى أنه لم يفترض فى سياق زمن وأحداث روايته إلا استمرار وتوسع الاتجاهات الحالية، معبراً عن مخاوفه من ألا يتبقى من إسرائيل ما يجعلها تشهد الذكرى المئوية الأولى لتأسيسها. وليس ذلك بسبب فقدانها لقدرتها على البقاء، وإنما نظراً لأنه بعد عشرات السنوات قضتها المنطقة فى العنف والحروب والكراهية، سيقرر اليهود الإسرائيليون فى النهاية أنهم يحبون أطفالهم أكثر من بلدهم.

لكن ما هو الذى يمكن أن يحول حدوثه أو عدم حدوثه، قبل حلول عام ٢٠٢٤، دون تحقق رؤية دى وينتر الكابوسية لمستقبل إسرائيل؟

يقول المؤلف إن الأمر يحتاج إلى معجزة مثل ظهور المسيح أو ثورة مدنية فى أقطار العالم العربى، وهى بدورها يراها معجزة أخرى. باختصار يعتقد دى وينتر أنه ما من حل لهذه المعضلة؛ فهناك صراع قبلى قديم، لم يعد الكثير منه موجوداً على الأرض فى العالم المعاصر، ولكنه أساسى وضرورى لتنمية إسرائيل، ألا وهو الصراع على الأرض.

فى الماضى، كانت مثل هذه الصراعات يتم حسمها ببساطة شديدة، بأن تبيد إحدى الجماعتين الجماعة الأخرى. لكن المجتمع العالمى لم يعد يقبل بمثل هذه الحلول الجذرية للمشكلات الآن، وإنما يسعى إلى الحث على التعقل والحلول الوسط. لكن الصراع العربى الإسرائيلى تحدده مطالب وتحكمه تقاليد قوية جداً لدى كل من الفريقين اللذين يرفض كل منهما مفهوم الآخر عن التعقل، وعلى كل منهما التنازل عن بعض العناصر فى مطالبهما التى يعتبرانها مقدسة. يرى دى وينتر أن مرور الوقت قد يساعد كثيراً إذا ما تمكن الشعب الإيرانى من تحويل الثورة الشيعية إلى ثورة مدنية، وهو ما يراه حدثاً مذهلاً سيتردد صداه فى أنحاء العالم بأسره.

على الرغم من كل هذا الدفاع المستميت عن إسرائيل، إلا أن دى وينتر يقول أنه لن يعيش فى إسرائيل، ويبرر ذلك بأنه يشعر أن الدول الأخرى لها الحق أيضاً فى أن يكون بين مواطنيها أفراد يهود صعاب المراس وكثيرو الشكوى مثله.

أما بخصوص توقعاته بشأن المكان الذى سيعيش فيه معظم اليهود بعد ٢٠ عاماً، فيقول دى وينتر فى روايته أن جميع اليهود الذين يعيشون فى تل أبيب فى عام ٢٠٢٤ يريدون الذهاب إلى موسكو، كما لو كانت الأحداث تدور فى إحدى مسرحيات تشيكوف، حيث يكون الرئيس بوتين منتخباً لفترة رئاسية ثالثة. ويتوقع أن يكون بوتين فى عام ٢٠٢٤ رئيسا لأقوى دولة فى العالم. كما يتنبأ بأن تكون روسيا دولة غنية، وأن يعود الموسيقيون اليهود إلى العزف فى فرق الأوركسترا السيمفونية مرة أخرى فى روسيا، وأن تكون هناك مطاعم فاخرة، وتضاء الشوارع ليلا بالأضواء، وتتجول فيها النساء فى معاطف أنيقة من الفراء، وتسود غيرها من مظاهر الثراء والبذخ.

يقول دى وينتر أن هناك رابطة قوية بين اليهود وروسيا، على الرغم من معاداة روسيا القديمة للسامية. فهناك حزن يتقاسمه اليهود والروس والشعور بالتدفق السريع للزمن والحنين إلى أرض بعيدة وراء الأفق؛ لذلك يحلم اليهود فى روايته بالعودة إلى بلادهم موسكو.

فى تبريره للنبوءة التى أوردها فى الرواية حول تقلص مساحة إسرائيل، يعتقد دى وينتر أن هناك خطرين يهددان إسرائيل، وهما كراهية أعدائها لها (والتى يرى أن إيران هى من تثيرها). من الناحية الأخرى هناك التآكل الذى بدأ يتفشى فى المجتمع الإسرائيلى. فهناك فى إسرائيل ثلاث جماعات لا يجمعها إلا القليل: اليهود الأرثوذكس وعرب إسرائيل واليهود العلمانيون وهم الذين يشكلون حالياً غالبية السكان. لكن هذه الأغلبية تتآكل، كما يمثل الصراع بين هذه الجماعات الثلاث خطراً على إسرائيل، يعادل بل قد يفوق أيضاً الأخطار الخارجية المحدقة بها.

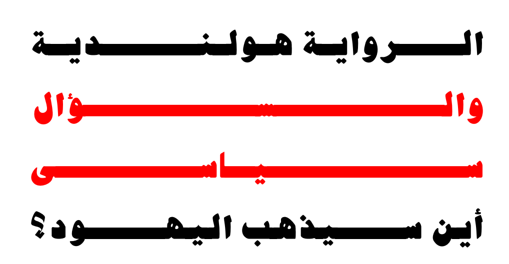
وبالنسبة لموقف دى وينتر من إمكانات حل مسألة الصراع فى الشرق الأوسط عن طريق المفاوضات، يعتقد الكاتب أن الرابح فيها سيكون هو صاحب النفس الطويل. وسيخسر من يستسلم أولاً لأنه غير قادر على الاستمرار الذى يتطلب الكثير من الوقت والجهد والدماء. ويتوقع أن يكون الخاسر هم اليهود العلمانيون الذين ليس لديهم أيديولوجية معينة، وإنما هم يريدون فقط أن يعيشوا حياتهم.

فى رواية «حق العودة»، يهاجر الكثير من اليهود من إسرائيل إلى أوروبا وأميركا حيث الحياة أسهل. وكذلك فى الواقع، يسعى كثير من الإسرائيليين إلى الحصول على جواز سفر ثان كنوع من تأمين حياتهم فى حالة أن تسوء الأمور. بيد أن هذه الهجرة العكسية فى الوقت الحاضر تقابلها هجرة اليهود الروس الذين لا يزالون يتدفقون إلى إسرائيل، على الرغم من وجود جاليات كبيرة من الإسرائيليين السابقين فى لوس أنجيليس ونيويورك وهولندا، والذين فضلوا ترك إسرائيل والهجرة العكسية إلى جميع أنحاء أوروبا.

يتساءل دى وينتر عما سيحدث إذا وصل الأمر إلى نزاع جديد مع حزب الله حيث سيقع أغلبية الإسرائيليين فى مدى الصواريخ التى يطلقها حزب الله، خاصة أن الدين اليهودى لا يتضمن نزعة استشهادية قوية. يعتقد دى وينتر أن الإسرائيليين فى النهاية لا حول لهم ولا قوة أمام من هم مستعدون للتضحية بكل شىء.

أما عن انخفاض عدد الهجمات الاستشهادية (أو الانتحارية كما يصفها دى وينتر) فهو يراه أمراً مؤقتاً تعززه الحماية التى يقدمها الجدار الفاصل، ويلفت إلى أن شوق اليهود للعودة إلى «الوطن» والذى صار أمراً واقعاً يقابله حلم الفلسطينيين للعودة إلى وطنهم. كما يرى أن ما نمر به الآن هو الهدوء الذى يسبق العاصفة.

يصل دى وينتر إلى ذروة التطرف فى آرائه الخاصة بالشأن الإيرانى والتهديد الإيرانى للكيان الصهيونى حيث يرى أن



كل هذه المفاوضات والأخذ والجذب بين إيران والقوى الغربية لا طائل من ورائه، وأن الحلول الدبلوماسية المنمقة لا تصلح مع إيران، وإن الحل الذى يراه صائباً وفاعلاً هو التهديد الفعلى باستخدام القوة، وتنفيذ هذا التهديد فى حال عدم رضوخ إيران للمطالب الدولية.

ليس فى هذا الموقف المتطرف جديد أو غريب على دى وينتر؛ فقد سبق أن نشر مقالا قبيل غزو العراق يشجع فيه هذه الحرب، ويؤكد أن الغرب عليه قطع رأس الوحش (الذى هو صدام حسين) قبل أن يدحرج هو رؤوسهم المقطوعة، مؤكداً أن لصدام حسين ترسانة عسكرية سرية من أسلحة الدمار الشامل، وهو الأمر الذى لم يتم إثباته حتى الآن، فى أعقاب كل هذا الدمار الذى لحق بالعراق. ويدافع دى وينتر عن موقفه هذا قائلاً: إن صدام حسين كان يتصرف كما لو كان يمتلك بالفعل أسلحة دمار شامل، عندما طرد فريق مفتشى الأمم المتحدة وقتل الآلاف من الأكراد بالأسلحة الكيميائية.

يقول دى وينتر: إن فكرة الرواية جاءته عندما كان يكتب روايته السابقة «ماليبو» حيث قرأ شيئا عن المماليك الذين لم يكونوا عرباً فى الأساس وإنما تم اختطافهم أو أخذهم من آبائهم على سبيل الضرائب. فكان أن شغلته هذه القصة وأخذ يفكر فيما كان يحدث لأولئك الأطفال الذين اضطروا إلى تغيير مواقفهم وانتماءاتهم.

فى رواية دى وينتر يتم اختطاف الأطفال اليهود لتحويلهم إلى منفذين مسلمين لعمليات انتحارية، ويقول دى وينتر عن هذه الفكرة إنها استعارة يقصد بها اليهود فى جميع أنحاء العالم الذين يعارضون إسرائيل أو ينتقدونها بشدة. بيد أنه على الجانب الآخر يؤيد حرية التعبير تأييداً غير مشروط -على حد قوله - حيث إنه من الظلم اتهام أولئك اليهود المعارضين لإسرائيل بأنهم مجرد حفنة من المرضى أو المختلين عقلياً. لكنه فى الوقت ذاته يرى أن هناك عنصراً خفياً فى هذا الموضوع، ويتمثل فى خشيتهم من أن يقتصر تعريفهم على أنهم يهود أو يهود أشرار، فهم يفضلون أن يكونوا يهودا أخيارا، يحبهم الجميع.

كذلك لا يخفى دى وينتر خشيته وهواجسه من أسلمة أوروبا، وهو الموضوع الذى يثار مؤخراً فى الدوائر الإعلامية والفكرية الأوروبية، حيث يشير إلى قلقه من الهجرة الجماعية للمسلمين إلى البلاد الأوروبية. ويستشرف دلائل تشير إلى ظهور ما يسميه بالإسلام «الحديث»، ويتمثل فى أعداد متزايدة من الشباب المسلمين الذين يحاولون ممارسة الدين بطريقتهم الخاصة، والتى تقوم على مفهوم الحرية إلا أن الأفكار المتطرفة لا تزال مشكلة، حيث يمثل جاذبية كبيرة للشباب المحبط ذوى الميول العنيفة، الذين يكتشفون فى لحظة ما أن العالم ملىء بالظلم، ويقررون اتخاذ إجراء ما لتغيير هذا الواقع.

يتحدث دى وينتر هنا عن الاستشهاد وما يمثله له من هاجس وقلق، ويزعم أن الإحباطات الجنسية والوعد بممارسة الجنس فى الجنة بعد الموت من أهم الأسباب التى تدفع أولئك الشباب إلى القيام بعمليات استشهادية. لكنه يرى بصيصاً من الأمل فى اندماج المسلمين فى المجتمعات الغربية التى يعيشون فيها منبها فى الوقت ذاته إلى أن هذا الأمر قد يستغرق ٤٠ أو ٥٠ عاماً، ولا يعرف أحد كم من الضحايا سيسقطون قبل أن يحدث هذا الاندماج.

يعيش دى وينتر حاليا فى لوس أنجيليس بولاية كاليفورنيا الأميركية، مؤكدا أنه يشعر بالراحة فيها حيث أنها مدينة متعددة الثقافات، وكل من فيها هو مهاجر من بلد آخر. ويؤكد أنه لا يرتاح فى العيش فى إسرائيل، ويعتقد أنه ليس من الواجب على كل يهودى أن يهاجر إليها.

فى تحليله لتعامل العرب والمسلمين مع الأزمات التى يواجهها عالمهم، يرى دى وينتر أن الحقائق ليست ذات أهمية بالنسبة لهم، وأن المهم هو كيفية استجابتهم لما يدور حولهم من أحداث، وكيفية انسجام هذه الأحداث مع المخطط الرئيسى الذى يفسر العالم للمسلمين والعرب، والمتمثل فى أن المسلمين ضحية للمؤامرات.

على أساس من هذه الفكرة البسيطة، يتم تفسير كل الأزمات وكل الظواهر من الفقر والبطالة، إلى غياب الديموقراطية وطغيان الحكام، إلى الطريقة التى يستدرج بها الغرب المسلمين الأتقياء بوسائل إغراء مثل السينما والتلفزيون والموسيقى والرقص والشراب، إلى الظروف المروعة فى الأراضى الفلسطينية، إلى عدم الاهتمام بالبحث العلمى فى الجامعات العربية، إلى الانقسامات بين العرب أنفسهم. ■



عصر العلم
أحمد زويل

مستقبل العلم فى العالم العربى

إن الحالة الراهنة للعالم العربى اليوم تتطلب بالفعل نهضة جديدة لوقف التدهور فى إنتاجية العرب وفى مساهمتهم فى المعرفة الجديدة وفى الحرية، وحتى فى حصتهم من النفوذ السياسى الإقليمى والدولى. ومع أن بعض البلاد ومنها مصر ولبنان والأردن ودول الخليج قد أنشأت هياكل أساسية وطنية وبعضها فى مستوى ما يتوفر لدى البلدان المتقدمة، إلا أن العالم العربى يفتقر إلى قاعدة علمية وتكنولوجية متينة، وبدون تلك القاعدة ستظل البلدان العربية من بين البلدان النامية أو حتى المتخلفة. وهى تستطيع، بفضل ما تملكه من موارد بشرية ومادية، أن ترتفع إلى مصاف البلدان المتقدمة، خصوصا أن التاريخ فى جانبها. وأعتقد أن هذا التحول ضرورى، ليس فقط من أجل ضمان الرخاء الاقتصادى للعرب ومشاركتهم فى الاقتصاد العالمى وإنما أيضا من أجل ضمان بقائهم مع الحفاظ على كرامتهم فى عالم يقوم على المعرفة والحرية.



كيف يفكر العرب؟

العقلانية النقدية في الفكر العربي المعاصر

كمال عبد اللطيف

■■ نستخدم مفهوم العقلانية النقدية فى هذه المحاولة للإشارة إلى توجهين فكريين فى فضاء الفكر العربى المعاصر، يتعلق الأول بالنزعة التاريخانية التى يمثلها فكر عبد الله العروى، وتعزز دائرة حضورها أعمال مجموعة كبيرة من الباحثين فى قطاعات معرفية مختلفة، حيث تحضر مقدمات العقلانية التاريخانية مُدعِّمةً لخيار فكرى، مقتنع بجدارة المكاسب الفكرية للحضارة المعاصرة، وساع لمزيد من تطويرها باستيعاب مقدماتها ونقد مظاهر تمركزها وهيمنتها.. ويتعلق الثانى بنزعة نقد العقل التراثى، ويمثلها كل من محمد أركون ومحمد عابد الجابرى ومختلف القراءات التراثية الجديدة المستخدمة لمنهجيات العلوم الإنسانية بهدف المساهمة فى إعادة ترتيب المكون والرافد التراثى فى علاقاته المعقدة بالحاضر العربى. ومن المؤكد فى تصورنا أن أعمال الجابرى وأركون على وجه الخصوص قد ساهمت فى بناء أطروحات مطورة لكفاءة التعقل والتنظير فى الفكر المعاصر، سواء فى المستوى القومى أو فى المستوى العالمى، وذلك بحكم منطلقاتها الأساس فى التعامل مع مفاهيم ومناهج الفكر الانسانى فى أبعاده المختلفة، وبحكم النتائج التى ترتبت عن أعمالهما فى مقاربة الظواهر التراثية.

إن جدلية الحوار بين أسئلة التاريخ والفكر، سواء فى إطارها المحلى أو فى إطارها الانسانى العام، منحت أعمالهما امتياز الرؤية المراهنة على دعم أفق الكونية المأمولة، لهذا السبب تتمتع أعمالهما بمزايا نظرية وتاريخية لا حصر لها.

لاينبغى أن نغفل هنا أن الجمع بين العقل والنقد فى مفهوم العقلانيات النقدية، والنظر إلى تاريخانية العروى ومشروع نقد العقل العربى الإسلامى كلحظات تمثيلية لما نحن بصدد التفكير فيه، يضعنا فى قلب روح الأنوار العربية، حيث يشكل البعد النقدى الوسيلة المناهضة لقيم التقليد والاستبداد. فالنقد فى تاريخ الفكر والفلسفة يعتبر وسيلة لمساءلة القواعد والمقدمات، كما يعتبر منهجاً لمراجعة المسلمات والمطلقات، وفى قلب حفريات الجابرى وأركون فى التراث الإسلامى، نجد أنفسنا أمام عمليات متعددة تروم نقد لغة احتكار الموروث التراثى وتتجه لزحزحة تصوراتنا عن منتوجاته النصية والتاريخية. كما أن النقد الجذرى الذى مارسه العروى على النزعات الانتقائية والسلفية فى «الايديولوجية العربية المعاصرة» ما يكشف الطابع النضالى لفلسفة الأنوار والتنوير فى نصوصه.

ونستعرض فى الفقرات اللاحقة بعض جوانب هذه العقلانيات، بهدف معاينة تمظهرات وعى الذات الذى نعتبر أنها السمة المعينة لحدود عقلانيات النقدية، ضمن صيرورة تحول المشروع العقلانى فى فكرنا المعاصر.

أ ـ تاريخانية عبد الله العروى

تستند تاريخانية العروى إلى مكاسب العقلانية فى القرن ١٨، ومشروع التحرر الليبرالى فى القرن التاسع عشر. كما تستند إلى تصور معين للماركسية، وهى تستند قبل ذلك إلى موقفه من التأخر التاريخى العربى الذى شكلت هزيمة ٦٧ لحظة من لحظاته الكاشفة والفاصلة. وقد عمل طيلة أربعة عقود من الكتابة والبحث على بناء رؤية فكرية تروم المساهمة فى تجاوز المصير العربى، رؤية لا تتردد فى تشخيص علل التأخر العام السائدة فى الواقع العربى، مع التركيز على مجال الصراع الفكرى الدائر فى مجال الايديولوجية العربية المعاصرة، فى علاقته بالتاريخ العام والتاريخ القومى.

ومن «العرب والفكر التاريخى» (١٩٧٣) وهو من مصنفاته الأولى المعبرة عن تصوراته ومواقفه من الأوضاع العربية وجبهتها الثقافية والسياسية على وجه الخصوص، إلى «مفهوم العقل» (١٩٩٦) وهو من مؤلفاته الأخيرة الكاشفة عن نوعية خياراته فى الفكر والسياسة، نجد أنفسنا أمام جهد فكرى متمتع بكثير من الاتساق، جهد بانٍ لأطروحة محددة فى نقد مظاهر التأخر التاريخى العربى ، وفى رسم معالم خيارات فكرية تتوخى مواجهة عوامل الانحدار والتراجع المتواصلين فى الحاضر العربى.

تقوم النزعة التاريخانية المتبناة فى فكر العروى على جملة من المقدمات، من أبرزها: صيرورة الحقيقة، ايجابية التاريخ، دور الانسان فى تدبير مصيره، وحدة التاريخ البشرى.. وانطلاقاً من هذه المقدمات الفلسفية العامة تبلورت الملامح الأساس فى مشروعه الفكرى وفى دعوته للتغيير.

لقد انصب اهتمام العروى على أسئلة التاريخ، وأسئلة التقدم، محاولاً نقد التصورات اللاتاريخية فى النزعات الإصلاحية العربية ممثلة فى التيارات السلفية والتيارات الانتقائية، مؤكداً أهمية التعلم من دروس التاريخ الحديث والمعاصر، دروس الفكر التاريخى. وقد رسم فى بداية حياته الفكرية فى مطلع سبعينيات القرن الماضى برنامجاً محدداً فى الإصلاح الثقافى والإصلاح السياسى، وكذا إصلاح الذهنيات والمؤسسات.

نستطيع تبين العناصر الكبرى لهذا البرنامج فى دعوته الرامية إلى اتخاذ موقف واضح من المعضلات الثقافية والاجتماعية والسياسية الآتية:

- الفكر السلفى بمختلف مطلقاته،
- الأقليات ومشكل الديمقراطية،
- الدولة الوطنية وسياستها فى مجالى الاقتصاد والتعليم على وجه الخصوص.
- الوحدة العربية فى إطارها التاريخى الواقعى.

اختار العروى فى أطروحته مواجهة تيارات الفكر التقليدية المستندة إلى مقدمات لا علاقة بينها وبين منجزات ومكاسب الفكر الحديث والعلم الحديث والمجتمع الحديث، وحاول رسم المعالم الكبرى لمشروع فى الفكر يقضى بتجاوز تركة الماضى المثقلة بقيود لاتساعد على فك مغلقات الحاضر العربى. وقد لجأ إلى تجربة التاريخ الأوروبى الحديث محاولاً انطلاقاً من مقدمات رؤيته التاريخانية استلهام العناصر المساعدة فى هذه التجربة على كسر قيود التقليد والاستمرارية الرومانسية الحالمة. ولم يتردد فى الدعوة إلى القطيعة مع العقل التراثى وآلياته فى الفكر والعمل، فما دامت الحقيقة نسبية، وما دام التاريخ يتقدم، فإنه ينبغى أن ينخرط العرب فى عملية التمرس بقواعد العمل كما تبلورت فى الأزمنة الحديثة والمعاصرة، قواعد العقلانية المواكبة لثورات المعرفة والتاريخ ابتداء من القرن ١٦ وإلى يومنا هذا وبدون أدنى تردد..

يدافع العروى فى مشروعه الفكرى دونَ كللٍ عن دور المثاقفة فى توطين دروس الفكر المعاصر، وهو لايتصور وجود ثقافة غير موصولة بثقافات أخرى فى لحظات نشأتها وصيرورتها، حيث يعكس تاريخ تطور الأفكار والثقافات مزيجاً متداخلاً ومشتركاً بين ثقافات عديدة، وهذه المسألة فى نظره عبارة عن حقيقة تاريخية نستطيع البرهنة عليها بالعودة إلى تاريخ الثقافة والفكر والمعرفة فى أوروبا، أو بالعودة إلى تطور الفكر الإسلامى فى عصورنا الوسطى، فالنقاء الثقافى والمرجعية الأصلية الأصيلة عبارة عن أوهام راسخة فى الأذهان، أوهام لاعلاقة لها بالمنتوج الثقافى الإنسانى كما يتشكل فى تلافيف التاريخ الفعلى وفى ثنايا الثقافة التاريخية.

يمكننا الخيار التاريخانى من إنجاز انخراط أفضل فى الأزمنة الحديثة، إنه يتيح لنا نقداً جذرياً لأوضاعنا، نقداً يضعنا أمام اختيار واع، يقضى بالتعلم من دروس الأزمنة المعاصرة، لنتمكن من ولوج دروب وأبواب هذه الأزمنة، ونغادر حصون الماضى المكبلة للأذهان بقيود الفكر التقليدى والمجتمع التقليدى.

وقد عمل العروى فى مؤلفاته العديدة على بناء المعالم العامة للفكر العصرى والمجتمع العصرى، مبرزاً أهمية خيار التواصل الايجابى مع العالم ومع مكاسبه الجديدة فى المعرفة والعلم، وأنظمة السياسة والاقتصاد والمجتمع. وبلغ به حماسه لهذه الأطروحة درجة إعلان حتمية تحقق هذا الأمر، الذى بدونه لا تحصل الهزائم المتواصلة فقط، بل يحصل التلاشى التاريخى.. وقد حصل هذا فعلاً فى التاريخ، ويمكن أن يحصل اليوم فى الحالة العربية.

دافع العروى بكثير من الحماس عن خياره التاريخانى القاضى بلزوم الانخراط فى تعلم مكاسب الفكر المعاصر، فلا إمكانية فى نظره لتجاوز التأخر التاريخى العربى فى مختلف تجلياته وصوره إلا بقبول مغامرة الانقطاع عن وهم الاستمرارية. فقد كان ومازال يعتقد أن الاستمرارية فى ذهن المثقف السلفى عبارة عن وهم، بل إنها بلغته عبارة «عن حنين رومانسى» فى زمن لم تعد فيه إمكانية لاستعادة ما مضى.

خيار المستقبل بدل الماضى فى نصوص العروى حاصل دون وعينا ودون إرادتنا، والمقاومات الناشئة هنا وهناك، والعودات الساعية إلى تعزيز دوائر التقليد لاتمارس أكثر من عمليات فى مزيد من تأخير انخراطنا البطىء فى تعلم دروس الأزمنة المعاصرة، حيث تتفاقم أوضاع تأخرنا، وتتزايد درجات يأسنا وبؤسنا..

نجد فى العقلانية الثاوية خلف تاريخانية العروى خياراً راديكالياً يتمثل فى حرصه على الاقرار الواضح والمعلن بجملة من المقدمات والنتائج فى عمليات تعقله لأسئلة وقضايا التأخر التاريخى العربى. وهو يعد فى نظرنا محصلة متطورة فى مجال تطور الفكر النهضوى العربى، إنه يقدم فى هذا المستوى من مستويات تطور عقلانيات الفكر العربى الصورة المؤسسة نظرياً لمحاولات أخرى تشكلت فى زمن إنشائه لمشروعه الفكرى، حيث تلتقى جهوده بصورة غير مباشرة مع جهود ياسين الحافظ والياس مرقص ومحمود أمين العالم وهشام جعيط وناصيف نصار وغيرهم من المفكرين الذين اعتبروا أن الفكر التاريخى هو القاعدة المركزية فى كل تفكير عقلانى، وكل إصلاح عقلانى لمعضلات الواقع العربى والفكر العربى. وقد ساهمت أعماله وأعمال من أشرنا إليهم آنفاً فى بلورة محاولات عديدة فى مقاربة إشكالات التأخر التاريخى العربى.. ورغم محدودية الأثر الذى رسمته هذه الأعمال فى فكرنا المعاصر، عندما



يفسر كل من الجابرى وأركون كيفيات انخراطهما فى نقد تجليات العقل العربى الإسلامى فى عصورنا الوسطى، ويؤكدان فى هذا المجال على علاقة مشروعيهما فى النقد بالتحرر من قيود الماضى





جابر علوانى





محمد أركون



عبدالله العروى

نقارنها بحالات الانكفاء الحاصلة اليوم فى هذا الفكر فإنه لا يمكننا إغفال عمق التحولات التى حصلت، كما لا يمكن التقليل من أهمية المعارك المرتقبة بحكم حدة التناقضات التى تطرحها الأسئلة الكبيرة التى تملأ اليوم فضاء الصراع السياسى والثقافى فى مجتمعاتنا.

ب - فى نقد العقل التراثى

إذا كانت تاريخانية العروى تتجه للدفاع عن لزوم القطيعة مع تاريخ التقليد المتمركز حول ذات هامشية ومهمشة فى الحاضر الكونى، وذلك من أجل بلوغ عتبة الحداثة والانخراط فى تمثل مكاسب الأزمنة المعاصرة، بهدف إعادة إبداع التاريخ الذاتى، الذى لا يمكن فصله عن تاريخ العالم بمختلف تناقضاته وتطلعاته، فإن جهوداً فكرية أخرى معاصرة له، عملت بدورها استناداً إلى المقدمات التى ينطلق منها فى مجال نقد الجبهة التراثية، بحكم علاقتها بأوضاع الركود الفكرى السائدة فى العالم العربى. نحن هنا نشير إلى أطروحة نقد العقل العربى الإسلامى التى ركبها كل من محمد أركون ومحمد عابد الجابرى فى مصنفات فكرية تتمتع بحضور نظرى قوى فى جبهة العقلانية العربية المسلحة بخاصية النقد، وذلك رغم الاختلافات الجزئية القائمة بين أعمال الرجلين، والتى لا تمس فى روح الخيار المجسد بصور متنوعة فى أعمالهما الفكرية الأساس، رباعية نقد العقل العربى لمحمد عابد الجابرى، ومصنفات نقد العقل الإسلامى المركبة فى الحفريات التراثية العديدة لمحمد أركون.

إن حسم العروى فى مسألة الموقف من التراث لم يكن حسماً منفرداً، ولعلنا لا نجازف عندما نعتبر أنه سيشكل سمة عامة فى كثير من أطروحات الفكر العقلانية فى فكرنا المعاصر.

تتخذ المقاربة فى تيار نقد العقل طابعاً مركباً، نقد المنتوج التراثى وكشف محدوديته النظرية والتاريخية، ونقد آليات عمله المشروطة بطبيعة المعارف والمناهج فى أزمنة تشكله، والعمل فى الوقت نفسه على إعداد السبل المساعدة على تخطى نتائج وآثار استمرار حضور المكون التراثى فى الحاضر العربى، إضافة إلى نقد أدوات التعقل المستمدة من معطيات التاريخ المغاير، حيث تتم عملية امتحان هذه الأدوات بإعادة فحص حدود إجرائيتها، وهو الأمر الذى تترتب عنه عمليات عديدة فى مجال توسيع أو تقليص حدود الدلالة فى هذه المفاهيم. كما تترتب عنه فى نهاية التحليل مسألة توسيع دلالات الكونية بإدخال معطيات المكون الخصوصى فى التاريخ العام..

إن الأمر لا يتعلق فى مشروع نقد العقل التراثى بأبحاث معنية بالرصيد التراثى فى بنياته النصية لذاتها، قدر ما يتعلق بمقاربات يهمها الانخراط فى فهم الواقع العربى، وذلك بالعمل على تفتيت الأصول والمرجعيات الفكرية التى ماتزال تحد من قدراته على الانطلاق فى التفكير والابداع، فى ضوء مستجدات المعرفة، وبناءً على أسئلة موصولة بتحديات التقليد التى تمثلها فى فكرنا اليوم تركةُ العقائد والنصوص المطلقة، التى لم يستطع الذين يقومون اليوم بمواصلة الترويج لها إدراك نتائج الهزات التاريخية والمعرفية والسياسية التى صنعت الملامح العامة للفكر الانسانى فى الأزمنة الحديثة والمعاصرة.

تلتقى الراديكالية التاريخانية لعبد الله العروى بجذرية العقل النقدى فى أعمال أركون والجابرى، كما تلتقى بالنزعة الريبية التى تسكن كثيراً من منطوق وبياضات أعمال هشام جعيط. وهى تلتقى أيضاً مع محاولات التأصيل الفلسفى فى كتابات ناصيف نصار وخاصة فى مصنفيه النظريين الأخيرين «منطق السلطة» (١٩٩٥) و«باب الحرية» (٢٠٠٣).. ولايهمنا هنا بحث أوجه الاختلاف أو الالتقاء والتام فى أعمال من ذكرنا على سبيل التمثيل لا الإحاطة، فقد قمنا بذلك فى أعمال أخرى أنجزناها عن مجمل أطروحاتهم. إن سياق بحثنا اليوم معنى بالمشترك بينهم، أى معنى بتجليات العقلانية النقدية فى فكرهم. إنهم ينتمون إلى جيل واحد، وقد صدرت أعمالهم فى أزمنة متقاربة (الربع الأخير من القرن العشرين)، والتقت بمعيار تاريخ الأفكار فى أمرين اثنين بارزين: أولهما يتمثل فى عنايتهم جميعاً، كل بطريقته الخاصة، وفى إطار سيرورة تكون مشروعه الفكرى بموضوع التأخر التاريخى العربى، مع تركيز واضح على الجانب الفكرى وأدواته النظرية المنهجية، وثانيهما توجههم الفكرى التنويرى الهادف إلى تطوير كيفيات أداء الفكر العربى والمجتمع العربى فى العالم المعاصر.

لكل ما سبق، جمعنا بينهم فى هذه اللحظة، من أجل إنجاز تشخيص أوضح لما نحن بصدد إثباته. ونريد أن نتوقف أكثر لتقديم بعض العناصر النظرية من أعمال الجابرى وأركون لعلها تساعدنا على توضيح أفضل لحدود العقل النقدى فى مصنفات من نضع أعمالهم فى دائرة النقد المعرفى لآليات اشتغال العقل التراثى.

يفسر كل من الجابرى وأركون كيفيات انخراطهما فى نقد تجليات العقل العربى الإسلامى فى عصورنا الوسطى، ويؤكدان فى هذا المجال على علاقة مشروعيهما فى النقد بالتحرر من قيود الماضى، التى فقدت وظيفتها اليوم فى عالم نجح فى تركيب مقدمات جديدة فى موضوع تعقله لذاته، وللتحولات التى حصلت فى التاريخ، وفى تاريخ الأفكار الدينية وآلياتها النظرية على وجه الخصوص.

انهما مقتنعان بأن سطوة آليات تقليدية محددة فى التفكير على نظام النظر فى عالمنا اليوم تعد من أهم عوامل استمرار التأخر الحاصل فى مجتمعاتنا وثقافتنا. ولهذا السبب ينبغى فى نظرهما استخدام مِعْوَل النقد لكسر مختلف اليقينيات القاطعة التى ورثناها من عصورنا الوسطى.

النقد فى آثارهما موقف من الوثوقية، موقف من اليقينات المتعالية، والعقلانية فى نصوصهما تتخذ طابعاً تجريبياً، حيث تتم محاصرة النصوص والمفاهيم والتصورات والكلمات ضمن دلالتها المبنية فى إطار نظرى، محكوم بنظام فى المعرفة لايمكن تجاوزه إلا بتكسيره، وتركيب نظام جديد بديل له، نظام موصول بالمكاسب المعرفية والمنهجية الجديدة. إن وظيفة النقد تقويضية، والتقويض هنا آلية فكرية، وتاريخ الأفكار فى البداية والنهاية تاريخ تقويض لأسقف عمارات النظر، حيث يتجه التطور لبناء أنظمة معرفية جديدة، مرتبطة بالشروط التاريخية والعلمية الصانعة لأنماط وأنظمة المعرفة فى التاريخ.

فلن يستطيع العرب فى نظر الجابرى وأركون تجاوز عطالتهم الفكرية إلا بالتعلم من دروس ومنهجيات الفكر المعاصر، التى تساعد فى حال حصولها فى كشف محدودية المخزون التراثى .

نقف فى التوجهات الفكرية العامة لمشاريع نقد العقل فى فكرنا المعاصر على مساع فى التأصيل والإبداع تتوخى بلوغ مرمى النهضة فى العالم العربى. كما تتوخى تحقيق ما يؤسس الأزمنة المعاصرة فى قلب الزمن العربى التكرارى، بهدف زحزحة حضور التقليد المهيمن.. لهذا نعثر فى أبحاثهما على عمليات متعددة فى استعارة مفاهيم الفلسفة المعاصرة ومناهج العلوم الانسانية، بهدف توطينها فى مجال الفكر العربى، وذلك فى إطار من العمل الفكرى الذى لا يكتفى بالاستعارة الناسخة. بل إننا نكتشف فى أعمالهما الفكرية كما قلنا آنفاً، عمليات عديدة فى مجال إعادة تركيب دلالة المفاهيم والمناهج فى ضوء معطيات التاريخ المحلى والتراث الإسلامى، وهذا المنحى فى أبحاثهما يعكس جوانب من دلالة الوعى الجديد بالذات، وعى التأصيل التى نتحدث عنه فى هذه اللحظة، ونعتبره سمتها الأساس وعنوانها المناسب.

وتقدم بعض أعمال محمد أركون فى هذه النقطة بالذات جهداً بالغ الأهمية فى باب تطوير بعض أسئلة الفكر المعاصر، فى لحظات قراءته لأسئلة وإشكالات الظواهر والنصوص الإسلامية، حيث تتم عمليات امتحان بعض المفاهيم والمناهج فى ضوء معطيات وحوادث ونصوص مختلفة عن نصوص وظواهر الفضاء الذى تبلورتَ فى إطاره الأول المفاهيم والمناهج المشار إليها. ومعنى هذا أن جهود نقد العقل العربى، مثل جهود العقلانية التاريخانية تكتسى أهمية خاصة فى مجال الفكر العربى والفكر الإنسانى المعاصر. ■

الإخــــوان المســــلمون
«حقيقــــة الأزمـــة»



كـمـــــــال حـــــبـــيـــب

أزمة الإخوان المسلمين

■■ يفترض الكتاب أن هناك أزمة وهو يحاول أن يستجلى طبيعتها هل هى هيكلية متصلة ببنية الجماعة ونمط تفكيرها السياسى والعقائدى ؟ أم أنها متصلة بالنظم السياسية القائمة التى لم تمنح الإخوان الفرصة للتطور ؟

ويقلب عمق الأزمة وأبعادها وأوجهها ستة باحثين يتناولونها من زوايا مختلفة وجميعها ذات طابع إشكالى ومركب يكشف مستقبل رؤية الجماعة لذاتها وللقوى الاجتماعية وللنظام السياسى.

الدعوى والسياسى.. رؤيــة للمستقبل:

فى بحثه المعنون «رؤية للمستقبل السياسى للإخوان المسلمين.. الإخوان بين الدعوى والسياسى» يذهب «رفيق حبيب» إلى أن الحركات الإسلامية بما فى ذلك الإخوان المسلمون» تحمل مشروعات متكاملة يتداخل فيها الدعوى والسياسى، ومن ثم لا توجد مشكلة فى الجمع بينهما، كما هو الحال دائما فى المدارس السياسية الكبرى فى الغرب كالمدرسة الليبرالية وغيرها، بيد أن الإخوان يستمدون رؤيتهم من الحضارة الإسلامية التى تقوم على المقدس الدينى، أما المدارس السياسية الغربية فتستمد رؤيتها من المقدس العلمانى، وهو يرى أن الفصل بين الدعوى والسياسى هو تعبير عن النمط العلمانى وهو ليس مطلبا للجماهير بل للنخبة التى تفرض شروطها على التيار الإسلامى، وهنا فإن التمييز وليس الفصل بين الدعوى والسياسى يبدو محيرا للجماعة التى اعتادت العمل فى سياق الدمج بينهما، ولكنه فى سياق حصار النظام السياسى للجماعة عبر التعديلات الدستورية الأخيرة والتى تمنع استخدام شعار «الإسلام هو الحل» يصبح ضروريا إعادة النظر فى تأسيس الجماعة لرؤيتها السياسية من خلال تأسيس حزب سياسى كمؤسسة سياسية متخصصة تعمل وفق القواعد السياسية بمنطق مختلف عن المؤسسات الدعوية ذات الطابع الوعظى، وفى تحليله لمفهوم التمكين لدى الجماعة يذهب إلى أنه الانتقال من عملية التغيير الاجتماعى إلى عملية التغيير السياسى، والجماعة الآن فى طور التمكين الذى يستدعى الدخول فى طور المنافسة السياسية عبر تأسيس حزب بما فى ذلك إمكانية الوصول إلى السلطة، ويرى أن احتمالات المستقبل أمام الجماعة تتمثل فى : استمرارها بوضعها الحالى كجماعة دعوية لها دور سياسى والاحتفاظ بمكانتها كقوة معارضة رئيسية دون الوصول للأغلبية أو مقاعد الحكم، أو تأسيس حزب سياسى ليكون غطاء رسميا لعمل الجماعة وعدم الإقدام على الوصول للسلطة أو تأسيس حزب سياسى يعمل على الوصول إلى السلطة.

مشكلات الحاضر وتحدى المستقبل:

وبعنوان «الإخوان المسلمون بين مشكلات الحاضر وتحديات المستقبل» يرى «عمرو الشوبكى» أنه فى السبعينيات أعادت الجماعة كتابة تاريخها الخاص فأكدت على إسقاط فكرة التنظيم الخاص، ونبذ العنف بشكل نهائى والقبول بتبنى الديموقراطية كوسيلة ونظام للحكم وليس كنظام للقيم، وفى الثمانينيات خاضت الجماعة لأول مرة الانتخابات التشريعية متحالفة مع حزب الوفد، كما نجح منتسبوها فى السيطرة ديموقراطيا على عدد من أهم النقابات المهنية لأول مرة أيضا، وأصبح حيز السياسة يأخذ مساحة متسعة من اهتمامات الجماعة بشكل لم تكن الجماعة تعرفه من قبل، بيد أن الخطاب الفكرى للجماعة اتسم بعدم الجرأة والبطء النسبى بسبب أنه كان صدى للفعل الحركى ولم يأخذ وقتا كافيا لإنضاجه، ومن ثم تظل الإشكالية الكبرى لإخوان الألفية الثالثة هى عدم نجاحهم فى الفصل بين الحيز الدينى والسياسى بصورة يبدون معها تنظيما سياسيا مدنيا يسعى للوصول إلى السلطة وفق قواعد ديموقراطية، وهم يعللون ذلك بتعقيدات واقع سياسى لا يعطيهم حق الوجود القانونى والشرعى، ومن ثم فالواقع هو المسئول أولا وليس هم، وبتحليل برنامج الجماعة لحزبهم السياسى سيتضح أن بصمة تيار الشيوخ التقليدى طبعته، وجاءت مقدمة البرنامج والباب الأول له بعنوان «مبادئ وتوجهات الحزب» باهتة وتكرر عموميات لم تمثل أية إضافة فكرية أو سياسية جديدة، وأقحم الدين فى مجال السياسات العامة بشكل مفتعل فى قضايا فنية، ولم يكن برنامج الجماعة برنامجا لحزب سياسى وإنما برنامج لجماعة دينية، وتناقش الورقة ما تصفه بـ«الدمج الآمن» للإخوان فى النظام السياسى وذلك يتطلب ثمنا من كل الطرفين، اعتراف إخوانى بالدولة المدنية والنظام الجمهورى، ونظام سياسى أكثر كفاءة ولديه رؤية سياسية ورغبة حقيقية فى الإصلاح المتدرج، وتنتهى الورقة بالتأكيد على أن دمج الإخوان فى عملية التطور الديموقراطى هو تعبير عن ميلاد مشروع لإسلام ديموقراطى.

خبرة الإخوان فى النقابات المهنية:

فى ورقته بعنوان «تجربة الإخوان المسلمون» فى النقابات المهنية فى

أزمة الإخوان المسلمين
مجموعة من المؤلفين
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام
القاهرة ـ ٢٠٠٩ ـ ٢٦٦ صفحة.

مصر.. تقويم ومراجعة» يذهب هشام جعفر» إلى أن حصار حركة الإخوان هو الذى جعلها تبحث عن متنفس لها فى النقابات، وارتبطت تجربة النقابات بجيل السبعينيات الذى نشأ فى ظروف منفتحة مختلفة عن جيل الشيوخ، ومن ثم بدت النقابات استكمالا لما بدأه ذلك الجيل فى الاتحادات الطلابية، واستعرض مراحل العمل النقابى واعتبر أنها كانت تعبيرا عن مبادرة لم يكتمل لها الوعى المؤسسى المنظم القائم على التراكم، ويشرح- ولو بشكل غير واضح -التناقض بين حاجات المهنيين فى النقابات وحاجات الجماعة وأهدافها، ومن ذلك استخدام الفضاء النقابى للممارسة السياسية وهو ما جعلها تأخذ شكلا معارضا لم ترافقه مدرسة لتأسيس قواعد للتفاوض مع النظام، كما غلب على الممارسة النقابية الطابع الحزبى وليس القومى، ولم يكن جمهور النقابات متحمسا لاتخاذها منبرا للعمل السياسى، وهو ما قاد إلى تربص الأجهزة الأمنية والسياسية بالنقابات وصدر القانون ١٠٠ وتعديلاته والذى أدى لتجميد الوضع النقابى، بيد أن ممارسة الإسلاميين فى النقابات أرست مبادئ متصلة بالعملية الديموقراطية مثل المشاركة الجماهيرية وارتفاع نسبة التصويت، وتقاليد المسئولية والمحاسبة، ورغم أن النقابات أعطت شرعية واقعية للجماعة وأفرزت كوادر سياسية جديدة لكنها فى الجهة المقابلة روجت لصورة سلبية منها استغلال العمل النقابى كمنبر لتحقيق أغراض سياسية خاصة بالجماعة، وتطرح الورقة فى النهاية الخروج من أزمة العمل النقابى بتوسيع الواجهات السياسية التى يمارس من خلالها الإخوان العمل السياسى من ناحية والحفاظ على صيغة «المشاركة لا المغالبة» فى العلاقة مع القوى الأخرى.

العلاقة مع الجماعات الإسلامية الأخرى :

فى ورقته بعنوان «العلاقة بين الإخوان والجماعات الإسلامية الأخرى» يناقش كمال حبيب طبيعة رؤية الإخوان لأنفسهم والتى تقوم على الاستغناء عن الآخرين، فهم الجماعة الأم التى تقوم بنفسها ولا يقوم غيرها بدونها، ومن هنا اتسمت علاقتها بالقوى الإسلامية الأخرى التى اختلفت معها بما أطلقت عليه الورقة «استراتيجية العزل والنبذ والمحاصرة»، ولم يختلف سلوك الجماعة فى الواقع تجاه التيار القطبى الذى تبنى منهج «سيد قطب» عام ١٩٦٥ واختلف معها على أسس عقدية وفقهية، عنه مع الجيل الجديد من تيار الوسط الذى حاول تقديم أوراق حزب جديد باسم الجماعة واختلف معها على أرضية فكرية وسياسية، وهو ما يعنى أننا بإزاء جماعة تحتكم لتنظيم حديدى يثق بتحكمه فى توجهات أعضائه وسلوكهم ويوقن أن الجماعة والتنظيم قادران على ضبط وتجاوز أى تمرد أو انشقاق لما لهما من سطوة لا يمكن مقاومتها على حياة الفرد المنتسب إليها، ويعزز من سطوة التنظيم الرؤية الدينية ذات الطابع العقدى التى تجعل منه أداة الجماعة فى تحقيق مقاصد الإسلام وغاياته وطورت الجماعة قدرة ذاتية خاصة وفريدة على استيعاب حوادث الانقسام داخلها لصالح وحدتها وتماسكها مستندة إلى تراثها التاريخى وتغلغلها العميق فى المجتمع المصرى ومن ثم فهى تنظر للمخالفين برؤية استغنائية ذات طابع استعلائى يجعل منها الأصل والآخرين فروعا ستذوى وتموت،

ناقشت الورقة علاقة الإخوان بالتيارات الجهادية والتيار القطبى وحزب الوسط والإسلاميين المستقلين، كما تعرضت لما أسمته جدل «الوحدة والانقسام» داخل الجماعة والذى اتخذ خطوطا تراوحت بين الفردية/ المؤسسية، السرية / العلنية، العنف والقوة / استخدام الأدوات القانونية والسياسية، التنظيم / العمل العام والانفتاح على القوى السياسية، وحذرت الورقة من سياسة الدولة المصرية فى الثمانينيات والتسعينيات على مستقبل العلاقة بين الإخوان والقوى الإسلامية الأخرى وهى «استراتيجية تعميق التناقضات واستغلال أحد الخصوم فى مواجهة الآخر»، وتتوقع أن التمييز بين السياسى والدعوى لدى الإخوان مع عمق الخبرة السياسية لهم وللقوى الإسلامية الأخرى سوف يعدل من الصيغة التنازعية بينهم نحو التعاون والتنسيق والائتلاف.

الإخوان والأقباط:

فى ورقته «الإخوان المسلمون والمواطنة : قراءة فى الموقف من الأقباط» يذهب «سامح فوزى» إلى أن موقف الإخوان من مواطنة الأقباط موضع التباس، وهو يذكر أن العلاقة بين الطرفين تراوح مكانها الذى يقوم على المجاملات والعلاقات الشخصية ومحاولات محدودة للتقارب وسعى لتبديد هواجس الأقباط لتحييدهم فى المعركة مع النظام الحاكم الذى يميل أغلبهم لتأييده سياسيا، وترى الورقة أن شعار «الإسلام هو الحل» هو قمة الاستحواذ على ما أطلقت عليه «المجال العام»، ومن ثم فإن الإسلاميين مطالبون بجعل المجال العام فضاء مشتركا لكل القوى السياسية هم طرف فيه يستمدون مشروعيتهم من قوة الحجة وإقناع الجماهير، وطرحت الورقة أسئلة حول ما أسمته «حزب الإخوان» مثل مرجعية الحزب وأيديولوجيته ومدنيته ورسالته وقبوله للأقباط وتنتهى إلى أن موقف الإخوان من الأقباط متحرك وليس ساكنا، ملتبس وليس واضحا وأنهم بحاجة إلى تطوير خطاب مدنى يستلهم الدين فى الكليات ويتجاوب مع الاجتهادات الجديدة فى المحيط الإسلامى.

الإخوان بين المحلية والعالمية :

فى ورقته بعنوان «الإخوان المسلمون بين المحلية والعالمية» ينهى وحيد عبد المجيد» الكتاب بتحليله لطبيعة العلاقة بين تنظيمات الإخوان المنتشرة فى العالم العربى ودور التنظيم المصرى كقيادة أم، وينطلق من فرضية جوهرها أن ما يجمع هذه التنظيمات هو أقل بكثير مما يفرقها، ومن ثم فنحن لسنا بإزاء حركة واحدة حين نتحدث عن الجماعة، وإنما عن عدة تنظيمات قطرية لها توجهات متباينة تصل لحد التصادم، وتعرضت الورقة لانتشار التنظيمات الإخوانية بتأثير المصريين إلى دول المشرق مثل سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ودول الخليج والسودان واختبر مواقف تلك التنظيمات من ثلاث قضايا هى: الموقف من الكفاح المسلح عقب هزيمة ١٩٦٧ والموقف من الصراع بين الإخوان والنظام السورى، والموقف من أزمة الغزو العراقى للكويت.

نحن أمام جهد علمى ذى طابع نقدى لا يخلو بالطبع من تحيزات، لكنه أضاء مساحات جديدة حول جماعة هى الأكبر فى مصر والعالم العربى، وهى بالضرورة ملمح مهم فى تشكيل مستقبل ذلك العالم. ■



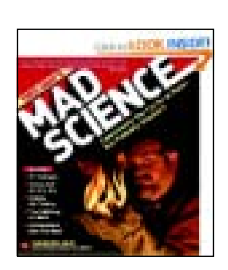
أن التمييز بين السياسى والدعوى لدى الإخوان مع عمق الخبرة السياسية لهم وللقوى الإسلامية الأخرى سوف يعدل من الصيغة التنازعية بينهم نحو التعاون والتنسيق والائتلاف



Theo Gray's Mad Science: Experiments You Can Do At Home - But Probably Shouldn't

جنون علم ثيو جراى: تجارب يمكنك أن تجربها بمنزلك، ولكن لا يجب أن تفعل

By: Theodore Gray
Black Dog & Leventhal Publishers 2009- 240 p.



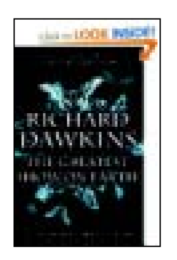
إنه كتاب رائع ويقدم علما حقيقيا ومقدمة بديعة عن الكيمياء. يجلب لنا ثيو جراى دزينة من التجارب الواضحة ذات تفاصيل محببة فى دقائق بحيث تصبح كل واحدة مدخلا للأعاجيب الكيميائية. سواء كان يشرح لنا كيفية صنع ملح الطعام من مواده الأولية العنيفة أو كيفية صنع جالون من الآيس كريم من سائل النيتروجين فى وقت قياسى فإن معرفة جراى الموسوعية وحماسه لينقل لنا عوالم فكرية عميقة لم تخل من المرح وإثارة الدهشة. إنه عمل بارع يساعد فى تحويل الطلاب إلى باحثين جادين. «جنون العلم» هو الكتاب المناسب لأى شخص من أى عمر مفتون بكل الأشياء الكهربائية والكيميائية وحتى المواد المتفجرة.

■

The Greatest Show on Earth: The Evidence for Evolution

العرض الأكبر على الأرض: إثبات نظرية التطور

By: Richard Dawkins
Free Press; First Edition 2009- 480 p.



بدأ ريتشارد داوكينز «العرض الأكبر على الأرض» بعد وقت قصير من امتهانه للكتابة. محاولا إثبات هذه النظرية التى جعلت من كل نظرية أخرى ممكنة.

ويوضح داوكينز أسفا أن هناك نسبة كبيرة بشكل مزعج من عامة الأمريكان والإنجليز لا يشاركونه حماسه لنظرية التطور. فى الواقع، إنهم يكرهون هذه الفكرة لتعارضها مع الكتب الدينية كما أنها تحد من دور الله. لذلك قرر داوكينز الكتابة عن تاريخهم بشكل حيادى ليبين حقيقة التطور فيما وراء الشكوك العقلية. ويجمع جبل من الإثباتات فى هذا الكتاب الغنى بالتوضيحات الكثيرة لنظرية التطور. من المآخذ التى تؤخذ عليه أنه يتميز بالعداء الشديد لكل المتعصبين فى الرأى وقد شعر النقاد أن داوكينز كان فى أفضل حال فى هذا الكتاب عندما أزاح كراهيته لتفسح المجال لتركيزه فى العلوم. ويعد الكاتب من أكثر العلماء الذين فى استطاعتهم شرح الأفكار العلمية المعقدة إلى القراء غير المتخصصين ببساطة ووضوح. ربما يكون «أكبر عرض على الأرض» ليس من أفضل كتبه ولكنه مكتوب جيدا بجانب العرض الشيق للعلم فيما وراء النظرية.

■

The Healing of America: A Global Quest for Better, Cheaper, and Fairer Health Care

المداواة الأمريكية: مطلب عالمى لأفضل وأرخص وأنصف رعاية صحية

By: T. R. Reid
The Penguin Press; 1 edition 2009- 288 p.



يتحرى مراسل جريدة واشنطن بوست ريد عن أنظمة الرعاية الصحية حول العالم فى محاولة لفهم لماذا تبقى الولايات المتحدة الأمريكية الدولة الوحيدة فى العالم الأول التى تبقى مواطنيها بدون رعاية صحية كاملة. ولا الحرص المالى ولا القلق على المصلحة العامة يمكنه تفسير الوضع الأمريكى. وفقا لريد، الذى أفشى سر أن الولايات المتحدة ليست فقط تنفق الكثير من المال على الرعاية الصحية أكثر من أى دولة أخرى بل إنها، فى نفس الوقت، تترك ٤٥ مليون مقيم بدون تأمين صحى مما يؤدى بحوالى ٢٢.٠٠٠ شخص إلى الموت من جراء أمراض سهل معالجتها. ملتمسا علاج كتفه إثر جرح قديم قام ريد بزيارة أطباء فى أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وألمانيا واليابان وانجلترا، فى طلب متشابك مع بحثه عن تداو لأزمات الرعاية الطبية الأمريكية. يبدو السرد فى بعض الأحيان مفتعلا ولكنه بالتأكيد معبرا عن قيمة التجربة المباشرة فى نطاق بحثه وقدرته على ابتكار رد أنيق على الفكرة الأمريكية العامة التى تقول أن الرعاية الصحية الكاملة هى نظام طبى اجتماعى.

■

The Philosophical Baby: What Childrens Minds Tell Us About Truth, Love, and the Meaning of Life

الرضيع الفيلسوف: بماذا تخبرنا عقولهم عن الصدق والحب ومعنى الحياة

By: Alison Gopnik
Farrar, Straus and Giroux; 1 edition 2009- 304 p.



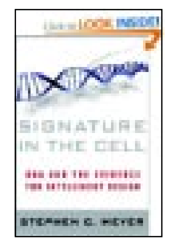
تشير عالمة النفس أليسون جوبنيك إلى أن الأطفال تم استبعادهم لمدة طويلة من الكتابات الفلسفية. لذا تحاول فى هذا الكتاب الممتع أن تناقش أن الأطفال أكثر وعيا من البالغين. بينما يعمل البالغون كالطيارين الآليين سائرين فى أيامهم المشغولة وكأنهم جثث الموتى العائدون فإن الأطفال بقابليتهم للطاعة وعقولهم المعقدة وشغفهم للاكتشاف يقتربون من الحياة وكأنهم مرتحلون صغار مفتونون بكل التفاصيل الدقيقة لبيئتهم الجديدة والمثيرة. فتشبه جوبنيك الرضع بالعاملين البالغين بقسم بحوث وتطوير الجنس البشرى الذين يقومون بالاهتمام بخطوط الإنتاج والتسويق. فتقول أن الرضع مثل علماء صغار يمكنهم التوصل إلى استنتاجات دقيقة من البيانات والتحليلات الإحصائية ويجرون تجارب ذكية ويكتشفون كل شىء حول كيفية جذب انتباه الام لتبتسم لهم. كما تقول العالمة أن الرضع لديهم القدرة الفائقة على التفكير السليم بمعنى قدرتهم على تخيل مواقف مختلفة فى وسعها أن تحدث مستقبليا. كما أنهم يستطيعون أن يفكروا فى أسئلة فلسفية تتعلق بالحب والصدق ومعنى الحياة. الرضع والأطفال ليسوا فقط مفتاحا لكيف يعمل العقل ولكنهم أيضا لفهم الحالات الإنسانية وطبيعة الحب.

■

Signature in the Cell: DNA and the Evidence for Intelligent Design

توقيع الخلية: الحمض النووى وإثبات التصميم الذكى

By: Stephen C. Meyer
HarperOne (June 23, 2009), 624 p.



منذ حوالى خمسين عاما، أحدث تشارلز داروين ثورة فى علم الأحياء، ولكن هل قام بتفنيد نظرية التصميم الذكى ID؟ فى كتاب «توقيع الخلية» يوضح ستيفن ماير أنه لم يفعل.

هناك الكثير من الحيرة حول نظرية التصميم الذكى ID، فضلا عن أنها كثيرا ما شُوهت من قبل وسائل الإعلام والسياسيين ومجالس المدارس المحلية بينما يمكن الدفاع عن هذه النظرية بناء على أسس علمية بحتة وفقا لنفس الأساليب الصارمة التى تُطبق على كل نظريات أصل الحياة المقترحة.

«توقيع الخلية» هو الكتاب الأول الذى جعل قضية التصميم الذكى الشاملة معتمدة على الحمض النووى DNA، يبدأ ماير مغامرة الاكتشاف كما لو أنه يتحرى نظريات التطور الحالية والدليل الذى أدى به فى نهاية المطاف إلى إثبات التصميم الذكى. لتوضيح ما يكون عليه التصميم الذكى وما لا يكون، فإن ماير يبين أن الخلاف حوله ليس قائما على الجهل أو «التخلى عن العلم» ولكنه بدلا من ذلك مبنى على التخلى عن تزويد معرفتنا العلمية عن المعلومات المخزنة فى الخلية.

■

إصـــــــــــدارات يـابـانـيـــــــة

和書

subete ga-Kiki wo koete wakaru "seikaidaifukyu" kougi
محاضرات حول تجاوز الأزمة - فهم أبعاد «الأزمة الاقتصادية العالمية»
Itou Motoshige
٢٠٥ صفحات
١٤٧٠ ين
Koudansha
فبراير ٢٠٠٩



يستعرض الكتاب آراء كبار الخبراء الاقتصاديين فى اليابان بشأن الهوة السحيقة التى سقط فيها الاقتصاد العالمى مؤخرا. ويتناول الكتاب العديد من القضايا المهمة فى هذا الإطار، مثل الدورات الاقتصادية كل مائة عام، والصدمات التكنولوجية، والمخاوف من الكساد، والمدخرات الزائدة فى اليابان، ورفع قيمة العملة الصينية. كما يتناول الكتاب أيضا الكيفية التى ينظر بها الاقتصاديون اليابانيون إلى أسباب الأزمة المالية العالمية الراهنة، ورؤاهم حول ما إذا كانت هذه الأزمة مقدمة لحدوث كساد عالمى جديد مرة أخرى، على غرار ما جرى فى عشرينيات القرن الماضى.

ويشرح الكتاب أيضا أهم الاتجاهات المستقبلية لكل من الاقتصاد الصينى والاقتصاد اليابانى، مشيرا إلى أهم ملامح التغيرات المتوقعة فى السنوات المقبلة لدى كل من العملاقين الآسيويين.

■

Guro-baru Jiha-do
الجهاد العالمى
Mitsuhiro Matsumoto
٤٣٩ صفحة
٢٤١٥ ين
Koudansha
ديسمبر ٢٠٠٨



تنبع أهمية هذا الكتاب من مؤلفه، وهو رئيس وحدة الإرهاب الدولى فى وكالة الشرطة اليابانية. وهو يشرح فيه رؤيته النابعة من خبرته ومتابعته الطويلة للحركات الجهادية الإسلامية. ويشير الكتاب إلى بدايات ظهور الفكر الجهادى منذ حروب الردة، ومرورا بالحروب الصليبية، وإنتهاء بحرب أفغانستان وهجمات الحادى عشر من سبتمبر.

ويستعرض المناطق التى ظهر وترعرع فيها «فيروس» الفكر الجهادى، والأشخاص الذين ساعدوا على نشره، والأدوات التى استخدمها هؤلاء الجهاديون لتحقيق ذلك. ويطرح الكتاب السياسات والأساليب الواجب اتباعها لمحاربة الإرهاب، خاصة مع زيادة احتمالات قيام أنصار الجهاد العالمى باعتبار اليابان عدوا فى حربهم المقدسة، لما قامت به من مساعدات للولايات المتحدة فى حربها ضد الإرهاب.

ولعل أهم ما يميز هذا الكتاب اعتماده على المصادر الأصلية للجماعات الجهادية، والمعلومات الاستخباراتية غير المعلنة، وهو ما يجعله مرجعا أساسيا لا غنى عنه لكل الحكومات والأشخاص المهتمين بمكافحة ظاهرة الإرهاب النابعة من فكرة الجهاد العالمى.

■

Sekai rensa kyoukou no Amerika hatsu-hannin "Kinyuu shihon shuugi" no mitsu to batsu
مجرمو الرعب العالمى المتواصل - خطيئة وعقاب «الرأسمالية المالية» الأمريكية
Hori Kouichi
١٩١ صفحة
٩٩٩ ين
PHP Reserch Center
يناير ٢٠٠٩



يطلق الكتاب صرخة تحذير مدوية من أن الجحيم الحقيقى للأزمة المالية العالمية لم يبدأ بعد، مشيرا إلى خطورة الاعتماد على وسائل الإعلام فى فهم وتحليل ما جرى فى هذه الأزمة.

ويتناول الكتاب بشكل مبسط أسباب الأزمة والسياسات المختلفة التى اتبعتها الحكومات لمواجهتها، مشيرا إلى أهم الفاعلين المؤثرين فيها مثل بنوك الاستثمار وصناديق الاستثمار المعروفة بالهيدجفاند، التى رأى أنها امتصت دماء الناس حول العالم خلال هذه الأزمة. ويستعرض الكتاب أيضا أهم القيم التى تعمل على أساسها المؤسسات المالية الأمريكية، مشيرا إلى أن المنتجات المالية التى أنتجتها هذه المؤسسات، ونشرتها على مستوى العالم فى الفترة الأخيرة، لم تكن منتجات على مستوى المسئولية، كما ثبت من أزمة القروض العقارية. وأن الفهم الواقعى لهذا الأمر يجعل المرء يدرك أن سوء الأوضاع الاقتصادية العالمية سيستمر فى المدى المنظور طالما استمرت هذه المؤسسات تبث الرعب العالمى عن طريق منتجاتها المالية غير المسئولة.

■

Obama ha sekai wo sukuu ?
هل ينقذ اوباما العالم؟
Yoshizaki Tatsuhiko
٢٣٥ صفحة
١٣٦٥ ين
Shinchousha
فبراير ٢٠٠٩



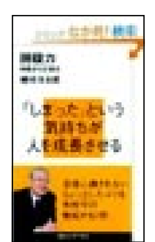
هل يحمل الرئيس الأمريكى باراك أوباما مفاتيح حل المشاكل العالمية التى يشهدها العالم فى المرحلة الراهنة؟ سؤال يطرحه هذا الكتاب فى ضوء الأزمة الاقتصادية العالمية ووقوف الاقتصاد اليابانى على حافة الانهيار.

ويؤكد مؤلف الكتاب على أن الرئيس أوباما يمتلك القدرة على استعادة عافية الاقتصاد العالمى، مشيرا إلى أن الاقتصاد الأمريكى سوف يتعافى فى المدى القصير، وإن كان سيتباطأ فى المدى المتوسط، قبل أن يستعيد عافيته فى المدى الطويل.

ويقول المؤلف إن إدارة الرئيس أوباما ستركز فى فترتها الأولى على تصحيح أوضاع الاقتصاد الكلى، وهو ما سيساعد على احتفاظ الولايات المتحدة بمكانتها الرائدة فى الاقتصاد العالمى. ويشير إلى أن اليابان ستضطر إلى تعديل أساليبها الإدارية، استجابة للمطالب الامريكية، حتى تتمكن من المساهمة فى التعامل مع الأزمة الاقتصادية الحالية.

■

Kaifukuryoku: shippai kara no fukkatsu
المرونة: التعافى من الفشل
Hatamura Youtarou
١٨٩ صفحة
٧٥٦ ين
Koudansha
يناير ٢٠٠٩



كثير من الأفراد والمؤسسات والشركات يفشلون فى تحقيق أهدافهم، وتصيبهم مشاعر الإحباط واليأس من وراء هذا الفشل. ويأتى مؤلف هذا الكتاب المهم، وهو أحد الخبراء اليابانيين البارزين فى علم الفشل، ليؤكد على أن المشاعر السلبية المصاحبة للفشل يمكن تحويلها إلى قوة جبارة لتحقيق النجاح. ويقول المؤلف أن لحظة الانطلاق الحقيقية لتحقيق النجاح هى اللحظة التى تتعاظم فيها مشاعر الإحباط واليأس من جراء الفشل. ولتحقيق النجاح، ينبغى أن يؤمن الفرد او المؤسسة أو الشركة بقدرته على التعافى من الفشل ويصبر على تخطى المصاعب والأزمات التى يواجهها.

ويوضح الكتاب أيضا الوسائل الفعالة لعدم الاستسلام للفشل، والخطوات الواجب اتباعها فى حالة حدوثه، ويشير كذلك إلى ما يجب عمله فى وقت مبكر تحسبا لوقوع الفشل. وتجدر الإشارة إلى أن علم الفشل يهدف إلى دراسة أسرار وأسباب عدم القدرة على مواجهة المشاكل والأزمات المختلفة التى تقود إلى الفشل فى تحقيق الأهداف، وبالتالى تقديم الروشتة المناسبة للنجاح.

■

إســرائـيـل بـعـد جـولـدسـتـون

شـــلـومـو بـن عـــــامـى
Shlomo Ben-Ami

■■ إن المأزق الذى تمر به إسرائيل بسبب تقرير القاضى ريتشارد جولدستون الذى يتهمها فيه بارتكاب جرائم حرب فى غزة، ثم التصديق على التقرير لاحقاً من جانب مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، ليذكرنى بردة فعل نائب رئيس الولايات المتحدة سبيرو اجنيو إزاء اتهامه رسمياً بالفساد فى عام ١٩٧٣: «لقد غير الأوباش القواعد، ولكنهم لم يخبرونى بذلك قَط».

الواقع أن القواعد قد تغيرت، ولا تستطيع إسرائيل أن تزعم أن أحداً لم يحذرها من أن هذا عصر حيث يُروَّج للقانون الدولى والعدالة الشاملة بقوة باعتبارهما من الأعمدة التى يقوم عليها نظام عالمى مُحَسَّن. لم تكن الحال هكذا حين بدأ الصراع العربى الإسرائيلى منذ أكثر من ستين عاماً. ولكن المجتمع الدولى أصبح الآن ملزماً بالتدقيق فى الكيفية التى تدار بها الحروب، ولم يعد من الممكن أن يسمح العالم لمرتكبى جرائم الحرب بالإفلات من العقاب.

أو هكذا ينبغى أن تكون الحال. ولكن من المؤسف أن القواعد الجديدة لا تنطبق فى الحقيقة إلا على تلك الدول التى لا تُعَد من القوى العالمية. فلم يكن مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة ليتجرأ على وضع روسيا فى قفص الاتهام بعد تدميرها لمدينة غروزنى عاصمة الشيشان، أو الصين بعد عمليات القمع الوحشية التى قامت بها ضد شعب التبت والأقلية من المسلمين من أصل اليغور.

والواقع أن وزيرة خارجية الولايات المتحدة هيلارى كلينتون أوضحت فى أول زيارة قامت بها إلى بكين أن النظام والاستقرار يأتيان فى المقام الأول من الأهمية قبل حقوق الإنسان حين يتعلق الأمر بالصين. ولقد شرحت لأحد زملائها من أوروبا أن المرء لا ينبغى له أن يسيء إلى المصرفى الذى يتعامل معه. وخاصة إن كان ذلك المصرفى يمول ميزانية وزارة الدفاع الأميركية بالكامل.

شلومو بن عامى وزير خارجية إسرائيل الأسبق

ترجمة: أمين على



وليس من المتصور أيضاً أن تمثُل الولايات المتحدة أو بريطانيا أمام لجنة جنيف، التى تألفت ذاتها من بعض أشد منتهكى حقوق الإنسان وحشية فى العالم، والذين أوقعوا خسائر بشرية فادحة بين صفوف المدنيين فى العراق وأفغانستان. وعلى نفس المنوال فإن المسؤول عن وقوع المئات من الضحايا بين المدنيين بسبب قصف حلف شمال الأطلنطى المكثف لصربيا فى عام ١٩٩٩ سوف يظل مجهولاً إلى الأبد.

الحق إنه لخلل عظيم فى نظام القانون الدولى أن يكون تطبيق المبادئ السامية للعدالة العالمية مشروطاً بالتوازن العالمى للقوى السياسية، وأن يُسمَح لأشد منتهكى الحقوق عتياً، مثل ليبيا وإيران، بالعمل كأوصياء على حقوق الإنسان فى الهيئات التابعة للأمم المتحدة.

وبعد كل هذا فهل يتوقع أى إنسان حقاً أن تتأثر إسرائيل بالانتقادات المبررة أخلاقياً والموجهة إليها بأنها «تتحدى القانون»؟ الواقع أن القاضى ريتشارد جولدستون ذاته أصيب بالارتباك والحيرة حين اكتشف أن مجلس حقوق الإنسان اختار توجيه اللوم إلى إسرائيل فقط فى حين لم يكلف نفسه حتى عناء ذِكر حماس، التى اتهمها جولدستون بوضوح بارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

ليس من المستبعد تماماً أن نفترض أن «تأثير أوباما» كان له وقع أيضاً على المأزق الدولى الذى تعيشه إسرائيل فى الوقت الحالي. ذلك أن الهجوم الذى تتعرض له إسرائيل حالياً كان بتشجيع غير مباشر من مفهوم جديد أصبح منتشراً الآن على نطاق واسع ومفاده أنه مع وجود أوباما فى البيت الأبيض فإن الدعم الأميركى الثابت للدولة اليهودية لم يعد من الممكن أن يُعَد أمراً مفروغاً منه. والحق أن عدم اكتراث بعض الدول الأوروبية بنداء الاستغاثة الذى وجهته إليها إسرائيل أثناء مناقشة تقرير جولدستون كان مرتبطاً بالإحباط الذى شعرت به هذه الدول إزاء رفض رئيس الوزراء الإسرائيلى بنايمين نتنياهو تجميد بناء المستوطنات، وهو المطلب الذى أصر عليه أوباما أيضاً.

ولكن مهما بلغت درجة تفهم شعور إسرائيل بأنها تعامَل على نحو ظالم، فلابد وأن تلزم نفسها بمعايير أعلى، وأن تتجنب تحصين نفسها وراء جدران تتألف من قناعاتها الخاصة. لقد كانت المغامرة التى خاضتها إسرائيل فى غزة بمثابة نصر باهظ الثمن، والآن بات لزاماً عليها أن تغير مبدأ «الدفاع الهجومى». ذلك أن استعراض القوة المدمرة، مع وقوع خسائر إسرائيلية محدودة فى مقابل عدد غير محدود من الضحايا والخسائر بين صفوف المدنيين الفلسطينيين، لم يعد من الأمور التى يمكن دعمها أو قبولها على المستوى الدولى. وإذا تكرر ذلك النهج من جانب إسرائيل فلا شك أنه سوف يؤدى إلى تقويض موقف إسرائيل ومكانتها فى أسرة الأمم على نحو لا رجعة فيه.

وسوف يكون لزاماً على إسرائيل أن تكيف مبدأها فى الحرب مع ساحة المعركة الحديثة ومع حساسيات المجتمع الدولي. إن الجيوش النظامية لم تعد تشكل التهديد الوحيد لأمن البلدان. بل إن الجهات الفاعلة غير الخاضعة لسيادة الدولة. مثل حماس وحزب الله، أو طالبان فى أفغانستان وباكستان. والتى تحتمى وراء السكان المدنيين العزل، تكشف عن الفجوة المتسعة بين القواعد التقليدية التى تحكم الحرب وحقائق ساحة المعركة اليوم. ومن المشكوك فيه أن يكون بوسع إسرائيل العمل على صياغة تحالف دولى قادر على تكييف قواعد الحرب مع ظروف الحرب غير النظامية.

إن تقرير جولدستون لا يشكل بالضرورة تأثيراً سلبياً على توقعات السلام فى الشرق الأوسط. ويقال إن الحرب فى غزة أدت إلى خلق نوع جديد من الردع المتبادل فى هذه المنطقة التى مزقتها الحرب. فمن المؤكد أن الهجوم الذى شنته إسرائيل بلا رحمة على القطاع كان رادعاً لحماس، ولا شك أن شبح صدور أوامر اعتقال لزعماء إسرائيل وقادة جيشها فى أوروبا، سوف يردع إسرائيل، سواء اعترفت بذلك أو لم تعترف.

إن العملية القانونية برمتها قد تتوقف تماماً باستخدام الولايات المتحدة لحق النقض فى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وقد تستمر إسرائيل فى التمسك بمزاعمها التقليدية بشأن حقها فى الدفاع عن النفس. ولكن الحقيقة هى أن إسرائيل أصبحت مقيدة اليدين. والآن سوف يضطر زعماؤها إلى اتخاذ خطوات أكثر حزماً على الطريق نحو السلام إن كانت راغبة فى إضفاء أى قدر من المصداقية على الحجة التى استخدمتها لعرقلة تقرير جولدستون. ألا وهى أن ذلك التقرير «يعوق عملية السلام. ■

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر
Weghat Nazer - Volume 11 - Issue133 - February 2010
مجلة شهرية العدد ١٣٣ - السنة الحادية عشرة - فبراير ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهات



السنة الثانية عشرة
العدد ١٣٣
فبراير ٢٠١٠

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- البابا شنودة الثالث .. بابا الإسكندرية، وبطريرك الكرازة المرقسية
- أيمن الصياد .. صحفى
- جونا ليرار .. كاتب أمريكى متخصص فى علم النفس والأعصاب
- جى اتش إليوت .. أستاذ فخرى للتاريخ الحديث جامعة أكسفورد
- حسام تمام .. باحث فى الإسلام السياسى
- داليا سعودى .. أكاديمية مصرية تعيش فى السعودية
- سليم نصيب .. كاتب لبنانى يعيش فى باريس
- طارق البشرى كاتب ومؤرخ
- عثمان جلال .. أستاذ الطب، بكلية الصحة العامة، بجامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس (UCLA)
- محمد حسنين هيكل .. صحفى
- والتر إيزاكسون .. رئيس «معهد آسبن» (Aspen Institute) ومديره التنفيذى

رسوم العدد للفنان
محمد حجى



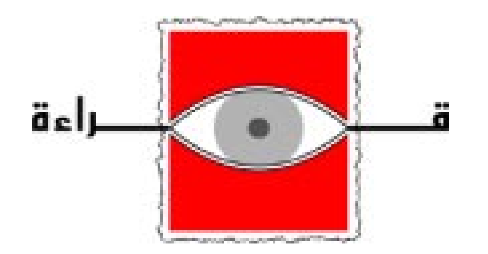


المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



حديث فيما جرى

أيمن الصياد



المشكلة ليست فى التنوع، وإنما فى كفاءة المجتمع/ الدولة فى إدارة هذا التنوع. ولاسبيل لذلك الا باعتماد ديموقراطية «حقيقية» وباحترام «مجرد» للقانون

■ ■ حديث .. «فيما جرى»..

لعل العنوان، على صحته ليس «جامعًا مانعًا» كما يقول المناطقة، إلا إذا اكتمل بما قد يجعل العبارة / الواصفة أكثر دقة وشمولا، لتصبح: «فيما جرى.. ويجرى..» وللأسف فيما يبدو - مازال - مختفيا خلف أفقٍ ينذر بعواصف لايمكن التنبؤ بها.

كلنا يعرفُ - حتى وإن كان هناك من لايريد أن يعترف ـ أن النُذرَ التى استدعتها حادثة نجع حمادى قبل أسابيع، لم تكن الأولى، حتى وإن علا صوتُها بصدى تردد عبر المتوسط أو الأطلنطى. كما أنها - رغم كل الأمنيات الطيبة - لن تكون الأخيرة. فوراء الأكمة ماوراءها؛ من حقائق «على الأرض»، ومصالح للبعض.. وحسابات للآخرين.

لا أعرف حقا إن كان الذين أصروا على أن الحادث فرديٌ.. «لادلالة طائفية له» يذكرون هذه الصورة (الصورة التقطها زميلنا الشاب عمرو عبدالله أمام كنيسة القديسين فى الإسكندرية / أبريل ٢٠٠٦) يومها قلنا - هنا - أنه لا يهم أبداً إن كان هذا «المواطن» الذى يبدو فى الصورة يحمل السكين أمام الكنيسة مسلماً أو قبطياً. كما لا يهم أبداً اسمه الثلاثى أو محل سكنه أو رقم بطاقته «القومية»، إذ يظل هذا كله من باب التفاصيل.

المهم أن هذا «المواطن» الذى خرج إلى الشارع مستنفرًا يحمل سكينًا ليس عضواً فى تنظيم متطرف يستهدف أتباع الدين الآخر، كما كان الحال ــ أحيانًا فى ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضى. وإنما هو «مواطن» عادى استقرَ فى يقينه (وهذا لب المشكلة) أنه لن يتسنى له دفاع عن نفسه، أو وصول إلى حق «يتصوره» إلا بالقوة والعنف.. والسكين.

كيف وصلنا إلى هنا؟!

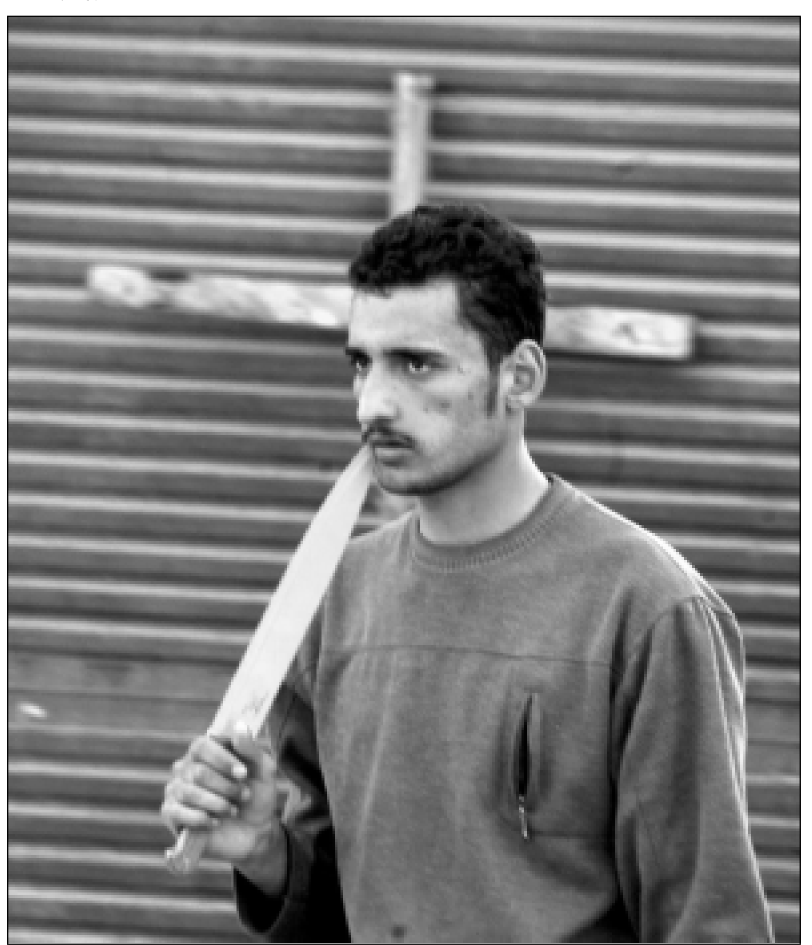
يومها، ولم يكن غبارأحداث عنف غير مسبوق رافق الانتخابات البرلمانية «الديموقراطية» الأخيرة (٢٠٠٥) قد سكن بعد، بات واضحاً أننا نعيش حالة من التوترالمجتمعي لن تهدئه . مهما قست - هراوات الأمن المركزي، كما لن تخفه - مهما تكاثفت - غازاته المسيلة للدموع. كما صار واضحا أن من الحكمة أن نعرف أن هناك احتقانًا بات «وإن أنكرنا» - تحت كل جلد.. . وأن هناك سيفاً صار - وإن غفلنا - قريبًا من كل يد. ثم أن نقلق حين نلحظ أن هناك من لم يدرك، أو لعله لا يريد أن يصدق أن عود الثقاب أصبح أقرب مما نظن. وأن هناك في كل زاوية - وليس فقط تحت قباب الكنائس أو المساجد - نارا يبدو أوارها تحت الرماد.

■ ■ ■

كيف وصلنا إلى هنا؟

بحكم أنه كان حريصا على أن يخص هذه المجلة بمقالاته، تعرفت الى الدكتور رؤوف عباس حامد، أستاذ التاريخ الراحل. وكنت أراه دوما واحدا من أولئك القلائل

© عمرو عبد الله



الجديرين بالاحترام. وأذكر - عشية حادثة الكشح الشهيرة - أن أطرافَ حديث دار بيننا أخذتنا إلى وقائعَ قصة حكى لى طرفا منها بغضب. وكان الراحلُ معروفا بين أقرانه بسرعة غضبه لما يراه حقًا . يومها استأذنته فى أن أدون ماحكى فى أوراقى، عسى أن أحتاجه، أو عساى أسمع يوما لأطراف القصة التى لم يرغب يومها - ولم ألح - فى أن يحددهم بالاسم، فأستكملُ تفاصيلها. وكان أن قرر الراحلُ الكريم، بعد حديثنا هذا بسنوات، نشرَ سيرته الذاتية كاملة غير منقوصة؛ بالأسماء الحقيقية لكل من وردَ ذكرهم فيها. ولم يكن ذلك - على جرأته - بغريب منه، كما لم يكن بدوره بمستغربٍ من الأستاذ والصديق المحترم مصطفى نبيل أن ينشرها كما هى. (نشرت دار الهلال الطبعة الأولى فى ديسمبر ٢٠٠٤). وكان أن جاء فى الكتاب / السيرة تفصيلٌ لما كان صاحبها قد رواه لى فى ذلك اليوم؛ بعيد أحداث الكشح تعليقا على ماكان قد كتبه أستاذنا جميعا محمد حسنين هيكل فى هذه المجلة تحت عنوان واف: «عن المسلمين والأقباط فى مصر» (ننشره فى الصفحات القادمة).

يروى الدكتور عباس واقعة جرت فى نوفمبر ١٩٧٨، حين تلقى مكالمة هاتفية ممن قدم نفسه على أنه من «رئاسة الجمهورية» وأنه مكلفٌ بحضور اجتماع له صفة سرية (!) ويغض النظر عن التفاصيل التى يوردها «المؤرخ» فى روايته، فقد كان الاجتماع لعدد مختار من أساتذة الجامعات، وكان المكان الذى لم يعرفوا به قبل أن تحملهم إليه حافلات خاصة، هو مبنى إدارة قناة السويس القديم فى الإسماعيلية، وكان على رأس الاجتماع الرئيس الراحل أنور السادات، وعلى يمينه (نائب الرئيس) محمد حسنى مبارك، وعلى يساره رجل تلك الأيام؛ عثمان أحمد عثمان، ثم منصور حسن (وزير الثقافة وقتها). فى الاجتماع الطويل الذى لم تقطعه إلا لحظات إشعال «غليون الرئيس» ليهدئ من ثورته على «الوفد.. والناصريين.. والصحفيين الأوساخ» دعا السادات الأساتذة المجتمعين إلى تنظيم دورات تثقيفية لشباب يتم اختيارهم «بعيدا عن أولئك الذين أفسدت عقولهم منظمة الشباب وأفكارها الشيوعية». ويغض النظر عن تفاصيل كثيرة أخرى - على دلالتها - فقد كانت مهمة «صاحبنا» هى أن يختار من يعاونه فى تدريس تاريخ مصر لمن يجرى اختيارهم من الشباب. ثم كان، عندما مضت المهمة إلى تفاصيلها أن فوجئ باعتراض «جماعة الحكم وقتها» على اسمين لأستاذين هما الأفضل فى تخصصهما؛ يونان لبيب رزق وإسحق عبيد، ولم يكن الاعتراض «الحاسم» وقتها لسبب سوى ديانتهما (!). وحسب مايرويه د. رؤوف عباس - ومعظم شهوده أحياء - فإن الأمر ذاته تكرر مع زميله د. عبد الملك عودة.

والصادم، أننى عندما عدت للسيرة

الذاتية للمؤرخ الراحل، لأستوثق من التواريخ والتفاصيل، وجدت فيها عديدا من الوقائع المشابهة، والتى ربما تكون مفيدة لمن يريد أن يبحث ـ بمنهجية ـ عن تاريخ «مايجرى» فضلا عن جذوره. إذ يبدو أن مابدا اتجاها فى دوائر نافذة يوما، انسحب تدريجيا ليصبح ثقافة عامة لا تتحرج من أن يصبح «إقصاء الآخر» سلوكا لاغضاضة فيه (!).

يحكى «صاحبنا» كثيرا مما جرى فى جامعات السبعينيات والثمانينيات، ثم يقص ماجرى حين اتصل به مسؤولو وزارة التربية والتعليم (عام ١٩٩٢) ليطلبوا منه وضع أسئلة امتحان التاريخ للثانوية العامة، وعندما اعتذر مرشحا لهم زميله يونان لبيب رزق، فوجئ بمن يتصل به يخبره بوضوح «أن تعليمات الأمن تمنع الأقباط من وضع الامتحانات» (!).. وبقية القصة ـ لمن يرغب فى أن يعود إليها ـ أكثر فداحة.

انتشر المرضُ إذن. مهما أنكرنا ـ عن غفلة أو حسن نية ـ ولم تعد المشكلة ـ الآن ـ فى تمييز من جانب الدولة، فهذا يعالج بتعليمات ولوائح. ولكن المشكلة فيما لاتستطيع الدولة أن تدركه بقرارات أو قوانين؛ أخشى أن أقول أن التمييز من الطرفين (وأكرر: من الطرفين) يكاد أن يكون قد استشرى كأى مرض خبيث، فى ضمائر «المواطنين» أنفسهم. حين يختار أحدهم طبيبا ليعالجه، أو مدرسة ليرسل إليها أبناءه.

■ ■ ■

التمييز ـ بالتعريف ـ نقيضٌ لاعتماد المعايير العادلة، والتى هى ـ فى المجتمعات الحديثة ـ جوهرُ القانون، والحاصلُ، أنه حينما تتجسد فى المجتمع قولا وفعلا، قيمةُ احترام القانون، يترسخ فى وعى المواطن وضميره معنى «المعايير العادلة». وحينما يشعر المواطن، أيا كان انتماؤه الدينى أو المذهبى أو السياسى، بالعدل والمساواة، يتعمق لديه إحساس حقيقى بالمواطنة، وإلا فإنه دون أن نشعر جميعا، يلجأ الى «خندق» طائفته، أو عائلته، أو حتى جماعته السياسية. متعصبا.. ومتحيزا. هل هذا بعض مما جرى لدينا فى العقود الأخيرة؟

لماذا تعاندُ الدولة مثلا بضعَ عشرات من الطالبات اللواتى «قال القانون» بأن لهن الحق فى أداء امتحاناتهن بالزى الذى يخترنه؛ حجابا كان أو نقابا. ألا يدرك أولو الشأن أن من البسطاء من يعتقد ـ وهو على خطأ بالتأكيد ـ أن عناد الدولة لم يكن إلا مجاملة لطائفة على حساب أخرى (!)

لماذا تعاندُ الدولة القانون ـ دائما ـ فى الأحكام الصادرة لصالح تيار بعينه؟ بشأن تزوير الانتخابات مثلا، أو الإفراج عن المعتقلين، أو إيقاف جريدة الشعب، أو إحالة المدنيين إلى محكمة عسكرية؟ أو إلغاء الحراسة على النقابات المهنية .. وهلم جرا. ألا يدرك العقلاء أن من شأن ذلك مزيدا من الاستقطاب فى المجتمع. ومزيد من الإقصاء للمعايير العادلة. وشيوعا لغياب الإحساس بأننا فى مجتمع يحكمه القانون، دون تمييز.

نقترب من عامى الانتخابات، وتذكرنا صورة سكين الإسكندرية اللامع، كما مشهد اللجوء للعنف «تصفية للحسابات» فى نجع حمادى، بما شهدناه فى الانتخابات الماضية من صور بلطجة سافرة غير مسبوقة، بحماية ـ أو ربما بمشاركة، للأسف ـ من الذين من المفترض أن المجتمع أوكل إليهم ـ بحكم وظيفتهم ـ مهمة حماية أمنه.

يومها بدا أن أصحاب قرار اللجوء إلى «الهراوة» لضمان «أغلبية الثلثين»، لم يدركوا خطورة أن يشيع فى المجتمع مفهوم: أن القوة / العنف هى السبيل «الوحيد» لكى تصل إلى هدفك (حقًا كان أو باطلا).

ويومها ـ بالضبط كما نرى الآن فى مسألة نقاب الطالبات «العبثية» ـ لم يفكر بعضُهم كثيرا قبل أن يصرح فى الصحف «الرسمية» بأن أحكام القضاء التى صدرت عشية الانتخابات «لن يُعتد بها».. هكذا (!) غير مدرك خطورة أن يتعمق لدى المواطن العادى شعورٌ باليأس من اللجوء إلى التقاضى «سبيلاً سلميًا لحل المنازعات». وغير مدرك أنه عندما تُغلُ يد القضاء فى رد المظالم لأصحابها يصبحُ الأمنُ الاجتماعى مهددًا. كما يصبح مفهومُ الدولة ذاته فى خطر.

يومها مارس الجميعُ العنف.. ولكن تبقى حقيقة أن الدولة إذا مارست أو تواطأت أو غضت الطرف.. (وقد فعلت)، المسؤولُ الأول.

هل تذكرون؟ .. يومها أيضا ـــ ولحسابات انتخابية ضيقة ـ أقحم البعضُ الرقمَ القبطى فى حسابات السياسة، فلم يتورع عن الترويج لحالة من «الفزع» لدى أقباط هذا الوطن. بعد أن نجح عدد من الإسلاميين فى الوصول عبر صناديق الاقتراع إلى البرلمان.

ويومها ـ وأيضا لحسابات أمنية قصيرة النظر ـ أجهض «أصحاب القرار» محاولة سكندرية لتفاهم إسلامى مسيحى أساسه «المواطنة». كان قد بادرَ بها أولئك الذين أزعج البعضَ وصولهم للبرلمان، وكان من شأنها ـ لو اكتملت ـ أن توجدَ مناخًا «أفضل» من ذلك الذى بدا لنا أخيرا، لا أقول فى فرشوط أو نجع حمادى، وإنما تحت قبة البرلمان، وفى المناقشات الصاخبة للبرامج التليفزيونية.

■ ■ ■

للمناخ «المحتقن» تاريخ من الأزمات التى تركت ندوبا هنا وجروحا هناك. كما كان الاحتكام بشأنها إلى غير القانون «المجرد»، كفيلا بإثارة شكوك بقيت فى النفوس، بعد أن تصور القائمون على الأمر أنهم «بالمواءمات» أو بدفن الجمار الملتهبة تحت الرماد البارد، قد نجحوا فى «احتواء الأزمة». وأن الزمن كفيلٌ بدفن التفاصيل. والأمر، يعرف المتصفحون للإنترنت والمترددون على غرف المحادثة Chat Rooms، أنه لم يكن أبدا هكذا.

دعونا نقلب فى صفحات تاريخ قريب. لعلكم تذكرون كيف انفجرت فى وجوهنا جميعا أزمة السيدة وفاء قسطنطين (أواخر ٢٠٠٤)، وتذكرون كيف انضفرت تفاصيلُها بالشائعات والغموض. اسمحوا لى أن أعود للتفاصيل: أشعلَ الفتيلَ الأول للأزمة وقتها ما قيل وتردد.. وتواتر؛ أننا بصدد حادثة اختطاف. ومن المعلوم للكافة أن واقعة «اختطاف أنثى» ـ وبغض النظر عن أى تمييز طائفى مرفوض ـ هى فى القانون «المجرد» جناية، تستدعى تحقيقًا وتحريات وجمعَ أدلة لمعرفة الجانى ـ إن كان ثمةَ جريمة ـ أو لنفى الواقعة من أساسها. وهو أمرٌ، لو كان قد حدث لأظهرَ الحقيقةَ ـ أياً كانت ـ ناصعةً. ولنزعَ فتيل أزمة انتظرنا عليها حتى وصلت إلى العاصمة «بزحامها وحساباتها» تظاهراً وصداماً واستقواءً بقوى أجنبية؛ يعرفُ الكثيرون كم اقتربت من تخوم سيادة أردناها مصونة. ويعرفُ الجميعُ كم دفع أبناءُ هذا الوطن بعنصريه ثمنًا لذلك.

يومها، (وبالضبط كما جرى فى التعامل مع «جناية» فرشوط التى قيل أنها أدت لما شهدته نجع حمادى) بدا أن هناك من فضل أن يفسح القانونُ «المجرد» المجالَ للسياسة وحساباتها. فرأينا من رجال السلطة يومها من يتباهى علنًا بالتزوير فى أوراق رسمية «بدعوى درء الفتن». ورأينا من رجال التحقيق من يُفرِّط أو يُفرِط؛ مواءمةً أو استجابةً أو إرضاء. ورأينا من رجال الدين من كانت فتواه عن سياسة، لا عن قرآن أو سنة أو كتاب مقدس.

غاب القانون «المجرد» إذن، ليترك الساحة لرجال أمن أو دين أو أحزاب. وهؤلاء أو أولئك تحكمهم ـ بحكم الوظيفة أو الانتماء ـ حساباتٌ هى بالتعريف ليست بحيادية القانون أو بتجرده.

والحاصلُ، أن الأزمة جرى حقا احتواؤها. ولكن جرى أيضا أن شعورا تأكد عند الأطراف جميعها، بأن الذى يتخذ القرار فى النهاية، يتخذه بناء على «حساباته»، وكل الحسابات يجوز فيها الخصمُ والإضافة. كما يصلح معها التوسلُ والشكوى، فضلا عن ماقد يُلَوَّحُ به من قريب أو بعيد. وليس هكذا حال «القانون» الذى نعرف. والذى لاتعرفُ عدالته «العمياء» غير الحكم «بظاهر الأوراق».

■ ■ ■

أيا ماكان أمر ماجرى .. ويجرى.. أو مازال فى بطن الغيب، فهناك على الهامش مجموعة من الملاحظات والحقائق:

١ـ لابد أن ندرك جميعا أن التنوع ـ بحكم قوانين الطبيعة ـ ثراء. وأن الاختلاف والتباين من سنن الخلق.. «ولذلك خلقهم» (هود ١١٩). ويعلم المتخصصون أن التنوع يفترض وجود حالة من «التوازن الطبيعى» وأن لامشكلة «طبيعية» هناك، مالم تتدخل يدٌ تعبث بهذا التوازن.

٢ـ أن المشكلة ليست فى التنوع، وانما فى كفاءة المجتمع / الدولة فى إدارة هذا التنوع. وأن لاسبيل لذلك الا باعتماد ديموقراطية «حقيقية» وباحترام «مجرد» للقانون.

٣ـ أن الذين بدا من مداخلاتهم، وكأنما يبحثون عن «الغاء الدين» تأكيداً لحقيقة أننا كلنا «مصريون متساوون» إنما هم قوم حسنو النية، لن يسمع لهم غير دوائرهم النخبوية الضيقة جداً (أرجوكم استمعوا إلى الناس العاديين فى المقاهى والأسواق ومحطات القطار). الحكمة ليست فى إنكار اختلافات هى موجودة فى الحقيقة، وإنما فى ترويج ثقافة احترام الآخر؛ الذى هو «مختلفٌ» بحكم كونه «آخر». ولاغضاضة أبدا فى ذلك. إذ ليس المطلوب طبعا أن «يؤمن» المسلمُ بأن المسيحى على حق فيما يؤمن به، كما أنه من غير المطلوب طبعا أن «يشهد» المسيحى بأن محمدا رسول الله. فلكل دين عقيدته التى هى بالضرورة تختلف عن الأخرى فيما تراه «كفرا» وماتحسبه من «مقتضيات» «الإيمان». وعليه، يصبح من باب التزيد، أن يتحسس بعضهم من مقال «فقهى» كتبه محمد عمارة فى مجلة الأزهر، أو أن يعترض الآخرون على مايقوله القسس فى مدارس الأحد. «لكم دينكم ولى دين» أظنه القول الفصل الكفيلُ إدراكنا الحقيقى له بنزع فتيل أزمات كثيرة.

٤ـ لاجديد، بالتأكيد، فيما كتبه محمد عمارة فالكلام موجود ومعروف منذ أربعة عشر قرنا، كما أنه لاجديد أبدا فى مايقال فى عظات الكنائس. فتاريخه أيضاً يمتد إلى قرون. ماهو الجديد إذن؟ لعله المناخ. أو بالأحرى لعلها تبعات السياسة.

■ ■ ■

وبعد..

يخطئ من يعتقد أن ماجرى هنا وهناك «محض شأن طائفى.. لاغير»، كما يخطئ من ينظر إلى صورة «السكاكين» المشرعة أمام كنيسة القديسين، أو الدماء المهدرة فى شوارع نجع حمادى الفقيرة، بمعزل عن المشهد السياسى العام المسكون بالعنف واليأس و«التعصب». كما يخطئ ـ وربما قبل ذلك كله ـ من يعتمد «الإقصاء» سياسةً، أيًا من كان المستهدف بها؛ أقباطا أو اخوانا مسلمين.. ثم يخرج علينا ليتحدث عن وطن «للجميع». ■





قبل عشر سنوات بالضبط (إلا شهرا)، وبالتحديد في عدد مارس ٢٠٠٠ نشرت «وجهات نظر» هذا المقال، الذى ربما كان الأهم فى موضوعه، والذى نعتقد أن من حق قارئها - بعد أن ألح الموضوع بماجرى ويجرى - أن يقرأه من جديد.

المحرر

والأقبـــــاط فى مصـــــر

١ الـــــدين والنيـــــل

■■ طـال تَـرَدُّدى أمـام الموضـوع الـذى أحسست أننى أريد التَّوَقُّف معه، وليس مع غيره، فى هذا الحديث !

وطال تَرَدُّدى. أيضاً. أمام الجِهة التى ينبغى توجيه الحديث إليها بظنٍّ. أو باعتقاد. أنها الأَوْلى به من غيرها، وأنها المسئولة عنه قبل الجميع.

والحاصل أن الموضوع الذى طال تَرَدُّدى أمامه هو ما تَبَدّى وتصاعَد فى السنوات الأخيرة من ضغوطٍ على العلاقات بين المُسلِمين والأقباط من أبناء الشعب المصرى.

والحاصل كذلك أن الجِهة التى طال تَرَدُّدى فى تَوجيه الحديث إليها هى رئاسة الدولة بالتحديد، لأنى أظنُّ. وأعتقد. أنها الأَوْلى به من غيرها وأنها المسئولة عنه قبل الجميع.

....

....

والسَّبَب الذى طال من أجله تَرَدُّدى أمام الموضوع فى حَدِّ ذاته أن الخَوضَ فيه اسْتُبيحَ أمرُه. رغم جَلال خَطَره. لكلِ ماسكِ قَلَم أو حَجَر أو سَيْف، ولكل مُطلٍّ على النَاس من صفحة جريدة أو سَمّاعة مِذياعٍ أو شاشة تلفزيون، ولكل من اعتَلى مَنصّة كلام أو مِنبَر وَعظ، أو أمسَكَ بحَبْلِ ناقوسٍ فى بُرجِ كنيسة.

وكانت النتيجة حالة من الفَوْضى أحاطت بالموضوع وقد حَسَبَت أنها تَسُدُّ الطُرُقَ إليه بالزِحام، أو تَصُدُّ عنه بإيثارِ البُعدِ (عن الزِحام) !

وأما السَبَبُ الذى طالَ من أجله تَرَدُّدى أمام الجِهة التى أوَجِّه إليها هذا الحديث. وهى رئاسة الدولة. فهو الحساسية من تَجاوُزِ الحُدود :

من ناحية فإن لدىَّ ظناً. بل واعتقاداً. أن موضوع الوِحدة الوطنية. هو وموضوع مياه النيل معها دون غيرهما وقبل غيرهما. هما اختصاصٌ أصيلٌ لرئاسة الدولة، ومسئولية غير قابلة للقِسْمة تحت أية دعاوى. بما فى ذلك دعوى الفصل بين السُلطات، أو دعوى الممارسة الديمقراطية. ذلك أن مسألة دينَيْنِ على أرضِ وطنٍ واحد، وكذلك مسألة نَهْر هو المَصدَر الوحيد للحياة تجىء موارده من خارج الحدود. هما مما لا يَجوزُ فيه التفويض، ولا طول الجَدَل والتَزَيُّد!

كلتا المسألتين فى ظنى. واعتقادى. أهَم وأخطر من أى مسألة أخرى، حتى مسألة الحرب والسلام، وحتى مسألة التنمية والتكنولوجيا، ذلك أنه بدون سلامة القاعدة الوطنية، وبدون حماية مياه النيل والمحافظة عليها. يُصبِح أى كلام عن الأمن وعن المُستَقبل سَبقاً للأوان بالقفز على الحقائق !

ومن ناحية أخرى فإن داعى الحساسية من تَجاوُزِ الحُدود ينشأ من أن توجيه الحديث إلى رئاسة الدولة قد يُرَدُّ عليه بأن رئاسة الدولة ليست فى حاجة إلى من يلفِت نظرها لما هو فى الصميم من اختصاصها ومسئوليتها .. وهذا منطقى ومشروع !

....

....

على أنه فى النهاية كانت دَواعى التَرَدُّد. هى نفسها دَواعى المُجازفة بالإقدام، لأن الأمور لم تَعُد تحتمل.

ففوضى الزِحام من حول موضوعٍ من الموضوعات لا تمنع أحداً أن يُنادى من بعيد بصوت الضمير، حتى وإن لم يكن واثقاً من إمكانية التأثير.

ثم إن اختصاصِ جِهة بأمرٍ ومسئوليتها عنه لا يَصُدُّ عن توجيه الحديث إليها فى شأنه، فتوجيه الحديث إلى طَرَفٍ لا يَعنى بالضرورة تَنبيه هذا الطَّرَف إلى غياب، وإنما قد يكون القَصدُ تأكيد وتأييد اختِصاصِه وتدعيم قيامه على مسئوليته.

....

....





إن العقائد لا دخل لها بما يمكن أن يقال فى قضايا غيرها عن ديمقراطية الحوار؛ ففى مجال الدين لا توجد أقلية أو أغلبية تحصى بها الأصوات فى نهاية المطاف، ولحسم الأمور بحيث تخضع أقلية لرأى أغلبية، أو تواصل الأقلية عرض حججها كى تتحول هى يوماً إلى أغلبية



وفى كل الأحوال، ومهما كانت الاعتبارات، فإننى بعد طول التردد جازفت وتقدمت!

ذلك أن الموضوع متصل بمستقبل وطن، ثم إن التوجه بالحديث إلى الجهة المسئولة عنه. رئاسة الدولة. حالة ضرورة وليس حالة اختيار!



وفيما يتصل بالموضوع نفسه واعتباره موصولاً بمستقبل وطن، فليست هناك حاجة إلى إعادة قراءة أو استقراء التاريخ العام. أو حتى تاريخ الأفكار. لكى يتفق الناس جميعاً على مركزية الدين فى حياة مصر بالذات، ذلك أن هذا البلد هام تعلقاً بفكرة الدين حتى من قبل أن تتنزل كلمة السماء!

....

....

وأتذكر حوارين متصلين ذات يوم فى باريس (ربيع سنة ١٩٧١). مع أديب فرنسا الحديثة ومفكرها الكبير «أندريه مالرو» (وزير الثقافة فى عهد «شارل ديجول»). وكان الدين. وفى مصر بالذات. هو مالئ حديثنا، وكان «أندريه مالرو» هو الذى بادر بطرح الموضوع.

كان الحوار الأول على الغداء فى مطعم «لاسير»، وكنا فى صدد الحديث عن إسهام مصر فى محيط الحضارة الإنسانية الأكبر، ووجدت «مالرو» يقول: «لا بد أن نتذكر أن الحضارة المصرية هى التى «اخترعت» فكرة الأبدية».

وعلقت بملاحظة قلت فيها: «لنتفق على أن نكون أكثر تحديداً ونقول إن الحضارة المصرية لم «تخترع» وإنما «أهدت» إلى الإنسانية فكرة الأبدية. أى نقول بأن مصر «أهدت» بدلاً من أن مصر «اخترعت».

وكان رد «مالرو» قوله: «إنه دون تعنت فى تدقيق الكلمات فإن الحضارة المصرية هى التى طرحت فكرة البعث بعد الموت، وفكرة العالم الآخر بعد هذه الدنيا التى نعيش فيها، وفكرة الحساب والثواب سيراً على صراط مستقيم فى يوم معلوم.

....

....

وفى الحوار الثانى. على العشاء. فى بيت صديقته الكبيرة السيدة «فيلموران» فى حى «سان جيرمان دو برى». عاد «مالرو» إلى استئناف ما انقطع بعد الغداء وكأننا بقينا فى نفس المجلس من الظهر إلى الليل، وهكذا فتح من جديد قصة غرام مصر وهيامها بفكرة الدين، وكان بين ما قاله أن تعلق مصر بفكرة الدين وصل بها إلى درجة جعلت منها البلد الوحيد فى الدنيا الذى اعتنق ثلاثة أديان على التوالى: من العقائد الفرعونية المغرقة فى الأساطير، إلى المسيحية المستعدة للشهادة، إلى الإسلام المكلف بالجهاد.

ومن اللافت للنظر أن «مالرو» كان يربط فى حديثه بين ديانات مصر المختلفة وبين النهر الواحد، ورأيه أن «مصر كانت فى حاجة إلى النظر فيما وراء الطبيعة لأن حياتها كلها تعتمد على نهر لا ترى منابعه وتجهل كل شىء عن مساره، ثم إن مياه هذا النهر تزيد وتنقص، ومجراه يفيض أو يغيض لأسباب تحس بها مصر حين مجىء خيرها أو شرها، لكنها فى الحالتين لا تستطيع أن تجد تعليلاً غير أن حركة النهر «المعبود» إرادة علوية فوق أى إرادة إنسانية، وكانت تلك دوافع مصر إلى الرجاء وإلى الدعاء وإلى الصلاة، وإلى الربط بين المعبد والمجرى!

....

....

وناقشت «مالرو» طويلاً تلك الليلة، وكان طرحى عليه أن هناك أسباباً أبقى لتعلق مصر بفكرة الدين.

قلت إنه بصرف النظر عن كل الأسباب والعلل. مما ذكر ولم يذكر. فإن تعلق مصر بفكرة الدين مؤسس على أن هناك خالقاً وخلقاً، وهناك رسالات ورسلاً، وهناك عقائد ليس من الضرورى أن يبحث لها الناس عن أسباب مادية أو «مائية»، حتى وإن احتكموا فى كل ثقافتهم إلى العقل وجعلوه مرجعاً وسلطاناً، باعتبار أن العقل هو القوة الفاعلة فى المادة وليس العكس، وتلك هى ميزة العقل وقدرته على الإدراك المستمر لقوانين الطبيعة ومطالب الحياة.

وقد ظل تباين التفسيرات بيننا قائماً على الغداء والعشاء، لكن اتفاقنا واتفاق من شاركوا فى الحوار معنا. وبينهم كبير مراسلى «النيويورك تيمس» فى أوروبا «ساى سالزبورجر»، ورئيس تحرير «الموند» «بوف ميرى»، والمفكر الكبير صاحب العمود الشهير فى «الفيجارو» «ريمون آرون»، إلى جانب مضيفتنا الكريمة السيدة «فيلموران». انعقد على الأهمية المركزية لقضية الدين فى مصر، سواء بدأت الفكرة بسر النهر مانح الحياة والنماء، أو بسبق الرسالات الإلهية مانحة الإيمان واليقين.

وفى مطلق الأحوال فقد كانت تلك الحوارات فى باريس نظرة جديدة على حقائق راسخة من قديم فى حياة مصر: «النيل والدين» حسب «مالرو». أو «الدين والنيل» حسب ما طرح غيره عليه!



بالنسبة للنيل لم يظهر تحد له شأن يهدد وصول مياهه إلى مصر، وتلك قضية يطول الحديث فيها وليس هنا مكانها رغم أهميتها ورغم ما ظل ساكناً فيها حتى القرن التاسع عشر، ثم تبدى مشكلة فى القرن العشرين، وهو على الأرجح سوف يصبح قضية القضايا وصراع الحياة ذاتها فى الحقب الأولى من القرن الواحد والعشرين!

أما الدين. على خلاف مع النيل حتى الآن. فقد كان باستمرار مكمناً مشحوناً بالخطر.

بمعنى أن مياه النيل لقرون طويلة ظلت فى أمان..

أما عقائد الدين فقد كانت باستمرار فى الميدان.

والتفسير واضح، فالنيل فى حضن الطبيعة، أما الدين ففى قلوب البشر. وفى حين أن الطبيعة مستقرة على أحوالها، فإن قلوب البشر تتنازعها تقلبات الأيام.

....

....

إن مصر القديمة المغرمة بفكرة الدين (على رأى «مالرو») سارت وراء الفرعون الإله ثلاثة آلاف سنة تبنى له أهراماته ومعابده، وتدفن معه كنوزه. أو كنوزها! (وكانت صلة الفرعون بالنيل حميمة، بل إن الصور اختلطت إلى حدود يصعب تمييزها فى بعض الأحيان بين النهر والإله والفرعون).

وعندما وصلت المسيحية فإن مصر لم تتبعها فقط، وإنما قادت أحد مذاهبها الكبرى وراء «مرقص» قديسها الأعظم.

وعندما أقبل الإسلام فإن جيش «عمرو بن العاص» لم يكن قوياً بسلاحه (أربعة آلاف جندى بالسيوف والحراب). وإنما كانت قوته الحقيقية هى الشريعة التى سبقت السيف وغاصت إلى أعمق من الحربة، وكانت قوة الشريعة. مع عوامل أخرى فعلت فعلها. هى التى شدت الجماعة الأكبر من سكان مصر، فى حين أن جماعة أخرى (لها وزنها) آثرت أن تظل حيث كانت على عقيدتها المسيحية.

هكذا تجاور دينان على أرض الوطن الواحد، وبالتجربة الحية وعبرتها أدرك أتباع الديانتين. من الشعب الواحد على أرض الوطن الواحد. أن الحياة المشتركة فرض ومكتوب، وذلك تحقق على مسار التاريخ رغم اختلاف الدين.

ومع أن هذا الاختلاف فى الدين ظل حقيقة اجتماعية وسياسية، مقبولة بالفكر ومعاشة بالواقع، فإن هذا الاختلاف. شأنه شأن أى اختلاف. كان قابلاً للاستغلال، معرضاً لكل ما تتأثر به قلوب البشر من نوازع تجىء بها تقلبات الأيام.

وذلك الاستغلال وقع فعلاً فى فترات من التاريخ تعرضت مصر فيها لحملات الغزو، ولمحاولات الاختراق، ولتربص الأغراض والمطامع خصوصاً عندما كان ذلك يتوافق مع عوامل التراجع والانحطاط، فتلك بالطبيعة فاتحة الثغرات ومحرضة الأهواء.

....

....

وكان الذى يحدث فى تلك الفترات أن الاختلاف فى الدين. وهو موجود فى كل الأحوال، وغير مرئى مثل خطوط الطول والعرض على كوكب الأرض مع أنها تدل

لقد كان زمن الحرب الباردة جامعة كبرى تعلمت فيها القوى «هندسة» الفتن، وأكثر من ذلك فإن البراعة فى «الهندسة» وصلت أحيانا إلى إعادة «هندسة الماضى» وإعادة تركيب تاريخ المجتمعات بما يوافق مقاصد الأقوياء!





على اختلاف مناطق الزَّمن وتَبايُن مواسم الطبيعة. يجرى التركيز عليه.

وهكذا فإن الخط غير المرئى (فى ظروف العافية) يتحوَّل بإثارة الحساسيات حوله إلى علامة ظاهرة أشبه ما تكون بخيط أو شَعرة.

ثم يزداد الضغط على مواقع الحساسيات، وتَتَحوَّل العلامة (خيطاً أو شعرة). إلى مساحة واضحة تُباعِد بين ناحيتين.

وتبلغ الأحمال والأثقال مَداها، ويَتَحوَّل الفاصل إلى خَط، ويَتَحوَّل الخَطُّ إلى شَرخ، ثم إلى فلق، ثم إلى ما يُشبه الكَسْر!

ثم يَتَنَبَّه الكل إلى أن الفتْنَة استيقظت، ويكتشف الكل قبل أن يفوت الأوان. أحياناً بشبه معجزة. أنهم تَخَطوا حدود الأمان!



وفى العادة «تَتَنَبَّه رئاسة الدولة فى مصر» لأنها المسئولة عن تَماسُك الوَطَن وعلى أرضه ديانتان (بينهما خَطٌّ غير مرئى فى ظروف العافية). بمقدار ما أنها المسئولة عن النهر الواحد تَتَدَفَّق مياهه إلى أراضيها قادمة من وراء حدودها مع أنه بذاته كل حياتها.

وفى هذه الظروف تحتاج الأمور إلى إرادة الفعل المُتَمَثِّلة فى سُلطة السيادة، وهى المُتَجَسِّدة. بالدرجة الأولى. فى رئاسة الدولة.

والواقع أنه حين تظهر بوادر الفتنة، ناشئة من اختلاف العقائد، مع وجود رغبة أو تصميم على استغلالها من الخارج أو حتى من الداخل. فإن الوَطَن. أى وَطَن، وليس الوَطَن المصرى وحده. يَجِد نفسه أمام ظرف لا يصلح فيه منطق الحوار لأن العقائد بطبيعتها مُتَعَلِّقة بالإيمان، وما يتصل بها مشبوب بالعواطف، وطول الأخذ والرد يحرك فى القلوب ما تصعب السيطرة عليه.

ومن ناحية أخرى فإن العقائد لا دخل لها بما يمكن أن يقال فى قضايا غيرها عن ديمقراطية الحوار، ففى مجال الدين لا توجد أقلية أو أغلبية تحصى بها الأصوات فى نهاية المطاف ولحسم الأمور بحيث تخضع أقلية لرأى أغلبية، أو تواصل الأقلية عرض حججها كى تَتَحَوَّل هى يوماً إلى أغلبية.

مثل ذلك كله فى غير محله، وخارج السياق.

وكذلك تنشأ الحاجة إلى سُلطة الدولة العليا، مع ملاحظة أن المَطلَبَ الديمقراطى فى أى سياسة هنا يَسْتَمِدُّ قُوَّتَه من شرعية السُلطة وليس من ممارسة شعائر الديمقراطية (على فرض وجودها!).

يضاف إلى ذلك أن شعائر الديمقراطية ربما. ربما. تكون لها فرصة قبل أن تُطلَّ الفتنة.

لكن كل هذه الشعائر تصبح عبئاً حتى على روح الديمقراطية وما تكفله من الحقوق. إذا أطلَّت الفتنة.

وذلك شىء من نوع ما يحدث فى ظروف الحرب: شعائر الديمقراطية تسبق السلاح، فإذا كانت إدارة الحرب موكولة إلى إدارة شرعية حَقٌّ لها أن تدير شئون الحرب دون أن تتعطل أو تنتظر.

وفى الفِتَن شىء قريب الشَّبَه بذلك خصوصاً فى مجال العقائد. وهى فى بعض الأحيان براكين نار. وهنا وكما يحدث فى الحرب فإن الإدارة لا بد أن يَقَعَ تكليفها على قيادة شرعية تَتَصَرَّف بالمسئولية قبل أن تَتَصَرَّف براكين النار وهى غير مسئولة.

....

....

والشاهد أنه فى الأزمنة الحديثة فإن صناعة الفِتَن. إلى جانب عوامل الفِتَن. لم تَعُد عود ثقاب يُلقى. بالمصادفة أو بالعمد. على حَطَب، وإنما صناعة الفِتَن تَحَوَّلت إلى «هندسة» بمعنى الكلمة!:

. الخط الافتراضى (مثل خطوط الطول والعرض) يمكن هندَستَه ليُصبح مسافةً وفاصلاً (خيطاً أو شَعرة).

. والفاصل (خيطاً أو شَعرة) يمكن هندَستَه ليَتَحوَّل إلى خطٍّ. إلى شَرخٍ. إلى فَلْقٍ. إلى كَسْر.

. وطول الجدل إلى حَدِّ الصخب، وتبادل الاتهامات وتوزيع المسئوليات فى حوادث متصلة بالعقائد. قادرٌ لوحده أن يُحَوِّل «خَطَّاً غير مرئى» إلى «أخدود عميق بلا قرار»، وأن يُحَرِّك من المشاعر والغرائز ما يجعل الوَهْمَ نفسه يَتَجَسَّد قضية حياة ومَوْت.

ولقد كان زَمَنُ الحرب الباردة جامعة كبرى تَعَلَّمَت فيها القوى «هندَسَة» الفِتَن، وأكثر من ذلك فإن البراعة فى «الهندَسَة» وَصَلَت أحياناً إلى إعادة «هندَسَة الماضى» وإعادة تركيب تاريخ المُجتمعات بما يوافق مقاصد الأقوياء! ■

٢ خطـــــة كردينــــــال ملكــــى!

■■ مَسار التاريخ بلا نهاية، وعصوره ووقائعه سَيْلٌ مُتَدَفِّقٌ طوال الوقت، هادئٌ أحياناً، هائجٌ فى معظم الأحيان. لكنه فيما يتعلق بهذا الحديث فإن النصف الثانى من القرن التاسع عَشَر رأى مشاهد بالغة الأهمية فيما يتعلق بمصر، خصوصاً فيما يتصل بجوار ديانَتَيْن على أرض وَطَن واحد.

فى ذلك النصف الثانى من القرن التاسع عَشَر كانت مصر موضوع سباق إمبراطورى هائل: اقتصادى. عسكرى. سياسى. وثقافى أيضاً، لأن الثقافى وفيه العقائد قابل لأن يَتَحَوَّل بالمُعالجة وإعادة التشكيل إلى مصالح لها مكاسبها ومغانمها!

وفى المجال الإمبراطورى (اقتصادى. عسكرى. سياسى) كان السباق بين قوتين: بريطانيا وفرنسا. وفى حقيقة الأمر فإن السباق بينهما نحو مصر مَلأ مساحة القرن تقريباً. من حَملة «نابليون» إلى حَملة «فريزر»، ثم جاءت وَقفة لتخفيف حرارة السباق اتفقت فيها القوتان على سيطرة مُشتَرَكة فى عصر «إسماعيل»، ثم انقضَّت بريطانيا وانفَرَدَت بالغنيمة واحتلَّت مصر بحملة «ولسلى» سنة ١٨٨٢.

وبطبيعة شبكة العلاقات بين القوتين فإن ما هو ثقافى فى المجال الإمبراطورى كان مُحَرِّكاً إلى الاهتمام. أو ادعاء الاهتمام. بالإسلام والمسلمين، وذلك بحُكم نفوذ بريطانيا شرق وغرب الهند حتى أودية الفرات والنيل، وبحُكم نفوذ فرنسا عبر الشواطئ إلى شمال أفريقيا وسواحل الشام.

وهذا السباق بين إمبراطوريتين تَرَكَ الباب مفتوحاً لقوى أخرى. ولعله أغراها. بأن تحاول التَدَخُّل أو التَسَلُّل إلى الميدان الثقافى، ولكن عن غير طريق الإسلام والمسلمين، بتحديد أكثر عن طريق المسيحية والمسيحيين من كل المذاهب، بما فيهم الأقباط الأرثوذكس فى مصر.

وكان هناك ثلاثة وافدين جُدُد رأوا الباب المفتوح وتقدموا يُجَرِّبون حظوظهم، الوافد الأول هو الولايات المتحدة الأمريكية، الإمبراطورية الجديدة القادمة على أول الطريق. والثانى هو الكنيسة الأرثوذكسية الكبرى للإمبراطورية الروسية، وهى إمبراطورية وصلت إلى آخر الطريق وكانت وقتها تُجاهد السقوط وتبحث عن وسائل لتفاديه. وأخيراً الكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان، وهى بدورها قوة إمبراطورية بلا حدود. حتى وإن كانت لا تملك سلاحاً أو اقتصاداً مُسَيطِراً أو مُستَعمَرات خاضعة.

وجَرَّبَ الثلاثة فى مصر المسيحية. ولم يصلوا جميعاً إلى نتيجة تُذكَر.

. جَرَّبَت الولايات المتحدة عن طريق بعثات التبشير، وكانت خطوتها «الرسولية». أو «الإرسالية» وفق التسمية التى جرى اعتمادها تواضعاً. هى العمل على تحويل أقباط مصر من الأرثوذكسية إلى البروتستانتية، وتوافد المُبَشِّرون الأمريكان، أو تحت الرعاية الأمريكية، إلى القاهرة، ومنها نَقَلوا نشاطهم إلى صعيد مصر بعيداً عن العين الساهرة للكنيسة القبطية المصرية وبطركها العنيد «ديمتريوس» الثانى.

. وتَصَوَّرَت الإمبراطورية الروسية أن تدخل من الباب بإذن رسمى، فذَهَبَ قُنصلُ روسيا العام فى مصر إلى مقابلة البطرك الذى خَلَفَ «ديمتريوس». وهو البطرك «كيرلُس» الخامس. يهمس فى أذُنه بأنه «إزاء كل هذا الطَّمَع فى مصر فإن الأقباط الأرثوذكس فيها لا ملجأ لهم غير قيصر روسيا وهو حامى العقيدة الصحيحة». وردَّ البطرك المصرى بذكاء الفطرة فسأل القُنصلُ الروسى: «ومَن يحمى القيصر؟». وجاء الردُّ: «يحميه الله». وكان البطرك جاهزاً فقال: «وهو أيضاً يحمينا»، ثم أضاف عبارته المشهورة: «القَيْصَر يموت وأنا أيضاً.. ولا يحتاج مَيِّت إلى حماية مَيِّت، وإنما يحتاج الكل إلى حماية من لا يموت».

. وأما الفاتيكان فى روما فقد كانت محاولته قصيرة العُمر، فما أن جاءت الرسالة الأولى من البابا الكاثوليكى إلى البطرك المصرى حتى كان الردُّ عليها: «منذ متى تَهْتَمُّ الكنيسة الرومانية فى الغرب بأحوال



لم يكن «الوفد» يضم بين أعضائه حتى هذه اللحظة أقباطاً، وهنا ذَهَبَ عَدَدٌ من أقطابهم إلى «سعد زغلول» (باشا) الذى بَرَزَ كزعيم لا ينازع للوفد المصرى يسألونه: «إذا كان مبدأ استقلال الشعب المصرى هو المطلوب فكيف يجوز تشكيل الوفد المصرى المُطالِب به. دون أقباط مصر؟»



المسيحيين فى الشرق، وهى التى كانت تعتبرهم طول العُمر هراطقة مُرتَدِّين» !



وعندما دَخَلَت مصر إلى القرن العشرين استوقفها سؤال هوية تاريخى كان لا بد أن تَرُدَّ عليه، ذلك أن تطورات القرن السابق (التاسع عشر) وقد انتهت بالاحتلال البريطانى لها سنة ١٨٨٢. طَرَحَت عليها ذلك السؤال الحيوى، وكان عليها أن تَرُدَّ، ثم تُقاتِل إذا اقتضى الأمر دفاعاً عن اختيارها.

وكان المطروح على مصر ثلاثة خيارات:

١. مقاومة الاحتلال البريطانى لطلب الاستقلال وإقامة دولة ذات سيادة من نوع ما عرفته أوروبا فى أعقاب الثورة الفرنسية. وليس هناك ما يمنع هذه الدولة ذات السيادة من التعاون بصفة مميزة مع الإمبراطورية البريطانية (صديق قوى يقدر فى رأيهم على مساعدتها. وكان من أنصار هذا الرأى الشيخ «محمد عبده» ومدرسته).

٢. مقاومة الاحتلال البريطانى بقصد العودة إلى الخلافة العثمانية وهى الإطار الجامع للشعوب الإسلامية باعتبار أن ذلك مكان مصر الصحيح، ثم إنه الموقع الذى كانت فيه فعلاً قبل الغَزْو البريطانى، وكان أهلها فى حماه رَعِيَّة عثمانية. (وأنصار هذا الخيار يرون أن مطلب مقاومة الاحتلال البريطانى يحتاج أيضاً إلى قوة أكبر من قوة مصر الذاتية، والحلُّ هو الباب العالى. وكان من أنصار هذا الرأى «مصطفى كامل» وحزبه).

٣. مقاومة الاحتلال البريطانى والإصغاء جيداً إلى دعوة قومية جديدة تُعطى للعَرَب بوحدة الثقافة وتَواصُل الجغرافيا وامتداد التاريخ خصوصية الأمة فى المحيط الحضارى الإسلامى الأوسع.

(وكان هذا الخيار نداءً بعيداً خافت الصوت لا تساعده قُوَّة إمبراطورية، ولا نداء خلافة قادرة أو عاجزة. وليس له بعد نصير قوى له صوت يمكن سماعه !).

وكذلك كان مَطلَبُ مقاومة الاحتلال مُتَّفَقاً عليه.

وأما سؤال الهَوِيَّة فقد كان مَوْضِعَ اجتهادات مُتعارِضة.

....

....

وربما أن سؤال الهَوِيَّة كان أشدَّ صعوبة بالنسبة للأقباط فى مصر. أكثر مما كان بالنسبة للمُسْلِمين، ولعلهم كانوا أقرب إلى الخيار الأول. وهو خيار الاستقلال، لكن الهواجس ساورتهم من واقع أنهم كانوا منذ دخول الإسلام فى ذِمَّة الوالى أو الأمير أو الخليفة.

وبصرف النظر عن رواسب كثيرة فقد عرفوا «وَضْعَ أهل الذمة» وتَعامَلوا معه وخبروه. لكن الاستقلال حالة مُسْتَجِدَّة، فالفرد فى الدولة المستقلة «مواطن»، و«المواطنة» مفهوم مُسْتَجِدٌ. يَحِلُّ محَلَّ مفهوم طالت العهود عليه، وهو وضع «الرَعِيَّة» للفرعون، أو القيصر، أو الخليفة، أو السلطان، أو المَملوك، أو الأمير. وهذا المفهوم المُسْتَجِدُّ للمواطنة سوف يأخذ وقتاً طويلاً حتى تثبت جذوره، وإلى أن يتأكد ذلك فالقلق وارد.

وبالتداعى من ذلك كان هناك محظور رآه بعض العُقَلاء من أقباط مصر، ذلك أن خيار الاستقلال مع علاقة مُتَمَيِّزة ببريطانيا (وفق الخيار الأول) سوف يَضَع أقباط مصر أمام مَأزَق مُحتَمَل خصوصاً إذا لم يستطع مفهوم «المواطَنة» أن يُؤَكِّد قِيَمَه وقواعده. ذلك أنهم فى هذه الحالة سوف يجدون أنفسهم. بواقع الحال أو بضرورته. أقرب إلى القوة الدولية ذات العلاقة المُتَمَيِّزة مع مصر المُسْتَقِلَّة، وهى بريطانيا.

وفى بعض الأحيان فإن هذا الخيار رغم محاذيره تَبَدَّى أدعى إلى السلامة من العودة إلى الخلافة العثمانية (الإسلامية). ثم إنه كان أكثر تحديداً من خيار عَرَبِىّ ما زال بعيداً لكنه يحمل هو الآخر بالحقائق الحضارية مُحتَوى «إسلامياً» تظهر لمساته ولو من بعيد!

وكان التَّخَوُّف. وهو مُبَرَّر. أن تكون من هذين الخيارين عَوْدة بالعلاقات بين المُسْلِمين والمسيحيين إلى «عهود الذِمَّة» بحكم الولاية بدلاً من «حقوق المُواطَنة» فى الدولة الحديثة.

ثم بقى سؤال الهَوِيَّة فى مصر مُعَلَّقاً وحائراً حتى جاءت ثورة سنة ١٩١٩ فأخَذَت بخيار الدولة الوطَنِيَّة المُسْتَقِلَّة، وكان نجاحها الأعظم هو تَبَنِّيها لمبدأ «المُواطَنة» من واقع أنه وَطَنٌ واحد يتعايش على أرضه دينان، ومن الإنصاف أن يقال أن نقطة التَّحَوُّل فى هذا التَوَجُّه جاءت من قيادات قبطية.

فقد حَدَثَ فى بداية الثورة أن وفداً تَشَكَّلَ لمقابلة المندوب السامى البريطانى لإبلاغه بمطالب وطنية على رأسها مطلب الاستقلال. ثم تَحَوَّلَ الوفد إلى حزب حمل نفس الاسم وهو «الوفد»، تعبيراً عن أن المطالبة بالاستقلال ما زالت مُسْتَمِرَّة. ولم يكن «الوفد» يضم بين أعضائه حتى هذه اللحظة أقباطاً، وهنا ذَهَبَ عَدَدٌ من أقطابهم إلى «سعد زغلول» (باشا) الذى بَرَزَ كزعيم لا ينازع للوفد المصرى يسألونه: «إذا كان مبدأ استقلال الشعب المصرى هو المطلوب فكيف يجوز تشكيل الوفد المصرى المُطالِب به. دون أقباط مصر ؟».

وكانت تلك علامة فارقة فى مسار الحَرَكة الوطَنِيَّة المصرية.



وبعد دخول أقباط مصر من باب «الوفد» بالدرجة الأولى إلى المشاركة السياسية فى تجربة الدولة الجديدة تحت مفهوم «المُواطَنة» (بدلاً من مفهوم «الرَعِيَّة»). فقد كان يمكن أن تنتكس التجربة كلها لسببين:

أولهما. أن المَلِك «فؤاد» راح يَتَطَلَّع إلى إرث الخلافة الإسلامية بعد سقوط الدولة العثمانية. وقد استطاع المَلِك دون عناء كبير أن يُجَنِّدَ الأزهر لمطلبه، وبالتالى فإن العباءة الإسلامية جرى استعمالها سياسياً بأكثر من اللازم، وكان مطلوباً منها أن تكون غطاءً لأحلام مَلَكِيَّة لا أمَلَ لها فى الحالة الإسلامية وقتها، بل ولا أمَلَ لها فى عُصور جديدة لا يملك فيها رئيس دولة واحد أن يَضَعَ على رأسه عمامة الإسلام (والإسلام لا يعرف التيجان).

لكن عباءة الخلافة كان فى مقدورها أن تمتلئ برياح الأوهام. ومن ثم تظهر للناظرين إليها أوسع من حقيقتها !

وأما السبب الثانى فهو أن أحزاب الأقلية (الأحرار الدستوريين فى ذلك الوقت) وقد نَشَأَت بالخروج على «الوفد»، لم تَجِد لها فى الشعب المصرى نصيراً يعطيها شرعية تُغَطِّيها. وكذلك فإنها لم تلبث أن احتَمَت بالعرش تستعمله للوصول إلى الحكم أو يستعملها فى طموحات وأغراض المَلِك «فؤاد» فى الخلافة.

ومع أنه كان بين «الأحرار الدستوريين» من عارَضَ المَلِكَ «فؤاد» فى مطلب خلافة المُسْلِمين. فإن الحزب نفسه. وغيره من أحزاب الأقلية. لم تجد فى عدائها لـ «الوفد» دعوى تقدم بها نفسها إلى الشارع المصرى غير دعوى التواجد القبطى الظاهر فى قيادة «الوفد». وهكذا كانت أحزاب الأقلية التى أسَّسَت دعاواها على وَعد الديمقراطية هى التى قبعت فى الخندق المَلَكى يحميها من نتائج وعدها!

وكذلك لم يَعُد أمام أحزاب الأقلية التى تراجَعَت عن دعوى الديمقراطية. إلا أن تَتَسَتَّر فى تظاهرها بادعاء الغيرة على الإسلام مُسْتَغِلَّة ظهور الأقباط فى «الوفد»، ومُرَكِّزَة على هذا الظهور، وكانت تلك مأساة كبرى لأن بعضاً من أكثر العناصر فى مصر استنارة لم تجد سبيلاً إلى مقاومة «الوفد» غير «تحريض إسلامى يَسْتَثير الشكوك». ضدَّ مسيحية قبطية «وَجَدَت المكان الأكثر ملاءمةً لها فى حزب الأغلبية» !

وعندما بدأ تراجع «الوفد» حتى فى حياة «سعد زغلول» (باشا) بعد قبوله بالإنذار البريطانى الذى تلقته مصر فى أعقاب اغتيال السير «لى ستاك» سردار الجيش المصرى وقائد القوات فى السودان. فإن ذلك القبول بالإنذار أحدث آثاره رغم أن «سعد زغلول» تَرَكَ مطالب هذا الإنذار يُنَفِّذها غيره. وإن برضاه وتحت حمايته.

وفى هذه اللحظة كان يمكن أن يكون ضَعفُ «الوفد» (وتهالك خصومه رغم استنارة بعضهم). حَدَثاً يُؤَثِّر على الوعاء الأكبر للوطَنِيَّة المصرية الجامعة لولا بروز شخصية «مكرم عبيد» بدوره الكبير فى «الوفد» وفى الحياة السياسية المصرية بعموم.



كان وجود «مكرم عبيد» على قمة «الوفد» - فى حَد ذاته - يغنى عن اجتهادات كثيرة تثير بالطبيعة أسبابا للاختلاف. وكان الأمل أن يظل الرمز قائما بدوره ريثما تتمكن المفاهيم والمعانى من مد وتَعميق جذورها





....

....

والحقيقة أن «مكرم عبيد» أخَذَ أقلَّ مما يستحق فى الاعتراف بدَوْره فى تمتين رابطة الوطنية المصرية (وفى صميمها فكرة «المُواطَنة») من حيث إنه المسيحى القبطى المتمثل لروح الحضارة العربية (وهى إسلامية). الذى استطاع لسنوات طويلة من أواخر العشرينات وطوال الثلاثينات وحتى بداية الأربعينات أن يجعل من نفسه ومن دَوْره رَمزاً بالغ الأهمية فى الحياة السياسية المصرية.

كان «مصطفى النحاس» هو زعيم «الوفد»، لكن قيادة «الوفد» الفعلية كانت لـ«مكرم عبيد»، وفى حين أن «مصطفى النحاس» كان يُلَقَّب فى قاموس «الوفد» بـ«الزعيم الجليل»، فإن «مكرم عبيد» كان يُلَقَّب بـ«المُجاهد الكبير»، وكان الرجل يستحق هذا الوصف من ناحية فكرية بَحتَة، حتى قبل الناحية السياسية الأوسع، وكان ذلك حتى بلا وعى تجسيداً حَيّاً لتجاوُر دينين على أرض وَطَنٍ واحد فى ظروف لم يَتَرسَّخ فيها بعد مفهوم الوطنية، ولم يتأكد فيها بعد معنى المُواطَنة.

كان وجود «مكرم عبيد» على قمَّة «الوفد». فى حَدِّ ذاته. يغنى عن اجتهادات كثيرة تثير بالطبيعة أسباباً للاختلاف.

وكان الأَمَل أن يَظَلَّ الرمز قائماً بدَوْره ريثما تَتَمكَّن المفاهيم والمعانى من مَدِّ وتَعميق جذورها.

لكن أحوال السياسة، وأهواء البَشَر، وضغوط ظروف دولية طاغية. تكاتَفَت كلها لمحاصرة الحلم الوطنى المصرى، ولم يكن هذا الحلم. لسوء الحظ. قادراً على مواجهتها.

وكان «مكرم عبيد» رمزاً ودَوْراً ضمن قائمة الضحايا فى أزمة الحلم الوَطَنى المصرى.



كان «مكرم عبيد». وهو الشخصية النافذة فى «الوفد». قد بدأ يحس بما طَرَأ على الحزب بعد زواج زعيمه «مصطفى النحاس» وهو فى الخامسة والخمسين من عمره بفتاة شابة جميلة فى العشرين من عمرها عند إتمام الزواج، وفى أبسط الأحوال وأهْوَنها فإن «مكرم عبيد» (مع أنه أكثر الساعين فى زواج «النحاس» (باشا) وفى اختياره لشريكة لحياته). بدأ يحس أن هناك تأثيراً منافساً له على وقت «الزعيم» واهتماماته، وكذلك فكره ! ومع تزايُد «سلطان البيت» فإن «سلطان الحزب» راح يتناقص، و«مكرم عبيد» بواقع الحال أول من يحس بالتغيير.

وفى ظروف الحرب العالمية الثانية (التى بدأت سنة ١٩٣٩) فإن الأحوال الاجتماعية فى مصر شهدت دخول عناصر كثيرة وافدة بوسائلها على ساحة التأثير والنفوذ، والسياسة كذلك.

وعندما عادَ «الوفد» إلى الحكم فى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ فقد كانت عودته مأساوية، ذلك أن «الوفد» عاد نتيجة لتَدخُّل السفير البريطانى بحصار قصر «عابدين» واقتحامه، بفصيل دبابات، وإبلاغ المَلِك «فاروق» أنه «إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة مساءً بأن النحاس باشا قد دُعِىَ لتشكيل الوزارة فإن المَلِك فاروق يَتَحمَّل تبعة ما يَحدث». وكان على المَلِك «فاروق» أن يُوَقِّع بقبول الإنذار أو يتنازل عن العرش، وقد وَضَعَ المَلِك توقيعه على الإنذار بيد مُرتَعِشة، ثم جاء «الوفد». وهو من الناحية الفعلية مُمَثِّل الأغلبية الشرعية إلى الحكم. ولكن بقُوَّة الدبَّابات البريطانية، وكانت تلك هى المأساة.

ولم يكن «مكرم عبيد» سعيداً بما جرى على النحو الذى جرى به. كما لم يكن سعيداً بما طَرَأ على محيط «النحاس» (باشا) سواء بظروف زواجه مع تفاوت الأعمار، أو بالعناصر الاجتماعية المُستَجِدَّة مع أجواء الحرب على الحياة الخاصة لزعيم «الوفد».

وكان المَلِك «فاروق» الذى قَبِلَ الإنذار البريطانى مُرغَماً يشعر بالمهانة، ولم يكن له عزاء إلا ثقته فى أن رئيس ديوانه «أحمد محمد حسنين» (باشا) يُرتِّب له خُطَّة تُعيدُ إليه حَقَّه وتُمكِّنه من خصومه. وكان أسوأ هؤلاء الخصوم فى نَظَره «مصطفى النحاس» الذى لم يكتَفِ بعَداء قديم مع القصر من عَهْد والده وعَهْده (وكان «النحاس» فيه على حَقّ). وإنما أضيف إلى ذلك قبول «النحاس» بتأليف الوزارة من يَد (ماسورة) مَدفَع على ظهر دَبَّابة بريطانية تَحَدِّياً للمَلِك ومُشارَكَة فى تَحقيره أمام شعبه وجيشه، وإذلاله حتى أمام نفسه وداخل قصره !

وبالفعل فإن «أحمد محمد حسنين» (باشا) وَضَعَ خُطَّة انتقام للمَلِك قَلَّدَ فيها عصور الكرادلة (من «ريشليو» إلى «ماتزينى») وكلهم وقفوا وراء ملوك فى الصبا، وقاموا بالوصاية عليهم، وعشقوا أمهاتهم(!)، وحاكوا الدسائس والمُؤامرات فى تصفية خُصوم العرش (أو خُصوم الكرادلة بمعنى أصح !).

وكانت خُطَّة الكردينال «أحمد محمد حسنين» انتقاماً لكرامة المَلِك الصَبِى (الذى قام بنَوْعٍ من الوصاية عليه تحت وصف أنه رائده، وتَزَوَّجَ أُمَّه سراً كما فَعَل الكردينال «ماتزينى» مع «كاترين دى مديتشى» والدة مَلِك فرنسا القاصر «لويس» الثالث عشر). خطة طويلة ومعقدة والبنود الرئيسية فيها كما يلى:

١. العَمَل على إنهاء خدمة اللورد «كيلرن» السفير البريطانى (الذى قَدَّم الإنذار) فى مصر كى لا يَظَلَّ وجوده فيها تَذكرة للمَلِك بلَحظة هَوانه وهو يريد أن ينساها !

٢. القصاص. !. من «مصطفى النحاس» الذى فُرِضَ عليه قهراً، والأفضل أن يكون القصاص تصفية جَسَدية لرئيس «الوفد» ورَمياً بالرصاص (وبالفعل جرَت أكثر من محاولة لاغتيال «النحاس» (باشا) قام بها ضباط من تنظيم الحَرَس الحديدى الذى أنشأه المَلِك أداة لإرهاب خصومه !).

٣. إنزال العقاب بكل من ساعَدَ فى توثيق العلاقات بين السفارة البريطانية وزعيم «الوفد»، وأول هؤلاء «أمين عثمان» (وبالفعل فقد تم اغتيال «أمين عثمان» بتوجيه ورعاية من القصر، وبأسلحة ضباط الحَرَس الحديدى).

٤. وهذا هو البَندُ الأهَمّ. كسر «الوفد» كحزب والتركيز بالتحديد على «مكرم عبيد» سكرتيره العام باستغلال ما طرأ على مشاعره الداخلية فى السنوات الأخيرة، سواء من إحساسه بِبُعد «مصطفى النحاس» عنه وعن الحزب. أو من ضيقه بمأزق عَوْدَة «الوفد» إلى الحكم نتيجة إنذار بريطانى.



وكان نجاح الكردينال «أحمد محمد حسنين» فى بَنْد كَسْر «الوفد» بالتركيز على سكرتيره العام كبيراً، فقد كان «مكرم عبيد» حتى من قبل فبراير سنة ١٩٤٢ مُتأزِّماً، ثم زادته الظروف التى رافقت عودة الحزب إلى الحكم تأزُّماً، لأن تكالُب العائدين إلى السُلطة بدا له مزعجاً وخصوصاً أن هذا التكالُب كان يَجِد له سنداً داخل دوائر مُؤَثِّرة فى الحزب أو عليه. بل إن هذا التكالب وَجَدَ منطقاً يغطيه بادِّعاء أن البُعدَ عن السُلطة سنوات جَعَلَ الحلوق شديدة الجفاف بقسوة الظمأ !

كان حلم كسر «الوفد» مشروعاً سياسياً دائماً للقصر. وقد تَصَوَّر السلطان «فؤاد» عندما انشَقَّ الأحرار الدستوريون أن خروجهم بالجملة من الحزب. وأقطابهم صفوة أساطينه. أنها نهاية «الوفد»، ثم تَبَيَّن أن الرمز السياسى فى مصر كان. وسوف يَظَل. مَعبوداً لا يُطال إلى درجة أن مُدُن مصر وقراها سمعت ورَدَّدَت نداءً يقول إن «الاحتلال على يَد سعد ولا الاستقلال على يَد عدلى» (يَكَن)، ثم شعاراً ثانياً يقول «إنه لو رَشَّحَ الوفد حَجَراً لانتَخَبناه». أى أنه «سعد زغلول» بذاته وصفاته وليس غيره مهما كان من مَزاياه، ثم تَبَيَّن أيضاً أن «سعد زغلول» قادرٌ بشعاراته على سحق منافسيه حتى بالتخوين، وكذلك تَرَدَّدَت أحكام قاسية بالإعدام السياسى من نوع وصف مفاوضات غير «الوفد» مع الإنجليز بأنها «جورج الخامس يُفاوض جورج الخامس» (مَلِك إنجلترا)، ثم إن كل هؤلاء الذين انشقوا عن «الوفد» هم: «برادع الإنجليز». وقد تمكنت هذه الشعارات فى الحياة السياسية المصرية، وأدَّت إلى عملية استقطاب حاد كان «الوفد» خلالها فى الموقع الأعلى، وكان خصومه فى الموقف الأدنى.

وتَكَرَّرت عملية الانشقاق على «الوفد»، والقصر يراهن كل مرة ويخسر الرهان، بما فى ذلك الرهان المُهِم على «محمود فهمى النقراشى» (باشا) و«أحمد ماهر» (باشا)، وقد بدا ذلك انشقاقاً حاسماً، أصحابه هُم وقتها أغلبية النخبة فى صفوف القيادة الوفدية العليا، ثم إن «النقراشى» و«ماهر» كانا الأقرب إلى «بيت الأمة» والأحب إلى السيدة «صفية زغلول»، وقد اختارا لحزبهما الجديد الذى قام بالانشقاق اسم «السعديين»، ولم يكن هناك فى رأيهما دليلٌ على العودة إلى شرعية الأصول أكثر من استعادة اسم «الزعيم خالد الذكر» عنواناً لحزبهما الجديد.



وعندما راهَن «أحمد حسنين» (باشا) ضمن سياسة الانتقام للمَلِك «فاروق» من خصومه واستقرَّ رهانه على كسر «الوفد» بانتزاع «مكرم عبيد» نفسه من صفوفه. فإن الرهان بدا جدياً وشبه موثوق بنتائجه لأسباب موضوعية ولأسباب ذاتية.

ومن الناحية الموضوعية فإن «الوفد» سنة ١٩٤٢ لم يَعُد ذلك «الوفد» الذى ملأ الساحة المصرية فى بداية العشرينات من القرن، فالحزب لم يستطع أن يقدم شيئاً فى قضية



كانت مشاعر «مكرم عبيد» تتسرب حتى وإن لم يقصد، وتسحب ذيولها على الحياة القبطية فى مصر. وكان هناك جيل جديد من المهتمين بالسياسة، وقد بدا لهم عندما اقتربوا من الساحة أن تجربة «مكرم عبيد» فصلٌ مُحيِّرٌ، دافعٌ ورادعٌ فى نفس الوقت!



الاستقلال سوى أنه رَفَعَ عَلَمها ورَدَّد شعارها، وكان هو الذى عاد بعد وصف دستور سنة ١٩٢٣ بأنه دستور الأشقياء إلى اعتبار هذا الدستور نصاً مقدساً، وكان هو حتى فى حياة «سعد زغلول» الذى قبل بالإنذار البريطانى بإخلاء السودان، وأخيراً وبعد عناء طويل فإن «مصطفى النحاس» خليفة «سعد» كان هو الذى وَضَعَ توقيعه على معاهدة سنة ١٩٣٦، وهى وثيقة لا تختلف كثيراً عما تَوَصَّل إليه غير الوفديين فى مفاوضاتهم مع الإنجليز.

ثم جاءت الورطة الكبرى بحادث ٤ فبراير ١٩٤٢، ومع أن «النحاس» من الناحية النظرية كان زعيماً لحزب يمثل الأغلبية لا زال، وهو مقصى عن الحكم بتَعَسُّف مَلَكى. إلا أن ملابسات عودته إلى حقه الدستورى كانت «عورة» لا سبيل إلى تغطيتها، وقد بَدَت العورة فاضحة عندما حَمَلَ السفير البريطانى على أعناق الوفديين حين ذَهَبَ إلى مَقَرّ مجلس الوزراء غداة تشكيل الوزارة ليهنئ رئيسها «مصطفى النحاس». وكانت صورة اللورد «كيلرن» محمولاً على الأعناق وصوت متظاهرين يهتفون له. إشهاراً للفضيحة أكثر من تغطية عليها!

وإذن. هكذا جَرَت حسابات «أحمد حسنين» (باشا). فإن «الوفد» سنة ١٩٤٢ ليس هو «الوفد» سنة ١٩٢٠ وبعدها.

وأما الأسباب الذاتية التى تخص «مكرم عبيد» شخصياً، فأولها أن «المجاهد الكبير» عيارٌ آخر غير عيار كل من سبقوه إلى الخروج من «الوفد».

فهو بذاته. روح «الوفد السياسى»، ومدير شئونه الذكى، وصوته البليغ الناطق باستيعاب كامل للحضارة المصرية والعربية (ومحتواها الإسلامى)، وهو مُحَرِّك تَواجُد «الوفد» وسط مواقع التأثير فى الحياة العامة وأهمها تلك الأيام حركة النقابات المهنية، ثم هو المثقف الواعى اجتماعياً والذى استطاع أن يقول للكل فى آخر ميزانية قدمها: «إننا حررنا المواطن المصرى من استغلال الأجنبى، وآن أن نحرر المواطن المصرى من الاستغلال المصرى».

وأخيراً وأَهَم. فى نظر «أحمد حسنين» (باشا) (وتلك من خطاياه غفر الله له) تقديره أن خروج «مكرم عبيد» سوف يضع الأقباط جميعاً أمام اختيار صعب، فمكان «مكرم عبيد» حيوى فى «الوفد»، ودوره الواسع مظلة فوق كثيرين، ووجوده فى حَدّ ذاته ضمانة وعلامة على أن «الوفد» هو الباب المفتوح بوعى. لواحدة من الحقائق التاريخية الكبرى فى مصر (شعبٌ واحد ودينان).



وتَرَدَّد «مكرم عبيد» فى الشهور الأولى من سنة ١٩٤٢، ثم غلبته هواجسه. وكان الرجل. شأنه شأن كثير من المُثَقَّفين. شخصية بالغة الحساسية، شديدة التَوَتُّر، سريعة التأثر ليس فقط بالوقائع ولكن حتى بالإشارات والتلميحات.

وكذلك استطاع «أحمد حسنين» أن يحقق هدفه.

خرج «مكرم عبيد» من «الوفد». وخرج ومعه جمع كبير من أقطاب الحزب. ولم يكن فى مقدور أحد أن يتجاهل حقيقة أن الخارجين بينهم عَدَدٌ مَلحوظٌ من كبار الأقباط.

ولم يخرج «مكرم عبيد» ساكتاً رغم قسوة الأحكام العرفية فى زمن الحرب، وإنما خرج ومعه سجلٌ حافلٌ بما اعترض عليه من تصرفات زعامة «الوفد» ومحيطها. أسماه «الكتاب الأسود. للعهد الأسود».

ومن المفارقات أن فصول الكتاب كانت تُسَلَّم فصلاً بعد فصل إلى مندوبٍ يمثل القصر، يحملها كى تُحفَظ فى خزينة «رئيس ديوان جلالة المَلِك» حتى يجيء أوان الطبع والتوزيع!

وكانت تلك فترة الحيرة الكبرى لأقباط مصر منذ بدأ انخراطهم فى الحياة السياسية المصرية الحديثة بعد تشكيل «الوفد».

والمزعج أن «أحمد حسنين» (باشا) لم يكن غافلاً عما يفعل، فقد كان وهو يشق «الوفد». يُغامر أيضاً فى مجال العلاقة بين المسلمين والمسيحيين.

وفى تلك الأوقات وطبقا لشهادة «حسن يوسف» (باشا) وكيل الديوان المَلَكى، فإن حسابات رئيس الديوان «أحمد حسنين» (باشا) فى هذه النقطة الحساسة جرت فى السياق التالى:

. إن خروج «مكرم» من «الوفد» سوف يؤدى إلى «كسر» تمثيله الشامل للأمة، وسوف يصل الأقباط فيه يوماً بعد يوم إلى الشعور بأنه لم يَعُد لهم مكان فيه.

. وسوف يتأكد ذلك الشعور عندما يخرج أكبر عَدَد من قادة الأقباط من حزب «الوفد» لينضموا إلى «مكرم»، وهذا سوف يجعلهم. ويجعل مؤيديهم. فى موقف معارضة لـ «الوفد».

. إن القصر المَلَكى أخطأ ذات مرة فى العشرينات أيام المَلِك «فؤاد» حين تصور إمكانية حصوله على خلافة المسلمين، ومن ثم أبعد عنه الأقباط، وقد حان الوقت الآن كى يقوم «فاروق» بتصحيح خطأ «فؤاد» ويقرب الأقباط منه.

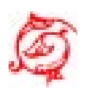
. إن القصر سوف يكون فى مقدوره أن يرضى الأقباط، وإذا لم يستطع أن يضمن لهم فى المجال السياسى وظروفه أوضاعاً مناسبة، فإنه يستطيع تعويضهم عن ذلك بدفعهم أكثر فى المجال المالى، وكان هذا قطاعاً يستطيع القصر أن يصل إليه بحكم أن الوزارات تتغير وأما القصر فهو هناك طول الوقت، وذلك ما يريده المال: نصيراً موجوداً فى كل وقت.

(والغريب أن تلك كانت إحدى المعالم الرئيسية فى سياسة «اللورد «كرومر» غداة الاحتلال البريطانى لمصر، فقد كتب ينتقد الأقباط لعدم مجاراتهم للإمبراطورية البريطانية وهى مسيحية مثلهم، وكان رأى «كرومر» ترتيباً على ذلك أن الأقباط لا يرجى لهم دور سياسى مُؤَثِّر فى مصر، والحل أنه يمكن تعويض ضعفهم السياسى بقوة مالية تؤدى إلى توازن يعطيهم نوعاً من التأثير السياسى حتى وإن كان صامتاً).

وفى النهاية فإن «مكرم عبيد» انشق عن «الوفد»، وكان «النحاس» (باشا) بوصفه الحاكم العسكرى فى البلاد وقتها هو الذى أمَرَ باعتقاله بعد شهور من انشقاقه.

وكان ذلك بالفعل، وكما قَدَّرَ «أحمد حسنين»، أهم خروج من «الوفد»، فلم يكن الأمر مجرد شخص «مكرم عبيد»، وإنما كان هناك. أيضا. ما أصاب الرمز الذى ظَلَّ «مكرم عبيد» يمثله فى الحياة السياسية المصرية من العشرينات إلى الأربعينات.

والذى حَدَثَ أن «مكرم عبيد» أنشأ فيما بعد حزباً أسماه حزب «الكتلة» (وكان المعنى الذى قصده واضحاً)، وكان المفروض أن يكون «الكتلة» بديل «الوفد». لكن ذلك لم يحدث، فلا الكتلة حلت محل «الوفد»، ولا «الوفد» احتفظ بـ «كتلة» ما كان يمثله. والحقيقة أن «الوفد» بعد ذلك الانشقاق الكبير وملابساته لم يُصبح بعدها نفس «الوفد» الذى كان قبلها.



والحاصل أن «مكرم عبيد» أصيب بعد انشقاقه واعتقاله، وحتى بعد تحرره من الاعتقال عندما أقيلت وزارة «الوفد» يوم ٨ أكتوبر ١٩٤٤. بنوع من الإحباط الشديد ظلت وطأته تزداد ثقلاً عليه حتى أصيب باكتئاب حاصره ثم عَصَرَه عَصراً!

والذى حدث أن «مكرم عبيد» خرج من الاعتقال يوم ٩ أكتوبر ١٩٤٤ ليجد مندوباً عن القصر يبلغه أنه أصبح وزيراً للمالية فى وزارة «أحمد ماهر» الذى عهد إليه المَلِك بتشكيل الوزارة بعد إقالة «النحاس». وربما أن «مكرم عبيد» راوده الإحساس بأنه أكبر من «أحمد ماهر» (سياسياً) وأجدر منه (نضالياً) فى إسقاط حكومة «الوفد» بحكم تأثير «الكتاب الأسود» ولعله تصور نفسه أحق برئاسة الوزارة، ومع ذلك فإن الرجل كَتَمَ مشاعره بظنٍ. أو وهم. أن الفرصة لم تضع بعد، وهكذا وقف على سلم وزارة المالية فى لاظوغلى وقد احتشد أمامه ألوف من الناس جاءوا إليه ولم يذهبوا إلى غيره من رجال العهد الجديد ليلقى فيهم خطابه الشهير الذى بدأه بقوله: «سبحانك اللهم جئت بى من باطن الأرض سجيناً ووضعتنى على خزائن الوَطَن أميناً».

ثم توالت شعاراته تُحَرِّك الناس وتهز وجدانهم من قوله «فلنجعل من ماضينا قاضينا»، و «انقضوا أو انفضوا»... إلى آخره.

ودَخَل «مكرم عبيد» بحزب «الكتلة» إلى انتخابات سنة ١٩٤٥، ومع أنه كان هناك اتفاق بين الأحزاب التى شاركت فيها على توزيع المقاعد النيابية درءاً لأسباب الفرقة بين أطراف التحالف المناهض لـ «الوفد». فإن «مكرم عبيد» ما لبث أن شعر أن حزبه



وبالفعل فإن «أحمد محمد حسنين» (باشا) وضع خطّة انتقام للمَلِك قلد فيها عصور الكرادلة وكلهم وقفوا وراء ملوك فى الصبا، وقاموا بالوصاية عليهم، وعشقوا أمهاتهم(!)، وحاكوا الدسائس والمُؤامرات فى تصفية الخُصوم





يَتَعَرَّض عَمْداً للتحجيم وأحياناً بوسائل «التزوير» ، ولم يتحمل «مكرم عبيد» أن يجد نفسه شريكاً صغيراً فى ائتلاف يعلم هو أكثر من غيره أنه «مصنوع» ، ثم إن كل ما يسنده هو رغبة القصر.

وفى هذه الفترة قام «مكرم عبيد» بدور نشيط فى السياسة العربية، وفى حين أن غيره من الساسة الأقباط ساورتهم شكوك . خفيفة أو ثقيلة . فى مسألة انتماء مصر العربى، فإن «مكرم عبيد» كان يملك من سعة الرؤية وبُعد النظر ما جعله يدرك الضرورة القومية حين طرحت نفسها . حتى عندما وَقَّعَ «مصطفى النحاس» (باشا) ميثاق إنشاء الجامعة العربية وكان «مكرم عبيد» فى المعتقل.

ثم شارك «مكرم عبيد» فى لقاءات ومؤتمرات، وكان هو . قبل فلاسفة حزب «البعث» (فى الشام) من رأى مُبَكِّراً أن الإسلام ليس ديناً فقط وإنما هو مُحيطٌ حضاريٌ التقت فيه ثقافات الأمم التى اختارت الإسلام، وقد جاءت كل منها بمواريثها إلى ساحته وصَبَّت فيها خلاصة ما عندها، وتفاعل الجزء مع الكل، وكان أن الأمة العربية . بمسلميها ومسيحييها . خلقت محيطاً حضارياً عاماً جوهره الإسلام وامتزاج ثقافات شعوبه، ثم إن هويته النهائية هى العروبة. وفى حين أن كثيرين من الأقباط . حتى بين مفكريهم . خلطوا بين القومية العربية وبين الدين فإن «مكرم عبيد» ظَلَّ يرى التخوم ظاهرة والملامح واضحة.

....

....

وبرغم ذلك فإن «مكرم عبيد» بدأ يرى مع تصرفات كل يوم أن شركاءه فى الائتلاف يحاولون تهميشه، وذهب شاكياً إلى القصر مرة بعد مرة، لكن القصر . خصوصاً بعد مصرع «أحمد حسنين» فى حادث سيارة أمام لورى إنجليزى عند كوبرى قصر النيل . كان قد نسى منطق اللعبة مع «مكرم عبيد» . والواقع أنه لم يَعُد هناك فى البلاط المَلَكى من يستطيع ادعاء أنه كان فى هذه اللعبة فى البداية لكى يتحمل مسئوليتها ويدفع حركتها فى النهاية !



وهكذا فإن القصر بدأ يهمل شكاوى «مكرم عبيد» ، ثم راح يضيق بها، ثم راح رجاله يتهربون بالذرائع التقليدية التى تَتَرَدَّد باستمرار فى بلاطات الشرق !

وضاعف من إحساس «مكرم عبيد» بالمرارة أن «أحمد ماهر» (باشا) الذى قبل هو على مَضَض أن يعمل تحت رئاسته . جرى اغتياله فى البرلمان ثم خلفه «النقراشى» (باشا) رئيساً للوزراء، وفى حين أن «أحمد ماهر» كان سياسياً مَرِناً فإن خَلَفَه كان مشهوراً بشدة العناد، ولم يكن «مكرم» . من أيام مَجده فى «الوفد» . مُعجَباً بـ «النقراشى» ، وقد تمزقت نفسه حسرات عندما وَجَدَ نفسه مُخَيَّراً بين العمل تحت رئاسته أو الخروج من الحكم.

ويبدو أن «مكرم عبيد» راوده فى ذلك الوقت وَهْم إمكانية العودة إلى حزبه القديم، ولو حتى من باب النكاية فى هؤلاء الذين استدرجوه ثم تَركوه فى التِّيه بعيداً عن العُمران. وقد أيقظ هذا الوَهْم فى خواطره أن «صبرى أبو علم» (باشا) سكرتير «الوفد» الذى خلف «مكرم عبيد» فى موقعه القديم توفى فجأة سنة ١٩٤٧ . وتَرَدَّدَت شائعات . لم تكن بلا أساس . عن عودة «مكرم» إلى «الوفد» ، ولكن «النحاس» (باشا) قطع دابر كل إمكانية لهذه العودة بنفى صريح.

ويروى تقرير للسفير البريطانى السير «رونالد كامبل» إلى وزير الخارجية البريطانية (ضمن محفوظات وزارة الخارجية لتلك السنة ١٩٤٧) أن مصدراً موثوقاً به أبلغ السفير أنه حضر مجلساً مع «النحاس» (باشا) قيل فيه لزعيم «الوفد» إن «مكرم عبيد» يذرف الدموع نَدَماً على ما كان وتَحَرُّقاً للعودة إلى مكانه القديم. وطبقاً لتقرير السفير فإن «النحاس» (باشا) قفز من مقعده وقال : «التماسيح التماسيح crocodile crocodile» . يريد أن يقول إن دموع «مكرم عبيد» دموع تماسيح.

وفى الوقت الذى أصبح فيه «مكرم عبيد» نهباً لليأس من دورٍ مؤثرٍ يستحقه بقدرته وتجربته وتاريخه . فإن الأحوال القبطية عاوَدَتها الوساوس، وزاد منها ذلك البروز المُتَصاعد لحركة الإخوان المسلمين فى الحياة السياسية، وفى الشارع السياسى، وفى أوساط الشباب. وكان القصر الذى مال فى البداية إلى استعمال قوة الإخوان المسلمين ضد «الوفد» قد أفزعته نزعتهم إلى العنف، لكنه فى حالة تقربه من الإخوان المسلمين حاول أن يجعل المَلِك «فاروق» . بانتظامه فى صلاة الجمعة وفى يده مسبحة وعلى ملامح وجهه خشوع . إماماً فى عيونهم. وعندما لم تنفع مناورة الاحتواء وصل العداء الصريح خصوصاً بعد اغتيال «النقراشى» رئيس الوزراء واغتيال «حسن البنا» مرشد الإخوان انتقاماً له . إلى حَدِّ أن القصر حاول أن يجعل من المَلِك منافساً للإخوان يأخذ منهم الإمامة ما دام لم يستطع أن يكون هو بذاته إماماً لهم !

....

....

وفى الظروف التى أتيح لى فيها أن أتعرف على «مكرم عبيد» عن قرب، وكان ذلك فى أواخر الأربعينات، وفى أجواء انتخابات يناير ١٩٥٠ التى أشرفت عليها وزارة قصر رأسها «حسين سرى» (باشا)، فقد كان إهمال شأنه قد بلغ ذروته إلى درجة الإهانة. حتى أن حزب «الكتلة» تحت قيادته لم يحصل على مقعد واحد من مقاعد مجلس النواب !! . وكان الرجل ممروراً بقسوة، وضاعف من مرارته أن حزب «الوفد» عاد إلى الحكم، وأن ما كان يشكو بسببه من أوضاع أصبح قانون الحزب، وأصبح قانون الحكم.

وسمعت فى هذه الفترة «مكرم عبيد» بطريقة لا تخلو من مبالغة أوجدها فى نفسه . شعوراً طغى عليه بأنه استُعمِلَ فى لعبة قصور، ومع أنه لم يقل ذلك بوضوح فيما سمعت منه . فإن النبرة فى صوته كانت مزيجاً من الغضب الواصل إلى حَدِّ الكراهية مُوَزَّعة على أطراف بعرض الساحة السياسية المصرية.

وكانت مشاعر «مكرم عبيد» تتسرب حتى وإن لم يقصد، وتَسْحَب ذيولَها على الحياة القبطية فى مصر. وكان هناك جيل جديد من المهتمين بالسياسة، وقد بدا لهم عندما اقتربوا من الساحة أن تجربة «مكرم عبيد» فصلٌ مُحَيِّرٌ، دافعٌ ورادعٌ فى نفس الوقت! ■

٣ بعـــــد ثـــــورة ١٩٥٢

■■ وعندما وقعت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . كان الخط غير المرئى . مثل خطوط الطول والعرض . قد نزل على الأرض خيطاً أو شعرة، ثم تَحَوَّلَ إلى فاصل ظاهر، ثم إن هذا الفاصل تَحَوَّلَ إلى شَرخٍ يزداد عُمقاً باندفاع الحوادث.

كان ما تداعى وتوالى بعد الحرب العالمية الثانية قد طرح أسئلة ومشاكل وملابسات تثير القلق، ثم حدث أن جاءت الثورة بأسباب أخرى للقلق جعلت احتمال انفلاق الشرخ أكثر من احتمال التئامه كما يحدث للجروح فى الجسم الإنسانى، والأوطان فى الأصل والأساس مجتمعات إنسانية.

وكانت هناك بالتحديد ثلاثة أسباب جاءت مع الثورة أو توافقت مع قيامها :

أولها : أن مجلس قيادة الثورة لم يظهر فى قائمة أعضائه «قبطى »، ومع أن هناك فارقاً بين التنظيمات السياسية العلنية وبين تشكيلات العمل السياسى السرى. فإن ما آلت إليه الأحوال قبل الثورة جَعَلَ من عدم وجود ضابط قبطى فى مجلس القيادة الجديدة مسألة أكبر من حجمها.

وثانيها : أنه بدا فى أول الثورة وكأن نظامها الجديد وثيق الصلة بتنظيم الإخوان المسلمين، وبالفعل فإن الإخوان حاولوا إعطاء الانطباع بأن لهم فى الثورة أكبر مما هو بادٍ على السطح، وزَكّى ذلك واقع أن بعض أعضاء مجلس الثورة اقتربوا فى مرحلة من مراحل حياتهم من جماعة الإخوان المسلمين («كمال الدين حسين» و «أنور السادات» . بل و «جمال عبد الناصر» نفسه لعدة شهور).

وثالثها : أنه فى تلك اللحظة لم تكن الكنيسة القبطية فى أحسن أحوالها لأن بطركها الأنبا «يوساب» كان يواجه أزمة داخل كنيسته نشأت من صراع بين التقليد والتجديد، وكانت الكنيسة بواقع ما طرأ خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها . قد أصبحت . بأحكام الظروف . وحدها فى الحياة القبطية ودون قيادة سياسية بارزة يعترف بها الكل . المسلمون قبل الأقباط . كما كان فى زمن «مكرم عبيد» ، ولم تكن الكنيسة فى ذلك الوقت مُؤهلَة لهذا الدور. ومن سوء الحظ أن معظم العائلات القبطية الكبيرة قصرت نشاطها على المجال الاقتصادى والمالى مصداقاً لسياسة القصر (التى فلسف لها اللورد «كرومر») . وبالتالى فإن الدائرة القبطية(constituency) كانت خالية سياسياً، ليس لها نائب معتمد، أو مرشح مقبول!

....

....

ثم طرأت مضاعفات ألقت ظلالها على موقف كان معقداً وزاد تعقيداً، ففى ذلك الوقت ظهر



الحقيقة أن البابا «شنودة» كان أكثر الناس ملاءمة لمكانه وزمانه، ولعل دوره. على نحو ما. استعاد دور «مكرم عبيد» رغم اختلاف خلفيته وشخصيته وموقعه. كان «مكرم عبيد» قد وصل إلى روح الحضارة العربية (للعرب المسلمين والمسيحيين) عن طريق دراسة الدين وحفظ القرآن، وكان الراهب «شنودة» قد وصل إلى نفس النتيجة من باب الأدب



تنظيم سياسى قبطى باسم «جماعة الأمة القبطية»، وراح هذا التنظيم يضغط بمطالبه على الكنيسة كى تتخذ موقفاً باسم الأقباط «يستعيد لهم حقوقهم الضائعة»، ثم كان أن تمكن أفراد من هذا التنظيم سنة ١٩٥٤ من خطف البطرك القبطى الأنبا «يوساب» نفسه من قلب دار البطريركية ونقله إلى دير معزول فى الصحراء، وهناك جرى إرغامه على توقيع وثيقة بالتنازل عن الكرسى البابوى والموافقة على مطالب كثيرة، وفوق ذلك فقد حملت الوثيقة فى نهايتها تحذيراً للسلطات المصرية من أى تدخل فى الموضوع لأن ذلك «شأن داخلى» لا يخصها.

وانقسم الرأى العام القبطى فى الموضوع جانبين :

- جانب يرى. حتى وإن لم يدخل فى إطار تنظيم «جماعة الأمة القبطية». أن الأحوال القبطية كان يجب أن تحصل على عناية أكثر من الدولة حتى لا تصل الأمور إلى ما وَصَلَت إليه.

- وجانب يرى أن النظام الجديد وقف يتفرج على إهانة خطف البابا من مقره البطريركى، ولو شاء لتدخل ومنع، لكنه ترك قبطياً يضرب فى قبطى ووقف هو يتفرج.

ولم يكن ذلك هو الحال. لكن شكل الحوادث أوحى باستنتاجاته خصوصاً فى أجواء مثقلة بعوارض سبقتها.



ولقد حاول النظام الجديد (نظام ٢٣ يوليو) أن يواجه القضية، وفى البداية فإن تمثله لها لم يكن كاملا بقدر مُتَساوٍ مع أهميتها، ومن سوء الحظ أن المستشارين السياسيين الأول للنظام الجديد كانت لهم تصورات مسبقة (خصوصاً «عبد الرزاق السنهورى» (باشا) رئيس مجلس الدولة وقتها، و«سليمان حافظ» (بك) وكيله). وكان ظَنُّ الاثنين أنه فى أى ممارسة سياسية، وحتى بالديمقراطية المطلقة، فإنه لا أمل لأى «أقلية دينية» أن تشارك فى الحياة السياسية على مستوى يرضيها، والحل فى رأى الاثنين هو «التعويض الاقتصادى عن الغياب السياسى». والملاحظ أن رئيس الوزراء فى بداية الثورة («على ماهر» باشا) ساند هذا الرأى (والقول به. كما وَرَدَ من قبل. سابق: اعتمده من الأصل اللورد «كرومر» من دار المندوب السامى البريطانى فى بداية القرن العشرين. واعتمده «أحمد حسنين» باشا من القصر الملكى من بداية أربعينات القرن نفسه). والآن وفى بداية الخمسينات عاد ذلك الرأى يعرض نفسه فى عصرٍ مختلف.

وبشكل ما فإن «جمال عبد الناصر» كان يشعر. ولو على نحوٍ غير محدد. أن هناك وضعاً ما يقتضى حلاً ما، وكان إحساسه التلقائى أن الدائرة القبطية تحتاج إلى نائب جديد أو مرشح مقبول يُعَوِّض الدور الخلاق الذى قام به «مكرم عبيد» فى العشرينات والثلاثينات فى الحياة السياسية المصرية.

وكان أن وَقَعَ اختياره. وبترشيح من المهندس «أحمد عبده الشرباصى» الذى كان بخبرته العملية يعرف أسرار التركيبة العائلية المصرية خصوصاً فى الريف. على الدكتور «كمال رمزى استينو».

وبالفعل فإن «استينو» أقبل على دوره بإخلاص، لكن المشكلة أن الرجل قضى حياته كلها «تكنوقراطى» يحاذر كل ما هو سياسى، والآن وقد تجاوز به العمر سن الشباب فإن إعادة تأهيله سياسياً كانت صعبة. والحقيقة أن الرجل حاول وبصدق. لكن المشكلة أن الدائرة القبطية بعموم، والعائلات القبطية بخصوص. نظرت إلى «استينو» باعتباره مبعوث النظام الجديد إليها يسمع وينقل، يستجلى ويوضح، وذلك وضع آخر يختلف عن وضع «مكرم عبيد» الذى استطاع بفَهْمٍ عميقٍ لروح الحضارة العربية أن يبادر ويقول، وأن يؤثر ويحرك، وهو فى نفس الوقت قيادة سياسية وطنية جامعة.

وإنصافاً لـ «كمال رمزى استينو» فإنه وَجَدَ أن عدداً من العائلات القبطية الكبيرة. والتى قام نفوذها على مسافة قريبة من سياسات «كرومر» و«أحمد حسنين». قد تَفَرنَجَت بتراكم الثروة مع بروز أنماط جديدة من الحياة الاجتماعية فى النصف الأول من القرن العشرين. وفى حين أن رجلاً مثل «مكرم عبيد» كان يحفظ القرآن عن ظَهرِ قلب، فقد كان المشكوك فيه أن بعضاً من هذه العائلات القبطية الكبيرة تنطق فى حياتها كل يوم داخل بيوتها بجُملة واحدة سليمة من اللغة العربية.

وفى ظروف اشتداد الحرب الباردة فقد تأكد أن السياسة الأمريكية ابتداء من عصر الرئيس «أيزنهاور». راحت تعتمد سياسة خارجية يلعب الدين فيها دوراً بارزاً، وكان الظن أن الدين. قبل الجيوش، وقبل الأدب، وقبل الفن. هو القادر بالطبيعة على مواجهة الماركسية «المُلحِدة» فى الدول التى اعتمدتها (الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية كلها. ثم الصين ومحيطها فيما بعد).

وكان «جون فوستر دالاس» وزير خارجية «أيزنهاور» قد وضع سياستين متوازيتين اعتقد أنه لا تعارض بينهما، وآمن أن كل سياسة منهما قادرة فى مجالها:

السياسة الأولى هى إنشاء حلف إسلامى يضم كل الدول التى تعتنق الإسلام (وتحارب الالحاد) فى حلف عسكرى تقوده الولايات المتحدة.

وقد سمعت بنفسى فى واشنطن. أواخر سنة ١٩٥٢. شرحاً مُفَصَّلاً للفكرة قدمه لى الجنرال «أولمستيد» رئيس برامج المساعدات الخارجية فى وزارة الدفاع. البنتاجون، والخُلاصة فيه أن الولايات المتحدة ترى ثلاث دول محورية يلزم أن يرتكز عليها هذا الحلف لتكتمل له فاعليته :

. باكستان. وهى بالتعداد أكبر بُعد إسلامى (وقتها).

. تركيا. وهى بالسلاح أقوى بلد إسلامى (وقتها أيضاً).

. مصر. وهى بالأزهر أهم مرجعية إسلامية (وقتها كذلك).

ولعل اهتمام الجنرال «أولمستيد» وغيره بزيارتى إلى واشنطن تلك الأيام كان هدفه أن أنقل الفكرة إلى «جمال عبد الناصر» باقتناع يؤكد ما ينقله إليه سفراء الولايات المتحدة لديه. رسمياً عن فكرة الحلف واحتمالات تنفيذها (وكان «جمال عبد الناصر» طول الوقت يراقب بحرص، ويتابع بحَذَر !).

وكانت السياسة الثانية. وقد تبناها «جون فوستر دالاس» بنفسه وعمله وتواجده المباشر. هى إنشاء ما سمى باسم «مجلس الكنائس العالمى»، وكان الغرض من إنشائه جمع كل الكنائس من المذاهب المسيحية المختلفة فى تنظيم واحد ينهض هو الآخر بدوره فى وضع القِيَم المسيحية فى مواجهة الدعاوى الماركسية، وكان أكثر الخوف ذلك الوقت على جنوب أوروبا، خصوصاً فرنسا وإيطاليا واليونان، ففى هذه البلدان جميعاً بدا التحدى الشيوعى غالباً، وبدا أن الديمقراطية نفسها قد تصبح وسيلته إلى بلوغ السلطة، ولم يَعُد هناك خط دفاع قادر غير الدين. مع وجود خط دفاع خفى هو وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ونعرف الآن أنها «دفعت» و«زَوَّرت» و«قتلت» لكى تمنع اليسار من الوصول إلى مواضع القرار فى باريس وروما وأثينا (وغيرها).

....

....

وفى نفس الوقت الذى كانت فيه «العسكرية» الأمريكية تحاول إنشاء حلف إسلامى واسع من كراتشى إلى القاهرة إلى أنقرة. فإن «الدبلوماسية» الأمريكية وضعت ثقلها وراء مجلس الكنائس العالمى.

وبالفعل فإن مجلس الكنائس العالمى حاول أن يمد نشاطه إلى الكنيسة المصرية. وكان ذلك إحياء جديداً لجهود تبشيرية سبقت. لكن الكنيسة القبطية المصرية كانت واعية بتراثها، حريصة على استقلالها.

وبرغم محاولات لاستغلال تَوَجُّه مصر العربى فى منتصف الخمسينات، ثم قيام الوحدة المصرية السورية قرب نهايتها. وتأويل ذلك لدى البعض إسلامياً. فإن الكنيسة المصرية الوطنية حشدت قوتها وواجهت. (ولا يهم هنا أن نفراً من الأقباط حاولوا عَلَناً وسراً ومن مَقَرٍ جريدة طائفية. إيقاظ النعرة الفرعونية عن تصميم وعمد. ثم الترويج فى الداخل والخارج لاحتكار الفرعونية وحصرها فى الأقباط وحدهم، ثم جنوح البعض بعد ذلك إلى تصرفات وصِلات جانبها الصواب. وتَشَجَّعَت هذه التصرفات والصلات فى أعقاب الانفصال بين مصر وسوريا، وكان أن تَقَرَّر. تَزَيُّداً فى الحرص دون خطر حقيقى فيما أظن. وضع بعض المُتَوَرِّطين فيها تحت الحراسة، ومن سوء الحظ أن الإجراء طال غيرهم بالتبعية.

(وكان هناك بين الأقباط من انطبقت عليهم الإجراءات الاشتراكية بقواعدها. شأن غيرهم من المسلمين. وكان هناك من وَصَلَت إليهم الإجراءات باعتبارات الأمن. من منظور المُختَصّين به)).



فى نفس الوقت الذى كانت فيه «العسكرية» الأمريكية تحاول إنشاء حلف إسلامى واسع من كراتشى إلى القاهرة إلى أنقرة. فإن «الدبلوماسية» الأمريكية وضعت ثقلها وراء مجلس الكنائس العالمى



وفى كل الأحوال فإنه بعد مرحلة حافلة بالتطورات من السويس إلى دمشق، وجد «جمال عبد الناصر» أمامه بطركا قبطياً قادماً من عمق الريف المصرى مستوعباً بالحس لحقائق مصر الاجتماعية وضروراتها. وهكذا فإنه فى أول مرة التقاه بعد أن جرى انتخابه وترسيمه، اتفق معه على خط اتصال مباشر يعطى للبطرك. كما لشيخ الأزهر وقتها. أن يطرق باب رئيس الدولة فى أى وقت يشاء.

وكان «جمال عبد الناصر» قد أدرك بالتجربة العملية أن تجاور دينين (إلى جانب نهر واحد يعيش على ضفافه واعتماداً على مياهه أصحاب وطن واحد) هو مسئولية رئاسة الدولة، لأن ترك الأمر لجهاز الدولة العادى قد لا يكون كافياً فى ظروف غير عادية (ومن الملاحظ أن نفس الشىء حدث فى ذات الفترة بالنسبة لنهر النيل، فقد كان مشروع إنشاء السد العالى تحت الإشراف المباشر لرئاسة الدولة).

وكذلك قامت علاقة من نوع خاص بين «جمال عبد الناصر» وبين «كيرلس» السادس، وكانت علاقة مباشرة لا يدخلها وسطاء ولا تداخلها حساسيات.

وربما أن الأمر احتاج مرة واحدة إلى اقتراب غير مباشر بين الاثنين.

....

....

ففى ذات يوم من سنة ١٩٦٤ جاء لزيارتى فى «الأهرام» صديق كريم ينتمى إلى أسرة قبطية بارزة هو الأستاذ «أمين فخرى عبد النور» (ابن السياسى القبطى الكبير «فخرى عبد النور» الذى كان أول من ذهب إلى «سعد زغلول» عند تشكيل «الوفد» يطالب بحق الأقباط ودورهم فى العمل الوطنى من أجل الاستقلال).

وكان «أمين فخرى عبد النور» يسألنى «إذا كنت أقابل الأنبا صموئيل يحمل إلىّ رسالة من البطرك كيرلس»، وبالطبع رحَّبْت. وفى غد جاء الأنبا «صموئيل» ومعه «أمين فخرى عبد النور». وكانت رسالة «كيرلس» السادس سؤالاً رأى البطرك أن يوجهه إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» عن طريقى وليس مباشرة منه إليه. وذلك حتى لا يؤدى طرح السؤال مباشرة إلى إحراج للطرفين إذا كان للرئيس رأىٌ مخالفٌ.

كان مؤدى السؤال كما شرحه الأنبا «صموئيل» هو أن الكنيسة المصرية وهى مقبلة على الاحتفال بألفية ثانية بعيد ميلاد السيد المسيح تفكر فى المستقبل، ومع ظهور مجتمعات قبطية جديدة خارج مصر، فإن البطرك يحلم بإنشاء كاتدرائية تكون فى مقام الكرازة المرقسية. بين كنائس العالم الكبرى.

والمطلب الذى يريده البطرك من الرئيس هو:

. السماح ببناء كاتدرائية (فهذه مسألة أضخم من بناء كنيسة عادية). والتصريح من المستوى الأعلى مطلوب هنا بصفة خاصة (مع العلم أنه بالنسبة لبناء الكنائس العادية فإن «جمال عبد الناصر» كان قد أعفى البطريركية من تصريح وزارة الداخلية وذلك فى حدود بناء ٢٥ كنيسة كل سنة، والبطرك هو الذى يملك سلطة التصريح بها، وتَقبل منه وزارة الداخلية بغير أن تتعلل بأحكام الخط الهمايونى الشهير!)

. بعد ذلك فإن البطرك عنده مشكلة أخرى هى مشكلة التمويل، فبناء الكاتدرائية سوف يحتاج إلى مبالغ كبيرة، والكنيسة تواجه أزمة بين أسبابها أن بعضاً من أغنياء الأقباط المستعدين للتبرع أصابتهم القرارات الاشتراكية (سنة ١٩٦١)، ومن ثم فقد أصبح عذرهم أمام البطرك ظاهراً. ومن ناحية ثانية فإن أوقاف الكنيسة سَرى عليها ما سَرى على الأوقاف كلها، ولم يعد هناك من ريعها ما يغطى ولو جزءا من تكاليف بناء الكاتدرائية.

. وأخيراً فإن البطرك لا يرى بُداً من طلب مساعدة الدولة، لكنه فى نفس الوقت يدرك أن مساهمتها مباشرة فى بناء كاتدرائية مسيحية مسألةٌ دقيقة!

وخلاصة الرسالة فى النهاية أن البطرك حائر: يريد أن يكلم الرئيس فى ذلك كله. لكنه فى نفس الوقت لا يريد إحراجه. لا أمام المسلمين ولا أمام الأقباط.

....

....

ونَقَلْتُ رسالة البطرك إلى الرئيس، وسألنى «جمال عبد الناصر»: «ما هى الحدود المالية لطلب البطرك؟». ولم أعرف جواباً، لأن الأنبا «صموئيل» كان مُكَلَّفاً بالسؤال ولم يكن مُكَلَّفاً بما بعده.

وبعد أيام قليلة ذهبت مع الأنبا «صموئيل» إلى لقاء مع البطرك «كيرلس» السادس فى مَقَرِّه.

وكان البطرك محرجاً فى تحديد ما يطلبه، وتشاور مع الأنبا «صموئيل» أمامى بالظنون عن التكلفة، وكان رده أنها «ما بين مليون ونصف إلى مليونين من الجنيهات»، وأكثر من ذلك فإن البطرك أمر سكرتيره فجاءه بمجموعة من الرسوم الهندسية لمشروع الكاتدرائية، وكان «كيرلس» السادس من تشوقه إلى بناء كاتدرائية قد كلف بتصميمها. فعلا. عدداً من أكبر المهندسين الأقباط فى مصر.

....

....

وحين حملت اقتراح البطرك وما ألحقه من تصميمات. إلى «جمال عبد الناصر» فى بيته مساء نفس اليوم، كان قد توصل إلى حَلٍ عملى.

كان تقديره أنه قد يكون من الصعب أن يقرر مجلس الوزراء إنشاء كاتدرائية قبطية من ميزانية الدولة، فهذه سابقة قد تجر وراءها بالنسبة للمسلمين والأقباط ما لا داعى له من التباس. لكنه نظراً للضرورات. وهى تتعلق بروابط المجتمع الوطنى. فإن إنشاء الكاتدرائية بمؤازرة الدولة مطلوب.

وكان الحل أن «جمال عبد الناصر» دعا رئيس مؤسسة البناء والتشييد (وهو يومئذ المهندس «على السيد») وطلب إليه. وعَزَّز طلبه بتوجيه رئاسى مكتوب. أن تتولى شركات المقاولات التابعة لمؤسسته، كل فى اختصاصها الفنى، بناء وتجهيز الكاتدرائية، ثم أن تضيف التكاليف إلى حساب عمليات أخرى يقوم بها القطاع العام. وقد كان.

وحضر «جمال عبد الناصر» احتفال بناء الكاتدرائية، ولم أستطع حضور الاحتفال لداعى سفر مفاجئ، وكان أن بعث البطرك باثنين من كبار أساقفة الكنيسة أحدهما الأنبا «صموئيل» والثانى الأنبا «تاوفيلس» لإقامة قداس بركات فى بيتى ولأولادى، ومع القداس صفحة من كتاب كنسى عتيق، وقطعة نسيج قبطى قديم، كلاهما داخل حافظ من زجاج. وقال لى البطرك فيما بعد إن «الصلاة مهما اختلفت الطقوس دعاء لرب واحد ساكن فى قلوب كل المؤمنين».

وربما أن الحقائق كانت تَتَطَلَّب ما هو أبقى وأعمق من علاقة وثيقة بين بطرك ورئيس. لكنه لسوء الحظ أن معارك ٢٣ يوليو المستمرة جعلتها تترك وراءها فراغات مفتوحة! ■

٤ السـادات وشـنودة

■■ فى بداية رئاسته ترك الرئيس «السادات» قضية «تجاور دينين فى وطن واحد» لجهاز الدولة العادى، وبالذات وزارة الداخلية، وقد شغلها السيد «ممدوح سالم» ابتداءً من مايو سنة ١٩٧١ وظَلَّ فيها حتى عهد بها إلى أحد مساعديه عندما كُلِّفَ هو بتشكيل الوزارة فى مايو سنة ١٩٧٥.

وكان «ممدوح سالم» رجلاً يتمتع بمزايا كثيرة، لكن طبيعة اهتمامه بـ «عامل الأمن» قبل أى اعتبار دفعه دون تَعَمُّد إلى صدام مع البطرك الجديد الذى أصبح لقبه الرسمى «البابا» بعد إنشاء الكاتدرائية. ومع أن السيد «ممدوح سالم» كان أكبر المُحَبِّذين لانتخاب الأنبا «شنودة» (البابا الجديد)، فإنه ما لبث أن غَيَّر رأيه لأن البابا «شنودة» كانت له نظرة فى إدارة شئون كنيسته يصعب أن تَتَحَكَّم فيها كلها قيود أمن.

والحقيقة أن البابا الجديد كان أكثر الناس مُلاءمة لمكانه وزمانه، ولعل دوره. على نحو ما. استعاد دور «مكرم عبيد» رغم اختلاف خلفيته وشخصيته وموقعه. كان «مكرم عبيد» قد وصل إلى روح الحضارة العربية (للعرب المسلمين والمسيحيين) عن طريق دراسة الدين وحفظ القرآن، وكان الراهب «شنودة» قد وصل إلى نفس النتيجة من باب الأدب، وكانت اللغة مدخل عقله إلى قناعته، كما أن الشعر كان المدخل إلى قلبه. وفى حين أن «مكرم عبيد» كان كتلة من الأعصاب مشحونة طول الوقت، فإن البابا «شنودة» كان هادئاً فى حساباته ممسكاً بزمام أعصابه دائماً.

وكانت بداية المتاعب بين الرئيس «السادات» والبابا «شنودة». هى السياسة الجديدة التى فَكَّر فيها وأشرف على تنفيذها المهندس «عثمان أحمد عثمان» وهو الصديق الذى راح يظهر بإلحاح فى الدائرة القريبة من الرئيس «السادات»، وكان مؤدى سياسة «عثمان» استعمال شباب الجماعات الإسلامية فى التصدى لجمهور الشباب القومى (وفيه الناصرى) فى الجامعات. ومع استمرار مظاهرات الطلبة بسبب فَوات «عام الحسم» (١٩٧١). كما أسماه الرئيس «السادات». دون حسم. فإن مطلب التصدى تَحَوَّل إلى مطلب ردع، وكان أن ظهرت العصى والجنازير وسكاكين قرون الغزال. وبالطبع فإن نزعة العنف لم تقتصر على الجامعة وإنما تَسَرَّبت وسالت إلى المجتمع الواسع خارجها، وكانت وزارة الداخلية فى حساباتها «لاتجاهات الشارع» قد أصبحت أكثر تَوَجُّساً، وكان أن اتخذت موقفاً أكثر تشدداً



أشعر. ولا بد أن غيرى يشعرون كذلك.
أن المشهد العربى كله سوف يختلف إنسانياً وحضارياً. وسوف يصبح على وجه التأكيد أكثر فقراً وأقل ثراءً لو أن ما يجرى الآن من هجرة مسيحيى المشرق ترِكَ أمره للتجاهل أو التغافل.
أو للمخاوف حتى وإن لم يكن لها أساس



فى عملية ترميم وإنشاء الكنائس مُتَزَمِّتة أكثر من اللازم حتى فى تطبيق الخط الهمايونى، والهدف بالطبع مجاراة الجماعات الإسلامية أو مداراتها. مع اعتبارها فى ذلك الوقت ضمن احتياطى النظام ضد مُناوئيه.

وتَوَتَّرت الأحوال فى «الخانكة». حين حَدَث ما اعتُبِر عدواناً. بالحريق والهدم. على كنيسة فى «أبو زعبل»، ثم قرر البابا «شنودة» أن يقود موكب أساقفة سَيْراً على الأقدام إلى الكنيسة المعتدى عليها لإقامة الصلوات فيها. وأحس وزير الداخلية أن البابا. صديقه القديم. يَتَحَرَّش بوزارته ويَتَحَدَّاها أن تَتَعَرَّض له ووراءه صفوف من القادة الروحيين لكنيسته!



كنت فى ذلك الوقت. نوفمبر ١٩٧٢. ما زلت من أقرب الناس سياسياً إلى الرئيس «السادات».

وظهر يوم ١٠ نوفمبر ١٩٧٢. اتصل بى الرئيس «السادات» هائجاً من اللحظة الأولى يقول لى «إنه لم يَعُد يطيق صبراً على شنودة» (يقصد البابا «شنودة»)، فهو. فى رأيه. يتصرف وكأن الدولة غير موجودة، أو كأنه يريد أن يصبح دولة فوق الدولة، وهو بذلك سوف يقود «البلد» إلى فتنة طائفية، وقد قرر هو («السادات»). أن يتحمل مسئوليته وأن يضع «شنودة» فى حجمه الطبيعى، ولذلك فإنه سوف يذهب أول الأسبوع القادم إلى مجلس الشعب ويُفَجِّر «الموضوع الطائفى» ويطلب إلى المجلس أن يتحمل مسئوليته وأن يتخذ من الإجراءات ما يكفل وضع الأمور فى نصابها و«البلد» مقبل على معركة. ثم طلب الرئيس «السادات» منى أن أكتب له الخطاب الذى يعرض به الموضوع على مجلس الشعب وأن أضمنه ما اقترح أن يتخذه المجلس من إجراءات أشار إلى بعضها.

ورجَوْتُه أن يَتَمَهَّل فذلك موضوع لا يُعالَج بالحِدَّة، ثم إنه لا يُعالَج بـ«الإجراءات»!

واحتَدَّ الرئيس «السادات» قائلاً إنه «لا يستطيع أن يجلس على كرسيه وتحته لغم موقوت كما كان يفعل جمال» (يقصد «جمال عبد الناصر»). ثم يستطرد: «جمال كان له بال طويل فى الصبر، أما أنا فلا أستطيع، ولا بد لمجلس الشعب أن يَجِدَ حلاً حاسماً للموضوع»، وهو على أى حال «ذاهب» «ذاهب» إلى المجلس سواء كان فى يده خطاب مكتوب أو لم يكن عنده إلا ما يخطر على باله لحظة يبدأ حديثه أمام المجلس، مضيفاً: «إننى سوف أفَجِّر المشكلة برمتها وليكن ما يكون»!

ورَجَوْتُه أن يأذن لى بالمرور عليه فى بيته فى الجيزة.

وعندما دَخَلْتُ عليه أحسست من اللحظة الأولى أنه مُعَبَّأٌ على الآخر بحتمية «التفجير» سواء كان مُحَرِّك التعبئة أمنيا، أو كان مُحَرِّكُها من أصدقائه المقربين.

ولساعتين حاولت أن أطرح عليه وجهة نظر أخرى ملخصها «مسئولية رئاسة الدولة مباشرة» عن «جوار دينين على أرض وطن» (وبمثل «تَعَلُّق حياة شعب بمجرى نهر واحد»).

وأخيراً وبعد عناء تَوَصَّلنا إلى حَلٍّ وسط: بدل أن يتكلم هو فى مجلس الشعب يبعث إلى المجلس بخطاب عن «الموضوع»، وبدل أن يقوم هو بعملية «تفجير» أمام المجلس يَطلُب من هذا المجلس أن يقوم بتقصى الحقيقة فيه والعودة إليه بتقرير عنه. وكتبت له ونحن بعد جلوس فى بيته مشروع الخطاب الذى يبعث به إلى المجلس، ووافق عليه.

وصباح اليوم التالى دَعَوْتُ إلى مكتبى الدكتور «جمال العطيفى». وهو المستشار القانونى لـ«الأهرام» وفى نفس الوقت وكيل مجلس الشعب (وقد عُيِّنَ فيما بعد وزيراً للإعلام). وحكيت لـ«جمال العطيفى» ما انتهى إليه لقائى فى اليوم السابق مع الرئيس «السادات»، وأحطته علماً بأن المجلس سوف يتلقى اليوم أو غداً خطاباً من رئيس الجمهورية يطلب إليه «تشكيل لجنة تحقيق برلمانية» لتقصى الحقائق وتقديم تقرير عنها. وكان تعليق «جمال العطيفى» على الفور أنه «لا يستطيع أن يرى ماذا يستطيع المجلس أن يفعل فى هذا الموضوع وفى هذه الظروف؟». وقلت له إن «ذلك رأيى أنا الآخر». لكن ما يمكن «تَوَقُّعُه» من المجلس هو فسحة وقت (أسبوع أو أسبوعين على أكثر تقدير) تخدم هدفين:

من ناحية تنفيس البخار المكبوت فى البلد نتيجة لحوادث لم يتداركها فى الوقت المناسب أحد، وإنما تُرِكَت لتتراكم ولتتحول إلى قنبلة موقوتة (على حَدِّ تعبير الرئيس «السادات»).

ومن ناحية ثانية إتاحة فرصة لمناقشة مسئولة فى إطار دستورى واضح، قد يستفيد منها الرئيس ويشعر معها أن هناك من يشاركه المسئولية فى مواجهتها، وذلك فى نفس الوقت يساعده على أن يستجمع أفكاره ويعيد تركيزها، ويتصرف بسلطته وهى وحدها القادرة على المواجهة السليمة لهذا الموضوع، سواء بالاستباق المستنير لوقائعها، أو بالتدارك اليقظ لتداعياتها.

ولم أكن أحتاج إلى شروحات تطول مع «جمال العطيفى» لأن علاقة صداقة وعمل فى «الأهرام» نشأت واستمرت سنوات قبلها وجعلتنا معاً فى مواجهة هذا النوع من القضايا العملية المباشرة على موجة واحدة. وقد سألنى دون تَرَدُّد لا تسمح به ظروف هذا النوع من المشاكل «ما إذا كنت أرى أن يكون هو المسئول عن هذه اللجنة البرلمانية باعتباره وكيل مجلس الشعب؟». وكان ذلك فى ظنى ترتيباً مثالياً لو أمكن تدبيره، وطلب «جمال العطيفى» أن أساعد فى «الترتيب» باتصال مع السيد «حافظ بدوى» رئيس مجلس الشعب وقتها بعد أن يكون هو قد تولى شرح التفاصيل له فور أن يتلقى مكتبه رسالة الرئيس «السادات». وكذلك كان.

وصباح يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧٢ صَدَرَ «الأهرام» وعلى صَدْرِ صفحته الأولى خَبَر كتبته بنفسى، ونصه كما يلى:

«علم مندوب «الأهرام» أن الرئيس أنور السادات قد طلب إلى مجلس الشعب تشكيل لجنة برلمانية خاصة للتحقيق فى بعض المحاولات التى جرت أخيراً لافتعال فتنة طائفية لا يمكن أن يستفيد منها الوطن أو المواطنون فى أى وقت فضلاً عن هذا الوقت بالذات.

وكانت وجهة نظر الرئيس السادات أن هناك وسيلتين لمعالجة هذا الموقف:

الوسيلة التقليدية وهى محاولة تَكَتُّم الأمور والتغطية عليها بالحلول الوسط.

والوسيلة الثانية هى وسيلة المواجهة ووضع الحقائق أمام جماهير الأمة الواعية كلها لكى تستطيع أن تحكم وتفرض على الجميع أن يلزموا حدود مسئولياتهم تجاه الوحدة الوطنية.

وقد كان آخر المحاولات التى دعت إلى تشكيل لجنة التحقيق البرلمانية، هو حادث فى «الخانكة»، احترق فيه سقف غرفة فى مقر جمعية «أصدقاء الكِتاب المقدس».

وأدت تطورات هذا الحادث إلى مضاعفات وردود أفعال مختلفة، برغم أنه كانت هناك محاولات لا شك فى صدقها لضبط الأعصاب والحرص على كل المقدسات

الوطنية التى يلزم الحرص عليها.

وكان الرئيس السادات قد تلقى برقيات عديدة من أهالى «الخانكة»، ومن عدد من رجال الدين، وكان بعد ذلك اتصاله بالسيد حافظ بدوى رئيس مجلس الشعب.

وقد اتخذ مجلس الشعب أمس قراراً، نصه كما يلى:

«قرر مجلس الشعب تشكيل لجنة لتقصى الحقائق حول الأحداث الطائفية التى وقعت فى مركز الخانكة، والاطلاع على تحقيقات النيابة وإعداد تقرير للمجلس عن حقيقة ما حدث».

وقد تشكلت اللجنة برئاسة الدكتور جمال العطيفى وكيل المجلس، وعضوية السادة: محمد فؤاد أبو هميلة، وعبد المنصف حزين، وكمال الشاذلى، وألبرت برسوم، والدكتور رشدى سعيد، ومحب استينو.

وعلم مندوب «الأهرام» أن لجنة التحقيق البرلمانية سوف تستمع إلى أقوال جميع المسئولين بغير استثناء.

وستبدأ اللجنة بسماع تقرير السيد ممدوح سالم نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية، ثم جميع رجال الأمن فى المنطقة، ثم كل الذين اتصلوا بالوقائع، ثم تَطَّلِع اللجنة على تحقيقات النيابة العامة للموضوع، وذلك فى سبيل التوصل إلى الحقيقة وإعلانها للمواطنين.

....

....

وجاءنى الدكتور «جمال العطيفى» بعد أسبوع يقول إنه اللجنة عَقَدَت عدة اجتماعات للاستماع ولتقصى الحقائق، وهو يرى أن الاستماع والتقصى لا يمكن أن يزيدا أكثر من أيام قليلة أخرى، وإلا فإن المسائل قد «تفك»، وذلك لا يجب السماح به. وكان «جمال العطيفى» حائراً فى كيفية كتابة تقرير اللجنة رداً على إحالة الرئيس، ولم يكن هناك حَلٌّ إلا إعادة الأمر إلى رئاسة الدولة «باعتبار أن الدستور أناط بالرئيس أن يسهر على حماية الوحدة الوطنية»، وكانت تلك بالفعل هى العبارة المفتاح فى تقرير اللجنة (مع ملاحظة أن تقرير اللجنة حوى فوق العبارة المفتاح أفكاراً واقتراحات

من تلك الأيام تَدفقت مياه كثيرة
فى النهر الواحد الذى يعيش على ضفافه ويتجاور
دينان لكن مياه النهر حملت بعد ذلك بقع دم.
وهذه علامة بالغة الخطورة





ما زالت حتى هذه اللحظة تستحق الاهتمام وتستوجب إعادة التقدير حتى رغم انقضاء ثمانية عشر عاماً على كتابته).

ولم أفاجأ حين اتصل بى الرئيس «السادات» تليفونياً صباح العشرين من نوفمبر يقول لى، ضاحكاً هذه المرة وليس مُسْتَفَزّاً : «إن المجلس أعاد لى الكرة مرة أخرى».

وكان ردى أن تلك طبائع الأمور، فليس فى هذه الساحة ولا ينبغى أن يكون هناك لاعب آخر، بمعنى أن الكل يستطيع أن يتفهم وأن يقترح وأن يساعد وأن يفيد، لكن «جوار الدينين على أرض الوطن الواحد». هى ومياه النيل. مسئولية رئاسة الدولة قبل كل الأطراف.

واستأذنت الرئيس «السادات» مرة أخرى أن أمرّ عليه فى بيته، وجلسنا ساعات طويلة نناقش ماذا بعد ؟ وماذا يصنع بتقرير اللجنة ؟. وتوصلنا إلى أهمية أن تكون خطوته الأولى بزيارتين : أولاهما للجامع الأزهر يلتقى مع شيخه ومع هيئة كبار العلماء، والثانية لدار البطريركية يلتقى مع بابا الكرازة المرقسية ومع المجمع المقدس بأكمله، وفى الاجتماعين يستطيع الرئيس أن يوجه وأن يدعو إلى تلطيف الأجواء وتخفيف درجة الاحتقان، من باب الحقيقة الوطنية والتاريخية، وليس من باب الكلام الشائع والساذج عن «التسامح» وعن «السماحة». إلى آخره !

(وفى نفس الجلسة وافَقَ الرئيس «السادات» بعد تَرَدُّد على إعادة العمل بالترتيب القديم بين «جمال عبد الناصر» والبابا «كيرلس» السادس، وبحيث يكون فى سلطة البابا، ودون عراقيل بسبب الخط الهمايونى، أن يُصرِّح ببناء خمس وعشرين كنيسة كل عام).

....

....

وبعد أسبوعين. فى شهر ديسمبر. قام الرئيس «السادات» بالفعل بالزيارتين. وقد طلب إلىّ أن أكون فى انتظاره ليقص علىّ النتائج، ودخل الرئيس «السادات» من باب بيته إلى البهو وإلى الصالون الكبير وكنت فى انتظاره جالساً مع قرينته السيدة «جيهان»، وكانت هى الأخرى قلقة تريد أن تعرف كيف سارت الأمور، وكان الرئيس «السادات» فى أحسن أحواله وهو يحكى بطريقته المسرحية (أحياناً). ويقول :

.«فى هيئة كبار العلماء مشى كل شىء كما هو منتظر. فى البطريركية أثبت «شنودة» أنه ناصح أكثر مما قَدَّرت».

وأضاف الرئيس «السادات» :

.«حاولت استفزازه مُتَعَمِّداً. نظرت إلى ساعتى أثناء اجتماعنا وأعضاء المجمع المقدس كله حولنا وقلت مُوَجِّهاً كلامى له : «لقد حان موعد صلاة الظهر وأريد سجادة صلاة».

وهرع شنودة بنفسه إلى غرفة مجاورة وجاء لى بسجادة صغيرة فَرَشَها بنفسه وسط مكتبه وخرج الكل من القاعة، ولكن شنودة لم يخرج وإنما وقف بعيداً وقد شَبَكَ يديه أمام صدره فى خشوع وانتظرنى حتى أتم صلاتى... ورأيته بركن عينى وحاولت تقدير رد فعله... ».

وكانت السيدة «جيهان» هى التى سبقت بأول ملاحظة فى التعقيب على ما قال زوجها، وسألته بحيرة : «غريبة يا أنور... وليه تستفزُّه؟ ».

وقال لها «أنور السادات» بطريقته :

«ياه يا جيهان لن تفهمى فى السياسة طول عمرك. أردت استفزازه لكى تَظهَر خفايا مشاعره».

ثم أضاف :

«لكنه ناصح وغويط».

وسألتُه إذا كان قد أبلغه بالعودة إلى اتفاق الرئيس «عبد الناصر» والبابا «كيرلس» ؟. ولم ينتظر الرئيس «السادات» حتى أكمل سؤالى، وقال :

«وافقت له على ضعف عَدَد الكنائس التى اتفق عليها جمال مع كيرُلُس» !

وعندما لاحظ دهشتى استطرد يقول : «شنودة ظَلَّ طول الوقت يقول لى أنت رئيسنا وأنت زعيمنا وأنت رَب العائلة».

....

....

ومن سوء الحظ أن الأمور لم تلبث أن تعقدت حتى جاء يَومٌ سنة ١٩٧٨. سمعت فيه وكنت فى زيارة عمل إلى روما. خطاباً عاماً للرئيس «السادات» يروى فيه تفاصيل إضافية عن خلافاته. القديمة والجديدة. مع البابا «شنودة»، ثم وَصَلَ إلى نقطة من خطابه قال فيها إنه كان على وشك اتخاذ إجراء ضده لولا أنه تلقى «خطاباً من فتاة صغيرة رَجَتْهُ أن يطيل صبره، وتَمَنَّت لو كان فى استطاعتها أن تأخذ من عمرها وتضيف إلى عمره»، وكان أن تَمَهَّلَ فى اتخاذ ما انتوى من إجراء. لكنه. كما قال. «تَمَهَّلَ فقط وقد يعود إلى ما فكر فيه إذا لم يكف البابا شنودة عما يفعله».

وأدهشنى خطاب الرئيس «السادات» خصوصاً فيما أعلن أنه ينوى اتخاذه من إجراءات، وحين عُدتُ إلى القاهرة بعد أيام سألت الأستاذ «سيد مرعى» وهو الصديق العزيز المشترك وقتها بين الرئيس «السادات» وبينى. عن الأمر، وفوجئت به يقول لى : «إن الرئيس كان ينوى عزله»!

وتساءلت مندهشاً : «وهل يملك عزله؟».

وكان رد «سيد مرعى» : «كان سيعملها باستفتاء عام»!

واشتدت دهشتى وتساءلت : «استفتاء عام على منصب البطرك للشعب المصرى كله أم لطائفة منه فقط ؟» !

وقال «سيد مرعى» : «لا.. كان سيعرضه على الجميع، لكنه لم يكن ينوى طرحه على الناس بمنصب البطرك تحديداً. كان قد تلقى فتوى من بعض أساطين الكنيسة من أصدقائه بأنه يكفيه أن يسحب المرسوم الرئاسى الذى اعتمد نتيجة انتخاب البطرك بواسطة المجمع المقدس، لكى يصبح وضع البابا غير قانونى». وهكذا فإن سَحب مرسوم رئاسى هو المقرر له أن يكون سُؤال الاستفتاء!

وسألته عمن قدم للرئيس هذه الفتوى وهى مؤدية فى رأيى إلى كارثة، ولم يجب «سيد مرعى» مباشرة، وأحسست أنه يوافق على رأيى، وكان من حُسن حظ الجميع أن خطاب الفتاة الصغيرة التى تَطوَّعَت على الورق أن تأخذ من عمرها وتعطى الرئيس «السادات» قد أنقذ الموقف قبل وصوله إلى نقطة اللا عودة.

لكنه من سوء الحظ أن تَطَوُّع الفتاة الصغيرة بسنين إضافية من العمر لم يجد نفعاً، فما هى إلا سنوات ثلاث إلا وكان رصاص شباب إسلامى قد أصاب الرئيس «السادات» فى مقتل !

وكان بعد ذلك. فى سبتمبر ١٩٨١. أننى سمعت فى سِجْن «مزرعة طُرَة» مع مئات غيرى من المُعتَقَلين. أن إجراءات «ثورة» سبتمبر (!!) التى أعلنها الرئيس «السادات» على معارضيه جميعاً مرة واحدة. طالت ضمن مَن طالت بابا الكرازة المرقسية نفسه، وأن البابا «شنودة» حاله كحالنا الآن. نحن فى سِجن «طُرة». وسجنه دير وادى النطرون.

وكانت رئاسة الدولة بعد الرئيس «السادات» هى بنفسها التى تقدمت تفتح باب الدير. وباب السِّجْن. لكى تنتهى حالة احتقان خطرة كان يمكن أن تؤدى إلى ما هو أبعد من الاحتقان !

من تلك الأيام تَدَفَّقَت مياه كثيرة فى النهر الواحد الذى يعيش على ضفافه ويتجاور دينان لكن مياه النهر حملت بعد ذلك بُقَعَ دَم.

وفى «الكشح» سنة ١٩٩٩ كان الدَم بُقعة كبيرة على سطح الماء، وهذه علامة بالغة الخطورة.

والشاهد الآن أن أحداً لا يحتاج إلى لجنة تحقيق برلمانية. أو حتى محضر تحقيق بوليسى. لكى يدرك مدى خطورة العلامة.

وفى كل الأحوال فإن الحقائق الواضحة أمام الكل لا تترك مجالاً للاجتهاد :

.فهناك أجواء مشحونة ومُعَبَّأة بأسباب تَتَعَدَّد دواعيها : اجتماعية. اقتصادية. سياسية. فكرية.

. وهناك مناخ تحفزت فيه عوامل الانفلات والانفجار.

. وهناك حقيقة سقوط ٢٣ قتيلاً من المواطنين : ٢٢ منهم من الأقباط وواحد فقط من المُسْلمين. وهى قرينة تشير إلى خطأ ما فى مكان ما، مهما قيل إن التدقيق فى مسار الوقائع ضرورى ومطلوب.

....

....

وفى حالة من الفوضى تُشارك فيها الأقلام والحجارة والسيوف، وتفتى فيها صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون وأجهزة الراديو، ومنابر المساجد وأجراس أبراج الكنائس. فإن الأمور فى النهاية تحتاج إلى صَوْت يقول : مَهْلاً !

ثم يكون على الجميع أن يخفضوا أصواتهم ولو مؤقتاً ويتذكروا أن سُلطة الدولة العليا هى المُكَلَّفة بالمسئولية قبل غيرها، وهى القادرة على أن تلحق، والأفضل أن تسبق.



بقى أنه ما دام هذا الحديث كله حديث ضمير فإن هناك ملاحظة لا بد لها أن تقال، وهى ملاحظة تعبر ضفاف النهر الواحد، وتتخطى صحارى الوطن المصرى، واصلة بقلق حقيقى إلى المشرق العربى. وهى ملاحظة تتعلق بمسيحيى المشرق (فى فلسطين، ولبنان، وسوريا، والعراق، وحتى تركيا).

هناك ظاهرة هجرة بينهم يصعب تحويل الأنظار عنها، أو إغفال أمرها، أو تجاهل أسبابها، حتى وإن كانت الأسباب نفسية تتصل بالمناخ السائد فى المنطقة أكثر مما تتصل بالحقائق الواقعة فيه !

وأشعر. ولا بد أن غيرى يشعرون كذلك. أن المشهد العربى كله سوف يختلف إنسانياً وحضارياً. وسوف يصبح على وجه التأكيد أكثر فقراً وأقل ثراءً لو أن ما يجرى الآن من هجرة مسيحيى المشرق تُرِك أمره للتجاهل أو التغافل. أو للمخاوف حتى وإن لم يكن لها أساس.

وظنى أن جموع المسلمين فى الأمة مطالبة أكثر من أى وقت مضى بأن تعرِف وتُدرك بيقين أهمية مواريثها، وحيوية تَنَوُّع مصادر ثقافتها، وخصوصية التركيبة الخلاقة والمبدعة فى تشكيل حياتها.

أى خسارة لو أحَسَّ مسيحيو المشرق. بحق أو بغير حق. أنه لا مستقبل لهم أو لأولادهم فيه، ثم بقى الإسلام وحيداً فى المشرق لا يؤنس وحدته غير وجود اليهودية الصهيونية. بالتحديد. أمامه فى إسرائيل؟!



المسلمون والأقباط والمواطنة

كلام فى الدين والسياسة



طارق البشرى

عندما أسفرت الانتخابات الأخيرة فى مصر عن وصول عدد من المحسوبين على تيار الإسلام السياسى إلى مقاعد البرلمان، ارتفعت أصوات - غير عابئة بالعواقب - تحذر شركاء الوطن من نوايا أولئك «القادمين». الأمر ذاته تكرر عندما جرى تداول أفكار أولية لبرنامج ماقد يكون حزبا للإخوان المسلمين، ينخرطون به كغيرهم فى العملية السياسية الطبيعية. يومها أيضاً ورغم أنها كانت محض أفكار للمناقشة جرى التلويح فى وجه الأقباط بالفزاعة ذاتها.. وبدت المسألة الفقهية الدقيقة وكأنها سؤال الساعة: هل تتعارض أحكام الشريعة الإسلامية (إذا جرى تطبيقها) مع حقوق المواطنة؟

ورغم أن السؤال يظل «افتراضياً» بامتياز، إلا أن الحابل بدا وقد اختلط بالنابل على صفحات الصحف وشاشات التليفزيون. وأدلى الكل بدلوه، بغض النظر عن بعض مافى الدلاء.

المستشار طارق البشرى ناقش جانبى القضية؛ الفقهى والسياسى، فى أطروحته القيمة «المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية». وهنا بعضاً منها.

المحرر

■■ لمن من القاطنين أرض الدولة تنسبغ حقوق المواطن وواجباته كاملة؟ وهل مقتضى القول بترجيح جامعة سياسية معينة، أن ينحسر بعض تلك الحقوق عن طائفة من طوائف الشعب؟ وإلى أى مدى يكون الانحسار؟ ولعل هذه النقطة العلمية هى أدق ما يواجه فريقى الجامعتين الدينية والقومية، ولعله فيها تكمن بذرة الخلاف الأساسى بينهما. وقد سبقت الإشارة إلى أن الجامعية ليست فى ذاتها محل الخلاف الرئيسى، ما اتفق على تدبر ظروف الزمان والمكان ومراعاة الوظيفة فى شأنها. أما ما يمكن أن يكون محلا للجدل فهو فكرة المواطنة. ولعل هذا الكتاب قد حدد من البداية أن نظرته للجامعية أساسها النظر فى أمر المواطنة، وإن كانوا من أديان مختلفة، فالأمر هنا لا يتعلق بالجامعية، ولكنه يتعلق «بالمانعية» إن صح هذا التعبير.

وبالنظر إلى التيار الإسلامى السياسى، فإن مبلغ العلم فى شأنه، أن دعوته السياسية ترتكز على ركيزتين: الجامعة السياسية، وتطبيق الشريعة الإسلامية. على أن تتبع هذه الحركة فى صورها العملية الملموسة، يوجب النظر فى الشريعة الإسلامية، من حيث وجه اتصالها بفكرة المواطنة وفيما يمس هذه الفكرة، وهى على التقريب تتعلق بحقوق غير المسلمين وواجباتهم فى المجتمع الإسلامى.

وما يحسن التزامه فى بيان هذا الأمر، ذكر مايراه بعض مفكرى الإسلام المعاصرين، ما يرونه رأى الإسلام فى أوضاع غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى. وليس القصد من إيراد هذا البيان، الإحاطة بكل ما يثور من آراء فى هذا الشأن ولا وصف أيها بأنه غالب أو راجح. وإنما القصد بيان أن ثمة آراء تثور واجتهادات تبدى وتساؤلات تطرح، تنقيبا عن الحلول لما يفرضه الواقع من مشكلات، وأن الفقه الإسلامى لديه من الأدوات والوسائل ما يمكنه من تحريك الأمور استجابة للواقع المعيش، وأن لدى مفكرى التيار الإسلامى الرغبة والعزم على الخوض فى هذا الطريق.

وقد يكون من أسباب ما يصادفه الاجتهاد فى هذا الشأن من تهيب وحذر، شدة الخوف على أصول الشريعة الإسلامية وأصول الفكر الدينى السياسى من أن يكون فتح باب الاجتهاد والأخذ بمبدإ المصلحة ونفى الحرج، قد يكون فى ذلك ذريعة لاقتلاع تلك الأصول، وهى تواجه - فى نظر التيار الدينى - خلال القرنين الماضيين عواصف مزعزعة. ولعل التيار الدينى السياسى يرى نفسه فى مرحلة تاريخية تستوجب منه ترسيخ المبادئ والأصول وليس فى مرحلة معالجة الفروع. وأنه فى مرحلة رفض الواقع المعيش وفرض واقع جديد على الحياة الاجتماعية، وليس فى مرحلة التعامل مع الواقع القائم.وأن قفزة على تلك المرحلة الأولى قد تمكن للواقع القائم من الثبات على حساب مشروعه هو. وأنه عندما ترسخ الجذور يمكن تناول الواقع ومشكلاته بمرونة أكثر. وهذا أسلوب تعرفه المعارضة الثورية فى تصديها للواقع المرفوض، وهى فى رفضها لأصول الواقع المعيش وسعيها لترسيخ القوائم الأساسية لدعوتها، تتجنب أن تستدرج إلى الاهتمام بتفاصيل المشكلات وجزئياتها، وذلك حرصا على الحشد المنظم والتعبئة العامة وراء شعارات مركزة واضحة وإلا يؤدى الاستطراد فى التفاصيل إلى إثارة الخلافات والتناثر، وحرصا على الإيضاح الساطع للخطوط الفاصلة بين الأوضاع الراهنة والدعوة الجديدة.

ومن ثم، فهى لا تحبذ التعرض للفروع إلا لما يؤكد الاتجاه العام أو يدين

للاستزادة:
«المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية»
طارق البشرى
دار الشروق ٢٠٠٤ ـ ٩٠٠ صفحة

الوضع القائم. ويظهر هذا المعنى سيد قطب عندما يرفض فى « ظلال القرآن» أن يستطرد فى شرح آية الجزية، إلى الخلافات الفقهية التى تدور حول من تؤخذ منهم ومن لا تؤخذ، ويقول إنها قضية تاريخية وليست واقعية: «إن المسلمين اليوم لا يجاهدون، ذلك أن المسلمين اليوم لا يوجدون، إن قضية وجود الإسلام ووجود المسلمين هى التى تحتاج اليوم إلى علاج ». ويؤكد هذه الفكرة فى كتابه «معالم فى الطريق» فى الفصل الخاص بطبيعة المنهج القرآنى.

على أنه إذا جاز هذا النظر فى التصدى لفروع المسائل، فإن المسألة المعروضة الخاصة بأوضاع غير المسلمين وبمبدإ المواطنة، ليست من الفروع. إنها أمر يتعلق بالمواطنة وبالجامعة السياسية، وتجاهلها هو ما قد يؤدى إلى التناثر عينه، وهو ما قد يثير من الحرج ما يتعين تفاديه ، وهو يؤكد انقساما حادثا لا بين ذوى الأديان المختلفة بعضهم تجاه بعض، ولكن بين التيار الدينى السياسى والتيارات الوطنية الأخرى. وهو انقسام لا يمكِّن أيا من الجانبين أن تكون له الفاعلية المرجوة. انقسام جرى من خلال عملية تاريخية بدأت من نحو قرن ونصف القرن، فأوهنت المجتمع وأضعفته وفصمته. والمطلوب اليوم رأب ما انصدع ورتق ما انفتق، ليقوم بجمعه مجتمعا قادرا على الكفاح والنهوض. ومن الجانبين تتراءى محاولات الوصال.

يذكر الدكتور محمد فتحى عثمان، أن من المسائل التى تثور بمناسبة الدعوة لتقنين الشريعة الإسلامية، مسألة وضع المواطن غير المسلم فى الدولة التى تطبق الشريعة: «هل يكون الأصل هو المساواة التامة بين جميع المواطنين فى جميع الحقوق والواجبات؟ هل يجوز أن يكون غير المسلم نائبا ووزيرا وقاضيا ومسئولا فى الجيش؟ ما حقوق غير المسلم فى إنشاء معابد مستحدثة؟ كل هذه مسائل لا بد أن تجلى تماما للمسلمين ولغير المسلمين، فلا يكفى النوايا الغامضة أو العبارات المائعة أو الخطب الرنانة، ثم التهامس من وراء الظهور».

ثم يطرح المشكلة طرحا صريحا بقوله: «إن غير المسلمين قد عاشوا فى ظل «الدولة العلمانية»، وتابعوا الثقافة الغربية التى ترى أن مثل هذه الدولة هى الغاية والمثل الأعلى المنشود الذى يحقق المساواة بين المواطنين، وعايشوا مكائد الاستعمار التى استغلت «حقوق الأقليات» لعرقلة الاستقلال، وطالما استثارت القلاقل بين المسلمين وغيرهم وبين المواطنين والأجانب. وهم قد تكون لهم ذكريات سيئة عن حكم طاغية تسمى بأسماء المسلمين، أو عن حوار غير كريم من جانب أحد المسلمين. ومن حق هؤلاء المواطنين غير المسلمين أن يؤمنوا على مركزهم القانونى وحقوقهم ومستقبلهم، وأن تبسط لهم وجهة النظر الإسلامية فى معاملتهم، وأن يبين لهم الفرق بين الأحكام الثابتة القطعية المؤيدة وبين الشروح والآراء الفقهية الاجتهادية التى يؤخذ منها ويترك، والتى تتأثر بالظروف التاريخية المتغيرة .. من حقهم أن يبصروا بالقول الفصل فى شأن ما قدمنا من مسائل .. لا أن يصدموا بتشريع دستورى مفاجئ ينص على أن شريعة الإسلام هى مصدر التشريع..».




واقترح الكاتب ضرورة الشروع فى حوار حول هذه القضايا، وهى ليست قضية حكم ما أو توفيق أو تلفيق بالنسبة لأحكام المعاملات.« إنها قضية أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية عامة ومهمة ». واقترح تشكيل لجنة موسعة من علماء الشريعة وأحبار الدين غير المسلمين والمفكرين البارزين فى مختلف مجالات العلوم وأن تنشر مداولاتها.

ويذكر الدكتور فتحى عثمان أيضا، فى حديثه عن قضايا الدستور والديمقراطية فى التفكير الإسلامى المعاصر، أنه أثر عن الشيخ حسن البنا تفرقة هادية بين الدستور والقانون، مع إيضاح أن الدعاة للإسلام خلافهم مع القانون فى تفاصيله «لا مع الدستور فى قواعده العامة التى تقرر حقوق الأمة». ولكن ضاع معنى هذه الكلمات والتبس، وكان من أثر ذلك، مع ما كان للدستور من رصيد سلبى، فشكت الشعوب من التلاعب به، ومع ما كان فى المؤسسات السياسية من فساد ، فضلا عما شاع من القول بأن نظام الحكم فى الإسلام نظام ثيوقراطى، كان من أثر كل ذلك أن «وقف بعض العاملين للإسلام موقفا سلبيا من المحن التى اجتازتها الدساتير والمؤسسات السياسية والحركات الديمقراطية بين الشعوب الإسلامية، بل ربما تطلع البعض إلى التخلص من هذه الأنظمة والارتماء فى أحضان المستبد العادل..».

وحديث الدكتور فتحى يوضح إلحاح المسألة المعروضة من جهة أوضاع غير المسلمين، ومن جهة المسألة الدستورية عامة. أما من حيث مواجهة هذه المسألة، فيذكر الشيخ محمد الغزالى أن الإسلام يعترف بالأديان السابقة عليه جميعا، وبخاصة يهودية موسى ومسيحية عيسى، على عكس من سبقه، ومن ثم فإن الانكماش والتعصب ليسا من طبيعته. وأن الآيات التى وردت بالقرآن الكريم تمنع اتخاذ المؤمنين لليهود أو النصارى أو الكافرين أولياء، إنما وردت جميعها «فى المعتدين على الإسلام والمحاربين لأهله». ونزلت لتطهير المجتمع الإسلامى من مؤامرات المنافقين الذين ساعدوا فريقا معينا من أهل الكتاب اشتبكوا مع الإسلام فى قتال حياة أو موت، «فاليهود والنصارى فى هذه الآية يحاربون الإسلام فعلا، وقد بلغوا فى حربهم منزلة من القوة جعلت ضعاف الإيمان يفكرون فى التحبب إليهم».

ويذكر أن كانت عواطف المسلمين تتجه إلى اليهود والنصارى لصلة القربى التى جمعتهم، وقد حمى نجاشى الحبشة النصرانى المسلمين الفارين إليه من عسف قريش، كما تعاطف المسلمون مع نصارى الروم فى حربهم ضد مجوس فارس، ولكن اليهود أبدوا الكراهية للمسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة، وتحالف اليهود مع الوثنيين ضدهم. ومع ذلك، فهو يقبل دعوة التآخى بين الأديان، فى نطاق وحدة تكون تعاونا بين الأديان وليست فناء فيها، على أساس أن ما يقدسه أتباع دين ما لا يكره عليه أتباع دين آخر، «وضمان المصلحة المعقولة لإشباع كل نزعة دينية لا يهدم. بداهة. حق الكثرة فى إعلان سيادتها وتنفيذ برنامجها .. فإذا كانت مصر تضم كثرة مسلمة تبلغ أكثر من ٩٠٪، فمن حق مسلميها يقينا فى نطاق ما أسلفنا من قواعد أن يجعلوا الدولة فى مصر إسلامية لحما ودما، وإنه لما يساعد على ذلك أن الإسلام كما رأيت يرى نفسه صدى الكتب الأولى، وامتدادا صحيحا مشرقا لتعاليم موسى وعيسى عليهما السلام».

ويقول فى موضع آخر: «قد أجمع فقهاء الإسلام على أن قاعدة المعاملة بين المسلمين ومساليهم من اليهود والنصارى تقوم على مبدإ «لهم ما لنا وعليهم ما علينا». وإذا كان هذا المبدأ قد طبق أحسن تطبيق فى أقطار الإسلام، فهو فى مصر قد طبق على نحو ممتاز بالنسبة للأقباط».

ويذكر سيد قطب أن الإسلام دلل الأقليات كما لم يدللها نظام آخر، سواء الأقليات القومية التى تشارك شعوبه فى الجنس واللغة والوطن، أو الأقليات الأجنبية، وأن مايذكر ضد حكم الإسلام عن مذابح الأرمن على أيدى الترك. المتأخرين. فهى لم تكن وليدة التعصب الدينى، بل كانت ذات طابع سياسى، وما وقع للأرمن وقع مثله للعرب المسلمين فى سوريا فى ظروف سياسية مشابهة. «وقد قامت بهذه وتلك أرذل العناصر فى الدولة العثمانية»، «إن الحكم حين يصير إلى الإسلام، سيسير فى مبادئه السمحة الكريمة التى لا يملك إنكارها أحد، ولن يتغير على الأقليات شىء فى أوضاعها ولا حقوقها التى تتمتع بها الآن وقبل الآن».

ويذكر الأستاذ محمد قطب المبدأ الفقهى العام من أن لغير المسلمين ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، هل حدث اضطهاد فى العبادة إلا الأمثلة النادرة التى كان المستعمرون الإنجليز دائما من ورائها، ليثيروا الفتن التى تمكن لهم فى الأرض؟». وأشار إلى أن الجزية تفرض مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية، فإذا دخلت الجماعة المسيحية فى خدمة الجيش أعفيت منها، وقد سبق فرض الجزية على فلاحى مصر المسلمين لما أعفوا من خدمة الجيش.

ولعل من أكثر كتَّاب الدعوة الإسلامية اهتماما بأوضاع غير المسلمين وتفاصيل هذه المسألة، هو الدكتور يوسف القرضاوى. وقد نشر كتابا فصل فيه القول عن حقوق أهل الذمة وواجباتهم فى

المجتمع الإسلامى.فمن حقوقهم حمايتهم من الاعتداء عليهم بحفظهم ومنع ما يؤذيهم وفك أسرهم ودفع من يقصدهم بأذى،«ولوكانوا منفردين ببلد».وينقل عن الإمام القرافى: «إن من كان فى الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك، صونا لمن هو فى ذمة الله تعالى وذمة رسوله». وحكى فى ذلك إجماع الأمة. ومن حقوقهم أيضا حمايتهم من الظلم الداخلى، ونقل عن رسول الله قوله: «من ظلم معاهدا أو انتقصه حقا أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فيه، فأنا حجيجه يوم القيامة». ونقل ما ذكره ابن عابدين من أن ظلم الذمى أشد من ظلم المسلم إثما .وقال إن حق الحماية المقرر لأهل الذمة يتضمن حماية دمائهم وأنفسهم وأبدانهم وحماية أموالهم وأعراضهم. فهى كلها معصومة باتفاق المسلمين. ومن قتل ذميا غير حربى قتل،ومن سرقه قطعت يده.«وبلغ من رعاية الإسلام لحرمة أموالهم وممتلكاتهم، أنه يحترم ما يعدونه. حسب دينهم . مالا وإن لم يكن مالا فى نظر المسلمين» كالخمر والخنزير.

ويحمى الإسلام عرض الذمى وكرامته كفا للأذى عنه. وتحرم غيبته، «ولا يجوز سبه أو اتهامه بالباطل أو التشنيع بالكذب، أو ذكره بما يكره ». وينقل عن القرافى المالكى: «فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة، فقد ضيع ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ، وذمة دين الإسلام».ومن حقوقهم تأمينهم عند العجز أو الشيخوخة أو الفقر، فالضمان الاجتماعى فى الإسلام يشمل المسلمين وغير المسلمين. ويذكر عن شمس الدين الرملى الشافعى أن دفع الضرر عن أهل الذمة واجب كدفعه عن المسلمين. ومن حقوقهم أيضا حرية الاعتقاد والتعبد فلا إكراه فى الدين بنص القرآن. ولا يجبر أحد ولا يضغط عليه لترك دينه إلى غيره،«ولهذا لم يعرف التاريخ شعبا مسلما حاول إجبار أهل الذمة على الإسلام .. وكذلك صان الإسلام لغير المسلمين معابدهم ورعى مشاعرهم.

وبالنسبة لبناء الكنائس ودور العبادة، أورد القرضاوى عهد عمر بتأمين الكنائس القائمة وقت الفتح الإسلامى، ثم أورد عهد خالد: «لهم أن يضربوا نواقيسهم، فى أى ساعة شاءوا من ليل أو نهار إلا فى أوقات الصلاة، وأن يخرجوا الصلبان فى أيام عيدهم». وذكر عن إحداث الكنائس، أى بناء الكنائس الجديدة، أن من فقهاء المسلمين من يجيزها فى الأمصار الإسلامية وحتى فى البلاد التى فتحها المسلمون عَنوة، وأورد أمثلة من مصر وما ذكره المقريزى: «وجميع كنائس القاهرة المذكورة محدثة فى الإسلام بلا خوف». ثم قال: « وهذا التسامح مع المخالفين فى الدين من قوم قامت حياتهم كلها على الدين، وتم لهم به النصر والغلبة، أمر لم يعهد فى تاريخ الديانات».

أما عن واجبات أهل الذمة، فقد ذكر القرضاوى أن عليهم منها ثلاثة، أداء الجزية والخراج والضريبة التجارية، والالتزام بأحكام القانون الإسلامى، واحترام شعائر المسلمين ومشاعرهم. والجزية ضريبة رءوس أساسها نص القرآن وإجماع المسلمين، ووجه إيجابها حسبما يستظهر المؤلف، أن الإسلام أوجب الخدمة العسكرية على أبنائه، وجعلها عليهم فريضة دينية مقدسة، وعَدَّ أداءها منهم عبادة فكان من لطفه مع غير المسلمين ألا يلزمهم بما يُعَدُّ عبادة فى غير دينهم؛ فالجزية على غير المسلم بدل مالى عن الخدمة العسكرية المفروضة على المسلمين. لذلك فهى لا تجب إلا على القادر على حمل السلاح من الرجال ولا تجب على امرأة ولا صبى ولا شيخ ولا ذى عاهة، ولا تفرض على راهب. ولذلك فهى« تسقط عمن تجب عليه، إذا لم تستطع الدولة أن تقوم بواجب حماية أهل الذمة من مواطنيها، وتسقط أيضا باشتراك أهل الذمة مع المسلمين فى القتال، والدفاع عن دار الإسلام..».وقد أعفى من الجزية نصارى الإغريق لسبب غير الاشتراك فى القتال، وهوالإشراف على القناطر، كما فرضت الجزية على مسلمى مصر كمسيحييها لما أعفوا من الخدمة العسكرية.

وأما الضريبة التجارية، فقد فرضها عمر على أهل الذمة بنصف العشر من مال التجارة الذى ينتقل من بلد إلى بلد، وهى ضريبة لم يرد فيها نص معصوم، إنما فرضت باجتهاد مصلحى اقتضته السياسة الشرعية، «وعلى هذا لو تغير الوضع بالنظر إلى الذمى وأصبح يؤخذ منه ضرائب على أمواله الظاهرة والباطنة مساوية للزكاة... فيمكن حينئذ أن يؤخذ من التاجر الذمى مثل ما يؤخذ من المسلم ولا حرج».

وأما الالتزام بأحكام القانون الإسلامى، فيصدر عن وصفهم يحملون جنسية الدولة الإسلامية يلتزمون بقوانينها فيما لا يمس عقائدهم وحريتهم الدينية. وأما مراعاة شعور المسلمين، فيقتضى ألا يسبوا «الإسلام ورسوله وكتابه جهرة، ولا أن يروجوا من العقائد والأفكار ما ينافى عقيدة الدولة ودينها، ما لم يكن ذلك جزءا من عقيدتهم كالتثليث والصلب عند النصارى»، وغير ذلك من مظاهر السلوك.



ويشير الدكتور القرضاوى فى علاقة المسلمين بغيرهم، إلى ما لا يدخل فى نطاق الحقوق التى تنظمها القوانين، وهو الروح التى تبدو من حسن المعاشرة ولطف المعاملة ورعاية الجوار وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان. وأورد جملة من آيات القرآن تحض المسلم على البر والقسط مع غير المسلمين ممن لا يقاتلونهم فى الدين، والمجادلة مع أهل الكتاب بالتى هى أحسن ﴿وقولوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾(العنكبوت:٤٦)، وإكرام الرسول لأهل الكتاب وزيارتهم وعودة مرضاهم والتعامل معهم. وذكر أن أساس التعامل مع غير المسلمين «اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان أيا كان دينه أو جنسه أو لونه» ،«اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس فى الدين واقع بمشيئة الله تعالى»، «ليس المسلم مكلفا أن يحاسب الكافرين على كفرهم أو يعاقب الضالين على ضلالهم»،«إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل ويحب القسط». وأن من ضمانات سيادة هذه الروح لدى المسلمين، أن الإسلام نفسه يحض المسلمين عليها.

أما عن تولى غير المسلمين للوظائف العامة، فذكر: «لأهل الذمة الحق فى تولى وظائف الدولة كالمسلمين، إلا ما غلب عليه الصبغة الدينية، كالإمامة ورئاسة الدولة، والقيادة فى الجيش، والقضاء بين المسلمين، والولاية على الصدقات». لأن الإمامة رئاسة عامة فى الدين والدنيا وهى خلافة عن النبى عليه السلام، وقيادة الجيش ليست عملا مدنيا صرفا، بل هى من أعمال العبادة لكونها جهادا، والقضاء حكم بالشريعة الإسلامية، فلا يطلب من غير المسلم أن يحكم بما لا يؤمن به. وأشار فى ذلك إلى ما صرح به الماوردى من جواز تقليد الذمى وزارة التنفيذ دون وزارة التفويض.

هذه بصورة عامة جوانب المسألة كما يضعها بعض من مفكرى التيار الإسلامى السياسى على منهج اتبعوه ويتضح أكثر ما يتضح فى مؤلفات الدكتور القرضاوى، إذ يعود إلى أقوال السلف وآثارهم، ويأخذ منهم ويترك وفقا لما يراه أكثر استجابة لحل مشكلات الواقع المعيش، ولكنه لا يخرج عن أقوالهم وآثارهم إلى غيرهم. ومن ثم أتت هذه النظرة تمثل فيما يبدو الموقف ذا القبول العام فى التيار الإسلامى السياسى. ومن هذه النظرة يمكن تحديد نقاط الاتفاق والاختلاف، سواء بين التيارين القومى والدينى السياسى، أو داخل التيار الدينى العام بين المحافظين الملتزمين بتطبيقات السلف لا يخرجون عنها وبين دعاة التجديد فى الفكر الإسلامى. وخلاصة النظرة السابقة، أن مبدأ المساواة القانونية والتواد الاجتماعى مقرر، تنسبغ به صفة المواطنة على غير المسلمين إلا فى الوظائف العليا فى الدولة، وهى الإمامة وقيادة الجيش والقضاء، وبهذا يكاد الحوار أن ينحصر فى هذه النقطة داخل التيار الإسلامى السياسى القائم الآن. ويمكن بيان بعض وجوهه والتعقيب عليه.

للشيخ عبد المتعال الصعيدى عبارة دقيقة ووافية: «يقينى أنه بفتح باب الاجتهاد يمكننا التوفيق بين الحكم الدينى والحكم القومى، لأنه لا يلزم أن يكون هناك خلاف بينهما ... إن الإسلام ينظر إلى أبناء الوطن الواحد من مسلمين وغير مسلمين على هذا الأساس، لهم ما لنا وعليهم ما علينا .



إن رأب هذا الصدع لن يجىء عن طريق تجاهل أى من الجانبين للآخر أو إنكاره. ليس فى مكنة أحدهما نزع صاحبه أو نفيه، ولا فى مكنة الآخر القفز إلى آخر الطريق. وإيجاد صيغ التفاهم والتلاحم أمر لا محيص عنه



وفى هذا الأساس تجتمع الحكومة الإسلامية والحكومة القومية». ويوصى بالمضى فى سبيل المصلحين العظيمين جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده.

ويفرق المرحوم حسن عشماوى بين الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى. والشريعة لديه هى الأحكام العامة التى وردت فى القرآن وفى الثابت من سنة رسول الله، «ونحن معشر العرب مسئولون أن نرعاها. وهى أحكام قليلة بالنسبة لشئون الدنيا ... لقد جعل لهم فى العقل والضمير ما يكفيهم، وعلم أن الحياة فى تطور. فترك لهم جل. إن لم يكن كل. شئون الأرض يباشرونها بأنفسهم. ولم يضع لهم أعلاما ومنارات يهتدون بها».

أما الفقه الإسلامى فهو اجتهاد من سبق فى فهم الشريعة، «وقد كان الأوائل يجتهدون فى فهمهم على نحو مطلق...وإذا كان المتأخرون قد ابتدعوا للفقه أصولا، فإنهم. وإن أحسنا بهم الظن. قد سعوا فى عنت شديد إلى تقييد الناس بفهم معين، الأمر الذى لا أقرهم عليه... هذا الفقه الإسلامى يستحق من جانب أن يجمع وأن يقرأه الراغبون فى فهم الشريعة، ولكنه من جانب آخر لا يلزم أحدا. وحين أقول لا يلزم أحدا إنما أعنى أحدا من أولئك الذين يحق لهم الاجتهاد». وأجرى تفرقة أخرى بين ما يمكن أخذه من حلول غير المسلمين لبعض المشكلات، مثلما كان المسلمون يفعلون قديما فى أخذهم من الحلول من الأخذ من النوع الأول دون الأخير.

ثم أوضح الفرق بين كون الإسلام دينا ودولة، وبين الحكومة الدينية. ويقول إن دعاة الحركة الإسلامية، يدعون إلى أن يكون الإسلام عقيدة وشريعة بحسبانه دين الأغلبية، وأنه يشكل التراث الفكرى لجميع أبناء المنطقة وإن اختلفت دياناتهم ومذاهبهم. ولكنهم لا يدعون إلى إقامة حكومة دينية، بالمعنى الذى تقوم به هذه الحكومة واسطة بين الأرض والسماء وتحكم باسم السماء. وقد جربت الحكومات الدينية من قبل على أيدى الكهنة، فكانت مآسى الحكم باسم الآلهة. وجربت على أيدى أحبار اليهود، فقتل زكريا وحكم بإعدام المسيح. وجربت على أيدى الكنيسة وحق الملوك الإلهى، فكانت محاكم التفتيش وإحراق القديسين.«ورأت شهداءالمسيحية الأصيلة فى مصر تقتلهم الواسطة الرومانية التى ادعت أنها تحكم باسم السماء». ثم جربت فى أمة المسلمين مع من ظنوا أن الخلافة ظل الله فى الأرض،فكانت محنة مالك وابن حنبل، «ورأت حبس وقتل كل من اجتهد ليواجه أحداث العصر وسطوة الحكم ..»، « لا، هذا لا نريده أبدا، وبعدا لولاء الفرد لحكومة تكون واسطة بين الأرض والسماء...ولا يحسبن أحد أن أمجادنا القديمة فى المنطقة كانت قيام حكومة دينية فيها. لا، إنما كانت نتيجة وجود قوم متدينين، يعيشون فى الأرض بمثل ما تستحق أن تعيش».

أما عن منهج تطبيق أحكام الشريعة فى المسائل الدستورية، التى تدخل فيها المسألة المعروضة من جانبها الحقوقى، فقد تعرض له الدكتور عبدالحميد متولى، وخصه باهتمام بالغ فى الكثير من كتبه. وإذا كان يصعب إجمال رأى الباحث الكبير بغير إخلال، فيمكن الإشارة إلى اتجاهه الفكرى، وهو أنه يتعين فى المسائل ذات الأهمية والخطورة، كالمسائل الدستورية المتعلقة بنظام الحكم فى الدولة، يتعين الالتزام بنصوص القرآن والسنة اليقينية متواترة كانت أو مشهورة. أما السنة التى تتمثل فى أحاديث الآحاد، فلا يلزم الأخذ بها متى تضمنت حكما مستقلا، أى مبدأ جديدا لم يرد أصله بالقرآن والسنة اليقينية. وإن من فقهاء المسلمين من لم يكن يقبل بأقل من الأحاديث المشهورة، وكذلك فعل المعتزلة والخوارج، «وكان الإمام الغزالى يرى أن خبر الواحد لا تثبت به الأصول». ولهذا لم يثبت لدى الفقهاء فى المسائل المتصلة بالعقائد التى يتوقف عليها صحة الإسلام، إلا ما يثبته صريح العقل ونصوص القرآن والسنة المتواترة. وكان أبوبكر وعمر يشترطان نقل الحديث عن اثنين من الصحابة، وذلك «فى رواية أحاديث تروى بصدد بعض مسائل أو تشريعات عادية، تقل كثيرا فى الخطورة والأهمية عن التشريعات الدستورية».

وبالنسبة للإجماع مصدرا للتشريع الإسلامى، يلاحظ الدكتور متولى أنه فيما يتعلق بالمسائل الدستورية، فإن صدور الاجماع فى عصرسابق لا يلزم فى عصر لاحق، أى لا تكون له حجية شرعية ولا يُعَدُّ تشريعا عاما. ونقل الأستاذ الباحث بيانا لذلك عن ابن حزم، أن الصحابة أجمعوا ثلاث مرات، كل مرة على طريقة مختلفة من طرق بيعة الخليفة. وبذلك لم يلتزم الصحابة فى أى من هذه المرات بالإجماع السابق، بل نقضوه بإجماع لاحق.

ومن جهة أخرى، فإن سنن الأحكام الدستورية لا تعد ملزمة، إلا اذا تضمنت هذه السنن تشريعا عاما، أى لم تكن صدرت لعلاج وضع خاص. فمن باب أولى لا يكون الإجماع ملزما إذا نقصته طبيعة التشريع العام، لأن الإجماع بوصفه مصدرا يلى السنة فى المرتبة التشريعية. ومن جهة ثالثة، فالإجماع لا يكون إلا عن دليل يستند إليه من قرآن أو سنة. وقد جاء القرآن بأحكام ومبادئ تصلح لكل زمان ومكان.



وأما بالنسبة لجهود الفقهاء المسلمين، فيلاحظ الدكتور متولى، أن عناية الفقهاء بالأحكام الشرعية المتصلة بالقانون، وبخاصة النظام الدستورى، كانت ضعيفة. وصرفوا جل اهتمامهم إلى غير الأحكام المتعلقة بنظام الدولة السياسى. وبقى الفقه الإسلامى فى هذا المجال فى دور الطفولة. ولعل من أسباب ذلك نزعة الاستبداد التى عرفت عن حكم الخلفاء منذ عهد الأمويين، فانصرف الفقهاء عن هذا المضمار؛ واستند فى هذا النظر إلى رأى كتبه الدكتور عبد الرزاق السنهورى. ولعل من أسباب هذا الضعف أيضا حذر بعض الفقهاء من الاجتهاد والأخذ بالمصالح المرسلة فى هذا المجال، حتى لا ينفتح الباب لهوى الحكام.

وبالنسبة لوضع غير المسلمين فى الدولة الإسلامية، يذكر الدكتور متولى أن الإسلام إن كان سوَّى بين المسلمين وغير المسلمين من المواطنين فى كثير من الشئون، فإن فقهاء الإسلام القدامى لم يسووا بينهم فى جميع الشئون، بمعنى أنه لم تكن المساواة تامة بينهم فى صدر الإسلام. وما كان يمكن أن تكمل المساواة فى دولة تقوم على أساس عقيدة جديدة، سواء كانت عقيدة دينية كما هو شأن دولة الإسلام، أو عقيدة سياسية كما هو شأن الدولة السوفيتية اليوم. وحسب دولة الإسلام. فى نظر الأستاذ الباحث. حسب أى دولة عقائدية، أن تنظر إلى مواطنيها نظرة التسامح. وهو الأمر الذى اشتهرت به الدولة الإسلامية، مما اعترف لها به المستشرقون والمؤرخون الغربيون أنفسهم. وضرب الدكتور متولى المثل لهذه الفروق بقصْر شغل وظائف القضاء ووزارات التفويض على المسلمين. ثم قال إنه يفوت الكثيرين أن الأحكام الشرعية فى غير ميدان العقيدة والعبادات تختلف باختلاف الظروف«ففى صدر الإسلام كانت الدولة. كما قدمنا. تقوم على أساس وحدة العقيدة الدينية، بينما تقوم الدولة فى هذا العصر (ومنها الدولة الإسلامية) على أساس القومية، فى غير اعتبار أو اشتراط لوحدة العقيدة الدينية».

وكانت الحرب تجرى دفاعا عن العقيدة الدينية ضد خصوم الدولة فى الدين، فألقى عبئها على المسلمين وحدهم، بينما تجرى الحرب اليوم دفاعا عن أرض الوطن وأبناء الوطن فيلقى عبئها على المسلمين وغير المسلمين من أبناء الوطن.وإذا كانت الأحكام تتغير بتغير الظروف، فإن مما جاء به الإسلام من المبادئ ما يجعل هذا التغير أمرا حتميا. ومن تلك المبادئ تجنب الفتنة طبقا للقاعدة الشرعية: «إذا اجتمع ضرران ارتكب الأخف». واستند فى ذلك إلى الإمام محمد عبده والشيخ محمد الخضر حسين والشيخ محمد محمد المدنى. ومن هذه المبادئ أيضا نفْى الحرج الذى يؤدى إلى تلف النفس أو المال أو العجز المطلق عن الأداء، حسبما يقرر الشيخ محمد مصطفى المراغى. وثالث تلك المبادئ مراعاة مبدإ الضرورة، فلا ضرر ولا ضرار فى الإسلام. ورابعا مراعاة الاعتدال والأخذ بسنة التدرج. والخامس التفرقة بين ما يعد من السنة تشريعا عاما وما يعد تشريعا وقتيا. وبعد أن فصل الأستاذ الباحث رأيه فى هذه النقطة، نقل عن الشيخ عبدالوهاب خلاف

ما لاحظه من أن وضع أهل الذمة فى البلاد الإسلامية، لم يكن يخضع للاعتبارات الدينية وحدها، بل كان يخضع للاعتبارات السياسية،وأخصها مدى ما يبدونه من الولاء والصفاء للدولة وللمسلمين.

وبمراعاة تلك الاعتبارات جميعا، «يصبح أمرا طبيعيا بل وحتميا أن ننتهى إلى الرأى بأن علينا ألا نحرم إخواننا المسيحيين مما كسبوه من الحقوق حقا، ولا نثير لهم. لا سيما فى هذه الآونة. نفسا.. إننا بذلك نقوى من روح الإخاء بين طائفتى الأمة بل ونزيدها، ونبعد عن طريق تطبيق الشرع الإسلامى أكبر عقبة بل ونذللها». وختم حديثه بما جاء فى السنة من أن «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».



مع تقدير الموقف المتكامل الذى يعرضه الدكتور متولى فى كتبه المشار إليها فيما سلف، عن منهج تطبيق القانون الإسلامى فى مجال الأحكام الدستورية، وهو المجال الذى يتصل بوضع غير المسلمين، فإنه يمكن إضافة عدد من النقاط إلى ما كتب:

فمن جهة أولى، لقد سبق بيان أن نقطة الحوار العملية بين تيارى الجامعة الدينية والجامعة القومية، تتعلق أساسا بوضع غير المسلمين، ومدى المساس بمبدإ المساواة التامة بين المسلمين وغيرهم من مواطنى هذه الديار..وفى هذا الصدد، يتعين الاعتراف بأن الجهود الفكرية التى أشير إلى بعضها فى إطار مواقف التيار الإسلامى، لا بد أن تحظى بالاهتمام البالغ. وهى تحل من حيث نتائجها جزءا مهما من المسألة، من حيث المساواة فى التعامل والأوضاع أمام القانون. كما أن الاهتمام بهذا الأمر يثير التفاؤل فى إمكان حل المسألة برمتها.

ولكن يبقى التحفظ بالنسبة لعدم المساواة فى تولى بعض من الوظائف العليا فى المجتمع، وهى كلها على قلتها العددية تتعلق بمراكز القيادة والتوجيه واتخاذ القرارات. والاستبعاد هنا لا يرد من مسلك عملى فقط، ولكنه يصدر من مفهوم نظرى وفقا لصيغة تجرد غير المسلمين من الصلاحية الشرعية لتولى هذه المناصب. وإذا كان يساغ تسويغ هذا الاستبعاد أحيانا بما للأغلبية من حقوق فى اختيار من يشغل هذه المناصب، ومع تقدير أن الأغلبية الدينية الكاسحة فى المجتمع للمسلمين، فإن وجه الاعتراض على هذا التسويغ، أن استناده إلى مفهوم نظرى من شأنه أن يمس مبدأ المواطنية ذاته، وأن الأغلبية المقصودة بالهيمنة، يلزم أن تكون هى الأغلبية السياسية التى قد يشارك فيها غير المسلمين أو يشكلون فيها سهما شائعا. وأن وجود الأغلبية العددية الإسلامية من شأنه أن يزيل حذر التيار الإسلامى، من أن تئول مقاليد الأمور فى لحظة ما إلى الأقلية الدينية بوصفها الدينى، وعلى العكس من ذلك فإن ما يثير حذر التيار القومى، أن يكون استبعاد غير المسلمين على أساس مفهوم نظرى يتعلق بالصلاحية مما يمس مبدأ المواطنية لهم ويحيل المجتمع إلى مجتمعين ويفصم عرى الترابط فيه.

ومن جهة ثانية، فإنه مع ملاحظة ما ذكره الدكتور متولى من تغييرات طرأت على مجتمعات اليوم فى هذه المسألة، يمكن تنويعا على ذات الفكرة، ملاحظة أن من مظاهر تغير ظروف اليوم عما كانت عليه فى الصدر الأول للإسلام، أن المسلمين فى الصدر الأول للإسلام كانوا قوة سياسية وعسكرية راجحة، كما كانوا قوة بشرية عددية مرجوحة، فلزمهم فى هذا الظرف قصر تولى قيادة الدولة على المسلمين.وكان هذا القصر ضروريا وقتها بالنظر إلى قوتهم العددية المرجوحة فى مواجهة شعوب البلاد المفتوحة، لئلا يفلت الزمام من أيديهم. كما كان هذا القصر ممكنا بحسبان التفوق السياسى والعسكرى غير المنازع إزاء القوى المناهضة لهم.

أما اليوم، فقد آل الوضع إلى عكس ما كان عليه من كلا طرفيه. صارت الغلبة العددية للمسلمين فى بلادهم، بحيث لم يعد ثمة وجه للخشية على إسلام المسلم، من مساهمة غير المسلمين فى الشئون العامة. كما آلت أوضاع المسلمين السياسية والعسكرية فى الموازين العالمية إلى ضعف غير خاف، بحيث يخشى على المسلمين من عدم استقرار الأوضاع فى بلادهم، بسبب عدم مساواة غيرهم بهم وانفصام عرى الرابطة الوطنية واستغلال القوى الخارجية الطامعة هذا الامر. ولمفكرى الإسلام اليوم أسوة بعمر بن الخطاب، الذى أسقط سهم المؤلفة قلوبهم برغم النص عليه، لما ارتآه من أن الله تعالى قد أعز الإسلام بما لم يعد به حاجة لتأليف القلوب. وهذا أثر لعمر شائع مشتهر لا يرفض منهجه فيه غالبية المفكرين فيما يرجح.

ومن جهة ثالثة، فإن التيار الفكرى الدينى هنا، لا يواجه بالمسلمين جميعا أقلية من غير المسلمين تنازعه سيادته أو تطالبه بأمر ما، بوصفها أقلية أو جماعة دينية أيا كانت. ولكنه يقابل تيارا فكريا قوميا يحاوره فى النظر إلى المواطنين. وهو تيار امتدت جذوره فى الأرض، وتراكمت له على مدى السنين أعراف شاعت فى أساليب الحياة المعيشة ولا يسهل إغفالها. وهو تيار لديه تاريخ كفاح وجهاد وله وظيفة كفاحية، فهو تيار أصيل مشارك فى قضايا الكفاح والنهضة، وهو يقدم فى هذين المجالين صيغة توحيد داخلى بالنظر إلى كل قطر يحتوى مسلمين وغير مسلمين، وصيغة توحيد شامل بالنظر إلى الوطن العربى برمته.

وإذا كان يمكن القول بأن التطور التاريخى فى القرنين الأخيرين قد أنتج انفصاما فى المجتمع، بل ما يمكن أن يسمى. من قبيل التبسيط. الوافد والموروث، فإن رأب هذا الصدع لن يجىء عن طريق تجاهل أى من الجانبين للآخر أو إنكاره. ليس فى مكنة أحدهما نزع صاحبه أو نفيه، ولا فى مكنة الآخر القفز إلى آخر الطريق. وإيجاد صيغ التفاهم والتلاحم أمر لا محيص عنه. ولا يظهر أن ثمة حكما دينيا قطعى الورود قطعى الدلالة، ينفى دعواه من حيث انسباغ صفة المواطنة الكاملة على غير المسلمين من الشركاء فى الوطن المشاركين فى كفاحه ونهضته.

ومن جهة مقابلة، فإذا كان لا يثور خلاف تطبيقى بين الجامعتين السياسيتين، أهم من هذه المسألة محل النقاش، فإنه بالنسبة للأخذ بالقانون الإسلامى، لم يَعُد يظهر لكاتب هذه الدراسة، أن عقبة تقوم إزاء الدعوة للأخذ بالشريعة الإسلامية، أهم من تلك المسألة عينها محل هذا النقاش، وهى وضع غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى.

على أنه بشكل عام يمكن القول بأنه لا حجة فى الادعاء بأفضلية التشريعات المستقاة من اللاتين والجرمان والسكسون على الشريعة، وأن الشريعة عنصر موحد للعرب كافة، وهى بذلك تُعَدُّ مجالا أصيلا للالتقاء بين التيارين الدينى والقومى. وفضلا عن ذلك، فهى فى نطاق الوحدة العربية عنصر جامع أيضا لغير العرب من الأقليات القومية كالأكراد والبربر مثلا. لا صحة كذلك فى قول يزعم أن أسس الشريعة الإسلامية، من حيث هى كذلك، لا تصلح أداة لطموحات التقدم والنهضة الاقتصادية والاجتماعية. وقد احتوى الفكر الإسلامى من قبل تيارات للعدالة الاجتماعية والثورة ضد الاستبداد والظلم الاجتماعى. وهو قادر بجهد المجتهدين أن يؤدى رسالته فى هذا السبيل.

وإلى من لا يطمئنون إلا إلى صواب المفكرين الغربيين، حتى فى أخص شئون مجتمعاتنا، يمكن إيراد مقولة روجيه جارودى: «إن الجزائرى ذا الثقافة الإسلامية، يستطيع أن يصل إلى الاشتراكية العلمية بدءا من منطلقات أخرى غير سبيل هيجل أو ريكادور أو سان سيمون، فلقد كانت له هو الآخر اشتراكيته الطوباوية ممثلة فى حركة القرامطة، وكان له ميزانه العقلى ممثلا فى ابن رشد، وكان له مبشر بالمادية التاريخية فى شخص ابن خلدون، وهو على هذا التراث يستطيع أن يقيم اشتراكيته العلمية.

وليس المقصود هنا الدعوة لفكر هؤلاء أو إلى تلمس سبيل « تراثى» للاشتراكية العلمية التى يعنيها جارودى. ولكن المقصود بيان إلى أى مدى سحيق يمكن للفكر التراثى أن يصل بشهادة واحد من مفكرى الغرب. ودلالة ذلك أن استخدام المنطلقات الغربية وصولا إلى الصياغات الفكرية الإصلاحية أو الثورية فى مجتمعاتنا لم يكن بسبب الفقر بقدر ما كان سببه الإفقار، ولم يكن سببه النضوب بقدر ما



حيثما أمكن الأخذ بما يسمى اليوم بالأساليب الديمقراطية فى بناء الدولة، فإن ذلك يمكن أن يحل - من وجهة نظر إسلامية سياسية - تلك المشكلة ذات الأهمية فـــى تكـــويـــن الجمـــــــاعة الســــياســــية



كان سببه الاقتحام، وأنه إن صدق ذلك على الفكر الفلسفى والاجتماعى، فهو يصدق من باب أولى بالنسبة للشريعة الإســـلامية، بما لها من دقة فنية ومرونة.

إنما يثور الأمر فى شأنها من حيث صلاحية ارتباط الدعوة إليها بالدعوة إلى الاجتهاد،وصلاحية التمسك بأصولها تمسكا متصل الآصرة بمشكلات الواقع المعيش وأعرافه التى لا تتنافى مع أصول الشريعة. ومع التسليم بلزوم أن يصدر الاجتهاد عن أصولها وأن يستخدم مادتها ووسائلها، فلا يصير محض غطاء صورى لواقع ينافى أصولها .كل ذلك لا يبدو بعيدا عن الإمكان، ولكن تظل النقطة التطبيقية الواجب إثارتها حسبما سلفت الإشارة إليه، هى وضع غير المسلمين فى التشريع المأخوذ عن الشريعة الإسلامية. وضعهم من حيث الاعتراف بالمساواة التامة لهم مع غيرهم إزاءه، من جهة التطبيق ومن جهة المشاركة فى التشريع . بموجب وصفهم مواطنين من خلال الهيئات التشريعية النيابية.

ويبدو أن كتاب الماوردى «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» يمثل المرجع الأساسى لدى الباحثين فى نظام الحكم الإسلامى. ويظهر لقارئ الماوردى اليوم أن النموذج الذى يطرحه نظام الحكم فى بلاد الإسلام يختلف فى كثير من هياكله التنظيمية عن نماذج الحكم السياسى الشائعة الآن. ويختلف عن تلك النماذج التى ترجو إقامتها التيارات السياسية المختلفة الآن، ومنها التيار الإسلامى، دون أن يمس هذا الاختلاف أصلا من أصول الشريعة الإسلامية. وإذا كان وضع أهل الذمة فى تولى الوظائف أو الولايات العامة، قد جاء لدى الماوردى فى إطار هياكل تنظيمية رسمها، فالغالب أن هذا الوضع يتعين إعادة النظر فيه، فى إطار التنظيمات الجديدة القائمة أو المرجوة.

وإذا كانت هذه الدراسة لا تريد أن تطرح تفسيرا جديدا ما لنص من نصوص الشريعة فى هذا المجال، تفسيرا قد يكون محلا للإنكار، ولا تريد أن تطرح منهجا من نوع ما أثاره الدكتور متولى بالنسبة لحجية الأحكام وتصنيفه لها، اكتفاء بما ذكره الدكتور الباحث فى هذا الشأن، فحسب هذه الدراسة أن تلج من باب آخر غير باب تفسير نصوص القرآن والسنة، والتصنيف القطعى منها والظنى من جهة الورود والدلالة.

وإذا كان التفسير صلة بين النص والواقع، فحسبها أن تلج من باب تصوير الواقع ورسم هياكله التنظيمية،سواءكان هو الواقع القائم فعلا أو كان واقعا منشودا ؛ لأن الأمر هنا لا يتعلق ببيان مدى مطابقة أصول الشريعة الإسلامية لنظام معين قائم فعلا،ولكنه يتعلق ببيان مدى موافقة نظام منشود لهذه الأصول. وعلى هذا يمكن إثارة الموضوع، لا من جهة مدى صلاحية أهل الذمة لتولى وظائف معينة، ولكن من جهة مدى إمكان بناء نظام دستورى موافق لأصول الشريعة، ويحقق فى الوقت نفسه مبدأ المساواة بين المواطنين جميعا، وإن اختلفت أديانهم.



لقد كان الماوردى من الحنكة فى بيان الولايات المختلفة،بحيث عين سلطات كل ولاية،جنبا إلى جنب مع شروط توليها، لأن الوظيفة مجموع اختصاصات وسلطات. وشروط التعيين فيها هى بيان أهلية ممارسة هذه المجموعة من السلطات. فشروط تولى الوظيفة وثيقة الاتصال بسلطات الوظيفة. وشروط الإمامة عند الماوردى سبعة، هى: العدالة والعلم المؤدى للاجتهاد وسلامة الأعضاء والشجاعة المؤدية لجهاد العدو والنسب القرشى (وإن اختلف فى وجوب هذا الشرط الأخير). والماوردى إن لم يورد شرط الإسلام هنا، فهو مستفاد من سياق حديثه.. وواجبات الإمام عشرة، هى حفظ الدين، وتنفيذ الأحكام بين المتشاجرين فلا يتعدى الظالم ولا يضعف المظلوم، وحماية البيضة وحفظ النظام وإقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى، وتحصين الثغور، وجهاد من يعادى الإسلام حتى يدخل فى الذمة، وجباية الفىء والصدقات، وتقدير العطايا، وتقليد عمال الدولة فيما يفوض إليهم من أعمال، وأن يباشر لنفسه سياسة الأمة وحراسة الملة.

ويذكر الماوردى أن الوزارة على ضربين، وزارة تفويض ووزارة تنفيذ. والأولى «أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه (أى برأى الوزير) وإمضاؤها باجتهاده». ويشترط لتقليد هذه الوزارة «شروط الإمامة إلا النسب وحده، لأنه ممضى الآراء ومنفذ الاجتهاد، فاقتضى أن يكون على صفات المجتهدين..». ويشترط فيها شرط زائد على الإمامة هو شرط الكفاية والخبرة فيما وكل إليه من أمر حرب أو خراج. وأما وزارة التنفيذ« فحكمها أضعف وشروطها أقل، لأن النظر فيها مقصور على رأى الإمام وتدبيره، وهذا الوزير وسط بينه وبين الرعايا والولاة، يؤدى عنه ما أمر ويمضى ما حكم، ويخبر بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدد من حدث ملم، ليعمل فيها ما يؤمر به ..فإن شورك فى الرأى كان باسم الوزارة أخص، وإن لم يشارك فيه كان باسم الواسطة والسفارة أشبه».

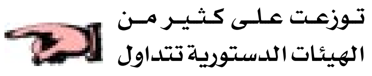
وذكر أن شروط وزارة التنفيذ هذه لا توجب فى المؤهل لها الحرية ولا العلم، «لأنه ليس له أن ينفرد بولاية فتعتبر فيه الحرية، ولايجوز أن يحكم فيعتبر فيه العلم ..». وذكر أنه يراعى فى وزير التنفيذ سبعة أوصاف: الأمانة ، وصدق اللهجة، وقلة الطمع، والسلامة من العداوة، ذكورا، ذكيا، ليس أهلا للهوى، «فإن كان الوزير مشاركا فى الرأى، احتاج إلى وصف ثامن وهو الحنكة والتجربة». ولايجوز لوزير التنفيذ أن يكون امرأة، «ويجوز أن يكون هذا الوزير من أهل الذمة، وإن لم يجز أن يكون وزير التفويض منهم ».

وإمارة البلاد عند الماوردى على ضربين: عامة وخاصة. والإمارة العامة تكون تفوضا من الخليفة للأمور فى بلد معين، فيكون الأمير عام النظر خاص العمل، ويشمل نظره «تدبير الجيوش وترتيبهم فى النواحى وتقدير أرزاقهم..والنظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام ..وجباية الضرائب وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منها، وحماية الدين والذب عن الحريم .. وإقامة الحدود، والإمامة فى الجمع ..وتسيير الحجيج». واعتبارا بهذه السلطات يشترط فى التقليد فى الإمارة العامة،«الشروط المعتبرة فى وزارة التفويض، لأن الفرق بينهما خصوص الولاية فى الإمارة وعمومها فى الوزارة».

وأما الإمارة الخاصة، فهى كحالة أن يكون الأمير مقصور الإمارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية، وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام ولا لجباية الخراج. وما دامت استبعدت من الإمارة الخاصة سلطات القضاء والخراج، فقد استبعد من شروط تقليدها الشرط المحقق لهذه الصلاحية وهو شرط العلم. وفرق أيضا فى إمارة الجهاد بين الإمارة العامة والإمارة الخاصة.

ويظهر مما سبق أن الإمام فى نظر الفقه الإسلامى، وإن كان مقيدا بأحكام الشريعة مأمورا بحفظ الدين وتطبيق القانون الإسلامى، فإن سلطانه داخل هذا الإطار العام من أحكام الشريعة، أى سلطته التقديرية، لا يحدها حد من تنظيم دستورى أو رقابة سياسية من هيئة ما . ويكشف عن ضخامة هذا الأمر، أن حدود سلطته السياسية والإدارية بالغة السعة والعموم، وذلك فى حفظ الأمن وخوض الحروب وتقليد عمال الدولة. وأن شروط تولى الإمام تتفق مع وضعه هذا بوصفه حائزا هذه السلطة منفردا .

وبالنسبة للوزير، فقد أفرده الماوردى بسلطان هو جماع سلطات الحكم كلها الآن،ومنها مباشرة الحكم وتقليد الولاة وتسيير الجيوش وتدبير الحروب والتصرف فى المال العام قبضا وأداء. وإن هذه السلطات لا يملكها فرد واحد أو حتى هيئة واحدة فى أى من نظم الحكم الحاضرة، بله أن يكون نظام الحكم نظاما قائما على توزيع السلطات. وسلطات الوزير عند الماوردى لا يملكها اليوم وزير ولا رئيس وزراء، ولامجلس الوزراء مجتمعا يملكها وحده. وإذا كان لا يجوز للذمى أن يكون وزير تفويض، فلا يوجد اليوم وزير تفويض على الصورة التى صورها الماوردى،لأن سلطة وزير التفويض الجامعة المفردة هذه، قد توزعت على كثير من الهيئات الدستورية تتداول



فيما بينها العمل الواحد، وتتقاسمه مراحل حتى ينشأ كاملا منها جميعا، كما تتبادل الرقابة فيما بينها على الأعمال.

ومن جهة أخرى، يلاحظ من الناحية الإدارية. لا الدستورية فقط. أن لم تعد السلطة الإدارية المحدودة بالتنفيذ نفسه مجتمعة فى يد فرد ما، أو مرتبطة بتوافر العلم الفردى لموظف ما بالأحكام الشرعية وأمور الحرب والخراج، لأن المعرفة ذاتها لم تعد تتهيأ للمدير بموجب العمل الفردى، ولكنها تتهيأ بواسطة أجهزة فنية متعددة، يتوزع عليها العمل توزيعا فنيا متخصصا، وتجتمع المعرفة بتجميع هذه المعارف والتنسيق بينها وتصنيفها.

والقصد من هذا البيان، إثبات أن ما يكله الماوردى لسلطة من السلطات، قد صار اليوم موكولا لهيئات تنظم على وجه يضمن تجميع الجهود المتعددة، ولم يعد لفرد سلطة طليقة فى تدبير أو تنفيذ. أو على الأقل هذا هو المرتجى. والسلطة تقيدها أحكام الدستور، وفى نطاق أحكام الدستور تقيدها القوانين المتعددة. وفى نطاق هذه القوانين، لا تمارس السلطة التقديرية حسب الغالب وفى المهم من الأمور، لاتمارس كسلطة فردية، وإنما تتخلق فى الممارسة على نحو مركب، فيمر مشروع القرار السياسى أو حتى الإدارى عبر قنوات محددة ومتعددة من خلال هيئات متنوعة محددة قانونا. وإن صدر القرار بإمضاء فردى بعد ذلك، فهو يصدر بهذا الإمضاء تتويجا لكل العمليات المركبة السابقة. وهو فى الغالب فى المهم من الأمور يصدر بإمضاء هيئة يشارك فيها كثير من الأفراد لا فرد واحد.

ويمكن إجمال هذه النقطة بالقول إن السلطة الفردية، سواء فى السياسة أو الإدارة قد تغيرت عن طريقين وعلى مبدأين: توزيع السلطة بين الكثير من الأجهزة والهيئات، وحلول القرار الجماعى محل القرار الفردى فى المهم من الأمور.

وسلطة الإمام التى صورها الماوردى فردية تماما، يبين من تحليل عناصرها التى ذكرها أنها صارت موزعة اليوم بين ما يسمى بسلطات الدولة الثلاث، التنفيذية والتشريعية والقضائية. وأنها فى النظم الحديثة قد استبدل بها ما يسمى بالقيادة الجماعية أو العمل الجماعى، سواء كان تنفيذيا أو تشريعيا أو قضائيا.

وبالنسبة لوزير التفويض الذى خصه الماوردى بجماع سلطات الدولة، لم يعد فى المقدور تسمية أى من عمال الدولة وقيادتها الآن وزير تفويض، ما دام لم يعد فرد ما يملك هذه السلطات مجتمعة ولا واحدة منها كاملة. وفضلا عن ذلك، فإن الماوردى يرتب على الوضع القانونى لوزير التفويض، أن عزله يفيد عزل جميع من ولاهم من عمال التنفيذ. ولا يظهر وجه للأخذ بهذا الرأى الآن، وأن تغيير رئيس الجمهورية أو الملك أو مجلس الوزراء أو المجلس النيابى، لا يقتضى عزل واحد من عمال التنفيذ.

وعلى هذا، فإن منصب وزير التفويض الذى يشترط فى شاغله ألا يكون ذميا، لم يعد هذا المنصب موجودا لا فى النظم الديمقراطية المستهدفة،ولا حتى فى النظم القائمة.

ومن جهة أخرى، فقد أجاز الماوردى للذمى أن يقلد وزارة التنفيذ. وإذا كان وزير التنفيذ حسب قول الماوردى مبلغ معلومات للإمام ومنفذا لقراراته، أى أنه «يؤدى إلى الخليفة ويؤدى عن الخليفة»، فلا يلزم حسب تصور الماوردى أن يقتصر على هذه الوظيفة، إنما يمكن أن يكون مشاركا فى الرأى. وهذا الاشتراك يستوجب عند الماوردى أن يضاف إلى شروط تقليده شرط «الحنكة والتجربة» ،ولكنه لم يقتض إضافة شرط الإسلام إليه. ووزير التنفيذ المشارك فى الرأى هو عينه ما يمكن أن يصدق على وزراء اليوم وغيرهم فى أعلى مناصب الدولة، ولاتزيد مساهمة رئيس الوزراء مثلا أو غيره فى مهام الدولة عن التأدية إلى الجهات التابع لها والتأدية من الجهات التابعة له مع المشاركة بالرأى فى اتخاذ القرارات. ويصدق ذلك على ما ذكره الماوردى عن إمارة البلاد.

أما عن جهة ولاية القضاء، فقد شرط الماوردى لتقلدها، الرجولة بلوغا وذكورية، والحرية والإسلام والعدالة والسمع والبصر، والعلم بالأحكام الشرعية، وفصل عناصر العلم ومداه ثم ذكر: «فإذا أحاط عمله بهذه الأصول الأربعة صار بها من أهل الاجتهاد فى الدين.. وإذا أخل بها أوبشىء منها خرج عن أن يكون من أهل الاجتهاد فلم يجز أن يفتى ولا أن يقضى .. فأما ولا ية من لا يقول بخبر الواحد فغير جائزة». وذكر عن سلطات القاضى أن ولايته عامة وخاصة، والعموم يشمل الفصل فى المنازعات واستيفاء الحقوق وإثبات الولاية على من كان ممنوع التصرف بجنون أو غيره، والنظر فى الأوقاف وتنفيذ الوصايا وتزويج الأيامى وإقامة الحدود، والنظر فى المصالح العامة من كف عن التعدى وغيره، « وتصفح شهوده وأمنائه واختيار النائبين عنه»، والتسوية بين القوى والضعيف. وليس للقاضى جباية الخراج، أما الصدقات فتدخل فى عموم ولايته إن لم يختص بها ناظر فيقبضها القاضى من أهلها ويصرفها فى مستحقيها ، لأنها من حقوق الله تعالى. ويمكن أن يكون القاضى مختصا بإقليم معين عام النظر خاص العمل، أو أن يختص بمنازعات معينة.



ومن الجلى أن ليس من قاض اليوم تجتمع له هذه السلطات. وقد توزعت وظيفة القضاء إلى تقسيمات تتعلق بالولاية (حسب المصطلح الجارى الآن)، وتقسيمات تتعلق بنوعيات الدعاوى،وأخرى تتعلق بالاختصاص الإقليمى. وفوق ذلك وأهم منه فى التمييز بين نظام القضاء الذى يصوره الماوردى والنظام الحالى، أن استبدل فى الغالبية العظمى من تشكيلات المحاكم، استبدل بنظام القاضى الفرد، نظام القضاة المتعددين، ثلاثة أو خمسة أو أكثر، يشتركون فى نظر المنازعة الواحدة وإصدار القرار بشأنها. ولم يعد لقاض فرد صلاحية الحكم وحيدا إلا فيما ضؤل شأنه وتفه أمره من المنازعات. كما استبدل بدرجة القضاء الوحيدة نظام تعدد درجات التقاضى، بحيث يجوز استئناف الدعاوى والأحكام أمام محاكم أعلى.

ومن ثم صار القاضى الواحد مجرد مشارك فى الحكم بين زملائه فى المحكمة، وحكمه خاضع للمراجعة من المحاكم الأعلى، فلايصير نهائيا واجب النفاذ إلا بتأييده من المحكمة الأعلى أو برضاء المحكوم عليه وعدم طعنه عليه. وثالث الفروق وأهمها أن قاضى اليوم مقيد فى إجراءات نظره للدعاوى وفى إنفاذ الأحكام فيها، مقيد قانونا بمجموعة ضخمة من القوانين التى تنظم إجراءاته وترسم له مسلكه فى النظر والتقرير، وتحدد له الأحكام التفصيلية التى يلتزمها فى نظر الموضوع وإثبات وقائعه وتبين أوضاع المتنازعين وحقوقهم، وهذه كلها تصدر بها قوانين من سلطات التشريع. والقاضى فوق ذلك مقيد من الناحية العملية بسوابق ما استقرت عليه الأحكام من درجات التقاضى الأعلى.

ويمكن ملاحظة أن وظيفة القاضى فى تصور الماوردى تدور فى دائرة أوسع فى إطار الشريعة الإسلامية، دائرة تشمل التفسير والتطبيق، وتشمل أيضا الاجتهاد بالقياس وغيره مما يَعُدُّه مصدرا من مصادر التشريع الإسلامى، أى يدخل فى وظيفته ما يُعَدُّ ذا صفة تشريعية بالمعنى المتعارف عليه اليوم للوظيفة التشريعية، التى تدخل ممارستها فى اختصاص السلطة التشريعية وحدها الآن. وقد سقط عن القاضى فى النظام الجارى عليه العمل الآن عدد من الصلاحيات، مثل اختيار النواب عنه والأمناء، وكذلك مايتعلق بالصدقات.ومن ثم فإن اختلاف الوظيفة القضائية الآن على هذا النحو، يمكن به النظر فى اختلاف الشروط.

ومجمل القول فى هذه النقطة، أنه حيثما أمكن الأخذ بما يسمى اليوم بالأساليب الديمقراطية فى بناء الدولة، فإن ذلك يمكن أن يحل. من وجهة نظر إسلامية سياسية. تلك المشكلة ذات الأهمية فى تكوين الجماعة السياسية. ويمكن بهذه الأساليب رسم خريطة لتوزيع السلطات العامة، على نحو يمكن من المساواة بين المواطنين جميعا مسلمين وغير مسلمين، بما لايخل بالأساس النظرى والفقهى الذى يقوم عليه تفكير الماوردى نفسه. وذلك كله



بدت فى الآونة الأخيرة، من بعض من يتزيون زى التيار الإسلامى، أمور وأحداث مما ينكره الإسلام فكرا ومسلكا، ومما لا يتجافى فحسب مع روحه السمحة، ولكنه يتجافى مع ما عاهد به المواطنين من عصمة الأفراد والأموال ودور العبادة



وفقا لمبدإ توزيع السلطات وحلول الهيئات محل الأفراد فى اتخاذ القرارات. وأنه حيثما يبنى تنظيم الدولة على أساس من دمج السلطات والسلطة الفردية، فإن فكر الماوردى يظل على حاله فيما شرط من شروط لتقلد بعض الوظائف العليا التى تتركز فيها السلطات وتنكشف السلطة الفردية

وإذا أمكن قبول هذه النتيجة، فإن حقيقة المسألة. الخاصة بالمساواة بين المسلمين وغيرهم، وما تؤثر به فى أوضاع الجماعة السياسية. هذه المسألة تئول من الناحية العملية إلى وضع آخر يتعلق بأساليب بناء الدولة ونظام الحكم. ومن هنا تظهر أهمية أخرى للأساليب الديمقراطية فى أحكام بناء النظم السياسية، وقدرة هذه الأساليب على استيعاب مبدإ المساواة فى بناء الجماعة السياسية.

إن كل ماورد ذكره فيما سلف، يتعلق بحوار فكرى حول الحقوق والواجبات. وإذا أمكن حل هذه المسألة من وجهة نظر الفكر الإسلامى، فلا يظهر أن سيبقى ما يحتاج إلى حلول فكرية، لأنه بذلك تنحل مسألة المساواة والمشاركة من وجهة نظر الفكر الإسلامى وهذا أهم ما يؤثر فكريا فى بناء الجامعة السياسية.

وكل ما يتبقى بعد ذلك يتعلق بالسلوك والممارسة. ولا يظهر أن عقبة فكرية تعوق الوصول فى هذا الأمر إلى المستوى المأمول. ومراجعة الأدبيات السابقة يوضح ذلك. وإن عصمة الأموال والأرواح وحرية العقيدة واحترامها وممارستها، كل ذلك سبق بيان ما يراه مفكرو التيار الإسلامى عن رأى الإسلام فيه، وهو نظر لا يكاد يكون محلا لخلاف. بل هى جوانب يسوقها الداعية المسلم اعتزازا منه بموقف الإسلام فى إنسانيته.

وقد سلفت الإشارة فى فصل سابق، إلى ما بينه الإمام حسن البنا من أن الإسلام يلقى على هذه الحقوق قداسة لا توفرها لها القوانين المدنية. كما سلفت الإشارة فى هذا الفصل إلى ما ذكره يوسف القرضاوى بعد نحو ثلث القرن من اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان أيا كان دينه، وأن اختلاف الناس فى الدين واقع بمشيئة الله، وأن ليس المسلم مكلفا بمحاسبة غير المسلمين.

على أنه بدت فى الآونة الأخيرة، من بعض من يتزيون زى التيار الإسلامى، بدت أمور وأحداث مما ينكره الإسلام فكرا ومسلكا، ومما لا يتجافى فحسب مع روحه السمحة، ولكنه يتجافى مع ما عاهد به المواطنين من عصمة الأفراد والأموال ودور العبادة.



لا يستطيع منصف أن يطمئن إلى نسبة هذه الممارسات إلى التيار الدينى الإسلامى. ولم تتكشف أى مسئوليات محددة عن أى من هذه الوقائع. على أن وجه النظر هنا، لا يتعلق بواقعة حدثت أو بيان أو منشور وزع، ولكنها تتعلق بزعم انتساب هذه الأمور إلى التيار الإسلامى السياسى، مما يوجب اتخاذ موقف جهير يزيل هذا الزعم ويعلن موقف الإسلام من تلك الأمور. وقد لا تتوقف تلك الأحداث بذلك. ولكن موقف البراءة منها من شأنه أن يفسد دلالتها ودورها السياسى، فعلا وردود فعل، ويجردها من فاعلية ضارة تراد من ورائها.

ومن جهة أخرى، فإن الإسلام يميز بين المعاهدين والحربيين من أهل الكتاب، ولو كانوا على دين واحد، وهذا يوجب تمييزا واضحا بين النصارى المواطنين وبين غيرهم، سواء فى المواقف التاريخية أو الحالية، وهو تمييز يفتقد كثيرا فيما يكتب فى الأدبيات الآن. وفقدان هذا التمييز من شأنه إشاعة الكراهية تجاه فريق من أبناء الوطن بغير مستند من واقع تاريخى. وتلزم الإشارة أيضا إلى منهج الأستاذ الإمام محمد عبده عندما ذكر أنه يتعين ألا تحاسب جماعة من أبناء الوطن بفعل فرد فيها أو أفراد. إنما يجب فرز الخيوط بدقة فى هذا الشأن. ولكن الحاصل أن بعضا من الجماعات يستبد بها الغلو أو يخضع بعضها لما لا يعرف من المؤثرات، لإشاعة الكراهية ضد المواطنين من غير المسلمين. وهذا جهاد فى غير ميدانه، وتوجيه للكراهية إلى غير مستحقها، وصرفها عمن يستحقها من الأعداء الحقيقيين للوطن والإسلام، وشغل للناس بغير الحقيقى من الأخطار، شغلا لا يقف ضرره عند ذلك، ولكنه يمتد إلى المساهمة فيما يراد من خلق الصراع خلقا بين فئات الشعب بعضها وبعض.

وقد كتب الأستاذ عمر التلمسانى فى صحيفة الدعوة (ربيع الأخر عام ١٤٠٠هـ)، مستهجنا نسبة أى شبهة فى مسلك الأكثرية المسلمة تجاه الأقلية القبطية، فقال: «إن الموقف فى مصر من جميع جوانبه، لا يحتمل مثل هذه الإثارات. إن أضرار الإساءة إلى هذا الوطن، تلحق أول ما تلحق بالأكثرية فيه. فهل بلغ الغباء من المسلمين فى مصر، أن يسيئوا إلى وطنهم بأيديهم وإلى أنفسهم بأنفسهم؟! لا أظن، فما زال فى الرءوس العقول». ■



المراجع

(١) فى ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد الثالث، الطبعة الثامنة عام ١٩٧٩.

(٢) مقال «قبل تقنين أحكام الشريعة كأساس لتطبيقها» الدكتور محمد فتحى عثمان. مجلة المسلم المعاصر، العدد الحادى عشر (يولية. سبتمبر عام ١٩٧٧)، ص ٨٥ . ٨٧.

(٣) مقال «قضايا الدستور والديمقراطية فى التفكير الإسلامى المعاصر» د. محمد فتحى عثمان، مجلة المسلم المعاصر العدد السادس (إبريل. يونية عام ١٩٧٦). ص ١٠٧ . ١١٣.

(٤) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، الشيخ محمد الغزالى.

(٥) معركة الإسلام والرأسمالية، سيد قطب، القاهرة عام ١٩٥١ الطبعة الأولى.

(٦) شبهات حول الإسلام، محمد قطب، القاهرة عام ١٩٥٤، ص ١٧٦ . ١٨٢.

(٧) غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى، الدكتور يوسف القرضاوى، القاهرة عام ١٩٧٧.

(٨) من أين نبدأ.. الشيخ عبدالمتعال الصعيدى.

(٩) أزمة الفكر السياسى الإسلامى فى العصر الحديث.. مظاهرها. أسبابها. علاجها. الدكتور عبد الحميد متولى الطبعة الثانية عام ١٩٧٠.

(١٠) أزمة الفكر.. المرجع السابق، ص ١٢ . ١١٣.

(١١) بحوث إسلامية، الدكتور عبد الحميد متولى، منشأة المعارف بالإسكندرية عام ١٩٧٩، بالبحث الثانى عن الإسلام ومشكلة المساواة بين المسلمين وغير المسلمين.

(١٢) «مبادىء نظام الحكم فى الإسلام.. مع المقارنة بالمبادئ الدستورية الحديثة».

(١٣) ماركسية القرن العشرين، روجيه جارودى، ترجمة نزيه الحكيم، دار الآداب بيروت عام ١٩٦٧. ص ٥٩.

(١٤) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تأليف أبى الحسن على بن محمد حبيب البصرى الماوردى، راجعه الدكتور محمد فهمى السرجانى مدرس بكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر، المكتبة التوفيقية بالقاهرة سنة ١٩٧٨.

المسيحيون فى الحكم الإسلامى*

■■ «باسم الإله الواحد» الذى نعبده جميعاً.. يسرنى نيابة عنكم أن أرحب بالسيد الرئيس أنور السادات.

...

وفى هذا اليوم الذى يزور فيه مكان البطريركية وموضعها هنا، إنما يذكرنا بعلاقة الإسلام بالنصارى، وزيارة الرئيس اليوم لها مغزاها الكبير.

وسأتحدث فى قليل عن هذه الناحية، الإسلام حينما يتحدث عن النصارى.. فإنما يسميهم أهل الكتاب، ولقد ورد فى القرآن الكريم عديد من الآيات فى محبة أهل الكتاب، وفى محبة النصارى، نذكر من بينها ما ورد فى سورة آل عمران (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين)، وهنا نرى القرآن قد تكلم عن أهل الكتاب، كأهل عبادة، وأهل سهر فى الصلاة وأهل معروف وإيمان وصلاح، ولذلك ورد فى سورة البقرة (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به).. ولهذا نجد أن القرآن حينما يتكلم عن المسيحيين من أهل الكتاب إنما يطلب أن تكون المجادلة بينهم بالتى هى أحسن.. فلقد ورد فى سورة العنكبوت (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد).

بل أكثر من هذا فقد وضع القرآن أهل الكتاب فى موقف السؤال والمشورة بل والإفتاء فى الدين فقد ورد فى سورة يونس (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك).

وقد ورد أيضاً فى سورة الأنبياء (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) والقرآن حينما يتكلم عن النصارى يصفهم أيضاً بأنهم أهل رأفة ورحمة، ففى سورة الحديد فى الحديث عن السيد المسيح يقول: (وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة) وهو أيضاً يجعلهم أقرب الناس مودة للمسلمين فى آية قرآنية فى سورة المائدة يميز فيها القرآن بين المسيحيين والمشركين فيقول (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون) وهنا نرى أن القرآن وضع اليهود الذين أشركوا فى ناحية ووضع النصارى فى ناحية أخرى مميزاً بينهم وبين المشركين - بهذا عاش المسيحيون فى الحكم الإسلامى مع الحكام الذين فهموا القرآن على حقيقته وأحبوا السماحة، عاش النصارى معهم عيشة طيبة نريد أن نتوجها بحكم أنور السادات. فى تلك العصور نجد تمازجاً قد حدث بين المسلمين والمسيحيين ظل هذا التمازج ينمو شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى حالة من الوحدة.. فلنا فى التاريخ الإسلامى صداقات كثيرة بين حكام المسلمين وبين المسيحيين ونراهم قد اعتمدوا عليهم فى ميادين عدة لعل من أبرزها التعليم والطب والهندسة والأمور المالية.

وفى التعليم نرى أن الخليفة معاوية بن أبى سفيان اختار رجلاً مسيحياً لكى يؤدب ابنه زياد.. وزياد اختار كاهناً مسيحياً لكى يؤدب ابنه خالدا.. والخليفة عبد الملك بن مروان كان يأخذ يوحنا الدمشقى مستشاراً له.. وقد اختار رجلاً معلماً مشهوراً اسمه أطاناسيوس لكى يؤدب أخاه عبد العزيز.

ولما صار عبد العزيز بن مروان حاكماً لمصر أخذ أطاناسيوس معه كمستشار له. نجد أن الأخطل كان من الشعراء المسيحيين المشهورين اندمج فى مجموعة متلازمة مع جرير والفرزدق اشتهرت فى العصر الأموى.. وكان الأخطل المسيحى حينما يدخل إلى مساجد المسلمين يقوم المسلمون له إجلالاً لعلمه وأدبه كما يروى التاريخ الإسلامى.

نرى فى التاريخ الإسلامى أمثلة واضحة للسماحة الإسلامية.. نذكر منها أن الخليفة عمر بن الخطاب حينما اقترب من الموت أوصى من يأتى بعده فى الخلافة من جهة أهل الكتاب بأمرين.. الأمر الأول وفاء العهود التى أعطيت لهم.. والأمر الثانى قال فيه: ولا تكلفوهم فوق ما يطيقون. عمر بن الخطاب فى إحدى المرات حينما كان الوليد بن عقبة واليا على بنى تغلب ومن فيهم من النصارى.. لما رأى عمر بن الخطاب أن الوليد بن عقبة هدد هؤلاء الناس وتوعدهم عزله من الولاية حتى لا يلقى بهم شراً.

وهناك قصة لطيفة تروى عن عمر ابن الخطاب أنه حينما كان خليفة المسلمين اختلف على بن أبى طالب الذى صار الخليفة الرابع مع رجل يهودى وجاء الاثنان أمام الخليفة عمر.. فقال عمر لعلى.. يا أبا الحسن اجلس إلى جوار خصمك لنبحث الأمر فجلس على وقد تأثر قليلاً.. وبعد أن قضى بينهما، قال عمر لعلى.. هل استأت لأنى أجلستك إلى جوار خصمك، قال له.. كلا.. أنا استأت لأنك ناديتنى بكنيتى يا أبا الحسن.. وفى هذا نوع من التعظيم خفت أن يشعر معه هذا اليهودى بأنه لا يوجد عدل بين المسلمين.

ولهذا نرى أن الإمام على بن أبى طالب الذى صار من أعظم الخلفاء فى تاريخ الإسلام يعاتب عمر ويقول له.. لم تساو بيننا.. وإنما رفعتنى عنه بأن ناديتنى بكنيتى.. هكذا كان المسلمون يسلكون فى العدل بين رعاياهم. أيا كان مذهبهم.

ونجد أنه فى التاريخ كثير من الخلفاء المسلمين وولاتهم اهتموا بالمسيحيين من كل ناحية.. كان محمد بن طغج الأخشيد يبنى بنفسه الكنائس ويتولى ترميمها.. وكنيسة أبى سرجة فى مصر القديمة اهتم ببنائها الخلفاء المسلمون وكنيسة أبى سيفين.. القديس ماركريوس بمصر القديمة تولى الاهتمام بها الخليفة العزيز بالله الفاطمى.. ولا أستطيع أن أذكر مقدار اهتمام الخلفاء الفاطميين بالكنائس وبنائها وترميمها فى العهد الفاطمى.. إنما أترك هذا الأمر لعالمين كبيرين من علماء الإسلام هما المقريزى فى كتابه

هكذا كان المسلمون يسلكون فى العدل بين رعاياهم. أيا كان مذهبهم



● من نص الكلمة التى ألقاها البابا شنودة الثالث بطريرك الأقباط الأرثوذكس أمام الرئيس السادات يوم ١١ أكتوبر ١٩٧٧ فى الاحتفال الذى أقيم فى البطريركية بمناسبة وضع حجر الأساس لمستشفى مارمرقس.

القصص.. والمسعودى فى كتابه مروج الذهب.

من ناحية الطب الذى بسببه نحن مجتمعون لإنشاء هذا المستشفى نجد أن أول مستشفى فى مصر كان فى عهد أحمد بن طولون وكان أحمد بن طولون من المحبين للأقباط كثيراً وقد اختار مسيحياً لكى يبنى له مسجد أحمد بن طولون.. واختار مسيحياً لكى يبنى القناطر واختار مسيحياً يبنى كثيراً من منشآته وكان أحمد بن طولون يذهب كثيراً لزيارة دير القصير.. وكان على صلة وثيقة برهبانه هناك.

والأديرة المصرية كانت دائماً مجالاً لالتقاء الخلفاء والولاة وكانوا يحبونها ويقضون فيها الكثير من الوقت ويصادقون رهبانها وأساقفتها. نسمع أن هشام بن عبد الملك ابتنى للبطريرك فى أيامه بيتاً إلى جوار قصره وكان يستمع منه إلى صلواته وعظاته.. ونسمع أن الخليفة العزيز بالله الفاطمى كان على صداقة كبيرة بالبابا إبرام بن زرعا وبالأنبا ساويرس أسقف الأشمونين.. وكان يدعوهما إلى قصره مع رئيس القضاة يتفاهمان فى الدين وهما فى حضرته.

وفى الطب نسمع أن الخليفة معاوية بن أبى سفيان كان له طبيبه الخصوصى وكان نصرانياً.. والخليفة أبو جعفر المنصور كان طبيبه الخاص مسيحياً اسمه جرجس بن بختيشوع.. وكان جبريل بن بختيشوع طبيباً لهارون الرشيد.. وكان الخليفة هارون الرشيد يقول للناس: من كان منكم له حاجة عندى فليكلم فيها جبرائيل لأنى لا أرد له طلباً.

وكان يوحنا.. مشهوراً من أيام الرشيد إلى أيام المتوكل.. وكان هؤلاء الخلفاء يدعونه إلى موائدهم وما يأكلون شيئاً إلا فى حضرته. وكان حنين بن اسحق من أشهر الأطباء فى العصر الإسلامى حتى قيل عنه أنه أبو قراط عصره وجالينوس دهره.. وحنين بن اسحق تعلم كذلك اللغة والفقه الإسلامى على يد الإمام أحمد بن حنبل وعلى يد سيبويه ونبغ فى اللغة العربية نبوغاً عظيماً.

وبانتشار اللغة العربية فى مصر التى تعلمها وأتقنها أقباط مصر كانت هذه اللغة مجالاً كبيراً للتوحيد بين الناس فكان الأقباط يتكلمون اللغة العربية.. وكان المسلمون فى الريف يستخدمون التقويم القبطى فى أمور الفلاحة جميعها.

نرى هذا التعاطف كان موجوداً باستمرار، ونسمع عن كثيرين من الخلفاء والحكام أنهم تولوا هذه الوحدة الوطنية ورعوها.



عمر بن الخطاب انتهت حياته على الأرض وانتهت مدة خلافته ولكن الخير الذى عمله عمر لم يمت بموته إطلاقاً.. ومايزال حياً حتى الآن يملأ الآذان ويملأ الأذهان.. ويحيا مع الناس على مدى الأزمان.

أنا لست بمستطيع أن أتحدث طويلاً فى هذا الأمر لكيلا أنسى نفسى وكلكم مشتاقون لسماع السيد الرئيس ولكنى أحب أن أقول إن الخير يا سيادة الرئيس هو الذى يعيش دائماً ويخلد مع الزمن.. ونحن نسعى إلى انتشار الخير بين الناس ونريد أن يكون الخير الذى يسلك فيه الناس خيراً اختيارياً ينبع من قلوبهم وليس خيراً إجبارياً يرغمون عليه. صدقوا.. أستطيع أن أقول إن عمل الخير ليس هو الخير.. وإنما الخير الحقيقى هو محبة الخير داخل القلب.. فالإنسان قد يعمل الخير مضطراً.. وقد يعمل الخير خوفاً.. وقد يعمل الخير تقليداً.. ولكنه لا يكون خيراً فى الحقيقة إنما الإنسان الخير هو الذى يحب الخير فى عمق أعماقه حتى إن لم يعمله تصير نيته له عملاً والأعمال بالنيات.. الإجبار للخير يكون عبيداً يخضعون للسلطة.. أما الخير الاختيارى فيكون قديسين.

ومن هنا نريد أن ننشر الخير بين الناس فى قلوبهم من الداخل.. وأن نوطد أعمال الصلاح والبر داخل الإنسان وليس خارجه.

إن يوسف الصديق كانت الخطيئة أمامه سهلة وتلح عليه.. وكان ربما يعاقب إن لم يرتكبها، ولكنه فضل ألا يخطئ لأن محبة الخير فى قلبه كانت أقوى من إغراءات خفية.

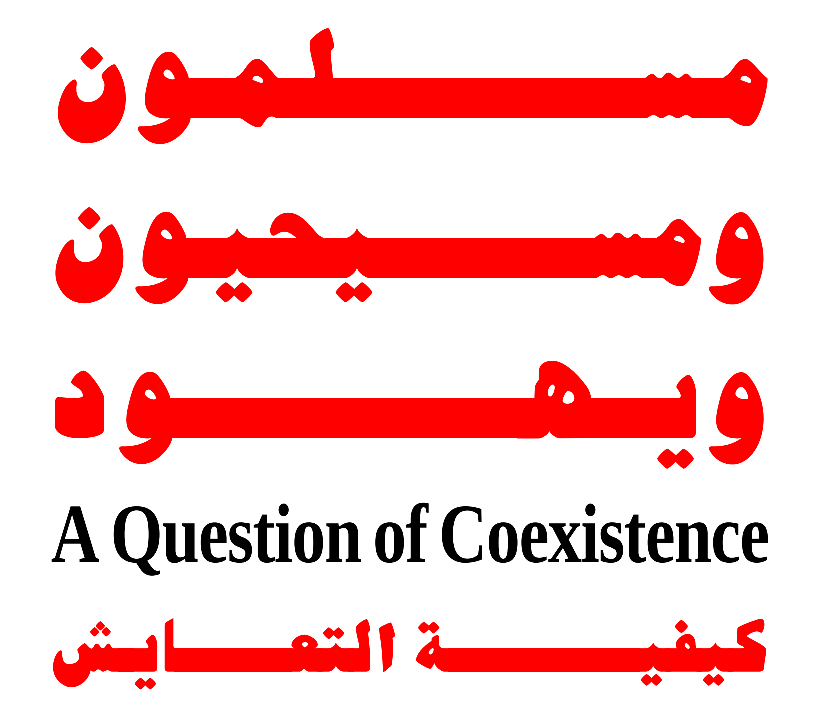
هذا هو الإنسان الصالح الذى نريده.. والذى نريده من تعليم الدين والذى نريده من الوعظ والذى نريده من تشجيع الدولة.

ونحن كمسيحيين نحب أن نساهم فى هذا المجال فى إيجاد المواطن الصالح قلباً وتصرفاً، نساهم بكل قوتنا لأننا نحب مصر بلادنا ونحب ترابها ونحب ماءها ونحب تاريخها المجيد ونحب رجالها العاملين ونحب أيضاً رئيسها أنور السادات.. مصر بالنسبة لنا ليست وطناً نعيش فيه، إنما هى وطن يعيش فينا، يعيش فى داخلنا.. مصر هذه نحبها الحب كله ونحرص على سمعتها كل الحرص فى الداخل وفى الخارج أيضاً ونبذل كل جهدنا لكى تكون صورة مصر مشرقة فى كل مكان، جميلة عند كل شعوب العالم تليق بعبارة الكتاب المقدس التى قال فيها (مبارك شعب مصر). ■



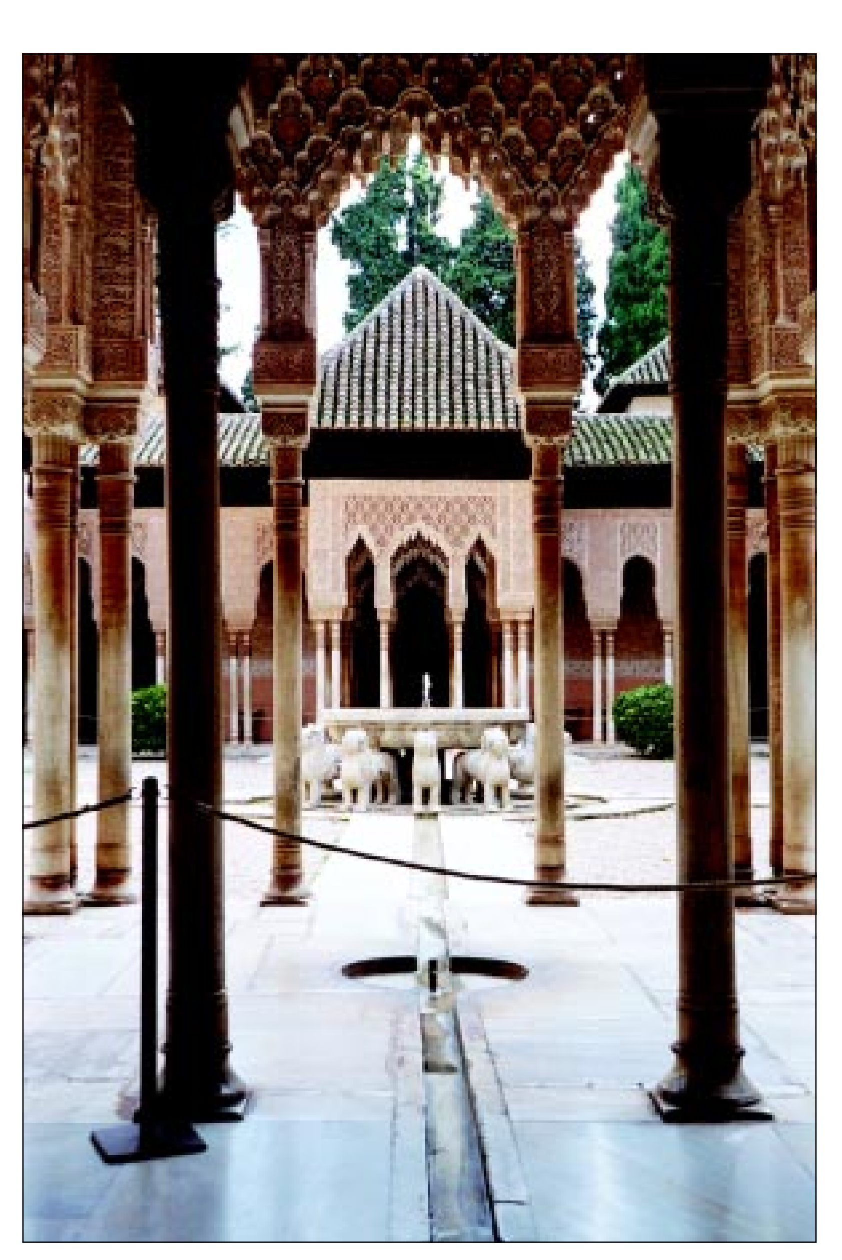
مصر بالنسبة لنا ليست وطناً نعيش فيه، إنما هى وطن يعيش فينا، يعيش فى داخلنا





جـى. اتش. إليوت

By J.H. Elliott



■ ■ خطوة إلى داخل المسجد العظيم فى قرطبة لتجد نفسك قد انتقلت إلى وقت يبدو أنه قد تجمد وإلى مساحة آخذة فى التلاشى. فى كل مكان تنظر إليه، ستواجه أعمدة طويلة من الآفاق المنحسرة، حوالى ٨٥٠ عامودا فى المجموع الكلى، والتى ترتفع ضعف صفوف الأقواس المتداخلة المكونة من الحجر الأبيض والطوب الأحمر بالتناوب. يغمرك انطباع قوى بالانتظام والاتساق وفوق كل هذا بالسكون السرمدى.

بالإضافة إلى أنه للوهلة الأولى يبدو الاتساق كمعرض لآثار متنوعة غير متطابقة كالأعمدة الرخامية، على سبيل المثال. عندما باشر أمير المسلمين عبد الرحمن الداخل فاتح الأندلس بناء المسجد العظيم فى عام ٧٨٠ ميلادية، استغل الأعمدة وتيجانها المسلوبة من المبانى القوطية والرومانية التى وجدت فى رقعة كبيرة تمتد من شمال أفريقيا إلى مدينة ناربون جنوب فرنسا.

إذا عكس المسجد روح الأثر العظيم المسجد الأموى فى سوريا التى فر منها عبد الرحمن الداخل بعد سقوط الدولة الأموية، فهو أيضا قد استلهم تصميمه من المبانى الرومانية ومن الأشكال المحلية الوطنية للأسبان القوطيين. بالطبع، وفقا للتاريخ فقد بنى هذا المسجد على أطلال كنيسة القوطيين المتهدمة «سان فيسنتى»، هو مكان للعبادة

The Arts of Intimacy: Christians Jews and Muslims in the Making of Castilian Culture

«فنون التعايش: المسيحيون واليهود والمسلمون وصنع الثقافة القشتالية»

by Jerrilynn D. Dodds
Maria Rosa Menocal and Abigail
Krasner Balbale.
Yale University Press

■ ■ ■

All Can Be Saved: Religious Tolerance and Salvation in the Iberian Atlantic World

«الجميع يمكنه الخلاص: التسامح الدينى والخلاص فى عالم ايبيريا الاطلسى»

by Stuart B. Schwartz
Yale University Press

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books

ترجمة: أميمة صبحى

شارك المسلمون فيه المسيحيين حتى بدأ البناء الجديد. ومن الجدير بالذكر أن كنيسة «سان فيسنتى» نفسها تم بناؤها على أطلال معبد رومانى.

قرطبة القرون الوسطى، بجانب المسجد العظيم فى قلبها، كانت مركزا حيث التقاء الثقافات والحضارات واندماجها سويا.

بجانب أشكاله المعمارية الانتقائية من كل صوب، فإن هذا المسجد كان أيضا انتصارا مؤكدا للهيمنة الإسلامية، الهيمنة التى كانت فى عهد عبد الرحمن الداخل وخلفائه الأمويين ممتدة حتى الحدود الشمالية لشبه الجزيرة الايبيرية أو جزيرة الأندلس كما كانت تسمى فى عهده، حيث مازال المسيحيون قابعين.

تلك الهيمنة التى بدأت عندما عبر جيش البربر أو الأمازيغ مضيق جبل طارق فى عام ٧١١ ميلادية وأسقطوا الدولة القوطية، الوريثة لرومان أسبانيا. كان الفتح سريعا، وعندما أصبحت الخلافة الأموية فى قرطبة وصلت لأوج قوتها فى القرن العاشر. فكان الزوار المسيحيون ينبهرون من ثراء وعظمة هذه الدولة وقد أخفى هذا الهشاشة الداخلية التى أدت إلى الصراع على السلطة وهذا بدوره كان سببا فى السقوط فى حرب أهلية. فى عام ١٠٣١ انقسمت الدولة لأكثر من عشرين دويلة يتولى حكم كل منها أمير من الأمراء الذين أطلق عليهم لقب ملوك الطوائف. مع سقوط الأمويين كانت أيام قرطبة العظيمة قد أوشكت على الانتهاء، وأخذت طليطلة مكانها كمركز للحضارة الإسلامية، وهى تقع مع ما كان يشكل آنذاك الحدود الشمالية للدولة الأموية مع الممالك المسيحية. وهى المدينة التى كانت فى وقت سابق عاصمة القوط الأسبانيين، وقد أصبحت فيما بعد عاصمة إحدى دول ملوك الطوائف، باهرة الزوار المسيحيين بعظمة وبهاء رفاهية الحياة بها كما كان أجدادهم ينبهرون بعظمة قرطبة. ولكن الضغائن الداخلية الناتجة من انقسام أسبانيا الإسلامية أعطت للمسيحيين فرصتهم. فى عام ١٠٨٥ قام الفونسو السادس ملك الممالك المتحدة قشتالة وليون، والذى كان قد تذوق طعم طليطلة أثناء نفيه المؤقت عن مملكته، بدخول المدينة بجيشه بانتصار. ومن ذلك الوقت فصاعدا بقيت طليطلة فى يد المسيحيين. ولكن إذا كان هذا مؤشرا لنهاية قصة ما فإنه كذلك مؤشر لبداية أخرى. هذه القصة الممتدة من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر تم قصها بحيوية بواسطة ثلاثة من

قرطبة القرون الوسطى، بجانب المسجد العظيم فى قلبها، كانت مركزا حيث التقاء الثقافات والحضارات واندماجها سويا



الكتاب فى كتاب «فنون التعايش بألفة». ثلاثتهم متخصصون فى التاريخ الثقافى لأسبانيا فى العصور الوسطى، بجانب ماريا روزا منوكال الباحثة المعروفة ببحثها المهم عن الحضارة الأسبانية فى العصور الوسطى «زخرفة العالم: كيف تسنى للمسلمين واليهود والمسيحيين أن يتعايشوا فى ظل ثقافة من التسامح فى أسبانيا فى العصور الوسطى» وكان الهدف من هذا البحث هو إعطاء فكرة للقراء الغربيين عن إنجازات وتأثير الأندلس الإسلامية، ويسير كتاب «فنون التعايش بألفة» على نفس نهجه. فهو كتاب للقراء العاديين من غير المتخصصين ولكنه يعد واحدا من أكثر الكتب المنشورة حديثا التى تؤخذ فى الحسبان على أنها متخصصة فى التاريخ الأسبانى فى العصور الوسطى، ومن أكثر الكتب التى تم تكريسها لتكون مقالا ببيلوغرافيا واسع النطاق.

لا توجد أى ملاحظات على النص، ولكنه يحتوى على العديد من الإدراجات المطبوعة على خلفية برتقالية اللون التى تمد القارئ بالمعلومات الإضافية عن الأشخاص والأماكن إلى جانب مختارات من نصوص معاصرة سواء كانت نصوصا أصلية أو مترجمة. والنتيجة كانت كتابا جذابا مزودا بالرسوم التوضيحية ببذخ ومنتجا بشكل رائع، رغم أن وزنه يعتبر عائقا فلا يحمل بسهولة فى اليد.

تاريخ شبه جزيرة ايبيريا فى العصور الوسطى يعتبر سلسلة معقدة من الممالك المتنافسة، بربريين ومسيحيين، متفرقين ومندمجين وإعادة تشكيل أنفسهم كانت تنوعا محيرا من التبادل والتركيب، مقدمة تحديات هائلة لأى مؤرخ. بمواجهة مهمة جعل التاريخ أكثر إدراكا للقراء العاديين، حافظ مؤلفو «فنون التعايش بألفة» على الحد الأدنى اللازم لفهم الخلفيات السياسية والعسكرية للأحداث التاريخية. وقد ركزوا اهتمامهم على التاريخ الثقافى الذى هو اهتمامهم الأول. بالنظر لثراء التاريخ الثقافى نظرة خاصة. الفن والعمارة والإنتاج الشعرى فى شبه الجزيرة الايبيرية خلال القرون الوسطى يعتبرون نوعية بحث مدهشة لا يمكن لضوئها أن يخفت بسهولة، خاصة عندما يكون متقدا ومقدما بشكل جيد ككل هذا.

ماذا كان يوجد هناك فى شبه جزيرة أيبيريا فى العصور الوسطى ليجعلها فى ثراء إبداعى؟ فى منتصف التاريخ الأيبيرى من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر بدأ تغيير الحدود. فالفتح العربى البربرى لأيبيريا فى خلال القرن الثامن حدث بشكل عكسى بواسطة حركة المسيحيين التدريجية الجنوبية من شمال أسبانيا حتى المقاطعة التى فتحها المسلمون. هذه الحركة، امتدت عبر كثير من القرون وإلى حد ما وبشكل مضلل عرف هذا الاسترداد بأنه حرب مقدسة ضد الإسلام. فى الواقع، بالرغم من أن المسيحيين عكسوا الحملات الصليبية على جهاد المسلمين، إلا أن الحرب بينهم قد تخللتها فترات طويلة من السلام. وكان المسيحيون والممالك الإسلامية يتحدون ويفسخون الاتحاد بينهم وكأن الأمر ضرورة حتمية. وقد انتهت عملية الفتح نفسها فقط فى عام ١٤٩٢، عندما استسلم آخر حصن إسلامى، مملكة غرناطة التى ضعفت بشدة، إلى جيش الملكة ايزابيل وزوجها فرناندو الثانى، حاكمى أسبانيا المتحدة التى اتحدت بزواجهما.

يقول المؤرخ ريتشارد فليتشر فى كتابه «مسلمى أسبانيا»، الذى ربما مازال من أكثر الكتب وصولا إلى التاريخ العام للأندلس بالنسبة للقارئ العادى، «الحقيقة الواضحة أن ما بين عام ٧١٢ ميلادية و١٤٩٢ عاشت المجتمعات الإسلامية والمسيحية جنبا إلى جنب فى شبه الجزيرة الايبيرية، وأن هذا التعايش استمر طويلا وبشكل حميمى». ربما تكون هذه الصورة هى التى أوحت لمؤلفى «فنون التعايش بألفة» هذا الاسم. فكان يوجد بين المسيحيين ومسلمى أسبانيا منطقة حدود مسامية، تمتد وترتبط بنشوب وخفوت الحرب والتسوية بينهم. والفتح الإسلامى غمر مجتمعات عريضة من المسيحيين الأهليين، الذين عرفوا باسم «المستعربين» أى المسيحيين المعربين ليعيشوا تحت الحكم الإسلامى. فكلا من المستعربين واليهود المعروفين بأهل الكتاب كما تقول النصوص الإسلامية، عاشوا فى حماية كأقليات دينية فى مقابل اعترافها بالسلطة الإسلامية ودفع ضريبة خاصة تسمى «الجزية».

عندما غزا الفونسو السادس وشعبه من القشتاليين طليطلة عام ١٠٨٥، حافظ على استمرارية الحكم الإسلامى بفاعلية، واعدا المسلمين الباقين بتوفير الحماية لهم، وحرية العبادة وأداء صلاة الجمعة فى المسجد. وأثناء تقدم الجيوش المسيحية نحو الجنوب، وقع العديد والعديد من المسلمين تحت الحكم المسيحى، فأصبحت صورة طبق الأصل من المستعربين وعرفوا بعد ذلك بالمدجنين أى المسلمين الذين بقوا فى الأندلس بعد نزوح العرب.

ما وجدناه إذن، أولا فى أسبانيا المسلمة ثم فى الأجزاء التى استرجعها الحكم المسيحى، كان التعايش، خاصة فى المدن ذات التنوع العرقى والدينى، مع درجة من الحماية القانونية امتدت حتى الأقليات. ومع ذلك، فإن الموقف كان قابلا للتغير المفاجئ. ففى منتصف القرن الحادى عشر، على سبيل المثال، قامت جماعة الموحدين وهى طائفة إسلامية موطنها المغرب وامتد سلطانها إلى الأندلس، باتباع سياسة الاضطهاد التى قادت العديد من غير المسلمين إلى اللجوء للمقاطعات المسيحية. وبعد مرور قرنين، تحديدا فى عام ١٣٩١ كان اليهود هم ضحايا مذبحة رهيبة قام بها المسيحيون. لكن التعايش الذى كان موجودا إلى حد كبير وتمليه الراحة أو الديموغرافية أو خليط بينهما كان لفترة زمنية طويلة هو النظام اليومى المعتاد.

مصطلح التعايش convivencia تم استخدامه فى التاريخ الأسبانى منذ أوائل القرن الثانى عشر ليصف العلاقة المشتركة بين أصحاب ثلاثة معتقدات مختلفة. ولكن فى عصر جديد من التعددية الثقافية فى وقت لاحق من القرن العشرين، لم يقتصر الأمر على أن مصطلح التعايش يتطلب حداثة مفاجئة، ولكنها توقفت لتكون محايدة وجاءت بدلا من ذلك لتقترح حالة من التعايش فى وئام، ووضع حد للاستيلاء على غرناطة وطرد اليهود عام ١٤٩٢. الأكثر من وجود أسبانيا العصور الوسطى كان وصفها على أنها مجتمع فريد متسامح، فهى كمنارة أمل لعالم يتحول بشكل درامى بالاختلاط بين الشعوب وصدام الحضارات.

الفكرة الرئيسية لبحث ماريا روزا منوكال «زخرفة العالم» كانت حول عالم ما أطلقت عليه «ثقافة التسامح»، التى ولدت بتعايش وتفاعل المسيحيين واليهود والمسلمين فى بعض المدن مثل قرطبة وطليطلة. وبالمقارنة بكتاب «فنون التعايش بألفة» لن نجد أى استخدام للتعبير «ثقافة التسامح»، فلقد تمحورت فكرة الكتاب حول اندماج هوية الثقافة القشتالية المميزة من خلال «المساحة المشتركة» بين الإسلام واليهودية.

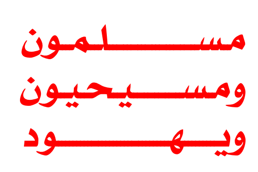
بمعنى آخر، هذه دراسة عن «التفاعل الثقافى» بدلا من «ثقافة التسامح». هنا التراجع لخلفية أكثر حيادية يبدو مفيدا. فهناك إفراط عاطفى نحو فكرة التعايش الأسبانى فى العصور الوسطى، والتسامح نفسه مفهوم غامض، خاصة الذى ظهر خلال القرون الوسطى ووجد فكرة حقوق الإنسان الفردية غريبة تماما.

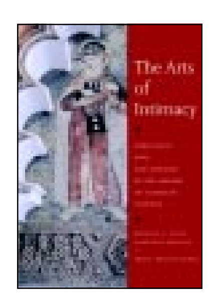
عمليا، كان التعايش عاطفيا وهشا. والجدير بالذكر أنه كان يفتقر إلى المساواة الدينية. فالمسلمون والمسيحيون يعتبرون على حد السواء أنفسهم أصحاب المعتقد الصحيح، وعندما يتمتعون بالهيمنة فهم فقط يتقبلون صاحب المعتقد الآخر فى صبر إكراهى، رغم أن هذا الصبر لم يحل دون اتحاد الممالك المسلمة مع الممالك المسيحية ضد إخوانهم المسلمين، أو اتحاد المسيحيين مع المسلمين ضد إخوانهم من نفس الديانة. ولكن أيا كان الذى يحكم سواء مسلمين أو مسيحيين أو يهودا فقد كانوا طوال الوقت مجتمعين فى المدن والبلدات، يتمازجون باستمرار أعمالهم اليومية ولكن فى بعض المدن كانوا يعيشون فى أحياء معزولة. من الأمور الحتمية المترتبة على اختلاطهم بهذا الشكل هى التقاطهم بعضا من عادات وتقاليد وأذواق جيرانهم. حيث كان يمكن للمسلمين أن يدخلوا الأديرة المسيحية من أجل كأس من الخمر المحرم.

بجانب هذا التفاعل الشعبى جاء التفاعل المشترك بين النخبة الثقافية، بالرغم من أن الصدارة الثقافية ظلت لقرون مع

الفكرة الرئيسية لبحث ماريا روزا منوكال كانت حول عالم ما أطلقت عليه «ثقافة التسامح»، التى ولدت بتعايش وتفاعل المسيحيين واليهود والمسلمين فى بعض المدن مثل قرطبة وطليطلة







مسلمى أسبانيا. ناشئى الحضارة الإسلامية انتشروا عبر الشرق الأوسط، وقد جلب الأمويون معهم من سوريا تقليدا راسخا فى الرعاية الثقافية وأهمية فنون الكياسة، واحتراما عميقا تجاه العلوم وتعلم كل ما يتعلق بالعصور القديمة. المسيحيون الذين كانوا على اتصال بهم بمقارنتهم سيبدون أقل من البربريين الخام.

ولكن كما يوضح «فنون التعايش بألفة»، بعض من هؤلاء المسيحيين أثبتوا أنهم مهرة فى التعلم. ألفونسو السادس وخلفاؤه لم يأخذوا فقط مكان الخلفاء ولكن أيضا تقاليدهم فى الرعاية الثقافية. تحت الحكم المسيحى تحديدا فى القرن الثانى عشر اصبحت طليطلة المدينة المتنوعة عرقيا ودينيا مركزا كبيرا للترجمة من النسخ اللاتينية المعدلة إلى اليونانية والنصوص العربية العملية ونصوص علم الرياضيات والفلسفة التى تم نشرها فى كل أوروبا. تلك التعددية الثقافية التى ميزت طليطلة ستنتقل إلى الجنوب على اثر الاستعادة المسيحية لأسبانيا.

عندما توفى فرديناند الثالث، فاتح اشبيلية، بنى ابنه ألفونسو العاشر «الملقب بالحكيم أو المثقف» لأبيه مقبرة فى مسجد اشبيلية الذى تحول الآن إلى كاتدرائية، ونقش فوق شاهد القبر اسمه تكريما له باللاتينية والعربية والعبرية القشتالية.

مؤلفو «فنون التعايش بألفة» أكدوا على الإدراج المكتوب بالقشتالية لان اهتمامهم ينصب على تتبع التزييف التدريجى للهوية القشتالية المميزة والثقافة بالتفاعل بين الثقافات والناس فى العصور الوسطى. وقد أثبتت قشتالة مبكرا إنها مميزة بين مقاطعات أوروبا الغربية باحتضانها لكل ما هو عامى، ففى قشتالة القديمة فى عام ١٢٣٠ بدل القشتاليون اللاتينية كلغة للوصيات ولكل المستندات المتعلقة بالممتلكات. سحر وجمال أسبانيا الإسلامية جعل من السهل الاستخفاف بتشكيل الثقافة القشتالية التى شكلتها الأقاليم الشمالية لشبه الجزيرة الايبيرية، التى تمتلك روابط دينية وثقافية قوية مع فرنسا. ولكن هذه الثقافة كما ذكرها هذا الكتاب الذى نحن بصدده بوضوح تأثرت بشكل كبير بتجربة التعايش ومواجهة الإسلام المتزامنة. وقد أشار المؤلفون إلى التعابير الملتبسة لعلاقة غامضة دائمة منعكسة فى ملحمة شعبية عظيمة بقشتالة فى القرون الوسطى تم تصويرها فى أغنية الشاعر الملحمى «السيد»* (استراحة السيد). تحكى القصيدة عن مأثرة محارب جاء ليرمز إلى الكفاح الانتصارى للمسيحيين الأسبان ضد المسلمين البربر، رغم انه، من المرجح، كان مرتبطا بمقاتلة الأتباع المسيحيين.

لذلك فإن التفاعل الثقافى لا يكون بالضرورة متوقفا على ثقافة التسامح. ابتداء من القرن الحادى عشر حتى بعد ذلك كان يوجد موقف متصلب من الطرفين منقسم بين التصريحات البابوية بشأن الحملات الصليبية وجهاد الموحدين. ولكن بالرغم من هذه المواقف المتصلبة وانتصار المسيحيين العظيم على المسلمين البربر فى لاس نافاس دى تولوزا فى معركة العقاب عام ١٢١٢، إلا أن الحياة الاجتماعية والثقافية فى قشتالة استمرت عاكسة تأثير المسلمين القوى. السكان المدجنون الذين خضعوا للحكم المسيحى فى صحوة الاسترداد كلفوا عمالهم الحرفيين ببناء كنائس مسيحية تضجر بصمة المسلمين البربريين الواضحة. فى القرن الخامس عشر كانت الأذواق والعادات البربرية تتخلل الحياة الملكية وعندما قبل فردناند وايزابيلا استسلام غرناطة كانوا مرتدين الملابس البربرية.

بالإضافة إلى ذلك كانت الهوة واسعة بين التدريب والممارسة. فأسبانيا الرسمية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر اصبحت مشهورة بتعصبها الدينى، تأسيس محاكم التفتيش، ترحيل اليهود منها، وفرض المسيحية على المدجنين ويطلق عليهم الآن «موريسكيون» وهم المسلمون الذى بقوا فى الأندلس بعد استرداد غرناطة. ولكن بملام فرناند وايزابيلا على سياستهما المتعصبة فإننا ننسى ببساطة تصرف انجلترا وفرنسا فى العصور الوسطى عندما طردوا يهودهم منذ فترة طويلة. هناك تفسير واحد لهوس الانهماك فى نقاء العرق الدينى والتوحيد الواضح الجلى فى أسبانيا أثناء عهد فرناند وايزابيلا يمكننا إيجاده فى تصورهم عن دولتهم فى عصر النهضة الأوروبية على أساس إنها ارض «سيئة الأعراق» وتشوه عقيدتهم. فلديهم حافز قوى لمقاومة إرادة الأسطورة السوداء** الأولية لإطلاق كل نزاع ضد أسبانيا يمكن تصوره، متضمنا التعايش الذى استمر طويلا بين المسيحيين والمسلمين واليهود الذى جعل دولتهم شاذة فى العصر المسيحى المبكر.

حكم خلفاء الأسبان «الهابسبورج»*** أصبح مثالا للتعصب. الإصرار على اقتلاع كل ذرة هرطقة والحاجة إلى الدم النقى لشغل المناصب، حتى إذا لم تكن شاملة ومؤثرة كما يدعى أحيانا، يعد كل هذا مؤشرات واضحة لنيل المناصب العليا الحكومية فى الكنيسة والدولة. ومن الطبيعى أن نستنتج من التصريحات والسياسات الرسمية، خاصة بعد بلوغ ذروة التعصب بطرد الموريسكيين منذ ٤٠٠ عام الآن، أن التعصب قد تغلغل فى نسيج المجتمع الأسبانى بأجمعه.

هذا واحد من افتراضات ستيوارت شوارتز، أستاذ التاريخ بجامعة يال الأمريكية والمعروف من خلال كتبه عن مستعمرة البرازيل، والذى يتحدى بكتابه «الجميع يمكنه الخلاص» عن التسامح الدينى والخلاص فى شبه الجزيرة الايبيرية. مدى طموحه وكثرة وثائقه واتساع نطاقه الجغرافى كل هذا جعل من كتابه جهدا ملحوظا. اعتمادا على مئات القضايا من تحقيقات محاكم التفتيش الأسبانية والبرتغالية، خطط ليثبت ويتحدى أن هناك وجودا لدرجة من التسامح الدينى على المستوى الشعبى، ليس فقط داخل أسبانيا والبرتغال إنما أيضا فى مقاطعتهم الأمريكية، وهذا كان يتعارض تماما مع الأيديولوجية الرسمية للكنيسة والدولة. وقد وجد هذا الدليل على ذلك فى البيانات التى أدلى بها من تم استدعاؤهم إلى المحكمة قبل المحاكمة بتهمة الهرطقة والانحراف، تحت تأثير أن «كل امرئ يمكنه الخلاص عن طريق معتقده الخاص».



يوضح تاريخ أسبانيا فى العصور الوسطى أن التعايش بين أنـاس ذوى أعراق ومعتقـدات مختلفـة من المحتمـل أن يكون مصـدرا لإثراء ثقافى عظيم



القضايا التى أوردها فى كتابه تجعل القراءة ممتعة. ففى عام ١٤٨٨، أعلنت امرأة قروية من بلدة اراندا تدعى جوانا بيريز أن «اليهودى الصالح سينقذه الله وكذلك المسلم الصالح، كلا فى عقيدته، والا لماذا خلقهم الله هكذا؟». وفى عام ١٥٩٤ جادل عامل أسبانى يدعى جوان فرنانديز احضروه قبل المحاكمة فى ليما وقال «كل شخص صالح يمكنه خلاص نفسه وفقا لقانونه الخاص». هذا والعديد من القضايا الأخرى تجعل على الأقل فرضية شوارتز للوهلة الأولى قضية على المستوى الشعبى، بأن العالم الايبيرى كان أقل تشددا فى مسيحيته وأكثر انفتاحا ليتقبل الطرق البديلة للخلاص أكثر مما يظهر للعيان أو ما يعتقده المؤرخون.

كان شوارتز نفسه هو أول من أدرك المشاكل المتلازمة فى فرضيته. فتدوين الاستجوابات معروف أنه صعب ترجمته مما يعطى فرصة للتلاعب وسوء الفهم لبعض المحققين. حتى إذا كانت استجوابات المساجين والشهود بالطبع مسجلة بالتدوين، هل هم مقصورون على قليل من الأفراد الكارهين لسبب أو آخر قبول سير العمل الرسمى؟ أو هم يمثلون آراء قطاع عريض من المجتمع ككل؟ وفى الحالة الأخيرة، فإن الصورة المحافظة لأسبانيا فى بداية عهدها كمجتمع متعصب على نحو استثنائى سيظهر بها خلل جدى.

إذا لم تكن قضايا شوارتز التاريخية تشير تحديدا إلى ثقافة التسامح، فيبدو أنهم يشيرون بالتأكيد إلى ثقافة فرعية للمعارضة. إلى كل من يتحدث من عقله، لابد أنه كان هناك العديد من الحريصين على التزام الصمت. فليس من الحكمة أن نثير الانتباه تجاه محاكم التفتيش. لذلك «فالتسامح» يمكنه التحرك على امتداد طيف يمتد من اللامبالاة، من خلال مبدأ العيش وترك الآخرين يعيشون، فاعتقاد راسخ بحزم أنه لا الكاثوليك أو البروتستانت أو المسلمين أو اليهود محتكرون الحقيقة، وبناء على ذلك «فإن كل شخص يمكنه الخلاص من خلال قانونه الخاص».إلى هذا المدى بينما كل هذه المواقف قد وجدت فى عصر أسبانيا المبكر فمن الطبيعى أن نتساءل عما إذا كانت تجربة التعايش فى القرون

الوسطى بين الثلاثة معتقدات قد خلقت استعدادا استثنائيا فى العالم الايبيرى نحو قابلية الآخر.

الاكتشاف والاستعمار الايبيرى لأمريكا قد عمل لتعزيز هذه القابلية، وجد الأسبان أنفسهم هناك يتعاملون يوميا ليس فقط مع عدد هائل من السكان الأصليين الذين لم يسمعوا مطلقا عن المسيحية قبل مجيئهم، إنما أيضا فى نفس الوقت مع العبيد الأفريقيين وأنظمة معتقداتهم الخاصة وعدد متزايد من الناس من العقائد المختلفة. كتب ريتشارد فليتشر، الأستاذ الراحل فى جامعة يورك والمتخصص فى تاريخ العصور الوسطى، فى كتابه «مسلمو أسبانيا» أن «مستعمرات المكسيك وبيرو والبرازيل كانت بوضوح هى أندلس العصور الوسطى». هذه التأكيدات المدرجة مازالت فى حاجة إلى المزيد من العمل، ولكن دليل شوارتز الأمريكى قاد فليتشر إلى التسليم بأن الوجود فى العالم الايبيرى الجديد «ثقافة نابضة بالحياة على خلاف السائد فى الكنيسة والدولة».

أى افتراض، مع ذلك، بأن التجربة الاندلسية ربما تكون قد تركت الحضارة الايبيرية مؤهلة بشكل فريد لتقبل إمكانية وجود خيارات غير النظام التقليدى الأرثوذكسى السائد، قام شوارتز بهدمه بحجته الواسعة النطاق التى تقول أن النسبية الدينية لم تكن «ظاهرة هسبانية**** مميزة تم ترسيخها خلال التعايش فى العصور الوسطى واستمرت حتى الازدهار». على العكس تماما، على الرغم من أن دليله قد استمد غالبا من العالم الايبيرى، وهو حريص على أن «مبدأ التسامح الشعبى فيما يتعلق بالدين كان ظاهرة عامة فى الكثير من أنحاء أوروبا وان الشكوك والتسامح الشعبى خلقا تربة من المفاهيم الحديثة لحرية الضمير والتسامح التى نمت فى نهاية المطاف». فى قول آخر، لقد أراد أن ينقذ تاريخ التسامح من الأيدى المانعة من النخبة السياسية والفكرية وإعطاء الناس العاديين مكانهم المستحق فى القصة.

لإثبات الحقيقة فى ادعائه الطموح ذلك سيتطلب أدلة على نطاق أوسع بكثير، من المجتمعات الأوروبية المتنوعة بدلا من العالم الايبيرى فحسب، ولكن فى إثارة مسألة المواقف الشعبية وتوثيقها بشكل غنى كتب شوارتز كتابا اكتشافيا. حاليا، بقدر ما تهتم أسبانيا نفسها فإن حجته عن التسامح الشعبى قد تلقت تعزيزات مساعدة من دراسة بحثية مثيرة للإعجاب عن مدينة لامنتشا الأسبانية التى خرج سكانها لدعم محاولات موريسكيى بلدتهم لتحدى مرسوم بطردهم عام ١٦٠٩، ومن ثم الترحيب بالذين نجحوا فى العودة خلسة. ليس هذا رد فعل مجتمع واقع فى قبضة التعصب الدينى والعرقى.

ووفق ذلك هناك شك أن شوارتز لم يتجنب الأمر تماما، فقدم قصته على أنها خطوة للأمام نحو «الحداثة» التى تشير إلى حرية الضمير والتسامح الدينى. الآن على الأحداث أن تعطى لنا الفرصة لنتوقف.نحن نرى كيف أن فى البلقان مثل أسبانيا العصور الوسطى حيث كان يعيش ناس من عقائد وأعراق وثقافات مختلفة وكانوا قادرين على التعايش لمدة طويلة فى وئام نسبى، ثم حدث بشكل مفاجئ أن كل هذا تحول إلى فورة من الغضب والدمار. فى السعى لتعقب تاريخ ثقافة التسامح، فمن المهم ألا ننسى أن فى اغلب الأحيان تكمن ثقافة التعصب تحت السطح مباشرة.

يوضح تاريخ أسبانيا فى العصور الوسطى أن التعايش بين أناس ذوى أعراق ومعتقدات مختلفة من المحتمل أن يكون مصدرا لإثراء ثقافى عظيم، ولكن فى الوقت نفسه من الممكن أن يكون مصدرا لتوتر اجتماعى عميق. التعايش الانسجامى متوقف على الحفاظ على توازن دقيق، دائما عرضة لخطر الضيق والانزعاج من قبل الاتحاد المؤسف للسلوك والأحداث. التبديل فى السياسة والممارسة الرسمية، التدهور الاقتصادى، التصريحات الملتهبة الشعبية من شخص يمكنه تحريك الجماهير، صراع مبتذل أولى بين الجيران، كل هذا فى وسعه أن يحول التسامح إلى تحد عنيف بين عشية وضحاها. حتى الآن تتضمن قصة القرية الصغيرة لامنتشا فى القرن السابع عشر درسا فى ذاتها. حتى فى أسوأ الأوقات تستطيع الإنسانية وآداب السلوك أن تجعل صوتها مسموعا. ■

(•) هو شخصية تاريخية أسبانية من القرون الوسطى كثرت حول شخصيته القصص والحكايات، اسمه بالكامل رودريغو دياث دى بيفار، ولد حوالى العام ١٠٤٠ و كان فارسا من فرسان قشتالة فى زمن حروب الاسترداد وهو معروف باسم آل سيد كامبيادور.

(••) الأسطورة السوداء

(•••) أسرة هابسبورغ ، من أهم الأسر الأوروبية الحاكمة . عرفت هذه الأسرة برجعيتها الشديدة وبتأييدها المطلق للكاثوليكية .

(••••) هسبانيا: اسم أطلقه الرومان على شبه جزيرة ايبيريا

كتاب الزاوية

من تقرير اللجنة المشكلة من مجلس الشعب لتقصى حقائق أحداث الخانكة فى نوفمبر ١٩٧٢ برئاسة الدكتور جمال العطيفى

(١)

قرار تشكيل اللجنة:

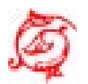
أصدر مجلس الشعب بجلسته المعقودة يوم الاثنين من شوال ١٣٩٢ الموافق من نوفمبر ١٩٧٢ قرارًا، بناء على طلب السيد رئيس الجمهورية بتشكيل لجنة خاصة باستظهار الحقائق. حول الأحداث الطائفية التى وقعت أخيرا فى مركز الخانكة وإعداد تقرير للمجلس عن حقيقة ما حدث. وقد شكلت هذه اللجنة برئاسة الدكتور جمال العطيفى وكيل المجلس وعضوية السادة أعضاء المجلس محمد فؤاد أبو هميلة وألبرت برسوم سلامة وكمال الشاذلى والدكتور رشدى سعيد وعبد المنصف حسن زين والمهندس محب إستينو.

حدود مهمة اللجنة

ويعتبر هذا القرار أول ممارسة فى ظل الدستور الجديد لما أجازته اللائحة الداخلية للمجلس من جواز تشكيل لجنة خاصة لاستظهار الحقائق فى موضوع معين وذلك طبقا للمادتين ١٦ و٤٧ من اللائحة. ومع قرار تشكيل اللجنة ينوط بها استظهار الحقائق فى الأحداث الطائفية التى وقعت أخيرا فى الخانكة إلا أن اللجنة رأت بمناسبة بحثها لظروف هذا الحادث والعوامل التى أدت إليه أن حادث الخانكة وهو أحد الحوادث التى تكررت خلال هذا العام، يطرح بصفة عامة وأساسية موضوع العوامل المؤثرة على العلاقات بين طوائف الشعب وما إذا كانت هذه العوامل مصطنعة أو مغرضة ومدى تهديديها للوحدة الوطنية فى هذه الظروف الدقيقة التى يجتازها شعبنا ضد العدو الصهيونى والاستعمار العالمى، ومن ثم فإن اللجنة تعرض فى تقريرها لموضوع حادث الخانكة باعتباره حادثًا مميزا يعبر عن مناخ غير صحى ساد العلاقات الاجتماعية خلال هذا العام: ثم تتناول بعد ذلك هذه العلاقات بصفة عامة وتعرض تحليلا واقتراحات محددة لعلاجها.

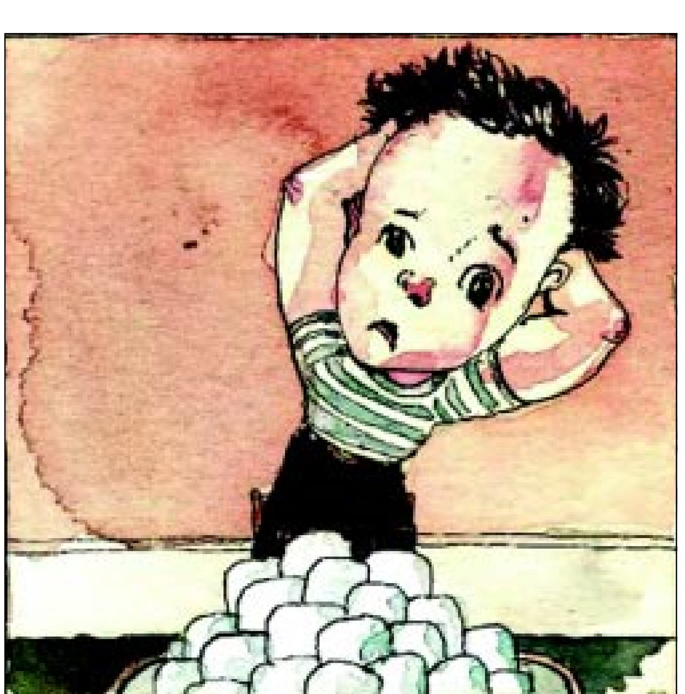
Don’t!

السر فى ضبط النفس



جونا ليرار

Jonah Lehrer



الأطفال الذين يجتازون اختبار «مارشمالو» يتمتعون بنجاح أكبر عند البلوغ (مارشمالو هو نوع من الحلوى تصنع من زلال البيض والسكر والجيلاتين شكلها كقطع الإسفنج - المترجمة)

فى السنة التاسعة والأخيرة من الستينيات تمت دعوة كارولين وايز Carolyn Weisz ذات الأربع سنوات والشعر البنى إلى (غرفة اللعب) فى حضانة مدرسة بينج Bing داخل الحرم الجامعى لجامعة ستانفورد Stanford. كانت الغرفة أصغر من خزانة ملابس كبيرة وكانت تضم كرسيا ومكتبا. طُلب من كارولين أن تجلس على الكرسى وأن تختار نوعا من ثلاثة أنواع من المخبوزات تحتويها صينية وهى حلوى المارشمالو والكوكيز والأصابع المملحة واختارت كارولين المارشمالو - برغم بلوغها الرابعة والأربعين الآن إلا أن كارولين مازالت تحتفظ بضعفها تجاه تلك الكرات المنتفخة من شراب الذرة والجيلاتين - تقول كارولين: «أعلم أننى لا ينبغى أن أحبها ولكنها لذيذة إلى حد كبير». بعد ذلك قدم الباحث عرضا لكارولين بأنها تستطيع إما أن تأكل واحدة من المارشمالو فى الحال، ولكنها إن رغبت فى تناول قطعتين فعليها الانتظار حيث سيخرج من الغرفة لبضع دقائق وعندما يعود سيعطيها قطعتين، كما أخبرها بأنها إذا رنت الجرس الموضوع فوق المكتب فسوف يعود إلى الغرفة فورا وبذلك سيعطيها قطعة واحدة وستفقد الأخرى ثم غادر الغرفة.

■■ بالرغم من عدم توافر الذاكرة المباشرة حول هذه التجربة لدى كارولين وكذلك عدم إطلاق العلماء أية معلومات حول هذه الموضوعات، فإن كارولين تؤكد بقوة قدرتها على تأجيل الإشباع فقد أخبرتنى بقولها: «لقد كنت دائما جيدة حقا فى الانتظار، إذا وضعتنى فى تحدٍ أو أسندت إلى مهمة فسوف أبحث عن طريقة لأدائها حتى لو كان ذلك يعنى عدم تناول طعامى المفضل» تؤكد والدتها كارين سورتينو Karen Sortino «إن كارولين كانت طفلة صبورة جدا وأنا على يقين من أنها كانت سوف تنتظر، ولكن أخاها كريج Craig والذى شارك أيضا فى هذه التجربة قد أظهر قدرة أقل على الصبر» ما زال كريج الذى يكبر كارولين بعام واحد يتذكر عذاب الانتظار ويقول «ما حدث بالنسبة لى أنه عند وقت معين وجدت نفسى بمفردى ولذلك فقد بدأت فى تناول كل الحلوى». بالنسبة لكريج فقد تعرض أيضا لاختبار اللعب البلاستيكية حيث أخذ لعبة وشرع فى محاولة أخذ الثانية حيث اقتحم المكتب الذى كان يتوقع وجود لعب إضافية فيه ويضيف كريج «لقد أخذت كل ما أستطيع أخذه من اللعب وقمت بتنظيفها ولكنى لاحظت أن المدرسين يشجعوننى على عدم دخول حجرة الاختبارات مرة أخرى».

لقطات حادة ومؤثرة من هذه التجارب - التى أجريت على مدى عدة سنوات - تبين نضال الأطفال فى تأخير الإشباع ولو لفترة قليلة من الوقت. بعضهم يغطون عيونهم بأيديهم أو يدورون فى المكان حتى لا يروا الصينية، البعض الآخر شرع فى ركل المكتب أو شد ضفائرهم أو ملاطفة المارشمالو والتمليس عليه كما لو كان حيوانا صغيرا ناعما وممتلئا. طفل واحد وهو صبى له شعر مهذب ومفروق بدقة وجه نظره إلى أرجاء الحجرة بعناية للتأكد من عدم قدرة أى أحد على رؤيته، ثم التقط واحدة من الأوريو وبنعومة شديدة فك شقيها والتهم الكريمة البيضاء التى تحشوها

بترتيب مع:

The New Yorker

ترجمة: إيمان عبدالهادى الكيلانى

قبل إعادتها إلى الصينية، ثم عاد ونظرة يملؤها الرضا تكسو وجهه.

معظم الأطفال كانوا مثل كريج بذلوا جهدا كبيرا فى المقاومة وصمدوا لفترة لا يزيد متوسطها على ثلاث دقائق. عدد قليل من الأطفال تناولوا الحلوى فورا. والتر ميشيل Walter Mischel أستاذ علم النفس بجامعة ستانفورد Stanford University والمسئول عن التجربة يتذكر: «إنهم لم يكلفوا أنفسهم حتى عناء رنين الجرس، أطفال آخرون بدأوا مباشرة فى التهام المارشمالو وبعد ذلك بثلاثين ثانية رنوا الجرس» ومع ذلك فثلاثون فى المائة من الأطفال كانوا مثل كارولين نجحوا فى تأجيل الإشباع حتى عاد الباحث بعد خمس عشرة دقيقة، هؤلاء الأطفال تصارعوا مع الإغراء ولكنهم وجدوا وسيلة للمقاومة.

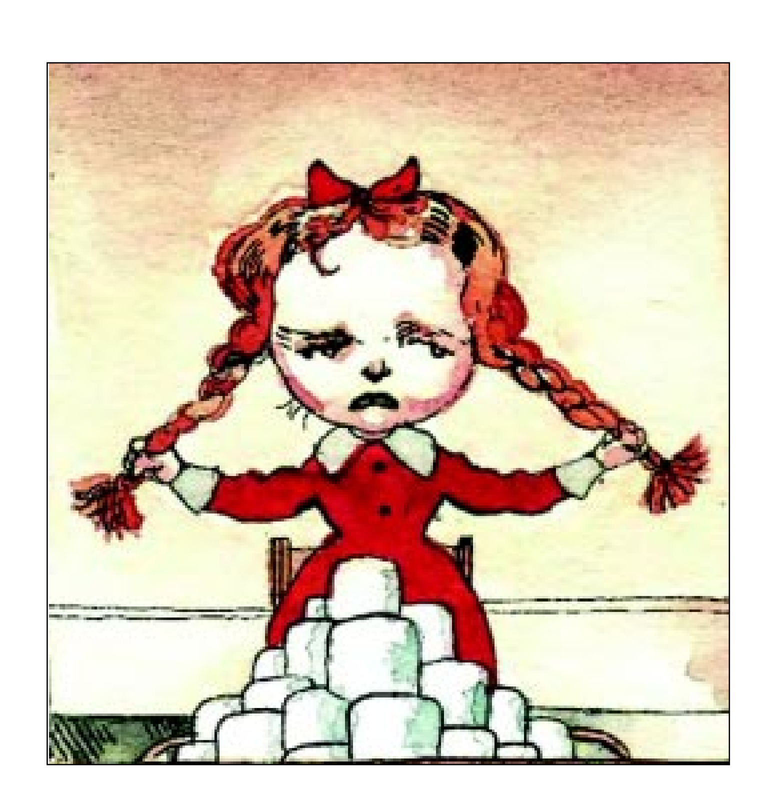
كان الهدف المبدئى لهذه التجربة هو تحديد العمليات العقلية التى تسمح لبعض الناس بتأخير الإشباع فى حين أن البعض الآخر يستسلم ببساطة. بعد نشر أبحاث قليلة من دراسات بينج Bing فى أوائل السبعينيات انتقل ميشيل إلى مجالات أخرى من مجالات بحوث الشخصية يضيف ميشيل «لديك الكثير من الأشياء التى تستطيع فعلها مع الأطفال حتى لا يأكلوا المارشمالو».

ولكن بين الحين والآخر كان ميشيل يسأل بناته الثلاث - وجميعهن قد حضرن اختبار بينج - عن أصدقائهن فى الحضانة يقول ميشيل: «لقد كانت مجرد محادثة على العشاء، كنت أسألهن كيف حال جين Jane؟ كيف حال إيريك Eric؟ كيف يؤدون فى المدرسة؟» بدأ ميشيل يلاحظ وجود صلة بين مستوى الأداء الأكاديمى للأطفال وهم فى مرحلة المراهقة وبين قدرتهم على انتظار قطعة المارشمالو الثانية. طلب من بناته تقييم أصدقائهن أكاديميا على مقياس مدرج من صفر إلى خمس درجات مع مقارنة هذه التصنيفات مع مجموعة البيانات الأصلية ولاحظ وجود ترابط ويقول: «حدث هذا عندما أدركت أننى لابد أن أؤدى بشكل جاد». ابتداء من عام ١٩٨١ أرسل ميشيل استبيانا لكل الآباء والمعلمين والمرشدين الأكاديميين المتاحين وكان موضوع الاستبيان هو ستمائة وثلاثة وخمسون فردا ممن

عندما شرع ميشيل فى تحليل النتائج لاحظ أن المتأخرين هم الأطفال الذين قاموا برن الجرس بسرعة وما يبدو عليهم أنهم أكثر عرضة للمشاكل السلوكية سواء فى المدرسة أم فى البيت



لاحظ ميشيل أن تطبيق النظريات الأكاديمية كان محدودا كما أنه كان مصدوما بسبب عبثية معظم العلوم التى تتناول الشخصية. وهو مازال محجما عن الدراسات الساذجة التى قام بها طلبة الدراسات العليا



شاركوا فى اختبار المارشمالو والذين كانوا حينئذ فى المدرسة الثانوية. لقد سأل عن كل السمات التى يعتقد بتأثيرها فى قدرتهم على التخطيط والتفكير وكذلك التعامل الجيد مع المشكلات والتفاعل مع الأقران وكذلك طلب ميشيل معدلات (إس. إى. تى) (T.A.S) الخاصة بهم. (T.A.S. هو اختصار لـ Senior Apperception Technique تكنيك لقياس النضج والإدراك بالترابط المعرفى - المترجمة)

عندما شرع ميشيل فى تحليل النتائج لاحظ أن المتأخرين هم الأطفال الذين قاموا برن الجرس بسرعة وما يبدو عليهم أنهم أكثر عرضة للمشاكل السلوكية سواء فى المدرسة أم فى البيت كما حصلوا على درجات منخفضة فى الإس. إى. تى. وهم يصارعون فى المواقف العصيبة ويواجهون مشاكل عند تركيز الاهتمام ويجدون صعوبة فى الاحتفاظ بالصداقات، والطفل الذى تمكن من الانتظار خمس عشرة دقيقة حصل على مستوى عال فى الإس. إى. تى. حيث كان متوسطه أعلى بمقدار مائتين وعشر درجات من الطفل الذى أمكنه الانتظار لمدة ثلاثين ثانية فقط.

حصلت كارولين وايز - التى تعد مثالا نموذجيا للقدرة العالية على تأجيل الإشباع High Delayer - على دراستها الجامعية من جامعة ستانفورد Stanford وحصلت على درجة الدكتوراة فى علم النفس الاجتماعى من جامعة برينستونPrinceton وهى الآن أستاذ زائر لعلم النفس فى جامعة بوجيه ساوند Puget Sound فى الوقت نفسه انتقل كريج إلى لوس انجيلوسLos Angeles وأمضى حياته المهنية فى فعل كل أنواع الأشياء فى صناعة الترفيه ومعظمها فى الإنتاج إنه يساعد فى كتابة وإنتاج فيلم فى الوقت الحالى يقول كريج «بالتأكيد تمنيت أن أكون شخصا أكثر صبرا، فإذا نظرنا إلى الوراء فبالتأكيد هناك لحظات كنت سأصنع فيها أشياء وخيارات وظيفية أفضل لو كنت قد تحليت بالصبر».

حتى أواخر الثلاثينيات من العمر استمر ميشيل وزملاؤه فى متابعة دراسة هذه الموضوعات. أوزليم أيدوك Ozlem Ayduk مدرس مساعد لعلم النفس فى جامعة كاليفورنياCalifornia فى بيركلى Berkeley وجد أن البالغين - ذوى القدرة المنخفضة على تأجيل الإشباعLow Delayer - يتميزون بكتلة جسمية أكبر ولديهم احتمالية أكبر لمواجهة مشاكل مع المخدرات ولكنه يذكر أنه تعرض للإحباط بسبب اضطراره الاعتماد على التقارير الذاتية من الناس ويفسر ذلك بقوله «فى أغلب الأحيان توجد فجوة بين ما يود الناس إخبارك به وبين سلوكياتهم فى عالم الحقيقة.» وهكذا بدأ ميشيل - وهو الآن أستاذ فى جامعة كولومبيا Columbia - مع فريق من المساعدين فى طلب دراسات وموضوعات بينج الأصلية للسفر إلى ستانفورد لبضعة أيام بهدف تطبيق بعض التجارب على جهاز الرنين المغناطيسى الوظيفى. تقول كارولين إنها سوف تشارك فى تجارب المسح لاحقا فى هذا الصيف. أما كريج فقد أكمل دراسة استقصائية قبل عدة سنوات ولكن لم تتم بعد دعوته إلى بالو ألتوPalo Alto يأمل العلماء فى تحديد المناطق المعينة فى المخ التى تسمح لبعض الناس بتأخير الإشباع والسيطرة على أعصابهم، وهم أيضا يقومون بإجراء بعض الاختبارات الجينية بحثا عن الخصائص الوراثية التى تؤثر على قدرة الانتظار لقطعة أخرى من المارشمالو.

إذا نجح ميشيل وفريقه فإنهم بذلك يكونون قد أوجزوا الدوائر العصبية لضبط النفس. على مدى عقود ركز علماء النفس على الذكاء كمادة خام أساسية وأهم متغير عندما يتعلق الأمر بالتنبؤ بالنجاح فى الحياة أما ميشيل فيفترض أن الذكاء يقع تحت رحمة ضبط النفس إلى حد كبير فحتى أكثر الأطفال ذكاء يحتاجون إلى أداء واجباتهم. يضيف ميشيل: «ما نقوم بقياسه من خلال المارشمالو ليس هو قوة الإرادة أو ضبط النفس إنه أهم من ذلك بكثير، إن هذه المهمة تجبر الأطفال على إيجاد طريقة تجعل الوضع مواتيا لهم، إنهم يريدون قطعة المارشمالو الأخرى ولكن كيف يحصلون عليها ؟ ونحن لا نستطيع السيطرة على العالم ولكننا نستطيع السيطرة على الطريقة التى نفكر بها إزاء هذا العالم».

والتر ميشيلWalter Mischel رجل بسيط أنيق له رأس حليق ووجه تخططه تجاعيد عميقة يتحدث بغضب عن بروكلين Brooklyn ويميل إلى التصرف بشكل مغاير لكلامه، ولذلك فعندما يصف مهمة مارشمالو فإنه يأخذ فى اعتباره لغة الجسد لطفل غير صبور يبلغ الأربع يقول ميشيل: «إذا أردت أن تعرف لماذا يستطيع بعض الأطفال الانتظار فى حين يعجز الآخرون فإنك لابد أن تفكر مثلما يفكرون».

ولد ميشيل فى فيينا عام ١٩٣٠وكان والده رجل أعمال متواضعا وبسيطا ولكنه ناجح وكان مغرما بمجتمع المقهى والاسبرانتوEsperanto بينما كانت والدته تمضى أيامها ممددة على الأريكة واضعة كيسا من الثلج على جبهتها فى محاولة لتهدئة أعصابها الواهية كانت الأسرة تعتبر نفسها متفاهمة جدا. ولكن بعد ضم النازى النمسا عام ١٩٣٨ يذكر ميشيل تعرضه للسخرية فى المدرسة من قبل منظمة شباب هتلرHitler Youth وكان يراقب والده المعاق بشلل الأطفال منذ صغره وهو يترنح منهكا فى الشوارع مرتديا البيجامة. وبعد أسابيع قليلة من تولى السلطة وعندما كانت الأسرة تقوم بحرق كل الأوراق الدالة على أصلهم اليهودى وإلقائها فى الموقد، عثر والتر على شهادة منسية منذ فترة طويلة كانت هذه الشهادة خاصة بمنح الجنسية الأمريكية لجده لأمه فى فترة سابقة وكانت هذه الشهادة سببا فى إنقاذ عائلته.

استقرت الأسرة فى بروكلين حيث افتتح والدا ميشيل متجرا لبيع السلع الرخيصة «كل شىء بخمسة أوعشرة سنتات» والتحق ميشيل بجامعة نيويورك New York University دارسا الشعر على يد ديلمور شوارتز Delmore Schwarz وألين تيت Allen Tate كما التحق بفصول ستوديو الفن مع فيليب جوستون Philip Guston. أصبح أيضا مولعا بالتحليل النفسى والقياسات الجديدة للشخصية مثل اختبار رورسكاتشRorschach الذى يقول عنه ميشيل «فى ذلك الوقت كان يبدو كجهاز أشعة إكس عقلى، هل تستطيع أن تحلل شخصا بمجرد أن تعرض عليه صورة ! » وبرغم تعرضه للضغوط للانضمام إلى مظلة أعمال عمه التجارية انتهى به المطاف إلى السعى لنيل درجة الدكتوراة فى علم النفس السريرى بولاية أوهايو Ohio State .

ولكن لاحظ ميشيل أن تطبيق النظريات الأكاديمية كان محدودا كما أنه كان مصدوما بسبب عبثية معظم العلوم التى تتناول الشخصية. وهو مازال محجما عن الدراسات الساذجة التى قام بها طلبة الدراسات العليا مستندين فى تشخيصهم على اختبارات لا معنى لها. فى عام ١٩٥٥أتيحت لميشيل فرصة دراسة مراسم الإيمان لأوريشا Ceremonies of Orish faith فى ترينيداد Trinidad وهى ما يطلق

Don’t!

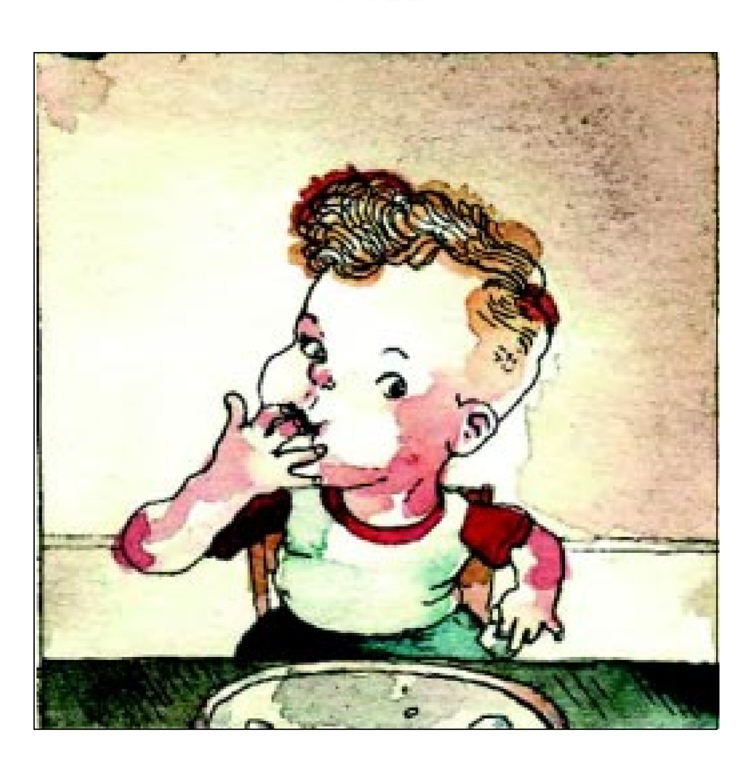
عليها «ملكية الروح» وقد اغتنم هذه الفرصة. وبالرغم من أنه كان يفترض فى بحثه استخدام اختبارات رورسكاتش لاستكشاف الروابط بين اللاوعى والسلوك لدى الناس عندما يمتلكون، فإن ميشيل سرعان ما وجه اهتمامه لمشروع مختلف. عاش ميشيل فى جزء من جزيرة كانت مقسمة بالتساوى بين شعب من الهنود الشرقيين وبين شعب من أصول أفريقية ولاحظ أن كل مجموعة تقوم بتصنيف الأخرى من خلال صور نمطية واسعة النطاق. يقول ميشيل «إن الهنود الشرقيين قد يصفون الأفارقة بأنهم مُتعيون ومندفعون Impulsive hedonists وأنهم يعيشون اللحظة ولا يفكرون فى المستقبل» (Hedonism هومذهب المتعة وهو مذهب يقول بأن اللذة والمتعة هى الخير الأوحد فى الحياة - المترجمة) يضيف ميشيل «فى الوقت نفسه يقول الأفارقة أن الهنود الشرقيين لا يعرفون كيف يعيشون وقد يكنزون المال فى فراشهم ولا يمتعون أنفسهم أبدا».

أخذ ميشيل أطفالا صغارا من كلتا المجموعتين العرقيتين وعرض عليهم اختيارا بسيطا: إنهم إما أن يحصلوا على قطعة صغيرة من الشيكولاتة فى الحال أو أن ينتظروا بضعة أيام حتى يحصلوا على قطعة كبيرة من الشيكولاتة. فشلت نتائج ميشيل فى تبرير الصور النمطية وتداخلت متغيرات أخرى مثل ما إذا كان الأطفال يعيشون مع والدهم أم لا لكى تحتل أهمية أكبر ولكن هذه النتائج أثارت اهتمام ميشيل بمسألة تأجيل الإشباع. لماذا ينتظر بعض الأطفال ويفشل الآخرون فى الانتظار ؟ ما الذى يجعل الانتظار ممكنا ؟

فى عام ١٩٥٨أصبح ميشيل أستاذا مساعدا فى قسم العلاقات الاجتماعية بجامعة هارفاردHarvard وكانت واحدة من مهامه الأولى هى وضع مسار الدراسة حول «تقييم الشخصية» -Personality assessment وسرعان ما خلص ميشيل إلى أنه بينما تعتقد النظريات السائدة بكون السمات الشخصية تتسم بالثبات والاتساق إلى حد كبير فإن المعلومات المتاحة لا تدعم هذه الفرضية. فالشخصية على الأقل بالتصور الذى كان مطروحا آنذاك لا يمكن تقييمها بشكل صحيح على الإطلاق. بعد مرور سنوات قليلة تم تعيين ميشيل مستشارا «لتقييم الشخصية» الذى كانت تنظمه فرق السلام. وقد أثار المتطوعون الأوائل لهذه الفرق العديد من الحوادث الدولية المحرجة - فقد أرسلت واحدة من هؤلاء المتطوعين بطاقة بريدية أعربت فيها عن

بينما تعتقد النظريات السائدة بكون السمات الشخصية تتسم بالثبات والاتساق إلى حد كبير فإن المعلومات المتاحة لا تدعم هذه الفرضية





اشمئزازها من العادات الصحية فى البلد المضيف لها - مما أوجد الرغبة لدى إدارة كينيدىKennedy Administration فى إجراء عملية فرز وانتقاء لاستبعاد الأفراد غير الملائمين لأداء مهام خارجية. خضع المتطوعون لاختبارات سمات الشخصية القياسية وقام ميشيل بإجراء مقارنة بين النتائج وبين معدلات جودة آداء المتطوعين فى الميدان. وجد ميشيل أنه لا يوجد ترابط وأن الوقت الذى يستنفد فى الاختبارات لا يثمر شيئا. وعند هذه النقطة أدرك ميشيل أن المشكلة لا تكمن فى الاختبارات ولكنها فى الفرضية التى قامت عليها تلك الاختبارات. أمضى علماء النفس عقودا فى البحث عن السمات التى تتواجد بمعزل عن الظروف ولكن ماذا عن الشخصية التى قد لا يمكن فصلها عن السياق ؟ يقول ميشيل لقد مضى الحال بشكل مضاد تماما للطريقة التى ألفناها وتعودنا التفكير بها إزاء الشخصية منذ زمن طويل يمتد إلى الإغريق القدماء.

فى الوقت الذى بدأ فيه ميشيل بتفكيك المناهج وتجريد الميدان من أسلحته كان قسم علم النفس بجامعة هارفارد يمر باضطرابات. فى عام ١٩٦٠ ساعد تيموثى ليرى Timothy Leary الطبيب النفسى للشخصية فى بدء مشروع هارفارد سيلوسيبين Harvard Psilocybin Project والذى كان يتألف فى معظمه من التجريب الذاتى يتذكر ميشيل طلبة الدراسات العليا ومكاتبهم الوثيرة التى لا تعد إلا طريقا للبحث عن الوسائد ويتذكر شحنات كبيرة من منتجات سيبا Ciba Chemicals تأتى عن طريق البريد، لم يكن ميشيل يحمل أى شىء ضد الهيبيز Hippies ولكنه أراد لعلم النفس الحديث أن يكون دقيقا جدا وتجريبيا. وهكذا ففى عام ١٩٦٢ انتقل والتر ميشيل Walter Mischel إلى بالو ألتوPalo Alto وذهب للعمل فى جامعة ستانفورد Stanford.

شىء ما يمثل تناقضا عميقا لدى والتر ميشيل - الطبيب النفسى الذى أمضى عقودا منتقدا صلاحية الاختبارات النفسية - واخترع مهمة المارشمالو وهى اختبار بسيط يتميز بقدرة تنبؤية عالية ومثيرة للإعجاب. ومع ذلك يصر ميشيل على عدم وجود أى تناقض فيقول «كنت أعتقد دائما بوجود ثوابت فى الشخص يمكننا النظر إليها وما علينا فقط هو أن ننظر فى الاتجاه الصحيح». واحدة من الدراسات الكلاسيكية لميشيل وثقت السلوك العدوانى للأطفال فى مواقف مختلفة فى مخيم صيفى فى نيو هامبشايرNew Hampshire. افترض معظم علماء النفس أن العدوان كان سمة ثابتة ولكن ميشيل وجد أن ردود فعل الأطفال تتوقف على تفاصيل التفاعل. قد يكون نفس الطفل مثارا للانتقاد إذا استُفز من قبل نظير له وبذلك فهو يتعرض بسهولة للعقاب من الكبار. قد يتصرف طفل آخر بطريقة سيئة غير آبه بتحذيرات المشرف ولكنه يلعب بشكل جيد مع رفاقه. إن أفضل طريقة لتقييم العدوانية هى ما أطلق عليه ميشيل «نماذج إذا - فسوفIf - then Patterns» إذا استُفز طفل معين من قبل نظير له فسوف يكون عدوانيا».

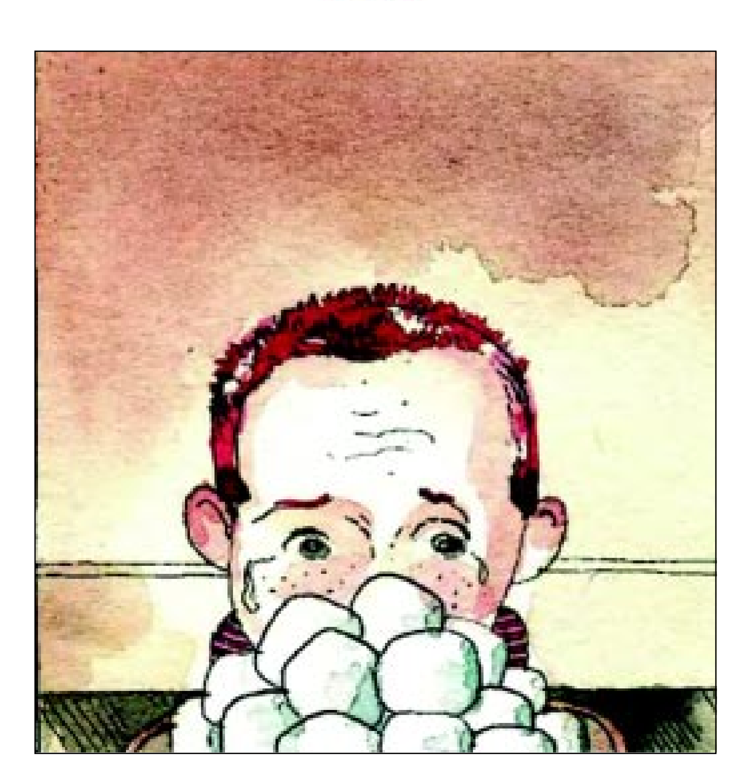
واحد من أفضل المواقف المجازية فى نموذج ميشيل يعرف بالتفاعلية «Interactionism» يتعلق بسيارة تتسبب فى ضجيج عالٍ. كيف سيقوم الميكانيكى بحل المشكلة؟ سوف يبدأ بمحاولة تحديد الظروف التى تسبب الضجيج، هل يحدث الضجيج فى حالة تسارع السيارة أم فى حالة نقل التروس أم عندما تتحول السيارة إلى السرعات البطيئة؟ إذا لم يستطع الميكانيكى وضع الضجيج فى سياق معين فإنه لن يستطيع أبدا إيجاد الجزء المكسور. أراد ميشيل من علماء النفس أن يفكروا مثل الميكانيكى وينظروا إلى استجابات الناس فى ظل ظروف معينة. كان التحدى هو وضع اختبار دقيق لشىء ما وثيق الصلة بالسلوك المتوقع ويحاكيه. البحث عن اختبار ذى مغزى للشخصية دفع ميشيل عام ١٩٦٨ إلى إعادة النظر فى البروتوكول الذى سبق له استخدامه على الأطفال الصغار منذ ما يقرب من عقد من الزمان فى ترينيداد Trinidad. تبدو التجربة الآن ذات صلة بتلك التى أجراها بنفسه مع بناته الثلاث يقول ميشيل «الأطفال الصغار أنقياء وفطريون، إنهم يبدأون غير قادرين على انتظار أى شىء فهم يريدون كل ما يحتاجون إليه ولكن بعد ذلك وكما شاهدت أطفالى فقد اندهشت من الكيفية التى يقومون من خلالها بالتعلم التدريجى للتأجيل وكيف يؤدى ذلك إلى إمكانية حدوث أشياء أخرى عديدة».

بعد سنوات قليلة وفى سنة ١٩٦٦ أنشأ قسم علم النفس بجامعة ستانفورد Stanford مدرسة وحضانة بينجBing . صُممت الفصول كما لو كانت معامل مع وجود مرايا كبيرة فى اتجاه واحد مكنت الباحثين من ملاحظة الأطفال. فى شهر فبراير اصطحبتنى جينيفر ونترز Jennifer Winters مساعد مدير مدرسة بينج فى جولة عبر المدرسة

Don't!

إن الناس يتعلمون كيفية استخدام عقولهم تماما كما يتعلمون كيفية استخدام الكومبيوتر من خلال التجربة والخطأ





بالرغم من أن بينج لا يزال مركزا نشطا للأبحاث - يتعلم فيه الأطفال بسرعة ويتجاوزون مرحلة الخربشة فى الكراسات - فإن ونترز ليست على يقين بإمكانية تكرار تجربة مارشمالو لميشيل اليوم، وهى تقول: «حاولنا فى الآونة الأخيرة أن نكرر اختبار ميشيل وكان الأطفال فى غاية السرور لوجود الأطعمة فى غرفة اللعب ولكن فى الوقت الحالى هناك أنواع كثيرة من الحساسية والأنظمة الغذائية الخاصة التى تحجم من قدرتنا على استخدام الطعام فى مثل هذه الاختبارات».

أكمل ميشيل تجربته باختبار بناته على طاولة الطعام، يقول ميشيل: «عندما تتحقق من قوة الإرادة لدى طفلة لها من العمر أربع سنوات فإن أشياء صغيرة تحدث فرقاً كبيراً. ما هو الحجم الذى يجب أن تكون عليه قطع المارشمالو؟ ما هو نوع الكوكيز الذى يعمل بشكل أفضل؟». وبعد عدة شهور من العمل الدءوب جاء ميشيل بتصميم تجريبى يحاكى بشكل وثيق صعوبة تأجيل الإشباع. فى ربيع عام ١٩٦٨ بدأ ميشيل فى إدارة المحاولات الأولى لتجربته بمدرسة بينج. يضيف ميشيل «لقد علمت بجودة تصميمنا للتجربة عندما بدأ بعض الأطفال فى الانسحاب بمجرد معرفتهم لظروف التجربة لقد أدركوا أن هذه التجربة سوف تكون صعبة بالنسبة لهم».

فى ذلك الوقت افترض علماء النفس أن قدرة الأطفال على الانتظار تتوقف على مدى شدة رغبتهم فى المارشمالو ولكن سرعان ما اتضح أن كل الأطفال يتوقون إلى المزيد من المتعة. إذا فما الذى يحدد ضبط - النفس Self - control ؟ كان استنتاج ميشيل المستند إلى مئات الساعات من الملاحظة يتعلق بمهارة حاسمة تتوافر لدى البعض وهى مهارة «تخصيص الاهتمام الاستراتيجى Strategic Allocation of Attention» فالأطفال الصبورون بدلا من أن يتركوا هاجس المارشمالو - الحافز الساخن الشهى - يسيطر عليهم فإنهم يلهون أنفسهم من خلال تغطية عيونهم أو التظاهر بلعب الاستغماية والاختباء تحت المكتب أو غناء بعض أغانى «شارع سمسم» هؤلاء الأطفال لم تتم هزيمة الرغبة لديهم ولكن ما حدث كان مجرد النسيان يقول ميشيل: «إذا كنت تفكر فى المارشمالو ومدى لذته فسوف تأكله ولذلك فالمفتاح هو أن تتجنب التفكير فيه فى المقام الأول».

تشير هذه المهارة لدى البالغين إلى ما يسمى بـ«ما وراء المعرفة Metacognition» أو «التفكير فى التفكير Thinking About Thinking» وهى ما يسمح للناس بالتحايل على عيوبهم. (عندما ربط أوديسيوس نفسه فى صارى السفينة كان يستخدم بعضا من مهارات ما وراء المعرفة ولعلمه بعدم قدرته على مقاومة أغنية سيرينSiren فقد كان من المستحيل له أن يستسلم)، لقد أتاحت المعلومات الضخمة التى حصل عليها ميشيل من دراساته رؤية مؤداها أن الأطفال الذين يتمتعون بفهم أدق لكيفية وطريقة ضبط النفس كانوا أفضل وأكثر قدرة فى عملية تأجيل الإشباع، يقول ميشيل: «الشىء المثير والمتعلق بذوى الأربع سنوات هو أنهم يحاولون تحديد قواعد للتفكير، الأطفال الذين لم يتمكنوا من التأجيل غالبا لديهم قواعد عكسية فى التفكير، فهم يعتقدون أن الطريقة المثلى لمقاومة المارشمالو هى التحديق فيه لمراقبة الهدف عن كثب ولكنها فكرة رهيبة إذا فعلتها فسوف ترن الجرس قبل مغادرتى للغرفة».

طبقا لميشيل فإن هذه الرؤية لقوة الإرادة تساعد أيضا فى تفسير السبب الذى يجعل من مهمة مارشمالو اختبارا ذا قوة تنبؤية: «إذا كنت تستطيع التعامل مع العواطف الحارة فأنت بإمكانك دراسة الإس. إى. تى .S.A.T بدلا من مشاهدة التليفزيون» هذا ما قاله ميشيل ثم أضاف» وتستطيع أيضا ادخار المزيد من المال لسن التقاعد فالمسألة ليست مقصورة على المارشمالو».



وجد ميشيل وزملاؤه فى أعمالهم اللاحقة أن هذه الاختلافات تمت ملاحظتها فى أطفال لا تزيد أعمارهم على تسعة عشر شهرا. بملاحظة الكيفية التى يستجيب بها الأطفال عند فصلهم عن أمهاتهم لفترة وجيزة وجدوا أن بعضهم ينفجر فى البكاء فى الحال أو يتعلقون بباب الحجرة ولكن آخرين تمكنوا من التغلب على قلقهم بإلهاء أنفسهم فى الغالب عن طريق اللعب. عندما وضع العلماء نفس الأطفال فى اختبار مارشمالو عند بلوغهم الخامسة من العمر وجدوا أن الأطفال الذين بكوا وجدوا صعوبة فى مقاومة الإغراء.

يوحى الظهور المبكر للمقدرة على التأجيل بأن له منشأ وراثيا فالشخصية التى تمتلك هذه المقدرة تمتلكها بشكل قدرى وحتمى إنها نزعة مقدرة سلفا. ولكن ميشيل يقاوم هذا الاستنتاج السهل ويقول: «بصفة عامة، إن محاولة فصل طبيعة الشخصية عن التنشئة لا تختلف فى حساسيتها عن محاولة الفصل بين الشخصية والموقف، إنها مؤثرات مرتبطة تماما فعلى سبيل المثال عندما أعطى ميشيل اختبارات تأجيل الإشباع لأطفال من أسر ذات دخل منخفض فى برونكس Bronx لاحظ أن قدرتهم على التأجيل أقل من المتوسط وذلك على الأقل مقارنة بالأطفال فى بالو ألتوPalo Alto». يضيف ميشيل: «عندما تنشأ فقيرا فإنك قد لا تستطيع ممارسة قدر من التأجيل، وإذا لم تمارس ذلك فبالتالى لن تكون لديك الكيفية التى تستطيع بها إلهاء نفسك، لن تستطيع تطوير أفضل استراتيجيات التأجيل وهذه الاستراتيجيات لن تصبح طبيعتك الثانية». بعبارة أخرى فإن الناس يتعلمون كيفية استخدام عقولهم تماما كما يتعلمون كيفية استخدام الكومبيوتر من خلال التجربة والخطأ.

ولكن كان لميشيل وقفة وجيزة عندما قام هو وزملاؤه بتدريس مجموعة بسيطة من الحيل النفسية للأطفال - مثل محاولة التظاهر بأن الحلوى ليست سوى صورة داخل إطار خيالى - فإنه حسن قدرتهم على ضبط النفس بشكل رائع، فالأطفال الذين فشلوا فى الانتظار لمدة ستين ثانية أصبحوا الآن ينتظرون خمس عشرة دقيقة يقول ميشيل: «كل ما فعلته هو إعطاؤهم بعض النصائح من داخل الكتالوج النفسى الخاص بكل منهم، بمجرد أن تعرف أن قوة الإرادة ما هى إلا مجرد مسألة تعلم كيفية السيطرة على اهتماماتك وأفكارك فسوف تستطيع حقا زيادة هذه القوة».

مارك بيرمان Marc Berman طالب دراسات عليا نحيف له وجه طلق وابتسامة بشوشة يتحدث عن أبحاثه بحماسة مؤثرة لشاب يحصل على أولى درجاته العلمية الفلسفية، يعمل بيرمان فى مختبر جون جونيدزJohn Jonides وهو عالم نفس وأعصاب فى جامعة ميتشجان Michigan University ومسئول عن تجارب مسح الدماغ Brain Scanning Experiment فى صلب الموضوعات الخاصة ببينج Bing . يعلم بيرمان أن اختبار ضبط النفس لمن يبلغون الأربعين لا يعد اقتراحا سوياً. يقول بيرمان: «لا نستطيع إعطاء المارشمالو لهؤلاء الناس فهم يعرفون أنهم جزء من دراسة طويلة المدى تبحث فى مسألة تأجيل الإشباع، ولذلك فإذا أسندت إليهم

Don’t!

مهمة واضحة للتأجيل فسوف يبذلون قصارى جهدهم للمقاومة. سوف تحصل على حفنة من الناس الذين يرفضون المارشمالو».

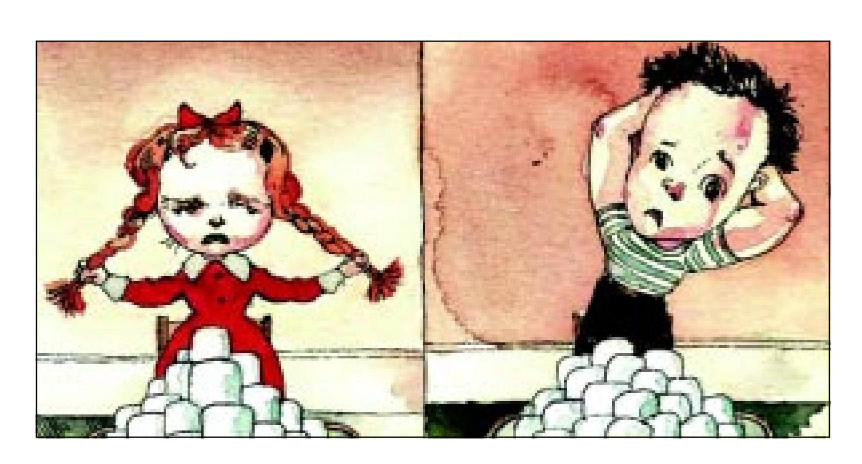
يعنى هذا أنه كان لابد لجونيدز وفريقه أن يجدوا طريقة لقياس قوة الإرادة بشكل غير مباشر. عملاً على فرضية أن المقدرة على تأجيل أكل المارشمالو اعتمدت على مقدرة الطفل على استبعاد التفكير فيه قرر جونيدز وفريقه - من خلال سلسلة من المهام التى تقيس قدرة أفراد الدراسة على التحكم فى مكونات الذاكرة العاملة - المحدودية النسبية للمعلومات التى نستطيع النظر إليها بوعى فى أية لحظة. وفقا لجونيدز فإن هذه هى الكيفية التى يتم من خلالها الاستفادة من ضبط النفس فى العالم الحقيقى كمقدرة على توجيه بؤرة الاهتمام ولذلك فقراراتنا لا يتم اتخاذها من خلال أفكار خاطئة.

فى الصيف الماضى قام العلماء باختيار خمسة وخمسين فردا كمواضع دراسة «مناصفة بين نوعين من المدروسين: عالى التأجيل - منخفض التأجيل «High Delayer- Low Delayer» وأرسلوا لكل منهم كومبيوتر محمولا محملا عليه تجارب الذاكرة العاملة، اثنتان من هذه التجارب كان لهما اهتمام خاص. كانت التجربة الأولى تمرينا مباشرا عرف بمهمة القمع Suppression Task حيث تم إعطاء أربع كلمات عشوائية لأفراد الدراسة اثنتان باللون الأزرق والأخريان باللون الأحمر. بعد قراءة الكلمات طُلب منهم نسيان الكلمتين الزرقاوين وتذكر الكلمتين الحمراوين. وبعد ذلك قام العلماء بعرض سيلٍ من الكلمات التحقيقية Probe Words وسألوا أفراد الدراسة عما إذا كانت تلك الكلمات هى التى طلب منهم تذكرها. بالرغم من أن هذه المهمة لا يبدو عليها أنها تتضمن مسألة تأجيل الإشباع إلا أنها تختبر الآلية الأساسية نفسها. من المثير للاهتمام أن العلماء قد وجدوا الأفراد عالى التأجيل أفضل بشكل ملحوظ فى مهمة القمع، فقد كان لديهم ميل أقل للاعتقاد بأن الكلمات التى طلب منهم نسيانها هى شىء يستحق التذكر.

فى التجربة الثانية والمعروفة بمهمة «اذهب /لاتذهب /اذهب Go /No/ Go» عرضت على أفراد الدراسة مجموعة من الوجوه ذات التعبيرات المختلفة. فى البداية طلب منهم الضغط على مفتاح المسافة كلما رأوا ابتسامة، تطلب ذلك القليل من المجهود حيث إن الوجوه الباسمة تؤدى تلقائيا إلى ما يعرف بالسلوك القريب «Approach Behavior» بعد بضع دقائق طلب من أفراد الدراسة الضغط على مفتاح المسافة عند رؤية الوجوه العابسة. إنهم الآن مجبرون على التصرف بشكل مضاد للحافز، أثبتت النتائج أن عالى التأجيل «High Delayers» أكثر نجاحاً فى عدم الضغط على المفتاح استجابة للوجوه الباسمة.

يبين رسم بيانى للتجربة أنه كما ينخفض وقت التأجيل عند ذوى الأربع سنوات فإن عدد الأخطاء التى ترتكب من قبل البالغين يتزايد بحدة







فى الصيف الماضى عندما تحدثت مع العلماء لأول مرة عن هذه المهام كان من الواضح عليهم القلق بشأن عدم إيجادهم أية اختلافات سلوكية بين عالى ومنخفضى التأجيل. لم يستمر الوضع كذلك حتى أوائل يناير عندما أصبح لديهم بيانات كافية للبدء فى تحليلهم (ليس من المستغرب أن الأمر استغرق وقتا أطول لاستعادة أجهزة الكومبيوتر المحمول من منخفضى التأجيل) ولكن سرعان ما بدا واضحاً وجود اختلافات مثيرة بين المجموعتين. يبين رسم بيانى للتجربة أنه كما ينخفض وقت التأجيل عند ذوى الأربع سنوات فإن عدد الأخطاء التى ترتكب من قبل البالغين يتزايد بحدة .

السؤال الكبير الذى لا يزال يدور فى أذهان العلماء هو ما إذا كانت هذه الاختلافات السلوكية قابلة للكشف من خلال جهاز الرنين المغناطيسى الوظيفى FMRI machine، على الرغم من حداثة البداية بالنسبة للمسح - حيث لا يزال جونيدز وفريقه يعملون خارج النطاق المألوف - إلا أن العلماء يصوتون بالثقة. يقول جونيدز Jonides «لقد تمت دراسة هذه المهام العديد من المرات لدرجة أننا نعرف إلى حد كبير أين ننظر وماذا سنجد». قام جونيدز بتدوين قائمة قصيرة بمناطق المخ النسبية التى حددها مختبره ووصفها بأنها مسئولة عن تمارين الذاكرة العاملة. الجزء الأكبر من هذه المناطق يتواجد فى القشرة الأمامية - وهى جزء نتوئى من المخ يقع خلف العينين - وتشتمل القشرة على الفص الجبهى وقشرة مقدم الفص الجبهى الأمامى، والجزء الأمامى من الطوق اللونى وكل من الجزءين الأماميين الدائريين الأيسر والأيمن، فى حين أن هذه الثنيات القشرية ما دامت ارتبطت بضبط النفس فإنها أيضا جوهرية فى الذاكرة العاملة وفى توجيه الاهتمام، وفقا لقول العلماء فإن هذا لا يعد حادثا ويقول جونيدز: «توجد غرائز قوية هى التى تدعونا للوصول إلى المارشمالو أو الضغط على مفتاح المسافة والطريقة الوحيدة للتغلب عليها هى تجنبها وهذا يعنى توجيه الاهتمام لشىء آخر وذلك ما نطلق عليه قوة الإرادة Will Power».

كانت الجوانب السلوكية والوراثية لهذا المشروع تحت إشراف يويتشى شودا Yuichi Shoda أستاذ علم النفس بجامعة واشنطن Washington University والذى كان واحدا من طلاب الدراسات العليا لميشيل، وظل يتابع الأفراد الذين كانوا موضعا لدراسة مارشمالو لأكثر من ثلاثين سنة إنه يعلم عنهم كل شىء بدءا من سجلاتهم الأكاديمية وامتيازاتهم الاجتماعية ووصولاً إلى مقدرتهم على التعامل مع الإحباطات والضغوط. لا يزال تشخيص البحوث الجينية أمرا غير مؤكد، بالرغم من أن العديد من الدراسات بحثت أسس الشخصية منذ انتهاء مشروع الجينوم البشرى Human Genome Project عام ٢٠٠٣ إلا أن العديد من الجينات ذات الصلة ما زالت قيد البحث. يقول شودا: «نحن مخلوقات معقدة بشكل لا يصدق، فحتى أبسط جوانب الشخصية تحركها عشرات وعشرات من الجينات المختلفة». قرر العلماء التركيز على الجينات فى ممرات دوبامين Dopamine حيث يعتقد أن هذه الناقلات العصبية لها دور فى تنظيم الدوافع والاهتمامات. ومع ذلك فحتى إذا كانت الاختلافات الطفيفة فى الترميز تؤثر على قدرة التأجيل - وهذا هو الاحتمال الأرجح - فلا يتوقع شودا Shoda أن يكتشف هذه الاختلافات وذلك لأن حجم العينة صغير جداً.

فى السنوات الأخيرة بدأ الباحثون يقومون بزيارات منزلية لأفراد الدراسة الأصليين بمن فيهم كارولين وايز Carolyn Weisz لأنهم كانوا يحاولون التوصل لفهم أفضل للسياق العائلى الذى يشكل ضبط النفس Self-Control قالت كارولين لى: «لقد حولوا مطبخى إلى مختبر، كما نصبوا خيمة صغيرة لاختبار ابنتى الكبرى فى مهمة تأجيل ببعض الكوكيز، أتذكر حينما كنت أفكر فى طفولتى وأتمنى حقا أن تستطيع ابنتى الانتظار».

مثلما كان ميشيل يتابع عن كثب التراكم المستمر للبيانات من أجهزة المحمول ومسح الدماغ فإنه أيضا متحمس لما سيأتى بعد. يقول ميشيل: «أنا لست مهتما بالنظر إلى المخ كما لو كنا نستخدم آلة خيالية، السؤال الحقيقى هو ما الذى نستطيع عمله الآن - بالبيانات التى نحصل عليها من جهاز الرنين المغناطيسى الوظيفى FMRI - ولم نكن نستطيعه من قبل؟». يقدم ميشيل طلبا للحصول على منحة من المعاهد الوطنية للتحقيق فى مختلف الأمراض النفسية مثل الوسواس القهرى واضطراب نقص الانتباه من حيث القدرة على التحكم فى الاهتمام وتوجيهه. يأمل ميشيل وفريقه فى تحديد الدوائر العصبية التى تشتمل على مجموعة

Don’t!

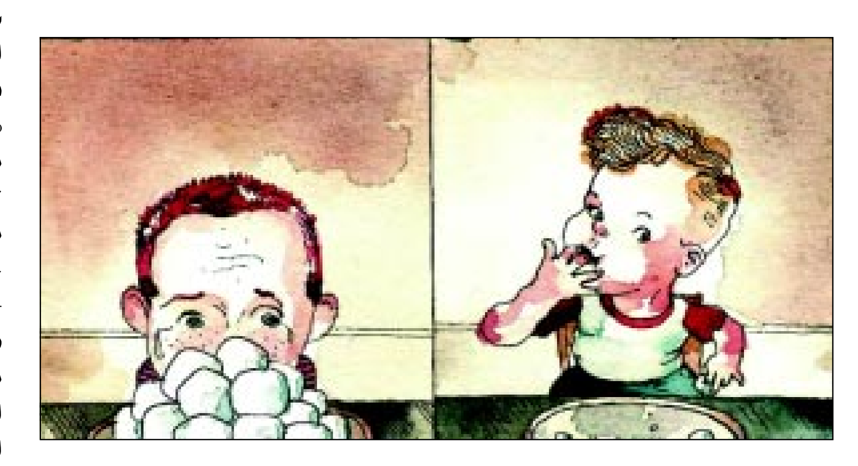
متنوعة من الأمراض إذا وجدت هذه الدائرة، فإن نفس الحيل المعرفية التى تزيد من قدرة التأجيل عند ذوى الأربع سنوات سوف تساعد البالغين فى التعامل مع أعراض مرضهم. يظهر ميشيل حماسا خاصا لمثال من الناس يشكلون مجموعات فرعية من الأفراد الذين فشلوا فى اختبار مارشمالو عندما كانوا فى الأربع سنوات ولكنهم انتهى بهم الأمر إلى أن يكونوا من عالى التأجيل عند البلوغ يقول عنهم ميشيل: «هذه هى المجموعة التى أثارت جَل اهتمامى، لقد قاموا بتحسين حياتهم إلى حد كبير».

يعد ميشيل لدراسة واسعة النطاق تشمل المئات من أطفال المدارس فى فيلادلفيا Philadelphia، وسياتلSeattle، ومدينة نيويوركNew York City لمعرفة ما إذا كان فى الإمكان تدريس مهارات ضبط النفس Self-Control. بالرغم من أنه قد أوضح فى وقت سابق أن الأطفال يؤدون بشكل أفضل فى مهمة مارشمالو بعد أن يتم تعليمهم مجموعة بسيطة من التحولات العقلية «Mental Transformations» مثل التظاهر بأن المارشمالو ما هو إلا سحابة، فإنه ما زال من غير الواضح ما إذا كانت هذه المهارات الجديدة سوف تصمد على المدى الطويل. بكلمات أخرى هل تعمل الحيل فقط خلال التجربة أو هل سيتعلم الأطفال تطبيقها فى المنزل عندما تكون هناك مفاضلة بين أداء واجب المدرسة ومشاهدة التليفزيون؟

أنجيلا لى داكورث Angela Lee Duckworth أستاذ مساعد فى علم النفس بجامعة بنسلفانياUniversity Of Pennsylvania تتولى قيادة هذا البرنامج. نشأ اهتمامها الأول بهذا الموضوع بعد عملها كمدرسة رياضيات فى إحدى المدارس الثانوية. تقول انجيلا: «على العموم كانت التجربة محبطة بشكل لا يصدق، فقد بدأت بالتدريج أقتنع أن محاولة تدريس مادة الجبر للمراهقين تعد ممارسة جميلة ولكن لا طائل منها إذا كان هؤلاء المراهقون لا يجيدون ضبط النفس». ولذلك فعند بلوغها الثانية والثلاثين قررت داكورث أن تصبح طبيبة نفسانية. أحد أهم مشروعاتها البحثية تناول العلاقة بين ضبط النفس ومتوسط الصف الدراسى. وجدت انجيلا أن القدرة على تأجيل الإشباع - حينما وضع طلاب الصف الثامن فى وضع اختيار بين الحصول على دولار واحد فوراً أو الحصول على دولارين فى الأسبوع التالى - كانت مؤشرا للأداء الأكاديمى أفضل بكثير من «الأى.

يعلم ميشيل أنه لا يكفى أن نعلم الأطفال الحيل العقلية فقط، فإن التحدى الحقيقى هو تحويل هذه الحيل إلى عادات وهذا يتطلب سنوات من الممارسة الدءوبة





كيو I.Q. (Intelligence Quotient حاصل الذكاء: هو حاصل قسمة سن الطالب العقلية على سنه الزمنية مضروباً بالمائة - المترجمة)، ذكرت داكورث أن دراستها قد أوضحت الآتى: «إن الذكاء مهم حقاً ولكنه ما زال أقل أهمية من ضبط النفس».



فى العام الماضى قرب دافيد ليفينDavid Levin المسافات بين داكورث وميشيل، وليفين هو المؤسس المشارك لكيب Kipp وهى منظمة من ست وستين من المدارس المرخصة فى جميع أنحاء البلاد. تعرف مدارس كيبKipp بساعات العمل الطويلة حيث يبقى الطلاب فى الفصول من الساعة٧,٢٥ صباحاً حتى الساعة الخامسة مساء. وتعرف أيضا بالتفوق الملحوظ لطلابها من حيث الدرجات التى يحصلون عليها فى الاختبارات. «أكثر من ٨٠٪ من طلاب الصف الثامن بأكاديمية كيب فى برونكس الجنوبية South Bronx قد حققوا مستوى مساويا أو أعلى من صفهم الدراسى فى القراءة والرياضيات، وهذا ما كان يقرب من ضعف المتوسط فى مدينة نيويورك». يقول ليفين: «السمة الأساسية التى تميز منهج منظمة كيب Kipp هى أن القضية الأولى للنجاح هى الشخصية، المعلمون يحبون الحديث عن مهارات الشخصية عندما يكون الأطفال فى مرحلة الروضة، نحن نرسل مع الأطفال الصغار تقارير منزلية حول «العمل بشكل جاد مع الآخرين» أو«عدم الحديث بشكل خارج عن اللياقة» ولكن بعد ذلك وبمجرد أن تبدأ هذه المهارات فى العمل نتوقف نحن عن محاولة تطويرها وكل ما نفعله هو أن نخلى مسئوليتنا ثم نشتكى».

تؤكد منظمة كيب Kipp على أن ضبط النفسSelf-Control هو أحد أساسيات قوة الشخصيةCharacter Strengths - على سبيل المثال تقدم أكاديمية كيب فى فيلادلفياPhiladelphia لطلابها قمصانا مكتوبا عليها شعار «لا تأكل المارشمالو Don"t Eat the Marshmallow » - ومع ذلك ظل ليفين غير متأكد من جودة عمل البرنامج فيقول: «نحن نعرف كيف ندرس مهارات الرياضيات ولكن الأصعب من ذلك هو قياس قوة الشخصية» ولذلك فقد اتصل ليفين بكل من داكورثDuckworth وميشيلMischel واعداً إياهما بحرية التواصل مع طلاب كيب Kipp . وساعد ليفين أيضا فى الجمع بين مدارس إضافية راغبة فى المشاركة فى التجربة بما فى ذلك مدرسة ريفرديلRiverdale Country School وهى مدرسة خاصة فى حى برونكس Bronx ، ومدرسة إيفرجرين Evergreen School للأطفال الموهوبين فى شورلاينShoreline ومدرستا واشنطن Washington وماسترى Mastery المرخصتان فى فيلادلفيا.

على مدى الشهور القليلة الماضية كان الباحثون يقومون بإجراء مجموعة من الدراسات الرائدة فى الفصول حيث كانوا يحاولون معرفة الطريقة الأكثر فعالية فى إدخال مفاهيم نفسية معقدة للأطفال الصغار. لأن الدراسة كانت ستركز على الأطفال فى الأعمار ما بين الأربع إلى الثمانى سنوات كانت الدروس فى الفصول تعتمد إلى حد كبير على «نماذج الأقران Peer Modelling» مثل مشاهدة أطفال الروضة لفيلم فيديو لطفلة نجحت فى اجتياز مهمة مارشمالو من خلال إلهاء نفسها». حصل العلماء على نتائج أولية مشجعة - فبعد قليل من الدورات أظهر الطلاب تحسناً ملحوظاً فى القدرة على التعامل مع الحالات العاطفية الحارة - ولكن العلماء حذرون بشأن التنبؤ بنتيجة الدراسة طويلة المدى. تقول داكورث: «عندما تقوم بدراسات تعليمية على نطاق واسع فسوف يكون لديك تسعة وتسعون من الأسباب المملة التى قد تسبب فشل الدراسة، قد تكون بسبب عدم عرض المدرس لفيلم الفيديو أو قد تكون هناك رحلة ميدانية يوم الاختبار وهذا ما يجعلنى فى أرق طوال الليل».

الهاجس الرئيسى عند ميشيل هو أنه حتى لو أثبتت خطة دراسته فعاليتها، فإنه ربما تطغى عليها متغيرات لا يستطيع العلماء السيطرة عليها مثل بيئة المنزل. يعلم ميشيل أنه لا يكفى أن نعلم الأطفال الحيل العقلية فقط، فإن التحدى الحقيقى هو تحويل هذه الحيل إلى عادات وهذا يتطلب سنوات من الممارسة الدءوبة، يقول ميشيل: «هنا تكمن أهمية والديك، هل أسسا لديك طقوساً تدفعك إلى التأجيل على أساس يومى؟ هل يشجعانك على الانتظار؟ وهل يجعلون من الانتظار شيئا مجدياً؟». وفقا لميشيل فإنه حتى فيما يتعلق بأدنى القواعد الروتينية الخاصة بالطفولة - مثل عدم تناول وجبات خفيفة قبل العشاء أو توفير المصروف أو الانتظار حتى صباح عيد الميلاد - فإنها تعد فى الواقع مناورات ماكرة للتدريب المعرفى، نحن نعلم أنفسنا كيف نفكر حتى يمكننا التغلب على رغباتنا. ولكن ميشيل ليس راضياً عن هذا المنهج غير الرسمى فيقول: «لابد أن نعطى المارشمالو لكل طفل فى مرحلة الروضة ونقول له: «هل ترى هذا المارشمالو؟ لا يجب أن تأكله. أنت تستطيع الانتظار وهذه هى الطريقة». ■

كـــــــــــــــــــــــــــــان



تــــرجـــمــــــــــــات

صدرت هذه الرواية بالفرنسية تحت عنوان غاية فى الاختصار «أم» وهو الاسم المعروف لأم كلثوم بفرنسا، مثل «ثومة» بالعالم العربى. ثم ترجمت إلى الإنجليزية، والإيطالية بعنوان «أحببتك لأجل صوتك» فيما قام بترجمتها الشاعر اللبنانى الراحل بسّام حجّار بهذا العنوان «كان صرحاً من خيال» المأخوذ من قصيدة «الأطلال»، وهى إحدى أغنيات أم كلثوم القليلة التى لم يؤلفها أحمد رامى، الذى يمكن القول؛ إنه الشاعر الخصوصى لها، حيث كتب ١٣٧ أغنية من بين ٢٨٣ أغنية، قدمتها فى مشوارها الفنى.

سليم نصيب، اللبنانى الأصل، الذى يعيش ويعمل فى باريس منذ ١٩٦٩، كمراسل لصحيفة ليبراسيون، استوحى أغلب أعماله من التاريخ العاطفى للشخصيات التاريخية من خلال موضوعه المفضل الغرام، لكن الغرام هنا عذرى «ومن طرف واحد على ما يبدو» إذ تتناول الرواية غرام «رامى» بسيدة الغناء العربى، يحاول الكاتب على لسان «رامى» -الذى يبدو فى حالة من العشق الصوفى- إحياء الحياة الأدبية والفنية، وتركيب تاريخ مصر منذ عام ١٩٢٤، حتى عام ١٩٧٥ «تاريخ وفاة أم كلثوم».



© H. Sochurek 1965

■■ كان هواء الغرفة ثقيلا، ناعما، ومُشبعا بتلك الرائحة الخاصة بالمواليد الجدد. وكان ذلك الشىء الصغير ساكنًا فى الضوء الخافت، مستلقيا على ظهره، وعيناه مفتوحتين على أحاسيس لا اسم لها، رفَعت الناموسية وأدنيْت وجهى. راح يرمقنى بنظرات ثابتة. جئت أقول لك إلى اللقاء، سأعود غدا لأراك، أما الآن فأدعك لعناية أمك وأبيك، يجب أن أغادر ستغنى بعد قليل فى غضون ساعتين من الآن، وأنت تدرك جيدا أنه ينبغى أن أكون إلى جانبها. ففتح فماً أدْرَد، وانساب من طرف شفتيه خيط لعاب بلَّل الوسادة. إنه حفيدى الذى ولد بعيدا عنى، فى عالم موازٍ لعالمى، تشبثت يده الصغيرة بإصبعى كأنه لا يريد أن أغادر.

سأحكى لك فيما بعد، أما الآن فهى تنتظر قدومى. أنت، أحبك كمثل هبةٍ لطالما ظننت أنها لن تصل، أنت لحمى.. غير أن روحى بقيت معها. ما باليد حيلة، لست ثمرة هذا الحب بالذات.

أصر على تشبثه بإصبعى، كأنه غير معنىٍ بما أقول. فتابعت كلامى إليه خفيضا، فيما عيناه تصغيان أو تدرى، كنت لأقول لك إن ذلك يعود إلى زمان الصبا، منذ وقت بعيد، وأُحدثك عنه بوصفه أثرا لحب عنيف كسواه، ذلك الحب الذى يستطيع المرء أن يلتفت إليه أخيرا بنظرة جدّ. غير أنه ما زال مستعرا فىّ كما كان فى اليوم الأول، ما زال حيا فما عسانى أفعل. أن أنظرَ بحياد إلى العاشقين فى حيرتهم على الضفة الأخرى من النهر، لن أقدر على ذلك بالتأكيد. أنا، ما زلت واقفا على تلك الضفة، أتألم ويحدونى الرجاء مثلهم. ربما لأن حبى لم يتجسد يوما، استطاع أن يرتحل عبر الزمان. لم يُضعفه ولم يفسده شىء فنجا، وعندما ينادينى افهمنى جيدا يجب أن أهرع إليه.

كانت يده اليمنى ممسكة بإصبعى ومد يده الأخرى، ولمس أنفى وأطبقت أصابعه الصغيرة على شعيْرات شاربى. ما عدتُ أقوى على الحراك أو الكلام. واغرورْقت عيناى فجأة بالدموع فاللعبة لم تكن لعبة. ذلك أنى لم أتحدث إلى أحد من قبل عن حبى على هذا النحو. راح يثغو دون أن تفارق عيناه وجهى. أطبقتُ شفتىَ على يده وعضعضتها، بدرت منه صيحة مفاجئة مكتومة، وقوَّس ظهره ضاحكا، وراحت قدماه تضربان الهواء فرحا. رحت أرمقه بشغف، فبادلنى نظراتى. وعندما دخل ابنى سمير الغرفة وجدنى على هذه الحال، فربَت على كتفى وذكرنى بموعد الحفلة.

صرحا...

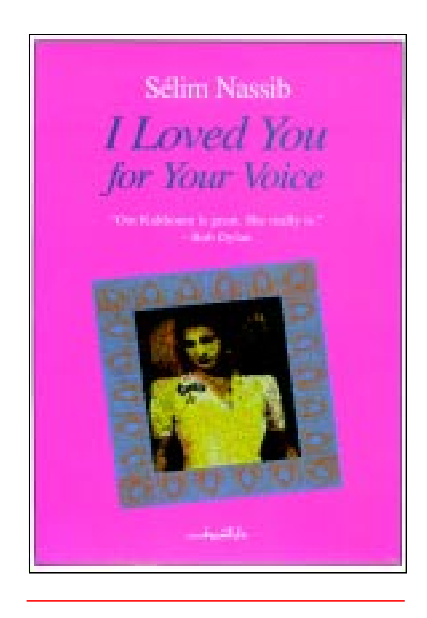
سليم نصيب/ ترجمة: بسام حجار

فى طريقى إلى هناك فى سيارة الأجرة، غمرنى حنان مفاجئ حيال ذلك الطفل. طارق؛ أسميه باسمه للمرة الأولى، كأنى بذلك أعترف بوجوده المستقل، والأقوى من أى شىء آخر. وكلما اقتربت بى السيارة من مكان الحفل، امتزج هذا الإحساس بإحساس آخر، الرهبة التى تستبد بكيانى قبيل كل حفلة غناء، غير أنى هذه المرة أشعر بها أشد وطأة. منذ أربعين عاما وأنا أشهد حفلاتها، ولم يُبدل هذا من الأمر شيئا. «كيف لى أن أدرك كُنه الأمام والوراء/ حين لا تكون شمس معشوقى لا فى الأمام ولا فى الوراء» إن هذا القول لمولانا «جلال الدين الرومى» الفارسى، تعبر عن حالى أفضل تعبير. إذ يكفى أن ترحل، وكانت غالبا ما ترحل.

لقد غنت فى مناطق مصر كافة، وفى نصف مناطق العالم العربى أنشدتْ «الفجر الجديد» احتفاء بالوحدة بين مصر وسوريا، و«بغداد يا قلعة الأسود»، يوم انهيار النظام الملكى العراقى، وأنشدت كل أغنيات الحب. لقد آمنت حقا، وارتعش كيانها على وقْع ما آمنت به حقا، واستبطنت ذلك التحول المذهل فى جسدها. غنت فى حلوان، المدينة التى غزت الصحراء. واشتعلت أفران الصلب لأجلها. وغنت فى أسوان «كان حلما» على هياكل السد العالى الذى تشيده الأيادى كأنه الهرم الجديد. آلاف مؤلفة من الأجساد نصف العارية، وحفيف الجلابيات بألوانها الترابية، على مدِّ النظر. وسمع عذابه فى ذلك الصوت، وكانت له وطنا، رافقت دربه، وطمأَنته، لا تخف، إنك تغيرِّ مستقبلنا بيديك، أنا أيضا كنت فلاحة، وانظر أين أصبحت الآن، وأنت تستطيع كما استطعت، نستطيع سويًا. «عودّت عينى على رؤياك» و«هجرتك» و«حيرت قلبى معاك»، كانت تخاطبه بما هو جوهرى، عذاب الحب، عبر أبياتى أنا، ولكن بعيداً منى. وعبر أبيات الآخرين أيضا. عنوان إحدى أغنياتها: «ما أجملك» فقط، بمثل هذه البساطة. أنت البطل الجديد، الجسم الذى استيقظ ليعالج الفولاذ، ويبنى الصروح، ويلبس قناع الحديد لاتقاء الشرر.. «ما أجملك». كان هذا الإنسان هو حبيبها الجديد.

أطلَّت مرة أخرى، وشقَّت قامتها المفضضة صيحات التهليل، ورافقتها تصدية الأيادى كأذيال طرحتها. راح الحشد يهتف باسمها وباسم آخر بأعلى صوته، اسم محمد. كان صديقى جالساً على بعد ثلاثة مقاعد، ورمقنى بنظرة مواربة، شديد التأثر، منحنيا لسيل

كان صرحا من خيال (أم كلثوم)
سليم نصيب
ترجمة بسام حجار
دار العين للنشر
القاهرة ٢٠٠٩



Loved Yoy for Your Voice I
Selim Nassib
دار الشروق
القاهرة ٢٠٠٩

الهتاف والتصفيق. تابع الناس هتافهم وصياحهم، بمزيد من الحماسة والإصرار، فنهض وبادل الجمهور التحية، ثم أشار بيده إلى نجمتى كيما يخصها الهاتفون بالتهليل وحدها، غير أن محاولته أخفقت، وازدادت اندفاعة المهللين إصراراً. فرضخ محمد وصعد إلى المسرح. كانت الحفلة لم تبدأ بعد، وافتتاحها يشهد ما لا يُصدق، هو وهى ، يدا بيد يرفعان ذراعيهما لتحية الحشد.

التفتتْ نحو القصبجى فاحتضن العازف العجوز عوده، وبدا أثرا من زمن سابق أمام الأوركسترا المتألقة، غابة من الكمنجات والفيولو نسيلات، والنايات والكونترباس والطبول، والطبلات، وخصوصا الغيتار الكهربائى، الشهير الذى لفت الأنظار. ثم انتبه مجفلا مثل غافل استيقظ فجأة من حلمه. الناس كلهم يعلمون أنها تعافت من جراحة أجريت لها أخيراً، وأن إطلالتها هذه، كانت الأولى بعد شفائها. أمسكت يده فيما الهتاف يعلو باسمه «قصبجى» من الصف الأول، حيث أنا أستطيع أن أرى انعكاس أضواء الكشافات فى عينيه. وأمسك محمد بيده الأخرى ووقفوا طويلا يحيون الجمهور معا.

أن تعمل مع محمد. كانت قد صممت أخيرا على الوفاء بالوعد الذى قطعته لجمال عبد الناصر، الذى ألحّ عليها بأن تفعل. وذاع الخبر فى كل مكان، غير أن أحدا لم يصدق، مع أن الصحافيين استماتوا فى تأكيد الخبر، وتفننوا فى إبراز أدق التفاصيل. كانوا يغطون جلسات التمارين ويتحدثون إلى العازفين، ويستدرجونهم إلى إفشاء بعض ما ينبغى التكتم عنه. وفى آخر الأمر لم يتوصلوا إلا إلى معرفة القليل القليل، فالمفترض أن عنوان الأغنية هو «أنت عمرى» وهى قصيدة من نظم أحمد شفيق كامل.. وأن نزاعا قد نشب بخصوص حكاية الغيتار الكهربائى تلك. لقد أصر محمد عليه، زاعماً أن جمهوره أحدث سنا من جمهور نجمتى، وأن هذا الجمهور يطالب باستخدام آلات حديثة، فى البداية جابهتْ إصرار محمد بالرفض والامتعاض لكنه لم يتراجع. واستشارتنى بهذا الشأن، فأجبتها بأن الموسيقى ليست من اختصاصى. واستشارت القصبجى لكنه تهرب من الإجابة بدوره. فقد كان رأيى؛ أنه إذا كانت النهضة الموسيقية التى قادها الحامولى أواخر القرن الماضى لم تُسفر إلا عن استيراد الغيتار الكهربائى، فهذا يعنى أننا خسرنا إلى الأبد. غير أنى لم أقل شيئًا.

ولكن قُضى الأمر الآن، وإذا بكوكب الشرق، أمام أنظارنا تستعد لغناء لحن من ألحان محمد عبد الوهاب. كان الشعور الذى يُطبق علىَّ أشبه بالذعر، هى وهو. وبكلمات ليست من نظمى أنا. وإذا بعالمىّ المتوازيين يلتقيان عند خط الوصول ويجعلاننى، على نحو غامض، خارج اللعبة. طالعتنى صورة حفيدى فى تلك اللحظة بالذات، ولا أدرى، لماذا كانت هى، فى الأثناء تشير إلى العازفين مؤذنة بالبداية.

شرعوا فى عزف المقدمة الطويلة. أخيراً اجتمع الجمهوران. الوجوه السمراء القاتمة إياها، وصبر المومياءات إياه، والعيون المعلقة النظرات إياها لا شىء يفرِّق بينهم. ومع ذلك هم، مجموعتان متمايزتان، معسكران يتبادلان ازورار النظرات منذ دهر. امتزج الناس واختلطوا بفضل شباك التذاكر، وما عادوا يملكون إلا أن يترامقوا خلسة بشىء من الاستهجان. فما زال الحذر سائدا بينهم - ومعه الخَفَر - حيال مصالحة تاريخية غير متوقعة.

عندما أشرفت المقدمة الموسيقية على نهايتها، نهضت واقتربت من الميكروفون. كانت كاميرات التليفزيون تصور من بعد خمسة عشر مترا على الأقل، فقد رفضت أن تغنى وفوهة الكاميرا على صدغها. وبأية حال.. قلة من الناس تمتلك أجهزة تليفزيون، فالإذاعة ما زالت سيدة الموقف دون منازِع، والإذاعة ترافقها أينما ذهبت.

خفَّت حدة التصفيق تدريجيا، وخيم إثرها صمت



كان الشعور الذى يُطبق علىً أشبه بالذعر، هى وهو. وبكلمات ليست من نظمى أنا. وإذا بعالمى المتوازيين يلتقيان عند خط الوصول





تراجعت نجمتى قليلا، واستأنفت المطلع مجددا، وهدأت اللعبة، واستغلت وقتها ما أمكنها فى تقفية الدور بالدور، وتريثت عند الشطر الثالث



أشعر بأنى مستعجل ملهوف، فلم يعد لدى المتسع من الوقت، وقريبا سيكون علىَّ أن ألزم الصمت .. لأنه قريبا سيصبح بإمكانه أن يفهم ما أقول



ليس هو الصمت المعهود فى حفلاتها، ليس صمت الحماسة الغالبة المتجانسة، بل صمت الترقب المشدود الموشك على التفلت.

انفرجت شفتاها أخيراً، فى المدة الأولى كان الصوت متداركا على نحو مذهل: «رجعونى عينيك لأيامى اللى راحوا/ علمونى اندم على الماضى وجراحه». والأوركسترا تُصاحب الصوت عن كثب، تنتحل منعرجاته، متراوحة، مترجحة، مثيرة للأعصاب. كما يُرى فى فيلم سينمائى لحن مفرط فى هدوئه. تراجعت نجمتى قليلا، واستأنفت المطلع مجددا، وهدأت اللعبة، واستغلت وقتها ما أمكنها فى تقفية الدور بالدور، وتريثت عند الشطر الثالث، الذى جزأته إلى عبارات قصيرة «اللى شفته.. اللى شفته.. قبل ما تشوفك.. عينىّ.. عمر ضايع..»، كانت أنغام الكمنجات تتعاظم بوتائر المقاطع كأنها ترتاض لما يلى. وعندما بلغت الذروة صدحت «أنت عمرى!» كدوى ومُدّت آخر اللفظ ومدّته، وداور به صوتها، وجعله ينهمر على الرؤوس والأذرع الممدودة. كأنه أطلق فجأة من إساره، فانفجر الجمهور آهات وتهليلا.

حدست على الفور ببراعة محمد التى لا يُستهان بها. لقد استدرجت الموسيقى الصالة بدراية جعلت الطرب يشيع من صف إلى صف حتى انطلاقة الحماسة الختامية، والتى لا مفر منها، لقد سرت موسيقاه تدريجيا مصحوبة بلذة تلقائية، أما صوتها فقد نثر البناء أشلاء لكى ينبثق طليقا من أى عائق، وأفلح النجمان فى الانصهار، كما بأعجوبة، فى إله وحيد. أجابها الجمهور بصيحة: أنت أيضا أنت، أيضا أنت عمرى.. وإذا بها تبدأ بالكلمات الثلاث الأولى من المقطع التالى، «الليالى الحلوة..» مرتجلة ما أعانها إلهاماً على الارتجال، محاورة الأوركسترا التى تصاحبها طائعة وتستجيب لها بردٍ غرامى. «الليالى الحلوة، والشوق والمحبة/ من زمان والقلب شايلهم عشانك» قوبلت المدة بغليان أقام الصالة وأقعدها هتافًا وتكبيرا. أما هى، فوقفت على المسرح مُتلقيّة عاصفة التهليل بذراعين مبسوطتين، وردت بترداد البيت بأكمله، متريثة فى كل عبارة على هواها، مرددة الكلمات، لاعبة بها، كأنها تنكأ، وتنكأ الجرح بسكين.



تجاهلت حال الهيجان فى الصالة، وخصتنى وحدى بنظراتها، واقتربتْ. أشارت إلىّ بحركة من رأسها، كأنها تسخر من شحوبى. وعندما لامست شفتاها المذياع مجددا، همست بصوت لعوب: «دوق معايا الحب دوق» فتصدّعت جدران الصالة، ضحكتْ، كأنها تتعمد الإثارة، ورددت شطر البيت «دوق معايا» ورددته حتى استحال كلمة واحدة: «دوق» التى كررتها بأكثر من ترخيم وعلى نحو لا يخلو من الإيحاء الواضح. كانت قد جاوزت الستين من عمرها، فتجرؤ على ذلك دون خجل أخيرا، وأنا المقلبُ الآخر من مرآتها، جمهورها المجسد فى شخص واحد، لم أنتظر عبثا. كنت «عمرها».

[٢]

كان طارق قد بلغ سنته الثانية. وعلى جارى عادتى، كنت أحدثه عنها باستمرار. أصحبه من عند والديه إلى ضفة النيل، وفيما ينهمك باللعب أخبره عن حفلاتها، وأنتبه إلى أننى ما عدتُ أميز بينها، كأنها جميعها حفلة واحدة لا تنتهى. أريد أن أشرح له، لا أدرى ماذا بالضبط، ولكنه أمر جوهرى. ذاك الذى حصل بيننا، أنا وهى، ذلك السر، فلربما أضاء له مستقبله. أشعر بأنى مستعجل ملهوف، فلم يعد لدى المتسع من الوقت، وقريبا سيكون علىَّ أن ألزم الصمت .. لأنه قريبا سيصبح بإمكانه أن يفهم ما أقول.

كان الجميع يقولون إن مصر على وشك النهوض، فقد تضاعف الناتج القومى خلال عشر سنوات. غير أن شيئًا من بوادر هذا الأمر لم يظهر فى الحياة اليومية، لا، بل ربما ظهر العكس. فالحركة التى أخرجت الفلاحين من قراهم من أجل حياة أفضل. قد بلغت أوْجها وكفاياتها. وفجأة، أصبح الناس يتذمرون من الشعارات والخطب والشرطة الموجودة فى كل مكان، والاشتراكية والغد الزاهر الذى لا يأتى على الإطلاق. توالت الإضرابات العمالية، وتم قمعها بقسوة، وتفاقمت التظاهرات الطلابية التى تطالب بإطلاق الحريات العامة. وعدد الطلاب فى مصر بلغ حجما لم تشهده من قبل.

كان صوتها يهدهد كل ذلك الغضب، كل ذاك الشقاء. تطل من على المسرح، بثوب أبيض، أو أصفر أو أخضر، فيرمى الناس قلوبهم نحوها فتحتضنها فى كنف دفئها، بعطاء، ولأوقات طويلة.

عند منتصف الليل. وفى ختام برنامج سهرتها المقرر، تبدى رغبة فى المزيد من الغناء وتنشد «يا ظالمنى»، وهى قصيدة طويلة نظمْتها لها قبل خمسة عشر عاما، أو تغنى «أمل حياتى» الأغنية الثانية التى وضع لحنها محمد. ذلك الجزء من السهرة يكون حراً للاستمتاع، ويُسمح فيه بكل أنواع الارتجال. فجأة تخلع الصالة مظاهر رصانتها، وتُشمر الأكمام والجلابيات. ذلك أن الأسى الذى يحياه الجميع ستعبر عنه معبودة الجماهير، ستخوض فى غماره وتجعله خفيفا. وهى تعلم يقينا أن الشعب العربى سيبقى، فى الأثناء، ملتصقا بأجهزة الراديو وأن الشوارع ستقفر، وسيجتنب القادة الإدلاء بأى تصريح، لأن شعوبهم فى تلك الليلة لن تكون لهم آذان مصغية إلا لغنائها. ولكن بعد منتصف الليل لا يعود مثل هذا المجد مهمّاً. يكفيها نفَس ورائحة البشر الجالسين قبالتها. فالسيرة أصبحت أمرا مجردا. حتى ما نالته من تكريم، حتى عبد الناصر، حتى السياسة، إنى أعرفها جيدا. أن يُحبط الحلم بقيام وحدة عربية فى غضون أربع سنوات، أن تنتهى الوحدة بين مصر وسوريا بانفصال ضغينة، فهذه من أمور الواقع الذى لا تدركه. وحدها، خشبة المسرح هى الواقع. هناك يستسلم جسدها للنشوة بوصفها السبيل الوحيدة التى تمنحها إحساسها بالوجود. وهناك تكون موجودة. بارتعاشة أحشائها بثمالة صوتها هى، وصيحات الحب التى تستجيب لغنائها. وحده الحيز المثقل بالأضواء، يُتيح لها أن تخدر وعيها الأشياء. وهناك، ترخى، فى شبه إغماضة الكوابح وتواصل انطلاقها حتى الصباح.

حكيت لطارق. أنها تقول وتردد لكل واحد منا، وحده معها. «بعيد، بعيد أنا وأنت بعيد بعيد وحدينا ..» أنت الرجل الجالس فى العتمة، الذى يبكينى ويجعلنى أتألم، لو كنت أدرى لما أحببتك، أنت عمرى أمل حياتى الحب هكذا، فلمَ لا أستطيع أن أصحو من الحلم الذى تأسرنى فيه. تقول إنها تنتظره فى الليالى الطويلة، الليالى الطويلة، فلمَ لا يأتى، ولمَ ولمَ.. يغيب الصوت ثم يرجع، يتلبس النغم الذى ينفلت فجأة فى حال انتشاء، فتتحرر آلاف الصدور من ضيقها معا.

لا تترك الأوركسترا مجالا لأن تطلق الأفواه أرواح السامعين طربا، فتباشر المقطوعة الثانية، وتكون انطلاقة جديدة لثمالة تبادلية جديدة. غير أن الكلمات تفقد معناها. ففى ظل دوار الصالة تروح تلعب بالمقاطع الصوتية بأجزاء منها، وترجّح صوتها على حرف واحد. فلا تعود القصيدة سوى ذريعة لتنويعات مجردة على أصوات مشحونة بالانفعال. ولا يدرك السامع أين أصبح. من حين إلى آخر، يتنبه إلى أنه يصرخ مع الآخرين، عند استماعه إلى نبرة أعمق، وبالكاد يدرك ذلك ثم سرعان ما يصمت، وصمته بكلام. «بعيد بعيد أنا وأنت» دوار طقس شعائرى يخطفه المتاه اللولبى ويتشبث به. يصبح بلا عائلة، بلا عشيقة، بلا أولاد، شقيقه لم يُعتقل، ولا تعود نهايات الشهر من أوقاته الشاقة. فالليلة لن يذهب إلى النوم إنه فى إجازة ويستسلم بجسده المتوهج لمجرى اللغز. أنا وأنت بعيدا عن عيون السلطة، بعيدا عن المصاعب المنزلية، وسط الدائرة الحميمة. فى البيت هناك زوجة تنتظره، أو لا تنتظره، تحبه ربما، ولا يفكر فيها لحظة واحدة. إنه هنا فى الثقب الأسود حيث التعامل مع المعبودة هو المهم. وقد يصرف ليلته، لا بل عمره، طوعًا فى سماع هذا الصوت.

صــــرحـــــا

سوى أنه سرعان ما تتناهى إلى سمعه مقطوعة الرحيل. مجددا تقول إنها تنتظره فلم لا يأتى.. ويدرك أن السهرة أوشكت على الانتهاء، ويرفض الأمر بكليته. ربما لم يبزغ الفجر بعد، أقبل قدميك، ولكن تابعى الغناء. تعزف الأوركسترا ألحانا سريعة، وهو واقف لم يصمت الصوت بعد ويحصل الانفجار، يقفز مع الآخرين باسطًا ذراعيه حاضنا إياها من بعد، حاضنا الفراغ، ثم بضع دقائق أخرى. كان يود لو يقول لها صائحا: إن هذا ليس صحيحا، وأنه ليس كما تقول. ليس هو، لأنه هو أيضا يحب ويتعذب وينتظر.. وأن السعادة قد تكون ممكنة للحظة.

فى الأثناء، كان طارق يضرب الدرابزين بممشاطه ويصرخ بأعلى صوته كلاما غير مفهوم، فقط لكى يُحدث ضجيجًا وأصمت. وبرغم ذلك، أرى فى عينيه أنه يفهم ما أقول.

لا أذكر حفلاتها، إلا واحدة لن أنساها ما حييت. غنت خلالها «الأطلال» إحدى أجمل قصائد ناجى[1]. غير أن الكلمات وحدها ما كانت لتعبر عن تلك الكآبة كلها، وكآبة قد تكون أقل من المعنى، أقصد هذا الشعور المدمر الذى لا يحمل اسما ويعرفه واحدنا، حيث يستبد به. «يا فؤادى لا تسل أين الهوى/ كان صرحا من خيال فهوى/ اسقنى واشرب على أطلاله..» لقد صدمنا وما زلنا على عتبة العالم. لن نبكى بل سنشرب اسقنى واشرب. غير أننا احترقنا بنار الهوى، لا بل أكثر:«هل رأى الحب سكارى مثلنا/ ومشينا فى طريق مُقمر/ وعدونا فسبقنا ظلنا». كان الرجاء يطيب عيشنا. ولكن ما إن استيقظنا حتى طالعتنا الأطلال، «وإذا الدنيا كما نعرفها/ وإذا الأحباب كل فى طريق».

الدنيا كما نعرفها. دونما خفة. دونما مقدمات كئيبة، عسكرية مُراقبة بشدة. تصرخ:«أعطنى حريتى، أطلق يدى/ إننى أعطيت ما استبقيت شيئا» فيرج الهتاف جدران الصالة لتأوه جماعى من أعماق القلب. صراخ وبكاء على شىء ثمين جدا فُقد ويود الصارخ أن يعرف ما هو.

...

أطلق يدى. كل واحد منا كان يقرأ على شفتيها ما يُطبق على صدره، أمله الشخصى المغدور.. أو ربما لا. فما تغنيه يعبر عن جوهر الأمر، عن الحال النفسية، عن حنين متأصل لا غرض مرئيًا له.

ما عادت الصالة تسعى للتصفيق لها. أو توسل رضاها، كانت تقف الصالة إلى جانبها. شعور بالحداد يخيم علينا جميعا. ولا صلة لهذا الأمر بالقصيدة ولا بعذاب الحب ولا بالسياسة. أو ربما كان لهذه الأمور جميعها صلة بالأمر الذى جعلها فظيعة، غياب أبكانا فور حصوله، فخلف نجمتى كان كرسى القصبجى شاغرا. وعلى الكرسى المنقوش كان عوده مقلوبا جاثما برقة مُقبضة إلى السماء.

[٣]

فى العتمة، كان رجل مستنداً بجماع كفيه إلى واجهة أحد المحال المغلقة الأبواب، ويصرخ «الله أكبر»، ويضرب باب الحديد بمقدم رأسه. فى تلك الليلة كان هذا الرجل يختصر العالم العربى بشخصه.

الحرب. ظننا أنا ربحنا. وكانت خسارتنا من الفداحة بحيث خسرنا كل شىء. ما سعينا لإنجازه منذ عشرين عاما، منذ أربعين عاما، وكل ما حاولناه أفضى إلى الإخفاق الكلى، وأصبح لا يستحق الحديث عنه.

عنف ضرباته أدمى جبينه. ولم ينتبه أحد إليه. كانت الجموع الغاضبة تمر به ولا تراه. فالجموع لديها ما تفعله، والرجل ليس فى حسابها. بعضهم يشد شعره. وبعضهم يصرخ نواحا متصلا، وبعضهم لوى فمه فزعا. إلى أين المسير، فليس ثمة من مكان يُلتجأ إليه.

حسبنا أنه يكفى أن ننتزع استقلالنا وأن نوزع الأراضى، وأن نؤمم القناة، وأن نصنع وأن ندعو إلى الوحدة العربية، ونتزعم العالم الثالث. ظننا أنا ربحنا، أو فى الأقل أن حظنا فى النجاح كبير.

دنوتُ منه محاولا ردعه، لكنه فتىٌّ وأقوى منى بما لا يُقاس. مكث على وقفته لا يريد التعاطى مع أى إنسان، فالباب الحديد يكفيه، يكفيه ذلك الحيز بين ذراعيه. لم يكف عن ضرب الباب برأسه، ولم يلحظ حتى إنى أحاول أن أمسك بذراعه لكى أردعه. لمحت فى الأثناء وجهه الهادئ فشعرتُ بالخجل. كمن يقتحم بابا يستر عورة حميمية مقززة بعض الشىء، مُفرطة فى إنسانيتها. ابتعدت عنه واعتذرت. غير أنه لم ينتبه، ما عاد ينتبه إلى أى شىء. يضرب رأسه لكى يفقد وعيه، ولكنه لا يفلح حتى فى هذا.

«يا أبناء شعبنا، لقد اعتدنا أن نجلس ونتحدث معا فى السراء والضراء.. ما زال الصوت المتهدج يرن فى أذنى. ذو الكبرياء الذى تحدى الإمبريالية وإسرائيل ونصف الكرة الأرضية، هو الذى عمل على إسقاط النظام الملكى العراقى، وأرسل قواته لمحاربة ملك اليمن وشيوخ النفط، هو «يا أبناء شعبنا».إنه لا يخاطب الآخرين، بل يخاطبنا نحن وجها لوجه نجلس ونتحدث معا. كان وجهه يحتل مساحة شاشة التليفزيون الذى يبث بالأبيض والأسود، أو بالأحرى، بالرمادى المشوب بخطوط تشويش تهبط وئيدا من أعلى إلى أسفل. يا أبناء. ثم جاءت الكلمات القاتلة التى سُمعت فى اللحظة ذاتها فى العالم العربى بأسره الكلمات التى ما كنا لنصدق أن نسمعها إلا على لسانه هو. «يجب أن نعترف بأنها نكسة كبيرة وخطيرة..». منذ خمسة أيام والراديو يذيع بلاغات النصر المتتالية. ربما كانت البلاغات تحمل القليل من المبالغة. ولكن الواقع! الريِّس نفسه يعلنه. نكسة كبيرة وخطيرة.

كان مغضيًا وشارباه الرفيعان يرتعشان، وكان ينبغى أن نصدقه، فما هو الخيار الآخر؟ لقد روى فى خطابه التفاصيل، تفاصيل الحرب التى خسرناها. مجمل الطيران الحربى المصرى دُمِّر على الأرض فى أقل من ست ساعات، وضاعت سيناء وغزة، والضفة الغربية واجتيحت مرتفعات الجولان، والأسوأ من ذلك: ضاعت القدس.

هزيمة، قتلى وجرحى بالآلاف ولكن عندما قال: «دعونى أعود إلى صفوف الشعب لأتابع مهمتى كأى مواطن.. دعونى.. كأى فرد من بينكم..» أصبح الأمر حقيقة. فالنكسة إذًا من النكسات التى لا تخلِّف أثرا. فالأب يمحو ما كان ويتنحى. هذا الكلام وحده، جعلنا ندرك حجم الكارثة. ليست مجرد هزيمة عسكرية، بل أشد خطورة بكثير من الإذاعة. سمعنا أن الإسرائيليين يقيمون حفلا ضخما للموسيقى الكلاسيكية احتفاء بالانتصار، وكان واضحا أنهم منهمكون بأمور أخرى. فقد عاد العالم إلى دورته المعتادة من دوننا. وسقطنا مجددًا فى ماضينا.

كم من الوقت يستغرق الجسد فى استعداده لقول: لا؟ وللمناسبة هذه الـ(لا) فى وجه من؟ إنها الـ(لا) ببساطة. دونما قرار مسبق وجدتنى أهبط السلم هرعًا برفقة ابنى سمير، حتى دون أن نتفق. والقاهرة بأسرها فعلت مثلنا آنذاك، وبيروت ودمشق وبغداد والإسكندرية والجزائر.. عندما خرجنا إلى الشارع، كانت الساعة قد جاوزت الساعة السادسة مساء، وأعتم الضوء قليلا كأنه كسوف، وشعرت بأن النور سينطفئ ونحن هناك، فى الشارع، ذلك أن إعتام السماء فى اللحظة التى يخرج فيها الناس من مبانيهم لا يمكن إلا أن يكون نهاية العالم. وكنت واحداً منهم، يتدافعون فأميل يمينا ويسارا، وأتعثر تحت وطأة ذلك الظل الهائل. متقدما كما فى لحظة العماء وسط حشد يصرخ من أعماقه: «ناصر، ناصر!» وأُدرك فجأة أن الصوت الهاتف، هو صوتى.



استسلمتُ لموجة التدافع فوجدتنى يسارا، توقفت وأسندت ظهرى إلى جدار لكى أستعيد أنفاسى. تجاوزنى السيل البشرى فى وقفتى، ونالنى منه بعض كدمات. وسمعت أصداء هتافه المبتعد فى الأنحاء. كانت التظاهرات العفوية تلتقى فى المنعطفات وعند الجسور، وتختلط، والمدينة المتروكة هملا لذاتها، تسير فى دائرة يتعاظم حجم أفرادها دقيقة بعد دقيقة. انفصلت، فى الازدحام عن ابنى وأصبحت وحيداً.

ربما كان الرجل الذى راح يضرب باب الحديد برأسه محقا، والأحرى أن نحذو حذوه، وإلا فلنجلس على حافة الرصيف لنبكى. لقد حاولنا فعلا، ومنذ عشرين عاما أن نبقى واقفين، «يا أخى العربى ارفع رأسك» وإذا بنا فى غضون ست ساعات، فى غضون ستة أيام هبطنا إلى أسفل الطريق، كان سقوطنا سريعا فلم يعرف أحد منا كيف يستوعب الهزيمة وكيف يحياها.

استعادت الحشود لحمتها دونما قصد، وسارت فى اتجاه القصر الرئاسى هاتفة باسم الرئيس. وفى العواصم العربية الأخرى، كانت التظاهرات تسير فى اتجاه السفارة المصرية أو مقر الحكومة أو دار المفتى. وكان الهتاف: لا! جواب السؤال. حل الليل وبقيت الإنارة الأميرية مطفأة. وفى العتم اجتاح السيل البشرى وسط العاصمة، وكل أوساط العواصم، حشد منصهر من أخيلة مرتعشة، والنور الوحيد كان فى العيون الناقمة. حين وجب عليه الاختيار، اختار

أحمد رامي يستمع الى أم كلثوم – أغسطس ١٩٦٥





استسلمتُ لموجة التدافع فوجدتنى يسارا، توقفت وأسندت ظهرى إلى جدار لكى أستعيد أنفاسى. تجاوزنى السيل البشرى فى وقفتى



اختار الشعب العربى غريزياً أن يشل مدنه كافة. إضراب هائل. والعدد فيه كان القوة، حشد أجساد. ولن ينفك جسد عن آخر قبل أن يتراجع عبد الناصر عن استقالته



الشعب العربى غريزياً أن يشل مدنه كافة. إضراب هائل. والعدد فيه كان القوة، حشد أجساد. ولن ينفك جسد عن آخر قبل أن يتراجع عبد الناصر عن استقالته.

حاولت عبثا أن أسلك وجهة الحشود، غير أن الشوارع ما عادت هى الشوارع، وما عادت المسافات الفعلية هى المسافات. كورنيش النيل مغلق بسبب الحشد، فلم أستطع أن أسلك جادة رمسيس، سلكت دون أن أعرفه، شارع شمبليون، حيث صادفت عددا من التظاهرات التى جرفتنى فى وجهتها. ظلال المبانى الجرداء تحنو علينا من كل صوب. الزجاج صُبغ باللون الأزرق الغامق بسبب الحرب. والمدينة العمياء التى اجتاحتها الهتافات هجرت بيوتها لتحتشد فى الشارع. للحظة ما شعرت بالإنهاك لأن ركبتى ترتعشان، فاتكأت على سيارة مركونة، لم يلبث الصراخ المتدفق نحو نقطة استجماعه أن أجفلنى. مستحيل أن أكون بمفردى وسط هذا الانهيار العصبى الجمعى. واصلتُ السير مقتفياً حركة الناس وألمهم، متدافعا معهم وضدهم، حاضنا فى أعماقى غضبهم الذى هو غضبى. وربما فات أوان القول: أنا، أو أحسب أنا، كنا نحن، وليس باليد حيلة، غارقين فى طينة الأصل التى لا شكل لها، الحارقة، الخانقة نفسها بنفسها.

المعاندة فى السير، ثم إعمال المرافق والجذع لكى أخرج. عبثا إمّا أنّ السيل البشرى أشد بأسا وإما أننى عجوز أكثر مما ينبغى. تماوجت لساعات برفقة أبناء مصر والعالم العربى، منداحاً من مكان إلى مكان، منصهرا برغم كل شىء فى ذلك الجسم العجائبى. (التوحيد) كان ذلك هاجس عبد الناصر، توحيد العالم العربى، كما أن الله واحد، وقد عرف صوت نجمتى كما لم يعرفه أحد سواها. غير أن ما يحصل اليوم هو التوحيد ولا شىء آخر. مُسَرْكلاً بين المناكب، أسير بوتيرة تقدم الحشود. ناصر. ناصر. وكان الاسم (كرامة) ذلك الزيّاح الليلى، ذلك العرس الهذيانى للمأساة.

ومع ذلك كان اسم آخر يقود خطواتى بوصلة أخرى، ووجدتنى أمام باب الفيلا، ولا أدرى كيف أمكننى الوصول.

كتلة بشرية تحول دون وصولى إليه. آلاف من الرجال مثلى شاخصون فى نوافذ الدار المنارة ينتظرون. وشعرت بأننى عاجز عن شق صفوف هذا الحشد، فذاك أمر يفوق طاقتى. لقد سرت طيلة الليل لأخفق على بعد أمتار قليلة. فقدتُ الأمل، وإذ رأيتنى حبيس الصفوف الأخيرة ذرفت دموع عجزى، خلف هذه الأسوار، ثلاثون مترا فقط. وددتُ أن أمسك يديها وأقبلهما، وأن أغسل وجهى بدفء راحتيها. لقد اجتزت المدينة سيرا على القدمين لهذا الغرض.

مكثت بجانب الدرابزين، أغصُّ بفكرة المنفى. لم أكن معروفا برسمى غير أن اسمى هو المشهور. وللمرة الأولى فى حياتى قررت أن أستخدمه. أنا شاعرها وتجرأت على قولها. وسرعان ما أحاطت بى سلسلة من الأذرع التى أفسحت لى الطريق فوصلت إلى السياج. سلسلة أخرى من الجنود تحرس السياج، جنود فتيان تفوح الهزيمة من فوضى ملابسهم.

كل الأنوار مضاءة، وردهات الاستقبال مقفرة، لم أر أحداً. وفى الطبقات الأخرى لم أجد سوى حجرات خالية. بدت الفيلا وكأن أهلها غادروها هلعين على جناح السرعة، فقصدت جناحها.

فتح لى الباب محمود، محمود ابن شقيقها. لم تنبس بكلمة، تعانقنا. فى صالة الانتظار، حول بابها المغلق، رأيت بضعة أشخاص؛ السنباطى وبيرم والشيخ زكريا، وبعض المقربين. رمقونى بنظراتهم. كنت فى المعمعة فقدت طربوشى، وصار شعرى كالدُغل البرى، وقلبت ياقتى، وبدا ذيل قميصى من تحت السترة. صافحت الأيدى التى امتدت، وجلست على كنبة شاغرة بين السنباطى والشيخ العجوز زكريا. سُررت لوجود الشيخ هناك، فالمصالحة بينهما لم تتم إلا منذ وقت قصير بعد خصام دام عشر سنوات. فى زاوية من الصالة، وضع جهاز راديو يبث الأنباء المأساوية بأعلى طاقته ولكن لا أحد يصغى. فالمهم قد بلغ الجميع للأسف.

فُتحَ باب الغرفة، وخرجت سعدية، وجهها منتفخ كئيب وشعرها يميل إلى الزُرقة. ثم تبعها الدكتور حفناوى والمسماع يطوِّق عنقه.

– لا بأس، قال بصوت خفيض. لقد أعطيتها مهدئا. لكن حالتها لا تسمح برؤية أحد.

اقترب منى وصافحنى، ثم جلس فى غمرة ارتباكه مع الحضور، قُدِّم لنا شاى مر. وبصوت خفيض استفسرت من الشيخ زكريا عما حصل.

– أصيبت بوعكة. كنت قد وصلت لتوى وتقدمت نحوى. كأنها شاخت دفعة واحدة. كأن جسدها هى، هو الذى تلقى الهزيمة. قالت: «أترى..»، ووقعت أرضا. فنقلناها بمساعدة د. حفناوى وسعدية إلى غرفتها.

[٤]

مَن هو المخطئ إذاً، بقى السؤال شوْكة فى الحلق. وحين تبدّى أن فرضية المؤامرة قاصرة، ابتكرت الأذهان حكاية أخرى: «لقد أمضينا ليالينا ونحن نغنى يا ليل!» كتبت إحدى الصحف اليسارية، وصرفنا أيامنا ونحن نأكل «الفول» ونضحك من النكات التى ألفناها عن قادتنا، فى حين، أنهم هناك، خلف كثبان الرمال، كانوا يستعدون للحرب، الحرب الحقة. وما كنا لنصاب بمثل هذا الإذلال لو أننا عرفنا كيف نعبئ أنفسنا، ونكبر ونصبح حديثين ونصبح جديين.

على هذا النحو، بدأت التلميحات، بعد ذلك أصبحت النبرة أشد قسوة. لقد ضيعنا مزاجنا الحالم، وحس المتعة لدينا، وغرامنا المفرط بالكلمة. ومن كان يغذى فينا هذه العادات، هذه اللامبالاة القاتلة منذ عقود وعقود من الزمن؟ «نحن لا نعطى صك براءة للفن، أجابت إحدى الصحف التى قادت مثل هذه الحملات. وينبغى الاعتراف: أن فننا الشرقى هو أحد أسباب النكسة. ففى بلدان أخرى، الفن يحيى الأذهان والنفوس، وينبه المدارك. ولكن عندنا، وإن أمعنا التفكير، نراه تحفيزا متواصلا للامبالاة والتسطيل. فكيف لشعب أن يستعد للحرب إذا كان يصر على السهر حتى الرابعة صباحا لسماع مطربة عبر الإذاعة».

ما عادت تغادر غرفتها، وما عاد أحد يراها. ولأننا كنا لا ندرى أين نذهب، اعتدنا اللقاء كل يوم فى ردهة الانتظار أمام باب غرفتها. د. حفناوى عاد إلى مزاولة أعماله اليومية فى العيادة واختفى المستخدمون الآخرون لم يبق سوى سعدية العجوز، لاستقبالنا. كانت تلعب دور الوساطة، تُعلم سيدتها بحضورنا ثم تبلغنا أجوبتها. فالصغيرة تشكرنا لزياراتنا، وتعلم أننا المقربون، وهى ليست حزينة بسبب ما تتعرض له من حملات تشهير بل بسبب النكسة بالذات.

بعض الصحف قالت بوضوح: إن الهزيمة فى الحرب سببها ذلك الجيش من الموسيقيين والشعراء المنتمين إلى رعيل سابق، والذين عمدوا بذريعة النشوة الفنية، إلى حرف الأمة العربية عن واجباتها السامية. وكنت لا أصدق مثل هذا الهراء، غير أنه يجرحنى، فالتأوهات المسكرة حول الحب المستحيل. هى أنا، وشغفى أنا هو قصر الأحلام الذى أفضت تأملاته إلى الهزيمة. وهذه حقيقة حتى لو أنكرت وأنكر معى آخرون. إنها غلطتى وغلطة المرحوم القصبجى أيضا، والشيخ زكريا والسنباطى وبيرم ومحمد عبد الوهاب. لقد أردنا أن نحيى وأن نواصل حلما قديما، ولكن محدثًا وحاولنا.. وكان الأحرى أن نربى عسكريين وأخصائيين وتقنيين فى شئون الحرب. العبث سيد الأحكام، فأى شعب نكون إن أغفلنا ثقافتنا؟ إنى أرى أن سبب المأساة هو العكس تماما، لأننا لم نفلح فى التقدم، وفى تثوير ميراثنا لكى يُثمر. هذا هو إخفاقنا.

ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ لقد فُرضت حرب السويس

....

اصطحبت طارق إلى ضفة النيل، إلى الأماكن التى كنت أصطحبها إليها. اعترافاتى الخاصة التى سمعها منى فى أول سنتين من حياته خفراً فى التعامل معه. أصبح الآن فى الثالثة والنصف من عمره، غير أن هذا لم يكن السبب الوحيد. فما عاد باستطاعتى أن أحدثه عن هذا

الحب الهائل الذى قاد (الأمة) إلى الهزيمة. فأكتفى بالإصغاء إليه هو، أن يذهلنى بصمت والقلب حزين. أصبح له أصحاب ويستخدم عبارات يعرفها، وأخرى لا يعرفها أيضا من قاموس لا ينضب، وهى جديدة علىَّ.

ذات مساء، فى طريق عودتنا ابتعت صحيفة. على الصحيفة الأولى «منبر حر» تعليق كتبه أحد قادة اليسار المصرى، وكان العنوان يُغْنى عن قراءة التعليق: «إنى أتهم كوكب الشرق بأنها أفيون الشعب»، ودون أن أكلف نفسى عناء القراءة، حضنت طارق بين ذراعى وركبت سيارة أجرة.

فتحتُ باب غرفتها بعصبية، وأطللتُ على الشلة المقيمة فى صالونها. الجرنال فى يدها.

– لقد تصرَّمت أزمنة الآهات، والحداد أقام وقتًا طويلا. أما الآن، فينبغى أن نستأنف صراعنا.

جاء كلامها حاسما. لقد أعاد إليها الغضب ألوان سحنتها، وأعاد لجسمها ذلك الاتساق. الغضب يزيل التجاعيد كافة، وسوف تمحو ما مضى. استدارت نحوى وذابت رقة. اقتربت ببطء وسألتنى إذا كان هو مَن تظن، فهززت برأسى. أرادت أن تحضنه لكنها، قبل قليل، كانت غاضبة، فبكى طارق ولاذ بحمى ذراعى. قالت: «بإمكانك أن تبكى هيا. لقد غنيت لجدك ما استطعت. ومنذ الآن سأغنى لك».

صمَّمت على الرحيل. فقد تكون تلك هزيمة السلاح. غير أن النفس ما زالت كريمة. خطتها: التجوال فى أنحاء البلاد، مدينة بعد مدينة، حيثما كانت الهزيمة. فهذا الصوت الذى قيل عنه إنه يجعل الشعب خانعًا، سوف يوقظه، وسوف ترون.

....

حفلتها التى بثتها الإذاعات كافة كانت، قبل أى شىء، ردا على النقد المغرض. إنى لا أخدِّر الشعب. وعلى المسرح كفت عن التنويعات الشهوية والشهوانية. وخلا أداؤها من ترداد الجملة الموسيقية الواحدة مرارًا وتكرارًا فما من مجاراة أو تواطؤ. صوتها المُثقل بالرصانة، قابله الجمهور بخشوع شبه صامت. هو أيضا يحاول أن يحفظ مكانته. أن تشرد فى الليل يدك على أذنك، ووجهك يقابل السماء، فهذه ليست المشكلة. ففى قرارة نفسى، كنت لا أبالى. سيَّان. بإمكانها أن تفعل ما تشاء. أن تتلو نصها أو تُضنيه تجويداً أو تستظهره. المسألة برأيى ليست هنا. كنت غارقًا فى مقعدى فى الصف الأول، ومضطرا لأنى أراها، لا أكثر على بعد أمتار، واقفة لا تزال، وعلى قيد الحياة. وخلفى هدير الصالة صاخبا يستجيب بصيحة ألم.

حين همَّت بإنشاد المقطع الثانى أخفقت. كفت عن الغناء، واتّكأت على الكرسى، وأشارت إلى الأوركسترا. فتوقف العزف. ولم يُسمع فى الصالة رجْع نفس. وإذ ذاك أمسكت المذياع بيديها وقالت:

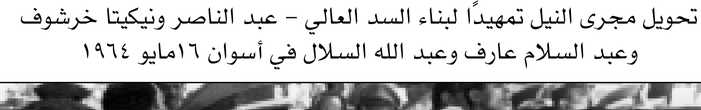
«شهد الله، علىَّ، كما على كل فرد منكم، ظننت أن دارى قوِّضت، وأن الشقاء مكتوب علينا إلى الأبد. غير أنى مكثت مستنكفة فى دارى لا أريد أن أرى أحدا». لم يسبق لها أن فعلتْ من قبل ما فعلت.. أن تتحدث إلى الجمهور، لا بل أن تحكى عن حياتها الخاصة. «غير أن واحدنا لا يستطيع أن يمكث فى الظلمة. ذات يوم تساءلت عما إذا كان صوتى، وهو هبة من الله، سوف يخذلنى، عما إذا كنت عاجزة عن إغاثة بلدى الجريح، أو أم الجندى الذى قُضى فى ساحة الشرف أو ابنه الذى يتمته الحرب. والجواب ماثل أمامكم الليلة، وهو حضورى، لقد صممت على الغناء حيثما كان، لأثير حميَّا القلوب والإيمان لأقول فى كل مكان إننا إنما خسرنا معركة ولكى نكسب المعركة المقبلة علينا أن نتوحد وأن نغير. إن شاء الله. أطلب من كل امرأة فى هذا البلد أن تحذو حذوى، وأن تهب حليِّها ومجوهراتها للمجهود الحربى. وأنا أعلن أن كل قرش سأجنيه من الحفلات خلال جولتى، وأن مجموع ما سأحظى به من ريع حفلاتى، سيكون هبة منى للدفاع عن الوطن».

أياد قليلة صفقت كأنها مرغمة. وفى فترة الصمت التى أعقبت كلامها، نزعت ببطء أقراط أذنيها، وهى هدية من أمير الكويت، تلقتها منذ سنوات، ونزعت القلادة والأساور. فعلت ذلك كأنها تتعرَّى دونما ادعاء أمام الملأ. ثم دخل رجلان يحملان العلم من طرفيه، وأودعت هبتها فى طيَّاته. لم يكن عدد النساء ملحوظًا بين الحضور، فقد رُكنَّ فى مربع صغير المساحة إلى اليسار. وحال حملة العلَم عليهن فتخلَّين عن مجوهراتهن ووهبنها كما لو أن الأعطية مقدسة. أما الصالة التى احتشد فيها الذكور فسرعان ما صدحت فى أرجائها موسيقى النشيد الوطنى: «بلادى..» فهب الرجال وقوفا منشدين والغصة تهدج أصواتهم. وكانت تلك المرة الأولى، منذ نكسة حزيران / يونيو، والتى يجرؤ فيها المصريون مجددا، سواء فى غمرة الغضب أو الحياء، أن يرفعوا رؤوسهم.



بلغت حصيلة حفلة دمنهور ٢٨٣ ألف جنيه، وحفلة المنصورة ١٢٠ ألف جنيه، وحفلة الإسكندرية ١٠٠ ألف جنيه، باستثناء التبرعات بمجوهرات النساء. غنت «قُم بإيمان» و«خلِّى الأمل بالعمل يُصبح وجود..»، وعلى الأخص مقطوعة «الأطلال» الشهيرة «أعطنى حريتى، أطلق يدى» التى تُثير، كل مرة لدى الجمهور مشاعر العبادة والتمرد، سمعناها فى بورسعيد المدمرة، وفى الإسماعيلية الرازحة تحت حرب الاستنزاف، وفى المنصورة حيث أعلنت عن تبرعها بعشرة آلاف جنيه إسهاما فى إعادة إعمار المدينة. كما أنشأت تجمعًا وطنيا للنساء المصريات، هدفه إعانة الجنود الجرحى وأسرهم، ونظمت حملة جمع آلات الخياطة لتوزيعها على الأسر التى تحيا على طول ضفة القناة، والتى خسرت كل شىء. كانت فى كل مكان، لكنها لم تجد الراحة فى أى مكان. كأن الاسم الذى وُسمت به أفيون الشعب غير قابل للنسيان.

تحت حرب استنزاف، اسمها أصبح مقرونًا باسم عبد الناصر. إلى الأبد. قران سعادة أو قران تعاسة، وحتى قران مغامرة. كانت تحمل الأسطورة على كتفيها، قادرة فى الأثناء، على إنجاز تعبئة شعبية يعجز بها أى خطاب. يُقتفى أثرها من منطقة إلى أخرى. ويُفرد لها السجاد الأحمر فى كل محطة. لكنها تأنف حفلات الاستقبال والتكريم. فالأضواء والمظاهر ما عادت تصنع الناس. حاضرة أبدا، وحضورها علامة. ما عاد الطرب هو المسألة، على الأقل رسميا، ولم أعثر بذلك يوما، فالغبطة قد تكون موجعة أحيانا غير أن المرض مقيم. النسغ المقيم، تلك اللذة المحرمة التى ربما شربنا من كأسها حتى الثمالة، ولست أعرف سواها، صوتها وُجد لمثل تلك اللذة وليس فى مقدور أحد أن يبدل فى ذلك شيئًا. وآذاننا، وأجسادنا وأرواحنا. الرطانة الوطنية لن تبدل شيئا، ومثلها الموسيقى العسكرية. أما هى، فلم تشأ أن تعرف، ولولا بعض الخفر لارتدت البزة العسكرية. غير أن هذا، حتى هذا ما كان ليبدِّل شيئا. فالدوار الشهوى الذى يستبد بها قبل أن يفتن الجنود، كان أقوى منها.


تحويل مجرى النيل تمهيدًا لبناء السد العالي – عبد الناصر ونيكيتا خرشوف وعبد السلام عارف وعبد الله السلال في أسوان ١٦مايو ١٩٦٤



[٥]

وضعت يدها على يدى وابتسمت. عادت لتوها من باريس، حيث غنت فى «الأولمبيا». كان من المفترض أن أرافقها فى هذه الرحلة، غير أن ألما مفاجئا فى وركى الأيمن أقعدنى رهين الفراش. «عرق النسا» بلى أعرف الاسم غير أنى لم أعرفه من قبل. رحلت من دونى. وخلال غيابها تآلفتُ مع مفردات أخرى من المعجم الذى لم يسبق لى أن استخدمته. مرض، أوجاع وقت جامد، شيخوخة. كم اغتبطتُ لفكرة العودة إلى باريس بصحبتها. عاشقًا روح سلكا الدرب إلى آخره وعادا إلى نقطة الانطلاق هانئين، أو شبه هانئين.

.....

– هيا.. أخبرينى عن باريس، قلت بصوت خفيض، بعد صمت.

– لقد استخدمت كل العبارات الفرنسية التى لقنتنى إياها. ولم يفارقنى ابن شقيقى خطوة واحدة. فى الفندق خُصصت له غرفة بجانبى، فكنت عاجزة عن الحراك. ولو ترك الأمر له لأمضى لياليه أمام بابى. فبالنسبة له كانت الرحلة عبارة عن مهمة فى بلد عدو. تذكر جيدا أن الجميع قالوا إن هذه الرحلة مخاطرة إثر النكسة مباشرة، وأن الصهاينة لهم نفوذهم فى فرنسا، وسيفتعلون المظاهرات. والحقيقة أن عددا كبيرا من المقاعد كان محجوزا ليهود مصريين، هذا ما أسره إلى مدير «الأولمبيا». خلال الأمسية الأولى وكانت الأوركسترا لم تنه عزف المقدمة الموسيقية، وحين نهضت لأغنى «أمل حياتى» فإذا بشاب يقفز إلى المسرح ويندفع نحوى. لم يتمكن أحد فى ارتباك المفاجأة، من إيقافه أو اعتراضه، وارتمى عند قدمى. كان يريد أن يقبِّل قدمى! اندفاعته هذه جعلتنى أفقد توازنى. فوقعت من طولى على أرضية المسرح، أمام أنظار الحضور! فى الأثناء تمكن رجال الأمن من السيطرة على الفتى، واتضح أنه شاب تونسى يحيا فى شمال فرنسا. لقد أنفق



المسكين كل مدخراته على تكاليف الرحلة إلى باريس وثمن بطاقة الدخول. توسطت له بإصرار لكى يسمح له بالبقاء فى الصالة. وفيما بعد رحت أغنى، ولا أكف عن النظر إليه فى الركن الذى أُمر بملازمته حتى النهاية. لو أنك رأيت بريق عينيه! وذاك كان الخطر الأكبر الذى تعرضت له فى باريس.

– لقد جئت لأخبرك.

– بماذا؟

– يجيب أن أسافر مجددا. فى غضون ثلاثة أيام سوف أحصل على جوازى الدبلوماسى وأغادر إلى الفور.

– إلى أين؟

– نفس الجولة التى قمت بها فى أنحاء مصر. سأقوم بجولة مماثلة فى أنحاء العالم العربى. سأستقل الطائرة أولا باتجاه الخرطوم. وهناك أنتقل مباشرة إلى فاس والرباط وتونس والمدن الأخرى. أردت أن أخبرك ولن أمرَّ بالقاهرة بين مواعيد الحفلات. هذه الرحلة.. ستستغرق وقتًا طويلا.

– أنت راحلة ولن تعودى .. أهذا ما...

– أجل إنى راحلة ولن أعود أبدا.

قالت عبارتها بجدية مفرطة، ثم ضاحكة أردفت قائلة:

– هذا ليس صحيحا، بالطبع سأعود، يا لك من أحمق. ولكن بعد أن أعيد توحيد العالم العربى. أما متى سيحصل ذلك؟ الله أعلم.

كنت غارقًا فى مقعدى فى الصف الأول، ومضطــرا لأنى أراها، لا أكثر على بعد أمتار، واقفة لا تــــزال، وعـــلـــى قيد الحيـــاة



[٦]

أسهم التليفزيون فى تغطية رحلتها، فكان يبث حفلاتها بعد يومين أو ثلاثة من إحيائها. لقد شاهدتها مثلا على مسرح «الأولمبيا» حيث كان الراديو يبث وقائع حفلتها فى الخرطوم، تعلن الصحف انتقالها من الخرطوم إلى طرابلس الغرب، فى ليبيا، وحيثما حلت يتم استقبالها كرئيس دولة، كأنها خشبة الخلاص الأخيرة. أسماء الأمكنة ما عادت ذات معنى، وهذا المطار كسواه لا موضع جغرافيًا له. تهبط سلما أبديا وتستعرض ثلة تشريفات خيالية، وتصافح وزراء لا ملامح لهم، وقدماها لا تلامسان الأرض. لقد حظيت بنعمة الحضور فى كل مكان.

إن أردتُ أن أعثر عليها، يكفى أن أعالج زر الجهاز فى أى ساعة، وما إن تتحرك إبرة التأشير، تكون هناك دائما فى مكان إقامتها الحقيقى. ومسمرًا على ثلاثة أمتار مربعة هى مساحة سريرى، أمكث منتشيا على أنغام هذا الصوت الروحانى الذى يهبُّ فى فضاء العالم العربى، ينسل من مساحات جلدى، يغنى فى داخلى، يهمس فى صدرى. النهارات هى تكرار النهارات، وحتى الليالى. أتنشَّق صوتها مع الهواء الذى أتنفسه، إنى طافح بها، وعاجز عن أن يطفح كل ذلك من أعماقى، إلا إذا

فــى فــتــرة الــصــمــت التى أعقبت كلامهــا، نزعت ببــطء أقراط أذنيها، وهــى هــديـــة مــن أمــيـــر الكويت، تلقتها منذ سنوات، ونزعت القــلادة والأســــــاور



رحت أقلب رأسى يمنة ويسرة على الوسادة كالدراويش.

....

لم تكن الخرطوم مجرد مكان متخيل. فليلة وصولها إليها، شاركت فى «ليلة الحنة» وصبغت راحتيها بعريسات دقيقة، وهو الطقس الذى تنسبها القبيلة من خلاله إليها بوصفها عروسًا. «السودانيون والمصريون هم شعب واحد، صرخت شاهرة راحتيها، شعب واحد وسط الشعب العربى العظيم». ودوى التصفيق الذى لم يهدأ إلا حين اخترقه صوت رسمى يُعلن أن إحدى مدارس العاصمة سوف تحمل اسم «كوكب الشرق»، شقيقتنا. قبل ذلك بأشهر قليلة، وفى هذه المدينة بالذات، اجتمع ملوك ورؤساء الدول العربية لإعلان رفضهم الاعتراف بإسرائيل، ورفضهم المفاوضات المباشرة أو أى تنازل بشأن حقوق الشعب الفلسطينى. وأصبحت «اللاءات الثلاث» هى خط دفاعنا الوحيد بانتظار إعادة بناء جيشنا. وفى الأثناء، كانت هى تغنى.



فى ليبيا، نُظِّمت لها حفلة لجمهور اقتصر على النساء، «يا أخواتى انزعن حجابكن، نحن القوة المنتجة فى مجتمعاتنا، وبإمكاننا أن نبقى رأسنا مرفوعًا وسافرًا» وخلال الجولة نفسها فى أنحاء البلاد، لم تكف عن نداءاتها لتحقيق الوحدة العربية، ما سبَّب إزعاجًا واضحًا لنظام ملكى أصبحت أيامه معدودة.

أما فى الرباط، فلا أدرى تماما ما الذى أصابها. كانت أوجاعى قد سكنت، وغادرتُ الفراش للمرة الأولى منذ شهرين. دعانى محمد لمشاهدة الحفلة فى بيته، وجلسنا قبالة التليفزيون. وعلى جارى عادتها خلال الجولة كلها افتتحت الحفلة بـ «الأطلال»(*) قصيدة بيرم، والتى قد تعتبر، على نحو ما، أغنية تعبوية. وقد أظهرت استجابة الجمهور المغربى للأغنية أنه يفهم اللهجة تماما، وأنه ينتمى إلى العائلة نفسها. ولكن بعد الاستراحة، فاجأتنا بإنشادها: «هُوه صحيح الهوى غلاَّب»، وهى أغنية عاطفية، فرحة، لا يزال نجاحها متواصلا منذ مطلع الستينيات، قبل النكسة بوقت طويل، يوم كان الرجاء لا يزال ماثلا نُصب أعيننا. ربما كان السبب وجودها فى المغرب، البلد البعيد عن ساحة المعركة، أو ربما مجرد مصادفة سعيدة، فخانتها رنة صوتها وأرادت أن تهرب تلك الليلة، أن تخلَّ بوعد الوطن، وتسترجع ثمالة الأصل، فاصلة، ولكن ملحاحة، إجازة ليلية تمنحها لجسمها على مضض، مستدرجة فى إثرها عالما عربيًا مجروحًا.

«نظرة.. وكنت أحسبها سلام». ثم راح صوتها تدريجيا يفيض بانفعال على وشك التدفق يلهبه فى أعماقها هتاف الجمهور، وإحساسها الداخلى هذه الليلة بالذات لأن تستجيب له. تبادلنا أنا ومحمد نظرات استفهام.

– إنها تبدو فى أحسن حال، همس قائلا:

والحقيقة أن هذا أقل ما يقال عنها. كانت أوتارها الصوتية تتريَّث فى ترخيم كل عبارة وترددها إلى ما لا نهاية، ولكن كل مرة بطريقة مختلفة، مجوِّدة كلمة واحدة، نظرة لكى تعبر بها عن أمداء مناورة الصوت الكبرى. ما كان عليها إلا أن تترك العنان لتدفق الصوت من تلقائه، مالكة الموقف ومليكته، فلا تحتاج أى التزام بالقواعد. لم تكن تغنى ببراعة بل بإحساس العاشقة الطليقة التى ترتمى فى الفراغ. «نظرة.. وكنت أحسبها سلام.. وتمر قوام! / أتارى فيها وعود وعهود وصدود وآلام!» تتريث عند المقطع اللفظى الثانى من عبارة «سلام» وتقلبه على تنويعات مذهلة لا تُحصى تبتعد بها عن جذر معناها، ولا تبالى، كانت تبنى بترددها «عَرَبَسَات» مستقلة، على حدة، وحدات ضئيلة دائرية تماما، وغير بديهية، كانت تبنى هندسة صوتية لا مثيل لها. أحسست فجأة أن ما يحصل هو حدث فريد.

الأوركسترا تصاحب غناءها متتبعة تقلباته كمركب ينتظر هبوب ريح معاكسة. وكانت تستدرجها مرة فى اتجاه ومرة فى اتجاه آخر، مفرطة فى الإدغام، بالغة بها ذروة طاقتها. وكان الجمهور يصغى بحماسة، يهلل عند محطات الوقف لكنه سرعان ما يلزم الصمت حين تستأنف غناءها. وحيال مثل هذا الحشد المطواع، بدرت منها ضحكة اغتباط حاولت، عبثا أن تستدركها وكان أن غنت «وتمر قوام / أتارى فيها..» والضحك يغالب صوتها، وللمرة الأولى لا تتمكن هذه المرأة، التى اشتهرت برصانتها وسيطرتها على المسرح، من تمالك نفسها حيال لذة الأداء التى استخفت بها. كنت واحدا من أقدم «سماعها» وبجانبى محمد الخبير العارف، وشعرنا بأننا لم نسمعها من قبل تغنى بمثل هذه الغبطة. لا بل أحسب أنا شخصيا، أن هذه الحفلة كانت إحدى أعلى القمم التى وصلت إليها: كأنها تتويج. كأنها وداع.

غادرت المغرب، رافلة بالأوسمة والتكريم. وعند وصولها إلى تونس، علمت أن جادة رئيسية فى العاصمة باتت تحمل اسمها. لم تكن حفلة الرباط قليلة الأصداء. وتهافتت السلطات السياسية على اختلافها للإغداق عليها بجميع أنواع التكريم والتشريف. وليس السلطات وحدها. ففى غمرة الإحساس بالانهيار، استطاعت أن تمس مشاعر الناس، الملايين من الناس، المهملين، أن تستحثهم، أن

تمنحهم حافزًا، ربما كان الوحيد لأن يشعروا بالفخر.

بيد أن الرحلة كانت أطول مما ينبغى، أو ربما استهلكت منها أكثر مما ينبغى. فأعلنت الصحافة فجأة أنها ستؤجل حفلاتها التالية لأسباب صحية. وأغلق الدكتور حفناوى عيادته للحاق بها. غداة وصوله، أبرق إلينا مُطمئنا: إنه مجرد إرهاق ويكفى لتتعافى أن تمضى بضعة أيام من الراحة على الشاطئ التونسى.

هرع الصحافيون لإجراء تحقيقاتهم الصحافية حول منتجع الحمامات حيث أقامت. ثم بعد أن طالت مدة نقاهتها، راحوا يعودون تدريجيا إلى مصر أو إلى بلدانهم التى قدموا منها.

بالطبع، استمرت الإذاعات فى بث أغانيها، كلها كانت مجرد تسهيلات. فجأة اختفت كشخص، كإعصار تتبعها وسائل الإعلام من مدينة إلى أخرى.

عندئذ.. أدركت المكانة التى احتلتها. فبفضلها، بفضل أمطار صوتها، وليس هذا فقط، بل أيضا بفضل الرفعة التى كانت لروحها، بدت الأشياء موجودة، كأن نوراً داخلياً يضفى عليها ألقاً طفيفاً، وما إن تغيب حتى يعود الواقع فجأة إلى قتامته وإحباطه وخلوه من أى رغبة.

......

[٧]

لم أكن عالقا، كنت مُلْتَهَمًا. والأيام القليلة التى ينبغى أن تحظى بها بنقاهة تطاولت حتى أصبحت ثلاثة أسابيع. وما عدت أُطيق صبراً، ويوم صدقت أن لا رجاء، خرجت من عزلتها لكى تعلن استئنافها جولتها.

قبل أن تغادر تونس أحيت ليلة ذكر، احتفاء بأحد الأولياء مع التكرار الهجاسى لمدائحه. فبذلك تعيدنا إلى الرحم، إلى الترتيل، لم يكن الجمهور قبالتها، ذلك أن الحضور ليس جمهورا بل حلقات حول حلقات من المريدين الجالسين متربعين من حولها ويشاركونها الوَجْد. وقد مست الرعشة، التى تملّكت جسمها من خلال طقس الإنشاد، أجسادهم، ومنها إلى العالم العربى من أقصاه إلى أقصاه.



استقلت الطائرة باتجاه عمّان. كان الملك حسين فى استقبالها واحتفى بها الشعب كمثل الابن الضال، كمثل الذى يُبعث حيا. كانت تلك هى المرة الأولى التى تعود فيها إلى الشرق الأوسط -إثر النكسة- إلى أحد البلدان المعنية مباشرة بما حدث، ودفعت ثمنا باهظا، صورتها على شاشة التلفزيون بدت مفعمة بالحياة، واثقة من نفسها، وحتى فرحة. لا شك فى أن أيام الراحة التى قضتها قد أسعفتها، فانتظرتُ الليل بفارغ الصبر عندما تفرغ الشوارع من المارة ويتحلّق الناس لكى يسمعوا ما ستبثه مجدداً فى لهيب المعركة.

«إنا فدائيون/ نفنى ولا نهون/ لا هوادة فى القتال/ لا ولا بترول/ بعده ولا قتال/ لا يا عدوى/ لا لن ترى بحرى ولا أرضى ولا جوى/ إنا فدائيون». لعودتها المرتقبة اختارت نشيداً غنته قبل الحرب مباشرة، حين كان القول فى أوله. ولكن فى الأثناء بدلت الكلمات معناها. وصار «الفدائيون» اسماً لمن التحق من الفلسطينيين بحركة «فتح» والمنظمات التى نشأت غداة الهزيمة. فبما إن الجيوش العربية التقليدية قد هزمت ولا رجاء من استنهاضها قبل وقت طويل، قرر عبد الناصر أن يدعم هذه التشكيلات الصغيرة، التى لها ميزة النضال ضد اليأس. مثلها تماما.

صوتها الذى أطلق هذه العبارات على بعد كيلومترات من الخطوط الإسرائيلية، أثار حالا من الصدمة، خصوصا فى مخيمات اللاجئين فى محيط عمّان. فقد التحق الفلسطينيون، الذين غادروا لتوهم الضفة الغربية بالذين نزحوا، على التوالى، منذ عام ١٩٤٨. غداة الحفلة، سارت تظاهرات متفرِّقة فى أرجاء المخيمات تهتف «إنا فدائيون!» ما أثار حفيظة جيش المملكة البدوى! ولكن بعد الفوات، لقد اشتعل الفتيل. والفلسطينيون الذين طالما اتكلوا على أشقائهم العرب، اختاروا أن يتكلوا على أنفسهم. إنهم يحرزون استقلالهم، وينتفضون بشعارات هى كلمات إحدى أغنياتها. فهى على نحو ما، كانت قد أورثت الشعلة.

من الأردن طارت إلى لبنان. والتناقض فى ذلك أوضح من أن يوصف. أحيت مهرجانات بعلبك الدولية، عند الخرائب الأثرية لتلك المدينة الرومانية، اليونانية الفينيقية القائمة وسط هضبة الخصب، بعيدا من العاصمة. وفجأة تبدّل المشهد، كأنه كوكب آخر، حيث فنون العالم الحق تستأنف حضورها، وتتواصل بمعزل عنا. المهرجانات التى شارك فيها بيجار وجان فيلار وأوركسترا برلين الفيلهارمونية. ولبنان نفسه الذى كان قطعة من لا أرض، سقطت، سهواً على تلك المنطقة فى العالم.

احتفال آخر كان يدور على مقربة. يكفى أن تتبع الأسلاك السوداء التى تمتد خلسة وعلانية من مكان المهرجان إلى خارجه. فى العادة، لا يُبالى أهل بعلبك، البلدة الصغيرة، من أصحاب الحوانيت ومزارعى حشيشة الكيف، بالمهرجان إطلاقًا. ولكن حين علموا بقدومها، أصروا على أن يتاح لهم الاستماع إليها، وإلا أغلقوا الطرقات المؤدية إلى الحفل. طلبت أن يعمد إلى وضع مكبرات صوت فى الشوارع والمفترقات لكى تنقل صوتها إليهم مباشرة. وعند المساء لم يبق نفر من سكان بعلبك داخل بيته، بل احتلوا الطرقات جالسين فى الهواء الطلق. وشهدت ساحات البلدة وشوارعها ليلة طرب جماعى حتى الثمالة. أما فلسطينيو المخيمات فى الجوار، فكانوا يزحفون إلى أبواب البلدة لعل السماع يصيبهم من بقاياه بشىء.

ثم كانت رحلة الكويت. رحلة غريبة من الانغلاق ذى الحدين. فقد لاقتها الإمارة، ذات الثراء الذى لا يوصف باستقبال مجامل وجامد حيث الأمراء يليهم أمراء فى صالونات مذهبة زاخرة بالورد، ذات الألوان الفاقعة. وعند المساء احتشدت الجالية الفلسطينية التى كانت تدير مجمل البلاد تقريبا، فى هذه الصالات نفسها، وشربت حتى الثمالة من غنائها. من الجولة بأسرها كان هذا التوقف بين رحلتين، هو المثمر من حيث المال. لقد جاء وقت الحسابات، وبادرت الصحف إلى نشر الأرقام. لقد جمعت الجولة نحو أربعة ملايين دولار لصالح «المجهود الحربى لإزالة العدوان» وقياسا للاحتياجات كان المبلغ زهيداً. ولكن فى سعيها لرص صفوف العرب حول مصر، استطاعت فلاحتى أن تجنى لمصر ما يفوق الأضعاف المضاعفة من الحماسة، وما يفوق الأضعاف المضاعفة لما يحتاجه كل إنسان من الدفء فى قلبه.

انتهت الجولة، وكان قد مضى عام على سفرها. لا تستغرق الرحلة من الكويت فى طريق العودة، أكثر من أربع ساعات طيران. لكنى ذُعرت فجأة. لقد اعتدت غيابها أو الأحرى، اعتدت تلك الحال، حالى الساكنة إلى الإحساس بأنها «موجودة فى مكان آخر».

منذ وقت لم أر نفسى، كأن قسمات وجهى استحالت إلى ابتذال قسماتى. فقدت قسماً لا يُستهان به من شعرى، وفطّست الأيام أنفى وأرنَبت أذنى، وجعلت فى كل ثنية من جلدى ألفا من التجاعيد. وخوفى البادى فى عينى أن ترانى كما أصبحت الآن. غدا أو ربما اليوم.

أعلنت أنها قبل أن تعود ستعرج على النمسا لقضاء أسبوعين أو ثلاثة فى منطقة سالزبورغ. وغادر د.حفناوى لينضم إليها هناك. جاء قرارها المفاجئ بمثابة مهلة فرحتُ بها. لن أستعيد شبابى بالطبع، ولكن على الأقل أستطيع أن أعتاد وجهى مجددا، أن أعتاد الفكرة.

ذهبت للاطمئنان إلى حال سعدية العجوز. كانت غاضبة، ما عادت تفكر فى شىء، حتى فىّ أنا، الخائنة، أهذا ما تفعله بى، بعد كل هذه الأعوام وهى التى كانت قرة عينى، أحملها بين ذراعى وأهدهدها، سامحها الله، فهو الوحيد الذى يعلم إن كنت سأحيا إلى اليوم الذى تتكرّم فيه بالعودة، ولكن لا بأس، فإذ ذاك ستبكى، ولكن بعد فوات الأوان، وسعدية تتحدث عن موتها منذ وقت بعيد، حتى اعتدنا أن لا نأخذ كلامها على محمل الجد. لكنى شعرت أن مزاجى رائق، فأمضيت معها أكثر من ساعة. وأفلحت فى تبديد وساوسها. حتى إنها ضحكت لكلامى. وقبل أن أودِّعها تبادلنا نظرات صامتة. فنحن نعلم أن غرامنا واحد.

[٨]

كانت تبذل جهدا، فحركة رأسها على الوسادة بدت شديدة التوتر. كنت أحادثها همسا:

....

كنت أحكى لها أى شىء حادثة من هنا حكاية من هناك، أخلط بين الأزمنة ولكن لا بأس. أحاول أن أنسى الزمان الحاضر، أن أنسى ما

عبد الناصر يعلن تنحيه عن رئاسة الجمهورية ٩ يونيو ١٩٦٧





فـى غـمـرة الإحـســاس بالانهيار، استطاعت أن تمس مشاعر الناس، الملايين من الناس، المهملين، أن تستحثهم، أن تمنحهم حافزًا، ربما كان الوحيد لأن يشعروا بالفخر



بما أن الجيوش العربية التقليدية قد هزمت ولا رجاء من استنهاضها قبل وقت طويل، قرر عبد الناصر أن يدعم هذه التشكيلات الصغيرة



نحياه الآن، فالموتى فيه كُثُر. عبد الناصر أولا منذ خمسة أعوام ثم سعدية. سعدية التى كانت تخاف الوجع. وركوب الطائرة، والفقدان والشيطان والليل الذى يحل، سعدية هذه، لم تستيقظ ذات صباح. عُثر عليها مستلقية على فراشها، مبتسمة كأنها عبرَت إلى العالم الآخر دون أن تنتبه. وفى ذلك اليوم كان نُواح فلاحتى يستدعى الموت، يُحطم آخر ما قد يفصلها عن النهاية، فما عاد شىء يُبقيها هنا.

حرب أكتوبر ١٩٧٣، نفحت فيها شيئا من نسم الحياة. فالقوات المصرية اجتازت القناة، ونصبت العلم على الضفة الأخرى. استعادت عافيتها، وارتدت ملابسها رغبة منها فى أن تحيى حفلة للمناسبة. أعادها التهاب الكلْية إلى رشدها وفراشها. وفى الأثناء كانت فترة الحداد على سعدية قد انقضت.

– لِمَ ما عدتَ تقول شيئا؟

.....

سكتت. لم أعرف بماذا أجيبها. يدها أصبحت متلاشية رخوَة. فى يدى. أنظر فى عينيها فتبادلنى نظراتى بصمت. عيوننا تعبر عما فى صدورنا دونما خجل. ومنذ بعض الوقت، أصبح مثل هذا الحوار الأخرس معتاداً بيننا. أن أمكث بلا حراك، صامتا بقربها، فالحاجز الأخير قد تهاوى فجأة أخيرا. وتمام الحب بعد الفوات.

– ليلة الاحتفال بمرور خمسين عاما على ارتقائى خشبة المسرح، كنت سعيدة جدا للأغنية: «القلب يعشق كل جميل..».

– «... وياما شفت جمال يا عين/ واللى صدق فى الحب .. قليل..».

– قل أيضا.

– ما عدت أدرى. «أنا اللى أعطيتك من غير ما تتكلم / دعانى لبيته، لحدّ باب بيته / مكة وفيها جبال النور ..».

– أحسنت. الحمد لله القلب عاشق الجمال، المفتون بذاته، هو وحده. إنها رسالة تخبر عن حالى. نقطة ختام جيدة.

– من يتحدث عن نقطة ختام؟

– أتظن أنى لا أعرف شيئا؟ منذ بعض الوقت راح السنباطى يُطيل من أمد الفواصل الموسيقية بين المقطع والمقطع لكى يتيح لى أن أستعيد أنفاسى أثناء الغناء. لقد أنهكت نفسى فى العدو بين لندن وبوسطن للعلاج. وآخر حفلة أحييتها كانت منذ سنتين.

– لم تُلغ الحفلة بل أجِّلت. وحين أعلن أن حاملى البطاقات يستطيعون استرداد ثمنها. لم يتقدم أحد من حاملى البطاقات لاسترداد أموالهم، الناس ما زالوا يحتفظون ببطاقات الدخول إلى الحفلة. ينتظرونك.

– ألأنك تعتقد ربما بأن الستارة سترفع مجددا وأن الجمهور سيصفق، وما يليه وما يليه؟

– بالتأكيد.

– ضحكنا فعاودها الألم.

مددّت جسدها المتشنج بقوة فى جهد يائس لمقاومته، لم تفلح فى إسكات الصرخة التى انطلقت من أعماق الألم على الفور، هرع د.حفناوى، فأدركت أنه أمضى كل هذا الوقت على العتبة، وراء الباب وبدل أن يعتنى بها، أمسكنى من كتفى، وتأمل شحوب وجهى وقال: إنه من المستحسن أن أغادر.

فى الرواق لمحت زواراً وأناساً يرتدون الأبيض. رائحة المخدر عابقة فى الأنحاء. لم أقو على احتمال كل تلك العيون البلا نظرات، كل تلك النساء المنتحبات بصمت. أردت أن أمكث هناك، ولكن بعد وقت أخذنى الدوار، أصبح الألم أكبر من طاقتى.. ومن احتمالى.

[٩]

مَن كان أولئك الناس؟ عجائز يرتدون الأسود بأناقة بالغة، وربطات العنق والسحنات الصارمة، وماء الكولونيا، نظافتهم أوضح مما أعرف، ولا أعرف أحداً منهم يصافحوننى ويشدون على يدى من صفوف لا تنتهى، ويتمتمون بعبارات لا أفهمها، كأن حصاة فى فم كل منهم، بعضهم يقبِّلنى مثل صديق قديم، شعر أبيض، شعر رمادى، ونظارات ذات إطار من اللك. حسبت أنهم يكملون دورتهم على صفوف الكراسى المرصوفة ظهراً إلى ظهر، فيعودون إلىّ فى طقس لا نهاية له ماذا يريدون منى، حتى إنهم لا يسعون للتعرف إلىّ لا ابتسامة ولا إشارة مودة، والشمس التى تدلق أشعتها على النسيج الأحمر البرتقالى فى الخارج، تحيلهم إلى أخيلة متشابهة كأنهم يسيرون فى موكب حجاج ويلتزمون بشعائر لا معنى لها. كان حرياً بى أن أرفع رأسى وأحدق فى الثريات التى تغرق النسيج الأزرق بأنوار تغشى عينى. لم اقتادونى إلى هنا؟ كان المفترض أن الازم مدخل السرادق الضخم، مدخل الرجال، فآلمتنى ذراعى، وراحت ساقاى ترتجفان لشدة التعب. ولم يكن بوسعى أن أجلس بسببه، هو د.حفناوى الجالس إلى يمينى والمنهمك بمصافحة أناس لا يعرفهم مثلى ومن غير اللائق أن يُترك بمفرده.

كان السرادق فسيحا يمتد حتى الشارع، والسجاد يغطى نصف خطوط الطريق، ونحن جميعا فى رحابه. وصلت سيارة ليموزين سوداء، سيارة ليموزين تحمل العلم، وتسبقها ثلاث دراجات نارية، ترجل عسكرى شاب من السيارة قبل أن تتوقف، تقريبا قبل أن تتوقف بأمتار قليلة، فدورات التدريب أعدته لمثل هذا الأمر، أن يقفز من السيارة فى عاصفة الغبار التى تثيرها فى سرعتها لكى يفتح الباب الخلفى. وترَجل رجل عجوز بربطة عنقه السوداء، طوى أعضاءه وترجّل، كأنه مومياء. فسرى همس بين الحضور: إنه موفد الرئيس السادات، سيادة الموفد الذى لا أعرفه ولا أحد يعرفه مَن حولى. هل كانت مشاغله كثيرة الرئيس السادات، أم أن مكانته لا تسمح له بالحضور شخصيا؟ أو ربما كان منهمكا فى متابعة أمور أشد إلحاحًا؟ وكان علىَّ أن أصافح يد الشخصية المجهولة. لو كان عبد الناصر. لا يزال حيا لتكبّد مشقة الحضور شخصيا، ولكن مَن يفعل ذلك يكون عبد الناصر فهو أيضا رحل من هذا المكان، من هذا السرادق الأحمر الذى نُصب عند مدخل مسجد عمر مكرم. واصطحبه إلى مثواه الأخير الشعب كله، وغطى الحشد طرقات القاهرة.

عندما أتوا لاصطحابى هذا الصباح، كانت الشوارع مقفرة، فسارت بنا السيارة بأقصى سرعتها، ما من حافلة، ما من عابر. بين الشرطى والآخر مسافة مترين. كأنهم دُمى نُسجت آلافا مؤلفة، جيش «ستردبوسكوبى» من الرجال الآليين الذين زرعوا على طول الجادات المقفرة. ولم ألحظ إلا حين سلكنا المستديرة المكشوفة، أن خلف هذا العدد الهائل من رجال الشرطة المرصوفين على طول الأرصفة، حشدا لا يُحصى من المتجمهرين من الناس بصمت، حشدا مرعبا بصمته.

أحدهم أمسك بكتفى إنه يشبه محمد، لا، بل هو محمد، يدان قويتان وحارّتان، غمر وجهه بجانب عنقى وطوّقنى بذراعيه، كان أول وجه بشرى أصادفه اليوم، وبصوت متهدجٍ همس فى أذنى قائلا:

– «إن تفصل القطرة من بحرها..».

– «.. ففى مداه منتهى أمرها».

أجبته مرددا، دونما قصد، أحد أبيات الخيام.

تلك الكلمات دمرتنى. لابد أنى مكثت واقفا لوقت طويل فتهالكت ساقاى، وسرعان ما أسندنى محمد؛ طوق جذعى بذراعيه، وحملنى إلى آخر السرادق. عبثًا حاولت أن أسير، وكان الناس الذين يفسحون لنا الطريق، ثم يعاودون تجمعهم، وينظرون بعين مُشفقة ومُستهجنة، تلك النظرات البائسة التى يُرمق بها عادة سكِّير لا يقوى على الوقوف، ويحتاج من يستند إليه لكى يمشى، وجوه الشيخوخة والقسوة التى استحالت تجاعيد إلى الأبد. دخلنا بهو المسجد، أدركت ذلك على الفور، لأننى وجدت نفسى داخل عُلبة أصداء. ولمحت يداً تُقَرِّب كُرسيًا خشبيًا ذا مسند مكور الطرف. كنت أود لو أُترك على الأرض. فأسند ظهرى إلى الجدار. وجلس محمد بجانبى.

فاءت نفسى إلى الخلوة التى يتيحها المكان. خلاء المكان المطلق الذى لا يتردد فيه سوى آى القرآن بصوت المؤذن المتواصل الرخيم، الذى تبثه مكبرات الصوت والصمت المتواتر بين عباراته.

«اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به منى، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل

صـــرحـــــا

شىء قدير..» ويتردد صدى الصوت هنيهات قبل أن يتلاشى: «سبحانك أنت السميع المجيب» يا للرقة، أبقيت راحتى مبسوطتين أمام وجهى، وتمتمت شفتاى تصاحب الصلاة بصمت.

أسفل المنبر رأيت تابوتا، وُضع باتجاه «القبلة» تابوتا مغطى بنسيج من الحرير المغضن، لونه سكرى وأخضر فاتح لُف بأشرطة، واعتلم بشكل أشبه بمسلة لكى يميز أين اتجاه الرأس والقدمين. بدا لى أن الموضع الذى خُصص له، وكذلك الاتجاه يُضيفان عليه معنى خاصًا، فكثافة حضوره توازن بالضبط خلاء المكان. وكم وددت أن أُترك منسيًا هنا.

اجتاح الرجال المتأنقون بالبزات السوداء أنحاء المسجد، وانتظموا فى صفوف متراصة أمام المنبر، وبدت ثنيات بناطيلهم لشدة ما مُطت وكأنها ستتفتّق. يجلسون متلاصقين جنبا إلى جنب، غير أن خشوعهم مزيف، إذ يميل أحدهم نحو الآخر ويسرّ إليه بأمر ما، أو يتبادلون الإشارات أما ضحكاتهم العريضة فتكشف عما فى أشداقهم من أسنان مذهبة. عرفت مَن هم، صفوة رجالات «الانفتاح» المزعوم الذى دعا إليه السادات. رموز الثروات التى جُمعت فى بضعة أعوام، طبعا لأن عبد الناصر قد مات موتًا. أما هم، فإنهم الأزمنة الحديثة.

مررت إصبعى على مدار ياقتى، إذ عاودنى الشعور بضيق النَفس، فأدرك محمد ما بى. نهض وأعاننى على السير إلى الخارج، لم أكن أحتاج حقًا من يعيننى على السير، ولكنى، ربما احتجت من يعيننى على اجتناب السير عليهم.

انتعلنا أحذيتنا، ومشينا بضع خطوات فى الهواء الطلق، فانتعشت. وسط الشارع اصطف أفراد جوقة الموسيقى العسكرية كما فى تظاهرة قبل تفرقها، عازفو الأبواق فى المقدمة وعازفو الطبول فى الخلف. وبعضهم يتبادل أطراف حديث مع دراّجى الشرطة قتلا للوقت. وثمة أيضا حملة الأكاليل العملاقة من رجال الشرطة غير المهندمين الذين يقفون بين الورود والأغصان، مشيت طائعا إلى حيث يريد محمد. كانت الحرارة مقبولة، فسرنا بعكس اتجاه الصفوف المحتشدة. طالعتنا مجموعة من النساء من جميع الأعمار، رفعت فى طليعتها يافطة كُتب عليها: «عاملات شركة أسطوانات صوت القاهرة». كن متشحات بالسواد، بالطبع، واجتهادهن المتواضع فى اختيار ملابسهن يعدل مقدار حزنهن: اليافطة التى يرفعنها هى ثوبهن المشترك. غير أن تأثرهن بدا أقرب إلى نكهة حقيقية.

فجأة، فتحت أبواب السرادق الضخم كما انفراج شفتى جرح أحمر. وخرج منه التابوت محمولا على الأكتاف، يشق طريقه وسط دوامة من الهَوام المستثار.

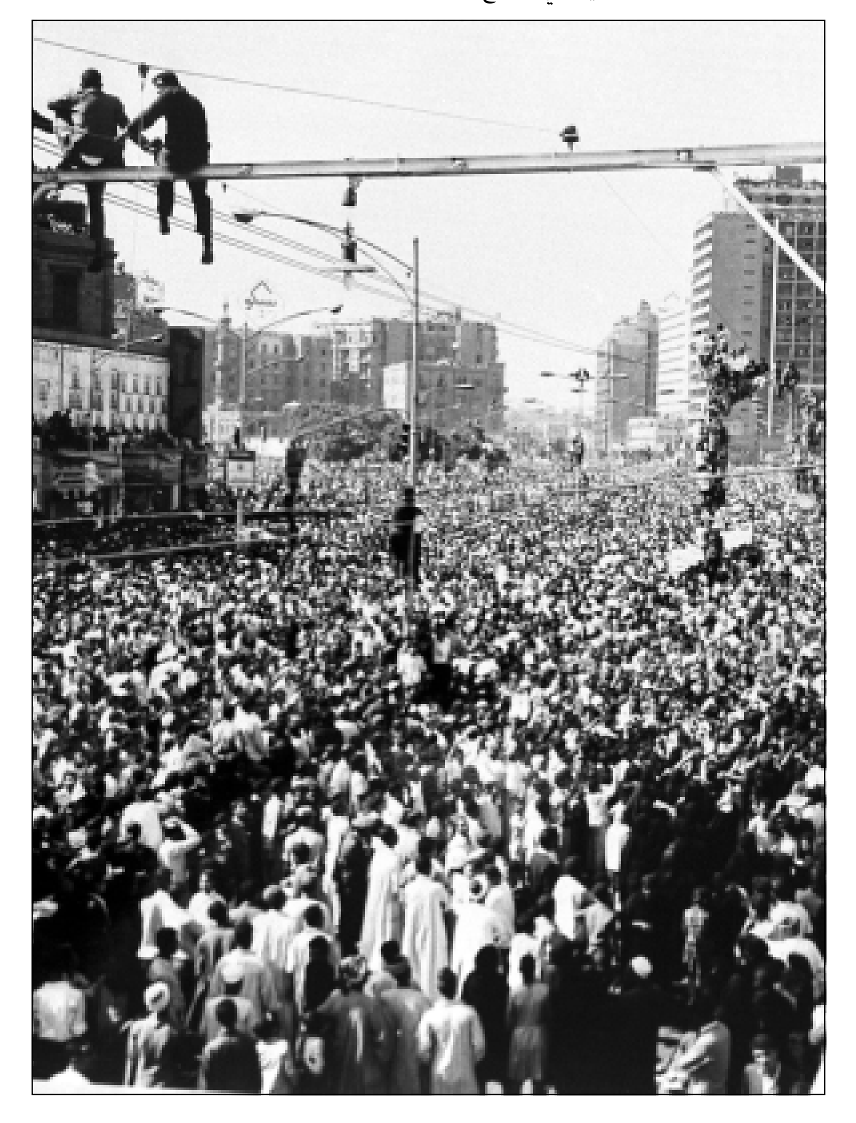
كان محمد ممسكا بذراعى، وكنت حلقة فى السلسلة البشرية السائرة فى الجنازة، لكنى أعجز عن تتبع الإيقاع حتى أضاع الصف الذى أسير فيه وتائر السير، ربما بسببى، فقرعُ الطبول يصم أذنى ولا أفلح فى ضبط خطوى على وتائره. كم كنت أود أن أهرب، ولكن، مستحيل يجب أن أواصل السير، أتعثر، أعاود السير، أعاند المنطق الذى يدعونى إلى الهروب. أُبقى أنظارى شاخصة بالتابوت الذى يتماوج فوق الأكف والهامات. فقد وُضع على قضبان طويلة من الخشب، يتناوب على حملها عشرات من رجال الإطفاء الذين يشكلون مجموعة متلاصقة متمايزة وسط الحشد، كبساط من البزات والقبعات السوداء، وكل حركة من هذه الكتلة تجعله مائلا، وإذا استوى هنيهة فلكى يطوف مترجحًا على إيقاع موسيقى عسكرية بطيئة لا يمكن اتباع وتائرها. غير أن هذا كله، لا ينفى أنه هو الذى يستدرجنى إلى السير قدمًا، النعش الذى يُصيبنى بدوار البحر ويمنع عنى الهواء، غير أن القبضة المسكة بذراعى صارمة، فحتى لو أردتُ أن أهجر الصف، وأهرب، لما استطعت، ما باليد حيلة، لا أحد يريد أن يسمع.

الناس يحتشدون على الشرفات، عناقيد بشرية سوداء تتشبث بحواف الأسطح وواجهات المبانى، بلغ الموكب أخيرا ميدان التحرير ومداه الرحب، فهو أكبر ميادين القاهرة، وأكثرها توسطًا، وسلك الطريق المقفرة، كتلة واحدة من آلاف البشر الذين أثملتهم الأناشيد الجنائزية، وأنهكتهم مسيرة التجهم الرسمى تحت أتون الشمس. وأنا أسير معهم عاجزًا عن تحرير ذراعى لأرفعها طلبا للنجدة. عند الطرف الآخر من الميدان، من بعيد رأيت الحشد يخترق الطوق الذى فرضه رجال الأمن على الأطراف، رأيت ذلك بأم العين. هراوات ترتفع وخوذ تطير، وسمعت صفارات تحذير ولكن بعد الفوات، فقد انهار السد نهائيا وفى أكثر من موضع، وتدفق الناس بالآلاف بمئات الآلاف، بل كانوا مليون نسمة، يحتلون الساحة كأسراب من القتامة، ويصرخون متراكضين متدافعين يرفعون سواعدهم عاليا وظلالهم تسبقهم. عندما لاحظ رجال الشرطة الذين يواكبون مسيرتنا أن الحشد يندفع نحونا، أحكموا الطوق من حولنا لتلقّى الصدمة، شعرت فى سرّى بفرح غامر. راح حملة الأكاليل يتعثرون بما يحملونه، وبدت حركة الموكب مضطربة مذعورة. ما عادت الصفوف مشبوكة بالمرافق، بل تفرقت الصفوف، وهرع كل واحد للنجاة بنفسه. اصطدم المد البشرى بالعساكر، واحتجبت أرض الميدان تحت الرؤوس الصائحة، المتدافعة تحت عشرات الألوف من الرؤوس المتدافعة. وتم احتلال المساحة الفارغة من الميدان من قبل السيل البشرى، الذى فرّق صفوف أول الواصلين واخترق سدود كل الشوارع المحيطة، فيض متناقض، دورة دموية فى جسم واحد.

انهار الطوق الأمنى الأخير. وأصبح الضغط من الخلف أشبه بموجة بشرية هائلة تجتاح الشارع، وترفد الموكب بالآلاف المؤلفة من الناس. شعرت بأن السيل البشرى يجتاحنى ويحررنى من قيد الصف المتشابك ويُغرقنى فى مجراه. التفتُ فرأيت محمد غارقًا بدوره فى مسار هذا السيل، رافعا يده باتجاهى. المهم ألا أقع، الأهم ألا أقع، ذاك كان هاجسى. كيف يمكن للمرء أن يقع، فالكثافة البشرية تُبقينى واقفا، أو تجتاحنى أو تسحق عظامى. مع ذلك كان ينتابنى شعور غريب بالغبطة، فالشعب يدفعنى إلى السير قدما رغما عنى، ورأيت المسافة تقصر بينى وبين النعش. ورفعت ذراعى باتجاه الفلك المستطيل، أردتُ أن ألمسه بيدى، أنا أيضا.

كان يترجح بقوة كأنه بُوغت فى مياه شديدة الاضطراب، كأنه يهوى فى مساقط مياه. ضغط الحشود يُرغم الموكب بأسره على الانحراف عن وسط الطريق، لا، بل يجعله عُرضة للتدافع والارتطام بواجهات المبانى. وكانت فصيلة الإطفاء تحاول جهدها. فجأة، فقدت سيطرتها على الوضع. واختفت قضبان الخشب وأصبح النعش عائما، دون عائق فوق الرؤوس. ينتقل من ذراع مرفوعة إلى ذراع أخرى، من يد إلى يد، ورأيته يترجح فى الهواء كأنه ما عاد يدرى أى طريق ينبغى أن يسلك. فالمسالك كلها قُطعت. سلك شارع قصر النيل، الشارع الأعرض الذى يفضى إلى مسجدى الأزهر والحسين. رأيته يبتعد فوق النهر البشرى الساكن، رأيته راقصًا مترجحًا كالمركب السكران، ويغيب عن الهتافات، طائرًا فوقها متلاشيًا عند الأفق. لطالما أبحر فى خضم الحشود التى انتمى إليها، وحثّته اللمسات الخشنة، والحركات المتكررة إلى الأبد، وها هو الآن يمازج الجسد، ويمازج الروح فى كل إنسان، إنها أبديته الحقة. ■

الملايين في تشييع عبد الناصر – سبتمبر ١٩٧٠



«توفى الشاعر أحمد رامى عام ١٩٨١. وكان قد نظم ١٣٧ أغنية من أصل ٢٨٣ أغنية أنشدتها أم كلثوم خلال حياتها الفنية».
«استوحيتُ فصول هذا الكتاب من قصته. غير أن المذكرات التى تشتمل عليها هذه الصفحات هى مجرد خيال».
(١) إبراهيم ناجى (المترجم).

للجـــــــــــوع....

”تنتج البلدان الصناعية نصف الحبوب فى العالم، ولكنها تضم أقل من ربع سكان العالم“



■■ يعتبر النظام الغذائى الملائم والمتوازن من أهم العوامل التى تسهم فى تحقيق الصحة الجيدة أو المحافظة عليها؛ فالجسم البشرى يعد عضواً قابلا للتكيف بدرجة كبيرة، وتتوافر مجموعة كبيرة من الأنظمة الغذائية التى تساعد على تحقيق الصحة الجيدة والرفاهية الغذائية. ويتحدد النظام الغذائى الكافى على أساس أساليب المعيشة المختلفة والظروف الثقافية والاجتماعية. ومع ذلك، فالحصول على ما يكفى من جميع المواد المغذية الضرورية والمواد التى ترتقى بالصحة يعتبر من أساسيات النظام الغذائى الصحى. وستتناول هذه الوثيقة بالتفصيل متطلبات النظام الغذائى الصحى، والموقف الغذائى فى البلدان المتقدمة والنامية وفى أنحاء العالم. وأخيراً، سأتناول بعض الاحتياجات الغذائية للأفراد بما يتصل بالأداء البشرى ويؤثر على القطاع الأكثر عرضة للإصابة فى المجتمع، ويشمل الأطفال والأمهات الحوامل. ويعد الأداء البشرى من أهم نتائج الصحة والرفاهية. وتشمل أعمدة الأداء البشرى الأربعة: النمو المناسب للأطفال، من الناحية البدنية والمعرفية، والكفاءة المناعية القوية لوقاية الفرد من العدوى وهجوم الكائنات الدقيقة فضلا عن حماية الأفراد من الأمراض المزمنة والمحافظة على إنتاجية الفرد وأنشطته اليومية وأخيراً مساعدة الأفراد على الالتزام بالسلوك السليم.

وتتركز المواد المغذية فى الأطعمة ذات الأصل الحيوانى والنباتى؛ إذ تعد كل مجموعة غذائية مصدراً مميزاً لمواد مغذية معينة. ولما كان البشر يستهلكون الطعام وليس المواد المغذية، فإننا سنتعرف على فوائد المجموعات الغذائية المختلفة للنظام الغذائى الصحى. وتختلف متطلبات الطاقة والمتطلبات الغذائية لمن يعانون أمراضاً معينة أو من يمرون بفترات معينة من دورة الحياة مثل الحمل والرضاعة والطفولة المبكرة والطفولة اختلافًا كبيراً؛ إذ تحتاج هذه الفئات باعتبارها من أكثر الفئات عرضة للإصابة إلى أنظمة غذائية تناسب ظروفهم وتساعدهم على التمتع بصحة جيدة بطريقة طبيعية. وتعد المياه مهمة للبقاء على قيد الحياة.

ولا يُقصد بالصحة الجيدة مجرد الخلو من الأمراض أو العجز، بل يُفترض

معنى آخر!

عثمان جلال

أنها حالة من الرفاهية البدنية والعقلية والاجتماعية؛ فهناك عدة مؤشرات تميز الأصحاء مثل المزاج الجيد والحيوية والتيقظ والشهية الجيدة ودرجة حرارة الجسم الطبيعية ومعدل النبض الطبيعى ومتوسط الطول مقارنةً بالسن ومتوسط الوزن مقارنةً بالسن. وتحدد مجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والبيئية الحالة الصحية للفرد.

ويمكن تعريف المواد المغذية بأنها المواد الكيميائية الموجودة فى الأطعمة التى لا يمكن للجسم تخليقها على الإطلاق أو فقط بكميات غير كافية، والتى تعتبر ضرورية للحياة والنمو ولتجديد الأنسجة. وتنقسم إلى مجموعات مختلفة من المغذيات الكبرى فضلا عن المغذيات الصغرى. وتعتبر المياه هى أهم المغذيات اللازمة للحياة. وينبغى توافر ثمانية من الأحماض الأمينية العشرين التى تحتوى عليها البروتينات فى غذاء البالغين ولذا تعد لا غنى عنها أو ضرورية. وتعتبر الأحماض الدهنية والأحماض الدهنية غير المشبعة هى المجموعة الثانية من المغذيات الكبرى الضرورية. وعلاوة على ذلك، يعتمد الجسد البشرى على حصة غذائية تتكون من ١٣ من الفيتامينات ومجموعة كبيرة من المعادن غير العضوية مثل الكالسيوم والمنجنيز والحديد واليود والزنك.

وهناك مجموعات إضافية من المكونات الغذائية مثل الألياف الغذائية والكيماويات النباتية وهى لا تعتبر ضرورية ولكنها مهمة للمحافظة على الصحة وربما أيضًا للحد من خطر الإصابة بالأمراض المزمنة.

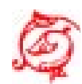
المتطلبات الغذائية

قبل مناقشة ما قد يحدث حين لا يحصل الفرد على المواد المغذية الكافية، ينبغى أن نتناول المقصود بكلمة «الكافية»؛ وبطبيعة الحال لا يوجد معيار واحد ينطبق على الجميع، ونظرًا للاختلاف من فرد لآخر، فالاحتياجات الغذائية للأطفال فى مرحلة النمو تختلف عنها لدى البالغين، كما تختلف الاحتياجات الغذائية عند الرجال عنها لدى النساء، كما تختلف تلك الاحتياجات لدى من يكثرون من الحركة عنها لدى من يطيلون فترات الجلوس. وتتباين المتطلبات الغذائية بين الفئات الفسيولوجية المختلفة، بما فى ذلك السن والنوع، وكذلك بين الأفراد الذين يتشابهون ظاهريًا، ويبدو أنه من المحتمل أن ذلك التفاوت الأخير يعود إلى القابلية للتباين الفردى فى الأنظمة الوظيفية التى تقوم على أساس وراثى مهم. فهناك تفاوت قد يقوم على أساس وراثى، وهو ذلك التفاوت فى امتصاص الحديد، الذى قد يكون مسئولا عن نسبة هائلة من الاختلاف فى المتطلبات اللازمة من الحديد بين الرجال وبين النساء فى سن انقطاع الطمث. ومع أن ذلك يعد بمنزلة محض تخمين لأنه لم تجرَ دراسات على البشر بعد، تؤكد هذه النتائج الوراثية والخلوية أنه من المستحسن وصف المجموعة المتنوعة من الأشكال المتعددة فى مواقع معينة فى الجينوم والتأكد من نتائجها الغذائية.

وتنعكس هذه الاختلافات على الحصة اليومية الموصى بها، التى تعتبر المعيار الأوسع انتشارًا لقياس الاكتفاء الغذائى.

النظام الغذائى المناسب

١ - يتضح أن المقصود بالنظام الغذائى الصحى يختلف من فرد لفرد؛ ففيما يتصل بسوء التغذية لدى الأطفال، يهدف النظام الغذائى المناسب للارتقاء بالنمو الصحى. أما التغذية لدى البالغين، فالنظام الغذائى الصحى يركز على ضمان أفضل مستوى صحى أو المحافظة عليه، كما يركز على الوقاية من الأمراض المزمنة ذات الأسباب المعقدة. وعمومًا، يقدم الطعام الجيد الطاقة المناسبة، ويسهم فى بناء الأنسجة الجديدة ويجدد الأنسجة التالفة ويساعد على قيام الجسم بوظائفه على أفضل وجه.



٢ - على الرغم من تشابه احتياجات البشر نوعًا ما فى كل أنحاء العالم، فأسلوب المعيشة يحدد النظام الغذائى المناسب؛ ففى المجتمعات التى يسود فيها المجهود البدنى، غالبًا ما تشكل الأغذية المتنوعة ذات الأصل النباتى والحيوانى نظامًا غذائيًا مناسبًا، إذ تلبى احتياجات الطاقة، وفقًا لما يتطلبه الوزن. ويصدق ذلك بصفة خاصة إذا كانت الأغذية غير مصنعة بطريقة مبالغ فيها. وفى المجتمعات الصناعية المتقدمة التى عادةً ما تكون الأغذية فيها مطبوخة ومصنعة، يعتبر النظام الغذائى ذو الوحدات الحرارية المنخفضة والمحتوى المحدود من الطاقة نظامًا غذائيًا مناسبًا.

٣ - وعمومًا، يحتوى النظام الغذائى المتوازن على نسب مناسبة من الكربوهيدرات والدهون والبروتينات فضلا عن الحصص اليومية الموصى بها من جميع الفيتامينات والمعادن والمواد المقوية للصحة. وينصح أن تشكل الكربوهيدرات المعقدة بنسبة لا تقل عن ٥٠٪ معظم حصة الطاقة، وأن تكون نسبة ٢٥ إلى ٣٠٪ من الطاقة من الدهون وأن تكون نسبة ١٠ إلى ١٥ ٪ من البروتينات.



تشكل الأغذية المتنوعة ذات الأصل النباتى والحيوانى نظامًا غذائيًا مناسبًا، إذ تلبى احتياجات الطاقة، وفقًا لما يتطلبه الوزن



ومع ذلك، فاحتياجات الطاقة والمتطلبات المغذية تختلف اختلافًا كبيرًا؛ فمتطلبات الطاقة تتحدد على أساس الجنس والسن والوزن ومستوى النشاط والحالة الصحية.

ويشكل الطعام النباتى فى المقام الأول أساس الأنظمة الغذائية المناسبة. ويجب إضافة الأغذية الغنية بفيتامينات أ وج والمعادن والبروتين مثل الخضر والفواكه والبقول إلى الأغذية الغنية بالكربوهيدرات مثل الحبوب. ولا تعد الأغذية ذات الأصل الحيوانى، ولاسيما اللحوم والأسماك، أغذية ضرورية لنظام غذائى مناسب، ولكنها من المكملات المفيدة لمعظم الأنظمة الغذائية. ولا يظهر فى المجتمعات التى تأخذ بالأنظمة الغذائية النباتية أى دليل على سوء التغذية حين تكون كمية الطعام الإجمالية مناسبة، بل ينخفض فيها خطر الإصابة بالأمراض المتصلة بالتغذية مثل ارتفاع ضغط الدم أو البدانة.

وعلاوة على ذلك، يعتبر الحصول على حصة كافية من السوائل أمرًا مهمًا للنظام الغذائى المناسب. ويعد حليب الأم أفضل نظام غذائى للأطفال حتى سن ستة أشهر. ومن أكبر المشاكل فى جميع المجتمعات استهلاك نظام غذائى يفتقر للتنوع؛ فاستهلاك نظام غذائى غير مناسب لمدة طويلة قد يؤدى إلى الإصابة بسوء التغذية والتغذية المفرطة أو نقص التغذية والأمراض المزمنة.

الصحة وتكلفتها

لم تركز المناظرة الدائرة فى الآونة الأخيرة حول إصلاح الرعاية الصحية إلا على مسائل على غرار إتاحة فرصة متساوية للاستفادة من الخدمات والحد من التكلفة وتقديم رعاية أولية، دون أن تولى اهتمامًا كبيرًا لضرورة استخدام الأنظمة الغذائية الصحية. وأهم ما فى المناظرة هو أن الأنظمة الصحية العامة يجب أن تحد من أسلوب العلاج الحالى من خلال تشجيع إجراء تغييرات كبيرة فى الأساليب المتبعة من الجهات المقدمة للخدمة والجهات المستفيدة منها وذلك فى سبيل الارتقاء بالصحة والمحافظة عليها. وهناك

أدلة كبيرة تشير إلى أن تكلفة أنظمة الرعاية الصحية التى تهدف للارتقاء بالصحة والوقاية من الإصابة بالأمراض تقل عن تكلفة النظام الحالى، الذى يعمل فى المقام الأول لمواجهة الأمراض باستخدام أساليب تدخل تشخيصية وعلاجية ذات كلفة عالية. وتدعم معظم التقارير- مثل التقارير الصادرة عن مجلس البحث القومى - بوضوح فكرة التغذية الوقائية ومفادها: أن أهم خيار يمكن للبشر اتخاذه للتأثير فى توقعات الصحة لديهم على المدى الطويل هو اختيار النظام الغذائى. وتتجاوز السلوكيات القائمة على هذا الخيار مجرد الاختيار النابع من المعرفة للأطعمة ليشمل العناصر الداعمة والمقويات والمكملات الغذائية، وفى الآونة الأخيرة، الأغذية الوظيفية.

وقد أدت الأدلة المتزايدة التى تثبت أن ثمة علاقة تربط بين النظام الغذائى والمرض، ولاسيما الأمراض المزمنة، إلى توسيع الجوانب محل اهتمام التوصيات المعنية بالتغذية. فقد جرى تعديل أهم مصدرين من مصادر الإرشاد الغذائى فى أمريكا الشمالية - وهما المعيار الأمريكى «الحصص الغذائية الموصى بها» Recommended Dietary Allowances والمعيار الكندى «الحصص المغذية الموصى بها» Recommended Nutrient Intakes - بحيث يتضمنان توصيات بالحصول على كميات من العناصر المغذية وفقًا للسن والنوع فى المقام الأول. وتتجاوز التوصيات المعنية بالتغذية بمراحل مجرد وضع معايير للوقاية من أمراض نقص التغذية لتهدف إلى الحد من خطر الإصابة بأمراض مثل أمراض القلب وارتفاع ضغط الدم والسكتة الدماغية والسكرى وبعض أنواع السرطان. وفى الآونة الأخيرة ناقش مجلس الغذاء والتغذية التابع للمعهد الأمريكى للطب ما إذا كان ينبغى إعادة النظر فى معيار الحصص اليومية الموصى بها بهدف التكيف مع هذه العلاقة وتضمين مفهوم الوقاية من الأمراض المزمنة فى تعديل الحصص الغذائية.

ولا بد ألا نغفل أن ثمة اختلافات مهمة بين الصحة والخلو من الأمراض من جهة وبين تحسين الصحة والوقاية من الأمراض؛ فتعريف تحسين الصحة هو أساليب التدخل الشخصية والبيئية والاجتماعية التى تساعد على تيسير

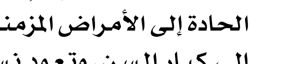


التغييرات السلوكية التى تهدف لتحسين الصحة ومستوى أداء الوظائف والشعور بالرفاهية. أما الوقاية من الأمراض، فتعريفها هو أساليب التدخل الشخصية والبيئية والاجتماعية التى تحول دون حدوث المرض أو الإصابة أو العجز أو الوفاة أو تفاقم الأمراض غير المصحوبة بأعراض.

لقد ظل الهدف الأساسى لتوصيات التغذية موجهًا للأنظمة الغذائية التى توفر جميع العناصر المغذية الضرورية والقدر الكافى من الطاقة لتلبية متطلبات الفرد. وقد أسهمت إجراءات الصحة العامة بقدر كبير فى القضاء على الجدرى والسل وغيرها من الأمراض المعدية الخطيرة التى كانت متفشية فى الماضى أو الحد منها، ومن تلك الإجراءات إنشاء نظام آمن للإمداد بالمياه والإسهامات الطبية من الأمصال والمضادات الحيوية. وفى مجال التغذية ساعدت إجراءات الصحة العامة، مثل تدعيم الحبوب بفيتامينات ب والحديد والملح المضاف له اليود، وتقوية المسلى الصناعى بفيتامين أ والحليب بفيتامينات أ و د، وإضافة فيتامين ج لعصائر الفواكه، فى القضاء على خطر الإصابة بأمراض كانت تنتشر فيما مضى مثل البيرى بيرى وداء الذرة وتضخم الغدة الدرقية والكساح والإسقربوط (البثع / داء عوز الفيتامين ج). وبالرغم من نجاح هذه المساعى، فمن المهم أن نقر بأنه لم يُقض بالكامل على خطر الإصابة بأمراض نقص التغذية، وذلك بسبب الانتشار الملحوظ لعدم تناول حصص مناسبة من الكالسيوم والحديد وفيتامين د والفولات (ملح حمض الفوليك) ولاسيما بين النساء. وتواصل حملة الأهداف القومية لتحسين الصحة والوقاية من الأمراض، الأصحاء ٢٠٠٠ ، جهودها لزيادة حصص الكالسيوم والحديد باعتبار ذلك من المسائل الصحية ذات الأولوية القصوى، ونشرت هيئة الصحة العامة أيضًا توصيات بتناول حمض الفوليك للحد من حدوث تشوهات الأنبوب العصبى بين النساء فى سن الإنجاب.



وأؤكد أن الوقاية يمكن تطبيقها فى مراحل مختلفة من تاريخ أى مرض، وتنطوى الوقاية الأولية على تعديل عامل الإصابة للوقاية من حدوث المرض، مثل زيادة حصص الألياف الغذائية للحد من حدوث سرطان القولون والمستقيم. وتشمل الوقاية الثانوية إجراء فحوصات للكشف عن وجود المرض قبل ظهور أعراضه، مثل إجراء تحاليل روتينية للكشف عن نسبة الكولسترول لتحديد نسبة خطر أمراض القلب والشرايين التاجية، إضافة إلى إجراءات التدخل اللاحقة المناسبة مثل تقليل الدهون الغذائية والعلاج بالنياسين وما إلى ذلك. وتضمن الوقاية الثالثة علاج المرض والتقليل من مضاعفاته بمجرد حدوثه، ومن أمثلة ذلك استخدام المكملات المضادة للأكسدة للتقليل من تفاقم علة الشريان التاجى لدى المرضى الذين خضعوا لجراحة تحويل مجرى الشريان التاجى. وفى إطار إجراءات التغذية الوقائية الثالثة، تجدر الإشارة أيضًا إلى أن هناك نحو ١٧ مليون أمريكى يعالجون من أمراض أو إصابات تزيد من خطر تعرضهم لسوء التغذية. ومن ثم، يتضح أن التغييرات الغذائية وغيرها من أساليب التدخل الغذائية الأخرى كفيلة بالقيام بدور مهم فى كل جوانب إستراتيجيات الوقاية.



أنماط الإصابة بالمرض

لقد تحول اتجاه الإصابة بالمرض خلال هذا القرن من الإصابة بالأمراض الحادة إلى الأمراض المزمنة ومن الشباب إلى كبار السن. وتعود نسبة ٧٥ ٪ من الوفيات لمن يتعدون الخامسة والستين إلى أمراض القلب والسرطان وأمراض المخ والأوعية الدماغية. وفى المقابل، تسببت الأمراض المعدية عند بداية القرن الواحد والعشرين فى ٥٠ ٪ من الوفيات، بينما تسببت أمراض القلب والسرطان والسكتة الدماغية مجتمعة فى ٣٥٪. ويبدو أن الإجراءات الوقائية قد جاءت بآثار إيجابية فى زيادة متوسط العمر المتوقع. وترجع نسبة كبيرة من الانخفاض فى معدل الوفيات التى جرى رصدها منذ ١٩٦٠ إلى تراجع الوفاة بسبب الأمراض المزمنة. ومع ذلك فمن المحتمل أن يساعد انتشار المعرفة ونجاح تنفيذ الإجراءات الوقائية المعنية بهذه الأمراض فى التقليل من الوفيات المبكرة. ومن المفيد أن ندرس بعض الأسباب الأساسية التى تؤدى إلى الإصابة بالأمراض والوفاة فى إطار التغذية الوقائية.

وتعتبر التغييرات الغذائية، ولاسيما التقليل من الدهون المشبعة والإجمالية وزيادة الألياف القابلة للذوبان، من أهم دعائم العلاج بهدف تخفيض مستويات الكولسترول المتوسطة والخطيرة بصرف النظر عن إضافة العلاج بالعقاقير إلى



تنطوى الوقاية الأوليـة على تعديل عامل الإصابة للوقاية من حدوث المرض، مثل زيادة حصص الألياف الغذائيـــــة للحــــد من حــــدوث سرطان القولون والمستقيم



نظام الحمية من عدمه فى آخر الأمر. وقد أسهمت البحوث الأخيرة بدرجة كبيرة فى تسليط الضوء على الفكرة التقليدية عن وجود علاقة بين الكولسترول وأمراض القلب وذلك من خلال الإشارة إلى التأثير الوقائى الكبير والدور العلاجى المحتمل لكل من فيتامينات ج و د والبيتا كاروتين والكيماويات النباتية المضادة للأكسدة الأخرى وفيتامينات ب٦ وب١٢ والفولات (ملح حمض الفوليك).

ويتسبب السرطان فى ٢٢ ٪ من نسبة الوفيات بين الأمريكيين، وتشير التقديرات إلى أن ثلث الوفيات الناتجة عن السرطان على الأقل تتصل بعوامل غذائية. وبخلاف أمراض القلب، تواصل معدلات الوفاة الناتجة عن السرطان ارتفاعها. وإجمالا، تزداد الوفيات الناتجة عن السرطان بمعدل ٠,٥٪ سنويًا للرجال والنساء على حد سواء، ويزداد المعدل الإجمالى للإصابة بالسرطان سنويًا بنسبة ١,٨٪ للرجال و٠,٨ ٪ للنساء. ومن الصعب الحصول على الأرقام الكاملة، نظرًا لارتفاع الإصابة بالسرطان فى أماكن من الجسم ترتبط بالنظام الغذائى (الثدى والقولون والبروستاتا). ومع ذلك فإن تلك الأرقام كاشفة لأن التغيرات فى معدلات الإصابة خصوصًا تشير إلى الوقاية من المرض. ورغم أن الانخفاض فى معدل الوفيات قد يوحى بنجاح الإستراتيجية الوقائية إلى حد ما، فقد يكون ذلك أيضًا من نتائج تحسن طرق العلاج مما يؤدى إلى زيادة مرات النجاة بعد التشخيص. وتقدر التكلفة الاقتصادية السنوية للسرطان حاليًا بما يزيد على ١٠٤ مليارات دولار أمريكى.

وتشير عدة دراسات إلى أن تناول حصة مرتفعة من الدهون الإجمالية تزيد من خطر الإصابة ببعض أنواع السرطان، ولاسيما سرطان الثدى والقولون، فضلا عن البروستاتا والمستقيم والمبايض. كما تؤدى بعض العوامل الغذائية الأخرى إلى إمكانية الإصابة بالسرطان، ومن بينها التدخين والأغذية المدخنة والأغذية المحفوظة بالملح ونترات الصوديوم فضلا عن الكحول والملوثات التى تتكون من تلقاء نفسها مثل الأفلاتوكسينات (مستقلبات فطرية سامة) ومركبات نتروزو. وترتبط الأنماط الغذائية التى تعتمد على الأغذية الغنية بالألياف بانخفاض معدلات الإصابة بأنواع معينة من السرطان وخصوصًا سرطان الثدى وسرطان القولون، وترتبط الفواكه والخضر ذات اللونين الأخضر والأصفر - التى تعد من المصادر المهمة للفيتامينات المضادة للأكسدة - والكيماويات النباتية المفترض أنها واقية من السرطان مثل الفينول والإندول، فضلا عن الألياف بانخفاض خطر الإصابة بعدة أنواع من السرطان.

وقد ثبت أن الدهون الحيوانية والأحماض الدهنية والدهون الإجمالية تتصل إيجابيًا بخطر الإصابة باحتشاء الدماغ، ولكنها ترتبط عكسيًا بحدوث النزيف الدماغى فى بعض الدراسات وليس كلها. وثبت حديثًا أن هناك علاقة قوية بين القيمة الغذائية المتدنية للفولات وفيتامين ب٦ والتركيزات المرتفعة لهوموسيستئين البلازما وبين زيادة خطر الإصابة بضيق الشريان السباتى القحفى فى البالغين من كبار السن، مما يوحى بأهمية الفيتامينات المشار إليها فى الوقاية من السكتة الدماغية. وقد ثبت ارتباط فيتامين هـ بانخفاض خطر الإصابة بالسكتة الدماغية الإقفارية، وفى نفس الوقت ثبت ارتباطه بزيادة خطر الإصابة بالسكتة الدماغية النزفية.

ويعتبر الوزن النسبى العامل الوحيد المرتبط بانتشار مرض السكرى من النوع الثانى، ولكن النظام الغذائى وإنقاص الوزن والتمرينات الرياضية يمكنها إعادة سكر الدم إلى المستويات الطبيعية فى معظم المرضى، ويبدو أن تلك الإجراءات تساعد على تأخير الإصابة بالعواقب الناتجة عن مرض السكرى. وعادةً ما يُنصح مرضى السكرى باستبدال الكربوهيدرات من الفواكه والخضر بالدهون فى نظامهم الغذائى وزيادة حصة الألياف القابلة للذوبان وتجنب استهلاك البروتينات بنسب عالية. وقد يكون تناول المغذيات الصغرى من عوامل الوقاية الأولية والثانوية، بما أنه لوحظ أن الكروم التكميلى وفيتامين هـ يساعدان على تحسين درجة تحمل الجلوكوز ووظائف الأنسولين والأيض غير المؤكسد للجلوكوز فى المرضى الذين يعانون ارتفاعًا مفرطًا فى نسبة سكر الدم.

وتثبت أدلة جوهرية وجود دور للكالسيوم وفيتامين د كعوامل للحماية من ترقق العظام؛ إذ يسهم تناول الكالسيوم بكميات كبيرة فى السنوات المبكرة من العمر فى زيادة كتلة العظام، ويسهم تناوله فى سنوات لاحقة - إضافة إلى فيتامين د - فى الوقاية من توازن الكالسيوم السلبى، كما يساعد على الحد من معدل نقصان كثافة العظام. وعلى الرغم من غياب الاتساق فى الدراسات المعنية بعلم الأوبئة التى تربط بين تناول الكالسيوم وفيتامين د وخطر الإصابة بالكسور، وذلك بسبب أوجه القصور فى الأبحاث القائمة على التجريب والملاحظة، فإن التجارب الإكلينيكية التى أجريت على تناول مكملات يومية من هذه العناصر المغذية أثبتت وجود انخفاض ملحوظ فى معدل نقصان كتلة العظام وفرط نشاط الغدد الجار درقية الثانوى بسبب السن والإصابة بالكسور، ولاسيما فى الورك. وإضافة إلى الكالسيوم، تسهم المعادن الأخرى - بما فيها البورون والنحاس والمغنسيوم والمنجنيز والزنك - فيما يبدو فى المحافظة على كثافة العظام مع التقدم فى السن. وتشمل العوامل الغذائية المسببة لخطر الإصابة بترقق العظام الاستهلاك المفرط للكافيين والبروتين والكحول أو أحد ما سبق، رغم أن ذلك لا يقوم على براهين كافية.

وثمة مجموعة كبيرة من الأدلة تفيد بأن إستراتيجيات التغذية الوقائية قد تقوم بدور مهم فى الحالات المزمنة الأخرى التى لا ترتبط بالضرورة بخطر الوفاة، ولكنها تضر بالاستقلالية ونوعية الحياة وتؤثر على نفقات الرعاية الصحية القومية. فعلى سبيل المثال، أثبتت الدراسات أن إضافة الفيتامينات المضادة للأكسدة وفيتامين ب ٦ والتركيبات القائمة على المعادن والفيتامينات، أو أيٍّ مما سبق، تتيح تحسين استجابات المناعة لدى كبار السن. ويبدو أن ذلك التأثير يرتبط بخطر الإصابة بالأمراض المعدية ومدتها لدى كبار السن. وقد ازدادت الأدلة التى تفيد بأن ثمة علاقة مهمة بين حدوث المياه البيضاء المرتبطة بعامل التقدم فى السن وحالة التغذية، ولاسيما من حيث مضادات الأكسدة. وحديثًا أشارت الدراسات المعنية بعلم الأوبئة إلى وجود علاقة عكسية بين تناول حصص كبيرة من العناصر الغذائية الغنية بالكاروتين وفيتامين ج وهـ وبين حدوث التنكس البقعى المرتبط بالتقدم فى السن، وهو السبب الأساسى لفقدان البصر بدون رجعة بين كبار السن. وقد أفادت عدة دراسات أن نقص الفيتامينات الطفيف أو غير المؤدى لظهور أعراض لدى الأشخاص الذين تتسم عاداتهم الغذائية بطابع من الإسراف له ضلع فى تدهور الوظيفة العصبية المعرفية مع التقدم فى السن. وقد لوحظ أن البالغين من كبار السن الأصحاء الذين تقل فى دمهم مستويات بعض الفيتامينات، وخصوصًا



إن تناول حصــة مرتفعــة من الدهـــون الإجماليــة تزيد من خطر الإصابة ببعض أنواع السـرطان، ولاسـيمـا سرطان الثدى والقـولون، فضــلا عن البروستاتا والمستقيم والمبايض



الفولات (ملح حمض الفوليك) وفيتامين ب ١٢ وفيتامين ج وريبوفلافين يسجلون نتائج ضعيفة عند إجراء اختبارات للذاكرة والتفكير المجرد غير اللفظى، ولوحظ أيضاً وجود علاقات متبادلة مهمة بين ضعف دلالات الثيامين والريبوفلافين والحديد وبين ضعف الأداء المعرفى ودلالات الوظائف العصبية النفسية بجهاز تخطيط كهربائية الدماغ.

الوضع الغذائى

أ. البلدان المتقدمة

غالباً ما ترتبط العناصر الأساسية للنظام الغذائى السائد فى بلد ما بحالة الوفرة المادية فى البلاد. ويعد انخفاض استهلاك الأغذية النشوية وزيادة تناول الدهون الحيوانية من أبرز السمات الغذائية التى ترتبط بتحول المجتمعات إلى الثراء. كما تشكل السكريات البسيطة، فى المتوسط، نسبة أعلى بكثير من إجمالى الكربوهيدرات الغذائية فى البلدان الصناعية المتقدمة مقارنةً بالبلدان ذات الدخل المنخفض.

وحالياً يزيد متوسط حصة الطاقة فى البلدان الصناعية المتقدمة بواقع ٣٠٠٠ سعر حرارى عن الحصة الموصى بها بنسبة ٣٠ ٪. ويبلغ متوسط إجمالى حصة الكربوهيدرات فى معظم البلدان الصناعية المتقدمة من ٤٠ -٤٤ ٪ من حصة الطاقة، وتشكل النشويات نصفها وتشكل السكريات نصفها الآخر. وتشكل حصة الدهون من٣٥-٤٠ ٪ من حصة الطاقة.

وقد تم التوصل إلى أن الإفراط فى تناول الأغذية الغنية بالطاقة ودهون معينة والكولسترول والكحول والملح وقلة استهلاك الفواكه والخضر والألياف، فضلا عن أساليب المعيشة التى يكثر فيها الجلوس بلا حركة لفترات طويلة تسهم بدرجة كبيرة فى زيادة حدوث فرط التغذية بين السكان فى البلدان المتقدمة. وتنتشر زيادة الوزن بين السكان من البالغين بنسبة ٣٠٪ فى معظم البلدان الصناعية المتقدمة، ويرتبط فرط التغذية بارتفاع نسبة البدانة والأمراض المزمنة مثل أمراض القلب والشرايين التاجية وارتفاع ضغط الدم وبعض أنواع السرطان والسكرى علاوةً



على الوفاة المبكرة. ويعد إدمان الكحوليات ونخر الأسنان من مشاكل الصحة العامة الأخرى.

ولتجنب فرط التغذية والتقليل من خطر الإصابة بأمراض معينة، ينصح بالحد من تناول الدهون بنسبة ١٠٪ من حصة الطاقة، وفى الوقت نفسه ينبغى ألا تزيد حصة الأحماض الدهنية المشبعة على ١٠٪ فى الإجمالى. ومن ثم ينبغى الحد من استهلاك الأغذية الغنية بالدهون التى تقل فيها العناصر المغذية الضرورية مثل منتجات اللحوم والأجبان الغنية بالدهون والأطعمة ذات القيمة الغذائية المنخفضة. ومن المتوقع أن تساعد زيادة استهلاك الأغذية المهمة الأساسية مثل الحبوب والبقول والخضر والفواكه والمكسرات على رفع حصة الكربوهيدرات المعقدة بنسبة ١٠٪ من إجمالى الطاقة، وذلك حسب التوصيات، بما فى ذلك زيادة حصة الألياف الغذائية. ومن المستحسن أيضاً التقليل من تناول الملح، وينبغى الاعتدال فى تناول الكحوليات. ومن الجوانب المهمة التى تهدف إلى تحسين الوضع الغذائى لسكان البلدان الصناعية المتقدمة إجراءات الصحة العامة مثل التثقيف الغذائى والإرشاد الغذائى وبحوث التغذية.

ب. البلدان النامية

تتمثل أهم مشكلة غذائية لدى البلدان ذات الدخل المنخفض فى أن قطاعات واسعة من السكان لا تستطيع تحمل تكلفة توفير الطعام الكافى - أو تعجز عن زراعته - لتلبية متطلباتهم من العناصر المغذية الضرورية. ويعتبر الفقر والظروف المرتبطة به من الأسباب الجوهرية لنقص التغذية. وهناك أربعة من أهم أشكال سوء التغذية فى البلدان النامية وهى سوء التغذية بالبروتين والطاقة (PEM)، يليه فقر الدم (الأنيميا) الناتج عن نقص الحديد، ونقص فيتامين أ، ونقص اليود. وتفيد التقديرات أن ١,١ مليار نسمة فى البلدان النامية يعيشون فى فقر مدقع، وأن ٢٠ ٪ من إجمالى السكان فى البلدان النامية يعانون نقصاً مزمناً فى الطاقة الغذائية.

ويرتبط انخفاض تناول السعرات الحرارية ارتباطاً وثيقاً بانخفاض استهلاك البروتين والفيتامينات والمعادن. ويقوم التركيب الغذائى بدور مهم فى حالة التغذية. وعادةً، تلبى معظم الأغذية التقليدية السائدة فى البلدان النامية الاحتياجات الغذائية للبالغين عند تناولها بكميات كافية لتلبية الاحتياجات الطبيعية للطاقة. وغالباً ما تضم الأطعمة التقليدية نوعاً واحداً أو نوعين من المحاصيل والدرنات والخضر والحبوب والفواكه الأساسية، وغالباً ما يجرى إعدادها باستخدام القدر الأدنى من الأغذية المحفوظة والمعلبة. ويمكن تلبية الاحتياجات من البروتين والطاقة بسهولة عن طريق الجمع بين الأنظمة الغذائية القائمة على الحبوب وكميات قليلة من الأطعمة البروتينية الأخرى مثل الحبوب أو الفول السودانى.

ويمكن أن تساعد زيادة استهلاك الخضر الورقية وغيرها من الخضر فى الحد بدرجة كبيرة من نقص فيتامين أ فى البلدان النامية، وقد تساعد فى التقليل من انتشار فقر الدم الناتج عن نقص اليود. ومع ذلك فالأنظمة الغذائية كثيراً ما تفتقر للتنوع وتقل فيها الفواكه والخضر، وذلك فى المناطق الريفية حيث تقل فرصة التوجه للأسواق. ويعد استهلاك الملح المضاف إليه اليود هو أفضل إجراء للحد من انتشار اضطرابات نقص اليود والتقليل من حدتها.

ويعد نقص التغذية بالبروتين والطاقة لدى السكان البالغين من المشاكل التى لا تنتشر إلا بين الأسر الفقيرة التى تضطر تحت وطأة الفقر للتخلى عن الأنظمة الغذائية التقليدية التى اعتادت عليها لتعتمد أساساً على الأطعمة الرخيصة التى تقل فيها نسبة البروتين. ورغم ذلك، كثيراً ما تعتبر هذه المشكلة من المشاكل التى يعانيها أفراد الأسرة المعرضون لخطر الإصابة مثل الأطفال أو الحوامل أو المرضعات، وذلك إذا كان النظام الغذائى غير كافٍ أو إذا كان الشخص أنهكته الأمراض، وهما السببان المباشران لسوء التغذية.

وثمة أسباب ضمنية لسوء التغذية فى شتى مستويات المجتمع، وحتى يتسنى تحسين الوضع الغذائى فى البلدان النامية، يجب أن تهتم الإجراءات التى تُتخذ بأسباب سوء التغذية على كل المستويات، وتشمل تلك الإجراءات: السياسات والأنشطة الوطنية والإقليمية بهدف تحسين إنتاج الأغذية وتسويقها علاوةً على توفير مصادر للدخل حتى تتمكن الأسر من شراء الغذاء. وينبغى أن تركز السياسات الأخرى على تحسين الوضع الصحى، وخصوصاً لدى الأمهات والأطفال، وتطوير المعرفة والرعاية



يرتبط انخفاض تناول السعرات الحرارية ارتباطاً وثيقاً بانخفاض استهلاك البروتين والفيتامينات والمعادن. ويقوم التركيب الغذائى بدور مهم فى حالة التغذية



للجـــوع.. معــــنى آخــــر

والنظافة المعنية بالتغذية وتيسير توصيل مياه الشرب. وينبغى أن يكون الارتقاء بالمستوى التعليمى وتحسين وضع المرأة فى المجتمع من الأهداف الكبرى.

ج. على مستوى العالم

يتوافر فى العالم، إجمالا، غذاء وفير، وقد ظل نمو الإنتاج الغذائى العالمى متساوياً حتى الآن مع النمو السكانى، ومع ذلك فلا يسكن الكثير من سكان العالم فى المناطق التى يكثر فيها إنتاج الأغذية فى العالم. وتنتج البلدان الصناعية نصف الحبوب فى العالم، ولكنها تضم أقل من ربع سكان العالم، ولذلك ليس للكثير من البلدان الفقيرة ومئات الملايين من الفقراء نصيب فى هذه الوفرة؛ فهم يعانون قلة الأمن الغذائى، وغالباً ما يعود ذلك لقلة القوة الشرائية. وتعانى الكثير من البلدان وضعاً خطيراً من حيث الإمدادات الغذائية بسبب الأزمات الغذائية المزمنة التى تعود للظروف غير المواتية للزراعة أو الحصاد أو الاضطراب السياسى. ولا توجد إلا بضعة بلدان تتمتع بالاكتفاء الذاتى من احتياطى الغذاء، أما باقى البلدان فتعتمد على السوق العالمية للحصول على واردات الأغذية التى تستهلكها.

ورغم تحسن الوضع الغذائى لجميع السكان فى كل القارات - فيما عدا منطقة جنوب الصحراء الكبرى فى إفريقيا - خلال السنوات العشر الأخيرة، فهناك ٧٨ بلداً لا تزال تُصنف باعتبارها بلداناً تعانى قلة الغذاء وانخفاض الدخل. وعلى مستوى العالم يعانى ٢٩ ٪ من جميع الأطفال دون سن الخامسة نقص الوزن، فيما يعانى ٣٦ ٪ منهم تأخر النمو. ويعانى ما يقرب من مليارى نسمة نقص الحديد أو فقر الدم (الأنيميا)، وتقع نسبة كبيرة من هذا العدد فى البلدان الصناعية المتقدمة أيضاً. ويعد نقص اليود من المشاكل الأخرى الملحوظة على مستوى العالم. ولا يزال الوضع الغذائى ينطوى على مشاكل معقدة خصوصاً فى منطقة جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى وجنوب شرق آسيا وفى البلدان الأقل تقدماً.

وعلاوةً على الإستراتيجيات المتبعة على المستوى القومى للارتقاء بالوضع الغذائى لسكان بلد ما، هناك عدة خيارات للعمل الدولى المشترك؛ فبعض اللوائح والقواعد المعنية بالتبادل التجارى تُعَرِّض الكثير من البلدان الفقيرة للضرر. ومن المتوقع أن تساعد الأسواق الدولية الناجحة التى تطبق العلاقات والسياسات التجارية العادلة على استقرار توافر الغذاء للكثير من البلدان، بل قد تعمل على زيادته. ويشمل نظام الدعم الغذائى العالمى شبكات من التبادل التجارى والمساعدات الغذائية. وفى إطار ذلك، تقوم أنظمة الإنذار المبكر بدور مهم فى تعبئة الاحتياطيات الغذائية الدولية وتوزيع المساعدات على البلدان التى تواجه مجاعات أو غيرها من الطوارئ الغذائية.

ويمكن أن تسهم المساعدات الغذائية المقدمة - فى أغلب الأحوال - من المؤسسات الدولية فى سد الفجوة فى حالات المجاعات أو عدم توافر الغذاء. وتدعم برامج المساعدات الغذائية أكثر الفئات عرضة للإصابة مثل الأطفال من خلال توفير الغذاء التكميلى لهم. وتسهم الأبحاث الزراعية فى زيادة احتياطيات الغذاء وزيادة الإنتاج الغذائى، ولكن ذلك لا يحل مشكلة التوزيع غير العادل للغذاء التى تنتشر على مستوى العالم.

الخــــاتمـــــة

تنتشر مشاكل الصحة العامة ذات الصلة بالتغذية فى كل أنحاء العالم، ولذا من الضرورى تطبيق الإرشاد الغذائى لمساعدة السكان على تحقيق أفضل وضع غذائى يسهم فى تمتعهم بالصحة الجيدة. ومع ذلك فليس ثمة ضمان على أن الأفراد سيطبقون التوصيات لأن النظام الغذائى الذى يرضى الأفراد ربما يختلف مدلوله عن كونه مصدر إمداد بالعناصر المغذية الضرورية والمواد المقوية للصحة. ويبدو أن الإرشاد الغذائى يعد من الإجراءات المناسبة كذلك فى البلدان النامية.

وتشكل النساء الحوامل والأطفال حتى سن الثالثة القطاع السكانى المهم من حيث الوضع الغذائى، وينبغى تلبية احتياجاتهم إذا كنا نطمح فى تمتع السكان بصحة جيدة وانخفاض نسبة الإصابة بالأمراض المزمنة لديهم. والفرصة سانحة للاستثمار فى هذا القطاع من المجتمع. ■

كتـــاب الـزاويـــة

من تقرير اللجنة المشكلة من مجلس الشعب لتقصى حقائق أحداث الخانكة فى نوفمبر ١٩٧٢ برئاسة الدكتور جمال العطيفى

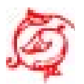
(٢)

ملخص الوقائع

في صباح يوم الثلاثاء ١٤ من نوفمبر ١٩٧٢ عقدت اللجنة اجتماعا عرض فيه رئيسها التصور المبدئي للحوادث التي وقعت في الخانكة، يومي ٦ نوفمبر و١٢ نوفمبر ١٩٧٢ في ضوء المعلومات الشفوية التي تلقاها من السيد نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية والنائب العام. ففي يوم ٦ نوفمبر وضع مجهولون النار في دار جمعية الكتاب المقدس التي كان يتخذها أهالي مركز الخانكة من الأقباط كنيسة بغير ترخيص لإقامة الشعائر الدينية. وفي ١٢ نوفمبر وفد إلى الخانكة عدد كبير من القساوسة قدموا إليها بالسيارات ومعهم بعض المواطنين من الأقباط وساروا إلى مقر جمعية أصدقاء الكتاب المقدس المحترق وأقاموا شعائر الصلاة فيها وتجمع في المساء عدد كبير من المواطنين في مسجد السلطان الأشرف وخرجوا في مسيرة احتجاج على ذلك، نسب فيها إلى غالي أنيس أنه أطلق أعيرة نارية في الهواء على وءوس المتظاهرين من مسدس مرخص له بحمله فتوجه بعض المتظاهرين إلى مسكن هذا الشخص وإلى أماكن آخرين وقاموا بوضع النار فيها وإتلافها دون أن تقع إصابات، وبعد أن استمعت اللجنة إلى هذا العرض المبدئي للحادث ناقشت خطة عملها وحددت البيانات والمعلومات التي تحتاج إليها من الجهات المختلفة.







والتر إيزاكسون
Walter Isaacson.

■■ أشعلت رحلة «ألبرت أينشتاين Albert Einstein» الأولى لأميركا عام ١٩٢١ نوع الهستريا الجماهيرية التى قد يلقاها فريق «البيتلز» بعد ذلك بأربعة عقود. ولكن تلك الرحلة - كما تكشف الوثائق المنشورة مؤخرا - أوقعت صدعا عميقا بين الصهاينة الأوربيين وبعض رفاقهم من اليهود عبر الأطلنطى، رجال مثل «لويس د. برانديس Louis D. Brandeis» و«فليكس فرانكفورتر Felix Frankfurter»، والذين شعروا أن أفضل السبل لتقدم اليهود هو الاندماج وليس الجدل لإقامة وطن يهودى.

تركت رحلة «ألبرت أينشتاين» الأولى لأميركا أثرا فريدا فى تاريخ العلم، وكان لابد حقا أن تكون حدثا بارزا فى أى ميدان: موكب مهيب طوال شهرين فى ربيع عام ١٩٢١ أثار نوع السعار الجماعى والمداهنة الإعلامية الذى قد تثيره جولة لأحد نجوم الروك. لقد اندفع «أينشتاين» أخيرا إلى نجومية عالمية عندما أكدت المشاهدات التى تحققت أثناء كسوف كلى بصورة مثيرة صحة نظريته النسبية من خلال بيان أن حقل جاذبية الشمس قد أمال شعاع ضوء بالدرجة التى تنبأ بها. وقد هللت جريدة «نيويورك تايمز New York Times» لهذا الانتصار بعنوان رئيسى من عدة أسطر: «تنحرف كافة الأضواء فى السماوات / العلماء يتلهفون تقريبا لنتائج مشاهدات الكسوف / نظرية أينشتاين تنتصر / النجوم ليست فى المكان الذى كانت تبدو فيه أو كما حددت الحسابات ولكن لا داعى لأن يقلق أحد».

ولذلك، فعندما وصل «أينشتاين» إلى نيويورك فى أبريل، لقى ترحابا من حشود المعجبين باعتباره أعظم مشاهير العالم من العلماء، والذى تصادف أيضا أن كان رمزا معتدلا للقيم الإنسانية وقديسا حاميا حيا لليهود.

مع ذلك، تشير وثائق ذلك العام المنشورة حديثا إلى جانب أقل بهجة لزيارة «أينشتاين» الشهيرة. فقد وجد نفسه محاصرا فى أتون معركة بين

بترتيب مع: The Atlantic

ترجمة: عادل فتحى

الصهاينة الأوروبيين المتحمسين بقيادة «تشيم فايتسمان Chaim Weizmann»، الذى رافق «أينشتاين» فى الرحلة، وبين الزعماء الأكثر لمعانا وحذرا لليهود الأمريكيين، بما فى ذلك «لويس د. برانديس» و«فليكس فرانكفورتر» وأصحاب المؤسسات المصرفية الراسخة فى «وول ستريت». ومن بين أشياء أخرى، فإن الجدل حول الصهيونية أدى إلى عدم دعوة «أينشتاين» للمحاضرة فى جامعة «هارفارد» ودفع العديد من يهود «مانهاتن» البارزين إلى عدم الاستجابة لدعوته لمناقشة مشروعه الأثير، إنشاء جامعة فى القدس.

أما النطاق الكامل لهذا الجدل، والذى جرى الاقتراب منه فقط فى كتب سابقة (من بينها سيرة ذاتية كتبتها عام ٢٠٠٧)، فقد تم الكشف عنه فى مجلد لمراسلات وأوراق «أينشتاين» للعام ١٩٢١ تم نشره مؤخرا بواسطة مطبعة جامعة «برنستون». لم يكن أى من الخطابات حديث الاكتشاف (كلها متوفرة فى الأرشيف العام)، ولكن لم ينشر معظمها فى السابق. ويجمع المجلد المكون من ٦٠٠ صفحة، وهو الثانى عشر حتى الآن من وضع محررى مشروع أوراق «أينشتاين»، كافة الخطابات والوثائق معا بصورة تسمح لنا برؤية الصراع السياسى والعاطفى الذى انزلق إليه «أينشتاين»، حتى بوضوح أكثر مما رآه هو نفسه.

نشأ «أينشتاين» فى عائلة يهودية ألمانية علمانية، وقد احتقر الإيمان والطقوس الدينية (فيما عدا فترة قصيرة من الحماس الدينى كطفل). ومع ذلك، فقد اعتبر نفسه - وبفخر - يهوديا بالتراث، وشعر بصلة قرابة وثيقة بمن أطلق عليهم رفاقه من أفراد القبيلة أو العشيرة. ويمكن رؤية وجهة نظره عام ١٩٢١ فى رده الفظ الذى أرسله فى بداية ذلك العام إلى حاخامات برلين الذين حثوه على أن يصبح عضوا دافعا للرسوم فى المجتمع الدينى اليهودى هناك. فكان رده «لاحظت فى خطابكم غموض كلمة يهودى، حيث إنها تشير - أولا - إلى الجنسية والأصول، وتشير - ثانيا - إلى الإيمان. أنا يهودى بالمعنى الأول للكلمة وليس الثانى».

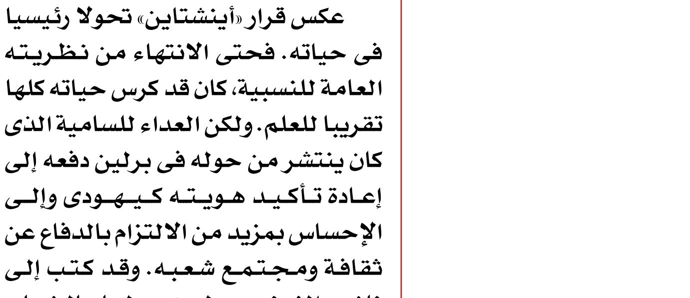
كان العداء للسامية فى ألمانيا فى ازدياد فى ذلك الوقت. وقد فعل الكثير من اليهود الألمان كل ما فى وسعهم - بما فى ذلك اعتناق المسيحية - فى سبيل الاندماج، كما حثوا «أينشتاين» أن يحذو حذوهم. ولكن «أينشتاين» سلك الاتجاه المعاكس. فقد بدأ التعرف بصورة أقوى على تراثه اليهودى، كما اعتنق الهدف الصهيونى للترويج لوطن يهودى فى فلسطين.

تم تجنيد «أينشتاين» على يد الزعيم الصهيونى الرائد «كيرت بلومنفيلد Kurt Blumenfeld» الذى زار «أينشتاين» فى برلين فى بداية عام ١٩١٩. يتذكر «بلومنفيلد»: «كان يطرح الأسئلة بسذاجة تامة». كان من بين تساؤلات «أينشتاين»: لماذا يتحتم على اليهود - بمواهبهم الفكرية - إقامة وطن زراعى فى الأساس؟ ولماذا يجب أن يكون هذا الوطن دولة قومية خاصة بهم؟ ألم تكن القومية هى المشكلة وليست الحل؟ فى النهاية، بدل «أينشتاين» من آرائه. وأخبر «بلومنفيلد»: «كإنسان، أنا ضد القومية. ولكن كيهودى، أنا مع الهدف الصهيونى منذ اليوم». كما أصبح - أكثر تحديدا - مؤيدا لإنشاء جامعة يهودية فى القدس، والتى أصبحت الجامعة العبرية.

اعتقد «أينشتاين» فى البداية أن زيارته الأولى للولايات المتحدة - التى أطلق عليها تندرا «دولاريا» ربما تكون وسيلة لجمع بعض النقود بعملة مستقرة. كان قد مر مع زوجته الأولى بتجربة طلاق مريرة، وكانا لا يزالان يتنازعان حول الأمور المالية. وقد حاول «ماكس فاربورج Max Warburg» المصرفى من هامبورج، وشقيقه من نيويورك «بول Paul» مساعدة «أينشتاين» بتنظيم محاضرات مربحة له. وقد طلبا من جامعتى «برنستون» و«ويسكونسين» أجرا مقداره ١٥ ألف دولار. وفى فبراير عام ١٩٢١، أخبره «ماكس فاربورج»: «المبلغ الذى تطلبه غير ممكن». لم ينزعج «أينشتاين» كثيرا. وأخبر صديقه وزميله الفيزيائى «بول إيرينفيست Paul Ehrenfest:» «لقد وجدوا مطالبى مبالغا فيها. أنا سعيد لعدم اضطرارى للذهاب إلى هناك؛ فى الواقع أنها ليست بالطريقة اللطيفة لجمع النقود». وقد وضع خططا أخرى بدلا من ذلك: سوف يذهب إلى بروكسيل لتقديم بحث فى «مؤتمر سولفاى Solvay Conference»، التجمع الأوروبى البارز للفيزيائيين.

فى ذلك الوقت، قام «بلومنفيلد» بزيارة شقة «أينشتاين» مرة ثانية، مع دعوة هذه المرة - أو ربما تعليمات - فى صورة برقية من «تشيم فايتسمان» رئيس المنظمة الصهيونية العالمية World Zionist Organization. وقد طلب «فايتسمان» - الكيميائى اللامع الذى هاجر من روسيا إلى إنجلترا - من «أينشتاين» أن يصاحبه فى رحلة إلى أميركا لجمع التبرعات للمساعدة فى استيطان فلسطين، وعلى وجه الخصوص، لإنشاء جامعة عبرية فى القدس. وعندما قرأ «بلومنفيلد» البرقية له، انفعل «أينشتاين». قال «أينشتاين» أنه لم يكن مدعيا، وأن فكرة استغلال شهرته لحشد الجماهير للقضية لم تكن «فكرة جيدة». لم يجادل «بلومنفيلد». وبدلا من ذلك - ببساطة - قرأ برقية «فايتسمان» بصوت عال مرة ثانية. وقال «بلومنفيلد» «إنه رئيس منظمتنا، وإذا كنت تأخذ اعتناقك الصهيونية على محمل الجد، فإن لدى الحق أن أطلب منك - باسم الدكتور «فايتسمان» - أن تذهب معه إلى الولايات المتحدة».

رد «أينشتاين» - لدهشة «بلومنفيلد» غير المحدودة - «ما تقوله صحيح ومقنع. أدرك أننى الآن جزء من الموقف وأنه يجب أن أقبل الدعوة». شعر «فايتسمان»



عكس قرار «أينشتاين» تحولا رئيسيا فى حياته. فحتى الانتهاء من نظريته العامة للنسبية، كان قد كرس حياته كلها للعلم

قال «أينشتاين» أنه لم يكن مدعيا، وأن فكرة استغلال شهرته لحشد الجماهير للقضية لم تكن «فكرة جيدة»

بالإثارة و - إلى حد ما - بالدهشة. وأبرق إلى «أينشتاين» لاحقا من لندن «أقدر استعدادك من كل قلبى فى مثل تلك اللحظة الحاسمة للشعب اليهودى».

عكس قرار «أينشتاين» تحولا رئيسيا فى حياته. فحتى الانتهاء من نظريته العامة للنسبية، كان قد كرس حياته كلها تقريبا للعلم. ولكن العداء للسامية الذى كان ينتشر من حوله فى برلين دفعه إلى إعادة تأكيد هويته كيهودى وإلى الإحساس بمزيد من الالتزام بالدفاع عن ثقافة ومجتمع شعبه. وقد كتب إلى ناشره الفرنسى: «لست مولعا بالذهاب إلى أميركا، ولكنى أفعل ذلك نيابة عن الصهاينة. يجب أن ألعب دور الشخص عظيم الشأن والطائر الشرك ... أفعل كل ما أستطيع لإخوتى فى العشيرة الذين يتعرضون للاحتقار فى كل مكان».

لذلك شرع «أينشتاين» وزوجته الجديدة «إلزا Elsa» فى نهاية مارس ١٩٢١ فى زيارتهم الأولى إلى أميركا. وقد حاول «أينشتاين» طوال الطريق أن يشرح نظرية النسبية لـ «فايتسمان». وعند سؤاله لدى وصولهم إذا ما كان قد فهم النظرية، أجاب «فايتسمان» بخبث: «لقد شرح «أينشتاين» نظريته لى كل يوم، ولدى وصولنا أصبحت مقتنعا تماما أنه يفهمها فعلا».

عندما رست السفينة فى منطقة «باترى» فى مانهاتن السفلى بعد ظهر يوم الثانى من أبريل، كان «أينشتاين» يقف على السطح مرتديا قبعة من اللباد الأسود أخفت جزءا من - وليس كل - شعره الكثيف غير الممشط الذى تحول الآن إلى اللون الرمادى. كانت إحدى يديه تمسك بغليون خشبى مصقول؛ بينما تقبض الأخرى على حقيبة كمان بالية. نشرت «نيويورك تايمز»: «كان يبدو كفنان. ولكن تحت ذلك الشعر الأشعث، كانت هناك عقلية علمية أذهلت استدلالاتها أعظم عقول أوروبا».

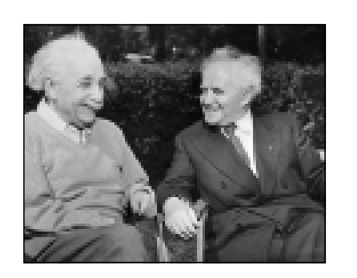
كان الآلاف من المشاهدين، مع فرقة الناى والطبل بالفيلق اليهودى، فى الانتظار فى منتزه «باترى»، عندما رافق عمدة المدينة وأصحاب المقام الآخرين «أينشتاين» إلى الشاطئ فى زورق قطر تابع للشرطة. وقد ردد الحشد - ملوحين بالأعلام ذات اللونين الأزرق والأبيض - نشيد «اللواء ذى النجوم اللامعة The Star-Spangled Banner» ثم النشيد الصهيونى «هاتيكفاه Hatikvah». وكانت عائلتا «أينشتاين» و«فايتسمان» تنويان الذهاب مباشرة إلى فندق «كومودور» فى «ميدتاون». ولكن بدلا من ذلك، شق موكب السيارات طريقه عند المساء إلى الأحياء اليهودية بالجانب الشرقى الأدنى. يتذكر «فايتسمان»: «كان هناك بوق فى كل سيارة، وكانت كل الأبواق تعمل. وقد وصلنا إلى «كومودور» حوالى الحادية عشرة والنصف، مرهقين جوعى عطشى وفى غاية الإعياء».

كانت هناك جماعة غائبة فى معظم مراسم

الترحيب والاحتفالات اللاحقة: زعماء «المنظمة الصهيونية فى أميركا The Zionist Organization of America»، بل إن قاضى المحكمة العليا «لويس د. براندیس»، الذى كان الرئيس الفخرى للمنظمة، لم يكلف نفسه عناء إرسال تحية أو تهنئة رسمية شكلية. كان «براندیس» قد سافر مع «فايتسمان» إلى فلسطين عام ١٩١٩، وذهب إلى لندن فى العام التالى ليكون بجانبه فى مؤتمر صهيونى. ولكن العداء بدأ بينهما بعد ذلك بفترة قصيرة. كان نزاعهما يرجع جزئيا إلى بضعة خلافات بشأن السياسة؛ كان «براندیس» يرغب أن تركز المنظمات اليهودية على إرسال المال إلى المستوطنين اليهود فى فلسطين وليس الإثارة السياسية. وكان هناك صراع قوى عتيق الطراز بصورة جزئية أيضا؛ أراد «براندیس» تعيين مديرين أكفاء وانتزاع السلطة من «فايتسمان» وأتباعه الأوروبيين الشرقيين الأكثر حماسة. ولكن - قبل كل شىء - كان هناك صراع شخصيات. ولد «فايتسمان» فى روسيا وهاجر إلى إنجلترا وشارك «أينشتاين» فى احتقاره لليهود الذين سعوا بشدة إلى الاندماج. أما «براندیس» فقد ولد فى «لويزفيل» بولاية كنتاكى وتخرج من كلية «هارفارد» للقانون، ونجح كمحام بارز فى بوسطون، وعينه الرئيس «ويلسون Wilson» كأول قاض يهودى فى المحكمة العليا. كان مؤيدوه يميلون إلى احتقار اليهود غير المهذبين وغير المندمجين القادمين من روسيا وأوروبا الشرقية. وفى خطاب إلى شقيقه عام ١٩٢١، كشف «براندیس» عن الأسس الثقافية والشخصية لشقاقه مع «فايتسمان»: «كان الصدام الصهيونى محتما. كان ناتجا عن اختلافات المعايير. كان الشرقيون - مثل كثير من اليهود الروس فى هذه البلاد - لا يعرفون معنى الأمانة، وببساطة، نحن لن نأتمنهم على أموالنا. يعلم «فايتسمان» ما هى الأمانة - ولكنه يستسلم بضعف لزملائه الروس العديدين. من هنا وقع الصدع».

كان «براندیس» سعيدا فى البداية بمجىء «أينشتاين» إلى أميركا، رغم أنه أتى بصحبة «فايتسمان». وقد كتب إلى حماته: «أينشتاين العظيم قادم إلى أميركا قريبا مع الدكتور «فايتسمان» زعيمنا الصهيونى. ربما تحتاج فلسطين إلى أكثر من مجرد مفهوم جديد للكون أو لأبعاد إضافية عديدة؛ ولكن من الجيد أن نتذكر العالم الأممى (غير اليهودى، المترجم) - عندما يكون العداء للسامية فى ازدياد - أن اليهود يصنعون الإسهامات الرائعة فى عالم الفكر».

ولكن اثنين من أقرب شركاء «براندیس» عبرا عن هواجسهما. فقد جادل تابعه «فليكس فرانكفورتر»، والذى كان فى ذلك الوقت أستاذا فى كلية هارفارد للقانون، والقاضى «جوليان ماك Julian Mack»، الشخص الذى انتخبه «براندیس» لرئاسة «المنظمة الصهيونية فى أميركا»، بأنه من الأفضل لو أن زيارة «أينشتاين» قد تمت أساسا فى إطار رحلة لإلقاء المحاضرات عن الفيزياء، بدلا من أن تكون رحلة لجمع المال من أجل فلسطين.



أراد «براندیس» تعيين مديرين أكفاء وانتزاع السلطة من «فايتسمان» وأتباعه الأوروبيين الشرقيين الأكثر حماسة

أرسل «فرانكفورتر» و«ماك» برقيات إلى «فايتسمان» لحثه على التأكد من أن «أينشتاين» قد رتب لإلقاء بعض محاضرات الفيزياء أثناء رحلته

وقد أرسل «فرانكفورتر» و«ماك» برقيات إلى «فايتسمان» لحثه على التأكد من أن «أينشتاين» قد رتب لإلقاء بعض محاضرات الفيزياء أثناء رحلته. ولكنهم سرعان ما بدلا رأيهما عندما علما أن «أينشتاين» قد حاول الحصول على أجور عالية من مختلف الجامعات مقابل تلك المحاضرات، رغم أنه كان يتحدث مجانا عن الصهيونية. كان ذلك أسوأ بالفعل. ولذلك فقد أرسلا برقية أخرى، تحذر هذه المرة من الخطر المتمثل فى محاولة «أينشتاين» تسويق علمه «تجاريا». وقد خشى «فرانكفورتر» و«ماك» أن يؤدى ذلك إلى الإضرار بصورته وبصورة اليهود. ويجب إلقاء بعض محاضرات الفيزياء مجانا. وكما أبرق «ماك» إلى «فايتسمان»: «موقف «أينشتاين» صعب للغاية. من المناسب أن توضحوا لنا تماما تفاصيل مفاوضاته. ننتظر أيضا برقيتكم التى وعدتم بها إذا ما كان يقبل باقتراحكم إلقاء محاضرتين جامعيتين مجانا». وقد ذهبا بعيدا فى إحدى البرقيات لدرجة أنهما حثا على إلغاء رحلة «أينشتاين». وأوضحت برقية أخرى أنه لن تكون هناك محاضرات فى الجامعة، حيث كان «فرانكفورتر» أستاذا صاحب نفوذ. كانت البرقية تقول «هارفارد ترفض «أينشتاين» تماما»، وأضافت البرقية أن «أينشتاين» سيلقى ترحيبا إذا قام بزيارة غير رسمية دون إلقاء محاضرة أو أجر محاضرة. وقد غضب «أينشتاين» بشدة عندما علم بشأن البرقيات. وقد دافع «ماك» عن نفسه وعن «فرانكفورتر» - وبالتالى «براندیس» - فى خطاب إلى «أينشتاين» يصر فيه على أن دافعهما الوحيد كان «حمايتك من الهجمات الظالمة وحماية المنظمة ضد نتيجة مثل تلك الهجمات الظالمة».

وقد زاد «براندیس» وجماعته فى «المنظمة الصهيونية فى أميركا» الطين بلة أثناء زيارة «أينشتاين»، عندما تفاعلوا مع صدام مميت بين مثيرى الشغب من العرب واليهود فى يافا بالتأكيد على رغبتهم فى تطبيق «إجراءات وقائية» مناسبة قبل جمع المال للجامعة العبرية. وقد ذكر «أينشتاين» أن هذا الموقف دفعه للشك بأن جماعة «براندیس» كانوا «يخربون» مهمته. وعندما اقترح صديق «براندیس» ومؤيده، الحاخام «يهوذا ماجنيس Judah Magnes»، استضافة اجتماع للمفكرين فى مانهاتن للحديث عن الجامعة، أجاب «أينشتاين» بأنه قد يأتى فقط إذا جعل «ماجنيس» من الحدث مناسبة لجمع التبرعات. وقد رد «ماجنيس» فى خطاب فاتر مقتضب «لم أكن أفكر فى اجتماع لجمع التبرعات. وعلى ضوء تلك الظروف، ربما كان من الأفضل صرف النظر عن الاجتماع».

لم تأت المعارضة ضد مهمة «أينشتاين» فقط من معسكر «براندیس» من الصهاينة الأمريكيين الحريصين المتعقلين، وإنما أيضا من يهود الإصلاح الناجحين فى نيويورك ذوى الأصول الألمانية، والذين عارض الكثير منهم الصهيونية. وعندما دعا «أينشتاين» ما يقارب الخمسين من أشهر يهود نيويورك إلى اجتماع خاص فى فندقه، لم يستجب الكثير منهم. وقد كتب «بول فاربورج Paul Warburg»، الذى عمل معه كوكيل لجمع أموال المحاضرات:

«لن يكون لحضورى أى فائدة؛ على العكس، أخشى إن كان لحضورى مغزى أن يعرقل الأمور. وكما أخبرتكم سلفا فى مناسبة أخرى، فلدى شخصيا شكوك قوية تتعلق بالخطط الصهيونية، وأتوقع عواقبها بخوف حقيقى».

جاءت اعتراضات أخرى من «آرثر هيز سولزبيرجر Arthur Hays Sulzberger» من «نيويورك تايمز»؛ والخبير المالى ذى الصلات السياسية «برنارد باروخ Bernard Baruch»؛ والمحامى «إيرفنج ليمان Irving Lehman»؛ وسكرتير أول مجلس وزراء يهودى «أوسكار شتراوس Oscar Straus»؛ ورجل الخير «دانيال جوجنهايم Daniel Guggenheim»؛ وعضو الكونجرس الأسبق «جيفرسون ليفى Jefferson Levy».

من جهة أخرى، اعتنق آراء «أينشتاين» و«فايتسمان» بشدة يهود أقل اندماجا وأكثر حماسة، من النوع الذى يميل للعيش فى «بروكلين» أو الجانب الشرقى الأدنى بدلا من «بارك أفينيو». وفى مناسبة واحدة، حضر أكثر من ٢٠ ألف شخص، تسببوا - حسبما نشرت الـ «تايمز» - فيما يشبه «أعمال شغب»، عندما «اجتاحوا خطوط الشرطة». وبعد ثلاثة أسابيع من المحاضرات والاستقبالات فى نيويورك، قام «أينشتاين» بزيارة واشنطون. ولأسباب مفهومة للقاطنين فى تلك المدينة، قرر مجلس الشيوخ مناقشة نظرية النسبية. واقترح النائب «ج. ج. كيندريد J. J. Kindred» من نيويورك وضع تفسير لنظريات «أينشتاين» فى سجلات الكونجرس. ولكن «دافيد وولش David Walsh» من ماساتشوسيتس اعترض على ذلك. هل فهم «كيندريد» النظرية؟ أجاب «لقد انشغلت جديا بتلك النظرية لمدة ثلاثة أسابيع، وبدأت أرى بعض الضوء». ولكنه سئل ما صلة ذلك بالكونجرس؟ «قد يكون لذلك تأثير تشريعى فى المستقبل على العلاقات العامة مع الكون».

نتيجة لهذا النقاش، عندما ذهب «أينشتاين» مع وفد إلى البيت الأبيض، كان من المحتم أن يواجه الرئيس «وارين ج. هاردنج Warren G. Harding» السؤال عما إذا كان قد فهم نظرية النسبية. وعندما وقف الجميع أمام الكاميرات، ابتسم واعترف بأنه لم يفهمها. وقد نشرت الـ «واشنطون بوست» رسما كاريكاتيريا يظهر الرئيس متحيرا أمام ورقة بعنوان «نظرية النسبية» بينما «أينشتاين» متحير أمام ورقة بعنوان «نظرية الاستواء»، وهو الاسم الذى أطلقه «هاردنج» على فلسفته فى الحكم. وكان العنوان الرئيسى فى الصفحة الأولى لـ «نيويورك تايمز»: «هاردنج يعترف أنه متحير أمام فكرة أينشتاين».

أثناء زيارة واشنطون، حاول الصحفى ذائع الصيت وصاحب الصلات القوية، «والتر ليبمان Walter Lippmann»، أن يرتب اجتماع مصالحة بين «فايتسمان» و«برانديس». وقد انهارت المفاوضات بين معسكرى الزعيمين الصهيونيين حول عدد من القضايا المختلفة، ولم تتكرر القمة أبدا. مع ذلك، كان «أينشتاين» سعيدا أن يقوم بزيارة «برانديس»، رغم أن «فايتسمان» حثه ألا يفعل. وقد انسجما على ما يرام. وقد أخبر «أينشتاين» الصديق الذى رتب للزيارة أنه عاد منها بانطباع عن «برانديس» «مختلف تماما» عن الذى فرضه عليه «فايتسمان». وكان «برانديس» سعيدا أيضا. وقد كتب إلى زوجته فى اليوم التالى «البروفيسور والسيدة «أينشتاين» أناس ودودون بسطاء. وقد ثبتت استحالة تجنب بعض النقاش حول «الصدع» رغم عدم تورطهما فيه. إنهما متخصصان فى الجامعة». مع ذلك، فقد انتهى يوم الانسجام الشخصى دون إجراء أى شىء لرأب الصدع بين معسكرى «فايتسمان»-«أينشتاين» و«برانديس» - «فرانكفورتر»، والذى ازداد سوءا أثناء الزيارة.

ذهب «أينشتاين» بالتالى إلى جامعة «برنستون»، حيث ألقى - طوال أسبوع - سلسلة من المحاضرات العلمية وحصل على درجة فخرية «لارتحاله خلال بحار غريبة من الفكر». لم يحصل «أينشتاين» على أجر الـ ١٥ ألف دولار الذى طلبه فى البداية، ولكنه حصل على أجر أكثر تواضعا بالإضافة إلى اتفاق بأن تنشر «برنستون» محاضراته فى كتاب وتمنحه نسبة ١٥٪ من حقوق النشر. كانت محاضرات «أينشتاين» فنية للغاية. وقد اشتملت على أكثر من ١٢٥ معادلة مركبة كتبها بخط ردىء على السبورة بينما كان يتحدث بالألمانية. وكما اعترف واحد من الطلاب لأحد المراسلين «كنت أجلس فى الشرفة، ولكنه كان يتحدث فوق قدرتى على الاستيعاب على أية حال».

بدا أن «أينشتاين» أحب «برنستون». وقد وصفها بأنها «شابة ونشيطة. كغليون لم يتم تدخينه بعد». كانت تلك مجاملة من رجل يعتز دائما بغليون خشبى جديد. ولم يكن مفاجئا أنه قرر الانتقال إلى هناك بصورة دائمة بعد ذلك بعشر سنوات.

لم ترق «هارفارد» - التى ذهب إليها «أينشتاين» بعد ذلك - له بنفس القدر. وقام من قبيل المجاملة بجولة فى حرمها ومر على المعامل وعلق على أنشطة الطلاب، رغم أنه كان من الواضح أنه لم يدع لإلقاء محاضرة رسمية هناك. وطوال ما تبقى من رحلة الولايات المتحدة، تبادل «أينشتاين» و«فرانكفورتر» رسائل حاول أستاذ «هارفارد» من خلالها التنصل من اللوم على التأنيب. كتب «فرانكفورتر» فى رسالة قصيرة «اتهمنى الناس بأنى أردت منع ظهورك فى «هارفارد». إن الاتهام غير صحيح على الإطلاق». ومع ذلك، علم «أينشتاين» بشأن البرقيات التى أرسلها «فرانكفورتر» و«ماك» اعتراضا على طلب «أينشتاين» أجرا عن المحاضرات. وقد رد «أينشتاين»: «يبدو لى مقبولا الآن أنك تصرفت على هذا النحو بنوايا مخلصة طيبة»، غير متقبل تماما لإنكار «فرانكفورتر». كما أضاف كلمة فكاهية لليهود مثل «فرانكفورتر» الذى كان حريصا على تجنب تكدير المشاعر المهذبة لغير اليهود. حيث كتب: «لم يكن الأمر ليشكل خطورة حتى لو حجبت كافة الجامعات الدعوات، رغم أنى أعلم يقينا أنه من قبيل الضعف اليهودى أن نسعى دائما بلهفة للحفاظ على مشاعر الأمميين».

كانت «كليفلاند» إحدى آخر المحطات فى جولة «أينشتاين» - «فايتسمان» الكبرى، وقد احتشد الآلاف فى محطة القطار هناك للقاء الوفد الزائر. وقد اشتمل الموكب على مائتى سيارة صاخبة مكسوة بالأعلام. استقل «أينشتاين» و«فايتسمان» سيارة مكشوفة تتقدمها فرقة مترجلة من الحرس الوطنى ومجموعة من قدامى المحاربين اليهود بالزى العسكرى. وقد تشبث المعجبون طوال الطريق بسيارة «أينشتاين» وقفزوا فوق الركب السائر، بينما حاولت الشرطة إبعادهم.

كانت «المنظمة الصهيونية فى أميركا» على وشك الاجتماع فى «كليفلاند» لمؤتمرها السنوى، وكان يهود «قلب المدينة» الموالون لـ «فايتسمان» يعدون لتصفية الحساب مع يهود «أطراف المدينة» الموالين لـ «برانديس». وقد اتسم المؤتمر بالحدة، بخطاباته المريرة التى تضمنت اتهامات لمعسكر «برانديس» - ضمن آثام أخرى - بالفتور تجاه رحلة «أينشتاين». واستطاع مؤيدو «فايتسمان» - محصنين بوجوده - حجب التصويت على الثقة فى زعامة «برانديس» وساعده الأيمن «جوليان ماك». وقد استقال «ماك» على الفور كرئيس، واستقال «برانديس» كرئيس فخرى، واستقال آخرون فى معسكر «برانديس» - بمن فيهم «فليكس فرانكفورتر» و«ستيفين س. وايز Stephen S. Wise» - من اللجنة التنفيذية. كان من المحتم أن يستمر الصدع العميق فى الصهيونية الأمريكية وأن يقوض الحركة لعقد من الزمان تقريبا.

لم يحضر «أينشتاين» المؤتمر. حيث كان قد استقل سفينة بالفعل إلى أوروبا، شاعرا إلى حد ما بالحيرة ومتسليا بما



بدا أن «أينشتاين» أحب «برنستون». وقد وصفها بأنها «شابة ونشيطة. كغليون لم يتم تدخينه بعد»



كان يهود «قلب المدينة» الموالون لـ«فايتسمان» يعدون لتصفية الحساب مع يهود «أطراف المدينة» الموالين لـ«برانديس»

شاهده فى أميركا. وقد كتب إلى أعز أصدقائه «ميشيل بيسو Michele Besso»: «إن استثارة حماستها أيسر من الدول الأخرى التى أزعجتها بحضورى. كان على أن أدعهم يطوفون بى كثور فائز فى مسابقة. إنها لمعجزة أننى تحملت ذلك. ولكن ذلك قد مضى الآن، وبقى الإحساس الطيب بأنى حققت شيئا جيدا حقا وبأنى قد بذلت جهدى فى سبيل القضية اليهودية، على الرغم من جميع احتجاجات اليهود وغير اليهود، إن معظم رفاقنا من أفراد العشيرة هم أذكياء أكثر من كونهم شجعانا».

إن كل ما فعلته المعارضة التى واجهها «أينشتاين» هو أنها زادت من دعمه للقضية الصهيونية. وقد كتب إلى «بول إيرنفيست» عقب الرحلة مباشرة: «تقدم الصهيونية هدفا يهوديا جديدا يمكن أن يحقق للشعب اليهودى حلم وجوده مرة ثانية». كان «أينشتاين» فى هذا الشأن جزءا من تيار يعيد تشكيل الهوية اليهودية فى أوروبا - بالاختيار وبالحيلة. وقد أخبر مراسل صحفى فى يوم رحيله عن أميركا: «منذ جيل مضى، لم ينظر اليهود فى ألمانيا إلى أنفسهم باعتبارهم أفرادا من الشعب اليهودى. بل فقط اعتبروا أنفسهم أعضاء فى مجتمع دينى». ولكن العداء للسامية غير ذلك كله، وأصبحت هناك بارقة أمل وسط الغيوم، حسبما أعلن «أينشتاين»: «إن الهوس المشين لمحاولة التكيف والتوافق والاندماج، والذى أصاب الكثيرين من نفس مستواى الاجتماعى، كان دائما أمرا كريها بالنسبة لى».

كان شق جمع التبرعات فى رحلة «أينشتاين» أقل نجاحا. ورغم أن اليهود الأكثر فقرا والأحدث هجرة تدفقوا لرؤيته وتبرعوا بحماسة، بينما لم يصبح جزءا من السورة العاطفية سوى عدد قليل من اليهود البارزين المحافظين ذوى الثروات الشخصية الهائلة. ولم يجمع سوى مبلغ ٧٥٠ ألف دولار للجامعة العبرية، أقل كثيرا من الملايين الأربعة التى كان «أينشتاين» و«فايتسمان» يطمحان فيها. ولكن تلك كانت بداية جيدة بشكل كاف. وكتب «أينشتاين» إلى «إيرنفيست»: «يبدو أن الجامعة مؤمنة ماليا».

افتتحت الجامعة بالفعل بعد أربع سنوات فوق قمة جبل «سكوباس Scopus» المطل على القدس. وفى تحول ساخر، انتهى البعض من رأسماليى نيويورك الذين استخفوا بـ «أينشتاين» فى البداية إلى دعم الجامعة، كما أصروا على تعيين الحاخام «يهوذا ماجنيس» - الشخص الذى اصطدم بـ «أينشتاين» عام ١٩٢١ وألغى حفل استقبال عندما أصر «أينشتاين» على تحويله إلى مناسبة لجمع التبرعات - كرئيس للجامعة. وقد انزعج «أينشتاين» بشدة إزاء تعيين «ماجنيس»، لدرجة أنه استقال من مجلس الأمناء احتجاجا. وعلى الرغم من ذلك، فقد ترك أوراقه ومعظم ممتلكاته فى النهاية للجامعة.

كانت هناك ملحوظة ساخرة أخرى. ففى عام ١٩٤٦، بعد أن هاجر إلى أميركا، انخرط «أينشتاين» مرة ثانية فى جمع التبرعات لجامعة يهودية. سميت المنظمة فى البداية «مؤسسة ألبرت أينشتاين للتعليم العالى Albert Einstein Foundation for Higher Learning»، وقد استحوذت على حرم جامعة زائلة بالقرب من «بوسطون». ولكن - مرة أخرى - اصطدم «أينشتاين» مع بعض المتبرعين واختياراتهم فيما يتعلق بالإداريين. فعندما سألوا إن كان بإمكانهم تسمية الجامعة باسمه، رفض «أينشتاين». لذلك قرر المؤسسون بدلا من ذلك أن يكرموا خيارهم الثانى، الذى كان قد توفى قبل خمس سنوات. وقد أطلقوا على الجامعة الجديدة اسم «برانديس». ■

عــــام مــــن 

داليـــا توفيـــق ســـعودى



التكرار فى حالة أوباما ليس مجرد محسن بديعى ينظم الكلمات، بل هو أيضا تكرار ظهور فى كافة وسائط الإعلام الحديث منها قبل القديم



■■ فى هذا المقال تحاول الكاتبة، وهى أستاذة للغويات، الاقتراب من ثلاثة من أهم الخطابات التى ألقاها أوباما أثناء عامه الرئاسى الأول الذى انتهى للتو، ولتبدأ مع نهايته محاولة لتقييم الرجل الذى اعتقد الكثيرون ـ خاصة فى عالمنا العربى ـ أنه قادم يحمل عصا سحرية تحل مشاكل مزمنة بدا أن ساستهم اكتفوا بـ«القعود» إلى جوارها، فباتوا يحلمون بالفارس القادم من وراء الأفق.. وكان ذلك الفتى الأسمر ـ فى سياقه الزمانى والمكانى ـ مؤهلا تماما لأن يحتل ذلك المكان وتلك المكانة.



يتكلم أوباما فتتدافع الصور البلاغية. ترسانته البيانية تتضمن أرقى صور التشبيه والاستعارة والمجاز والرمز والكناية والطباق والجناس والتورية والأسئلة الإنشائية، أما طليعة فرسانه الخطابية فهو قطعا التكرار، تكرار كلمة، أو تكرار عبارة، فى بداية جملة، أو فى نهاية فقرة، تكرار يضبط الإيقاع، ويشيع الموسيقى، ويؤكد المعنى، ويعلِّم بين السامعين كل الشطار.

والتكرار فى حالة أوباما ليس مجرد محسن بديعى ينظم الكلمات، بل هو أيضا تكرار ظهور فى كافة وسائط الإعلام الحديث منها قبل القديم.

فالرئيس الرابع والأربعون بين رؤساء أمريكا هو أول رئيس يتمكن من استغلال جميع الإمكانات الجديدة التى يوفرها اليوم مشهد إعلامى يتسم بالسرعة الفائقة، والتنوع الفائق، وكثافة التدفق الفائقة.

اليوم، صار بالإمكان مقابلة هذا الوجه الأسمر الصبوح فى كل لحظة، وفى أى مكان فى العالم، بفضل الشبكة العنكبوتية التى تقدم فضاءً غير محدود، والتى لا يفتأ أوباما يغذيها بالمواد والأخبار، التى تأتى محصلة لعزمه الذى لا يفتر على كافة الأصعدة ، ونشاطه الملحوظ على مدار الساعة، وبالطبع آرائه التى يعبر عنها فى كل مناسبة بطلاقة سيذكرها له التاريخ.

ووسط إطلالاته الإعلامية المتكررة ، يظهر أوباما ميلا خاصا إلى إلقاء الخطابات الطويلة. وفى خطاباته، تجد دائما، فى زاوية ما، ذلك المحامى الذى عمل فى شيكاجو، والذى كان يدبج مرافعاته بدقة وعناية، فيسوق الأدلة والبراهين، ويدحض حجج الخصم، ويقود جمهور المحلفين بلطف إلى استخلاص النتائج التى يريدها هو، من دون أن يفرضها عليهم. و فى زاوية أخرى من النص، تجد أستاذ الجامعة الذى صار

الخطـــــــــــــابـــة!!

فى كتابه المهم «السياسة وسلطة اللغة» (صدرعن الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٧ وعرضت له «وجهات نظر» مارس ٢٠٠٨) يقول دكتور عبد السلام المسدى: أن اللغة سلطة فى ذاتها... وأنه منذ صباح التاريخ يوم بدأ الإنسان يدوّن لمن بعده مآثره، كانت اللغة أداة أساسية من أدوات السياسة، لم تكن أهميتها تقل عن أهمية المال وأهمية الاحتماء بالعصبية، غير أن وزن اللغة فى استواء أمر السياسة قد تطور بتطور آليات الإنسان فى تواصله مع الإنسان،... ولئن كان هذا دأب اللغة مع السياسة منذ القدم فإن تطور الحياة وانفجار منظومتها قد أعاد ترتيب البيت حيث باتت تسكن تحت سقف واحد السياسة واللغة..»

رئيس أقوى دولة فى العالم، وان ظل يخاطب العالم وكأنه بعد فى قاعة المحاضرات، فيقدم بخلاف الدرس شيئا من الإرشاد والتوجيه، بهدف تجديد الأفكار وهدم آخر ما تبقى من الأسوار.

هذا المقال يحاول الاقتراب من ثلاثة من أهم الخطابات التى ألقاها أوباما أثناء عامه الرئاسى الأول. فيطمح أن يستجلى شيئا مما قد تخفيه البلاغة أو تمسك عن قوله الكلمات. فهذه إذن ليست دراسة بلاغية لجماليات نصوص أوباما بالمفهوم المتعارف عليه، فتلك مهمة اضطلعت بها قائمة من عشرات الكتب التى ظهرت مع مقدم الرئيس الأمريكى الجديد. إن هذا إلا اجتهادا يسعى إلى تقديم رؤية متماسكة لإستراتيجية الرئيس أوباما الخطابية، رؤية تأمل صاحبتها أن تكون غير صائبة، رأفة بالعقول التى صدقت، والقلوب التى عادت تمد جسور الأمل.

[١]

خطـــاب الـنــصــر

٤ نـوفــمــبــر ٢٠٠٨

كانت ليلةً طرب فيها السامعون. وانهزمت فيها حركة عتيدة فى السياسة الأمريكية تشكك فى قيمة الكلمات وفى قدرتها على استحداث الفعل. فقبل ليلة الفوز، مساء الثلاثاء الموافق الرابع من نوفمبر ٢٠٠٨، كثيرا ما سخر ماكين من أوباما ومن عباراته المنمقة الرنانة، ومن ثقافته «النظرية المستقاة من الكتب». بل إن ذلك المحارب القديم فى فيتنام، الذى جاءت معرفته الحياتية ثمرةً لعمله «بقبضتيه» كان يضمر حقدا دفينا إزاء الكلمة ، فهى كما قال مرارا مصدر خداع وخلط وفساد، بل هى بحسبه مهلكة، لما استقر لديه من أن «الحرف يقتل» كما جاء على لسان القديس بولس.

لكن فى تلك الليلة، فى شيكاجو بولاية الينوى، كان خطاب النصر بمثابة عرس للبلاغة ، اعتمد فيه أوباما لغةً ذات جذور وطبقات، لغةٌ حفلت بالأصداء الملحمية، والإشارات التاريخية، وتناغمات الفكر والبديع والبيان، التى حركت أعمق المشاعر الوطنية لدى الجماهير.وهو مشهد يعيد إلى الأذهان ملمحا من ملامح السياسة فى أثينا القديمة، حين كانت الخطابات العامة أمام جمهور الناخبين تعد المحرك الرئيس للسياسة، وحين كان فن البلاغة ملازما للممارسة الديمقراطية، وشرطا جوهريا من شروط اكتمالها. كانت حينئذ قرارات شن الحرب أو عقد السلم تتخذ وسط الجماهير فى الساحات المفتوحة، حيث مهارة السياسى الخطابية تقيم الحجة على العدو أو تدفع الإصر عن الصديق.

«Yes we can!» أو «نعم نستطيع» هو ذلك الخطاب الذى استعاد فيه أوباما موضوعه الأثير، ألا وهو التأكيد على القيم الأمريكية وعلى وحدة البلاد، بهدف تحويل الفوز الحزبى إلى نصر قومى، يرأب الصدع، ويأسو جراح وطن. وهو لذلك يذكر أبراهام لنكولن ويستعير منه قوله فى خطابه الرئاسى الأول: «نحن لسنا أعداءً بل أصدقاء» وكأن حال البلاد بعد ثمانية أعوام من حكم بوش الابن صار أشبه بحالها إثر الحرب الأهلية.

و بصورة أقل علانية، وأكثر عمقا، وأدق إيحاءً، يبدو الخطاب مسكونا، فى عدة مواضع، بروح مارتن لوثر كنج المناضلة الأسطورية. فمثلا، عندما حذر أوباما من وعورة الطريق المؤدى إلى الآمال المنشودة، رأيناه يقول: «أمامنا طريق طويل، وارتقاء عسير، وقد لا نصل إلى هناك بعد عام واحد، أو حتى بعد دورة واحدة. ولكن (..) أعدك يا أمريكا، بأننا كشعب واحد سنصل إلى هناك. »و هو ما يذكرنا بخطاب كينج الأخير الشهير فى مدينة ممفيس، الذى يقول فيه: « رأيت أرض الميعاد، ولكن قد لا أكون معكم حينما تصلون إليها». ففى العبارتين، ثمة وعد، وطريق، وشعب يكافح من أجل الوصول. وهنا رئيس جديد، يقتبس من نبوءة الثائر المخلِّص، فينطق بلسانه، ويرتدى عباءته، ويحل محله فى قيادة شعب إلى حيثما أرض ميعاد.

أما العلامة البلاغية المميزة لهذا النص البديع، فهى بالتأكيد تكرار عبارة «Yes we can!» أو «نعم نستطيع» فى نهاية سبعة مقاطع، وهو ما كان يعرف فى البلاغة الإغريقية تحت اسم «epiphora»، أى تكرار نفس الكلمة فى نهاية عدة جمل، أو تكرار نفس العبارة فى نهاية عدة مقاطع. وهو ما أضفى على الخطاب تماسكا موضوعيا، وموسيقى داخلية أشاعت جوا عاما من الحماسة والأمل والثقة فى إرادة التغيير. كما يُذكِّر تكرار هذه اللزمة بالقرار والجواب فى إنشاد التراتيل الكنسية ، لاسيما فى الكنيسة الأمريكية الخاصة بالسود، وهى التى كانت أشد حرصا على الاحتفاظ بتقاليد الخطابة الكلاسيكية العريقة فى روما الجمهورية وأثينا القديمة. هكذا، بدت العبارة الشعار «Yes we can!» التى تتكرر فى نهاية كل مقطع، كصلاة من أجل التغيير، على خلفية من موسيقى الجنوب.

ثم أتى يوم تنصيب الرئيس، وجاء خطابه الافتتاحى الكبير، لتتحول معه عبارة «Yes we can!» من شعار انتخابى بليغ إلى أيديولوجية عالمية جديدة اعتنقتها الأغلبية التواقة إلى نظام عالمى أكثر عدالة وأنبل خلقا. وتواترت فى وسائل الإعلام مصطلحات جديدة مثل «الهوس بأوباما» «Obama-mania»، و«الأوبامية العالمية» «Globamisme»، حتى أن الشباب اليابانى، كما ورد فى تقرير بمجلة «ذى أتلانتيك» قد اشتق من اسم أوباما فعلا هو: وتعريبه هو «يُؤَوْبِم»! ومعناه: «أن يعرض المرء عن الحقائق المزعجة، ويتطلع إلى المستقبل بتفاؤل، محولا العقبات إلى وقود لازم لتقدمه، مرددا فى نفسه: نعم أستطيع! Yes I can!»

ولم يكن العالم بحاجة لحظتئذ لمحلل سياسى كبير ليشرح مبلغ خطورة ذلك الحجم الهائل من التوقعات، واحتمالات خيبة الأمل التى تطل برأسها من مكان غير بعيد، مترصدةً ملايين المؤيدين الذين يبالغون فى تقدير قدرات الرئيس الجديد، لاسيما فى أوروبا حيث تراءى أوباما، بشيء من خداع البصر وإمعان التمنى، وكأنه يحمل لواء شكل جديد من أشكال التقدمية المعتدلة الحميدة.

لكن الثابت أن من يتأمل- من على بعد مسافة زمنية كافية- تلك المرحلة الأولية من إستراتيجية أوباما الخطابية، فسيلحظ أنها ترمى بالأساس إلى إعادة تدوير الحلم الأمريكى القديم، وتسويقه فى شكل إنسانى وأخلاقى محبب. فالجملة الأولى التى نطق بها الرئيس المنتخب فى مستهل خطاب النصر كانت: «كان هناك من يشك بعد فى كون أمريكا هى المكان الذى تصير فيه كل الأشياء ممكنة، أو كان هناك من يتساءل بعد عما إذا كان حلم آبائنا المؤسسين مازال حيا فى زماننا، أو من يشكك بعد فى قوة ديمقراطيتنا، فن نصر الليلة يفى بالإجابة». ليردف بعد فقرتين قائلا: «نحن مازلنا- وسنبقى دوما- الولايات المتحدة الأمريكية».

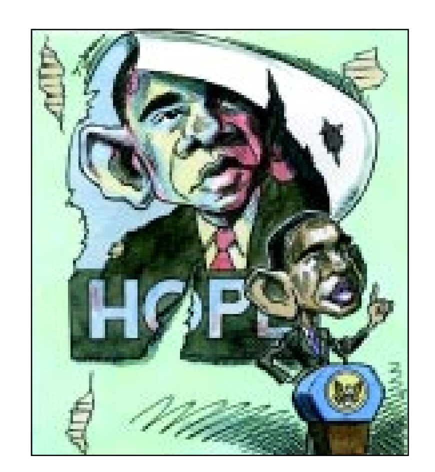
هى إذن عملية إعادة إنتاج وتغليف منتج قديم: الحلم الأمريكى الجميل. ولعل ذلك ما يفسر مشاعر الفرح العارم التى انتابت الشارع الأمريكى، بدءاً من أحيائه القديمة ووصولا إلى وول ستريت، عند فوز أوباما. وهى حالة يرصدها الباحث الفرنسى فرانسوا برنار هويغ مبينا



كان خطـــاب النصــر بمثـــابة عــرس للبلاغة ، اعتمـــد فيه أوبامـــا لغة ذات جذور وطبقـات، لغـةٌ حفلت بـالأصداء الملحميـــة، والإشـــارات التاريخيـــة، وتناغمات الفكر والبديع والبيان







كل ما تبنته إدارة بوش من رؤى، لم يفلح إلا فى استعداء مشاعر العالم الإسلامى على الولايات المتحدة، وتنامى مقاومة شرسة ضدها فى المنطقة



فى جامعة القاهرة، راح أوباما يجتهد فى اختزال السياسة الأمريكية فى شخصه الصدوق، وفى إقناع محدثيه بأن أطماع الإمبراطورية الأمريكية قد توارت



أن«الأمريكيين راحوا يحتفلون لأن العالم سيحبهم من جديد، وكأن اختيارهم لأوباما خليق بأن يعيد إليهم براءة مفقودة، ويؤهل البلاد لاستعادة سالف جاذبيتها التى كان عليها ألا تفرط فيها أبدا»[1].

وبعبارة أخرى، راح المهتمون بالشأن السياسى يتساءلون عما إذا كان اختيار أوباما ينم عن عودة الولايات المتحدة الأمريكية إلى ما يسمى بسياسة القوة الناعمة (Soft power). وهو المصطلح الذى ظهر أول ما ظهر بملامحه الكاملة عام ١٩٩١ فى كتاب ذى عنوان لافت، هو: «ملتزمون بالقيادة» (Bound to Lead) للخبير الاستراتيجى المرموق جوزيف ناى، الذى ينُظر إليه فى الأوساط الأكاديمية على أنه النقيض التام لمنظِّر المحافظين الجدد، صامويل هانتنجتون. فما القوة الناعمة سوى النقيض الموضوعى لأيديولوجية صدام الحضارات. ذلك أن نظرية البروفسور جوزيف ناى تتبنى تلك السياسة القائمة على الترويج للنموذج السياسى، والاقتصادى، والثقافى الأمريكى، وذلك من خلال مزج حكيم بين الجاذبية والتشاور والإقناع، بهدف حمل الدول الأخرى على التعاون من تلقاء ذاتها، من دون الحاجة للعصا أو للجزرة، وإنما من منطلق اقتدائها واقتناعها بالقيم التى تروج لها الولايات المتحدة الأمريكية.

و هى رسالة وجهها أوباما بوضوح تام منذ خطاب النصر، إذ قال فيه: «فى هذه الليلة أثبتنا مجددا أن قوة أمتنا الحقيقية لا تأتى من قوة عضلاتنا، ولا من متسع ثرائنا، وإنما هى نتاج لقوة قيمنا الصامدة: ألا وهى الديمقراطية، والحرية، وتكافؤ الفرص، وراسخ الأمل...» «وإن كان لا يخفى على السامع الفطن أن نفى قوة العضلات والثراء لا ينفى بالضرورة شبهة التلويح بهما وخاصة العضلات (فى ظل توارى الثروة تحت وطأة الأزمة الاقتصادية). وهنا أيضا حيلة بلاغية شهيرة، تعرف عند اليونان تحت اسم Praeteritio، وفيها يلفت الخطيب الانتباه إلى موضوع وهو يتظاهر بالامتناع عن الدخول فيه. وهو ما قد ينبئنا بأن سياسة اليد الممدودة التى يبشر بها أوباما لا تعنى الارتكان إلى الصيغة النقية لنظرية القوة الناعمة، وإنما هى تستند إلى نسخة معدلة منها، أطلق عليها البروفسور جوزيف ناى اسم «القوة الذكية»[2] (Smart Power)، وهى بحسبه مزيج متساو من الجاذبية والضغط، من النعومة والصلابة، من التحلى بالفاعلية البرجماتية مع الاقتصاد فى بذل أسباب القوة.

ولعل التغير البلاغى الأمريكى الكبير قد فرضته سلسلة من الإخفاقات العسكرية فى العراق، وفى أفغانستان، وفى لبنان، وفى فلسطين، وهو ما قاد إلى نوع من الواقعية السياسية التى دعت إليها أصوات مثل المفكر الاستراتيجى «برنت سكوكروفت» ومجموعته، وكذا لجنة «بيكر- هاملتون» الداعية للتفاوض مع سوريا وإيران للخروج برأس مرفوعة من العراق.

هكذا، بات مفهوما أن المقاربة العسكرية الخشنة لمعالجة «الفاشية الاسلاموية» وشن «الحملات الصليبية» فى إطار «الحرب الشاملة على الإرهاب» وبناء ما يسمى بـ«الشرق الأوسط الجديد» وكل ما تبنته إدارة بوش من رؤى فى الأعوام الثمانية الخالية، لم يفلح إلا فى استعداء مشاعر العالم الإسلامى على الولايات المتحدة، وتنامى مقاومة شرسة ضدها فى المنطقة ، وهو ما يهدد مصالحها الاقتصادية الحيوية. فكان الالتجاء إلى وجه جديد، وواجهة إعلامية مختلفة، ومعجم لغوى مغاير، بهدف «إعادة صناعة أمريكا» (Remaking America)، وهو شعار خطاب التنصيب. ومن ثم كان لزاما فتح صفحة جديدة من العلاقات العامة «الذكية» مع المسلمين، فكان خطاب القاهرة تحت شعار «بداية جديدة» (A New beginning).

[٢]

خطاب القاهرة

٤ يونيو ٢٠٠٩

يلاحظ الناظر فى خطابات أوباما أنها ترتكز على الأعمدة الثلاثة التى وضعها أرسطو فى كتابه «عن البلاغة» كدعائم لفن الإقناع، ألا وهى صورة الخطيب الشخصية (ethos)، وقدرته على إثارة العاطفة (pathos)، ومهارته فى الاحتكام إلى المنطق (logos).

ومن المشهود به لأوباما أنه بارع فى توظيف صورته الذاتية كضمانة للمصداقية (ethos)، بدءا بهيئته الأنيقة الفتية ، ومرورا بأصله العرقى والدينى المزدوج ، وصولا إلى قصة نجاحه المبهرة ، التى يهوى قص دقائقها الملهمة، وإدراج تفاصيلها فى خطاباته ببراعة سردية لا تضاهى. والأهم من ذلك كله هو تلك النزاهة الأخلاقية التى تعكسها صورته، والروح الإنسانية الساكنة فى عباراته، التى تنبعث بجلال عبر تطويعات صوته العميق، مشفعة بلغة جسدية رصينة، وابتسامة دبلوماسية قياسية تضىء بنور الصبح وسط غيم المساء.[3]

و فى بلاد مثل بلادنا، تحترف شخصنة الحكم ، وتستعير فيها السلطة ملامح السلطان، أتى أوباما وقد اعتزم أن يكون الشجرة التى تخفى من ورائها الغابة. ومن أعلى منصته فى جامعة القاهرة، راح يجتهد فى اختزال السياسة الأمريكية فى شخصه الصدوق، وفى إقناع محدثيه بأن أطماع الإمبراطورية الأمريكية قد توارت إثر مقدمه السعيد. لسان حاله فى ذلك: «أعلم أن ثمة مشكلة، لكننى أنا الشخص المناسب لحلها، فأنا لست بوش، أنا مختلف، أنا أشبهكم، أنا جدير بثقتكم، إليكم ما أريده منكم لكى تساعدونى على حل المشكلة، وسأبذل لكم العطايا لقاء خدماتكم الجليلة». ولعل فى إصراره على استخدام ضمير المتكلم بصورة مستمرة طوال الخطاب، ما يمثل برهانا بلاغيا على رغبته فى تقديم صورته الذاتية على سائر الاعتبارات (ethos)، وكأنه بات المسئول الجديد عن صناعة السياسة الأمريكية، أو أن السياسة الأمريكية- داخلية كانت أم خارجية- لم تعد صنيعة نخب الكونجرس القوية التى تجتمع خلف أبواب مؤصدة بعيدا عن البيت الأبيض.

لكن براعة أوباما الخطابية قد تبدت، فى خطاب القاهرة، عبر طريقته الفذة فى المزج بين صورته الشخصية (ethos)، وبين قدرته الفائقة على تحريك المشاعر (pathos). وهى خطة آتت ثمارها عبر حجم التصفيق المفرط الذى تخلل الخطاب. ولتحقيق ذلك المزج ، لا شىء أفضل فى هذا المقام من حيلة بونابارتية قديمة تقضى بالتمسح بالدين الإسلامى، والمجاهرة باستبطان قيمه السمحة. ففى بلد يتنفس ديناً، ويُعرف أهله باتقاد العاطفة، واستحسان الطرفة الذكية، وتقدير المجاملة الرقيقة، ما أجمل أن يستهل الخطيب كلامه بتحية الإسلام، «السلام عليكم» وأن يبدأ مناورته الكلامية بآية مباركة، أن «اتقوا الله وقولوا قولا سديدا» ليغترف بعد ذلك من تجربته الشخصية ما يخدم المناسبة، مثل كونه «باراك حسين أوباما» المولود لأب كينى من أصول مسلمة، وأنه قد شبّ فى اندونيسيا المسلمة، وأنه قد خدم فى شبابه الجاليات الأمريكية المسلمة. وهو إطناب خطابى مؤثر وإن كان يعيد إلى الذاكرة مشهداً فكاهياً بالأبيض والأسود، للراحل الكبير فؤاد المهندس، حين راح يطمئن المهراجا فى مستهل لقائهما الأول بأنه قد أتى إليه بعد أن أكل مانجو هندى، وتحمم فى حمام هندى، وتعطر ببخور هندى!

ثم كانت وصلة طويلة من العزف على أوتار القلوب (pathos)، ذكر خلالها الرئيس الأمريكى محاسن الحضارة الإسلامية وعدد إسهاماتها فى إثراء الحضارة الغربية بما قدمته فى سالف العصر من علوم وفنون وقيم. ثم عرج على



دور المسلمين الأمريكيين فى صنع تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ تأسيسها وحتى حاضرها، ووصف فردوس الحرية الأمريكى الذى يحيا به سبعة ملايين مسلم، حيث يتنعمون بمترف العيش، وتتمتع نساؤهم بحرية ارتداء الحجاب، ويمارسون شعائرهم آمنين مطمئنين فى أكثر من ألف ومائتى مسجد.

لكن الخطيب قد أمسك بالطبع عن ذكر ما تقوم به المباحث الفيدرالية من مراقبة للمساجد، وتنصت على الهواتف، وإغلاق لمؤسسات خيرية إسلامية، مثل مؤسسة «الأراضى المقدسة للإغاثة والتنمية» فى مدينة دالاس، التى تم إغلاقها قبيل إلقاء هذا الخطاب بشهر واحد، فضلا عن توقيع عقوبات بالسجن على خمسة من مؤسسيها لـ«تورطهم» فى تسليم معونات إغاثة إلى قطاع غزة. وهى إجراءات تتم فى إطار استمرار العمل بقانون «بتريوت آكت» لمكافحة الإرهاب (USA Patriot Act)[٤].

لكن ذلك لا يهم فالمهم هو أن الخطيب قد حشد من وسائل التأثير والمهادنة، فى هذا التمهيد الناطق بمحاسن الإسلام، كل ما من شأنه أن ينشر بلسما ملطفا على قلوب الحاضرين الكسيرة، لتسكين الخواطر قبل الدخول فى صلب الموضوع. وهو مسلك علق عليه الصحفى البريطانى روبرت فيسك باستخدام تشبيه تمثيلى طريف، إذ قال إن ذلك كان أشبه بحال البيطرى حين يربت على ظهر القطة قبل إخضاعها للعلاج.

ولقد نصح البيطرى المسلمين بالكف عن الارتهان إلى الماضى، والانتهاء عن رؤية أمريكا من خلال «الصورة النمطية البدائية التى تظهرها كإمبراطورية لا تكترث إلا بمصالحها الذاتية»، وحضهم على التخلى عن شكوكهم لأن «الإسلام صار جزءا لا يتجزأ من أمريكا» وطمأنهم إلى أنه «يُعد من بين مسئولياته[٥] كرئيس للولايات المتحدة التصدى للصور النمطية السلبية عن الإسلام أينما ظهرت».

وهنا مجموعة من الحجج العقلية (logos) ، التى صيغت بطريقة براقة، بهرت الحضور مما حدا بهم إلى التصفيق الحار مع كل عبارة. لكن الحذر يقتضى بعض التمهل، لأن معدن المنطق لا ينجلى الا بإزالة الحواشى البراقة.

فالرئيس أوباما إذ يحض مستمعيه على إعادة النظر فى الصورة الراسخة فى الأذهان عن الولايات المتحدة، يكمل قائلا: «نحن قد تشكلنا من كل الثقافات، وجئنا من كافة أرجاء الأرض، ونلتزم بمبدأ بسيط مفاده «من الكثرة نصنع واحدا» (E pluribus Unum). وهنا يبدو وكأن هذا الشعار الذى كان يعبر قبل مائتى عام عن وحدة الولايات الأمريكية بعد استقلالها، يوشك أن يصبح اليوم شعار الإمبراطورية الأمريكية فى صورتها العولمية الجديدة، تبعا للتصور الذى وضعته نظرية بول وولفوفيت» منذ بداية التسعينيات. فالولايات المتحدة لم تعد تنظر إلى الشعوب الإسلامية على أنها العدو، لأنها ببساطة تزمع إدراج تلك الشعوب تحت لواء إمبراطورية متعولمة واحدة ، سبيلها إلى ذلك قوتها الناعمة الذكية، حيثما لا يفلح بطش قبضتها العسكرية . ليصبح من نتائج ذلك أن يصير «الإسلام جزءا لا يتجزأ من أمريكا» كما قال أوباما. ولعل ذلك هو السبب الذى حدا بالمؤسسة السياسية الأمريكية إلى تأييد المرشح باراك حسين أوباما، ذى الجذور المسلمة، والملامح المسلمة، بهدف إقناع الشعوب المراد اجتذابها بأن السلطة التى تحكمهم إنما هى فى الأصل منهم، أو على الأقل تشبههم.

بنفس المنطق، كانت الإمبراطورية الرومانية القديمة، فى أزمنة الجنون العسكرى، تختار حكامها من خارج روما، مثل الإمبراطور فيليب العربى (٢٠٤-٢٤٩ م)، المولود فى سوريا، والذى لم تحد الدولة الرومانية فى عهده عن سابق مسلكها التوسعى.

لكن العبارة التى قد تثير كل القلق- والتى صفق لها الجمهور مع ذلك طويلا- هى تلك التى يتعهد فيها أوباما بأنه قد أضحى «من بين مسئولياته[٥] كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية التصدى للصور النمطية السلبية عن الإسلام أينما ظهرت». ويبدو أن القطة قد استكانت ونامت من فرط التربيت على ظهرها. إذ لم يتساءل أحد كيف يمكن أن يصبح الرئيس الأمريكى الحَكَم المنوط به تحديد الصالح من الطالح بين النماذج التى ترفع اللافتة الإسلامية. أو بأية صفة يحق له «التصدى» لتلك «النماذج السلبية»؟ وأين سيتصدى لها؟ «أينما ظهرت»! لم يتساءل أحدهم ماذا لو ظهرت تلك الصور التى حقت عليها اللعنة الأمريكية فى فلسطين، أو فى لبنان، أو فى غيرهما؟

وهنا، من وراء العبارة المقلقة، يطل شبح امرأة جسيمة، تهوى اقتناء الدبابيس بأشكال الصقور والأفاعى والعناكب، تعلقها على صدرها، وكأنها تعويذة سياسية من تعاويذ السحر الأمريكى الأسود. إنها مادلين أولبرايت.

ففى كتاب صدر لها منذ قرابة عامين، تحت عنوان «القوى والأقوى: تأملات حول أمريكا والرب والعالم»[٥]، تشير سيدة الدبلوماسية الأمريكية فى عهد كلينتون إلى أن المقاومة التى تناصب بلادها العداء عادة ما تتشكل عبر جماعات دينية، شأن حزب الله فى لبنان، وحماس فى فلسطين. وهو ما حملها على القطع

لم يتساءل أحد كيف يمكن أن يصبح الرئيس الأمريكى الحَكَم المنوط به تحديد الصالح من الطالح بين النماذج التى ترفع اللافتة الإسلامية

يعترف أوباما فى خطابه بأن صدمة الحادى عشر من سبتمبر قد قادت بلاده إلى «التصرف عكس تقاليدها ومثلها العليا»

بوجوب تخلى السياسة الأمريكية الخارجية عن طابعها العلمانى المحايد، لا على طريقة جورج دبليو بوش الذى يحسب أنه يتقرب إلى الرب من خلال محاربة «الشر» وإنما بالنزول بقوة إلى ميدان الدين، وإخضاعه للإشراف والمراقبة، وصولا فى المنتهى إلى التحكم فيه تماما، لتصبح «واشنطون حامية جميع الأديان» على حد تعبيرها. من هذا المنطلق، جاء حديث أوباما عن «التصدى للصور النمطية السلبية عن الإسلام أينما ظهرت» وكذا حديثه عن تعاطفه مع «الأقليات» القبطية فى مصر، والمارونية فى لبنان، ومن هنا أيضا، دعوته «السمحة» للمصالحة السنية الشيعية داخل حظيرة الإسلام.

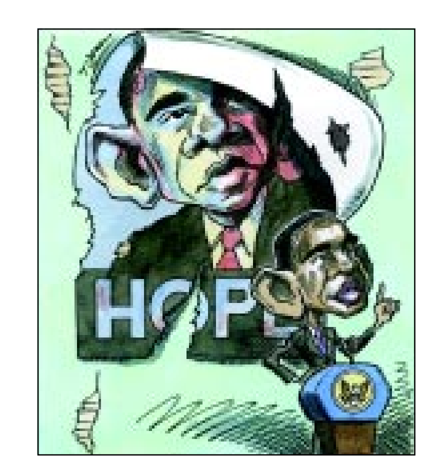
ولنتأمل بعضا من البراهين العقلية التى حملها هذا الخطاب:

يقول الرئيس أوباما: «إن أول موضوع علينا أن نتصدى له هو التطرف العنيف بجميع أشكاله». ولو كنا بعدُ فى أثينا القديمة، حين كان حكم الشعب بواسطة الشعب يتم فى الساحات المفتوحة، لسأل سائل: وأين تراه يوجد- سيدى الرئيس- هذا التطرف العنيف؟ أهو ذلك الذى طالعناه فى شتاء غزة ذاك الحزين قبيل مقدمك إلى البيت الأبيض السعيد؟ أم هو ذاك الذى نطالعه كل يوم حيثما حلت بركات بلادكم، فى أفغانستان وفى العراق وفى باكستان وفى هايتى والسودان والصومال؟ أهو انتهاكات قواتكم لحقوق الإنسان والخطف والاحتجازات «الوقائية» والتعذيب والاغتيالات وجوانتانامو وأبو غريب وقنابل الفوسفور الأبيض وجرائم الحرب ليل نهار؟ أم تراه ذلك الذى يحتكم إليه جنرالاتك ماكريستل وبتريوس وهولبروك، ووحدات مهامهم «الخاصة» (SOT)؟ أو ليس هذا هو «التطرف العنيف»؟

لكننا لسنا فى ساحات أثينا المفتوحة، ومع ذلك، يعترف أوباما فى خطابه بأن صدمة الحادى عشر من سبتمبر قد قادت بلاده إلى «التصرف عكس تقاليدها ومثلها العليا». وهو يتفهم ذلك ويجد له الذرائع والأعذار؛ لكنه فى عباراته يبدو غير متفهم بالمرة لذرائع المسلمين وأعذارهم وهم يعبرون عن صدماتهم الناتجة عما مارسه المحافظون الجدد فى عهد سلفه من «تطرف عنيف». لذا فهو يعلن لنا من أعلى منصته فى جامعة القاهرة أن «أمريكا سوف تدافع عن نفسها»، وأن هذا الدفاع سيكون ثمرة «الشراكة مع المجتمعات الإسلامية التى تعد أيضا مهددة». (أتراه يقصد أنها مهددة من قبل الإرهابيين أم الأمريكيين؟ العبارة لم تحدد).

وها هو يردف أنه «كلما تمت المسارعة بعزل المتطرفين







لم تصل الرسالة إلينا بهذه الصورة الفجة المباشرة، لما غلفها من مكسبات لون وطعم ورائحة، ولكونها قد وقفت بمهارة على الحدود ما بين الوعد والوعيد

«على أوباما أن يكثر من الظهور إعلاميا، لكى يحمل الناس على تغيير فكرتهم عن ماهية الدولة وطبيعة هذا البلد. وذلك لن يحدث بين عشية وضحاها



ونبذهم داخل المجتمعات الإسلامية، كلما أصبحنا جميعا أكثر أمنا». وهنا تكمن الرسالة الحقيقية وراء هذا الخطاب، ومفادها أن الإرهابيين متواجدون فقط «داخل المجتمعات الإسلامية» وأن أوباما يريد من حكومات الدول الإسلامية.. التى يطالبها ضمنا بأن تكون حكومات شركاء ووكلاء وعملاء- أن تسعى إلى التخلص من أولئك المتطرفين الذين يقفون عقبة أمام المصالح الأمريكية.

وبالطبع ليس هناك ما هو أبدع فى هذا المقام من الاستشهاد بآية من الذكر الحكيم، يخفى وراءها الخطيب حقيقة مطلبه، ويستجدى بها عاصفة جديدة من التصفيق، مذكرا بأن «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً». تلا ذلك مباشرة- بعد فاصل من الوعود والعهود- حديثه عن «وجوب تخلى الفلسطينيين عن العنف»!

و بالطبع، لم تصل الرسالة إلينا بهذه الصورة الفجة المباشرة، لما غلفها من مكسبات لون وطعم ورائحة، ولكونها قد وقفت بمهارة على الحدود ما بين الوعد والوعيد، الوعد الصريح والوعيد المبطن. ومن ذلك ما ذكره أوباما عن سباق الحكمة والقوة وهو يقتبس فى خطابه قول الرئيس توماس جيفرسون: «أتمنى أن تنمو حكمتنا مع تنامى قوتنا، لتعلمنا أننا كلما اقتصدنا فى بذل القوة كلما صارت قوتنا أعظم». و هنا أيضا مبدأ أساسى من مبادئ سياسة القوة الذكية. ويُلاحظ فى العبارة استخدام كلمة «قوة» ثلاث مرات، فى مقابل مرة واحدة لكلمة «حكمة» وهو ما يدل على أن إدراك القوة هى غاية أمريكا منذ بزوغ دولتها. فالحكمة قد تكون الوسيلة، ولكن الضالة الأمريكية تظل هى القوة.



بقية الخطاب تسير على نفس المنوال. فالفقرة الخاصة بالصراع العربى الإسرائيلى، تبدو- لفرط شطط منطقها- وكأنها ليست موجهة لنا بقدر ما هى مخصصة لطمأنة إسرائيل.

أما الفقرة الخاصة بنزع السلاح النووى فهى تخص إيران وكوريا الشمالية دون أن تأتى على ذكر إسرائيل. وأما الفقرة الخاصة بنشر الديمقراطية فى بلداننا الإسلامية، فهى فقرة ذات صبغة ديماجوجية تغازل تطلعات النخب التقدمية بين الحاضرين. وكذلك الفقرات الخاصة بحقوق الأقليات الدينية وحقوق المرأة.

أما الفقرة الخاصة بالتنمية الاقتصادية، فهى الأكثر أهمية. وهى تعكس تغيرا ملحوظا فى سياسة أوباما بهذا الصدد. فالمتعارف عليه فى السابق أن الدول الكبرى كانت تقدم المساعدات للدول النامية فى مقابل مزايا طويلة الأجل. فكانت تلك المساعدات تستخدم كحصان طروادة لنهب الموارد أو لوى الأذرع. لكن فى عهد أوباما تم إبرام اتفاق يقضى بإعادة توجيه مسار السياسة الأمريكية الخارجية فيما يخص المساعدات. ولقد أشار تقرير أرميتاج - ناى إلى ذلك التغيير الذى يسعى لكسب العقول والقلوب بتقديم خدمات سريعة تسهم فى تحسين مستوى المعيشة بصورة ملحوظة فى بلدان بعينها من دون أن يمثل ذلك كلفة تذكر بالنسبة إلى الخزانة الأمريكية.

وهكذا، على طول الخطاب، كانت الصورة الذاتية للرئيس (ethos)، تستغل بالأساس لإذكاء المشاعر (pathos)، بهدف التغطية على منطق (logos) قد لا يكون فى حقيقة الأمر بنفس البهاء الذى يبدو عليه. هكذا تتراءى لنا التركيبة الثلاثية لهذا الخطاب الكبير، الذى غزا به أوباما القلوب فى العالم الإسلامى بسهولة قد تذكرنا بالعبارة الثلاثية الشهيرة المنسوبة ليوليوس قيصر: «جئت، ورأيت، وانتصرت» (Veni¨ vidi¨ vici). لكن العبارة قد تشهد فى حالة الرئيس الأمريكى تحويرا بسيطا لتصبح: «جئت، وتكلمت، وانتصرت».

لكن كلمات أوباما ليست جوفاء بالمرة. فهى تؤدى دورا استراتيجيا هاما، يشير إليه أستاذ اللغويات الأمريكى الشهير جورج ليكاف، إذ يكتب على موقع مدونته: «على أوباما أن يكثر من الظهور إعلاميا، لكى يحمل الناس فى النهاية على تغيير فكرتهم عن ماهية الدولة وعن طبيعة هذا البلد. وذلك لن يحدث بين عشية وضحاها. فتلك عملية بطيئة، تتم خطوة تلو خطوة...»[٦].

[٣]

خـطـــاب نـــوبـــل

١٠ ديـســمـبـر ٢٠٠٩

قبل يوم واحد من إعلان لجنة جائزة نوبل للسلام عن اختيارها، فى الثامن من أكتوبر، قرر الكونجرس تقديم ٦٨٠ بليون دولار للرئيس أوباما لتغطية تمويل عمليات تصعيد الحرب فى أفغانستان.

وقبل يومين من تسلم الجائزة، أعلن الرئيس عن إرسال ٣٣.٠٠٠ جندى أمريكى إضافى إلى أفغانستان. وبذلك، سيكون تحت إمرة واشنطون فى ميدان الحرب بجنوب آسيا ما يربو على ١٠٠.٠٠٠ من العسكريين الرسميين، يضاف إليهم عشرات الآلاف من «المتعاقدين الجدد» أى المحاربين والجواسيس المرتزقة، إلى جانب أكثر من ٥٠.٠٠٠ جندى نظامى تابع لقوات «إساف» (ISAF) التابعة لحلف شمال الأطلنطى.

وفى أوسلو، ألقى أوباما قولا ثقيلا، لم تشهد له احتفالية نوبل السلام مثيلا.

بادر مدافعا: «لعل التساؤل الأعمق الذى يحيط بقرار منحى هذه الجائزة يتعلق بكونى القائد الأعلى لقوات دولة منخرطة فى حربين».

ثم قال متأسيا: «نحن فى حالة حرب، وأنا مسئول عن نشر آلاف من الشباب الأمريكيين فى ميدان قتالٍ بعيد. منهم من سيَقتل، ومنهم من سيُقتل».

ثم أردف بشىء من التسليم القدرى الذى لا يقبل الشك: «الحرب، بصورة أو بأخرى، ظهرت مع أول إنسان على الأرض. وفى فجر التاريخ، لم تتم مساءلتها، كانت مجرد حدث عابر، كالجفاف أو المرض..»

ثم راح ينفق الوقت والجهد فى التأسيس لنظرية «الحرب العادلة» هناك، من أعلى منبر للسلام الدولى، ليعلن أن «الحرب لا يمكن تبريرها الا فى ظل توافر بعض الشروط: أن يكون الالتجاء إليها كحل أخير، أو فى حالة الدفاع الشرعى عن النفس، وأن تكون القوة المستخدمة متناسبة مع قوة العدو، وإذا ما تم ـ كلما تيسر - تفادى إلحاق الأذى بالمدنيين».

و بنبرة العليم الذى لا يحتمل كلامه الشك، قال: «آن لنا أن نقر بحقيقة قاسية، ألا وهى أننا لن نتمكن من محو الصراعات العنيفة من حياتنا. وستأتى لحظات على بعض الأمم (..) يتبين لها فيها أن الالتجاء إلى القوة ليس ضروريا فحسب وإنما أيضا يحتمل التبرير الأخلاقى».

وفى كلمة تستعير الكثير من أفكار بوش، ترددت فيها مفردة «الحرب» أربعا وأربعين مرة، فى مقابل عشرين مرة لمفردة «السلام» وعادت فيها مفردة «الإرهاب» لتطل بقوة بعد غياب تام فى سابق الخطابات، وتمت فيها مقارنة فلول «القاعدة» المتشرذمة بجيوش هتلر الكاسحة، واستخدمت فيها ذكرى الحادى عشر من سبتمبر وكأنها «بيرل هاربور» جديدة، عاد أوباما ليؤسس لفكرة «الحرب الشاملة والعادلة على الإرهاب» ولوجوب الوقوف وراء الولايات المتحدة فى حربها الوقائية المشروعة. فالحرب بحسبه باتت لازمة وأخلاقية بفعل «الاعتراف بحقائق التاريخ، وبنواقص الإنسان، وبحدود العقل».

إذن فالحرب فى تأملات صاحب نوبل للسلام هى قدر الإنسان الحتمى فى هذا العالم. ومع ذلك، كان الرئيس الأمريكى قد بدأ هذا الخطاب قائلا إن الجائزة تعنى «أننا لسنا محض سجناء للقدر».

عـــــام مــــن الخـطــــابــة



بلى- سيدى الرئيس- أنت سجين قدرك.

بجلوسك خلف المكتب البيضاوى أنت سجين منصبك على رأس إمبراطورية قدرها منذ نشأتها هو البحث المستمر عن عدو خارجى- وتلك خطيئة الإمبراطوريات كما قال أفلاطون.

فى البدء، كان العدو هو بريطانيا، ثم الهنود الحمر، ومن بعدهم المكسيكيون، ثم الأسبان، ثم اليابان، فالألمان والطليان. ومن بعدهم الكوريون، فالكوبيون، فالفيتناميون، ثم كان من بعدهم السوفييت، ثم العراقيون، ثم الإسلاميون، ثم أفغان طالبان، وها أنتم الآن، فى صراعكم المعقد داخل باشتونستان- أفغانستان -باكستان، فما أن تفرغوا منه ستلتفتون بالطبع لمواجهة إيران. ومَن بعدها يا سيادة الرئيس؟ الصين؟ أم السودان؟

فى دراسة أجراها الباحث جار سميث عام ٢٠٠٦، استنادا إلى دراسة أجراها عام ١٩٩٣معهد الدراسات التابع للكونجرس (CRS)، اعتمادا على الوثائق المتاحة فى أرشيف مركز الدراسات التاريخية بالبحرية الأمريكية، يقول سميث: «خلال المائتين وثلاثين عاما التى تمثل عمر الولايات المتحدة الأمريكية، هناك فقط ٣١ سنة كانت فيها القوات الأمريكية غير مشتبكة فى نزاع عسكرى خارج الوطن». بعبارة أخرى، يشغل السلام حيزا لا يتعدى ١٣٪ من تاريخ الولايات المتحدة. ووفقا لنفس الدراسة، فإن من بين الـ ١٩٢ دولة المنتمية إلى الأمم المتحدة، تعرضت ٦٤ دولة منها إما إلى الهجوم، أو الغزو، أو الاحتلال، أو «التنظيف الأمنى» أو قلب النظام من قبل الولايات المتحدة الأمريكية(٧).

بلى- سيدى الرئيس- أنت سجين قدرك.

وقد يعتقد البعض أن ذهنية الحرب تلك إنما يغذيها فقط احتياج آلة الصناعة العسكرية الأمريكية الدائم إلى الدوران. فتلك الصناعة العملاقة تبتلع سنويا- كما الوحش الجائع دوما- مئات المئات من بلايين الدولارات. وعلى من يأتى إلى البيت الأبيض أن يراعى احتياجات هذا الوحش الضارى... لكن المشكلة أكثر تعقيدا من هذا التبسيط المخل. إذ لها ذيول متعلقة بطبيعة المنصب، وأخرى متعلقة بطبيعة النفس البشرية.

فبحكم المنصب، يجد الرئيس نفسه مطالبا منذ البدء بأن يكون كاتم أسرار الإمبراطورية، بما فى ذلك ما يخص مؤسسة الأمن القومى، ووكالات الاستخبارات، وشبكات متشعبة من نظم إخفاء وإفشاء المعلومات، وعلاقات متشابكة مع الأذرع الفيدرالية والعسكرية والدبلوماسية، وهو ما يضعه تحت ضغط هائل، فيصبح على حد التعبير البلاغى للكاتب جارى ويلز أشبه بـ«عملاق مكبل بالقيود»(٧)، فهو سجين الميراث الذى آل إليه، وسجين زرائب «أوجياس» التى يعلم جيدا أنه لن يستطيع تنظيفها.

بلى- سيدى الرئيس- أنت سجين قدرك.

وفى الوقت نفسه، يجد الرئيس الأمريكى نفسه منذ البداية متحكما فى عدد متراكم من السلطات التى يتسرب بعضها من القطاع التشريعى إلى القطاع التنفيذى، ولعل أهمها سلطة إعلان الحرب، التى كانت فى الأصل، وفقا للبند الأول من الدستور الأمريكى، سلطة مرهونة بالكونجرس لا بالرئيس. لكنها آلت إلى الرئيس بصورة طارئة بعد الحرب العالمية الثانية، واستمرت معه خلال الحرب الباردة، وتأكدت له إبان حرب المحافظين الجدد على «الإرهاب».

بات الطارئ معتادا، وتعزز دور الرئيس الأمريكى كقائد أعلى للقوات المسلحة، يتحكم فى قرارات الحرب والسلام، ويحتكر قرار استخدام السلاح النووى، ويقوم على رأس إمبراطورية مترامية من القواعد العسكرية ، وفوق ذلك كله هو زعيم أوحد للعالم «الحر». وهنا، يتعذر على أى رئيس أن يحتفظ باتزانه الإنسانى أمام هذا القدر من السلطة، وأمام هالة القوة التى تحيط بـ«رئيس الحرب» وما تستتبعه من مكاسب داخليا وخارجيا.

بلى- سيدى الرئيس- أنت سجين قدرك.

شخص آخر جاء ذكره فى هذا الخطاب، ولاحت ذكراه فى جميع خطب أوباما، اختار ألا يكون سجينا لقدره، وأن يدافع عن السلام ويدفع حياته ثمنا للسلام ، هذا هو مارتن لوثر كينج. فبعد أن فاز كينج بجائزة نوبل للسلام، ظل يناضل ضد حرب فيتنام، معلنا أن السود لم يحصلوا على حقوقهم لكى يشاركوا البيض فى قتل الفيتناميين. وفى خطابه فى ريفرسايد، قبيل اغتياله بأسابيع، صاح منددا: «نحن مجرمون فى هذه الحرب، لقد اقترفنا من جرائم الحرب ما يفوق ما اقترفته أية دولة أخرى فى العالم. لكن الله يعرف كيف يرد الأمم الظالمة عن طغيانها». وعلى أثر تلك الكلمات أغلق لندون جونسون أبواب البيت الأبيض أمام الواعظ الأسمر وصدرت الأوامر باغتياله.

وفى خطاب أوسلو، رأى أوباما أن الوقت قد حان لكى يخلع عنه عباءة مارتن لوثر كنج، التى ارتداها فى رحلة الارتقاء إلى أرض الميعاد، معلنا أنه على الرغم من كون وصوله إلى الحكم جاء ثمرة للمبادئ السلمية التى بشر بها رجال مثل غاندى وكنج، فهو بصفته رئيس دولة أقسم أن يحمى ويدافع عن وطنه، لا يملك أن يقتدى اليوم بهذين المثلين وحدهما؛ فهو يواجه العالم على حقيقته» ولا يسعه «أن يظل سلبيا أمام الأخطار التى تهدد الشعب الأمريكى». هكذا إذن، كان من الممكن فى خطاب القاهرة الاقتباس من نصوص كنج الداعية للا عنف فى معرض تأنيب المقاومة الفلسطينية، أما فى هذا المقام، حيث الإمبراطور الجديد يؤسس لنظرية «الحرب العادلة» يجدر نسيان كنج، ونضاله السلمى «السلبى».

هكذا وهو يتسلم الجائزة، قرر أوباما أن يغلق هو الآخر أبواب البيت الأبيض أمام صاحب الحلم الأشهر، إذ لم يعد هذا الزمان زمان الحالمين...



لو كان جورج بوش هو من ألقى هذا الخطاب - بشخصه الكريه، ولغته المستقبحة - وراح يدافع كما دافع أوباما عن عدالة الحرب، وعن حق بلاده فى الاستمرار فى الحرب، لربما استحق لقاء خطابه زوجين آخرين من الأحذية.

لكن حين تأتى نفس المعانى فى غلاف أنيق من محكم البلاغة، ورشيق العبارة، على لسان الوجيه الأمثل باراك أوباما، فى معرض تسلمه جائزة السلام الكبرى، فالعالم يصغى ويستحسن ويصفق. حتى وإن شهد عهد أوباما زيادة فى القوات العسكرية المتواجدة فى ميادين القتال، وتوسيعا لدائرة القتال لتشمل باكستان، ومضاعفة للميزانية المستقطعة لسد تكاليف الحرب، وتكاثرا لعدد القواعد العسكرية الأمريكية فى شتى أرجاء الأرض، وإحكاما ممنهجا لسطوة الإمبراطورية الأمريكية، وتعزيزا لمشروع الدرع الصاروخية الموجهة بالأساس ضد روسيا والصين وإيران وكوريا الشمالية، وبالطبع، زيادةً ملحوظةً فى حجم المساعدات العسكرية المقدمة لإسرائيل.

الحرف إذن يقتل كما نُسب إلى القديس بولس؟

إن أقوى سلاح يمتلكه البنتاجون اليوم فى حوزته هو بالقطع باراك أوباما. وإن لجنة نوبل، بتقديمها جائزة السلام إلى القائد الأعلى للقوات المسلحة الأمريكية، قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من آلة الدعاية التى تحركها وزارة الدفاع الأمريكية. فالجائزة تمنح الغزاة وجها إنسانيا، وتضفى على فكرة «الحرب العادلة» التى روج لها أوباما صبغة أخلاقية. من الآن فصاعدا، سيمضى الأمريكيون إلى قواعدهم القتالية بضمير مطمئن لأن حربهم صارت «عادلة» ولأن قائدهم الأعلى يحمل أعلى أوسمة السلام. وسينظر «المجتمع الدولى» إلى حملات أمريكا العسكرية بقدر أقل من الاستهجان لأنها باتت تدخل تحت بند «الدفاع عن النفس» ولأن «أدوات الحرب لها دور فى حفظ السلام» ولأن «الولايات المتحدة مطالبة بأن تحتفظ بمكانتها كحامل لواء مبادئ الحرب» بحسب ما جاء على لسان أوباما فى الخطاب.

الحرف إذن يقتل؟ أهو مصدر خداع وخلط وفساد؟ أم أن هناك - على حد قول رئيس فنزويلا هوجو تشافيز- اثنين أوباما؟ أولهما يبدو على السطح، فى صورة ثائر ملهم، يبشر بالتغيير، ويتهمه خصومه الجمهوريون بالضعف وينعتونه بأنه «اشتراكى خائن» والآخر يعمل فى الباطن، كما الماء الراقد تحت التبن، كخبير تشويش إعلامى محنك، يكمل مسيرة من سبقوه من حماة الرأسمالية الامبريالية الأمريكية، وينفذ أجندة وُضعت قبل أن يأتى، دوره فيها أن يربت على ظهر القطة.. ريثما يتم إعداد العدة.. تمهيداً لذبح القطة. ■

الـــــهــــــوامــــــش:

1) François-Bernard Huyghe¨ Election d'Obama: Le retour du soft power¨ in «Affaires Stratégiques¨ janvier 2009.

٢) انظر النص الكامل لتقرير أرمتياج - ناى حول «القوة الذكية» وذلك على الرابط:
http://www.csis.org/media/csis/pubs/071106_csissmartpowerreport.pdf

٣) شاهد الفيديو المدهش الذى يظهر ابتسامة أوباما التى لا تتغير فى عشرات الصور التى التقطت له مع زعماء العالم أثناء قمة المناخ، وذلك على موقع جريدة «The Guardian» على الرابط:
http://www.guardian.co.uk/world/blog/2009/sep/29/barack-obama-smile-diplomacy.

4) "USA PATRIOT Act": Uniting and Strengthening America by Providing Appropriate Tools Required to Intercept and Obstruct Terrorism Act.
قانون بتريوت آكت : هو قانون توحيد وتقوية أمريكا بتزويدها بالوسائل المناسبة لاكتشاف ومكافحة الإرهاب، الذى أقره الكونجرس ووقعه جورج بوش فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر (٢٦ أكتوبر ٢٠٠١). وهو ينتهك العديد من الحريات الفردية التى يكفلها الدستور للمواطن الأمريكى بدعوى مكافحة الارهاب.

5) Madeleine Albright¨ The Mighty and the Almighty: Reflections on America¨ God¨ and World Affairs¨ Harper Perennial (March 27¨ 2007)¨ 368 pages.

6) George Lakoff: http://www.huffingtonpost.com/george-lakoff/the-obama-code_b_169580.html

7) http://www.afterdowningstreet.org/militarism.

8) Garry wills¨ "Entangled Giant¨ in NYRB¨ Volume 56¨ Number 15 October 8¨ 2009.

كـــــــــاتــــب

أوليفييـــــــــه روا

■■ ينحدر أوليفييه روا Olivier Roy من مدينة «لاروشيل»، غرب فرنسا، من أصول دينية بروتستانتية.بدأ حياته أستاذا للفلسفة (١٩٧٢) ثم حصل على دكتوراه العلوم السياسية(١٩٩٦)، شغل مناصب عدة منها مدير الأبحاث فى المركز الوطنى للبحث العلمى(CNRS) فى باريس ومستشار فى وزارة الخارجية الفرنسية حتى عام ٢٠٠٨. ويعمل حاليا أستاذا فى معهد الجامعة الأوربية EUI فى فلورنسا بإيطاليا.

ولد روا سنة ١٩٤٩ وهو بهذا يكمل ستين عاما قضى أكثر من شطرها فى عطاء أكاديمى متميز بإنتاج فكرى وفلسفى وعلمى غزير تعكسه مجموعة الكتب المهمة التى أصدرتها كبرى دور النشر فى باريس. واختط «روا» لنفسه مسارا متميزا فى مجال دراسة الظاهرة الإسلامية منذ اكتشف الإسلام السياسى نهاية السبعينيات؛ فكريا مع الثورة الإيرانية وعمليا من خلال رحلته الميدانية إلى أفغانستان التى كتب عنها كتابه فى الاسلامولوجيا. ليتبعه بكتابين لا يقلان شهرة هما «فشل الإسلام السياسى» فى بداية التسعينيات حين تصاعد الاهتمام الأكاديمى بالظاهرة الإسلامية، و«عولمة الإسلام» عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر. ويبدو مساره إذ ذاك مرتبطا بالمراحل المفصلية فى تاريخ الحركة الإسلامية نفسها فيما يشبه تأريخا لتحولاتها على صفحات كتبه التى تكاد تتحول إلى مصادر للدارسين الجدد فى ميدان الحركة الإسلامية.

بدأ روا حياته الحركية مناضلا (تروتسكيا) تأثر بالحركات اليسارية فى السبعينيات، لكنه كان أيضا ناشطا فى الشبيبة البروتستانتية فمارس الدين كثقافة معاشة، وعمل أستاذا للفلسفة، وهى ثلاثة مؤثرات مهمة ساهمت فى تشكيل وعيه ثم بناء مقاربته فى دراسة الحالة الإسلامية، وكان لمدينته دورو تأثير كبير، حيث كان باب بيته يفتح مباشرة على ميدان عمله، ففيها وقعت أول اضطرابات ضواح فى فرنسا، وفيها كان الصعود المبكر لليمين المتطرف، وعبرها وقع على نقده الجذرى لقضية الضواحى كمفتاح خطأ لفهم الحالة الإسلامية فى فرنسا.

سنلاحظ أن بداية أوليفييه روا هى نفس بداية جيل جديد من الباحثين الغربيين فى الإسلام؛ جيل قطع مع الرؤية الاستشراقية النصية، واتجه لتطبيق مناهج العلوم الاجتماعية على العالم الإسلامى الذى لم يكن بحاجة فى رأيهم إلى علوم «خاصة» لدراسته والبحث فى قضاياه. فقد انتقلت الدراسات الإسلامية فى فرنسا من فترة المستشرقين الكلاسيكيين الذين كان اهتمامهم منصباً أساساً فى التخصص فى مجالات دراسة القرآن والتاريخ الإسلامى واللغات والآداب الشرقية، أمثال ماكسيم رودنسون وجاك بيرك وكلود كاهين، إلى جيل جديد من الباحثين المتخصصين أساساً فى السوسيولوجيا والعلوم السياسية.

شكل روا إلى جانب عدد من الفرنسيين المختصين جيلا من الباحثين الذين عاصروا انطلاق الموجة الجديدة من البحث فى الإسلاميات لكن عبر بوابة العلوم الاجتماعية لا سيما علم السياسة وعلم الاجتماع الدينى. بحيث تم التركيز على الحركة الإسلامية بوصفها حركة اجتماعية مع ما يتضمنه فى صعود سريع يملأ الدنيا ويشغل الناس، فاندلعت الثورة الخومينية فى إيران، وبدأ الجهاد فى أفغانستان، وقتل الجهاديون المصريون رئيس البلاد، وتصاعدت الأطروحة الإسلامية السياسية لتحتل المشهد فى مصر وشمال أفريقيا، فانفرد كل منهم بمسار أو منطقة صارت موضوع اهتمامه الأبرز؛ فكتب روا عن «الإسلام والحداثة السياسية» فى معركة الجهاد الأفغانى، واشتغل كيبيل على معركة «النبى والفرعون» فى مصر، وصك بورجا عنوانه «الإسلام السياسى صوت الجنوب».

وسنلاحظ أخيرا أن أهم ما يجمع هؤلاء هو تهميشهم للبعد الدينى فى التحليل وأن فرضيتهم الأساسية هى غلبة السياسة على الدين فى تفسير وقراءة مسار الحركات الإسلامية التى صاروا ينعتونها بالإسلام السياسى، إنها حركات سياسية بامتياز؛ الدين لديها رؤية متكاملة ومستمرة فى الزمن تقوده إلى التخصص فى تحليل ودراسة الإسلام السياسى بشكل خاص وحركة الأسلمة بشكل عام بمنهج ورؤية سوسيولوجية دقيقة الملامح يكاد ينفرد بها مشروعه الخاص، إذ يكاد يختصر روا فى مساره الفكرى مسار الإسلام الحديث فى أفكاره وتحولاته الكبرى طوال ثلاثة عقود، وهو يكشف عن قدرة مذهلة فى فهم هذا المسار والتقاط مفاصل التحولات والتنظير لها بأكبر مما يمكن أن يفعله مجرد متابع.

كانت أفغانستان بالفعل موضوعا لأول كتبه فى الإسلاميات، وكان كتابه «أفغانستان: الإسلام والحداثة السياسية» Afghanistan, Islam et Modernité) politique, Paris, Le Seuil, ١٩٨٥) باكورة مشروعه فى دراسة الإسلام المعاصر.

فى هذا الكتاب يرصد روا غلبة

تروتسكى.. تخصص فى الأديان!

السياسة على الدين بحيث يبدو المجاهدون حداثيين برغم الخطاب والمفردات الدينية المستخدمة، ويرصد بذكاء كيف أن هؤلاء المجاهدين حداثيون لا ينتمون إلى التقليد الإسلامى الأفغانى، وكيف أنهم هم من رسخ مفهوم الدولة فى أفغانستان؛ بلد الصراع المحلى والدولى فى آن واحد وربما هذه هى ميزة الحرب الأفغانية التى التقط منها روا أغلب ملاحظاته اللاحقة..

بالنسبة للتجربة الأفغانية فإن التحديات كانت كبيرة: لقد كان الإسلاميون قادرين على توسيع دائرة الحراك السياسى داخل المجتمع الأفغانى وربطه بالتحولات الدولية التى كانت سارية مباشرة عقب الاحتلال السوفيتى لأفغانستان عام ١٩٧٩ ؛ قضايا من مثل إقامة الدولة الإسلامية، والصراع الإيديولوجى بين الشيوعية والاسلام، وفكرة العالمثالثية، وذلك على الرغم من أن خطابهم لم يكن قادرا فى بداياته على تخطى أسوار الجامعات قبل تلك الفترة.

لكن خيارات الدولة الإسلامية التى كانت تستند فى بداياتها على تراث الإخوان المسلمين اصطدمت بالواقع الأفغانى المتعدد الاثنيات وبدا أن ذلك من تحديات الخروج بها من دائرة الظلامية واللا تاريخية والاستثنائية التى ميزت البحث فى التراث الاستشراقى؛ إن ذلك كان يعنى بالنسبة لهؤلاء تقديم أولوية البيانات الميدانية والتجارب اليومية والملاحظة المباشرة على تحليل النصوص الأصولية كما جرت عليه العادة. لذلك اتجهوا إلى التواجد فى المناطق الإسلامية المختلفة والاختلاط بالمسلمين بل وتعلم اللغة العربية والاهم من ذلك ملاحظة الإسلام المعاش عن كثب.

سنلاحظ كذلك أن رواد هذا الجيل وهذه المدرسة؛ خاصة من الفرنسيين، هم من ذوى الخبرة فى الحركة اليسارية وإن تباينت مواقعهم من مناضلين (روا وجيل كيبيل وفرانسو بورجا) أو منتمين فكريا (آلان روسيون)، وربما كانت خبرتهم الحركية اليسارية سببا فى تركيزهم الاهتمام على الإسلام الحركى أيضا، أكثر من التاريخى أو العقيدى، وكان من حظهم السعيد أن الإسلام الحركى كان مادة قابلة للتوظيف، إيديولوجيا ينظرون من خلالها إلى مسألة التغيير الاجتماعى والسياسى، وبتعبير بورجا، لغة يتحدث بها الإسلاميون لكن محركهم - فى رأيه- هو الرغبة فى التمرد على سيطرة الشمال.

لا تنبئ محاولته الفكرية الأولى بمسار اهتمامه، فقد بدأها بكتابه «ليبنتز والصين» (Paris, Leibniz et la Chine, Vrin, ١٩٧٢) الذى نشرته فى السبعينيات واحدة من أهم دور النشر الفلسفية (فرى)، وربما لم تكن هناك أسباب حقيقية لاهتمامه بالصين سوى كونه أستاذا للفلسفة أعجبته التجربة الماوية! إذا كانت من فائدة من كتابته عن الصين فهى كونها أكدت اهتمامه مبكرا بآسيا وخاصة أفغانستان التى اكتشف فيها الإسلام. فعلى عكس كتابه الأول عن الصين الذى كان عزفا منفردا، جاءت كل كتبه اللاحقة كلبنات فى مشروعه الفكرى المتكامل الذى يسلم فيه كل كتاب للذى يليه.

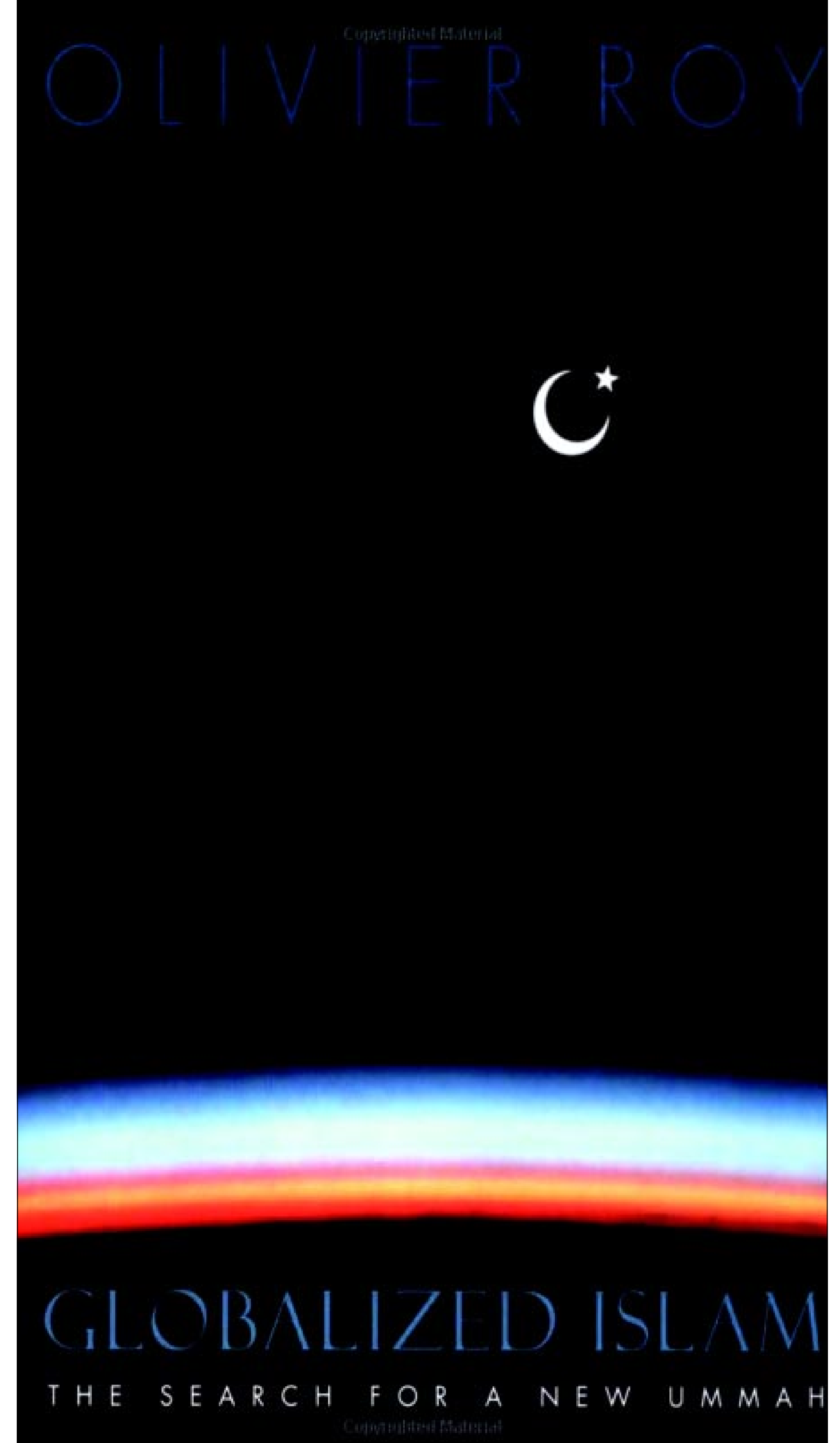
فكتابات الرجل اللاحقة ستنم عن

حســـــــــام تـمـــــــــام

التحديات الفكرية والإيديولوجية كانت واسعة جدا، فمنطق الحرب في أفغانستان كان محليا وعالميا في آن واحد من خلال تواجد المجاهدين العرب من الشرق الأوسط وتقاطع الفكرة الإخوانية عن الدولة الإسلامية مع ما كان يعتبره المجاهدون العرب جهادا في سبيل الأمة. لقد بدا أن تأثيرات الحرب الأفغانية كظاهرة سياسية وحداثية بامتياز، قد حملت معها تناقضات جوهرية بحيث امتلأت البنى الحديثة التي حملها الإسلاميون العرب إلى أفغانستان (الأحزاب السياسية مثل الجماعة الإسلامية والحزب الإسلامي، موضعة الصراع الأفغاني في سياق جيوستراتيجي، إدخال وسائل حربية وتكنولوجية جديدة لم يعرفها المجتمع الأفغاني قبل الحرب...) بالمحتوى القبلي والإثني المحلي؛ وهو نفس محور التواجه اللاحق الذي ميز مسارات الحركة الإسلامية هناك باتجاه أكثر تشددا في مواجهة التقاليد المحلية الأفغانية في فهم وممارسة الإسلام؛ عزز منها تدخل العوامل الخارجية والفاعلين الدوليين والتي انتهت كما هو معروف بظهور تنظيم القاعدة. هذه هي في الواقع التحولات التي امتزج فيها المنطق الدولي والمنطق العالمي ومنطق التقاليد المجتمعية، سيتبع روا خطا متصاعدا في تحليل هذه التحولات عبر كتاباته اللاحقة.

في سنة ١٩٩٢ كتب روا عن «فشل الإسلام السياسي» (L, échec de l'Islam Politique, Paris, Seuil, ١٩٩٢)، كتابه الشهير والمثير للجدل حتى يومنا هذا والذي تبنى فيه الأطروحة التي لا تزال تحتفظ بكل قوتها؛ فكل من ردوا عليه احتجوا خطأ بأن أطروحته غير دقيقة بالنظر إلى قدرة الإسلاميين المستمرة بل والمتصاعدة في التعبئة والفوز في أي انتخابات، فيما كان روا يتكلم عن مأزق أطروحة الإسلام السياسي فلسفيا ذلك أن الكتاب هو أقرب للفلسفة السياسية منه للاجتماع والعلوم السياسية.

استندت رؤية روا إلى أن الحركات الإسلامية السياسية فشلت في الجمع بين الدين والسياسة في إطار الدولة الحديثة، كما فشلت في استعادة الصيغ التقليدية في بناء نظام سياسي مختلف، فإما أنها صارت حركات سياسية حديثة لا تختلف عن مثيلتها إلا في الخطاب، أو خرجت من المجال السياسي تماما.



تروتسكى.. تخصص فى الأديان!



إذ لم تعد الدولة ما بعد الاستعمارية مستوردة بل تجذرت بفضل الديناميات الاجتماعية المختلفة لا سيما فى البيئات التى عرفت تراثا تاريخيا للدولة كما فى مصر وتركيا وهو ما يعنى أن الإسلاميين اضطروا إلى التعامل مع منطق الدولة بل والتحول إلى فاعلين سياسيين ضمن آخرين بحيث يصبح البحث عن التحالفات ضروريا لتحقيق البرنامج السياسى والاجتماعى، وفى هذه الحالة فإنه لم يعد هناك فاعلون إسلاميون كما يرى روا وإنما فاعلون بأجندات اسلامووطنية تتبنى قضايا مجتمعية ذات طابع أخلاقى أشبه بما هو موجود فى تجربة الأحزاب المسيحية الديمقراطية. الحركات الإسلامية من هذا المنظور هى حركات تحديثية بامتياز بعكس الرؤية الثقافية التى تقيم تعارضا بين الإسلام والحداثة.

بهذا المعنى يبدو نشاط الإسلاميين كمؤشر فى مسار العلمنة؛ وهذه هى إحدى أهم الإشارات التى يلتقطها روا فى التحولات التى عرفتها الحركة الإسلامية مع نهاية القرن الماضى؛ فالحركات الإسلامية تخلت منذ بداية التسعينيات، بحسبه، عن طابعها الشمولى لصالح ممارسة سياسية ذات طابع قطرى لا يتجاوز حدود دولها، وهو ذات التحول الذى انتهى إلى تضخم الاهتمام بالأبعاد السياسية لديها وابتعادها التدريجى عن الرؤية العالمية.

من هذا الكتاب خرج روا إلى أطروحة كتابه التالى عن «آسيا الوسطى الجديدة وصناعة الأمم» (La Nouvelle Asie Centrale; Ou La Fabrication Des Nations, Paris, Seuil, ١٩٩٧)، ورغم أنه لا يدخل مباشرة فى الموضوع الإسلامى إلا أنه غير بعيد عنه فالجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى كانت أول المرحبين بالانقلاب الذى أطاح بالرئيس السوفيتى السابق ميخائيل غورباتشوف سنة ١٩٩١ ومن ثم تعالت مطالباتها بالاستقلال، فى هذا الكتاب الذى صدر بعد نهاية الاتحاد السوفيتى وتفككه يتحدث روا عن تكوين الأمم وتأسيس الدولة الوطنية وترسيخ مؤسساتها فى هذه المنطقة التى خرجت من الاتحاد السوفيتى المنهار، ويتبنى أطروحة نجاح الجمهوريات المسلمة الناشئة فى إثبات نفسها وترسخها كدول وحدود ثابتة رغم أنها نشأت من نتاج تصورات مزقت النسيج الاجتماعى والقومى السابق عليها ، بالرغم من أنها لم تكن قد وجدت كدولة عند نهاية القرن التاسع عشر، كما أنها لم تشهد حركات تحرر وطنية قادت عمليات بناء الأمة بها، ليستنتج أن الاتحاد السوفيتى لا سيما خلال الحقبة الستالينية شكل مصنعا هائلا لصناعة الأمم (تركمنستان، أوزباكستان، طاجكستان، كزاخستان، وأذربيجان)، الكتاب يتكلم ببراعة عن آسيا الوسطى حيث ثبات الأمة كخطاب موروث عن الحقبة السوفيتية والدولة الوطنية كحدود أصبحت مقبولة عقب انهيار التجربة الشيوعية.

من الكتابين «فشل الإسلام السياسى، وآسيا الوسطى الجديدة وصناعة الأمم» يخرج روا بأطروحة كتابه الثالث «عولمة الإسلام» L, islam Mondialisé, Paris⁄Seuil ٢٠٠٢

فى هذا الكتاب يواصل روا تتبعه للتحولات التى تشهدها الحركة الإسلامية داخل البلدان الإسلامية ولكن بالخصوص تلك المنتشرة فى الغرب، بحيث يرى أنها تعزز الفرضيات التى دافع عنها فى دراسته السابقة حول فشل الإسلام السياسى، فالحركات الإسلامية السياسية التقليدية مثل الإخوان تنتمى إلى الدولة الوطنية، والأخيرة تعرف بالحدود، وروا حين كتب عولمة الإسلام كان يتحدث عن انتقال الإسلام إلى الغرب وحيث ظهور أنماط وحركات دينية جديدة أهم ما فيها أنها عابرة للدولة الوطنية.



نشر الكتاب عام ٢٠٠٢ أى بعد تفجيرات سبتمبر الشهيرة، وكان الكتاب نتيجة متابعة دقيقة لعدة عوامل وتغيرات منها صعود جيل ثان من القاعدة مختلف جذريا عن سابقه. لقد كان الجيل الأول متأثرا إلى حد كبير بأطروحة إقامة الدولة الإسلامية التى شهد جدلها وجدالاتها مذ التحقق بالتجربة الجهادية الأفغانية فى بواكيرها، لم يكن بعيدا عن أطروحة الإخوان المسلمين، كما أنه وهو يمارس العنف كان يحدوه حلم بناء الدولة الإسلامية ولكن عبر بوابة العمل المسلح وليس السلمى كالإخوان، لقد انتمى هذا الجيل إلى أطروحة لها أرض وحدود، أما الجيل الثانى فكان جهاديا متنقلا بين كل مناطق الصراع فى العالم قبل أن يستقر معظمه فى أوربا.

حتى مسارات التشدد الدينى بدأت فى الغرب نفسه بعيدا عن المؤسسات الدينية، بل ولم ترتبط بالمسجد كمؤسسة ومكان، ومن التحق بهم بالمسجد فقد فعل بعد أن تكون فكريا فى فضاء دينى متخيل ليس له أرض وليست تحده حدود. إنه جيل يحمل أطروحة أبعد من الدولة الوطنية وإنما لديه أطروحة معولمة ومن ثم فصراعه ليس مع الدولة الوطنية ومؤسساتها (العدو القريب) وإنما مع أهداف معولمة (العدو البعيد) حيث الرموز والمؤسسات العالمية من مبنى التجارة العالمية إلى المشروع الامبراطورى الأمريكى...إنها أهداف اليسار ولكن بلغة الإسلام..إن مشروع هذا الجيل الجديد وأهدافه وتعريفه لها والأسلوب الذى يعبر به عنها يسارى مضاد للامبريالية لولا اللغة الإسلامية، وابن لادن هو تلميذ لليسار المتشدد بقدر تلمذته على الإخوان المسلمين قديما. بالنهاية فإن عنف القاعدة هو عنف سياسى وليس دينيا، فالقاعدة لم تستهدف مقر الفاتيكان فى روما لكنها استهدفت مركز التجارة العالمى والبنتاغون أى أنها استهدفت الإمبريالية الحديثة كما فعل اليساريون فى أواخر الستينيات والسبعينيات بنجاح أقل.

المنتمون إلى هذا الإسلام المعولم فى نظر روا هم، إلى جانب القاعدة، كل المسلمين الذين يسعون إلى إقامة أمة مسلمة منفصلة، بل ومختلفة عن الشرق الأوسط، أى إنهم لا يأبهون للصراعات الحقيقية التى يعانيها الأخير؛ فلا وجود للقاعدة فى فلسطين. لذلك تلعب الأصولية الجديدة دورا أساسيا فى هذا الإسلام الكونى الذى يتجاوز الحدود الوطنية للدول ويتكيف مع كافة المجتمعات وفى الدول الغربية بشكل خاص، بفضل طابعه الفردى المنفصل عن المؤسسية وسعيه لخلق فضاءات اجتماعية مؤسلمة توفر للمسلمين المهاجرين الذين اختاروا الإقامة الدائمة فى الغرب كما للمسلمين الجدد حيزا هوياتيا للتعريف الذاتى. إنه إسلام يتأقلم مع العولمة وينمو فى بيئات ليبيرالية تشكل تربته الخصبة بحيث يكون الانتماء إلى الإسلام خيارا فرديا لا تحكمه قواعد الانتماء إلى الأرض والثقافة وبحيث يعبر عن نهج أخلاقى وسلوكى صارم للمنتمين(حتمية التطبيق الحرفى لتعاليم القرآن والسنة لدى السلفية) تماما كما هو الحال لدى الحركات الأصولية اليهودية والانجليكانية. وبالتالى فإن هذا الإسلام الذى يفتقد المرجعية المكانية لا يملك إستراتيجية دولتية، لأن الهدف هو الفرد وليس المجتمع، هو تأسيس إسلام عالمى يتوافق مع كل السياقات الاجتماعية ولذلك فإن سر نجاحه وانتشاره يكمن فى تجاوزه لمنطق القوميات والثقافات.

وهكذا لا يعرف أعضاء الحركات الدينية الجديدة الدولة الوطنية ولا ينتمون إليها، وهم بالطبيعة لا يعرفون التقليد ولا الثقافة، هم سلفيون طهرانيون يبحثون عن العقيدة الخالصة النقية من الشوائب، إسلام النقاء والعصر الذهبى والسلف الصالح. لذلك تجدهم فى محلات البيتزا والفاست فود «الحلال» ولن تجدهم فى محلات الكسكسى والأكلات الشعبية التقليدية ..الأهمية عندهم فى الحلال وليس فى الثقافة..هم بطبيعتهم لا يحبون التمازجات بين الدين والثقافة..وهؤلاء هم الذين تحدث عنهم فى كتابه «الجهل المقدس».

(La Sainte Ignorance, le Temps de la Religion sans Culture, Paris, Le Seuil, 2008)

الكتاب هو محاولة عبقرية للتنظير للعلاقة الجديدة بين الدينى والثقافى، وأطروحة «الجهل المقدس» هى توسعة عميقة لأطروحة الدين المعولم حين يتجاوز حدود المعرفة الدينية التقليدية والمؤسسات الدينية الرسمية والعلاقات الكلاسيكية بين الدين والسياسة لا سيما لدى الإسلام بحيث يتم الابتعاد التدريجى عن الطرح السياسى بل والاجتماعى العام باتجاه البحث عن الدينى النقى المفصول عن تأثيرات التقاليد المحلية فى فهم النصوص المقدسة والتى يتم اعتبارها مدنسة ومصدر تهديد لنقاوة الإيمان للأتباع كما لدى السلفية مثلا فى نفس الوقت الذى تصبح التعاليم الدينية أقرب وأسهل



القاعدة لم تستهدف مقر الفاتيكان فى روما لكنها استهدفت مركز التجارة العالمى والبنتاغون أى أنها استهدفت الإمبريالية الحديثة



للبلوغ بعيدا عن أى دور للعلماء أو لرجال الدين.

فغياب المشروع السياسى فى الغرب بسبب اختلاف علاقات القوة والهيمنة يمنح للأطروحة الإسلامية مسارا مختلفا فتبدو أنها تقع خارج الدولة وخارج الإقليم وأكثر تركيزا على الاحترام الفردى للمعيار الدينى والانتماء للأمة الإسلامية لجالية مسلمة تقع فى وضع الأقلية. فى هذه الحالة فإن الفواصل بين الدين والثقافة تتراجع لصالح الفصل بين الانتماء الثقافى والانتماء الدينى؛ فالجيل الثالث كما المسلمون الجدد فى الغرب، كلاهما يخوض تجربة التعرف على الإسلام أو التحول إليه دون ميراث ثقافى مسبق بحيث تصبح التجربة الدينية بحثا عن إسلام نقى غير مختلط بثقافة لم تعد تمثل له شيئا ولا يعيشها.

ويؤدى الفصل بالضرورة إلى انفصال الدين عن المناطق الجغرافية التى كان ينتمى إليها تقليديا؛ إن هذا يفسر إلى حد كبير فى نظر روا سهولة انتشار السلفية فى الغرب كما فى العالم الإسلامى وازدياد عدد مسيحيى الشرق وتوسع أعداد المنتمين إلى الإنجيلية عبر العالم بما فى ذلك انتشار الكاثوليكية فى مناطق لا تنتمى إلى الثقافة الغربية. ذلك أن أهم ما فى الكتاب أنه لم يتوقف عند السلفية فى الحالة الإسلامية وإنما انفتح على الأصولية البروتستانتية الإنجيلية. فهذه التحولات ليست حكرا فى الواقع على الإسلام وتسيد السلفية فقط ، بل أيضا فى الكاثوليكية التى تواجه أزمة فى المجتمعات الغربية حيث يبدو أن الإنجيلية تسجل انتشارا واضحا بسبب ميلها إلى التعالى على الطائفية وتوجهها إلى الفرد بالدرجة الأولى بحيث تبتعد عن منطق الدولة والإقليم الذى يحيط بالانتماء الدينى. لقد طرح الكتاب سؤالا جوهريا عن سر صعود هذه الحركات وأجاب بأن قوتها فى رفضها التقليد ومن ثم رفض الثقافة، رفض الصوفية ورفض المؤسسة الدينية ورفض الحدود بل وعدم الاعتراف بكل ذلك. وتتعاضد المجموعات المتكونة فى هذا السياق اقتصاديا واجتماعيا واتصاليا بفضل الشبكات التى يتيحها الانفتاح العولمى لتشكل ما يسميه روا جماعات المؤمنين التى تصبح أكثر تحديدا وصرامة بشكل يؤدى إلى انفصال القيمة الدينية عن المعايير الاجتماعية؛ لب العلمنة وجوهرها فى النهاية. وهنا نكاد نلمس بقوة الأطروحة المركزية والكبيرة للخبير الفرنسى الذى يصر منذ كتابه الأول عن التقليد والحداثة فى الحرب الأفغانية على أن الحركات الإسلامية انتهت إلى التسريع من وتيرة التحديث والعلمنة داخل المجتمعات المسلمة أكثر مما قامت به أدوات التحديث الأخرى.

لروا أيضا كتاب «العلمانية فى مواجهة الإسلام»
(La laïcité face à l‘islam, Paris, Hachette, 2006)

وهو أول وربما آخر كتاب يكتب فيه روا من منطلق نضالى نسبيا، يحاول فيه الرد على تيار يتشكل فى الخطاب العام الفرنسى مضاد للإسلام، وفيه يعالج روا فلسفيا العلمانية مميزا فيها بين كونها إطارا قانونيا وسياسيا، وبينها علمانية نضالية (فرنسية بالتخصص) تتحول إلى خطاب شمولى يدّعى إصلاح المجتمع أو شكلا من أشكال الدين المدنى الذى يتطلب امتثالا صارما للمنتمين إلى منظومة من القيم المشتركة، وهى هنا رؤية ومنظومة تدعى الإطلاقية وأنها صالحة لكل زمان ومكان. لماذا فرنسا بالذات تريد إسلاما علمانيا مستنيرا؟ ولم الخوف من تأثير الإسلام على المجتمع الفرنسى بنفس درجة الخوف من الكثلكة فى بداية القرن العشرين ؟ يحاول اوليفييه روا من خلال هذا الكتاب تقديم إجابة بالاستناد الى معرفته المعمقة بالحركات الإسلامية وحركة الأسلمة؛ فالإسلام اليوم معلمن تماما لذا فهو لا يشكل تهديدا للعلمانية الفرنسية.

لأوليفييه روا مساهمات أخرى لا تقل أهمية، منها تأريخ للحركة الإسلامية السياسية (Généalogie de l,islamisme, Paris, Hachette, ١٩٩٥)،
وآخر عن تركيا من تحريره
(La Turquie aujourd’hui, un pays européen? Paris, Universalis, 2004)

وثالث عن إيران مع «فرهارد خسرو خافار» Farhad Khosrokhavar عن:
«كيف تخرج إيران من الثورة الدينية؟»
(Iran: comment sortir d‘une révolution religieuse, Paris, Le Seuil, 1999)

ورابع عن «نحو إسلام أوربى»
(Vers un islam Européen, Paris, Esprit, 1999)

وخامس عن «أوهام ١١ سبتمبر»
(Les illusions du 11 septembre Paris, Le Seuil, 2002)

الذى ينتقد فيه الخطاب الاستراتيجى الأمريكى، لكنه يبدو فى سنواته الأخيرة أقرب لتجاوز الاهتمام بالإسلام والتحول للشأن الدينى العام، وهو فى كل ما يفعل فيلسوف يتحرك وراء أفكاره أيا كان موضوعها أكثر منه متخصصا فى شأن الإسلام. ■



من تقرير اللجنة المشكلة من مجلس الشعب لتقصى حقائق أحداث الخانكة فى نوفمبر ١٩٧٢ برئاسة الدكتور جمال العطيفى

(٣)

المقدمات

ومن الدراسة التى قامت بها اللجنة، استخلصت المقدمات التى أدت إلى تزايد هذه الحالة من التوتر:

١ - ففى خلال عام ١٩٧٠ وقع بمدينة الإسكندرية حادث فردى خاص باعتناق شابين من المسلمين للمسيحية تحت تأثير ظروف مختلفة، وقد سرت أخبار ذلك بين الناس وكانت موضع تعليق ونقد بعض أئمة المساجد استنكارا للنشاط التبشيرى، وقد أعدت مديرية الأوقاف بالإسكندرية وقتئذ تقريرًا حذر من الأخطار التى تهدد بعض الشباب نتيجة حملات تبشير نسبت إلى بعض القساوسة... وبعد قرابة سنتين من تقديم هذا التقرير الذى يعد تقريرا داخليا ليس معدًا للنشر، امتدت يد خبيثة إليه فحصلت على صورة منه وقامت بطباعته بالإستنسل وتوزيعه على نطاق واسع.

وقد تضمن التقرير بعض الأمور التى من شأنها أن تثير استفزاز من يطلع عليها من المسلمين، وتحمله على تصديق أمور لم يقم أى دليل عليها وبعضها بعيد التصديق. مما دفع بعض أئمة المساجدإلى التنديد الشديد وكانت نتيجة ذلك زيادة استياء كثير من المسلمين وبذر بذور الشك بينهم وبين إخوانهم الأقباط ورغم شيوع أمر هذا التقدير لم تقم الجهات المسئولة والإعلامية بالتصدى له بالمواجهة والنفى، ربما ظنا منها أن أثره سيكون محدودًا وأنه سرعان ما يتلاشى، وكما أن يد العدالة لم تستطع أن تمتد إلى مروجيه.

إصـــــــدارات جـــــــديـــدة

❞ تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات. ❝

مقتنيات وسط البلد
وجوه وحكايات
مكاوى سعيد
رسوم داخلية: عمرو الكفراوى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠ ، ٥٣٦ صفحة



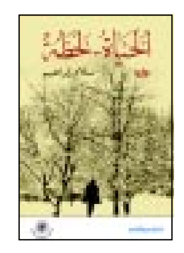
هذا كتاب ذو نكهة خاصة، يحمل معه وجهين مختلفين يكمل كل منهما الآخر. هنا ينتقى لنا «مكاوى سعيد» - بعين الروائى - وجوها وأماكن من وسط القاهرة، من بين جنبات تلك الشوارع المعدودة التى تشكل فيها جزء هام من تاريخ مصر الحديثة؛ حيث كانت ولا تزال ملتقى المثقفين والفنانين المصريين يمارسون فيها الفن والسياسة والكلام والصعلكة. من «وسط البلد» حيث تتداخل حياة هؤلاء المثقفين وما لهم من طموحات لا محدودة وجنون مدهش، بحياة ملايين المارة اليوميين من جميع أنحاء مصر والعالم. سنقرأ عن ٤٢ شخصية من ذوى الوجوه المألوفة فى جلسات المثقفين أو على أطرافها، بعض هذه الشخصيات كان موهوبًا وفضل الصعلكة على الموهبة، وبعضهم تكسرت طموحاته بيده أو بيد غيره فانطوى على نفسه أو أصابه الجنون أو مات أو ابتعد، وبعضهم آثر السكينة وظل يغرف من حكمة الحياة الصافية.

وفى الناحية الأخرى يحكى عن مقاهٍ ومطاعم وبارات ومنتديات ثقافية نشطت فى «وسط البلد» فى منتصف السبعينيات وأوائل الثمانينيات، تلك الأماكن التى منها ما لا يزال قائمًا يحتفظ ببريقه، ومنها ما انسحب تمامًا من الصورة بعد أن أزاحته محلات الأحذية أو الوجبات السريعة، ومنها ما تدهور حاله، وإن ظل محتفظًا باسمه ومكانه.. هنا يرصد «مكاوى سعيد» تاريخ هذه الأماكن، والحكايات التى دارت وتدور فيها وحولها. سنقرأ عن جروبى، وريش، والنادى اليونانى، واسترا، وعلى بابا، وقهوة الحرية، وستلا، وإستوريل.. والكثير غيرها.

ويضم الكتاب مجموعة من اللوحات والرسوم الداخلية للفنان عمرو الكفراوى.

■

«الحياة لحظة»
رواية الشتات العراقى والمنفى والتشرد
سلام ابراهيم
الدار المصرية اللبنانية



البؤس الإنسانى العربى يتجلى كثيرًا فى المنفى حيث العراقى والمغربى والتونسى والخليجى واللبنانى.. الجميع هاربون من قمع ما.

فى روايته الجديدة «الحياة لحظة» التى صدرت حديثًا عن الدار المصرية اللبنانية، يرصد سلام إبراهيم، رحلة المعاناة العراقية، والشتات والنفى والتشرد، والسجون والتعذيب التى طالت كل الفصائل العراقية، كما يقف بكل جرأة عند الأخطاء البشعة التى ارتكبها الثوار فى الجبال، وعن شكهم فى كل جديد عليهم أو متضامن معهم، شك وصل حد القتل والتنكيل لتصبح الحالة العراقية كلها جوًا من الإرهاب والنفى والإقصاء، فحتى الثوار تورطوا فى فخ تعذيب معارضيهم، وفى النهاية يضغط النظام الصدامى على الجميع مؤيديه ومعارضيه، فيهرب الجميع إلى معسكرات اللجوء السياسى فى إيران وتركيا، ثم موسكو والنرويج والدانمارك، وفى اللحظة التى يصل فيها العراقيون إلى خارج وطنهم فى المطارات نفسها يكون هناك يهود قادمون إلى الشرق الأوسط ليستوطنوا فى فلسطين فى تواصل مع تيمة التهجير التى يعانيها العرب منذ خمسينيات القرن الماضى، وكأنما الأمر يتم وفق مخطط كونى لإخلاء المنطقة برمتها من سكانها تمهيدًا لاحتلال واسع، تقف فلوله على الأبواب.

وإذا كانت هذه هى التيمة المحور أو الأساس فى الرواية التى تقع فى ٥١٠ صفحات، فإنها تكتب عبر عديد من التيمات أو الأنهار الصغيرة التى تغذى بحرها الكبير، بحر القمع والبؤس الإنسانى الذى يشمل أغلب سكان الكرة الأرضية، ففى جزء «المتشردة الروسية».. يقف السرد طويلاً أمام معاناة الروس أيام سقوط النظام السوفيتى القديم، حتى اضطرت بنات روسيا إلى بيع أنفسهن مقابل وجبة أو مكان للمبيت. الروس الذين كانوا يتبرعون لكل العالم، صاروا يقفون فى الطوابير منذ الفجر للحصول على زجاجة بيرة أو فودكا، يتعاركون حتى الموت، وانتشرت بينهم المافيا التى تقتحم المساكن للحصول على الطعام.

«برغم طول الرواية ٥١٠ صفحات، فإننا نلهث قلقًا على مصير شخص يمثل وطنًا، ووطن يضيع فى قلوب أبنائه.. وصولاً إلى لحظة الاحتلال.. والجماعات المسلحة التى تذبح أمام الكاميرات، فقد صار العراق مرتعًا لكل شذاذ الآفاق».

إنها سيرة حياة لاجئ عراقى بدأت فى العراق وانتهت فى موسكو والدانمارك ثم سوريا، فالعراق مرة أخرى، حيث ينفصل الراوى عن زوجته ويدمن الخمر ويقع فى فخ الذكريات ويضيع فى سهول أوكرانيا، إنها رواية المقاومة والنضال والسفر والشعر والبطولة والعمالة.

إنها حقًا رواية الشتات والإحباط العراقى، تشرده وضياعه، برع سلام إبراهيم فى وصف لحظته ورؤيته وموقفه مما جرى لبلده، وهو الذى عانى ويلات الحروب العراقية كلها، حيث التحق بصفوف الثوار فى كردستان عام ١٩٨٢، وفقدت وظائف رئتيه قدرتها على العمل بشكل طبيعى بنسبة ٦٠٪ نتيجة للقصف بالأسلحة الكيماوية على مقار أحزاب المقاومة فى زيوة، وفى حملة الأنفال نزح مع جموع الأكراد إلى تركيا ثم إيران ليمكث فى معسكرات اللجوء بأقصى الشمال الإيرانى، ليلجأ بعدها إلى الدانمارك التى يقيم بها إلى الآن.

وهو من مواليد عام ١٩٥٤، وبدأ بكتابة القصة القصيرة فى أوائل السبعينيات وصدر له: رؤيا اليقين (قصص) ١٩٩٤، رؤيا الغائب (رواية) ١٩٩٦، سرير الرمل (قصص) ٢٠٠٠، الإرسى (رواية) ٢٠٠٨ .

■

العراق من حرب إلى حرب
صدّام مرّ من هنا
غسان شربل
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٤٠٠ صفحة



يتضمن الكتاب حوارات مطولة مع أربع شخصيات عراقية ممن تولوا مسئوليات سياسية وأمنية عراقية منذ تسلم حزب البعث إلى ما بعد احتلال العراق.

حازم جواد الذى قاد الحزب إلى السلطة فى ٨ شباط ١٩٦٣ وأذاع البيان رقم واحد وأرسل من يأتى بضابط شهير اسمه عبدالسلام عارف لن يتأخر فى إزاحة البعث لينفرد بالسلطة.

صلاح عمر العلى الذى دخل مع صدام مسلحين بالرشاشات إلى مكتب الرئيس أحمد حسن البكر للتخلص من رئيس الوزراء آنذاك عبدالرزاق النايف فى ٣٠ تموز ١٩٦٨ .

نزار الخزرجى رئيس أركان الجيش العراقى منذ عام ١٩٨٧ إبان الحرب العراقية الإيرانية وحتى بعد اجتياح الكويت عام ١٩٩٠ الذى استدعى هو ووزير الدفاع إلى مقر القيادة بعد ساعات من اجتياح الكويت وأبلغهما الفريق علاء الجنابى جملته الكارثية «أكملنا احتلال الكويت» وكان ذلك دون علم رئيس الأركان ووزير الدفاع.

أما أحمد الجلبى الذى تخرج فى أرقى الجامعات الأمريكية والذى تسرب إلى أروقة الكونجرس والـ«سى آى إيه» وزارة الدفاع وكواليس صناعة القرار فى أمريكا، وجمع شمل المعارضتين الشيعية والكردية، فقد رأى حلمه يتحقق حين سقط حزب البعث ودخلت أمريكا العراق واحتلته. وما كان ذلك ليكون سهلاً لولا الموافقة الإيرانية على العملية الأمريكية. ولمع اسم الدكتور أحمد الجلبى.

فى هذا الكتاب يجيب هؤلاء عن الأسئلة التى تزاحمت فى رأس الصحفى غسان شربل، كما تزاحمت فى رؤوس ملايين العراقيين والعرب والإيرانيين والأوروبيين الذين وقعوا فى وحول العراق أو أوقعت أنظمتهم بالعراق فى وحولها.

كيف كسب صدام حسين ثقة بعض قادة البعث الأوائل و«صفى» بعضهم الآخر وأرهب من تبقى ثم أزاح الكل وتربع على العرش يعملق الأقزام ويقزم العمالقة؟

من هم رجال «المهمات القذرة» الذين استخدمهم؟ وما هى تلك المهمات؟

وماذا عن التصفيات الجسدية والإبادات الجماعية؟

وقصة الحرب العراقية الإيرانية؟ واحتلال الكويت؟

وماذا عن أقوى جيش فى المنطقة؟

وأين ثروات العراق التى لا تنفد ولكنها أحرقت وأغرقت؟

وماذا عن مصير ثروته البشرية من شيوخ وشباب وأطفال؟ وهل تنتهى حروب العراق المستمرة بعد أن قضى على صدام حسين اللاعب الوحيد فى العراق لأكثر من ثلاثة عقود وكاتب السيناريو والمخرج والمنفذ؟

وسوى ذلك من الأسئلة التى يجد القارئ بين سطور هذا الكتاب إجابات عنها أو احتمالات وتوقعات عن بعضها.

■

لطيفة خانم أفندى ومصطفى كمال أتاتورك

إيبك تشالشلر
ترجمه عن التركية: بكر صدقى
قدمس للنشر والتوزيع (٢٠٠٩)
٥٢٠ صفحة من الحجم الكبير تحوى ٦٧ مصورًا



رأى الكاتب فى مقدمته أن هذه المرأة الرائدة سوف تستقطب اهتمام القراء عبر العالم؛ «بيد أننى كنتُ أعى كذلك أن قراءة سيرة شخصية . . تتطلب قارئاً ينتمى إلى البيئة التاريخية والثقافية نفسها. وبالفعل جاءنى العرض الأول لترجمة الكتاب من دار قدمس السورية المهتمة بالكتب التركية، وأشكرها على اهتمامها بهذه المرأة الاستثنائية المغمورة فى الظلام».

لطيفة أوشاكى زادة كانت امرأة ذات ثقافة جيدة، أتقنت لغات ثمان، وتلقت طيلة سنة دروساً فى اللغة العربية من عمها الأديب المشهور خالد ضياء. حتى تمام الربع الأول من القرن العشرين، كان التركى يعد منقوص الثقافة إذا لم يتقن العربية، وكان المثقفون العثمانيون يتعلمون العربية من كل بد. ثمة عدد كبير جداً من أجدادنا وأجداد أجدادنا، ممن سافروا لتلقى التعليم فى دمشق والقاهرة وبيروت.

فى أيام الامبراطورية العثمانية. يقول الكاتب. اشتركنا مع الشعوب العربية، فى العاصمة نفسها والأبجدية ذاتها، واحتكمنا إلى القوانين نفسها. السنوات المنقضية، منذ ذلك الوقت، غيرّت أشياء كثيرة، فلم تعد العربية لغة ثقافتنا، ولم تعد اسطنبول عاصمتنا المشتركة، أبجديتانا مختلفتان، ومثلها القوانين لدى الطرفين. غير أن الثقافة المشتركة التى صنعناها معاً ما زالت تحيا فينا، فها هى تغمز لنا من مائدة الطعام أو تومض فى أغنية. زرت دمشق والقاهرة والاسكندرية وبيروت فى السنوات الأولى من الألفية الجديدة، واستمتعت كثيراً، وعرفتُ أن القراء العرب يحبون كثيراً أديبين موهوبين من أدبائنا هما ناظم حكمت وعزيز نيسين. لست من الجيل الذى تعلم اللغة العربية، لكننى أحب متابعة المحطات التلفزيونية العربية التى تبث من الفضاء، وكلما ترجم عمل لكاتب عربى إلى التركية أحببتُ قراءته.

ثمة عيدان نحتفل بهما معاً. أكتب هذه المقدمة فى عيد الأضحى.

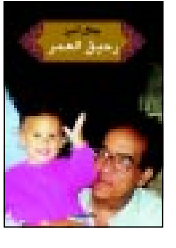
ومن الواضح أن الكاتب لم يرغب فى أن يختتم تقديمه للكتاب الا بالاشارة الواضحة الى أنكم «سوف تجدون فى قصة لطيفة هانم تاريخنا المشترك، وسوف ترون أنه كانت لها مساهمتها فى الخطوات التى تم إنجازها فى تركيا، فى مجال حقوق المرأة.

مع تمنياتى لنساء الشرق المغمورات فى الظل، ليظهرن تحت ضوء الشمس».

■

رحيق العمر

د. جلال أمين
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠ ، ٤٦٤ صفحة



يقول الدكتور جلال أمين عن كتابه الجديد:

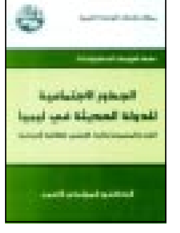
من الممكن اعتبار هذا الكتاب الجزء الثانى من «ماذا علمتنى الحياة؟» (دار الشروق، ٢٠٠٧)، فهو استكمال له، ولكن ليس بمعنى أنه يبدأ من حيث ينتهى الأول، بل بمعنى أنه أيضا سيرة ذاتية. إنه يسير موازيا للكتاب الأول، فهو مثله يبدأ من واقعة الميلاد، بل وقبل الميلاد، وينتهى إلى اللحظة الراهنة، ولكنه لا يكرر ما سبق قوله، وكأننا بصدد شخصين يصفان حياة واحدة، ولكن ما استرعى انتباه أحدهما، واعتبره يستحق الذكر، غير ما استرعى انتباه الآخر.

فمن المدهش حقا مدى غنى حياة كل منا بالأحداث التى تستحق أن تروى، والشخصيات الجديرة بالوصف. أما عن الصراحة، فقد استلهمت فى هذا الكتاب ذوقى الخاص، كما فعلت فى سابقه، ولا شك أنه، فى هذا الكتاب أيضاً، سوف يرى بعض القراء صراحة أكثر من اللازم، والبعض الآخر صراحة أقل من اللازم.

■

الجذور الاجتماعية للدولة الحديثة فى ليبيا

الفرد والمجموعة والبناء الزعامى للظاهرة السياسية
المولدى الأحمر
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٤٦٢ صفحة



استخدم المؤلف، فى هذا الكتاب - الأطروحة، أدوات المقاربة السوسيو-

(فارس القديمة ٥٥٨ ق م - ٦٥١ م)



التاريخ، الحضارة، المجتمع، الاقتصاد، الإدارة، الجيش، العبادات

يُزف فيزهوفر
ترجمة: محمد جديد
مراجعة: زياد منى
مراجعة الأسماء الفارسية: د عباس صبّاغ
قدمس للنشر والتوزيع ـ ٢٠٠٩

قبل ما يقارب خمسة عشر عاماً ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى الألمانية. وقد شهد منذ ذلك الوقت طبعات عدة، وعدداً من الترجمات: الى الانكليزية، والفارسية والتركية. والآن تتوافر أيضاً ترجمة عربية أُسَر بها على وجه الخصوص. ولأسباب لا تقتصر على مجرد أننى أشعر بأننى مرتبط بالحضارات العربية، والإسلامية على وجه الخصوص فحسب، بل تتعلق بالمضمون أيضًا، كانت أيضاً وبلا ريب، مدة زمنية متطاولة، إما جزءاً لا يتجزأ من ممالك الإخمينيين والبارتيين والساسانيين، بل، فى حالة بلاد الرافدين، حتى جزءاً من مراكزها؛ أو كانت هذه المجالات على الاقل، وبلا ريب، فى حالة من التبادل السياسى والثقافى النشيط مع الأقاليم التى تشكل نواة هذه الامبراطوريات فى إيران والعراق. ويضاف الى ذلك شىء آخر: ففى أوربة وأمريكا مازال تاريخ الشرق القديم يفهم من وجوه عدة على أنه نوع مما نسميه «ماقبل التاريخ» قياساً بتاريخ اليونان وروما، وبالتالى، لتاريخ أوربة اذ تفقد الحضارات الشرقية أهميتها التاريخية فى العادة مع دخول الهيلينيين تاريخَ العالم. ولا يستقر، إلا على نحو تدريجى، ذلك الفهم الذى يفيد أن تاريخ اليونان وروما أيضاً لا يُفهَمان حق الفهم من دون النظر بعين الاعتبار الى بيئتهما الشرقية ومؤثراتها فى الغرب، وأن حضارات الشرق القديم، فوق ذلك «وفى كل العصور» انما تُؤتى قيمة حضارية خاصة لم تكن تُقدَر حتى الآن حق التقدير إلا فيما ندر. وبالطبع: فإن بعض خطوط الارتباط وبالتالى خطوط التطور المأخوذة من ممالك الآشوريين والبابليين والإيرانيين والحضارات التى احتضنتها أقاليمهم، تفضى فى الحقيقة الى الغرب على نحو مطلق؛ على أن ما هو أوفر عدداً مع ذلك، هو تلك الخطوط التى تظل ضمن إطار هذه الأقاليم أو تفضى الى مسافات أبعدَ بعدُ باتجاه الشرق، وفى هذه الأثناء تتخطى هذه الخطوط، من الوجهة المكانية والزمانية على السواء، حدوداً أخرى غير تلك التى ألفناها فى أوربة: وعلى هذا يكون تاريخ الشرق القديم أول الأمر هو ما نسميه «ماقبل التاريخ» من منظور الشرق الأدنى الإسلامى، حتى عندما قطع التقسيم المألوف حتى اليوم لتاريخ الشرق، الى ما يسمونه تاريخ الشرق القديم والتاريخ الذى «يرعاه» مؤرخو العصر القديم على أنه تاريخ امبراطوريات ماقبل الإسلام المتأخرة، وهى امبراطوريات الإخمينيين والسلوقيين، والأرساكيين والساسانيين، ذلك الارتباط المبنى على المفاهيم، والذى بات مقنعاً من الوجهة الجغرافية، بين التاريخين، تاريخ الشرق القديم والتاريخ الإسلامى.

ويضاف الى ذلك شىء آخر بعد: فنحن ندين لجهات ليس آخرها الرواية العربية الاسلامية، ونذكر هنا كتبا مثل الطبرى أو المسعودى، بأن التاريخ الأسطورى والتاريخ المبنى على علم التاريخ، وأعنى تاريخ الملوك والأبطال الإيرانيين، كما أعنى أيضاً المنجزات الثقافية وخدمات الوساطة التى ظلت باقية لرعاياها ذوى الأصول المتباينة إلى أقصى الحدود، سواء أكان ذلك فى الإهاب التاريخى الأصيل، أم كان فى الإهاب الأدبى، أم فى الإهاب ذى الصبغة الخاصة بآلام المسيح وخلاصه. وأخيراً: فهذا الكتاب يرسم لنفسه أيضاً الهدف المتمثل بالتذكير بالإنجازات الحضارية الكبرى للشرق، والذى تهيمن عليه السمة الفارسية أو الفرتية أو الساسانية، على أساس تقويم جديد للرواية والمتمثل فى الوقت نفسه، فى التحذير من استخدام التاريخ من أجل أهداف تسويغية مفرطة فى الانكشاف. ولعل مما يمتنع من تلقاء ذاته، فى ظل عملية الرجوع الى العصر القديم، مثلاً، المصادرة الخاصة بتفوق حضارة معينة على الحضارات أخرى؛ مثل تفوق الحضارة الإيرانية على الحضارة العربية، أو النقيض بالنقيض، والدفاع عن عداء يقال إنه يماثل القانون الطبيعى بين العرب والإيرانيين، وبين العرب واليونان. ومن نبوخذنصر، وقورش الكبير، والإسكندر أو كسرى أنو شروان، وهو كسرى العادل الذى يرد فى الرواية الإسلامية، لا يفضى إلى طريق مباشر، بل لا يفضى إلا إلى طريق ملتو إلى أقصى الحدود، إلى عصرنا الحاضر.

يُزف فيزهوفر
كيل (ألمانيا)، فى أيلول ٢٠٠٩

أنثروبولوجية، معتمداً مدونة تاريخية، في تحديد عناصر المسار التحديثي المركب واللايقيني الذي خضعت له الدولة الليبية، خلال القرن التاسع عشر، وفي فترة الاحتلال الإيطالي، وأثناء تأسيس دولة الاستقلال.

والمشكل الرئيسي الذي خضع للتحليل والمناقشة هو سؤال الحداثة السياسية، أما الفرضية الرئيسية، للمؤلف، فهي أن الظاهرة السياسية تمثل قبل كل شيء بناء زعاميًا للمجموعة السياسية. وفي المثال الليبي (وينسحب هذا بتفاوت، على الحالة المغاربية) تنافست تاريخيًا على بناء الظاهرة السياسية ثلاثة أصناف من الزعامات، لكل منها خصائصه، وديناميته وآليات اشتغاله، رغم اتحاد الجميع في مبدأ البناء الزعامي للظاهرة السياسية؛ وهذه الأصناف الثلاثة، هي: الزعامة البدوية المحاربة، والزعامة الدينية الطرقية في الريف، والزعامة العسكرية البيروقراطية في المدينة.

ومن ثم، ينتهي الباحث إلى خلاصة مفادها أن عملية تحديث الدولة في ليبيا كانت عبارة عن حرب ضد هذا التنوع الزعامي، ومقتضيات اشتغاله الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

■

سوريا وتركيا

الواقع الراهن واحتمالات المستقبل

عقيل سعيد محفوض

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٥١٠ صفحات



يتناول هذا الكتاب دراسة العلاقات بين سوريا وتركيا: عوامل التجاذب والتنافر، بصورة تؤسس على مكونات رئيسة تخص الجانب المنهجي والتاريخي والإمكانات الداخلية، والسياسات الخارجية، والواقع الراهن، وأخيراً احتمالات المستقبل.

ويرى المؤلف أن اهتمام سوريا وتركيا، قد تركّز، في الشئون الإقليمية والدولية على دائرتي نشاط رئيستين، هما بالنسبة إلى الأولى: المنطقة العربية، وما يرتبط بالصراع مع إسرائيل، وإلى الثانية: أوروبا – الولايات المتحدة. ولم تكن علاقات الدولتين (سوريا وتركيا)، على هذا الصعيد، مستقرة. وقد شكل ذلك عاملاً مضافًا، خلال العقود الماضية، إلى سوريا تجاه إسرائيل، وأيضاً هواجس تركيا تجاه تحديات التكوين الداخلي والأمن القومي.

ويسعى المؤلف إلى تحقيق أهداف عدة، أهمها: بيان الخلفية التاريخية للعلاقات بين الدولتين، بما هي جزء من التكوين السيكولوجي والذاكرة السياسية لديهما، وتقديم (أو تجريب) منهجية مقترحة في دراسة العلاقات الدولية للطرفين، واختبار تدخلات منهجية تقوم على جدلية، أو مفهوم «التجاذب – التنافر»، ودراسة السياسة الخارجية السورية وتركيا في أبعادها العامة، والبحث في تأثير البيئة الدولية والإقليمية والبينية والدولتية في العلاقات موضوع الدراسة، واستشراف احتمالات المستقبل.

وقد عملت الدراسة على تفحص عدد من المقولات، منها؛ أن السياسات الخارجية لسوريا وتركيا تتشارك في المفردات التكوينية، وتتفاوت في التشكيلات والتجليات، كما أن كل مفردة من مفردات العلاقات بين الدولتين (على المستوى العالمي والإقليمي والثنائي والداخلي) تنطوي على أبعاد تقارب، مثلما تنطوي على أبعاد تنافر. وتتميز السياسة الخارجية البينية للدولتين بـ «اللا حسم» و«التردد» و«التأجيل»، ويتأتى ذلك عن إرادة قصدية لديهما. وسوف تحدد آلية التجاذب – التنافر في مستويات التحليل السابقة مستقبل العلاقات بين الدولتين في واحد من المشاهد – السيناريوهات المحتملة التالية: التجاذب، التنافر، «اللجة» أو «بين – بين».

■

بحث في المعطيات المباشرة للوعي

هنري برغسون

ترجمة: الحسين الزاوي

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٣٦ صفحة




يمثل برغسون أحد الوجوه المؤسسة للفلسفة الفرنسية المعاصرة، وهو بلور فكره بالاعتماد على تحليل نقدي للمناهج وللنتائج العلمية لعصره. وتطمح فلسفته ذات الطابع الروحي، إلى أن تكون بمنزلة «عودة واعية ومتعقلة إلى معطيات الحدس»، التي تمكننا من التطابق مع الحركة الحرة للحياة والروح.

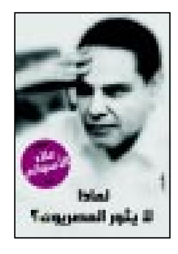
أصدر برغسون وهو في سن الثلاثين كتابه: «بحث في المعطيات المباشرة للوعي» الذي يمثل محطة مهمة في مسار عمله، كونه يطبق فيه منهجاً جديداً من أجل استقصاء الوعي الذي نمتلكه بصدد أنانا، كما يعرض الملامح الأولية لما سوف يشكل لاحقاً نظريته الخاصة بالمعرفة.

■

لماذا لا يثور المصريون؟

علاء الأسواني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠، ٣٠٤ صفحات



في هذا الكتاب يختار لنا الدكتور علاء الأسواني المجموعة الأولى من مقالاته الصحفية الجريئة والتي نشرها حتى عام ٢٠٠٨. وفيها يتناول هموماً مصرية شغلتنا جميعًا في تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر. يناقش الأسواني ويحلل أوضاع المصريين أمام حكامهم، والزمن الصعب الذي يعيشونه. ويستعرض أبرز الأفكار السياسية والأزمات الديمقراطية التي تهم كل من يفكر في مستقبل مصر. كما يتطرق إلى الأوضاع العربية وما شهدته الساحة السياسية العربية من تغيرات عنيفة في تلك السنوات القلقة. علاء الأسواني يسجل يومياته ومشاهداته والجدالات التي دخل فيها مع مثقفين مصريين وعرب وأجانب امتازت جميعًا بأسلوب الكاتب الذي يمسك بتلابيب القارئ ولا يدعه حتى ينتهي من القراءة.

■

المشاريع الوحدوية العربية ١٩١٣ - ٢٠٠٩

(الوثائق)

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٩١١ صفحة

في إطار الجهد التوثيقي لمركز دراسات الوحدة العربية تجاه قضايا وحدة الوطن العربي، وحرصاً منه على متابعة ما يستجد من مشاريع وحدوية، يصدر هذا الكتاب: المشاريع الوحدوية العربية ١٩١٣ – ٢٠٠٩ (الوثائق)، ليضم المشاريع الوحدوية التي تبلورت منذ المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس (١٩١٣) وظلت تتبلور حتى أوائل العام ٢٠٠٩ .

والوثائق التي ينطوي عليها هذا الكتاب هي وثائق رسمية، وغير رسمية، تتناول قضية الوحدة الشاملة أو الإقليمية.

ولم يكن للكتاب أن يغطي مثل هذه الفترة التي تمتد إلى نحو قرن من الزمن لولا الجهد التوثيقي التراكمي، إذ نشر المركز في العام ١٩٨٨ كتاب «المشاريع الوحدوية العربية، ١٩١٣ – ١٩٨٧» مع خمسة ملاحق، ثم ارتأى المركز أن يضيف إلى الكتاب ملحقًا سادسًا تضمن ما استجد من مشاريع وحدوية بارزة، تبلورت خلال عامي ١٩٨٨ و١٩٨٩ .

وفي السياق نفسه، وبعد مرور نحو عقدين من الزمن، ارتأى المركز أن يضيف إلى الملحق السادس (من الطبعة الثانية) مشروعين، يُعنى الأول بوضع ميثاق للتعاهد العربي، والثاني بالبحث عن برنامج عملي للعمل الوحدوي.

كما تضمن الكتاب ملحقًا سابعًا، يشمل مشاريع خرجت إلى حيز الوجود أو ترجمت على أرض الواقع مثل إعلان الوحدة اليمنية عام ١٩٩٠، ومعاهدة الأخوة والتنسيق بين لبنان وسوريا عام ١٩٩١، وإعلان منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى عام ١٩٩٧، وإنشاء البرلمان العربي الانتقالي ٢٠٠٥، وإعلان السوق الخليجية المشتركة عام ٢٠٠٧، وصولاً إلى القمة العربية الاقتصادية والتنموية والاجتماعية التي عقدت في الكويت خلال الفترة من ١٩ إلى ٢٠ يناير ٢٠٠٩ – وهي الأولى من نوعها – والمشروع اليمني لقيام «اتحاد الدول العربية» الذي قُدِّم إلى القمة العربية الأخيرة في الدوحة، أواخر مارس ٢٠٠٩ .

وبغض النظر عن الجدل السياسي الذي قد تثيره نصوص بعض هذه المشاريع لدى الكتاب والباحثين، ولدى أطراف في العمل السياسي العربي، فإن اختيار النصوص تم في إطار الجهد التوثيقي الهادف إلى خدمة الباحث في موضوع «المشاريع الوحدوية العربية».

■

العنف والمقدّس

رينيه جيرار

ترجمة: سميرة ريشا

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٥٧٤ صفحة



بعد «الكذبة الرومانسية والحقيقة الروائية» يعتزم رينيه جيرار في كتابه «العنف والمقدس» أن يرقى بنا إلى بدايات الصرح الثقافي والاجتماعي الذي يرتفع في قلب حضارتنا، هذا البحث الفذ يركز على الدور الأساسي للعنف المؤسس والضحية الفدائية استناداً إلى قراءة جديدة، شخصية جداً، للتراجيديين اليونان، وفي الآن نفسه إلى مناقشة

محكمة لأهم المناهج التفسيرية، ولاسيما التحليل النفسى، وبذلك يجد الدينى المؤسس على الإجماع العنفى تحليلاً دقيقًا وتفسيراً غير مسبوق فى هذا البحث الرائد.

■

عصير الكتب
علاء الديب
القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠، ٣٨٠ صفحة
«كتاب استثنائى»
إبراهيم أصلان
«باب صحفى خالد وكتاب بديع»
بلال فضل



«عصير الكتب» كان عنوانًا للباب الأشهر فى صحافتنا الثقافية. فى «عصير الكتب» يقدم لنا الكاتب الكبير «علاء الديب» شهادة كبرى على إبداعات حقبة ثرية ومثيرة من تاريخ هذا الوطن. يغطى بها مساحات من الأمكنة والأزمنة عبر مختارات قوامها مائة وأحد عشر عملا فى القصة والرواية والشعر والسياسة والموسيقى والاجتماع والتاريخ، يتناولها بالتحليل الممتع، والعرض الشائق. ومن حظنا الحسن أن من قام بذلك مبدع كبير له إنجازه فى مجال القصة والرواية وغيرهما، لذلك تعامل مع هذه الأعمال مثلما يفعل خبير فن محترف عاين ومارس كمبدع، قضايا التعبير ومشكلاته.

■

«الأمير الصغير»، «ذهب مع الريح» و«آليس فى بلاد العجائب»
روائع الأدب العالمى فى كبسولة للشباب والناشئة
ترجمة حسين عيد، وحمدى عباس
الدار المصرية اللبنانية
القاهرة ٢٠٠٩

فى محاولة لإتاحة عيون الأدب العربى العالمى للناشئة والشباب عاودت الدار المصرية اللبنانية إصدار سلسلتها الشهيرة «روائع الأدب العالمى فى كبسولة» وهى السلسلة التى كان يشرف عليها الراحل الكبير مختار السويفى وتوقفت مؤقتًا بوفاته، قبل أن تستأنف صدورها، وقد صدر منها حديثًا عددان جديدان، قام بالترجمة والعرض والتبسيط كل من الناقد والمترجم حسين عيد، وحمدى عباس.

احتوى العددان الجديدان على مجموعة من الأعمال الكبيرة مبسطة بما لا يخل بجمال العمل الروائى أو المسرحى بحيث تناسب سن الناشئة والشباب، فالجزء الثامن الذى أعده حسين عيد يضم ثمانى قصص من هذه الروائع أولاها «آليس فى بلاد العجائب» للويس كارول، ثم «الأمير الصغير» لأنطوان دى سانت أكزوبرى، والتى ترصد أدق تفاصيل التعبير الإنسانى.

ثم «التحوُّل» لفرانز كافكا، حيث ترصد غرابة السلوك البشرى، أما «صورة دوريان جراى» لأوسكار وايلد، فتتناول علاقة الإبداع بالمجتمع، ثم تأتى «ماسة كبيرة فى حجم الريتز» لفيتز جيرالد، وهى تعالج فكرة الارتحال فى حياة البشر، فى حين تركز «طريق الخروج الطويل» للمؤلف نفسه على فكرة الحرية كمقابل للوجود بسياقها الواقعى والرمزى، كما يضم هذا الجزء الثامن رواية «خارجان على القانون» لسلمى لاجرلوف، ويختتم هذا الجزء من الروائع «بإيثان فروم» لايديث وارتن والتى تكشف عن الصراع الحتمى بين البقاء والرحيل بين الثابت والمجهول، هى كلها أعمال أدبية رائعة تجاوزت حدود الزمان والمكان وصارت تقرأ فى كل أنحاء العالم.

أما الجزء التاسع الذى أعده حمدى عباس فيضم أربع روايات وثلاث مسرحيات.. تأتى فى البداية «مرتفعات وذرنج» لإميلى برونتى، حيث تتناول صراع المشاعر والمادة، وتليها مسرحية «ما وراء الأفق» لأوجين أونيل لترسخ لفكرة الأمل والأحلام فى تشكيل مستقبل الإنسان، أما قصة «بعيداً عن الحشد المجنون» لتوماس هاردى، فهى تركز على فكرة التواؤم مع المجتمع المحيط، وكيف يقابله صراع البحث عن الأفضل.. وتأتى «ذهب مع الريح» لمؤلفتها مارجريت ميشيل لتؤكد قيمة الانتماء إلى الأرض لتشكيل أساس حياة الإنسان.. بينما تأتى قصة «إيما» لجين أوستن مؤكدة قيمة التوافق والاختلاف فى تشكيل حياة شابة تبحث عن الأفضل النسبى، وليس الأفضل المطلق..

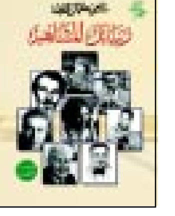
ويختتم الجزء بمسرحيتين رائعتين:

أولاهما: «زوج مثالى» لأوسكار وايلد، الزاخرة بتلك التناقضات التى تتشكل منها حياتنا.

وثانيتهما «يوليوس قيصر» لوليام شكسبير، الزاخرة بعبق التاريخ وروعة الصراع الإنسانى حين ينتصر للخير..

فـــى بريـــــد المشــــــــاهير

رسائل المشاهير
سامى كمال الدين
شمس للنشر والتوزيع
القاهرة



(لستُ من هواة التقليب فى الأوراق الشخصية لأناس رحلوا عن الحياة لأجل تحقيق انفراد صحفى أو بعثرة أسرار أناسٍ نحبهم، بقدر ما هو بحث عن ذلك الزمن الجميل الذى طوى رغمًا عنا، وفرّ من عمرنا رغمًا عنا، ولم يعد مرة أخرى.

رسائل تختبئ فى حقائب قديمة، أو بين ركام كراكيب متربة، أو ملقاة بإهمال فى «السندرة»، أو ملقاة على الأرض فى حجرة مهجورة، أو موضوعة على «رف» نسيه أصحاب البيت من سنوات طوال... لكن التقليب فيها.. إمساكها باليد.. مجرد مرور العين عليها؛ يفتح آلافًا من الضحكات والأحزان والدمعات والصور.

الأوراق هى التى يتعرى الإنسان أمامها متجرداً من كل شىء ليبوح بما لا يستطيع أن يقوله لأحد.. وهو ما لاحظته مثلاً فى الرسائل المتبادلة بين إحسان عبد القدوس وروز اليوسف.. تحس أن إحسان صاحب المقالات الساخنة التى فجرت قضية الأسلحة الفاسدة، وصاحب المقال الشهير «الجمعية السرية التى تحكم مصر» عن رجال ثورة يوليو، وصاحب الروايات التى لا تحصى؛ بعالمها القصصى الخاص بها؛ بأشخاصها الذين يتحكم فى مصيرهم إحسان وحده؛ تحس أنه طفل صغير يركض على شاطئ نهر وهو يكتب إلى أمه: (... كنتُ أراكِ جميلة طول عمرى، وما زلتُ حتى اليوم أراك بضفائر طويلة فى لون الذهب، وبشرتك فى لون اللبن المخلوط بعصير الورد، وعيناكِ فى لون الربيع تنبضان بالحياة والحنان، وشفتاكِ فيهما رحمة وكبرياء.. ما زلت تضحكين كطفلة، وما زلت تتحدثين كصبية لم تنزل بعد إلى زحام الحياة، وما زلت تعاملين الناس فى تواضع وسذاجة...).

إنها قصة حب بين ابن وأمه، فهو يتغزل فى عينيها وشفتيها وحنانها.

كذلك البطل القائمقام يوسف صديق صاحب الشرارة الأولى التى اندلعت فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والذى لولاه ما ارتدت مصر ثوب حريتها؛ تجده يكتب إلى زوجته سنة ١٩٣٦ : (إننى تعبت من إرسال قبلاتى إليك - وأود أن أقبلك فعلاً - فليس القول كالعمل.. إذن سنبدأ شهر العسل من جديد، وسنبدأ حياتنا الزوجية من جديد، فكل ما مضى لا أعترف أنا به، ولا أسجله على نفسى مهما كان فيه من مزايا، وعليكِ أن تعتبرى نفسك الآن خطيبتى، وأن موعد زفافنا هو أول يوليو ١٩٣٦ لا ٤ إبريل ١٩٣٥ ...).

هو شاعر وأديب وفارس من ضباط مصر الأحرار الذى أشعل شمعة الحرية ومضى لا يريد جاهًا ولا مالاً.. ولكن ظلت سيرته الحسنة.

كذلك تجد الرئيس الراحل أنور السادات يكتب إلى أولاده بكل خفة دم : (وحشتونى يا غجر يا أولاد الغجر.. سأفسحكم بسيارة عمكم جمال..).

وتُصدم حين تطلع على رسائل أشهر رئيس مخابرات عربى يكتبها من المعتقل لأولاده، فإذا بها مليئة بذكر الله سبحانه وتعالى وآيات كتابه الكريم، رغم أننا لم نقرأ عن صلاح نصر إلا قصصًا مليئة بالنساء والتجسس والفضائح.

إن هناك حياة أخرى لهؤلاء الناس قد تكون هى الحقيقة التى لا نعرفها.. والتى تتضح من الرسائل الخاصة بهم.. ولا أعرف من الذى فعل بصلاح نصر كل هذا؟!

أما المفاجأة فكانت فى رسائل محمد كريم مخرج كل أفلام محمد عبد الوهاب، ويوسف وهبى الذى يطلب ألف ليرة «سلف ودين» من محمد كريم، وكتابات كريم إلى فكرى أباظة وكامل الشناوى والشيخ محمد رفعت وغيرهم... حوالى ٢٤ رسالة تلخص تاريخ السينما المصرية.

وفى الحقيقة فإن مسألة الرسائل فى الأدب العربى شغلت كثيرين من المفكرين والكتاب.. ولعل من مميزات هذا العصر أنه لم تكن هناك أدوات اتصال مثل الهاتف المحمول والـ SMS، وإلا ما وجدت هذه الرسائل الجميلة..

سامى كمال الدين

إســـــــرائيـل فـــى هـــــايـيتى

يـوئيــــــــل دونشـــــــين
Yoel Donchin

■■ حصلت على إعفاء نهائى من الخدمة العسكرية بعد أن نشرت مقالا جاء فيه أن دولة إسرائيل تتصرف تماما كعضو الكشافة المجد؛ الذى يصر على القيام بفعل جيد يوميا، كأن يساعد سيدة مسنة على عبور الطريق حتى ضد إرادتها. كم كنت جاحدا لإقدامى على نشر هذا المقال، رغم مشاركتى تقريبا فى جميع بعثات الإنقاذ التى أرسلت إلى المناطق المنكوبة فى الخارج! فجأة لم أعد مناسبا للمشاركة فى مثل هذه المساعى البطولية. كل ذلك لأنى استنتجت فى ضوء الخبرة التى اكتسبتها خلال هذه البعثات، أننا أضعنا جهدنا.

على وجه العموم، نبدأ بالتحضير لمثل هذه المهمة فى غضون ساعات من إعلان وقوع كارثة طبيعية. وفى معظم الأحيان تكون البعثة الإسرائيلية هى الأولى فى الهبوط على أرض المنطقة. مثل أولئك الذين يتسلقون قمة جبل إفرست؛ تغرس علمها فى أعلى قمة متاحة، وتعلن للجميع من دون استثناء أن الموقع تمت السيطرة عليه. وبغية التأكد من أن الجمهور سيكون على دراية بهذا الإنجاز الكبير، يرافق البعثة ممثلو وسائل الإعلام والمصورون ومتحدث باسم الجيش الإسرائيلى وآخرون.

فهمت الغرض الحقيقى عندما طلب من أحد رؤساء البعثات المرسلة إلى منطقة منكوبة إزاحة خزانات الأكسجين وعدد من الأطباء لإفساح المجال لممثلى شبكة تليفزيونية أخرى مع معداتهم. (وبشجاعة غير عادية، رفض رئيس الوفد!).

البروفيسور يوئيل دونشين هو مدير وحدة سلامة المرضى فى مركز هداسا الطبى فى القدس.
للعودة للأصل العبرى:
http://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-3836494,00.html

ترجمه (من الانجليزية): جيهان شعبان
علاقات عامة بدلا من إنقاذ الأرواح
Public Relations instead of saving lives



الدرس المستفاد من أنشطة تلك البعثات هو أنه عندما تكون هناك كارثة طبيعية، أو عندما يتم طرد الآلاف من الناس من ديارهم بالقوة، كما حدث فى كوسوفو، قد يستفيد الناجون من المساعدات الدولية فقط إذا كانت تستجيب لاحتياجات المنطقة الخاصة. أيضا عندما يتم التنسيق بين مختلف وكالات الإغاثة.

يفرض السباق التنافسى لمنطقة كوارث عبئا كبيرا على سلطات الصحة والإدارة المحلية؛ تسد المطارات بفعل طائرات النقل التى تقوم بتفريغ الكثير من المعدات الضخمة التى لا لزوم لها. يبحث الأطباء ومنظمات الإغاثة عن سبل لاستخدام طرق ضيقة فيشكلون عبئا إضافيا.

الطريقة الصحيحة للمساعدة تكون بإرسال قوة صغيرة فى البداية لقياس أبعاد الكارثة؛ البنى التحتية التى ما زالت قائمة؟ إذا ما كان إرسال مستشفى ميدانى مع جميع مكوناته سيثقل كاهل نظام الطرق، أو غيرها من البنى التحتية؟

المهم أن يطلقوا على هذا الطفل اسم إسرائيل؟

ثلاثة عناصر ضرورية:

المأوى والمياه والمواد الغذائية، هذه هى الأشياء الحاسمة من أجل إنقاذ أكبر عدد ممكن من البشر؛ دائما يكون هناك احتياج لمعدات تنقية المياه والخيام وحصص من الأغذية الأساسية. إلا أنها تفتقر إلى التأثير الدراماتيكى المطلوب. لو سلكنا هذا المسار فسوف نفوت فرصة رؤية ذلك الطفل الذى ولد بمساعدة أطبائنا. وبالتأكيد لن تطلق الأم المتحمسة على طفلها (الذى لا يعلم أحد إذا ما كان سيستطيع مواصلة الحياة) اسم إسرائيل، أو اسم المولد أو الممرضة. (ترى هل كان يحصل على الجنسية لأنه ولد فى الأراضى الإسرائيلية؟ سنجد العديد من المعارضين لذلك). هى دراما بالتأكيد من الدرجة الأولى، لكن من المشكوك فيها بالضرورة أيضا.

سيكون أكثر ملاءمة إرسال قوة محدودة إلى المناطق النائية. على أن ترسل إسرائيل، قوة تضم مشرفا للطعام الحلال (كشروت)، وأفراد أمن وغيرهم.

فى الكارثة الحالية، والتى هى من الضخامة بحيث تفوق أى شىء آخر واجهناه حتى الآن، فإن الحاجة لا تتعلق كثيرا بمستشفى ميدانى ولكن بالميدان فى حد ذاته، أى بالمراحيض المحمولة. هناك حاجة لمعدات الحفر لحفر مقابر وأنابيب الصرف الصحى.

والبلد الذى يرغب فى تقديم المساعدات الإنسانية دون أن ينصب اهتمامه الأول على ما إذا كانت وسائل الإعلام ستقوم بتصويره، يجب أن يرسل كل ما هو مطلوب حقا من جانب الضحايا، وليس كل ماهو مناسب للدعاية التلفزيونية. فمثلا لن يظهر قائد البعثة الإسرائيلية فى نشرات الأخبار المسائية محاطا بـ٥٠٠ من المراحيض الكيميائية، حتى ولو كانت الحاجة إليها ماسة. فالأكثر ذكاء بالتأكيد هو إظهار أحد المستشفيات الإسرائيلية فى وسائل الإعلام، وهى تزخر بنجوم داوود، وبالطبع يرتدى الأطباء والممرضات المكلفون زيا أنيقا طرز على ياقته العلم الإسرائيلى.

هل يجب على إسرائيل الانخراط فى حملة بهذا الحجم؟ وأن تقوم بتعبئة موارد كبيرة للوصول إلى أماكن تبعد آلاف الكيلومترات؟ إذا كانت إسرائيل ترى تقديم المساعدات الإنسانية كجزء من طابعها الوطنى، وإذا كنا نرى قيمة مضافة فى وجود ممثلين على أرض الواقع فى مثل هذه الأماكن، فقد يكون من الأفضل التخطيط لذلك بشكل مسبق لتكون لتلك البعثات فائدة حقيقية.

ومن المرجح أن تكون المساعدة التى تتناسب مع موارد إسرائيل، أمرا بالتأكيد مختلفا عن النفقات الهائلة والخدمات اللوجستية المعقدة التى يتطلبها توفير وصيانة وحدة طبية فى الميدان.

ولكن على ما يبدو أن دقيقة من التغطية التلفزيونية أهم بكثير من كل الاعتبارات الأخرى، والواقع أن إسرائيل تستخدم الكوارث للتدريب على الإنقاذ والرعاية الطبية. فبعد أسبوعين ستعود البعثة إلى إسرائيل، على الرغم من أننا جميعا نعرف أنه لكى يكون المستشفى الميدانى فعالا حقا يجب أن يبقى لشهرين أو ثلاثة أشهر، ولكن ذلك شرط لا تستطيع إسرائيل الوفاء به.

لايهم، ففى كل الأحوال سيظل مجمع إسرائيل للإغاثة فى هاييتى هو الوحيد الذى يحتوى على لافتات كبيرة نقش عليها اسم الدولة المانحة ليراها الجميع. ■

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 134 - March 2010

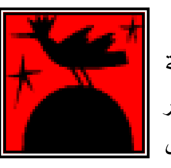
مجلة شهرية العدد ١٣٤ - السنة الثانية عشرة - مارس ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهات



السنة الثانية عشرة
العدد ١٣٤
مارس ٢٠١٠

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد آق كوندوز .. كاتب تركى
- ألان جريش .. صحفى فرنسى
- إيريك هوبزباوم .. مؤرخ بريطانى
- ديفيد غولدبرغ ثيو ... مدير معهد بحوث الإنسانيات بجامعة كاليفورنيا
- سارى مقدسى... أستاذ الأدب الإنكليزى والمقارن فى جامعة كاليفورنيا لوس أنجيليس
- لارى دايموند ... مدير مركز للديمقراطية والتنمية وسيادة القانون بجامعة ستانفورد
- محمد سليم العوا... محام بالنقض ... رئيس جمعية مصر للثقافة والحوار
- معتز الخطيب .. كاتب وباحث من سوريا
- وليد محمود عبد الناصر .. كاتب مصرى

رسوم العدد

محمد حجى - عماد حجاج
لوحة الغلاف للفنان حلمى التونى عن لوحة شهيرة للفنان المعلم محمود سعيد - زيت على توال ٨٠×١٠٠ سم (تفصيل)





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

محمد سليم العوا



عن مصر التى كانت!!

■■ سيدى الرئيس..

حضرات المستشارين..

أفتتح هذا القسم من دفاع المتهم الثانى، ولعله دفاع للمتهمين كافةً، بتحية الزملاء المحترمين فى النيابة العامة الذين تولوا المرافعة فى هذه القضية ممثلين للاتهام.

لقد أبت على هؤلاء الرجال ضمائر حيَّة ودينٌ بادٍ إلا أن يعطوا القضية فى مرافعتهم وصفها الصحيح وتكييفها الواقعى: «قضية سياسية قبل أن تكون، بأى اعتبار، قضية جنائية».

لقد استمعنا إلى ذكر دولة قيل إنها تحاول الهيمنة على المنطقة بأسرها. لكن اسمها لم يذكر، وبقى لنا بهذا الإغفال المتعمد أن نجتهد فى إقامة الدليل على الذى يقصده الاتهام بتلك الدولة.

واستمعنا إلى أن حزب الله مجرم لأنه أقام بين وحداته. التى يقاوم بها الصهيونية وحدة تنعت بالوحدة (١٨٠٠) المسؤولة عن دول الطوق، وتركنا الاتهام فى مرافعته. حيارى أىَّ طوق هذا؟ أهو الطوق المحيط بمصر أم بسواها من الدول؟ ولذلك حقَّ لنا أن نجتهد فى هذه المسألة لبيان المقصود بها.

صفحات من:
مذكرة تتضمن خلاصة دفاع المتهم الثانى محمد يوسف أحمد منصور وشهرته سامى شهاب ـ فى القضية رقم ٧٦٢٩ لسنة ٢٠٠٩م جنايات عابدين المعروفة بقضية «خلية حزب الله» ـ المحددة لنظرها جلسة ٢٠/٢/٢٠١٠

■ ■ ■

للاستزادة ـ انظر أيضا:
فتحى الديب: عبد الناصر وثورة الجزائر، الطبعة الثانية، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٩٠

دكتور هيثم موسى حسن، التفرقة بين الإرهاب الدولى ومقاومة الاحتلال فى العلاقات الدولية، رسالة دكتوراه ١٩٩٩ جامعة عين شمس، طبعة نقابة المحامين بالقاهرة، ١٩٩٩

واستمعنا إلى مذهب يرى أن حزب الله أداةٌ للدولة الأجنبية، على نحو يحقق وصف الدولة الأجنبية لمن يتخابر معه، فتقوم بذلك الجريمة الموصوفة فى المادة ٨٦ مكررا ج من قانون العقوبات، فأصبح علينا بيان مدى صحة هذا الاستنتاج أو مدى خطئه.

واستمعنا إلى عبارات فيها ذكر العدو، وعبثه وغروره... ولم يوقفنا الادعاء على الذى يقصده بهذا التعبير فأمسى من واجب الدفاع تبيين من الذى يستحق هذه الأوصاف الواردة فى تلك العبارات، ويقيم الدليل على ذلك.

واستمعنا إلى تأكيد لدور مصر التاريخى فى نصرة القضية الفلسطينية وأن المتهمين أرادوا بجرائمهم. التى تحاكمونهم عنها. «أن تتخلى مصر عن قضية أمتها ليرثوا عرش ريادتها»!! فأضحى واجبا علينا أن نبين صنيع مصر الحقيقى، لا فى هذا الشأن وحده، بل فى شأن آخر متصل أوثق اتصال بما نحن فيه، وسأحاول بيانه حالا.

فهذه وجوه خمسة، تناولها الزملاء المحترمون الذين مثلوا النيابة العامة فى هذه القضية، فأكدوا ماهية القضية وطبيعتها ومعالمها وحدودها: إنها قضية سياسية بكل ما للكلمة من معنى ولذلك قلت إن تحيَّتهم علىَّ واجبة: أن أعطَوا القضية وصفها الصحيح وتكييفها الحق.

نعم إن أمامنا واجب التعرض لمواد الاتهام، وقد عرض لها الزملاء المحترمون ممثلوا النيابة العامة، لكن الإحاطة بشأنها، وتفنيد دعوى انطباقها على ما هو منسوب إلى المتهم الثانى، بل إلى المتهمين كافة، كل ذلك لا يستقيم بنيانه، ولا يصدق فى الأذهان بيانه، إلا بعد إنعام النظر وإجالة البصر فى حقيقة ماهية الدعوى ووصفها السياسى.



سيدى الرئيس..

حضرات المستشارين..

إن نشاط المتهم الثانى كله، وما يرتبط به من نشاط غيره، لم يكن له هدف. على ما تنطق الأوراق به. إلا مواجهة العدو الصهيونى بتزويد المقاومين الفلسطينيين فى غزة بالسلاح والعتاد، وتدريب من يمكن تدريبه منهم ليعود مرة أخرى إلى أرض فلسطين المحتلة فيقاوم منها العدو الصهيونى.

الركن المادى لهذا النشاط كله كان: محاولة المساعدة فى إمداد وتموين القوى المقاومة للاحتلال فى فلسطين بالسلاح والخبرة.

والركن المعنوى، القصد، كان هزيمة العدو الصهيونى، إن لم يكن فى وجوده بإزالته وهدمه. وهو واقع لا محالةَ طال الزمن أم قَصُر. إن لم يكن فى وجوده، ففى غطرسة القوة التى يدعيها، ويهدد شعوب المنطقة كلَّها بها. إن لم تكن هزيمة كلية نهائية، فهزيمة جزئية موجعة يتراكم أثرها مع آثار الهزائم التى أصابته وتصيبه، منذ هزيمته فى رمضان ١٣٩٣هـ = أكتوبر ١٩٧٣ على الجبهة المصرية، إلى هزيمته فى لبنان فى جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ = يوليو/ تموز ٢٠٠٦، بل حتى هزيمته بانسحابه دون أن يحقق أى هدفٍ من أهداف حربه على غزة (٢٠٠٨.٢٠٠٩).

ثم، بعد هذا التراكم، تكون القاضية التى وعد الله بها عباده: ﴿ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنَن لهم دينهم الذى ارتضى لهم؛ وليُبْدلَنَّهم من بعد خوفهم أمنًا؛ يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا﴾ (النور: ٥٥).

إن الاحتلال. سيدى الرئيس. كلَّه، حيثما كان، غير مشروع. والمقاومة المستمرة، فى كل أوطان العرب، أثبتت أن هذه الأوطان تسكنها شعوب لا قابلية لديها للاستعمار، ولا ترتضى الضيم، ولا تستنيم إلى الذل، بل هى شعوب تقاوم جيلا بعد جيل، لا يتوقف جهادها إلا تحرفًا لقتال أو تحيزا إلى فئة، ولا يصيبها مصاب فى مجاهديها إلا كان فى الناشئة من يسد مسده ويقوم مقامه:

إذا مات منَّا سيِّدٌ قام سيدٌ..
قؤول لما قال الكرامُ فعولُ(!!)



من الذى ساد هذا الميدان أول ما شُقَّ طريقه ومُهِّدتْ سبيله؟

من الذى سنَّ سنَّة مقاومة الاحتلال حيثما كان، وبكل وسيلة أتيحت، وبلا نظر إلى شىء مما يفرضه القانون الدولى والمحلى، على غير مواطنى الدول، من احترام سيادتها، وعدم انتهاك أراضيها بدخولها بغير إذنها؟

من الذى صنع ذلك أوَّلَ الناس وعلمَّهُ من بعد للعالمين؟ إذا عرفناه أقمنا الحجة عليه بفعله الحسن الرائد الشجاع المثمر أحسن الثمر. ولذلك صحت مقولة القائل صادقًا: «...وأول راضٍ سنَّةً من يسيرها»(!!)

مصر، يا سيدى الرئيس، هى أول من مهَّد هذه السبيل، وشقَّ هذا الطريق، وسار فيه أشواطًا بعيدة لو ذهبت أصف تفاصيلها، وأذكر حقائقها، لضاق بى المقام عن الوفاء بحقها. لكننى أكتفى بإشارة دالة غير مخلة، تثبت، بلا ريب، أن الذى صنعه المتهم الثانى من أبطالِ مصرَ تعلَّمه، وأن الهدْىَ الذى حاول أن يبلغ به مَحلَّه هو هدْىٌ غَذَتْهُ مصر بروحها وعطائها ومالها عَقْدين كاملين من الزمان يزيدان فى بعض البلدان قليلا ويقلان فى بعضها الآخر قليلا.

مصر، يا سيدى الرئيس، أرسلت منذ نهاية عام ١٩٥٢ (عام قيام الثورة) إلى ٢٦/١١/١٩٥٩ (فى أثناء الوحدة مع سوريا) خمسًا وأربعين شحنة سلاح وذخائر ومعدات تفجير ومتفجرات وأطقم للضفادع البشرية للتفجير تحت الماء وغيرها من المهمات العسكرية... أرسلتها إلى الجزائر، وبعض المجاهدين فى تونس ومراكش (المغرب). عبر بها الضباط المصريون حدود ليبيا من البر ومن البحر، ثم حدود تونس البرية الصحراوية القاحلة إلى الجزائر، وتسلمها المجاهدون الجزائريون يدا بيد من الضباط المصريين الذين كانوا يعملون. يومئذ. فى المخابرات العامة المصرية.

وكان راعى هذا العمل رعاية مباشرة هو جمال عبد الناصر لا سواه.

يدل على ذلك شهادة فتحى الديب فى كتابه عبد الناصر وثورة الجزائر (الطبعة الثانية، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٩٠). لقد تضمنت هذه الشهادة، فى مواضع عدة، أن فتحى الديب عندما كان يخبر مدير المخابرات المصرية ومؤسسها: زكريا محيى الدين، بأمر من أمور هذا العمل المصرى البطولى كان زكريا

عبد الناصر مع جميلة بوحريد وزهرة بو ظريف - ١٩٦٢ ـ تصوير: حسن دياب



محيى الدين يأمره بالعرض على عبد الناصر شخصياً، ومنه كان يتلقى الدعم والإقرار فيما فات، والأوامر والتوجيهات فيما هو آت.

لقد أنشأت المخابرات المصرية. حديثة العهد يومذاك. قسماً للوطن العربى كان يرأسه فتحى الديب، كما أنشأ حزب الله الوحدة رقم (١٨٠٠) لدول الطوق. أليس هذا سلوكاً واحداً يجب أن يسلكه كل مقاوم للمستعمر المحتل؟ كيف يقاومه وهو لا يعمل من حول حدوده؟ وهل يملك أن يبقى نفسه محصوراً فى جبهة واحدة إذا حيل بينه وبين العمل منها توقف جهاده فى سبيل وطنه وأمته؟

لقد كانت مصر هى الرائدة فى ذلك السباقة إليه، ومنها تعلمه المجاهدون العرب والأفارقة. فأنّى لنا اليوم أن ننكر على المقلدين ونحن المبدعون المبتكرون؟ وكيف يسوغ لنا أن نعاقب من يمشون على الدرب الذى افتتحناه، وعبّدناه، واخترعنا وسائل عبوره إلى الهدف الأسمى: تحريرِ الأوطانِ من نيرِ الاحتلال!!

إن مصر، فى قيادتها كفاح الشعوب ضد الاحتلال، من خارج أوطانهم، ومن خلال اختراق أراضى دول أخرى، وأنهارها، ومياهها الإقليمية، ومجالها الجوى، لم تساعد شعب الجزائر وشعب تونس وحدهما. لكنها ساعدت: الجزائر وتونس ومراكش (المغرب الآن)، وساعدت الصومال، ومالى، وكينيا (أيّدنا فيها ثورة الماوماو)، وأوغندا، والكونغو (برازفيل)، وبوروندى، وتنزانيا، وزنزبار، ونيجيريا، وإريتريا، والكونغو (كينشاسا) (محمد فائق، عبد الناصر والثورة الأفريقية، الطبعة الرابعة، دار المستقبل العربى، القاهرة ٢٠٠٢). فهذه أربع عشرة دولة ليس من بينها دولة واحدة تجمعها بمصر حدود برية أو بحرية، فكان لزاماً، كما هو الحال فى قضيتنا، أن يعبر رجال المخابرات المصرية. بالمئات إذا جمعناهم. حدود بلاد من البر والبحر والجو كى يصلوا إلى أهدافهم من مساعدة المجاهدين للاستقلال عن الاحتلال، وهى مساعدة كانت دائماً بالسلاح والتدريب على استعماله والعتاد الحربى والمتفجرات وأدوات تفجيرها... إلخ.

إن فى أدلة اتهامنا أن حديثاً جرى بين المتهمين الأول والثانى ومتهمين آخرين حول إمكانية استئجار مركب صيد لتهريب السلاح والذخيرة فيها إلى المجاهدين فى غزة... وسيأتى حديث الاستدلال بهذه الواقعة على الإدانة لاحقاً. لكننى أتساءل الآن هل أتى المتهم الثانى ورفيقه المتهم الأول بهذه الفكرة

قضت الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب (١٩٩٨) فى مادتها الثانية بأنه: «لا تعد حالات الكفاح بمختلف الوسائل جريمة، بما فى ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبى والعدوان من أجل التحرير وتقرير المصير وفقاً لمبادئ القانون الدولى»



من عند نفسيهما أم أن لهما فيها سابقاً هو أسوة وقدوة؟

إن هذا السابق. سيدى الرئيس. كان المخابرات المصرية، فى تهريبها السلاح والذخائر بكميات هائلة إلى الجزائر وتونس والمغرب. لقد استخدمت المخابرات المصرية اليخت (دينا) الذى كان مملوكاً للملكة دينا عبد الحميد ملكة الأردن، بغير علمها. طبعاً. واليخت (نمر) الذى كان مملوكاً قبل الثورة للأمير عباس حليم وصودر مع أموال الأسرة المالكة. واليخت (الحظ السعيد) الذى كان مملوكاً للمخابرات العامة. واليخت (انتصار) الذى كان مملوكاً للقوات البحرية، استخدم مرات، واليخت (بلزتريك) الذى اشتراه أحمد بن بللا من إيطاليا بأموال من المخابرات المصرية.

واشترت مصر السفينة (دفاكس) من اليونان بعشرين ألف جنيه إسترلينى لتستعملها فى تهريب السلاح للجزائر. (فتحى الديب، السابق، ص ١٦٩ وص ٢٢٩).

وحمّلت مصر سفينة بريطانية اشتريت بأموال مصرية اسمها (آتوس) بشحنة هائلة من السلاح والذخيرة إلى الجزائر (الشحنة العاشرة) فضبطها الجيش الفرنسى وصادر الشحنة، واعتقل عشرات من المجاهدين الجزائريين الذين كان تدريبهم قد اكتمل على الحرب البرية، وبعضهم على أعمال الضفادع البشرية، بأجهزتهم وسلاحهم وعتادهم... وكان ذلك نتيجة خيانة غير مسبوقة، من شخص غير مصرى، كان يتعاون مع مخابراتنا.

وعندما أصابت صدمة عصبية البطل فتحى الديب. الذى يقابل فى قضيتنا المتهم الثانى. كان رد فعل جمال عبد الناصر أن استدعاه وقال له بالحرف الواحد، والعهدة على فتحى الديب: «مالك زعلان ليه، هو أنت متصور أن كل عملياتك لازم تنجح. دى أول مركب تتمسك من ثمانية مراكب. ولازم تكون واقعى احنا قدراتنا محدودة (أليست قدرات المقاومة كلها محدودة بالقياس إلى الصهاينة؟!) ورغم كده نجحنا فى تهريب عدة مراكب. ولا يهمك!! أنا عاوزك تقوم بعملية تهريب جديدة بكرة، وحتى لو اتمسكتْ برده شىء طبيعى يجب ألا يهز أعصابنا لأن اللى بيعمل فى العمل السرى لازم يتوقع النجاح والفشل» (فتحى الديب، السابق، ص ٢٥٩).

مصر، إذن، سيدى الرئيس، حضرات المستشارين، هى صاحبة فضل السبق، ودور الريادة فى الباب الذى دخلت منه بعدها كل قوة عربية تحاول التخلص من الاحتلال والقضاء على الاستعمار. وهو الذى فكّر المتهم الثانى. أو الأول. أن يحاول الولوج منه إلى مساعدة المقاومة الفلسطينية أو اللبنانية؟

فأى بأس على المقلِّد إن كنت أنا المجتهد؟ وأى تثريب على اللاحق إذا كنت أنا السابق؟ وأية عقوبة يجوز لى توقيعها على من اقتدى بى واهتدى بهديى؟

ولم يكن عمل مصر عسكرياً فقط، بل كان سياسياً كذلك. كانت مصر وراء قرار مؤتمر باندونج (١٨. ٢٤/٤/١٩٥٥) «بضرورة التعاون الأفريقى الآسيوى للنهوض بحقوق الشعوب المغلوبة على أمرها».

ووراء القرار الذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٤/١٢/١٩٦٠ بوجوب «اتخاذ التدابير الفورية اللازمة فى الأقاليم المشمولة بالوصاية أو غير المتمتعة بالحكم الذاتى لنقل جميع السلطات إلى هذه الشعوب» (دكتور شوقى الجمل، الدور الأفريقى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤ ص ٣٢، ٣٥).

وما أشبه الليلة بالبارحة (!) ففى ديسمبر ١٩٥٨ انقسم ثوار الجزائر إلى فرقتين متناحرتين، واختارت مصر استمرار دعمها العسكرى بكل صوره إلى فريق أحمد بن بللا، وهاجم فريق عباس فرحات مصر هجوماً شنيعاً «سعياً نحو تشويه سمعة مصر» (دكتور عبد الله إبراهيم رزق، مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال أفريقيا، ص ٦٢) فلم يثنها ذلك عن الاستمرار فى مساعدة المجاهدين لتحرير وطنهم، بل زادها عزماً وإصراراً.

عندما تحدث السيد حسن نصر الله عن إسرائيل بعد انسحابها من لبنان. فراراً بليل. فى مايو ٢٠٠٠م قال إن ذهاب الاحتلال من لبنان لا ينهى المشكلات مع العدو الصهيونى... ولكن هناك ملفات «... والفلسطينيون يجب أن يعودوا إلى وطنهم ومن حقهم أن يفعلوا أى شىء لكى يعودوا إلى ذلك الوطن.» (خطابه فى ١٤/٤/٢٠٠٠ بمناسبة ذكرى العاشر من محرم ١٤٢١هـ).

وليقارن من شاء هذا الكلام بقول جمال عبد الناصر بعد جلاء الاستعمار البريطانى عن مصر: «إن القضية المصرية ليست آخر مشاكل المصريين مع الاستعمار، وإن مصر لن تستريح أو يهدأ لها بال حتى تتحقق الحرية الكاملة لكل بلد من البلاد الأفريقية والعربية والإسلامية. ولابد من مواصلة الكفاح لتحقيق هذه الغاية...» (دكتور على عبده إبراهيم، مصر وأفريقية فى العصر الحديث، دار القلم بالقاهرة ١٩٦٢ ص ١٨٧).

إن هذا سلوك الثوار. دولةً كانوا يمثلون أم جماعة أم حزباً أم مجموعة فدائية. هذا هو سلوك الذين يرون أنفسهم من أصحاب الرسالات لا يختلفون فيه سنةً كانوا أم شيعة. هذا سلوك أصحاب العزائم لا تردُّهم عنه هزيمة عارضة ولا عوائق مانعة.

هؤلاء. سيدى الرئيس. يسلكون كل سبيل متاحة لتحقيق هدفهم الأسمى، لا يأبهون بشىء ما داموا فى النهاية يحققون الغاية التى نذروا أعمالهم لها... «الاستمرار فى دعم الكفاح المسلح... بكل طاقاتنا وقدراتنا المتاحة مهما كانت التضحيات... (الثورة) قامت لا لتحرر أرض مصر وحدها بل لتحرر كل الأرض العربية». (فتحى الديب، نقلاً عن جمال عبد الناصر، ص ٢١٤ وتاريخ هذا الكلام ١٦/٣/١٩٥٦م).

هكذا، سيدى الرئيس، كل ثورى مناضل يرى واجبه يسع الناس جميعاً لا قومه وحدهم، والأوطان كافة لا وطنه دون غيره. وهو لا يعرف فى عمله الحدود ولا القيود، فمصر فى عام ١٩٦٩ قصفت ميناء إيلات الإسرائيلى انطلاقاً من الأراضى الأردنية دون علم سلطاتها.

ومصر فى عام ١٩٧٠ أغرقت الحفار الإسرائيلى الذى كان متجهاً إلى خليج السويس فى مياه المحيط أمام أبيدجان.

عدد من الضباط المصريين الذين أنشأوا المخابرات العامة



عاصمة ساحل العاج. دون علم سلطاتها بالنشاطات الهائلة التى مورست على أرضها ومن خلال مياهها الإقليمية لتحقيق هذه النتيجة.

... إنَّ فى هذا الحديث الممتع، مثيراتٌ للشجن أيضاً. وفيما أشرت إليه كفاية ليتساءَل المرء: هاهنا كنا، أين أصبحنا؟ وكيف؟

وليقف هنا اللسان، ولتلجمْ اليدُ القلمَ عن المضى فيما يعبِّر عنه الصمت بأبلغَ مما يعبر عنه الكلام(!!)



سيدى الرئيس..

حضرات المستشارين..

إن نشاط المتهمين كله، وما كان المتهم الثانى بصدد صنعه، لم يكن إلا مساعدة المقاومة الفلسطينية. وليقل من شاء فى هذه المساعدة ما شاء، فلن يجديه من الحقيقة مهرباً أن يغمض عينيه عنها.

وقيام المتهم الثانى بذلك كان جزءاً من واجبات حزب الله الذى لا يصح له وصف قدر صحة وصفه بأنه جزء أساسى أصيل من حركة التحرر العربية الإسلامية فى طورها الجديد الذى أصبح أمانة فى يد الشعوب وخياراً لها، تقديراً منها ومن زعمائها للضرورات التى حالت بين الحكومات وبين القيام بمثل ما كانت تقوم به حكومة مصر فى عقود الخمسينيات والستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضى.

وهذه القوى التحررية يسعها ما وسع الدولة المصرية فى تلك العقود، ولا سبيل لها كى تواصل عملها إلا هذا «مهما كانت التضحيات» كما كان يقول جمال عبد الناصر.

ولهذا النشاط ضروراته ولوازمه. فقد استخدمت لبعض أنواعه الأراضى المصرية. نعم استخدمت الأراضى المصرية للوصول عبرها إلى الوطن المحتل فلسطين. وجندت عناصر فى سبيل هذا الهدف من مصر ولبنان والسودان وفلسطين نفسها، وربما من دول أخرى كذلك!! كلهم عرب، كلهم مؤمنون بقضية عادلة، عاملون فى سبيلها، وبعضهم همه الارتزاق من عمل شريف (!) يُدْفَعُ فيه الكثير مقابل الجهد القليل(!!)

ونحن فعلنا ذلك. لقد استعنا بيونانيين وقبارصة وهولنديين وبلجيك، فضلا عن المصريين وسائر العرب وجميع جنسيات الأفارقة.



فى ١٦ يناير من العام الماضى ٢٠٠٩ وقعت وزيرة الخارجية الإسرائيلية، تسيبى ليفنى، ونظيرتها الأمريكية، كونداليزا رايس، اتفاقاً قبيحاً فى واشنطن، ينُص على فرض رقابة صارمة على مداخل غزة البرية والبحرية والجوية، بمشاركة حلف الناتو وقوىً إقليميةً أخرى، بحيث تنتشر هذه الرقابة لتشمل البحر الأحمر والبحر الأبيض وخليج عدن والخليج العربى وسيناء !!

وتضمن الاتفاق تَعَهُّد واشنطن بإقامة جهاز مراقبة واسع لمنع تهريب الأسلحة إلى قطاع غزة، ومراقبة معابرها وتزويدها بأجهزة متطورة لاكتشاف الأنفاق، بجانب تدريب قوات محلية فى المنطقة على كيفية مواجهة عملية تهريب السلاح إلى غزة.

هذا الاتفاق المخالف للقانون الدولى لتضمنه تدخلا فى الشؤون الداخلية لدول غير أطرافه، هو مجرد مثال من مئات الاتفاقات المشبوهة المماثلة، فَطِنَتْ له الإدارة المصرية، وتحركت سريعاً لإحباطه، فدعت لقمّة إقليمية ودولية تشاورية تضم كلاً مَن: رئيس السلطة الفلسطينية وملك الأردن والرئيس الفرنسى والمستشارة الألمانية والأمين العام للأمم المتحدة، وآخرين، لتعلن أن مصر لن تكون جزءاً من هذا المخطط المشبوه، وهذا ما عَبَّرَ عنه وزير الخارجية المصرى، السيد / أحمد أبو الغيط، عندما أكدَ فى ١٧ يناير ٢٠٠٩م أن «مصر غير ملزمة بهذا الاتفاق»، وهو ما أكد عليه رأسُ القيادة المصرية، الرئيس محمد حسنى مبارك، بقوله: «إن مصر لن تقبل أبداً نشر قوات دولية على الحدود مع غزة وأن هذا الأمر يعتبر خطاً أحمر»..

وهو مَوقفٌ يُحسبُ للقيادة المصرية، ويدلُ على أنها قارئةٌ جيدةٌ لكل ما يحدث فى هذا الملف الشائك، وأنها تعلمُ جيداً ما يُخطط له الإسرائيليون والأمريكيون، من محاصرة العالم العربى براً وجواً وبحراً، وبكل الطرق والوسائل.

لكن الوسائل التى تملكها مصر، الدولة، تختلف عن تلك التى يملكها المتهمون فى القضية الماثلة وهم أشخاص وطنيون، يغارون على دينهم وأرضهم وعروبتهم، ويحاربون الكيان الصهيونى بكل ما يملكون، وبقدر ما يستطيعون، وهمُ بوصف التاريخ، وخصوصاً التاريخ البطولى المصرى، أبطالٌ لا مجرمون، ولهم كامل الحق فى أن يواجهوا هذه الغطرسة الإسرائيلية والأمريكية على قدر ما يستطيعون، وهذا الحق ثابتٌ بنصوص القانون الدولى، وميثاق الأمم المتحدة، وقرارات الشرعية الدولية، ومعاهدة الدفاع العربى المشترك التى وقعتها الدول العربية. وعلى رأسها مصر. فى عام ١٩٥٠م استجابةً لرغبة شعوبها فى ضم الصفوف لتحقيق الدفاع المشترك عن كيانها.

سيدى الرئيس..
حضرات المستشارين..
لقد سيق دليلاً على صحة الاتهامات الموجهة للمتهمين. وما هى بصحيحة كما سترون. موضوع النفق الذى يقع بين رفح المصرية ورفح الفلسطينية. ولئلا أخوض فى حديث قد يحتمل الاختلاف والجدل أستعيد. كما استعدت حالا. كلام الرئيس محمد حسنى مبارك، نفسه، فى مسألة الأنفاق.

كان الرئيس يتحدث فى عيد الشرطة، ويخاطب قياداتها، بدءاً من الوزير إلى الضباط الكبار ذوى المسؤوليات الواسعة، ويخاطب من ورائهم شعبه وشعوب العالم. فلما ذكر القضية الفلسطينية وجهود مصر بشأنها قال ما نصه بحصر اللفظ:

«لقد روجت إسرائيل خلال العامين الماضيين لموضوع التهريب والأنفاق وعاودت التركيز على هذا الموضوع بعد عدوانها على غزة وخلال اتصالاتنا لوقف إطلاق النار وأقول إن تهريب البضائع هو نتيجة للحصار وأن الاتفاق الإسرائيلى الأمريكى لمراقبة تهريب السلاح لا يلزمنا فى شىء. أقول إننا كأى دولة مسئولة قادرون على تأمين حدودنا لن نقبل بأى تواجد لمراقبين أجانب على الجانب المصرى من الحدود ونتمسك بأن تبتعد أية ترتيبات إسرائيلية دولية عن ارض مصر وسمائها ومياهها الإقليمية».

(خطابه بمناسبة عيد الشرطة، فى ٢٠٠٩/٢/٤، موقع الهيئة العامة للاستعلامات، والصحف القومية، يوم ٢٠٠٩/٢/٥، نصه مقدم فى حافظة مستقلة).

وبعد هذا الحديث الواضح المحدد بثلاثة أشهر فقط، فى مايو ٢٠٠٩، قال الرئيس محمد حسنى مبارك فى افتتاح مؤتمر إعمار غزة الذى استضافته مصر فى شرم الشيخ:

«إن العدوان على غزة. رغم جسامته وخطورة تداعياته. لا يجب أن يصرف أنظارنا عن جوهر القضية الفلسطينية.. فهى قضية شعب يعانى النكبات والمحن منذ ستين عاماً.. ويتطلع لإنهاء الاحتلال وإقامة دولته المستقلة»...«نعلم من دروس التاريخ أن القوة المسلحة. مهما عظمت. لا تقضى على المقاومة والحقوق المشروعة للشعوب... ونعلم جميعًا أن الاحتلال مصيره إلى زوال...».

(خطابه يوم ٢٠٠٩/٥/١٤ أمام الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الدولى لدعم الاقتصاد الفلسطينى وإعادة إعمار غزة، شرم الشيخ، مصر، نصه مقدم مع نص الخطاب السابق).

وقال الرئيس فى الخطاب نفسه:

إن نشاط المتهم كله، لم يكن له هدف إلا مواجهة العدو الصهيونى بتزويد المقاومين الفلسطينيين فى غزة بالسلاح والعتاد، وهذا بالضبط مافعلته مصر الرسمية نفسها لعقود



«إن سرعة التوصل إلى اتفاق بين الجانبين الإسرائيلى والفلسطينى بما يضمن فتح المعابر أمام مستلزمات البناء وإعادة الإعمار ضرورة... فإغلاق المعابر يعيدنا للمربع الأول... ويضع عملية إعادة الإعمار فى مهب الريح» (المصدر نفسه).

فهل زال الحصار الذى سوّغ فى نظر رئيس مصر نفسه وجود الأنفاق؟ وهل أصبحت المعابر مفتوحة حتى تمر منها السلع الضرورية، والأدوية الحيوية، ومستلزمات إعادة الإعمار، والأفراد والأسر والمجموعات، لتصبح الأنفاق عملا غير مشروع لانتفاء أسبابه التى دعت إلى وجوده أصلا؟

اللهم لا.

بعلم العالم كله، وتحت سمعه وبصره، لا يزال الاحتلال جاثماً فوق الصدر الفلسطينى الصبور المقاوم طول الوقت، ولا تزال المعابر مغلقة، ولا تزال الأنفاق هى الطريقة الوحيدة المتاحة للتقليل من - لا للتغلب الكامل على - آثار هذا الحصار الوحشى الذى لم تعرف له البشرية نظيراً منذ ما قبل الإسلام، عندما حوصر النبى صلى الله عليه وسلم وقومه فى الشعب نحو ثلاث سنين، ومنع عنهم الماء والطعام وسائر احتياجات البشر. لم تعرف البشرية، منذئذ، حصاراً عاماً لجماعة من الناس إلا الحصار الحالى لغزة ومليون ومائتى ألف إنسان يعيشون فيها، لا لشىء إلا لأنهم يريدون أن يحصلوا على حقهم فى حياة إنسانية حرة فى ظل حكومة منتخبة انتخاباً صحيحاً حراً بلا خلاف.

هذا. كما قال الرئيس. هو سر الأنفاق: الحصار الظالم على شعب كامل.

وهذه. كما قال الرئيس. هى نهاية الاستعمار: الزوال والاندحار.

ولأجل ذلك فليعمل العاملون، وفى سبيله فليتنافس المتنافسون، وسيعلم الذين ظلموا - بلا ريب - أى منقلب ينقلبون.

من أجل ذلك، سيدى الرئيس، أطبقت كلمة فقهاء القانون الدولى، وتواترت قرارات المنظمات الدولية على مشروعية المقاومة المسلحة للاحتلال.

شرعية المقاومة المسلحة للاحتلال كما يقرها القانون الدولى

المقاومة هى التعبير الحىّ عن البقاء، والصنو المرادف للحياة، والحقيقة المساوية لجوهر الوجود، وما استمرار الإنسان ذاته إلا نتاجٌ لعوامل المقاومة والبقاء، داخله، ضد أسباب الفناء وعوامل الهلاك. إذ ما إن تنتهى منه سمات المقاومة وصفاتها، وإرادة الحياة وأدواتها حتى يحكم عليه بالموت والفناء، وكذلك الأمرُ بالنسبة للشعوب والأمم، والدول والجماعات (دكتور هيثم موسى حسن، التفرقة بين الإرهاب الدولى ومقاومة الاحتلال فى العلاقات الدولية، رسالة دكتوراه ١٩٩٩ جامعة عين شمس، طبعة نقابة المحامين بالقاهرة، ١٩٩٩ ص٢١٠).

وقد عَرَّفَ أستاذنا الدكتور محمد طلعت الغنيمى، فى كتابه الوسيط فى قانون السلام حركات التحرير الوطنية التى تقوم بالمقاومة الشعبية المسلّحة بأنها «حركاتٌ تستند إلى حق الشعب فى استعادة إقليمه المغتصب، وتستمدُ كيانها من تأييد الجماهير الغاضبة على المغتصب، وتتخذ عادةً من أقاليم البلاد المحيطة حَرَماً لها، تستمدُ منها تموينها وتقومُ عليه بتدريب قواتها.. ثم إنها بسبب ضعف إمكانياتها إنما تركز جهودها على تحدى الإرادة الغاصبة، لا على هزيمة جيوش الاحتلال فى حربٍ منظمة» (الوسيط فى قانون السلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٢ ص ٣٥٠).

المركز القانونى الدولى لحركات مقاومة الاحتلال وأفرادها فى ضوء اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩م

نصت المادة (٤) من الاتفاقية الثالثة، اتفاقية جنيف الخاصة بمعاملة أسرى الحرب، على أن:

«أسرى الحرب بالمعنى المقصود فى هذه الاتفاقية همُ الأشخاص الذين ينتمون إلى إحدى الفئات التالية، ويقعون فى قبضة العدو:

١. ....

٢. أفراد الميليشيات الأخرى والوحدات المتطوعة الأخرى، بمن فيهم أعضاء حركات المقاومة المنظمة الذين ينتمون إلى أحد أطراف النزاع ويعملون داخل أو خارج إقليمهم، حتى لو كان هذا الإقليمُ محتلاً...».

وفى تحديد معنى نص هذه المادة يذهب الفقه الدولى إلى أن:

«المادة الرابعة من اتفاقية جنيف الثالثة الخاصة بمعاملة أسرى الحرب، إذ تقدم تعداداً حصريًا للأشخاص الذين يكون لهم الحق فى التمتع بوصف أسرى الحرب، فإن ذلك يعنى ضمنياً تعدادا للمقاتلين والمحاربين المحميين بموجب هذه الاتفاقية... ذلك لأنه إذا كان كل مقاتل أو محارب قانونى، يتمتع بوصف أسير حرب، فهذا يعنى أن كل أسير حرب يكون له قانوناً مباشرة الأعمال القتالية، ولذلك يعتبر مقاتلاً قانونياً يتمتع بحماية هذه الاتفاقية..» (دكتور هيثم موسى، السابق ص ٢٨٥ حيث ينقل عن الفقيه Draper).

وقد ذهب فقهاءُ القانون الدولى، بغير خلاف بينهم إلى أنه «يُستنتج من نصوص اتفاقيات جنيف أنها اشترطت ضمنياً أن تتخذ المقاومة فى الإقليم المحتل شكل الحركة المنظمة والانتماء إلى أحد أطراف النزاع، ويعنى ذلك أن تتخذ حركة المقاومة فى الإقليم المحتل أو خارجه شكل الحركة المنظمة ذات الهياكل التنظيمية والإدارية والعسكرية والأُطُر القيادية القادرة على تعبئة موارد حركة المقاومة، وحشد الرأى العام، وتوظيفها فى سبيل استمرار المقاومة وكسب التأييد والشرعية لها.. بغية تحقيق الأهداف الوطنية فى تحرير الوطن وطرد المحتل الغاصب، أماً فيما يتعلق بانتماء أعضاء حركات المقاومة المنظمة إلى أحد أطراف النزاع، فلا يُشترط فى هذا الانتماء أن يكون قائماً على أساس رابطة قانونية (الجنسية) وإنما يُكتفى بإثبات قيام رابطة أو علاقة واقعية تكشفُ عن عملية التعاطف أو التضامن بين أفراد حركة المقاومة والقضية التى يُناضلون من أجلها»... «ووجود التنظيم الذى يضم المقاومين مسألة لاحقة على وجود المقاومة نفسها... وهى مسألة تتعلق بظروف الحال، فقد تنقلب المقاومة التلقائية إلى

مقاومة منظمة، أو تكون مقدمة لها، وقد تكون المقاومة المنظمة بمثابة جهاز طليعى ينبثق عن الهبَّة التلقائية فى وجه الغزو الأجنبى». (دكتور عز الدين فودة، مجلة دراسات فى القانون الدولى، الجمعية المصرية للقانون الدولى، ١٩٦٩، ص ٢٣؛ ودكتور صلاح الدين عامر، المقاومة الشعبية المسلحة فى القانون الدولى، دار الفكر العربى بالقاهرة، دون تاريخ ص ٥٠).

وقد أُلحقَتْ اتفاقيات جنيف المذكورة بملحقين. بروتوكولين. إضافيين، أضفَيا على حركات المقاومة، وأعضائها، مزيداً من الحماية القانونية الدولية. فنصت المادة ٤٤ من البروتوكول الإضافى الأول لعام ١٩٧٧م، فى فقرتها الرابعة، على أنه: «٤. يُخِلُّ المقاتل الذى يقع فى قبضة الخصم، دون أن يكون قد استوفى المتطلبات المنصوص عليها فى الجملة الثانية من الفقرة الثالثة (أن يميزوا أنفسهم عن السكان المدنيين أثناء اشتباكهم فى هجوم أو فى عملية مسلحة تجهز للهجوم) بحقه فى أن يُعدَّ أسيرَ حرب، ولكنه يُمنح. رغم ذلك. حمايةً تماثلُ من كافة النواحى تلك التى تضفيها الاتفاقية الثالثة وهذا الملحق، على أسرى الحرب. وتشملُ تلك الحماية ضمانات مماثلةً لتلك التى تُضفيها الاتفاقيةُ الثالثةُ على أسير الحرب عند محاكمة هذا الأسير أو معاقبته على جريمة ارتكبها».

استناداً إلى هذا النصّ، فإن «الحروب التى تخوضها قوات المقاومة الفلسطينية واللبنانية. والعربية عموما. ضد القوات الإسرائيلية، وانطلاقاً من كل الجبهات، إنما هى حروبٌ ذات طابعٍ دوليّ، تخضع لأحكام بروتوكول جنيف الإضافى الأول لعام ١٩٧٧م. ويتمتع أفراد هذه القوات بصفة المحاربين القانونيين وما يترتب على ذلك من حصولهم على كافة أنواع الحماية والمزايا التى يحصل عليها هؤلاء المحاربين...» (دكتور أحمد رفعت، الإرهاب الدولى فى ضوء أحكام القانون الدولى والاتفاقيات الدولية وقرارات الأمم المتحدة، دار النهضة العربية بالقاهرة، دون تاريخ ص ١٢٨).

مشروعية استخدام القُوّة مِنْ قِبَل حَرَكَات المقاومة

بتاريخ ١٩٤٨/٥/٤م أصدرت المحكمة الجنائية بلاهاى حكماً بخصوص حركات المقاومة اليهودية السرية ضد الاحتلال النازى، اعتبرت فيه «أعمال المقاومة السرية التى جرت ضد الاحتلال النازى أعمالاً مشروعة فى مواجهة الاحتلال الحربى الذى يتعارض مع القانون الدولى ..». (دكتور هيثم موسى حسن، السابق ص ٣٤٠ حيث يشير إلى دكتور عبد العزيز محمد سرحان، دور محكمة العدل الدولية فى تسوية المنازعات الدولية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨١ ص ٢٨٥).

ومن المقرر فقهاً (دكتور هيثم موسى حسن، السابق ص ٢٨٣) فى هذا الصدد، أنه إذا قُرِّرَ حق الدفاع الشرعى عن النفس للفرد فى مواجهة أى خطر يتهدده، فإنه يجبُ تقرير ذلك. من باب أولى. للشعب الذى تُستعمر بلاده أو تُحتل أراضيه وتُنتهك سيادته واستقلاله، وقد أكدت هذه الحقيقة الاتفاقيات الدولية، وميثاق الأمم المتحدة، والفقه، والعمل الدولى المطرد، والقضاء الدولى، وزاد هذه الحقيقة تأكيداً ورسوخاً سلسلة القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة ذات الصلة بهذا الموضوع، وأهمها، مرتبة زمنياً، هى:

(١) أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة تحت رقم ١٥١٤/ د١٥ بتاريخ ١٤/ ١٩٦٠/١٢م، الخاص بمنح الاستقلال للدول والشعوب المستعمرة، القاضى بصريح العبارة بـ«ضرورة وضع حد عاجل ومطلق للاستعمار بجميع أشكاله ومظاهره». ولعل ذلك أصبح واقعاً دولياً إلا فى مناطق نادرة من العالم منها الأراضى الفلسطينية والعربية التى تحتلها إسرائيل.

وأى ظـــــن عـــن أى طـــرف آخـــر، ســـوى إسرائيل، أنـه المقـصــود بـالـعـدو، فى نعـــت الــنــيــابـــة الــعــامــة، أو أنـه يحاول الــهـــيـــمـــنـــة عــلـــى المنطقـة فى وصـــفــهـــا، هـــو ظـــن لا يقوم عليـــه مـــن الـــــواقـــــع دليـــــل




(٢) ثم القرار رقم ٢١٠٥/ د٢٠، بتاريخ ١٩٦٥/١٢/٢٠م، القاضى بـ «شرعية النضال الذى تخوضه الشعوب الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية من أجل ممارسة حقها فى تقرير المصير والاستقلال، ودعوة الدول الأخرى لتقديم المساعدة المادية والمعنوية لحركات التحرير الوطنى فى الأراضى المستعمرة والمحتلة».

(٣) ثم القرار رقم ٢٧٣٤/ د٢٥، بتاريخ ١٩٧٠/١٢/٢٦م، المتعلق بالأمن الدولى، القاضى بأن «كفاح الشعوب المضطهدة ضد الاستعمار كفاحٌ مشروع».

(٤) ثم القرار. بالغ الأهمية. رقم ٢٧٨٧/ د٢٦، بتاريخ ١٩٧١/١٢/٦م، الذى نصَّ على «شرعية نضال الشعوب فى سبيل تقرير المصير والتحرر من الاستعمار والتسلط والاستعباد الأجنبى، بما فى ذلك شعب فلسطين».

(٥) ثم القرار رقم ٣٠٧٠/ د٢٨، بتاريخ ١٩٧٣/١١/٣٠م، الذى أكد على «شرعية نضال الشعوب فى سبيل التحرر من السيطرة الأجنبية والاستعباد الأجنبى، وأكد على حقها فى اللجوء لكل الوسائل الممكنة لتحقيق هذا الهدف، ومن بينها الكفاح المسلح..».

(٦) ثم القرار رقم ٣١٠٣/ د٢٨، بتاريخ ١٩٧٣/١٢/١٢م، (بعد حرب أكتوبر بشهرين فقط) الذى وضع مبادئَ فى غاية الأهمية، تنص على:

(A) «أنّ نضال الشعوب الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية، فى سبيل تحقيق حقها فى تقرير المصير والاستقلال، هو نضالٌ شرعىٌ ويتفقُ مع مبادئ القانون الدولى».

(B) «أنّ أى محاولة لقمع الكفاح ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية هى مخالفةٌ لميثاق الأمم المتحدة ولإعلان مبادئ القانون الدولى الخاصة بالعلاقات الدولية والتعاون بين الدول وفقاً لميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان، والإعلان الخاص بمنح البلاد والشعوب المستعمرة استقلالها، وتشكل خطراً على السلام والأمن الدولى».

(٧) القرار رقم ٣٢٣٦/ د٢٩، بتاريخ ١٩٧٤/١١/٢٢م، الذى يتضمنُ «إقرارا بحقوق الشعب الفلسطينى فى تقرير المصير والحق فى

جميلة بوحريد في صحافة «الجمهورية العربية المتحدة»



الاستقلال والسيادة الوطنية ويعترف القرار بحق الشعب الفلسطينى فى استعادة حقوقه بكافة الوسائل الممكنة وفقاً لمقاصد الأمم المتحدة ومبادئها، ويناشد جميع الدول والمنظمات الدولية أن تَمُدَّ يدها لمساعدة ودعم الشعب الفلسطينى فى كفاحه لاسترداد حقوقه وفقاً للميثاق».

وقد عنيت بهذا الأمر الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب (١٩٩٨) فقضت مادتها الثانية بأنه: «لا تعد حالات الكفاح بمختلف الوسائل جريمة، بما فى ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبى والعدوان من أجل التحرير وتقرير المصير وفقا لمبادئ القانون الدولى».

ونصت المادة ٢/١ من معاهدة منظمة المؤتمر الإسلامى لمكافحة الإرهاب (١٩٩٩) على أنه: «لا تعد حالات كفاح الشعوب جريمة إرهابية بما فيها الكفاح المسلح ضد الاحتلال والعدوان الأجنبيين والاستعمار والسيطرة الأجنبية من أجل التحرر أو تقرير المصير وفقا لمبادئ القانون الدولى».

ونصت المادة الثالثة من اتفاقية منظمة الوحدة الأفريقية لمنع الإرهاب ومكافحته على أنه: «مع مراعاة أحكام المادة (١) من هذه الاتفاقية (المادة ١ عرفت الإرهاب) لا تعتبر حالات الكفاح الذى تخوضه الشعوب من أجل التحرر أو تقرير المصير طبقا لمبادئ القانون الدولى أعمالا إرهابية، بما فى ذلك الكفاح المسلح ضد الاستعمار والعدوان والسيطرة الأجنبية».

ومصر قد صدقت على هذه الاتفاقيات جميعًا، فأصبح ما تتضمنه من أحكام جزءاً من القانون الداخلى، واجب الإعمال من سلطات الدولة كافة، وفى مقدمتها السلطة القضائية المعنية. قبل غيرها. بإحسان تطبيق القانون.

وحاصل ما سلف ذكره، سيدى الرئيس، أنّ مبادئ القانون الدولى العام المعاصر، وقرارات الشرعية الدولية الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة، وكذلك إجماع آراء الفقه والقضاء الدولى والممارسات الفعلية فى الحياة الدولية قد سَلَّمَتْ جميعها بمشروعية نشوء حركات المقاومة، وحقها فى اللجوء إلى استخدام القوة المسلحة ضد أعدائها المستعمرين أو المحتلين، فى سبيل تحقيق أهدافها الوطنية فى تحرير أراضى الوطن وممارسة الحق فى تقرير المصير ونيل الحرية والاستقلال.

وهذا التسليم فرع لأصلين مقررين فى القانون الدولى المعاصر هما:

حق الدفاع الشرعى عن النفس ومقاومة العدوان؛

فى تلك الأيام، أرسلت مصر خمسًا وأربعين شحنة سلاح وذخائر إلى الجزائر، وإلى المجاهدين فى تونس ومراكش. عبر بها الضباط المصريون حدود ليبيا من البر ومن البحر، ثم حدود تونس البرية الصحراوية القاحلة إلى الجزائر، لتسليمها الى المجاهدين الجزائريين



وحق الشعوب كافةً فى تقرير مصيرها بنفسها.

وكل عمل يهدف إلى ممارسة أحد هذين الحقين، أو كليهما، يخرج، بحكم اللزوم القانونى، من دائرة الإرهاب، الذى هو مدار التهم كلها فى هذه القضية.

وقد عبر عن ذلك أجلى تعبير كورت فولدهايم، الأمين العام للأمم المتحدة، فى أثناء شغله منصبه فى ديسمبر من عام ١٩٧٢م، حين أعلن أنه:

«ليس للإرهاب الدولى صلة باستعمال القوة لأغراض مشروعة فى الحياة الدولية، وميثاق الأمم المتحدة وسائر القرارات التى أصدرتها الجمعية العامة بخصوص حركات التحرير الوطنى، لا يمكن المساس بها تحت غطاء الإرهاب الدولى.. وبناءً على ذلك لا يُعدُّ الفعلُ إرهاباً، وبالتالى لا يعاقب عليه القانون الدولى، إذا كان الباعث عليه الدفاع عن الحقوق المقررة للأفراد. حقوق الإنسان. أو الشعوب. حق تقرير المصير. أو الحق فى تحرير الأرض المحتلة ومقاومة الاحتلال، لأن هذه الأفعال تقابل حقوقاً يقررها القانون الدولى للأفراد والدول، حيث يكون الأمر هنا متعلقاً باستعمال مشروع للقوة طبقاً لأحكام القانون الدولى والاتفاقيات الدولية وقرارات الشرعية الدولية ذات الصلة...»

(أورده الدكتور هيثم موسى حسن، السابق، ص ٣٦٢ نقلا عن الدكتور شريف بسيونى فى: حق تقرير المصير والقضية الفلسطينية، نيويورك ١٩٧١، ص ٣٣).

وقد أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم ٣١٠٣/د٢٨، بتاريخ ١٢/١٢/١٩٧٣م، الذى نص على إقرار الدول الأعضاء:

بالحماية القانونية التى يجب إسباغها على مناضلى حركات التحرير الوطنى والمقاومة ضد الأنظمة الاستعمارية والمحتلة والعنصرية. وأقرَّ بشرعية كفاحهم ضد هذه الأنظمة إعمالاً لحقهم فى تقرير المصير والاستقلال. وأكد على اعتبار كل محاولة لقمع هذا الكفاح بمثابة انتهاك لأحكام ميثاق الأمم المتحدة، والإعلانات والقرارات الدولية ذات الصلة.



فى هذا الإطار. حضرات المستشارين. يمكن القول بأن الشعوب التى تقع فريسة للاحتلال الحربى أو السيطرة الأجنبية أو التفرقة العنصرية يثبت لها الحق فى تقرير المصير بمجرد وقوع هذه الأفعال، لأنها تمثل أفعالاً دوليةً غير مشروعة، وإنكارا لحق الشعوب فى تقرير مصيرها، واعتداءً على حقوقها وسيادتها واستقلالها، وهو ما يعطى هذه الشعوب الحق فى استخدام القوة المسلحة ضد هؤلاء المحتلين أو المستعمرين أو العنصريين، ويكتسى استعمالها للقوة فى هذه الحالة بالطابع القانونى والشرعى، لأنه إعمالٌ لحقٍ مقرر لها فى القانون الدولى (دكتور أحمد فتحى سرور، المواجهة القانونية للإرهاب، ط ثانية، القاهرة ٢٠٠٨ ص ١٠٣). وهذا ما أكدته عمليا قرارات الأمم المتحدة الصادرة بهذا الشأن، وما قررته لجنة القانون الدولى، المنبثقة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، فى إطار إعدادها لمشروع قانون المسؤولية الدولية، بقولها: «إن من صور السلوك غير المشروع دولياً، والذى يعتبر جريمة دوليةً:

أ. .... ب. الانتهاك الخطير لالتزامٍ دولىٍّ ذى أهميةٍ جوهريةٍ للحفاظ على حقوق الشعوبِ فى تقرير مصيرها، مثل تلك التى تُحرِّم استعمال القوة (أى تحرِّم ذلك على الشعوب الخاضعة للاستعمار أو المهددة به) لإرساء السيطرة الاستعمارية أو لاستعادتها..».

وبالبناء على ما تقدم جميعه يكون من حق الشعوب العربية التى احتلت أراضيها من قِبَلِ إسرائيل (فلسطين. جنوب لبنان. سوريا) استخدام القوة المسلحة ضدها، إعمالاً لحق: الدفاع الشرعى عن النفس، وحق تقرير المصير.

ويكون من حق حركات المقاومة الفلسطينية واللبنانية. والسورية عندما توجد. استخدام القوة المسلحة ضد العدوِ الصهيونى فى كلِّ شبرٍ يبسطُ سيطرته عليه. بمعنى أن من حق أفراد المقاومة اللبنانية استهداف الإسرائيليين فى فلسطين، والعكس صحيح بالنسبة للمقاومة الفلسطينية. أى إن لها أن تستهدف جنود الاحتلال الصهاينة فى أرض لبنان المحتلة أو فى أرض سوريا المحتلة.

نحن إذن. سيدى الرئيس. أمام قضية محاولة لمقاومة الاحتلال لا أمام قضية إرهاب، سواء أنظرنا للإرهاب بمفهومه الدولى أم بمفهومه المحلى.

....

فالنشاط الذى قام به المتهم المذكور على الأراضى المصرية، والتنظيم، واللقاءات، والتحركات، والأهداف المعلنة والخفية كلها تَصُبُّ فى بوتقةٍ واحدةٍ، هى بوتقة الجهاد والنضال ضد العدو الصهيونى، ونقل خبرة المقاومة اللبنانية إلى الفصائل الفلسطينية فى غزة ومساعدتها ودعمها بالسلاح بأنواعه كافة، وتدريب عناصرها وتجهيزهم للقتال.

ومما يزيد هذا الأمر وضوحًا، ويثبتُّه فى يقين المحكمة الموقرة، أن ملاحظات النيابة العامة على قائمة أدلة الثبوت تضمنت ذكر مسألة تهريب السلاح إلى غزة، وإلى فلسطين، وذكر دعم المقاومة، والقيام بعمليات استشهادية ضد العدو الصهيونى (٢٢) مرة.

....

وفى سبيل هذه المقاومة يجوز فى القانون الدولى، وفى الممارسات الفعلية للمقاومين أفراداً ومنظمات، وفى السلوك النضالى المصرى دعماً لحركات التحرر من الاحتلال على مدى عقود ثلاثة، يجوز ما قد يبدو فى الظاهر غير جائز، ويعامل على أنه مشروع مباح ما لو وقع لغير أغراض المقاومة لكان غير مشروع ولا مباح.

....

ومما يجب التأكيد عليه. فى هذا المقام. أمور:

الأمر الأول: أن كل ما أشارت إليه ملاحظات النيابة العامة من أقوال قررها المتهم الثانى عن انتمائه لحزب الله فى لبنان، وعمله فى صفوفه وتدريبه على أعمال مختلفة، يخصه وحده. ويخص الحزب المنتمى إليه. وليس فى شىء من هذه التقريرات ما يدخل فى نطاق مواد الاتهام أو يعد جريمة فى القانون المصرى.

الأمر الثانى: أن حزب الله ليس منظمة محظورة فى مصر، ولا هو منظمة محظورة فى لبنان. بل هو بموجب وثائقه السياسية العلنية (وسنتشرف بتقديم صورة آخرها الصادرة فى نوفمبر ٢٠٠٩) حركة مقاومة وطنية عربية إسلامية تشارك. منذ نشأتها. فى العمل السياسى، ولها فى حكومات لبنانية متعاقبة، بما فيها الحكومة الحالية، وزراء. ونظرة على خريطة تشكيل مجلس النواب اللبنانى الحالى تدل على مدى قوة الوجود السياسى للمقاومة الإسلامية، وعلى قوة المعارضة التى يقودها حزب الله (الخريطة النيابية مقدمة لاطلاع المحكمة الموقرة). وقد صرح رئيس الوزراء اللبنانى الشيخ سعد الحريرى فى زيارته الأخيرة للقاهرة (يناير ٢٠١٠) بأن حزب الله شريك سياسى فى لبنان، وحاضر فى البرلمان والحكومة وأن لبنان بلد ديمقراطى تشارك فيه كل القوى فى العمل السياسى بلا حظر (نص تصريحاته مقدم للمحكمة الموقرة).

الأمر الثالث: أن الهدف الرئيسى لحزب الله هو مقاومة العدو الصهيونى، وفيما عدا ذلك فإن الأعمال الأخرى للحزب كلها . اجتماعية وثقافية وسياسية لا أثر فيها لاستعمال القوة ولا التهديد بها. ونظرة عجلى على التحليل العلمى الأكاديمى للتطورات التى مر بها حزب الله منذ نشأته وحتى الآن (مقدمة فى حافظة مستقلة للمحكمة الموقرة) تثبت أن طبيعة الحزب هى أنه منظمة مقاومة إسلامية ذات دور سياسى مؤثر فى السياسية اللبنانية والإقليمية على حد سواء. (الصفحات فى الحافظة المرفقة مأخوذة من: يوسف الأغا، حزب الله: التاريخ الأيدلوجى والسياسى، ترجمة نادين نصر الله، دراسات عراقية، بيروت . بغداد . أربيل ٢٠٠٨).

....

فتح.. وشهداء الأقصى

كما جاءت تحريات مباحث أمن الدولة التى قام بها العقيد / أحمد عاطف، بتاريخ ٢٠٠٩/٤/٤م، لتُثبت أنَّ المتهمين المذكورين، الرابع والعشرين والخامس والعشرين، ينتميان لكتائب شهداء الأقصى التابعة لحركة فتح، وأن وجودهما بمصر واتصالهما بالمتهم الثانى كان بتكليف من قياديين بارزين بكتائب شهداء الأقصى وحركة فتح، هما أبو صهيب وأبو علاء، وأن الهدف من ذلك كله كان مساعدة حركات المقاومة الفلسطينية ممثلةً هنا فى حركة فتح (كتائب شهداء الأقصى) فى نضالها ضد إسرائيل، وأن هذه المساعدة من جانب المتهم الثانى كان مقدراً لها أن تكون بتدريب العناصر فى الجنوب اللبنانى، وإعادة دفعهم إلى قطاع غزة، والإمداد بالسلاح والعتاد..

فالتحريات، والتحقيقات، وأقوال المتهمين المذكورين تُثبت جميعها أن المتهمين لم يكونوا ينتوون القيام بعمليات إرهابية على الأراضى المصرية، وأن نشاطهم لم يكن أبداً بهدف السعى والتخابر لدى حزب الله اللبنانى للقيام بعمليات إرهابية داخل مصر أو ضدها، خاصةً وقد ثبت من التحقيقات والتحريات وأقوال المتهمين أن هناك تنظيماً آخر، أو جماعةً أخرى، بل حركة مقاومة أساسية، ضد الصهيونية والاحتلال، ضالعة فى هذا الأمر هى حركة فتح (كتائب شهداء الأقصى) وأن من بين المتهمين من هو مُنتَمٍ لهذه

لقد أنشأت المخابرات المصرية. حديثة العهد يومذاك. قسماً للوطن العربى كان يرأسه فتحى الديب، كما أنشأ حزب الله الوحدة رقم (١٨٠٠) لدول الطوق. أليس هذا سلوكاً واحداً يجب أن يسلكه كل مقاوم للمستعمر المحتل؟



من وثائق العمل السرى المصرى لدعم المقاومة العربية المسلحة

٦ — وفى يوم ٢ اغسطس ١٩٥٨ تسلم الكولونيل عمران

عدد	صنف
٣٠٠٠	متر فتيل امان
٢٥٠٠	مفجر طرق ٨
٢٥٠٠	طوربيد بنجالور صاج

راجع الملحق — مستند رقم (٣٩)

وتسلم يوم ٣١ اغسطس ١٩٥٨

عدد	صنف
٢٠٠٠	رشاش متوسط ٧٫٩٢ م
١٠٫٠٠٠	شريط سعة ٥٠ طلقه للرشاش
٢٫٠٠٠٫٠٠٠	مليون طلقه ذخيره ٧٫٩٢ م

راجع الملحق — مستند رقم (٤٠)

وكان طبيعياً أن أفهم الكولونيل عمر عمران ان الكميات التى تسلمها من مصر خلال الاشهر السته الماضيه من عام ١٩٥٨ كافيه لتسليح جيش حديث قادر على القتال لفترة طويله دون الحاجه لامداد جديد واننا لم نقصر فى الاستجابة لكل ماطالبونا به من سلاح وذخيره الا اننا لانحبذ اى اتجاه لتكديس السلاح والذخيره فى المخازن بليبيا أو بتونس خاصة وأننا لانطمئن لتطور الاحداث بكلا البلدين ولاندرى ماذا تخبئه لنا الايام واننا مصرون على ضرورة اتمام سحب كل ماهو مكدس بمخازنهم بليبيا وتونس وسرعة ادخالها لتصل لأيدى المكافحين ومؤكدا له اننا لن نتجاوب مع اى طلب جديد للسلاح أو الذخيره مالم نتأكد من ادخالهم لكل ماهو مكدس حاليا لداخل الجزائر . وتسلم المناضلين هنا . وابدى تفهمه وموافقته على كل ماقلت ووعد بالتنفيذ فى اسرع وقت .

رابعا : تونس تطلب شراء أسلحة مصريه

١ — وصل القاهره فى أوائل شهر يونيو ١٩٥٨ المدعو عبد السلام عزيز ويعمل متعهداً لتوريد احتياجات الحكومه التونسيه بما فى ذلك توريد الأسلحه والمعدات الحربيه وأحضر معه خطاباً من قائد الجيش التونسى موجهاً للكولونيل عمران يطالبه فيه بالتوسط لدى السلطات المصريه لتبيع لتونس صفقة سلاح كان بيانها :

٣٧٩

الحركة، كالمتهمين الرابع والعشرين والخامس والعشرين، وأن دخولهما للأراضى المصرية واتصالهما بالمتهم الثانى كان بغرض قيام الأخير بتسفيرهما للجنوب اللبنانى ليتلقيا التدريبات اللازمة تمهيداً لإعادة دفعهما إلى داخل إسرائيل للقيام بعمليات استشهادية أو هجومية ضدها، كان هذا هو المقصد، وفى إطاره كان نشاط المتهمين جميعاً.

فإذا ما استقام ذلك فليس لعاقل أن يزعم أو يتصور أن عضوى حركة فتح وكتائب شهداء الأقصى (ذراعها العسكرى)، المتهمين الرابع والعشرين والخامس والعشرين، تسللا للأراضى المصرية للقيام بعمليات إرهابية ضد المصالح المصرية بإيعازٍ واتفاقٍ ومساعدةٍ من المتهم الثانى. لأن التحقيقات والتحريات أثبتت أن المتهمين المذكورين تابعان لحركة فتح وكتائب شهداء الأقصى، وأن تسللهما لمصر كان بتكليفٍ من قيادتهما ممثلةً فى القياديين أبو صهيب وأبو علاء، وليس يخفى على أحد أن حركة فتح شريكٌ أساسى للقيادة المصرية، وأن قيادتها على وفاقٍ كامل مع القيادة المصرية، بل إن جميع الفصائل الفلسطينية والكتائب التابعة لها، بما فيها حماس، على وفاقٍ مع القيادة المصرية، وتجمعهما لقاءات متعددة بالأراضى المصرية، بل إن كل تحركاتهم تقفُ عليها القيادة المصرية أولاً بأول . فهل يُعقل أن يأتى أفرادٌ تابعون لهذه الفصائل بتكليفٍ من قادةٍ بارزين بهذه الفصائل، كأبى صهيب وأبى علاء، للقيام بعمليات إرهابية على أرض مصر أو ضد أمنها واستقرارها ؟!!

لو صَحَّ هذا التصوُّر المزعوم لكان على النيابة، المنصفة والأمينة على الدعوى الجنائية، أن تتهم حركة فتح وكتائب شهداء الأقصى كما اتهمت حزب الله !! خاصةً وأن اثنين من المتهمين عضوان تابعان لحركة فتح وكتائب شهداء الأقصى . ولكان على الإعلام الحر البنَّاء أن يتناول قادة فتح وكتائب شهداء الأقصى باللوم والتقريع والهجوم اللاذع، أو بشىء، ولو قليل، مما ناله حزب الله من هذا الإعلام الحر نفسه!!!

ولا يقدح فى ذلك أن النيابة العامة لم تُوجِّه للمتهمين المذكورين، الرابع والعشرين والخامس والعشرين، تهمة السعى والتخابر للقيام بعمليات إرهابية على أرض مصر أو ضدها، واكتفت بتوجيه تهمة التسلل للبلاد بطريقٍ غير مشروع لهما !!

وذلك لأن المتهمين المذكورين هما المقصودان بالعبارة الواردة بالاتهام الأول «البند أولا» من أمر الإحالة، والتى فيها تتهم النيابة المتهمين من الثالث حتى الثانى والعشرين بأنهم تعاونوا مع مندوبى حزب الله «فى تسهيل سفر البعض ممن يعملون لأهداف هذا الحزب إلى خارج البلاد بطرقٍ مشروعةٍ وغير مشروعة لتلقى التدريبات العسكرية.... ثم العودة للبلاد لتنفيذ عمليات إرهابية على النحو المبين بالتحقيقات»، وفى البندين سادسا /٣، وثامنا، وصفت النيابة نشاطهما بقولها إنهما «يمارسان نشاطا يُخل بالأمن والنظام العام على النحو المبين بالتحقيقات»...

بل إن المتهمين المذكورين هما المعنيان - فرضا لا واقعا - والمقصودان بالعبارة المشار إليها آنفاً بالبند أولاً من أمر الإحالة، فهما المعنيان بالسفر خارج البلاد بطرقٍ مشروعة وغير مشروعة لتلقى التدريبات ثم العودة للقيام بأعمال إرهابية بمصر، إذ ليس من بين المتهمين جميعهم من أُثير بالتحقيقات أنه سيسافر إلى الخارج (الجنوب اللبنانى) لتلقى تدريبات عسكرية إلا المتهمان المذكوران، وليس من بين المتهمين من ثَبت أن مهمته كانت من البداية للنهاية هى السفر عبر الأراضى المصرية إلى الجنوب اللبنانى لتلقى تدريبات عسكرية إلا المتهمان المذكوران. وبالتالى فقد ارتكب المتهمان المعنيان الجريمة التى تتحدث عنها النيابة فى البند أولا من أمر الإحالة، وهى السفر خارج البلاد لتلقى تدريباتٍ عسكرية للقيام بعمليات إرهابية على الأراضى المصرية (وهذا كله حسب تصوير النيابة للواقعة فى اتهامها الوارد بالبند أولا من أمر الإحالة، بفرض صحته فرضاً جدلياً ليس إلا). وبالتالى كان على النيابة اتهام المتهمين الرابع والعشرين والخامس والعشرين بالتخابر والسعى لدى حركة فتح للقيام بعمليات إرهابية داخل مصر، وكان على النيابة أن تتهم حركة فتح بأنها تخطط للقيام بعمليات إرهابية داخل مصر، لاسيما وأن المتهمين المذكورين قد جاءا لمصر بناء على تكليفٍ من قيادتهما ممثلة فى أبو صهيب وأبو علاء، القائدين بكتائب شهداء الأقصى التابعة لحركة فتح.

....

سيدى الرئيس..

حضرات المستشارين الأجلاء..

بقى للدفاع كلمات قصار يحاول بهن أن يوضح بها بعض ما أُبْهِمَ فى مرافعة

بلغ عدد الجواسيس الصهاينة وعملاؤهم الذين ضبطوا فى مصر منذ توقيع اتفاقية كامب ديفيد سنة ١٩٧٩ إلى سنة ٢٠٠٩ مائة وخمسة وسبعين جاسوساً فى خمسة وأربعين قضية جاسوسية لصالح إسرائيل



الزملاء المحترمين الذين تحدثوا أمام الهيئة الموقرة ممثلين لجانب الاتهام.

الدولة التى تحاول الهيمنة على المنطقة، والعدو ذو العبث والغرور

لم يخبرنا الادعاء باسم الدولة التى عناها، ولا باسم العدو العابث المغرور، فكان من الواجب الذى يدعو إليه مبدأ التعاون على إظهار الحق أن ينطق الدفاع بما سكت عن النطق به الادعاء.

إن الدولة الوحيدة، سيدى الرئيس، التى تحاول الهيمنة على المنطقة كلها، وفرض إرادتها على شعوبها قَبْلَ دولها هى: إسرائيل.

إسرائيل التى تحتل حتى اليوم مرتفعات الجولان السورية، ومزارع شبعا وبلدة الغجر، وتلال كفر شوبا اللبنانية، وأرض فلسطين كاملة بما فيها القدس، وما أدراك ما القدس وما الذى يجرى فيها.

إسرائيل التى شنت الحرب تلو الحرب (١٢ حرباً فى ستين سنة كما كتب المستشار الجليل طارق البشرى، فى دراسته المرفقة) ولم تزل تهدد حتى اليوم بحرب جديدة، على لبنان، بسبب سلاح حزب الله وقدرته على البقاء فى موقع التأثير على السياسة اللبنانية والإقليمية، وعونه المستمر، بل المتدفق، للمقاومة الفلسطينية بفصائلها كافة، بما فيها الفصائل التابعة لمنظمة فتح، كما تشهد بذلك أوراق هذه القضية وما فيها من ذكر أفرادٍ وقادة من منظمة شهداء الأقصى، الذراع العسكرية التابعة لفتح.

هذه الدولة (إسرائيل)، سيدى الرئيس، لم يردعها عن العدوان على الدول العربية كلها شىء. بل لم يردها عن العدوان على مصر ومحاولة اختراق أمنها شىء.

لقد. بلغ عدد الجواسيس الصهاينة وعملاؤهم الذين ضبطوا فى مصر منذ توقيع اتفاقية كامب ديفيد سنة ١٩٧٩ إلى سنة ٢٠٠٩ مائة وخمسة وسبعين جاسوساً فى خمسة وأربعين قضية جاسوسية لصالح إسرائيل. وفى المدة الواقعة بين سنة ١٩٩١ وسنة ٢٠٠٧ - وحدها - كان المضبوطون من جواسيس إسرائيل تسعة أشخاص، ومن المصريين الذين نجح الموساد فى تجنيدهم ضد وطنهم ثمانية أشخاص، ومن الأجانب عن مصر وإسرائيل معاً ثلاثة أشخاص (روسى، ويابانى، وأيرلندى).

وكانت الأعمال الموكولة لهؤلاء. اختراقاً للأمن القومى المصرى. تتراوح بين أن تكون جمع معلومات عسكرية عن الشخصيات المهمة فى مصر من خلال إقامة علاقات جنسية وانحرافية معهم، وجمع معلومات صناعية واقتصادية وعسكرية، ومعلومات سياسية واقتصادية، ومعلومات عن البرنامج النووى المصرى. الذى لم ير النور بعد. ومعلومات عن العناصر العربية فى خارج مصر للعمل على تجنيدهم لصالح إسرائيل، وجمع معلومات عن الاستثمار الأجنبى. بوجه خاص. فى مصر، وجمع معلومات عن الموانى والمطارات ووسائل المواصلات الداخلية فى مصر.

إن بين مصر، الدولة، وبين اسرائيل اتفاقية (هدنة)، هذه هى حقيقتها، تسمى باتفاقية السلام. وإسرائيل تنتهكها يومياً بغير شك، ومصر تسكت رعاية لهذه الاتفاقية نفسها. وهذا كله لا يعنينى هنا. لكن الذى يعنينى هو أن إسرائيل هى الدولة الوحيدة التى تربطها بمصر مثل هذه الاتفاقية: لأنها الدولة الوحيدة العدو!!!

هل رأى الناس، على مر التاريخ، صديقاً يعيد صداقته بآخر بمعاهدة؟! اللهم لا.

لكن الدول تقيد عداوتها وتضبط وقع خطاها بمعاهدات تسميها بما شاءت من الأسماء.

وليس لاختصاص إسرائيل بتلك المعاهدة من سبب إلا أنها العدو الوحيد لمصر فى منطقتنا كلها!!

هذا، سيدى الرئيس، حضرات المستشارين، هو العدو الذى يحاول الهيمنة علينا نحن فى مصر أولا، وعلى المنطقة كلها ثانيا. يشهد لذلك ما جرى من إهانة للسفير التركى فى تلك أبيب دعت استانبول للتهديد بسحبه فى اليوم نفسه ما لم تعتذر إسرائيل قبل الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم. وقد كان. اعتذر وزير الخارجية، واعتذر مكتب رئيس الوزراء الإسرائيليين. فقال الأتراك: إن على إسرائيل أن تعرف مع من تتعامل عندما تكون تركيا طرفاً فى الأمر!!

والدفاع يقدر كل التقدير الأوضاع السياسية التى تحول دون ذكر إسرائيل باسمها فى مرافعة الادعاء، وليس مرماه من هذا البيان إلا خدمة الهيئة الموقرة بالإفصاح عن المضمر وبرد المظنون، أو الذى يمكن أن يكون مظنوناً، عن المقصود بالعدو العابث المغرور.

وأى ظن عن أى طرف آخر، سوى إسرائيل، أنه المقصود بالعدو، فى نعت النيابة العامة، أو أنه يحاول الهيمنة على المنطقة فى وصفها، هو ظن لا يقوم عليه من الواقع دليل.

(الوحدة ١٨٠٠)

لم يذكر الزملاء المحترمون المترافعون عن الادعاء سرَّ وجود هذه الوحدة ضمن هيكل تنظيمات حزب الله. وتركوا السامعين يهيمون فى أودية شتى ليس من بينها الوادى المؤدى إلى واحة المعرفة أو نهر الحقيقة فى هذا الشأن.

والحقيقة، سيدى الرئيس، أن هذه الوحدة هى نظير قسم الدول العربية، وقسم الدول الأفريقية، فى المخابرات العامة المصرية. هذان القسمان تحدث عنهما السيدان/ فتحى الديب ومحمد فائق فى كتبهما عن دور الثورة المصرية فى مناصرة حركات التحرر العربية والأفريقية. وهو دور لابد للقائم به من دراسة مجالات حركته والمعرفة بمن يستعين بهم أو يستعينون به. وهذا هو الدور الذى تقوم به (وحدة دول الطوق) فى حزب الله.

دورها كله يعبر الدول المحيطة بإسرائيل. وعملها كله يتعلق بمقاومة العدو. والدليل أنه منذ قام الحزب سنة ١٩٧٩ حتى يوم الناس هذا فى سنة ٢٠١٠ لم يزعم أحد أنه اعتدى على سيادة أية دولة عربية، أو قام بأية عملية على أرضها، أو جند ضدها أحداً من أبنائها أو من غيرهم. فى الوقت نفسه، الذى تجنب فيه الحزب أى عمل ضد أية قوة أو دولة عربية أو إسلامية، نجده أوقع بإسرائيل خسائر لا تحصى أمكننى. بإمكاناتى المحدودة أن أجمع منها:

٦٦٦ قتيلا سوى قتلى حرب يوليو/ تموز ٢٠٠٦.

و٢٧٦ جريحًا سوى جرحى حرب يوليو/ تموز ٢٠٠٦.

١٣ ضابطًا وجنديًا اختطفوا وتبودلوا، أو تبودلت جثث من مات منهم، بأكثر من ألفين من الأسرى العرب (لبنانيين وغيرهم) وبجثث بعض شهداء المقاومة لدى العدو الصهيونى(!!)

هذا هو حزب الله وصنيعه بعدوه إسرائيل. فلا تذهبن بأحد أوهام عبارة (وحدة دول الطوق) إلى أن الحزب يعمل ضد البلاد العربية وأهليها، فإن دون إثبات هذا الوهم خرط القتاد.

حـــــزب الـــلــــــه

لقد حَرَص الدفاع على تقديم الوثيقة السياسية الأخيرة لحزب الله (نوفمبر ٢٠٠٩) ليثبت للهيئة الموقرة، من خلال الاطلاع عليها، بطلان الدعوى القائلة إن حزب الله أداة للدولة الأجنبية التى أشار إليها الزملاء المحترمون ممثلو النيابة العامة فى مرافعتهم الشفهية. وإذا انتفى القول بهذه التبعية انتفت من ثم النتيجة التى رتبها الادعاء عليها من تحقق وصف (الدولة الأجنبية) الوارد فى المادة ٨٦ مكررا ج من قانون العقوبات فى شأن تهمة السعى والتخابر.

وليس من شك فى أن النيابة العامة الموقرة لم تقصد بالدولة، التى ظنت حزب الله أداة فى يدها، الدولة نفسها التى استظهر الدفاع أنها العدو الحقيقى للأمة العربية كلها وعلى رأسها مصر. لأنه من غير المعقول أن يقول أحد إن حزب الله عميل لإسرائيل.

فبقى ذكر هذه الدول (الأخرى) أمرًا مجهلا والحديث عنها كلامًا مرسلا لا تنبنى عليه نتيجة ولا يترتب عليه حكم.



سيدى الرئيس، حضرات السادة المستشارين الأجلاء:

لعَلَّ قضيةً لم تشغل الرأى العام فى مصر وفى الوطن العربى مؤخرا. فيما عدا قضية مقتل المطربة اللبنانية سوزان تميم. كما فعلت هذه القضية. والدفاع عن المتهم الثانى قبل أن يتولى الدفاع عنه، وقبل أن يُحيط علماً بتحقيقات وأوراق هذه القضية، وتفاصيلها، كان يتابعُ الجرائد اليومية، ويقرأ كل ما نقلته الأخيرة عن النيابة فى تحقيقاتها، والعناوين الصحفية المدوية التى كانت تُوضع لهذه التحقيقات، والاتهامات الشنيعة التى كانت تُكَالُ بوفرة للمتهمين، والمتهم الثانى تحديداً، صاحب الحظ الأوفر من هذه الاتهامات الصحفية !!

لقد ظن الدفاع وقتها أن المتهم الثانى هالكٌ لا محالة، وكذا شأنُ باقى المتهمين.

ولكن ظنَّ الدفاع فى هلاك المتهم الثانى، تَحوَّلَ إلى يقين. بإذن الله. فى نجاته هو ورفاقه، خاصةً بعد أن فَحَصَ الدفاع الأوراق والملابسات، وأحاط بدلائل الثبوت المتهاوية، وادعاءات الإدانة المتخاذلة، وتَيَقَّن من أن المتهم الثانى ورفاقه لم يتحولوا عن أصل البراءة المفترض فيهم ابتداءً، ولازال هذا الأصل ثابتًا فيهم، متعلقًا بهم، لم يُفارقوه ولم يفعل هو. وأنه ليس فى أوراق القضية برمتها، ولا مرافعة النيابة فى إجمالها وتفصيلها، ما يناقضُ هذا الأصل الثابت أو يهدمه، أو حتى يهدد دعائمه، بما لازمه القضاء بهذا الأصل، والحكم ببراءتهم. تأسيساً على أن أصل البراءة، وحسبما وصفته المحكمة الدستورية العليا، فى عديد من أحكامها «يعتبر جزءاً لا يتجزأُ من محاكمة تتم إنصافاً، باعتباره متساندا مع عناصر أخرى تشكل مقوماتها، وتمثلُ فى مجموعها حدا أدنى من الحقوق اللازمة لإدارتها، ويندرجُ تحتها أن يكون لكل من المتهم وسلطة الاتهام الوسائل عينها التى يتكافأُ بها مركزاهما، سواء فى مجال دحض التهمة أو إثباتها. وهى بعدُ حقوقٌ لا يجوز الحرمانُ منها أو تهميشها، سواءٌ تعلق الأمرُ بشخص يعتبر متهماً أو مشتبهاً فيه، وقد أقرتها الشرائع جميعها، لا لتظل المذنبين بحمايتها، وإنما لتدرأ بمقتضاها وطأة الجزاء المقرر للجريمة التى خالطتها شبهة ارتكابها، بما يحولُ دون القطع بوقوعها ممن أسند إليهمُ الاتهام بإتيانها، إذ لا يعتبرُ هذا الاتهامُ كافيا لهدم أصل البراءة، وهو ما يعنى أن كل جريمة يدعى ارتكابها لا يجوز إثباتها دون دليلٍ جازمٍ ينبسط على عناصرها جميعا، ولا يجوز كذلك افتراض ثبوتها. ولو فى أحد عناصرها. من خلال قرينة قانونية يُنشئها المشرِّع اعتسافا، ودون ذلك لا يكون أصلُ البراءة إلا وهماً». (المحكمة الدستورية العليا، مجموعة مبادئها فى أربعين عاماً، مارس ٢٠٠٩ ص ٤٩٧ وما بعدها).

بناء عليه، يلتمس الدفاع الحكم ببراءة المتهم الثانى مما منسوب إليه. ■

كــتـــــاب
الــزاويــــة



قصيدة اعتذار لأبى تمام(•)
نزار قبانى

(١)

أَحبَّائى :
إذَا جِئنَا لنَحضُرَ حَفلةً للزَّارِ ..
مَنهَا يَضجَرُ الضَّجرُ
إذَا كَانتْ طُبولُ الشِّعرِ ، يَا سَادة
تُفَرِّقُنَا .. وَتَجمَعُنَا
وَتُعطينَا حُبُوبَ النَّوم فِى فَمِنَا
وَتَسْطِلُنَا .. وَتَكسِرُنَا .
كَمَا الأورَاقُ فِى تشرينَ تَتكَسِرُ
فَإِنِّى سَوفَ أَعتَذِرُ ..

• • •

أَحبَّائى :
إذَا كُنَّا سَنرقُصُ دُونَ سيقَانٍ .. كَعَادَتِنَا
وَنَخطُبُ دُونَ أَسْنَانٍ .. كَعَادَتِنَا ..
ونؤمنُ دونَ إيمانٍ .. كَعَادَتِنَا ..
ونَشنُقُ كُلَّ مَنْ جَاؤوا إلَى القَاعَة
عَلَى حَبلٍ طَويلٍ مِنْ بَلاَغَتِنَا
سَأجمَعُ كُلَّ أورَاقِى..
وَأعتَذِرُ...

● ألقيت فى مهرجان أبى تمام بالموصل . كانون الأول / ديسمبر ١٩٧١

مشكلة الديموقراطية عربية أكثر منها إسلامية

■■ خلال «الموجة الثالثة» للتحول الديمقراطى، كفت الديمقراطية عن أن تكون ظاهرة فى معظمها غربية وأصبح لها «توجه عالمى»، فعندما بدأت الموجة الثالثة فى ١٩٧٤، لم يكن فى العالم سوى ٤٠ من الديمقراطيات تقريبا، يقع عدد قليل منها خارج الغرب. وعندما صدرت مجلة الديمقراطية فى ١٩٩٠، كانت هناك ٧٦ من الديمقراطيات الانتخابية (أقل قليلا من نصف دول العالم المستقل). وبحلول عام ١٩٩٥، وصل هذا الرقم إلى ١١٧ (أى ثلاثة من ضمن كل خمس دول). وفى هذا الوقت، وجدت كتلة حرجة لتحفيز الديمقراطية فى كل منطقة رئيسية من العالم فيما عدا واحدة، هى منطقة الشرق الأوسط[1]. علاوة على ذلك، أصبحت كل واحدة من العوالم الثقافية الكبرى المضيف لحضور ديمقراطى قوى، وإن كان ذلك مرة أخرى باستثناء واحد، هو الوطن العربى[2]. وبعد خمسة عشر عاما من هذا التاريخ، لا يزال هذا الاستثناء قائما.

استمرار غياب نظام ديمقراطى واحد فى العالم العربى يعد أمرا غريبا، واستثناء رئيسيا للعولمة الديمقراطية. لماذا لا توجد ديمقراطية فى العالم العربى؟ ولماذا لم تحظ أبدا أى دولة، من بين ١٦ دولة عربية مستقلة فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، بالديمقراطية سوى لبنان؟

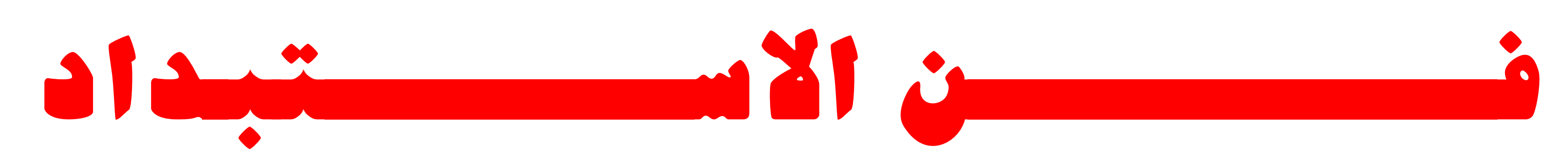
الافتراض الأكثر شيوعا عن العجز العربى الديمقراطى هو أن ذلك له علاقة بالدين أو الثقافة، بالرغم من أن لا شىء يجمع الدول العربية سوى أنها عربية؛ فهم يتكلمون فقط نفس اللغة (على الأقل بقدر اشتراكهم فى اللغة العربية الفصحى)، إلا أنه كثيرا ما يذكر، أن جميع بلدان المنطقة، تتشارك فى المعتقدات الثقافية، والتركيبات، والممارسات، علاوة على اشتراكها فى نفس الدين المهيمن؛ الإسلام، على الرغم من أن نصف سكان لبنان تاريخيا كان من المسيحيين (يعتقد أنهم الآن أقل من النصف)، كما تحتوى دول أخرى، مثل مصر، على أقليات مسيحية. وكما سأبين لاحقا، لا الثقافة ولا الدين يقدمان تفسيرا مقنعا للعجز الديمقراطى العربى. ربما لم تصبح بلدان مثل مصر والأردن والمغرب واليمن ديمقراطية لأنها ليست متقدمة اقتصاديا حتى الآن. إلا أن هذه الحجة تفشل هى الأخرى عند مقارنة مستويات التنمية فى الدول العربية بغيرها من الدول، كما سأفعل قريبا. لعل الآثار السلبية الاجتماعية والسياسية للغرق فى ودائع للبتروكيماويات (ما يسمى بلعنة النفط) هى السبب إذًا، لكن كيف يمكن أن يفسر ذلك غياب الديمقراطية فى دول غير غنية بالنفط مثل مصر والأردن والمغرب وتونس؟

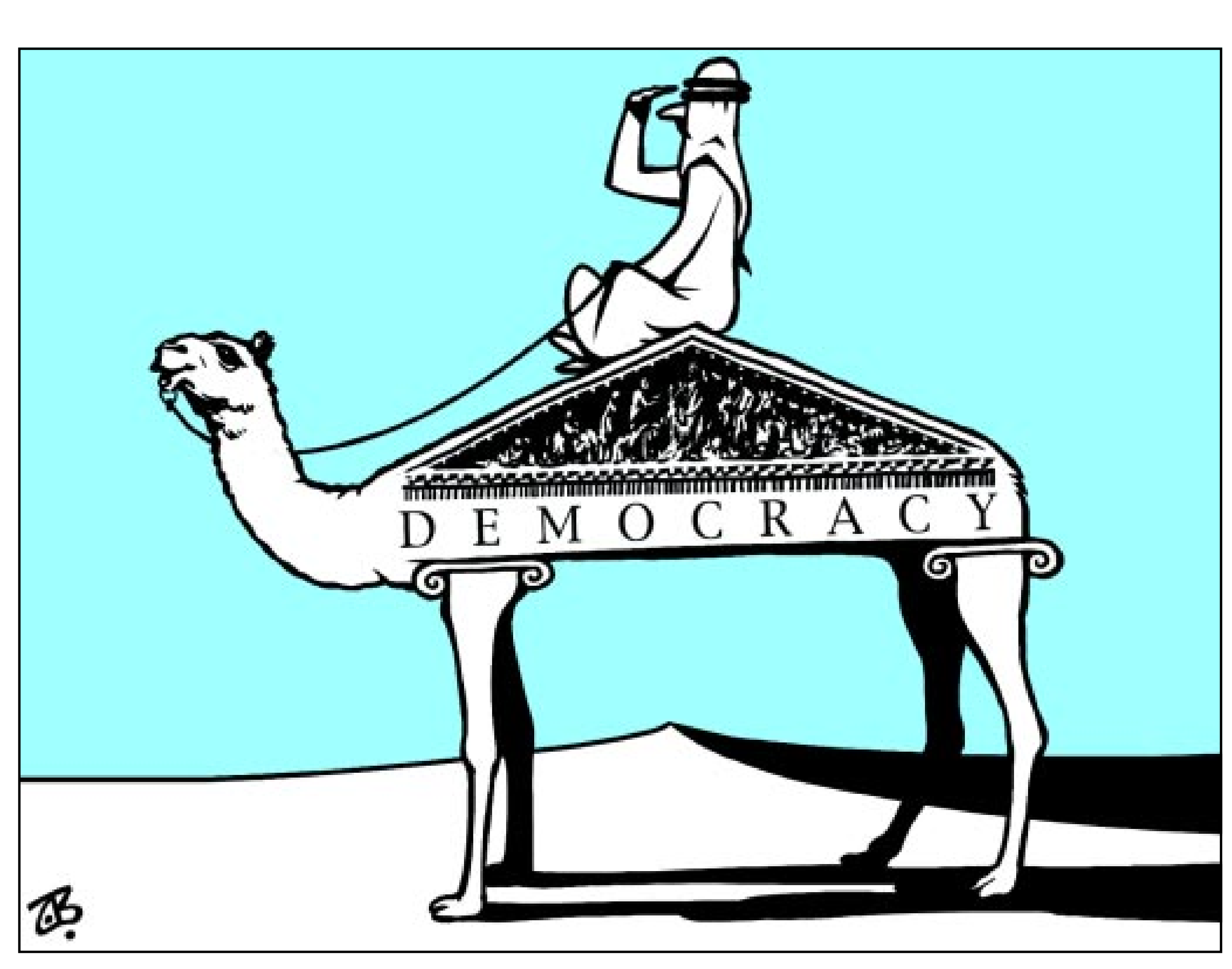
كما سأقوم بالشرح، تنطوى الإجابة على لغز العجز الديمقراطى العربى على الاقتصاد السياسى، بقدر ما تنطوى على الجغرافيا السياسية. وتتطلب تحليلا للهياكل السياسية الداخلية للدول العربية. ولكنها تتطلب أولا الاستغناء عن الافتراضات التى لا يمكن أن تصمد أمام اختبار كفاية الأدلة.

بترتيب خاص مع:
Johns Hopkins University Press

Larry Diamond “why are there no arab democracies?”, Journal of Democracy Volume 21, Number 1 January 2010

ترجمة: جيهان شعبان





الـديـن والـثـقـافـة

كما أظهر ألفريد ستيبان وجرايم روبرتسون، هناك فجوة «ديمقراطية» كبيرة بين دول العالم، لكن هذه الفجوة «عربية» أكثر من كونها «مسلمة». فبمقارنة الـ١٦ دولة عربية ذات الأغلبية المسلمة مع ٢٩ دولة أخرى ذات أغلبية مسلمة، وجد ستيبان وروبرتسون أن من بين الأخيرة (بما فى ذلك ألبانيا وبنجلاديش وماليزيا والسنغال وتركيا) عددا له سجلات هامة فى توسيع نطاق معقول لديمقراطية الحقوق السياسية لمواطنيها. وكان من بين البلدان العربية، الوحيد الذى ينطبق عليه هذا الوصف هو لبنان قبل الحرب الأهلية التى بدأت فى ١٩٧٥. علاوة على ذلك، أخذا فى الاعتبار مستوى الحقوق السياسية الذى يمكن للمرء أن يتنبأ به من خلال نصيب غير العربية (حوالى الثلث) كانت فى منتصف الطريق (٤) أى أفضل من متوسط درجات مقياس الحرية، لم تحصل أى من الدول العربية على هذه الدرجة سوى الكويت.

هذا بشأن الدين، فماذا عن الثقافة؟ يمكن لأحد أن يجادل، كما فعل المؤرخ البريطانى الراحل ايلى كيدورى فى ١٩٩٢، بأنه لا «شىء فى تقاليد العالم العربى السياسية، المستمدة من التقاليد السياسية للإسلام، ما يجعل تنظيم أفكار بشأن الحكومة الدستورية التمثيلية أمرا مألوفا أو حتى واضحا»[6]. إلا أنه توجد تجارب هامة فى الديمقراطية لعدد من البلدان ذات التقاليد السياسية الإسلامية، من خارج العالم العربى. وحتى لو كان للمرء أن يغفل معادلة كيدورى الخاصة بالتقاليد السياسية للعرب والمسلمين، فإن المرء يظل بحاجة إفريقيا. مرة أخرى، يجب أن يكون هناك شىء آخر يحدث.

ربما يتلخص الأمر ببساطة فى أن الشعوب العربية لا تريد ولا تثمن الديمقراطية الانتخابية بنفس الطريقة التى رغب فى هذا الشكل من أشكال الحكم الذاتى الرأى العام وثمنه فى مناطق أخرى من العالم[7]. ولكن إذا قبلنا ذلك، كيف نأخذ فى الحسبان النسبة الساحقة من الرأى العام العربى، ما يزيد على ٨٠٪ فى الجزائر والأردن والكويت والمغرب والسلطة الفلسطينية وحتى فى العراق التى توافق على أنه «على الرغم من عيوبها، تظل الديمقراطية هى أفضل نظام للحكم» ، وإن «وجود نظام ديمقراطى فى بلدنا سيكون أمرا جيدا»[8]. دعم الديمقراطية ليس فقط واسعا جدا فى العالم العربى، ولكنه لا يختلف أيضا حسب درجة التدين. «فى الواقع، يؤمن مزيد الاعتبار الداعمين للديمقراطية والداعمين لشكل من أشكال النموذج الإسلامى للحكم، فإن النمط العام يكون شيئا من هذا القبيل: ٤٠ إلى ٤٥٪ من الجمهور تؤيد الديمقراطية العلمانية فى حين أن نفس النسبة تقريبا تدعم صيغة إسلامية للديمقراطية، فى الوقت الذى تؤيد فيه ٥ إلى ١٠٪ من الجمهور سلطوية علمانية ونفس النسبة تؤيد السلطوية الإسلامية[11].

هنا يظهر الدين والانحيازات كعوامل ذات صلة. نحن لا نعرف حتى الآن، وفقا لبيانات البارومتر العربى، ما هى النسبة من بين هؤلاء الذين يختارون على حد سواء «الديمقراطية» والنفوذ الإسلامى التى لديها فهم للديمقراطية بوصفها العنصر الأساسى، ليس فقط لحقوق الأغلبية، بل أيضا لحقوق الأقليات بما فى ذلك حق الأقلية فى محاولة حصولها على الأغلبية فى الانتخابات القادمة.

العـــــــــــربى

الفرد من الدخل، وجدا «العديد من الإنجازات الانتخابية» من بين الدول ذات الغالبية المسلمة التى لا تعتبر عربية، ولم يجدا مثالا واحدا من بين الدول العربية[3].

يكشف تحليلى الداعم الأكثر حداثة النقاط الإضافية التالية. أولا، إذا كان لنا أن نتساءل عما إذا كانت الأنظمة تلبى الحد الأدنى من الديمقراطية الانتخابية (انتخابات حرة ونزيهة تحدد من سيكون فى الحكم)، سنجد أن هناك ثمانى من الدول ذات الأغلبية المسلمة غير العربية تصنفها فريدوم هاوس كديمقراطيات اليوم، بينما لا توجد أى دولة عربية[4]. ثانيا، هناك «فجوة حرية» كبيرة بين الدول العربية وغير العربية ذات الأغلبية المسلمة. ففى نهاية عام ٢٠٠٨، كان متوسط النقاط التى حصلت عليها الدول العربية الست عشرة فى منطقة الشرق الأوسط فى مقياسى فريدوم هاوس ٥,٥٣ (أسوأ درجة ممكنة كانت ٧ والتى كانت تشير إلى «الأقل حرية»). بينما كان متوسط الدول الإسلامية الأخرى ٤,٧[5]. أى أن الاختلاف بين المجموعتين يتعدى نقطة كاملة على مقياس من سبع درجات وهو اختلاف لا يستهان به. علاوة على ذلك، فإنه فى حين أن إحدى عشرة من الدول إلى تفسير لماذا ترسخت «الأفكار المنظمة» عن الديمقراطية الحديثة فى عدد من بلدان أفريقيا وآسيا دون أن يكون لهذه الدول سابقة فى مسألة الديمقراطية، ولم يحدث ذلك أبدا فى العالم العربى؟ إذا كانت المشكلة، كما وصفها كيدورى هى: «أن الدول العربية اعتادت على... الاستبداد والطاعة السلبية»، فلماذا يشكل ذلك عقبة فى العالم العربى فقط، فى حين أنه لم يمنع التحول الديمقراطى فى مساحات واسعة من بقية أنحاء العالم التى لم تعرف فى السابق سوى الهيمنة السلطوية أيضا؟

يمكن أن يقال أيضا، فيما يتعلق بكل من العراق ولبنان، أن الطائفية والانقسامات العرقية تعيق السماح بالديمقراطية. إلا أن العراق ولبنان على الرغم من كل انقساماتهما واستقطاباتهما، تظلان الدولتين العربيتين الأقرب إلى الديمقراطية الانتخابية اليوم، بينما أكثر بلدان المنطقة تجانسا، وهما مصر وتونس، هما أيضا الأكثر استبدادية. فى الواقع، لا تشكل الاختلافات الدينية أو العرقية عقبة أكثر خطورة للديمقراطية فى العالم العربى عما كانت تمثل فى بلدان مثل غانا والهند واندونيسيا وجنوب من المسلمين المتدينين مثلهم مثل الأقل تدينا أن الديمقراطية، على الرغم من عيوبها، هى أفضل نظام سياسى»[9]. إذا نظرنا إلى الطريقة التى توجه بها العراقيون إلى صناديق الاقتراع على نطاق واسع ثلاث مرات فى عام ٢٠٠٥، وسط مخاطر وخيمة على سلامتهم الشخصية، يصعب أن نستنتج أن العرب لا يهتمون بالديمقراطية. وعلى النقيض من ذلك، عندما تقدم الانتخابات القليل من الخيارات ذات المغزى (كما فى مصر)، أو لا يكون لنتائجها تأثير يذكر فى تحديد من سيكون حقا فى السلطة (كما هو الحال فى المغرب)، فإنه من غير المستغرب أن يصاب معظم الناس بالإحباط ولا يقبلوا على التصويت.

تختفى تحت الأرقام الإجمالية للدعم العربى للديمقراطية، قصة أكثر تعقيدا. ففى خمسة بلدان شملتها دراسة البارومتر العربى بين عامى ٢٠٠٣ و٢٠٠٦، وافق ٥٦٪ من المشاركين على أنه «يجب أن يكون لرجال الدين تأثير على قرارات الحكومة»[10]. كما وجد مسح أجرى بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ أن أكثر من نصف أربعة شعوب عربية اتفق على أن الحكومة يجب أن تنفذ الشريعة الإسلامية بدلا من القانون الوضعى. وعندما نأخذ فى والأدلة التى بحثتها أمانى جمال ومارك تسلر تشير إلى أن نسبة أنصار الديمقراطية العلمانية تختلف قليلا عن نسبة من يدعمون الديمقراطية الإسلامية عندما يتعلق الأمر بدعم قيم ديمقراطية، مثل الانفتاح والتسامح والمساواة، إلا أن الديمقراطيين العلمانيين يبدون أكثر ليبرالية عندما يتعلق الأمر بالتسامح العنصرى وحقوق المرأة. استنتج جمال وتسلر أن العرب يثمنون الديمقراطية، حتى لو كان قلقهم بشأن الاستقرار يدفعهم للرغبة فى أن تأتى بالتدريج، كما استنتجا أنه لا السياسة الدينية ولا التدين الشخصى يشكلان عقبة رئيسية أمام التحول الديمقراطى.

ولكن تظل مشكلة واحدة. أنه من بين الديمقراطيين العلمانيين فى العالم العربى، يوجد خليط من الطبقة المتوسطة من المثقفين الليبراليين والمهنيين ورجال الأعمال الذين يضغطون من أجل الديمقراطية من أماكن أخرى فى أنحاء العالم. لم يتم غربلة العديد من هؤلاء الديمقراطيين العلمانيين (بعضهم كذلك أعضاء فى أقليات دينية أو عرقية) فى بيانات مسح البارومتر العربى وفقا لمعتقدات مواطنيهم. يتخيل هؤلاء

الديمقراطيون بدلا من ذلك السياسة الوشيكة البديلة للنظام الاستبدادى الذى لا يروق لهم. ويتخوفون من أن لا يصبح ذلك نسخة إسلامية معتدلة للديمقراطية الدستورية، وإنما يكون نظاما تسيطر عليه جماعة الإخوان المسلمين المصرية، وحزب جبهة العمل الإسلامى الأردنى، أو بعض القوى الإسلامية الأخرى المتشددة والمعادية للديمقراطية، مما يعنى مزيدا من الهيمنة المشئومة. كذلك، يخشون أن هذا البديل الإسلامى سينتج «صوت واحد لكل شخص واحد، ولكن لمرة واحدة» قبل أن يتم اختطاف الثورة الانتخابية الديمقراطية كما خطف آية الله الخمينى الثورة الإيرانية فى ١٩٧٩. أو أنهم يخشون أن يؤدى الجهد المبذول فى آخر لحظة لمنع هذا الاحتمال لإغراق بلادهم فى السيناريو المروع للجزائر فى ١٩٩١، عندما سيطر الجيش لمنع الجبهة الإسلامية للإنقاذ من الفوز فى الانتخابات الوطنية، مما أدى إلى ما يقرب من عشر سنوات طويلة من الحرب الأهلية التى أودت بحياة ما يقرب من ١٥٠ ألف شخص. المرء لا يحتاج إلى تبرير الاختيار الذى قامت به النخب السياسية والعسكرية فى الجزائر، ووحشية السنوات التالية، من أجل الاعتراف بالعقبات أمام الديمقراطية الملازمة للتخوف من الإسلام الراديكالى كبديل ينتظر من خلف الكواليس انهيار النظام الحالى. خلال العقود الأخيرة، كان هناك تخوف مواز فى مكان آخر من العالم: التخوف من استيلاء اليسارية الراديكالية أو «الشيوعية» على الانتخابات. ليس من قبيل الصدفة أن يثبت فى تلك البلدان (فى أمريكا اللاتينية، وجنوب أفريقيا) حيث كان هذا التخوف ينغص الحكام المستبدين وبعض خصومهم الليبراليين، أن النخب أصبحت مستعدة فقط لمناقشة الانتقال للديمقراطية، عندما تبدد احتمال انتصار القوى المعادية للديمقراطية اليسارية نتيجة القمع الوحشى أو نهاية للحرب الباردة.

التنمية الاقتصادية والبنية الاجتماعية

تبقى القضية، كما جادل سيمور مارتن ليبست قبل خمسين عاما، أنه كلما زاد ثراء بلد ما، زادت احتمالات كسب والحفاظ على الديمقراطية بها. إلا أن العديد من الدول العربية تعد شديدة الثراء. فإذا قارنا وفقا لمتوسط دخل الفرد (فى ٢٠٠٧ وفقا للقوة الشرائية للدولار)، نجد أن الكويت فى نفس غنى النرويج تقريبا، وأن البحرين على قدم المساواة مع فرنسا، والمملكة العربية السعودية مع كوريا، وعمان مع البرتغال، وكوستاريكا مع لبنان. فقط مصر والأردن والمغرب، وسوريا، واليمن تقع فى أدنى حد، إلا أن هذه البلدان لا تعد أفقر من حيث متوسط نصيب الفرد من الهند أو إندونيسيا، حيث تعمل الديمقراطية هناك على الرغم من عدم وجود ازدهار واسع.

بطبيعة الحال، يمكن أن تكون أرقام متوسط دخل الفرد خادعة. عندما يكون توزيع الدخول سيئا ومنحرفا كما هو الحال فى العالم العربى. علاوة على ذلك، فإن الدول المصدرة للنفط تبدو متقدمة من على السطح أكثر بكثير مما هى عليه فعليا. حيث إن ترتيب أغلبها من حيث «التنمية البشرية» يقل كثيرا عن ترتيبها من حيث نصيب الفرد من الدخل النقدى (الفرق بين الترتيبين فى المملكة العربية السعودية ٣١ درجة، وفى الجزائر ١٩ درجة). ولكن بالأخذ فى الاعتبار مستويات التنمية البشرية (التى تأخذ فى الاعتبار التعليم والصحة كذلك)، تقف أغنى الدول النفطية العربية على الأقل على قدم المساواة مع البرتغال والمجر، فى حين تأتى المملكة العربية السعودية مع كل من بلغاريا وبنما. وبالنظر إلى الدول العربية التى لديها القليل من النفط لتصدره أو ليس لديها نفط على وجه الإطلاق، نرى أن مصر تحتل نفس مرتبة إندونيسيا، والمغرب له مرتبة جنوب إفريقيا. بعبارة أخرى، يمكن للمرء أن يجد فى أى مستوى من التنمية، وباستخدام كل المقاييس، العديد من الديمقراطيات، التى يتساوى مستوى تنمية كل منها مع دولة عربية غير ديمقراطية.

لو لم تكن المشكلة فى المستوى الاقتصادى، ربما كانت فى الهيكل الاقتصادى. من بين ست عشرة دولة عربية، يوجد من بينها إحدى عشرة دولة «ريعية» بمعنى أنها تعتمد اعتمادا كبيرا على ريع النفط والغاز (وهى فى جوهرها دخول غير مكتسبة) للحفاظ على البلد واقفا على قدميه. هذه الإحدى عشرة دولة تستمد أكثر من ٧٠٪ (فى بعض الحالات أكثر من ٩٠٪) من عائدات تصديرها من النفط والغاز. وأغلبها غارقة فى السيولة النقدية بحيث لا تحتاج لتحصيل ضرائب من مواطنيها. وهذا هو جزء من المشكلة، إذ يفشلون فى تطوير التوقعات العضوية للمساءلة التى ستنشأ عندما تفرض الدولة على المواطنين دفع الضرائب. كما لاحظ صموئيل بى. هنتنجتون فى الموجة الثالثة:



تعود عائدات النفط للدولة: وهى بالتالى تزيد من قوة بيروقراطيتها، ولأنها تقلل أو تزيل الحاجة إلى فرض الضرائب، فإنها أيضا تقلل من حاجة الحكومات فى الحصول على موافقة رعاياها لفرض الضرائب. وكلما انخفض مستوى الضرائب، قلت رغبة الجماهير فى المطالبة بتمثيل ديمقراطى. «لا ضرائب بدون تمثيل». يعد مطلبا سياسيا، «لا تمثيل بدون ضرائب» هو واقع سياسى[١٢].

تتعدى لعنة النفط تضخم دور الدولة ولامبالاة المواطنين. فدور الدولة ليس فقط كبيرا فى الدول النفطية، هو أيضا شديد المركزية، فبما أن الثروة النفطية تذهب إلى الدولة المركزية. وهذه الدول عادة ما تكون شديدة البوليسية، لأن هناك الكثير من المال ليصرف بسخاء على نشاط جهاز أمن الدولة. ومن الطبيعى أيضا أن تكون هذه الدول عميقة الفساد، لأن المال ينصب فى خزينة الدولة المركزية، كريوع، فهو عن حق «مال بلا صاحب» (هى بالتأكيد ليست أموال دافعى الضرائب)، لذلك، بمعنى معيارى مشوه «خالص» ليستحوذ. فى هذه النظم، قد تدعم الدولة الكبيرة والمركزية والقمعية، أى عدد من البيروقراطيات المتضخمة من خلال برامج للتوظيف، تهدف لشراء السلام السياسى عن طريق الرواتب الحكومية، ويصبح المجتمع المدنى ضعيفا ومستأنسا، وكل ما يتعلق باقتصاد السوق مشوه للغاية؛ فالمشاريع الخليجية بالكاد واضحة، بما أن معظم من يعملون فى «البزنس» إما يخدمون الدولة أو قطاعها النفطى، أو ينفذون عقودا حكومية أو يمثلون شركات أجنبية.

وحيث يهيمن النفط، تصبح فرص خلق الثروة من خلال الاستثمار والمخاطرة قليلة، فلماذا المجازفة عندما تكون الأرباح الثابتة متاحة دون أى مخاطرة؟ وهناك أبعاد مشئومة أخرى لـ«مفارقة الوفرة»، مثل دورات الازدهار والكساد التى تعتمد على السلع الأولية، فضلا عن الميل العام للاعتماد على ريع النفط الذى يحقق كسبا سريعا، لخنق أو استباق التنمية للصناعة والزراعة (وهو ما يسمى بالمرض الهولندى). يمكن فقط تجنب هذه العواقب إذا كانت اقتصاديات السوق نشطة، والدولة قابلة للمساءلة والنظم الضريبية متطورة فى المكان قبل أن تفيض عائدات النفط (كما هو الحال فى النرويج وبريطانيا مثلا)[١٣].

هناك إذن، أسس اقتصادية لغياب الديمقراطية فى العالم العربى. إلا أن ذلك يعد هيكليا. فهو له علاقة بالسبل التى يشوه بها النفط الدولة والسوق، والبنية الطبقية، والهيكل الكامل للحوافز. ولا سيما فى فترات ارتفاع أسعار النفط العالمية، التى تصبح آثار لعنة النفط خلالها لا هوادة فيها: لا توجد دولة واحدة من الـ٢٣ دولة التى

حيث يهيمن النفط، تصبح فرص خلق الثروة من خلال الاستثمار والمخاطرة قليلة، فلماذا المجازفة عندما تكون الأرباح الثابتة متاحة دون أى مخاطرة؟



تستمد معظم عائدات صادراتها من النفط والغاز تعد اليوم الديمقراطية. وبالنسبة لبلدان عربية كثيرة، لن تزول لعنة النفط قريبا، إذ يعد الشرق الأوسط العربى موطنا لخمسة من البلدان التسعة الأكبر من حيث احتياطيات النفط، وتملك الدول الخمس مجتمعة ما يزيد قليلا على ٤٦٪ من الاحتياطى العالمى[١٤].

فن الحكم الاستبدادى

اثنتان من الركائز الأساسية للاستبداد العربى، سياسية: إنها تشمل الأنماط والمؤسسات التى تدير من خلالها الأنظمة الاستبدادية سياساتها وتحافظ بها على سيطرتها على السلطة، جنبا إلى جنب مع القوى الخارجية التى تساعد على الحفاظ على سيادتها. ممارسات هذه الهياكل السلطوية ليست حكرا على العالم العربى، إلا أن الحكام العرب ارتقوا بها إلى درجة عالية من النقاء، ومارسوها بمهارة غير عادية. فعلى الرغم من أن الدولة العربية النموذجية لا تكون فعالة فى الحياة اليومية إلا أن أجهزة مخابراتها تكون عادة ممولة بإسهاب، ومتطورة من الناحية التقنية، وشديدة النفاذ، وغير مقيدة من الناحية القانونية، ومحافظة على توازن رائع من التعاون واسع النطاق مع المؤسسات النظيرة فى المنطقة فضلا عن وكالات الاستخبارات الغربية. باختصار، «تحظى هذه الدول بالمركز الأول فى العالم من حيث نسبة الناتج القومى الإجمالى المنفقة على الأمن»[١٥].

ومع ذلك فإن معظم الأنظمة الاستبدادية العربية لا تعتمد على الإكراه الحاد والتخويف من أجل البقاء. فهى تعتمد بدلا من ذلك، على القمع الانتقائى الممزوج بقليل (وبالتالى غالبا ما يكون خفيا) من آليات التمثيل الديمقراطى، والتداول، والاختيار الجماعى. حيث تلعب انتخابات تعددية معدودة دورا هاما فى حوالى نصف الأنظمة الاستبدادية العربية الستة عشر. كما كتب دانيال برومبرج قبل سبع سنوات:

الأوتوقراطيات المستقلة قد أثبتت أنها أكثر قدرة على البقاء مما تخيلناه يوما. البصمة المميزة لخليط من التعددية الموجهة، والانتخابات المسيطر عليها، والقمع الانتقائى فى مصر والأردن والمغرب والجزائر، والكويت ليست مجرد «إستراتيجية بقاء» تعتمدها الأنظمة الاستبدادية، وإنما نوع من النظم السياسية الذى تتحدى مؤسساته، وسيادته، ومنطقه أى نموذج خطى للتحول الديمقراطى[١٦].

فى الواقع، فى مثل هذه النظم حتى التحرر لا يكون خطيا بل على الأصح دائريا ومتكيفا. فعندما تتصاعد الضغوط، سواء من داخل المجتمع أو من خارجه، يخفف النظام من القيود ويتيح المزيد من الأنشطة المدنية والمزيد من الانفتاح على الساحة الانتخابية، حتى تبدو المعارضة السياسية كما لو أنها ستنمو لتصبح أكثر جدية وفاعلية. فيعود النظام إلى المزيد من الأساليب الخرقاء فى تزوير الانتخابات، وتقليص الفضاء السياسى، وإلقاء القبض على المشتبه بهم المعتادين. الساحة الانتخابية فى هذه الدول بالتالى تشبه رئتين سياسيتين ضخمتين، من حيث التنفس (فى بعض الأحيان بعمق وشغف) والتوسع، ولكن لا محالة من الزفير والانقباض بعد ذلك عند الوصول للحدود.

المسار السياسى الذى اتبعته مصر فى ٢٠٠٤ و٢٠٠٥ كان خير مثال على هذه الدينامية. ووجه المستبد المسن، الرئيس المصرى حسنى مبارك، بضغوط داخلية متزايدة من قبل تحالف واسع غير معتاد عرف باسم حركة كفاية (وهو ما لخص ببلاغة مزاج البلاد)، وكذلك من قبل الولايات المتحدة أثناء حكم الرئيس جورج دبليو بوش، الذى كان أيضا يضغط من أجل انتخابات رئاسية وتشريعية أكثر انفتاحا وقدرة على المنافسة. وافق مبارك على مضض، على السماح بإجراء انتخابات رئاسية تعددية وانتخابات تشريعية أكثر شفافية فى ٢٠٠٥. إلا أن «مسابقة» الرئاسة ظلت جائرة بفداحة، وخلال ثلاثة أشهر من الانتخابات (التى فاز بها الرئيس بنسبة ٨٨,٦٪ وفقا للادعاءات الرسمية) حكم على المعارض لمبارك، أيمن نور، بالسجن لخمس سنوات. كما، تدخل النظام فى الجولتين الثانية والثالثة من الانتخابات البرلمانية لتقويض الإدارة المستقلة للتصويت، وتحييد مراقبى المجتمع المدنى، ووقف وتيرة انتصار المعارضة من مرشحى الإخوان المسلمين الذين خاضوا الانتخابات بموجب القانون كـ«مستقلين». لم يمض وقت طويل بعد ذلك، ليبدأ الحزب الحاكم حملة لـ«إصلاح» الدستور لتأمين نفسه ضد أى «حوادث» سياسية مستقبلية، فى حين وقفت المعارضة الفاقدة لمعنوياتها والمنقسمة، والتى أضعفتها الاعتقالات والترويع والتخويف، لتتفرج عاجزة بما حصلت عليه من دعم محدود من جانب إدارة بوش. هذه المناورة المؤسسية كانت جزءا من نمط عربى عام للـ«إصلاح المروض»، الذى تعتمد الأنظمة العربية الأوتوقراطية من خلاله على لغة الإصلاح السياسى بغية تجنب ذلك واقعيا، أو تتبنى إصلاحات اقتصادية واجتماعية محدودة لمتابعة التحديث دون تحول ديمقراطى[١٧].

تسمح هذه الأنظمة (والتى تشمل الجزائر والأردن والكويت والمغرب فضلا عن مصر) بقدر من التنافس السياسى والتعددية، فى حدود القواعد والمعايير المعدة بعناية بحيث تضمن أن يظل المعارضون محرومين وغير متمكنين. وتختار الممارسات الانتخابية (مثل استخدام الأردن لاقتراع فردى غير قابل للتجيير) بحيث تميل لمنح العلاقات الشخصية والقبلية للمرشحين امتيازا على حساب الأحزاب السياسية المنظمة، وخصوصا الإسلاميين[١٨]. ولا تملك البرلمانات التى تنتج عن هذه الانتخابات المحدودة سلطة حقيقية للتشريع أو الحكم، لتبقى السلطة غير المحدودة فى يد الملوك والرؤساء.

تدفع أحزاب المعارضة ثمنا فادحا سواء قاطعت هذه المتاهات أو شاركت فيها. فإذا شاركت أحزاب المعارضة فى الانتخابات والبرلمان، فإنها تواجه بخطر الاستئناس أو على الأقل أن ينظر إليها على هذا النحو من قبل الناخبين الساخرين والساخطين. أما إذا قاطعت «اللعب من داخل» السياسة الانتخابية والبرلمانية، فإن «اللعب من الخارج» عن طريق الاحتجاج والمقاومة يتيح إمكانية واقعية محدودة للتأثير، فضلا عن الوصول للسلطة. وبسبب الوقوع فى شباك هذه المعضلة، أصبحت المعارضة السياسية فى العالم العربى منقسمة، مشبوهة، وممزقة من الداخل. هى ملعونة إذا شاركت وملعونة إذا لم تشارك. حتى الإسلاميين فى دول مثل مصر والكويت والمغرب مجزؤون فى معسكرات مختلفة، ما بين تيارات معتدلة ومتشددة (فضلا عن التكتيكية والمتعصبة). تقف الأحزاب الإسلامية بحزم خارج النظام، فى نفس الوقت الذى تتبنى فيه شبكات للرعاية الاجتماعية وروابط دينية وأيديولوجية قاعدية، وتحشد قواعد من الدعم الشعبى على المدى الطويل. فى حين تبدو الأحزاب العلمانية، على النقيض من ذلك، هامشية، عرجاء وضعيفة. «مسحوقة بين الأنظمة التى تسمح بمساحة قانونية محدودة... وحركات إسلامية شعبية فى صعود واضح... إنهم يناضلون من أجل نفوذهم وأهميتهم، وفى بعض الحالات حتى من أجل بقائهم»[١٩].

ملف الجغرافيا السياسية

الوضع الجغرافى السياسى غير المواتى الذى يواجه الديمقراطية فى العالم العربى يتخطى عامل النفط الساحق، على الرغم من تحريك النفط لكثير من القوى الكبرى التى لها مصالح فى المنطقة. كان الدعم الخارجى للأنظمة العربية، تاريخيا، يأتى بشكل جزئى من الاتحاد السوفيتى ولكنه



إن معظـــم الأنظـــمة الاســـتبدادية العربيـــة لا تعتمــد على الإكراه الحاد والتخويف من أجل البقاء. فهـــى تعتمـــد عـــلى القمـــع الانتقــائى



يأتى الآن أساسا من أوروبا والولايات المتحدة، مانحا الأنظمة الاستبدادية العربية موارد اقتصادية حاسمة، ومساعدات أمنية، وشرعية سياسية. فى ظل هذه الظروف، تقوم المساعدات الخارجية للأنظمة غير النفطية مثل مصر والأردن والمغرب، مقام النفط؛ مصدر آخر للريوع التى تستخدمها الأنظمة من أجل البقاء. فالمعونة تتدفق إلى خزائن الدولة المركزية مثل النفط مانحة إياها وسائل الاستئناس والقمع على حد سواء. بلغ مجموع معونات «التنمية» التى قدمتها الولايات المتحدة لمصر منذ ١٩٧٥، أكثر من ٢٨ مليار دولار، لا تتضمن ما يقرب من ٥٠ مليار دولار تدفقت إلى هذا البلد فى صورة مساعدات عسكرية منذ معاهدة كامب ديفيد للسلام فى ١٩٧٨[٢٠]. الأقل شهرة، هو التدفق الهائل من المعونات الأمريكية الاقتصادية والعسكرية لدولة تقل بكثير من حيث عدد السكان هى الأردن، والتى حصلت على ما متوسطه ٦٥٠ مليون دولار سنويا منذ ٢٠٠١. «تتيح المعونات الغربية للنظم السياسية الرئيسية فى البلاد الإستراتيجية الإنفاق بسخاء على الوظائف العامة دون فرض ضرائب باهظة. فى الفترة من ٢٠٠١ وحتى ٢٠٠٦، تمثل المساعدات الخارجية التى حصلت عليها الأردن ٢٧٪ من جميع الإيرادات المحلية»[٢١].

تعزز اثنان من العوامل الخارجية الإضافية الهيمنة الداخلية للأنظمة الاستبدادية العربية. أولها هو الصراع العربى الإسرائيلى، الذى يخيم مثل الأبخرة السامة على الحياة السياسية فى الشرق الأوسط. إذ يوفر وسيلة جاهزة ومريحة لتحويل الإحباط العام بعيدا عن الفساد وانتهاكات حقوق الإنسان التى تمارسها الأنظمة العربية، ويحول غضب المواطنين للخارج ليركزوا على ما يبثه الإعلام العربى الخاص والحكومى على حد سواء من قمع إسرائيلى للفلسطينيين بشكل عاطفى، وباستطراد رمزى، للشعب العربى كله. حرية الاحتجاج على أوجه القصور فى الأنظمة العربية نفسها، وسوء نوعية التعليم والخدمات الاجتماعية، وانعدام فرص العمل والشفافية والمساءلة، محظورة إلا أن الرأى العام العربى يستطيع التنفيس عن غضبه فى الصحافة وفى الشوارع على هدف واحد مأمون: هو إسرائيل.

والعامل الخارجى الثانى هو الدول العربية أنفسها، التى تعزز كل منها الأخرى فى التسلط وتقنيات المراقبة والتزوير، والقمع، مما حول الـ٢٢ عضوا فى جامعة الدول العربية على مدى العقود إلى ناد للحكام المستبدين. من بين جميع المنظمات الإقليمية الرئيسية، تبقى جامعة الدول العربية أكبر عقبة أمام تعزيز وتشجيع معايير الديمقراطية. فى الواقع، يخلو ميثاقها، الذى لم يعدل منذ نصف قرن، من أى ذكر للديمقراطية أو حقوق الإنسان. بخلاف كل هذا، يظل عدم وجود مجرد مثال واضح للديمقراطية العربية، أمرا يعنى أنه لا يوجد مصدر لنشر أو مضاهاة الديمقراطية فى أى مكان داخل العالم العربى، حتى فى عصر العولمة، كما جاء فى الموجة الثالثة: أن آثار المظاهرات كانت «أقوى بين البلدان المتقاربة جغرافيا وثقافيا متماثلة»[٢٢].

هل سيتغير أى شىء؟

هل حكم على العالم العربى ببساطة بمستقبل سلطوى لأجل غير مسمى؟ لا أعتقد ذلك. فعلى الرغم من أن بدايات التغيير فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة خلال السنوات ٢٠٠٣ حتى ٢٠٠٥ شجعت الانفتاح السياسى وأتاحت على الأقل مساحة للتعبئة الشعبية الديمقراطية فى دول مثل مصر ولبنان والمغرب فضلا عن السلطة الفلسطينية. إلا أن أغلب هذه النوافذ أغلقت جزئيا أو كليا فى الوقت الراهن، لكن على الأقل ذاقت قوى المعارضة العربية والمجتمعات المدنية مذاق السياسة الديمقراطية. تشير استطلاعات الرأى إلى أن هذه القوى تريد بوضوح أكثر من ذلك، وتتيح أدوات الوسائط الاجتماعية الجديدة مثل الفيسبوك، والتويتر، والمدونات، وثورة الهواتف المحمولة للعرب فرصا جديدة للتعبير عن أنفسهم وللتعبئة.

ثلاثة عوامل يمكن أن تعجل بالتغيير الديمقراطى فى العالم العربى. أولها، ظهور دولة ديمقراطية واحدة فى المنطقة، ولا سيما فى البلاد التى يمكن أن ينظر إليها باعتبارها نموذجا. هذا الدور سيكون من الصعب على لبنان لعبه، نظرا لتعقيد فصائلها الحاد وتشرذم سلطتها التوافقية، فضلا عن استمرار تدخل سوريا الشديد فى سياستها. ولكن إذا أحرز العراق تقدما سياسيا، أولا عن طريق انتخاب حكومة ديمقراطية جديدة هذا العام ثم بانسحاب لائق وسلمى للقوات الأمريكية، يمكن أن تتغير المفاهيم تدريجيا فى المنطقة. مصر أيضا تستحق المشاهدة، حيث تغرب الشمس ببطء على ثلاثة عقود من حكم حسنى مبارك الذى يبلغ من العمر ٨١ عاما. فسواء خلفه ابنه جمال (٤٦ عاما) أم لا، فإن النظام سيواجه بضغوط واحتياجات سيجبر على التكيف معها عندما يختفى فرعون العصر الحديث عن المشهد.





ثانيا، أن تغير الولايات المتحدة من سياستها لاستئناف المشاركة المبدئية وتقديم مزيد من المساعدة العملية واسعة النطاق لتشجيع والضغط من أجل الإصلاحات الديمقراطية، ليس فقط فى المجال الانتخابى ولكن فيما يتعلق بتعزيز استقلال القضاء والشفافية الحكومية فضلا عن توسيع نطاق حرية الصحافة والمجتمع المدنى. إذا تمت متابعة ذلك بلهجة أكثر تواضعا، وتم تعزيزه إلى حد ما عن طريق الضغط الأوروبى، يمكن أن يساعد ذلك على تجديد وحماية القوى السياسية المحلية التى هى الآن فى حالة من الفوضى والإحباط. ولكن للمضى قدما بطول هذا المسار، يجب على الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين تغيير نظرتهم غير المحايدة تجاه الأحزاب الإسلامية وإشراك هؤلاء الإسلاميين الفاعلين الذين سيكونون على استعداد للالتزام بمزيد من الوضوح لقواعد الديمقراطية الليبرالية.

أكبر لاعب للتغيير سيكون، انخفاضا حادا ولفترات طويلة فى أسعار النفط العالمية (فلنقل لنصف المستويات الحالية). وإن كانت أصغر ممالك الخليج النفطية ستظل غنية مع أى سعر يمكن تصوره، لكن ستجد أكبر البلدان مثل المملكة العربية السعودية (عدد سكانها ٢٩ مليون نسمة) من الضرورى طرح صفقة سياسية جديدة مع أبنائها الأكثر ثراء وجمهورها (الشاب جدا). وستقع الجزائر وإيران تحت ضغط أكبر، فعلى الرغم من أن إيران ليست دولة عربية، إنما فقط ذات أقلية العربية، فعلى الواحد ألا يقلل من شأن التأثير الرائع للتحول الديمقراطى لدولة رئيسية فى منطقة الشرق الأوسط والتى تعد أيضا المثال الوحيد لنظام إسلامى كامل فى المنطقة، على آفاق الديمقراطية العربية. عندما ينظر المرء إلى ما حدث للديمقراطية فى نيجيريا، وروسيا، وفنزويلا، حين ارتفع سعر النفط فى السنوات الأخيرة، تصبح سياسة تخفيض سعر النفط أكثر حتمية. قبل مضى وقت طويل، سيجبرنا تسارع تغير المناخ فى الأغلب للاستجابة بشكل أكثر جذرية لهذا التحدى. وعندما تقوم الثورة العالمية فى مجال تكنولوجيا الطاقة بالضرب بكل قوة، وتكسر أخيرا احتكار النفط، سوف تضع نهاية حاسمة للاستثناء السياسى العربى. ■

الصراع العربى الإسرائيلى، يوفر وسيلة جاهزة ومريحة لتحويل الإحباط العام بعيدا عن الفساد وانتهاكات حقوق الإنسان



ملاحظات

أنا ممتن للتعليقات القيمة التى حصلت عليها عند عرض نسخ من هذه الورقة فى ٢٠٠٩ على جامعة ستانفورد، وجامعة إنديانا، ومعهد آش من أجل الحكم الديمقراطى والابتكار فى جامعة هارفارد.

(١) أعنى بـ«الشرق الأوسط» ١٩ دولة فى منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا (MENA). وعندما أشير إلى العالم العربى أعنى بذلك ١٦ دولة عربية فى هذه المنطقة، أى الجزائر والبحرين ومصر والعراق والأردن والكويت ولبنان وليبيا والمغرب وعمان وقطر والمملكة العربية السعودية وسوريا وتونس والإمارات العربية المتحدة واليمن.

(٢) هناك ٢٢ عضوا فى جامعة الدول العربية، على الرغم من أن واحدا منهم وهو (فلسطين) ليس بعد بدولة. من بين الـ٢١ الأخرى، يتم تحليل خمس بشكل أفضل فى سياق جنوب الصحراء الكبرى لإفريقيا: جزر القمر وجيبوتى وموريتانيا والصومال والسودان. من هؤلاء، تعد جزر القمر الدولة الديمقراطية الوحيدة اليوم. كما حظيت موريتانيا بفترة وجيزة من الديمقراطية منذ وقت ليس ببعيد، كما شهد السودان اثنتين من محاولات التحول الديمقراطى الفاشلة.

(٣) ألفريد ستيبان وجرايم بى. روبرتسون، «فجوة الديمقراطية عربية أكثر من كونها إسلامية»، مجلة الديمقراطية ١٤ (يوليو ٢٠٠٣): ٣٠-٤٤.

(٤) الديمقراطيات الثمانى هى ألبانيا وبنجلاديش وجزر القمر وإندونيسيا ومالى والسنغال وسيراليون وتركيا.

(٥) من بين البلدان الـ٤٧ الواردة فى قائمة ستيبان وروبرتسون بوصفها ذات أغلبية مسلمة، استبعدت من أى تحليل نيجيريا، حيث لا يعرف أحد على وجه اليقين ما هو العدد الكلى لسكانها أو ما هو التوازن بين مجموعاتها الدينية. وقمت بإضافة بلدين هما (بروناى وجزر المالديف) التى لم يتم تسجيل بيانات بشأنهما.

(٦) إيلى كيدورى، الديمقراطية والثقافة العربية (واشنطن العاصمة: معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، ١٩٩٢)، ٥-٦.

(٧) لقد وثقت هذه المستويات الواسعة من الدعم فى العديد من مقالات مجلة الديمقراطية على مدى العقد الماضى، وتم تجميع بعضها مؤخرا فى كتاب لارى دايموند ومارك إف. بلاتنر، كيف تنظر الشعوب للديمقراطية (بالتيمور: مطبعة جامعة جون هوبكنز، ٢٠٠٨).

(٨) مارك تسلر واليانور جاو «قياس حجم التأييد العربى للديمقراطية»، مجلة الديمقراطية ١٦ (يوليو ٢٠٠٥): ٨٢-٩٧، وأمانى جمال ومارك تسلر، «بارومترات الديمقراطية: المواقف فى العالم العربى»، مجلة الديمقراطية ١٩ (يناير ٢٠٠٨): ٩٧-١١٠.

(٩) جمال وتسلر، «المواقف فى العالم العربى»، ١٠١.

(١٠) جمال وتسلر، «المواقف فى العالم العربى»، ١٠٢.

(١١) انظر على سبيل المثال فى جدول تسلر وجاو «قياس حجم التأييد العربى للديمقراطية»، ٩١.

(١٢) صموئيل بى. هنتنجتون، الموجة الثالثة: التحول الديمقراطى فى أواخر القرن العشرين (نورمان: مطبعة جامعة أوكلاهوما، ١٩٩١)، ٦٥.

(١٣) تيرى لين كارل، مفارقة الوفرة: ازدهار البترول والدول البترولية (بيركلى: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٧)، ٥-٦، و١٥-١٧ و٢١٣-٢١ و٢٣٦-٤٢.

(١٤) الدول العربية الأكثر غنى بالنفط، هى المملكة العربية السعودية والعراق والكويت ودولة الإمارات وليبيا والجزائر، وفقا لهذا الترتيب. تملك المملكة العربية السعودية أكبر الاحتياطيات النفطية المؤكدة فى العالم وهو ما يقدر بنحو ٢٦٧ مليار برميل، أو ما يقرب من ٢٠٪ من إجمالى الاحتياطى العالمى. إيران المجاورة تحتل المرتبة الثالثة فى العالم بما يقرب من ١٤٠ مليار برميل من الاحتياطيات المؤكدة.

(١٥) إيفا بيلين، «المؤسسات القسرية والقيادات القسرية»، فى مارشا بريبشتين بوسوسنى وميشيل بينر أنجريست، محرران، السلطوية فى الشرق الأوسط: الأنظمة والمقاومة (بولدر، كولورادو: لين راينر، ٢٠٠٥)، ٣١. أنفقت دول الشرق الأوسط فى المتوسط ٧,٦٪ من الناتج القومى الإجمالى على الدفاع فى عام ٢٠٠٠، بالمقارنة مع المعدل العالمى البالغ ٣,٨٪. يرى بيلين أن الأنظمة العربية فى الشرق الأوسط، «قوية» على نحو غير عادى، وبذلك هى «استثنائية فى قدرتها واستعدادها لسحق مبادرات الإصلاح من أسفل» (ص ٢٧). على الرغم من أن هذا ينطبق على كثير من الأنظمة الاستبدادية. إلا أن الأنظمة الاستبدادية العربية تثبت مرونة أكثر ومهارة أكثر من غيرها.

(١٦) دانيال برومبرج، «التحول الديمقراطى فى العالم العربى؟ مصيدة الدول الاستبدادية المستقلة»، مجلة الديمقراطية ١٣ (أكتوبر ٢٠٠٢): ٥٦.

(١٧) ميشيل دن، وماريتا أوتاواى، «الأنظمة الحاكمة ومأزق الملوك ص فى العالم العربى: وعود ومخاطر الإصلاح المدار، «فى مارينا أوتاواى وعمرو حمزاوى، محرران، الوصول إلى التعددية: الجهات السياسية الفاعلة فى العالم العربى (واشنطن العاصمة: صندوق كارنيجى للسلام الدولى، ٢٠٠٩): ١٣-٤٠.

(١٨) جوليا شقير، «خداع الإصلاح: الاستقرار العنيد فى الأردن»، أوراق كارنيجى رقم ٧٦، والديمقراطية ومشروع سيادة القانون، مؤسسة كارنيجى الدولية للسلام، ديسمبر ٢٠٠٦. ٧. متوفرة على:
www.carnegieendowment.org/files/cp76_choucair_final.pdf

(١٩) مارينا أوتاواى وعمرو حمزاوى، «المحاربة على جبهتين: الأحزاب العلمانية فى العالم العربى»، فى أوتاواى وحمزاوى، الوصول إلى التعددية، ٤١.

(٢٠) انظر
www.usaid.gov/our_work/features/egypt and www.fas.org/asmp/profiles/egypt.htm.
يفيد مصدر أخير بأن حجم المعونة العسكرية يساوى ٣٨ مليار دولار فى ٢٠٠٠، بالإضافة إلى مليار دولار عن كل عام جديد.

(٢١) شون يوم، «الأردن: عشر سنوات أخرى من الحكم الاستبدادى»، مجلة الديمقراطية ٢٠ (أكتوبر ٢٠٠٩): ١٦٣.

(٢٢) هنتنجتون، الموجة الثالثة، ١٠٢.

كتاب الزاوية

قصيدة اعتذار لأبى تمام
نزار قبانى

(٢)

إِذَا كُنَّا سَنَبقَى أَيُّهَا السَّادَة
ليومِ الدِّين .. مُختَلفينَ حَولَ كِتَابَةِ الْهَمزَة ..
وَحَولَ قَصيدَة نُسِبَتْ إلى عَمرِو بنِ كُلثُوم ..
إِذَا كُنَّا سَنقرأُ مَرةً أُخْرَى
قصائدَنَا التى كُنا قَرَأنَاها ..
ونمضغُ مرةً أُخرَى
حُرُوفَ النَّصبِ وَالْجَرِّ .. الَّتِى كُنَّا مَضَغْنَاهَا
إِذَا كُنَّا سَنَكذِبُ مَرَّةً أُخرَى
وَنَخْدَعُ مَرَّةً أُخرَى الْجَمَاهِيرَ الَّتِى كُنَّا خَدَعنَاهَا
وَنُرعِدُ مَرَّةً أُخرَى ، وَلاَ مَطَرُ ..
سَأَجمَعُ كُلَّ أَوْرَاقِى ..
وَأَعْتَذِرُ..



دوامـــــة الأســـــئلة المكــــررة

ألان جـــريـــــش
Alain Gresh

■■ الخبر لم تنقله سوى الصحافة الاقتصادية المتخصصة وبضع مدونات، ونصه أن «الإدارة الأمريكية قد قابلت بالرفض طلباً مقدماً من فرنسا لرفع الحظر على بيع الطائرات إلى سوريا»، وذلك ما صرح به قبل أسابيع (الاثنين ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٩)، وزير النقل والمواصلات السورى. وفى سبتمبر الماضى، كانت شركة «ايرباص»، مُصنِّع الطائرات الأوروبى، قد وقعت اتفاقا مبدئيا مع الخطوط الجوية السورية لتزويدها بأربع عشرة طائرة «ايرباص»، وهو اتفاق مشروط بالحصول على موافقة أمريكية قبل نهاية العام- نظرا لاحتواء الطائرة على قطع أمريكية. غير أن الرئيس أوباما قد قرر تمديد الحظر، الأمر الذى أثار حفيظة سوريا[1].

ولقد انتقد الوزير السورى ذلك الحظر الذى تسبب، على حد قوله، «فى تأزم شركة الخطوط الجوية السورية العربية لكونه أعاقها عن الحصول على الطائرات وقطع الغيار اللازمة لها». وذلك أقل ما يمكن أن يقال. فالشركة السورية راحت تؤخر أو تلغى رحلاتها الجوية بانتظام، بسبب الأعطال الفنية، كما أضحت تستأجر بعض الطائرات من الخارج لتأمين بعض الخطوط، بل ويتهامس البعض فى دمشق عن أن الطائرة الرسمية الخاصة بالرئيس السورى بشار الأسد قد لا تكون آمنة.

ومن المفهوم أن يستخدم الرئيس السورى ذلك الأمر كشاهد على موقف الإدارة الأمريكية عندما سألته عن حال العلاقات بين بلاده والولايات المتحدة الأمريكية. إذ أجاب قائلا: «لا يسعنى الحديث عن علاقات ثنائية فى ظل استمرار فرض الحظر. إذ لا يجوز الحديث عن علاقات طبيعية والولايات المتحدة تفرض علينا عقابها». فالمعروف أن «قانون المسئولية السورية»، الذى أقره الكونجرس الأمريكى عام ٢٠٠٣، مازال ساريا، وأن الرئيس أوباما قد قام، فى يوليو ٢٠٠٩، بتمديد العمل، مدةَ عام آخر، ببعض التدابير العقابية الأخرى التى كان قد اتخذها الرئيس بوش عام ٢٠٠٧.

هذا ويبدو الرئيس الأسد فى حيرة من أمره بشأن الإدارة الجديدة. فهو يحيِّى التغيير الذى شهده الخطاب البلاغى الأمريكى، لكنه لم يزل بعد ينتظر تغييرا على مستوى الأفعال، وبخاصة أن يتم تعيين سفير أمريكى فى دمشق.

هكذا ما فتئت سوريا والولايات المتحدة تتبادلان النظر فى صمت خليق بتمثالين خزفيين. هذا ويعود الفضل الكبير إلى تقريرين[2] صادرين عن «مجموعة الأزمات الدولية» (ICG)، منتصف ديسمبر الماضى، فى محاولة تحليل مختلف العوامل التى تتحكم فى القرار السورى، بينما واشنطون تحكمها رؤية، تبدو فيها سوريا كطرف تحركه «النوايا السيئة»، والرغبة الدفينة فى الإضرار بالولايات المتحدة. وإن فهم المنطق السورى وتركيبته المعقدة، من دون تقبله بالضرورة، قد يتيح قطعا للدبلوماسية الأمريكية العمل بصورة أفضل. و هو ما تبرزه-بحسب تقرير مجموعة الأزمات الدولية(ICG)- «معركة الأسئلة المكررة» المشتعلة فى واشنطون. فقد ذكر التقرير:

«فى أعماق تلك الإجابات المبسطة ثمة جهد لسبر البواعث العميقة التى تحرك سوريا. فما الذى يريده النظام السورى؟ وهل هو قادر على السلام مع إسرائيل؟ وهل بوسعه قطع علاقاته مع إيران؟ وهل يبتغى لعب دور بناء بالعراق أو على المسرح الفلسطينى؟ وهل يملك الاستغناء عن طموحات الهيمنة فى لبنان؟ لكن ليس ثمة إجابة مجردة على تلك الأسئلة، بمثل ما أنه لا يمكن تحديد نوايا سوريا بصورة جامدة مطلقة، كما لو كانت تلك النوايا محددة سلفا، أو معزولة عن الظروف المحيطة والسياق العام. إن مسلك سوريا فى الماضى قد جاء بصورة كبيرة اعتمادا على أفعال الآخرين، وعلى المشهد الإقليمى، وعلى المخاطر التى تواجهها، فضلا عن انبثاقه

> هذه ليست المرة الأولى التى يلتقى فيها الكاتب الفرنسى ألان جريش بالرئيس السورى بشار الأسد. فلقد كان اللقاء الأول قبل عام ونصف العام، فى منزل صغير يمتلكه الرئيس فى أعالى دمشق. وكان ذلك عشية زيارة رئاسية إلى فرنسا فى أجواء توحى بدنو انحسار العزلة المفروضة على سوريا من قِبل الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى لأكثر من أربعة أعوام. كما كان اللقاء الأول شاهداً على بوادر انفراج الأزمة السورية اللبنانية وتبدد المخاوف من تحول لبنان إلى ساحة خلفية لزعزعة النظام السورى. وكان الدور التركى وقتها لا يزال بعد منحصرا فى الوساطة الدبلوماسية فى مفاوضات غير مباشرة مع إسرائيل سادها غياب ثقة متبادل. أما العلاقات مع إيران، فجاء ذكرها وقتها كآصرة وفاء لصديق عرفته سوريا وقت الضيق، وكعلاقة استراتيجية تضمن الاستقرار والأمن فى المنطقة، وإن لم يخل الأمر من اختلافات لا تفسد للود قضية مع وجهة النظر الإيرانية. وفى اللقاء الأول، كان الرئيس يحتفظ بعد بشىء من الأمل فى أن تلعب فرنسا والاتحاد الأوروبى دورا مكملا للدور الأمريكى فى المنطقة، التى أعرب الأسد عن مخاوفه بشأن مستقبلها.
>
> فى اللقاء الأول، تجاورت الواقعية مع التفاؤل. فماذا جرى بعد عام ونصف؟ هنا ماخرج به جريش من اللقاء الثانى.
>
> **المترجمة**

ترجمة: داليا توفيق سعودى

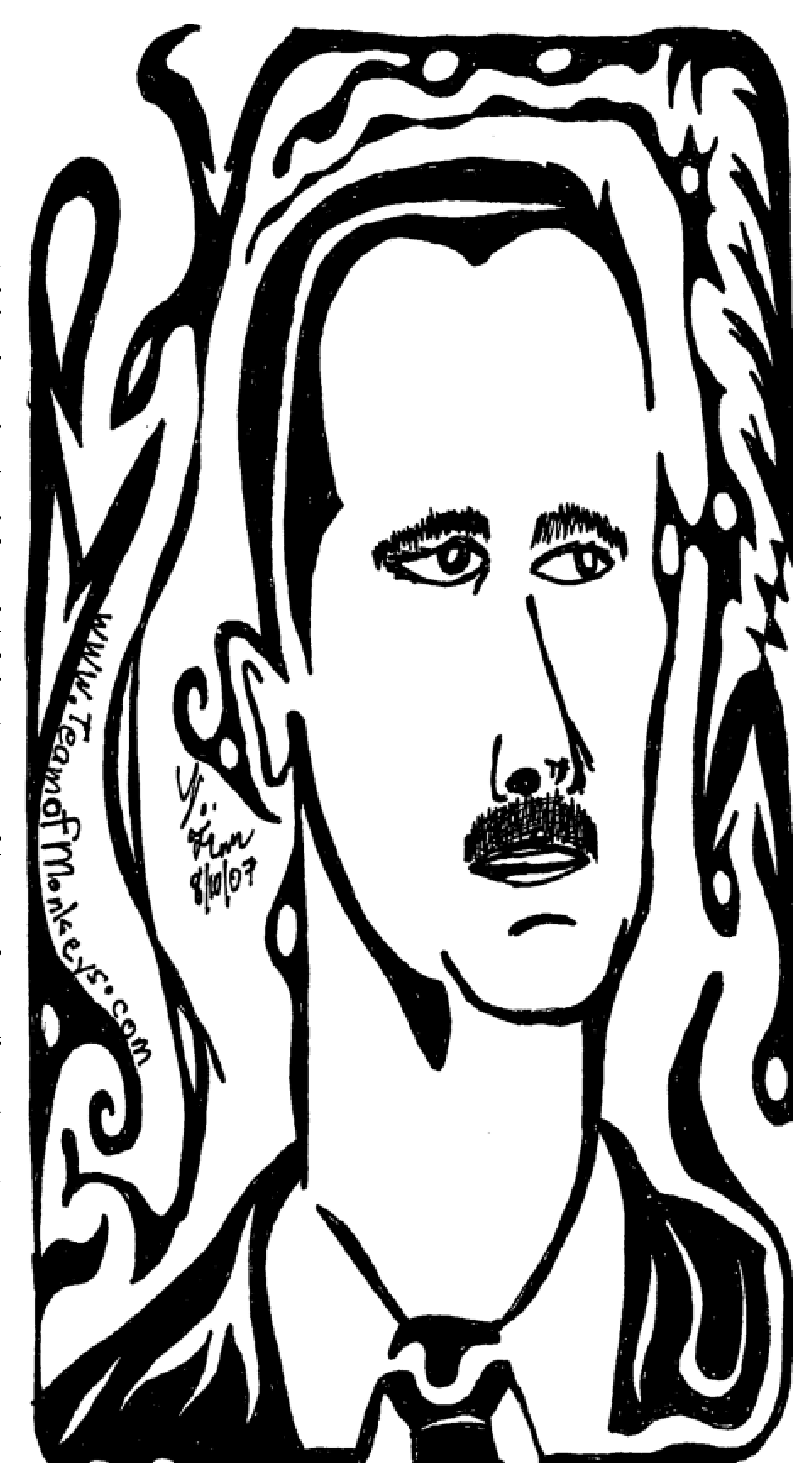
ما الذى يريده النظام السورى؟ وهل هو قادر على السلام مع إسرائيل؟ وهل بوسعه قطع علاقاته مع إيران؟ وهل يبتغى لعب دور بناء بالعراق أو على المسرح الفلسطينى؟ وهل يملك الاستغناء عن طموحات الهيمنة فى لبنان؟

حـــوار مـــع بـشـــــار الأســـــد

من وضع البلاد الداخلى ومتطلباته. وهذا ما سيسرى أيضا فى المستقبل. بعبارة أخرى، عوضا عن بذل الجهد فى استكشاف النوايا السورية، الأجدر هو تحديد طبيعة العوامل والديناميكيات التى يستجيب إليها النظام السورى.»

ولبنان خير معلم بهذا الصدد. فلقد استقبلنى الرئيس السورى فور خروجه من المؤتمر الصحفى الذى عقده صباحا مع سعد الحريرى. وإن هذه الزيارة المذهلة التى قام بها رئيس الوزراء اللبنانى، فى غير سابقة منذ عام ٢٠٠٥، ومنذ اغتيال والده رفيق الحريرى، وخروج القوات السورية من لبنان، لتعد فى نظر الصحافة الإقليمية بمثابة زيارة تاريخية. وهى لا تمثل، كما قال لى الرئيس الأسد «مجرد صفحة جديدة، بل هى مرحلة جديدة، وعودة للأمور إلى نصابها الطبيعى. وهى زيارة لا تتعلق بالماضى، بل تتطلع إلى المستقبل، وتستشرف ما ينبغى أن نصنعه معا.» كما تؤكد هذه الزيارة على الحس البرجماتى الذى تتحلى به سوريا: فمن جهة، لن تكون هناك عودة إلى الوضع السائد قبل عام ٢٠٠٥ حين كان أساس السياسة اللبنانية يتم رسمه فى دمشق؛ ومن الجهة الأخرى، تذكِّر سوريا بأنها لاعب أساسى لا يجوز تجاوزه - فائتلاف الرابع عشر من آذار الذى تكون بناءً على الرغبة فى الخلاص من أى دور سورى قد انهزم وانقسم، إذ ابتعد عنه الزعيم الدرزى وليد جنبلاط، وانتقد الوزراء المسيحيون المنتمون لحركة الرابع عشر من آذار زيارة الحريرى إلى سوريا.

هذه البرجماتية السورية يمكننا تلمسها أيضا فى العلاقات مع تركيا التى جاءت زيارة رئيس وزرائها رجب طيب إردوجان لدمشق فى الثالث والعشرين من ديسمبر لترأس مجلس التعاون الاستراتيجى التركى السورى. من ذا الذى يذكر اليوم ما كان عليه الوضع قبل عشرة أعوام، حين كان البلدان على شفا الحرب؟ فاليوم، راح يرتسم بينهما محور استراتيجى، يحمل نتائجَ لا يمكن حسبانها بالنسبة لمستقبل المنطقة.



حـــــوار مــــع  بـشــــار الأسـد

ويشرح الرئيس لى قائلا: «بعد الحرب على العراق فى ٢٠٠٣ ، رأينا النيران تقترب. الأمر الذى دفعنا إلى تنمية تلك العلاقات طلبا للحماية، وإذا بنا نكتشف أننا نشترك مع تركيا فى أمور كثيرة، وأن بيننا وبينها من المصالح المشتركة الكثير والكثير. ومن وقتها صار لدينا مشهد إقليمى مختلف. وصرنا أطرافا فاعلة. ففى كل المشروعات الكبرى، من تنمية لموارد النفط، والغاز، وقطاعات الطرق والسكك الحديدية، وكافة المشاريع عبر بحر قزوين، والبحر الأحمر، والخليج العربى، والبحر المتوسط، ثمة حاجة لذلك التعاون الإقليمى.و هو ما قد يكون مستحيلا فى غياب العلاقات السياسية التى تربط بين بلدينا.» بدا الرئيس فى حديثه إلى مقتنعا بأن مستقبل المنطقة يجب أن يبقى بين أيدى بلدان المنطقة دون غيرها، ومن دون تدخلات خارجية...

وبينما سوريا مستغرقة بعمق فى مشكلاتها الاقتصادية وفى رغبتها فى الإسراع من وتيرة التنمية، تمثل تركيا ورقة ربح كبرى، تفوق فى أهميتها إيران ذات الإمكانات الاقتصادية القاصرة، وهو ما يشير إليه تقرير مجموعة الأزمات الدولية (ICG) . هذا ومن شأن إجراءات مثل فتح الحدود بين تركيا وسوريا، وإلغاء التأشيرات بينهما، وإعادة تأهيل خطوط السكك الحديدية الخاصة بقطار الحجاز الشهير المستخدم قبل الحرب العالمية الأولى، من شأنها أن تتيح نهضة غير مسبوقة للتجارة بين البلدين، وهو القطاع الذى شهد طفرة فى غضون عشرة أعوام من ٥٠٠ مليون دولار إلى ٨,١ مليار دولار.وهو ما أكده إردوجان حين قال إن سوريا هى بوابة الشرق الأدنى...

فماذا عن الدور الذى تلعبه تركيا كوسيط فى المفاوضات السورية الإسرائيلية؟ إثر هذا السؤال، يضحك الرئيس الأسد ثم يجيب: «نحن الآن بحاجة إلى وسيط بين تركيا وإسرائيل». فلقد شهدت العلاقات بين البلدين توترا منذ اندلاع الحرب على غزة وما استتبعته من انتقادات تركية ضد إسرائيل. وعليه، رفض وزير الخارجية الإسرائيلى أفيجدور ليبرمان أن تلعب أنقرة دور الوسيط. وكانت تركيا قد قامت بالوساطة فى خمس دورات من المحادثات غير المباشرة التى تمت بين البلدين عندما كان ايهود أولمرت رئيسا للوزراء، وهى تلك المفاوضات التى لم يتم استئنافها بعد. وبنبرة أكثر جدية أضاف الرئيس قائلاً: «لقد سمعنا مؤخراً أن ثمة جهودا تبذلها أطراف عدة من أجل إعادة العلاقات بين إسرائيل وتركيا، لكى تتمكن الأخيرة من القيام بدورها فى استئناف المفاوضات».

فهل من دور مساعد يمكن لفرنسا أن تلعبه؟ هنا بدا الرئيس متحفظا إذ قال: «فرنسا فاعل دولى وتركيا فاعل إقليمى. ولهما أن يلعبا دورا متكاملا، ولكن علينا أولاً دفع الدور التركى، عندئذ يمكن لفرنسا تأييد ذلك الدور ومن ثم يكون لها دور.» وعلى أى حال، فالرئيس لا يخفى قدرا من التشكك، فهو يعتقد أنه لا يوجد على الجانب الإسرائيلى أى طرف مؤهل لصنع السلام، لاسيما أن الأسد يرفض فكرة «المفاوضات غير المشروطة» التى اقترحها نتانياهو، تلك المفاوضات التى لا تقوم على أسس واضحة («السلام مقابل الأراضى»).

ومن بين الملفات الإقليمية، يعد الملف النووى الإيرانى من أكثرها حساسية. وهو يتعلق بسوريا من حيث إن جزءا من الإدارة الأمريكية يجعل من تراخى العلاقات بين إيران وسوريا شرطاً لحصول الأخيرة على أمارات الرضا الأمريكى. وإن كان ذلك كذلك، فلا شىء يشير إلى أن الرئيس الأسد مستعد للتخلى عن إيران.

فهو يتساءل قائلاً: «هل نحن نريد حلاً مع إيران أم نريد مشكلة؟إن كنا نبتغى مشكلة فالسبيل الأمثل هو ممارسة الضغوط، وفرض الحظر، بل وأيضا شن الحرب. أما إذا كنا نريد حلاً فيجدر فتح حوار مباشر مع طهران. ويجب أن ينبنى هذا الحوار على أساس معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، وعلى حق إيران فى تخصيب اليورانيوم.و على الولايات المتحدة التخلى عن المبادرة «الأوروبية»، التى تعد فى واقع الأمر مبادرة أمريكية بغطاء أوروبى، وعليها مناقشة إيران فى كمية اليورانيوم الذى سيتم تخصيبه (بنسبة ٢٠٪) فى الخارج .فلقد أبدت طهران مرونة إذ قبلت أن يتم تخصيب جزء من اليورانيوم الخاص بها فى الخارج. فالأوروبيون يقولون أنه ينبغى إرسال كامل اليورانيوم دفعة واحدة إلى الخارج، بينما ليست هناك ضمانات تفيد بأن ذلك اليورانيوم ستتم إعادته إلى إيران، التى اقترحت أن يتم ذلك على مراحل ، بأن تقوم بإرسال كمية من اليورانيوم إلى الخارج ، فور عودة كمية أخرى إليها بعد تخصيبها. وأوروبا تصر على أن ترسل طهران كل ما لديها من يورانيوم دفعة واحدة. ولقد قلت للرئيس ساركوزى أننى لو كنت أنا أحمدى نجاد لما قبلت أبدا بمثل هذا العرض». وبعد، أبدى الرئيس دهشته إزاء صمت أوروبا والولايات المتحدة فيما يتعلق بالسلاح النووى الإسرائيلى.

وكان محور طهران – دمشق قد تشكل صبيحة اندلاع الثورة الإيرانية فى ١٩٧٩. ولقد صمد منذئذ أمام كل الأزمات، ولكنه لا يعنى أن للبلدين نفس الرؤية، أو أنهما بالضرورة تشتركان فى نفس المصالح. فسوريا، على عكس إيران، مستعدة للتفاوض مع إسرائيل وللاعتراف بها كدولة؛ ومن جهة أخرى، فى الأزمة الراهنة باليمن، أيدت دمشق المملكة العربية السعودية فى تدخلها ضد المتمردين الحوثيين، بينما أدانتها طهران . والسؤال الذى يفرض نفسه هو لماذا تتخلى سوريا عن إيران وهى قد لقيت منها الدعم والمساندة لاسيما بدءاً من عام ٢٠٠٥، حينما كانت سوريا محط غضب أوروبا والولايات المتحدة. ومع ذلك، من البديهى أن أى اتفاق سلام بين إسرائيل وسوريا سيلقى بظلاله على الائتلافات والتحالفات فى المنطقة.

وعلى ذكر المنطقة، يبدى الرئيس السورى قلقه بشأن مستقبلها، لاسيما فيما يخص تصاعد التوترات الدينية وازدياد التطرف، بينما النزاعات الكبرى مازالت قائمة. وفى هذا السياق، تبدو أوروبا غائبة تماما، إذ يقول الرئيس الأسد: «فى السبعينات والثمانينيات، كانت أوروبا تتحلى بالموضوعية أكثر من اليوم، بينما وقتها كانت الحرب الباردة مستعرة والأوروبيون كانوا حلفاء الولايات المتحدة فى مواجهة الاتحاد السوفيتى. ولكنهم كانوا، فيما يتعلق بمنطقتنا، أكثر استقلالية. وها هم اليوم يسلكون اتجاها خاطئاً .لماذا؟ لست أدرى، فعلى الأوروبيين الإجابة». وأردف الرئيس قائلاً: «لو أن لأوروبا سيداً(والمراد سيداً أمريكياً) فلماذا يتوجب علينا التعامل معها هى، فالأجدر هو التعامل مع السيد مباشرة».

أما فيما يخص التعاون الاقتصادى مع الاتحاد الأوروبى، فقد عاد الرئيس للحديث مجدداً عن قضية الطائرات، متسائلاً:«أنتم تقولون إننا شركاء، ولكنكم غير قادرين على أن ترسلوا لى الطائرات التى أحتاج إليها، متعللين فى ذلك بالحظر الأمريكى. فأى نوع من الشركاء أنتم؟»

فماذا عن اتفاق الشراكة بين الاتحاد الأوروبى وسوريا؟ والإجابة: لن يتم توقيعه فى القريب العاجل. إذ أوضح الأسد أن «كلا الطرفين ليسا ناضجين بالدرجة الكافية لإبرام تلك الشراكة. فمن ناحيتنا، مازلنا نحتاج لإجراء إصلاحات إدارية واقتصادية لتقليص الآثار السلبية الناجمة عن مثل هذا الاتفاق. أما الاتحاد الأوروبى، فقد تم اختطافه على يد الولايات المتحدة وجاك شيراك، ففى أثناء الأعوام العصيبة التى مررنا بها، وقف الاتحاد الأوروبى مع الولايات المتحدة ضدنا. فلو كنتم تريدون صداقتى فعليكم أن تبرهنوا على مدى استحقاقكم لها.» وأضاف الرئيس مؤكداً أن فى كل البلدان العربية التى استشارها بعد إبرامها اتفاق شراكة متوسطى، ما من بلد واحد يشعر بالرضا عن تلك الشراكة...

وفى الختام، ذكر الرئيس أن «الولايات المتحدة لم تعد تحتاج إلى أوروبا بعد انقضاء الحرب الباردة. فبوسع أمريكا أن توجه الأوامر للشرق الأوسط وإلى الدول المنتجة للبترول، وصارت ترتبط بعلاقات مباشرة مع جمهوريات الاتحاد السوفيتى سابقا. فهى الآن تنحى أوروبا جانباً، إلا حينما تكون بحاجة لغطاء لما يسمى بـ«المجتمع الدولى».

تلك رؤية متشائمة لا ريب، ولكنها واقعية إلى حد كبير، لما تواجهه أوروبا من عسر فى إيجاد مكان لها فى التخطيط المعمارى العالمى الذى يرتسم تحت الأبصار. ■

مع ذلك، من البديهى أن أى اتفاق سلام بين إسرائيل وسوريا سيلقى بظلاله على الائتلافات والتحـــالفات فـــى المنطـقـــة



الـــــهـــــوامــــش:

1. http://www.easybourse.com/bourse/information/airbus-les-us-refusent-le-droit-de-vendre-des-avions-a-la-syrie-14095
2. Reshuffling the cards ? (I) : Syrias evolving strategy et Reshuffling the cards ? (II) : Syrias New Hand, http://www.crisisgroup.org/home/index.cfm?id=6434&l=1 <http://www.crisisgroup.org/home/index.cfm?id=6434&l=1>


جمعية
أصدقاء
أحمد بهاء الدين

دمـــــاء مابـعـــــد الحـــــربين

إيـــريـــك هــــوبــــزبـــــاوم
Eric Hobsbawm

■■ هل تغيرت طبيعة الإرهاب السياسى فى أواخر القرن العشرين؟ دعنى أبدأ بظاهرة التزايد غير المتوقع للعنف فى جزيرة لا تزال حتى الساعة آمنة مطمئنة، وهى سريلانكا التى تقطنها أغلبية من السنهاليين البوذيين (وهم أصحاب ديانة أبعد ما تكون عن العنف) وأقلية من التاميل الذين هاجروا إليها من جنوبى الهند منذ قرون خلت، أو جاءوها عاملين فى الزراعة فى أواخر القرن التاسع عشر (وديانتهم الهندوسية أيضاً لا تميل إلى العنف). إن الحركة المناهضة للإمبريالية فى سريلانكا لم تكن عسكرية جداً ولا كانت شديدة الفاعلية، ومع ذلك فقد نال البلد استقلاله بهدوء، تحصيل حاصل من استقلال الهند. لكنْ نشأ فى سريلانكا إبان العهد الاستعمارى حزب شيوعى ليس بالكبير، كما نشأ فيها، لشدة الغرابة، حزب تروتسكى أكبر بكثير، وكلا الحزبين قادته جماعة من المثقفين من أبناء النخبة المُتغرِّبة، كما كان كلاهما - بوصفه ماركسياً جيداً- معارضاً للإرهاب. ولم تقع أى محاولات للانفراد بالحكم من قبل أى من الحزبين. وقد عاش البلد بعد الاستقلال فترة هادئة اتسمت بشيوعية معتدلة أسهمت إسهاماً جيداً فى تحقيق عيش رغيد وتوفير ما رغب فيه الشعب من دعة واستقرار.

وباختصار، فإن سريلانكا ما قبل السبعينيات - قياساً بالمعايير الآسيوية - كانت جزيرة نادرة من حيث التمدن مثل كوستاريكا وأوروغواى (قبل السبعينيات) فى أميركا اللاتينية. لكنها اليوم تغرق فى بحر من الدماء. فالتاميل، وهم أقلية تمثل ٢٥٪ لهم تمثيل أكبر من حجمهم فى مهن المتعلمين، خلقوا عداء مسوغاً ضد نظام سنهالى قرر فى الخمسينيات استبدال اللغة الإنجليزية باللغة السنهالية، لغةً رسمية للبلاد. وفى السبعينيات، قامت حركة انفصالية تاميلية مدعومة من قبل دولة جنوب هندية بتأسيس منظمات مسلحة، تمثل أسلاف جبهة نمور تحرير تاميل إيلام الذين يقومون بحرب أهلية فعلية منذ أواسط الثمانينيات، وهى حركة تعرف بأنها واحدة من الرواد العظام، وربما أكبر المستخدمين للتفجيرات الانتحارية من غير دوافع دينية، نظراً لأنّها حركة



علمانية. والتاميل لا يملكون من القوة ما يمكنهم من الاستقلال، كما أن الجيش السريلانكى من الضعف بحيث لا يقوى على التغلب عليهم عسكرياً. وقد أبدى الطرفان من العناد ما أمد فى عمر الحرب رغم محاولات شتى من قبل أطراف خارجية (الهند والنرويج) للتوصل إلى تسوية لفض النزاع.

وفى الوقت ذاته، وقع أمران فى مجتمع الغالبية السنهالية، فقد خلقت التوترات العرقية اللغوية ردة فعل سلبية أخذت شكل عقيدة قومية ارتكزت على البوذية والتفوق العنصرى، نظراً لكون اللغة السنهالية لغة هندوأوروبية (أريانية). والغريب فى الأمر أن هذه العنصرية لا تزال موجودة فى تقليد الهند الهندوسية، بل إن نظام الطبقية(*) الهندى القديم لا يزال قائماً فى سريلانكا وباكستان، وإن غطى بقشرة المجتمع المتساوى الطبقات. وفى نفس الوقت، فإن جبهة تحرير شعب التاميل، وهى حركة يسارية ترتكز أساساً على الشباب السنهالى المتعلم الذى لم يستطع إيجاد فرص عمل مناسبة وتغذيها أفكار كاستروية (نسبة إلى فيدل كاسترو) مع قليل من الماوية مشفوعة بقدر ضخم من الكراهية للنخبة الاجتماعية السياسية القديمة، نظمت فى مطلع السبعينيات انتفاضة كبرى تم إخمادها بشىء من العنف، إذ اعتقل كثير من القُصّر لمدة من الزمن. وقد تمخض هذا التمرد الشبابى الذى كان من نوعية تمردات عام ١٩٦٨ عن منظمة إرهابية مقاتلة تمركزت بشكل أساسى فى الريف السنهالى وصهرت ماويتها الأصلية فى شوفينية سنهالية بوذية عنصرية. وفى سنة ١٩٨٠ نظمت حملة اغتيالات ممنهجة استهدفت المعارضين السياسيين، وهو ما جعل تقلد المناصب العالية سياسياً نشاطاً خطراً. (فرئيسة سريلانكا التى استقالت مؤخراً شهدت اغتيال أبيها - وهو رئيس وزراء أسبق - وزوجها أمام عينيها، كما فقدت إحدى عينيها نتيجة محاولة لاغتيالها هى أيضا). وقد تم استخدامُ الإرهاب أيضاً استخداماً ممنهجاً لفرض السيطرة فى بلدات الريف وقراه.

وكما هو الحال فى حالة حركة الدرب المستنير الماوية فى البيرو إبان الثمانينيات، فمن غير الممكن معرفة مدى اعتماد حكم جبهة تحرير شعب التاميل على الدعم الجماهيرى العام، وإلى أى مدى قل ذلك الدعم بسبب الإرهاب، وإلى أى مدى فى المقابل يعوض الإرهاب بالكراهية فى مواجهة عنف الدولة ويولد شكوكاً حول الانقلابيين. ثمة أمران واضحان: أولهما أن جبهة تحرير شعب التاميل تمتعت بدعم جماهيرى واسع فى أوساط القطاعات الزراعية العاملة من الشعب السنهالى التى زودها متعلموها بكوادرها السياسية والعسكرية. ثم إن جبهة تحرير الشعب مارست الكثير من القتل الذى قام به فى



خلقت التوترات العرقية اللغوية ردة فعل سلبية أخذت شكل عقيدة قومية ارتكزت على البوذية والتفوق العنصرى



للاستزادة:

Globalisation, Democracy and Terrorism
by Eric Hobsbawm? (184pp, Little, Brown, £17.99)

العولمة والديموقراطية والإرهاب
إيريك هوبزباوم
مركز الجزيرة للدراسات - الدوحة، قطر ـ ٢٠٠٩
الدار العربية للعلوم ناشرون - بيروت، لبنان

الغالب أفراد ما يمكن أن يسمى فى أميركا اللاتينية بالسيكاريوس، أو القتلة. كما أن مراهنة جبهة تحرير الشعب على القوة وضعت هى أيضا نفس الموضع، وتحديداً بمفهوم «الحروب القذرة» فى أميركا اللاتينية التى كان هدفها تصفية قادة الثوار وكوادرهم. وما إن نصل إلى أواسط التسعينيات حتى نجد أن عدد من وقعوا ضحايا لهذه الصراعات قد بلغ ستين ألفاً. لقد كانت جبهة تحرير الشعب منذ نشأتها فى أواخر الستينيات، بين دخول وخروج من حلبة السياسة السريلانكية الرسمية. ويبدو مؤكداً أن سريلانكا إن هى إلا مثال واحد على ما عرفه العنف السياسى فى أواخر القرن العشرين من تزايد وتحولات.

ومثال آخر هو أوضح مما ذكرنا نراه فى تزايد ظاهرة القتل العشوائى بوصفه صورةً من صور إرهاب الجماعات الصغيرة وما لاقت من تسويغ نظرى. لقد شجبت الحركات الإرهابية السابقة - باستثناء القليل منها- هذا النوع من النشاط، كما امتنعت عن ممارسته حركاتٌ من جيل حركة إيتا الإسبانية والجيش الجمهورى الإيرلندى الأولى. أما فى العالم الإسلامى، فالتسويغات الشرعية، نحو إباحة قتل كل من لا ينتمى إلى الجماعة المتشددة بوصفه «مرتداً»، يبدو أنّها انتعشت فى مطلع السبعينيات على يد جناح متشدد سابق للقاعدة منشق عن جماعة الإخوان المسلمين بمصر. والفتوى التى أصدرها المستشار الدينى لأسامة بن لادن والتى تجيز رسمياً قتل الأبرياء لم تصدر إلا فى أواخر سنة ١٩٩٢[1].



أما السؤال «لماذا؟» فأكبر من أن يناقش فى هذه المقالة، ولاسيما أنه من الصعب فصله عما تشهده المجتمعات الغربية من ارتفاع عام فى معدل ما غدا مقبولاً اجتماعياً من العنف والقتال المباشر صورة وحقيقة. جاء هذا بعد فترة طويلة عندما كان يتوقع أن تصل الحضارة فى أكثر هذه المجتمعات إلى انحطاطها المستديم.

وأجدنى مدفوعاً لأن أقول إنه لا علاقة بين العنف الاجتماعى العام والعنف السياسى، لأن بعض أسوأ العنف السياسى يمكن أن يقع فى بلدان لم تعرف قطُ أياً من النوعين، لا العنف السياسى ولا العنف الاجتماعى، كسريلانكا أو أورغواى. ومع ذلك فكلاهما لا يمكن أن يعزل فى بلدان لها تاريخ ليبرالى، ولو لم يكن ذلك إلا من أجل أنهما اللذان ضرب فيهما العنف السياسى غير الرسمى بأطنابه فى الثلث الأخير من القرن العشرين، وارتفعت نتيجة لذلك حدة العنف المضاد من قبل الدولة، والذى عادة ما يكون أشد وأعتى. أما البلاد الدكتاتورية أو الفاشية فتضيّق عليه كل التضييق ما دامت قادرة، فعلَها مع أى نشاط سياسى لا عُنفى.

إن زيادة العنف عموماً جزء من عملية البربرة التى استجمعت قواها فى العالم منذ الحرب العالمية الأولى والتى ناقشتُها فى غير هذا الموضع. وهى تتقدم تقدماً مزعجاً على نحو خاص فى بلاد تتمتع بدول قوية ومستقرة، و(نظرياً) مؤسسات سياسية ليبرالية لا يميز فيها الخطاب العام والمؤسسات السياسية إلا بين حقيقتين متبادلتين فى الخصوصية هما «العنف» و«اللاعنف». وقد كان هذا طريقاً آخر لتأسيس شرعية ما تقوم به الدولة من الاحتكار القومى لاستعمال القوة الذى صاحب نزع سلاح المدنيين فى الدول المتقدمة إبان القرن التاسع عشر، باستثناء الولايات المتحدة التى كان لديها من ثَمّ قبول بنسبة أعلى من العنف من الناحية العملية، وإن لم تكن النظرية تجيز ذلك. ومنذ أواخر الستينيات فقدت الدول بعض ذلك الاحتكار للقوة والمصادر وكثيراً من معنى الشرعية التى جعلت المواطنين ملتزمين بالقانون. وهذا وحده كاف لتفسير كثير من ظاهرة ازدياد العنف.

وقد أخفق الخطاب الليبرالى دائماً فى إدراك أن مجتمعاً لا يمكن أن يقومَ بلا شىء من العنف السياسى، حتى فى الشكل شبه الرمزى للمحتجين أو المظاهرات الحاشدة، وأن ذلك العنف له مراحل وقواعد، كما يعرف كلُ عضو فى المجتمعات التى يشكل فيها جزءاً من نسيج العلاقات الاجتماعية، وكما يحاول الصليب الأحمر الدولى دائباً أن يذكر برابرة القرن العشرين من المحاربين. ولَمّا كان ما تلقاه الناس بالقبول من القوانين التى تكسرها «القاعدة» أو المدافعون عن «تسليم المعتقلين» - كتشدد القرآن فى مسألة قتل النفس بغير حق، ومسألة رفض التعذيب- ضارباً بجذوره وغير قابل للتغيير، كان لا بد لهم من اللجوء إلى التحايل على الأدلة الشرعية أو القانونية لخدمة مراميهم. لكن عندما تجد المجتمعات أو الجماعات الاجتماعية غير المعتادة على درجة عالية من العنف نفسَها ممارسة له، أو عندما تسقط القوانين العادية فى المجتمعات العنيفة تقليدياً، فإن الحدود المتعارف عليها بشأن استعمال العنف أو درجته لا يبقى لها وجود. فعلى سبيل المثال، أرى أن المزارعين الثوار فى الزمن الماضى، إذ سمحوا بما اتسمت به حياة الريف وسلوكه من وحشية عامة، لم يكونوا فى العادة متعطشين للدماء، وإن كانوا فى العادة أقل تعطشاً من قامعيهم. فعندما كانوا يعتزمون القيام بمذبحة أو عمل وحشى، كانوا يوجهون ذلك عادة ضد أشخاص معينين أو أصناف معينة من الناس والممتلكات، كمنازل الإقطاعيين مثلاً، الذين كان يستثنى غيرهم، من أجل حسن سمعتهم تحديداً. فأعمال العنف لم تكن عشوائية، لكن يمكن القول إنها كانت تفرضها الطقوس حسب المناسبات.



لا علاقة بين العنف الاجتماعى العام والعنف السياسى، لأن بعض أسوأ العنف السياسى يمكن أن يقع فى بلدان لم تعرف قطُ، لا العنف السياسى ولا العنف الاجتماعى



أخفق الخطاب الليبرالى دائما فى إدراك أن مجتمعاً لا يمكن أن يقومَ بلا شىء من العنف السياسى، حتى فى الشكل شبه الرمزى للمحتجين أو المظاهرات الحاشدة



ولم تكن ثورة سنة ١٩١٧ هى التى جاءت بالمذابح الجماعية إلى الريف الروسى، بل الحرب الأهلية الروسية. لكن عندما تكسر تقاليد السلوك فإن النتائج يمكن أن تكون مروعة، فأحد أسباب النجاح الباهر الذى أحرزته عصابات «نلركو غانغسترز» الكولومبية فى الولايات المتحدة يعود - حسب فهمى- إلى كونها فى صراعها مع خصومها ما عادت تقبل معاهدة ماكو للأعراف القاضية بمنع قتل نساء الخصوم ولا أولادهم.

إن ما نجم عن العنف السياسى من آثار مرضية (باثولوجية) ينطبق على الجماعات المسلحة وقوات الدولة سواء بسواء. ويشجع هذه الآثار ما تشهده حياة المدن من اضطراب اجتماعى ناجم عن انحطاط القيم والأعراف، ولا سيما فى أوساط الصغار، ويقويها انتشار ثقافة المخدرات والأسلحة الخاصة. وفى نفس الوقت، فإن تراجع التجنيد الإجبارى القديم فى الجيوش الوطنية، وازدياد نسبة الجندية المهنية الثابتة (دوام كامل) وخصوصاً فى القوات الخاصة رفيعة المستوى مثل القوات الجوية البريطانية الخاصة (SAS)، يزيل ما لدى البقية الباقية من الرجال المدنيين من موانع تحول بينهم وبين الالتحاق بوحدات النخبة فى الجيوش (esprit de corps) الذين لا همّ لهم سوى استعمال القوة. كما تمت إزالة الضوابط التى لم تكن موضع اتفاق، والتى تحدد ما يمكن أن يعرض عبر وسائل الإعلام التى باتت تتناول جميع الموضوعات وتتمتع بحضور مستمر. وهذا أدى بدوره إلى أن يصبح العنف فى أقسى أشكاله - صوتاً وصورة ووصفاً- جزءاً من الحياة اليومية، ومن ثم تقلصت القيود الاجتماعية على ممارسته. ففى روسيا السوفيتية، أو على الأقل فى المدن التى توفرت فيها معلومات كافية عن الجريمة، ارتكب ٨٠ إلى ٨٥٪ من جرائم القتل العمد تحت تأثير الخمور. وهذا يجعلنا نرفض هذا النوع من إزالة الموانع.

على أن هناك مثيراً آخر للعنف غير المحدود هو أكثر خطراً، وهو ما ساد النزاعات الدولية والمحلية على السواء منذ سنة ١٩١٤ من إيمان الكل بعدالة قضاياهم، وأن قضايا سواهم محض هراء، وهذا جعل استخدام جميع الوسائل من أجل تحقيق النصر أو تجنب الهزيمة ليس مشروعاً فحسب، بل ضرورياً، وهو ما يعنى أن الدول والجماعات المسلحة على السواء تشعر بأن لديها التسويغ الأدبى للبربرية. فقد لوحظ فى الثمانينيات أن المقاتلين الشبان التابعين لحركة الدرب المستنير فى البيرو كانوا على استعداد للتنافس فى قتل المزارعين من غير إدراك لما يفعلون، ذلك أنهم لم يكونوا يتصرفون بوصفهم أفراداً يمكن أن يكون لهم ضلع فى الأمر، ولكن بوصفهم جنوداً للقضية[2]. كما لم يكن ضباط الجيش أو البحرية

الذين كانوا يدرِّبون الجنود الجدد على التعذيب الجسدى للمعتقلين السياسيين وحشيين وساديين على الصعيد الشخصى بالضرورة. وكما فى حالة عناصر وحدات القتل المتنقلة فى الجيش الألمانى المشهورة اختصاراً بـ(SS) الذين عوقبوا لقيامهم بمذابح خاصة إذ إنهم تلقوا تدريبات للقيام بعمليات قتل جماعى بأعصاب باردة[٣]، فقد جعل هذا نشاطاتهم تستحق قدراً أكبر من الشجب والإدانة، بدلاً من أن تحسن صورتهم أمام الناس. إن نمو الإرهاب واسع النطاق فى القرن الماضى لم يعكس «قبح الشر» بقدر ما عكس الاستعاضة عن المبادئ الأخلاقية بسلطان الأوامر العليا. ومع ذلك - على الأقل أولياً- فإن ما تشتمل عليه هذه التصرفات من اللاأخلاقية يمكن أن يُدرك، كما فى الأنظمة العسكرية فى أميركا اللاتينية، عندما يمكن أن يتعين على جميع ضباط وحدة ما فى الأرجنتين أن يشاركوا فى التعذيب من أجل ربطهم جميعاً بما كان يمثل العار المشترك. إن مما يُخشى أن قبول التعذيب غداً مقنناً لمثل هذه الأسباب فى القرن العشرين.

لقد كان ارتفاع وتيرة البربرية مستمراً وإن لم يكن متساوياً. فقد وصل إلى ذروة اللاإنسانية بين سنة ١٩١٤ وأواخر الأربعينيات فى حقبة الحربين العالميتين وما أعقبهما من فترة ثورات، وكذلك حقبة هتلر وستالين. لقد جلبت الحرب الباردة تحسناً فريداً فى العالمين الأول والثانى، والبلدان الرأسمالية المتقدمة والمنطقة السوفيتية، ولكن ليس فى العالم الثالث. وهذا لا يعنى أن البربرية فى الواقع انحسرت. ففى الغرب، كانت هذه المرحلة، أى من ١٩٦٠ إلى ١٩٨٥ هى التى شهدت ارتفاع أعداد من يقومون بالتعذيب ممن تلقوا تدريبات رسمية، وموجة لا سابق لها فى التاريخ من الأنظمة العسكرية فى أميركا اللاتينية ومنطقة البحر المتوسط قامت بشن «حروب قذرة» ضد مواطنيها. غير أن الكثيرين رجَوا أن تنقشع غيمة الحروب الدينية التى وصمت القرن العشرين بعد التغيير الكبير الذى وقع سنة ١٩٨٩، وأن يزول بزوالها مولد كبير من مولدات البربرية. لكن هذا للأسف لم يحدث، فبينما ارتفع معدل معاناة الناس ارتفاعاً مذهلاً فى التسعينيات، فإن الحروب الدينية التى أشعلتها المعتقدات العلمانية قوَّتها أو حلت محلها أصوليات دينية تمثلت فى أشكال شتى من الغزو الصليبى ومواجهته.

ولو تركنا جانباً سفك الدماء وتدمير





كان ارتفاع وتيرة البربرية مستمراً وإن لم يكن متساوياً. فقد وصل إلى ذروة اللاإنسانية بين سنة ١٩١٤ وأواخر الأربعينيات فى حقبة الحربين العالميتين وما أعقبهما من فترة ثورات

فى أميركا اللاتينية حاولت مثل هذه المجموعات المبادرة بأنشطة قتالية من طراز حروب العصابات، وعمليات مسلحة تقوم بها وحدات أكبر، عادة فى المناطق المحيطة



آلة الحرب داخل الدول أو المدعومة من قبلها كما فى فيتنام -على سبيل المثال- والمواجهات غير المباشرة بين القوتين العظميين فى السبعينيات فى أفريقيا وأفغانستان، والحربين الهندية الباكستانية والعراقية الإيرانية، فقد كان ثمة ثلاث مراحل كبرى من العنف السياسى ومواجهة العنف منذ الستينيات:



المرحلة الأولى كانت إحياء ما سمى بـ«البلقنة الجديدة» فى الستينيات والسبعينيات، وتحديداً محاولة مجموعات نخبوية صغيرة الإطاحة بالأنظمة أو تحقيق أهداف القومية الانفصالية من خلال أعمال مسلحة. وقد كان هذا مقصوراً إلى حد كبير على أوروبا الغربية، حيث اعتمدت هذه الجماعات -التى كانت تتشكل أساساً من أصحاب الطبقة الوسطى الذين لم يتمتعوا فى العموم بدعم شعبى خارج الجامعات (باستثناء إيرلندا الشمالية)- اعتماداً كبيراً على أعمال إرهابية كان القصد منها لفت نظر وسائل الإعلام (جناح الجيش الأحمر فى ألمانيا الاتحادية)، ولكنها اعتمدت كذلك على انقلابات محددة الأهداف من شأنها زعزعة استقرار السياسات العليا للبلاد، كاغتيال من سُمى خليفةً للجنرال فرانكو سنة ١٩٧٣ (على أيدى حركة إيتا) واختطاف رئيس الوزراء الإيطالى ألدو مورو سنة ١٩٧٨ وقتله (على أيدى الألوية الحمراء). وفى أميركا اللاتينية حاولت مثل هذه المجموعات المبادرة بأنشطة قتالية من طراز حروب العصابات، وعمليات مسلحة تقوم بها وحدات أكبر، عادة فى المناطق المحيطة، وفى بعض الحالات، كفنزويلا وأورغواى، داخل المدن أيضاً. وقد كان بعض هذه العمليات على درجة من الخطورة، ففى السنوات الثلاث لحركة «مونتونيرو» فى الأرجنتين تكبدت القوات النظامية وغير النظامية ١٦٤٢ ضحية ما بين قتيل وجريح[٤]. وحدود هذه المجموعات كانت بالأخص واضحة فى أعمال حرب العصابات فى المناطق الريفية، حيث يتعين وجود درجة كبيرة من الدعم الشعبى ليس من أجل النجاح بل من أجل البقاء على قيد الحياة. كما أن محاولات بعض الدخلاء تأسيس حركات قتالية على النمط الكوبى لم تكلل بالنجاح فى أى مكان فى أميركا الجنوبية، باستثناء كولومبيا حيث كانت مناطق كبيرة من البلاد خارجة عن سيطرة الحكومة المركزية وطائلة قواتها.

أما المرحلة الثانية التى جاءت بنفسها فى نهاية الثمانينيات، وحظيت بتوسع كبير بفعل الزعزعة المدنية وانهيار الدول فى التسعينيات، فهى بالدرجة الأولى عرقية وعَقَدية. وقد كانت أفريقيا، والمناطق الغربية من العالم الإسلامى، وجنوب شرقى آسيا، وجنوب شرقى أوروبا هى المناطق الأكثر تضرراً. وظلت أميركا اللاتينية فى مأمن من النزاعات العرقية والدينية، فى حين أن شرقى آسيا وروسيا الاتحادية - باستثناء الشيشان- لم تتأثر تقريباً. أما الاتحاد الأوروبى فقد ناله شيء من ذلك بفعل ازدياد حدة رهاب الأجانب وإن لم يكن دموياً. كما تمخضت موجة العنف السياسى، فى مناطق أخرى، عن مذابح بحجم لم يعرف منذ الحرب العالمية الثانية، وأقرب ما يكون من إحياء للقتل الجماعى الممنهج. وخلافاً للمبلقنين الأوروبيين الجدد، الذين لم يتمتعوا فى العادة بدعم جماهيرى، فالجماعات النشطة التى عرفتها هذه الفترة ذ فتح، وحماس، وحركة الجهاد الإسلامى الفلسطينية، وحزب الله، ونمور التاميل، وحزب العمال الكردستانى، وما أشبه- كانت تعتمدُ من أنصارها على دعم واسع ومصدر دائم للتجنيد. ولذلك فإن هذه المجموعات لم تتخذ من أعمال الإرهاب الفردية أسلوباً لها أساسياً إلا بوصفها الرد المتاح الوحيد على طغيان القوة العسكرية للدولة المحتلة (كما فى فلسطين)، أو، فى أفضل الأحوال، فى الحروب الأهلية، تعويضاً فى وجه التفوق الكبير للخصم فى العدة والعتاد (كما فى سريلانكا).

وقد ظهر فى هذه المرحلة نموذج جديد ثبت أنه فى غاية الإرعاب، وهو نموذج الانتحارى. ويرجع هذا النموذج أصلاً إلى عهد الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩ إذ حمل عقيدتَها القوية التى تمثلت فى المذهب الشيعى، وربطها بمفهوم الشهادة. وقد تم توظيف هذا النموذج بادئ الأمر سنة ١٩٨٣ توظيفاً فعالاً ضد الأمريكان من قبل حزب الله فى لبنان، كما غدت فاعليته واضحة بانتشاره عبر الأصقاع، وصولاً إلى نمور التاميل فى سنة ١٩٨٧، ثم إلى حماس فى فلسطين سنة ١٩٩٣، ثم بتبنى القاعدة وغيرها من المتشددين الإسلاميين فى كشمير والشيشان له بين سنتى ١٩٩٨ و٢٠٠٠[٥]. وقد أخذ الإرهاب الفردى وإرهاب الجماعات الصغيرة شكلاً آخر مخيفاً فى هذه المرحلة تمثل فى الإحياء الواضح للاغتيالات السياسية. ولئن شكلت الفترة ما بين سنتى ١٨٨١ و١٩١٤ العهد الذهبى الأول لقتل كبار الساسة، فإن السنوات من أواسط

السبعينيات إلى أواسط التسعينيات أصبحت هى العهد الثانى، فقد قتل فيها السادات فى مصر، ورابين فى إسرائيل، وراجيف غاندى والسيدة غاندى فى الهند، وثلةٌ من الزعماء فى سريلانكا، والمسمّى خليفة لفرانكو فى إسبانيا، ورئيسا وزراء إيطاليا والسويد (رغم أن شكاً يكتنف البعد السياسى فى حالة السويد). كما جرت محاولات لاغتيال البابا جون بولس الثانى (John Paul II) والرئيس ريغن سنة ١٩٨١. ولئن لم تكن نتائج هذه الأعمال ذات طابع انقلابى، فإنها تركت فى بعض الأحيان تأثيرات سياسية واضحة، كما فى إسرائيل، وإيطاليا، وربما إسبانيا.

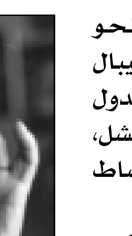
غير أن انتشار جهاز التلفاز جعل الأعمال الأكثر تأثيراً فى السياسة ليست بيد صناع القرار بل بيد وسائل الإعلام ذات التأثير الأقوى. وعليه فقد وضعت مثل هذه الأعمال حداً للوجود العسكرى الرسمى للولايات المتحدة فى لبنان فى الثمانينيات، وفى الصومال فى التسعينيات، وكذلك فى السعودية بعد سنة ٢٠٠١. إلا أن إحدى العلامات غير السارة للبربرة هى ما تم اكتشافه بفعل الإرهاب من أن القتل الجماعى للرجال والنساء العاديين، ما دام يسترعى انتباه الشاشة التلفزيونية، كان له قيمة إعلامية أكبر من كل ما سواه باستثناء من كانت تستهدفهم قنابلهم من العناصر البالغة الأهمية أو الشخصيات الرمزية.



وفى المرحلة الثالثة التى يبدو أنّها سادت فى بدايات القرن الحالى، كان العنف السياسى قد أصبح عالمياً على نحو ممنهج، سواء من خلال سياسات الولايات المتحدة فى ظل إدارة الرئيس جورج بوش أم من خلال المؤسسة، وربما للمرة الأولى منذ فوضوية (anarchism) أواخر القرن التاسع عشر صار بمقدور حركة إرهابية أن تعمل على نحو مطرد عبر الحدود. فالقاعدة تبدو منظمة نخبوية مركبة، لكنها عملت كحركة لا مركزية صممت فيها خلايا صغيرة معزولة لتعمل من غير إسناد جماهيرى أو دعم مباشر يُذكر. كما لم تتطلب قاعدة إقليمية. وعليه فلم تتأثر هى، أو شبكة متناثرة من الخلايا الإسلامية التى استلهمت نهجها، بخسارتها قاعدتها فى أفغانستان وبتهميش زعامة أسامة بن لادن لها. ومن مزايا هذه المرحلة أن الحروب الأهلية أو غيرها من النزاعات التى لا تتسع لها الصورة العالمية، نحو النزاعات المتواصلة فى سريلانكا والنيبال وكولومبيا، أو الاضطرابات فى الدول الأفريقية الفاشلة أو الماضية نحو الفشل، لم تُثِر سوى اهتمام متقطع فى الأوساط الغربية.

لقد تميزت هذه الحركات بشيئين اثنين، فقد تكونت من أقليات صغيرة، حتى عندما تمتعت هذه الأقليات ببعض التعاطف السلبى من قبل الجماهير التى ادعت أنّها تعمل باسمها، وكان أسلوبُها فى العمل أسلوب عمل المجموعات الصغيرة. يقال إن ما يسمى بـ«وحدات الخدمة النشطة» للجيش الجمهورى الإيرلندى الابتدائى لم تتجاوز ٢٠٠ أو ٣٠٠ فرد فى أى وقت واحد، وأنا أشك فيما لو كانت الألوية الحمراء فى إيطاليا أو حركة إيتا فى إقليم الباسك أكبر من ذلك. بل لعل أكثر الحركات الإرهابية الدولية إرعاباً، وهى القاعدة، لم يصل عدد أفرادها فى أيام ذروتها فى أفغانستان إلى أكثر من أربعة آلاف فرد[٦]. ولو استثنينا مناطق محدودة، كإيرلندا الشمالية، فإن الميزة الأخرى لهذه الحركات أن «أعضاءها فى الجملة أكثر ثقافة، وينحدرون من خلفيات اجتماعية أعلى من سائر أفراد المجتمعات التى ينتمون إليها»[٧]. ولذلك فإن المرشحين للتجنيد من قبل القاعدة، من الذين ذهبوا لتلقى التدريبات فى أفغانستان فى التسعينيات، يوصفون بأنّهم «من الطبقتين الوسطى والعليا، ويكاد يكون جميعهم من عائلات متماسكة. ونسبة كبيرة منهم من خريجى الكليات، مع ميل شديد للعلوم الطبيعية والهندسة... وليس منهم إلا قلة من خريجى التعليم الدينى»[٨]. حتى فى فلسطين، حيث يمثل الانتحاريون شريحة من أوساط الناس فى المناطق المحتلة بمن فيهم نسبة عالية من أبناء مخيمات اللاجئين، فإن ٥٧٪ منهم كانوا ممن واصلوا تعليمهم فوق الثانوى، مقارنة بما لا يزيد على ١٥٪ فى عامة المجتمع من أترابهم[٩].

ورغم صغر هذه المجموعات فإنّها أثارت مخاوف الحكومات التى حركت ضدها قوات مواجهة ضخمة نسبياً، أو حتى مطلقاً. لكن يوجد هنا اختلاف يستحق التأمل بين العالمين الأول والثالث (أما العالم الثانى من الأنظمة الشيوعية، فرغم كونه على حافة الانْهيار فقد بقى - ما دام قائماً- فى مأمن من مثل هذه الحركات إلى أن تحطّم بالفعل جُذاذاً من الدول فيما بعد). وبالجملة، ففى أوروبا على الأقل، خلال أولى المرحلتين اللتين أشرنا إليهما هنا، لم يُجابَه العنف السياسى



> **إن انتشار جهاز التلفاز جعل الأعمال الأكثر تأثيراً فى السياسة ليست بيد صناع القرار بل بيد وسائل الإعلام ذات التأثير الأقوى**



> **كانت هذه «الحروب القذرة» المشينة موجهةً بالأساس ضد جماعات من هذا النوع، وكثيراً ما كانت تنفذها مجموعات صغيرة من القوات الخاصة رداً على جماعات الأقلية الإرهابية**



الجديد إلا بقوة محدودة ومن غير كسر يذكر للحكومات الدستورية، رغم مرور بعض الأوقات التى عمّت فيها الهستيريا وبعض التجاوزات فى استخدام القوة، ولا سيما من قِبَل شرطة الدولة وقواتها المسلحة، الرسمية منها وغير الرسمية. فهل كان ذلك لأن الحركات الأوروبية لم تمثل تهديداً كبيراً للأنظمة القومية؟ صحيح أنّها لم تمثل، وليست تمثل الآن، رغم أن الحركات الانفصالية القومية فى إيرلندا الشمالية وفى بلاد الباسك اقتربت فى الواقع من تحقيق ما تصبو إليه بالسياسة، بمساعدة الضغط المسلح الذى مثله الجيش الجمهورى الإيرلندى وحركة إيتا. ولعله من الصحيح أيضاً أن الشرطة وأجهزة المخابرات الأوروبية كانت، ولا تزال، من الكفاءة بحيث تمكنت من اختراق صفوف كثير من هذه الحركات، ولا سيما الجيش الجمهورى الإيرلندى، وربما الألوية الحمراء فى إيطاليا. ومع ذلك، فمن المهم أنه رغم استخدام المواجهة الفظة للإرهاب من قبل «جهات رسمية غير معروفة» فى كل من إيرلندا وإسبانيا، فإنه لم يكن ثمة «حروب قذرة» لا بحجم ولا بدرجة ما رأينا فى أميركا اللاتينية من إرهاب وتعذيب ممنهج. فهنا بلغت مواجهة الإرهاب مبلغاً تجاوز مقدار العنف السياسى للمتمردين تجاوزاً بعيداً، حتى عندما امتنع المتمردون عن ارتكاب المجازر، مثل السندريين (the Senderistas) فى بيرو.

لقد كانت هذه «الحروب القذرة» المشينة موجهةً بالأساس ضد جماعات من هذا النوع، وكثيراً ما كانت تنفذها مجموعات صغيرة من القوات الخاصة رداً على جماعات الأقلية الإرهابية. وعليه، فإن هدف الأنظمة التى تقر التعذيب وتمارسه فى أميركا اللاتينية - ما لم يكن نابعاً من سياسة الدولة- لم يكن من أجل ثَنْى الناس عن المشاركة فى أعمال تخريبية، وإنما من أجل انتزاع اعترافات النشطاء على مجموعاتهم. كما لم يكن هدفُ فِرَق الموت ردعَ الناس، وإنما التخلص ممن كانوا يعدُّونَهم مذنبين بأسرع طريقة، بعيداً عن دهاليز الإجراءات القضائية التى قد تؤول إلى الحكم بتبرئتهم. أما الإرهاب ضد مجموع الشعوب التى تعد معارضة لنظام الحكم فهو فى العادة لا يقل وحشية، كما فى نظام الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا وفلسطين، ولكنه أشد مضاضة وأوشك وقوعاً. فعدد من قتلوا فى فلسطين قبل الانتفاضة الثانية كان بالتأكيد أقل من

عدد من «اختفوا» فى تشيلى فى عهد بينوشيه. ولا ينكر أحد أن البربرة تقدمت كثيراً وصولاً إلى القمع الذى لا يخلف إلا قتيلاً أو قتيلين فى اليوم لتعتبر تحت مستوى المذابح التى يصل خبرها تلقائياً إلى العناوين الرئيسية فى الصحافة. ومع ذلك، فإن السلطات فى بلدان مثل كولومبيا وبيرو واجهت الحركات المقاتلة فى الأرياف بعنف غير عادى.

إن عولمة «الحرب على الإرهاب» منذ سبتمبر ٢٠٠١، وإحياء سنة التدخلات العسكرية الأجنبية من قبل قوة كبرى انتقدت رسمياً ما كان إلى ذلك الوقت مقبولاً من قوانين واتفاقيات النزاعات الدولية فى ٢٠٠٢ فاقمت الأوضاع ومضت بها نحو الأسوأ، فى حين كان ما تمثله شبكات الإرهاب الدولية الجديدة على أنظمة الدول المستقرة فى العالم المتقدم، وكذلك فى آسيا، من خطر لا يكاد يذكر. إن استهداف بضعة أهداف أو وقوع بضع مئات من الضحايا فى التفجيرات التى تعرضت لها وسائل المواصلات فى مدينة لندن أو مدريد لا يعطل سير القدرة الأدائية لمدينة كبرى أكثر من بضع ساعات فى أسوأ الأحوال. ورغم أن المذبحة التى وقعت فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى نيويورك كانت مروعة، فإنها لم تؤثر قط على قوة الولايات المتحدة الخارجية ولا على بُناها الداخلية. ولو ساءت الأمور وتفاقمت الأوضاع، فليس ذلك بسبب أعمال الإرهابيين، وإنما بفعل حكومة الولايات المتحدة. فالهند، التى تمثل أكبر دولة ديمقراطية فى العالم، مثال جيد على قدرة الدولة المستقرة على المقاومة، فرغم أنّها فقدت خلال السنوات العشرين الماضية اثنين من قادتها اغتيالاً، وأنها تعيش وضع حرب محدودة فى كشمير، وأن فيها أنواعاً شتى من الحركات المقاتلة فى مناطقها الشمالية، وانتفاضة ماركسية لينينية فى بعض المناطق القبلية، فإنه لا أحد يستطيع أن ينفى أنّها دولة مستقرة تتمتع بنظام أدائى متكامل.

ومن هنا نتبين الضعف النسبى والمطلق للمرحلة الراهنة للحركات الإرهابية، فهى أعراض وليست عوامل تاريخية ذات شأن. وهذا لا تغيره حقيقة أنه بفضل التغييرات فى التسلح والتكتيكات فإن ما يمكن أن ينال الفرد مما تستطيع المجموعات الصغيرة وحتى الأفراد إيقاعه من الأضرار أكثر بكثير من ذى قبل، أو الأهداف الطوباوية التى يحملها أو التى تنتسب لبعض المجموعات الإرهابية. فالتحرك والعمل داخل الدول المستقرة التى فيها أنظمة مستقرة، وبدون دعم القطاعات المادية من



رغـــــم أن المذبحة التى وقعت فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فـى نـيـويـورك كـانـت مروعة، فإنها لم تؤثر قط عـلى قـوة الولايات المتحدة الخـارجـيــة ولا عــلـى بُناها الداخلية



إن السياسة الحالية للولايات المتحدة حاولت أن تحيى المخاوف المروعة للحرب الباردة، عندما لم يعد لها أى معنى، عبر خلق «أعداء» يسوغون توسيع دائرة استخدام قوتها العالمية



الشعب، يعنى أن المشكلة مشكلة شرطة وليست مشكلة جيش. حتى عندما يكون إرهاب الجماعات الصغيرة جزءاً من حركة أو معارضة عامة، كما فى وضع القاعدة فى المقاومة العراقية، فليسوا الجزء العسكرى الرئيسى أو الفاعل فى الحركة، بل ليسوا إلا إضافات هامشية لها. أما عن النشاط خارج نطاق جمهور متعاطف، مثل الانتحاريين الفلسطينيين فى إسرائيل أو ثلة من المتطرفين الإسلاميين فى لندن، فليس لهم أكثر من القيمة الدعائية. ولا يعنى أىٌ مما ذكرنا أن لا حاجة إلى إجراءات بوليسية دولية كبرى لمجابهة إرهاب المجموعات الصغيرة، ولاسيما من النوع العابر للحدود، على الأقل لأن ثمة خطر إمكانية امتلاك مثل هذه الجماعات فى وقت ما سلاحاً نووياً وقدرة على استخدامه. أما إمكاناتهم السياسية، التى غالباً ما تكون مدمِّرة، فى الدول غير المستقرة أو المتفككة، ولاسيما فى العالم الإسلامى فى غربى الهند، فواضح أنها أكبر بكثير، لكن ينبغى ألا تخلط بالإمكانية السياسية للتعبئة الدينية واسعة النطاق.



إنه من المفهوم أن مثل هذه الحركات تخلق توتراً كبيراً فى أوساط الناس العاديين، وخصوصاً فى المدن الغربية الكبرى، ولاسيما عندما تتحد الحكومة ووسائل الإعلام فى خلق جو من الفزع لخدمة أهدافهم الخاصة عن طريق إعطاء هذه الحركات أكبر مساحة للإعلان عن عملياتها (من الصعب أن نتذكر أن الأسلوب الكامل العقلانية الذى كانت تتبعه الحكومات التى كانت تواجه حركات مثل إيتا والألوية الحمراء والجيش الجمهورى الإيرلندى، كان يتمثل قبل سنة ٢٠٠١ فى «حرمانهم من تنشق هواء الإعلام» ما أمكن). إنه جو من الفزع غير العقلانى. إن السياسة الحالية للولايات المتحدة حاولت أن تحيى المخاوف المروعة للحرب الباردة، عندما لم يعد لها أى معنى، عبر خلق «أعداء» يسوغون توسيع دائرة استخدام قوتها العالمية. وأنا أكرر، إن مخاطر «الحرب على الإرهاب» لا تأتى من قبل الانتحاريين المسلمين.

ولا يقلل أىٌ مما مر من حجم الأزمة العالمية الحقيقية التى من تعبيراتها تحولات العنف السياسى، فيبدو أنها تعكس التقلبات الاجتماعية الكبرى التى جاء بها على كافة المستويات أسرع تحول مفاجئ فى الحياة البشرية شهده الناس خلال عمر إنسانى واحد. كما يبدو أنها تعكس أزمة فى الأنظمة التقليدية للسلطة والهيمنة والشرعية فى الغرب وانهيارها فى الشرق والجنوب، وكذلك أزمة فى الحركات التقليدية التى ادعت أنها تشكل بديلاً عن هذه. وقد فاقمتها إخفاقات تفكيك المستعمرات فى أنحاء من العالم ونهاية الأنظمة الدولية المستقرة، أو فى الحقيقة أى نظام دولى منذ انهيار الاتحاد السوفيتى. وهى سوف تثبت أنها وراء مبلغ قوة الطوباويين من المحافظين الجدد والليبراليين الجدد فى عالم من القيم الليبرالية الغربية التى نشرها تضخم السوق والتدخلات العسكرية. ■

هـــــوامـــــش:

(١) اتبعت الرواية المذكورة فى البرج غير الواضح The looming tower، للورنس رايت (لندن ٢٠٠٦)، صفحات ١٢٣ إلى ١٢٥. و١٧٤ إلى ١٧٥.

2- Tiempos de Ira y Amor: Nuevos actores para viejos problemas، لكارلوس إيفان دى غريغورى وآخرون (ليما ١٩٩٠) هو كتاب ممتاز ولاسيما فى ظاهرة «المسار المشرق (Sendero Luminoso).

) الرجل الميت فى الغرفة المحصنة تحت الأرض The dead man in the bunker، لمارتن بولاك (لندن ٢٠٠٦) حول حياة ومستقبل ضابط بارز من الفرقة الواقية (التى كانت تحمى هتلر فى النازية).

(٤) Los Hechos Armados، لجوان كارلوس مارين: الأرجنتين من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٦ (بوينس أيرس، ١٩٩٦)، ص ١٠٦، جدول8.

(٥) تتبعت جدل دياغو غامبيتا، استناداً إلى المادة التى أوردها غامبيتا (طبعة)، فى فهم المهمات الانتحارية Making sense of Suicide Missions (أكسفورد، ٢٠٠٥).

(٦) غامبيتا، نفس المصنف المذكور، ص ٢٦٠.

(٧) غامبيتا، نفس المصنف المذكور، ص ٢٧٠.

(٨) رايت، نفس المصنف المذكور، ص ٣٠١.

(٩) غامبيتا، نفس المصنف المذكور، صفحات ٣٢٧ إلى ٣٢٨.

(*) يتكون المجتمع الهندوسي من أربع طبقات رئيسية، كما استحدثت طبقة خامسة سببت الإزعاج للحكومة الهندية، فقامت بإلغائها رسمياً في عام١٩٥٠ . وحسب التقسيم الطبقي الهندوسي فهذه الطبقات هي: الطبقة البيضاء، أو طبقة «البراهميين» التي ينتمي إليها القساوسة وعلماء الديانة الهندوسية، وطبقة «الكاشتري»، أو ما يعرف بالطبقة الحمراء وتشمل الحكام والجنود، والطبقة الصفراء «الفيزية» وتشمل المزارعين والتجار، وطبقة «السودرا»، أو الطبقة السوداء وتشمل أهل الحرف اليدوية. أمّا بالنسبة للطبقة الخامسة، أو ما يعرف بطبقة «الشودرا» أو «المنبوذين»، فتشمل أهل الحرف المتدنية من وجهة نظر الهندوسية، وتتكون هذه الحرف من حفّاري القبور وعمال نظافة دورات المياه وما إلى ذلك.

■■ لم يشهد تاريخ الإنسانية كالقرن العشرين غرابة، بما حل فيه من كوارث، وجدَّ من اختراعات، ووقع من قدرة لدى البشر على تغيير وجه هذا الكوكب أو ربما إفساده، بل النفاذ من أقطار السماوات والأرض.

والكتاب الذى نقدمه اليوم للقارئ العربى يضم بين دفتيه عدداً من المقالات الممتعة لمؤرخ يعد من أشهر المؤرخين البريطانيين، إن لم يكن أشهرهم على الإطلاق، لا تُمَكِّنُ المرءَ من رؤية ملامح ذلك القرن فحسب، بل تمضى به إلى تلَّة مشرفة يستطيع من عليها أن يلقى نظرة يستشرف بها آفاق المقبل من الأيام، مما تمخض عنه ذلك القرن العجيب.

ولعل ما سيلفت نظر القارئ أن المؤرخ فى مقالاته هذه، تجاوز كعادته الوصفَ إلى التحليل، والسرد إلى التمحيص، والتعامل مع الأحداث منفصلة إلى تلمس أوجه الترابط بينها، ومصاقبة الأشباه منها والنظائر، وبيان أثر كل منها فى غيره، تسعفه فى ذلك أدوات البحث الحديثة، وتدعم تحليلاته الإحصائيات والأرقام، فهو لم يقصر وظيفته على تذكر ما نسيه الآخرون أو تناسوه، أو رسم لوحة تاريخية لأحداث قرن خلا من الزمان، اتسم فى جوانب كثيرة منه بالغلو والإفراط، مهما كانت تلك اللوحة مثيرة ومتنوعة ولافتة، ولكنه اختار لنفسه أن ينظر إلى الأحداث من مكان بعيد، أبعد ما يكون عن الحاضر، ليرى الأمور فى سياقها الأرحب ومداها الأطول، ويقدم صورة تفاعلية متكاملة، تزاوج بين الماضى والحاضر والمستقبل، تستبطن ما يخبئه قابل الأيام بما أسفر عنه غابرها، وتكشف ماضيها بعين حاضرها، فى مزج بين مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

فقد حاول المؤرخ فى هذه المقالات استقراء وضع العالم فى مطلع الألفية الثالثة، وسبر بعض ما نواجهه اليوم من مشاكل سياسية رئيسية، وقد سبق أن نشر منها من قبل عدداً، وبخاصة فى كتابه الموسوم بـ«مختصر فى تاريخ القرن العشرين» و«عصر التطرف» و«حديث فى القرن الجديد مع أنطونيو بوليتو»، و«الأمم والقوميات».

وآثر المؤلف أن يركز فى مجموع مقالاته هذه، ولاسيما ذات الطابع السياسى منها، على خمسة مجالات تتطلب اليوم تفكيراً واضحاً ونظراً واعياً، هى مسألة الحرب والسلم فى القرن الحادى والعشرين، وماضى إمبراطوريات العالم ومستقبلها، وطبيعة القومية وسياقها المتقلب، وآفاق الديمقراطية

ERIC HOBSBAWM
GLOBALISATION, DEMOCRACY AND TERRORISM
'One of the outstanding historians of our age'
Independent on Sunday

العولمة والديمقراطية والإرهاب

مقالات هوبزباوم

أكرم حمدان ونزهت طيب

الليبرالية، ومسألة العنف السياسى والإرهاب. فكل هذه أمور تجرى على مسرح عالم يطغى عليه مستجدان مترابطان على نحو ما يجلى ذلك هوبزباوم، أولهما التسارع الضخم والمتواصل لقدرة الإنسان على تغيير وجه المعمورة بوسائل التقنية والنشاط الاقتصادى، والآخر العولمة وما جلبته معها من تداعيات على مصير العالم وسائر الشعوب.

ويرى المؤلف محقًا أن أول هذين الأمرين لم يترك تأثيراً ملموسا حتى الساعة على وعى واتجاهات تفكير صناع القرار السياسى، فالوصول بالنمو الاقتصادى إلى أقصى ذروته لم ينفك يمثل أسمى أهداف الحكومات الراهنة، وليس ثمة من أفق حقيقى لأى خطوات فعلية فى مواجهة أزمة الاحتباس الحرارى الذى يتهدد العالم. ومن جهة أخرى، فمنذ الستينيات غدا للتقدم المتسارع للعولمة، أى تحول العالم إلى وحدة واحدة تشملها نشاطات متداخلة لا تعوقها الحدود المحلية، تأثير سياسى وثقافى كبير، ولاسيما فى شكلها الحالى الطاغى وهو السوق الحرة العالمية المستعصية على السيطرة.

على أن الوجه السياسى للعولمة لم يحظ بتركيز خاص فى هذا الكتاب لأسباب عدة، أهمها أن السياسة هى المجال الوحيد من النشاط البشرى الذى تتقلص فيه مؤشرات التأثر بالعولمة. ففى محاولات تعريف العولمة، لم يجد جدول KOF للعولمة (٢٠٠٧) صعوبة فى إيجاد جداول لجريان الاقتصاد والمعلومات والاتصالات الشخصية والانتشار الثقافى - مثلاً عدد مطاعم ماكدونالدز ومحلات آيْكِيا بالنسبة لكل فرد- لكنه لم يجد مقياسا لـ«العولمة السياسية» أفضل من عدد السفارات فى بلد ما، وعضويته فى المنظمات العالمية، ومشاركته فى مهمات مجلس الأمن الدولى.

مناقشة العولمة السياسية عموماً مسألة لا تقع ضمن حدود هذا الكتاب، غير أن ثمة ملاحظات ثلاث عامة عنها تمس موضوع الكتاب على نحو خاص. أولها، أن عولمة السوق الحرة التى باتت صبغة العصر جاءت بنمو ضخم فى الاقتصاد وجلبت معها فروقا اجتماعية على المستويين المحلى والدولى. وليس ثمة مؤشرات على أن هذا الفصل الطبقى سيتوقف داخل البلدان، رغم تقلص الفقر المدقع بشكل عام. هذا الصعود للفروق الطبقية، ولاسيما فى ظروف عدم استقرار بالغ فى الاقتصاد كتلك التى

تمخضت عنها السوق الحرة العالمية فى التسعينيات، هو الذى يفسر التوترات الاجتماعية والسياسية الكبرى التى يمر بها القرن الجديد.

وقد جمع الكتاب بين دفتيه عشرة فصول، ناقش الكاتب فى أولها مسألة السلم والحرب فى القرن العشرين، قرن الحروب، الذى قسمه المؤلف من الناحية التاريخية إلى مراحل ثلاث، هى مرحلة الحرب العالمية التى تركزت على ألمانيا (١٩١٤ إلى ١٩٤٥)، ومرحلة المواجهة بين القوتين العظميين (١٩٤٥ إلى ١٩٨٩)، ثم مرحلة ما بعد نهاية نظام القوة العالمى التقليدى.

وفى الفصل الثانى تناول قضية الحرب والسلم والهيمنة فى مطلع القرن الحادى والعشرين، وتحدث عما يشهده هذا القرن من التحول التعليمى، نظراً لأن التأثير الاجتماعى والثقافى للتعليم العام لا يمكن فصله بسهولة عن التأثير الاجتماعى والثقافى للثورة المفاجئة التى لا مثيل لها قط فى إعلام الاتصالات العام والشخصى الذى انخرطنا فيه جميعاً على ما يقول المؤرخ البريطانى.

الفصل الثالث هو فصل تاريخى ممتع قدم فيه المؤلف إجابة موسعة عن السؤال التالى: لماذا تختلف الهيمنة الأمريكية عن الإمبراطورية البريطانية؟ وقد وقف هوبزباوم موقفاً وسطاً بين من يؤيدون الإمبراطوريات ويرون أنَّها قدمت الخير والنفع للعالم، وبين من يعادونَها ويسوقون كل ما قيل فى ذمها وتبيان مثالبها.

أما الفصل الرابع فكان معرضاً للحديث عن نِهاية الإمبراطوريات، ويناقش فيما يناقشه فى هذا الفصل دعوى أن الإمبراطوريات والاستعمار جلبت الحضارة للشعوب المتخلفة وأبدلتها بالممالك نظاماً، ويرى أن هذه الدعوى مشكوك فى صحتها، إن لم تكن زائفة بالكلية. فمن القرن الثالث حتى القرن السابع عشر، كانت أغلب الإمبراطوريات خاضعة للغزو العسكرى من قِبَل قبائل محاربة من الأطراف الخارجية للحضارات الآسيوية والبحر متوسطية لم تأتِ إلى البلاد التى غزتْها، والتى غالباً ما كانت أكثر منها رقياً، بأكثر من سُيوفها، أو، إذا هى أرادت البقاء طويلاً، فبرغبة فى استخدام البنى التحتية والخبرات الموجودة لدى من قامت هى بهزيمتهم. العربُ وحدَهم الذين حملوا معهم لغتَهم المكتوبةَ ودينَهمُ الجديد، هم الذين جاءوا بشىء جديد. أما الأوروبيون الذين استعمروا الأمريكتين وإفريقية والهادئ فقد كانوا



وقف هوبزباوم موقفًا وسطًا بين من يؤيــــدون الإمبراطوريات ويرون أنَّها قدمت الخير والنفع للعالم، وبين من يعادونَها ويسوقون كل ما قيل فى ذمها وتبيان مثالبها

إن الوثيقة الحاسمة لهوية القرن العشرين ليست هى شهادة ميلاد الدولة القومية، ولكن وثيقة الهوية الدولية، أى جواز السفر



فى الواقع متفوقين تقنيًا على المجتمعات المحلية، رغم أنه حتى القرن التاسع عشر لم يكونوا متفوقين على الإسلامية منها والآسيوية على ما يذكر هوبزباوم.

ثم ينتقل الفصل الخامس للحديث عن الأمم والقومية فى القرن الجديد، ويحلل العناصر المؤثرة فيها، وأهمها بدء حقبة من الاضطراب الدولى منذ سنة ١٩٨٩، ويتعرض لنتائج نهاية الحرب الباردة والاتحاد السوفيتى، وهما القوتان اللتان كانت لهما أهمية كبرى فى حفظ الاستقرار السياسى. أما العنصر الثانى الذى يتناوله المؤلف هنا، على أنه عنصر مؤثر فى مشكلة الأمم والقومية، فهو التسارع المذهل لعملية العولمة فى العقود الأخيرة، وما لذلك من آثار على حركة البشر وقدرتهم على التنقل. وفيه يطرح قضية عولمة الهجرة الدولية الجماعية، والتى غالبًا ما تكون من الأماكن ذات الاقتصاد الضعيف إلى الأماكن ذات الاقتصاد القوى، إذ إن حجمها واضح على نحو خاص فى حالة دول مثل الولايات المتحدة وكندا وأستراليا، وهى دول لم تفرض قيوداً ذات بال على الهجرة. ويرى أنه لئن لم يحن الوقت بعد للحكم على تأثير هذه القدرة على التنقل بين الحدود، وفق المفاهيم القديمة للأمم والقومية، فإنه ما من شك سيكون لها تأثير ضخم. ويقرر هنا ملاحظة بينديكت أندرسون Benedict Anderson، أن الوثيقة الحاسمة لهوية القرن العشرين ليست هى شهادة ميلاد الدولة القومية، ولكن وثيقة الهوية الدولية، أى جواز السفر.

أما العنصر الثالث الذى يراه هوبزباوم مؤثراً فى الأمم والقومية فهو رُهاب الأجانب، ذلك أنه ينطوى على قوة تأثيرية كبيرة، ويعكس الجوائح الاجتماعية والتفكك الأخلاقى الذى شهدته أواخر القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين. ويرى أن هذه التركيبة تنطوى على طاقة تدميرية، ولاسيما فى الأقطار والمناطق الموحدة عرقياً وطائفياً وثقافياً والتى لم تعتد على تدفق كبير من الأجانب. ثم يختتم بسؤال لم يجب عليه: ما الذى سيحل محل القومية، إن كان ثمة شىء، نموذجاً عاماً للحكومة الشعبية فى القرن الحادى والعشرين؟

ينطلق المؤلف من هذا الفصل إلى البحث فى آفاق الديمقراطية، فهو وإن كان لا يسلم بالتعريف الشائع للديمقراطية، ويرى أن المؤرخين والمشتغلين بالعلوم السياسية لا يرون أن هذا هو المعنى الأصلى للديمقراطية، وأنه قطعاً ليس الوحيد، إلا أنه يرى أن الديمقراطية الليبرالية هى ما نواجهه اليوم بصورة ملموسة، وأن آفاقها تستحق أن يفرد لها هذا الفصل. ثم يدلف فى الفصل السابع إلى البحث فى مسألة نشر الديمقراطية، التى يرى أنها لن تنجح، لأنها تهدد وحدة القيم العالمية. فالقرن العشرون أظهر أن الدول لا تستطيع ببساطة صبغ العالم أو اختصار التحولات التاريخية، وبيّن أن ليس بوسعها التأثير فى التغيير الاجتماعى بترحيل المؤسسات عبر الحدود. كما رأى هوبزباوم أن الجهود الرامية لنشر الديمقراطية أيضًا خطيرة من نواح أخرى غير مباشرة: من ذلك أنها تحمل لأولئك الذين لا يتمتعون بهذا النوع من الحكومة الفكرة الزائفة والتى مفادها أن الديمقراطية تسود فعلاً من يعيشون فى ظلها. وتساءل هنا: لكن هل هذا صحيح؟ واتخذ من قرارات الحرب على العراق فى دولتين من الدول التى تؤمن إيمانًا قويًا بالديمقراطية، وهما الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، نموذجًا لرد ذلك الاعتقاد الخاطئ عن الديمقراطية، لأن الديمقراطية الانتخابية والهيئات التمثيلية لم يكن لها فى تلك العملية إلا خلق المشاكل المعقدة المتسمة بالغش وتغطية الحقائق، كما يقول. لقد تم اتخاذ القرارات من قبل مجموعات صغيرة من الناس فى الخفاء، على نحو لا يختلف كثيراً عن اتخاذها فى البلاد غير الديمقراطية، فالديمقراطية الانتخابية، فى نظره، ليست هى بالضرورة التى تضمن الحرية الفعالة للإعلام وحقوق المواطنين والقضاء المستقل.



الآن ينتقل الكاتب للحديث عن مشكلة العصر: الإرهاب، مستفتحًا مقالته بتساؤل عما إذا كانت طبيعة الإرهاب السياسى فى أواخر القرن العشرين قد تغيرت. وهنا يبدأ بظاهرة التزايد غير المتوقع للعنف فى جزيرة كانت إلى وقت قريب آمنة مطمئنة، وهى سريلانكا، التى كانت قبل السبعينيات، قياساً بالمعايير الآسيوية، جزيرة نادرة من حيث التمدن مثل كوستاريكا وأوروغواى (قبل السبعينيات) فى أمريكا اللاتينية، ولكنها باتت اليوم تغرق فى بحر من الدماء. ويرى المؤلف أن سريلانكا إن هى إلا مثال واحد على ما عرفه العنف

السياسى فى أواخر القرن العشرين من تزايد وتحولات. لكنه يرى فى تزايد ظاهرة القتل العشوائى بوصفه صورةً من صور إرهاب الجماعات الصغيرة وما لاقت من تسويغ نظرى مثالاً آخر.

ويرى أن المقالة لا تتسع لتفسير هذه الظواهر، ولكنه يقرر ألا علاقة بين العنف الاجتماعى العام والعنف السياسى، لأن بعض أسوأ العنف السياسى يمكن أن يقع فى بلدان لم تعرف قطُّ أيًا من النوعين، لا العنف السياسى ولا العنف الاجتماعى، كسريلانكا أو أوروغواى. ويرى أن الخطاب الليبرالى أخفق على الدوام فى إدراك أن مجتمعًا لا يمكن أن يقومَ من دون قدر من العنف السياسى، حتى فى الشكل شبه الرمزى للمحتجين أو المظاهرات الحاشدة، وأن ذلك العنف له مراحل وقواعد، كما يعرف كلّ عضو فى المجتمعات التى يشكل فيها جزءًا من نسيج العلاقات الاجتماعية، وكما يحاول الصليب الأحمر الدولى دائبًا أن يذكر ببرابرة القرن العشرين من المحاربين. ويتناول فى هذا الفصل نماذج الإرهاب التى عرفها القرن العشرون، ويركز منها على نموذج «الانتحارى» الذى أرجعه أصلاً إلى عهد الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩، إذ حمل عقيدتَها القوية التى تمثلت فى المذهب الشيعى، وربطها بمفهوم الشهادة، فقد تم توظيف هذا النموذج بادئ الأمر سنة ١٩٨٣ توظيفًا فعالاً ضد الأمريكيين من قبل حزب الله فى لبنان. كما غدت فاعليته واضحة بانتشاره عبر الأصقاع، وصولاً إلى نمور التاميل سنة ١٩٨٧، ثم إلى حماس فى فلسطين سنة ١٩٩٣، ثم بتبنى القاعدة وغيرها من «المتشددين» الإسلاميين فى كشمير والشيشان له بين سنى ١٩٩٨ و٢٠٠٠ كما يلاحظ الكاتب.

الفصل التاسع يناقش قضية هامة، هى قضية النظام العام فى عصر العنف، ويرى أن حفظ النظام العام فى هذا العصر بات أكثر صعوبة باعتراف الحكومات. ويرد ذلك إلى ارتخاء قبضة الدولة القومية، وانتشار الأسلحة الخفيفة، وما شهدته المجتمعات من تحولات اجتماعية قربتها من مشاهد العنف والجريمة. ويختم بأن الإرهاب يتطلب مجهودات خاصة، لكن من المهم ألا نبخع أنفسنا من أجله. فنظريًا، إن بلداً لم يفقد أعصابه خلال ثلاثين سنة من المشاكل الأيرلندية عليه ألا يفقدها الآن. أما عمليًا، فإن الخطر الحقيقى للإرهاب لا يكمن فيما تمثله ثُلَل مجهولة الهوية من المتطرفين من خطر، ولكن فيما تثيره أعمالهم من خوف غير معقول، تشجعه اليوم وسائل الإعلام والحكومات على السواء. هذا واحد من الأخطار الكبرى التى نعيشها فى هذا الزمان، هو بلا ريب أكبر من المجموعات الإرهابية الصغيرة نفسها.

أما الفصل العاشر والأخير فيخصصه هوبزباوم للحديث عن الإمبراطورية الأمريكية التى يرى أنها لا تنفك آخذة فى التوسع، وأنها تختلف عن سابقتها البريطانية من نواح عدة، أولها أن الولايات المتحدة بلد هائل يقطنه أحد أكبر الشعوب فى العالم، ولا يزال عدد سكانه فى ازدياد مطرد، خلافًا للاتحاد الأوروبى، نظراً لما تتدفق عليه من هجرة تكاد تكون غير محدودة. ويرى أن هناك فروقًا فى الأسلوب أيضًا، فالإمبراطورية البريطانية فى أوج عظمتها احتلت ربع وجه المعمورة وقامت بإدارته. أما الولايات المتحدة فلم تمارس الاستعمار إلا فترة وجيزة خلال الموضة الدولية للاستعمار الإمبريالى فى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

لقد عملت الولايات المتحدة عوضًا عن ذلك مع الدول التابعة لها والتى تدور فى فلكها، ولاسيما فى الفضاء الغربى حيث لم يكن لها منافسون. وخلافًا لبريطانيا، فقد ابتدعت أمريكا سياسة للتدخل المسلح فى هذه الدول خلال القرن العشرين. يفسر الكاتب بعد ذلك السياسة التى تسلكها واشنطن، ويرى أنها تبدو لجميع المراقبين من الخارج من الجنون بحيث يصعب فهم المقصود بها. لكن من الواضح أن ما فى عقول النخبة التى تتحكم الآن فى صنع القرار، أو على الأقل بيدها نصف صنع القرار فى واشنطن هو جعل الشعب يؤمن بفكرة التفوق العالمى عبر القوة العسكرية. وهدفها من وراء ذلك لا يزال يكتنفه الغموض.

يختم الكاتب هنا بالسؤال: هل سيكتب لهذه القوة «الجديدة» النجاح؟ لكن يبدو أن العالم من جهة نظر المؤرخ البريطانى من التعقيد اليوم بحيث لا يتأتى لأية دولة مفردة فرض سيطرتها عليه. ويرى أنه إذا ما استثنينا ما تملكه الولايات المتحدة من تفوق عسكرى فى الآلة الحربية عالية التقنية، فإنَ ما تعتمد عليه من أصول آخذ فى التآكل، أو مآله إلى التآكل والاضمحلال. فاقتصادها رغم حجمه الكبير، يشكل نصيبًا آخذا فى التقلص من الاقتصاد العالمى. كما أنها باتت مكشوفة على المدى القصير وعلى المدى الطويل معًا. ■

كتاب الزاوية

قصيدة اعتذار لأبى تمام
نزار قبانى

(٣)

إِذَا كُنَّا تَلاقَيـنَا

لِكَىْ نَتَبَادَلَ الأَنْخَابَ ، أو نَسْكَرْ ..

وَنَستَلقِى عَلَى تَختٍ مِنَ الرَّيحانِ وَالْعَنبَرْ

إِذَا كُنَّا نَظنُّ الشِّعرَ رَاقِصَةً .. مَعَ الأَفرَاحِ تُستَأْجَرْ

وَنَتلُوهُ كَمَا نَتلُو كَلاَمَ الزِّيرِ أَوْ عَنْتَرْ

إِذَا كَانَتْ هُمُومُ الشِّعرِ يَا سَادَة

هِىَ التَّرفيهُ عَنْ مَعشُوقَةِ الْقَيصَرْ

وَرِشْوَةُ كُلِّ مَنْ فِى القَصرِ مِنْ حَرَسٍ .. وَمِنْ عَسكَرْ ..

إِذَا كُنَّا سَنَسرِقُ خُطْبَةَ الْحَجَّاجِ : والحجاجَ .. وَالمِنبَرْ..

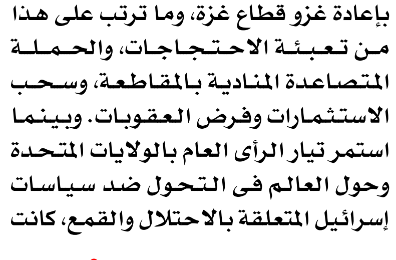
وَنَذبَحُ بَعضَنَا بَعضاً لِنَعرِفَ مَنْ بِنَا أَشعَرْ ..

فَأَكْبَرُ شَاعِرٍ فِينَا هُوَ الْخَنجَرْ..

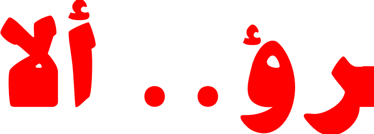
ديڤيد غولدبرغ ثيو ـ سارى مقدسى
David Theo Goldberg and Saree Makdisi

هــــــل تجـــــــرؤ.. ألا

■■ يظل الصراع الإسرائيلى- الفلسطينى أحد أبرز القضايا السياسية المطروحة فى الجامعات فى مختلف أنحاء الولايات المتحدة الأميركية. فهناك مخاوف متزايدة إزاء الاحتلال الإسرائيلى المستمر للأراضى الفلسطينية (منذ يونيو/حزيران ١٩٦٧، ودخل الآن عقده الخامس)، فضلاً عن الموقف الحرج الذى تواجهه الأقلية الفلسطينية المحاصرة فى إسرائيل. تم التصدى لهذه المخاوف بمحاولات صارخة تصل إلى حد المحاولات الغاضبة لإسكات أو إخماد النقد الموجه إلى السياسة الإسرائيلية فى الجامعات الأميركية.



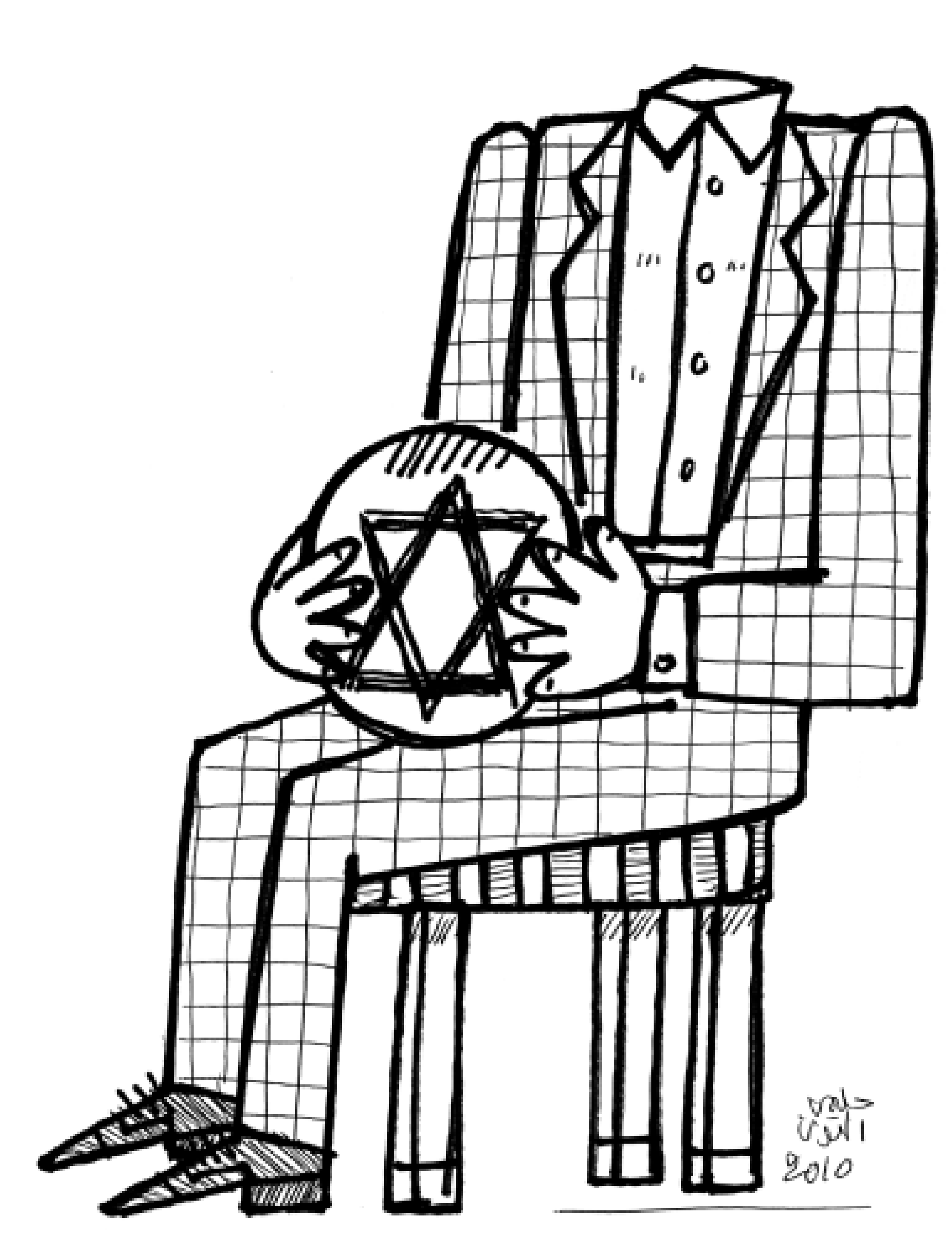
زاد التوتر بصفة خاصة فى أعقاب قيام إسرائيل فى يناير/كانون الثانى ٢٠٠٩ بإعادة غزو قطاع غزة، وما ترتب على هذا من تعبئة الاحتجاجات، والحملة المتصاعدة المنادية بالمقاطعة، وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات. وبينما استمر تيار الرأى العام بالولايات المتحدة وحول العالم فى التحول ضد سياسات إسرائيل المتعلقة بالاحتلال والقمع، كانت



الردود على الانتقادات الموجهة للسياسة الإسرائيلية فى الحرم الجامعى الأميركى تزداد بشاعة. وتلعب منظمات من خارج الحرم الجامعى ـ وكثير منها مرتبطة باللوبى الإسرائيلى فى واشنطن- دوراً متنامياً فى الجدل الدائر داخل الحرم الجامعى. نتيجة لذلك، أصبحت أنشطة الحرم الجامعى مرتبطة مباشرة بالسياسة القومية، وأصبحت أكثر إثارة للجدل، وأكثر مرارة بما لا يُقاس. ومن المرجح أن يستمر هذا الموقف فى التفاقم حيث تشهد صورة إسرائيل تدهورا مستمرا، ويتزايد قلق المدافعين عنها ولجوؤهم لاتخاذ تدابير يائسة، لم يسبق لها مثيل لتغيير مجريات الأمور.

من الحقائق المذهلة أن ما لا يقل عن ثلاث وثلاثين منظمة (صهيونية) أميركية مختلفة، بما فى ذلك المنظمة المسماة «لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية» والمُسماّة اختصاراً (إيباك)، والمؤتمر اليهودى الأمريكى، والصندوق القومى اليهودى، تجتمع اليوم سوياً كأعضاء أو منظمات تابعة لتحالف إسرائيل فى الحرم الجامعى. يشكّل التحالف كياناً له قوة ساحقة فى حرم الجامعات الأميركية؛ وببساطة، لا يوجد ما يكافئه فى الجانب الفلسطينى أو العربى.

المهمة التى أعلنها التحالف لنفسه ليست مجرد رصد الكليات والجامعات (الأمريكية). فهذه هى مهمة برنامج رصد الحرم الجامعى، الذى أطلقه الناشطون



بترتيب خاص مع:
Tikkun

ترجمة: مازن النجار

الموالون لإسرائيل فى عام ٢٠٠٢. بل إن مهمتهم، بالأحرى وبتعبيرهم، هى إنشاء «جدول أعمال مترقب، ومؤيد لإسرائيل فى الحرم الجامعى».

هناك، بالتالى، تدخل غير متناسب وغير متوازن فى الجامعات بجميع أنحاء البلاد على يد تحالف يتشكل من منظمات تحظى بتمويل جيد، ليس لديها الوقت ولا حتى الاهتمام، بجماليات التبادل الفكرى والعملية الأكاديمية.

أصبح الغمز واللمز والاتهام والتشهير هى الأسلحة التى يلجأون إليها أولاً للرد على المناقشات والانتقادات التى توجه إلى السياسات الإسرائيلية. ومن وجهة نظر جماعات الضغط الخارجى هذه، (وممثليهم فى الحرم الجامعى)، فإن الثمن الفكرى والأكاديمى الذى يدفعه المجتمع الدراسى نتيجة لهذا النوع من التدخل يتجاوز قليلاً مجرد كونه أضراراً جانبية.

زاد قلقنا بشأن السبل التى يتم بها مواجهة الأكاديميين المعارضين للسياسة جانب أولئك الذين يدافعون عن الدعم الثابت لإسرائيل فى الزج بالبرامج الأكاديمية أو الجامعات الأمريكية واحدة تلو الأخرى فى أزمات. جامعة كاليفورنيا أحدث حلقة فى سلسلة هذه الجامعات، بعد ما حدث بجامعة كولومبيا، وكلية برنرد، وجامعة ييل، وجامعة وين بمشيغن، وجامعة ديبول.

ضجة مفتعلة بجامعة كاليفورنيا لـــوس أنجـيـــلـيـــس (UCLA)

على مدى عدة أسابيع من ربيع ٢٠٠٩، واجهت جامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس ضغوطا كبيرة، على مركز دراسات الشرق الأدنى بها بشكل خاص. فى حين وصلت الأزمة إلى ذروتها، تنبأ ستانلى كيرتز، فى مقالة نشرتها ناشيونال ريفيو أونلاين أن يكون مركز الدراسات بجامعة كاليفورنيا فى الطريق إلى اعتباره اليوم بعبع غزة»، تتناول الوضع فى غزة فى سياق حقوق الإنسان والقانون الإنسانى الدولى. حضر أحدنا بصفته أحد الحضور، والآخر تحدث فى حلقة النقاش، جنبا إلى جنب مع الأساتذة ريتشارد فولك، ليزا حجار، جابرييل بتربرغ، وسوزان سليموفتش (بصفتها رئيسا لحلقة النقاش). كل واحد من المشاركين فى حلقة النقاش نشر الكثير من المقالات حول الموضوع، وطبعا ريتشارد فولك هو المقرر الخاص للأمم المتحدة لحقوق الإنسان فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، وبالتالى يعد حجة عالمية فى هذا الشأن.

لم تكن حلقة النقاش سوى واحدة من ثلاثة أحداث حول غزة وقعت فى جامعة كاليفورنيا فى الوقت نفسه تقريبا. الحدثان الآخران، اللذان تما تحت رعاية برنامج الدراسات الإسرائيلية فى جامعة كاليفورنيا، كانا يهدفان بصراحة إلى نقل وجهات النظر الإسرائيلية إلى الحرم الجامعى - بما فى ذلك وجهة نظر القنصل الإسرائيلى فى لوس أنجيليس- الاستهزاء من قبل الموالين لإسرائيل مرة واحدة فقط ولفترة وجيزة. كانت فترة الأسئلة والمناقشة أكثر سخونة وإثارة للجدل. إلا أنها لم تتسم بعدم التمدن، باستثناء عضو فى حزب العمال الاشتراكى، أصرت على تلاوة كلمتها بصوت عال، ورفضت التوقف حتى عندما طلب منها هذا رئيس حلقة النقاش، وكذلك فعل اثنان من مؤيدى إسرائيل عندما انفعلا فى الكلام. أثار هذا أحد أعضاء حلقة النقاش فأصدر استجابة مفارق أسيئ تأويلها إزاء تعليق - صدر من أحد الحضور- حول الطبيعة الإجرامية لدى كل العرب (والذى قدم اعتذارا عنه عضو حلقة النقاش وليس من قاله من الحضور).

والآن إذا قرأت توصيفات هذا الحدث (حلقة النقاش) التى نشرت فى وسائل إعلامية مختلفة- من الجريدة اليهودية بلوس أنجيليس إلى ناشيونال ريفيو، وصحيفة وول ستريت جورنال، ولوس أنجيليس تايمز- فستكون لك وجهة نظر مختلفة تماماً للأمور. لقد وردت أوصاف

تكـــــون إســـرائيليا!!

الإسرائيلية من تشويه يتسم بالعجرفة والخبث، غالبًا من خلال شن هجمات على شخصياتهم، وسمعتهم، وحياتهم المهنية. كما أننا قلقون أيضًا بشأن الطرق التى تتعرض بها البرامج الأكاديمية -خاصة برامج دراسات الشرق الأوسط فى الجامعات الكبرى- للهجوم من معاقل التطرف غير المسؤول والنشاط المضاد للقيم الأمريكية.

ويزداد قلقنا هذا بصفة خاصة فى ضوء الضغوط الخارجية التى تُمارس على الإدارات الجامعية، ويبدو أن بعضها قد يسفر عن الابتزاز، رغم محاولة تحقيق «التوازن» بين المناداة بالمسئولية الأكاديمية والالتزام تجاه الحرية الأكاديمية.

ويبدو أن بعض كبار الموظفين الإداريين فى الجامعات على استعداد لقبول مغالطات وافتراءات الأنصار المتحمسين لإسرائيل باعتبارها حقائق لا تقبل الجدل، ويفعلون ذلك بناء على مجرد توكيدات متشددة لأولئك الذين تصدر عنهم هذه المزاعم. يحدث هذا الموقف الغريب باسم «التوازن»، وهى فكرة لدينا الكثير مما سنقوله عنها لاحقاً.

بطبيعة الحال، هذه التطورات ليست جديدة تماماً، بوصفها تهديداً خطيراً كما يشهد بها عدد من المهن الأكاديمية والبرامج المؤسسية فى السنوات الأخيرة، خاصة فى دراسات الشرق الأوسط. فالأكاديميون الذين تعد أعمالهم نقداً للسياسات الإسرائيلية، كانوا يحرمون من فرص العمل، والتثبيت والترقيات (أو واجهوا تهديدا لفرصهم فى التثبيت والترقيات)، وبصفة عامة كانت حياتهم معرضة للصعوبات. لم يكن هذا بسبب المعايير الأكاديمية، وإنما بسبب التدخل السياسى من قوى خارج النطاق الأكاديمى. تسبب التدخل السياسى الخارجى من (شيطان) المجتمع الأكاديمى، تماماً كما كان برنامج دراسات الشرق الأوسط فى جامعة كولومبيا بالنسبة لأنصار إسرائيل المتشددين منذ بضع سنوات. وكيرتز هو ثالث ثلاثة من غير الأكاديميين (مارتن كريمر ودانيال بايبس يحيطان الجماعة، ويمثل ديفيد هورويتز نوعاً من المتنسبين) الذين طالما وبخوا الأكاديميين مراراً وتكراراً لانتقاداتهم السياسة الإسرائيلية.

من الأهمية بمكان أن نلاحظ أن تنبؤات كيرتز كانت تدفعها حسابات مزيفة تماماً لحدث تم تحت رعاية مركز جامعة كاليفورنيا فى وقت سابق من ٢٠٠٩، بالاعتداءات المستمرة على أعضاء هيئة التدريس الذين صرحوا بانتقادهم للسياسة الإسرائيلية، وبتصويرهم بأوصاف مضللة القصد منها -على الأقل- دفع الآخرين إلى إعادة التفكير قبل إصدار تصريحات مماثلة.

فى يناير/كانون الثانى ٢٠٠٩، استضاف مركز دراسات الشرق الأدنى فى جامعة كاليفورنيا (لوس أنجيليس) حلقة نقاش فى الجامعة بعنوان «حقوق الإنسان وقطاع ولتبرير قصف غزة. بينما حلقة النقاش التى تمت بعنوان «حقوق الإنسان وقطاع غزة»، على النقيض من ذلك، لم تكن مصممة لتقديم وجهة نظر فلسطينية (والواقع أن ثلاثة من المشاركين الخمسة كانوا يهوداً، وأحدهم إسرائيلى)، وإنما كان الغرض منها هو استعادة نوع من التوازن الفكرى والسياق التاريخى، عن طريق توفير مساحة - فى سياق أكاديمى- يمكن فيها للأكاديميين المخضرمين معالجة المخاوف المتنامية (فى الحرم الجامعى، وعلى نطاق أوسع أيضًا) حول حقوق الإنسان للسكان الذين يتعرضون لهجوم مدمر من الجيش الإسرائيلى. وربما يفسر اهتمام حلقة النقاش بانتهاكات حقوق الإنسان والقانون الإنسانى الدولى، السبب وراء عدم إضافة أى من المؤيدين لتلك الانتهاكات إلى حلقة النقاش (على الرغم من كل شىء، فإن المدافعين عن الانتهاكات القانونية وانتهاكات حقوق الإنسان ليسوا دائما على استعداد للتفاعل والمواجهة).

كانت كلمات المتحدثين الأربعة عادية إلى حد كبير، وقاطعتها صيحات متكررة لهذا الحدث بقلم أولئك الذين يعترفون بأنهم لم يحضروا وقائعه، حيث وصفوه بأنها كانت أقرب إلى «مسيرة سياسية فى إحدى الحانات»، وحشد من الغوغاء المعادين للسامية، بل وذهبوا إلى أبعد من ذلك -فى الوقت الذى انضم فيه إليهم ستانلى كيرتز- حيث وجه الاتهام إلى حلقة النقاش، بأنهم على ما يبدو يعملون نيابة عن حماس، وبأنهم قادوا الحشود المسعورة لإصدار هتافات «اللعنة على إسرائيل» و«الصهيونية هى النازية».

حقائق واضحة: ما حدث فعلا بجامعة كاليفورنيا.

كان كلانا حاضراً بجميع فعاليات الحدث بأكمله، استمعنا فى أعقاب هذه الاتهامات السخيفة إلى تسجيلات صوتية «بودكاست» podcasts للمحادثات وهى متاحة للجمهور، وتحققنا مع الحضور الآخرين. ولم يكن هناك ما هو أبعد عن الحقيقة مما نشر فى وسائل الإعلام تلك.

وكان خير دليل على رقى تلك الأمسية واضحا من ظهور أحد رجال شرطة الحرم الجامعى بجانب المنصة، عندما بدأت حرارة المناقشة تزداد قليلاً. كان حضوره فيما يبدو لتهدئة الأجواء، وتبادل الابتسامات والتحيات مع بعض أفراد الجمهور. فى حين كان هناك تصفيق عند عدة وقفات، وضحكات عند وقفات أخرى- مما يختلف كثيراً عن معظم حلقات النقاش الأكاديمية- ولكن لم يكن هناك أبدا فى أى وقت من الأوقات أى هتافات أو إساءات يرددها الجمهور أو أحد المشاركين فى الحلقة تجاه إسرائيل أو تجاه أى دولة أخرى (لم يشهد أى منا، أو أى شخص ممن تحدثنا إليهم مثل هذه المواقف. لم يدع أى من المشاركين الجمهور أو يقودهم نحو ترديد هتافات أو تأنيب جماعى ضد إسرائيل.



أصبـــح الغمـــز واللمـــز والاتهـام والتشــــهير هـــى الأســـلحة التـى يـلجـأون إلـيـهـا أولاً لـلـرد عـلـى المـنـاقـشـات والانتقـــادات التـــى توجـــه إلـــى الســـياســـات الإســـرائيلية



هـل تجـرؤ ألا تـكـون إسـرائـيـلـيـا!!

فى الواقع، التعبير الأكثر بعثًا على الضيق فى الأمسية تكرر مرارًا وتكرارًا عند المنصة الأمامية بعد أن انتهت فعاليات الحدث، من قِبَل إسرائيلية مستَفَزّة ومعروفة فى جامعة كاليفورنيا (ليست طالبة ولاعضوا فى هيئة التدريس) والتى كانت انخرطت من قبل فى شجار مع حاخام الحرم الجامعى فى جامعة كاليفورنيا (من بين كل الناس)، كانت تسير صعودًا وهبوطًا، وتصدر أصواتا متوعدة لأحد المتحدثين فى حلقة النقاش منادية إياه باسمه الأول، وتصرّ فى لهجة يشوبها الذم على أنه يجب أن يشعر بالخجل من نفسه.

كيف، إذن تمكنت الإشاعات، والمبالغات، والافتراءات المحضة من أن تحل محل السرد الصحيح المتين لهذا الحدث (حلقة النقاش) على أساس الوقائع الفعلية؟ هناك سردان لوقائع حلقة النقاش نشرا بعد وقت قصير من عقدها.

كان السرد الأول بقلم صحفى محترف يكتب لحساب صحيفة «جامعة كاليفورنيا اليوم» UCLA Today، وهى صحيفة الحرم الجامعى. وصفت الصحيفة المنتدى بأنه «حدث جيد شهد حضوراً جيداً من الجمهور» وتابع ذلك بتلخيص المناقشات الرئيسة للمساهمات. لم تأت الصحيفة على ذكر صيحات الاستهزاء، أوالهتافات، أو غيرها من السلوكيات غير المرغوب فيها (لأنه لم يوجد أى منها). من الجدير بالملاحظة أنه فى كل المناقشات حول حلقة النقاش التى تمت فى وقت لاحق، هناك، على حد علمنا، كانت هناك وصلتان فقط لهذه المقالة على شبكة الإنترنت بأكملها.

كيف تجتذب الإنترنت

التخيلات الخبيثة

التقرير الثانى أو المقالة الثانية والتى انتشرت على نطاق واسع عن طريق قوة إغراء الإنترنت كتبتها مديرة التعليم والأبحاث لمنظمة قف معنا «Stand With Us» (إحدى المنظمات الأكثر صخبًا فى تحالف إسرائيل بالحرم الجامعى)، والتى تعرّف نفسها أحيانا بوصفها عضوا فى هيئة التدريس فى فرع جامعة كاليفورنيا بمدينة إرفاين (وهى فى الحقيقة ليست كذلك). تحت عنوان «إحياء حانات ميونخ بالعشرينيات فى جامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس» قدمت وصفاً مضطرباً ومشتتًا للمناقشات ومخففاً فى النقل الدقيق لأى مما قيل بالفعل (وهو ما يمكن التحقق منه بسهولة عن طريق مقارنة مقالها بالتسجيلات الصوتية بودكاست للمناقشات على موقع: www.international.ucla.edu/cnes/podcasts).

كما أنها أضافت أيضاً بأريحية تأكيدات ومبالغات - لا يوجد ولا يمكن أن يوجد ما يؤيدها- إلى الخلطة السابقة (على سبيل المثال، قالت إن هذا الحدث بمثابة «شنق أكاديمى لإسرائيل بدون محاكمة» زاعمة أن المتحدثين «أعربوا عن أملهم فى أن تخسر إسرائيل أمام حماس» وشبهت الكلمات التى ألقاها أربعة أكاديميين مميزين نشرت لهم الكثير من الأبحاث بهياج الحشود المعادية للسامية فى حانات ميونخ بالعشرينيات»).

استمرت هذه التأكيدات التى لا أساس لها (وهو ما يؤكده مجرد الاستماع السريع للتسجيلات الصوتية للندوة) فى وضع الإطار واللون للطريقة التى تم بها تقديم الحدث ووصفه، فى جميع المناقشات اللاحقة تقريبًا. لم تكتف المناقشات اللاحقة بالاعتماد على هذه المقالة وحدها، وإنما لم تشر أى منها إلى مصدرها أو الشهادة غير الموثوقة بطبيعتها للكاتبة، أو الفجوة بين المقالة والمناقشات الفعلية كما وردت فى التسجيلات الصوتية الحية المتاحة فى متناول الجميع. وبالتالى، فإن المناقشات اللاحقة التى كتبها، ولا مناص من تكرار هذه الحقيقة، أناس يُقرّون بأنهم لم يحضروا هذا الحدث فى الواقع، تمت وفقاً للنمط المستخدم فى لعبة الأطفال «الهاتف»؛ حيث تنتقل رسالة من طفل إلى آخر حتى تنتهى إلى أن تحمل شبهًا عابرًا بالكلام الأصلى بعد أن تنتقل عبر أنحاء الغرفة. الفارق فقط فى هذه الحالة أن التدهور (التحريف) لا يقتصر فقط على الرسالة الأصلية (وهى خاطئة فى حد ذاتها، نظرا لمصدرها)، ولكن طبقات أخرى من المبالغة والغلو تضاف إليها مع كل خطوة انتقال.

معلومات بيرل المضللة

جوديا بيرل، أستاذ علوم الحاسوب بجامعة كاليفورنيا وأحد أشد المدافعين عن إسرائيل حماساً بلوس أنجيليس، ساعد على زيادة تحريفات هذا الحدث. بدأ بيرل بالكتابة عن حلقة النقاش حول غزة: أولاً فى صحيفة وول ستريت جورنال The Wall Street Journal (فى الثالث من فبراير/ شباط ٢٠٠٩)، ثم فى مقال آخر بالجريدة اليهودية The Jewish Journal بلوس أنجيليس (شباط/ فبراير ١٨، ٢٠٠٩)، ثم فى مقال آخر فى صحيفة لوس أنجيليس تايمزLos Angeles Times . فى أول مقال أكد بيرل بدون أدلة أو مبررات أن هذا الحدث (حلقة النقاش) كان فى الأساس «تجمعاً مجنداً من قبل حماس» والهدف منه بالنسبة إلى حماس، (كما يمكن أن يوحى للقارئ) هو السعى إلى «غزو عقول الغربيين». بحلول وقت نشر المقالة فى الجريدة اليهودية، كان بيرل قام بالمزيد من التنميق لروايته، مضيفاً ادعاء وهمياً تماماً قائلاً إن المشاركين فى حلقة النقاش قادوا جمهوراً متحمساً فى ترديد هتافات «الصهيونية هى النازية» و«اللعنة على إسرائيل».

على كل حال، فإن الأكثر إثارة للاهتمام فى روايات بيرل العديدة لهذا الحدث ليس فى طبيعتها المغرقة فى المغالاة، وإنما فى حقيقة أنه لم يكن حاضراً فى هذا الحدث الذى وصفه بمثل هذه الكلمات الفظيعة فى ثلاثة مقالات منشورة مختلفة. مصدر معلوماته (كما يعترف فى واحدة فقط من مقالاته، وليس فى المقالتين الأخريين) هو مقالة مديرة التعليم والأبحاث لمنظمة «قف معنا». فى وقت لاحق، ومشيراً إلى التداول السلس لهذه السلسلة من المقالات التى تنأى بنفسها عن الحقيقة، أشار كاتب آخر فى الجريدة اليهودية (توم توجند، نشرت فى ٢٥ فبراير/ شباط ٢٠٠٩) إلى الحدث على أنه «الندوة الأسوأ سمعة فى جامعة كاليفورنيا حتى الآن». وهو ما يعد محاولة لتلطيخ السمعة بتلفيقات ذاتية المصدر!

تحريفات وافتراءات رواية بيرل، والمبنية فى حد ذاتها على الأساس الهش للتحريفات والافتراءات التى وردت فى مقالة مديرة التعليم والأبحاث لمنظمة «قف معنا» كررها آخرون إلى حد الغثيان على أنها حقيقة مجردة. على سبيل المثال، على الرغم من أنه أمر غير عادى تماماً، إن لم يكن أمراً لم يحدث أصلا من قبل- لرئيس الجامعة أن ينتقد أعضاء هيئة التدريس لديه للتعبير عن آرائهم فى سياق أكاديمى، من خلال تعليقات على الملأ فى معبد يهودى بمدينة لوس أنجيليس؛ فقد فعل مارك يودوف رئيس جامعة كاليفورنيا ذلك بحذافيره، مؤنبًا الأكاديميين المشاركين فى حلقة النقاش بمركز دراسات الشرق الأدنى، وفقا لما علم به من تحريفات بيرل لهذا الحدث. كذلك جاء دليل ستانلى كيرتز الرئيس على وصفه لحلقة النقاش فى مقاله فى ناشيونال ريفيو أونلاين National Review Online من بيرل. باختصار، أصبحت الافتراءات هى المصدر العام المعتمد، أو «الحقيقة» فى هذه المسألة.

وتيرة أوسع نطاقًا: كلية بارنارد بجامعة كاليفورنيا. سانتا بارْبَرَة.

يتبع هذا «المنطق» الأوسع نطاقًا أيضاً يتبع نمطا مثيراً للقلق. فى حملة (بدأها مجموعة من الخريجين الغاضبين المقيمين بمستوطنة يهودية فى الضفة الغربية) ضد تثبيت أستاذة بمنصب جامعى دائم بكلية بارنارد قبل عامين، وجهت اتهامات إلى الأستاذة الجامعية نادية أبو الحاج بالممارسات العلمية الرديئة من قبل أولئك الذين لم يقرأوا عملها. ووجهت إليها زوراً تهمة الكتابة عن الآثار الإسرائيلية دون أن تعرف اللغة العبرية، وتزييف تاريخ علم الآثار لإرساء حجة عن المطالبة التاريخية للفلسطينيين بالأراضى المقدسة (فى حين أنها لم تفعل شيئًا من هذا القبيل).

وكانت تحريفات مشابهة قد زُعمت فيما يتعلق بالممارسات العلمية لغيرها من المنتقدين للسياسات والإجراءات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين، وكانت أيضاً تقوم على أساس أدلة كاذبة أو مضللة، أو غير موجودة، أو محض تخيلات. الافتراءات العامة حول الأحداث الأخرى، بما فيها رسائل الشكوى إلى العمداء، وبعضها فى إحدى الكليات التابعة لجامعة



كان خير دليل على رقى تلك الأمسية واضحا من ظهور أحد رجال شرطة الحرم الجامعى بجانب المنصة، عندما بدأت حرارة المناقشة تزداد قليلاً





هل تجرؤ ألا تكون إسرائيليا!!

كاليفورنيا، نسبت عبارات كاذبة، ومؤذية، ومنحطة اللغة إلى أفواه المنتقدين للسياسة الإسرائيلية؛ مغيرة الحجج والنوايا إلى ما هو محرف تماما، وأحيانا مشوه، فى حين رفضت تلك الافتراضات إجراء مناقشة بأى شكل من الأشكال، حول مضمون الانتقادات التى تم توجيهها. تعرض كلانا مراراً وتكراراً -مثل القائمة المتزايدة من الآخرين- لتلقى نفس «المعاملة».

تضمنت أحدث حلقات هذا النوع من التحريف البروفيسور وليام (بيل) روبنسُن، الأستاذ بقسم علم الاجتماع بجامعة كاليفورنيا فى سانتا باربرة. خلال القصف الإسرائيلى لقطاع غزة فى يناير/كانون الثانى ٢٠٠٩، أحال روبنسن إلى فصله الدراسى مواد عن «العولمة والسياسة» تعقد مقارنات بين الهجوم النازى فى غيتو (حى اليهود) وارسو وبين الهجوم الإسرائيلى على قطاع غزة. قام اثنان من الطلبة اليهود فى الفصل، بعد تحدثهما فيما يبدو مع رابطة مكافحة التشهير (ADL)، بتقديم شكوى ضد روبنسن «لانتهاكه أخلاقيات السلوك لأعضاء هيئة التدريس» وتوقفا عن حضور هذه المادة الدراسية. تبين أن أبراهام فوكسمان، مدير رابطة مكافحة التشهير، التقى (تحت ذرائع مضللة) مع كبار مسؤولى جامعة كاليفورنيا فى سانتا باربرة، وبدأ الضغط عليهم للتحقيق وتوجيه اللوم إلى روبنسن. كما هدد فوكسمان على ما يبدو بتشجيع المتبرعين اليهود للجامعة بسحب دعمهم المالى إلا إذا تمت معاقبة روبنسُن. كذلك فعلت منظمة «قف معنا» وبنفس الطريقة التى لعبت بها دوراً مؤذياً فى حادثة جامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس، أصبحت تشارك بنشاط، وتنظم حملة ضخمة لكتابة رسائل الاحتجاج، وتهدد بممارسة الضغط لقطع التبرعات عن الجامعة.

الجانب الأكثر إثارة للقلق إزاء هذه القضية ليس توجيه رابطة مكافحة التشهير هذا الاتهام أو فى انضمام منظمة «قف معنا» بحماسة إلى المعركة الدائرة؛ بل يكمن فى أن إدارة جامعة كاليفورنيا بسانتا باربرة أخذت هذا الاتهام على محمل الجد، ويبدو أنها استسلمت لضغوط سياسية خارجية لإجراء تحقيق مع روبنسن، بحسب (http://sb4af.wordpress.com). تزايدت الأدلة على انتهاكات عديدة ضمن إجراءات الجامعة فى عملية التحقيق. وشملت الإجراءات - مما يُعد بحد ذاته الأكثر إثارة للقلق- قيام أعضاء رئيسيين فى اللجنة (معروف أنهم من مؤيدى السياسة الإسرائيلية) بمناقشة الحالة على انفراد مع فوكسمان الذى -كما يجب أن نؤكد- لا شأن له على الإطلاق بالمشاركة فى التحقيقات.

وعلى ما يبدو، تقدم التحقيق بسرعة فى مواجهة الانتقادات المتصاعدة من أعضاء هيئة التدريس والطلاب، والانتقادات الخارجية لانتهاكات الجامعة للحرية الأكاديمية، ولسياساتها فى إجراء التحقيق. بيد أنه فى منتصف يونيو/حزيران ٢٠٠٩، بعد ستة أشهر من بدء القضية، تلقى البروفيسور روبنسن إشعارا بإسقاط جميع الاتهامات الموجهة إليه. لم يتم ذكر أى سبب لهذا، ولكن لا شك فى أن التعبئة الملحوظة من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس ضد التحقيق لعبت دوراً رئيساً فى ذلك، وبلغت ذروتها بتصويت مجلس (الشيوخ) الأكاديمى لجامعة كاليفورنيا بسانتا باربرة بالإجماع على إرجاء تحقيق فى سوء تناول إدارة الجامعة ذاتها للقضية برمتها.

التأثيرات السياسية:

قضية تشارلز فريمان

ربما لأن العديد من المنظمات نفسها، مثل رابطة مكافحة التشهير، تشارك فى كلتا القضيتين (عن طريق تحالف إسرائيل فى الحرم الجامعى)، تداخل الوضع فى المجتمع الأكاديمى الآن مع الوضع خارجه، وفى عالم السياسة الملموس والواقعى المتمركز حول واشنطن.

على سبيل المثال، فى الخطاب الأخير للسفير تشارلز فريمان، والذى أوضح فيه انسحابه المفاجئ (من ترشيح الرئيس باراك أوباما) لرئاسة مجلس الاستخبارات القومى، قال: «من الواضح أننا الأمريكيين لم يعد بإمكاننا إجراء مناقشة عامة جادة أو ممارسة الحكم المستقل حول ما يتعلق بمسائل على درجة كبيرة من الأهمية لبلادنا، وكذلك لحلفائنا وأصدقائنا». وفى رسالة نشرت يوم العاشر من مارس/آذار ٢٠٠٩ على موقع «فورين بوليسى»، أنحى فريمان باللوم فى هذه القضية، وفى انسحابه من الحياة العامة وسط دوامة من ادعاءات وتحريفات وافتراءات لا أساس لها، على العناصر المهيمنة داخل اللوبى الإسرائيلى فى واشنطن:

«تهبط تكتيكات اللوبى الإسرائيلى إلى مستويات متدنية من العار والبذاءات تشمل تشويه السمعة، واستشهادات انتقائية مغلوطة، وتحريف متعمد للسرد، وتلفيق أكاذيب، وتجاهل تام للحقيقة. هدف هذا اللوبى هو السيطرة على العملية السياسية من خلال ممارسة حق الاعتراض على تعيين الأشخاص الذين لا يجدون حكمة فى وجهات نظر اللوبى، واستبدال الصواب السياسى بالتحليل، واستبعاد أى من خيارات اتخاذ القرار لدينا كأمريكيين ولدى حكومتنا فيما عدا تلك القرارات التى يفضلها اللوبى.

يجب علينا جميعا أن نشعر بالفزع من أن يكون ما يحدث فى الأوساط الأكاديمية اليوم هو امتداد لما يحدث فى مجلسى النواب والشيوخ الأمريكيين وفى أروقة السلطة الحقيقية. يكمن الأمر الهام فعلاً فى عملية توصيف وتَمَثُّل القضايا، التى تشكل الذاكرة والتصورات، ويمكن الجدل بأنها تشكل -على المدى الطويل ووفقاً لأى تقدير- عملية تكوين السياسات نفسها. لقد استخدمت كثير من التكتيكات ذاتها فى كلا الوضعين؛ وهما يشتركان فى هدف احتكار الشرعية عن طريق تشويه كافة الانتقادات والتشكيك فيها باعتبارها غير مشروعة وشريرة بطبيعتها»».

اللوبى الإسرائيلى الأكثر سطوة:

تكتيكات شائنة وتجنب النقاش

تجدر الإشارة إلى أن أولئك الذين يلجأون إلى إطلاق العنان لأنواع من الاتهامات التى لا أساس لها، والمتمثلة بهجمات على حلقة النقاش بجامعة كاليفورنيا عن غزة أو فى قضية البروفيسور روبنسُن فى جامعة كاليفورنيا بسانتا بربارة، نادراً ما يشاركون بالفعل فى مناقشات مع منتقدى إسرائيل. وقلّما قدموا حججاً مضادة، كما أنهم لم يفكروا أبداً فى ضرورة تقديم أدلة مضادة. يمكن التنبؤ بصياغة الرد لديهم، حيث يأخذ شكلاً مألوفاً من التأكيدات المستهلكة التى لا مناص من ترديدها معاً ودفعة واحدة، دون أى إشارة إلى ما قيل بالفعل؛ وما جرى تقديمه من أدلة؛ والأسباب والحجج والحقائق والأرقام والاستشهادات التى يتم جمعها معاً.

بالتالى، فإن أى انتقاد لإسرائيل والصهيونية يعامل على أنه انتقاد لليهود (حتى لو كان الذين يوجهونه يهوداً حيث سيعتبرون حينها مصابين بكراهية الذات)، ومن ثم توجه اتهامات معادية للسامية أو ما هو أسوأ، مثلما أكد جوديا بيرل فى مقالته بصحيفة لوس أنجيليس تايمز فى ١٥ مارس/آذار ٢٠٠٩. كل ما تفعله إسرائيل هو مجرد حماية أمن شعبها؛ أى دولة تقع تحت هجوم صاروخى من شأنها أن تفعل الشىء نفسه. حماس - مثل حزب الله- هى منظمة إرهابية، وإسرائيل -على غرار الولايات المتحدة- لها الحق فى حماية نفسها عن طريق جميع الوسائل الضرورية؛ (وهو حق وفقاً لهذه الحسابات لا يبدو أن الفلسطينيين يملكونه أبداً). وانتقاء إسرائيل لتوجيه الانتقادات إليها ليس من العدل أو هو يعتبر -وهو الأفضل- معاداة للسامية بطبيعته، خاصة عندما تكون هناك أماكن فى العالم أكثر بعداً عن الديمقراطية وأكثر عنفاً تجاه سكانها من إسرائيل (غالباً ما يضرب المثل بدارفور، فى قضية شهيرة أثارتها الكثير من المنظمات الموالية لإسرائيل، على الرغم من أن هذا المثال عادة ما يمر دون ملاحظة أن الولايات المتحدة لا تدعم ولا تقدم السلاح والدعم للحكومة السودانية أو تعطى غطاء سياسياً لأفعالها غير المشروعة فى مجلس الأمن، ناهيك عن أنه لا يوجد أحد فى الولايات المتحدة يعمل بنشاط من أجل التغاضى عن الفظائع فى دارفور، على النقيض من عشرات المنظمات الممولة تمويلاً جيداً وتلك القوة الكبيرة فى الحرم الجامعى للدفاع عن أفعال إسرائيل).

كتيب الدعاية لإسرائيل

إذن ليس من المستغرب، بالنظر إلى أصلها، أن يعبر تقرير منظمة «قف معنا» عن حلقة النقاش «غزة وحقوق الإنسان» عما يشير إليه الناشطون المؤيدون لإسرائيل فى الحرم الجامعى بالكلمة العبرية «هاسبارا». وهى تعنى، أساساً إن لم يكن حرفياً: «الدعاية». وزعت منظمات مثل «قف معنا» كتيب هاسبارا: الترويج لإسرائيل فى الحرم الجامعى على الناشطين فى الجامعات. (على سبيل المثال، انقر الرابط «Guides for Activists» على موقع www.middle-east-info.org). يوضح الكتيب أن تسجيل النقاط

علينا أن نشعر بالفزع من أن يكون ما يحدث فى الأوساط الأكاديمية اليوم هو امتداد لما يحدث فى مجلسى النواب والشيوخ الأمريكيين وفى أروقة السلطة الحقيقية



هـل تجـرؤ ألا تـكـون إسـرائـيـلـيـا!!

غالبًا هو أفضل من الاشتراك فى النقاش، ويقدم تفسيراً كما ورد فيه- لكيفية «تسجيل نقاط بينما يتم تجنب النقاش». تسجيل النقاط، كما يفسرها دليل هاسبارا «ينجح لأن معظم أفراد الجمهور يفشلون فى تحليل ما يسمعونه؛ فهم لا يلتقطون إلا بضع نقاط رئيسة، ويكون لديهم «انطباع» غامض عن أولئك الذين كانت حجتهم أقوى. جزء من هذه الاستراتيجية هو إعادة تدوير نفس الادعاءات مراراً وتكراراً، فى كثير من المواقف وكلما أمكن. «إذا سمع الناس شيئا ما بما فيه الكفاية»، كما ورد فى الكتيب، فسينتهون إلى الاعتقاد به».

يقدم كتيب هاسبارا العديد من الأدوات الدعائية الأخرى، والتى يمكن رؤيتها بوضوح فى التطبيق العملى لها فى تغطية حلقة نقاش جامعة كاليفورنيا عن غزة وغيرها من الأحداث المماثلة، بما فى ذلك، مرة أخرى، قضية روبنسن. «تكوين دلالات سلبية عن طريق إطلاق النعوت السلبية على الآخرين يتم فى محاولة لدفع الجمهور إلى رفض فكرة أو شخص على أساس التداعيات السلبية المرتبطة بها، دون السماح بإجراء فحص حقيقى لهذا الشخص أو الفكرة»، يدعو الكتيب فى فظاظة واضحة إلى استخدام هذا التكتيك. كما يقترح الكتيب أيضا ما هو عكس إطلاق النعوت السلبية على الآخرين عن طريق الدفاع عن إسرائيل باستغلال ما يصفه الكتيب «بالعموميات المتألقة» (استخدام كلمات مثل «الحرية»، «الحضارة»، «الديمقراطية») لوصف إسرائيل؛ فيما يمثل تلاعباً بمخاوف الجمهور «(حيث يكون بال المستمعين مشغولاً للغاية بالتهديدات الفظيعة لهذه العموميات عن التفكير بشكل نقدى فى رسالة المتحدث»)؛ وهلم جراً. والهدف من كل ذلك هو عدم استخدام حجج يدعمها العقل والأدلة. وبدلا من هذا يتم التلاعب (وهى الكلمة التى استخدمها الكتيب) بالجمهور على وجه التحديد من أجل عدم فحص الحجج، وعدم التفكير بشكل نقدى حول ما يقال. وهو منهج لافت للنظر بالنسبة لكتاب مخصص لجمهور الجامعات.

هذا هو على وجه التحديد، وبالتفصيل تقريباً، النهج الذى تتبعه معظم الهجمات على النقاد الأكاديميين للسياسة الإسرائيلية. لا يهم كثيرا ما يناقشه النقاد بالفعل؛ فالردود المألوفة المعدة سلفاً ستكون جاهزة لإنهاء النقاش. أو سيتم شن حملة لإسكات المنتقدين عن طريق جعل الحياة صعبة بالنسبة لهم، أو التهديد بسحب الدعم لمؤسساتهم، أو تصل إلى أقصى حد لها بتهديد حياتهم الوظيفية، أو حرمانهم من فرص الحصول على وظائف (كما حصل مع المؤرخ الأميركى اليهودى نورمان فنكلشتاين فى جامعة دى پول). وكلما كانت المحاولة الأولية لإغلاق الموضوع أقل نجاحًا، كلما كانت الجولة التالية من التجريم والإدانة أعلى صوتًا، والقدح أكثر سخونة، والاتهامات أكثر تطرفًا، لمزيد من التصعيد غير المبرر.

هكذا تتصاعد حدة ونغمة الهجمات التى تستهدف المشاركين فى حلقة النقاش بجامعة كاليفورنيا لوس أنجيليس، والتى وصلت الآن إلى اتهامهم بأنهم أساسا يتلقون أوامر مباشرة من حماس، ويقودون الحشود فى ترديد هتافات معادية للسامية. لقد تعرض كلانا لاتهامات مماثلة، فى وجوهنا مباشرة وعلى صفحات الجرائد، وتعرضنا لتغيير ما نعنيه، ونسبت إلينا كلمات لم نتلفظها ولم نفكر بها، وبدناءة نقلت عنا تصريحات غير دقيقة أو مجردة من سياقها، وتم الاستشهاد جزئياً بما نكتب بما يخل بالمعنى الحقيقى المقصود. لم يكن ذا أهمية أننا مراراً وتكراراً وعلناً أيدنا أشكال الاحتجاج غير العنيف على أعمال العنف الإسرائيلية ومواجهتها؛ ولم يكن ذا بال أننا نؤمن بالعدالة والقانون وحقوق الإنسان؛ وأننا نفضل أن يستمتع جميع الناس فى الأرض الموعودة بوعدها بدلاً من أن يعانى بعضهم من الاختناق على أيدى الآخرين.

دعوات غير متوازنة لـ«التوازن» تقوض مفهوم الجامعة بحد ذاته

لماذا إذن يلجأ أنصار إسرائيل المتعصبون مراراً لهذه الأساليب، ويؤخذون على محمل الجد دون مشاركة فى النقاش الفعلى ورغم تجنبهم التام له؟ من ينتقدون منتقدى السياسة الإسرائيلية يكررون الدعوة إلى «التوازن»، بافتراض أن كل حلقة نقاش ينظمها خصومهم -وليست تلك التى ينظمونها بأنفسهم- ينبغى أن يشترك فيها الرأى الآخر. بطبيعة الحال، كل حلقة نقاش أحادية الجانب يمكن موازنتها بحلقة نقاش مثلها أحادية الجانب على الناحية الأخرى؛ مما يشير إلى أن الجامعات يمكن أن تحقق مظهراً أوسع للتوازن بوسائل أخرى، كما سجل بحق جين بلوك، مستشار جامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس، فى رده على محاولات أنصار إسرائيل لإسكات منتقدى إسرائيل. نحن لا نسمع كثيراً دعوات موجهة لأقسام علم الاقتصاد بشأن ضرورة توظيف أساتذة اقتصاد سياسى ماركسيين، أو (فى الاتجاه السياسى المضاد) دعوات إلى أقسام علوم الحياة لتعيين أساتذة بيولوجيا يتبنون نظرية التصميم الذكى (مقابل النشوء والارتقاء)، باسم تحقيق «التوازن». لا داعى للقلق، فنحن لا نحاول فتح أبواب للإشكاليات والتعقيدات الفظيعة! وإنما نقصد فقط أن نبين كم هى أحادية الجانب تلك الدعوات (للتوازن) فى حالة إسرائيل-فلسطين، وكم هى غير متوازنة باسم تحقيق التوازن. إنها فى الواقع، فاقدة للتوازن.

بالتأكيد لا نتذكر أننا سمعنا من أى من هذه الجهات أى إدانة للتحيز، فلنقل، كما يمثله آلن ديرشوفيتز. كما أننا لم نسمع على الأقل أى تعبير عن القلق من أولئك الذين يدينون بطلاقة لسان تلك الصواريخ التى أطلقتها حماس على جنوب إسرائيل بشأن الدمار الذى ألحقه القصف الإسرائيلى للمدنيين من الرجال والنساء والأطفال الذين يحتمون فى المدارس ومبانى الأمم المتحدة خلال الاعتداء الذى وقع على غزة منذ عام.

وعندما يصر علنا بَنى موريس، مؤرخ إسرائيل التصحيحى الأشهر على أنه إذا كان عليك أن تَقتُل أو تُقتَل، فمن الأفضل أن تَقتُل، لا نسمع عندها أيا من الأصوات المؤيدة لإسرائيل تعترض، باسم «التوازن»، على أن هذين ليسا هما الخياران المتاحان الوحيدان فحسب. طرح هذه القضايا مختزلة ومنفردة كأنها قضايا حياة أو موت من منطلق الدفاع عن النفس، يحرف القضايا حيث ينهى إمكانية إجراء أى نقاش. لكن ربما كانت هذه النقطة هى الهدف من المزاعم (كما يشير كتيب هاسبارا).

عندما وجهت الدعوة إلى الرئيس الأسبق جيمى كارتر للتحدث فى جامعات مختلفة، بما فيها جامعتنا (كاليفورنيا بلوس أنجيليس)، بعد نشر كتابه فلسطين: سلام لا فصل عنصرى، أصر ديرشوفيتز باسم «التوازن» على أن يشارك بنفسه الرئيس الأسبق فى الحديث على المنصة أو يتبعه. ولا شك فى أن الأستاذ ديرشوفيتز يتحدث إلى مجموعات كثيرة بنفسه، معززاً موقفه أحادى الجانب. بيد أننا لا نسمع من يدعو لأن يتمكن جمهوره من الوصول إلى رأى مضاد فوراً. إذا كان التوازن مطلوباً فى جمهور رئيس الولايات المتحدة الأسبق، ألا ينطبق هذا أيضا على الأستاذ «المتحيز»؟ وماذا بعد.. هل سيكون مطلوباً أن كل محاضرة حول كل قضية فى كل جامعة تتبعها محاضرة تعرض الرأى المضاد؟ الفكرة بحد ذاتها سخيفة للغاية. بالمثل، وربما ينطبق هذا الأمر أيضاً على المنتديات العامة مثل ناشيونال ريفيو أونلاين. يعطى ستانلى كيرتز، فى مقالته، أهمية كبيرة لفقدان المنتديات العامة للتوازن بإعطائها أصواتها إلى منتقدى إسرائيل. إلا أنه يقوم بهذا فى حين يعرف بأنه لا ينشر مقالات مؤيدة للفلسطينيين. فليكن حذراً مما يدعو إليه!

فى روايته: المحاكمة، كتب فرانز كافكا: «الاتهامات لم تكن أبداً طائشة، كما أن المحكمة، بمجرد أن يرد إليها اتهام لأى شخص، تكون على اقتناع راسخ بجرم المتهم، ولا يمكن زحزحتها عن هذه القناعة إلا بصعوبة بالغة». منتقدو إسرائيل داخل الحرم الجامعى توجه إليهم الاتهامات دون سابق إنذار، دون وجود أدلة إدانة؛ ويدانون دون دليل، ويحكم عليهم بدون تقديم دفاعهم. أنصار إسرائيل الأمريكيون الأعلى صوتا يقومون بدور الشرطى والمدعى بالجرم، والقاضى، وهيئة المحلفين. وفى النهاية، يتضاءل أولئك المدانون ليتحولوا إلى شخصيات فى الظل ليس أكثر، كما لو



فإن أى انتقاد لإسرائيل والصهيونية يعامل على أنه انتقاد لليهود، ومن ثم توجه اتهامات معادية للسامية أو ما هو أسوأ





كانوا أشخاصا من القش اشتعلت بهم نيران الاتهام.

أولئك القائمون على تصنيف كل الانتقادات لدولة أو جيش إسرائيل بشأن معاملتهم للفلسطينيين على أنها انتقادات تتجاوز الحدود بالشجب التلقائى الارتجالى لمثل هذه الانتقادات، ووصفها بالعداء للسامية، يهونون من شأن أى تهمة شرعية حقيقية بمعاداة السامية. يضع هذا التسطيح للاتهامات مثل هؤلاء الأنصار المتحمسين فى مأزق. فهم يسعون إلى رفع الاستثناء عن إسرائيل بالإصرار على أن النقاد لا يدينون بالمثل السودان أو الصين أو كوريا الشمالية لانتهاكات حقوق الإنسان. مع ذلك فإنهم يستثنون دولة إسرائيل من خلال السعى لحمايتها من أى نوع من أنواع النقد. لا فائدة تُرجى أبداً من دولة جعلت أو تجعل نفسها بمنأى عن النقد، كما تثبت الحالات التى يستشهد بها أنصار إسرائيل دون قيد أو شرط.

ومع ذلك، صحيح أننا بطبيعتنا، كأكاديميين ينبغى أن نعيش لدفع الأفكار قدماً، والتركيز على النقاط الصعبة، لمناقشة المداخل والمخارج. وكما أشار إدوارد سعيد مراراً وتكراراً، الأكاديميون والمثقفون يتحملون مسؤولية -ليس فقط مسؤولية الحديث بصياغات واضحة وإنما أيضاً بث الأفكار حتى عن الموضوعات الصعبة، والمغامرة بالذهاب إلى ما يتجنبه الآخرون. والتحريفات التى وضعها مؤيدو إسرائيل الأكثر صخبا مصممة لتضييق نطاق، ليس فقط ما يمكن أن يقال عن موضوع ما، ولكن أيضاً الموضوع الذى يمكن أن يطرح فى الأساس. والتحريفات، والإسكات الضمنى، والتضمينات الغادرة ليست مؤذية فقط، وإنما يبدو من الواضح أنها تهدف إلى قمع أى انتقاد للسياسة الإسرائيلية. وباختصار، فإن مثل هذا التدخل كان له أثر، يتمثل بإضعاف فكرة الجامعة من أساسها.

توجيهات مقترحة لمناقشة

فلسطين/إسرائيل بالجامعة

وهكذا فإن روح الكياسة الفكرية تقتضى بعض المبادئ التوجيهية التى نعتقد أنها سوف تسهل مناقشة الشأن الفلسطينى/الإسرائيلى فى حرم الجامعات الأمريكية. هذه هى المعايير، كما نقترحها، التى ينبغى تقييم النقد بها - النقد الموجه لإسرائيل والنقد الموجه لمنتقدى إسرائيل. نهيب فى حالة وجود خلافات أن يتم الحكم على المتحاورين من منطلق كونهم:

يردون على الحجج بحجج مضادة، وليس باتهامات موجهة إلى شخصية المنتقد.

يردون على الأدلة بأدلة مضادة، وليس مجرد توكيدات.

يركزون على ما يقال وإلى أى مدى يمكن دعمه بالأدلة، بدلا من اللجوء إلى صرخات «عدم التوازن» و«التحيز».

يبذلون كل جهد ممكن لكى لا يحرفوا ما قاله شخص آخر: وعلى وجه الخصوص، ما إذا كانوا يعيدون بناء الاستشهادات خارج سياقها أو يستشهدون فقط بأنصاف العبارات.

يضعون الكلمات على ألسنة الناس الآخرين، ويحاولون تصوير شخص يعرِّف نفسه بأنه داعية للسلام والعدالة كما هو الحال فى الحقيقة سراً أو جهراً؟ على أنه داعية بوحشية للعنف العنصرى.

يحاولون تضييق الخناق على الاعتراض عن طريق التهديد أو تعريض الحياة المهنية للمنتقدين للخطر.

يقللون من عدد القتلى أو الجرحى أو من أهمية براءة قتلى أو جرحى بين أولئك الذين يعتبرون «أعداءهم»، بينما يبررون الدمار الذى يخلفه العمل محل النقاش بأنه «ضرورى» حتى لو كانت الآثار «مؤسفة».

تبقى نقطة أخرى. هناك منذ فترة طويلة مراكز أكاديمية وبرامج تعليمية للدراسات اليهودية، وكذلك لدراسات الشرق الأوسط والشرق الأدنى، وللدراسات العربية والإسلامية. فى الماضى، كانت أفضل تلك التشكيلات المؤسسية تتطلع إلى المشاركة والانخراط عبر الانقسامات الشخصية والسياسية؛ وعلى وجه التحديد، العلاقات المعقدة التى تميزها الظروف السياسية الفاصلة.

فى الآونة الأخيرة، ازدادت السياسات الانفصالية وتبريراتها الأيديولوجية قوة على أرض الواقع، وبدأت البرامج الأكاديمية تعكس ظروف الانعزال هذه. فمثلاً، بدأت تظهر برامج أو مراكز أبحاث متخصصة فقط فى الدراسات الإسرائيلية، تمولها هبات وقفيات خاصة، وتميل إلى تجاهل أو رثاء (تَحَسّر) أو تبرير وعقلنة العلاقة بين الأوضاع فى إسرائيل وأوضاع أولئك الذين يعيشون فى الأراضى المحتلة. تحاول مثل هذه البرامج النظر إلى إسرائيل كما لو كان من الممكن وضعها فى إطار موضوع للدراسة بمعزل عن الفلسطينيين (الذين يشكلون خمس سكانها والنصف من مجموع السكان الذين تحكمهم إسرائيل)، وبمعزل عن كامل قضية فلسطين، وترتبط إسرائيل فى الحقيقة بهذين العاملين لا محالة. تخيل محاولة وضع إطار لبرنامج الدراسات الأمريكية اليوم يستبعد بقصد (أو بدون قصد وهو الأسوأ) أى تناول لموضوع السود أو اللاتين.

وفقا لذلك، وفى ضوء البنية المعقدة للمنطقة، فإننا نرى أن من الحتمى لأى برنامج تعليمى أو بحثى حول الشأن الإسرائيلى الفلسطينى أن يأخذ على محمل الجد السبل المعقدة والمتفاعلة، التى تتشابك بها عميقاً الترتيبات الاجتماعية والثقافية والسياسية والقانونية والمعرفية، وأن أوضاع الحياة والموت بالنسبة للبعض تكون متصلة بأوضاع الآخرين. يستتبع هذا طريقة مختلفة فى التفكير، ليس فقط عن المنطقة، ولكن أيضاً وأكثر عن تشكيل مؤسسات تكوين المعرفة وترتيباتها المؤسسية التى تميل إلى أن تكون الاتجاه السائد اليوم.

مقترح لمنتديات «تكون»

تحتل مجلة «تكون» موقعاً تقدمياً هاماً ومثمراً للغاية فى ظل التوترات السياسية والفكرية. فنحن نعتبر تكون والمجتمعات التى تستطيع الوصول إليها ومخاطبتها، والمتموضعة بشكل جيد وفريد؛ تستطيع بالتالى ترويج مجموعة من المنتديات، سواء كانت مصممة عبر الإنترنت، أو الصحافة المطبوعة، أو وجهاً لوجه، بهدف تعزيز الاشتباكات المتحضرة المحترمة بل والانتقادية كذلك، عابرة مختلف التوجهات السياسية. ومن شأن هذه المنتديات (وهو ما يحدث فعلا) أن توفر منصات (منطلقات) لبث مختلف الآراء حول المواقف الصعبة فيما يتعلق بالخلاف بين إسرائيل وفلسطين، وتقديم للنقد والنقد المضاد دون التعرض للضرر، ومناقشة ترتيبات بديلة دون خوف من التصغير أو التسخيف أو الذم أو حتى التهديد.

وستكون هذه المنتديات حسنة التموضع بما يخولها إرساء قواعد ومبادئ توجيهية أساسية لنقد البرامج والممارسات السياسية، فضلا عن مؤيديها ومنتقديها، بتحضر ودون الدخول فى مطاردات نتيجة الانتقادات التى تم بثها. ستقوم هذه المنتديات بإرساء معايير، بشكل مماثل، فيما يتعلق بالاستخفاف غير المقبول باليهود وبالفلسطينيين، وكذلك بمنتقدى إسرائيل والقضية الفلسطينية. وستكون مثالا يحتذى للتمييز بين النقد المقبول لتصرفات إسرائيل وسياساتها، وبين النقد المعادى للسامية الموجه لليهود.

هذا المثال، بدوره، سيكون له تأثير فى تشجيع الممثلين الرئيسيين لرابطة مكافحة التشهير على إعادتها إلى دورها التاريخى الحاسم فى رصد ليس العداء للسامية فحسب، بل أيضا جميع أشكال التعصب الأعمى، دون اختزال الانتقادات الضرورية الموجهة إلى إسرائيل إلى معاداة للسامية.

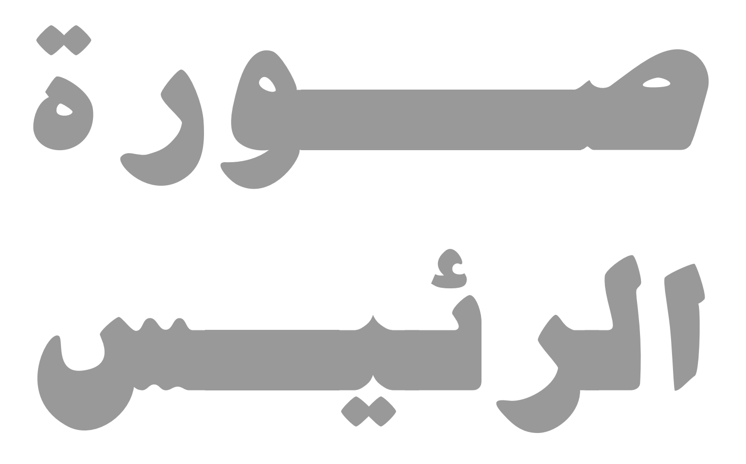
استبعاد النظر فى الاعتبارات المضادة الحاسمة يُعَد اعتباراً غير متوازن للبدائل. والمنتدى الذى يهيمن عليه أولئك الذين يمكنهم الصراخ بأعلى صوت، والحصول على مزيد من فرص الوصول والحراك والموارد، أو يشعرون أكثر بالإهانة؛ يعتبر منتدى متحيزاً، وبالمحصلة هداماً. ولا يعتبر التوكيد أحادى الجانب والمراعى للذات، تبادلاً للآراء على الإطلاق. وفى التحليل النهائى، فإنه لا يثمر أى فائدة لأى طرف كان، ناهيك عن الناس الذين يعانون من العواقب، فى كل من جانبى الخلاف.

على النقيض من ذلك، إننا ندعو إلى المشاركة فى المناقشات، واحترام الحق فى قول الأمور صعبة القبول لدى الآخر، والمقارعة بدون اعتداء، مما يجعل الانتقادات والانتقادات المضادة خالية من التحريفات المؤذية. وبدون هاسبارا (بروباغندا). وفى دعوتنا إلى التبادل القائم على الاحترام، والمشاركة النقدية، فإننا ندعو إلى احترام المواقف التى يتخذها المفكرون الشرفاء. وفى إصرارنا على التوازن وإعادة التقويم، نوافق على التوازن فى كل القضايا المركبة، وجميع السجلات والأبعاد. فهذا أقل مما تستحقه حياة الناس المعرضين للخطر، بل حياة كل الناس. ■



أنصار إسرائيل الأمريكيون الأعلى صوتا يقومون بدور الشرطى والمدعى بالجرم، والقاضى، وهيئة المحلفين





صورة الرئيس

عدسة: بلاتون

■ ■ كان العام ١٩٧٦، عندما ذهب ريتشارد أفيدون إلى واشنطن، ليلتقط صورة فوتوغرافية لهنرى كيسنجر، الوزير الأمريكى الشهير، والذى باغته، قبل أن يجلس إلى الكاميرا قائلا: «من فضلك.. كن لطيفا معى».

منذ تمثال ملك أسبانيا فيليب الرابع الذى نحته الرسام الأسبانى دييغو فيلازكيز حتى لوحة الملكة إليزابيث الثانية للفنان البريطانى المعاصر لوسيان فرويد، قام الفنانون بتصوير بورتريهات عديدة لزعماء وقادة . وكلهم على الأغلب، لاحظ حالة القلق أو بالأحرى «ضعف القوة» التى تعترى هؤلاء الكبار حين يجلسون أمام عدسة تبدو وكأنها تحدق فيهم.

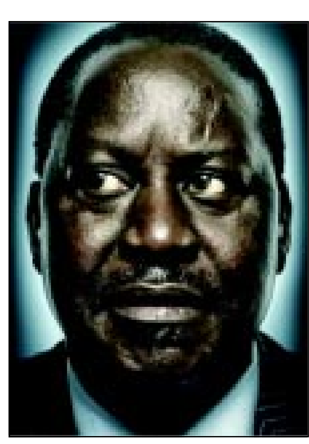
فى هذا اليوم البعيد من عام ١٩٧٦، أدرك أفيدون أن كيسنجر كان يحاول أن يؤثر فيه ويستميله. ولكن ماذا كان يريد تحديدا؟، كتب أفيدون فيما بعد: «هل رغب كيسنجر فى أن يبدو حكيما ودافئا وأكثر صدقا مما هو عليه؟ أليس من اللامهنية وعدم الاحترام جعل شخص ما يبدو حكيما ونبيلا - وذلك سهل لأى مصور محترف - رغم أنه قد لا يكون فى الواقع كذلك؟»

فى سبتمبر الماضى، عندما كان كل زعماء العالم تقريبا فى نيويورك لحضور اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة، قام بلاتون مصور The New Yorker، بإنشاء استوديو صغير قبالة قاعة الاجتماع، محاولا انتهاز الفرصة لتصوير «شخصيات» هؤلاء الزعماء والقادة. ورغم أنه ولعدة شهور، كان العاملون بالمجلة قد قاموا بكتابة خطابات إلى العديد من الحكومات والسفارات لترتيب الأمر، إلا أن المسألة على أرض الواقع لم تكن أبدا سهلة. فعلى مدى أيام الاجتماعات الخمسة، كان على بلاتون أن يفعل كل ما فى وسعه لجذب انتباه محمود أحمدى نجاد وهوجو شافيز ومعمر القذافى للكاميرا التى كان قد ثبتها لهذا الغرض.

ولم يكن ما قاله رئيس الوزراء الإسرائيلى، بنيامين نتنياهو، لبلاتون قبل التقاط الصورة «من فضلك، اجعلنى وسيما»، استثنائيا. فالتاريخ ملىء بحكايا مختلفة للقادة مع عدسات التصوير. فونستون تشرشل مثلا، ورغم أنه كان قد أشاد بصورة له قام بالتقاطها المصور الإنجليزى جراهام سوثيرلاند إلا أن زوجته كليمنتين قامت بتدميرها بعد أن شعرت بأنها تجعله يبدو أكبر سنا وكأنه فى مرحلة الشيخوخة. ويحكى التاريخ أيضا أنه فى يوم ٢٧ فبراير عام ١٨٦٠، وهو اليوم الذى تولى فيه مهامه وألقى خطابه الأول فى جامعة Cooper Union، قام إبراهام لنكولن بالذهاب إلى استوديو المصور الفوتوغرافى الأمريكى الأشهر Mathew Brady ليلتقط له صورة بدأت بها الحياة السياسية لواحد من أعظم السياسيين الأمريكيين. وإن كان لا أحد يعلم ماذا قال لينكولن لمصوره فى هذا اليوم البعيد، إلا أن بلاتون (مصور النيويوركر) يذكرنا بأن بنيامين نتنياهو، السياسى الإسرائيلى المحنك، كان حريصا على أن يؤكد طلبه قبل الجلوس إلى الكاميرا: «من فضلك، اجعلنى وسيما». ■

بترتيب خاص مع: The New Yorker

ترجمة: أميمة صبحى

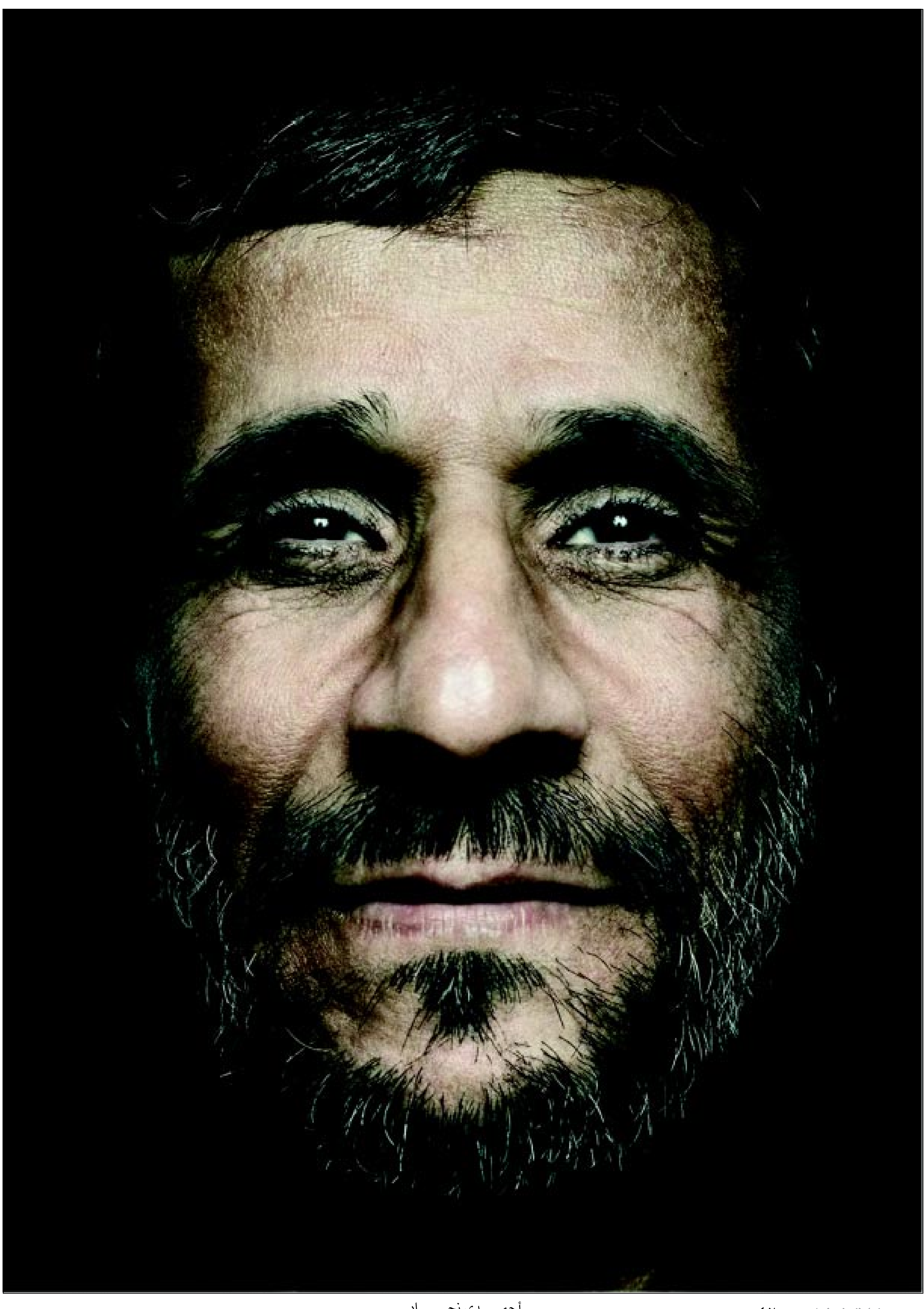

رايـــلا أودنجـــا


جـــاكوب زومـــا

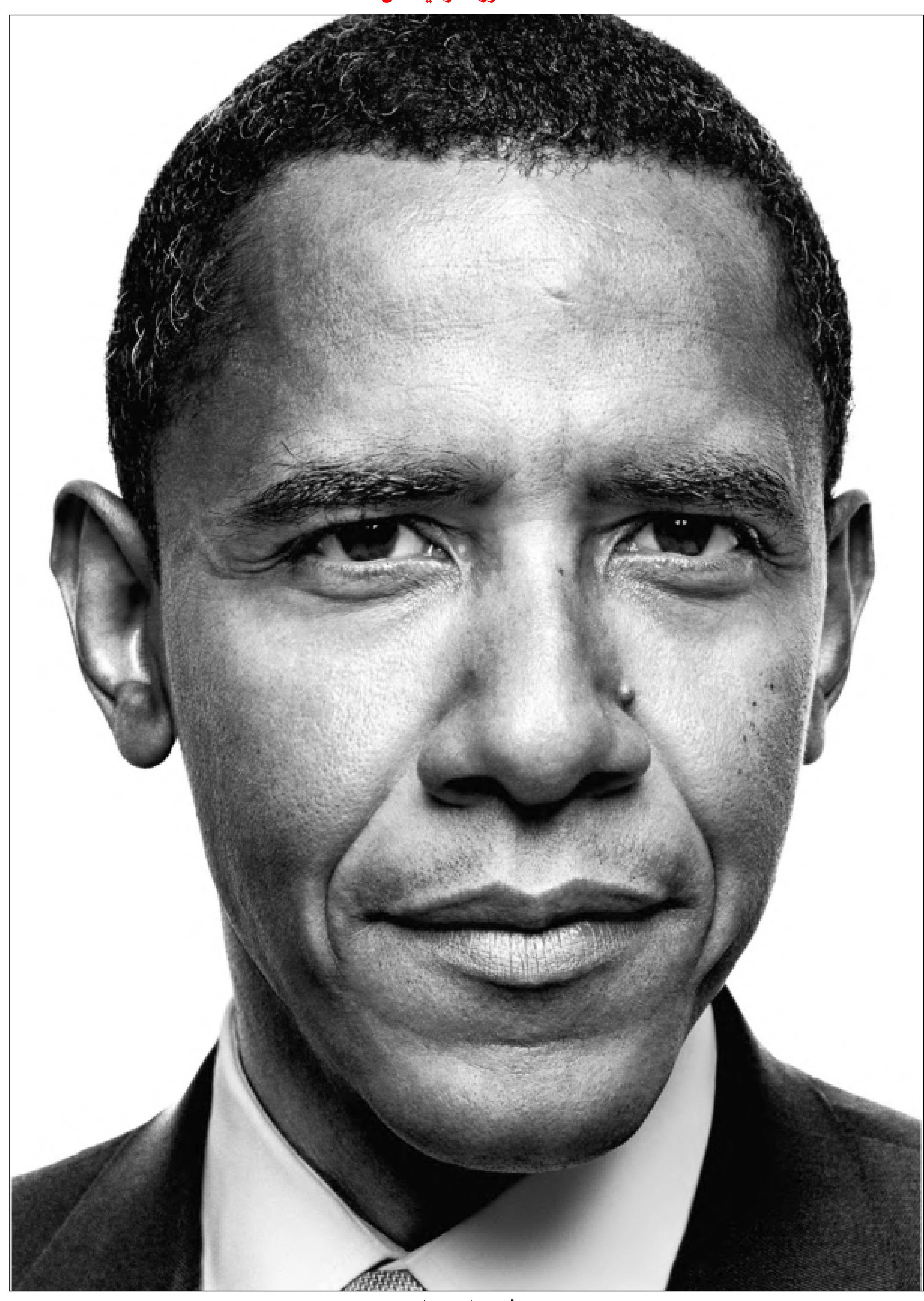




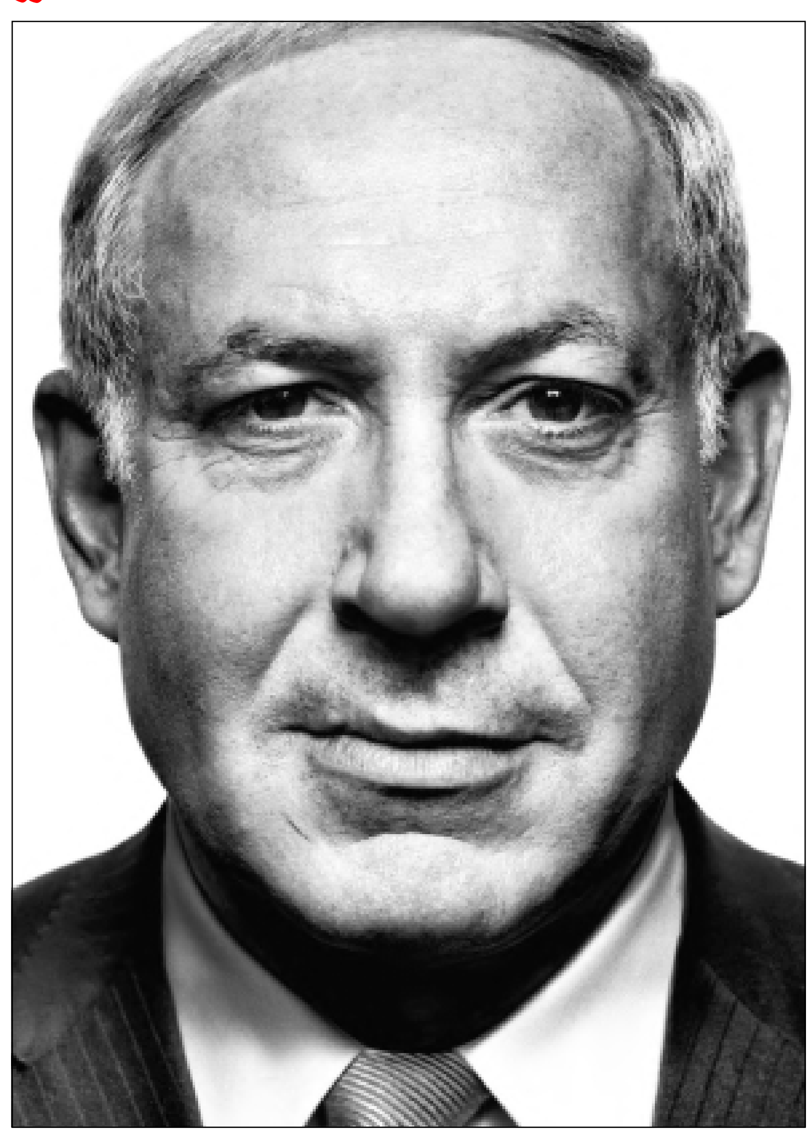
معمـــــر القـــذافى

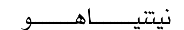


أحمـــــدى نجـــــاد

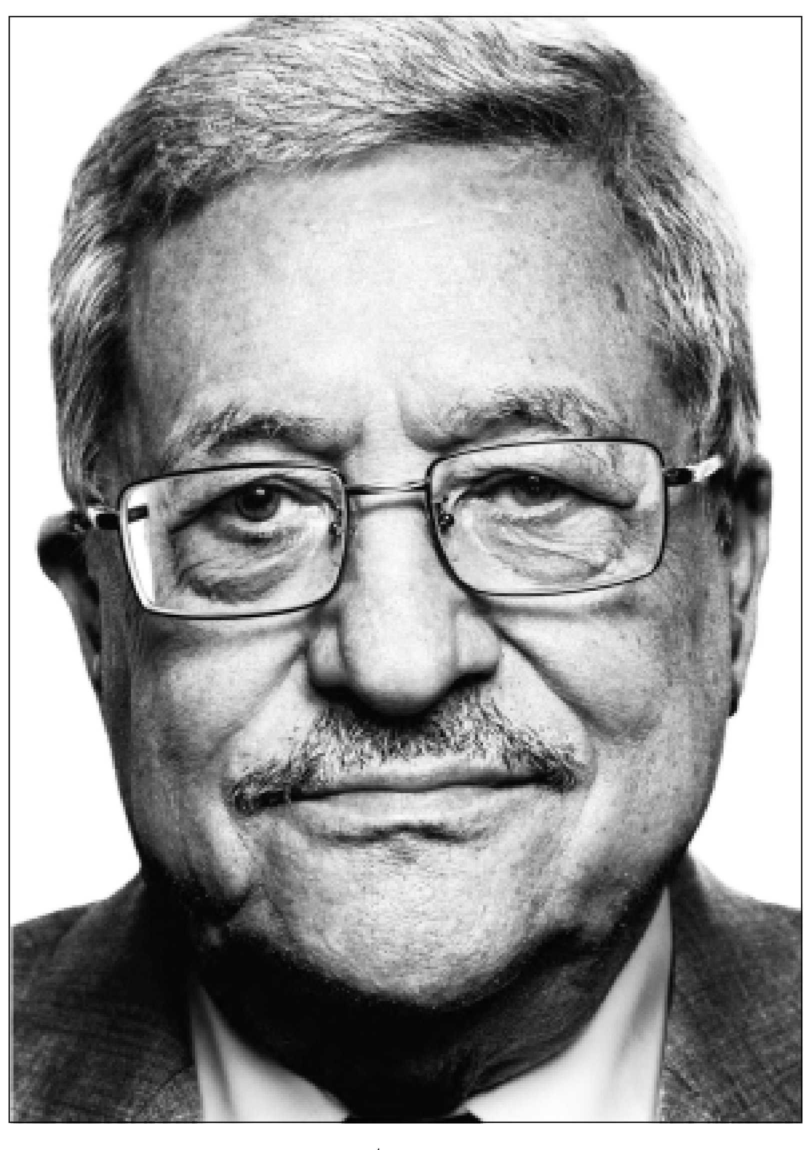


أوبـــامـــا

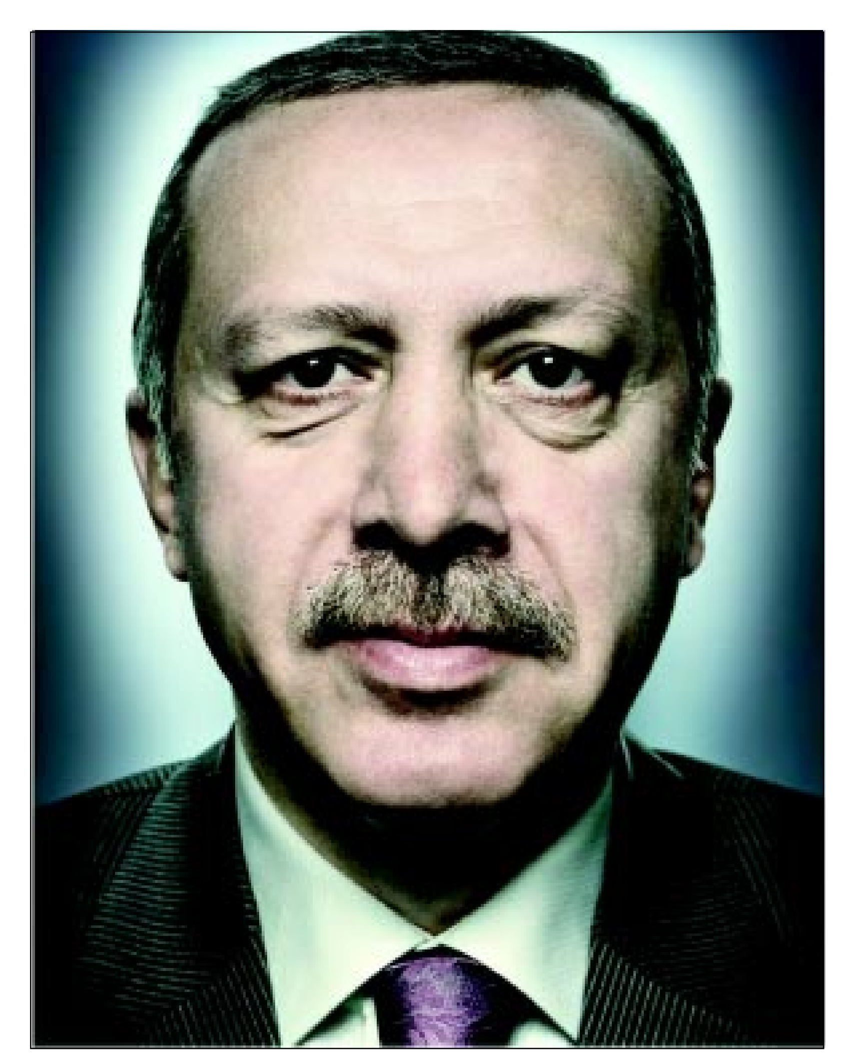




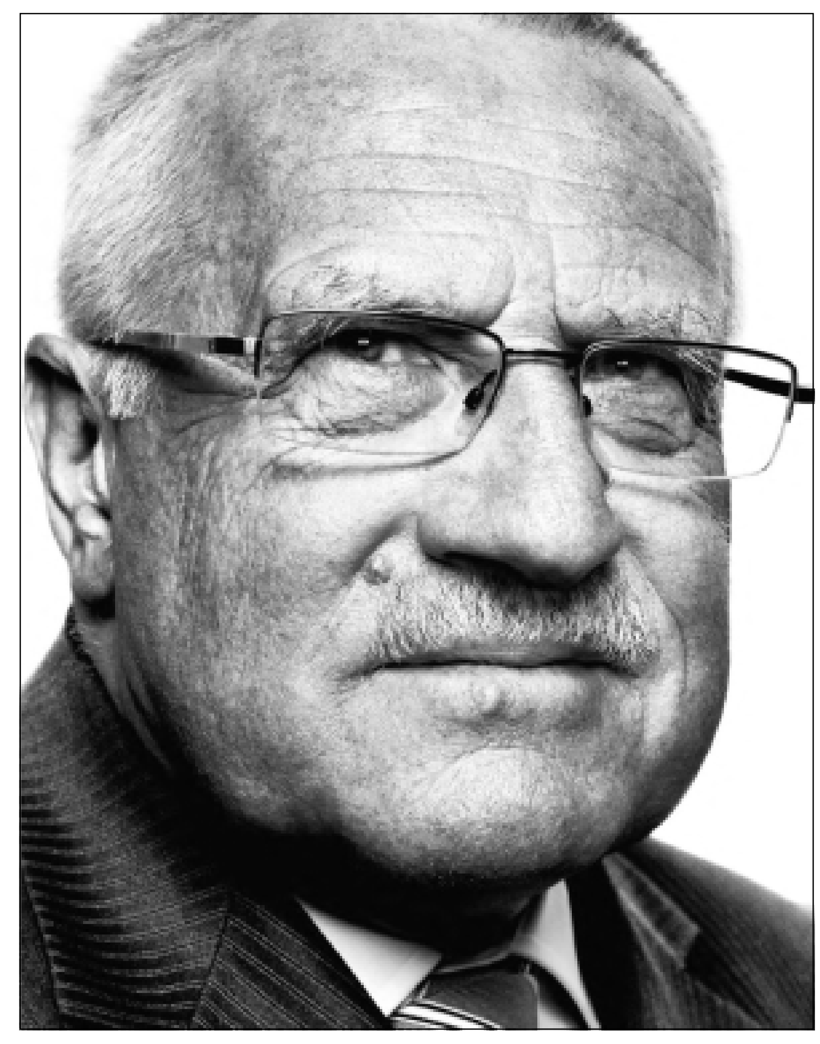
نيتنيـــاهـــو



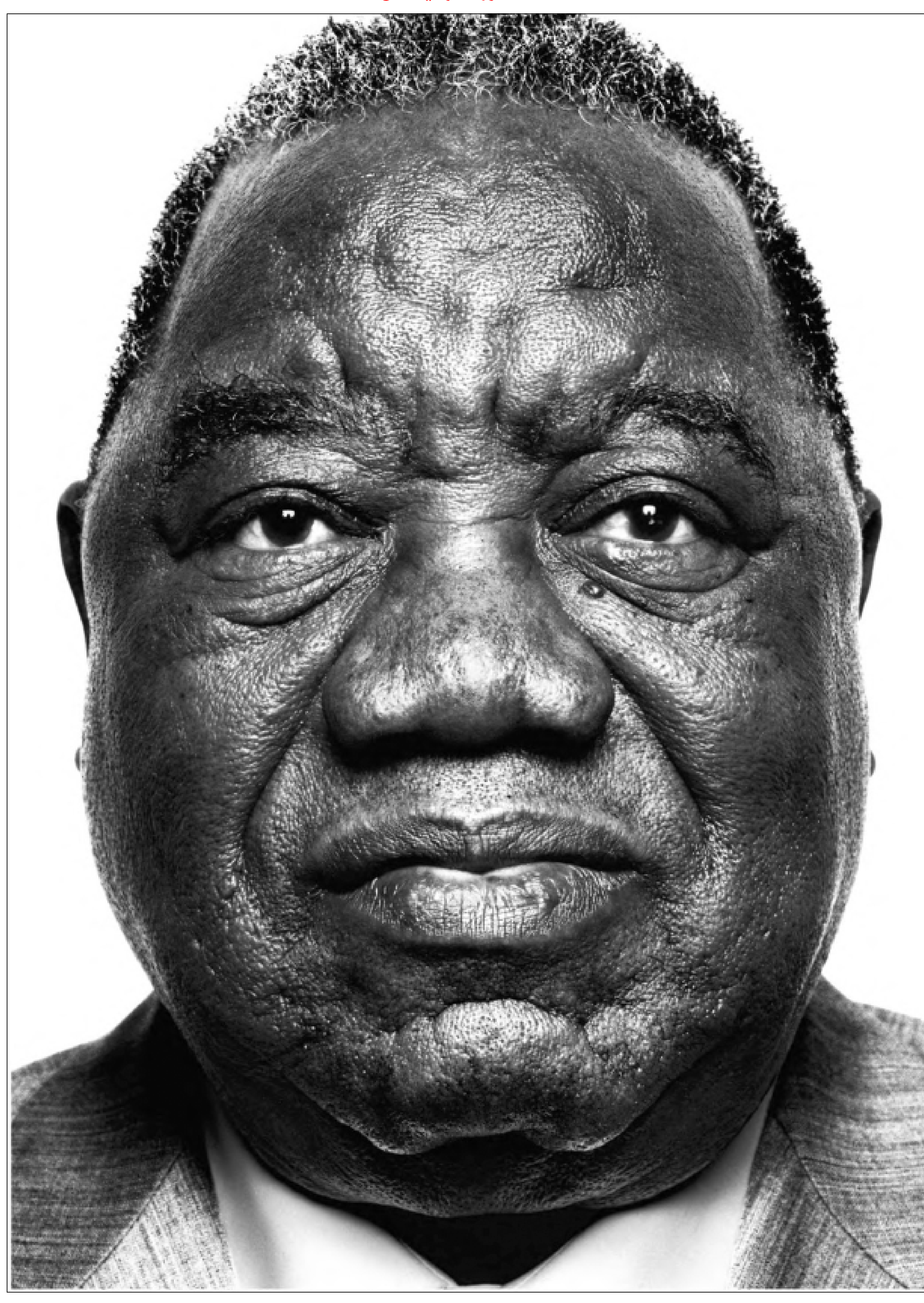
عبـــاس



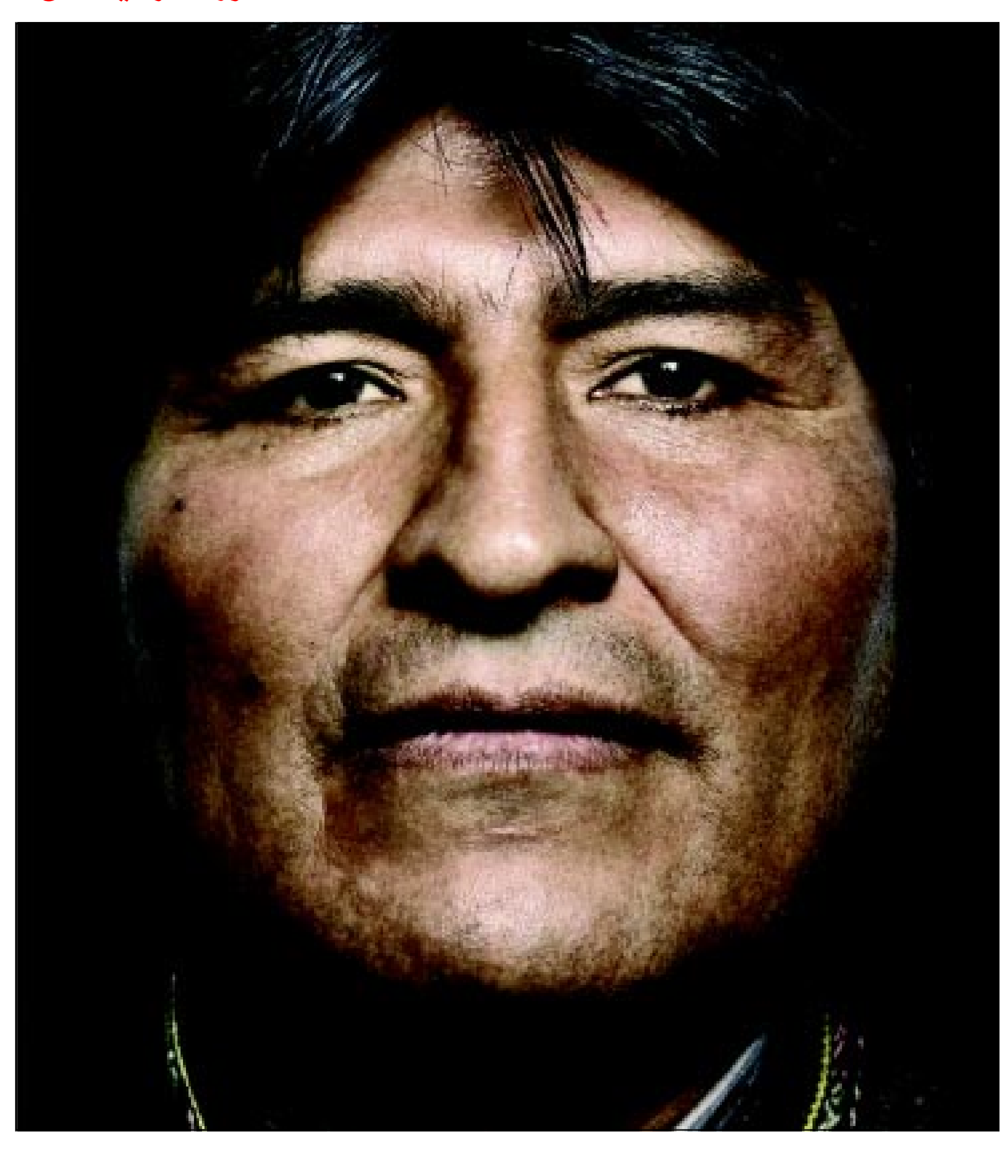
طـــيب أردوغــــان



فاكـــــلاف كــــالاوس



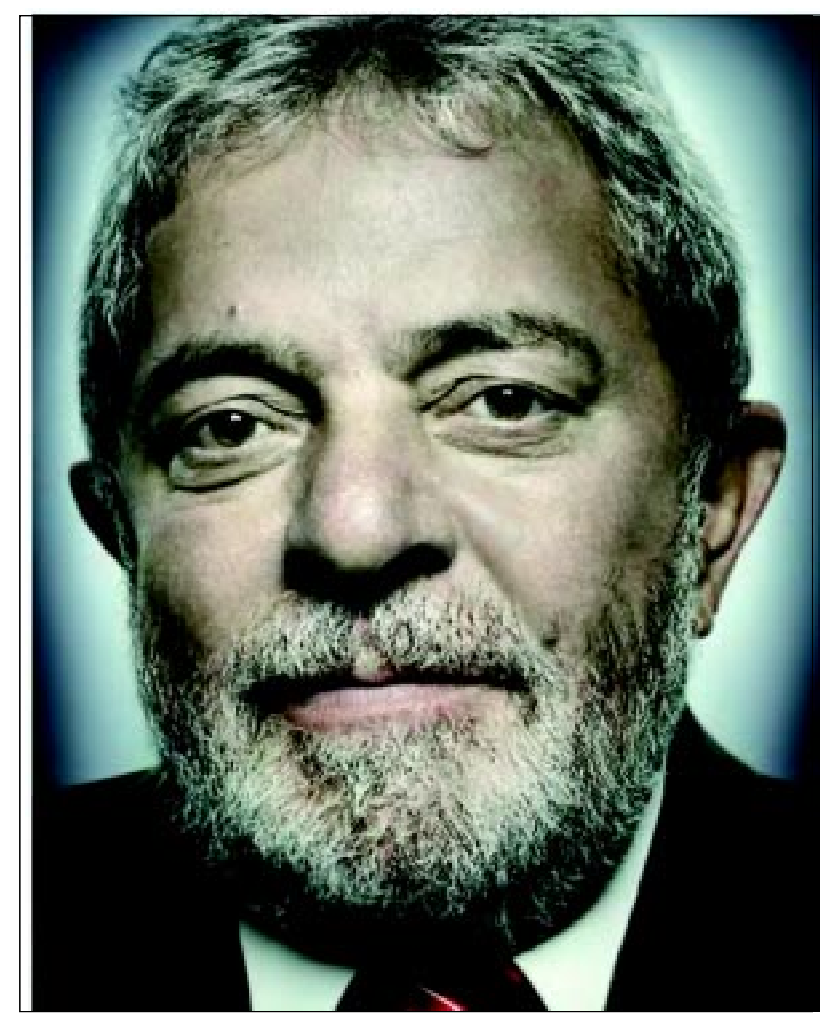
روبيـــاب بـانـــدا



ريفــو موراليـــس



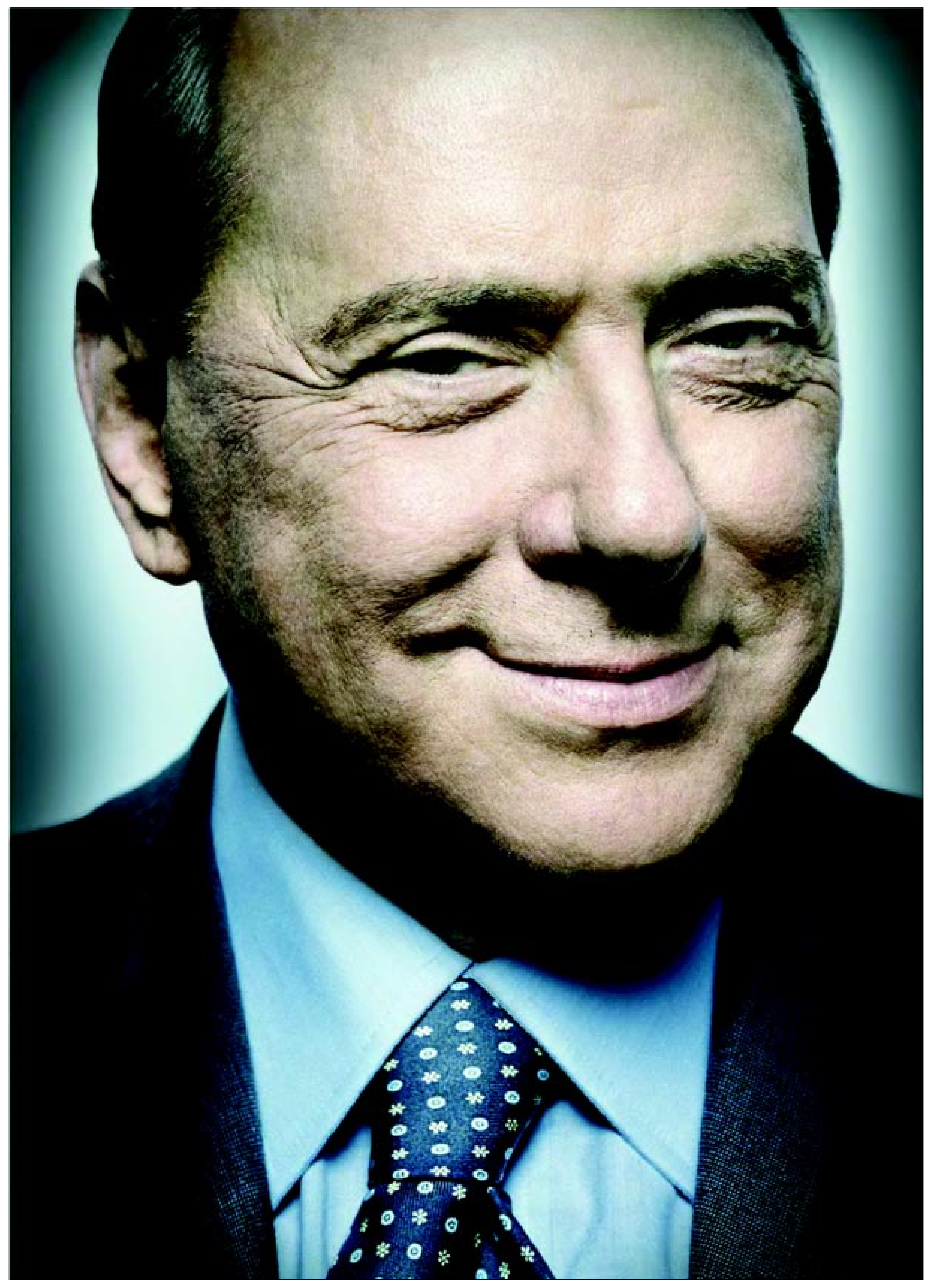
كرســـتينا فرنانـــديز



لـــولا داســـيلفا



هــــوجـــــو شـــافيز



برلســــــكونى

؟ سَيّد قطبْ
وجماعات العنف والتكفير



معتز الخطيب

إلى الواجهة الإعلامية، ومع التطورات الداخلية فى جماعة «الإخوان المسلمون»، صعد فجأة تعبير «القطبيون» ليستدعى إلى الذاكرة اسم الرجل الذى مازالت أفكاره محل جدل واسع، يمتد ليشمل أصحابه وتلاميذه أنفسهم.

الرجل، أو بالأحرى الاختلاف حول أفكاره، كان موضوعا لكتاب مهم من تحرير كاتب مقالنا هذا، وبالعنوان نفسه، يضم مجموعة من المقالات لعدد من الكتاب والباحثين ورموز الحركة الإسلامية، تنشره شبكة «إسلام أون لاين» ضمن سلسلة «الإسلاميون.. طرق وحركات»

■■ أول ما يُلحظ فى التعامل مع فكر سيد قطب - رحمه الله- أن الكثيرين يقرؤونه بمعزل عن سياقه زمانًا ومكانًا وظروفًا، وتكوينًا شخصيًا. وهذا يرتد إلى النزعة الإطلاقية السائدة لدى كثير من الإسلاميين حين يتصورون الأفكار متعالية تهبط من السماء، لا تنبع من الأرض. وهذه الملحوظة المنهجية لها تأثيرها الكبير فى الموقف الذى سنتخذه مع أو ضد، ومن الأفكار التى سنناقشها سواء وصفناها بالتطرف أم بالاعتدال، فهما وصفان غير كافيين بذاتهما؛ دون النظر إلى بيئة تشكل ذلك الفكر، وروافده، وفى مواجهة من وماذا؟. هذا النظر سيؤدى بنا - على مستوى الفكرة- إلى مسألة أخرى لصيقة به وهى: هل يصلح لزماننا هذا كلاً أو جزءًا؟ وإن كان يصلح جزئيًا فما التعديل الواجب عليه؟ وما الذى تغيّر؟.

وعلى مستوى الموقف سيؤدى بنا إلى تقدير أهمية الرجل فى زمنه، وعدم غمطه حقه، لا تقديسًا ولا تهوينًا!. فقطب برز فى خضمّ الصراعات الفكرية، وحصول «المثال» الغربى على قدر كبير من السيادة فى القيم السياسية وفى العادات وأساليب العيش، وفى ظل صعود نجم الاشتراكية والفكر القومى لدرجة ظهور محاولات تحمل الربط بين الإسلام والاشتراكية والقومية، ولو عنوانًا.

فكر قطب.. وسياقه التاريخى

كانت الصراعات الفكرية الدائرة آنذاك، سواء التغريبية أم الإسلامية الإصلاحية، تعكس - فى أحد جوانبها - حالة نفسية تجاه الغرب، انبهارًا بمنجزاته، ومع سقوط الخلافة وقيام الدولة الوطنية العلمانية، سادت أجواء من اهتزاز الثقة بالنفس، وفى هذا السياق جاء السؤال الكبير والمؤثر الذى صاغه أبو الحسن الندوى (١٩٥٠م) - رحمه الله- «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، واعتبره سيد قطب «من خير» ما قرأ من الكتب التى تتناول الإسلام كـ «عقيدة استعلاء، من أخص خصائصها أنها تبعث فى روح المؤمن بها إحساس العزة من غير كبر، وروح الثقة من غير اغترار، وشعور الاطمئنان من دون تواكل، وتشعر المسلمين بالتبعة الإنسانية الملقاة على كواهلهم، تبعة الوصاية على هذه البشرية فى مشارق الأرض ومغاربها، وتبعة القيادة فى هذه الأرض للقطعان الضالة»، بعد أن انتكس المسلمون «إلى الجاهلية الأولى» - على حد تعبير سيد قطب فى مقدمته للكتاب.

سيد قطب كانت كتاباته مشبعة بالحديث عن زيف الحضارة الجديدة، وجنايتها على الإنسان، وفقدان الرجل الأبيض لدوره. كان يكتب من منطلق استعلاء إيمانى، وكان مشروعه هو تجديد إيمان المؤمن بدينه، وشحذ همته، ليكون مؤهلاً لدور الوصاية، فأعاد تعريف مفهوم «الجهاد»، وحمل على القائلين بكونه دفاعيًا بشدة، واتخذ موقف المفاصلة من الأنظمة التى وصفها بـ «الجاهلية»، وتحدث عن ضرورة بناء الطليعة المؤمنة التى ستكون نواة للمجتمع الإسلامى على صورته الأولى، ونقاؤه لا يتأتى إلا من عزلته عن «الجاهلية» السائدة، ومن ثم فإن الحديث عن الاجتهاد الفقهى هو - بمنظوره - عبث قبل إنشاء المجتمع الإسلامى؛ فالاجتهاد يكون لمجتمع إسلامى لا جاهلى!.

إن تنظيم الإخوان غصّ بفكر سيد فلا هو قدر على هضمه ولا هو قدر على لَفظه، مرورًا بعبد الله عزام رائد «الجهاد الأفغانى»، الذى يقول: «وجهنى سيد قطب فكريًا وابن تيمية عقديًا وابن القيم روحيًا والنووى فقهيًا

كان الخيار الراديكالى للأمة حسب ما تُصوره نخبها فى ذلك الوقت هو إما التغريب الذى كان يعنى التقدم، أو الأسلمة والتى تعنى لدى التغريبيين التخلف والرجعية، وكانت مظاهر المجتمع تسير باتجاه التغريب؛ الأمر الذى أدى إلى نشوء فكر الهوية، وهنا مثّل قطب أحد أركانه فبعث الكثير من الثقة فى نفوس قرائه بدينهم ونصرته وعظمته، وزهّدهم بالنموذج الغربى وحضارته، وبين لهم أن الإسلام هو الحضارة حين رفض وصفه بـ«المتحضر». واللافت أن قطبًا كان يرى أن دور الإسلام المنتظر يقتصر على دائرة القيم فقط، والتى ترتكس فيها الحضارة المعاصرة، فقيادة العالم الغربى أوشكت على الزوال؛ لأنه «لم يعد يملك رصيدًا من القيم يسمح له بالقيادة»، ولابد من قيادة تملك إبقاء وتنمية الحضارة المادية التى وصلت إليها البشرية، عن طريق العبقرية الأوروبية فى الإبداع المادى، وتزود البشرية بقيم جديدة جدةً كاملة» هذه القيادة هى الإسلام كما يقول قطب[1].

لكن فى المقابل لم يكن نقاء تصورات قطب ونزعته الطهورية لتعكس بالضرورة واقعيتها، وصحتها أيضًا، فقد كان مسكونًا بالمفاصلة الحدية مع جاهلية المجتمع، وبهاجس أن الصراع مع العالم بأسره ومع الأنظمة هو عقدى، وأن نقطة البدء فى إقامة المجتمع الإسلامى هى تعبيد الناس - بحق - لله وفق مدلول الحاكمية عنده، التى هى من العقيدة (كلمة لا إله إلا الله)، ومن هنا كانت المفاهيم المركزية التى ميزت فكره هى: الجاهلية، والحاكمية، ومن باب هاتين الفكرتين (العقديتين) دخلت إلى الفكر السياسى الإسلامى والعمل الحركى جميع أفكار المقاطعة والتكفير والاستحلال واستباحة الدماء والأموال، وعدد من النتوءات التى نُسبت إلى الإسلام!.

لم تكن أفكار قطب تتناول مسائل فقهية فرعية، بل كان ينأى بنفسه عن ذلك أيضًا، ليس لأنه غير فقيه فقط، ولكن بناء على رؤيته الخاصة بخصوص «حضور» الفقه فى المجتمع «الجاهلى»، وهو وإن لم يكن يهدف - كما يبدو وكما صرح هو فى بعض نصوصه- إلى الحكم على الناس، لكن أصول أفكاره هى أفكار عقدية، فهو قد جعل نظرية «الحاكمية» مسألة عقدية لصيقة بالإيمان والكفر، بل داخلة فى مفهوم «التوحيد» الذى هو أخص خصائص مسائل الاعتقاد، وربما يكون متأثرًا فى تقريره هذا بعكوفه على كتب الإمامين الكبيرين ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله- فى سجنه[2] حيث بلور «حاكميته» فى صورتها الأخيرة فى كتاب «المعالم»، وهو بهذا قدم للسلفية الجهادية المعاصرة مَعينًا ثريًا أدركت من خلاله «الشرك المعاصر» الذى يعكر صفاء التوحيد، ولزم منه تكفير الحكام والأنظمة.



هذا فضلاً عن أنه شكّل مع المودودى - ومن قبلهما البنا - ريادةً لفكرة «النظام الإسلامى الشامل» طوالَ الخمسينيات، التى كان لها كبير أثر على رؤية الحركات الإسلامية لدورها، وذلك عندما كتبا كتبا فى مكافحة الرأسمالية، ومحاسن النظام الاجتماعى والاقتصادى الإسلامى، كما كتب محمد الغزالى والسباعى - رحمهما الله - فى مكافحة الشيوعية، وفى القراءة النقدية للإعلان العالمى لحقوق الإنسان، إلا أن قطبًا سقى ذلك النظام بفكره الثورى، وأمده ببرنامج عمل لتنفيذه فى «معالمه»، وبيئة ذلك كانت أجواء القطيعة والاشتباك مع النظام الحاكم.

يقوم النزاع هنا كثيرًا حول مسألتين أساسيتين: الأولى هل لفكر قطب علاقة بجماعات العنف والجهاد التى ظهرت؟ والثانية: هل يتحمل قطب مسؤولية هذا كله؟

فكر قطب.. والفكر الحركى والجهادى

فيما يخص المسألة الأولى: يبدو للعديدين ولى أن فكر قطب شكل مَعينًا لكل الفكر الجهادى والحركى، ومن السهل أن نلحظ كاريزما قطب لدى عدد من الحركات الإسلامية بدءًا من الحديث عن علاقته بالتنظيم الخاص الإخوانى ودوره فى الانشقاقات التى حدثت داخله أثناء فترة سجنه حتى قيل: إن تنظيم الإخوان غصّ بفكر سيد فلا هو قدر على هضمه ولا هو قدر على لَفظه، مرورًا بعبد الله عزام رائد «الجهاد الأفغانى»، الذى يقول: «وجهنى سيد قطب فكريًا وابن تيمية عقديًا وابن القيم روحيًا والنووى فقهيًا، فهؤلاء أكثر أربعة أثروا فى حياتى أثرا عميقا»[3]. وكذلك يذكر أبو قتادة عن الظواهرى أنه عاش شبابه «منفعلاً بما كتبه سيد قطب»[4] إلى أن التقى شبابًا مثله وأسسوا التنظيم، كما أن أبا قتادة شديد الاحتفاء بفكر سيد قطب ويقول: إن «الحركات الإسلامية توقفت عمومًا فى التقدم نحو الأفضل، ومن الأمثلة الصريحة على ذلك صنيع الإخوان المسلمين، فقد كان سيد قطب رحمه الله تعالى هو النتيجة الجيدة، والموقع المتقدم بعد حسن البنا»[5]. وهو يعتبر الحركات «الجهادية السلفية» هى «الطائفة المنصورة»، وأن أول أسس شرعية عملها هو أن دار الإسلام «قد انقلبت إلى دار كفر وردة، لأنها حُكمت من قبل المرتدين، ولأن الكفر قد بسط سلطانه عليها من خلال أحكامه ودساتيره»[6]، وهذا ذاته مضمون ما نجده لدى قطب فى كتبه، ومع ذلك فهذا ليس حكمًا على الأفراد كما ينبه.

كما أن صالح سرية وهو صاحب أول تطبيق فعلى للعنف فى مصر عام ١٩٧٤ (تنظيم الفنية العسكرية) يقول فى «رسالة الإيمان» التى كتبها سنة (١٩٧٣م): «إن كل الأنظمة، وكذلك كل البلاد الإسلامية التى اتخذت لها مناهج ونظمًا وتشريعات غير الكتاب والسنّة فقد كفرت بالله واتخذت من نفسها آلهة وأربابًا. فكل من أطاعها مقتنعًا بها فهو كافر» معتبرًا هذا «الفرض الأول لأنها أساس التوحيد والشرك فى هذا العصر»[7]، ومحيلاً إلى سيد قطب. بل إنه اعتبر فى مقدمة رسالته تلك أن من خير التفاسير لمعرفة التفسير الحق للقرآن «فى ظلال القرآن» فى طبعاته الأخيرة.

وبالرغم من أن محمد عبد السلام فرج صاحب الدور البارز فى اغتيال السادات، لم يأت على ذكر قطب فى «الفريضة الغائبة» الذى كتبه ١٩٨١م وشحنه بنقول عن ابن تيمية إلا أن جوهر الكتاب يقوم على البدء بجهاد الأنظمة الكافرة، وأن «الأحكام التى تعلو المسلمين اليوم هى أحكام الكفر» على حد قوله، ففكرة الحاكمية وروح كتابات سيد قطب غير خافية فى رسالته وإن لم يذكره، فهو يتحدث عن تكفير الأنظمة وجهادها، ومفاصلة المجتمع، و«دعوة الناس إلى الإسلام» وغير ذلك.

كما أن أفكار وإصدارات الجماعة الإسلامية المصرية عن الجهاد وتحكيم الشرع والمواجهة مع الأنظمة لا بد أن تتماس مع فكر سيد قطب، وليس بالضرورة أن يكون الشكل الوحيد للتفاعل هو النقل والاقتباس، ففكر العنف يبدو لى بطبيعته لا يقف عند مرجعية ثابتة، بل يطوّر نفسه وفق تعقيدات مختلفة تتعلق بالظرف والزمان والأشخاص، ولا يمكن السيطرة عليه، وهو الأمر الذى يفسر الانشقاقات التى تحصل داخل بعض التنظيمات الجهادية والعنفية.

إن أى حركة جهادية أو تغييرية عنفية لا يمكن لها أن تزهد بالمعين الثورى الذى تركه قطب، ومن هنا نجد أنه حتى حركات الجهاد الحقيقى كحركة الجهاد الإسلامى فى فلسطين تحتفى بسيد قطب مع على شريعتى، ومالك بن نبى، وثلاثتهم يشكلون وفق تعبير زعيمها الشهيد فتحى الشقاقى «مثلثًا خطيرًا فى الفكر الإسلامى الحديث»، وكان كتاب «المعالم» من ضمن ما استند إليه الشقاقى فى «كيفية الصياغة الثورية للفكر الإسلامى». فسيد قطب تم النظر إليه فى حركة الجهاد من زاوية تحقيقه «للشرط الذاتى» لعمليتى البعث والنهضة، الشرط الذاتى كمحرك للذات الإسلامية التى أرادها متميزة وواعية بأزمة التحدى الغربى للأمة[8].



إن أفكار وإصدارات الجماعة الإسلامية المصرية عن الجهاد وتحكيم الشرع والمواجهة مع الأنظمة لا بد أن تتماس مع فكر سيد قطب



إذن إن ثورية قطب وأفكاره تشظت على مجموعات ورجالات مختلفة التوجهات والعمل الحركى الإسلامى.

اعتذاريات القطبيين..

ومنهجية قراءة فكر قطب

أما فيما يخص المسألة الثانية فيميل المدافعون عن قطب، إلى أن المسألة لا تعدو أن تكون مشكلة قرائه، لا مشكلته هو. ويعتذرون بأدبيته عن فقهيته، وبليونة تعبيراته عن دقة مدلولاتها، وبأفعاله مع أقواله عن أقواله فقط، وبالجمع بين نصوصه عن بعضها فقط، وبظروف المولعين به عن مدلولات أفكاره فى ذاتها، وأن الظروف أوصلتهم إلى ما أوصلتهم إليه. وهنا يحسن أن نذكر ملحوظات منهجية فى التعامل مع الأفكار، ومع فكر سيد - رحمه الله - تحديداً.

١- ضرورة النظر لملابسات تأليف الكتاب:

إنه لا بد من النظر مرة أخرى فى ملابسات تأليف الكتاب الذى يُرجع إليه، وأن مصنفات كاتب ما ليست جميعها على الدرجة نفسها من العمق والتحرير أولاً، فمنها ما يكون فى ابتداء الأمر، ومنها ما يكون لأغراض أخرى؛ فقد كان من عادة العلماء قديماً أن يصنفوا الكتب فى بداية طلبهم، لمجرد النفع الذاتى، وثانياً لأن الكاتب نفسه قد يطرأ عليه تغيير فى فكره فيرجع عن شىء دوّنه قبلُ. وهذا لا بد من تحريه بالوسائل المنهجية المعروفة لدى المعنيين بهذا الشأن.

نضرب مثلا للأول، بالإمام الحافظ ابن حجر الذى قال فى أَخَرة من حياته: «لست راضياً عن شىء من تصانيفى لأنى عملتها فى ابتداء الأمر، ثم لم يتسنَّ لى تحريرها سوى شرح البخارى ومقدمته والمشتبه، والتهذيب، ولسان الميزان. وأما سائر المجموعات فهى كثيرة العَدد، واهية العُدد، ضعيفة القوى، خافية الرؤى»[٩].

ونضرب مثلاً آخر بالإمام الحافظ الذهبى الذى قال: «كتاب مستدرك الحاكم كتاب مفيد، وقد اختصرته ويعوز عملاً وتحريراً»[١٠]. وأمام هذه النصوص يتبين لنا الخطأ الذى يقع فيه عديد من الباحثين المعاصرين حين يتجاهلون هذه الكلمات أثناء تعاملهم مع تلك المصنفات، فيشنع بعضهم على الذهبى مثلاً لكونه سكت عن حديث ضعيف أو موضوع فى المستدرك!، أو لخطأ وقع من ابن حجر فى كتبه التى لم يحررها ومات غير راض عنها!.

وللثانى نضرب مثالاً بالإمام الكبير الشافعى رضى الله عنه، ومعلوم أنه تراجع عن مذهبه القديم ولم يُحلّ الرجوع إليه باستثناء مسائل معدودة يعرفها أهل الفقه.

وفيما يخص سيداً، وهو قاصر عمن سبق ذكرهم مكانةً، غير أن المنهج نفسه ينطبق عليه، فقد ذكر القرضاوى فى مذكراته[١١] فقال: «حدثنى الأخ د. محمد المهدى البدرى أن أحد الإخوة المقربين من سيد قطب - وكان معه معتقلا فى محنة ١٩٦٥م- أخبره أن الأستاذ سيد قطب عليه رحمة الله، قال له: إن الذى يمثل فكرى هو كتبى الأخيرة: المعالم، والأجزاء الأخيرة من الظلال، والطبعة الثانية من الأجزاء الأولى، وخصائص التصور الإسلامى ومقوماته، والإسلام ومشكلات الحضارة، ونحوها مما صدر له وهو فى السجن، أما كتبه القديمة فهو لا يتبناها، فهى تمثل تاريخاً لا أكثر. فقال له هذا الأخ من تلاميذه: إذن أنت كالشافعى لك مذهبان: قديم وجديد، والذى تتمسك به هو الجديد لا القديم من مذهبك؟. قال سيد رحمه الله: نعم، غيّرت كما غيّر الشافعى رضى الله عنه. ولكن الشافعى غير فى الفروع، وأنا غيرت فى الأصول!».ا.هـ

هذه الشهادة التاريخية لها قيمتها التى لا تنكر، ومع ذلك يجب أن نحتاط منهجيًا فيها، ويكون ذلك بالدراسة المتأنية لأفكاره قبل السجن وبعده، ورصد المتغيرات التى طرأت عليه، ويدعم تلك الشهادة شهادة أحمد عبد المجيد[١٢] الذى كان من الدائرة الأولى التى تجالس «قطب» وتأخذ منه مباشرة، وتأثرت بأفكاره تأثراً كبيراً، وهو يقرر أن التغير طرأ فى السجن وفى أصول أفكاره (الجاهلية، الحاكمية، المفاصلة الشعورية،...). ولا شك أن آخر ما يكتب الرجل هو آخر ما ينتهى إليه فكره فى كمال نضجه.

٢- تأريخ الأفكار وخطأ الجمع بين الأقوال:

بناء على ما سبق فإن من الخطأ الجمعَ الاعتباطى بين أفكاره، وحمل بعض نصوصه على بعض، فمعلوم أن فكر سيد مر بمراحل وظروف مختلفة، وتأريخ أفكاره هنا بالغ الأهمية، فلا يمكن مثلاً الاستدلال على فكره بنصوص من رسائله لأخته أيام إقامته فى أمريكا (٤٨-١٩٥٠م)، التى نُشرت فى كتابه «أفراح الروح» للبرهنة على أن قائل هذا الكلام لا يمكن أن يكفّر المجتمع!. فلا بد لمن يريد أن يفهم سيد قطب أن يحيط بمراحل حياته وتطوره فيها، حتى يعرف حقيقة موقفه الذى انتهى إليه.



إن مشكلة البعض[١٣] ممن تحدث عما أسماه بـ «المنهج الإسلامى فى الجمع بين الأقوال المتعارضة» للجمع بين أقوال سيد قطب: أنه يقع فى مشابهة مذمومة، فيستعير المنهج الإسلامى للتعامل مع نصوص الوحى، ليطبقها على أقوال البشر!!. والفوارق المنهجية - فضلاً عن الدينية - كبيرة، فالجمع والترجيح والنسخ والتوقف، وهى الخيارات المطروحة بضوابطها للتعامل مع نصوص الوحى (قرآن أو سنة) المتعارضة أو التى «ظاهرها التعارض»: مبنية أصلاً على نزاهة النص الدينى لأنه لا ينطق عن الهوى، وعلى براءة القائل من الوقوع فى التناقض أو النسيان الذى هو شأن البشر، وعلى عصمة التشريع الإلهى من خضوعه للتطور، أو اكتشاف مجهول ونحو ذلك من الفروق، دون أن ندخل فى الفروق المرجعية بين نص وحى وحى لا



الإمام الكبير الشافعى رضى الله عنه، معلوم أنه تراجع عن مذهبه القديم ولم يُحلّ الرجوع إليه باستثناء مسائل معدودة يعرفها أهل الفقه



هذه الشهادة التاريخية لها قيمتها التى لا تنكر، ومع ذلك يجب أن نحتاط منهجياً فيها، ويكون ذلك بالدراسة المتأنية لأفكاره قبل السجن وبعده



مناص من الاحتكام إليه، وبين نص بشرى لا يضير تجاهله وعدم معرفته أصلاً!.

فكيف بعد هذه الفوارق لو علمنا أن فكر سيد نفسه تعرض لتطورات وتغيرات حكمت بها ظروفه النفسية والفكرية والوجدانية، قبل وبعد السجن؟ ضميمةً إلى ما نُقل من شهادة عنه سابقًا؟!.

٣ - لغة الكاتب وبناؤه المفاهيمى:

مسألة أخرى تثار فى الاعتذاريات عن قطب، وهى أدبيته، ولا بد أن نقرر أن المعانى تُطلب من المفاهيم لا من الألفاظ، فمن طلب المعانى من الألفاظ ضل وتاه، وقوام الأدبية قائم على التشبيه والتخييل والتمثيل، ورقة العبارة، وسعة التعبير، وفى هذا غلبة للحس على اللفظ، وللعاطفة على الفكر، ومشكلة قطب أنه خاض بعباراته المرنة هذه فى قضايا عقدية، والمسائلُ العقدية يطلبها الناس من الألفاظ، والأحكام الشرعية تقوم فى الحدود والعبارات، فلا يمكن تبرئة الأديب سيد قطب - رحمه الله - من مسؤولية عباراته.

ثم إن المفاهيم التى شرحها ونظّر لها حين تُضم إلى بعضها لا يمكن إلا أن تؤدى إلى نتائج عنيفة، من الجاهلية والحاكمية - على ما شرحه وأفاض فيه- والجهاد وفق شرحه، والبرنامج الحركى الذى رسمه فى معالمه، ومنعه الاجتهاد الفقهى بتعليله السابق، والقول بتوقف وجود الإسلام، وبإنشاء المسلمين من جديد، وحصر الإسلام فى الطليعة المؤمنة التى ستشكل نواة المجتمع المسلم المنشود، إلى غير ذلك.

إن إطلاقية قطب الصارمة فى مجمل ما يصدر عنه بوصفه يقينًا لا يحمل الاجتهاد، وصوابًا لا يحمل شائبة من الخطأ، كل هذا يبنى تصورًا ويُشيد قلاعًا، ويحطم كل الجسور، لأن المسألة لديه أبيض وأسود فقط والثالث مرفوع!.

أقول هذا مع علمى بأنه هو نفسه حين سئل عن التكفير قال: إن «المسألة تتعلق بمنهج الحركة الإسلامية أكثر مما تتعلق بالحكم على الناس»[١٤]، وهو بالفعل كان معنيًا بهذا فى فكره وكتاباته، وكذلك أنا لست معنيًا هنا بأن قطبًا يكفر المجتمع أو لا، غير أن مفاهيمه لم تكن لتقف عند حدود المقدمات التى تبنيها دون النتائج التى تسكت عنها، بل كان من المنطقى أن يأتى من يستنتج من تلك المقدمات ما تحمله فى طياتها وفى ذاتها!.

فكر قطب.. وضرورة المراجعة

أميل إلى النظر إلى الفكر الإسلامى- بما هو نتاج بشرى- كحركة كلية بكل تنويعاته وانشقاقاته، مع ربطها فى سياقاتها زمانًا ومكانًا وأفكارًا، وبأن كل فصيل يؤدى دورًا فى زمنه، اتفقنا أو اختلفنا معه، وهذا يكمن فى بحث التساؤل الكبير أمام نشأة كل فكر أو اتجاه: لماذا نشأ هنا والآن، زمانًا ومكانًا وفكرًا؟ وفى مواجهة من.. وماذا؟ ولماذا ينمو ولماذا يخبو؟ غير أن الحركة (الكلية) للفكر لا بد أن تحصّل فوائد فى نهاية النظر، بحسب النتائج التى أنتجها هذا الفكر أو الاتجاه، والأغراض التى أداها، سلبًا وإيجابًا، وهكذا يمكن أن تُقرأ المسارات البارزة فى الفكر الإسلامى من ظهور الشافعى - مثلاً - إلى ابن تيمية إلى.. سيد قطب مع حفظ التفاوت فى المكانة بينهم.

وإذا كان فكر قطب نشأ فى الظرف الذى شرحته ومتزامنًا مع سؤال الندوى، فنشأة ظاهرة «الصحوة الإسلامية» التى اكتسحت المجتمعات الإسلامية برمتها منذ منتصف الثمانينيات لا بد أن تفرض نظرًا جديدًا فى تشخيصات قطب للمجتمع والأمة، والتغير الكبير الذى طرأ على الغرب طوال العقود الثلاثة الأخيرة جعل من تشخيصات قطب له جزءًا من التاريخ، وقَصْر قطب الدورَ الإسلامى المنشود على إطار القيم فقط، مُنبنٍ على ذلك التصور البسيط عن الغرب، كما كان شأن الندوى. رحمه الله- فى سؤاله وتشخيصه.

أمكن الآن الحديث أيضًا عن ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين معرفيًا أيضًا[١٥]؛ فقد نضج العقل العربى والمسلم عبر هذه العقود، وتعمقت معرفته بالغرب، معايشةً ودراسةً، وفهمًا. فنخبنا الثقافية تعلمت هناك، وتجاوزت حالة «الانبهار» به، وبدأت حقبة جديدة أظهرت نقدًا لاذعًا وعميقًا للغرب بمختلف أطيافه، وبالتأكيد ساعد على ذلك أيضًا كتابات فلاسفة ما بعد الحداثة من أمثال هابرماس وفوكو وهايدغر.. وغيرهم. فى حين أن سيد قطب عاش سنتين فقط فى أمريكا، ويبدو لى تشخيصه لأزمة القيم الغربية الذى هو غير خارج عن التصور العام السائد فى ذلك الحين: من خلال اعتماده على أمثال ألكسيس كاريل، الذى اعتمد عليه بكثرة فى تشخيصه للحضارة الغربية والدور المنشود للإسلام[١٦] فضلاً عن إفادته من تشخيص الندوى الذى كانت كتبه معه فى سجنه، وقد كانت معرفته بالغرب كما بدت من خلال نُقول بعض الغربيين التى اطلع عليها، ومن خلال «مشاهدات» عابرة وقعت له ولبعض من حوله. وخلص إلى أن الذى يقبله الإسلام من الحضارة الغربية المادية هو الجانب المتعلق بالأمور المادية الصناعية التكنولوجية، وهو التصور البسيط الذى كان سائدًا أيضًا.

إنه انطلاقا من نقد الحداثة، تفتَّحت معرفة العرب والمسلمين بالغرب فبصروا بالعيوب المزمنة داخل النسق الثقافى والعلمى الغربى، وأصبح ممكنًا الآن بهذه المعرفة إقامة مقارنات بين أنظمة معرفية مختلفة، والتعرف على بنية الأجهزة المعرفية (مفهوم العقل، ونظرية المعرفة)، واكتشاف مميزاتها وعيوبها. ولم تعد تلك الرؤية البسيطة للفصل بين الآلة والقيمة فى الحضارة الغربية دقيقة، بل هناك حديث عن بعد أنطولوجى للتقنية الآن، وحيادية التقنية ما عادت موضع تسليم كما كانت.

فضلاً عن أن نظرية المواجهة العنيفة مع الأنظمة الحاكمة، والمواجهة العنيفة مع «الجاهلية الغربية». وقطب يقول بكل ذلك - أثبتت التجارب فشلها، وبينت الأحداث التى شهدناها داخليًا فى الثمانينيات والتسعينيات، وخارجيًا بدءًا من أحداث سبتمبر، كارثية هذا الخيار، وأضراره على الأمة.



كما أن الهيمنة الأمريكية العسكرية على قلب العالم الإسلامى، والمقاومة الفلسطينية، والمحن المتوالية على الأمة، والتحديات التى تواجهها الآن، واتخاذ الصراع عناوين وممارسات دينية: أدت إلى تمسك شديد بالهوية الإسلامية، فما عدنا بحاجة إلى الحفاظ على إسلامنا بالوقوف عند تخوم «المشاعر» ببث الثقة فى النفوس. والوقوفُ عند فكر الهوية والعودة إليه من شأنه أن يزيد من تأخرنا ويضيّع علينا المزيد من الوقت لأجل البناء الطويل الذى نحتاجه. والتغيير والتطوير لا يمكن أن يتوقف لأجل أنه يوافق هوىً أو شعارًا خارجيًا أو داخليًا، المهم أن نعلم ما نحن بحاجة إليه ونعمل وفق أولوياتنا دون تجاهل لما يجرى حولنا، مع الحرص على الفصل والتمييز بين ما هو سياسى داخلى أو خارجى وما هو معرفى يمليه البحث والدرس للواقع. ■

هوامش

(١) سيد قطب، معالم فى الطريق، القاهرة، دار الشروق، المقدمة.

(٢) يقول أحمد عبد المجيد وهو من تنظيم ٦٥ الخاص فى شهادته عن قطب: «حدث تغيير فى أفكار سيد قطب، فعندما كان فى مستشفى ليمان طرة، طلب من أسرته كتب الشهيد «حسن البنا»، والأستاذ «أبو الأعلى المودودى»، فبدأ يتنبه إلى أمور كانت غائبة عنه، خاصة فى ضرورة التركيز على موضوع العقيدة، ثم بدأ يطلب كتب «ابن تيمية» و«ابن القيم»، وبدأ التغير فى تفكيره وكتاباته، وظهر ذلك جليًا فى الطبعة الثانية من الظلال، بدءا من الجزء (١٣) والأجزاء الأخيرة، وكتاب «خصائص التصور الإسلامى»، و«مقومات التصور الإسلامى» و«معالم فى الطريق». (الشهادة منشورة ضمن هذا الكتاب).

(٣) عبد الله عزام، عملاق الفكر الإسلامى الشهيد سيد قطب، باكستان، مركز شهيد عزام الإعلامى، ط١، ص٢٧.

(٤) فى تصريح مع كميل الطويل، أبو قتادة: الظواهرى «حكيم الحركة الإسلامية» وكتاب الزيات عنه «انتقام» و«حالة شاذة»، الحياة ٢٠٠٤/ ١٢/٠٥.

(٥) أبو قتادة (عمر محمود أبو عمر)، الجهاد والاجتهاد: تأملات فى المنهج، (نسخة إنترنت) فصل (الجهاد والتغيير)، ص٤٥.

(٦) المرجع السابق، ص٤٨.

(٧) انظر: صالح سرية، رسالة الإيمان، ضمن: رفعت سيد أحمد، النبى المسلح ١٩٩١م.

(٨) انظر: أنور أبو طه، حركة الجهاد الإسلامى فى فلسطين، رسالة جامعية فى علم الاجتماع السياسى، الجامعة اللبنانية، ١٩٩٩م، فصل: «أيديولوجيا الإسلام المحارب». سنة ١٩٩٩م.

(٩) قال ذلك فى المعجم المؤسس له، ونقله عنه السخاوى أيضًا، ونقله: الكتانى، فهرس الفهارس، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامى، ج١ص٣٣٧ .

(١٠) الذهبى، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ج١٧ص١٦٧.

(١١) القرضاوى، ابن القرية والكتاب، القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٦م، ج٣، ص٦٢. وأصل الكلام فى مجلة الشهاب، سنة ١٩٧٢م، بعنوان: «سيد قطب فى يوم ذكراه» بقلم محمد البدرى، وقد حكاه عمن وُصف بأنه «حوارىّ سيد قطب».

(١٢) انظرها فى هذا الكتاب.

(١٣) كصلاح عبد الفتاح الخالدى، سيد قطب، (أعلام المسلمين)، دمشق، دار القلم، ط١، ٢٠٠٠م، ص٥٨٠

(١٤) سيد قطب، لماذا أعدمونى، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، ص٣٦.

(١٥) عالج هذا السؤال: عبد الرحمن الحاج، فى مقاله: فلسفة العلم.. أزمة المعرفة فى سياق الحداثة ، مقال منشور على موقع «إسلام أونلاين.نت».

(١٦) نقل عنه مثلاً فى «المستقبل لهذا الدين» الذى صدر سنة ١٩٦٠م نحو ١٠ صفحات، وفى «الإسلام ومشكلات الحضارة» الذى أصدره سنة ١٩٦٢م نحو ١٥ صفحة فى فصل بعنوان كتاب كاريل نفسه «الإنسان ذلك المجهول»، فضلا عن تكرار نقله عنه فى مواضع متعددة من الكتاب.



■■ قد يبدو غريباً أن يكون شخص فوق الاتهام!. لكن هذا جاء ليُمايز معالجتنا هذه لموضوع (سيد قطب وفكره) عن تلك (القراءة المريضة). وربما سماها البعض (القراءة الظاهرية)، وفي هذا ظلم لمذهب إمام كبير بوزن ابن حزم رحمه الله، مهما يكن موقفنا منه. فآفة تلك القراءة المريضة في عقول أصحابها وقلوبهم التي سوّلت لهم القول بكفر قطب نفسه أو أنه يقول بوحدة الوجود أو ما شابه ذلك!.

كما أن نفي الاتهام وُضع ليميز بين الطعن في الأشخاص ومناقشة الأفكار، فلسنا هنا معنيين بشخص قطب.رحمه الله- جرحًا أو تعديلاً على طريقة المتسلفين الجدد الذين شوهوا علمًا جليلاً اسمه (الجرح والتعديل) فجعلوه مطية لادعاءاتهم وتصفية حساباتهم مع خصومهم!.

إنه يجب الفصل ـ بحدة ـ بين الأفكار والأشخاص، وبين صحة الأفكار وتضحية أصحابها ومصيرهم، فموت الأشخاص في سبيل فكرة لا يعني صحتها، ولكن لا شك أننا نقدر هذا الصدق والإخلاص للأفكار ـ مهما تكن ـ وقد عزّ في زماننا!. فهذان موقفان متمايزان: موقف أخلاقي نلتزمه، وموقف فكري نناقشه ونأخذ منه وندع.

سيد قطب فوق الاتهام بوَصْفه شخصاً دفع حياته ثمنًا لأفكاره، وشَهِد أنَ شرع الله ـ وفق اجتهاده وإن اختلفنا معه ـ أغلى من حياته، ورفض أن يشتري الحياة الزائلة بكذبة لن تزول! وقال: إنه يرفض أن يكتب بسبّابة توحّد الله ما يضارّها!. وهو القائل: (إن كلماتنا ستبقى عرائس من الشموع حتى إذا متنا من أجلها انتفضت حية وعاشت بين الأحياء)، وهذا ما يجعل من الفصل بين صحة الفكرة وتضحية أصحابها في سبيلها صعبًا على المستوى المنهجي، فالناس تتعاطف دائمًا مع الضحية، وأفكار الموتى تتقدس، فكيف بمَن وُصفوا بالشهادة؟ إنها بهذا تتغذى من مَعين الثورية والقدسية معًا!. وهذا من شأنه أن يزيد الأمور تعقيداً، ويصعّب الأمر على الباحثين في فكر سيد ـ رحمه الله.

لم يَدُر في خلدي يوماً أن أخصص كتاباً موضوعه سيد قطب، إلا أن وقفة العلامة الشيخ يوسف القرضاوي (مع الشهيد سيد قطب) في مذكّراته التي نشرها، وقوله: إن سيداً رَكَن إلى التكفير وتَوَسع فيه، أثار انتقادات استدعت فكر الرجل، فنهض الشيخ للدفاع عن رأيه وكتب ما نُشر تحت عنوان (هل يُكَفر قطب مسلمي اليوم؟)، فزادت الانتقادات، ووجدنا أنفسنا متورطين في الموضوع، فخصصتُ ملفاً عن الموضوع نُشر على موقع إسلام أونلاين سنة ٢٠٠٤م، قرأه الشيخ القرضاوي كاملاً، ثم كتب ما أسماه (كلمة أخيرة حول سيد قطب)، علّق فيها على ما جاء في الملف من مقالات وشهادات وانتقادات، ثم هدأت القضية وخلتُ أن المعالجة بهذا كَفَت ووَفَت، حتى عادت المسألة إلى ساحة المناقشة والجدل من جديد في سنة ٢٠٠٩ حينما تحدث الشيخ القرضاوي ـ مرة أخرى ـ عن موقفه من سيد قطب في برنامج (منابر ومدافع) على إحدى الفضائيات المصرية: (فراعين)، فعاد السجال سيرتَه الأولى واحتدم، وانقسم الناس فرَقًا!. وهذا ما استدعاني مرة أخرى إلى تخصيص هذا الكتاب عن الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ وفكره.

ومن المهم هنا أن نبيّن تاريخ الاهتمام بفكرة التكفير؛ فقد بدأت في السجن أولَ الأمر، حين انتشرت بين مَن سُمّوا (إخوان ١٩٦٥م) داخل المعتقلات، وأثارت فتنةً عارمة في صفوف الإخوان استدعت ـ في حينها ـ أن تُصدر الجماعة سنة ١٩٦٩م كتاب (دعاة لا قضاة) بتوقيع المرشد العام حسن الهضيبي رحمه الله، الذي تمّ تداوله بين صفوف الجماعة حتى إنه كان يُسمى (البحث)، وذلك لمحاولة ضبط الوضع خوفًا من انتشار فكرة التكفير والحكم على معتقدات الناس.

ويبدو أن تلك الفكرة انتشرت بعد كتاب (المعالم) الذي تم تصنيفه في السجن قبل الإفراج عنه للمرة الأولى سنة ١٩٦٤م[1]، وقد تكون تلك المحنة - أعني فكرة التكفير- من آثار ذلك الكتاب، وقد رأى جمال باروت في مقاله الآتي أن حسن الهضيبي في كتابه يردّ على (معالم في الطريق) خاصة، مع أنه لم يذكر اسم سيد قطب ولا مرةً واحدةً في الكتاب!، لكن الشيخ القرضاوي ـ كما سيأتي ـ يعتقد اعتقاداً جازمًا أن الهضيبي وإخوانَه لم يقرؤوا ما كتبه سيد في ذلك الوقت، وإلا لَردّوا عليه بالاسم، في حين أن اسم المودودي والنقد الصريح له ورد في الكتاب المشار إليه. والسبب في ذلك ـ كما يرى الشيخ القرضاوي- أن كتابات قطب الجديدة لم تكن انتشرت في ذلك الوقت، ولذلك كانت كل المحاورات والمجادلات تدور حول ما سمعه بعض الأشخاص من سيد مشافهة.

الموجة الثانية من فكرة التكفير- إن صح التعبير- كانت في سنة ١٩٧٢م في الذكرى السادسة على استشهاد سيد قطب ـ رحمه الله- فقد أفردت مجلة (الشهاب) التي كانت تصدرها الجماعة الإسلامية في لبنان، صفحاتٍ للحديث عن سيد وفكره في ذكراه، بدأت بمقالة لمحمد البدري بعنوان (سيد قطب في يوم ذكراه) نقل فيها عمن (مكث مع سيد قطب عشر سنوات لا يفرقهما إلا نداء السجان عند الغروب ليدخل كلٌ إلى زنزانته، ويجمعهما الصباح من جديد ليقضيا يوماً كله علم وفكر ودراسة في ظلال القرآن، فكان تلميذَ السيد وحواريَّه وحاملَ فكره والداعي إليه. هكذا قال عنه السيد نفسه رحمه الله، وهكذا عرفه إخوانه).

في تلك المقالة يتحدث هذا الحواريّ عن ظروف نشأة تلك الأفكار، والضغوط والملابسات التي عاشوا فيها فولّدت تلك الأفكار، وينقل عن سيد قوله: إنه غيّر في الأصول لا في الفروع، ونقل فيها البدري عن حواريّ قطب هذا الذي لم يُسمِّه قوله: (وما أحسب سيد قطب والله ـ بما



أزمة أفكار .. أم مشكلة قراء
سيد قطب.. وجماعات العنف والتكفير
سلسلة «الإسلاميون.. طرق وحركات»
اعداد وتحرير: معتز الخطيب
شبكة «اسلام أون لاين» ـ القاهرة ٢٠٠٩



من المؤسف أن لا يدرك بعض الشباب المخلص
أن ما يقوله إنسان أو يكتبه فى مثل هذه الظروف لا يمكن أن يكون معبِّرًا عن حقيقة
رأيه فيما لو عاش ظروفًا طبيعية هادئة



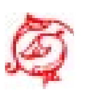
عرفته فيه وخبرته منه- لو امتدَّ به الأجل، واستقبل من أمره ما استدبر، ورجع إلى دنيا الناس وواقع الحياة إلا غيَّر وجدَّد ورأى غير ما كان يرى، وقال غير ما كان يقول).

لكن مقالة البدرى أثارت ردوداً من المتحزبين لقطب، فكتب حامد أبو ناصر: (ليس فى فكر سيد ما تدعو الحاجة لتعديله)، وفيه رأى أن سيداً (بنى آراءه وأفكاره على أصول راسخة رسوخ الجبال)، ويقدم النصح للبدرى وأمثاله بالقول: (نحن ننصح لهؤلاء أن يحتفظوا بأفكارهم ويتركوا شباب الدعوة وجيلها الجديد يتسلح بهذه الأفكار ويشق طريقه من خلال ظلام الجاهلية ليعيد الصرح الإسلامى الجديد)، ويتساءل عن الشىء الذى سيغيره قطب لو امتد به الأجل، (وهل العقائد عرضة للتغيير والتبديل حسب ظروف الفسحة والشدة؟). (صحيح أن الذى يستقصى حال المجتمع من الخمسينيات وحتى السبعينيات يجد أن المجتمع قد انتقل نقلة بعيدة، ولكن فى مجال البعد عن الله عز وجل، ويجد أن التجدد فيما يقدمه اليهود وأتباعهم لهذه الأمة من موضات فكرية وتقليعات فى العادات واللباس).

إن صاحب هذا المقال يلح على استمرار الجاهلية، وأن المسألة مسألة عقيدة لا تتغير، ولا بد من إقامة صرح الإسلام الجديد.

فى أعداد لاحقة، كتب ع. أبو عزة مقالين بعنوان: (الحركة الإسلامية فى الدوامة)، رأى فى جزئه الأول أن الحركة الإسلامية حققت أعمالاً مجيدة، لكنها تواجه اليوم - أى أوائل السبعينيات- فراغًا فكريًا مريعًا، أما فى جزئه الثانى (عدد ١٧ السنة السادسة ١٩٧٢) فقد استدعى وجهة نظر مخالفيه المفترضين فقال: (هؤلاء قد يحتجون - عادة - بأن هناك منهجًا حركيًا مصوغًا مدوَّنًا متكاملاً ومطبوعًا فى كتب تزخر بها المكتبة الإسلامية، وأن الحل الأمثل يكمن فى تبنى هذا المنهج... وهم يعنون بذلك ما تضمنه كتاب (معالم فى الطريق) للشهيد سيد قطب - رحمه الله).

ثم بدأ فى نقد فكر قطب وكتاب المعالم فقال: (رغم قناعتى بإخلاص صاحب المعالم - رحمه الله - إلا أننى مقتنع كذلك بأنه جانَبَ الصواب فى كثير من أجزاء الصورة التى تخيلها، والتى سماها الكثيرون من المتحمسين منهجًا، ورأوا فيها الخلاص). وكرر فكرة أن سيد قطب (صاغ منهجه وهو يعيش ظروفًا بالغة القسوة ويتعرض لاضطهاد بشع، ولقد استثارت فيه هذه الاضطهادات أعنف أنواع التحدى وأشد حالات الرفض، وقد عبَّر عن هذه الأوضاع النفسية بعواطف مشبوبة وبأسلوب أدبى أخاذ. وإذا كان له عذره فيما قال وكتب، فمن المؤسف أن لا يدرك بعض الشباب المخلص أن ما يقوله إنسان أو يكتبه فى مثل هذه الظروف لا يمكن أن يكون معبِّرًا عن حقيقة رأيه فيما لو عاش ظروفًا طبيعية هادئة. إنها ليست منهجًا إسلاميًا، إنها صرخات احتجاج عنيفة صادرة من قلب يتمزق ألمًا ويذوب حرقة من لهب الاضطهاد المتلاحق).



ويرسم أبو عزة ملامح التفكير الجديد المرجو من الحركة الإسلامية بإعادة تحديد موقف الفرد الإسلامى - بوضوح- من حركته، فرديًا وجماعيًا، وموقفه من أفراد مجتمعه من مسلمين وغير مسلمين، ومن الشعوب الأخرى، ومن العالم أجمع. ثم إعادة تحديد موقف الحركة الإسلامية من مجتمعاتها وحكام بلادها على اختلاف مسالكهم، ومن عامة المسلمين وغير المسلمين، إلى جانب ملامح أخرى.

فأبو عزّة كتب فى الذكرى السادسة لقطب، نقداً جذرياً لفكر قطب، ومعالمه، واقترح إعادة التفكير من جديد فى مجمل المسائل التى طرحها قطب بتحديد الموقف من المجتمع والحكام والأفراد وغير المسلمين والرؤية إلى العالم وغير ذلك. وهو المنهج الذى رأى أنه يغيب عن الحركة الإسلامية فى وقتها، التى تعانى فراغًا كبيراً.

أثارت كتابة أبى عزة انتقادات، فكتب محمد سلامة جبر فى عدد لاحق ما عَنْونَه بـ(حاول أن يلغى بعشرة أسطر ما كتبه سيد قطب فى عشر سنوات)، قال فيه: إن سيد قطب لقى (أحسن المعاملة بعد انتهاء البداية القاسية للمحنة، ووضع فى المستشفى مدة سجنه، وسُمح له بالكتابة والنشر وزيارة الأهل له بانتظام...)، وإن سيداً (اعتصم بالدليل فى كل ما كتب، وفى كل ما خطَّ من منهاج وغاية)، وإن وجوب الرد على أبى عزة ليس مبعثه الحرص على مقام سيد فى النفوس فقط، بل الحرص على عدم التشكيك فى الغاية التى حددها سيد والمنهاج الذى رسمه أيضًا.

ثم كتب محمد توفيق بركات مقالاً بعنوان (النقد بين الموضوعية والتشكيك)، ردَّ فيه على أبى عزة، وأعاد القول: إن الأستاذ سيداً (كان فى جو يسمح له بالكتابة مدة سبع سنوات حيث انقطع التعذيب تقريبًا فى أعوام ١٩٥٨م إلى ١٩٦٥م، حين اعتُقل ثانية)، وقال: إن الموضوعات التى اقترحها للتفكير قد (أجاب عليها سيد قطب بصورة مفصلة، وأجاب على موضوعات أخرى لم يخطر لأبى عزة أن يومئ إليها!).

ثم كتب حامد الرفاعى (فكر سيد قطب يواجه التحديات)، ورأى أن هناك (هجمة عنيفة ومركزة تستهدف فكر المجاهد الشهيد سيد قطب طيّب الله ثراه)، ورأى أن تلك الهجمة مشبوهة، وتساءل فى آخر المقال: (ما هى الفائدة المرجوة وفى مثل هذه الظروف القاسية المريرة التى تعانيها الحركة الإسلامية فى كل مكان، من الخوض فى مثل هذه الموضوعات على افتراض وجودها...)؟.

ثم كتب صالح عرفان مقالاً رأى أن سيداً (رسم صورة حقيقية لمجتمع خبره وعرفه عشرات السنين)، وأنه قد (شهد لكتاب المعالم كبار رجال الفكر الإسلامى، بل إن الأستاذ على الطنطاوى وصفه بأنه أفضل كتاب أُلّف فى العشرين سنة الأخيرة)، وأن سيداً (كتب المعالم فى الفترة الأولى من سجنه وليس فى الفترة الثانية التى تعرّض فيها لاضطهاد أبشع وأقسى، أى فى نفس الفترة التى كتب فيها الظلال)[٢]، وإلا علينا أن نسلم بأن الظلال أيضًا صرخات!. ثم (إن كبار المفكرين وأصحاب المذاهب الفكرية والمذهبية كتبوا أحسن ما كتبوا وهم فى السجون)، والمرحوم سيد هو الوحيد صاحب المدرسة الفكرية الجديدة من بين أبناء الدعوة بعد المرحوم حسن البنا، هو الوحيد الذى زوّد الدعوة بآراء واجتهادات جديدة وجريئة وواثقة.

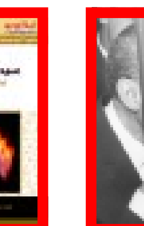
وقد دفعت هذه الردود ع. أبو عزة إلى إثبات أن سيد قطب يكفِّر عامة المسلمين، فكتب مقالاً مطولاً عن (التكفير والجاهلية) نُشر على ثلاثة أجزاء[٣]، أورد فيه نقولاً من كتاب المعالم تحتوى على التكفير، ثم بيَّن موقف العلماء من التكفير.

الموجة الثالثة من التكفير - إن صحَّ التعبير كذلك- كانت فى سنة ٢٠٠٤م حينما تَعرَّض الشيخ القرضاوى- أثناء كتابة مذكراته- إلى موقفه من سيد قطب، وأنه رَكَن إلى التكفير ومال إليه، فأثار كلامه انتقادات عديدة كان بعضها حاداً، فاضطُرَّ لجمع النصوص المؤيدة لكلامه من كتب قطب: الظلال، والمعالم، والعدالة الاجتماعية، وهذه الموجة التى ساهمتُ فيها بالإعداد والتحرير والنشر على شبكة إسلام أونلاين. ثم أُعيد فتح الموضوع سنة ٢٠٠٩م حينما تحدث فى البرنامج المشار إليه سابقًا، وأثار انتقادات غلب عليها الانفعال والإنشاء، نُشرت على شبكة إسلام أونلاين ولم نتعرض لها فى هذا



إن وجوب الرد على
أبى عزة ليس مبعثه الحرص على
مقام سيد فى النفوس فقط، بل الحرص على عدم
التشكيك فى الغاية التى حددها سيد
والمنهاج الذى رسمه أيضًا









الكتاب؛ لأنها تفتقر إلى العمق والجدية، مكتفين بانتقادات سنة ٢٠٠٤م.

وقد بدأ نَقْد القرضاوى لأفكار سيد قطب مبكرًا فى بداية الثمانينيات من خلال نقده لموقف قطب من الاجتهاد الفقهى، ودوّن ذلك فى كتابه (الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية)[٤]، وكذلك بدأ نَقده فى مسألة التوسع فى التكفير أثناء مشاركته فى أحد مؤتمرات البحرين مطلع الثمانينيات فيما أحسب.

والمتأمل لتاريخ الحركة الإسلامية الإخوانية تحديدًا، يدرك أن فيها علامتين بارزتين بعد مؤسسها حسن البنا، وهما قطب والقرضاوى، فأحسب أن القرضاوى شغل فراغًا كبيرًا عانى منه الإخوان، من حيث (غلبة الجانب العملى والجهادى على الجانب العلمى والفكرى)[٥]، وهذا الفراغ كان الدافع لمحاولة تلقيح فكر الإخوان المسلمين بفكر (الجماعة الإسلامية) فى شبه القارة الهندية[٦]. بل إن جهد القرضاوى يتضح بجلاء فى تنظيره للحركة الإسلامية، وتأصيله لقضاياها تأصيلاً (شرعيًا) يصل التراث بالمعاصرة، وفق مسلكيته الوسطية، وهذا ما يميزه عن كاتب بحجم الغزالى - رحمه الله - على عمق أفكار الغزالى ووضوح اتجاهه الإصلاحى.

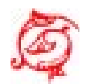
ويتضح هذا الفراغ الذى شغله القرضاوى، فى مجيئه بعد سيد قطب الكاتب الكبير الذى كسبه الإخوان فى صفوفهم، لكنهم غصّوا به وبفكره، فالفراغ الذى عانوا منه، والتلاقح الذى حصل من فكر المودودى، توّجَه انضمام سيد قطب إليهم، وتطويره لأفكار المودودى: الحاكمية والجاهلية، وهو ما أحدث انتقادًا واسعًا داخل الجماعة نفسها، وبقى محلّ جدل حتى الآن، إذ لا تزال تعزى ظواهر العنف والتكفير إلى سيد قطب بوصفه الأب الروحى لها[٧].

وفى الواقع ساهمت جهود القرضاوى فى رأب الصدع الذى أحدثته أفكار سيد قطب، التى خالف فيها دعاة الحركة الإسلامية قبله، وأبرزها أربع أفكار بالغة الخطورة: الأولى: (الحاكمية السياسية) التى استعارها من المودودى، وعنها برزت فكرة تكفير الأنظمة القائمة، والثانية: أنه بنى على فكرة الحاكمية تكفير المجتمعات المسلمة وأنها لا بد أن تدخل الإسلام من جديد عبر شهادة أن لا إله إلا الله على معنى الحاكمية المطلقة،

القرضاوى قطف ثمار الصراع مع القومية والتقط اللحظة المناسبة للكتابة فى النظام السياسى الإسلامى بوصفه حلاً حتميًا



والثالثة: أنه قدم مفهومًا جديدًا للجهاد اعتبره فيه حربًا على العالم بأسره، والرابعة: أنه لا معنى - برأيه - لما يحاوله علماء العصر من تطوير الفقه الإسلامى أو تجديده أو إحياء الاجتهاد فيه، ما دام المجتمع المسلم غائبًا من أصله. فإيجاد المجتمع المسلم يسبق الاجتهاد له لحل مشكلاته.



لم يكن القرضاوى فى تلك المرحلة قد برز كاتبًا مشهورًا، فهو حين خرج من مصر ١٢/٩/١٩٦١م لم يكن له إلا كتابان[٨] هما: الحلال والحرام، والعبادة فى الإسلام، وهما كتابان لا يبدو فيهما البعد الشمولى للإسلام ذى الغائية السياسية. وأحسب أن هذا البعد- على مستوى الكتابة - ظهر متأخرًا بعد إعدام سيد قطب، والنكبة، وقد قام مشروعه - فى أصوله الكلية - على عكس مشروع سيد قطب تمامًا، فهو بكتابته كتاب (الحلال والحرام) لمسلمى الغرب، يجتهد لمسلمين فى مجتمع غير مسلم أصلا، فى حين أن قطبًا يمنع الاجتهاد للمجتمع المسلم نفسه بحجة أن إسلامه غير صحيح!. وعلاقة القرضاوى بالغرب ليست علاقة مفاصلة، والجهاد لديه دفاعى وليس هجوميًا على عكس قطب، والمجتمعات الإسلامية إسلامها صحيح لكنه يحتاج إلى (ترشيد)، ولذلك كتب كتبه العديدة فى (ترشيد الصحوة)، بل إن القرضاوى قد آثر مناقشة أفكار قطب والرد عليه فى مسائل عديدة بدأت بفكرة الاجتهاد، وانتهت بفكرة تكفير المجتمعات المسلمة.

بل إن القرضاوى أدرك ذلك الفراغ الفكرى فى الحركة الإسلامية وراح يملؤه، أولا من حيث إنتاجه الوفير فى مجالات العلم الشرعى والفكر والحركة، ثم فى إدراك نقطة الضعف الأساسية فى مشروع قطب وهى (أنه كان شديد الإعجاب بعلامة الهند الكبير الأستاذ أبى الأعلى المودودى وأنه اقتبس - تقريبًا - جميع الأفكار التى كانت موضع الانتقاد فى مشروع المودودى)[٩].

والقرضاوى مع هذا، أفاد من قطب ومن المرحلة التاريخية التى عاش فيها، فقد قطف ثمار الصراع مع القومية والتقط اللحظة المناسبة للكتابة فى النظام السياسى الإسلامى بوصفه حلاً حتميًا، وذلك بعد إعدام قطب وفى ظل نكبة القومية العربية. جاء ذلك فى سياق توسع شعبى ملموس لدائرة النشاط الدينى وبروز بوادر (الصحوة الإسلامية)، ولهذا فقد (نجحت المرجعية الإسلامية فى جذب جمهور واسع لأنها قادرة كعقيدة دينية على تجاوز التقسيمات التقليدية التى كانت تفرزها العقائديات الحديثة الطبقية والفكرية، وفتح المجال أمام تكوين تآلفات سياسية جديدة... لا تقبل ولا تقصى إلا على أساس معيار واحد: إعلان الانتماء للإسلام والأخذ به شعارًا سياسيًا إضافة إلى ما يمثله بشكل طبيعى كدين)[١٠].

بهذا المعنى، يمكن فهم وسطية القرضاوى، وإضافته التى قدمها للحركة الإسلامية، لجهة ترشيد الحاكمية والصحوة الإسلامية، ولجهة ممارسة الاجتهاد الفقهى، وبهذا المعنى شكّل رافدًا كبيرًا لإزالة الغلو والتطرف الذى طرأ على الحالة الإسلامية بفضل تنظيرات المودودى وسيد قطب (الانفصالية)، وما لحقهما من جماعات تَغَذت على أفكارهما[١١]، وهذا المعنى الذى أشرحه لم يتنبه إليه بعض دعاة العلمانية من خصومه الذين يخوضون معارك شخصية وأيديولوجية معه ومع فكره، دون إدراك للحالة الفكرية والاجتماعية العامة التى سادت منذ السبعينيات وحتى الآن، وكيف أنه شكّل صمام أمان حال دون توسع مزاج التشدد وأفكاره فبقى مقصورًا على جماعات وفئات معزولة هنا وهناك.

باختصار، جاء مشروع القرضاوى ضد مشروع قطب الذى تعاطى مع الإسلام كتلةً واحدة لا تقبل التجزىء ورأى أن الأمة المسلمة انقطعت، وفَرْقُ ما بينهما فرقُ ما بين الداعية المناضل، والداعية الفقيه.

إنه بالرغم من رأينا السابق، فإن فكر قطب يبقى فكرًا جدليًا يثير الكثير من التساؤلات عن سياقاته وكيفيات تَشَكُّله وتحولاته، وعن علاقته بالتكفير، وبجماعات العنف، وبتنظيم ٦٥، وبفكر الإخوان، وغير ذلك من مفاهيم كالجاهلية والحاكمية وغيرهما.

إن هذا الكتاب حول (سيد قطب)، يتناول علاقة فكر قطب بقضيتين رئيسيتين هما: التكفير، والعنف، وهو إذ يفعل ذلك يُظهر اختلاف أنظار الناس فى فهم مقولاته، وقراءة فكره فى سياقه العام، ولكلٍ وجهةٌ هو مُوَلّيها. والجدل حول (سيد) ليس جديدًا، ولا ضيقًا، ومع ذلك فهو يلقى تعاطفًا كبيرًا فى أوساط الإسلاميين، مقابل خصومة شديدة من غيرهم، والبعض يرى فيه ابتعاثًا لفرقة الخوارج التى ظهرت فى القرن الهجرى الأول ورفعت شعار (لا حكم إلا لله). وبعضٌ آخر يرى أنه أسس للتشدد الدينى ومهّد لحركات التكفير والهجرة التى عرفتها الساحة العربية والإسلامية فى الثمانينيات وما بعدها.

لأجل ما سبق كله فتحنا الباب لمختلف وجهات النظر، فهو بالاعتبار الأول ربما يقرؤه البعض على أنه جدل (حزبى)، وعلى الاعتبار الثانى نرى أنه موضوع راهن له صلة بالحديث عن العنف والدولة ورؤية حركات الإسلام السياسى والتغيير والإصلاح.

تناول هذا الكتاب على المستوى المنهجى ثلاثة محاور:

- مقالات تحليلية عن فكر قطب

انشغلت بأسئلة رئيسة هى: السياق التاريخى لنشأة فكر قطب والموازنة بينه وبين البنا (طارق البِشْرى)، وعلاقة فكر قطب بفكر جماعات العنف والصلة الفكرية بينهما (معتز الخطيب)، ثم قضية التكفير عند قطب وهل يكفر المجتمع؟ (القرضاوى وجمال سلطان ويحيى هاشم)، وموقف حركة الإخوان من فكر قطب والقطبية (جمال باروت).

- نصوص لقطب من كتبه الثلاثة: فى ظلال القرآن، ومعالم فى الطريق، والعدالة الاجتماعية فى الإسلام، تحمل ـ بحسب البعض- تكفيرا منه للمجتمع، وهى ـ بحسب آخرين- مشتبهة يجب تأويلها.
- شهادات تاريخية: وهى لها أهميتها المنهجية فى الحديث عن فكر قطب، سواء لجهة فكر الرجل بشكل عام، أم لقضية التكفير على وجه الخصوص، وكذلك من جهة مكانة فكره، وتعاطى مَنْ حوله مع انشغالاته وقراءتهم له، وهو ما يعتبر تأريخاً لمرحلة مهمة من تاريخ الحركة الإسلامية. وقد حَرَصتُ أن تكون الشهادات على قسمين: شهادات لأموات دوّنوها فى مذكراتهم أو نحوها، وشهادات لأحياء كانوا مع سيد قطب، وخصوصاً من تنظيم ١٩٦٥م الذى ظهرت بينه قضية التكفير قديماً سنة ١٩٦٨م لأول مرة.

وقد ختمتُ الكتاب بفصل مستقل خصصتُه للحديث عن الصراع بين السلطة والمعرفة، قدّم فيه رضوان زيادة قراءةً لذلك الجدل القديم المتجدد، من خلال الكتاب الشهير لقطب: (معالم فى الطريق).

أما المشاركون فى هذا الكتاب: فقد حرصتُ على تنوعهم بين إسلاميين وغيرهم، وبين إسلاميين مستقلين غير منتمين، وبين منتمين، وبين بعض الإخوان فى توجههم العام وبين توجه تنظيم ١٩٦٥م، وأرجو بهذا أن أكون أتحت مختلف الآراء ووَفيت الموضوع حقه.

وقد حررت النصوص، وراجعتها، ووضعتُ لها ـ فى الأغلب الأعم ـ عناوين فرعية تسهيلاً على القارئ.

واللهَ أسأل النفعَ والقبولَ والمغفرة والسداد، ورحم الله الشهيد سيد قطب وحشرنا وإياه فى زمرة النبيين والصديّقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقًا. ■

هـــــوامــــش

(١) ينبغى التنبيه إلى أن أصل كتاب المعالم مستلٌّ من كتاب «فى ظلال القرآن»، مع زيادات عليه. ويظن البعض أن الكتاب كان السبب فى إعدام سيد قطب، ولكن ذلك غير دقيق؛ فالكتاب نُشر فى عهد عبد الناصر، ويبدو أن السلطات لم تدرك خطورة الكتاب وقتها.

(٢) تأمل إصرار ثلاثة من الكتّاب على التخفيف من وطأة السجن أو تصويره على أنه مريح؛ للرد على فكرة أبى عزة!. مع أن محمد البدرى حين نقل عن حوارىّ سيد وصفه للظروف والضغوط والأجواء التى وُلدت فيها الأفكار لم يتطرق إلى فكرة التعذيب أصلاً!. فلو أخذنا برأى الناقدين أنفسهم بشخصية قطب، وأنه كان مرهف الإحساس أديباً، فإن الأثر المعنوى للسجن أبلغ من مسألة التعذيب، ولنا فى محمد الماغوط خيرُ مثال على أثر السجن فى بنائه النفسى وتفكيره، مع أنه سُجن لمدة قصيرة جداً، ولا أعرف أنه لقى تعذيباً ولم يتحدث عن تعذيب، ووصف إحساسه بالسجن فقال: «أحسست أن بداخلى شيئًا تَحطّم، فكل كتابتى ـ بعد السجن ـ من مسرح وشعر وسينما وصحافة كانت حتى أرمم هذا الكسر، وما قدرت على ترميمه حتى الآن»!.

(٣) نشرنا هنا فى هذا الكتاب جزءيه الأول والثانى.

(٤) صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٥م، وأصله بحث لملتقى الفكر الإسلامى فى الجزائر سنة ١٩٨٣م، ثم طوره.

(٥) القرضاوى، ابن القرية، القاهرة: دار الشروق، ط١ ، ٢٠٠٢م، ٣١٩/١.، وانظر اجتماعه مع عدد من إخوانه بدافع شعورهم بأن الجانب الفكرى فى الجماعة يجب أن يُنمّى وأن يؤصّل فى ٣/ ١٥٥.

(٦) انظر: القرضاوى، ابن القرية، ٣١٩/١، وخليل على حيدر، الحركات الإسلامية فى الدول العربية، الإمارات: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط١ ، ١٩٩٨، ص٢٣-٢٤.

(٧) سيأتى الحديث عن سيد قطب وجماعات العنف فى هذا الكتاب.

(٨) كتب بعض الرسائل الصغيرة مثل «قطوف دانية» و«رسالتك أيها المسلم» وغيرها. انظر: ابن القرية، ٢٩١/٢.

(٩) القرضاوى، ابن القرية والكتاب، ٦٥/٣-٦٦.

(١٠) برهان غليون، نقد السياسة: الدولة والدين، بيروت: المركز الثقافى العربى، ط٣ ، ٢٠٠٤م، ص٢٨١-٢٨٢.

(١١) يرى فهمى جدعان أن نزعة الانفصال والتقابل لم تنجم إلا مع المودودى وسيد قطب والجماعات المنعوتة بالأصولية، بفضل فكرة الحاكمية التى جعلت «الحكم الإسلامى» مبدأ لكل فعل فى المجتمع والدولة. انظر: فهمى جدعان، فى الخلاص النهائى، عمّان: دار الشروق، ط١ ، ٢٠٠٧م ص٣٢٢.



قصيدة اعتذار لأبى تمام
نزار قبانى

(٤)

أَبَا تَمَّامَ .. أَينَ تَكُونُ .. أَينَ حَدِيثُكَ العَطِرُ ؟
وأين يدٌ مُغامِرةٌ تسافرُ فى مَجَاهِيلٍ ، وَتَبتَكِرُ ..
أَبَا تَمَّامَ ..
أَرمَلَةٌ قَصَائِدُنَا .. وَأَرمَلَةٌ كِتَابَتُنَا ..
وَأَرمَلَةٌ هِىَ الأَلْفَاظُ وَالصُّوَرُ..
فلا ماءٌ يسيلُ على دَفَاتِرِنَا..
ولا ريحٌ تَهُبُّ على مَرَاكِبِنَا
ولا شمسٌ وَلاَ قَمَرُ
أبا تمامَ ، دارَ الشعرُ دورَتَهُ
وَثَارَ اللَّفظُ .. والقَامُوسُ..
ثَارَ البَدوُ وَالْحَضَرُ ..
وملَّ البحرُ زرقَتَهُ ..
وَملَّ جُذُوعَهُ الشَّجَرُ
ونحنُ هُنَا ..
كأهل الكهف .. لاَ علمٌ ولاَ خَبَرُ
فَلاَ ثُوَّارُنَا ثَارُوا ..
ولا شُعَرَاؤُنَا شَعَرُوا ..
أَبَا تَمَّامَ : لاَ تَقرأْ قَصَائِدَنَا ..
فَكُلُّ قُصُورِنَا وَرَق ..
وَكُلُّ دُمُوعِنَا حَجَرُ ..

قــــراءة يابانيـــــة..

أمين ميزوتانى عــن أحمــــد أمين



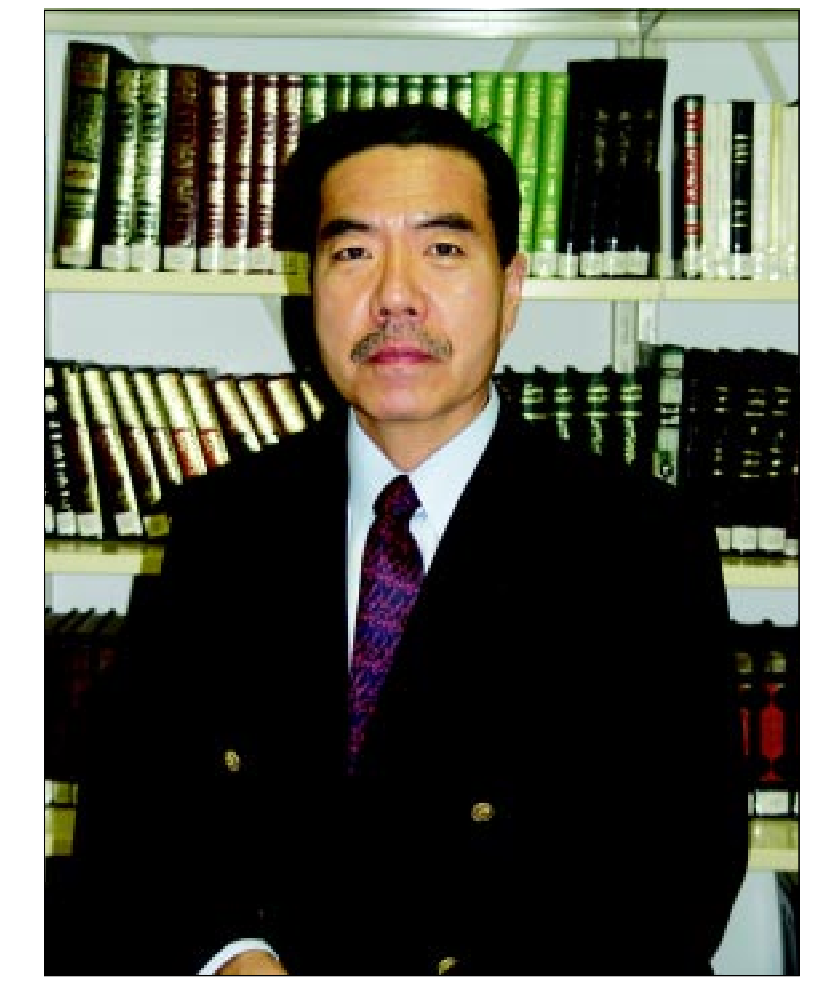
وليـد محمـود عبـد النـاصر



إن الثقافة اليابانيـة ترتكـز على مفهوم «العار»، بينما الثقافة الغربيـة مثلا تستند إلى مفهوم «الخطيئة»



ميـزوتـانـى



■■ نعرض هنا لدراسة شاملة ومتعمقة لكاتب وباحث يابانى مسلم حول حياة وآراء ونضال المفكر الإسلامى المستنير فى بعض الروايات، والليبرالى فى روايات أخرى، و«الإصلاحى» فى روايات ثالثة، أو كما يسميه المؤلف «أمين ميزوتانى» بـ «المعتدل»، وهو الأستاذ الكبير أحمد أمين (١٨٨٦ - ١٩٥٤) رحمه الله. وقد حاول المؤلف الاستعانة بأكبر قدر من المصادر من كتب ومقالات وغيرها، وفى مقدمتها بالطبع كتب ومقالات المفكر الراحل ذاته، بالإضافة إلى الكثير مما كتب عنه. رحمه الله. من كتب ومقالات لباحثين ونقاد.

ويتناول المؤلف آراء الأستاذ أحمد أمين حول الحياة الإنسانية، الإسلام، السياسة، الحضارة، المجتمع، الثقافة، اللغة والأدب. ويدفع المؤلف بأنه بينما يرى البعض أن هذه المجالات تبدو منقطعة الصلة ببعضها البعض، فإن الأستاذ أحمد أمين اعتبرها جميعاً مكونات مترابطة ضمن منظومة فكرية متكاملة تهدف لاستعادة الأيام المجيدة للإسلام بل وتجاوز ما حدث من تقدم فى تلك الأيام الخوالى. فقد كانت المسألة الجوهرية من وجهة نظر الأستاذ أحمد أمين، بحسب أمين ميزوتانى، هى كيفية تطوير إيمان حقيقى بجوهر العقيدة الإسلامية، والانطلاق من هناك لتناول ميادين أخرى من الحياة الإنسانية والحضارة والسياسة والأدب.

وللدراسة التى نتعرض لها فى هذا المقال أهمية بالغة نظراً لأنها تحمل رسالة ذات قيمة خاصة للقارئ اليابانى، خاصة منذ ما بعد الهزيمة العسكرية والسياسية لليابان فى الحرب العالمية الثانية. فالأستاذ أحمد أمين نفسه سبق وأعرب عن الأسف فى بعض كتاباته تجاه ما أسماه بـ «حالة الإلحاد» والنزعة المادية لدى اليابانيين، وكان حديثه منصباً على الفترة ما قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، معتبراً أن اليابان كانت يمكن أن تصل لحال أفضل بكثير مما وصلت إليه لو كان هناك «عقل متدين» يدفع اليابانيين للأمام.

وهنا بالطبع يتعين لنا أن نذكر أن للشعب اليابانى تاريخا طويلا من الإيمان الدينى، خاصة بكل من الديانتين الشينتوية ثم البوذية، يمتد فى حالة الشينتوية إلى آلاف السنين، وفى حالة البوذية إلى ألف وخمسمائة عام تقريباً.

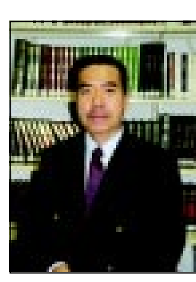
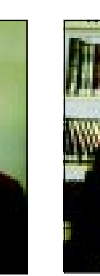
ولكن للكتاب أيضاً أهميته للقارئ العربى، حيث إنه بالرغم من إنجازات المفكر الكبير الراحل أحمد أمين وأعماله، فإن إسهاماته الفكرية لم تحظ من وجهة نظرنا بما تستحقه من اهتمام حتى هذه اللحظة فى العالمين العربى والإسلامى، ربما لأن نبرته كانت هادئة ومنهجه كان معتدلاً، بينما الإقبال هذه الأيام قد يكون أشد على الأكثر ضجيجاً وصخباً وحماساً، وربما أيضاً الأكثر محافظة. ولا شك أن أعمال الأستاذ أحمد أمين. رحمه الله. وشخصيته المتواضعة يستحقان الكثير من الدراسة والتأمل والاستحضار باعتباره واحداً من أهم وأعمق مصادر الحكمة والإثراء الفكرى للثقافة المصرية والعربية فى طورها الحديث. وبالرغم من تأثير الأستاذ أحمد أمين الكبير فى إحياء الهوية العربية والإسلامية على أسس حديثة، فإن إسهاماته لم يتم تقييمها على النحو الذى تستحقه بعد أكثر من نصف قرن على رحيله. بل إنه تم التعتيم على أعماله بدرجات متفاوتة فى العالم العربى، رغم الاهتمام الواسع بأفكاره فى الغرب.

وسنتعرض هنا بإيجاز لأهم مكونات كتاب الأستاذ أمين ميزوتانى عن المفكر الكبير أحمد أمين.

ففى المقدمة، يتعرض المؤلف لحياة الأستاذ أحمد أمين- رحمه الله -، ويتناول الأستاذ «ميزوتانى» البيئة المحيطة التى عاش فيها الراحل الأستاذ أحمد أمين، حيث كانت فترة اضطراب تمثلت فى الاحتلال البريطانى، والنضال الوطنى المصرى من أجل الاستقلال، واضطراب الحكم الملكى لمصر حينذاك، واقتصاد متذبذب، ثم اندلاع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. ويستعرض المؤلف فى المقدمة الهدف من الدراسة، وهى محاولة إجراء تقييم موضوعى ودقيق وشامل لأفكار الأستاذ أحمد أمين- رحمه الله-، وهو الأمر الذى يشمل قراءة نقدية لكتبه، بداية بـ «فجر الإسلام»، ولأكثر من ٧٠٠ مقال كتبه، بالإضافة إلى ٣٥٠ مقالاً كتبت عنه اطلع عليها المؤلف، الذى يقول أنه استغرق ١٥ عاماً لإعداد الدراسة وإخراجها فى صيغة الكتاب الذى بين أيدينا.

وفى الفصل الأول من الكتاب، يبدأ المؤلف بالإشارة إلى أن الثقافة اليابانية ترتكز على مفهوم «العار»، بينما الثقافة الغربية مثلاً تستند إلى مفهوم «الخطيئة»، مشيراً إلى أن معرفة الإطار الثقافى والمنظومة القيمية التى تحكم كل مجتمع تساهم فى فهم الحياة الإنسانية. ويذكر


... لأفكار مصرية

ميزوتاني   وأمين

المؤلف أن الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - تناول كثيراً هذه الموضوعات، علماً بأن هذه الموضوعات كانت محل اهتمام بشكل عام فى دوائر الفكر العربى والإسلامى، خاصة فى زمن الراحل الأستاذ أحمد أمين الذى اتصف، كما ذكر الأستاذ أمين ميزوتانى فى مقدمة كتابه، بالاضطراب، مما دفع إلى المزيد من التفكير والبحث فى هذه القضايا.

ويعتبر الأستاذ ميزوتانى أن رؤية الأستاذ أحمد أمين فى هذا المجال نابعة من الفكر الإسلامى ومتأصلة فيه، حيث رأى الأستاذ أحمد أمين أن جوهر الوجود الإنسانى هو الكيفية التى يدير بها الإنسان حياته بدون معرفة حقيقة هذه الحياة فى جوهرها ولماذا توجد على النحو الذى هى عليه. فالإنسان مكون من ثلاثة مكونات أساسية: الروح والجسد والعقل، وسعادة الإنسان وبهجته تتحققان عبر عملية مستمرة تحسن من قدرات الإنسان على تقدير درجات أعلى من الأمور والأشياء. وأكد الأستاذ أحمد أمين عبر مسيرته الفكرية أهمية قيم مثل الصدق والأمانة والشجاعة والعدل والإنصاف وغيرها ضمن منظومة قيمية متكاملة، تستهدف تحقيق هدف نهائى أسمى هو الخضوع لـ «الجمال المطلق» وهو ما يستوى مع التأمل فى هذا الكائن الأكبر المسمى «الكون». ويتناول المؤلف رؤية الأستاذ أحمد أمين بأن تقوية وتنقية الروح والعقل المتدينين الموجودين لدى كل إنسان يؤديان بالإنسان إلى فهم حقيقة معنى الحياة وبالتالى يشعر بالهدوء والسلام النفسيين فى هذه الحياة.

وفى الفصل الثانى من كتابه، يعرض المؤلف لثلاث مسائل متعلقة بالإسلام تناولها الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله -، وهى حسن تربية وتعليم المسلمين، الدفاع عن الدين فى مواجهة من أرادوا حينذاك تقويض دعائم الدين باسم العلم وتحت رايته، وإصلاح الفكر الإسلامى ذاته. وفيما يتعلق بالمسألة الأولى، يرى الأستاذ ميزوتانى أنه بالرغم مما بذله الأستاذ أحمد أمين من جهد فى هذا المجال، فإن هذه المسألة ما زالت مفتوحة ولم يتم حسمها فى العالم الإسلامى حتى اليوم، كما أنه من الثابت أن بعض من يتلقون تعليماً إسلامياً سليماً وهم صغار قد يتجهون بعيداً عن صحيح الدين فى اتجاهات شتى عندما يتقدم بهم العمر، وما زال من غير الواضح ما هى العوامل التى تبنى المسلم الحقيقى.

وهنا نختلف مع المؤلف فى تقييمه، لأننا نرى أنه لا توجد صورة نمطية ثابتة ومطلقة واحدة لـ «المسلم الحقيقى»، بل إن هناك تنوعاً فى هذا المجال، وهذا التنوع هو بلا شك أحد أوجه ثراء الإسلام عبر عصور ازدهاره.

وحول المسألة الثانية، يشير المؤلف إلى تركيز الراحل أحمد أمين على أن «الدين» مجاله «الإلهام»، وبالتالى فهو مستقل عن العلم بالضرورة، فالعلم يستهدف الوصول إلى الحقائق، والفن يستهدف الوصول إلى الجمال، والأخلاق تستهدف تحقيق الخير، أما الدين فيسمو على هذه المجالات الثلاثة وقيمها وغاياتها، فيجب على كل «مؤمن» أن يرفع من طاقاته وقدراته «الإلهامية» عبر التدريب الروحى مع إدماج العواطف فى هذه العملية.

أما فيما يتعلق بالمسألة الثالثة، فيرى الأستاذ «ميزوتانى» أن منظور الأستاذ أحمد أمين عن جوهر الإسلام يقع تحت تأثير الثقافات المتواجدة فى زمنه مما يجعل من فكره محاولة جادة لإصلاح الفكر الإسلامى. وقد تضمن فكر الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - مكونات أخرى للإصلاح والتجديد مثل الموقف من الشيعة وإعادة تقييم دور المعتزلة (أهل العدل والتوحيد) فى الفكر والتاريخ الإسلاميين، وذلك من منظور إصلاحى عقلانى وفى إطار طرح فكرى متكامل. ويقر المؤلف أن البعض انتقد الراحل أحمد أمين لغياب برنامج عمل محدد أو استراتيجية أو خطط تنفيذية لأفكاره.

ويبرز المؤلف فى ختام هذا الفصل أن الأستاذ أحمد أمين لم يكن يعتبر من تلاميذ الإمام محمد عبده فيما يتعلق بفكر الإصلاح الدينى.

وفى الفصل الثالث، يتناول الأستاذ «ميزوتانى» رحلة الأستاذ أحمد أمين إلى أوروبا وهو فى سن متأخرة نسبياً، وهى سن الخامسة والأربعين، ويعتبر أن الراحل أحمد أمين نجح فى استيعاب لب الحضارة الغربية، وذلك عبر قراءاته، وأساتذته وزملائه فى الجامعة، وكان من نتائج هذه الفترة دعوة الأستاذ أحمد أمين إلى «حضارة إنسانية» تتجاوز حالة الاستقطاب بين الشرق والغرب، حيث رأى أن الثقافات لا تتميز من خلال اختلاف الحدود الجغرافية بل عبر خصوصية سماتها وفرادة شخصيتها، كما أن تقدم الحضارات لا يتم على خطوات بل من خلال ملء أى فجوة أو عجز يوجد فى الحضارة القائمة. ودعا الأستاذ أحمد أمين إلى إضافة البعد الروحى إلى الحضارة الحديثة، وهى إضافة اعتبر أن «الشرق» - بمعناه الحضارى - هو الأكثر تأهيلاً للإسهام بها لأنه أكثر ثراءً فيها من «الغرب». ولكن الأستاذ أحمد أمين أكد مجدداً أن هذا ليس تصنيفاً جغرافياً، بل إنه كان يدعو لحضارة إنسانية.

ويعتبر الأستاذ ميزوتانى فى كتابه أن «الشرق» و«الغرب» على السواء تحركا فى نصف القرن الماضى بعيداً عما كان يطمح إليه الأستاذ أحمد أمين، فالشرق تحت قيادة مصر، على حد تعبير المؤلف، تحرك خلال الحقبة الناصرية بعيداً عن أفكار الأستاذ أحمد أمين ودعوته، كما أن الغرب أبدى امتعاضاً من كتاب آخر للأستاذ أحمد أمين بعنوان «يوم الإسلام»، وتضمن ما اعتبره الغرب مشاعر معادية له، لدى تناوله للحروب الصليبية والاستعمار الغربى الحديث للعالم الإسلامى وحرب فلسطين عام ١٩٤٨، وبالتالى لم تتحقق دعوة الأستاذ أحمد أمين لبناء حضارة إنسانية.

ونختلف هنا مع المؤلف فى أمرين، الأول أننا لا نرى أن توجه مصر بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان معادياً لفكرة الحضارة الإنسانية من جهة ولا لفكر الإصلاح الدينى من جهة أخرى. فقد انفتحت حكومة الثورة على ثقافات العالم المختلفة وفترة تولى الدكتور ثروت عكاشة لوزارة الثقافة فى ستينيات القرن العشرين تشهد على ذلك، كما أن فكر الإصلاح الدينى حقق طفرة على أيدى علماء كبار وأجلاء فى المقدمة منهم الشيخ محمود شلتوت الإمام الأكبر الراحل للأزهر الشريف، أيضاً فى ستينيات القرن العشرين. أما الأمر الثانى فهو أنه لا يمكن القفز إلى استنتاج بأن الطرح الفكرى الخاص بالأستاذ أحمد أمين والداعى إلى حضارة عالمية لم ينجح بسبب أنه لم يتحقق حتى الآن، نظراً لأن فى هذا الاستنتاج نرى تسرعاً وانزلاقاً للمصادرة على تطور حركة التاريخ التى ما تزال دائرة، وتوجد قوى وتيارات عديدة فى عالم اليوم، بشرقه وغربه، تدعو إلى حوار الثقافات والحضارات والأديان، ومنها من يدعو إلى بناء المشترك الثقافى بين مختلف ثقافات العالم، وهو طرح له أرضية ويكتسب المزيد منها كل يوم، ويقترب، من وجهة نظرنا، من دعوة الأستاذ أحمد أمين لبناء حضارة إنسانية.

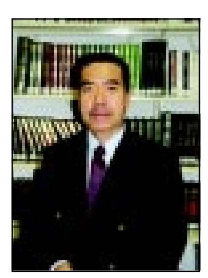
وفى الفصل الرابع من كتابه، يستعرض الأستاذ أمين ميزوتانى الأبعاد السياسية والمجتمعية لفكر الراحل الأستاذ أحمد أمين، حيث يوضح المؤلف أن الأستاذ احمد أمين لم يكن ناشطاً سياسياً، ولكنه دخل عالم السياسة من بوابة مسعاه لتنوير أفكار وآراء المواطنين من خلال تقديم الفكر المنطقى والمستقل. وبالرغم من أنه سعى لدعم وجهات نظره من منطلقات إسلامية، فإن القيمة الحاكمة لديه فى هذا السياق كانت العدل. وكان الأستاذ أحمد أمين مدركاً لكون السياسة ليست مثل الظواهر الطبيعية أو الأقدار الإلهية، بل هى من صنع البشر، ويجب إدارتها من قبل المواطنين. ورأى المفكر الراحل أن الديمقراطية تمثل أداة عملية وجيدة يمكن توظيفها فى المعركة المزدوجة ضد الاستعمار والاستبداد، كما انتقد كون



لا توجد صورة نمطية ثابتة ومطلقة واحدة لـ «المسلم الحقيقى»، بل إن هناك تنوعاً فى هذا المجال، وهذا التنوع هو بلا شك أحد أوجه ثراء الإسلام عبر عصور ازدهاره



ميزوتانى وأمين







البعض يكتفى بالقول بأن أصول الديمقراطية موجودة فى الإسلام بدون بذل جهد للتعرف على مآثر الديمقراطية كما هى موجودة فى بعض دول العالم.

كما اعتبر الأستاذ أحمد أمين أن التاريخ ما هو إلا نتاج لعلاقات سببية يجب فهمها وتجاوز مرحلة مجرد كتابة التاريخ حتى يمكن استفادة دروس من التاريخ. وبدلاً من الحديث التقليدى للمفكرين المسلمين قبله عن واجبات المحكومين، تطرق المفكر الراحل إلى حقوق المحكومين وسعى لتعزيزها بينما دعا لانتقاد الحكام غير الأكفاء. وبينما أعرب الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - عن تأييده لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فإنه عبر عن تفضيله للعودة مرة أخرى إلى الحكم الديمقراطى النيابى الذى اعتبره الحكم الطبيعى. ويؤكد المؤلف أن مواقف الأستاذ أحمد أمين السياسية والمجتمعية ليبرالية، ولكنه يعتبر أن مثله مثل الليبراليين فى زمانه، وربما حتى اليوم، كان ينقص الأستاذ أحمد أمين بلورة برنامج وخطط عمل محددة بدلاً من مجرد الدعوات والكتابة والحديث عن أفكارهم.

ونعتقد أن الأستاذ «ميزوتانى» قد تحامل على الليبراليين العرب والمسلمين تاريخياً واليوم، فهو لا يتناول المعضلات والإشكاليات والتحديات التى واجهتهم والتى يتعين عليهم صياغة استجابات ملائمة لها، سواء تاريخياً مثل كون الغرب «الديمقراطى الليبرالى» هو قوة الاحتلال، أو اليوم مثل كون هذا الغرب ساعيا للهيمنة على مقدرات العرب والمسلمين والسيطرة على ثرواتهم الطبيعية والتدخل فى شئونهم الداخلية.

وفى الفصل الخامس من الكتاب، تطرق المؤلف إلى جانب آخر من فكر الراحل الأستاذ أحمد أمين، وهو المتعلق بإصلاح اللغة والأدب، حيث حاول المفكر الراحل إصلاح الخطاب الأدبى المستخدم ومفرداته وموضوعاته وأساليب التعبير اللغوى والأدبى، ووقف بوضوح ضد أصحاب مذهب «الفن من أجل الفن»، فبالنسبة له كان دور الأدب هو إدخال تحديث مجتمعى ودعم قوى التقدم.

ويشير المؤلف فى هذا الفصل إلى تعرض طرح الأستاذ أحمد أمين فى هذا المجال إلى انتقادات من المفكر الراحل وزميله حينذاك الأستاذ زكى مبارك، وذلك تحديداً عندما دعا الأستاذ أحمد أمين إلى فصل الشعر الجاهلى عن بقية الشعر العربى وتدريسه فى كليات متخصصة فقط، كما أن قاموساً للتعبيرات الكلاسيكية باللغة العربية التى استخدمت فى الشعر الجاهلى يجب أن يعد بشكل منفصل عن التعبيرات المستخدمة فى اللغة العربية الفصحى المستخدمة. وفى هذا المجال، وبالرغم من انحياز الأستاذ أحمد أمين إلى الخيار الإصلاحى، فإن انتقاده للشعر الجاهلى لم يساعد جهوده فى تحدى الدوائر التقليدية.

أما فيما يتعلق بإصلاح اللغة، فقد قدم المفكر الراحل اقتراحاً لمجمع اللغة العربية تضمن الدعوة لتخفيض عدد الكلمات المترادفة وتوحيد طريقة نطق الحروف المماثلة عندما تكون فى وسط الكلمات. ويظهر المؤلف أن كون المجمع قد ناقش هذه الاقتراحات فى مطلع الستينيات من القرن العشرين، أى بعد وفاة المفكر الراحل، كان دليلاً على بقاء التأثير الفكرى للأستاذ أحمد - رحمه الله.

أما فى خاتمة الكتاب، فإن الأستاذ «ميزوتانى» يعتبر أن توقيت تقييم الأستاذ أحمد أمين مناسب لكونه يتوافق مع مرور أكثر من نصف قرن على رحيل المفكر الراحل، مضيفاً أن أفكار الأستاذ أحمد أمين استقبلت بهدوء من جانب عموم القراء، ربما باستثناء كتاب «فجر الإسلام»، وموقفه من الشيعة، وكذلك انتقاداته للشعر الجاهلى. ويبرر المؤلف حرص الأستاذ أحمد أمين فى معظم الأحوال على ألا تثير أفكاره جدلاً واسعاً أو صخباً ما بأنه يرجع إلى رغبته فى تنوير الرأى العام وفى إعطاء دفعة لجهود الإصلاح.

ويتعرض المؤلف إلى أن تركيز المفكر الراحل على أولوية الأخلاق، حتى فى مجالات العلوم والآداب والفنون، قاد بعض منتقديه إلى القول بأن الأخلاق والمثل العليا تحتل مكاناً مركزياً فى فكره، حتى عندما يتعلق الأمر بالدين نفسه، واعتبر المنتقدون ذلك تأثراً من الأستاذ أحمد أمين بالتوجه العام فى الديانة المسيحية فى الأزمنة الحديثة. وينفى المؤلف ذلك عن الأستاذ أحمد أمين، مؤكداً أن العقيدة الدينية كانت تحتل موقع القلب فى فكر المفكر الراحل، وتعلو على الأخلاق ذاتها، نظراً لأنها قادمة من مصدر وحى لا يسمو عليه شىء، وتتخطى القيم الإنسانية الأخرى مثل الحق والخير والجمال.

وفى النهاية، يبرز المؤلف أهمية المفكر الراحل أحمد أمين وإسهامه ودوره من خلال القول بأنه جمع بين الدور الذى لعبه المفكر والقائد الأمريكى الأفريقى الدكتور مارتن لوثر كنج الذى ساهم فى صياغة مستقبل الولايات المتحدة الأمريكية، والدور الذى لعبه المؤرخ البريطانى الشهير أرنولد توينبى فى التأريخ للحضارة الإنسانية، بينما قام الأستاذ أحمد أمين بالدورين معاً.

وإذا انتقلنا من عرض الكتاب فصلاً فصلاً إلى تناول عام لمعالجة الكتاب لأهمية فكر الأستاذ الراحل أحمد أمين ودوره وشخصيته، يمكن إيراد عدد من الملاحظات للمؤلف وتعليقاتنا عليها، وذلك على النحو التالى:

تتعلق الملاحظة الأولى بالدور التنويرى للمفكر الراحل، حيث اتسم المفكر الراحل بموسوعيته المعرفية واتساع مجالات اهتماماته وكتاباته وتنوعها، وتلقى العديد من الإطراء والدعم من جهة والانتقاد والمعارضة من جهة أخرى لبعض آرائه بشأن مسائل محددة، بينما بشأن موضوعات أخرى كان التلقى لأفكار وآراء الأستاذ احمد أمين هادئاً وبلا رد فعل يذكر.

وبالتأكيد كان كتاب «فجر الإسلام»، كما أشار المؤلف «أمين ميزوتانى» فى كتابه، أول الأعمال الكبرى للأستاذ أحمد أمين التى أثارت جدلاً خلافياً واسعاً، حيث استخدم المفكر الراحل الأسلوب الروائى فى تناول أحداث تاريخية، فيما اعتبر اتباعاً لمنهج أوروبى حديث، وذلك لإظهار كيف ولد الإسلام فى ظل مؤثرات عديدة محيطة به. وجاء رد فعل بعض المثقفين عاصفاً، نظراً للنهج الذى سلكه ولأنه جاء من مفكر مسلم وليس من مستشرق أوروبى.

وعندما تناول الأستاذ أحمد أمين المسألة الشيعية أثار غضب الشيعة، فقد اعتبر أن الإيمان بألوهية الإمام على بن أبى طالب لا يتسق مع التصور الإسلامى للإله وبعده عن الماديات، وذلك بالرغم من أنه عاد واستدرك قائلاً أن هذا التصور للإمام على لا يؤمن به غالبية الشيعة وإنما مجموعة صغيرة فى صفوفهم. ولم يتوقع الأستاذ أحمد أمين وقتها هذه الضجة نظراً لأنه اعتبر أنه عالج الموضوع من منظور أكاديمى وموضوعى.

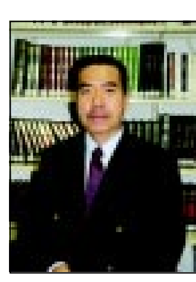
وكانت المسألة الثالثة التى أثارت لغطاً هى هجوم الأستاذ أحمد أمين على الشعر الجاهلى.

وبالرغم من حدة هذا الهجوم، فإن الأستاذ «ميزوتانى» يرى أنه قوبل بقدر من الدفء من الرأى العام حينذاك باعتباره جزءاً من دعوة الأستاذ أحمد أمين لتجديد الأدب العربى. ولكن النقاش احتدم بعدما دخل المفكر الراحل زكى مبارك على الخط وكتب عدة مقالات رداً على الأستاذ أحمد أمين تضمنت بعض ما اعتبر تعبيرات سباب فى حق الأستاذ أحمد أمين، وهو الأمر الذى أثار بدوره انتقادات ضد الأستاذ زكى مبارك ودعاه عدد من المفكرين والأدباء للهدوء من خلال لقاءات ثنائية معه.

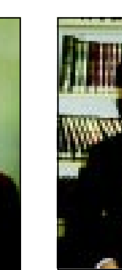
وبالمقابل، فإن الأستاذ أحمد أمين، وفى إطار دوره التنويرى، ناقش ما اعتبره مواقف إصلاحية للرسول محمد عليه الصلاة والسلام، عبر منهج عقلانى اختلف كثيراً عن الاتجاه العام لمعاصريه من المفكرين المسلمين الذين كانوا يروون قصة حياة

إن أفكار الأستاذ أحمد أمين استقبلت بهدوء من جانب عموم القراء، ربما باستثناء كتاب «فجر الإسلام»، وموقفه من الشيعة





ميزوتاني



وأمين

الرسول الكريم بشكل يغلب عليه المثالية المطلقة.

وكثيراً ما تناول الأستاذ الراحل أحمد أمين مسائل سياسية واجتماعية من منظور عقلاني بدون اللجوء بالضرورة دائماً إلى أو الاستناد على مرجعيات دينية إسلامية. فعلى سبيل المثال لم يسع للبحث فى التراث الإسلامى عن دعم لدعوته للديمقراطية، بينما كان يسعى مفكرون آخرون بإصرار لإثبات أن الديمقراطية نابعة من داخل الإسلام. وعندما أكد الأستاذ أحمد أمين حقوق المواطنين أكثر من واجباتهم وركز على انتقاد صفات الحكام الموجودين فى الأمة الإسلامية بدلاً من مناقشة واجب المواطنين للطاعة، فلم تكن هذه الآراء منتشرة فى صفوف المفكرين المسلمين فى ذلك الوقت. كذلك نجح الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - فى إدخال تحول نوعى على المفهوم التقليدى الإسلامى لـ «العدل»، عبر تفسيره من مدخل العدالة الاجتماعية التى يمكن أن تتحقق عبر سياسات الرفاه الاجتماعى التى يجب أن تتبعها الحكومات. وفى السياق نفسه، رفض المفكر الراحل استخدام «القدر الإلهى» كشماعة لتبرير انتشار الفقر وبروز المجتمع الطبقى، فى وقت كان من المعتاد فيه تكرار إشارات جاهزة مسبقاً لآيات قرآنية لتبرير انتشار الفقر والتفاوت الطبقى الصارخ. كما أكد الأستاذ أحمد أمين على مفهوم أن التاريخ لم يكن أبداً أكثر من سلسلة من الأسباب والنتائج، وفصل بين ذلك وبين الدروس الأخلاقية والمعنوية التى يمكن استخلاصها من قراءة التاريخ. كذلك تناول المفكر الراحل موضوعات وطنية مصرية تتصل بمسائل الاستقلال والحياة الأسرية من منظور عقلانى.

وبالرغم من أن المحاضرات والكتابات التى طرح الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - من خلالها أفكاره قوبلت بهدوء، على الأقل على السطح، فإنه عبرها كان المفكر الراحل يحاول تقديم رؤية جديدة للحياة والحضارة قائمة على العقلانية وليس الحدس.

وقد جمع المفكر الراحل بين كونه إصلاحياً وعقلانياً، وتنويرياً، وأيضاً محافظاً، من حيث تمسكه والتزامه بالإرث العربى والإسلامى. فقد كرس الكثير من وقته وموهبته للتنوير من خلال الكتابة وإلقاء المحاضرات وتنظيم المناسبات الاجتماعية بشكل متواصل وبصبر بالغ فى نقل رسالته. وبخلاف شخصيات أخرى، مثل الدكتور طه حسين مثلاً، لم يراهن المفكر الراحل الأستاذ أحمد أمين على سياسات الحكومة أو إجراءاتها لنشر التنوير أو الإصلاح أو العقلانية، ولا حتى فى المؤسسات التعليمية مثل المدارس والجامعات. وقد أدى هذا الاختلاف إلى أن وجود الراحل أحمد أمين كان أقل ظهوراً، من جهة التغطية الإعلامية له ولأنشطته ولكتاباته، عن الدكتور طه حسين مثلاً.

ويدفع الأستاذ «أمين ميزوتانى» بأن الأستاذ أحمد أمين- رحمه الله- كان يبدو أحياناً متناقضاً أو شبه متناقض فى بعض وجهات نظره، التى كان أحياناً يتعين عليه أن يشرحها أو يوضحها أكثر حتى يحتفظ بالاتساق الذاتى لرؤاه وجعلها أكثر إقناعاً. ويذكر المؤلف على سبيل المثال أن الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - اعتبر أن هناك أربعة مكونات للأدب، وهى العواطف والخيال والأسلوب والمعنى. وفى ذات الوقت روى لنا الأستاذ أحمد أمين أن أساس تقييم الأدب والفن عموماً هو الذوق العام المشترك فى مجتمع ما، وذلك بدون أن يشرح علاقة الذوق العام بالمكونات الأربعة للأدب المذكورة آنفاً. ومن جهة أخرى، قام الأستاذ أحمد أمين بتعريف أهداف الأدب على أنها تفسير الأدب والحكم عليه. وقد كرر المفكر الراحل القول بأن الأدب يجب تجديده وأنه يجب أن يوظف للمساهمة فى تحقيق التقدم الاجتماعى للشعوب. ويتساءل الأستاذ «أمين ميزوتانى» عما إذا كان التجديد والتقدم الاجتماعى كانا يجب أن يكونا ضمن أهداف النقد الأدبى طبقاً لتعريف الأستاذ أحمد أمين؟ ويأخذ الأستاذ «ميزوتانى» على المفكر الراحل أنه لم يقم بتوضيح هذه المسألة. كما أن الأستاذ «ميزوتانى» أخذ على الأستاذ أحمد أمين انتقاده للشعر الجاهلى، بناء على رغبته القوية فى الإصلاح ومحاولته التجاوب مع حالة الذوق العام السائدة فى المجتمع المصرى فى عصره.



وقد تحدث المؤلف عما أسماه إشكالية أخرى فى فكر الأستاذ الراحل أحمد أمين، عند حديثه عن الحضارة. ففى حديثه عن البعد الروحى، الذى اعتبره الأستاذ أحمد أمين جوهر بناء أى حضارة جديدة، سعى المفكر الراحل أولاً إلى نقد من كانوا يقولون بأن البعد الروحى موجود أيضاً لدى الغرب، حيث اعتبر أن هؤلاء وقعوا فى مأزق الخلط بين البعد الروحى وبين كل من المشاعر والأحاسيس والتعاطف. وبينما كان الدكتور طه حسين يذكر فى كتابه «مستقبل الثقافة» أن الغرب لديه بعد روحى متمثل فى الجوانب العاطفية للحب، والإعجاب بالشجاعة، ورفض القبح، والتصدق على الفقراء، والتضحية فى سبيل الوطن، فقد كان الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - يرى أن البعد الروحى يجب أن يصهر الأبعاد الميتافيزيقية كافة فى الإيمان بأن الله تعالى هو خالق الخير والشر فى هذا العالم، كما طالب بفصل البعد الروحى عن المجالات الفكرية والشعورية، أو بعبارة أخرى أنه أراد تقييد حدود البعد الروحى فى الإيمان الدينى فقط دون غيره، دائماً بحسب الأستاذ «ميزوتانى». ولكن على الجانب الآخر، فقد أكد الأستاذ أحمد أمين أن الإيمان الدينى يتحقق ويزداد قوة عبر المشاعر والأحاسيس. ويتساءل الأستاذ «ميزوتانى» عن كيفية التفرقة بين هذه المشاعر والمشاعر التى طالب الأستاذ أحمد أمين بفصلها عن البعد الروحى؟ ثم يتساءل المؤلف عما إذا كان حب المؤمن لله أو حب الله للمؤمن منفصلا تماماً عن «البعد العاطفى للحب» الذى تحدث عنه الدكتور طه حسين؟ ويوضح المؤلف أن الإجابة يجب أن تكون إيجابية حتى يتسم فكر الأستاذ أحمد أمين بالاتساق بين مكوناته، ولكنه يأخذ على المفكر الراحل أنه لم يجمع رؤيته عن البعد الروحى ورؤيته عن الإيمان الدينى فى سياق واحد متناغم مع ذاته.

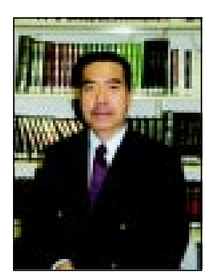
ويعطى المؤلف مثالاً آخر عندما يعرض لموقف الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - تجاه المعتزلة، «أهل العدل والتوحيد»، فى المرحلة الأخيرة من حياته، حيث انحاز المفكر الراحل لعقلانيتهم وانحيازهم لخيار الابتكار والإبداع الفكرى بصفة عامة، ولكنه لم يعبر عن هذا الموقف صراحة منذ البداية. ولكن بمرور الوقت، ومن خلال مقالاته العديدة، كانت آراء الأستاذ أحمد أمين تقترب أكثر فأكثر من فكر «أهل العدل والتوحيد». واتبع الأستاذ أحمد أمين نفس المنهج عند تناوله المسائل الدينية بشكل عام، حيث كان يتعرض للأديان بشكل عام فى البداية ثم ينتقل إلى تناول الإسلام على سبيل التحديد فى مرحلة لاحقة.

ويلحظ الأستاذ «أمين ميزوتانى» تحولاً فى موقف الأستاذ أحمد أمين من الأدب، من موقف يركز على التعبيرات الجمالية، إلى موقف آخر يركز على وظيفة الأدب فى الاستجابة للاحتياجات المجتمعية، ثم على موقف ثالث يعنى بالمتطلبات الأخلاقية والمعنوية للأدب. وينظر المؤلف إلى هذه التحولات كجزء من اتجاه عام فى المجتمع المصرى فى ذلك الوقت، حيث تحول من مجتمع ليبرالى واقتصاد حر إلى مجتمع أكثر جدية وتحت السيطرة، وهو اتجاه تغلغل فى المجتمع المصرى منذ عام ١٩٣٩ تقريباً عندما كان النازيون قد سيطروا على السلطة فى ألمانيا وتم هز الثقة فى الديمقراطية، وما تلا ذلك من أحداث مأساوية خلال الحرب العالمية الثانية، بما فى ذلك إلقاء القنبلتين النوويتين بواسطة الولايات المتحدة الأمريكية على اليابان وهزيمة مصر فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨. وبالرغم من أن كافة هذه



تناول المفكر الراحل موضوعات وطنية مصرية تتصل بمسائل الاستقلال والحياة الأسرية من منظور عقلانى



ميزوتاني    وأمين

الأحداث انعكست على صفوف النخبة المثقفة فى مصر خلال تلك الفترة، فإن المؤلف يرى أن الأستاذ أحمد أمين لم يلجأ لأى تحولات مفاجئة فى تفكيره، بل إن بعض تحولاته الفكرية جاءت أحياناً متأخرة عما كان يحدث فى صفوف الانتلجنتسيا المصرية حينذاك، كما كانت تحولات تتسم بضبط النفس.

أما الملاحظة الثانية فتتعلق بالرؤية العالمية للأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - فالأستاذ «أمين ميزوتاني» يرى أن المفكر الراحل لم يقدم رؤية عالمية شاملة وكاملة بشكل واضح، بل إنه كان يصوغ أفكاره بشأن مجال ما من الموضوعات بشكل أنيق، ويعرض أفكاره لإيجاد كل متكامل، ويحاول الأستاذ «أمين ميزوتاني» تناول هذا الكل للتوصل منه إلى الرؤية العالمية للأستاذ أحمد أمين.

ولقد ذكر الأستاذ أحمد أمين عدة مرات أن القيم الثلاث «الحق» و«الخير» و«الجمال» يجب أن يسعى الإنسان خلال حياته للوصول إليها كأهداف خالدة، معتبراً أن هذه القيم الثلاث ممثلة عبر الأخلاق والمثل، والعلوم والنشاط البحثى على تنوعهما، والفنون، حيث أعطى الأستاذ أحمد أمين الأخلاق منزلة أعلى من العلوم والفنون، نظراً لأن الأخيرين يجب أن يكونا مرتكزين على الأخلاق. فقد رفع المفكر الراحل شعار «الأخلاق أعلى درجة من الأدب» فى أعماله من النقد الأدبى وفى توصياته بخصوص الأعمال الأدبية، التى كان يقدمها لوزارة التعليم المصرية.

أما مقولة أخرى للأستاذ أحمد أمين فكانت أن الأخلاق هى نتاج الدين والعقل معاً. فبالنسبة للأستاذ أحمد أمين، كان الإيمان الدينى نتاج الحواس الخمس للإنسان، بالإضافة إلى ما يمكن اعتباره حاسة سادسة وهى «الحدس»، فى مهمتها للبحث عن مصدر الوحى. وبهذا التعريف للإيمان الدينى، يكون نتاجاً لنشاط كافة طاقات الإنسان، وبالتالى يصبح العقل، والذى يبدو حيوياً وأساسياً، مجرد جزء من القدرات الإنسانية ويكون محدوداً فى عمق واتساع المعرفة الإنسانية. وفى ضوء ما تقدم، يستنتج الأستاذ «أمين ميزوتانى» أن الأخلاق التى تحتل مساحة ضمن المبادئ الإنسانية هى نتاج لمساحة محدودة من العقل مقابل مساحة واسعة من الإيمان الدينى، وبالتالى يعتبر الأستاذ «ميزوتانى» أن الإيمان الدينى يأتى عند الأستاذ أحمد أمين سابقاً على الأخلاق، التى هى بدورها سابقة على العلوم والفنون.

ويرى المؤلف أن ما يبرز أهمية وأولوية الإيمان الدينى عند المفكر الراحل هو قناعته بأنه فى رحلة البحث عن الإيمان الدينى والحق والخير والجمال، فإن اللمسة الأخيرة تحتاج إلى إلهام يمنحه الله، مما يتطلب الاعتماد على قدرة حدسية دافعة. ويذكرنا الأستاذ أحمد أمين بأهمية التسامح، وبما يحول دون إعاقة مسيرة أى شخص نحو القيمة التى يسعى لاكتسابها أو تعميقها. ويطرح الأستاذ أحمد أمين نظرية خاصة به للتطور، حيث يعتبر أن من واجب أى إنسان بذل أقصى ما لديه فى أى مكان وزمان للوصول إلى القيمة التى يرتضيها. أما فى مجال الحفاظ على العلاقات الإنسانية، فيرى الأستاذ أحمد أمين أن «الإخلاص» هو المبدأ الأخلاقى الأول والأهم، ومن خلال تنفيذ هذا المبدأ والالتزام به، يمكن للإنسان الاحتفاظ بعلاقة حب مع الله باعتباره السلطة النهائية والمطلقة فى الكون. ويطلق الأستاذ «أمين ميزوتانى» على ما تقدم تسمية الرؤية العالمية للأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - تجاه الحياة والإنسانية، ويعترف أنها رؤية افتراضية واجتهادية من جانبه، ولكنه يدفع بأنها صحيحة.

وهنا نلحظ بوضوح تناقضاً فى تقييم المؤلف لدور كل من العقل والحدس فى فكر الراحل أحمد أمين، فبينما يؤكد فى مواضع أن أهمية فكر الأستاذ أحمد أمين تكمن فى اعتماده الأساسى على العقل، فإنه فى مواضع أخرى يشير إلى أولوية «الحدس» لديه، كما يتحدث عن «الإلهام»، وعن كل من الإيمان الدينى والأخلاق كأمور سابقة فى أهميتها فى فكر الأستاذ الراحل أحمد أمين على العقل.

ويعتبر المؤلف أن الأستاذ أحمد أمين حصل على عدد من التعيينات رفيعة المستوى بالإضافة إلى تقلده عددا من الأوسمة مما كان محلاً لسعادته وإشباعاً لذاته. ولكن المؤلف يذكر أن تأثير أعمال المفكر الراحل بدا أنها وهنت بعض الشيء، وهو الأمر الذى دفع الكاتب «أمير العقاد» لنشر كتابه الذى ذكر القراء بإنجازات أحمد أمين. ويرجع المؤلف هذا الخفوت إلى قاعدة عامة وهى أن الأعمال الأكثر عقلانية والمعبرة عن اتجاهات فكرية يتلقاها الجمهور بهدوء، وربما حتى بالقليل من الاهتمام، إذا ما قورن ذلك بالأعمال التى تتسم بالحماس والطابع العاطفى. ولكن بالمقابل، يراهن الأستاذ «ميزوتانى» على أن تلك الأعمال الحماسية تكون قصيرة العمر فى تأثيرها على البشر، بينما التحليل الموضوعى والشامل المحمل بالقيم يكون أكثر ديمومة.



ويقر المؤلف أن إسهام المفكر الراحل أحمد أمين فى تجديد الفكر العربى والإسلامى فى العصر الحديث يمثل «عملاً جاداً لرجل عظيم». ويرجع ذلك إلى مكونات، حتى ولو لم تكن متكاملة، لرؤية شاملة للعالم، طرحت اتجاهاً للمستقبل للمواطنين لاتباعه بهدف مزدوج هو الوصول إلى مرحلة بناء الأمة من جهة وتحقيق سعادة الإنسان من جهة أخرى. ويرى الأستاذ «ميزوتانى» - كما ذكرنا آنفاً - أن الأستاذ أحمد أمين جمع بين مهمة كل من الزعيم الأمريكى الأفريقى داعية الحقوق المدنية الدكتور مارتن لوثر كينج الذى فتح طريقاً للأجيال القادمة ومهمة المؤرخ البريطانى «أرنولد توينبى» الذى وضع الإطار الأكاديمى والبحثى لدراسة تحول الحضارات فى التاريخ الإنسانى. وهنا تكمن فرادة وأهمية وجدة الرؤية العالمية الشاملة للمفكر الراحل أحمد أمين. ولكن المؤلف بالمقابل يعتبر أن الأستاذ أحمد أمين رحل وهو لم يؤد سوى نصف المهمة المزدوجة، ويرى فى ذلك انعكاساً للطبيعة الانتقالية للمجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن العشرين، الذى عاش وكتب وعمل فى إطاره الراحل أحمد أمين.

أما الملاحظة الثالثة، فتتصل بشخصية المفكر الراحل أحمد أمين واعتبارها نموذجاً من قبل المؤلف. وهنا يوضح المؤلف موقفه، فهو لا يعتبر شخصية الأستاذ أحمد أمين نموذجاً فقط فى العالم العربى والإسلامى، بل على الصعيد العالمى، وخاصة على مستوى اليابان، حيث يرى المؤلف أن الأستاذ أحمد أمين يعطى لليابانيين انطباعاً جيداً عن شخصية شهيرة ومحترمة وممتازة مصرية وعربية ذات أخلاق رفيعة.

ويشير المؤلف إلى خطاب أرسله الأستاذ أحمد أمين عام ١٩٥٠ إلى نجله السفير حسين أحمد أمين الذى كان فى العاصمة البريطانية لندن فى ذلك الوقت، حيث يوضح الخطاب الأهمية التى يوليها المفكر الراحل لقيم الإخلاص والعدالة. ففى هذا الخطاب يدعو نجله إلى اتباع الحق وتطبيق العدل، ويشير إلى أنه شخصياً ربح كثيراً فى حياته بسبب اتباعه لهذه النصائح ذاتها، بالرغم من بعض الأضرار أو الآلام من وقت لآخر. ويؤكد أنه كسب ثقة البشر من حوله فى أقواله وأفعاله، فتقبلوا بدفء أفكاره بالرغم من أنهم لم يفهموا دائماً قضيته.

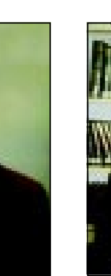
وفى السياق نفسه، يشير الأستاذ «أمين ميزوتانى» إلى الحس الجمالى لدى المفكر الراحل أحمد أمين، وحفاظه على نمط حياة متواضع للغاية، وكان دائماً داخل منزله يرتدى جلباباً باعتباره الزى التقليدى المصرى، كما كان بسيطاً فى أكله، خاصة فى ضوء إصابته بمرض السكر. كذلك واصل الحياة بنفس الأثاث الذى كان لديه منذ زواجه وحتى وفاته. كذلك كان الأستاذ أحمد أمين يدفع الزكاة والصدقات

إن تلك الأعمال الحماسية تكون قصيرة العمر فى تأثيرها على البشر، بينما التحليل الموضوعى والشامل المحمل بالقيم يكون أكثر ديمومة



ميزوتاني وأمين





بسخاء، كان يثير عليه زوجته ذاتها أحياناً. وكان يحب الاستماع إلى الموسيقى العربية، ويحافظ على عادة المشى يومياً وكذلك السباحة من وقت لآخر. كذلك كان يحافظ على عادة القراءة والكتابة فى الصباح والنوم بعد الظهيرة.

ويلجأ المؤلف «أمين ميزوتانى» إلى سرد جزء مما ذكره الفقيه القانونى الكبير الراحل عبد الرزاق السنهورى حول المفكر الراحل أحمد أمين، حيث وصفه بالجمع بين الفكر والقلب، فالفكر يستوعب أدق الأشياء فى مجملها دون الغرق فى التفاصيل، ويستخلص منها القواعد والأساسيات، وكان مختلفاً فى ذلك عن زملائه من معاصريه بالرغم من تلقيهم جميعاً نفس نوع التعليم، كما يصفه بأنه كان يحمل قلباً رقيقاً مملوءاً بالرحمة وتفيض منه العاطفة، وكان يشعر بآلام رفاقه إلى درجة أنه كان يعتبرها كأنها خاصة به، وكان يجمع بين النبل والاحترام، وقليلون هم من جمعوا بين الفكر والعقل مثله.

ويصف المؤلف «ميزوتانى» الأستاذ الراحل أحمد أمين بأنه كان خجولاً، وجاداً فى دراسته للأمور وبحثه فيها، ولكنه كان يشعر دائماً بالسعادة عندما يحظى بالتكريم. وقد اعتبر أعلى قيمة هى التفكير الموضوعى المنطقى وغير المنحاز. وبينما كان يبتعد عمن يشعر أنه يتسم بالتعالى على الآخرين، فإنه كان رقيقاً للغاية مع كل من يتسم بالتواضع، كما كان يستقبل كبار المسئولين والفلاحين على حد سواء بنفس الطريقة. كذلك اتسم الراحل أحمد أمين بالوفاء الشديد لقناعاته ومعتقداته، إلى درجة أنه كان دائماً على استعداد للمخاطرة بمناصب ومكاسب مقابل تمسكه بقناعاته. فبينما كان الدكتور طه حسين قد رتب عرضاً للتدريس بالجامعة للأستاذ أحمد أمين بعدما سمع بشكواه حول عمله كقاضى محكمة، وذلك بعد التشاور مع رئيس جامعة القاهرة أحمد لطفى السيد، وعين الأستاذ أحمد أمين بالفعل عميداً لكلية الآداب، فإن هذا لم يحل دون دخول الراحل أحمد أمين فى مناوشات مع الدكتور طه حسين حول مسائل تتصل بإدارة الكلية، بل وعبر أحياناً عن انتقادات شخصية للدكتور طه حسين، وانتهى الأمر باستقالته من المنصب بعد عامين فقط من توليه. وينقل المؤلف عن كتاب عن الأستاذ أحمد أمين إعرابه عن أسفه لكون الظروف لم تدفع الدكتور طه حسين لتوجيه طاقاته الجبارة نحو النشاط البحثى بالرغم من رسالته الرائعة عن ابن خلدون، وبالرغم من إصراره فى مرحلة مبكرة على توجيه العامة إلى أصول الثقافة، مشيراً إلى أن شخصية الدكتور طه حسين كانت تعكس الاتجاهات والخصائص المميزة لعصر النهضة فى أوروبا، حيث حمل تطلعاتها واهتماماتها وأولوياتها، وحتى بعض أوجه نفاد الصبر والتشوش، أى أنه كان أفضل ممثل لتلك المرحلة. ويروى الأستاذ «أمين ميزوتانى» واقعة حدثت بين الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين خلال اجتماع كان يناقش مسائل خاصة بإدارة جامعة القاهرة، حيث أوقف الدكتور طه حسين الأستاذ أحمد أمين من إبداء تعليق رافضاً مقاطعته له، وسرعان ما رد عليه الأستاذ أحمد أمين بنفس الملاحظة خلال نفس الاجتماع، مما عكس التوتر بينهما فى ذلك الوقت الذى كان فيه الدكتور طه حسين وزيراً سابقاً للتعليم ويحمل رتبة الباشوية. واستمر التوتر بينهما قائماً، ولم يتم الصلح سوى على فراش مرض الأستاذ أحمد أمين بالمستشفى قبيل وفاته بوقت قصير. وبالرغم من أن عينيه كانتا معصوبتين، فقد شعر الأستاذ أحمد أمين بخطوات قدوم الدكتور طه حسين نحوه، ففتح ذراعيه لمصافحته. ويرجع الأستاذ «ميزوتانى» الخلاف بين الأستاذ أحمد أمين والدكتور طه حسين فى الأساس إلى الاختلاف فى الشخصية فيما بينهما.

ويفسر الأستاذ «أمين ميزوتانى» تمسك الأستاذ الراحل أحمد أمين بمعتقداته فى ضوء إعلائه لقيم العقل والمنطق والعدل، بدلاً من تغليب العواطف والانحيازات الشخصية. كما أن التزامه الأخلاقى الرفيع قاده إلى الشعور بأنه ليس من العدل تبنى آراء تناقض قناعات الإنسان، حتى لو كان ذلك مجرد إجراء تكتيكى ومؤقت. وكان لهذا الإحساس بأهمية الموضوعية والإنصاف دور فى التأثير على معالجته الأكاديمية لموضوعات مثل الموقف من الشيعة والمعتزلة كما ذكرنا من قبل. وقد أقر الأستاذ أحمد أمين نفسه بأن هذا «العناد» وغياب القدرة على المجاملة أو المداهنة أو التلوى، كلها صفات تصلح للعلماء والباحثين فقط ولكنها لا تصلح لعالم السياسة أو الأعمال. وكانت مثالية الأستاذ أحمد أمين والتزامه أولاً تجاه نفسه قبل أن تكون تجاه الآخرين.



ويشير الأستاذ «ميزوتانى» إلى أن الشخصية السامية الصادقة والأخلاق الرفيعة للأستاذ أحمد أمين- رحمه الله - ، بجانب نمط حياته المتواضع وطبيعته المنكرة لذاتها، تشكل جميعها مميزات من وجهة نظر المجتمع اليابانى، كما أنه بالرغم من أنه من الطبيعى أنه توجد فى كل شعب وأمة مختلف أنواع الشخصيات، فإنه كان لدى الشعب اليابانى قناعة عامة بأن هذه النوعية من الشخصيات مثل الأستاذ أحمد أمين- رحمه الله - لا توجد بصفة عامة بين صفوف العرب أو المصريين. وبالتالى، يعتقد المؤلف أن تقديم مثل هذا النمط من الشخصيات المصرية والعربية للقارئ اليابانى سيكون ذا تأثير أبعد من المجال الأكاديمى، حيث يمنح مضموناً ملموساً وعملياً لصورة مفضلة لدى اليابانيين.

وتتعلق الملاحظة الرابعة بالعلاقة بين المفكر الراحل ونجله السفير حسين أحمد أمين، حيث يذكر المؤلف أنه بينما كان الأستاذ أحمد أمين مؤرخاً ومفكراً ليبرالياً، خاصة حول موضوعات الإصلاح الثقافى، فإن نجله السفير حسين الذى ولد عام ١٩٣٢، معروف على نطاق واسع برؤيته المناهضة للراديكالية الإسلامية، خاصة من منظور تاريخى وقانونى، وينتمى إلى جيل يسمى بالليبراليين الجدد، دائماً بحسب المؤلف «أمين ميزوتانى»، الذى يعتبر أن إسهامات الجيلين وأدوارهما تحتاج إلى تقييم أخذاً فى الاعتبار طبيعة المجتمع المصرى فى كل مرحلة من المرحلتين، مع إمكانية تقييم دور وإسهام الأستاذ أحمد أمين ونجله السفير حسين أحمد أمين أيضاً عبر رؤية رحلة ومسيرة الليبرالية المصرية. وفى سياق المقارنة بين الأب والابن، يذكر المؤلف أن الأب شرح كثيراً مفهوم الإيمان الدينى ودلالاته وأهميته، بينما الابن انتقد الدور التاريخى للصوفية، ولكنه أعرب عن تقديره لدورها وإسهامها قبل القرن العاشر، وبالتالى تفادى الابن التناقض مع الوالد. ويرى المؤلف أن الأب والابن معاً جنحا لتبنى مواقف توفيقية بشأن العديد من الموضوعات، بما فى ذلك تطبيق الشريعة الإسلامية، وتأكيد الأهمية الحيوية للاجتهاد.

وهنا نختلف مع الأستاذ «أمين ميزوتانى» بشأن أنه يناقض نفسه هنا، حيث ذكر فى موضع سابق من نفس الكتاب أن الأستاذ أحمد أمين كان يرفض الحلول التوفيقية أو الحلول الوسط، ثم عاد يذكر هنا أنه تشابه مع ابنه فى القبول بذلك.

ونعود إلى المؤلف ومقارنته بين الأب والابن، حيث يرى أن الابن عكس إرث الوالد الليبرالى، كما أن كليهما كان تلميذاً مجتهداً لعلم التاريخ حيث الاحتفاظ بالموقف الموضوعى تجاه الأحداث التاريخية، ولكن كلاً منهما أيضاً عكس تغيرات زمانه: فمن المنظور العام للأمتين العربية والإسلامية لدى الأب، إلى التركيز على الدولة الواحدة (مصر) لدى الابن، فى ظل تعزز النزعة القطرية فى العالمين العربى والإسلامى.

وينتقل المؤلف فى ملاحظته إلى الساحة الدولية، فيتحدث عن صعود حركة إصلاحية إسلامية بين صفوف المسلمين داخل العالم العربى وخارجه، وداخل العالم الإسلامى وخارجه. ولكن

يرجع الأستاذ «ميزوتانى» الخلاف بين الأستاذ أحمد أمين والدكتور طه حسين فى الأساس إلى الاختلاف فى الشخصية فيما بينهما



هنا يجمع المؤلف بين شخصيات، نرى من الصعب الجمع بينها فى حزمة واحدة أو تحت عنوان واحد، للتباينات الكبيرة أحياناً، فيما بينها، مثل السودانى محمد محمود طه، والسورى محمد شحرور، والجزائرى المقيم فى فرنسا محمد أركون، والمغربى المقيم فى أوروبا عبده فيلالى أنصارى، واللبنانى رضوان السيد، والتونسيين محمد طالبى وراشد الغنوشى. ويدعو المؤلف إلى رؤية الليبرالية فى مصر ومستقبل الفكر الإسلامى بشكل عام من منظور هذه الحركة الإصلاحية الواسعة، من وجهة نظره.

أما خامس الملاحظات وآخرها فتتصل بتناول المؤلف لمستقبل الليبرالية، حيث يصر على تسمية السفير المفكر حسين أحمد أمين وجيله بـ «الليبراليين الجدد» ويعتبرهم فى معركة ضد من يسميهم بـ «الأصوليين الإسلاميين»، تماماً كما كان الليبراليون الأوائل فى زمن الأب الراحل أحمد أمين فى معركة ضد الهيمنة الثقافية للغرب، مشيراً إلى ما استفاده الجيل الأصغر من إثراء على أيدى الجيل الأول.

وهنا أيضاً نعجب من حديث المؤلف عن معركة الليبراليين المصريين الأوائل ضد الثقافة الغربية، فالأستاذ أحمد أمين ليس معياراً لليبرالى زمانه، ولكن التيار العام لليبرالى ذلك الجيل كانوا متأثرين بدرجات متفاوتة بالثقافة الغربية، وكان عداؤهم للغرب ربما سياسياً أو اقتصادياً لتحقيق الاستقلال فى الحالتين، وربما فى بعض الحالات التحفظ على بعض المعطيات الاجتماعية للغرب، ولكن لم يكونوا فى أى مرحلة معادين للثقافة الغربية كما يخلص المؤلف هنا.

ونعود إلى الأستاذ «أمين ميزوتانى» الذى يذكر أن جيل السفير حسين أحمد أمين من الليبراليين يتمتع ببنية تحتية لمجتمع مدنى نابض فى شكل مؤسسات ومنظمات ووسائل إعلام نشيطة وفعالة ومؤسسات أكاديمية وبحثية متنوعة، تمثل كلها ساحة صحية لنمو الليبرالية. وبالرغم من ذلك، فإن المؤلف يرى أن دعوة الليبراليين الجدد فى مصر تتراجع، ويستخدم تعبيراً للسفير حسين أحمد أمين نفسه عن الليبراليين فى مصر الآن، واصفاً إياهم بأنهم «مجرد مجموعة من المنشقين الذين يكتبون على الماء». ويعتبر الأستاذ «ميزوتانى» أن أحد أهم أسباب هذا التراجع هو تعقد وصعوبة لغة خطاب الليبراليين مقابل بساطة خطاب من يسميهم بـ «الأصوليين» الذين يرفعون شعاراً سهل الفهم على بسطاء الثقافة وهو «الإسلام هو الحل». أما السبب الثانى لهذا التراجع من وجهة نظر المؤلف فهو أن الدولة لا تناصر الليبراليين بفاعلية اليوم فى حربهم ضد «الأصوليين»، بينما كانت الدولة قبل ١٩٥٢، خاصة حزب الأغلبية (حزب الوفد)، منحازة لليبراليين. ويذكر المؤلف سبباً ثالثاً، ولكنه لا يذكره باعتباره نابعاً منه، بل باعتباره نقداً ذاتياً قادماً من صفوف الليبراليين المصريين ذاتهم، ألا وهو أن الليبراليين فى مصر الآن لم يدفعوا الثمن الغالى فى نضالهم من أجل القيم الليبرالية كهذا الذى دفعه الليبراليون فى الغرب تاريخياً، أو حتى الليبراليون فى مصر فى فترات تاريخية سابقة. فقد كان الطريق سهلاً وممهداً أمام «الليبراليين الجدد»، كما يطلق عليهم المؤلف، ولم يواجهوا مصاعب حقيقية أو يضطروا لخوض نضال فعلى. ولكن المؤلف هنا يرد على نفسه عندما يشير إلى حالة المفكر والكاتب الليبرالى المصرى الراحل فرج فودة (١٩٤٥ - ١٩٩٢)، والذى دفع حياته ثمناً لقناعاته وآرائه وتعرض للاغتيال على أيدى متطرفين دينيين. ويخلص المؤلف فى هذه الملاحظة إلى القول بأن ما يجرى اختباره حالياً هو درجة صلابة والتزام وعزيمة الليبراليين من جهة، ومدى تقدم الوعى الفكرى والسياسى للشعب المصرى من جهة أخرى.

وهكذا قدمنا وعرضنا وحللنا وقيمنا هذا العمل للكاتب والباحث اليابانى المسلم الأستاذ «أمين ميزوتانى» عن المفكر الراحل الأستاذ أحمد أمين، مع الإشارة بشكل خاص إلى ما تضمنه من إشارات إلى أهمية شخصية وفكر ودور الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - كمفكر ليبرالى تنويرى عربى مسلم بالنسبة للمواطن اليابانى باعتباره مدخلاً لتحسين الصورة العربية والإسلامية لدى اليابانيين ليس من خلال أعمال دعائية بل من خلال سرد سيرة ذاتية واقعية وموضوعية عن هذا المفكر الذى ترك بصمات لا تنكر على الفكر الإسلامى والثقافة العربية فى طورهما الحديث. ■



قصيدة اعتذار لأبى تمام
نزار قبانى

(٥)

أَبَا تَمَّامَ : إنَّ الشِّعرَ فى أعماقِه سَفَرُ
وَإبْحَارٌ إلى الآتى .. وكَشفٌ لَيسَ يَنْتَظِرُ
وَلَكنَّا .. جَعَلنَا منهُ شَيئاً يُشبِهُ الزَّفَة
وَإيقَاعاً نُحَاسِياً، يَدُقُّ كَأنَّهُ القَدَرُ ..

• • •

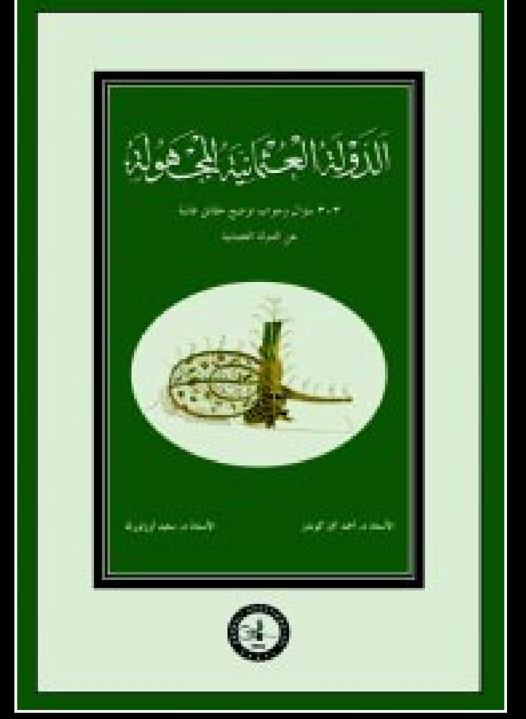
أَميرَ الحَرف .. سَامِحْنَا
فقد خُنَّا جَميعاً مهنةَ الحَرف
وَأرهَقنَاهُ بالتشطِيرِ ، والتربيعِ ، والتَّخميسِ ، والوَصف
أبا تمامَ .. إنَّ النارَ تأكُلُنَا
وَمَا زلنَا نُجَادِلُ بعضَنَا بَعضًا ..
عَنِ المصرُوف .. والممنوعِ مِنْ صَرف ..
وَجيشُ الغَاصبِ المحتلِّ مَمنوعٌ مِنَ الصَّرف !!
وَمَا زلنَا نُطَقطِقُ عَظمَ أرجلِنَا
وَنَقعُدُ فى بُيوت الله نَنْتَظِرُ ..
بَأَنْ يَأتى الإمامُ عَلىٌّ .. أَو يَأتى لَنَا عُمَرُ
وَلَنْ يَأتُوا .. وَلَنْ يَأتُوا
فَلاَ أحدٌ بِسَيفِ سِوَاهُ يَنتَصِرُ ..

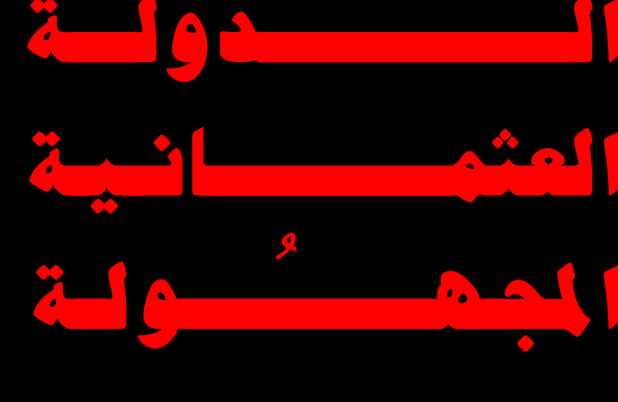
• • •

أَبَا تَمَّامَ : إنَّ الناسَ بالكَلمات قَدْ كَفَرُوا
وَبالشُّعَرَاء قَدْ كَفَرُوا ..
فَقُلْ لى أيُّهَا الشَّاعِرُ
لِمَاذَا الشعرُ - حينَ يَشيخُ -
لاَ يَستَلُّ سِكِّيناً .. وَيَنتَحِرُ ؟



يصدر قريبا







لم أستطع فى سنى دراستى معرفة المعلومات الصحيحة حول الدولة العثمانية. وفى أثناء دراستى فى الولايات المتحدة الأمريكية فقط أدركت مدى خطأ المعلومات التى تعلمتها ضد الدولة العثمانية، ومدى ضرر ردٍّ تاريخنا بكامله

أحمد آق كوندوز

■■ يشكل عام ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩م عام ذكرى مرور سبعمائة سنة على تأسيس الدولة العثمانية التى ظلَّلت ثلاث قارات تحت جناحيها مدة ٦٠٠ سنة. وكان من الطبيعى أن يتم تنظيم فعاليات مختلفة فى هذه الذكرى سواء معها أو ضدها فى أكثر من ٣٠ دولة ظهرت إلى الوجود بعد سقوطها. وعندما كنت فى الولايات المتحدة الأمريكية كأستاذ زائر فى السنة الدراسية ١٩٩٧ - ١٩٩٨ علمتُ أن العديد من المؤسسات العلمية الأمريكية وفى مقدمتها جامعة برنستين (Princeton) تفكر فى الاشتراك فى هذه الفعاليات. وقرأنا فى الصحف أن المخازن المشهورة فى باريس أثثت طوابق خاصة بالأثاث على الطراز العثمانى. كما تناهى إلى سمعنا أن العديد من الأعداء الداخليين والخارجيين وفى مقدمتهم الأرمن يستعدون لتكرار افتراءاتهم وأكاذيبهم بمناسبة مرور هذه الذكرى ضمن فعاليات مختلفة.

ونحن نعتقد أنَّ هذه الذكرى يجب أن تشكل نوعاً من نقطة تلاق بين التاريخ العثمانى وبين الجمهورية التركية، أى لقاء وطنياً، يشترك فيه كل من يحب وطنه وأمته ودولته وتاريخ أمته، وأن يبذل قصارى جهده لتحقيق هذا التلاقى فى هذه الذكرى. ويجب أن تشكل نوعاً من نقطة تلاق بين التاريخ العثمانى والتاريخ الإسلامى.

يجب أن يقبل الجميع من جميع الفئات سواء أكان يَسارياً أم يمينيا أو كان تركيا أم عربيا بأنَّ لنا ثلاثة أعداء رئيسيين: الجهل والفرقة والفقر، ونحن نعتقد بأن أكبر عائق أمام التلاقى بين الدولة العثمانية وبين الجمهورية والتاريخ الإسلامى هو الجهل بالتاريخ الصحيح.

وفى كل مجلس أو اجتماع حضرناه كانت الأسئلة توجه إلينا من مختلف الطبقات والفئات، من البقالين العاديين إلى رجال العلم، وبعد الإجابة عليها كانت هناك رغبة ورجاء وسؤال واحدٌ مشترك هو: «ألا تستطيعون وضع كتاب يحتوى على أجوبة للأسئلة التى تتكرر حول الدولة العثمانية والتى يجب على كل مواطن مسلم معرفتها؟». إن مجتمعنا -مع الأسف- قليل القراءة، والكتب الموجودة فى هذا الصدد إمَّا كتب علمية صرفة لا تستطيع الأكثرية فى مجتمعنا فهمها، أو هى كتب بعيدة عن الحقيقة بحيث لا تستطيع إعطاء أجوبة شافية. إذن فهذه كانت وظيفة وطنية ودينية وعلمية أيضاً.

الدولة العثمانية المجهولة
أحمد آق كوندوز ـ سعيد أوزتورك
يصدر قريبا عن «دار الشروق» – القاهرة

وكان أحد الذين أظهروا هذه الرغبة السيد «عدنان قهوه جى» رحمه الله، فعندما كان وزيراً للمالية استدعانى إلى أنقرة وتقدم لى بالرجاء الآتى...قائلا: «أستاذى المحترم!... لم أستطع فى سنى دراستى معرفة المعلومات الصحيحة حول الدولة العثمانية. وفى أثناء دراستى فى الولايات المتحدة الأمريكية فقط أدركت مدى خطأ المعلومات التى تعلمتها ضد الدولة العثمانية، ومدى ضرر ردٍّ تاريخنا بكامله. وعندما رأيت أن أصول وطريقة «الالتزام» . التى كنا نعيبها على الدولة العثمانية ونراها من أسباب انهيارها - تقدَّم فى دروس الماجستير كنظرية اقتصادية حديثة تريد الولايات المتحدة الأمريكية الأخذ بها فى جمع الضرائب، ذُهلتُ وبدأتُ بالتدقيق فى تاريخ الدولة العثمانية من جديد. وكان أول عمل قمتُ به هو قراءة الجزء الأول من كتابكم «القوانين العثمانية». ولكن لا يستطيع الجميع قراءة مثل هذه الكتب، لذا أتمنى وآملُ منكم القيام بتلخيص ما جاء فى كتبكم للإجابة على أهم الأسئلة المتكررة حول الدولة العثمانية ضمن كتاب بحجم ٥٠٠ صفحة ويكون عنوانه: «العثمانيون المجهولون». ولو قمت بهذا العمل فسأقوم بطبع ٥٠٠ ألف نسخة من هذا الكتاب وتوزيعه على الراغبين والمشتاقين لمعرفة الحقيقة».

كيف تم اختيار وانتقاء الأسئلة ؟

إن الأسئلة التى أصبحت وسيلة لتأليف هذا الكتاب، ظهرت نتيجة البحوث العلمية التى بدأنا بها منذ عام ١٤٠٤هـ /١٩٨٣م، وكذلك فى أثناء مئات المحاضرات التى ألقيناها فى مختلف مدن الأناضول. فقد تجمع فى بنك الأسئلة عندنا ٥٠٠٠ سؤال، وردت إلينا من القراء ومن المستمعين، فقمنا بتصنيف هذه الأسئلة أولاً، فرأيت مثلاً أن على رأس قائمة الأسئلة ترد ٥٠٣ من الأسئلة تتعلق بموضوع الحريم العثمانى ، ثم



والخلاصة أنه حاول شرح التاريخ العثمانى لكل مسلم ممن لا يستطيع الاستغناء عن القراءة شرحاً صحيحاً وصادقاً



٢٧٦ من الأسئلة عمَّا إن كان سلاطين آل عثمان - ولاسيما «يلدرم بايزيد» - يشربون الخمر أم لا ؟ ثم تأتى الأسئلة الأخرى حول قتل الأشقاء، والحرية والحقوق فى الدولة العثمانية، وعدم حج السلاطين، وعمَّا إذا كان السلطان وحيد الدين خائناً أم لا ؟... إلخ. ولا شك أن البحوث التى سبق أن جرت فى هذه المواضيع كانت معيناً لنا.

وعندما كرر العديد ممن قابلتهم من الناس هذا علمتُ أن قيامى بتأليف كتاب «٧٠٠ سؤال حول الدولة العثمانية فى ذكرى مرور ٧٠٠ عام على تأسيسها» وطبعه بالعدد الكافى وإيصاله إلى المحتاجين وظيفة وطنية دينية. لكن الأصدقاء نبهونى بأن حجم مثل هذا الكتاب سيكون ضخماً، وأنه حتى لو نشر مثل هذا الكتاب فإن الحاجة إلى كتاب يحتوى على ٣٠٠ سؤال مختارة بعناية وتحت عنوان «العثمانيون المجهولون» ستبقى موجودة.

وكنت قبل سنوات قد خططت لتنفيذ هذا الأمر وتأليف مثل هذا الكتاب وحدى، ولكن عندما رأيت تشعب مواضيع هذا المشروع رأيت إشراك زميلى العزيز الدكتور «سعيد أوزتورك» المتخصص فى التاريخ الاقتصادى، والاستفادة من معلوماته الغزيرة فى هذا الصدد، ولا سيما عند تناول مواضيع الاقتصاد العثمانى فى القسم الرابع من الكتاب، فكانت مساهمات زميلى فى حقل التاريخ الاقتصادى العثمانى ومراجعته المصادر لكى يكون الكتاب أفضل وأكمل، وتدقيقه لما كتبت سبباً حتى يخرج هذا الكتاب تحت توقيعين وبقلم مؤلفين.

المبادئ العامة التى اتبعت فى تأليف هذا الكتاب

يجب أن أسجل منذ البداية أنَّ هذا الكتاب ليس كتاباً تاريخياً يتناول الحوادث حسب تواريخها بالتسلسل، كما أنه ليس كتاباً فى فلسفة التاريخ بمعناها الدقيق، وهو أيضاً ليس كتاباً فى التاريخ الفكرى، ومع وجود تقييم حقوقى وقانونى فى كل سطر فيه إلا أنه ليس كتاباً فى تاريخ الحقوق والقوانين العثمانية، بل هو كتابُ جيبٍ يحتوى على أجوبة لكثير من الأسئلة المطروحة - وبعضها أسئلة طُرحت عن قصد من قبل بعض الجهات - حول تاريخ وحقوق وقوانين وثقافة ومدنية واقتصاد الدولة العثمانية.

هذا الكتاب لا يستغنى عنه أى مؤرخ يعمل فى حقل التاريخ العثمانى، لأنه لم يتردد فى تدقيق عميق لكثير من المواضيع، كما أنه دخل فى تفاصيل تطبيقات بعض النواحى القانونية التى يود المختص فى الشريعة والقوانين الإسلامية معرفتها، وهو يجيب عن أسئلة تدور فى خَلَد المواطن العادى. وقد حاولنا كتابته بأسلوب سهل يفهمه الطالب، ويستفيد منه مدرس مادة التاريخ ويستعمله ككتاب جيب يعينه على الإجابة عن الأسئلة التى يهتم طلابه بمعرفة الإجابة عليها فيوجهونها له. والخلاصة أنه حاول شرح التاريخ العثمانى لكل مسلمٍ ممن لا يستطيع الاستغناء عن القراءة شرحاً صحيحاً وصادقاً. وهو يحتوى على مواضيع بكر تثير انتباه كل من يهتم بالتاريخ العثمانى من المواطنين أو من الأجانب. وقد ولجنا فى هذا الكتاب إلى بعض تفاصيل وقصص حياة السلاطين العثمانيين التى قد يرى البعض أنها لم تكن ضرورية، ولكنها فى الحقيقة كانت ضرورية لتوضيح الأسئلة الأخرى من جهة، ومن جهة أخرى تمَّ شرحها بأسلوب مختلف مثير لانتباه حتى العارفين بهذه المواضيع. كانت غايتنا هى تصحيح التاريخ، والأكثرية العظمى لمجتمعنا ترغب فى مثل هذا التصحيح، وما هذا الكتاب إلا ثمرة هذه الغاية والرغبة.

ومؤلف كلِّ كتاب يضع مبادئ معينة لا يحيد عنها فى الكتاب، وهو ينظم أسلوبه ومحتوى كتابه حسب تلك المبادئ. ولا شك أننا التزمنا فى هذا الكتاب ببعض المبادئ التى لم نحد عنها، ومن أجل تهيئة القارئ فنحن نذكر بعض هذه المبادئ:

(١) هناك فى أيامنا الحالية بؤر معينة وقوى سوداء اتخذت موقفاً معادياً من الدولة العثمانية، وهى تهاجم الدولة العثمانية التى كانت أطول الدول الإسلامية عمراً من ثلاث جبهات:

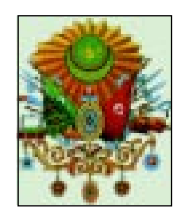
الجبهة الأولى: هم أعداء الدين والتاريخ، وهم يتخذون الهجوم على الدولة العثمانية والعداء لها كستار للهجوم على الإسلام، لأنهم لا يستطيعون الهجوم السافر عليه. وهم بهجومهم على الدولة العثمانية التى كانت - على الرغم من قصورها - تحاول تطبيق الإسلام فى جميع مناحى الحياة والعيش حسب أوامره، وهم بهجومهم عليها ينفسون عن حقدهم للإسلام الذى لا يستطيعون الهجوم عليه علانية وصراحة.

الجبهة الثانية: هم بعض المسلمين السذج الذين لا يعرفون التاريخ حق المعرفة، والذين خُدعوا بالدعايات المغرضة والمتعمدة للإساءة للدولة العثمانية وأخذوا ماسمعوه مأخذ الجد وكأنه حقيقة صادقة.

الجبهة الثالثة: وهم فئة معروفة أخطأت فى إدراك مفهوم الدولة العثمانية حول الأمة والملة العثمانية فوقفت ضد هذا المفهوم وانتقدته. وهذا المفهوم كان يحتضن جميع المسلمين، لكن هؤلاء قد اتهموا الدولة العثمانية بأنها اتخذت موقفاً معادياً للأتراك وللأمة التركية. فهذه الفئة تنتقد بالأخص نظام «قابو قولو» الذى وضعه محمد الفاتح، وهو نظام المؤسسة العسكرية المعتمدة على جنود «الفرسان والمشاة» الذين تعطى لهم الحكومة رواتب شهرية، كما تقوم بنقد بعض الشخصيات التى كانت من أصول غير تركية والتى استخدمتها الدولة العثمانية مثل عائلة «صوقوللو» نقداً عنيفاً.

ومن أهم مواضيع النقد المشتركة بين هذه الجبهات الثلاث هو قيام الدولة العثمانية وكذلك سلاطينها بعدم رعاية حظر شرب الخمر الذى شرعه الإسلام، وأنهم كانوا مدمنين على الخمر. كما تم تقديم مواضيع مشابهة لهذا الموضوع مثل موضوع الحريم - بعد تزيينه والمبالغة فيه. وبشكل مجانب للحقيقة والواقع. وفى هذا الكتاب تمت الإجابة على جميع هذه المزاعم التى قُدمت من قبل هذه الجبهات.

(٢) كانت الدولة العثمانية دولة كبيرة، لذا فإن تناول التاريخ العثمانى ليس عملاً سهلاً بل هو عمل كبير. وأسلوب الذين يهتمون بتقصى النقائص والبحث عن الأخطاء فقط فى الأعمال الكبيرة هو الجريدة التى هى أسلوب غير صحيح، يؤدى إلى الخداع والانخداع. والذى يعمله هؤلاء وأمثالهم، هو التقاط خطأ معين ثم جعله صفة ورمزاً يغلب على جميع أنواع الخير والصواب، فلو أنك قمتَ بتخيل أن الروائح الكريهة التى يفرزها جسم رجل فى خلال سنة كاملة قد انتشرت من جسم الرجل فى لحظة واحدة، فلا شك أن هذا الرجل سيبدو أمامك كريهاً، وهكذا فإن قمت بتجميع السيئات المنفردة التى حدثت فى ستة عصور فى التاريخ العثمانى وعلى مساحة حكم بلغت ٢٠ مليون كم٢ ثم نظرت من خلال هذه الستارة السوداء إلى الدولة العثمانية، فإنك لن ترى طبعاً سوى تاريخ أسود. فالجريدة بجميع أنواعها هى أم الغرائب. والحقيقة أن العاشق الغارق





كانت غايتنا هى تصحيح التاريخ، والأكثرية العظمى لمجتمعنا ترغب فى مثل هذا التصحيح، وما هذا الكتاب إلا ثمرة هذه الغاية والرغبة





فى عشق محبوبته يرى الكون كله مملوءاً بالحب، أمَّا الأم الثكلى التى فقدت طفلها الحبيب فترى العالم كله باكياً وحزيناً... ولاشك أن كليهما ليس على صواب.

التاريخ عبارة عن حديقة للحوادث وللناس، ولو دخل أحدكم إلى بستان أو إلى حديقة ليتنزه فيها ساعة من الزمن، فإنه قد يلاحظ فى أحد أركان هذه الحديقة الجميلة نقصاً أو شيئاً غير جميل، لأن حدائق الجنة وحدها هى المتكاملة الجميلة والخالية من كل نقص، ولأنه يستحيل وجود الكمال الذى لم يخلطه نقص فى هذه الدنيا، فمن كانت طبيعته منحرفة وغير سوية فإنه يركز نظره على ذلك الشىء القبيح «ثمرة متعفنة أو ورقة يابسة»، وكأنه لا يوجد فى تلك الحديقة الجميلة النضرة سواه، فتتحول تلك الحديقة الرائعة الجمال فى نظر وهمه وخياله إلى مزبلة قبيحة ووسخة فيحس بالغثيان ثم يتقيأ. ولكن أيقوم العقل بتصويب مثل هذا التصرف؟ من يرى رؤية جميلة يفكر تفكيراً جميلاً، ومن يفكر تفكيراً جميلاً يرى الجمال، ومن يرى الجمال يلتذ من حياته.

وهكذا نحن، فإن دخلنا إلى حديقة التاريخ العثمانى فلن نركز نظرنا فقط على الأشياء القبيحة والمتعفنة، بل إلى الأزهار الجميلة المفتحة، وإلى الورود العطرة أيضاً، فبجانب الفتوى التى كان يصدرها «طورشوجوزاده» حسب رغبات السلطة نذكر أيضاً موقف العالم «أبو السعود» عندما خاطب السلطان «سليمان القانونى» قائلاً له بكل شجاعة: «لا يمكن لأوامر السلطان أن تقلب الأمور غير الشرعية إلى أمور شرعية». وبجانب «طورلاق كمال» و«مدحت باشا» نذكر «الملا فنارى» و«أحمد جودت باشا». وبجانب الثلاثى للاتحاد والترقى «طلعت - أنور - جمال» الذين خربوا الدولة وهدموها نذكر «بيرى محمد باشا» و«كوبرولو محمد باشا»، وبجانب «قاضى زاده» وأمثاله من الذين وقفوا ضد التقدم العلمى بتعصب أعمى لا مبرر له، نذكر «لاغارى حسن جلبى» و«إسماعيل الكلنبوى»، ولن نوجه لطمتنا إلى «أنور باشا» و«سعيد حليم باشا» عندما نلطم «آنترانيك» و«فانيزالوس»، ونحن ضد من يقوم بهذا. والخلاصة إننا نشبه الأشياء السلبية الموجودة فى تاريخنا بماء ملوث فى إناء، فلو قمت بسكبه فى البحر فلن يستطيع تلويث البحر أبدا، بل ربما تطهر ذلك الماء الملوث.

(٣) إن نظرتنا للتاريخ العثمانى الممتد عبر ٦٠٠ سنة ستكون من خلال منظار يسمح برؤية الأشياء الإيجابية والأشياء السلبية معاً، وإلا فلا يوجد أى عهد تاريخى خلا من السوء، كما لا يوجد أى عهد تاريخى خلا من الخير. والذين ينظرون إلى التاريخ خلاف هذه النظرة يخدعون أنفسهم ويخدعون غيرهم أيضاً، ولو عاش أحد هؤلاء ألف سنة لما تردد فى انتقاد إدارة «عمر بن الخطاب رضى الله عنه» لأنها لا تتوافق مع الصورة المثالية الموجودة فى خياله!! والنتيجة الحتمية لمثل هذه النظرة أنها تكون نظرة هدامة للتاريخ وليست نظرة بناءة. ويجب ألا ننسى أن من كانت حسناته أكثر من سيئاته وخيره أكثر من شره فهو يستحق العفو والمغفرة على الدوام، وهذه هى العدالة الإلهية التى ستتجلى فى الحساب يوم الحشر.

إن أفراد الدولة العثمانية لم يكونوا أشخاصاً معصومين من الخطأ ودون أى إثم، فكما كان من بينهم من وصل إلى مرتبة «ولى الله» مثل «مراد الأول» و«مراد الثانى» و«محمد الفاتح» و«ياوز سليم» و«عبد الحميد الثانى»، كان هناك من يشرب الخمر ويرتكب الآثام الأخرى. ومن الوقائع التاريخية نعرف أن جميع الدساتير الإسلامية كانت مقبولة ومطبقة طوال التاريخ العثمانى على المستوى النظرى، ومن الوقائع التاريخية أيضاً نعرف أنه وجد فى الواقع العملى من خالف هذه القواعد والدساتير، وليس فى الإمكان إنكار أى منهما، فكما هو فى سائر الأشياء فللتاريخ العثمانى حسناته وسيئاته. ولكن لكون حسناته طوال ٦٠٠ سنة أكثر من سيئاته سمح له القدر الإلهى بالعيش طوال هذه المدة، وهى تحمل لواء الدفاع عن الإسلام، وعندما بدأت سيئاته ترجح على حسناته قام القدر بأخذ هذا اللواء وهذا الشرف، ولكن حتى فى أحلك أيام الدولة العثمانية وأكثرها سوءاً بذلوا ما بوسعهم لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، فلم يخالفوا صراحة حكماً شرعياً إسلامياً صريحاً كحرمة الخمر مثلاً، بل اتبعوا الشريعة حتى فى الأمور الاجتهادية، وملايين الوثائق الموجودة حالياً فى الأرشيف العثمانى تبرهن على هذا، حتى إنه قد جاء فى أحد المراسيم السلطانية ما يأتى حول مدى ارتباط السلطان بالشرع: «إننا إن تمسكنا بالشريعة المطهرة فى كافة أفعالنا وتصرفاتنا وسعينا لتطبيقها عند ذلك سيسعد الروح النبوى ويرضى عنا، وتصبح دولتنا العلية مظهراً للنصرة والتوفيق الصمدانى دون أدنى شك».

(٤) لا شك أننا يجب أن ننظر إلى التاريخ بمنظار النقد أيضاً، غير أن ما يسوق الإنسان إلى النقد له أنواع، فهو: إما بدافع الرغبة فى إشباع شعور الكراهية التى يحملها نحو الشىء الذى ينتقده، مثل نقد ما يراه من عيوب العدو. أو بسبب الرغبة فى إشباع شعور الشفقة نحو الشخص الذى ينتقده، وهو مثل رؤية الشخص لعيب صديقه وانتقاده له. لذا فإنه عندما يتم تناول موضوع سلبى -ولا سيما فى ساحة التاريخ- سواء أكان ذلك صحيحاً أم غير صحيح «مثلا ادعاء انتحار يلدرم بايزيد، أو شربه للخمر»، فإن الميل لقبول هذا الادعاء ينبع من الكراهية، أما رده فينبع من الشفقة. أما إن كان الادعاء إيجابياً «مثل رد انتحار بايزيد ورد شربه للخمر» فقبوله ينبع من الشفقة ورده من الكراهية والنفور. ويجب أن نؤكد هنا أن الرغبة فى إيضاح الحقيقة وبيانها يجب أن تكون هى الدافع الوحيد عند القيام بالنقد.

إن أكبر مرض فى عصرنا الحالى -ولا سيما فى موضوع التاريخ العثمانى- هو النقد المستند إلى الغرور وشعور الشطارة، ولو تم اتباع دستور الإنصاف لكان بمقدور النقد إظهار الحقيقة ناصعة وجلية. ولكن إن تدخل الغرور والشطارة فى هذا الأمر فَسَد التاريخ ومُزِّق. فمثلا إن العديد من الكتب التى ظهرت مؤخراً فى الأسواق حول التاريخ العثمانى قامت بتشويه التاريخ، أما نحن فلا نريد إفساد التاريخ وتشويهه، بل تصحيحه وتعميره، ونحن أصدقاء لأجدادنا لذا فلا ننقدهم بدافع الكره والبغض، بل بدافع الشفقة ومن أجل إظهار الحقيقة وبيانها.

(٥) فى المائة سنة الأخيرة قامت معظم أدوات النشر والإعلام فى مختلف العهود باختراع كلمات مختلفة تقارن جمال الغرب بسيئاتنا، وتقارن الثمار الجميلة للمدنية -التى هى تراكم لنتاج عصور عديدة- مع الأحوال السيئة لبعض شخصيات تاريخنا، وبهذه المحاولات المتسمة بالخداع والشطارة استطاعوا رسم صورة قبيحة لتاريخنا. لقد نسبوا الحضارة إلى الديانة المسيحية مع أنها لم تكن ثمرة المسيحية ولا علاقة لها بها، وربطوا التأخر والتخلف -الذى هو أعدى أعداء الدين الإسلامى- بالإسلام، فقلبوا الأمور رأساً على عقب. لذا فإننا نحاول فى هذا الكتاب وضع الأمور فى نصابها وإصلاح هذا القياس الخاطئ. وعندما نحاول مقارنة التاريخ بأيامنا الحالية نهتم بمعرفة ما إذا كانت الأشياء المقارنة متشابهة أم لا، لأنه لا يجوز المقارنة إلا بين الأشياء المتشابهة، فمثلاً لا يمكن مقارنة السلطنة فى الدولة العثمانية إلا مع النظام الملكى الذى كان سائداً فى أوروبا فى القرون الوسطى، ولا يمكن مقارنة ومقايسة النظام الحقوقى العثمانى إلا مع القوانين الأوروبية التى كانت سائدة آنذاك، والتى كانت تطبق قوانين للبيض غير القوانين التى تطبقها على السود، ولا يمكن مقارنة الحريم العثمانى إلا مع حياة ملوك النمسا الذين كانوا ينصبون تماثيل مئات النساء من محظيات الملك



من الوقائع التاريخية نعرف أن جميع الدساتير الإسلامية كانت مقبولة ومطبقة طوال التاريخ العثمانى على المستوى النظرى

فى جدران قصورهم، عند إجراء مثل هذه المقارنة فقط تستطيع الوصول إلى نتائج صحيحة.

إذا كنت مرتبطاً بقوة مع أوروبا وتحس بنفور عميق من تاريخ أمتك، عند ذلك تتصرف كولد غير شرعى لأوروبا، لأنك تنقلب آنذاك إلى محتال يحاول بشطارته تخريب تاريخه، وإلى شخص يفترى على أجداده، وإلى هجّاء وناقد أعلن العصيان على ماضيه، وإلى ولد عاق يريد تمريغ كرامة أمته فى الوحل بتأثير الغرور والأنانية. يمكن ملاحظة أن مثل هذه الأقلام تحمل الرغبة فى إهانة أمتها بدلاً من الشعور بالشفقة نحوها -المكلّف به عقلاً وديناً- والكره بدلاً من الحب، والاستهزاء بها بدلاً من تبنى قضاياها، والسخرية منها بدلاً من احترامها، وإظهار ماضيها وكأنه كان غارقاً فى الجهل بدلاً من احترام هذا الماضى، وشعور الاشمئزاز بدلاً من شعور الرحمة نحوها، والكبر والغرور بدلاً من المحبة، وأخيراً الجحود وعدم الأصالة بدلاً من الحمية والأصالة. وهذه الأقلام التى نرى نماذج عديدة منها فى الصحف كل يوم لا تتردد أبداً فى مدح ثوب راقصة شبه عارية فى أماكن اللهو غير البريئة فى باريس، فى الوقت الذى يقوم فيه بالاستهزاء بملابس عالم أو قاض كتب صفحات مجيدة فى التاريخ.

ولنسجل منذ البداية بأن هؤلاء من أذناب الغرب والمتزلفين إليه الذين يتهمون من يقف بجانب دينه وتاريخه بالتعصب فهم متعصبون أكثر من المتدينين والوطنيين مائة مرة فى المواضيع التى يتناولونها ويكتبون فيها، ولو قام من يحب دينه وتاريخه بمدح عبد القادر الكيلانى أو السلطان محمد الفاتح بجزء صغير من المدح المبالغ الذى يكيله هؤلاء لشكسبير مثلاً لقامت قيامة هؤلاء المتعصبين. لذا فعندما شرعنا فى كتابة هذا الكتاب فإننا قد أخذنا بنظر الاعتبار هذا التعصب التاريخى ومحاولين جهدنا ألا نتصرف مثلهم.

أبواب هذا الكتاب

يتألف كتابنا من أربعة أقسام:

نخصص القسم الأول منه لأهم الأسئلة المتعلقة بالتاريخ السياسى للدولة العثمانية والأجوبة عليها، وسنقوم فى هذا القسم بالإجابة عن الأسئلة المترددة كثيراً حول كل سلطان، حتى ولو كانت هذه الأسئلة متعلقة بالجانب القانونى أو الاقتصادى، فمثلاً عندما نجيب عن الأسئلة المتعلقة بالسلطان محمد الفاتح لا ننسى تناول موضوع قتل الأشقاء الوارد فى القوانين التى أصدرها، وعندما نتناول السلطان ياووز سليم لا ننسى الإجابة على ادعاء قيامه بمذبحة للأكراد.

وفى القسم الثانى سنتناول الأسئلة المتعلقة بالحياة الاجتماعية فى الدولة العثمانية وموضوع الحريم.

ونبين فى القسم الثالث النظام القانونى العثمانى والتشكيلات الإدارية.

ونذكر فى القسم الرابع والأخير الأجوبة عن الأسئلة المتعلقة بالناحية الاقتصادية والقوانين المالية فى الدولة العثمانية.

ونحن نأسف لأننا لم نستطع تحقيق رغبتنا فى إفراد مكان لجميع الأسئلة التى وردت إلينا لهذه الأقسام الأربعة، بسبب ضيق المكان، ولكن ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه كما يقولون، لذا اكتفينا بهذا القدر، ولو قدّر الله تعالى لنا فسحة من الأجل فسنقوم إن شاء الله بتأليف كتاب فى مجلدين تحت عنوان: «الدولة العثمانية المجهولة فى سبعمائة سؤال» مع الصور والوثائق. وقد أعدنا النظر فى الكتاب فى هذه الطبعة الجديدة وبلغتها الأصلية التى كتبت بها، وصححنا بعض الأخطاء المطبعية التى حدثت فى الطبعة الأولى، وعلى الرغم من كل العناية التى صرفناها فلم نستطع تجنب ظهور بعض هذه الأخطاء. كما أن النقد البنّاء الذى وردنا من بعض القراء الكرام كان مصدراً من مصادر جهدنا وعزيمتنا.

ونحن نعلن للقراء بأننا على استعداد لتقبل أى نقد والقيام بتصحيح أى خطأ من هذا النوع. إن إجماع الكل سواء أكان يمينياً أم يسارياً، متديناً أم غير متدين، سياسياً كان أم موظفاً، طالباً أم مدرساً وأستاذاً، بأن هذا الكتاب قام بمهمة مد الجسور بين الدولة العثمانية وبين التاريخ الإسلامى لكونهما من آثار الأمة نفسها، ولما كانت الغاية الأولى لهذا الكتاب هى التأكيد على هذا فقد سعدنا جداً من هذا الإجماع. كما كان الإجماع منعقداً على وجوب تناول مواضيع مطروحة على الساحة حالياً مثل: هل أُحرق النّاس فى عهد الدولة العثمانية؟ وهل كان يُقتل كلُ صدر أعظم فى الدولة العثمانية؟ وسنتناول إن شاء الله هذه المواضيع فى الطبعات القادمة.

وعلى القارئ الكريم أن يأخذ بنظر الاعتبار الآتى:-

أولاً:- وجدنا أنه من الأفضل أن نضع جميع المراجع والمصادر فى نهاية كل جواب دونّاه وبهامش واحد، حتى لانثقل على القارئ بكثرة الهوامش، ولكى لايشعر بالتيه فيما بينها وألا تشعره بالملل، وفى حالة رغبته بالاطلاع والتوسع فى موضوع معيّن يمكنه اختيار ما يرغب فيه منها ومتابعته.

ثانياً:- قمنا بذكر التاريخين الهجرى والميلادى معاً عند ذكرنا ما له صلة بتاريخ معيّن، وكما هو معلوم فإن الأساس المعتمد فى التاريخ الإسلامى هو التاريخ الهجرى، وإتماماً للفائدة وضعنا إلى جانبه التاريخ الميلادى.



إن النقد البنّاء الذى وردنا من بعض القراء الكرام كان مصدراً من مصادر جهدنا وعزيمتنا. ونحن نعلن للقراء بأننا على استعداد لتقبل أى نقد والقيام بتصحيح أى خطأ من هذا النوع

ثالثاً:- حاولنا جاهدين بعون من الله تعالى فى ذكرنا للحوادث أن نكون منصفين ناظرين لها من خلال الشرع، وفى كل ماذكرناه لا نقصد الإساءة لأى كان، وكل مانبتغيه هو كشف الحقيقة بما يوثقها علمياً، آملين أن نكون قد وفقنا فى ذلك.

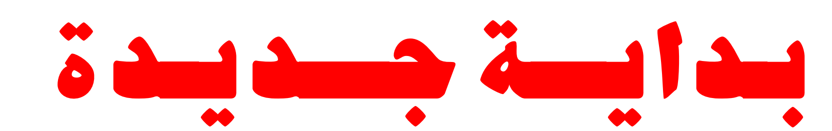
رابعاً:- إن ورود كلمة الشيعة خلال الأحداث التى وردت ضمن الأجوبة، محددٌ بالشيعة الذين استغلوا لأغراض سياسية بالعزف على الوتر المذهبى من قبل الدولة الصفوية بحكم الحالة التى كانت بينها وبين الدولة العثمانية.

خامساً:- نقصد بطائفة العلويين فى مؤلفنا هذا، العلويين الذين حاولت الدولة الصفوية أن تجعل منهم رأس حربة موجهة ضد الدولة العثمانية وطابوراً يحاول زعزعة الأمن والنظام، وقد ابتعدوا عن جوهر الإسلام ومبادئه وجاءوا بأعمال وأفعال لا صلة لها به وترك ما فرضه الله.

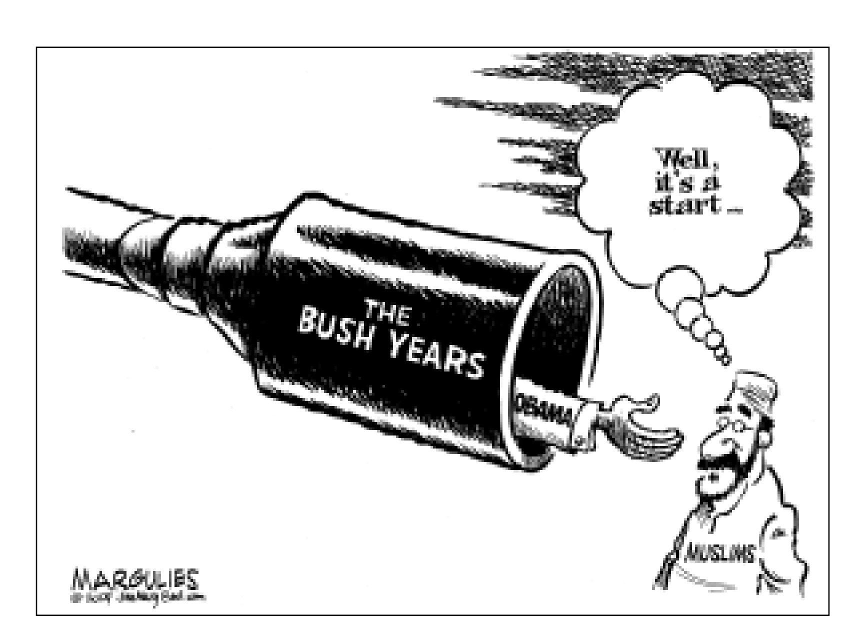
سادساً: - نود أن ننبه على المراجع المستخدمة فى هذا الكتاب؛ لأننا وضعنا المراجع كلها باللغات المختلفة فى آخر الكتاب، فى ترتيب منهجى موضوعى. قمنا أولاً بوضع المراجع الإسلامية الفقهية، ثم المراجع الأرشيفية، وأيضاً المراجع الأصلية المتعلقة بالتاريخ العثمانى بالحروف العربية. أمّا المقالات والبحوث ومواد الموسوعات والدوريات التى كانت معظمها إما باللغة التركية أو باللغة الإنجليزية، فقمنا بوضع هذه المراجع باللغتين التركية والإنجليزية، واعتنينا بترجمة بعض عناوين المقالات والبحوث إلى اللغة العربية فى الهوامش، ليزيد الانتفاع من المراجع والكتاب.

ونرى من واجبنا ونحن نقدم هذا الكتاب للقراء تقديم جزيل شكرنا لكل من أسهم فى إخراجه بهذا الشكل، وفى مقدمتهم مترجمان يجيدان اللغة العربية والتركية كلغتهما الأم، ألا وهما د. اورخان على وعونى لطفى اوغلى، وإلى الأخ جلال عامر ومحمد فاتح أوزبرك لتصحيح بعض الأخطاء، زوجتى «صائمة بلقيس آق كوندوز» التى بينت وجهات نظر قيمة حوله، وابنى «أمر الله آق كوندوز» وكبيرنا الموقر «وحدت يلماز» وصديقنا العزيز «مصطفى قره مان» وإلى مدير وقف البحوث العثمانية السيد «محمد أمين شاهين» الذى قدم مساعدات قيمة فى الأمور التكنيكية، وإلى كل من لم يتأخر عن مساعدتنا ماديا ومعنويا، وإلى أعضاء إدارة وقفنا، ونحن نؤمن بأن التوفيق من الله سبحانه وتعالى. ■

ربما تنجح الثقافة فيما أفسدته السياسة



بداية جديدة



سينثيا ب. شنايدر

Cynthia P. Schneider

■ ■ أشار الرئيس أوباما فى خطاب تنصيبه، وخطابه الأخير الذى ألقاه فى جامعة القاهرة إلى أنه جاء إلى القاهرة سعيًا وراء بداية جديدة بين الولايات المتحدة والمسلمين فى أرجاء العالم... بداية تعتمد على حقيقة أن أمريكا والإسلام يشتركان فى مبادئ واحدة، وهى مبادئ العدالة والتقدم، ومبادئ التسامح والكرامة لكافة البشر. وأن هناك ضرورة لاتخاذ سبيل جديد إلى الأمام، يعتمد على المصالح المشتركة والاحترام المتبادل فى علاقة أمريكا بالمسلمين فى أرجاء العالم. وذلك على أساس أن التفاعل الثقافى يعتبر إستراتيجية إيجابية لتعزيز علاقات أفضل بين الولايات المتحدة والمسلمين فى أرجاء العالم. وقد أكد قادة الفنون والثقافة من العالم الإسلامى والولايات المتحدة فى منتدى العالم الإسلامى والولايات المتحدة فى مدينة الدوحة بقطر فى العام الماضى ٢٠٠٩ على أهمية التفاعل فى مجالات الفنون والثقافة فى الوقت الحاضر.

وقد أكد الرئيس أوباما فى تفصيل رؤيته للعلاقة الجديدة التى ينشدها بين المسلمين والولايات المتحدة الأمريكية على أهمية وجود الأرضية المشتركة بين أمريكا والإسلام، معتمدًا على كثير من آيات القرآن الكريم، وتحدث بصراحة عن الديمقراطية، وتمكين المرأة، بالإضافة إلى كيفية معالجة عدد من الصراعات التى تمتد من باكستان إلى فلسطين، والتى يمكن التخلص منها خلالَ العديد من الأفكار والمشروعات التى تهدف إلى تعزيز الروابط الثقافية بين الأمريكيين والمسلمين فى أنحاء العالم، وذلك من خلال برامج التبادل التعليمى، والبعثات الداخلية، والتعليم الإلكترونى، والتشبيك الاجتماعى الإلكترونى؛ حيث يتمكن الشباب الأمريكى من التواصل مباشرة مع الشباب فى القاهرة. وأشار إلى أن الكثير من الأفكار التى يمكن أن تحقق التواصل يمكن تنفيذها من خلال القنوات السياسية، وكذلك تُعْتَبَر الفنون والثقافة والإعلام قنوات قادرة على طرح مداخل هامة من أجل تعزيز التفاعل والتفاهم المتبادلَين، بالإضافة إلى التأكيد على المبادئ المشتركة من عدالة وتقدم، وتسامح وكرامة. وذلك فى إطار مناخ يبعد كثيرًا عن التعقيدات والتغيرات المفاجئة، والانعزال المتزايد للسياسة والساسة فى العديد من الدول. خاصة أن كلاً من الفنون والثقافة يقدم سُبُلاً فعالة لتفكيك الأنماط المقولبة والحواجز، وزيادة التفاهم، وتعزيز التغير الاجتماعى فى المناطق التى تتصف فيها العلاقات بالتوتر، لأسباب تتعلق بالجهل بالإسلام والمسلمين بين السكان فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك بالنسبة للأنماط المقولبة ونظريات المؤامرة بل والمعلومات المغلوطة عن الولايات المتحدة، والتى تتكاثر فى الكثير من الدول ذات الأغلبية المسلمة. خاصة أن العديد من استطلاعات الرأى تكشف عن وجود الكثير من الأنماط السلبية والمقولبة على الجانبين، ولذلك تظهر الأهمية الحيوية للعوامل الثقافية فى تشكيل العلاقة ما بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى. وهو الأمر الذى يعزز الحاجة الملحة للمزيد من المعلومات الدقيقة عن المسلمين والإسلام فى الولايات المتحدة، وإلى تصوير أكثر دقة لأمريكا والأمريكيين فى العالم الإسلامى.

هذا ومن المعروف أن السكان فى الولايات المتحدة يتمتعون بهويات متعددة، كما أن لهم انتماءات سياسية ودينية متعددة، ولذلك نجد أن التعبير الإبداعى بمختلف أشكاله يمكنه أن يتجاوز الاختلافات السياسية، والثقافية، والدينية من أجل إضفاء صبغة إنسانية، وإيجاد أرضية مشتركة؛ خاصة أن بعض الأفلام مثل فيلم The Kite Runner، وفيلم Slumdog Millionaire أوضحت أن الروايات الجيدة قادرة على تخطى الحدود. كما أن أجهزة الإعلام والتشبيك الاجتماعى الجديدة تتيح التوسع فى مدى تأثير الأعمال الإبداعية، والتى تعمل فى نفس الوقت على تعزيز الدبلوماسية، وتحسين الإستراتيجيات الخاصة بالتنمية الاقتصادية والمجتمعية.

ويركز هذا المقال على سبيلَين أساسيَّين يتيحان للفنون والثقافة التفاعل باعتبارهما مكوِّنَين من مكونات العلاقات البناءة بين الولايات المتحدة والمجتمعات الإسلامية فى جميع أنحاء العالم، وذلك من خلال التفاعل الثقافى، الذى يتحقق من خلال التعاون والإنتاج المشترك.

هذا ويتطلب دمج الفنون والثقافة والإعلام فى توطيد العلاقة ما بين الولايات المتحدة والمسلمين فى أنحاء العالم أن تعمل الفنون والثقافة من خلال البحث عن السُبُل الفعَّالة فى زيادة الوعى عن الثقافات الأخرى، وتقويض الأنماط المقولبة، وإبراز الجانب البشرى المشترك الذى يربط بين جميع السكان المسلمين وغير المسلمين، بالإضافة إلى أن الفنون والثقافة يمكن أن تعمل على بناء الجسور بين المجتمعات وخاصة أن الفنانين يمثلون أدوات شديدة الأهمية للتغيير الاجتماعى داخليًا، كما أن التعبير الإبداعى يمكنه فى كثير من الأحوال تفادى الرقابة والاستحواذ على اهتمام الجمهور. وتعتبر الأفكار التى يتم نقلها عن طريق الفنون والإعلام فى معظم الأحوال قادرة على اختراق المجتمعات والانتشار بشكل سريع. خاصة إذا ما تم إدراك قيمة التعبير الإبداعى فى كافة أشكاله، والعمل على دمجه فى الإستراتيجيات الأوسع للدبلوماسية والتنمية، والتغير الاجتماعى.

كذلك فإن الإعلام والفنون يمكن اعتبارهما أدوات للتغير الاجتماعى، حيث يقوم الفنانون بدور المرآة فى أى مجتمع، ويعكسون من خلال ما يقومون به نقاط القوة والضعف، كما أنهم يتعاملون مع الأوضاع الراهنة فى المجتمع. وقد حدث خلال الحرب الباردة أن قام الموسيقيون والكتاب الأمريكيون بالسفر إلى مناطق كثيرة من العالم بغرض إحياء مفاهيم الحرية وحرية التعبير، وذلك من خلال الحديث صراحة، بل وأحيانًا بطريقة نقدية عن أوجه عدة من المجتمع الأمريكى. كذلك نجد حاليًا أن المعارضة تجد لنفسها صوتًا فى موسيقى الراب والهيب هوب التى تقدم نقطة اتصال ذات فعالية خاصة ما بين الولايات المتحدة، وقطاع الشباب فى كثير من المناطق فى العالم الإسلامى.

ويمكن للإعلام أيضًا، خاصة برامج التليفزيون أن تتناول قضايا مهمة مثل الفساد الحكومى فى عدد من الدول، أو تناقش تحسين الأوضاع الخاصة بحقوق المرأة، والتى تؤثر بشكل مباشر فى التغيير الاجتماعى، كما أنه فى كثير من البلاد تعمل وسائل الإعلام المحلية على نشر الأفكار، والقيَم بشكل ضمنى وفى داخل الإطار المحلِّى.

ويستحق التعبير الإبداعى، وممارسوه فى العالم الإسلامى التأييد والدعم، حيث يتصدى هذا التعبير إلى الكثير من

Cynthia P. Schneider is an expert in cultural diplomacy. She teaches Diplomacy and Culture at Georgetown University. She served as U.S. Ambassador to the Netherlands (1998-2001)

ترجمة: محسن يوسف

القضايا الهامة، وكذلك صياغة الهويَّات، والكشف عنها، ومن ثَمَّ يعملون على تعزيز الشعور الثقافى المحلِّى والإقليمى والعالمى، خاصة فى مواجهة التطرف، حيث تُعْتَبر الفنون والثقافة والإعلام من الأدوات الضرورية للحفاظ على تماسك المجتمع، الذى يمكن أن يتحقق من خلال التعبير الإبداعى والذى يساعد على وضع لَبِنات جديدة فى المجتمع تكون أكثر انفتاحية، وتعتمد على الممارسات الديمقراطية.

إن مناهضة التطرف، وعدم التسامح فى العالم الإسلامى لا يتطلب الرجوع إلى الأفكار والأمثلة الأمريكية، ولكنه يتطلب الرجوع إلى الحضارة المزدهرة فى العالم العربى والإسلامى منذ ألف عام. خاصة أن كلاسيكيات النهضة العربية فى نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين تحتوى على الكثير من القيَم الإيجابية، غير أن هذه الكلاسيكيات، وكذلك الأعمال المعاصرة تظل بعيدة، ولا يسهل الوصول إليها. ولذلك يجب العمل على إعادة نشرها وتوزيعها، حتى يتمكن العرب والمسلمون وغير المسلمين من فهم تاريخهم الثرى الطويل من التسامح وطلب العلم، بالإضافة إلى تعريف الغرب به.

تتصف وسائل الإعلام الجديدة، التى تستخدم الوسائل التكنولوجية الحديثة، ومنها على سبيل المثال: التشبيك الاجتماعى، بقدرته الكامنة على التأثير فى المجتمع، أو إحداث التغيير الاجتماعى، وبصفة خاصة إنه يمكن الدخول على شبكة الإنترنت فى البلاد الإسلامية. وهو الأمر الذى يتطلب التعاون بين مصممى المحتوى وخبراء الإعلام، أو أشكال التكنولوجيا الجديدة للعمل على تأسيس مجموعات للتشبيك الاجتماعى وغيره من أشكال التواصل على شبكة الإنترنت؛ حيث لم يتم الاستفادة منها كلياً، ولم يتم إدماجها بشكل منتظم فى الإستراتيجيات السياسية أو التنموية. ولذلك، فمن المهم استغلال القدرة الإيجابية الكامنة للأشكال التكنولوجية الحديثة فى العمل على إشراك الشباب المسلم من خلال طرق بديلة لم يتم تحقيقها، خاصة أن بعض الجماعات المتطرفة تنجح حالياً فى اجتذاب الشباب الذى يعانى من الفراغ.

هناك اتفاق على ضرورة استغلال أفضل الممارسات فى التفاعل الثقافى، خاصة من خلال العديد من أشكال التعاون والإنتاج المشترك حيث إن الإنتاج المشترك يمثل آلية شديدة الفعالية فى عملية التفاعل الثقافى، والإنتاج التعاونى، مثل عرض Our Town الذى أقيم فى القاهرة عام ٢٠٠٣، أو أكاديميات الموسيقى والرقص التى أقامتها الفرقة الاستعراضية American Voices فى عامى ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ فى العراق، فإنه من الملاحظ حالياً أن عدد المبادرات الأمريكية يتضاءل مقارنة بالمبادرات الثقافية الأوروبية. ولذلك فمن المهم التركيز على أشكال التعاون والإنتاج المشترك التجارى وغير الهادف للربح بين المؤسسات والأفراد فى الولايات المتحدة، ومناطق الأغلبية المسلمة.

وكما هو معروف فإن الأزمة الاقتصادية قد أثرت سلبياً على صناعة السينما، وغيرها من القطاعات، وقد يكون لذلك جانب مشرق من حيث التفاعل الثقافى بين «هوليوود» مثلاً والأصوات الإبداعية فى العالم الإسلامى. خاصة أن الركود الاقتصادى أدى إلى اندثار النماذج التقليدية لتمويل الأفلام وإنتاجها فى الولايات المتحدة بالإضافة إلى انهيار أسواق الفيديو.



وفى الوقت نفسه، أخذت المنتجات الرقمية الجديدة فى توليد أشكال مبتكرة من الإبداع والتوزيع. فصار التقارب بين الأفلام والتليفزيون والإنترنت يعمل على طمس الحدود الجغرافية بما يتيح لأفلام «هوليوود» أو برامج التليفزيون أن تخرج إلى النور من أى مكان. ويوضح نجاح شباك التذاكر الذى حققه فيلم Slumdog Millionaire أن الجمهور الأمريكى قد صار الآن أكثر انفتاحاً للأفلام الأجنبية المترجمة. ويمثل هذا الخليط من العوامل مساحة إيجابية لمنتجى الأفلام من العالم الإسلامى، حيث تتاح الفرصة حالياً وبشكل أكبر للعديد من أشكال التعاون الدولى التى تربط بين المبدعين من ناحية، والمستثمرين والمنتجين من ناحية أخرى، وبين المنتجات الإبداعية من ناحية، والجماهير الجديدة من ناحية أخرى.

إن وسائل الإعلام الجديدة وتكنولوجيا الهواتف المحمولة أصبحت تتجاوز الأساليب التقليدية فى عمليتى الإنتاج والتوزيع، وبذلك فقد تم توفير وسائل جديدة لإشراك العالم الإسلامى فى الأنواع الجديدة من الإنتاج المشترك والتعاون بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى، ومن الأمثلة الجيدة على ذلك؛ ما قام به مركز كينيدى، بالتعاون مع وزارة الخارجية الأمريكية، تحت مسمى برنامج للدبلوماسية الثقافية استهدف العالم العربى، واشتمل على ورش عمل للإدارة الفنية عُقِدت فى كلٍّ من واشنطن والقاهرة وفلسطين، واختتم بمعرض ثقافى دام ثلاثة أسابيع تحت عنوان: Arabesque: Arts of the Arab World. كما أقامت جمعية آسيا، بالاشتراك مع أكاديمية بروكلين للموسيقى وجامعة نيويورك، برعاية مهرجان للفنون الإسلامية تحت عنوان Muslim Voices. حيث قدمت هذه المهرجانات إنتاجات مشتركة تركز على نقاط الالتقاء بين الشرق والغرب، بالإضافة إلى أشكال متميزة من الفنون الخاصة بالعالم الإسلامى.

إن الاحتفالات الكبرى بفنون العرب والعالم الإسلامى وثقافتهم لا تساعد فقط على توعية الجماهير الأمريكية، بل تقدِّم قدراً ملموساً من الاحترام الذى ينعكس فى التغطية الصحفية الواضحة للمهرجانات فى مختلف المناطق خارج أمريكا. وهو الأمر الذى يتطلب وضع سياسة قوية مستدامة للمشاركة الثقافية بالإضافة إلى ضرورة توفير التمويل اللازم لتحقيق هذه الأنشطة، ومواصلتها.

هذا ويتطلب تحقيق الاستفادة من الثقافة والفنون ضرورة عرض لبعض الإستراتيجيات والإجراءات التى تساعد على فهم إدراك قدرة الفنانين، وأعمالهم الإبداعية فى بناء الجسور، والتأثير فى المجتمعات، والتشجيع على الفكر النقدى، وتعزيز التنمية والتقدم الاقتصادى. الذى يمكن أن يتحقق من خلال إدماج الفنون والثقافة فى الإستراتيجيات الدبلوماسية والتنموية التى تتعلق بالعالم الإسلامى. خاصة إذا ما أمكن توفير التمويل للمبادرات الفنية والثقافية وللفنانين، على أن يتم التركيز فى التمويل على الكيانات، والمشروعات التى لها سجلات مسارية أثبتت جدارتها، والتى تعتمد على نقاط التواصل القائمة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى.

ويعتبر تشجيع الإنتاج المشترك ونماذج الشراكة العامة- الخاصة فى مجالات السينما والتليفزيون والموسيقى والإعلام من أفضل الممارسات لتحقيق التفاعل بين الشعوب والفهم الصحيح بينها، وخاصة إذا ما تم التبرع والتبادل بالمواد التى تم إنتاجها فى كلٍّ من الدول العربية، والولايات المتحدة الأمريكية، والدول الإسلامية.

كذلك يتطلب الوصول إلى الشباب، وكما سبقت الإشارة ضرورة زيادة فعالية الإعلام الجديد والتشبيك الاجتماعى بين شباب من السكان فى العالم الإسلامى من خلال تشكيل مجموعات عمل متعددة التخصصات من صانعى السياسات، والفنانين، وخبراء التكنولوجيا، ومن خلال توفير وزيادة التمويل للمشروعات والمبادرات والإعلام التعاونى الجديد مع ضرورة إشراك الخبراء القانونيين، ورجال الأعمال للوصول إلى سبل جديدة لتمويل المحتوى الإبداعى النابع من العالم الإسلامى. وهو الذى يتطلب دعم الأشخاص والمشروعات فى العالم الإسلامى التى تستخدم الإعلام لرعاية التغيير الاجتماعى الإيجابى، وتعزيز قيَم التنوع والتعايش والاحترام المتبادل والديمقراطية. والتى يمكن أن تساعد على إزالة الحواجز التى تعرقل حرية التعبير فى كل من الإعلام والفنون.

ولتحقيق ذلك فإن هناك ضرورة للبحث عن المشروعات التى يمكن أن تحقق الإستراتيجيات المطلوبة عن طريق استخدام أدوات التشبيك الاجتماعى لبناء مجتمع ثقافى مستدام له اهتمام واضح، ويركز على حدث ثقافى، مثل حفل موسيقى أو مهرجان سينمائى أو معرض فنى على أن يتم تسجيل الحدث من خلال أفلام فيديو قصيرة يقوم بتصويرها أعضاء من الجمهور، والتى يمكن أن يتم بعد ذلك تحميلها على مواقع التشبيك الاجتماعى وذلك باستخدام أدوات التشبيك الاجتماعى لتأسيس روابط طويلة الأجل بين المشاركين، والتركيز على تأسيس الروابط بين الشباب فى الولايات المتحدة والمسلمين فى العالم. واختبار هذا المفهوم للعمل على تطوير نموذج يمكن تكراره فى فعاليات أخرى.

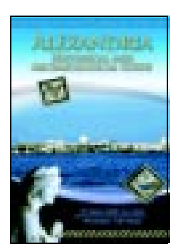
كما يمكن إنشاء بوابة ثنائية الاتجاه على شبكة الإنترنت، وذلك لتشجيع الإنتاج السينمائى المشترك، وتيسير الإنتاج فى الموقع بالنسبة للشركات الأمريكية فى العالم الإسلامى. كما يمكن أن تتيح هذه البوابة المقترحة لصانعى السينما الأمريكيين والشركات شراء السيناريوهات والمواقع من خلال تقديم معلومات شاملة ومتوفرة عن صناعة السينما فى العديد من الدول الإسلامية، مع عرض أفكار القصص التى يقدمها كتاب من العالم الإسلامى، والتعرف على التفاصيل الخاصة بالقدرات الفنية المحلية. كما يمكن من خلال هذه البوابة أن يتاح للمبدعين فى العالم الإسلامى الوصول إلى صناع السينما الأمريكية، كما يتاح للمستخدمين فى الولايات المتحدة الحصول على المعلومات الخاصة بصناعة السينما فى العالم الإسلامى، بالإضافة إلى إمكانية الوصول إلى المواهب المتوافرة به. ويمكن أن يدعم ذلك إنشاء تحالف من شركات الإنتاج وخبراء الإعلام الجديد للعمل على تطوير منبر للمنتجين المستقلين للبرامج الخاصة بالشبكة الدولية فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الإسلامى.

والخلاصة، فإن استخدام الفنون والثقافة للتفاعل يُعْتَبر مجالاً مفتوحاً للتعاون المشترك، والتفاهم، وقبول الآخر، خاصة إذا ما تمَّ التوسع فى تأسيس نقاط أخرى للتواصل من خلال الأنواع المختلفة من الفنون مثل الموسيقى والشعر بين كلٍّ من أبناء البلاد الإسلامية، وغيرها من البلاد الأخرى فى العالم المتقدم. ■

إصــــــــــدارات جــــــــــديـــدة

Alexandria
Historical and Archaeological Guide

الإسكندرية
دليل التاريخ والآثار
يسرية عبد العزيز حسنى
مقدمة زاهى حواس
الجامعة الأمريكية بالقاهرة فبراير ٢٠١٠
١٨٠ صفحة ـ ٧٥ جنيها



يعطى هذا الكتاب، الملون بالكامل، صورة عامة عن جميع المواقع التاريخية فى الإسكندرية وما حولها، بدءا من آثار العصر البطلمى القديم التى لا تزال مغمورة تحت مياه البحر، مرورا بسراديب الموتى الخاصة بالعصر اليونانى الرومانى، وحتى أهم المعالم اليهودية والمسيحية والإسلامية للمدينة. كما يضم أيضا جميع متاحف المدينة.

■

APhotographer on the Hajj
The Travels of Muhammad' Ali Effendi Sa'udi (1904/1908)

صور الحج
أسفار محمد «على أفندى سعودى (١٩٠٤/ ١٩٠٨)»
فريد قيومجيوروبرت جراهام
الجامعة الأمريكية بالقاهرة ديسمبر ٢٠٠٩
ـ ١٤٤ صفحة ـ ١٨٠ جنيها



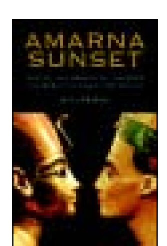
واحد من أقدم السجلات البصرية للحج وللمدينتين المقدستين مكة والمدينة تقدم مذكرات محمد «على أفندى سعودى»، وهو موظف حكومى ومصور بارع، لمحة نادرة للحج من خلال عيون مصرية فى بداية القرن العشرين عندما كانت الإمبراطورية العثمانية فى طريقها إلى الزوال، وعندما هدد خط الحجاز الحديدى بزعزعة المصالح الراسخة للنمط القديم للحج. رافق سعودى أمير الحج، إبراهيم رفعت باشا، مرتين بصحبة البعثة المصرية الرسمية. تجمع روايته لهذه الرحلات بين أفكار مسلم متدين وتفاصيل دقيقة للمصاعب والمخاطر الصحية التى تواجه الحجاج، إضافة إلى دسائس رفيعة المستوى، وكم من المخاطر تواجه التقاط الصور يفوق أى وقت مضى إلى الوقت الحاضر. ضغط الكاتب اليوميات فى سرد جد مقروء مع اقتباسات مختارة، موضحة بسخاء من خلال صور سعودى اللافتة للنظر.

فريد قيومجى هو متخصص فى الأدب، وأسفار الشرق الأوسط، بما فى ذلك الوثائق التاريخية، والطباعة الحجرية، والصور الفوتوغرافية للقرن التاسع عشر. أما روبرت جراهام فهو يعمل حاليا ككاتب مستقل ويعيش فى باريس وجنوب إسبانيا. وحصل فى عام ٢٠٠٤ على وسام الإمبراطورية البريطانية لخدمات الصحافة.

■

Amarna Sunset
Nefertiti, Tutankhamun, Ay, Horemheb, and the Egyptian Counter-Reformation

غروب تل العمارنة
نفرتيتى، توت عنخ آمون، آى، حور محب، والمكافحة المصرية للإصلاح
أيدان دودسون
الجامعة الأمريكية بالقاهرة ديسمبر ٢٠٠٩
١٩٢ صفحة ـ ١٢٠ جنيها



قراءة جديدة فى العودة إلى الأرثوذكسية بعد ثورة إخناتون تحكى هذه الدراسة الجديدة، المعتمدة على أحدث البحوث، قصة تدهور وسقوط الثورة الدينية للفرعون اخناتون فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. بادئة بأعلى نقطة لنظامه، فى سنته الـ١٢، ومتتبعة الانهيار المتلاحق المتزامن مع وفاة العديد من أحباء الملك، ومحاولاته لحماية الثورة عن طريق إشراك آخرين فى الحكم، والاعتداء المحموم الأخير على الإله آمون. ثم يسلط الكتاب الضوء على الأحداث التى جرت فى العقود الخمسة اللاحقة والتى شهدت انقراض الخط الملكى، ومحاولة وضع أجنبى على عرش مصر، وارتقاء ثلاثة من ضباط الجيش للعرش بدورهم. ومن تبين استنتاجاته أن والدة توت عنخ آمون لم تكن سوى نفرتيتى، التى كانت مشاركة للحكم مع كل من زوجها وابنها اخناتون. ووفقا لهذا التصور، قامت بنفسها فى البداية بدور فعال للعودة إلى الأرثوذكسية، والتراجع عن مشروع زوجها السابق قبل اختفائها الغامض.

أيدان دودسون هو زميل باحث فى قسم الآثار والأنثروبولوجيا فى جامعة بريستول، بالمملكة المتحدة، حيث يعلم علم المصريات. وقد ألف أحد عشر كتابا وأكثر من ٢٠٠ من العروض والمقالات.

■

Alexandria National Museum

متحف الإسكندرية القومى
مقدمة زاهى حواس
الجامعة الأمريكية بالقاهرة يناير ٢٠١٠
١٦٨ صفحة ٧٥ جنيها



يضم متحف الإسكندرية الوطنى مجموعة من أهم القطع الأثرية التى وجدت فى المنطقة، من جميع فترات التاريخ المصرى من أقدم العصور الفرعونية وحتى العصر الحديث، عاكسا تاريخ المدينة الغنى بتنوعه الثقافى. يعد الكتاب الجديد دليلا لمقتنيات المتحف ولتاريخها على حد سواء.

■

Ancient Egyptian Art
Visual Encyclopedia A

الفن المصرى القديم
موسوعة بصرية
أليس كارتوتشى
الجامعة الأمريكية بالقاهرة ديسمبر ٢٠٠٩
٣٥٢ صفحة ـ ٢٠٠ جنيه



أربعة آلاف سنة من الفن بالألوان الطبيعية. تمتد المنجزات الفنية فى مصر على مدى أربعة آلاف سنة؛ من أقدم الوجوه الطينية وأمشاط عاج فى عصور ما قبل التاريخ، مرورا بالتماثيل المتقنة فى عصر الدولة القديمة، ولوحات المقابر الرائعة فى المملكة الحديثة، والصور المثيرة للدهشة المرسومة فى العصر الرومانى. فى هذا المرجع البصرى الجديد والفريد، نجد أروع أمثلة الفن المصرى من مقتنيات المتاحف فى جميع أنحاء العالم، موضحة فى أكثر من ٣٦٠ صورة فوتوغرافية جميلة كاملة الألوان. لا يعد هذا الكتاب فقط وليمة للعيون، فهو أيضا غنى بالمعلومات، مع مقدمات لكل فترة تاريخية، وملخصات بيانية للتاريخ المصرى والاكتشافات الأثرية العظيمة، والتسلسل الزمنى، إضافة إلى مسرد. يستحق هذا الاحتفاء بالتعبير الإبداعى المصرى القديم مكانا على رفوف علماء المصريات ومحبى الفن على حد سواء.

ولدت أليس كارتوتشى، فى اريتسو فى عام ١٩٧٧، وهى كاتبة وباحثة مستقلة فى الرياضيات والفن المصرى القديم.

■

Bulletin of the Egyptian Museum
Volume 4

نشرة المتحف المصرى
المجلد ٤
الجامعة الأمريكية بالقاهرة فبراير ٢٠١٠
١٢٤ صفحة ٩٠ جنيها

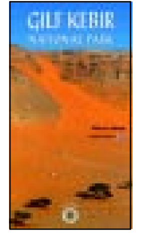


نشرة المتحف المصرى تعتبر منتدى دوريا لعلم المصريات يتناقش من خلالها العلماء فى الجوانب المختلفة لهذا العلم. توثق مجموعة المقالات العلمية فى هذه المجلة لأبحاث إنكليزية، وفرنسية، وألمانية، وإيطالية، وعربية فى الفن المصرى القديم، والقطع المتحفية والمجموعات، والتحنيط، وعلم المتاحف. يضم هذا الجزء مقالات عن عبادة حتحور، وعن الحفريات فى منطقة سقارة، والاكتشافات فى مقابر بناة الأهرام.

■

Gilf Kebir National Park
Egypt Pocket Guide

المحمية الطبيعية للجلف الكبير
دليل الجيب لمصر
ألبرتو سيليوتى
الجامعة الأمريكية بالقاهرة فبراير ٢٠١٠
٤٨ صفحة ـ ٤٠جنيها



الدليل الأول والوحيد عن العوينات والجلف.

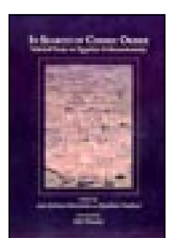
تكمن فى أقصى الزاوية الجنوبية الغربية لمصر واحدة من أروع المناطق الأقل شهرة من الصحراء الكبرى. أعلنت كمحمية طبيعية من قبل الحكومة المصرية فى عام ٢٠٠٧ لأهميتها الأثرية العظيمة وتراثها الطبيعى التاريخى. والجلف الكبير، هو كتلة صخرية واسعة تبلغ مساحتها ضعف مساحة كورسيكا، أما جبل العوينات، فيتكون من ألفى متر من التلال المنعزلة، لم يتم اكتشافها إلا فى عشرينيات القرن الماضى، وتم استكشافها فى العقود التالية، لكن اليوم أصبح عدد متزايد من الزوار قادرين على الوصول إلى هذه المنطقة الصحراوية الفريدة من نوعها فى بعثات طويلة ليخبروا بأنفسهم الجيولوجيا والبيئة الخاصة للمكان، واللوحات الصخرية الفريدة التى تعود للعصر الحجرى الحديث. والآن، يدل ألبرتو سيليوتى، من خلال نص واضح وصور ملونة ورسومات وخرائط وصور الأقمار الصناعية، الزائر الجرىء إلى معالم المحمية الطبيعية، مع ملاحظات بشأن ما ينبغى أخذه فى مثل هذه الرحلات الصحراوية الطويلة وما ينبغى تركه وراءه.

ألبرتو سيليوتى هو صحفى علمى متخصص فى علم المصريات، كتب العديد من الكتب بما فى ذلك «اكتشاف مصر القديمة» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٨)، و«الدليل المصور لأهرامات مصر» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٣)، والسلسلة الشعبية لدليل الجيب المصرى.

■

In Search of Cosmic Order
Selected Essays on Egyptian Archaeoastronomy

بحثا عن نظام كونى
مقالات مختارة عن علم الفلك الأثرى المصرى
حرره خوان انطونيو بلمونتى
ومسلم شلتوت
مقدمة زاهى حواس
الجامعة الأمريكية بالقاهرة فبراير ٢٠١٠
٣٦٠ صفحة ١٥٠ جنيها



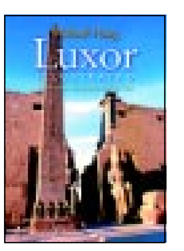
هذه المجموعة من الدراسات، التى قام بها متخصصون فى علم المصريات وعلم الفلك، هى محاولة لفك بعض أسرار الحضارة المصرية القديمة. من بين المواضيع التى تم بحثها: الأبراج المصرية القديمة، والتقويم المصرى، وفن التصوير الطبيعى والرمزى، خاصة فى كيفية ارتباطها باتجاهات المعابد والمقابر الملكية.

خوان انطونيو بلمونتى هو منسق مشاريع فى معهد الفيزياء الفلكية بجزر الكنارى، تينيريفى، إسبانيا. أما مسلم شلتوت فهو أستاذ الفيزياء الشمسية فى المعهد القومى لبحوث الفلك والجيوفيزياء، جامعة حلوان، مصر.

■

Luxor Illustrated
With Aswan, Abu Simbel, and the Nile

رسوم الأقصر
مع أسوان وأبو سمبل، ونهر النيل
مايكل هاج
الجامعة الأمريكية بالقاهرة ديسمبر ٢٠٠٩
٩٦ صفحة ٩٠ جنيها



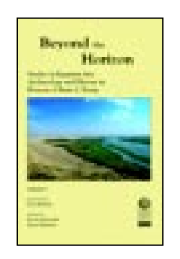
احتفالا بالألوان الطبيعية للمعالم الأثرية والمناظر الطبيعية فى صعيد مصر تتخذ الأقصر موقع طيبة القديمة، العاصمة الفخمة للدولة الحديثة فى مصر القديمة. وهى تضم معابد الأقصر والكرنك المذهلة على الضفة الشرقية لنهر النيل، وعلى الضفة الغربية مدينة الموتى، التى تضم تماثيل ممنون العملاقة والرامسيوم الشهير، والمعبد الجنائزى الرائع للملكة حتشبسوت، ووادى الملوك، الملىء بمقابر ملكية، من بينها المكان الأسطورى الذى دفن فيه توت عنخ آمون. تبرز عظمة ووفرة الآثار الفرعونية فى الأقصر سمعتها بوصفها أكبر متحف فى الهواء الطلق فى العالم. ممتدا إلى ما بعد مدينة الأقصر، يغطى هذا الكتاب أيضا جميع المواقع الرئيسية فى صعيد مصر، بما فى ذلك أبيدوس، ودندرة، وإسنا وإدفو وكوم امبو. ويولى اهتماما خاصا بأسوان، واحد من أجمل الأماكن فى مصر، مع جزيرتها القريبة من معبد إيزيس فى فيلة. وتتويجا لهذا الكتاب الغنى بالمعلومات والصور يأتى معبد أبو سمبل الاستثنائى، بما يحتويه من تماثيل ضخمة لرمسيس الثانى وزوجته الجميلة نفرتارى التى نحتت مباشرة فى صخور الجبل.

مايكل هاج هو كاتب ومصور مقره لندن، كتب «رسوم الإسكندرية» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٤) و«رسوم القاهرة» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٦)، وهو أيضا مؤلف «الإسكندرية: مدينة الذكريات العتيقة» و«الإسكندرية: صور فوتوغرافية للمدينة، ١٨٦٠-١٩٦٠» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٨).

■

Beyond the Horizon
Studies in Egyptian Art, Archaeology and History in Honour of Barry J. Kemp

ما وراء الأفق
دراسات فى الفن المصرى وعلم الآثار والتاريخ تكريما لبارى جى. كيمب
حرره سليمة إكرام وأيدان دودسون
مقدمة زاهى حواس
الجامعة الأمريكية بالقاهرة فبراير ٢٠١٠
٦٤٠ صفحة ١٨٠ جنيها



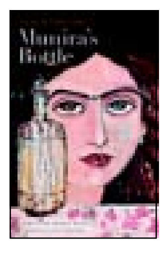
يتدارس رواد علم الآثار المصرى، فى أكثر من ٣٠ مقالا موزعة على مجلدين، موضوعات تتراوح بين الحجارة والحشرات، بين الأحذية وإنتاج الطحين، فى مواقع من جميع أنحاء مصر، فى مجموعة هامة مكرسة لتكريم أحد أكثر علماء الآثار احترامها.

سليمة إكرام وأيدان دودسون هما مؤلفا كتاب «المومياء فى مصر القديمة» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٨)، و«القبور فى مصر القديمة» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٨).

■

Munira's Bottle

القـــارورة
يوسف المحيميد
ترجمة أنتونى كالدربنك
الجامعة الأمريكية بالقاهرة فبراير ٢٠١٠
٢٢٤ صفحة ـ ٧٠ جنيها



رواية جديدة للكاتب السعودى صاحب الروايات الأكثر مبيعا من بينها «فخاخ الرائحة» فى الرياض، وبالمقابلة مع حرب الخليج الثانية وغزو صدام للكويت، نتعرف على قصة منيرة، صاحبة العيون فائقة الجمال، وما تعانى منه من مأساة لا توصف من فعل رجلها الذى يجره الانتقام بسبب إهانة شخصيته ورجولته.

وهى أيضا حكاية نساء أخريات كثيرات من المملكة العربية السعودية، يمررن عبر مركز الحبس الاحتياطى حيث تعمل منيرة، ضحايا ومرتكبى جرائم، شخصيات متألمة ومعذبة، محاصرين فى شرانق من الصمت والخوف.

تسجل منيرة قصصهم على قطعة من الورق وتطويها لتضعها فى قارورة غامضة قدمتها لها جدتها منذ فترة طويلة، لتصبح مستودعا لقصص قتلى، قد يعودون للحياة مرة أخرى.

تبحث هذه الرواية المثيرة للجدل فى كثير من القضايا التى تتسم بها حياة المرأة فى المجتمع السعودى المعاصر، بما فى ذلك السحر والحسد، والشرف والانتقام، وقانون معنوى صارم يملى أسلوب التفاعل بين الذكور والإناث. يوسف المحيميد هو النجم الصاعد فى الأدب العالمى.

و«القارورة» قصة غنية صيغت بمهارة عن تفكك الأسرة العربية السعودية. تكمن أحد عناصر قوتها فى كلماتها القاطعة: منيرة، المرأة الشهوانية، المتمحورة حول ذاتها، المقهورة جنسيا؛ وابن الدّحال، الدجال الوقح الذى يخدعها ويخونها؛ ومحمد، شقيقها الورع الغاضب على الدوام، يقومون بدور المحفز لدفع الأحداث. رحب القراء الغربيون بفتح الباب إلى داخل الأرواح والعقول العربية: آنى برولكس المحيميد يكتب بأسلوب غنى يستحضر أسلوب جابرييل جارسيا ماركيز، الذى ذكر الكاتب السعودى أنه تأثر به. (هو) لديه مأخذ على بعض المواضيع المثيرة للانقسام فى العالم العربى واشنطن بوست.

ولد يوسف المحيميد فى الرياض عام ١٩٦٤، نشرت له عدة روايات ومجموعات قصصية، ودرس اللغة الإنجليزية والتصوير الفوتوغرافى فى جامعة نوريتش سيتى فى انكلترا. وهو مؤلف «فخاخ الرائحة» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٧). أما أنتونى كالدربنك فقد ترجم العديد من الأعمال الروائية العربية الحديثة، بما فى ذلك رواية حجاج حسن أدول «ليالى المسك العتيقة» (الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ٢٠٠٥). وهويعيش ويعمل فى المملكة العربية السعودية.

■

1- Green Tea Living: A Japan-Inspired Guide to Eco-Friendly Habits, Health, and Happiness.

الحياة بالشاى الأخضر: الدليل اليابانى الملهم لتحقيق السعادة باتباع عادات صحية وجيدة وصديقة للبيئة

Toshimi A, Kayaki
Stone Bridge Press 2010, 160pp, $10.76



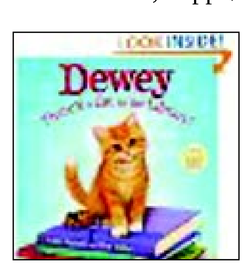
«تحكى إحدى الأساطير الصينية القديمة قصة رجل كان من الحكماء ورغب هذا الرجل وهو على فراش الموت أن يعلم ابنه مائة ألف من الاسرار عن فوائد الأعشاب ومرت به الأيام إلى أن جاء يوم وفاته ولم يكن قد قص على ابنه سوى ثمانين ألفا من تلك الأسرارفما كان منه إلا أن أوصى ابنه بزيارة قبره فى غضون خمس سنوات من وفاته لكى يعرف العشرين ألفا الباقية. وعندما ذهب الابن وجد شجيرة الشاى الاخضر مزروعة بجانب القبر تلك الشجرة التى يلقبونها بهدية السماء» , تتجسد روح هذا الكتاب فى إبرام تعاقد للصداقة بين الإنسان والطبيعة من أجل حالة صحية وذهنية على ما يرام. تعرض المؤلفة توشيمى ألف كاياكى Toshimi A,Kayaki عشرات الطرق اليابانية العريقة والتى تتميز بالحكمة والبراعة فى تحسين نظرة الناس إلى الطبيعة ومدى السعادة التى يكتسبونها عند تعاملهم مع هذه الطبيعة بالاحترام الواجب. يتسم الشاى الأخضر فضلا عن مذاقه الطيب بسمات مفيدة جدا فهو يقلل من خطر الاصابة بالسرطان وأمراض القلب والأوعية الدموية ويؤدى الى تحسن صحة الأسنان وكثافة العظام ويقاوم الأمراض الفيروسية مثل الانفلونزا ويخفض الكوليسترول فى الدم كما أنه مدر طبيعى للبول ويؤدى الى زيادة التركيز وتحفيز التفكير فضلا عن تأثيره المنعش وآثاره الجمالية الرائعة على الجلد الذى يحافظ على نضارته بإمداد الجسم بالمواد المضادة للأكسدة ولا تنسى المؤلفة تقديم نصيحة غالية للجميلات اللاتى يستهدفن نظاما غذائيا للحفاظ على الوزن حيث يكفى لتحقيق هذا الهدف تناول أربعة أكواب من الشاى الأخضر يوميا لحرق الدهون الزائدة فى الجسم وهذا بالطبع يكون مترافقا مع أداء نشاط رياضى مثل رياضة المشى. المؤلفة Kayaki ولدت ونشأت فى اليابان والآن هى مقيمة فى سان فرانسيسكو وقامت بنشر مجموعة من الكتب تبلغ اثنين وعشرين كتاباً تدور مؤلفاتها حول المقارنة بين الثقافات المختلفة ووضع المرأة عبر هذه الثقافات والصداقة مع البيئة وتطوير الذات وعملت ككاتبة فى الصحف والمجلات الأمريكية و كمراسلة للإذاعة والتليفزيون الأمريكى.

■

2- Dewey: There,s a Cat in the Library

ديوى: قط فى المكتبة

Vicki Myron, Bret Witter
Little, Brown Books for Young Readers2009, 40pp $11.55



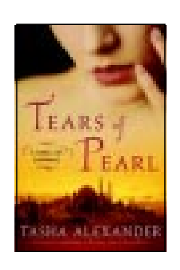
كانت تلملم أشياءها وتجهز المكان للمغادرة بعد انتهاء يوم من أيام العمل حين سمعت صوت أنين خافت يأتى من مكان ما، تلفتت حولها باحثة عن مصدر الصوت فإذا به آت من صندوق الاستعارة وكان ذلك فى مكتبة Spencer Public Library فى Iowa , لم تستطع مقاومة ضعفه ومرضه واحتياجه وبمشاعر حنونة قررت تبنى قضية هذا المخلوق الصغير الضعيف ذى الفراء الناعم والوجه البرىء ومنذ ذلك الحين صدر قرار Vicki Myron أمينة المكتبة بأن يكون «ديوى القارئ الأفضل» هو قط المكتبة. تنازلت مؤقتا عن وضعها كأمينة للمكتبة وعملت كممرضة للقط المريض ووفرت له الدفء والغذاء والمكان اللازم لرعايته, سرعان ما تعافى وأصبح له وجه ينيره نور الشفاء وكبر ديوى واشتد عوده وأصبح قطا نشيطا وصديقا معروفا لكل رواد المكتبة. أصبحت المكتبة بيتا جميلا لديوى الذى لم يكن ينغص عليه حياته سوى ذلك التطفل البرىء من جانب بعض صغار رواد المكتبة الذين كانوا يمسكونه بأيديهم الصغيرة ويلاعبونه بطريقة خاطئة ويقلبونه رأسا على عقب. لقد كانوا يطاردونه ويشدون ذيله مسببين له آلاما فى جسده مما جعله يشك فى إمكانية استمراره فى وظيفته الجديدة كقط للمكتبة، لقد أصبح يخاف من هذه المواجهات المؤلمة مع الأطفال، الذين امتزجت مشاعره نحوهم بحبهم والخوف منهم فى نفس الوقت، إن هذا الكتاب ملىء بالرسوم الواقعية الملونة بالألوان المائية مما يعطى للقصة إحساسا نابضا بالحياة ويجسد تعبيرات ديوى القط البرتقالى الجميل الذى أدرك فى النهاية أن حب الناس صغارا وكبارا هو مقصده الاساسى وتعلم كيف يتعامل مع الناس وكيف يكون كائنا متعاونا مع الجميع وبذلك فقد أصبح جديرا بالفوز بلقب أفضل قط مكتبة على الإطلاق. تلك القصة هى من أجمل ما كتب للأطفال وهى تجسد الطريقة المثلى للتعامل مع الحيوانات برحمة وتقدم للأطفال قيمة من أرقى القيم وهى الرأفة بالحيوانات.

■

3-Tears of Pearl (Lady Emily Sreies # 4)

دموع اللؤلؤة

Tasha Alexander
St. Marten,s Press 2009,pp $24.99



توقا إلى الاستمتاع بمباهج الحياة ورغبة فى أن ينهلا معا من نعيمها قصد العروسان Lady Emily و Colin Hargreaves تركيا من أجل شهر عسل فريد من نوعه. ولكن يبدو أن القدر أبى إلا أن يمنحهما شهرا هو فريد من نوعه بالفعل ولكن على بعد مائة وثمانين درجة من هدفهما ففى ليلتهما الأولى بالمدينة كان العثور على فتاة من حريم قصر السلطان Topkapi مقتولة خنقا حيث وجدت فى ساحة القصر الفخم وظلال من الغموض تخيم على مقتلها، وفى حالة من الحزن والأسى تسلم السير Richard St. Clare – وهو دبلوماسى انجليزى كان يعمل فى السفارة بالقسطنطينية – ابنته التى أقر بأنها كانت مختطفة منذ عشرين سنة ماضية، لم يستطع كولين التملص من عمله كعميل للمخابرات الانجليزية ووجد نفسه وعروسه إيميلى مكلفين من قبل التاج البريطانى بالتحقيق فى الحادث. وعد كولين وزوجته إيميلى الأب ذا القلب المكلوم بالعثور على القاتل لينال قصاصه. حاولت ايميلى الاعتماد على كينونتها كامرأة للدخول إلى عالم حريم قصر السلطان من أجل الوصول إلى أطراف الخيوط التى قد تمكنها من اكتشاف الجانى ولكنها وجدت هذا العالم شديد الغموض كما أن الجدران المغلقة لم تكن توفر أى حماية من براثن هذا القاتل شديد البشاعة الذى لم تفلت من بطشه حتى Valide أم السلطان نفسها التى وجدت مخنوقة بشالها الحريرى. تعرضت ايميلى للتهديد من جانب القاتل الذى زادت بشاعة هجماته على حريم القصر ولم تجد ايميلى مفرا من مقابلته على غير علم من كولين زوجها حيث لم تجد وسيلة لإعلامه هو والسلطان بهذه المقابلة حتى يوفروا لها الحماية اللازمة، ولم يكن أمامها حل غير الاعتماد على ذكائها الحاد فى التعامل مع هذا القاتل البشع الذى لم يعط حسابا لأى شكل من أشكال الرحمة لهذه الأرواح التى يزهقها بكل هذه القسوة. أحداث هذه الرواية تدور فى أواخر القرن التاسع عشر والمؤلفة Tasha Alexander هى خريجة جامعة Notre Dame ولها العديد من الروايات البوليسية التى حققت نجاحا كبيرا.

■

4- Barak Obama: A year in speeches Highlights of 44th President,s first year in Speeches.

باراك أوباما، عام من الخطب، مقتطفات من خطب الرئيس الرابع والأربعين فى عامه الأول.

LLC JMR Holding
Create Space 2009, 106pp $18.99



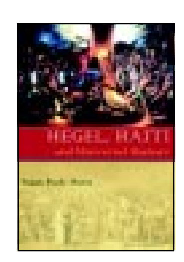
فى الفترة الأولى من تولى سيناتورولاية إيلينوى الأمريكية أعلن عن نيته فى أن يصبح الرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة الأمريكية، بدءا بخطبته الافتتاحية يستعرض الكتاب العام الأول لأوباما فى كلمات. حيث يحمل القارئ فى رحلة عبر أهم عشر خطب قدمها أوباما فى سنته الرئاسية الاولى. يعد الكتاب مرجعا هاما للطلاب والدارسين والمهتمين بالمجال السياسى وهو يعد أداة مساهمة فى تقييم سياسة الرئيس الأمريكى بعد مضى سنة كاملة على اعتلائه العرش الامريكى.

■

7- Hegel, Haiti, and Universal History (Illuminations: Cultural formation of Americas)

هيجل، هاييتى، والتاريخ العالمى (ومضات على التكوين الثقافى لأمريكا)

Susan Buck-Morss
University of Pittsburgh Press,2009,160pp $11.06



المؤلفة سوزان باك مورس هى أستاذ الفلسفة السياسية والنظرية الاجتماعية بجامعة كورنيل قدمت لنا بعد جهد مضن هذا الكتاب الفريد الذى رسمت فيه أبعادا جديدة تربط بين التاريخ وعدم المساواة والظلم والصراع الاجتماعى وتحرير الانسان من العبودية. كتاب «هيجل، هاييتى، والتاريخ العالمى» يعيد تفسير أساسيات الخلفية التاريخية لجدليات هيجل حول الاستعباد ويشير إلى طريقة أفضل من أجل تحرير الممارسة النظرية من الأفكار القديمة التى تشكل سجنا لها.

يعرض الكتاب أفكار جورج فيلهالم فريدريك هيجل والأحداث التى وقعت فى الثورة الهاييتية. تحلل باك مورس الارتباطات المذهلة بين البلدين وتتحدى القارئ لكى يوسع من حدود خياله التاريخى، إنها ترى أن عدم الاستمرارية فى التدفق التاريخى للتجارب الانسانية والعلاقات والصلات غير المتوقعة بين الثقافات المختلفة يكشف عن محدودية تجاوز حدود النقل التاريخى فى بعض الأحيان.

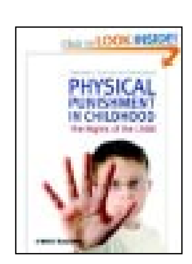
ومع ذلك فهناك ومضات من الوضوح تفتح إمكانات التفاهم على الرغم من الاختلافات الثقافية. إن ما تقترحه سوزان باك يرقى إلى نزعة إنسانية جديدة تذهب إلى ما وراء الأيديولوجيات المعتادة لهذه المرحلة. إنها تدعونا لتبنى مذهب الحياد المتطرف الذى يؤيد محو مسافات الخلاف بين الاطراف المتعارضة والوصول إلى معنى إنسانى مشترك. هاييتى هى إحدى دول البحر الكاريبى تقع فى جزر الهند الغربية فى الثلث الغربى من جزيرة الهيسبانيولا واسمها اشتق من كلمة هندية تعنى الأرض المرتفعة. كانت مستعمرة فرنسية سابقة كل سكانها من العبيد الأفارقة الذين جلبتهم فرنسا للعمل بالزراعة واستقلت هاييتى عن فرنسا إثر ثورة العبيد ١٨٠٤ وقد تعرضت لزلزال عنيف فى مقتبل هذا العام. وهى من أفقر دول العالم.

■

6- Physical Punishment in Childhood: The Rights of the Child

العقاب البدنى فى الطفولة: حقوق الطفل

Bernardette J.Saunders,Chris Goddard
WileyBlackwell 2010,284pp $28.49



من خلال عرض نطاق واسع من وجهات النظر يقدم مؤلفو هذا الكتاب الخيط الرفيع الفاصل بين العقاب البدنى المقبول للأطفال وبين التعذيب أو إساءة المعاملة الجسدية أو النفسية والعاطفية للأطفال والذى يرفضه ويجرمه القانون. يقوم الكتاب على مجموعة من البحوث الميدانية التى أتاحت الفرصة للأطفال للحديث والتعبير عن أنفسهم ووجهات نظرهم وتجاربهم. يقدم الكتاب ملاحظات الأطفال والمربين وأجيال عديدة من بعض الاسر كحالات للدراسة.

يناقش الكتاب تأثير قوة اللغة المستخدمة فى التعامل مع الأطفال ويوضح أنه إذا اقتضت الضرورة توقيع نوع من العقاب على الطفل من أجل التوجيه أو التربية فهناك طرق عديدة قد تكون الحرمان من المصروف أو الخروج فى نزهة أو فعل أى نشاط من الأنشطة المحببة الى الطفل بغرض توجيهه الى شىء معين أو نهيه عن تصرف خاطئ، يوجه المؤلفون نقدا حادا لاستخدام العقاب الجسدى كوسيلة تربوية ويحذرون من نتائجه الوخيمة على إفراز أجيال من الشخصيات المريضة نفسيا باعتباره وسيلة مذلة ومهينة فى التربية.

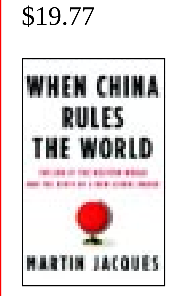
ويعرض الكتاب نماذج للمجتمعات التى تجيز العقاب البدنى ودوافع هذه المجتمعات فى ذلك وأيضا مدى فعالية هذا الأسلوب ونتاجه على الأطفال، أيضا يعرض رؤية جديدة لتناول هذا الموضوع بشكل حضارى يراعى حقوق الطفل التى هى محور أساسى لاتفاقيات حقوق الانسان ويناقش الكتاب حقوق الطفل فى أن ينال المعاملة الانسانية التى ترتضيها آدميته وعدم المبالغة فى العقاب تحت مبرر التربية حيث إن هذا من المسلمات التى يجب أن تتوافر له فضلا عن حقوقه فى التعليم والرعاية الصحية والمتابعة الأسرية ورعاية الطفل ذى الظروف الاجتماعية الخاصة كانفصال والديه أو وفاتهما أو وفاة أحدهما أو الفقر. يعد هذا الكتاب قيمة عالية لمن لهم تعاملات مباشرة مع الأطفال أو العاملين فى مجال حماية حقوق الطفل.

■

5- When China Rules the World The End of the Western World and the Birth of a new Global Order

متى تحكم الصين العالم؟ نهاية العالم الغربى وميلاد نظام عالمى جديد

Martin Jacques
Penguin Press HC 2009,567pp $19.77



فى عرض تظلله العقلانية يقدم Jacques تحليلا للجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية التى تسببت فى انحسار الهيمنة الغربية وصعود الصين كنموذج جديد من الحداثة. يسلط جاك الأضواء على السياسات التاتشرية «نسبة إلى مارجريت تاتشر» ويعتبرها المسئولة عن إطلاق الشرارة الأولى للطفرة الصينية التى ساعد حجمها والنمو المذهل لها وكونها أكبر سوق فى العالم على إحداث هذا التطور الفريد.

يشير جاك إلى تراجع الهيمنة الأمريكية ويحدد عناصر معينة تسببت فى صعود الصين كقوة عالمية وكيف يمكن أن يؤثر ذلك فى العلاقات الدولية فى المستقبل. يتخيل جاك النهضة الصينية الحديثة وقد كست العالم بردائها الصينى الجديد بما فيه من جذور عميقة لها ارتباط وثيق بالثقافة والعادات الصينية العريقة التى بالتأكيد سوف يكون لها تأثيرها على الاتجاهات نحو العمل والأسرة وحتى السياسات حيث إن من شأن هذا التغيير أن يعكس التوازنات العالمية ويجعلها لصالح الصين بعد أن كانت الثقافة والهيمنة الغربيتان هما صاحبتا النفوذ فى فترة ما قبل النهضة الصينية. يشير جاك فى دراسته إلى أن الازدهار الصينى لا يشترط بالضرورة أن يترجم إلى الديمقراطية ولكن تزايد ثقة الصين بنفسها من شأنه أن يجعلها تفرض هويتها الثقافية والسياسية على نطاق أوسع من أى وقت مضى. ويرى جاك أننا نعيش منذ أكثر من مائتى سنة فى عالم من صنع الغرب، عالم ترتبط فيه العصرية والحداثة بالكينونة الغربية ولكن القرن الواحد والعشرين بالتأكيد سوف يكون مختلفا.

إن صعود الصين والهند والنمور الآسيوية يعنى أنه وللمرة الأولى لن يكون مفهوم الحداثة والعصرية غربيا بعد الآن.

سوف يواجه الغرب بحقيقة أن أنظمته ومؤسساته وقيمه لم تعد هى الوحيدة المطروحة على الساحة إن جوهر فكر هذا الكتاب الجديد هو أن الغرب يتجه إلى حقبة تتسم بحداثة مطعون فى صحتها وأن لاعب خط الوسط فى العالم الجديد هو الصين. قارية فى حجمها وعقليتها تلك هى الصين دولة الحضارة التى فرضت وجودها كدولة قومية من خلال خصائصها واتجاهاتها وقيمها، وبرغم تأثرها الواضح بالغرب فإن حجمها وتاريخها غير العاديين يؤكدان أنها سوف تظل متميزة إلى حد كبير ومثلما تمارس قوتها المتنامية المتسارعة فإنها سوف تحدث تغييرا أكبر مما يحدث فى العالم من تغيرات جيوسياسية. لن تستمر سيادة مفهوم الدولة القومية الذى نعرفه وسوف يتم تغيير نظام الدولة المرتبط بالنموذج الغربى وستتم إعادة رسم أفكار وخطوط اللعبة.

يتميز هذا الكتاب بالشمول والعرض المنطقى للأحداث والتحليلات إنه يعرض بالفعل صورة واضحة لموقفنا الحالى والى أين نحن ذاهبون، إنه كتاب يتميز ببعد النظر والتأمل العميق لمعنى ما يحدث فى الصين من صعود. مارتن جاكوز باحث زائر فى مركز الابحاث الآسيوية بكلية لندن وكان مؤخرا أستاذا زائرا فى جامعة Remnin ببكين والمركز الدولى للدراسات الصينية ومعهد الدراسات الآسيوية بجامعة سنغافورة الوطنية، وكان رئيسا لتحرير مجلة Marxism Today وهى من أفضل المجلات المحافظة وكتب للتايمز والساندى تايمز وهو حاليا كاتب لعمود يومى فى الجارديان.

■

يوميـــــات

أحمـــــد بهـــاء الـدين



مصـــــر والجـــزائـر.. والمبــــاراة

■■ غداً تقام فى القاهرة مباراة لكرة القدم بين مصر والجزائر، وهى من المباريات التى يسميها نقاد وجمهور الكرة: «تاريخية» و«حاسمة»، وسائر العبارات التى تزيد من التوتر والتشنج بين الناس؛ لأن الفريق الفائز فيها سيدخل نهائى بطولة كأس العالم!

وقد تذكرت أننى فى أواخر السبعينيات كنت فى الكويت وقال لى الشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية، وأنا أهنئه بفوز الكويت الصغيرة ببطولة آسيا، أنه سيطلب من مجلس الوزراء إلغاء هذه الدورة فى السنوات المقبلة! لماذا؟.. لأن ما تبنيه السياسة والدبلوماسية فى خلال سنوات فى مجال العلاقات الحسنة مع الإخوة والجيران والدول الصديقة، يفسده جمهور الكرة فى ليلة واحدة!.. وكان هذا صحيحاً إلى حد كبير. إذ غضبت شعوب فى آسيا لأن الكويت الصغيرة فازت بالكأس! وأن شعب الكويت عبر عن فرحته الطبيعية «أكثر من اللازم».

والحكومات بالطبع أعقل من جمهور الكرة فى كل البلاد.. أو أعقل من «متهوسى الكرة». التى جعلت حكومة كإنجلترا تمنع سفر المشجعين لنواديهم وبلادهم إلى أوروبا وتمنع فريقها القومى من مباريات كأس أوروبا، ولا نريد أن نرى شيئاً من هذا فى مباراة الغد بين منتخب الكرة الجزائرى والمنتخب المصرى!

ووسائل الإعلام. صحافة وإذاعة وتليفزيون. لها دور كبير فى هذا المجال!..

فالكلام بلغة السياسة ولهجة الوطنية والتفاخر القومى، غير جائز على الإطلاق. وبعض النقاد إذا انهزمنا يعظوننا بحكاية أن «الكرة مستديرة».. يوم لك ويوم عليك والروح الرياضية.. أما إذا انتصرنا، فقد غزونا وفتحنا فتحاً مبيناً.. إلى آخره..

وما ينشر ويذاع قبل المباراة وأثناءها وبعدها، مهم جداً فى تهذيب الجمهور، ورفع الروح الرياضية. إلى حيث مكانها الصحيح. ولا يمكن أن تكون عزة بلد وكرامته وسمعته رهناً بمجهود أحد عشر لاعباً قد يحسنون أو يسيئون.

والرياضة أساساً خلقت ووجدت كوسيلة للارتقاء بعدد من غرائز الإنسان. والمباريات امتحان للاعبين والمعلقين وللجمهور على السواء..

وهذا ما نرجو أن نراه غداً.. ونهتم به أكثر مما نهتم بالنتيجة قبل الرياضة، فى الأسلوب والاجتهاد واحترام قواعد اللعبة قبل عدد الأهداف.. ■

الأهرام ١٦/١١/١٩٨٩م

«وجهات نظر» تشكر الأستاذ السنوسى محمد السنوسى الذى أرسل لها بهذا المقال

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 135 - April 2010

مجلة شهرية العدد ١٣٥ - السنة الثانية عشرة - أبريل ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهات

الضرائب العقارية
في القانون والاقتصاد والسياسة

- هل هناك تغيير بلا عنف؟
- «الابن» في مواجهة العسكر!
- تركيا «عثمانية جديدة»؟

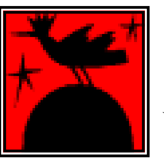


السنة الثانية عشرة
العدد ١٣٥
أبريل ٢٠١٠

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- أحمد محمد أبو زيد.. باحث مصرى فى العلاقات الدولية مقيم بالإمارات العربية المتحدة
- تونى يوت.. أستاذ الدراسات الأوروبية بجامعة نيويورك.
- تيم هارفورد.. اقتصادى وصحفى إنجليزى.
- تيموثى جارتون آش... أستاذ الدراسات الأوروبية بجامعة أكسفورد
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا
- سوات كينيكليوجلو.. نائب رئيس حزب العدالة والتنمية للشئون الخارجية
- صلاح العمروسى.. باحث اقتصادى
- عبد الرشيد الصادق محمودى.. أستاذ الأدب العربى
- ليلى إبراهيم أبو المجد.. أستاذ الدراسات التلمودية - جامعة عين شمس
- ميساء شجاع الدين... باحثة يمنية

رسوم العدد

محمد حجى - Paresh Nath - Ares





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة





الثورة المخملية!!!

هـــل هنـــاك تغـــيير بــلا عنــف؟

تيمـــــوثى جــــارتـون آش
Timothy Garton Ash

بترتيب مع:
The New York Review of Book

ترجمة: عادل فتحى

■ ■ فى خريف عام ١٩٨٩، استحدث مصطلح «الثورة المخملية» لتوصيف تغيير سلمى مسرحى تفاوضى للنظام فى دولة صغيرة فى وسط أوروبا لم تعد موجودة الآن. وبقدر ما استطعت أن أتوصل، فقد استخدم المصطلح للمرة الأولى بواسطة صحفيين غربيين، ثم لاحقا بواسطة «فاتسلاف هافل Vaclav Havel» وزعماء معارضة آخرين فى «التشيك» و«سلوفاكيا» (رغم الاستعلام المكثف مع كبار مؤرخى الثورة المخملية من التشيك والغربيين، لم أتمكن (حتى الآن) من التأكد من أول استخدام للمصطلح). وقد تم إطلاق هذا الوصف الخلاب بأثر رجعى، بواسطة عدد من الكتاب كنت من بينهم، على الأحداث التاريخية التراكمية التى تكشفت فى بولندا والمجر وألمانيا الشرقية، كما حدث فى «الثورات المخملية لعام ١٩٨٩».

بعد عشرين عاما، وفى صيف عام ٢٠٠٩، نظمت الجمهورية الإسلامية الإيرانية محاكمة استعراضية لمفكرين وزعماء سياسيين اتهمتهم بالتحريض على «انقلاب مخملى» أى ثورة مخملية. وخلال سنوات متداخلة، أطلقت على الأحداث الدرامية فى أماكن مثل أستونيا ولاتفيا وليتوانيا وجنوب أفريقيا وشيلى وسلوفاكيا وكرواتيا وصربيا وجورجيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء وقرجيستان ولبنان وبورما صفات مختلفة بالإضافة لكلمة «ثورة». لذلك فقد قرأنا عن الثورة الغنائية (دول البلطيق)، والثورة السلمية التفاوضية (جنوب أفريقيا وشيلى)، والثورة الوردية (جورجيا)، والثورة البرتقالية (أوكرانيا)، والثورة الملونة (تستخدم على نطاق واسع، بعد البرتقالية)، وثورة الأرز (لبنان)، وثورة التيوليب (قرجيستان) والثورة الانتخابية (عامة)، وثورة الزعفران (بورما)، وفى الآونة الأخيرة الثورة الخضراء فى إيران. وعادة، كما فى الحالة الأصلية فى تشيكوسلوفاكيا، فقد راج الوصف الساحر من خلال تفاعل الصحفيين الأجانب والنشطاء السياسيين فى تلك الدول.

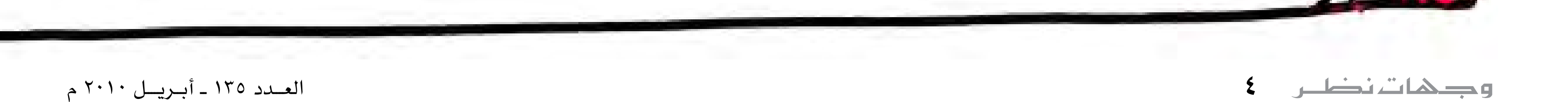
من الممكن وصف تلك الأحداث، بدرجات متفاوتة من المظهرية، باعتبارها محاولات - كانت كلها غير ناجحة - لإجراء تغيير سلمى تفاوضى للنظام على غرار عام ١٩٨٩، يضم عناصر الاحتجاج الجماهيرى والحراك الاجتماعى والعمل السلمى. ويبدو أن الثورة المخملية لم يكن لها ماض فقط، بل أيضا حاضر وربما مستقبل. وبعد أن بدأ الأمر بوصف لحدث تاريخى منفرد - الثورة المخملية فى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٨٩ - فقد أطلق التعريف المحدد ليصبح ببساطة «الثورة المخملية»: تصنيف الثورة المخملية.

[١]

إذا تعمدنا الرسم بفرشاة عريضة، فإن النموذج المثالى لنمط ثورة عام ١٩٨٩ - الثورة المخملية - ربما يتناقض مع النموذج المثالى لنمط ثورة عام ١٧٨٩، والذى تطور فى الثورة الروسية عام ١٩١٧ وثورة ماو الصينية. كان النموذج المثالى لعام ١٧٨٩ عنيفا ومثاليا وعلى أساس طبقى معلن ويتسم بالتطرف التقدمى والإيغال فى الإرهاب. وقد علق «ماو تسى تونج» تعليقا شهيرا «الثورة ليست حفل عشاء»، ومضى يقول: «الثورة هى انتفاضة وعمل من أعمال العنف تطيح فيه إحدى الطبقات بطبقة أخرى. ومن الضرورى لتصحيح الخطأ أن نتجاوز الحدود المناسبة، ولا يمكن تصحيح الخطأ دون تجاوز الحدود المناسبة» (ماو تسى تونج، تحقيق عن حركة الفلاحين فى هونان، مقتبس من كتاب «جورج لاوسون George Lawson» «الثورات التفاوضية: جمهورية التشيك وجنوب أفريقيا وشيلى Negotiated Revolutions: The Czech Republic, South Africa and Chile» (Ashgate، ٢٠٠٥، ص ٥١)).

على النقيض من ذلك، كان النموذج المثالى لعام ١٩٨٩ لا عنيف ولا مثالى ولا يستند إلى طبقة منفردة وإنما إلى تحالف اجتماعى جماهيرى - «قوة الشعب» - لإجبار القابضين على زمام الحكم على التفاوض. ولا يوغل هذا النموذج فى الإرهاب بل فى التسوية. وإذا كانت المقصلة هى شعار نمط ثورة عام ١٧٨٩، فإن رمز ثورة عام ١٩٨٩ هو المائدة المستديرة (أعلم جيدا أن المقصلة لم تظهر إلا فى مرحلة لاحقة من الثورة الفرنسية).

يشعر العديد أن الثورة اللا عنيفة هى تناقض فى المصطلحات. فطوال قرنين من الزمان ارتبطت الثورة بالعنف. وهذا هو أحد أسباب أن الناس يريدون تصنيف تلك الثورات من النمط





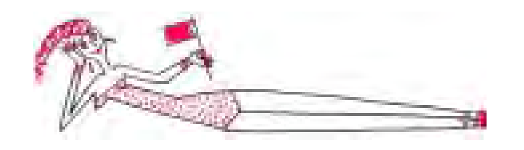
الجديد وفقا لصفة مخففة. وفى إحدى المناقشات الداخلية بين قادة الثورة المخملية الأصلية فى «براغ» فى خريف عام ١٩٨٩، تساءل أحد المعارضين التشيك عما إذا كان لا يتوجب عليهم استخدام كلمة «ثورة» على الإطلاق، لأنها توحى بالعنف (يرجى الرجوع إلى روايتى فى كتاب «المصباح السحرى: ثورة ٨٩ كما شوهدت فى وارسو وبودابست وبرلين وبراغ: The Magic Lantern: The Revolution of ٨٩' Witnessed in Warsaw, Budapest, Berlin, and Prague“ (Random House، ١٩٩٠، ص ١١٣)). وقد أعلنت النشرة الاستعلامية للمنتدى المدنى فى الثانى من ديسمبر عام ١٩٨٩ «دعونا نرفض أى شكل من الإرهاب والعنف. إن أسلحتنا هى الحب واللا عنف» (مقتبس من مقال بديع لـ«جون ك. جلين John K. Glenn» بعنوان «المتحدون المتبارون والمحصلات المتنافسة لانهيار الدولة: الثورة المخملية فى تشيكوسلوفاكيا Competing Challengers and Contested Outcomes to State Breakdown: The Velvet Revolution in Czechoslovakia»، مجلة «القوى الاجتماعية Social Forces» المجلد ٧٨ العدد ١ (سبتمبر ١٩٩٩) ص ١٨٧-٢١١. يرجى أيضا ملاحظة أن المقابل السلوفاكى للمنتدى المدنى كان بالفعل يدعى «الجمهور ضد العنف»).

فى حالة البابا يوحنا بولس الثانى و«أونج سان سوكى Aung San Suu Kyi» (سياسية ومعارضة من بورما) والبوذيين الآخرين فى بورما، يمكن القول بأن اللجوء للوسائل السلمية كان فى الأساس خيارا أخلاقيا ودينيا. كانت الرسالة المتكررة المعتادة للبابا البولندى «اهزموا الشر بالخير!». ومع ذلك، ففى معظم الحالات يكون ذلك خيارا إستراتيجيا أكثر من كونه أخلاقيا - ولا ضير فى ذلك. ومن الخصائص المحددة لنمط ثورة ١٩٨٩ التفضيل الإستراتيجى للعمل السلمى بواسطة أولئك الراغبين فى التغيير. ولذلك يمكن أيضا اعتبار الثورة المخملية نوعا من - أو تداخلا مع - تصنيف آخر: المقاومة المدنية (فى هذا الخصوص يرجى الرجوع إلى كتاب «المقاومة المدنية وسياسات القوة: تجربة نشاط اللا عنف من غاندى حتى الآن Civil Resistance and Power Politics: The Experience of Non-violent Action from Gandhi to the Present»، تأليف آدم روبرتس Adam Roberts وتيموثى جارتون آش (مطبعة جامعة أوكسفورد، ٢٠٠٩). عند كتابة هذا المقال، اعتمدت على نتائج هذا الكتاب والمشروع البحثى لجامعة أوكسفورد الذى يقف وراءه).



وصف «تروتسكى Trotsky» (أحد قادة ثورة أكتوبر الروسية والرجل الثانى بعد لينين) الثورة ذات مرة باعتبارها «الاقتحام القسرى للجماهير إلى ملكوت الحكم مجازفين بحياتهم (مقتبس من لاوسون «الثورات التفاوضية»، ص ٧٢). يحدث ذلك أيضا فى الثورة المخملية، ولكن يتم الاحتفاظ بخط حيوى بين القسرى والعنيف. كثيرا ما نتحدث عن «قوة الأرقام»، وهذا هو نوع القوة التى نتحدث عنها هنا. قبل بضعة أعوام من «الثورة البرتقالية» قال الرئيس الأوكرانى «ليونيد كوتشما Leonid Kuchma» متحدثا فى لا مبالاة عن مظاهرة للمعارضة صغيرة نسبيا «لو أنى رأيت مائتى ألف شخص لتقدمت باستقالتى». فى عام ٢٠٠٤، كان هناك حوالى خمسمائة ألف متظاهر يلوحون بالأعلام البرتقالية فى شوارع «كييف» - وكان على خليفة «كوتشما» المختار أن يستقيل فورا بعد انتصاره الزائف فى الانتخابات (يرجى الرجوع إلى مقال تيموثى جارتون آش وتيموثى سنايدر Timothy Snyder «الثورة البرتقالية The Orange Revolution»، The New York Review، ٢٨ أبريل ٢٠٠٥، وأعيد طبعه فى كتاب تيموثى جارتون آش «الحقائق مخربة: الكتابة السياسية من عقد بلا اسم: Facts Are Subversive: Political Writing from a Decade Without a Name“ (Atlantic Books، ٢٠٠٩)). تتسم تلك الأحداث بحضور جماهيرى غفير، حتى يتحول تقدير الصحفيين للأرقام ضربا من الشعر. كم كان عدد المتظاهرين المكللين باللون الأخضر والذين ملأوا شوارع طهران من ميدان (الثورة) إلى ميدان (الحرية) فى يوم ١٥ يونيو عام ٢٠٠٩ الذى لا ينسى؟ (يرجى الرجوع إلى مقال «روجر كوهين Roger Cohen» «إيران: المأساة والمستقبل Iran: The Tragedy and the Future»، The New York Review ١٣ أغسطس ٢٠٠٩). مليونان؟ ثلاثة ملايين؟ لم يستطع أحد أن يعرف على وجه الدقة؛ ولن يعرف أحد أبدا.

عام ١٧٨٩ فى فرنسا، عام ١٩١٧ فى روسيا، عام ١٩٤٩ فى الصين - كلها كانت عند نقطة ما



الثورة المخملية

مثالية معلنة؛ كلها وعدت بالفردوس على الأرض. الثورة المخملية هى ضد المثالية تماما، أو على أقل تقدير غير مثالية. إنها تسعى فى مكان ما إلى خلق مؤسسات سياسية وقانونية وترتيبات اجتماعية واقتصادية موجودة بالفعل فى مكان آخر (فى الديمقراطيات التحررية الراسخة على سبيل المثال) و/ أو التى يزعم (خطأ فى الغالب، أو بمثالية رجعية مبالغ فيها) أنها كانت موجودة فى المكان نفسه فى زمن سابق. وقد تشكك «فرانسوا فوريت Francois Furet»، المتخصص فى التأريخ للثورة الفرنسية، إذا ما كان من المناسب على الإطلاق تسمية الثورات المخملية عام ١٩٨٩ بـ«ثورات»، حيث إنها لم تأت «بفكرة واحدة جديدة» (مقتبس من لاوسون «الثورات التفاوضية»، ص ٩٠. فى هذا الخصوص يرجى أيضا الرجوع إلى كتابى «المصباح السحرى» ص ١٥٤، وكتاب «كريشان كومار Krishan Kumar" "1989: أفكار ومثل ثورية ١٩٨٩: Revolutionary Ideas and Ideals» (مطبعة جامعة مينيسوتا، ٢٠٠١)). وبهذا المعنى، فإنها كانت أقرب إلى نمط آخر من الثورات - قبل عام ١٧٨٩ - النمط الذى أطلق عليها اسمه: ثورة، فوران، دوران العجلة للوراء إلى ماض أفضل، سواء أكان حقيقيا أم متخيلا.

تستشهد «هانا أرندت Hannah Arendt» (سياسية يهودية ألمانية، ١٩٠٦-١٩٧٥) بتلخيص نموذجى لفكرة الثورة كعودة للماضى، من النقش الموجود على الختم العظيم عام ١٦٥١ لكومنولث «كرومويل Cromwell» فى أوج الثورة الإنجليزية: «استعيدت الحرية ببركة الرب» (كتاب هانا أريندت «عن الثورة On Revolution" (Viking، ١٩٦٣، (ص ٣٦). كان من الممكن أن تضع بولندا عام ١٩٨٩ نفس تلك الكلمات على شعارها لو كان لديها شعار. أحد الشعارات العظيمة لأوروبا الوسطى عام ١٩٨٩ «العودة إلى أوروبا» هو أيضا نسخة من نمط الثورة كعودة للماضى. ويستعرض معظم المطالبين اللاحقين للقب الثورة المخملية، مثل هذا الخليط من ماض وطنى مثالى وحاضر أفضل فى مكان آخر. وبينما تكشف تلك الحركات عن بعض الطموحات المثالية غير الواقعية، فلا يتشكل أى منها بصورة حاسمة من عقيدة مثالية أو رؤية لفردوس جديد على الأرض. «الفكرة الجديدة» هى شكل التحول الثورى نفسه، وليس محتوى طموحاته العقائدية.

إن القول بأن ثورات أعوام ١٧٨٩-١٩١٧-١٩٤٩ كانت على أساس طبقى هو بالتأكيد مبالغة خطيرة فى التبسيط - بل والتحريف - التاريخى. وكما نعلم، لم تكن الثورة البلشفية فى الحقيقة عملا جماهيريا بطوليا للطبقة العاملة. ولكن من الإنصاف القول أن الزعماء الثوريين من أمثال «لينين» و«ماو» زعموا فى العادة أنهم يعملون باسم طبقة أو طبقات - «العمال والفلاحين»، وهكذا. فى الثورة المخملية تكون المناشدة نموذجا لمجتمع بكامله، الأمة، الشعب. أما القومية (أو الوطنية، وفقا للظروف أو التفسيرات) فهى فى العادة قوة دافعة لتلك الثورات، كما يمكن أن تكون قوة دافعة للحركات الأكثر عنفا. فى الممارسة الفعلية، عادة ما يكمن المفتاح الإستراتيجى للحراك الجماهيرى - لإخراج تلك الحشود المسالمة الرائعة إلى الشوارع وتوليد «قوة الشعب» - تماما فى بناء أكبر التحالفات الممكنة بين طبقات وشرائح المجتمع وجماعات المصالح التى لا تتعاون فى العادة، والذين استطاع غير الديمقراطيين القابضون على زمام الحكم أن «يفرقوهم ويحكموهم» فى السابق.

فى الثورة من النمط العتيق، تتم إثارة الجماهير الغاضبة فى الشوارع بواسطة زعماء ثوريين متطرفين - كاليعقوبيين ـ أعضاء جماعة سياسية فرنسية متطرفة، المترجم ـ والبلشفيين وماو - لمساندة التطرف، بما فى ذلك العنف والإرهاب، باسم المثالية. أحضروا الحراس الحمر! فى الثورة من النمط الحديث، تخرج الجماهير إلى الشوارع لجلب القابضين على زمام الحكم إلى طاولة المفاوضات. إن لحظة قمة الحراك الجماهيرى هى لحظة الانتقال إلى التفاوض؛ أى التوصل إلى تسوية. أو فى بعض الحالات، إلى القمع العنيف - فى الوقت الراهن على الأقل. ومما تتسم به الثورة المخملية أيضا أنها تستغرق وقتا طويلا فى العادة حتى تنجح، بعد العديد من المحاولات الفاشلة، والتى من خلالها يتعلم منظمو المعارضة - بل أيضا بعض ممن هم فى السلطة - من أخطائهم وإخفاقاتهم - كما حدث على سبيل المثال فى بولندا وصربيا وأوكرانيا. استشهادا بالعبارة المعروفة لـ«صامويل بيكيت»، فإن المتظاهرين «يفشلون ثانية، يفشلون بصورة أفضل». كلا الطرفين يفعلان الأمر بصورة مختلفة فى المرة القادمة. فى النهاية، تأتى اللحظة التى يتساوى فيها الطرفان.



لذلك فهناك اسم آخر لهذا التصنيف هو «الثورة التفاوضية». إن احتمالات خروج النخبة الحاكمة تكون حرجة. وبدلا من فقدان رؤوسهم على المقصلة أو أن ينتهى بهم الأمر مشنوقين على أعمدة الإنارة، فإن أعضاء النظام القديم المستعدين لنقل السلطة، من رئيس مثل «ف. و. دو كليرك de .W .F Klerk». آخر رئيس للنظام العنصرى فى جنوب أفريقيا، المترجم ـ، وحتى الشيوعيين البيروقراطيين المحليين ورجال الشرطة السرية، يرون مستقبلا يمكن التعايش معه، بل قد يكون ورديا أكثر بالنسبة لهم، فى ظل نظام جديد.

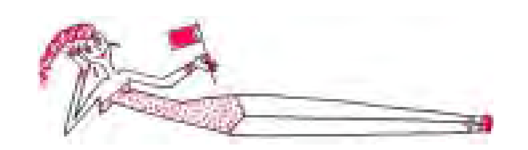
هل هناك حقا
«ثورة مخملية»؟
أم أن الأمر لا يعدو أن يكون
«مصطلحا صحافيا»
براقا؟



ليس فقط لأنهم سينجون بحياتهم، وليس فقط لأنهم سيبقون أحرارا، بل لأنهم أيضا سوف يحتفظون بجزء من مكانتهم الاجتماعية وثروتهم، أو يحولون نفوذهم السياسى السابق إلى نفوذ اقتصادى (خصخصة الصفوة الشيوعية الحاكمة)، والذى يساعدهم أحيانا للعودة بصورة مدهشة للنفوذ السياسى فى ظل قواعد أكثر ديمقراطية (مثلما فعل الشيوعيون السابقون فى جميع أنحاء أوروبا فى حقبة ما بعد الشيوعية). فى الثورة المخملية، لا ينجو رجال الدين فقط. بل يحصل «لويس السادس عشر» على قصر صغير لطيف فى فرساى، وتفتتح «مارى أنطوانيت» مشروعا ناجحا لملابس النساء الداخلية غالية الثمن.

تعد تلك التسويات غير المريحة، بل والمقيتة أخلاقيا، مع أعضاء من النظام السابق جزءا متأصلا لا يمكن تجنبه فى الثورة المخملية. إنها حسب القول الشهير لـ«إيرنست جيلنر Ernest Gellner» ـ فيلسوف وعالم اجتماع يهودى تشيكوسلوفاكى، ١٩٢٥-١٩٩٥، المترجم ـ «ثمن المخمل». ومع ذلك، فإنها تخلق أمراضها الخاصة لما بعد الثورة. فمع مرور السنين، يكون هناك إحساس بنقص التطهير الثورى، وتتردد الأقاويل المريبة حول صفقات مبتذلة أبرمت بين النخب القديمة والجديدة خلف الأبواب المغلقة، ويسود بين الكثيرين شعور بالظلم التاريخى الواضح. ها أنا هنا، عامل متوسط العمر فى أحواض بناء السفن فى جدانسك، عاطل عن العمل نتيجة للتحول التحررى الجديد المؤلم نحو الرأسمالية، بينما المتحدث الرسمى الشيوعى ورجل الشرطة السرية السابقان يحتفلان كالمليونيرات هناك فى فيلاتهم الجديدة ذات الأسوار العالية وحمامات السباحة المليئة بالفتيات نصف العاريات يتجرعان الشمبانيا. وقد جاء المليون الأول لكل منهما من خلال نهب الدولة أثناء فترة الثورة التفاوضية.

ليس هناك من حل مثالى لتلك المشكلة، ولكنى سوف أقترح حلين جزئيين. أولا، دعك من التطهير الثورى (تلك اللحظة الفوضوية التى يعلق فيها رأس الملك المقطوع عاليا)، ودعك من عقوبات العدالة الجنائية بأثر رجعى، بل يصبح الأكثر أهمية هو إجراء محاسبة علنية رمزية أمينة لماضى بلادك الردىء. ذلك وحده كفيل بوضع



الـــثـــورة المخـــمـــلـــيـــة

خـط سـاطـع بـيـن المـاضـى الـسـيـئ والمستقبل الأفضل. لذلك فإنى كنت أجادل بأن التكملة الضرورية لأى ثورة مخملية هى تشكيل لجنة لتقصى الحقائق. ثانيا، فإن إرساء حكم القانون فى أسرع وقت هو أمر حيوى لتحقيق نجاح دائم، أما الفساد فهو عنصر شديد التدمير. «السرعة أكثر أهمية من الدقة»، ذلك هو الشعار الشهير لـ «فاتسلاف كلاوس Vaclav Klaus» (رئيس جمهورية التشيك) المؤيد للخصخصة واقتصاد السوق الحرة، والذى يضحى بالأهداف بعيدة المدى لصالح الأهداف قصيرة المدى.

هناك جانب آخر للثورات المخملية يجب ذكره. جرت العادة أن ننظر إلى الثورة باعتبارها على النقيض تماما من الانتخابات: فهنا إطاحة عنيفة بديكتاتور؛ وهناك انتقال سلمى للسلطة فى نظام ديمقراطى. ولكن كانت هناك أمثلة عديدة للثورة المخملية طوال العقد الأخير، من صربيا إلى أوكرانيا إلى إيران، حيث كانت الانتخابات هى اللحظة المحفزة لثورة من النمط الحديث.

فى الأنظمة شبه الشمولية، فإن إجراء انتخابات - رغم عدم توافر كافة شروط الحرية، ومع وجود عيب رئيسى هو سيطرة النظام على التلفاز - يوفر الفرصة لحراك مبدئى خلف مرشح للمعارضة، سواء كان «فوجى- سلاف كوستونيكا Voji-slav Kostunica» فى صربيا، أو «فيكتور يوشينكو Viktor Yuschenko» فى أوكرانيا، أو «مير حسين موسوى Mir Hussein Moussavi» فى إيران. عندئذ يصبح التلاعب - الحقيقى أو المزعوم - فى الانتخابات بواسطة القابضين على مقاليد الحكم هو الشرارة المؤدية إلى حراك اجتماعى أوسع نطاقا، مع تصاعد مطالب التغيير، ليس فقط داخل النظام وإنما للنظام نفسه. إن رمزية اللون لمرشح المعارضة، برتقالى فى أوكرانيا وأخضر فى إيران، تصبح - أو يزعم على الأقل أنها - لون الأمة المخدوعة كلها، ولون «ثورة اللون». ولذلك فهناك اسم آخر لتلك الظاهرة أو فرع رئيسى لها، هو «الثورة الانتخابية».

بالنظر إلى التاريخ الحديث للثورات الانتخابية، ربما يتوصل الحاكم الشمولى الحكيم إلى هذا الاستنتاج: لا تجازف بإجراء أية انتخابات على الإطلاق! ولكن من العجيب أن عددا قليلا منهم بالفعل يتوصل لهذا الاستنتاج. لقد رسخت الديمقراطية الرسمية، بمعنى عقد مراسم شعبية تسمى انتخابات من وقت لآخر - باعتبارها أكثر الأعراف الدولية انتشارا. إذا جاز التعبير، يمكن القول أن الانتخابات ليست هى التعويض الذى تقدمه الرذيلة للفضيلة؛ كما أنها تبدو كجزء من الاحتفال المقبول بشرعية أى ديكتاتور لديه احترام لذاته. وفى تسع حالات من كل عشر، يتمكن الحكام الشموليون من الخروج منتصرين من تلك الانتخابات، أو «الانتخابات» التى تضم خليطا من الدعم الشعبى الحقيقى والولاءات القبلية وسيطرة وسائل الإعلام والرشوة الدعائية والتهديد والتزوير المباشر للأصوات. وعلى سبيل المثال، ففى حالة صربيا، تمكن «سلوبودان ميلوسيفيتش Slobodan Milosevic» من الفوز بسلسلة من انتخابات شبه حرة على الأقل، أو حتى ثلاثة أرباع حرة، قبل أن يفقد السلطة فى ثورة انتخابية عام ٢٠٠٠.

[٢]

كنت أهدف هنا إلى وضع فرضية، ثم تقصيها - أيضا من خلال مؤشر للظروف التى قد يثبت فى ظلها مع مرور الوقت أن الفرضية أصبحت أكثر أو أقل إقناعا. (أكثر أو أقل إقناعا باعتبارها المقابل الترجيحى النوعى للمؤرخ أمام الدليل أو النقض الكمى الدامغ للعالم). تقضى الفرضية بأن العام ١٩٨٩ قد أرسى

هكذا فإن الفكرة تقضى فقط بأن العام١٩٨٩ قد أرسى النموذج، بمعنى أنه باعتباره حدثا عملاقا، أو مجموعة من الأحداث التى غيرت العالم، فإنه يصبح نموذجا جديدا للثورة اللا-عنيفة التى تحتل الآن غالبا مكان - أو على الأقل تنافس - النموذج الأقدم العنيف الذى يرتبط فى أذهاننا بالعام ١٧٨٩.

تتضمن السمة الجوهرية الأولى التأكيد على كلمة «راسخ» مقابل كلمة «مبتكر». من الناحية اللغوية، ربما كانت الثورة التشيكوسلوفاكية هى الأولى التى يطلق عليها «مخملية»، ولكن أوروبا الوسطى عام ١٩٨٩ لم تفرز ذلك النموذج من الأثير. إن التاريخ السابق وثيق الصلة لا يتضمن فقط عملية التعلم الخاصة بأوروبا الوسطى من خلال محاولات الانعتاق الفاشلة فى أعوام ١٩٥٣ (ألمانيا الشرقية)، و١٩٥٦ (المجر)، و١٩٦٨ (تشيكوسلوفاكيا)، و١٩٧٠-١٩٧١ و١٩٨٠-١٩٨١ (بولندا)، وإنما أيضا التعبئة لخلع الجنرال «بينوشيه Pinochet» فى تشيلى، حيث سبق الاستفتاء هناك عام ١٩٨٨ استفتاء عام ١٩٨٩ فى أوروبا الوسطى؛ وكذلك الإطاحة بأسرة ماركوس فى الفلبين فى الأعوام ١٩٨٣-١٩٨٦، والتى منحتنا المصطلح الفلبينى-الإنجليزى الرائع «قوة الشعب»؛ وأيضا «ثورة القرنفل» فى البرتغال عامى١٩٧٤-١٩٧٥، والتى ربما كانت أول «ثورة مخملية» فى أوروبا ما بعد الحرب؛ وكذلك إذا عدنا للوراء حتى النموذج المبدع لـ «غاندى Gandhi» فى الهند.



النقطة المرجعية التاريخية الرئيسية لهذا النوع من التغيير؛ وكذلك بمعنى أنه يبدو أن هناك المزيد من الثورات الأخرى من النمط الحديث منذ عام ١٩٨٩، وعدد أقل من النوع القديم. أو هذا على الأقل هو ما أخبرنا به أولئك الذين يلصقون بتلك الأحداث صفة الثورات المخملية والملونة والسلمية والانتخابية والتفاوضية والبرتقالية والوردية والزعفران والأرز والتيوليب والخضراء وما إلى ذلك.

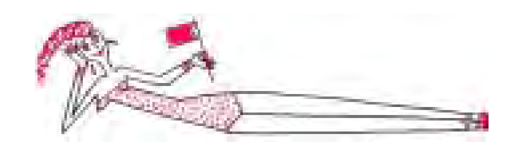
وهناك سمة ثانية غير جديدة هنا. فليس كل ما يطلق عليه «ثورة» هو فى الحقيقة ثورة. فمجلاتنا المصقولة مليئة بالهراء حول «ثورة» فى تصميم الأحذية أو الطبخ الإنجليزى أو مصارف التجزئة أو المكانس الكهربائية؛ ونعلم جميع أن ذلك مجرد غلو. الآن، وخلال السنوات العشرين الأخيرة، يسارع المراسلون الأجانب إلى إلصاق بطاقة «ثورة» (مع صفة ساحرة) على احتجاجات الشوارع الجماهيرية التى تبدو - على سبيل المثال - مثل براغ عام ١٩٨٩، ولكنها فى الجوهر ليست كذلك. فى بعض الأحيان يكون هؤلاء المراسلون أنفسهم أعضاء قدامى فى ثورات سابقة، بما فى ذلك عام ١٩٨٩؛ وأحيانا ربما كانوا يتمنون فقط لو أنهم كانوا كذلك. وكى تصل قصتك إلى الصفحة الأولى، فإن كلمة «ثورة» هى الخيار الثانى الأفضل بعد سفك الدماء فعلا. وفى المقابل، يرجع ذلك جزئيا إلى أن القراء والمحررين يربطون بوعى أو بنصف وعى بين كلمة «ثورة» وإراقة الدماء. والقوالب العتيقة لا تموت بسهولة (عندما أعيد طبع مقالى السابق «١٩٨٩» فى The New York Review (العدد المؤرخ ٥ نوفمبر ٢٠٠٩) كملحق لجريدة «جارديان Guardian» (٢٤ أكتوبر ٢٠٠٩)، كانت ترافقه صورة درامية لشاب يحمل مدفعا آليا يجرى فى شوارع بوخارست فى رومانيا عام ١٩٨٩. نعم، يصرخ القارئ فى قرارة نفسه «تلك ثورة» ولكن ما حدث فى رومانيا لا يمثل ١٩٨٩ على الإطلاق: لقد كان الاستثناء وليس القاعدة).

مع ذلك، فتلك الملاحظة الاحترازية تصبح أكثر تعقيدا بسبب حقيقة أن التصنيف الصحفى الخارجى يساعد أحيانا الناس المنخرطين فى حدث ما على توصيفه - بل وفهمه - بصورة مختلفة عما يفعلونه فعلا. فرواية الصحفى الأجنبى



كان النمـوذج المثـالى لعـام ١٩٨٩ يسـتند إلى تحـالف اجتـماعى جماهيرى لإجبار القابضين على زمام الحكم على التفاوض





الثورة المخملية

تصبح جزءا من رواياتهم أنفسهم. ووضع ذلك فى إطار ثورة يساعد فى جعلها كذلك. توجد هنا دائرة متفرج- ممثل- متفرج.

بعد ما تقدم، فإننا نحتاج لمعايير حقيقية - وليست زائفة ساذجة - لتقرير ما هو جدير بأن يعد ثورة من النمط الحديث. إن ما يكتب عن الثورات يفيد فى التمييز بين الموقف الثورى والأحداث الثورية والمحصلة الثورية. والأخيرة هى الأكثر إلحاحا. يروق لى التعريف الجديد للثورة - أو تعريف الثورة من النمط الحديث - والذى قدمه «جورج لاوسون» فى كتابه النفيس «الثورات التفاوضية». فهو يقترح أن الثورة هى «التحول السريع الجماهيرى القسرى المنهجى للمؤسسات والمنظمات الرئيسية لمجتمع». (ويشير ذلك بحق إلى أن الفعل الجماهيرى اللا-عنيف يمكن أن يكون «قسريا» دون أن يكون دمويا).

يحتاج الأمر إلى اختصاصيين لتطبيق «اختبار لاوسون» على كل دولة بمفردها أو منطقة. وبالنسبة لمعظم شرق وسط أوروبا، بما فى ذلك دول البلطيق، فأعتقد أنه من الواضح أن الاختبار قد نجح، كما حدث فى جنوب أفريقيا. أما فى جنوب شرق أوروبا، فربما تبدو صفة «سريع» غالبا أقل مناسبة، ولكن فى غالبيتها فقد كان هناك بالتأكيد تحول منهجى. ويجب وضع علامات استفهام كبيرة جدا فى جورجيا وأوكرانيا. ومن المؤكد أن قرجيستان لا تجتاز اختبار «لاوسون». وماذا عن لبنان؟ هناك أيضا حالات (حاليا على الأقل) سحق فيها بوضوح التحرك نحو تحول سريع جماهيرى قسرى منهجى. وتعد بورما واحدة من أوضح الأمثلة على ذلك، ولكن يجب ألا ننسى فى أوروبا القمع الناجح لمحاولة ثورة مخملية فى روسيا البيضاء عام ٢٠٠٦. وقد يجادل الكثيرون بأن حركة الطلبة والعمال الصينيين التى بدأ قمعها بمذبحة ميدان «تيانانمين» فى الرابع من يونيو عام ١٩٨٩ (اليوم نفسه الذى أجريت فيه الانتخابات المذهلة شبه الحرة فى بولندا)، كانت أكثر العواقب إخفاقا على الإطلاق.

إن قائمة النجاحات المؤكدة ليست مدهشة تماما. ويقع الجزء الأكبر منها فى منطقة واحدة فقط من العالم - أوروبا ما بعد الشيوعية - وكان معظمها حتى الآن ضمن الغرب التاريخى الثقافى، لو كان ذلك سيتضمن (وفقا لـ «صامويل هنتنجتون Samuel Huntington» أمريكا اللاتينية والعالم المسيحى الأرثوذوكسى. وربما كان الاستثناء الممكن هو الفلبين، ولكن الفلبين هى مجتمع مسيحى إلى حد كبير. وسواء اجتازت «ثورة الأرز» فى لبنان اختبار «لاوسون» أم لم تجتزه، فإنها وقعت فى بلد مسيحى بنسبة ٤٠٪ تقريبا. أما المغزى شديد الأهمية لمحاولة «الثورة الخضراء» فى إيران فهو أنها قد وقعت فى مجتمع مسلم للغاية، فى جمهورية إسلامية ذات نمط خاص بها، بل إنها تأخذ لون الإسلام شعارا له. ولكن هل يمكن للمرء مع ذلك أن يشير إلى ثورة مخملية ناجحة بوضوح فى دولة ذات أغلبية مسلمة؟ (مالى؟ المالديف؟) أو فى دولة تسودها البوذية أو الكنفوشية؟



يبدو أن هناك علاقة إحصائية متزامنة بين اختيار العمل اللا-عنيف والنتائج الديمقراطية التحررية عموما (يرجى الرجوع إلى كتاب «آدريان كاراتنيكى Adrian Karatnycky» و«بيتر آكرمان Peter Ackerman» «كيف تفوز بالحرية: من المقاومة المدنية إلى الديمقراطية الراسخة How Freedom Is Won: From Civic Resistance to Durable Democracy“ (Freedom House، ٢٠٠٥). مع ذلك، يجب أن نحذر مغالطة الخلط بين العلاقتين المتزامنة والسببية. فربما كانت أنواع المجتمعات التى تنتهج الوسائل اللا-عنيفة هى الأكثر ترجيحا والأفضل إعدادا لتعزيز الديمقراطية التحررية. وقد يكون السبب والتأثير الظاهريان أعراضا لسبب أكثر عمقا.

هناك سؤال إضافى؛ هل الطموح نحو مزيد من الديمقراطية هو أيضا إحدى الخواص التعريفية للثورة المخملية - ومع ذلك، ففى تلك الحالة فإن هناك خطرا أن يتحول الجدل بشأن وجود صلة بين اللا-عنف والديمقراطية التحررية ليصبح دائريا. هل يمكن أن تكون لديك ثورة مخملية لإرساء نوع مختلف من الديكتاتورية؟ من الصعب وصف حماس وحزب الله باللا-عنف، رغم أنهما قد أبليا بلاء حسنا فى الانتخابات، ولكن ما الذى يمكن أن يأتى من وراء - مثلا - «ثورة جعرانية» يقودها الإخوان المسلمون فى مصر؟

[٣]

ما الذى يمكن أن يخرج به المرء من كل ذلك؟ إن الثورة المخملية هى مجرد رقعة صحفية- سياسية؟ أم أن الثورة المخملية موجودة ولكنها حقا مجرد نوع من خصائص التحول لما قد نطلق عليه نشر الديمقراطية فى الغرب الأكبر طوال خمسة وثلاثين عاما منذ ثورة القرنفل فى البرتغال عام ١٩٧٤؟ فى تلك الحالة، وحيث إن معظم الغرب الأكبر قد أصبح الآن ديمقراطيا، فسوف نصل إلى نهاية الخط. أم يجب علينا بدلا من ذلك أن نستنتج أنه - كما أجاب «شو إنلاى Zhou Enlai» - رئيس وزراء الصين الأسبق - عندما أجاب على سؤال عن رأيه فى الثورة الفرنسية - «ما زال الوقت مبكرا جدا للحديث عن ذلك»؟ إن عشرين - أو حتى خمسة وثلاثين - عاما هى فترة زمنية قصيرة لتقييم الظواهر التاريخية الكبرى. وإذا كان هناك خلال العقدين القادمين العديد من الثورات العنيفة من النمط القديم وقليل من الثورات اللا-عنيفة من النمط الحديث، فسوف يثبت ذلك قصور فرضيتى الخاصة بالثورة المخملية. ومع ذلك، إذا كان هناك المزيد من الأمثلة الناجحة للثورات المخملية فى المجتمعات غير الغربية، بما فى ذلك المجتمعات المسلمة والكونفوشية والبوذية، فعندئذ ربما أصبحت الفرضية تبدو مقنعة.

مع ذلك، فالقول بأنه «يجب أن ننتظر ونرى» يفتقد نقطة حيوية. إننا - إذا كنا نعنى بذلك الديمقراطيات والديمقراطيين التحرريين - لسنا مجرد مراقبين فى هذا التاريخ. فنحن - مثل الصحفيين الأجانب الذين ينشرون تلك الروايات - أيضا لاعبون فى تلك الأحداث إلى حد ما.

لا يمكن المبالغة فى التأكيد على أن تلك الحركات قد تمخضت عن ظروف وتصرفات الناس فى تلك الأماكن. ليست تلك مؤامرات غربية، كما يزعم الآن الحكام الشموليون من روسيا إلى الصين إلى إيران - يساندهم فى جنونهم الارتيابى قلة من المراقبين الغربيين المقتنعين بالمؤامرة. من المؤكد أن هناك تورطا غربيا فى العادة، بعضه معلن وبعضه سرى، ولكن ليست هناك حالة واحدة يمكن فيها الزعم ظاهريا بأن ذلك التورط كان حاسما. بل إن مزاعم المؤامرة الغربية هى نفسها جزء من اللعبة السياسية المحلية، بقصد تشويه زعماء المعارضة أمام الرأى العام المعادى للغرب وتبرير اعتقالهم بدعوى الخيانة. ومن الأمثلة التقليدية لذلك، لائحة الاتهام فى المحاكمة الاستعراضية للإصلاحيين الإيرانيين، والتى تقول فى إحدى النقاط: «تتكون الثورة المخملية من ثلاثة أجنحة، فكرية وإعلامية وتنفيذية، ولكل منها صلات بعدد من المؤسسات الأمريكية، وهناك نوع من تقسيم العمل فيما بينها. وضمن هذا المثلث من الفتنة، تؤدى كل من تلك المنظمات الأمريكية وظيفة معينة ويتعاون معها عدد من الناس. ومن بينها وأكثرها أهمية مؤسسة تسمى

وصف «تروتسكى»
الثورة ذات مرة باعتبارها
الاقتحام القسرى للجماهير
إلى ملكوت الحكم
مجازفين بحياتهم



هوفر فى جامعة ستانفورد تم تشكيلها إبان الحرب الباردة (أعبر عن امتنانى الشديد لزميلى فى مؤسسة هوفر، البروفيسور «عباس ميلانى Abbas Milani»، لقيامه بترجمة تلك الوثيقة الهامة). وهكذا دواليك.

مع ذلك، فإن ما ينكشف بوضوح من دراسة مقارنة دولية هو أن فرص النجاح أو الفشل تعتمد إلى حد كبير على عوامل خارجية - ولكن ذلك يجب فهمه بصورة أكبر كثيرا من مجرد مؤامرات أمريكية هدامة مزعومة. إن احتمالات محاولة ثورة مخملية لا تعتمد فقط على طبيعة الدولة والمجتمع اللذين تقع فيهما، بل أيضا على مكان تلك الدولة وذلك المجتمع فى منظومة دولية أكبر (يظهر ذلك بوضوح شديد من الدراسات فى كتاب «روبرتس وجارتون آش» «المقاومة المدنية وسياسات القوة»، والدراسات فى كتاب «الديمقراطية والشمولية فى العالم ما بعد الشيوعى Democracy and Authoritarianism in the Postcommunist World»، من تأليف «فاليرى بونس Valerie Bunce» و«مايكل ماكفول Michael McFaul» و«كاثرين ستونر-فايس Kathryn Stoner-Weiss»، (مطبعة جامعة كامبريدج، ٢٠٠٩)). إذا رسمنا مرة أخرى بفرشاة عريضة جدا، فمن الممكن التوصل إلى أن الفرص الأفضل تكمن فى أن نعيش فى دول شبه شمولية تعتمد إلى حد كبير، سياسيا واقتصاديا و- إذا جاز التعبير - نفسيا، على دول أكثر ديمقراطية - وعلى وجه الخصوص عندما تكون الدول الأجنبية ذات التأثير الأكثر سلبية أو الأكثر فعالية عليها هى ديمقراطيات غربية. وهكذا فقد أخفقت المحاولات فى دول كبيرة مستقلة ذات مرجعية ذاتية مثل الصين، وكذلك أيضا فى دول صغيرة منعزلة ثانوية مثل بورما المحشورة بين الصين والهند.

كما جاء الأمر فى غير صالح بورما عام ٢٠٠٧، كانت الديمقراطيات غير الغربية مثل الهند أقل حرصا عامة من تلك الغربية لممارسة فعالية مؤثرة لصالح الثورات المخملية. فنظرا إلى أنها قد نشأت فى الغالب من كنف تجربة استعمارية، فهى تضع قيمة عالية للسيادة الوطنية وتميل إلى اعتبار حتى الصور حسنة النية للتدخل الخارجى غير القسرى استعمارا جديدا محتملا. وتحافظ تلك الديمقراطيات بالتأكيد على مصالحها القومية الخاصة. فالهند على سبيل المثال تشعر كما هو واضح أن من مصلحتها الاقتصادية والعسكرية والجغرافية-السياسية أن تحتفظ بعلاقات طيبة مع النظام العسكرى فى بورما. فهل سيستمر الحال هكذا؟ أم ستتوق الديمقراطيات غير الغربية مع مرور الزمن إلى المغامرة (غير الاستعمارية على الإطلاق) بمساعدة الناس فى الدول الأقل حرية ليساعدوا أنفسهم؟ الإجابة التى سيقدمونها ربما تكون حاسمة لمستقبل الثورة المخملية.

إن إمكانية قيام الديمقراطيين والديمقراطيات بتحسين احتمالات الثورة المخملية فى أماكن أخرى - إذا ما رغبوا فى ذلك - سوف تكون موضوع مقال آخر. وكذلك السؤال عما إذا كان يتوجب عليهم ذلك، حتى لو استطاعوا؛ حيث إن البعض قد يجادلون بأن هذا الهدف إما مرغوب أو شرعى. وعلى أية حال، فقد أصبح ذلك أكثر صعوبة خلال العقد الماضى، حيث نظر الحكام الشموليون فى روسيا والصين وإيران وغيرها إلى الثورة المخملية باعتبارها مكيدة غربية معادية، وقاموا بدراسة تاريخها بعناية كى يقضوا عليها فى مهدها.

عند محاولة التصدى لها، قام هؤلاء الحكام بمحاكاة بعض أساليبها: على سبيل المثال، تأسيس منظماتهم غير الحكومية الخاصة بهم (والتى هى فى الحقيقة - إذا ما استخدمنا مصطلحا بريطانيا - منظمات شبه غير حكومية)، وإرسال مراقبى الانتخابات الخاصين بهم. وأعتقد الآن - أكثر من أى وقت مضى - أن الإجراءات غير المباشرة طويلة المدى التى يمكن للمجتمعات الحرة أن تتخذها سوف تثبت أنها أكثر أهمية وفاعلية من الإجراءات المباشرة قصيرة الأمد. وذلك أيضا درس من تاريخ الحرب الباردة وما انتهت إليه.

أما الذى لا نتحمل أن نفعله فهو أن نجلس فى ارتياح ونتظاهر بأننا لسنا جزءا من هذا التاريخ المكتشف، بل فقط مجرد متفرجين محايدين. فلهذا الموقف فى حد ذاته تأثير مخيب للآمال علينا. إن وجود مستقبل وماض للثورة المخملية سوف يعتمد فى المقام الأول على إرادة وحنكة الناس فى تلك الأماكن؛ ولكن ذلك سوف يعتمد أيضا - وعلى نطاق أضيق - علينا. ■

كتاب الزاوية

قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية
أحمد أمين

(١)

«هذا الكتاب يمثل مرحلة زالت أو هى على وشك الزوال»، هكذا قدم أحمد أمين عام ١٩٥٣ لموسوعته المهمة، وربما غير المسبوقة عن التعابير والتقاليد التى شاعت فى مصر ردحا من الزمان، والذى أعادت «دار الشروق» طباعته أخيرا فى طبعة أنيقة فخمة.

يقوم الكتاب على سلسلة من المقالات كان قد كتبها أحمد أمين فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى فى «مجلة الاذاعة».

وتعكس المقدمة التى كتبها أحمد أمين، ماكان ومازال من شيوع لتعال من المثقفين التقليديين على الموروث الثقافى الشعبى، واعتبار أن فى نشره تشهيرا بالمصريين وحطًا من قدرهم، حتى أن الكاتب نفسه، رغم حماسته لما أقدم عليه، يوضح فى أسلوب اعتذارى لما عرض له من عادات وتقاليد أن كتابه «تسجيل لما كان وحمدا لله على أخذها فى الزوال».

ويحمد لأحمد أمين، وهو غير المتخصص، تأكيده على أن الكتاب «فى حاجة إلى استكمال الناقص، وزيادة الشرح». كما أن التعابير «فى حاجة لأن تدرس دراسة لغوية لمعرفة أصولها..»

ولا نعرف إن كان المتخصصون فى دراسة الثقافة الشعبية، بعد أن أصبح لها أقسام متخصصة فى كليات الآداب، قد أقدموا على ذلك أم لا. ولكنا فى كل الأحوال نأمل أن نجد من بينهم من يقدم على إعادة قراءة كتاب أحمد أمين بعد مازاد على نصف القرن، ليرصد لنا ماتغير ومالم يلحقه التغيير فى عاداتنا وسلوكياتنا





«لـقـد قـتـلـنـا وقُـتـلـنـا ورب الـكـعـبـة لا أدرى عــلى مــاذا»!

شبامة بن قيس بعد عودته
من حرب بكر وتغلب



هذه الحرب لاتضع أوزارها، هكذا بدا لسان حال كل من تابع حرب صعدة بفصولها الستة واستمع لأخبار وقف لقتال بدا وكأنه ليس أكثر من «هدنة» لحرب لم تُعرف أسبابها حتى تحدد نهايتها. هذه الحرب التي بدأت عام ٢٠٠٤ لم تكن فقط فاتحة صراع طويل بين الحكومة ومجموعة متمردين، بل كانت أيضاً بداية أزمات تلاحقت في اليمن .. ولا تبدو قد انتهت. وعلى الهامش بدا وكأن اليمن «السعيد»، وبعد عشرين عاما من الوحدة، لايكفيه مافيه، فما أن أعلنت واشنطن فشل محاولة تفجير الطائرة المحلقة بعيدا جدا فوق ديترويت، حتى تصدر اسم اليمن مرة أخرى نشرات الأخبار.. وأجندات كل الاجتماعات الأمنية والاستخباراتية.

ماذا يجري هناك..؟

هذه قراءة، نعلم مقدما أن هناك بالقطع من يختلف معها. ولكننا هنا نفتح هذه الصفحات «للنقاش» مفسحين المجال لكل الآراء ووجهات النظر.

المحــــرر

تاريــخ يطــارده التــوريث

الابن فى مواجهة العسكر



ميســـــاء شـــــجاع الـــديـن

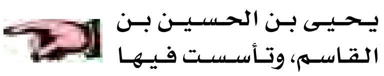
■■ هذه الحرب لاتضع أوزارها، هكذا بدا لسان حال كل من تابع حرب صعدة بفصولها الستة واستمع لخبر المفاوضات الأخيرة بين الحكومة اليمنية والحوثيين لوقف القتال، فلم يبد أحد الاهتمام بإعلان وقف القتال بيقين جماعى. إنه ليس أكثر من هدنة لحرب لم تُعرف أسبابها حتى تحدد نهايتها. هذه الحرب التى بدأت عام ٢٠٠٤ لم تكن فقط فاتحة صراع طويل بين الحكومة ومجموعة متمردين، بل كانت أيضاً بداية أزمات تلاحقت فى اليمن وإعلاناً لسقوط آخر أوجه شرعية الحكومة اليمنية وآخر مظاهر هيبتها، وهو ما فتح الباب على مصراعيه لحراك سياسى فى مختلف أرجاء البلاد، تصاعد حتى دخل دائرة أزمات وحروب لا يبدو أن اعلان نهاية حرب صعدة سوف ينجح فى إنهاء كل ما خلفته.

صعدة مدينة جبلية متاخمة لحدود المملكة العربية السعودية، بارتفاع يتراوح ما بين ١٥٠٠-١٨٠٠ متر عن سطح البحر، والمشغولون بنسج معاركهم المذهبية فيها ومتابعة ما يتصورونه صراعاً طائفياً هناك يتجاهلون حقيقة أنها محافظة لعدد لا يقل عن ٧٠٠ ألف مواطن دمرت الحرب مدينتهم التاريخية بالكامل. وحسب الشهود العيان والمنظمات الإنسانية، لم تعد المدينة إلا أطلالاً، والبشر هناك بلا مأوى ومصدر رزق بعد ما حُرقت أراضيهم ودُمرت منازلهم. المحظوظون فقط هم من استطاعوا الفرار إلى المدن المجاورة، بينما دخل ما يقارب ربع مليون نازح - يعيشون فى خيم لاجئين- فى شتاء قارس تنخفض فيه درجة الحرارة لما دون الصفر، والآلاف سقطوا قتلى أو جرحى. وتتواتر الأنباء عن مجاعات توالت فى مدينة صارت معزولة بالكامل عن بقية العالم، وشهدت مذابح عدة تورط فيها جميع الأطراف المتحاربة، لكن يبدو أن العالم لا يأبه كثيراً لمعاناة صعدة الإنسانية، وينشغل بالصراعات الإقليمية، ولا ينقل له الإعلام سوى مجرد جبال خالية من البشر، إلا من طائرات ومقاتلين.

حروب قديمة لم تنته

باستثناء هذه الحقائق، لا حقائق أخرى واضحة ومؤكدة فى حرب صعدة الغامضة. لاتوجد إلا معارك تدور وتدور كما قال الجاهلى شبامة بن قيس بعد عودته من حرب بكر وتغلب: «لقد قتلنا وقُتلنا ورب الكعبة لا أدرى على ماذا»! تناقل الناس أخباراً عن صراع طائفى فى صعدة، لكن ظلت مسألة المذهبية فى اليمن لوقت طويل مسألة مناطقية أكثر منها مذهبية، فالمرتفعات الشمالية فى اليمن التى تمتد من يريم حتى صعدة هى مرتفعات زيدية، وهو انتماء يكتسبه سكان هذه المناطق، لكنهم إذا ما انتقلوا إلى مناطق المرتفعات الوسطى السنية أو غيرها يتحولون تلقائياً إلى سنة، والعكس صحيح. وهكذا كان الانتماء المناطقى أقوى بكثير من الانتماء المذهبى الذى لم يكن يعنى الكثير لليمنيين لزمن طويل.

ربما تكون قصة أى حرب هى قصة حروب قديمة لم تنته. إذن لا مانع من الخوض قليلاً فى أبعاد هذا الصراع بشكل تاريخى وأيديولوجى رصين. فمحور صنعاء- صعدة الذى يشهد حرب صعدة اليوم بدرجات مختلفة، كان هو ذاته محور قتال اليمنيين الذى استمر سبع سنوات بعد ثورة ١٩٦٢. فصعدة مدينة تاريخية قديمة اكتسبت أهمية شديدة حين سكنها الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم، وتأسست فيها



تاريخ يطارده التوريث

الدولة الزيدية التى ظلت مستمرة هناك، تمتد وتنكمش، من عام ٨٩٨ إلى عام ١٩٦٢، أى لأكثر من ألف عام متواصلة، حتى صارت صعدة، سياسياً وفقهياً، هى المركز الأساسى للمذهب الزيدى فى اليمن.

ولم تكن ثورة ١٩٦٢ التى أسقطت حكم الإمامة الزيدية مجرد انقلاب عسكرى لمجموعة ضباط وطلاب وسياسيين عائدين من الخارج هالهم حجم الانعزال الذى تغرق فيه البلاد، بل هى، بدرجة كبيرة، تمرد قبلى تزعمته قبيلة حاشد الغاضبة والمجروحة لمقتل ابن زعيمها آنذاك حميد بن حسين الأحمر. كانت الفكرة آنذاك بسيطة، وهى إسقاط الحكم الإمامى الزيدى الذى يحصر السلطة بنسل البطنين: الحسن والحسين.

كان الضباط والطلاب حينها - على انقساماتهم الأيديولوجية- تدعمهم مصر، ومعهم القبائل اليمنية التى استطاعوا استمالتها لأسباب مختلفة. وفى المقابل، كانت السلطة الإمامية التى دعمتها السعودية ومعها بعض القبائل اليمنية أيضاً. وهكذا كرست الحرب واقعاً جديداً؛ فالطلاب والسياسيون توارت أهميتهم واختلافاتهم الأيديولوجية، ولم يعد هناك صوت يعلو فوق صوت المعركة التى أدارتها القبائل وجيش كان ينشأ جنباً إلى جنب مع الدور القبلى الجديد فى السياسة اليمنية، ليصبح هذا الثنائى (الجيش والقبيلة) هو السمة التى ظلت تحكم السياسة اليمنية حتى اليوم.

توالى الرؤساء على اليمن الشمالى حينذاك، والمثير أنهم كانوا جميعاً زيوداً عسكريين، باستثناء القاضى الإريانى. وظلت إشكالية العلاقة بين السلطة الحديثة والقبيلة أبرز القضايا المثيرة للجدل، حتى جاء الرئيس الحمدى عام ١٩٧٤ ليصطدم بالقبيلة، ويتم اغتياله بعد أربع سنوات، ليلحق به الرئيس الغشمى الذى استند إلى خلفية قبلية مهمة، وهى قبيلة حاشد، لكن سرعان ما تم اغتياله هو أيضاً بعد ستة شهور من توليه الحكم ثأراً لسابقه، ليخلفه امتداده، قبلياً وعسكرياً، الرئيس على عبدالله صالح.

وعلى مدى ثلاثين عاماً من حكم الرئيس على عبدالله صالح، سيطرت القبيلة على الجيش، فالقبيلة كانت الفاعل الأبرز الذى استطاع أن يتحرك بسهولة بين الأطراف السياسية المختلفة أيديولوجياً، فهى متحررة من هذا العبء





ما نشهده ليس إلا صراعاً على السلطة بين فصيلين: ابن الرئيس، الذى يسعى لوراثة والده، مقابل الرجل العسكرى والحليف المهم للرئيس ذاته..



الأيديولوجى، وهى طرف قوى مسلح لابد من استمالته أيضاً. والأكثر من ذلك هو سيطرة قبيلة واحدة هى قبيلة حاشد، بل حتى أجزاء معينة من حاشد، هم: همدان وسنحان - الأخيرة ينتمى لها الرئيس، والأولى هى قبيلة سلفه الغشمى - إضافة للعصيمات التى تحظى بنفوذ سياسى ومالى واجتماعى، فهى القبيلة التى تأتى منها مشيخة حاشد أو زعامتها، وكان ينتمى لها الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر، رئيس حزب الإصلاح، الذى تُوفى عام ٢٠٠٨، وحل محله أبناؤه، وصارت السلطة محكمة تماماً بين هذه الأطراف.

وهابية فى معقل الزيدية

كثر الحديث مؤخراً عن تأثير إيرانى فى صعدة، لكن المسألة بدأت فعلياً من تأثير سعودى وهابى ظهر بقوة فى مدينة صعدة الزيدية التى انتهت الحرب الأهلية عام ١٩٦٩ وهى فى يد الإمامة حتى آخر لحظة. وبعد الحرب دأبت السعودية على دعم وتمويل المعاهد الدينية التى أنشئت عام ١٩٧٥، لنشر نمط تعليم مضاد لنمط التعليم ذى الصبغة الماركسية فى مدارس النجمة الحمراء ومدارس البدو الرحل فى الجنوب، ولتحقيق وحدة فكرية دينية بين اليمنيين لإلغاء الفوارق المذهبية أيضاً. وانتشرت هذه المدارس بطول البلاد وعرضها، وكانت، تحت إشراف علماء مثل الزندانى، تقدم منحاً مالية لطلابها، فنجحت فى استهداف الفئة الفقيرة التى تشكل معظم المجتمع اليمنى، وكانت تدعى آنذاك بالمعاهد العلمية، حتى تم دمجها بالتعليم العادى ووضعت تحت إشراف وزارة التربية والتعليم عام ٢٠٠٢.

لم يقتصر التعليم الدينى على المعاهد العلمية، بل كانت هناك مجموعة من المدارس الدينية التى انتشرت فى البلاد، ولم يكن من قبيل المصادفة أن أكثر هذه المدارس سلفية وتشدداً كان فى محافظة صعدة، معقل الزيدية، وأشهر هذه المدارس على الإطلاق هى «مدرسة دار الحديث» بدماج التى أسسها هادى ابن مقبل الوادعى عام ١٩٧٨ بعد عودته من السعودية متشبعاً بالفكر السلفى الوهابى، حتى إنه ألف رسالة يحرم فيها استخدام الملاعق باسم «الصواعق فى تحريم الملاعق»، وقد حظيت هذه المدرسة بإقبال ملحوظ من التلاميذ من مختلف أنحاء اليمن، وغيره من بلدان العالم الإسلامى.

مقابل هذا المد السلفى - وبعضه جهادى - وضمن لعبة الحكومة اليمنية المفضلة فى خلق ماتسميه «التوازنات» التى قد تكون فى الواقع صراعات، تم تأسيس «منتدى الشباب المؤمن» فى صعدة عام ١٩٩٠، لمواجهة المد السلفى الذى أقلق علماء الدين التقليديين فى صعدة، وللحفاظ على المذهب الزيدى وتدريسه. وجراء ذلك، بدأت المدينة تشهد بعض التوترات الطائفية بين الوهابيين والزيود. ودأب السلفيون على اتهام الزيود فى المدينة بالهادويين - نسبة إلى تيار متشدد فى المذهب الزيدى.

وفى عام ٢٠٠٠ حدث انقسام داخل هذا المنتدى، عندما جاء حسين بدر الدين الحوثى متأثراً بالاثنى عشرية فى إيران، حسب ما قاله أمين عام المنتدى فى ذلك الوقت محمد عزان، موضحاً أنه اختلف معه حول فكرة عصمة الإمام التى ينكرها الزيود، وغيرها من المسائل. ومنذ عام ٢٠٠٣ بعد غزو بغداد، بدأت جماعة الشباب المؤمن - أو، بمعنى أدق، أتباع الحوثى - رفع شعار رخيص ومستعار من الثورة الإيرانية، وهو «الموت لأمريكا.. الموت لإسرائيل.. النصر للإسلام»، وهو شعار بدا مبتذلاً فى دولة ليست فى مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، ولاغرض منه إلا استثارة المشاعر الدينية لعامة الشعب اليمنى. صار هذا الشعار يعقب كل صلاة جمعة، وعندما علمت بأمرهم الحكومة اليمنية والرئيس على عبدالله صالح، تقرر، حسب الرواية الرسمية، مواجهة هذه الجماعة عسكرياً فيما تصوره البعض مواجهة عسكرية قصيرة، لكنه طال أكثر من اللازم.

غسيل الدماغ

إن جامع الرئيس صالح الضخم فى ميدان السبعين بصنعاء، الذى تم افتتاحه عام ٢٠٠٨، القائم على مساحة لاتقل عن ٢٢٢ ألف متر مربع، وبتكلفة تزيد على ١١٥ مليون دولار، فى دولة لا يتجاوز دخلها عشرين مليار دولار، وتعد من الدول الأفقر فى العالم، لم يكن إلا مظهراً فجاً لاستغلال مشاعر الدين فى اليمن.

ولعل أكثر مايثير الاهتمام فى حرب صعدة هو قضية تجنيد الأطفال، وعملية غسيل المخ التى يتعرض لها الشباب، وهى قضية مخيفة، ويبدو أنها ليست مقصورة على جماعة الحوثيين، فالأمر ينسحب على كثير من المدارس الدينية فى اليمن، ومنها السلفية.

إن ما يتردد حول شباب تم إقناعهم بوجود قواعد أمريكية فى اليمن، وأنهم إنما يقاتلون الدولة العظمى أمر قد يبدو مقارباً للخيال بالنسبة إلى البعض، لكنه واقع لا مبالغة فيه فى بلد ناء فقير مثل اليمن، تكتسب المرجعيات الدينية فيه صفة القداسة، وأول دروس الدين التى يتلقونها هو مفهوم الطاعة، ناهيك عن مفهوم العصمة الموجود لدى الحوثيين الذين يرتكبون الجرائم ضد سكان صعدة بلا تردد، ويشعرون أنهم يحظون بدعم إلهى يمكنهم من التغلب على جيش يمنى منقسم وجيش سعودى متردد.

أما جامعة الإيمان التى تحتل مساحة ضخمة فى العاصمة صنعاء، وتحيطها أسوار كبيرة تمنع حتى من

مجرد رؤية مبانيها، وتعزلها عن المجتمع، فيرأسها الشيخ عبد المجيد الزنداني الذي يحظى بزعامة روحية مطلقة على تلاميذها الذين يسكنون داخل حرمها، وقد صارت مرجعية الشيخ - وليس قوانين الدولة - هي الشيء الوحيد الذي يلتزمون به. ويوجد داخل الجامعة سكن لأسر الطلاب الذين يتلقون أموالاً، ومعظمهم مستقدمون من الريف من بيئة جاهلة وفقيرة تماماً.

وقد انبثقت من قيادات هذه الجامعة هيئة الفضيلة في يوليو ٢٠٠٨، ولاقت من الرئيس قبولاً حسناً باعتبارها قوة قد يحتاج إليها الرئيس، بينما أعلن حزب الإصلاح عن رفضه هذه الهيئة على الرغم من أن قياداتها هي قيادات إصلاحية بالأساس. وتحاول هذه الهيئة السير على نهج شقيقتها في السعودية، هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنها لم تستطع أن تكون بالشكل نفسه، نظراً إلى الطبيعة المسلحة للمجتمع اليمني، وانفلات الوضع عن سيطرة الحكومة اليمنية.

إن وجود هذه الهيئة يبعث على التساؤل فعلاً: هل يحق لدولة أو جماعة في بلد يعاني كل هذه المشكلات الاقتصادية والسياسية أن تضع على رأس أولوياتها محاربة الرذيلة في المجتمع الفقير؟ فالهيئة لم تمارس نشاطها إلا في أفقر المحافظات اليمنية، في الحُديدة بالساحل الشمالي الغربي للبلاد، وهي تستغل الظروف الملائمة للمجتمع غير المسلح هناك. ويبدو أن مشهد العشش والخيام لم يهز كثيراً مشاعر أصحاب الهيئة المشغولة بنشر الفضيلة حسب ما يدعون.

إن هذا التلاعب بالجوع والخوف الغريزي الذي صار يحكم الشعب اليمني وتستغله التيارات المختلفة الساعية لفرض سيطرتها، قد أدى إلى نمو القوى الاجتماعية والدينية بشكل فيه الكثير من الشراسة والقسوة، وقد بعثت معها صراعات وانقسامات لا أول لها ولا آخر. ولعل الأغرب في موجة التدين التي صارت تكتسح الكثيرين في مجتمع متدين فطرياً ويكتسب من الدين عاداته وأعرافه هو الاهتمام المبالغ فيه بالتفاصيل وانعدام القيمة الأخلاقية الحقيقية، فقد أصبح الدين يُدرك باعتباره مرادفاً للشريعة والأخلاق، وتستخدم هذه الألفاظ بشكل تبادلي، فوصف شخص بأنه بلا دين يعني وصفه بأنه بلا أخلاق، والعكس صحيح. وليس أدل على ذلك مما جرى ليهود بني سالم

تاريخ يطارده التوريث

الذين كانوا مقيمين في صعدة، وأدى التنكيل بهم إلى ترحيلهم إلى صنعاء؛ حيث قتل أحدهم مسلم بحجة التقرب إلى الله، وفي حدث غير مسبوق وكان يعتبر في الماضي مساً بالشرف تتسابق القبائل لنفضه وردعه، لم تتم معاقبة قاتل اليهودي، ليصف الحاخام اليهودي ما جرى قائلاً: «في شي تغير.. هذا الدين لم يعد دين محمد»!

الكأس المسمومة

الأسباب الطائفية في هذه الحرب الطويلة ليست أكثر من ديباجة، أو ربما كانت مجرد شرارة انطلاق. فقرار مصيري مثل شن الحرب لايجوز أن يُتخذ دون معرفة أحد وفجأة دون سابق إنذار، إلا إذا كان هناك ما يخفى ويُدبر بليل. وكما يبدو من الفصول المتكررة والمتتالية لحرب صعدة، فإن ما تشهده الحرب ليس إلا صراعاً على السلطة بين فصيلي الجيش: ابن الرئيس، أحمد على عبدالله صالح الذي يسعى لوراثة والده، مقابل على محسن الأحمر، أحد أقرباء الرئيس، وحليفه العسكري المهم منذ توليه الحكم. ويبدو ذلك مفهوماً في بلد يفتقر إلى جميع أشكال العمل المؤسسي السياسي، سواء حكومة أو معارضة، وتحكمه أهواء مجموعة أشخاص، ففي هذا السياق تظل دائماً أكثر الأسباب شخصية بما قد تحمله من تفاهة هي أكثرها قرباً للواقع والحقيقة.

«حرب صعدة لم تكن إلا كأساً مسمومة قُدمت لعلى محسن الأحمر»، هكذا وصف دبلوماسي غربي حرب صعدة، فعلى محسن الأحمر قائد الجيش القوي الذي كان ركيزة حكم على عبدالله صالح منذ بداية توليه السلطة صار لابد من التخلص منه ومن قبضته الحديدية، حتى تخلو الساحة لابن الرئيس وأولاد أخيه. لكن القائد العجوز يرفض التنحي ليمهد الطريق للشاب الثلاثيني ويكون تحت إمرته بعد كل هذه الخدمة العسكرية حتى صار يتحكم في الجيش من خلال قيادات عسكرية تدين له بولاء مطلق، ويزيد من خطورتهم انتماؤهم للقبيلة الحاكمة. ومما سهل من توريط القائد العسكري على محسن الأحمر في هذه الحرب خلفيته السلفية التي تجعله في عداء تقليدي مع الزيود في صعدة؛ حيث تولى مهمات الحرب بحماسة، رغم أنها كانت بهدف إنهاك فصائله والقضاء عليها.





يكمن رأس المشكلة في شخصنة العملية السياسية برمتها، حتى صار كل شيء مرتبطا بالرأس؛ رأس النظام، ورأس المعارضة، وهذا الرأس عادة ما يكون منفصلاً عن جسده

يزيد من تأجج هذه الحرب دخول القبائل ساحتها لأسباب مختلفة: حيناً مالية، وأخرى ثأرية. أضف إلى ذلك أن السلاح يباع من الجيش للحوثيين، سواء بسبب التواطؤ أو الفساد. وهكذا أصبح لهذه الحرب وقودها من البشر والمال والسلاح، الذي شكلته أطراف كثيرة مستفيدة من استمرارها مالياً وسياسياً، لتتشابك العوامل الدينية والقبلية مع السياسية وتجعل منها حرباً لا نهائية طاحنة. لكن يظل دائماً أشد ما يؤججها ويجعلها مستعصية على الحل هو ذاك الصراع على السلطة الذي لابد أن يحسم بتصفية أحد الطرفين أو تحجيمه الى الحد المقبول، وتكون في هذه الحالة خانة النصر امتلأت.

حتى ذلك الحين ستظل صعدة الموجودة منذ ما قبل الميلاد بسكانها الذين يزيدون على نصف مليون، يتعذبون بنار حروب متوالية قضت عليها بالكامل، حتى جاءت الحرب السادسة التي أطلقت عليها الحكومة اليمنية «حرب الأرض المحروقة»، وبصرف النظر عن لا أخلاقية التسمية التي أطلقتها حكومة يمنية على أرض يمنية، فإن هذه الحرب لم تُسقط فقط شرعية الدولة وهيبتها، بل سقطت معها كل الأخلاقيات التي لا يمكن للحكومة اليمنية أن تدعيها.

والأمر لا يقتصر فقط على صعدة، فهذه الحرب أنهكت اليمن وأغرقتها في دوامة تبدو لا نهائية، وكانت بداية أزمات كثيرة تلاحقت على اليمنيين، لكنها كشفت حقيقة كانت مؤثرة بقوة على طبيعة الوضع السياسي فيما بعد، وهي أن على عبدالله صالح عام ١٩٩٤، الرجل القوي الذي اتخذ قراره بخوض حرب ضد جيش قوي في الجنوب بتحالف سياسي واسع ودعم شعبي قوي، زاد من شرعيته إعلان على سالم البيض الانفصال بعد نشوب الحرب بفترة وجيزة، ليس هو ذاته في عام ٢٠٠٤ عندما شن حرب صعدة؛ حيث بدا واضحاً للجميع أنه لم يعد فقط وحيداً بلا أي قوى سياسية أو شعبية مساندة، بل أيضاً لم يعد يميز بشكل جيد بين القرارات الحاسمة والقرارات الانتحارية، وهذا ما أسقط هيبته وشعبيته تماماً.

«فدلاهما الشيطان بغرور»

لم تستطع اتفاقية الدوحة التي أبرمت في يناير ٢٠٠٧ إنهاء الحرب، ولا كان إعلان الرئيس في يوليو من العام نفسه نهاية الحرب يعني نهاية حقيقية لحرب لم تنته أسبابها، فقد عادت الحرب بضراوة في أغسطس ٢٠٠٨. ومن المثير في هذه الحرب اتساعها واستقطابها الإقليمي، إضافة إلى التغطية الإعلامية الدولية غير المسبوقة التي حظيت بها على الرغم من أنها لازالت ضعيفة ومحدودة بنقل بعض التصريحات الرسمية والصور المتكررة للقتال دون تفاصيل بسبب اغلاق منطقة القتال في وجه منظمات الإغاثة الإنسانية ناهيك عن الإعلام.

لا أحد حتى الآن يعلم ما سبب انطلاق هذه الجولة الجديدة، مثلها مثل بقية الجولات السابقة. أشارت أصابع الاتهام إلى إيران حيناً وإلى السعودية حيناً آخر بالنظر إلى التاريخ الطويل لتدخلها في الشأن اليمني.

أصابع الاتهام، في هذا

الاتجاه أو ذاك صحبتها أسئلة وعلامات استفهام عدة منها:

١. إذا كانت السعودية فعلاً على خلاف أيديولوجى مع الزيديين فى اليمن، فلماذا ساندت الحكم الملكى الزيدى فى ثورة ١٩٦٢؟ ولماذا لا تزال الأسر الرئيسية للنظام الإمامى السابق تعيش فى السعودية بجوازات سفر سعودية؟

٢. لماذا تسعى إيران أن تضايق السعودية فى حدودها الجنوبية البعيدة عنها ولا تتدخل من ناحية الحدود الشرقية للسعودية؛ حيث يوجد الاثنا عشرية السعوديون ومنابع البترول، ناهيك عن القرب الجغرافى بعد أن صارت العراق مجرد حديقة خلفية لإيران؟ لماذا تلتف إيران هذه الالتفافة الطويلة ولديها ما هو أسهل وأقرب؟

جاء تدخل السعودية متحمساً لخوض الحرب، واعداً بحسمها سريعاً، وبجلبة إعلامية خفتت أو اختفت فيما بعد. تشير إلى وجود رابط وتعاون بين الحوثيين والقاعدة. ويعتقد العارفون بالمنطقة أنه حتى لو سلمنا، جدلاً، بافتراض تواجد الحوثيين والقاعدة فى الأماكن ذاتها، فهذا لا يعتبر دليلاً حقيقياً إلا لمن يجهل اليمن، فالفصيلان: القاعدة والحوثيون فى مدينة الجوف يعتمدان على دعم القبائل بمقابل قد يكون فى أغلبه مادياً، وهى قبائل لا يعنيها كثيراً الفروقات الأيديولوجية الموجودة بين الطرفين تحت الشعار العريض المعادى لأمريكا وإسرائيل، وهما مترادفان متطابقان مع كلمة الشيطان فى أذهان البسطاء اليمنيين، هذا غير فطرية تدينهم التى لا تجعلهم يميزون كثيراً بين التيارات الدينية المختلفة.

حرب صعدة الملغزة كشفت بعض الأمور التى تستحق الذكر، وهى القدرة فى عهد الإعلام والقرية الكونية على جعلها حرباً تدور فى الظلام فى مساحة تتجاوز مساحة بعض الدول الصغيرة مثل لبنان!





تمتلك هذه الأحزاب صحافة قوية تعمل كمنبر معارضة حر يكيل الانتقادات للحكم، بينما قيادته فى ود شديد مع رأس الحكومة



المعارضة اليمنية.. جعجعة بلا طحن

لم يسقط الدين فقط ضحية من ضحايا صراع السلطة فى مختلف أرجاء اليمن بل لحقه التاريخ فى عملية تزوير واضحة فى الجنوب تختلط فيها الحقائق بالادعاءات بالتفسيرات المغلوطة. فالحراك الجنوبى الذى بدأ بمطالب حقوقية وسياسية مشروعة كان فى وسطه منذ البداية تيار يمكن وصفه بتيار عدنى، سعى منذ البداية للمطالبة بالانفصال.

هذا التيار هو منسوب لمدينة عدن التى كانت عاصمة لليمن الجنوبى سابقاً وشهدت صراعاً حقيقياً ليس فقط ضد المستعمر البريطانى، بل من أجل الهوية اليمنية للمدينة، ومعها المناطق الجنوبية. كانت مدينة عدن تشكل أهمية حيوية للبريطانيين الذين احتلوها عام ١٨٣٩ بعدد سكانها الذى لم يكن يزيد على ٦٠٠. وازدياد حيويتها بعد ما صارت ثانى أهم موانئ العالم دفع البريطانيين لنقل إدارتها من إدارة المستعمرات فى بومباى إلى لندن عام ١٩٣٢. وبدأت عملية توطين لأوروبيين وجالية غير عربية، مما جعل أحد مطالب الحركة الوطنية آنذاك هو وقف هجرتهم. وفى تلك الأثناء رُفع شعار «عدن للعدنيين» لفصل المدينة عن محيطها اليمنى، وتبنته بحماس البرجوازية الأجنبية فى المدينة، وتلا ذلك تكوين محميات «الجنوب العربى» تحت الإشراف البريطانى، لتجمع السلطنات والمشايخ اليمنية الجنوبية فى كيان سياسى موحد مرتبط باتفاقيات دفاع مع البريطانيين، حتى تتوقف هجماتهم وتلجم المعارضة الوطنية. وتعمدت بريطانيا وصفه بالعربى وليس اليمنى لخلق هوية جديدة من منطلق تخويف الجنوب بقبائل الشمال وكثرتهم العددية. وبعد الاستقلال، قامت معركة أخرى حول هوية الجنوب؛ حيث رفع البعض شعار عدن للعدنيين، ومعها بعض السلاطين المستفيدين من الوضع لتثبيت اسم الجنوب العربى لينفصل تماماً عن بقية الكيان اليمنى.

هذا التيار العدنى ضئيل العدد ضعيف الوجود استغل الحراك الشعبى فى الجنوب لإبراز مطالبه، والأمر البارز فى كل الدعاية التى استخدمها هو رغبته الحقيقية فى خلق تاريخ جديد لليمن، حتى ينزع فكرته من جذورها الاستعمارية، والأسوأ من هذا هو النبرة العنصرية المناطقية التى سيطرت على خطاب هذا التيار. ويبدو أن قمع الحكومة المستمر والمناوشات الدائمة بينها وبين أهالى الجنوب خلقت آذانا مصغية أكثر لهذا التيار، حتى استعارت مفرداته وقيمه بقية قوى الحراك.

أخشى هنا من التنبيه أن الحراك الجنوبى لم يعد يقبل بأقل من الانفصال، ويزيد ذلك سوءاً أن الجرائم العنصرية التى يتعرض لها مواطنون عاديون من المناطق الشمالية فى المناطق الجنوبية لم تعد حالة فردية، بل صارت جرائم متكررة بشكل يؤكد دخول الحراك الجنوبى منحى العمل المسلح العنيف، وأنه لم يعد يستحق شرف وصفه بالسلمى، كما تزايدت صعوبة الموضوع وتعقيده بعد ما صار مطلب الانفصال هو المطلب الأساسى لهم، وهذا ليس إلا ناتجاً عن فشل الحكومة فى التعامل مع آثار حرب ١٩٩٤، ومن ثم مع الحراك فى بدايته، فقد استغل هذا الفشل الكثير من الشخصيات الانتهازية، وساعدها تخبط الأوضاع وخوف الناس، حتى سقط الجنوب فى يد جماعات جهوية متطرفة بعد ما ظلمته الحكومة وخذلته المعارضة.

تاريخ يطارده التوريث

و حتى تكتمل صورة المشهد السياسى المأزوم الذى شاركت فى صنعه جميع الأطراف بلا استثناء، فلابد من ذكر جميع المساهمين الفاعلين، وعلى رأسهم حزب التجمع اليمنى للإصلاح الذى يتزعم الآن تحالف أحزاب المعارضة الرئيسية فى اليمن فى تنظيم صار معروفاً باسم «أحزاب اللقاء المشترك»، وحزب الإصلاح يمتلك قاعدة شعبية جيدة، فهو عبارة عن تجمع قبلى دينى فيه تيار أساسى من الإخوان المسلمين. وقد أسس الحزب الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر، وترأسه حتى وفاته عام ٢٠٠٨، وكان الشيخ زعيم قبيلة حاشد التى ينتمى لها الرئيس، وحليفاً أساسياً للحكومة منذ تولى الغشمى للرئاسة وبعده على صالح.

وبمجرد ما أعلن عن صيغة تعدد الأحزاب إثر الوحدة، قام حزب الإصلاح بهدف بدا واضحاً هو مواجهة الحزب الاشتراكى بتحالف مع حزب المؤتمر الحاكم وشريك الوحدة مع الحزب الاشتراكى. وكانت الحرب بين حزب الإصلاح والحزب الاشتراكى شديدة الضراوة، واستمرت بعد حرب ١٩٩٤ حتى بدأ تحالف الإصلاح مع الحزب الحاكم يتقوض. وعلى الرغم من انهيار التحالف بين حزبى المؤتمر والإصلاح، وتحالف الأخير مع الحزب الاشتراكى، فقد ظل حزب الإصلاح يتحرك برأسه منفصلاً عن جسده، فرأسه الشيخ عبد الله الأحمر ظل متحالفاً مع الحكومة، وظلت قاعدته تعارض لسقف محدود دون تجاوز رأس النظام، حتى ظهرت فى اليمن ظاهرة أحزاب الصحافة، حيث تمتلك هذه الأحزاب صحافة قوية تعمل كمنبر معارضة حر يكيل الانتقادات للحكم، بينما قيادته فى ود شديد مع رأس الحكومة.

وهذه الظاهرة ترجع إلى أن المعارضة الحزبية فى اليمن لم تصل للوعى بضرورة تقديم برنامج سياسى تعمل به، فكم من أزمات تعرض لها المواطن اليمنى وسكتت إزاءها المعارضة، حيث تتصور المعارضة أن الوظيفة السياسية لها هى مجرد نقد الحكومة، وهذا عمل صحفى وليس سياسياً، ولا يجوز تصور أنه بمجرد نقدها للأداء الحكومى تبرأ ذمتها وتنتهى وظيفتها كمعارضة.

جاء عام ٢٠٠٤ نقطة تحول حقيقية فى هذا التحالف القبلى السياسى بين رأسى الحزبين: على عبدالله صالح، والشيخ عبدالله بن حسين الأحمر، حيث حمل الشيخ الأحمر الحكومة مسئولية

تاريخ يطارده التوريث

دخول البلد نفقاً مظلماً بالرغم من كونه شريكاً أساسياً للرئيس على عبد الله صالح منذ بداية عهده، وكونهما سعيا فيها، يداً بيد، على تكريس دولة القبيلة والقضاء على الحزب الاشتراكى، حتى بعد الحرب الأهلية. وبالطبع لم يكن شىء تغير فى أداء الحكومة، غير أن الرئيس بعد عودة ابنه الأكبر من الخارج مع تقدم سن أولاد أخيه الذين بدأوا يشاركون فى السلطة من خلال مناصبهم العسكرية، بدا أميل إلى جعل الحكم أكثر أسرية، إضافة لدخول أولاد كلا الطرفين العمل التجارى بما فيه من منافسة غير شريفة بطبيعة الحال.

رحل الشيخ الأحمر رئيس مجلس النواب اليمنى عام ٢٠٠٨، وخلف وراءه أولاده، جزء منهم أعضاء فى مجلس النواب، ولدى كل منهم أعمال تجارية ضخمة ونشاطات سياسية، هذا غير النفوذ القبلى، ولعل أبرزهم هو الشيخ حميد الأحمر الذى يصر حزب الإصلاح على تقديمه زعيماً له رغم أنه لايمتلك هذه الصلاحية حزبياً، فهو ليس رئيس الحزب أو أمينه العام، ولم يظهر نجمه السياسى إلا منذ أربع سنوات.

ويزيد من الطين بلة أن تقديم شخصية مثل الشيخ حميد الأحمر واجهة للمعارضة اليمنية ككل هو أمر لايخدم الوضع كثيراً لأسباب متعددة؛ فهو امتداد للطبيعة القبلية التى أوصلت البلاد لهذه المرحلة، وهذا الأمر فى الجنوب بالذات يفقد حزب الإصلاح ومعه أحزاب اللقاء المشترك أى مصداقية. فعوضاً عن تقديم شخصية من القبيلة الحاكمة، من المعروف أنه لم يصل لهذه المكانة السياسية ولا الثروة التجارية لولا مكانته القبلية، وكان من الأولى تقديم شخصية أقرب للشارع فى الجنوب تبعث فيه الطمأنينة وتقنعه بجدية أحزاب اللقاء المشترك فى التغيير، خاصة أن مايحدث فى الجنوب هو أبرز ما تواجهه اليمن وأكثره خطورة.

رأس منفصل

إذن، مشروع أن نتساءل: ما الذى أوصل اليمنيين إلى هذا المشهد السياسى؟ يكمن رأس المشكلة فى شخصنة العملية السياسية برمتها فى اليمن، حتى صار كل شىء مرتبطا بالرأس؛ رأس النظام، ورأس المعارضة، وهذا الرأس عادة ما يكون منفصلاً عن جسده.

كل شىء يمر بشكل شخصى، فلا يوجد عمل مؤسسى حقيقى، لا حزبى ولا حكومى، وكأننا لم نخرج عن زمن شيخ القبيلة الذى يعتمد على الاتصال المباشر بأفراد قبيلته، يرعى مصالحهم ويحل خلافاتهم، هذا غير شراء ولاءاتهم، وهذه قضية أخرى، فمن أكبر قضايا الفساد صرفيات الدولة على شبكة الموالين للرئيس من مشايخ وسياسيين وإعلاميين وغيرهم، مما يستنزف أكثر من نصف ميزانية الدولة. وهذا الأمر لا يقتصر على الرئيس، فالمشايخ أو القادة السياسيون المحليون فى اليمن مهما زادت ثروتهم لا يمكن أن يستثمروها لصالح عام، مثل مستشفى أو مدرسة، بل يفضلون العطاء المباشر لضمان الولاء الشخصى.

لم تتغير كثيراً عقلية شيخ القبيلة عن عقلية السياسى اليمنى بمختلف خلفياتهم التعليمية والثقافية، دون فارق بين من ترأس دولة بإطار مؤسسات وتشريعات حديثة، أو حزباً أو تنظيماً سياسياً. وهذا ما يفسر أحياناً الانقلابات التى تطرأ على خريطة التحالفات فى السياسة اليمنية دون وجود مبرر واضح. ومن ذلك مثلاً الانقلاب فى مواقف على سالم البيض خلال فاصل زمنى قصير لايتجاوز أربع سنوات، فهو كان عام ١٩٩٠ صانع الوحدة التى صار إنجازها مرتبطاً بشخصه وتضحياته، وفى عام ١٩٩٤ تراجع عن هذا كله ليعود الآن بصفة المناضل الوطنى من أجل تحرير بلده وشعبه. وعندما يتحدث عن شطر اليمن الجنوبى فى الحالتين فهو يذكره كأنه بلده الشخصى وشعبه.

ولا يختلف عن ذلك الشيخ طارق الفضلى الذى بدأ نشاطه السياسى مقاتلاً ضد الحزب الاشتراكى فى الجنوب، ومشاركاً فى جيش الحكومة عام ١٩٩٤ لصالح الوحدة، وصار قيادياً فى حزب المؤتمر الشعبى الحاكم، ثم تحول الآن إلى مقاتل من أجل الانفصال، وتحالف مع أعداء البارحة من بقايا النظام الاشتراكى المطالبين بالانفصال. بل واستبدل بمصطلحات الجهاد والدين فى حديثه مصطلحات مثل الإضراب المدنى. وتحول من الرجل الذى قام بعملية تفجير فندق الجولد مور فى عدن فى بداية التسعينيات إلى الرجل الذى تتجول ميلشياته فى أبين لمنع الناس من العمل. وهذا الانقلاب تفسيره واضح، عبر عنه طارق الفضلى نفسه فى حوار صحفى بقوله إنه تصور أن الوحدة ستعيد له أرض آبائه وأجداده





مرض الشخصنة والاستبداد السياسى له أعراض كثيرة، على رأسها الفساد والارتزاق اللذان صارا لا يعيبان السياسى ولا ينتقصان من شأنه



وسلطنتهم، لكن ذلك لم يحدث، فقرر أن يكون انفصالياً.

وفى هذا السياق أيضاً يأتى انهيار التحالف بين الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر والرئيس على عبدالله صالح عام ٢٠٠٤، دون أسباب مفهومة، بعد أن ظل الطرفان مرتبطين طوال خمسة وعشرين عاماً بعلاقات ود وتحالف لم تضرها الخلافات الحزبية لكلا الطرفين، ولا فك التحالف بينهما ليحل محله تحالف بين حزب الإصلاح مع أعداء البارحة من اشتراكيين وغيرهم، وظل الحزب أسيراً لهذه العلاقة بين الرأسين فلا يتعرض للرئيس صالح بنقد، ويكتفى بالنقد والهجوم على رئيس وزرائه وأعضاء حكومته وحزبه على الرغم من أنهم فعلياً لا أثر حقيقياً لهم.

بين هؤلاء كلهم يقف الرئيس صالح الذى لا يمانع من التحالف مع أى أحد ضد أى أحد، ولا يجد غضاضة فى وصف حلفائه القدامى بالكارت المحروق، فقد ربط نفسه بالوطن وقرنها بالوحدة حتى تعامل معه الناس على أساس ذلك، فمن يعارض صالح يعارض الوحدة، ومن يريد انهيار الحكومة يجد انهيار البلد صار مرتبطاً بانهيارها. هكذا وقع الجميع فى مأزق ناتج عن هذه الشخصنة المطلقة، حتى بدأ سؤال ملح يشغل بال الناس: أيهما أفضل، استمرار الرئيس على صالح بكل مآسى حكمه أم تفكك أوصال البلاد واكتمال حلقة الفوضى المطبقة عليها؟ وهذا سؤال - لمن يتذكر- سبق أن دارت رحى سؤال شبيه له بين العرب والعراقيين تحديداً: أيهما أفضل، حكم صدام حسين أم الاحتلال الأمريكى؟ لا أدرى حتى الآن كيف تطاوعنا ضمائرنا فى طرح هذه الأسئلة والاستغراق فى الرد عليها، فالسؤال الذى يجدر الانشغال به هو: لماذا وصلنا لهذه الخيارات؟

فعلياً، خيارات اليمن تتساوى بوجود الرئيس صالح وعدمه، وإذا ما استمرت الحال فى هذا العقم فلن تكون إلا مسألة وقت، حتى تظهر بعض الشخصيات الجديدة التى تعد امتداداً للأزمة التى تعيشها اليمن. ففى الفترة الأخيرة بدأت تظهر على الساحة قوى سياسية جديدة لم تستنزفها العملية السياسية العقيمة، لكنها فى الواقع لا تعبر إلا عن هذه العملية، فهى قوى سياسية اجتماعية متشحة بالدين، ظهرت لتأمين الناس مما يحيطهم من خوف أو جوع.

مرض الشخصنة والاستبداد السياسى له أعراض كثيرة، على رأسها الفساد والارتزاق اللذان صارا لا يعيبان السياسى فى اليمن ولا ينتقصان من شأنه. ويبدو هنا التركيز واضحاً على الفساد باعتباره أمراً يخص السلطة بالذات، وتتجاهل قوى المعارضة اليمنية بجميع أطيافها مشكلة الارتزاق الأشد خطراً، لأن المعارضة اليمنية بكل تياراتها؛ خارجاً وداخلاً، عنيفة وسلمية، تتلقى أموالاً من الخارج، وبالأخص من السعودية التى تغدق العطاء على المشايخ والقوى السياسية المختلفة من خلال اللجنة الخاصة - سيئة الذكر- التى شكلتها عام ١٩٦٢ برئاسة الأمير سلطان بن عبد العزيز، ولهذه اللجنة تاريخ طويل من العمل المشبوه فى الساحة اليمنية، من تدبير انقلابات وحروب أهلية حتى خطف سياح.

تاريخ يطارده التوريث

فى المقابل، درجت الحكومة اليمنية على عادة طلب المساعدات المالية، مثلما جرى فى مؤتمر لندن عندما سبقته تصريحات المسئولين اليمنيين باقتراح أرقام المساعدات المطلوبة، على الرغم من أن الدولة فشلت فى استيعاب أربعة مليارات وسبعمائة مليون دولار قُدمت لها عام ٢٠٠٦. وهذه المساعدات مضروب عليها بالطبع سياج أمنى من الدول المانحة، لمنع تعديات الفساد. ولأن الحكومة مشغولة بصراعاتها الداخلية فهى لا تمتلك أى خطة تنمية على الرغم من حجم التحديات التنموية، لذا لم تنجح فى صرف هذه المساعدات فيما هو مطلوب منها، وفشلت حتى فى إنهاء المرحلة الأولى من مشروع كهرباء ضخم يفترض أن يغطى احتياجات البلاد بالكامل.

بالطبع الفساد وجه آخر للارتزاق والمتاجرة السياسية التى صار يجيدها أقطاب السياسة اليمنية، فصارت اليمن فى آخر سلم الشفافية والنزاهة الدولية بمرتبة ١٥٤ من ١٨٠ دولة. ومثال تهريب الديزل واضح لكشف شكل الفساد الذى تتورط فيه الحكومة مع المعارضة، فهو يكلف الدولة أكثر مما تكلف وزارتا الصحة والتعليم مجتمعتين. وعندما فرض البنك الدولى على اليمن ضرورة رفع الدعم عن البنزين ومشتقاته اعترض على ذلك بعض النواب، ومن بينهم معارضون بارزون طبلت لهم صحف المعارضة باعتبارهم أبطال الشعب، على الرغم من أن هؤلاء عارضوا القرار من منطلق الخسائر الشخصية التى سوف يتكبدونها لأن عملية تهريب الديزل ستتوقف إذا ارتفع سعره.

بهذا الشكل صار اليمن دولة ضعيفة عرضة للتدخلات الخارجية، بما فيها التواجد العسكرى. ومع احترامى لبيان علماء الدين اليمنيين الذين أعلنوا الجهاد، فقد كان من الأولى معرفة لماذا أصبحنا دولة يتهددها التدخل الخارجى إلى هذا الحد حيث تحولت اليمن لساحة من صراعات إقليمية مثل الصراع السعودى- الإيرانى، وصراع آخر كونى مثل الحرب على الإرهاب؟ هذا ما يفترض أن يشغل بال اليمنيين. وليست الإدانة بكافية فى وقت لم نعد نرى فيه غضاضة بوجود حالة من الشخصنة والاستبداد التى رافقها بطبيعة الحال الفساد والارتزاق السياسى.





ربما تكون سعة الهاوية أكبر من سعة السماء حسب ما كان ينظر لها الشاعر محمود درويش

البلد المجهول فى مؤتمر لندن

دخلت اليمن الدراسات الغربية الحديثة باعتبارها دولة فاشلة أو مرشحة لأن تكون دولة فاشلة، وتداول اليمنيون هذا المصطلح بهلع واضح وكأنه إعلان ليوم الحشر. هذا الجدل حول كون اليمن دولة فاشلة فعلاً أم أنها ستكون كذلك، جدل غير مفهوم، لسبب بسيط هو هل اليمن دولة فعلاً بمعيار الدول الحديثة؟ فاليمن دولة لا تمتلك الحد الأدنى من البنية التحتية، ولا تعمل بمؤسساتها الدستورية المعطلة تماماً، هذا غير أنها تواجه حربين شمالاً وجنوباً. فما يحدث فى الجنوب هو حرب، فماذا تبقى من مظاهر الحرب حتى نعلنها حرباً؟ أليست المواجهات بين الميلشيات العسكرية والقوات الأمنية اليومية هى بمثابة حرب، فلماذا هذا القلق كله من مواجهة واقعنا بالتسميات الحقيقية التى تعبر عنه؟

كنتيجة طبيعية ظهر تنظيم القاعدة فيما بدا كأنه اكتشاف مفاجئ للبعض أو قديم للآخرين. فبعد محاولة تفجير الطائرة المتجهة لديترويت، لم يكن هذا الظهور مفاجئاً تماماً بل كان الاهتمام بوجوده فى اليمن هو المفاجئ. فأحد أكبر العمليات التى استهدفت أمريكا من حيث الحجم بعد الحادى عشر من سبتمبر كان تفجير المدمرة الأمريكية كول عام ٢٠٠٠، وأول ضربة صاروخ لتنظيم القاعدة خارج أفغانستان كانت فى اليمن عام ٢٠٠٢. وبعد تعاون أمنى لعشر سنوات بين الدولتين وطلعات جوية أمريكية استخباراتية لا تتوقف تبدى تنظيم القاعدة أكثر قوة، يجنى الفرص التى خلقتها الفوضى. ويبشر منظرو تنظيم القاعدة بجبهة فى اليمن وهم يتغزلون بالفقر اليمنى الذى دفع اليمنيين للزهد بالحياة الدنيا وحب الجهاد، مما سيساعد التنظيم فى تحرير فلسطين وإنشاء الدولة الإسلامية على أكتاف بعض اليائسين.

يتشكك الكثير فى حقيقة وجود القاعدة فى اليمن، وكثر الحديث حول مبالغة من الحكومة اليمنية حتى تتحصل على دعم دولى فى معاركها الدائرة شمالاً وجنوباً. وهى فرضية ليست مستبعدة، وأيضاً ليست مؤكدة. لكن هناك بعض الحقائق وسط هذه الضبابية، فوجود تنظيم القاعدة أمر لا شك فيه، وإن كان يصعب التخمين بحجمه. وكذلك من المؤكد أن اليمن صارت أرضاً خصبة للتيارات الدينية المتطرفة مثل القاعدة بسبب الفقر ورداءة الأوضاع المعيشية، مع غياب الدولة وسيطرة الصراعات المختلفة.

بالرغم من إجماع القوى السياسية فى اليمن على خطورة تنظيم القاعدة ومحاولتها لنفض أى تهمة أو علاقة ولو من بعيد بالتنظيم، فإن معظمها، أو جميعها، باستثناء الحوثيين، متورطون بشكل ما فى علاقة بهذا التنظيم. فحزب الإصلاح، وهو من أحزاب اللقاء المشترك المعارض، وأكبرها على الإطلاق، لديه قيادات وفكر سلفى جهادى مرتبط بالتنظيم، وبعض قيادات الحراك الجنوبى معروفة بارتباطاتها بتنظيم القاعدة. أما الحكومة اليمنية فلطالما استهواها التعامل مع التنظيم كأحد ألاعيبها الكثيرة فى مواجهة خصومها الداخليين، وطالما تحايلت فى تعاونها الأمنى مع الولايات المتحدة الأمريكية فى محاربة الإرهاب، وهذا طبيعى لحكومة أو، بمعنى أدق لرئيس حكومة مثل على صالح، يعشق المغامرات غير مأمونة العواقب.

إضافة لهذا كله، فلتنظيم القاعدة فى اليمن خاصية تميزه، فبعكس قرينه فى العراق وشبيهه من تيارات جهادية نشطت فى بداية التسعينيات بمصر، هو تنظيم لم يستهدف مدنيين إطلاقاً، ولم يضرب إلا مصالح غربية، وهو ما جعله تنظيماً غير مكروه، ولا يستشعر اليمنيون خطورته، خاصة مع كراهية اليمنيين المطلقة لأمريكا، عدا أن ما يتهدد اليمن من مخاطر بسبب الفقر والفساد من جهة، والحوثيين والحراك من جهة أخرى يجعل من تنظيم القاعدة قضية خارجية لا يتعاطف معها اليمنيون كثيراً.

ومنذ توحد القاعدة فى اليمن والسعودية فى تنظيم واحد باليمن بدأ التنظيم شن عمليات نوعية مثل محاولة اغتيال الأمير محمد بن نايف فى السعودية عام ٢٠٠٩ وبدأت تتزايد مخاوف الإدارة الأمريكية من هذا التنظيم التى أججها فرار ثلاثة وعشرين من قادة التنظيم من سجن الأمن السياسى عام ٢٠٠٦، وهو ما أعاد الشبهات حول مدى جدية الحكومة اليمنية فى حربها ضد التنظيم.

وهذا فى الواقع سر مأزق هذه الدول الغربية فى اليمن؛ حيث تبدو الخيارات شديدة المحدودية فى بلد صار يشتعل ناراً فى كل مكان، فهم أمام خيارين: إما تقسيم اليمن، وهذا خيار غير مأمون العواقب فى ظل غياب قيادة سياسية موحدة فى الجنوب، مع الانقسامات الحادة داخل الحراك الجنوبى التى سوف تتحول لصراعات دموية على السلطة فى بلد لم يتبق شىء من مؤسساته. هذا غير أن انفصال اليمن سوف يفتح الباب لانقسامات كثيرة قد بدأت تتشكل ملامح بعضها، مثل ما يجرى حالياً فى حضرموت من سيناريوهات تقسيمية قد تخرج عن سيطرة الجميع، خاصة إذا ما علمنا بوجود عملية تجنيس سعودى على حدود هذه المنطقة.

والخيار الآخر هو التعامل مع الرئيس على صالح بكل مخاطر وصعوبات التعامل معه، باعتبار أنه لا توجد بدائل حقيقية أو أفضل بكثير.

تـاريـخ يـطـارده الـتـوريـث

وهذا خيار مرهون بأمور كثيرة قد تحدث فى المستقبل، مثل فراغ مفاجئ فى رأس السلطة، أو صراع دموى عليها فى العاصمة صنعاء نفسها، وغيرهما من السيناريوهات. ويكفى النظر للشهور الستة الماضية لنعلم مدى تسارع وتيرة انهيار الدولة، وكم انحسرت سيطرتها فى البلاد، مما يفتح الباب لجميع الاحتمالات المفاجئة وغير السارة بطبيعة الحال. كما يظل هناك خيار آخر قائم، وهو تعرض الولايات المتحدة نفسها لهجوم إرهابى جديد قد ينجح وله ارتباط بتنظيم القاعدة فى اليمن.

وهنا ينبغى التفريق بين أمرين هما: المصلحة الأمريكية والمصلحة الانتخابية وهى الراجحة كفتها فى معظم الوقت، حتى لو تضاربت مع المصلحة الأمريكية على المدى البعيد. ففى افتراض حدوث عملية إرهابية لها علاقة بتنظيم القاعدة فى اليمن، لن تتردد أمريكا فى شن حرب واسعة النطاق على اليمن، أو أى شكل من أشكال التدخل المباشر. ومن هذا المنظور يمكن تفسير الدعوة لمؤتمر لندن التى جاءت من رئيس الوزراء البريطانى الساعى لإعادة انتخابه ويريد تغطية فشل بلده الاستخباراتى لأن النيجيرى عمر فاروق تم تجنيده فى بريطانيا، ومثيله الرئيس الأمريكى أوباما الواقع تحت ضغط انتخابات الكونجرس ولابد من كبش فداء لتغطية الفشل الأمنى الذريع فى كشف الهجوم.

هذا غير أصوات اليمين المتطرف الأمريكى المتحمس دائماً لشن حروبه الإلهية أو الأخلاقية، فلم يكف السيناتور الأميركى جوزيف ليبرمان، مثلاً، عن الحديث بحماس ظاهر فى كل مقابلاته التلفزيونية عن حرب الغد فى اليمن، وحرب اليوم فى أفغانستان، وحرب الأمس فى العراق، وكأنه يتحدث عن نبوءة تستحق من يتبناها. لكن أمريكا الغارقة فى أزمتها المالية وفشلها فى أفغانستان والعراق لايمكنها أن تنجر بسهولة لحرب ثالثة مهما أعماها غرور القوة. وليست فزاعة التدخل العسكرى الأمريكى إلا فزاعة للاستخدام الداخلى، وكأنها هدية من السماء هبطت على جميع القوى السياسية فى اليمن؛ فالحكومة تريد الاستقواء بالخارج، والمعارضة تريد حشداً شعبياً، وليس هناك أفضل من مقاومة أمريكا شعاراً للحشد.

هكذا وصلنا لمؤتمر لندن واجتمع العالم يتدارس قضايا اليمن التى تبدو قائمتها طويلة: من نضوب مياه، ومعدلات نمو سكانى مرتفعة، وفقر شديد، وبطالة مرتفعة، وفساد مستفحل، هذا غير المشكلات السياسية من مطالب انفصالية فى الجنوب، وحرب فى الشمال، وتنظيم القاعدة. هكذا اكتملت الدائرة وأطبقت على اليمنيين الذين لا يحتاجون لمعرفة الأرقام الغربية حتى يدركوا حجم بؤس أوضاعهم.

بدا المشهد فى لندن مهيباً أو مثيراً، فالتعبيران جائزان لأن اليمنيين ببساطة لم يعتادوا على اهتمام العالم بهم، واختلف اليمنيون بين متطير ومتشائم ومتشكك تجاه نوايا هذا العالم ذى الاهتمام المفاجئ إلى متفائل بالتدخل العالمى الحريص على استقرار اليمن لأجل السلام العالمى. وهذا الاهتمام ليس بخير مطلق ولا شر مطلق، وهو يعتمد على تفاعل اليمنيين معه وما سوف يستجد فى الشأن الداخلى، وهنا بالغ البعض بتحجيم خطره كأنه رغبة فى الاحتلال وتصوير الآخرين كمضمرى شر ومتعمدى إثارة حول اليمن لشىء ما فى النفوس. وهذا أمر غير مقنع لدولة لا يوجد فيها مايثير الطمع، فهى كانت وما زالت تعرف كدولة فى جنوب السعودية، وموقعها لا يعنى كثيراً كما يحاول البعض أن يصور، فأمريكا ليست بحاجة لقواعد عسكرية فى اليمن لضرب الإرهاب، فهى دولة محاطة بقواعد عسكرية أمريكية من كل جهة، وهذا كلام يناسب زمن ما قبل اختراع الطائرات العسكرية والصواريخ العابرة للقارات.

وفى المقابل بالغ البعض فى تطلعاته من هذا المؤتمر، وتصوروا أن التفات العالم لقضاياهم سيحميهم من الشرور الداخلية، سواء انفصال وتفتت، أو فقر أو فوضى، لكن ما للمؤتمرين فى لندن بفقر اليمنيين وبؤسهم؟ وما لهم بربع مليون فى عراء صعدة يموتون برداً وجوعاً، هذه الدول لم تجتمع إلا لحماية أمنها لا أكثر ولا أقل. اليمن ليست دولة مهمة وستظل غير مهمة، إلا بحجم ماتصدره من إرهاب ومشكلات، والدليل على ذلك أن الإدارة الأمريكية عندما اتخذت قرارها بالتدخل فى الشأن اليمنى بشكل أكبر تكشفت لها حقيقة أن عدد خبرائها فى اليمن لايتجاوز الثلاثة من وسط جيش خبراء فى الشرق الأوسط، وهذا ما دفعها للاعتماد بشكل أكبر على بريطانيا بماضيها الاستعمارى فى اليمن.





محور صنعاء - صعدة الذى يشهد حرب صعدة اليوم بدرجات مختلفة، هو ذاته محور قتال اليمنيين الذى استمر سبع سنوات بعد ثورة ١٩٦٢



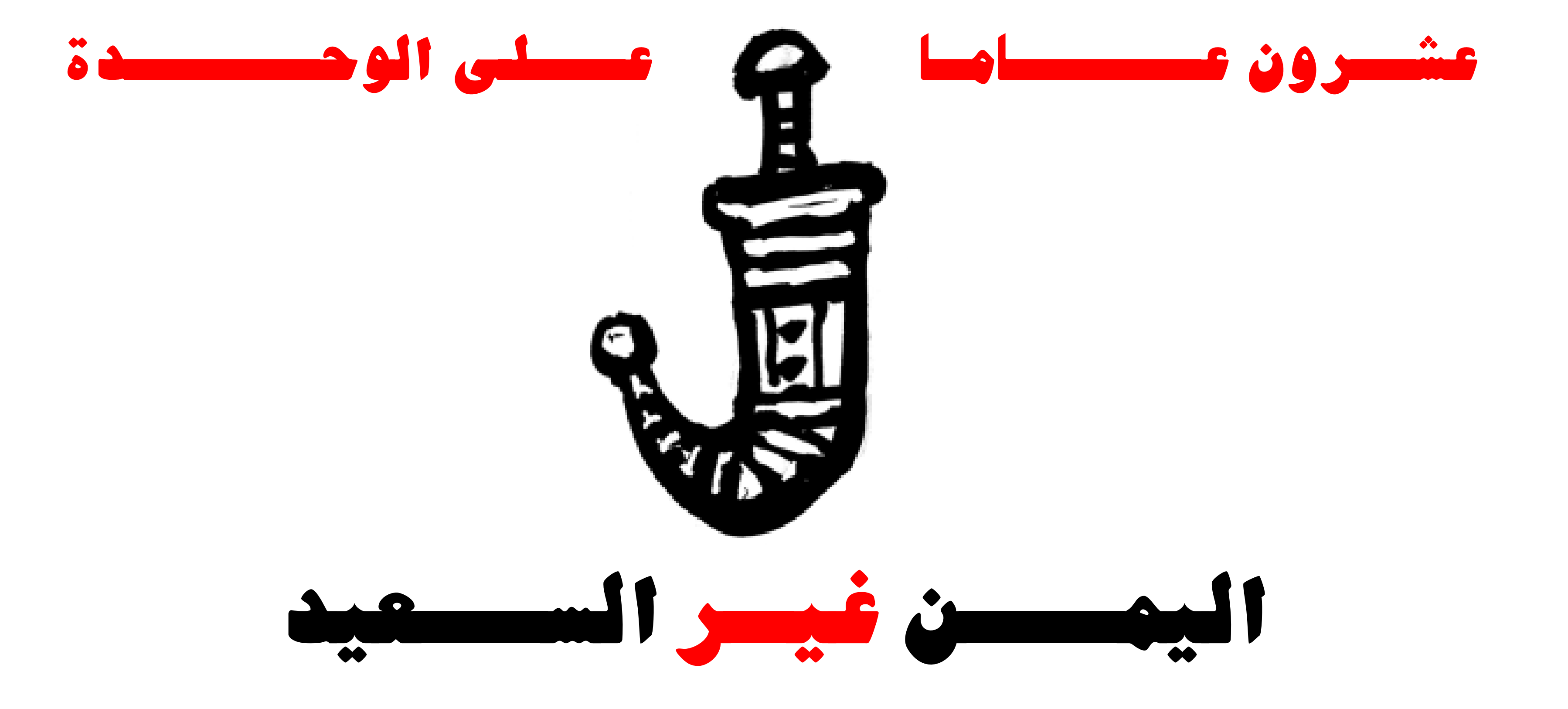
سعة الهاوية

ربما تكون سعة الهاوية أكبر من سعة السماء حسب ماكان ينظر لها الشاعر محمود درويش، وهذا امر لا يجافى الحقيقة كثيراً فى بلد مثل اليمن تواجه تحديا تنمويا حقيقيا وتعانى من نفس الأمراض والخلل المصابة بها السياسة العربية من شخصنة واستبداد وفساد وعصبية كما تتناقل هذه المنطقة الكوارث السياسية فيها من توريث واحتلال أجنبى ومايحلو للبعض تسميته وجود عسكرى أجنبى. فهى منطقة يحكمها صخب الخلافات السياسية المعجونة بالاستبداد وانعدام التخطيط وضعف الإرادة وأزمة الهوية وغيرها من الخلافات حتى صار لايخرج منها إلا ضجيج التفجيرات والجوعى والاحتجاجات والحروب. وفى وسط هذا الخوف والتخبط، تمترس الجميع وراء جماعته بعصبية مخيفة بدءاً من سياسة وحتى مباريات كرة قدم وهذا أمر مخيف يوحى بحجم هشاشة الأوضاع القابلة للانفجار، فصارت دول هذه المنطقة مابين دول تعانى من احتلال أجنبى أو إنهيار أو إنقسام او فوضى أو غيرها ودول اخرى تنتظر وليست بمنأى عن المصير المخيف الذى قد يواجهها.

إذن لا وجود للخلاص الفردى والمسألة باحتياج لتغيير حقيقى وجذرى بمستوى التحديات الموجودة. فلا يعقل بعد هذا التاريخ كله أن يتحول المجتمع اليمنى لمجرد مجتمع منقسم لدرجة التشظى، منقسم قبلياً ومناطقياً ومذهبياً وسياسياً وإقتصادياً.

لكن لازال هناك مانعول عليه وهو ليس موجودا فى النخبة السياسية الحاكمة أو المعارضة فى اليمن بل فى مجتمع استطاع تولى زمام المبادرة فى إصلاح الأوضاع السياسية إذا ما آلت الأمور للفوضى والانهيار كما جرى من قبل. فهذه ليست المرة الأولى التى تغرق البلاد فيها بالفوضى والحروب الأهلية وإن قد تكون هذه المرة هى الأصعب، لكن للمجتمع اليمنى تقاليد عريقة فى التوافق فيما بينهم بعد ما يتبدى لهم فى النهاية حجم عبثية هذه الخلافات ولانهائيتها. وينسى الكثيرون الآن بعض الحقائق لعل أقربها أن الوحدة تعد بشكل ما أحدى الحالات التوافقية فى التاريخ اليمنى وإن أفسدتها النوايا السيئة التى دخلت بها نخبة كلا الطرفين، لكنها جاءت من شدة يأس كلا الطرفين من حالة الصراع الدائم بين الشطرين وفشلهم فى ترسيم حدود الدولتين لانعدام المرجعية التاريخية حتى صار خيار الوحدة أسهل عملياً من عملية ترسيم الحدود التى نشب حولها نزاع بسبب ظهور بعض الثروة البترولية التى تصورها البعض مبشرة آنذاك. وحتى يصل اليمنيون لمرحلة اليأس من هذا الصراع العقيم ويشعروا بضرورة التوافق فيما بينهم واستخراج طاقاتهم فى هذا الجانب مدركين أنه لاحكم لغلبة فى اليمن وإن كانت غالبية ناهيك عن كونها مجرد مصالح شخصية وصراعات قبلية، حتى ذلك الحين أخشى ألا تكون صعده آخر قافية ضائعة فى وسط القافلة اليمنية المتخبطة. ■

عشرون عاما على الوحدة



اليمن غير السعيد

مدخل

أحمد محمد أبو زيد

■■ من أشهر المقولات التى تصف اليمن هى أنه «بلد إستراتيجى... بلا إستراتيجية». إن هذا البلد العظيم حضارياً، القابع فى أقصى الجزيرة العربية يتحكم فى واحد من أهم المضايق والممرات البحرية للنظام الاقتصادى العالمى. فمضيق باب المندب يعبر خلاله يومياً ما يقارب من ٨ ملايين برميل (أربعة ملايين طن) من النفط، هذه الكميات هى التى تقوم عليها أساسات ودعامات النهضة الصناعية فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية بالكامل. ومن جانب آخر، فإن اليمن يعتبر أقرب نقطة للربط بين آسيا وأفريقيا (جسر)، وهو بمثابة البوابة الرئيسية للقوى الدولية الصاعدة (الصين والهند) لأفريقيا. وكذلك، فهو درع الخليج والموازن الطبيعى للاختلال الديمغرافى الذى تعانى منه أغلب دول الخليج العربى بصورة هيكلية. إلا أن المفارقة أنه وعلى الرغم من هذه الأهمية الجيوبولتيكية والإستراتيجية فإن اليمن حالياً هو بمثابة «رجل الجزيرة العربية الفقير». ويرجع ذلك من وجهة نظرنا للعديد من الأسباب مثل التسلطية السياسية، الفساد الاقتصادى والإدارى، انتشار الأمية، ضخامة حجم البطالة، قلة الموارد الطبيعية.... وغيرها. ولكننا نجادل بأن هذه الأوضاع المزرية التى يحيا فيها اليمن ليست بنيوية أو هيكلية ولكنها مرتبطة أساساً بنوعية هيكل النظام السياسى القائم حالياً فى صنعاء، الذى تدهورت أحوال البلاد على يديه كثيراً خلال العقدين اللذين تبعا إعلان قيام الوحدة بين شطرى البلاد فى مايو ١٩٩٠.



على الرغم من هذه الأهمية الجيوبولتيكية والإستراتيجية فإن اليمن حالياً هو بمثابة «رجل الجزيرة العربية الفقير»



الكتاب الذى بين أيدينا اليوم كتبه واحد من أكبر الصحفيين فى اليمن، وهو الأستاذ نصر طه مصطفى، رئيس تحرير وكالة «سبأ» للأنباء اليمنية الرسمية السابق، وأحد أكثر الصحفيين إلماماً بالشأن اليمنى وتعقيداته. وهذا الكتاب عبارة عن تجميع لدراسات سبق أن نشرها المؤلف فى مجلة « نوافذ » عندما كان رئيس تحريرها منذ أكثر من عقد. وعلى الرغم من تقادم فترة كتابة هذه الدراسات إلا أننا لاحظنا أنها مازالت صالحة ومعاصرة ومتماشية مع الأحداث والتطورات الراهنة التى يمر بها اليمن فى بداية القرن الحادى والعشرين، كأنه لم يمر على كتابتها عقد من الزمان، وهى ميزة ينفرد بها اليمن أى استدامة الأوضاع القائمة والأزمات فالبنية الاجتماعية والسياسية للمجتمع اليمنى مازالت كما هى (اليمن القبائل... القبائل اليمن) وبالتالى ستظل أزماتها ومشاكلها قائمة، مادام المتسببون وصانعوها موجودين وقابعين فى مراكزهم وأماكنهم. فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

هذه المراجعة تنقسم لخمسة أجزاء. فى الجزء الأول سنلقى نظرة عامة على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية اليمنية، وهو ما سيساعد القراء على معرفة حقيقة الأوضاع القائمة والظروف التى يحيا فيها المواطن اليمنى. وفى الجزء الثانى سوف نحلل أسباب التردى والتدهور السياسى والاقتصادى والاجتماعى اليمنى، وفى الجزء الثالث سوف نتطرق بالتحليل لموضوع التمرد الحوثى فى المحافظات الشمالية الغربية. وفى الجزء الرابع سنحاول تفكيك دعاوى الانفصال عن الدولة التى يرفع لواءها بعض (ويمكن أغلبية) المحافظات اليمنية الجنوبية. أما فى الجزء الخامس فسنحاول التركيز على السياسة الخارجية لليمن تجاه دول مجلس التعاون الخليجى وتقييم دعاوى وأطروحات ضم اليمن لعضوية منظمة دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وفى الجزء السادس سنحاول قراءة مستقبل العلاقات اليمنية مع القطب الأوحد فى ضوء الحرب الدولية على الإرهاب. أما فى الخاتمة، فإننا حاولنا تقديم رؤية إصلاحية لتحسين أوضاع اليمن الداخلية وتحسين ظروف المعيشة المتوافرة لأهلنا فى الجنوب والشمال اليمنى.

[١]

اليمن غير السعيد: خلفية عامة

اليمن دولة عربية تقع فى منطقة شبه الجزيرة العربية. يحده من الشمال المملكة العربية السعودية، ومن الشرق سلطنة عمان، ومن الغرب البحر الأحمر ومن الجنوب بحر العرب والمحيط الهندى. وتبلغ مساحته حوالى ٥٢٧,٩٧٠ كم² - أى ضعف مساحة دول مجلس التعاون مجتمعة بدون السعودية. يبلغ عدد سكانه حوالى ٢٣ مليون نسمة (٣٠٪ زيديون وحوالى ٧٠٪ شافعيين المذهب). ويصل معدل النمو السكانى فيه ٣,٤٪. حيث

نصر طه مصطفى: «اليمن: هموم آخر القرن». (لندن: دار الساقى للنشر، ٢٠٠٤).

إلى جانب أوضاعه الاقتصادية والتنموية المتردية، يعانى اليمن من تدهور حاد فى أوضاعه السياسية الداخلية



تصل نسبة المواليد فيه لحوالى ٤٢،٦٪. وترتفع نسبة الوفيات فى اليمن عن كل ألف مواطن عن مثيلاتها فى المنطقة نتيجة تردى الأوضاع والمؤشرات الصحية، وقلة إجمالى الإنفاق على الصحة من إجمالى الناتج القومى الإجمالى (انظر الجدول رقم ١). حيث تبلغ النسبة فى اليمن حوالى ٨،٥٪ بينما لا تتعدى نسبة الوفيات فى السعودية ٢،٥٥٪، وحوالى ٢،١٦٪ فى الإمارات العربية المتحدة وحوالى ٢،٣٦٪ فى الكويت. ويبلغ الناتج القومى الإجمالى اليمنى (بالقوة الشرائية) حوالى ٢١ مليار دولار، أى أن حجم الدخل للفرد فى العام لا يصل الى ١٠٠٠ دولار (تحديداً ٨٧٩ دولارا) مقارنة بأكثر من عشرة آلاف دولار للمواطن فى دول مجاورة له مثل السعودية وسلطنة عمان وقطر. يصدّر اليمن سنوياً مواد خام بحوالى ٢،٣ مليار دولار ويستورد بأكثر من ٤،٦ مليار دولار، أى أن هناك عجزا فى الميزان التجارى قدره ١،٨ مليار دولار. واليمن من أفقر دول العالم، حيث يعيش ما يقرب من نصف الشعب تحت مستوى الفقر (٤٧٪) وتنتشر الأمية بصورة فاحشة بين صفوف الشعب، خاصة النساء (حوالى ٥٠٪ من الشعب، ٧٠٪ من النساء اليمنيات لا يقرأن أو يكتبن) وتعانى المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية من تردى حاد فى أوضاعها التنظيمية وفى هيكلها الإدارى وإنتاجيتها ومصداقيتها أمام المؤسسات المانحة الدولية. إن اليمن فى جملة واحدة أصبح « رجل الجزيرة العربية المريض».

إلى جانب أوضاعه الاقتصادية والتنموية المتردية، يعانى اليمن من تدهور حاد فى أوضاعه السياسية الداخلية. فبسبب وجود نظام حكم تسلطى، يسيطر على البلاد منذ ما يقرب من ثلاثة عقود بصورة غير ديمقراطية، ويمارس نوعاً من التمييز والانحياز لصالح أطراف دون أخرى. وتتفشى فيه المحسوبية والفساد فى تولى المناصب العامة، وعدم المساواة فى توزيع الثروة والسلطة بين أهالى الشمال (الغنى) والجنوب (المعدم) منذ توحيد شطرى الدولة عام ١٩٩٠. ويتجاهل مطالب الجماهير ولا يسعى إلى تحقيقها. إلى جانب تردى الأوضاع التنموية، بسبب انتشار الفساد الإدارى والقانونى والمالى والمصرفى والقضائى الذى تسيطر عليه الدولة تماماً. كل هذه الأسباب، وغيرها كما سنرى لاحقاً، كانت السبب وراء اندلاع ونشوء حركات التمرد والثورة على الحكومة المركزية فى صنعاء.

يقال إن علم الاقتصاد والإحصاء هما علما «الكذب»، وعلى الجانب الاخر، بالتناقض مع تلك المقولة، يقال أن الأرقام لا تكذب. والمؤلف يضعنا فى مواجهة مباشرة مع هذه المقولات. فهو يقول على امتداد الفصول الرابع والخامس والسادس والسابع بأن اليمن قد شهد طفرة تنموية ونموا اقتصاديا كبيرا بفضل السياسات الحكومية، ولكن الواقع وكما عرضناه الذى يحيا فيه الإنسان اليمنى يقول بعكس ذلك تماماً. ومن جانبه يلقى المؤلف باللوم على بعض فئات الشعب اليمنى الذين أسماهم دعاة الانفصال والتشرذم وناكرى الجميل. إننا نختلف كلياً مع ما يقول به المؤلف. ونجادل بأن القرارات الحكومية الرسمية (والسياسية بالذات) هى السبب وراء تدهور وتردى الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للشعب اليمنى. وبأن هذه السياسات هى السبب وراء «تعاسة» اليمن وبؤس أهله وتشردهم.

على كافة المستويات يواجه اليمن معضلات عميقة. فعلى المستوى المحلى تعانى الدولة من تآكل شرعيتها وفقدها لأحتكارها الشرعى لاستخدام القوة المسلحة، وتتزايد حركات التمرد والعصيان على الحكومة. ومن جانب اخر، هناك تردى الأوضاع الاقتصادية والتنموية بصورة تنبئ باحتمال أنهيار الدولة. وعلى المستوى الإقليمى، فإن اليمن ينظر إليه باعتباره المعبر الرئيسى لتهريب الجماعات الإرهابية والأسلحة والمخدرات والهجرة غير الشرعية لدول مجلس التعاون وللمملكة العربية السعودية، ومن جانب آخر، فإن ارتباط بعض النزاعات المحلية التى يخوضها النظام ضد بعض الجماعات المتمردة ببعض القوى الإقليمية (إيران) يدخل اليمن فى لعبة «القوى الكبرى» وهو بعد دولة صغيرة لا تستطيع الصمود كثيراً فى هذا الملعب. أما على المستوى الدولى، فلعل أكثر المعضلات التى تواجه اليمن هو موضوع استقرار وإيواء جماعات الإرهاب الدولى داخل الأراضى اليمنية، واتخاذها قاعدة لشن الهجوم على ممالك الخليج أو ضد القوات الامريكية التى ملأت الخليج العربى، والموضوع الآخر هو تصاعد أهمية ونفوذ حركات القرصنة البحرية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر، وتداعيات ذلك على سلامة وسيولة عملية النقل البحرى للنفط وحماية السفن التجارية الدولية المترددة على منطقة الخليج العربى.

- العواقب الإقليمية: إن النظام السياسى اليمنى الحاكم بسبب توجهاته الخارجية الغبية والخاطئة تجاه جيرانه فى منطقة الخليج العربى قد ساهم فى أذكاء العداء الإقليمى له ولأهل اليمن. إن أنحياز النظام السياسى اليمنى للعراق على حساب الكويت خلال حرب الخليج الثانية ١٩٩٠-١٩٩١ جعل أغلب دول مجلس التعاون الخليجى تنظر لليمن حليف صدام بأعتباره «عدواً للخليج». وهى النظرة التى لم تشهد تغيراً كثيراً منذ ذلك الوقت، وهو ما أدى إلى ابتعاد وتجاهل هذه الدول (الغنية) لليمن وعدم تقديم المساعدات والمعونات التى ستساهم فى تحسين أوضاع الشعب العربى فى اليمن. والتضييق على أبنائه الموجودين فى الخليج.

من جانب آخر، فإن الوزن السكانى الهائل لليمن (مقارنة بجيرانه) جعله مصدراً لتهديدهم. الذين ينظرون لهذا الاختلال السكانى كأداة فى صالح اليمن فى مواجهة باقى دول منطقة الخليج العربى والسعودية بالذات. إن دول مجلس التعاون الخليجى القريبة من اليمن والتى يتواجد داخل أراضيها ملايين من المواطنين اليمنيين تخشى من عواقب قيام هذه الجاليات باتخاذ مواقف عدائية تجاهها، فى حالة اندلاع صراع إقليمى فى منطقة الخليج العربى، إما بتحريض من النظام السياسى اليمنى لابتزاز هذه الدول الغنية، أو توظيف إحدى القوى الاقليمية (إيران)، التى قد تأخذ فى مساندة هذه الجاليات كأداة لتهديد دول مجلس التعاون الخليجى.

من جانب ثالث فإن ارتباط بعض حركات التمرد الداخلى فى اليمن ببعض القوى الاقليمية مثل إيران يجعل دول مجلس التعاون الخليجى التى تنظر لإيران كمصدر لتهديد أمنها ووجودها واستقلالها تحاول بكافة السبل العمل على احتواء هذه الجماعات، وتجميد منابعها، بصورة لا تجعلها مصدر قوة لإيران فى الفناء الخلفى لها. وهو الأمر الذى سيدفع هذه الدول خاصة السعودية والإمارات وعمان إلى مساندة النظام السياسى اليمنى القائم فى حربه ضد هذه الحركات. وهو ما أدركه النظام ووسائل الإعلام الحكومى، وبدأ فى تضخيم حجم المساندة الإيرانية لحركات التمرد الزيدى. حيث اتهم مسؤولون فى الحكومة اليمنية إيران بتوفير الدعم المادى للحركة الحوثية فى سبيل إثارة فتنة مذهبية فى البلاد تحقق أهدافها وطموحاتها فى المنطقة. وكذلك الزعم بأن المرجعيات الشيعية فى النجف، وبعض شيعة دول الخليج، الذين - حسب زعم إعلام الحزب الحاكم - يمولون الحركة الحوثية عبر الابن الثالث لبدر الدين الحوثى، يحيى الحوثى، النائب فى البرلمان اليمنى، والمقيم فى ألمانيا. هذا الأمر سيدفع دول مجلس التعاون الخليجى إلى مساندة النظام السياسى القائم فى حربه ضد هذه الحركات دون القضاء عليها

جدول رقم ١
أهم البيانات الاقتصادية فى اليمن ٢٠٠٨ (حسب القوة الشرائية)

الناتج القومي الاجمالي * (بالبليون دولار)	٢٠،٤٦
نسبة الفرد من الناتج القومي الاجمالي (بالألف دولار)	٨٧٩
معدل النمو الاقتصادي	٢،٦
الصادرات (بالمليون دولار)	٢،٢٥٨
الواردات (بالمليون دولار)	٤،٦٩٠
الفرق في الميزان التجاري (بالبليون دولار)	١،٨٣٦
الدين الخارجي (بالمليون دولار)	٥،٤٩٤
نسبة الدين من الناتج القومي (٪)	٢٩،٢
القوى العاملة (بالألف)	٥،٤٩٤
نسبة البطالة (٪)	٣٥
معدل التضخم (٪)	٢٠،٨٠
إنتاج البترول (بالمليون برميل/يومياً)	٣٨٧٥٠٠
صادرات البترول (بالمليون برميل/يومياً)	٣٢٠٦٠٠
أحتياطي البترول (بالبليون برميل)	٣،٧٢٠
نسبة الإنفاق العسكري من الناتج القومي (٪)	٦،٦



تماماً. وبالتالى سيزيد من قوة النظام فى صنعاء، واستمرار تجاهل مطالب وحقوق الشعب اليمنى. إن مثل هذه الاستراتيجية ستجعل النظام يفوز، لكنها ستهزم الشعب اليمنى. إن طبيعة توازن القوى الاقليمى فى الخليج العربى والجزيرة العربية خدم النظام السياسى اليمنى القائم على حساب حركات التمرد الشعبى، ولكن نتائجه النهائية على المدى البعيد ستكون بالتأكيد فى صالح الشعب اليمنى.

- التهديدات الدولية: إن عجز الحكومة المركزية فى صنعاء عن نشر الأمن والاستقرار، وعدم قدرتها على حماية الحدود الوطنية (البرية والبحرية) جعلها فى نظر جيرانها والقوى الدولية مصدراً رئيسياً لتهديد أجواء الأمن والاستقرار التى تنعم به منطقة الخليج العربى أهم مناطق العالم أستراتيجياً للقطب الاوحد. فالعجز اليمنى عن حماية حدوده وحراستها يجعل منه ملاذاً آمناً للارهابيين وللجماعات الارهابية، وسوقاً مثالية لتهريب السلاح يوجد فى اليمن حوالى ٥٠ مليون قطعة سلاح، أى بمعدل ٢,٥ قطعة لكل مواطن، وهى من أعلى نسب التسلح الشعبى فى العالم. وهو ما يجعل من احتمالية تدخل القوى الكبرى فى الصراعات اليمنية المحلية مرتفعة جداً، وهو ما لا يفيد أو يصب فى مصلحة اليمن واليمنيين.

لقد ساعد وقوع أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وتزايد حدة الهجمات الارهابية فى اليمن منذ عام ٢٠٠٥ على لفت أنظار العالم للأوضاع المتردية فى اليمن. حيث خشيت القوى الدولية (القطب الأوحد) من وقوعه تحت سيطرة الجماعات الارهابية، وتأثير ذلك على مناطق أستخراج البترول فى الممالك الخليجية. فبدأت هذه القوى للحيلولة دون تحول اليمن «لأفغانستان عربية» إلى مساندة الحكومة اليمنية فى حربها ضد من تسميهم «الارهابيين». وهو الأمر الذى زاد من قوة النظام اليمنى. فساح فى البلاد قتلاً وتدميراً، مستفيداً من الحرب الدولية على الارهاب، التى أتخذها ذريعة للقضاء على معارضيه. حيث تحولت الحرب القائمة بين النظام السياسى القائم والجماعات القبلية المتمردة، تسعى للحكم الذاتى وإعادة توزيع الثروة والسلطة، إلى صراع بين حكومة وطنية ديمقراطية وجماعات إسلامية راديكالية تتبع أسامة بن لادن، معادية للغرب وللحضارة الغربية. وهو ما صب فى مصلحة النظام، وقيد من حرية حركة الحركات المتمردة.

إن أحوال اليمن المتردية والمزرية (اقتصاديا واجتماعيا) لم تنجح فى شد انتباه أنظار القوى الكبرى فى النظام الدولى، لمساعدة الشعب اليمنى ومحاولة أنتشاله من براثن الفقر والجهل والتخلف الذى يعانى منه. ولكن عندما تم تهديد المصالح الامريكية والغربية فى الخليج العربى من جهة اليمن، بسبب الجماعات الارهابية المتواجدة على أراضيه كان النظام الرسمى هو الذى فتح أمامهم البلاد أثناء الحرب الباردة فإن كافة القوى الدولية هبت لمساعدة النظام اليمنى على التخلص ممن تدعوهم « الارهابيين ». متناسين أن هناك ما يقارب خمسة ملايين نسمة تعيش فى أسوأ الظروف التى يمكن أن يعيش فيها أى إنسان فى الجنوب اليمنى. هؤلاء الخمسة ملايين يمنى لو لم تتدخل القوى الدولية لانقاذهم، فعليها الاستعداد لمواجهة ملايين «الارهابيين».

[٢]

أسباب التدهور

هناك حكمة تقليدية فى عالم الحكم والإدارة تقول بأن: «الرجال الطيبون يصنعون سياسة جيدة، السياسة الفاسدة تنتج رجالا فاسدين ». هذه الحكمة تكاد تنطبق على الأوضاع فى اليمن، الذى يهيمن على عملية صنع وتنفيذ السياسة العامة منذ عقدين من الزمان (اليمن أصبح دولة واحدة منذ ١٩٩٠) عائلة واحدة وقبيلة واحدة، يرأسها الرئيس على عبد الله صالح (٧٦ عاماً). الذى وصفته جريدة نيو يورك تايمز بأنه « رجل يضع مصالح عائلته قبل مصالح وطنه». إن الاستبداد السياسى هو اصل كل الشرور التى يمر بها اليمن. ومحاولة فهم وتحديد أسباب تدهور الاوضاع فى اليمن من خلال صفحات الكتاب لهى مهمة تكاد تكون مستحيلة. فالمؤلف يتغافل بصورة تكاد تكون كاملة عن الدور الذى تؤديه الحكومات اليمنية المتعاقبة بتوجيهات من الرئيس اليمنى، التى أدت لبزوغ مثل هذه الأزمات، مثل قراره بتأييد صدام حسين فى غزوه للكويت فى الثانى من أغسطس ١٩٩٠. وهو القرار الذى دفع ثمن عواقبه مليون إنسان يمنى يعمل فى دول الخليج العربى تم طردهم بذنب قرار رئيسهم الغبى وغير الواقعى، وحرمان الدولة اليمنية من ملايين الدولارات التى كان يحولها هؤلاء المغتربون لذويهم فى القرى والمدن اليمنية، ولتواجه الدولة اليمنية الوليدة ضغطاً لا قبل لها به. وكذلك أدى هذا القرار إلى قطع المساعدات والمعونات الخارجية التى تقدمها ممالك الخليج الغنية وباقى القوى الغربية لمساعدة الشعب اليمنى على تحسين ظروفه التنموية والاقتصادية والمعيشية. إن الرجال السيئين يصنعون سياسة سيئة. والقارئ للكتاب لا يستطيع الخروج باستنتاج معين حول من المتسبب بهذه الأوضاع المتردية التى يحيا فيها اليمن وأهله. فالكاتب على امتداد صفحات الكتاب يشيد بالسياسات الحكيمة والرصينة والملهمة للرئيس على صالح، ومدى تعبه وسهره وتضحياته من أجل الوحدة اليمنية والمواطن اليمنى (!) ويتجاهل تماماً دور الرئيس صالح فى أحداث الحرب الأهلية ١٩٩٤ وتدميره للجنوب بحجة محاربة الانفصاليين، وهو فى الحقيقة لم يكن يحارب الانفصاليين بقدر ما كان يرسخ دعائم الهيمنة الشمالية على الجنوب، كما اكدت رسالة علمية تمت مناقشتها فى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن فى العام ١٩٩٧. حيث استخلص الباحث فى الشئون اليمنية مايكل ويلتون Michael Welton أن السياسات التى اتبعها النظام السياسى الشمالى طوال فترة ما قبل الوحدة (بقيادة على صالح) فى الضغط على الجنوبيين والقيام باستغلال الاوضاع السياسية المضطربة والظروف الاقتصادية المنهارة هى التى مهدت لتأسيس وترسيخ Establishment هيمنة الشمال اليمنى على الجنوب اليمنى فى عملية الوحدة التى تمت بين شطرى البلاد فى أوائل عام ١٩٩٠[1]. وكذلك على الجانب الإقليمى والمناوشات مع المملكة العربية السعودية وسلطنة عمان، بالطبع ناهيك عن خطيئة تأييد صدام حسين.

فى رأينا، إن أهم مصدر لتحديد من المسئول عن الأوضاع الكارثية التى يحيا فيها اليمن وأهله هو تلك التقارير العلمية التى تقيس مدى استقرار الدول ونجاحها فى توفير الاحتياجات الأساسية للمواطنين Basic Needs من أمن ومأكل وعمل واستقرار جماعى... إلخ. مثل تقارير التنمية البشرية الصادرة عن منظمة الأمم المتحدة، تقارير السلام والصراع الصادر عن مركز التنمية الدولية وإدارة الصراع CIDCM التابع لجامعة ميرلاند وتقرير قائمة الدول المنهارة Failed States Index الذى تصدره مجلة السياسة الخارجية Foreign Policy ومؤسسة صندوق السلام Fund for Peace. هذه التقارير «العلمية والمحكمة» تشير دوماً لأنظمة الحكم والحكومات المحلية باعتبارها المسئول الاول والمسبب الرئيسى وراء هذه الأزمات والصراعات التى تمر بها الدول. فالحكومات ونظم الحكم (طبقاً لرؤية المدرسة الواقعية) هى الفاعل المسئول عن إدارة البلاد وتصريف أحوال العباد وتلبية احتياجاتهم ومتطلباتهم وحمايتهم. وأى فشل فى إدارة هذه المسئوليات أو محاولات التملص من تحمل هذه المسئوليات، فإن عواقب هذه السياسات تعود بالسلب (وأحيانا بالخراب) على الشعب. ولا يتحمل وزر تردى الأوضاع إلا نظم الحكم والحكومات. وهو ما لم يتطرق إليه مؤلف الكتاب من قريب أو بعيد.

ولناخذ على سبيل المثال لا الحصر تقرير «قائمة الدولة المنهارة». هذا التقرير تصدره مؤسسة صندوق تمويل السلام Fund for Peace ومجلة السياسة الخارجية Foreign Policy منذ العام ٢٠٠٥. الذى يشير إلى أن اليمن بات بالفعل «دولة فاشلة». وعندما نقول أن اليمن دولة منهارة/فاشلة أو شبه فاشلة، فإننا نقصد بالدول المنهارة التعريف الذى ورد فى التقرير، والذى عَرفها على أنها « هى تلك الدول التى تفقد سيطرتها الفعلية على أراضيها، أو تفقد احتكارها الشرعى لاستخدام القوة ». وترى Susan Woodward أن الحكومات المركزية لهذه الدول تواجه تَحديا جديا مِن قِبل



لم تنجح أحـوال اليمـن المتـردية (اقتصـاديا واجتماعيـا) فى شد انتباه القوى الكبرى. والتى لـم تهـتم إلا عنـــــدما شــــعرت بتهـــديد مصالحهـــا

جماعات عسكرية وشبه عسكرية مسلحة، الشبكات الإجرامية، قُطاع الطرق، أو عصابات الشوارع المُسلَّحة. حيث تسود الفوضى الاجتماعية، وتتوالى وقوع الكوارث. ومن جانب آخر، تعرف هذه الدول على أنها «تلك الدول التي تآكلَت Erosion سلطتها الشرعية وقدرتها على اتِّخاذ قرارات جَماعية، وتعانى من عجز عن تقديم خَدمات حكومية معقولةً، وعجزها عن التَفَاعُل بصورة كاملة مع باقى أعضاء المجموعة الدولية». ويقيس هذا التقرير فشل الدول بناء على مقياس يحتوى على ١٢ مؤشرا اجتماعيا، اقتصاديا، سياسيا وعسكريا منها استشراء الفساد، السلوك الفاسد والإجرامى للنخب الحاكمة، عدم القدرة على جمع الضرائب، الافتقار لتأييد الجماهير، التضخم السكانى، التراجع الاقتصادى الحاد، ممارسة التمييز وعدم المساواة، التهجير التعسفى للسكان Dislocation of the Population ونزيف العقول Brain Drain... وغيرها. وتحدد هذه التقارير مدى وحجم فشل الدول وسقوطها عبر عدة أشكال منها الانفجار Explosion، التآكل Erosion أو الاحتلال الخارجى Invasionعبر فترات متباعدة. وإننا إذ ذكرنا أن اليمن دولة شبه فاشلة فإن ذلك مرده أن اليمن لم يأت فى واحد من المراتب العشرين الأولى فى الترتيب العالمى لتقارير الدولة الفاشلة التى تصدرها هذه المؤسسة منذ العام ٢٠٠٥. إلا فى التقرير الأول، حيث جاء اليمن فى المرتبة الثامنة، وفى المرتبة السادسة عشرة فى تقرير العام ٢٠٠٦، ولكنه تراجع عن المراتب العشرين الأولى (الحرجة) منذ عام ٢٠٠٧، التى احتل فيها المرتبة ٢٤، وفى المرتبة ٢١ فى التقرير الصادر هذا الشهر (يوليو ٢٠٠٨). أى أنه فى طريقه لا محالة لآن يكون دولة فاشلة مرة ثالثة خلال خمس سنوات. وبالفعل فقد صعد للمرتبة الثامنة عشرة فى تقرير عام ٢٠٠٩، ومن المتوقع أن يأتى اليمن فى المراتب الخمسة الأولى فى تقرير هذا العام بسبب ما جرى فى صعده وعمران. المؤسف أن هناك ثلاث دول عربية - هى السودان، الصومال والعراق تحتل قمة الترتيب العالمى للدول المنهارة منذ صدوره.

بالنظر إلى الجدول رقم ٢، يتضح لنا أن اليمن يعانى كما ذكرنا من معضلات جسيمة، تنبئ باحتمال تحوله فى المستقبل القريب إما إلى أفغانستان عربية أو صومال جديد. لقد جاء ترتيب اليمن ثامناً عشر فى قائمة الدول المنهارة، حيث حصد اليمن ٩٨ نقطة من إجمالى ١٢٠ درجة هى مجموع مقاييس مؤشرات التقرير. من أكثر المؤشرات تدهوراً فى اليمن هو مدى جاهزية واستعداد الجهاز الأمنى فى مواجهة التحديات التى تواجهها الدولة، وهو ما ظهر جلياً فى محصلة المواجهات بين الدولة والمتمردين الحوثيين طوال الشتاء الماضى. كذلك يعانى اليمن من استشراء التنمية غير المتكافئة، فالشمال اليمنى يعج بالمشروعات التنموية وإنشاء البنية التحتية، بينما الجنوب يعانى من نقص حاد فى الاحتياجات الأساسية وفى القطاعات الخدمية والتعليمية بالذات. فطبقاً لتقارير رسمية يمنية فإن محافظة جنوبية مثل أبين يبلغ عدد سكانها حوالى نصف مليون نسمة لا يوجد بها سوى عشرة مستشفيات (أى مستشفى لكل خمسين ألف مواطن) وهو ما يجعل اليمن تحصل على ٨.٥ درجة فى مدى تردى مستوى الخدمات العامة ولا يوجد بها سوى ٣٨٠ مدرسة، منها ٢٠ فقط للمرحلة الثانوية. وهو ما جعل مؤشر قياس مدى تحمل النخبة السياسية لمسئولياتها تحصل اليمن فيه على ٩ درجات من ١٠، وهى من أعلى الدول تردياً فى هذا المؤشر. إن الأرقام لا تكذب، وإن كذبت الأرقام فإن نظرة سريعة لصور المخيمات والخراب فى اليمن وسوء الأحوال الصحية للأطفال اليمنيين خير دليل على مقولة «اليمن غير السعيد». إن اليمن للأسف الشديد أصبح تعيساً بأستخدام تعبير البروفيسور مايكل هدسون. والسبب فى ذلك هو النظام السياسى القائم. إن اليمن الآن هو دولة ضعيفة Weak State فى مواجهة مجتمع قوى Strong Society. فما يحدث فى صعدة والجنوب سببه تجاهل الحكومة لمطالب الجماعات الوطنية، ونتيجة للسياسات الحكومية التسلطية والتمييزية. المتزامن أصلاً مع ضعفها وعدم قدرتها على حفظ النظام والأمن فى البلاد.

- كلما زاد معدل النقاط الذى تحصده الدول زاد مستوى انهيارها.

فكما أوضحت الأرقام فى الجدول السابق، فإننا يمكننا القول بثقة بأن السبب الحقيقى

جدول رقم ٢
قائمة الدول الفاشلة للعام ٢٠٠٩*

الدولة	الترتيب العالمي	المؤشرات الاجتماعية				المؤشرات الاقتصادية		المؤشرات السياسية						الإجمالي العام
		الضغط السكاني	اللاجئين والأفراد المطرودين	الشكاوى الجماعية	التنقل الإنساني	التنمية الغير متكافئة	المستوى الاقتصادي	عدم شرعية أجهزة الدولة	مستوى الخدمات العامة	احترام حقوق الإنسان	جاهزية الجهاز الأمني	مدى تحمل النخبة لمسئولياتها	حجم التدخل الخارجي	
الصومال	١	٩٫٨	٩٫٩	٩٫٧	٨٫٥	٧٫٧	٩٫٥	١٠	٩٫٩	٩٫٩	١٠	١٠	٩٫٨	١١٤٫٧
زيمبابوي	٢	٩٫٨	٩٫١	٩٫١	١٠	٩٫٧	١٠	٩٫٨	٩٫٨	٩٫٩	٩٫٧	٩٫٥	٧٫٦	١١٤
السودان	٣	٩	٩٫٨	٩٫٩	٩	٩٫٦	٧	٩٫٨	٩٫٥	٩٫٨	٩٫٧	٩٫٥	٩٫٨	١١٢٫٤
تشاد	٤	٩٫٣	٩٫٤	٩٫٨	٧٫٨	٩٫٣	٨٫٣	٩٫٨	٩٫٦	٩٫٥	٩٫٩	٩٫٨	٩٫٧	١١٢٫٢
الكونجو	٥	٩٫٧	٩٫٦	٨٫٩	٨٫١	٩٫٣	٨٫٣	٨٫٦	٩٫٢	٩	٩٫٧	٨٫٧	٩٫٦	١٠٨٫٧
العراق	٦	٨٫٧	٨٫٩	٩٫٧	٩٫١	٨٫٦	٧٫٦	٩	٨٫٤	٩٫٣	٩٫٧	٩٫٦	١٠	١٠٨٫٦
أفغانستان	٧	٩٫٣	٨٫٩	٩٫٦	٧٫٢	٨٫٤	٨٫٣	٩٫٨	٨٫٩	٨٫٨	٩٫٩	٩٫١	١٠	١٠٨٫٢
أفريقيا الوسطى	٨	٨٫٩	٩	٨٫٦	٥٫٧	٩٫١	٨٫٤	٩٫٣	٩٫٣	٨٫٩	٩٫٦	٩٫٥	٩٫١	١٠٥٫٤
غينيا	٩	٨٫٥	٧٫١	٨٫٢	٨٫٦	٨٫٩	٨٫٧	٩٫٨	٩٫٢	٩	٩٫٤	٩٫٢	٨	١٠٤٫٦
باكستان	١٠	٨٫٣	٨٫٦	٩٫٦	٨٫٣	٨٫٨	٦٫٤	٩٫١	٧٫٥	٨٫٩	٩٫٥	٩٫٦	٩٫٥	١٠٤٫١
ساحل العاج	١١	٨٫٦	٧٫٨	٩	٨٫٤	٨٫١	٨٫٣	٩٫١	٨	٨٫٥	٨٫٥	٨٫٥	٩٫٧	١٠٢٫٥
هايتي	١٢	٩٫٣	٥٫٨	٧٫٣	٨٫٦	٨٫٢	٨٫٩	٩٫٢	٩٫٥	٨٫٥	٨٫٤	٨٫٣	٩٫٨	١٠١٫٨
بورما	١٣	٩	٨٫٨	٨٫٩	٦	٩٫٥	٨٫٢	٩٫٥	٩	٩	٨	٨٫٧	٦٫٥	١٠١٫٥
كينيا	١٤	٨٫٥	٩	٨٫٦	٨٫٣	٨٫٨	٧٫٥	٩	٨	٨٫٢	٩٫٤	٨٫٨	٨٫٢	١٠١٫٤
نيجيريا	١٥	٩٫٤	٥٫٣	٩٫٧	٨٫٣	٩٫٥	٦٫٦	٩٫٢	٩	٨٫٦	٧٫٥	٩٫٦	٩٫١	٩٩٫٨
أثيوبيا	١٦	٨٫٥	٨	٨٫٢	٧٫٧	٨٫٨	٨٫٣	٧٫٩	٨٫٢	٨٫٥	٨٫٣	٨٫٨	٧٫٦	٩٨٫٩
كوريا الشمالية	١٧	٨٫٨	٦	٧٫٢	٥	٨٫٨	٩٫٦	٩٫٨	٩٫٦	٩٫٥	٨٫٤	٧٫٨	٨٫٢	٩٨٫٣
اليمن	١٨	٨٫٨	٧٫٩	٧٫٧	٧٫٤	٨٫٩	٨٫٢	٨٫٣	٨٫٥	٧٫٧	٨	٩	٧٫٣	٩٨٫١
بنجلاديش	١٩	٨٫٩	٦٫٩	٩٫٤	٨٫٤	٩	٨	٨٫٥	٨	٧٫٦	٩	٨٫٩	٦٫٥	٩٨٫١
تيمور الشرقية	٢٠	٨٫٤	٩	٧٫٣	٥٫٧	٦٫٨	٨٫٤	٩٫٤	٨٫٤	٧	٨٫٢	٨٫٨	٩	٩٧٫٢



وراء تردى الأوضاع المعيشية فى اليمن بهذه الصورة الكئيبة والمحزنة هو النظام السياسى الحاكم فى صنعاء، الذى لم يهتم بمحاولة إصلاح هذه الأوضاع والاستفادة من التحولات الهيكلية التى وقعت فى بنية النظام الدولى الذى جاء بعد سقوط نظام الحرب الباردة، والداعى إلى التحرر الاقتصادى والإصلاح السياسى والتحول الديمقراطى. ولكنه كباقى الأنظمة العربية استغل قوته فى تدعيم جذوره التسلطية والانفرادية فى صنع السياسات والاهتمام بالموضوعات والشئون العسكرية والدفاعية والأمنية على حساب الشئون الإنسانية والاجتماعية والتنموية. فكانت النتيجة هى تمرد بعض السكان على الدولة (الحوثيين) ودعوة الآخرين للانفصال عنها (الجنوبيون) وبات النظام لا يحكم سوى صنعاء وما حولها. إن اليمن والمنطقة العربية عموماً خلال العقد الثانى من هذا القرن مقبل على سنوات عجاف. فالمنطقة كلها جالسة على برميل من البارود قد ينفجر فى أى لحظة.

[٣]

التمرد الحوثى فى الشمال

كتب على المظلومين فى أوطاننا العربية السكوت عن المطالبة بحقوقهم حتى يوم القيامة، وإلا فالاتهام والادعاء الكاذب بالعمالة للخارج والوكالة والتبعية للآخرين والاستقواء بالأجنبى على حساب الوطن جاهزة للإلقاء بها فى وجه أى مدع. وهذا بالضبط موقف المؤلف تجاه دعاوى التمرد على الدولة اليمنية (بمعنى أدق التمرد على النظام الحاكم) مثل ذلك التمرد الذى يقوم به عبد المالك الحوثى (ومن قبله والده وأخوه الأكبر) وكذلك الأمر بالنسبة لأهالى الجنوب، الذين تحامل عليهم المؤلف بصورة لافتة للنظر. حيث اتهمهم قبل الوحدة بالتبعية للاتحاد السوفيتى، ثم اتهمهم بـ «معاداة الدولة اليمنية» بعد سقوط الاتحاد السوفيتى وعدم ملاءمة ومصداقية اتهامهم بالتبعية والعمالة للخارج. والمؤلف فى موقفه هذا لم يتوقف لحظة ويراجع موقفه، ويحاول تفنيد الادعاءات والأطروحات التى يقول بها هؤلاء وهؤلاء. ولكنه أخذ موقف المدافع عن النظام وقادته، وصوره لنا باعتباره دفاعاً عن الدولة اليمنية. إن الفارق بين المظلوم والخائن كالفرق بين الحمل والذئب، وبدلاً من توجيه الاتهامات بالعمالة والخيانة، وجب عليه أولاً مراجعة السياسات التى أنبتت مثل هذه الحركات (المعادية للدولة) فكم من الذئاب تلبس ثوب الحملان.

يعتقد البعض أن سبب نشوء حركات التمرد ضد الحكومة اليمنية يرجع لأسباب قبلية وعشائرية تسعى لقلب نظام الحكم الوحدوى الوطنى القائم، وليس كاعتراض على أسلوب التعامل الحكومى مع الأوضاع المتردية والمزرية التى أنتجتها السياسات الحكومية الخاطئة طوال العقود الثلاثة الماضية، وتسلط الأجهزة الأمنية والتنفيذية، ممارسة التمييز بين صفوف الشعب اليمنى خاصة ذوى الأصول الجنوبية. إن السبب الحقيقى وراء نشوء هذه الحركات كما نجادل نحن هو «محاولة التصدى لفساد الأجهزة الحكومية وتجاهل النظام للمطالب الشعبية المشروعة بإعادة توزيع الثروة والسلطة بين مختلف طوائف الشعب اليمنى دون محاباة، بصورة تخدم الوحدة اليمنية ». وما يحدث فى صعدة، وما سيحدث فى غيرها من المدن اليمنية قريباً، من صنع أيدى الحكومة المركزية فى صنعاء. فبتجاهلها لحقوق ومطالب الحوثيين (الزيديين) وغيرهم من أهالى الجنوب، ولجوئها للاستخدام المفرط للقوة العسكرية فى سبيلها لمواجهة التمرد الذى أعلنه حسين الحوثى العضو السابق فى البرلمان اليمنى فى أوائل القرن الحالى، والذى قتلته القوات الحكومية فى عام ٢٠٠٤. كان السبب وراء تصاعد الصراع بين الحوثيين والحكومة المركزية، بصورة وصلت معها الامور لحد الحرب الأهلية (معارك بين طرفين محليين يتعدى عدد القتلى نتيجة الأعمال العسكرية فيها الألف قتيل).

يدّعى الحوثيون أن الحكومة فى صنعاء تتجاهل حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمدنية، وتمارس عليهم التمييز والتضييق على الطائفة الزيدية التى ينتمى إليها الحوثيون وحوالى ٣٠٪ من الشعب اليمنى. وكذلك تمنعهم السلطات الحكومية من ممارسة شعائرهم الدينية ونشر ثقافتهم الدينية، وهو ما تنكره الحكومة تماماً. وتدعى من جانبها أن الحوثيين دعاة خراب وتدمير وانفصال، ووكلاء وأعوان لأطراف خارجية لا تهمهم مصلحة اليمن أو اليمنيون.

الحق، إن كلا الطرفين يبالغ كثيراً فى تشويه الآخر. فعلى جانب الحوثيين، فإنهم بالفعل يعانون من بعض الممارسات التمييزية والمضايقات من جانب السلطات الحكومية، ولكن ليس بالصورة التى يقولون بها. فليس الحوثيون فقط هم من يعانون من هذه الممارسات، فباقى المحافظات والقبائل (خاصة فى الجنوب) تعانى من التضييق، بل وكل الطوائف والعرقيات الأخرى. «فالنظام عادل فى أضطهاده لكافة طوائف الشعب اليمنى». وعلى جانب الحكومة، فهى مصحة فى كون الحوثيين دعاة انفصال وفُرقة. ولكنها خاطئة فيما يتعلق بكونهم عملاء لقوى خارجية. فقد يكون صحيحاً ما يتردد حول تلقى الحوثيين دعماً لوجستياً أو حتى عسكرياً من إيران، ولكنهم من جهة ليسوا وكلاء. وإنما هم تعبير اجتماعى من قبل جماعة وطنية، شعرت بالظلم والغبن مما تمارسه عليها السلطات الحكومية، وهو ما أرغمها على اللجوء لاستخدام العنف المسلح كوسيلة لإرغام الحكومة على تلبية رغباتهم وحقوقهم وتوفير الاحتياجات الأساسية لهم، باعتبارهم مواطنين يمنيين.

[٤]

دعاوى الانفصال فى الجنوب

يُشتم المرء من قراءة الفصلين الخامس والسادس من الكتاب رائحة السخرية والتهميش والاستخفاف بدعاوى الجنوبيين بالانفصال عن دولة الوحدة. حيث يصور لنا المؤلف (أو هكذا تراءى لنا) أن الجنوبيين يريدون الأنفصال لأسباب نفسية (كالحسد والحقد) أو لأسباب شخصية (يركز المؤلف على شخص رئيس اليمن الجنوبى السابق على سالم البيض) يريد بها بعض الأفراد والشخصيات الاستيلاء على السلطة. هذا الطرح وإن كان به جزء من الصحة إلا أنه سطحى للغاية. فالأسباب التى دعت أهالى الجنوب لرفع دعاوى فك الارتباط ثم الانفصال عن دولة الوحدة أعمق مما يقول به المؤلف. فهى نبعت بالأساس من أسباب بنيوية. حيث يعانى أهالى الجنوب بالفعل من الممارسات العنصرية والتمييزية ضد أبنائه (خاصة فى مجال التعليم والتوظيف) وباتت الغالبية من أهالى الجنوب ترى أن الوحدة اليمنية التى دفع أبناؤها ثمناً باهظاً من أموالهم ودمائهم وأملاكهم وأراضيهم، لم تكن وحدة بقدر ما كانت هيمنة من الشمال على الجنوب، واستغلالاً للأوضاع المتردية التى كان يعانى منها الجنوب عقب انهيار الحليف الرئيسى له (الاتحاد السوفيتى). وبدلاً من أن يساعده الشمال وينتشله من أوضاعه المميتة هذه، استغل قوته واستقراره النسبى فى فرض سطوته وهيمنته عليه. إن أهالى الجنوب لم يتحولوا لدعاة انفصال إلا عندما اكتشفوا أن آلهة الوحدة التى آمنوا بها لم تكن إلا أصناماً، لم تنفعهم بقدر ما أضرتهم.

فبسبب شعور بعض الجماعات والقبائل الجنوبية بالغبن والظلم من عدم تساوى طرق توزيع الثروات والسلطات مع الشماليين - بصورة جعلت من اليمن دولة واحدة على الأوراق فقط، بينما هى فى الواقع دولتان. شمالية غنية متمدنة وجنوبية فقيرة ومهمشة - غذى دعاوى الانفصال عن الشمال، بصورة مثلت تهديداً وتحدياً للحكومة المركزية فى صنعاء، وصل لحد الحرب الأهلية عام ١٩٩٤. وفى ظل ارتفاع نسبة من هم فى سن العمل (١٥-٦٥) بصورة تجعل من اليمن دولة شابة Young State مقارنة بجيرانها الشيوخ Aged State. هذه النسبة العالية من الشباب - وفى ظل ارتفاع نسبة البطالة لحوالى ٣٥ ٪ وأرتفاع نسبة من يعيشون تحت خط الفقر لما يزيد على ٤٥ ٪ من إجمالى سكان اليمن - جعله بالفعل على حافة الانهيار والوقوع فى براثن حرب أهلية وانفصالية. وذلك لعدم قدرة الحكومة المركزية على تلبية وإشباع رغبات وحاجات الشعب اليمنى. وانصباب الاهتمام

يقال إن علم الاقتصاد والإحصاء هما علما «الكذب»، وعلى الجانب الآخر، بالتناقض مع تلك المقولة، يقال إن الأرقام لا تكذب



بالطرف الشمالى مسقط رأس الرئيس عبد الله صالح والنخبة وتجاهل الجنوب وأهله.

بعد وأد فتنة الحرب الأهلية استمرت حكومة الشمال فى تجاهل مطالب الجنوبيين، بصورة وصلت معها أوضاع الحياة لمستويات لا تطاق فى الجنوب. فلا مشروعات تنموية، ولا توجد وظائف، وهناك تضييق على الجنوبيين فى التعلم وتولى المناصب العامة. ومن جانب آخر، تزايدت الهوة بين أهل الشمال والجنوب، التى تزامنت مع ظهور حركات تمرد على الدولة كتمرد الحوثيين وأنتشار وجود جماعات الإسلام السياسى فى البلاد، كل هذه الأسباب وغيرها جعلت حركة الحراك الجنوبى الداعية للأسف للانفصال وتمزيق الوحدة تقوى وتزداد شعبية بين صفوف المواطنين. الخطير هنا، إن دعاوى الانفصال هذه المرة تجد لها شعبية كبيرة بين صفوف القبائل وبين الرأى العام الجنوبى. بصورة قد تجعل الكثيرين يتوقعون فعلاً فك الارتباط بين الشمال والجنوب.

إن مستقبل اليمن كدولة واحدة سوف يتوقف على مواقف واتجاهات السياسات الحكومية وكيفية أستجابتها للمطالب والاحتياجات التى تطالب بها حركات التمرد وغيرها من الجماعات والمنظمات القبائلية والمدنية المعارضة للسياسات الحكومية وتسعى لتحقيقها. إن النظام السياسى اليمنى القائم بات يمثل عقبة أمام تقدم اليمن وتطوره. وإذا لم يحدث تطور جوهرى فى كيفية تعامله مع المشاكل والأزمات المحلية التى ظهرت نتيجة سياساته الخاطئة والفاشلة طيلة سنوات طويلة، فإن وجود اليمن الذى نعرفه كدولة قطرية قد يكون محل تهديد شديد. وهو ما يتمناه للأسف الكثير من الأطراف المحلية والاقليمية والدولية.

[٥]

الحب المستحيل: اليمن ودول مجلس التعاون التعاون

على الرغم من أن المؤلف قد تبوأ كما يذكر فى سيرته الذاتية منصب رئيس المركز اليمنى للدراسات الإستراتيجية فى صنعاء إلا أن القارئ والمدقق سيلاحظ انعدام وجود أى خط تحليلى إستراتيجى طوال فصول الكتاب! فالمؤلف يسرد وقائع تاريخية معلومة بالضرورة ويعرضها بطريقة صحفية، دون أن يتطرق لدلالاتها وأهميتها أو وزنها. ولا يلبث أن يذكرنا مراراً وتكراراً بالألمعية الإستراتيجية للرئيس على صالح، ويصوره على أنه نابليون أو بسمارك. وهو ما يتناقض مع وقائع السلوك الداخلى للجماعة الوطنية اليمنية ولدول مجلس التعاون الخليجى تجاه النظام السياسى للرئيس صالح. وبالنسبة لموضوع العلاقات اليمنية الخليجية والآمال اليمنية للانضمام لعضوية منظمة مجلس التعاون الخليجى، وبالرغم من العنوان الجذاب للفصل الثانى الذى كرسه المؤلف لمناقشة هذا الموضوع الجوهرى، فقد غاب عنه الاستعانة بأى نظرية أو منهج تحليلى لتدعيم فرضيته التى يطرحها عبر الفصل ويدافع عنها، وهى وجوب قبول دول الخليج العربية لانضمام اليمن لعضوية المنظمة الدولية التى تجمعهم. ولكنه بدلاً من ذلك فقد انتهج المؤلف الخط التقليدى فى التحليل، فاستخدم المؤلف المنهج الوصفى والتاريخى فى تدعيم فرضيته. سارداً أهم المراحل التى مرت بها العلاقات اليمنية الخليجية، وبالتركيز على العلاقات اليمنية السعودية. فلم يضف جديداً، ولم يقدم أجوبة على الأسئلة التى طرحها، وهى كيف يمكن التوفيق بين حقائق الجوار (الجغرافى) والتماثل (الثقافى) وبين صعوبة الحوار (سياسياً) واستحالة الاندماج (اقتصادياً).

إننا من جانبنا سنحاول الاجابة عن تلك الأشكالية باتخاذ أطروحات ومقولات المدرسة الواقعية الجديدة وجدلهم مع الليبراليين المؤسسيين الجدد والبنائيين الوظيفيين، حول شروط ووظائف التكامل الإقليمى ودور المؤسسات الدولية فى تدعيم التعاون والتكامل الإقليمى، منهجاً تحليلياً لنا. والذى أوصلنا لنتائج مختلفة تماماً عما وصل إليها المؤلف فى كتابه.

إن طبيعة العلاقات ونوعيتها بين الدول تتوقف من المنظور الواقعى على مدى التفاوت أو التوافق فى القدرات والإمكانيات ومصادر القوى. فإذا كانت الهوة بين معادلات وصور توزيع القدرات والإمكانيات واسعة بين الدول، فإن الطرف الأقوى هو الذى يسيطر على مقدرات النظام. ويقوم بفرض توازن قوى يعمل لصالحه ويحقق مصالحه الوطنية. حتى يتم تغيير معادلات وصور توزيع القدرات والإمكانيات فى النظام. بصورة تعيد تشكيل التوازن بناءً على الاختلاف الذى أحدثته فى بنية النظام طبقاً لمقولات نظرية توازن القوى Balance of Power . خاصة وإن كان هذا الطرف الطموح Revisionist يمتلك السلاح النووى- كإسرائيل فى حالة النظام الإقليمى فى الشرق الأوسط، أو يسعى لحيازته. كإيران فى حالة النظام الإقليمى الخليجى.

من جانب آخر، فإن نوعية العلاقات بين الوحدات الدولية فى أى نظام تتوقف على صور التهديد الذى قد تمثله إحدى هذه الوحدات لباقى وحدات النظام. فطبقاً لنظرية توازن التهديد Balance of Threat فإن الدول تميل للتحالف والتكتل Coalition ضد الدول التى تمثل تهديداً كبيراً لها، وتميل للتعاون والتقارب Rapprochement والتكامل مع الوحدات الدولية المسالمة والوديعة التى لا تمثل لها أى صورة من صور التهديد. والتهديد هنا ليس فقط تهديد عدوانيا Aggressive وصلبا Hard، كالذى تمثله إحدى الدول التوسعية Revisionist الطامحة لإعادة ترتيب وتشكيل التوازن السائد فى النظام بصورة أفضل، ترى فيها خدمة لمصالحها وتحقيقاً لأهدافها وطموحاتها القومية. (كالذى فعلته ألمانيا واليابان وإيطاليا فى الحرب العالمية الثانية) أو كالذى «تَدعى» الولايات المتحدة أن العراق وإيران كانتا تحاولان تطبيقه فى منطقة الشرق الأوسط، بصورة قد تهدد باقى الممالك والإمارات الخليجية وكافة وحدات النظام الإقليمى فى الشرق الأوسط. ولكن هناك نوعاً آخر من التهديد. هو ما يمكن أن نطلق عليه «التهديد الناعم Soft Threat». حيث ترى بعض دول مجلس التعاون - على وجه الخصوص السعودية - وبعض القوى الكبرى - الولايات المتحدة خاصة - أن اليمن بتأخر وتردى أوضاعه التنموية والسياسية والاقتصادية وسيادة أجواء الاضطراب الداخلى، واحتمالية انتقال أجواء عدم الاستقرار لباقى دول النظام الإقليمى الخليجى، يمثل مصدر تهديد جوهرى لهذه الدول - الملاصقة له. بصورة لا تقل عن التهديد (العدوانى) الذى كان يمثله العراق وإيران.

إن اليمن بحدوده ومكانته الجغرافية المتميزة يستطيع تقديم الكثير لدول مجلس التعاون الخليجى بإشرافه على مضيق باب المندب الذى يعتبر المعبر الوحيد المتاح لعبور ناقلات البترول القادمة من دول الخليج إلى البحر الأحمر ثم قناة السويس ليصل إلى أسواقه فى أوروبا والولايات المتحدة وباقى العالم الغربى. بصورة تجعله لا يقل أهمية عن مضيق هرمز الذى يعتبر بوابة النفط - والذى تشرف عليه إيران وعمان. فإذا كان مضيق هرمز هو المنفذ الوحيد لخروج النفط من الخليج إلى العالم، فإن مضيق باب المندب هو الحامى والمنفذ البحرى الوحيد المجدى الذى يحافظ على أرتفاع نسبة أرباح الدول المصدرة للنفط. وذلك عن طريق توفير الوقت الذى يقدمه. حيث يستطيع اليمن خنق Suffocate دول مجلس التعاون الخليجى. وبالتالى خنق الاقتصاد العالمى بتعطيل المرور فى مضيق باب المندب بأى ذريعة. وهو الغلق الكفيل برفع تكاليف نقل البترول لأسعار جنونية، نظراً لاضطرار ناقلات النفط وقتها للدوران حول أفريقيا (رأس الرجاء الصالح) للوصول إلى أوروبا والولايات المتحدة. وهو ما سيؤدى - فيما سيؤدى إليه - إلى ارتفاع أسعار البترول بصورة كبيرة. لكنها لن تفيد دول الخليج لارتفاع قيمة نقله. هذا الخيار لم يستخدم قط من قبل ولكنه متاح وفى استطاعة اليمن- الذى قد يغرق سفينة أو قاربا فى وسط المضيق ويتذرع بمحاولة انتشاله بصورة تقتضى معها إيقاف حركة المرور بالمضيق. فاليمن وإن كان فقيراً ومعدماً اقتصادياً (كما سنرى لاحقاً) إلا أن الطبيعة قد وهبته موقعاً جغرافياً متميزاً يستطيع معه تعويض الندرة فى الموارد الطبيعية التى تنقصه. حيث يعتبر اليمن مثالاً لما يعرف فى أدبيات العلاقات الدولية

علــى كافــة المســتويات
يواجــه اليمـــن معضــلات عميقـــة.
فعلى المستوي المحلي تعاني الدولة من تآكل شرعيتها وفقدها لاحتكارها الشرعى لاستخدام القوة المسـلحة





بالدول الصغيرة MicroStates التى لا يكون دورها فعالاً ومؤثراً على العلاقات الدولية إلا بقدر ما تملكه من موارد طبيعية بصورة أستثنائية (مثل دول الخليج) تجعلها قادرة على ممارسة نوع من النفوذ والتأثير على النظام الدولى بقدر ما تملكه من هذه الموارد. ومن جانب آخر موقعه الجغرافى والجيواستراتيجى المتميز الذى قد يكون متحكماً فى طرق التجارة الدولية أو قريب من إحدى القوى المنافسة، بصورة تساعد باقى القوى الأخرى على إدارة صراعاتها مع هذه القوى. أو إشرافه على أحد المضايق أو الممرات المائية الحيوية للتجارة والاقتصاد العالمى (مثل اليمن). هذه السمة الجغرافية الطبيعية تجعل هذه الدول متواضعة الأحوال الاقتصادية والسياسية والعسكرية قادرة على ممارسة نفوذها على النظام الدولى عن طريق تحكمها فى هذه الموارد والممرات البحرية التى وهبتها لها الطبيعة كبديل عن صغر حجمها وضعف اقتصادها ومحدودية تسليحها.

المقولة الرئيسية لنا هنا تقول بأن: «لمنظمة دول مجلس التعاون الخليجى دوراً محدوداً فى صياغة وبلورة السلوك الخارجى للدول الست الأعضاء فيها نحو الاستجابة البناءة لمطالب اليمن، الساعى للانضمام لعضوية هذه المنظمة». ويرجع ذلك لسببين. أولهما: أن دول مجلس التعاون الخليجى ترى أن التهديدات المحتملة (المتغير الثابت Intendance Variable) جراء انضمام اليمن لعضوية هذه المنظمة تفوق المكاسب المحتملة (المتغير التابع Dependent Variable) من وراء انضمامه. وبالتالى تعريض أمن وبقاء هذه الدول للتهديد. السبب الثانى: يقول أن السلوك اليمنى (السلبى والعدائى) الذى انتهجه النظام السياسى اليمنى أثناء حرب الخليج الثانية (حرب تحرير الكويت) ضد أحد أعضاء هذه المنظمة (الكويت والسعودية) مازال جرحاً لم يندمل بعد لدى بعض دول مجلس التعاون الخليجى. ومازال يمثل شوكة فى حلق دول الخليج. واساءة لم تغفرها دول مجلس التعاون بعد لليمن. فدول مجلس التعاون الخليجى تخشى من تكرار السلوك اليمنى فى حالة اندلاع حرب خليجية جديدة.

إن حقيقة الخطر الديمغرافى والتهديد الذى قد يمثله اليمن لدول مجلس التعاون الخليجى هو تهديد مصطنع تم تضخيمه لإعاقة انضمام اليمن لعضوية منظمة دول مجلس التعاون الخليجى. حيث تؤكد الإحصائيات الصادرة عن البنك الدولى والأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية عدم وجود تهديد ديموغرافى يهدد هذه الدول من ناحية اليمن. فعدد سكان السعودية وصل فى العام ٢٠٠٥/ ٢٠٠٦ لحوالى ٢٨ مليون نسمة والإمارات العربية المتحدة ٤,٤ مليون نسمة وحوالى ٢,٥ مليون نسمة للكويت وما يقرب من مليون نسمة فى قطر وحوالى ٣,٢ مليون نسمة فى سلطنة عمان وأخيراً ٧٠٨,٥ ألف نسمة فى البحرين، بأجمالى حوالى ٤٠ مليون نسمة مقابل ٢٢,٢٣ مليون نسمة فى اليمن أى حوالى ضعف عدد سكان اليمن. وعليه؛ فإن انضمام اليمن لا يمثل تهديداً لدول المجلس مجتمعة وإنما للسعودية فقط. والتى هى بالأساس أساس بناء وبقاء المنظمة.

أما عن المعوقات التى تمنع انضمام أية دولة إلى منظمة دولية وكما يحددها البروفيسور Joseph Nye وتطبيقاً على حالة اليمن ودول منظمة مجلس التعاون الخليجى فيمكن تلخيصها فى معوقين أساسيين هما (الحساسية/التأثر Sensitivity والقابلية للإيذاء من قبل الآخرين Vulnerability ٥٣). حيث يرى Nye أن عدم إقبال الدول على التعاون والأعتماد المتبادل مع بعض الدول الأخرى يرجع إلى «حساسية» هذه الدول وخشيتها من عواقب وتداعيات هذا التعاون. يُعرف Nye الحساسية/التأثر من التعاون Sensitivity بأنها: «احتمال التعرض لمؤثرات خارجية مكلفة من جانب بعض الأطراف الخارجية. بصورة تؤثر أو تغير من طبيعة الأوضاع القائمة». من جانب آخر يرى Nye أن الدول تخشى التعاون مع بعض الدول لخوفها من أحتمال تعرضها للإيذاء من قبل الآخرين Vulnerability (انكشافها). التى يُعرفها على أنها «استمرار التعرض لمؤثرات خارجية مكلفة من جانب أحد الأطراف الخارجية حتى بعد اتخاذ كافة الإجراءات ووسائل الوقاية (كالتحذير أو الهرب) من هذه المواقف». ويضرب Nye مثالاً لذلك بتأثير أرتفاع أسعار البترول «الطفرة النفطية Oil Embargo » إبان حرب ١٩٧٣ على الولايات المتحدة واليابان - الذى يرى أنها تضررت أكثر من الولايات المتحدة جراء هذه الأزمة، نظراً لعدم أمتلاكها وسائل وقاية كافية لمواجهة هذه المخاطر.

وعلى هذا الأساس وطبقا للمدرسة الواقعية ترفض دول مجلس التعاون الخليجى انضمام اليمن إلى عضويتها وإن كانت لا تصرح بذلك مباشرة. فدول مجلس التعاون الخليجى تبدى خشيتها وحساسيتها Sensitivity من بعض الأوضاع السياسية والداخلية والاجتماعية المضطربة فى اليمن. وكذلك من نوعية وكيفية الأداء الاقتصادى اليمنى الذى قد لا يستطيع الوفاء بالتزاماته تجاه إجراء عمليات الإصلاح وتدبر أمر هذه الأوضاع. بصورة تزيد من احتمالات تعرض دول مجلس التعاون للإيذاء من قبله. وكذلك من السلوك الذى اتخذه النظام اليمنى خلال حرب الخليج الأولى ضد إحدى دول مجلس التعاون الخليجى (الكويت) لصالح أحد أعداء دول المجلس (العراق).

من وجهة نظر دول منظمة مجلس التعاون فإن عدم قدرة النظام السياسى اليمنى على إدارتها ومعالجتها تمثل تهديدا محتملا Potential Threat. بصورة قد تجعل اليمن قادراً على إيذاء دول مجلس التعاون الخليجى. حيث ترى دول مجلس التعاون الخليجى أن عدم قدرة النظام اليمنى، على سبيل المثال، على حماية حدوده مع دول مجلس التعاون (السعودية وعمان) قد يجعل من هذه الحدود ملاذاً آمناً للجماعات الإرهابية ومنظمات الجريمة والتهريب والمخدرات من جانب. وتهريب الأسلحة والإرهابيين إلى حدود وأقاليم دول مجلس التعاون للقيام بأعمال إرهابية وتخريبية تشيع أجواء من الفوضى والاضطراب داخل حدودها من جانب آخر. وهو ما سيجعلها شديدة التأثر بذلك. إما بسبب عدم قدرة اليمن على حماية حدوده من جانب، ولضعف القدرات الأمنية والعسكرية الخليجية فى مواجهة هذه التحديات والمخاطر من جانب آخر. وهو ما يجعل معدلات تعرض دول مجلس التعاون للإيذاء جراء عدم مقدرة اليمن على حماية وتأمين حدوده مرتفعة جداً.

من جانب آخر فإن أنصار الواقعية الجديدة مثل البروفيسور Mearsheimer يذهبون للقول بأن عمليات توزيع القوة بين الدول وسياسات توازن القوى (توازن القدرات Balance of Capabilities بتعبير Waltz) هى المحدد الرئيسى وراء تحديد علاقاتها الثنائية والجماعية. وأن حسابات المكسب والخسارة قد تكون ذات تأثير ضعيف إذا ما كان بقاء الدولة وأمنها على المحك. فالمهم للدول هو توسيع نطاق وحدود أمنها وسلامتها وبالتالى بقاؤها، وليس توسيع نطاق التعاون والتبادل وبالتالى رفاهيتها. فالدول تسعى للبقاء وليس للثراء.

على ذلك الأساس الواقعى - أيضا - تنظر دول مجلس التعاون الخليجى إلى علاقاتها مع اليمن. فإذا كان هناك بعض المكاسب النسبية Relative Gains التى قد تعود عليها وعلى اليمن بالنفع من وراء تعاونهم الثنائى المتبادل فى مجالات مثل تدعيم وحماية الحدود الجنوبية لدول مجلس التعاون الخليجى، وتقوية وتدعيم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة لليمن، فإن هناك مكاسب كلية Absolute Gains ترى دول مجلس التعاون الخليجى أنها تحققها فى حفاظها على إبقاء اليمن خارج نطاق المنظمة.

طبقاً لهذه الرؤية فإن اليمن ليس لديه ما يقدمه لتدعيم المنظمة وتقوية أسسها وأوضاعها الإقليمية والدولية - بل إنه يكاد يكون عبئا Burden على كاهل دول المجلس (الغنية). فى ظل تردى أوضاعه الاقتصادية وأنخفاض معدلات أدائه الاقتصادى. والأهم من ذلك أن اليمن منذ توحده عام ١٩٩٠ كان دوماً فى حالة من عدم الاستقرار والاضطراب. وهى الحالة التى تخشى دول مجلس التعاون الخليجى انتقالها لحدودها الوطنية فى حالة انضمام اليمن إلى عضوية منظمة مجلس التعاون الخليجى.

فبمقارنته مع جيرانه، فإن اليمن يبدو كالمتسول. فبينما يبلغ نصيب الفرد اليمنى من الناتج القومى ما لا يتعدى ٨٧٩ دولارا يصل مثيله فى البحرين لحوالى ٧٧٢٠ دولارا فى البحرين وحوالى ٢٧٤٠٠ دولار فى قطر وأكثر من عشرة



ينظر إلى اليمن باعتباره المعبر الرئيسى لتهريب الجماعات الإرهابية والأسلحة والمخدرات والهجرة غير الشرعية لدول مجلس التعاون، وللمملكة العربية السعودية



آلاف دولار فى كل من السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة حسب إحصائيات البنك الدولى وتقارير التنمية البشرية. وعليه فإن محاولة ضم اليمن لعضوية مجلس التعاون الخليجى من الناحية الاقتصادية تعتبر مهمة هرقلية Herculean Mission. يتوجب على دول مجلس التعاون تحمل عواقبها إذا ما أرادت ذلك. فاليمن من منظور اقتصادى واقعى لن يكون مشتركاً فى تحمل الأعباء BurdensSharing مع دول المجلس تمهيداً لتأهيله للانضمام للمنظمة لأنه ببساطة جزء من العبء ذاته. وبالتالى فإنه سيكون معوقاً ومقيداً لهذه الدول Restraint التى ستبدأ فى الشعور بارتفاع وتيرة اعتماد اليمن عليها بصورة مبالغ فيها. وهو ما يجعل تكاليف صفقة Transactions Costs انضمام اليمن لعضوية مجلس التعاون الخليجى باهظة جداً. مع اقتناع دول مجلس التعاون بأن هذه المهمة لا تجدى ولن تنفعها. إن البيئة الاقتصادية لليمن مازالت طاردة للاستثمار. ومازالت معدلات الفساد الاقتصادى والادارى واستقلالية المنظمات الاقتصادية عن الدولة ومصداقيتها (طبقاً لتقرير الحرية الاقتصادية الصادر عن مؤسسة Heritage) تمثل عائقاً أمام تحسين أدائها الاقتصادى العام. بصورة لا تؤهلها للأنضمام لمنظمة مجلس التعاون الخليجى.

أما عن المؤشرات الاجتماعية فإن اليمن ودول مجلس التعاون الخليجى يشتركان ويتقاسمان تراثا حضاريا وثقافيا ودينيا واحدا. فكلاهما عربى ومسلم - وإن اختلفت المذاهب والنحل. إلا أن الإسلام واللغة العربية يظلان الجامع بين هذه الدول وشعوبها بعرى لا تفنى. وعلى الرغم من هذا التشابه والتماثل البنائى الاجتماعى والثقافى إلا أن هناك اختلافات وتباينات (نوعية وكمية) لا يمكن التغاضى عنها إذا حاولنا التطرق للعلاقات والمؤثرات المتبادلة بين دول مجلس التعاون الخليجى واليمن. إن مؤشرات مثل نسبة الأمية والإنفاق على التعليم والصحة والمؤشرات التقنية وغيرها هامة جداً فى تحديد مدى الاختلافات. وماهية العوائق التى تحول دون انضمام اليمن لمنظمة دول مجلس التعاون الخليجى. إن اليمن بالفعل متخلف جداً فى المؤشرات الاجتماعية والتنموية. وإن أمكن التغاضى عن بعض مؤشرات الضعف والوهن الاقتصادى والسياسى - فإنه لا يمكن التغاضى عن تدنى مستوى التنمية وتدنى مستويات المؤشرات الاجتماعية، فهذه المنظمة فعلياً هى ناد للأغنياء. ولن يسمح أعضاؤها بانضمام اليمن إليهم إلا إذا كان على نفس المستوى.. أو قريب منه.

وعليه: فعلى اليمن التخلى عن الوعود والآمال الكاذبة التى تعده وتخدره بها دول المنظمة. فتلك وعود كاذبة، وسراب يجرى وراءه اليمن. فهذه الدول لا تهتم سوى بأمنها وبقائها. ولا تحتاج لأى طرف آخر. حتى لو كانت احتمالات فائدته لها ولأمنها وبقائها كبيرة. فتلك مخاطرة لا - ولن - تريد دول الخليج الخوض فيها مرة أخرى... فكفاها ما فعله بها صدام واحد.. وعراق واحد.

[٦]

العلاقات اليمنية مع القطب (الأمريكى) الأوحد

أسوأ ما فى الكتابة عن العلاقات الدولية هو عدم فهم البنية الدولية International Structural الموجودة فى فترة زمنية محددة، وثانياً عدم الاستعانة بأحد المناهج المتخصصة فى شرح وتفسير السلوك Behaviors والأحداث Actions والتفاعلات الدولية International Interactions. لأن ذلك يشبه من يتحدث عن الغابة ولم ير منها غير أشجارها. هذا بالضبط ما وقع فيه المؤلف عندما تصدى لمحاولة تحليل وتفسير العلاقات اليمنية الأمريكية خلال العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين.

السياق الذى كانت تتحرك فيه العلاقات اليمنية الأمريكية طوال العقود الأربعة التى تلت نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) هو الحرب الباردة والثنائية القطبية Bipolarity. حين ساد الصراع السياسى (الإيدولوجى) بين الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية (المعروف بالاتحاد السوفيتى) حول الهيمنة على العالم. والذى كان قائماً بالأساس على أستراتيجيات التحالف والأستقطاب الدولى والاحتواء Containment. وعليه، فالتقارب الأمريكى مع اليمن الشمالى بعد تولى الرئيس على صالح السلطة بانقلاب عسكرى فى أواخر ١٩٧٨ ومع من سبقه لم يكن حباً فيه كما يحاول المؤلف الإيحاء بذلك وإنما كان مجرد تكتيك إستراتيجى من الولايات المتحدة لمواجهة انتشار واحتواء التمدد الشيوعى فى الجزيرة العربية والخليج العربى، الذى أخذ فى التوسع بعد الإعلان عن قيام أول جمهورية ماركسية فى الوطن العربى (جمهورية اليمن الديمقراطية) التى اتخذت من الماركسية اللينينية (الاشتراكية العلمية) كنظام للحكم. وهو ما اعتبرته الولايات المتحدة بمثابة إخلال بالتوازن الإستراتيجى الكونى بينها وبين الاتحاد السوفيتى. الذى أوجد له اليمن (والصومال وأثيوبيا وقتئذ) موطئ قدم له فى المياه الدافئة، وفى الفناء الخلفى لأكبر مستودع لموارد الطاقة الطبيعية فى العالم. وهو ما من شأنه تعريض الولايات المتحدة وحلفائها للإنكشاف والتهديد من جانب حليف الأتحاد السوفيتى اليمن الجنوبى. وعليه، فإن المساندة الأمريكية وإعادة تسليحها وتقوية الجيش اليمنى الشمالى كانت لاعتبارات سياسية واستراتيجية بالأساس، أكثر منها لاعتبارات شخصية أو أخلاقية. والتى وصلت لحد التحالف مع المملكة العربية السعودية لمواجهة تمدد النفوذ المصرى السوفيتى ومساعدتهما للنظام الماركسى الوليد فى حرب استمرت لما يزيد على ثمانى سنوات.

وحتى بافتراض اتباع الرئيس على صالح لمنهج «المكسب والخسارة» فإنه قد لعب على وتر الاختلاف بين القطبين وحاول تعظيم حجم استفادته من المناطق الرمادية Gray Zone بينهما. فعقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتى، فى محاولة منه لمواجهة اليمن الجنوبى بصورة غير مباشرة (صديق عدوى... فهو صديقى) وزاد، من جانب آخر، تقربه من الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، اللذين حاول استخدامهما كظهير رباعى للدفاع عنه حالة حدوث مواجهة بينه وبين اليمن الجنوبى وحلفائه السوفييت على نظامه الوليد، الذى لم يرسخ بعد جذوره فى الأرض.

هذه الاستراتيجية (التقليدية) التى اتبعها الرئيس على صالح لم تكن بالانجاز المبهر أو بالعبقرية السياسية التى يحاول المؤلف الايحاء بها. وإنما هى تقليد أتبعه أغلب الحكام التسلطيين عبر العالم الثالث طوال الحرب الباردة. فبسبب إملاءات وحقائق القوة وتوزيعها على النطاق الدولى لجأ هؤلاء الحكام إلى «الرقص على الحبال» والتحذلق والانتقال من معسكر لآخر فى وقت قصير للغاية. حيث ساهمت البنية الدولية السائدة آنذاك (الحرب الباردة) فى إنجاح مثل هذه المناورات وأساليب الخداع. إلا أنه وبعد نهاية الحرب الباردة، وتحول النظام الدولى لمرحلة الانفرادية القطبية Unipolarity لم تسمح البنية الجديدة للنظام الدولى، التى تركزت فيها مصادر القوة فى أيدى قوى عظمى واحدة، بمثل هذه الممارسات والمخادعات. وبات على بعض المتحذلقين والأغبياء الذين لم يستطيعوا قراءة التحولات التى حدثت فى النظام الدولى دفع ثمن باهظ لتحديهم القوى العظمى الوحيدة فى النظام الدولى. وقد كان أول ضحايا النظام الدولى الجديد صدام حسين وحلفائه (اليمن، الأردن، الجزائر وفلسطين). فعندما حاول صدام حسين غزو العراق وتوهمه بأنه يستطيع الإفلات من العقاب، كان القطب الأوحد متربصاً له ولحلفاؤه بالمرصاد، وبدأ تدريجياً فى تقطيع أوصالهم وجعلهم عبرة لكل من يقدم على تحدى الإرادة الأمريكية.

من الخطايا التى لن تمحى من تاريخ النظام اليمنى (السنحانى) تأييده لغزو صدام حسين لدولة الكويت فى الثانى من أغسطس ١٩٩٠ (المؤلف يحاول إيهامنا بأن هذا الموقف من صنع وسائل الإعلام التى لفقت الأحداث وادعت مساندة اليمن لغزو الكويت). وينكر المؤلف معرفة الرئيس على صالح بنية صدام المسبقة وعزمه على غزو الكويت، وكذلك إنكاره



يوجد فى اليمن حوالى ٥٠ مليـــون قطعـــة ســـلاح، أى بمعـــدل ٢,٥ قطعـــة لكـل مواطــن، وهـــى من أعـلـى نسـب التســلح الشـــعبى فـى العـــالم





لمعرفته بنية صدام على عدم حل الأزمة سلمياً وداخل البيت العربي. والحقيقة أن الرئيس على صالح قد أيد بالفعل صدام حسين، وبات معروفاً ومتداولاً فى الشارع اليمنى أن الرئيس صالح حليف صدام (أطلق العامة على الرئيس صالح صدام الصغير وابن صدام). وهو ما نجده انعكاساً له فى السلوك التصويتى للوفد اليمنى فى مجلس الأمن الدولى (الذى كان يترأسه اليمن وقتئذ). حيث رفض اليمن المشاركة فى التصويت على القرار رقم ٦٦٠ الخاص بإدانة الغزو العراقى للكويت، وعارض كذلك القرار رقم ٦٧٨ الخاص باستخدام القوة العسكرية لأرغام صدام على الخروج من الكويت، وبرر اليمن تصويته هذا بحجة الدعوة لحل الأزمة ودياً وداخل إطار عربى، مع العلم بأن الرئيس صالح كان يعلم مسبقاً بنوايا صدام، وعدم رغبته فى حل الأزمة ودياً أو الانسحاب من الكويت. إن صدام كان نموذجاً للقائد العدوانى التوسعى، ذى النوايا الهجومية العدوانية تجاه جيرانه. وما كان اليمن يأمل بمساندته لركب صدام حسين هو مشاطرته غنائم النصر. إلا أن رياح النظام الدولى الجديد لم تأت بما تشتهيه سفن صنعاء، كما كانت طوال الحرب الباردة.

انتصرت أمريكا وحلفاؤها وانهزم صدام ومحوره. وكما هى عادة التاريخ العسكرى، فإن المنتصر حصل على كل شىء، وتحمل المنهزم كل الوزر. إن الصراعات العسكرية للقوى الدولية مباراة محصلتها صفر، إما غالب أو مغلوب Zero-Sum Game. وكان على اليمن (حكومة وشعباً) أن يتحمل عواقب القرارات الخاطئة والغبية التى اتخذها الرئيس على صالح نيابة عن الأمة اليمنية. التى لم يلبث على ولادتها شهور معدودة، وتعانى من أوضاع اقتصادية وتنموية فى غاية السوء خاصة فى الشطر الجنوبى منها. وهى الأوضاع التى زادها سوءاً طرد ما يقرب من مليون يمنى من الموجودين فى دول الخليج العربى (خاصة السعودية والكويت). إن السياسة الفاسدة يصنعها رجال فاسدون. إلى جانب قطع المساعدات والمعونات الخارجية التى كانت تقدمها الممالك الخليجية الثرية والقوى الغربية لمساندة ومساعدة الشعب اليمنى وتحسين ظروفه المعيشية. حيث انقطعت المعونات الأمريكية المقدمة لليمن منذ العام ١٩٩١ وحتى العام ٢٠٠٣. حيث كانت آخر معونة قدمتها الولايات المتحدة لليمن هى مساعدة بقيمة ٢٣ مليون دولار قبل حرب الخليج بأسابيع.

طوال عقد التسعينيات ساد الفتور مجمل العلاقات الأمريكية اليمنية. ولم تبدأ العلاقات فى التحسن إلا بعد وقوع أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ الكارثية. وهنا ساعد التغير الهيكلى فى بنية النظام الدولى وخدم السياق الدولى نظام الرئيس على صالح مرة أخرى بعد سنوات الانفرادية القطبية العجاف. لقد كانت الحرب الدولية على الإرهاب الدولى بمثابة طوق النجاة لنظم الحكم التسلطية المتداعية عبر الشرق الأوسط، وعلى رأس هؤلاء المستفيدين كان النظام السياسى اليمنى. نعم، مصائب قوم عند قوم منافع.

لقد استغلت النظم التسلطية العربية الحملة الدولية على الإرهاب كما يذهب البروفيسور سعد الدين إبراهيم كفزاعة للغرب، وكوسيلة للتخلص من أعداء النظام ومنافسيه الإسلاميين، بدعاوى مساندة الإرهاب ومساعدته. فكانت الحرب على الإرهاب بمثابة رخصة لهذه النظم لعمل ما تريد دون الخشية من رد الفعل الأمريكى والغربى على ما تفعله وما تنتهجه من سياسات ضد شعوبها ومواطنيها.

وبالنسبة لليمن، ولأنه كان من الرعيل الأول الذى ساهم فى تفريخ الجيل الأول ممن يسمون اليوم بـ «الإرهابيين» فى أواخر العقد السابع من القرن الماضى. عندما تحالفت الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا مع بعض الأنظمة العربية (مصر والسعودية واليمن الشمالى والأردن والسودان) فى تنظيم حملات «الجهاد الإسلامى» فى أفغانستان ضد الاتحاد السوفيتى، والقيام بنقل وتدريب «المجاهدين العرب» (كما كانت تطلق عليهم مجلة النيوزويك) من معسكرات التدريب فى اليمن إلى كابول وغيرها من المدن والقرى الأفغانية.

لكن، وعندما تغيرت النظرة الأمريكية لهؤلاء «المجاهدين» وأصبحوا «إرهابيين» كانت النظم العربية هى أول المؤيدين لهذا التحول. فقد أثبتت التجربة التاريخية أن المعارضة الإسلامية فى أغلب الدول العربية باتت «المنافس الحقيقى» لهذه الانظمة، وتهدد بخلعها من الحكم فى حال إجراء أنتخابات حرة ونزيهة.

لقد لعب القدر لعبته العجيبة مع أنظمة الحكم العربية مرة أخرى. فقد أنقلبت الولايات المتحدة على الإسلاميين، بعد سنوات من التقارب والمغازلة، واتخذت منهم أعداء لها وللغرب وللحضارة البشرية بمجملها. فما كان من هذه الأنظمة إلا أن قفزت فى الركب الأمريكى لمحاربة الإرهاب (!) والاستفادة من ذلك بابداء الولاء (وأحيانا التبعية) فى الحرب على الإرهاب ومساندة الولايات المتحدة (عدو صديقى هو عدوى) وهى فى الباطن تفعل ذلك للتخلص من منافسيها وأعدائها المحليين، التى خلقتهم هى بسياساتها الفاشلة وحكمها التسلطى والأمنى.

ولأن اليمن يعتبر من أهم المناطق التى شهدت بزوغ الجماعات الإرهابية، وبالطبع لقربها الشديد من المملكة العربية السعودية (الجائزة الكبرى للقاعدة) ولدول الخليج العربى النفطية، وللقوات والقواعد العسكرية الأمريكية المنتشرة على طول الشواطئ الغربية للخليج العربى. فكان من المتوقع أن يكون اليمن جبهة رئيسية فى الحرب الأمريكية على الإرهاب. وهو الأمر الذى التقطه الرئيس على صالح منذ الوهلة الأولى (فقد تعلم الدرس جيداً من حرب الخليج الثانية) واستعد جيداً لتعظيم حجم استفادته من الكارثة التى شهدتها الولايات المتحدة (رُب ضارة نافعة) وهى الإستراتيجية التى ساعدت توالى العمليات والهجمات الإرهابية فى اليمن قبل وعقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر (خاصة بعد حادثة تفجير البارجة الأمريكية USS COLE فى أكتوبر ٢٠٠٠) على تحقيقها وإنجاحها.

فبعد ما يقرب من عشر سنوات عجاف قام الكونجرس الأمريكى بإعادة برنامج المنح والمساعدات الخارجية التى قطعت منذ عام ١٩٩١. حيث قام الكونجرس بتسهيل حصول اليمن على مساعدات اقتصادية وتنموية وتكنولوجية وثقافية وعسكرية كذلك. بل وقام الكونجرس الأمريكى بتنفيذ التوصية الرئاسية التى قدمها الرئيس جورج بوش الابن بضرورة زيادة حجم المساعدات الأمريكية المقدمة لليمن، جزاء له على دوره الريادى والمساعد جداً فى مساعدة الولايات المتحدة فى حربها على الإرهاب. هذه المساعدة ضاعفت حجم المساعدات الأمريكية لليمن مئات المرات. حيث وافق الكونجرس على تخصيص مبلغ ١٧٠ مليون دولار كمعونة لليمن فى العام المالى ٢٠٠٩/٢٠١٠. بزيادة قدرها ١٧٤ مليون دولار عن حجم المعونة السابق. هذا إلى جانب تزويد الجيش اليمنى والبحرية اليمنية وقوات الشرطة اليمنية بأحدث المعدات القتالية، التى تساعد على تقوية القوة الضاربة للجيش اليمنى ورفع قدرات الشرطة على ردع ومواجهة الجماعات الإرهابية والجريمة، والإسهام فى حماية حدودها البرية والبحرية التى تستغل فى تهريب الأسلحة والمخدرات والهجرة غير المشروعة وعبور الإرهابيين داخل دول الخليج العربى (عمان والسعودية). إن البنية الدولية مع الانتهازية السياسية خدمت مصالح النظام الحاكم فى صنعاء. وساعدت على تدعيم علاقاته مع القوى العظمى الوحيدة فى النظام الدولى، وهو ما ساعده فى الانتصار على خصومه فى الشمال والجنوب. ولكن... إذا كان النظام السياسى قد انتصر، فإن الشعب اليمنى قد انهزم. حيث حكم عليه مراراً أن يحيا حياة بائسة وتعيسة، مادام هذا النظام باقيا. فكيف يستقيم الظل والعود أعوج.

خاتمة: رؤية إصلاحية

ما العمل إذا؟ وكيف السبيل للنجاة وإنقاذ بلدنا العزيز اليمن؟ الاجابة هى القبائل. أما كيف ذلك، فهو ما سنشرحه الأن. فكما كانت القبائل مصدراً لاستقرار اليمن وأمنه طوال تاريخه، فإننا نجادل بأنها يمكن أن تلعب نفس الدور فى المستقبل. إننا نجادل هنا بأنه: كلما زادت حالة التوافق بين القبائل اليمنية الكبرى، كانت أحتمالات استقرار اليمن أكبر. بمعنى أن هناك علاقة طردية



لأسباب كثيرة، يعتبره البعض مصدراً رئيسيا لتهديد أجواء الأمن والاستقرار التي تنعم بها منطقة الخليج العربى - أهم مناطق العالم استراتيجياً للقطب الأوحد



بين وجود حالة من التوافق بين قبائل اليمن الكبرى واستقرار الأوضاع الداخلية اليمنية.. والعكس بالعكس.

هذه التحديات التى تواجهها الحكومة المركزية اليمنية فى صنعاء قد تهدد بتمزيق وحدة اليمن. والتى يجب أن نلاحظ أن السبب وراءها يرجع بالأساس إلى تراكم الأخطاء السياسية التى ارتكبتها القيادة السياسية والحكومات المتعاقبة منذ الوحدة، إلى جانب النخبة السياسية والاقتصادية الاستغلالية، التى وضعت مصالحها الشخصية والطبقية قبل المصلحة الوطنية وتحقيق المنافع العامة. والقول بأن الأوضاع فى اليمن ليست بهذا السوء خير جواب عليها هو النظر للواقع ولأحوال المواطن اليمنى فى الجنوب. وإذا لم يتم الاستجابة والتكاتف (الداخلى والقبائلى بالأساس) من أجل مواجهة هذه التحديات والمخاطر والعواقب المترتبة عليها فإن البديل الوحيد الذى سيكون متاحاً فى المستقبل هو «الفوضى».

المقصود بالوفاق القبائلى: «وجود حالة من التناغم والتوافق الجماعى بين القبائل اليمنية الكبرى حول اختيار شكل ونوعية نظام الحكم، كيفية اختيار رئيس الجمهورية وتحديد مهامه وصلاحياته وواجباته تجاه الشعب اليمنى». إن العمل على إنشاء «المجلس الأعلى للقبائل» الذى سيضم كبار مشايخ القبائل وقضاتها (عاقل وقاض)، ذات الصفة الرسمية والطبيعة الالزامية لقراراته، كمجمع انتخابى، لتحديد شكل النظام السياسى فى البلاد وعملية اختيار شخص الرئيس يتماشى مع طبيعة البناء الاجتماعى اليمنى [٢]. بصورة تضمن وجود حالة من التوافق والتناغم والتعاون بين كافة أطياف الشعب اليمنى، الذى سيضمنه وجود اجماع بين شيوخ القبائل والعشائر. هذا الاجماع فى مجتمع مثل اليمن له قوة القانون.. وربما أكبر. وهو ما يتجاهله الكثيرون، باعتقادهم أن القبائل ما هى إلا مجرد صورة من صور العرف أو العادات والتقاليد البالية. إن ذلك غير صحيح.

إن السجل التاريخى لليمن يؤكد أن السيادة ومصادر القوة كانت أبداً وستظل لشيوخ القبائل. إن كافة صور البنى السياسية والاجتماعية التى حاولت تجاهل هذه الحقائق باءت مصيرها للفشل. فالاستعمار البريطانى الذى احتل الجنوب اليمنى منذ ١٨٣٨، والمعروف عنه اشتهاره بتطبيق سياسة «فرق تسد Divided-and-Role» طبَق هذه الاستراتيجية فى اليمن كما طبقها فى مصر والهند. لأنه وجد اليمن ذاته «مُقسم». فعندما جاءت بريطانيا للجنوب العربى، كان موزعاً لحوالى ٢٢ إمارة وسلطنة ومشيخة. وبالتالى فإن البريطانيين لم يحاولوا تغيير النظام السياسى والاجتماعى القائم، بل حاولوا إفناءه من الداخل From Within (ذاتياً). وذلك عن طريق إذكاء روح الفتنة بين هذه القبائل، لتمديد روح الانقسام فيما بينهم. وبعد الاستقلال، عندما قام النظام الوطنى الاشتراكى بحكم الجنوب العربى، ومساعيه الصادقة لتحسين الأوضاع المعيشية وعمله على إصلاح البلاد وتحسين ظروف العباد إلا إنه سقط بسرعة.

أرجع الكثيرون السبب الرئيسى وراء سقوط النظام الاشتراكى الماركسى فى جنوب اليمن إلى العوامل الاقليمية والدولية بالأساس ويتجاهلون تأثير العوامل المحلية وعلى رأسها الطبيعة القبلية لليمن. إن السبب الرئيسى والأهم فى رأينا وراء سقوط النظام فى الجنوب هو سعيه نحو القضاء على الطبيعة الاجتماعية والطبوغرافية للمجتمع اليمنى فى الجنوب. ففى محاولته لاقامة «الفردوس الأرضى» واقامة جنة الشيوعية فى اليمن الجنوبى، فإن هذا النظام قد حارب بشدة القبائل والعشائر والمشايخ وأى صورة من صور التنظيمات السياسية والاجتماعية خارج نطاق الأيدلوجية الشيوعية (الماركسية اللينينية). هذه المحاولات لإفناء القبائل جعلها تنقلب عليه، وتتحالف مع القوى الدولية (الولايات المتحدة) والإقليمية (السعودية) الداعية لغرض فى نفس يعقوب - للحفاظ على النظام القبائلى فى اليمن. وهو ما عجّل وسهّل سقوط هذا النظام الحالم برفعة وتقدم اليمن. أما نظام الإمامة الزيدية، فقد سقط ليس لأنه حاول إفناء القبلية، ولكن لأنه حاول الاستئثار بالحكم دون مشاركة حقيقية من باقى القبائل والمشايخ كما يفعل النظام القائم الآن فى صنعاء. وهو ما سهّل انهياره والانقلاب عليه.

الخلاصة: أنه لا يمكن حكم اليمن وأدارته بدون القبائل، ولا يصلح أن تستأثر قبيلة أو قبيلتان بالقوة والنفوذ دون باقى القبائل. إن استقرار اليمن وامكانية حكمه وإدارته تحدث فى وضعين بنائيين متناقضين تماماً. إما بتمزيق النظام القبائلى والعشائرى كما فعل البريطانيون. وإما بايجاد نوع من التفاهم والتوافق بين رؤساء القبائل وتوزيع عادل للسلطات والنفوذ فيما بينهم. أما محاولة إفنائها أو استئثار احداها بالقوة دون الآخرين فمصيرها الفشل، ونتائجها حرب قبائلية مميتة تمزق البلد. إن الطبيعة القبلية لليمن قد تكون نعمة على أهله، وقد تكون لعنة.

إن الاستراتيجية التى نقترحها تمثل فى رأينا أحد أكثر البدائل قبولاً وتحقيقاً لمصالح الوطن وآمال الشعب اليمنى (بكافة طوائفه وعشائره) فى الوحدة والاستقرار والسيادة. إن كافة النماذج والأمثلة التاريخية السابقة والنموذج السائد الآن (استئثار قبيلة واحدة بالسلطة والنفوذ) لا تقدم حلاً نهائياً للصراع السياسى والاجتماعى الممتد فى اليمن. هناك خمسة افتراضات نظرية قد تواجه اليمن فى المستقبل، وأربعة سيناريوهات مستقبلية نتوقع أن يخوضها اليمن فى المستقبل القريب. إننا نقول بأن أفضل الاحتمالات النظرية تحقيقاً لمصلحة اليمن واليمنيين هو «نموذج الوفاق القبائلى». وأن أفضل أشكال النظم السياسية والاجتماعية ملاءمة لطبيعة المجتمع اليمنى هو «نظام الوفاق الوطنى». أما كيفية وأدوات تحقيق فتلك مهمة لا نقدر على تحمل ثقلها وحدنا. فلابد أولاً من وجود «شيوخ وطنيين» ذوى عقول متفتحة، وقلوب ناضرة، تعلو فوق الصغائر والخلافات الشخصية والقبلية، وانتشال اليمن من الأهوال التى يعانى منها، من أجل حماية مستقبل الأجيال اليمنية الشابة. إن تحقيق مثل هذه الأستراتيجية قد يكون من رابع المستحيلات واقعياً ولكن لو اتفق شيوخ القبائل فيما بينهم على نسيان الماضى ولعق جروح الماضى والمضى قدماً، سعياً وراء مستقبل أفضل لليمن ولليمنيين، فإن أصعب العوائق سيكون سهلاً.

هناك حكمة تقليدية فى عالم الحكم والإدارة تقول: «الرجال الطيبون يصنعون سياسة جيدة، السياسة الفاسدة تنتج رجالا فاسدين»



ملاحظات ختامية

1. Michael Welton: The Establishment of Northern Hegemony in the process of Yemeni Unification. (MA dissertation¨ School of Oriental and African Studies¨ London¨ 1997).

٢. المجمع الانتخابى Electoral Collage: عبارة عن لجنة عليا تتكون من حوالى ٥٣٨ عضوا عدد الأعضاء فى مجلسى النواب والشيوخ إلى جانب ثلاثة أعضاء يمثلون العاصمة واشنطون. تجتمع هذه اللجنة قبل طرح أسمى المرشحين الأساسين للرئاسة للتصويت العام. ويتم أختيار الرئيس من قبل هذه اللجنة أولاً. ويحاول البعض تبرير وجود هذا المجمع الانتخابى بأن الولايات المتحدة وبعد استقلالها عن الإمبراطورية البريطانية وغيرها قد وجدت صعوبة كبيرة فى صهر كل هذه الأعراق والأجناس فى نظام سياسى واحد، خاصة مع تكاثر أعداد المهاجرين من العالم الآخر إلى الولايات المتحدة. وعلى هذا الأساس قام توماس جيفرسون الرئيس الأمريكى الثانى وأحد واضعى الدستور الأمريكى بجعل النظام الانتخابى فى الولايات المتحدة يقوم على ركيزتين هما «المجمع الانتخابى» باعتباره ممثل مجتمع النخبة السياسية، والتصويت العام لبقية الشعب/العامة. حيث كان حاضرا فى ذهن جيفرسون طوال الوقت النظام الانتخابى الإسلامى القائم أساسا على آلية «أهل الحل والعقد People of Complexly and Resolution» فى اختيار الخليفة أيام الخلافة الراشدة. حيث يجتمع العلماء والمفكرون والعقلاء للإجماع على من يتولى الخلافة من المرشحين. ثم يتم اختيار الخليفة بواسطتهم، ثم يعرض المرشحون على العامة لاختيار الخليفة من بينهم. وغالبا ما كان رأى العامة يتماشى مع رأى «أهل الحل والعقد». ■

ليـــلى إبـراهيـــم أبـو المجـــد

فتـــاوى قـــاتلة!

■■ كشفت حادثة مقتل الفلسطينى الذى دهسه متطرف إسرائيلى بسيارته جيئة وذهاباً والتى بثتها الفضائيات العربية نقلاً عن التليفزيون الإسرائيلى، كشفت هذه الحادثة النقاب عن السرطان الأصولى المتطرف الذى استشرى فى الكيان الصهيونى، والدور الحقيقى الذى يلعبه الحاخامات على الساحة السياسية فقد سيطروا على زمام الأمور، وأصبح الساسة مجرد عرائس ماريونيت فى أيديهم، يحركونهم كيف شاءوا. فلقد أثبتت دراسة صادرة عن قسم العلوم الاجتماعية بجامعة برايلان الإسرائيلية أن ٩٠٪ ممن يصفون أنفسهم بأنهم متدينون يرون أنه إن تعارضت الخطوات التى تتخذها الحكومة الإسرائيلية مع رأى الحاخامات فإن الأولى تطبيق رأى الحاخامات، وأن أكثر من ٩٥٪ من الجنود المتدينين أكدوا أنهم لا يمكنهم الانصياع لأوامر عسكرية تصدر لهم دون أن تكون متسقة مع الفتاوى الرئيسية التى يصدرها الحاخامات والمرجعيات الدينية.

وتصديقا على ما سبق فقد نشرت الصحف الإسرائيلية الصادرة منتصف ديسمبر ٢٠٠٩م، أن الجنود المتدينين رفضوا تنفيذ الأوامر العسكرية وتفكيك المستوطنات العشوائية فى الضفة الغربية عملاً بفتوى الحاخام إليعزر ملميد مدير المعهد الدينى العسكرى فى مستوطنة (تفوح) جنوب نابلس.

لذلك رأيت أن أناقش على هذه الصفحات كتاب فتاوى صدر مؤخراً فى إسرائيل تحت عنوان : توراة الملك.. أحكام قتل غير اليهود »، وقد كتبه حاخامان هما يتسحق شبيرا، ويوسى إيليتسور، وهما يرأسان المعهد الدينى المسمى «يوسف مازال على قيد الحياة» فى مستوطنة «يتسهر» القريبة من نابلس، والكتاب صادر عن المعهد التوراتى الملحق بالمعهد.

يقع الكتاب فى ٢٣٠ صفحة ولا يباع فى المكتبات أو محال بيع الكتب، ويتم تسويقه عبر شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) مقابل ٣٠ شيكل للنسخة الواحدة.

ترجع أهمية هذا الكتاب إلى عدة أسباب هى :-

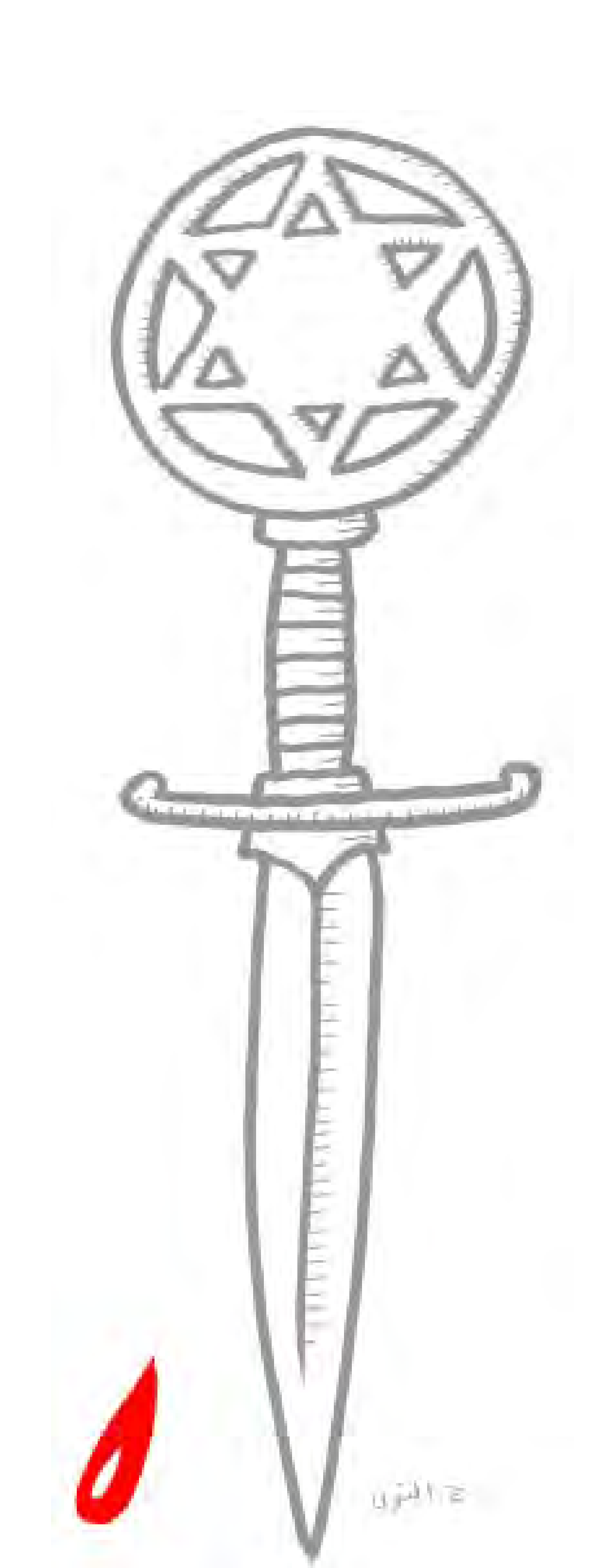
١- أن هذا الكتاب تشريعى ويستمد مادته وأحكامه من المصادر الدينية اليهودية : من التوراة وأسفار الأنبياء والتلمود وكتب التشريع فى العصر الوسيط (مؤلفات موسى بن ميمون وموسى بن نحمان) كما يستمد مادته من كتابات الحاخامات المتطرفين فى العصر الحديث مثل الربى كوك وهو من آباء الصهيونية الدينية والربى شاءول يسرائيلى وكان رئيساً للمعهد الدينى المسمى «مركز هراب» وهو معقل الصهيونية الدينية القومية ومقره القدس.

٢- يتناول هذا الكتاب موضوعاً مهماً فى هذا التوقيت بالذات، وهو ذكرى مرور عام على حرب الإبادة التى شنتها إسرائيل على غزة فى العام الماضى، والكتاب يوضح للجمهور الإسرائيلى المتطرف متى يحل له قتل غير اليهود (العرب والفلسطينيين) اعتمادا على المصادر الدينية لا على نص القانون الإسرائيلى أو القانون الدولى.

٣- مؤلفا الكتاب حاخامان يترأسان ويقومان بالتدريس فى مؤسسة تعليمية، ويمثلان اليمين المتطرف (الحريديم)[1]. ويطالبان بتدريس هذا الكتاب فى جميع المعاهد الدينية (يشيفوت).

٤- حظى الكتاب بتأييد شخصيات مهمة تمثل قطاعاً عريضاً من اليمين المتطرف وهم : الربى يعقوب يوسف وهو ابن الربى عوفديا يوسف الزعيم الروحى لحزب شاس وهو حزب اليهود الشرقيين المتشددين، والربى يعقوب له وزنه الجماهيرى فى شاس.

كما وافق الربى دوف ليئور على الكتاب وهو الحاخام الأكبر فى قرية أربع، وهو يمثل حزب (هئحود هلئومى) الاتحاد القومى الذى يضم أكثر قوى اليمين المتشدد تطرفاً فى مستوطنات الضفة الغربية. كما وافق عليه الربى جينزبورج وهو شخصية لها ثقلها فى حزب (أجودات يسرائيل) وهو حزب الحريديم غير الصهاينة، وهو من رؤساء المعهد الدينى الذى ينتمى إليه المؤلفان.



«توراة الملك.. أحكام قتل غير اليهود» للحاخام يتسحق شبيرا والحاخام يوسى إيليتسور
بالإمكان الحصول على الكتاب من على الموقع:
http://www.virtualgeula.info/Stock/Books/Show/10479

أثبتت دراسة لجامعة برإيلان الإسرائيلية أن ٩٠٪ ممن يصفون أنفسهم بأنهم متدينون يرون أنه إن تعارضت الخطوات التى تتخذها الحكومة الإسرائيلية مع رأى الحاخامات فإن الأولى تطبق رأى الحاخامات



وهناك شخصية رابعة وافقت على الكتاب، وجاءت موافقتها كتابياً فى مقدمة الكتاب وهو الربى زلمان نحميا جولدبرج، وهو عضو سابق فى المحكمة الشرعية العليا، وقد تراجع عن رأيه ويأسف لأنه أعطى موافقته على الكتاب، دون أن يقرأه، وقد تبين له أن المؤلف قد أخطأ، وأن الكتاب يضم تشريعات غير صحيحة من الناحية القانونية، ولا يقبلها العقل البشرى.

والربى جولدبرج يعد أحد رجال الفتوى البارزين لدى الجمهور الدينى والحريدى، ولكنه لا يصنف ضمن حاخامات اليمين.

٥- أحدث الكشف عن هذا الكتاب ضجة إعلامية، وأثار لغطاً شديداً حوله، فلقد كشفت صحيفة «معاريف» النقاب عن هذا الكتاب، ووصفته فى العنوان الرئيسى لعددها الصادر فى ١١/٩/ ٢٠٠٩م، بأنه بمثابة تصريح بالقتل، وأنه «المرشد إلى قتل غير اليهود»، وتربعت صورة مؤلفى الكتاب، وصورة غلافه، وصور الحاخامات الذين وافقوا كتابياً على صدوره، فى صدر الصفحة الأولى من الصحيفة.

وعلى إثر ذلك أجرت القناة السابعة للتلفزيون الإسرائيلى لقاء مع الحاخام يتسحق شبيرا على الرغم من كونه من الحريديم، ولا يتعامل مع شبكة الإنترنت، ولا يسمع الراديو، ولا يشاهد التلفزيون ولا يقرأ الصحافة العلمانية، ولا يأبه لما نشر فيها، ولا بما سيسفر عنه هذا الهجوم الذى يتعرض له الكتاب، وتهمة التحريض الموجهة إليه.

كما أحدث الكتاب ردود فعل متباينة فى المجتمع الإسرائيلى بين مؤيد، ومستنكر، وخائف. فعلى حين يرى رؤساء المعهد الدينى الذى ينتمى إليه المؤلفان أن الكتاب يقوم بشرح جاد لمسألة فى الشريعة، وأن المؤلفين قاما بعمل مقدس، وكانا على مستوى المسئولية المطلوبة فى كتابة كتاب توراتى. وأن كبار الحاخامات والدارسين المهتمين بالأمر، يعرفون للكتاب مكانته العالية، وإسهامه فى أدب التشريع فى العصر الحالى، وقالوا إن المؤلفين لا ينويان الظهور فى وسائل الإعلام، وعلى الأخص تلك التى لا تلتزم بفرائض الشريعة، وأنهما أكدا وقالا: « نحن لا نخفى شيئاً، فنحن فى عصر حرية الإعلام، ولسنا فى عصر الحكم القيصرى فى روسيا، وقد أعاننا الرب على أن ننشر كتابا مقدساً دون أن نحصل على تصريح من رقيب كما كان الحال فى الماضى ودون أن نحجب شيئاً خشية الرقابة، كما اضطررنا أن نفعل ذلك فى أحيان كثيرة إزاء مسألة اختيار شعب إسرائيل، فهى ركن أركان الإيمان اليهودى. ولذلك تظهر هذه المسألة فى هذا الكتاب سواء فى صورة علائق بالتشريع أو كجوهر الشريعة.

ويستكمل رؤساء المعهد الدينى دفاعهم عن الكتاب قائلين: «يمكنك أن تجد فى هذا الكتاب القول الشرعى الواضح فيما يتعلق بمسألة الحرب ضد العدو، فهذا موضوع الساعة، وللأسف فهذه المسألة تظهر سلوكاً ملتوياً نعانى الكثير بسببه، فيكفى أن ترى الكآبة على وجوه زعماء إسرائيل فى مسألة الجندى جلعاد شاليط الذى يعانى من الأسر بسبب امتناعهم عن القيام بأفعال مباشرة وبسيطة (أى شن الحرب على غزة) فى حين يجلس رؤوس الأفعى العرب آمنين فى حماية السكان المدنيين، ويسخرون منا. ونحن نأمل أن يدرس طلاب (اليشيفوت) فى كل مكان هذا الكتاب، وبعون الرب سوف نحظى بزعامة حق تستمد مبادئها وسلوكها من الشريعة الحق، شريعة الحياة».

ونجد على الجانب الآخر، فريقا يرى فى هذا الكتاب تهديداً للديمقراطية فى إسرائيل، لذلك تقدم عضو الكنيست عن حزب العمل أوفيرفينس، فور الكشف عن الكتاب للمستشار القانونى للحكومة وقدم إليه عريضة مطالبا بإجراء تحقيق حول ما نشر فى الكتاب من أقوال تحرض على القتل.

وطالبت حركة ١٢ (حشوان) نوفمبر، وهى حركة إصلاحية تأسست عقب اغتيال إسحق رابين، واتهام منظمات صهيونية ودينية بالتحريض على قتله، وتهدف هذه الحركة إلى نشر التسامح، وقبول الآخر، والحد من التطرف الدينى، وقد طالبت هذه الحركة فى دعوى قدمتها للمستشار القانونى للحكومة بتاريخ ١١/٢٢/ ٢٠٠٩م، بمصادرة الكتاب وتقديم مؤلفيه إلى المحاكمة الجنائية بتهمة التحريض. ولكن المستشار القانونى لم يلتفت إلى الدعوى، وبناء على ذلك تقدم ائتلاف يتكون من عشرة تنظيمات تضم الإصلاحيين وحركة «صوتك» و«الحارس الصغير» وغيرهما، تقدم هذا الائتلاف بدعوى للمحكمة العليا بتاريخ ٢٠٠٩/١٢/٢١م، ضد المستشار القانونى للحكومة، وضد كتاب «توراة الملك».



ويرى هذا الائتلاف أن الكتاب يحل دم غير اليهود والعرب استنادا إلى أقوال التوراة، كما أنه يحرض الأفراد على القيام بأعمال عدائية وانتقامية دون حاجة إلى تصريح أو أوامر عسكرية ومن هنا يخشى هذا الائتلاف أن يترجم هذا الكتاب إلى لغات أخرى، ويستخدم كدليل على الإرهاب اليهودى[٢]، وبالتالى يعرض حياة اليهود فى أنحاء العالم للخطر!

كما جاء فى نص الدعوى التى تقدم بها هذا الائتلاف: « أن هذا الكتاب بمثابة قنبلة على وشك الانفجار. فاليهود الذين يقتلون الفلسطينيين، والذين يشعلون النار فى المساجد، والذين يقتلعون أشجار الزيتون التى يمتلكها الفلسطينيون، قام جميعهم بتلك الأفعال ويقومون، وسيقومون تنفيذاً لما جاء فى هذا الكتاب!».

ويرى فريق ثالث من المتدينين أن هذا الكتاب يدعو إلى سفك الدماء والتطهير العرقى والإبادة الجماعية، وإن من يعمل بما جاء فى هذا الكتاب يتعدى مانهت عنه التوراة فى الوصايا العشر (خروج ١٣/٢٠): «لا تقتل»، ويتعدى أيضاً ما نهى الرب أبناء نوح عنه[٣] (تكوين ٩/٤-٧).

ويرى هذا الفريق أن الكتاب لا يدعو إلى قتل غير اليهود فقط، بل يدعو إلى قتل من يتهرب من الجيش الإسرائيلى، ومن يعفى من التجنيد بمن فيهم طلاب المعاهد الدينية، كما يدعو إلى قتل كل يهودى يعارض الحرب. ويدعو هذا الفريق الجميع أن يقول لا لكتاب التشريع هذا، فهو ليس كلام الرب الحقيقى، ولكنه كلام عشترت إلهة الحرب، ويجب علينا أن نحرقه لأنه كتاب الشيطان، ومن يقرأه يدنس اسم الرب، وإذا عملنا بما جاء فى هذا الكتاب فسوف يبتعد الخلاص ولن يأتى المسيح[٤] بسبب كثرة الخطايا.

وفيما يلى عرض لأقسام الكتاب وأهم ما جاء به من فتاوى:-

قسم المؤلفان الكتاب إلى ستة فصول، منها فصل يضم النتائج. وخصصا فصلاً لكل حالة تبيح لليهودى قتل الأغيار، وشرحا السبب الذى أحل لليهودى أن يلحق الضرر، أى يقتل غير اليهودى استنادا إلى ما جاء فى كتب الشريعة. ومن الجدير بالملاحظة أن المؤلفين تجنبا استخدام الفعل (قتل) فى الكتاب واستبدلاه بالفعل (أوقع الضرر بـ) كما تجنبا ذكر العرب أو الفلسطينيين، واستخدما مصطلح (جوييم) الذى يعنى غير اليهودى، وذلك حتى لا يقعا تحت طائلة القانون ويقدما للمحاكمة. ولقد حرص المؤلفان فى كل فصل على التأكيد على الخلاصة التى توصلا إليها بعد الرجوع إلى المصادر الدينية وكتب التشريع اليهودى.

الفتوى الأولى:

أحل الحاخامان لليهودى أن يقتل أى فرد من الأغيار (الجوييم) فى حالة إذا تعدى هذا الفرد وقام بأى عمل نهت التوراة غير اليهود



يتناول هذا الكتاب موضوعاً مهماً فى هذا التوقيت بالذات، وهو ذكرى مرور عام على حرب الإبادة التى شنتها إسرائيل على غزة فى العام الماضى



فتـــــاوى
قـــاتــلـــة!

عنه(٥)، ولا يعد القتل فى هذه الحالة محرماً، ثم أردفا وقالا من الممكن أن يتم ذلك عن طريق تقديمه إلى المحاكمة.

الفتوى الثانية:

أحل الحاخامان لليهودى أن يقتل أى فرد من الأغيار حتى وإن كان لا يعادى إسرائيل، أو كان من أتقى أتقياء العالم. وذلك إن كان وجوده يشكل خطراً على حياة اليهودى، حتى وإن كان لا ذنب لهذا الفرد فى هذا الوضع على الإطلاق!

الفتوى الثالثة : وجاءت فى ملحوظة هامشية :

يحل لأى يهودى أن يبادر دون حاجة إلى قرار من الحكومة أو الجيش، وأن يسفك دم مملكة الشر، وقال الحاخامان فى تبرير ذلك إن أفراد المملكة التى تعرضت للاعتداء يمكنهم أن يردوا العدوان.

الفتوى الرابعة، وجاءت فى فصل تحت عنوان قتل الأبرياء :

أوضح المؤلفان أن الحرب فى الأساس ضد من يطاردنا، وعلى الرغم من ذلك فإن أى فرد ينتمى للشعب العدو يعد عدواً لأنه يساعد القتلة، وبالتالى يحل قتله، فقد وجدنا فى الشريعة أن غير اليهود، بصفة عامة، موضع شك، ولا يؤتمنون على دماء بنى إسرائيل، وبما أننا فى حرب معهم، فيحل قتل حتى الأطفال والرضع الذين لم يقترفوا أى ذنب، لأننا إن تركناهم فسوف يشكلون خطراً، وسوف يصبحون أشراراً مثل أهليهم !

الفتوى الخامسة، وجاءت فى فصل يتناول الثأر والقصاص :

قال الحاخامان : لكى ننتصر على الأشرار يجب علينا أن نتعامل معهم بمبدأ الثأر والقصاص والعين بالعين، وقررا أن الثأر ضرورة ملحة لكى لا يجنى الشرير ثمار عدوانه، ولذلك أحلا القيام بأعمال وحشية، والهدف منها هو خلق توازن فى القدرة على الرعب والإرهاب !

الفتوى السادسة :

يحل قتل الأطفال فى حالة إن كان تواجدهم يسد الطريق أمام إنقاذ اليهود، ويدعو المؤلفان إلى قتل الأطفال فى هذه الحالة استنادا إلى المنطق، فمن الواضح أن هذا الطفل عندما يكبر سوف يلحق الأذى باليهود، ولذا يجب على اليهودى أن يتعمد قتل الأطفال ولا يكتفى بأن يقتلوا مع الكبار فقط !

ويرى المؤلفان أنه يحل لليهودى أن يقتل أبناء الزعيم (المعادى) من أجل الضغط عليه، وإن كان قتل أطفاله سوف يردعه ويمنعه عن الشر، فيجب على اليهودى ألا يتردد ويقتلهم!

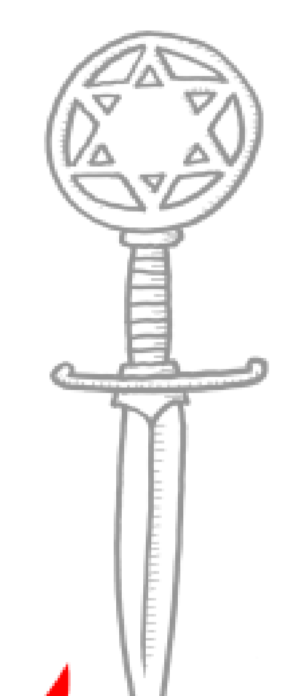
الفتوى السابعة :

أفسح المؤلفان مساحة كبيرة لشرح هذه الفتوى، وقالا إن كتب الشريعة أحلت قتل «المطارد» أى من يتعقب إنساناً لكى يقتله، تطبيقا لقاعدة : «من قام لكى يقتلك فسارع وأقتله»، وقالا يحل قتل «المطارد» حتى وإن كان مدنياً، حتى وإن لم يهدد بالقتل بصورة مباشرة، ويعد فى حكم «المطارد» أى مدنى يساعد المحاربين، ومن ثم يحل قتله، فكل من يساعد جيش الأشرار بأى صورة تعينه على القتال يعد فى حكم «المطارد»، وكذلك كل مدنى (من الأغيار) يشجع الحرب ويساند القادة والجنود ويشجعهم على مواصلتها، وكل مدنى يتبع مملكة تحاربنا ويساند المحاربين أو يعرب عن ارتياحه لما يقومون به يعد فى حكم «المطارد» ويحل قتله.

وعلى العكس من ذلك فمن يضعف بالقول أو ما شابهه مملكتنا يعد فى حكم المطارد!



ويتبين لنا بعد هذا العرض لردود الأفعال التى صاحبت الكشف عن الكتاب وبعد العرض الموجز لأهم ما جاء به من فتاوى، نرى أن الكتاب لم يأت بجديد فى الفتوى، ولكن الجديد فيه هو : أن الفتاوى جاءت ضمن بحث جاد يعرض رأى الشريعة فى مسألة شرعية وهى : قتل غير اليهود، وقد وضعه مؤلفان يقومان بتدريس الشريعة فى معهد دينى، أى يتمتعان بأهلية التأليف فى المسائل الشرعية، وقد وثقا الفتاوى وذكرا الدليل والسند الذى استندا إليه وحددا مصدره فى كتب التشريع اليهودى على مر العصور، وبناء على ما سبق يعد هذا الكتاب دليلاً موثقا يدين الشريعة اليهودية ولا يدين الحاخامين فقط، ولقد جاء هذا المعنى فى تعليق أحد دارسى الشريعة من طلاب المعهد الدينى إذ قال : إن الحاخامين لا يخشيان المثول أمام القضاء لمحاكمتهما، فأولى بالقضاة أن يحاكموا كتب التشريع التى اعتمد عليها هذا البحث !



يوضح الكتاب للجمهور الإسرائيلى المتطرف متى يحل له قتل غير اليهود (العرب والفلسطينيين) اعتمادا على المصادر الدينية لا على نص القانون الإسرائيلى أو القانون الدولى



الجديد فى هذا الكتاب أنه خرج من نطاق كونه كتابا تشريعيا موجها إلى طلاب المعاهد الدينية حاخامات المستقبل إلى نطاق أوسع وأصبح بمثابة تصريح دينى موثق يبيح لكل فرد فى المجتمع الإسرائيلى أن يقتل لا العرب والفلسطينيين (بمن فيهم النساء والشيوخ والأطفال وحتى الرضع) فحسب بل يبيح لكل فرد إسرائيلى أن يقتل من لا يساعد المؤسسة العسكرية فى حربها ضد الأعداء، أو يعترض ولو بالقول على ما تقوم به، كما يبيح للمؤسسة العسكرية الإبادة الجماعية والتطهير العرقى، فالكتاب ينظر إلى الوحشية فى الانتقام على أنها وسيلة الردع الفعالة، ويطالب باللجوء إليها كحل لمسألة الجندى الإسرائيلى الأسير لدى حماس (جلعاد شاليط) !

أما الجديد فى ردود الأفعال على هذا الكتاب فهو رد فعل اليهود المتدينين المعتدلين، فهم يرون أن الكتاب يدعو إلى سفك الدماء ومن ثم فهو يتعدى النهى الذى جاء فى الوصايا العشر، والنهى الذى جاء فى الفرائض التى فرضت على الإنسانية جمعاء منذ عصر نوح. ويرون أن اليهود يتحملون مسئولية هذا الواقع الكئيب الذى يعيشه الجميع، وهذا العنف، وهذا التمييز العنصرى، وأن الكتاب فى دعوته إلى مبدأ الثأر والقصاص قد نسى أن هذا المبدأ موجود فى الثقافة الإسلامية أيضاً وأنهم بذلك يحولون الحياة إلى جحيم وإلى حرب مستمرة.

أما أخطر ما جاء فى رد فعل هذا الفريق من اليهود المتدينين فهو الاعتراف، استنادا إلى الأبحاث الأثرية التى تمت مؤخراً فى إسرائيل، بأن اليهود شعب محتل، وليسوا أصحاب الأرض، وأنهم بسبب هذه الخطايا التى يرتكبونها لن يأتى المسيح المنتظر، ولن يتحقق السلام الحقيقى الأبدى ! ■

الــهـــوامـــش :

١- الحريديم يعنى اليهود المتشددون دينياً، وتشير كلمة «حريدى» بمعناها المحدد إلى اليهود المتدينين من شرق أوربا الذين يرتدون زى اليهود فى شرق أوروبا (المعطف الطويل الأسود والقبعة السوداء و«الطاليت» أى وشاح الصلاة) ويرسلون ذقونهم إلى صدورهم وتتدلى على آذانهم

فتــــــــاوى قـــــاتـــلـــة!

خصلات من الشعر المقصوع. وهم لا يتحدثون بالعبرية قدر استطاعتهم باعتبارها لغة مقدسة ويفضلون التحدث باللغة الييدشية، ولا يقرأون الصحف العلمانية، ولا يشاهدون قنوات التليفزيون، ويلتزمون بالطعام «الكاشير» أى الشرعى، وتتميز الأسرة الحريدية بكثرة عدد أفرادها لأنهم لا يحددون النسل ويقتدون بيعقوب عليه السلام فقد أنجب ١٢ ولداً وبنتاً واحدة. ويرى المجتمع الحريدى أن عليه الالتزام بالشريعة فقط دون غيرها، وتعد «اليشيفا» أى المعهد الدينى هو المؤسسة الثقافية الدينية التى يذهب إليها الشاب الحريدى لكى يتعلم التلمود وتفسير الشريعة ويتخرج منها حاخاماً، ولا يزاولون عملاً آخر ويعيشون على الإعانات التى تأتيهم من يهود العالم وعلى الأخص من يهود أمريكا. وفى البداية وحتى وقت قريب كان هناك عداء شديد بين الحريديم والصهيونية، فهم يرون فى قيام دولة إسرائيل على أكتاف الصهيونية انتهاكا لإرادة الرب، وتمرداً من الصهيونية على الرب لأنها لم تنتظر قدوم المسيح وقامت بإنشاء دولة إسرائيل.

٢- مصطلح الإرهاب اليهودى لم يأت فى الأصل العبرى الذى نقلنا عنه ولكن جاء مصطلح «العداء للسامية»، وهو الاتهام الذى يرفعه اليهود فى وجه كل من ينتقد أى فعل أو سياسة عدوانية تقوم بها دولة إسرائيل أو اليهود، بل يرفعونه فى وجه كل من ينكر أى حادثة يدعى اليهود أنها حدثت مثل أحداث النازى، فكل من يتجرأ وينكر أحداث النازى أو يقول إن اليهود بالغوا فى عدد القتلى، يعدونه معادياً للسامية مثلما حدث مع المفكر روجيه جارودى. كما يرفعون هذا الاتهام فى وجه كل من يذكر أو يشير إلى حادثة ادعى اليهود عدم حدوثها مثل فطيرة الفصح التى كان اليهود يستخدمون دم الأطفال المسيحيين فى عجنها، فقد اتهم اليهود الأستاذ عادل حمودة والأستاذ إبراهيم نافع بمعاداة السامية لأن الأستاذ عادل حمودة عرض فى صحيفة الأهرام كتابا قديما يتحدث عن حادثة وقعت فى دمشق عشية عيد الفصح والتحقيقات التى تمت حينها والتى اتهم فيها اليهود بقتل أحد المسيحيين لاستخدام دمه فى عجينة الفصح.

٣- وتسمى فرائض بنى نوح والمصطلح المقابل لها هو الوصايا العشر أو الفرائض (٦١٣) المفروضة على اليهود، وصيغة فرائض بنى نوح كما وردت فى التوراة تتضمن نهيين فقط هما : النهى عن سفك الدماء، والنهى عن قطع جزء من الحيوان وهو حى والأكل منه، وقد أضاف التلمود فى (سنهدرين ٥٦ وجه الصفحة) على هذه النواهى وجعلها سبعة نواه وجعلها بمثابة شرائع إنسانية تجب على البشر جميعا وهى تنهى عن: سفك الدماء، غشيان المحارم، عبادة الأوثان، قطع جزء من الحيوان وهو حى والأكل منه، التجديف على الرب، السرقة، الاعتداء على الغير.

٤- الإيمان بمجىء المسيح، ركن من أركان الإيمان اليهودى، وهو الركن الثانى عشر، وينتظر اليهود المتدينون نزول المسيح كل يوم ليقيم مملكة الرب على الأرض، ويتحقق السلام الحقيقى الأبدى، وبعد حرب ١٩٦٧ م واحتلال فلسطين نظرت الأحزاب الدينية إلى هذه الحرب على أنها معجزة وإشارة من الرب. وحدث مؤخراً تحول فى موقف الأحزاب الدينية غير الصهيونية فأصبحت ترى فى الاستيلاء على الأراضى العربية بداية الخلاص، وأصبحت من أشرس العناصر الصهيونية وأكثرها تطرفا وتمسكا بكل الأراضى المحتلة وبضرورة الاستيطان فيها.

٥- أى فرائض بنى نوح السبع.

٦- وتسمى هذه القاعدة الفقهية أو هذا الحكم الشرعى «دين روديف» أى حكم المطارد، ولم تنص عليه التوراة صراحة، ولكنه جاء فى التلمود فى أكثر من موضع، أكثرها تفصيلاً فى باب سنهدرين ظهر صفحة ٧٢. فقد استنبط فقهاء التلمود هذا الحكم من التوراة وأسفار الأنبياء. كما يزعمون، والأمثلة التى استشهدوا بها على وجود هذا الحكم فى التوراة هى :

١- ما قام به موسى عليه السلام مع أهل مدين.

٢- وما قام به يفتاح الجلعادى.

٣- قصة شاءول مع داود عليه السلام.

والمقام لا يتسع هنا لمناقشة هذه الأمثلة وللرد عليها.

٧- معظم الفتاوى التى جاءت فى هذا الكتاب، سبق وأفتى بها حاخامات آخرون فى مناسبات مختلفة أو رداً على الأسئلة والاستفسارات التى يرسلها لهم تلاميذهم، وعلى سبيل المثال فقد نشر عدد من كبار الحاخامات فى السابع من سبتمبر عام ٢٠٠٥م فتوى دينية على صدر الصفحة الأولى من صحيفة «هآرتس» تدعو إلى قتل المدنيين الفلسطينيين، وفى رسالة بعثوا بها إلى رئيس الحكومة الإسرائيلية آنذاك أريبل شارون، حثوه فيها على عدم التردد فى قتل المدنيين الفلسطينيين أثناء المواجهات المندلعة فى الأراضى المحتلة، وجاء فى الفتوى التى وقعها الحاخامات المسئولون عن المدارس الدينية، وفى مقدمتهم الحاخام دوف ليئور ما نصه : «نحن الموقعون أدناه، ندعو الحكومة الإسرائيلية والجيش الإسرائيلى إلى العمل بقاعدة : «من قام لكى يقتلك، فبادر واقتله»... هكذا تصرف شعب إسرائيل منذ أيام النبى موسى، الذى حارب أهل مدين، وهكذا تصرف يفتاح الجلعادى وشاءول وداود، وكل قادة إسرائيل على مر العصور...»

ونشرت فتوى للحاخام مردخاى إلياهو وهو الحاخام الأكبر الشرقى لإسرائيل، وأحد أكبر المرجعيات فى الإفتاء لدى أتباع التيار الدينى الصهيونى، فى ٢٠٠٧/٧/٢٩م فى جريدة معاريف تحظر هذه الفتوى على المستوطنين الذين استولوا على المنازل الفلسطينية فى قلب مدينة الخليل أن يتركوها بل يجب عليهم مقاومة قوات الشرطة الإسرائيلية التى تحاول طردهم من المنازل وإخلالها !

وللحاخام نفسه فتوى أخرى نشرت فى صحيفة معاريف فى ٢٠٠٤/٤/٢٢ م، وتم تعميمها على جميع وسائل الإعلام، وحظيت باهتمام وسائل الإعلام الدينية والمطبوعات التى توزع داخل المعابد اليهودية فى إسرائيل وتقول هذه الفتوى: يتوجب قتل جميع الفلسطينيين حتى أولئك الذين لا يشاركون فى القتال ضد الاحتلال، وقال الحاخام إلياهو إن هذه فريضة من الرب ويتوجب على اليهود تنفيذها !



قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية
أحمد أمين

(٢)

الأحجبة:

الأحجبة جمع حجاب وقد اشتهر بين العوام المصريين استعمال الأحجبة، وأشهر من اشتهر بعملها المغاربة من أهالي تونس، والجزائر ومراكش، ويليهم في ذلك السودانيون وبعض الفقهاء. والعادة أن يكتبوها بحبر أحمر وأخضر، ثم تطبق الورقة وتوضع في جلد أحمر ويعلقها في رقبته من أراد، ويكون الحجاب تحت الثياب، وبعض الناس يتعمد أن يكتب الحجاب بنجاسة حفظًا من العفاريت، ويقولون إن الجن أسرع في إنجاز الأغراض من غيرهم.

وبعض الناس ينقطعون لهذا العمل وبعضهم يغالي فيه وبعضهم يتحجب بالمصحف الشريف؛ لذلك طبع في حجم صغير جدا ليوضع في الجيب الصغير. وبعض الأغنياء يضعه في علبة صغيرة من الذهب أو الفضة للتبرك وقد ألف بعض العلماء كتبًا في الأحجبة على اختلاف أنواعها: فحجاب لشفاء المريض، وحجاب لقضاء الحاجات وحجاب لتحبيب الزوج في الزوجة وغير ذلك ومن أشهرها كتاب «مجربات الديربي».

وأعرف رجلا انقطع لعمل الأحجبة، وكان مكارًا خبيثًا تقصده النساء لعمل حجاب لتحبيب زوجها فيها وتقصده أخرى لشفاء ابنها وغير ذلك، فما مضت عليه سنة من هذه الحرفة إلا وأصبح معتوها وألزم نفسه بأن يقول كل ليلة يا لطيف خمسة آلاف مرة. ومن الغريب أنه يعتقد أن هذه الأحجبة وأمثالها في ضلال. ولكنه لا يمكنه أن يتركها بعد أن تعودها وأصبحت جزءًا من حياته. وستأتي أنواع من الأحجبة في مواضعها. وأحيانًا تكون هذه الأحجبة مؤسسة على الوهم، كالذي حكى لي صديق أنه رأى حجابًا قد وقع من ضيف كان نازلا عنده، ففتحه فلم يجد إلا ورقة من قصاصات إحدى الجرائد.



السيف والكلمة

حلمي محمد القاعود

[١]

■ «عماد الدين خليل» (١٩٣٩ - ٢٠٠٠) من مواليد مدينة «الموصل» الشامخة التى واجهت على مدار التاريخ أحداثًا كبرى، غيرت مسيرة الأحداث فى العراق كله، وهى اليوم تقوم بالدور ذاته فى مواجهة الغزو الاستعمارى المتوحش. وقد كتب عنها أعمالاً إنشائية عدة، فقد عمل فيها معظم الفترة الماضية من حياته، وكان أمينًا للمتحف الحضارى بها، وتركها منذ سنوات ليعمل فى بعض الدول العربية أستاذًا جامعيًا فى تخصصه الدقيق وهو تاريخ العصور الوسطى.

وتتوزع موهبة «عماد الدين خليل» بالكتابة فى التخصص، بالإضافة إلى الأنواع الأدبية الأخرى سردًا ونظمًا، فهو شاعر، وروائى، ومسرحى، وكاتب مقالة، وخاطرة، ومؤلف فى القضايا المعاصرة التى ترتبط بالإسلام والمسلمين من الناحية الحضارية.

وكانت له تجربة روائية، تمثلت فى روايته «الإعصار والمئذنة»، وقد صوّر من خلالها بعض ما مرّ به العراق من أحداث فى عهد «عبدالكريم قاسم»، ولأنها كانت التجربة الروائية الأولى المنشورة، فقد عانت من سلبيات التجارب الأولى، وبقيت لها إيجابية الفرض النبيل، وقد كتبت عنها دراسة مطوّلة ضمن كتابى «الرواية الإسلامية المعاصرة».

وتأتى رواية «السيف والكلمة»[1] لتغوص فى أعماق التاريخ، وتسجل سبقًا حقيقيًا فى التعبير عن محنة احتلال العراق على يد الغزاة الأمريكيين وحلفائهم فى الغرب الاستعمارى عام ٢٠٠٣م، من خلال استعادة ما جرى فى الغزو المغولى الذى أسقط الخلافة الإسلامية فى بغداد عام ٦٥٦هـ. إنه لم يشر بكلمة واحدة إلى الغزو الراهن، ولكن كل سطر فى الرواية يذكّر به ويعلن عنه ويشير إليه، بل إن العنوان (السيف والكلمة)، والاقتباس الذى وضعه فى مفتتح السرد للناقد الإيطالى «بندتو كروتشة» (التاريخ كله تاريخ معاصر)، يؤكد على حضور الغزو الوحشى الجديد بأبعاده الإجرامية التى عرفها أهل بغداد فى القرن السابع الهجرى، مع الفارق فى وسائل الوحشية وأساليب المتوحشين.. ومجىء الرواية فى السياق التاريخى كان أكثر نجاعة وتوفيقًا فى معالجة الواقع الراهن، بل أكثر تأثيرًا أيضًا!

لقد اختار الكاتب ثنائية «السيف والكلمة» مرتكزًا لإنشائه الروائى، انطلاقًا من أهميتها، بوصفها مقابلاً لما جرى فى عصرنا من ثنائية (القوة والدعاية)، قوة الدولة الكبرى الساحقة، ودعاياتها الضخمة العريضة التى راوغت كثيرًا من الناس وخدعتهم وورطتهم فى تأييد الجريمة والرضا بها، بل والمساعدة عليها، دون إدراك لعواقبها الكارثية التى تكشفت فى الأيام والأسابيع والشهور والسنوات التالية، حيث تحولت عاصمة الرشيد التى كانت مقصد العالم ومركزه المتحضر المتفوق فى العلوم والآداب والفنون والإدارة والتجارة والزراعة والصناعة. إنها مركز العلم وكفى، يتطلع إليها الناس فى كل مكان، لذا كان انكسارها انكسارًا للإنسانية كلها بأجمل قيمها وأخلاقها وطموحاتها الراقية، وكان انتصار الوحشية مثالاً لأحط ما أفرزه الإنسان من شرور وآثام وجرائم، حضت عليها شريعة «الياسا» المغولية، التى تتطابق مع شريعة «الديمقراطية» الأمريكية، فالمطابقة بين الشريعتين واضحة، حتى لو كانت كل منهما تجمل وجهها بوحدة البشرية، وضرورة إخضاعها لإملاء الشريعة القوية الغازية!

ومن ثم، يأتى الاقتباس عن «بندتو كروتشة» مصدقًا لتعبير الرواية عن الواقع الراهن، وإن كان من خلال التاريخ الذى لم يصرح بالأحداث الجارية «التاريخ كله تاريخ معاصر»، وهى أقوى من عبارة أخرى شائعة «التاريخ يعيد نفسه»، فالإعادة تعنى تكرارًا محتملاً، ولكن جملة «كروتشة» تفيد الاستمرار والمعاصرة، وعلى من يريد الاستفادة من الدرس أن يستفيد، فالقوة والدعاية تغريان بالوحشية والدم وتخريب الحضارة، ومن يعنيه الأمر يستطيع أن يستعد للمواجهة، وخاصة من خلال «الكلمة» وما تمثله من فكر ووعى ورؤية وتصور، وقبل ذلك من إيمان واعتقاد وروح، وهو ما جسدته «الرواية» التى سبحت فى عمق التاريخ قبل ثمانية قرون تقريبًا، لتكشف عن كنز «فنى» غنى، نمر عليه عبورًا عابرًا ولا يستوقفنا إلا نادرًا، ثم جاءت «السيف والكلمة» لتدهشنا باكتشافه عبر شخصياتها وأحداثها، وتقول لنا «التاريخ كله تاريخ معاصر»!

[٢]

ينهض بناء الرواية على فصول مرقمة (أربعين فصلاً)، تسردها أربع شخصيات، كل شخصية تحكى الأحداث من وجهة نظرها، وهى طريقة سردية لجأ إليها «نجيب محفوظ» فى «ثرثرة فوق النيل»، و«خيرى الذهبى» فى ثلاثية «التحولات»، حسيبة وفياض وهشام، وسلام أحمد إدريسو فى ثلاثية «العائدة».. والشخصيات الأربع فى «السيف والكلمة» تتناوب السرد، بضمير المتكلم والفعل المضارع، فى إشارة لا تخفى إلى مضمون «التاريخ كله تاريخ معاصر»، ويلاحظ أن فقرات السرد تبدأ بالمضارع: «تغرز»، «ألتفت»، «أرفع»، «أعوز».. ليصف ما يجرى من وقائع تبدأ من نهاية الرواية الدامية، حيث قُتل «سليمان» والد بطل الرواية «الوليد» بقطع رأسه بوشاية من خطيب أخته «عبدالعزيز» الذى انحاز إلى التتار الغزاة وتماهى معهم فى خيانة صريحة، فاقتحموا منزل «حنان» الخطيبة، وذبحوا والدها «سليمان»، وراحوا يبحثون عن شقيقها «الوليد» الذى ركب فرسه «الشهباء» وفر من قبضتهم متجهًا إلى فلسطين، وقد أخذ يحكى عن طريق «الاسترجاع» أو الارتداد الزمنى، الأحداث منذ بدايتها، مصورًا المكان والأصدقاء والناس والهول الذى صنعه المغول الغزاة حين دخلوا بغداد بعد أن ذبحوا الخليفة، والمدافعين عنها، والناس فى أرجائها المختلفة.

تبدو أحداث الرواية مرتبطة بأمرين، الأولى محاولة عبدالعزيز خطبة «حنان» من خلال زياراته المتكررة لوالدها «سليمان» صاحب المكتبة أو الوراق بلغة تلك الأيام، وكانت محلات الوراقين ملتقى لكل المعنيين بهموم العلم والمعرفة، وهم بحمد الله كثيرون، الأمر الآخر يرتبط بالأول، وهو الخوف من المجهول، أو الحديث عن غزو المغول وتوجههم نحو بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية!

وفى كل الأحوال، فإن نذر الفناء تطل كالشؤم من الأفق الشرقى، تلوح لها من بعيد، تدوم فى سمائها القريبة متوعدة بالويل. ما الذى سيحدث؟ إنه مجرد خبر قد يصدق وقد يكذب، وقد لا تكون المسألة كلها فى أقصى حالات الشؤم أكثر من هجمة موقوتة، أو حرب بين الخلافة وخصومها، وبعدها تتلاشى الهجمة، وتكف الحرب كعشرات، بل مئات غيرها، يبقى الحصن الذى تجذّر فى الأرض على مدى يزيد على القرون الخمسة، وفرح الناس ولعب الأطفال وعبث الصبية وكدح الآباء وحنان الأمهات.. يبقى المهرجان اليومى للمسرات والبهجة، استقبال الفجر الذى يطل على بغداد بألف وعد ووعد، ووداع الغروب الذى يلف دروبها وحاراتها وأسواقها بردائه الليلى الأملس فيدفئها ويحميها.. ولكنهم قادمون!



فى مثل تلك الأيام قبل ستة أعوام بالضبط اكتملت «دراما» سقوط بغداد. وهنا «رواية» تستحضر التاريخ لتغوص بنا فى «دراما» ماجرى.

المحـــرر



السيف والكلمة
عماد الدين خليل (رواية)
بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٧

هكذا تعيش بغداد فترة ما قبل الغزو الهمجي، بين الشك والأمل، بين الخوف والرجاء، وهنا يظهر معدن الإيمان، المؤمن الحق لا يحزن ولا يخاف، الحزن والخوف حالتان عابرتان، والحالة الوحيدة الباقية الدائمة القادرة على الامتداد طولاً وعرضاً وعمقاً، هى الإيمان.. قوة الروح.. الحقيقة الوحيدة الباقية وما عداها ظنون وظلال: ومن أجل ذلك كان المؤمنون فى العالم الوحيدين الذين لا يخافون ولا يحزنون.

تهيئ الرواية قارئها لما سيأتى من هول ورعب، وتتولى الشخصيات الروائية عرض المحنة التى تنقلنا من القرن السابع الهجرى - دون أن تقصد - إلى القرن الخامس عشر الهجرى، حيث تعيش بغداد محنتها الثانية، ومع ذلك فإنها تنظر إلى أعلى بنظرة مطمئنة تعلو على ما هو كائن تشبثاً بما سيكون.

النمل الأسود يعتصر التين والزيتون، الشائعات تتكلم عن زحف الجراد القادم من الشرق، ويوشك أن يأكل بغداد، وتتبدى المواقف على حقيقتها، الخائفون، المذعورون، الباردون كالجليد، المؤمنون بالقدر.. والمقاومة صفر، لا أحد من السكان يتصدى للغزاة بعد أن اجتازوا أرض الخلافة ووصلوا إلى جلولاء، وغاب جند الخلافة، وصارت هجماتهم على حافات العراق، والخليفة قاعد مستريح فى قصره، وبغداد تستقبل المهاجرين الخائفين من الشرق أفراداً وجماعات، ورسل «هولاكو» الذى لا يرحم، تترى على دار الخلافة فى ضغط واضح، لا يترك فرصة لالتقاط الأنفاس، ورسائله الموجهة إلى الخليفة تتضمن العتاب والتهديد.. والدعوة إلى الطاعة والحضور لمقابلته فى «مراغة»، وهدم حصون بغداد! ويختم إحدى رسائله قائلاً: «إننى متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد»!.

وتنقسم الحاشية على نفسها، فلم تستطع أن تقدم للخليفة يد العون، أو تمنحه الرأى السديد، لكى يضع الدفة فى الاتجاه الصحيح..

ابن العلقمى - الوزير - ينصح بالملاينة، والدفع بالمال، وكان قد جعل الخطبة والسكة تحملان اسم هولاكو!

أما الدويدار - قائد الجيش - فإنه يدعو للمقاومة والقبض على رسل هولاكو، وهذا يواصل رسائله ضاغطاً أكثر على أعصاب الخليفة!

يحاول الخليفة أن يردّ على «هولاكو» برسائل تهديد مماثلة، ولكن قيمتها صفر، لأنها بلا غطاء يجعلها صادقة، إنها تفتقد السلاح الذى يحمل الروح والقيم والمقدّسات!

وفى هذا الجو المشحون بالقلق والحزن لا يستطيع «عبدالعزيز وحنان» أن يقيما حفل القران، «عبدالعزيز» لا يعبأ بما يجرى، ولا يهتم بما يسميه دائماً «الشكليات» التى لا ضرورة لها، و«حنان» تعدها من مطالب الحياة الأساسية وأسبابها.. وتزداد الغيوم وتتكاثر، والأنباء لم تعد تسر، وصوت النذير لا يجد آذاناً مصغية من الخليفة ومساعديه، ولا يوجد ردّ فعل من أى نوع كان.. هناك ما هو أنكى: الاستخفاف بالتحدى والتحقير من شأنه.. وصل المغول إلى «كرمنشاه» واقتربوا من أقاليم العراق الشرقية، فأمر «الناصر» أن يقنت الناس فى الصلاة، فلما تبين أن القنوت الذى لا تسنده القوة لا يأتى بطائل، اكتفى بإرسال ثمانمائة جندى لإسناد التحالف الذى أقامته الموصل وأربيل والأيوبيون لمجابهة الغزاة..

الخليفة «المستعصم» الذى خلف «الناصر» يتميز بالغفلة وضعف الرأى، وعندما يذكر المغول فى مجلسه يجيب مطمئناً: إن بغداد تكفينى، ولا يستكثرونها علىّ إذا نزلت لهم عن باقى البلاد!! ونسى أن بغداد هى حلم المغول! وهى المطلوبة. ثم إن الخليفة قطع أرزاق الجند، فلحق بعضهم بالشام وآخرون بالمغول، وفئة ثالثة لجأت إلى ذلّ السؤال فى الجوامع والأسواق.

لم تُجْدِ محاولات الدويدار - الملقب بالصغير - فى حسم الموقف، بعد أن كاد يحقق انتصاراً خاطفاً ضد الغزاة، فقد دارت عليه الدائرة، وتمزق جيشه، وتدفق المغول على ضواحى بغداد. وبدأ بناء الدولة يتفكك، وارتفع صوت الاستغاثة من كل مكان، وتبلور موقف «عبدالعزيز» - خطيب حنان - فى الحرص على ذاته، وابتعاده عن المشاركة مع الآخرين فى مواجهة الهول، أو إنقاذ المركب الموشك على الغرق، وراح يفكر فى القفز للنجاة بنفسه.

استولى الرعب على ملامح أهل بغداد، وأعاد تشكيلها. دفعهم سيف العدو إلى نسيان قيم الصبر والمقاومة التى علمتهم إياها كلمات الله..

مائتا ألف مغولى أو يزيدون قوام الجيش الغازى، فيهم عدد من أمراء المسلمين أنفسهم، والمتطوعة، والنصارى القادمين من أعماق الشرق، والجورجيين الذين يملكون خبرة جيدة فى تسلق الأسوار..

استشهد عدد كبير من أهل بغداد وعلمائها ومقاوميها.. اهتزت رءوس.. سُلِخَت جلود.. تفحمت جثث.. قطعت أوصال، والمذبحة ماضية إلى غايتها.. كان الغزاة يعرفون أن امتلاك بغداد يعنى أنهم كسروا رقبة عالم الإسلام على امتداده، وأن الطريق أصبح أمامهم مفتوحاً إلى آخر مدى. لم



يكن صراعاً متكافئاً بأى معيار. معنى الطاغوت المغولى يحصد الرءوس هنا وهناك. منجله الحاد كان يجول فى دروب الكرخ وأزقتها وعند أسوار الرصافة وأبراجها، فلا يُبقى عنقاً يخفق بالحياة، تكدست الجثث فى كل مكان، ولفحت روائحها الأنفاس.. تحوّل الكرخ إلى مقبرة يخيم عليها السكون، والذين بقوا فى دورهم كانوا أشباحاً لا تملك دماً أو لحماً.. استنزف الخوف والجوع وانتظار المجهول آخر ما فيها من حياة. أحكم الغزاة قبضتهم على بغداد، ويستعدون للرجوع إلى شريعة القتل كرة أخرى، القدر المغولى متوقع فى أية لحظة. العهود عندهم لا تعنى شيئاً على الإطلاق، تلك مسيرتهم الدموية الطويلة من أعماق التركستان حتى أسوار بغداد!

ومع ذلك كان ابن العلقمى يسعى لمقابلة هولاكو، أملاً فى إقناعه بالتوصل إلى صلح مقبول من الطرفين، وكان ينادى فى طريقه إلى الباب الوسطانى أهل بغداد الذين اختاروا المقاومة لقوة تفوقهم كثيراً: سوف يقع الصلح إن شاء الله، فلا تحاربوا! ولكن لم يلتفت إليه أحد.. فالأمان المغولى لا يصدقه أحد، وما هؤلاء الساعون إلى الصلح مع الغزاة إلا أدوات لتمرير اللعبة الدموية النادرة، وتفريغ قاعدة الخلافة من بقايا قوتها للإجهاز عليها..

بعد يوم واحد من إعلان الأمان، قتل «هولاكو» الدويدار قائد الجيش وسبعمائة من كبار رجال الدولة، واستسلم له الخليفة الذى خرج وأبناؤه الثلاثة مع المئات من سادات بغداد وأئمتها وأعيانها، اعتقاداً بأن «هولاكو» سيفى بوعده، ولكنه قتلهم جميعاً!

كان «عبدالعزيز» فى هذا الهول مشغولاً بنفسه، وبأحلامه ليأخذ مكاناً فى «المستنصرية» أكبر جامعات العالم يومئذ، ويتقرب أكثر من الغزاة، وكان القلق يتسرب إلى خطيبته، والشك يتحول إلى شبه يقين لدى والدها سليمان وشقيقها الوليد، الذى أخذ مع رفاقه من الشباب يفكرون فى المقاومة، والعمل المنظم ضد جيش الهمج الذين استباحوا بغداد وأهلها وحضارتها.. وكانت مقاومة الشيخ «الصرصرى» الضرير، إيذاناً بالمقاومة، لقد منح «هولاكو» الأمان لإحدى الدور التى دُعى إليها الشيخ، فأبى أن يستجيب للدعوة، وأعد فى داره أكواماً من الحجارة، وحين دخل عليه المغول: راح يرشقهم بها، حتى إذا ما خلصوا إليه قتلوه، رحمه الله. وفى المقابل كان عدد من العلماء أكرهوا على الإفتاء بتفضيل السلطان الكافر العادل على السلطان المسلم الجائر!



اختار الكاتب ثنائية «السيف والكلمة» مرتكزاً لإنشائه الروائى، بوصفها مقابلاً لما جرى فى عصرنا من ثنائية «القوة والدعاية»

عاد الوزير ابن العلقمى إلى منصبه بعد المجزرة! وأصدر هولاكو مرسوماً بتعيين «على بهادر» شحنة لبغداد، يعاونه اثنان من المغول للعمل على إعادة الحياة الطبيعية إلى بغداد، وبدأ تجنيد العلماء ضعفاء النفوس للعمل فى ماكينة الغزاة! وتعددت صور الغدر المغولى، وتوهجت شريعة القتل «الياسا»..

فى المقابل، كان هناك علماء أفذاذ، يوجهون المقاومة، ويرسمون الطريق للشباب المجاهد.. رعدة الخوف إذا عرفت كيف تتسرب إلى مفاصل العدو، وحدها يمكن أن تعين المجاهدين على قتلهم فى وضح النهار، المهم السيطرة على النفس وعدم الاستسلام لإغراءات الفداء التى لا تقاوم بنداءات الثأر الدفين، لابد من إعمال العقل وتحويل العمل الفدائى إلى معارك رياضية تنطوى على الرقم الصحيح.. خلخلة البنيان والقدرة على الاستمرار، وتوزيع الشهداء فى صبر وسكينة وإيمان..

تتوتر العلاقة بين حنان وعبدالعزيز. حنان تعاتب الزمن المغولى، وعبدالعزيز فى أثر المغول يسعى.. ولابد من فهم هذه العلاقة والتحرر من قبضتها وفقاً لما توصلت إليه حنان بعد عذابات التفكير والألم، ثم إنها ترفع عن كاهل والدها الحرج بإنهاء ارتباطها بعبدالعزيز الذى يحلم أن يكون رجل «المستنصرية» الأول، وعالمها الفذ!

المقاومون يرشحون وجودهم، إذ قدرت بغداد أن تسترد شيئاً من الدين، وتستعيد شيئاً من أفراحها الضائعة، وتحلم باليوم الذى تتطهر فيه من الرجس المغولى، وتعبر أنهار الحزن والوجع التى تتدفق فى شرايينها، فإن من حق «حنان» أن تخرج من دائرة العذاب. لقد بدأ الأمل على كل حال، وبدأت المقاومة تحصد رءوس القتلة، وأخذ الرعب يسيطر على قادتهم وأفرادهم.. ولكن الخونة عبروا عن انزعاجهم وخوفهم بالوشاية والغدر.. وكان «عبدالعزيز» فى طليعتهم، حيث استقدم الغزاة إلى بيت «سليمان» والد خطيبته، ليقطعوا رأسه، ولم يهتز له جفن، فقد صعد درجات السلم فى المستنصرية بسرعة شديدة، بفضل الخيانة، ونسى أساتذته الذين اغتالتهم خناجر المغول، وشردهم فى الأرض حرصهم المشروع على أمانة الكلمة، ورفضهم أن يكونوا أدوات يلعب بها «هولاكو».

لقد كان لعبدالعزيز - مثل كل الخونة - أسبابه التى يرفعها فى وجوه من يرفضون مسلكه الانتهازى، وحجته التى يعلنها دائماً، وهى ألا تترك المستنصرية للغرباء، وأن العرفان وحده هو البدء والمنتهى، ونسى أن المعرفة التى لا تستهدى بضوابط القيم الخلقية ومعايير الإيمان الوضىء، شرّ مستطير. إن العلم الذى يدل على الله هو السبيل إليه، أما العلم الذى لا يدل عليه فهو حجاب فاتن، أو حصان جموح يصعب على صاحبه أن يهيمن عليه أو يقوده عبر الطريق الذى يريد.. إنه يحجبه عن الصراط، ويضيعه فى المتاهات.

وكانت النهاية الدامية التى أودت بسليمان، والد خطيبته، وهروب الوليد إلى فلسطين بعد أن وشى به، وانطلاق المقاومة ضد الغزاة وترسخها، وضياع الخائن المثقف وتماهيه مع الأعداء وتبنيه لمقولاتهم وأفكارهم، صورة لما يجرى على أرض العراق اليوم، وما جرى فى بغداد عاصمة العالم فى القرن السابع الهجرى.

البناء الروائى، جاء دائرياً، بدأ من النهاية وانتهى إليها، كأنه يحقق مقولة «كروتشة» (التاريخ كله تاريخ معاصر)، فهو - أى التاريخ - لا يعيد نفسه، بقدر ما يدور ويلف، ويكرر نفسه فى دورات متتالية تفرض على أهل المعرفة أن يستفيدوا من التاريخ، لأن الأحداث الراهنة تاريخ معاصر بأشخاصه وأحداثه وإن تغير المكان والزمان، والأسماء والمواقف.

[٣]

بغداد، هى المكان القديم الذى جرت فيه أحداث الرواية، وهى المكان الجديد الذى أشار إليه «كروتشة»، ولم يصرح به، بحكم أن التاريخ كله تاريخ معاصر، ويمكن أن تكون بغداد هى القدس المحتلة، وهى رام الله المحتلة، وهى غزة المحتلة، وهى كابول المحتلة، وهى كل بلد عربى أو إسلامى تتحكم فيه قوات «المغول» الجدد، أو التتار الهمج الذين يرفعون شريعة «إلياسا» فى صور أخرى مزيفة، مثل الحرية، الديمقراطية، الحضارة، العدالة..

بغداد هى المكان الروائى الذى بسطته الرواية لتكشف عن ثرائه وغناه بالأحياء الراقية، والخضرة والبساتين والمتنزهات والبيوت الجميلة والجسور القوية والمساجد العامرة التى هى فى الحقيقة تتجاوز مهمة العبادة والصلاة والدعاء إلى مهمتها الحضارية الكبرى التعليم والدرس والبحث والمعرفة.. إنها مدارس وجامعات كبرى يحلم بها الناس فى شتى أرجاء الأرض أن تكون متحققة فى بلادهم وعواصمهم.. من الرصافة إلى الكرخ، إلى محلة قصر عيسى، إلى المستنصرية، إلى جامع الشيخ الجيلانى، والدجيل والإسحاقى ونهر ملك ونهر عيسى وباب البصرة وباب الحلبة وكلوازى والبصلية وسوق الخيل وسوق السلطان وسوق الثلاثاء والبدرية والمقتدرية والرحبة ومقابر قريش وباب الطاق والإمام الأعظم، إلى دار القرآن.. معالم بغداد تمثل تعبيراً عن عشق المكان فى الرواية، والصدمة المروعة بسبب ما أصابه على يد الغزاة الهمج، وما خلفوه من دم ودمار وروائح كريهة، جعلته قبراً مفتوحاً، بعد أن كان رمزاً للحياة والجمال والمعرفة والقوة التى تحمى الحضارة.

بغداد عاصمة العالم آنئذ، كانت مسرح الأحداث الروائى بحكم التركيز عليها من جانب الغزاة الهمج، فقد كانوا يطمحون إلى كسر رقبتها - كما سبقت الإشارة - ليكسروا رقبة العالم الإسلامى كله، وقد نجحوا فى ذلك، بفضل قوتهم، وضعف الخلافة، وخيانة «المثقفين» بلغة زماننا، أو أهل العلم بلغة الزمان القديم.

كانت بغداد أغنية روائية حزينة ظلت ترددها الرواية على مدى صفحاتها الممتدة، ولم نر بجوارها إلا الصحراء ذات الصخور السوداء القاتلة، التى كان يعبرها الوليد بفرسه الشهباء هرباً من القتل الذى جلبته الخيانة، وتحيزاً لاستئناف المقاومة، وبقيت بغداد المكان الذى ينتظر أن يستعيد الخضرة والبهاء والجمال والمعرفة والحرية الحقيقية..

أما الزمان، فهو التأريخ الذى يظل



معاصراً.. تاريخ أمة تصعد بالإيمان والعلم والقوة والتضحيات، وتهبط بنقيض هذه الأمور أو اختلالها، ولا يجدى واحد منها، ولو كان العقل فى استقامة الحياة ورخائها، فالعقل عنصر واحد، تنعدم جدواه إذا غيب الإيمان أو حجبه عن العمل، ولذا كان القرن السابع الهجرى وعاءً زمنياً تجمعت فيه عوامل الضعف والانهيار والهزيمة: قيادة بائسة مشغولة بلذاتها، لا تفكر إلا فى نفسها والكرسى الذى تجلس عليه، ولو بقيت بغداد وحدها، فإنها تكفى الجالس وتشبع شبقه إلى الحكم، ولو كان فى ظل الأعداء، أعداء الأمة وأعداء الدين وأعداء الإنسانية، ثم بطانة منقسمة على ذاتها بين خائن يبحث عن مصالحه الذاتية ومنافعه الشخصية، وعاجز لا يستطيع أن يأخذ موقفاً ناضجاً، أو يعد العدة لمواجهة الأعداء. ثم نخبة تصورت أن «العلم» هو كل شىء، دون أن تنظر إلى ما وراءه، فاندفعت تبحث عن إشباع ذاتى لأحلام صغيرة لا تصنع مجداً ولا بطولة، فى الوقت الذى غابت فيه النخب الحقيقية عن الميدان، قهراً وقسراً وإن كانت لم تبخل بحياتها وعطائها فى سبيل الله والوطن، وتعاملت مع جماهير الأمة بما يجب، فقدمت التضحيات بالدم والمال، وكانت قدوة وإماماً، وشاركت بالنصح والإرشاد، فوضعت النقاط على الحروف، حتى لا تسقط الأمة من حالها وتضيع فى عالم البهتان الذى تصنعه النخبة الخائنة!

زمان الرواية فى القرن السابع الهجرى، كان حافلاً بلغة هذا القرن المادية والمعنوية، ونظمه وعاداته، وتقاليده وعلاقاته.. نرى ذلك فى شكل البيوت والمتاجر والشوارع والأزقة والبستان والجسور والمراكب، والأفراح والأحزان والمساجد والمدارس، والمأكولات والمشروبات، بالوصف أو الأسماء.. كانت الرواية وفية لزمانها، وإن كانت تومئ إلى زماننا فى مضمونها وجوهرها.

بيد أن الزمان الروائى الذى استغرقته الأحداث، يبدو محدوداً برحلة «الوليد» من بغداد إلى فلسطين، وهو فوق فرسه الشهباء هارباً من الموت المغولى. كان زماناً قصيراً، ولكن الاسترجاع أتاح له فرصة التمدد ليبدأ من أول وصول أخبار الاجتياح المغولى للحدود الشرقية فى بلاد الخلافة الإسلامية، حيث تركستان، حتى وصل إلى بغداد وكسر رقبتها، وبالتالى رقبة العالم الإسلامى كله، وأخضعه لإدارة «الياسا» أو شريعة الشر التى وضعها التتار الهمج، وطبقوها على بغداد مركز الحضارة فى العالم، فقتلوا البشر ودمروا الحجر، وملأوا دجلة بخلاصة ما وصل إليه العقل البشرى آنئذ من معرفة وفكر وثقافة، حيث ذابت صفحات الكتب مع المياه الجارية التى اكتظت بآلاف، بل بمئات الآلاف من الكتب والرسائل فى شتى فروع العلم والآداب.

يمكن أن تكون بغداد هى القدس المحتلة، وهى رام الله المحتلة، وهى كابول المحتلة، وهى كل بلد تتحكم فيه قوات «المغول» الجدد، الذين يرفعون شريعة «الياسا» فى صور أخرى مزيفة، مثل الحرية، الديمقراطية، الحضارة، العدالة



كان «الوليد» وهو هارب من الموت المجانى، يحكى عن بغداد منذ كان طالباً مع عبدالعزيز فى المستنصرية، ويتحدث عن أساتذته وأسرته وأصدقائه، إلى أن جاء الموت الهائج الذى يستبيح كل شىء فى طريقه، وطوى بغداد تحت جناحيه، واستعان بالنخبة الخائنة، وبدا أن الأمر استتب له، ولكن هيهات، فقد بدأت المقاومة تقض مضجعه، وتربك خططه، وتخلخل مفاصله، مع فداحة الثمن الذى دفعه «سليمان» والد «الوليد» وأخته وأمه، فضلاً عن علماء مجاهدين وأبطال مجهولين، وشعب أخطأ فى حقه حكامه ومسئولوه.

انتهى الزمان الروائى بوصول «الوليد» إلى بر النجاة، حيث فلسطين، وفيها لن يتعقبه الغزاة، ولكنه لم يقل لنا شيئاً بعدئذ عن مصير الغزو الذى تقرر فوق أرض فلسطين. كما يقول التاريخ. عندما نهضت مصر بقيادة قطز، وحسمت المسألة فى «عين جالوت» وقهرت «الهمج»، وأعادتهم من حيث أتوا إلى بلاد التتار، مهزومين مقهورين، ونزعت منهم الهمجية بعد أن تعرفوا إلى الإسلام ودخل كثير منهم إلى رحابه الإنسانية المشرقة.

[٤]

هل يمكن القول إن شخصيات الرواية فى مجموعها جاهزة بسلوكها وصفاتها وتكوينها، ولا تتطور أو تتغير؟

يمكن ذلك إلى حد كبير.. معظم الشخصيات تقدم نفسها من خلال الرواية ذات موقف واضح ومعروف، ويصعب التنبؤ بتغيره أو تحوله.. باستثناء «عبدالعزيز» الذى طغت عليه «أنانيته» و«أحلامه»، فانحاز لمعسكر العدو الهمجى طمعاً فى قيادة المدرسة أو جامعة «المستنصرية».

نتعرف على «الوليد» شاباً مسلماً يدرس فى «المستنصرية»، يتشرب العلم بذكاء واضح، وحيوية فائقة، يبكر فى الحضور إلى حلقة العلم، ولا يدع درساً واحداً يفوته مهما كانت الظروف، يؤمن أن العلم ليس هو كل شىء، هناك أمور أخرى لا تقل عنه أهمية. مع الكلمة يمكن أن يحيا الإنسان، وعلينا أن نمنح حياتنا طعوماً ومذاقات أخرى، وكل عذب حلال! الوليد يمارس ألعاب الفروسية ويكتسح خصومه فى سباق الخيل، ويرمى فيصيب الهدف. ويرى كل خبرة جهداً معرفياً بمعنى من المعانى. إنه لم ينس أشواق الروح ولم يهمل مطالب الحس والوجدان.

علاقته بزميله عبدالعزيز كانت مؤثرة وخطيرة، لأنها كانت تخترق حصونه التى تمترس فيها وعاش فيها للعلم ونفسه فحسب. قدمه إلى أبيه، وساعد فى خطبته إلى أخته، ولكنه كان يراه عالماً مغلقاً على ذاته، وكان يخوض معه جدلاً متواصلاً، ولكنه جدل عذب. وكان الوليد بالنسبة له حجر القدح الذى يشعل النار فى الأشياء الجافة..

لم يستطع الوليد أن ينقل عبدالعزيز من عالمه المغلق إلى عالم الانفتاح والعطاء والمقاومة.. فكان البعاد والبرود، وأسهم الوليد فى جماعات الجهاد التى أقضت مضجع الغزاة الهمج، وكان يغيب عن بيته بالأيام والأسابيع، ولكنه كان باراً بوالديه، وأخته «حنان».. إلى أن وقعت الواقعة بين عبدالعزيز وحنان، حيث تحررت منه وفسخت خطوبتها، فكان الانتقام بالوشاية إلى المغول، الذين قطعوا رأس الوالد «سليمان»، وبحثوا عن «الوليد» ليقطعوا رأسه هو الآخر، وجدوا فى أثره، ولكنه كان أسرع منهم وركب الشهباء، وانطلق إلى أرض فلسطين.

كان «الوليد» قد أحس خيانة «عبدالعزيز» قبل استشهاد والده وهروبه، وحاول بعض رفاقه أن يتخلصوا منه بإعدامه جزاء الخيانة، ولكن «الوليد» رفض، ومع ذلك لم يسلم من وشايته وتآمره الرخيص.

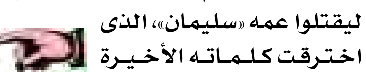
شخصية الوليد، نراها من الخارج، غالباً. وإذا رأيناها من الداخل، فهى مشغولة ببغداد وما يجرى لها، لا نرى فيها أشواق الشباب للجنس الآخر، ولا الرغبة فى الزواج، وكأنها قدت من «المثالية» المفرطة التى لا تبصر غير الوطن، ولا تحيا خارجه، وإن كانت تتوحد مع الحيوان، فتلمس فيه المشاركة أو الإحساس المشترك، وكانت فرسه الشهباء، مثالاً على هذا التوحد والتفانى فى الصداقة.. كأنها فرس عنترة التى تنظر إليه «بعبرة وتحمحم»، وتشاركه أفراحه وأحزانه جميعاً، وتحتمل فى سبيله المتاعب والمشقات.

أما «عبدالعزيز» وسبقت الإشارة إلى بعض ملامحه، فهو النقيض الذى يضن على الوطن وخدمة الدين، وإن كان يتفانى فى محراب العلم والمعرفة. يملك طموحاً يبلغ حافات الهوس، يريد أن يصير واحداً من علماء «المستنصرية» المشاهير. ألف إحساس يجتاحه وهو يتعامل مع الكلمة عندما يقولها الأستاذ أو يقرؤها فى كتاب. يرى أساتذته وقد ذابوا وجداً فى المحبة للعلم، مثل المتصوفة، إنه الوجدان البشرى، كينونة الإنسان كلها هى التى تتعلم، وتقرأ، وتعرف، وتقول، وتحلل، وتصير.. إنها المعرفة الصافية النقية المتألقة كالبللور الخالية من كل كدر أو شائبة والمحمولة إلى الإنسان بقوة الكلمة، الكلمة آنئذ كانت هى التى تطعم وتسقى، وتسخو بالملذات!

تأثر عبدالعزيز بصديقه الوليد، ولكنه لم ينسجم مع منهجه، وظل يدور فى دائرة «المعرفة» التى تزوجها، وصارت «ضرة» لخطيبته «حنان». إنه يعانى من الإحساس المبالغ فيه بالذات، ومن أجل تأكيد هذا الإحساس، وتغذيته مضى مسرعاً صوب هدف بعيد مستهدياً بقوة العقل وحده، محاولاً أن يختزل حيثيات الزمان والمكان، وأن يصل.. فلما أوشك على الوصول. فيما خيل إليه. اندلع الحريق لكى يلتهم كل شىء.. وها هو الآن يتشبث بالمحاولة لعله يصل!

بعد الفاجعة، وسقوط بغداد، وإحكام سيطرة الغزاة عليها، استخدموه ليملأ الفراغ فى المستنصرية، وحاول أن يوفر الكتب والأسفار.. ولكن أحد الطلاب صاح فى وجهه: لقد أحرقوها!

قطع «عبدالعزيز» كل الحبال التى تصل بأصدقائه ومعارفه، فضلاً عن خطيبته «حنان» وأسرتها، فتماهى مع الأعداء، ومنحهم سر «الوليد»، وجاء بهم ليقتلوا عمه «سليمان»، الذى اخترق كلماته الأخيرة





ذاكرته كالسكين التى احتزت رقبته: «الحرف فج من فجاج إبليس.. الكذب كله لغة سواى، والحق لغتى.. علم يدل علىّ هو السبيل إلىّ.. علم لا يدلّ علىّ هو الحجاب الفاتن.. تتعلم العلم تباهى به العلماء وتمارس السفهاء وتجتاز المجالس وتصيب الدنيا.. النار.. النار» (ص ٢٩٢).

ويصل به المطاف، إلى الباب الوسطانى، حيث «هولاكو» العظيم - من وجهة نظره - الذى سيحقق له الحلم، بقيادة المستنصرية، وقبض الثمن الذى يستحق.. ولكنه لا يجد غير رعدة الخوف والوحشة والظلمة والمجهول!

«سليمان» والد «الوليد» صاحب محل الوراقة، أى الكتب، محب للحكمة ومخالطة الكتّاب والمؤلفين والعلماء. الكلمة تجارته، ولكنها الكلمة الحلال الموصولة بالله، والقيم، والأخلاق، والمعرفة. والكتاب بالنسبة له هو المحيا والممات والطعام والشراب، يرتبط بالشيخ عبدالقادر الجيلانى، ويتأثر بلغة الصوفية. يضنيه القلق من زحف التتار، ويذهب ضحية له حين يطبقون على بغداد. بدا غير مستريح لعبدالعزيز، حتى حررته ابنته من التزامه بزواجها. أذهله انقلاب «عبدالعزيز» على العقل فى اتجاه مغاير تماماً بعد أن اجتاز حقول العرفان التى انطوى عليها العلم البشرى كله، انسلخ تماماً عن كل ما تعلمه فى سنوات طويلة، وعاد إلى نقطة الصفر، بل إلى ما دونها، حيث تصير كل معطيات العقل ومواصفاته حطاماً، إنه يتذكر تعاليم شيخه:

«إذا جاء القلم ليقول اتبعنى فأنا عندى العلم، واسمع منى فأنا الذى أسطر الأسرار، وسلّم إلىّ فلن تجاوزنى ولن تدركنى...» ص ٣٠٣.

ومع ذلك كان يتمنى أن يعود «عبدالعزيز» إلى رشده، ولكن أمنيته لا تتحقق، لأن «عبدالعزيز» كان قد فارق العلم وبغداد والأمانة إلى غير رجعة.

وتمثل «حنان» صورة الفتاة المؤمنة فى ظل دولة الخلافة. إنها تقرأ وتطالع مثل أبيها. القراءة متعتها الغالية، القراءة تعرش فى حنايا عقلها ووجدانها، ليس لأن والدها يملك حانوتاً للوراقة فى سوق الكتب، ولكن لأنه هو الآخر قارئ ممتاز تجرى الكلمة فى عروقه، وكان صمام الأمان بالنسبة لها، وقد طلب منها أن تمنح عبدالعزيز الفرصة ليواصل طريقه مع «المعرفة» وتعينه عليها، حيث يغدو طموحه جزءاً من طموحها، ويتوحدان فى ساحة الكلمة، ولن يكون بعدها ثمة مشكلة، أو سوء تفاهم على الإطلاق!

ولكن سوء التفاهم حدث، عبدالعزيز تزوج «المعرفة»، وانحاز للغزاة الهمج ضد



بفضل قوتهم، وضعف الخلافة، وخيانة «المثقفين» بلغة زماننا، أو أهل العلم بلغة الزمان القديم. نجح الغزاة فى كسر «العاصمة»، ليكسروا رقبة العالم الإسلامي كله

أهله وقومه.. مما ترتب عليه أن تحرر والدها من التزامه تجاهه.. وكان عليها أن ترى رأس أبيها «سليمان» يتدحرج أمامها حين أتى «عبدالعزيز» بالمغول إلى بيتها، يقطعون رقبته ويطاردون أخاها «الوليد»..

«حنان» صفحة تنعكس عليها أحداث الخارج، وتمثل نضج المرأة فى مواجهة الأحداث الصعبة التى تمر بها الأسرة الصغيرة، وتدبر مع أمها أحوال البيت مهما بدت الأمور صعبة وقاسية.

وإذا كان الوليد نموذج الشخصية المقاومة النموذجية، وعبدالعزيز يمثل خيانة المثقف فى سبيل طموحه الشخصى، فهناك شخصيات أخرى ثانوية، تنقسم إلى النوعين أيضاً، فريق مقاوم، وآخر خائن أو مستسلم، وفى كل نوع أعداد لا تحصى، ولكن الأخطر من كل ذلك هو غياب الجماهير، أو غياب المؤمنين.. الحلقة التى تم إغفالها فى مواجهة المخاوف والهزائم والتحديات..!! فأين جماهير المؤمنين الذين يزحمون طرقات بغداد، وأسواقها، ومدارسها، وأحياءها، وبيوتها، ونواديها ؟ أين الجموع الحاشدة التى تتدفق ظهيرة كل يوم جمعة إلى الجوامع لكى تسمع وترى وتعرف، وتتزود بالوقود ؟ أين الذين يلتقون على صفحات كتاب الله كل يوم، ولو لدقائق معدودات، ربما يمنحهم الطمأنينة والثقة والأمل، وبما يحفزهم على حماية الذات من التآكل والفناء، والسعى لتشكيل المصير الذى يليق بشرف الإنسان المسلم وكرامته ؟» (ص ٨١).

وكأن الرواية تدرك أن الجماهير تحتاج إلى قيادة وتوجيه وقدوة، فهناك كثيرون ينتظرون الإشارة للبدء فى المقاومة، وهم على استعداد للصبر، وللعمل بمجرد رؤية القيادة الصادقة، والتضامن من أجل إنقاذ المركب من الغرق، على الأقل حماية ما يمكن حمايته من الرقاب، من ملايين الأسماك الجائعة التى تنتظرهم فى القاع.. ولحظة أن يصير الفداء متعة وضماناً، نكون قد وضعنا خطواتنا فى الطريق الصحيح، كما يرى الوليد!

وإذا كان هناك من يمثل جانب الخيانة والملاينة وخدمة العدو بالتجسس، مثل ابن العلقمى وعبدالعزيز ونصير الدين الطوسى وعلى بهادر، وغيرهم، فإن الأمة لا تخلو أبداً من العلماء العاملين الذين يقدمون القدوة والتضحيات والأمل، هذا هو الشيخ الصرصرى العجوز الذى استشهد وهو يقاتل العدو بقذف الحجارة وظهره إلى الحائط، وهنالك حسان البطائحى وقطب الدين الحداد وصفى الدين الحرانى، وفرق المقاومة التى يتزعم الوليد بعضها.. إنها شخصيات تربت على قوة الروح وشحذ السلاح الذى يحمى الناس والقيم والمقدسات.

وفى كل الأحوال، تبقى تربية الجماهير فى القاعدة العريضة (المستوى الشعبى) ضرورة للتصدى للعدوان- أياً كان - ومواجهة الغزاة بصورة تلقائية وعفوية.

[٥]

فى هذه الرواية مضمون جديد، ولغة جديدة..

لقد جعلت من قضية الفكر والثقافة والمثقفين موضوعاً أساسياً، تدور من خلاله الأحداث. كانت بغداد فى أوج ازدهارها منارة العلم فى العالم، وكانت الأمية لا وجود لها، الرجال والنساء يعرفون القراءة والكتابة، ويناقشون شتى القضايا الأدبية والفكرية، وقد سجلت كتب التاريخ فى عهد الرشيد أن بغداد لم يكن بها أمىّ أو أمّية. واختيار هذا الجو الثقافى لمعالجة قضية الغزو الهمجى الذى أهلك الحرث والنسل، وملأ دجلة بالكتب والمخطوطات لم يأت عفواً أو اعتباطاً، ولكنه جاء ليقرر حقيقة الصراع بين الحضارة الإنسانية التى صنعها الإسلام، والهمجية الوثنية التى تدمر كل شىء وفقاً لشريعة «إلياسا» أو الهيمنة بمفهومنا المعاصر، ولابد لحماية الحضارة من القوة الواعية المؤمنة التى تملكها القيادة، والجماهير جميعاً.

وليس معنى الاهتمام بالمجال الفكرى إهمال الجوانب المادية، فالرواية تشير إلى ضرورة الإعداد الشامل والاكتفاء الذاتى، لضمان الاستمرار فى مجابهة السيف المغولى، فالجوع يمنع الجماهير من أداء مهمتها فى الدفاع عن النفس أمام الموت، وإذا كانت وحشية التتار تجعلهم يحرقون الغلال الزائدة عن حاجتهم كى لا يتسرب منها شىء إلى الناس، فالواجب يقضى أن يكون لدى الناس، ما يمنعهم من الاحتياج للغزاة أو غيرهم.

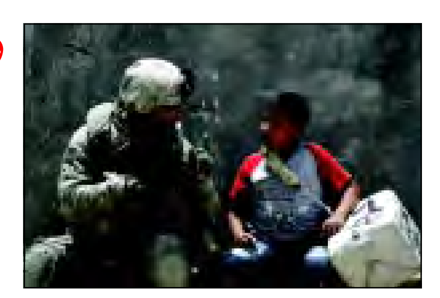
ولعل هذا المجال كان من وراء الصياغة اللغوية الراقية التى اقتربت من الشعر فى عديد من المواضع، واحتضنت لغة صوفية تعبيرية فى معظم الصفحات. ومع امتياز هذه الخاصية فى الرواية، إلا أنها جاءت فى مستوى واحد تقريباً، فلا تستطيع أن تميز بين لغة المثقف عالى الثقافة، والشخص العادى محدود الثقافة، ولعل انتماء معظم الشخصيات إلى المجال الفكرى كان من وراء هذا المستوى اللغوى الواحد.

كان «سليمان» والد «الوليد» ييمم شطراً مع الشيخ «عبدالقادر الجيلانى»، فى رحابه يجد العزاء والسلوى، ويجد فى كلماته ما يهون عليه منغصات الخوف والحزن والألم، وتجرى بينهما لغة التصوف المتسامية، يخاطبه قائلاً:

«السماح السماح يا شيخى.. لقد قرأت كتبك كلها وعشت كلماتك حرفاً حرفاً.. وأنا أعرف جيداً ما أردت أن تقوله. إن مغزى مصنفاتك كلها، وجوهر تعابيرك المشتعلة كالجمر. كان يرسم كلمتين أردت بهما أن تحررنا وأن تمضى بنا خفافاً، ونحن نتلقى دفء التعاليم: لا تحزنوا! فما ثمة فى عالم الفناء ما يدعو للحزن. لا تخافوا، فالذى يأوى إلى كنف الله.. مم يخاف؟ «أنت منى، أنت تلينى، وكل شىء فى الوجود يأتى بعدك.. لا شىء يقدر عليك إذا عرفت مقامك، فأنت أقوى من الأرض والسماء.. أقوى من الحروف والأسماء» (ص ٢٧).

وتتناثر هنا وهناك عبارات صوفية شهيرة من قبيل «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»، «الحرف يعجز أن يخبر عن نفسه فكيف يخبر عنى ؟»، «ألق العبارة وراء ظهرك، وألق المعنى وراء العبارة، وادخل إلىّ وحدك ترنى وحدى»، «أنا الله لا تحيط بى الحروف، ولا تستوعبنى الكلمات»... (ص ٣٠).

وتستفيد لغة الرواية صوفية أو عادية بالآيات القرآنية، وتستلهمها فى السياق





بغداد، هي المكان القديم الذي جرت فيه أحداث الرواية، وهي المكان الجديد الذي أشار إليه «كروتشة»، ولم يصرح به

السردى بصورة مشعة ومضيئة. فى رحلته عبر الصحراء حيث الوحدة والخوف، يشعر الوليد أنه بحاجة إلى كلمات أبيه، فيصفها بالقناديل «التى تنير الطريق للمحزونين والخائفين والمدلجين فى الظلمات.. لا أدرى مم كان يستمد زيتها العلوى، لكننى كنت متيقنًا من أن لهبها الصافى كالبللور، لا يمكن أن تكدره هباءة من دخان، وأنه مستمد من هناك.. من فوق.. من الكوكب الدرى السابح فى أعماق السموات.. من الشجرة المباركة التى تعلو على التحيز للمشارق والمغارب..» (٥٦)، والفقرة متأثرة بالآية الكريمة المعروفة: «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم» (النور: الآية ٣٥).

ويصف الوليد أمان المغول الخادع الذى منحوه لأهل بغداد، فيقول: «إنهم دائمًا يمنحون المدن المذبوحة أمانين.. ودائمًا كان أمانهم الأول مضللاً كحرباء مجربة تعرف كيف تختار اللون الذى تضيع فيه على الآخرين، ثم ما تلبث أن تنفث سمها.. هذه المرة يستوى الجميع قبالة مطحنة الموت.. الذين يقاتلون والذين لا يقاتلون.. الكل يصير زرعًا أخرج شطأه واستوى على سوقه، وحان قطافه.. المغول لا يرحمون أبدًا.. شريعة الدم تحكمهم... إلخ» (ص ١٣٧).

وفى الفقرة إشارة إلى قوله تعالى: «.. ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع...» (الفتح: الآية ٩٢).

ويرشح الكاتب سرده بصور شتى أقرب إلى الابتكار والشاعرية، تأمل مثلاً وصفه لسيوف التتار وهى تشرب من دم البغداديين، تتلحظ متلامعة فى الأفق القريب تريد المزيد.. «لكأنه عطش ألف عام يبحث عن الارتواء».. وحين صعدت هذه السيوف إلى السطوح تلاحق الهاربين من أهل بغداد «راحت الميازيب ترش دماءهم فى الأزقة» (ص ١٦٤)، فالقتل «أصبح الممارسة الوحيدة فى هذا العالم، وسلطانه هو السلطان» (ص ١٦٥).

ثم تأمل تساؤل «سليمان» وهو يحكى لشيخه عن الأحوال المتردية: «أحلم يا شيخى بالمورد الذى تتدلى فيه عناقيد التين والزيتون.. الجوع يعتصرنا يا (عبدالقادر)، فهل سنجد عندك الرغيف المعجون بالوجد؟» هل سنتلقى منك القدح الموعود؟ وأنت القائل: أيها الباز الأشهب الذى لم يعرف الخوف؛ إن الدنيا خلقت لكم، وأنكم خلقتم للآخرة.. لا تخف أحداً سوى الله عز وجل، وكل الحوائج إلى الله عز وجل.. التوحيد التوحيد إجماع الكل!» (ص ١٩٦).

يفيض السرد الروائى بكثير من هذه الصور الشاعرية العذبة، وإن كانت بعض المفردات والصيغ تبدو نشازًا بحكم اشتقاقاتها غير الدقيقة، أو الانسياق وراء الأساليب الصحفية الضعيفة، أو الوقوع فى أخطاء نحوية أو تعبيرية، مثل «يتموضع - ص ٤٧»، «يتمحور - ص ٥٩»، «اللامبالاة ـ ص ٦٤»، «الاعتذار عن الحضور - ص ٦٢»، «كيف خرجوا وكيف يرجعوا - ص ١٣٥»، «توجه إلى نداء - ص ١٥٤»، «تتشبث بالبرود واللا أبالية - ص ٢٥٨»، «لا أحداً ولا حانوتًا مفتوحًا ولا كتابًا - ص ٢٦٢»، «يتغرب الآن وحيداً أعزلاً - ص ٢٦٣»، «ولكنك دليتهم على الدار - ص ٣٠٧»..

ويعتمد السرد فى بعض المواضع على الحوار الداخلى (المونولوج) وتيار الشعور، فيضىء ماضياً لا يعرفه القارئ، أو يعبّر عما فى نفسه تجاه بعض المواقف والأحداث، تأمل مثلاً الفصل «٨» (ص ٥٠ وما بعدها)، حيث يتكلم سليمان عن النكتة السوداء وموقفه منها، والفصل «٣٥» (ص ٢٥٤ وما بعدها)، حيث يتكلم عبدالعزيز عن إحساسه بعدم الرضا وخوفه من المجهول، بسبب خيانته.

وإلى جانب ما سبق، فإن الرواية توظف الحوار، ليكون عنصراً مهمًا فى كشف الماضى، وإضاءة الحاضر، ومناقشة المستقبل، ويتفاوت قصراً وطولاً وتوسطًا، حسب الحالة التى يكون عليها المتحاورون، ولنأخذ مثالاً من الحوار الذى جرى بين سليمان وعبدالعزيز، حول التعاون مع الغزاة، ومحاولة الأخير تعليل ذلك بأن الفرصة ستعطى لهم إن لم يقم أهل بغداد بواجبهم فى تعمير البلاد، ولأول مرة يضحك سليمان بصوت عال:

« - ولكن جُلّ الذين تعنيهم قتلوا، أو هاجروا يا عبدالعزيز ولم يبق منهم أحد..

- هنالك غيرهم كثيرون..

يضحك مرة أخرى وهو يربت على كتفى:

- نصير الدين الطوسى مثلاً؟

- ليس وحده على أية حال..

- ولكنه بداية سيئة يا عبدالعزيز.. بداية مخالفة لطبائع الأشياء، وبالتالى فلا أعتقد أنها ستصل هدفها بيسر وسهولة..

تعيم علىّ كلماته كرة أخرى، فأنظر إليه متسائلاً فيقول وهو لايزال يربت على كتفى:

- لقد رفع نصير الدين صوته يزكى الدولة القاهرة ويشيد بفتوحاتها ويخيف الناس من معارضتها.. وهذا ضد التاريخ يا عبدالعزيز وضد العمران... إلخ» (ص ٢٢٤).

يشير الحوار إلى طائفة المثقفين الذين يحاولون تسويغ تعاونهم مع العدو لتحقيق طموحاتهم الشخصية، ويقترفون جريمة الإشادة به وتزكيته، بينما الدماء الزكية الطاهرة للشهداء الذين قتلهم العدو مازالت ساخنة.. ودور الحوار فى كشف هذه الطائفة وسلوكها مهم فى السرد الروائى، وأقوى من التعبير عنه فى سياق آخر..

وسنجد حواراً يعتمد على الجمل القصيرة التى تقرر حكماً مباشراً أو موقفاً يوضح طبيعة السلوك الذى يمارسه أحد المتحاورين. مثلاً الحوار الذى يدور بين الوليد وعبدالعزيز، حول حنان والعلاقة مع الغزاة، يقول الوليد بينما يحاول عبدالعزيز أن يكون هادئًا تماماً:

« - حنان ليست شيئًا لكى تعلن ملكيتك له..

يتشبث بموقفه أكثر:

- ولكنها ستكون لى!

- إنك..

تزدرد ما كنت تود أن تقوله له.. يدرك أنك تريد أن تقول شيئًا، وأنك تسترجعه قبل أن يصل إليه:

- قل يا وليد.. إننى.. ماذا؟

- منذ زمن بعيد وأنت تمارس الخطيئة نفسها..

يتساءل ببرود، محاولاً تجاهل كل ما ترمى إليه:

- أية خطيئة؟

وتقول فى نفسك: لابد من الكى فإنه آخر الدواء..

- لقد بعت نفسك للشيطان.

يدرك تماماً أنه بداية التحدى فيرد عليه بمثله:

- دعك من التعابير الجاهزة.. إنها فى مثل حالتنا لا تجدى نفعًا، ولا تصل بنا إلى شىء..

تصعّد المجابهة قائلاً فى نفسك: إنه لابد لكل شىء من نهاية:

- أرجو ألا تجيئنى المرة القادمة بالشحنة نفسها طالبًا أختى!

بلا مبالاة، عرف كيف يتعلمها من صولاته فى ساحات المران العقلى، أجاب:

- الأمر سيان: المهم أن آخذ حنان... إلخ» (ص ٢٨٠ - ٢٨١).

ونلاحظ أن الوليد، لم يجد مفراً من مباغتة خطيب أخته - الذى كان - باتهامه بالتعامل مع العدو، والوقوف فى جانبه، وبيع نفسه للشيطان، ولكن الآخر يبدو مدربًا على المغالطة والدفاع عن نفسه من خلال البرود والتجاهل وعدم المبالاة «التعابير الجاهزة»، «الأمر سيان...».

وفى كل الأحوال، فإن الحوار يمثل عنصراً أساسياً من عناصر السرد الروائى، ويبلور طبيعة المواقف والآراء التى تصدر عن الشخصيات وتصنعها الأحداث، وإن كان الوصف فى الرواية قد غلب على كل العناصر وتسيدها، بحكم ميله إلى التحليل والتفسير.

وبعد..

فإن «أمانة الكلمة» تبدو فى الرواية أخطر من الجهاد المسلح، وإن كانت لا تغنى عنه، بوصفها الضوء الذى ينير الآفاق، ويكشف الطرقات، وقد كان سقوط عبدالعزيز الداوى نموذجاً لمن خان أمانة الكلمة، فقد صار مدرساً فى المستنصرية التى أصبحت أداة بيد المغول، وصعد درجات السلم بسرعة متناسيًا تماماً أساتذته الذين اغتالتهم خناجر الغزاة، أو تشردوا فى الأرض حرصاً منهم على أمانة الكلمة، والتزاماً بألا يصيروا أدوات فى إمبراطورية هولاكو!

ولا حجة لمن يقول بأن تولى أبناء البلد للمستنصرية أولى من أن يعبث بها الغرباء أو الغزاة، فعبثهم إدانة أخرى لهم، وتحريض على خلخلة وجودهم الإجرامى، وكشف لعجزهم، وإضعاف لموقفهم، وقبل ذلك وبعده بعث للمقاومة التى تحرمهم متعة الهيمنة وسكينة الراحة. ■

؟؟؟؟

لماذا الدول الفقيرة فقيرة

تيم هارفورد

Tim Harford

■■ يطلق البعض على مدينة دوالا Douala الكاميرونية لقب «إبط أفريقيا» الذى أجده مناسباً تماماً لها إذ إنها تقع مباشرة تحت الكتف المنتفخ لغرب أفريقيا؛ وتتصف هذه المدينة الموبوءة بمرض الملاريا بأنها رطبة وغير جذابة وروائحها كريهة. أما إذا كنت تعيش فى الكاميرون، فستعرف أن مدينة «دوالا» أنشط مدنها. فالكاميرون دولة فى غاية الفقر؛ إذ إن مواطنها العادى أفقر ثمانى مرات من المواطن العادى فى أى مكان فى العالم، وأفقر خمسين مرة تقريباً من المواطن الأمريكى العادى. لهذا سافرت إلى «دوالا» فى أواخر عام ٢٠٠١ لأتحرى عن السبب.

ولست متأكداً من أول مَن أطلق على المدينة لقب «الإبط»، ولكن لن أندهش إذا كانت وزارة السياحة الكاميرونية نفسها هى التى أطلقته. فكما نعرف أن معظم وزارات الدفاع بالعالم مسئولة عن شن الهجوم على الدول الأخرى، وأن وزارات العمل مهمتها الإشراف على طوابير العاطلين من الشعب، أما وزارة السياحة الكاميرونية، فهى لا تخالف هذا العرف النبيل فوظيفتها هى إثناء السائحين عن زيارة بلدها.

وحذرنى زميل لى أن سفارة الكاميرون فى لندن ستحاول أن تضع أمامى كل عائق ممكن، كأن تطلب منى مثلا الذهاب إلى باريس للحصول على التأشيرة السياحية. بيد أننى لم أتكبد كثيراً من العناء؛ لأننى كان لى صديق يعيش فى الكاميرون، دفع رشوة تعادل أجر موظف كاميرونى فى نصف يوم ليبعث لى دعوة. دفعت متسلحا بهذه الدعوة ما يعادل أجر موظف كاميرونى فى خمسة أيام لأحصل على تأشيرة الدخول فى عملية تطلبت ثلاث زيارات فقط للسفارة، وبعض التذلل من جانبى. وهذا يكشف سر عدم التقائى أنا ورفقائى فى هذه الرحلة بسائحين كثيرين طوال الأسابيع الثلاثة التى قضيناها فى الكاميرون.

ولا أريد أن أرجع كل الفضل فى تنفير السائحين من المجىء إلى الكاميرون إلى وزارة السياحة؛ إذ إنها مهمة تحتاج تعاون فريق عمل بأكمله. فوفقاً لمنظمة الشفافية الدولية، تعد الكاميرون أحد أكثر الدول فساداً فى العالم. وكشفت استطلاعات الرأى عام ١٩٩٩ أنها نفسها أكثر الدول فساداً. أما عندما زرتها عام ٢٠٠١، فكانت قد تراجعت لتغدو خامس أكثر الدول فساداً، الأمر الذى تعتبره حكومتها تحسناً احتفلت به كثيراً. وإذا تمعنت فى التفكير للحظات، علمت أن الفوز بلقب «أكثر الدول فساداً فى العالم» أمر يتطلب الكثير من بذل بعض الجهد. ولمّا كانت منظمة الشفافية الدولية ترتب الدول حسب النظرة الدولية للفساد، كانت الاستراتيجية الرابحة للكاميرون هى التركيز على إجبار رجال الأعمال الأجانب على دفع الرشا مثلما يحدث فى المطار. ولكن جهود السلطات الكاميرونية قد تشتتت لأن الدولة فاسدة بشدة على كافة المستويات، ولا يقتصر الأمر على التعامل مع الأجانب فحسب. إذن فربما عدم التركيز هو ما جعلها تسقط من فوق عرش الفساد.

لا يعنى هذا أن مطار دوالا الدولى يعمل بكفاءة عالية، بل إنه بعيد كل البعد عن هذا الوصف. فهو رطب، وعلى الرغم من أن المطار لا يتعامل إلا مع ثلاث أو أربع رحلات يومياً فإنك تجد حركة السير متثاقلة مضطربة بحيث تعانى صعوبة فى المرور من الحشود الكثيرة. وكان من دواعى امتنانى أن صديقى أندرو وسائقه سام قد ساعدانا فى الخروج من المطار فى ذلك المساء الحار جداً. وكان سائقه سام يود أن ينطلق بنا على الفور بالسيارة إلى مدينة بويا Buea التى تتمتع بطقس أكثر برودة، ذلك لو أن هناك طرقا فى «دوالا» يمكنك الانطلاق عبرها بسيارتك بسرعة. ولكن لم توجد هذه الطرق. فدوالا مدينة المليونى نسمة ليس بها أى طرق حقيقية.

صحيح أن الشارع العادى فى مدينة «دوالا» عرضه من الكوخ إلى الكوخ المقابل ستة وأربعون متراً تقريباً، لكن الشارع لم يصمم بهذا الشكل لأن هذه المساحة مطلوبة من أجل طريق تكتنفه الأشجار، فهو مكان يعج بالباعة المتجولين، فتجد أحدهم يقف بجانب صينية يضع عليها الفول السودانى، وتجد غيره يتجول ويبيع نبات لسان الحمل plantain مشوياً؛ وترى تجمعات بها قليل من الناس، يقفون حول دراجة بخارية أو يحتسون الجعة أو نبيذ النخيل أو يطهون فى الخلاء على النار. كما ترى أكواماً من الأنقاض، والحفر الواسعة على جانبى الطريق التى تشف عن أعمال بناء أو هدم لم تكتمل. ثم تجد الطريق - أو بالأحرى الذى كان يمكن أن يقال إنه طريق منذ عشرين عاماً - فى المنتصف مليئاً بالحفر. وفى هذا الطريق تجد أربع حارات مرورية تحتل سيارات الأجرة معظمها. ففى الحارات التى بجانب الطريق تجد سيارات الأجرة متوقفة حيث يقوم السائقون بجمع الأجرة من الركاب. وفى وسط الطريق تجد هذه السيارات تتمايل بين الحفر وبين السيارات الأخرى متبعة فى ذلك كل الاحتمالات التى لا يمكن أن يتوقعها أحد. وليس هناك أية قواعد سواء للمرور أو للسرعة. فأحياناً تجد سيارة أجرة ممتلئة بالركاب على حافة الطريق تتمايل لتتخطى - على نحو مفاجئ - السيارات التى تسير ببطء فى وسط الطريق؛ وغالباً ما يكون الطريق من الداخل مليئاً بالحفر أكثر من الحواف. أما الضوضاء فهى لا تُصدق؛ ليس فقط لأن كل رجل، وكل امرأة، وكل طفل فى المدينة يبدو وكأنه يحمل فى يده جهاز استريو وقد ضبط مؤشر الصوت به على أعلى درجة، ولكن لأن بوق السيارة أصبح أيضاً شكلا من أشكال الاتصال المشترك. وقد استطعت أن أترجم بعض الجمل الشائعة:

بيب: «أنت لا ترانى، ولكن لدى مقاعد خاوية فى السيارة».

بيب: «أراك، ولكن ليس لدى مقاعد خاوية فى السيارة».

بيب: «لا تركب معى، فأنا ذاهب فى اتجاه مختلف».

بيب: «سأقبل ما تدفعه، هيا اركب».

بيب: «بعد دقيقة سأنحرف لأتفادى مطبا، وقد أصدمك بالسيارة، ابتعد!».

صحيح اعتادت شوارع دوالا على أن تسير بها الحافلات التى لم تعد تستطيع السير فى هذه الشوارع المتهالكة. لذا، تعد سيارات الأجرة كل ما تبقى من وسائل

«نعم، توجد انتخابات. فالرئيس يُعاد انتخابه دائماً بأغلبية ساحقة»



للاستزادة:
The Undercover Economist
المخبر الاقتصادى
تيم هارفورد
كلمات عربية للترجمة والنشر - القاهرة

؟؟؟؟

المواصلات، التى جميعها سيارات قديمة متهالكة من ماركة تويوتا، تحمل أربعة ركاب فى المقعد الخلفى، وثلاثة فى المقعد الأمامى، ولونها أصفر تماماً مثل تاكسيات نيويورك، وملصق على كل منها شعارات مميزة مثل «الله أكبر»، أو «توكلنا على الله»، أو «الله يُسيرها».

لا يمكن لأحد يرى مشهد الشارع فى دوالا أن يستنتج أن الكاميرون دولة فقيرة بسبب نقص الحس التجارى بها، ولكن الواقع أنها مع الفقر الذى تعانيه، تزداد فقراً يوماً بعد يوم. فهل يوجد ما يمكن فعله لعكس هذا الوضع، ومساعدة الكاميرون على شق طريقها نحو الثراء فى المقابل؟ ليس هذا بالسؤال السهل. يقول روبرت لوكاس Robert Lucas الحائز على جائزة نوبل:

«إن نتائج الرفاهية البشرية المرتبطة بمسائل مثل هذه هى نتائج مذهلة. فبمجرد أن يبدأ المرء فى التفكير فى أحدها، يصبح من الصعب عليه التفكير فى أية مسألة أخرى».

قطعة البازل المفقودة

اعتاد علماء الاقتصاد على الاعتقاد أن الثروة الاقتصادية جاءت من مزيج من «الموارد التى صنعها الإنسان» (كالطرق، والمصانع، والآلات، وأنظمة الاتصالات)، و«الموارد البشرية» (كالعمل الجاد، والتعليم) و«الموارد التقنية» (كالمعرفة التقنية، أو الآلات فائقة التكنولوجيا). ويبدو جلياً أن الدول الفقيرة أضحت دولاً غنية بعدما استثمرت المال فى مواردها الطبيعية، وطورت مواردها البشرية والتقنية عن طريق التعليم وبرامج نقل التكنولوجيا.

ما الخطأ إذن فى هذه الصورة؟ لا خطأ حتى الآن. فالتعليم، والمصانع، والبنية التحتية، والمعرفة التقنية هى موارد بالفعل متوفرة بكثرة فى الدول الغنية وتفتقر إليها بشدة الدول الفقيرة. ولكن الصورة هكذا ليست كاملة: فالبازل ينقصه أهم قطعة فيه.

وأول دليل على أن ثمة نقصا فى هذه الصورة التقليدية هو المعنى المتضمن بها، هو أن الدول الفقيرة كان عليها مواكبة الدول الغنية منذ نصف قرن أو يزيد. فكلما كانت متخلفة عنها بعدد سنوات أكبر، تحتم عليها مواكبتها أسرع؛ لأن الدول ذات البنية التعليمية أو التحتية الضعيفة، تحصل فيها الاستثمارات الجديدة على مميزات كبيرة. أما الدول الغنية، فلا يجنى الاستثمار الجديد فيها إلا الربح الضئيل: ويسمى الاقتصاديون هذا الأمر بقانون «تناقص الغلة». فمثلاً، إذا رُصفت وعُبدت بعض الطرق فى الدول الفقيرة، فسوف تفتح الباب نحو التجارة أمام مناطق جديدة تماماً؛ فى حين أن رصف بعض الطرق فى الدول الغنية لن يساهم فقط سوى فى تخفيف بعض الزحام. فتجد مثلا أن خطوط الهاتف عند مدها للدول الفقيرة تكون لها أهمية عظيمة، أما فى الدول الغنية، فيستخدم الأطفال الهواتف الجوالة فى المدارس ليتبادلوا إرسال الرسائل النصية فى الفصل. بالمثل، يتسبب بعض الاهتمام بالتعليم فى الدول الفقيرة فى إحداث طفرة؛ بينما فى الغالب لا يجد معظم الحاصلين على شهادات أكاديمية فى الدول الغنية الوظائف. وبالتأكيد فاختراع الدول الغنية للتكنولوجيا يكون مسألة أشق من مجرد قيام الدول الفقيرة بنقلها؛ فمواطنو دوالا مثلا يمكنهم التمتع بسيارات الأجرة دون انتظار ظهور شركة كاميرونية مثل جوتليب دايملر تعيد اختراع محرك الاحتراق الداخلى من جديد.

وعندما تنظر إلى بلاد مثل تايوان، أو كوريا الجنوبية، أو الصين، التى تتضاعف دخولها كل عشر سنوات أو أقل، تجد نظرية المواكبة نافذة المفعول. ولكن ما زال العديد من الدول الفقيرة لا ينمو بوتيرة أسرع من الدول الغنية؛ وفى حقيقة الأمر فإنها تنمو نمواً بطيئاً، أو - كما فى حالة الكاميرون - تزداد فقراً.

وفى محاولة علماء الاقتصاد العثور على قطعة البازل المفقودة، مزجوا بين نموذج «تناقص الغلة» وبين نموذج آخر يأخذ فى اعتباره «تزايد الغلة»، وكان مفاد النظرية الجديدة أنه أحياناً عندما تزيد الموارد، تزيد سرعة النمو: فالهواتف مفيدة إذا كان الجميع يملكونها، والطرق مفيدة إذا كان الجميع يملك السيارات؛ ويغدو من الأسهل اختراع التكنولوجيا إذا كان سبق لك اختراع الكثير من قبل.

تكشف لنا هذه المسألة عن السبب فى ثراء الدول الغنية، وتخلف الدول الفقيرة عنها بكثير، إلا أنها لا تفسر كيف تقوم دول مثل الصين، وتايوان، وكوريا الجنوبية - ناهيك عن بتسوانا، وشيلى، والهند، وموريشيوس، وسنغافورة - بملاحقة ركب الدول الغنية. فهذه الدول الواثبة - بخلاف اليابان، أو الولايات المتحدة، أو سويسرا - حققت أسرع معدلات نمو اقتصادى على ظهر هذا الكوكب، والتى كانت نفسها تعانى من فقر مدقع منذ خمسين عاماً. وكانت تنقصها الموارد التى صنعها الإنسان، والموارد البشرية، والتقنية، وحتى الموارد الطبيعية أحياناً. ثم شقت رحلتها نحو الثراء منذ ذلك الحين، فقامت خلالها بتطوير التعليم، والتكنولوجيا، والبنية التحتية.

ولم لا؟ فقد باتت التكنولوجيا أكثر توفراً، وتزداد تكاليفها انخفاضاً، فهذا هو ما يجب أن يتوقعه خبراء الاقتصاد من كل دولة نامية. ففى عالم تتناقص فيه الغلة، تحصل أكثر الدول فقراً على أقصى استفادة من التكنولوجيا الحديثة، والبنية التحتية، والتعليم. ولتنظر إلى كوريا الجنوبية على سبيل المثال التى نجحت فى الحصول على التقنيات الحديثة بعدما حثت الشركات الأجنبية على الاستثمار فيها، أو بيع حقوق استخدامها. لم يكن الأمر مجانياً: فبجانب دفع رسوم استخدام التقنيات، كانت الشركات المستثمرة ترسل الأرباح التى حققتها إلى أوطانها. أما المكاسب التى تعود على كل من العمال الكوريين، والمستثمرين، فى صورة نمو اقتصادى، فكانت أكبر خمسين مرة من الرسوم والأرباح التى خرجت من الدولة.

وبالنسبة إلى التعليم والبنية التحتية، فلما كانت الغلة تبدو مرتفعة للغاية، كان لزاماً توافر المستثمرين المستعدين لتمويل مشروعات البنية التحتية، أو إقراض الأموال للطلاب أو حتى للحكومة التى توفر التعليم المجانى. وكان لزاماً على البنوك المحلية والأجنبية أن تتسابق على منح القروض للمواطنين لمساعدتهم على الالتحاق بالمدارس، أو إنشاء طرق، أو محطات طاقة جديدة. كما كان لزاماً على الفقراء، أو على الدول الفقيرة، أن يكونوا سعداء للغاية للحصول على تلك



؟؟؟؟

القروض، وهم على ثقة أن عوائد الاستثمار ستكون مرتفعة، وأن سدادهم لتلك القروض لن يكون بالأمر الصعب. وحتى إن لم يحدث أى من هذا لأى سبب كان، فإن البنك الدولى، الذى أُسس بعدما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها تحت هدف واضح هو إقراض الدول من أجل التنمية وإعادة الإعمار؛ يقدم قروضاً للدول النامية تقدر بمليارات الدولارات سنوياً. ومن الواضح أن عدم توافر المال اللازم للاستثمار ليس هو القضية وإنما القضية هى إما لا توجد استثمارات، أو أنها لا تحقق العائد الذى تتوقعه منها النماذج التقليدية.

وحتى إذا أوحى نموذج «تزايد الغلة» أنه من الممكن بالنسبة للدول الفقيرة أن تصبح أكثر ثراءً طالما أنها قادرة على القيام بالعديد من الاستثمارات التكميلية فى وقت واحد من أجل تصنيع السلع وتصديرها، كبناء المصانع، ورصف الطرق، وتوليد الكهرباء، وإنشاء الموانئ. وتسمى نظرية الاستثمار هذه بنظرية «الدفعة القوية» التى وضعها عالم الاقتصاد بول روزنشتين رودن Paul Rosenstein-Roden، الذى عمل لبعض الوقت فى البنك الدولى فى السنوات الأولى للبنك. وسواء كانت الدفعة القوية هى السبب أم لا، فقد استطاع العديد من الدول الفقيرة أن يحقق نمواً سريعاً خلال العقود القليلة الماضية. فلماذا إذن لا يزال العديد من الدول متخلفاً عن ركب الازدهار الاقتصادى؟

نظرية «الحكومة قاطعة الطريق»

بينما كانت سيارتنا ترتطم بالسيارات الأخرى، وتترنح فى بطء لتشق طريقها من بين جموع الناس من المشاة، كنت أحاول أن أعرف من السائق «سام» المزيد عن هذه الدولة.

وسألته: «متى كانت آخر مرة أُصلحت فيها هذه الطرق يا سام؟»

رد سام: «منذ حوالى تسعة عشر عاماً».

(تولى الرئيس بول بيا Paul Biya السلطة فى نوفمبر عام ١٩٨٢، وكان قد مر عليه فى الحكم تسعة عشر عاماً أثناء زيارتى للكاميرون، وظل فى منصبه حتى بعد زيارتى بأربع سنوات، أى حتى عام ٢٠٠٥. وأذكر أنه نعت خصومه مؤخراً باسم «السياسيون الهواة» - ومن المؤكد أنهم يفتقرون للخبرة العملية المستمرة.)

وسألته: «ألا يشكو الناس من الطرق؟»

رد: «يشكون، ولكن لا شىء يتغير. فالحكومة تقول إنه ليس لديها المال لإصلاحها. ولكن هناك المال الوفير الذى يأتى من البنك الدولى، ومن فرنسا، وبريطانيا، وأمريكا، ولكن مسئولى الحكومة يضعونه فى جيوبهم. ولا ينفقونه على الطرق».

- «هل توجد انتخابات فى الكاميرون؟»

- «نعم، توجد انتخابات. فالرئيس بيا يُعاد انتخابه دائماً بأغلبية أصوات ٩٠٪».

- «هل يصوت له ٩٠٪ من الشعب؟»

- «لا، فهو لا يتمتع بأى شعبية. ومع ذلك، ما زال يفوز بأغلبية أصوات ٩٠٪».

ولا يحتاج المرء لقضاء وقت طويل فى الكاميرون ليدرك كم يمقت الشعب الحكومة. فمعظم نشاط الحكومة يبدو أنه قد أعد على نحو واضح خصيصاً لسرقة المال من شعب الكاميرون. أذكر أننى قد حُذرت بشدة من فساد الحكومة، ومن أن المسئولين فى المطار سيحاولون أن يريحونى من النقود التى أحملها معى، حتى إننى كنت متوتراً من ذلك الشأن أكثر من توترى خشية إصابتى بالملاريا، أو من التعرض لهجوم بغرض السرقة تحت تهديد السلاح فى أحد الشوارع الخلفية بمدينة دوالا.

اقتصاديا: أنظمة الحكم الدكتاتورية المستقرة أفضل من الأنظمة الفوضوية. ولكنها أسوأ بكثير من الأنظمة الديمقراطية



ومع ذلك، ينظر العديد من الكاميرونيين لرجال السياسة والموظفين الحكوميين بنظرة متفائلة، لأنهم يقدمون الخدمات للشعب ويفعلون كل ما فى وسعهم لمراعاة مصالح الدولة. وهناك آخرون متشائمون يرون أن العديد من رجال السياسة غير مؤهلين، ودائماً ما يفضلون فرص إعادة انتخابهم على مصلحة الشعب نفسه.

اقترح عالم الاقتصاد مانكور أولسون Mancur Olson افتراضاً ناجحاً، وهو أن دوافع الحكومة ما زالت سوداوية. ووضع نظرية بسيطة ورائعة تكشف السبب وراء كون أنظمة الحكم الدكتاتورية المستقرة تؤثر على النمو الاقتصادى على نحو أسوأ من الأنظمة الديمقراطية، فى حين أنها أفضل من الأنظمة الفوضوية. وافترض أولسون أن الحكومات مجرد قطاع طرق معهم أسلحة فتاكة وأن أفرادها مجرد أناس يحتالون على الشعب ويسرقون كل شىء. كانت هذه هى نقطة البداية فى تحليله، وهى نقطة البداية التى يتعين عليك قبولها إذا ذهبت إلى الكاميرون، ونظرت حولك لمدة خمس دقائق. أى كما قال سام: «هناك المال الوفير... ولكن مسئولى الحكومة يضعونه فى جيوبهم».

تخيل إذن أن دكتاتوراً لصاً تولى زمام السلطة لمدة أسبوع، أى بالفعل سيكون هناك قاطع طريق وجيشه المتنقل الذى يزحف على البلاد، وينهب منها كل ما يريده، ثم يغادر. وإذا افترضنا أنه ليس بحاقد، ولا بصافى القلب، ولكنه شديد النفعية. فما الدوافع التى تردعه عن نهب كل خيرات البلاد؟ الإجابة لا توجد أى دوافع تردعه... إلا إذا كان يخطط أن يعود أدراجه العام المقبل.

ولكن تخيل أن هذا اللص المتجول أعجبه المناخ فى بقعة معينة وقرر الاستقرار فيها، وبنى قصراً، وحث جنوده على استغلال الشعب الذى استوطن أراضيه. وعلى الرغم من هذا السوء والظلم، فإن الوضع الاقتصادى للسكان المحليين ربما سيتحسن بعدما قرر الدكتاتور البقاء؛ إذ إن الدكتاتور الذى يتسم بالأنانية المحضة سيدرك على الفور أنه لا يمكنه تدمير الاقتصاد، وترك الناس يتضورون جوعاً، إذا كان يخطط للمكوث فى البلاد، لأنه إذا استنزف كل مواردها لن يتبقى له ما يسرقه فى العام المقبل. من هنا جرى النظر إلى الدكتاتور الذى يستولى على أرض ما على أنه قائد مرغوب فيه أكثر من ذاك الذى يتنقل باستمرار بحثاً عن ضحايا جدد ينهبهم.

ربما يبدو الأمر غير ذى صلة بالموضوع تماماً، إلا أننا يمكننا أن نأخذ من علم الأحياء نموذجاً عن رجل الاقتصاد السياسى: تميل سُمية الفيروسات والبكتيريا إلى الانخفاض كثيراً بمرور الوقت، لأن سلالاتها الأشد سمية تهلك بسرعة. أذكر أن مرض الزُهرى، مثلا، اكتُشف فى أوروبا أول مرة فى أواخر القرن الخامس عشر، ووُصف على أنه مرض فتاك للغاية يقتل ضحاياه بسرعة. ولكن استراتيجية هذا المرض ليست بالاستراتيجية الناجحة إذ إن من مصلحة الفيروس ألا يترك ضحاياه يموتون، أو على الأقل لبعض الوقت، حتى يتسنى له الانتشار، وإيجاد مزيد من الضحايا. أما سلالات فيروس مرض الزهرى المتحولة التى باتت تقتل المصابين بسرعة أقل، فكانت أكثر نجاحاً، وأطول حياة من السلالات الأشد فتكاً.

لازمت ذهنى تلك الفكرة عن هذا التحول الذى يشهده الفيروس عندما كنت أفكر فى الرئيس بيا، إذ لا يمكننى تأكيد أن وصف أولسون للدكتاتور النفعى ينطبق عليه. فإذا كان مثلما وصف أولسون، لن يصب فى مصلحته أخذ الكثير من الشعب الكاميرونى، فإن فعل ذلك، لن يتبقى له ما يأخذه العام المقبل. وكلما زاد شعوره بالأمان على كرسيه، لن يرغب أبداً فى قتل الدجاجة التى تبيض له بيضة ذهب. بل يستوجب عليه ترك الاقتصاد الكاميرونى يعمل كى يظل يسرق منه دوماً، تماماً مثل المرض الذى يعتمد وجوده على الأجسام التى يبليها. يكشف هذا عن أن القائد الذى يثق فى بقائه فى السلطة لمدة عشرين عاماً سوف يعمل على إصلاح الاقتصاد أكثر من ذاك الذى يود الهروب بعد عشرين أسبوعاً. ربما تكون العشرون عاماً التى يتولى فيها زمام الحكم «الدكتاتور المنتخب» خيرا من عشرين عاماً تتوالى فيها الانقلابات الواحد تلو الآخر. فهل نهتف: «يعيش الرئيس بيا!؟»

ليس معنى هذا أن مانكور أولسون فى نظريته كان يتوقع عدم ممارسة الأنظمة الدكتاتورية المستقرة إلا الأفعال الرامية لمصلحة بلادهم. بل قصد أنهم حقاً سيلحقون الخراب بالاقتصاد، ولكن بصورة أقل من الأنظمة غير المستقرة. أما قادة الدول أمثال بيا الواثقون من فوزهم الدائم فى الانتخابات، فلا ينفكون عن إلحاق الأذى دائماً بشعوبهم، واقتصاد بلادهم. فإذا سايرنا هذا الافتراض المبسط وقلنا إن بيا لديه السلطة المطلقة لتوزيع دخل الكاميرون، ربما سيقرر أن ينهب نصفه تقريباً كل عام فى صورة «ضرائب» تذهب فى حسابه الشخصى فى البنك. وبالتأكيد سيكون هذا حدثاً مشئوماً لضحاياه بالطبع، كما سيكون حدثاً

؟؟؟؟

مشئوماً أيضاً للنمو الكاميرونى طويل المدى. هب أن تاجراً صغيراً يحاول استثمار مبلغ ١٠٠٠ دولار يشترى بها مولد طاقة جديداً لورشته، ويتوقع أن يدر له استثمار مثل هذا مبلغ ١٠٠ دولار سنوياً، أى عائد ١٠٪، الذى يعد عائداً جيداً. ولما كان الرئيس بيا سيستولى على نصفه، فسينخفض الرقم إلى رقم آخر غير جذاب ألا وهو ٥٪. من هنا يقرر رجل الأعمال عدم خوض هذا الاستثمار لتضيع بذلك عليه فرصة المكسب، كما تضيع على الرئيس بيا. وينطبق نفس هذا المثال المتطرف على الظاهرة التى ناقشناها فى الفصل الثالث ألا وهى أن الضرائب تحقق اللافعالية. صحيح أن الضرائب التى يفرضها الرئيس بيا تعسفية وباهظة، إلا أن تأثيرها الأساسى على الاقتصاد سيكون مشابهاً فى طبيعته.

بالتأكيد قد يكون للرئيس بيا استثماراته الخاصة لتشجيع التجارة كأن يشق الطرق، أو يبنى الجسور، تلك الاستثمارات التى تكلف الكثير على المدى القصير، إلا أنها تساعد الاقتصاد على النمو مانحاً الفرصة إلى بيا كى يسرق فيما بعد، ولكن الجانب الآخر من المشكلة سوف يحدث أيضا: فقد يسرق بيا نصف الغلة فقط التى قد لا تكفى لحثه على توفير البنية التحتية التى تحتاجها الكاميرون. فعندما تولى بيا الحكم عام ١٩٨٢، ورث معه الطرق المتهالكة تماماً التى تعود إلى العصر الاستعمارى. فإذا كان قد ورث دولة بدون أى بنية تحتية، لكان من مصلحته أن يشيد بنية تحتية جيدة نوعاً ما. ولكن بما أن البنية موجودة بالفعل، احتاج بيا لوضع تقدير عما إذا كانت هذه البنية تستحق الإصلاح، أو أنه يستطيع ببساطة أن يعيش على تراث الماضى. وفى عام ١٩٨٢، ربما يكون ظن أن الطرق قد تتحمل حتى فترة التسعينيات، وهى الفترة التى كان يتوقع أن يظل فى السلطة لحين بلوغها. وبناء على هذا المبدأ، قرر العيش على رأس مال الماضى، ولم يشغل باله بإنشاء أى بنية تحتية لشعبه. فطالما كان يوجد منها ما يكفى ليظل فى الحكم، لماذا يعبأ وينفق المال الذى يمكن أن يذهب مباشرة إلى حسابه الشخصى الذى يعده لما بعد تقاعده؟

هل ظلمت الرئيس بيا؟ ربما القليل. يقال إنه فى انتخابات عام ٢٠٠٤، التى أجريت بعد زيارتى للكاميرون، حصل بيا على ٧٥٪ من الأصوات، وهى النسبة التى اعتبرها كثير من المراقبين أنها أخيراً نسبة عادلة نوعاً ما. وفقاً لنظرية أولسون، فإن القائد الذى يبتغى أن يحفظ لنفسه أعلى تأييد ممكن لسياساته يجب أن ينفق قدراً أكبر من عائدات الحكومة على السلع والخدمات التى تخلق الثروة كالطرق والمحاكم، وأن يقلل ما ينفقه على نفسه وأصدقائه. أما حقيقة أن بيا أخفق فى القيام بهذا، واستطاع البقاء فى السلطة فهى تثير سؤالين:

الأول: هل من الجائز أن الانتخابات لم تكن ديمقراطية كما استنتج بعض المراقبين؟

والآخر: هل بيا قادر على تقديم السلع والخدمات التى تخلق الثروة إذا أراد؟

قطاع طرق، قطاع طرق فى كل مكان

ربما لا يكون الرئيس بيا مسيطراً مثلما يبدو لأول وهلة. فإذا كنت تود أن تسافر من مدينة بويا حتى مدينة باميندا Bamenda فى الشمال، فستجد أن ركوب الحافلة أكثر الطرق شعبية للقيام بالرحلة ولاسيما «المينى باص» الذى يعد وسيلة السفر بين الأماكن البعيدة فى الكاميرون. وعلى الرغم من أنها صُممت لتتسع لعشرة أشخاص جالسين مستريحين، فإنها لا تنطلق إلا بعد ركوب ثلاثة عشر راكباً. ولا عجب إذن أن المقعد الواسع نسبياً بجوار مقعد السائق يستحق التعارك عليه. صحيح أن المركبات متهالكة وقديمة، ولكن النظام يعمل جيداً.

ومع ذلك فالنظام كان سيحقق نتائج أفضل كثيراً لولا السيطرة الخبيثة للحكومة. وأحياناً يكمن حل المشكلة فى تجاهلها ببساطة. فمثلاً، يمر الطريق الأسرع من مدينة بويا إلى مدينة باميندا، الذى ليس بالضرورة خط السير المستقيم، خلال المنطقة التى تتحدث الفرنسية فى الكاميرون ذات الطرق الأفضل. فإذا أردت الوصول أسرع عليك أن تسلك الطريق شرقاً لمدة ساعتين، ثم شمالا لمدة ساعتين، ثم غرباً لمدة ساعتين. وهذه الطريقة أسرع بكثير من القيادة فى خط مستقيم شمالا على الطرق المروعة التى تمر خلال المنطقة التى تتحدث الإنجليزية فى الكاميرون؛ إذ إن حكومة بيا تتجاهل مراعاة مصالح مناطق الأقلية التى تتحدث الإنجليزية والتى ليس لها نفوذ سياسى. يشكو سكان مناطق الأقلية التى تتحدث الإنجليزية من أنه عندما قام المتبرعون بتمويل بناء طريق الكاميرون السريع، لم تفعل الحكومة سوى إرسال إيصالات استلام المبالغ لهم ولم تقم ببناء الجزء الذى يمر بالقسم المتحدث بالإنجليزية.

أما العائق الثانى فى هذا الطريق المستقيم، فهو الأعداد الكبيرة من الحواجز التى يقيمها رجال الشرطة المستأسدون، الثملون فى معظم الأحيان، لإيقاف كل سيارة «مينى باص»، ومحاولة انتزاع الرشا من ركابها بأقصى ما فى وسعهم من جهد. صحيح تخيب معهم هذه الطريقة عادةً، ولكنهم من حين إلى آخر يصممون على نجاحها. يذكر صديقى أندرو أنهم أنزلوه مرة من الحافلة، وتعرض لمضايقاتهم لعدة ساعات. وأخيراً كانت حجتهم للحصول على رشوة منه أنه لم يكن معه شهادة تطعيم ضد الحمى الصفراء، التى يحتاجها المرء عند دخول البلاد، ولكن ليس عند ركوب الحافلة. وشرح له الشرطى باستفاضة أن الكاميرون لا بد من حمايتها من هذا المرض ولكن ثمن زجاجتين من الجعة أقنعه أن الوباء قد قُضى عليه بالفعل، ثم لحق أندرو بالحافلة التالية بعد ثلاث ساعات.

وهذا أقل فعالية بكثير من النموذج الذى طرحه مانكور أولسون، إذ إن أولسون نفسه اعترف أن نظريته - فى أكثر صورها



الفســـــــاد لا يـــحـــقـــق الـــظـــلـــم فحســــــب، بـــــل إنــــه أيـــضـًــــا مصدر إهدار اقـــتـــصــــادي فــــادح





تطرفًا - لم تدرك الحجم الهائل للضرر الذى تُبتلى به الشعوب من الحكومات الفاسدة. فالرئيس بيا يريد أن يظل مئات الآلاف من قوات الشرطة والجيش سعداء، وكذلك العديد من موظفى الحكومة، ومعاونيه الآخرين. وإذا كان بيا يحكم فى ظل نظام حكم ديكتاتورى «مثالى» لكان قد فرض أقل الضرائب ضرراً بأى مقدار يراه ضرورياً، ثم يوزع العوائد على الأتباع والمؤيدين. ولكن اتضح أن هذا الأسلوب غير ملائم لأنه يتطلب توافر مزيد من المعلومات، ومزيد من الهيمنة على الاقتصاد أكثر مما يمكن أن تفعله حكومة فقيرة ليبقى خيارها الوحيد فسادا واسع النطاق تجيزه الحكومة.

والفساد لا يحقق الظلم فحسب، بل إنه مصدر إهدار فادح أيضًا. فرجال الشرطة يقضون أوقاتهم فى مضايقة الركاب حتى يحصلوا منهم على عوائد متواضعة. والتكاليف هائلة. فتجد قوة شرطة بأكملها منهمكة فى انتزاع الرشا غافلة عن القبض على المجرمين. ورحلة السيارة التى تستغرق أربع ساعات أضحت تستغرق خمس ساعات. أما الركاب، فيضطرون لاستخدام وسائل مكلفة لحماية أنفسهم: فلا يحملون معهم إلا النقود القليلة، ويقللون من أسفارهم، أو يسافرون فى أوقات الذروة من النهار أو يحضرون معهم نسخًا إضافية من كل المستندات التى يحتاجونها فى محاولة منهم لتجنب التعرض لعمليات ابتزاز الرشا.

صحيح أن حواجز الطرق، وضباط الشرطة المجرمين يعتبران أحد أشكال الفساد الجلية. ولكن ثمة ما يشبه حواجز الطرق فى كل أركان الاقتصاد الكاميرونى، ألقى البنك الدولى الضوء عليها عندما بدأ مؤخراً فى جمع البيانات عن قوانين العمل البسيطة، واكتشف البنك أن بدء مشروع صغير لا يتم إلا عندما يدفع صاحب المشروع رسوماً تقترب من دخل المواطن الكاميرونى العادى فى سنتين. (حتى إن ما أنفقته للحصول على الفيزا كسائح يعد مبلغاً تافهاً إذا قورن بهذا الرقم). ويتكلف شراء وبيع العقارات ما يقترب من خُمس قيمتها. ولكى تجعل المحاكم تنفذ القانون فيما يخص فاتورة لم يتم دفع قيمتها، فقد يستغرق الأمر حوالى عامين كما قد يتكلف ما يزيد على ثلث قيمة الفاتورة، ويتطلب اتخاذ ثمانية وخمسين إجراءً منفصلا. تعتبر هذه القوانين السخيفة من الأنباء الطيبة للبيروقراطيين الذين يضعونها موضع التنفيذ؛ إذ إن كل إجراء لا يخرج عن كونه فرصة لانتزاع رشوة. وكلما كانت عملية القيام

؟؟؟؟

بالإجراءات أكثر بطئًا، زادت فرص دفع الأموال لتحريكها أسرع، الأمر الذى يسفر عن تأييد عدد غفير من مسئولى الحكومة للرئيس بيا بشكل أكبر ليدعم به بقاءه فى السلطة.

ومع ذلك فهذه ليست النتيجة الوحيدة. يساعد تعنت قوانين العمل على التأكد من أن الرجال المحترفين ذوى الخبرة فقط هم من يحصلون على العقود الرسمية؛ أما النساء والشباب فعليهم تحمل مسئولية أنفسهم فى السوق الرمادية Gray market. وتظل الإجراءات الرسمية البيروقراطية معوقًا أمام المشروعات الجديدة. تعنى المحاكم البطيئة فى إجراءاتها أن أصحاب الأعمال سيجبرون على ترك العديد من الفرص الجذابة لكسب الزبائن الجدد؛ لأنهم يعلمون أنهم لن يتمكنوا من حماية أنفسهم متى تعرضوا لعمليات غش. وأسوأ الأمثلة على هذه القوانين تجدها فى الدول الفقيرة، وهذا أحد الأسباب الرئيسية وراء فقر هذه الدول؛ إذ إن حكومات الدول الغنية تقوم عادة بتنفيذ تلك المهمات البيروقراطية الأساسية على نحو أسرع، وأرخص ثمنًا، فى حين أن حكومات الدول الفقيرة لا تنفك عن إطالة هذه العملية على أمل سرقة بعض النقود الإضافية من المواطنين.

الأعـراف مـهـمـة

إن كل ما تقوم به الحكومة من قطع للطريق، والفساد المنتشر، والقوانين القمعية التى وضعت لتسهيل ابتزاز الرشا كلها عناصر من القطعة المفقودة من لغز النمو والتنمية. وأذكر أن رجال الاقتصاد ممن يعملون فى قضايا التنمية كانوا يلتفون حول شعار «الأعراف مهمة» طوال السنوات العشر الماضية تقريبًا. ومن الصعب بالطبع أن تصف ما هو «العرف»، حتى إنه من الأصعب تحويل العرف السيئ إلى آخر جيد.

ولكن ثمة تقدما فى ذلك الشأن آخذ فى الحدوث، فنظرية مانكور أولسون عن الحكومة قاطعة الطريق تساعدنا على الفهم على نحو مبسط، كيف يمكن أن تؤثر أنواع الحكومات المختلفة على دوافع كل أفراد الشعب، بالرغم من أنها تعطينا فكرة ضئيلة فقط عن كيفية تحسين وضعنا الراهن.

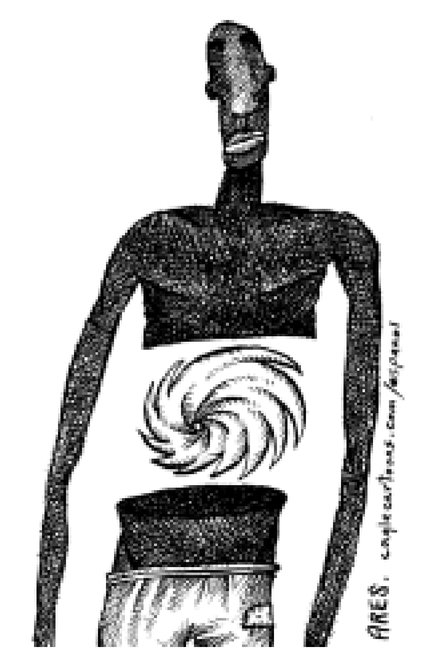
ويعطينا قياس البنك الدولى للإجراءات الرسمية البيروقراطية فهمًا ممتازًا لأحد أنواع الأعراف ألا وهو قوانين العمل البسيطة. ويوضح لنا كيف يمكن لبعض الدعاية البسيطة أن تعمل على تطوير بعض هذه الأعراف. فمثلا، بعدما أعلن البنك الدولى حقيقة أن أصحاب المشروعات فى إثيوبيا لا يمكنهم البدء قانونيًا فى تنفيذ مشروعاتهم دون دفع ما يعادل راتب أربع سنوات لنشر إعلان رسمى عن بدء نشاط شركاتهم فى الصحف الحكومية، استجابت الحكومة الإثيوبية أخيرًا وقررت إلغاء تلك القوانين. وبعدها على الفور قفز معدل تسجيل الشركات الجديدة بحوالى ٥٠٪.

وللأسف، ليس من السهل دائمًا دفع الحكومات الفاسدة لتُغير أساليبها. فمع أنه يزداد وضوحًا يومًا بعد يوم أن الأعراف الفاسدة هى مفتاح لغز فقر الدول النامية، فمعظم الأعراف يصعب وصفها فى ظل نموذج جذاب مثل نموذج مانكور أولسون أو حتى فى ظل بيانات جُمعت بدقة من جانب البنك الدولى، فمعظم الأعراف البائسة تجدها بائسة بطبيعتها.



اعترف أولسون نفسه أن نظريته لم تدرك الحجم الهائل للضرر الذى تُبتلى به الشعوب من الحكومات الفاسدة





أسوأ مكتبة فى العالم

تسبب أحد الأعراف ذو النتائج العكسية فى وجود أسوأ مكتبة فى العالم. فبعد مرور بضعة أيام أثناء زيارتى للكاميرون، توجهت لزيارة إحدى مدارسها الخاصة ذائعة الصيت، وأكثرها هيبة، التى تعادل تقريبًا مدرسة إيتون Eton فى بريطانيا. لم تكن المدرسة بعيدة عن مدينة باميندا، وكانت أرضها والحدائق المحيطة بها خليطًا من الغريب والمألوف: تذكرت كثيرًا مدرستى القديمة فى بريطانيا عندما رأيت الفصول الواقعة على ارتفاع منخفض من سطح الأرض، والتى لم تتكلف الكثير فى بنائها وهى محيطة بفناء اللعب. ولكن لم يكن يذكرنى بها الطريق الذى تحفه الأشجار والمرصوف ببلاط مختلف الأشكال والأحجام، والذى كان يقطن فيه كل المعلمين.

أخذتنا أمينة مكتبة المدرسة فى جولة بها، وقد كانت متطوعة فى منظمة «فى إس أو» VSO التطوعية التى تتخذ من بريطانيا مقرًا لها والتى تهدف إلى توظيف المتطوعين المهرة فى أكثر الأماكن احتياجًا لوجودهم فى الدول الفقيرة. وكانت المدرسة تتباهى بأن بها مبنيين منفصلين للمكتبة، ومع ذلك لم تكن أمينة المكتبة سعيدة؛ الأمر الذى عرفت سببه على الفور.

كانت المكتبة تبدو غاية فى الروعة للوهلة الأولى؛ إذ إنها المبنى الوحيد المكون من طابقين فى المدرسة باستثناء منزل مديرة المدرسة الفخم. كما كان تصميمها فريدًا حيث جاء مشابهًا لتصميم دار أوبرا سيدنى، ولكنه جاء بمنزلة الصورة الفقيرة للأوبرا. وبدلا من أن يتدلى السقف المنحدر لأسفل من نقطة مرتفعة نجد أنه قد ارتفع من واد رئيسى لأعلى على شكل V على نحو جعله يشبه الكتاب المفتوح الموضوع على حامل.

وبالرغم من تصميمه المبتكر، إلا أنى كنت متأكداً أن ما سأشاهده فى المكتبة الجديدة المبهرة سوف يدوم فى ذاكرتى أكثر من المبنى نفسه. وفى موقعه الذى يجعله عرضة لحرارة الشمس الحارقة فى فصل الجفاف فى الكاميرون، من الصعب على الرائى من أول وهلة ملاحظة المشكلة التى يخلفها سقف يبدو ككتاب مفتوح عملاق. ولكنك يمكن أن تتناسى مثلما تناسى المهندس المعمارى للسقف أن الكاميرون بها موسم لسقوط الأمطار. فحينما تمطر السماء فى الكاميرون فهى تمطر لخمسة أشهر متواصلة، وتنهمر بقوة حتى إن المصارف والقنوات الهائلة الحجم المخصصة لتصريف مياه الأمطار سرعان ما تفيض. وعندما يلتقى هذا النوع من المطر مع سقف غير مزود ببالوعات صرف يتحول السقف نفسه إلى بالوعة صرف تصب الماء على القاعة ذات المدخل المسطح، فحينئذ تعرف أنه قد آن الأوان لوضع الكتب فى أغلفة من البلاستيك.

والسبب الوحيد فى أن كتب المدرسة ما زالت موجودة حتى الآن هو أنها لم توضع يومًا فى المبنى الجديد؛ فقد كانت أمينة المكتبة تأبى باستمرار طلب مديرة المدرسة بنقلها من المكتبة القديمة إلى المكتبة الجديدة. من هنا فهمت أن مديرة المدرسة كانت رافضة بشدة وجودى عندما خطوت إلى داخل مبنى المكتبة الجديد لأرى الخراب، كانت معظم أجزاء المكتبة قد تدمرت. احتوت الأرضية على بقع ناتجة عن أعداد لا تحصى من البرك الموحلة التى تسببت بها مياه الأمطار. وكان الهواء يحمل رائحة عفنة، تجعلنى أنظر إليها وكأنها كهف رطب من كهوف أوروبا وليس مبنى حديثًا عند خط الاستواء. كما كان الجص يخرج من الجدران بحيث أصبح المنظر أشبه بلوحة جدارية بيزنطية يعود تاريخها إلى ألف عام مضى، مع أن المبنى لا يتجاوز عمره الأربع سنوات فقط.

يا له من إهدار فادح للموارد. فبدلا من بناء تلك البناية الجديدة، كان يمكن للمدرسة شراء أربعين ألف كتاب جيد، أو شراء أجهزة الحواسب الآلية التى يمكن وصلها بالإنترنت، أو تمويل منح دراسية للأطفال الفقراء. فأى من هذه البدائل كان سيعد أفضل على نحو لا يضاهى من هذا المبنى الجديد غير الصالح للاستخدام. هذا بخلاف حقيقة أن المدرسة لم تحتج يومًا إلى مبنى جديد للمكتبة من الأساس، فالمبنى القديم يؤدى مهمته على أكمل وجه، ويمكنه استيعاب كتب تزيد ثلاث مرات عن الكتب التى تقتنيها المدرسة، كما أن به عازلا ضد الماء.

السبب وراء تصميم المكتبة غير المناسب هو أن وجود المكتبة لم يكن ضروريًا، ففى النهاية لم يكن أحد يهتم بما إذا كان المبنى مناسبًا من الناحية المعمارية أم لا، فلم يكن هناك داع له. ولكن إذا لم يكن هناك مغزى من وجود المكتبة، فلماذا بُنيت فى المقام الأول؟

دائمًا يُنسب إلى نابليون قوله: «إياك أن تنسب إلى التآمر أمورًا يمكن أن يُعزى حدوثها إلى عدم الكفاءة». وهذه هى النتيجة الطبيعية: فعدم الكفاءة هو كبش فداء سهل لما يحدث فى الكاميرون. فكل ما يراه السائح فى هذا البلد يدفعه إلى أن يهز كتفيه وينسب فقر الكاميرون

؟؟؟؟

إلى حمق شعبها. وتبدو المكتبة دليلا دامغًا على هذا ولكن الحقيقة أن الشعب الكاميرونى ليس أكثر ذكاء أو أكثر غباء من باقى الشعوب. إذ تجد الأخطاء التى تعود للغباء واسعة الانتشار فى الدولة إلى درجة أن عدم الكفاءة لا يمكن أن يكون السبب المناسب الذى نبحث عنه، فثمة شىء يؤدى هذه المهمة على نحو يخضع لخطة منظمة. وأكرر من جديد إننا فى حاجة لمراجعة حوافز صناع القرار.

أولا: تعد بلدة بافوت Bafut الصغيرة مسقط رأس معظم المسئولين الكبار عن التعليم فى شمال غرب الكاميرون. ولما كان هؤلاء المسئولون يسيطرون على أموال نظام التعليم التى يوزعونها على أساس العلاقات الشخصية وليس الحاجة؛ فقد بات يُطلق عليهم اسم «مافيا بافوت». ولم يكن من الغريب أن مديرة هذه المدرسة الخاصة المرموقة عضوة كبيرة فى مافيا بافوت. ولأنها رغبت فى تحويل مدرستها إلى جامعة، كان السبيل الوحيد أمامها بناء مكتبة بنفس حجم ونوعية مكتبات الجامعات. ولم تر المديرة أية أهمية لحقيقة أن المكتبة الموجودة بالفعل كانت تكفى وتزيد، وأن أموال دافعى الضرائب يمكن أن يتم إنفاقها بسبل أخرى أفضل، أو بواسطة مدارس أخرى.

ثانيًا: لم يكن هناك من يراقب نفقات مديرة المدرسة؛ إذ لم يكن أعضاء هيئة التدريس يحصلون على العلاوات، أو الترقيات التى تعتمد على الكفاءة، وإنما تلك التى تعتمد تمامًا على قرارات المديرة. ولما كانت المدرسة مرموقة ذات ظروف عمل جيدة بالنسبة للمعلمين، لم يفكروا فى التخلى عن وظائفهم فيها، مما يعنى أن علاقتهم بالمديرة يجب أن تظل جيدة. وفى الواقع، كان الشخص الوحيد الذى لديه القدرة على عصيان المديرة هو أمينة المكتبة التى لا تخضع للمساءلة إلا من قِبَل المقر الرئيسى للمنظمة التطوعية البريطانية فى لندن. صحيح أنها انتقلت إلى العمل فى المدرسة بعد بناء المكتبة، ولكنها على الأقل جاءت فى الوقت المناسب لتحول دون نقل مجموعة الكتب إليها وتدميرها. أما مديرة المدرسة، فإما أنها كانت شديدة الغباء بحيث لم تدرك أن الماء يفسد الكتب، أو أنها لم تكن تكترث كثيرًا بشأن الكتب، وأرادت ببساطة أن توضح أن المكتبة بها بعض الكتب. ويبدو أن الاحتمال الثانى أرجح.

ولما كانت الأموال تحت إمرتها، ولا يستطيع أحد الاعتراض على تبذير الأموال بإنفاقها على بناء مبنى ثان للمكتبة، كانت مديرة المدرسة تسيطر على المشروع سيطرة تامة. حتى إنها طلبت إلى أحد طلاب المدرسة السابقين أن يصمم لها المبنى، ربما لتوضح نوعية التعليم الذى تقدمه هذه المدرسة، وبالفعل نجحت فى إثبات شىء ما وإن لم يكن الشىء الذى قصدته. ولكن مهما كان المهندس المعمارى يفتقر إلى الخبرة أو الكفاءة، فإن عيوب التصميم كان يمكن اكتشافها إذا كان لدى أى شخص يعنيه الأمر اهتمام حقيقى بمسألة التيقن من أن المكتبة تؤدى الغرض منها كمكتبة. ولكن لم يكن هذا محور اهتمام أى من أصحاب المناصب، بل كان اهتمامهم كله منصبًا على وضع «شىء ما» يؤهل المدرسة لأن تصبح جامعة.

لنتأمل هذا الموقف: مال يُمنح بسبب شبكة العلاقات الاجتماعية وليس الحاجة؛ ومشروع نُفذ لغرض الوجاهة وليس للاستخدام، عدم وجود مراقبة أو مساءلة، وتعيين مهندس معمارى لغرض التظاهر بواسطة شخص غير مهتم بجودة العمل. النتيجة المتوقعة: مبنى كان من الأفضل ألا يتم بناؤه فى المقام الأول، ولكن بُنى أيضًا بطريقة سيئة.

والمغزى من هذه القصة هو أن المسئولين الطموحين الذين يسعون وراء مصالحهم الخاصة هم فى الغالب السبب وراء التبذير فى الدول النامية، حتى إن الواقع أكثر قتامة من هذا. فالمسئولون الطموحون الذين يسعون وراء مصالحهم الخاصة والذين يشغلون مناصب حكومية، سواء كانت مناصب كبيرة أو صغيرة، موجودون فى كل مكان فى العالم. صحيح أنه فى كثير من البلدان تنجح القوانين والصحافة، والمعارضة الديمقراطية فى وضع هؤلاء تحت السيطرة ولكن المأساة فى الكاميرون هى أنه لا يوجد شىء يمكن أن يضع المصلحة الشخصية تحت السيطرة.

وتعقدت الأمور.. الدوافع والتنمية فى نيبال

يعطى نظام التعليم الكاميرونى المسئولين عنه نوعًا من الدوافع غير الصحيحة مفادها أن تعليم الأطفال آخر ما يمكن أن يتربحوا من ورائه، وعليه، فهو آخر ما يركزون عليه.

أما مشروعات التنمية الأخرى فتتضمن شبكة أكثر تعقيدًا من الدوافع غير المألوفة. كشف الخبير الاقتصادى إلينور أوستروم Elinor Ostrom مثالا منها بعد أن درس بالتفصيل أنظمة الرى المعقدة فى نيبال. فإلى جانب السدود والقنوات القديمة التقليدية فى نيبال، كانت هناك بعض السدود الخرسانية، والقنوات الحديثة التى صممها المهندسون الخبراء، ومولتها تبرعات منظمات دولية كبيرة. فأيهما كان يعمل بشكل أفضل، ولماذا؟

عندما سمعت عن هذه الدراسة ظننت أن بإمكانى تخمين مفادها. كان يبدو جليًا أن التصميمات الحديثة، ومواد البناء، والهندسة، والتمويل الضخم؛ يجب أن تخلق نظام رى أفضل من جموع المزارعين الذين يستخدمون الطمى والعصى، أليس هذا صحيحًا ؟ نعم غير صحيح.

نمتلك الآن معرفة جيدة ونعرف أن مشروعات السدود الكبيرة نادرًا ما تتناسب مع الظروف الداخلية فى هذه البلدان، والحقيقة أن «السد الصغير كان أفضل»؛ إذ إن السبل التى كان يتبعها أبناء البلد، والمعرفة التقليدية التى تتوارثها الأجيال على مدار السنين كانت أفضل كثيرًا، أليس هذا صحيحًا؟ لا، هذا غير صحيح أيضًا.

كي ينعم بتأييدهم المستمر، يريد الرئيس أن يظل مئات الآلاف من قوات الشرطة والجيش سعداء، وكذلك العديد من معاونيه الآخرين





ما يحدث فى نيبال أكثر إثارة بكثير من تلك الفروض المفرطة فى التبسيط. نجح أوستروم فى الكشف عن مفارقة واضحة، يذهب أول جزء منها إلى أن السدود الحديثة التى صُممت وبُنيت بحرفية تتسبب فى خفض كفاءة وفعالية أنظمة الرى. أما الجزء الثانى من المفارقة، فيذهب إلى أنه عندما يدفع المتبرعون لبناء قنوات الرى، أو لتعزيزها بالمواد الحديثة، فإنها تبنى بطريقة تحسن من نظام الرى، وتوصل مزيدًا من الماء لمزيد من البشر.

فلماذا يمكن للمتبرعين شق قنوات رى ذات كفاءة، ولا يمكنهم بناء سدود ذات كفاءة؟ بالتأكيد هناك شىء يحدث أكثر تعقيدًا من المناقشة البالية بين الخبرة الفنية الحديثة والمعرفة التقليدية. تتراءى الحقيقة أكثر لمن يحاول تحليل دوافع جميع المعنيين بالأمر.

لنبدأ بالفكرة الواضحة من أن أى مشروع يكون لديه فرصة كبيرة للنجاح إذا كان منفذوه هم من سيستفيدون من نجاحه. وعلى الفور يكشف هذا لنا النقاب عن السبب وراء الميزة التى تتمتع بها الطرق التقليدية الموجودة بالفعل، ألا وهو ليس لأن هذه الطرق التقليدية تكشف عن حكمة الأصالة (التى قد تكون سببًا بالفعل)، ولكن لأن من صمموها، وبناها، وقام بإصلاحها، هم المزارعون أنفسهم الذين يستخدمونها. فبعكس السدود، والقنوات الحديثة التى صممها المهندسون الذين لن يتضوروا جوعًا إذا فشلت هذه السدود، والذين أسند إليهم هذه المهمة موظفون حكوميون لا تتأثر وظائفهم بالنجاح أو الفشل فى عملهم، والذين منحوا التمويل من مسئولين فى مؤسسات مانحة تميل إلى تقييم أدائهم بالإجراءات وليس بالنتائج. من هنا، يبرز لنا على الفور السبب فى أن المواد الأفضل، والتمويل الضخم لا يؤديان بالضرورة إلى النجاح.

ومتى نظرنا إلى الأمر من زاوية أعمق، نجد أن أنظمة الرى يجب أن تتم صيانتها لتكون صالحة للاستخدام. ولكن من سيقوم بأعمال الصيانة لها؟ فكل من المؤسسات المانحة وموظفى الحكومة ليسوا مهتمين بعملية الصيانة مثلما هو مفترض؛ فمعظم ترقيات موظفى الحكومة النيباليين تعتمد على الأقدمية، وقد ينالونها أحيانًا بسبب اشتراكهم فى إنشاء مبانٍ «مرموقة». أما الصيانة، فهى بمنزلة الوظيفة التى لا تمنح أى فرصة للتقدم فيها، بغض النظر عما إذا كانت تعود على المزارعين بالفائدة أم لا. فما

؟؟؟؟

الذى سيجعل موظف الحكومة يسافر إلى مكان بعيد عن مدينة كاتاماندو Kathmandu التى تتسوق فيها زوجته ويذهب فيها أبناؤه إلى المدرسة؛ لكى يشرف على مهمة حقيرة لا تنتهى؟ وبالإضافة إلى ذلك، فإن الرشوة دائماً ما تكون مصدر دخل محتمل لموظفى الحكومة، وتقدم عقود الإنشاءات الكبيرة فرصاً أكبر للتربح من الرشاوى عن تلك التى توفرها أعمال الصيانة.

ومثل موظفى الحكومة، تعمل المؤسسات المانحة فى ظل قيود تفضل مشروعات البناء الكبيرة. وتحتاج كل المؤسسات المانحة إلى المشروعات باهظة التكاليف؛ لأنها إذا فشلت فى إنفاق المال فمن المحتمل ألا تستطيع جمع المزيد منه. بالإضافة إلى هذا، تجد العديد من منظمات المساعدة الثنائية، مثل الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية USAID، تتقيد بتقديم أنواع محددة من المساعدة، فمثلا: على المنظمة أن تستخدم معدات تشتريها من الولايات المتحدة التى عادة ما تكون ثقيلة وذات تكنولوجيا عالية الجودة. ولّما كانت الجرافات تستخدم فى بناء السدود أكثر من استخدامها فى أعمال صيانتها، فإن النتيجة تكون بدورها هى تفضيل مشروعات البناء الكبيرة. وحتى إذا لم تكن المؤسسة المانحة منحازة إلى المشروعات الكبيرة، فستظل مضطرة للاعتماد على المعلومات التى تصلها من موظفيها ومستشاريها المحليين، الذين يكون لديهم - فى معظم الأحيان - نفس دوافع موظفى الحكومة.

صحيح أن كل هذا يبدأ فى تفسير السبب فى أن من يأمرون بتنفيذ المشروعات الكبيرة لا يهتمون بنفس القدر الذى يهتم به الفلاحون بمسألة إنشاء مشروعات فعالة وغير مكلفة، ولكنه لا يفسر اكتشاف أوستروم أن السدود المولة بالتبرعات لا تزيد الأمور إلا سوءاً، كما أنه لا يفسر أيضاً السبب فى أن قنوات الرى المولة بالتبرعات تؤدى وظيفتها على أكمل وجه بغض النظر عمّا إذا كان من يأمرون بتنفيذها مهتمين بأن تؤدى الغرض منها أم لا. ولفهم السبب، يجب علينا التفكير فى المزارعين أنفسهم.

فلا أحد إلا المزارعين يهتم بصدق بصيانة نظام الرى بمجرد بنائه، وهذه ليست بمعضلة، فقبل بناء أى نظام ضخم للرى الحديث، كان لزاماً على المزارعين القيام بأعمال الصيانة للأنظمة التقليدية. فإذا كان بوسعهم صيانة الأنظمة القديمة، ألا يسعهم صيانة الأنظمة الجديدة أيضاً؟

تتطلب الصيانة القيام بمهمتين أخريين كبيرتين هما الحفاظ على سلامة السد وتنظيف القنوات من أى عوائق. ويتطلب هذا الكثير من العمل الشاق الذى لن يكترث المزارعون بالقيام به ما لم يشعروا بالمنافع، وهذا الأمر من المحتمل أن يؤدى إلى مشكلة؛ فبينما يرغب كل المزارعين فى سلامة السد، فإن المزارعين المجاورين للسد لا يهتمون كثيراً بما يحدث لقنوات الصرف التى تقع بعيداً عنهم. فلماذا عليهم أن يهتموا؟ ومن حسن الحظ، توصلت معظم المناطق الزراعية فى نيبال إلى اتفاقية تعاون؛ ففى الوقت الذى تختلف فيه التفاصيل فإن المبدأ العام هو أن يظل المزارعون الذين تقع أراضيهم فى اتجاه مجرى النهر يساعدون فى صيانة السد مقابل تلقيهم المساعدة فى صيانة القنوات. وهذا جيد حتى الآن.

فإذا دفعت إحدى المنظمات المانحة المال من أجل إنشاء قناة خرسانية جديدة، فستتحول الأمور نحو الأفضل؛ فالقنوات الجديدة خير من القديمة، وتنقل ماء أوفر، وتتطلب أعمال صيانة أقل. ولكن إذا دفعت هذه المنظمة المانحة مبلغاً كبيراً من أجل بناء سد جديد، فسينهار كل شىء. ليس لأن السد نفسه سينهار، ولكن العكس. فلأن السد الخرسانى يحتاج لأعمال صيانة أقل بكثير من السد العادى، لن تفلح حينئذ اتفاقية التعاون التى كانت تحافظ على صيانة نظام الرى بأكمله. وستنهار الصفقة المتوارثة. فالمزارعون القاطنون أعلى النهر لن يستمروا فى تنظيف القنوات مقابل حصولهم على مساعدة المزارعين أسفل النهر فى صيانة السد؛ فالمزارعون القاطنون أعلى النهر لم يعودوا فى حاجة إلى المساعدة، ولهذا فإن المزارعين أسفل النهر لم يعد لديهم ما يقدمونه من جانبهم فى هذه الصفقة.

من هنا باءت العديد من أنظمة الرى الحديثة فى نيبال بالفشل لأنه على الرغم من أن الخصائص الفنية للنظام ربما تكون قد شهدت تحسنًا فإن الخصائص البشرية للنظام لم يجرِ التفكير فيها والتعامل معها على الإطلاق.

يعتبر هذا المثال من نيبال دليلا آخر على أنه إذا عجز المجتمع عن توفير الدوافع المناسبة للتصرف على نحو منتج، فلن ينقذه من الفقر أى قدر من البنية التحتية الفنية. فمشروعات التنمية غالباً ما يأمر بتنفيذها أناس لديهم اهتمام كبير بنجاحها وليس اهتمام كبير بالرشا والتقدم الوظيفى. فإذا كانت كفاءة المشروع تحظى بأقل قدر من الاهتمام، فلا عجب إذا لم يحقق أهدافه المفصح عنها. وحتى وإن حقق المشروع أهدافه «الحقيقية» ألا وهى إثراء البيروقراطيين، وحتى إذا كان المشروع من تلك المشروعات التى سيجرى تنفيذها إن كان هدفها الحقيقى هو التنمية، فسوف تفسد الرشا وغيرها من الوسائل الملتوية الأخرى كل شىء.



يفضل الفاسدون أحياناً دفع عجلة الاقتصاد حتى يحصلوا على نصيب كبير من كعكة أكبر





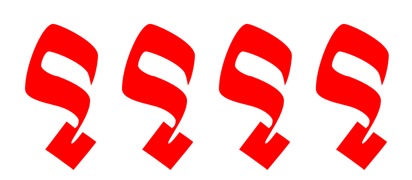
هل ثمة فرصة للتنمية؟

دائماً ما ينصب اهتمام المعنيين بالتنمية على مساعدة الدول الفقيرة لتصبح أكثر ثراء بتحسين نظام التعليم الأساسى، والبنية التحتية مثل الطرق والتليفونات، وهذا بالتأكيد تفكير رشيد. ولكن لسوء الحظ أن كل هذا ما هو إلا جزء ضئيل فقط من المشكلة. اكتشف علماء الاقتصاد - الذين تدارسوا الإحصاءات، وعنوا بدراسة البيانات غير المألوفة مثل الدخل المالى الذى يحققه الكاميرونيون فى الكاميرون والذى يحققه الكاميرونيون المهاجرون إلى الولايات المتحدة - أن التعليم والبنية التحتية والمصانع لا تفسر السبب فى الفجوة بين الأغنياء والفقراء. ربما تكون حالة الفقر فى الكاميرون تضاعفت بسبب نظام التعليم السيئ للغاية، وبسبب بنيتها التحتية المزرية. ولذلك فإذا كان من الجائز توقع أن تكون الكاميرون أفقر أربع مرات فقط من الولايات المتحدة، فسنجد أنها أفقر منها بخمسين مرة. والأهم من ذلك، لماذا لا نرى الشعب الكاميرونى يحاول أن يفعل شيئًا حيال ذلك؟ ألا تستطيع المناطق الكاميرونية تحسين مدارسها؟ ألا تزيد المنافع عن التكاليف؟ ألا يقدر رجال الأعمال الكاميرونيون على بناء المصانع، واستيراد التكنولوجيا، والبحث عن الشركاء الأجانب ... وجنى الثروة من كل هذا؟

من الواضح أن الإجابة لا. أوضح مانكور أولسون أن حُكم اللصوص يعوق النمو فى الدول الفقيرة. فإذا كان الرئيس لصاً، فقد لا يسبب الهلاك بالضرورة لشعبه، بل إنه قد يفضل دفع عجلة الاقتصاد حتى يحصل على نصيب كبير من كعكة أكبر. ولكن بوجه عام فإن أعمال السلب والنهب سوف تنتشر، إما لأن الدكتاتور غير متأكد من طول الفترة التى سيظل فيها فى الحكم، أو لأنه يبغى السماح لأتباعه بالسرقة لكى ينعم بتأييدهم المستمر.

وتحت سفح هرم الثروة، تفشل التنمية لأن قواعد المجتمع وقوانينه لا تشجع المشروعات أو الأعمال التجارية التى ستكون للصالح العام. فأرباب العمل لن يمارسوا أعمالهم التجارية بشكل رسمى (لصعوبة ذلك) وبالتالى لا يدفعون الضرائب؛ ومسئولو الحكومة يطلبون تنفيذ مشروعات لا معنى لها، إما بهدف الوجاهة أو بهدف إثراء أنفسهم، وتلاميذ المدارس لا يمانعون من الحصول على مؤهلات غير مفيدة.

وليس من الجديد أن نسمع عن الدور المهم لكل من الفساد والدوافع غير المناسبة، ولكن ربما من الجديد أن نكتشف أن مشكلة الأنظمة والقوانين الملتوية لا تشرح فقط بعضاً من السبب وراء الهوة بين الكاميرون والدول الغنية، وإنما تشرح السبب بأكمله. فالدول أمثال الكاميرون تجد حالها أقل بكثير من إمكانياتها وطاقاتها حتى لو أخذنا فى الاعتبار بنيتها التحتية الضعيفة، أو استثماراتها الضئيلة، أو حدها الأدنى من التعليم. ولكن الأسوأ من هذا أن شبكة الفساد تحيط بكل جهد لتطوير تلك البنية، وجذب الاستثمار، والارتقاء بمستوى التعليم.



سيغدو نظام التعليم فى الكاميرون أفضل متى توفر للأفراد الدافع لتلقى التعليم الجيد، وإذا كان من يمسك بزمام السلطة حكومة مختارة من قبل الشعب لكفاءتها، وأن يجرى الحصول على الوظائف وفقاً لمعايير المستوى الجيد والمهارات الحقيقية، وليس وفقاً للعلاقات الشخصية. كما ستظفر الكاميرون بتقنيات أفضل، ومزيد من المصانع العاملة متى كان مناخ الاستثمار سليماً سواء بالنسبة للمستثمرين المحليين أو الأجانب، ومتى كانت الأرباح لا تنهبها الرشا والروتين.

ويمكن أن يجرى استغلال القدر الضئيل الذى تملكه الكاميرون من التعليم، والتكنولوجيا، والبنية التحتية على نحو أفضل إذا كان المجتمع قائماً على إثابة الأفكار الجيدة الخلاقة. ولكن ليست هذه طبيعة هذا النظام.

لم نصل بعد إلى رأى مناسب يمكنه تحديد ما ينقص الكاميرون أو ما ينقص فى الحقيقة الدول الفقيرة فى العالم. ولكن بدأت تلوح لنا فكرة عنه، إذ يسميه البعض «رأس المال الاجتماعى»، وأحياناً «الثقة». ويسميه آخرون «حكم القانون»، أو «الأعراف». ولكن كلها ليست إلا مجرد مسميات. فما يزيد مشكلة الكاميرون تعقيداً هو أن حالها مقلوب رأساً على عقب – مثلها فى ذلك مثل العديد من الدول الفقيرة – بحيث إن معظم مواطنيها يحبون القيام بالأعمال التى تسبب الضرر للآخرين سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. أما دوافع كسب الثروة بأى طريقة، فهى أمور تعتمد على عقولهم مثلما اعتمدت على السقف فى مكتبة المدرسة.

لقد أصيبت الحكومة أولا بانهيار المعايير، ثم ابتلى به المجتمع بأسره. فلا مغزى من الاستثمار فى أى من الأعمال التجارية لأن الحكومة لن تحميك من اللصوص. (فقد تتحول أنت أيضاً وتصبح لصاً). ولا مغزى لدفع فاتورة هاتفك لأنك إذا لم تدفع، لن ينجح فى مقاضاتك أحد. (فلا مغزى إذن من افتتاح شركة تليفونات). ولا مغزى من تلقى التعليم لأن الوظائف لا توزع بناءً على الكفاءة. (كما لن يمكنك الحصول على قرض لتكمل تعليمك لأن البنوك لا يمكنها تحصيل القروض، والحكومة لا توفر المدارس الجيدة). ولا مغزى كذلك من إنشاء شركة استيراد لأن موظفى الجمارك سيكونون هم المستفيدين (لهذا لا تجد إلا قدراً ضئيلا من التجارة، وتحصل إدارة الجمارك على قدر غير كاف من المال، مما يجعلها تلهث بحثاً عن الرشا).

والآن ها قد بدأنا نفهم قدر أهمية المشكلة، ويمكننا البدء فى دفع الأمور نحو الأفضل. ولكن مقاومة الحلول متأصلة فى طبيعة المشكلة؛ ولهذا فإن معالجتها عملية شاقة بطيئة. لا يستسيغ عقلنا فكرة فرض الديمقراطية بالقوة، وحتى إذا فعلنا ذلك، فستتولد أنظمة لن تُكتب لها الاستمرارية. صحيح أننا لا نحب أن تضيع معونات التنمية وسط الروتين، ولكن التيقن من أن الأموال تذهب إلى أماكنها الصحيحة أمر يلتهم الوقت التهاماً.

بالتأكيد لا يمكن حل هذه المشاكل بين عشية وضحاها، ولكن بعض الإصلاحات البسيطة – التى يصاحبها قدر يسير من الإرادة من جانب رجال السياسة – يمكنها تحويل الدول الفقيرة مثل الكاميرون للسير فى الاتجاه الصحيح. وأحد الإصلاحات البسيطة هى تقليل الروتين بما يفسح الطريق أمام المشروعات الصغيرة لتعمل فى إطار قانونى وهو الأمر الذى يسهل على أصحابها التوسع والحصول على قروض. أما الإصلاحات القانونية الضرورية فهى مألوفة؛ فمع أنها تعتمد دائماً على حكومة نزيهة وواعية، فإنها لا تحتاج إلا وزيراً يضع عقله وقلبه فى المكان الصحيح بدلا من أمل حدوث إصلاح دائم بجهاز الحكومة بأكمله.

وثمة خيار آخر، وهو خيار لا غنى عنه، ألا وهو تجنيد اقتصاد العالم كله للمساعدة. فمعظم الدول الفقيرة ذات أنظمة اقتصادية ضئيلة الحجم؛ فمثلا يساوى اقتصاد أفريقيا ما وراء الصحراء بأكمله حجم اقتصاد دولة بلجيكا تقريباً. كما تملك دولة أفريقية صغيرة مثل تشاد اقتصاداً أصغر من اقتصاد إحدى ضواحى واشنطن مثل بيثيسدا Bethesda، ويعد قطاعها المصرفى أصغر من اتحاد الائتمان الفيدرالى الخاص بموظفى البنك الدولى. لا يمكن للدول الصغيرة أمثال تشاد والكاميرون تحقيق الاكتفاء الذاتى؛ إذ إنها فى حاجة دائمة للحصول على الوقود، والمواد الخام، ومعدات التصنيع بأسعار زهيدة، وكذلك القروض منخفضة الفائدة من البنوك الدولية. ولكن تقف الحواجز العالية حائلا بين شعب الكاميرون وبين التجارة مع الدول الأخرى – إذ إن بها أعلى تعريفات جمركية فى العالم التى تزيد على ٦٠٪. وبالتأكيد تدر هذه الحواجز عائداً للحكومة، وتمهد لها الطريق أمام حماية مشروعات حاشيتها، أو توزع عليهم تراخيص الاستيراد المربحة. فالدولة الصغيرة لا تستطيع الحياة فى عزلة عن الاقتصاد العالمى والذى به يمكنها النمو بقوة. ■

كتاب الزاوية

قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية
أحمد أمين

(٣)

الأشياء المقدسة:

يقدس المصريون أشياء كثيرة، كحذاء الجلشني، والنعل القديم يعلقونه على رأس الخيل أو على باب دكان، أو يعلقونه تحت إبط الأطفال، يعتقدون أنه يمنع من تأثير العين.

ويشترط في مثل هذا النعل أن يكون ملقى في الطريق، لا يعرف له صاحب، وأن توجد إحدى الفردتين فقط ويعتقدون أكثر وأكثر في بوابة المتولي، ومعنى المتولي أحد الأقطاب الذين يحكمون الدنيا. وترى بوابة المتولي مربوطا على مساميرها فتل كثيرة أو شعور أو قطعة من منديل، ويعتقدون في الأضرحة ويتبركون بالمحمل.

ومما يقدس أيضا في مصر شجرة الحنفي وشجرة العذراء في المطرية وشجرة الشراكسة ونحوها. ويقدسون أيضًا الخبز فيحرمون المشي عليه ويلتقطونه من الطريق ليضعوه بجانب الحائط، ويقولون أستغفر الله العظيم. كما يقدسون الورقة المكتوبة ولو كانت قطعة من جريدة لعل فيها آية من القرآن أو اسما من أسماء الله إلى غير ذلك..

لماذا لم يجرِّب الأمريكيون الاشتراكية؟

تـــونـــى يـــوت

Tony Judt

■■ يود الأمريكيون أن تتجه الأمور إلى الأفضل فوفقا لاستطلاعات الرأى العام فى السنوات الأخيرة يتمنى الجميع أن يحصل أطفالهم على فرص أفضل للحياة منذ الميلاد، إنهم يفضلون أن تحصل الزوجة والابنة على نفس احتمالات البقاء على قيد الحياة التى تتوافر للأمومة والمرأة فى الدول المتقدمة الأخرى. ويقدر الأمريكيون التغطية الطبية الشاملة بتكلفة أقل ويتمنون متوسطا أطول للعمر وخدمات عامة أفضل ومعدلات جريمة أقل.

يقال أن هذه الأمور متوافرة فى النمسا والدول الاسكندنافية وهولندا ولكن يترافق مع هذا القول أن ذلك تقابله ضرائب عالية ودولة تدخلية «تدخل السياسة الحكومية فى شئون الشعب» نفس هؤلاء الأمريكيين يقولون «ولكن هذه هى الاشتراكية ونحن لا نريد تدخل الدولة فى شئوننا وبالإضافة إلى ذلك فنحن لا نريد دفع المزيد من الضرائب».

يعد هذا التنافر المعرفى الغريب قصة قديمة، فمنذ قرن من الزمان طرح عالم الاجتماع الألمانى الشهير فيرنر سومبارتWerner Sombart هذا السؤال لماذا لاتوجد اشتراكية فى أمريكا؟ هناك العديد من الإجابات لهذا السؤال،بعضها له علاقة بالحجم الكبير للدولة. حيث يكون من الصعب إدامة وتنظيم الأهداف المشتركة على نطاق الامبراطورية. هناك أيضا بطبيعة الحال عوامل ثقافية تتضمن الريبة الأمريكية حول الحكومة المركزية.

على مستوى الواقع الفعلى فليس من قبيل المصادفة أن تعمل الديمقراطية ودولة الرفاهية الاجتماعية على نحو أفضل فى الدول الصغيرة المتجانسة حيث لا تنشأ قضايا الريبة والشك المتبادل بشكل حاد ويتوافر الاستعداد للدفع للآخرين مقابل الخدمات والمنافع التى يقدمونها قائما ذلك على أساس أنهم سيحذون نفس الحذو معك ومع أطفالك لأنهم مثلك ويرون العالم بنفس طريقتك.

على العكس فقد أدت الهجرة والأقليات الظاهرة إلى تغيير التركيبة السكانية للدولة بحيث إننا نجد الوضع المعتاد هو تزايد الشكوك فى الآخرين وفقدان الحماس لمؤسسات دولة الرفاهية. وأخيرا فإنه مما لا جدال فيه أن الديمقراطية الاجتماعية ودولة الرفاهية تواجهان اليوم تحديات خطيرة وأن نجاتهما لا تكمن فى مجرد سؤال، كما أنهما ليستا على مستوى الثقة الذى كانتا عليه منذ ظهورهما.

ولكن ينصب قلقى هذه الليلة على السؤال التالى: لماذا نواجه نحن هنا فى الولايات المتحدة كل هذه المصاعب حتى فى مجرد تخيل نوع مختلف من مجتمع من هؤلاء الذين تتسبب الاختلالات والتفاوتات التى لديهم فى المتاعب لنا؟ يبدو علينا أننا فقدنا القدرة على التساؤل عن حاضرنا ناهيك عن فقدان القدرة على تقديم بدائل لهذا الحاضر. لماذا نحن بعيدون تماما عن تصور مجموعة مختلفة من الترتيبات لصالحنا المشترك؟

إن تقصيرنا- عفوا للغة الأكاديمية الإطنابية بعد استطراديا، فنحن ببساطة لا نعرف كيف نتحدث عن هذه الأمور ولكى نفهم لماذا يكون الحال هكذا فقد نستعين بالتاريخ كما لاحظ كينيزKeynes «إن دراسة تاريخ الرأى يعد ضرورة أولية للتحرر العقلى.» يقول تونىTony Judt «لكى نحقق أهدافنا من التحرر العقلى تلك الليلة فأنا أقترح أن نأخذ لحظة لدراسة تاريخ وجود التحيز وهو الملاذ العالمى المعاصر للاقتصاديين، والحجة الاقتصادية فى جميع مناقشات الشئون العامة.

على مدى السنوات الثلاثين الماضية فى كثير من أنحاء العالم الناطق بالانجليزية «وإن كان ذلك أقل فى القارة الأوروبية وبعض الأماكن الأخرى» عندما كنا نتساءل حول تأييد اقتراح أو مبادرة لم نكن نتساءل حول ما إذا كانت جيدة أم رديئة وبدلا من ذلك نتساءل: هل هى فعالة؟ هل هى مثمرة؟ هل تحقق فائدة للناتج المحلى الإجمالى؟ هل ستسهم فى تحقيق النمو؟ إن هذا الميل إلى تجنيب الاعتبارات الأخلاقية - لحصر أنفسنا فى مسائل المكسب والخسارة وهى المسائل الاقتصادية فى أضيق معانيها لا يعد ميلا بشريا غريزيا بل هو من الذوقيات المكتسبة.

لقد كنا هنا من قبل. ففى عام ١٩٠٥ قام الشاب ويليامBeveridge William – والذى كان تقريره لعام ١٩٤٢ بمثابة إرساء لأسس دولة الرفاهية البريطانية بإلقاء محاضرة فى أكسفورد تساءل من خلالها عن السبب الذى يؤدى إلى حجب الفلسفة السياسية فى المناقشات العامة بواسطة الاقتصاد الكلاسيكى. ينطبق سؤال Beveridge بنفس القوة اليوم ومع ذلك نلاحظ أن هذا الكسوف فى الفكر السياسى لا يمت بأى صلة إلى كتابات عظماء الاقتصاديين أنفسهم. وفى القرن الثامن عشر كان لما أطلق عليه آدم سميث «المشاعر الأخلاقية» المكانة الأولى فى المحادثات الاقتصادية.

فى الواقع أن الاعتقاد بإمكانية أن نحد من اعتبارات السياسة العامة حتى تكون مجرد تفاضل وتكامل اقتصادى يعد فى حد ذاته مصدرا للقلق. أما الماركيزدىThe Marquisde Condorcet وهو من أكثر الكتاب تبصرا بالرأسمالية التجارية فى سنواتها الأولى فكان توقعه – مع نفوره من هذا التوقع هو الاحتمال بأن «لا تزيد الحرية فى عيون أمة شرهة عن كونها شرطا ضروريا لتأمين العمليات المالية». إن ثورات العصر تواجه خطر إشاعة الخلط بين حرية كسب المال وبين الحرية نفسها. ولكن كيف يتسنى لنا فى عصرنا التفكير حصرا فى الناحية الاقتصادية؟ حقا إن الافتتان بالمصطلحات الاقتصادية الموجزة لم يأت من فراغ.

وعلى العكس فنحن نعيش فى ظل فترة طويلة من الجدل الذى يألفه معظم الناس. إذا كان لنا أن نسأل من الذى يمارس التأثير الأعظم على الفكر الاقتصادى الأنجلوفونى المعاصر فسوف يقفز إلى الذهن خمسة من المفكرين الأجانب هم: Ludwig Von Mises، Joseph، Friedrich Hayek، Schumpeter، Carl Popper، Peter Drucker. يعد هؤلاء هم المفكرون الأوائل والأجداد البارزون فى كلية شيكاغو للاقتصاد الكلى للسوق الحرة. اشتهرSchumpeter بتوصيفه المتحمس لقوى الرأسمالية «الخلاقة والمدمرة» أما Popper فقد اشتهر بدفاعه عن «المجتمع المفتوح» ونظريته الخاصة بالشمولية. كما أن لـDrucker كتاباته حول الإدارة التى تمارس نفوذا ضخما على نظرية وتطبيق الأعمال التجارية فى العقود المزدهرة المعروفة بطفرة ما بعد الحرب.

ثلاثة من هؤلاء الرجال قد ولدوا فى فيينا والرابع وهوVon Mises ولد فى Lemberg بالنمسا وهى تسمى الآنLvov أما الخامسSchumpeter فقد ولد فى Moravia وهى على بضع عشرات من الأميال شمالا من عاصمة الامبراطورية، كل هؤلاء الكتاب تعرضوا لهزة أثرت فيهم بعمق خلال كارثة ضرب النمسا مسقط رأسهم التى أعقبت كارثة الحرب العالمية الأولى. ثم سقطت البلاد فى انقلاب الرجعية عام ١٩٣٤ وبعد ذلك بأربع سنوات تعرضت البلاد للغزو والاحتلال النازى.

تبعا لهذه الأحداث فقد تعرضوا جميعا للنفى وعلى وجه الخصوصHayek – وجميعهم كان عليهم أن يلقوا بكتاباتهم وتعاليمهم فى ظلال السؤال المركزى لحياتهم وهو لماذا انهار المجتمع الليبرالى وولى- على الأقل فى النمسا - وحلت محله الفاشية؟ وكان جوابهم إن المحاولات الفاشلة لليسار الماركسى لإدخال التخطيط الموجه إلى «نمسا ما قبل ١٩١٨» وكذلك إدخال شركات الخدمات المملوكة للبلديات والملكية المشاعة للنشاط الاقتصادى، لم تكن كل هذه المحاولات خادعة فقط بل إنها أدت إلى رد فعل عكسى.

وبالتالى فإن المأساة الأوروبية قد نتجت عن فشل اليسار أولا فى تحقيق أهدافها ومن ثم الدفاع عنها وعن تراثها الليبرالى. لقد تم التوصل إلى استنتاج واحد- وإن كان ذلك من خلال مفاتيح متناقضة وهو: أن أفضل وسيلة للدفاع عن الليبرالية وأفضل خط دفاع لمجتمع منفتح والحريات المصاحبة له هى إبعاد الحكومة عن الحياة الاقتصادية. فإذا وضعت الدولة فى بعد آمن، وإذا منع الساسة مهما بلغ حسن نواياهم من التخطيط والتلاعب أو توجيه شئون مواطنيهم فإن المتطرفين اليمينيين واليساريين على حد سواء سوف يجدون أنفسهم فى وضع حرج.

يبدو علينا أننا فقدنا القدرة على التساؤل عن حاضرنا ناهيك عن فقدان القدرة على تقديم بدائل لهذا الحاضر



بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: إيمان عبدالهادى الكيلانى

واجهJohn Maynard Keynes نفس التحدى وهو كيفية فهم ما حدث بين الحربين ومنع تكرار ما حدث. وKeynes الخبير الاقتصادى الإنجليزى الكبير ولد عام ١٨٨٣ نفس عام ميلاد Schumpeter ونشأ فى مجتمع مستقر ومزدهر فى بريطانيا ذات الثقة والقوة. شاهد Keynes من موقعه المتميز فى وزارة الخزانة وكمشارك فى مفاوضات السلام فى فرساى عالمه وهو ينهار آخذا معه كل المعتقدات المطمئنة المرتبطة بثقافته وطبقته، وكان على Keynes أن يسأل نفسه نفس السؤال الذى طرحه Hayek وزملاؤه النمساويون ولكنه طرح إجابة مختلفة تماما.

نعم اعترف Keynes بأن تفكك أوروبا التى كانت منتصرة فى الماضى كان التجربة الحاسمة فى حياته. فى الواقع إن جوهر مساهماته فى النظرية الاقتصادية كان إصراره على الشك وعلى النقيض من معالجاته المتسمة بالثقة فى الاقتصاد الكلاسيكى والاقتصاد الكلاسيكى الجديد كان Keynes يصر على عدم القدرة أساسا على التنبؤ بالشئون البشرية. وإذا كان هناك درس يمكن استخلاصه من الإحباط والفاشية والحرب فإن هذا الدرس هو أن «عدم اليقين» الذى تصاعد إلى مستوى انعدام الأمن والخوف الجماعى هو قوة التآكل التى هددت العالم الليبرالى ومن الممكن أن تهدده مرة أخرى.

هكذا كان Keynes يتلمس دورا متزايدا لدولة الضمان الاجتماعى بما فى ذلك التدخل لمواجهة التقلبات الاقتصادية، وفى تقريره الكلاسيكى لعام ١٩٤٤ «الطريق إلى العبودية» كتبHayek - مقترحا النقيض ما يلى:

« لا يوجد أى وصف فى العبارات العامة يمكن أن يعطى فكرة كافية عن التشابه بين الكثير من الأدبيات السياسية الإنجليزية الحالية وبين الأعمال التى دمرت الاعتقاد فى الحضارة الغربية فى ألمانيا وخلقت الحالة الذهنية التى من خلالها أصبحت النازية ناجحة».

وبعبارة أخرى كان التصور الصريح لـHayek أن يكون نتاج الفاشية هو فوز حزب العمال فى بريطانيا بالسلطة. وبالفعل فقد فاز حزب العمال، ولكنه بدأ فى تنفيذ السياسات التى كان Keynes قد حددها مباشرة، وخلال العقود الثلاثة التالية كانت بريطانيا العظمى مثل معظم العالم الغربى محكومة فى ضوء اهتمامات Keynes.

ومنذ ذلك الحين وكما نعلم كان للنمساويين انتقامهم. «لماذا كان لابد من حدوث ذلك؟» إنه سؤال مثير جدا للاهتمام ولكن فى مناسبة أخرى، ولكن أيا كان السبب فنحن مثل ضوء خافت من نجم يتلاشى نعيش خارج صدى مناقشة أجريت من سبعين سنة فائتة من قبل رجال ولد معظمهم فى أواخر القرن التاسع عشر. لكى نتأكد من أن المصطلحات الاقتصادية التى تم تشجيعنا على التفكير فيها ليست مجرد



Lit Dickens - Oliver Twist

شكل تقليدى للمصطلحات البعيدة عن الخلافات السياسية بدون التوصل إلى فهم لهذه المصطلحات. فإن الوضع يبدو كما لو كنا نتحدث بلغة لا ندركها تماما.

إن لدولة الرفاهية إنجازاتها الملحوظة التى تحسب لها. فى بعض الدول كانت الديمقراطية الاجتماعية قائمة على أساس برنامج طموح من التشريعات الاشتراكية، فى دول أخرى على سبيل المثال بريطانيا العظمى بلغت هذه الإنجازات حد الوصول إلى سلسلة من السياسات الواقعية التى تهدف إلى التخفيف من الحرمان والحد من التطرف فى الثراء أو الفقر. كان الموضوع المشترك والإنجاز العالمى للحكومات الكينزية المحافظة لحقبة ما بعد الحرب هو نجاحهم الملحوظ فى الحد من عدم المساواة. إذا قمت بمقارنة بين الفجوة التى تفصل الأغنياء عن الفقراء سواء عن طريق الدخل أو الممتلكات فى كل دول القارة الأوروبية وبين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة فسوف تجد أن هذه الفجوة تتقلص بشكل درامى فى الجيل التالى لسنة ١٩٤٥.

مع وجود قدر أكبر من المساواة جاءت فوائد أخرى، فبمرور الوقت تناقصت المخاوف من عودة السياسات المتطرفة مثل سياسات اليأس والحسد وانعدام الأمان ودخل العالم الصناعى الغربى فى حقبة هادئة من ازدهار الأمن، ربما تكون تلك مجرد فقاعة ولكنها كانت فقاعة مطمئنة من خلالها أنجز معظم الناس أفضل بكثير مما كانوا يأملونه فى الماضى وأصبح لديهم سبب وجيه لتوقع الثقة فى المستقبل.

فى الواقع إن المفارقة التى تشترك فيها دولة الرفاهية وجميع دول الديمقراطية الاجتماعية فى أوروبا بما فيها الديمقراطية المسيحية هى ببساطة أن نجاحها سيكون بمرور الزمن مقوضا لجاذبيتها. يعد الجيل الذى يتذكر الثلاثينيات من القرن الماضى هو الأكثر التزاما بالحفاظ على المؤسسات والنظم الضريبية والخدمة الاجتماعية والتدابير العامة التى يرونها تشكل حصنا ضد العودة إلى أهوال الماضى. أما خلفاؤهم حتى فى السويد فقد بدأوا ينسون لماذا كانوا يئنون طلبا للأمان فى المقام الأول.

إن الديمقراطية الاجتماعية هى التى وجهت الطبقة المتوسطة إلى المؤسسات الليبرالية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وأعنى هنا الطبقة المتوسطة طبقا للمعنى فى السياق الأوروبى لقد حصلوا فى كثير من الحالات على نفس الرعاية والخدمات والمساعدات التى تقدم للفقراء مثل التعليم المجانى أو العلاج الطبى المجانى أو منخفض التكاليف أو المعاشات التقاعدية العامة وما شابه ذلك. نتيجة لذلك فقد وجدت الطبقة الأوروبية الوسطى نفسها قبيل الستينيات تتمتع بدخول مالية أكبر بكثير من أى وقت مضى مع توافر العديد من ضروريات الحياة المدفوعة الضرائب مقدما.

وبالتالى فإن الطبقة ذاتها

التى كانت معرضة للخوف وانعدام الأمن فى سنوات مابين الحربين توجهت إلى إجماع ديمقراطى فيما بعد الحرب.

ومع ذلك كانت هذه الاعتبارات مهملة بشكل متزايد فى فترة السبعينيات. بدءا من إصلاحات الضرائب وفرص العمل فى عهد تاتشر ريجانThatcher Reagan وما تلاها بوقت قصير من تحرير القطاع المالى، ثم أصبح عدم المساواة مرة أخرى قضية تشغل المجتمع الغربى. وبعد تقلص ملحوظ فى الفترة ما بين ١٩١٠ إلى فترة الستينيات أصبح مؤشر عدم المساواة فى تزايد مطرد على مدى العقود الثلاثة الماضية.

نحن نجد اليوم فى الولايات المتحدةU.S. معامل جينى Gini Coefficient لقياس المسافة التى تفصل الأغنياء عن الفقراء ولهذا المعامل نظير فى الصين[1]، عندما ننظر إلى الصين وهى دولة نامية حيث سنجد لا محالة فجوات ضخمة بين القلة من الأغنياء والكثرة من الفقراء. إن حقيقة أننا هنا فى الولايات المتحدة لدينا معامل تفاوت مماثل لما فى الصين تنبئنا عن المدى الذى تخلفنا به عن تطلعاتنا الماضية.

بالنظر إلى «قانون المسئولية الشخصية وفرص العمل» لسنة ١٩٩٦ وتشريعات عهد كلينتون التى تسعى إلى توفير الرعاية والرفاهية هنا فى الولايات المتحدة فإن أحكام هذا القانون تجعلنا نضع فى الاعتبار قانونا آخر تم تمريره فى انجلترا منذ ما يقرب من قرنين من الزمان: قانون الفقراء الجدد لسنة ١٨٣٤، وتبدو أحكام قانون الفقراء الجدد مألوفة لنا وذلك بفضل تصوير أعمال تشارلز ديكينزCharles Dickens فى أوليفر تويستOliver Twist فعندما كانNoah Claypole الشهير يسخر من أوليفر الصغير داعيا إياه بالإصلاحيةWork,us كان يشير ضمنا إلى ١٨٣٨ وهذا هو ما نفعله اليوم عندما يتضمن حديثنا سخريةً من «ملكات الرفاهية».

كان قانون الفقراء الجدد مستفزا حيث كان يجبر المحتاجين والعاطلين على الاختيار بين العمل بأى أجر ولو كان منخفضا أو الإذلال للإصلاحية. هذا وتعد معظم أشكال المساعدات العامة فى القرن التاسع عشر بمثابة الأعمال الخيرية والتى غالبا ما كان يتم وصفها بذلك. كان مستوى المساعدات والدعم محسوباً على أساس أن يكون أقل جاذبية من أسوأ البدائل المتاحة. أدى هذا النظام بالنظريات الاقتصادية الكلاسيكية إلى نفى قاطع لإمكانية وجود بطالة فى سوق فعال فإذا انخفضت الأجور بما فيه الكفاية ولم يكن هناك بديل جذاب للعمل فسوف يحصل الجميع على وظائف.

نتجت المأساة الأوروبية عن فشل اليسار أولا في تحقيق أهدافه ومن ثم الدفاع عنها وعن تراثها الليبرالى



فى المائة وخمسين سنة التالية سعى الإصلاحيون إلى استبدال هذه الممارسات المهينة، فقد نجحوا فى الوقت المناسب فى إقرار قانون الفقراء الجدد ونظائره الأجنبية كمسألة حق وذلك من خلال توفير المساعدات العامة. ولم يعد المواطنون العاطلون يعاملون على أنهم أقل استحقاقا حيث إنهم لا يستحقون العقاب على ظروفهم ويجب أن يأخذوا وضعا جيدا كأعضاء فى المجتمع. لقد أقرت دولة الرفاهية فى منتصف القرن العشرين بعمق عدم اللياقة فى تعريف وضع المدنيين كمجرد أداة فى المشاركة الاقتصادية وأكدت على ذلك أكثر من أى شىء آخر.

فى الولايات المتحدة المعاصرة، فى وقت تتزايد فيه البطالة فإن الرجل أو المرأة بلا وظيفة لا يصنفان كأعضاء كاملين فى المجتمع. ومن أجل الحصول على مدفوعات الرعاية الاجتماعية حتى الشحيحة المتاحة فيجب عليهم أن يسعوا إلى الالتحاق بأى عمل ولو كان زهيد الأجر ومهما كانت الوظيفة متدنية أو الأجر منخفضا فإن هذا هو السبيل الوحيد لتصنيفهم كمواطنين يستحقون المساعدة حتى يحصلوا عليها.

لماذا يدين عدد قليل منا هذه الإصلاحات التى تم سنها فى ظل رئيس ديمقراطى؟ لماذا نتأثر نحن بوصمة العار اللصيقة بضحاياهم؟ بعيدا عن الاستفسار حول هذا الارتداد إلى الممارسات السابقة للرأسمالية الصناعية فقد تكيفنا جميعنا وبشكل جيد على الصمت والرضا بشكل واضح التناقض بالمقارنة مع الجيل السابق لنا. ولكن بعد ذلك وكما يذكرنا تولستوىTolestoy «إنه لا وجود لظروف حياتية لا يستطيع الإنسان التعود عليها لا سيما إذا كان يراها مقبولة من قبل الجميع من حوله».

«إن هذا الميل إلى الإعجاب بالأغنياء وأصحاب السلطة إلى درجة العبادة واحتقار الفقراء أو على الأقل تجاهلهم يعكس وضعا رديئاً يمثل السبب الرئيسى لفساد مشاعرنا وأخلاقياتنا على صعيد عالمى» هذه ليست كلماتى ولكن هذا هو ما كتبه آدم سميثAdam Smith الذى كان يعتبر الوقت الذى سنعجب فيه بالثروة والنجاح ونحتقر الفقر والفشل هو من أعظم المخاطر التى سنواجهها فى المجتمع التجارى الذى توقع قدومه وها هو قد قدم إلينا.

إن أكثر الامثلة دلالة على نوع المشكلة التى نواجهها يأتى فى شكل صادم للكثيرين منكم كمجرد أسلوب تقنى هو: عملية الخصخصة ففى الثلاثين عاما الماضية فتنت الحكومات الغربية وكثير من المنظمات غير الغربية بمسألة الخصخصة افتتاناً شديداً..لماذا؟ إن أوجز رد على هذا السؤال هو أنه فى عصر القيود على الميزانية تبدو الخصخصة وسيلة لتوفير المال، فإذا كانت الدولة تملك برنامجا عاما ذا كفاءة أو خدمة عامة باهظة التكاليف مثل شبكات المياه، مصنع سيارات أو سكك حديدية فسوف تسعى إلى رفع عبئها عن كاهلها وإلقائه على المشترين من القطاع الخاص.

إن الدولة تربح المال من بيع الأصول ومن خلال إدخال القطاع الخاص فإن الخدمات أو الأعمال تصبح أكثر كفاءة بفضل إنجاز العمل المرتبط بدافع الربح. الجميع سيكسبون سوف تتحسن الخدمات وسوف تتخلص الدولة من المسئولية والإدارة السيئة غير الملائمة. وسيكسب المستثمرون والقطاع العام سوف يحصل على مكسب واحد من البيع.

إن الممارسة الفعلية مختلفة جدا عن النحو الذى أشارت إليه النظرية. إن ما شاهدناه فى العقود السابقة كان مجرد نقل للمسئولية العامة إلى القطاع الخاص بدون تحقيق أى ميزة جماعية واضحة. إن الخصخصة فى المقام الأول غير فعالة. فمعظم الأعمال التى رأت الحكومات أنها مناسبة لتنقل إلى القطاع الخاص كانت تعمل بشكل مضطرب: سواء كانت شركات السكك الحديدية أو مناجم الفحم والخدمات البريدية أو المرافق العامة والطاقة، إنها تحتاج نفقات ضخمة لتشغيلها وصيانتها أكثر بكثير مما كانوا يأملونه من الإيرادات.

لهذا السبب فقط تعد مثل هذه السلع العامة غير جذابة للمشترين من القطاع الخاص إلا إذا عرضت بأسعار زهيدة جدا. ولكن عندما تبيع الدولة بأسعار رخيصة فسوف يخسر الشعب، لقد تمت العملية الحسابية بهذه الطريقة، ففى سياق عمليات الخصخصة فى عهد تاتشر فى المملكة المتحدة كان السعر المنخفض الذى اعتمد لفترة طويلة للأصول العامة التى بيعت للقطاع الخاص سببا فى نقل صافى ١٤ بليون جنيه استرلينى من الضرائب العامة المدفوعة إلى المساهمين والمستثمرين الآخرين.

ويضاف إلى ذلك أكثر من ثلاثة مليارات جنيه استرلينى دفعت كرسوم بنكية للبنوك التى يتم التعامل معها خلال عمليات الخصخصة. وبالتالى فإن الدولة قد قامت فى واقع الأمر بدفع ما يقرب من ١٧ مليار جنيه استرلينى (٣٠ مليار دولار) لتسهيل بيع الأصول ولولا هذه التسهيلات لما وجدت مشترين. تعد هذه مبالغ مالية ضخمة تقارب المنح الخاصة بجامعة هارفارد على سبيل المثال أو الناتج الإجمالى السنوى لباراجواى أو البوسنة والهرسك[2] ولا يمكن أن يفسر ذلك على أنه استخدام جيد وكفء للموارد العامة.

فى المرتبة الثانية يثور التساؤل حول المخاطر الأدبية. فالسبب الوحيد الذى يوجد الرغبة لدى المستثمرين من القطاع الخاص فى شراء السلع العامة قليلة الكفاءة هو أن الدولة تمنع أو تحد من تعرضهم للمخاطر ففى حالة مترو أنفاق لندن على سبيل المثال تم التأكيد للشركات المشترية على أنها سوف تكون محمية من الخسائر الجسيمة أيا كان ما حدث مما يقوض الإطار الكلاسيكى للخصخصة: إن دافع الربح يشجع على الكفاءة، إن خطورة المسألة تكمن فى أن القطاع الخاص تحت هذه الظروف والامتيازات سوف يثبت عدم كفاءته مثل نظيره القطاع العام بينما يمثل جنى زبدة الأرباح خسائر باهظة للدولة.

أما الثالثة وربما تكون هى القضية الأكثر تعبيرا ضد الخصخصة فهى الآتية: لايوجد شك فى إن الكثير من السلع والخدمات التى تسعى الدولة إلى تصفيتها قد وصلت إلى مرحلة رديئة فى التشغيل مثل إدارتها بشكل تعوزه الكفاءة

ونقص الاستثمار وما إلى ذلك. ولكن برغم ذلك فإن بعض المجالات أياً كانت درجة السوء فى تشغيلها فإنها لابد أن تبقى تحت مسئولية إدارة السلطات العامة حتى بعد بيعها، هذه الخدمات مثل الخدمات البريدية وشبكات السكك الحديدية ودور التقاعد والسجون وغيرها من الأماكن المستهدفة للتخصيص، وهى لا يمكن أن تترك لتقلبات السوق لأنها بطبيعتها تعد نوعا من النشاط يحتاج شخصا لتنظيمه.

إن تولى مسئوليات جماعية جوهرية بهذا الشكل الجزئى، فهى هكذا شبه خاصة وشبه عامة فى الوقت نفسه، يعود بنا فى الواقع إلى قصة قديمة جدا. فإذا تمت مراجعة إقراراتك الضريبية اليوم فى الولايات المتحدة، فحتى لو كانت الحكومة هى صاحبة القرار فى التحقيق فى ضرائبك، فإن من تقوم بهذا التحقيق هى شركة خاصة. حيث تعاقدت هذه الشركة مع الدولة لأداء هذه الخدمة بالنيابة عنها وذلك إلى حد كبير بنفس الطريقة التى تعاقد بها وكلاء القطاع الخاص مع واشنطن لتوفير الأمن والنقل والدراية التقنية «مقابل أرباح» فى العراق وأماكن أخرى. وبطريقة مشابهة فإن الحكومة البريطانية اليوم تبرم عقودا مع أصحاب المشروعات الخاصة لتقديم خدمات الرعاية السكنية للمسنين، وتقوم الدولة بمسئوليتها بشكل إشرافى فقط.

إن الحكومات باختصار تلزم الشركات الخاصة بتحمل مسئولياتها وهذه الأخيرة تدعى قدرتها على إدارتها بشكل أرخص وأفضل من الدولة ذاتها. فى القرن الثامن عشر كان يطلق على ذلك الضريبة الزراعية. كانت الحكومات الحديثة تفتقر إلى وسائل لجمع الضرائب وبالتالى كانت تقبل عروضا من الأفراد للاضطلاع بهذه المهمة، وصاحب أعلى عطاء كان يحصل على الوظيفة وله الحرية فى تحصيل الضرائب كيفما شاء والاحتفاظ بالعائد طالما أنه سيدفع للحكومة المبلغ المتفق عليه. وهكذا اتخذت الحكومة خصما على ايراداتها الضريبية فى مقابل المبالغ النقدية التى تحصلها.

وبعد سقوط النظام الملكى فى فرنسا تم الاعتراف على نطاق واسع بعدم فاعلية الضريبة الزراعية لأن هؤلاء المنتفعين من القطاع الخاص يتسببون فى المقام الأول فى فقدان الثقة فى الدولة داخل أذهان العامة من الشعب وثانيا أنها تولد إيرادات أقل بكثير مما يمكن تحصيله من خلال نظام حكومى يدار بكفاءة، حيث إن هؤلاء المحصلين الخصوصيين يعنون أساسا بهامش ربحهم وثالثا فإن النظام يحصل فى النهاية على استياء دافعى الضرائب.

اليوم فى الولايات المتحدة نحن لدينا دولة فاقدة لمصداقيتها وموارد عامة غير كافية. ومن المثير للاهتمام أنه لا يوجد دافعو ضرائب ساخطون أو على الأقل فإنهم يستاءون فقط لوجود أخطاء، ومع ذلك فإن المشكلة التى خلقناها لأنفسنا تعد أكثر حدة من المشكلة التى واجهت النظام القديم.

إن ما يحدث اليوم يماثل الوضع فى القرن الثامن عشر حيث إننا أضعفنا من الموقف العام للدولة من خلال نزع مسئولياتها وقدراتها منها، والنتيجة لذلك هى «مجتمعات منغلقة» بكل معنى الكلمة، ومجموعات فرعية نشأت من الذين يعتبرون أنفسهم مستقلين عن المجتمع وعن الخدمات العامة والموظفين العموميين. إذا اعتمدنا بشكل خاص وبأغلبيتنا الساحقة على وكالات القطاع الخاص، فبمرور الزمن نحن نضعف العلاقة مع القطاع العام الذى سنراه غير ذى قيمة. لا يهم كثيرا ما إذا كان القطاع الخاص يقوم بالأشياء أفضل أو أسوأ بسعر أعلى تكلفة أو أقل، فى كلتا الحالتين فقد فقدنا ولاءنا للدولة وفقدنا شيئا حيويا كان يجب علينا الحفاظ عليه – وطالما تعودنا ذلك فى علاقتنا مع مواطنينا.

جاء أفضل وصف لهذه العملية على لسان واحدة من أعظم الممارسين الجدد لها وهى مارجريت تاتشر Margaret Thatcher التى أكدت «أنه لا يوجد شىء مثل المجتمع، هناك فقط أفراد من الرجال والنساء والأسر» ولكن إذا لم يكن هناك شىء مثل المجتمع وكان هناك أفراد ودولة تقوم بدور الحارس الليلى الذى يشرف من بعيد على أنشطة لا يلعب دورا فيها. إذاً فما الذى يجمعنا معاً؟ نحن بالفعل نقبل بوجود قوات شرطة خاصة، وخدمات بريدية خاصة، وهيئات من القطاع الخاص تدعم الدولة فى أوقات الحرب وجوانب أخرى عديدة. لقد قمنا تحديدا بخصخصة المسئوليات التى كانت تقوم الدولة الحديثة بأخذها على عاتقها بمشقة فى أثناء القرنين التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

إذاً ما الذى سيعمل كعازل بين المواطنين والدولة؟ بالتأكيد ليس مجتمعا يكافح من أجل إنقاذ الملكيات العامة المسلوبة، وبالنسبة لدولة ليست على وشك الانزواء فحتى لو جردناها من كل مساهماتها الخدمية فستظل معنا حتى لو كانت مجرد قوة للسيطرة والقمع. وفيما بين الدولة والأفراد فلن تكون هناك مؤسسات أو ولاءات وسيطة، ولن يبقى شىء من الشبكة العنكبوتية من الخدمات والالتزامات المتبادلة التى تربط بين المواطنين بعضهم البعض من خلال المساحة العامة التى يحتلونها بشكل جماعى، وكل ما سيبقى هو الأفراد العاديون والشركات الخاصة التى تسعى بشكل تنافسى للسطو على الدولة من أجل مصالحهم الخاصة.

إن الديمقراطية الاجتماعية هى التى وجهت الطبقة المتوسطة إلى المؤسسات الليبرالية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية

إن تبعات اليوم ليست أكثر جاذبية منها قبل نشوء الدولة الحديثة، فى الواقع إن الدافع لبناء الدولة الحديثة كما عرفناها نبع أساسا وبوضوح شديد من مفهوم أن أى تجمع للأفراد لا يمكن أن يصمد بدون وجود غايات مشتركة. إن المفهوم القائل بإمكانية تضاعف المصالح الخاصة لتخدم المصلحة العامة يعتبره النقاد الليبراليون للرأسمالية الصناعية الناشئة نوعا من العبث المنافى للعقل، وعلى حد تعبير جون ستيوارت ميل «إن فكرة وجود مجتمع قائم أساسا على علاقات ومشاعر تنبع فى الأساس من المصالح المالية تعد فكرة مثيرة للاشمئزاز».

إذاً فما الذى ينبغى فعله؟ علينا أن نبدأ بالدولة باعتبارها تجسيدا للمصالح والأهداف والسلع الجماعية، فإذا لم نستطع تعلم «الإيمان والاعتقاد فى الدولة» مرة أخرى فلن نذهب بعيدا ولكن ما الذى يجب على الدولة أن تقوم به فعليا؟ الحد الأدنى كما كتب Keynes هو «عدم تكرار ما لا داعى له» من المهم بالنسبة للحكومة أن لا تقوم بأشياء يؤديها الأفراد بالفعل لمجرد أن تؤديها بشكل أفضل قليلا أو أحيانا قد يكون أسوأ قليلا ولكن عليها أن تقوم بالأشياء التى لا يؤديها فى الوقت الحاضر أحد على الإطلاق. لقد علمنا من التجربة المريرة للقرن الماضى أن هناك بعض الأمور من المؤكد أنه لا يجب أن تقوم بها الدولة.

فى القرن العشرين تعتمد القصص التاريخية للدولة المتطورة على فكرة «أننا» أى الإصلاحيين والاشتراكيين والراديكاليين كان التاريخ إلى جانبنا، فعلى حد تعبير الراحل برنارد ويليامز «لاقت مشروعاتنا تشجيعا من الكون بأسره»(٣)، أما اليوم فليس لدينا قصة مؤكدة لكى نحكيها. لقد نجونا فقط من قرن من المذاهب التى تستهدف بجرأة مزعجة تقرير ما الذى ستفعله الدولة وتذكير الأفراد بالقوة إذا اقتضى الأمر بأن الدولة تعلم ما هو جيد بالنسبة لهم. لا يمكننا العودة إلى كل ذلك، حتى إذا ما أردنا التفكير مرة أخرى فى الدولة، فلابد أن تكون لنا بداية جديدة من التفكير والإحساس بحدودها.

لأسباب مماثلة قد يكون من العبث محاولة إحياء خطاب الديمقراطية الاجتماعية الذى كان سائدا فى أوائل القرن العشرين. فى تلك السنوات ظهر اليسار الديمقراطى كبديل للأنواع المتصلبة من الاشتراكية الماركسية الثورية وفى سنوات لاحقة كان بديلا للخلف الشيوعى. هناك انفصام غريب فى الشخصية يعد من الأشياء الأصيلة فى الديمقراطية الاجتماعية فبينما كانت تتقدم للأمام بخطى واثقة نحو مستقبل أفضل كانت على الدوام تتلفت بشكل عصبى متوتر تجاه كتفها اليسرى، ويبدو عليها أنها تقول «نحن لسنا سلطويين» «نحن من أجل الحرية وليس القمع» «نحن الديمقراطيون الذين يؤمنون بالعدالة الاجتماعية والأسواق المنظمة» وهكذا دواليك.

طالما كان الهدف الأساسى للديمقراطيين الاجتماعيين هو إقناع الناخبين بأنهم كانوا خيارا محترما وأصيلا داخل النظام السياسى الليبرالى، فإن هذا الموقف الدفاعى يعد منطقيا، ولكن هذا الخطاب اليوم يعد غير مترابط، فليس من قبيل المصادفة لمثل حزب Angela Merkel الديمقراطى المسيحى أن يفوز فى الانتخابات فى ألمانيا ضد معارضيها الديمقراطيين الاجتماعيين وحتى فى أوج الأزمة المالية بمجموعة من السياسات

التى تشبه فى مجملها الأساسيات الهامة لبرنامجهم الخاص.

تعد الديمقراطية الاجتماعية بشكل أو بآخر نثرا مثيرا للملل للسياسات الأوروبية المعاصرة. هناك عدد قليل جدا من السياسيين الأوروبيين وبالتأكيد عدد أقل ممن لا يزالون فى مواقع النفوذ سوف يختلفون بدءا من الافتراضات الأساسية للديمقراطية الاجتماعية حول واجبات الدولة، فضلا عن أن الكثير منهم قد يختلفون حول نطاقها. وبالتالى فإن الديمقراطيين الاجتماعيين فى أوروبا اليوم ليس لديهم شيء مميز ليقدموه، ففى فرنسا على سبيل المثال كان النقل الطائش للملكية إلى صالح الدولة أكثر ما يميز بعدهم عن أساسيات الحق الديجولىGaullist إن الديمقراطية الاجتماعية تحتاج إلى إعادة التفكير فى مقاصدها.

لا تكمن المشكلة فى سياسات الديمقراطية الاجتماعية ولكن فى اللغة التى تصاغ بها، فمنذ انقضاء التحدى السلطوى لليسار أصبح التركيز على الديمقراطية زائدا إلى حد كبير. اليوم نحن جميعا ديمقراطيون أما كوننا «اجتماعيين» فهى كلمة ذات معنى جدلى الآن لأكثر من عشرات السنين إلى الوراء عندما كان للقطاع العام دور تم التنازل عنه من جميع الأطراف. إذاً فما هو التميز « الاجتماعى » الذى تحتويه الديمقراطية الاجتماعية للسياسات؟

تخيل إذا كان ذلك جائزا أنك ترغب فى امتلاك محطة للسكك الحديدية، محطة سكك حديدية حقيقية ليس محطة بنسلفانيا فى نيويورك وهى عبارة عن سوق تجارى فاشل منذ حقبة الستينيات، أنا أعنى شيئا مثل محطة ووترلوWaterloo فى لندن، محطة جاردى فى باريس، محطة فيكتوريا فى مومباىVictoria Terminus، أو محطة برلين الرائعة الجديدةHaupt Bahnhof، فى هذه الكاتدرائيات الرائعة للحياة الحديثة يقوم القطاع الخاص بوظائفه على أكمل وجه وفى المكان الملائم تماما ولا يوجد سبب بعد ذلك كله يجعل أكشاك بيع الصحف أو المقاهى تدار من قبل الدولة. إذا تذكر أى أحد تلك المأكولات المجففة والشطائر الملفوفة فى مقاهى السكك الحديدية الإنجليزية سوف يسلم بضرورة تشجيع المنافسة فى هذا المجال.

ولكنك لا تستطيع تشغيل القطارات بشكل تنافسى فالقطارات مثلها مثل الزراعة أو البريد تعد نشاطا اقتصاديا وخدمة عامة أساسية فى نفس الوقت، وفضلا عن ذلك فأنت لا تستطيع تحويل نظام السكة الحديد إلى آخر أكثر كفاءة من خلال وضع قطارين على المسار لكى

فى الثلاثين عاما الماضية فتنت الحكومات الغربية وكثير من المنظمات غير الغربية بمســـــألة الخصخصة افتتاناً شديداً



تحدد أيهما يؤدى بشكل أفضل، السكك الحديدية هى احتكار له طبيعة خاصة. والشيء الذى لا يصدق أن الإنجليز قد وضعوا مثل هذا التنافس فى مجال النقل بالحافلات، ولكن المفارقة فى وسائل النقل العام بالطبع أنها تؤدى وظيفتها بشكل أفضل بالرغم من أنها قد تكون أقل كفاءة.

إن الحافلات التى تقدم الخدمات السريعة لأولئك الذين يسعون لاستخدامها فى نقلهم إلى القرى النائية حيث يكون معظم روادها من المتقاعدين على المعاش سوف تجلب هذه الحافلات المزيد من المال لمالكيها، ولكن يظل هناك شخص ما الدولة أو البلدية المحلية يقدم خدمات غير فعالة ولا مثمرة على المستوى المحلى. ولكن فى غيابها فإن الثمار الاقتصادية قصيرة المدى الناتجة عن تخفيض التحكم فيها قد تؤدى إلى نتائج مدمرة للمجتمع على المدى البعيد وعلى نطاق واسع. وعلى ذلك فإن عواقب المنافسة بين الحافلات فيما عدا لندن حيث يتوافر الطلب الذى يقوم عليه تشغيلها سوف تكون ارتفاعا فى التكاليف المخصصة للقطاع العام، ارتفاعا حادا فى الأسعار إلى أعلى مستوى يتحمله السوق وأرباحا مغرية بالنسبة لشركات حافلات النقل السريع.

إن القطارات مثل الحافلات هى قبل كل شيء خدمة عامة. يستطيع أى فرد أن يقوم بتشغيل خط سكك حديدية بشكل مربح إذا كان المطلوب فعله فقط هو مجرد رحلات ذهابا وإيابا من لندن إلى أدنبرة ومن باريس إلى مارسيليا ومن بوسطن إلى واشنطن، ولكن ماذا عن خطوط سكك حديدية تربط بين أماكن يقتصر استخدام الناس لها على المواسم والمناسبات فقط؟ لا يوجد شخص لديه استعداد لتخصيص أموال لتغطية التكلفة الاقتصادية لدعم خدمة نادرا ما تستخدم. الجماعة هى الوحيدة القادرة على ذلك سواء كانت هذه الجماعة هى الدولة أو الحكومة أو السلطات المحلية، وسوف يظهر الدعم المطلوب دائما قليلا وغير كاف فى أعين نوعية معينة من الاقتصاديين، من المؤكد أن الوضع الأفضل سوف يكون هو تمزيق هذه الخطوط والسماح للجميع باستخدام سياراتهم لأن ذلك سيكون أقل تكلفة.

فى عام ١٩٦٦ وهو العام الأخير قبل تخصيص السكك الحديدية الإنجليزية قررت هيئة السكة الحديد البريطانية تخصيص أدنى دعم مالى للسكك الحديدية فى أوروبا. فى نفس السنة كان الفرنسيون يخططون للاستثمار فى السكك الحديدية بمبلغ يقدر بمعدل٢١ جنيها لكل مواطن وكان المعدل الإيطالى ٣٣ جنيها لكل مواطن وكان المعدل الإنجليزى هو ٩ جنيهات فقط للمواطن[٤]، عكست هذه التناقضات بدقة مستوى الخدمة التى كانت تقدمها كل من هذه الأنظمة الوطنية وكذلك فسرت السبب الذى جعل شبكة الخطوط الحديدية البريطانية لا تتم خصخصتها إلا تحت ظروف من خسائر جسيمة وكذلك بنية تحتية ليست على كفاءة.

ولكن التناقص فى الاستثمار يوضح وجهة نظرى. فالفرنسيون والإيطاليون منذ فترة طويلة يتعاملون مع السكك الحديدية باعتبارها خدمات اجتماعية. إن تشغيل قطار فى منطقة نائية برغم أنه غير فعال من الناحية الاقتصادية إلا أنه يربط المجتمعات المحلية ببعضها، ويقلل من الأضرار البيئية من خلال توفير بدائل للنقل على الطرق، إن محطة السكة الحديد والخدمات التى تقدمها تعد بناء على ذلك عَرَضاً ورمزاً للمجتمع ذى التطلعات المشتركة.

إننى أقترح بالإضافة إلى ذلك أن توفير خدمة القطارات فى المناطق النائية يعطى شعورا أو بعدا اجتماعيا حتى لو كان اقتصاديا «غيرمجد» ولكن هذا بطبيعة الحال يطرح فكرة هامة، فمثل هذا الطرح ذى الأهداف الاجتماعية هو حقا جدير بالثناء ولكنه لن يذهب بالديمقراطيين الاجتماعيين بعيدا إلى وضع هم أنفسهم يرونه أكثر تكلفة من بدائله. نستطيع فى النهاية أن نعترف بفضائل الخدمات الاجتماعية وننتقد تكلفتها بشدة ولا نفعل أى شيء. نحن بحاجة إلى إعادة النظر فى المخصصات التى نوظفها لتقييم جميع التكاليف الاجتماعية والاقتصادية على حد سواء.

اسمحوا لى أن أقدم مثالا على ذلك. إن تقديم صدقات كأعمال خيرية للفقراء يعد أرخص من تأمين مجموعة كاملة من الخدمات الاجتماعية «كحق لهم»، من خلال الصدقات وأعنى بها الهبات القائمة على أساس من الإيمان كأعمال خيرية وهى مبادرات فردية مستقلة أو مساعدات مالية مستقلة أيضا قد تكون فى شكل طوابع الغذاء أو منح الإسكان أو إعانات وتبرعات الملابس إلى آخره. ولكن من المعروف أن تقديم المساعدة بهذا الشكل قد يكون مهينا للطرف المتلقى لها. إن «استطلاع الموارد» الذى كانت تطبقه السلطات البريطانية لضحايا الاكتئاب عام ١٩٣٠ لا يزال يشار إليه بمشاعر النفور والغضب من قبل الجيل القديم[٥]. «استطلاع المواردMeans Test هو تحقيق رسمى حول دخل شخص يتلقى إعانة مخصصة للعاطلين عن العمل فى بريطانيا..المترجمة».

وعلى العكس فإنه ليس من المذل أن يتسلم الفرد حقوقه. فإذا كان لك الحق فى الحصول على إعانة البطالة أو معاشات التقاعد أو العجز أو إسكان البلدية أو أى من المساعدات المقدمة للجمهور كحق بدون أن يقوم أى أحد بالتحقيق لتحديد تدنى وضعك المالى واستحقاقك للمساعدة فلن تشعر بالحرج فى قبول هذا الحق. ومع ذلك فإن هذه الحقوق والاستحقاقات العالمية تعد باهظة الثمن.

ولكن ماذا لو تعاملنا مع عملية الإهانة نفسها على أنها تكلفة وتهمة موجهة للمجتمع؟ وماذا لو قررنا أن نقيس مقدار الضرر الذى يتعرض له الأفراد وشعورهم بالخزى عند تسلمهم لمجرد ضروريات الحياة؟ بكلمات أخرى ماذا لو أخذنا فى اعتباراتنا فى تقدير الإنتاجية والكفاءة أو الرفاهية الفرق بين صدقة مذلة وبين مكسب يؤخذ كحق. نحن نخلص إلى أن تقديم الخدمات الاجتماعية الشاملة والصحة العامة والتأمين والنقل العام أو المدعوم كان طريقة واقعية وذات كلفة معقولة لتحقيق أهدافنا المشتركة، إنها مسألة مثيرة للجدل بطبيعتها فكيف لنا أن نقيس

«المهانة»؟ ما هى التكلفة القابلة للقياس لحالة الحرمان لدى مواطنين معزولين عن تناول الموارد الحضرية؟ ما هو الثمن الذى لدينا الاستعداد لدفعه فى مقابل مجتمع جيد؟ الإجابات مبهمة ولكن ما لم نطرح هذه الأسئلة فكيف لنا أن نأمل فى استنباط إجابات[٦].

ما الذى نعنيه عندما نتحدث عن مجتمع جيد؟ من منظور معيارى ربما نستطيع أن نبدأ بالحكى عن الأخلاق التى من خلالها نستطيع إرساء خياراتنا الجماعية، وسوف يكون هذا السرد بديلا عن المفاهيم الاقتصادية الضيقة التى تعيق محادثاتنا الحالية، ولكن تحديد أغراضنا العامة بهذه الطريقة لا يعد أمرا سهلا.

كانت الديمقراطية الاجتماعية فى الماضى تشغل نفسها بقضايا الحق والباطل والسبب الأغلب فى ذلك أنها ورثت المفردات الأخلاقية لما قبل الماركسية والتى كانت مملوءة بالكره المسيحى للتطرف فى الثراء وعبادة الماديات ولكن هذه الاعتبارات كثيرا ما طغت عليها بعض علامات الاستفهام الأيديولوجية، هل الفشل هو القدر المحتوم للرأسمالية؟ إذا كان الأمر كذلك فهل من سياسة تقدم تصورا لإزالة الخطر أو تأجيله؟ إذا لم تنته الرأسمالية بالفشل فإنه يجب التفكير فى الخيارات السياسية من منظور مختلف. فى كلتا الحالتين فإن التساؤل الذى سيتبادر أولا سوف يتناول آفاق النظام بدلا من الفضائل أو العيوب المتأصلة فى مبادرة معينة. هذه الأسئلة لم تعد تشغلنا كثيرا وبالتالى فنحن نُواجَه بالآثار الأخلاقية لخياراتنا بشكل مباشر.

ماهو بالتحديد الذى نراه بغيضا فى الرأسمالية المالية أو المجتمع التجارى كما كان فى القرن الثامن عشر؟ ماهو الشىء الخاطئ فى ترتيباتنا الحالية وماذا نستطيع أن نفعل حيالها؟ ما الذى نراه غير عادل؟ ما الذى يؤذى إحساسنا المرتبط بآداب مجتمعنا عندما تواجهنا الضغوط غير المحدودة من قبل الأثرياء على حساب أى شخص آخر؟ ماذا فقدنا؟

إن الأجوبة على هذه الأسئلة يجب أن تأخذ شكل النقد الأخلاقى لأوجه القصور للسوق غير المحدود أو للدولة الضعيفة، يتعين علينا أن نفهم لماذا يسيئون إلى إحساسنا بالعدالة والإنصاف.

فى اعتقادى أننا ندخل إلى عصر جديد من انعدام الأمن. لا ننسى التحليل الذى عرضه Keynes فى «الآثار الاقتصادية المترتبة على السلام ١٩١٩» والذى يوضح فيه أن آخر عصر كان يشبه عصرنا جاء عقب عقود من الرخاء والتطور وزيادة هائلة فى تدويل أو عولمة الحياة فى كل شىء ما عدا الاسم. يصف كينيز هذا العصر بانتشار الاقتصاد التجارى فى جميع أنحاء العالم وزادت معدلات التجارة والاتصالات بمعدل لم يسبق له مثيل. فيما قبل ١٩١٤ كان من المؤكد على نطاق واسع أن منطق التبادل الاقتصادى السلمى سوف ينتصر على المصلحة الوطنية ذاتها. لم يتوقع أحد لهذا العصر أن ينتهى هذه النهاية المفاجئة ولكنه فعلها.

نحن أيضا قد عشنا خلال حقبة من الاستقرار واليقين ووهم من التحسن الاقتصادى الممتد لأجل غير مسمى، ولكن كل ذلك وراءنا الآن. فى المستقبل المنظور سوف يفتقد الأمن الاقتصادى مثلما نفتقد الثقة فى ثقافتنا. بالتأكيد نحن أقل ثقة فى أهدافنا الجماعية ورفاهيتنا البيئية وحتى سلامتنا الشخصية أكثر من أى وقت مضى منذ الحرب العالمية الثانية. نحن لا نمتلك أى فكرة عن نوع العالم الذى سيرثه أطفالنا ولكن لم يعد بمقدورنا أن نخدع أنفسنا بافتراض أن عالمهم يجب أن يشبه عالمنا لا يجب أن نطمئن إلى ذلك.

يجب أن نعيد النظر فى الطرق التى كان جيل أجدادنا يستجيب بها للتحديات والتهديدات المماثلة. إن الديمقراطية الاجتماعية فى أوروبا والصفقة الجديدة والمجتمع العظيم هنا فى الولايات المتحدة يعدون استجابات واضحة لانعدام الأمن والمساواة فى هذا العصر. قليلون فى الغرب قد مر بهم عمر طويل بما فيه الكفاية لكى يعرفوا ماذا يعنى أن نرى عالمنا ينهار[٧]. إننا نجد صعوبة فى تصور انهيار كامل للمؤسسات الليبرالية وتفكك كامل للإجماع الديمقراطى. ولكنه كان مجرد انهيار يشبه ذلك الذى أثار مناقشات كينيز والذى تولدت منه الآراء الكينيزية والديمقراطية الاجتماعية تلك الآراء والتراضى الاجتماعى هما اللذان نشأنا فيهما وحققنا نجاحا كبيرا.

إذا كان للديمقراطية الاجتماعية مستقبل فسوف تكون ديمقراطية الخوف الاجتماعية[٨] فبدلا من استعادة لغة التقدم المتفائلة ينبغى علينا أن نبدأ بتعريف أنفسنا بالماضى القريب. إن المهمة الأولى للمنشقين الراديكاليين اليوم هى تذكير جمهورهم بإنجازات القرن العشرين، وذلك جنبا إلى جنب مع الآثار المحتملة لاندفاعنا الطائش نحو تفكيكها.

إن لدى اليسار بصراحة تامة شيئا يحافظ عليه هذا الشىء هو الحق الذى ورث عن الحداثة الطموحة الرغبة فى التدمير والابتكار تحت اسم المشروع العالمى. يحتاج الحزب الاشتراكى الديمقراطى الذى يتميز بالتواضع فى النمط والطموح إلى التحدث بشكل أكثر جزما عن المكاسب السابقة. إن صعود دولة الخدمات الاجتماعية، القطاع العام الذى

إن ما شاهدناه فى العقود السابقة كان مجرد نقل للمسئولية العامة إلى القطاع الخاص بدون تحقيق أى ميزة جماعية واضحة



استغرق بناؤه طيلة القرن والذى كانت سلعه وخدماته توضح وتعزز هويتنا الجماعية وغاياتنا المشتركة ومؤسسات الرعاية التى تعد مسألة حق وحكمها ودعمها الذى يعد واجبا اجتماعيا. إن كل ما سبق يعد إنجازات لا معنى لها.

لا ينبغى أن يزعجنا كون هذه الإنجازات لم تكن أكثر من إنجازات جزئية، إذا لم نكن قد تعلمنا اى شىء آخر من القرن العشرين فلابد على الأقل أن نكون قد أدركنا أن الإجابة كلما زادت كمالا زادت عواقبها رعبا. إن أكثر ما يمكننا أن نأمل فيه وربما ينبغى علينا أن نسعى إليه جميعا هو «تحسينات غير كاملة قائمة على ظروف غير مرضية »، وفى خلال العقود الثلاثة الماضية قام آخرون بكشف نفس هذه التحسينات وزعزعتها منهجيا، ولابد أن يجعلنا ذلك أكثر غضبا مما نحن عليه، وينبغى أن يقلقنا أيضا حتى من باب اتخاذ أسباب الحيطة: لماذا كنا فى مثل هذه العجلة لهدم سدود شيدها أسلافنا بمشقة؟ هل نحن على يقين بعدم وجود فيضانات قادمة؟

إن ديمقراطية الخوف الاجتماعية هى شىء يستحق الكفاح من أجله، إن التخلى عن مجهود قرن كامل يعد خيانة لمن سبقونا وللأجيال القادمة. قد يكون لطيفا ولكنه مضلل- أن نقرر أن الديمقراطية الاجتماعية أو ما شابهها تمثل المستقبل الذى رسمناه لأنفسنا فى عالم مثالى. إنها لا تمثل حتى الماضى المثالى ولكنها من بين الخيارات المتاحة فى الوقت الحاضر إنها أفضل من أى شىء فى متناول اليد، وبكلمات Orwell التى تعكس آخر تجاربه الثورية فى برشلونة» الولاء لكتالونيا Homage to Catalonia å:

«هناك الكثير فيها لم أفهمه، وبطريقة ما لم أحبه ولكننى أعترف حالا بها كدولة للشئون التى ينبغى القتال من أجلها».

إننى أعتقد أن ذلك لن يكون أقل من الحقيقة التى بوسعنا استعادتها من ذاكرة القرن العشرين حول الديمقراطية الاجتماعية. ■

ملاحظات

(١) انظر«High Gini Is Loosed Upon Asia » الإيكونومست ١١ اغسطس ٢٠٠٧

(٢) انظر«The Great Divestiture » لماسيمو فلوريو: تقييم تأثير الرعاية الاجتماعية فى عمليات الخصخصة البريطانية ١٩٧٩ -١٩٩٧ (معهد ماساتشوسيتس لتكنولوجيا الصحافة ٢٠٠٤) صفحة ١٦٣، انظر» العائد الإيجابى الصلب للمنح المشتركة لهارفارد» الجريدة الرسمية لهارفارد ١٢ سبتمبر ٢٠٠٨ بالنسبة للناتج الإجمالى المحلى لباراجواى أو البوسنة والهرسك انظر www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/goes/xx.html.

(3) Bernard Williams «الفلسفة كتخصص إنسانى» جامعة برينستون ٢٠٠٦ ص144

(٤) للاطلاع على هذه الأرقام انظر Twas a Famous Victory«» نيويورك ريفيو ١٩ يوليو ٢٠٠١

(٥) للاطلاع على قصص مماثلة من الصدقات المهينة انظر السيرة الذاتية لمالكوم اكس (بلنتين١٩٨٧)

(٦) أوصت اللجنة الدولية لقياس الأداء الاقتصادى والتقدم الاجتماعى برئاسة Joseph Stiglitz ورعايةAmartya Sen مؤخرا باتباع منهج مختلف لقياس الرفاهية الاجتماعية وعلى الرغم من الأصالة الرائعة لمقترحاتهم فلم يذهب أى من ستيجليتز أو سان إلى طرق أبعد لتقييم الأداء الاقتصادى ولم تحتل الاهتمامات الاقتصادية أى حيز من تقديرهم. انظر www.stiglitz-sen-fitoussi.fr/en/index.htm.

(٧) الاستثناء هنا ينطبق بالطبع على البوسنة التى يدرك مواطنوها جيدا ما ينطوى عليه هذا الانهيار.

(٨) انظر مقال » ليبرالية الخوف» لـ Judith Shklar وهويخترق قضية السلطة وعدم المساواة السياسية.

الضـــرائـب العقــــــاريـة

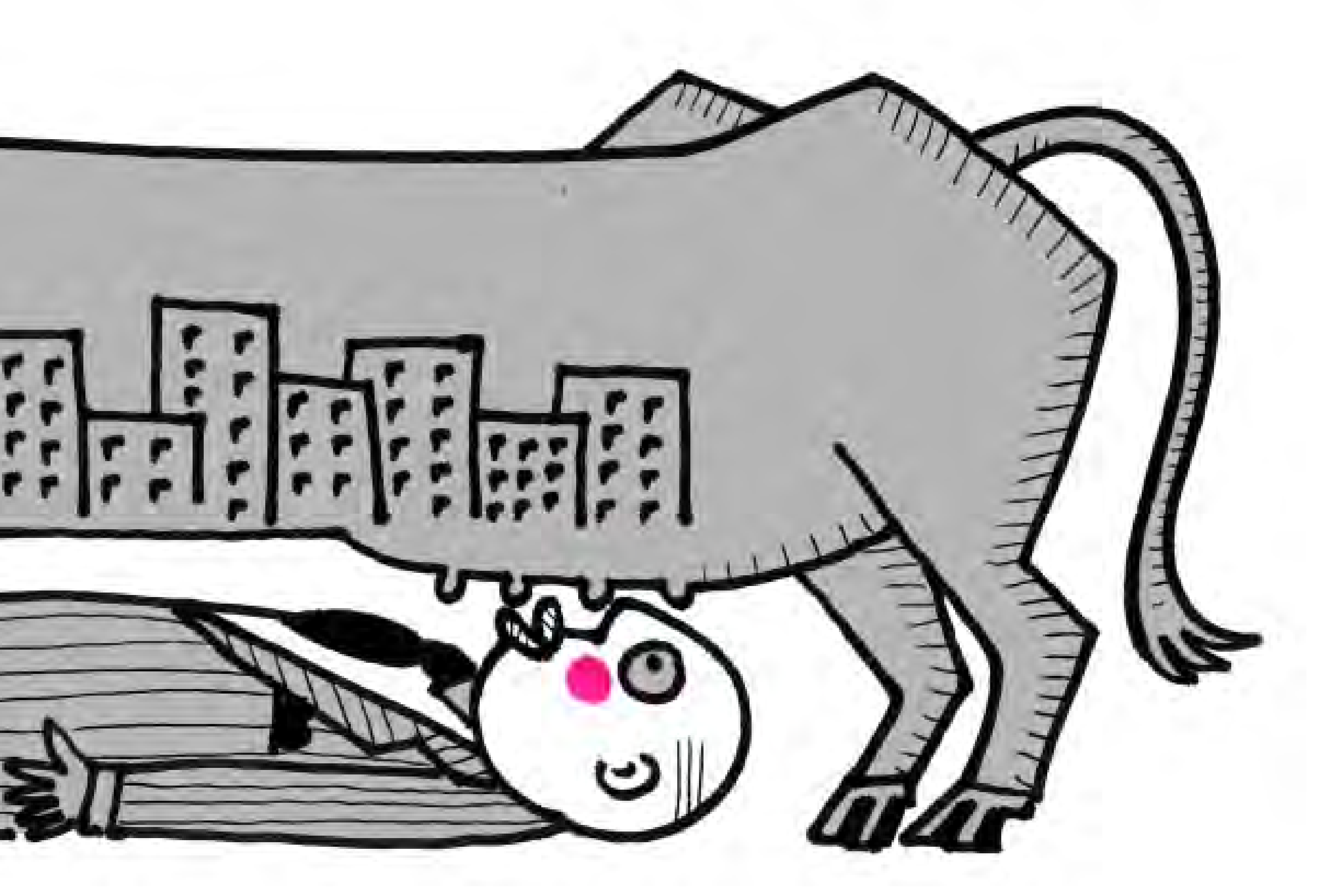
فى القـانـون والاقـتـصـاد والـسـيـاسـة

[١]

جـذور المـشـكـلـة

فى سابقة نادرة، أو ربما لا نظير لها، يعلن الرئيس إعادة النظر فى تطبيق قانون أقره مجلس الشعب، ثم أمهره الرئيس بإمضائه وأصدره، ونعنى به قانون الضريبة على العقارات المبنية المرقم بـ ١٨٦ لسنة ٢٠٠٨. فعلى الرغم من أن القانون قد واجهته معارضة قوية شملت أطرافا من الحزب الحاكم نفسه أثناء مناقشته وهو ما يزال بعد مشروعا، إلا أن الحكومة وقيادة الحزب الوطنى لم تلتفت إليها. ومن ناحية أخرى بينما ظلت المعارضة محصورة فى إطار النخب السياسية والاقتصادية، إلا أن أولى خطوات تطبيق القانون بإلزام جميع ملاك الوحدات السكنية بالإقرارات، نجحت فى استثارة فزع الملايين الذين خشوا (وهى خشية مشروعة كما سوف نرى) من أن تقديم الإقرارات لا يعنى سوى تطبيق القانون عليهم إن لم يكن اليوم فغدا، على الرغم من التأكيدات الحكومية بأنه لن يمس سوى ٥٪ من ملاك العقارات. وهكذا انتقلت معارضة القانون من النخب إلى الجماهير الواسعة، مما استلزم تدخل الرئيس. ولكنه بطبيعة الحال كان من أجل بث الطمأنينة فى نفوس الناس وتغيير بعض إجراءات التطبيق وليس تعديل القانون نفسه، ولهذا جاءت تصريحات أخرى للرئيس لتؤكد على القانون وتبدد التكهنات حول تعديله.

لقد أثيرت العديد من الانتقادات للقانون، لكن القضية المركزية فى الخلاف تكمن فى إخضاع القانون الجديد الوحدات السكنية التمليك للضريبة العقارية، ويرى معارضو القانون



صـــــــلاح العمـــروسي

يري معارضو القانون أنه يلغي حقا مكتسبا قديما أقرته القوانين السابقة، ويشككون أيضا في دستورية القانون انطلاقا من مبدأ عدم فرض الضريبة إلا علي عقارات تدر دخلا



أنه يلغى حقا مكتسبا قديما أقرته القوانين السابقة، ويشككون أيضا فى دستورية القانون انطلاقا من مبدأ عدم فرض الضريبة إلا على عقارات تدر دخلا، أى على العقارات المؤجرة، ومن ثم إعفاء السكن الخاص الملك، وهم يستندون على سابقة قانونية تتمثل فى حكم للمحكمة الدستورية قضت بعدم فرض ضريبة على الأرض الفضاء، ويفترضون أن المبادئ التى تضمنها هذا الحكم تنطبق على الجدل الراهن حول الضريبة العقارية.

ولكن المدهش أن وزارة المالية لا تعترف أصلا بهذا الخلاف وتجزم بأن القانون الجديد لم يأت بجديد، وتقول الوزارة «القانون الجديد... لا يفرض ضريبة جديدة، فهى ضريبة مفروضة بالفعل بموجب القانون رقم ٥٦ لسنة ١٩٥٤... ولم يخرج القانون الجديد عن الأساس الذى تفرض عليه الضريبة، فالضريبة ستفرض على القيمة الإيجارية للعقارات، وإنما يأتى الاختلاف الأساسى بين القانونين فى أن القانون الجديد يأخذ بالحد الأدنى لمعدلات الضريبة بسعر ١٠٪»[1]. وذلك فى مقابل الضريبة التصاعدية فى القانون القديم، والذى كانت شريحته العليا تصل إلى ٤٠٪.

وهكذا تتجاهل وزارة المالية الحديث صراحة عن الفارق الجذرى بين القانونين، والذى يتعلق، كما سبقت الإشارة، بإلغاء إعفاء السكن الخاص الملك الذى كان معمولا به من قبل. ومن المحتمل أن الوزارة تستند فى تجاهلها هذا إلى أن القانون القديم (٥٦ لسنة ١٩٥٤) وكذلك القوانين التى سبقته لا ينص صراحة على إعفاء السكن الخاص الملك، حيث إن ذلك الإعفاء ورد فى قانون آخر ظل مكملا لقوانين عوائد الأملاك المبنية ونعنى به «القانون ٩٩ لسنة ١٩٤٩ بشأن الضريبة العامة على الإيراد»، فقد نصت آخر فقرة فى المادة السادسة من ذلك القانون على أنه «لا يدخل فى الحساب عند تحديد المبالغ الخاضعة لضريبة الإيرادات المفترضة المنزل المملوك للممول والذى يشغله بالفعل»[2]. وقد ظل هذا الإعفاء ساريا فى القانون الحالى للضرائب على الدخل رقم ٩١ لسنة ٢٠٠٥ والذى صدر فى عهد وزير المالية الحالى نفسه، وقد نصت المادة ٣٩ من القانون المذكور على أنه «تحدد ضريبة العقارات المبنية على أساس إجمالى القيمة الإيجارية المتخذة أساسا لربط الضريبة المفروضة بالقانون ٥٦ لسنة ١٩٥٤... وذلك بعد خصم ٤٠٪ مقابل جميع التكاليف والمصروفات فضلا عن القيمة الإيجارية للمسكن الخاص الذى يقيم فيه الممول وأسرته»[3]. ومن الواضح أن هناك عاملا جديدا غير من فكر الوزارة والوزير يوسف بطرس غالى جعلها تغير موقفها من ذلك الإعفاء، ولعل السبب يعود إلى تأثيرات الأزمة على ميزانية الدولة.

ولكن الحكومة ممثلة فى وزارة المالية اختارت الالتفاف حول المسألة الجوهرية وليس مواجهتها مباشرة. ونعنى بها مبدأ عدم فرض الضريبة سوى على عقارات تدر دخلا على صاحبها، أى على المبانى السكنية المؤجرة وإعفاء السكن الخاص المملوك. وفى الحقيقة أن مواجهة ذلك المبدأ تقتضى أولا تجاوز النظرة القانونية المجردة التى تتناول المسألة بعيدا عن الظروف التاريخية الملموسة الذى طبق فيه ذلك المبدأ، فهذا المبدأ طبق فى ظروف سادت فيها الحيازة الإيجارية للسكن الخاص ومن ثم كان السكن الملك استثناء وليس القاعدة، وهى ظروف لم يعد لها وجود الآن أو لحقت به تغييرات جذرية بصورة أدى ويؤدى تطبيق هذا المبدأ إلى أزمة حقيقية فى تمويل البنية الأساسية التى تخدم المبانى السكنية لمصر بأسرها.

إن هذا التحول معروف للكافة ولكنه لا يوضع موضع التحليل فى تناول المسألة ويقتصر

الأمر على التناول القانونى المجرد كما سبق القول. وهو يتمثل فى التحول من نظام الإيجار الذى ظل سائدا حتى منتصف السبعينيات إلى نظام التمليك الذى تعاظم وزنه عبر السنين حتى أصبح سائدا اليوم.

فوفق بيانات تعداد الظروف السكنية لسنة ٢٠٠٦، تبلغ نسبة الأسر التى تحوز وحدات سكنية ملك أو تمليك ٧٠٪ من الأسر على مستوى الجمهورية (حوالى ١٢ مليون أسرة من إجمالى ١٧.٣ مليون أسرة)، والأسر التى تحوز وحدات سكنية مؤجرة إيجار قديم ١٥٪، والإيجار الجديد ٦٪، أما بقية الأسر فهى تتوزع بين أشكال أخرى من الحيازة (هبة، ميزة عينية... إلخ). وبطبيعة الحال تتركز الوحدات السكنية التمليك فى المدن الجديدة والتى قد تصل إلى ١٠٠٪، وإن كانت بياناتها تأتى مندمجة فى بيانات إجمالى المحافظات التى تتضمن مناطق قديمة. وحتى فى محافظة قديمة مثل محافظة القاهرة بلغت نسبة حائزى الوحدات السكنية (ملك وتمليك) ٤٠٪، ونسبة حائزى الإيجار القديم ٤٨٪، والإيجار الجديد ٨٪[٤].

ولكن البيانات السابقة تتعلق بالوحدات السكنية التى تحوزها الأسر فقط، وينبغى أن يضاف إليها كتلة الوحدات السكنية المغلقة (٢ مليون وحدة) وكذلك الوحدات السكنية الخالية (٥.٩ مليون)[٥]، وهى غالبا وحدات ملك أو تمليك: إما محجوزة للأبناء وإما اشتراها مستثمرون صغار بغرض البيع، وأخيرا،إما أن تكون مخزونا سلعيا، وهى النسبة الأكبر، فى حيازة مشروعات الاستثمار العقارى ولم تنجح فى بيعها بعد. وعلى الرغم من أنه من الصعب جمع تلك الأرقام، حيث إن عدد الحائزين لا يتطابق مع عدد الوحدات السكنية (عادة أقل بالنظر إلى أن هناك من يحوز أكثر من وحدة سكنية)، إلا أنه يمكن القول بشكل تقريبى أن نسبة الوحدات السكنية الملك والتمليك تزيد على ٨٠٪.

وهكذا يعنى إعفاء المسكن المملوك لحائزه من الضرائب أن الأغلبية الساحقة من المبانى السكنية، بما فيها مدن بكاملها لا تدفع ضرائب عقارية، وأن قلة من الوحدات السكنية هى التى يقع عليها وحدها العبء الضريبى الذى ينبغى أن ينفق منه على البنية الأساسية لمجمل المبانى السكنية. ولكن المشكلة تبدو أكثر تفاقما من حقيقة أن الوحدات السكنية الإيجارية فى الغالب هى من فئة الإيجارات القديمة، تلك التى خفضت ثم تجمدت إيجاراتها منذ حوالى نصف قرن، فحسب تعداد ٢٠٠٦ تشكل الأسر التى تدفع إيجارات أقل من ١٠٠جنيه حوالى ٧٤٪، فضلا عن حوالى ١٤٪ أخرى تدفع إيجارات غير محددة (تصنف غير مبين)[٦]. ولما كانت تلك الإيجارات المجمدة هى التى تشكل الوعاء الضريبى، لهذا يتبين لنا السبب الحاسم فى هزال الضريبة العقارية فى مصر. فحسب بيانات وزارة المالية وصلت ضرائب المبانى فى ٢٠٠٧/٢٠٠٨ حوالى ٢٣١ مليون جنيه فقط[٧]، لا تتجاوز نسبتها ٠.٣ ٪ من حصيلة الضرائب، ٠.١ من إجمالى الإيرادات، وللمقارنة بلغت الضرائب العقارية فى الثلاثينيات ٣٠٪ من الإيرادات العامة[٨]. وهذه من المفترض أن ينفق منها على ثروة عقارية من المبانى السكنية تقدر بأقل قليلا من ٣ تريليون جنيه (باعتبار أن متوسط قيمة الوحدة ١٠٠ ألف جنيه وإجمالى الوحدات السكنية ٢٨ مليون وحدة).



وهكذا فإن الظروف التى سادها نظام الإيجار، والتى نشأ فيها مبدأ إعفاء المساكن الخاصة الملك من الضريبة لم يعد له وجود الآن، وحل محله وضع جديد تماما تدفع الضرورة الاقتصادية فيه إلى إنهاء المبدأ المذكور، من أجل الإنفاق على البنية الأساسية التى تخدمها والتى بدونها يستحيل استخدامها فى غرض السكنى، فهى ملحق لها أو حتى امتداد مباشر لها.

وإذا كانت الوجهة الرئيسية لقانون الضرائب العقارية الجديد تنصب على إخضاع الوحدات السكنية المملوكة لشاغلها للضريبة العقارية، وعلى الرغم من أنه بذلك جاء تصحيحا لوضع شاذ، إلا أنه جاء أيضا منافيا لمبدأ العدالة الضريبية، وذلك على نقيض زعمه تماما. كما أنه يحتاج إلى دراسة معمقة لدستورية القانون الذى يدفع البعض بعدم دستوريته ويستندون فى ذلك على سابقة مشابهة، حينما حكمت المحكمة الدستورية بعدم دستورية فرض الضريبة على أرض فضاء لا تدر دخلا.

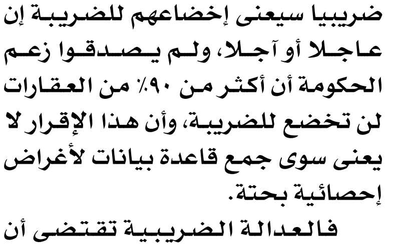
[٢]

الحد الوهمى للإعفاء الضريبى والعدالة الضريبية المقلوبة

هناك زاويتان أساسيتان فى الأساس المقلوب للعدالة الضريبية للقانون الجديد: تتعلق الأولى بحد الإعفاء الضريبى، وتتعلق الثانية بإلغاء مبدأ الضريبة التصاعدية.

حد الإعفاء الضريبى: ثمة عنصران يجعلان من حد الإعفاء حدا وهميا:

أولهما أن القانون ثبت حد الإعفاء (للعقارات التى تقل قيمتها السوقية عن نصف مليون، أو بالضبط ٤٧٦.٢ ألف جنيه، وهى القيمة السوقية للعقار التى تنتهى بعد خطوات حسابية معينة (أشبه ما تكون بحسبة بيرما) إلى أن قيمته الإيجارية المحسوبة كوعاء ضريبى تبلغ ٦٠٠٠ جنيه فى السنة والتى تمثل الحد الدقيق للإعفاء)، لكنه فى نفس الوقت يقرر إعادة تقدير قيمة العقار الذى سيجرى ربط الضريبة على أساسه، أو بعبارة أخرى حرك ربط الضريبة وفقا لتحرك القيمة السوقية للوحدات السكنية. ويعنى هذا أن معظم الوحدات السكنية التى تتحرك قيمتها السوقية سوف تتجاوز بالتدريج حد الإعفاء ومن ثم تخضع الضريبة إن عاجلا أو آجلا. ويضع القانون حدا أقصى ٣٠٪ لزيادة قيمة العقار كل ٥ سنوات. ومعنى ذلك أن حد الإعفاء المذكور ستتجاوزه الشقة التى تقدر قيمتها الآن بـ ٣٨٥ ألف جنيه، ثم تلحق بها بعد ١٠ سنوات الشقة التى تقدر قيمتها الآن بـ ٢٩٥ ألفا، ثم الشقة التى تقدر قيمتها بـ ٢٢٥ ألفا بعد ١٥ سنة، بل إن الشقق التى تباع الآن لمن يفترض أنهم فقراء ضمن مشروع مبارك للإسكان والتى تبلغ مساحتها ٦٣ مترا وتبلغ قيمتها ما بين ١٢٠ ١٣٥ ألف جنيه ستتجاوز حد الإعفاء الضريبى بعد ٢٥ سنة. بعبارة موجزة أن مساكن أفقر فقراء مصر ستخضع إن عاجلا أو آجلا للضريبة العقارية.



وكل هذا يعنى أن فزع جماهير الشعب من تقديم الإقرارات كان مبررا تماما، ذلك أننا إزاء حد إعفاء وهمى تماما، فقد أدرك الناس بحسهم السليم تلك الخدعة، واعتبروا أن تقديمهم إقرارا ضريبيا سيعنى إخضاعهم للضريبة إن عاجلا أو آجلا، ولم يصدقوا زعم الحكومة أن أكثر من ٩٠٪ من العقارات لن تخضع للضريبة، وأن هذا الإقرار لا يعنى سوى جمع قاعدة بيانات لأغراض إحصائية بحتة.

فالعدالة الضريبية تقتضى أن يكون حد الإعفاء حدا نهائيا، فإما أن يتحرك حد الإعفاء مثلما تتحرك قيمة العقارات، أو يجرى تثبيت حد الإعفاء، ولكن ينبغى اعتباره من الآن حدا فاصلا نهائيا، بمعنى أن من سيعفى اليوم سيظل يتمتع بالإعفاء فى المستقبل بصفة نهائية. وأن إعادة تقدير العقارات تنسحب فقط على العقارات التى تعلو الآن عن حد الإعفاء. فالفقراء اليوم لن يصبحوا أغنياء لمجرد ارتفاع سعر وحداتهم السكنية بفعل التضخم، التى لا تمثل سوى قيمة افتراضية، ولا تمثل لهم رأس مال من أى نوع، وليس مطروحا بيعها لتحويلها إلى ثروة نقدية، وإنما هى مجرد قيمة استعمالية ليس هناك بديل عنها سوى أن يكونوا بلا مأوى.

ثانيا: ومن إبداعات القانون أنه ليس إعفاء للفقراء فقط وإنما يمثل إعفاء للأغنياء أيضا، أى أنه بمعنى أدق يمثل نسبة خصم للجميع مهما كانت قيمة العقار الذى يملكه، ومن ثم فهو لن يدفع ضرائب إلا على ما يزيد على حد الإعفاء، فالعقار الذى تبلغ قيمته السوقية نصف مليون سيحسب وعاؤه الضريبى بـ ٣٠٠ جنيه فقط (بعد خصم حد الإعفاء وهو



الظروف التي سادها نظام الإيجار، والتي نشأ فيها مبدأ إعفاء المساكن الخاصة الملك من الضريبة لم يعد له وجود الآن، وحل محله وضع جديد تماما تدفع الضرورة الاقتصادية فيه إلى إنهاء المبدأ المذكور





العدالة الضريبية تقتضى أن يكون حد الإعفاء حدا نهائيا، فإما أن يتحرك حد الإعفاء مثلما تتحرك قيمة العقارات، أو يجرى تثبيت حد الإعفاء، ولكن ينبغى اعتباره من الآن حدا فاصلا نهائيا



٦٠٠٠ كوعاء ضريبى، يستحق عنها ٦٠٠ جنيه كضريبة سنوية)، وعلى ذلك تكون الضريبة المستحقة ٣٠ جنيها سنويا، وذلك بدلا من أن تكون الضريبة المستحقة ٦٣٠ جنيها سنويا. وكذلك من يملك عقارا قيمته السوقية مليون سيدفع ٦٦٠ جنيها سنويا بدلا ١٢٦٠ جنيها، وهكذا... إلخ..

توحيد الضريبة بدلا من الضريبة التصاعدية:

بدلا من الضريبة التصاعدية فى القانون القديم ٥٦ لسنة ١٩٥٤ وتعديلاته والتى تصاعدت بالضريبة من ١٠ إلى ٤٠٪ كحد أقصى، فرض القانون الجديد سعرا موحدا قدره ١٠٪ من قيمة الإيجارات المحتسبة كوعاء ضريبى للعقار. ويمثل ذلك تحيزا واضحا للأثرياء وهو فى نفس الوقت يمثل دافعا لنقل عبء الضريبة إلى عاتق الطبقات الفقيرة. ونشرت الوزارة كشفا ملحقا بالقانون لمقارنة العبء الضريبى المقدر على العقارات وفق القانونين القديم والجديد. وهذه هى بعض الأمثلة: قدرت الضريبة السنوية على قصر تبلغ قيمته السوقية ١٥ مليون جنيه وفق القانون القديم بـ ٨٦ ألف جنيه، خفضت إلى ١٨ ألفا فقط، وآخر قيمته السوقية ١٣ مليونا يستحق ضريبة ٧٥ ألف جنيه، خفضت إلى ١٦ألفا فقط، وهكذا وصولا إلى شقة قيمتها السوقية مليون جنيه تستحق ٦ آلاف جنيه خفضت إلى ٦٦٠ جنيها فقط (الأرقام مقربة).

وليست الضريبة التصاعدية إجراء اشتراكيا بأى حال، فهى تفترض سلفا التفاوت الواسع فى الدخول والسكن... إلخ، أى مجتمعا رأسماليا، وإنما هى إجراء إصلاحى لا أكثر، علما بأن خدمات الدولة ومن ضمنها البنية الأساسية تخدم الرأسماليين بأكثر مما تخدم الطبقات الفقيرة كونها تخدم نشاطهم التجارى والصناعى وليس مجرد نواحى الاستهلاك الشخصى، فضلا عن أن الطبقات الفقيرة هى التى يقع عليها العبء الأكبر من الضرائب غير المباشرة (الضرائب الجمركية، وضرائب الاستهلاك أو ضريبة المبيعات). وتطبق كل البلدان الرأسمالية المتقدمة الضرائب التصاعدية وقد استمر نفس النهج حتى بعد التحول عن سياسة دولة الرفاه الإصلاحية وتبنى السياسة الاقتصادية الليبرالية الجديدة، فلا تزال تطبق الضريبة التصاعدية على الدخول الرأسمالية للأفراد والشركات فى كل البلدان الرأسمالية المتقدمة تقريبا، ويصل الحد الأقصى للضريبة على دخول الأفراد فى أمريكا إلى ٣٥٪، وفى بريطانيا ٤٠٪، وفى الدانمارك ٦٠٪، ٥٢٪ فى هولندا، ٤٣٪ فى إيطاليا وألمانيا... إلخ.

ويشكل قانون الضرائب العقارية من هذه الناحية جزءا من حزمة من الإصلاحات الضريبية والتى أطلق عليها ثورة ضريبية تستهدف تحديث النظام الضريبى، ومصطلح التحديث يأتى هنا لإضفاء صفة التطور العصرى، من أجل إخفاء التحيز الاجتماعى ضد الفقراء من قبل حكومة رجال الأعمال. وقد بدأت تلك الثورة الضريبية بقانون الضرائب على الدخل (رقم ٩١ لسنة ٢٠٠٥) الذى تقرر بموجبه تخفيض الحد الأقصى لسعر الضريبة من ٤٠٪ إلى ٢٠٪، ثم التخفيضات الجمركية المتلاحقة من أجل فتح السوق المصرية للبضائع الأجنبية، التى لم تستهدف ترخيص السلع للمستهلك وإنما فتح السوق المحلية للسلع المستوردة وإنهاء الحماية للسوق المحلية، الأمر الذى اتبع بفرض ضريبة المبيعات لتعوض التخفيضات الجمركية، ولكن مع فرضها فى نفس الوقت على السلع المحلية التى لم تعد تتمتع فى هذه الحالة بالحماية التى كانت تتمتع بها، وكلاهما (الجمارك والمبيعات) يقع عبئها الرئيسى على الطبقات الشعبية الفقيرة[٩].

وقد جرى الترويج للتخفيضات التى أدخلها قانون الضرائب على الدخل بأنها تستهدف احتفاظ المجتمع (المقصود كبار الرأسماليين) بأكبر قدر من الفائض بدلا من تعبئته فى يد الدولة من أجل توجيهه نحو الاستثمار والتنمية، ولكن الخطاب الدعائى شىء والواقع شىء آخر، ذلك أنه ليست هناك أية ضمانة لتحقق ذلك، حيث الأكثر احتمالا أن يتوجه الفائض، على العكس، إلى الاستهلاك الترفى السفيه بدلا من الاستثمار، وهو ما يحدث بالفعل أمام أعيننا جهارا نهارا، وتتناقل وسائل الإعلام كل يوم قصة صادمة من قصص الإنفاق السفيه على المحظيات وما أشبه. ومع ذلك إذا كانت هناك مساحة للادعاء بدوافع تنموية لتخفيض الحد الأقصى لسعر الضريبة فى حالة قانون الضريبة على الدخل، فإن مثل تلك المساحة معدومة تماما فى حالة قانون الضرائب العقارية، حيث إن تخفيض الحد الأقصى للضريبة (أو بالأحرى توحيدها فى سعر واحد لمساكن الفقراء وقصور الأغنياء)، هو تشجيع مباشر على الاستمرار فى اقتناء المزيد من القصور والفيلات. وهذا الجانب المتحيز للأغنياء جرى طمسه حتى من المعارضة التى استغرقت فى معارضة إجمالية للقانون دون تمييز وكشف التحيزات الاجتماعية للقانون.

[٣]

الضريبة العقارية وثلاثة أحكام دستورية من وجهة نظر الاقتصاد السياسى

طعن العديد من الخبراء وفقهاء القانون الدستورى[١٠] وأعضاء مجلس الشعب، على رأسهم النائب المستقل البارز علاء عبد المنعم[١١]، فى دستورية القانون الجديد للضريبة العقارية، الذى كما سبق القول، استحدث فرض الضريبة العقارية على المسكن الخاص المملوك لشاغله، والتى كانت حتى صدوره مقصورة على المبانى السكنية المؤجرة، واستندوا فى ذلك بحكم للمحكمة الدستورية العليا فى ١٩ يونيو ١٩٩٣، بشأن عدم دستورية فرض الضريبة على الأرض الفضاء، باعتبار أنها لا تدر إيرادا يستوجب فرض الضريبة العقارية. وهم يرون أن هذا الحكم الذى وإن كان لم يتعرض لمثل تلك الحالة إلا أنه يمكن القياس عليه انطلاقا من المبدأ الدستورى الذى يمكن استخلاصه من ذلك الحكم، المتمثل فى أن الضريبة لا تفرض على أصل رأس المال، وإنما على ما يغله من دخل.



قبل كل شىء لابد من الإشارة إلى أن المحكمة الدستورية لم تصدر حكما واحدا، وإنما لدينا ثلاثة أحكام لها صلة بقضيتنا محل الجدل، فهناك حكمان آخران إضافة لحكم الأرض الفضاء المشار إليه، وهما يدوران حول غياب الإيراد الذى يستوجب الضريبة، مثلها مثل قضية الأرض الفضاء. ومع ذلك جاء الحكمان مخالفين له:

- الأول: حكم (١٠ مارس ٢٠٠٢) يرفض الطعن فى دستورية تحصيل الضريبة من العقارات المبنية المشغولة بغير عوض (أى بدون أجرة)، ويرفض تطبيق حكم المحكمة الدستورية المتعلق بالأرض الفضاء عليه. وربما هذا الحكم هو الذى يعتبره الدكتور فتحى سرور تعزيزا لدستورية قانون الضريبة العقارية الجديد.

- وحكم آخر فى ٢ ديسمبر ٢٠٠٠، يرفض الطعن فى دستورية نص المادة ١٤ من القانون ٤٩ لسنة ١٩٧٧ التى ألزمت المستأجر بدفع الضريبة العقارية بدلا من المالك، الذى هو المكلف الأصلى بأدائها باعتباره المستفيد من إيراد العقار.

ولحسن الحظ تتوافر لدينا نصوص الأحكام الثلاثة (حصلنا عليها من موقع المحكمة الدستورية العليا)، الأمر الذى يتيح لنا مناقشة غنية، ولكننا سنناقشها أساسا من وجهة نظر الاقتصاد السياسى، ولن نتعرض للقضايا القانونية إلا بقدر ما يستوجبه تحليلنا الاقتصادى، آملين أن تفيد المتخصصين من فقهاء القانون فى مناقشة القضية.

١- عدم دستورية فرض الضريبة على الأرض الفضاء.[١٢]

لهذه المشكلة قصة يحسن أن نقف عندها أولا، حتى نفهمها بوضوح، فوفقا لقانون الضرائب العقارية القديم ٥٦ لسنة ١٩٥٤، هناك نوعان من الأرض الفضاء، أرض مستغلة أو مستعملة لأى غرض من الأغراض، وهذه اعتبرت فى حكم العقارات المبنية، ومن ثم أخضعت للضريبة، والنوع الآخر هى الأرض الفضاء غير المستغلة، وهذه أعفيت من الضريبة العقارية، حتى فكرت الدولة فى ١٩٧٦ فى إنشاء صندوق لتمويل الإسكان الاقتصادى بالقانون ١٠٧ لسنة ١٩٧٦، بحثت له عن تمويل كان أحد مصادره فرض ضريبة على الأرض الفضاء «غير المستغلة أو غير المستعملة»، والتى ربما بدأت تشتعل أسعارها، ومن ثم بدأ الاستثمار فيها فيما يسمى «تسقيع» الأراضى، ولكن يبدو أن تلك الظاهرة لم تكن محل نظر المحكمة الدستورية التى أصدرت حكمها فى ١٩ يونيو ١٩٩٣.

والمسألة الجوهرية فى ذلك الحكم تتمثل فى أن الأرض الفضاء غير المستغلة لا تدر دخلا، ومن ثم ستقع الضريبة على رأس المال ذاته، مما يؤدى إلى زواله، حيث «... أنه لا يجوز أن تفرض الضريبة ويحدد وعاؤها بما يؤدى إلى زوال رأس المال المفروضة عليه كلية أو الانتقاص منه



الضرائب العقارية

بدرجة جسيمة. ومن أجل ذلك كان الدخل باعتباره من طبيعة متجددة ودورية هو الذى يشكل على اختلاف مصادره الوعاء الأساسى الرئيسى للضريبة... أما فرض ضريبة على رأس مال لا يغل دخلا... فإنه ينطوى على عدوان على الملكية بالمخالفة لنص المادة ٣٤ من الدستور، كما يناقض مفهوم العدالة الاجتماعية الذى نصت المادة ٣٨ من الدستور على قيام النظام الضريبى على أساسه وهو ما يوجب القضاء بعدم دستورية النصين المطعون فيهما».

ومن الواضح أن المحكمة انطلقت من مفهوم نظرى للأرض الفضاء غير المستعملة، بأنها أرض عديمة النفع بحكم طبيعتها، أى لا ينتفع بها ولا تستعمل فى أى غرض اقتصادى (إنتاجى أو خدمى) ومن ثم فهى لا تغل دخلا، ومن ثم فإن إخضاعه للضريبة سيكون اقتطاعا من رأس المال مما يؤدى إلى زواله أو الانتقاص منه بصورة جسيمة.

ومع ذلك فإن مفهوم الأرض الفضاء غير المستغلة يحتاج إلى وقفة للتأمل والوضوح، فهى بذاتها ذات وضع متناقض بطبيعتها، أو لها وجهان متناقضان: الوجه الأول يرتبط بمجال الإنتاج، حيث إنها لا تدر دخلا طالما لم تستخدم كوسيلة لنشاط اقتصادى من أى نوع (مخزن، جراج... إلخ) والذى من شأنه أن يولد دخلا بصورة دورية ومتجددة، أما الوجه الآخر، فيرتبط بمجال التداول، فهى باعتبارها سلعة تباع وتشترى قد يرتفع أو يهبط سعرها، ومن ثم يمكن أن تكون مصدرا للأرباح أو الخسائر، ومن ثم يمكن أن تكون من هذه الناحية مولدة للدخل، ويمكن أن يستمر ذلك الدخل بصورة متواصلة شرط أن تتخذ أسعارها اتجاها صعوديا غالبا، ولكنه لن يتحقق إلا مرة واحدة فى حالة التصرف فيها بالبيع. وهذا الوجه الآخر لم تأخذه المحكمة فى عين الاعتبار، وهو ما يتطلب الانتقال من إطار التحليل القانونى إلى إطار التاريخ الاقتصادى والتحليل الاقتصادى الاجتماعى.

ففى ظل الظروف الاقتصادية السائدة فى بداية الخمسينيات حينما صدر القانون القديم فى ١٩٥٤ (وبالتأكيد قبلها أيضا) كان مستوى أسعار أراضى البناء ثابتا نسبيا، وربما كان يصعد أحيانا ويهبط أحيانا أخرى ولكن دون تحولات دراماتيكية كبرى، بحيث لم تكن مصدرا لتوليد الدخل يعول عليه. ولهذا السبب أعفى القانون المذكور الأرض الفضاء غير المستغلة من الضريبة. ومن المرجح أن هذا المفهوم هو الذى أسست عليه المحكمة الدستورية العليا حكمها، ولهذا السبب شدد نص الحكم فى البداية بصفة خاصة على توصيف القانون ٥٦ لسنة ١٩٥٤ للأرض الفضاء غير المستغلة بأنها لا تدر دخلا.

ولكن الظروف التى نشأ فيها هذا المفهوم للأرض الفضاء التى لا تدر دخلا، لم تعد موجودة حيث شهدت ارتفاعا جنونيا ومتواصلا فى الأسعار بدءا من النصف الثانى من السبعينيات من القرن الماضى وحتى الآن، لنشهد ظاهرة جديدة تماما يعرفها الكافة تحولت معها الأرض الفضاء غير المستغلة من أرض لا تدر دخلا إلى واحد من أهم مجالات الاستثمار وتوليد الدخل، وأطلق عليها المصريون ذلك المصطلح العبقرى «تسقيع» الأراضى، أى تركها لفترات طويلة لبرودة العراء دون ممارسة أى نشاط اقتصادى عليها حتى «تسقع»، لكن سعرها سيرتفع دون جهد، لتأتى بدخل يكون غالبا أضعاف فائدة البنوك ويفوق بشكل هائل معدل التضخم، وامتدت هذه الظاهرة إلى الوحدات السكنية المغلقة والخالية. وفى هذه الحالة لم يعد فرض الضريبة على تلك الأراضى عدوانا على الملكية يؤدى إلى زوال رأس المال، بل لقد أصبحت تلك الملكية عدوانا على المجتمع، حيث ساهمت فى عجز الملايين عن الحصول على مسكن.

ومن ناحية أخرى إذا كان القانون المطعون فى مواده بفرضه الضريبة على الأرض الفضاء غير المستغلة ينطوى على أفضلية التنبه لظاهرة «تسقيع» الأراضى، إلا أنه فرض تلك الضريبة على نحو معيب، حيث إنه، كما أشار حكم المحكمة الدستورية، فرض الضريبة على «القيمة الأصلية» وكذلك على زيادة حددها القانون بصورة تحكمية (أى جزافية) تقدر بـ ٧٪ سنويا وذلك «بغض النظر عن مساحتها أو موقعها أو صقعها»، فتؤدى بالتالى إلى شبهة تآكل رأس المال أو الانتقاص منه بشكل جسيم. وكان من الأوفق أن تقتصر الضريبة على نقل الملكية سواء بالبيع كأرض فضاء أو ضمن المبانى السكنية التمليك، وفى هذه الحالة كان يجب أن تكون ثقيلة وتكون أقرب إلى مصادرة الزيادة الحقيقية (أى بعد حساب عامل التضخم) الناجمة من «التسقيع». وهذا فى الحقيقة أمر ضرورى وملح الآن، أكثر من أى وقت مضى، ليس لمجرد إيجاد مصادر لتمويل مشروعات ذات بعد اجتماعى، وإنما أساسا لمواجهة المضاربة على الأراضى ونهب أراضى الدولة.



ومع ذلك، بغض النظر عن تلك التحولات التى جعلت الأرض الفضاء غير المستغلة تدر دخلا، وأن الأرض ظلت كما كانت عليه فى زمن صدور القانون ٥٦ لسنة ١٩٥٤ فهل حقا يمكن أن ينطبق الحكم المشار إليه على السكن الخاص الملك، باعتبار أن كليهما لا يدر دخلا؟. الحقيقة إن هناك فارقا حاسما بينهما، فإذا كان كلاهما لا يغل دخلا، إلا أن الأولى عديمة النفع لا يمكن لأحد أن يستأجرها وهى على ما هى عليه من عطالة بينما الثانية تحقق منفعة عظيمة تلبى حاجة ماسة باعتبارها مسكن الأسرة، ومنفعتها هذه قابلة للتأجير ومن ثم توليد دخل احتمالى، أو دخل حكمى وفق حكم المحكمة الدستورية الذى سيلى حالا. ومن ثم فمن بالغ الخطأ الظن بأن حكم المحكمة الدستورية الخاص بالأرض الفضاء «ينطبق فى معناه ومبتغاه انطباقا لا يقبل التجزئة» على مواد قانون الضريبة العقارية الجديد، وذلك وفق رأى النائب علاء عبد المنعم[١٣].

وهذا ينقلنا إلى حكم آخر للمحكمة الدستورية الذى يقدم تناولا مختلفا يمكن أن يعزز دستورية قانون الضريبة العقارية الجديدة.

٢ دستورية الضريبة على العقارات المبنية المشغولة بدون عوض[١٤].

أصدرت المحكمة الدستورية هذا الحكم فى النزاع حول المادة الأولى من القانون ٥٦ لسنة ١٩٥٤، التى تقضى بفرض ضريبة على العقارات المشغولة بدون عوض (أى بدون أجرة). وتبدو هذه الضريبة مشابهة فى حكمها للضريبة على الأرض الفضاء غير المستعملة، حيث إن كليهما من الناحية الظاهرية لا يدر دخلا. وبالفعل طلب الطاعن تطبيق السابقة الدستورية بشأن الأرض الفضاء على العقارات المشغولة بدون عوض، بنفس المعنى ونفس الصياغات تقريبا.

لكن المحكمة الدستورية رفضت ذلك الادعاء تماما وقالت إن «الاستشهاد فى ذلك بقضاء المحكمة الدستورية العليا فى شأن الضريبة على الأرض الفضاء، فإنه مردود عليه بأن الأرض الفضاء هى رأس مال خالص لا يدر دخلا بحكم طبيعته وطالما بقى بحالته من عدم الاستغلال، ومن ثم فإن فرض الضريبة عليها إنما يرد على رأس المال ذاته، وليس على ما يدره من دخل، فى حين أن العقارات المبنية المشغولة قد أعدت لأن تدر دخلا بحكم طبيعتها». ثم يواصل الحكم قائلا: إن «المغايرة بين حالة الأرض الفضاء وحالة العقار المشغول تتأتى من أن الأولى لا تدر أى دخل يمكن أن ترد عليه الضريبة، أما الثانية فهى مصدر لدخل حقيقى حين يشغل العقار بعوض، ودخل حكمى حين يكون شغله بغير عوض، إذ يرتد انعدام العوض فى الحالة الأخيرة إلى حرية صاحب حق العوض فى استخدام مصدر دخله، وهو اختيار ليس من شأنه تغيير طبيعة المال ذاته، وما أعد له من أن يكون مصدرا لإنتاج دخل، سواء تحقق هذا الدخل فعلا أو حكما».

الجديد فى هذا الحكم أنه يميز بين الدخل الفعلى وبين الدخل الحكمى، فعلى الرغم من أن العقارات المشغولة بغير عوض لا تدر دخلا فعليا، إلا أنها معدة لتوليد أو إنتاج الدخل (أى تملك منفعة محددة) ولكن صاحبها تنازل عنه بحرية، ومن ثم اعتبرت المحكمة أنه يولد دخلا حكميا. ويمكن القول أن هذا الحكم ينطبق على



من إبداعات القانون أنه ليس إعفاء للفقراء فقط وإنما يمثل إعفاء للأغنياء أيضا، أي أنه بمعنى أدق يمثل نسبة خصم للجميع مهما كانت قيمة العقار الذى يملكه





ليست الضريبة التصاعدية إجراء اشتراكيا بأى حال، فهى تفترض سلفا التفاوت الواسع فى الدخول والسكن... إلخ، أى مجتمعا رأسماليا، وإنما هى إجراء إصلاحى لا أكثر



القانون الجديد للضريبة العقارية على النقيض من حكم الأرض الفضاء. فهذه الأخيرة لا تملك مقومات توليد الدخل، أو ليس لها منفعة (بغض النظر عن ظاهرة التسقيع التى لا تنتج دخلا ناجما من نشاط اقتصادى ولكن من مجرد الاحتكار والمضاربة)، على حين أن العقارات المبنية معدة بالفعل لتوليد الدخل (أو تملك منفعة)، ليكون بذلك حال العقارات المشغولة بغير عوض كحال المسكن المملوك لحائزه، وكذلك الوحدات السكنية الخالية أو المغلقة. فالمسكن الخاص الملك إذا لم يكن يولد دخلا فعليا، فهو يولد دخلا حكميا (أو افتراضيا إذا شئنا تقريب الأمر لغير المختصين بالقانون) يساوى ما كان يمكن أن يحصل عليه من تأجيره، أو مقدار ما وفره على مالكه لو أنه استأجر مسكنا خاصا. وكذلك الحال مع الوحدات السكنية الخالية والمغلقة فهى بدورها معدة لتوليد الدخل، ولكن بسبب النزوع الاحتكارى لملاكها والمضاربة عليها من أجل رفع أسعارها، اختار ملاكها عدم تأجيرها أو بيعها، ومن ثم لا تدر دخلا فعليا، وإنما تولد دخلا حكميا.

بعبارة موجزة إن هذا الحكم يعزز القائلين بدستورية قانون الضرائب العقارية.

٣ - دستورية إلزام المستأجر بدفع الضريبة العقارية[١٥].

صدر هذا الحكم بشأن الدعوى بعدم دستورية نص المادة ١٤ من القانون ٤٩ لسنة ١٩٧٧فى شأن تأجير وبيع الأماكن وتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر. وذلك لمناقضته لمقومات الضريبة ووجوب قيامها على العدالة الاجتماعية، تأسيسا على أن «الأصل هو التزام المالك بالضريبة العقارية باعتباره المستفيد من إيراد العقار، الذى يصلح دون غيره لأن يكون وعاء لتلك الضريبة...»

ولكن المحكمة ردت على ذلك «بأنه وإن كان الأصل أن الدخل باعتباره من طبيعة متجددة ودورية هو الذى يشكل... الوعاء الأساسى للضرائب... إلا أن هذا الأصل وإن كان يصدق بصفة أساسية فى ظل حرية التعاقد... فإن الأمر يختلف حين يتدخل المشرع لتنظيم العلاقة الإيجارية... تنظيما مؤداه فرض أجرة... لا يجوز للمالك تجاوزها، بافتراض أنها تكفل له ربحا صافيا منسوبا إلى مجموع التكاليف الرأسمالية وما يلحق بها من ضرائب عقارية؛ ومن ثم كان مما يتفق مع العدالة إلزام المستأجر بهذا العنصر من عناصر التكلفة الرأسمالية للأماكن المؤجرة لإعادة التوازن إلى العلاقة بين المؤجر والمستأجر..». وانتهت المحكمة إلى دستورية إلزام المستأجر (لغير غرض السكنى كانت الدعوى خاصة بعيادة طبيب) بدفع الضريبة العقارية.

وبغض النظر عما يشوب هذا الحكم من ميول أيديولوجية معينة حول حرية التعاقد والخضوع لاعتبارات العرض والطلب... إلخ إلا أن المحكمة بنت حكمها على الظروف الاقتصادية التى أحاطت بالعلاقة بين المالك والمستأجر، لتلزم المستأجر(الذى لا يملك رأس مال ولا يستفيد من دخل العقار) بدفع الضريبة على نقيض التقيد الحرفى بوجوب أن تفرض على الدخل على الرغم من أن دخل العين المؤجرة، يخص الطرف الآخر. وقياسا على ذلك فإن الظروف الاقتصادية الناشئة من التحول من نظام الإيجار إلى نظام التمليك يجب أن تنهى إعفاء السكن الخاص المملوك من الضريبة، لأنه بدونها يستحيل تمويل البنية الأساسية التى تخدم قطاع الإسكان بأسره. بعبارة موجزة إن إعفاء المسكن الخاص المملوك من الضريبة لا يمكن أن يتحول فى حد ذاته إلى حق دستورى بغض النظر عن الظروف العامة التى تحيط به.

[٤]

إسكان التمليك:

ثروات فلكية وأزمة إسكان شاملة وتبديد لمدخرات المجتمع

كان من الضرورى أن نتناول قضية التحول إلى السكن التمليك، التى شكلت محور تلك الدراسة، دون دراستها هى نفسها وليس فقط دراسة إلزامها بدفع الضرائب. وهذا السياق الأوسع كان من الأوفق منهجيا أن يكون تمهيدا للدراسة، ولكننا اخترنا أن يكون خاتمة لها حتى تأخذ القضية الأضيق محلها من التركيز.

على أية حال، لا تعتبر أزمة حصيلة الضرائب العقارية التى خلقها هذا التحول سوى نتاج ثانوى بالقياس إلى نتائجه الاقتصادية الاجتماعية على صعيد المجتمع المصرى بأسره. فقد أدى نظام السكن بالتمليك إلى عجز الطبقات الفقيرة وجانب من الفئات الوسطى عن الحصول على سكن ملائم، واضطرار الفئات الأشد فقرا إلى اللجوء للمناطق العشوائية والمقابر... إلخ ويقف ذلك فى تناقض صارخ مع ذلك الكم الهائل من الشقق الفاخرة والفيلات والقصور والتى لا تستخدم سوى فى فترات محدودة ومتقطعة، فضلا عن المخزون السلعى الهائل من الوحدات السكنية الخالية أو المغلقة، لنصبح إزاء إحدى القنوات الرئيسية لتبديد الثروة القومية ومدخرات المصريين التى كان يمكن، بل كان ينبغى، توجيهها نحو استثمارات منتجة فى قطاعات ذات أولوية من وجهة نظر تطوير الاقتصاد القومى. ولكن كما هى العادة فإن مصائب قوم عند قوم فوائد، حيث شكل الاستثمار العقارى، سواء فى المبانى السكنية أو الأرض الفضاء مصدرا للتراكم الأولى للثروة والمال لقلة من الرأسماليين، تلك التى لا تصب فى الاستثمار الرأسمالى لاسيما الصناعى، وإنما فى استشراء الميول الاستهلاكية.

وحتى نفهم أزمة الإسكان الراهنة بشكل أوضح، ينبغى أن نتوقف بإيجاز عند تاريخ مشكلة السكن فى مصر فى علاقتها بتطور العلاقات الاجتماعية ووتائر التطور الحضرى التى ترتبط بها. فحتى الخمسينيات كانت العلاقات السابقة على الرأسمالية تتفكك ببطء نسبى، ومن ثم كان سكان الحضر ينمون ببطء نسبى أيضا (بنسبة ٣.٤٪ فى الفترة من ١٩٢٧ إلى ١٩٤٧)، ومن ثم كان نمو الطلب محدودا على الإسكان الحضرى، وكان نمو العرض يتوازن أو يزيد قليلا، لهذا شهدنا فى تلك الفترة وحتى بداية الخمسينيات لافتة «شقة للإيجار» الشهيرة. وفى الفترة الناصرية، مع التفكك السريع للعلاقات السابقة للرأسمالية بفعل الإصلاح الزراعى، ومع تسارع حركة التصنيع زادت معدلات نمو سكان الحضر (٥.٢٪ فى الفترة من ١٩٤٧ ١٩٧٦)، ولهذا اشتد الطلب على المساكن، ولكن الدولة تدخلت بقوة بأسلوبين: الأول توفير الدولة مباشرة المساكن الاقتصادية بأسعار رخيصة، والثانى ضبط الأسعار من خلال تخفيض ثم تحديد الإيجارات فى القطاع الخاص، وفى نفس الوقت وفرت له مواد البناء (الأسمنت وحديد التسليح)، وحددت أسعارها ولم تتركها لتقلبات العرض والطلب (وإلى جانبها وجدت السوق السوداء بأسعار تفوق الأسعار الحكومية). وفى تلك الفترة وجدت أشكال من السوق السوداء فى المبانى السكنية، أشهرها خلو الرجل، ولكن هذه الأزمة كانت بسبب المعدلات السريعة للنمو الحضرى أكثر من كونها بسبب إعراض القطاع الخاص عن الاستثمار نتيجة للتدخل فى تحديد الإيجارات. ومع ذلك فقد كان أى مواطن يستطيع أن يدخر جزءا من مرتبه لعدد من السنوات يستطيع أن يحصل به على شقة وأن يتزوج ويدعم محدود (من خلال الأسرة أو من خلال الاشتراك فى جمعيات «ادخارية» وما أشبه) يستطيع أن يؤثث شقته بالتعاون مع زوجته العاملة... إلخ.

أما منذ الانفتاح الاقتصادى فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ وحتى الآن فقد شهدنا تفاقم أزمة السكن بصورة غير مسبوقة. من ناحية بسبب تخلى الدولة تدريجيا عن توفير المساكن الاقتصادية، فضلا عن رفع يدها بشكل متزايد عن ضبط الأسعار ونمط حيازة السكن. وبدأت شقق الإيجار تخلى الطريق تدريجيا للشقق التمليك. ولما كان نظام التمليك يتطلب قوة شرائية، لهذا لم يشق طريقه إلا بعد هجرة العاملين إلى بلدان الخليج النفطية، التى بدورها أشعلت الطلب وأشعلت الأسعار: أسعار أراضى البناء، أسعار مواد البناء وأسعار المبانى السكنية، وأجور الحرفيين العاملين بها... إلخ. وقد جرى ذلك التحول دون ضوابط أو قيود مما أدى إلى إطلاق قوى الاحتكار فى القطاع السكنى من عقالها، التى تدفع الأسعار إلى أعلى بشكل متواصل دون أن تعرف هبوطا فى الأسعار مهما تعاظم المخزون السلعى من المبانى السكنية، بل لقد أصبح ذلك هدفا قصديا (أو عمديا) لنشهد ظاهرة «تسقيع» المبانى السكنية فى صورة مخزون سلعى هائل من الشقق الخالية والمغلقة من أجل خلق «مجاعة مفتعلة» من الطلب على المساكن»، تمكن الاحتكاريين من فرض أسعار احتكارية شاهقة الارتفاع للمساكن، وشمل هذا الاحتكار، أراضى البناء ومواد البناء وبشكل خاص حديد التسليح والأسمنت، تلك التى كان يستحيل أن تفرض أسعارا احتكارية فلكية دون تلك المجاعة المفتعلة للطلب على المساكن.

إن رقم المخزون السلعى من المبانى السكنية يستحق التأمل والتفكير، فكما سبق القول وصل عدد الوحدات السكنية المغلقة حوالى ٢ مليون، والشقق السكنية الخالية ٥.٩ مليون، أى أن الإجمالى المخزون يصل إلى حوالى ٧.٩ مليون وحدة سكنية من إجمالى حوالى ٢٧.٩ مليون وحدة سكنية فى مصر بأسرها، أى بنسبة



الضرائب العقارية

٢٨.٣٪، وإذا علمنا أن الطلب السنوى على الشقق السكنية يبلغ حوالى ٥٠٠ - ٦٠٠ ألف، فمعنى ذلك أن هذا المخزون يكفى ١٣ - ١٦ سنة. وكان من شأن هذا المخزون الهائل أن يؤدى إلى انهيار شامل وحاد للأسعار وفقا للمنطق الجوهرى لقانون العرض والطلب، ولكنه لم يؤد إلى ذلك مطلقا، وإنما على العكس واصلت الأسعار ارتفاعها.

فما هو السبب، أو بالأحرى السر وراء ذلك؟

من المؤكد أن المخزون يعود إلى أن الطلب المباشر الفعال (أى الذى يملك قوة شرائية) هو أقل بشكل هائل من العرض. ولكن الاحتكاريين أو الذين «يسقعون» المبانى العقارية يراهنون على الطلب الاحتمالى (أى فى المستقبل) باعتبار أن المصريين يستمرون فى التزايد السكانى وفى الكفاح من أجل العمل فى الخارج وتكوين مدخرات تمكنهم من شراء شقة. وقد يصلح ذلك كتفسير جزئى، ولكن فقط فى تشابكه مع عامل آخر أكثر أهمية، وهو نظام تمويل المبانى السكنية التمليك، وهو نظام خاص جدا وجديد تماما لم تعرفه مصر من قبل.

فى الحقيقة إن خصوصية نظام تمويل المساكن التمليك فى مصر تمثل المسألة المركزية التى تكشف سر قوة الاحتكار العقارى وقدرته على تعطيل قانون العرض والطلب كليا أو جزئيا، حيث تعمل على دفع الأسعار إلى أعلى دوما ومقاومة هبوطها مهما ضعف الطلب المباشر أو تراكم المخزون. وهذا النظام التمويلى لم يعد يعتمد على مدخرات ملاك العقارات كما كانت الحالة فى زمن نظام الإيجار، حيث كان أصحاب الثروات يعتبرون المبانى السكنية مخزنا مضمونا وآمنا لثرواتهم ويؤمن لهم دخلا من تأجيرها. فمع التحول إلى نظام المساكن التمليك، أصبح إنتاج المبانى السكنية صناعة مثلها مثل أى صناعة أخرى تنتج سلعا من أجل السوق، أى لا يحتفظ بها وإنما يجرى بيعها للمستهلك (أى لمن سيستخدمها سكنا). وفى هذه الصناعة مثل عموم الصناعة كما تطورت فى البلدان الرأسمالية المتقدمة، لا تملك الشركات الرأسمالية المنتجة سوى رأس المال الثابت المتمثل أساسا فى معدات الإنتاج (وفى حالة الاستثمار العقارى قد تكون الشركة الرأسمالية مجرد وسيط مالى على حين تملك المعدات شركات المقاولات المنفذة من الباطن) بينما تعتمد على التمويل المصرفى فى تمويل شراء الأرض ومستلزمات الإنتاج من مواد البناء من الأسمنت وحديد التسليح والطوب والدهانات والأخشاب... إلخ (أى رأس المال العامل). لتأتى بعد ذلك مرحلة تسويق منتجاتها، وبالنظر لطبيعة تلك السلعة المعمرة عالية التكلفة من النادر أن تباع نقدا كأى سلعة أخرى، ويحتاج المستهلك إلى شرائها بالتقسيط، وهو بدوره يحتاج إلى تدخل طرف ثالث مثل الدولة أو هيئات تعاونية تدعمها الدولة، وأخيرا ابتدع نظام الرهن العقارى، الذى يمثل ائتمانا استهلاكيا يقع عبئه تماما على المستهلك، وهذا النظام الأخير يوافق مصالح شركات الاستثمار العقارى، حيث تحصل فورا على ثمن سلعها لتتمكن من تسديد ائتمان رأس المال العامل وأيضا تحقيق أرباحها. وبطبيعة الحال يؤدى أى خلل فى حلقات تلك السلسلة، ولاسيما تسويق الوحدات السكنية للمستهلك، إلى نشوء أزمة، وذلك أنه بسبب تكلفة الإقراض، سواء للمنتج أو للمستهلك يكون ذلك القطاع شديد الحساسية لقوى العرض والطلب، حيث لن يتحمل المستثمر حدوث ركود فى مبيعات ما لديه من وحدات، وسوف يضطر إلى تخفيض الأسعار عند أى انخفاض فى الطلب. كما أن أى إعسار للمستهلك فى خدمة دين الرهن العقارى من شأنه أن يؤدى إلى اضطراب مالى للمؤسسات المقرضة... إلخ وهكذا حدثت الأزمة المالية فى الولايات المتحدة لمجرد انخفاض محدود فى الطلب على المساكن الجديدة وارتفاع محدود أيضا فى سعر الفائدة، وبدأت الأزمة مع عجز المقترضين بنظام الرهن العقارى ذوى الجدارة الائتمانية المنخفضة عن الدفع، وخلال بضعة شهور انهارت أسعار الوحدات السكنية تماما.

أما فى مصر فلا يعتمد تمويل عملية بناء (أو إنتاج) الوحدات السكنية على القنوات المصرفية إلا بصورة جزئية لاسيما إذا كانت هناك تسهيلات بائتمان رخيص مدعوم من الدولة، أو قروض تعاونية... إلخ، فالمصدر الرئيسى للتمويل يأتى من المشترين أنفسهم، على أقساط تبدأ قبل بدء عملية الإنتاج (البناء) ثم تتوازى معها، وعلى هذا النحو تستطيع الشركات «المنتجة» (أو بالأحرى «الوسيط المالى») تغطية تكاليف الإنتاج دون حاجة للاقتراض من البنوك، وذلك حتى لو لم يستطع بيع جزء من الوحدات السكنية، وحتى لو امتدت بعض الأقساط إلى ما بعد اكتمال البناء وتسليم الوحدات السكنية. ويتضح ذلك بصورة أفضل إذا ما أخذنا فى الاعتبار التضخم المتنامى لهامش الربح، فكما يؤكد د. ميلاد حنا، تضخم هامش الربح من ٥٪ فى الستينيات إلى حوالى ٢٥٪ فى التسعينيات، ويؤكد الخبراء أنه تضخم الآن إلى نحو ٥٠٪. ويصبح الموقف المالى أشد قوة حينما نأخذ فى الاعتبار تضخم ثمن الأراضى، التى غالبا ما تحصل عليها شركات الاستثمار العقارى من الدولة بثمن بخس ثم ترتفع بصورة فلكية فى سنوات قلائل أو حتى شهور ويجرى حساب التكلفة بالأسعار الجديدة وليس الأصلية.

وهكذا ففى ظل هذا النظام الخاص لتمويل إنتاج المبانى السكنية الذى لا يعتمد على التمويل المصرفى، لن يشكل المخزون السلعى من الوحدات السكنية عبئا ماليا على الشركات العقارية، ومن البديهى أيضا أن هذا المخزون السلعى غير قابل للتلف. ولما كانت الأسعار تتجه دائما إلى الصعود، حتى لو شهدت بعض الركود أو التذبذب المحدود لأسفل، لهذا ستعتبر مخزنا للقيمة أكثر ضمانا من إيداعها فى البنوك، حيث تأتى بدخل أضعاف سعر الفائدة.

وفى هذا السياق نشهد فئة من صغار المستثمرين، غالبا كونوا ثرواتهم من الهجرة للعمل فى الخارج، تستثمر نقودها فى تسقيع أراضى البناء والوحدات السكنية، وعلى هذا النحو يسحب جزء من المخزون من الشركات العقارية «المنتجة» لينتقل إلى ملاك صغار جدد يضاربون على ارتفاع الأسعار، ويفضلون هذا النوع من الاستثمار على إيداع أموالهم فى البنوك، خاصة إذا كانت أسعار الفائدة تقل عن معدل التضخم، ومن ثم تؤدى عمليا إلى تآكل المدخرات. ومن اللافت للنظر أن ذلك يتخذ غطاء دينيا ينطلق من تحريم فوائد البنوك. وهذه شهادة أحد المستثمرين، نجدها فى الدردشات الحرة على شبكة الإنترنت:

«بخصوص تسقيع الأراضى فى المدن الجديدة عامة... لا يمكن القضاء عليها، لماذا؟ لأننا فى تقدم دايما وبعدين المستثمرين والتجار فى كل أنحاء المدن الجديدة... لازم يعمل كده... أنا النهاردة راجل مستثمر... اشتريت قطعة أرض من جهاز المدينة بمليون جنيه سبتها سنة فى خلال السنة دية هكسب على المليون كام هل أكسب ١٠٠ ألف جنيه مش كفاية... أنا إذا اشتريت بمليون أبيع بـ ٢ مليون، مش هينفع أبيع بأقل من كده، وإلا أضع فلوسى فى البورصة أحسن ودى طبعا مش مضمونة أو أضع فلوسى فى البنك وأرباح البنك كلها حرام، لا لا طبعا الحياة كده...»[١٦].

وقد تكون هناك مبالغات فى التوقعات، إلا أنه من الواضح أننا إزاء بناء أيديولوجى تبريرى كامل، فيعتقد أن ارتفاع الأسعار تقدم، كما أن الاعتقاد الدينى فى تحريم فوائد البنوك يجد ما يعززه من مكاسب مادية تصل إلى أضعاف ما يمكن أن يحصل عليه من فوائد مصرفية غالبا ما تكون أدنى من معدل التضخم.

وهكذا يمكن القول أن التحول إلى نظام تمليك المبانى السكنية وما ارتبط به من تسقيع للأراضى والوحدات السكنية شكل سببا رئيسيا، إن لم يكن السبب الرئيسى، فى تكوين الثروات الفلكية التى تقدر بعشرات المليارات من الجنيهات. ولنا أن نتصور كم تكون الثروات التى تكونت من تخصيص أراضى المدن الجديدة التى يقدرها البعض من سنوات بحوالى ٧٠٠ ألف فدان موزعة على ٢٢ مدينة جديدة، قد تكون وصلت إلى مليون فدان، أى حوالى ٣ - ٤ بلايين متر مربع، تكونت منها ثروات فلكية يصعب حسابها على نحو دقيق، لكنها لا تقل عن مئات المليارات من أراضى البناء وحدها، ناهيك عن أرباح الاستثمار العقارى. علما بأن أسعار الأراضى قد تضاعفت فى ربع قرن إلى حوالى ٢٠٠ ضعف، حيث كان سعر الأراضى



لابد من الإشارة إلى أن المحكمة الدستورية لم تصدر حكما واحدا، وإنما لدينا ثلاثة أحكام لها صلة بقضيتنا محل الجدل



فى ١٩٧٥ فى أرقى الأماكن من ٤٥ إلى ٦٥ جنيها للمتر فأصبح ١٠ آلاف فى مطلع القرن، وفى الأحياء الشعبية ارتفع من ٢ جنيه إلى نحو ٤٠٠ جنيه، وأراضى المدن الجديدة فى السنوات الأخيرة شهدت قفزات أخرى، ليصل السعر فى المناطق الراقية إلى ١٥ - ١٧ ألف جنيه، وارتفع فى المناطق الشعبية إلى ١٠٠٠ جنيه. وشهدت المدن الجديدة نفس الاتجاه ففى مدينة الشيخ زايد، على سبيل المثال، ارتفع من ٧ جنيهات فى عام ١٩٨٠ إلى ٢٠٠٠ جنيه. ثم وصل السعر فى السنوات الأخيرة إلى أرقام فلكية بعد تطبيق سياسة الوزير أحمد المغربى فى بيع أراضى الدولة بالمزاد العلنى، ولاسيما مع دخول الأموال النفطية فى تلك المزادات.

ولكن من الضرورى تقييم المكانة التاريخية لهذا الأسلوب فى تمويل المساكن التمليك، فهو يمثل فى الحقيقة نوعا من الادخار الإجبارى، لأن قيمة السلعة تدفع كلها أو بعضها بشكل سابق على حيازة السلعة والانتفاع بها، ولكنه بدلا من أن يصب فى الاستثمار المنتج الصناعى والزراعى، ومن ثم توسيع قاعدة الاقتصاد القومى المنتجة، صب فى مجرى صناعة الفورة العقارية. ومثل هذا الادخار، لو أنه صب فى قنوات تحت سيطرة الدولة ولو كانت الدولة المصرية لا تزال دولة تنموية، كان من الممكن توجيهه لتلبية حاجات المجتمع من السكن بصورة أكثر عقلانية وأكثر عدالة وبتكلفة أرخص على المواطنين، وفى نفس الوقت توجيهه فى وجهة إنتاجية من أجل تطوير الصناعة المصرية على وجه التحديد (ولنقارن ذلك بتجربة سنغافورة التى فرضت نظاما قاسيا للادخار الإجبارى، ووجهت جانبا منه لبناء المساكن، ولكنه مكن الدولة من تطوير الصناعة، على الرغم من انتهاجها سياسة السوق الحرة، التى زاوجت بينها بشكل براجماتى مع تدخل كثيف للدولة). وعلى النقيض من ذلك شكل هذا الشكل من تمويل المساكن التمليك، وكامل السياق الذى جرى فيه من السياسات الليبرالية الجديدة وانسحاب الدولة من الاقتصاد، إلى كارثة كبرى من الناحية التنموية. فهو كان أداة لشكل من تراكم رأس المال، هو أقرب إلى تراكم الثروة منه إلى التراكم الرأسمالى، فتكونت ثروات فلكية لم تتجه إلى الاستثمارات الإنتاجية فى الصناعة والزراعة بقدر ما اتجهت إلى تعزيز نزعة الاستهلاك الترفى السفيه، وإلى المزيد من الثروات العقارية، والتى كما سبق الإشارة وصلت فى ٢٠٠٦ إلى ٨ ملايين وحدة سكنية خالية ومغلقة، تبلغ قيمتها السوقية ما يقرب من ٠.٨ تريليون جنيه (بحساب ١٠٠ ألف جنيه لكل وحدة) التى تمثل من الناحية الاقتصادية رأس مال معطلا، ومن ثم تبديدا مباشرا للثروة القومية. ■

هوامش

(١) وزارة المالية، أسئلة وأجوبة حول قانون الضريبة على العقارات المبنية ص ٢٠

(٢) محيط الشرائع، ج ٣، ص2749

(٣) قانون الضريبة على الدخل رقم ٩١ لسنة ٢٠٠٥ يوجد على موقع وزارة المالية على الرابط http://www.mof.gov.eg/laws/pdf/412.pdf

(٤) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء: النتائج النهائية تعداد الظروف السكنية لسنة 2006.

(٥) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء، النتائج النهائية لتعداد المبانى فى ٢٠٠٦، البيانات موجودة على موقع هيئة الاستعلامات على الرابط التالى http://www.sis.gov.eg/VR/egyptinnumber/egyptinfigures/arabictables/32.pdf

(٦) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء، التعداد النهائى للظروف السكنية

(٧) مأخوذ من البيانات الإحصائية لوزارة المالية الواردة فى الموازنة العامة للدولة لسنة ٢٠٠٩/ ٢٠١٠، التقسيم الاقتصادى.

(٨) تقرير عن نشاط وزارة المالية فى مجلسى الشعب والشورى، ص١٥، على الرابط التالى: http://www.mof.gov.eg/Arabic/PDF/1-1. pdf

(٩) للتوسع انظر صلاح العمروسى، الثورة الضريبية الجديدة، مواد متفجرة فى القانون الجديد للضرائب على الدخل، أحوال مصرية، العدد ٣٠، خريف ٢٠٠٥ ص.88 80

(١٠) انظر اليوم السابع فى ١٤ يناير2010

(١١) اليوم السابع فى ١٧ يونيو.2008

(١٢) حكم المحكمة الدستورية العليا فى ٦/١٩/ ١٩٩٣ على الرابط التالى: http://www.hccourt.gov.eg/Rules/getRule.asp?ruleId=511&searchWords=

(١٣) انظر حديث الأستاذ علاء عبد المنعم فى عدد اليوم السابع المشار إليه سابقا.

(١٤) حكم المحكمة الدستورية العليا فى ١٠ مارس ٢٠٠٢ على الرابط http://www.hccourt.gov.eg/Rules/getRule.asp?ruleId=40&searchWords=ضرائب

(١٥) حكم المحكمة الدستورية فى ٢ ديسمبر ٢٠٠٠ على الرابط http://www.hccourt.gov.eg/Rules/getRule.asp?ruleId=1176&searchWords=ضرائب

(١٦) دردشة على عقار نت على الرابط http://www.ekaar.net/f243/t18300/

ويمكن أن نجد موضوعات عن التسقيع للكبار فقط فى جريدة الوسط، مافيا تسقيع الأراضى تتحدى سخونة الأرض، اليوم السابع، مليارديرات محمد إبراهيم سليمان... إلخ

كتاب الزاوية

قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية
أحمد أمين

(٤)

الجـــرَّة:

اعتاد المصريون أن يكسروا جرة أو «قلة» وراء الخارج من البيت أو المسافر إذا كان مكروها. ويقولون: «كسروا وراه قلة» ويعتقدون أنهم إذا فعلوا ذلك فلن يعود. واعتاد بائعو الترمس والفول «المقلي» أن يصفوا على عربتهم قللا صغيرة لمن يريد أن يشرب كأنها سبيل لله، كما اعتاد بائعو حب العزيز أن يبيعوه بزفة. وقد كان من عادة بعض الناس أن يصفوا أمام بيوتهم قللا نظيفة ملأى في رمضان ليشرب منها المارون وقت الإفطار. وشبهوا الكمثرى بقلل الشربات، فقالوا: «زي قلل الشربات يا كمثرى» كما شبهوا التين الشوكي بكيزان العسل، وجنبة البلح ببير العسل، واشتهرت قنا بالقلل إذا حرقت تكون ذات مسام واسعة، تساعد على تبريد الماء. وكان بعض الناس يبيع قلل سمنود على أنها القلل القناوي، إذا ضبط ذلك المحتسب أوقع العقوبة على البائع.

ويحكون أن أحد الأتراك وهم من طبعهم حب السلطة، أحيل إلى المعاش، فأتى ببعض القلل يسقي بها الناس إحسانًا. فإذا أراد رجل أن يشرب من قلة زجره وأمره أن يشرب من الأخرى، إظهارا لسلطته ليس إلا. وأهل الشام يقولون: «زي قلل مصر لا كسم ولا خصر». وكان للمصريين عناية بالقلل تدعك كل يوم بالرمل، وتنظف وتوضع في صينية الماء وتوضع الصينية في المشربيات لتبرد.

وكثيرا ما كانت تملأ من الأزيار لتزيد برودتها.



غـــــــــزل ذلـك الـزمـــــــان..

عبد الرشيد الصادق محمودى

■■ لم يكن طه حسين أول من كتب عن عمر بن أبى ربيعة فى القرن الماضى عندما نشر مقالتين: أولاهما تحت عنوان «زعيم الغزليين عمر بن أبى ربيعة»، والأخرى تحت عنوان «خاتمة القول فى الغزليين. الحب فى شعر ابن أبى ربيعة» (١٩٢٤). فقد سبقه إلى ذلك زكى مبارك الذى ألقى تحت إشراف أحمد ضيف ثلاث محاضرات عن الشاعر فى سنة ١٩١٩، وهى المحاضرات التى جمعها فى نفس السنة فى كتاب عنوانه «حب ابن أبى ربيعة وشعره» .وسبق الاثنين أحمد ضيف الذى قدم إلى السوربون رسالة قارن فيها بين ابن أبى ربيعة والشاعر الفرنسى ألفرد دى موسيه. ومن المؤسف أن هذه الرسالة ليست متاحة لنا فى الوقت الحاضر، وأننا لا نعرف من آراء صاحبها إلا ما أورده طه حسين وزكى مبارك. غير أننا نعرف على الأقل أنها كتبت قبل سنة ١٩١٨. ويشير طه حسين إليها صراحة ويرفض وجاهة المقارنة بين الشاعر العربى والشاعر الفرنسى؛ كما يشير زكى مبارك إليها ضمنا عندما يرى أن من الممكن عقد مقارنة بين الشاعر العربى وشعراء أوروبيين مثل ألفرد دى موسيه أو اللورد بايرون. وجدير بالذكر أيضا أن طه حسين يرجع إلى كتاب زكى مبارك ويناقشه صراحة وضمنا - كما سنرى فيما يلى.

ولم يكن الاهتمام بابن أبى ربيعة فى الربع الأول من القرن العشرين حدثا عابرا، بل كان ظاهرة أدبية ما زالت جديرة بالدراسة بالنظر إلى اتساع نطاقها - فقد أدت فيما تلا ذلك من أيام إلى اهتمام أجيال من الباحثين بدراسة الغزل فى مختلف مراحل تاريخ الأدب العربى - وإلى ما كان لها من دلالات فنية واجتماعية وأخلاقية. وستتيح لنا المقابلة بين آراء زكى مبارك وآراء طه حسين فرصة ممتازة لكشف النقاب عن تلك الأبعاد. كما ستفتح لنا الباب لعقد مقارنة جديدة بين ابن أبى ربيعة وبين شاعر عربى آخر هو امرئ القيس.

ولنبدأ باتفاق الرواد الثلاثة على أن من الضرورى دراسة شعر الغزل وفقا لمنهج جديد أو مناهج جديدة لم يعرفها العرب القدامى. يتضح ذلك من إجماعهم على وجاهة المقارنة بين عمر



ابن أبى ربيعة وبين نظراء غربيين محتملين مثل ألفرد دى موسيه (فى حالة أحمد ضيف) أو بيير لوتى (فى حالة طه حسين). كما يتضح من نقد زكى مبارك لأساليب القدماء فى شعر عمر وسعيه كما يقول إلى الإتيان بعمل جديد وابتداع بدعة حسنة وإحداث أثر جميل وسلوك سبيل لم يسلكه الناس من قبل فى فهم ابن أبى ربيعة. وهو يهاجم بصفة خاصة أقوال مصعب بن عبدالله فى شرح تفوق ابن أبى ربيعة بأقوال مثل: «راق عمر بن أبى ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر، وشدة الأسر، وحسن الوصف، ودقة المعنى، وصواب المصدر، والقصد للحاجة، واستنطاق الربع، وإنطاق القلب، وحسن العزاء...».

ويرى أن هذه الأقوال غامضة مبهمة، وأن اللغة لا تتسع لتلك الألقاب والمصطلحات العديدة (٤٦ صفة) حتى ولو كانت واضحة. (ص ٢٠٧). وصحيح أن طه حسين يأخذ على زكى مبارك أنه أسرف فى نقد مصعب وفى التقليل من شأن أساليب القدماء. ولكنه لم يكن فى نهاية المطاف أقل من زكى مبارك اهتماما بهجر السبل النقدية المطروقة وبضرورة التجديد.

وحقيقة الأمر أن الاهتمام بغزل ابن أبى ربيعة وبالغزل عامة كان جزءا من الاتجاه نحو التجديد. فاتباع نهج جديد فى الدراسة الأدبية كان يعنى من بين ما يعنى إعادة قراءة التراث الأدبى وإعادة تقييم مذاهبه وأعلامه وفقا لاهتمامات العصر وشواغله. وقد بدا وفقا لهذه الاهتمامات والشواغل العصرية أن الغزل - على خلاف المدح والهجاء والفخر وشعر المناسبات إلى غير ذلك من أغراض الشعر التقليدية - من أكثر المجالات مواءمة للتعبير الفنى الخالص وتحرير الشاعر من ضغوط الحاجة وضرورات الحياة الاجتماعية. وليس من قبيل المصادفة أن طه حسين يرى أن انقطاع ابن أبى ربيعة عن السياسة وبعده عن أهوائها كان مصدر خير لشعره (المجموعة، ص ٢٠٣) ولكن مطلب الحرية الفنية لا بد أن يصطدم بالقيود التى يفرضها المجتمع بحكم تقاليده وقيمه الدينية. وغنى عن الذكر أن هذه المشكلة - مشكلة حدود الحرية الفنية - كانت وما زالت متأصلة وراسخة فى الثقافة العربية الإسلامية. فهذه الثقافة التى تعد من أكثر الثقافات اهتماما بالحب وافتتانا بالمرأة وانشغالا بالجنس يحتل فيها الدين مكانة رئيسية. وقد جرت العادة على أن تكون الكتابة فى الحب والتغلغل فى شعابه وفروعه شأنا من اختصاص الفقهاء.

ومعنى ذلك أن الرواد الثلاثة عندما تناولوا غزل ابن أبى ربيعة كانوا يحيون نقاشات وخلافات قديمة فيما يتعلق بالحدود القائمة أوالتى ينبغى أن تقام بين المباح وغير المباح. وكانت لهم بالإضافة إلى ذلك هموم خاصة تتعلق بالمرحلة التاريخية التى عاشوا فيها. فهم أبناء الجيل الذى نشأ فى السنوات التى سبقت ثورة سنة ١٩١٩ وشهد الاتجاهات الدافعة إلى تحرير المرأة (قاسم أمين) وجمع فى تعليمه بين الثقافة الإسلامية العربية وبين الثقافة الغربية كما تلقاها فى مصر أو فى أوروبا. وذلك هو الجيل الذى وقع على عاتقه عبء إعادة النظر فى القيم الموروثة، وخاصة فيما يتعلق بعلاقة الرجل بالمرأة ومكانة المرأة فى المجتمع بصفة عامة. ولم تكن دراسة شعر الغزل كما أجراها الرواد الثلاثة بحثا أكاديميا صرفا يقصد لذاته. بل كانت أيضا طريقة فى تناول العلاقة المذكورة والمكانة المشار إليها فى الوقت الحاضر. ومن ثم كانت أسئلة ذات دلالة مثل: هل يمكن للحب الذى تتعدد فيه المعشوقات أن يكون صادقا؟ وهل الغزل الحسى ضرب من ضروب الخلاعة والمجون؟ وما هو وضع المرأة بوصفها طرفا فى هذا النوع من الحب؟ ولا شك أن مناقشة هذه المسائل التى طرحها أولئك الرواد تمكننا وتفرض علينا التمييز بين محافظ على القيود التقليدية وبين مناصر للتحرر. فزكى مبارك (فى تلك الفترة على الأقل) ينتمى إلى الفئة الأولى، بينما ينتمى طه حسين إلى الفئة الثانية.

بين زكى مبارك وطه حسين



عمر كان مغرورا بشبابه
ومفتونا بجماله. وهو فى غزله ليس عاشقا، بل معشوقا تهيم به النساء ويتهافتن عليه







زكـــى مـــبـــارك

لزكى مبارك موقف محافظ بصفة عامة، وإن لم يخل من ازدواج. فهو يتهم ابن أبى ربيعة بالكذب فى الحب، ويرميه بالخلاعة ويرى أن فنه يزين الفسوق. ولكنه معجب أيما إعجاب بهذا الفن، مقبل على دراسته بشغف وتلذذ واضحين. ومن المعقول أن يفترض زكى مبارك ضرورة تحلى الباحث فى ميدان الحب باتساع الأفق والقدرة على التعاطف مع شاعر الغزل لكى يفهمه. ولكنه يتجاوز هذا المطلب المعقول عندما يرى أن على من يريد البحث العلمى وتقصى الحقيقة أن يكون على قدر من الخلاعة. يقول فى هذا الصدد: «...العلم لا يكون دائما جافا، بل قد يكون أحلى من المنى، وأشهى من ثغور الحسان، فإنك إذا احتجت إلى شيء من الزهادة فى العيش ... لتفهم الجزء الثالث من كتاب «الإحياء» للغزالى ... فإنك أيضا فى حاجة إلى شيء من الخلاعة، ونصيب من المجون لتفهم الشاعر الفتى عمر بن أبى ربيعة» (نفس المصدر، ١٩٩). ومن الواضح أن من كتب هذه السطور كان عرضة لشد وجذب بين دافع المحافظة ودافع الرغبة والاشتهاء.

ويتناول زكى مبارك موضوع بحثه فى إطار مسألتين رئيسيتين: حقيقة حب ابن أبى ربيعة؛ وحقيقة شعره. وهو فى المسألة الأولى يرى أن الشاعر كان كاذبا فيما ادعاه من حب. ولدى الباحث فى ذلك ثلاثة أسباب. أولها أن عمر كان حضريا لا بدويا، وأهل الحضر فى رأيه يسعون إلى الحسن أينما وجد ويطلبون المتعة ويميلون إلى الفسوق. وعمر ابن أبي ربيعة «ما قصر نفسه على امرأة ولا وقف حبه على فتاة، وإنما كان يتلمس الجمال فى مناسك الحج، ويتلقط الحسن فى مسارح الظباء، فيغشى الرياض الزاهرة... ويقصد الأندية السامرة... بل وربما صد عمن تجزيه بالحب حبا، ورام من تجزيه بالقرب الصدود» (نفس المصدر، ص ١٩٨).

والسبب الثانى أن عمر كان مغرورا بشبابه ومفتونا بجماله. وهو فى غزله ليس عاشقا، بل معشوقا تهيم به النساء ويتهافتن عليه. ومن الممكن أن نعيد صياغة رأى زكى مبارك فنقول إن ابن أبى ربيعة كان نرجسيا. والسبب الثالث كثرة ادعاء ابن أبى ربيعة الإخلاص فى حبه، فهو يوهم كل معشوقة بأنها مالكة فؤاده، وهو متعدد المعشوقات. وخلاصة القول إن زكى مبارك يرى أن ابن أبى ربيعة كاذب فى حبه لأنه دون جوان.



وبعد الإجابة عن المسألة الأولى، ينتقل زكى مبارك إلى المسألة الثانية: كيف استطاع هذا الشاعر الكاذب فى حبه أن يجيد الغزل ويبز غيره من المنافسين؟ وهنا يرى زكى مبارك أن ابن ربيعة توصل إلى ذلك بثلاثة «حيل»: إبداعه فى وصف النساء؛ وتلطفه فى وصف الغوانى؛ ووصفه لأوقات التلاقى وساعات التدانى. ويرى زكى مبارك بصدد هذه الحيلة الأخيرة أن ابن أبى ربيعة «...كان يغرب فى ذلك إغرابا لم يسبق إليه، ويتهتك تهتكا لم يعرفه الناس من قبل، اللهم إلا شذرات قلائل فى شعر امرئ القيس وأمثاله من الخلعاء». ويرى أيضا أن هذه الحيلة هى أهم الحيل الثلاث وأكثرها مساهمة فيما لشعر ابن أبي ربيعة من ميزة وتأثير وغواية. ويختتم زكى مبارك البحث بقوله إن حديثه عن تلك الحيل تمهيد لرأيه أن الصفة الغالبة فى شعر بن أبى ربيعة هى القصص الجميل والحديث العذب المعسول الذى يصف به لياليه الحسان. وقد امتلأ الناس فى عصره دهشة واستغرابا من تلك الأحاديث النادرة الطريفة وهاتيك القصص الممتعة الشائقة. وهى أحاديث وقصص تزين الفسق وتلطفه - على حد تعبيره.

وجدير بالذكر أن زكى مبارك يستند إلى أحمد ضيف فيما يتعلق بتأكيد الطابع القصصى لغزل ابن أبى ربيعة. غير أنه كان يرى على خلاف أحمد ضيف أن الشاعر كان يجيد أيضا وصف «ربات الحجال» ونعت محاسنهن. وزكى مبارك على حق فى هذا، ولكن يعيب رأيه أنه يتعامل مع الموضوع بطريقة مجزأة. فهو يعدد «حيل» الشاعر - ومن بينها إبداعه فى وصف النساء - كتمهيد لتأكيد الطابع القصصى لغزله. وحقيقة الأمر أن هذه «الحيل» جزء لا يتجزأ من قصص الشاعر. وكان أحرى بزكى مبارك أن يسجل بوضوح أن ما يسميه بالحيل ليست سوى مهارات فنية قصصية، وأنها جوانب أساسية من جوانب براعة الشاعر وإبداعه القصصى. ولو أن زكى مبارك اتخذ من الطابع القصصى لغزل الشاعر أساسا منطقيا لتحديد تلك الحيل أو المهارات، لما قطع بأنها ثلاث لا تنقص ولا تزيد، ولفتح الباب لنفسه أو لغيره من أجل تنقيحها أو اكتشاف المزيد منها عن طريق التعمق فى تحليل فن القص عند ابن أبى ربيعة. وسنرى فيما يلى أن مثل هذا التعمق يكشف عن حيل أو مهارات فنية أخرى. ولكن يحمد لزكى مبارك على أى حال اهتمامه بالجانب الفنى من شعر ابن أبى ربيعة، أيا ما كان الرأى فى حكمه على جانب الحب فى حياة الشاعر - فهو موضوع خلاف.

طـــه حـــســـين

أما طه حسين، فهو لم ينظر فى شعر عمر بن أبى ربيعة؛ بل ولم يلتفت إليه ولو على سبيل الاستشهاد. وهو على خلاف زكى مبارك لا يعنى بالجانب الفنى من غزل ابن أبى ربيعة؛ وآراؤه فى الشاعر لا تعد نقدا أدبيا، بل تدخل بالأحرى فى باب تاريخ الأدب - كما يفهمه طه حسين. وهو يقدم من ثم صورة أخرى للحب فى حياة الشاعر وفى غزله بناء على دراسة البيئة الاجتماعية التى نشأ الشاعر فيها، ومدى تطور هذه البيئة من حالة البداوة إلى حالة الحضارة. فالبيئة الاجتماعية للشاعر هى الأرستقراطية القرشية التى كانت فى مرحلة انتقالية بين الحالتين، والتى حالت سياسة بنى أمية بينها وبين الحياة العامة، وقصرتها فى الحجاز على اللهو والترف. وكانت الأرستقراطية القرشية فى تلك المرحلة قد أخذت ببعض أسباب النعمة والترف، ولكنها لم تزل تجمع بين سذاجة البداوة وطلاوة الحضارة. وكانت المرأة

بين زكى مبارك  وطـه حسـين

العربية الأرستقراطية تنفق حياتها فى دعة ونعمة لا تخلوان على عفتهما وطهارتهما من لهو ودعابة، ولا من عبث وفكاهة.(المجموعة، ص ٣٠١). وقد اجتمعت فى ابن أبى ربيعة كل الخلال الإيجابية والسلبية لتلك البيئة الاجتماعية؛ وكان ممثلا ومرآة لها.

ولئن كان ابن أبى ربيعة زعيم شعراء الغزل الحضريين فى عصره، فهو أيضا زعيم شعراء الغزل سواء أكانوا حضريين أم بدويين (مثل جميل الذى ضاع كثير من شعره)، بل وزعيم شعراء الغزل فى جميع عصور الأدب العربى لأن الغزل كفن شعرى قائم بذاته لم يوجد ويزدهر إلا مرة واحدة، أى فى ظل الدولة الأموية واحتكارها للسياسة وانقطاع شعراء مثل ابن أبى ربيعة لذلك الفن. فالجاهليون لم ينظموا فى الغزل كغرض قائم بذاته؛ والغزل فى العصر العباسى يجنح نحو العبث والمجون. وصحيح أن هذا العصر الأخير شهد ظهور عباس بن الأحنف الذى تفرغ بدوره للغزل. ولكن هذا الشاعر كان فيما يقول طه حسين غريبا فى عصره، ولم يبلغ إتقان الغزليين من شعراء بنى أمية، ولم يبلغ إجادة العابثين من شعراء بنى العباس، وجاء غزله فاترا قلما يترك أثرا فى النفس.

ويبدو أن طه حسين نظر طويلا فى مقالة زكى مبارك، وساق آراءه كتعليق صريح أو ضمنى عليها. يقول فى تقييمه الصريح: «أقول هذا كله بعد أن فرغت من قراءة رسالة صغيرة، ولكنها قيمة ممتعة، للدكتور زكى مبارك خريج الجامعة المصرية، فدرسه من بعض جوانبه درسا حسنا، ويسرنى أن أهنئه به ... ولكن الدكتور زكى مبارك، وهو شاب حاد الشباب عنيفه، أسرف فى نقد مصعب بن عبد الله إسرافا جعله إلى الظلم أقرب منه إلى الإنصاف. وليس مصدر هذا الظلم إلا أنه لم يقدر، كما ينبغى، اختلاف المثل الأدبية باختلاف العصور والأجيال. وما أحسب إلا أنه عائد عن هذا النقد فملطف ما فيه من حدة ومزيل ما فيه من جور». (نفس المصدر، ٣١٠-٣١١). وواضح من هذا النص أن طه حسين مع تقديره لمساهمة زكى مبارك يحاول إنصاف مصعب والقدماء بصفة عامة من زكى مبارك. فطه حسين إن شارك هذا الأخير فى اتجاهه نحو التجديد، فإنه يرى أن لأساليب القدماء أهمية تاريخية، ويحمد حسن الحظ لأن آراء مصعب وصلتنا مفصلة كاملة؛ فهى وثيقة تاريخية قيمة.

غير أن دفاع طه حسين عن القدماء ليس سوى جزء من محاولة أعم - وإن كانت ضمنية فى بعض الأحيان- لتصويب الشاب زكى مبارك لما فى موقفه من تطرف. وتلاحظ عملية التصويب فى صورتها الضمنية فى حديث طه حسين عن وجود الأرستقراطية القرشية فى مرحلة انتقالية بين البداوة والحضارة ؛ وهو ما يعنى أن ابن أبى ربيعة لم يكن شاعرا حضريا ببساطة كما ادعى زكى مبارك. وتلاحظ أيضا فى حديث طه حسين عن طهارة المرأة العربية الأرستقراطية وعفتها رغم تمتعها بحرية العبث والفكاهة. وهو ما يعنى أن حرية بعقله ولا بقلبه، وإنما كان يحب بحسه وبحسه ليس غير. وكان يتبع الجمال أنى رآه، ويهيم بالمرأة الجميلة إلى أن يلقى الحسناء التى تليها، ولكنه كان صادق الحب قويه فى جميع الحالات. وكل ذلك مخالف لآراء زكى مبارك فى غزل ابن أبى ربيعة ومصوب لها فى اتجاه الاعتدال.



ثم يخطو طه حسين خطوة جريئة عندما يشرح موقف الشاعر من المرأة بصفة عامة. فهو يقول فى فقرة تستحق أن تنقل هنا بنصها: «كانت الصلة الجنسية (يعنى الصلة بين الجنسين) أساس الحياة الأدبية وغايتها بالقياس



زكى مبارك كان له فضل السبق، وآراؤه فى ابن أبى ربيعة أثارت اهتمام طه حسين وحفزته على إعمال الفكر والاجتهاد

ابن أبى ربيعة فى مجال الحب كانت مقيدة. ويتأكد هذا المعنى عندما يتخذ طه حسين موقفا وسطا بين الذين زعموا أن ابن أبى ربيعة كان مسرفا فى الفجور، والذين زعموا أنه كان مسرفا فى العفة. ويرى على خلاف الطرفين أن ابن أبى ربيعة كان يحظى - بحكم ثروته ومكانته الاجتماعية - بنصيب من اللهو، غير أن صلته بالشريفات القرشيات وغير القرشيات اللاتى تغزل فيهن كانت طاهرة كل الطهر بريئة كل البراءة. وفيما يتعلق بغزل الشاعر، يتخذ طه حسين مرة أخرى موقفا وسطا، فيرى أن غزل ابن أبى ربيعة لم يكن عذريا عفيفا، ولكنه لم يكن من الإباحية بحيث يسوى بخلاعة أصحاب المجون من شعراء العصر العباسى مثل أبى نواس. وهناك إذن منزلة وسط أو فئة ثالثة من الحب، هى الحسى. فابن أبى ربيعة لم يكن يحب إلى عمر بن أبى ربيعة؛ فهو لم يكن يتصور المرأة إلا أنها مكملة للرجل، لا يستطيع أن يعيش بدونها كما أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه، ولم يكن عمر يقصر هذه الصلة الجنسية على معناها المادى وحده، وإنما كان يريدها واسعة متناولة جميع أطراف الحياة. ولست أشك فى أن عمر بن أبى ربيعة كان صديقا للمرأة بالمعنى الحديث الذى نفهمه لصداقة المرأة، كان يريد لها الحرية مثل ما يريدها للرجل وكان يريد أن تكون صلة الغزل بين الرجل والمرأة صلة ظاهرة لا حرج فيها ولا جناح، وكان يريد أن تستفيد الجماعة الإنسانية من خلال المرأة، كما تستفيد من خلال الرجل. كان يريد أن تزول الفروق بين الجنسين، وألا يكون بينهما حجاب». (نفس المصدر، ٣١٢-٣١٣).

وهنا نرى كيف كان موقف طه حسين متحررا مقارنة بموقف زكى مبارك المحافظ. فطه حسين يزيل الفارق التقليدى الحاد بين حب عذرى عفيف ينشد المثل الأعلى من ناحية وبين إباحية مطلقة لا مكان فيها للقيم من ناحية أخرى. وهو إذ يحدد القيم التى كان لها مكان فى حياة ابن أبى ربيعة وشعره - قيم الصداقة والمساواة والتكامل مع المرأة - يفترض أيضا أن هذه القيم ينبغى أن يكون لها مكان فى حياة الناس فى الوقت الراهن. أو لنقل بعبارة أخرى إن طه حسين فى النص الذى استشهدنا به كان مؤرخا للآداب بقدر ما كان داعية إلى نوع من الحب يتميز بالواقعية والإنسانية. وحديثه عن موقف الشاعر من المرأة يتضمن رسالة أراد أن يبثها عن علاقة الرجل بالمرأة كما ينبغى أن تكون. ويخيل إلى أنه كان فى ذلك سابقا لعصره. ولعله كان متأثرا فى فكرته عن صداقة المرأة «بالمعنى الحديث» بما عرفه عن علاقات الرجال بالنساء فى فرنسا وبما قرأ عن علاقات الأدباء بالنساء فى تاريخ الأدب الفرنسى. ومع ذلك فمن الممكن أن يقال إحقاقا للحق إن الفترة التى كتب فيها طه حسين - مصر فى الربع الأول من القرن العشرين - كانت أقدر على استقبال رسالته من الفترة الحالية. فهناك من الشواهد ما يدل على أن المجتمعات العربية فى أوائل القرن الحادى والعشرين أشد مقاومة للقيم التى بشر بها طه حسين.

وخلاصة القول هى أن زكى مبارك كان له فضل السبق، وأن آراءه فى ابن أبى ربيعة أثارت اهتمام طه حسين وحفزته على إعمال الفكر والاجتهاد فى نقد من سبقه والانتهاء إلى رأى مستقل ومتحرر. ولكن يعاب على طه حسين أنه لم يلتفت إلى أهم مساهمة لزكى مبارك، وهى تسليط الضوء على الجانب الفنى فى غزل ابن أبى ربيعة وبالطابع القصصى فيه. إلا أنه يعاب على زكى مبارك فى مقابل ذلك أنه لم يوف هذا الجانب حقه من البحث، ولم يصل فيه إلى الوضوح الكامل. ويخيل إلى أن تطرفه فى الحكم على ابن أبى ربيعة بوصفه رجلا كاذب الحب وشاعرا مزينا للفسق أفسد عليه الأمر وشوش على أصالة مساهمته.

ومن الأمور اللافتة أن الرواد الثلاثة - وقد أجمعوا على ضرورة الدراسة المقارنة لغزل ابن أبى ربيعة - اتفقوا أيضا

بين زكى مبارك وطه حسين



على الاتجاه غربا بحثا عن طرف ثان للمقارنة. وهو أمر يدعو إلى التساؤل: لماذا لا يقارن ابن أبى ربيعة بشاعر آخر من شعراء العرب الغزليين؟ وما القول مثلا فى امرئ القيس؟ العلاقة بين هذين الشاعرين وثيقة إلى أقصى حد، كما سأبين فى الفقرة التالية من البحث.

امــرؤ الــقـيـس

امرؤ القيس هو أقرب الشعراء إلى ابن أبى ربيعة. فكلاهما ينتمى إلى الطبقة العليا فى مجتمعه؛ وكلاهما يحب المرأة حبا حسيا، وكلاهما متعدد المعشوقات. يضاف إلى ذلك أن غزل امرئ القيس يتخذ أحيانا طابعا قصصيا. والأهم بصفة خاصة أن ابن أبى ربيعة يروى فى قصيدته الرائية الشهيرة وقصائد أخرى قصة تشبه ترد بعض عناصرها الأساسية فى معلقة امرئ القيس. ويكفى للتدليل على ذلك أن ننظر فى الجزء التالى من القصة التى يرويها ابن أبى ربيعة فى قصيدته المذكورة:

وأعجبها من عيشها ظل غرفة
وريان ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شيء يهمها
فليس لشيء آخر الليل تسهر
وليلة ذى دوران جشمنى السرى
وقد يجشم الهول المحب المغرر
فبت رقيبا للرفاق على شفا
أحاذر منهم من يطوف وأنظر

....

وباتت قلوصى بالعراء ورحلها
لطارق ليل أو لمن جاء معور
وبت أناجى النفس أين خباؤها
وكيف لما آتى من الأمر مصدر
فدل عليها القلب ريا عرفتها
لها وهوى النفس الذى كاد يظهر

...

وغاب قمير كنت أهوى غيوبه
وروح رعيان ونوم سهر
وخفض عنى الصوت أقبلت مشية
الحباب وشخصى خشية الحى أزور
فحييت إذ فاجأتها فتولهت
وكادت بمخفوض التحية تظهر
وقالت وغضت بالبنان: فضحتنى
وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

...

يمج ذكى المسك منها مقبل
نقى الثنايا ذو غروب موشر
تراه إذا ما افتر عنه كأنه
حصى برد أو أقحوان منور
وترنو بعينيها إلى كما رنا
إلى ظبية وسط الخميلة جؤذر

الشاعر فى هذه المقتطفات يروى قصة إسرائه ليلا إلى حبيبة منعمة مرفهة زكية الرائحة، وهى مكنونة مصانة وعليها من أهلها حراسة مشددة. والعاشق ينتظر على أحر من الجمر اللحظة المناسبة لكى يغافل الحراس ويقتحم خدر الحبيبة التى تستسلم له بعد عتاب. وإذا أجملنا القصة على هذا النحو، رأينا على الفور أن هذه العناصر الأساسية مأخوذة من معلقة امرئ القيس. يقول الشاعر الجاهلى:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها
تمتعت من لهو بها غير معجل

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى
بناظرة من وحش وجرة مطفل

ولابن أبى ربيعة قصيدة أخرى يقول فى مطلعها:

راح صحبى ولم أحيى النوارا
وقليل لو عرجوا أن تزارا

وهى من القصائد التى يستشهد بها زكى مبارك؛ وهى بدورها تتضمن على نحو أو آخر تلك العناصر المأخوذة من المعلقة - بما فى ذلك انتظار العاشق للحظة المناسبة، ونجاحه فى النهاية فى الوصول إلى صاحبته، وما كان بعد ذلك من عتاب تلين بعده وتعطى بسخاء. ولن أطيل الحديث فى هذه القصيدة، بل سأكتفى بذكر جانب من جوانب اعتماد صاحبها على امرئ القيس. يقول هذا الأخير:



العاشــق ينتظــر على أحـــر مـــن الجمـــر اللحظـة المناســبة لكى يغافل الحراس ويقتحــم خــدر الحبيبـــة التـــى تســتسـلم لـــه بعـــد عتـــاب



تجاوزت أحراسا وأهوال معشر
على حراص لو يشرون مقتلى
إذا ما الثريا فى السماء تعرضت
تعرض أثناء الوشاح المفصل
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها
لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقالت يمين الله ما لك حيلة
وما إن أرى عنك العماية تنجلى
خرجت بها تمشى نجر وراءنا
على أثرينا ذيل مرط مرحل
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى
بنا بطن حقف ذى ركام عقنقل
إذا التفتت نحوى تضوع ريحها
نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل
إذا قلت هاتى نولينى تمايلت
على هضيم الكشح ريا المخلخل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة
ترائبها مصقولة كالسجنجل

...

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها
لدى الستر إلا لبسة المتفضل

ويشير ابن أبى ربيعة بدوره إلى التجرد من الثياب، وإن كان يضع الحادث بعد اللقاء والعتاب وعند التهيؤ للعطاء:

واشتكت شدة الإزار من البهــر
وألقت عنها لدى الخمارا
حبذا رجعها إليها يديها
فى يدى درعها تحل الإزارا

فما تفسير هذه الظاهرة؟ سيقول النقاد السذج إن ابن أبى ربيعة سطا على المعلقة، وسرق قصته منها. ولكن ابن أبى ربيعة ليس غبيا إلى هذا الحد وهو الذى كان يعلم أن جمهوره يحفظ معلقة امرئ القيس ضمن مأثوراته الشفوية. وما كان ليفعل ذلك وهو الذى يشير فى رائيته إشارة صريحة إلى بيت مشهور لامرئ القيس. يقول ابن أبى ربيعة:

فيالك من ليل تقاصر طوله
وما كان ليلى قبل ذلك يقصر

ويقول امرؤ القيس فى المعلقة:

فيالك من ليل كأن نجومه
بكل مغار الفتل شدت بيذبل

وحقيقة الأمر أن ابن أبى ربيعة تعمد الإشارة إلى سلفه الجاهلى على سبيل التحية والاعتراف بالدين. والأصح أن يقال إذن إن الشاعر الإسلامى استمد من معلقة امرئ القيس نموذجا أصليا يبنى على أساسه، أو إنه أقتبس القصة كما رواها امرؤ القيس فطورها وأعاد خلقها. والصحيح أيضا أن يقال إن جمهور ابن أبى ربيعة كان يستحسن ما فعله الشاعر ويطرب له لما فيه من إحياء وتجديد وتخليد لتراثه الشعرى. والأمر فى هذه الحالة يشبه ما يحدث فى الموسيقى الكلاسيكية الغربية عندما يستعير مؤلف معاصر لحنا من سلف له فيطوره وفقا لما اكتشفه فيه من إمكانيات جديدة. والمؤلف المستعير لا يسطو عندئذ على المؤلف الأصلى، بل يعترف بفضله ويمجده. ولقد يثنى النقاد العارفون على المؤلف المستعير لحسن تصرفه وأصالته.

ولا بد أن ننظر إذن فى طريقة ابن أبى ربيعة فى تجديد القصة المستعارة وإعادة خلقها. فنحن لا نكاد نلاحظ اعتماده على امرئ القيس حتى نرى على الفور مدى استقلاله وقدرته على الابتكار. ومن ذلك مثلا تصويره لانتظار العاشق للحظة المناسبة لكى يخترق الحراسة إلى معشوقته. العاشق فى قصة امرئ القيس ينتظر جنوح الثريا إلى المغيب. أما اللحظة المناسبة لذلك فى قصيدة ابن أبى ربيعة، فهى تروى كما يلى:

وغاب قمير كنت أهوى غيوبه
وروح رعيان ونوم سمر

فهذا البيت على إيجازه يتضمن تصويرا أخاذا للأحداث ويوحى بالجو المحيط ويلمح إلى قلق العاشق وأشواقه. ويصور الشاعر تسلل العاشق إلى خباء صاحبته فى مشهد بصرى أخاذ تشبه فيه مشية العاشق تلوى الحية فى زحفها:

وخفض عنى الصوت أقبلت مشية
الحباب وشخصى خشية الحى أزور

وابن ربيعة يتجاوز امرأ القيس فى تصوير لحظة الالتقاء المفاجئ وما تلاه من حوار العاشقين. يقول هذا الأخير:



فجئت وقد نضت لنوم ثيابها
لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقالت يمين الله ما لك حيلة
وما إن أرى عنك العماية تنجلى

أما ابن أبى ربيعة، فيقول:

فحييت إذ فاجأتها فتولهت
وكادت بمخفوض التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان: فضحتنى
وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أريتك إذ هنا عليك ألم تخف
وقيت وحولى من عدوك حضر
فوالله ما أدرى أتعجيل حاجة
سرت بك أم قد نام من كنت تحذر
فقلت لها: بل قادنى الشوق والهوى
إليك وما نفس من الناس تشعر

تفاجأ المعشوقة فى الحالتين بظهور صاحبها وجسارته. وهناك فى الحالتين مشهد محسوس: بصرى وسمعى. ولكن ابن أبى ربيعة يفيض فى تصوير المشهد ويجرى - بدلا من التقريع من جانب المرأة فى حالة امرئ القيس - حوارا فيه عتاب رقيق وحنان من طرف (انظر دعاء الفتاة لصاحبها بالوقاية من كيد العدو) واعتذار حاذق لتليين قلب الأنثى من الطرف الآخر.

وقصة ابن أبى ربيعة كما عرضتها حتى الآن ليست سوى جزء من قصة كاملة ومتكاملة تستغرق الرائية وتعبر عن تجربته وحده. ففى الأجزاء الأخرى من القصيدة يفارق الشاعر امرأ القيس ويواصل الرواية منفردا دون استعانة بغيره. والمعلقة التى اقتطفنا منها ذلك الجزء الغزلى ليست فى نهاية المطاف قصيدة غزلية ولا قصصية - كما سنبين بعد قليل. أما رائية عمر، فهى غزلية وقصصية من الألف إلى الياء. تستهل الرائية بافتتاحية سنعرض لها فيما يلى، ثم تبدأ القصة بالمعنى الدقيق للكلمة عندما ينيخ العاشق بعد السرى «قلوصه» (ناقته) غير بعيد من الخباء المشتهى وتنتهى برحيله عن الحى على نفس الناقة. ولكنه لا يتمكن من الرحيل بعد أن أعطى حاجته إلا بصعوبة واحتيال. وذلك أن تباشير الصباح تداهم العاشقين، فيقعان فى مأزق لا خلاص منه فيما يبدو:

فلما تقضى الليل إلا أقله
وكادت توالى نجمه تتغور
أشارت بأن الحى قد حان منهم
هبوب ولكن موعد منك عزور
فما راعنى إلا مناد ترحلوا
وقد لاح معروف من الصبح أشقر
فلما رأت من قد تنبه منهم
وأيقاظهم قالت: أشر كيف تأمر

ولا تجد الفتاة مفرا من اللجوء إلى أختيها:

أقص على أختى بدء حديثنا
وما لى من أن تعلما متأخر
لعلهما أن تطلبا لك مخرجا
وأن ترحبا سربا بما كنت أحصر
فقامت كئيبا ليس فى وجهها
دم من الحزن تذرى عبرة تتحدر

وتجد الأختان لشقيقتهما وصاحبها مخرجا:

فقامت إليها حرتان عليهما
كساءان من خز دمقس وأخضر

....

فقالت لها الصغرى: سأعطيه مطرفى ودرعى، وهذا البرد إن كان يحذر

يفر العاشق متنكرا فى زى امرأة محتميا بموكب نسائى من صاحبته وأختيها. والشاعر فى هذه المشاهد يبدى مهارات فذة



يقوم فيمشى بيننا متنكرا
فلا سرنا يفشو، ولا هو يظهر
فكان مجنى دون من كنت أتقى
ثلاث شخوص كاعبان ومعصر



وهكذا يفر العاشق متنكرا فى زى امرأة محتميا بموكب نسائى من صاحبته وأختيها. والشاعر فى هذه المشاهد التى ينفرد بها يبدى مهارات فذة. ومن ذلك قدرته على إدارة الحوار، والتشويق، ووصف الانفعالات وصفا محسوسا (انظر ما أصاب صاحبته من حزن فغاضت الدماء من وجهها)؛ وتصعيد حدة التوتر إلى مستوى الأزمة؛ ومكره فى اختيار صغرى الأخوات لتقديم الحل المناسب؛ وحسه الفكاهى عندما جعل العاشق يرتدى ثياب امرأة ويتخذ من الفتيات «مجنه» - هو الذى أبدى استعداده بدء لإشهار سيفه على من يعترض سبيله من الحراس:

فلما رأت من قد تنبه منهم
وأيقاظهم قالت: أشر كيف تأمر
فقلت: أباديهم فإما أفوتهم
وإما ينال السيف ثأرا فأثأر

...

وجميع المهارات التى ذكرتها مهارات قصصية أصيلة سخرت لإنتاج قصة غزلية كاملة ومتكاملة. وهى مهارات معروفة ومتبعة فى فن القصة منذ نشأ وحتى وقتنا هذا. ولا يخلو غزل امرئ القيس من بعض هذه المهارات أو مما يماثلها. غير أن ابن أبى ربيعة يتوسع ويتفنن فى هذا الباب على نحو لا يجاريه فيه شاعر غزلى آخر. يقول زكى مبارك: «...رأيت الناس فى عصره قد ملئوا دهشة واستغرابا من تلك الأحاديث النادرة الطريفة، وهاتيك القصص الممتعة الشائقة...» (المرجع المذكور آنفا، ص ٢٢٥). فكأن جمهور ابن أبى ربيعة - رغم وعيه بدين ابن أبى ربيعة لامرئ القيس وبالمأثورات الشعرية - كان يدرك أن شاعره أتى بشعر قصصى جديد وفريد فى بابه.

ولا أحب أن أنهى هذا الحديث عن هذه المهارات دون أن أتناول خاصية أخرى فى الغزل القصصى لدى ابن أبى ربيعة، وأعنى بذلك الرواية بضمائر مختلفة دون إخلال بسلاسة السرد. ومن ذلك أن الراوى يحدث نفسه متسائلا فى افتتاحية القصيدة:

أمن دار نعم أنت غاد فمبكر
غداة غد أم رائح فمهجر؟

ثم يجيب عن السؤال بضمير المتكلم:

أهيم إلى نعم: فلا الشمل جامع
ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر

ويخرج الشاعر أحيانا عن دور الراوى ليضع نفسه فى موقف المخاطب (بفتح الطاء). إذ تقول له صاحبته مخاطبة إياه بكنيته:

فقالت وقد لانت وأفرخ روعها
كلاك بحفظ ربك المتكبر
فأنت أبا الخطاب غير مدافع
على أمير ما مكثت مؤمر

وهو فى بعض الأحيان يقطع حبل السرد فجأة ليخاطب صاحبا له ويطلب إليه أن يذهب إلى الحبيبة نيابة عنه ليهديها السلام:

ألكنى إليها بالسلام فإننى
يشهر إلمامى بها وينكر

وهذه الأساليب السردية ليست غريبة على امرئ القيس. فهو يستهل معلقته بمخاطبة صاحبين له:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وهو يتذكر حبيباته السابقات فيخاطب نفسه بقوله:

كدينك من أم الحويرث قبلها
وجارتها أم الرباب بمأسل

ويعود فى البيت التالى مباشرة إلى الرواية بضمير المتكلم:

ففاضت دموع العين منى صبابة
على النحر حتى بل دمعى محملى

وامرؤ القيس مثله مثل ابن أبى ربيعة يضع نفسه أحيانا فى موضع المخاطب. إذ إن صاحبته تخاطبه وتشير إليه باسمه:

تقول وقد مال الغبيط بنا معا
عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

ولكن ابن أبى ربيعة يتوسع ويتفنن فلا يكتفى بالتنقل بين الضمائر، بل يصور الحادث أحيانا من أكثر من زاوية. يحدث ذلك فى افتتاحية القصيدة (قبل بداية القصة بالمعنى الدقيق للكلمة). فهو يستهل القصيدة بتصوير نفسه كما تراه صاحبته «نعم» قادما من بعيد على مطيته. فتقول لرفيقتها «أسماء»:

قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه
أهذا المغيرى الذى كان يذكر؟
أهذا الذى أطريت نعتا فلم أكد
وعيشك أنساه إلى يوم أذكر؟

والشاعر لا يورد عن السؤال جواب أسماء، بل يصف نفسه بضمير الغائب من وجهة نظر «نعم»:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت
فيضحى، وأما فى العشى فيخصر

بين زكى مبارك  وطـه حـسـين

أخا سفر جواب أرض تقاذفت
به فلوات فهو أشعث أغبر
قليل على ظهر المطية ظله
سوى ما نفى عنه الرداء المحبر

فكأننا بإزاء مشهد افتتاحى فى فيلم سينمائى. ونرى الشاعر فى صورة المسافر الذى يهل من بعيد أشعث أغبر لولا ردائه المزركش - دليلا على مكانته الاجتماعية وأناقته وحسن طلعته. وقد تعرض ابن أبى ربيعة للنقد منذ القدم وحتى زكى مبارك لغروره وتشبيبه بنفسه. ورد طه حسين على ذلك بقوله إن الشاعر لم يكن مغرورا لأنه كان بالفعل محبوبا من النساء. والواقع أن امرأ القيس وابن أبى ربيعة يتباهيان كلاهما بالقدرة على إغواء النساء. ولكن يبدو لى أن هذا النقاش بغير طائل. فالمهم هنا هو أن هذا التباهى جزء مألوف ويكاد يكون ضرورة فنية فى القصص الدون جوانية. وما دمنا قد تحدثنا عن الضرورة الفنية، فقد ينبغى أن نشير فى حالة ابن أبى ربيعة إلى أننا بإزاء «حيلة» أو مهارة فنية أخرى من بين مهاراته القصصية الكثيرة التى لم يشملها بحث زكى مبارك.

وينبغى فى ختام هذه المقالة أن ننبه إلى أن تفوق ابن أبى ربيعة على امرئ القيس يقتصر على مجال القص. فغزل امرئ القيس وإن تضمن عناصر قصصية جزء من قصيدة غنائية أكبر وأبعد مدى، قصيدة يتغنى الشاعر فيها بلحظات عابرة من السعادة فى إطار من الحنين والتشاؤم العميق. فالشاعر الذى يريد لليل أن ينجلى بهمومه الثقيلة ثم يستدرك بقوله إن الصباح عندما يجىء لن يكون أفضل حالا لا بد أن يكون متشائما. وفى ذلك الإطار الغنائى المتشائم يتذكر تلك اللحظات التى انقضت إلى غير رجعة- اقتحام خدر عنيزة، ومشهد الحصان وهو يكر ويفر، ورحلة الصيد، والوليمة التى أقامها الشاعر للعذارى - ويأسى عليها. تبدأ القصيدة بالوقوف على الأطلال والبكاء على الأحبة الذين رحلوا عنها فأضحت مرتعا لبقر الآرام. وهذه الافتتاحية الطللية البكائية ليست مقدمة لا ترد حتى تنسى كما هو الحال فى كثير من الشعر التقليدى، بل هى النغمة الأساسية التى تمهد لما يليها وتحدد طابعه. فبعدها مباشرة يتذكر الشاعر ويبكى بعض من أحب وفقد - أم الحويرث وأم الرباب وفاطم - ثم تتوالى بعد ذلك مشاهد السعادة المتبددة حتى نصل إلى آخر القصيدة التى يختتمها الشاعر بوصف البرق والسيل الكاسح.

ويبدو من بعض المشاهد التى ذكرناها أن مؤلف المعلقة كان رجلا ناضجا أو كهلا يترحم على أيام صباه عندما كان فتى غرا يمارس الطيش والنزق وكأنهما حق له. ومن تلك المشاهد الوليمة التى أقامها الفتى لمجموعة من الفتيات (فى مثل سنه أو لا يصغرنه كثيرا):

ألا رب يوم لك منهن صالح
ولا سيما يوم بدارة جلجل
ويوم عقرت للعذارى مطيتى
فيا عجبا من رحلها المتحمل
يظل العذارى يرتمين بلحمها
وشحم كهداب الدمقس المفتل

واقتحامه هودج «عنيزة»:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة
فقالت لك الويلات إنك مرجلى
تقول وقد مال الغبيط بنا معا
عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيرى وأرخى زمامه
ولا تبعدينى من جناك المعلل

قصيدة ابن أبى ربيعة رائعة فى بابها، وهى خفيفة رشيقة سلسة أنيقة وآية فى الحذق الفنى ومهارة الصنعة القصصية. قصيدة تحتفل بالحب والفوز فيه. أما معلقة امرئ القيس، فهى تبكى انقضاء أيام الحب والهناء، ولعلها تبكى بصفة عامة انقضاء فترة الشباب. وهى قد تخلو أحيانا من الرشاقة والأناقة والسلاسة، ولكنها لم تؤلف لتحقيق تلك الأغراض. هى قصيدة غنائية من طراز رفيع بفضل تنوع حالاتها فى إطار من الوحدة الفضفاضة - وحدة الحنين والأسى - وبفضل الوعى الوجودى الكامن فيها بأن حياة الإنسان هشة بإزاء زمان يمضى دون هوادة. ■



طه حسين، حديث الأربعاء، الجزء الأول، فى المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين، المجلد الثانى (بيروت ١٩٧٤)، ص ٢٩٧-٣٠٨ و٣٠٩-٣١٩ على التوالى. سيشار إلى هذا المرجع فيما يلى بعنوان مختصر: «المجموعة الكاملة»

أعيد نشر الكتاب فى طبعة أحدث مع كتاب آخر عنوانه «الأسمار والأحاديث»، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان (القاهرة ١٩٩٨).



قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية
أحمد أمين

(٥)

الجنـــازة:

أحيانًا تطلق هذه الكلمة على جمع من النساء يجتمعون في بيت الميت للبكاء والعويل والولولة والصياح واللطم وخمش الوجوه، ويسمى المأتم. وأحيانا تطلق الكلمة على مجموع السائرين بالنعش في الطريق، فقهاء ومعزين. ومن عادة المصريين وخصوصًا المصريات الغلو في عواطف الفرح والحزن. فكان إذا مات رجل عظيم فكل نساء بيته يغطين رؤوسهن بالأسود وأوجههن بالوحل أو بالنيلة، وهي عادة قديمة ذكرها هيرودوت عن المصريين القدماء في تاريخه.

فهن يكثرن من الدفوف والدق عليها بنغمات خاصة، والقرع على الصدور بالأيدي. وقد يضربن صدورهن بالأحجار، ولا يلبسن الملابس إلا إذا كانت سوداء.

وإذا كان الميت عزيزًا صبغن كل غطاءات الفرش والوسائد بالسواد، وقلبت البسط والسجاجيد، ووضعت ووجهها على الأرض، والنجف والشمعدانات تلف بقماش أسود. وتستدعى طائفة من النساء يسمين المعددات ويغنين أغاني مخصوصة بنغمات حزينة. وتمتنع الزوجة إذا مات زوجها عن الحموم.

وإذا كان للميت فرس كان يركبها يقص ذنبها ويوضع الشعر على السرج، وتقاد أمام النعش.

ومن اعتقادهم أن روح الميت تبقى بجوار الجثة وهي في البيت قبل الدفن لا تفارقها ولا يصح إدخال السمك ولا الفاكهة في بيت الحزن إلا بعد الأربعين، ولا يصح أن يوضع السكر على القهوة أيام المأتم، ولا بد من إضاءة السراج مدة ثلاثة أيام في الحجرة التي مات فيها. ولا بد أن يفرش النعش تحت الميت بشيء كلحاف ونحوه. وإذا كان الميت من الأغنياء لف النعش بشال من الكشمير. ولا بد أن يكون ماء الغسل والصابونة والليفة التي يغسل بها الميت من خارج البيت. ويفرش في المقبرة حيث يوضع الميت حناء، إذا كان الميت عزيزًا أو غنيًا.

وإذا قورن ما نسمعه من ضبط بعض الإفرنج عواطفهم الحزينة أخذنا العجب! فقد حكى لي أن أستاذا ألمانيا كبيرًا كان يدرس في مصر ثم ذهب إلى إجازة وأراد مرة أن يتسلق جبلا مع أحد تلاميذه فزلفت رجله ومات. فلما أخبرت زوجته وكان عزيزًا عليها وصادف أن أباها زارها من الريف ليقضي عندها ليلة، صبرت وكتمت عنه الخبر لئلا ينزعج وكانت تدخل الحجرة وتغلقها على نفسها وتبكي، فإذا خرجت إليه لم يشعر منها بشيء غير عادي حتى أتى الصباح فأخبرته، وخرجت إلى المستشفى وتسلمت زوجها لتدفنه.

وأخبرت أن عميد جامعة أمريكية في بيروت قتل ابنه الوحيد في الحرب العالمية الثانية، فلما ذهب بعض الأصدقاء ليعزوه هو وزوجته لم يلاحظوا عليهما أي شيء غير عادي، فظنوا أن الاسم مغلوط، وأبوا أن يعزوهما، حتى لا يقعا في خطأ، ثم تأكدوا من أن الخبر صحيح وأنهما هما المنكوبان، فعجبوا من ضبط عواطفهم.

وكان لنا جارية، ومات أحد أقاربنا وكان عزيزًا علينا، فحلقت شعرها وظلت أربعين يومًا لا تأكل إلا الزيتون الأسود، ولا تنام إلا على حجر، ولا تشرب القهوة إلا سادة، وتدعي أن في ذلك وفاء للميت، وقد زال كثير من تلك العوائد اليوم.



إصـــــــــدارات جـــــــــديـــدة

«تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشــكر الناشــريـن والكُتَّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.»

إسطاسية
خيرى شلبى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠، ٢٥٦ صفحة



«إسطاسية» هى أرملة المقدس جرجس غطاس، تعيش فى إحدى القرى النائية بكفر الشيخ، قُتل ولدها محفوظ الحلاق فاشتعلت نارها وأصبحت تخرج كل يوم مع الفجر تصرخ وتناديه. وهناك بالأسفل تشتعل الصراعات والحكايات بين «حمزة البراوى» راوى الحكاية وبطلها الآخر الذى درس الحقوق وفشل فى أن يصبح قاضياً لتاريخ عائلته فى القتل والإجرام، والعمدة «عواد البراوى» عم حمزة وشريك محفوظ فى ماكينة الطحين، ومن ناحية أخرى هناك الجزار «عبد العظيم عتمان» المتهم بالقتل، والذى برأته المحكمة لنظل نحن فى حيرة بشأن ذلك القاتل المجهول... حكايات متتالية يجيد غزلها الكاتب الكبير خيرى شلبى، فيشكل منها عالمًا سحريًا يغرى بمتابعة تفاصيله الأخاذة، ويكشف أسرار تلك الأركان المنزوية من ريفنا وذواتنا التى لا تتوقف عن التغيير.

■

الإبستيمولوجيا فى ميدان المعرفة
على حسين كركى
شبكة المعارف، ٢٠١٠

صدر حديثاً عن شبكة المعارف كتاب «الإبستيمولوجيا فى ميدان المعرفة» للدكتور على حسين كركى.



«تتمحور معظم الدراسات المعرفية التى تتناول قضايا الفكر العلمى المعاصر، حول الإبستيمولوجيا. فقد ورد هذا المصطلح فى عدة لغات مع بعض الاختلاف فى مفهومه، مما أدى إلى صعوبة تعريفه وتحديد ملامحه فى صورة نهائية.

إذاً لم تكتسب الإبستيمولوجيا صيغتها النهائية بعد لأنها مازالت مشتتة بين جذورها الفلسفية من جانب وبين علاقتها المباشرة الحالية مع العلم من جانب آخر.

إلا أنه منذ قرن من الزمان تقريباً تحاول الإبستيمولوجيا، شيئاً فشيئاً، أن تستقل عن الفلسفة وأن تصبح علماً متميزاً ينأى بنتائجه عن الجدل الفلسفى صابغاً إياها بصفتى الموضوعية والعمومية.

فإذا نظرنا إلى الإبستيمولوجيا فى علاقتها بالعلم فإننا نجد أنها عبارة عن نشاط من مستوى أعلى، موضوعه العلم نفسه. فهى عبارة عن تفكير فى العلم، إلا أن بعض التحفظات قد فرضت نفسها.

فالتفكير فى العلم لا يكون بالضرورة تفكيراً فلسفياً، كما أنه لا يعنى بالضرورة عدم التقيد بالمتطلبات العلمية، إنه قابل للانضمام والتكامل مع العلم نفسه.

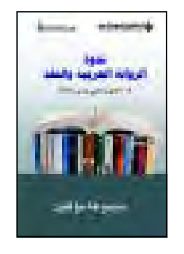
فنحن لا نستطيع أن نطلب بعدم الخلط بين التفكير حول العلم (الإبستيمولوجيا) الذى يسعى شيئاً فشيئاً إلى الاستقلال عن الفلسفة وفلسفة هذا العلم التى تتخذ من موضوع هذا العلم مجالاً لدراستها إلا بطريقة عامة غامضة.

لذلك حاولنا إلقاء الضوء على الإبستيمولوجيا بوصفها أحد ميادين المعرفة، ومشكلاتها، وعلاقاتها وأهدافها...

وقد جاء عرضنا علمياً، تاريخياً وواضحاً، يصب بمجمله فى ميدان المعرفة؛ بهدف تطوير الوعى الإنسانى وتوسيع ثقافته».

■

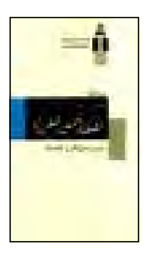
الرواية العربية والنقد
إعداد عبد الإله الكلخة وحسنى كرون
الدار العربية للعلوم وبيروت عاصمة عالمية للكتاب، ٢٠١٠



صدر عن الدار العربية للعلوم ناشرون وبيروت عاصمة عالمية للكتاب، كتاب جماعى حول نقد الرواية، وهو كتاب طرح المسار الذى قطعه النقد الروائى العربى على اختلاف توجهاته ومراحل تشكله، على محك التأمل النقدى. وقد شارك فى هذا الكتاب نخبة من النقاد العرب الذين ساهموا فى ندوة الرواية العربية والنقد والتى التأمت ببيروت ٨، ٩ كانون الثانى (يناير) ٢٠١٠ بدعوة من الدار العربية ناشرون فى إطار بيروت عاصمة عالمية للكتاب، وهم عبد اللطيف محفوظ من المغرب وسعيد بو طاجين من الجزائر ومصطفى الكيلانى من تونس وحسين حمودة من مصر وفيصل دراج من فلسطين ولطفى زيتون من لبنان ونبيل سليمان وشهلا العجيلى من سوريا وفخرى صالح من الأردن وسعد البازغى ومعجب العدوانى من السعودية ونادر كاظم من البحرين. وقد تطرقوا للموضوع من منطلقات مختلفة ومتكاملة، ساهمت فى إضاءة المناهج والخلفيات والتجارب الكبرى.

■

نصف شمس صفراء
تشيماماندا نجوزى أديتشى
ترجمة فاطمة ناعوت
سلسلة الجوائز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠



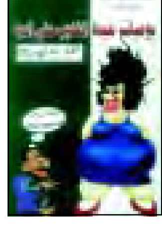
عن سلسلة الجوائز بالهيئة المصرية العامة للكتاب؛ صدرت رواية «نصف شمس صفراء» فى ثوبها العربى بترجمة الشاعرة المصرية فاطمة ناعوت. الرواية كتبتها بالإنجليزية الكاتبةُ النيجيرية الشابة «تشيماماندا نجوزى أديتشى» وفازت بجائزة الأورانج البريطانية الرفيعة عام ٢٠٠٤.

تقع الروايةُ فى أكثر من ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير، وتحكى عن علاقة حبٍّ ناضجة، بين بروفيسور فى جامعة نيجيريا، ومثقفة شابة جميلة تنتمى إلى طبقة الأثرياء الجدد فى نيجيريا. نشأت قصة الحب تحت ظلال الحرب الأهلية فى نيجيريا، بين عامى ١٩٦٧ و١٩٧٠، تلك التى اندلعت فيها الصراعات البيافرية فى محاولة من قبائل الإيبو الاستقلال وتكوين دولة، علمُها «نصف شمس صفراء»، رمزًا للتحرر والخروج من ظلامية النظام الفاشى المحافظ الذى كان يحكم نيجيريا آنذاك. ورغم تصوير الرواية المجازرَ والانتهاكاتِ البشريةَ العنيفة التى مورست على تلك القبائل المسالمة، إلا أن الروائية نجحت فى الخروج بها من الحسِّ التراجيدىِّ، عبر سردها الوقائعَ على لسان طفل أسود صغير «آجوو»، بطل الرواية، الذى يخدم فى بيت البروفيسور «أودينيبو».

تحمل الرواية فيضًا من أجواء الجنوب الأفريقى الساحر بطقوسه الغرائبية وشعائره الغريبة على القارئ العربى، إلا أن المترجمةَ نجحت فى نقلها إلى اللسان العربى بلغة شعرية رفيعة تجعل القارئ يتوحد مع أحداثها، مع الحفاظ على أجواء القارة السمراء الفاتنة، كما صرَّحت بذلك د. سهير المصادفة، رئيس تحرير السلسلة. خمسةُ أبطال رئيسون تدور حولهم الرواية: «أودينيبو»، أستاذ الجامعة الثورى ابن البرجوازية الوسطى، «أولانا»، المثقفة التى تنتمى لأبوين من طبقة الأثرياء الانفتاحيين، وتوأمتها «كاينين» نقيضُ أولانا، سيدة الأعمال التى تهوى جمع المال، ووقعت فى هوى البريطانى «ريتشارد تشرشل» المتعاطف مع قضية السود، سوى إنه فى النهاية سيكتشف أنه غير متورط بما يكفى فى قضيتهم، بسبب بشرته البيضاء وعينيه الزرقاوين وشعره الناعم، فيترك الكتاب الذى بدأه بعنوان: «كان العالم صامتًا ونحن نموت»، ليكمله الصبىُّ الأسود «آجوو»، الذى تدور معظم أحداث الرواية على لسانه، ومن خلال عينيه اللتين ترصدان أهوال الحرب والمجازر.

■

يوميات عبده المغلوب على أمره
أحمد عدلى رزق
المركز العربى الدولى للإعلام
القاهرة، ٢٠١٠



صدر للكاتب أحمد عدلى رزق كتاب من الأدب الساخر يتضمن يوميات مؤلفة على لسان مواطن مصرى يعانى من مشاكل الحياة اليومية. وهو يعتبر جزءا من تيار شديد الرواج فى سوق الكتاب المصرى المعاصر وهو تيار الأدب الساخر. وفى مقطع من الكتاب يقول المؤلف «وتذكر عبده ما قرأه من أحداث مؤسفة، لعبت فيها «أكياس البلاستيك» دورا حاسما فى إنهاء الخلافات الزوجية وتوزيع جثث الأزواج «المتمردين» صدقة على الكلاب الضالة، فأسرع إلى التعقل وإنهاء النقاش مع زوجته «مدام نكد» وهو يردد بينه وبين نفسه «رحم الله زوجا عرف قدر نفسه، واحتاط من تهور زوجه وجزم على الخنوع أمره».

كذلك تذكر نصيحة أحد الحكماء لابنه إثر تفشى ظاهرة ذبح الزوجات لأزواجهن حين قال له: «يا بنى كن عاقلا، لزوجك مجاملا وللنكد متحملا، وبالتعسف راضيا وعلى الاستبداد صابرا واعلم يا بنى أن جبانا حيا خير من متهور مذبوح».

لذا تقوقع الأستاذ عبده على نفسه وعكف على تدوينه يومياته فى سرية تامة وتحت إجراءات مشددة من الحرص الحذر، فهو لم ينس أن المجتمع الدولى مازال يحتفظ بما أسماه «محاكم مجرمى الحرب» وأن إحداها قد خصصت لهؤلاء «الأزواج المشاكسين» أو من يمكن أن تثبت زوجاتهم بطريقة ما أنهم كانوا مشاكسين قبل التخلص منهم.»

■

ضحك مجروح

بلال فضل

القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠ ، ٢٤٠ صفحة



فى أحدث كتبه «ضحك مجروح» يتناول بلال فضل بأسلوبه الساخر، ولغته التى تجمع بين الفصحى الرصينة والعامية المدهشة يكتب بلال فضل حكايات يومية ساخرة، يتناول فيها أوضاع المصريين وما أصابهم وما شاب تفكيرهم ونظرتهم إلى الحياة بطريقة لاذعة أحيانا ونوع من الكوميديا السوداء أحيانا أخرى. عندما تقرأ هذه المقالات لن تتمالك نفسك من الضحك، ولكن لا تبتئس إذا ضبطت نفسك متلبسا بدموع تجرح هذا الضحك أحيانا. من المقاطع الجميلة فى إحدى مقالات الكتاب يقول بلال فضل:

ليست فروسية والنبى، أنا لن أُحمل أحداً مسئولية ما أصبحت عليه، أنا أستحق ما جرى لأسنانى، أنا وأسنانى نبت للثقافات الفاسدة التى تسود حياتنا، ثقافة العلاج بالمسكنات، ثقافة البحث عن الحل بعد وقوع الكارثة، ثقافة الطناش والإهمال والطلسقة والترقيع، ثقافة عدم الجدية والسخرية من الذين يفعلون أى شىء بجدية حتى لو كان غسيل أسنانهم بالفرشاة كل يوم، ثقافة الحشو المؤقت حتى يسقط فنستبدله بحشو مؤقت آخر، ثقافة هو إحنا فاضيين للكلام ده أيا كانت خطورة الكلام ده، ثقافة الهروب من تحمل المسئولية طالما كان بالإمكان الشكوى من الزمان والظروف والنصيب، لذلك لا تشفقوا علىّ، فأنا لا أشفق على نفسى، أنا أستحق هذه الأسنان الخربة، وهى يا عينى لا تستحقنى أيا كانت نسبة الكالسيوم فى موانيها المتصدعة.

عارف؟ من يبجى خمسة عشر عاماً كنت أقول لأصدقائى الحالمين بأن يصحوا من النوم على وجه حاكم أفضل، أو وجه حاكم آخر والسلام، «لن يسقط نظام مبارك إلا بعد أن تسقط أسنانى»، وهذى أسنانى قد سقطت، فاللهم لا اعتراض على حكمتك فى توزيع الكالسيوم.

■

القدس: محاولات التهويد والتصدى لها من واقع النصوص والوثائق والإحصاءات

أنور محمود زناتى

مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠



صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية كتاب تهويد القدس (محاولات التهويد والتصدى لها من واقع النصوص والوثائق والإحصاءات) للكاتب والأكاديمى أنور محمود زناتى - جامعة عين شمس.

والكتاب يتناول القدس، تلك العاصمة الدينية والتاريخية والسياسية والاقتصادية العربية، والتى مرت بمؤامرات عديدة ومحاولات يهودية لتزوير هويتها، بدءا من تهويد المقدسات بعمل «حفريات» تحت المسجد الأقصى، وبناء الكنس اليهودية ومحاولات عدة لحرق وهدم المسجد واجتياحه، وحتى تهويد السكان عن طريق طرد العرب والمسلمين من المدينة واستقدام يهود آخرين من شتى بقاع الأرض لتغليب تعداد اليهود فيها، ومرورا بتهويد ملامح المدينة عن طريق هدم المنازل وردم الآثار الإسلامية وبناء مستوطنات على أنقاضها.

والكتاب كما يقول مؤلفه يستند إلى المصادر الوثائقية والاحصائية المتوافرة وأقلها تحيزاً. والموضوع من أخطر القضايا الملحة فى عالمنا العربى والإسلامى خاصة أن هناك عدة جوانب جديدة هامة ظهرت من خلال إحصاءات منشورة لها دلالتها الخطيرة، وهو يستعرضها فى متن البحث، وفيها إضافات جديدة ألقت مزيدا من الضوء على الفكر الصهيونى الجبان.

وقد جاء هيكل الكتاب مقسماً إلى فصلين اثنين، جاء الفصل الأول تحت عنوان «إقرار النصوص وكلمة التاريخ» وفيه تم التأكيد على عروبة القدس من خلال النصوص والمصادر اليهودية والتوراتية قبل العربية والإسلامية وكلها تشهد بعروبة فلسطين، ومدينة القدس. وتعرض الباحث التاريخ الوثائق وأعمال التنقيب، وقام بتحليل تلك النصوص وانعكاس ذلك بوضوح كل خطوات الكيان الصهيونى.

ثم جاء الفصل الثانى بعنوان «آليات التهويد»، وهى أساليب شيطانية من أساليب التحريف والتزييف فى المدينة حيث تتعرض مدينة القدس بصفة عامة والمسجد الأقصى المبارك بصفة خاصة لاعتداءات يومية من قبل سلطات الاحتلال الإسرائيلى، والتى تعمل ليل نهار على إزالة وطمس الهوية العربية لكى ينجحوا فى تركيب تاريخ يهودى مزور. وكشفت الدراسة أن من أخطر أهداف إسرائيل ليس فقط تزوير الواقع السياسى والديموغرافى، وإنما أيضاً محو الهويّة العربية والإسلامية لمدينة القدس وتهويد التعليم، واستبدالها بهويّة يهوديّة من الناحيتين التاريخيّة والدينيّة.

كما يستعرض الكتاب أسماء المدن والقرى العربية التى تم تغييرها لتزوير وتهويد المسميات بطريقة منظمة، وتتم عن طريق سلطة تسمية الأماكن «الإسرائيلية».

■

ملامح المستقبل

محمد بن حامد الأحمرى

الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٠



صدر حديثاً عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر طبعة ثالثة من كتاب «ملامح المستقبل» للأستاذ محمد بن حامد الأحمرى.

«مفهوم المستقبل مرتبط بالتخطيط والبناء والنهضة والإصلاح والتجديد والتحرر والأمل؛ المستقبل يوسع فسحة الأمل، ويحرّض على العمل،.... هو الانعتاق من ضيق اللحظة،... وهو الخلاص والتمرد على القيود الزمانية والمكانية وعدم الإذعان للواقع المر...».

هكذا بدأ محمد بن حامد الأحمرى كتابه ملامح المستقبل الذى يُعتبر رحلة تغوص فى المستقبل، وترصد المؤشرات والإنجازات التى تحققت لاستشراف المستقبل، مشيراً إلى أن مسافات الاستشراف تختلف بين الناس، لأن من يخطط لخمسة قرون قادمة يختلف عن الذى يخطط لقرن آت.

إن الكتاب عرض لقضايا وأفكار متفرقة، جاءت أشبه بالمقالات، وكل مقالة تدور حول محور معين مثل: الإعلام، وانتشار الوعى العام، واللغة، والانفتاح على الغرب، والعولمة والحركة القوميّة، والثقافة المقاومة... وغيرها من المحاور.

ويختتم المؤلف باعتباره أن الزمن لا يعود، وأن صياغة المستقبل تحتاج إلى مزيد من الدعوة والاجتهاد، فعلى المرء بذل جهد أكبر للإمساك بتفاصيل عصره وفهمه، وأن يتطور ويحيا داخل تجاربه ليكون أجدر بالتأثير فيه والتأثّر به.

■

صرخة الحق فى محكمة الباطل

إعداد عامر الحسينى

المركز العربى الدولى للإعلام

القاهرة ٢٠١٠



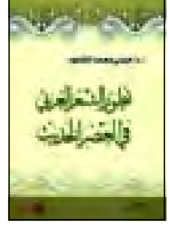
والكتاب عبارة عن شهادات للكاتب السياسى العراقى عبد الغنى عبد الغفور وهو عضو فى حزب البعث العراقى اعتقلته القوات الأمريكية فى التاسع من مايو عام ٢٠٠٣ وحكم عليه بالاعدام بعد احالته للمحكمة. وقد كان عبد الغنى عبد الغفور يتقلد مناصب وزير الأوقاف والشئون الدينية ووزير الثقافة والإعلام فى فترات مختلفة إبان حكم حزب البعث للعراق. وقد حوكم عن أحداث البصرة عام ١٩٩١ والتى أنكر أى صلة له بها. ويتضمن الكتاب شهادته عن تفاصيل المحاكمة التى تعرض لها ومقاطع اخبارية اختارها لتنشر عنه وقصائد كتبها بالإضافة إلى أشعاره وصور له قبل وبعد الاعتقال.

■

تطور الشعر العربى فى العصر الحديث

محمد حلمى القاعود

دار النشر الدولى بالرياض، ٢٠١٠



«السهل الممتنع».. هذا ما يمكن أن يوصف به هذا الكتاب، الذى ألفه كاتب مرموق وأستاذ جامعى له مكانه ومكانته فى الحقلين الثقافى والأكاديمى..وقد سعدت دار النشر الدولى بتقديم حوالى عشرة كتب له، تحتل مكانة رفيعة فى مجال البحث العلمى والإنتاج الأدبى، وبعضها يعد مرجعا فى بابه.

والأستاذ الدكتور «حلمى محمد القاعود» يجمع إلى الدقة العلمية العذوبة الأدبية، ويتحقق فى كتابه سلاسة

العرض وطلاوة الأسلوب، ومتانة الحكم العلمى القائم على المنطق والاستقراء والدليل والبرهان.

وفى رصده لتطور الشعر العربى الحديث يقدم لنا صورة شاملة متنوعة، تتوقف عند التفاصيل الدقيقة التى لا يمكن الاستغناء عنها للوعى بحركة الشعر العربى الحديث، ومساره على امتداد ما يقرب من قرنين من الزمان، فى إيجاز غير مخل..

ويقدم لهذا التطور برصد أبرز العوامل التى مهدت للنهوض الشعرى الحديث، ثم يشير إلى المدرسة المحافظة فى سياقها البعثى الإحيائى.. فالمدرسة التجديدية على يد الديوانيين وجماعة أبولو والمهجريين، وينتقل إلى حركة التجديد التى عرفت باسم الشعر الحر أو شعر التفعيلة من خلال الرواد العرب، وشعر المقاومة الفلسطينية.

وعلى امتداد صفحات الكتاب يتعرف القارئ على أعلام الشعر العربى الحديث فى شتى مراحله وفتراته، مع نصوص دالة وموضحة.

ويطرح الكتاب فى النهاية مجموعة من المقترحات للنهوض بالشعر المعاصر بعد أن جرى عليه ما جرى على الحياة العربية العامة من أحوال وأوضاع..

كتاب تطور الشعر العربى الحديث حدث أدبى مهم فى واقعنا الأدبى والثقافى نحتفى به فى دار النشر الدولى بالرياض ونقدمه إلى القراء آملين أن يمثل ركنا مهما فى المكتبة العربية الحديثة.

وبالله التوفيق.

وفى مقدمة الكتاب يشير المؤلف إلى أنه يهدف إلى تقديم صورة مكتنزة الملامح لحركة الشعر العربى الحديث ؛ تتيح للأجيال العربية والإسلامية الجديدة الإلمام بفن العربية الأول والتعرف عليه فى خطوطه الأساسية ومعالمه الرئيسية حتى منتصف القرن العشرين تقريبا.

وبالإضافة إلى ذلك فإن من غايات الكتاب تصحيح الأحكام المغلوطة من خلال سياقات علمية موضوعية وأدلة نصية مقنعة، مما يهيئ لفن العربية الأول، فرصة الوجود الحى عبر نماذجه القوية المضيئة فى وجدان القراء المعاصرين. مع نفض الرماد عن النماذج الجيدة التى أطفئت أو غيبت تحت الرماد بحكم الدعاية المزيفة أو غير المنصفة وفقا لما تمليه الأمانة العلمية.

وفى ختام البحث يقدم الكاتب مجموعة من المقترحات للارتقاء بفن العربية الأول ؛ أبرزها :

التوجيه نحو الاستفادة من إمكانيات النظام الخليلى، وخاصة فى البحور التى لا تستخدم إلا نادرا، ومجزوءات البحور بصفة عامة، وألوان الموشحات والمقطعات.

وأيضا الإفادة من الشعر الحر فى التأليف المسرحى والملحمى بما يرفع الذائقة الأدبية لدى الجمهور، وبما يكسر حدة الرتابة والتكرار، التى كانت سببا لهجر الشكل الخليلى. فضلا عن استيعاب الطاقة الشعرية الزائدة بما يقدم التراث العربى فى أفضل صورة، ويضيف إلى الرصيد الشعرى القائم رصيدا جديدا.. ثم الالتفات إلى الروح الإسلامية فى عطاءاتها الغنية من خلال فروع الثقافة المختلفة، واستلهام رموزها وشخصياتها بعد أن خفت وجودها بفعل عوامل عديدة.

كما يوجه البحث إلى ضرورة الاهتمام بقضية اللغة العربية بحكم أنها أبرز عناصر البناء الشعرى وأداته الأولى؛ حيث تتعرض لمحاولات سحق وطمس تمضى على قدم وساق، وضرورة البحث فى الوسائل والطرق التى تنصفها وتجعلها تستعيد مكانتها فى الإعلام والتعليم والثقافة والفكر والإدارة والمجتمع.

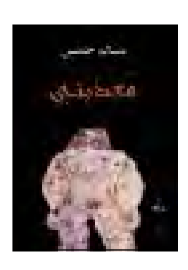
الكتاب يترجم لعشرات الشعراء من كل الأجيال ترجمات وافية، ويعرض تفاصيل عديدة لحركة الشعر الحديث تشير إلى حيوية الأمة وقدرتها على الانبعاث الحضارى فى كل الظروف والأحوال.

■

معـــذبتى

بنسالم حميش

القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠ ، ٢٩٦ صفحة



فى روايته الجديدة يكتب بنسالم حميش عن حمودة المصمودى المغربى الذى تزوجت أمه بعد وفاة أبيه فانتقل للعيش على الحدود المغربية الجزائرية، زاده الكتب وسلواه القراءة. وفى ظروف لا تختلف كثيرا عن ظروف جوزيف ك بطل كافكا الشهير، يجد حمودة نفسه مقبوضا عليه، بل وأكثر من جوزيف ك وجد نفسه رهن الاعتقال. يواجه حمودة أصعب أنواع التعذيب وهى التعذيب الناعم الذى يجعله «بحيلة ما» يكتب تقريرا عن نفسه. غير أن ما كان يؤرق حمودة أو غيره هو اسم الغولة التى يتوعدون السجناء بها كل لحظة. وحينما يلتقيها حمودة تقرر هى أو تقرر الصدفة أن تختار له نوعا خاصا من التعذيب، وهو أنها تقع فى غرامه.. يجيب بنسالم حميش فى هذه الرواية على السؤال : من يقهر من؛ السجين أم السجان؟ وكيف يمكن للسجين أن يصبح آلة تعذيب لمعذبيه؟ وذلك عبر تأملات تعبر عن نوع مخصوص من الإيمان وإدمان الصبر والحيلة. فى الوقت نفسه الذى يكتب بنسالم حميش حكاية حموده، يضع نصب عينيه هدفا آخر وهو اللغة التى يعمل عليها ويخلّق منها ويعيد اكتشاف طاقات السخرية فى مستوياتها الكلاسيكية، محاولا روايته كلها إلى مايشبه قصيدة تحملك من عالم إلى عالم آخر.

■

أوراق فى التاريخ والحضارة
أوراق فى الفكر والثقافة

عبدالعزيز الدورى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٣٦٧ صفحة



فى هذا الكتاب ستة عشر بحثًا، ينتظمها إطار فكرى، يتضمن عناوين لصيقة بهموم المجتمع العربى، فهى تتصل بقضايا وتيارات قائمة فى حياتنا، ومايزال كثير منها موضع نقاش فى الحاضر.

فقضايا مستقبل الوطن العربى، وهوية الأمة، والديمقراطية فى فلسفة الحكم، وسُبُل مواجهة التحديات، وفلسفة الثقافة، والعلاقات بين العرب والغرب، سياسيًا وحضاريًا، ودور اللغة والتعريب فى توحيد الأمة وبعث نهضتها، والاشتراكية فى جذورها العربية، ونهجها الاقتصادى والاجتماعى، والعلاقات - الإيرانية، وطابع الحوار القومى - الدينى، ومناهج نجاحه" هى من القضايا التى تستحق البحث، وتستحوذ على اهتمام مؤرخنا الكبير الدكتور عبدالعزيز الدورى، وتجعله يستقرئ الحاضر - مما ينتخبه، صالحًا، من التراث، فيتعرف إلى إنجاز الأمة الحضارى فى فترات ازدهارها، فى حاضر يعتريه القلق أو الضعف، ففى ذلك بعث للهمم، وإثارة للطموح، داعيًا - فى الوقت نفسه - إلى إحياء الثقافة العربية، وبعث قيمها الخُلُقية والأدبية، ومضاعفة الجهود الآيلة إلى كشف أسرار التشريع ووجهات نظره فى السياسة والاقتصاد والاجتماع، فالمستقبل الفكرى ينبثق من صميم تراث هذه الأمة وذاتيتها، فى أدوارها الحية، الملهمة، ويرتكز على التحرر من إطار النقل والتقليد، والخروج إلى الأصالة.

وما تجدر إشارته، هنا، أن هذه الدراسات، قُدمت فى الغالب، فى ندوات ومؤتمرات، وفى أوقات مختلفة، وعبر فترة طويلة، وهى تعبر عن فكر صاحبها وآرائه فى وقتها، فهى كالوثائق، رهينة بزمانها ومكانها.

ولا ينتظر أن تبقى الآراء والمفاهيم ثابتة على الزمن، بل هى عرضة للتعديل أو التبديل. ولكن ذلك، إن حصل، فقد يكون فى التفاصيل، لا فى الاتجاه العام، أو فى الخطوط الرئيسية.

ولم تخضع هذه الدراسات لأى تغيير، بل بقيت كما كُتبت فى الأصل، لأنها نتاج فكر كاتبها فى مسيرته العلمية، ولا يحق إخضاع فكره لزمن واحد فى حياته.

■

خمسون شخصية أساسية فى الإسلام

روى جاكسون ورشا جمال

الشركة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٠



صدر حديثاً عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر كتاب «خمسون شخصية أساسية فى الإسلام»، تأليف روى جاكسون (محاضر وكاتب فى مجالى الدين والسياسة)، وترجمة رشا جمال.

شهدت السنوات الأخيرة عدداً من نقاط التحول التاريخية فى العالم الإسلامى، حيث كان لبعضها تأثير مهم فى العالم غير الإسلامى. بدءاً من الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، إلى الحرب الإيرانية العراقية عام ١٩٨٠، إلى فترة الثمانينيات وسيطرة القوات الروسية على أفغانستان، ثم الصراع فى البوسنة والهرسك.... بعدها حرب الخليج، والتفتيش على الأسلحة فى العراق..... وصولاً إلى حادثة برجى مركز التجارة العالمى. كلها أحداث أوجدت مصطلحات جديدة فى الإسلام، باتت شائعة اليوم.

ومهما تكن الأحداث، يرى المؤلف أن ما يجب أن يكون واضحاً هو أهمية الإسلام، ويرى أنه بدلاً من التعرف إلى لاهوتية الإسلام، من الأفضل الاطلاع على الصراع والاختلاف بين الإسلام والغرب. كما يرى أنه، وبغض النظر عن الاختلافات الدينية وهى عديدة، فإن «المسلمون لا يختلفون عن سواهم: فهم بشر يُدمَون إذا جُرحوا».

لذلك، سعى المؤلف فى هذا الكتاب إلى اختيار خمسين شخصية إسلامية، رغم وجود الكثير من الشخصيات، ورغم صعوبة الإجماع على خمسين شخصية، إلا أن الاختيار جاء فى إطار تاريخى بحسب الأحداث والحركات. ولتسهيل الاطلاع، رُتبت مداخل الكتاب ترتيباً زمنياً، وخُتم كل مدخل بأهم الأعمال ومراجع إضافية تزيد من معلومات القارئ عن الشخصية نفسها.

■

إصـــــــــــدارات جـــــــــــديـــــدة

هل نستحق الديمقراطية؟

علاء الأسوانى
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠ ، ٢١٢ صفحة

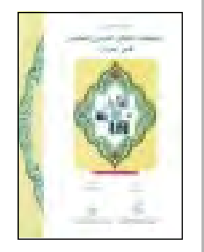


هذه هى المجموعة الثانية من مقالات الكاتب علاء الأسوانى، والتى نشرها على صفحات جرائد مصرية متنوعة حتى عام ٢٠٠٩. وفيها يبثنا الكاتب شجون الوطن ويشاركنا همومًا وشواغل تدور حول الإنسان المصرى الذى يمر بواحدة من مراحله التاريخية الحرجة. يطرح علاء الأسوانى على النقاش العام أسئلة عن قيمة الإنسان المصرى الذى فقد كثيرا من مكتسباته اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا. سنقرأ فى هذا الكتاب مقالات مثل: ظاهرة التدين البديل، فى المسألة القبطية، هل نستحق الديمقراطية؟ تأملات فى المهزلة، لماذا يكره الغربيون الإسلام، هل تصلح الديمقراطية لحكم المسلمين، كم يساوى الإنسان المصرى، الحقوق الغائبة للإنسان المصرى.. وغيرها الكثير.

■

اتجاهات الفكر الدينى المعاصر فى إيران

مجيد محمدى
ترجمة: ص. حسين
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٣٣٤ صفحة



قطع الفكر الإسلامى المعاصر فى إيران شوطًا كبيرًا فى معالجة قضايا منهجية وأساسية فى تجديد الفكر الدينى تستحق الدراسة والتأمل، حيث لعب المفكرون الإصلاحيون هناك دوراً كبيراً فى إعادة صياغة العقلية الإسلامية، وتجديد عوامل أزمة الأمة المسلمة، واقتراح منهجية بديلة للتفكير تتجاوز ثغرات المنهجية السائدة.

ويعرض المؤلف بالنقد والتحليل لقضية التجديد الدينى فى المشاريع الفكرية لأبرز ستة مفكرين لعبوا دوراً مهماً فى هذا المجال، وانشغلوا فى نقد الفكر الدينى المعاصر وتحليله. وحيث يجمع هؤلاء التشيع والاهتمام بتجديد الفكر الإسلامى فى إيران، فإنهم يتمايزون فى موقفهم النقدى من التراث، وينتمون إلى مراحل زمنية مختلفة (ستينيات وسبعينيات وثمانينيات القرن العشرين)، وإلى اتجاهات فكرية مختلفة أيضاً. وهؤلاء هم: الميرزا محمد حسين النائينى، ومرتضى مطهرى، وعلى شريعتى، ومهدى بازرجان، وسيد حسين نصر، وعبدالكريم سروش.

ولما كانت معظم مؤلفات هؤلاء المفكرين أو الدراسات التى تتناول فكرهم غير متوفرة باللغة العربية، فإن هذا الكتاب يفتح أمام القارئ العربى خصوصاً، والقارئ السنى عموماً نافذة على الثراء الفكرى الذى شهده حقل التجديد الدينى فى إيران خلال المائة سنة الأخيرة، وهو ثراء يجهله الكثير من العالم العربى والسنى، حتى المختصون فى دراسات التجديد والإصلاح الفكرى.

■

المستقبل النانوى

ج. ستورس هول
ترجمة: صباح صدّيق الدملوجى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٤٨٠ صفحة





تعدنا التكنولوجيا النانوية بسيارات جوية وسفر فضائى للجميع كما تعد بالقضاء على الفقر والجوع وبتوفير أدوات وتقنيات علاجية ودوائية جديدة، مما سيطيل أمد عمر الإنسان إلى بضع مئات من السنين. ويصف مؤلف الكتاب هذه التكنولوجيا بطريقة سهلة المنال تمكن كل قارئ من فهمها وفهم إمكانياتها والمحددات التى تكتنفها.

والخلاصة أن التكنولوجيا النانوية مع شقيقتها الحيوية تمتلك إمكانيات واسعة جداً تصل إلى حد تحوير الكائن البشرى ذاته، فهل يمكن أن نرتجى فى ذلك خيراً؟ لا أحد يمتلك الجواب الشافى لكن الوعى بهذه الإمكانيات سيوفر سلاح المعرفة، وهو ما يجب أن يتوفر للجميع، وهذا الكتاب خير سبيل لذلك.

جون ستورس جول: هو أحد أبرز المفكرين فى موضوع التكنولوجيا النانوية الجزيئية ويعمل حاليًا رئيسًا للأطر العلمية فى شركة نانوريكس، وكان فى السابق معمارياً لأنظمة الحاسوب فى جامعة روتجيرز فى ولاية نيو جيرسى.

■

همسات وخواطر

سليمان دهب
المركز العربى الدولى للإعلان
القاهرة ٢٠١٠



والكتاب ديوان شعر يتضمن اشعارا نثرية للشاعر سليمان دهب مستوحاة فى أغلبها من رحلاته فى أسبانيا ورومانيا وبلغاريا. وقد سبق للشاعر اصدار دواوين شعرية باللغة الأسبانية والبلغارية. كما انه يحتوى ايضا على نصوص مستلهمة محليا. والديوان تجميع متكامل لنماذج من أعمال الشاعر المولود عام ١٩٣١

■

المستقبل العربى

يناير ٢٠١٠
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية

يتضمن العدد افتتاحية بعنوان: «التعاون العربى - التركى: إلى أين؟» للدكتور خير الدين حسيب، وخمسة بحوث، وهى:

١. اقتصاد القرن الحادى والعشرين - آفاق اقتصادية اجتماعية لعالم متغير لحسن عبدالله بدر وعبدالوهاب حميد رشيد.

٢. الأزمة الفلسطينية أزمة عربية لنايف حواتمة.

٣. الطفرة النفطية الثالثة وانعكاسات الأزمة المالية العالمية: حالة أقطار مجلس التعاون لدول الخليج العربية لعلى خليفة الكوارى.

٤. التغلغل الإسرائيلى فى دول آسيا الوسطى وانعكاساته على علاقاتها فى المنطقة العربية لجاسم يونس الحريرى.

٥. دارفور، منقذون وناجون: السياسة والحرب على الإرهاب لمحمود الممدانى.

كما تضمن العدد مقابلة مع صادق جلال العظم أجراها: هاشم قاسم.

أما فى باب آراء ومناقشات فهناك بحثان، الأول: معضلة الأمن الوطنى العراقى لرعد الحمدانى، والثانى: تنازلات على هيئة مراجعات (تعقيب على مقالة د. عبدالإله بلقزيز) لشفيع بو منيجل.

وفى باب ترجمات مهمة، مقالة بعنوان: العراق.. غش وفساد واسعا النطاق فى التعليم العالى لديرك أدريانسنز.

وفى باب كتب وقراءات، مراجعة للكتب الآتية:

.«عبور الحدود وتبدل الحواجز: سوسيولوجيا العودة الفلسطينية» (تحرير سارى حنفى)، أعد المراجعة البشير التليلى. .«بحث فى المعطيات المباشرة للوعى» (هنرى برجسون)، أعد المراجعة الحسين الزاوى. .«ما قبل اللغة: الجذور السومرية للغة العربية واللغات الأفروآسيوية» (عبدالمنعم المحجوب)، أعد المراجعة رياض زكى قاسم.

إضافة إلى كتب عربية وأجنبية وتقارير بحثية مختارة، إعداد كابى الخورى، والكتب العربية هى:

الجذور الاجتماعية للدولة الحديثة فى ليبيا، الطفرة النفطية الثالثة، العروبة والقرن الحادى والعشرون، الثقافة الجديدة للرأسمالية المفرطة، العلم والنظرة العربية إلى العالم، استعادة روسيا مكانة القطب الدولى، جدل الهويات فى العراق، التكوين التاريخى للأمة العربية، مؤشرات قياس الديمقراطية فى البلدان العربية، بحث فى المعطيات المباشرة للوعى.

وبالإضافة إلى موجز يوميات الوحدة العربية، وببليوغرافيا الوحدة العربية، يختتم العدد ببيانات تنديد واستنكار ونداء إلى الضمير والوعى القومى (حول مباراة كرة القدم بين فريقى مصر والجزائر).

■

عصر الوصول

الثقافة الجديدة للرأسمالية المفرطة
جيريمى ريفكين
ترجمة: صباح صدّيق الدملوجى
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٥٤٤ صفحة



هذا الكتاب الذى ذاع صيته، حال صدوره، هو من الكتب التى تبحث فى الاقتصاد الجديد الذى يعتمد على الترابط من خلال الشبكات، وأولها الإنترنت، من أجل بلوغ المعرفة التى هى الأساس الأهم فى النجاح الاقتصادى وفقًا لرأى المؤلف.

وهو يكشف أيضًا جشع الرأسمالية التى سيطرت على معظم موارد العالم المادية، وتريد اليوم تحويل موارده الثقافية، بما فيها الشعبية، إلى سلع تباع وتشترى، وتخضع للاستثمار، بما فيه من مخاطر قد تؤدى إلى اضمحلال الثقافة نفسها، وربما إلى موتها.

إصـــــــــدارات جـــــــــديـــدة

Sports and Policy (Sports Managments)
السياسة والرياضة (إدارة الرياضات)
Russell Hoye¨ Matthew Nicholson¨ Barrie Houlihan
Butter Worth-Heinemann2009¨216pp. $52.95

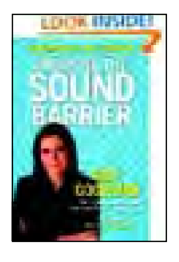


عندما يتم إلهاب مشاعر الجماهير بشكل متعمد ومدروس ومنظم وتوجيه هذه المشاعر نحو هدف واحد وتكثيف اهتمام الملايين نحو موضوع واحد فى آن واحد فإن هذا هو صلب التعبئة والتوجيه والحشد، رائعة هذه الحالة ولكنها أشبه بسيف ذى حدين يتطلب من ممسكه حذرا شديدا فإذا لم تكن هذه الحالة مفيدة إلى حد الروعة فقد تكون ضارة إلى حد الكارثة، خطورة المغامرة فى استخدام مشاعر الجماهير فى التشجيع الرياضى تكمن فى احتمالات حدوث انفجارات قد لا تحمد عقباها فى حالة عدم وصول الفريق للنتيجة المرجوة، ولكن الوضع بصفة عامة يعكس وجود خلفيات أبعد وأعمق من ممارسة الرياضة المجردة وهنا لا يجب إغفال ذكر الفاعل الأساسى وراء هذه «الالتهابات الرياضية» وهوالسياسة، الأحداث الأخيرة التى رافقت مباراتى كرة القدم بين الفريقين المصرى والجزائرى قد تخلق الرغبة لدى الكثيرين لمعرفة الخلفيات السياسية وراء الاحداث الرياضية، قد يلبى هذا الكتاب تلك الرغبة. كتاب «السياسة والرياضة إدارة الرياضات» يحتوى مضمونا يفتح آفاقا جديدة بما يقدمه من بحث فى العلاقة بين الرياضة والسياسة على الصعيد الدولى، وهذا الكتاب هو الأول من نوعه الذى يقدم تحليلا نقديا للدور التنظيمى للدولة وتأثيرها على الرياضة وكذلك التقاطعات بين الرياضة والمناطق الأخرى للسياسات الحكومية وهو يقدم دراسة شاملة وفريدة من نوعها حول الكيفية التى تتأثر بها الرياضة من قبل مجموعة من السياسات الحكومية، دفتا هذا الكتاب تحتويان بينهما أحد عشر فصلا ويستخدم كل فصل منهجا للمقارنة الدولية بهدف تسهيل وتوسيع نطاق الفهم للعلاقة بين السياسة والرياضة فى سياق عالمى. ويعد هذا الكتاب من الأهمية بمكان بالنسبة لأى طالب يدرس السياسة وكذلك الممارسين والعاملين بالسياسة فى عصرنا هذا.

ويدرس الكتاب التقاطع بين الرياضة والسياسات غير الرياضية من منظور دولى بما فى ذلك موضوعات مثل المقامرات والتنمية الاجتماعية والاقتصادية ويمثل نص هذا الكتاب تحديا كبيرا حيث يخترق موضوعا لم يسبق تناوله بهذا الشكل التحليلى والنقدى. شارك فى تأليف الكتاب ثلاثة من المؤلفين هم راسل هوى Russel Hoye وهو أستاذ مشارك فى إدارة الرياضة فى كلية الادارة بجامعة لا تروب La Trobe باستراليا، تركز مجالات أبحاثه الرئيسية على حكم المنظمات الرياضية وآثار السياسة العامة على الرياضة وإشراك المتطوعين فى الرياضة، وله مؤلفات عديدة فى مجال العلاقة بين السياسة والرياضة. ماثيو نيكلسون Matthew Nicholson هو أستاذ مشارك فى إدارة الرياضة فى كلية حركة حقوق الانسان وعلوم الرياضة بجامعة بالارات Ballarat باستراليا، تركز أبحاثه واهتماماته التدريسية على سياسة الرياضة والتنمية ومساهمة الرياضة فى رأس المال الاجتماعى والعلاقة بين الرياضة ووسائل الاعلام. بارى هوليهان Barrie Houlihan هو أستاذ للسياسة الرياضية فى معهد الرياضة والترفيه وكلية الرياضة والصحة وممارسة العلوم فى جامعة لوبورو Loughborough وله كتابات واسعة النطاق فى مجالات السياسات الرياضية بما فى ذلك تعاطى المنشطات وتطوير الرياضة ووضع النظريات فى عملية السياسة الرياضية والرياضة والشباب وله مؤلفات عديدة فى مجال تسييس الرياضة.

■

Breaking the Sound Barrier
كسر حاجز الصوت
Amy Goodman
Haymarket Book¨2009¨380pp. $10.88



حلقت إيمى جودمان Amy Goodman بتحقيقاتها الصحفية فى آفاق جديدة من الاثارة والتحليلات الحافلة بالمعلومات، يستطيع أى مشاهد أن يحصل على كم ضخم من المعلومات عن واشنطن والعالم من خلال متابعة أسبوع واحد فقط من برنامج جودمان «الديمقراطية الآن» Democracy Now والسبب الاساسى فى ذلك أن إيمى كما سيتكشف من صفحات هذا الكتاب استطاعت أن تجد الإجابة الحاسمة للسؤال الذى يشغل بال معظم الصحفيين وهو ما مدى اقترابهم من الحقيقة وليس اقترابهم من السلطة، ايمى جودمان الحائزة على جائزة أفضل مضيفة إذاعية على برنامجها العالمى «الديمقراطية الآن» اقتحمت - من خلال مجموعة واسعة النطاق من المقالات - الاكاذيب التى تروجها بعض المؤسسات الاعلامية من خلال بث بعض التسجيلات الصوتية وكسرت إيمى بهذا الكتاب الحاجز الذى يغلف هذا الموضوع ، تقول جودمان أن البعض ممن يدعون الخبرة ليسوا كذلك ويتعامل معهم الصحفيون من منطلق خبرة مزيفة فهم لا يعلمون إلا القليل من كثير ولكنهم يكونون وجهات نظر مبنية على هذا القليل، ولذلك فأفكارهم التى يتم نقلها إلى الجمهور تنقصها الدقة والحيادية وقد تكون بعيدة كل البعد عن الحقيقة وهى الهدف الأسمى للصحفيين وتبعا لذلك فإن مهمة الصحفى فى البحث عن الحقيقة هى بالفعل مهمة شاقة تتطلب تعدد المصادر للحقيقة أو المعلومة الواحدة حتى يتم التحقق من صحتها. توجه إيمى نقدا لاذعا للصحفيين الذين يتسبب اقترابهم من السلطة فى طغيان مصالحهم الشخصية على المهمة المنوطة بهم وهى تقصى الحقيقة ونقلها. كما تعيب جودمان على بعض المؤسسات الاعلامية اعتمادها على بعض الأكاذيب لتحقيق السبق الإعلامى وقيامها متعمدة بنشر بعض المعلومات والتعتيم على البعض الآخر وهى تصف ذلك بالكذب فليس الكذب فقط هو تزييف الحقيقة بما هو مغاير لها ولكن أيضا اختيار أجزاء للنشر وتجاهل أجزاء أخرى من الحقيقة يتنافى مع مبدأ الشفافية والأمانة فى النقل وذلك يؤدى إلى تكوين وجهات نظر غير دقيقة عند الجماهير ويعد ذلك من قبيل الكذب الذى لا تغفره أخلاقيات وميثاق شرف المهنة. تقول جودمان أن المسئولية الكبرى الملقاة على عاتق الصحفى فضلا عن البحث عن الحقيقة هى الحديث بالنيابة عن الصامتين الذين يفتقدون قنوات التواصل مع السلطة تناولت جودمان فى كتابها موضوعات أخرى مثل قضايا الحروب فى أفغانستان والعراق وسياسات أوباما الداخلية والخارجية والتغيرات المناخية كالاحتباس الحرارى والعوامل البيئية الأخرى المهددة لحياة البشر كالأوبئة وحروب البترول والمياه والأزمة الاقتصادية العالمية كما تطرقت فى كتابها إلى موضوعات مشكلة الرعاية الصحية الأمريكية والانتخابات فى أمريكا وتناولت جودمان الفقر الذى افردت له فصلا فى كتابها واعتبرته فضيحة حقيقية وجريمة فى حق البشر، كتاب مثل كسر حاجز الصوت هو حقا جدير بالقراءة.

■

2- Networks of Influence; Developing Countries in a networked Global Order
شبكات النفوذ: الدول النامية فى شبكة النظام العالمى
Nagaire Woods¨ Leonardo Martinez
Oxford University Press¨2009¨256pp. $81.89



تزدهر الشبكات فى السياسات العالمية حينما يتم جلب صانعى السياسات من مختلف الدول ليتقاسموا المشاكل ويحاولوا التوصل إلى الحلول الممكنة متحررين من قواعد والتزامات التمثيل ومسئوليات وتوابع صناعة القرارات والشفافية التى يرتبط تواجدها وجدواها بالمنظمات الدولية الرسمية يتساءل هذا الكتاب عما إذا كانت الدول النامية تستطيع أن تحقق فائدة من هذه الشبكات أم أنه من الأفضل والآمن لها أن تزيد علاقاتها مع المؤسسات الرسمية ؟ يختلف الجواب والحل يكمن فى الكيفية التى يتم بها بناء الشبكة والأهداف التى تسعى لتحقيقها. يقدم هذا الكتاب عرضا رائعا للكيفية التى قامت من خلالها بعض هذه الشبكات بتدعيم أوضاع المسئولين فى الدول النامية سواء فى الداخل أو فى المفاوضات الدولية وأيضا يقدم الكتاب على قدم المساواة الظروف التى تجعل اعتماد الدول النامية على الشبكات أمراً محفوفا بالمخاطر. ناجير وودز Nagaire Woods مؤلفة الكتاب هى أستاذ الاقتصاد السياسى الدولى بجامعة أوكسفورد ومدير برنامج الحوكمة الاقتصادية العالمية بجامعة كوليدج Collage فى أوكسفورد، تشمل أحدث مؤلفاتها سياسات التنظيم العالمى

مشاركة فى التأليف مع والتر ماتلى Walter Mattli ، العولميين: صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ومقترضيهم، السيطرة على التصدير اغراءات وتحديات برنامج المعونة فى كندا ويشاركها تأليف هذا الكتاب جينيفر ويلش Jennifer Welsh، وكتاب تشكيل التنظيمات الذاتية الفعالة فى الدول النامية Making self-regulation Effective in Developing Countries. مشاركة فى التأليف مع دانا براون Dana Brown إصدار جامعة أوكسفورد، أما ليوناردو مارتينيز دياز فهو أستاذ مساعد للاقتصاد السياسى فى معهد بروكينز Brookings Institution ونائب مدير لجنة الشراكة من أجل الأمريكتين ، تتركز أبحاثه على الاقتصادات الناشئة ودور المصارف والتمويل والإدارة العالمية وقام بنشر العديد من المقالات عن الاقتصاد السياسى والإصلاح والحكم العالمى.

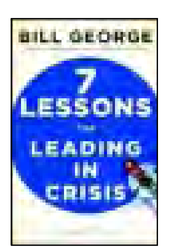
■

Seven Lessons for Leading in Crisis

سبعة دروس للقيادة فى وقت الأزمة

Bill George

Jossey-Bass¨2009¨160pp. $13.57



نصيحة هى أشبه بخلاصة تجارب أثمرها مختبر الزمن والعالم الحقيقى يقدمها واحد من ثقات العلماء لتكوين وزيادة المهارات فى مجال القيادة وسط الازمة وفى الاوقات الصعبة. بيل جورج Bill Goerge عملاق فى مجال الاعمال وكاتب شهير فى صحيفة وول ستريت جورنال وهى من أعلى الصحف مبيعا وتوزيعا، تواجهه هذه الأيام - كمثله من اصحاب المناصب القيادية ـ تحديات اقتصادية لم يسبق لها مثيل. قام بيل جورج بصفته مديرا تنفيذيا سابقا لميدترونيك Medtronic وهى تمثل مجموعة من الشركات برسم الخطوط العامة اللازمة لمواجهة العواصف الاقتصادية وهى تمثل نتاج خبرات السنين للقادة والدروس المستفادة من خبراتهم التطبيقية، بأسلوب مباشر وتوجه واضح يعرض جورج للقادة «تحديدا» ماذا يجب عليهم فعله لكى تتسم قيادتهم بالقوة وحتى يعبروا الازمات بسلام، تتضمن دروسه السبعة وهى ممثلة فى شكل سبعة فصول فى كتابه ما يأتى: الاختبار الحقيقى للقدرة على القيادة، واجه الحقيقة وابدأ بنفسك، لا تعتبر نفسك إلها فأنت لست كذلك ولا تحمل العالم فوق كتفيك فقط نقب عن السبب الحقيقى والعميق، استعد للرحلة الطويلة، الأزمات فرص رائعة للتفوق لا تضيعها أبدا، أنت تحت الاضواء اتجه نحو الشمال، ركز على الفوز الآن، وكن عنيفا فهذه هى فرصتك المثلى لكسب السوق. كتاب سبعة طرق للقيادة فى الازمة هو زمام قيادة لكل من يحتل منصبا قياديا يتميز باحتوائه على دروس مثبتة صلاحيتها بالتطبيق العملى لاحتواء الازمات فى الاوقات الصعبة ويقدم للقياديين استراتيجية قوية تمنح القدرة على البقاء طويلا على درب النجاح. بيل جورج هو استاذ إدارة الاعمال التطبيقية فى كلية إدارة الاعمال بجامعة هارفارد Harvard Busines school وهو مؤلف لثلاثة كتب تعد من الأكثر مبيعا فى هذا المجال وهى نحو الشمال الصحيح True North اكتشف الاتجاه الصحيح نحو الشمال Finding Your True North وكتاب القيادة الاصيلة Authentic Leadership .

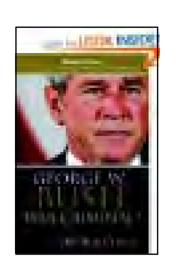
■

George W.Bush¨War Criminal?
The Bush Administration¨s Liability for 269 War Crimes.

هل جورج دبليو بوش مجرم حرب؟ مسئولية إدارة بوش عن مائتين وتسع وستين جريمة حرب.

Micheal Haas

Praeger 2008¨408pp. $31.96



بوضوح شديد ومن خلال مدخل غير رسمى يقدم مايكل هاس Micheal Hass « وهو حاصل على الدكتوراة الفخرية فى العلوم السياسية من جامعة هاواى Hawaii - الدليل على ارتكاب إدارة جورج دبليو بوش جرائم حرب يقدر عددها بمائتين وتسع وستين جريمة وذلك فى خضم الحروب والاحتلالات التى قامت بها. كان منهجه فى ذلك هو سبر غور اتفاقيات جنيف وغيرها من المواثيق ذات الصلة بقوانين الحروب، حيث قام باستعراض المقاطع ذات الصلة من مختلف المعاهدات واتبع ذلك بعرض وصف موجز للكيفية التى قامت بها إدارة بوش بانتهاك الحكم الذاتى، وأخيرا قام بعرض مناقشة ختامية موجزة محورها هو لماذا يجب تقديم إدارة بوش للمحاكمة على ارتكاب جرائم حرب وما هى الكيفية التى ستتم بها تلك المحاكمة؟ يعد هاس أول مؤلف يقوم بجمع قائمة شاملة لجرائم الحرب المزعومة والتى ارتكبتها إدارة بوش خلال حربها العالمية ضد الارهاب الدولى والمعيار الذى استخدمه هاس هو مجموعة اتفاقيات جنيف التى اعتمدت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وكانت الولايات المتحدة حينئذ هى الدولة الراعية والمتحمسة والداعمة لها. أقل ما يجب لكتاب مثل هذا أن يقرأ قراءة تمحيصية متأنية دقيقة نظرا لإصرار هاس على مركزية سيادة القانون وعلى وجه الخصوص فى أوقات الصراع الدولى. وهذا الاصرار من قبل هاس يعد موضع اعتراف وتقدير من المحكمة الأمريكية العليا وعلى وجه الخصوص فى قضية حمدان ضد رامسفيلد ٢٠٠٦ والتى قامت فيها المحكمة بإلغاء نظام اللجان العسكرية لإدارة بوش. قد يكون هذا الاعتراف من قبل المحكمة بمثابة تسديدة صائبة تدعم دعوة هاس لإنشاء لجنة لتقصى الحقائق للتحقيق فى الأفعال الماضية الصادرة من مختلف المسئولين فى إدارة بوش بما فى ذلك الرئيس نفسه. قد يكون الانجاز الاعظم لهذا العمل هو المعاملة التفصيلية لاتفاقيات جنيف ودورها فى إنشاء نظام دولى يستند إلى سيادة القانون، نظام قابل للتطبيق على القانون والسياسات الامريكية.

■

The Checklist Manifesto: How to Get Things Right

القوائم المرجعية وكيف تضع الأمور فى نصابها الصحيح

Atul Gawande

Metropolitan books¨2009¨224pp. $16.53



نحن نعيش فى عالم من التعقيد المتعاظم والمتزايد حيث يكافح الجميع . حتى الخبراء المحترفين- من أجل السيطرة على المهام المطلوبة منهم لإنجازها على أكمل وجه. بالطبع يمنح التدريب الطويل واستخدام التكنولوجيا المتطورة القدرة على تجنب الأخطاء الفادحة ، المؤلف أتول جاوند وهو جراح عام فى بريجهام ومستشفى النساء ببوسطن كما أنه أستاذ مساعد فى كلية الطب وكلية الصحة العامة بجامعة هارفارد ويعد أحد محررى مجلة نيويوركر.

يرى جاوند أنه بالرغم من التعقيد الذى يتصف به عالمنا إلا أن العلاج يكمن فى شىء واحد متواضع وبسيط وهو وجود مرجعية لكل شىء ، فمنذ عقود من الزمن مكنت القوائم المرجعية الطيارين فى القوات الجوية الأمريكية من قيادة الطائرات المعقدة تقنيا بمنتهى الحنكة والبراعة. الآن أصبحت القوائم المرجعية معتمدة فى مستشفيات العالم أجمع وهى تساعد الأطباء وهيئات التمريض على الاستجابة السريعة والصحيحة لأى طارئ، بدءا من وباء الانفلونزا إلى أسوأ حوادث الانهيارات الجليدية. حتى فى عالم الجراحة شديد التعقيد فقد أدى استخدام القوائم المرجعية وهى تكنيك بسيط لا يستغرق استخدامه سوى تسعين ثانية إلى خفض معدلات الوفاة إلى ما يزيد على الثلث. من أجل تدعيم وجهة نظره يعرض جاوند فى كتابه بعض القصص التى وقعت أحداثها ما بين النمسا «حيث أدى استخدام القوائم المرجعية إلى انقاذ أحد ضحايا الغرق بعد قضائه نصف ساعة كاملة تحت الماء- إلى ميتشجان. حيث ساهمت القوائم المرجعية للنظافة فى الرعاية المركزة فى القضاء على أشد أنواع الميكروبات فتكا فى المستشفيات.

يعرض جاوند بشكل تفسيرى وتفصيلى الكيفية التى من خلالها تعمل القوائم المرجعية على إحداث تحسينات سريعة وفورية ملحوظة ويعقب قائلا: ان الثورة فى انتاج القوائم المرجعية وتفعيلها لابد أن تمتد إلى مجالات تتجاوز الطب مثل الامن الداخلى والخدمات المصرفية الاستثمارية والاعمال بكافة أنواعها. مغامرة فكرية واحدة قد تتسبب فى هلاك العديد من الأرواح أو قد تكون طوق نجاة ولكن فكرة بسيطة قد تحدث فرقا هائلا، لذا فإن قراءة دليل القوائم المرجعية تعد شيئا جوهريا لكل من يستهدف انجاز الأمور كما تجب وبأعلى مستوى ممكن للأداء.

■

تركيـــا «عثمانيـــة جـــديدة»؟

ســــــــوات كينيكليوجلو
Suat Kiniklioglu



■■ أيامنا هذه أصبحت وسائل الإعلام مهووسة بمسألة من«فقد» تركيا وماذا قد تعنى هذه الخسارة بالنسبة لأوروبا والغرب. والأكثر من هذا إزعاجاً أن بعض المعلقين شبهوا سياسة الجوار التركية بإحياء الإمبراطورية العثمانية. ومؤخراً، ذهب أحد كبار كتاب الأعمدة فى تركيا إلى حد ذكر عبارة بلسان وزير الخارجية أحمد داوود أوغلو فزعم أنه قال: «نحن فى الواقع عثمانيون جُدد».

وباعتبارى أحد الحضور حين قدم داوود أوغلو عرضه أمام الكتلة البرلمانية لحزب العدالة والتنمية الحاكم فى تركيا، فمن واجبى أن أشهد بأنه لم يستخدم هذا المصطلح. فى الواقع، لا داوود أوغلو ولا أى منا فى دوائر السياسة الخارجية فى حزب التنمية والعدالة قد سبق له استخدام هذا المصطلح، وذلك لأنه ببساطة يشكل إساءة تمثيل لموقفنا.

لقد صُممت سياسة الجوار التركية بهدف إعادة إدماج تركيا فى جيرتها المباشرة، بما فى ذلك مناطق البلقان، والبحر الأسود، والقوقاز، والشرق الأوسط، وشرق البحر الأبيض المتوسط. ونحن نهدف إلى تعميق حوارنا السياسى، وزيادة تجارتنا، وزيادة الصلات بين شعبنا والشعوب الأخرى فى البلدان المجاورة لنا فى هيئة أنشطة رياضية، وسياحية، وثقافية. وحين عمل إيجون بار على صياغة «مبدأ التقارب» فى ستينيات القرن العشرين فلم يسأل أحد ويلى برانت ما إذا كانت ألمانيا قد فُقدت.

لقد أنعم الله على تركيا بموقع جغرافى يتطلب منا فى الأساس أن نتعامل مع الشرق والغرب، والشمال والجنوب. وهذا ليس خياراً ولا ترفاً. بل هو ضرورة.

إن الرمز الذى استخدمته الإمبراطورية البيزنطية وإمبراطورية السلاجقة، والتى كانت كل منهما تحتل تقريباً نفس المساحة الجغرافية التى تحتلها تركيا اليوم، كان عبارة عن نسر ذى رأسين ينظر نحو الشرق والغرب. وليس من العجيب أن تسعى تركيا أيضاً إلى الارتباط بكل من طرفى أراضيها وأن تحرص على تعضيد أمنها بتقليص المخاطر التى قد تتعرض لها جنباً إلى جنب مع جيرانها.

لذا فنحن نرى أن المناقشة الدائرة حالياً بشأن توجهات تركيا زائدة ولا ضرورة لها، وقد تكون فى بعض الأحيان نابعة من سوء نية. إن سياسة الجوار التى تتبناها تركيا تحتاج إلى الدعم وليس الانتقاد. إن تركيا تشكل أصلاً لا يقدر بثمن فى تركيبة المناطق المحيطة بنا، ولقد بدأت بالفعل فى تغيير الوضع الراهن لصالح المزيد من الاستقرار. وجهودنا الرامية إلى تطبيع العلاقات مع أرمينيا، على سبيل المثال، تتجه نحو جلب التغيير إلى جنوب القوقاز بأسره. ونحن نقوم بواجبنا فيما يتصل بتقاسم الأعباء. ومن المؤكد أن الأوروبيين الواعين يدركون هذه الحقيقة.

لا شك أن بعض جيراننا يتسمون بقدر كبير من الصعوبة. ولكن لا يوجد بلد على ظهر الأرض يتمتع بترف اختيار جيرانه. إن سياسة الجوار التركية شديدة الواقعية، وهى تستند إلى مصالح حقيقية، ولا تشكل حنيناً رومانسياً عثمانياً جديداً، كما اقترح بضعة معلقين دوليين.

صحيح أن المجال الثقافى يشهد صحوة عثمانية جديدة، وصحيح أن مواطنينا يتوقون إلى إعادة اكتشاف الحياة العثمانية وثقافتها وممارساتها. وفى حين تسعى تركيا إلى التطبيع على المستوى الداخلى، فهى تسعى أيضاً إلى إعادة تفسير سردها التاريخى الوطنى. وهذا نتاج طبيعى لمساعينا الرامية إلى توطيد ديمقراطيتنا. ولكن محاولة تلوين مبادراتنا المدرسة بدقة فى السياسة الخارجية بألوان استعمارية إمبراطورية لا تشكل سوء تفسير صارخ فحسب، بل تشكل أيضاً إجحافاً شديداً لجهودنا المبنية على حسن النوايا لدعم وتعزيز الاستقرار فى منطقتنا.

فى الأساطير الرومانية القديمة، كان يانوس إله البوابات، والمداخل، والبدايات، والنهايات. وتركيا اليوم تجسد الجغرافية الأشبه بالإله يانوس، والتى تعمل كبوابات ومداخل إلى الشرق والغرب. وهى تعرض البدايات والنهايات على القوقاز، والبحر الأسود، والبلقان، ومنطقة البحر الأبيض المتوسط.

وبهذا الوصف، فإن تركيا تكَمِّل وتسهم فى إيجاد ممرات انتقال فريدة من نوعها بين مناطق كان يصعب التواصل بينها بأى سبيل آخر، فهى ترمز إلى قرون طويلة من التعايش والتكيف. والسياسة التركية الخارجية تساهم فى التقريب بين جيرانها المباشرين وتساعد فى الاتصال فيما بينهم.

وخلافاً للاتهامات الأخيرة، فإن صناع القرار السياسى الخارجى لا يسعون إلى إحياء الإمبراطورية العثمانية. بل إننا نسعى بدلاً من هذا إلى إعادة إدماج تركيا على مستوى تاريخى فى جيرتها المباشرة، وبالتالى تصحيح الوضع الشاذ الذى خلقته سنوات الحرب الباردة. ولا شك أن هذا من شأنه أن يفيد الاتحاد الأوروبى وحلفاءنا الغربيين فى منظمة حلف شمال الأطلنطى. ولا أظن أن أياً منهم لديه أى سبب للإعراب عن عدم ارتياحه لتركيا. ■

سوات كينيكليوجلو: نائب رئيس حزب العدالة والتنمية للشئون الخارجية، وعضو اللجنة التنفيذية المركزية للحزب

ترجمة: هند على